نخبة الشرحين

في شرح نهج البلاغة

للعلامة السيد عبد الله شبر

الجزء الأول

نخبة الشرحين

(شرح نهج البلاغه)

للعلامة السيد عبدالله شبر (ره)

الناشر : انتشارات محبين

الكمية : ١٠٠٠ دوره (١-٤)

تاريخ الطبع :١٤٢٥ه/٢٠٠٤م

الطبعة :الأولى

الزينكغراف : مدين

المطبعة : النهضة

شابك ج ١ : ٢-٦٦-٣-٧١٠٣-٩٦٤

شابك الدوره : ٠-٧٠-٣-٧١٠٣-٩٦٤

انتشارات محبين للطباعة و النشر تلفون : ٧٧١٣٦٩٩

مراكز التوزيع : ايران / قم / سوق القدس / رقم ٩٢ / تلفون ٧٧٣٧٦١٩ / مكتبة المصطفى

ايران / قم / سوق القدس / رقم ٥٧ / تلفون ٧٧٤٢٣٤٦ / انتشارات انوار الهدى

((حقوق الطبع محفوظة))

نخبة الشرحين

في شرح نهج البلاغة

الجزء الأول

شبكة الفكر
alfeker.net

للعلامة السيد
عبد الله شبر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين أجمعين.

أمّا بعد:

فإنّ هذا الكتاب الجليل المسمّى بـ« نخبة الشرحين » للعلّامة المحقّق الجليل السيّد عبدالله بن محمّد رضا الحسيني شبر ﷺ من الكتب التي ليس لها نظير في الدقّة من جانب، ومن سلاسة البيان من جانب آخر، فهو يحتوي على خطب أمير المؤمنين ﷺ، وعلى كتبه، وعلى قصار الحكم، لكنّه حين طبعه لم يسلم من العيوب، حيث وقع فيه من الأخطاء المطبعيّة، لكن ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه، على أنّ هذه هي الطبعة الأُولى له، فأسأل الله تعالى أن تتمّ هذه التصحيحات والنواقص في الطبعات اللاحقة إن شاء الله تعالى، كما أشكر من ساهم في إعداد هذا الكتاب وسعى في طبعه راجياً لهم دوام التوفيق بمحمّد وآله.

علي الحسيني شبرّ

قم المقدّسة

١٢/ جمادى الأُولى / ١٤٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه ربّ العالمين على نعمائه، والحمدُ من نعمائه، والشكر لخالق السماوات والأرضين على آلائه، والشكرُ من آلائه، والصلاة على سيّد رسله وأنبيائه، وآله الطاهرين المعصومين خيرةِ أُمنائه وحججه على أهل أرضه وسمائه.

أمّا بعد:

فيقول المذنب الجاني والأسير الفاني، أفقر الخلق إلى ربّه الغنيّ: عبداللّه بن محمّدرضا الحسينيّ، ختم اللّه لهما بالحسنى، ورزقهما خير الآخرة والأُولى: هذا تعليق لطيف، وشرح مختصر شريف، علّقته على «نهج البلاغة» غير ذي إيجاز مخلّ، ولا إطناب مملّ، يحلّ مشكلاته، ويفتح مغلقاته، وينبّه على جملة من نكاته، ويوضح غرائب فقراته، على طرز غريب، ونمط عجيب، تهشّ إليه النفوس السليمة، وتقبله العقول المستقيمة.

وقد عَولتُ فيه غالباً فيما يتعلّق بالتواريخ والقصص على شرح المحقّق الفريد ابن أبي الحديد، وفيما يتعلّق بالإعراب والنكات والدقاق على شرح العالم الربّاني ابن ميثم البحراني (قدّس سرّه)، وباللّه أستعين، إنّه خير موفّق ومعين.

ولنشرع في شرح خطبة الكتاب:

قال السيّد الشريف، ذو الحسبيْن، رضي الدين محمّدبن الحسين الموسويّ (قدّس اللّه روحه ونوّر ضريحه):

أمّا بعدَ حمدِ اللّه الّذي جعلَ الحمدَ ثمناً لنعمائه ومعاذاً من بلائه

[أمّا بعدَ حمدِ اللّه الّذي جعلَ الحمدَ ثمناً لنعمائه] مع كونه أيسر شيء مؤنة، وأخفّ على اللّسان كُلْفة، وقوله ثمناً إستعارة لطيفة، حيث إنّ الثمن مستلزم لرضا البائع به عوضاً عن مبيعه، والحمد مستلزم لرضا الحقّ سبحانه مقابل نعمه، فأَشْبَهَ الثمن واستعير له لفظه، وهذا ـ في الحقيقة ـ نعمة أُخرى تستدعي حمداً آخر، فكلّما قلتُ: لك الحمد وجب عليّ أن أقول: لك الحمد.

ورُوي أنّ اللّه أوحى إلى أيّوب إنّي رضيتُ الشكرَ مكافاةً من أوليائي.

[ومعاذاً من بلائه] لقوله تعالى: ﴿ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾[1] حيث توعَّدَ بالعذاب مَنْ كَفَرَ نعمتَهُ مع إرادته الحمدَ والشكرَ وأمره بهما فعُلم أنّهما من أسباب الخلاص من العذاب لاستلزامهما عدم سببه، وهو الكفران، فكان الحمد محلاً للعون به من البلاء.

---

(1) إبراهيم: ٧.

ووسيلاً إلى جنانه، وسبباً لزيادة إحسانه، والصلاة على رسوله نبيّ الرحمة، و إمام الأئمّة، وسراج الملّة، والمنتجبِ من طينة الكرم

[**ووسيلاً إلى جنانه**] لأنّ الحمد من أتمّ العبادات الّتي هي وسيلةٌ إلى الجنّة.

[**وسبباًلزيادةإحسانه**]إشارةإلىقولهتعالى: ﴿لئن‌شكرتم لأزيدنّكم﴾(١)

[**والصلاة على رسوله نبيّ الرحمة**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين﴾(٢) وإنّما كان رحمة لأنّه الهادي إلى سبيل الرشاد، والقائد إلى رضوان اللّه، ولأنّ شريعته ﷺ أسهل الشرائع وأخفّها، كما قال ﷺ: «بُعثت بالحنيفيّة السمحة السهلة»، ولأنّ اللّه يعفو عن عصاة أُمّته بشفاعته.

[**و إمام الأئمّة**] فإنّ النور المحمّدي أوّل المخلوقات، وقال ﷺ: «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين»، وقال ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة».

[**وسراج الملّة**] وفي نسخة [سراجِ الأُمّة] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً﴾(٣).

وهذه استعارة لطيفة، فإنّ من خاصّية السراج إضاءة ماحوله واهتداء الخلق به في الظلمة، وقد اهتدى الخلق بأنوار علومه وحكمه، وخرجوا عن ظلمة الجهالة والكفر إلى أنوار الإيمان والمعارف.

[**والمنتجبِ من طينة الكرم**] كناية عن أصله، أي أنّ اللّه اصطفاه من

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الأحزاب: ٤٥ و ٤٦.

وسلالة المجد الأقدم، ومغرسِ الفخار المعرق، وفرعِ العلا المثمر المورقِ

أصل هو محلّ الكرم والشرف [**وسلالة المجد الأقدم**] إضافة السلالة إلى المجد على حذف مضاف، أي سلالة أهل المجد الأقدم، أو استعار لفظ المجد لأصله كأنّه خيل أنّ الأصل كلّه مجد، فأعطاه لفظة المجد وأضاف إليه بعد الإستعارة ووصف المجد بكونه أقدم لزيادته في الفضل على المحدث، بل على القديم.

[**ومغرسِ الفخار**] بكسر الفاء مصدر فاخر أو بفتحها مصدر فخر.

[**المعرق**] استعار لفظ المغرس الّذي هو حقيقة في الأرض لطبيعته وجبلّته، استعارةً على وجه الكناية عن شرفه وكماله، ووجه الشبَه انّ طبيعته ﷺ محلّ لظهور الفخار عنها، كما أنّ الأرض الحرة محلّ لظهور النبات الطيّب الحسّ عنها، ووصفه بكونه معرقاً لزيادته على ماليس كذلك، وهو من قبيل ترشيح الاستعارة، فإنّه لما جعل الفخار مغرساً جعل له عرقاً.

[**وفرعِ العلا المثمر المورقِ**] استعار لفظ الفرع الّذي هو حقيقة في أغصان الشجرة المتفرّعة عن أصلها، له ﷺ من جهة ما هو فرع في الوجود عن آبائهم أهل العلوّ والشرف، أي بما هو من كمال الفرع، وهو كونه مثمراً مورقاً، وهو ترسيخ للاستعارة أيضاً، فإنّ الغصن الخالي عن الثمر والورق أو عن أحدهما، ناقص الكمال والحسن، وهي استعارة على سبيل الكناية عن شرفه بالنظر إلى شرف أصله وإضافة الفرع إلى العلا كإضافة لفظ السلالة إلى المجد. وصدق الأوصاف الأربعة، لما روي عنه ﷺ قال: «لم يزل اللّه ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات لم يدنسني بدنس الجاهليّة» وهو ﷺ من وُلد ابراهيم واسماعيل وكرمهما مشهور.

وعلى أهل بيتــه مـصــابيحِ الظلـمِ وعِصَمِ الأُممِ ومنار الـدين الواضـحة ومثاقيل الفضل الراجـحة صلّى اللّه عليهم أجـمعين صلاة تكون أداءً لفضلهم ومكافأةً لعملهم

[**وعلى أهل بيته**] المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾(١) واتّفقت الإماميّة أنّها خاصّة بعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

[**مصابيحِ الظلمِ**] استعارة لهم يكنّى بها عن كونهم مهتدًى بهم من ظلمات الجهل، كما يُهتدَى بالمصباح في الظلمة.

[**وعِصَمِ الأُممِ**] جمعُ عِصْمَة، وهو ما يُعتصَم به، أي مانعين لهم ـ بسبب هدايتهم لهم إلى النجاة ـ عن التورّط في الهلكة.

[**ومنار**] أي أعلام [**الدين**] جمع منارة، بفتح الميم، لكونهم عليهم السلام محال الأنوار [**الواضحة**] وهو نعتاً استعارة حسنة [**ومثاقيل**] وهي مقدار وزن الشيء جمع مثقال [**الفضل الراجحة**] والإضافة لاميّة، أي مثاقيل للفضل، أي إذا عيّر فضل غيرهم ونسب بعضه إلى بعض كانوا مثاقيل راجحة لذلك الفضل بغير رجحان بعضه على بعض بالنسبة إليها، أو بمعنى: من أي مثاقيل من الفضل مطبوعة ترجح على غيرها، ولفظ المثاقيل مستعار لهم عليهم السلام، ووجه الشبه كونهم عليهم السلام معياراً للخلق وموازين لهم كالمثاقيل، فإنّهم موازين الأعمال ومعيار الأحوال.

[**صلّى اللّه عليهم أجمعين صلاة تكون أداءً لفضلهم**] وفضائلهم النفسانيّة، وملكاتهم الخلقيّة، وعلومهم الربّانيّة، وأسرارهم الإلهيّة [**ومكافأةً**] بالهمز من كافيتُهُ أي جازيتُهُ [**لعملهم**] من عباداتهم البدنيّة،

---

(١) الاحزاب: ٣٣.

وكفاء لطيب فرعهم وأصلهم ما أنار فجر ساطع، وخوى نجم طالع.

فإنّي كنتُ في عنفوان السنّ وغضاضة الغصن ابتدأتُ بتأليف كتاب في خصائص الأئمّة عليهم السلام، يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغتُ من الخصائص الّتي تخصّ أميرالمؤمنين عليّاً عليه السلام، وعاقت عن إتمام بقيّة الكتاب محاجزات الأيّام ومماطلات الزمان وكنتُ قد بوّبت ماخرج من ذلك أبواباً وفصّلته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمّن ما نقل عنه من الكلام

ومجاهداتهم المرضيّة [وكفاء] بالهمز والمدّ، أي نظيراً [لطيب فرعهم وأصلهم] الزاكي المطهّر، إشارة إلى أنّ هذه الأُمور هي جهة استحقاقالرحمة [ما أنار فجر] أي مدّة انارة فجر [ساطع، وخوى] أي سقط [نجم طالع].

[فإنّي كنتُ في عنفوان] أي: ابتداء [السنّ وغضاضة الغصن] كناية عن الشباب [ابتدأتُ بتأليف كتاب في خصائص الأئمّة عليهم السلام، يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حداني] أي بعثني [عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، ، وفرغتُ من الخصائص الّتي تخصّ أميرالمؤمنين عليّاً عليه السلام، وعاقت عن إتمام بقيّة الكتاب محاجزات الأيّام] أي: ممانعاتها، كأنّ الأيّام تدفعه عن العمل، وهو يدفعها.

[ومماطلات الزمان] مدافعاته [وكنتُ قد بوّبت ماخرج من ذلك أبواباً وفصّلته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمّن ما نقل عنه من الكلام

القـصـيـر في المواعظ والحكـم والأمـثـال والآداب، دون الخطـب الطويلة، والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء مااشتمل عليه الفصل المقدّم ذِكْرُهُ، معجَبين ببدائعه، ومتعجّبين من نواصعه، وسـألوني عند ذلك أن ابتـدىء بكتـاب يحتـوي على مـختـار كـلام أميرالمؤمني عليه السلام في جميع فنونه ومتشعّبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وأدبعلماً إنّ ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربيّة، ويواقيت الكلم الدينيّة والدنياويّة

القـصـير في المواعظ والحكـم والأمـثـال والآداب دون الخطـب الطويلة والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء مااشتمل عليه الفصل المقدّم ذِكْرُهُ معجَبين] أي مكثرين عجب غيرهم [ببدائعه] بدايع الأشياء الحسنة المعجبة من أعجب فلان فهو معجب، والإسم العجب بالضمّ ولايكون ذلك إلّا في المستحسن.

[ومتعجّبين] من تعجّبت من كذا، والإسم العجب، وقد يكون في الشيء يستحسن ويستقبح ويتهوّل منه ويستغرب، والمراد هنا التهوّل والإستغراب [من نواصعه] ناصع كلّ شيء خالصه.

[وسألوني عند ذلك أن ابتدىء بكتاب يحتوي على مختار كلام أميرالمؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ومتشعّبات غصونه، من خطب وكتب ومواعظ وأدب] مفعول له [إنّ ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربيّة، ويواقيت الكلم الدينيّة والدنياويّة] استعارتان لطيفتان لهذين اللفظين من الحجرين المخصوصين للمعنيين الّذَيْن هما فصاحة الألفاظ العربيّة والحكمة الفاضلة الّتي يشتمل عليهما كلامه عليه السلام ووجه

ما لايوجد مجتمعاً في كلام، ولا بمجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مَشْرَع الفصاحة وموردَها ومنشأ البلاغةِ ومولدَها وعلى أمثلته حذا كلّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصرّوا، وتقدّم وتأخّروا، لأنّ كلامهُ عليه السلام الكلامُ الّذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة

المشابهة ماشتركا فيه من العزّة والنفاسة، كلٌّ بالنسبة إلى جنسه، فعزّة الحجرين بالنسبة إلى مطلق الأحجار وعِزّة الألفاظ الفصيحة والحكم البالغة، بالنسبة إلى سائر الألفاظ والمعاني.

[**ما لايوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مَشْرَعَ الفصاحة وموردَها**] استعار هذين اللفظين الذَيْن هما حقيقة في النهر والعين ونحوهما له عليه السلام، ووجه المشابهة انّ الشريعة من الماء كما يردها العطشى للتروّي والإستقاء كذلك هو عليه السلام مرجع للخلق في استفادة الفصاحة ولو قال مصدرها وموردها لكان أبلغ، إذْ المشرع والمورد متقاربان.

[**ومنشأ البلاغةِ ومولدَها**] استعارة أيضاً تشبيهاً لذهنه عليه السلام بالامّ وتشبيهاً للفصاحة بالولد في الصدور عنه، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها.

[**وعلى أمثلته حذا**] أي اقتفى واتّبع [**كلّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصرّوا، وتقدّم وتأخّروا، لأنّ كلامهُ عليه السلام الكلامُ الّذي عليه مسحة**] أي أثر [**من العلم الإلهي وفيه عبقة**] أي

من الكلام النبويّ فَأَجَبْتُهم إلى الإبتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومذخور الأجر، واعتمدتُ به أن أُبيّن عن عظم قدر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة مضافة إلى المحاسن الدَّثِرَة والفضائل الجمّة، وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها من جميع السلف الأوّلين الّذين انّما يؤثر عنهم القليل النادر والشاذّ الشارد. فأمّا كلامه عليه السلام فهو

رائحة، مِنْ عَبَقَ به الطيّب: لَصَق.

[من الكلام النبويّ] قدّر العلم الإلهي كلّه حسناً وجمالاً، حتّى جعل في كلامه عليه السلام أثراً منه، وقدّر الكلام النبويّ لهيباً كالمسك الأذفر، حتّى جعل في كلامه عبقة منه، واستلزم ذلك تخيّل حاستي البصر والشّم للعقل، ليدرك بالأولى المسحة من العلم الإلهي، وبالثانية العبقة من الكلام النبويّ، وهي استعارة على طريق الكناية، فكنّى بالمسحة عمّا أدركه العقل في كلامه من الحكمة المشار إليها في القرآن الكريم، والفصاحة كنّى عما أدركه من الأسلوب والطريقة الموجودة فيه مع الفصاحة والحكم في الكلام النبويّ، فكان العقل يبصر ويسمع بقوّة أثر العلم الإلهي فيه، ويشمّ رائحة الكلام النبويّ.

[ومذخور الأجر، واعتمدتُ به أن أُبيّن عن عظم قدر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة مضافة إلى المحاسن الدَّثِرَة] أي الجمّة الكثيرة [والفضائل الجمّة، وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها من جميع السلف الأوّلين الّذين انّما يؤثر] أي يحكى ويُنقَل [عنهم القليل النادر والشاذّ الشارد. فأمّا كلامه عليه السلام فهو

البحر الّذي لايساجل الجم الّذي لايحافل وأردتُ أن يسوغ لي التَّمثُّل في الإفتخار به عليه السلام بقول الفرزدق :

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعَتْنا يا جرير المجامعُ

البحر الّذي لايساجل] استعار لفظ البحر لكلامه وأشار إلى وجه المشابهة بقوله لايساجل، فإنّ المساجلة لمّا كانت هي المغالبة في السعي والجريّ، وكان كلامه أكثر جرياناً في كلام البلغاء من غيره، وكانت أوعية أذهانهم قد امتلأت من فيضه، لاجَرَمَ أشبه البحر الّذي لايغلبه بحر آخر في سقي ولا جري، أي لايقاوم في فصاحة ولا حكمة.

وكذلك قوله: **[الجم الّذي لايحافل]** استعارة للفظ المحافلة الّتي هي وصف من وصف الإنسان لكلامه، تشبيهاً له عليه السلام بالرجل ذي المحفل الجمّ والجماعة الكبيرة الّتي لايمكن أن يكاثر بمثلها.

[وأردتُ أن يسوغ لي التَّمثُّل] مجاز في الإسناد، إنّ السوغ حقيقة في الشَّراب، فإسناده إلى التّمثُّل مجاز، ووجه العلاقة أنّ التَّمثُّل بما يريد إذا حسن بين الناس وساد كان ذلك لذيذاً عنده، فأشبه في لذاذته وجريانه بين الناس الماء الزلال في لذاذته وسهولة جريانه في الحلق، فَحَسُنَ إسناد لفظ السوغ إليه.

[في الإفتخار به عليه السلام بقول الفرزدق] همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارميّ:

[أُولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعَتْنا يا جرير المجامعُ

ورأيت كـلامـه عليه السلام يـدور على أقـطاب ثلاثـة: أوّلهـا: الخطب والأوامـر. وثانيـهـا: الكتب والرسـائل. وثـالثـهـا: الحكـم والمواعظ. وأَجْمَعْتُ بتوفيق اللّه تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثمّ محـاسن الكتب، ثمّ مـحـاسن الحكمة والأدب، مُفْرِداً لكلّ صنف من ذلك، ومفضّلاً فيه أوراقاً لتكون مقدّمة لاستدراك ما عساه يشذّ عنّي عاجلاً، ويقع إليّ آجلاً.

فإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخـارج في أثناء حوار أو جوابِ كتاب أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء الّتي ذكرتها

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أوّلها: الخطب والأوامر. وثانيها: الكتب والرسائل. وثالثها: الحكم والمواعظ].

قال القطب الراوندي: سمعتُ بعض العلماء بالحجاز يقول: انّي وجدت بمصر مجموعاً من كلام عليّ عليه السلام في نيف وعشرين مجلّداً.

[وأَجْمَعْتُ] أي صَمَّمْتُ عزمي **[بتوفيق اللّه تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثمّ محاسن الكتب، ثمّ محاسن الحكمة والأدب، مُفْرِداً لكلّ صنف من]** أصناف **[ذلك، ومفضّلاً فيه أوراقاً لتكون مقدّمة لاستدراك ما عساه يشذّ عنّي عاجلاً، ويقع إليّ آجلاً، فإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار]** خطاب **[أو جوابِ كتاب]** والحوار: الخطاب والجواب **[أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء الّتي ذكرتها**

وقرّرت القاعدة عليها، نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدّها ملامحة لغرضه وربما جاء فيماأختارُهُ من ذلك فصولٌ غير متّسقة، ومحاسنُ كلامٍ غيرُ منتظمة، لأنّي اورد النكت واللّمع ولا أقصد التالي والنسق.

ومن عجائبه الّتي انفرد بها، وأمِنَ المشاركة فيها أنّ كلامه عليه السلام الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمّله المتأمّل وفكّر فيه المتفكّر وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممّن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشكّ في انّه كلام من لاحظّ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كَسْرِ بيت

وقرّرت القاعدة عليها، نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدّها ملامحة لغرضه] والأنحاء المقاصد والملامحة المشابهة. [وربما جاء فيماأختارُهُ من ذلك فصولٌ غير متّسقة، ومحاسنُ كلامٍ غيرُ منتظمة، لأنّي اورد النكت واللّمع ولا أقصد التالي والنسق.

ومن عجائبه الّتي انفرد بها، وأمِنَ المشاركة فيها أنّ كلامه عليه السلام الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمّله المتأمّل وفكّر فيه المتفكّر وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممّن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشكّ في انّه كلام من لاحظّ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كَسْرِ بيت] يقال قبع القنفذ، أي أدخل رأسه في جلده، وكَسْرُ البيت الشقّة الّتي تلي الأرض منه، من حيث يشكر جانباه من اليمين

[أو انقطع في سفح جبل] لايَسْمَع إلاّ حسّه، ولا يَرى إلاّ نفسه ولايكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً سيفه فيقُطُّ الرقاب ويجدّل الأبطال ويعود به وهو يَنْطُفُ

والشمال، **[أو انقطع في سفح جبل]**، كما هو شأن الزهّاد المعرضين عن الدنيا.

والمقصود أنّ المفكّر في كلامه عليه السلام إذا فرض أنّه لم يعرف أنّه من كلامه أو كلام آخر مثله في جلالة القدر ونفوذ الأمر والخوض في غمرات الحروب وضرب الرقاب ونظام أُمور الخلق، وقد ملك المشرق والمغرب، لايعترضه شكّ أنّه كلام مخلصٍ مُعْرِضٍ عن غير اللّه بقلبه، غير مشغول بغيره، إذ الشكّ الّذي عساه يعترض لبعض القاصرين في أنّه ليس بكلامه إنّما ينشأ من معرفته بأنّه كلام شخص خائض في تدمير الدنيا وأحوالها، فتكون تلك المعرفة منشأً لعروض الشكّ في أنّ هذا كلام ليس كلام رجل بهذه الحال.

[لايَسْمَع إلاّ حسّه، ولا يَرى إلاّ نفسه] الضميران عائدان إلى «مَنْ»، أي لايَسْمَعُ هو إلاّ حسّ نفسه..

[ولايكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً] أي مجرّداً **[سيفه]** استعارة حسنة في نسبة الإنغماس إلى الحرب، فإنّ الإنغماس حقيقة في الدخول في الماء وفي معناه، والحرب لمّا كانت في غمارها واختلاط المتحاربين فيها تشبه الماء المتراكم الجمّ، صحّ نسبة الإنغماس إليها، كما صحّ النسبة إليه.

[فيقُطُّ الرقاب] القطّ القطع عرضاً، والقدُّ القطع طولاً **[ويجدّل الأبطال]** جدله ألقاه على الجدالة، وهي الأرض **[ويعود به وهو يَنْطُفُ]**

دمــاً ويَقْطر مُهَجــاً، وهو مع تلك الحــال زاهدُ الزُّهّاد، وبَدَلُ الأبدال وهذه من فضائله العجيبة وخصاله اللّطيفة الّتي جمع بها بين الأضداد، وألّف بين الأشتات.

وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرجُ عَجَبَهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة فيها، وربّما جاء في أثناء هذا الإختيار

بالضمّ، أي يسيل [**دماً ويَقْطر مُهَجاً**] والمُهْجَة الدم، ويمكن أنْ يراد بها الروح مجازاً تشبيهاً للروح بالمائعات الخارجة من الإنسان كالدم ونحوه.

[**وهو مع تلك الحال زاهدُ الزُّهّاد، وبَدَلُ الأبدال**] الواو للحال، والأبدال قوم صالحون لاتخلو الأرض منهم واحداً بدل الآخر.

[**وهذه من فضائله العجيبة وخصاله اللّطيفة الّتي جمع بها بين الأضداد، وألّف بين الأشتات**] فإنّ الغالب على الشجعان أن يكونوا ذوي قلوب قاسية، وفتك وتمرّد وجبريّة، والغالب على أهل الزهد، ورفض الدنيا، وذوي الاشتغال بوعظ الناس وتخويف المعاد وتذكير الموت، أن يكونوا ذوي رقّة ولين وضعف قلب، فهاتان حالتان متضادّتان، وقد اجتمعا له عليه السلام. وأيضاً الغالب على ذوي الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوي أخلاق سبعيّة، وغرائز وحشيّة، والغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ أن يكونوا ذوي انقباض وعبس، وهو عليه السلام أشجع الناس وأعظمهم إراقة للدم، وأزهد الناس وأبعدهم عن ملاذ الدنيا، وأكثرهم وعظاً، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة، وألْطف العالم أخلاقاً، وأسفرهم وجهاً، وأكثرهم بشراً.

[**وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرجُ عَجَبَهم منها، وهي موضع للعبرة بها، و الفكرة فيها، و ربّما جاء في أثناء هذا الإختيار**] تضاعيفه

اللفظ المردّد، والمعنى المكرّر، والعذر في ذلك انّ روايات كلامه ﷺ تختلف اختلافاً شديداً، فربما اتّفق الكلام المختار في رواية فَنُقِلَ على وجهه، ثمّ وُجِدَ بعد ذلك في رواية أُخرى موضوعاً غير وضعه الأوّل إمّا بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة، فيقتضي الحال أن يعاد استظهاراً للاختيار، وغَيْرَةً على عقائل الكلام.

وربما بَعُدَ العَهْدُ أيضاً بمااختير أوّلاً، فأعيد بعضه سهواً ونسياناً، لا قصداً واعتماداً.

وما أدّعي مع ذلك أنّني أحيط بأقطار جميع كلامه ﷺ حتّى لايشذّ عنّي منه شاذّ، ولا يندّ نادّ بل لاأبعد أن يكون القاصر عنّي فوق الواقع إليّ والحاصل في رِبْقَتي

واحدها ثَنَى كعدى وأعداء [اللفظ المردّد، والمعنى المكرّر، والعذر في ذلك انّ روايات كلامه ﷺ تختلف اختلافاً شديداً، فربما اتّفق الكلام المختار في رواية فَنُقِلَ على وجهه، ثمّ وُجِدَ بعد ذلك في رواية أُخرى موضوعاً غير وضعه الأوّل إمّا بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة، فيقتضي الحال أن يعاد استظهاراً للاختيار، وغَيْرَةً على عقائل الكلام] أي كرائمه وعقيلة الحي كريمته [وربما بعد العهد أيضاً بما اختير أوّلاً، فأعيد بعضه سهواً ونسياناً، لا قصداً واعتماداً.

وما أدّعي مع ذلك أنّني أحيط بأقطار] أي جوانب [جميع كلامه ﷺ حتّى لايشذّ عنّي منه شاذّ، ولا يندّ نادّ] أي ينفرد منفرد [بل لاأبعد أن يكون القاصر عنّي فوق الواقع إليّ والحاصل في رِبْقَتي] الرِّبْقَة عروة الحبل، يُجعل

دون الخارج من يدي، وما عليّ إلاّ بذل الجهد وبلاغ الوسع، وعلى اللّه سبحانه نهج السبيل وإرشاد الدليل إن شاء اللّه.

ورأيتُ من بعد تسمية هذا الكتاب بـ«نهج البلاغة».

إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابها إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طلابها]

وفيه حاجة العالم والمتعلّم وبغية البليغ والزاهد، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه اللّه سبحانه

فيها رأس البهيمة [دون الخارج من يدي، وما عليّ إلاّ بذل الجهد وبلاغ الوسع، وعلى اللّه سبحانه نهج السبيل] أي ابانته وايضاحه [وإرشاد الدليل إن شاء اللّه.

ورأيتُ من بعد تسمية هذا الكتاب بـ«نهج البلاغة» استعارة لطيفة لهذا الكتاب، لأنّ النهج حقيقة في الطريق الواضحة المحسوسة، ووجه المشابهة انّ الطريق لّما كانت محلّ الاشتغال بالمشي وقطع الأحيان المحسوسة من واحد إلى آخر كذلك الذهن ينتقل في هذا الكتاب من بعض لطائف البلاغة، وشعب الفصاحة إلى بعض انتقالاً سهلاً، فكذا صحّ استعارته له.

إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابها إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابها] بكسر الطاء أي الطَلب.

[و فيه حاجة العالم و المتعلّم وبغية] أي ما يبتغي [البليغ والزاهد، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه اللّه سبحانه

عن شبه الخلق ما هو بلال كلّ غلّة، وجلاء كلّ شبهة.

ومن اللّه سبحانه وتعالى أستمدّ التوفيق والعصمة، وأتنجّز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجَنان، قبل خطأ اللسان، ومن زلّة الكَلِم قبل زلّة القدم.

عن شبه الخلق ما هو بلال] بكسر الباء **[كلّ غلّة]** أي ما يبلّ به الصدى وشفاء كلّ غلّة **[وجلاء كلّ شبهة، ومن اللّه سبحانه وتعالى أستمدّ التوفيق والعصمة، وأتنجّز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجَنان، قبل خطأ اللسان]** فإنّ خطأ الجَنان أعظم وأفحش، فإنّ اعتقاد الكفر بالقلب أعظم من الكفر باللّسان.

[ومن زلّة الكَلِم قبل زلّة القدم] فإنّ العاثر يستقيل من عثرته، والزال بجسده ينهض من صرعته، والزلّة باللسان قد لاتستقال عثرتها، ولاينهض صريعها.

جراحات السّنان لها التئام ولا يَلْتام ما جرحَ اللّسان

[باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام
ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب
في المقامات المحصورة والمواقف المذكورة]

الحمدُ للّه الّذي لايَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القائلون

[باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام
ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب
في المقامات المحصورة والمواقف المذكورة]

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم عليه السلام :

[الحـمـدُ للّه الّذي لايَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القـائلون] المِدْحَة : فِعْلَة ، مِنَ المدح ، والمدح والمديح : الثّناء الحسن ، والأكثر على أنّ الحمد والمدح أخَوان ، يقال : حَمَدْتُ زيداً على إنعامه وحَمَدْتُهُ على شجاعته ومدحته عليها . وقيل باختصاص الأوّل بالاختيار والثاني بالاضطرار . يقال : مدحت اللؤلؤة

. . . .

على صفائها لا حمدتها، والشكر أخصّ، إذ لايكون إلّا على النعمة خاصّة، ولكن مورده أعمّ، إذ يكون باللسان وغيره، والحمد عندهم مختصّ باللسان. ويلزم أن يكون حمدُه تعالى ذاتُهُ مجازاً، مع انّه أحقّ الحقائق، فالأولى أن يقال: الحمد إظهار صفات المحمود قولاً أو فعلاً.

وقوله: لايبلغ مدحته القائلون، إشارة إلى تنزيهه تعالى عن اطلاع العقول البشريّة على كنه وصفه، لأنّ ذلك إنّما يمكن بالاطّلاع على كنه ذاته، ليستلزم معرفة مالها من صفات الجلال ونعوت الكمال، والعقول البشريّة قاصرة عن ذلك، وعاجزة عمّا هنالك. فسبحان من جعل العقول حيرَى في بيداء كبريائه ومعرفته، ولم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلّا بالعجز عن معرفته.

ولذا قال ﷺ وهو سيّد العارفين: «سبحانك لاأُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقال باقر العلوم عليه السلام: «هل سمّي عالماً قادراً إلّا لأنّه وهب العلم للعلماء، والقدرة للقادرين، فكلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق مصنوعٌ مثلكم، مردودٌ إليكم والباري تعالى واهب الحياة ومقدّر الموت، ولعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ للّه زبانيتين، لأنّها كمالها، فإنّها تتصوّر أنّ عدمها نقصان لمن لايكونان له، فهكذا سائر الخلق فيما يصفون به بارئهم. وفي التنزيل: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾[1] وقال:

---

(١) الصافّات: ١٨٠.

(٤) الانعام: ٩١.

ولايُحْصي نَعْماءَهُ العادُّون، ولا يؤدّي حقّه المجتهدون،

﴿وما قدروا اللّه حقّ قدره﴾»[١].

وخصّ القائلين دون المادحين بالذكر لكونه أبلغ في التنزيه، لأنّ القائلين أعمّ من المادحين، وسلب مدح الأعم يستلزم سلب مدح الأخصّ من غير عكس.

[**ولايُحْصي نَعْماءَهُ العادُّون**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لاتحصوها﴾[٢]، ولعلّ الإفراد في الآية إشارة إلى أنّ العباد لايمكنهم عدّ نعمة واحدة من نعمه، والجمع هنا إشارة إلى أنّ أُصول نعمه لاتحصى لكثرتها، ولعلّ الإتيان بإنْ الشرطيّة في الآية، وفي كلامه عليه السلام بلفظ الخبر إشارة إلى أنّكم إن أردتم أن تعدّوا نعمةً له لم تقدروا على حصرها، وهنا أخبر عليه السلام أنّه قد أنْعَمَ النَّظَر فعَلِمَ أنَّ أحداً لايمكنه حصر نعمه تعالى.

[**ولا يؤدّي حقّه المجتهدون**] اذْ لمّا ثبت أنّ نِعَمَهُ لاتُحصى ثبتَ عدم تمكّن المُنْعَم عليه من مجازاتها وأداء حقّه فيها، لأنّ التوفيق لأداء حقّه نعمةٌ أُخرى منه يجب شكرها وهكذا، إذ كلّ ما نتعاطاه من أفعالنا الإختياريّة مستندٌ إلى جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وسائر أسباب حركاتنا، وهي بأسرها مستندة إلى جوده ومستفادةٌ من نعمته، وكذا ما يصدر عنّا من الشكر والحمد وسائر العبادات نعمة منه.

ورُوي أنّ هذا الخاطر خَطَر لداوود عليه السلام، وفي رواية لموسى عليه السلام فقال: يارب كيف أشكرك وأنا لاأستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نعمك. وفي

---

(٢) النحل: ١٨.

الّذي لايدركـه بُعد الـهـمم، ولايَنـالُهُ غَوْصُ الفِطَن، الّذي ليس لصفته حدٌّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود

رواية أُخرى: وشكري لـك نعـمـةٌ أُخـرى توجب عليّ الشـكر لك. فـأوحى اللّه إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني.

وفي خبرٍ آخر: إذا عَرَفْتَ أنّ النعم منّي رَضيتُ منك بذلك شكراً.

[**الّذي لايدركه بُعد الهمم**] أي الهمم البعيدة. والهمّة: العزم الحازم، وَبُعْدُها: تعلّقها بعَليّات الأُمور دون محقّراتها، أي لاتدركه النفوس ذوات الهمم البعيدة، وإن أَمْعَنَتْ في الطلب، وقدَّمَ الصفة للعناية بها.

[**ولايَنالُهُ غَوْصُ الفِطَن**] أي الفطن الغائصة، واستعار وصف الغوص هنا لتعمّق الأفهام الثاقبة في بحار صفات جلاله الّتي لا غاية لها ولا قرار، واعتبارات نعوت كماله الّتي لاتقف عند حدّ ولا نهاية.

[**الّذي ليس لصفته حدٌّ محدود**] أي ليس لما تعتبرهُ عقولنا له من الصِّفات نهاية معقولة تكون حدّاً لها. أو المراد لا صفة له فيُحَدّ، فإنّ صفاته تعالى عين ذاته، ومرجِعها إلى أنّه لا صفة له ـ كما يأتي إن شاء اللّه ـ لينزّهه عن الكثرة، وإنّما هي نِسَبٌ وإضافات يُؤْتَى بها للتعليم والتعلّم.

[**ولا نعت موجود**] أي ولا لمطلق ما يوصف به أيضاً نعت يجمعه وينحصر فيه.

[**ولا وقت معدود**] أي داخل في العدّ لتقدّسه تعالى عن إحاطة الزمان المتأخّر عنه بمراتب.

ولا أجلٌ ممدود. فَطَرَ الخلائق بقدرته، ونَشَرَ الرِّياحَ برحمته،

[**ولا أجل ممدود**] لكونه تعالى واجب الوجود، دائمهُ، والمراد نفي نسبة ذاته وما يلحقها إلى الكون في الزمان وإن تكون ذات أَجَلٍ تنتهي إليه فينقطع وجودها بانتهائه، وقد حصل في هذه الفقرات الأربع السجع المتوازي مع نوع من التجنيس.

[**فطر الخلائق بقدرته**] والفطر: الشَّقّ والإبداع، واستعير وصفه لإيجاد الخلق ملاحظةً لما يُتوهَّم من شَقِّ ظلمة العدم بنور وجودهم. ثمّ إنّ الفطر مايكون شقّ إصلاح، كقوله تعالى: ﴿فاطر السماوات والأرض﴾[1] كذا يكون شقّ إفساد كقوله: ﴿إذا السماء انفطرت﴾[2] و﴿هل ترى من فطور﴾[3].

[**ونَشَرَ الرِّياحَ برحمته**] أي بَسَطَها، لكونها سبباً عظيماً لبقاء أنواع الحيوان والنبات وصلاح الأمزجة ونموّها، وأسنده إلى رحمته لشمولها هذا العالم، ومن آثارها حمل السحاب المترع بالماء على وفق الحكمة ليصيب الأرض الميتة، فينبت بها الزرع ويملأ الضرع كقوله تعالى: ﴿وهو الّذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾[4] وقال: ﴿ومن آياته أنْ يرسل الرياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته﴾[5] و قال: ﴿و أرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا

---

(١) وردت في سور متعدّدة منها: سورة فاطر: الآية ١، وسورة الزّمر: الآية٤٦.

(٢) الإنفطار: ١.

(٣) الملك: ٣.

(٤) الاعراف: ٥٧.

(٥) الروم: ٤٦.

ووتَّدَ بالصخور مَيَدان أرضه.

من السماء ماءً فأسقيناكموه﴾ .[١]

وقال: إنّ العرب تستعمل الريح في العذاب والرياح في الرحمة، وكذا في القرآن، قال تعالى: ﴿ريح صرصر﴾[٢] وقال: ﴿ الريح العقيم﴾ .[٣]

[**ووتَّدَ بالصخور مَيَدان أرضه**] أي أرضه المائدة فقدّم الصفة لأنّ ذِكْرَها أهمّ لكونها سبباً في نصب الجبال، وهو كقوله: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾[٤]، وقوله: ﴿والجبال أوتاداً﴾[٥] .

وإطلاق الأوتاد عليها إمّا على الاستعارة، والمقصود من جعلها كالأوتاد في الأرض أن يهتدى بها على طرقها، فلا يزيغ جهاتها المشتبهة بأهلها، ولا تميل بهم عن مقاصدهم، أو لأنّ الأرض كرة، وهذه الجبال جارية مجرى خشوبات وتصير راسيات في وجهها، فلو لم تكن هذه الجبال حتّى كانت الأرض كرة حقيقيّة خالية عنها، لكانت بحيث تتحرّك بالإستدارة بأدنى سبب، لأنّ الجرم البسيط المستدير يجب تحرّكه على نفسه، أمّا إذا حصلت هذه الجبال على سطحها وكلّ منها يتوجّه بطبعه وثقله العظيم نحو مركز العالَم فإنّه يجرى مجرى الوتد الّذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة.

(١) الحجر : ٢٢ .

(٢) الحاقّة : ٦ .

(٣) الذاريات : ٤١ .

(٤) النحل : ١٥ .

(٥) النبأ : ٧ .

أوّل الدينِ معرفتُهُ، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده،

[أوّل الدينِ معرفتُهُ] لأنّ التقليد باطل، وأوّل الواجبات الدينيّة المعرفة، ولاينافي ذلك قولهم: إنّ أوّل الواجبات النظر أو القصد إلى النظر، لأنّهما إنّما وَجَبا بالعَرَض. قيل: إنّ المعرفة على مراتب:

أدناها: أن يَعرِفَ العبدُ أنّ لهُ صانعاً.

الثانية: أن يُصدّق بوجوده.

الثالثة: أن يترقّى بجذب العناية الإلهيّة إلى توحيده وتنزيهه عن الشركاء.

الرابعة: مرتبة الاخلاص له بالزّهد الحقيقي، وتنحيه كلّ ماسواه عن مستن الآثار.

الخامسة: مرتبة نفي الصفات عنه، وهي غاية العارف، وكلّ مرتبة من المراتب الأربع الاولى مبدء لما بعدها، وكلّ من الأربع الأخيرة كمال لما قبلها، وقد أشار إلى هذه المراتب بقوله:

[وكمال معرفته التصديق به] قيل: ينحل هذا القياس إلى قياسات تشبه قياس المساواة لعدم الشركة بين مقدمتي كلّ منها في تمام الأوسط فتحتاج في إنتاج كلّ منها إلى قياس آخر، والمطلوب من التركيب الأوّل وهو قوله: وكمال معرفته التصديق به.

[وكمال التصديق به توحيده] انّ كمال معرفته توحيده، ومن تركيب هذه النتيجة مع قوله:

وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه،

[**وكمال توحيده الإخلاص له**] انّ كمال معرفة الاخلاص له، ومن تركيب هذه مع قوله:

[**وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه**] انّ كمال معرفته نفي الصفات عنه، وهو المطلوب، فعلى هذا يحتمل أن يراد بالمعرفة الّتي هي أوّل الدين: [المعرفة] الناقصة التي هي أول متحصّل في النفس من مراتب المعرفة، وأن يريد بها [المعرفة] التامّة، إذ هي العلّة الأولى في التصوّر الاحتمالي للسالكين، وغاية من السلوك، وفي إطلاق الكمال تنبيهٌ على أنّ معرفته تعالى بكنه حقيقته غير ممكنة، لأنّها مقولة بالأشدّ والأضعف، فلم تكن ممكنة إلاّ بحسب رسوم ناقصة تركبت من سلوب واعتبارات إضافيّة تلزم معقوليّته تعالى، ولما لم تكن متناهية لم يمكن أن تقف المعرفة بحسبها عند حدّ، بل كانت متفاوتة بالزيادة والنقصان، والجلاء والخفاء، والمراد بنفي الصفات عنه نفي المعاني القديمة التي تثبتهاالأشاعرة وغيرهم له.

[**لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة**] فإنّ حال الصفة تشهد بحاجتها إلى الموصوف، وحال الموصوف يشهد باستغنائه عنها، والحالان يشهدان بمغايرتهما، لأنّ اختلاف اللوازم يدلّ على اختلاف الملزومات.

[**فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه**] لأنّ الموصوف يقارن الصفة،

ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمّنه، ومن قال علي مَ؟ فقد أخلى منه. كائنٌ لا عن حدث،

والصفة تقارنه.

[**ومن قرنه فقد ثنّاه**] لأنّه أثبت قديمين وذلك محض التثنية.

[**ومن ثنّاه فقد جزّاه**] لأنّه إذا أطلق لفظ اللّه على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللّفظ وفائدته متجزّية كاطلاق الأسود على الذات الّتي جلّها سواد.

[**ومن جزّاه فقد جهله**] لأنّ الجهل اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به.

[**ومن أشار إليه فقد حدّه**] لأنّ كلّ مُشار إليه فهو محدود، لأنّ المشار إليه لابدّ أن يكون في جهة مخصوصة، وكلّما هو في جهة فله حدّ

[**ومن حدّه فقد عدّه**] أي جعله من الأشياء المحدثة، إذ كلّ محدود معدود في الذوات المحدثة.

[**ومن قال فيم فقد ضمّنه**] لأنّ من تصوّر انّه في شيء فقد جعله إمّا جسماً مشيراً في مكان، أو عرضاً أو سارياً في محلّ، والمكان متضمّن للمتمكّن، والمحلّ متضمّن للعرض.

[**ومن قال على مَ؟ فقد أخلى منه**] لأنّ من تصوّر انّه على العرش أو على الكرسي فقد أخلى منه غير ذلك الموضع، وانّما خصّ عليه السلام جهة العلوّ بالانكار لكونها هي المتوهّمة فيه تعالى دون غيرها.

[**كائن لا عن حدث**] يطلق الحدوث على الذاتي، وهو كون الشيء

موجودٌ لا عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء

من حيث هو هو، لايستحقّ من ذاته وجوداً ولا عدماً، وانّما يستحقّ أحدهما بأمر خارج عن ذاته، وهو معنى يلازم الإمكان، و(يطلق) على الحدوث الزماني وهو كون الوجود مسبوقاً بالعدم سبقاً زمانيّاً، وهو أخصّ من الامكان، ويقابله القدم بالمعنيين، ونزّههﷺ في هذه الفقرة عن الحدوث بالمعنى الأوّل، إذ كان تعالى واجب الوجود بذاته، ودلّ بالكائن على وجوده المجرّد عن الزمان وخرج الزمان عن مفهوم كان بالدليل العقليّ المانع من لحوق الزمان له، وكان هنا تامة.

[**موجود لا عن عدم**] إشارة إلى تقدّسه عن لحوق الحدوث له بالمعنى الثاني، وهذان الوصفان يستلزمان إثبات الأزليّة والقدم بمعنييه له تعالى.

[**مع كلّ شيء**] إحاطة وعلماً، كما قال تعالى: ﴿مايكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم﴾(١) وقال تعالى: ﴿وهو معهم﴾(٢) ولقد أجاد من قال: كانت الأشياء وكان اللّه معها، وكان اللّه ولم يكن معه شيء.

[**لا بمقارنة**] لا على وجه المصاحبة في زمان أو مكان لتقدّسه تعالى عن الزمان والمكان.

[**وغير كلّ شيء**] ذاتاً ومفهوماً، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(٣).

---

(١) المجادلة: ٧.

(٢) النساء: ١٠٨.

(٣) الشورى: ١١.

لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحّد إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده،

[**لا بمزايلة**] ولما كانت المزايلة وهي المفارقة إضافة لا تعقل إلّا بالقياس إلى مقارنة، وكان في وجوده تعالى وغيريّته للأشياء منزّهاً عن لحوق هاتين الإضافتين لاعتبار الزمان والمكان في مفهومهما، لاجرم نفاهما عن غيريّته للأشياء، كما نفى المقارنة عن معيّته لها، بل غيريّته للأشياء بذاته المقدّسة.

[**فاعل**] اختراعاً وإبداعاً وخلقاً وإيجاداً [**لا بمعنى الحركات والآلة**] أي لا تدخل الحركة والآلة في فاعليّته لكونهما من خواصّ الأجسام، المنزّه قدسه عنها، ولأنّه لو وقف فعله على الآلة، لكان بدونها غير مستقلّ، فيكون ناقصاً بذاتيته مستكملاً بغيره، وهو محال.

[**بصير**] عالم بالمبصرات [**إذ لا منظور إليه من خلقه**] كما أنّه عالم إذ لا معلوم، فإطلاق لفظ البصر عليه مجاز، إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب، وأشار بـ«إذ» إلى اعتبار [**متوحّد**] متفرّد بالوحدانيّة لذاته أزلاً وأبداً [**إذ**] إشارة إلى اعتبار الأزل [**لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده**] لما ثبت من حدوث العالم فلا سكن في الأزل يقارنه، ولأنّه ليس من شأنه أن يكون له أنيس ينفرد عنه ويستوحش لفقده، إذ الاستيناس والتوحّش يتعلّقان بميل الطبع إلى الشيء ونفرته عنه، وهما من توابع المزاج، وقد ثبت تنزيهه تعالى عن الجسميّة والمزاج. وفي الفقرات الثلاثة تنبيه على عظمته تعالى، لأنّ الأوهام البشريّة تحكم بحاجة الفاعل إلى الآلة، والبصير إلى وجود المبصر، والمتوحّد إلى أن يكون في مقابلة أنيس مثله انفرد عنه، فنزّه اللّه عن جميع ذلك.

أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً بلاروية أجَالها ولا تَجرِبةٍ استفادها ولا حركة أحدثها ولا هَمامَةِ نَفْسٍ اضطربَ فيها

ثمّ أشار ﷺ إلى كيفيّة نسبة إيجاد العالم وكيفيّة ذلك في معرض مدحه تعالى، فقال:

في خلق العالَم:

[**أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً**] والمعروف ترادف الانشاء والابتداء، وقيل الانشاء: هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إليه، والابتداء: الإيجاد الّذي لم يقع من الموجد قبلُ.

[**بلاروية**] أي فكرة [**أجَالها**] بالجيم أي ردّدها [**ولا تَجرِبةٍ استفادها**] لم يكن قد خلق من قبلُ أجساماً فحصلت له التجربة الّتي أعانته على خلق هذه الأجسام.

[**ولا حركة أحدثها**] ردٌّ على الكراميّة في قولهم إنّه إذا أراد أنْ يَخلقَ شيئاً مبايناً عنه، أَحدثَ في ذاته حادثاً يسمّى الإحداث، فوقع في ذلك الشيء المباين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً.

[**ولا هَمامَةِ نَفْسٍ اضطربَ فيها**] والهَمامَة الاهتمام بالأمور، وفيه ردٌّ على المجوس والسنويّة القائلين بالهمامة.

وبُرهان امتناع هذه الكيفيّات على علومه تعالى وأفعاله: أمّا الرّويّة والتجربة فلكونهما من خواصّ الإنسان وبواسطة آلات جسمانيّة تمتنع عليه تعالى، وكذا الحركة من عوارض الجسميّة. والهمّة عبارة عن الميل النفساني

أحالَ الأشياء لأوقاتها ولأمَ بين مختلفاتها وغرّز غرائزها وألزمها أشباحها

الجازم إلى فعل الشيء من التألّم والغم بسبب تصوّر فقده، وذلك في حقّه تعالى محال.

[**أحالَ**] بالحاء المهملة، أي حوّل ونقل [**الأشياء**] من حالٍ إلى آخر [**لأوقاتها**] اللام للتعليل، أي أدار كلّ ذي وقت إلى وقته، وربطه به دون ماقبله ومابعده من الأوقات، وكتبه في لوحه المحفوظ، وعلمه المبين، إذ كان كلّ وقت يستحقّ بحسب علم اللّه وحكمته أن يكون فيه ما ليس في غيره.

وقريب منه رواية: آجال بالجيم، وروي أجل، أي جعلها ذات آجال لاتتقدّم عليها ولاتتأخّر عنها.

[**ولأمَ بين مختلفاتها**] أي جعل المختلفات ملتئمة كما قرن النفس الروحانيّة بالجسد الترابي، وجمع في الأمزجة بين العناصر الأربعة على اختلافها وتضادّها [**وغرّز**] بالتشديد [**غرائزها**] جمع غريزة، وهي الطبيعة، أي أنبتها فيها وركّزها، وغريزةُ كلّ شيءٍ طبيعتُهُ وخلُقُهُ وما جعل عليه من خاصّة أو لازم، كالتعجّب والضحك للانسان، والشجاعة للأسد، والجبن للأرنب، والمكر للثعلب.

[**وألزمها**] أي ألزم الغرائز [**أشباحها**] أي أشخاصها، لأنّ كلاً مطبوع على غريزةٍ لازمة، وكلّ طبيعة كليّة انّما توجد في شخص، ويجوز عود الضمير إلى الأشياء، والمعنى انّه تعالى لمّا غرز غرائز الأشياء ألزمها ـ بعد كونها كلّية ـ أشخاصها.

عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها ونهاياتها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

ورُوي أسناخها، والسِّنْخ الأصل، أي جعلها لازمة لأُصولها وهي طبائع الموجودات وماهياتها [**عالماً بها**] بالأشياء [**قبل ابتدائها**] وايجادها كعلمه بها بعد ايجادها [**محيطاً بحدودها**] أي أطرافها [**ونهاياتها، عارفاً بقرائنها**] جمع قرونه، وهي النفس [**وأحنائها**] أي جوانبها، جمع حنو، والثلاثة منصوبة على الحال، والعامل فيها قوله: وألزمها، إعمالاً للأقرب. والأحوال الثلاثة مفسّرة لمثلها عقيب الأفعال الثلاثة الأُول، إذ كانت صالحة لأن تكون أحوالاً عنها.

والمراد في القضيّة الاولى: إثبات الأفعال الأربعة له حال كونه عالماً بالأشياء قبل إيجادها كلّيِّها وجزئيّها.

وفي القضيّة الثانية: نسبة تلك الأفعال إليه حال احاطة علمه بحدودها وحقائقها المميّزة لبعضها عن بعض، وأنّ كُلاً منْتَه بحدّه واقف عنده، وهو نهايته وغايته، ويحتمل أن يريد بإنهائها انتهاء كلٍّ ممكن إلى سببه، وانتهاء للكلّ في سلسلة الحاجة إلى اللّه.

وفي القضيّة الثالثة: نسبة الأفعال إلى قدرته حال علمه بما يقترن بالاشياء من لوازمها وعوارضها، وعلمه بكلّ شيء يقترن بشيء آخر على وجه التركيب أو المجاورة، كاقتران بعض العناصر ببعض في أحيازها الطبيعيّة على ترتيبها الطبيعي، وعلمه بأحنائها وجوانبها الّتي بها تنتهي وتقارن غيرها.

ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشَقَّ الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّارُه، متراكماً زَخّارُه، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها بردّه

[**ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء**] جمع جوّ، وهو الفضاء الواسع، وهذا كالتفصيل لخلق العالَم وابتدائه، وثمّ للتراخي في كلامه عليه السلام لا في المخلوقات، أي: ثمّ أقول الآن، أو للجمع المطلق بمعنى الواو. ويدلّ على انّ الفضاء الّذي هو الفراغ الذي تحصل فيه الأجسام خلقه اللّه ولم يكن من قبل، وانّه شيء كما عليه جَمْع مِن المحقّقين.

فمنهم: من جعله جسماً لطيفاً غير مشابه لهذه الأجسام.

ومنهم: من جعله مجرّداً.

[**وشَقَّ الأرجاء**] جَمْعُ رَجا مقصور، وهو الناحية. [**وسكائك الهواء**] جمع سُكاكة كذُؤابة وذوائب، وهو الفضاء مابين السماء والأض والهواء المكان الخالي. ويفهم منه انّه كان قبل وجود العالَم فضاء واسع، وهو الخلاء في عرف المتكلّمين، فأنشأ اللّه تعالى فيه أحياز أجسام العالَم وفتقها، أي شقّها وأعدّها لخلق الأجسام وتكوينها فيها.

[**فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّارُه**] أي منزاداً معظمه [**متراكماً زَخّارُه**] أي ممتلي بعضه فوق بعض. [**حمله على متن الريح العاصفة**] فإنّها أسرع الأجسام حركة، ولذا أكّدها بوصف العصف تقريراً للسرعة التامّة [**والزعزع**] الشديدة الهبوب، وكذا [**القاصفة**] كأنّها تهلك الناس بشدّة هبوبها [**فأمرها بردّه**] أي بمنعه عن الهبوط، لأنّ الماء ثقيل، ومن شأن الثقيل

وسلّطها على شدّه وقرنها إلى حدّه الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً آخر اعتقم مهبّها وأدامَ مُرَبَّها وأعصف مجراها

الهُوِيّ.

[**وسلّطها على شدّه**] أي على وثاقه، كأنّه سبحانه سلّط الريح على منعه من الهبوط، كأنّه قال شدّه بها وأوثقه، ومنعه من الحركة.

[**وقرنها إلى حدّه**] أي جعلها مكاناً له، أي جعل حدّ الماء المذكور وهو سطحه الأسفل مماساً لسطح الريح الّتي تحمله وتقلّه.

[**الهواء من تحتها فتيق**] إشارة إلى قبول القوابل المذكورة.

[**والماء من فوقها دفيق**] إشارة إلى ما يحمله أمر اللّه من الفيض المذكور، وتلقيه على تلك القوابل، والفتيق: المفتوق المنبسط، والدفيق: المدفوق.

[**ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً آخر**] لتمويج ذلك وتحريكه، فأرسلها و[**اعتقم مهبّها**] أي شدّ هبوبها وضبطه وأرسله بمقدار مخصوص على وفق الحكمة.

ورُوي: فَأَعقَمَ مَهَبَّها، أي جَعَل مجراها عقيماً لا نبت به يعوقها عن الجريان أو لشدّة جريانها، والريح العقيم: التي لاتلقح سحاباً ولا شجراً، وكذا كانت الريح المشار إليها، لأنّه سبحانه انّما خلقها لتمويج الماء فقط.

[**وأدامَ مُرَبَّها**] أي إقامتها وملازمتها لتحريك الماء، من أربّ بالمكان مثل أَلَبَّ به، أي لازمه. [**وأعصف مجراها**] فإنّ الريح إذا عصفت بالفضاء

وأَبْعَدَ منشأها فأمرها بتصفيق الماء الزخّار وإثارة موج تلك البحار فمخضته مخض السّقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء تَرُدُّ أوّله على آخره وساجيه على مائره حتّى عَبَّ عُبابُه ورَمى بالزَّبَد رُكامُهُ فرفعه في هواء منفتق وجوّ منفتق فسوّى منه سبع سماوات

الّذي لا أجسام فيه كان عصفها شديداً لعدم المانع، وهذه الريح عصفت بذلك الماء الكثير العظيم عصفاً شديداً، كأنّها تعصف في فضاء لا ممانع لها فيه من الأجسام.

[**وأَبْعَدَ منشأها**] أي مبتدا نشوها بحيث لايمكن الوقوف عليه وهو قدرته تعالى [**فأمرها بتصفيق**] ذلك [**الماء الزخّار**] الشديد الامتلاء [**وإثارة موج تلك البحار فمخضته مخض السّقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء**] الذي لا مانع فيه، فإنّها تكون شديدة، كما مرّ.

[**تَرُدُّ أوّله على آخره وساجيه**] ساكنه [**على مائره**] متحرّكه، والسّاجي الساكن، والمائر الذي يذهب ويجيء. [**حتّى عَبَّ عُبابُه**] أي علا معظمه وارتفع أعلاه [**ورَمى بالزَّبَد رُكامُهُ**] أي متراكمه [**فرفعه**] رفع اللّه تعالى ذلك الزَّبَد [**في هواء منفتق**] أي خلاء واسع [**وجوّ منفتق**] أي مفتوح واسع [**فسوّى منه سبع سماوات**] رفعها بغير عمد، وقد اشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان﴾[1].

والمراد بخار الماء بناء على انّ الزبد بخار الماء. قيل: ولاينافي ذلك ماعليه المتكلّمون في انّ الأجسام مؤلّفة من الأجزاء الّتي لاتتجزّأ لجواز

---

(١) فصّلت: ١١.

وجَعَلَ سُفلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفوفاً، وعُلْياهُنَّ سَقْفاً محفوظاً، وسَمْكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها، ولا دِسارٍ ينظمها، ثمّ زيّنها بزينةِ

أن يخلق اللّه أوّل الأجسام من تلك الجواهر، ثمّ يكون باقي الأجسام من الأجسام الأولى.

[**وجَعَلَ سُفلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفوفاً**] كالتفسير لقوله: ﴿فسوّى﴾[1] لأنّ التسوية عبارة عن التعديل والوضع والهيئة الّتي عليها السماوات بما فيهنّ كما شرحه واستعار لفظ الموج للسماء ملاحظةً للمشابهة بينهما في العلوّ واللون، ومكفوفاً أي ممنوعاً من السقوط.

[**وعُلْياهُنَّ سَقْفاً محفوظاً**] من الشياطين، فرُوي أنّ الشياطين كانت لاتُحْجَب عن السماوات، وكانوا يستخبرون أخبارها، فلمّا ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلمّا ولد محمّد ﷺ منعوا من السماوات كلّها، فما منهم أحد استَرَقَ السَّمع إلاّ رُميَ بشهاب، وذلك قوله: ﴿وحفظناها من كلّ شيطان رجيم إلاّ من استرق السَّمع فأتْبَعَهُ شهابٌ مبين﴾[2].

[**وسَمْكاً مرفوعاً**] سَمْكُ البيت: سقفه. [**بغير عمد يدعمها**] يكون لها دعامة، تنبيه على عظمة قدرة اللّه وعلوّها عن الحاجة في مثل هذا البنيان، وقيامه بلا عمد، وتنزيه لها عن مماثلة القدرة البشريّة في حاجتها إلى ذلك.

[**ولا دِسارٍ**] واحد الدُّسُر، وهي: المسامير. [**ينظمها، ثمّ زيّنها بزينةِ**

---

(١) الآية السابقة.

(٢) الحجر: ١٧ ـ ١٨.

الكواكب وضياء الثَّواقِب وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فَلَكٍ دائر، وسَقْفٍ سائر، ورقيم مائر

الكواكب] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كلِّ شيطانٍ مارد﴾[1] **[وضياء الثَّواقِب]** سمّيت الشُّهب ثواقباً لأنّها تثقب بنورها الهواء.

[وأجرى فيها سراجاً مستطيراً] استعار لفظ السراج للشمس باعتبار اضائتها لهذا العالم كإضاءة السراج للبيت، والمستطير: المنتشر.

[وقمراً منيراً] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾[2] وربّما يقال: انّ الضياء المضيء بذاته، والنور المكتسب من غيره بناء على انّ نور القمر مستفاد من نور الشمس. **[في فَلَكٍ دائر، وسَقْفٍ سائر، ورقيم مائر]** استعارة أصليّة للفلك، تشبيهاً له باللّوحِ المرقوم فيه، ثمّ كثر استعماله في الفلك حتّى صار اسماً من أسمائه، قيل: ومجموع هذه الإستعارات تستلزم ملاحظة تشبيه هذا العالم بِأَسْرِهِ ببيتٍ واحد في غاية الحسن والزينة، فالسماء سقفه، وهو كقبّة خضراء نصبت على الأرض، وحجب ذلك السقف عن مردة الشياطين، كما تحمى غرفة البيت عن مَرَدَةِ اللّصوص، وزُيِّن بترصيع الكواكب الثاقبة، فهو كسقف من زمرّد رُصّع باللؤلؤ والمرجان، وجعل من جملتها كوكبين هما أعظم الكواكب جرماً

---

(١) الصافّات: ٦ـ ٧.

(٢) يونس: ٥، وربما يكون كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾، الفرقان: ٦١.

ثمّ فتق مابين السماوات العُلا

وأكثرها إشراقاً، وجعل أحدهما ضياء للنهار والآخر ضياء لليل، ثمّ جعل ذلك سقوفاً وطبقات أسكن في كلّ طبقة منها مَلأً من ملائكته وخَواصّ ملكه، وجعل تلك السقوف متحرّكة بما فيها من الكواكب، كما أشار إليه بقوله ﷺ: «في فلك دائر» إلى قوله: «مائر» وجعل حركاتها أسباباً معدّة لتلوّن الكائنات في هذا العالم ليكون أثره تعالى أبدع، وحكمت في خلقه أبلغ.

والضمير في قوله ﷺ: «وزيّنها» يعود إلى السبع سماوات، وذلك لاينافي قوله تعالى: ﴿وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح﴾[1] فإنّ السماء الدنيا وإن لم يكن فيها إلاّ القمر، فإنّ سائر الكواكب أيضاً زينة لها في الأوهام البشريّة.

في خلق الملائكة:

وقوله: [**ثمّ فتق مابين السماوات العُلا**] لمّا أشار إلى تسوية السماوات، إشارةً جميلة، فكأنّه قدّر أوّلاً خَلْقَها كَرّةً واحدةً، كما عليه جملة من المفسّرين، لقوله تعالى: ﴿أوَ لَم يرَ الّذين كفروا أنّ السماوات والأرضَ كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[2].

ثمّ أشار إلى تفصيلها وتَميُّز بعضها عن بعض، وأسكن كلّ واحدة

(١) فصّلت: ١٢.

(٢) الانبياء: ٣٠.

فَمَلأهُنَّ أَطْواراً من ملائكته، منهم سجودٌ لايركعون، وركوعٌ لاينتصبون، وصافُّون لايَتَزايلون، ومُسَبِّحون لايَسْأَمون،

منهنّ مَلأً من ملائكته، ثمّ إلى تفضيل الملائكة ومراتبهم، فقال:

[**فَمَلأهُنَّ أَطْواراً من ملائكته**] على حالات مختلفة وأنواع متباينة.

[**منهم سجودٌ لايركعون**] لم يقم من سجوده ليركع.

[**وركوعٌ**] راكعون أبداً [**لاينتصبون**] قَطُّ من ركوعهم.

[**وصافُّون**] في الصلاة بين يدي خالقهم.

[**لايَتَزايلون، ومُسَبِّحون لايَسْأَمون**] لايَمَلُّون التسبيح، وهؤلاء أهل العبادة، وأشار إلى تفاوت مراتبهم في العبادة والخضوع، لأنّ اللّه تعالى خصّ كلاً منهم بمرتبة معيّنة، وقيل: السجود مرتبة المقرّبين، والركوع مرتبة حَمَلة العرش، والصافّون مرتبة الحافّين من حول العرش، يقفون صفوفاً لأداء العبادة، كما حكى اللّه عنهم: ﴿وإنّا لنحن الصافّون وإنّا لنحن المسبّحون﴾[1].

وفي الخبر: انّ حول العرش سبعين ألف صفٍ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صنف قد وضعوا الأيمان على الشّمائل ما منهم أحد إلاّ وهو يسبح.

والمسبّحون يحتمل أن يكونوا هم الصافّون لما مرّ، والواو وإن اقتضت المغايرة إلاّ أنّهم من حيث إنّهم صافّون غيرَ هم من حيث إنّهم

---

(١) الصافّات: ١٦٥ ـ ١٦٦.

لايَغْشاهُم نومُ العيون، ولا سَهْوُ العقول، ولا فَتْرَةُ الأبدان، ولا غَفْلَةُ النّسيان، ومنهم أُمناءُ على وَحْيهِ، وألْسِنَةٌ إلى رُسُلِهِ، ومُخْتَلفون بقضائه وأمرِه

مسبّحون.

[**لايَغْشاهُم نومُ العيون**] لأنّ النوم عبارة عن تعطيل الحواسّ الظاهرة عن أفعالها لعدم انصباب الروح النفساني إليها أو رجوعها بعد الكلال والضعف، والملائكة السماويّة منزّهون عن هذه الأسباب والآلات.

[**ولا سَهْوُ العقول**] لأنّ السَّهو: الغفلةُ عن الشيء مع بقاء صورته أو معناه في الخيال أوالذُّكْر بسبب اشتغال النفس، والتفاتها إلى بعض مهمّاتها.

[**ولا فَتْرَةُ الأبدان**] لأنَّ الفَتْرَة: وقوفُ الأعضاء البدنيّة عن العمل، وقصورها بسبب تحلُّل الأرواح البدنيّة، وضعفها ورجوعها للإستراحة.

[**ولا غَفْلَةُ النّسيان**] فإنّ النسيان: الغفلةُ عن الشيء مع امحاء صورته أو معناه عن إحدى الخزانتين بالكلّية، ولذا يحتاج الناسي للشيء إلى تجشّم كسب جديد، وكُلْفَة في تحصيلِه، وجميع هذه الأُمور من لواحق الأجسام الحيوانيّة والملائكة منزّهون عنها.

ثمّ أشار ﷺ إلى القسم الثاني من الملائكة وهم السفراء بين اللّه وبين خلقه بقوله:

[**ومنهم أُمناءُ على وَحْيِه، وألْسِنَةٌ إلى رُسُلِه، ومُخْتَلفون بقضائه وأمرِه**] أي: يتعاقبون في أمره، والقضاء هنا الأمر المقضيّ، يقال: هذا قضاء اللّه، أي: مقضيّهُ، قال تعالى: ﴿جاعل الملائكة رُسُلاً أُولي أجنحة مثنى وثُلاث

ومنهمُ الحَفَظَةُ لعبادِه

ورُباع﴾(١) وقال تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلِّمَهُ اللّهُ إلاّ وَحْياً أو من وراء حجاب﴾ أو يرسل رسولاً﴾(٢)، قيل: ويشبه أن يكون هذا القسم داخلاً في الأقسام السابقة من الملائكة، وإنّما ذُكر ثانياً باعتبار وصف الأمانة على الوحي والرسالة، والإختلاف بالأمر إلى الأنبياء وغيرهم، لأنّ من جملة الملائكة المرسلين جبرئيل وهو من الملائكة المقرّبين.

[ومنهمُ الحَفَظَةُ لعبادِه]، كما قال تعالى: ﴿له معقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر اللّه﴾(٣) أي: يحفظونهم من الآفات الّتي تعرض لهم، ومنهم الحفظة على العباد بضبط الأعمال والأقوال من الطاعات والمعاصي، قال تعالى: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾(٤) وقال تعالى: ﴿كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون﴾(٥) وقال تعالى: ﴿مايَلْفِظُ من قولٍ إلاّ لديهِ رقيبٌ عتيد﴾(٦).

وعن ابن عبّاس: إنّ مع كلّ انسان مَلَكَيْن: أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، فإذا تكلّم الإنسان بحسنةٍ كتبها مَنْ على يمينه، وإذا تكلّم بسيّئة

---

(١) فاطر: ١.
(٢) الشورى: ٥١.
(٣) الرعد: ١١.
(٤) الانعام: ٦١.
(٥) الإنفطار: ١١ ـ ١٢.
(٦) ق: ١٨.

و السدنة لأبوابِ جنانه ومنهمُ الثابتةُ في الأرضين السُّفلى أقدامُهُم والمارقة من السَّماء العُلْيَا أعناقهم، والخارجةُ من الأقطار أركانُهُم، والمناسِبَةُ لقوائم العرشِ أكْنافُهُم

قال مَنْ على اليمين لمن على اليسار: انتظر لعلّه يتوب منها، فإن لم يتب كتبت عليه.

أقول: ولعلّ الحكمة أنّ المكلَّف إذا علم بذلك كان أَزْجَرَ له عن القبائح.

[و] منهم [السدنة] جمع سادن، وهو: الخادم [**لأبوابِ جِنانه**] وهم خُزّان الجنّة.

[**ومنهمُ الثابتةُ في الأرضين السُّفلى أقدامُهُم والمارقة**] أي: الخارجة [**من السَّماء العُلْيا أعناقهم، والخارجةُ من الأقطار أركانُهُم، والمناسِبَةُ لقوائم العرشِ أكْنافُهُم**] شبّههم بقوائم العرش في استقرارهم وثباتهم عن التزايل من تحته أبداً إلى ماشاءاللّه، ولفظ الأكناف مجاز في القوى والقدرة الّتي بها حملت الملائكة جرم العرش، ووجه الشبه بقوائم العرش استقلالها بحمله كالقوائم، وهذه صفة حملة العرش، فرُوي انّ أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوعٌ لايرفعون طَرْفَهم، وهم أشدُّ خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشدّ خوفاً من أهل السماء السادسة وهكذا إلى السماء الدنيا.

وفي النبويّ: لاتتفكّروا في عظمة ربّكم، ولكن تفكّروا فيما خلق من الملائكة، فإنّ خلقاً منه يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله

ناكسةٌ دونه أبصارُهُم مُتَلَفِّعون تحته بأجنحتهم

وقدماه في الأرض السفلى. وقد مرق ورأسُهُ من سبع سماوات، وإنّه ليتضاءل من عظمة اللّه حتّى يصير كأنّه الوصَع. والوصع: طائر صغير.

ورُوي: انّه تعالى لمّا خلق حملة العرش قال لهم: احملوا عرشي، فلم يطيقوا، فقال لهم: قولوا: لاحول ولاقوّة إلاّ باللّه، فلمّا قالوا ذلك استقل عرش ربّنا فنفذت أقدامهم في الأرض السابعة على متن الثرى، فلم تستقرّ، فكتب في قدم كلّ ملك منهم اسماً من أسمائه، فاستقرّت أقدامهم.

[ناكسةٌ دونه أبصارُهُم مُتَلَفِّعون] أي: متلحِّفون **[تحته بأجنحتهم]** والضميران في «دونه» و«تحته» راجعان إلى العرش.

وروي: انّ لكلّ ملك من حَمَلَة العرش ومن حوله أربعة أجنحة: أمّا جناحان فعلى وجهه، مخافة أن ينظر إلى العرش فينصعق، وأمّا جناحان فيهفو بهما، ليس لهم كلام إلاّ التسبيح والتحميد.

وكنّى عليه السلام بنكس أبصارهم: عن كمال خشيتهم للّه تعالى واعترافهم بقصور أبصار عقولهم عن إدراك ماوراء كمالاتهم المقدّرة لهم، وضعفها عمّا لاتَحْتَمِلُهُ من أنوار عظمة اللّه تعالى، وأنّ شعاع أبصار إدراكهم مُنْتَهٍ واقف دون حُجب عزّته.

ويحتمل أن يريد بلفظ الأجنحة قواهم وكمالاتهم الّتي يطيرون بها في بيداء جلال اللّه استعارةً، وزيادة الأجنحة كناية عن تفاوت مراتبهم في الكمال.

مـضـروبَةٌ بينهم وبين مَنْ دونهم حُجُب العِزَّة، وأسْتار القُدْرة، لايتوهّمون ربّهم بالتصوير، ولا يُجْرون عليه صفاتَ المصنوعين

ولمّا كان الطائر عند قبض جناحه كالمتلفّع أي: الملتحف به، احتُمِل أن يكون وصف التَّلَفُّع لهم استعارةً لقصور قواهم وقدرتهم المشبّه للأجنحة وقبضها عن التعلّق بمعلومات اللّه ومقدوراته.

وروي: أنّ للّه تعالى ملائكة حول العرش يسمّون المخلخلين، تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنّما تنفضهم الرياح من خشية اللّه تعالى، فيقول الربّ جلّ جلاله: ملائكتي ماالّذي يخيفكم؟ فيقولوا: ربّنا لو أنّ أهل الأرض اطّلعوا من عزّتك وعظمتك على مااطّلعنا عليه ما ساغوا طعاماً ولا شراباً، ولاانبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحراء يخورون كما يخور الثَّور.

[**مضروبَةٌ بينهم وبين مَنْ دونهم حُجُب العِزَّة وأسْتار القُدْرة**] إشارة إلى قصور القوى البشريّة عن ادراكهم، لتنزّههم عن الجسميّة والجهة، وقربهم من عزّة مبدعهم الأوّل، هذا حالهم، فكيف حال خالقهم جبّار الجبابرة، ومَلِك الدنيا والآخرة؟

[**لايتوهّمون ربّهم بالتصوير**] إشارة إلى تنزيههم عن الإدراكات الوهميّة والخياليّة في حقّ مبدعهم، إذ كان الوهم إنّما يتعلّق بالأمور المحسوسة ذات الصور والأحياز والمحال الجسمانيّة، المنزّه قدسه تعالى عنها، وهم مُبَرَّءون عن الأوهام والخيالات البشريّة.

وكذا قوله: [**ولا يُجْرون عليه صفات المصنوعين**] لعدم المناسبة والمماثلة

ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنواظر ثمّ جَمَعَ سبحانه مِن حَزْنِ الأرض وسَهْلِها وعَذْبِها وسبخها تُرْبَةً سَنَّها بالماء حتّى خَلَصَت ولاطها بالبلَّة حتّى لَزَبَت

بين الحقّ والخلق. أين التراب وربّ الأرباب، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

[**ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنواظر**] لأنّ كلّ ذلك إنّما يكون بقياس وهميّ ومحاكاة خياليّة بمصنوعاته المحتاجة إلى الأمكنة، وهم مُبَرَّءون عن الوهم والخيال.

و منها
في صفة خلق آدم عليه السلام

[**ثمّ جَمَعَ سبحانه مِن حَزْنِ الأرض**] وهو ما غلظ منها واستدرّ [**وسَهْلِها**] وهو ما لانَ [**وعَذْبِها**] ماطابَ منها واستعدّ للنبات والزرع [**وسبخها**] ما مَلَح منها [**تُرْبَةً سَنَّها**] أي: مَلَسَها وخلطها [**بالماء حتّى خَلَصَت**] فصار طيناً خالصاً [**ولاطها**] من لطت الحوض بالطين، أي: ملطته وطيّنته [**بالبلَّة**] بفتح الباء من البلل [**حتّى لَزَبَت**] بفتح الزاء، أي: التصقت وثبتت.

---

(١) الشورى: ١١.

فَجَبَل منها صورةً ذات أَحْناء ووصول وأعضاء وفُصُول أَجْمَدَها حتّى استمسكَتْ، وأَصْلَدَها حتّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدود، وأَجَلٍ معلوم ثمّ نَفَخَ فيها من روحه

[فَجَبَل] أي: خلَق [منها صورةً ذات أَحْناء] جوانب، جمع حِنْو. [ووصولٍ] جمع كثرة للوصل، وهي المفاصل، وجمع القلّة أوصال.

[وأعضاء] جمع عضو، بالكسر والضمّ، كاليد والرجل للحيوان. [وفُصُولٍ] مفاصل [أَجْمَدَها حتّى استمسكَتْ، وأَصْلَدَها] أي جعلها صَلْداً، وهي الصلبة الملساء [حتّى صَلْصَلَتْ] أي: يبست. ومنه الصلصال، أي: الطين اليابس الّذي يصلصل، وهو غير مطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار.

[لِوَقْتٍ مَعْدود، وأَجَلٍ معلوم] وهو الوقت الّذي يعلم الله انحلال هذا التركيب فيه، كما قال تعالى: ﴿وما نؤخّره إلاّ لأجل معدود﴾[1].

ويحتمل أن يراد أنّ لكلّ مرتبة من مراتب تركيب بدن الإنسان وانتقاله في أدوار الخلقة وقتاً معدوداً يقع فيه، وأجلاً معلوماً يتمّ به.

[ثمّ نَفَخَ فيها] أي: في الصورة [من روحه] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾[2]، واستعار وصف النفخ لإفاضة النفس على البدن، واشتعال نورها المعقول فيه، كما يشعل النارَ نافخُها.

والروح يحتمل أن يراد به جبرئيل، ونسبته إلى الله ظاهرة ويحتمل أنْ يراد به جود الله ونعمته، وسمّي روحاً لأنّه مبدء كلّ حياة، وبه قوام كلّ

---

(١) هود: ١٠٤.

(٢) الحجر: ٢٩.

فَمَثُلَتْ إنساناً ذا أذهان يُجيلُها وفكَرٍ يَتَصَرَّفُ بها وجَوارِحَ يَخْتَدِمُها وأدواتٍ يُقَلِّبها ومَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بها بين الحَقِّ والباطل

شيء ونسبته إلى اللّه ظاهرة، ومن للتبعيض.

ويحتمل أن يراد به النفس الإنسانيّة، فتكون من زائدة، ونسبت إلى اللّه لشرفها وبراءتها عن الموادّ، فلها مناسبة مع علّتها الأولى ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي﴾[1].

[**فَمَثُلَتْ**] تلك الصورة المجبولة [**إنساناً**] نَبَّهَ بالفاء على أنّها إنّما صارت إنساناً بِنَفْخ الروح فيها. [**ذا أذهان**] إشارة إلى ما للإنسان من القوى الباطنة المدركة والمتصرّفة [**يُجيلُها**] يحرّكها ويبعثها في انتزاع الصور الجزئيّة، كما للحسّ المشترك، أو المعاني الجزئيّة، كما للوهم.

[**وفكَرٍ يَتَصَرَّفُ بها**] لم يرد القوّة المفكّرة، فإنّها في الإنسان واحدة، بل أراد حركات تلك القوّة فيما تتصرّف فيه، وهي متعدّدة، فلذا جمعها.

[**وجَوارِحَ يَخْتَدِمُها**] إشارة إلى عامّة الأعضاء، إذ كانت كلّها خدماً للنفس، فإنّه يجعلها في مآربه كالخدم الّذين يستعملهم.

[**وأدوات يُقَلِّبها**] لعلّ المراد بها الأيدي، كما في قوله: فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها، أو الأعم من ذلك، كالبصر والقلب، كما في قوله صلى الله عليه وآله: يا مقلّب القلوب والأبصار.

[**ومَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بها بين الحقّ والباطل**] قيل إشارة إلى استعداد النفس

---

(١) الإسراء: ٨٥.

والأذواق والمشامّ والألوان والأجناس معجوناً بطينة الألوان المختلفة والأشباهِ المؤتَلفة

لدرك المعقولات الثانية المسمّى عقلاً بالملَكة بحسب مالها من المعارف الأول، أعني البديهيّات، فإنّ الحقّ والباطل أمور كلّية، وليس للقوى البدنيّة في إدراك الأمور الكلّية حظّ.

ويحتمل أن يراد بالمعرفة القوّة الإستعداديّة الأولى للإنسان المسمّاة عقلاً هيولائيّاً.

[والأذواق] وهي الآلة الّتي بها يدرك المذوقات.

[والمشامّ] الآلة الّتي يدرك بها المشمومات.

[والألوان] الّتي بها يدرك الألوان.

[والأجناس] تنبيهاً على أنّ للإنسان آلات يدرك بكلّ منها واحداً من هذه الأربعة، وأخَّرَ الأجناس لأنّ المُدْرِك لها هو العقل، إذ كانت أموراً كلّية، لكن بواسطة إحساس الحواسّ المشار إليها لمحسوساتها، ولعلّه عنى بالأجناس هنا الأمور الكلّية مطلقاً لا بعضها كما في اصطلاحهم.

[معجوناً بطينة الألوان المختلفة] نُصبَ على الحال من قوله ﷺ: «إنساناً»، أو [نُصَب] على الصفة له. وطينة الألوان مادّتها الّتي خالطت بدن الإنسان فاستعَدَّ بها لقبول الألوان المختلفة، وهي معنى عجنه بها.

[والأشباهِ المؤتَلفة] كالعظام والأسنان وأشباهها، فإنّها أجسام متشابهة ائتلف بعضها مع بعض، وبها قامت الصورة البدنيّة، وامتزجت بطينتها.

والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة من الحرّ والبرد، والبلّة والجمود، والمساءة والسرور، واستأدَى اللّه سبحانه الملائكةَ وديعتَهُ لديهم، وعَهْدَ وصيَّتِهِ إليهم في الإذعان بالسجود له، والخضوع لتكرمته، فقال سبحانه: ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس﴾

[**والأضداد المتعادية**] كالكيفيّات الأربع الّتي ذكرها عليه السلام، وهي: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.

[**والأخلاط المتباينة**] وهي: الدم، والبلغم، والصفراء، والسوداء.

ثمّ فصّل إجمال ماسبق بقوله: [**من الحرّ والبرد والبلّة**] وهي الرطوبة [**والجمود**] وهي اليبوسة [**والمساءة والسرور**] وهما من الكيفيّات النفسانيّة.

[**واستَأدَى اللّه سبحانه الملائكةَ وديعتَهُ لديهم**] أي: طلب منهم أداءَها، إشارة إلى قوله: ﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين، فإذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[1].

[**وعَهْدَ**] اللّه إلى الملائكة [**وصيَّتِه إليهم في الإذعان بالسجود له**] واستيداء ذلك منهم هو قوله: ﴿اسجدوا لآدم﴾[2].

[**والخضوع لتكرمته، فقال سبحانه: ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس﴾[3]**] وقبيله من الجنّ والشياطين.

---

(١) ص: ٧١ـ٧٢.

(٢) البقرة: ٣٤.

(٣) البقرة: ٤٣.

اعْتَرَتْهُم الحَمِيَّة، وغَلَبَتْ عليهم الشِّقْوة، وتعزّزوا بخلقة النار، واستوهنوا خَلْقَ الصلصال، فأعطاه اللّه النَّظِرَة.

[اعْتَرَتْهُم] غشيتهم [الحَمِيَّة] كما قال تعالى: ﴿إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[١].

[وغَلَبَتْ عليهم الشِّقْوة] إشارة إلى ما في القرآن: ﴿ربّنا غَلَبَتْ علينا شقوتنا﴾[٢].

[وتعزّزوا بخلقة النار] إشارة إلى قوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[٣].

[واستوهنوا] استضعفوا [خَلْقَ الصلصال] إشارة إلى قوله: ﴿ءأسجد لِمَن خَلَقْتَ طيناً﴾[٤].

[فأعطاه اللّه النَّظِرَة] بفتح النون وكسر الظاء: الإمهال والتأخير، إشارة إلى قوله: ﴿إنّك من المُنظَرين﴾[٥].

وفي الكلام حذف، أي: فسألَ النظرة، فأعطاه ذلك و﴿قال انظرني إلى يوم يبعثون﴾[٦].

---

(١) الآية السابقة.

(٢) المؤمنون: ١٠٦.

(٣) ص: ٧٦.

(٤) الاسراء: ٦١، أو قوله تعالى: ﴿لم أكن لأسجُدَ لبشرٍ خلقتَهُ من صلصالٍ...﴾ الآية ٣٣ من سورة الحجر.

(٥) الأعراف: ١٥.

(٦) الأعراف: ١٤.

استحقاقاً للسُّخْطَة، واستتماماً للبليّة، وإنجازاً للعدَة، فقال: ﴿إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ ثمّ أسكن اللّه سبحانه آدم داراً أَرْغَدَ فيها عَيْشَه، وآمن فيها محلّته، وحَذَّرَهُ إبليس وعَداوتَه﴾ فاغْتَرَّهُ نَفاسةً عليه بدار المُقَام

[**استحقاقاً للسُّخْطَة**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولايحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾(١).

[**واستتماماً للبليّة**] أي: بليّة بني آدم واختبارهم بعصيانه أو طاعته ﴿أحسب الناس أنْ يُتْركوا أنْ يقولوا آمنّا وهم لايفتنون﴾(٢).

[**وإنجازاً للعدَة، فقال: ﴿إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾**(٣) **ثمّ أسكن اللّه سبحانه آدم داراً أَرْغَدَ فيها عَيْشَه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾(٤).

[**وآمن فيها محلّته وحَذَّرَهُ إبليس وعَداوتَه**﴾ بقوله: ﴿ياآدم إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلايخرجنّكما من الجنّة فتشقى﴾(٥) [**فاغْتَرَّهُ نَفاسةً عليه بدار المُقَام**] إشارة إلى قوله: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال: ياآدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلك لايبلى﴾(٦).

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) العنكبوت: ٢.

(٣) ص: ٨١ـ٨٢

(٤) البقرة: ٣٥.

(٥) طه: ١١٧.

(٦) طه: ١٢٠.

ومرافقـةِ الأبرار، فبـاعَ اليـقينَ بشكِّه، والعَزيمة بوَهْنه، واسْتَبْدَلَ بالجَذَلِ وَجَلاً

وحقيـقة الغرور سكون النفس إلى مايوافق الهـوى ويميل إليه الطبع عن شبهـة وخدعة من إبليس، ومن لوازم المعـاداة النفاسة على العدوّ بكلّ مـايعدّ كمالاً له من دار المقام.

[**ومرافقةِ الأبرار فباعَ اليقينَ بشكّه، والعَزيمة بوَهْنه**] بسبب الإشتغال باللّذات الحاضرة، والإنهماك فيها، وذلك قوله: ﴿فنسي ولم نجد لَهُ عزماً﴾[١].

وكان عليه السلام في الجنّة على حال يعلمها يقيناً، وما كان يعلم عيشه في الدنيا، فبدّل ذلك اليقين بما شكّكه فيه إبليس لعنه اللّه بقسمه وقوله: ﴿إنّي لكما لمن الناصحين﴾[٢].

وقيل: بل كان يتيقّن عداوته، فشكّكه في ذلك بما حكاه من النصح عن نفسه.

وقيل: بل كان يتيقّن عهد اللّه بملازمة طاعته وأمره، فلمّا وسوس له الشيطان نسي ذلك العهد، فذلك قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾[٣] الآية، وكذلك أبدل عزيمته الجازمة على المحافظة على طاعة اللّه والصبر عليها بالضعف عن ذلك.

[**واسْتَبْدَلَ بالجَذَلِ**] أي: السرور والفرح بنعيم الجنّة [**وَجَلاً**] كما دلّ

---

(١) طه: ١١٥.

(٢) الأعراف: ٢١.

(٣) طه: ١١٥.

وبالإغْترار نَدَماً، ثمّ بَسَطَ اللّه سبحانه له في توبته، ولَقّاهُ كلمةَ رحمتِه، ووَعَدَهُ المَرَدَّ إلى جنّته، فأهْبَطَهُ إلى دار البَلِيَّة وتناسل الذرّية

عليه بقوله: ﴿ربَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإنْ لم تَغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾(١) وتذكّر قوله: ﴿فإمّا يأتينّكم منّي هُدىً فمَنْ اتَّبَعَ هُداي فلا يَضِلُّ ولا يَشْقى ومَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْري فإنّ له معيشةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يوم القيامة أعمى﴾(٢).

[**وبالإغْترار**] الّذي أتاه من الشيطان [**نَدَماً**] على ما فاته من النعيم.

[**ثمّ بَسَطَ اللّه سبحانه له في توبته ولَقّاهُ كلمةَ رحمته**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾(٣) [**ووَعَدَهُ المَرَدَّ إلى جنّت**] بقوله: ﴿فمن اتّبَعَ هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾(٤).

[**فأهْبَطَهُ إلى دار البَلِيَّة**] والإبتلاء إشارة إلى قوله: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ﴾(٥).

[**وتناسل الذرّية**] قيل: في اللّفظ تقديم وتأخير، تقديره: والعزيمةُ توهنه، أهْبَطَهُ إلى دار البليّة وتناسلِ الذرّية، فاستبدل بالجدل وجلاً

---

(١) الاعراف : ٢٣ .

(٢) طه : ١٢٣ ـ ١٢٤ . والكلمات ـ كما دلّت عليها الأخبار ـ محمد وأهل بيته الطاهرين حيث توسّل بهم آدم.

(٣) البقرة : ٣٧ .

(٤) طه : ١٢٣ .

(٥) البقرة : ٣٦ .

واصطفى سبحانه من وَلَده أنبياءَ أَخَذَ على الوحي ميثاقَهُم وعلى تبليغِ الرسالة أمانَتَهم لمّا بدَّلَ أكثرَ خلقه عَهْدَ اللّه إليهم

وبالإغترار ندماً، ثمّ أناب إلى اللّه، فبسط، إلى آخره، وانّما جعل تناسل الذرّية في معرض ذمّ الحال وإن كان من كمالات الدنيا لحقارة ذلك بالنسبة إلى الكمال والخير الّذي كان فيه آدم في الجنّة.

إصطفاء الأنبياء من ولد آدم عليه السلام:

[واصطفى سبحانه من وَلَده] أي من وُلد آدم **[أنبياءَ أَخَذَ على الوحي ميثاقَهُم]** قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم﴾[1] وقال: ﴿وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيّين﴾[2] الآية.

[وعلى تبليغِ الرسالة أمانَتَهم] من ضبط الوحي في ألواح قواهم وجذب سائر النفوس الناقصة وتكميل الناقصين من أبناء نوعهم **[لمّا بدَّلَ أكثرَ خلقه عَهْدَ اللّه إليهم]** تنبيه على وجه الحكمة في بعثة الأنبياء وسببها، وهي شرطيّة متّصلة قدّم فيها التالي لخلْق ذكْر الأنبياء بذكر آدم، والتقدير: لمّا بدَّلَ أكثر خلق اللّه عَهْدَهُ إليهم، اصطفى من ولده أنبياء، وذلك العهد هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم﴾[3] الآية.

(١) الاحزاب: ٧.

(٢) آل عمران: ٨١.

(٣) الاعراف: ١٧٢.

فَجَهِلوا حَقَّهُ واتَّخَذوا الأَنْدادَ مَعَه واجتالتهم الشياطين: عن معرفته وأقتطعتهم عن عبادته فَبَعَثَ فيهم رُسُلَه، وواتَرَ إليهم أنبياءَه ليسْتَأْدوهم ميثاقَ فِطْرته ويُذكِّروهم منسيّ نعمته

قال ابن عبّاس: لمّا خلق اللّه آدم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نسمة هو خالِقُها إلى يوم القيامة فقال: ﴿ألستُ بربّكم؟ قالوا: بلى﴾[1] فَنُودي يومئذ جَفَّ القلم بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة.

[**فَجَهِلوا حَقَّهُ**] للغفلة والإشتغال باللذّات الفانية عن دوام شكره وعبادته الموصل[2] إلى النعم الباقية.

[**واتَّخَذوا الأَنْدادَ مَعَه**] لنسيانهم العهد القديم [**واجتالتهم الشياطين**]: أدارتهم وصرفتهم وجذبتهم [**عن معرفته**] الّتي هي الدعاء إلى الجنّة [**وأقتطعتهم عن عبادته**] الّتي هي الطريق الموصل إلى جنانه ورضوانه.

[**فَبَعَثَ فيهم رُسُلَه، وواتَرَ إليهم أنبياءَه**] أي أرسل وتراً بعد وتر، أي واحداً بعد آخر [**ليسْتَأْدوهم ميثاقَ فِطْرته**] أي: يطلبوا منهم أداء ماعهد إليهم به حين خلقهم من العبوديّة للّه، والإستقامة عليها ويبعثوهم على أداء ماخُلقوا لأجله من العبادة.

[**ويُذكِّروهم منسيّ نعمته**] أي: يذكّروهم مانسوه من نعم اللّه الجسيمة، وينبّهوهم على شكر ماأولاهم به من منّه العظيمة بالترغيب فيما أعدّه اللّه لأوليائه، والترهيب بما أعدّ لأعدائه.

---

(١) الآية السابقة.

(٢) تذكير كلمة الموصل لأنها صفة لـ«دوام» أي الدَّوام الموصل.

ويَحْتَجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُرُوهُم آيات المقْدرة: مِنْ سَقْف فوقَهم مرفوع، ومِهادٍ تَحتَهم موضوع، ومَعايش تُحييهم، وآجالٍ تُفْنيهم

[**ويَحْتَجّوا عليهم بالتبليغ**] لرسالات ربّهم وينذروهم للقاء يومهم الّذي يوعدون.

[**ويثيروا لهم دفائن العقول**] من وجوه الأدلّة على وحدانيّة المبدع الأوّل وتفرّده باستحقاق العبادة. واستعمال الدفائن استعارة، إذ لما كانت جواهر العقول ونتائج الأفكار موجودة في النفوس بالقوّة اشبهت الدفائن فحسن استعارة لفظ الدفينة لها، ولمّا كان الأنبياء هم الأصل في استخراج تلك الجواهر لإعداد النفوس لإظهارها، حَسُنَ إضافة إثارتها إليهم [**ويُرْوهُم آيات المقْدِرة:**] الإلهيّة وآثارها ويرشدوهم إلى وجوهها فيستدلّوا بما يشاهدون من الحكمة في خلق السماوات والأرض وأمر معاشهم وأسباب حياتهم وموتهم.

[**مِنْ سَقْف فوقَهم مرفوع**] بلا عَمَد محفوظ، مشتمل على بدائع الصنع وغرائب الحكم.

[**ومِهادٍ تَحتَهم موضوع**] فيه ينتشرون وعليه يتصرّفون.

[**ومَعايش تُحييهم**] أي: بها يكون قوام حياتهم الدنيا، وبلاغاً لمدّة بقائهم لما خلقوا له [**وآجالٍ تُفْنيهم**] بها يكون فناؤهم ورجوعهم إلى بارئهم، وكفى بالأجل آية وواعظاً وداعياً إلى اللّه، ولذا قالﷺ أكثروا من ذكر هادم اللذّات.

وأوصابٍ تُهْرِمُهم وأحْداثٍ تَتَابعُ عليهم ولم يُخْلِ اللّهُ سبحانَهُ خَلْقَهُ من نبيٍّ مُرْسَل

[وأوصابٍ تُهْرِمُهم] وهي الامراض الّتي تُضْعِفُ قواهم حتّى يهرموا.

[وأحْداثٍ] ومصائب [تَتَابعُ عليهم] وتتوارد، فإنّ كلّ هذه الآثار مواد احتجاج الأنبياء على الخلق لينبّهوهم بصدورها عن العزيز الجبّار على انّه هو الملك المطلق الّذي له الخلق والأمر وليُقرّروا في أذهانهم صورة مانسوا من العهد المأخوذ عليهم في الفطرة الأصليّة من انّه هو سبحانه الواحد الحقّ المنفرد باستحقاق العبادة، وإلى ذلك أُشير في قوله تعالى: ﴿وجعلنا السماء سَقْفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف اللّيل والنهار والفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل اللّه من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيْدٍ وإنّا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون﴾[٣].

[ولم يُخْلِ اللّهُ سبحانَهُ خَلْقَهُ من نبيٍّ مُرْسَل] لعنايته تعالى بالخلق، كما قال: ﴿وإنْ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾[٤] وهذا ممّا انفردت به الإماميّة

(١) الانبياء: ٣٢.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) الذاريات: ٤٧ ـ ٤٩.

(٤) فاطر: ٢٤.

أو كتابٍ مُنْزَل

ودلّت عليه الأخبار المتواترة من أنّ الأرض لاتخلو من حجّة(١)، إمّا ظاهر مشهور، أو غائب مستور(٢)، وإنّ الحجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق(٣).

[أو كتابٍ مُنْزَل] يدعوهم إلى عبادته ويذكّرهم فيه منسيّ عهده، ويُتلَى عليهم فيه أخبار الماضين والعبر اللاحقة للأوّلين، ويحتجّ عليهم فيه بالحجج البالغة، والدلائل القاطعة، ويوضح لهم فيه أُمور نظامهم، وينبّههم على مبدئهم ومعادهم، ولكن لابدّ للكتاب من قيِّم يحيط بمحكمه ومتشابهه، ومجمله ومفصّله، وظاهره ومؤوّله، كما دلّ عليه البرهان والوجدان. قال تعالى: ﴿هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿انّما هو آيات بيّنات في صدور الّذين أُوتوا العلم﴾(٥).

---

(١) اصول الكافي: ج١، باب أن الارض لاتخلو من حجة، ص ١٧٨، الاحاديث.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٥ ح١٠، عن أمالي الصدوق، وإكمال الدين.

(٣) أُصول الكافي: ج١، باب أن الحجة لاتقوم على خلقه إلاّ بإمام، ص١٧٧، ح٤.

(٤) آل عمران: ٧.

(٥) العنكبوت: ٤٩.

أو حُجّة لازمة أو مَحَجَّة قائمة: رُسُلٌ لايُقَصِّر بهم قلَّةُ عددهم ولا كثرةُ المكذّبين لهم. مِن سابقٍ سُمّيَ له مَنْ بعده، أو غابرٍ عرَّفَهُ مَنْ قَبْلَه

وقد دلّ الدليل القطعيّ إنّ في القرآن تبيانَ كلّ شيء، ومن المعلوم إنّ العقول البشريّة لاتفي بذلك، فلابدّ من قيّم يعلم جميع مافيه.

وقوله: [**أو حُجّة لازمة أو مَحَجَّة قائمة:**] إشارة إلى ذلك ممّا تنفرد به الإماميّة من أنّه لابدّ في كلّ زمان من وجود إمام معصوم.

[**رُسُلٌ لايُقَصِّر بهم قلَّةُ عددهم ولا كثرةُ المكذّبين لهم. مِن سابقٍ سُمّيَ له مَنْ بعده، أو غابرٍ عرَّفَهُ مَنْ قَبْلَه**] أي: هم رسل كذلك، والمراد الإشارة إلى أنّهم وإن كانوا قليلي العدد بالنسبة إلى كثرة الخلق المكذّبين لهم كما هو المعلوم من حال كلّ نبيّ بُعث إلى أُمّة، فلابدّ فيهم من فرقة تنابذه وتعانده وتكذّب مقاله، فإنّ ذلك لايولّيهم قصوراً عن أداء ما كُلِّفوا القيام به من تبليغ الرسالة وحمل الخلق على مايكرهون ممّا هو صلاحهم في معاشهم ومعادهم، بل يقوم أحدهم وحده ويدعوا إلى طاعة ربّه، ويتحمّل أعباء المشقّة التامّة في مجاهدة أعداء الدين، وتنتشر دعوته في أطراف الأرض رسلاً مبشّرين ومنذرين، لئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل.

و«من» في قوله عليه السلام: «من سابق» للنبيّين، وهو تفصيل للأنبياء، والمراد: أنّ السابق منهم قد أطلعه اللّه تعالى على العلم بوجود اللاحق بعده، فبعضهم كالمقدّمة لتصديق البعض كعيسى، حيث قال: ﴿ومبشّراً

على ذلك نسلت القرون ومَضَت الدُّهور وسَلَفَت الآباء وخَلَفَت الأبناء بعثة الرسول الأعظم ﷺ إلى أن بعث اللّه محمّداً ﷺ لإنجاز عدته

برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1] وبين لاحق سمّاه مَنْ قبلَه كمحمّد ﷺ.

و[**على ذلك**] النمط وهذه الوتيرة والأُسلوب الربّاني، والنظام الإلهي [**نسلت القرون**] أي: ولدت [**ومَضَت الدُّهور وسَلَفَت الآباء وخَلَفَت الأبناء**] خلفاً عن سلف.

وقد ساق عليه السلام هذه الخطبة من لدن آدم عليه السلام إلى أن انتهى إلى الخاتم محمّد ﷺ، كما هو الترتيب التطبيقي، إذ هو الغاية من طينة النبوّة وخاتم النبيّين، كما نطق به القرآن: ﴿ما كان محمّدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيّين﴾[2].

ثمّ شرع بعد ذلك في التنبيه على كيفيّة اهتداء الخلق به ﷺ وانتظام أُمورهم في معاشهم ومعادهم بوجوده استدراجاً لأذهان السامعين، فقال:

بعثة الرسول الأعظم ﷺ

[**إلى أن بعث اللّه محمّداً ﷺ لإنجاز عدته**] الضمير راجع إلى الباري: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض

---

(١) الصفّ: ٦.

(٢) الأحزاب: ٤٠.

مأخوذ على النبيّين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده

كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً﴾[١] وقال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[٢].

[مأخوذ على النبيّين ميثاقه] نصب على الحال من بعث، وذوالحال محمّد صلى الله عليه وآله، وكذا الحال في المنصوبين الآخرين.

والمراد بأخذ الميثاق ماقبل انّه لم يكن نبيّ قطّ إلاّ وبشّر بمبعث محمّد صلى الله عليه وآله وأخذ تعظيمه وإن كان بعد لم يوجد أو ماقرّر في نظرهم من الأعراف بحقيّة نبوّته وتصديقه إذ كان لك من تمام عبادة الحقّ، فبعث حال ما ما كان ذلك الميثاق مأخوذاً على الأنبياء ومن عداهم.

[مشهورة سماته] أي: علامات نبوّته، فإنّها كانت ظاهرة في الميثاق وفي أحوال تعرفها الرهبان والركبان والكهّان وعلماء أهل الكتاب.

وقد ذكر في التوراة والإنجيل صفاته وعلاماته [كريماً ميلاده] أي: طاهراً أصله عن الفساد، لم يزل يُنْقَل من الأصلاب الزكيّة إلى الأرحام المطهّرة، قال تعالى: ﴿الّذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين﴾[٣] لم تنجّسهُ الجاهليّة بأنجاسها، ولم تلبسه من مدلهمّات ثيابها.

---

(١)

(٢)

(٣) الشعراء: ٢١٨ـ٢١٩.

وأهلُ الأرضِ يومئذ مِلَلٌ متفرِّقةٌ وأهواء منتشرة طرائق متشتّتة بين مُشَبِّهٍ للّه بخلقه أو ملحدٍ في أسمائه أو مُشيرٍ إلى غَيره

[**وأهلُ الأرضِ**] الواو للحال، أي: والحال أنّ أهل الأرض [**يومئذ**] أي حين إذ بُعِثَ [**مِلَلٌ متفرِّقةٌ وأهواء**] أي: أهواؤهم أهواءٌ [**منتشرة**] وطرايقهم [**طرائق متشتّتة**] مختلفي الآراء متشتّتي الأهواء [**بين مُشَبِّهٍ للّه بخلقه**] كالمجسِّمة والمصوّرة والمشبّهة [**أو ملحدٍ في أسمائه**] من عدل بأسمائه عن الحقّ بتحريفها عمّا هي عليه إلى أسماء اشتقّوها لأصنامهم وأوثانهم منها، كاللاّت من اللّه، والعُزّى من العزيز، ومناة من المنّان.

[**أو مُشيرٍ إلى غَيره**] كالدهريّة وغيرهم من عَبَدَة الأوثان والكواكب.

قيل: إنّ الخلق حيث بُعث محمّد ﷺ منهم مَنْ له ملّة وشريعة، ومنهم غيره، فالأوّلون اليهود والنصارى والصابئون والمجوس، وقد حَرَّفوا كتبهم، وغيّروا دينهم، وبقي منهم من غَلَب عليه التشبيه والتجسُّم، كما حكى اللّه عنهم: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء اللّه وأحبّاؤه﴾[١] ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن اللّه وقالت النصارى المسيح بن اللّه﴾[٢] ﴿وقالت اليهود يد اللّه مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾[٣].

والمجوس أثبتوا أصلين أسندوا إلى أحدهما الخير وإلى الثاني الشرّ، وزعموا أنّه جرت بينهما محاربة فأصلحتهما الملائكة على أن يكون العالم السفلي للشرّ سبعة آلاف سنة، إلى غير ذلك من خرافاتهم وهذيانهم.

---

(١) المائدة: ١٨.

(٢) التوبة: ٣٠.

(٣) المائدة: ٦٤.

. . . .

وأمّا غيرهم من أهل الأهواء فهم على أصناف: فمنهم العرب أهل مكّة وغيرهم، وقد كان منهم معطِّله، ومنهم محصِّلة نوع تحصيل، والأوّلون صنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني، وهم الّين حكى اللّه عنهم: ﴿وقالوا ما هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلّا الدهر﴾[1].

وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق منه وأنكروا البعث والإعادة، كما حكَى اللّه عنهم: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خَلْقَه قال من يُحيي العظام وهي رميم قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة﴾[2] الآية.

ومنهم من اعترفوا بالخالق ونوعٍ من الإعادة لكنّهم عبدوا الأصنام وزعموا أنّهم شفعاءهم عند اللّه، كما حكى اللّه عنهم: ﴿ويعبدون من دون اللّه ما لايضرّهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه﴾[3] ومن هؤلاء قبيلة ثقيف، وهم أصحاب اللاّت بالطائف. وقريشٌ وبنو كنانة وغيرهم أصحاب العزّى. ومنهم من كان يجعل الأصنام على صور الملائكة ويتوجّه بها إلى الملائكة.

ومنهم من كان يعبد الملائكة، كما قال تعالى: ﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾.

وأمّا المحصِّلة، فقد كانوا في الجاهليّة على ثلاثة أنواع من العلوم:

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) ياسين: ٧٧ـ٧٨.

(٣) يونس: ١٨.

فهداهم بهِ من الضَّلالة وأنقذهم بمكانه من الجهالة

أحدها : علم الأنساب والتواريخ والأديان.

والثاني: علم تعبير الرؤيا.

والثالث: علم الأنواء، وذلك ممّا يتولّاه الكهنة والقافة منهم.

وعن النبيّ ﷺ: من قال مطرنا بِنَوْء كذا، فقد كفر بما أُنزل على محمّد ﷺ.

وعنه ﷺ: لاعَدْوى ولا هامّة ولا صَفَر.

ومن غير العرب: البراهمة من أهل الهند ومدارهم على التحسين، والتقبيح العقليين والرجوع في كلّ الأحكام إلى العقل وإنكار الشرائع، وانتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهام.

ومنهم: أصحاب البَدّ، والبَدّ عندهم شخص في هذا العالم لايولد ولاينكح ولايطعم ولايشرب ولايهرم ولايموت.

ومنهم: أهل الفكرة، وهم أهل العلم بالفلك وأحكام النجوم.

ومنهم: أصحاب الروحانيّات الّذين أثبتوا وسائط روحانيّة تأتيهم بالرسالة من عند اللّه في صورة البشر من غير كتاب، فتأمرهم وتنهاهم.

ومنهم: عبدة الكواكب.

ومنهم: عبدة الشمس.

ومنهم: عبدة القمر.

فبعث اللّه نبيّه ﷺ **[فهداهم بهِ من الضّلالة]** إلى السلوك إلى الصراط المستقيم.

[وأنقذهم بمكانه] وببركة أنواره **[من]** ظلمات **[الجهالة]** إلى أنوار

ثمّ اختار سبحانه لمحمّد صلى الله عليه وآله لقاه ورضي له ما عنده ذا كرامة عن دار الدنيا، ورَغبَ به عن مقارنة البلوى، فقبضه إليه كريماً صلّى اللّه عليه وآله، وخلَّفَ فيكم

اليقين، فقام بالدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أحسن فجلا اللّه بنوره صدأ قلوب الخلق، وأزهق باطل الشيطان بما جاء به من الحقّ، وانطلقت الألسن بذكر اللّه واستنارت البصائر بمعرفة اللّه وأظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون. وكَمَّلَ به دينه وأتمّ به نعمته، كما قال: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[1].

[**ثمّ اختار سبحانه لمحمّد صلى الله عليه وآله لقاه**] كما أحبّ هو لقاه، كما قال صلى الله عليه وآله: مَنْ أحبّ لقاء اللّه أحبّ اللّه لقاءه.

[**ورضي له ما عنده**] من الكرامة التامّة، والنعمة العامّة في جواره الأمين في أعلا علّيين ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[2].

[**ذا كرامة عن دار الدنيا**] لحقارتها وعدم قابليّتها، فإنّها لو كان لها قدر عند اللّه لما سقى الكافر منها شربة ماء، ولأنّها سجن المؤمن وجنّة الكافر.

[**ورَغبَ به عن مقارنة البلوى**] ومقام الأذى [**فقبضه**] اللّه تعالى [**إليه كريماً**] عن أدناس الذنوب طاهراً في ولادته الجسمانيّة والروحانيّة من جميع العيوب [**صلّى اللّه عليه وآله**] ما برق بارق، ودرّ شارق [**وخلَّفَ فيكم**

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) القمر: ٥٥.

مـا خَلفَتِ الأنبيـاء في أُممهـا إذ لـم يتـركـوهـم هَمَلاً بغـيـر طريق واضح، ولا علم قائم أوصاف القرآن الكريم كتاب ربّكم

ما خَلفَتِ الأنبياء في أُممها إذ لم يتركوهم هَمَلاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم] والعلم المنار يُهتَدى به، إذ يجب عليهم أن يُدَبِّروا لبقاء ما سَنُّوه وشَرَّعوه في أُمور المصالح الإنسانيّة، تدبيراً، والغاية من ذلك التدبير هو بقاء الخلق واستمرارهم على معرفة الصانع المعبود، ودوام ذكره، وذكر المعاد ونظام أُمور العباد، وحسم الفساد والعناد مع انقراض القرن الّذي يلي النبيّ ومن بعده، فوجب إذاً أن يأتيهم بكتابٍ من عند اللّه وافياً بالمطالب الإلهيّة والأحكام الشرعيّة، ويُسنُّ على الخلق تكراره وحفظه ودراسته وتعلّمه وتعليمه، وأن ينصب لهم قَيِّماً يعلّمُ جميع مافي القرآن، إذ لا يَكلْهم إلى كتاب فيه المحكم والمتشابه والمجمل والمؤوَّل والناسخ والمنسوخ وإلّا لاختلفت آراؤهم وتشتّت ولزم الهرج والمرج، واختلاف الكلمة.

أوصاف القرآن الكريم

وقد أشار ﷺ إلى أوصاف الكتاب وأقسامه بقوله: [كتاب ربّكم] بدلٌ من «ما».

والمراد بـ«ما» نوع ما خلّفت الأنبياء في أُممها من الحقّ، وذلك ما اشتمل عليه الكتاب ممّا لا خلاف يه بين الأنبياء من القوانين الكلّية، كالتوحيد وأمر المعاد وتحريم الكبائر.

مُبيِّناً حلالَهُ وحرامَه وفرايضه وفضائله وناسِخَه ومنسوخه ورخصه وعزائمه

[مُبيِّناً] نصب على الحال من خلف، وذوالحال ضمير النبيّ صلى الله عليه وآله [**حلالَهُ وحرامَه وفرايضه وفضائله**] إشارة إلى الأحكام الخمسة الشرعيّة، الّتي يدور عليها أمر الفقه، وهو الوجوب، والندب، والحظر، والكراهة، والإباحة، وعبّر بالحلال عن المباح والمكروه، وبالحرام عن المحظور، وبالفضائل عن المندوب، وبالفرائض عن الواجب.

[**وناسِخَه ومنسوخه**] والنَّسخ رفع الحكم الثابت بالنصّ المتقدّم بحكم آخر مثله، فالناسخ هو الحكم الرافع، والمنسوخ هو الحكم المرفوع، كقوله تعالى: ﴿والّذين يُتَوفّون منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً﴾[1] فإنّه ناسخ لقوله تعالى: ﴿متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾[2] و﴿فاقتلوا المشركين﴾[3] ناسخٌ لقوله: ﴿لا إكراه في الدين﴾[4].

[**ورخصه**] جمع رخصة، وهو الإذن في الفعل، مع قيام السبب المحرَّم له، لضرورة، كقوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام أُخر﴾.

[**وعزائمه**] جمع عزيمة، وهي ما كان من الأحكام الشرعيّة جارياً على وفق سببه الشرعي، كقوله تعالى: ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، فاعلم أنّه

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) البقرة: ٢٤٠.

(٣) التوبة: ٥.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

وعامّه وخاصّه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده

لا إله إلاّ اللّه.

[**وعامّه وخاصّه**] والعامّ اللّفظ المستغرق لجميع مايصلح له بحسب وضع واحد، كقوله تعالى: ﴿واللّه بكلّ شيء عليم﴾ و﴿للّه على الناس حجّ البيت﴾.

والخاصّ ما لم يتناول الجميع بالنسبة إلى مايتناوله كقوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ وإلاّ إبليس.

[**وعبره**] جمع عبرة، وهي الإسم من الإعتبار واشتقاقها من العبور، لأنّ ذهن الإنسان ينتقل فيها من أمر إلى أمر، كما ورد فه من قصص الأوّلين، والمصائب النازلة بهم، الّتي ينتقل ذهن الإنسان باعتبارها إلى تقديرها في نفسه وحاله، فيحصل بذلك انزجاره ورجوعه إلى اللّه، كقوله تعالى: ﴿فأخذه اللّه نكال الآخرة والأولى إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

وقد يستعمل العبرة في كلّ مايفيد اعتباراً من طرق الإحسان، كقوله تعالى: ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونها﴾ الآية.

[**وأمثاله**] كقوله تعالى: ﴿إنّما مَثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ الآية، وقوله: ﴿ضرب اللّه مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شيء﴾ وقوله: ﴿مثلهم كمثل الّذي استوقد ناراً﴾.

[**ومرسله ومحدوده**] قيل: هما في عرف أُصول الفقه المطلق والمقيّد، فالمطلق كقوله تعالى في كفّارة الظهار: ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا﴾

ومحكمه ومتشابهه مفسّراً جمله ومبيّناً غوامضه

والمقيّد كقوله: ﴿فتحرير رقبة﴾ والفرق بينهما وبين العام، إنّ لكلّ شيء ماهيّة هو بها ما هو، وهي مغايرة لكلّ ما عداها، فإنّ مفهوم الإنسان مثلاً ليس إلاّ أنّه إنسان، فإمّا أنّه واحد أو كثير، أو ليس أحدهما، فمفهوم آخر مغاير لماهيّته، فاللفظ الدالّ على الحقيقة من حيث هي، من غير دلالة على شيء آخر معها هو اللفظ المطلق والمهمل، والدالّ معها على قيد العموم، بحيث يفهم منه تعدّد الماهيّة وتكثّرها في جميع مواردها هو اللفظ العام، أو في بعض مواردها، وهو الخاصّ.

[ومحكمه ومتشابهه] والمحكم في اصطلاحهم هو راجح الإفادة لأحد مفهوماته المحتملة للإرادة منه، من دون قرينة، فمنه النصّ وهو الراجح غير المانع من النقيض، كقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين﴾ فإنّه ظاهر العموم في جميعهم، أو إن احتمل بعضهم، ويقابله المتشابه، وهو غير راجح الإفادة لأحد مفهوماته، مه المجمل وهو غير راجح الإفادة لأحدها ولا مرجوحها، كقوله تعالى: ﴿ثلاثة قروء﴾ فإنّه يحتمل للحيض والطهر على سواء، ومنه المؤل وهو غير راجح الإفادة، ولكنّه مرجوحها، كقوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ إذ المراد غير ظاهرة، وهو المراد بالمبيّن إذ بيّن بغير لفظه.

[مفسّراً جمله ومبيّناً غوامضه] والتفسير هو التبيين والغوامض دقايق المسائل، وأضاف هذه المعاني كلّها إلى الكتاب لاشتماله عليها، وكونه مبدء لها. ونسب بيان هذه الأمور إلى الرسول ﷺ، لكونه هو الموضح لها نسبته، ثمّ أشار إلى تفصيل أحكام الكتاب باعتبار آخر، وذكر منها أقساماً فقال:

بين مأخوذ ميثاق عمله، وموسّع على العباد في جهله، وبين مثبت في الكتاب فرضه، معلوم في السنّة نسخه، وواجب في السنّة أخذه، مرخّص في الكتاب تركه

[**بين مأخوذ ميثاق عمله**] أي يجب تعلّمه، ولايسع الخلق جهله، كوحدانيّة الصانع، وأمر المعاد والعبادات الخمس وشرائطها.

[**وموسّع على العباد في جهله**] وهو ما لايتعيّن على كافّة الخلق العلم به، بل يعذر بعضهم في جهله، ويسعهم تركه، كالآيات المتشابهات وأوائل السور كـ: ﴿كهيعص﴾ و﴿حمعسق﴾ ونحوهما.

[**وبين مثبت في الكتاب فرضه معلوم في السنّة نسخه**] كقوله تعالى: ﴿واللاّتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم، فإن شهدوا فامسكوهنّ في البيوت حتّى يتوفّاهنّ الموت أو يجعل اللّه لهنّ سبيلاً﴾، وقوله: ﴿واللّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾.

فكانت الثيّب إذا زنت في بلاد الإسلام تمسك في البيت إلى الممات، والبكر تؤذى بالكلام ونحوه بمقتضى هاتين الآيتين، ثمّ نسخ ذلك في حقّ الثيّب بالرجم، وفي حقّ البكر بالجلد والتغريب بحكم السنّة.

[**وواجب في السنّة أخذه مرخّص في الكتاب تركه**] كالتوجّه إلى بيت المقدس في مبدء الإسلام، فإنّه ان ثابتاً في السنّة، ثمّ نُسخ بقوله تعالى: ﴿فلنولّينّك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾ وكثبوت صلاة اخوف في القرآن حال القتال الواقع لجواز

وبين واجب بوقته زائل في مستقبله ومباين بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه

تأخيرها في السنّة إلى انجلاء القتال.

[وبين واجب بوقته زائل في مستقبله] كالحجّ الواجب في العمر مرّة، وكالنذور المقيّدة بوقت معيّن وأمثالها، فإنّ وجوبها تابع لوقتها المعيّن، ولايتكرّر بتكرار أمثاله.

[ومباين بين محارمه] عطف على على المجرورات السابقة، والياء مفتوحة. وفي معنى الكلام وتقديره لطف، فإنّ المحارم لما كانت هي محالّ الحكم المسمّى بالحرمة، صار المعنى وبين حكم مباين بين محاله هو الحرمة، وقوله:

[من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه] بيان لتلك المحال، وإشارة إلى تفاوتها في الشدّة والضعف في كونها مبعدة عن رحمة اللّه على سبيل الجملة.

ويدلّ على أنّ الذنوب فيها كبار وصغائر، وإنّ الكبائر ماتوعّد اللّه عليه بالنار، كالقتل في قوله تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها﴾ وكذا سائر الكبائر من الزنا والظلم ونحوهما.

وأشار بالفقرة الثانية إلى قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم وندخلكم مُدخلاً كريماً﴾ وقوله: ﴿وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ ونحوه من آيات الوعد بالمغفرة، ثمّ عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة، ورجع إلى تقسيم الكتاب، فقال:

وبين مقبول في أدناه وموسّع في أقصاه وفرض عليكم حجّ بيته الحرام الّذي جعله قبلة للأنام﴾ يردونه ورود الأنعام ويألهون إليه ولوه الحمام جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزّته

[**وبين مقبول في أدناه وموسّع في أقصاه**] فإنّ القليل من القراءة مقبول، والكثير مها موسّع مرخّص في تركه.

ثمّ ذكر عليه السلام وجوب حجّ البيت الحرام ومنّة اللّه تعالى على خلقه بذلك، وإلى أسرار وصفه، فقال:

[**وفرض عليكم حجّ بيته الحرام**] أي: المحرّم، كقوله تعالى: ﴿عند بيتك المحرَّم﴾ فإنّ العرب كانت تحرّم فيه ما تستحلّ في غيره من القتل والقتال، أو بمعنى الحرام كزمان وزمن، لكونه أمناً لمن دخله ومانعاً له.

[**الّذي جعله قبلة للأنام﴾** فقال: ﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾.

[**يردونه ورود الأنعام**] شبّه ورود الناس إليه وازدحامهم عليه ومحبّتهم له بازدحام الإبل العطاس على الماء.

[**ويألهون**] أي: يسدّ وجدهم وشوقهم [**إليه**] في كلّ عام، ويشتاقون إلى وروده [**ولوه الحمام**] كاشتياق الحمام الساكن به إليه عند خروجه منه، وأصل همزة يألهون الواو من وله يوله إذا تحيّر من شدّة الوجد.

[**جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزّته**] إشارة إلى أنّ العقل السالم يكن ليهتدي إلى أسرار أعمال الحجّ لم يكن الباعث عليها

واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه

في أكثر الخلق إلاّ الأمر المجرّد، وقصد امتثاله من حيث هو واجب الإتّباع فقط، وفيه كمال الرقّ وخلوص الإنقياد للّه، فمن فعل ما أمر به من أعمال الحجّ كذلك، فهو المخلص الّذي ظهرت عليه علامات المخلص المتواضع الذهن لجلال ربّ العالمين، ولمّا كان تعالى عالم الغيب والشهادة، لم يمكن أن يقال: إنّ تلك للعلامة ممّا يستفيد بها، علماً بأحوال عبيده من طاعتهم ومعصيتهم، فهي علامة لغيرهم من الناس.

[**واختار من خلقه سماعاً**] جمع سامع [**أجابوا إليه دعوته**] إشارة إلى إلحاح في قوله تعالى: ﴿وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق﴾.

وفي الأثر: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا فرغ من بناء البيت جاء جبرئيل فأمره أن يؤذّن بالناس بالحجّ، فقال إبراهيم عليه السلام: ياربّ ومايبلغ صوتي؟ قال اللّه: أذّن وعليَّ البلاغ، فعلا إبراهيم عليه السلام المقام وأشرف به، حتّى صار كأطول الجبال، وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ونادى: ﴿ياأيّها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم﴾ فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبّيك اللّهمّ لبّيك.

وقوله: [**وصدّقوا كلمته**] إشارة إلى مطابقة أفعالهم، لما جاءت به الانبياء من كلام اللّه سبحانه وعدم مخالفتهم وتكذيبهم له.

[**ووقفوا مواقف أنبيائه**] إشارة إلى مطابقتهم له في مواقف الحجّ وفي

وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه ويحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته وجعله سبحانه للإسلام علماً وللعابدين حرماً

ذكر الانبياء هٰهنا استدراج حسن الطباع اللطيفة المتشوّقة إلى لقاء اللّه والتشبيه بأنبيائه وملائكته.

[**وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه**] إشارة إلى ماروي أنّ في السماء بيتاً تطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضراح وانّ هذا البيت تحته على خطّ مستقيم وأنّه المراد بقوله تعالى: ﴿والبيت المعمور﴾ أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده.

[**ويحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته**] شبّه عليه السلام العبادة بالبضاعة الّتي يتّجر بها، فالتاجر هو النفس، ورأس المال هو العقل، ووجوه تصرّفاته حركاته وسكناته الحسيّة والعقليّة المطلوبة منه بالأوامر الشرعيّة والأرباح الجنّة ﴿ورضوان من اللّه أكبر﴾ فما أقبح مملوكاً يعدّ تصرّفه في خدمة سيّده متجراً يطلب به التكسّب والربح، وأحسن به إذا نظر إلى أنّه أهل العبادة، وأزال جميع الأغراض.

[**وجعله سبحانه للإسلام علماً**] أي: علماً للطريق إلى اللّه وسلوك صراط المستقيم يهتدي به كما يهتدي بالعلم المرفوع للعسكر والمارّة على مقاصدهم.

[**وللعابدين حرماً**] آمناً كما مرّ.

فرض حجّه وأوجب حقّه وكتب عليهم وفادته فقال سبحانه: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾ أحمده استتماماً لنعمته واستسلاماً لعزّته

[**فرض حجّه وأوجب حقّه وكتب عليهم وفادته**] والوفادة القدوم للإسترفاد، ولفظها مستعار للحجّ، لأنّه قدوم إلى بيت الله طلباً لفضله وثوابه.

[**فقال سبحانه: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾**] وفيها م ضروب التأكيد من العدول عن الأمر إلى الجملة الخبريّة بمعنى الطلب، وذكر من يجب عليه عموماً وخصوصاً وتسمية، تاركه كافراً، وأنّ الله غنيّ عن طاعات عبيده.

[ومن خطبة له عليه السلام]
[بعد انصرافه من صفّين]

اسم الأرض الّتي كانت فيها الحرب، والنون أصليّة.

[**أحمده استتماماً لنعمته واستسلاماً لعزّته**] منصوبين على المعفول له.

وقد جعل عليه السلام لحمده غايتين:

الأولى منهما: الإستتمام لنعمة الله، لأنّ العبد يستعدّ بمزيد الشكر لمزيد النعمة، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

واستقصاماً من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته إنّه لايضلّ من هداه، ولايئل من عاداه، ولايفتقر من كفاه

والثانية: الإستسلام العزّ به، إنّ العبد يستعدّ بكمال الشكر لمعرفة المشكور، وهو اللّه سبحانه، وهي مستلزمة للإنقياد لعزّته والخضوع لعظمته نظراً إلى قوله: ﴿ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾ لما يشتمل عليه الآية من التخويف المانع من مقابلة نعم اللّه بالكفر، ولما كانت هاتان الغايتان لإتمام لهما بدون عصمة عن ورطات المعاصي والمعونة بكفايته على الدواعي المهلكة، جعل طلب العصمة غاية أُخرى وهي الوسيلة الأوّلين، وعقّب ذلك الحمد بطلب المعونة منه على تمام الإستعداد لما طلب فقال:

[**واستقصاماً من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته**] إشارة إلى علّة تلك الإستعانة، وهي الفاقة إلى كفاية دواعي التفريط والإفراط بالجذبات الإلهيّة.

[**إنّه لايضلّ من هداه، ولايئل**] أي نجى من وال يئل، أي: لاينجو [**من عاداه، ولايفتقر من كفاه**] والفقرات الثلاثة تعليل لطلب المعونة على تحصيل الكفاية، فإنّه لما كان حصول الكفاية مانعاً من دواعي طرفي الإفراط والتفريط، كان العبد مستقيم الحركات على سواء الصراط، وذلك هدى اللّه يهدي به من يشاء.

فكأنّه قال: وأستعينه على أن يرزقني الكفاية المستلزمة للهداية الّتي هي الغنى الحقيقي، والملك الأبدي.

وقد أطلق عليه‌السلام هنا لفظ المعاداة للّه، كما أطلقها القرآن الكريم على ما

فإنّه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن وأشهد أن لا إله إلاّ الله شهادة ممتحناً إخلاصها، معتقداً مصاصها نتمسّك بها أبداً ما أبقانا

هو من لوازمها، وهو الإعراض عن عبادته والبغض لها، ولمن تلبّس بها من عباده مجازاً.

[**فإنّه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن**] الضمير يعود إلى اللّه سبحانه، ولمّا كان تعالى منزّهاً عن الوزن والخزن اللّذين هما من صفات الأجسام فهما مستعاران لعرفانه في ميزان العقل، إذ لا يوازنه عرفان ما عداه، بل لا يخطر ببال العارف عند الإخلاص سواه حتّى يصدق هناك موازنة يقال فيها أرجح، ويكون المراد بالخزن خزن ذلك العرفان في أسرار النفوس القدسيّة.

ويحتمل عود الضمير إلى ما دلّ عليه قوله أحمده من المصدر على طريقة قولهم من كذب كان شراكه.

[**وأشهد أن لا إله إلاّ الله**] قيل: هي أشرف كلمة وحّد بها الخالق منطبقة على جميع مراتب التوحيد.

ومنهم من قدّر الخبر لا إله لنا أو موجوداً إلاّ الله، ورجّح جملة من المحقّقين كونها تامّة، وإنّ الخبر إلاّ الله.

[**شهادة ممتحناً إخلاصها، معتقداً مصاصها**] مصدر، وصف بوصفين جرياً على غير رواله. والممتحن المختبر، أي: مختبر نفسه في إخلاص هذه الشهادة وعراتها عن شبهة الباطل والشرك الخفيّ. ومصاص الشيء: خالصه.

[**نتمسّك بها أبداً ما أبقانا**] أي: مدّة بقائنا في دار الدنيا.

وندّخرها لأهاويل ما يلقانا فإنّها عزيمة الإيمان وفاتحة الإحسان ومرضاة الرحمن وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله

[**وندّخرها لأهاويل ما يلقانا**] من أُمور الآخرة وشدائدها، والأهاويل: الأُمور المخوفة، ثمّ علّل عليه السلام وجوب التمسّك بهذه الشهادة بأوصاف أربعة أشار إليها بقوله:

[**فإنّها عزيمة الإيمان**] أي: عقيدته المطلوبة للّه من خلقه، وماعداها نوابع ومتمّمات ومعينات على الوقوف على سرّها والوصول إلى إخلاصها.

[**وفاتحة الإحسان**] إذ بها يستعدّ لإحسان اللّه في الدارين، ورضاه في النشأتين، وهي أوّل كلمة افتتحت بها الشريعة، وكما أنّها أوّل مطلوب للّه تعالى من خلقه في فطرهم الأصليّة، وعلى ألسنة رسله، فهي أيضاً غايتهم الّتي ينالون بها السهادة الباقية.

[**ومرضاة الرحمن**] أي: محلّ رضوانه، والسبب المستنزل لتمام رحمته ومزيد نعمته.

وفي النبويّ: أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا لاإله إلاّ الله، أي: محلّ دحره وهو طرده وإبعاده، وذلك لأنّ غاية دعوة الشيطان من الإنسان الشرك الظاهر أو الخفي، وكلمة الإخلاص تنفيه بأقسامه وتبعد الشيطان عن مراده.

[**وأشهد أنّ محمّداً**] صلى الله عليه وآله [**عبده ورسوله**] قرت بكلمة التوحيد النبويّ:

أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور والنور الساطع والضياء اللامع والأمر الصادع

من قال أشهد أن لاإله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله فجرى بها لسانه واطمأنّ بها قلبه حرمت النار عليه، ولأنّه لايحصل الإخلاص بكلمة التوحيد إلّا بسلوك مراتبها ولايحصل إلّا بمعرفة كيفيّة السلوك، وذلك إنّما يحصل ببيان الرسل وإرشادهم، فالشهادة والإقرار بصدق المبلغ أجلّ كلمة بعد كلمة الإخلاص.

[أرسله بالدين المشهور] الّذي ظهر على الأديان كلّها، وأشرق نوره في العوالم جلّها.

[والعلم المأثور] إشارة إلى كونه صلى الله عليه وآله هادياً من الضلالة، منقذاً من الجهالة، ومأثوريّته إمّا لكونه مقدّماً على سائر الأديان، كما يقدّم العلم ويهتدي به قوم بعد قوم، أو إلى قله من قرن إلى قرن.

[والكتاب المسطور] وهو القرآن المسطور حقاقه في ألواح النفوس أو في اللّوح المحفوظ، أو الاعمّ من ذلك.

[والنور الساطع والضياء اللامع] الّذي به يهتدون وبنوره يستضيؤن ويخرجون من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة.

[والأمر الصادع] إشارة إلى قهره بأوامر اللّه وردعه عن معاصي اللّه، حتّى شقّ بالأمر الإلهي وجه الباطل، وصدع ما كان ملتئماً من الفساد العاطل، كما قال تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾.

إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً للمثلات، والناس في فتن، انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين،

[**إزاحة للشبهات**] الباطلة عن قلوب الخلق، ودفع شواغلهم في الدنيا، وهي أهمّ وجوه مقاصد البعثة.

[**واحتجاجاً بالبيّنات**] من الحجج الواضحة والبراهين اللائحة، كما قال: ﴿وجادلهم بالّتي هي أحسن﴾.

[**وتحذيراً بالآيات**] النازلة المنذرة بالعصاة البغاة حتّى يرتدعوا عمّا هم عليه من التكذيب والعناد والفساد والإفساد.

[**وتخويفاً للمثلات**] بفتح الميم وضمّ الثاء: العقوبات، جمع مثلة، إشارة إلى قول تعالى: ﴿ويستعجلونك بالسيّئة قبل الحسنة، وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ والمراد تحذيرهم بما نزل بنظائرهم وأمثالهم من المكذّبين من أنواع العذاب والنكال. قال تعالى: ﴿أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ وهذا الإنذار سوى الحجج والخطابات الشرعيّة.

[**والناس في فتن**] الواو للحال، والعامل أرسله، والمراد فتن الناس في مذاهبهم وآرائهم حين بعثته، كما مرّ. أي: أرسله والحان أنّ الناس في فتن.

[**انجذم**] أي: انقطع [**فيها حبل الدين وتزعزعت**] أي: اضطربت ولم تستقم [**سواري اليقين**] جمع سارية، وهي: الدعامة يدعم بها السقف،

واختلف البخر، وتشتّت الأمر، وضاق المخرج

إشارة إلى أنّ الناس حين البعثة كانوا قد تركوا مراسم الشريعة، وارتكبوا الطرق الباطلة، فانقطاع حبل الدين إشارة إلى انحراف الخلق عن سواء السبيل، وعدم تمسّكهم بأوامر اللّه سبحانه حال وقوع تلك الفتن.

واستعار لفظ الحبل هنا كما في قوله: «تمسّكوا بحبل اللّه جميعاً» لقانون الشريعة المطلوب منها لزومه والسواري لقواعد الدين وأركانه المأمور بتشييدها، كالجهاد الّذي هو أقوى مطالبه من الناس في ذلك الزمان، ويكون المراد بتزعزعها عدم استقامتها واستقرار الناس عليها مجازاً، واستعيرت السواري لأهل الدين الّذي يقوم ورجاله العاملين به الّذين لم تأخذهم في اللّه لومة لائم وتزعزعها موت أُولئك أو خوفهم من الأعداء.

وقوله: [**واختلف البخر**] أي: الأصل، ومثله البخار إشارة إلى اختلاف الأصل الّذي كان بجمع الخلق والفطرة الّتي فطر الناس عليها، فإنّها كانت متّفقة بوجود الرسول صلى الله عليه وآله، فاختلف بعده ﴿وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ ويحتمل أن يراد بالبخر الحسب، والحسب الدين أي: اختلف الدين.

[**وتشتّت الأمر**] إشارة إلى تفرّق كلمة المسلمين وغطت على عيونهم ظلمات الشبهات.

[**وضاق المخرج**] منها عليهم، وعمى المصدر، أي: مصدرهم عنها، أي: عموا عن المصدر، فأسند إلى المفعول مجازاً. والعمى هنا هو المشار إليه بقوله: ﴿فإنّها لاتعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب الّتي في الصدور﴾ وهو

فالهدى خامل والعمى شامل عصي الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان فانهارت دعائمه وتنكّرت معالمه

استعارة حسنة. أو العمى الحقيقي عدم ملكة البصر. ووجه المشابهة أنّ الأعمى كما لايهتدي لمقاصده في المحسوسة بالبصر لعدمه، كذلك أعمى البصيرة لايهتدي لمقاصده المعقولة.

[**فالهدى خامل**] إشارة إلى عدم ظهوره بينهم حال عماهم عن مصدرهم من ضلالهم إذا كان صونة ساقطاً بينهم غير موجود. والفاء لعطف الجملة الإسميّة على الفعليّة.

[**والعمى شامل**] إشارة إلى اشتراكهم في عدم رؤيتهم لسبيل الحقّ الّذي به يخرجون من شبهات الباطل وظلماته.

وقوله: [**عصي الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان**] إشارة إلى ماهم فيه جور عن الحقّ ونصرة للباطل الّذي هو مراد الشيطان، فبالحريّ أن يكون نصرة للشيطان وعصياناً للرحمان، ومن نصر الشيطان بالذبّ عن الباطل فقد خذل الإيمان.

[**فانهارت**] أي: سقطت [**دعائمه**] إذ بخذلان الإيمان لاتبقى له دعامة يقوم بها.

[**وتنكّرت معالمه**] وأشار بالدعائم والمعالم إلى دعاة الحق وحملة الإيمان وبانهيارهم إلى عدمهم أو عدم قبول قولهم وبتنكّر المعالم إلى عدم معرفتهم في الخلق لقلّتهم.

ويمكن أن يراد بالدعائم قواعد الدين كالجهاد ونحوه، وبانهيارها عدم

ودرست سبله وعفت شركه أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله فيهم سارت أعلامه وقام لوائه في فتن درستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها

القيام بها وبتنكّر المعالم انمحائه من القلوب الّتي هي معالم الدين ومحاله.

[**ودرست سبله**] أي: طرقه [**وعفت شركه**] أي: طرائقه جمع شراك، أو جمع شركة بفتح الشين والراء، وهي معظم الطريق. وأراد بها أدلّة الدين وبعفائها عدم الأثر بها لعدم سالكها، فلم يبق للدين أثر يعرف به.

[**أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله**] إشارة إلى مايجرّهم إليه من مناهي اللّه سبحانه فيتّبعونه [**فيهم سارت أعلامه وقام لوائه**] أعلام الشيطان ولوائه، إشارة إلى المقارة إليه والدعاة إلى باطله المقتدى بهم أهل الضلال، أو صور الباطل الّتي تصوّرت في أذهان الخلق وصارت غايات لهم، فانقادوا لها واتّبعوها، فهي كالأعلام والألوية في الحروب وغيرها.

[**في فتن**] متعلّق بقوله: سارت أعلامه، أو بمقدّر يكون خبراً ثانياً للناس، أي: والناس في فتن [**درستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها**] كرّر الفتن ثانياً بزيادة أوصاف، فبالغ عليه السلام في تشبيهها بأنواع الحيوان، واستعار لها اخفافاً وهي الّتي للإبل وأظلافاً وهي الّتي للبقر والغنم، وسنابك وهي الحوافر الّتي للخيل والبغال والحمير، وجعل لها دوساً وعلماً وقياماً على الحوافر.

ويحتمل أن يكون هناك إضمار أي: داستهم بأخفاف إبلها ووطئتهم بأظلاف بقرها وقامت على سنابك خيلها، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه

فهم فيها تائهون، حائرون، جاهلون، مفتونون في خير دار وشرّ، جيان نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرم،

مقامه، وحينئذ يكون التجوّز في نسبة الوطىء والدوس والقيام إليها فقط، وهو المجاز في الإسناد.

[**فهم فيها تائهون**] ضالّون عن قصدهم في ظلمات الفتن.

[**حائرون**] في أنّ الحقّ في أيّ جهة حتّى آل بهم ذلك إلى الترديد بين عليّ ومعاوية.

[**جاهلون**] غير عالمين بالحقّ، بل اعتقدوا الباطل لشبهة التحكيم ودم عثمان ونحو ذلك، ممّا هو جهل مركّب.

[**مفتونون**] إشارة إلى فتنة غيرهم لهم وإضلالهم إيّاهم عن الحقّ وهو الشيطان وأتباعه.

[**في خير دار وشرّ جيان**] يحتمل كون الظرف خبراً ثالثاً للناس، وان يتعلّق بقوله تائهون ومابعده من الأفعال.

قيل: أراد بخير دار الشام، لأنّها الأرض المقدّسة، وبشرّ جيران أهلها القاسطون.

[**نومهم سهود وكحلهم دموع**] أي: انّهم ينامون اهتماماً بأُمورهم وإعداد أنفسهم للقتال.

[**بأرض عالمها ملجم**] يريد نفسه، والناصرين للحقّ [**وجاهلها مكرم**] يريد معاوية. وقيل: أُريد بخير دار العراق، وشرّ جيران أصحابه المستصرخ

ومنها: يعني آل النبيّ صلى الله عليه وآله هم موضع سرّه ولجأ أمره

بهم لتخاذلهم عن الحقّ، ونصرة الدين، ونومهم سهود، خوفاً من الحرب وصرة في التدبير، وكحلهم دموع، أي: يكون قتلاهم أيضاً.

وقيل: نفاقاً، لأنّ من تمّ نفاقه ملك عينيه، .

وقيل: أراد بالدار دار الدنيا، لأنّها دار العمل وأكثر الخلق بها أشرار جهّال. والدنيا دار ناضلة لمن قام فيها بأوامر اللّه وهي مزرعة الآخرة، وكون أهلها شرّ جيرا إمّا شرّ متجاورين كما سبق، أو شرّ جيران لمن التجأ إليهم وجاورهم للإنتصار بهم على أُمور الدين لعدم نصرتهم.

وظاهر لفظ الناس العموم لأصحابه عليه السلام وأصحاب معاوية. وقد بالغ عليه السلام في وصفهم بقلّة النوم لخوف الحرب وهجوم بعضهم على بعض، وشدّة اهتمامهم بأمر القتال وحيرتهم في تيه الباطل حتّى ألحق قلّة نومهم بالسهد لاستلزامه عدم النوم، فاستعار له لفظه وصيّره هو هو.

وقوله: وكحلهم دموع مبالغة في تشبيه دموعهم بالكحل، أو جعله هو هو، ووجه المشابهة انّ الدموع لكبرائه منهم وملازمته أجفانهم أشبه في ذلك الأمر الكثير المعتاد لعيونهم وهو الكحل.

وقوله: بأرض عالمها ملجم الخ، أي: الناس في خير دار هي الدنيا، وهم منها بأرض من حالها أنّ عالمها ملجم بلجام الذلّ من أهلها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاهلها مكرم لموافقته إيّاهم على باطلهم.

[ومنها: يعني] به **[آل النبيّ صلى الله عليه وآله هم موضع سرّه ولجأ أمره]** اللجأ: الملجأ، مايلجىء منه كالوزر مايعتصم به.

وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه،

[**وعيبة علمه، وموئل حكمه**] أي: مرجعه من آل يؤل إلى كذا إذا رجع وانتهى إليه.

[**وكهوف كتبه وجبال دينه**] الضمائر راجعة إلى اللّه تعالى، ويحتمل عودها إلى الرسولﷺ.

وأشار بكونهم موضع سرّه إلى استعداد نفوسهم لأسرار اللّه وحكمته، إذ الموضع الحقيقي للشيء هو ماستعدّ له وقبله، وبكونهم ملجأ أمره إلى أنّهم الناصرون له، فإنّهم القائلون بأوامر اللّه الذابّون عن دين اللّه، فإليهم يلتجى، وكونهم عيبة علمه مرادف لكونهم موضع سرّه، والعيبة استعارة لنفوسهم الشريفة.

ووجه الشبه: انّ العيبة من شأنها حفظ مايورع فيها وصيانته عن التلف والإدناس، وأذهانهم الطاهرة حافظة للعلم عن عدمه وصيانته له من غير أهله.

وأشار بكونهم موئل حكمه إلى كونهم مرجعاً لحكمته إذا ضلّت عن أذهان غيرهم، فمنهم تطلب ومنهم تكتب وبكونهم كهوف إلى أنّهم أهل حفظها ودراستها وتفسيرها، وعندهم علمها وتأويلها.

والكتب إشارة إلى القرآن ونحوه من كتب اللّه، كما قالﷺ: لو كسرت لي الوسادة ثمّ جلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، واللّه ما من آية نزلت في برّ أو بحر أو سهل أو جبل أو سماء أو

لهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه ومنها يعني قوماً آخرين زرعوا الفجور وسقوه الغرور

أرض أو ليل أو نهار إلّا وأنا أعلم فيمن نزلت وفي أيّ وقت نزلت.

واستعارة لفظ الكهف قريب من استعارة لفظ العيبة.

وأشار بكونهم جبال دينه إلى أنّ دين اللّه سبحانه بهم يعتصم من وصمات الشياطين وتبديلهم وتحريفهم كما يعتصم الخائف بالجبل، وأنّ الدين ثابت بوجودهم، كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال، ولولا الجبال لمارت بأهلها.

[**لهم أقام انحناء ظهره**] الضمير في أقام اللّه تعالى، لأنّه هو الّذي جعلهم أعواناً له وأنصاراً وأعضاداً لدينه، يشدّون أزره ويقوّون ظهره ويؤيّدون أمره، وانحناء الظهر كناية عن ضعفه في بدو الإسلام.

[**وأذهب ارتعاد فرائصه**] جمع فريصة، وهي: اللّحمة بين الجنب والكتف، لاتزال تعد من الدابّة. والضمير في ظهره وفرائصه للدين، أي إنّ اللّه أزال عنه بمعونتهم خوفه الّذي كان يتوقّعه من المشركين على حوزة الدين، وهو كناية عن الشيء ببعض لوازمه إذا كان ارتعاد الفرائص من لوازم شدّة الخوف.

[**ومنها يعني قوماً آخرين**] قيل: أراد معاوية وأهل الشام، وقيل: أصحاب الجمل، وقيل: الخوارج.

[**زرعوا الفجور وسقوه الغرور**] جعل ما فعلوه من القبيح بمنزلة زرع، ثمّ زرعوه، ثمّ سقوه. وفيهما استعارة لطيفة، فإنّ الفجور الخروج عن ملكة

وحصدوا الثبور لايقاس بآل محمّد ﷺ من هذه الأمّة أحد، ولايسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً هم أساس الدين

العفّة والزهد وتجاوز طرف الإفراط. والزرع إلقاء الحبّ في الأرض، فاستعار عليه السلام لفظ الزرع لبذر الفجور في أراضي قلوبهم، لأنّ انتشاره عنهم ونموّه فيهم يشبه نموّ الزرع وانتشاره في الأرض، ولمّا كان غرورهم وغفلتهم عن الطريق المستقيم بسبب عدولهم عنها وتجاوزهم إلى طرف الإفراط ومهاوي الهلاك وهو مادّة تماديهم في غيّهم وزيادة خوفهم وعدولهم عن سواء السبيل، أشبه الماء الّذي هو سبب حياة الزرع ونموّه ومادّة زدياته، ولذا حسن استعاة لفظ السقي المختصّ بالماء، ثمّ لمّا كانت غاية ذلك الفجور وهلاكهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بعذابها أشبهت تلك الغاية الثمرة، فقال:

[وحصدوا الثبور] فاستعار لفظ الحصاد ونسب إليه، وقد اشتملت هذه الألفاظ مع حسن الإستعارة على الترصيع.

ثمّ عاد عليه السلام إلى الثناء على آل محمّد ﷺ فقال:

[لايقاس بآل محمّد ﷺ من هذه الأمّة أحد، ولايسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً] إذ لامناسبة بينهم وبين غيرهم في الفضل. ثمّ أشار عليه السلام إلى جملة من أسباب فضيلتهم فقال:

[هم أساس الدين] أي: أسباب لنعمة الدين على الخلق وإرشادهم إليه، والمنعم أفضل من جهة ماهو منعم خصوصاً بمثل هذه النعمة الّتي لايمك جزائها ولأنّهم أساس وأصل للدين.

وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، وبهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة، الآن رجع الحقّ إلى أهله، ونقل إلى منتقله.

[**وعماد اليقين**] لأنّهم أسباب إزالة مايضعفه من الشبهات، فبهم يقوم الدين كما يقوم السقف بالعماد، ولأنّهم على الصراط السويّ والمنهج الحقّ البهيّ.

[**إليهم يفيء**] يرجع [**الغالي**] الّذي غلا فيهم وتجاوز حدود البشريّة.

[**وبهم يلحق التالي**] من فرط منهم وتخلّف عنهم.

[**وبهم خصائص حقّ الولاية**] من العلوم ومكارم الأخلاق والآيات والكرامات.

[**وفيهم الوصيّة والوراثة**] لايزاحمهم في ذلك أحد [**الآن**] وهو زمان استخلافه عليه السلام.

[**رجع الحقّ إلى أهله ونقل إلى منتقله**] ويدلّ على أنّ الحقّ في تلك المدّة لم يكن في أهله.

....

ومن خطبة له عليه السلام
المعروفة بالشقشقيّة

وتعرف بالمقمّصة أيضاً. ونسبتها إليه عليه السلام كادت أن تكون متواترة، وإنكار جملة من العامّة أن تكون من كلامه عليه السلام بناء على أنّه لم يصدر منه شكاية في هذا الأمر أصلاً عناد ولجاج، فإنّ المنافسة بين الصحابة سيّما في أمر الخلافة أمر معلوم بالضرورة، وتشاجرهم في السقيفة، وتخلّف عليّ عليه السلام ووجوه بني هاشم عن البيعة أمر ظاهر، لايدفعه إلاّ جاهل أو معاند. ونسبتها إلى تأليف السيّد الرضي أظهر فساداً، إذ نقلها من يوثق به من العلماء والأدباء قبل مولد الرضيّ بمدّة مديدة.

وحكى ابن أبي الحديد عن شيخه مصدق، عن ابن الخشاب أنّه قال: واللّه إنّي لأعلم أنّها من كلامه عليه السلام، كما أعلم أنّك مصدق. قال: فقلت له: إنّ كثيراً من لناس يقولون إنّها من كلام الرضي(ره)؟ فقال لي: إنّ للرضي ولغير الرضي هذا النفس وهذا الأسلوب قد وقفنا على رسائل الرضي وعرفنا طريقته وفنّه في الكلام المنثور، ومايقع مع هذا الكلام في خلّ ولا خمر.

ثمّ قال: واللّه لقد وقفتُ على هذه الخطبة في كتب صنّفت قبل أن يُخلق الرضي بمائتي سنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها وأعرف خطوط من هي من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب والد الرضيّ.

أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة وإنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى

قال ابن أبي الحديد: وقد وجدنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبوالقاسم البلخي إمام البغداديّين من المعتزلة، وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضي بمدّة طويلة. ووجدتُ أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبه أحد متكلّمي الإماميّة، وكان من تلامذة أبي القسم البلخي، ومات في ذلك العصر، قبل أن يكون الرضي موجوداً.

وكيف كان، فأنوار هذه الخطبة الساطعة تنادي بأفصح لسان أنّها من كلامه عليه السلام الّذي هو تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

[**أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة**] الضمير راجع للخلافة، لكونها معلومة، كما في قوله تعالى: ﴿حتّى توارت بالحجاب﴾ وتقمّصها أي: جعلها كالقميص مشتملة عليه متكلّفاً، كالّذي يلبس لباس غيره. وابن أبي قحافة أبوبكر واسمه عبدالله، واسم أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب. وأُمّه: ابنة عمّ أبيه، وهي امّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد.

[**وإنّه**] أي: والحال إنّه [**ليعلم أنّ محلّي منها**] أي: من الخلافة [**محلّ القطب من الرحى**] وقطب الرحى مسمارها الّذي عليه تدور، وكذا هو الناظم لأُمور الإسلام والمسلمين على وفق الحكمة لاتدور رحى العالم إلاّ به، وهو تشبيه للمعقول بالمعقول، لأنّ محلّ القطب نظام أحوال الرحى، وتشبيه نفسه بالقطب تشبيه للمحسوس بالمحسوس، وتشبيه الخلافة بالرحى

ينحدر عنّي السيل ولايرقى إليّ الطير فسدلت دونها ثوباً وطويتُ عنها كشحاً

تشبيه المعقول بالمحسوس، وحيث كانت حاجة الرحى إلى القطب ضروريّة لايظهر نفعها إلّا به، فهم من تشبيه محلّه بمحلّه أنّه لايقوم مقامه أحد في أمر الخلافة والإمامة، كما لايقوم غير القطب مقامه في محلّه. ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[**ينحدر عنّي السيل ولايرقى إليّ الطير**] فاستعار عليه السلام لنفسه الشريفة وصفين من أوصاف الجبل والأمكنة المرتفعة:

أحدهما: انحدار السيل عنه، كناية عن علوّه وشرفه مع فيضان العلوم الحقيقيّة والمعارف الربّانيّة منه، واستعار لذلك لفظ السيل الّذي منه حياة كلّ شيء.

وثانيهما: إنّه لايرقى إليه الطير، كناية عن غاية أُخرى من العلوّ، إذ ليس كلّ مكان علا بحيث ينحدر عنه السيل، لأنّه ينحدر عن المراينة والهضبة الّتي قد يرقى الطير إليها، فجعل نفسه عليه السلام بحيث لايرقى إليه الطير، وهذا أعظم في الرفعة والعلوّ ممّا قبله.

[**فسدلت دونها**] أي: أرخيت دون الخلافة [**ثوباً**] كناية عن احتجابه عليه السلام عن طلبها، والمبالغة فيها بحجاب الإعراض عنها، واستعارة الثوب للحجاب استعارة المحسوس للمعقول. وكذا قوله:

[**وطويتُ عنها كشحاً**] كناية عن امتناعه منها، كالمأكول المعاف الّذي يطوي البطن دونه. والكشح بالفتح: الخاصرة. وقيل: أراد إنّه عليه السلام التت

وطفقتُ أرتأي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير

عنها كما يفعل المعرض عمّن إلى جانبه، كما قال: طوى كشحه عنّي وأعرض جانباً.

[وطفقتُ أرتأي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء] يريد أنّي جعلتُ أُجيل الفكر في تدبير أمر الخلافة، وأُردّده بين طرفي نقيض، إمّا أن أصول بيد جذّاء، أو أترك، وفي كلّ منهما خطر عظيم لما في لك من تعزير النفس وتشويش نظام المسلمين.

والجذّاء: بالدال والذال أي: مقطوعة، كناية عن عدم الناصر والمعين. ووجه المشابهة: إنّ قطع اليد لمّا كان مستلزماً لعدم القدرة على التصرّ بها والصولة، وعدم الناصر والمعين مستلزم لذلك، حسنت الإستعارة.

وأمّا ترك ذلك فيه الصبر على مشاهدة التباس الأمور واختلاط الحقّ بالباطل. واستعار لذلك الإلتباس لفظ الطخية وأصلها قطعة من الغيم والسحاب، استعارة للظلمة من استعارة المحسوس للمعقول. ووجه المشابهة: إنّ الظلمة كما لايهتدى فيها إلى المطلوب فكذا اختلاط الأُمور لايهتدى فيها لتميز الحقّ والسير إلى اللّه.

ووصفها بالعمياء استعارة أيضاً، فإنّ الأعمى لمّا لم يكن ليهتدي لمطالبه، فكذا هذه الظلمة لايهتدي فيها للحقّ.

ثمّ كنّى عن شدّة الإختلاط وطول مدّته بأنّه:

[يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير] يمكن حمله على الحقيقة

ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقى ربّه فرأيتُ أنّ الصبر على هاتا أحجى فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً

بالحمل على طول مدّة الولاة قبله، وعلى المجاز والإستعارة، كما مرّ. أي: الكبير من الناس يكاد يهرم لصعوبتها، والصغير يشيب من أهوالها.

[**ويكدح فيها مؤمن**] أي: يسعى ويكدّ مع مشقّة [**حتّى يلقى ربّه**] قال تعالى: ﴿إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾. وهو كناية عن شدّة سعيه واجتهاده في لزوم الحقّ والظفر به.

ثمّ أشار عليه السلام إلى ترجيح القسم الثاني وهو الصبر فقال:

[**فرأيتُ أنّ الصبر على هاتا**] أي هذه، والهاء للتنبيه، وذا للإشارة [**أحجى**] أي: أليق بالحجى، وهو العقل، أو بأهل الحجى لما في المنافرة من انشعاب عصى المسلمين مع غضاضة الإسلام وكثرة أعدائه والمشركون في غاية القوّة في جميع الأقطار.

[**فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجى**] الواو للحال، والجملتان حاليّتان. والقذى: مايقع في العين فيؤذيها. والشجى: مايعترض في الحلق من عظم ونحوه، وهما كنايتان عن الغمّ ومرارة الصبر. أي: صبرتُ على مضض ورمض، كما يصبر الأرمد، والّذي يعض بأمر فهو يكابد الخنق.

[**أرى تراثي**] قيل: هو ما خلّفه رسول اللّه صلى الله عليه وآله لابنته عليها السلام كفدك، لأنّ مال الزوجة في حكم مال الرجل.

[**نهباً**] إشارة إلى منع الخلفاء منه بالخبر المفترى: «نحن معاشر الأنبياء لانورّث ماتركناه صدقة».

حتّى مضى الأوّل بسبيله أدلى بها إلى ابن الخطّاب بعده ثمّ تمثّل بقول الأعشى

وقيل: أراد عليه السلام منصب الخلافة، ويصدق عليه الإرث كما في قوله: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ ومنصب النبوّة. قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ولا يرقى إليّ الطير فطفقتُ أرتأي بين كذا وكذا، فرأيتُ إنّ الصبر على هاتي أحجى فسدلتُ دونها ثوباً وطويتُ عنها كشحاً، وصبرتُ وفي العين قذى الخ، إذ لا يجوز أن يسدل دونها ثوباً، ويطوي عنها كشحاً، ثمّ يطفق يرتأي بين أن ينابذهم أو يصبر، والتقديم والتأخير طريق ادرحت في لغة العرب. قال سبحانه: ﴿الّذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً﴾ أي: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً.

[**حتّى مضى الأوّل**] أبوبكر [**بسبيله**] طريقه طريق الآخرة، وهو الموت [**أدلى بها إلى ابن الخطّاب بعده**] اقتباس من قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكّام﴾ أي: تدفعوها إليهم رشوة، وأصله من أدلت الدلو في البئر أرسلته، كناية عن نصّ أبي بكر عليه بالخلافة.

وفي بعض النسخ: لفلان، والمراد به عمر بن الخطّاب بن نفيل بن عبدالعزّى بن رياح بن عبدالله بن قرط بن دراج بن عديّ بن كعب بن لؤي بن غالب. وأُمّ عمر: خثيمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم.

[**ثمّ تمثّل بقول الأعشى**] واسمه ميمون بن جندل من قصيدة يمدح بها

شتّان ما يومي على كورها ويوم حيّان أخي جابر
فيا عجباً

علقمه أوّلها:

علقم ما أنت من عامر الناقص الأوتار والواتر

[شتّان ما يومي على كورها ويوم حيّان أخي جابر]

وحيّان وجابر ابنا السمين بن عمرو من بني حنيفة، وكان حيّان صاحب الحصن باليمامة، وكان سيّداً مطاعاً يصله كسرى في كلّ سنة، وكان في نعمة ورفاهيّة مصوناً من وعثاء السفر، إذ لم يكن يسافر أبداً، وكان الأعشى ينادمه يقول: شتّان، أي: ما أقعد بين يومي يومي هذا على كور الناقة في داب ونصب في الهواجر وبين يومي منادماً حيّان أخي جابر، وأنا في أرغد نعمة وأخفض عيش. أو يقال: إنّ حيّان عاتب الأعشى بأنّك نسبتني إلى أخي وهو أصغر منّي سنّاً، فاعتذر بأنّ القافية جرّته إلى ذلك، فلم يقبل عذره، واليوم الأوّل رفع بأنّه فاعل اسم الفعل، والثاني عطف عليه، والغرض تمثيل حاله عليه السلام بحال القائل. والفرق بين أيّامه مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله في العزّة وقرب المنزلة والوقوف على العلوم الإلهيّة ومكارم الأخلاق السنيّة، وأيّامه هذه الّذي خذله فيها القريب والبعيد، وما حصل له مع القوم من المتاعب والمشاقّ ومقاسات المحن والشدائد.

وقيل: أراد عليه السلام الفرق بينه وبين القوم في ظفرهم بمطلوبهم وفوزهم به وفوات مطلوبه هو وحصول المشقّة والحرمان.

[فيا عجباً] أصلهنّ فياعجبي، كـ: ياغلامي، ثمّ قلبت الياء ألفاً، فإذا

بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها الآخر بعد وفاته لشدّ ما تشطّرا ذراعيها

وقف وقف على هل السكت يا عجباه كـ: ياغلاماه، أي: ياعجبي احضر فهذا أوانك.

[**بينا هو**] الضمير راجع إلى أبي بكر [**يستقيلها**] أي: الخلافة [**في حياته**] إشارة إلى ماروي عنه من قوله على المنبر: أقيلوني أقيلوني فلستُ بخيركم وعليّ فيكم.

[**إذ عقدها الآخر**] وهو عمر [**بعد وفاته**] حيث نصّ عليه بالخلافة، ووجه إنّ طلبه الإقالة لزهده فيها وثقلها وكثرة شرائطها وشدّة مراعاة أحوال الخلق مع اختلاف طباعهم وأهوائهم على قانون واحد، وخوفه من العثرة المردية في موارد الهلاك، فكيف يتحمّل مضارّها وآثامها وأخطارها بعد الممات، مضافاً إلى الحياة.

وحكى ابن أبي الحديد عن بعض الشعراء قوله:

حملوها يوم السقيفة أوزاراً تخفّ الجبال وهي ثقال

ثمّ جاءوا من بعدها يستقيلون هيهات تلك عثرة لاتقال

[**لشدّ ما تشطّرا ذراعيها**] شدّ أصله شدد أي: صار شديداً جدّاً، كحبّ في حبّذا، واللام للتأكيد، وما مع الفعل بعدها في تقدير المصدر وهو فاعل شدّ، والجملة من تمام التعجّب، وقد استعارﷺ لفظ الضرع هنا للخلافة تشبيهاً بالناقة ووجه الشبه المشاركة في الإنتفاع منهما، والمقصود وصف

فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسّها ويكثر العثار فيها والإعتذار منها

اقتسامهما لهذا الأمر المشبه لاقتسام الحالبين أخلاف الناقة، وللناقة أربعة أخلاف، خلفان قادمان، وخلفان آخران، وكلّ اثنين منهما شطر، وتشطّرا ضرعيها اقتسما فائدتها ونفعها، والضمير للخلافة، وسمّي القادمين معاً ضرعاً، والآخران معاً ضرعاً لتجاورهما وكونهما لايحلبان إلاّ معاً كشيء واحد.

[**فصيّرها في حوزة خشناء**] أي: في جهة صعبة المرام، وكنّى بالحوزة عن طباع عمر، فإنّها كانت توصف بالجفاوة [**يغلظ كلمها**] والكلم الجرح، كناية عن غلظ المواجهة بالكلام والجرح به، كما قيل:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

[**ويخشن مسّها**] كناية عن خشونة طباعه المانعة من ميل الطباع إليه، المستلزمة للأذى، كما يستلزم مسّ الأجسام الخشنة.

[**ويكثر العثار فيها والإعتذار منها**] أي: ليست هذه الجهة طريقاً سهل، بل هي كطريق وعر كثير الحجارة، لايزال الماشي فيه عاثراً. وكنّى عليه السلام بذلك عمّا كان يتسرّع إليه عمر من الأحكام، ثمّ يعاود النظر فيها فيجدها غير صائبة، أو ينبّه على الخطأ فيعتذر.

وقد حكى عنه الجمهور كثيراً من ذلك.

قال ابن أبي الحديد: كان عمر يعتني كثيراً بالحكم، ثمّ ينقضه ويعتني

....

بضدّه وخلافه، وقد أفتى في الجدّ مع الإخوة بقضايا كثيرة مختلفة، ثمّ خاف من الحكم في هذه المسألة فقال: من أراد أن يتقحّم جراثيم جهنّم فليقل في الجد برأيه.

وقال مرّة: لايبلغني انّ امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبيّ صلى الله عليه وآله إلاّ ارتجعت ذلك منها. فقالت له امرأة: ماجعل اللّه لك ذلك، إنّه تعالى قال: ﴿وإن آتيتم إحداهنّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾. فقال: كلّ الناس أفقه من عمر حتّى ربّات الحجال، ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت فأضلّت إمامكم فنضلته.

ومرّ يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن فاستسقاه فخدج له ماء بعسل، فلم يشربه فقال: إنّ اللّه تعالى قال: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ فقال له الفتى: ايهاً ياأميرالمؤمنين! إنّها ليست لك ولا لأحد من أهل هذه القبلة، اقرأ ماقبلها: ﴿يوم يعرض الّذين كفروا على النار أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر.

وقيل: إنّه كان يعسّ بالليل فسمع صوت رجل وامرأة في بيت، فارتاب من سور الحائط، فوجد امرأة ورجلاً وعندهما زقّ خمر، فقال: ياعدوّ اللّه أكنت ترى أنّ اللّه يسترك وأنت على معصية؟! قال: ياأميرالمؤمنين إن كنتُ أخطأتُ في واحدة فقد أخطأت في ثلاث، قال اللّه تعالى: ﴿ولاتجسّسوا﴾ وقد تجسّست، وقال: ﴿وآتوا البيوت من أبوابها﴾ وقد تسوّرت، وقال: ﴿وإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا﴾ وماسلّمت.

فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحّم

وقال عمر: متعتان كانتا على عهد رسول اللّهﷺ وأنا محرّمهما، ومعاقب عليهما: متعة النساء ومتعة الحجّ.

[**فصاحبها**] قيل: الضمير للحوزة، أي: المصاحب لتلك المطيع الغليظة الخشناء [**كراكب**] الناقة [**الصعبة**] وهي الّتي لم تركب ولم ترض [**إن أشنق لها**] راكبها الزمام، يقال: أشنق الرجل الزمام ناقته إذا كفّها بالزمام [**خرم**] أنفها.

[**وإن أسلس لها**] زمامها ولم يكفّها [**تقحّم**] في المهالك وألقته في مهواة أو ماء أو نار، ولم تقف حتّى ترديه فيهلك، فكذا المصاحب لتلك الأخلاق والمبتلي بصاحبها إن أكثر عليه إنكار مايتسرّع إليه أدّى ذلك إلى فساد الحال بينهما، وإن سكت عنه وتركه أدّى ذلك إلى الإخلال بالواجب وهو من موارد الهلكة.

وقيل: الضمير في صاحبها يعود إلى الخلافة، وصاحبها هو كلّ من تولّى أمرها، ووجه شبهه براكب الصعبة أنّ الخليفة يحتاج إلى مداراة الخلق وجذبهم عن طرفي الإفراط والتفريط إلى حان الوسط، فلا يشدّد عليهم في طلب الحقّ التشديد الموجب لعجزم وقصورهم وفساد الأمر بينه وبينهم، كمن أشنق الصعبة، ولا يهملهم فيتعدّوا الواجب ويهلك بهلاكهم كمن أسلس لها.

وقيل: أراد بصاحبها نفسهﷺ، لأنّه أيضاً بين خطرين: إمّا أن يبقى ساكتاً عن طلب الأمر فيقتحم بذلك في موارد الذلّ كما يتقحّم مسلس قياد

فمني الناس لعمر اللّه بخبط وشماس وتلوّن واعتراض

الصعبة، وإمّا أن يتشدّد في طلبه فيشقّ بذلك عصى الإسلام، كمن أشنق لها فخرم.

[**فمني الناس**] أي: ابتلوا [**لعمر اللّه**] قسم يؤكّد المطلوب [**بخبط وشماس**] وهو كثرة نفار الدابّة. [**وتلوّن**] أي: تبدلّ وتغيّر [**واعتراض**] وهو السير لا على خطّ مستقيم، كأنّه يسيّر عرضاً.

وهذا كلّه إشارة إلى ما ابتلوا به من اضطراب الرجل وحركاته الّتي كان عليها. فكنّى بالخبط منها وبالشماس ن جفاوة طباعه وخشونتها، وبالتلوّن والإعتراض انتقاله من حالة إلى أُخرى في أخلاقه، والكلّ استعارات.

ووجه المشابهة: إنّ خبط البعير وشماس الفرس واعتراضهما في الطريق حركات غير منظومة، فشبّه با ما لم يكن منظوماً من حركات الإنسان وأفعاله.

وقيل: أراد ماابتلوا ب الناس من تفرّق الكلمة واضطراب الأمر لذلك بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

قال ابن أبي الحديد: كان عمر صعباً، عظيم الهيبة، شديد التياسة، لايجاد أحداً، ولايراقب شريفاً، وكان أكابر الصحابة يتحامونه وينقادون من لقائه.

وقيل لابن عبّاس لمّا أظهر قوله في العول بعد موت عمر ولم يكن من قبل يظهره: هلاّ قلت هذا وعمر حيّ؟ قال: هبته، وكان أمرء مهيباً.

. . . .

واستدعى عمر امرأة ليسألها عن أمر وكانت حاملاً، فلشدّة هيبته ألقت مافي بطنها وأجهضت جنيناً ميّتاً، فاستفتى عمر أكابر الصحابة في ذلك، فقالوا: لاشيء عليك إنّما أنت مؤدّب. فقال عليه السلام: إن كانوا زابنوك فقد غشوك، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا، عليك غرة، يعني عتق رقبة، فرجع عمر والصحابة إلى قوله، وعمر هو الّذي شيّد بيعة أبي بكر وقمع المجاهدين فيها، فكسر سيف الزبير، ودفع في صدر المقداد، ووطىء في السقيفة سعدابن عبادة، وقال: اقتلوا سعداً، قتل اللّه سعداً، وخطم أنف الجبّار بن المنذر، وهو الّذي قال يوم السقيفة: أنا جذيتها المحكك، وعذيقها المرحب، وتوعّد من لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميّين وأخرجهم منها.

ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة.

إلى أن قال: ولمّا مات رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وشاع بين الناس موته طاف عمر على الناس قائلاً: انّه لم يمت ولكنّه غاب عنّا كما غاب موسى عن قومه، وليرجعنّ فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّه مات، فجعل لايمرّ بأحد يقول انه مات إلاّ ويخبطه ويتوعّده، حتّى جاء أبوبكر فقال: أيّها النّاس من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد ربّ محمّد فإنّه حيّ لايموت، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ قالوا: فواللّه لكأنّ الناس ماسمعوا هذه الآية حتّى تلاها أبوبكر.

وقال عمر: لمّا سمعته يتلوها هويت إلى الأرض وعلمتُ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قد مات.

فصبرت على طول المدّة وشدّة المحنة حتّى إذا مضى بسبيله

إلى أن قال: وكان في أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعبجهة ظاهرة، يحسب السامع لها أنّه أراد بها مالم يكن قد أراد.

فمنها الكلمة الّتي قالها في مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ومعاذ اللّه أن يقصد بها ظاهرها، ولكنّه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفّظ منها، وكان الأحسن أن يقول مغمور أو مغلوب بالمرض، وحاشاه أن يعني بها غير ذلك، ولجفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير.

ثمّ قال: وعلى نحو هذا يحمل كلامه في صلح الحديبيّة لمّا قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ألم تقل لنا ستدخلونها في ألفاظ تكره حكايتها حتّى شكاه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر، حتّى قال له أبوبكر: الزم بغرزه، فواللّه أنّه لرسول اللّه.

وعمر هو الّذي غلّظ على جبلة حتّى اضطرّه إلى مفارقة بلاد الإسلام كلّها، وعاد مرتدّاً داخلاً في دين النصرانيّة لأجل لطمة لطمها، انتهى ملخّصاً.

ثمّ إنّه عليه السلام ذكر صبره على ماصبر عليه مع صاحب هذه الأخلاق فقال:

[فصبرت على طول المدّة] الّتي تخلّف فيها، ووقع فيها ماوقع.

[وشدّة المحنة] بسبب فوات الحقّ، وعدم انتظام أحوال الدين، وأُمور الإسلام والمسلمين.

جعلها في جماعة زعم أنّي أحدهم

[حتّى إذا مضى] الخليفة الثاني [بسبيله] طريقه، طريق الآخرة، الّذي لابدّ لكلّ حيّ من سلوكه، وأضافه إليه لأنّ لكلّ إنسان طريقاً خاصّاً بحسب أعماله.

[جعلها] شورى [في جماعة زعم أنّي أحدهم].

روى ابن أبي الحديد وغيره من الجمهور: إنّ عمر لمّا طعنه أبولؤلؤ، وعلم أنّه ميّت وأراد أن يستخلف قال: إنّ رسول اللّهﷺ مات وهو راض عن هؤلاء الستّة من قريش: عليّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبداللّه بن عوف، وقد رأيتُ أن أجعلها شورى بينهم، ليختاروا لأنفسهم، ثمّ قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير منّي، يعني أبابكر، وإن ترك فقد ترك من هو خير منّي، يعني رسول اللّهﷺ، ثمّ دعاهم، فدخلوا عليه، فقال: أكلّكم يطمع في الخلافة بعدي؟ فوجموا، فقال لهم ثانية، فأجابه الزبير وقال: ماالّذي يبعدنا منها، ولّيتها أنت فقمت بها، ولسنا دونك في قريش، ولا في السابقة، ولا في القرابة، ثمّ قال عمر: أمّا أنت يازبير فوعقه لنفس مؤمن الرضا كافر الغضب يوماً إنسان ويوماً شيطان، فإن أفضت إليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب إماماً، وماكان اللّه ليجمع لك أمر هذه الأمّة، وأنت على هذه الصفة.

ثمّ اقبل على طلحة وكان مبغضاً له، منذ قال لأبي بكر يوم وفاته: ماقال في عمر: أمّا إنّي أعرفك منذ أُصيبت اصبعك يوم أُحد، ولقد مات رسول اللّهﷺ ساخطاً عليك للكلمة الّتي قلتها.

....

قال الجاحظ: لمّا أُنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممّن نقل قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: ماالّذي يغنيه حجابهنّ اليوم وسيموت غداً فننكحهنّ.

ولو قال لعمر قائل: أنت قلت إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عن الستّة، فكيف تقول الآن لطلحة إنّه مات ساخطاً عليك، لكان قد رماه بمناقضة، ولكن من الّذي كان يجسر على عمر أن يقول له مادون هذا.

قال: ثمّ أقبل على سعدبن أبي وقّاص، فقال: إنّما أنت صاحب مقنب من هذه المقانب، تقاتل به، وصاحب قبض وقوس وأسهم ومازهره والخلافة وأُمور الناس.

ثمّ أقبل على عبدالرحمن بن عوف فقال: أمّا أنت فلو وزن نصف ايمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به، ولكن لايصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، ومازهره وهذا الأمر.

ثمّ أقبل على عليّ عليه السلام فقال: للّه أنت لولا دعابة فيك، أما واللّه لئن ولّيتهم لتحملنّهم على الحقّ والمحجّة البيضاء.

ثمّ أقبل على عثمان فقال: كأنّي بك، قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك، فحملت بني أُميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس وأثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذوبان العرب فذبحوك على فراشك.

ثمّ دعى أباطلحة الأنصاري فقال: انظر إذا عدتم في حفرتي فكن في خمسين رجلاً من الانصار، حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر

. . . .

وتعجيله، واجمعهم في بيت وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه، وإن اتّفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقهما، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة الّتي فيها عبدالرحمن فارجع إلى مااتّفقت عليه، فإن أصرّت الثلاثة الأُخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيّام ولم يتّفقوا على أمر، فاضرب أعناق الستّة ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

فلمّا دفن عمر جمعهم أبوطلحة ووقفعلى باب البيت بالسيف في خمسين رجلاً من الأنصار، حاملي سيوفهم، ثمّ تكلّم القوم وتنازعوا، فأوّل ماعمل طلحة أنّه أشهدهم على نفسه أنّه وهب حقّه لعثمان، لعلمه إنّ الناس لايعدلون به عليّاً وعثمان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب عليّ عليه السلام.

فقال الزبير في معارضته: وأنا أُشهدكم أنّي قد وهبت حقّي من الشورى لعليّ.

فقال سعد: وأنا وهبتُ حقّي لابن عمّي عبدالرحمن.

فلمّا لم يبق إلاّ ثلاثة قال عبدالرحمن لعليّ وعثمان: أيّكما يخرج نفسه من الخلافة وتكون إليه الإختيار في الإثنين الشافتين، فلم يتكلّم منهما أحد.

فقال عبدالرحمن: أُشهدكم أنّي قد أخرجتُ نفسي من الخلافة على أن

. . . .

أختار أحدهما فأمسكا، فبدأ بعليّ عليه السلام فقال له: أُبايعك على كتاب اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين.

فقال عليّ عليه السلام: بل على كتاب اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله واجتهاد رأيي، فعدل عنه إلى عثمان، فعرض ذلك عليه، فقال: نعم.

فعاد إلى عليّ عليه السلام، فأعاد قوله حتّى فعل ذلك ثلاثاً، فصفق على يد عثمان، وقال: السلام عليك ياأميرالمؤمنين.

فيقال: إنّ عليّاً عليه السلام قال له: مافطنها إلاّ لأنّك رجوت منه مارجى صاحبكما من صاحبه تق اللّه بينكما عظر مبسم، ففسد بعد ذلك بين عثمان وبين عبدالرحمن، فلم يكلّم أحدهما صاحبه حتّى مات عبدالرحمن.

ثمّ نقل عن الراوندي أنّه قد روى: إنّ عمر لمّا قال: كونوا مع الثلاثة الّتي عبدالرحمن فيها، قال العبّاس لعليّ: ذهب الأمر منّا، الرجل يريد أن يكون الأمر في عثمان.

فقال عليّ عليه السلام: وأنا أعلم ذلك، ولكنّي أدخل معهم في الشورى لأنّ عمر قد أهلّني الآن للخلافة، وكان قبل يقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: إنّ النبوّة والإمامة لايجتمعان في بيت، فأنا أدخل في ذلك لأُظهر للناس مناقضة فعله لروايته.

ولايخفى مافي هذه القضيّة من المناقضات العجيبة، والأُمور الغريبة، والشهادة بأنّهم من أهل الجنّة، وأنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راض، والأمر بضرب رقابهم كلاً أو بعضاً، ولذا استغاث عليه السلام منها، فقال:

يالله وللشورى متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتّى صرتُ أقرن إلى هذه النظائر لكنّي أسففتُ إذ أسفوا وطرتُ إذ طاروا فصغى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره

[**يالله**] بفتح اللام [**وللشورى**] بكسر اللام، والواو إمّا زائدة أو للعطف على محذوف مستغاث له أيضاً، أي: بالله لعمرو للشورى، أو لي وللشورى ونحوه، والشورى مصدر كالنجوى.

[**متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتّى صرتُ أقرن إلى هذه النظائر**] الإستفهام على سبيل التعجّب من عروض الشكّ لأذهان الخلق في مساواته لأوّلهم إلى غاية أن قاسوه بالخمسة المذكورين، وجعلوهم نظائره وبمنزلته في الفضل والإستحقاق.

[**لكنّي أسففتُ إذ أسفوا**] من أسف الطائر إذا قارب الأرض بطيرانه.

[**وطرتُ إذ طاروا**] استعارة لأحوال الطائر من الإسفاف والطيران لأحواله من مقارنة لهم واتّباعه إيّاهم في مرداهم.

[**فصغى**] أي: مال [**رجل منهم لضغنه**] أي: حقده وعداوته، وهو طلحة، وقيل: سعد بن أبي وقّاص، لأنّه كان منحرفاً عنه، وتخلّف عن بيعته يوم عثمان.

[**ومال الآخر لصهره**] وهو عبدالرحمن مالى إلى عثمان، إذ كان بينهما مصاهرة، لأنّ عبدالرحمن كان زوجاً لأمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أُخت عثمان لأُمّه أروى بنت كريز.

مع هن وهن، إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال اللّه خضم الإبل نبتة الربيع

[**مع هن وهن**] يريد أنّ ميله لم يكن لمجرّد بل لأسباب أُخر كنفاسة عليه أو حسد له بوصول هذا الأمر إليه، فكنّى بهن وهن عنها.

[**إلى أن قام ثالث القوم**] يعني عثمان [**نافجاً حضنيه**] النفج: كالنفخ. والحضن: الجانب.[**بين نثيله**] وهو ردّته [**ومعتلفه**] مايعتلف به من المأكول، وكنّى بذلك عن أنّه لم يكن همّه إلاّ التوسّع ببيت المال والإشتغال بالتنعّم بالمآكل والمشارب، ملاحظاً في ذلك تشبيهه بالبعير أو الفرس حين ينتفخ جنباه بكثرة الأكل. ووجه الإستعارة أنّ البعير والفرس لااهتمام له أكثر من أن يكون بين أكل وروث، فكذا حاله.

[**وقام معه بنو أبيه**] بنو أُميّة بن عبدالشمس، أو المراد أقربائه مطلقاً.

[**يخضمون مال اللّه خضم الإبل نبتة الربيع**] والخضم: الأكل بكلّ الفم، ضدّ القضم، وهو الأكل بأطراف الأسنان، كناية عن كثرة توسّعهم بمال المسلمين. ووجه الشبه لايخلو من لطف، فإنّ الإبل تستلذّ نبت الربيع بشهوة صادقة لمجيئه عقيب يبس الأرض وطول مدّة الشتاء، مضافاً إلى طيبه ونضارته، فكذا ماأكله بنوأُميّة من بيت أموال المسلمين يشبه ذلك، لكثرته وطيبه عقيب ضرّهم وفاقتهم فيهم على قدم عظيم من النهم وشدّة الأكل وامتلاء الأفواه.

إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته

[إلى أن انتكث] أي: انتقض **[عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته]** إشارة إلى غاية حالاتهم المذكورة، وماترتّب عليها. واستعار لفظ الفتل وهو برم الحبل، لما كان يبرمه من الرأي والتدبير، وكذا لفظ الإنتكاث الإنتقاض تلك التدابير ورجوعها عليه بالفساد والهلاك.

واستعار لفظ الإجتهاز الّذي يفهم منه سبق الجراح والإثخان بضرب ونحوه لقتل عثمان المسبوق بطعن أسنّة الألسنة والجرح بحداد سيوفها. وكذا وصف الكبو الّذي هو حقيقة في الحيوان لفساد أمره بعد استمراره كالكبو بعد استمرار مشي الفرس سليماً من العثار.

وكنّى ببطنته عن توسّعه ببيت المال أيضاً، وأسند الكبو إليها لأنّها السبب الحامل على فساده أمره.

قال ابن أبي الحديد ما ملخّصه:

ثالث القوم هو عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أُميّة بن عبدشمس بن عبدمناف، وأُمّه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبدشمس، بايعه الناس بعد انقضاء الشورى وصحّت فيه فراسة عمر، فإنّه أوطىء بني أُميّة رقاب الناس وولّاهم الولايات، وأقطعهم القطائع.

وافتتحت أرمينية في أيّامه، فأخذ الخمس كلّه فوهبه لمروان.

وطلب إليه عبدالله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

. . . .

وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد سيّره، ثمّ لم يردّه أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق المدينة يعرف بمهروز على المسلمين فأقطعها عثمان بن الحرث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فدفعت عنها.

وحمى المراعي حول المدينة كلّها من مواشي المسلمين كلّهم إلاّ عن مواشي بني أُميّة.

وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقية بالمغرب.

وأعطى أباسفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الّذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال.

وقد كان زوّجه ابنته أُمّ أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلتُ رحمي، قال: لا، ولكنّي أبيك لأنّي أظنّك أنّك أخذت عوضاً عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، والله لو أعطيت مروان مائتي درهم لكان كثيراً، فقال: ألق المفاتيح يابن أرقم فإنّا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسّمها كلّها في بني أُميّة،

فـمـا راعني إلاّ والناس إليّ كـعـرف الضـبـع ينثالون عـليَّ من كلّ جانب

وأنكح ابن الحكم ابنته عايشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيدبن أرقم.

وانضمّ إلى هذه الأمور أُمور أُخرى نقمها عليه المسلمون كتيسير أبي ذرّ إلى الربذة، وضرب عبداللّه بن مسعود حتّى كسر أضلاعه، وماأظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود وردّ المظالم وكفّ الأيدي العادية، والإنتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ماوجدوه من كتابه إلى عامل مصر يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، فاجتمع عليه كثير من أهل المدينة فقتلوه.

ثمّ قال:

والّذي نقوله نحن إنّها وإن كانت أحداثاً إلاّ أنّها لم تبلغ المبلغ الّذي يستباح بها دمه، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى انتقال الإمرة إليه بقوله:

[فما راعني إلاّ والناس إليّ كعرف الضبع ينثالون عليَّ من كلّ جانب] الواو في والناس للحال، وخبر المبتدا محذوف، دلّ عليه متعلّقه وهو إليّ، أي: مقبلون إليّ ونحو ذلك، وفاعل راني إمّا مادلّت عليه هذه الجملة من المصدر، أي: فماراعنى إلاّ إقبال الناس إليّ ينثالون عليّ كعرف الضبع من كلّ وجه، أي وانثيالهم عليّ، والإنثيال تتابع الشيء تتلو بعضه بعضاً،

حتّى لقد وطىء الحسنان وشقّ عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم

ويحتمل أن يكون الفاعل نفس الجملة الإسميّة، إذ جوّز الكوفيّون كون الجملة فاعلاً، وينثالون إمّا خبر ثان للمبتدا أو حال عن راعني.

أشار عليه السلام إلى وصف ازدحام الناس عليه للبيعة بعد قتل عثمان كعرف الضبع، فإنّها ذات عرف كثير قائم الشعر، والعرب تسمّي الضبع عرفاً لفظة عرفها.

[**حتّى لقد وطىء الحسنان**] الحسن والحسين عليهما السلام من غاية ازدحامهم [**وشقّ عطفاي**] والعطفان: الجانبان من المنكب إلى الورك، أي: بالجذب عند خطابه، والجلوس على جانبيه، ويروى عطافي والعطاف: الرداء، وقيل: الحسنان الإبهامان، لما روي أنّه عليه السلام كان يومئذ جالساً محتبياً وهي جلسة رسول اللّه صلى الله عليه وآله المسمّاة بالقرفصاء، وهي جمع الركبتين وجمع الذيل، فلمّا اجتمعوا ليبايعو زاحموه حتّى وطؤا إبهاميه وشقّوا ذيله بالوطىء، والأوّل أقرب.

وكيف كان فيدلّ على جلافية طباعهم وقلّة توقيرهم وتعظيمهم لاميرهم.

وقوله: [**مجتمعين حولي كربيضة الغنم**] منصوب على الحال، كالّذي قبل وصف شدّة ازدحامهم حوله بالقطعة الرابضة من الغنم، ووجه الشبه اجتماعهم حوله، ويحتمل أن يلاحظ فيها زيادة، وهو أن شبّههم بالغنم

فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أُخرى وفسق آخرون كأنّهم لم يسمعوا كلام اللّه حيث يقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض

لغفلتهم عن وضع الأشياء في محالّها، وقلّة تفطّنهم وأدبهم ﴿إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

[**فلمّا نهضت بالأمر**] وقمت بأعباء الخلافة [**نكثت طائفة**] وهم أصحاب الجمل، سيّما طلحة والزبير، فإنّهما بايعاه ونقضا بيعته وخرجا عليه.

[**ومرقت أُخرى**] عن الدين، كما يمرق السهم عن القوس، وهم الخوارج وأصحاب النهروان.

[**وفسق آخرون**] وهم أصحاب معاوية، وهذه الأسماء سبقت من الرسول صلى الله عليه وآله حيث أخبر صلى الله عليه وآله بأنّه سيقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين بعده، وهو من دلائل نبوّته صلى الله عليه وآله، لأنّه إخبار بالغيب، وخصّ الخوارج بالمروق الّذي هو مجاوزة الشهم للرميّة، لأنّ الخوارج كانوا أوّلاً منتظمين في سلك الحقّ وبالغوا في طلبه إلى أن تعدّوه وتجاوزوه، وخصّ أصحاب معاوية بالفاسقين والقاسطين، لأنّ مفهومهما الخروج عن سنن الحقّ، وقد كانوا كذلك بمخالفته عليه السلام والخروج عن طاعته. وقال تعالى: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾.

[**كأنّهم لم يسمعوا**] أي هؤلاء الطوائف الثلاث [**كلام اللّه**] سبحانه [**حيث يقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض**

ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾ بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكن حلت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها أما والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة

ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾] فكيف طلبوا العلوّ والمفاخرة في الدنيا، ولعلّ هذا عذب لهم على سبيل التهكّم بهم، أي: لاعذر لهم في أفعالهم إلّا هذا.

ثمّ أراد عليه السلام تكذيبهم في ذلك العذر على تقدير اعتذارهم به، فقال:

[**بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكن حلت الدنيا في أعينهم**] فاغترّوا بزينتها [**وراقهم زبرجها**] أي: زينتها، والزبرج الزينة من وشي أو غيره. وقيل: الذهب، فارتكبوا ماارتكبوا لذلك، ثمّ لما ذكر عليه السلام حاله مع القوم من النكاية والتظلّم في أمر الخلافة وذمّ الشورى وماانتهى إليه من الحال الّتي أوجبت نزوله عن مرتبته إلى أن قرن بالجماعة المذكورين أردف ذلك ببيان الحامل له على قبول هذا الأمر والقيام به بعد تخلّفه عنه، وأكّد ذلك القسم فقال:

[**أما والّذي فلق الحبّة**] إشارة إلى قوله تعالى: فالق الحبّ والنوى، أي: خالقه، كقوله: فطر الخلائق بقدرته، قيل: فلق الحبّة الشقّ الّذي في وسطها [**وبرأ النسمة**] وهي كلّ ذي روح من الشر، وإنّما خصّ الحبّة والنسمة بالتعظيم بالنسبة إلى الله تعالى لما يشتملان عليه مع لطف الخلقة وصغر الحجم من أسرار الحكم وبدائع الصنع، ممّا يحتاج إلى أوراق كثيرة، منها: إنّ طبيعة الحبّ تقتضي الهوى في عمق الأرض، فكيف تولّدت منها الشجرة

لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ اللّه على العلماء أن لايقارّوا على كظمة ظالم ولاسغب مظلوم لألقيتُ حبها على غاربها

الصاعدة في الهواء وعلى العكس، فلمّا تولّد منها أمران متضادّان علم إنّ ذلك ليس لمجرّد الطبيعة، بل لحكمة إلهيّة، ولأنّا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقّة واللطافة، بحيث لو دلكها الإنسان بأدنى قوّة لصارت كالماء، فكيف قويت مع هذا على خرق الأرض الصلبة والنفوذ في مسام الأحجار ذلك تقدير العزيز الحكيم.

ومن ذلك: إنّ الطبائع الأربعة تجتمع في الفاكهة الواحدة كالاترج، فإنّ قشره حار يابس ولحمه بارد رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس، فتولّد هذه الطبائع عن الحبّة الواحدة من فاعل حكيم.

[**لولا حضور الحاضر**] إشارة إلى حضور من حضر لبيعته أو من حضر من الجيش للحرب [**وقيام الحجّة**] علينا [**بوجود الناصر**] للحقّ [**وما أخذ اللّه على العلماء**] من العهود والمواثيق من إنكار المنكر والأمر بالمعروف [**أن لايقارّوا على كظمة ظالم ولاسغب مظلوم**] والمقارة الموادعة والمسالمة، والكظمة بكسر الكاف مايعتري الإنسان من الثقل والكرب عند الإمتلاء من الطعام، والسغب: الجوع. وكنّى بكظمة الظالم وهي بطنته وشبعه عن قوّة ظلمه، لانّ قدرته مظنّة ذلك، ولسغب المظلوم وهو جوعه عن كونه مظلوماً.

[**لالقيتُ حبها على غاربها**] الضميران للخلافة، يقال: ألقى فلان حبل

ولسقيت آخرها بكأس أوّلها ولألفيتم دنياكم هذه عندي أهون من عفطة عنز

فلان على غاربه، أي: تركه هملاً يسرح حيث يشاء من غير مانع. والفقهاء يذكرون هذه اللفظة في كنايات الطلاق، استعار عليه السلام وصفاً من أوصاف الناقة للخلافة أو للأُمّة كنّى بها عن تركه لها وإهماله لأمرها ثانياً، كما هماله أوّلاً، ولمّا استعار لها لفظ الغارب جعل لها حبلاً يلقى عليه وهو من ترشيح الإستعارة، وأصله: إنّ الناقة تلقى زمامها على غاربها وتترك لترعى.

[**ولسقيت آخرها بكأس أوّلها**] استعار لفظ السقي للترك المذكور أيضاً، ورسخ تلك الإستعارة بذكر الكأس ووجه تلك الإستعارة إنّ السقي بالكأس لمّا كان مستلزماً لوجود السكّر غالباً وكان إعراضه أوّلاً مستلزماً لوقوع الناس فيما ذكر من الطخية العمياء المستلزمة لحيرة كثير من الخلق وضلالهم الّذي يشبه السكر وأشدّ منه لاجرم حسن أن يعير لذلك الترك بسقي الكأس.

[**ولألفيتم دنياكم هذه عندي أهون من عفطة عنز**] ألفيت الشيء: وجدته. وعطفة العنز: ماتنثره من أنفها. وقيل: العطسة.

ويدلّ أنّه عليه السلام كان طالباً للدنيا لا من حيث أنّها دنياً، بل لنظام الخلق وإجراء أُمورهم على قانون العدل المأخوذ على العلماء ونظم هذا الكلام في صورة متّصلة هكذا لولم يحضر الحاضر ولم يقم الناصر ولم يؤخذ على العلماء إنكار المنكر والأمر بالمعروف إذا تمكّنوا لتركت آخراً كما تركتُ أوّلاً، ولوجدتم دنياكم هذه أهون عندي ممّا لاقيمة له وهو عفطة العزن.

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه

[قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد] سواد العراق، سمّي سواداً لخضرته بالزرع والأشجار والنخل. والعرب تسمّي الأخضر أسود. قال سبحانه: ﴿مدهامّتان﴾ يريد الخضرة.

[عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه] قال الكيدري ما ملخّصه:

وجدت في الكتب القديمة انّ ذلك الكتاب فيه عدّة مسائل:

أحدها: ما الحيوان الّذي خرج من بطن حيوان آخر ولبس بينهما نسب؟ فأجاب عليه السلام بأنّه: يونس خرج من بطن الحوت الثانية.

ماالشيء الّذي قليله مباح وكثيره مباح؟ فقال عليه السلام: هو نهر طالوت، لقوله تعالى: ﴿إلاّ من اغترف غرفة بيده﴾.

الثالثة: ما العبادة الّتي إن فعلها واحد استحقّ العقوبة وإن لم يفعلها استحقّ العقوبة؟ فأجاب بأنّها صلاة السكارى.

الرابعة: ماالطائر الّذي لافرخ له ولا فرع ولا أصل. فقال: هو طائر عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذني﴾.

الخامسة: رجل عليه من الدين ألف درهم وله في كيسه ألف درهم فضمنه ضامن بألف درهم، فحال عليهما الحول فالزكاة على أيّ المالين

. . . .

تجب؟ فقال: إن ضمن الضامن بإجازة من عليه الدين فلا يكون عليه، وإن ضمنه من غير إذنه فالزكاة مفروضة في ماله.

السادسة: حجّ جماعة ونزلوا في دار من دور مكّة، وأغلق واحد منهم باب الدار، وفيها جماعة فمتن من العطش قبل عودهم إلى الدار، فالجزاء على أيّهم يجب؟ فقال عليه السلام: على الّذي أغلق الباب ولم يخرجهنّ ولم يصنع لهنّ ماء.

السابعة: شهد شهداء أربعة على محصن بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه، فرجمه واحد منهم دون الثلاثة الباقين، ووافقه قوم أجانب في الرجم، فرجع من رجمه عن شهادته، والمرجوم لم يمت ثمّ مات فرجع الآخرون عن شهاداتهم عليه بعد موته، فعلى من تجب ديته؟ فقال: تجب على من رجمه من الشهود ومن وافقه.

الثامنة: شهد شاهدان من اليهود على يهودي أنّه أسلم، فهل تقبل شهادتهما أم لا؟ فقال: لاتقبل شهادتهما، لأنّهما يجوّزان تغيير كلام اللّه وشهادة الزور.

التاسعة: شهد شاهدان من النصارى على نصراني أو مجوسي أو يهوديّ أنه أسلم، فقال: تقبل شهادتهما لقول اللّه سبحانه: ﴿ولتجدنّ أقربهم مودّة للّذن آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى﴾ الآية ومن لايستكبر عن عبادة اللّه لايشهد الزور.

قال له ابن عبّاس: ياأميرالمؤمنين لو اطّردت مقالتك من حيث أفضيت فقال: هيهات يابن عبّاس، تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت.

قال ابن عبّاس: فوالله ماأسفتُ على كلام قطّ كأسفي على ذلك الكلام أن لايكون أميرالمؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

العاشرة: قطع انسان يد آخر، فحضر أربعة شهود عند الإمام وشهدوا في قطع يده وأنّه زنا وهو محصن، فأراد الإمام أن يرجمه فمات قبل الرجم، فقال: على من قطع يده دية يده ولو شهدوا أنّه سرق نصاباً لم تجب دية يده على قاطعها.

فلمّا فرغ عليه السلام من قراءته [**قال له ابن عبّاس ياأميرالمؤمنين لو اطّردت مقالتك من حيث أفضيت**] يقال: اطّرد النهر أي: تتابع جريه. وأفضيت: وصلت. أي: لو اتّبعت قولك الأوّل قولاً ثانياً. وأصل أفضى: خرج إلى الفضاء، فكأنّه شبّهه حيث سكت بمن أُخرج من خبأ أو جدار إلى فضاء من الأرض، وذلك إنّ النفس والقوّة والهمّة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب، فإذا قطع الإنسان وفرغ تفرّقت وخرجت عن حجر الإجتماع واستراحت.

[**فقال: هيهات يابن عبّاس، تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت**] والشقشقة بالكسر فيهما شيء يخرجه البعير من فيه إذا هاج، يقال: الخطيب ذو شقشقة، تشبيهاً له بالفحل. والهدير: صوتها.

[**قال ابن عبّاس: فوالله ماأسفتُ على كلام قطّ كأسفي على ذلك الكلام أن لايكون أميرالمؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد**].

قال الرضي(ره) كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم

قال ابن أبي الحديد: حدّثني شيخي أبوالخير مصدق، قال: قرأت على الشيخ أبي محمّد بن الخشاب هذه الخطبة، فلمّا انتهيت إلى هذا الموضع قال لي: لو سمعت ابن عبّاس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمّك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة لتأسف أن لايكون بلغ من كلامه ماأراد، واللّه مارجع عن الأوّلين ولا عن الآخرين ولابقي في نفسه أحد لم يذكره إلاّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

[قال] السيّد [الرضي(ره)] قوله عليه السلام: [**كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم**] يريد أنّه إذا شدّد عليها في جذب الزمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحّمت به فلم يملكها. يقال: أشنق الناقة إذا جذب رأسها بالزمام فرفعه وشنقها أيضاً ذكر ذلك ابن السكّيت في إصلاح المنطق، وانّما قال عليه السلام أشنق لها ولم يقل أشنقها لأنّه جعلها في مقابلة قوله أسلس لها، فكأنّه عليه السلام قال: إن رفع لها رأسها بالزمام يعني أمسكه عليها.

وفي الحديث: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله خطب الناس وهو على ناقته وقد شنقل لها في تنصع لجريها.

ومن الشاهد على إنّ أشنق بمعنى شنق قول عدي بن زيد العبادي:
سائها ما بنا متن في الأيدي وشناقها إلى الأعناق، أي: تعليقها.

بنا اهتديتم في الظلماء وتسنّمتم العلياء وبنا انفجرتم عن السرار وقر سمع لم يفقه الواعية

ومن خطبة له عليه السلام، ملتقطة من خطبة طويلة. وروي أنّه خطب بها بعد قتل طلحة والزبير.

[بنا] معشر آل محمّد صلى الله عليه وآله [اهتديتم] أيّها الناس [في الظلماء] لأنّهم عليهم السلام سبب هداية الخلق وإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى أنوار الدين المبين، ومعارف أسرار اليقين، وتوحيد ربّ العالمين، واستعار عليه السلام لفظ الظلماء للجهل الحاجب لأبصار البصائر عن درك الحقّ.

[وتسنّمتم العلياء] أي: ركبتم سنام العلياء وعلا قدركم وشرف ذكركم بتلك الهداية.

واستعار وصف السنام للعلياء ملاحظة لشبهها بالناقة، ورشح تلك الإستعارة بذكر التسنّم وهو ركوب السنام كناية عن علوّهم.

[وبنا انفجرتم] أي: دخلتم في الفجر. وروي: أفجرتم وهو أفصح.

[عن السرار] وهو اللّيلة واللّيلتان الّتي يستتر فيهما القمر في آخر الشهر، فلا يظهر. استعار لفظ السرار لما كانوا فيه من ليل الجهل في الجاهليّة، وخمول الذكر ولفظ الإنفجار عنه لخروجهم من ذلك إلى نور الإسلام واشتهارهم في الناس كالفجر الطالع من ظلمة السرار في الضياء والإشتهار.

[وقر سمع لم يفقه الواعية] التفات إلى الدعاء بالوقر وهو الثقل في

كيف يراعي النبأة من أصمّته الصيحة ربط جنان لم يفارقه الخفقان

السمع على سمع لايفقه صاحبه بواسطته علماً، ولايستفيد من السماع به مقاصد الكتب الإلهيّة والحكم الربّانيّة، والمعارف الحقّانيّة، وكلام الأنبياء والأوصياء والدعاة إلى اللّه، وقوله: الصمم بعدم فائدة خلقه منه.

[**كيف يراعي النبأة**] وهو الصوت الخفيّ [**من أصمّته الصيحة**] القويّة، استعار لفظ النبأة لدعابة لهم وندائه إلى سبيل الحقّ، والصيحة خطاب اللّه ورسوله، وهي استعارة على سبيل الكناية عن ضعف دعائه بالنسبة إلى قوّة دعاء اللّه ورسوله لهم. وتوضيح ذلك إنّ الصوت الخفيّ لما كان لايسمع عند الصوت القويّ إذ من شأن الحواسّ أن لايدرك الأضعف مع وجود الأقوى، فجعل كلام اللّه وكلام رسوله كالصوت القويّ في حقّهم.

وكلامه كالصوت الخفيّ وإسناد الإضمام إلى الصيحة من ترسيخ الإستعارة، وكنّى به عن بلوغ تكرار كلام اللّه على أسماعهم حتّى ملّته بحيث لايستمع بعده ماهو بمعناه سيّما الأضعف، وهذه الكلمة بمنزلة الإعتذار لنفسه في عدم تأثير وعظه فيهم.

[**ربط جنان لم يفارقه الخفقان**] هذا دعاء للقلوب الخائفة الوجلة الّتي لاتزال تخفق من خشية اللّه، وتشفق من عذابه بالثبات والسكينة والإطمئنان وربط إن كان معلوماً، فالمعنى ثبت قلب كان كذلك، وإن كان مجهولاً، فالمعنى ربط اللّه جناناً كان كذا، وهو جذب لهم إلى درجة الخائفين، كأنّه قال: كيف يلتفت إلى قولي من لايلتفت إلى كلام اللّه ورسوله، وللّه درّ الخائفين من اللّه فما ضرّكم لو كنتم مثلهم فرجعتم إلى الحقّ.

مـازلت أنتظر بكم عـواقب العـذر وأتوسّمكـم بحـيلة المغـتـرّين سترني عنكم جلباب الدين وبصّرنيكم صدق الـنيّة أقمت لكم على سنن الحق

[**مـازلت أنتظر بكم عـواقب العـذر وأتوسّمكم**] أي: أتعرّفكم [**بحيلة المغترّين**] الغـافلين عن عواقب الأمـور، إشارة إلى أنّه ﷺ كـان عارفـاً بعاقـبة أمـرهم وعـذرهـم، وكـان يلوح له ذلك من حـركـاتهم وسكناتهم بـفـراسته وحدسه الصائب، كما قال تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾.

وفي الخبر: اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور اللّه.

[**سترني عنكم جلباب الدين وبصّرنيكم صدق النيّة**] الجلباب الملحفة، واستـعـار لفظه للدين باعتـبار ستره، وحـجبـه عن العنف بهم وحـملهم على المشـقّة أو ستره عـن علمـهم، فقـوّته ربّك، ولو لم يكـن ذلك الستر لعـرفـوه بذلك، أو المعنى إنّ اظهاركم شعار الإسـلام عصمكم منّي مع علمي بنفاقكم وإنّما أبصـرت نفاقكم وبواطنكم الخبيـثة بصدق نيّتي، أو المراد سـترني عنكم جلباب ديني ومنعـني أن أعرّفكم نفسي وقـدرتي على استيـصالكم. وروي: ستركم عنّي، أي: عصم الدين منّي دماءكم واتّباع مدبركم.

ثمّ أشار ﷺ إلى فضيلته ليقـتدوا به بقوله: ويرجعوا إلى أشعّة أنواره، بقوله:

[**أقـمـت لكم على سنن الحقّ**] بفـتـح السـين الجـادة والـطريقـة، وهي الكتاب والسنّة، فإنّه هو الكتاب الناطق الواقف على أسـراره والمحيط بحقائقه واغواره.

وفي جواد المضلّة حيث تلتفتون ولا دليل وتحتفرون ولا تميهون اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان

[**وفي جواد**] جمع جادّة [**المضلّة**] بفتح الضاد وكسرها، الّتي يضلّ سالكها، إذ كانعليه السلام هو العالم بالكتاب والموضح لطرق الحقّ منه ولطرق الباطل والهادي فيهما، وذاك حيث يلتفتون في ظلمة الجهل فلا ينصرون دليلاً سواه، ويطلبون ماء الحياة بالبحث والفحص، فلا توجد عند من عداه، كما قالعليه السلام:

[**حيث تلتفتون**] في أودية الضلال إلى دليل.

[**ولا دليل**] سواي [**وتحتفرون**] لتجدوا ماء نتقعون به غلّتكم فلا تظفرون بالماء.

[**ولا تميهون**] يقال: ماهت البئر خرج ماؤها. واستعار وصف الإحتفار للبحث عن مظانّ العلم، ولفظ الماء له حيث به حياة القلوب، كما انّ بالماء حياة الأبدان.

[**اليوم أنطق لكم العجماء**] وهي الّتي لانطق لها [**ذات البيان**] كناية عن الحال الّتي يشاهدونها من العبر الواضحة والمثلات، حلّت بقوم فسقوا عن أمر ربّهم وعمّا اتّضح وانتشر من كمال فضلهعليه السلام بالنسبة إليهم ومايبنغي لهم أن يعتروه من حال الدين، ومقتضى أوامر اللّه الّتي تحثّهم على اتّباعها، فإنّ جميع هذه الأحوال لانطق لها بالمقال، فلذا شبّهها بالعجماء من الحيوان، ولكنّها تنادي بلسان الحال بوجوب اتّباعه وتشهد بصدقه، ولذا شبّهها بذات البيان.

عزب رأي امرىء تخلّف عنّي ما شككت في الحقّ مذ رأيته ولم يوجس موسى خيفة على نفسه وإنّما أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال

وقيل: العجماء صفة محذوف، أي: الكلمات العجماء، كناية عمّا ذكر في هذه الخطبة من الرموز والإشارات، فهي خفيّة غامضة، ومع غموضها جليّة لأولي الألباب، فكأنّها تنطق كما ينطق ذوالألسنة، كما قيل: ماالأمور الصامتة الناطقة؟ فقيل: الدلائل المخبرة والعبر الواعظة، وفي المثل: سل الأرض من شقّ أنهارك وخرج ثمارك، فإن لم تجبك جواراً أجابتك اعتباراً.

[**عزب**] أي: بعد [**رأي امرىء تخلّف عنّي**] دعاء أو إخبار، وذمّ لمن تخلّف عنه، وفيه حثّ على التمسّك به واتّباع أقواله وأفعاله. ثمّ بيّن سبب ذلك بقوله:

[**ما شككت في الحقّ مذ رأيته**] فإنّ معارفه ثابتة لايتطرّق إليها الشكّ والشبهة، وهو القائل: لو كشف الغطاء ماازددت يقيناً.

[**ولم يوجس**] من أوجس أي: أحسّ [**موسى خيفة على نفسه وإنّما أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ والغرض إنّ الخوف الّذي يخافه عليه السلام منهم ليس على نفسه، بل أشدّ خوفه من غلبة أهل الجهل على الدين وفتنة الخلق بهم وقيام دول الضلال وانسداد مسالك الحقّ وعما طرق الهدى، كما خاف موسى عليه السلام من غلبة جهّال السحرة، حيث ألقوا حبالهم وعصيّهم، وقالوا ﴿بعزّة فرعن إنّا لنحن الغالبون﴾.

اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل من وثق بماء لم يظمأ.

[**اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل**] الموافقة مفاعلة من الطرفين، والخطاب لمقابليه في القتال، والمراد: إنّي واقف على سبيل الحقّ وأنتم واقفون على سبيل الباطل داعون إليه.

[**من وثق بماء لم يظمأ**] هو مثل نبّه به عليه السلام على وجوب الثقة بما عنده، أي: انّكم إن سكنتم إلى قولي ووثقتم به كنتم أقرب إلى اليقين والهدى وأبعد عن الضلال والرديّ، كما إنّ الواثق بالماء في أدواته آمن من العطش وخوف الهلاك بعيد عنهما بخلاف من لم يبق بذلك، وكنّى بالماء الّذي منه حياة كلّ شيء عمّا يتفجّر منه من العلوم الإلهيّة والمعارف الربّانيّة، والأسرار الحقيقيّة، والحكم البهيّة، فإنّ فيها حياة القلوب.

[ومن كلام له عليه السلام
لمّا قبض رسول اللّه صلى الله عليه وآله وخاطبه العبّاس وأبوسفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة]

وروي أنّه لمّا تمّ أمر البيعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، أراد أبوسفيان أن يوقع الحرب بين المسلمين ليقتل بعضهم بعضاً، لأن يطفي نور اللّه، فمضى إلى العبّاس فقال له: ياأباالفضل إنّ هؤلاء القوم قد ذهبوا بهذا الأمر من بني هاشم، وجعلوه في بني تيم، وانّه ليحكم فينا غداً هذا الفظّ الغليظ من بني عدي، فقم لندخل على عليّ عليه السلام ونبايعه بالخلافة، وأنت عمّ

أيّها الناس! شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرِّجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح

رسول الله ﷺ وأنا رجل مقبول في قريش، فإن دافعونا عن ذلك قاتلناهم وقتلناهم، فأتيا أمير المؤمنين عليه السلام، وكان عليه السلام يعلم من حاله أنّه لايقول ذلك عصباً للدين، بل للفساد، فأجابه عليه السلام وقال:

[**أيّها الناس! شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة**] شبّه عليه السلام الفتنة بالبحر المتلاطم، ولذا استعار له لفظ الأمواج، وكنّى بها عن حركات الفتن وقيامها، ووجه الشبه اشتراك البحر والفتنة عند هيجانهما في هلاك الخائض فيهما، واستعار سفن النجاة لكلّ مايكون وسيلة إلى الخلاص من الفتنة من مهاونة أو حيلة أو صبر، ووجه الشبه كون كلّ منهما سبباً للسلامة.

[**وعرِّجوا عن طريق المنافرة**] والتعريج العدول عن الطريق، أمرهم بالعدول عن طريق المنافرة إلى السكون والسلامة ومايوجب سكون الفتنة وكذا.

[**وضعوا تيجان المفاخرة**] أمر بطريق آخر من طرق النجاة من ترك المفاخرة، إذ هي ماتهيج الأضغان وتثير الأحقاد، وتوجب قيام الفتنة، وحيث كان أكبر ماينتهي إليه أرباب الدنيا من المفاخر هو لبس الشيخان، وكانت الأُصول والأحساب الشريفة أسباب الأفخار الدنيوي، استعار لهم لفظها وأمرهم بوصفها.

[**أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح**] أشار عليه السلام بعد النهي عن المنافرة والمفاخرة إلى ماينبغي أن يكون حال طالب الخلافة عليه ليفوز بمطلوبه أو ينجو من الفتنة، فحكم بالفوز أحد شخصين:

ماء آجن و لقمة يغصّ آكلها

الأوّل : من وجد أنصاراً وأعواناً وجاهد في سبيل اللّه .

وثانيهما : من لم يجد ذلك فاستسلم فاستعار لفظ الجناح للإهوان والإنصاف .

ووجه الشبه : إنّ الجناح لما كان محل القدرة على الطيران والتصرّف ، فكذا الأعوان والأنصار بهم القوّة على النهوض إلى الحرب والطيران في ميدانها ، وحكم بالنجاة للمتسلّم عند عدم الجناح .

ويحتمل أن يكون المراد بالفقرة الأُولى من مات شبّه الميّت المفارق للدنيا السالك طريق الآخرة بالطائر الناهض عن الأرض بجناحه ، وأن يراد أفلح من اعتزل هذا العالم وساح في الأرض منقطعاً عن مشاق الدنيا ، وعلى التقادير تنطبق الفقرة الثانية أي : أراح نفسه وغيره باستسلامه .

ثمّ نبّه عليه السلام إنّ المطالب الدنيويّة وإن عظمت فهي مشوبة بالكدر ، فقال :

[ماء آجن] أي : الإمرة على الناس وخمية العاقبة ذات مشقّة في العاجلة ، فهي في عاجلها كالماء الآجن يجد شاربه مشقّة .

[و] في أجلها [لقمة يغصّ] بفتح الياء والغين من غصصت بالكسر أي : لقمة تحدث من [آكلها] الغصة ، فاستعار لفظ الماء الآجن وهو المتغيّر الفاسد من أجن الماء بفتح الجيم ، ياجن بالكسر والضمّ ، واللقمة الموصوفة لمساغ الدنيا باعتبار مافيها من شائبة الكدر بالمحن من المنافسات ونحوها ، وقصد بذلك التنفير عنها شكيناً للفتنة .

ومجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير أرضه فإن أقل يقولوا حرص على الملك وإن أسكت ويقولوا جزع من الموت هيهات! وبعد اللّتيّا والّتي

ويحتمل أن يكون الأمران معاً للعاجلة، لأنّ العضّ في أوّل البلع، كما انّ ألم الشراب للماء الآجن يحدث في أوّل الشرب.

ويحتمل أن لايكون عنى الإمرة المطلقة، بل هذه الإمرة المخصوصة، وبيعة السقيفة، ثمّ أخذ عليه السلام في الإعتذار عن الإمساك وترك المنازعة بقوله:

[**ومجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها**] الإيناع إدراك الثمرة [**كالزارع بغير أرضه**] تمثيل لحاله في طلبه للأمر في غير وقته بمجتني الثمرة قبل أن تدرك لاينتفع بمااجتناه، كمن زرع في غير أرضه، لاينتفع بذلك الزرع، وإنّه في محل أن يمنع من التصرّف، ويبطل سعيه، والغرض من ذلك تنفيرهم عن التشبّه بمن يكون هذا حاله، ثمّ ذكر عليه السلام أنّه بين محظورين:

[**فإن أقل**] وأطلب حقّي وأُنادي بأنّي ظلمتُ وغصبتُ [**يقولوا حرص على الملك**] والإمارة واهتمّ بأمور الدنيا [**وإن أسكت**] ينسبوني إلى الذلّ والعجز [**ويقولوا جزع من الموت**] فعلى كلّ حال لايمكن إرضاء الخلق ولايسكتون عن أحد، وحيث أنّه كان غالباً ساكتاً فيوردوا القول الثاني، دفعه عليه السلام بقوله: مكذباً لأوهامهم.

[**هيهات!**] أي: بعد جزعي من الموت أبعد ملاقاتي كبار الشدائد وصغارها انسب إلى الجزع من الموت.

[**وبعد اللّتيّا والّتي**] كنايتان عن الشدائد والمصائب العظيمة والحقيرة،

والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة

وأصل المثل: إنّ رجلاً تزوّج امرأة قصيرة صغيرة، فقاسى منها شدائد فطلّقها، وتزوّج طويلة فقاسى أضعاف ذلك فطلّقها، وقال: بعد اللّتيا والّتي لاأتزوّج أبداً، فضرب بهما المثل للداهية الكبيرة والصغيرة.

[**والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه**] فإنّ أولياء الله يحبّون الموت، فإنّه جسرهم إلى الجنان، وهو عليه السلام سيّد الأولياء ورئيس العارفين بعد خاتم النبيّين، والموت وسيلة إلى لقاء محبوبهم من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، وأنسهم به أنس عقليّ ثابتاً، فكان أشدّ من أنس الطفل بالثدي لكونه عن ميل شهواتي في معرض التغيّر والزوال.

[**بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة**] استدراك بعد نفي الجزع من الموت، وإشارة إلى سبب آخر لسكونه، وهو العلم الّذي انطوى عليه عليه السلام، فإنّ علمه بعواقب الأمور وأدبارها وتطلّعه إلى نتائج الحركات بعين بصيرته الّتي هي كمرآة صافية فرزي بها صور الأشياء في المرائي العالية، فارتسمت فيها كما هي ممّا يوجب توقّفه عمّا يعلم أنّ فيه فساداً وتسرعة إلى مايعلم فيه مصلحة بخلاف الجاهل الّذي يقدم على عظائم الأمور بفطير الرأي لا عن بصيرة قادته إلى ذلك. ثمّ نبّه عليه السلام على عظم قدر العلم الّذي اندمج عليه بقوله: لو بحتُ به الخ.

والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم

وأشار باضطرابهم إلى تشتّت آرائهم عند علمهم بما سيقع من ذلك، ومن انتقال الأمر إلى بني أُميّة ومدّة دولتهم، فإنّ ذلك يكون سبباً لنفارهم وشبّه اضطراب آرائهم باضطراب الأرشية، جمع رشا وهو حبل البئر في الطوى البئر المطويّة البعيدة العميقة، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس، وذلك أنّ الطوى كلّما كانت أعمق كان اضطراب الحبل فيها أشدّ لطوله، فكذا حالهم، أي: يكون لهم اضطراب قويّ واختلاف شديد.

وقيل: أراد بهذا العلم علم الآخرة ومابعد الموت، فإنّهم لو شرح لهم ذلك لاضطربوا أشدّ اضطراب خوفاً من اللّه، ولذهلوا عمّا هم فيه من المنافسة في الدنيا.

وقال ابن أبي الحديد: هو إشارة إلى الوصيّة الّتي خصّ بها عليه السلام وأنّه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع في مبدأ الإختلاف عليه.

[ومن كلام له عليه السلام
لمّا أُشير عليه عليه السلام بأن لا يتبع طلحة والزبير ولايرصد لهما القتال]

يقال: أرصد له بشرّ أي: أعدّ له وهيّئه.

روى أبو عبيد قال: أقبل اميرالمؤمنين عليه السلام يريد الطواف، وقد عزم على اتباع طلحة والزبير وقتالهما، فأشار عليه ابنه الحسن عليه السلام أن لايتبعهما ولايرصد لهما القتال. فقال عليه السلام:

[والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم] بسكون الدال: ضرب

حتّى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها ولكنّي أضرب بالمقبل إلى الحقّ المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً حتّى يأتي على يومي فواللّه مازلت مدفوعاً عن حقّي مستأثراً عليّ منذ قبض اللّه نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى يوم الناس هذا

الحجر أو غيره على الأرض ليس بالقويّ.

[**حتّى يصل إليها طالبها ويختلها**] أي: يخدعها [**راصدها**]

حكي انّ الضبع تستعفل في حجرها بمثل ذلك اللدم، فتسكن حتّى تصاد.

ويحكى أنّهم يضعون في حجرها حجراً ويضربون بأيديهم بابه فتحسب الحجر شيئاً تصيده فتخرج فتصاد.

ويقال: إنّها من أحمق الحيوان أن يدخل عليها فيقال: ليست هذه أُمّ عامر، أو يقال: خامري أُمّ عامر، فتسكن حتّى توثق رجلها بحبل متّخذ لصيدها.

[**ولكنّي أضرب بالمقبل إلى الحقّ**] وجه [**المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً حتّى يأتي على يومي**] الّذي قدّر فيه أجلي.

[**فواللّه مازلت مدفوعاً عن حقّي مستأثراً عليّ**] والاستيناب بالشيء الإنفراد به [**منذ قبض اللّه نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى يوم الناس هذا**] أقسم عليه السلام على انّه لايسكن على كثرة الظلم والبغي وطول دفاعه عن حقّه.

ثمّ أردف ذلك بما هو الصواب عنده، وهو المقاومة والقتال بمن أطاعه لمن عصاه، وجعل المريب في مقابلة السامع، لأنّ المرتاب في الحقّ مقابل

اتّخذوا الشيطان لأمرهم مالكاً واتّخذهم له أشراكاً ودبّ ودرج في حجورهم فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم

للقاتل له، ثمّ فسّر الأبد بغاية عمره، حيث انّه غاية مايمكنه، ثمّ أردف ذلك بالتظلّم والشكاية في الإستيثار عليه بهذا الأمر المحوج إلى الشكاية. وأشار إلى مبدأ ذلك الدفاع ومنتهاه.

[ومن خطبة له عليه السلام]

[**اتّخذوا الشيطان لأمرهم مالكاً**] وفي نسخة: ملاكاً [**واتّخذهم له أشراكاً**] ملاّك الأمر مايقوم به والأشراك إمّا جمع شريك كشريف وأشراف، أو جمع شرك وهو حبائل الصيد كجبل وأجبال، واستعار لهم لفظ الأشراك باعتبار أنّهم أسباب لدعوة الخلق إلى مخالفة الحقّ، فكأنّ الشيطان يصطاد الخلق بواسطة طاعتهم له وتصرّفه فيهم، ثمّ أردف ذلك ببيان ملازمته لهم، فشبّهه بالطائر الّذي بنى عشّه في قلوبهم وصدورهم. واستعار لفظ البيض والأفراخ، لأنّ الطائر لما كان يلازم عشّه فيبيض ويفرّخ فيه أشبهه الشيطان في إقامته في صدورهم وملازمته إيّاهم. وكذا قوله:

[**ودبّ ودرج في حجورهم**] استعارة كنّى بها عن تزيينهم الباطل وملازمة ابليس وعدم مفارقته لهم ونشوّه معهم، كما يربى الولد في حجر والديه. ثمّ أشار عليه السلام إلى وجوه تصرّفاته فقال:

[**فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم**] بأن عزلها عن تصرّفهم فيها، وكان هو المتصرّف بها. ثمّ أشار إلى ثمرة متابعته فقال:

فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه يزعم أنّه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة فليأت عليها بأمر يعرف وإلاّ فليدخل فيما خرج منه

[**فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل**] وهو الفاسد من القول، بأن أخرجهم عن أوامر اللّه في الأفعال والأقوال، فعل منصوب على المصدر، إمّا من فعل محذوف، أي فعلوا ذلك [**فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه**] أي: إنّ الأقوال الصادرة عنهم على خلاف أوامر اللّه إنّما تصدر عن مشاركة الشيطان ومتابعته أو مفعول قوله: اتّخذوا، لأنّه بمعنى فعلوا.

[ومن كلام له عليه السلام
يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك]

قيل: كان يقول: بايعت بيدي لابقلبي، وكان يدّعي تارة أنّه أُكره، وأُخرى أنّه ورّى في البيعة تورية، فقال عليه السلام:

[**يزعم أنّه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة**] وهي البطانة، أي: أمراً خفيّاً من عدم موافقة قلبه.

[**فليأت عليها**] على الوليجة المدّعاة [**بأمر يعرف وإلاّ فليدخل فيما خرج منه**] وهو قياس محذوف الكبرى، تقديره أنّه أقرّ بما هو مقبول

قد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل ولسنا نرعد حتى نوقع ولانسيل حتّى نمطر

ومحكوم بلزومه شرعاً، وادّعى أنه أضمر في باطنه مايفسده من الوليجة، وكلّ من فعل ذلك احتاج في بيان دعواه إلى بيّنة تعرّف صحّتها، فينتج أنّه محتاج إلى نيّة كذلك، إذ التورية أمر باطن لايمكن الإحتجاج به، وأشار إلى النتيجة بقوله: فليأت الخ.

وروى ابن أبي الحديد: إنّ عليّاًعليه السلام قال للزبير لمّا بايعه: إنّي لخائف أن تغدرني وتنكث بيعتي، قال: لاتخافنّ، فإنّ ذلك لايكون منّي أبداً، فقال عليّعليه السلام: فلي اللّه عليك بذلك راع وكفيل، قال: نعم اللّه لك عليّ بذلك راع وكفيل.

[ومن كلام لهعليه السلام]

[**قد أرعدوا وأبرقوا**] إشارة إلى أصحاب الجمل في معرض الدم والإرعاد والإبراق كنايتان عن التهديد والوعيد الصادر منهم لهعليه السلام بالحرب، ووجه الإستعارة كون الوعيد من الأمور المزعجة، كما أنّ الرعد والبرق كذلك.

[**ومع هذين الأمرين الفشل**] أي الضعف، لأنّ التهديد والوعيد قبل إيقاع الحرب ضعف.

[**ولسنا نرعد حتى نوقع ولانسيل حتّى نمطر**] إشارة إلى نفي تلك

ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله وإنّ معي لبصيرتي

الرذيلة عنه وعن أصحابه، وإثبات الفضيلة لهم، وكما أنّ فضيلة السحاب أن يقترن وقوع المطر منه برعده وبرقه وإسالته بإمطاره كذلك أقوالنا مقرونة بأفعالنا لاخلف فيها، وإسالة عذابه مقرونة بأمطاره.

ويفهم من ذلك أنّ خصمه يهدّده بالحرب من غير قوّة نفس ولاإيقاع لها، فأشبه ذلك الرعد من غير إيقاع المطر والسيل عن غير مطر، فكأنّه قال: كما لايجوز سيل بلامطر، فكذا مايدّعونه ويهدّدون به من إيقاع الحرب بلا شجاعة ولا قوّة، والجلبة أمارة العجز والجبن والصمت والسكون والشجاعة.

[ومن خطبة له عليه السلام]

قيل: هذا الفصل ملتقط ملفّق من خطبة له عليه السلام لمّا بلغه أنّ طلحة والزبير خلعا بيعته، ومداره على ثلاثة أُمور:

الأوّل: الذمّ لأصحاب الجمل، والتنفير عنهم، أشار إليه بقوله:

[**ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله**] أي: إنّ الباعث لهم والجامع على مخالفة الحقّ إنّما هو الشيطان بوسوسته لهم وتزيينه الباطل في قلوبهم.

الثاني: التنبيه على فضيلة نفسه بقوله:

[**وإنّ معي لبصيرتي**] إشارة إلى كمال عقله واستعداده لاستجلاب

ما لبّستُ على نفسي ولا لبّس عليَّ وأيم اللّه لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه

الحقّ، واستيضاحه، ثمّ أكّد ذلك بالإشارة إلى عدم انخداع نفسه القدسيّة للشيطان فيما يلبّس به على الحقّ من الشبه الباطلة على البصائر الضعيفة، فيعميها بذلك عن الإدراك وتميز الباطل، سواء كانت تلك المخادعة والتلبيس بواسطة، كما أشار إليه بقوله:

[**ما لبّستُ على نفسي**] أي: لايلتبس على نفسي المطمئنّة ماتلقيه إليها نفسي الأمّارة، أو بواسطة، كما أشار إليه بقوله:

[**ولا لبّس عليَّ**] أي: إنّ أحداً ممّن اتّبع إبليس وتلقّف عنه الشبه وصار في قومه أن يلبس الحقّ صورة الباطل، لايمكنه أن يلبّس عليّ.

الثالث: الوعيد لهم بالحرب المهلكة، وأشار إليه بقوله:

[**وأيم اللّه**] أصل أيم أيمان جمع يمين، حذفت النون تخفيفاً، كما في قوله: لم يك. وقيل: هو اسم برأسه وضع موضع القسم.

[**لأفرطنّ لهم حوضاً**] من أفرطت الحوض أفرطه بالضيم، أي: ملائة [**أنا ماتحه**] أي: مستقي الماء فيه، استعارﷺ إفراط الحوض لجمعه الجند، وتهيئة أسباب الحرب، وكنّى بقوله: أنا ماتحه عن أنّه المتولّي لذلك، ولمّا كانت الحروب تشبه بالبحر وبالماء الجمّ فيستعار لها أوصافه، فيقال: فلان خواض غمرات جاز أن يستعار هنا لفظ الحوض وترسخ تلك الإستعارة بالمتح والفرط والإصدار والإيراد.

وفي تخصيص نفسه بالمتح تأكيد بتهديد لعلمهم ببأسه وشجاعته.

لايصدرون عنه ولايعودون إليه تزول الجبال ولا تزل عضّ على ناجذك أعر اللّه جمجمتك

ثمّ أردف ذلك بوصف استعداده لهم بالشدّة والصعوبة، فقال:

[**لايصدرون عنه ولايعودون إليه**] وعنى بالأوّل: إنّ الوارد منهم لاينجو، فهو كمن يغرق فيه، وبالثاني: إنّ من نجى منهم لايطمع في مثل ماطمعوا فيه خوفاً، فلايعود.

[ومن كلامه عليه السلام لابنه محمّد بن الحنفيّة لمّا أعطاه الراية يوم الجمل]

مشيراً له إلى آداب الحرب وكيفيّة القتال

[**تزول الجبال ولا تزل**] الكلام في صورة شرطيّة متّصلة، أي: لو زالت الجبال لاتزل. والمراد المبالغة والنهي عن الزوال مطلقاً، ولذا علّقه على أمر محال، وهو زوال الجبال.

[**عضّ على ناجذك**] وهو السنّ بين الناب والضرس، وللعضّ عليه فائدتان:

احداهما ربط الجأش وتماسك أجزاء البدن للتجربة.

والثانية: تصلّب عضل الرأس وتقادم ماعساه يقع من الضرب فيه، كما قال عليه السلام في موضع آخر: وعضّ أعلى النواجذ فإنّه انباء للسيوف عن الهام.

[**أعر اللّه جمجمتك**] استيعارة لطيفة، شبه جمجمته بالآلة الّتي

تد في الأرض قـدمك ارم ببـصـرك أقـصى القـوم وغضّ بصـرك واعلم أنّ النصر من عند اللّه

تستعار للإنتفاع بها، ثمّ تردّ فـانتفاع حرب اللّه بمحمّد(رض) على هذا الوجه يشبه الإنتفاع بالعارية، والمراد بذلها في طاعة اللّه. ولعلّ العدول إلى العارية إشارة إلى سلامته في هذا الحرب، إذ العارية مردودة سيّما ما أُعير اللّه، وفيه تثبيت لجأشه وربط لقلبه.

[**تد**] أي: اجعله كالوتد في الثبات [**في الأرض قدمك**] وفيه فائدتان:

احداهما: ربط الجأش واستصحاب العزم على الثبات.

والثانيـة: إنّ ذلك مظنّة الشجاعة، وأمـارة الصبر على المكاره، فـيوهن العدوّ ويقهره.

[**ارم ببصرك أقصى القوم**] ليعلم على ماذا يقدم ولينظر مخاتل المخاتل.

[**وغضّ بصرك**] بعـد مـدّة، لكـونه عـلامـة السكينة والثبـات، وعـدم الطيش، ولأنّ مـدّ النظر إلى بريق الـسيـوف مظنّة الرهبـة، وربّمـا خـيف على البصر أيضاً، والنظر المحمود في الحرب أن يلحظ شزراً.

[**واعلم أنّ النصر من عند اللّه**] لما ثبّته بتلك الأُمور الخـمسة، أشار إلى أنّه لايتّكل على ذلك، بل يـعلم أنّ النصـر من اللّه وبيـده، كمـا قـال تعـالى: ﴿ومالنصر إلاّ من عند اللّه العـزيز الحكيم﴾ ليتأكّد ثباته بثقـته باللّه، ملاحظاً لقوله تعالى: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾.

أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم، قال: إذاً قد شهدنا ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان

[ومن كلام له عليه السلام]

لمّا ظفر بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددتُ إنّ أخي فلاناً كان شاهداً ليرى مانصرك اللّه به على أعدائك، فقال له عليه السلام:

[أهوى أخيك] أي محبّته وميله كان **[معنا؟ قال: نعم، قال: إذاً قد شهدنا]** فإنّه وإن لم يحضر بالفعل، ولكن حضر بالقوّة والهمّة، وكم إنسان يحصل بحضور همّة وإن لم يحضر ببدنه كثير نفع إمّا باستجلاب الرجال أو بتأثير ألقمه في أعداء اللّه، أو لأنّه لمّا أحبّ وهوى أن يكون معهم فثوابه كمن كان معهم، فإنّ نيّة المرء خير من عمله، ولأنّ الراضي بفعل كفاعله. ثمّ قال عليه السلام:

[ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال وأرحام النساء] تأكيد لحضور أخ القائل بالإشارة إلى من سيوجد من أنصار الحقّ الذابّين عنه، وعباد اللّه الصالحين شاهدون معنا أيضاً، والشهادة شهادة بالقوّة، أي: إنّهم موجودون في أكمام المواد بالقوّة، ومن كان في قوّة أن يحضر من أنصار اللّه فهو بمنزلة الحاضر الموجود بالفعل في نصرته له إذا وُجد.

[سيرعف بهم الزمان] استعار لفظ الرعاف وهو الدم الخارج من أنف

ويقوى بهم الإيمان.
كنتم جند المرأة

الإنسان لوجودهم، وفيه تشبيه للزمان بالإنسان، وإنّما نسب وجودهم إلى الزمان لأنّه من الأسباب المعدّة لقوابل وجودهم.

[ويقوى بهم الإيمان].

[ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ أهل البصرة وأهلها]

روي أنّه لمّا فرغ من أمر الحرب لأهل الجمل أمر منادياً ينادي في أهل البصرة: إنّ الصلاة الجامعة لثلاثة أيّام من غداة، ولا عذر لمن تخلّف إلاّ من حجّة أو علّة، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فلمّا كان في اليوم الّذي اجتمعوا فيه خرج فصلّى بالناس الغداة في المسجد الجامع، فلمّا قضى صلاته قام فأسند ظهره إلى حائط القبلة عن يمين المصلّى، فخطب الناس فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله واستغفر للمؤمنين والمسلمين والمسلمات، ثمّ قال:

يا أهل البصرة، يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلها ثلاثاً، وعلى اللّه الرابعة.

[كنتم جند المرأة] أراد عائشة، فإنّهم جعلوها عقد نظامهم، وفي ذلك كمال الذمّ لهم، لأنّ اتّباع أقوال النساء وآرائهنّ مذموم عقلاً وشرعاً.

وأتباع البهيمة رغى فأجبتم وعقر فهربتم أخلاقكم رقاق

وفي النبـويّ: إنّهنّ ناقصات العقول، ناقصات الدين، ناقصات الحظوظ.

أمّا نقصان عقولهنّ فلأنّ شهادة ثنتين منهنّ بشهادة رجل واحد ﴿لتذكر إحداهما الأُخرى﴾.

وأمّا نقصان دينهنّ فلأنّ احداهنّ تقعد في بيتها شطر دهرها أي: في أيّام حيضها، لاتصوم ولاتصلّي.

وأمّا نقصان حظّهنّ فلأنّ ميراثهنّ على النصف من ميراث الرجال.

[وأتباع البهيمة] وهو جمل عائشة، فإنّهم كانوا محيطين به، مجيبين لرغائه، هاربين لعقره، وهذا أشنع في الذمّ ممّا قبله، ﴿إن هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾، وكان هذا الجمل راية عسكر أهل البصرة، قتلوا دونه كما تقتل الرجال تحت راياتها.

[رغى] ذلك الجمل، وكنّى برغا به عن دعوتها لهم إلى القتال، إذ قدمت عليهم راكبة له.

[فأجبتم وعقر فهربتم أخلاقكم رقاق] أي: صغار حقار، وأشار بدقّة أخلاقهم إلى كونهم على رذائل الأخلاق دون حاق الوسط، ولمّا كانت أُصول الفضائل الخلقيّة الحكمة والفقه والشجاعة، وكانوا على طرف الجهل وهو طرف التفريط من الحكمة العمليّة وعلى طرف الجبن وهو طرف التفريط من الشجاعة، وعلى طرف الجور وهو طرف الإفراط من ملكة العفّة والعدالة لاجرم صدق أنّهم على رذائل الأخلاق ورقاقها.

وعهدهم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربّه كأنّي بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها.

[**وعهدهم شقاق**] إشارة إلى نكثهم بيعته ﷺ وعذرهم معه، والعذر رذيلة بأزاء ملكه الوفاء.

[**ودينكم نفاق**] لأنّهم خرجوا على الإمام العادل وحاربوه، فخرجوا عن الدين، ولعلّ ذلك خاصّ ببعضهم، إذ المنافق العرفي الخارج عن الإسلام بقلبه المظهر له بلسانه.

[**وماؤكم زعاق**] أي: مالح لقربه من البحر، وامتزاجه به، وذكر ذلك في معرض ذمّهم لعلّه لسوء اختيارم ذلك المكان والإقامة به مع كون ماءهم بتلك الحال المستلزمة لأمراض كثيرة، أو لأنّ ذلك من أسباب التنفير عن المقام معهم وتكثير سوادهم.

[**المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه**] لأنّه لابدّ وأن ينخرط ف سلكهم ويستعدّ لقبول ميل طباعهم وينفعل عن رذائل أخلاقهم، وحينئذ يكون موثوقاً بدينه.

[**والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربّه**] لأنّه خرج من القرية الظالم أهلها ليسلم من الذنوب الّتي يكتبها المقيم بينهم، وتلك رحمة وأيّ رحمة، وكلّ ذلك في معرض التنفير عنهم.

[**كأنّي بمسجدكم كجؤجؤ**] أي: صدر [**سفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها**].

وأيم اللّه لتغرقنّ بلدتكم هذه حتّى كأنّي أنظر إلى مسجدكم كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة. كجؤجؤ طير في لجّة أرضكم قريبة من الماء

وفي رواية أُخرى:

[وأيم اللّه لتغرقنّ بلدتكم هذه حتّى كأنّي أنظر إلى مسجدكم كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة].

وفي رواية أُخرى:

[كجؤجؤ طير في لجّة] شبّه نفسه عليه السلام في مشاهدته بنور بصيرته لمسجدهم في الماء بالمشاهد لذلك، والحاضر لرؤيته بعين الحسّي في الجلاء والظهور، وجؤجؤ السفينة والطائر صدره. والجاثمة: الباركة.

والمنقول: إنّ البصرة غرقت مرّة في أيّام القادر باللّه، ومرّة في أيّام القائم بأمراللّه، عرفت بأجمعها، وغرق من في ضمنها، وخربت دورها ولم يبق فيها إلاّ غلق مسجدها الجامع حسبما أخبر به عليه السلام، وكان غرقها من قبل بحر فارس.

[ومن كلام له عليه السلام في مثل ذلك]

[أرضكم قريبة من الماء] إشارة إلى أنّها وضع هابط مستقلّ من الأرض، وقريب من البحر، فهو بصدد أن يعلوها بملاقاة دجلة، كما يشاهد

بعيدة من السماء خفّت عقولكم وسفهت حلومكم فأنتم غرض لنابل وأكلة الآكل

من دخول الماء حدائقهم وسقيه بساتينهم في كلّ يوم مرّة أو مرّتين، والمراد قريبة من الغرق بالماء.

[**بعيدة من السماء**] قيل في تفسيره وجوه:

الأوّل: إنّ المراد بالسماء المطر، فإنّ أمطارها قليلة.

الثاني: إنّ أرباب الهيئة والنجوم ذكروا إنّ أبعد موضع في الأرض عن السماء، يعني بعدها عن معدّل النهار، والبقاع والبلاد تختلف في ذلك، وقد دلّت الآلات والأرصاد النجوميّة على أنّ أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدّل النهار هو الابله، والابله قصبة البصرة.

الثالث: إنّ أهلها لمّا كانوا ذوي أوصاف مذمومة كانوا أبعد من نزول الرحمة عليهم من سماء الجود الإلهي، مستعدّين لنزول العذاب.

[**خفّت عقولكم**] إشارة إلى قلّة استعدادهم لدرك وجوه المصالح، وضعف عقولهم عن تدميرها وتسرّعهم إلى مالاينبغي، وغفلتهم عمّا ينبغي.

[**وسفهت حلومكم**] وسفه الحلم تبديله بضدّه واستعماله في غير موضعه.

[**فأنتم غرض لنابل**] أي: كلّ من قصد أذاهم وأراد إهلاكهم نال ذلك منهم.

[**وأكلة الآكل**] كناية عن كونهم في معرض أن يطمع في أموالهم

وفريسة لصائد أما والله لو وجدته وقد تزوّج به النساء وملك به الإماء لرددته فإنّ في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليق أضيق

ونعمتهم، ويأكلها من يقصد أكلها.

[**وفريسة لصائد**] كناية عن كونهم بصدد أن يفترسهم من يقصد قتلهم وإهلاكهم، واستعار لفظ العرض والأكل والفريسة لهم. ووجه المشابهة فيها ظاهر.

[ومن كلام له عليه السلام
فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان]

والقطائع: ما يقطعه أو بعض الرعيّة من أرض بيت المال ذات الخراج ويسقط عنه خراجه، وقد كان عثمان أقطع قطائع كثيرة من أرض الخراج لكثير من بني أُميّة وأوليائه، فقال عليه السلام:

[**أما والله لو وجدته وقد تزوّج به النساء وملك به الإماء لرددته**] على مستحقّيه.

[**فإنّ في العدل سعة**] ووجه سعة العدل بالقياس إلى الجور أنّ الإنسان يتمكّن من التصرّف فيه به أكثر من التصرّف بالجور، إذ بالعدل نظام العالم بأسره، وهو محلّ لرضا المظلوم بإيصال حقّه إليه، ولرضاء الظالم بعلمه بأنّه عند انتزاع الحقّ منه أخذ لما ليس له، وأكّد ذلك بالوعيد الصادق، فقال:

[**ومن ضاق عليه العدل فالجور عليق أضيق**] فالظالم وإن قام شيطانه

ذمّتي بما أقول رهينة

عند انتزاع الحقّ منه وضاق العدل عليه فهو في محلّ الرضا، فإن لم يرض لضيق العدل عليه فالجور عليه أضيق في الدنيا والآخرة، لأنّه ربّما انتزعت منه قهراً، وكان جوره سبباً للتضيّق عليه في ذلك، ولأنّ الأوامر والنواهي الإلهيّة محيطة به سادة عليه وجوه التصرّف الباطل، ولأنّه إذا نزل عليه عدل اعتقد أنّه آخذ منه ماينبغي.

[ومن خطبة له عليه السلام
لمّا بويع بالمدينة

وأوّلها: الحمد للّه ـــــ محمود بالحمد وأولاه بالمجد إلهاً واحداً صمداً أقام أركان العرش، فأشرق لضوئه شعاع الشمس خلق فأتقن وأقام فذلت له وطأة المتمكّن، وأشهد أن لاإله إلاّ اللّه وحده لاشريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بالنور الساطع، والضياء المنير، أكرم خلق اللّه حسباً وأشرفهم نسباً، لم يتعلّق عليه مسلم ولا معاهد بمظلمة.

أمّا بعد: فإنّ أوّل من بغى على الأرض عناق أنبت آدم عليه السلام كان مجلسها من الأرض جريباً وكان لها عشرون اصبعاً وكان لها ظفران كالمنجلين، فسلّط اللّه عليها أسداً كالفيل وذئباً كالبعير ونسراً كالحمار، وكان ذلك في الخلق الأوّل فقتلها، وقد قتل اللّه الجبابرة على أسوأ أحوالهم، وإنّ اللّه أهلك فرعون وهامان، وقتل قارون بذنوبهم، إلى أن قال عليه السلام:

[**ذمّتي بما أقول رهينة**] والذمّة العقد والعهد. يقال: هذا الدين في

وأنا به زعيم إنّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات حجزه التقوى عن تقحّم الشبهات.

ذمّتي وفي عنقي، كناية عن الإلتزام والضمان والرهينة المرهونة.

[**وأنا به زعيم**] أي: كفيل، وأخرج الكلام مخرج الترغيب لهم في سماع مايقوله عليه السلام.

وفي الخبر: الزعيم غارم.

[**إنّ من صرّحت**] كشفت [**له العبر**] جمع عبرة وهي الموعظة [**عمّا بين يديه من المثلات**] أي: العقوبات [**حجزه**] أي: منعه [**التقوى عن تقحّم الشبهات**] يقال: قحم في الأمر وتقحمه: رمى بنفسه، فيه أشار عليه السلام إلى وجوب الإعتبار لوجوب التقوى، ونبّه على أنّها وسيلة إليه، لأنّ من أخذت العناية الربّانيّة بزمام عقله فأعدت نور بصيرته لمشاهدة ماصرّحت به آفات الدنيا وكشفت عبرها من تبدّل حالاتها وتغيّراتها على من أوقف عليها همّه واتّخذها دار إقامة، فشاهد أنّ جميع ذلك أُمور باطلة وأظلال زائلة، فلابدّ أن يفيض اللّه على قلبه صورة خشيته وتقواه، فيستلزم تلك الخشية توقّفه وامتناعه عن أن يلقي نفسه في تلك الأُمور الزائلة والشبهات الباطلة لإشراق نور الحقّ الواضح على لوح نفسه، بالإعتبار، فالتقوى اللازم عنه هو الحاجز عن ذلك التقحّم، وأشار بالشبهات إلى مايتوهّم كونه حقّاً ثابتاً باقياً من الأُمور الفانية الزائلة واللذّات الدنيويّة الباطلة، فالوهم يشبهها بالحقّ، ولذا تسمّى شبهات، والعقل السليم يقوى على تميزها.

وأكّد عليه السلام هذه الملازمة برهان ذمّته على صحّتها وكفالته بصدقها،

ألا وإنّ بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيّه ﷺ والّذي بعثه بالحقّ لتبلبلنّ بلبلة ولتغربلنّ غربلة ولتساطنّ سوط القدر حتّى يكون أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم

واستعمال الرهن استعارة كما في قوله تعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ وبالتقوى يتميّز الحق من الباطل. قال تعالى: ﴿إن تتّقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً﴾ وقال تعالى: ﴿واتّقوا اللّه ويعلّمكم اللّه﴾ وقال تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا﴾ الآية.

ثمّ لمّا نبّه عليه السلام على لزوم التقوى وانّه مخلص من تقحّم الشبهات نبّه على أنّهم في الشبهات مغمورون بقوله:

[**ألا وإنّ بليّتكم**] إشارة إلى ماهم عليه من اختلاف الأهواء وتشتّت الآراء [**قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيّه ﷺ**] وكان الناس غارقين في بحار الجهالات تائهين في طرق الضلالات.

وفي ذلك إشارة إلى أنّهم ليسوا من التقوى في شيء، وإلاّ لميّزوا بين الحقّ والباطل، ثمّ توعّدهم عليه السلام بعاقبة ذلك ونزول ثمرته بهم بقوله:

[**والّذي بعثه بالحقّ لتبلبلنّ بلبلة**] والبلبلة: الإختلاط [**ولتغربلنّ غربلة**] وهي: نخل الدقيق ونحوه [**ولتساطنّ سوط القدر حتّى يكون أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم**] وكنّى بالبلبلة عمّا يوقع بهم بنوأُميّة وغيرهم من أُمراء الجور من الهموم المزعجة وخلط بعضهم ببعض، ورفع أراذلهم وحطّ أكابرهم. وبالغربلة عن التقاط آحادهم وقصدهم بالأذى والقتل، كما فعل بكثير من الصحابة والتابعين، كغربلة الدقيق ليمزّ شيء عن شيء، ولذا

وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة

استعار له لفظها وأشار بالثالث إلى تصريف أئمّة الجور بهم من تغيير قواعد عن عزيز أذلّوه وذليل أعزّوه، وبعيد قرّبوه وقريب بعّدوه، وخلط الشريف بالوضيع والعزيز بالذليل، كما تساط القدر.

[وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا] إشارة إلى بعض نتائج تقلّب الزمان بهم. وقيل: أشار بالمقصّرين الّذين يسبقون إلى قوم قصّروا عن نصرته في مبدأ الأمر حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، ثمّ نصروه في ولايته وقاتلوا معه في سائر حروبه وبالسابقين الّذين يقصّرون إلى من كانت له في الإسلام سابقة، ثمّ يخذله وينحرف عنه ويقاتله. وقيل: المقصّرون الّذين يسبقون كلّ من أخذت العناية الإلهيّة بيده وقاده زمام التوفيق إلى الجدّ في طاعة الله واتّباع سائر أوامره، والوقوف عند نواهيه وزواجره بعد تقصيره في ذلك، وعكس هؤلاء من كان في مبدأ الأمر مستمرّاً في سلوك سبيل الله، ثمّ جذبه هواه إلى غيرما كان عليه، وسلك به الشيطان مسالكه، فاستبدل بسبقه في الدين تقصيراً وانحرافاً عنه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ ذلك ممّا أخبر به الرسول صلى الله عليه وآله الصادق المصدّق مؤكّداً بالقسم فقال عليه السلام:

[والله ما كتمت وشمة] أي: كلمة ممّا أخبر به عليه السلام، والوشمة بالشين المعجمة الكلمة.

[ولا كذبت كذبة] أقسم عليه السلام أنّه لم يكتم أثراً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى، أو كلمة ممّا يتعيّن عليه أن يتوح به، وأنّه لم يكذب قطّ.

ولقد نبّئت بهذا المقام وهذا اليوم ألا وإنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النار ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأُعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة

[**ولقد نبّئت بهذا المقام**] أي: مقام بيعة الخلق له.

[**وهذا اليوم**] أي: يوم اجتماعهم عليه، أي: أخبرني به النبيّ الصادق المصدّق، فكان كما أخبرﷺ، وفي ذلك تنفير لهم عن الباطل إلى الحقّ، وثبّت لهم على اتّباعه، ثمّ لمّا أمرهم بالتقوى وأنبأهم بما سيكون عاقبة أمرهم في لزومهم لبليّتهم وتورّطهم في الشبهات أردف ذلك بالتنفير عن الخطايا والترغيب في التقوى بالتنبيه على مايقود إليه كلّ منهما، فقال:

[**ألا وإنّ الخطايا خيل شمس**] يقال: حصان شموس، أي: يمنع ظهره من الركوب، وشمس الفرس بالفتح وبه شماس.

[**حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النار**] استعار لفظ الخيل للخطايا، ثمّ وصفها بالوصف المنفر، وهو الشموس والهيئة المانعة لذي العقل من ركوبها، وهي كونها مع شموسها مخلوعة اللجم، ووجه الإستعارة إنّ الفرس الشموس الّتي خلعت لجامها من شأنها أن تقتحم براكبها المهالك، فكذا راكب الخطئية لمّا جرى به ركوبها على غير نظام الشريعة وخلع بذلك لجام الأوامر الشرعيّة والحدود المرعيّة تقحّمت به أعظم موارد الهلاك نار جهنّم وبئس المصير.

[**ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأُعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة**] استعارﷺ لفظ المطايا لوصف الحسن الموجب للميل إليها،

حقّ وباطل ولكلّ أهل فلئن أمِر الباطل لقديماً فعل ولئن قلّ الحقّ فلربّما ولعلّ

وهو كونها ذللاً وبالهيئة الّتي ينبغي للراكب وهو أخذ الزمام أي الحدود الشرعيّة الّتي يلزمها صاحب التقوى، ولمّا كانت المطيّة الذلول من شأنها أن تتحرّك براكبها على وفق النظام الّذي ينبغي وتسير به على تؤده وتوصّله إلى المطلوب، فكذا التقوى، فسهولة طريق السالك إلى اللّه بالتقوى وراحته عن جموح الهوى به في موارد الهلكة يشبه ذلّة المطيّة، وحدود اللّه الّتي بها يملك التقوى، ويستقرّ عليه يشبه أزمة المطايا الّتي بها تملك، وكون التقوى موصلاً لصاحبه بالسلامة إلى السعادة الأبديّة الّتي هي أسنى المطالب يشبه غاية سير المطي الذلول براكبها، والإستعارة في الموضعين من استعارة المحسوس للمعقول.

ثمّ لمّا بيّن أنّ هٰهنا طريقين مركوبين للسالك: طريق الخطايا وطريق التقوى، ذكر بعده أنّهما [**حقّ وباطل**] فكأنّه قال: وهما حقّ، وهو التقوى، وباطل وهو الخطايا، ثمّ قال:

[**ولكلّ أهل**] أي: لكلّ من طريقي الباطل والحقّ قوم، وكلّ ميسّر لما خلق له.

[**فلئن أمر الباطل**] أي كثر [**لقديماً فعل**] وليس ذلك ببدع حتّى أجهد في نفسي في الإنكار على أهله، ثمّ لايسمعون ولاينتهون.

[**ولئن قلّ الحقّ فلربّما ولعلّ**] والمراد أنّ كثرة الباطل وقلّة الحقّ من قديم الزمان، وذلك كالإعتذار لنفسه ولأهل الحقّ في قلبه وكالذمّ والتوبيخ لأهل

ولعلّ ما أدبر شيء فأقبل إنّ في هذا الكلام الأدبي من مواقع الإحسان ما لايبلغه مواقع الإستحسان

الباطل على كثرته، وفي قوله لربّما ولعلّ تنبيه على أنّ الحقّ وإن قلّ فربّما يعود كثيراً ثمّ أردف حرف التعليل وهو ربّما بحرف التمنّي، فكان في هذه الأحرف الوجيزة إخبار بقلّة الحقّ ووعد بقوته وتمنّي لكثرته، وقوله:

[**ولعلّ ما أدبر شيء فأقبل**] استبعاد لرجوع الحقّ إلى الكثرة والقوّة بعد قلّته وضعفه على وجه كلّي، فإنّ زوال الإستعداد للأمر مستلزم لزوال صورته، وصورة الحقّ إنّما أُفيضت على قلوب صغت واستعدّت لقبوله، فإذا أخذ ذلك الإستعداد في النقصان بموت أهلهأو بموت قلوبهم واسودّت ألواح نفوسهم أشبه الباطل، فلابدّ أن ينقص نور الحقّ وتكثر ظلمة الباطل بسبب قوّة الإستعداد لهما وظاهر أنّ عود الحقّ وإضاءة نوره بعد إدباره وإقبال ظلمة الباطل أمر بعيد، وقلّما يعود مثل ذلك الإستعداد لقبول مثل تلك الصوت للحقّ، ولعلّ يعود بقوّة فتصبح ألواح النفوس وأرضها مشرقة بأنوار الحقّ ويكرّ على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، وماذلك على الله بعزيز.

وفي ذلك تنبيه لهم على لزوم الحقّ وبعث على القيام به كيلا يضمحلّ بتخاذلهم عنه فلا يمكنهم تداركه.

قال السيّد الرضي (ره) أقول:

[**إنّ في هذا الكلام الأدبي من مواقع الإحسان**] مصدر أحسن إذا فعل حُسناً ومواقع الإحسان الكلمة الحسنة منه [**ما لايبلغه مواقع الإستحسان**] وهي الأفكار المستحسنة له، لأنّها لاتبلغ محاسن كلامه، ولاتحيط بها.

وإن حظّ العجب منه أكثر من حظّ العجب به وفيه مع الحال الّتي وصفنا زوائ من الفصاحة لايقوم بها لسان، ولايطّلع فجّها انسان، ولايعرف ما أقوله إلّا من ضرب في هذه الصناعة بحقّ وجرى فيها على عرق وما يعقلها إلّا العالمون شغل من الجنّة والنار أمامه!

[وإن حظّ العجب منه أكثر من حظّ العجب به] أي: إنّ تعجّب الفصحاء من حسنه أكبر من عجبهم بأنفسهم باستخراج محاسنه، لأنّ فيه محاسن لايمكنهم التعبير عنها وإن تعجّبوا منها.

[وفيه مع الحال الّتي وصفنا زوائ من الفصاحة لايقوم بها لسان، ولايطّلع فجّها انسان، ولايعرف ما أقوله إلّا من ضرب في هذه الصناعة بحقّ وجرى فيها على عرق وما يعقلها إلّا العالمون].

ومنها، من جملة هذه الخطبة

[شغل من الجنّة والنار أمامه!] أي: من كانت الجنّة والنار أمامه ولايدري إلى أيّهما يصير فقد شغل بشغل شاغل عمّا عداه، فيجب عليه أن لايشتغل إلّا به وشغله بهما ملاحظتهما وتذكّرهما مدّة وقته، والهمّة بمايكون وسيلة إليهما. واستعار لفظ الأمام لهما باعتبار كونهما غايتين ينتهي إليهما، وإنّما قال شغل بالبناء للمفعول دون الفاعل، لأنّ المقصود هنا ليس إلّا ذكر الشغل، أو لأنّه لما كان الشاغل هو اللّه تعالى بإيجاد الجنّة والنار والترغيب في أحدهما والترهيب من الأُخرى، كان ترك ذكره للتعظيم والإجلال أو لظهوره.

ساع سريع نجى وطالب بطيء رجى ومقصّر في النار هوى

ثمّ إنّه عليه السلام لما نبّه على وجوب الإشتغال بالجنّة والنار عن غيرهما قسم الناس بالنسبة إلى ذلك الإشتغال على ثلاثة أقسام، فقال:

[ساع سريع نجى] بسبقه إلى الإيمان ومبادرته إلى الطاعة والرضوان فنجوا من عذاب النار ومن غضب الجبّار المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿والسابقون السابقون أُولئك المقرّبون في جنّات النعيم فاكهين بما آتاهم ربّهم ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم﴾ وهؤلاء الّذين طلبوا بعناية جدّهم واجتهادهم وبذلوا وسعهم وطاقتهم.

[وطالب] للطاعة والراضون [بطيء] متأنّي في طلبه غير باذل جدّه وجهده في ذلك.

[رجى] عفو اللّه ونظرة إليه برحمته، فالسلامة عليه أغلب، ووصوله إلى المطلوب أقرب.

[ومقصّر] تارك للطلب [في النار هوى] حيث خالف الرحمن واتّبع الشيطان فأورده النار وبئس الورد المورود، وهو المشارإليه بقوله تعالى: ﴿وأمّا الّذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ماشاء ربّك إنّ ربّك فعّال لما يريد﴾.

ووجه التقسيم إلى الثلاثة على ما ذكره بعض المحقّقين إنّ الناس إمّا طالبون للّه ولما عنده أو غير طالبين، والطالبون إمّا مجتهدون في الوصول إليه أو متأنّون، والأوّل هم السابقون المقرّبون، والثالث المقصّرون الّذين

اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة وعليها ما في الكتاب الكريم وآثار النبوّة، ومنها منفذ السنّة وإليه تصر عاقبة

وقف بهم الشيطان حيث أراد.

وأمّا الثاني: فذو صنفين يتجاذبانه بين جهتي السفالة والعلوّ، فسلوكه إلى اللّه وإن ضعف جاذب له إلى الجنّة، ويد الشيطان جاذبة له إلى النار، إلّا أنّ رجاءه اللّه وسكونه به إذا انضاف إلى حركته البطيئة في سبيل اللّه كانت السلامة عليه أغلب، وإنّما خصّ الثاني بالرجاء، لأنّه عمدته دون عمله لضعفه، ونحوه قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن اللّه﴾.

ولمّا قسّم الناس إلى سابقين ولاحقين ومقصّرين أشار عليه السلام إلى الطريق الموصلة الّتي يجب سلوكها فقال:

[**اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة**] أشار باليمين والشمال إلى طرفي الإفراط والتفريط من الفضائل النفسانيّة، وبالطريق الوسطى إلى العدل منها، وهو لزوم عين الفضيلة من غير انحراف وهي الصراط المستقيم في الدنيا والأُخرى، والجادّة الواضحة لمن اهتدى.

[**وعليها ما في الكتاب الكريم**] والفرقان العظيم من المقاصد الإلهيّة والحكم الربّانيّة [**وآثار النبوّة، ومنها منفذ السنّة**] أي: طريقها ومبدئها الّذي منه تخرج [**وإليه تصير عاقبة**] الخلق في الدنيا والآخرة، فإنّ من العدل بدئت السنّة وانتشرت في الخلق، وإليه مرجع أُمورهم في الدنيا والآخرة، أمّا في

هلك من ادّعى وخاب من افترى من أبدى صفحة للحقّ هلك عند جهلة الناس وكفى بالمرء جهلاً أن لايعرف قدره

الدنيا فلأنّ نظام أُمورهم في حركاتهم وسكناتهم مبني عليه في القوانين الشرعيّة الّتي تردّ إليها عواقب أُمورهم ويحملون عليها، وأمّا في الآخرة فبالنسبة إليه يستبين فوز الفائزين وخسران الخاسرين، ﴿فريق في الجنّة وفريق في السعير﴾ وقوله:

[**هلك من ادّعى وخاب من افترى**] يحتمل الدعاء والإخبار، أي: هلك من ادّعى ماليس له أهلاً وماليس بحقّ، وخاب من كذب في دعواه وأحلّ المقصود تعريض بمعاوية ودعواه الأمارة وخيبة المفتري، لأنّ الفرية اختلاق ماليس بحقّ، وظاهر أنّ الكذب لاثمرة له، أمّا في الآخرة فظاهر وأمّا في الدنيا فقد يكون وقد لايكون، وإن كان فهو في معرض الزوال، ومستلزم لسخط اللّه، فهو كأن لم يكن.

[**من أبدى صفحة للحقّ**] وتجرّد لإظهاره في مقابلة كلّ باطل سمعه أو رآه من الجاهلين وحملهم على مرّ الحقّ وصعبه في كلّ وقت.

[**هلك عند جهلة الناس**] أي: كان في معرض الهلاك بأيديهم وألسنتهم ولامحالة يلقى منهم مايكره لعدم موافقته طباعهم، وأومى بذلك إلى نفسه عليه السلام في معرض الإعتذار في مقابلة معاوية ونحوه على باطلهم وقوله:

[**وكفى بالمرء جهلاً أن لايعرف قدره**] تنبيه على أنّ أقلّ الجهل كاف

لايهلك على التقوى سنخ أصليّ ولايظمأ عليها ذرع قوم واستتروا بيوتكم وأصلحوا ذات بينكم والتوبة من ورائكم

في الرذيلة، فكيف بكثيره وجهل المرء بقدره ومرتبته من الناس جهل فاحش لاستلزامه رذائل صعبة، كالعجب والكبر قول الباطل وادّعاء الكمال للناقصين وتعدّي الطور في أكثر الأحوال، كما قال عليه السلام: رحم اللّه امرء عرف قدره ولم يتعدّ طوره.

[**لايهلك على التقوى سنخ أصليّ ولايظمأ عليها ذرع قوم**] والسنخ هو الأصل، نبّه عليه السلام على لزوم التقوى باعتبارين:

أحدهما: إنّ كلّ أصل بني على التقوى فمحال أن يهلك أو يلحق بانيه خسران، كما قال تعالى: ﴿أفمن أسّس بنيانه على تقوى من اللّه ورضوان خير أم من أسّس بنيانه على شفا جرف هار﴾.

الثاني: إنّ من زرع زرعاً آخروياً كالمعارف الإلهيّة في أرض نفسه مثلاً أو دنيوياً كالأعمال الّتي بها تقوم مصالح الإنسان في الدنيا وسقاها بماء التقوى فلا يلحق زرعه ظمأ، بل يقوى ويزكو ثمره وهو ترغيب في التقوى لغاية ماتثمره من الخير الأُخروي، ثمّ أمرهم عليه السلام بالإستتار، فقال:

[**واستتروا بيوتكم**] أي: ألزموها قطعاً لمادّة الفتنة بينهم، وفراراً من الإجتماع للمنافرات والمفاخرات والمشاجرات، ولذا أردفه بقوله:

[**وأصلحوا ذات بينكم**] لأنّ قطع مادّة الفتنة سبب لإصلاح ذات البين [**والتوبة من ورائكم**] تنبيه للعصاة على الرجوع إلى التوبة عن الجري في

ولايحمد حامد إلّا ربّه، ولا يلم لائم إلّا نفسه إنّ أبغض الخلائق إلى اللّه رجلان: رجل وكّله اللّه إلى نفسه فهو جائر عادل عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة

ميدان المعصية واقتفاء أثر الشيطان وإنّما كانت التوبة وراءهم باعتبار رجوع العاصي إليها عمّا هو متوجّه بقلبه إليه من المعصية، وقيل: وراء بمعنى أمام.

[**ولايحمد حامد إلّا ربّه، ولا يلم لائم إلّا نفسه**] تأديب لهم بالتنبيه على قصر الحمد والثناء على اللّه دون غيره وأنّه مبدأ كلّ نعمة يستحقّ بها الحمد، وقصر اللّوم على النفس من قبولها دعوة الشيطان وإعراضها عن دعوة الرحمن، قال تعالى: ﴿ماأصابك من حسنة فمن اللّه وماأصابك من سيّئة فمن نفسك﴾.

ومن كلام له عليه السلام
في صفة من يتعدّى للحكم بين الأُمّة، وليس بذلك أهل

[**إنّ أبغض الخلائق إلى اللّه**] عزّوجلّ [**رجلان: رجل وكّله اللّه إلى نفسه**] أي: تركه واباها وجعل توكّله عليها، وقد قال صلى الله عليه وآله: اللّهمّ لاتكلني إلى نفسي فاعجز عنها، وقال: فإنّك إن وكلتني إلى نفسي هلكت.

[**فهو جائر عادل عن قصد السبيل**] والصراط المستقيم الموصل إلى الرضوان والنعيم.

[**مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة**] والمشغوف بالغين المعجمة، أي:

فهو فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هدى من كان قبله مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته حمّال خطايا غيره

بلغ حبّه إلى شغاف قلبه، وهو غلافه، وبالمهملة أي: بلغ إلى شعفة قلبه وهي عند معلّق النياط، وهذا هو الجهل المركّب والداء الّذي لادواء له، حيث أنّه جائر عن قصد السبيل، ويعتقد أنّه على سواء السبيل، فهو من الأخسرين أعمالاً، الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وممّن قال تعالى فيه: ﴿أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

[**فهو فتنة لمن افتتن به**] فإنّ محبّة قول الباطل والدعوة إلى الضلالة سبب لكونه فتنة لمن اتّبعه.

[**ضالّ عن هدى من كان قبله**] وهذا الوصف كالثاني، فإنّ الضال عن الهدى جائر عن قصد السبيل، إلّا أنّ هيٰهنا زيادة، إذ الجائر عن القصد قد يجوز ويضلّ، حيث لاهدى يتبعه، والموصوف هيٰهنا جائر وضالّ مع وجود هدى من كان قبله مأمور باتّباعه وهو كتاب اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله، وأعلام هداه الحاملون لدينه الناطقون عن مشكاة النبوّة، وذلك أبلغ في لائمته، وآكد في وجوب عقوبته.

[**مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته**] وهذا مسبّب عمّاقبله، إذ ضلال الإنسان في نفسه لإضلال غيره، وكون الإضلال في حياته ظاهر وبعد وفاته لبقاء العقائد الباطلة، المكتسبة عنه، فهي سبب ضلال الضالّين بعده.

[**حمّال خطايا غيره**] وهو لازم عمّا قبله، فإنّ حمله الأوزار من يضلّه

رهن بخطيئته

إنّما هو لسبب إضلاله له.

[**رهن بخطيئته**] أي: موثوق بها، عن الوصول إلى الصراط المستقيم والطريق القويم، وإلى هذين الوصفين أُشير في القرآن بقوله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء مايزرون﴾.

وفي النبوي: أيّما داع دعى إلى الهدى فاتّبع كان له مثل أجر من تبعه، لاينقص من أُجورهم شيء، وأيّما داع دعى إلى الضلالة فاتّبع كان علي مثل وزر من تبعه ولاينقص منه شيء، قيل: ولاينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلّا ماسعى﴾ و﴿ولاتزر وازرة وزر أُخرى﴾ وإلّا لما دخل أحد من الناس النار أبداً، بل كانت مقصورة على إبليس وحد، بل المعنى إنّ الرئيس المضلّ إذا وضع سيّئة تكون فتنة للناس وضلالاً لم تصدر تلك السيّئة إلّا عن نفس قد استولى عليها الجهل المركّب المضاد لليقين، وصار ملكة من ملكاتها، فتسود لوحها به عن قبول الأنوار الإلهيّة، وصار ذلك حجاباً بينها وبين الرحمة بحسب مايكون ذلك الحجاب في القوّة والشدّة أضعاف حجب التابعين له والمقيّدين به، الناشئة عن فتنته، فإنّ تلك الحجب الطارية على قلوب التابعين مستندة إلى ذلك الحجاب، وهو أصلها، فلاجرم يكون وزره وسيّئته في قوّة أوزار أتباعه وسيّئاتهم الّتي حصلت لسبب إضلاله لا كلّ سيّئاتهم من كلّ جهة، ولذا قال: ﴿ومن أوزار الّذين يضلّونهم﴾ أي: بعضها وهي الحاصلة بسبب المضلّين، كما قال ﷺ: فإنّه

ورجل قمش جهلاً موضعاً في جهّال الأمّة عاد في أغباش الفتنة عمّ بما في عقد الهُدنة قد سمّاه أشباه الناس عالماً وليس به

حمّال خطايا غيره رهن بخطيئته، وصيغة المبالغة إشارة إلى أنّه كثيراً مايحمل خطايا غيره. ثمّ أشار عليه السلام إلى الرجل الثاني وميّزه بعشرين وصفاً فقال:

[**ورجل قمش**] أي: جمع [**جهلاً**] استعار لفظ الجمع المحسوس للجمع المعقول [**موضعاً**] بكسر الضاد، أي: مسرعاً، من وضع البعير أسرع وأوضعه راكبه فهو موضع به، أي: أسرع به [**في جهّال الأمّة**] يسرع إلى مايسرعون إليه، وروي موضع بفتح الضاد، أي: مطرحاً ليس من أشراف الناس.

[**عاد في أغباش الفتنة**] اغباش اللّيل: بقايا ظلمته، أي: سائراً في أوائل ظلماتها.

وروي: غار، أي: غافل في ظلمات الخصومات لايهتدي لوجه تخليصها.

وروي: اغطاش الفتنة والغطش: الظلمة أيضاً.

[**عمّ بما في عقد الهُدنة**] أي: أعمى البصيرة بما في عقد الصلح والمسالمة بين الناس من نظام أُمورهم ومصالح معاشهم فهو جاهل بوجوه المصالح مثير للفتن.

[**قد سمّاه أشباه الناس**] من الجهّال وأرباب الضلال المتشبّهون بأهل الكمال صورة لاحقيقة، فالوجه وجه إنسان، والقلب قلب شيطان.

[**عالماً وليس به**] إذ ليس العلم إلّا آية محكمة، أو سنّة قائمة، أو

بكر فاستكثر من جمع ماقلّ منه خير ممّا كثر حتّى إذا ارتوى من ماء آجن متغيّر واكتثر من غير طائل جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ماالتبس على غيره

فريضة عادلة، وماخلاهنّ فهو فضل، والعالم الغير العامل بعلمه هو والشيطان سواء.

[**بكر فاستكثر من جمع ماقلّ منه خير ممّا كثر**] روي من جمع منوناً، وغير ممنون، أمّا مع التنوين فالجملة بعده صفة له، واستعمل المصدر مقام اسم المفعول، أي: من مجموع، وأمّا مع الإضافة فقيل: يحتاج إلى تقدير ما، أي: من جميع ما الّذ قلّ منه خير ممّا كثر. وقيل: هو مثل قوله: تسمع بالمعيدي خير من أن ترى. أي: من جمع ما إن قلّ منه خير ممّا كثر. وعنى بالتبكير الاشباق في أوّل العمر إلى جمع الشبهات والآراء الّتي قليلها خير من كثيرها، وباطلها أكثر من حقّها.

[**حتّى إذا ارتوى من ماء آجن متغيّر**] فاسد، استعارة للجهل والإعتقادات الفاسدة الّتي تشبه الماء الآجن الّذي لاغناء فيه للشارب، بل يضرّه، كما يستعار للعلوم الحقّة الماء الصافي والزلال، ورشح تلك الإستعارة بذكر الإرتواء، إشارة إلى التملّي منها.

[**واكتثر**] هو كقولك ستكثر [**من غير طائل**] وروي اكتنز أي: اتّخذ العلم كنزاً.

[**جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ماالتبس على غيره**] من المبهمات، واشتبه على الخلق من المعضلات واثقاً من نفسه بفصل مايعرض بين الناس من الخصومات وضامناً حال ثاني أو صفة للأوّل.

فإن نزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشواً رثّاً ثمّ قطع به فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت لايدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجى أن يكون قد أصاب

[**فإن نزلت به إحدى**] القضايا [**المبهمات**] والمسائل المشكلات، وسمّي المشكل مبهماً لأنّه أُبهم عن البيان، كأنّه أصمت كالبهيمة فلم يجعل عليه دليل ولا إليه سبيل.

[**هيّأ لها حشواً**] وهو الكلام الكثير الّذي لافائدة فيه [**رثّاً**] أي: ضعيفاً، والرث: الخلق ضدّ الجديد، أي: هيّأ لتلك القضيّة المشكلة مالايحلّها ولايرفع إشكالها.

[**ثمّ قطع به**] عن جهل مركّب [**فهو من لبس**] بالضمّ مصدر لبس [**الشبهات**] واشتباه المعضلات [**في مثل نسج العنكبوت**] وانّه لأوهن البيوت، وهو تمثيل للأُمور الواهية، ووجه الشبه أنّ الشبهات الّتي تقع على ذهن مثل هذا الموصوف إذا قصد حلّ قضيّة مبهمة يكثر فيلبّس على ذهنه وجه الحقّ منها، فلا يهتدي له لضعف ذهنه، فتلك الشبهات في الوها تشبه نسج العنكبوت وذهنه فيها يشبه الذباب الواقع، فكما لايتمكّن الذباب من خلاص نفسه من شباك العنكبوت لضعفه كذلك ذهن هذا الرجل لضعفه ونقصان عقله.

[**لايدري أصاب**] فيما حكم به [**أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجى أن يكون قد أصاب**] وهذا من لوازم الحكم مع عدم العلم وتوابع الإعتماد على الرأي والإفتاء مع الجهل.

جاهل خباط جهالات عاش ركاب عشوات لم يعضّ على العلم بضرس قاطع

[**جاهل خباط جهالات**] أي: كثير الخبط، وهو المشي على غير استواء، ومنه: خبط عشواء وهي الناقة الّتي في بصرها ضعف تخبط بيدها على كلّ شيء، والإضافة بمعنى في، وكنّى بذلك عن كثرة أغلاطه الّتي يقع فيها في الفتوى والأحكام، فيمشي فيها على غير طريق الحقّ من القواعد الشرعيّة والقوانين المرعيّة.

وفي نسخة: جهلات جمع جهلة، فعل من الجهل.

[**عاش**] خابط في ظلام [**ركاب عشوات**] جمع عشوة، مصدر عشوت ضوء النار إذا تبيّنته على ضعف، إشارة إلى أنّه لايستلمح نور الحقّ في ظلمات الشبهات إلاّ على ضعف لنقصان ضوء بصيرته، فهو يمشي فيها على مايتخيّله دون مايتحقّقه، ووجه الشبه أنّ شأن الماشي إلى الضوء في الطرق المظلمة تارة يلوح له فيمشي عليه، وتارة يخفى عنه فيضلّ عن القصد ويمشي على الوهم والخيال، فكذا حال السالك في طرق الدين قبل استكمال نور بصيرته، فإنّه تارة يدرك نور الحقّ لظهوره، وتارة يغلب عليه ظلمات الشبهات فيبقى في الظلمة خابطاً.

[**لم يعضّ على العلم بضرس قاطع**] كناية عن عدم نفاذ بصره بصيرته، وعدم إتقانه للقوانين الشرعيّة لينتفع بها انتفاعاً تامّاً، يقال: فلان لم يعضّ على الأمور بضرس قاطع، إذا لم يحكمها، وأصله أنّ الإنسان يمضع الطعام الّذي هو غذاء البدن، ثمّ لايجيد مضغه لينتفع به البدن انتفاعاً تامّاً، فمثل به من لم يحكم ولم يتقن مايدخل فيه من المعقولات الّتي هي غذاء الروح.

يذري الروايات إذراء الريح الهشيم لامليّ واللّه بإصدار ماورد عليه ولا هو أهل لما منه فرط لايحسب العلم في شيء ممّا

[**يذري الروايات إذراء الريح الهشيم**] ذراه وأذراه ذرواً واذراء إذا طيّره وقلّبه من حال إلى حال، والهشيم النبت اليابس المنكسر، وفيه تشبيه تمثيلي، ووجه الشبه صدور فعل بلاروية وبغير نفع وفائدة، فكذا هذا الرجل المتصفّح للروايات بلابصيرة ولاروية، في تصفّحها ولاشعور بوجه العمل بها يمرّ على رواية بعد أُخرى ويمشي عليها من غير فائدة وانتفاع، كما أنّ الريح الّتي تذري الهشيم لاشعور لها بفعلها ولايعود إليها من ذلك الفعل نفع ولا فائدة.

[**لامليّ واللّه بإصدار ماورد عليه**] في النهاية: المليء بالهمزة الثقة الغني، قال: وقد أولع الناس بترك الهمزة وتشديد الياء، ومنه حديث عليّ لامليّ واللّه بإصدار ماورد عليه، والإصدار الإرجاع، وضمير ورد للموصول وعليه للرجل، ويحتمل العكس، والمراد أنّه فقير ليس له قوّة علميّة، وقدرة روحانيّة على إرجاع ماورد عليه من المسائل المشكلة والشبهات المعضلة بإيراد الأجوبة الشافية عنها. وزاد في الكافي:

[**ولا هو أهل لما منه فرط**] من إدّعائه علم الحقّ، أي: ليس هو أهل لما ادّعاه من علم الحقّ الّذي من أجله سبق الناس وتقدّم عليهم بالرئاسة والحكومة، أو المعنى ليس هو من أهل العلم بالحقيقة، كما يدّعيه لما فرط منه وقصر.

[**لايحسب**] بكسر السين من الحسبان، أي: يظنّ [**العلم في شيء ممّا**

أنكر ولايرى أنّ من وراء مابلغ منه مذهباً لغيره وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه

أنكر] أي: يعتقد أنّ ماحصل له من العلم المغشوش المدلّس بالشبهات الّذي يكون الجهل خيراً منه بمراتب هو العلم ولايظنّ لغاية جهله وجود العلم لأحد في شيء ممّا جهله لاعتقاده أنّه أعلم العلماء وأنّ ماجهله قد جهله غيره بطريق أولى، وذلك مبلغه، وأمّا بضمّ السين من الحساب، أي: لايعدّ العلم في شيء ممّا جهله شيئاً، ولايدخله تحت الحساب والإعتبار.

[ولايرى أنّ من وراء مابلغ منه مذهباً] يعني أنّه إذا ظنّ حكماً في قضيّة برأيه أو بخبر مغشوش بلغه جزم به، وربّما كان فيها **[لغيره]** قول أصحّ وأظهر من قوله يعضده دليل صحيح ونصّ صريح، فلا يعتبره لكمال جهله، ويمضي على مابلغ فهمه إليه لبلادة طبعه وعدم فرقه بين الصحيح والسقيم، أو لحفظ مرتبته من النقص بالرجوع عن مذهبه الباطل إلى ذلك المذهب الصحيح والحقّ الصريح.

[وإن أظلم] على البناء للفاعل **[عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه]** وزاد في الكافي: لكي لايقال له لايعلم يقال: أظلم اللّيل عليه أي: صار مظلماً.

وقوله لما يعلم علّة للإكتتام، ومن بيان لما وكي لا يقال علّة لغلبة العلم بالجهل للإكتتام، يعني إن صار عليه أمر من أُمور الدين مظلماً مشتبهاً لايدري وجه الحقّ فيه ولاوجه الشبهة أيضاً اكتتم به وستره عن غيره من أهل العلم وسبب الإكتتام أنّه عالم بأنّه جاهل بذلك الأمر من كلّ وجه حتّى من

تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعجّ منه المواريث إلى اللّه أشكو من معشر يعيشون جهّالاً ويموتون ضلاّلاً

وجه الشبهة، فيستتر ويخفيه ويعرض عن استماعه ويسكت عنه، لئلاّ يقال إنّه لايعلمه، فيحفظ بذلك علوّ منزلته بين الناس، ولذلك الوجه لايسئل أهل العلم حتّى يستفيد منهم.

[**تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعجّ منه المواريث**] إمّا على سبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: أهل الدماء وأولياء المواريث، فيكون حقيقة، أو على سبيل إستعارة لفظ الصراخ والعجّ لنطق الدماء والمواريث بلسان حالها المفصح عن مقالها. ووجه الإستعارة إنّ الصراخ والعجيج لما كانا إنّما يصدران عن تظلّم وشكاية وكانت الدماء المهراقة بغير حقّ والمواريث المستباحة بالأحكام الباطلة ناطقة بلسان حالها مفصحة بالشكاية والتظلّم لاجرم حسن استعارة اللّفظين هنا.

ثمّ بعد أن خصّ الرجلين بما ذكر فيهما من الأوصاف المنفرة على سبيل التفصيل أردف ذلك بالتنفّر عنهما على سبيل الجملة بما يعمّهما وغيرهما من الجهّال من التشكّي والبراءة فقال:

[**إلى اللّه أشكو**] كما في بعض النسخ، أو أبرء [**من معشر يعيشون جهّالاً**] يستمرّون على الجهل والعيش فيه وكنّى بالعيش عن الحياة وقابله بذكر الموت فقال:

[**ويموتون ضلاّلاً**] وصف لازم من الوصف الأوّل، فإنّ من عاش جاهلاً مات ضالاً.

ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر

[**ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه**] أي: إذا فسّر الكتاب وحمل على الوجه الّذي أُنزل، اعتقدوه فاسداً وأطرحوه بجهلهم عن درجة الإعتبار على ذلك الوجه، وإذا حرّف عن مقاصده ومواضعه ونزل على حسب أغراضهم ومقاصدهم شروه على ذلك الوجه بأغلا ثمن، وكان من أنفق السلع بينهم، واستعار له لفظ السلعة، ووجه المشابهة ظاهر، ومنشأ جميع ذلك الجهل.

[**ولا عندهم أنكر من المعروف**] لمخالفته أغراضهم ومقاصدهم، ولذا أطرحوه حتّى صار بينهم منكراً يستقبحون فعله.

[**ولا أعرف من المنكر**] لموافقة أغراضهم ومحبّتهم له.

وقال ابن أبي الحديد: الرجل الأوّل هو الضالّ في أُصول العقائد كالمشبّه والمجبّر ونحوهما، ألا تراه كيف قال مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة فتنة لمن افتتن به الخ.

والثاني: فقهاء السوء، ألا تراه كيف يقول جلس بين الناس قاضياً وقال تصرخ من جور قضائه الدماء وتعجّ منه المواريث.

ترد على أحدهم القضيّة في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ ترد تلك القضيّة بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قول، ثمّ تجتمع القضاة بذلك عند الإمام الّذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً وإلههم واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد إذ أمرهم اللّه بالاختلاف فأطاعوه أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل اللّه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء للّه فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ اختلاف العلماء في الفتيا

[ترد على أحدهم القضيّة في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ ترد تلك القضيّة بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قول، ثمّ تجتمع القضاة بذلك] الحال والاختلاف **[عند الإمام الّذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً وإلههم]** أي: والحال أنّ الههم **[واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد]** وهذه صغرى قياس مضمر تقدير، كبراه وكلّ قوم كانوا كذلك فلايجوز أن يختلفوا في حكم شرعيّ، وتكون آراءهم المختلفة صابئة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى حجّة في تقرير المقدّمة الكبرى، إذ الصغرى مسلّمة، فقال:

[إذ أمرهم اللّه] سبحانه **[بالاختلاف فأطاعوه أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل اللّه]** سبحانه **[ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء للّه فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى]** إذ شأن الشريك ذلك.

أم أنزل اللّه ديناً تاماً فقصّر الرسولﷺ عن تبليغه وأدائه واللّه تعالى سبحانه يقول: ﴿مافرّطنا في الكتاب من شيء وفيه تبيان كلّ شيء وذكر إنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنّه لااختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق

[**أم أنزل اللّه ديناً تاماً فقصّر الرسولﷺ عن تبليغه وأدائه واللّه تعالى سبحانه يقول: ﴿مافرّطنا في الكتاب من شيء وفيه تبيان كلّ شيء**] وذلك ينادي بأنّ الكتاب يعني بجميع المطالب الدينيّة والأحكام الشرعيّة والمعارف الحقّانيّة وجميع مايحتاج إليها في أُمور معادهم ومعاشهم إذا تدبّروا معناه ولاحظوا أسراره فيحرم عليهم قولاً لايستند إليه، وحكم لايرجع إليه، وحيث إنّ عقول الخلق قاصرة وأفهامهم حاسرة عن تدبّر جميع معانيه وتعقّل ظاهره وخافيه فلابدّ من قم يحيط بجميع أسراره، ويصل إلى اغواره يجب الرجوع في ذلك إليه والتعويل عليه، كما تظافرت بذلك الآيات وتواترت الروايات. قال تعالى: ﴿ومايعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم﴾ وقال تعالى: ﴿بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أُوتوا العلم﴾ وقال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾.

[وذكر] تعالى [**إنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنّه لااختلاف فيه**] ولاتناقض في معانيه [**فقال سبحانه: ﴿ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وإنّ القرآن ظاهره أنيق**] أي: حسن معجب بأنواع البيان [**وباطنه عميق**] لايصل إلى غوره إلاّ أُمناء الرحمان وحجج اللّه على الإنس والجانّ.

لاتفنى عجائبه ولاينقضي غرائبه ولا تنكشف الظلمات إلّا به

[**لاتفنى عجائبه**] الأُمور المعجبة منه [**ولاينقضي غرائبه**] أي: الأُمور الغريبة المستنبطة منه.

[**ولا تنكشف الظلمات**] ظلمة الضلال وظلمة الجهل وظلمة الشبهات [**إلّا به**] ولاتنجلي إلّا بنوره، فأين تسرحون وأنّى تصرفون؟

قال المحقّق الوحيد ابن أبي الحديد: لاينبغي أن يحمل جميع مافي الكتاب العزيز على ظاهره، فكم من ظاهر فيه غيرمراد، بل المراد به أمر آخر باطن، والمراد الردّ على أهل الإجتهاد في الأحكام الشرعيّة وإفساد قول من قال كلّ مجتهد مصيب، وتلخيص الإحتجاج من خمسة أوجه:

أحدها: أنّه لمّا كان الإله سبحانه واحداً والرسول واحداً والكتاب واحداً وجب أن يكون الحكم في الواقعة واحداً، كالملك الّذي يرسل إلى رعيّته رسولاً بكتاب يأمرهم فيه بأوامر يقتضيها ملكه وإمرته، فإنّه لايجوز أن تتناقض أوامره ولو تناقضت لنسب إلى السفه والجهل.

وثانيها: لايخلو الإختلاف الّذي ذهب إليه المجتهدون إمّا أن يكون مأموراً به أو منهيّاً عنه، والأوّل باطل، لأنّه ليس في الكتاب والسنّة مايمكن الخصم أن يتعلّق به في كون الإختلاف مأموراً به، والثاني: حقّ، ويلزم منه تحريم الإختلاف.

وثالثها: إمّا أن يكون الإسلام ناقصاً أو تامّاً، فإن كان الأوّل كان اللّه قد استعان بالمكلّفين على إتمام شريعة ناقصة أرسل بها رسوله إمّا استعان

....

على سبيل النيابة، أو على سبيل المشاركة، وكلاهما كفر. وإن كان الثاني فإمّا أن يكون اللّه تعالى أنزل الشرع تاماً فقصّر الرسول عن تبليغه، أو يكون الرسول قد بلّغه على تمامه وكماله، فإن كان الأوّل فهو كفر أيضاً، وإن كان الثاني فقد بطل الإجتهاد، لأنّ الإجتهاد إنّما يكون فيما لم يتبيّن، فأمّا ما قد تبيّن فلامجال للإجتهاد فيه.

ورابعها: الإستدلال بقوله تعالى: ﴿مافرّطنا في الكتاب من شيء﴾ وقوله: ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾ وقوله سبحانه: ﴿ولارطب ولايابس إلاّ في كتاب مبين﴾ فهذه الآيات دالّة على اشتمال الكتاب العزيز على جميع الأحكام، فكلّما ليس في الكتاب وجب أن لايكون في الشرع.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غيراللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ فجعل الإختلاف دليلاً على أنّه ليس من عند اللّه، لكنّه من عند اللّه سبحانه بالأدلّة القاطعة الدالّة على صحّة النبوّة، فوجب أن لايكون فيه اختلاف.

واعلم إنّ هذه الوجوه هي الّتي يتعلّق بها الإماميّة ونفاة القياس والإجتهاد في الشرعيّات، وقد تكلّم عليها أصحابنا إلى آخر ما قال.

وفي نسخة خاطب به الأشعث بن قيس، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث، فخفق عليه السلام إليه بصره ومايدريك ما عليّ ممّا لي عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين

ومن كلام له عليه السلام
قاله للأشعث

[وفي نسخة خاطب به الأشعث بن قيس، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث] وهو أنّه عليه السلام كان يذكر في خطبته أمر الحكمين، فقال له رجل من أصحابه: نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها، فملندري أيّ الأمرين أرشد، فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذا جزاء من ترك العقدة، أي جزاءكم إذ تركتم الرأي والحزم وأصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم، فظنّ الأشعث أنّه أرا هذا جزائي حيث تركت الحزم وحكمت، فقال: ياأميرالمؤمنين هذه عليك لا لك حيث تركت وجه المصلحة وابتعت الآراء الباطلة.

[فخفق عليه السلام إليه بصره] ثمّ قال: **[ومايدريك ما عليّ ممّا لي]** إذ ليس لمن لايعلم حجة على من يعلم وهو عليه السلام باب مدينة العلم وسيّد العارفين وأعلم الأوّلين والآخرين بعد سيّد المرسلين.

[عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين] لكونه مضافاً إلى اعتراضه وردّه على الله ورسوله من المنافقين الداخلين في ضمن قوله تعالى: ﴿أُولئك جزاؤهم

حائك ابن حائك، منافق ابن كافر

أنّ عليهم لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين﴾ [حائك ابن حائك] إمّا على ظاهره لما روي أنّه كان و وأبوه ينسجان برود اليمن، أو مجازاً، لأنّه كان إذا مشى يحرّك منكبيه ويفجج بين رجليه، وهذه المشية تعرف بالحياكة، أو استعارة أُشير بها إلى نقصان عقله، وقلّة استعداده، فليس له أهليّة الإعتراض عليه، لأنّ ذن الحائك تمام وقته متوجّه إلى أوضاع الخيوط المتفرّقة وترتيبها، ونظامها محتاج إلى حركة رجليه ويديه ونحو ذلك، ممّا يشغله عمّا سواه، فهو أبله فيماعدا شغله، مضافاً إلى أنّ مخالطته غالباً ومعاملته مع ضعفاء العقول من النساء والصبيان، والطبع يسترق، وذلك هو السبب في نقصان عقل معلّم الأطفال.

وعن الصادق عليه السلام قال: عقل أربعين معلّماً عقل حائك، وعقل حائك عقل امرأة، والمرأة لاعقل لها.

وعن الكاظم عليه السلام قال: لاتستشيروا المعلّمين ولا الحوكة، فإنّ اللّه تعالى قد سلبهم عقولهم. ثمّ زاد عليه السلام في ذمّه بقوله:

[منافق بن كافر] قال ابن أبي الحديد: وكان الأشعث من المنافقين في خلافة عليّ عليه السلام وهو في أصحاب أميرالمؤمنين، كما كان عبداللّه بن أبي سلول في أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله كلّ واحد منهما رأس النفاق في زمانه، وكان أشعث الرأس فغلب عليه ذلك حتّى نسي اسمه، وتزوّج النبيّ صلى الله عليه وآله أُخته قتيلة، فتوفّى قبل أن تصل إليه، ثمّ أكّد عليه السلام نقصان عقله وقلّة فطنته بوقوعه في الأسر مرّتين فقال:

والله لقد أسّرك الكفر مرّة والإسلام أُخرى فما فداك في واحدة منهما مالك ولا حسبك

[**والله لقد أسّرك الكفر مرّة والإسلام أُخرى فما فداك**] أي لم ينجك من الوقوع [**في واحدة منهما مالك ولا حسبك**] ولم يرد الفداء بعد الأسر، لأنّه فدى نفسه في الجاهليّة، وذلك لأنّ مراداً لما قتلت أباه خرج ثائراً طالباً بدمه، فأسر ففدى نفسه بثلاثة آلاف بعير، ووفد على النبيﷺ في سبعين رجلاً من كندة، فأسلم على يديه، وهذا هو المشار إليه بقولهﷺ: أسّرك الكفر.

وأمّا أسره في الإسلام فذكر ما ملخّصه: انّه لمّا قُبض رسول اللهﷺ ارتدّ بحضرموت، ومنع أهلها تسليم الصدقة، وأبى أن يبايع لأبي بكر، فبعث إليه بزياد بن لبيد بعد رجوعه عنهم، وقد كان عاملاً قبل ذلك على حضرموت، ثمّ أردفه بعكرمة بن أبي جهل في جمع عظيم من المسلمين، فقاتلهم الأشعث بقبائل كندة قتالاً شديداً في وقائع كثيرة، وكانت الدائرة عليه، فالتجأ بقومه إلى حصنهم، فحصره زياد حصراً شديداً، وبلغ بهم جهد العطش، فبعث الأشعث إلى زياد يطلب منه الأمان لأهله ولبعض قومه، ومن غفلته أنّه لم يطلب لنفسه الأمان، فلمّا نزل أسّره وبعث به مقيّداً إلى أبي بكر بالمدينة، فسأل أبابكر أن يستبقيه لحربه ويزوّجه أُخته أُمّ فروة، ففعل وكانت عمياء، فولدت له محمّداً وإسماعيل وإسحاق، وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة، فما مرّ بذات أربع إلّا عقرها وقال للناس: هذه وليمة البناء، وثمن كلّ عقرة في مالي فدفع أثمانها إلى أربابها، فكان المسلمون والكافرون يلعنونه وسبايا قومه وسماء نساء قومه عرف النار، وهو اسم للغادر عندهم.

وإن امرء دلّ على قومه السيف وقاد لهم الحتف، لحريّ أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد فإنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم

[**وإن امرء دلّ على قومه السيف وقاد لهم الحتف، لحريّ أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد**] إشارة إلى ماذكره الشرّاح من غدره بقومه، لأنّه لمّا طلب الأمان من زياد لنفر يسير من وجوه قومه فظنّ الباقون أنّه أخذ الأمان لجميعهم، فسكنوا ونزلوا من الحصن، فلمّا خرجوا قتلوا صبراً، فذكروا زياد الأمان، فقال: إنّ الأشعث لم يطلب الأمان إلّا لعشرة من قومه.

فأمّا ما قال السيّد (رضي اللّه عنه) أنّه أُسر في الكفر مرّة وفي الإسلام أُخرى.

وأمّا قوله عليه السلام: دلّ على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالدبن الوليد باليمامة غرّ فيه قومه ومكر بهم حتّى أوقع بهم خالد، وكان قومه بعد ذلك يسمّونه عرف النار، وهو إسم للغادر عندهم، فلم نقف عليه، ولعلّه اشتباه لفظيّ منشأه قتال خالد أهل الردّة باليمامة.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فإنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم**] من أهوال الموت وسكراته وكربه وصدماته وأهوال منكر ونكير والسؤال والعذاب ونحو ذلك [**لجزعتم ووهلتم**] أي: فزعتم، يقال: وهل يوهل وهلاً: فزع.

وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ماعاينوا

[**وسمعتم**] الداعي إلى اللّه [**وأطعتم**] اللّه ورسوله وحججه بامتثال الأوامر الإلهيّة، واجتناب النواهي الشرعيّة، وقلتم ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل فتجابون بقوله تعالى: أولم نعمّركم مايتذكّر فيه من تذكّر رجاءكم النذير، فذوقوا فما للظالمين من نصير.

[**ولكن محجوب عنكم ماعاينوا**] فإنّ العالم الجسمانيّ لايدرك مافي العالم البرزخي والمثالي، ولا العالم الأُخرويّ، ولذا إنّ من صحب الميّت ولم يفارقه حتّى في قبره لايرى شيئاً والميّت معذّب أو مثاب قطعاً، بل إذا ختُم فم الميّت ثمّ بعد أيّام فتحت قبره وجدت الختم كما كان مع أنّه سُئل قطعاً، وذاك لاحتجاب مافي ذلك العالم عن أهل هذا العالم لحكم ربّانيّة وأسرار خفيّة، ونظير ذلك أنّك تصاحب النائم وهو يرى في منامه أهوالاً عظيمة، وآلاماً جسيمة، ويستغيث فلايغاث، وينادي فلايجاب، ويتألّم كمال التألّم بمايراه، وأنت بجنبه لاترى من ذلك شيئاً، لأنّ الإنسان مادام ملتحفاً بجلباب هذا البدن الظلماني، فهو محجوب بظلمة هيئاته ومعارضات أوهامه وخيالاته عن مشاهدة عالم الغيب، وذلك الحجاب أمر قابل للزيادة والنقصان، والناس فيه على مراتب، ولو رفع اللّه عنهم هذا الجلباب وطرح عن أعين بصائرهم ذلك الحجاب لشاهدوا من أهوال الآخرة وأحوالها ماشاهد أُولئك كما اتّفق لجملة من عباد اللّه الصالحين، وخواصّه العارفن، وأولياءه المتّقين، ومنهم حارث بن النعمان.

وقريب مايطرح الحجاب ولقد بُصِّرتم إن أبصرتم وأُسمعتُم إن سمعتم وبحقّ أقول لكم: لقد جاهرتْكُم العِبَر

[**وقريب مايطرح**] ما مصدريّة في محلّ الرفع بالإبتداء، وقريب خبره، أي: طرح [**الحجاب**] قريب، وهو في صورة التهديد، والمراد بذلك الموت الرافع لحجب الأبدان عن رديّة تلك الأمور بالعيان، كما قال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ وإنّما كان قريباً لأنّه آت لامحالة، وكلّ آت قريب، وهو هادم اللذّات، الّذي لامفرّ منه، ومفرق الجماعات الّذي لامحيص عنه ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ ﴿قل إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾.

ثمّ أشار عليه السلام إلى طرق الهداية وإلى مايشبه الجواب عن العذر السابق لحالهم، وهو وجود الحجاب المانع عن مشاهدة مايوجب الجزع والفزع، بقوله:

[**ولقد بُصِّرتم**] بالعبَر والأمثال وتقلّب الأحوال [**إن أبصرتم**] إذ وجود البصر بلا إبصار غير نافع، كما قال: ﴿لهم أعين لايُبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها﴾.

[**وأُسمعتُم**] المواعظ الإلهيّة والحكم الربانيّة، وماجرى على القرون الماضية والأُمم الخالية [**إن سمعتم**] حسبما مرّ، وخصّ البصر والسمع بالذكر لأنّهما الآلتان اللّتان عليهما مدار العبرة والإعتبار، وبهما يتوصّل إلى البصيرة والإستبصار، ثمّ أردف ذلك ببيان مابصّروا به وأُسمعوا، فقال:

[**وبحقّ أقول لكم: لقد جاهرتْكُم العِبَر**] بما نزل بالأُمم السالفين

وزجرتم بما فيه مزدجر وما يبلِّغ عن اللّه بعد رُسُل السماء إلاّ البشر فإنّ الغاية أمامكم وإنّ وراءكم الساعة

والقرون الماضين [**وزجرتم بما فيه مزدجر**] بالوعيدات العظيمة، والتهويلات الجسيمة، والمصائب والآلام، وتقلّب الأحوال والأيّام، ولولم يكن إلاّ الموت لكفى، كيف ومابعد الموت أعظم وأدهى، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدَجَر حكمة بالغة فما تُغني النُذُر﴾.

وقوله: [**وما يبلِّغ عن اللّه بعد رُسُل السماء إلاّ البشر**] إشارة إلى أنّه ليس في الإمكان طريق وراء ماجذبتم به إلى اللّه على ألسنة رسله من الوعد والوعيد، والأمثال والتذكير بالعِبَر وتقلّب الأحوال بعد رُسُل السماء وهم الملائكة، إلاّ على ألسنة الرُسُل البشريّة، ولايمكن أن يبلّغكم رسالات ربّكم بعد الملائكة إلاّ هم، وقد بلغوا وأكّدوا، فينبغي أن يكون ذلك لكم كافياً، ولأمراضكم شافياً، فلا عذر لكم في التخلّف عن دعوتهم، وترك سلوك طرق هدايتهم.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فإنّ الغاية**] من الجنّة والنار، والثواب والعقاب، وسائر أحوال الآخرة [**أمامكم**] إليها تسيرون، وفيها تصيرون، ويحتمل أن يُراد بالغاية الموت، لأنّ الإنسان كالسائر إليه.

[**وإنّ وراءكم الساعة**] أي: القيامة، كما قال: ﴿ويسألونك عن

تحدوكم تخفّفوا تلحقوا فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم

الساعة﴾ وقال: ﴿اقتربت الساعة﴾ وجعلت وراء لأنّها تسوق الناس إلى موقف الجزاء، كما يسوق الراعي الإبل، فكانت كالشيء يخفر الإنسان من خلفه، ويحرّكه من وراءٍ إلى جهة مابين يديه.

ويحتمل إرادة القيامة الصغرى، وهي الموت، وكان وراء لأنّ الإنسان لّما كان بطبعه يفرّ من الموت وينفر منه وكانت العادة في الهارب من الشيء أن يكون وراءه مهروب عنه، وكان الموت متأخّراً عن وجود الإنسان ولاحقاً تأخّراً ولحوقاً عقليّاً أشبه المهروب عنه المتأخّر اللاحق هرباً وتأخّراً ولحوقاً حسّياً، فاستعير له لفظ الجهة المحسوسة، وهي وراء، وإنّما قال:

[تحدوكم] لأنّ الحادي شافه سوق الإبل بالحداء، وكان تذكّر الموت وسماع نواديه متعلّقاً مزعجاً للنفوس إلى الإستعداد لأُمور الآخرة والأهبة للقاء اللّه، فو يحملها على قطع عقبات طريق الآخرة، كما يحمل الحادي الإبل على قطع الطرق البعيدة الوعرة، فأُشبه الحادي وأُسند إليه، ولّما نبّههم بكون الغاية أمامهم، والساعة تحدوهم على سفر لابدّ من سلوكه، نبّه على طريق النجاة فيه، فقال:

[تخفّفوا تلحقوا] أي: خفّفوا علائقكم في الدنيا بالزهد فيها والإعراض عن شهواتها ولذّاتها، بل عن كلّ شاغل عن اللّه وعائق عن رضاه، كي يلحقوا بدرجات السابقين، ومراتب المقرّبين، وهو جزاء، أو إن تخفّفوا تلحقوا.

[فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم] أي: انّما ينتظر ببعث الّذين ماتوا سابقاً

إنّ هذا الكلام لو وُزن بعد كلام اللّه سبحانه وكلام رسول اللّه ﷺ بكلّ كلام لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً. فأمّا قوله (عليه السلام): «تخفّفوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً وماأبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة استعار لفظ النطفة، وهي الماء القليل الصافي لما فيها من الحكمة.

موت الباقين ولحوقهم بهم لاقتضاء حكمة اللّه ذلك، كأمير يريد إعطاء جنده إذا تكامل عرضهم إنّما يعطي الأوّل منهم إذا انتهى عرض الأخير، ووصف الإنتظار مستعان لكمال مطلوب اللّه سبحانه من الخلق بأسرهم، وهو وصولهم إلى ساحل عزّته.

قال السيّد (رض): أقول:

إنّ هذا الكلام لو وُزن بعد كلام اللّه سبحانه وكلام رسول اللّه ﷺ بكلّ كلام لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً.

فأمّا قوله (عليه السلام): «تخفّفوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً وماأبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة استعار لفظ النطفة، وهي الماء القليل الصافي لما فيها من الحكمة.

ومن خطبة له (عليه السلام)

وأكثرها ملخّص من خطبته الّتي خطبها لمّا بلغه أنّ طلحة والزبير خلعا بيعته، وأوّلها بعد حمد اللّه والثناء عليه والصلاة على نبيّه ﷺ: «أيّها الناس

ألا وإنّ الشيطان قد ذمّر حزبه واستجلب جلبه ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه والله ما أنكروا عليَّ منكراً ولاجعلوا بيني وبينهم نَصَفاً

إنّ الله افترض الجهاد فعظّمه، وجعله نصرته وناصره، والله ماصلحت دنياً ولا دين إلاّ به».

[**ألا وإنّ الشيطان قد ذمّر**] بالذال المعجمة مخفّفاً ومشدّداً، والتشديد دليل التكثير، أي: حضّ وحثّ [**حزبه**] أتباعه وأشياعه ودعاهم فأجابوه، وناداهم فأطاعوه.

[**واستجلب جلبه**] بفتح اللام مايجلب، كما يقال: جمع جمعه، والجلب: الجماعة من الناس وغيرهم تجمع وتؤلّف.

وفي نسخة: خيله وهو واضح.

[**ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه**] كما كان عليه حين البعث، ممّا أُشير إليه سابقاً.

وفي نسخة: إلى مظانّه، أي: محالّه.

وفي أُخرى: إلى قطابه، قطاب الجيب: مدخل الرأس فيه، أي: ليعود الجور إلى لباسه وثوبه.

[**والله ما أنكروا عليَّ منكراً**] من قتل عثمان، أو السكوت عن النكير على قاتليه، إذ هو عليه السلام بريء منه مع أنّه غير منكر، وقد أجمع عليه الصحابة والتابعون أكثر من الّذين أجمعوا على خلافة أبي‌بكر، فإن كان إجماعهم هناك حجّة فليكن هنا.

[**ولاجعلوا بيني وبينهم نَصَفاً**] بالتحريك، وهو الّذي ينصف، إشارة

وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه فلئن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه، ولئن كانوا ولّوه دوني، فما التبعة إلاّ عندهم وإنّ أعظم حجّة لعلى أنفسهم يرتضعون، أُمّاً قد فطمت

إلى أنّهم لو وصفوا العدل بينهم وبينه لظهر لهم بطلان دعواهم.

[**وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه**] إشارة إلى طلبهم لدم عثمان مع كونهم أعظم شركاء فيه، وطلحة كان من أعظم المحرضين على قتله، والساعين فيه، وكذا الزبير وعائشة، وروي أنّ الزبير لمّا برز لعليّ عليه السلام يوم الجمل قال له: ماحملك على ماصنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، فقال: أنت وطلحة ولّيتماه وإنّما توبتك من ذلك أن تقدّم نفسك وتسلّمها إلى ورثته.

[**فلئن كنت شريكهم فيه**] فرضاً ولذاتي بان دون إذاً [**فإنّ لهم لنصيبهم منه، ولئن كانوا ولّوه دوني، فما التبعة إلاّ عندهم**] قبل تقرير الحجّة أنّهم خلوا في دم عثمان، وكلّ من دخل فيه فإمّا بالشركة أو الإستقلال، وعلي التقديرين فليس لهم أن يطلبوا بدمه.

وأشار إلى القسم الأوّل بقوله: فإن كنتَ الخ، أي: على تقدير كونهم شركاء لي في ذلك، فعليهم أن يبدأوا بتسليم أنفسهم إلى أوليائه، وأشار إلى الثاني بقوله: وإن كانوا ولّوه دوني فما الطلبة إلاّ قتلهم.

[**وإنّ أعظم حجّة لعلى أنفسهم**] كما عرفت [**يرتضعون، أُمّاً قد فطمت**] استعار لفظ الأمّ لنفسه، أو للخلافة، فبيت المال لبنها، والمسلمون أولادها المرتضعون، وكنّى بارتضاعهم لها، وقد فطمت التماسهم منه عليه السلام

ويحيون بدعة قد أُميتت وإلىٰ مَ أُجيب وإنّي لراض بحجّة اللّه عليهم وعلمه فيهم فإن أبوا أعطيتهم حدّ السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحقّ، ومن العَجَب بعثهم إليّ

من الصلات والتفضيلات، مثل ما كان يصلهم عثمان ويفضّل بعضهم على بعض، والفطام منعه لهم من ذلك.

[**ويحيون بدعة قد أُميتت**] إشارة إلى ذلك التفضيل، فإنّه بخلافه سنّة رسول اللّه ﷺ الّذي قال اللّه: ﴿ولكم في رسول اللّه أُسوة حسنة﴾ بل بخلاف سيرة الشيخين، ياخيبة الداعي من دعى، قيل: هو كالنداء في قوله تعالى: ﴿ياحسرة على العباد ياحسرتنا على مافرّطنا﴾ أي: ياخيبتي احفري، فهذا أوانك، وقيل: خرج مخرج التعجّب من عظم خيبة الدعاة إلى قتاله، ومن دعى.

[**وإلىٰ مَ أُجيب**] استفهام على سبيل الإستحقار للمدعوين لقتاله والناصرين إذا كانوا أعوام الناس ورعاعهم وللمدعو إليه وهو الباطل الّذي دعوا لنصرته.

[**وإنّي لراض بحجّة اللّه عليهم**] فللّه الحجّة البالغة، وقد احتجّ عليهم بما مرّ ونحوه.

[**وعلمه فيهم**] فإنّه يعلم بظلمهم لي، وكفاني ذلك، إذ كفى به ناصراً ووليّاً ومعيناً.

[**فإن أبوا**] عن قبول الحجّة والبرهان ودلائل البيان [**أعطيتهم حدّ السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحقّ، ومن العَجَب بعثهم إليّ**

أن أبرز للطعان، وأن أصبر للجلاد، هبلتهم الهبول لقد كنت وما أُهدّد بالحرب، ولا أُرهب بالضرب وإنّي لعلى يقين من ربّي، وفي غير شبهة من ديني

أن أبرز للطعان، وأن أصبر للجلاد] تعجبّ عليه السلام من تهديدهم له بذلك، مع علمهم بحاله في الشجاعة والحرب، والصبر على المكاره، وهو محلّ الإستهزاء والتعجّب منهم.

[**هبلتهم الهبول**] أي: ثكلتهم الثواكل، وهي من الكلمات الّتي تدعوا بها العرب.

[**لقد كنت وما أُهدّد بالحرب، ولا أُرهب بالضرب**] أي: لم أزل منذ كنت عل هذه الحال فما هذا التهديد.

[**وإنّي لعلى يقين من ربّي، وفي غير شبهة من ديني**] تأكيد لقوّته على الحرب، وإقدامه على الجلاد، وجذب لقلوب السامعين إلى الثقة، بأنّهم على بيّنة من ربّهم، وبصيرة في متابعتهم إيّاه على القتال والحرب، فإنّ الموثق بأنّه على الحقّ ناصر للّه، ذابّ عن دين اللّه، وكلّما اشتدّ يقينه كان أشدّ صبراً، وأقوى جلداً، وأثبت في المكاره، ممّن لايكون كذلك، .

أمّا بعد، فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس، فلا يكوننّ ذلك له فتنة

ومن خطبة له عليه السلام

قيل مدار هذا الفصل على تأديب الفقراء بترك الحسد ونحوه، وتأديب الأغنياء بالشفقة على الفقراء ومواساتهم، وتزهيد بجمع المال، وقدّم مقدّمة حاصلها الإشارة إلى أ كلّما يتجدّد من زيادة أو نقصان فيما يكون به صلاح الخلق في معاشهم ومعادهم من مال أو جاه أو أهل، فإنّه عن قسمة ربّانيّة، فقال عليه السلام:

[**أمّا بعد، فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان**] أي: القضاء والقدر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر، أي: مبثوث في جميع أقطار الأرض إلى كلّ نفس بما قسّم لها من زيادة أو نقصان في المال والعمر والجاه والولد.

[**فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة**] أي: زيادة [**في أهل أو مال أو نفس، فلا يكوننّ ذلك له فتنة**] يفتتن به ويفضي به إلى الحسد، وقيل: أراد بالأمر الّذي ينزل حكم القدرة الإلهيّة على الممكنات بالجود الإلهي، المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿إنّما أمرنا بشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون﴾ وبنزوله نسبة حصوله إلى كلّ نفس بما قسم لها، وهي النسبة المسمّاة بالقدر في قوله

فإنّ المرء المسلم ما لم يغش دناءة يظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس كالفالج الياسر الّذي ينتظر أوّل فورة من قداحه توجب له المغنم

تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه، وما ننزّله إلّا بقدر معلوم﴾ والمراد بالسماء سماء الجود الإلهي، وبالأرض عالم الكون والفساد، ويحتمل أن يراد ظاهرهما، لأنّ السماوات بحركاتها شرائط معدّة لما يحدث في الأرض، فكانت مبادي على بعض الوجوه، لنزول الأمر، فجاز نسبته إليها، ووجه تشبيهه بقطر المطر: إنّ حصوله لكلّ نفس ممّا يختلف بالإصابة وعدمها، وبالزيادة والنقصان، كالقطر بالنسبة إلى البقاع، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس، وقوله: فإذا رأى الخ تأديب لمن حصل في حقّه النقصان من أحد الأمور المذكورة بالنهي عن الفتنة بحال من حصلت له الزيادة في أحدهما، والفتنة: الإبتلاء، أي: فلا يبتل نفسه بغبطة وحسد.

[**فإنّ المرء المسلم ما لم يغش**] أي: يرتكب، وما مصدريّة بمعنى المدّة.

[**دناءة**] أي: أمراً خسيساً [**يظهر**] عنه بين الناس [**فيخشع لها**] أي: يستحي منها [**إذا ذكرت**] بين الناس، ويخشع إذا قرع به.

[**ويغرى بها لئام الناس**] وعوامهم، في فعل مثله، أو في هتك ستره به [**كالفالج الياسر**] أي: اللاعب بالميسر، وهو لعب معروف، كانت العرب تلعب به.

[**الّذي ينتظر أوّل فورة من قداحه**] وهي الخشبات الّتي يلعب بها، ثمّ أشار إلى وجه فوزه أنّها [**توجب له المغنم**] والنفع في بعض السهام.

وترفع عنه بها المغرم وكذلك المسلم البريء من الخيانة ينتظر إحدى الحسنَيَيْن إمّا داعي اللّه فما عنداللّه خير له وإمّا رزق اللّه فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه حافظاً لهما، فيفوز الفوز العظيم. أنّ المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة

[**وترفع عنه بها المغرم**] والغرّ في بعض آخر، وبعضها توجب غنماً وغرماً، وبعضها لايوجب غنماً ولا غرماً.

[**وكذلك المسلم البريء من الخيانة**] الضابط لنفسه عن ارتكاب مناهي اللّه في صبره عنها حسبما مرّ وصفه.

[**ينتظر إحدى الحسنَيَيْن**] في الدنيا [**إمّا داعي اللّه**] أن يدعوه اللّه بالقبض إليه عن الشقاء في هذه الدار [**فما عنداللّه خير له**] فيفوز إذاً بالنعيم المقيم.

[**وإمّا رزق اللّه**] أن يفتح اللّه عليه أبواب رزقه فيصبح [**فإذا هو ذو أهل ومال**] قد جمع اللّه له بينهما [**ومعه دينه وحسبه**] **حافظاً لهما، فيفوز الفوز العظيم**.

ثمّ نبّه عليه السلام على تحقير الدنيا، ومافيها بقوله:

[**أنّ المال والبنين حرث الدنيا**] لأنّهما من أعظم أسبابها ومصالحها.

[**والعمل الصالح حرث الآخرة**] وحرث الدنيا حقير عند حرث الآخرة، فليطلب الأهمّ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً وخير أملاً﴾ وقال تعالى: ﴿ومامتاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل﴾.

وقد يجمعها اللّه لأقوام فاحذروا من اللّه ماحذركم من نفسه واخشوه خشية ليست بتعذير واعملوا في غير رياء ولاسمعة، فإنّه من يعمل لغيراللّه يكله اللّه إلى مَن عمل له نسأل اللّه منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء

[**وقد يجمعها اللّه لأقوام**] كسليمان ويوسف، فمن حاول ذلك فليلتجي إلى اللّه في الجمع بينهما، فإنّ اجتماعهما منه لا من غيره، فتوكّلوا عليه، حيث كان جمعهما غيرممكن إلاّ منه، ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾ ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[**فاحذروا من اللّه ماحذركم من نفسه**] بقوله: ﴿فاتّقون﴾، ﴿فارهبون﴾، ﴿ولاتخشوا الناس واخشون﴾.

[**واخشوه خشية**] صادقة [**ليست بتعذير**] وهو إظهار العذر من غير عذر، [**واعملوا**] للّه عملاً خالصاً [**في غير رياء ولاسمعة، فإنّه من يعمل لغيراللّه يكله اللّه إلى مَن عمل له**] ومن وُكِّل إلى غير اللّه فهو من الخاسرين الهالكين، اللّهم لاتكلني إلى نفسي، فأعجز عنها، ولا إلى الناس فيهينوني، ولا إلى قرابتي فيحرموني.

[**نسأل اللّه منازل الشهداء ومعايشة السعداء**] أي: العيش معهم [**ومرافقة الأنبياء**] وبدأ عليه السلام بطلب أسهل المراتب الثلاثة للإنسان، وختم بأعظمها، فإنّ من حكم له بالشهادة غايته أن يكون سعيداً، والسعيد غايته أن يكون في زمرة الأنبياء، رفيقاً لها، فانظر إلى هذا الترتيب العجيب، والطرز الغريب من الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، لأنّ المرتبة العالية لايمكن

أيّها الناس، إنّه لايستغني الرجل وإن كان ذامال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وبألسنتهم وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، والمهمّ لشعثه وأعطفهم عليه عند نازلة نزلت به

الوصول إليها دفعة قبل الوصول إلى ماسواها، كما لايمكن الصعود إلى السطح دون تناول السلّم.

ولمّا أشار عليه السلام إلى تأديب الفقراء عن التعرّض للأغنياء بما يوجب لهم ملكات السوء من الحسد ونحوه، أردف ذلك بتأديب الأغنياء بمعونة الفقراء لينتظم شمل الطرفين، ويصلح أمر الجانبين، فقال:

[**أيّها الناس، إنّه لايستغني الرجل وإن كان ذامال**] وثروة وخدم وحشم عن أعوان له وأصحاب ومعاضدين، ولذا ترى الملوك الّذين هم أكثر الناس ثروة أحوج الخلق إلى الأعوان، وقد روي من قال: اللّهمّ أغنني عن خلقك، فقيل: لا، فقل: كذا، فإنّ الخلق كالأصابع يحتاج بعضهم إلى بعض، بل قل: اللّهمّ أغنني عن شرار خلقك.

وبالجملة: فلا غناء لأحد عن الخلق سيّما [**عن عشيرته**] وأقاربه، فإنّهم أعظم الناس شفقة عليه في إصلاح أُموره.

[**ودفاعهم عنه بأيديهم**] صولة الصائلين [**وبألسنتهم**] مسبّة القائلين.

[**وهم أعظم الناس حيطة**] بكسر الحاء وسكون الياء [**من ورائه، والمهمّ لشعثه**] أي: أشدّهم جمعاً لما تفرق من أمره.

[**وأعطفهم عليه عند نازلة نزلت به**] من فقر وحاجة، لأنّ قربهم منه باعث لهذه الأُمور الّتي هي دواعي الشفقة عليه.

ولسان الصدق يجعل اللّه للمرء في الناس خير له من المال يورثه ومنها: ألا لايعدلنّ أحدكم عن القرابة يرى أن يسدّها بالّذي لايزيده إن أمسكه، ولاينقصه إن أهلكه ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنّما يقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيدي كثيرة

[**ولسان الصدق**] وهو الذكر الجميل [**يجعل اللّه للمرء في الناس**] كما قال: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ [**خير له من المال يورثه**] غيره، وهذا أيضاً ترغيب في البدل بمايستلزمه من غاية الذكر الجميل.

[**ومنها: ألا**] العرض والتنبيه، إشارة إلى غفلتهم.

[**لايعدلنّ أحدكم عن القرابة**] وينحرف عنها [**يرى**] في موضع النصب على الحال [**أن يسدّها**] في موضع الجرّ بدلاً من القرابة [**بالّذي لايزيده إن أمسكه، ولاينقصه إن أهلكه**] أي: لايعدل عن سدّ خلّة أقاربه وأرحامه بالفضل من المال الّذي لايزيد إمساكه في إصلاح حاله، ولاينقص إتلافه من ذلك، فإنّ الفضل الزائد في حال الإنسان على القدر الّذي يدفع به حاجته، وكنّى بالسدّ الّذي هو حقيقة في منع جسم لجسم محسوس عن المنع المعقول، وهو منه الإختلال الواقع في حال الإنسان، كناية بالمستعار.

[**ومن يقبض يده**] بأن يمسك خيره [**عن عشيرته، فإنّما يقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيدي كثيرة**] ولاريب أنّ انتفاع الناس بالهدي الكثيرة أتمّ وأولى بصلاح حاله، وأكثر من النفع الحاصل له بقبض يده عن النفع بها، فيجب عليه أن يستجاب بمدّ يده بالنفع مدّ الأيدي الكثيرة إلى نفعه، وإلاّ كان سفيهاً مضيعاً مفوتاً على نفسه منافع عظيمة، بل يكون

ومن يلن حاشيته من قومه المودّة وما أحسن المعنى الّذي أراد بقوله: ومن يقبض يده عن عشيرته إلى تمام الكلمة، فإنّ الممسك يده عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم واضطرّ إلى مراقدتهم قعدوا عن نصرته، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة وتناهض الأقدام الجمّة.

قد ناقض غرضه ووقع في أعظم ممّا فرّ منه، كما لايخفى، فإنّه إنّما أمسك يده للنفع، وقد فاته أعظم النفع.

[**ومن يلن حاشيته**] وجانبه للناس بالتواضع لهم، يستدم [**من قومه**] الّذين تواضع لهم [**المودّة**] مودّتهم المستلزمة لنفعه وعدم مضرّتهم له، وصلاح حاله، وقد أدّب اللّه تعالى نبيّه بمثل ذلك، فقال: ﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾.

قال السيّد (رضي اللّه عنه):

[**وما أحسن المعنى الّذي أراد بقوله: ومن يقبض يده عن عشيرته إلى تمام الكلمة، فإنّ الممسك يده عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم واضطرّ إلى مراقدتهم قعدوا عن نصرته، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة وتناهض الأقدام الجمّة.**

ولعَمْري ما عليَّ من قتال من خالف الحقّ وخابط الغيّ من إدهان ولا ايهان فاتّقوا اللّهَ عبادَ اللّه وفرّوا إلى اللّه من اللّه

ومن خطبة له عليه السلام

[**ولعَمْري ما عليَّ من قتال من خالف الحقّ وخابط الغيّ**] والضلال، وأتى بخابط بلفظ المفاعلة، إشارة إلى أنّ كلاً منهما يخبط الآخر، والخبط هو المشي على غير استقامة [**من إدهان**] أي مصانعة ونفاق، قال تعالى: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنن﴾.

[**ولا ايهان**] مصدر أوهنته، أي: أضعفه، ويجوز وهنة بحذف الهمزة، والغرض من هذا الكلام ردّ قول القائلين وعدل العادلين انّ متابعته عليه السلام لمحاربيه ومخالفيه ومداهنتهم أولى من محاربتهم، فقال عليه السلام: لايجب عليّ مصانعتهم وليس فيها صلاح دنيويّ، ولاأُخرويّ، أمّا في الدنيا فليسوا بمضعفين لي، ولا أنا عاجز عنهم، وأمّا في الآخرة فلأنّ خبطهم في النفي توجب مقاتلتهم، فلا معنى للإنكار.

ثمّ أردف عليه السلام ذلك بأوامر فقال:

[**فاتّقوا اللّهَ عبادَ اللّه**] قال تعالى: ﴿واتّقوا اللّه حقّ تقاته ولاتموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ وتقوى اللّه خشيته، المستلزمة للإعراض عن مناهيه المبعدة عنه.

[**وفرّوا إلى اللّه**] بالإقبال عليه، وتوجيه وجه النفس إليه [**من اللّه**]

....

ففرّوا من عدله إلى عفوه، ومن غضبه إلى رحمته، قيل: والفرار إلى اللّه على مراتب:

أوّلها: الفرار من بعض آثاره إلى بعض، كالفرار من أثر غضبه إلى أثر رحمته، كما قال: ﴿ربّنا لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا وارحمنا﴾ كأنّهم لم يروا إلاّ اللّه رافعاً له، ففرّوا من بعضها إلى بعض.

الثانية: أن يفني العبد عن مشاهدة الأفعال، ويترقّي في درجات القرب والمعرفة إلى مصادر الأفعال، وهي الصفات، فيفرّ من بعضها إلى بعض، كما يستفاد من سخط اللّه بعفوه.

الثالثة: أن يترقّي عن مقام الصفات إلى مقام الذات، فيفرّ منها إليها، كقوله تعالى: ﴿لا ملجأ من اللّه إلاّ إليه﴾ وفي دعاء افتتاح تكبيرات الصلاة: منك وبك ولك وإليك، أي: منك بدوّ وجوده، وبك قيامه، ولك ملكه، وإليك رجوعه.

ثمّ أكّد ذلك بقوله: لا ملجأ ولا منجا ولا مفرّ منك إلاّ إليك، وقد جمع الرسول ﷺ هذه المراتب حين أمر بالقرب في قوله: ﴿واسجد واقترب﴾ فقال في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك، والعفو كما يكون صفة للعاني، كذلك قد يراد به الأثر الحاصل عن صفة العفو، ثمّ لمّا قرب فغنى عن مشاهدة الأفعال وترقّى إلى مصادرها، وهي الصفات، وقال: أعوذ برضاك من سخطك، وهما صفتان.

ثمّ لمّا ترقّى عن مشاهدة الصفات إلى ملاحظة الذات قال: وأعوذ بك

وامضوا في الّذي أنهجه لكم وقوموا بما عصبه بكم

منك، وهذا فرار إليه منه مع قطع النظر عن الأفعال والصفات.

ثمّ لمّا ازداد عليه السلام قرباً قال: لاأُحصي ثناء عليك، وهو حذف لنفسه عن درجة الإعتبار، واعتراف بالعجز عن الإحاطة بما له من صفات الجلال ونعوت الكمال، وكان قوله بعد ذلك: أنت كما أثنيت على نفسك كمالاً للإخلاص، وتجريداً للكمال المطلق، فقوله عليه السلام: ففرّوا إلى اللّه من اللّه أمر بالترقّي إلى المرتبة الثالثة من المراتب المذكورة، ثمّ قال عليه السلام:

[**وامضوا في الّذي أنهجه لكم**] وجعله نهجاً أي: طريقاً بيّناً، وأوضحه من النهج القويم، والصراط المستقيم التّي تظافرت بها الآيات، وتواترت بها الروايات.

[**وقوموا بما عصبه بكم**] أي: ناطه بكم من التكاليف الشرعيّة، والحدود المرعية، وجعله كالعصابة الّتي يشدّ بها الرأس، وحيث كان الغاية من سلوك سبيل اللّه بالعبادة انقياد الطبيعة للعقل وإطاعة النفس الأمّارة للنفس المطمئنّة، بحيث تكون مؤتمرة بأمرها منزجرة بزجرها، ذكر عليه السلام هذه الأوامر الثلاثة الّتي عليها مدار الرياضة والسلوك إلى اللّه، فالأمر بالتقوى مستلزم للزهد الحقيقي، وهو معيّن على حذف الموانع الداخليّة والخارجيّة، والأمر بسلوك سبيل اللّه معيّن على تطويع النفس الأمّارة، والأمر بالفرار إلى اللّه أمر بتوجيه السرّ إليه، وهذه الأغراض الثلاثة هي التي يتوجّه نحوها الرياضة المستلزمة لكمال الإستعداد المستلزمة للوصول إليه تعالى، ولذا قال عليه السلام:

فعليّ ضامن لفلحكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً

[فعليّ ضامن لفلحكم] أي: فوزكم وظفركم [آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً] أي: إذا قمتم بواجب ماأُمرتم به من هذه الأوامر، كان ذلك مستلزماً لفوزكم في دار القرار، بجنّات تجري من تحتها الأنهار، ولمثلها ﴿فليعمل العاملون﴾، وفيها ﴿فليتنافس المتنافسون﴾.

ومن خطبة له عليه السلام

وقد تواتر عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن، وهما عبيداللّه بن العبّاس، وسعيدبن نمران، لما غلب عليهما بسربن أرطاة، قيل: السبب في ذلك أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يعظّمون قتله، فبايعوا عليّاً عليه السلام، على دغل، فلمّا اختلف الناس عليه بالعراق، وكان العامل له يومئذ على صنعاء عبيداللّه بن العبّاس، وعلى الجند بها سعيدبن نمران، ثمّ قتل محمّدبن أبي بكر بمصر، وكثرت غارات أهل الشام، تكلّم هؤلاء ودعوا إلى الطلب بدم عثمان، فأنكر عليهم ابن عبّاس، فتظاهروا بمنابذة عليّ عليه السلام لجنسهم، فكتبوا إلى أصحابهم بالجند، فعزلوا سعيدبن نمران عنهم، وأظهروا أمرهم فانضمّ إليه خلق كثير إرادة منع الصدقة، فكتب عبيداللّه وسعيد إلى أميرالمؤمنين عليه السلام يخبرانه الخبر، فكتب إلى أهل اليمن، والجند كتاباً يهدّدهم فيه، ويذكّرهم اللّه تعالى فأجابوه بأنّا مطيعون إن عزلت عنّا هذين الرجلين، وكتبوا إلى معاوية فأخبروه، فوجّه إليهم بسربن أرطاة، وكان فظّاً سفّاكاً للدماء، فقتل في

فقام ﷺ إلى المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه إلى الجهاد ماهي إلّا الكوفة أقبضها وأبسطها فإن لم تكوني إلّا أنت تهبّ أعاصيرك فقبّحك اللّه

طريقه داود وسليمان ابنا عبداللّه بن العبّاس، وبالطائف عبداللّه بن المدان، وكان صهراً لابن عبّاس، ثمّ انتهى إلى صنعاء، وقد خرج منها عبيداللّه وسعيد واستخلفا عليهما عبداللّه بن عمروبن أراكة الثقفي، فقتله بسر، وأخذ صنعاء فلمّا قدم ابن عبّاس وسعيد على عليّ ﷺ بالكوفة عاتبهما على تركها قتال بسر، فاعتذرا إليه بضعفهما عنه.

[**فقام ﷺ إلى المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه إلى الجهاد**] ومخالفتهم له في الرأي، وقال: [**ماهي إلّا الكوفة**] والضمير يرجع إليها وإن لم يجز لها ذكر لكونها المعهودة في الخطاب، نحو قوله تعالى: ﴿كلاّ إنّها لظى﴾ ويحتمل أن يكون ضمير الشأن [**أقبضها وأبسطها**] خبر ثان، أو لمبتدا محذوف، أي: أنا وهما، كنايتان عن وجوه التصرّف فيها، أي: إنّ التصرّف فيها بوجوه التصرّف حقير بالنسبة إلى سائر البلاد الّتي عليها الخصم، فما عسى أصنع بتصرّفي فيها، وماالّذي أبلغ به من دفع الخصم ومعونته، وربّما أشعر بحصر مابقى له من البلاد الّتي يعتمد عليها في الحرب ومقاتلة العدوّ في الكوفة، فأشار بذلك إلى تحقيرها، وقوله:

[**فإن لم تكوني إلّا أنت تهبّ أعاصيرك فقبّحك اللّه**] عدول عن الغيبة إلى الخطاب، والضمير بعد إلّا تأكيد للّذي قبلها، والجملة الفعليّة بعده في موضع الحال، وخبر كان محذوف، ولفظ الأعاصير يمكن حمله على حقيقة، لأنّ الكوفة معروفة بهبوب الأعاصير، فأتى بذلك في معرض ذمّها

لعمر أبيك الخير يا عمرو إنّني على وضر من ذاالإناء قليل ثمّ وقال: أُنبئت بسراً قد اطّلع اليمن وإنّي واللّه لأظنّ هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، ومعصيتك إمامكم في الحقّ، وطاعتهم

وتحقيرها، وعلى الإستعارة لمايحدث من آرائها المختلفة الّتي هي منبع الغدر والتثاقل عن رأيه، ووجه الشبه الإزعاج والأذى، وتقدير الكلام، فإن لم تكوني إلاّ أنت عدّة لي وجنّة ألقى بها مع ماعليه حالك من المذام فقبحاً لك، ثمّ لاستصغاره إيّاها، وتحقيره لها، تمثّل بقول الشاعر:

[لعمر أبيك الخير يا عمرو إنّني على وضر من ذاالإناء قليل]

ووجه التمثيل أنّ الكوفة تشارك الوضر، وهو الدرن الباقي في الإناء بعد الأكل في القلّة والحقارة، فهو يقول: إنّي على بقية من هذا الأمر كالوضر القليل في الإناء، ومن روي الآلاء وهو شجر حسن المنظر، فإنّما أراد انّي على بقيّة من هذا الأمر كالقدر الحاصل لناظر آلاء من حسنه مع عدم الإنتفاع به، وإنّما خصّ الكوفة دون البصرة وغيرها، لأنّ جمهور من كان يعتمد عليه من العسكر أهلها.

[**ثمّ**] شرع في بيان غرضه من استفسارهم إلى الجهاد [**وقال: أُنبئت**] أي: بالمجهول، أي: أعلمت وأخبرت [**بسراً**] بالسين المهملة ابن أبي أرطاة، من أصحاب معاوية [**قد اطّلع اليمن**] غزاها [**وإنّي واللّه لأظنّ هؤلاء القوم**] يعني أصحاب معاوية [**سيدالون منكم**] والإدالة: الغلبة [**باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، ومعصيتك إمامكم في الحقّ، وطاعتهم**

إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبه وخيانتكم وبصلاحهم في بلادهم وإفسادكم لو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته

إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبه وخيانتكم وبصلاحهم في بلادهم وإفسادكم] لامهم أوّلاً على خروج اليمن من أيديهم باستيلاء بسر عليها، ثمّ خوّفهم بما حكم به من ظنّه الصادق وفراسته الصحيحة أن سيدال القوم منهم.

ثمّ عقّب ذلك بذكر أسباب توجب وقوع ماحكم به فذكر أربعة من قبلهم هي أسباب الإنقهار، وأربعة من قبل الخصم، هي أسباب القهر، ورتّب كلّ أمر عقيب ضدّه لتظهرهم المناسبة بين أفعالهم وأفعال خصومهم.

فمن قبل الخصم الإجتماع والتوازر، وإن كان على باطل، ومن أفعالهم ضدّه من التفرّق عن الحقّ، والتصرّف فيه، بإذن وليّ الأمر.

الثاني: من قبل الخصم الطاعة لإمامهم الجائر الظالم فيما أمر به من الباطل، ومن قبلهم معصية الإمام الحقّ في أمره بالحقّ.

الثالث: من قبل الخصم، تأديتهم الأمانة لصاحبهم من الوفاء ببيعته، ولزوم عهده، ومن أفعالهم ضدّ ذلك من الخيانة والغدر.

الربع: صلاح القوم في بلادهم، أي: انتظام أُمورهم فيها بطاعة إمامهم، وضدّ ذلك منهم من الخروج عن طاعته.

وقوله: **[فلو ائتمنت أحدكم على قعب]** وهو القدح الضخم **[لخشيت أن يذهب بعلاقته]** مبالغة في ذمّهم بالخيانة على سبيل الكناية عن خيانتهم لإمامهم في عهده، وقبول أوامره، ثمّ شرع في شكايتهم إلى اللّه الّذي ثبت

للّهمّ إنّي قد مللتهم وملّوني، وسئموني فأبدلني بهم خيراً وأبدلهم لي شراً منّي

إليه الشكوى، ويعلم السرّ والنجوى، فقال:

[**اللّهمّ إنّي قد مللتهم وملّوني، وسئموني**] والملل والسئم مترادفان، وحقيقته: إعراض النفس عن الشيء لفتور القوى البدنيّة، أو لما بان لها من أنّ مطلوبها غير ممكن، وقد عجزت قواه عن معالجة حالهم وإصلاح أمرهم، وبان له عدم قابليّتهم، كما بان لنوح من قومه، ﴿فقال ربّي إنّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً﴾ إلى أن قال: ﴿ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنّك إنْ تذرهم يضلّوا عبادك ولايلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً﴾.

وأمّا سئمهم منه عليه السلام فلصعوبة الحقّ عليهم، وتنفّرهم من الحقّ، وميلهم إلى الباطل، ولكثرة تكراره الأمر بالجهاد عن دين اللّه، والمواظبة على طاعة اللّه، ممّا تأباه نفوسهم وتشمأزّ منه قلوبهم.

ثمّ أردف تلك الشكاية بالتضرّع إلى اللّه في الخلاص منهم، ثمّ بالدعاء عليهم، فقال:

[**فأبدلني بهم خيراً**] إمّا في الدنيا، أو في العقبى.

[**وأبدلهم لي شراً منّي**] لايقال: يقتضي ذلك كونه ذاشرّ، وهو منزّه عنه، ثمّ كيف ساغ أن يدعو بوجود الشرور والأشرار، لأنّا نقول: أفعل التفضيل خارج عن بابه، كما في المؤمن خير من الكافر، أو يكون المراد شراً منّي بحسب عقيدتهم الفاسدة، ودعائه بوجود الأشرار جائز مع المصلحة في تخويفهم بذلك، أو لأنّه علم عدم صلاحهم، وأنّه لايرجى صلاحهم، ولذا

اللّهمّ أمث قلوبهم، كما يماث الملح في الماء أما واللّه لوددتُ أنّ لي بكم أجمع ألف فارس من بني فراس بن غَنْم

هنالك لو دعوت، أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم

قال السيّد (رض): قلت أنا: والأرمية جمع رميّ، وهي السحاب والحميم في هذا الموضع وقت الصيف، وإنّما خصّ الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنّه أشدّ جفولاً وأسرع خفوقاً، لأنّه لا ماء فيه، وإنّما يكون السحاب

قال:

[**اللّهمّ أمث قلوبهم، كما يماث الملح في الماء**] والميث: الإذابة، كناية عن أسبابه من الغمّ والخوف، كأنّه طلب من اللّه تعالى أن يقتصّ منهم إذ ماتوا قلبه بفساد أفعالهم، ويروى أنّ اليوم الّذي دعى عليهم فيه وُلد الحجّاج أو بعده بزمان قليل، واستيصاله أهل الكوفة أمر معروف.

[**أما واللّه لوددتُ أنّ لي بكم**] أي: بدلكم [**أجمع ألف فارس من بني فراس بن غَنْم**] بفتح الغين وسكون النون، وهو غَنْم بن تغلب بن وائل، وخصّهم لشهرتهم بالحميّة والشجاعة، وسرعة إجابة داعيهم، كما أشار إليه الشاعر بقوله:

[**هنالك لو دعوت، أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم**]

قال السيّد (رض): قلت أنا: والأرمية جمع رميّ، وهي السحاب والحميم في هذا الموضع وقت الصيف، وإنّما خصّ الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنّه أشدّ جفولاً وأسرع خفوقاً، لأنّه لا ماء فيه، وإنّما يكون السحاب

ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لايكون في الأكثر إلاّ في زمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله هنالك: لو دعوت أتاك منهم.

إنّ اللّه بعث محمّداًﷺ نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل وأنتم معشر العرب على شرّ دن وفي شرّ دار

ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لايكون في الأكثر إلاّ في زمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله هنالك: لو دعوت أتاك منهم.

ومن خطبة له عليه السلام

[**إنّ اللّه بعث محمّداًﷺ نذيراً للعالمين**] ذكر بعض غايات البعثة، إذ الغاية منها جذب الخلق إلى الحقّ، وهو تارة يكون بالإنذا، وتارة يكون بالتبشر، ذكر هنا الإنذار لأنّه السبب الأقوى في الردع، وفيه إشارة إلى غلبة الغرور عليهم، وأردفه بقوله:

[**وأميناً على التنزيل**] إشارة إلى أنّ الإنذارات الواردة في الكتاب والسنّة حقّ لاريب فيه ولاشبهة تقريباً عليه السلام فيها بتبديل وتحريف وزيادة ونقصان.

[**وأنتم**] الواو للحال، أي: حال ما كنتم [**معشر العرب على شرّ دن**] إذ كانوا يعبدون ماينحتون، واللّه خلقهم ومايعلمون.

[**وفي شرّ دار**] وهي نجد وتهامة وأرض الحجاز، ثمّ بيّن وجه كونها

بين حجارة خشن و حيّات صمّ تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم

أشرّ ببيان فساد أحوالهم في ساكنهم، لأنّهم منيخون، أي: مقيمون [**بين حجارة خشن**] سوداء لا نداوة بها ولا نبات.

[و] بين [**حيّات صمّ**] لاتنزجر بالصوت، كأنّها لاتسمع ولاعلاج لسمومها، وربّما يراد بها الصلبة الشديدة، وحيّات تلك الأطراف في نهاية القوّة، وغاية حدّة السمّ لاستيلاء الحرارة واليبس عليها، ثمّ ذكر وجه الشرّ في مشاربهم فقال:

[**تشربون الكدر**] لأنّ غالب المياه الّتي يشربونها كدرة متغيّرة نتنه اخبه، لايقدم على شربها إلاّ عند الضرورة، لعدم إقامتهم غالباً في مكان واحد، حتّى يصلحوا مياههم، بل لم يزالوا في حلّ وارتحال، وقوله:

[**وتأكلون الجشب**] إشارة إلى وجه الشرّ في مأكلهم، والجشب الطعام الغليظ الخشن، وذلك معلوم من حالهم، فإنّهم يأكلون مادبّ ودرج، وقلّ أن يسلم حيوان يخرج من حجره منهم، وسئل بعض العرب: أيّ الحيوانات تأكلون في البادية؟ فقال: مادبّ ودرج إلاّ ام حيين، وهي دويبة قدر كفّ الإنسان، فقال السائل: لنهي ام حيين السلامة، وبعضهم يخلط الشعير بنوى الثمر ويطحنهما ويتّخذها خبزاً، ثمّ قال:

[**وتسفكون دماءكم**] أي: يسفك بعضكم دماء بعض.

[**وتقطعون أرحامكم**] حتّى كان الآباء يقتلون الأبناء وبالعكس، وشاع بينهم الوؤد من البنات أحياء.

الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة ومنها: فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي فضننت بهم عن الموت فأغضيتُ على القذى وشربت على الشجى

[**الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة**] أي: مشدودة، استعار العصب للزوم الآثام لهم في تلك الحال، وذكرهم بهذه الأحوال لينبهم على النسبة بين حالهم اليوم وقبل، فقد بدّلوا ببركة رسول اللهﷺعن فساد الحال بصلاحه، ففتحوا المدن وكسروا الجيوش، وقتلوا الملوك، وغنموا الأموال، كما قال تعالى في الإمتنان عليهم وتذكيرهم أنواع النعم، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها، وجعل لهم الذكر الباقي، والشرف الثابت مضافاً إلى هدايتهم إلى الإسلام الموصل إلى دارالسلام.

ومنها: مايتضمّن اقتصاص حالهعليه السلام بعد رسول اللهﷺ في أمر الخلافة، وهو اقتصاص في معرض التظلّم والشكاية ممّن يرى أنّه أحقّ منه بالأمر، فأشار إلى أنّهعليه السلام فكّر في أمر المقاومة والدفاع عن حقّه الّذي غُصب منه، فلم يجد ناصراً ولا معيناً، وقال:

[**فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي**] وهم قليلون [**فضننت**] بالكسر، ونقل الفرّاء الفتح، أي: بخلت [**بهم عن الموت**] لعلمه بأنّه لو قاوم بهم لقتلوا، ولايصل إلى مقصوده.

[**فأغضيتُ على القذى**] يقال: أغضيتُ على كذا، أي: أطبقتُ جفني عليه، والقذى: مايسقط في العين ممّا يؤذيها، وكنّى به عن صبره على المقاومة، ووجه الشبه استلزامهما للألم الشديد، وكذا قوله:

[**وشربت على الشجى**] وهو مايعترض في الحلق، ووجه الشبه

وصبرتّ على أخذ الكظم، وعلى أمرّ من طعم العلقم.

استلزامهما الأذى وعدم التلذّذ والإساغة.

[**وصبرتّ على أخذ الكظم**] يقال: أخذ يكظمه، أي: بمجرى نفسه.

[**وعلى أمرّ من طعم العلقم**] وهو شجر بالغ المرارة، وكنّى بهما عن أخذ الوجوه عليه، وتضيّق الأمر فيما يطلبه، ووجه المشابهة الأذى، وإنّما كان أمرّ وأشدّ من العلقم، لأنّه ألم روحانيّ، وهو أشدّ من الجسمانيّ، وفي التنزيل: ﴿ربّنا إنّك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ ولم يقل أحرقته، لأنّ الخزي عذاب روحانيّ أشدّ من الإحراق الجسماني.

وهذا كلّه إشارة إلى أمر السقيفة، قال ابن أبي الحديد: إنّ علياً عليه السلام امتنع من البيعة حتّى أُخرج كرهاً، وأنّ الزبير امتنع وقال: لاأُبايع إلاّ علياً، وكذلك أبوسفيان بن حرب، وخالدبن سعيدبن العاص، والعبّاس وبنوه، وأبوسفيان الحرث بن عبدالمطّلب، وجميع بني هاشم، وقالوا: إنّ الزبير شهر سيفه، فلمّا جاء عمر ومعه جماعة من الناس الأنصار وغيرهم قال في جملة ما قال: خذوا سيف هذا فاضربوا به الحجر.

ويقال: فعل ذلك وساقهم كلّهم بين يديه إلى أبي بكر، فحملهم على بيعته، ولم يتخلّف إلاّ عليّ وحده، فإنّه اعتصم ببيت فاطمة، فتحاموا إخراجه منه قسراً، فأتت فاطمة إلى باب البيت، فأسمعت من جاء يطلبه، فتفرّقوا وعلموا أنّه بمفرده لايضرّ شيئاً فتركوه.

وقيل: إنّهم أخرجوه فيمن أُخرج وحمل إلى أبي بكر فبايعه.

وقد روى الطبري كثيراً من هذا.

فأمّا حديث التحريق وماجرى مجراه من الأُمور الفظيعة وقول من

. . . .

قال: إنّهم أخذوا عليّاً عليه السلام يقاد بعمامته والناس حوله فأمر بعيد، والشيعة تنفرد به على أنّ جماعة من أهل الحديث قد رووا نحوه، ثمّ قال:

فأمّا قوله لم يكن لي معين الخ، فقول مازال يقوله، ولقد قاله عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: لو وجدتُ أربعين ذوي عزم، ذكر ذلك نصر بن مزاحم، وكثير من أرباب السير.

وأمّا مايقوله جمهور المحدّثين وأعيانهم، فإنّه عليه السلام امتنع من البيعة ستّة أشهر، ولزم بيته ولم يبايع حتّى ماتت فاطمة، فلمّا ماتت بايع طوعاً.

وفي صحيح مسلم، والبخاري: كانت وجوه الناس تختلف إليه، وفاطمة لم تمت بعد، فلمّا ماتت انصرفت وجوه الناس عنه، فخرج من بيته، فبايع أبابكر، وكانت مدّة بقائها بعد أبيها ستّة أشهر.

ثمّ قال بعد كلام: فأمّا حديث الفلتة، فقد كان سبق من عمر أن قال: إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه.

ثمّ قال: قد أكثر الناس في حديث الفلتة، وذكرها شيوخنا المتكلّمون، ثمّ اعتذر عنه وقال: إنّ هذه اللفظة من عمر مناسبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ماجبله الله عليه من غلظ الطينة وجفاء الطبيعة، كما قدّمنا في اللفظة الّتي قالها في مرض رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال: إنّما رضي عمر ببيعة أبي بكر من حيث كانت حاجزة عن بيعة أمير المؤمنين، ولو ملك الإختيار لكان مصير الأمر إليه أثر في نفسه، وأقرّ لعينه.

. . . .

ثمّ روى ابن أبي الحديد عن البخاري ومسلم في صحيحيهما عن طلحةبن معروف قال: سألت عبداللّه بن أبي أوفى: أوصى رسول اللّه ﷺ؟

قال: لا.

قلت: فكيف كتب على المسلمين الوصيّة أو كيف أمر بالوصيّة ولم يوص؟

قال: أوصى بكتاب اللّه.

قال طلحة.

ثمّ قال ابن أبي أوفى: ماكان أبوبكر يتأمّر على وصيّ رسول اللّه ﷺ ودّ أبوبكر أنّه وجد من رسول اللّه ﷺ عهداً فخرم أنفه بخرامه، ونحوه عن عائشة.

ثمّ قال: وفي الصحيحين أيضاً أخرجاه عن ابن عبّاس، أنّه كان يقول يوم الخميس اشتدّ برسول اللّه ﷺ وجعه، فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم لاتضلّون بعدي أبداً، فتنازعوا، فقال: أنّه لاينبغي عندي تنازع، فقال قائل: ماشأنه أهجر استفهموه، فذهبوا يعيدون عليه، فقال: دعوني، والّذي أنا فيه خير من الّذي أنتم فيه.

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عبّاس قال: لمّا احتضر رسول اللّه ﷺ وفي البيت رجال منهم عمربن الخطّاب، قال للنبيّ: حسبنا كتاب اللّه، فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول قرّبوا إليه ليكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول القول ماقاله عمر، فلمّا كثر اللغو

. . . .

والإختلاف عنده ﷺ قال: قوموا فقاموا، وكان ابن عبّاس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ماحال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب ذلك الكتاب.

ثمّ روى عن أبي بكر الجوهري بإسناده عن سلمة بن عبدالرحمان، قال: لمّا جلس أبوبكر على المنبر كان عليّ عليه السلام والزبير وناس من بني هاشم في بيت فاطمة عليها السلام فجاء عمر إليهم وقال: والّذي نفسي بيده لتخرجنّ إلى البيعة أو لأحرقنّ عليكم البيت، فخرج الزبير مصلتاً سيفه، فاعتنقه رجل من الأنصار وزياد بن لبيد، فدقّ به، فبدر السيف فصاح به أبوبكر وهو على المنبر: اضرب به لحجر.

قال أبوعمرو بن عبّاس: فلقد رأيتُ الحجر فيه تلك الضربة، ويقال: هذه ضربة سيف الزبير، ثمّ قال أبوبكر: دعوهم فسيأتي الله بهم، قال: فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه.

وقد روى في رواية أُخرى: إنّ سعد بن أبي وقّاص كان معهم في بيت فاطمة، والمقداد بن الأسود أيضاً، وإنّهم اجتمعوا على أن يبايعوا عليّاً عليه السلام، فأتاهم عمر ليحرق عليهم، فخرج إليهم الزبير بالسيف، وخرجت فاطمة تبكي وتصيح، فنهنهت الناس وقالوا: ليس عندنا معصية ولاخلاف في غير ما اجتمع عليه الناس، وإنّما اجتمعنا لنؤلف القرآن.

وعن الشعبي قال: سئل أبوبكر فقال: أين الزبير؟ فقيل: عند عليّ، وقد تقلّد سف، فقال: قم ياعمر، قم يا خالد بن الوليد، فانطلقا حتّى تأتياني بهما، فانطلقا، فدخل عمر وقام خالد على باب البيت من خارج،

ومنها: ولم يبايع معاوية على شرط أن يؤتيه على البيعة، فلا ظفرت يد البائع

فقال عمر للزبير: ماهذا السيف، فقال: نبايع علياً عليه السلام، فاخترطه عمر، فضرب به حجراً فكسره، ثمّ أخذ بيد الزبير فأقامه، ثمّ دفعه وقال: ياخالد دونكه فأمسكه، ثمّ قال لعليّ عليه السلام: قم فبايع لأبي بكر، فتلكى واختلس، فأخذ بيده وقال: قم، فأبى أن يقوم، فحمله فدفعه كما دفع الزبير، فأخرجه ورأت فاطمة ماصنع عمر بهما، فقامت على باب الحجرة وقالت: ياأبابكر ماأسرع ماأغرتم على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، والله لاأُكلّم عمر حتّى ألقى الله، قال: فمشى إليها أبوبكر بعد ذلك وشفع لعمر وطلب إليها فرضيت عنه.

ثمّ قال ابن أبي الحديد: والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً، ومن تأمّلها وأنصف علم أنّه لم يكن هناك نصّ صريح مقطوع ب لايختلجه الشكوك ولاتتطرّق إليه الإحتمالات، ثمّ قال: ولكن قد علمت النفوس والعقول أنّه قد كان هناك تعريض وتلويح وكناية، وقول غيرصريح، وحكم غيرمثبوت الى آخر ما قال، انتهى ملخّص ما أردنا نقله من كلام ابن أبي الحديد، والكلام في ذلك طويل الذيل، إلاّ أنّا لسنا في مقام الجرح والتعديد، وإنّما أردنا الإستشهاد بكلامه لوضوح السبيل.

ومنها: يذكر فيها عمروبن العاص:

[**ولم يبايع معاوية على شرط أن يؤتيه على البيعة**] ثمناً، وهو طعمة مصر، ولم يبايعه حتّى كتب له بها كتاباً، ثمّ دعى عليه السلام عليهما فقال:

[**فلا ظفرت يد البائع**] لمدينه، وهو عمرو.

وخزيت أمانة المبتاع فخذوا للحرب أهبتها وأعدّوا لها عدّتها فقد شبّ لظاها وعلا سناها واستشعروا الصبر فإنّه أدعى إلى النصر

[**وخزيت أمانة المبتاع**] يعني معاوية، فيما ولي من أُمور المسلمين، إذ كانت أمانة في يده، وخزيها ذلّها، وهوانها، ولمّا كانت مبايعة عمرو إمارة للحرب وقيامها، قال عليه السلام:

[**فخذوا للحرب أهبتها**] أي: استعدادها [**وأعدّوا**] أي: هيّئوا [**لها عدّتها**] من الآلات والسلاح ونحوهما،

[**فقد شبّ لظاها**] أي: أوقدت نارها، وأُثيرت. وروي شبّ بالبناء للفاعل، أي: ارتفع لهبها.

[**وعلا سناها**] أي: ضوءها، وفيهما كناية بالمستعار، ووجه المشابهة بين لهب النار وسناها وأمارات الحرب كونها علامات على أمرين فيهما مظنّة الهلاك، ومحلّ الفتنة، ويحتمل أن يكون لفظ السنا ترشيحاً للإستعارة.

وقوله: [**واستشعروا الصبر فإنّه أدعى إلى النصر**] إستعارة، فإنّ الشعار الثوب الملاصق للبدن والشعر، بخلاف الدثار، أي: اتّخذوا الحرب كاللباس، أو بمعنى العلامة، أي: اتّخذوه علامة، أو اشتقّ من الشعور، أي: ليكن في شعوركم الصبر، ومعلوم إنّ الصبر من أقوى أسباب النصر، ومن كان الصبر علامة له عرفه الخصم بها، فارتدع، وملخّص بيعة ابن العاص أنّ عليّاً عليه السلام لمّا نزل بالكوفة بعد فراغه من البصرة، كتب إلى معاوية

أمّا بعد، فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة

يدعوه إلى البيعة، فأهمّه ذلك، فدعى قوماً من أهل الشام إلى الطلب بدم عثمان، فأجابوه، وأراد الإستظهار في أمره، فأشار عليه أخوه عتبة بالإستعانة بعمروبن العاص، وكان بالمدينة فاستدعاه، فلمّا قدم عليه وعرف حاجته إليه تباعد عنه، وجعل يمدح عليّاً في وجهه، ويغفّله ليخدعه عمّا يريد منه، حتّى قال له معاوية يوماً ياأباعبدالله إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الّذي عصى الله وشقّ عصى المسلمين، وقتل الخليفة، وأظهر الفتنة، وفرّق الجماعة، وقطع الرحم، فقال عمرو: من هو؟ قال: عليّ، فقال: والله يامعاوية ماأنت وعليّ جملي بعير، ليس لك هجرته، ولاسابقته، ولاصحبته، ولاجهاده، والله إنّ له مع ذلك لحظّاً في الحرب، ليس لأحد غيره، ولكنّي قد تعوّدت من الله إحساناً وبلاء جميلاً فما تجعل لي إن بايعتك على حربه، وأنت تعلم مافيه من المغرور الخطر، قال: له حكمك، قال له: مصر طعمه، فتلكّى معاوية، فلم‌يزل يماطله حتّى رضي معاوية، فعاهده على ذلك، وبايعه، وكتب له بمصر كتاباً.

ومن خطبة له عليه السلام

في مدح الجهاد وفضله، وهي من خطبه المشهورة، قد رواها العامّة والخاصّة بطرق عديدة على خلاف في بعض ألفاظها، وزيادة ونقصان.

[**أمّا بعد، فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة**] استعار لفظ الباب للدخول

فتحه اللّه لأوليائه وهو لباس التقوى، ودرع اللّه الحصينة، وجُنّته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللّه ثوب الذلّ وشمله البلاء وديّث بالصغار

به إلى الجنّة، إذ منه يعبر المجاهد السالك إلى اللّه، إلى الباب الأعظم للجنّة، وهو قهر الشيطان، والنفس الأمّارة، وطاعة الرحمان.

[**فتحه اللّه لأوليائه**] المخصلين، لأنّ المجاهد قد فارق أهله وولده وماله، وأقدم على من يغلب على ظنّه أنه أقوى كما أمر المسلمون بأن ينبت أحدهم لعشرة، ثمّ يعلم أنّه لو قهره لقتله واستباح ذرّيته، والمجاهد في جميع هذه الأحوال صابر، شاكر، محتسب.

[**وهو لباس التقوى، ودرع اللّه الحصينة، وجُنّته**] والجُنّة بالضمّ، مااستتر به من سلح وغيره [**الوثيقة**] واستعار للجهاد لفظ اللباس والدرع والجُنّة، ثمّ رشح تلك الإستعارتين الأخيرتين بوصفي الحصانة والوثاقة، و وجه الشبه أنّ الإنسان يتقي به شرّ العدوّ وسوء العذاب في الآخرة، كما يتقي بثوبه مايؤذيه من حرّ أو برد، وبدرعه وجُنّته مايخشاه من عدوّه.

[**فمن تركه رغبة عنه**] من غير عذر [**ألبسه اللّه ثوب الذلّ**] استعار لفظ الثوب للذلّ لشموله، ووجه الشبه إحاطة الذلّ به إحاطة الصفة بالموصوف، كإحاطة الثوب بلابسه.

[**وشمله البلاء**] من العدوّ، فصار ذليلاً خاسراً.

[**وديّث بالصغار**] أي: ذلل، والصغار الذلّ والضيم، وبعير مديّث، أي: مذلّل، ومنه الديّوث الّذي لاغيرة له، لأنّه قد ذلّل حتّى صار كذلك.

والقمـاء، وضـرب على قلبـه بالإسهـاب وأُديل الحقّ منه بتـضـيـيع الجهاد وسئم الخسف ومنع النصف

[**والقماء**] بالمدّ، مصدر قموء الرجل قماء، فهو قمي الحقارة والذلّ.

وفي رواية الراوندي: القما بالقصر، وهو غير معروف.

[**وضـرب على قلبـه بالإسهـاب**] أي: ذهاب العقل مـن أسهب الرجل بالبنـاء للمـفـعـول، أي: ذهب عـقله من أذى يـلحـقـه، ويمكـن أن يكون من الإسهاب الّذي هو كثرة الكلام، كأنّه عـوقب بذلك، بأن يكثر لغوه وفضول كـلامه وإطلاق لـفظ الضرب علـى قلبه استـعـارة، كقـوله تالى: ﴿وضـربت عليهم الذلّة والمسكنة﴾ ووجه الشـبه فيها إحاطة قلّة العقـل به، كإحاطة القبّة المضروبة بمن فيها، أو لزوم قلّة العقل كلزوم الطن المضروب على الحائط.

[**وأُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد**] يقال: أُديل الحقّ من فلان، أي: غلبه عليه عدوّه، أي: أُديل الحقّ بسبب تضييعه الجهاد.

[**وسئم الخسف**] يقال: سئمه خسفاً، أي: أولاه ذلاً، وكلّفه المشقّة.

[**ومنع الـنصف**] بكســر النون الإسـم من الإنصـاف، ولـزوم الأمــور المذكـورة من ترك الجهـاد مع التـمكّن منه أمر ظـاهر، وي أُمور يتنفّر الإنسـان عنها بطـبعه، ومع ذلك فـهي مضـرّة بحال من تلحقـه في الدارين. ويلزم من ذلك خسران الدنيا والآخرة.

ثمّ أردف ذلك بتـفـصـيل غـرضـهﷺ ممّا أجمـله منه، وهو حثّهـم على الجهاد، وتوبيخهم على تركه، فقال:

ألا، وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فواللّه ماغزى قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا فتواكلتم وتخاذلتم

[**ألا، وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم**] معاوية وأصحابه [**ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فواللّه ماغزى قوم قطّ في عقر**] بالضمّ، أي: أصل [**دارهم إلاّ ذلّوا**] قال المحقّق البحراني: إنّ للأوهام أفعالاً عجيبة في الأبدان، تارة بزيادة القوّة، وتارة بنقصانها، حتّى أنّ الوهم ربّما كان سبباً لمرض الصحيح، لتوهّمه المرض وبالعكس، فكان السبب في ذلّ من غزى في داره وإن كان معروفاً بالشجاعة هو الأوهام.

أمّا أوهامهم فلأنّها تحكم بأنّه لم يقدم على غزوهم إلاّ لقوّة غازيهم، واعتقاد ضعفهم، فتنفعل نفوسهم عن تلك الأوهام، وتنقهر عن المقاومة، وتزول غيرتها فتذلّ.

وأمّا أوهام غيرهم فلأنّ الغزو الّذي يلحقهم يكون باعثاً لكثير الأوهام على الحكم بضعفهم ومحرّكاً لطمع كلّ طامع فيهم، ثمّ أردف ذلك عليه السلام بما قابلوا به نصيحته، فقال:

[**فتواكلتم**] من وكل كلّ منهما أمره إلى الآخر، أي: لم يتولّه أحد، وأحال به كلّ واحد على الآخر، ومنه رجل، وكلّ أي: عاجز يكل أمره إلى غيره.

[**وتخاذلتم**] من الخذلان، إشارة إلى تواكلهم وتخاذلهم عمّا أمر به.

حتّى شنّت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسّان بن حسّان وأزال خيلكم عن مسالحها وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأُخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها ماتمنع منه إلاّ بالإسترجاع

[**حتّى شنّت عليكم الغارات**] أي: تفرّقت من كلّ جانب، قيل: ماكان من ذلك متفرّقاً نحر إرسال الماء على الوجه دفعة بعد دفعة، فهو بالشين المعجمة، وما كان إرسالاً غير متفرّق، فهو بالسين المهملة، ويجوز سنّ الغارة، وأسنّها.

[**وملكت عليكم الأوطان**] أي: ملكت تلك الغارات أوطانكم وحدودكم.

[**هذا أخو غامد**] سفيان بن عوف بن المفضّل المعايدي.

[**قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسّان بن حسّان**] البكري.

[**وأزال خيلكم عن مسالحها**] جمع مسلحة، وهي الحدود والأطراف من البلاد، يربت فيها أصحاب السلاح كالثغور.

[**وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأُخرى المعاهدة، فينتزع حجلها**] وخلخالها [**وقليها**] أي: سوادها [**وقلائدها**] جمع قلادة [**ورعاثها**] جمع رعثة، بفتح الراء والعين وسكونها، وهي: القرط، والرعاي أيضاً ضرب من الخرز والحليّ.

[**ماتمنع منه إلاّ بالإسترجاع**] قول ﴿إنّا للّه وإنّا إليه راجعون﴾ وو أيضاً

والإسترحام، ثمّ انصرفوا وافرين مانال رجلاً منهم كلم ولا أُريق لهم دم، فلو أنّ امرء مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ماكان به ملوماً، بل كان عندي به جديراً فيا عجباً! عجباً، واللّه يميت القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم، فقبحاً لكم وترحاً

ترديد الصوت في البكاء [**والإسترحام**] أي: مناشدة الرحم.

[**ثمّ انصرفوا وافرين**] أي: غانمين موفود عليهم المال والغنيمة.

[**مانال رجلاً منهم كلم**] أي: جرح [**ولا أُريق لهم دم، فلو أنّ امرء مسلماً مات من بعد هذا**] الأمر [**أسفاً**] وحزناً وغيرة [**ماكان به ملوماً، بل كان عندي به جديراً**] حقيقاً.

[**فيا عجباً! عجباً، واللّه يميت القلب**] نادى العجب من حالهم منكراً ليحضر له، كأنّه غير متعيّن في حال ندائه، ثمّ تعيّن بندائه وحضر، فكرّره ليصفه بالشدّة، ونصبه على المصدر، كأنّه لما حضر وتعيّن قال: عجبتُ عجباً من شأنه كذا، ونحو هذا المنادى قوله تعالى: ﴿يابشرى هذا غلام﴾.

ويحتمل أن يكون العجب الأوّل نصباً على المصدر أيضاً، والثاني للتأكيدما ذكر، ويكون المنادى محذوفاً تقديره: ياقوم، أو نحوه، ووصفه بأنّه يميت القلب [**ويجلب الهمّ**] كناية عن الهمّ والغمّ الملاحق من ذلك، تسمية للشيء باسم مايؤول إليه، أو إطلاقاً للمسبّب على السبب.

ثمّ أشار إلى السبب بقوله:

[**من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم، فقبحاً لكم وترحاً**] دعاء عليهم بالبُعد عن الخير، وبالحزن، وبسبب تفريطهم.

حين صـرتم غـرضـاً يُرمىٰ يغـار عليكم ولاتغـيـرون وتُغْزَوْنَ ولا تُغْزُون ويعصى اللّه وترضـون! فـإذا أمـرتُكم بـالسيـر إليهم في أيّام الحـرّ قلتم: هذه حـمارّة القيظ أمهِلنـا ينسلخ عنّا الحـرّ، فـإذا أمـرتُكم بالسيـر إليهم في الشـتاء قلتم: هذه صبارّة القُرّ كلّ هذا فـراراً من الحرّ والقُرّ فإذا كنتم من الحرّ والبرد تفرّون فأنتم واللّه من السيف أفرّ

[**حين صرتم غرضاً**] للرماة.

[**يُرمىٰ يغار عليكم**] في عقر دياركم [**ولاتغيرون وتُغْزَوْنَ ولا تُغْزُون**] وأنتم أولى بذلك منهم بكونكم على الحقّ، وهم على الباطل.

[**ويعصى اللّه**] بالأمور المذكورة وغيرها.

[**وترضـون! فإذا أمرتُكم بالسير إليـهم في أيّام الحـرّ قلتم: هذه حمـارّة القيظ**] بتشديد الراء، شدّة حرّه [**أمهِلنا ينسلخ عنّا الحرّ، فـإذا أمرتُكم بالسير إليـهم في الشـتـاء قلتم: هذه صـبـارّة القُرّ**] بتـشديد راء، صـبارّة: أي: شـدّة البرد.

[**كلّ هذا**] إشـارة إلى تلك الأعـذار الفـاسـدة، والممـاطلات الكاسـدة [**فراراً من الحـرّ والقُرّ**] العـامين للناس، يتمنّى المرء في الصيف الشـتاء، فـإذا جاء الشتاء أنكره، لا بذا يرضى ولايرضى بذا، ﴿قُتل الإنسان ما أكفره﴾.

[**فإذا كنتم مـن الحرّ والبرد تفـرّون فأنتم واللّه من السـيـف أفرّ**] لأنّ الفارّ من الأهون فـارّ من الأشـدّ بطريق أولى، إذ لامناسـبـة لشـدّة الحـرّ والبـرد مع القتل والمجالدة بالسيف.

ثمّ أردف ذلك التبكيت بذمّهم فقال:

يا أشباه الرجال ولا رجال حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال لوددتُ أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفة، واللّه جرَّت ندماً، وأعقبتْ سدماً

[**يا أشباه الرجال**] في الصورة والظاهر [**ولا رجال**] لخلوّهم من صفات الرجال من الشجاعة والأنفة والحميّة والغيرة.

ثمّ وصفهخم بوصف ثان، وهو:

[**حلوم الأطفال**] لخلوّ الطفل عن ملكة الحلم، ووجه شبه حلومهم بحلوم الأطفال سرعتها عن أدنى سبب لايصلح أن يقع به العاقل كحلمهم عن أهل الشام، وتركهم الحرب بصفّين عن خدعة أهل الشام لهم بالمسالمة وطلب المحاكمة إلى كتاب اللّه ورفع المصاحف، فقالوا: إخواننا في الدين، فلا يجوز لنا قتالهم حتّى ترتّب عليه ماترتّب.

[**وعقول ربّات الحجال**] أي: النساء، والحجال: جمع حجلة، وهو بيت العروس يزيّن بالستور والثياب ونحوهما، ووجه شبه عقولهم بعقول النساء ضعفها عن إدراك وجوه المصالح المختصّة بتدبير المدن والحروب ونحوهما، ثمّ قال عليه السلام:

[**لوددتُ أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفة، واللّه جرَّت ندماً، وأعقبتْ سدماً**] والسدم: الحزن عند الندم، أبان لهم محبّته لعدم رؤيتهم وعدم معرفتهم لاستلزام ذلك الندم على الدخول في أمرهم، والحزن من تقصيرهم في الذبّ عن الدين كما حزنت الأنبياء على تقصير أُممها، حتّى قال اللّه تعالى لسيّد أنبيائه: ﴿ولاتحزن عليهم ولاتكن في ضيق ممّا يمكرون لعلّك باخع نفسك أن لايكونوا مؤمنين﴾.

قاتلكم الله لقد ملئتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً وجرّعتموني نغب التهمام أنفاسا

ثمّ عاد عليه السلام إلى الدعاء عليهم والشكاية منهم فقال:

[**قاتلكم الله**] دعاء عظيم، لأنّ المقاتلة مستلزمة للعداوة، وهي مستلزمة للعن والطرد والبُعد عن الشفقة والخير، فإطلاق المقاتلة والعداوة على الله كناية عن لوازمهما، وذكر المفسّرون وغيرهم أنّ معنى قاتله الله لعنه، لأنّ من أمنه الله بمنزلة المقتول الهالك.

وقوله: [**لقد ملئتم قلبي قيحاً**] وهو مايكون في القرحة من المدة والصديد، كناية عن ألم القلب من إطلاق اسم الغاية على ذي الغاية، إذ كان غاية ألم العضوان يتقيّح، وكذا قوله:

[**وشحنتم**] أي: ملئتم [**صدري غيظاً**] أطلق الشحن على فعلهم المؤلم لقلبه مجازاً، لأنّ الشحن حقيقة في نسبة بين جسمين.

وكذا قوله: [**وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً**] والنغب: جمع نغبة بضمّ النون، وهي الجرعة، والتهمام بالفتح: الهمّ، أي: جلبتم لي الهمّ وقتاً فوقتاً، وهو مجاز، لأنّ التجريع إدخال الماء ونحوه في الحلق، وكنّى به عن طريان الهمّ على نفسه، ومايلزم الهمّ من الآلام البدنيّة على بدنه، وتكرار ذلك منهم يشبه طريان المشروب وتجريعه، وقوله أنفاساً مجازاً في الدرجة الثانية، فإنّ النفس هو المقوء الداخل والخارج في بدن الحيوان، وأُريد به هنا مقدار من الهمّ يرد عليه من قبل أصحابه وقتاً فوقتاً، وهو درجة ثانية من المجاز.

فأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان حتّى قالت قريش ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لاعلم له بالحرب للّه أبوهم وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها ومقاماً منّي لقد نهضت فيها ومابلغت العشرين، وها أناذا قد ذرّفتُ على الستّين ولكن لا رأي لمن لايُطاع

• وقوله: [**فأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان**] من تمام شكايته منهم بمخالفة أوامره [**والخذلان**] له عليه السلام [**حتّى قالت قريش ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لاعلم له بالحرب**] لما رأوا من سوء تدبيركم، لأنّ الناس غالباً ينسبون مايرون من حسن التدبير وسيّئه إلى الرئيس والمقدّم، ولم يعلموا أنّ التقصير من قومه، وأنّهم لم يطيعوه، بل خالفوا أمره إلى ضدّه.

[**للّه أبوهم**] كلمة مدح [**وهل أحد منهم أشدّ لها**] أي: للحرب [**مراساً**] أي: علاجاً [**وأقدم فيها**] قياماً [**ومقاماً منّي**] استفهام إنكاريّ.

[**لقد نهضت فيها ومابلغت العشرين، وها أناذا قد ذرّفتُ**] بتشديد الراء، أي: زدتُ [**على الستّين**] كناية عن صرف عامّة عمره عليه السلام في الحرب، فكيف يكون غير عارف بها، وهو ابن جلاها، وطلاع ثناياها.

[**ولكن لا رأي لمن لايُطاع**] بيان السبب في إفساد أصحابه، أنّه ليس ماتوهّمه قريش من ضعف الرأي في الحرب، بل عدم إطاعتهم له فيمايراه ويشير عليهم به، لأنّ الرأي الّذي لايقبل بمنزلة الفاسد، وإن كان صواباً.

أمّا بعد، فإنّ الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت

ومن خطبة له عليه السلام

تشتمل على ذمّ الدنيا، والتنفير عنها، ومدح الآخرة، والترغيب فيها، والإستعداد لها بالتوبة الصادقة الناصحة، والأعمال الفاضلة الصالحة.

[**أمّا بعد، فإنّ الدنيا قد أدبرت**] يقال: أدبر ودبر، أي: ولّى دبره.

[**وأذنت بوداع**] أي: أعلمت به، إشارة إلى تقضي أحوالها بالنسبة إلى كلّ فرد من الخلق، من صحّة، وشباب، وجاه، ومال، وكلّما يكون سبباً لصلا حال الإنسان، فإنّ جميع ذلك من الدنيا لدنوّها من الإنسان وحسن إطلاق إسم الإدبار عليها لتقضيا شيئاً فشيئاً، تشبيهاً بالحيوان في إدباره، وكذا اسم الوداع، فإنّ التقضي لما استلزم المفارقة المستلزمة لأسف الإنسان عليها ووجده بها أشبه ذلك مايفعله الإنسان في حقّ صديقه المرتحل عنه في وداعه له من الأسف على فراقه والحزن والبكاء ونحوه، فاستعير اسم الوداع له، وكنّى بإعلامها بذلك عن الشعور الحاصل بمفارقتها من تقضّيها شيئاً فشيئاً، وهو إعلام بلسان الحال.

[**وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت**] باطّلاع الآخرة، عبارة عن الدار الجامعة للأحوال الّتي يكون الناس عليها بعد الموت من سعادة، وشقاوة، وألم، ولذّة، كما أنّ الدنيا مقابل ذلك، ولمّا كان يقضي العمر مقرباً

ألا! وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق والسقة الجنّة، والغاية النار أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته

للوصول إلى تلك الدار، والحصول فيما يشتمل عليه من خير أو شرّ، حسن إطلاق لفظ ثمّ نزلها، لشرفها على الدنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل، فأسند إليها لفظ الإشراف، ولأجل إحصاء الأعمال الدنيويّة فيها منزلة عالم مطّلع، فأطلق عليها لفظ الإطلاع.

[**ألا! وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق**] والمضمار: المدّة الّتي تضمر فيها الخيل للسباق، أي: تعلف وتسمن، ثمّ تردّ إلى القوت، وهي أربعون يوماً، واستعار لفظة المدّة للحياة، باعتبار أنّ الإنسان يستعدّ فيها بالتقوى لتكمل قوّته العقليّة، فيكون من السابقين إلى لقاء اللّه تعالى، كما يستعدّ الفرس بالتضمير لسبق مثله، والسباق مصدر كالمسابقة، وهو أيضاً جمع سبعة، كنطفه ونطاف، وكنّى بغد عمّا بعد الموت، قال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السماء والأرض أُعدّت للّذين آمنوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾.

وروي السباق مرفوعاً، ولا وجه له إلاّ أن يكون مضافاً إليه أُقيم مقام مضاف هو الخبر، أي: وقت السباق، جمع سبقة، وتمام المعنى مايأتي في كلام السيّد(ره).

[**والسقة**] بضمّ السين وفتحها: ماأسبق إليه من الخطر [**الجنّة، والغاية النار**] ويأتي توضيحه إن شاءاللّه في كلام السيّد(ره).

[**أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته**] حثّ عليه السلام على وجوب التوبة قبل

ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ألا وإنّكم في أيّام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرّه أجله، ومن قصّر في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه

الموت، لأنّها عبارة عن انزجار النفس العاقلة عن متابعة النفس الأمّارة، ويأتي تمام الكلام فيها إن شاء اللّه في محلّ أليق.

ولقد أجاد من قال: نحن لانريد أن نموت حتّى نتوب، ولانتوب حتّى نموت.

[**ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه**] ويوم البؤس إشارة إلى مابعد الموت اللازم للإنسان من حيث تقصيره في العمل، إذ الواصل إلى وم بؤسه على غيرعمل أسير في يد شياطينه، وغاية ذلك دخول النار والحجب عن الأبرار، ولما كان العمل هو المعين على قهر الشيطان، نبّه عليه، ثمّ أردفه بالتنبيه على وجود الزمان الّذي يمكنهم العمل فيه، وهو أيّام آمالهم للعمل وغيره، وعلى أنّ ذلك الزمان منقطع بلحوق الأجل، ثمّ أردفه ببيان فائدة العمل في ذلك الزمان من الثواب، وبيان ثمرة العقر من العقاب، فقال:

[**ألا وإنّكم في أيّام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله**] في الدنيا والأُخرى.

[**ولم يضرّه أجله، ومن قصّر في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه**] أجله، استعار لفظ الخسران لفوات العمل، إذ الخسران في المعاملة نقص رأس المال أو ذهابه، والعمل رأس مال العامل، الّذي به يكسب الكمال الدنيويّ، والثواب الأُخرويّ، فحسنت الإستعارة.

ألا فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرهبة ألا وإنّي لم أر كالجنّة نام طالبها، ولا كالنار نام راهبها

وأمّا استلزام المنفعة لعدم مضرّة الموت والخسران لمضرّته فظاهر، إذ الكامل في قويته المُعرض عن الدنيا لايلتفت إليها بعد المفارقة، ولايشقّ عليها فراقها، فانتفت المضرّة عنه بخلاف المقصّر في العمل المنهمل في زهرتها المائل إليه، فإنّه يشقّ مفارقتها عليه لفوات محبوبه.

[**ألا فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرهبة**] حثّ عليه السلام على وجوب التسوية في العمل في الرغبة والرهبة، كما هو شأن العبوديّة الصادقة، وإلى ذلك أُشير في القرآن بقوله: ﴿وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾.

وقال سيّد العابدين أمير المؤمنين عليه السلام: ماعبدتُك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، وإنّما وجدتُك أهلاً للعبادة فعبدتُك.

وإذا انتفت الرغبة والرهبة وجب التساوي في العبادة حالتيهما.

[**ألا وإنّي لم أر كالجنّة نام طالبها، ولا كالنار نام راهبها**] أي: من العجب من يوقن بالجنّة كيف يطلبها وينام عنها، ومن يوقن بالنار كيف يهرب منها وينام، والضمير في طالبها وراهبها يعود إلى المفعول الأوّل لرأيت المحذوف المشبّه في الموضعين، أي: لم أر نعمة كالجنّة، نام طالبها، ولانقمة كالنار، ونام في محلّ النصب مفعولاً ثانياً، وهو تنبيه على وجه الشبه، والمفعول الثاني في الجملتين صفة جارية على غير من هي له تنبيه للموقنين بالجنّة والنار، على كونهم نائمين في مراقد الطبيعة ليتفطّنوا للإستعداد، ولما وراءهم من ثواب أو عقاب.

ألا وإنّه من لاينفعه الحقّ يضرّه الباطل ولا من يستقيم به الهدى يحذ به الضلال إلى الردى ألا وإنّكم قد أُمرتم بالطعن ودللتم على الزاد

[**ألا وإنّه من لاينفعه الحقّ يضرّه الباطل**] الضمير في أنّه للشأن، وأراد بالحقّ الإقبال على اللّه بلزوم الأعمال الصالحة المطابقة للعقائد الصحيحة وبالباطل الإلتفات عنه إلى غيرذلك، ممّا لايجدي نفعاً في الآخرة، ولاريب أنّ وجود الحقّ مستلزم لمنفعته، فعدم منفعته إذن مستلزم لعدمه وعدمه مستلزم لوجود الباطل، لأنّ عمل المكلّف وعقيدته إمّا أن يطابق أمر اللّه أو لا، والأوّل الحقّ، والثاني الباطل، وعدم الأوّل مستلزم لوجود الثاني، ووجود الباطل مستلزم لمضرّته، فظهر انّ عدم منفعة الحقّ مستلزم لوجود مضرّة الباطل.

[**ولا من يستقيم به الهدى يحذ به الضلال إلى الردى**] كنّى بالهدى عن نور العلم والإيمان وبالضلال عن الجهل، والخروج عن أمر اللّه أي من لم يكن الهدى دليله وقائده إلى الصراط السويّ، فلابدّ وأن ينحرف به الضلال عنه، لأنّ الهدى يستلزم استقامة الإنسان على الجادة، كما انّ عدم استقامة الهدى مستلزم لعدم الهدى المستلزم لوجود الضلال المستلزم للعدول عن الصراط.

[**ألا وإنّكم قد أُمرتم بالطعن**] والمسير إلى اللّه تعالى [**ودللتم على الزاد**] من الطاعات، قال تعالى: ﴿ففرّوا إلى اللّه وإنّي لكم منه نذير مبين﴾ وقال: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربّكم﴾ وقال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ وقال: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

وإنّ أخوف ماأخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل وتزوّدوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم به غداً

[**وإنّ أخوف ماأخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل**] لاستلزامهما الإعراض عن الآخرة، المستلزم لعدم الطعن المأمور به إليها.

[**وتزوّدوا في الدنيا من الدنيا**] قال ﷺ: نعم العون على الآخرة الدنيا، ثمّ انّ الزاد الموصل إلى اللّه إمّا علم أو عمل، وكلاهما يحصلان من الدنيا في الدنيا.

[**ما تحرزون أنفسكم به غداً**] إشارة إلى أنّ كلّ زاد أعدّ به الإنسان نفسه للوصول إلى جوار اللّه فقد احترز به من عذابه، وحفظ به نفسه ﴿يوم لاينفع مال ولابنون إلّا من أتى اللّهَ بقلب سليم﴾.

قال السيّد: وأقول: لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطرّ إلى عمد الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الأعمال وقادحال لزناد الإتّعاظ والإنزجار.

ومن أعجب قوله: ألا وإنّ اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنّة، والغاية النار، فإنّ فيه مع فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل وواقع التشبيه سرّاً عجيباً، ومعنى لطيفاً وهو قوله ﷺ: «والسقة الجنّة» لانّ الإستباق إنّما يكون لأمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنّة، وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ باللّه منها، ولم يجز أن يقول والسبقة إلى النار، بل قال: والغاية النار، لأنّ الغاية قد ينتهي إليها من لايسرّه الإنتهاء إليها، ومن يسرّه ذلك فيصلح أن يعبّر بها عن الأمرين معاً،

أيّها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم

فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل، قال عزّ ذكره: ﴿قل تمتّعوا فإنّ مصيركم إلى النار﴾.

ولايجوز أن يقال في هذا الموضع: فإن سبقتكم إلى النار، فتأمّل ذلك، فباطنه عجيب، وغوره بعيد، وكذا في أكثر كلامه ﷺ.

وقد جاء في رواية أُخرى: والسبقة الجنّة، بضمّ السين، والسبقة عندهم اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مال، أو عرض، والمعنيان متقاربان، لأنّ ذلك لايكون على جزاء على فعل الأمر المذموم، وإنّما يكون جزاء على فعل الأمر المحمود.

ومن خطبة له عليه السلام

روي أنّ السبب فيها أنّ الضحّاك بن قيس بعد قصّة الحكمين وعزمه على المسير إلى الشام بعثه معاوية في أربعة آلاف فارس لما سمع باختلاف الناس على أميرالمؤمنين، ومقاتلة الخوارج، وحثّه على النهب والمغارة، فأقبل يقتل وينهب حتّى مرّ بالثعلبيّة، فانحاز على الحاج، فأخذ أمتعتهم وقتل عمروبن قيس بن مسعودبن أخي عبداللّه بن مسعود صاحب رسول اللّه ﷺ، وقيل: معه ناساً من أصحابه، فلمّا بلغ عليّاً عليه السلام ذلك استصرخ أصحابه على أطراف أعماله، فتكاسلوا وتثاقلوا، ورأى منهم تعاجزاً وفشلاً، فقام خطيباً وقال:

[أيّها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم] إشارة إلى قوله تعالى:

كلامكم يوهي الصمّ الصلاب يقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد ما غرّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم

﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**كلامكم يوهي الصمّ الصلاب**] والوهي: الضعف، والصمّ: الأحجار القويّة، استعار لفظي الصمّ الصلاب من أوصاف الحجارة للقلوب الّتي تضعف من سماع كلامهم، ونظيره في التنزيل: ﴿ثمّ قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾ إشارة إلى قولهم في مجالسهم لانحتفل بالخصم، وإنّه لمخذول، ومن يكون وسنفعل بهم وكذا وكذا، ممّا يضعف عند سامعه القلوب الصلبة، وتظنّ السماع أنّ لهم ثباتاً، كما أشار إليه بقوله:

[**يقولون في المجالس كيت وكيت**] كناية عمّا يقولونه ممّا مرّ.

[**فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد**] كلمة يقولها الهارب الفارّ، أصله من حاد عن الشيء، أي: انحرف، أي: تنحّى عنها، ليتها الحرب، كقولهم ينحى فياح، وفياح اسم للحرب، أو الفارة، قيل: ويحتمل أن يكون حياد من أسماء الأفعال كنزال، فيكون قد أمر بالتنحّي بلفظين مختلفين.

[**ما غرّت دعوة من دعاكم**] بل كانت دعوته ذليلة لتقاعدكم عنها، والتقاعد مستلزم للحكم بذلّة الداعي.

[**ولا استراح قلب من قاساكم**] للحكم بتعبه بتكرار النصيحة والدعوى مرّة بعد أُخرى، وكرة غب أُولى ولا إجابة.

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

أعاليل بأضاليل دفاع ذي الدين المطول لايمنع الضيم الذلل ولا يدرك الجوّ إلاّ بالجدّ أيّ دار بعد داركم تمنعون

[أعاليل] جمع إعلال، اسم لما يتعلّل به ويعتذر [بأضاليل] جمع إضلال، وهما جمع علّة، وضلّة اسم من الضلال، خبر مبتدا محذوف، أي: إذا دعوتكم إلى القتال تعلّلتم، وهي أعاليل باطلة، وأعذار فاسدة، سببها الضلال عن سبيل اللّه.

[**دفاع ذي الدين المطول**] كثير المطل، وهو تطويل الوعد وتسويفه، منصوب بنزع الخافض، أي: دفاعكم كدفاع ذي الدَّيْن المطول، ويحتمل الرفع بأن استعار دفاع ذي الدَّيْن المطول دفاعهم. ووجه الشبه أنّ المدين المطول أبداً منتهي لعدم المطالبة وتودّ نفسه أن لايراه غريمه، وهم يحبّون أن لايعرض لهم بذكر القتال، فاستعار لدفاعهم الدفاع المذكور لمكان المشابهة، ثمّ نبّههم على قبح الذلّ بذكر بعض لوازمه، فقال:

[**لايمنع الضيم الذلل**] أي: إنّ الذليل بالجبن لايتمكّن من دفع الضيم عن نفسه.

[**ولا يدرك الجوّ إلاّ بالجدّ**] إشارة إلى قبح التواني والتخاذل بأنّ الإنسان لايدرك حقّه إلاّ بالجدّ والتشمير، ثمّ أعقب ذلك بالسؤال على جهة الإنكار، فقال:

[**أيّ دار بعد داركم**] الّتي هي دار الإسلام والسلام [**تمنعون**] عنها العدوّ مع أنّ داركم هذه لانسبة لغيرها إليها في العزّة، والكرامة، مع كونها موطنهم ومحلّ دولتهم.

ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل

[**ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون؟**] مع كونه أفضل الناس حسباً ونسباً، عبدالله، وأخ رسولﷺ، وفيه تثبيت لهم على طاعته، إذ كان يتوهّم في بعضهم الميل إلى معاوية، والرغبة فيما عنده من الدنيا، ثمّ أردف ذلك بذمّ من اغترّ بكلامهم، ثمّ بالإخبار بسوء حال أصحابه فقال:

[**المغرور والله من غررتموه**] والمقصود في الحقيقة ذمّهم وتوبيخهم على خلف المواعيد والمماطلة بالنفاذ إلى الحرب، ونسب من وثق بهم إلى الغر لخلفهم معه الوعد بالنهوض معه، وجعله المغرور مبتدا ومن خبره أبلغ في إثبات الغرّة لمن اغترّ بهم من العكس، لإفادته حينئذ انحصار المغرور فيمن اغترّ بهم.

[**ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب**] شبّهﷺ نفسه وإيّاهم باللاعبين بالميسر، ولاحظ شبه حصولهم في حقّه بخروج إحدى السهام في حصولهم له من باب اطلاق اسم أحد الضدّين على الآخر، كتسمية السيّئة جزاء، وقوله:

[**ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل**] لاحظﷺ المشابهة بين رجال الحرب، وبين السهام في كون كلّ منها عدّة للحرب، ودفع العدوّ، ولاحظها بين إرسالهم في الحرب وبين الرمي بالسهام، فلذا استعار وصف السهم من الأفوق والناصل، واستعار لفظ الرمي لمقاتلته بهم، ثمّ خصّصهم بأردى أوصاف السهم الّتي يبطل معها فائدته، لمشابهتهم ذلك السهم في

أصبحتُ والله لا أُصدق قولكم ولا أطمع في نصركم، ولا أُوعد العدوّ بكم ما بالكم؟ ما دواؤكم ما طبّكم القوم رجال أمثالكم

عدم الإنتفاع بهم في الحرب، وكأنّه أيضاً اختصّ بعثه لهم على الحرب باستعارة الرمي بالسهم الموصوف لزيادة الشبه، وهي عدم انبعاثهم عن أمره، وتجاوزهم أوطانهم كالرمي بالسهم الّذي لا فوق له ولا فضل، فإنّه لايكاد يتجاوز عن القوس مسافة، وهذا من لطائف الإستعارة والمشهابهة، والمعنى أنّ من كنتم في حزبه فالخيبة حاصلة له فيما يطلبه بكم، ومن قاتل بكم عدوّه فلا نفع له فيكم، ثمّ أردفه بالأخبار بأُمور نشأت عن إساءة ظنّه بهم، وعدم وثوقه بأقوالهم لكثرة خلفهم ومواعيدهم الباطلة بالنهوض معه، فقال:

[**أصبحتُ والله لا أُصدق قولكم**] لإكثارهم من الخلف والكذب، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن أمثالهم: إنّ الكذوب لايصدق.

[**ولا أطمع في نصركم، ولا أُوعد العدوّ بكم**] إذ كان وعيده بهم مع طول تخلّفهم وشعور العدوّ بذلك، ممّا يوجب جرأته وتسلّطه وأمانه من المقاومة، ثمّ أردف ذلك بالإستفهام الإنكاري، وتقريع حالهم، فقال:

[**ما بالكم؟ ما دواؤكم**] الّذي يصلح مرضكم هذا، مادواؤكم، سؤال عن كيفيّة علاجهم وماقبله عن دوائهم، أي: [**ما طبّكم**] وقيل: أراد ما عادتكم، ثمّ نبّههم على ماعساهم يتوهّمونه من قوّة خصومهم، فقال:

[**القوم رجال أمثالكم**] في الرجوليّة الّتي هي مظنّة الشجاعة والبأس، فلامزية لهم عليكم، فلا معنى لخوفكم منهم، ثمّ ذمّهم على مايصدر منهم من الأُمور القبيحة، فقال:

أقولاً بغير فعل وغفلة من غير ورع وطمعاً في غير حقّ

[أقولاً بغير فعل] أتقولون ما لاتفعلون بالنهوض إلى الحرب، ثمّ لاتنهضون، ﴿ياأيّها الّذين آمنوا لِمَ تقولون ما لاتفعلون كبر مقتاً عند اللّه أن تقولون ما لاتفعلون﴾.

وفي بعض النسخ: بغير علم، أي: أتقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، ولاتعتقدونه، أو أتقولون إنّا مخلصون للّه، وإنّا مسلمون، ولاتأتون بشرائط الإسلام والإيمان.

ثمّ نبّه عليه السلام ثانياً على غفلتهم فقال:

[وغفلة من غير ورع] وهذه هي المذمومة، وأمّا الغفلة مع الورع، فإنّها محمودة نافعة في الدارين، وهي عبارة عن ملازمة الأعمال الصالحة مع الغفلة عن الأُمور الدنيويّة، ومنهم البله الّذين أشار إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: أكثر أهل الجنّة البلهاء، أي: سليموا الصدور من الإهتمام بالدنيا، ووجوه تحصيلها، وذمّهم هنا باعتبار غفلتهم عن مصالح الجهاد.

[وطمعاً في غير حقّ] أي: فيما كانوا يتوقّعونه من التفضيل والزيادة على عطيّاتهم، كما فعل من قبله.

لو أمرتُ به لكنتُ قاتلاً أو نهيت عنه لكنت قاصراً، غير أنّ من نصره لايستطيع أن يقول خذله من أنا من غير منه، ومن خذله لايستطيع أن يقول نصره من هو خير منّي

ومن كلام له عليه السلام
في معنى قتل عثمان

[**لو أمرتُ به لكنتُ قاتلاً**] لأنّ الأمر بالشيء، بل الراضي به كفاعله [**أو نهيت عنه لكنت قاصراً، غير أنّ من نصره لايستطيع أن يقول خذله من أنا من غير منه، ومن خذله لايستطيع أن يقول نصره من هو خير منّي**] قيل: مفهوم الفصل التبرّي من دخول عثمان، والدخول فيه بأمر أو نهي في صورة شرطيّتين متّصلتين، يستنتج منها نقيض ملزومهما باستناد نقيض لازميهما، والملازمة عرفيّة فيما إذ الآمر بالقتل يسمّى قاتلاً عرفاً، والناهي عنه يسمى ناصر، وقوله: غير أنّ من نصره إلى آخره في معرض الجواب لمن أنكر بحضرته قعوده وجميع أكابر الصحابة عن نصرة عثمان، وقال: إنّهم لو نصروه وهم أكابر الصحابة لما اجترى عليه طغام الأُمّة، وإن كانوا رأوا الحقّ قبله، فكان يتعيّن عليهم أن يعرفوا الناس ذلك لترتفع الشبهة فأجابه بذلك، ومفهوم القضيّتين أنّي لو سلّمت أنّي خاذل له، فإنّ الخاذلين له كانوا أفضل من الناصرين، إذ الخاذلون أكابر الصحابة، والمناصرون بنوأُميّة وأتباعهم، وليس لهم أن يدعوا الأفضليّة على الخاذلين، ولا للخاذلين أن يعترفوا

وأنا جامع لكم أمره استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع

بالمفضوليّة لهم، وهو في قوّة صغرى وتقدير كبراه، وكلّ من كان خاذلاً له أفضل من ناصريه، فلا يجوز لائمة خاذليه وتخصيصهم بالتعنيف في أمره، لأنّهم أفضل، والأفضل أولى أن يتّبع.

وقيل: إنّ هذه كلمة قرشيّة أراد بذلك أنّه عليه السلام عمى على الناس في كلامه قال: ولم يرد التبرّي من أمره، وإنّما المراد أنّ الخاذلين لايلحقهم المفضوليّة، بكونهم خاذلين، وإنّ الناصرين له لاتلحقهم الأفضليّة بنصرته.

قيل: ويمكن حمل كلامه على وجه آخر، وذلك أنّه إنّما قرّر أفضليّة الخاذلين على الناصرين، ليسلم هو من التخصيص باللائمة في القعود عن النصرة، فكأنّه قال: وإذا كان خاذلوه زفضل ناصريه تعيّن عليهم السؤال عن التخلّف، وإن يستشهد عليهم بحال الناصرين له مع كونهم مفضولين فلم خصّصت بالملائمة من بينه، وبالمطالبة بدمه لولا الأغراض الفاسدة.

وقال ابن أبي الحديد: هذا الكلام بظاهره يقتضي أنّه ما أمر بقتله، ولا نهى عنه، فيكون دمه عنده في حكم الأمور المباحة التي لايؤمر بها، ولاينهى عنها.

وأورد عليه: أنّ التبرّي من الأمر بالشيء والنهي عنه غاية مايفهم منه عدم الدخول فيه، والسكوت عنه، ولايلزم من ذلك الحكم بأنّه من الأمور المباحة، ثمّ أبان عليه السلام حاله وحالهم، فقال:

[وأنا جامع لكم أمره استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع]

يعني: إنّ عثمان استبدّ برأيه واستأثر فيها الأمّة شركائه فيه، فخرج من ذلك

وللّه حكم واقع في المستأثر والجازع

إلى حدّ الإفراط الّذي فسد معه نظام الخلافة، وأدّى إلى ماأدّى، وأمّا قاتلوه فلخروجهم في الجزع من أفعاله إلى حدّ التفريط، إذ كان ينبغي لهم التثبّت وتنبيهه مرّة بعد أُخرى متدرّجين في مراتب النهي عن المنكر لا القتل ابتداء، ويحتمل أن يكون المعنى أسأتم الجزع عليه بعد قتله وأثرتم الفتنة والفساد.

[**وللّه حكم واقع في المستأثر والجازع**] أي: يحكم في الآخرة بينهما بما يستحقّانه من ثواب أو عقاب، أو فيما ارتكباه من خطأ أو صواب، كما قال تعالى: ﴿واللّه يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، قل اللّهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

وقيل: أراد عليه السلام بالحكم الواقع للّه في المستأثر الحكم المقدّر اللاحق لعثمان بالقتل المكتوب بقلم القضاء الإلهي في اللّوح المحفوظ، وفي الجازع هو الحكم في اللاحق لمقاتليه من كونهم قاتلين أو راضين أو جازعين.

وفي نسبة هذه الأحكام إلى اللّه تنبيه على تبرّيه من الدخول في أمر عثمان وقاتليه.

لاتلقينّ طلحة، فإنّك إن تلقيه تجده كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول

ومن كلام له عليه السلام

لمّا أنفذ عبداللّه بن عبّاس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل

ليستضيئه، أي: يسترجعه من فاء، أي: رجع ومنه الفيء إلى طاعته، قال عليه السلام:

[**لاتلقينّ طلحة، فإنّك إن تلقيه تجده**] وفي نسخة: تلفه من الفية أي: وجدته.

[**كالثور عاقصاً قرنه**] والعقص: الإعوجاج، وعقص الثور قرنيه بالفتح متعد، وعقص قرنه بالكسر لازم [**يركب الصعب**] وهي الدابّة الجموح.

[**ويقول هو الذلول**] السهل الساكن، أي: يستهين بالمستصعب من الأمور ويتهوّر في الأمور، ويتهوّر في الأمور الصعبة، وقد شبّهه عليه السلام بالثور، وأشار إلى وجه الشبه بعقص القرن، وكنّى بالقرن عن شجاعته، وبالعقص الّذي هو التواء القرنين عن منع جانبه، وعدم الإنقياد لأحد اللازم

ولكن ألق الزبير فإنّه ألين عريكة فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فماعدا ممّا بدا، قال السيّد وهو عليه السلام أوّل من سمع منه ماعدا ممّا بدا

من الكبر والعُجب بالنفس الّذي قد يعرض للشجاع، ووجه الإستعارة أنّ القرن آلة القوّة لكنوز يمنع بها عن نفسه، كالشجاعة الّتي يلزمها منع الجانب، وأنّه عند إرادة الخصام، يعقص قرنيه، أي: يرخي رأسه ويعطف قرنيه، يقابل بهما خصمه، ولعلّ أراد عليه السلام أنّه عند لقاء ابن عبّاس له يكون مانعاً جانب متهيّأً للقتال مقابلاً بالخشونة، وعدم الإنقياد الصادر عن عجبه بنفسه، وغروره بشجاعته.

قيل: ويحتمل أن يكون وجه الشبه هو التواء طلحة في آرائه وانحرافه عنه عليه السلام بالتشبيه بالتواء القرن، وهو تشبيه المعقول بالمحسوس، ثمّ قال عليه السلام:

[**ولكن ألق الزبير فإنّه ألين عريكة**] أي: طبعاً وخلقاً، فإنّه كان سهل الجانب لايحتاج فيما يراد منه إلى تكلّف، كالجلد اللّين الّذي يسهل عركه.

[**فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فماعدا ممّا بدا، قال السيّد وهو عليه السلام أوّل من سمع منه ماعدا ممّا بدا**] وذكّره بالنسب والرحم لاستلزامه الإستمالة والإنعطاف، ونحوه قوله تعالى في ذكر موسى وهارون: ﴿فألقى الألواح وأخذ برأسه يجرّه إليه قال ابن أُمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء﴾ فإنّ فيه من الإستمالة والإستعطاف بتذكيره حقّ الأُخوّة، سيّما النسبة إلى الأمّ ماليس في غيره، مثل قوله: ﴿ياموسى﴾ أو ﴿ياأيّها النبيّ﴾ ونحوهما.

أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود

وقوله: فما عدا قال ابن أبي الحديد: عدا بمعنى صرف، أي: ماصرفك عمّا كان بدا منك، أي: ظهر، والمعنى: ماالّذي صدّك عن طاعتي بعد إظهارك لها، وحذف الضمير المفعول المنصوب كثير جداً، كقوله تعالى: ﴿واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ آي: أرسلناه، انتهى.

وقيل: عدا بمعنى جاوز، ومن لبيان الجنس، والمراد: ماالّذي جاوز بك عن بيعتي ممّا بدا لك بعدها من الأُمور الّتي ظهرت لك.

وروي عن الصادق، عن أبيه، عن جدّه عليه السلام قال: سألت ابن عبّاس عن تلك الرسالة، فقال: بعثني فأتيت الزبير فقلت له، فقال: إنّي أُريد ماتريد، كأنّه يقول الملك، ولم يزدني على ذلك، فرجعتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته.

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: قلت الكلمة للزبير فلم يزدني على أن قال: أنا مع الخوف الشديد لنطمع.

وسئل ابن عبّاس عمّا يعني الزبير بقوله: هذا، فقال: يقول أنا على الخوف لنطمع أن نلي من الأمر ماولّيتم، وربّما فسّر بإرادته إنّا مع الخوف الشديد من اللّه نطمع أن يغفر لنا هذا الذنب، وهو بعيد.

ومن خطبة له عليه السلام

[أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود] جائر من عَند عن الطريق يعند بالضمّ، أي: عدل وجار، أو من عَند يَعند بالكسر، أي: خالف، وردّ

وزمن شديد يُعدّ المحسن فيه مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوّاً

الحقّ، وهو يعرفه، إلاّ أنّ اسم فاعله عـاند وعنيد وعنود اسم فاعل عند يعند بالضمّ.

[وزمن شديد] ربّما يفسّر بالبخيل، كقوله: ﴿وإنّه لحبّ الخير لشديد﴾ أي: بخيل، لأجل حبّ المال.

وفي رواية: زمن كنود، وهو الكفـور، وقد تعـارف نسبـة الخيـر والشرّ إلى بعض الأزمنة دون بعض، لأنّ الزمـان من الأسـبـاب للعـدّة لحصـول مايـحصل في هذا العـالم من الحوادث والأُمـور الواقعـة فيـه خيرها وشـرّها، وقد تتفـاوت الأزمنة في الإستعداد لقبـول الخير زو الشرّ، ففي بعـضها يكون الخيـر بحسب الإسـتقـراء غـالبـاً خـصـوصـاً في زمن قـوّة الـدين والنواميس الشرعيّة النـاظمة للعالَم، وفي بعضهـا يكون الشرّ غالباً كـما في العكس، ثمّ أشار عليه السلام إلى تعداد الأوصاف الّتي باعتبارها وصف الزمان بالرداءة، فقال:

[يُعدّ المحسن فيه مسيئاً] كما طريقة أهل الكسل عن الطاعات، والّذين يقـيسـون غيـرهم على أنفسهم، فـيعـدّون الباذل مـاله في اللّه مـرائياً، ونحـو ذلك من الفضـائل يعدّونها رذائل طعناً في فضـيلة صاحب الفضيـلة، وحسداً أن ينال رتبة أعلى، فيلحقونه بدرجاتهم في الإساءة، ثمّ قال:

[ويزداد الظالم فيه عتوّاً] أي: كبـراً، وذلك لأنّ منشأ الظلم و النفس الأمّارة بالسوء، وهي في زمـان العدل مقهـوردة دائماً أو غالبـاً، وثورانها في ذلك الوقت طالبة للظلم، يكون فلتة وانتهاز فرصة، فالظالم في زمان العدل إن ظلم أو تجاوز حدّه فكالسارق الّذي لايأمن في كلّ لحظة أن يقع به

لانتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا ولانتخوّف قارعة حتّى تحلّ بنا فالناس على أربعة أصناف

المكروه، فكذا الظالم في زمن العدل مقوم بحرّاس الشريعة مرصود بعيون طلائعها، أمّا في زمان ضعف الشريعة، فالظالم فيه كالناهب معطي لقوته سؤلها فعتوّه فيه أزيد، وقد كان عليه السلام في زمانه بالنسبة إلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله كذلك، ثمّ أشار عليه السلام إلى ثالث العيوب بقوله:

[لانتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا] توبيخ لعدم عمل العالم بعلمه، وعدم سؤال الجاهل عمّا جهله لقلّة الرغبة في العلم والإنتفاع ب، وقد تظافرت الأخبار بأنّ العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلّا ارتحل، وقوله:

[ولانتخوّف قارعة حتّى تحلّ بنا] القارعة: الخَطْب الذي يقرع، أي: يصيب، كناية عن عدم فكرهم في مآل أمرهم وعواقب أحوالهم واشتغالهم بما لايعنيهم عن تدمير مصالحهم، وفيه إيماء إلى مايستقبلونه من الفتن من بني أُميّة وغيرهم، ثمّ قال عليه السلام:

[فالناس على أربعة أصناف] وسياق كلامه عليه السلام يقتضي كونهم خمسة، ولكنّه عليه السلام أفرد الأربعة لاشتراكها في غرض الذمّ، وأفرد الخامس لاختصاصه بالمدح، ووجه القسمة أنّ الناس إمّا يريدون للدنيا أو للّه، والأوّلون إمّا قادرون عليها أو غير قادرين، وغير القادرين إمّا غير محتالين لها أو محتالون، والمحتالون إمّا أن يؤهلوا نفوسهم للآخرة والملك أو لما هو دون ذلك، فأشار عليه السلام إلى هذه الأقسام بقوله:

منهم من لايمنعه من الفساد في الأرض إلاّ مهابة نفسه وكلالة حدّه ونضيض وفره ومنهم المصلت بسيفه والمعن بشرّه والمجلب بخيله ورجله قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مِقْنَب يقوده أو منبر يفرعه

[**منهم من لايمنعه من الفساد في الأرض إلاّ مهابة نفسه**] أي: حقارتها [**وكلالة حدّه**] يقال: كلّ حدّ السيف وغيره إذا وقف عن القطع.

[**ونضيض وفره**] أي: قلّة مال، وكنّى بكلالة حدّه عن عدم قطعه في الأمور وإمضائه لها، وضعفه عنها، وتنضيض وفره إلى ماقيل الفقر يمنعه عن كلّ فاحشة، وفي المثل الفارسي: «مستورى بى‌بى از بى‌حادرى».

ومعلوم أنّ المريد للدنيا المنهمك في شهواتها لو خلّى ونفسه ولم يمنعه مانع لم يكن سعيه فيها إلاّ فساداً، وهذا إشارة إلى الصنف الثاني المريدين لها غير القادرين ليها، وأشار إلى القسم الأوّل بقوله:

[**ومنهم المصلت بسيفه**] أي: الماضي في الأُمور بقوته [**والمعن بشرّه**] المتجاهر بأفعاله السيّئة الخبيثة [**والمجلب بخيله ورجله**] أي: المستعين على الأمور بجمع الخيل والرجالة، والرجل جمع راجل.

[**قد أشرط نفسه**] أي: أعلمها وأعدّ لها [**وأوبق دينه**] أي: أهلكه [**لحطام ينتهزه**] والحطام متاع الدنيا، وأصله مايكسر من التين، والإنتهاز: الإختلاس والإستلاب بقدر الإمكان.

[**أو مِقْنَب**] بكسر الميم وفتح النون: الجمع من الخيل مابين الثلاثين إلى الأربعين.

[**يقوده أو منبر يفرعه**] أي: يعلو، وهؤلاء هم القادرون على الدنيا،

ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، وممّا لك عند اللّه عوضاً

الخائضون في شواتها، السابحون في لذّاتها، المطلقون للقوى الشهويّة والغضبيّة في إرادتها، المرخون عنان النفس الأمّارة في مشتهياتها، فإصلات السيف كناية عن التغلّب والقهر، وإعلان الشرّ المجاهرة بالظلم والعدوان، والإجلاب بالخيل والرجل جمع أسباب الظلم وآلات الغلبة، ودواعي الإستعلاء والقهر وإشراط نفسه تأهيلها وإعدادها للفساد في الأرض.

ومن المعلوم إنّ نتيجة هذه الأُمور فساد الدين، وقوله لحطام إلى آخره، إشارة إلى بعض العلل الغائيّة للصنف المذكور، واستعار لفظ الحطام للمال، ووجه المشابهة أنّ اليبس من النبات كما أنّه لانفع له بالقياس إلى مايبقى من خضرته ونضارته أو يكون ذاثمرة كذلك المال بالنسبة إلى الأعمال الصالحة الباقي نفعها في الآخرة، وخصّ هذه الأُمور الثلاثة لكونها الأغلب في مطالب الدنيا، إذ الغالب أنّ السعي فيها إمّا لجمع المال أو لرئاسة دنيويّة باقتناء الخيل والنعم، أو دينيّة كعلوّ المنابر والوعظ والإرشاد والتعليم، وهذا هو الّذي يحمل الدين فخّاً لتحصيل الدنيا، ولذا قال عليه السلام:

[ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، وممّا لك عند اللّه عوضاً]

تنبيه على أنّ هذا الصنف من الخاسرين في أفعالهم الشبيهة بالتجارة الخاسرة، فإنّ طالب الدنيا هالك في الآخرة على كلّ حال، فهو كالبائع لها بما حصل له من دنياه، والمعتاض بما أعدّ اللّه له من الآجر الجزيل في الآخرة بالحطام الذاتي، وتبقى تبعته، ولذا استعار لفظ التجارة لها فعن قريب تفنى دنياه ويخسر الدنيا والآخرة ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾.

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولايطلب الآخرة بعمل الدنيا قد طامن شخصه وقارب من خطوه وشمّر من ثوبه وزخرف من نفسه للأمانة واتّخذ ستر اللّه ذريعة إلى المعصية ومنهم من أقعده عن الملك ضؤولة نفس

ثمّ أشار إلى الصنف الثالث الغير القادرين على الدنيا مع احتيالهم لها بقوله:

[**ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة**] كالرياء والسمعة في الأعمال الصالحة يجعلها وسيلة لتحصيل الدنيا الدنيّة.

[**ولايطلب الآخرة بعمل الدنيا**] لأنّه مريد الدنيا فقط دون الآخرة.

ثمّ أشار إلى كيفيّة احتياله لتحصيلها، بقوله:

[**قد طامن شخصه**] أي: خفض، والإسم الطمأنينة [**وقارب من خطوه**] لم يسرع ومشى رويداً.

[**وشمّر من ثوبه**] أي: رفعه.

[**وزخرف**] أي: زيّن [**من نفسه للأمانة**] أي: زيّنها وأظهر أنّه أمين صالح، ونحو ذلك من شعار الصالحين من عباد اللّه.

[**واتّخذ ستر اللّه**] عليه، الّذي حماه به، بحيث لو اطّلع عليه غيره لما فعله.

[**ذريعة إلى المعصية**] وإلى ماأمّلوه من الدنيا الفانية، كلّ ذلك لأجل استمالة قلوب أهل الدنيا حتّى يطمئنّوا إليهم في أموالهم.

ثمّ أشار عليه السلام إلى الصنف الرابع الغير القادرين عليها بقوله:

[**ومنهم من أقعده عن الملك ضؤولة نفس**] أي: حقارتها وقصورها عن

وانقطاع سببه فقصرته الحال على حاله فتحلّى باسم القناعة وتلبّس بلباس أهل الزهادة وليس هو من ذلك في مراح ومغدى وبقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع

تحصيل المراتب العالية، وظنّها عدم تمكّنها ممّا تطلبه من الدنيا وإن كان محبوباً لها مرغوباً فيه.

[**وانقطاع سببه**] من قلّة المال د الأعوان والأنصار.

[**فقصرته الحال على حاله**] الّتي لم يبلغ معها ما أراد، ووقفت به عليها فعدل عن ذلك الغير المقدور له إلى أمر آخر يسهل عليه.

[**فتحلّى باسم القناعة**] بلا مسمّى.

[**وتلبّس بلباس أهل الزهادة**] من اللباس الخشن ونحوه، بلا حقيقة، والمواظبة على العبادات ولزوم ظواهر أمر اللّه من دون أن يكون ذلك عن أصل أصيل، واعتقاد صحيح قاده إلى ذلك.

[**وليس هو من ذلك في مراح ومغدى**] والمراح: المكان الّذي تأوي إليه الماشية بالليل، والمغدى: هو الّذي تأوي إليه بالغداة، كنّى بذلك عن أنّه ليس من القناعة والزهد في شيء أصلاً، ثمّ أشار إلى الصنف الخامس وهم المريدون بقوله:

[**وبقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع**] إلى اللّه، وتذكّروا أنّهم سيقفون بين يدي ربّ الأرباب، ومالك الرقاب، وسلطان يوم الحساب، ويسألون عن النقير والقطمير والصغير والكبير الجليل والحقير، وعلموا أنّ اللّه مطلع على سرائرهم محيط بما ف ضمائرهم معهم أينما كانوا فأعرضوا عن غيره واستحيوا منه حقّ الحياء وغضّوا أبصارهم وبصائرهم عن غيره.

وأراق دموعهم خوف المحشر فيهم بين شريد وناد وخائف مقموع

[**وأراق دموعهم خوف المحشر**] وهول المطلع، قال بعض العارفين: إنّ خوف الخائفين قد يكون لأمور مكروهة لذاتها، وقد يكون لأمور مكروهة لأدائها إلى ما هو مكروه لذاته، وأقسام القسم الثاني كثيرة كخوف الموت قبل التوبة أو خوف نقص التوبة أو خوف الإنحراف عن القصد في عبادة اللّه أو خوف استيلاء القوى الشهوانيّة بحسب مجرى العادة في استعمال الشهوات المألوفة، أو خوف تبعات النفس عنده، أو خوف سوء الخاتمة، أو خوف سبق الشقاوة في علم اللّه، وكلّ هذه ونحوها مخاوف عباد اللّه الصالحين، وأغلبها على قلوب المتّقين خوف الخاتمة.

وأمّا أقسام القسم الأوّل فمثل أن يتمثّل في نفوسهم ما هو المكروه لذاته، كسكرات الموت وشدّته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هو الموقف بين يدي اللّه تعالى، أو الحياء من كشف السرّ، والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته، وكيفيّة العبور عليه، أو من النار وأغلالها وأهوالها، أو من حرمان الجنّة أو من نقصان الدرجات فيها، أو خوف الحجاب من اللّه وأعلاها رتبة خوف الفراق والحجاب، وهو خوف العارفين، وخوف المحشر يشمل جميع ذلك.

[**فيهم بين شريد**] والشريد: المشرّد المطرود.

[**وناد**] أي: ذاهب على وجهه لكثرة إنكاره المنكر، أو لقلّة صبره على مشاهدة المنكرات.

[**وخائف مقموع**] والقمع الإذلال.

وساكت مكموم وداع مخلص وثكلان موجع قد أخملتهم التقيّة وشملتهم الذلّة فهم في بحر أُجاج أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة

[**وساكت مكموم**] لايمكنه الكلام، كأنّه سدّ فوه بالكعام، وهو شيء يجعل في فم البعير عند الهياج كان التقيّة شدّت فاه عن الكلام، فاستعار لفظة الكعام لذلك.

[**وداع مخلص**] للّه [**وثكلان موجع**] إمّا لمصابه في الدين، أو لكثرة أذى الظالمين.

[**قد أخملتهم التقيّة**] أي: أسقطتهم وأرذلتهم بين الناس والتقيّة والتقوى الخوف.

[**وشملتهم الذلّة**] بسبب الخوف من الأعداء.

[**فهم في بحر أُجاج**] مالح، واستعار لفظ البحر الأُجاج لما هم فيه من أحوال الدنيا الباطلة، ووجه المشابهة أنّ الدنيا كما لاتصلح للإقتناء والإستمتاع بها، بل تكون سبباً للعذاب في الآخرة كذلك البحر لايمكن سابحه شربه وإن بلغ به جهد العطش مبلغه.

[**أفواههم ضامرة**] بالراء المهملة، أي: ذابلة لكثرة صيامهم وبعد أفواههم من المضغ وبالزاي المعجمة أي: ساكنه.

[**وقلوبهم قرحة**] جوعاً أو خوفاً من اللّه أو عطشاً إلى رحمته ورضوانه، أو لما يشاهدونه من كثرة المنكرات، وعدم تمكّنهم من إنكارها.

قد وعظوا حتّى ملّوا وقهروا حتّى ذلّوا وقتلوا حتّى قلّوا فلتكن الدنيا في أعينكم أحقر من حثالة القرظ وقراضة الجلم واتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمة

[**قد وعظوا**] الخلق ونصحوهم وأرشدوهم.

[**حتّى ملّوا**] من تكرار ذلك وعدم تأثيره في السامعين.

[**وقهروا**] من أعداء الدين وكيد المنافقين وخمول شعائر الدين.

[**حتّى ذلّوا وقتلوا**] أي: أكثرهم في سبيل اللّه [**حتّى قلّوا فلتكن الدنيا في أعينكم**] أي: السامعون صغيرة حقيرة.

[**أحقر من حثالة القرظ**] والحثالة: الثفل والقرظ ورق يدبغ به.

[**وقراضة الجلم**] والجلم: المقراض تخربه أوبار الإبل وقراضته: ماتساقط من قرضه.

[**واتّعظوا بمن كان قبلكم**] من الأُمم الماضية، والقرون الخالية، فإنّ في حالهم عبرة لمن اعتبر، وتبصرة لمن تبصّر.

[**قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم**] فإنّكم مضطرّون إلى مفارقة ماأنتم فيه، وفائدة الأمر بالإتّعاظ الإعراض عن الدنيا وعدم الإغترار بها والإقبال على الأعمال الصالحة، ثمّ لما كان ماسبق من قبيل الكناية والإشارة إلى ترك الدنيا ولذّاتها، عقّبه عليه السلام بالتصريح فقال:

[**وارفضوها**] أي: تركوا الدنيا قبل أن تترككم حال كونها [**ذميمة**]

فإنّها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

حقيرة **[فإنّها قد رفضت من كان أشغف بها منكم]** فلادوام لصحّتها، ولاثبات لرفاقتها، فإنّها إذا رفضت من هو أحبّ لها منكم وأحرص عليها ولم تدم له، فبالأولى أن لاتدوم لكم، واللائق بالعاقل الإعراض عمّن لاتدوم صحبته ولاتصفو محبّته، فكيف بما إذا كان غدّاراً مكّاراً عدوّاً يلقي من أقبل عليه على أُمّ رأسه.

قال السيّد (ره): وهذه الخطبة ربّما نسبها من لاعلم له إلى معاوية، وهي من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام الّذي لاشكّ فيه، وأين الذاهب من الرغم والعذب من الأُجاج، وقد دلّ على ذلك الدليل الخريت أي: الحاذق، ونقده الناقد البصير عمروبن بحر الجاحظ، فإنّه ذكر هذه الخطبة في كتابه البيان والتبيين، وذكر من نسبها إلى معاوية، ثمّ تكلّم بعدها بكلام في معناها جملته أنّه قال: وهذا الكلام بكلام أميرالمؤمنين عليه السلام أشبه، وبمذهب في تصنيف الناس.

وفي الأخبار عمّا هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقيّة والخوف أليق، ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال سلك مسلك الزهّاد ومذاهب العباد.

وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً إنّ الله سبحانه بعث محمّداًﷺ وليس أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدّعي نبوّة

ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة

قال عبدالله بن عبّاس (رض): دخلتُ على أميرالمؤمنين عليه السلام بذي قار، وهو موضع قريب من البصرة، نُصرت فيه العرب على الفرس قبل الإسلام.

[**وهو يخصف نعله**] أي: يخرزها [**فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟**] فقلت: لاقيمة لها، فقال:

[**والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً**] ثمّ خرج عليه السلام فخطب الناس فقال:

[**إنّ الله سبحانه بعث محمّداًﷺ وليس أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدّعي نبوّة**] الواو للحال، وفيه إشارة إلى ما كانت اليهود تدعيه من التوراة والنصارى من الإنجيل، ليس في الحقيقة هو المنزل من عند الله على موسى وعيسى عليهما السلام، بل حرّفوهما وبدّلوهما، قال تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾. وقال: ﴿قل من أنزل الكتاب الّذي أُنزل على موسى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ أو إنّه أراد بالعرب جمهورهم، وكانوا معطّلة وعبدة أوثان.

فساق الناس حتّى بوّأهم محلّتهم وبلّغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنّت صفاتهم

[**فساق الناس حتّى بوّأهم**] أسكنهم [**محلّتهم**] منزلتهم [**وبلّغهم منجاتهم**] أي: موضع نجاتهم، كنّى بذلك عن سوقه العقلي أذهانهم بالآيات والبراهين إلى دين اللّه القويم، وصراطه المستقيم، وشريعته الغرّاء، وملّته الزهراء، وكنّى بمحلّتهم ومنزلتهم فطرتهم الّتي فُطروا عليها أو مرتبتهم الّتي خلقوا لأجلها، وأُشير إليها بقوله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾ .

وهي في الحقيقة لزوم القصد في سبيل اللّه المسمّى إسلاماً وديناً وإيماناً، وهو في الحقيقة النجاة الّتي لاخوف على سالكها، ولا سلامة للمنحرف عنها.

[**فاستقامت قناتهم**] بها، بعد أن كانت مموّجة، أي: استقاموا على الإسلام بعد الكفر، أو كناية عن استقامة دولتهم وانتظام أُمورهم، فالمراد بالقناة القوّة والغلبة والدولة الّتي حصلت لهم من إطلاق السبب على المسبّب، فإنّ الرمح سبب للقوّة.

[**واطمأنّت صفاتهم**] والصفاة: الحجر الأملس المنبسط، استعارة لحالهم الّتي كانوا عليها، ووجه الشبه أنّهم كانوا قبل الإسلام في مواطنهم وعلى أحوالهم متزلزلين لايقرّ بعضهم بعضاً في موطن، ولا على حال، بل لم يزالوا في الغارة والنهب والجلاء، كالواقف على الحجر الأملس المتزلزل المضطرب، فاطمأنّت أحوالهم، وسكنوا في مواطنهم ببركة سيّد المرسلين، وأخيه أميرالمؤمنين.

أما والله إنّي كنتُ لفي ساقتها حتّى تولّت بحذافيرها ماعجزت ولاجبنت وإنّ مسيري هذا لمثلها فلأنقُبَنَّ الباطل حتّى أخرج الحقّ من خاصرته

[**أما واللّه إنّي كنتُ لفي ساقتها**] جمع سائق كحائك وحاكه، ثمّ استعملت في الأخير، لانّ السائق إنّما يكون في آخر المركب والجيش.

[**حتّى تولّت بحذافيرها**] أي: بأسرها، أقسمﷺ أنّه لم يزل في ساقتها يطردها وهي تطرد أمامه حتّى تولّت بأسرها، لم يبق منها شيء من غير عجز اعتراه، ولا جبن كما قال:

[**ماعجزت ولاجبنت**] والضمير في ساقتها للحرب المستنبط من الناس، فكأنّه قال: فساق الناس وهم يومئذ كتائب، فكنت في ساقتها حتّى تولّت تلك الكتائب بأسرها، لم يبق فيها مايغالبه.

[**وإنّ مسيري هذا**] وفي نسخة غداً [**لمثلها**] أي: لمثل تلك الحال الّتي كنتُ عليها معهم زمان كفرهم من سوق كتائبهم وطردها من غير جبن ولا ضعف، وهو في معرض التهديد، الّذي عساه أن يبلغ خصومه ويقوي به أولياءه، وكذا قوله:

[**فلأنقُبَنَّ**] وفي نسخة: لايقرن [**الباطل حتّى أخرج الحقّ من خاصرته**] وفي نسخة: حتّى يخرج الحقّ من جانبه، في معنى التهديد أيضاً، وفيه تنبيه على ماعليه خصومه من الباطل، واستعار لفظ الخاصرة للباطل، والبقر والثقب لتفريق الباطل، وتمييز الحقّ، تشبيهاً له في استتار الحقّ فيه، وعدم تمييزه منه بحيوان ابتلع جوهراً ثميناً أغلا منه قيمة، وأتمّ فائدة، فاحتيج إلى شقّ بطنه في استخلاص مابتلعه.

ما لي ولقريش والله لقد قاتلتهم كافرين وقاتلتهم مفتونين ولأُقاتلنّهم مفتونين وأنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم

[**ما لي ولقريش**] استفهام انكاري، حيث جحدوا فضيلته، وخانوا بيعته، وقطعوا قرابته وأنكروا مودّته، واستحلّوا مقاتلته.

[**والله لقد قاتلتهم كافرين**] إظهاراً لامتنانه عليهم حيث أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، وتعيير لهم بما كانوا عليه من الكفر، حتّى يذعنوا بفضله عليهم، وينفعلوا من مقاتلته بالكفران والإنكار عليه، إذ كانوا أولى بإتيان المنكر منه، وهو أولى بردّهم عنه آخراً، كما كان أوّلاً، وكذا قوله:

[**وقاتلتهم مفتونين**] على ما في بعض النسخ، وفي أكثرها: [**ولأُقاتلنّهم مفتونين**] تهديد لهم بمقاتلتهم ومحاربتهم على فتنتهم وضلالهم عن الدين، وكافرين ومفتونين نصب على الحال، وفي تعليق الحكم عليهما إشعار بعلّة قتالهم في الحالَيْن، وهو طلب الإستقامة في الرجوع عن الضلال إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحقّ.

[**وأنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم**] تهديد لهم بالرعب والخوف، فإنّي أنا الّذي سفكتُ دماءهم وقتلت شجعانهم، لم أتغيّر ولم أتبدّل.

أفٍّ لكم

ومن خطبة له عليه السلام
في استنفار الناس إلى أهل الشام

روي أنّه عليه السلام خطب بها بعد فراغه من أمر الخوارج، وقد كان قام بالنهروان، فحمد اللّه وأثنى عليه، وقال:

أمّا بعد، فإنّ اللّه قد أحسن نصركم، فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم من أهل الشام، فقالوا له: قد نفدت نبالنا، وكلّت سيوفنا، ارجع بنا إلى مصرنا لنصلحر عدّتنا، ولعلّ أميرالمؤمنين عليه السلام يزيد في عددنا مثل من هلك منّا، لنستعين به، فأجابهم:

﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة الّتي كتب اللّه لكم ولاترتدّوا على أدباركم﴾ الآية، فتلكّؤا عليه وقالوا: إنّ البرد شديد، فقال: إنّهم يجدون البرد كما تجدون.

[أفٍّ لكم] ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿ياموسى إنّ فيها قوماً جبّارين﴾ إلى قولهم: ﴿فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون﴾ فقام منهم ناس، واعتذروا بكثرة الخراج في الناس، وطلبوا أن يرجع بهم إلى الكوفة أيّاماً، ثمّ يخرج بهم، فرجع بهم غير راض، وأنزلهم نخيلة، وأمرهم أن يلزموا معسكرهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، ويقلّوا زيارة أهلهم، وجعلوا

أفّ لكم لقد سئمتُ عتابكم أرَضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً؟ وَبالذلّ من العزّ خلفاً؟

يتسلّلون ويدخلون الكوفة، حتّى لم يبق معه إلاّ القليل منهم، فلمّا رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس فقال:

أيّها الناس! استعدّوا لقتال عدوّ ف جهادهم القربة إلى اللّه ودرك الوسيلة عنده قوم حيارى عن الحقّ، لاينصرونه موزعين بالجور والظلم، لايعدلون به جفاة عن الكتاب، نكب عن الدين، يعمهون في الطغيان، ويتسفّكون في غمرة الضلال، ﴿فأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ومن رباط الخيل﴾ وتوكّلوا على اللّه وكفى باللّه وكيلاً، قال: فلم ينفروا، فتركهم أيّاماً، ثمّ خطبهم بهذه الخطبة فقال:

[**أفّ لكم**] كلمة استقذار ومهانة، ثمّ أبان بعض ما تأنّف منه، فقال:

[**لقدْ سئمتُ**] أي: مملتُ [**عتابكم**] من كثرة تكراره مرّة بعد أُخرى، وكرّة غبّ أولى.

[**أرَضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً؟ وبالذلّ من العزّ خلفاً؟**] استفهام انكاري، فإنّ الجهاد من أعظم الطاعات الإلهيّة، ويثمر المثوبات الأُخرويّة، والدرجة العالية، والرتبة السامية، ويثمر في الدنيا عزّة الجانب، وغنيمة المال والمدح في الألسن، وخوف الأعداء، والتقاعد عنه يستلزم الذلّة وطمع العدوّ، فلذا كان صاحبه كمن اعتاض الدنيا من الآخرة، والذلّ من العزّ، وعوضاً وخلفاً منصوبان على التميز.

إذا دعوتُكم إلى جهاد عدوّكم دارت أعينكم كأنّكم من الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة يرتجّ عليكم جواري فتعمهون فكأنّ قلوبكم مألوسة وأنتم لاتعقلون ما أنتم لي بثقة أبداً سجيس اللّيالي

[**إذا دعوتُكم إلى جهاد عدوّكم دارت أعينكم كأنّكم من الموت في غمرة**] تبكّيت لهم بأنّهم عند دعوتهم إلى الجهاد تدور أعينهم ترداداً وحيرة وخوفاً من مخالفة دعوته، أو من الإقدام على الموت، كأنّكم في تلك الحال عند دوران الأعين والحيرة من الموت في غمرة، غمرات الموت: سكراته الّتي يغمر فيها العقل، ويشتغل بما يجده من الألم عن أهله وماله، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذي يُغشىٰ عليه من الموت﴾ وقوله:

[**ومن الذهول في سكرة**] قريب من سابقه، شبّه حال ذهولهم عن جهاد عدوّهم، واشتغالهم عنه بما في أيديهم بحال من في سكرات الموت غفل عمّا كان عنده لاشتغاله بسكرات الموت.

[**يرتجّ عليكم**] أي: تعلّق [**جواري**] أي: مخاطبتي [**فتعمهون**] أي: تتحيّرون وتتردّدون، ثمّ شبّه حالهم عند دعائه لهم إلى الجهاد بحال من اختطل عقله، أي: إنّهم في حيرتهم وتردّدهم في جوابه كمختلط العقل، لايفقه مايقول، فقال:

[**فكأنّ قلوبكم مألوسة**] المألوس: المجنون المختلط العقل.

[**وأنتم لاتعقلون ما أنتم لي بثقة أبداً**] لاستمراركم على الخلف والكذب، المستلزم لعدم ثقة بأقوالهم.

[**سجيس اللّيالي**] كلمة تقال للأبد، كسجيس الأوجس، أي: أبداً

وما أنتم بركن ويمال بكم ولا زوافر عزّ يفتقر إليكم ما أنتم إلاّ كإبل ضلّ رعاتها كلّما جُمعَتْ من جانب انتشرت من آخر لبئس لعمر اللّه سعر نار الحرب تكادون ولاتَكيدون

مدى الليالي.

[**وما أنتم بركن**] يستند إليكم.

[**ويمال بكم**] على عدوّكم، استعارة من ركن الجبل، وهو جانبه، لما بينهما من المشاكلة في الشدّة وامتناع المعتصم به، ونحوه قوله تعالى: ﴿لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى رُكن شديد﴾ أي: قويّ، يمنعني منكم، وهو وصف بالتخاذل والعجز.

[**ولا زوافر**] جمع زافرة، وزافرة الرجل: أنصاره وعشيرته، وتأتي بمعنى حوامل، أي: حوامل.

[**عزّ يفتقر إليكم**] وهو وصف لهم برذيلة الذلّ والحقارة.

[**ما أنتم إلاّ كإبل ضلّ رعاتها**] ووجه الشبه أنّها [**كلّما جُمعَتْ من جانب انتشرت من**] جانب [**آخر**] إشارة إلى أنّهم ضعيف عزمهم، متشتّتة آراؤهم، لايجتمعون على مصلحة بها يكون نظام أحوالهم في الدارين، وصلاح أُمورهم في النشأتين، وذلك وصف لهم برذيلة البلاهة.

[**لبئس لعمر اللّه سعر نار الحرب تكادون ولاتَكيدون**] ذمّهم عليه السلام بأنّهم ليسوا من رجال الحرب، لأنّ عمدة قوامها بالرأي السليم، والتدبير المستقيم، وقد ذكر سابقاً ضعف عقولهم، وأنّهم كالأنعام، استعار عليه السلام لهيجان الحرب لفظ النار، لما يستلزمانه من الأذى الشديد، ورشح تلك الإستعارة بذكر الإسعار، ووصف رجالها به، وكونهم يخدعون ويمكر بهم عدوّهم في

وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون ولا ينام وأنتم في غفلة ساهون غلب والله المتخاذلون وأيم الله إنّي لأظنّ بكم أن لو حمس الوغا واستحرّ الموت

إيقاع الحيلة بهم، وليس لهم قوّة المكر والحيلة به، وذلك أيضاً من رذيلة ضعف الرأي، ثمّ قال:

[**وتنتقص أطرافكم**] وتؤخذ بلداتكم.

[**فلا تمتعضون**] أي: تأنفون وتغضبون، وصفهم بعدم الغيرة وبالمهانة، وأنّ العدوّ يغار عليهم فلايشقّ ذلك عليهم، ولاغيرة لهم فيدفعونه.

[**ولا ينام**] عنكم العدوّ [**وأنتم في غفلة ساهون**] إشارة إلى وصفهم برذيلة الغفلة عمّا يراد بهم، وقلّة تعقّلهم لصالح أنفسهم، وفي هذه الفقرا من تنبيه الغافلين، وإيقاظ الراقدين، وتنشيط السامعين مافيه كفاية للعاقل الرشيد، و﴿لمن ألقى السمع وهو شهيد﴾ .

[**غلب والله المتخاذلون**] تخويف لهم بأنّ التخاذل الّذي فيهم يثمر غلبهم، وعدل عن الخاصّ إلى العام، لكونه أوقع في النفس، وأعمّ فائدة.

[**وأيم الله**] قسم كما مرّ.

[**إنّي لأظنّ بكم**] أقسمعليه السلام أنّه يظنّ فيهم ظنّاً صادقاً، ممّا يظهر له من أحوالهم وأفعالهم وأقوالهم ويتفرّس منهم.

[**أن لو حمس الوغا**] أي: اشتدّت الحرب، وأصل الوغى صوت والجلبة، ثمّ سمّيت الحرب نفسها لما فيها من ذلك.

[**واستحرّ الموت**] أي: اشتدّ حرارة الموت، والمراد شدّته الشبهة بالحرارة مجازاً أو خلوصه وحضوره بأن يكون اشتقاقه من الحرّية.

قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس والله إن امرء يمكن عدوّه من نفسه يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفري جلده لعظيم عجزه ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره

[**قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس**] أي: تفرّقتم عنه كتفرّق الرأس عن البدن، أو كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يمنة ونصفه يسرة، إذ هو حينئذ لايعود ولايتّصل بعد ذلك أبداً.

وقيل: الرأس: اسم رجل يُنسب إله قرية من قرى الشام، يقال لها بيت الرأس، وهذا الرجل انفرج عن قومه فلم يعد إليهم، فضُرب به المثل.

وقيل: معناه انفرجتم عنّي رأساً، أي: بالكلّية.

وقيل: المعنى انفراج من يريد أن ينحو برأسه.

وقيل: معناه انفراج المرأة عن رأس ولدها حالة الوضع، فإنّه يكون غاية من الشدّة وتفرّق الإتّصال والإنفراج، ونحوه قوله عليه السلام في موضع آخر: انفراج المرأة عن قبلها، وكيف كان فالمقصود شدّة انفصالهم وتفرّقهم عنه أحوج مايكون إليهم.

[**والله إن امرء يمكن عدوّه من نفسه يعرق لحمه**] يقال: عرقت اللحم أعرقه، إذا لم أبق على العظم منه شيئاً، وهو كناية عن تمكين العدوّ لسلب مالهم بالكلّية.

[**ويهشم عظمه**] كناية عن القتل وسائر أسباب الهلاك.

[**ويفري جلده**] كناية عن تمزيق حاله المنتظم.

[**لعظيم عجزه**] خبر إنّ [**ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره**] وهو القلب، وضعيف القلب جبان.

أنت فكن ذاك إن شئت

قيل: وهذا الكلام من لطيف الحيلة في الخطاب، الموجب للإنفعال، حيث صوّر لهم أفعالهم المذمومة من التخاذل ونحوه في أقبح صورة وأبلغها نكاية بهم، وهو تمكينهم العدوّ من أنفسهم، لأنّ تخاذلهم ونحوه موجب لذلك، ولما كان من عادة ظفر العدوّ اختياره المال والقتل وتفريق الحال، كنّى عن الأوّل بقوله: يعرق لحمه، وعن القتل وسائر أسباب الهلاك يهشم العظم، وعن تمزين الحال المنتظم بفري الجلد، ثمّ لما كانت هذه لاتكون إلاّ عن عجز وجبن، فأثبت العجز وضعف القلب لهم على أبلغ وجه مؤكّداً، بأنّ، والقسم على وجه كلّي، ولم يخصّهم بالخطاب ولا نسب تمكين العدوّ إليهم صريحاً وإن كانوا هم المقصود بذلك لنفارهم عن الدخول تحت هذا العموم بالإنقياد لأمره بالجهاد، ثمّ أردفه بالأمر أن يكونوا ذلك المرء الّذي وصفه بما وصفه أمراً على سبيل التهديد والتنفير، فقال:

[**أنت فكن ذاك إن شئت**] أي: ذاك المرء الموصوف بالعجز والضعف، خطاب للشخص المطلق الصادق، وعلى أيّ واحد منهم كان.

وروى ابن أبي الحديد: إنّ الأشعث بن قيس قال لعليّ عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم هلاّ فعلت فعل ابن عثمان، فقال له: إن فعل ابن عفّان لمخزاة على من لادين له ولا وثيقة معه إن امرء أمكن عدوّه من نفسه يهشم عظمه ويفري جلده لضعيف رأيه مأفون عقله، أنت فكن ذاك إن شئت.

قال بن أبي الحديد: ويمكن أن يكون الرواية صحيحة، والخطاب عام لكلّ من أمكن من نفسه، فلا منافاة بينهما.

فأمّا أنا فو اللّه دون أن أُعطي ذلك ضرب بالمشرفيّة تطير منه فراش الهام وتطيح منه السواعد والأقدام ويغفل اللّه بعد ذلك مايشاء أيّها الناس إنّ لي عليكم حقّاً ولكم عليّ حقّ وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كي لاتجهلوا

[**فأمّا أنا فو اللّه دون أن أُعطي ذلك ضرب بالمشرفيّة**] سيوف منسوبة إلى مشارف قريبة من أرض العرب، تدنو من الزيف، ولايقال مشارفي كما لايقال صافري لمن ينسب إلى صافر.

[**تطير منه فراش الهام**] هي العظام الرقيقة الّتي تلقي القحف.

[**وتطيح منه السواعد والأقدام**] وكلّ ذلك كناية عن أشدّ المجاهدة.

[**ويغفل اللّه بعد ذلك**] الجهاد والمناجزة [**مايشاء**] من تمكين العدوّ أو عدم تمكينه، فإنّ إليه مصير الأُمور وعواقبها.

[**أيّها الناس إنّ لي عليكم حقّاً ولكم عليّ حقّ**] لكم من الحثّ على مكارم الأخلاق وبيان ما مصالحهم في أُمور معاشهم ومعادهم وبدأ عليه السلام ببيان حقّهم قبل حقّ نفسه، لكونه أجلب لخصم وأوفق بالقبول.

[**وتوفير فيئكم عليكم**] فلا تظلمون في ذلك، ولايصرف في غير وجهه، ولايكون في تقسيمه حيف وميل.

[**وتعليمكم كي لاتجهلوا**] ولم يقل كيما يعلموا، لأنّ ظهور المنيّة عليهم بذكر نفي الجهل عنهم أشدّ من ظهورها في ذكر غرض اتّخاذ العلم لهم، ولذلك كان تأذّي الوجل وأنفته من أن يقال له ياجاهل أشدّ بكثير من تنفّر من يقال له لست بعالم.

وتأديبكم كيما تعلموا وأمّا حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين أمركم

[**وتأديبكم كيما تعلموا**] فهذه أُمور أربعة تجب على الإمام للرعيّة منها، مايرجع إلى صلاح أبدانهم وقوامها كتوفير الفيء بضبطه، وعدم صرفه في غير مصالحهم، ومنها مايرجع إلى صلا حال نفوسهم، إمّا من جهة إصلاح القوّة النظريّة، وهو التعليم لغرض العلم أو من جهة القوّة العمليّة، وهو التأديب للعمل، ومنها ما هو مشترك بين مصلحتي البدن والنفس، ونظام أحوالهما وهو النصيحة لهم، ثمّ أردف ذلك ببيان حقّه عليهم، وذكر أُموراً أربعة فيها صلاح حالهم أيضاً، فقال:

[**وأمّا حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة**] وبدأ بها، لأنّها أهمّ الأُمور، إذ بها النظام الكلّي الجامع بينه وبينهم.

[**والنصيحة في المشهد والمغيب**] وبذلك ينتظم أشمل المصلحة بينه وبينهم.

[**والإجابة حين أدعوكم**] من غير تثاقل، فإنّ في التثاقل عن ذلك فوات مصالح عظيمة، منها استيلاء العدوّ عليهم.

[**والطاعة حين أمركم**] بما فيه صلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم وأولادكم.

....

ومن خطبة له عليه السلام
بعد التحكيم

قال ابن أبي الحديد ما ملخّصه: الّذي دعى إلى التحكيم طلب أهل الشام له واعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت، فعدل أهل الشام عن القراع إلى الخداع، وكان ذلك برأي عمروبن العاص، إذ قال لمعاوية إنّ رجالك لايقومون برجاله، ولست مثله، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لايخافون علياً عليه السلام إن ظفر بهم، ولكن ألق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب اللّه حكماً فيمابينك وبينهم، فصرف معاوية ذلك وقال: صدقت، فربطوا المصاحف في أطراف الرماح واستقبلوا عليّاً عليه السلام بمائة مصحف، ووصفوا في كلّ مجنية مائتي مصحف، فكان جميعها خمسمائة مصحف، ثمّ نادوا: اللّه اللّه يامعشر العرب في النساء والبنات والأبناء من الروم وأهل فارس، غداً إذا فنيتم، اللّه اللّه في دينكم، هذا كتاب اللّه بيننا وبينكم.

فقال عليّ عليه السلام: اللّهم إنّك تعلم أنّهم ماالكتاب يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنّك أنت الحكم العدل المبين، فاختلف أصحاب عليّ عليه السلام في الرأي، فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب، فعند ذلك بطلت الحرب، وقال عليّ عليه السلام:

. . . .

أيّها الناس! إنّي أحقّ من أجاب إلى كتاب الله، ولكنّ القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، فجاء من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد سالي سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودّت جباههم من السجود، يتقدّمهم مسعربن مذكى وزيدبن حصين وعصابة من القرّاء الّذين صاروا خوارج، فقالوا: ياعليّ أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفّان، وكلّما اعتذر إليهم لم يقتلوا، ووقع الخصام بينهم وبين مالك الأشتر، حتّى ضربوا وجه دابّته، وضرب وجوه دوابّهم وصاح بهم عليّ: كفّوا، فكفّوا فتصايحوا أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قد قبل الحكومة ورضى بحكم القرآن، وأقبل الناس يقولون ذلك وهو عليه السلام ساكت لايفيض بكلمة مطرق إلى الأرض، ثمّ وقع الخصام في الحكم، فقال أهل الشام: قد رضينا واخترنا عمروبن العاص، وقال الأشعث والقرّاء الخوارج: رضينا واخترنا أباموسى الأشعري، فقال لهم عليّ: فإنّي لاأرضى بأبي موسى، ولا أرى أن أولّيه، فقالوا: إنّا لانرضى إلاّ به، فقال عليه السلام: إنّه قد فارقني وخذل الناس عنّي، ولكن هذا ابن عبّاس، فأبوا.

فقال: إنّي أجعل الأشتر، فأبوا.

فقال: اصنعوا ماشئتم، فاجتمعا وخدع عمرو أباموسى بالحثّ على عزل عليّ ومعاوية، وجعل الأمر شورى بين المسلمين لتحقن بذلك الدماء، ثمّ غرّ أباموسى فتكلّم بذلك وقال: إنّي خلعتُ عليّاً ومعاوية، فقام ابن العاص فقال: إنّ هذا قد قال ماسمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه

الحمد للّه وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل وأشهد أن لاإله إلاّ اللّه، ليس معه إله غيره وأنّ محمّداً عبده ورسوله ﷺ، أمّا بعد، فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تورث الحسرة وتعقب الندامة

كما خلعه وأثبتُ صاحبي معاوية في الخلافة، فإنّه وليّ عثمان، والطالب بدمه، وأحقّ الناس بمقامه.

فقال له أبوموسى: قد غدرتَ وفجرَ وشابا، وحجز الناس عنهما، وترتّب على ذلك ماترتّب من الفساد والعناد.

وخطب عليه السلام بهذه الخطبة:

[**الحمد للّه وإن أتى الدهر بالخطب الفادح**] الخطب: الأمر العظيم، وفدحه الأمر: إذا أثقله وأبهظه، وكنّى بذلك عمّا وقع من أمر الحكمين، وكذا قوله:

[**والحدث الجليل**] والمراد الحمد للّه على كلّ حال من سرّاء وضرّاء، وشدّة ورخاء، وإنّ هنا للغاية.

[**وأشهد أن لاإله إلاّ اللّه، ليس معه إله غيره**] تأكيد لما سبق.

[**وأنّ محمّداً عبده ورسوله ﷺ، أمّا بعد، فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تورث الحسرة وتعقب الندامة**] هذه الصفات الأربعة من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قوله لأنّ الناصح يصدق الفكر، ويمحض الرأي، والشفيق يحمل على النصح، والباعث على النصح الشفقة

وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر

إمّا الدين أو محبّة المستشير، والعالم نصيب المطلوب لعلمه بوجه المصلحة، بخلاف الجاهل، فإنّه أعمى وإن كان بصيراً، وحيث إنّ العالم ربّما علم وجه المصلحة في أمر قد اشتمل على بعض وجوه المفاسد فلايتمّ ذلك إلاّ بالتجربة، ولامحالة أنّ مخالفة من جمع هذه الأُمور خسران الدنيا والآخرة.

ثمّ أردف ذلك ببيان أنّه هو المشير عليهم لمصالحهم، فخالفوه فقال:

[**وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري**] بما مرّت الإشارة إليه.

[**ونخلت لكم**] من نخل الدقيق [**مخزون رأيي**] واستعار لفظ النخل لاستخلاص أسدّ آرائه وأجودها، ووجه الشبه: إنّ أجود ماينتفع به ممّا ينخل من دقيق ونحوه هو المنخول، فكذا الرأي أجوده وأنفعه مااستخلص وصفى من كدورات الشهوة والغضب.

[**لو كان يطاع لقصير أمر**] هذا أصل مشهور، وهو قصير بن سعد اللحمي مولى جذيمة الرش بعض ملوك العرب، وأصل المثل: إنّ جذيمة كان قتل أباه الريا ملكة الجزيزة، فبعث إليه ليتزوّجها حيلة وخدعة، وسألته القدوم عليها، فأجابها إلى ذلك وخرج في ألف فارس، وخلّف باقي جنوده مع ابن أُخته عمروبن عديّ، وكان قصير أشار على جذيمة أن لايتوجّه بل رأيه، فلمّا قرب جذيمة من الجزيرة استقبلته جنود الربا بالعدّة، ولم ير منهم

فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة حتّى ارتاب الناصح بنصحه وضنّ الزند بقدحه

إكراماً له، فأشار عليه قصير بالرجوع عنها، وقال: إنّها امرأة ومن شأن النساء الغدر، فلم يقبل، فلمّا دخل عليها غدرت به وقتلته، فعندها قال قصير لايطاع لقصير أمر، فذهب مثلاً لكلّ ناصح عصي، وهو مصيب في أمره وجواب لو مقدّر، أي: كنت أمرتكم ونصحتكم، فلو أطعتموني لفعلتم ماأمرتكم به.

[**فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة**] أي: إباء من خالف الناصح وجفاه ونابذه وعصاه.

[**حتّى ارتاب الناصح بنصحه**] وشكّ فيه هل كان صواباً أو خطأ، لأنّ المشير بالصواب إذا كثر مخالفوه اتّهم نفسه، وكلّما كثر الخلاف ازداد الشكّ فيما ظنّه من المصلحة، وعنى عليه السلام بالناصح نفسه أو من رأى رأيه لإطباق أكثر أصحابه على مخالفتهم، كما مرّت الإشارة إليه، وذلك محمول عل المبالغة، لأنّه عليه السلام منزّه عن الشكّ فميا رآه صواباً، وقوله:

[**وضنّ الزند بقدحه**] قيل: هو مثل يقرب لمن ينحل بفوائده إذ لم يجد لها أهلاً أو لم يتمكّن عن إفادتها، فإنّ المشير إذا اتّهم واستغش أو خطى في رأيه ربما باينقدح له بعد ذلك رأي صالح، لتنفّر النفس من المخالفة، وكلالها وملالها، ولمّا كان غرضه عليه السلام أن يقرّر عليهم الندامة في مخالفة رأيه ويريهم ثمرة عصيان أمره الصادر عن معاينة وجه المصلحة كما هو، قال:

فكنت أنا وإيّاكم، كما قال أخو هوازن:

أمــرتكـم أمــري بمنعــرج اللّوى فلم تستبينوا الرشد إلاّ ضحى الغد

[**فكنت أنا وإيّاكم، كمـا قال أخـو هوازن**] دريد بن الصـمـة من بني حسم ابن معـاوية بن بكربن هوازن، كـمـا قـال تعالـى: ﴿واذكر أخـا عـاد﴾ لنسبـة إليـهم، وكـذا: ﴿قـال لهم أخـوهم لوط﴾ ويكفي فـي إطلاق لفظ الأُخوّة مـجازاً مجرّد الإتّصـال والملابسة والبيت من قـصيدة في الحمـاسة، أو لها:

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنـي السـواد والقوم سهدى

إلى أن قال:

[**أمـرتكم أمـري بمنعـرج اللّوى فلم تستبينوا الرشد إلاّ ضحى الغد**]

والقصّة فيه: إنّ أخاه عبـداللّه غزا بني بكربن هوازن فغنم منهم واشتاق إبلهم، فلمّا كان بمنعرج اللوى قال: لاواللّه لاأبرح حتى انحر النقيعة، وهي ماينحـر من النهب قـبل القـسـمـة، وأجل السـهـام، فـقـال له أخـوه دريد: لاتفـعل، فإنّ القـوم في طلبك، فأبى عـليه وأقـام ونحر النقـيعـة وبات، فلمّا أصبح هجم القوم عليه وطعن عبداللّه، فاستغاث بأخيه دُريد فهنه عنه القوم حتّى طعن هو أيضـاً، وصـرع وقتل عـبـداللّه وحـال الليل بين القـوم، فنجى دريد بعد طعنات وجراح حصل له، فقال القصيدة.

ووجـه التمـثيل بالبيت إنّي كنتُ وإيّاكم في نصـيحتي لكم ونهـبي عن الحكومة ومخـالفتكم أمري المستلزمـة لندامتكم على التفريط كـهذا القائل مع قومه حيث نصح لهم فعصوه فلحقهم مالحقهم من الندامة والهلاك.

....

ومن خطبة له عليه السلام
في تخويف أهل النهروان

والخطاب للخوارج، الّذين قتلهم بالنهروان.

وقال ابن أبي الحديد: قد تظافرت الأخبار حتّى بلغت حدّ التواتر بما وعد اللّه قاتلي الخوارج من الثواب على لسان رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

وفي الصحاح المتّفق عليها: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله بينا و يقسم قسماً جاءه رجل من بني تميم يدعى ذاالحويصرة، فقال: أعدل يامحمّد، فقال صلى الله عليه وآله: قد عدلت، فقال له ثانية: أعدل يامحمّد فإنّك لم تعدل، فقال صلى الله عليه وآله: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، فقال عمر: يارسول اللّه ائذن لي أن أضرب عنقه، فقال صلى الله عليه وآله: دعه يستخرج من ضيفي هذا، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، يخرجون على حين فرقة من الناس، تحتقر صلواتكم في جنب صلواتهم وصومكم عند صومهم، يقرؤن القرآن لايجاوز تراقيهم، آتيهم رجل أسود أو قال: أدعج، مخدج اليد، إحدى يديه كأنّها ثدي امرأة، أو بضعة قديد.

وفي بعض الصحاح: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال لأبي بكر وقد غاب الرجل عن عينه: قم إلى هذا فاقتله، فقام ثمّ عاد وقال: وجدته يصلّي، فقال لعمر مثل ذلك، فعاد وقال: وجدته يصلّي، فقال لعليّ مثل ذلك، فقال: لم أجده، فقال صلى الله عليه وآله: لو قتل هذا لكان أوّل فتنة وآخرها، أما إنّه

فأنا نذير لكم إن تُصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط على غير نيّة من ربّكم ولا سلطان مبين معكم قد طوّحت بكم الدار وأحبلكم المقدار

سيخرج من ضيفي هذا قوم، الخبر.

وفي بعض الصحاح: يقتلهم أوّل الفريقين بالحقّ.

وعن عائشة، عن النبيّ ﷺ في الخوارج: إنّهم شرّ الخلق والخيقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، أقربهم عند اللّه وسيلة.

قال عليه السلام بعد نصحهم ووعظهم:

[**فأنا نذير لكم إن تُصبحوا صرعى بأثناء**] وفي نسخة بأكناف [**هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط**] والأهضام جمع هضم، وهو المطمئنّ من الوادي، والغائط ماسفل من الأرض.

[**على غير نيّة من ربّكم**] ولا حجّة واضحة يحتجّون بها.

[**ولا سلطان مبين**] تتاتلون عليه [**معكم**] وفي ذلك حرمان سعادة الدارين، وسمّيت الحجّة سلطاناً، لأنّ بها الغلبة والتسلّط، وهو من باب الإستعارة.

[**قد طوّحت**] أي: نوّهت [**بكم الدار**] أي: الدنيا، ونسبت إهلاكهم وإبعادهم ورميهم إليها، لأنّ الموجب لذلك اتّباع أهوائهم الباطلة، لأصل تحصيل المال والجاه ونحوهما، ومرجع جميع ذلك إلى حبّ الدنيا، وهو رأس كلّ خطيئة، فكأنّها هي الّتي أوردتهم المهالك، وجعلتهم أهون هالك.

[**وأحبلكم المقدار**] لئن صادكم القضاء والقدر، استعارة لإحاطة القدر النازل عن قضاء اللّه بهم، فهو كحبالة الصائد الّتي لا مخرج للطائر منها،

وقد كنتُ نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتُم عليّ إباء المخالفين المنابذين حتّى صرفتُ رأيي إلى هواكم وأنتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام ولم آت لا أبا لكم

إذا نزلت به.

[**وقد كنتُ نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتُم عليّ إباء المخالفين المنابذين حتّى صرفتُ رأيي إلى هواكم**] كما مرّت الإشارة إلى القصّة.

والغرض من ذلك تقرير الحجّة عليهم، بأنّه إن كان الحقّ هو عدم الحكومة فلم طلبتموها وأبيتم عليّ إباء المخالفين المنابذين لما نهيتكم عنها حتّى صرتُ إلى هواكم فيها، وإن كان الحقّ هو إيقاعها، فلِمَ تلومونني على ذلك وتساقون.

[**وأنتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام**] الواو للحال، والعامل صرفت، والإضافة في إخفاء وسفهاء غير محضة، ولذا صحّ كونهما وصفين لمعاشر، وخفّة الهامة كناية عن رذيلة الطيش، المقابلة لفضيلة الثبات، والسفه رذيلة مقابلة للحلم.

[**ولم آت لا أبا لكم**] أخرج مخرج الإعتذار إليهم واستدراجهم بتحسين فعله، وعدم قصد الإساءة إليهم ليرجعوا عمّا شبّه لهم وسوّل لأنفسهم، والبجر: الأمر العظيم، ولا أبا لكم معترضة كلمة مدح أو ذمّ، لأنّ عدم اللحوق بالأب يستلزم العار، وقيل: هي دعاء بالذلّ وعدم الناصر، بأن لايكون له أب يعزه ويشدّ ظهره، ونفي الأب يستلزم نفي العشيرة.

فقمت بالأمر حين فشلوا ونطقت بالحقّ حين تتعتعوا وتطلعت حين تقبّعوا

ومن كلام له عليه السلام
يجرى مجرى الخطبة

يبيّن فيه جملة من فضائله ومناقبه ومكارمه، ونحوه مرويّ عن الخضر، خاطبه به عليه السلام عند موته.

وقال ابن أبي الحديد: هذه فصول التقطها الرضيّ من كلام لاميرالمؤمنين عليه السلام طويل منتشر، قاله بعد وقعة النهروان، ذكر فيه حاله من توفّى رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلى آخر وقت، فجعل الرضيّ ماالتقطه منه سرداً، وصار عند السامع كأنّه يقصد به مقصداً واحداً، قال عليه السلام:

[**فقمت بالأمر**] أي: بأمر في الحروب المشهورة، والمقامات المعدودة [**حين فشلوا**] والفشل الخوف والجبن، والضمير راجع إلى الصحابة، أو قمت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيّام أحداث عثمان وغيرها، حين فشلوا، أو قمت بأوامر اللّه ورسوله بأجمعها حين فشلوا عنها.

[**ونطقت بالحقّ**] وبالعلوم الإلهيّة والمعارف الربّانيّة، والحكم البالغة، والحجج الدامغة، والمواعظ الموقظة للنائمين، والنصائح المنبّهة للغافلين.

[**حين تتعتعوا**] والتعتعة: الإضطراب في الكلام والتردّد فيه من عيّ أو حصر.

[**وتطلعت حين تقبّعوا**] يقال: امرأة طلقة قبعة تطلع ثمّ تقبع رأسها،

ومضيتُ بنور اللّه حين وقفوا وكنت أخفضهم صوتاً و أعلاهم فوتاً فطرت بعنانها واستبددتُ بِرِهانها

أي: تدخل، وقبع القنفذ إذا قبض رأسه بين كتفيه وأدخله في جلده، وتقبّع الرجل أي: تخبّأ، وضدّه: تطلّع، وتطلّع الأمر اختباره وتعرفه، وهو إشارة إلى سبره عليه السلام للأُمور وتطلّعه عليها وتعرّفها واختبارها، ولمّا كان ذلك إلى بصيرة ونقد استعار لفظ التطلّع، ووجه الشبه المعرفة والخبرة.

[**ومضيتُ بنور اللّه حين وقفوا**] أي: مضيتُ في سبيل الحقّ وطريق الهدى والطريق المستقيم بنور اللّه وعلمه وهدايته وإرشاه الّذي لايضلّ من اهتدى به، وذلك حين وقفوا حائرين متردّدين جاهلين طريق الحقّ، متحيّرين في كيفيّة السلوك إليه.

[**وكنت أخفضهم صوتاً**] كناية عن ربط الجأش والثبات في الأُمور، والتصميم على فعل ماينبغي من غير التفات إلى الحوادث والعوائق، فإنّ كثرة الأصوات في الأفعال الّتي هي مظنّة الخوف، دليل الفشل.

[و] من كان كذلك كان [**أعلاهم فوتاً**] أي: أشدّ سبقاً إلى مراتب الكمال، وفضائل الأحوال ممّن كان أضعف فيه.

وقال ابن أبي الحديد: يقول علوتهم وفتهم سبقاً، وأنا مع ذلك خافض الصوت، يشير إلى التواضع ونفي التكبّر.

[**فطرت بعنانها واستبددتُ بِرِهانها**] الضميران للفضيلة المدلول عليها بالمقام، واستعار الطيران للسبق العقلي إلى الفضائل، لما يشتركان فيه من السرعة، واستعار لفظي العنان والرهان من متعلّقات الخيل للفضيلة الّتي حصّلها تشبيهاً لها مع فضائل نفوسهم بخيل الحلبة، ووجه الشبه أنّه عليه السلام

كالجبل لاتحرّكه القواصف ولا تزيله العواصف لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل في مغمز الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له، والقويّ عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه

وخيار الصحابة كانوا يستبقون بالفضائل إلى رضوان اللّه والسعادات الأُخرويّة، كخيل الرهان، ولمّا كانت فضيلته أمل فضائلهم وأتمّها استعار لها السبق والطيران، قال تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ وقال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة﴾ الآية، ثمّ قال عليه السلام:

[**كالجبل**] أي: كنت حين تولّيت أمر الخلافة وقمتُ بأعبائها كالجبل في الثبات على الحقّ.

[**لاتحرّكه القواصف**] أي: الرياح الشديدة.

[**ولا تزيله العواصف**] كالقواصف وزناً ومعنًى، وكنّى بهما عن اتّباع الأهوية المختلفة، والأطباع الغير المؤتلفة، أي: ثابتاً على القانون العدل، لايصل إلى هوى أحد، واتّباع طبع يخالف القانون الإلهي.

[**لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل في مغمز**] أي: لم يكن في عيب اعاب به، والمهمز: موضع الهمز، وهو العيب، وكذا المغمز.

[**الذليل**] الضعيف الّذي لا مساعد له [**عندي عزيز**] أعتني بحاله، وأهتمّ بأمره، وأكون له مساعداً وعوناً ومعاضداً.

[**حتّى آخذ الحقّ له، والقويّ**] المنكر للحقّ، والغاصب له بقوّته [**عندي ضعيف**] أقهره بحكم اللّه باللسان واليد [**حتّى آخذ الحقّ منه**] وربّما يقال: إنّ المفهوم من هذا أنّ التفاته عليه السلام إلى القويّ أكثر، وذلك ليس من العدل، وأُجيب بأنّه لما لم يكن الغرض إلّا أخذ حقّ الضعيف من القويّ،

رضينا عن الله قضاءه، وسلّمنا لله أمره أتراني أكذب على رسول الله ﷺ لأنا أوّل مصدّق به، فلا أكون أوّل من كذب عليه فنظرتُ في أمري فإذا طاعتي قد سبقت، وإذا الميثاق في عنقي لغيري

وعدم التظالم بينهم لاتجب مساواة النظر بينهم، إلاّ من تلك الجهة، ولم يكن إعزازه للقويّ وإكرامه في غير وجه الظلم قبيحاً، لجواز انفراده بفضيلة توجب إعزازه من جهة الدين أيضاً.

قيل: ولمّا تفرّس عليه السلام في طائفة من قومه أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبيّ ﷺ من أخبار الملاحم في الأمور المستقبلة، كما روي أنه عليه السلام لمّا قال: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لاتسألوني عن فئة تضلّ مائة وتهدي مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وسائقها، قام إليه أنس النخعي فقال: أخبرني كم في لحيتي ورأسي طاقة شعر، فقال عليه السلام: والله لقد حدّثني حبيبي أنّ على كلّ طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأنّ على كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وأنّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله ﷺ، وكان ابنه سنان بن أنس لعنه الله قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو، قال عليه السلام:

[**رضينا عن الله قضاءه، وسلّمنا لله أمره**] تسلية لنفسه عن هذا التكذيب، بإسناده إلى القضاء الإلهي، والرضا بالقضاء والتسليم من أفضل الملكات، وأعظم الطاعات، وقوله عليه السلام:

[**أتراني أكذب على رسول الله ﷺ لأنا أوّل مصدّق به، فلا أكون أوّل من كذب عليه**] استنكار لما عرّضوا به من التكذيب، فأبطل ذلك بأنّه أوّل مصدّق له، فكيف يكون أوّل من كذب عليه، وقوله عليه السلام:

[**فنظرتُ في أمري فإذا طاعتي قد سبقت، وإذا الميثاق في عنقي لغيري**]

وإنّما سمّيت الشبهة شبهة، لأنّها تشبه الحقّ فأمّا أولياء اللّه

قيل: إنّه كلام مقطوع يذكر فيه حاله بعد وفاة الرسول ﷺ، وأنّه كان معوداً إليه أن لاينازع في أمر الخلافة، بل إن حصل له بالرفق وإلاّ فليمسك، بقوله عليه السلام: فنظرتُ فإذا طاعتي لرسول اللّه ﷺ فيما أمرني به من ترك القتال قد سبقت بيعتي القوم، فلا سبيل إلى الإمتناع منها، وميثاق رسول اللّه ﷺ وعهده إليَّ بعدم المشاقة والمنازعة في عنقي.

وقيل: الميثاق ما لزمه من بيعة أبي بكر، أي: فإذا ميثاق القوم قد لزمني، فلم تمكّنني المخالفة بعده.

وقيل: هذا الكلام تضجّر من ثقل أعباء الخلافة، وتكلّف مداراة الناس على أهوائهم، أي: نظرتُ فإذا طاعة الخلق لي واتّفاقهم عليّ قد سبقت بيعتهم لي، وإذا ميثاقهم قد صار في عنقي، فلم أجد بُدّاً من القيام بأمورهم، ولايسعني الترك، فهو كقوله: أما واللّه لولاحضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر حسبما مرّ.

ومن خطبة له عليه السلام

[وإنّما سمّيت الشبهة شبهة، لأنّها تشبه الحقّ] ممّا يحتجّ به، إمّا في صورته أو في مادّته، أو فيهما معاً، ولذا يسمّى مايحتجّ به أهل الحقّ دليلاً، وأهل الباطل شبهة.

[فأمّا أولياء اللّه] يحتمل أن يراد به أئمّة الهدى عليهم السلام أو الأعمّ

فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى وأمّا أعداء اللّه تعالى فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى

[**فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى**] لأنّ نفوسهم مشرقة بنور اليقين، وقلوبهم مستنيرة بهدى ربّ العالمين، وإرشاد النبيّ والأئمّة الطاهرين، فتنكشف عن أذهانهم ظلمات الشبهات، وتنجلي غياهب المشتبهات، ويسلكون الصراط المستقيم، والطريق القويم، كما قال تعالى: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾.

ولأنّ الورع التقيّ يقف عند الشبهة ويأخذ بالمحكم المتيقّن، والوقوف عند المشتبه محكم أيضاً، وكذا إذا ردّ المتشابه إلى المحكم فقد اليقين، ولأنّ من اعتبر مقدّماتها بفكر صحيح بعد بذل الجهد وتجريد النفس عن الهوى والعصبيّة وراعى الأُمور اليقينيّة وطلب المقدّمات المعلومة قطعاً انحلّت له الشبهة، وظهر له فسادها.

[**وأمّا أعداء اللّه تعالى فدعاؤهم فيها**] إلى مايدعون إليه [**الضلال**] عن الحقّ، والإضلال للخلق.

[**ودليلهم العمى**] عن الهدى، وقد طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وهم في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أبصر يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل اللّه له نوراً فما له من نور، والكلام فيه عكس سابقه، واستعار عليه السلام لفظ الضياء لليقين باللّه ورسوله، وما جاء به من الغيب باعتبار هدايتهم بذلك في طريق الحقّ كالضياء، ولفظ الدليل والقصد هدى اللّه في سبيله باعتبار هداية القصد لهم كالدليل الهادي، وتجوز بلفظ الضلال في

ما ينجو من الموت من خافه، ولايعطي البقاء من أحبّه

المضلّ، وهو دعاء الكفّار إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه، واستعار لفظ العمى للجهل ولفظ الدليل له باعتبار كونه قائدهم الذي به يقتدون، وقوله:

[**فما ينجو من الموت من خافه، ولايعطي البقاء من أحبّه**] كلام منفصل عمّا قبله، وحاصله التذكير بالموت الّذي لابدّ منه ولامحيص عنه، هادم اللذّات، ومفرّق الجماعات، تنفير عن حبّ الدنيا الّذي هو رأس كلّ خطيئة، والترغيب في الآخرة، وفيه إشارة إل قوله تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ وقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون﴾ وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ وقوله تعالى: ﴿إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾.

ومن خطبة له عليه السلام

روي أنّه خطب بها في غزاة النعمان بن بشير لعين النمر، والسبب أنّ معاوية بعث النعمان في ألفي فارس لإرهاب أهل العراق، فأقبل حتّى دنى من عين النمر، وكان عاملها يومئذ من قِبَل عليّ مالك بن كعب، ولم يكن معه إذ ذاك سوى مائة رجل، فكتب مالك إليه يعلمه الخبر، فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال:

اخرجوا هداكم اللّه إلى مالك بن كعب أخيكم، فإنّ النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام، ليس بالكثير، **فانهضوا إلى إخوانكم**

مُنيتُ بمن لايطيع إذا أمـرتُ، ولايجـيب إذا دعـوتُ لا أبا لـكم ماتنتظرون بنصركم ربّكم أما دين يجمعكم ولاحمية تحمشكم

لعلّ اللّه يقطع بكم طرفاً من الكافرين، ثمّ نزل فتثاقلوا، فأرسل إلى وجوههم فأمرهم بالنهوض، فتثاقلوا ولم يجتمع منهم إلاّ نفر يسير نحو ثلاثمائة رجل.

ويُروى: إنّ الدائرة كانت لمالك بمن معه على النعمان وجمعه، فقام عليه السلام وقال: ألا إنّي [مُنيتُ] أي: بليتُ [**بمن لايطيع إذا أمرتُ، ولايجيب إذا دعوتُ**] وفيه إظهار لعذر نفسه، وأنّ التقصير منهم دونه، وأنّه قد قام بحقوقهم ولم يقوموا بحقّه.

[**لا أبا لكم**] قد مرّ معناها، والمراد بها هنا الذمّ، كناية عن ذلّهم، فإنّ من لا أب له يعرف ذليل.

[**ماتنتظرون بنصركم ربّكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن تنصروا اللّهَ ينصركم﴾ انكار عليهم بسبب تثاقلهم عن نصرة الدين والمبادرة إلى أمر ربّ العالمين، ثمّ نبّههم عليه السلام على الأسباب الّتي توجب اجتماعهم لنصرة اللّه والغضب له، بسؤالهم عنها هل هي موجودة أم لا على سبيل الإستفهام الإنكاري، إذ هم يدعون وجودها عندهم، فقال:

[**أما دين**] أمركم اللّه بلزومه والإتّحاد فيه [**يجمعكم**] على تشييد دين اللّه وقتل أعداء اللّه، قال تعالى: ﴿وما أُمِروا إلاّ ليعبدوا اللّهَ مخلصين له الدين﴾.

[**ولاحمية تحمشكم**] أي: تغضبكم، يقال: أحمشته أي: بغضته، والحميّة ملكة تحت الشجاعة.

أقوم فيكم مستصرخاً وأناديكم متغوّثاً فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً حتّى تكشف الأمور عن عواقب المساءة فما يدرك بكم ثار ولايبلغ بكم مرام دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسرّ

[**أقوم فيكم مستصرخاً**] والمستصرخ المستنصر والمستجلب حبوته من ينصره.

[**وأناديكم متغوّثاً**] والغوث الصوت يستصرخ به، وقيل: هو قول الرجل واغوثاه.

[**فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً**] كأنّكم صمّ لاتسمعون، وبكم فلا تجيبون، وعمى فلا تبصرون، وبهائم فلا تعقلون ﴿إنّ شرّ الدوابّ عند اللّه الصمّ البكم الّذين لايعقلون﴾، ﴿ولو علم اللّه فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون﴾، وقوله:

[**حتّى تكشف الأمور عن عواقب المساءة**] بيان لغاية تثاقلهم عن دعوته، وتنبيه بذكر استعقابه للمساءة على الخطأ فيه، أي: تقاعدكم يكشف ذلكم بعد ذلك، وتسلّط عدوّكم عليكم ونحو ذلك ممّا يسوؤكم.

فما يدرك بكم ثار] أي: دخل [**ولايبلغ بكم مرام**] وهو عتاب وتوبيخ يبعث طباع العرب على التألّف في النصرة والثوران لجهاد الأعداء.

[**دعوتكم إلى نصر إخوانكم**] في الدين، حيث دهمهم أعداء ربّ العالمين.

[**فجرجرتم جرجرة الجمل الأسرّ**] والجرجرة: ترديد صوت البعير في حنجرته، والسرّ رداء يأخذ البعير في سرته، ومنه جمل أسرّ.

وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر ثمّ خرج إليّ منكم جند متذائب ضعيف كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون كلمة حقّ يراد بها باطل

وقال ابن أبي الحديد: الجمل الأسرّ الّذي بكر كرته دبره، واستعار عليه السلام لفظ الجرجرة لكثرة تمليلهم وشدّة تضجّرهم من ثقل مايدعوهم إليه، وشبّه ذلك بصوت الجمل الأسرّ لأنّها أشدّ من جرجرة غيره.

[**وتثاقلتم**] عن إجابة دعوتي [**تثاقل النضو**] وهو البالي الضعيف من الإبل، من بعث السير [**الأدبر**] الذي به دبر، وقروح في ظهره، ووجه الشبه شدّة التضجّر والضعف.

[**ثمّ خرج إليّ منكم جند متذائب**] إشارة إلى عدم ثباتهم واستمساكهم كالأشياء الّتي يسرع ذوبانها.

[**ضعيف كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**] شبّه حالهم بحال من يساق إلى الموت، وهو ينظر في تثاقله واضطرابه وضعفه عن الحركة إلى مايُساق إليه لشدّة خوفه، وفيه ذمّ بليغ لهم، وتوبيخ لما هم عليه من عدم البادرة إلى طاعته، ومن التثاقل في أمره.

ومن كلام له عليه السلام
في معنى الخوارج لمّا سمع قولهم «لا حكم إلاّ للّه»

فقال عليه السلام:

[**كلمة حقّ يراد بها باطل**] لما مرّ أنّ المقصود معاوية وأصحابه لمّا رفعوا المصاحف ودعوا إلى المحاكمة إلى الكتاب ما كان غرضهم إلاّ فتور الحرب

نعم إنّه لا حُكم إلاّ للّه ولكن هؤلاء يقـولون لاإمـرة وإنّه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر

عنهم ورفع قوارع السيوف عن رقابهم، ولم يريدوا بذلك الحقيقة، وإلاّ فأميرالمؤمنين عليه السلام هو كتاب اللّه الناطق، وهو أعلم الناس وأعلمهم بكتاب اللّه، وهو مع الحقّ، والحقّ معه، يدور حيثما دار، وهو الّذي لايفارق الكتاب، ولا الكتاب يفارقه، كما أُشير إليه في النبويّ المتّفق عليه: إنّي مخلّف فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض.

[**نعم إنّه لا حُكم إلاّ للّه**] الواحد القهّار، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأُولئك هم الكافرون... هم الفاسقون... هم الظالمون﴾.

[**ولكن هؤلاء**] الخوارج [**يقولون لاإمرة**] وهذا أمر ولا حكم إلاّ للّه أمر آخر.

قال ابن أبي الحديد: قيل إنّهم كانوا في بدوّ أمرهم يقولون ذلك ويذهبون إلى أنّه لاحاجة إلى الإمام، ثمّ رجعوا عن ذلك القول لمّا أمّروا عليهم عبداللّه بن وهب، ثمّ ردّ عليه السلام في نفي الإمرة فقال:

[**وإنّه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر**] لأنّ النفوس أمّارة بالسوء، وأهواء الناس مختلفة وآراؤهم متشتّتة، والنفس من طبيعتها العدوان والمغالبة والإستعلاء لابدّ لها من قاهر ورادع، لما عقل زاجر، أو دين حاجز، أو عجز مانع، أو سلطان رادع، وهو أبلغها نفعاً، لأنّ العقل والدين مغلوبان غالباً بدواعي الهوى، ولاينافي ذلك كونه حائراً عقلاً ونقلاً.

ففي النبوي صلى الله عليه وآله: إنّ اللّه ليؤيّد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم في

يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر ويلغ اللّه فيها الأجل ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدوّ، وتأمن به السُّبُل، ويؤخذ للضعيف من القويّ

الآخر.

وفي آخر: إنّ اللّه ليؤيّد هذا الدين بالرجل الفاسق.

وقال: المتبني والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذاعفّة فلعلّة لايظلم.

وقال غيره: تهدى الأُمور بأهل الرأي ماصلحت، فإن تولّت فبالأشرار تنقاد، وقوله:

[**يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر**] الضمير في إمرته للأمير، وحيث كان مقولاً على البرّ والفاجر فلابُعد في كون الإمرة الّتي يعمل فيها المؤمن امرته من حيث هو برّ، فإنّه متمكّن من العمل بأوامر اللّه، واجتناب نواهيه، وبالّتي يستمتع بها الكافر إمرته من حيث هو فاجر بانهماكه في شهوات الدنيا، قال تعالى: ﴿قل تمتّعوا فإنّ مصيركم إلى النار﴾، وقوله:

[**ويلغ اللّه فيها الأجل**] أي: في امرة الأمير المطلق، والمقصود تذكير العصاة ببلوغ الأجل وانقطاع العمل، وكذا قوله:

[**ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدوّ، وتأمن به السُّبُل، ويؤخذ للضعيف من القويّ**] جميع الضمائر المجرورة راجعة إلى الأمير المطلق، لإمكان حصولها في أمارة الفاجر.

قال ابن أبي الحديد: وقد اتّفقت المعتزلة إنّ أُمراء بني أُميّة كانوا فجّاراً، عدا عثمان وعمروبن عبدالعزيز ويزيدبن الوليد، وكان الفيء يجمع

حتّى يستريح برّ، أو يُستراح من فاجر وفي رواية أُخرى: أنّه عليه السلام لمّا سمع تحكيمهم قال: حكم اللّه أنتظر فيكم، وقال عليه السلام: أمّا الإمرة البرّة فيعمل فيها التقيّ، وأمّا الإمرة الفاجرة فيتمتّع فيها الشقيّ، إلى أن تنقطع مدّته وتدركه منيّته

بهم، والبلاد فتح في أيّامهم، والثغور الإسلاميّة محصّنة محفوظة، والسبل آمنة، والضعيف منصور على القويّ الظالم له، وما ضرّ فجورهم شيئاً في هذه الأمور، وقوله:

[**حتّى يستريح برّ، أو يُستراح من فاجر**] غاية من الأُمور المذكورة أنّ غاية صدور هذه الأُمور أن يستريح برّ بوجودها، ويُستراح من تعدّي الفاجر وبغيه.

وقيل: أراد أنّ هذه الأُمور لا تزال تحصل بوجود الأُمّة برّاً كان أو فاجراً، إلى أن يستريح برّ بموته، ويُستراح من فاجر بموته أو بعزله.

[**وفي رواية أُخرى: أنّه عليه السلام لمّا سمع تحكيمهم**] وقوله لا حكم إلاّ للّه، [**قال: حكم اللّه أنتظر فيكم، وقال عليه السلام: أمّا الإمرة البرّة فيعمل فيها التقيّ، وأمّا الإمرة الفاجرة فيتمتّع فيها الشقيّ، إلى أن تنقطع مدّته وتدركه منيّته**].

وروى العامّة والخاصّة أنّه عليه السلام كان يوماً يؤمّ الناس وهو يجهر بالقراءة، فجهر ابن الكوا من خلفه: ﴿ولقد أُوحي إليك وإلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾، فسكت عليّ عليه السلام، فلمّا أنهاها عاد عليه السلام فأتمّ القراءة، فأعاد ابن الكوا الجهر بتلك الآية فسكت عليّ عليه السلام فلم يزالا كذلك يسكت وذاك يقرأ مراراً حتّى قرأ عليّ عليه السلام: ﴿فاصبر إنّ وعد اللّه حقّ ولا يستخفنّك الّذين لا يوقنون﴾ فسكت ابن الكوا، وعاد عليّ عليه السلام إلى قراءته.

إنّ الوفاء توأم الصدق ولا أعلم جُنّة أوقى منه ومايغدر من علم كيف المرجع

ومن خطبة له عليه السلام

[إنّ الوفاء توأم الصدق] الوفاء فضيلة نفسانيّة، ينشأ من لزوم العهد الّذي ينبغي، والبقاء عليه، والتوأم هو الولد المقارن لولد آخر في بطن واحد، أشبهه الوفاء لمقارنته الصدق تحت العفّة، فاستعار عليه السلام لفظة له، ثمّ لما كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر، وفضيلة الصدق مقارنة برذيلة الكذب كانت رذيلتا الغدر والكذب أيضاً توأمين، تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفّة.

[ولا أعلم جُنّة أوقى منه] أي: لاأعلم في الفضائل النفسانيّة المتعلّقة بالمعاملات والمشركة الدنيّة ورعاً أشدّ وقاية وحفظاً من العقوبات الدنيويّة والأُخرويّة من الوفاء، أمّا في الدنيا فلأنّه جنّة من السبّ والعار ونحوهما، وأمّا في الآخرة فمن العقاب والجنّة ما استترت به من سلاح وغيره، وهو مستعار كما عرفت، وقد مدح اللّه الوفاء في مواضع فقال: ﴿الّذين يوفون بعهد اللّه ولاينقضون الميثاق﴾ وقال: ﴿الّذين يوفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ وقال: ﴿ومن أوفى بعهده من اللّه﴾ وقال: ﴿ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾، وقوله عليه السلام:

[ومايغدر من علم كيف المرجع] إشارة إلى أنّ علم الإنسان بكيفيّة المعاد إلى اللّه يستلزم امتناعه من العذر ونحوه، لما فيه من العقوبات

ولقد أصبحنا في زمان اتّخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة مالهم قاتلهم اللّه قد يرى الحُوَّل القُلَّب وجه الحيلة

الأخرويّة، مضافاً إلى سخط اللّه، وكيف يلقى اللّه ساخطاً عليه، وإنّما خصّ الغدر مع أنّ سائر أضداد الفضائل كذلك، لأنّه في معرض مدح الوفاء، والضدّ يظهر حُسنه بضدّه، كما قيل: تعرف الأشياء بأضدادها. ثمّ قال عليه السلام:

[**ولقد أصبحنا في زمان اتّخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً**] أي: فطنة وذكاءً.

[**ونسبهم أهل الجهل فيه**] أي: في الغدر [**إلى حسن الحيلة**] فيقولون في أرباب الخديعة والغدر والجربة والمكر أنّهم أذكياء أكياس، كما كانوا يقولون في عمرو بن العاص والمغيرة، وينسبونهم إلى حسن الحيلة وصحّة التدبير لعدم تميز أكثرهم بين الغدر والكَيْس من حيث اشتراكهما في التفطّن، لوجه الحيلة والخداع، إلّا أنّ تفطّن الغادر يستعمله في الحيلة المخالفة للقانون الشرعي المفوتة للمصالح الكلّية والمنافع الدائميّة في جنب مصلحة جزئيّة فانية، وتفطّن الكَيْس إنّما يستعمله في إيقاع رأي أو مصلحة كلّية تنظم أمر العالم، وتوافق القوانين الشرعيّة، ولا خير في حيلة تجرّ إلى رذيلة، ولذا قال عليه السلام منكراً داعياً عليهم:

[**مالهم**] قد جعلوا الرذيلة فضيلة [**قاتلهم اللّه**] أنّى يؤفكون؟ دعا عليهم بالإبعاد عن الرحمة.

[**قد يرى الحُوَّل القُلَّب**] الّذي يكثر تحوّله وتقلّبه في اختبار الأمور، وتعرف وجوهها واستنباط الآراء الصالحة ووجوه المصالح [**وجه الحيلة**] في

ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لاجريحة له في الدين أيّها الناس! إنّ أخوف ماأخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى، وطول الأمل

وجه الغدر والحيلة.

[**ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه**] عن ارتكابها [**فيدعها رأي عين**] أي: يتركها رأي عينه [**بعد القدرة عليها**] تخوّفاً من اللّه تعالى.

[**وينتهز فرصتها**] أي: يبادر فرصتها إلى وقت الإمكان.

[**من لاجريحة له في الدين**] والجريحة التحرّز من الجرح، وهو الإثم، والحريجة التقوى، وهذه سجيّته عليه السلام، كما أنّ تلك سجيّة أعدائه، فقد ملك أهل الشام شريعة الماء بصفّين فمنعوه وأصحابه منها وأرادوا إهلاكهم عطشاً، فلمّا استولى عليه السلام عليها أشار عليه أصحابه بذلك فقال: إنّ في حدّ السيف لغنى عن ذلك، ثمّ قاسمهم الشريعة شطرين بينهم وبينه وكان الأشتر يستأذنه أن يبيت معاوية وأصحابه فيقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله نهى أن يبيت المشركون.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أيّها الناس! إنّ أخوف ماأخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى، وطول الأمل**] في الدنيا، فإنّهما من أشدّ الهلاك، كما أنّ ضدّهما من أعظم أسباب النجاة.

فأمّا اتّباع الهوى فيصُدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة ألا وإنّ الدنيا قد ولّتْ حذّاء

[**فأمّا اتّباع الهوى فيصُدّ عن الحقّ**] لانّ الهوى ميل النفس الامّارة بالسوء إلى مقتضى طباعها من اللذّات الدنيويّة إلى حدّ الخروج عن حدود الشريعة، وحيث أنّ السعادة التامّة لقاء اللّه ومجاورة الملأ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وكان اتّباع النفس الأمّارة في انهماكها في لذّاتها الفانية أشدّ مهلك جاذب للإنسان عن قصد الحقّ، وصاد له عن سلوك سبُله وعن الترقّي في ملكوت السماوات إلى حضيض جهنّم، كما قال ﷺ: ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه، وكما قال ﷺ: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى﴾.

[**وأمّا طول الأمل**] لما لاينبغي أن يمدّ الأمل فيه [**فيُنسي الآخرة**] لانّ طول توقّع الأمور المحبوبة الدنيويّة توجب دوام ملاحظتها، ودوام ملاحظتها مستلزم لدوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة، وهو مستعقب لانمحاء ماتصوّره في الذهن منها، وهو معنى النسيان، وإنّما نسب الخوف إلى نفسه لأنّه ﷺ هو المتولّي لإصلاح حال الخلق في أُمور معاشهم ومعادهم، والمهتمّ بذلك.

[**ألا وإنّ الدنيا قد ولّتْ حذّاء**] بالحاء المهملة والذال المعجمة، يقال: رجل أحذّ أي: خفيف مسرع.

وروي: جذّاء بالجيم من الجذّ القطع، أي: قد انقطع خيرها ودرّها،

فلم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء أصطبّها صابّها ألا! وإنّ الآخرة قد أقبلَتْ ولكلّ واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولاتكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كلّ ولد يستلحق بأُمّه يوم القيامة

والأوّل أظهر، أي: خفيفة مسرعة لايتعلّق أحد منها بشيء.

[**فلم يبق منها**] بالقياس إلى ماذهب منها [**إلاّ صبابة**] وهي بقيّة الماء في الإناء، استعارة لبقيّتها القليلة، ووجه الشبه القلّة.

[**كصبابة الإناء أصطبّها صابّها**] هو مثل قولك: أبقاها مستبقيها وتركها تاركها.

[**ألا! وإنّ الآخرة قد أقبلَتْ**] لأنّ العمر في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى.

[**ولكلّ واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولاتكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كلّ ولد يستلحق بأُمّه يوم القيامة**] قيل هو من لطائف كلامه عليه السلام، فاستعار الأبناء للخلق بالنسبة إلى الدنيا والآخرة، ولفظ الأب لهما ووجه الإستعارة أنّ الإبن لما كان من شأنه الميل إلى والده إمّا ميلاً طبيعيّاً، أو بحسب تصوّر المنفعة منه، وكان الخلق منهم من يُريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة، ويميل كلّ منهما إلى مراده مع مايحصل من طرف الدنيا للراغبين فيها، ممّا يتوهّمونه لذّة وخيراً، ومايحصل من طرف الآخرة للراغبين فيها من اللذّة والسعادة أشبه كلّ بالنسبة إلى مارغب فيه واستفا منه الإبن بالنسبة إلى الأب، فاستعير لفظه لتلك المشاهدة.

ولمّا كان غرضه عليه السلام حثّ الخلق على السعي للآخرة والميل إليها والإعراض عن الدنيا قال عليه السلام: فكونوا أبناء الآخرة، ولاتكونوا من أبناء

وإنّ اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب ولاعمل وقد أشار عليه أصحابه بالإستعداد لحرب أهل الشام، بعد إرساله إلى معاوية جريربن عبدالله البجلي

الدنيا، ثمّ ذكر الثمرة، وهي أنّ كلّ ولد سيلحق بأبيه، ونبّه على ذلك بضمير صغراه قوله فإنّ إلى قوله القيامة، ولمّا كانت الدنيا يومئذ منقطعة عن الخلق كان اختيارها معها لاستلزام ذلك عزّة أهلها وشقاهم ببُعدها، وتقدير الكبرى وكلّ من سيلحق بأُمّه يوم القيامة، فلابدّ أن يستعدّ لها بما يقربه منها، ويُصلح حاله معها ليأمن سوء الحظّ، ويزول عنه بؤس الغربة.

[**وإنّ اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب ولاعمل**] كنّى باليوم عن مدّة الحياة، وبغد عمّا بعدها، وراعى المقابلة اللطيفة في العمل والحساب، واليوم إسم إن، وعمل قام مقام الخبر استعمالاً للمضاف إليه مقام المضاف، أي: وقت العمل، ويحتمل أن يكون اسم إنّ ضميرالشأن، وجملة اليوم عمل خبر، وخبر هي خبرها، وكذا قوله: وغداً حساب ولاعمل، والغرض من ذلك التنبيه على وقت العمل ومدّته لغاية المبادرة إليه وقت إمكانه اغتناماً للفرصة.

ومن كلامه له عليه السلام

[**وقد أشار عليه أصحابه بالإستعداد لحرب أهل الشام، بعد إرساله إلى معاوية جريربن عبدالله البجلي**] وقال له جرير: والله ماادّخرك من نصرتي شيئاً، وماأطمع لك في معاوية، فقال: قصدي حجّة أقمتها، ثمّ كتب عليه السلام معه مالخّصه:

....

أمّا بعد، فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتك، وأنت بالشام، لأنّه بايعني القوم الّذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على مابايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولاللغايب أن يرد، إلى أن قال: وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثمّ نقضا بيعتي، فكان نقضهما كردّتهما، فجاهدتهما على ذلك حتّى جاء الحقّ وظهر أمر اللّه وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأُمور إليّ فيك العافية، إلّا أن تتعرّض للبلاء، فإنْ تعرّضتَ له قاتلتُك واستعَنْتُ باللّه عليك، وقد أكثرت في قتلة عثمان، فاخل فيما دخل فيه الناس، ثمّ حاكم القوم إليّ أحملكم وإيّاهم على كتاب اللّه، فأمّا تلك الّتي تريدها فخدعة الصبيّ عن اللبن، ولعمري إن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان.

واعلم إنّك من الطلقاء الّذين لاتتحلّى لهم الخلافة، ولاتعرض فيهم الشورى، وقد أرسلتُ إليك جريربن عبداللّه وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع، ولاقوّة إلّا باللّه.

فأجابه معاوية:

أمّا بعد، فلعمري لو بايعك القوم الّذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنّك أعزبت بعثمان، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلّا قتالك، حتّى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمري ماحجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير، لأنّهما بايعاك ولم أُبايعك، وماحجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، لأنّهم

إنّ استعدادي لحرب زهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير إن أرادوا ولكن قد وقّتُّ لجرير وقتاً ولايقيم بعده إلاّ مخدوعاً أو عاصياً

أطاعوك ولم يطيعك أهل الشام، فأمّا شرفك في الإسلام وقرابتك من النبيّ ﷺ وموضعك من قريش فلستُ أدفعه.

وفي رواية: إنّ الكتاب الّذي كتبه عليه السلام مع جرير كانت صورته: إنّي قد عزلتُك، ففوّض الأمر إلى جرير، والسلام.

وقال لجرير: صُن نفسك عن خداعه، فإن سلّم إليك الأمر وتوجّه إليّ فقم أنت بالشام، وإن تعلّل بشيء فارجع، فلمّا عرض جرير الكتاب على معاوية تعلّل بمشاورة أهل الشام وغير ذلك، فرجع جرير، فكتب معاوية في أثره فط ظهر كتاب عليّ عليه السلام: مَن ولاك حتّى أمرتني والسلام، ولنرجع إلى تفسير كلامه عليه السلام، قال:

[**إنّ استعدادي**] والإستعداد: التهيّؤ للأمر [**لحرب زهل الشام وجرير عندهم**] جملة حاليّة، أي: حال كون جرير عندهم وهم في مقام التروي والفكر في اتباعه أو مخالفته.

[**إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير إن أرادوا**] إذ الإعتداد للحرب في تلك الحال يبلغهم، فيحتاجون إلى الإستعداد والتأهّب للقائه، فكان ذلك سبباً لغلق الشام بالكلية، وصرفاً لمن يكون في ذهنه تردّد في هذا الأمر، أو في قلبه اللحوق به عمّا يريدون، وذلك مضادّ للحزم.

[**ولكن قد وقّتُّ لجرير وقتاً**] يصل إلينا فيه [**ولايقيم بعده**] ولايتخلّف عنه [**إلاّ مخدوعاً**] منهم بمواعيد مخلفة ليتأهّبوا في تلك المدّة [**أو عاصياً**]

والرأي عندي مع الإناة فأرْوِدوا ولا أكره لكم الإعداد ولقد ضربتُ أنف هذا الأمـر وعـينَه وقلّبْتُ ظهـرَه وبطنَه، فلـم أر لي إلاّ القـتـال، أو الكفر بما أُنزل على محمّدﷺ

وإنّما خصّ عليه السلام تأخّر جرير في المانعين المذكورين مع جواز تخلّفه لمرض ونحوه، لأنّ الكلام ليس في الموانع الإضطراريّة، بل الإختياريّة، وهي إمّا منهم وغالب الظنّ هو خداعه حتّى يستحكم أمرهم، وإمّا منه وغالب الظنّ عصيانه، إذ لايتصوّر من جرير في مثل هذا الأمر المهمّ أن يعدل عنه إلى شغل اختياريّ لنفسه أو لغيره، إلاّ أن يكون عاصياً.

[**والرأي عندي مع الإناة**] فإنّ إصابة المطالب والظفر بها في الغالب إنّما هو مع التثبّت والتأنّي في الطلب وغير المتأنّي إن أصاب فأصابته نادرة، والنادر لايلتفت إليه.

[**فأرْوِدوا**] أي: أمهلوا وتأنّوا في الأُمور سيّما في هذا الأمر.

[**ولا أكره لكم الإعداد**] والإستعداد، حتّى يكونوا على يقظة من هذا الأمر، فإذا دعاهم إلى الحرب بادروا بلامانع، ولئلاّ يتوهّم في حقّهم الضعيف.

وقيل: إنّه عليه السلام كره الإستعداد ظاهراً، وأراد منهم الإستعداد باطناً.

[**ولقد ضربتُ أنف هذا الأمر وعينَه وقلّبْتُ ظهرَه وبطنَه، فلم أر لي إلاّ القتال، أو الكفر بما أُنزل على محمّدﷺ**] ووجه لزوم الكفر من ترك القتال: أنّ النبيّﷺ قد كان أمره أمر حتم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فلو ترك قتالهم لكان مخالفاً لهﷺ، ويلزم من ذلك عدم اعتقاد صحّة أوامره، وذلك جحد به وكفر، ولأنّه حينئذ يكون راضياً بوقوع المنكرات مع قدرته

قد كان على الأُمّة وال أحدث أحداثاً وأوجد الناس مقالاً فقالوا، ثمّ نقموا فغيّروا

على إنكارها وتهاوناً بأمر اللّه ورسوله، وذلك كفر، واستعار عليه السلام لفظ العين والأنف والظهر والبطن الّتي هي حقائق في الحياة لحاله وأمره مع معاوية في الخلافة، وفي خلاف أهل الشام استعارة على سبيل الكناية، فكنّى بالعين والأنف عن المهمّ من هذا الأمر وخالصه، فإنّ العين والأنف أعزّ مافي الوجه، وكنّي بالضرب لهما عن قصده المهمّ منه على سبيل الإستعارة، وكنى بالظهر والبطن عن ظاهر هذا الأمر وباطنه، ووجوه الرأي فيه، ولفظ التقليب لتصفّح تلك الوجوه وعرضها على العقل واحداً واحداً.

ثمّ نبّه عليه السلام على بيان غدره عمّا نسب إليه معاوية وأصحابه، وجعلوه سبباً للعصيان، وهو الطلب بدم عثمان، فقال:

[**قد كان على الأُمّة وال**] وهو عثمان [**أحدث أحداثاً**] أنكرها الناس عليه [**وأوجد الناس مقالاً**] أي: جعل لهم بتلك الأحداث محلّ قول في حقّه.

[**فقالوا، ثمّ نقموا فغيّروا**] والمشهور من تلك الأحداث عشرة:

أ: تولية أُمور المسلمين من ليس أهلاً من الفسّاق، مراعاة للقرابة، دون حرمة الإسلام، كالوليدبن عقبة، حين ظهر منه شرب الخمر، وسعيدبن العاص، حتّى ظهرت منه الأُمور الّتي أخرجه أهل الكوفة بسببها، وعبداللّه بن أبي سرح، مع قوّة ظلم وتظلّم المصريّين منه، وهو الّذي اتّهمه المسلمون بمكاتبته بقتل محمّدبن أبي بكر حتّى ظفروا بالكتاب، ولأجله عظم التظلّم، وكثر الجمع، واشتدّ الحصار عليه.

....

ب : ردّه للحكم بن العاص طريد رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلى المدينة مع امتناع الشيخين من ردّه مخالفاً للنبيّ صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين.

ج : إيثار أهله من مال المسلمين بالأموال العظيمة، حتّى دفع إلى أربعة نفر من قريش زوجهم ببناته أربعمائة ألف دينار، وأعطى مروان مائة ألف دينار.

د : أنّه حمى الحمى عن المسلمين بعد تسوية الرسول صلى الله عليه وآله بينهم في الماء والكلاء، هي أنّه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها، وذلك ممّا لايجوز في الدين.

هـ : ضربه لعبداللّه بن مسعود وهو من أكبر الصحابة وعلمائها، حتّى كسر بعض أضلاعه.

و : جمعه الناس على قرائة زيد بن ثابت، خاصّة وإحراق المصاحف عدا مصحفه.

ز : إقدامه على عمّاربن ياسر بالضرب مع كونه من أشرف الصحابة، وعلمه بقول النبيّ صلى الله عليه وآله فيه عمّار جلدة بين عينيّ تقتله الفئة الباغية، لاأنالها اللّه شفاعتي أصابه العنق، وكان عمّار ممّن أعان على قتله، وكان يقول قتلناه كافراً.

ح : إهانته لأبي ذر وأُذينة، ونفيه إلى الربذة مع علمه بقول النبيّ صلى الله عليه وآله فيه: ماأقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ.

ح : تعطيله الحدّ الواجب على عبداللّه بن عمر، حيث قتل الهرمزان مسلماً بمجرّد تهمته أنّه أمر أبالؤلؤ بقتل أبيه، ثمّ لم يفده به، وقد كان عليّ عليه السلام يطلبه بذلك.

وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أميرالمؤمنين وأعتقهم، فلمّا

ومن كلام له عليه السلام
لمّا هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية

وكان عاملاً لعليّ على اردشير وسبب هروبه أنّ الخريت أحد بني ناجية، كان قد شهد مع عليّ عليه السلام صفّين، ثمّ استهواه الشيطان، فصار من الخوارج لسبب التحكيم، وخرج هو وأصحابه إلى المدائن، مفارقاً لعليّ عليه السلام، فوجّه إليه معقل بن قيس في ألفي فارس من أهل البصرة، ولم يزل يتبعهم بالعسكر بعد العسكر حتّى ألحقوهم بساحل فارس، وكان به جماعة كثيرة من قوم الخريت، وكان فيهم من أسلم عن النصرانيّة، فلمّا رأوا ذلك الإختلاف ارتدّوا واجتمعوا عليه، فزحف إليهم معقل، فقتل الخريت وجماعة منهم وسبى من كان أدرك فيهم من الرجال والنساء، ونظر فيهم فمن كان مسلماً أخذ بيعته وخلّى سبيله، واحتمال الباقين من النصارى وعيالهم معه، وكانوا خمسمائة نفر حتّى مرّوا بمصقلة، فاستغاث إليه الرجال والنساء ومجّدوه، فطلبوا منه أن يعتقهم، فأقسم ليتصدّقنّ عليهم بذلك، ثمّ بعث إلى معقل بن قيس فابتاعهم منه بخمسمائة ألف درهم، كما أشار إليه بقوله:

[وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أميرالمؤمنين وأعتقهم، فلمّا] قدم معقل على عليّ عليه السلام وأخبره بالقصّة شكر سعيه، وانتظر المال من يد مصقلة فأبطأ به، فكتب إليه باستعجاله أو بقدومه عليه، فلمّا قرأ كتابه قدم

فلمّا طالبه بالمال وخاس به وهرب إلى الشام قبّح اللّه مصقلة فَعَلَ فِعْلَ السادة وفرّ فرار العبيد فما أنطق مادحه، حتّى أسكته ولا صدق واصفه

عليه وهو بالكوفة فاقرّه أيّاماً.

[**فلمّا طالبه بالمال**] فأدّى منه مائتي ألف دينار، وعجز عن الباقي.

[**وخاس به**] أي: لم يقف، وخاس: غدر ونكث وخاف، فلحق معاوية [**وهرب إلى الشام**] فبلغ ذلك عليّاً عليه السلام فقال:

[**قبّح اللّه مصقلة**] أي: نحّاه عن الخير.

[**فَعَلَ فِعْلَ السادة**] ذوي المروّة والحميّة، حيث اشترى القوم وأعتقهم [**وفرّ فرار العبيد**] فإنّ الفرار شيمتهم، ثمّ أكّد عليه السلام ذلك بمثلين، أحدهما:

[**فما أنطق مادحه، حتّى أسكته**] بتكت له بسرعة إلحاق الفضيلة بالرذيلة، حتّى كأنّه جمع بينهما، وهما أنطاق مادحة بفدائه الأسرى مع هربه قبل إتمام انطاقه، كما تقول في وصف سرعة تفرّق الاحباب عن اجتماعهم ماجتمعوا حتّى افترقوا، كأنّ الدهر قد جمع لهم بين الإجتماع والإفتراق.

[**ولا صدق واصفه**] بفعل الجميل مع فعل القبيح، الّذي كأنّه كذّبه به، ولامه على مدحه حتّى بكته، والتكبيت كالتقريع والتعنيف، ولمّا أشار إلى خطائه أردفه بما يصلح جواباً لما عساه يكون عذراً له لو اعتذر، وهو توّهمه التسديد عليه في أمر الباقي من المال، حتّى كان ذلك الوهم سبب هزيمته، فقال:

ولو أقام لأخذنا منه ميسوره وانتظرنا بماله وفوره الحمد للّه غير مقنوط من رحمته

[ولو أقام] ولم يفرّ [لأخذنا منه ميسوره] الّذي يقدر عليه [وانتظرنا بماله وفوره] أي: زيادته.

وفي رواية: ولو أقام لأخذنا منه ماقدر عليه، فإن أُعسر أنظرناه، فإن عجز لم نأخذه بشيء.

ومن خطبة له عليه السلام

قيل: هذا الفصل ملتقط من خطبة طويلة له عليه السلام خطب بها يوم الفطر، وو غير متّسق بل بين قوله نعمه وقوله والدنيا فصل طويل.

وقال ابن أبي الحديد: هذا الفصل يشتمل على فصلين من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام، أحدهما: حمد اللّه والثناء عليه إلى قوله: ولايفقد له نعمة. والثاني: ذكر الدنيا إلى آخر الكلام، وأحدهما غير مختلط بالآخر، ولكن الرضي(ره) يلتقط كلام أميرالمؤمنين التقاطاً، ولايقف مع الكلام المتوالي، لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لاغير، ولو أتى بخطبته عليه السلام كلّها على وجهها لكانت أضعاف كتابه الّذي جمعه.

[الحمد للّه غير مقنوط من رحمته] إشارة إلى استحقاقه الحمد ودوامه باعتبار أُمور ستّة:

منها: سعة رحمته، والقنوط الإياس فهو مقرّر لقوله تعالى:

ولا مخلوّ من نعمته ولامأيوس من مغفرته ولا مستنكف عن عبادته الذي لاتبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة

﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾ وقوله: ﴿لاتيأسوا من رَوْحِ اللّه إنّه لاييأس من روح اللّه إلاّ القوم الكافرون﴾.

وأشار إلى الثانية بقوله:

[**ولا مخلوّ من نعمته**] لسبوغها وشمولها للبرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فهو تقرير لقوله تعالى: ﴿ومالكم من نعمة فمن اللّه وإن تعدّوا نعمة اللّه لاتحصوها﴾.

وأشار إلى الثالثة بقوله:

[**ولامأيوس من مغفرته**] تقرير لقوله تعالى: ﴿ياعبادي الّذين أسرَفوا على أنفسهم لاتَقْنَطوا من رحمة اللّه إنّ اللّهَ يغفر الذنوب جميعاً﴾.

وأشار إلى الرابعة بقوله:

[**ولا مستنكف عن عبادته**] تقرير لقوله تعالى: لايستنكفون عن عبادته ولايستحسرون﴾ وقوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكونَ عبداً للّه ولا الملائكة المقرّبون﴾، ولفظ غير مع سائر المنفيات المتعاقبة منصوبة على الحال، وقوله:

[**الذي لاتبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة**] اعتباران آخران توجب ملاحظتهما شكوة تعالى لدوام رحمته، وعدم فقدان نعمته.

وقال ابن أبي الحديد ماحاصله: لفصل يشتمل على باب كبير من علم البيان، يُعرَف بالموازنة، وذلك قوله غير مقنوط، حيث وازنه في الفقرة الثانية بقوله: ولاتخلو كلّ منهما وزن مفعول، وفي الفقرة الثالثة

والدار دار مُنِيَ الفناء، ولأهلها منها الجَلاء وهي حلوة خضرة

ولامأيوس، وفي الرابعة: ولامستنكف، وزن مستفعل غير خارج عن المفعول أيضاً، ثمّ وازن عليه السلام بين قوله لايبرح وقوله لايفتقد، وبين رحمته ونعمته، فأعطى بهذه الموازنات من اللطافة والصفة ما لاتجده عليه لو قال: الحمد للّه غيرمخلوّ من نعمته، ولا مبعّد عن رحمته، لأنّ مبعّداً بوزن مفعل غير مطابق لمفعول، وكذا لو قال لاتزول منه منه رحمة ليس مماثلاً ليعقد كبترح، ألا ترى أنها معتلّة وتلك صحيحة، وكذا لو قال ولايفقد له انعام، فإنّه ليس في وزن رحمة، والموازنة أعمّ من السجع، لأنّه تماثل أجزاء الفواصل بحرف واحد، كالقريب والغريب والنسيب، وهي ما كان على الوزن وإن لم يكن الحرف الأخير واحد، فكلّ سجع موازنه ولاعكس، ومثال الموازنة في القرآن: ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم﴾. وقوله: ﴿ليكونوا لهم عزاً﴾. ثمّ قال: ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾. ثمّ قال: ﴿نورهم أزاً﴾. ثمّ قال: ﴿نعدّ لهم عداً﴾.

ثمّ أشار إلى ذمّ الدنيا والتنبيه على معايبها للتنفير عنها فقال:

[والدار دار مُنِيَ] أي: قدّر لها **[الفناء، ولأهلها منها الجَلاء]** بفتح الجيم، الخروج عن الوطن، قال سبحانه: ﴿ولولا أنْ كتب اللّهُ عليهم الجلاء﴾.

[وهي حلوة خضرة] إشارة إلى جهتين من جهات الميل:

احداهما: منسوب إلى القوّة الذائقة وهي حلاوتها.

والأخرى: إلى الباصرة، وهي خضرتها، وكنّى بهما عن جهات الميل من إطلاق الجزء على الكلّ، وإيرادهما مع كونهما وصفي مدح في معرض

وهي حلوة خضرة قد عجلتُ للطالب والتبسَتْ بقلب الناظر تحلوا عنها بأحسن مابحضرتكم من الزاد

الذمّ كتقدير اعتراض على ذمّها لغرض الجواب عنه، ولذا عقّب ذكرهما بما يصلح جواباً، وبيّنه على مايصرف عن الميل إليها من هاتين الجهتين، فقال:

[**قد عجلتُ للطالب**] إذ كان من شأن المعجّل أن ينتفع به في حال تعجيله دون مابعده، خصوصاً في حقّ من أحبّ ذلك المعجّل، ولم يلتفت إلى ماسواه، والدنيا كذلك، كما أشار إليه بقوله:

[**والتبسَتْ بقلب الناظر**] أي: خالطت قلبه بمحبّتها، وإنّما خصّ الناظر لتقدّم ذكر الخضرة الّتي هي من حظّ النظر، فمن عجلت له منحه والتبست بقلبه، وكان لابدّ له من مفارقتها لم ينتفع بمابعدها، وبقي في عذاب الفراق منكوساً، وفي ظلمة الوحشة محبوساً، كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿من كان يُريد العاجلة عجّلنا له فيها مايشاء لمن يريد ثمّ جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾.

ثمّ لمّا نبّه على معايبها أمر بالإرتحال عنها فقال:

تحلوا عنها] اختياراً، قبل أن ترتحلوا عنها اضطراراً، وأخرجوا من هذه القرية الظالم أهلها متلبّسين [**بأحسن مابحضرتكم من الزاد**] وهو التقوى، والأعمال الصالحة، والملكات الفاضلة، قال تعالي: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

وقوله: مابحضرتكم إشارة إلى مايمكن أن يؤتى به من الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا.

ولاتَسألوا فيها فوق الكفاف، ولاتطلبوا منها أكثر من البلاغ اللّهمّ إنّي أعوذُ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد

[**ولاتَسألوا فيها**] أي: في الدنيا من متاعها وحطامها [**فوق الكفاف، ولاتطلبوا منها أكثر من البلاغ**] الّذي يبلغكم إلى الآخرة، فإنّ البدن بمنزلة مركوب تقطع به النفس مراحل طريقها وسيرها إلى اللّه تعالى، فالزيادة على الكفاف ممّا يحوج الراكب إلى الإهتمام به، والإعتناء بحفظه، والميل إليه، وكلّ ذلك مثقل للظهر، ومشغل عن الجهة المقصودة للسائر، وعايق عن السير.

ومن كلام له عليه السلام
عند مسيره إلى الشام

وروي أنّه عليه السلام دعى به عند وضع رجله في الركاب، متوجّهاً إلى حرب معاوية:

[**اللّهمّ إنّي أعوذُ بك من وعثاء السفر**] مشقّته، وأصل الوعث: المكان المتعب لكثرة رمله، وغوص الأرجل فيه، يقال: أوعث القوم أي: وقفوا في الوعث.

[**وكآبة المنقلب**] الكآبة الحزن، والمنقلب مصدر من انقلب منقلباً، أي: رجع.

[**وسوء المنظر**] أي: قبح المرأى [**في الأهل والمال والولد**] بأن لايرى

اللّهمّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ولايجمعها غيرك، لأنّ المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لايكون مستخلفاً.

قال السيّد (ره): وابتداء هذا الكلام مرويّ عن رسول الله ﷺ وقد قفاه عليه السلام بأبلغ كلام وتمّمه بأحسن تمامه من قوله: ولايجمعهما غيرك إلى آخر الفصل

الإنسان فيهم مايكره، والمقصود الإلتجاء إلى اللّه تعالى في خلاص طريقه المتوجّه فيها بدءاً من الموانع الصارفة عن تمام المقصود وسلامة الأحوال المهمّة الّتي تتعلّق النفس بها من المشغلات البدنيّة المعوقة عن عبادة اللّه، وأعظمها أحوال النفس، ثمّ مايصلحكم من أهل ومال وولد.

[**اللّهمّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**] تقرير لقوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم، وقوله تعالى: ﴿مايكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا﴾.

[**ولايجمعها غيرك، لأنّ المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لايكون مستخلفاً**].

[**قال السيّد (ره): وابتداء هذا الكلام**] وهما الفقرتان الأوّلتان مرويّ **عن رسول اللّه ﷺ**] في المسانيد الصحيحة.

[**وقد قفاه عليه السلام بأبلغ كلام وتمّمه بأحسن تمامه من قوله: ولايجمعهما غيرك إلى آخر الفصل**] من التنزيه عن الجهة والجسميّة، إذ كان اجتماعهما ممتنعاً للأجسام، إذ لايكون جسم واحد مستصحباً مستخلفاً في حال واحد،

كأنّي بكِ يا كوفة تمدّين مدّ الأديم العُكاظيّ وتعركين بالنوازل

وحيث أنّه تعالى منزّه عن وصمة الإمكان من زمان ومكان، فهو في كلّ مكان وليس في مكان، وبكلّ شيء محيط ولايحيطون به علماً، فالمراد بكونه في كلّ مكان علمه وإحاطته ونفوذ حكمه وقضائه وقدرته، فذا يكون مستخلفاً ومستصحباً في آن واحد.

ومن كلام له عليه السلام
في ذكر الكوفة

[كأنّي بكِ يا كوفة تمدّين مدّ الأديم العُكاظيّ] عكاظ: بالضمّ اسم موضع أو سوق للعرب، بناحية مكّة كانوا يجتمعون بها في كلّ سنة يقيمون شهراً، ويتبايعون ويتناشدون بالأشعار ويتفاخرون في ذلك، قول أبي ذويب: إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف، فلمّا جاء الإسلام هدم ذلك وأديم عكاظيّ منسوب إليها لكثرة ماكان يباع بها، والأديم واحد جمعه أدم، وربّما جمع على أدمة كرغيف وأرغفة وتمدين وتعركين حال، والخطاب لشاهد حال الكوفة، أي: كأنّي حاضر بك، ومشاهد لحالكِ المستقبلة، تمدّين مدّ الأديم أي: تجاذب أيدي الظالمين زهلك بأنواع الظلم، وهو المكنّى عنه بمدّها، ووجه شبهه بمدّ الأديم شدّة مايقع بهم من الظلم والبلاء، كما أنّ الأديم مستحكم الدباغ يكون شديد المدّ.

[وتعركين بالنوازل] من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتّى أبقتهم كناية عن فعل الظلمة بأهلها، والنوازل ماينزل بهم من البلايا والمحنة.

وتركبين بالزلازل وإنّي لأعلم أنّه ماأراد بك جبّار سوء إلّا ابتلاه اللّه بشاغل ورماه بقاتل

[**وتركبين بالزلازل**] استعار لفظ الركوب ملاحظة لتشبّهها بالمطيّة، ولفظ الزلازل ملاحظة لشبهها فيما يقطع لهم من الظلم الموجب لاضطرابها الأرض بالزلازل.

ثمّ أشار عليه السلام إلى مشاهدة ثانية، لما يقع بمن أراد بهم سوء، وأوقع بهم ماأوقع من البلاء، فقال:

[**وإنّي لأعلم أنّه ماأراد بك جبّار سوء إلّا ابتلاه اللّه بشاغل**] يشغله عنك.

[**ورماه بقاتل**] يقاتله أو يقتله فيصرف منك، وذلك لأنّها قبّة الإيمان، ومنها الشيعة والأنصار والأعوان وقصّروا جملة من أهلها، ولذا ورد عنهم عليهم السلام: ياأهل الكوفة أنتم الشعار دون الدثار.

قال ابن أبي الحديد: وقد جاء في فضل الكوفة عن أهل البيت شيء كبير نحو قول أميرالمؤمنين عليه السلام: نعمت المدرة.

وقوله عليه السلام: إنّه يحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً وجوههم على صورة القمر.

وقوله عليه السلام: هذه مدينتنا وشيعتنا.

وقول جعفر بن محمد عليه السلام: اللّهم ارم من رماها، وعاد من عاداها.

وقوله عليه السلام: تحبّنا ونحبّها، فأمّا ما هم به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء ودفاع اللّه عنها فكثير.

وقال المحقّق البحراني: وأمّا الجبابرة الّذين أرادوا بها سوء وطغوا فيها

الحمد للّه كلّما وقب ليل وغسق

فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب، وأخذهم بذنوبهم، وما كان لهم من اللّه من واق، فجماعة فمن ابتلى بشاغل فيها زياد.

وروي أنّه كان قد جمع الناس في المسجد ليأمرهم بسبّ عليّ، والبراءة منه، ويقتل من يعصيه فبيناهم مجتمعون إذ خرج صاحبه فأمرهم بالإنصراف.

وقال: إنّ الأمير الأمير مشغول عنكم، وكان في تلك الساعة تدري بالفالج، ومنهم ابنه عبيداللّه، وقد أصابه الجذام. ومنهم الحجّاج، وقد تولّدت في بطنه الحيّات، واحترقت دبره حتّى هلك. ومنهم عمروبن هبيرة، ويوسف ابنه، وقد أصابهما البرص، ومنهم خالد القسري، وقد ضرب وحبس حتّى مات جوعاً، وأمّا الّذين رماهم اللّه بقاتل فعبيداللّه بن زياد ومصعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيدة الثقفي، ويزيدبن المهلب، وأحوالهم مشهورة من رامها طالع التاريخ.

ومن خطبة له عليه السلام
عند المسير إلى أهل الشام.

روي إنّ هذه الخطبة خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة، متوجّهاً إلى صفّين، لخمس بقين من شوّال سنة سبع وثلاثين، فقال:

[**الحمد للّه كلّما وقب ليل وغسق**] وقب اللّيل: دخل، وغسق: أظلم، قال تعالى: ﴿ومن شرّ غاسق إذا وقب﴾ والمقصود حمده دائماً، وفي

والحمد للّه كلّما لاح نجم وخفق والحمد للّه غير مفقود الأنعام ولا مكافيء الأفضال أمّا بعد، فقد بعثت مقدّمتي وأمرتم بلزوم هذا الملطاط إلى أن يأتيهم أمري

كلّ آن وزمان، وفيه تنبيه على كمال قدرة اللّه في تعاقب اللّيل والنهار، واستحقاقه دوام الحمد بما يلزم ذلك من ضروب الإمتنان.

[**والحمد للّه كلّما لاح نجم وخفق**] أي: غاب، وفيه إشارة إلى مايلزم طلوع الكواكب وغروبها من الحكمة وكمال النعمة.

[**والحمد للّه غير مفقود الأنعام**] إذ نعمه لاتحصى، ﴿وإنْ تعُدّوا نعمة اللّه لاتحصوها وما بكم من نعمة فمن اللّه﴾.

[**ولا مكافيء الأفضال**] ومن الذي يكافيء عشر معشار فضله، أو يقابله بجزء أو يشكر نعمه، كما قال عليه السلام: وماقدر لساني في جنب شكوك، وماقدر عملي في جنب نعمك، وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك، إذ كانت القدرة على الحمد والثناء والعبادة نعمة ثانية يجب شكرها، وفضل آخر يلزم مكافئته.

[**أمّا بعد، فقد بعثت مقدّمتي وأمرتم بلزوم هذا الملطاط**] أي: السمت، أي: سمت شاطيء الفرات.

[**إلى أن يأتيهم أمري**] فإنّه عليه السلام لمّا أراد التوجّه إلى صفّين بعث زيادبن النصر وشريح بن هاني في إثني عشر ألف فارس مقدّمة له، وأمرهم أن يلزموا شاطيء الفرات، فأخذوا شاطها من قبل البرّ، ممّا يلي الكوفة حتّى بلغوا عانات، فذاك معنى أمره لهم بلزوم الملطاط، وهو سمت شاطيء الفرات.

وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة إلى شرذمة موطئين أكناف دجلة فأنهضم معكم إلى عدوّكم واجعلهم من أمداد القوّة لكم.

قال السيّد الرضي:

وأمّا هو عليه السلام فلمّا خرج من الكوفة انتى إلى المدائن فحذّرهم ووعظهم، ثمّ سار عنهم وخلّف عليهم عديّ بن حاتم فاستخلص منهم ثمانمائة رجل فسار بهم، وخلّف ابنه زيداً، فلحقه في أربعمائة رجل منهم، وهو الّذي أشار إليه بقوله:

[**وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة**] أي: الفرات [**إلى شرذمة**] أي: نفر قليل [**موطئين أكناف دجلة**] أي: قد جعلوا أكنافها وطئاً، والأكناف الجوانب واحدها كنف، وعنى بهم أهل المدائن.

[**فأنهضم معكم إلى عدوّكم واجعلهم من أمداد القوّة لكم**] والأمداد جمع مدد، وهو مايمدّ به الجيش تقوية له، فأمّا المقدّمة فإنّه لما بلغهم أنّه عليه السلام سار على طريق الجزيرة، وأنّ معاوية خرج في جموعه لاستقباله كرهوا أن يلقوهم وبينهم وبين على الفرات مع قلّة عددهم، فرجعوا حتّى عبروا الفرات من هيت، ولحقوا به فصوّب آراءهم في الرجوع إليه.

[**قال السيّد الرضي**] رضي اللّه عنه، يعني عليه السلام بالملطاط، ههنا السمت الّذي أمرهم بلزومه، وهو شاطيء الفرات، ويقال: ذلك أيضاً الشاطيء البحر، وأصله ماستوى من الأرض ويعني بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

الحمد للّه الّذين بطن خفيّات الأُمور ودلّت عليه أعلام الظهور

من خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الّذين بطن خفيّات الأُمور] يقال: بطنت الوادي دخلته، وبطنت الأمر علمت باطنه، أي: نفذ علمه في بواطن خفيّات الأُمور، فهو يعلم السرّ وأخفى، ولايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم دبيب النملة على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء أن يكون المراد أنّه داخل في بواطن الأُمور الخفيّة الّتي هي أخفى من ظواهرها لتقدّسه عن الجسميّة والوضع والجهة، فلاتدركه الحواسّ الظاهرة، ولاالباطنة، ولتنزّهه عن أنحاء التركيب، فلامجال للعقل في إدراكه، فسبحان من جعل الأفهام والأوهام في بيداء كبريائه حيرى، ولم يجعل للعقول إلى سبيل عظمته ومعرفته مجرى، قال تعالى: ﴿ولايُحيطون به علماً﴾ وقال تعالى: ﴿لاتدركه الأبصار﴾.

وفي الحديث: إنّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار.

[ودلّت عليه أعلام الظهور] من الآيات الباهرة، والآثار الظاهرة، فما من موجود من الموجودات، بل ولا ذرّة من الذرّات إلّا وهي تنادي بأفصح لسان وأوضح بيان بوجوده، فواعجباً كيف يعصى الإله وكيف يجحده الجاحد، وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد، وإلى ذلك أُشير في التنزيل بقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾.

وامتنع على عين البصيرة فلا عين من لم تره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره

وهذه طريقة المليّين المستدكّين بالأثر على المؤثّر وأعلا منها طريقة الصديّقين الّذين يستدلّون بوجوده على وجود كلّ شيء، إذ هو منه، ولايستدلّون عليه بوجود شيء، إذ هو تعالى أظهر وجوداً من جميع الأشياء، كما قال: ﴿اللّهُ نور السماوات والأرض﴾ والنور وهو الّذي يستبين به الأشياء، وإلى ذلك أشار سيّد الشهداء وخامس أصحاب الكساء بقوله: «سبحانك كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهر ماليس لك حتّى يكون هو المُظهر لك؟ متى غبتَ حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعُدتَ حتّى تكون الآثار هي الموصلة إليك، عميَتْ عينٌ لاتراك ولاتكون عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً، فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم بشدّة ظهوره».

[**وامتنع على عين البصيرة**] فـ﴿لاتُدركه الأبصارُ وهو يُدرك الأبصارَ وهو اللّطيف الخبير﴾.

[**فلا عين من لم تره تنكره**] إذ كانت فطرته شاهدة بظهور وجوده في جميع آثاره، فكيف يكون له سبيل إلى إنكاره، والعين إنّما تدرك الاجسام والأعراض، وهو تعالى منزّه عنها.

[**ولا قلب من أثبته يبصره**] أي: من أثبته مع كونه مثبتاً له بقلبه لايبصره، والفرض ردع الأوهام الفاسدة، والخيالات الكاسدة القائلة، كيف لاتنكر العين شيئاً لاتراه، وكيف يثبت القلب مالم يبصر، ويحتمل أن يكون

سبق في العلوّ فلا شيء أعلا منه وقَرُب في الدنوّ فلا شيء قرب من

المراد بالفقرة الثانية أنّ القلب وإن أثبته من جهة وجوده، ولكنّه لايحيط به علماً، ولايُعرف الكنه والحقيقة.

[**سبق في العلوّ**] العقلي [**فلا شيء أعلا منه**] ولارتبة فوق رتبته، بل جمع المراتب العقليّة منحطّة عنه، اللّه أكبر وأجلّ وأعظم وأقدر، لأنّه علّة العلل، وإليه مرجع جميع الكمال، منه بدؤها، وإليه منتهاها، فكيف يمكن أن يكون شيء أعلا منه.

[**وقَرُب في الدنوّ**] من قولك فلاأقرب إلى فلان إذا كان خصيصاً به مطّلعاً على أحواله أكثر من غيره.

والمراد بقربه من الأشياء نفوذ علمه وإحاطة قدرته بها.

[**فلا شيء قرب من**] ﴿لايعزُبُ عنه مثقال ذرّةٍ في الأرضِ ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾.

وقال تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾. و

قال تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتُبصرون﴾.

وقال تعالى: ﴿فإنّي قريب أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعان﴾.

أقول: والعلوّ والدنوّ يُطلقان على معان:

منها: العلوّ الحسّي المكاني، كعلوّ بعض الأجسام على بعض، وهو ممتنع عليه تعالى، لتنزّهه عن الجسميّة.

ومنها: العلوّ التخيّلي، كما يقال الملك أعلى الناس في الرتبة المتخيّلة، وهو ممتنع عليه تعالى، لتقدّسه عن الكمالات الخياليّة، إذ هي

فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ولاقربه ساواهم في المكان به لم تطّلع العقول لى تحديد صفته

إضافة تتغيّر وتتبدّل بحسب الأشخاص والازمان.

ومنها: العلوّ العقلي، كما يقال السبب أعلى من المسبّب، وبهذا المعنى يطلق عليه تعالى.

والدنوّ يطلق على مقابل المعاني الثلاثة، فيقال: مكان فلا أدنى من مكان فلان إذا كان أسفل منه، وهو ممتنع، لتنزّهه عن الجسميّة والمكانيّة.

ويقال: رتبة فلان أدنى من رتبة فلان.

وعلى العقليّ كما يقال: رتبة المعلول أدنى من مرتبة العلّة.

وهذه الثلاثة تمتنع إطلاقها عليه تعالى.

والّذي يصحّ معنى رابع، مرّ ذكره، ولمّا كانت الأوهام تتخيّل إنّ ماستعلى على الأشياء كان بُعده منها بقدر علوّه عليها، وماقرب منها فقد ساواها في أمكنتها.

ردع عليه السلام هذا الوهم وأبطل هذا الخيال بقوله:

[فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ولاقربه ساواهم في المكان به] بل الإستعلاء والقرب مجتمعان له في آن واحد.

[لم تطّلع العقول لى تحديد صفته] لأنّه إمّا لا صفة له فتحدّ، أو لأنّه كما يمتنع إدراك كنه ذاته فكذا يمتنع إدراك صفات، إذ صفاته عين ذاته، قال تعالى: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾.

وقال تعالى: ﴿وما قدروا اللّهَ حقّ قدره﴾.

وفي النبويّ: «سبحانك لاأصفك إلاّ بما وصفتَ به نفسك».

ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذوي الجحود

[**ولم يحجبها عن واجب معرفته**] لأنّه تعالى وهب لكلّ نفس قسطاً من معرفته هو الواجب لها بحسب استعدادها، لقبول حتّى نفوس الجاحدين له، فإنّها أيضاً معترفة بوجوده الشهادة نطقها بوجود صانعها، وهو القدر الواجب الضروريّ لها.

[**فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود**] استعارة لإثارة الدالّة على وجوده وكمال قدرته وعلمه، كما قال تعالى: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأُولي الألباب﴾.

[**على إقرار قلب ذوي الجحود**] لأنّ كثيراً من الناس ربّما جحده بطريق العادة أو التقليد، كالمعطّلة وعَبَدة الأوثان والأصنام، فإذا راجع قلبه أو نبّه عليه عاد معترفاً بوجوده. قال تعالى: ﴿وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إيّاه فلمّا نجّيكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾.

وقال تعالى: ﴿حتّى إذا كنتم في الفلك وجرَيْن بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنّه أُحيط بهم دَعَوا اللّهَ مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين فلمّا نجّاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ﴾.

وروي إنّ زنديقاً دخل على الصادق عليه السلام فسأله عن دليل إثبات الصانع، فأعرض عنه ثمّ التفت إليه وسأله من أين أقبلت؟ وماقصّتك؟ فقال: إنّي كنتُ في البحر فعصفتْ علينا الريح وبلغتْ بنا الأمواج فانكسرت سفينتنا فتعلّقتُ بساحة منها، ولم يزل الموج يُقلبها حتّى قذفت بي إلى

إنّما بدؤ وقوع الفتن أهواء تُتَّبَع وأحكام تُبْتَدَع يخالَف فيها كتاب اللّه

الساحل فنجوتُ عليها، فقال: أرأيت الّذي كان في قلبك إذا انكسرت السفينة وتلاطمت الأمواج فزعاً إليه مخلصاً له في التضرّع طالباً منه النجاة فهو إلهك، فاعترف الزنديق بذلك، وحسن اعتقاده.

ومن خطبة له عليه السلام

[**إنّما بدؤ**] أي: ابتداء [**وقوع الفتن**] الّتي انتجت المذاهب الفاسدة والآراء الكاسدة الّتي يفتتن الناس بها [**أهواء تُتَّبَع وأحكام تُبْتَدَع**] خارجة عن الكتاب والسنّة، كالعمل والقياس والإستحسان ونحوها.

[**يخالَف فيها كتاب اللّه**] خصوصاً كما ترد الأخبار الصحيحة، والآثار الصريحة في مقابلة قاعدة اخترعوها، وكلّية ابتدعوها، وكما كان يقول من قال قال عليّ وأقول أنا أو عموماً، فإنّ اللّهَ تعالى قد نهى في كتابه عن الحكم بغير حكمه، فالحاكم بغير الكتاب والسنّة مخالف لكتاب اللّه، قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولـٰئك هم الكافرون ... هم الفاسقون ... هم الظالمون﴾.

وقال تعالى: ﴿أفحُكمَ الجاهليّة يبغون ومَن أحسن مِن اللّه حُكماً لقوم يوقنون﴾.

وقال تعالى: ﴿ألم يؤخذ عليكم أن لاتقولوا على اللّه إلاّ الحقّ﴾.

وقال: ﴿وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال﴾.

ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين اللّه فلو أنّ الباطل خلص من مـــزاج الحقّ لم يخف على المرتادين ولو أنّ الخلق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث فيمزجان

[**ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين اللّه**] كما فعل أئمّة الضلال وخلفاء الجور.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أسباب تلك الآراء الفاسدة فقال:

[**فلو أنّ الباطل خلص من مـــزاج الحقّ لم يخف على المرتادين**] أي: الطالبين [**ولو أنّ الخلق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين**].

قيل: وجه الملازمة في المقدّمة الأُولى أنّ مقدّمات الشبهة إذا كانت كلّها باطلة أدرك طالب الحقّ وجه فسادها بأدنى سعي، ولم يخف عليه بطلانها، ولما خفي وجه البطلان فيها على طالب لم يكن الباطل فيها خالصا من مزاج الحقّ، فكان ذلك هو سبب الغلط واتّباع الباطل.

وفي الثانية: إنّ مقدّمات الحجّة الّتي استعملها المبطلون لو كانت كلّها حقّة لكانت النتيجة حقّاً تقطع ألسنتهم عن العناد فيه والمخالفة.

[**ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث**] والضغث: القبضة من الجيش ونحوه، فاستعير لفظه للنصيب من الحقّ والباطل.

[**فيمزجان**] فيشبه الحال على الجاهل، وكذلك كشبهة قتل عثمان الّتي يتمسّك بها الناكثون والقاسطون، فإنّ فيها مقدّمة صادقة هي كون من قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً، ومقدّمة كاذبة عند الخصم، وهي كونه قُتل مظلوماً، وعند القوم المقدّمة الصادقة هي كون إمام المسلمين قتل مظلوماً،

فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو من سبقت لهم من اللّه الحسنى قد استطعموكم القتال فأقرّوا على مذلّة وتأخير محلّة روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء

ومقدّمة كاذبة وهي نسبة ذلك القتل إليه.

[**فهنالك**] أي: عند امتزاج الحقّ بالباطل [**يستولي الشيطان على أوليائه**] فزيّن لهم اتّباع من ينعق بتلك الشبهة ونحوها.

[**وينجو من سبقت لهم من اللّه الحسنى**] والعناية له بتميز الحقّ من الباطل.

ومن كلام له عليه السلام
لمّا غلب أصحاب معاوية أصحابه على شريعة الفرات بصفّين ومنعوهم من الماء

[**قد استطعموكم القتال**] استعار لفظ الإطعام لتحرّشهم بالقتال في منعهم للماء، ووجه الإستعارة استسهالهم للقتال، وطلبهم له بمنع الماء الّذي هو في الحقيقة أقوى جذباً للقتال من طلب المأكول بالأقوال، ولأنّهم لمّا حازوا الماء أشبهوا في ذلك من طلب الطعام له، ولمّا استلزم ذلك المنع طلبهم للقتال تعيّن أن يشبه ماطلبوا طعامه.

[**فأقرّوا على مذلّة**] وهي مذلّة ترك القتال والإستسلام للعدوّ.

[**وتأخير محلّة**] والمحلّة: المنزلة، وتأخيرها عن رتبة أهل الشرف والشجاعة.

[**روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء**] قال المحقّق البحراني

فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين

ماحاصله:

أمرهم بأحد لازمين عن منعهم الماء واستطعامهم القتال به: إمّا ترك القتال أو إيقاعه، وإنّما أورد الكلام بصورة التخيير بين هذين اللازمين وإن لم يكن مراده إلاّ القتال لعلمه بأنّهم لايختارون ترك القتال مع مايلزم من الإقرار بالعجز والمذلّة والإستسلام للعدوّ، وتأخير المنزلة عن رتبة أهل الشرف والشجاعة، وإنّما أورد الوصفين اللازمين لترك القتال وهما الإقرار على المذلّة، وعلى تأخير المحلّة، لينفر بهما عنه، ويظهره لهم في صورة كريهة، وإنّما جعل الريّ من الماء الّذي هو مشتهى أصحابه في ذلك الوقت، لأنّ مالترويتهم السيوف من الدماء الّتي يلزمها القتال ليريهم القتال في صورة محبوبة تميل طباعهم إليها، ونسبة التروّي إلى السيوف نسبة مجازيّة، وقال في شرح قوله:

[**فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**] من لطائف الكلام ومحاسنه، وهو جذب إلى القتال بأبلغ مايمكن من البلاغة، فجذبهم إليه بتصويره لهم، إذ الغاية الّتي عساهم يفرّون من القتال خوفاً منها هي الموت موجودة في الغاية الّتي عساهم يطلبونها من ترك القتال، وهي الحياة البدنيّة حال كونهم مقهورين، وتجوّز بلفظ الموت في الشدائد والأهوال الّتي تلحقهم من عدوّهم لو قهرهم، وهي عند العاقل أشدّ بكثير من موت البدن، وأقوى مقاساة، فإنّ المنزلة وسقوط المنزلة والهضم والإستيعاض عند ذي اللبّ موتات متعاقبة.

ألا وإنّ معاوية قاد لُمَة من الغواة وعمّس على الخير

ويحتمل أن يكون مجازاً في ترك عبادة اللّه بالجهاد، فإنّه موت للنفس، وعدم لحياتها، وكذلك جذبه لهم، إذ الغاية الّتي يفرّون إليها بترك القتال وهي الحياة موجودة في الغاية الّتي يفرّون منها، وهي الموت البدني، حال كونهم قاهرين، أمّا في الدنيا فمن وجهين:

أحدهما: الذكر الجميل الباقي الّذي لايموت، ولايفنى.

والثاني: إنّ طيب حياتهم الدنيا إنّما يكون بنظام أحوالهم بوجود الإمام العادل، وبقاء الشريعة كما هي، وذلك إنّما يكون بإلقاء أنفسهم في غمرات الحرب محافظة على الدين، وموت بعضهم فيها، ولفظ الموت مهمل تصدق نسبته إلى الكلّ، وإن وجد البعض، وأمّا في الآخرة فالبقاء الأبدّ بالمحافظة على وظائف اللّه والحياة التامّة في جنّات عدن، كما قال تعالى: ﴿ولاتحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾ الآية.

وفي الفقرتين الأولتين السجع المتوازي، وفي اللتين بعدهما السمج المطرف، وفي اللذين بعدهما المقابلة. وقوله:

[**ألا وإنّ معاوية قاد لُمَة من الغواة**] واللمة بالتخيف: الجماعة، والغواة: جمع غاو، كقضاة جمع قاض الضلال.

[**وعمّس**] بالتخفيف والتشديد أي: عمروا بهم [**على الخير**] إشارة إلى شبهة قتل عثمان، ذكر لكلّ من الضال والمضلّ رذيلتين، فاللتان فيه قودهم إلى الضلال، بل النار كما قال تعالى: ﴿يقدم قومه فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾، ويلتبس الحقّ بالباطل عليهم، واللتان في قومه كونهم غواة

حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة ألا وإنّ الدنيا قد تصرّمت وآذنت بانقضاء وتنكّر معروفها

عن الحقّ، وكونهم انقادوا الباطل عن شبهة حتّى صار جهلهم مركّباً، والمقصود التنفير عنهم، ثمّ أشار إلى تلبيس الحقّ عليهم بقوله:

[**حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة**] كناية عن تصدّيهم للموت، ولفظ الغرض مستعار لنحورهم، ووجه المشابهة جعلتهم النحور معرضة لسهام المنيّة من الطعن والضرب، كالهدف الّذي ينصبه الرامي، وهي استعارة بالكناية، كأنّه حاول أن يستعير للمنيّة لفظ الرامي.

ومن كلام له عليه السلام
يجري مجرى الخطبة

قد تقدّم مختارها برواية، ونذكرها هنا برواية أُخرى لتغاير الروايتين:

[**ألا وإنّ الدنيا قد تصرّمت**] انقطعت وفُنِيَتْ.

[**وآذنت**] أي: أعلمت [**بانقضاء**] يقال: أذنته بكذا، أي: أعلمته، وعنى بتصرّمها يقتضي أحوالها الحاضر شيئاً فشيئاً، بالنسبة إلى من وجد فيها في كلّ حين وبإذنها، بالإنقضاء إعلامها بلسان حالها، أنّها لاتبقى لأحد، فلا الدنيا بباقية لحيّ، ولا حيّ على الدنيا بباقي.

[**وتنكّر معروفها**] أي: جهل منها ما كان معروفاً أو تغيّر وتبدّل معروفها، أي: خيرها ولذّاتها، فإنّ الإنسان إذا أصاب لذّة من لذّاتها كصحّة وأمن ومال وجاه ونحوه، أنس إليه وتوهّم بقاءه له، وكان ذلك

وأدبرت حذّاء فهي تحفز بالفناء سكّانها وتحدو بالموت جيرانها وقد أمرّ منها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً

معروفها الّذي أسندته إليه، وعرفه وألفه منها، وعن قليل يزول ويتبدّل بضدّه، أو المراد أنّ كلّ شيء من الدنيا مبدئه حلو نضر خضر، ويؤل إلى أن يصير منكراً بشعاً، فإنّ المأكل الجيدة تستحيل إلى الغائط، والمشارب اللذيذة إلى البول، والملبوسات الفاخرة إلى الخلقان، وهكذا.

[**وأدبرت حذّاء**] بالحاء المهملة أي: سرعية خفيفة، ويروى بالجيم أي: منطقة الدرّ والخير، واستعار لفظ الإبار لانتقال خيراتها عمّن انتقلت عنه بموت ونحوه ملاحظاً لشبهها بملك أعرض عن بعض رعيّته برفده وبرّه.

[**فهي تحفز**] والحفز: السوق الحثيث والظعن [**بالفناء سكّانها وتحدو**] من حدي الإبل [**بالموت جيرانها**] استعار لها وصفي السابق والحادي استعارة بالكناية، ووجه الشبه كونهم قاطعين لمدّة العمر بالفناء والموت، فهي قد أصحبتهم بذلك كما يصحب السائق والحادي الإبل بالسوق والحداء، وإن أُريد بالحفز الظعن فيكون قد تجوز بنسبته إلى البلاء ملاحظاً نسبة مصاحب الدنيا بالرمح والقناة، واستعار لفظ الفناء والموت لآلة السوق والحداء، والشبه كون الموت سبباً في انتقال الإنسان إلى الدار الآخرة، كما أنّ الصوت والسوط مثلاً الذيْن آلتا الحداء والسوق هما اللتان بهما يحصل انتقال الإبل من موضع إلى موضع.

[**وقد أمرّ**] أي: صار مرّاً [**منها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً**] وذلك بالنسبة إلى كلّ شخص شخص من أهلها، فتتبدّل الصحّة بالسقم، واللذّة بالألم، والشباب بالهرم، والغنى بالفقر، والعزّ بالذلّ وهكذا، وذلك

فلم يبق منها إلاّ سملة كسملة الإداوة، أو جرعة كجرعة المقلة لو تمزَّزَها الصَّدْيان لم ينقع فأزمِعوا يا عبادَ اللّه على الرحيل عن هذه الدار المقدور

مشاهد بالوجدان غنيّ عن البيان، فلا تجد أحد أصفى له صفوها.

كلّ من تلقاه يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن
هذه الدنيا لمن طلّقها ورضى منها بقوت أو كفن

[**فلم يبق منها إلاّ سملة كسملة الإداوة، أو جرعة كجرعة المقلة**] والسملة بفتح الميم: البقيّة من الماء في الإناء، والمقلة بفتح الميم وسكون القاف: حصاة يقسم بها الماء عند قلّته، يعرف بها مقدار مايسقى كلّ شخص، وهو إشارة إلى تحقير مابقى منها لكلّ شخص شخص من الناس، فإنّ بقاءها له على حسب بقائه فيها، وكلّ شخص فيها يسير بقاؤه، قصير مدّته، واستعار لفظ السملة لبقيّتها وشبّهها ببقيّة الماء في الإداوة وبجرعة المقلة، ووجه الشبه ماأشار إليه بقوله:

[**لو تمزَّزَها الصَّدْيان لم ينقع**] والتمزّز: تمصيص الشراب قليلاً قليلاً، والصديان: العطشان، أي: كما أنّ العطشان الواجد لبقيّة الإداوة وللجرعة لو تمصّصها لم ينقع عطشه، كذلك الطالب للدنيا المتعطّش إليها الواجد لبقيّة عمره ولليسير من الإستمتاع فيه بلذّات الدنيا لايشفى ذلك غليله، ولايسكن عطشه، وحينئذ فصلاحه أن يفطم عنفسه عن لذّاتها، وأن يعوّد نفسه على ترك شواتها، ولذا فرغ عليه قوله:

[**فأزمِعوا**] والأزماع تصميم العزم، أي: صمّموا عزمكم.

[**يا عبادَ اللّه على الرحيل عن هذه الدار المقدور**] أي: المقدّر الّذ لابدّ

على أهلها الزوال ولايغلبنّكم فيها الأمل ولايطولنّ عليكم الأمد فواللّه لو حننتم حنين الولّه العجال ودعوتم بهديل الحمام

من كونه [**على أهلها الزوال**] بالتوجّه إلى اللّه والإقبال إلى مايقرب إليه من الطاعات وتزوّدوا القربات وأخرجوا عن هذه القرية الظالم أهلها، وموتوا بالموت الإختياري قبل أن تموتوا بالموت الإضطراري، واحيوا نفوسكم بإماتتها عن الشهوات وإعراضها عن اللذّات، متوجهين إلى وطنكم الأصليّ، وسائرين إلى مسكنكم الحقيقي، ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾.

ثمّ أعقب ذلك بالنهي عن متابعة الآمال بطوال المُنية للرجال بقوله:

[**ولايغلبنّكم فيها**] وفي لذّاتها [**الأمل**] فإنّه يُنسي الآخرة، والبُعد عن المقامات الفاخرة.

[**ولايطولنّ عليكم الأمد**] والأمد الغاية، نهاهم عن توهّم طول مدّة الحياة واستبعاد الغاية الّتي هي الموت، فإنّه يقسي القلب ويورث الغفلة عن ذكر اللّه، كما قال تعالى: ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾.

ثمّ نبّه على عظم ثواب اللّه ومـاينبـغي أن يُرجى منه، وعلى عظيم عقابه، وماينبغي أن يُخاف منه، فقال:

[**فواللّه لو حننتم حنين الولّه العجال**] جمع واله وعجول، وهما من الإبل النوق تفقد أولادها.

[**ودعوتم بهديل الحمام**] هديل الحمامة: نوحها، كنّى بذلك عن الدعاء والتضرّع إلى الله والإلتجاء إليه والإستعانة به، والتعويل عليه.

وخرجتم إلى اللّه من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجةعنده، أو غفران سيّئة أحصتها كتبته وحفظها رسله لكان قيلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه

[**وخرجتم إلى اللّه من الأموال والأولاد**] كناية عن الزهد في الدنيا، والإقبال بالكلية إلى اللّه، والإلتفات عمّاسواه.

[**التماس القربة إليه في ارتفاع درجةعنده، أو غفران سيّئة أحصتها كتبته وحفظها رسله**] من الكرام الكاتبين الحافظين ﴿ومايلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ ﴿في كتاب لايضلّ ربّي ولاينسى﴾.

[**لكان**] جميع ذلك [**قيلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه**].

والحاصل: إنّكم لو أتيتم بجميع أسباب القربات وأنفذتم مدّة عمركم في الطاعات ملتمسين بذلك التقرّب إلى ربّ البريّات في أن يرفع لكم عنده درجة أو يغفر لكم سيّئة أحصتها ملائكته وكتبه، لكان الذي أرجوه من ثوابه للمتقرّب إليه في أن يرفع منزلته من حضرة قدسه أكثر ممّا يتصوّر المتقرّب إليه أنّه يصل إليه بتقرّبه، ولكان الّذي أخافه من عقابه على المتقرّب في غفران سيّئته عنده أكثر من العقاب الذي يتوهّم أنّه يدفعه عن نفسه بتقرّبه.

وحينئذ فينبغي لطالب الزيادة في المنزلة عند اللّه أن يخلص بكليّته في التقرّب إليه ليصل إلى ماهو أعظم ممّا يتوهّم أنّه يصل إليه من المنزلة عنده، فنيبغي حينئذ للهارب عن ذنبه إلى اللّه أن يخلص بكلّيته في الفرار إليه ليخلص من هول ماهو أعظم ممّا يتوهّم أنّه يدفعه عن نفسه بوسيلة إليه، فإنّ الأمر في معرفة ماأعدّه اللّه لعباده الصالحين من الثواب العظيم والأجر الجسيم.

وتاللّه لو انماثت قلوبكم انمياثاً وسالت عيونكم من رغبة إليه ورهبة منه دماً ثمّ عمرتم في الدنيا، ماالدنيا باقية ماجزت أعمالكم، ولو لم تُبقوا شيئاً من جهدكم أنعمه عليكم العظام وهداه إيّاكم للإيمان

والحاصل: إنّ ماأعدّ اللّه لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب أجلّ من أن تتخيّله الأوهام، أو تدركه العقول والأفهام، ثمّ نبّه على قصورهم عن شكر نعم اللّه بقوله:

[**وتاللّه لو انماثت قلوبكم انمياثاً**] يقال: انماث الشيء تحلّل وذاب، أي: ذابت قلوبكم خوفاً من اللّه ووجداً، وكنّى بذلك عن أقصى حال الخائف الراجي، وكذا قوله:

[**وسالت عيونكم من رغبة إليه ورهبة منه دماً**] كسابقه.

[**ثمّ عمرتم في الدنيا، ماالدنيا باقية**] أي: مدّة بقاؤها [**ماجزت أعمالكم، ولو لم تُبقوا شيئاً من جهدكم أنعمه عليكم العظام وهداه إيّاكم للإيمان**] وأنعمه بالنصب مفعول جزت، وهداه في محلّ النصب عطفاً عليه، وإنّما أفرد الهدى بالذكر وإن كان من الأنعم لشرفه، إذ هو غاية المطلوبة من العبد بكلّ نعمة أُفيضت عليه، فإنّه لم يخلق عبثاً، ولم تقض عليه أنواع النعم الإلهيّة إلاّ ليتأهّل قلبه ويستعدّ نفسه لقبول صورة الهدى.

في صفة الأضحية ومن تمام الأُضحية استشراف أُذُنها وسلامة عينها فإذا سلمت الأذن والعين سلمت الأضحية وتمت، ولو كانت عضباء القرن تجرّ رجلها إلى المنسك

ومن كلام له عليه السلام
يوم النحر

سمي بذلك لنحر الأضحية وذبحها.

[**في صفة الأضحية**] منسوبة إلى الأضحى، إذ كان ذبحها في ضحى ذلك اليوم.

[**ومن تمام الأُضحية استشراف أُذُنها**] أي: طولها، وكنّى بذلك عن سلامتها من القطع أو نقصان الخلقة.

[**وسلامة عينها**] من العمى والود [**فإذا سلمت الأذن والعين سلمت الأضحية وتمت، ولو كانت عضباء القرن**] أي: مكسورته، وقيل: القرن الداخل [**تجرّ رجلها إلى المنسك**] أي: موضع النسك والتقرّب بذبحها، كناية عن عرجها.

قيل: المعتبر في الأضحية سلامتها عمّا ينقص قيمتها، وظاهر أنّ العمى والعور والهزل وقطع الأذن تشويه في خلقها ونقصان قيمتها دون العرج وكسر القرن.

وفي فضل الأضحية أخبار كثيرة.

فتداكّوا عليّ تداكّ الإبل الهيم يوم ورودها، قد أرسلها راعيها وخُلِعَتْ مثانيها حتّى ظننتُ أنّهم قاتليّ، أو بعضهم قاتل بعض لديّ

ففي النبويﷺ: ما من عمل يوم النحر أحبّ إلى الله عزّوجلّ من إراقة دم، وإنّها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأنّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض، فطيبوا بها نفساً.

وفي آخر: إنّ لكم بكلّ صوفة من جلدها حسنة وبكلّ قطرة من دمها حسنة، وإنّها لتوضع في الميزان، فأبشروا.

ولعلّ السرّ في تأكّد الأضحية والمداومة عليها ومراعاة نفاستها وعلوّ قيمتها تذكر قصّة إبراهيمعليه السلام بذبح ولده، وقوّة صبره، وتطهير النفس وتزكيتها عن رذيلة البخل، وتزيينها بجمال التعظيم للّه، ﴿فلن ينال الله لحومها ولا دمائها ولكن يناله التقوى منكم﴾.

ومن كلام له عليه السلام

لما منع أصحابه في قتال أهل الشام قبل أن يدنوهم بالقتال، إتماماً للحجّة، واستيضاحاً للمحجّة، وانتظاراً لفيء بعضهم إلى الحقّ.

[فتداكّوا] أي: تزاحموا [**عليّ تداكّ الإبل الهيم**] العطاش [**يوم ورودها، قد أرسلها راعيها وخُلِعَتْ مثانيها**] أي: عقالها الّتي تعقل به.

[**حتّى ظننتُ أنّهم قاتليّ، أو بعضهم قاتل بعض لديّ**] شبّهعليه السلام ازدحامهم عليه حينئذ بازدحام الإبل العطاش على الماء حال إطلاق رعاتها لها من مثانيها يوم ورودها، ووجه الشبه شدّة الزحام، وغاية ذلك الزحام

وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتّى منعني ذلك النوم فما وجدتني يسعني إلّا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد ﷺ فكانت معالجة القتال أهون عليّ عن معالجة العقاب وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة

ظنّه عليه السلام أن يقتلوه، أو يقتل بعضهم بعضاً، يقال: دكّ بعضهم بعضاً، أي: دقّه بالضرب والهيم الإبل العطاس، والمثاني جمع مثناة، وهي الحبل يثنى، ويعقل به البعير، وحيث كان كله من القتال وتركه محتاجاً إلى نظر وفكر وتدبّر، فإنّ القتال فيه التعريض للقتل، وهلاك جملة من المسلمين، وفي الإمساك عنه اختلال أمر الدين ونظام المسلمين وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومخالفة أوامر الله ورسوله، قال عليه السلام:

[**وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره**] وأجلت الفكر في تقليب وجوه الآراء والمصالح في القتال وتركه.

[**حتّى منعني ذلك النوم**] والرقاد [**فما وجدتني يسعني إلّا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد ﷺ**] ومخالفة أوامر اللّه ورسوله والتهاون بذلك الموجب للكفر.

[**فكانت معالجة القتال أهون عليّ عن معالجة العقاب**] الأليم والعذاب العظيم.

[**وموتات الدنيا**] كناية عن أهوالها وشدائدها.

[**أهون عليّ من موتات الآخرة**] كناية عن تكرّر عذابها، فإنّ الأول قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدّته، والثاني تطول مدّته، ويدوم مقامه، ولا يخفّف عن أهله، ولا خير بخير بعده النار، ولا شر بشرّ بعده الجنّة.

أمّا قولكم: أكُلُّ ذلك كراهية الموت؟ فواللّه ماأُبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشام، فو اللّه مادفعت الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوءتي

ومن كلام له عليه السلام
وقد استبطأ أصحابه إذنه لم في القتال بصفّين

لما حال منعه لهم عن قتالهم، حتّى نسبه بعض إلى العجز وكراهية الموت وآخرون إلى الشك في وجوب قتالهم، فأشار عليه السلام إلى ردّ شبهتهم، وقال:

[**أمّا قولكم: أكُلُّ ذلك كراهية الموت؟ فواللّه ماأُبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ**] فإنّ أولياء اللّه يحبّون الموت، لأنّه جسرهم إلى الجنان والرضوان، والدنيا سجن لهم، والآخرة نعيمهم وموظنهم، ومَن الذي يكره الإنتقال من السجن إلى النعيم، قال تعالى: ﴿إن زعمتم أنّكم أولياء اللّه من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾.

وفي التوراة: إنّ أولياء اللّه يحبّون الموت.

وهو عليه السلام سيّد الأولياء، وقد قال في مقام آخر: واللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بالثدي.

[**وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشام، فو اللّه مادفعت الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوءتي**] يقال: عشى إلى

وذلك أحبّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوأ بآثامها ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ

النار استدلّ عليها ببصير ضعيف، وفيه كناية عن ضعف بصيرتهم عن أنوار علوم ومعارفه وكمالاته.

[**وذلك أحبّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها**] وآثامها [**وإن كانت تبوأ**] أي: ترجع [**بآثامها**] إذ كلّ ضالّ إنّما يرجع بإثمه إلى ربّه، ويكون رهين عمله، كما قال تعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

ولكنّه حيث كان كالأب الشفيق لهم فمن هلك منهم إنّما يهلك عليه.

ومن كلام له عليه السلام

إنّه عليه السلام تكلّم به يوم صفّين حين أقرّ الناس بالصلح، فقال:

إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا لينيبوا إلى الحقّ، ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء، حتّى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتّى يرجموا بالكتائب تقفوها الجلائب، وحتّى يجر ببلادهم الخميس يتلوه الخميس، وحتّى تدعق الخيول في نواحي أرضهم وبأحناء مشاربهم ومسارحهم، وحتّى تشقّ عليهم الغارات من كلّ فجّ، وحتّى يلقاهم قوم صدق صبّر لا يزيدهم هلاك من هلك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلاّ جدّاً في طاعة رسول الله وحرصاً على لقاء ربّهم.

[ولقد كنّا] معاشر الصحابة والأنصار [**مع رسول الله ﷺ**] نجاهد بين

نقتل آباءنا وإخواننا وأعمامنا مايزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ومُضياً على اللقَم وصبراً على مضض الألم، وجداً على جهاد العدوّ ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين يترخالسان أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون فمرّة لنا من عدوّنا ومرّة لعدوّنا منّا

يديه [**نقتل آباءنا وإخواننا وأعمامنا**] وسائر أرحامنا، طلباً لرضا اللّه، وذبّاً عن دينه.

[**مايزيدنا ذلك إلاّ إيماناً**] باللّه [**وتسليماً**] لأمره وقضائه.

[**ومُضياً على اللقَم**] وهو منهج الطريق إلى اللّه.

[**وصبراً على مضض**] أي: حرقة [**الألم، وجداً على جهاد العدوّ**] ولايمنعنا من ذلك الرحم والقرابة، بل نحبّ في اللّه، ونبغض في اللّه، كما قال تعالى: ﴿لاتجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم وأبناءهم﴾ الآية.

[**ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان**] أي: يتحاملان ويتطاولان [**تصاول الفحلين**] البعيرين المتعلّمين [**يترخالسان**] أي: ينتهز كلّ منها فرصة صاحبه [**أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون**] فيحمل كلّ منهما على الآخر لختطف كلّ منهما روح صاحبه، وأراد بالكأس مايتجرّعه الإنسان من غصص الألم حال القتل مجازاً، وقوله:

[**فمرّة لنا من عدوّنا ومرّة لعدوّنا منّا**] تنبيه على أنّ إقدامهم على القتال يومئذ لم يكن عن عِدّة وعُدّة وقوّة، بحيث يتيقّنون الغلبة على العدوّ، بل ربّما كان الأمر بالعكس، ومرّة منصوب على الظرف، والتقدير فمرّة الأدلّة

فلمّا رأى اللّه صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت وأنزل علينا النصر حتّى استقرّ الإسلام ملقياً جرانه ومتبوّءاً أوطانه ولعمري لو كنّا نأتي ماأتيتم ما قام للدين عمود ولااخضرّ له عود

تكون لنا من عدوّنا ومرة تكون له منّا.

[**فلمّا رأى اللّه صدقنا**] في عملنا، وبذل جدّنا وجهدنا، وخلوص نيّتنا [**أنزل بعدوّنا الكبت**] الإذلال والإهانة، فصرفه عنّا.

[**وأنزل علينا النصر**] بمقتضى وعده: ﴿إن تنصروا اللّهَ ينصُركم ويثبِّتْ أقدامكم﴾ ﴿إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

[**حتّى استقرّ الإسلام ملقياً جرانه**] جران البعير: مقدّم عنقه من مذبحه إلى منحره.

[**ومتبوّءاً أوطانه**] يقال تبوّء وطنه: سكن فيه، إشارة إلى حصول غايتهم الّتي قصدوها بجهاد العدوّ، وهي استقرار الإسلام في قلوب العباد، وانتظام الأمر ورفع الفساد، فاستعار له لفظ الجران، ورشح تلك الإستعارة بالإلقاء ملاحظة لشبهه بالبعير، الّذي أخذ مكانه، وكذا استعار لفظ التبوّء ونسبته إلى الأوطان تشبيهاً له بمن كان من الناس خائفاً متزلزلاً لامستقرّ له، ثمّ اطمأنّ واستقرّ في وطنه، واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين، وكنّى بتبوّء أوطانه عن استقراره فيها، وقوله عليه السلام:

[**ولعمري لو كنّا نأتي ماأتيتم ما قام للدين عمود ولااخضرّ له عود**] رجوع إلى المقصد الأصليّ من تقصيرهم في أمر الجهاد، أي: لو قصرنا ذلك الوقت كتقصيركم الآن لما استقام الدين، وكنّى بالعمود للدين عن قوّته ومعظمه، وباخضرار العود للإيمان عن نضارته في النفوس، ولاحظ في

وأيم اللّه لتحلبنّها دماً، ولتتبعنّها ندماً أما إنّه سيظهر عليكم بعيد رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل مايجد ويطلب ما لايجد فاقتلوه ولن تقتلوه

الفقرة الأُولى تشبيه الإسلام بالبيت ذي العمود، وفي الثانية بيه الإيمان بالشجرة ذات الأغصان.

[**وأيم اللّه**] قسم، كما مرّ.

[**لتحلبنّها دماً، ولتتبعنّها ندماً**] مرجع الضمير المؤنّث إلى أفعالهم المدلول عليها بالمعنى، أي: إنّ أفعالكم تشبه الناقة الّتي أُصيب ضرعها بآفة من تفريط صاحبها، فاستعار لفظ حلب الدم لثمرة تقصيرهم وتخاذلهم عمّا يدعوهم إليه من الجهاد ودماً مذموماً منصوبان على التميز.

ومن كلام له عليه السلام

[**أما إنّه سيظهر عليكم**] يا أهل الكوفة [**بعيد رجل رحب البلعوم**] أي: واسع مجرى الحلق كناية عن كثرة أكله، وكذا قوله:

[**مندحق البطن**] يقال: بطن مندحق، أي: نأتي بارز، وكذلا قوله:

[**يأكل مايجد ويطلب ما لايجد**] كناية عن كثرة أكله، وجعل ذلك علامة له.

[**فاقتلوه**] حسماً لفساده، وقطعاً لعناده، حتّى ينتظم أمر الإسلام والإيمان، ويرتفع الجور والطغيان، ويذهب الظلم والعدوان.

[**ولن تقتلوه**] علم ذلك بعلم ربّاني، ولامنافاة بين الأمر كما قال

ألا وإنّه سيأمركم بسبّي، والبراءة منّي، فأمّا السبّ فسبّوني، فإنّه لي زكاة

تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النار﴾.

وقد اختلف في تعيّن هذا الرجل في كلامه عليه السلام، فقيل هو معاوية، لأنّه كان بطيناً كثير الأكل، وروي أنّه كان يأكل فيملّ فيقول ارفعوا فواللّه ماشبعت، ولكن مللت وتعبتُ، وكان ذلك داء أصابه بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله.

روي أنّه بعث إليه مرّة، فوجده يأكل فبعث إليه ثانية، فوجده كذلك، فقال: اللّهمّ لاتشبع بطنه، ولبعضهم في وصف آخر بالأكل وصاحب لي بطنه كالهاوية كان في أمعائه، وقيل: هو زيادبن أبي سفيان، وهو زيادبن أبيه، وقيل: هو الحجّاج، وقيل: المغيرةبن شعبة، ثمّ قال عليه السلام:

[**ألا وإنّه سيأمركم بسبّي، والبراءة منّي، فأمّا السبّ فسبّوني، فإنّه لي زكاة**] لما روي أنّ ذكر المؤمن بسوء زكاة له وذمّه بما ليس فيه زيادة في جاهه وشرفه، ولأنّ الطباع تحرص على مايمنع منه وتلح فيه، والناس لما منعوا من ذكر فضائله، والموالاة له والزموا سبّه وبغضه، ولاازداد الناس في محبّته إلاّ علوّاً، حتّى رفع ذلك عمربن عبدالعزيز ووضع مكانه ﴿إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾.

وفيه يقول السيّد الرضي (رض):

يابن عبدالعزيز لو بكت العين فتى من أُميّة، لبكتك أنت نزهتنا عن السبّ والشتم، ولو كنت مجزياً لجزيتك، غير أنّي أقول إنّك قد طبت ولم يطب ولم يزك بيتك.

وقال كثيربن عبدالرحمن:

ولكم نجاة وأمّا البراءة فلا تتبرّءوا منّي فإنّي ولدتُ على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة

وليت فلم تشتم عليّاً ولم تخف بريئاً ولم تقبل إساءة مجرم

وقوله عليه السلام: [**ولكم نجاة**] واضح، لأنّهم ينجوا بذلك من القتل، وقوله:

[**وأمّا البراءة فلا تتبرّءوا منّي**] نهى عن التبرّي منه معلّلاً ذلك بقوله:

[**فإنّي ولدتُ على الفطرة**] الّتي فطر الناس عليها وهي بعثهم إلى عالم الأجسام مأخوذاً عليهم ميثاق العبوديّة والإستقامة على سنن العدل في سلوك صراط المستقيم، وقوله:

[**وسبقت إلى الإيمان والهجرة**] أي: إلى طاعة اللّه ورسول، فيما جاء به من الدين، وصحب له ومهاجرته معه مستقيماً في كلّ ذلك على فطرة اللّه لم يدنو نفسه بشيء من الملكات الرديّة، ولم يرتضع من أُمّه ولا من أُنثى قطّ، بل كان النبيّ صلى الله عليه وآله يوجر لسانه في فيه فيمصّه إلى أن يروى، حتّى نبت لحمه من لحم رسول اللّه صلى الله عليه وآله، ودمه من دمه، وملعوم أنّ من كان كذلك كان التبرّي منه تبرّياً من اللّه ورسوله.

وقال المحقّق البحراني: رخّص عليه السلام في سبّه عند الإكراه، ولم يرخّص في التبرّي منه، وفي الفرق بينهما لطف، وذلك أنّ السبّ من صفات القول اللساني، وهو أمر يمكن إيقاعه من دون اعتقاده مع احتماله التعريض، ومع مايشتمل عليه من حقن دماء المأمورين ونجاتهم بامتثال الأمر به.

فأمّا التبرّي فليس بصفة قوليّة، بل يعود إلى المجانبة القلبيّة، والمعاداة والبغض، وهو المنهي عنه هنا، فإنّه أمر باطنيّ يمكنهم الإنتهاء عنه،

أصابكم حاصب ولابقي منكم آثر

ولايلحقهم بسبب تركه وعدم امتثال الأمر به ضرر، وكأنّه لحظ فيهما قوله تعالى: ﴿إلاّ من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليه غضب﴾ الآية، انتهى.

وفيه نظر، لأنّ الظاهر إنّ الكلام إنّما هو في البراءة اللسانيّة لا القلبيّة، وإنّها هل تسوغ مع الإكراه أو لا؟ وظاهر جملة من الأدلّة عموماً وخصوصاً جوازها، إلاّ أنّ التحقيق الّذي حقّقه(ره) وجه وجيه جامع بين مادلّ على النهي ومادلّ على الجواز.

ومن كلام له عليه السلام
كلّم به الخوارج

لّما كتب عهد التراضي بالحكمَين بين عليّ ومعاوية، فاعتزل الخوارج وتنادوا من كلّ ناحية لاحُكْمَ إلاّ للّه، الحكم للّه، ياعليّ لا لك، إنّ اللّهَ قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يدخلوا تحت حكمنا، وقد كنّا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالتحكيم، وقد بان لنا زللنا وخطئنا ورجعنا إلى اللّه وتبنا فارجع أنت كما رجعنا وتب إليه كما تبنا، وقال بعضهم: إنّك أخطأتَ فاشهد على نفسك بالكفر، ثمّ تب عنه حتّى نطيعك، فقال عليه السلام داعياً عليهم:

[أصابكم حاصب] أي: ريح شديدة ترمي بالحصاء، وهي صغار الحصى **[ولابقي منكم آثر]** دعاء بالفناء، غضباً من مقالتهم، ثمّ أخذ في تقريعهم وإنكار مقالتهم، بقوله:

أبعد إيماني باللّه وجهادي مع رسول اللّه ﷺ أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللتُ إذاً، وما أنا من المهتدين فأُوبوا شرّ مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب أما إنّكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً وأثَرَةً يتّخذها الظالمون فيكم سنّة

[**أبعد إيماني باللّه**] قبل كلّ أحد [**وجهادي مع رسول اللّه ﷺ أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللتُ** إذاً، وما أنا من المهتدين] فإنّ شهادة الإنسان على نفسه بالكفر ضلال عن الحقّ، وعدم اهتداء في سبيل اللّه.

[**فأُوبوا شرّ مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب**] جذب لهم بالغضب والقهر، وأمر لهم بالرجوع إلى الحقّ من حيث خرجوا الحقّ وفارقوه، ولعلّ فيه إشارة إلى دخولهم تحت قوله تعالى: ﴿**وما محمّد إلاّ** رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّهَ شيئاً﴾.

أما إنّكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً] وهو كناية عمّن يقتلهم بعده.

[**وأثَرَةً**] بالتحريك، أي: استبداداً.

[**يتّخذها الظالمون فيكم سنّة**] إشارة إلى مايستأثر به الملوك والعمّال عليهم وعلى غيرهم من الرعيّة من الفيء والغنائم، وقد استجيب دعاؤه عليه السلام فيهم، فإنّهم لم يزالوا بعده في ذلّ شامل، وقتل ذريع حتى انقرضوا، أو كادوا أن ينقرضوا، وللّه الحمد ﴿فقُطِع دابر القوم الّذين ظلموا والحمد للّه ربّ العالمين.

قال السيّدالرضي(ره): قوله عليه السلام ولا بقي منكم أبر يروى على ثلاثة أوجه:

مصارعهم دون النطفة، واللّه لايفلت منهم عشرة، ولايهلك منكم عشرة

أحدها: أن يكون كما ذكرنا بالباء من قولهم رجل أبر للّذي يؤبر النخل، أي: يصلحه.

ويروى: ولابقي منكم آثر، يراد به الّذي يأثر الحدث، أي: يحكيه ويرويه، وهو أصحّ الوجوه عندي، كأنّه قال: ولابقي منكم مخبر.

ويروى: أبز بالزاي المعجمة، وهو الواثب والهالك أيضاً، يقال له أبز.

وقال عليه السلام
لمّا عزم على قتال الخوارج

وقيل له: إنّ القوم قد عبروا جسر النهروان:

[مصارعهم دون النطفة، واللّه لايفلت منهم عشرة، ولايهلك منكم عشرة].

قال السيّد (ره): ويعني بالنطفة ماء النهطر، وهي أفصح كناية عن الماء، وإن كان كثيراً جمّاً، وقد أشرنا إلى ذلك فيماتقدّم عند مضي ماأشبهه.

روي أنّه عليه السلام لمّا خرج إلى أصحاب النهروان جاء به رجل من أصحابه فقال: البشرى ياأميرالمؤمنين، إنّ القوم عبروا النهر لما بلغهم وصولك، فأبشر فقد منحك الله أكنافقهم، فقال: اللّه، أنت رأيتهم قد عبروا، فقال عليه السلام: واللّه ماعبروه ولن يعبروه، وإنّ مصارعهم دون النطفة والّذي فلق

. . . .

الحبّة وبرأ النسمة لن يبلغوه الأفلات، ولا بصر ثوران حتّى يقتلهم اللّه، وقد خاب من افترى.

قال: ثمّ جاءه جماعة من أصحابه واحد بعد آخر كلّهم يخبره بما أخبره الأوّل، فركب عليه السلام وسار حتّى انتهى إلى النهر، فوجد القوم بأسرهم قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيولهم وجثوا على الركب، وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم ل رجل.

وروي إنّ شابّاً من أصحابه قال في نفسه حين حكم عليه السلام بماحكم من أمرهم واللّه لأكوننّ قريباً منه، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سنان رمحي في عينه، أيدّعي علم الغيب، فلمّا وجدهم لم يعبروا نزل عن فرسه وأخبره بما في نفسه وطلب منه أن يغفر له، فقال عليه السلام: إنّ اللـه يغفر الذنوب جميعاً.

وروي أنّه عليه السلام قال لأبي أيّوب الأنصاري، وكان على ميمنته لمّا بدأت الخوارج بالقتال: احملوا عليهم فواللّه لايفلت منهم عشرة ولايهلك منكم عشرة، فلمّا قتلهم وجدوا المفلت منهم تسعة، والمقتول من أصحابه ثمانية، وهذان الحكمان من جملة كراماته عليه السلام.

كلاّ والله إنّهم نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء كلّما نجم منهم قرن قُطِع حتّى يكون أخرهم لصوصاً سلاّبين

وقال عليه السلام
لمّا قتل الخوارج
وقيل له ياأمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم:

[كلاّ] ردّ لما قالوه وزجر عنه.

[والله إنّهم نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء] أرحامهم الّتي يقرّ فيها النطفة والولد، إشارة إلى أنّه لابدّ من وجود قوم يقولون بمثل مقالتهم، وأنّهم الآن موجودون في الأصلاب والأرحام بالقوّة، فمنهم نطفة برزت إلى الأرحام، وبعضها باق في الأصلاب [كلّما نجم] أي: ظهر [منهم قرن] أي: رئيس [قُطِع] أي: قتل، واستعار لفظ القرن لمن يظهر من رؤسائهم ورشحّها، بقوله: نجم وقطع لكونهما حقيقتين في الثبات، وجعل لتراذلهم غاية، فقال:

[حتّى يكون أخرهم لصوصاً سلاّبين] أي: قطاعاً للطريق، نقل إنّ التسعة الّذين سلموا تفرّقوا في البلاد اثنان في عمان وآخران في كرمان، واثنان في سجستان، واثنان في الجزيرة، وواحد إلى تل مودون، وقد كان منهم جماعة لم يظفر بهم عليه السلام ظهرت بدعهم في أطراف البلاد بعده، وكبار فرقهم ستّ:

الأزارقة، وهي أكبر الفرق أصحاب نافع بن الأرزق، خرجوا من البصرة إلى الأهواز وغلبوا عليها وعلى ماورائها من بلدان فارس وكرمان في

لاتقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه

أيّام عبداللّه بن الزبير، وكان مع نافع من أُمراء الخوارج عشرة في نيف وثلاثين ألف فارس، فأنفذ إليهم المهلّب، ولم يزل في حربهم هو وأولاده تسع عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم في أيّام الحجّاج.

الثانية: النجدات، رئيسهم نجدة بن عامر الحنفي، قتل في زمن عبدالملك بن مروان.

الثالثة: البهيسيّة، أصحاب أبي بيهس، وكان بالحجاز، وقتله عثمان بن حيان المزني بالمدينة بعد أن قطع يديه ورجليه في زمن الوليد بإشارة منه.

الرابعة: العجاردة، أصحاب عبدالكريم بن عجرد.

الخامسة: الأباضيّة، أصحاب عبداللّه بن أباض في أيّام مروان بن محمّد، فوجّه إليه عبداللّه بن محمّد بن عطيّة فقاتله فقتله.

السادسة: الثعالبة، أصحاب ثعلبة بن عامر، وكان جملة منهم في أطراف البلاد باصبهان والأهواز وسواد العراق، ينهبون الأموال والخراج، ويقتلون غيلة وجهراً.

وقال عليه السلام:

[لاتقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه] قال السيّد(ره): يعني بمن أدركه معاوية، والفرق بينهم وبين معاوية أنّ القوم طلبوا الحقّ بالذات، فوقعوا في الباطل بالعرَض، ومعاوية طلب الباطل بالذات في صورة تشبه الحقّ، وإنّما نهى عليه السلام عن قتلهم بعده على تقدير أن يلزموا حدودهم ويكفّوا عن العبث والفساد في الأرض، أو

وإنّ عليَّ من اللّه جُنَّة حـصـينة فـإذا جـاء يومي انفـرجت عنّي وأسلمتني

لانه عليه السلام علم أنّه لايلي الأمر بعده من له بحكم الشريعة أن يقتل ويتولّى أمراً محدود، ولا مَن يعرف مواضعها، وقيل: إنّما قتلهم لأنّه إمام عادله، أي: وجوب قتالهم.

ومن كلام له عليه السلام
لمّا خوّف من الغيلة

وهي القتل على غفلة وعزه، وكان عليه السلام قد خوّف من غيلة ابن ملجم مراراً، وروي إنّ الأشعث رآ متقلّداً سيفه، فقال له: ماتقلّدك السيف وليس بأوان حرب، فقال: أردتُ أن أنحر به جزوراً لقربة، فأخبر الأشعث علياً بذلك، وقال قد عرفت ابن ملجم وفتكه، فقال عليه السلام: ماقتلني بعد.

وروي إنّ علياً عليه السلام كان يخطب مرّة ويذكّر أصحابه وابن ملجم تلقاء المنبر، فسمع وهو يقول: واللّه لأريحنّهم منك، فلمّا انصرف عليّ أتوا به ملبّياً فأشرف عليهم وقال: ماتريدون؟ فخبروه بما سمعوا منه، فقال: ماقتلني بعد خلّوا عنه.

[**وإنّ عليَّ من اللّه جُنَّة**] بالضمّ مايُستتر به من سلاح وغيره [**حصينة**] تحصنني وتمنعني من فتك العدوّ وغيلته.

[**فإذا جاء يومي**] الّذي كتب في أجلي وانقطع عملي [**انفرجت عنّي**] تلك الجنّة [**وأسلمتني**] كنّى بالجنّة عن عناية اللّه بحفظ أسباب حيات في

فحينئذ لايطيش السهم ولايبرأ الكَلْم

المدّة الممكنة له في القضاء الإلهي، كناية بالمستعار، ووجه الإستعارة إنّ مع بقاء أسباب الحياة محفوظة لايؤثّر في الإنسان شيء من سهام المنيّة أبداً، كما أنّ لابس الجنّة محفوظ بها من آثار سهام الأعداء ونحوها، ووصفها بالحصينة ترشيحاً للإستعارة، وكنّى بها أيضاً عن قوّة ذلك الحفظ، وكنّى بيومه عن وقت ضرورة موته وبانفراج الجنّة عنه عن عدم بعض أسباب الحياة المستلزم لعدم الحياة، ولحوق سهام الأمراض، وهو ترشيح للإستعارة أيضاً، ونسب إلها إسلامها له ملاحظة لتشبيهها بمن يحفظ، ثمّ يسلّه للقتل، وقوله:

[**فحينئذ لايطيش السهم ولايبرأ الكَلْم**] يقال: طاش السهم انحرف عن الغرض، والكَلْم الجرح، واستعار لفظ السهم للأمراض الّتي هي سبب الموت، وكنّى بعدم طيشه عليه السلام عن ايكاله وحصول الموت عنه، واستعار لفظ الكلم للأثر الحاصل عن تلك الأسباب، ووجه الشب في الأولى كونهما سببين للهلاك، وفي الثانية: مايستلزمانه من التألّم، ورشح الأُولى بذكر الطيش، والثانية بذكر البرء، وجميع ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن اللهه كتاباً مؤجّلاً﴾ ﴿ولكلّ أُمّة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون﴾.

وممّا ينسب إليه عليه السلام أي يومي من الموت أقرا يوم لاقدر أم يوم قدر فيوم ماقدر لاأرهبه، ويوم قد قدّر لايغني الحذر.

ألا وإنّ الدنيا دار لايسلم منها إلّا فيها ولاينجى بشيء كان لها ابتُلي الناس بها فتنة فما أخذوه منها لها

ومن خطبة له عليه السلام

في ذمّ الدنيا وأهلها، والتزهيد فيها، والترغيب في الآخرة وطلبها:

[**ألا وإنّ الدنيا دار لايسلم منها إلّا فيها**] أي: لايسلم من عقاب ذنوبها، والأفعال السيّئة الّتي وقعت فيها إلّا فيها، إذ لا دار الّا الدنيا والآخرة، وأسباب السلامة من العقوبات الطالحات والملكات الفاضلة وكلّها زعمال لاتتحقّق إلّا في الدنيا فينبغي المبادرة إليها واغتنام الفرصة.

[**ولاينجى بشيء كان لها**] إشارة إلى أنّ مايصدر من العباد للأغراض الدنيويّة كالرياء والسمعة لايحصل به النجاة من عقوبات الآخرة، وإنّما يترتّب عليه ماقصده من الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، بل لاينفع إلّا العمل الخالص لوجه اللّه.

وفي النبويّ: هلك الناس إلّا العالمون، هلك العالمون إلّا العاملون، هلك العاملون إلّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

[**ابتُلي الناس بها فتنة**] نصب مفعولاً له أو مصدراً سدّ مسدّ الحال، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالخير والشرّ فتنة وإلينا تُرجَعون﴾.

ثمّ أوضح ذلك بقوله عليه السلام:

[**فما أخذوه منها لها**] الضميران راجعان إلى الدنيا، كالّذي يكتب الاموال في الدنيا ويدّخرها لملاذه وينفقها في شهواته.

أُخرِجوا منه وحوسبوا عليه وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه

[**أُخرِجوا منه**] قهراً بالموت الّذي لامفرّ منه.

[**وحوسبوا عليه وما أخذوه منها لغيرها**] كالّذ يكتسب الأموال وينفقها في سبيل الخير والمعروف والطاعات، أو يصل بها الأرحام، ويعين الأرامل والأيتام.

[**قدموا عليه**] أي: على الّذي قدموا [**وأقاموا فيه**] وفي ذلك تنبيه على وجوب قصد الآخرة لما يؤخذ من الدنيا ويتصرّف فيه وتنفير أن يجعل المأخوذ منها المجرّد التمتّع بها بذكر وصفين:

أحدهما: وجوب مفارقة المأخوذ منها، والإخراج منه.

والثاني: الحساب عليه في الآخرة، وينبغي أن يعلم أنّ الإبتلاء والإفتتان بالنسبة إلى اللّه تعالى ليس على الحقيقة، إذ هو تعالى عالم بأحوال العباد ومبدئها، ومآلها ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾ ولكن لمّا كانت الشرائع الإلهيّة جاذبة للخلق عنها إلى الغاية الّتي خلقوا لها وكانت بحاضر لذّاتها جالبة لهم بحسب نفوسهم الأمّارة إليها، فمن أطاع داعي اللّه وصوارفه عنها، فاز فوزاً عظيماً، ومن اتّبع هواه بغير هدى من اللّه خسر خسراناً مبيناً، فأشبه ذلك صورة ابتلاء من اللّه لخلقه بها، فاستعير لذلك وصف الإبتلاء، ولفظ الفتنة وماأخذ منها لغيرها هو مايُقصَد به وجه اللّه والدار الآخرة من مال يتصدّق به وتصرّف في سبيل اللّه أو جاه أو عمل للّه، وليس مايقدمون عليه في الآخرة هو عين ماأُخذ من الدنيا، بل ثمرته، وإذا بنينا على تجسّم الاعمال فهو هو.

وإنّها عند ذوي العقول كفَيْء الظلّ بينا تراه سابغاً حتّى قلص وزائداً حتّى نقص ومن خطبة له عليه السلام واتّقوا عباد اللّه ربّكم وبادروا آجالكم بأعمالكم

[**وإنّها عند ذوي العقول كفَيْء الظلّ**] ووجه الشبه سرعة زوالها، وإنّما خصّ ذوي العقول بذلك لأنّ المعتبر لزوالها عامل بمجرّد عقله دون هواه، فلذا نُسب إلى العقل، ولأنّ حال ذوي العقول مرغوب فيه لمن سمعه، فنُسب إليهم ليقتفي السامعون أثرهم.

ثمّ أشار إلى وجه الشبه بالظلّ بقوله:

[**بينا تراه سابغاً**] أي: وافراً.

[**حتّى قلص**] نقص [**وزائداً حتّى نقص**] أي: إنّها يسرع زوالها، كما يسرع زواله، وبينا هي بين الظرفية بمعنى الوسط فأُشبعت الفتحة فحذفت الألف، وقد تزاد ما فيقال: بينما، والمعنى واحد، وتحقيق الظرفيّة هنا: إنّ الظلّ دائر بين السبوغ والتقلّص، والزيادة والنقصان.

ومن خطبة له عليه السلام

[**واتّقوا عباد اللّه ربّكم**] فبالتقوى تكون النجاة وترفع الدرجات.

[**وبادروا**] أي: سابقوا وعاجلوا [**آجالكم بأعمالكم**] لتوقّع سرعة الأجل وانقطاع العمل فاغتنموا شبابكم قبل هرمكم، وصحّتكم قبل سقمكم، وغناكم قبل فقركم، وحياتكم قبل موتكم، وقوّتكم قبل ضعفكم، ونسب المسابقة إلى الآجال ملاحظة لشبهها بالمراهن، إذ كان

وابتاعوا مابقي لكم بما يزول عنكم وترحَّلوا فقد جدّ بكم واستعدّوا للموت فقد أظلّكم وكونوا قوماً صبح بهم فانتبهوا وعلموا أنّ الدنيا ليست لهم بدار

لحوقها لهم حائلاً بينهم وبين الأعمال الصالحة الشبيهة بمايستبق عليه من الرهن .

[**وابتاعوا مابقي لكم**] من ثواب الآخرة الباقية [**بما يزول عنكم**] من متاع الدنيا الفانية، والقيد في المقامين ترغيب النفوس، فإنّها تحبّ ما له بقاء وتكره ما له فناء، واحتجاج بها عليها .

[**وترحَّلوا**] عن هذه الدنيا الغادرة إلى تلك الدار الآخرة .

[**فقد جدّ**] أي : حثّ [**بكم**] المنادي على الرحيل، هو كناية عن سرعة توارد أسباب خراب البدن من الهموم والسقم والفقر والهرم .

[**واستعدّوا للموت**] وللقاء اللّه بالأعمال الزكيّة، والملكات البهيّة، والكمالات النفسانيّة الّتي لايضرّ معها موت البدن .

[**فقد أظلّكم**] أي : أشرف عليكم الموت إشارة إلى قربه، وشبّهه بالسحاب أو الطير، واستعار له لفظ الإظلال .

[**وكونوا قوماً**] كقوم نيام [**صبح بهم فانتبهوا**] تنبيهاً، أنّهم في مراقد الطبيعة رافلون، وفي مهاد الشهوات النفسانيّة ملتحفون، فليستفتوا إلى مناديَ اللّه تعالى وهو أنبياءه ورسله وحججه وكتبه ولينتبها بندائهم من مراقد غفلتهم .

[**وعلموا**] عطف على صبح بهم أي : وكونوا كقوم علموا [**أنّ الدنيا ليست لهم بدار**] قرار حتّى يركنوا إليها ويطمئنّوا بها، بل هي زوال، ومحلّ هموم وغموم ووبال .

فاستبدلوا فإن لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى ومابين أحدكم وبين الجنّة والنار إلاّ الموت أن ينزل بكم وإنّ غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدّة

[**فاستبدلوا**] بها دار السلام والنعيم والإكرام، ويمكن قراءته بصيغة الماضي والأمر، ثمّ نبّه على وجوب العمل لذلك البدل بقوله:

[**فإن لم يخلقكم عبثاً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لاترجعون﴾.

[**ولم يترككم سدى**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سدى﴾ أي: مهملاً، بل خلقكم لحكمة ومصلحة راجعة إليكم، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾ فالغرض من الخلق العبادة، والغرض منها استكمال النفس حتّى تصل إلى رضوان اللّه وثوابه، والحائل بينهم وبين ذلك الموت، فأشار عليه‌السلام إلى ذلك بقوله:

[**ومابين أحدكم وبين الجنّة**] إن كان من حزب اللّه المخلصين [**والنار**] إن كان من حزب الشيطان الخاسرين [**إلاّ الموت أن ينزل بكم**] بدل من الموت، أي: إلاّ نزول الموت بكم، إذ به ينكشف للإنسان عمّا يستحقّه من جنّة أو نار، ﴿لقد كنتُ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد﴾.

[**وإنّ غاية**] كناية عن أجل الإنسان [**تنقصها اللحظة**] أي: النظرة، لأنّ كلّ جزء من الزمان فرضته قد مضى من مدّة الإنسان منقص لها بالبديهة.

[**وتهدمها الساعة**] كناية عن وقت الموت [**لجديرة**] أي: حقيقة تلك الغاية [**بقصر المدّة**] فإنّ الآن الّذي تنقطع فيه علاقة النفس مع البدن غاية

وإنّ غائباً يحدوه الجديدان: اللّيل والنهار، لحريّ بسرعة الأوبة وإنّ قادماً يقدم بالفوز أو الشقوة لأفضل العدّة فتزوّدوا من الدنيا في الدنيا

لأجل الإنسان، وغاية الشيء هي ماينقطع عندها الشيء، فكنّى بالهدم عن ذلك الإنقطاع والإنتهاء كناية بالمستعار، وظاهر أنّ مدّة هذا شأنها في غاية القصر، وقوله عليه السلام:

[**وإنّ غائباً يحدوه الجديدان: اللّيل والنهار، لحريّ بسرعة الأوبة**] والغائب إشارة إلى الإنسان، إذ كان الدنيا عالمغربة، ومحلّ سفره، ومنزله الحقيقي الّذي منه مبدئه وإليه مرجعه الآخرة، واستظهر ابن أبي الحديد أنّ المراد بالغائب الموت، يسوقه اللّيل والنهار، وفيه أنّه لايطابق لفظ الأوبة، لأنّه لم يكن حتّى يرجع، وسمّي الليل والنهار جديدين لتعاقبهما وتجدّدهما، فليس أحدهما مخلقاً للآخر، واستعار لفظ الحدو لما يستلزمانه من إعداد الإنسان لقرب أجله المشبه لصوت الحادي الّذي يعد الإبل لسرعة سيرها وقربها من المنزل المقصود لها، وظاهر إنّ من كان الليل والنهار حاديته فهو في غاية سرعة الرجوع إلى وطنه الأصليّ.

[**وإنّ قادماً**] إشارة إلى حال الإنسان حال قدومه على ربّه [**يقدم**] على ربّه بعد مفارقة الدنيا [**بالفوز**] بالفضل العظيم، والثواب الجسيم.

[**أو الشقوة**] بنار الجحيم، والبُعد من ربّ رحيم.

[**لأفضل العدّة**] أي: مَن كان هذا شأنه، فالواجب عليه أن يستعدّ بأفضل عدّة ليصل بهما إلى أحبّهما لديه، ويتباعد بها عن أبغضهما عنده، ثمّ أشار عليه السلام إلى تفضيل أفضل العدّة بقوله:

[**فتزوّدوا من الدنيا في الدنيا**] من تقوى اللّه، فإنّ خير الزاد التقوى.

ماتحرزون به نفسكم غداً فاتّقى عبد ربّه نصح نفسه، قدّم توبته، غلب شهوته

[**ماتحرزون به نفسكم**] وتحفظونا به من عذاب اللّه وعذابه.

[**غداً**] في القيامة، وقد أشرنا سابقاً في شرح مثل هذه الفقرة أو الأعمال الصالحة، والملكات الفاضلة إنّما تحصل في الدنيا، وأمّا كونها من الدنيا فلأنّ تلك الآثار الحاصلة للنفس من الحالات والملكات كالخشية والخوف وسائر مايتزوّده الإنسان ويستصحبه بعد المفارقة إنّما حصلت عن هذا البدن واستفيدت من الدنيا بواسطته، والمشابهة الّتي لأجلها استعار لفظ الزاد هنا هو مايشترك فيه الزاد المحسوس والتقوى من سلامة المتزوّد بهما كلّ في طريقه، فذاك في المنازل المحسوسة من عذاب الجوع والعطش المحسوس، وهذا في المنازل المعقولة ومراتب السلوك ومراحل السفر إلى اللّه من عذاب الجوع المعقول، وقوله:

[**فاتّقى عبد ربّه نصح نفسه، قدّم توبته، غلب شهوته**] أوامر وردت بلفظ الماضي، خالية عن العطف، وي بلاغة تريك المعنى في أحسن صورة، فالأمر بالتقوى تغيير للأمر بالزاد، كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ والأمر بنصيحة النفس أمر بالنظر في مصالحها، والشور عليها أن تعمل ما، والأولى بها من التمسّك بحدود اللّه والوقوف عندها والأمر بتقديم التوبة وغلب الشهوة هو من جملة الأمر بالنصيحة، كالتفسير له، ومن لوازم التقوى، وأراد بتقديم التوبة تقديمها على الموت، أو بالنسبة إلى كلّ وقت سيحضر، كناية عن المبادرة بها.

ثمّ حثّ عليه السلام على المبادرة إلى أوامر اللّه قبل التوبة بقوله:

فإنّ أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به، يزيّن له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، حتّى تهجم منيّته عليه أغفل مايكون عنها فيالها حسرة على كلّ ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجّة، وأن تؤدّيه أيّامه إلى شقوة

[فإنّ أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به، يزيّن له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، حتّى تهجم منيّته عليه أغفل مايكون عنها] فإن ستر أجل الإنسان عنه موجب للغفلة، فإذا انضاف إلى ذلك خداع الأمل الناشي عن الوساوس الشيطانيّة، والتسويلات النفسانيّة في تزيين المعصية وتسويف التوبة مع كون الشيطان موكّلاً به وقريناً له كما في النبوي مامن مولود إلّا ويولد معه قرين من الشيطان، كانت الغفلة أشدّ، والنسيان أكّد، واستعار لفظ الخداع لصورته من النفس الأمّارة بالسوء كان تسوّل له مثلاً تمتع من شبابك، واغتنم لذّة العيش مادمت في مهلة، وسوف تتوب بعد أن تقضي وطرك من لذّات الدنيا ونحو ذلك، ونسبة ذلك إلى الأمل لأنّه من أسباب الإنخداع، وجعل ذلك الخداع هو أن تهجم على المخدوع منيّته حال ماهو في أشدّ غفلة عنها، واشتغال بما يؤمله، فيكون ذلك مستلزماً لأعظم حسرة وأكبر ندامة على أن يكون عمره عليه حجّة شاهداً بلسان حاله على مااكتسب فيه من الآثام، فصار بعد أن كان وسيلة لسعادته سبباً لشقاوته، كما قال:

[فيالها حسرة على كلّ ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجّة، وأن تؤدّيه أيّامه إلى شقوة] ونصب حسرة على الغميز للتعجّب منه، المدعوّ واللام في لها كأنّه قال: ياحسرة على الغافلين، ماأكثرك أرأيتها الحسرة احضري فهذا

نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لاتبطره نعمة ولاتقصر به عن طاعة ربّه غاية بأن لايقصر عن غاية من غايات الطاعات، يقال: قصرت هذه الغاية بفلان إذا لم يبلغها. ولايحلّ به بعد الموت ندامة ولا كآبة الحمد للّه الّذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً

أوانك، وقبل بل لام البحر فتحت لدخولها على الضمير، والمنادى محذوف تقديره ياللرجال للحسرة، أو ياقوم ادعوكم لها حسرة، وان في أن يكون في محلّ النصب بحذف الجار، كأنّه قيل فعلى مَ تقع عليهم الحسرة، فقال: على كون أعمارهم حجّة عليهم يوم القيامة، ثمّ ختم الخطبة بقوله:

[**نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لاتبطره نعمة**] بأن لانفرح بنعم الدنيا، فإنّه من لوازم محبّتها المستلزمة للهلاك الأبديّ، وبدأ بالدعاء لنفسه لما روي أنّ النبيّ ﷺ كان إذا دعى بدء بنفسه.

[**ولاتقصر به عن طاعة ربّه غاية**] **بأن لايقصر عن غاية من غايات الطاعات، يقال: قصرت هذه الغاية بفلان إذا لم يبلغها.**

[**ولايحلّ به بعد الموت ندامة ولا كآبة**] أي: حزن كأنّه سأل قطع أسباب الندامة والحزن، وهو اتّباع الهوى والعدول عن طاعة اللّه.

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الّذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً] لأنّ السبق والمقارنة والقبليّة

كلّ مسمّى غيره بالوحدة قليل

والبعديّة أُمور تلحق الزمان لذات، وتلحق الزمانيات به، وقد صحّ بالبراهين القاطعة أنّه تعالى منزّه عن الزمان، لأنّ الزمان من لواحق الحركة، أي: حركة الفلك المتأخّرة عن وجوده المتأخّر عن وجود الصانع، نعم قد تطلق القبليّة والبعديّة على غير الزمانيّة، كالقبليّة بالشرف والفضيله، والذات والعلية، كما يقال العلّة قبل المعلول.

وبالجملة: فكلّما يلحق ذاته المقدّسة من الصفات، فهي اعتبارات ذهنيّة تحدثها العقول عند مقايسته إلى مخلوقاته وشيء من تلك الإعتبارات لايتفاوت أيضاً بالقبليّة والبعديّة بأحد المعاني المذكورة بالنظر إلى ذاته المقدّسة فلايقال مثلاً هو مستحقّ لهذا الإعتبار قبل هذا الإعتبار أو بعده، وإلّا لكانت كمالاته قابلة للزيادة والنقصان، بل استحقاقه بالنظر إلى ذاته، فلا حال يفرض إلّا وهو يستحقّ فيه أن يعتبر له الأولية والأُخرويّة معاً استحقاقاً أولياً ذاتياً على وجه الترتيب وإن تفاوتت الإعتبارات بالنظر إلى اعتبارنا، وهذا بخلاف غيره من الأُمور الزمانيّة، فإنّ الجوهر مثلاً يصدق عليه كونه أوّلاً من العرض ولايصدق عليه مع ذلك أنّه آخر له حتّى لو فرضنا عدم جميع الأعراض وبقاء الجوهر بعدها لم يكن استحقاقه للإعتبارين معاً، بل استحقاقه لاعتبار الأوّلية متقدّم إذ كانت بعض أحواله سابقة على بعض، ولاستحقاقه لهما لذاته بل بحسب بقاء أسبابه، ولأنّ العرض لماصدق عليه أنّه بعد الجوهر يصدق عليه أنّه قبله باعتبار ما فأوّليّته تعالى باعتبار أنّه كونه مبدء لكلّ وجود وأُخريته هو كونه غاية لكلّ ممكن.

[كلّ مسمّى غيره بالوحدة قليل] يريد أنّه تعالى لايوصف بالقلّة، وإن

وكلّ عزيز غيره ذليل

كان واحداً، والواحد يقال لمعاني المشهور منها: هو كون الشيء مبدء لكثرة يكون عاداً لها، ومكيالاً، وهو الّذي يلحقه القلّة والكثرة الإضافيتان، فإنّ كلّ واحد بهذا المعنى هو قليل بالنسبة إلى الكثرة التي تصلح أن تكون مبدء لها والمتصوّر لأكثر الناس كونه تعالى واحداً بهذا المعنى، ولما كان تعالى منزّهاً عن القلّة والكثرة، لمايستلزمانه من الحاجة والنقصان اللازمين لطبيعة الإمكان أثبتت القلّة لكلّ ماسواه، فاستلزم إثباتها لغيره في معرض المدح له نفياً عنه، واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن الواحديّة بالمعنى المذكور إذ سلب اللازم لب ملزومه، بل الوحدة الّتي تطلق عليه تعالى إمّا بمعنى تنزه ذاته، وعن وصمة التركيب والتكثّر والأجزاء أو بمعنى نفي للشريك عند تعاقبهما على محلّ من شأنه قبولهما، وربّما فسّر القليل هنا بالحقير، ولايخفى بعد لعدم مناسبته لذكر الوحدة، وإنّما قال عليه السلام كلّ مسمّى بالوحدة، ولم يقل كل واحد للإشعار بأنّ قول الوحدة على واحديّته تعالى وواحدية غيره قول بحسب اشتراك الإسم، وقوله:

[وكلّ عزيز غيره ذليل] فإنّ العزيز هو الخطير الّذي يقلّ وجود مثله، وتشتدّ الحاجة إليه ويصعب الوصول، ثمّ في كلّ واحد من هذه القيود الثلاثة كمال ونقصان، فالكمال في قلّة الوجود أن يرجع إلى واحد، ويستحيل أن يوجد مثله، وليس ذاك إلاّ اللّه سبحانه وتعالى، وكلّ موجود سواه ففي ذلّ الحاجة إليه وحقارة العبوديّة بالنسبة إلى كمال عزّه، والعزيز من الخلق الّذي توجد له تلك الإعتبارات بالقياس إلى من هو دونه فيها فهو عزيز بالنسبة إلى الأدنى دليل باعتبار الحاجة إلى الأعلى، وهكذا بالنسبة إلى مَن هو أعلى

وكلّ قويّ غير ضعيف وكلّ مالك غيره مملوك وكلّ عالم غيره متعلّم وكلّ قادر غيره يقدر ويعجز وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات وكبيرها، ويذهب عنه مابعُد منها

منه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى العزيز المطلق، وكذا قوله:

[**وكلّ قويّ غير ضعيف**] إذ القوّة تعود إلى تمام القدرة، ويقابلها الضعف، ولمّا كان استناد جميع الموجودات إلى قدرته فلا أتمّ من قدرته، فكلّ قوّة وصف بها غيره فبالنسبة إلى ضعف يقابلها لمن هو دونه، فإذا قيس بالنسبة إلى من فوقه كان ضعيفاً بالنسبة إليه، وكذا من هو فوقه إلى أن ينتهي إلى تمام قدرة فهو القويّ المطلق الّذي لايلحقه ضعف بالقياس إلى أحد غيره، وكذا قول:

[**وكلّ مالك غيره مملوك**] لدخوله تحت الملك المطلق الّذي تنفذ مشيّة مالكه في جميع الموجودات باستحقاق دون غير نكل ماسواه مملوك له، وإن سمّي مالكاً فبالقياس إلى من دونه.

[**وكلّ عالم غيره متعلّم**] ومن بعد جهل علم واستفاد عمله من غيره، وذلك الغير من الغير، وهكذا إلى أن ينتهي إليه تعالى ﴿وفوق كلّ ذي علم عليم﴾ وهو تعالى العالم المطلق لم يزل عالماً، ولم يحتجّ في العلم إلى غيره.

[**وكلّ قادر غيره يقدر**] على بعض الأشياء [**ويعجز**] عن بعض، وهو تعالى على كلّ شيء قدير لايجزه شيء، وهو مبدأ قدرة كلّ قادر.

[**وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات وكبيرها، ويذهب عنه مابعُد منها**] ومعنى كونه تعالى سميعاً أنّه عالم بالمسموعات لتنزّهه عن الآلة الّتي من شأنها أن يصمه لأنّ إدراك القوّة السامعة للصوت على قرب وبعد

وكلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام

وحد من القوّة والضعف مخصوص، فإذا كا الصوت ضعيفاً جدآً أو بعيداً جدآً، لم يصل إلى الصماخ فلم تدركه القوّة السامعة فلذلك كانت تصمّ عن لطيف الأصوات، ويذهب عن السامع مابعد منها وإن كان في غاية من القوّة والقرب، فربّما اشتدّ قرعه للصماخ فتفرق اتّصال الروح الحامل لقوّة السمع عنه بحيث يبطل استعدادها لتأدية القوّة إلى الصماخ، وكلّ ذلك من نقصان الحيوان وضعفه، ولما كان الباري تعالى منزّهاً عن الجسميّة وتوابعها لاجرم منزّهاً كان منزّهاً عن هذه الآلة ومايلحقها لم يعزب عنه ماخفي من الأصوات، ولم يذهب عليه مابعد منها، ولم تلحقه لواحقها من الصمم والنقصان، ولعلّه عليه السلام خصّ اللّطيف بالصمّم عنه، والبعيد بالذهاب عليه، لأنّ البعيد في مظنّته أن يسمع وإنّما يفوته عدم وصول الهواء الحامل له الشيء.

وأمّا الخفيّ فلمّا لم يكن من شأنه أن تدركه القوّة السامعة استعير له لفظ الصمم، تشبيهاً بالعجز.

[**وكلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان**] كالنور في الظلمة.

[**ولطيف الأجسام**] واللطيف قد يكون بمعنى عديم اللون كالهواء، وبمعنى رقيق القوام كالجور الفردعند المتكلّمين وكالذرّة واللطيف بالمعنين غير مدرك للحيوان، وأطلق اسم العمى على عدم الأبصار مجازاً لكونه من أسباب عدم الروّية، وكونه تعالى بصيراً يعود إلى علمه بالمبصرات لم يعزب عن شيء منها يبصر ماتحت الثرى، ولايلحقه من لواحق الآلات شيء كالعمى ونحوه.

وكلّ ظاهر غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر

[وكلّ ظاهر غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر] يريد أنه تعالى هو المفرد بالجمع بين وصفي البطون والظهور، فيقال له الظاهر والباطن دون غيره، لأنّ ظهور الأشياء عبارة عن انكشافها للحسّ أو العقل، ويقابله بطونها وهو خفاؤها عن أحدهما، وحيث كان تعالى منزّهاً عن الجسميّة ولواحقها علم كونه منزّهاً عن إدراك الحواسّ، ولمّا كان تعالى مقدّساً عن أنحاء التراكيب الخارجيّة والعقليّة، وجب تنزّه ذاته المقدّسة عن اطلاع العقول عليها، فعلم أنّه لايشارك الأشياء في ظهورها وخفائها، بل ظهوره تعالى عبارة عن انكشاف وجوده لأبصار بصائر العباد بآثاره وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنه الحقّ﴾ ولايشاركه شيء في هذا المعنى، فإنّ بعض الأشياء وإن انكشفت للعقل والحسّ، إلاّ أنّ الّذي خفي عنه أكثر ممّا اطّلع عليه، فكلّ ظاهر غيره باطن بالنسبة إليه، وهو تعالى الظاهر لكلّ شيء وفي كلّ شيء لكونه مبدأ كلّ شيء ومرجع كلّ شيء، ومعنى بطونه خفاء ذاته عن اطّلاع العقول على كنهها أو بمعنى خبرته وعلمه بجميع الأشياء، فكلّ باطن خفيّ على الخلق ظاهر له معلوم، وكلّ عالم وإن جلّ قدره لاإحاطة له بكلّ المعلومات، بل هو قاصر عن جلّها، وهو تعالى الّذي لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولافي السماء، ولاأصغر من ذلك ولاأكبر﴾.

وفي بعض النسخ: وكلّ ظاهر غيره غير باطن.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ فعله تعالى منزّه عن الغرض وبرهانه، أنّه لو فعل ذلك لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إمّا على حدّ سواء

لم يخلق ماخلقله لتشديد سلطان ولاتخوّف من عواقب زمان ولاندّ مثاور ولاشريك مكاثر ولا ضد منافر

أو لا، والأوّل باطل، للزوم الترجيح بلا مرجّح، وكذا الثاني، لأنّهما إذا لم يستويا كان حصول الغرض أولى به، فيكون معتبراً في كماله وبدونه ناقصاً تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، وأمّا مايتوهّم من أنّ أولويّة الغرض ليس بالنسبة إلى ذاته، بل بالنسبة إلى العبد، إذ غرضه الإحسان إليه ففاسد، لأنّ غرض الإحسان إلى الغير وعدمه إن كانا بالنسبة إليه على حدّ سواء لزوم الترجيح بلامرجّح، وإن كان أحدهما أولى به عاد حديث الكمال والنقصان، فلذا قال عليه السلام:

[**لم يخلق ماخلقله لتشديد سلطان**] لأنّه إنّما يحتاج إليه ذوالنقصان في ملكه وهو تعالى الغنيّ المطلق عن كلّ شيء.

[**ولاتخوّف من عواقب زمان**] لأنّ التضرّر والإنتفاع ولواحقهما من الخوف والرجاء ونحوهما إنّما هي من لواحق الممكنات القابلة للنقصان والكمال، وماهو في معرض التغيّر الزوال، وهو تعالى منزّه عن جميع ذلك.

[**ولاندّ**] أي: مثل ونظير [**مثاور**] أي: موانث [**ولاشريك مكاثر**] أي: مفتخر بالكثرة.

[**ولا ضد منافر**] محاكم في الحسب، يقال: نفرت زيداً فنفرته أي: غلبته، أي: لم يخلق الأشياء للإستعانة على النّدّ والضدّ والشريك، لأنّ الإستعانة طلب العون من الغير، وهو من لوازم الضعف والعجز والخوف، وإذ لاعجز فلاندّ ولاشريك ولاضدّ، والغرض تنزيهه تعالى عن صفات المخلوقين.

ولكن خلائق مربوبون وعباد آخرون لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ولم ينأ عنها فيقال: هو منها بائن لم يؤدّه خلق ماابتدأ ولا تدبير ماذرأ

[**ولكن خلائق مربوبون**] أي: مملوكون [**وعباد آخرون**] ذليلون خاضعون، أي: بل هم خلائق خلقهم بمحض جوده، وهو فيضان الخير عنه على كلّ قابل بقدر مايقبله من غير بخل ولامنع وتعويق، وباعتبار ذلك كان كل شيء مربوباً له وهو ربّ كلّ شيء، وكلّ عبد ذليل وهو مالكه ومولاه.

[**لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن**] إشارة إلى تنزيهه تعالى عن المحلّ، فإنّ الحلول الذي هو قيام موجود بموجود على سبيل التعبيّة له ممتنع عليه تعالى، لأنّ كونه تبعاً للغير يستلزم حاجته إليه، وكلّ محتاج ممكن.

[**ولم ينأ عنها**] أي: لم يبعد عن الأشياء [**فيقال: هو منها بائن**] إذ الكون في المحلّ والبُعد عنه أُمور، إنّما يقال على مايصحّ حلوله فيه وهو تعالى منزّه عنه، وحيث لم يكن تعالى كائناً في الأشياء فليس بناء عنها ولامباين لها، قال المحقّق الطوسي: والحقّ أنّ حلول الشيء في الشيء لايتصوّر إلاّ إذا كان الحال بحيث لايتعيّن لابتوسّط المحلّ، وإذ لايمكن أن يتعيّن واجب الوجود بغيره، فإذاً يستحيل حلوله في غيره.

[**لم يؤدّه**] أي: لم يتعبه [**خلق ماابتدأ ولا تدبير ماذرأ**] أي: خلق، لأنّ الاعياء إنّما يعرض لذي الأعضاء من الحيوان، وهو منزّه عن الجسميّة، فلايلحقه الأعياء، وفي قوله: ماابتدأ دون ماخلق ونحوه لطف وإشارة إلى كون سلب الأعياء عنه حينئذ أبلغ إذ المبتدأ من الأفعال تكون المشقّة فيه أتمّ، وفي الفقرتين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنّ اللّهَ الذي خلق

ولا وقف ب عجز عمّا خلق ولاولجت عليه شبهة فيما قضى وقدَّر بل قضاء متقن، وعِلْم محكم وأمر مبرم المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم.

السماوات والأرض ولم يعي بخلقهنّ﴾. وقوله ﷺ:

[**ولا وقف به عجز عمّا خلق**] إشارة إلى كمال قدرته، واستحالة العجز عليه، كما مرّ، وقوله:

[**ولاولجت**] أي: دخلت [**عليه شبهة فيما قضى وقدَّر**] لأنّ الشبهة إنّما تدخل على العقل في الأمور المعقولة الصرفة غير الضروريّة، والوهم لايصدق حكمه إلّا في المحسوسات، فأمّا الأُمور المعقولة الصرفة، فحكمه فيها كاذب، فالمعقل حال استفصاله وجه الحقّ فيها يكون معارضاً بالأحكام الوهميّة، فإذا كان المطلوب معنا فربّما كان في الأحكام الوهميّة مايشبه بعض أسباب المطلوب، فتتصوّره النفس بصورته، ويعتقده مبدأ فينتيج الباطل في صورة المطلوب، وليس به، ولمّا كان الباري تعالى منزّهاً عن القوى البدنيّة، وكان علمه لذاته لم يجز أن دره شبهة، أو يدخل عليه فيه شكّ، لكونهما من عوارضهما.

[**بل**] فعله [**قضاء متقن، وعِلْم محكم**] أي: بريء من فساد الشبهة الغلط.

[**وأمر مبرم**] أي: محكم، إشارة إلى قدره الّذي هو تفصيل قضائه المحكم، وظاهر أنّ تفصيل المحكم لايكون إلّا محكماً، وقوله:

[**المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم**] إيماء إلى تنزيهه تعالى عن حال البشر، فإنّ المنتقم من الناس حين انتقامه لايكون مأمولاً حين إنعامه لايكون مرهوباً ومخوفاً، وهذا هو الكمال الذاتي والجود المطلق.

معاشر الناس استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة وعضّوا على النواجذ فإنّه أنبى للسيوف عن الهام

ومن كلام له عليه السلام
كان يقوله لأصحابه في بعض أيّام صفّين

وروي أنّه قال في اليوم الّذي مساءه ليلة الهرير، وقيل: قاله في أوّل أيّام اللقاء بصفّين:

[معاشر الناس استشعروا الخشية] أي: اتّخذوا خشية اللّه شعاراً، كما يلزم الشعار الجسد، وللشعار مابلي الجسد من الثياب، وفيه إشارة إلى الصبر على الحرب، وامتثال جميع الأمور الباقية، إذ خشية اللّه مستلزمة لامتثال أوامره.

[وتجلببوا السكينة] الجلباب: الملحفة، والسكينة: الثبات، استعارة للثبات الشامل للإنسان منزلة الملحفة في شمولها للبدن، والشمول هو وجه الإستعارة، وفائدة هذا الأمر طرد الفشل، وإذهاب العدوّ، فإنّ الطيش والإضطراب يستلزمان الفشل وطمع العدوّ.

[وعضّوا على النواجذ] وهي أفاصي الأضراس، وعلّله بقوله:

[فإنّه] الضمير للمصدر المدلول عليه بعضّوا **[أنبى للسيوف عن الهام]** يقال: نبأ السيف إذا رجع في الغربة ولم يعل، يعني: إنّ العضّ على الناجذ يستلزم تصلّب العضلات والأعصاب المتّصلة بالدماغ، فيقاوم ضربة السيف، وتكون نكايته فيه أقلّ، وقيل: هو كناية عن تسكين القلب وطرد الرعدة.

وأكملوا اللأْمَةَ وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها والحظوا الخَزَر واطعنوا شَزْراً ونافحوا بالظُّبىٰ

وأكملوا اللأْمَةَ] بالهمزة الساكنة: الدرع، وإكمال الدرع البضة والسواعد ونحوها، وبالممدودة مع تضعيف الميم جمع آلات الحرب من الدرع والرمح والسيف والجُنّة ومايحتاج إليه فيه، وفائدته شدّة التحصّن.

[**وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها]** القلقلة: التحريك، وفائدته سهولة جذبها حال الحاج إليها، فإنّ طول مكثها في الإغماد يوجب صداها، وصعوبة إخراجها حال الحاجة.

[**والحظوا الخَزَر]** بفتح الزاي: ضيق العين وصغرها، وكذلك تضييقها والنظر بمؤخّرها، وهو أمارة الغضب، فإنّ الإنسان إذا نظر من غضب عليه نظره خزراً، وفائدته إحماء الطبع، وترهيب العدوّ، وإنّ النظر بكليّة العين أمارة الفشل، ومن عوارض الطيش والخوف الموجب وطمع العدوّ وإنّ النظر بكلتيهما إليه يوجب التفطّن والحذر وأخذ الأهبّة والتخزّر والنظر خزراً استفعال له، ومظنّة لأخذ عزّته، ولأنّ النظر خزراً أمارة استحقار المنظور إليه.

[**واطعنوا شَزْراً]** بسكون الزاي وهو الضرب على غيراستقامة، بل يميناً وشمالاً، لأنّ الطعن يميناً وشمالاً يوسع الحال على الطاعن، ولأنّ أكثر المناوشة للخصم في الحرب يكون عن يمينه وشماله.

[**ونافحوا بالظُّبىٰ]** جمع ظبة، وهي طرف السيف، والمنافحة: التناول بأطراف السيوف، وفائدته أنّ مخالطة العدوّ والقرب الكثير منه يشغل عن التمكّن من ضربه.

وصلوا السيوف بالخُطا واعلموا أنّكم بعين الله ومع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله فعاودوا الكرّ واستحيوا من الفرّ فإنّه عار في الأعقاب

[**وصلوا السيوف بالخُطا**] وفائدته أنّ السيف ربّما يكون قصيراً فيطول بالخطوة ومدّ اليد، ولأنّ فيه الإقدام على العدوّ والزحف إليه، وذلك ممّا يوجب الإنفعال والتأخّر، وفيه قول الشاعر:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وقال الآخر:

نصل السيوف إذا قصرنا بخطونا يوماً ونلحقها إذا لم تلحق.

ثمّ أردف تلك الأامر بما يؤكّدها، فقال:

[**واعلموا أنّكم بعين الله**] يراكم، ويعلم أعمالكم وأفعالكم، وسرّكم وجهركم، فجدّوا واجتهدوا في العمل بمرضاته، وكونوا بمحذر منه، والباء هنا كالباء في قوله: وأنت بمرئى منّي وبمسمع.

[**ومع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله**] الّذي قال فيه صلى الله عليه وآله: ياعليّ سلمك سلمي، وحربك حربي، وقال فيه: عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ، يدور معه كيفمادار، فاثبتوا معه على قتال الأعداء.

[**فعاودوا الكرّ**] أي: إذا كررتم على عدوّكم كرّة فلا تقتصروا عليها، بل كرّوا كرّة أُخرى بعدها، وذلك عند التحرّف للقتال والإنحياز إلى الفئة.

[**واستحيوا من الفرّ**] أي: الفرار [**فإنّه عار في الأعقاب**] جمع عقب، وهو العاقبة ومايؤل إليه الأمر، قال سبحانه: ﴿خير ثواباً وخير عُقباً﴾ أي: عاقبة، يعني: إنّ الفرار عار في عاقبة أمركم، ومايتحدّث به الناس في مُستقبل الزمان عنكم، ويحتمل أن يكون المعنى أنّه موجب لبقاء العار في

ونار يوم الحساب وطيبوا عن أنفسكم نفساً وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحاً

ذرّياتكم وأولادكم.

[**ونار يوم الحساب**] لأنّه من الكبائر الّتي توجب استحقاق النار، وجعله ناراً مجازاً تسمية له باسم غايته، أو إشارة إلى تجسّم الأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ قال تعالى: ﴿ومن يولّهم يومئذ دُبُرَهُ إلاّ متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من اللّه ومأواه جهنّم وبئس المصير﴾.

[**وطيبوا عن أنفسكم نفساً**] تسهيل للموت عليهم، الّذي هو غاية مايلقونه من الشدائد في الحرب بالبشارة بما هو أعظم وأجلّ من الحياة الدنيا المطلوبة بترك القتال، وهو ماأعدّ لهم من الثواب الباقي، ونفساً منصوبة على التميز ووحّدت، لأنّ المميّز لايكون إلاّ واحداً، وإن كان في معنى الجمع، كما يقال: أنعموا بالاً وضيقوا ذراعاً، وأبقى الأنفس على جمعها لما لم يكن حاجة إلى توحّدها، تقول: وطّنوا أنفسكم على الموت، ولاتكرهوه، وهوّنوه عليكم، وأشار بالنفس الأوّل إلى الشخص الزائل بالقتل، وبالثانية إلى النفس المدبّرة لهذا البدن.

[**وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحاً**] أي: سهلاً، وروي سمحاً، وهو بمعناه، أي: مشياً لاتكلّف فيه ولاتجشع، فإنّ المتكلّف سريع الفرار، وهو أمر لهم بالمشي إلى غاية مايخافون من القتال ليوطنوا أنفسهم عليه، أو لينفروا بسرعة إلى الحرب، إذ من العبادة أن يستنفر الشجاع بمثل ذلك، فيسارع إلى داعيه لما يتصوّره فيه من جميل الذكر وحسن الأُحدوثة.

وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطنب فاضربوا ثبجه فإنّ الشيطان كامن في كسره قد قدّم للوثبة يداً، وأخّر للنكوص رِجْلاً

[**وعليكم بهذا السواد الأعظم**] أي: العدوّ الكثير، لما شحذهم بالأوامر المذكورة عين مقصدهم في مجاهدة هذا السواد الأعظم، يعني به جمهور أهل الشام مجتمعين.

[**والرواق المطنب**] الرواق: بيت كالفسطاط يعمل على عمود واحد، يريد به مضرب معاوية، فإنّه كان في مضرب عليه قبّة عالية، وحوله من صناديد أهل الشام مائة ألف، كانوا تعاهدوا أن لاينفرجوا عنه حتّى يُقتَلوا.

[**فاضربوا ثبجه**] أي: وسطه، وثبج الإنسان مابين كاهله إلى ظهره، عيّن لهم وسط الرواق وأغراهم به معلّلاً بقوله:

[**فإنّ الشيطان كامن في كسره**] والكسر جانب الخبأ، وأراد بالشيطان معاوية، وقيل: عمروبن العاص، وذلك أنّ الشيطان لمّا كان عبارة عن شخص يضل الناس عن سبيل اللّه، وكان معاوية في أصحابه كذلك عنده عليه السلام، لاجرم أطلق عليه لفظ الشيطان، ويحتمل إرادة الشيطان المطلق، إذ لمّا ضرب الرواق على غير طاعة اللّه كان محلاً للشيطان، ولذا استعار له لفظ الجلوس في كسره.

[**قد قدّم للوثبة يداً، وأخّر للنكوص رِجْلاً**] كناية عن تردّد معاوية وانتظاره لأمرهم إن جبنوا وإن شجعوا نكص وهرب، أو عن الشيطان على سبيل استعارة الوثبة والنكوص واليد والرجل، ويكون تقديم يده للوثبة كناية عن تزيينه، لأصحاب معاوية الحرب والمعصية، وتأخيره النكوص للرجل كناية عن تهيئته للفرار إذا التقى الجمعان، كما حكى اللّه سبحانه عنه:

فصمداً صمداً حتّى يتحلّى لكم عمود الحقّ ﴿وأنتم الأعلون﴾ واللّه معكم ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾

﴿فلمّا تراءى الجمعان نكص على عقبيه وقال إنّي بريء منكم﴾.

[**فصمداً صمداً**] أمرهم بقصد عدوّهم مؤكّداً له بتكريره، أي: أصمدوا لهم صمداً، أي: اقصدوا العدوّ قصداً.

[**حتّى يتحلّى لكم عمود الحقّ**] أي: إلى غاية أن يظهر لكم نور الحقّ بالنصر، واستعار لفظ العمود للحقّ الظاهر عن الصبح للمشاركة بينهما في الوضوح والجلاء والتجلّي ترشيح للإستعارة، كنى به عن ظهوره ونصوحه، أي: إلى أن يتّضح لكم أنّ الحقّ معكم بظفركم بعدوّكم وقهره، إذ الطالب لغير الحقّ سريع الإنفعال، قريب الفرار في المقاومة، وقوله:

[**﴿وأنتم الأعلون﴾**] تسكين لنفوسهم، وبشارة بالمطلوب بالحرب وهو العلوّ والقهر، كما بشّر اللّه به الصحابةال المشركين. وقوله:

[**واللّه معكم**] تثبيت لهم على المضي في طاعته، ﴿فإنّ حزب اللّه هم الغالبون﴾.

[**﴿ولن يتركم أعمالكم﴾**] أي: لم ينقصكم جزاء أعمالكم، وهو تذكير لجزاء اللّه لهم أعمالهم في الآخرة، وبعث لهم بذلك على لزوم العمل.

في معنى الأنصار، قالوا: لمّا انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله

ومن كلام له عليه السلام

[في معنى الأنصار، قالوا: لمّا انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة] أي: أخبارها: **[بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله]** فإنّه لمّا قبض صلى الله عليه وآله اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فخطبهم سعدبن عبادة ومدحهم في خطبته وأغراهم بطلب الإمامة، وقال: إنّ لكم سابقة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمان، فما آمن به من قومه إلاّ قليل، والله ماكانوا يقدرون أن يمنعوه ولايدفعوا عنه ضيماً حتّى أراد الله بكم خير الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، ورزقكم الإيمان به، والإقرار بدينه، فكنتم أشدّ الناس على مَن تخلّف عنه منكم، وأثقله على عدوّه من غيركم، حتّى استقاموا لأمره ودانت لأسيافكم العرب، وأنجز الله لنبيّكم الوعد، وتوفّي وهو عنكم راض، فشدّوا أيديكم بهذا الأمر فأنتم أحقّ الناس به.

فأجابوه جميعاً: إن وُفِّقتَ وأصبتَ ولن نعدوا أن نولّيك هذا الأمر، وأتى الخبر أبابكر وعمر، فجاءا مسرعين إلى السقيفة، فتكلّم أبوبكر فقال للأنصار: ألم تعلموا إنّا معاشر المهاجرين أوّل الناس إسلاماً، ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتم أنصار الدين ووزراء رسول الله صلى الله عليه وآله وإخواننا في كتاب الله، وأنتم المؤثرون على أنفسهم وأحقّ الناس بالرضا بقضاء الله والتسليم

....

لما ساق اللّه إلى إخوانكم، وأن لايكون انتقاص هذا الدين على أيديكم، وأنا أدعوكم إلى بيعة أبي عبيدة أو عمر، فكلاهما قد رضيت لهذا الأمر.

فقال عمر وأبوعبيدة: ماينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك، أنت صاحب الغار وثاني اثنين، وأمرك اللّه بالصلاة، فأنت أحقّ بهذا الأمر، فقالت الأنصار: نحن أصحاب الدار والإيمان، لم يُعبَد اللّه عانية إلاّ عندنا وفي بلادنا، ولا عُرِف الإيمان إلاّ من أسيافنا، ولاجمعت الصلاة إلاّ في مساجدنا، فنحن أولى بهذا الأمر، فإن أبيتم فمنّا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات لايجتمع سيفان في غمد، إنّ العرب لاترضى أن تؤمركم ونبيّها من غيركم.

فقال الحباب بن المنذر: نحن واللّه أحقّ بهذا الأمر، قد دان لهذا الزمر بأسيافنا من لم يكن يدين له، وإن لم ترضوا خليناكم عن بلادنا أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرحب لنعيد بها جذعة، واللّه لايردّ على أحد ماأقول إلاّ خطمت أنفر بسيفي هذا، فقام بشربن سعد الخزرجي وكان يحسد سعدبن عبادة أن يصل إليه هذا الأمر، وكان سيّداً في الخزرج فقال: إنّا لم نرد بجهادنا وإسلامنا إلاّ وجه ربّنا لاغرضاً من الدنيا، وأنّ محمّداً ﷺ رجل من قريش، وقومه أحقّ بميراث أمره، فاتّقوا اللّهَ ولاتنازعوهم معشر الأنصار.

فقام أبوبكر وقال: هذا عمر وأبوعبيدة بايعوا أيّهما شئتم، فقالا: لايتولّى هذا الأمر غيرك وأنت أحقّ به، أبسط يدك، فبسط يده فبايعاه وبايعه بشربن سعد، وبايعته الأوس كلّها، وحمل سعدبن عبادة وهو مريض فأُدخل منزله، وقيل: إنّه بقى ممتنعاً من البيعة حتّى مات بحوران في طريق

وقال: ما قالت الأنصار، قالوا: قالت منّا أمير ومنكم أمير، قال: فهلاّ احتججتم عليهم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصّى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم، قال: لو كانت الأمارة فيهم لم تكن الوصيّة بهم ثمّ قال فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة

الشام، ثمّ سؤال أمير المؤمنين عليه السلام هذه الوقعة، إذ لم يكن فيها، وكان مشغولاً بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله.

[**وقال: ما قالت الأنصار، قالوا: قالت منّا أمير ومنكم أمير، قال: فهلاّ احتججتم عليهم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصّى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم، قال: لو كانت الأمارة فيهم لم تكن الوصيّة بهم**] فإنّ العرف قاض بأنّ الوصيّة والشفاعة ونحوها إنّما تكون إلى الرئيس في حقّ المرئوس من غير عكس.

[**ثمّ قال**] عليه السلام: [**فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة**] إشارة إلى نفسه عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، وإضاعتهم لها إهمالهم له من هذا الأمر، وجه الإحتجاج أنّهم إن كانوا أحقّ بهذا الأمر من الأنصار لكونهم شجرة الرسول صلى الله عليه وآله فنحن أولى منهم لكوننا ثمرته، واختصاص الثمرة بالمثمر من وجهين:

أحدهما: القرب، ومزيّته ظاهرة.

وقد أردتُ تولية مصر هاشمبن عتبة ولو ولّيته إيّاها لمّا خلّى لهم العرصة ولا أنهز لهم الفرصة

والثاني: إنّ الثمرة هي المطلوبة بالذات من الشجرة وغرسها، فإن كانت الشجرة معتبرة فبالأولى اعتبار الثمرة، ويلزم من ذلك أحد أمرين: إمّا بقاء الأنصار على حجّتهم، أو كونه عليه السلام أحقّ بهذا الأمر، والخصم لايقول بكل منهما، وممّا ينسب إليه عليه السلام في هذا المعنى:

فإن كنتُ بالشورى حججتُ أُمورهم فكيف بهذا، والمشارون غُيّبُ
وإن كنتُ بالقربى ملكتُ أُمورهم فغيرك أولى بالنبيّ وأقرب

ومن كلام له عليه السلام
لمّا قلّد محمّد بن أبي بكر مصر، فملكت عليه وقتل (رض)

وكان قتله رضي اللّه عنه بعد وقعة صفّين، واضطراب الأمر على عليّ عليه السلام وطمع معاوية في البلاد، وقتله عمروبن العاص، وحشى جثّته في جوف حمار ميّت وأحرقه، فبلغه عليه السلام ذلك، فجزع له حتّى ظهر في وجهه وقال:

[**وقد أردتُ تولية مصر هاشمبن عتبة**] بن أبي وقّاص، وكان من شيعته عليه السلام والمخلصين في ولايته، وقتل معه بصفّين، وكان رجلاً مجرباً.

[**ولو ولّيته إيّاها لمّا خلّى لهم العرصة**] أي: عرصة الحرب.

[**ولا أنهز لهم الفرصة**] والنهز: النهوض لتناول الشيء والفرصة النهضة وهي ماأمكنك من نفسه.

بلا ذمّ لمحمّد فقد كان لي حبيباً وكان لي ربيباً

[بلا ذمّ لمحمّد فقد كان لي حبيباً وكان لي ربيباً].

ومجمل القصّة أنّه بعدما قوى أمر معاوية بعد وقعة صفّين طمع في مصر، وقد كان عمروبن العاص بايعه على أن يكون معه في قتال عليّ، وتكون مصر له طعمة، فبعثه إليها بعد صفّين في ستّةآلاف فارس، وقد كان فيها جماعة عظيمة ممّن يطلب بدم عثمان، وكانوا يزعمون أنّ محمّداً قتله، فانضافوا إلى عمرو، وكان معاوية كتب إلى وجوه أهل مصر: أمّا إلى شيعته فبالترغيب، وأمّا إلى أعدائه فبالترهيب، فكتب محمّدبن أبي بكر إلى عليّ عليه السلام بالقصّة يستنجده بالمال والرجال، فكتب إليه يعده بذلك، فجعل محمّد يدعو أهل مصر، فانتدب معه منهم أربعة آلاف رجل، فوجّه منهم ألفين عند كنانةبن بشر لاستقبال عمرو، وبقي هو في ألفين، فأبلى كنانة في ذلك اليوم بلاء حسناً، وقتل من عسكر عمرو خلقاً كثيراً، ولم يزل يقاتل حتّى قتل هو ومن معه، فلمّا قتل تفرّق الناس عن محمّد، وأقبل عمرو يطلب محمّداً، فهرب منه متخفّياً، فالتجى إلى خربة اختبى فيها، فدخل عمرو فسطاطه، وخرج معاويةبن خديج الكندي في طلب محمّد، فظفر به، وقد كاد يموت عطشاً، فقدّمه فضرب عنقه، ثمّ أخذ جثّت فحشاها في جوف حمار ميّت وأحرقه.

وقد كان عليّ عليه السلام وجّه لنصرته مع مالك بن كعب إلى مصر نحو من ألفي رجل، فسار بهم خمس ليالي.

وورد الخبر إلى عليّ عليه السلام بقتله وأخذ مصر فجزع عليه السلام جزعاً شديداً.

قال ابن أبي الحديد: أُمّ محمّدبن أبي بكر أسماءُ بنت عميس، كانت

كم أُداريكم كما تدارى البكار العَمدة

تحت جعفربن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبدالله، ثمّ قتل عنها يوم مؤتة، فخلف عليها أبوبكر، فأولدها محمّداً، ثمّ مات عنها، فخلّف عليها عليّ بن أبي طالب، فكان محمّد ربيبه ومريحه وجارياً عنده مجرى أولاده، ورضيع الولاء والتشيّعن الصبا، فنشأ عليه فلم يكن يعرف أباً غير عليّ عليه السلام، ولايعتقد لأحد فضيلة غيره، حتّى قال عليّ عليه السلام: محمّد ابني من صُلب أبي بكر.

ثمّ قال ابن أبي الحديد: ولمّا بلغ قتله عايشة جزعت عليه جزعاً شديداً، وقنتت في دبر كلّ صلاة تدعو على معاوية وعمروبن العاص ومعاويةبن خديج، وكان ابن خديج معلوناً خبيثاً يسبّ عليّ بن أبي طالب.

ثمّ روى: إنّ أسماء رأت رؤياً وأبوبكر في غزاة فعبّرها النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّه يرجع أبوبكر صالحاً، فتلقى أسماء منه فتحمل منه بغلام يسمّيه محمّداً يجعله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين.

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ أصحابه

لتقاعدهم عن الحرب [**كم أُداريكم كما تدارى البكار العَمدة**] البكار: جمع بكر، وهو الفتى من الإبل، والعمدة التي انشدخ باطن باطن أسنمتها لثقل الحمل وظاهرها صحيح، وذلك لكثرة ركوبها، أو ثقل حملها، ويسمّى ذلك العمد، ووجه الشبه قلّة صبرهم وشدّة إشفاقهم وفرارهم من

والثياب المتداعية كلّما حيصَتْ من جانب تهتّكت من آخر كلّما أطلّ منْسر من مناسر أهل الشام أغلق كلّ رجل منكم بابه، وانجحر انجحار الضَبَّة في جحرها والضبع في وجارها

التكلّف بالجهاد واستعانتهم كما يشتدّ جرجرة البكر العمد وفراره من مداومة الحمل، ووجه الذمّ حاجتهم إلى المداراة الكثيرة، وليس ذلك من شيم الرجال، بل من شأن البهائم ومن لاعقل له، وقوله:

[**والثياب المتداعية**] أي: الأسمال التي قد أُخلقت وسمّيت بذلك لأنّ بعضها ينخرق فيدعو بعضها إلى مثل حاله، تشبيه آخر لهم، وأشار إلى وجه الشبه بقوله:

[**كلّما حيصَتْ**] أي: خيطت [**من جانب تهتّكت**] أي: تخرّقت من] جانب [**آخر**] فكذا أصحابه كلّما أصلح حال بعضهم وجمعهم للحرب فس بعض آخر عليه.

[**كلّما أطلّ**] بالطاء المهملة أي: أشرف، ويروى بالظاء العجمة والمعنى واحد.

[**منْسِر**] بكسر الميم وفتح السين أو بالعكس، وهو القطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكثير [**من مناسر أهل الشام أغلق كلّ رجل منكم بابه، وانجحر**] أي: استتر [**انجحار الضبَّة**] أُنثى ضب [**في جحرها**] أي: بيتها [**والضبع في وجارها**] والوجار: بيت الضبع، إشارة إلى جبنهم، ومبالغة في خوفهم، وكنّى بإغلاق كلّ منهم بابه عند سماعهم بقرب جيوش الشام منهم عن فرارهم من القتال، وكراهية سماعهم للحرب، وشبّههم في الخوف والفرار بالضبّة والضبع حين يرى الصائد أوامراً يخافه، وإنّما خصّ الأنثى بالتشبيه

الذليل والله من نصرتموه ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق إنّكم لكثير في الباحات قليل تحت الرايات

مبالغة في جبنهم، لأنّ الأنثى أجبن وأذلّ من الذكر، ثمّ وصفهم بالذلّة وقلّة الإنتفاع بهم، بقوله:

[**الذليل والله من نصرتموه**] فإنّه إنّما يكون ذليلاً لكونهم كذلك، ويحتمل أن يكون إشارة إلى سوء آرائهم في تفرّقهم واختلافهم تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى، وقوله عليه السلام:

[**ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق**] فأصل مبالغة في حصر الذلّ لكلّ مستنصر بهم فيمن نصروه، وإلّا فوق الناصل السهم لا فوق له ولانصل، والسهم الأفوق الناصل المكسور الفوق المتردع المنصل والفوق موضع الوتر من السهم، يقال: أنصل السهم إذا خرج منه المنصل والفوق، فاستعار لهم من أوصاف السهم أرداها، وكنّى بذلك عن عدم فائدتهم ونكايتهم في العدوّ، كما لافائدة في الرمي بالسهم الموصوف.

[**إنّكم لكثير في الباحات**] جمع باحة، وهي ساحة الدار [**قليل تحت الرايات**] ذمّهم عليه السلام بوصفهم في الكثرة في المجامع والأندية، مع قلّتهم في الحرب تحت الألوية، كما أنّ مقابل ذلك من الإجتماع والكثرة في الحرب مع القلّة في غيره مدح.

قال أبوالطيب:

ثقال إذا لاقوا، خفاف إذا دعوا قليل إذا عدّوا، كثير إذا شدّوا

وقال الآخر:

ألستم أقلّ الناس عند أدائهم وأكثرهم عند الذبيح والقدر

وإنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكنّي واللّه لاأرى إصلاحكم بفساد نفسي أضرع اللّه خدودكم وأتعس جدودكم

[**وإنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم**] أي: عوجكم من أود الشيء بكسر الواو ياوداداً أي: أعوج، وتاردّ أي: تعوّج، أراد أنّه لايصلحهم إلاّ الغشم والقتل، وأنّهم من القوم الّذين إن لم تظلمهم ظلموك، كما هو شأن الملوك الظلمة والرؤساء الخونة من بني أُميّة وبني العبّاس ونحوهم، فإنّ الحجّاج أرسل المهلب إلى الخوارج فنادى في الكوفة من تخلّف عن المهلب بعد ثلاث فقد أحلّ دمه، وقتل جماعة فخرج الناس إليه يهرعون، ثمّ اعتذر عليه السلام عن ذلك بأنّ إصلاحهم بالظلم الّذي فيه فساده، والعاقل لايقدم على إصلاح غيره بفساد نفسه، بل إصلاح النفس أولى، فقال:

[**ولكنّي واللّه لاأرى إصلاحكم بفساد نفسي**] كما يفعل ملوك الدنيا بأن يستحلّوا من رعيتهم ما حرّم اللّه من دمائهم وأموالهم وأذيّتهم بأنواع الأذى إذا أرادوا إثبات ملكهم، وقيام دولتهم، ولو بفساد دينهم وأخلاقهم.

ومن هذا الكلام أخذ المأمون لما أغلظ عليه غلامه في الكلام فقال: إنّ الرجل إذا صلحت أخلاقه فسدت أخلاق أهل بيته وخدمه، وإذا فسدت أخلاقه صلحت أخلاقهم، ونحن لانسيء أخلاقنا لتصلح أخلاق غيرنا، ثمّ دعى عليهم بقوله:

[أضرع الله خدودكم] دعاء بالذلّ، أي: أذل وجوهكم: ضرع الرجل ذلّ وأضرعه غيره.

[واتعس جدردكم] أي: هلك حظوظكم، والجدّ الحظّ، والتعس الهلاك،

أي: جعلها إدباراً وتعساً، ثمّ نبّه عليه السلام على غلة استحقاقهم ذلك بقوله:

لاتعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل ولاتبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ ملكتْني عيني وأنا جالس فسنح لي رسول اللّهﷺ

[**لاتعرفون الحقّ**] من أوامر اللّه ونواهيه [**كمعرفتكم الباطل**] من أحوال الدنيا وباطلها والإشتغال بذلك عن أوامر اللّه.

[**ولاتبطلون الباطل**] بإنكاركم المنكر من أنفسكم ومن غيركم [**كإبطالكم الحقّ**] بتعاميمكم عن طاعة اللّه، وتخاذلكم عن إجابة مناديه، وفيه تبكيت لهم بالجهل، وغلبة الباطل على عقائدهم وأفعالهم.

وقال عليه السلام:
في سحرة اليوم الّذي ضُرِب فيه

[**ملكتْني عيني وأنا جالس**] استعار لفظ ملك للشوم، ووجه الإستعارة دخول النائم في غلبة النوم وقهره ومنعه له أن يتصرّف في نفسه، كما يمنع الملك العبد من التصرّف في أمره، وتجوز في العين وفي الإسناد إليها، أمّا الأوّل فأطلق لفظ العين على النوم لما بينهما من الملابسة إطباق الجنون من عوارضهما.

وأمّا الثاني: فإسناد الملك إلى النوم المتجوّز فيه بلفظ العين، وجملة وأنا جالس حاليّة، والواو للحال.

[**فسنح لي رسول اللّهﷺ**] قيل: أراد بالسنح حضور صورة رسول اللّهﷺ في لوح خياله، وقيل: يريد مرّ بي كما يسنح الظبا، والطير يمرّ بك.

فقلتُ يارسول اللّه مالقيت من أُمّتك من الأود واللدد فقال رسول اللّه ﷺ : ادع عليهم فقلت : أبدلني اللّه بهم خيراً لي منهم، وأبدلهم بي شرّاً لهم منّي

[**فقلتُ يارسول اللّه مالقيت**] ما استفهاميّة كأيّ، واستعملت هنا فيما يعظم أمره، كما في قوله تعالى : ﴿القارعة ماالقارعة﴾ أي : أيّ شيء لقيت [**من أُمّتك**] يارسول اللّه [**من الأود**] من اعوجاجهم عن الطريق [**واللدد**] أي : نزاعهم وخصامهم فيما لايعنيهم.

[**فقال رسول اللّه ﷺ : ادع عليهم**] قيل : إنّه يستلزم أمرين :

أحدهما : أنّه كان في غاية الكرب من تقصيرهم في إجابة ندائه ودعوته إلى الجهاد حتّى انتهت الحال إلى قتله.

الثاني : عدم رضائه عليه السلام عنهم.

[**فقلت : أبدلني اللّه بهم خيراً لي منهم، وأبدلهم بي شرّاً لهم منّي**] ولا دلالة فيه على أنّ فيهم خيراً وفيه شرّاً، بل هو على طريق قوله تعالى : ﴿قل ذلك خير أم جنّة الخلد﴾ لايدلّ على أنّ في النار خيراً، وقولهم المؤمن خير من الكافر.

قال السيّد (ره) : يعني بالأود الإعوجاج، وباللدد الخصام، وهذا من أفصح الكلام.

أمّا بعد، يا أهل العراق أنتم كالمرأة الحامل حملت، فلمّا أتمّت أملصت ومات قيّمها وطال تأيُّمها وورثها أبعدها

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ أهل العراق

[**أمّا بعد، يا أهل العراق أنتم كالمرأة الحامل حملت، فلمّا أتمّت أملصت**] أي: أسقطت حملها [**ومات قيّمها**] أي: بعلها الّذي يقوم بأمورها.

[**وطال تأيُّمها**] أي: خلوّها عن الأزواج، والايم: الّتي لابعل لها.

[**وورثها أبعدها**] أي: البعيد عنها لفقد أولادها وزوجها ممّن هو أقرب منه وبّخهم عليه السلام على تركهم القتال بعد أن شارفوا النصر على أهل الشام وتخاذلهم إلى التحكيم في تشبيههم بالمرأة الحامل، وأشار إلى وجوه الشبه بخمسة أوصاف، فالحمل يشبه استعدادهم وبقيتهم للحرب والإتمام يشبه مشارفتهم على الظفر والإملاص يشبه رجوعهم عن عدوّهم بعد طمعهم في الظفر به، وذلك رجوع غيرطبيعيّ، ولامعتاد للعقلاء، كما أنّ الإملاص أمر غيرطبيعيّ للحامل، ولامعتاد لها، ثمّ موت القيّم بأُمورها وهو زوجها وطول غربتها، وذلك يشبه عدم طاعتهم له الجاري مجرى موته عنهم، وطول ضعفهم لذلك، ودوام عجزهم وذلّتهم بعد رجوعهم لتفرّقهم وخروجهم عن الدين، فإنّ موت قيّم المرأة مستلزم لضعفها ودوام عجزها وذلّتها، ثمّ كونها قد استحقّ ميراثها البعيد عنها لعدم ولدها وزوجهذلك

أما واللّه ماأتيتكم اختياراً ولكن جئتُ إليكم سوقاً وقد بلغني أنّكم تقولون: عليٌّ يكذب قاتلكم اللّه

شبيه حالهم، حيث أخذ عدوّهم الّذي هو أبعد الناس عنهم مالهم من البلاد، واستحقاقه ذلك بسبب تقصيرم في مقاومته، وبهذه الوجوه من الشبه أشبهوا المرأة المذكورة، فاستحقّوا ذلك التوبيخ، ثمّ أبان عليه السلام تضجّره منهم فقال:

[**أما واللّه ماأتيتكم اختياراً**] وايثاراً للمقام بينهم [**ولكن جئتُ إليكم سوقاً**] قدرياً لأنّ الأحوال تحكم وتسوق الناس إلى مالايختارونه ابتداء، إذ لم يكن خروجه عليه السلام من المدينة الّتي هي دارالهجرة ومفارقة منزل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وقبره إلى الكوفة إلّا لقتال أهل البصرة وحاجته إلى الإستنصار بأهل الكوفة عليهم، إذ لم يكن جيش الحجاز وافياً بمقاتلتهم، ثمّ انصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشام، فدانت حاجته إلى المقام بينهم.

وفي بعض النسخ: ولاجئتكم شوقاً بالشين المعجمة، أي: شوقاً إليكم.

[**وقد بلغني أنّكم تقولون: عليٌّ يكذب**] فإنّه عليه السلام كان يخبر عن الملاحكم والكائنات، ويومى إلى أُمور أخبره بها رسول اللّه صلى الله عليه وآله كإخباره عن قصّة الخوارج، ومايكون منهم، وعن ذي الشدية، وأنّه سيقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ونحو ذلك من الأمور الغريبة، إلى الكذب، كما كان المنافقون الأوّلون في حياة رسول اللّه صلى الله عليه وآله ينسبونه إلى الكذب، فقال عليه السلام:

[**قاتلكم اللّه**] إنّ الّذي أُخبركم به من هذه الأُمور إنّما هو عن اللّه وعن رسوله.

فـعلى مـن أكـذب؟ أعلى اللّه؟ فـأنا أوّل من آمن به، أم على نبيّه ﷺ؟ فأنا أوّل من صدّقه، كلاّ! واللّه ولكنّها غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها ويل امّه كيلاً بغير ثمن، لو كان له وعاء

[**فعلى من أكذب؟ أعلى اللّه؟ فأنا أوّل من آمن به، أم على نبيّه ﷺ؟ فأنا أوّل من صدّقه**] واتّبع ملّته.

[**كلاّ واللّه**] ردّ لصدق دعواهم بعد الحجّة، كأنّه قال: فإذن دعواكم عليّ الكذب فيما أُخبركم به باطلة، ثمّ أشار عليه السلام إلى مجمل كلامه، وانه غيرماادّعوه من الكذب، بقوله:

[**ولكنّها**] لهجة، واللهجة اللسان والقول الفصيح.

[**غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها**] أي: إنّها أسرار بعدت عقولكم وغابت عن إدراكها، أو المعنى أنّها أقوال صادقة أخبرني بها رسول اللّه ﷺ منفرداً حال غيبتكم عنها وعدم حضوركم.

وقوله عليه السلام: لم تكونوا من أهلها حتّى يخبركم بها كما أخبرني، فإنّ الأسرار لايحتملها كلّ أحد وإنّ علم آل محمّد عليهم السلام صعب مستصعب لايحتمله إلاّ ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو مؤمن امتحن اللّه قلبه للإيمان، وقوله:

[**ويل امّه**] دعاء بالشرّ، أو إخبار به، والويل العذاب أو موضع في جهنّم، وإضافة إلى الأمّ دعاء عليها أن تصاب بأولادها، وقد تستعمل في مقام التعجّب واستعظام الأمر، وقد تستعمل في مقام الإسترحام للأمّ بفقدها أولادها، وقوله:

[**كيلاً بغير ثمن، لو كان له وعاء**] إشارة إلى مايلقيه عليه السلام إليهم من

﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾ اللّهمّ داحي المدحوّات وداعم المسموكات

الحكم الجامعة والمواعظ النافعة البالغة، والحجج الدامغة، والأسرار الإلهيّة، والعلوم الربّانيّة، لايريد منهم بذلك جزاء ولاشكوراً، ولاثمناً وهم لايفقهونها ولايهذبون بها أنفسهم، لكونها غيرمستعدّة لقبولها، فليس لهذه المواعظ والحكم إذاً وعاء يقبلها، واستعار لفظ الكيل وكنّى به عن كثرة مايلقيه إليهم منها، وكيلاً مصدر، أي: أكيل لهم العلم والهداية كيلاً بغير ثمن، لو كان فيهم من يعيه ويفهمه، وقوله:

[**﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾**] اقتباس من القرآن، وفي معرض التهديد بثمرة الجهل والتثاقل عن المشارعة إلى دعوته، أي: لتعلمنّ نبأ جهلكم وإعراضكم عمّا أمركم به بعد الموت أو يوم القيامة ﴿أن تقول نفس ياحسرتا على مافرّطتُ في جنب اللّه﴾ حيث لاينفع الندم، أو المراد ستعلمون عاقبة فعلكم هذا من ابتلائكم بالحكّام الظلمة والولاة الخونة بعد مفارقتي لكم، فيشملكم القتل والذل والصفار.

ومن خطبة له عليه السلام
يعلّم فيها الناس الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله

[**اللّهمّ داحي المدحوّات**] دحوت الرغيف دحواً: بسطته، والمدحوات الأرضون، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾.

[**وداعم المسموكات**] المرفوعات، وداعمها حفظها بالدعامة، أي:

وجابل القلوب على فطرتها وشقيّها وسعيدها

حافظ السماوات المرفوعات، كما قال تعالى: ﴿رفع سمكها﴾.

[**وجابل القلوب**] أي: خالقها [**على فطرتها**] وفي بعض النسخ: فطراتها بكسر الفاء وفتح الطاء جمع فطرة، ويجوز كسر الطاء كما قالوا في سدرة وسدرات، والفطرة الحالة الّتي يفطر اللّه الإنسان أي: يخلقه عليها خالياً من الهوى، وهي مايقتضيه محض العقل، وإنّما يختار الإنسان بسوء نظره مايغضي به إلى الشقاء، كما أُشير إليه في النبويّ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه».

[**وشقيّها وسعيدها**] بالجرّ بلد من القلوب، أي: وجابل الشقيّ من القلوب والسعيد على مافطرت عليه، وقد اشتملت هذه الخطبة الشريفة على النظم الطبيعيّ، والنهج الشرعي من الإبتداء بصفات المدعوّ من تمجيد اللّه والثناء عليه، ثمّ في صفات المدعوّ، وهو النبيّ ﷺ، ثمّ في أنواع المدعوّ به، فوصفه تعالى بكونه داحي المدحوّات، أي: باسط الأرضين السبع، وصدق البسط على جملة الأرض حينئذ لاينافي كونها كرة لسعتها، كما قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ وقال: ﴿والأرض مددناها﴾.

وقد قيل: بصدق البسط عليها باعتبار سطحها البارز من الماء، فإنه في الأوهام سطح مبسوط، وإن كان في اعتبار العقل مجدماً، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الّذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ وبقوله: ﴿وجعل لكم الأرض بساطاً﴾ وبكونه داعم المسموكات، أي: حافظ السماوات أن تقع على الأرض، ولاينافي ذلك كونها بغير عمد، لأنّ المراد بالدعامة الّتي بها تقوم السماوات قدرته تعالى وبكونه خالق القلوب على فطرتها واستعدادها

اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمّد عبدك ورسولك الفاتح لما انغلق والمعلن الحقّ بالحقّ والدافع جيشات الأباطيل

لسلوك سبيل الخير والشرّ، كما قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ وقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾، ثّ قال ﷺ:

[**اجعل شرائف صلواتك**] وأعظم رحماتك [**ونوامي بركاتك**] أي: مازاد منها [**على محمّد**] ﷺ وذكر له أحداً وعشرين وصفاً، وهي جهة استحقاق الرحمة من اللّه وزيادة البركة للمدعوّ بها.

[**عبدك**] وكون العبوديّة توجب استحقاق الرحمة أمر ظاهر.

[**ورسولك**] فإنّ الرسالة نوع خاص للعبوديّة.

[**الفاتح لما انغلق**] من سبل اللّه وطرق هدايته ومعرفته وطاعته باندراس الشرائع، وخفاء العدل، واستيلاء الجور على العدل.

[**والمعلن الحقّ**] أي: الدين والهدى [**بالحقّ**] أي: المعجزات الّتي بسببها تمكّن من إظهار الدين، أو بالحرب والخصومة من حاق فلان فلان، فحقّه أي: خاصمه فغلبه، أو بالبيان، أي: أظهر الدين بالبيان الواضح، والمراد أظهر الحقّ بعضه ببعض، وكلّ جزء من الحقّ حقّ، لأنّ الدين لم يظهر دفعة، وإنّما بني الدين على خمس، ثمّ كثرت فروعه وبالأصل يظهر الفرع، ثمّ قال:

[**والدافع جيشات الأباطيل**] أي: لثوران فتن المشركين وانبعاثهم لإطفاء نور اللّه أو لفتنتهم السابقة الّتي كانت معتادة لهم من الغارات وحروب بعض لبعض ونحو ذلك من الأمور الباطلة الّتي هي على غير القانون الشرعيّ، ثمّ قال:

والدامغ صولات الأضاليل كما حمل فاضطلع بها قوياً قائماً بأمرك مستوفراً في مرضاتك غير ناكل عن قدم ولا واه في عزم

[**والدامغ صولات الأضاليل**] استعار لفظ الدمغ لهلاك الضلال بالكلّية ببركة مقدمه ﷺ، ووجه الإستعارة كون الدمغ مهلكاً للإنسان، فأشبهه ماأهلك الباطل ومحاه من أفعال النبيّ ﷺ، والضلال هنا الإنحراف عن طريق اللّه اللازم عن الجهل بها، واستعار لفظ الصولات له ملاحظة تشبيه المنحرفين عن سبيل اللّه إلى الفساد في قوّة انحرافهم وشدّة فسادهم بالفحل الصايل.

[**كما حمل**] أي: لأجل أنّه حمل أعباء الرسالة [**فاضطلع**] أي: نهض [**بها قوياً**] يقال: فرس ضليع أي: قوي.

وفي بعض النسخ: به أي بما حمل حال كونه [**قائماً بأمرك**] وكذا المنصوبات بعده من قوله: مستوفراً وغير ناكل، فإنّها أحوال، ويجوز جعل الكاف للتشبيه، أي: صلّ عليه صلاة مناسبة مشابهة لتحميلك له الرسالة، وقيامه بأمرها، لأنّ الجزاء من الحكيم العدل يكون مناسباً للعقل المجزي.

[**مستوفراً في مرضاتك**] والوفر العجلة والمستوفر المستعجل، أي: مبادراً إلى طاعة اللّه عجلاً في رضائه بامتثال أوامره.

[**غير ناكل عن قدم**] أي: غير متأخّر عمّا يتقدّم فيه من طاعة اللّه، يقال: مضى قدماً، أي: تقدّم وسار ولم يعرج.

[**ولا واه في عزم**] أي: غير ضعيف فيمايعزم عليه من القيام بأمر اللّه ولامتوان فيه، من وهي أي: ضعف، والواهي الضعيف.

واعياً لوحيك حافظاً لعهدك ماضياً على نفاذ أمرك حتّى أورى قبس القابس وأضاء الطريق للحابط وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام، وأقام موضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام

[**واعياً لوحيك**] ضابطاً له قوي النفس على قبوله، يقال: وعيت الحديث أي: فهمته.

[**حافظاً لعهدك**] المأخوذ عليه بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

[**ماضياً على نفاذ أمرك**] أي: ماضياً مصراً على نفاذ أمرك في العالم، وجذب الخلق إلى سلوك سبيل، ثمّ أشار إلى ماانتهى إليه من الغاية باجتهاده في إرضاء اللّه، فقال:

[**حتّى أورى قبس القابس**] أي: أشعل أنوار الدين، وقدح زناد الابكار، حتى أظهر أنواع العلوم منها للمقتبسين، يقال: ورى الزند يورى أي: خرج ناره، والقبس: شعلة من نار، والقابس الذي يطلب النار استعار لفظ القبس لنور العلم والحكمة، ولفظ أورى لإظهار النبيﷺ تلك الانوار في سبيل اللّه تعالى.

[**وأضاء الطريق للحابط**] أي: جعل طريق الهدى مضيئاً للحابط، وهو الذي يسير ليلاً على غير جادة واضحة، فإنّهﷺ علم الناس كيفيّة السلوك إلى جادة النجاة، وأرشد إليها من كان يخبط في ظلمات الجهل.

[**وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام، وأقام موضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام**] تقدير الكلام هديت به القلوب إلى موضحات الأعلام، أي: إلى الأدلّة الواضحة على الحقّ، ونيّرات الأحكام وهي المطالب الحقّة الواضحة اللازمة عن تلك الأدلّة بعدما كانت القلوب فيه من خوضات الفتن والآثام اللازمة عمّا اجترحته من السيّئات.

فهو أمينك المأمون وخازن علمك المخزون وشهيدك يوم الدين وبعيثك بالحقّ ورسولك إلى الخلق اللّهمّ افسح له مفسحاً في ظلّك

[**فهو أمينك**] على وحيك ورسالتك [**المأمون**] على أسرارك، والمأمون من الزيغ والضلال، أو المأمون من أرجاس الجاهليّة وأنجاس الشرك، أو المأمون من شرّ الناس، كما قال: ﴿والله يعصمك من الناس﴾، والمأمون من جملة ألقاب رسول اللهﷺ.

[**وخازن علمك المخزون**] بالجرّ صفة العلم، وهوﷺ مخزن الأسرار الربّانيّة، والمعارف الإلهيّة، الّتي تقصر العقول البشريّة عن إدراكها ممّا لايحتمله ملك مقرّب، ولانبيّ مرسل، أو العلوم الغيبيّة الّتي لايتأهّل لحملها كلّ أحد، كما أُشير إليها بقوله: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾.

[**وشهيدك**] أي: شاهدك [**يوم الدين**] أي: الجزاء، وهو يوم القيامة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ أي: شاهداً يوم القيامة على أُمّته بما عملوا من خير وشرّ.

[**وبعيثك**] أي: مبعوثك [**بالحقّ**] أي: الدين الثابت الباقي نفعه وثمرته في الآخرة.

[**ورسولك إلى الخلق**] مبشّراً لهم ونذيراً.

ثمّ شرع في تفصيل المطلوب من هذا الدعاء، فقال:

[**اللّهمّ افسح له مفسحاً في ظلّك**] ومفسحاً مصدر، أي: وسّع له مفسحاً، والظلّ إمّا مجاز من قولهم فلان يشملني بظلّه، أي: ببرّه وإحسانه، أو حقيقة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وظلّ ممدود وماء مسكوب﴾

وأجره مضاعفات الخير من فضلك اللّهمّ اعل على بناء البانين بنانه وأكرم لديك منزله وأتمم له نوره واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة

وعلى الأوّل وجه المشابهة راحة المستظلّ بالظلّ، فأشبهها راحة الملتجي إلى جود اللّه المشمول ببرّه وإحسانه.

[**وأجره مضاعفات الخير من فضلك**] فإنّ مراتب نعم اللّه وإفضاله وكراماته غير متناهية.

[**اللّهمّ اعل على بناء البانين بنانه**] أي: ما شيّده من الدين حتّى تظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، ويحتمل أن يراد ماشيّده من الملكات، واستحقّه من مراتب الجنّة وقصورها.

[**وأكرم لديك منزله**] فأنزله المنزل المبارك الموعود ﴿وقل ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾.

[**وأتمم له نوره**] أي: النور الذي بعث به بأن تنشره في قلوب العالمين، أو النور الّذي في جوهر ذاته بأن تزيد كمالاته، أو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ربّنا أتمم لنا نورنا﴾.

وقد روي: إنّ نور محمّدﷺ يظفي سائر الأنوار، ثمّ يعطي المكلّفين أنواراً يسيرة يُبصرون بها مواطيء الأقدام، فيدعون اللّه تعالى بزيادة تلك الأنوار وإتمامها، فيستطيل نور محمّدﷺ حتّى يملأ الآفاق.

[**واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة**] أي: اجزه عوضً عن بعثته بالرسالة وتحمّل أعبائه أن يكون مقبول الشهادة في الآخرة، أي: مصدّقاً فيما يشهد به على أُمّته وعلى غيرهم من الأمم ومقبول مفعول اجز.

وذامنطق عدل وخطبة فصل اللّهمّ اجمع بيننا وبينه في برد العيش وقرار النعمة ومني الشهوات وأهواء اللذّات ورخاء الدعة

[**وذامنطق عدل**] نصب على الحال، وهما كناية عن تمام الرضى عنه ﷺ، إذ من كان مقبول الشهادة مرضي القول فلابدّ وأن يكون بريّاً من جهات الرذائل المسخطة، أو كناية عن كون معتقداته ومشاهداته من أعمال أُمّته وغيرها بريّة عن شوائب المفاسد، وكذلك رضاء أقواله في شفاعته وغيرها، وكونه ذامنطق عدل أي: لاجور فيه عن الحقّ.

[**وخطبة فصل**] أي: يخطب خطبة فاصلة بين الحقّ والباطل يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إنّه لقول فصل وما هو بالهزل﴾هو المقام المحمود الموعود به في قوله: ﴿عسى ربّك أن يبعثك مقاماً محموداً﴾ وهو المشارإليه في الأدعية بقوله: اللّهمّ آت محمّداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود.

[**اللّهمّ اجمع بيننا وبينه في برد العيش**] أي: رفاهيته، والعرب تقول عيش بارد ومعيشة باردة، أي: لاحرب فيها ولانزاع ولاكلفة، لأنّ البرد والسكون متلازمان كتلازم الحرّ والحركة، وهو في الآخرة يعود إلى ثمرات الجنّة العريّة من كدرات الأتعاب.

[**وقرار النعمة**] أي: مستقرّها، وهو الجنّة وحضرة ربّ العالمين.

[**ومني الشهوات**] أي: مايتمنّاه النفس من المشتهيات، وتهواه من اللذّات بنعيم الأبد.

[**وأهواء اللذّات**] ماتهواه الأنفس وتستلذّه.

[**ورخاء الدعة**] أي: اتّساع سكن النفس بلذّة المعارف والرخاء المصدر

ومنتهى الطمأنينة وتحف الكرامة

قالوا: أُخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع بالحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلّماه فيه، فخلّى سبيله، فقالا له: يبايعك ياأمير المؤمنين؟ فقال: أو لم يبايعني بعد قتل عثمان، لاحاجة لي في بيعته، إنّها كفّ يهوديّة

من قوله رجل رخي البال، أي: واسع الحال، والدعة: السكون.

[**ومنتهى الطمأنينة**] من مزعجات الدنيا وراحتها من مراعاة آفاتها، ومنتهى الطمأنينة غايتها، أي: ليس بعدها غاية.

[**وتحف الكرامة**] جمع تحفة، وهي مايكرم به الإنسان من اللطف والبرّ، ويجوز فتح الحاء، والمقصود ثمرات الجنّة وقطوفها الدانية، وسائر ماأعدّ اللّه لأوليائه ممّا لاعين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومن كلام له عليه السلام
قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

[**قالوا: أُخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع بالحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلّماه فيه، فخلّى سبيله، فقالا له: يبايعك ياأمير المؤمنين؟ فقال: أو لم يبايعني بعد قتل عثمان، لاحاجة لي في بيعته، إنّها كفّ يهوديّة**].

ثمّ نبّه عليه السلام على سبب امتناعه من ذلك، وهو أنّه مظنّة الغدر، فقال: كفّ يهوديّة، إذ من شأن اليهود الخبث والمكر والغدر، ثمّ فسّر تلك الكناية

لو بايعني بيده لغدرني بسُبَّته أما إنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقى الأُمّة منه ومن ولده يوماً أحمر

بقوله:

[**لو بايعني بيده لغدرني بسُبَّته**] والسبّة: الاست، وذكرها إهانة له، لأنّ الغدر من أقبح الرذائل، ثمّ ذكر من حاله في المستقبل أُموراً ثلاثة فقال:

[**أما إنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه**] الآمرة بالكسر الولاية نبّه بذلك أنّه يكون له أمارة على المسلمين، ونبّه على قصر مدّة أمارته بتشبيهها بلقعة الكلب أنفه، ووجه الشبه القصر، فقد كانت مدّة أمارته عدّة المتوفّي عنها زوجها، وقيل ستّة أشهر، ونبّه على الأمر الثاني بقوله:

[**وهو أبو الأكبش الأربعة**] والأكبش جمع كبش، وكبش القوم رئيسهم، إشارة إلى أنّه يكون له أربعة أولاد، رؤساؤهم عبدالملك وولّي الخلافة، وعبدالعزيز وولّي مصر، وبشر وولّي العراق، ومحمّد وولي الجزيرة، ويحتمل أن يراد بالأربعة أولاد عبدالملك وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وكلّهم ولّي الخلافة ولم يلها أربعة إخوة إلاّ هم، وأشار إلى الأمر الثالث بقوله:

[**وستلقى الأُمّة منه ومن ولده يوماً أحمر**] أي: شديداً، وروي موتاً أحمراً، والعرب تصف الأمر الشديد بالحمرة، ولعلّه لكون الحمرة وصف الدم، وهو إشارة إلى مايصدر منه ومن ذرّيته من الفساد في الأرض ومايلقى الناس منهم من القتل وانتهاك الحرمة وسوء السيرة.

لقد علمتم أنّي أحقّ بها من غيري ووالله لأُسلمَنَّ ما سلمت أُمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلّا عليَّ خاصّة التماساً لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرف الدنيا وزبرجها

ومن كلام له عليه السلام
لمّا عزموا على بيعة عثمان

[**لقد علمتم أنّي أحقّ بها من غيري**] الضمير للخلافة، ووجه أحقّيته استجماعه للفضائل النفسانيّة، والفواضل الداخليّة والخارجيّة، والكمالات الحسنة، والصفات المستحسنة، مضافاً إلى كونه معدن العلوم الربّانية، والأسرار الإلهيّة.

[**ووالله لأُسلمَنَّ**] أي: لأتركنّ المناقشة والمنازعة في هذا الأمر.

[**ما سلمت أُمور المسلمين**] أي: مدّة سلامتها من الفتنة والفساد.

[**ولم يكن فيها جور إلّا عليَّ خاصّة**] من غصب حقّي، والإستيثار بموضعي ومقامي.

[**التماساً لأجر ذلك وفضله**] فإنّ الصابر على أذى الناس له وعلى غصب حقّه محمود عند الحقّ وعند الخلق مأجور، والتماساً مفول له، والعامل لأسلمنّ، وكذا قوله:

[**وزهداً فيما تنافستموه من زخرف الدنيا وزبرجها**] والزخرف: الزينة، ويقال الذهب. والزبرج: النقش والزينة بالحلية، إشارة إلى أنّ الخلافة ليست مطلوبة له عليه السلام من حيث الرياسة الدنيويّة والمرجعيّة، ولذّة الأمر

أو لم ينه أُميّة عملها بي عن قرفي أو ما وزع الجهّال سابقتي عن تهمتي

والنهي، بل لأجل إقامة العوج، وهداية الخلق وإرشادهم وانتظام أُمور معاشهم ومعادهم، فمادام ذلك له نوع استقامة في الجملة وإن كان من المحال أن يبلغ كمال الإستقامة إلّا بخلافته، فهو عليه السلام لاينازع في هذا الأمر خوفاً من إثارة الفتنة وشقّ عصى الإسلام، وطلباً للأجر والفضل فإذا كان الأمر بخلاف ذلك وجب عليه المنازعة، ولعلّ ذلك إشارة إلى ماظهر في زمن عثمان ومعاوية من استيلاء الجور على العدل بالنسبة إلى زمن الخلفاء في السابقين.

ومن كلام له عليه السلام
لمّا بلغه اتّهام بني أُميّة بالمشاركة في دم عثمان

[أو لم ينه أُميّة عملها بي عن قرفي] والقرف: التهمة، يقال: قرفي بكذا أي: اتّهمني ونسبه إليّ.

[أو ما وزع] أي: كفّ **[الجهّال سابقتي عن تهمتي]** استفهام توبيخيّ عن عدم انتهائهم عن نسبته إلى المشاركة بدم عثمان، مع علمهم بحاله وقوّته في الدين، وعصمته عن المعاصي، سيّما قتل النفس الّتي حرّم اللّه، وفيه إنكار عليهم أو تعجّب منهم ونسبته لهم إلى الجهل العظيم لجهلهم بمناسبة حاله وسابقته في الإسلام، فإن كان عثمان غيرمحقون الدم ومستحقاً للقتل، فما هذا اللوم والإغراء للخلق بسفك الدماء والفتنة والفساد؟ وإن

ولما وعظهم اللّه به أبلغ من لساني أنا حجيج المارقين وخصيم المرتابين على كتاب اللّه تعرض الأمثال

كان محقون الدم فكيف ينسبون قتل النفس الّذي هو من أكبر المعاصي إليّ؟ مع علمهم بحالي.

ثمّ أشار إلى إعذار نفسه في ردعه إيّاهم عن غيبته ونسبة ذلك إليه بقوله:

[ولما] وعظهم أتى بلام الإبتداء للتأكيد، أي: للوعظ الّذي [**وعظهم اللّه به**] في القرآن الكريم والفرقان الحكيم، من النهي عن الغيبة والتهمة والإيذاء بقوله: ﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾ وقوله: ﴿ولايغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ ﴿والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغيرماكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مُبيناً﴾ وأمثال ذلك.

[**أبلغ من لساني**] أي: وعظي وردعي وزجري لهم إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب، وقوله عليه السلام:

[**أنا حجيج المارقين**] أي: الخوارج الّذين مرقوا من الدين، أو كلّ من خرج عن دين اللّه.

[**وخصيم المرتابين**] أي: الناكثين في نسبة هذا الأمر إليّ، وقيل: المنافقين الشاكّين في صحّة الدين، وقوله:

[**على كتاب اللّه تعرض الأمثال**] قيل: هو إشارة إلى الحجّة الّتي يحجّ بها ويخاصم، وتقريرها: إنّ تعلّق هذا المنكر به إمّا من جهة أقواله وأفعاله أو اعتقاداته وإرادته، والثلاثة باطلة، فتعلّق هذا المنكر به، ونسبة إليه باطلة بيان الحصر إنّ هذه الجهات هي جهات صدور المنكر عن الإنسان وبيان بطلان الأوّل.

في نفـوس الجهّال رحم اللّه امرء سـمع حكمـاً فـوعى ودعي إلى رشاد فدنى وأخذ بحجزة هاد فنجى

والثاني أنّه إن كـان قد حصل في أقواله وأفعـاله مايشبه الأمـر بالقتل أو فعله فأوقع في [**في نفوس الجهّال**] شبـهة القتل مـثل ماروي عنه عليه السلام لمّا سُئل عن قتل عثـمان، فقال: اللّه قـتله، وأنا معه، وكتخلّفه في داره يوم قتل عن الخروج، فـينبغـي أن يُعـرض ذلك على كـتـاب اللّه فـإنّه تعـرض الأمـثـال والأشـبـاه، فـإن دلّ علـى كـون شيء من ذلك قـتـلاً فليـحكم به، وإلاّ فـلا، ولن يدلّ على ذلك أبداً، فليس لهـم أن يحكمـوا بالقـتل مـن جـهـة قـول أو فعل، وأمّا بطلان الثالث فلأنّ علم مافي القلوب إلى اللّه وهو المجازي بمافيها من خـيـر أو شـرّ، ولـيـسـوا مطلعين علـى مـاهناك حتّى يحكمـوا بـالقـتل من جهتها، فإذاً حكم بتعلّق هذا المنكر به عليه السلام باطل.

ومن خطبة له عليه السلام

[**رحم اللّه امرء**] وفي رواية عبداً [**سمع حكماً فوعى**] الحكم الحكمة، علميّة كـانت أو عمليّة، ووعائه لها فـهمهـا كما أُلقيت إليـه، ودعاؤه عليه السلام لمثل هذا الموصوف يستلزم الأمر بتعلّمها وتعليمها.

[**ودعي إلى رشاد**] إلى مايـهديه ويرشـده في طريق معـاشه ومعـاده من العلوم والأعمال الشرعية.

[**فدنى**] أي: قرب من الداعي إليه وأجاب دعاءه.

[**وأخذ بحجزة هاد فنجى**] الحجزة: معقد الإزار، أي: يكون في

راقب ربّه وخاف ذنبه قدم خالصاً وعمل صالحاً اكتسب مذخوراً واجتنب محذوراً

سلوكه لسبيل اللّه وسيره إلى اللّه متمسّكاً بأُستاذ مرشد هاد عالم، ليحصل به نجاته في الدارين، وفوزه في النشأتين، وهو يدلّ على عدم خلوّ الزمان منه، كما ذهب إليه الإماميّة من عدم جواز خلوّ الزمان من مرشد هاد معصوم من الزلل مفطوم من الخلل، وفي زمان ظهوره وتمكّنه يجب الرجوع إليه والتعويل عليه بواسطة أو بدونها، وفي زمان غيبته كزماننا هذا، فيجب الرجوع إلى نائبه، والقائم مقامه المتبع له في أقواله وأفعاله المدلول على أوصافه في أخبارهم عليهم السلام، ثمّ قال عليه السلام:

[**راقب ربّه**] والمراقبة المحافظة، وقيل: هي مراعاة القلب للرقيب، وهو اللّه سبحانه، إذ يقول: ﴿إنّ اللّه كان عليكم رقيباً﴾ واستغراق القلب بمراعاة جلاله ويلزمها الخوف منه وتعطيل الجوارح عن الإلتفات إليه إلى المباحات فضلاً عن المحظورات.

[**وخاف ذنبه**] لم يقل ربّه إشارة إلى أنّ العقاب ليس من الصفات الذاتية، بل لأمر خارجيّ، وهو أنّ الذنب يوجب السخط والعقاب، وحيث كان سبباً له نسب إليه، وفيه إشعار بتجسّم الأعمال.

[**قدم**] عملاً [**خالصاً**] برياً من الرياء والسمعة [**وعمل**] عملاً [**صالحاً**] وصلاح العمل الإتيان به حسبما أُمر به، وهو نوع ممّا تقدّمه.

[**اكتسب مذخوراً**] وهو جميع ما أمرت الشريعة باكتسابه وتحصيله، فإنّه الذخر الباقي ليوم الفاقة إليه.

[**واجتنب محذوراً**] والمحذور الإثم الّذي يستلزم العقاب في الآخرة،

رمى غرضاً وأحرز عوضاً كابر هواه وكذّب مناه جعل الصبر مطيّة نجاته والتقوى عدّة وفاته ركب الطريقة الغرّاء

وهو جميع ماورد النهي عنه في الشريعة.

[**رمى غرضاً**] أي: حذف مقاصد الدنيا عن نفسه، وروي عرضاً بالعين المهملة، وهو متاع الدنيا.

[**وأحرز عوضاً**] من ذلك الغرض الدنيويّ وهو متاع الآخرة من العمل الصالح والملكات الفاضلة، فنعم العوض هي عن متاع الدنيا وإعراضها.

[**كابر هواه**] بتطويع نفسه الأمّارة للمطمئنّة والهوى للعقل وانقياد الغضب والشهوة إلى ميزان العقل والشرع.

[**وكذّب مناه**] فقابل مايلقيه الشيطان إليه من الأماني ويعده به بالتكذيب والقمع له بتجويز عدم نيلهما وتجسّم مادة ذلك بالمراقبة، فإنّ الوساوس الشيطانية تتبع بعضها بعضاً، ولذا قال عليه السلام: إيّاكم والمنى، فإنها بضائع النوكى أي: الحمقاء.

[**جعل الصبر مطيّة نجاته**] والصبر هو ثبات داعي الدين في مقابلة داعي الهوى واستعار له لفظ المطيّة لكون كلّ منهما سبباً للنجاة، لأنّ ركوب المطيّة والهرب عليها سبب النجاة من العدوّ.

[**والتقوى عدّة وفاته**] المراد بالتقوى إمّا الزهد أو الخوف من اللّه المستلزم له والعدّة ماستعدّ به الإنسان للقاء الحوادث، وحيث كان الموت أعظم حادث يسبق إلى الإنسان من أحوال الآخرة كانت التقوى عدّة للموت، فإنّ المتّقي لا عظم للموت عنده، كما مرّت الإشارة إليه.

[**ركب الطريقة الغرّاء**] أي: الواضحة بأن سلك في السير إلى اللّه

ولزم الحجّة البيضاء اغتنم المهل وبادر الأجل وتزوّد من العمل إنّ بني أُميّة ليفوقونني تراث محمّد صلى الله عليه وآله تفويقاً

تعالى الطريقة الواضحة المستقيمة، وهي الشريعة الّتي أتت بها الأنبياء والرسل.

[**ولزم الحجّة البيضاء**] وهي الشريعة أيضاً، والفرق بينهما أنّ الأوّل أمر بركوبها والثاني أمر بلزومها وعدم مفارقتها وإنّها وإن كانت واضحة، إلاّ أنّها طويلة كثيرة المخاوف، وسالكها أبداً محارب الشيطان، وهو في عرض آن يستزلّه عنها.

[**اغتنم المهل**] أي: أيّام مهلة العمل في الدنيا.

[**وبادر الأجل**] أي: سابقه بالعمل، لئلاّ ينقطع دونه.

[**وتزوّد من العمل**] أي: اتّخذ الأعمال الصالحة زاداً لطريق آخرته، قال المحقّق البحراني(ره): قد راعى عليه السلام في كلّ مرتبتين من هذا الكلام السجع المتوازي وجعل الصدر ثلاثاً، والآخر ثلاثاً، وعطف كلّ قرينة على مشاركتها في الحرف الأخير منها، وحذف حرف العطف من الباقي ليتميّز مايتناسب منها عن غيره، وكلّ ذلك بلاغة.

ومن كلام له عليه السلام

[**إنّ بني أُميّة ليفوقونني تراث محمّد صلى الله عليه وآله تفويقاً**] استعار لفظ التفويق لعطيّتهم له المال قليلاً، ووجه المشابهة قلّة مايعطونه منه مع كونه في دفعات كما يعطى الفصيل ضرع أُمّه لتدر، ثمّ يدفع عنها لتحلب، ثمّ يُعاد إليها

واللّه لئن بقيتُ لهم لأنفضنّهم نفض اللحام الوذام التربة اللّهمّ اغفر لي ما أنت زعلم به منّي فإن عدتُ فعد لي بالمغفرة عليّ

لتدر، وتراث محمّدﷺ إشارة إلى الفيء الحاصل ببركة محمّدﷺ وهو التراث اللغوي المكتسب عن الميّت بوجه ما.

[**واللّه لئن بقيتُ لهم لأنفضنّهم نفض اللحام الوذام التربة**] أقسم عليه السلام أنّه إنْ بقى لبني أُميّة ليحرمنّهم التقدّم في الأمور، واستعار لفظ النفض لإبعادهم عن ذلك، وشبّه نفضه لهم بنفض الحام وهو القصاب القطعة من الكبد أو الكرش من التراب إذا أصابته.

قال السيّد (ره): ليفوقونني يعطونني من المال قليلاً قليلاً، كفواق الناقة، وهي الحلبة الواحدة، والوذام: جمع وذمة، وهي الجزء من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض.

ومن كلمات يدعو بها عليه السلام

[**اللّهمّ اغفر لي ما أنت زعلم به منّي**] مغفرة اللّه للعبد تعود إلى ستره عليه أن يقع في مهاوي الهلكة في الآخرة، أو يكشف مقابحه لأهل الدنيا، ومااللّه أعلم به منه هو ماجاز أن يكون سيّئته من أفعاله، وهو لايعلم ذلك فيفعله.

[**فإن عدتُ**] في المعصية بعد المغفرة [**فعد لي بالمغفرة عليّ**] طلب تكرار المغفرة لما يعاوده ويتكرّر منه كذلك.

اللّهمّ اغفر لي ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاء عندي اللّهمّ اغفر لي ماتقرّبت به إليك ثمّ خالفه قلبي اللّهمّ اغفر لي رمزات الألحاظ وسقطات الألفاظ وشهوات الجنان وهفوات

[**اللّهمّ اغفر لي ما وأيت**] أي: وعدت [**من نفسي ولم تجد له وفاء عندي**] لأنّ مطال النفس بفعل الخير وعدم الوفاء به إنّما يكون عن خاطر شيطانيّ يجب الإستغفار منه، وسؤال ستره.

[**اللّهمّ اغفر لي ماتقرّبت به إليك ثمّ خالفه قلبي**] بشوبه بالرياء، أو مخالطته بالسمعة، وبمخالفة نيّة القربة بقصد غيراللّه بذلك، إذ كلّ ذلك شرك خفيّ، والرياء أمره عظيم، وخطره جسيم، وقد أُطلق عليه الشرك في الكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربّه أحداً﴾ . وفي الخبر: رياء شرك.

[**اللّهمّ اغفر لي رمزات الألحاظ**] الإشارة باللحظ وهو الإيماء الخارج عن حدود الشريعة، كما يفعل عند التنبيه على شخص ليعاب أو ليضحك منه، أو يظلم، وكلّ ذلك عن خواطر شيطانيّة، ينبغي أن يسأل اللّه رفع أسبابها، وستر النفس عن التدنّس بها، وكذا قوله:

[**وسقطات الألفاظ**] أي: الرديّ من القول، وماتجاوز حدود اللّه وخرج به الإنسان عن مستقيم صراطه.

[**وشهوات الجنان**] أي: القلوب، أي: جذب القوّة الشهويّة للنفس إلى مشتهياتها، وروي بالسين، ويكون المراد شهوات القلب وخواطره الّتي لايشعر بتفعيلها إذا خالفت أوامر اللّه.

[**وهفوات**] اللسان، أي: الزلل الحاصل من قبله.

أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي من سار فيها صُرِف عنه السوء؟ وتخوّف الساعة الّتي من سار فيها حاق به البلاء؟ فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن واستغنى عن الإستعانة باللّه في نيل المحبوب، ودفع المكروه وينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يولّيك الحمد دون ربّه

ومن كلام له عليه السلام
قاله لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج

فقال له ياأميرالمؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لاتظفر بمرادك من طريق علم النجوم.

روي: إنّ المشير عليه بذلك كان عفيف بن قيس أخا الأشعث بن قيس، وكان يتعاطى علم النجوم، فقال له عليه السلام:

[أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي من سار فيها صُرِف عنه السوء؟ وتخوّف الساعة الّتي من سار فيها حاق به البلاء؟ فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن] في صورة صغرى، وتقدير كبراه، وكلّ من كذّب القرآن كان كاذباً، وبيان تكذيبه: إنّ المنجّم إذا ادّعى أنّه سيقع كذا في وقت كذا، كان ذلك مكذباً لقوله تعالى: ﴿وماتدري نفس ماذا تكسب غداً وماتدري نفس بأيّ أرض تموت﴾، ثمّ قال عليه السلام:

[واستغنى عن الإستعانة باللّه في نيل المحبوب، ودفع المكروه] وذلك لأنّه يفزع إليه في ذلك دون اللّه تعالى.

[وينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يولّيك الحمد دون ربّه] وعلّل هذا

لأنّك بزعمك أنت الّذي هديته إلى الساعة الّتي نال فيها النفع وأمن الضرّ ثمّ أقبل عليه السلام على الناس، فقال: أيّها الناس! إيّاكم وتعلّم النجوم إلّا مايهتدي به في برّ أو بحر

الإلزام بقوله:

[**لأنّك بزعمك أنت الّذي هديته إلى الساعة الّتي نال فيها النفع وأمن الضرّ**] وهذا الكلام في صورة صغرى، أي: إنّك تزعم أنّك تهدي إلى ساعة النفع والضر، وكلّ من زعم ذلك فقد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدّقه دون اللّه، فينتج أنّه قد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدّقه دون اللّه.

[**ثمّ أقبل عليه السلام على الناس، فقال: أيّها الناس! إيّاكم وتعلّم النجوم إلّا مايهتدي به في برّ أو بحر**] من معرفة قوانين أوضاع الكواكب وحركاتها يهتدى بقصدها وعلى سمتها المسافرون في برّ أو بحر، فإنّ ذلك القدر منها غيرمحرّم، قيل: ونحوها قسمة الزمان، وحركة الفلك بالنسبة إلى السنة والشهر واليوم مأخوذاً عنها حساب يبنى عليه مصالح إمّا دينيّة كمعرفة أوقات العبادات كالصوم والحجّ ونحوهما أو دنيويّة كآجال المداينات وسائر المعاملات، وكمعرفة الفصول الأربعة ليعمل في كلّ منها مايليق به من الحراثة والسفر وأسباب المعاش، لأنّ هذه مصالح خاليةعن المفاسد، ولذا أمتن اللّه على عباده بخلق الكواكب في قوله: ﴿وهو الّذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر﴾ إلى قوله: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ ، وقوله عليه السلام:

فإنّها تدعو إلى الكهانة، المنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، سيروا على اسم اللّه

[فإنّها تدعو إلى الكهانة، المنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، سيروا على اسم اللّه] تعليل آخر للتحذير عن تعلّمها وتنفير عنها بقياس آخر موصول ينتج منه إنّ المنجّم في النار.

قال المحقّق البحراني: أمّا معنى الكاهن والساحر فاعلم إنّ من النفوس نفوساً تقوى على الإطّلاع على ماسيكون وعلى التصرّفات العجيبة في هذا العالم، فتلك النفس إن كانت كاملة خيرة مجذوبة من اللّه تعالى بدواعي السلوك إليه، فهي نفوس الأنبياء والأولياء ذوات المعجزات والكرامات، وإن كانت ناقصة شريرة منجذبة عن تلك الجهة وغير طالب لتلك المرتبة، بل مقتصرة على رذائل الأخلاق وخسايس الأمور، كالتكهّن ونحوه، فهي نفوس الكهنة والسحرة، وأكثر ماتظهر هذه النفوس القويّة في أوقات الأنبياء وقبل ظهورهم فإنّها تدعو إلى الكهانة، أي: تقصد قصدها، لأنّ المنجّم يتشبّه في إخباره بالكاهن.

ويتميّز الكاهن عن المنجّم بأن مايقوله عن قوّة نفسانيّة منه بخلاف المنجّم، وذلك ادّعى إلى فساد أذهان الخلق وإغوائهم لزيادة اعتقادهم فيه.

وأمّا الساحر فيتميّز عن الكاهن بأنّ له قوّة على التأثير في أمر خارج عن يديه آثاراً خارجة عن الشريعة مؤذية للخلق ونافعة كالتفريق بين الزوجين ونحوه، وتلك زيادة شرّ آخر على الكاهن، ادّعى إلى فساد أذهان الناس وزيادة اعتقادهم فيه وانفعالهم عنه خوفاً ورغبة.

. . . .

والكافر يتميّز عن الساحر بالبُعد الأكبر من اللّه، وحينئذ صار الضلال والفساد مشتركاً بين الأربعة، إلاّ أنّه معقول عليهم بالاشدّ والأضعف، فالكافر أقوى فيه من الساحر، والساحر أقوى فيه من الكاهن، والكاهن أقوى من المنجّم، فلذلك جعل عليه السلام الكاهن أصلاً في تشبيه المنجّم به، والساحر في تشبيه الكاهن، والكافر أصلاً في تشبيه الساحر به، فظهر من ذلك أنّ وجه التشبيه في الكلّ هو ضلالهم وإضلالهم للخلق.

وروي أنّه عليه السلام سار في تلك الساعة إلى الخوارج وكان من ظفره بهم ماهو مشهور.

واعلم أنّه يُعقل من نهي الشريعة عن تعلّم النجوم أمران:

أحدهما: إنّ أكثر المشتغلين بها والطالبين لمعرفة أحكامها يعتمدون فيمايرجون ويخافون عليها ويفزعون إلى ملاحظة أوقاتها، فينقطعون بذلك من الإلتفات إلى اللّه والفزع إليه، وذلك ممّا يضاد مطلوب الشارع، إذ كان غرضه الأوّل ليس إلاّ دوام التفار الخلق إليه.

الثاني: إنّ الاخبار عمّا سيكون في المستقبل يشبه علم الغيب وأكثر الخلق من العوام لايميّزون بينهما، فيكون ذلك سبباً لضلال الخلق، وضعف اعتقادهم في المعجزات، إذ الإخبار من الأنبياء عمّا سيكون منها يستلزم تلكهم في مثل قوله تعالى: ﴿قل لايعلم من في السماوات والأرض الغيب إلاّ اللّه﴾ وكان ذلك هو السبب في تحريم الكهانة والسحر أيضاً، والعقل أيضاً يطابق الشرع في تكذيب المنجّم في كثير من أحكامه، فإنّه قد ثبت في القواعد العقليّة أنّ كلّ كائن فاسد في هذا العالم، فلابدّ له من أسباب أربعة

معاشر الناس! إنّ النساء نواقص الإيمان، نواقص العقول، نواقص الحظوظ، فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصلاة والصيام في أيّام حيضهنّ

فاعلي وغائي وقابلي وصوريّ.

ثمّ القابلي مشروط في قبول كلّ حادث بشرائط فلكيّة وعنصريّ، ممّا لايتناهى ويمتنع اطلاع العقول البشريّة عليها وإحاطتها بها، لأنّ حساب المنجّم مبني على قسمة الزمان بالشهر واليوم والساعة والدرجة والدقيقة وأجزائها، وتقسيم الحركة بأزائها ورفعه بينهما نسبة عددية، وكلّ ذلك أُمور غيرحقيقيّة، وإنّما توجد على سبيل التقريب أقصى ما في الباب أنّ التفاوت بينهما لايظهر في المدد المتقاربة، لكنّه يشبه أن يظهر في المدد المتباعدة، ومع تجويز التفاوت كيف يمكن كلّياً أو جزئيّاً.

ومن كلام له عليه السلام
بعد فراغه من حرب الجمل في ذمّ النساء

حيث إنّ وقعة الجمل من الوقائع العظيمة، والفتن الجسيمة، الواقعة في الإسلام، المشتملة على هلاك جمّ كثير، وجمع غفير من المسلمين، منسوبة إلى رأي امرأة، أراد أن ينبّه عليه السلام على وجه نقصان النساء وأسبابه لتجنّب متابعتهنّ، فقال عليه السلام:

[معاشر الناس! إنّ النساء نواقص الإيمان، نواقص العقول، نواقص الحظوظ، فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصلاة والصيام في أيّام حيضهنّ] ولاريب إنّ الصلاة والصوم من كمال الإيمان، فتركهما نقص فيه،

وأمّا نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين منهنّ كشهادة الرجل الواحد وأمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال فاتّقوا شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذر

وإنّما سقطتا عنهما لأنّهما في حال مستقذرة لايتأهّل صاحبها للوقوف بين يدي ربّه، مضافاً إلى أنّ الصوم يزيد الحائض إلى ضعفها ضعفاً.

[وأمّا نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين منهنّ كشهادة الرجل الواحد] لقصورهنّ عن قبول تصرّف العقل، كما يقبله مزاج الرجل، كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾ حيث نبّه على ضعف القوّة الذاكرة فيهنّ، ولقلّة معاشرتهنّ لأهل العقل والتصرّفات، ولذا كانت أحكام القوى الحيوانيّة فيهنّ أغلب على أحكام عقولهنّ، فكانت المرأة أرقّ وأبكى وأحسد وألح وأبغى وأجزع وأوقح وأكذب وأمكر، أو أقبل للمكر، وأذكر لمحقّرات الأمور، ولذلك اقتضت الحكمة أن يكون الرجل عليها حاكماً ومدبّراً، كما قال تعالى: ﴿رجال قوّامون على النساء بما فضّل اللّه بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ .

[وأمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال] كما قال تعالى: ﴿يوصيكم اللّه في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين﴾ ، وحيث إنّ نقصانهنّ يستلزم الشرّ، قال عليه السلام:

[فاتّقوا شرار النساء] واهروا منهنّ، ولاتقربوهنّ.

[وكونوا من خيارهنّ على حذر] إذ الإنسان لايستغني عن معاشرتهنّ، فإذا عاشر فليعاشر خيارهنّ، وليكن على حذر وتحرّز وتثبّت في سياستها

ولاتطيعوهنّ في المعروف حتّى لايطمعن في المنكر أيّها الناس! الزهادة قصرة الأمل، والشكر عند النعم، والورع عن المحارم

وسياسة نفسه معها، إذ لم تكن الخيرة منهنّ خيرة إلاّ بالقياس إلى الشريرة.

[**ولاتطيعوهنّ في المعروف حتّى لايطمعن في المنكر**] وإن كان مايشرن ويأمرن به معروفاً وصواباً، وفيما يطلبه من زيادة المعروف والإحسان إليهنّ وإكرامهنّ بالزينة ونحوها، فإنّ طاعة آرائهنّ فيما يشرن به من معروف تدعوهنّ إلى الشور بما لاينبغي والتسلّط على الزمر به وزيادة إكرامهنّ من مقوّيات دواعي الشهوة والشرّ فيهنّ حتّى ينتهي بهنّ الطمع إلى الإقتراح وطلب الخروج إلى المواضع الّتي ترى فيها زينتهنّ ونحو ذلك، إذ العقل مغلوب فيهنّ بدواعي الشهوات.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أيّها الناس! الزهادة قصرة الأمل، والشكر عند النعم، والورع عن المحارم**] رسم عليه السلام الزهد بثلاثة لوازم له:

الأولى: قصر الأمل في الدنيا، لأنّ الزهد هو الإعراض عن متاع الدنيا وطيّباتها، وقطع الإلتفات إلى ماسوى اللّه، ومعلوم أنّ ذلك يستلزم قصر الأمل.

الثاني: الشكر على النعمة، لأنّ العبد بقدر إعراضه عن الدنيا يكون محبّاً للّه، كما أنّه بقدر بُعده من المغرب يكون قريباً من المشرق وبالعكس، والشكر حال للقلب يثمرها العلم بالمشكور، وهو في حقّ اللّه أن يعلم أنّه

فإن عزب ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولاتنسوا عند النعم شكركم فقد أعذر اللّه إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة

لامنعم سواه، وتلك الحال تتمّ العمل بالجوارح.

الثالث: الورع، وهو لزوم الاعمال الجميلة والوقوف على حدود اللّه عن التورّط في محارمه، وهو ملكة تحت العفّة، وذلك مستلزم للإلتفات عن لذّات الدنيا ومحابها، وقوله:

[**فإن عزب**] أي: ذهب وبعُد [**ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولاتنسوا عند النعم شكركم**] قيل يحتمل معنيين:

أحدهما: أنّه إن بعُد عليكم وشقّ اجتماع هذه الأمور الثلاثة فالزموا منها الورع، وفسّره بالصبر، لانّه من لوازمه ثمّ الشكر، وكأنّه رخّص لهم في طول الزمل لما يتصوّر فيه ممّا ينبغي لعمارة الأرض لعرض الآخرة، ولأنّ قصر الأمل أكثر مايعرض من غلبة الخوف على القلب والإلتفات عن الدنيا بالكليّة، وذلك غيرمراد للشارع من كلّ الناس.

الثاني: يحتمل أن يكون لما فسّر الزهد باللوازم الثلاثة في معرض الأمر بها قال بعدها إن صعبت عليكم هذه فاعدلوا إلى ما هو أسهل منها وهو الصبر عن المحارم عوضاً عن تمام الورع وو لزوم الأعمال الجميلة، والتذكّر لنعمة اللّه عند وقوعها لعرض شكرها بحيث لاينسى بالكليّة عوضاً من دوام الحمد والثناء، وقوله:

[**فقد أعذر اللّه إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة**] أعذر أي: أظهر عذره، ومسفرة: مشرفة، وهو تأكيد لماسبق من

الأمر بالزهد، وأشار بالحجج إلى الرسل، لقوله تعالى: ﴿رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل﴾ ولفظ الحجج مستعار، ووجه الشبه أنّه لما كان ظهور الرسل قاطعاً ألسنة حال الظالمين لأنفسهم في محصّل القيمة عن ﴿أن يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى﴾ أشبه الحجّة القاطعة، فاستعير لفظها لها، وأشار بأسفارها وظهورها إلى إشراق أنوار الدين عن نفوسهم الكاملة على نفوس الناقصين، وهو استعارة أيضاً.

وأشار ببروز عذر الكتب إلى ظهور أعذار اللّه إلى خلقه بتخويفهم وترغيبهم وإرشادهم إلى طريق النجاة وإسناد الأعذار إلى اللّه تعالى استعارة من الأقوال المخصوصة الّتي يبديها الإنسان عذراً لأفعال اللّه وأقواله الّتي عرف خلقه فيها صلاحهم.

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ الدنيا

[ما أصف من دار أوّلها عناء] أي: تعب ومشقّة **[وآخرها فناء]** لأنّ غايتها الموت، وماتستصحبه من فراق الزهل والأحبّة، والإشراف على الأهوال العظيمة، والإنسان فيها يتقلّب في العناء والمشقّة حالاً بعد حال إلى الموت، لأنّ مبدئه من نطفة، وإذا وقعت ف رحم المرأة اختلطت بمائها ودمها وغلظت، ثمّ الريح يمخض ذلك الماء الدم حتّى يتركه كالرائب الغليظ، ثمّ

. . . .

يقسمه في أعضائه لاناء أيّامه، فإن كان ذكراً فوجهه قبل ظهر أُمّه، وإن كان أُنثى فوجهها قبل بطن أُمّها، وذقنه على ركبتيه، ويداه على جنبيه، مقبض في المشيمة، كأنّه مصرور في صرّة، ويتنفّس من متنفّس شاق، وليس منه عضو إلاّ كأنّه مقموط فوقه حرّ البطن، وتحته ماتحته، وهو منعوط بمعاء من سرّته إلى سرّة أُمّه، وقد حبس اللّه دم الحيض فجعله له غذاء، فسبحان من ساق له رزقه وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة، لاتراه عين، ولاتصل إليه يد، وهو في هذه الحالات في الغمّ والضيق والظلمات، حتّى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوى جلده على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء، هاج الطلق بأمّه، فأزعجه أشدّ ازعاج، وزجره ملك فصار أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وصار رأسه قريب المخرج، فيجد من ضيق المخرج وعصره آلاماً عظيمة، وشدائد جسيمة، حتّى يولد ويسقط إلى الأرض، فإذا أصابته ريح أو مسّته يد وجد من ذلك من الألم ما لايجده من سلخ جلده.

وفي بكاء الأطفال منافع عظيمة، حيث أنّ في أدمغتهم رطوبة عظيمة إن بقيت فيها أحدثت عللاً عظيمة من ذهاب البصر وغيره.

وبعد ولادته يصرف ذلك الدم الّذي كان يغذوه في الرحم إلى ثدي أُمّه، وانقلب طعمه ولونه إلى ضرب آخر من الغذاء، فإذا جاع حرّك شفتيه، وأُلهم التقام ثدي أُمّه، الّذي خُلق عل ذلك النمط الغريب، والطرز العجيب، وجعل ينضح كلّما مصّه، ولو جرى لاختنق الصبيّ، وجعل متعدّداً ليكون واحد طعاماً، والآخر شراباً، ثمّ هو في هذه الأحوال في

....

ألوان من العذاب والآلام من الجوع والعطش والوجع، وممّا يلقي من الدفع والوضع واللفّ والحلّ والدهن والتمريخ إذا أُنيم على ظهره لم يستطع الإنقلاب على أحد جنبيه، ولايزال في هذه الأصناف من العذاب مادام رضيعاً يغتذي باللبن، لكونه رطب البدن، رقيق الأمعاء، ليّن الأعضاء، حتّى إذا قوى واحتاج إلى غذاء فيه صلابة طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس، ليمضغ بها الطعام فتلين عليه، ويسهل له إساغته، فلايزال كذلك وبعد خلاصه من آلام الرضاع يؤخذ بعذاب الأدب والدواء والأوجاع والأسقام.

ثمّ إذا أدرك كان همّه المال والأهل والولد، وابتلى بهم وبالشره والحرص ومخاطرة الطلب والسعي، ولايزال يتقلّب في هذه الآلام وأنواع الهموم والغموم والمصائب والأحزان، وفقد الأحباب والأهل والولدان، وهو مع ذلك لايملك لنفسه نفعاً ولاضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وله أعداء غلاظ شداد، يترصّدون الفرصة لإذهابه آناً فآناً، فأعدائه الخارجة من اللصوص وأهل المكر والخدعة والظلمة والحيّات والعقارب والحرّ والبرد والشياطين ونحوها، وأعداؤه الداخليّة كأخلاطه وعروق، فإنّ الصفراء والبلغم والسوداء والدم بمنزلة الأفاعي ذوات السموم، إن غلب واحد منها قتله.

وإنّ في بدنه ثلاثمائة وستين عرقاً بعضها ساكن، وبعضها متحرّك، إذا تحرّك الساكن، أو سكن المتحرّك قتله، وهو في كلّ آن مستعدّ لذلك،

ثمّ يبتلى بعذاب الهرم والشيخوخة، كما هو مشاهد معلوم،

في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من استغنى فيها فُتِن ومن افتقر فيها حزن ومن صحّ فيها سقم

ولايستريح من هذه الأمور حتّى يموت، ثمّ الموت أمره شديد، ومابعد الموت أعظم وأدهى.

فالمستعان بالله ولاحول ولاقوّة إلاّ بالله، ومن ذلك يعلم معنى قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾.

ثمّ قال عليه السلام في ذمّ الدنيا:

[**في حلالها حساب**] إشارة إلى مايظهر في صحفية الإنسان يوم القيامة من الآثار المكتوبة عليه ممّا خاض فيه من مباحات الدنيا وتوسّع فيه من المآكل والمشارب والمناكح والمراكب، فإنّ جميع ذلك يعوقه عن اللحوق بالمجرّدين الّذين جعلوا الدنيا بمنزلة الميتة، واقتصروا منها على قدر الضرورة، وإلى ذلك أُشير في النبويّ: إنّ الفقراء ليدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، وذلك لكثرة حساب الأغنياء وتعويقهم بثقل ماحمّلوا من الدنيا.

[**وفي حرامها عقاب**] وأمره واضح، وكفى بذلك منفراً عن الدنيا، فإنّ الحساب نوع من العقاب أيضاً، ولا نجاة إلاّ بالإقتصار على قدر الضرورة منها.

[**من استغنى فيها فُتِن**] إذ تكون محبّته لما استغنى به لفتنته وضلاله عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾.

[**ومن افتقر فيها حزن**] لأنّ الفقر الغالب لها ولم يجدها في غاية الهمّ والغمّ ونهاية الحزن على مايفوته منها، سيّما مايفوته بعد حصوله له.

[**ومن صحّ فيها سقم**] كما هو معلوم بالوجدان والعيان، يغني عن البيان.

ومن ساعاها فـاتته) ومن قعد عنها واتتـه ومن أبصر بها بصّرته ومن أبصر إليها أعمته

[**ومن ساعاها**] شدّد السعي لها وحرص في تحصيلها [**فاتته**) ومساعاتها استعارة كأنّها مع حرص طالبها عليها وتعسّرها عليه كالهاربة منه سعياً وهو ساع في طلبها، وأقوى أسباب فواتها لطالبها أنّ تحصيلها أكثر مايكون بمنازعة أهلها عليها ومجاذبتهم إيّاها، فتثور الشهوة والغضب والحرص عند المجاذبة للشيء وقوّة منع الإنسان له، وتجاذب الخلق للشيء وعزّته عندهم سبب لتفويت بعضهم له على بعض، وفيه تنبيه على وجوب ترك الحرص عليها والإعراض عنها، إذ كان فواتها اللازم من شدّة السعي لها مكروهاً للسامعين.

[**ومن قعد عنها واتته**] وهو أيضاً جذب إلى القعود عنها وتركها، وإن كان لغرض مواتاتها كما يفعله أهل الزهد الظاهريّ المشوب بالرياء والسمعة، وكذا الزهد الحقيقي، ففي الحديث القدسي: أوحى اللّه إلى الدنيا: أن اخدمي من خدمني، ونغّصي وكدّري عيش من خدمك.

[**ومن أبصر بها بصّرته**] أي: من جعلها سبب هدايته ومحلّ إبصاره بعين عقله استفاد منها البصيرة والهداية، فيعتبر بكلّ شيء، ويتّعظ بكلّ شيء، فإنّ في أحوالها وتقلّبها عبرة لأولى الأبصار وتذكرة لذوي الإستبصار.

[**ومن أبصر إليها أعمته**] أي: مدّ إليها بصر بصيرته، وتطلّع إليها بعين قلبه محبّة لها وعشقاً أعمت عين بصيرته عن إدراك أنوار الهداية، وكيفيّة سلوك الطريق القويم، والصراط المستقيم، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

الحمد للّه الّذي علا بحوله ودنى، مانح كلّ غنيمة وفضل

﴿ولاتمدّنّ عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربّك خير وأبقى﴾ .

قال السيّد (ره): وإذا تأمّل المتأمّل قوله عليه السلام ومن أبصر بها بصّرته وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لاتبلغ غايته، ولايُدرك غوره، ولاسيّما إذا قرن إليه قوله: ومن أبصر إليها أعمته، فإنّه يجد الفرق بين أبصر بها وأبصر إليها واضحاً نيّراً وعجباً باهراً.

ومن خطبة له عليه السلام
وهي من الخطب العجيبة وتسمّى الغرّاء

[**الحمد للّه الّذي علا بحوله**] الحول: القوّة، وليس المراد العلوّ المكانيّ، لتنزّهه عن الجسميّة، بل العلوّ العقليّ باعتبار كونه مبدأ كلّ وجود ومرجعه، فهو العليّ المطلق، الّذي لا أعلا منه في وجوده، ولمّا كان ذلك اعتباراً يلحقه بالقياس إلى كلّ موجود صدر عن قدرته وقوّته، لاجرم جعل للحوقه له مبدأ، وهو حول.

[**ودنى ؤ**] كما أنّ علوّه ليس مكانيّاً، فكذا دنوّه، بل هو اعتبار يحدثه العقل بسبب قرب إفاضة نعمه على قوابلها، وقربه من أبصار البصائر في صورة نعمة نعمة منها، ولذا جعل طوله مبدأ لدنوّه، والطول: الفضل.

[**مانح كلّ غنيمة وفضل**] المنحة: العطيّة، ومعلوم أنّ كلّ غنم وفضل فهو مصدره ومبدؤه.

وكاشف كلّ عظيمة وأزْل أحمده على عواطف كرمه وسوابغ نعمه وأؤمن به أوّلاً وبادياً وأستهديه قريباً هادياً قريباً هادياً

[**وكاشف كلّ عظيمة وأزْل**] أي: شدّة، وهما إشارة إلى كلّ نعمة صدرت منه على قابلها، فمبدؤها جوده ورحمته، سواء كانت وجوديّة كالصحّة والمال والعقل وغيرها، أو عدميّة، كدفع البأساء والضرّاء، كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿ومابكم من نعمة فمن اللّه ثمّ إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون ثمّ إذا كشف الضرّ عنكم﴾ الآية وبقوله: ﴿أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ ، ثمّ نبّه عليه السلام على مبدأ استحقاقه للحمد، وهو كرمه فقال:

[**أحمده على عواطف كرمه**] وهي نعمه وآثاره الخيريّة الّتي تعود على عباده مرّة بعد أُخرى، وكرّة غبّ أولى.

[**وسوابغ نعمه**] أي: نعمه السابغة الّتي لاقصور فيها عن قبول قابلها.

[**وأؤمن به أوّلاً وبادياً**] منصوبان على الحال، إشارة إلى الجهة الّتي هي مبدأ الإيمان، إذ كان باعتبار كونه أوّلاً مبدأ لجميع الموجودات، أو كونه بادياً هو كونه ظاهراً للعقل في جميع آثاره، فباعتبار ظهوره مع كونه مبدأ لكلّ موجود وأوّلاً له يجب الإيمان به، والتصديق بآلهيّته.

[**وأستهديه قريباً هادياً**] أطلب الهداية منه حال كونه [**قريباً**] قرباً عقلياً، أقرب إليّ من حبل الوريد، يسمع طلبي ودعائي، كما قال: ﴿فإنّي قريب أُجيبُ دعوة الداعي﴾ .

[**هادياً**] لمن استهداده، مرشداً لمن استرشده، مجيباً لمن دعا، وأشار بأنه باعتبار الوصفين مبدأ لطلب الهداية منه.

وأستعينه قادراً قاهراً وأتوكّل عليه كافياً وناصراً ولايؤده حفظهما، وهو العليّ العظيم وأشهد أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله عبده المنتجب

[وأستعينه] أطلب المعونة منه، حال كونه [قادراً] على كلّ شيء، لايعجزه شيء، فلايعجز عن إعانتي.

[قاهراً] كلّ موجود، مسخّر تحت حكمته وقدرته وحقير في قبضته، وباعتبار الوصفين كان مبدء للإستعانة.

[وأتوكّل عليه كافياً وناصراً] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾ والتوكّل الإعتماد في جميع الأمور على اللّه والعلم بأنّه هو الضارّ النافع دون من سواه، ولاينافيه الإتيان بالأسباب إذا لم يكن اعتماده عليها، ويجوز أن تكون الثمرة من غيرها، ولذا ورد: كن لما لاترجو أقرب من أن ترجو، ذهب موسى عليه السلام ليقتبس ناراً فنودي بالنبوّة، وكافياً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أليس اللّه بكاف عبده﴾ باعتبار كونه معطياً لكلّ قابل من خلقه مايكفيه، والناصر باعتبار إعطائه النصر لعباده، ﴿وماالنصر إلّا من عند اللّه﴾ وباعتبار هذين الوصفين كان تعالى مبدء لتوكّل عباده عليه، وإلقاء مقاليد أُمورهم إليه، وأشهد أن لاإله إلّا اللّه الّذي رفع السماء فبناها، وسطح الأرض فطحاها، قد مرّ تفسيرهما.

[ولايؤده] لايثقله ولايشقّ عليه [حفظهما، وهو العليّ العظيم] أعلا وأعظم من أن يصعب عليه شيء أو يمتنع عليه شيء.

[وأشهد أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله عبده المنتجب] والعبوديّة من المقامات العالية، قال تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ .

وقال عليه السلام: كفاني عزّاً أن أكون لكَ عبداً.

ورسوله أرسله لإنفاذ أمره وإنهاء عذره وتقديم نُـذُره أُوصيكم عبادَ اللّه بتقوى اللّه الّذي ضرب لكم الأمثال

[ورسوله] المرتضى [أرسله] بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه

[لإنفاذ أمره] أي: إجراء أحكامه على الخلق ليقرّوا له بالعبوديّة، ويعترفوا له بالربوبيّة.

[وإنهاء عذره] أي: ينهى إليهم ويبلغهم النصائح النافعة والمواعظ الجامعة الّتي تشبه الأعذار.

[وتقديم نُـذُره] وهو التخويفات والتهديدات الواردة على ألسنة الرُسُل إلى الخلق حتّى يستعدّوا للقاء اللّه يوم لاينفع مال ولابنون إلاّ من أتى اللّهَ بقلب سليم﴾ وظاهر كون الثلاثة أغراضاً للبعثة والضمائر الثلاثة راجعة للّه.

[أُوصيكم عبادَ اللّه] تنبيهاً لهم بهذه الكلمة أنّهم عباد مربوبون، وتحت حكمه مسخّرون، لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

[بتقوى اللّه] وخشيته، وقد مرّ معناها.

[الّذي ضرب لكم الأمثال] في كتابه العزيز وعلى ألسنة رسله، تقريباً للإفهام، فضرب مثل للمؤمن والكافر، ومثل الدنيا والآخرة وهكذا، قال تعالى: ﴿مثل الّذين حُمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ وقال تعالى في المؤمنين والكفّار: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع﴾ وقال تعالى: ﴿مثال الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح، إلى غير

ووقَّتَ لكم الآجال وألبسكم الرياش وأرفع لكم المعاش وأحاط بكم وأحصاه وأرصد لكم الجزاء

ذلك من الأمثال.

[ووقَّتَ لكم الآجال] وكتبها بقلم القضاء في اللوح المحفوظ، فقضى لكلّ أجلاً وأمداً ﴿فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون﴾ فتزوّدوا العمل قبل مجيء الأجل.

[وألبسكم الرياش] إشارة إلى قوله تعالى في مقام الإمتنان على عباده: ﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ ليذكروا أنواع نعمه فيستحيوا من مجاهرته بالمعصية، والرياش اللباس الفاخر، وقيل: الغنى بالمال.

[وأرفع] أي: أوسع [لكم المعاش] أي: أطاب معائشكم في الدنيا، كما قال: ﴿ورزقكم من الطيّبات﴾.

[وأحاط بكم] علمه ونفذت فيكم قدرته، كما قال: ﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط إنّه على كلّ شيء شهيد﴾.

[وأحصاه] منصوب على المصدر من غير لفظ فعله، إذ الإحاطة تتضمّن الإحصاء، كما قال تعالى: ﴿لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾ أو على التميز وحصول الترهيب والإنذار بذلك ظاهر، إذ علم العباد بأنّه لايشذّ أحد منهم عن إحاطة علمه بجذبهم إلى طاعته ويحذّرهم عن معصيته.

[وأرصد] أي: أعدّ [لكم الجزاء] جزاء أعمالكم إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، فقال: ﴿ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ وقال: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن

وآثركم بالنعم السوابغ والرفد الروافع وأنذركم بالحجج البوالغ وأحصاكم عدداً ووظّف لكم مدداً في قرار خبرة ودار عبرة

جاء بالسيّئة فكبّتْ وجوههم على النار هل يُجْزَون إلاّ ماكانوا يعملون﴾ .

[وآثركم بالنعم السوابغ] إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ .

[والرفد] جمع رفدة، وهي العطيّة .

[الروافع] الواسعة الطيّبة، بالغين المعجمة .

[وأنذركم بالحجج البوالغ] من كتبه ورسله وحججه، ﴿ولله الحجة البالغة﴾ لئلاّ يقولوا يوم القيامة ﴿إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ .

[وأحصاكم عدداً] إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ .

[ووظّف لكم مدداً] وهو كتوقيته لهم الآجال، وإنّما كرّر وصف الإحصاد والعدّ وهذين الوصفين أيضاً لأنّ الوهم كثيراًما ينكر إحاطته تعالى بالجزئيّات مع عدم تناهيها، فيكون ذلك مشتبهاً على النفس ويقدح في أمر المعاد والعقوبات اللازمة لكلّ آحاد الخلق بحسب كلّ ذرّة من الأعمال الصالحة فكرّرهما طرداً للوهم، ولأنّ ذكر توقيت الآجال من أشدّ المنغصات من الدنيا والدواعي إلى الآخرة، فناسب تكراره .

[في قرار خبرة] أي : محلّ اختبار الله خلقه وامتحانهم .

[ودار عبرة] ومحلّ عبرتم، أي : انتقال أذهانهم فيما يجري فيها من آيات العبرة، وآثار القدرة، والإستدلال على وجود الصانع ومايليق به ويمتنع عليه، وأكّد ذلك بقوله :

أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها فإنّ الدنيا رنق مشربها ردغ مشرعها يونق منظرها، ويوبق مخبرها غَرور حائل

[**أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها**] قيل: وفي هذين القرينتين مع السجع المتوازي نوع من التجنيس بين خبره وغيره، والإختلاف بالحرف الأوّل.

[**فإنّ الدنيا رنق**] أي: كدر [**مشربها**] كناية عن كدر لذّاتها بشوائب المصائب والأحزان، وشوب شهوات بالهموم والغموم والأشجان وواردات الأعراض وآلام الأمراض.

[**ردغ مشرعها**] والردغ: الوحل والتراب المختلط بالماء، ومشرعها محلّ الشروع في تناولها والورود في استعمالها، واستعار لفظ الردغ بالغين المعجمة لمشرعها باعتبار أنّ موارد تناولها والشروع فيها مزالق أقدام العقول عن سواء الصراط إلى طْرفي التفريط والإفراط، كما أنّ الطريق ذات الوحل كذلك.

[**يونق**] بالنون، أي: يعجب [**منظرها، ويوبق**] بالباء الموحّدة أي: يهلك [**مخبرها**] إشارة إلى إعجابها لذوي الغفلة بزينتها الحاضرة مع هلاكهم باختبارها وذوقهم لحلاوتها لغرض الإلتذاذ بها.

[**غَرور**] بفتح الغين، أي: ذات غرور، أي: تغرّ الخلائق بزخارفها، فيتوهّمون بقاها، ثمّ تنتقل عنهم وتحول، وهو المراد بقوله:

[**حائل**] وبضمّ الغين، أي: هي في نفسها غرور، والغرور عرفاً مايغترّ به، والحائل المنتقلة المتحوّلة، إذ هي تنتقل من شخص إلى آخر، لابقاء لها ولا ثبات ولا دوام.

وضوء آفل وسناد مائل حتّى إذا آنس نافرها، واطمأنّ فاكرها وقمصت بأرجلها وقنصت بأحبلها وأقصدتْ بأسهمها

[**وضوء آفل**] استعار لفظ الضوء لما يظهر منها من الحسن في عيون الغافلين، أو لما ظهر لهم من وجوه مسالكها فاهتدوا به إلى تحصيلها ومداخلها ومخارجها، وعلى التقديرين فهي ضوء آفل لايدوم.

[**وسناد مائل**] استعار السناد لما يعتمد الغافلون عليها من خيراتها الّتي لاأصل لها ولا ثبات، بل هي ﴿كشجرة خبيثة اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ ، وذكر الميل ترشيح للإستعارة.

[**حتّى إذا آنس نافرها، واطمأنّ فاكرها**] أي: هي تغرّ الناس بضوئها وظلّها وبهجة منظرها إلى غاية أن يستأنس بها من كان بعقله نافراً عنها، ويطمئنّ إليها من كان بمقتضى فكرته ناكراً لها، حتّى إذا كان ذلك منه طوعاً لها فعلت به أفعال العدوّ.

[**وقمصت بأرجلها**] يقال: قمصت الدابّة رفعت يديها وطرحتهما، استعار لفظ القمص لامتناعها على الإنسان عند حضور أجله، كأنّها تدفعه برجليها مولّية عنه، كما تفعل الدابّة، ورشّح بذكر الأرجل وإنّما جمع لاعتبار اليدين مع الرجلين، وغلّب الرجلين دون اليدين، لأنّ القمص بالرجلين أنسب.

[**وقنصت**] أي: صادت [**بأحبلها**] كناية عن تمكّن حبائل محبّتها والهيئات الرديّة المكتسبة منها في عنق نفسه، فاستعار القنص بالأحبل لتمكّن محبّتها في أعناق النفوس، كما يقنص الصائد عنق الصيد بحبل شراكه.

[**وأقصدتْ**] أي: أصابت القصد [**بأسهمها**] جمع سهم، استعار

وأعلقت المرء أوهاق المنيّة قائدة له إلى ضنك المضجع ووحشة المرجع ومعاينة المحل وثواب العمل وكذلك الخلف يعقب السلف لاتقلع المنيّة اختراماً، ولايرعوي الباقون اجتراماً

الأسهم للأمراض وأسباب الموت، وإقصادها كناية عن إصابتها، كناية بالمستعار لأوصاف الرأي تنزيلاً للدنيا منزلته.

[**وأعلقت المرء أوهاق المنيّة**] الأوهاق جمع وهق بالفتح: الحبل، أي: أعلقته أحبال المنيّة، وهي استعارة لمايجذب به إلى الموت من سائر أصحابه أيضاً، وكذا لفظ القائد في قوله:

[**قائدة له إلى ضنك المضجع**] كناية عن انسياق المريض في حبال مرضه الحاصل فيها إلى الأُمور المذكورة من ضنك المضجع، أي: ضيق القبر.

[**ووحشة المرجع**] إشارة إلى ماتجده النفوس الجاهلة عند رجوعها إلى مبدئها من وحشة فراق ماكان محبوباً لها في الدنيا، وماكان ألقته من مال وأهل وولد، وهي استعارات لوصف الصائد تنزيلاً للدنيا منزلته.

[**ومعاينة المحل**] أي: مشاهدة الآخرة الّتي هي محلّ الجزاء.

[**وثواب العمل**] أي: جزائه من خير أو شرّ.

[**وكذلك الخلف يعقب السلف**] أي: على الأحوال المذكورة للدنيا مضى الخلق يتبع خلفهم من سلف منهم، لا المنيّة تقصر عن اخترام نفوسهم، ولا قون منهم يرجعون عمّا هم عليه من ارتكاب الجرائم فيها والغرور بها، وهذا معنى قوله:

[**لاتقلع المنيّة اختراماً، ولايرعوي الباقون اجتراماً**] أقلع عن الشيء: امتنع منه، والإجترام: الموت دون المدّة الطبيعيّة، وارعوى: كفّ ورجع.

يحتذون مثالاً ويمضون إرسالاً إلى غاية الإنتهاء وصيّور الفناء حتّى إذا تصرّمت الأمور وتقضّت الدهور وأزف النشور أخرجهم من ضرائح القبور

[**يحتذون مثالاً**] يقال: حذا حذو فلان، أي: فعل فعله، أي: بل هم يقتدون بأمثالهم الماضين في ذلك.

[**ويمضون**] عليه [**إرسالاً**] جمع رسل بالفتح، وهو القطيع من الغنم تتبع القطيع.

[**إلى غاية الإنتهاء وصيّور الفناء**] صيّور: الأمر مايرجع إليه منه، أي: يمضون عليه اتّباعاً إلى غاية مسيرهم بمطايا الأبدان، ومصير أمرهم، وهو الفناء والعرض على الملك الديّان، وقد راعى أيضاً مع السجع التجنيس في قوله: يونق ويوبق، ونافرها وناكرها، وقمصت وقنصت، والإختلاف بحرف أوسط.

ثمّ أشار عليه السلام إلى مايلحق الناس بعد الموت بقوله:

[**حتّى إذا تصرّمت**] أي: تقضت [**الأمور**] أي: أحوال كلّ واحد واحد من الخلق في الدنيا.

[**وتقضّت**] أي: انقضت [**الدهور**] أي: مدّة كلّ شخص منهم.

[**وأزف**] أي: دنى [**النشور**] انتشار الأموات من قبورهم.

[**أخرجهم من ضرائح القبور**] والضرائح: جمع ضريح، وهو الشقّ في وسط القبر، استعار لفظ القبور للأبدان وضرائحها ترشيح للإستعارة، ووجه الشبه أنّ النفس تكون منغمسة في ظلمة البدن، وكدر الحواس متوحّشة عن عالمها، كما أنّ المقبور متوهّم لظلمة القبر ووحشته، منقطع عن

وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك وسراعاً إلى أمره مهطعين إلى معاده ورعيلاً صموتاً

الأهل والمال، وضمير المخرج يود إلى اللّه في صدر الخطبة.

[**وأوكار الطيور**] كأنّه استعير للنفس الناطقة، ووجه الشبه ماتشترك فيه النفس والطير من سرعة التصرّف والإنتقال، فالنفس بانتقال عقليّ، والطير بانتقال حسّي، وإذا استعير لفظ الطير للنفس فبالحريّ أن يُستعار لفظ الوكر للبدن، لما بينهما من المشاركة، وهو كونهما مسكناً لايسهل مفارقته.

[**وأوجرة السباع**] الأوجرة: جمع وجار، وهو بيت السبع، استعارة للأبدان أيضاً، والسباع إشارة إلى النفوس المطيعة لقواها الغضبيّة الّتي من شأنها محبّة الغلبة والإنتقام، كما أنّ السبع كذلك، وقوله:

[**ومطارح المهالك**] إشارة إلى الأبدان أيضاً، فإنّها مطارح مهالك الغافلين، الّذين اتّبعوا الشهوات أعني أبدانهم.

[**وسراعاً إلى أمره**] نصب على الحال بقوله: أخرجهم، وكذا مابعده من المنصوبات، وأمره هو حكم قضائه الأزليّ عليهم بالرجوع إليه، وعودهم إلى مبدئهم وسرعتهم إليه إشارة إلى قرب وصولهم، وهو في آن انقطاع علاقة النفس مع البدن، وهو على غاية من السرعة.

[**مهطعين إلى معاده**] أي: مقبلين إلى محلّ العود وماأعدّ لهم فيه من خير أو شرّ.

[**ورعيلاً**] أي: مجتمعين، إشارة إلى اجتماعهم في المحشر تحت حكم اللّه وقبضته.

[**صموتاً**] لايتكلّمون إلاّ من أذن له الرحمن، أو لأنّه يختم على أفواههم، أو للصمت، كناية عن خضوعهم وانقيادهم.

قياماً صفوفاً ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي عليهم لبوس الإستكانة وضرع الإستسلام والذلّة قد ضلّت الحيَل وانقطع الأمل وهو الأفئدة كاظمة

[قياماً صفوفاً] على ظاهره، أو قيامهم استعارة لاستشعار النفوس هيبة اللّه وعظمته، فتقوم على ساق العبوديّة وذلّ الإمكان، وصفوفاً استعارة لانتظامهم حينئذ في سلك علمه تعالى، إذ الكلّ بالنسبة إلى علمه على السواء، كما يستوي الصفّ المحسوس، أو استعار الصفّ لتربتهم في القُرب المعنويّ إلى اللّه، وقوله:

[**ينفذهم البصر**] إشارة إلى إحاطة علمه تعالى بهم.

[**ويسمعهم الداعي**] أي: داعي اللّه ومناديه من ملك أو غيره، وقيل: هو كناية عن حكم القضاء عليهم بالعود، وإسماعهم عموم ذلك الحكم لهم، بحيث لايمكن أن يخرج عنه منهم أحد.

[**عليهم لبوس الإستكانة وضرع الإستسلام والذلّة**] اللبوس: مايلبس، والضرع: الخضوع والإنكسار، إشارة إلى حالتهم الّتي يخرجون من قبورهم عليها، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم يدع الداعي إلى شيء نكر خشّعاً أبصارم يخرجون من الأجداث﴾ .

[**قد ضلّت الحيَل**] أي: حيل الدنيا، فلا حيلة لهم في الخلاص ممّا هم فيه، كما كانوا يخلصون بحيَل الدنيا من بعض شرورها.

[**وانقطع الأمل**] أي: أملهم فيها لامتناع عودهم إليها، وانقطاع طمعهم في ذلك.

[**وهو الأفئدة كاظمة**] ساكنة، أي: سَقطت النفوس في حضيض الذلّ

وخشعت الأصوات مُهَيْنِمَة وألجم العرق وعظم الشفق وأُرعِدَت الأسماع لزبرة الداعي إلى فصل الخطاب ومقايضة الجزاء ونكال العقاب

والفاقة إلى رضاء اللّه وعفوه.

[**وخشعت الأصوات مُهَيْنِمَة**] الهينمة: صوت خفيّ، إشارة إلى سؤالهم بلسان حالهم عفو اللّه ورحمته على وجه الذلّة والضعف، ورقّ العبوديّة في ملاحظة جلال اللّه، كما في قوله تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلاّ همساً﴾.

[**وألجم العرق**] أي: بلغ العرق إلى أفواههم، فصار لهم كاللجام.

[**وعظم الشفق**] أي: الإشفاق وهو الخوف، وقيل: كنّى بذلك عن غاية ماتجده النفس من كرب ألم الفراق، وهيبة اللّه وعدم الأُنس بالموت، إذ غاية الخائف التاعب أن يعرق ويشفق من نزول العقاب به، ونسبة الإلجام إلى العرق نسبة مجازيّة.

[**وأُرعِدَت الأسماع لزبرة الداعي**] أي: لانتهاره [**إلى فصل الخطاب**] إشارة إلى ماتجده النفس عند تيقّنها المفارقة، واستعار لفظ الزبرة لقهر حكم القضاء للأنفس على مرادها قهراً، لاتتمكّن معه من الجواب بالإمتناع وفصل الخطاب إمضاء أحكام اللّه على نفوس عباده عند الرجوع إليه.

[**ومقايضة الجزاء**] معارضتها بما أتت به خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، وإليه الإشارة بقوله:

[**ونكال العقاب**] والمقايضة: المعاوضة، والنكال: تنويع العقوبة، ثمّ أشار عليه السلام إلى تنبيه الخلق على حالهم المنافية لليقين بالمعاد، فقال:

عباد مخلوقون اقتداراً ومربوبون اقتساراً ومقبوضون احتضاراً ومضمّنون أجداثاً وكائنون رفاتاً ومبعوثون أفراداً ومدينون جزاء ومميّزون حساباً قد أُمهلوا في طلب المخرج

[**عباد**] أي: هم عباد [**مخلوقون اقتداراً**] أي: لم يخلقوا لذاتهم، بل خلقوا بقدرة قادر جبّار، وذلك مناف لعصيانهم له.

[**ومربوبون اقتساراً**] القسر: القهر والجبر، أي: لم يملكهم مالكهم باختيار منهم حتّى تكون لهم الخيرة في طاعته ومعصيته، بل ملكهم قهراً.

[**ومقبوضون احتضاراً**] أي: مستحضرون بالموت أو بملك الموت، مرتحلون إلى معادم.

[**ومضمّنون أجداثاً**] أي: من شأنهم أن يضمّنوا الأجداث جمع جدث، وهو القبر.

[**وكائنون رفاتاً**] أي: من شأنهم أن يصيروا رفاتاً، والرفات: الفتات من العظم ونحوه.

[**ومبعوثون أفراداً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وكلّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ أي: مجرّداً عن استصحاب غيره معه من أهل أو مال، وقال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة﴾.

[**ومدينون جزاء**] أي: مجزيّون بأعمالكم جزاء، وجزاء مصدر نصب بغير فعله.

[**ومميّزون حساباً**] أي: من شأنهم أن يميّزوا حساباً، أي: يحصون غداً، كما قال تعالى: ﴿ولقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾ وحساباً أيضاً.

[**قد أُمهلوا في طلب المخرج**] أي: إنّما أُمهلوا في الدنيا لطلب خلاصهم

وهدوا سبيل المنهج وعمّروا مهل المستعتب وكشفت عنهم سدف الريب وخلّوا لمضمار الجياد و رويّة الإرتياد أناة المقتبس

وخروجهم من ظلمات الجهل وورطات المعاصي إلى نور الحقّ ومتّسع الجود.

[**وهدوا سبيل المنهج**] أي: أُلهموا بأصل فطرهم ودلّوا بالأعلام الواضحة من الرسل والكتب والحجج على الطريق المستقيم والمنهج القويم.

[**وعمّروا مهل المستعتب**] أي: المسترضي، ولما كان من يطلب استعتابه ويقصد رجوعه عن غيّه يمهل ويدارى طويلاً كانت مهلة اللّه سبحانه خلقه مدّة أعمارهم ليرجعوا إلى طاعة ويعمل صالحاً، يشبه ذلك فنزلت منزلته، ومهل نصب على المصدر، لأنّ التعيّر إمهال.

[**وكشفت عنهم سدف الريب**] السدف: جمع سدفة، وهي ظلمة الليل، والريب: الشبه والشكوك، أي: أزال عن أبصار بصائرهم ظلم الشكوك والشبهات والجهالات بما وهبه لهم من العقول، وأيّدهم من بعثة الرسل.

[**وخلّوا لمضمار الجياد**] أي: تركوا في الدنيا ليضمروا أنفسهم بزاد التقوى، ولما استعار لفظ المضمار شحّه بذكر الجياد، إذ شرف المضمار ارتحل به جياد الخيل، وفيه تنبيه لهم على أن يكونوا من جياد مضمارهم.

[و] كذلك خلّوا [**رويّة الإرتياد**] أي: ليتفكّروا في طلب مايتخلّصون به إلى اللّه تعالى من سائر طاعاته، والرويّة: التأمّل، والإرتياد: الطلب، وكذا قوله:

[**أناة**] أي: ليتأنّوا أناة [**المقتبس**] للأنوار الإلهيّة، الطالب للإستنارة بها

في مدّة الأجل ومضطرب الأمل فيا لها أمثالاً صائبة ومواعظ شافية لو صادفت قلوباً زاكية وأسماعاً واعية وآراء عازمة وألباباً حازمة فاتّقوا اللّه من سمع فخشع واقترف فاغترف بها

[**في مدّة الأجل ومضطرب الأمل**] أي: في مدّة آجالهم، ومحلّ اضطرابهم في مهلتهم وتحصيلهم لماينبغي لهم من الكمالات، ومن ملك من عبيده هذه الحالات وأفاض عليهم ضروب هذه الإنعامات، فكيف يليق بأحدهم أن يجاهره بالعصيان أو يتحاسر أن يقابله بالكفران ﴿إنّ الإنسان لكفور مبين﴾.

ثمّ أشار ﷺ إلى التنبيه على فضل موعظته والتعريض بعدم القلوب الحاملة لها، ثمّ الحثّ على التقوى فقال:

[**فيا لها أمثالاً صائبة**] مطابقة للميل به [**ومواعظ شافية**] من أمراض الجهل [**لو صادفت قلوباً زاكية**] مستعدّة لقبول الهداية.

[**وأسماعاً واعية**] وعي الإستماع فهم القلوب عنها، وإنّما وصفها بالوعي لأنّها أيضاً قابلة لقشور المعاني مؤدّية لها إلى قوّة الحسّ ثمّ الخيال.

[**وآراء عازمة**] وعزم الآراء وتوجيه الهمّة إلى ماينبغي، والثبات على ذلك.

وألباباً حازمة] وحزامة الألباب جودة رأي العقول فيماتختاره، وظاهر أنّ هذه الثلاثة هي أسباب نفع الموعظة وتأثيرها.

[**فاتّقوا اللّه من سمع فخشع**] أي: تقوى من استعدّ قلبه لسماع الموعظة فخشع عنها للّه.

[**واقترف**] أي: تقوى من اكتسب الذنوب والسيّئات.

[**فاعترف بها**] وأناب إلى اللّه.

و من وجل فعمل وحاذر فبادر و من أيقن فأحسن و عُبِّر فاعتبر بها وحُذِّر فازدجر وأجاب فأناب و راجع فتاب واقتدى فاحتذى و أرى فرأى فأسرع طالباً ونجى هارباً فأفاد ذخيرة

[و] تقوى [**من وجل**] أي: خاف مقام ربّه، وأقلقه خوف.

[**فعمل**] أي: التجأ إلى الأعمال الصالحة.

[**وحاذر**] عقاب ربّه.

[**فبادر**] إلى طاعته ورضاه.

[و] تقوى [**من أيقن**] بالموت ولقاء ربّه.

[**فأحسن**] العمل وأخلصه للّه.

[و] تقوى من [**عُبِّر**] أي: رمي بالعبرة وذكّر بها [**فاعتبر بها**] وجعلها سُلّماً يعبر فيها ذهنه السليم إلى العلم بمصالحه.

[**وحُذِّر**] من سخط اللّه وعقابه [**فازدجر**] أي: فرجع عن معصيته.

[**وأجاب**] داعي اللّه [**فأناب**] ورجع إليه بسرّه وعلانيته.

[و] تقوى من [**راجع**] فكره وعقله [**فتاب**] أي: فاستعان به على شياطينه وقهر نفسه الأمّار فتاب من متابعتها.

[**واقتدى**] بأنبياء اللّه وأوليائه، وهداهم الّذي أتوا به.

[**فاحتذى**] أي: حذى حذوهم في أحوالهم وأفعالهم.

[و] تقوى من [**أرى**] الحقّ وأظهر لعين بصيرته طرق اللّه وسبله.

[**فرأى**] أي: فعرفها [**فأسرع طالباً**] لما تسلك له وينتهي إليه [**ونجى**] فيها [**هارباً**] من ظلمات الجهل.

[**فأفاد ذخيرة**] أي: فاستفاد في سلوكه لها وطاعة لربّه في ذلك ذخيرة

وأطاب سريرة وعمّر معاداً واستظهر زاداً ليوم رحيله و وجه سبيله وحال حاجته وموطن فاقته وقدّم أمامه لدار مقامه فاتّقوا اللّه عباد اللّه جهة ماخلقكم له واحذروا منه كنه ماحذّركم من نفسه

لمعاده.

[**وأطاب**] بسلوكها [**سريرة**] أي: سريرته عن نجاسات الدنيا.

[**وعمّر**] بما يكتسبه في سلوكها من الكمالات المستعدّة.

[**معاداً**] أي: معاده.

[**واستظهر**] به [**زاداً ليوم رحيله**] من دنياه إلى آخرته.

[**و**] استعدّ به إلى [**وجه سبيله**] الّتي هو سالكها ومسافر فيها.

[**وحال حاجته وموطن فاقته**] فإنّ كلّ مرتبة من الكمال حصلت للإنسان فهي تعدّ مرتبة أعلى منها لو لم يحصلها لظهرت له حاجته في الآخرة إلى أقلّ منها، حيث لايجد إليها سبيلاً، وكذا قوله:

[**وقدّم أمامه**] أي: قدّم مااستظهر به زاداً أمامه، أي: تلقّى حجّته التي هو مستقبلها.

[**لدار مقامه**] أي: الآخرة.

[**فاتّقوا اللّه عباد اللّه جهة ماخلقكم له**] أي: باعتبار ماخلقكم له، وهو معرفته والتقرّب إليه، أي: اجعلوا تقواكم للّه نظراً إلى تلك الجهة، لا لجهة الرياء والسمعة، وجهة منصوب على الظرف، أو مفعول به لفعل مقدّر، أي: واقصدوا بتقواكم جهة ماخلقكم له.

[**واحذروا منه كنه ماحذّركم من نفسه**] أي: اسلكوا في حذركم منه حقيقة تحذيره لكم من نفسه بما توعّد به، وذلك الحذر إنّما يحصل بالبحث

واستحقّوا منه ماأعدّ لكم بالتنجّز لصدق ميعاده والحذر من هول معاده جعل لكم أسماعاً لتعي ماعناها وأبصاراً لتجلو عن غشاها

عن حقيقة المحذور منه، والسالكون إلى اللّه في تصوّر ذلك على مراتب متفاوتة.

[واستحقّوا منه ماأعدّ لكم بالتنجّز لصدق ميعاده] استحقاق ماوعد اللّه به من جزيل الثواب إنّما يحصل بالإستعداد له فهو لأمر بالإستعداد له، والإستعداد يحتاج أسباب ذكرها في أمرين:

أحدهما: التنجّز، أي: طلب انجاز الوعد وقضائه، وذلك إنّما هو بالإقبال على اللّه وطاعته كما قال تعالى: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ .

وثانيهما: ما أشار إليه بقوله:

[والحذر من هول معاده] وذلك باجتناب مناهيه والإرتداع بزواجره ونواهيه.

ومنها: مايشتمل على تذكير اللّه عباده ضروب نعمه، والتنبيه على تذكّر حال الماضين والإعتبار بهم، فقال:

[جعل لكم أسماعاً لتعي ماعناها] أي: ماأهمّها، إذ فائدة الإستماع أن تعي ماخلقت لاجل.

[وأبصاراً لتجلو عن غشاها] إذ فائدة الإبصار أن يدرك بها الإنسان عجائب مصنوعات اللّه وغرائب مخلوقاته، فيحصل له منها عبرة، والغشا مستعار لظلمة الجهل العارض لأبصار القلوب، فيكون التقدير ليجلو غشاء قلوبها، وحينئذ فإدراك البصير المحصّل برة يحصل للقلب به جلاء لذلك

وأشلاء جامعة لأعضائها ملائمة لأحنائها بأبدان قائمة بأرفاقها وقلوب رائدة لأرزاقها في مجلّلات نعمه

الغشاء، فصحّ إذاً إسناد الجلاء إلى الأبصار.

ويحتمل أن يكون مستعاراً لعدم إدراكها، إدراكاً تحصل منه عبرة، إذ كانت فائدتها ذلك، فإذا لم يحصل منها ذلك الإدراك كانت كبصر أصابه الفساد، ووجه الشبه عدم الفائدة ونسبة الجلاء إليها موجود الإدراك المفيد عبرة منها، وهو استعارة أيضاً، وعن ليست بزائدة، لأنّ الجلاء يستدعي مجلوداً، ومجلواً عنه، فذكر عليه السلام المجلوّ وأقامه مقام المجلوّ عنه، فكأنّه قال لتجلو عن قواها غشاها.

[وأشلاء] جمع شلو، وهو العضو أو القطعة من اللحم، وكنّى به عن الجسد.

[جامعة لأعضائها ملائمة لأحنائها] والحنو الجانب، أي: متناهية الجوانب والأقطار في تراكيب صورها ومدد عمرها.

[بأبدان قائمة بأرفاقها] أي: منافعها، ويروى بأرماقها، والرمق بقيّة الروح، إنّ كلّ بدن قائم في الوجود بحسب ماهيّء له من ضروب المنافع.

[وقلوب رائدة لأرزاقها] بأن هدى نفوسهم لارتياد أرزاقهم الّتي بها قوام حياتهم، والتمكّن من إصلاح معاشهم ومعادهم.

[في مجلّلات نعمه] وسوابعها، ومن جملتها ستره عليهم قبائح أعمالهم أن تظهر، وهواجس خواطرهم بعضهم لبعض، بحيث لواطّلع كلّ على حاله في ضمير صاحبه من الغلّ والحسد وتمنّى زوال نعمته لأفنى بعضهم بعضاً وخرب نظام وجودهم.

وموجبات مننه وحواجز عافيته وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم من مستمتع خلاقهم ومستفتح خناقهم أرهقتهم المنايا دون الآمال

[**وموجبات مننه**] نعمه الّتي يستوجب أن يمنّ بها، وروي بفتح الجيم فالمراد بالمنن إذاً النعم وموجباتها، فأسقط منها وافيض على العباد.

[**وحواجز عافيته**] أي: ماصنع منها غوائل الأمراض المضارّ المندفعة بها.

[**وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم**] وإنّما ذكر ستريّة الأعمار ف معرض المنّة لأنّه من النعم العظيمة على العبد، إذ كان اطّلاع الإنسان على كمّية عمره ممّا يوجب اشتغال خاطره بخوفه من الموت عن عمارة الأرض ويبطل بسببه نظام هذا العالم.

[**وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم**] والقرون السالفين أمامكم، فإنّ في النظر في أحوالهم والتدبّر فيماجرى عليهم عبرة للمعتبرين، وتبصرة للمستبصرين.

[**من مستمتع خلاقهم**] أي: محلّ مااستمتعوا به ممّا كان نصيباً لكلّ منهم في مدّة بقائه من متاع الدنيا.

[**ومستفتح خناقهم**] والخناق بالكسر حبل يخنق به، والمراد محلّ الفسحة لأعناقهم من ضيق حبائل الموت وأغلال الجحيم، وذلك المستفتح هو مدّة حياتهم أيضاً، ثمّ شرع عليه السلام في حال وصف الماضين فقال:

[**أرهقتهم المنايا دون الآمال**] الإرهاق: الإعجال، أي: أعجلهم الموت عن بلوغ آمالهم.

وشذّبهم عنها تخرّم الآجال لم يمهّدوا في سلامة الأبدان ولم يعتبروا في أُنُف الأوان فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلّا حوالي الهرم وأهل غضارة الصحّة إلّا نوازل السقم أهل مدّة البقاء إلّا آونة الفناء؟ مع قرب الزيال وأزوف الإنتقال

[**وشذّبهم**] والتشذّب: التفريق، أي: فرّقهم [**عنها**] أي: عن آمالهم، وحال بينهم وبينها [**تخرّم الآجال**] وفي تنبيه على وجوب قصر الأمل والإستعداد للموت قبل الفوت، وأشار إلى تقصيرهم في ذلك بقوله:

[**لم يمهّدوا في سلامة الأبدان**] مهد الأمر مخفّفاً ومشدّداً، أي: هيّاه.

[**ولم يعتبروا في أُنُف الأوان**] وأنف الأوان: أوّله. نبّه ﷺ على تقصير الماضين في إصلاح معادهم حيث أمكنهم ذلك في سلامة أبدانهم، وأوّل زمانهم ليحصل لهم بذلك التذكّر التنفّر عن حال السابقين وانزعاج عن المغرو بزينة الحياة الدنيا، والإستعداد للموت بالتقوى والأعمال الصالحة، فماذا ينتظرون وإلى متى يمهلون.

[**فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلّا حوالي الهرم**] البضاضة: امتلاء البدن وقوّته، والإستفهام إنكاريّ، أي: بمَ ينتظر الشباب بشبابهم غير حواني الهرم.

[**وأهل غضارة الصحّة**] غضارة العيش: طيبه، أي: هل ينتظر أهل الصحّة بصحّتهم [**إلّا نوازل السقم**] وهل ينتظر [**أهل مدّة البقاء**] المعمّرون بطول أعمارهم [**إلّا آونة الفناء؟**] أي: زمان الموت وحلول الأجل، والآونة: جمع أوان كأزمنة جمع زمان.

[**مع قرب الزيال**] أي: المزايلة [**وأزوف الإنتقال**] أي: قربه من أزف

وعلز القلق وألم المضض وغصص الحرض وتلفت الإستغاثة بنصرة الحفدة والأقرباء والأعزّة والقرناء فهل دفعت الأقارب أو نفعت النواحب وقد غودر في محلّة الأموات رهيناً

أي: قرب [**وعلز القلق**] والعلز: كالرعدة تأخذ المريض والقلق والإضطراب.

[**وألم المضض وغصص الحرض**] والحرض أن يبتلع ريقه على همّ وحزن.

[**وتلفت الإستغاثة**] إشارة إلى التفات المريض إلى من حوله كالمستغيث.

[**بنصرة الحفدة**] أي: الأعوان.

[**والأقرباء والأعزّة والقرناء**] شبّههم في تركهم العمل والإستعداد للقاء اللّه والتزوّد للدار الآخرة حتّى انتهوا إلى هذه الغايات بالمنظر لها كأنّهم ينتظرون هذه الغايات، فاستعير لذلك الإنتظار، ثمّ كنّى عن شدّة حال من غرق في سكرات الموت وأحاطت به شدائده بأوصاف تعرض له كالرعدة والقلق والغمّ والخوف والغصص بالريق والتلفت للإستغاثة بالأعوان والأقرباء والأعزّة، ثمّ نبّه بقوله:

[**فهل دفعت الأقارب أو نفعت النواحب**] أي: البواكي على مار إنّ مايقع عند نزول الموت من تلك الأحوال لاينفعه في دفعه قريب ولاحبيب على طريق الإستفهام الإنكاري.

[**وقد غودر**] الواو للحال، والجملة حاليّة، والعامل نفعت، أي: لم ينفعه البكاء والحال أنّه قد غودر أي: ترك [**في محلّة الأموات رهيناً**] أي:

وفي ضيق المضجع وحيداً قد هتكت الهوام جلدته وأبلت النواهك جدته وعصفت العواصف آثاره ومحى الحدثان معالمه وصارت الأجساد شحبة بعد بضّتها والعظام نخرة بعد فوتها والأرواح بثقل أعبائها

مقيماً أو مرتهناً بذنوبه، وموثوقاً بها، ونفيه على الحال، وكذا وحيداً في قوله:

[**وفي ضيق المضجع وحيداً**] لاأنيس معه ولاجليس ولاناصر له ولامعين.

[**قد هتكت الهوام جلدته**] هو وباقي الأفعال المعطوفة عليه جمل عالية حسبما مرّ، والهوام: الديدان المتولّدة من جيفة أو غيرها.

[**وأبلت النواهك جدته**] يقال: أنهكه أي: أخلقه وأبداه

[**وعصفت**] في بعض النسخ: وعفت الرياح [**العواصف آثاره ومحى الحدثان**] والحوادث [**معالمه**] أي: آثاره.

[**وصارت الأجساد**] من الأموات [**شحبة**] أي: هالكة ناحلة [**بعد بضّتها**] طراوتها نضارتها.

[**والعظام نخرة**] أي: يابسة متفتّتة [**بعد فوتها**] والغرض من ذكر هذه الأوصاف الكريهة تنفير الخلق عن أن يصيروا إلى ماصاروا إليه، والترغيب إلى الخلاص من أمثال هذه الأحوال والمصير إلى هذه الأهوال بالعمل والإخلاص وتزوّد التقوى، وكذا قوله:

[**والأرواح بثقل أعبائها**] والأعباء: الأثقال، إشارة إلى اشتغال النفوس وانحطاطها عن مراتبها الأصليّة العالية بثقل ماحملته من الأوزار، واكتسبته من الأخلاق الرديّة. وقوله:

موقنة بغيب أنبائها لايستزاد من صالح عملها ولاتستعتب من شيء زللها أو لستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء

[**موقنة بغيب أنبائها**] جمع نبأ وهو الخبر، إشارة إلى معاينة ومشاهدة ماكان غائباً عنها من أخبار مايلحقها بعد الموت من خير أو شرّ، فإنّه ينكشف لها حقيقة الحال، كما قال تعالى: ﴿لقد كنتَ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد﴾ .

ويمكن أن يكون المعنى أنّها توقن بأنباء ماخلّفته من اللواحق الدنيويّة، فإنّها تتيقّن بعد الموت غيبتها وانقطاعها عنها، ولايخلو من بُعد، والأوّل أولى. وقوله:

[**لايستزاد من صالح عملها**] أي: لايطلب منها زيادة من العمل الصالح.

[**ولاتستعتب من شيء زللها**] أي: لاتقال من أعمالها السيّئة، ولايرضى عنها، كقوله تعالى: ﴿وإن يُستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ وذلك لعدم آلة العمل وامتناع الرجوع إليه وعدم تمكّنها من نزع ماصار في صفتها، كما حكى اللّه عنهم من قولهم: ﴿ربّ ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركتُ﴾ وأُجيبوا بقوله: ﴿كلاّ إنّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعَثون﴾ . وفي آية أُخرى: ﴿ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه﴾ .

ثمّ التفت عليه السلام إلى وجه العبرة بحالهم وأنّهم أمثالهم في جميع ماذكر من أحوالهم، فقال:

[**أو لستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء**] فما أقرب أن ينزل بكم مانزل بهم.

تحتذون أمثلتهم وتركبون قدتهم وتطؤن جادّتهم فالقلوب قاسية عن حظّها سالكة في غير مضمارها كان المعنى سواها وكان الرشد في إحراز دنياها

[**تحتذون أمثلتهم وتركبون قدتهم**] والقدة بكسر القاف والدال المهملة: الطريقة، وروي بضمّ القاف والذال المعجمة، أي: تقتدون بهم في أفعالهم وتسلكون مسالكهم في غرورهم ونحوه، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾، وكذا قوله:

[**وتطؤن جادّتهم**] أي: تسلكون مسالكهم.

[**فالقلوب قاسية عن حظّها**] أي: غافلة عن طلب هدايتها.

[**سالكة في غير مضمارها**] المضمار هنا هو الشريعة وأوامر اللّه تعالى وسلوكها لغيره ارتكابها لمناهي اللّه ورياضتها بالأعمال الصالحة.

[**كان المعنى**] والمقصود بهذه الأمور [**سواها**] مبالغة في إعراض القلوب وغفلتها عن المواعظ، وانهماكهما في تحصيل الدنيا إلى غاية أن أشبهت من لم يكن معيناً بالخطاب بها.

[**وكان الرشد**] الّذي أُمرت به ودعيت إليه [**في إحراز دنياها**] وتحصيلها وجمعها الّذي وجدت منه.

ثمّ شرع عليه السلام في التذكّر بأمر الصراط والتحذير من أهواله، وقد أجمع المسلمون عليه وتظافرت به الآيات وتواترت ب الروايات.

والصراط في الدنيا الإمام المعصوم عليه السلام، فمن سلك طريقه في الدنيا وأخذ بأقواله واقتدى بأفعاله وأحواله سلك الصراط الأُخرويّ ونجى، وإلّا هلك وهوى.

واعلموا أنّ مجازكم على الصراط ومزالق دحضه وأهاويل ذلله وثارات أهواله

وسئل الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فقال: أرشدنا للزوم الطريق المؤدّي إلى محبّتك والمبلغ دينك والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك، ومرجع ذلك إلى تحصيل الأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة، الّتي هي الوسط بين الإفراط والتفريط المشار إليها بقوله صلى الله عليه وآله: خير الأمور أوسطها، كالحكمة بين الجهل والجربزة، والسخاوة بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهوّر والجبن، والعدالة بين الظلم والإنظلام.

وبالجملة: الوسط الحقّ بين كلّ طرفي إفراط وتفريط من أطراف الفضائل المأخوذة من الشارع، وهي الطريق إلى اللّه المطلوب سلوكه، ومزالق الصراط في الدنيا هي مظان الخطأ من العقل والشهوة والغضب، والعبور عن فضائلها إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط منها، وأهاويل ذلله هو مايلزم ذلك العبور من عذاب اللّه، وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله:

[**واعلموا أنّ مجازكم على الصراط ومزالق دحضه**] والمزلق: الموضع الّذي لايثبت عليه قدم، والدحض: الزلق.

[**وأهاويل ذلله**] إشارة إلى مايستلزمه العبور إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط من العذاب العظيم في الآخرة.

[**وثارات أهواله**] تكرار ذلك مرّة بعد أخرى، وكرّة غبّ أولى.

عن الحسن العسكري عليه السلام قال: الصراط صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط المستقيم في الدنيا فهو ماقصر عن الغلوّ،

فاتّقوا اللّه تقيّة ذي لبّ شغل التفكّر قلبه وأنصب الخوف بدنه وأسهر التهجّد غرار نومه وأظمأ الرجاء هواجر يومه وظلف الزهد شهوته

وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، والصراط الآخر هو: طريق المؤمنين إلى الجنّة، لا يعدلون عن الجنّة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنّة.

والناس في ذلك متفاوتون، فمن استقام على هذا الصراط وتعوّد سلوكه مرّ على صراط الآخرة مستوياً، ودخل الجنّة امناً.

ثمّ عاد عليه السلام إلى الأمر بتقوى اللّه الّتي هي أُصول النجاة، فقال:

[**فاتّقوا اللّه تقيّة ذي لبّ**] سليم، وعقل مستقيم.

[**شغل التفكّر**] في أمر معاده [**قلبه**] عن محبّة الدنيا وزخارفها ولذّاتها الفانية.

[**وأنصب الخوف بدنه**] أي: أتعبه ونحله خوف اللّه تعالى وما أعدّ للعصاة من العقاب الأليم والعذاب الجسيم.

[**وأسهر التهجّد غرار نومه**] أي: أسهرته العبادة ولم تترك له نوماً، والتهجّد: العبادة بالليل، والغرار: النوم القليل.

[**وأظمأ الرجاء هواجر يومه**] أي: أظمأه رجاء ما أعدّ اللّه لأوليائه الأبرار عوضاً عن طيّبات هذه الدار، كنّى بذلك عن كثرة صيامه في أشدّ أوقاته حرارة، وإنّما جعل الهواجر مفعولاً إقامة للظرف مقام المظروف، وهو من وجوه المجاز.

[**وظلف**] بالتخفيف أي: منع أو أطفأ [**الزهد شهوته**] استعار الإطفاء

وأوجف الذكر بلسانه وقدّم الخوف لأمانه وتنكّب المخالج عن وضح السبيل وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب ولم تفتله فاتلات الغرور ولم تعم عليه مشبهات الأمور

للزهد وهو من أوصاف الماء، ونسبته إلى النار نسبة الزهد إلى الشهوات، فلاحظ الشبه بين الشهوات والنار في تأثيرهما المؤذي وبين الزهد والماء، لما يستلزمانه من كون الإعراض عن الدنيا يستتبع قهر الشهوات ودفع مضارّها، كما يفعله الماء بالنار **[وأوجف]** أي: أسرع **[الذكر بلسانه]** ليتعوّده إياه وإدمانه فيه فلايزال لسانه للّه ذاكراً وقلبه لربّه حامداً شاكراً.

[وقدّم الخوف] أي خوف ربّه فعمل مخلصاً له **[لأمانه]** لأجل أن يأمَنْ عذابه ولايخفى لطف جعل الخوف سبب الأمن.

[وتنكّب المخالج] وهي الأمور المشغلة القاطعة للإنسان **[عن وضح السبيل]** وتنكّبها أي: عدل منها إلى الحق وواضح سبيل اللّه.

[وسلك أقصد المسالك] أي أعدلها وأولاها بالقصد **[إلى النهج المطلوب]** للّه من خلقه وهو صراطه المستقيم وطريقه القويم، وفيه إشعار بأنّ للوصول إلى اللّه ورضوانه طرقاً كثيرة وأحبّها إليها أولاها بالقصد إلى طريقه الموصل إليه.

[ولم تفتله] بالفاء أي لم تصرفه أو بالقاف أي لم تهلكه، وكذا:

[فاتلات الغرور] وكنّى بها عن الغفلات الدنيويّة الصارفة عن اللّه الموجبة للإنهماك في الدنيا لم تهلكه أو لم تصرفه عن ربّه، إذ لم يغفل عن طاعته.

[ولم تعم عليه مشبهات الأمور] أي: لم تظلم في وجهه وقلبه شبهة

ظافراً بفرحة البشرى وراحة النعمى في أنعم نومة وأمن يومه قد عبر معبر العاجلة وقدّم زاد الآجلة سعيداً وبادر من وجل وأكثر في مهل ورغب في طلب

على حق فينسد عليه وجه تخليصه منها كما مرّت الإشارة إليه فإنّ أولياء اللّه ضياؤهم في الشبهات اليقين

[**ظافراً**] قد ظفر [**بفرحة البشرى**] أي بشرى الملائكة يومئذ ﴿بُشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ .

[**وراحة النعمى**] أي الراحة من مشاق الدنيا ومتاعبها بنعيم الآخرة في جنان اللّه ورضوانه [**في أنعم نومة**] أي في أطيب راحة، وأطلق لفظ النوم على الراحة في الجنة مجازاً من إطلاق الملزوم على اللازم .

[**وأمن يومه**] أي أمن أوقاته، وأطلق اليوم على مطلق الوقت مجازا إطلاق الجزء على الكل .

[**قد عبر معبر العاجلة**] أي الدنيا اقتباس من قوله تعالى : ﴿من كان يريد العاجلة﴾ حميداً أي محمود الطريقة [**وقدّم زاد الآجلة**] أي الدار الآخرة [**سعيداً**] حيث جعل عمله خالصاً للآخرة وسعى لها سعيها وقع على السعادة الأبديّة وحميداً وسعيداً حالان .

[**وبادر**] إلى الأعمال الصالحة وتحصيل الملكات الفاضلة [**من وجل**] خوف اللّه .

[**وأكثر**] أي أمضى عزمه وأسرع إلى طاعة ربّه [**في مهل**] أي في أيام مهلته وهي حياته الدنيا [**ورغب في طلب**] أي كانت رغبته فيما عند اللّه مقرونة بطلبه له أي كان في طلبه اللّه عن رغبة للّه .

وذهب عن هرب وراقب في يومِ غده ونظر قدماً أمامه فكفى بالجنّة ثواباً ونوالاً وكفى بالنار عقاباً ووبالاً وكفى بالله منتقماً ونصيراً وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً أُوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر به

[**وذهب عن هرب**] أي كان ذهابه عما يبعد عن الله عن هرب من خوف الله، وفي كلّ قرينتين من هذه العشر السجع المتوازي.

[**وراقب في يوم غده**] أي: توقّع في أيّام حياته هجوم آخرته.

[**ونظر قدماً أمامه**] أي لم يلتفت في نظره عن قصد الله إلى غيره، ثمّ نبّه عليه السلام على وجوب السعي للآخرة دون غيرها بقوله:

[**فكفى بالجنّة ثواباً ونوالاً**] أي: عطاء على وجوب السعي لها.

[**وكفى بالنار عقاباً ووبالاً**] على وجوب الهرب منها دون غيرها.

[**وكفى بالله منتقماً ونصيراً**] تنبيه على وجوب الاقتصار على خشيته والاستعانة به.

[**وكفى بالكتاب حجيجاً**] أي محتجاً [**وخصيماً**] وفيه تنبيه على وجوب الانفعال عنه، ونسب الاحتجاج والخصام إلى الكتاب مجازاً، والمنصوبات بكفى على التميز، وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم عاد عليه السلام إلى الأمر بالتقوى والحث عليها باعتبار أُمور ثلاثة:

أحدها: اعذاره إلى الخلق بما أنذرهم به من العقوبات.

الثاني: احتجاجه عليهم بما أوضحه بالدلائل والبيّنات.

الثالث: تحذيره لهم إبليس وعداوته، فقال:

[**أُوصيكم**] عباد الله [**بتقوى الله الذي أعذر**] الخلق وقطع اعذارهم [**بما أنذر به**] من الرسل والكتب لئلا يقولوا ﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ .

واحتجّ بما نهج وحذّركم عدواً نفذ في الصدور خفيّاً ونفث في الآذان نجيّاً فأضلّ فأردى ووعد ومنى وزيّن سيّئات الجرائم وهوّن موبقات العظائم حتّى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينة

[**واحتجّ**] عليكم [**بما نهج**] لكم من المنهاج الواضح والسبيل اللائح.

[**وحذّركم عدوّاً**] وهو الشيطان الرجيم ﴿إنّ الشيطان لكم عدوّ فاحذروه﴾، ﴿إنّ الشيطان للإنسان عدوّ مبين﴾.

[**نفذ في الصدور خفيّاً**] هو على ظاهره، وربّما جعل إشارة إلى النفس الأمّارة بالسوء، وتجوز بلفظ الصدور في القلوب إطلاقاً لاسم المكان على المتمكّن، وقال تعالى: ﴿الخنّاس الّذي يوسوس في صدور الناس﴾.

[**ونفث في الآذان نجيّاً**] قيل: هو إشارة إلى مايلقيه شياطين الإنس بعضهم إلى بعض من زخرف القول وغروره.

[**فأضلّ**] قوم ومن أتبعه وجذبهم عن طريق اللّه ومنهجه القويّ.

[**فأردى**] فأرداهم في قرار الجحيم والعذاب الأليم.

[**ووعد**] قومه [**ومنى**] ببلوغ الآمال الطوال الكاذبة.

[**وزيّن**] لهم [**سيّئات الجرائم**] أي: قبائح المعاصي.

[**وهوّن**] عليهم [**موبقات العظائم**] أي: المهلكات من عظائم الذنوب بأنّ مناهم التوبة وغرّهم بأنّ اللّه غفور رحيم واسع كريم، ورحمته وسعت كلّ شيء، وأين تقع معاصيكم من رحمته.

[**حتّى إذا استدرج قرينته**] إشارة إلى النفس الناطقة باعتبار موافقته.

[**واستغلق رهينة**] إشارة إليها أيضاً باعتبار إحاطة الذنوب بها من قبله، كما يستعلق الرهن بماعليه من المال ولفظ الرهينة مستعار، واستدراجه لا

أنكر مازيّن، واستعظم ماهوّن وحذّر ما أمّن أم هذا الّذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشُغُف الأستار

بزينته حالاً بعد حال وتعويدها بطاعته.

[**أنكر مازيّن، واستعظم ماهوّن وحذّر ما أمّن**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك إنّي أخاف اللّهَ ربّ العالمين﴾ وقوله تعالى: ﴿نكص على عقبيه وقال إنّي بريء منكم﴾.

ومنها
في صفة خلق الإنسان

وبيان حاله من مبدأ عمره إلى آخره، وبيعان نعم اللّه عليه ترديده في أطوار الخلقة وتبكيته بمقابلة نعمه بالكفران والغفلة بمتابعة الشيطان وتذكيره بالموت ومابعده، فقال عليه السلام:

[**أم هذا الّذي أنشأه في ظلمات الأرحام**] أم للإستفهام في معرض التقريع للإنسان، وكان «أم» معادلة لهمزة الإستفهام قبلها، والتقدير أليس فيما أظهر اللّه لكم من عجائب مصنوعاته عبرة أم هذا الإنسان وتقلّبه في أطوار خلقته وحالاته إلى يوم بعثه ونشوره، قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

وفي بعض النسخ: أو هذا الّذي والمعنى واحد.

[**وشُغُف الأستار**] بالغين المعجمة، جمع شغاف بالفتح، وهو غلاف

نطفة دفاقاً وعلقة محاقاً وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً ثمّ منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً وبصراً لاحظاً ليفهم معتبراً

القلب، إشارة إلى مافي ذلك من الدلالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، حيث أوجد وربّاه ونماه، وهو في الظلمات ظلمة البطن وظلمة المشيمة وظلمة الرحم، مستور بالأستار العظيمة محجوب بالحجب الجسيمة، لاتراه عين ولاتصل إليه يد، ولايدخل إليه داخل، ولايخرج منه خارج، فسبحان من أكلمه وربّاه وساق إليه رزقه وهو بهذه المكانة.

[**نطفة دفاقاً**] الدفاق المفرعة.

[**وعلقة محاقاً**] والمحاق: الناقصة، ووصفت بذلك لأجل أنّها لم يغض عليها بعد الصورة الإنسانيّة.

[**وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً**] هو مادام في بطن أُمّه جنين لاجتنابه واستتاره في بطنها، ثمّ هو رضيع مادام يرضع وبعده وليد، فإذا ارتفع قيل يافع فإذا طرّ شاربه فهو غلام، فإذا أدرك فهو رجل، وللرجوليّة ثلاثة حدود: الشباب، وهو إلى تمام النموّ، وبعده الكهولة، وبعدها الشيخوخة.

[**ثمّ منحه**] أي: أعطاه [**قلباً حافظاً**] للأشياء معتبراً بها مستدلاً بها على صانعها.

[**ولساناً لافظاً**] معبراً عن مراده مفهماً مقصوده.

[**وبصراً لاحظاً**] لماينفعه ويضرّه، ثمّ أشار إلى ذكر فوائدها وغاياتها الّتي خلقت لأجلها، فقال:

[**ليفهم**] بقلبه الأشياء [**معتبراً**] بها مستنبطاً من شواهدها معرفة صانعه، ويعبّر بها إلى استكمال الفضائل النفسانيّة.

ويقصر مزدجراً حتّى إذا قام اعتداله واستوِ مثاله نفر مستكبراً وخبط سادراً، ماتحاً في غرب هواه كادحاً سعيه لدنياه في لذّات طربه، وبدوات أربه لايحتسب رزيّة

[**ويقصّر مزدجراً**] أي: يكفّ عمّا لاينبغي من موبقات الآثام، ومن الخوض فيما لايعنيه من فضول الكلام.

[**حتّى إذا قام اعتداله واستوِ مثاله**] وقويت جثّته وكملت قوّته.

[**نفر مستكبراً**] عن طاعة مولا متبعاً لشيطانه وهواه، ﴿أفرأيت مَن اتّخذ إلهه هواه﴾ .

[**وخبط سادراً، ماتحاً**] والسادر: اللاهي الذي لايهتمّ بشيء، والماتح: المستقي الجاذب للدلو من البئر.

[**في غرب هواه**] استعار لفظ الغرب لهواه الّذي به تملأ صحائف الأعمال من المآثم، كما يملأ ذوالغرب غربه من الماء، ورشح تلك الإستعارة بلفظ المتح.

[**كادحاً سعيه لدنياه**] الكدح: السعي وهو وسائر المنصوبات العشرون نطفة، وعلقة، وجنيناً، وراضعاً، ووليداً، ويافعاً، ومزدجراً، ومستكبراً، وماتحاً، وكادحاً إلى آخرها كلّها أحوال، والعامل في كلّ حال مايليه من الأفعال، وسعياً إمّا مفعول به والعامل كدحاً، أو مصدر استغنى عن ذكر فيه.

[**في لذّات طربه، وبدوات أربه**] البدوات: الخطرات الّتي تبدو له من الخواطر، وتظهر للخاطر جمع بدوه، والأرب المطالب والحاجات.

[**لايحتسب رزيّة**] أي: مصيبة تصيبه.

ولا يخشع تقيّة، فمات في فتنته وعاش في هفواته يسيراً لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً دهمته فجعات المنيّة في غُبّر جماحه وسنن مراحه فظلّ سادراً وبات ساهراً في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع، بين أخ شقيق، ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادة للصدر قلقاً والمرء في سكرة ملهية

[**ولا يخشع تقيّة، فمات في فتنته**] أي: مات وهو متلبّس بفتنة الأهل والمال والولد والدنيا وزينتها غريراً مغروراً بها، غافلاً عن عواقبها.

[**وعاش في هفواته يسيراً**] صفة ظرف محذوف، أي: زماناً يسيراً، وفي رواية أسيراً، فيكون حالاً، واستعار الأسير للعاصي، ووجه الشبه أنّ العاصي وصاحب الزلّة يقوده هواه إلى هوائه كما يقاد الأسير إلى مايكرهه.

[**لم يفد عوضاً**] أي: لم يستفد في الدنيا عوضاً عمّا يفوته منها في الآخرة.

[**ولم يقض مفترضاً**] عليه من العلوم والفرائض والأخلاق.

[**دهمته**] بكسر الهاء أي: غشيته [**فجعات المنيّة في غُبّر جماحه**] غبر الشيء بقيّته، وجماحه سعيه في ركوب هواه.

[**وسنن مراحه**] أي: طرق سعيه الّتي هي على غير القانون الشرعيّ.

[**فظلّ سادراً**] أي: متحيّراً [**وبات ساهراً في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع، بين أخ شقيق، ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادة للصدر قلقاً**] واللدم: ضرب الصدر.

[**والمرء في سكرة ملهية**] الواو للحال، والعامل لادمة، أي: والحال أنّ المرء في سكرة من سكرات الموت، ملهية له عن جميع ذلك.

وغمرة كارثة وأنّه موجعة وجذبة مكربة وسَوْقَة متعبة ثمّ أُدرج في أكفانه مبلساً وجذب منقاداً سلساً ثمّ أُلقي على الأعواد رجيع وصب ونضو سقم تحمله حفدة الولدان وحشدة الإخوان

[و] في [**غمرة**] من غمرات الموت [**كارثة**] أي: موجبة لشدّة الغم.

[**وأنّه موجعة**] منه لقلوب الواجدين عليه.

[**وجذبة**] من الملائكة لروحه [**مكربة**] موجبة للكرث، قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم﴾ الآية.

[**وسَوْقَة متعبة**] إشارة إلى الملائكة تسوق الروح، كما قال: ﴿إلى ربّك يومئذ المساق﴾ .

[**ثمّ أُدرج في أكفانه مبلساً**] والإبلاس: اليأس أي: آيساً من الرجوع إلى الدناي.

[**وجذب**] من الدنيا إلى الدار الآخرة [**منقاداً سلساً**] سريع الإنقياد.

[**ثمّ أُلقي على الأعواد**] الّتي يحمل عليها إلى قبره.

كلّ ابن انثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة الجذباء محمول

[**رجيع وصب**] أي: يترد في التعب مرّة بعد أُخرى.

[**ونضو**] أي: مهزول [**سقم**] استعار وصفي الجمل الرجيع وهو الجمل المردّد في الأسفار البالي فيها للمريض باعتبار تردّده في أطوار المرض المبتلى به، ولفظ النضو وهو الجمل الناحل من السير له، باعتبار نحوله من الأسقام.

[**تحمله حفدة الولدان**] أي: أعوانهم [**وحشدة الإخوان**] الحشدة بفتح

إلى دار غربته، ومنقطع وذرته حتّى إذا انصراف المشيّع، ورجع المنفجع، أُقعد في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال، وعثرة الإمتحان

الحاء والشين: المجتمعون.

[**إلى دار غربته، ومنقطع وذرته**] أي: مكان ينقطع عنه زوّاره.

[**حتّى إذا انصراف المشيّع، ورجع المنفجع، أُقعد في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال، وعثرة الإمتحان**] هذا إشارة إلى عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، ويجب الإقرار به، لأنّه ممّاأجمع عليه المسلمون، وجاء في الكتاب والسنّة، وماتستبعده العقول القاصرة، والأذهان الخاسرة من إنّا إذا جلسنا مع الميّت ولم تفارقه لم نر عذاباً ولا سؤالاً، ومن إنّا نختم فاه أو نجعل فيه دخناً ثمّ نأتي بعد أيّام فنجده على حاله، وهذا ينافي إقعاده وسؤاله وعذابه، مع أنّ بدنه وكفنه على حالته الّتي ترك عليها، فهو خيال فاسد، ووهم كاسد، فإنّ العالم البرزخي من عالم الملكوت، وهذه العين والحواسّ من عالم الملك والشهادة، فلا تشعر هذه بتلك، فإنّ الصحابة كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل على النبي ﷺ وتلاوة القرآن عليه، والنبيّ يشاهده ويراه ويكلّمه وهم لايشاهدونه ولايسمعون كلامه، فكذا منكر ونكير وفعلهما، والحيّات والعقارب في القبر يجب الإيمان بها وإن لم نرها، لأنّها ليست من جنس هذا العالم، وإن أردت مثالاً لذلك دفعاً لاستبعاد وهمك فتذكّر مايراه النائم من صورة شخص هائل يضربه أو يقتله أو حيّة تلدغه وهو يتألّم بذلك ويستغيث فلايغاث، حتّى ربما سمع صياحه في نومه ويعرق جبينه وينزعج من مكانه، وكلّ ذلك يدركه من نفسه، ويشاهده ويتأذّى به، كما يتأذّى اليقظان، وأنت معه ترى ظاهره ساكناً، ولا ترى حوله شيئاً، ثمّ قال عليه السلام:

وأعظم ما هنالك بليّة نزول الجحيم وفورات السعير، لافترة مريحة، ولا دعة مزيحة ولا قوّة حاجزة ولا موتة ناجزة ولا سنة مسلّية بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات إنّا باللّه عائذون

[**وأعظم ما هنالك بليّة نزول الجحيم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾ .

[**وفورات السعير، لافترة مريحة، ولا دعة مزيحة**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون لايفتر عنهم العذاب وهم فيه مبلسون﴾ .

[**ولا قوّة حاجزة**] بينهم وبين العذاب.

[**ولا موتة ناجزة**] لانقطاع الموت عنهم، فإنّه يؤتى به في صورة كبش، ويذبح بين الجنّة والنار، ويقال: هذا الموت قد ذبح، فلا موت، بل هو الخلود أبداً.

[**ولا سنة**] وهي مقدّمة النوم من النعاس [**مسلّية بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات**] إشارة إلى شدّة آلامهم ومايلقونه من أليم العذاب، المستلزم لعدم النوم، فلا سلوة إذاً بين حالات سكرات العذاب، وإطلاق لفظ الموتات مجازي في شدّة العذاب، إطلاقاً لذي الغاية على مايصلح غاية له.

[**إنّا باللّه عائذون**] من عذابه، وبه مستجيرون من عقابه، وإليه متضرّعون، بأن يرحم هذه النفس الجزوعة، والرمة الهلوعة، الّتي لاتستطيع حرّ شمسه، فكيف تستطيع حرّ ناره، والّتي لاتستطيع صوت رعده، فكيف تستطيع صوت غضبه، فارحمني اللّهمّ فإنّي امرؤ حقير، وخطري يسير،

عباد اللّه! أين الّذين عُمِّروا فنعموا وعلموا وانظروا فلهوا أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحُذّروا أليماً ووعدوا جسيماً احذروا الذنوب المورطة والعيوب المسخطة ياأُولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع هل من مناص

وليس عذابي ممّا يزيد في ملكك مثقال ذرّة، ولو أنّ عذابي ممّا يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه، وأحببت أن يكون ذلك لك، ولكن سلطانك اللّهم أعظم، وملكك أدوم من أن تزيده طاعة المطيعين، أو تنقصه معصية المذنبين، فارحمنا ياأرحم الراحمين.

[**عباد اللّه! أين الّذين عُمِّروا**] العمر الطويل [**فنعموا**] بالعيش الرغيد الجزيل [**وعلموا**] ما فيه صلاحهم وفسادهم، ففهموا ذلك.

[**وانظروا**] ماأمهلوا [**فلهوا**] بشهوات الدنيا الفانية، وغفلوا عن الآخرة الباقية.

[**أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحُذّروا أليماً**] من العذاب [**ووعدوا جسيماً**] من الثواب، فكفروا بتلك النعم، واشتغلوا بلذّات الدنيا عن أوامر اللّه ونواهيه وطاعاته ومراضيه، ونسوا ماذكّروا به ودعوا إليه.

[**احذروا الذنوب المورطة**] أي: الّتي توقعكم في الورطة والهلاك.

[**والعيوب المسخطة**] لربّ الأرباب وقاصم الرقاب، المطّلع على السرائر العالم بما في الضمائر.

[**ياأُولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع**]:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

[**هل من مناص**] أي: ملجا من أمر اللّه.

أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو مجار أم لا شيء فأنّى تؤفكون؟ أم أين تصرفون أم بماذا تفترون وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قِيَد قدّه متعفّراً على خدّه الآن

[**أو**] هل من [**خلاص**] من عقاب اللّه.

[**أو معاذ**] تعوذون به من الحساب.

[**أو ملاذ**] تلوذون به من العقاب.

[**أو فرار**] يفرّ إليه.

[**أو مجار**] أي: مرجع يجيركم منه.

[**أم لا شيء**] من ذلك، فما هذه الغفلة العظيمة؟

[**فأنّى تؤفكون؟ أم أين تصرفون**] عن غوايتكم.

[**أم بماذا تفترون**] وإنّما خص أُولي السماع والأبصار بالعافية لكونهم أهل التكاليف التامّة والعقول داخلة في إشارته إمّا بالأبصار والأسماع مجازاً، أو في العافية، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى فقد عقولهم، لأنّ العقل ماعُبِد به الرحمن، واكتُسب به الجنان، وإنّما خصّ أُولي المتاع لأنّ أهل الإستمتاع بالدنيا هم المجذوبون عنها من جهة اشتغالهم بمتاعها عن سلوك سبيل اللّه، والإستفهام إنكاريّ، وأم معادلة لهل الإستفهاميّة، ثمّ شرع عليه السلام في تذكّرهم بالقبر، فقال:

[**وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قِيَد قدّه**] أي: قدر قامة، إشارة إلى قبره الّذي تمدّ قامته فيه.

[**متعفّراً على خدّه**] المنعفر المترب، والعفر: التراب.

[**الآن**] أي: فاغتنموا الفرصة الآن، كنّى به عن مدّة الحياة.

عباد اللّه والخناق مهمل والروح مرسل في فينة الإرتياد وراحة الأجساد ومهل البقيّة وأنف المشية وأنظار التوبة وانفساح الحوبة

[**عباد اللّه والخناق مهمل**] كنّى بالخناق عن الموت الّذي يؤخذ به أعناق النفوس إلى بارئها، كناية بالمستعار، ووجه الشبه أنّ كلاً منهما مكروه يقاربه إلى مكروه، ورشح الإستعارة بذكر الإهمال، وكنّى به عن مدّة الإمهال في الحياة الدنيا، وكذا قوله:

[**والروح مرسل**] أراد بإرسالها إمهالها [**في فينة**] أي: حين [**الإرتياد**] أي: زمان طلب النفوس لما يستعدّ به من الكمال للقاء اللّه.

وفي رواية الإرشاد: أي: إرشاد النفوس إلى سبيل اللّه.

[**وراحة الأجساد ومهل البقيّة**] أي: بقيّة الأعمال [**وأنف المشية**] أنف الشيء: أوّله، والمشيّة الإرادة، أي: أوّل الإرادات للنفوس، ولعلّه لما قيل أنّه ينبغي أن يكون أوّل زمان الإنسان وأوائل ميول قلب إلى طاعة اللّه والإنقياد لأوامره، ليكون مايرد على لوح نفسه من الكمالات المستعدّة في الآخرة وارداً على لوح صاف عن كدر الباطل، وأنّه متى عكس ذلك فجعل أوّل ميل إلى المعاصي اسودّ وجه نفسه بملكات السوء، فلم يكد يقبل بعد ذلك الإستضاءة بنور الحقّ، فكان من الأخسرين أعمالاً، وقوله:

[**وأنظار التوبة**] أي: امهال اللّه العصاة لأجلها.

[**وانفساح الحوبة**] أي: اتّساع زمان العمل للحاجة في الآخرة، والإضافة لادنى ملابسة، لأنّ كلّ حاجة فرضها الإنسان في الدنيا قد لاتكون في محلّ الضرورة، ولو فرض كونها في محلّ ضرورة فهو معارض بكونها مرجوّة الزوال بخلاف الحاجة والضرورة في الآخرة إلى الأعمال

قبل الضنك والمضيق والروع والزهوق قبل قدوم الغائب المنتظر وأخذة العزيز المقتدر عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دُعابة، وأنّي امرؤ تلعابة أُعافس وأُمارس

الصالحة، فإنّه لايمكن زوالها بعد المفارقة، ولامتّسع للعمل لها إلاّ في الدنيا، فكان أهلها منها في أشدّ ضرورة، وقوله:

[**قبل الضنك والمضيق**] إشارة إلى انحصار الإنسان في أغلال الهيئات البدنيّة.

[**والروع والزهوق**] إشارة إلى الفزع الأكبر من أهوال الموت ومابعده، وقوله:

[**قبل قدوم الغائب المنتظر**] كناية عن الموت وقدومه هجومه، ولما استعار له لفظ الغائب مراعاة لشبهه بمسافر ينتظر رشح تلك الإستعارة بلفظ القدوم.

[**وأخذة العزيز المقتدر**] كناية عن جذب الأرواح وأخذها بحكم قدرة اللّه العزيز الّذي لايذل، والقادر الّذي لايمتنع منه.

وفي الخبر: أنّه عليه السلام لمّا خطب هذه الخطبة اقشعرّت لها الجلود وبكت لها العيون ورجفت القلوب، ومن الناس من يسمّي هذه الخطبة الغرّاء.

ومن كلام له عليه السلام
في ذكر عمروبن العاص

[**عجباً لابن النابغة**] نبغ الشيء ظهر، وسمّيت أُمّ عمرو بذلك لما قيل من شهرتها بالفجور وتظاهرها به، وكنّى عنه بأمّه لأنّ عادة العرب النسبة إلى الأمّ إذا كانت مشهورة بشرف أو صفة.

[**يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دُعابة، وأنّي امرؤ تلعابة أُعافس وأُمارس**]

وأعظم ماهنالك بلية نزل الحميم وتصلة الجحيم وفورات السعير، لا فترة مريحة، ولا دعة مزيحة

الدعابة: المزاح، والتلعابة: كثرة اللعب، والتاء للمبالغة، والمعافسة: المداعبة، والممارسة: المعالجة بالمصارعة والفرض ونحوه.

وروي أنّ ابن العاص كان يقول لأهل الشام: إنّما أخّرنا عليّاً لأنّ فيه هزلاً لا جدّ معه، وقد كان أبوه العاص يقول: إنّ رسول اللّه ساحر، فنجده على حاله.

وهذا ينافي إقعاده وسؤاله وعذابه، مع انّ بدنه وكفنه على حالته الّتي ترك عليها فهو خيال فاسد، ووهم كاسد، فإنّ العالم البرزخي من عالم الملكوت، وهذه العين والحواسّ من عالم الملك والشهادة، فلا تشعر هذه بتلك، فإنّ الصحابة كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل على النبيّ ﷺ وتلاوة القرآن عليه، والنبيّ يشاهده ويراه ويكلّمه، وهم لا يشاهدونه ولا يسمعون كلامه، فكذا منكر ونكير وفعلهما والحيّات والعقارب في القبر يجب الإيمان بها، وإن لم نرها ليست من جنس هذا العالم، وإن أردت مثالاً لذلك دفعاً لاستبعاد وهمك فتذكر مايراه النائم من صورة شخص هائل يضربه أو يقتله أو حيّة تلدغه وهو يتألّم بذلك، ويستغيث فلا يغاث، حتّى ربما سمع صياحه في نومه ويعرق جبينه وينزعج من مكانه، وكلّ ذلك يدرك من نفسه ويشاهده ويتأذّى به، كما يتأذّى اليقظان، وأنت معه ترى ظاهره ساكناً، ولا ترى حوله شيئاً. ثمّ قال عليه السلام:

[**وأعظم ماهنالك بلية نزل الحميم وتصلة الجحيم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأمّا من كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾.

[**وفورات السعير، لا فترة مريحة، ولا دعة مزيحة**] إشارة إلى قوله

ولا قوّة حاجزة ولا موتة ناجزة ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات ﴿إنّا باللّه عائذون عباد اللّه أين الّذين عمّروا فنعّموا

تعالى: ﴿إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون لايفتّر عنهم العذاب هم فيه مبلسون﴾.

[**ولا قوّة حاجزة**] بينهم وبين العذاب.

[**ولا موتة ناجزة**] لانقطاع الموت عنهم، فإنّه يؤتى به في صورة كبش ويذبح بين الجنّة والنار، ويقال: هذا الموت قد ذبح، فلا موت، بل هو الخلود أبداً.

[**ولا سنة**] وهي مقدّمة النوم من النعاس [**مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات**] إشارة إلى شدّة آلامهم ومايلقونه من أليم العذاب المستلزم لعدم النوم، فلا سلوة إذاً بين حالات سكرات الموت العذاب، وإطلاق لفظ الموتات مجازي في شدّة العذاب إطلاقاً لذي الغاية على مايصلح غاية له.

﴿**إنّا باللّه عائذون**] من عذابه، وبه مستجيرون من عقابه، وإليه متضرّعون بأن يرحم هذه النفس الجزوعة، والرمية الهلوعة، الّتي لاتستطيع حقّ شمسه، فكيف تستطيع حرّ ناره، والّتي لاتستطيع صوت رعده، فكيف تستطيع صوت غضبه، فارحمني اللّهمّ فإنّي امرؤ حقير، وخطري يسير، وليس عذابي ممّا يزيد في ملكك مثقال ذرّة، ولو أنّ عذابي ممّا يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه، وأحببت أن يكون ذلك لك، ولكن سلطانك اللّهمّ أعظم وملكك أدوم من أن تزيده طاعة المطيعين، أو تنقصه معصية المذنبين، فارحمنا ياأرحم الراحمين.

[**عباد اللّه أين الّذين عمّروا**] العمر الطويل [**فنعّموا**] بالعيش الرغيد

وعملوا ففهموا وانظروا فلهوا أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحذروا أليماً ووعدوا جسيماً احذروا الذنوب المورطة والعيوب المسخطة يا أُولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع هل من مناص خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو مجار أم لا فأنّى تؤفكون، أم أين تصرفون أم بماذا تفترون

الجزيل [**وعملوا**] ما فيه صلاحهم وفسادهم [**ففهموا**] ذلك.

[**وانظروا**] ما أمهلوا [**فلهوا**] بشهوات الدنيا الفانية وغفلوا عن الآخرة الباقية.

[**أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحذروا أليماً**] من العذاب [**ووعدوا جسيماً**] من الثواب، فكفروا بتلك النعم واشتغلوا بلذّات الدنيا عن أوامر اللّه ونواهيه وطاعاته ومراضيه، نسوا ما ذكّروا به ودعوا إليه.

[**احذروا الذنوب المورطة**] أي: الّتي توقعكم في الورطة والهلاك.

[**والعيوب المسخطة**] لربّ الأرباب، وقاصم الرقاب، المطّلع على السرائر، العالم بما في الضمائر.

[**يا أُولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع**] لقد اسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي.

[**هل من مناص**] أي: ملجأ من أمر اللّه، أو هل م [**خلاص**] من عقاب اللّه [**أو معاذ**] تعوذون به من الحساب.

[**أو ملاذ**] تلوذون به من العقاب. [**أو فرار**] يفرّ إليه. [**أو مجار**] أي: مرجع يجيركم منه. [**أم لا**] شيء من ذلك، فما هذه الغفلة العظيمة.

[**فأنّى تؤفكون، أم أين تصرفون**] عن غوايتكم.

[**أم بماذا تفترون**] وإنّما خصّ أُولي الأسماع والأبصار بالعافية لكونهم

وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قيد قدّه متعفّراً على خدّه الآن عباد اللّه والخناق مهمل والروح مرسل في فينه الإرتياد وراحة الأجساد، ومهل البقيّة وأنف المشية

أهل التكاليف التامّة، والعقول داخلة في إشارته إمّا بالأبصار والأسماع مجازاً أو في العافية، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى نقد عقولهم، لأنّ العقل ماعُبد به الرحمن واكتسب به الجنان. وإنّما خصّ أُولي المتاع لأنّ أهل الإستمتاع بالدنيا هم المجذوبون عنها من جهة اشتغالهم بمتاعها عن سلوك سبيل اللّه، والإستفهام إنكاريّ، وأم معادلة لهل الإستفهاميّة.

ثمّ شرع عليه السلام في تذكّرهم بالقبر، فقال:

[**وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قيد قدّه**] أي: قدر قامته، إشارة إلى قبره الّذي تمدّ قامته فيه.

[**متعفّراً على خدّه**] المعفر المترب، والعفر التراب [**الآن**] أي: فاغتنموا الفرصة الآن، كنّى به عن مدّة الحياة.

[**عباد اللّه والخناق مهمل**] كنّى بالخناق عن الموت الّذي يؤخذ به أعناق النفوس إلى بارئها، كناية بالمستعار، ووجه الشبه أنّ كلاً منهما مكروه يقاربه إلى مكروه، ورشح الإستعارة بذكر الإهمال، وكنّى به عن مدّة الإمهال في الحياة الدنيا.

وكذا قوله: [**والروح مرسل**] أراد بإرسالها إمهالها [**في فينه**] أي: حين [**الإرتياد**] أي زمان طلب النفوس لما يستعدّ به من الكمال للقاء اللّه.

وفي رواية الإرشاد: أي إرشاد النفوس إلى سبيل اللّه.

[**وراحة الأجساد، ومهل البقيّة**] أي: بقيّة الأعمار [**وأنف المشية**] أنف

وأنظار التوبة وانفساح الحوبة قبل الضنك والمضيق والروع الزهوق وقبل قدوم الغائب المنتظر

الشيء: أوّله، والمشيّة الإرادة، أي: أوّل الإرادات للنفوس، ولعلّه لما قيل أنّه ينبغي أن يكون أوّل زمان الإنسان وأوائل ميول قلبه إلى طاعة اللّه والإنقياد لأوامره ليكون مايرد على لوح نفسه من الكمالات المستعدّة في الآخرة وارداً على لوح صاف عن كدر الباطل، وأنّه متى عكس ذلك فجعل أوّل ميله إلى المعاصي اسودّ وجه نفسه بملكات السوء، فلم يكد يقبل بعد ذلك الإستضاءة بنور الحقّ، فكان من الأخسرين أعمالاً.

وقوله: [**وأنظار التوبة**] أي: إمهال اللّه العصاة لأجلها.

[**وانفساح الحوبة**] أي: اتّساع زمان العمل للحاجة في الآخرة، والإضافة لأدنى ملابسة، لأنّ كلّ حاجة فرضها الإنسان في الدنيا قد لاتكون في محلّ الضرورة، ولو فرض كونها في محلّ ضرورة فهو معارض بكونها مرجوّة الزوال، بخلاف الحاجة والضرورة في الآخرة إلى الأعمال الصالحة، فإنّه لايمكن زوالها بعد المفارقة، ولا متّسع للعمل لها إلاّ في الدنيا، فكان أهلها منها في أشدّ ضرورة.

وقوله: [**قبل الضنك والمضيق**] إشارة إلى انحصار الإنسان في أغلال الهيئات البدنيّة [**والروع الزهوق**] إشارة إلى الفزع الأكبر من أهوال الموت ومابعده.

وقوله: [**وقبل قدوم الغائب المنتظر**] كناية عن الموت وقدومه هجومه، ولما استعار له لفظ الغائب مراعاة لشبهه بمسافر ينتظر رشح تلك الإستعارة بلفظ القدوم.

وأخذة العزيز المقتدر عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دعابة، وإنّي امرؤ تلعابه اعافيس وامارس

[**وأخذة العزيز المقتدر**] كناية عن جذب الأرواح وأخذها بحكم قدرة اللّه العزيز الّذي لايذلّ، والقادر الّذي لايمتنع منه.
وفي الخبر أنّه عليه السلام لمّا خطب هذه الخطبة اقشعرّت لها الجلود، وبكت لها العيون، ورجفت القلوب، ومن الناس من يسمّي هذه الخطبة الغرّاء.

ومن كلام له عليه السلام
في ذكر عمروبن العاص

[**عجباً لابن النابغة**] نبغ الشيء ظهر، وسمّيت أُمّ عمرو بذلك لما قيل من شهرتها بالفجور وتظاهرها به، وكنّى عنه بأُمّه لأنّ عادة العرب النسبة إلى الأمّ إذا كانت مشهورة بشرف أو منعة.

[**يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دعابة، وإنّي امرؤ تلعابه اعافيس وامارس**] الدعابة: المزاح، والتلعابة كثرة اللّعب، والتاء للمبالغة، والمعافسة المداعبة والممارسة المعالجة بالمصارعة والفرض ونحوه.

وروي انّ ابن العاص كان يقول لأهل الشام: إنّما أخّرنا عليّاً لأنّ فيه هزلاً لا جدّ معه، وقد كان أبوه العاص يقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله ساحر.

وانتفعوا بالذكر والمواعظ فكان قد علقتكم مخالب المنيّة وانقطعت عنكم علائق الأُمنيّة ودهمتكم مفظعات الأمور والسياقة إلى الورد المورود ﴿وكلّ نفس معها سائق وشهيد﴾

بسببه والنذر جمع نذير، وهو المخوّف، أو نفس الإنذارات، أي: وعيداته البالغة حدّ الكمال في التخويف والزجر عند اعتبارها.

[**وانتفعوا بالذكر والمواعظ**] أمر بتحصيل ثمرة الذكر والموعظة عنهما، وختم هذه الأوامر بذكر الإنتفاع ترغيباً وجذباً للنفوس إلى الذكر وقبول المواعظ.

[**فكان**] مخفّفه واسمها ضمير الشأن، أي: فكأنّه [**قد علقتكم مخالب المنيّة**] استعار المخالب للمنيّة، استعارة بالكناية، وشحّ بذكر العلائق ملاحظاً في ذلك تشبيه المنيّة بالسبع الّذي يهجم ويتوقّع أفراسه.

[**وانقطعت عنكم علائق الأُمنيّة**] إشارة إلى ماينقطع عن الميّت انقطاع أمله من مال وجاه وسائر ماكانت تتعلّق به آماله من علائق الدنيا ومتاعها.

[**ودهمتكم مفظعات الأمور**] أي: شدائدها الشنيعة أفظع الأمر فهو مفظع، ويجوز فظع الأمر بالضمّ فظاعة فهو فظيع، وأفظع الرجل بالبناء للمجهول، أي: نزل به ذلك، وهي إشارة إلى مايهجم على الميّت من سكرات الموت وعذاب القبر وأهوال الآخرة.

[**والسياقة**] أي: ودهمتكم السياقة، أي: السوقة المتعبة الّتي مرّ ذكرها.

[**إلى الورد المورود**] أي: المحشر [**﴿وكلّ نفس معها سائق وشهيد﴾**] اقتباس من قوله تعالى: ﴿وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد﴾، ثمّ فسّر

سائق يسوقنا إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها في صفة الجنّة: درجات متفاضلات ومنازل متفاوتات لاينقطع نعيمها ولايظعن مقيمها ولايهرم خالدها، ولاييأس ساكنها

ذلك بقوله عليه السلام:

[**سائق يسوقنا إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها**] أي: ملكان يسوقانها، وقيل ملك واحد جامع بين الأمرين، وقال تعالى: ﴿وسيق الّذي كفروا إلى جهنّم زُمراً حتّى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ إلى أن قال: ﴿وسيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زُمراً حتّى إذاجاءوها وفتحت أبوابها﴾ الخ.

ومنها:

[**في صفة الجنّة: درجات متفاضلات ومنازل متفاوتات**] تفاضلت وتفاوتت بحسب أعمال المكلّفين، قال تعالى: ﴿هم درجات عند اللّه﴾ وقال: ﴿يرفع اللّه الّذين آمنوا منكم والّذين أُوتوا العلم درجات﴾ وقال تعالى: ﴿غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار﴾.

[**لاينقطع نعيمها**] كما قال تعالى: ﴿وأمّا الّذين سُعدوا ففي الجنّة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ماشاء ربّك عطاء غيرمجذود﴾ وقال: ﴿إنّ هذا لرزقنا ماله من نفاد﴾ وقال: ﴿أُكُلُها دائم﴾.

[**ولايظعن**] أي: لايرتحل عنها [**مقيمها**] قال تعالى: ﴿أُولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون﴾ وقال تعالى: ﴿لايبغون عنها حولاً﴾.

[**ولايهرم خالدها، ولاييأس ساكنها**] أي: لايصيبه بؤس، لأنّ الهرم مستلزم للتعب والنصب، وكذلك البؤس عن الضعف، وهذه اللوازم منتفية عن أهل الجنّة لقوله تعالى: ﴿الحمد للّه الّذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور

....

شكور الّذي أحلّنا دارالمقامة فمن فضله لايمسّنا فيها نَصَب ولا لغوب﴾ وبانتفاء هذه اللوازم ينتفي ملزومها من الهرم ونحوه.

واعلم إنّه يجب الإيمان بالجنّة والنار الجسمانيّتين، كما استفاضت به الآيات وتواترت به الروايات، وأنّهما مخلوقتان الآن كما عليه جمهو المسلمين، خلافاً لجملة من المعتزلة، قالوا إنّهما سيخلقان.

وقال الصادق عليه السلام: «ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء: المعراج، والمساءلة في القبر، وخلق الجنّة والنار، والشفاعة».

وقال الرضا عليه السلام: «من أنكر خلق الجنّة والنار فقد كذّب النبيّ صلى الله عليه وآله وكذبنا وليس من ولايتنا على شيء وخُلّد في نار جهنّم، قال اللّه عزّوجلّ: ﴿هذه جهنّم الّتي يكذّب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن﴾».

وقال الصدوق (ره): اعتقادنا في الجنّة والنار أنّهما مخلوقتان، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد دخل الجنّة ورأى النار حين عرج به، واعتقادنا أنّه لايخرج أحد من الدنيا حتّى يرى مكانه من الجنّة أو من النار، انتهى.

والجنّة دار البقاء ودار السلامة، لاموت فيها، ولا هرم، ولاسقم، ولا مرض، ولا آفة، ولا زمانه، ولا غمّ، ولا همّ، ولا حاجة، ولا فقر، بل هي دارالفناء والسعادة والمقامة والكرامة لايمسّ أهلها فيها نصب ولا لغوب فيها ماتشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهي دار الطيّبين، ليس بين أهلها بغض ولا حسد ولا عداوة، ولا نزاع، ولا جدال، لايتمنّى أحد مرتبة غيره، وقد استقصينا أوصاف الجنّة والنار ف كتابنا حقّ اليقين.

قد علم السرائر وخبر الضمائر له الإحاطة بكلّ شيء والغلبة لكلّ شيء، والقوّة على كلّ شيء فليعمل العامل منكم في أيّام مهله قبل إرهاق أجله

ومن خطبة له عليه السلام
في الثناء على اللّه تعالى

[**قد علم السرائر**] كما قال تعالى: ﴿يعلم سرّكم ونجواكم﴾ وقال: ﴿يعلم السرّ والنجوى﴾ والسرائر جمع سريرة، وهي مايكتم من السرّ.

[**وخبر الضمائر**] امتحنها وابتلاها، ومن رواها بكسر الياء أراد علم والخبر بضمّ الخاء العلم، والضمائر جمع ضمير، والفقرتان متقاربتان أو مترادفتان.

[**له الإحاطة بكلّ شيء**] علماً، قال تعالى: ﴿أحاط بكلّ شيء علماً﴾ وقال: ﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ وقال: ﴿لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾.

[**والغلبة لكلّ شيء، والقوّة على كلّ شيء**] إشارتان إلى كمال قدرته، ولعلّ الغالب فيه زيادة على القوّة ترجع إلى القهر، ﴿إنّ اللّه على كلّ شيء قدير﴾.

[**فليعمل العامل منكم في أيّام مهله**] المهل المهلة والتؤدة [**قبل إرهاق أجله**] وإرهاق الأجل سرعة لحوقه مصدر رهق أمرهم بالأعمال الصالحة لتكون زاداً لهم في الآخرة، ثمّ تلطّف في جذبهم إليها بتذكيرهم بأنّهم في

وفراغه قبل أجله وشغله، وفي متنفّسه قبل أن يؤخذ بكظمه وليتزوّدوا من دار ظعنه لدار إقامته فاللّه اللّه فيما استحفظكم من كتابه وأستودعكم من حقوقه فإنّه لم يخلقكم عبثاً

أيّام مهلة وفراغ، فليغتنم الإنسان الفرصة في مهله.

[**وفراغه قبل أجله وشغله، وفي متنفّسه**] أي: في سعة وقته، يقال: أنت في نفس من أمرك أي: سعة.

[**قبل أن يؤخذ بكظمه**] بفتح الأولين مخرج النفس، والجمع كظام كناية عن الموت الّذي لايتمكّن بعده من العمل، إذ لم تكن الآخرة دار عمل.

[**وليتزوّدوا**] من التقوى والأعمال الصالحة ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**من دار ظعنه**] بتحريك العين وتسكينها، أي: الدار الفانية الّتي يرتحل منها [**لدار إقامته**] الآخرة الباقية، ثمّ التفت إلى تحذير الناس وتخويفهم مخالفة ربّهم، فقال:

[**فاللّه اللّه**] نصب على الإغراء، أي: اتّقوا اللّه، وكرّر ثانياً بدل الفعل المقدّر.

[**فيما استحفظكم من كتابه**] أي: أمركم بحفظه وتدبّر مافيه والمحافظة على العمل بأوامره ونواهيه المشار إليها، بقوله:

[**وأستودعكم من حقوقه**] وقال: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، ثمّ نبّه عليه السلام على وجوب الحذر وعلّته بقوله:

[**فإنّه لم يخلقكم عبثاً**] خالياً عن الحكمة، بل لتعرفوه وتعبدوه حتّى تفوزوا بالنعيم المقيم والثواب الجسيم، كما قال: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس

ولم يترككم سُدى ولم يدعكم في جهالة ولا عمى قد سمّى آثاركم وعلم أعمالكم وكتب آجالكم وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء وعمر فيكم نبيّه أزماناً

إلّا ليعبدون﴾.

[**ولم يترككم سُدى**] بضمّ السين، أي: هملاً، وبفتحها من أسدت الإبل أهملتها، قال تعالى: ﴿أفحسب الإنسان أن يُترك سُدى﴾.

[**ولم يدعكم في جهالة ولا عمى**] بل أوضح لهم السبيل، وأبان لهم طرق الهداية، وأرسل إليهم رسلاً مبشّرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ وقال تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ وقال تعالى: ﴿وما كان اللّه ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتّى يتبيّن لهم مايتّقون﴾ وأشار إلى ذلك بقوله:

[**قد سمّى آثاركم**] أي: بيّن لكم أعمالكم خيرها وشرّها، أو أعلا مآثركم، أي: رفع منازلكم إن أطعتم قسماً على الأوّل بمعنى أبان وأوضح، وعلى الثاني بمعنى أسمى.

[**وعلم أعمالكم**] خيرها وشرّها ﴿وإن تبدوا شيئاً أو تخفوه يعلمه اللّه يعلم سرّكم وجهركم﴾.

[**وكتب آجالكم**] في كتابه المبين ولوحه المحفوظ.

[**وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء**] من طرق المعاش والمعاد ونظام العباد ووجوه المصالح والفساد.

[**وعمر فيكم نبيّه**] ورسوله [**أزماناً**] حتّى أرشدكم إلى مصالح دينكم ودنياكم ومنافع آخرتكم وأولاكم.

حتّى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه الّذي رضى لنفسه,وأنهى إليكم على لسانه محابه ومكارهه ونواهيه وأوامره فألقى عليكم المعذرة واتّخذ عليكم الحجّة وقدم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذاب شديد

[**حتّى أكمل له ولكم**] دينكم [**فيما أنزل من كتابه**] كما قال تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾.

[**الّذي رضى لنفسه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذن من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم﴾ وإذا ارضاه لهم فقد ارتضاه لنفسه.

[**وأنهى إليكم**] أي: عرّفكم وأعلمكم [**على لسانه**] الضمير للنبيّ ﷺ [**محابه**] جمع محسبه من الأعمال [**ومكارهه**] مكرهه وي مايكرهه [**ونواهيه وأوامره**] أي: عرّفهم ماأحبّ لهم من الخيرات الباقية وكرهه لهم من الشرور المهلكة في الآخرة، كما اشتملت عليه أوامره ونواهيه، وفيه دلالة أنّ اللّه يحبّ الطاعة، ويكره المعصية، خلافاً للمجبّرة والأشاعرة.

[**فألقى عليكم المعذرة**] أبان لكم فيه الأعذار.

[**واتّخذ عليكم الحجّة**] وأوضح لكم فيه المحجّة وقطع أعذاركم لئلاّ تقولوا: ﴿لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى﴾.

[**وقدم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذاب شديد**] واستعار لفظة اليدين للعذاب، وكنّى بقوله: بين يديه عن الوقت المتقدّم على عذاب

فاستدركوا بقيّة أيّامكم واصبروا لها أنفسكم فإنّها قليل في كثير الأيّام الّتي تكون منهكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة ولا ترخّصوا لأنفسكم

الآخرة المشارف له، ووجه الشبه إنّ الإنذار بالمخوف يكون من ذي سطوة وبأس شديد، فكأنّه نزّل العذاب الشديد بمنزلة المعذب، فاستعار له يدين وجعل الإنذار به والتخويف منه متقدّماً له بين يديه، وذلك من الجالبات اللطيفة إلى الخير، ثمّ عاد إلى أمرهم بما يصلحهم، فقال:

[**فاستدركوا بقيّة أيّامكم**] في الحياة الدنيا.

[**واصبروا لها أنفسكم**] أي: ألزموها الصبر على الأعمال الصالحة، وفي لفظ الإستدراك إشعار منهم بتقديم تفريط منهم بحيث ينادي لسان حالهم ومقالهم: ﴿ياحسرتا على مافرّطتُ في جَنْب اللّه﴾ ولذا قال:

[**فإنّها قليل في كثير الأيّام الّتي تكون منهكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة**] أي: إنّ هذه الأيّام الّتي بقيت من أعماركم قليلة بالنسبة إلى الأيّام الّتي أنتم فيها غافلون، ولم يقل قليلة لأنّ المعنى شيء قليل، وإنّما قال لها لأنّ كلّ وقت يستحقّ أن يوقع فيه ماينبغي من الأفعال يصدق عليها أنّ ذلك الفعل لها.

[**ولا ترخّصوا لأنفسكم**] كناية عمّا يتساهل الإنسان فيه مع نفسه من تنويع المآكل والمشارب والمناكح والخروج فيها إلى ما لاينبغي في نفس الأمر ويتأوّل له تأويلاً وحيلة تخيل له أنّها جايزة فيتبع هواه ومن ذلك توسّع الإنسان في المباحات فيشارف المكروهات ثمّ يلاحظ أنّه لاعقاب فيها، فينهمل فيها حتّى يشرف على المحظورات، ومن ذلك الدخول في الصغيرة

فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية إنّ أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربّه

بتسويل أنّها مكفرة بترك الكبائر حتّى يندرج إلى الإصرار عليها وإلى الكبائر، ومن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

[**فتذهب بكم الرخض مذاهب الظلمة**] أي: مسالكها وطرقها العادلة عن العدل، فتعقوا في المعاصي والمحرّمات من حيث لاتشعرون.

روي أنّ إبليس ظهر ليحيى فرأى عليه معاليق من كلّ شيء، فقال: ماهذه؟ قال: ي الشهوات أُصيب بهنّ قلوب بني آدم، فقال هل لي فيها شيء؟ قال: نعم، ربّما شبعت فشغلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: هل غير ذلك؟ قال: لا، قال: للّه عليّ أن لاأملأ بطني من طعام أبداً، فقال إبليس: للّه عليّ أن لاأنصح مسلماً أبداً. وقوله:

[**ولا تداهنوا**] أي: لاتسالموا الظلمة وتساهلوا معهم في السكون عمّا ترونه من منكراتهم.

[**فيهجم بكم الإدهان على المعصية**] أي: إذا آنستم بمشاهدة المعاصي وألفتم تكرارها كنتم بذلك عصاة، فإنّ الراضي بشيء كفاعله، وربّما ساقكم ذلك إلى فعل المنكر، ومشاركتهم في أفعالهم، والمداهنة: النفاق والمصانعة، والادهان مثله، قال تعالى: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾.

[**إنّ أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربّه**] إذ الغرض من النصح جلب الخير والمنفعة إلى المنصوح وأجلّ سعادة الآخرة، وإنّما تنال بالطاعة، فكلّ من كانت طاعته أتمّ فسعادته أتمّ، فكان أنصح الناس لنفسه بمبالغته في الطاعة، ومن ذلك يبيّن معنى قوله:

وإن أغشّهم لنفسه أعصاهم لربّه والمغبون من غبن نفسه والمغبوط من سلم له دينه

[**وإن أغشّهم لنفسه أعصاهم لربّه**] إذ غاية الغشّ جلب الشرّ والمضرّة إلى المغشوش، وأعظم شرّ وضرر يلحق العبد الشقاوة الأُخرويّة الحاصلة من المعاصي، وفي الفقرتين مبالغة في الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية.

[**والمغبون من غبن نفسه**] بالمعاصي المستلزمة لدخول النار وغضب الجبّار، والإنسان بمتابعة النفس الأمّارة والشيطان خادع لها قد يجنبها ثواب اللّه والسعادة الدائمة الّتي هي أعظم مايتنافس فيه، فكان أعظم مغبون، ولذا حصر المغبون فيه مبالغة وهو خبر بمعنى النهي، وغبن الرجل رأيه بالكسر غبناً بالتحريك إذا نقص فهو غبين، أي: ضعيف الرأي، وغبنته في البيع غبناً بالتسكين، أي: خدعته وقد غبن فهو مغبون، وفي قوله مغبون إشارة إلى أنّه من هذا الباب لأنّه أشبه بالمعاوضة، كما قال: ﴿ومن الناس مَن يشري نفسَه ابتغاء مرضاة اللّه﴾ وقال: ﴿هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ وقال: ﴿تجارة لن تبور﴾.

[**والمغبوط من سلم له دينه**] فإنّ من سلم دينه فاز بالسعادة الكبرى، وهي أجل مايتنافس فيه ويغبط به، فكان أعظم مغبوط ولذا حُصر به مبالغةً، والمغبوط الذي يتمنّى مثل حاله والحسود الذي يتمنّى زوال حاله وانتقالها إلى الحاسد، والحسد مذموم والغبطة غير مذمومة بل ممدوحة إذا كانت في الأمور الأُخرويّة، قال تعالى في ذلك: ﴿فليتنافس المتنافسون﴾، يقال: غبطته أغبطه غبطاً فاغتبط.

والسعيد من وعظ بغيره والشقيّ من انخدع لهواه وغروره واعلموا إنّ يسير الرياء شرك ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ومحضرة للشيطان جانبوا الكذب فإنّه مجانب للإيمان

[**والسعيد من وعظ بغيره**]، أي: السعيد في الآخرة من اعتبر حال غيره فشاهد بعين بصيرته مصير الظالمين فخاف عاقبتهم فعدل عن طريقهم وتذكّر حال الصالحين وما آلوا إليه من النعيم فسلك جادّتهم.

[**والشقيّ**] في الآخرة [**من انخدع لهواه وغروره**] وفيه تنفير عن اتّباع الهوى بذكر الخداع والغرور وفي سابقه ترغيب في الاتعاظ بالغير بذكر استلزامه للسعادة.

[**واعلموا إنّ يسير الرياء شرك**] كما مرّ سابقاً، قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾.

وقوله: [**ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان**] أي: داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله. والإيمان: الاعتقاد والعمل لأنّ أهل الهوى مشغولون بذكر ماهم فيه من لهو ولعب خائضون في أصناف الباطل منهمكون في الشهوات فمجالستهم عن رغبة تؤل إلى إمحاء الإيمان عن لوح الخيال والذكر ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.

[**ومحضرة للشيطان**] أي: موضع حضوره كما يقال أرض مسبعة أي: موضع السباع وكلّ محلّ عصي اللّه فيه فهو محضر للشيطان وموطن له.

[**جانبوا الكذب فإنّه مجانب للإيمان**] كما في النبوي ﷺ أي: كلّ

الصادق على شفا منجاة وكرامة والكاذب على شرف مهواة ومهانة

منهما في جانب مغاير للآخر وهو على تقدير دخول العمل الصالح في حقيقة الإيمان واضح إذ الصدق من جملتها ومضاد الصدق مضاد للإيمان وأحد الضدّين مجانب للآخر وعلى تقدير عدم دخوله فالكذب من أعظم الرذائل المهلكة والإيمان أعظم الفضائل المنجية، وبين الفضائل والرذائل منافاة ذاتية، فالكذب مناف للإيمان ومجانب له.

ثم أردف ذلك بالترغيب في الصدق فقال:

[**الصادق على شفا منجاة وكرامة**]، شفا الشيء: جرفه، قال تعالى: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ والصادق مشارف للنجاة والكرامة أو لمحلّهما وهو الجنّة إذ الصدق باب من أبوابها.

[**والكاذب على شرف مهواة ومهانة**] والشرف بفتح الشين: المكان العالي، وأشرفت عليه أي: اطلعت من فوق، والمهواة موضع السقوط، والمهانة: الحقارة، وأشفى وأشرف بمعنى إلاّ أنّ أكثر ما يستعمل الثاني في المكروه، يقال: أشفى المريض على الموت واستعمل هنا في غير المكروه.

والكذب باب من أبواب الجحيم يهوى بصاحبه فيها ومن انتهى إلى الباب فقد شارف الدخول وكفى بما قال عليه السلام ترغيباً في الصدق وتنفيراً عن الكذب.

وعن النبي صلى الله عليه وآله «إيّاكم والكذب فإنّه يهدي إلى الفجور وإنّ الفجور يهدي إلى النار وإنّ الرجل ليكذب حتّى يكتب عند اللّه كذّاباً وعليكم بالصدق فإنّ الصدق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة وإنّ الرجل ليتحرّى الصدق حتّى يكتب عند اللّه مصداقاً».

ولا تحاسدوا فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب ولا تباغضوا فإنّها الحالقة

وقال عليه السلام: «الكذب رأس النفاق»، ووجهه ظاهر؛ لأنّ مدار النفاق على المصانعة بالقول الغير المطابق لما في النفس وهو حقيقة الكذب.

ثمّ شرع عليه السلام في ذمّ الحسد والنهي عنه فقال: [**ولا تحاسدوا**] فإنّ الحسد من الصفات المهلكة ومن الرذايل النفسانية ويتولّد من اجتماع البخل والشرية في النفس والأخبار في ذمه متواترة [**فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب**] فإنّه مضرّ بالنفس لأنّه يذهلها ويفرّق فكرها بالاهتمام بأمر المسحود حتّى لا يفرغ للتصرّف فيما يعود نفعه عليها ولايزال الحاسد مشغول الفكر طويل الحزن والهمّ لأنّ نِعَم اللّه على عباده أكثر من أن تحصى وكلّما رأى الحاسد نعمة اشتغل فكره بتمنّي زوالها وكما أنّ نِعم اللّه لا انقطاع لها ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾ فاشتغاله بالهموم والأحزان متّصل لا انقطاع له ومضرّ بالجسد لأنّ الهموم والغموم والأحزان تنحل البدن وتنهكه سيّما ما يعرض له من طول السهر وسوء الاغتذاء ويعقب ذلك رداءة اللون وفساد المزاج.

وقد استعار عليه السلام لفظ الأكل لأنّ الحسد يمحو ما في النفس من خواطر الخير التي هي الحسنات ويمنع من صيرورتها ملكات باستغراقها في حال المحسود واشتغلاها به، وشبّه ذلك بأكل النار الحطب، ووجه الشبه ما يشترك فيه الحسد والنار من إفناء الحسنات والحطب واستهلاكهما.

[**ولا تباغضوا فإنّها**] هي البغضة المدلول عليها بالمعنى [**الحالقة**] للدين أي: المستأصلة التي تأتي على القوم كالحلق للشعر إذا مرّ العالم لا ينتظم إلاّ

واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل وينسي الذكر فأكذبوا الأمل

بالتعاون وهو إنّما يتمّ بالالفة وأقوى أسبابها المودة والمؤاخاة، فكانت المودّة من أعظم المطالب الشرعيّة ولذا آخى رسول اللّه صلى الله عليه وآله بين أصحابه وقال تعالى: ﴿هو الذي ألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾، وقال تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم﴾.

والمباغضة ضدّها فلذا كانت مكروهة، واستعار لفظ الحالقة مما يحلق الشعر كالموسى للبغضة ووجه الشبه أنّها سبب لاستئصال الحلق بعضهم بعضاً كما انّ الموسى سبب لحلق الشعر واستئصاله.

ثمّ نبّه عليه السلام على التنفير عن طول الأمل وتكذيبه بما يترتب عليه من المضار الدنيوية والاخروية فقال:

[واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل] عمّا هو أولى بالإنسان في معاشه ومعاده لأنّ صاحبه أبداً مشغول الفكر بما يأمله ويرجوه وذلك مستلزم للغفلة عن المصالح الدنيوية والاخروية إذ ﴿ما جعل اللّه لرجل من قلبين في جوفه﴾،

[وينسي الذكر] أي: ذكر اللّه تعالى وأحوال الآخرة بسبب استغراقه فيما يأمله **[فأكذبوا الأمل]** بذكر الموت ودوام إخطاره بالبال وملاحظة المرجع والمعاد فإنّ ذلك يردّ الأمل وإنّما سُمّي تكذيباً له لأنّ النفس حال توقّعها للمأمول يكون حاكمة حكماً وهمياً ببلوغه ونيله فإذا رجعت إلى صرف العقل وملاحظة الموت وجواز الانقطاع به عن بلوغ ما رجته كان تجويزها ذلك مكذباً لما جزم به الوهم من الأحكام وراداً له.

فإنّه غَرور وصاحبه مغرور في صفات المتّقين وهو قوله عباد اللّه انّ من أحبّ عباد اللّه إليه عبداً أعانه اللّه على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف

وقوله: [**فإنّه غَرور**] بفتح الغين لأنّه ليس نفس الغفلة عن الذكر وغيره بل مستلزم لها، وبالضم مجاز من إطلاق اللازم على الملزوم.

[**وصاحبه مغرور**] مخدوع به كما عرفت.

ومن خطبة له عليه السلام وفيها فصول:

الفصل الأول

[**في صفات المتّقين وهو قوله عباد اللّه انّ من أحبّ عباد اللّه إليه**] محبّة اللّه تعالى للعبد تعود إلى إفاضة الكمالات النفسانية على نفسه بحسب قربه بالاستعداد فمن كان استعداده أتم كان استحقاقه أوفى فكانت محبّة اللّه له أكمل.

ثمّ ذكر عليه السلام من الصفات التي هي سبب محبّة اللّه للعبد أربعين وصفاً أشار إلى الأوّل منها بقوله: [**عبداً أعانه اللّه على نفسه**] وإعانته على نفسه بإفاضة قوّة على استعداده يقوي بها عقله على قهر نفسه الأمّارة بالسوء.

وأشار إلى الثاني بقوله: [**فاستشعر الحزن**] على ما فرّط فيه من المآثم واكتسبه من الجرائم اتّخذ ذلك شعاراً له بمنزلة الثوب الملاصق بشعر البدن لإحاطته به واشتماله عليه.

وأشار إلى الثالث بقوله: [**وتجلبب الخوف**] من اللّه على سيّئات أعماله وقبايح أقواله فاتخذ الخوف جلباباً وهو الملحفة استعارة للخوف من

فزهر مصباح الهدى في قلبه وأعدّ القِرى ليومه النازل به فقرّب على نفسه البعيد وهوّن الشديد

اللّه والخشية من عقابه، ووجه الشبه ما يشتركان في كون كلّ منهما متلبّساً به.

وإلى الرابع بقوله: [**فزهر مصباح الهدى في قلبه**] إشارة إلى إشراق أنوار المعارف الإلهية والعلوم الربّانيّة على مرآة سرّه وصفحة قلبه وهو ثمرة الاستعداد بالخوف والحزن ولذا عطفه بالفاء واستعار لفظ المصباح لنور المعرفة لما يشتركان فيه من كون كلّ منهما سبباً للهدى استعار المحسوس للمعقول.

وإلى الخامس بقوله: [**وأعدّ القِرى ليومه النازل به**] استعار لفظ القِرى للأعمال الصالحة وأراد باليوم النازل به يوم القيامة واستلزمت الاستعارة تشبيهه لذلك اليوم بالضيف أو يوم القري للضيف المتوقع نزوله ووجه الشبه انّ القري كما يبيض به وجه القاري عند ضيفه ويخلص به من ذمّه ويكسبه المحمدة والثناء منه كذلك الأعمال الصالحة في ذلك اليوم يكون سبباً لخلاص العبد من أهواله ويكسبه رضا الحق والثواب الجزيل منه.

وأشار إلى السادس بقوله: [**فقرّب على نفسه البعيد**] وهو تقصيره لأمله الطويل في الدنيا بذكر الموت أو تقريبه ما بُعد عنه من أحوال الآخرة بدوام إخطارها بباله حتّى كأنّها حاضرة له أو ما بعُد عنه من رحمة اللّه فإنّها بعيدة من غير مستحقّها فقربها منه بأعماله الصالحة الحسنة ﴿فإنّ رحمة اللّه قريب من المحسنين﴾.

وأشار إلى السابع بقوله: [**وهوّن الشديد**] أي: هوّن شدائد الآخرة

نظر فأبصر وَذَكَرَ فاستكثر وارتوى من عذب فرات سُهِّلَتْ له مواردُهُ فشرب نهلاً

وعقوباتها بأعماله الصالحة أو شدائد الدنيا من الفقر والفاقة والظلم والمصائب والأحزان بالصبر وتهوين ذلك على النفس بما أعدّ اللّه للصابرين كما قال: ﴿وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنّا إليه راجعون أُولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأُولئك هم المهتدون﴾.

وإلى الثامن بقوله: [**نظر فأبصر**] أي: تفكّر في ملكوت السموات والأرض وما خلق اللّه من شيء فأبصر الحق وعرفه وشاهده بعين بصيرته في عجائب مصنوعاته كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾.

وإلى التاسع بقوله: [**وَذَكَرَ فاستكثر**] أي: ذكر ربّه فاستكثر من ذكره أو ذكر معاده فاستكثر من عمله.

وإلى العاشر بقوله: [**وارتوى من عذب فرات**] كناية عن امتلائه من العلوم والمعارف الحقّة، شبّه العلوم والكمالات النفسانية التي تفاض على العلماء العارفين بالماء الزلال فاستعار له لفظ العذوبة والفرات ورشح تلك الاستعارة بذكر الارتواء.

وإلى الحادي عشر بقوله: [**سُهِّلَتْ له مواردُهُ**] أي: موارد العلم والمعارف ومظانّها من العبر والأُمور التي تحصّل نفوس المتقين منها العلوم وسهولة تلك الموارد لهم سرعة قبولهم لأخذ الكمالات عنها بسهولة بأذهان صافية هيّئتها العناية الإلهيّة لقبولها ويسّرتها لذلك.

وإلى الثاني عشر بقوله: [**فشرب نهلاً**] والنهل: الشرب في أوّل

وسلك سبيلاً جدداً قد خلع سرابيل الشهوات وتخلّى من الهموم، إلاّ همّاً واحداً انفرد به فخرج عن صفة العمى فصار من مفاتيح أبواب الهدى

الورد، واستعار لفظه لسبقهم إلى أخذ الكمالات عن مظانّها كما تسبق سوابق الإبل إلى شرب الماء.

وإلى الثالث عشر بقوله: [**وسلك سبيلاً جدداً**] أي: سبيل اللّه الواضح المستقيم العدل بين طرفي التفريط والإفراط.

وإلى الرابع عشر بقوله: [**قد خلع سرابيل الشهوات**] إشارة إلى الزهد كما أنّ ما قبله إشارة إلى تحصيل العلم والاستعداد له واستعار لفظ السرابيل للشهوات ووجه الشبه تلبّس صاحبها كما يتلبّس بالقميص ورشح بلفظ الخلع وكنّى به عن طرحه لاتّباع الشهوة والتفاته عنها فيما يخرج به عن حدّ العدل.

وأشار إلى الخامس عشر بقوله: [**وتخلّى من الهموم، إلاّ همّاً واحداً**] أي: تخلّى من هموم الدنيا وعلائق أحوالها وطرح كلّ مقصود عن قصده إلاّ همّاً واحداً [**انفرد به**] وهو همّه بمولاه الذي لذّته وسروره الاهتمام به والتفرّد بمناجاته ومطالعة أنوار عزّته.

وإلى السادس عشر بقوله: [**فخرج عن صفة العمى**] أي: عمى الجهل بما حصل عليه من فضيلة العلم والحكمة وعن مشاركة أهل الهوى في إفراطهم وفجورهم إذ هو على حاق الوسط من فضيلة العفّة.

وإلى السابع عشر بقوله: [**فصار من مفاتيح أبواب الهدى**] أي: طرقه وسبله التي انغلقت على أذهان الناقصين استعار المفتاح للعارف ووجه الشبه ظاهر.

ومغاليق أبواب الردى قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها

وإلى الثامن عشر بقوله: [**ومغاليق أبواب الردى**] وهي أطراف التفريط والإفراط الخارجة عن حدود اللّه التي تردي سالكها في الجحيم ووجه الشبه بالمغاليق أنّ العارف لمّا سدّ أبواب المنكرات التي سلكها الجاهلون الضالّون ولزم طريق العدل أشبه المغلاق الذي يكون سبباً لسدّ الطريق أن يُسلك، فاستعير لفظه له وفي الفقرتين مطابقة فالمغاليق بأزاء المفاتيح والردى بأزاء الهدى.

وإلى التاسع عشر بقوله: [**قد أبصر**] بنور بصيرته [**طريقه**] المأمور بسلوكه الموصل له إلى رضوان ربّه وجنانه.

وإلى العشرين بقوله: [**وسلك سبيله**] أي: لما أبصر السبيل سلكها إذ كان السلوك هو المقصد الأول.

وإلى الحادي والعشرين بقوله: [**وعرف مناره**] وهي أعلام طريق اللّه وهي البراهين والأدلّة التي يهتدى بها.

وإلى الثاني والعشرين بقوله: [**وقطع غماره**] أي: ما كان مغموراً فيه من مشاقّ الدنيا وهمومها والتألّم بسبب فقدها ومجاذبة أهلها لها فإنّ العارف بمعزل عن ذلك والتألّم بسببه.

وإلى الثالث والعشرين بقوله: [**واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها**] أي: بسبيل اللّه وأوامره استعارة، ووجه المشابهة أنّ العروة كما تكون سبباً لنجاة من تمسّك بها وكذا الحبل وكان أجودهما ما كان أثبت وأمتن ولم ينفصم كذلك طريق اللّه المؤدّي إلى رضوانه يكون لزوم سبُله

فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس قد نصب نفسه للّه سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كلّ وارد عليه وتَصْيير كلّ فرع إلى أصله مصباح ظلمات كشّافُ عشواتٍ

والتمسّك بأوامره سبباً للنجاة من أهوال الآخرة وهي العروة الوثقى التي لاانفصام لها والحبل المتين الذي لا انقطاع له قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن باللّه فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها﴾.

وإلى الرابع والعشرين بقوله: [**فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس**] أي: فكان تمسّكه بأوامر اللّه ومجاهدته في سبيله قد استشرق بأتمّ أنوار اليقين فصار مشاهداً بعين بصيرته عالم الملكوت والجنّة والنار عين اليقين كما يرى بصره الظاهر نور الشمس في الوضوح والجلاء.

وإلى الخامس والعشرين بقوله: [**قد نصب نفسه للّه سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كلّ وارد عليه وتَصْيير كلّ فرع إلى أصله**] أي: المأكل في ذاته وصفاته نصب نفسه لأرفع الأمور وأعلاها وأشرف المراتب وأغلاها من هداية الخلق وقودهم إلى طريق الحقّ وإرشادهم إلى الهدى وزجرهم عن الردى فصار كالمصباح تقتبس منه أنوار العلم فهو لكونه ملبياً بها قام بإصدار الأجوبة عن كل ما ورد عليه من الأسئلة التي اشتبه أمرها على الأذهان وصار يردّ كلّ فرع من فروع العلم إلى أصله المتشعّب منه.

وإلى السادس والعشرين بقوله: [**مصباح ظلمات**] أي: يهتدي به التائهون في ظلمات الجهل إلى الحق ولفظ المصباح مستعار كما مرّ.

وإلى السابع والعشرين بقوله: [**كشّافُ عشواتٍ**] بالعين المهملة جمع عشوة: وهي ركوب الأمر على جهل به والغشوة بالغين المعجمة هي الغطاء

مفتاح مبهمات دفّاع معضلات دليل فلوات يقول فيفهم

أي: موضع لما أشكل أمره وركب فيه الجهل من الأحكام المتلبّسة بتمييز وجه الحق عنها وعلى تقدير الغين المعجمة فالمراد كشّاف أغطية الجهالات عن أبصار ـــــــ.

وإلى الثامن والعشرين بقوله: **[مفتاح مبهمات]** جمع مبهمة وهي الأمر الملتبس أي: فاتح لما انغلق على أذهان الخلق واشتبه عليهم وجه الحقَ فيه من الأحكام.

وإلى التاسع والعشرين بقوله: **[دفّاع معضلات]** أي: الشدائد أي: يدفع كل حيرة في المسائل المعضلة التي صعب على الطالبين تمييز وجه الحق فيها ويحميهم ببيانه عن التردّي في مهاوي الجهل.

وإلى الثلاثين بقوله: **[دليل فلوات]** استعار لفظ الفلوات لموارد السلوك وهي الأمور المعقولة ووجه الشبه أنّ الفلوات كما لا يهتدي لمسالكها إلاّ الأدلاء الذين اعتادوا سلوكها وضبطوا مراحلها ومنازلها حتّى كان من لا قائد له منهم فيها تائها هالكاً لجهله بالطريق كذلك الأمور المتصوّرة المعقولة لا يهتدي لطريق الحقّ فيها إلاّ من أخذت العناية الإلهية بيده فألقت زمام عقله إلى هاد يهديه سُبل الحق ومن لم يكن كذلك حاد عن طريق الحق فخبط في ظلمات الجهل خبط عشواء وسلك به شياطينه أبواب جهنم والعلماء الربانيون هم أدلآء هذا الطريق والواقفون على أخطاره ومنازل السلامة فيه بعيون بصائرهم.

وإلى الحادي والثلاثين بقوله: **[يقول فيفهم]** لمشاهدته الحق من غير شكّ فيه ولا شبهة تعتريه.

ويسكت فيسلم قد أخلص للّه عمله فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه

وإلى الثاني والثلاثين بقوله: **[ويسكت]** عمّا لا يعلم وعن فضول الكلام **[فيسلم]** من خطر الكلام فإنّ اللسان صغير جرمه كبير اثمه وجرمه إذ ما من موجود ولا معدوم ولا خالق ولا مخلوق إلّا ويتناوله اللسان وبه يحصل الكفر والإيمان وربّ كلمة تكلّم بها سقط أبعد ما بين السماء والأرض فإن كان الكلام من فقيه فإنّ السكوت من ذهب ولايزال المرء يُكتَب محسناً ما سكت فإذا تكلّم كُتب إمّا محسن أو مسيء وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم والمقصود انّ العارف يسعمل كلاً من الكلام والسكوت في موضعه ويضعه في محلّه.

وإلى الثالث والثلاثين بقوله: **[قد أخلص للّه عمله]** وحذف كلّ خاطر سواه عن درجة الاعتبار فاستخلصه بأن ــــــ من بين أبناء نوعه بالرضا عنه وإفاضة أنواع الكمال عليه وأدناه إلى جواره وأفرده بمناجاته فالاخلاص سبب الاستخلاص كما قال ﴿واذكر في الكتاب موسى انّه كان مخلصاً وكان رسولاص نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيّاً﴾.

وإلى الرابع والثلاثين بقوله: **[فهو من معادن دينه]** استعار لفظ المعدن له ووجه الشبه اشتراكهما في كون كلّ منهما أصلاً للجواهر فمن المعادن الجواهر المحسوسة الفانية ومن قلوب العارفين ونفوس المقربين جواهر العلوم والأخلاق المعقولة الباقية.

وإلى الخامس والثلاثين بقوله: **[وأوتاد أرضه]** استعار له لفظ الوتد ووجه الشبه كون كلّ منهما سبباً لحفظ ما يحفظ به فبالوتد يحفظ الموتود وبالعارف يحفظ نظام الأرض واستقامة أُمور العالم.

قد ألزم نفسه العدل فكان أوّل عدله نفي الهوى عن نفسه يصف الحقّ ويعمل به لا يدع للخير غاية إلّا أمّها ولا مظنّة إلّا قصدها

وإلى السادس والثلاثين بقوله: [**قد ألزم نفسه العدل فكان أوّل عدله نفي الهوى عن نفسه**] لـمّا كان العدل ملكة ينشأ عن الملكات الثلاث وهي الحكمة والعفّة والشجاعة والعارفون راضوا أنفسهم بالعبادة حتى ظفروا بهذه الملكات لا جرم كان بسعيه في حصولها قد ألزم نفسه العدل ولـمّا كان العدل في القوة الشهويّة وهو أن يصير عفيفاً لا خامد الشهوة ولا فاجراً أصعب من العدل على سائر القوى لكثرة موارد الشهوة وميلها بالإنسان إلى طرف الإفراط ولذا كان أكثر المناهي الواردة في الشريعة هي موارد الشهوة لا جرم كان مقتضى المدح أن يبدأ بذكر نفي الهوى عن نفسه ولأنّ السالك أوّل ما يبدأ في تكميل القوّة العمليّة بأضلاع القوّة الشهويّة فيقف عند حدود اللّه ولا يتجاوزها في مأكول أو منكوح أو كسب ونحوه.

وإلى السابع والثلاثين بقوله: [**يصف الحقّ ويعمل به**] أي: يتبع قول الحق بعمله فإنّ الخلف في القول مع الخلق قبح ومع اللّه أقبح ولذا خصّ اللّه العتاب بالمؤمنين في قوله ﴿يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

وإلى الثامن والثلاثين بقوله: [**لا يدع للخير غاية إلّا أمّها**] أي: أنّه طالب لكل غاية خيريّة حسنة أي: لا يقنع ببعض الحق ويقف عنده بل يتناهى فيه ويستقصي غاياته.

وإلى التاسع والثلاثين بقوله: [**ولا مظنّة إلّا قصدها**] أي: هو قاصد لكلّ محل أمكنه أن ينتزع الخير والفضل منه ويستفيده كمجالس العلم

قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده وإمامه يحلّ حيث حلّ نقله وينزل حيث كان منزله وآخر قد تسمّى عالماً وليس به

والذكر ونحوهما.

وإلى الأربعين بقوله: [**قد أمكن الكتاب**] أي: القرآن الكريم [**من زمامه**] فانقاد لأوامره ونواهيه [**فهو قائده وإمامه**] واستعار لفظ الزمام لعقله ووجه الشبه ما يشتركان فيه من كون كلّ منهما آلة للانقياد وهي استعارة لفظ المحسوس للمعقول كذلك استعار لفظ القائد للكتاب لكونه جاذباً بزمام عقله إلى جهة واحدة مانعاً له من الانحراف عنها وكذا لفظ الإمام لكونه مقتدى به وقوله [**يحلّ حيث حلّ نقله وينزل حيث كان منزله**] استعار وصف الحلول والنزول اللذين هما من صفات المسافر وكنّى بحلوله حيث حلّ عن لزوم أثره والعمل بمقتضاه ومتابعته له في طريق سفره إلى الله بحيث لا ينفكّ عنه وجوداً وعدماً.

الفصل الثاني

في صفات بعض الفسّاق في مقابلة الموصوف السابق ووصفه بأوصاف عشرة وإنّما خصّ من تسمّى عالماً وليس بعالم بالذمّ لأنّه أشدّ فتنة وأقوى فساداً للدين لتعدّي فتنته من نفسه إلى غيره فقال:

[**وآخر قد تسمّى عالماً وليس به**] طلباً للرئاسة وجعل دينه فخّاً لصيد الدنيا الدنية الفانية وهذا الصنف كثير وفي زماننا منه جمّ غفير فاقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلال والجهائل جمع جمع جهالة كما قالوا علاقة وعلائق قيل أراد بها الجهل المركب وهو الاعتقاد الغير المطابق لما في نفس الأمر ونسبة الاقتباس إلى الجهل نسبة مجازية حيث أنّ الجهل يشبه

ونصب للناس أشراكاً من حبال غرور وقول زور قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحق على أهوائه يؤمّن من العظائم ويهوّن كبير الجرائم

العلم في كونه مستفاداً على وجه التعلّم والتعليم والأضاليل الضلال جمع لا واحد له من لفظه وهي من لوازم الجهالة والانحراف عن الطريق السوي وإنّما قال من جهّال وضلال ليكون إثبات الجهل والضلال له آكد ويكون حينئذ أرسخ في النفس من سائر الجهالات.

[**ونصب للناس أشراكاً من حبال غرور وقول زور**] استعارت الأشراك والحبال لما يغرّ به علماء السوء المخلوق من الأقوال الباطلة والأفعال المزخرفة العاطلة ووجه الشبه ما يشترك فيه الشرك من الحبال وغيرها وسائر ما يغرّون به الخلق من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم في كونها محصّلة للغرض فالشرك للعبد وغرور هؤلاء لقلوب الخلق ووشّح تلك الاستعارة بذكر النصب.

[**قد حمل الكتاب على آرائه**] وتأوّله على مقتضى استحسان نفسه.

[**وعطف الحق على أهوائه**] الفاسدة وآرائه الكاسدة أي: جعل كلّ هوى له حقاً ويؤوّل القرآن على وفق هواه ﴿ولو اتّبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض﴾.

[**يؤمّن من العظائم ويهوّن كبير الجرائم**] قال ابن أبي الحديد هو تصنيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظائم الذنون ويمنّونهم العفو مع الاضرار وترك التوبة وأقول الظاهر انّ المراد به هو الذي يضع الرجاء في محلّ الخوف لأجل استجلاب قلوب الناس واستمالة نفوسهم إليه فإذا رأى الولاة والظلمة قد انغمروا في الظلم والفجور وشرب الخمور والجهّال قد انهمكوا في المعاصي وحضروا مجلس هذا العالم ووعظه ذكر

يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع ويقول اعتزل البدع وبينها اضطجع

لهم ما يهون عليهم خطبهم مثل ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة اللّه إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعاً﴾.

ومثّل ﴿إنّ رحمة اللّه وسعت كلّ شيء﴾ وأين تقع معاصي العباد من رحمته ونحو ذلك مما يجلب به قلوبهم لأجل أغراضه الفاسدة وكان ينبغي له أن لا يذكر في هذا المقام إلاّ آيات الخوف ويكون كالطبيب الحاذق ويعالج الحار بالبارد والبارد بالحار فمن غلب عليه الرجاء يضرب بسياط الخوف ومن غلب عليه الخوف وأنحله يعالج بالرجاء.

ولذا ورد في الأخبار انّ في قلب المؤمن نورين نور خيفه ونور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولا هذا على هذا وقال لقمان لابنه: يا بني خف اللّه خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لخفت أن يعذّبك وارج اللّه رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرجوت أن يرحمك والخوف والرجاء جناحان يطير بهما الإنسان إلى عالم الملكوت ويستمتع بهما في عالم الجبروت ولا يغني أحدهما عن الآخر بل أحدهما بمنزلة الطعام والآخر بمنزلة الشراب فكما لا غناء بالطعام عن الشراب ولا العكس وكما انّ جناحي الطائر إذا تفاوتا اختلّ طيرانه كذا الخوف والرجاء إذا تفاوتا اختلّ السير إلى اللّه.

[**يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع**] إمّا لأنّه يقول ما لا يفعل وإمّا لجهله بمواقع الشبهة واشتباه الشبهة عليه ولأنّ جهله مركّب كما مرّ.

[**ويقول اعتزل البدع**] وما خالف كتاب اللّه وسنّة نبيّه.

[**وبينها اضطجع**] كناية عن تورّطه فيها لجهله بأُصول الشريعة وكيفية استخراج الفروع منها أو لاشتباه البدعة عليه يطبق الكتاب والسنّة على رأيه

فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان لا يعرف باب الهدى فيتّبعه ولا باب العمى فذلك ميّت الأحياء فأين تذهبون وأنّى تؤفكون

الفاسد وظنّه الكاسد قد خالف مولاه واتخذ آلهه هواه وقد زيّن له سوء عمله فرآه حسناً فهو ﴿من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

[**فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان**] وهو في العرف يطلق على الحمار ونحوه والمناسبة بينهما عدم الاستقلال لقبول العلوم الإلهيّة وعدم الصلاحيّة لإدراك المعارف الربّانية حفظ الألفاظ وصيغ المعاني كلامه أحلى من الشهد وقلبه أمرّ من الحنظل فمثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

[**لا يعرف باب الهدى فيتّبعه ولا باب العمى**] والردى فيصدّ عنه لجهله بقانون الهداية إلى طريق الحقّ حتّى يسلكه وبالمسلك الباطل حتّى يتركه وذلك لتقصير منه بإتباع الحقّ لهواه وإعراضه عن دلالة مولاه.

[**فذلك ميّت الأحياء**] لموت قلبه بالجهل فإنّ العلوم والمعارف الحقّة غذاء العقل والنفس كما أنّ الطعام والشراب غذاء البدن، فكما أنّ البدن يموت بفقد الطعام والشراب فكذا النفس تموت بفقد العلم بل بالجهل سيّما المركّب منه فهو ميّت في صورة حي.

الفصل الثالث

قوله [**فأين تذهبون**]

تنبيه على كونهم في ضلال وعمى عن الحق [**وأنّى تؤفكون**] أي: تصرفون ومناسبة هذا الكلام لما قبله أنّه لمّا ذكر المتّقين والفاسقين بصفاتهم وكان في ذكرهما تنبيه على وصفي طريق الحق والباطل ولوازمهما أردف

والاعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمّة الحقّة وألسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن

ذلك بالتنبيه على كونهم في ضلال عن الحق يسئلهم عمّا يذهبون إليه وعن وقت صرفهم عن ذلك الغي على سبيل الاتكال لما هم عليه من الطريق الجائرة والجادة البائرة والاعلام في قوله:

[**والاعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة**] للحال وأشار بالأعلام إلى أئمّة الدين ووضوحها ظهورها بينهم وكذا المناير ونصبها كناية عن قيام الأئمة عليهم السلام بينهم ووجودهم فيهم مما أبان ذلك وفسّره بقوله:

[**فأين يتاه بكم**] والتيه الضلال [**بل كيف تعمهون**] والعمه الحيرة والتردّد وهو في القلب كالعمى في البصر وبان منه أنّ قوله وأنّى تؤفكون معناه متى تصرفون عن تيهكم وانسحابكم في الضلال.

[**وبينكم عترة نبيّكم**] الواو للحال والحجّة حالية والعاملون يعمهون ويتهاه بكم وكذا الواو في قوله:

[**وهم أزمّة الحقّة**] إشارة إلى النبوي المتواتر بين الفريقين: «إنّي خلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض» واستعار لهم لفظ الأزمّة لكونهم قادة الخلق إلى الحقّ كما يقود الزمام الناقة إلى الطريق وكذا قوله:

[**وألسنة الصدق**] لكونهم من أجمة الوحي كما أنّ اللسان ترجمان النفس والمراد أنّهم لا يقولون إلاّ صدقاً.

[**فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن**] قيل للقرآن منازل أحدهما القلب وله

وردوهم ورود الهيم العطاش أيّها الناس خذوها عن خاتم النبيين صلّى الله عليه وآله انّه يموت من مات منّا وليس بميّت ويبلى من بلى منّا وليس ببال

فيه منزلتان منزلة الإكرام والتعظيم ومنزلة التصوّر فقط ثمّ منزلته في الوجود اللساني ثمّ في الكتب والدفاتر وأحسن منازله هي الأُولى، فالمراد الوصيّة بإكرامهم ومحبّتهم كما يكرم القرآن بذلك.

[**وردوهم ورود الهيم العطاش**] الهيم: الإبل العطاش، وهو إشارة إلى إرشادهم إلى اقتباس العلوم والأخلاق منهم إذ كانوا معادنها فشبّه العلماء بالمتبع والعلم بالماء العذب وعاومه بالعطشان فلذا أحسن الأمر بورودهم مشبّهاً بورود الإبل العطاش.

[**أيّها الناس خذوها**] أي: هذه الفائدة وإن لم يتقدّم ذكرها لأنّه في معرض ذكر الفائدة [**عن خاتم النبيين صلّى الله عليه وآله انّه يموت من مات منّا**] أهل البيت.

[**وليس بميّت ويبلى من بلى منّا وليس ببال**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

فإنّ المراد حياة النفوس كما ذكره المفسّرون، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لـمّا اصيبت اخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر تردانها الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظلّ العرش فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقبلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا انّا في الجنّة نُرزق لئلاّ يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله عزّ وجلّ أنا أُبلغهم عنكم فنزلت ﴿ولا تحسبنّ﴾ الآية.

فلا تقولوا بما لا تعرفون فإنّ أكثر الحق فيما تنكرون واعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر

وقوله: [**فلا تقولوا بما لا تعرفون**] تنبيه على الرجوع إلى العترة العارفين بما ينبغي أن يقال وأكّده بقوله:

[**فإنّ أكثر الحق فيما تنكرون**] والمقصود النهي عن التسرّع إليها، والجاهل قد يستكبر الحق إذا خالف طبعه أو نبا عنه فهمه أو سبق اعتقاد ضدّه إليه لشبهة أو تقليد فنبّه عليه السلام على أنّ أكثر الحقّ فيما ينكرونه لئلاّ يتسرّعون إلى القول بغير علم ولذا ذكر هذه القصة مرتبة بفاء التعليل.

[**واعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا**] طلب عليه السلام العذر منهم فيما يلحقهم من عذاب الله بسبب تصيرهم فإنّ الضرر اللاحق لهم قد انذروا به وتوعّدوا فلو قصر هو عليه السلام في تذكيرهم بتلك الوعيدات والانذارات مع كون ذلك مأخوذاً عليه من الله لكانت حجّتهم عليه قائمة ولم يكن له عليه السلام عذر مع أنّه قد بلّغ وحذّر وقد أعذر من أنذر فإنّما ذكرهم بسلب الحجّة عنه في ذلك ليتذكّروا خطأهم ولعلّهم يرجعون.

وقوله عليه السلام: [**ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر**] استفهام على سبيل التبكيت والتقريع والثقل الأكبر كتاب الله كما في النبوي، ولعلّه وصفه بالأكبر ووصفهم عليهم السلام بالأصغر كما في قوله.

[**وأترك فيكم الثقل الأصغر**] من حيث أنّ الكتاب هو الأصل المنبع وهم عليهم السلام تراجمته أو من حيث أنّه هو الدال على إمامتهم ووجوب اتّباعهم أو من حيث اقتضاء الحكمة الإلهية ظهور الكتاب وعدم خفائه في كل زمان

ووكزت فيكم راية الإيمان ووقفتكم على حدود الحلال والحرام وألبستكم العافية من عدلي وفرشتكم المعروف من قولي وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره النظر ولا يتغلغل إليه الفكر

بخلاف العترة.

[**ووكزت فيكم راية الإيمان**] كناية عن سنّته المتّبعة وطريقته الواضحة في العمل بكتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ كناية بالمستعار ووجه الشبه كون طريقته يهتدي بها إلى سلوك سبيل اللّه كما يهتدي بالأعلام والرايات أمام الجيش وغيره، ولفظ الركز ترسيخ للاستعارة كنّى به عن إيضاحها لهم. وقوله:

[**ووقفتكم على حدود الحلال والحرام**] يريد تعريفهم إياها وبيانها لهم، [**وألبستكم العافية من عدلي**] أراد بالعافية السلامة من الأذى الحاصل من أيدي الظالمين، واستعار لفظ اللباس لها ووجه الاستعارة انّ العافية تشمل المعافى كالقميص وكذا استعار لفظ الفرش في قوله:

[**وفرشتكم المعروف من قولي**] للمعروف لكونه إذا وطئت قواعده يستراح به كالفراش وقوله:

[**وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي**] أي: أوضحتهالكم وشاهدتموها منّي مرّة بعد أُخرى وكرّة عقب أولى وقوله عليه السلام.

[**فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره النظر ولا يتغلغل إليه الفكر**] قعر الشيء أقصاه والمراد بالبصر بصر العقل والتغلغل الدخول في الأعمال والمقصود النهي عن اتباع الآراء والاستبداد بالأهواء في الاصول والفروع

حتّى يظنّ الظانّ أنّ الدنيا معقولة على بنّي أُميّة

والخروج عن الكتاب والسنة والقول بغير علم ولا يقين والتعويل على الظنّ والتخمين فإنّ ذلك يوجب اختلاف الكلمة وافتراق الامّة ووقوع الهرج والمرج واختلال نظام الدنيا والدين كما هو معلوم بالوجدان والعيان يغني عن البيان والله المستعان.

ومنها في الملاحم

وهي خطبة طويلة قد حذف السيّد الرضي منها كثير ومن جملتها:

أما والذي فلق الحبّة وبرئ النسمة لا يرون الذي ينتظرون حتّى يهلك المتمنون ويضمحل المحلّون ويثبت المؤمنون وقليل يكون والله لا ترون الذي تنتظرون حتّى لا تدعون إلّا إشارة بأيديكم وإيماء بحواجبكم وحتى لا تملكون من الأرض إلّا مواضع أقدامكم وحتّى يكون موضع سلاحكم على ظهوركم فيومئذ ينصرني الله بملائكته ومن كتب على قلبه الإيمان.

والذي نفس عليٍّ بيده لا تقوم عصابة تطلب لي أو لغير حقّاً أو تدفع عنّي ضيماً إلّا صرعتهم البليّة حتّى تقوم عصابة شهدت مع محمد ﷺ بدر إلّا نودي بقتلهم ولا يداوى جريحهم ولا ينعش صريعهم.

ومنها: لقد دعوتكم إلى الحق فتوليتم وضربتكم بالدرّة فما استقمتم ويليكم ولاة يعذّبونكم بالسياط والحديد وسيأتيكم غلام ثقيف أخفش ويعيوب يقتلان ويظلمان وقليل ما يمكنان.

ومنها: [**حتّى يظنّ الظانّ أنّ الدنيا معقولة**] أي محبوسة [**على بنّي أُميّة**] ذكر غاية من غايات طول عناء الناس معهم واستعار للدنيا لفظ معقولة

تمنحهم درّها ولا ترفع عن هذه الامة سوطها ولا سيفها وكذب الظانُّ لذلك بل هي مجّة فعله من مجّ الشراب إذا قذفه من فيه من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثمّ يلفظونها جملة

مشبّهاً لها بالناقة في كونها محبوسة في أيديهم كما تحبس الناقة بالعقال.

[**تمنحهم درّها**] المنح: العطاء منح يمنح بالفتح والاسم المنحة بالكسر واستمنحت زيداً طلبت منحته والدرّ في الأصل اللّبن ووجه الاستعارة تشبيهها بالناقة في كون ما فيها من فوائدها وخيرها مهيّئة لهم ومصوبة عليهم كما تبذل الناقة درّها لحالبها وتوردهم صفوها ونسبة الإيراد إليها مجاز، وقوله:

[**ولا ترفع عن هذه الامة سوطها ولا سيفها**] كنّى بالسوط والسيف عمّا فيه الامّة معهم من العذاب والقتل ونحوه استعمالاً للفظ السبب في المسبب.

[**وكذب الظانُّ لذلك بل هي مجّة**] **فعله من مجّ الشراب إذا قذفه من فيه**]**من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثمّ يلفظونها جملة**] تكذيب في تحقير ما حصلوا عليه من الأمر ولذّتهم به وتحقير مدّته واستعار لذلك لفظ المجّة وكنّى بكونها مطعومة لهم عن تلذذهم لها مدّة أمرتهم وبكونها ملفوظة عن زوال الامرة عنهم وأكّد ذلك الزوال بقوله: جملة، أي: بكليتها وهي كناية بالمستعار وتشبيهاً لها باللقمة التي لا يمكن اساغتها.

أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه لم يقصم جباري دهر قط إلّا بعد تمهيل ورخاء ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلّا بعد أزل وبلاء

ومن خطبة له عليه السلام

ومقتضاها أنّه عليه السلام فهم من المخاطبين أنّهم إنّما يستندون بآرائهم من دون مراجعة عن كبر منهم على التعلّم والاستفادة ومحبّة الراحة من تحمّل كلفة التحرّي في الدين والتحرّز من الغلط فيه ومشقّة الطلب، فلذا خوّفهم من حال الجبابرة فقال:

[**أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه لم يقصم جباري دهر قط**] والقصم بالقاف والصاد المهملة الكسر.

[**إلّا بعد تمهيل**] أي: تأخير [**ورخاء**] وسعة في الحبس أي: لم يقصم ظهرهم إلّا بعد إمهالهم ورخائهم فإنّهم إذا أُمهلوا وانغمسوا فيما هم فيه من الرخاء، وأعرضوا عن الآخرة ونسوا ذكر اللّه فاستعدوا بتركهم قوانين الدين التي بها نظام العالم للهلاك كما قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً﴾، وكذا قوله:

[**ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلّا بعد أزل وبلاء**] الجبر ضدّ الكسر وجبر العظم كناية عن التقوية بعد الضعف والأزل بفتح الهمزة: الضيق والشدّة والفرض بيان أنّ أحداً من الأمم المتبعين لأنبيهم أو لملوكهم في إظهار دين أو طلب ملك لن يصلوا إلى مطلوبهم إلّا بعد قوتهم وتضاعفهم وتظاهر بعضهم ببعض ومعافاة بلا أثر بلاء بحيث يستعدون بذلك للفزع إلى اللّه

وفي دون ما استقبلتم من عتب واستدبرتم من خطب معتبر

تعالى فيهيئ قلوبهم للالفة واجتماع العزايم حتى ينصروا على أعدائهم وفيه تنبيه على وجوب الاتحاد في الدين وعدم تشتت الآراء فيه فإنّ ذلك يدعوا إلى التفرّق ويدخل عليهم الوهن والضعف وكلّ ذلك ضدّ مطلوب الشارع.

ويحتمل أن يكنّى بقوله: لم يقصم جباري دهر عن جباري دهره ووقته كمعاوية وأصحابه وبقوله ولم يجبر أحد... إلخ، عن أصحابه ـــــ بالكلمة الأولى على أنّ أُولئك الجبارين وإن طالت مدتهم وقويت شوكتهم فزنّما ذلك إملاء من اللّه لهم ليستعدوا به للهلاك وبالكلمة الثانية على أنكم وإن ضعفتم وابتليتم فذلك عادة اللّه فيمن يريد أن ينصره ثمّ عقب ذلك بتوبيخهم على الاختلاف وتشتت الآراء والمذاهب في الدين لأنّه يؤدّي إلى طول محنتهم وضعفهم عن مقاومة عدوهم وفساد نظام دينهم ودنياهم فقال:

[وفي دون ما استقبلتم من عتب] أي: من عتابي لكم.

[واستدبرتم من خطب] أي: من الأهوال التي كنتم ترونها من المشركين في مبدء الإسلام حيث كنتم قليلين وأُمرتم أن يثبت الواحد منكم لعشرة منهم ثم أيّدكم اللّه بنصره وبالتأليف بين قلوبكم وجبر عظيمكم بمن أسلم ودخل في دينكم **[معتبر]** رأي معتبر وفيه لكم اعتبار فإنّكم لو لم تتّحدوا في الدين وتاقسوا مرارة ذلك الصبر واختلفت آرائكم في ذلك كاختلافها الآن وكنتم إذا على غاية من الكثرة لم تغن عنكم كثرتكم شيئاً فكأنّه قال فيجب من ذلك الاعتبار أن لا تفترقوا في الرأي وأن تتحدوا في الدين وتراجعوا إمامكم في جميع أحكامكم في الأُصول والفروع.

وما كلّ ذي قلب بلبيب ولا كل ذي سمع بسميع ولا كلّ ذي بصر ببصير فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها لا يقتفون أثر نبيّ ولا يقتدون بعمل وصي

[**وما كلّ ذي قلب بلبيب**] إذ الإنسان قد يخلو من اللّب وأراد باللّب العقل والذكاء واستعماله فيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي فاللبيب من ينتفع بعقله فيما خلق لأجله وكذا قوله:

[**ولا كل ذي سمع بسميع ولا كلّ ذي بصر ببصير**] إذ السميع والبصير هما اللذان يستعملان سمعهما وبصرهما في استفادة العبرة وإصلاح أمر المعاد، كما قال تعالى: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ .

وقال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ وفائدة هذه الكلمات تحريك النفوس إلى الاعتبار كيلا يعد التارك له غير لبيب ولا سميع ولا بصير.

ثمّ قال عليه السلام:

[**فيا عجباً**] أي: احضر فهذا أوانك أو يا قوم عجباً من هذا الحال.

[**وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها**] فإنّ ذلك هو الأصل الذي نشأت عنه أكثر هذه الرذائل.

[**لا يقتفون أثر نبيّ**] إذ لو اقتفوا أثر أنبيائهم لما اختلفوا إذ لا اختلاف فيما جاء به الأنبياء كما مرّ بيانه.

[**ولا يقتدون بعمل وصي**] إشارة إلى نفسه وهذا أقطع لاعذارهم فإنّ الاختلاف في الدين قد يعرض ضرورة وهي عدم إصابة الكلّ للحقّ لفقد

ولا يؤمنون بغيب ولا يعفون عن غيب في الشبهات

الأنبياء فأمّا إذا كان الأوصياء الواقفون على أسرار الشريعة موجودين بينهم امتنع أن يقعوا في تلك الضرورة فيعتذروا بها في الاختلاف ولو اتبعوه في أمورهم لانتظم أمرهم وصلح معاشهم ومعادهم.

[**ولا يؤمنون بغيب**] إشارة إلى أنّهم بصد من مدح اللّه في كتابه بقوله: ﴿هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾ فقيل هو اللّه وقيل ما جاء من عند اللّه وقيل هو الدار الآخرة والثواب والعقاب والحسنات وقيل هو كقوله ﴿يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: لا يحفظون شرائط الإيمان في غيب بعضهم من بعض.

وقيل: الغيب ما غاب عن الحواس مما علم بالدليل وقيل يؤمنون بما غاب عن أفهامهم من متشابهات القرآن، والأولى أن يراد به جميع ما غاب عن الحواس مما علم بالبراهين القاطعة من العلم بوجود الصانع، وما يجوز عليه ويمتنع والدار الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

[**ولا يعفون عن غيب**] فيذكرون مغايب الناس ويذكروهم بالغيبة والبهتان ومن غفل عن عيوب نفسه واشتغل بعيوب الخلق فقد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين وهذه خصال أربع قد تركوها مما لا ينبغي تركها.

ثمّ أشار عليه السلام إلى خصال أربع لا ينبغي فعلها فعلوها بقوله عليه السلام:

[**في الشبهات**] ومن خاض في الشبهات ارتكب المحرّمات والوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة وهم يعملون في الشبهة بما قادهم إليه هواهم.

ويسيرون في الشهوات المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المبهمات على آرائهم كأنّ كلّ امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعُرى وثيقات وأسباب محكمات

[**ويسيرون في الشهوات**] لما لحظ مشابهة ميل قلوبهم إلى شهواتها الدنيوية وانهماكهما فيها قاطعة مراحل الأوقات بالتلذّذ بها لسلوك السائر في الطريق ونحوها استعار لذلك السلوك لفظ السير.

[**المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا**] فالمعروف والمنكر تابعان لإرادتهم وميولهم الطبيعيّة، فما أنكرته طباعهم كان هو المنكر بينهم وإن كان معروفاً في الشريعة، وما اقتضته طباعهم ومالت إليه أهواءهم كان هو المعروف بينهم وإن كان منكراً في الدين، فهم من أهل هذه الآية ﴿أفرأيت من أتّخذ إلهه هواه﴾.

[**مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المبهمات على آرائهم**] فكلّ ما يرد عليه مشكل من المشكلات ومبهم من المبهمات في الأحكام الإلهيّة الأصليّة والفرعيّة عوّلوا فيها على أهوائهم وآرائهم ولا يجرونها على القوانين الشرعيّة.

[**كأنّ كلّ امرئ منهم إمام نفسه**] فكلّ منهم يأخذ على نفسه ويحكم بآرائه.

[**قد أخذ منها فيما يرى بعُرى وثيقات وأسباب محكمات**] يعني كأنّ آرائه وأهوائه عنده عرى وثيقة لا يضلّ من تمسّك بها وأسباب محكمة ونصوص جليّة لا اشتباه فيها.

أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم واعتزام من الفتن

ومن خطبه له عليه السلام في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

[أرسله على حين فترة من الرسل] الفترة بين الرسل انقطاع الرسالة والوحي وبين محمد صلى الله عليه وآله وعيسى عليه السلام خمسمائة أو ستمائة سنة، ولم يرسل في تلك المدة رسول، ومعلوم أنّ خلوّ الزمان من الرسول يستلزم وجود الشرور والهرج والمرج والاختلاف، وحيث كان مذهب الإمامية عدم خلوّ الإمام من معصوم وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة وأنّ الحجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق فالفترة عبارة عن عدم ظهور الدين، وعدم انتظام الشريعة وبغيبة الحجة أو عدم تمكّنه من إظهار الأحكام تقية، لاستيلاء أئمّة الجور كزماننا هذا وما ضاهاه من الأزمنة السالفة.

[وطول هجعة من الأمم] كنّى بها عن الغفلة في أمر الموت والحشر والنشر والثواب والعقاب وسائر المصالح الدنيويّة والأُخرويّة والهجعة النوم فإنّ الغفلة مشبهة للنوم في ترك الإتيان بالمصالح.

[واعتزام من الفتن] والاعتزام بالعين المهملة والزاء المعجمة: العزم، وروي اغترام بالراء المهملة أي: كثرتها، وروي اعتراض من اعترض الفرس الطريق إذا مشى عرضاً من غير قصد.

فعلى الرواية الأُولى نسبة العزم إلى الفتن مجاز كنّى بها عن وقوعها بين الخلق المشبه لقصدها إيّاها.

وانتشار من الأُمور وتلظ من الحروب والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها وإعواز من مائها

وعلى الثانية أي: كثرة من الفتن.

وعلى الثالثة فالمعنى أنّ الفتن لما كانت واقعة على غير قانون شرعي ولا نظام مصلحي، ولذلك سُمّيت فتنة أشبهت المعترض في الطريق من الحيوان الماشي على غير استقامة فلذلك استعير لها لفظ الاعتراض.

[**وانتشار من الأُمور**] أي: تفرّق أُمور الخلق وأحوالهم وجريان أفعالهم على غير قانون قويم ولا نهج مستقيم.

[**وتلظ من الحروب**] يقال: تلظّت الحرب تلهّبت شبّه الحرب بالنار وأسند إليها التلظّي استعارة وكنّى به عن هيجانها ووجودها بينهم زمان الفرقة.

[**والدنيا كاسفة النور**] الواو للحال أي: كاشف نورها ونور ادنيا كناية عن وجود الأنبياء وما يأتون به من الشرايع وما ينتج عنهم من الأولياء والعلماء كناية بالمستعار ووجه المشابهة ما يستلزمه النور ووجود الأنبياء والشرايع من الاهتداء بهما ووشّح تلك الاستعارة بذكر الكسوف وعبّر به عن عدم ذلك النور ومنها ملاحظة الشبه بالشمس.

[**ظاهرة الغرور**] أي: كل قد اغترّ بها وغرق في شهواتها، وانهمك في لذّاتها، وافتتن بفتنها، وانخدع بخدعتها.

[**على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها وإعواز من مائها**] استعار لفظ الثمر والورق لمتاعها وزينتها، ولفظ الاصفرار لتغيّر تلك الزينة عن العرف في ذلك الوقت، وطلاق عيشهم اذن وخشونة مطاعهم كما

قد درست أعلام الهدى وظهرت أعلام الردى فهي متجهمة لأهلها عابسة في وجه طلاّبها

يذهب حسن الشجرة باصفرار ورقها، فلا يلتذّ بالنظر إليها.

وكذا استعار لفظ الماء لموارد متاع الدنيا وطرق لذّاتها ولفظ الإعواز لعدم تلك المواد من صنف التجارات والمكاسب وعدم التملّك للأمصار. وكلّ ذلك لعدم النظام العدل بينهم وكلّها استعارات بالكناية.

ووجه الاستعارة الأُولى: أنّ الورق كما أنّه زينة الشجرة وبه كمالها كذلك لذّات الحياة الدنيا وزينتها.

ووجه الثانية: أنّ الثمرة كما أنّه مقصود من الشجرة وغاية لها كذلك متاع الدنيا والانتفاع به هو المقصود المطلوب منها لأكثر الخلق.

ووجه الثالثة: أنّ الماء كما أنّه مادّة الشجرة وبه حياتها وقيامها في الوجوب كذلك مواد اللذات وهي المكاسب والتجارات والصناعات وكانت العرب خالية من جميع ذلك.

[**قد درست أعلام الهدى**] كناية عن كتب اللّه وحججه القائمة التي بها يقتدى لسلوك سبل اللّه ودروسها عبارة عن عدم الرجوع إليهم والتعويل عليهم.

[**وظهرت أعلام الردى**] كناية عن أئمة الضلال الداعين إلى النار [**فهي**] الدنيا [**متجهمة لأهلها**] والتجهّم العبوس أي [**عابسة في وجه طلاّبها**] كناية عن عدم صفاتها لهم، فإنّ طيب العيش في الدنيا إنّما يكون مع وجود نظام العدل و ـــــ بين أهلها وعدم المظالم وذلك في زمان الفترة مقصود بين العرب وهو كناية بالمستعار ووجه الشبه لا يستلزم المستعار عنه وله من عدم

ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة وشعارها الخوف ودثارها السيف فاعتبروا عباد اللّه واذكروا تيكَ التي آباؤكم بها مرتهنون وعليها محاسبون

تحصيل المطلوب معهما.

[**ثمرها الفتنة**] أي: غاية سعيهم فيها على خبط في ظلمات جهلهم إنّما هو الفتنة، أي الضلال عن سبيل اللّه والتيه في ظلمات الباطل، وغاية كلّ شيء هي مقصوده فأشبهت الثمرة المقصودة من الشجرة واستُعير لها لفظها.

[**وطعامها الجيفة**] استعار الجيفة لطعام الدنيا ولذّاتها ووجه الشبه أنّه لمّا كانت الجيفة عبارة عما أنتن وتغيّرت رائحته من جثة حيوان أو نحوها فخبث مأكله ونفر الطبع عنه كذلك طعام الدنيا ولذّاتها في زمان الفترة أكثر ما يكون من النهب والغارة والسرقة ونحوها مما يخبث تناوله شرعاص وينفر العقل منه، فاستعير لفظها له ويحتمل أن يكون كنّى بالجيفة عمّا كانوا يأكلونه في الجاهلية من ـــــ والموقودة والنطيحة والمتردّية ونحوها ممّا هو محرّم شرعاً بحكم الميتة.

وقوله: [**وشعارها الخوف ودثارها السيف**] استعار الشعار للخوف لأنّه كثيراً ما يستتبع اضطراب البدن وانفعاله بالرعدة فيكون شاملاً له شمول الثوب الملاصق لشطر البدن والدثار للسيف لاشتراكهما في مباشرة المدثر والمضروب من فوقهما.

ثمّ شرع عليه السلام فيما هو المقصود فقال:

[**فاعتبروا عباد اللّه واذكروا تيكَ**] وفي نسخة تلك، [**التي آباؤكم بها مرتهنون وعليها محاسبون**] إشارة إلى وجه العبرة، أي: تلك الأعمال التي

ولعمري ما تقاومت بكم ولا بهم العمود ولا خلت فيما بينكم الأحقاب والقرون وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أضلالهم ببعيد واللّه ما أسمعكم الرسول صلّى اللّه عليه وآله شيئاً إلاّ وها أنا ذا مسمعكم وما اسماعكم اليوم بدون اسماعهم بالأمس حتّى تعتذروا بأنّهم سمعوا ما لم نسمع ولا شقت لهم الأبصار ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك إلاّ وقد أُعطيتم مثلها في هذا الزمان واللّه ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه ولا أصفيتم به وحرموه

كانت عليها آباؤكم وإخوانكم زمان الفترة وزمان دعوة الرسول لكم فهم بها محبوسون في مشيق الأبدان الكثيفة المظلمة وأغلال الأخلاق الرديّة المهلكة والسيّئات الموبقة ومحاسبون عليها.

[**ولعمري ما تقاومت بكم ولا بهم العمود ولا خلت فيما بينكم الأحقاب والقرون وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أضلالهم ببعيد واللّه ما أسمعكم الرسول صلّى اللّه عليه وآله شيئاً إلاّ وها أنا ذا مسمعكم وما اسماعكم اليوم بدون اسماعهم بالأمس حتّى تعتذروا بأنّهم سمعوا ما لم نسمع ولا شقت لهم الأبصار ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك إلاّ وقد أُعطيتم مثلها في هذا الزمان واللّه ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه ولا أصفيتم**] أي: اختصمتم واصطفيتم [**به وحرموه**].

فقد تمّت الحجّة عليكم فإن فعلتم ما فعلوا من الصالحات نجوتم كما نجوا، وإلاّ هلكتم كما هلكوا، ولا عذر لكم بتفاوت الحال بينكم وبينهم.

المقصود تشبيه زمان الخلف بالسلف وإلحاقهم بآبائهم في تشبيه زمانهم بزمانهم، وتقارب مابين الزمانين، وليس زمان الابن وحاله ببعيد من حال

ولقد نزلت بكم البليّة جائلاً خِطامها رخواً بطانها

أبيه ولا تفاوت بين أسماعكم وأسماعهم وأبصاركم وأبصارهم، وكذا سائر آلات الأبدان التي كانت لهم، فإنّها حاصلة لكم ولم تعلموا شيئاً كانوا جاهلين به، حتّى يكون ذلك سبباً للفرق بينكم وبينهم.

والغرض من إلحاقهم بهم في هذه الأمور التنفير عن حال من سبق من الماضين بمخالفة أوامر اللّه والترغيب في حال من سبق في الاختيار بامتثال أوامر اللّه، فإنّه إذا حصلت المشابهة بهم بينهم وبين السابقية والمتشابهان يتّخذان في اللوازم، كان من يشبه بسابق في عصيانه لزمه ما لزمه من أليم العقاب، ومن يشبه به في طاعته وانقياده للّه لزمه ما لزمه من الوصول إلى جزيل الثواب.

ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[**ولقد نزلت بكم البليّة**] لعلّه إنذار بابتلاء الخلق بدولة بني أُميّة وملوكها أو محنتهم العظيمة بفتنة معاوية.

وقوله: [**جائلاً خطامها**] كناية عن خطر دولتهم وصعوبة حال من يركن إليها لكونها خارجة عن قانون الشريعة الإلهية والملّة النبويّة، جارية على الأهواء الفاسدة والآراء الكاسدة، فالراكن إليهم وإلى دولتهم على خطر عظيم في دينه ودنياه وآخرته، وأولاه كالراكن إلى الناقة الصعبة التي حال خطامها، أي: لم يثبت في وجهها وسمّي الزمام خطاماص لكونه في مقدّم الأنف والخطم مقدّمة الأنف والفم، فإنّ الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبت على راكبها.

وكذا إذا كان [**رخواً بطانها**] أي ارتخى حزامها فركبها فإنّه يكون

فلا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنّما هو ظلّ ممدود إلى أجل معدود الحمد للّه المعروف من غير رؤية الخالق من غير روية

الراكب في معرض السقوط وإن تصرعه فيهلك ربطان القتب هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير.

ثمّ أردف ذلك بالنهي عن الاغترار بالدنيا ومتاعها، فقال:

[**فلا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور**] من متاع الدنيا وطيّباتها [**فإنّما هو ظلّ ممدود إلى أجل معدود**] والظلّ ساكن في رأي العين وهو متحرّك في الحقيقة لايزال يتقلّص شيئاً فشيئاً، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أشبه شيء بأحوال الدنيا، فأهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام، ولقد أجاد من شبّهه بالماء الجاري، فإنّك إذا نظرت إلى الأنهار العظيمة الجارية تتخيّل إنّ ما وقع عليه النظر من الماء متحداً مع أنّه في كلّ آن الجزء الذي تراه غير الذي رأيته، فهو يذهب وأنت لا تشعر كما يذهب العمر وينقضي شيئاً فشيئاً والإنسان لا يشعر.

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه المعروف من غير رؤية**] وقد مرّ سابقاً أنّه تعالى يعرف باماراة وبآياته وأنّه منزّه عن الرؤيّة البصريّة لاستلزامها الجهة والجسميّة ونحوهما ممّا يجب تنزيه الواجب تعالى عنه [**الخالق**] للأسباب والفاعل لما يشاء [**من غير روية**] أي: فكرة وأمله ـــــ من روات في الأمر.

الذي لم يزل دائماً قائماً إذ لا سماء ذات أبراج ولا حجب ذات إرتاج فيه ولا ليل داج ولا بحر ساج ولا جبل ذو فجاج ولا فج ذو اعوجاج ولا أرض ذات مهاد ولا خلق ذو اعتماد ذلك مبتدع الخلق

[**الذي لم يزل دائماً**] لكون وجوب وجوده مستلزماً لاستحالة عدمه أزلاً وأبداً [**قائماً**] بأمور العالم ﴿أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت﴾ أي عالماً بهم ضابطاً لأحوالهم أو حافظاً عليهم أو قاهراً لهم مقتدراً عليهم.

[**إذ لا سماء ذات أبراج**] إشارة إلى اعتبار أزليّته وسبقه لكلّ ممكن ودوامه تقريراً لقوله صلى الله عليه وآله كان اللّه ولم يكن معه شيء والأبراج في اللغة الأركان وفي الاصطلاح كون الفلك مقسوماً باثنى عشر قسماً كلّ قسم منها يسمّى برجاً.

[**ولا حجب ذات إرتاج**] أي: إغلاق مصدر ارتج أي اغلق قيل هي حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته وقيل هي السماوات أنفسها، لأنّها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما للملائكة.

[**فيه ولا ليل داج**] أي: مظلم.

[**ولا بحر ساج**] أي: ساكن [**ولا جبل ذو فجاج**] جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين.

[**ولا فج ذو اعوجاج**] والفج: الواسع.

[**ولا أرض ذات مهاد**] أي فراش، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وجعلنا الأرض مهاداً﴾، [**ولا خلق ذو اعتماد**] أي ولا مخلوق ـــــ برجلين فيعتمد عليها أو ذو قوة وبطش.

[**ذلك مبتدع الخلق**] أي مخرجه لا من شيء أو مخترعه على غير مثال

ووارثه وإله الخلق ورازقه والشمس والقمر دائبان في مرضاته يبليان كلّ جديد ويقرّبان كلّ بعيد قسم أرزاقهم

سبق كما قال بديع السماوات والأرض.

[**ووارثه**] مآله ومرجعه كما أنّه مبدئه إشارة إلى كونه دائماً قائماً لم يزل ولايزال.

[**وإله الخلق**] موجدهم ومستعبدهم.

[**ورازقه**] يفيض سائر نعمه عليهم.

[**والشمس والقمر دائبان في مرضاته**] مسرعان في أوامره وإرادته وإنّما ذكرا في معرض التجيد لكونهما من أعظم آيات ملكه وأعلا علامات سلطانه ممتهنين بالطلوع والأُفول والإنارة والكسوف ودائبان تنبيه دائب وهو الجاد المجتهد المتعب من دأب في عمله أي جدّ وتعب دأباً ودؤباً فهو دئيب وقوله:

[**يبليان كلّ جديد ويقرّبان كلّ بعيد**] جلب إلى ذكر المعاد وتحذير عن الغفلة عن الموت ـــــ على الصحّة والسلامة، إذ إبلائهما للجديد ينبّه على عدم الاعتماد على ما يروق ويعجب من نظارة الشباب وحسن الأبدان وطرواتها، وما يتجدّد من لذّات الدنيا لدخولها فيما يبلى، وتقريبهما للبعيد يوجب الحذر عما يستبعده أهل الغفلة والشباب والصحّة من قدوم الموت ومجيء الفوت. ونسب الابلاء والقريب إليهما لكون حركاتهما من الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم وتغيّراته.

وقوله: [**قسم أرزاقهم**] أي لكلّ منهم ما قدّر له على مقتضى الحكمة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

وأحصى آثارهم وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير ومستقرّهم ومستودعهم من الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات

[**وأحصى آثارهم**] أي آثار وطئهم في الأرض كما يشعر به قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها﴾ أو حركاتهم وتصرّفاتهم [**وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم**] أي ما يرمون به بأطراف أبصارهم مسارقة وخفية بحيث لا يشعر به أحد.

[**وما تخفي صدورهم من الضمير**] الذي لا يعلم به أحد أبداً.

[**ومستقرّهم**] في الأرحام [**ومستودعهم**] في الأصلاب، وقد فسّر ذلك بقوله:

[**من الأرحام والظهور**] فتكون من متعلّقه بمستقرّهم ومستودعهم على إرادة تكرّرها ويمكن أن يكون المعنى مستقرّهم ومآواهم على ظهر الأرض ومستودعهم في بطنها بعد الموت، وتكون من ههنا بمعنى مذ أي مذ زمان كونهم في الأرحام والظهور.

[**إلى أن تتناهى بهم الغايات**] أي إلى أن يحشروا في القيامة ويجازى كلّ بعمله وعلى الأول يكون تناهي الغايات بهم عبارة عن كونهم أحياء في الدنيا والمقصود أنّ اللّه يعلم جميع أحوالهم من مبدئهم إلى نهايتهم، قال تعالى: ﴿واللّه يعلم أعمالكم﴾.

وقال: ﴿ما من غائبة في السماوات والأرض إلاّ في كتاب مبين﴾.

وقال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

وقال تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض إلاّ على اللّه رزقها ويعلم

هو الذي اشتدّت نقمته على أعدائه في سعة رحمته واتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته قاهر من عازّه ومدمّر من شاقّه ومذلّ من ناواه وغالب من عاداه

مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾.

وقوله: [**هو الذي اشتدّت نقمته على أعدائه في سعة رحمته واتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته**] أي: مع كونه واسع الرحمة في نفس الأمر وأنّه أرحم الراحين شديد النقمة على أعدائه ومع كونه عظيم النقمة في نفس الأمر.

وكونه شديد العقاب هو واسع الرحمة لأوليائه، ومثل هذا غير مقدور لملوك الدنيا، فإنّ أحدهم في حال غضبه على عدوّه لا يتّسع لرحمته ولا لرحمة غيره.

وكذا في حال رحته لأوليائه لا يجتمع معهما غضب عليهم فسبحان الحليم الذي لا يشغله غضب عن رحمة وتبارك العدل الحكيم الذي لا تمنعه رحمته عن إنزال عقوبة.

[**قاهر من عازّه**] أي غلبه وعزّه غلبه ومنه قوله تعالى: ﴿وعزّني في الخطاب﴾ إذ كلّ موجود مسخّر تحت قدرته مقهور عاجز تحت قبضته وقهره بالإذلال والغلبة والأمراض والأعراض والموت كفرعون إذ قال: ﴿أنا ربّكم الأعلى فأخذه اللّه نكال الآخرة والأولى﴾.

[**ومدمّر من شاقّه**] المدمّر المهلك من دمره ودمر عليه أي أهلكه وشاقّه: عاداه لأنّ كلاً من المتعاديين في شق غير الآخر [**ومذلّ من ناواه**] أي عاداه، واللفظ مهموزه من ناوات الرجل ولينها لأجل السّجع. [**وغالب من عاداه**]

من توكّل عليه كفاه ومن سأله أعطاه ومن أقرضه قضاه ومن شكره جزاه عباد اللّه زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا وتنفّسوا من قبل ضيق الخناق

إذ كلّ موجود مقهور تحت قدرته [**من توكّل عليه كفاه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه اليس اللّه بكاف عبده﴾.

[**ومن سأله أعطاه**] ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعاني﴾.

[**ومن أقرضه قضاه**] ﴿من ذا الذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً مضاعفة﴾.

[**ومن شكره جزاه**] ﴿اشكروني أشكركم﴾ ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾.

ثمّ شرع عليه السلام في الوعظ والنصح فقال:

[**عباد اللّه زنوا أنفسكم**] في الدنيا باعتبار أعمالها وضبط أقوالها وأحوالها والتفكّر في غلبة حسناتها على سيّئاتها أو العكس وتداركوا ذلك في الدنيا غير أنّ العدل ومراعاة استقامتها على حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط.

[**من قبل أن توزنوا**] في الآخرة ولا يمكنكم تدارك ذلك.

[**وحاسبوها**] بضبط أعمالها الخيريّة والشرّية وتوجيهها إلى الصالحات وردعها عن السيّئات [**من قبل أن تحاسبوا**] في الآخرة.

[**وتنفّسوا من قبل ضيق الخناق**] استعار لفظ التنفّس لتحصيل الراحة والبهجة في الجنّة بالأعمال الصالحة في الدنيا المستلزمة لها كما يستلزم

وانقادوا قبل عنف السياق واعلموا أنّ من لم يعن على نفسه حتّى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ

التنفّس راحة القلب من الكروب واستعار لفظ الخناق من الحبل المخصوص للموت ووجه الشبه ما يستلزمه ضيق الخناق والموت من عدم التمكّن والتصرّف والعمل أي: انتهزوا الفرصة للعمل قبل تعذّره بزوال وقته وضيقه.

[**وانقادوا**] إلى أمر اللّه ومراضيه [**قبل عنف السياق**] والعنف بالضم ضد الرفق يقال عنف عليه وبه والعنيف الذي لا رفق له بركوب الخيل والجمع عنف والمراد به سوق ملك الموت الروح من البدن يقول انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا وتساقوا بغير اختياركم سوقاً عنيفاً.

[**واعلموا أنّ من لم يعن**] أي: من لم يعنه اللّه [**على نفسه حتّى يكون له منها واعظ وزاجر**] وذاك بإعداد العناية الإلهيّة قوّته العقليّة على قهر النفس الأمّارة بالسوء الغدّارة وتهيئتها لقبول السوانح الخيريّة ومن لم يحصّل ذلك الاستعداد حتّى يكون هو القاهر الزاجر لنفسه.

[**لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ**] إذ لا قبول بدون استعداد للمقبول وفيه تنبيه على وجوب الاستعانة باللّه والالتجاء إليه في أحوال النفس ودفع الشيطان عنها واللّه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الحمد للّه الذي لا يَفِرَهُ المنع ولا يكديه الاعطاء والجود

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح

لعلّها سُمّيت بذلك لما تتضمّن من ذكر الملائكة وهي من جلائل الخطب.

روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال عليه السلام: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة وذلك إنّ رجلاً أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربّنا لنزداد له حبّاً وبه معرفة، فغضب عليه السلام ونادى الصلاة جامعة، أي: احضروا الصلاة حال كونها جامعة، فاجتمع الناس حتّى غصّ المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغيّر اللّون، فحمد اللّه سبحانه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ قال عليه السلام:

[**الحمد للّه الذي لا يَفِرَهُ**] أي لا يزيد ماله [**المنع**] من الفيض والرزق وزيارته والموفور: التام، وفرت الشيء وفراص ووفر الشيء نفسه وفوراً يتعدّى ولا يتعدّى.

[**ولا يكديه**] أي لا يفقره ولا ينفد خزائنه [**الاعطاء والجود**] يقال كدت الأرض تكدو فهي كادية إذا أبطأ نباتها وقلّ خيرها وأكديت الأرض أي: جعلتها كادية، وأكدى الرجل قل خيره وقوله تعالى: ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ أي: قطع القليل، أي: هو تعالى ليس كما يتوهّم الوهم كملوك البشر الذين إذا أعطوا نقصت خزائنهم وإن منعوا زادت، كما شرح ذلك بقوله:

إذ كلّ معط منقص سواه وكلّ مانع مذموم ما خلاه هو المنّان بفوائد النعم وعوائد المزيد والقسم عياله الخلائق ضمن أرزاقهم

[**إذ كلّ معط منقص سواه وكلّ مانع مذموم ما خلاه**] وبرهان ذلك انّ الزيادة بالمنع والنقص بالإعطاء إنّما يتصوّر في حقّ من ينتفع ويتضرّر بالزيادة والنقصان والانتفاع والتضرّر عليه تعالى محال، فالتزيّد والتنقّص عليه محال ولأنّهما يقضيان بالحاجة والإمكان الممتنعين عليه تعالى ولأنّ مقدوراته غير متناهية وإنّما انتقص المعطي من خلقه لحاجته إلى ما يعطيه وانتفاعه به وإنّما استحقّ الذم بالمنع دونه سبحانه لكون ما يصدر منه من منع وإعطاء مضبوطاً منظوماً بنظام الحكمة والعدل دون غيره من المانعين.

[**هو المنّان بفوائد النعم**] المنّة تذكير المنعم للمنعم عليه بنعمته والتطاول عليه بها كما قال ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهي صفة مدح له تعالى وصفة ذمّ لغيره لأنّ كلّ منعم سواه يحتمل أن يتوقّع بنعمته جزاء أو يستفيد كمالاً أيسره توقّع الذكر الجميل وهو تعالى منزّه عن ذلك ولذا ورد النهي عن المنّة قال تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ وقال تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى﴾ وفوائد النعم ما أفاد منها.

[**وعوائد المزيد والقسم**] أي: ما اعتاد منها [**عياله الخلائق**] لأنّ عيال الرجل من جمعهم ليقيتهم ويصلح شأنهم كذلك الخلق إنّما خلقهم اللّه وجمعهم تحت عنايته ليصلح أحوالهم في معاشهم ومعادهم ثمّ قوى ذلك وأبانه بقوله:

[**ضمن أرزاقهم**] وتعهّد بإيصالها إليهم أينما كانوا فقال: [وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء إنّه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون﴾.

وقدّر أقواتهم وانهج سبيل الراغبين والطالبين ما لديه وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسئل

[وقدّر أقواتهم] فأعطى كلّ نفس ما كتب لها في اللوح المحفوظ واستعار لفظ العيال للخلق باعتبار ضمان أرزاقهم والقيام بأحوالهم ولفظ الضمان لمّا وجب في الحكمة من تقدير الأقوات والأرزاق ممّا هو صلاحهم في الدنيا ثمّ أردف ذلك بما هو صلاح الآخرة فقال:

[وانهج سبيل الراغبين والطالبين ما لديه] أي أوضح سبيل الشريعة الغرّاء وطرق الملّة الزهراء للسالكين إليه الراغبين فيما عنده الطالبين ما لديه.

[وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسئل] قيل فيه لطيفة وهي أنّ فيضان ما يصدر عنه سبحانه له اعتباران أحدهما بالنظر إلى جوده وهو من تلك الجهة غير مختلف في جميع الموجودات، بل نسبته إليها على سواء، فلا يقال هو بكذا أجود منه بكذا وإلّا لاستلزم أن يكون ببعض الأشياء أبخل أو إليها أحوج فيلزمه النقصان وهو منزّه عنه.

والثاني بالنظر إلى الممكن نفسه والاختلاف بالقرب والبعد إلى جوده إنّما هو من تلك الجهة فكلّ من كان أتمّ استعداداً وأقبل كان أقرب إلى جوده فالسائل إذاً وإن حصل خصلة ما سئل منه تعالى دون مالم يسئل فليس منعه مالم يسئله لعزّته عنده وليس بينه وبين ما سئل بالنسبة إلى جوده فرق وتفاوت بل تخصيصه بما سئل لتمام قبوله له ولو كان قابلاً لما يسئل لوصل إليه من غير مسألة وإنّ أعظم خطره.

وإلى ذلك أشار الرضا عليه السلام وقد سئل عن الجواد فقال: لسؤالك وجهان: إن أردت المخلوق فالذي يؤدّي ما افترض عليه، وإن أردت الخالق

الأوّل الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبل والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده والرادع أناسيَّ الأبصار عن أن تناله وتدركه ما اختلف عليه دهر فتختلف منه الحال ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال

فهو الجواد وإن أعطى وإن منع لأنّه إن أعطى أعطى من له وإن منع منع من ليس له.

[**الأوّل الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبل والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده**] فإنّ الأوّليّة والآخريّة بالنسبة إلى المخلوق إضافيان اعتباريان بل هو أوّل بالعلّة والذات والشرف إذ ليس بذي مكان حتّى يكون تقدّمه مكانياً ولا بذي زمان لتأخّره عنه لأنّه من لواحق الحركة المتأخّرة عن الجسم المتأخّر عن علّته فلم تلحقه القبليّة الزمانيّة فضُلاً أن يسبق عليه.

[**والرادع أناسيَّ الأبصار عن أن تناله وتدركه**] الأناسي: جمع إنسان وهو المثال الذي يرى في السواد وقد مرّ سابقاً أنّ القوّة الباصرة إنّما تتعلّق بذي وضع وجهة وهو تعالى منزّه عنهما.

[**ما اختلف عليه دهر فتختلف منه الحال**] لما كان الزمان مبدء للتغيرات واختلاف الأحوال وكان سبحانه مقدّساً عن لحوق الزمان كانت مبرّاة عن تغيّر الأحوال الجارية على الزمانيات واختلافها.

[**ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال**] لأنّ من شأن ذي المكان جواز أن ينتقل من مكانه وهو تعالى منزّه عن المكان وإلاّ للزم النقصان اللازم للإمكان فامتنع عليه الانتقال.

ولو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلز اللجين والعقيان ونثارة الدر وحصيد المرجان ما أثّر ذلك في جوده ولا أنفد سعة ما عنده ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لاتنفده مطالب الأنام لأنّه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحالح الملحّين

[**ولو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلز اللجين**] الفلز: اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضّة والرصاص ونحوه واللجين مصغّر الفضّة.

[**والعقيان**] الذهب الخالص وقيل هو ما ينبت نباتاً وليس من الحجارة.

[**ونثارة الدر**] ما تناثر منه كالسقاطة [**وحصيد المرجان**] لعلّه أراد المتبدّد منه أو المستحكم من قولهم شيء مستحصد أي: مستحكم.

[**ما أثّر ذلك في جوده ولا أنفد سعة ما عنده**] فلو اللجين جثته وما ينقيه الكير منه والمرجان صغار اللؤلؤ وحصيده محصوده وما اجتمع منه واستعار لفظ الضحك للأصداف ووجه الشبه انفتاح الصدفتين عن اللؤلؤ الشبيه في بدوّه بالأسنان حال الضحك ومن لحمه تشبيه اللسان في رقة طرفه ولطافته ومن شاهد الصَّدَفة عند فتحها لوجدها كإنسان يضحك وكذا استعار لفظ الحصيد لصغار اللؤلؤ ملاحظة لشبهة مما يحصد من الحنطة، وغيرها وقوله:

[**ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لاتنفده مطالب الأنام**] كالموضح لما قبله المبيّن له [**لأنّه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحالح الملحّين**] كالبرهان لما قبله وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه وكلّ من كان كذلك فلو وهب جميع ما ذكر لم ينقص ملكه واستعار لفظ الفيض لنعمه ملاحظة.

فانظر أيّها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفة فائتمَّ به واستضئ بنور هدايته وما كلّفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب فرضه ولا في سنّة النبي ﷺ وأئمّة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى اللّه سبحانه وتعالى فإنّ ذلك منتهى حقّ اللّه عليك

لشبهها بالماء الذي له مادّة تامّة لا تنقص بالنزح ومن روى بغضبه فلأنّ الغضب من لواحق المزاج والباري تعالى منزّه عنه فيتنزّه عن لواحقه وكذا البخل رذيلة مكتسبة من البدن والمزاج تبعث عليها الحاجة والنقصان فمن لا يتزيّد ولا ينقص لا يؤثّر في ملكه أن يهب الدنيا لمن شاء.

وقوله: [**فانظر أيّها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفة فائتمَّ به واستضئ بنور هدايته**] تأديب للسائل ولسائر الخلق بأن لا يصفوا بمقتضى عقولهم القاصرة وأفهامهم الحاسرة لقصورها عن ذلك ما للتراب وربّ الأرباب ولذا قال سيّد الأنبياء وهو سيّد العارفين: «سبحانك لا أصفك إلّا بما وصفت به نفسك»، وقال تعالى: ﴿وما قدروا اللّه حقّ قدره﴾، وقال: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾.

[**وما كلّفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب فرضه ولا في سنّة النبي ﷺ وأئمّة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى اللّه سبحانه وتعالى فإنّ ذلك منتهى حقّ اللّه عليك**] كما استفاض في الأخبار المتظافرة فإنّ حقّ اللّه على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون.

وفي رواية أُخرى: ويستكوا عمّا لا يعلمون، قال اللّه تعالى: ﴿ألم يؤخذ عليكم ميثاق الكتاب أن لا تقولوا على اللّه إلّا الحقّ﴾.

وقال في آية أُخرى: ﴿إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾ فمن عوّل في

واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علماً وسمّي تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً فاقتصروا على ذلك

الأصول والفروع على العلم واليقين وتمسّك بمحكمات الكتاب والسنّة وسكت عمّا سكت الله عنه فهو من أصحاب اليمين ملحق المقرّبين ومن عوّل على الظنّ والتخمين فقد خبط خبط عشواء في الدّين وكان من المكذّبين الضالّين ومن أتباع الشيطان اللّعين.

وروي أنّ للّه أربعة أملاك تنادي كلّ يوم، يقول أحدهم: ألا ليت هذا الخلق لم يخلقوا.

فيجيب الآخر ويقول: وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

فيجيبه الثالث: وليتهم إذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا.

فيجيبه الرابع: وليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تركوا الخوض فيما لم يعلموا وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله:

[واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب] الاقتحام: الدخول في الأمر بشدّة دفعة، والسُّدد جمع سدة، وهي الأبواب والحجب.

[فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علماً وسمّي تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً فاقتصروا على ذلك]

....

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا﴾.

وظاهر كلامه ﷺ الوقوف على اللّه كما هو الأشهر بين الجمهور إلاّ أنّ الأشهر بين أصحابنا وبه تظافر أخبارنا عدم الوقف والعطف وأنّ الراسخين في العلم هم النبي وأهل بيته المعصومين العالمون بتأويل الكتاب ومحكمه ومتشابهه وأنّهم أهل الذكر وحملة القرآن ويمكن الجمع انّ الراسخين في العلم مقول بالتشكيك وللرسوخ مراتب، فعلى إرادة النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ فالعطف وهم العالمون بالتنزيل والتأويل وعلى إرادة غيرهم فالوقف، فلا منافاة.

قال الشارح المحقّق البحراني: إعلم أنّ لحجب الغيوب طبقات كثيرة كما أشار إليه الرسول انّ للّه سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كلّ من أدركت بصره ثمّ قال: لمّا كان التكليف في نفس الأمر إنّما هو على قدر العقول وتفاوت مراتبها كما قال ﷺ: «بعثت لأكلِّم الناس على قدر عقولهم» كان كلّ عقل قوي على رفع حجاب من حجب الغيب وقصر عمّا ورائه واعترف به وبالعجز عنه فذلك تكليفه وهو من الراسخين.

فعلى هذا ليس الرسوخ مرتبة واحدة وهي تقليد ظاهر الشريعة واعتقاد حقيقتها فقط بل تقليدها مرتبة أولى من مراتبه وما وراء ذلك مراتب غير

ولا تقدر عظمة اللّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين

متناهية بحسب مراتب السالكين وقوّتهم على رفع حجب الأنوار وظاهر كلامه عليه السلام لا ينافي ذلك إذا نزل عليه فإنّ قوله ويسمّى ترك التعمّق... إلخ صادق أيضاً على من قطع جملة من السائرين إلى اللّه وعجز عمّا ورائها فوقف ذهنه عن التعمّق فيه إذ لا يكلّف بما لا تعي قوته بدركه وقوله عليه السلام:

[ولا تقدر عظمة اللّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين] إشارة إلى أنّ المقدّر لعظمة اللّه على قدر عقله هو المعتقد أنّ عقله أدركه وأحاط به علماً وهو تصغير لعظمة اللّه لأنّها أجلّ وأعظم من أن يضبطها عقول البشر أو تحيط بها الأفهام والفكر، والذي تحيط به العقول البشريّة محدود مركّب، فكان ممكناً فالمعتقد لذلك معتقد لغير الإله إلهاً وهو كفر وضلال وكما يمتنع على الخلق معرفة كنه ذات اللّه تعالى فكذا يمتنع معرفة كنه صفاته، لأنّها عين ذاته وكلّما وصفه به العقلاء فإنّما هو على قدر أفهامهم فوصفوه بأشرف طرفي النقيض من العلم والجهل والقدرة والعجز والحياة والموت ونحوها بالنسبة إلى ما ألفوه ولو ذكر لهم مالم يألفوه، ككونه تعالى لا أوّل له ولا آخر ولا جزء، وليس في مكان ولا زمان، وكان ولم يكن معه شيء من زمان أو مكان، أو ليل أو نهار، أو نور أو ظلمة فحاروا وتحيّروا.

ولذا قال باقر العلوم عليه السلام: «هل سُمّي عالماً قادراً إلّا لأنّه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين وكلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق ومصنوع مثلكم مرود إليكم» والباري تعالى واهب الحياة ومقدّر

....

الموت ولعلّ النمل الصغار يتوهّم أنّ للّه زبانيتين فإنّهما كما لها وتتصور انّ عدمهما نقصان لمن لا يكونان له ولعلّ حال كثير من العقلاء كذلك فيما يصفون اللّه تعالى ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾.

وقال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾.

وقال: ﴿وما قدروا اللّه حقّ قدره﴾.

وفي الدعاء: «سبحان من لا يعلم ما هو إلاّ هو».

وقال البار عليه السلام: «تكلّموا في خلق اللّه ولا تتكلّموا في اللّه فإنّ الكلام في اللّه لا يزداد صاحبه إلاّ تحيّراً».

وقال الصادق عليه السلام: «إنّ اللّه يقول ﴿إنّ إلى ربّك المنتهى﴾ فإذا انتهى الكلام إلى اللّه فأمسكوا».

وقال عليه السلام: «من نظر في اللّه كيف هو هلك» ولقد أجاد من قال: فلا تلتفت إلى من يزعم أنّه قد وصل إلى كنه الحقيقه المقدّسة بل احث التراب في فيه فقد ضلّ وغوى وكذّب وافترى فإنّ الأمر أرفع وأظهر من أن يتلوّن بخواطر البشر أو تصل إليه عميقات الفكر، وكلّما تصوّره العالم الراسخ فهو عن حرم الكبير بالفراسخ وأقصى ما وصل إليه الفكر العميق هو غاية مبلغه من التدقيق، فسبحان من حارت لطائف الأوهام في بيداء كبريائه وعظمته وسبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته وللّه درّ القائل:

واللّه لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد

علموا ولا جبريل وهو إلى محلّ القدس يصعد

هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته وتولّهت القلوب إليه

كلاّ ولا النفس البسيطة لا ولا العقل المجرّد
من كنه ذاتك غير أنّك أوحدي الذات سرمد
وجدوا إضافات وسلباً والحقيقة ليس توجد
وتراوا وجوداً واجباً يفني الزمان وليس ينفد
فلتخسأ الحكماء عن حرم له الأملاك مسجّد
من أنت يارسطو ومن افلاط قبلك يا مُبلّد
ومن ابن سينا حين قرّر ما بناه له وشيّد
ما أنم إلاّ الفراش رأى السراج وقد توقّد
فدنى فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

وقد أشار عليه السلام إلى هذه المطالب بقوله:

[هو القادر الذي إذا ارتمت] أي ترامت **[الأوهام لتدرك منقطع قدرته]** أي منتهى قدرته.

[وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس] ﴿الخناس الذي يوسوس في صدور الناس﴾.

والمجرّد من شوائب الأوهام والفائق على أمثاله من الأنام **[أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته]** أي: حاول الفكر أن يقع عليه ويشبّهه بكلّ ما ينبغي لها من الكمالات في أسرار عالم الغيب العميقة.

[وتولّهت القلوب] أي: اشتدّ عشقها **[إليه]** حتّى أصابها الوله وهو

لتجري في كيفيّة صفاته وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه فرجعت إذ جُبهت معترفة بأنّه لا تنال بجور الاعتساف كنه معرفته

الحيرة [**لتجري في كيفيّة صفاته**] أي لتصادف مجرىً ومسلكاً في ذلك.

[**وغمضت مداخل العقول**] أي غمض دخولها ودق وقت مواقع دخولها [**في حيث لا تبلغه الصفات**] أي: انتهت العقول إلى حدّ أنّها لا تعتبر مع ملاحظة ذات الحقّ صفة له بل بحذف كلّ خاطر وكلّ اعتبار من صفة وغيرها عن ملاحظة قدسه [**لتناول علم ذاته**] أي: لتنال العلم بكنه ذاته تعالى وصفاته.

[**ردعها**] أي: كفّها أو زجرها وردّها خاسئة حسيرة.

[**وهي تجوب**] أي: تقطع [**مهاوي سدف الغيوب**] والمهاوي: المهالك واحدها مهواة بالفتح، وهي بين جبلين وحائطين ونحو ذلك والسدف جمع سدفة وهي القطعة من الليل المظلم والواو في وهي للحال والجملة حاليّة والعامل ردعها أي: ردعها عن تلك المطالب حال ما هي قاطعة لمهاوي تلك الظلمات ووجه الاستعارة ما يشتركان فيه من عدم الاهتداء فيها.

وقوله: [**متخلصة إليه**] حال أيضاً والعامل تجوب أو ردعها وتخلّصها إليه توجّهها بكلّيتها في طلب إدراكه [**فرجعت إذ جُبهت**] أي: ردّت [**معترفة**] حال والعامل رجعت [**بأنّه لا تنال بجور الاعتساف كنه معرفته**] كنّى بجور الاعتساف عن شدّة جولانها في تلك المنازل وظاهر أنّ جور الاعتساف غير نافع في تحصيل ما لا يمكن.

ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزّته

[**ولا تخطر ببال أولي الرويات**] أي أصحاب الفكر [**خاطرة من تقدير جلال عزّته**] أي أنّ الفكر عاجز عن تقدير جلال عزّته والإحاطة بكماله.

وحاصل كلامه عليه السلام أنّ العقول إذا حاولت أن تدرك متى تنقطع قدرته تعالى على المقدورات نكصت عن ذلك لأنّه قادر أبداً على ما لا يتناهى وإذا حاول الفكر الذي قد صفا أن يدرك مغيّبات علمه كلّ ورجع ناكصاً وإذا اشتدّ عشق النفوس له وتولّهت نحوه لتسلك مسلكاً تقف منه على كيفيّة صفاته عجزت عن ذلك. وإذا تغلغلت العقول وغمضت مداخلها في دقائق العلوم الدقيقة طالبة أن تعلم حقيقة ذاته وقفت واعيت وردّها سبحانه وهي تقطع ظلمات الغيب لتخلص إليه فارتدّت حيث جبهها وردعها مقرّة معترفة بأنّ إدراكه ومعرفته لا تنال باعتساف المسافات التي بينها وبينه وأنّ أُولي الأفكار والرويّات يتعذّر عليهم أن يخطر لهم خاطر يطابق ما في الخارج من تقدير جلاله وعزّه.

والسبب في ذلك أنّ كلاً من هذه المدركات قاصرة عن إدراك ما تطلبه من هذه المطالب العظيمة أمّا الأوهام فلقصورها عن إدراك ما ليس بمحسوس ولا متعلقاً بالمحسوس والأفكار والقلوب قاصرة عن الإحاطة بما لا نهاية له، إذ كانت صفات الكمال ونعوت الجلال كذلك والعقول قاصرة عن إدراك كنه ما ليس بذي حدّ وتركيب ولمّا كان مستند ذلك الردع هو قدرته تعالى صدّر به الكلام فقال هو القادر... إلخ.

ثمّ شرع عليه السلام في ذكر جملة من نعوته فقال:

الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان قبله وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته واعتراف

[الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان قبله] إشارةً إلى أنّ الصنائع البشريّة إنّما تحصّل بعد أن يرتسم في الخيال صورة المصنوع، بل كلّ فعل لايصدر إلاّ عن تصوّر وضعه وكيفيّته أوّلاً وتلك التصوّرات تارة تحصل عن أمثلة للمصنوع ومقادير له خارجيّة يشاهدها الصانع ويحذو حذوها، وتارةً تحصل بمحض الإلهام والاختراع كما يفاض على كثير من الأذكياء صورة شكل لم يسبق زلى تصوّره فيتصوّره ويبرز صورته إلى الخارج، وكيفيّة صنع اللّه للعالم وجزئيّاته منزلته عن الوقوع على أحد هذين الوجهين:

أمّا الأوّل: فلما مرّ أنّه لا قبل له فلا قبل لمصنوعاته فلا مثال امتثله أي عمله مثله، ولا مقدار احتذى حذو.

وأمّا الثاني: فإنّ الفاعل على وفقه وإن سُمّي مخترعاً لكن التحقيق يشهد بأنّه إنّما فعل على وفق ما حصل في ذهنه من الشكل والهيئة وهما مستفادان من الصانع الأوّل فكان في الحقيقة فاعلاً على غير مثال سابق محتذ بالمقدار غيره، وعلم الأوّل سبحانه ليس على النحو المذكور من حصول صورة مساوية للمعلوم في ذاته فإذن فعله تعالى بمحض الإبداع والاختراع على أبعد ما يكون على حذو مثال.

ثمّ قال عليه السلام:

[وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته واعتراف

الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قدرته ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة على معرفته وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته فصار كلّ ما خلق حجّة له ودليلاً عليه وإن كان خلقاً صامتاً فحجّته بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة

الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قدرته] المساك بكسر الميم ما يمسك ويعصم به **[ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة على معرفته]** ملكوت القدرة ملكها، وإنّما نسبه إلى القدرة لأنّ اعتبارها مبدء الوجود كلّه فهو مبدء المالكيّة، واعتراف عطف على عجائب، وإلى أن متعلّق بالحاجة، وما دلّنا مفعول ثان لأرانا، على معرفته متعلّق بدلّنا.

واستعار النطق المختصّ باللّسان للّسان حال آثاره تعالى المفصحة عن كمال الحكمة المعجبة بتمام النظام وحسن الترتيب ووجه المشابهة ما اشترك فيه النطق وحال المصنوعات من ذلك الافصاح والبيان.

[وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته] إذ ما من شيء إلاّ وهو ناطق بلسان حاله بربوبيته وكمال إلوهيّته واستعار لفظ الاعلام لما يدلّ على حكمة الصانع في فعله من الاتقان والإحكام.

[فصار كلّ ما خلق حجّة له ودليلاً عليه] ينادي بلسان حاله على أنّ له موجداً صانعاً.

[وإن كان خلقاً صامتاً فحجّته] الضمير يعود إلى اللّه أو إلى الخلق الصامت **[بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة]** كما قال عليه السلام: البعرة تدلّ على البعير والأثر يدلّ على المسير، أفسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج لا يدلان على اللّطيف الخبير؟! وكلّ ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن من

وأشهد أنّ من شبّهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيبَ ضميره على معرفتك ولم يباشر قلبه اليقين بأنّه لا ندّ لك، وكأنّه لم يسمع تبرّء التابعين من المتبوعين إذ يقولون ﴿تاللّه إن كُنّا لفي ضلال مبين * إذ نسوّيكم بربّ العالمين﴾

شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحه﴾ ولقد أجاد من قال:

فواعجباً كيف يُعصى الإله ... وكيف يجحده الجاحد

وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه واحد

[**وأشهد أنّ من شبّهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيبَ ضميره على معرفتك ولم يباشر قلبه اليقين بأنّه لا ندّ لك، وكأنّه لم يسمع تبرّء التابعين مْن المتبوعين إذ يقولون ﴿تاللّه إن كُنّا لفي ضلال مبين * إذ نسوّيكم بربّ العالمين﴾**] هذا التفات منه عليه السلام إلى خطاب اللّه تعالى على طريق قوله ﴿مالك يوم الدين إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾.

والحقاق جمع حقّة، وجاء في جمعها حقاق وحقق وحقوق، وهي أطراف عظام المفاصل، وفي إيقاع حقاق المفاصل مقابل تباين الأعضاء بديع، والغرض ذمّ من شبّه اللّه بالمخلوقين ذوي الأعضاء المتباينة والمفاصل المتلاحمة وأنّه لم يعرف ولم يباشر قلبه اليقين بأنّه لا ندّ له ولا مثل.

ثمّ أكّد ذلك بالآية وهو قول الكفّار في النار وهم التابعون للشياطين الذين أغروهم: لقد كنّا ضالّين إذ سوّيناكم باللّه تعالى وجعلناكم مثله.

وإنّما جعل المشبّه به بتباين الأعضاء وتلاحمها وإن كان المشبّه به هو

كذب العادلون بك إذ شبّهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين وجزّوك تجزئة المجسّمات بخواطرهم وقدّروك على هذه الخلقة المختلفة القوى

الجسم المتباين الأعضاء لأنّ تباين الأعضاء هو وجه الشبه المستلزم للتركيب فكان ذكره أهم ليظهر به تنزيهه تعالى عن هذا التشبيه سريعاً لتنزّهه عن الأعضاء وتباينها وتركيبها وشهادته عليه السلام بأنّ المشبّه به غير عارف به ولا متيقّن لتنزيهه عن المثل القرآن والبرهان مُصدّقان لشهادته.

أمّا القرآن فما ذكره عليه السلام وأمّا البرهان فلأنّ المجسّمة والمشبّهة وعبدة الأصنام ينكشف لهم أنّهم كانوا ضالّين في تشبيه أصنامهم بربّ العالمين، فصورة الدليل هكذا المشبّه ضالّون في تشبيه ربّهم وكلّ من كان ضالاً فيه فليس بعارف به، وكذلك كلّ من كان كذلك فليس بمنزّه له عن المثل.

وأمّا البرهان فلأنّ المشبّه له بخلقه يلزمه الحكم عليه بلوازم خلقه من الإمكان والحدوث لأنّ لازم المتشابهين لا يختلف.

[**كذب العادلون بك**] جمع عادل: وهو الجاعل للّه عديلاً.

[**إذ شبّهوك بأصنامهم**] إشارةً إلى سبب كونهم عادلين وتفصيل جهاته.

[**ونحلوك**] أي: أعطوك [**حلية المخلوقين**] من إثبات الأعضاء والجوارح وقطط الشعر والشباب ونحو ذلك من مزخرفات المشبّهة والمصوّرة.

[**وجزّوك**] أي جعلوك متجزّياً مركّباً على [**تجزئة المجسّمات**] أي كما تتجزّى الأجسام [**بخواطرهم**] وخطراتهم الفاسدة.

[**وقدّروك على هذه الخلقة**] أي: خلقة البشر [**المختلفة القوى**] لأنّها

بقرايح عقولهم وأشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعادل كافر بما تنزّلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك وإنّك أنت اللّه الذي لم يتناه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيّفاً

مركّبة من عناصر مختلفة الطبايع [**بقرايح عقولهم**] الجامدة المتابعة لأوهامهم الفاسدة وتقليد من سلف من آبائهم فإنّ الأعضاء إنّما تتولّد وتكمل بواسطة قوى طبيعيّة ونباتيّة وحيوانيّة وغيرها وهي قوى مختلفة بحقائقها ومتضادّة في أفعالها محتاجة إلى الجامع والمركّب منادية بالإمكان الذي تنزّه عنه تعالى وعن أن يتطرّق إليه بوجه من الوجوه.

ثمّ كرّر عليه السلام الشهادة بذلك مؤكّداً فقال:

[**وأشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك**] فزعم أنّك جوهر أو جسم أو في مكان أو زمان [**فقد عدل بك**] أي: جعل لك عديلاً ونظيراً ومماثلاً.

[**والعادل**] بك [**كافر بما تنزّلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك**] أي: العقول القاطعة أو شواهد حججهم هي تلك الآيات، كقوله تعالى: ﴿قل إنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً﴾، وقوله: ﴿إنّكم لتشهدون أنّ مع اللّه آلهة أُخرى قل لا أشهد قل إنّما هو إله واحد وإنّني بريء ممّا تشركون﴾ والإشراك كفر. ثمّ أردف عليه السلام ذلك بشهادة ثالثة هي خلاصة الشهادتين الاولتين فقال:

[**وإنّك أنت اللّه الذي لم يتناه في العقول**] أي: لم تحط العقول بك كإحاطتها بالأشياء المتناهية [**فتكون في مهب فكرها مكيّفاً**] أي: ذا كيفية، ومهابّ الفكر: جهاتها، إذ يلزم من التناهي كونه ذا كيفيّة تكيّفه فيها القوى

ولا في رويّات خواطرها محدوداً مصرّفاً قدّر ما خلق فأحكم تقديره ودبّره فأحسن تدبيره ووجهه لوجهته فلم يتعدّ حدود منزلته ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته

المتخيّلة.

[**ولا في رويّات**] جمع رويّة، أي: أفكار [**خواطرها محدوداً**] ذا حدّ [**مصرّفاً**] أي قابلاً للحركة والتغيّر، أي: محكوماً في ذاته بالتجزئة والتحليل والتركيب، إذ كان من شأن المحدود ذلك، ولمّا كانت هذه اللّوازم باطلة لتنزّهه تعالى عن الكيفيّة والأجزاء والتركيب كان ملزومها وهو التناهي في العقول باطلاً.

ومنها: [**قدّر ما خلق فأحكم تقديره**] بأن جعله على وفق الحكمة بحيث لو زاد أو نقص عمّا هو عليه لاختلّت مصلحته وتغيّرت منفعته وبطلت حكمته.

[**ودبّره فأحسن**] وفي نسخة فألطف [**تدبيره**] بإيجاده على وفق المصلحة وتصرّفه فيه أنواع التصرّفات الكلّية والجزئيّة من غير شعور غيره بذلك.

[**ووجهه لوجهته**] العالية التي خلق لأجلها ويسّر ما خلق له، والوجهة بالكسر: الجهة التي يتوجّه نحوها، قال تعالى: ﴿ولكلّ وجهة هو مولّيها﴾ فهيأ الصقر للاصطياد والخيل للركوب والطراد والسيف للقطع والقلم للكتابة والفلك للدوران ونحو ذلك.

[**فلم يتعدّ**] أحد من هذا المخلوق [**حدود منزلته**] التي جعلت غاية له.

[**ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته**] بحيث لا يمكنه الوصول إليه.

ولم يستصعب إذا أمر بالمضي على إرادته كيف وإنّما صدرت الأمور عن مشيّته المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور

والحاصل أنّه لم يتجاوز تلك المنزلة التي جعلت له ولم يقتصر دونها.

[**ولم يستصعب**] شيء من مخلوقاته [**إذا أمر بالمضي على إرادته**] حين أمر ذلك المخلوق بالتوجّه إلى وجهته على وفق إرادة اللّه بل ساقت الحكمة الإلهية كلاً إلى غايته لم يكن تخلّفه واستصعابه عن ذلك الأمر، قال تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ ثمّ علّل نفي الاستصعاب بقوله:

[**كيف**] أي: كيف يستصعب عليه تعالى بلوغه خلقه إلى غايته.

[**وإنّما صدرت الأمور عن مشيّته**] أي: وأصل وجودها بمشيّته، فكيف يستصعب عليه توجّهها لوجهتها وهو فرع من فروعوجودها وتابع له أو المعنى والحال أنّ جميع الآثار مستندة إلى مشيّته إذ كلّ أثر واجب عن مؤثّره والكلّ منته في سلسلة الحاجة إلى إرادته واجب عنها.

[**المنشئ أصناف الأشياء**] المختلفة والباري للموجودات المتباينة والمؤتلفة.

[**بلا روية فكر آل**] أي: رجع [**إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها ولا تجربة أفادها**] أي: استفادها [**من حوادث الدهور**] التي مرّت عليه من قبل كما يكتسب الإنسان بالتجارب علم ما لم يكن.

[**ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور**] لأنّ الروية والفكر

فتمّ خلقه وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته لم يعترض دونه ريب المبطىء ولا أناة المتلكّىء فأقام من الأشياء أودها ونهج ولئم بين متضادّها ووصل أسباب قرائنها

والتجربة مما يلحق الإنسان ويخصّه والباري سبحانه منزّه عن شيء في كيفيّة إبداعه لخلقه ومنزّه عن الشريك ببرهان الوحدانيّة.

[**فتمّ خلقه**] إشارة إلى قوله: ولم يستصعب إذا أمر بالمضي فلمّا أثبت هناك كونها أُمرت أعارها لفظ الأمر وكذا قوله:

[**وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته**] أي: انّ إرادته تعالى نافذة وإذا شاء أمراً كان واستحال أن لا يقع ﴿إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وقوله عليه السلام:

[**لم يعترض دونه ريب المبطىء**] والريب المبطوء.

[**ولا أناة المتلكّىء**] الأناة والتلكّي: التباطؤ عن الأمر والتوقّف فيه، أي: ليس هو تعالى كأحد مخلوقاته يعترض دون مراده ريب وبطؤ وتأخير؛ إذ كلّ شيء في قهره وعلى غاية السرعة إلى إجابة أمره كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر﴾.

[**فأقام من الأشياء أودها**] أي: اعوجاجها بإعداد كلّ منها لما ينبغي له وإفاضة كماله [**ونهج**] أي: أوضح حدودها وطرقها، فأوضح لكلّ شيء سبيل قصده وغايته وجعله مُيسّراً لما خلق له.

[**ولئم**] من الالتئام أي: جمع [**بين متضادّها**] لجمعه العناصر الأربعة على تضادّ كيفيّاتها في مزاج واحد [**ووصل أسباب قرائنها**] أي: نفوسها بتعديد أمزجتها لأنّ اعتدال المزاج والقريب من الاعتدال سبب بقاء الروح

وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات بَدَايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها

والمراد هدايتها إلى عبادته وما هو الأولى به في معاشها ومعادها وسوقها إلى ذلك، وقيل وصل أسباب قرائنها إشارةً إلى أنّ الموجودات لا تنفكّ عن أشياء تقترب بها من هيئة أو شكل أو غريزة أو نحوها واقتران الشيئين لا محالة مستلزم لاقتران أسبابهما واتصالهما لاستحالة قيام الموجودات بدون واصلة أسبابه وذلك الوصل منته إلى كمال قدرته إذ هو مسبب الأسباب وقوله عليه السلام:

[**وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار**] وحدّ الشيء منتهاه وما يحيط به والأقدار المقادير.

[**والغرائز**] وهو القوى النفسانية والأخلاق [**والهيئات**] والصفات وقد اقتضت حكمة الخالق تميّز بعض الموجودات عن غيرها بحدودها وحقائقها وبعضها بأشكالها وهيئاتها ومقاديرها وغرائزها وأخلاقها كما يقتضيه نظام الوجود وأحكام الصنع. وقوله:

[**بَدَايا خلائق**] جمع بديّة وهي: الخلقة العجيبة، أي: هي عجائب مخلوقات، [**أحكم صنعها**] على وفق إرادته ونظام مشيّته [**وفطرها على ما أراد وابتدعها**] أي: أخرجها من العدم المحض إلى الوجود وهو مضي الابتداء.

ونظم بلا تعليق رهوات فرّجها، ولاحم صدوع انفراجها ووشّح بينها وبين أزواجها

ومنها:

[في صفة السماء

ونظم بلا تعليق رهوات فُرَجها] الرهوات: جمع رهوة، وهي: المكان المرتفع والمنخفض، أيضاً يجتمع فيه ماء المطر وهو من الأضداد وقيل: الرهوة الفرجة المتّسعة، والفرج جمع فرجة وهي المكان الخالي.

[**ولاحم**] أي: ألصق [**صدوع**] الصدع: الشق، أي: شقوق [**انفراجها ووشّح**] بالتشديد أي: شيّد [**بينها وبين أزواجها**] قال ابن أبي الحديد: يقول عليه السلام كانت السماء أوّل ما خلقت غير منتظمة الأجزاء بل بعضها أرفع وبعضها أخفض فنظمها سبحانه، فجعله بسيطاً واحداً نظماً اقتضته القدرة الإلهيّة من غير تعليق أي لا كما ينظم إنسان ثوباً مع ثوب أو عقداً مع عقد بالتعليق والخياطة فألصق تلك الفروج والشقوق بجملتها جسماً متصلاً وسطحاً أملس لا نتوءات فيه ولا فروج ولا صدوع بل جعل كلّ جزء منها ملصقاً بمثله. وقال المحقّق البحراني في الفقرة الأُولى ما لفظه: يقتضي بظاهره أنّ السماء كانت ذات فرج وصدوع وهذا على رأي الشكلين ظاهر فإنّ الأجسام لمّا كانت عندهم مركّبة من الأجزاء التي لا تتجزّىء كانت قبل تأليفها ذات فروج وصدوع وأمّا على رأي غيرهم فقالوا يحتمل أمرين:

وذلّل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها ونادها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها

أحدهما: أنّه لمّا كانت السموات مركّبة من الأجزاء وكانت بين أجزاء كلّ مركّب مباينة لولا المركّب والمؤلف استعار لفظ الرهوات والفرج لما يتصوّر من المباينة بين أجزاء السماء عند قطع النظر عن صانعها ومركّبها سبحانه ونظامه لرهوات فرجها إفاضة لصورها على قوائمها حتّى تمّت مركباً منتظماً متلاحم الصدوع والفرج.

الثاني: يحتمل أن يشير بالفروج إلى ما بين أطباق السموات من التباين ونظمه لرهواتها وملاحمة صدوعها خلقها اكراً متماسّة لا خلأ بينها، ونبّه على كمال قدرة اللّه بقوله: بلا تعليق، فإنّ الأوهام حاكمة بأنّ السماء واقعة في خلأ كما يقف الحجر في الهواء وذلك منشأ حيرتها وتعجّبها فحرّكها بذلك القول إلى التعجّب والاستعظام و ـــــ بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة السماويّة بمعنى قرائنها، وكلّ قرين زوج أي ربط بينها وبين نفوسها بقبول كلّ جرم سماوي لنفسه التي لا يقبلها غيره.

[**وذلّل للهابطين**] أي: للملائكة الهابطين [**بأمره**] كجبرئيل النازل بالوحي ونحوه [**والصاعدين بأعمال خلقه**] كالكتبة والحفظة [**حزونة معراجها**] أي: صعوبة المعراج إليها.

[**ونادها بعد إذ هي دخان**] بفتح دال بعد الإضافة وبضمّها أي بعد ذلك إذ هي دخان.

[**فالتحمت**] أي: اتصلت [**عرى**] جمع: عروة [**أشراجها**] جمع شرج وهو عرى العيبة ذكر له منسيان:

وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها

أحدهما : أنّ النداء إشارة إلى قوله تعالى : ﴿فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ والتحامها اعتبار تركيبها بانضمام جزئها الصوري إلى جزئها القابل كما يلتحم طرفا العيبة بتشريج عراها.

[**وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها**] أي : جعلها أسباباً لنزول رحمته ومدبرات تنزيل بواسطة حركاتها على هذا العالم أنواع رحمة اللّه فكانت حركاتها تشبه الأبواب إذ هي أبواب رحمته ومفاتيح جوده الثاني أن تكون السماء إشارة إلى السحاب إذ كلّ ما علا الاسماء وهو قبل الانعقاد يشبه الدخان فاستعير له لفظه والتحام أشراجها إشارة إلى التحام تلك الأجزاء البخارية وانعقادها سحاباً وافتتاق الأبواب نزول المطر منها وقيل الارتتاق والالتصاق وكانت السموات كرة واحدة ففتق ما بينها بالفرجة وبالمطر كما قال تعالى : ﴿أولم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً فنقضناهما﴾.

[**وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها**] جمع : نقب بفتح النون وهو الطريق في الجبل استعار لفظ الرصد لهذه الشهب المحسوسة ورشّحه بذكر النقاب إذ شأن الرصد والحرسة حفظ الفرج والأبواب إشارة إلى ما روي أنّ الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتسترق الغيب من الملائكة ثمّ تلقيه إلى الكهنة والسحرة فجُعلت هذه الشهب رجوماً لهم فكلّ من استرق منهم رُمي بشهاب، قال تعالى : ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كلّ جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾.

وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده وأمرها أن تقف متسلّمة لأمره وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوّة من ليلها وأجراهما في مناقل مجراهما وقدّر سيرّهما في مدارج درجهما ليميّز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرها

[**وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده**] تمور: تتحرّك تذهب وتجيء كما قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ وبأيده أي: هالكة وروي رائدة أي قويّة أي: حفظها بقوّته عن أن تحرّكها الريح المحترقة فيها ذهاباً وإياباً.

[**وأمرها أن تقف**] وتستقرّ في الهواء [**متسلّمة لأمره**] ومنقادة لقهره.

[**وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوّة من ليلها**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحوَنا آية اللّيل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ وجعلهما آيتين لدلالتهما على كمال قدرته كما مرّ وإبصار آية النهار وهو تمام ضياء الشمس الذي هو مادّة الإبصار ومحو آية الليل هو ما على القمر من لطخ السواد وقيل إبصار آية النهار كون نور الشمس لذاتها ومحو آية الليل كون نور القمر مستفاداً من الشمس.

[**وأجراهما في مناقل مجراهما وقدّر سيرّهما في مدارج درجهما**] أراد بذلك بروجهما ومنازلهما [**ليميّز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرها**] اي مقادير سيرهما إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ وقوله: ﴿والقمر قدّرناه منازل﴾ وقوله: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ وقد قسّموا دوران الفلك الذي تسير فيه الكواكب بإثنى عشر قسماً سمّوا كلّ قسم منها برجاً وقسّموا كلّ

ثمّ علّق في جوّها أفلاكها وناط بها زينتها من خفيات دراريها ومصابيح كواكبها

برج ثلاثين قسماً وسمّوا كلّ قسم درجة وأسماء البروج هذه الحمل، الثور، الجوز، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت، وقد جمعت في هذين البيتين

حمل الثور جوزة السرطان ورعى اللّيث سنبل الميزان
ورمى عقرب من القوس جدياً واستقى الدلو بركة الحنيتان

والشمس تقطع كلّ برج في شهر والقمر يقطعه في أزيد من يومين وأنقص من ثلاثة أيام. وأمّا منازل القمر فثمانية وعشرون وأسمائها: الشرطين، البطين، الثريا، الديران، الهقعة، هيد، ذراع، ذثر، مطرفه، جهته، زبره، صرفه، عوّا، سماك، عقرب، نانا، اكليل، قلب، شوله، نعائم، بلده سعد الذابح، سعد، بلع، سعد السعود، سعد الأجنية، فرع المقدم، فرع المؤخّر، الوشا، والقمر يكون في كلّ يوم في منزل منها ﴿وكلّ في فلك يسبحون ذلك تقدير العزيز الحكيم﴾. ولمّا أشار إلى تركيبها أشار إلى قرارها في اجانها بقوله:

[ثمّ علّق في جوّها أفلاكها] ولا ينافيه قوله سابقاً بلا تعليق، لأنّ التعليق أمر ضافي يصدق سلبه وإثباته باعتبارين إذ المراد بالأوّل غير مُعلّقه بجسم آخر فوقها وبالثاني أنّه علّقها في جوّها بقدرته وأراد بالفلك إسم الجنس وهو أجسامها المستديرة التي يصدق عليها هذا الإسم.

[وناط بها زينتها من خفيات دراريها ومصابيح كواكبها] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّا زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾

ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها وأجراها على إذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ومسير سائرها وهبوطها وصعودها ونحوسها وسعودها

وقال تعالى: ﴿إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ وإنّما أعاد ذكر الشهب لأنّه ذكر أوّلاً أنّه أقامها رصداً وذكر هنا أنّه جعلها رصداً له أي: لرمي مسترقي السمع بها فقال:

[ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها وأجراها على إذلال تسخيرها] أي: كونها مسخّرة تحت حكم القدرة الإلهيّة لقوله تعالى: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره﴾، **[من ثبات ثابتها ومسير سائرها وهبوطها وصعودها ونحوسها وسعودها]** والكواكب السيّارات سبعة:

زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، وزهرة، وعطارد، والقمر.

والخمسة الباقية متحيّرة، لأنّ كلّ واحد منها استقامة، ثمّ وقوفاً ثمّ رجوعاً ثمّ وقوفاً ثانياً ثمّ عود للاستقامة وليس للنيّرين غير الاستقامة وباقي الكواكب التي على السماء غير هذه السبعة تسمّى بالثوابت وفلكها الثامن عند الرياضيين، وكلّ واحد من السبعة يتحرّك حركة مخصوصة يخالف حركة الأرض، فأمّا صعودها وهبوطها فصعودها طلبها لشرفها وشرف الشمس في درجة التاسعة عشر من الحمل وشرف القمر في الدرجة الثالثة من النور وشرف زحل في الحادية والعشرين من الميزان وشرف المشتري في الخامسة عشر من السرطان وشرف المريخ في الثامنة والعشرين من الجدي وشرف الزهرة في السابعة والعشرين من الحوت وشرف عطارد في الخامسة عشر من السنبلة وشرف الرأس في الثالثة من الجوزاء وشرف الذنب في الثالثة من القوس وبرج الشرف كلّه شرف إلّا أنّ تلك الدرجات قوته فما دام

ثمّ خلق سبحانه لا سكان سمواته وعمارة الصفح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته فملأهم فروج فجاجها

الكوكب متوجّهاً إلى قوّة الشرف فهو الأرداد والصعود، فإذا جاز صار في الانتقاص والهبوط وهبوط كلّ كوكب يقابل شرفه وصعوده.

وأمّا نحوسها وسعودها فقالوا: زُحل والمرّيخ نحسان أكبرهما زحل والمشتري والزهرة سعدان أكبرهما المشتري وعطارد سعد مع السعود نحس مع النحوس والنيران سعدان من التثليث والتسديس نحسان من المقابلة والتربيع والمقارنة والرأس سعد والذنب والكبد نحسان ومعنى سعودها ونحوسها كون اتصالاتها أسباباً لصلاح شيء من أحوال هذا العالم وفساده.

ومنها في صفة الملائكة عليهم السلام

[ثمّ خلق سبحانه لا سكان سمواته وعمارة الصفح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته] الصفح: السطح، وقيل المراد هنا سطح الفلك الأعظم ويقال لوجه كلّ شيء عريض صفح وصفحة ولعلّه إشارة إلى العرش لكونه أعظم الأجرام وأعلاها وسكّانه الملائكة المدبّرون له ويحتمل أن يريد محلّ عبادة الملائكة من حضرة جلال ربّ العالمين وعالم الملكوت ومقعدهم الصدق من معرفته فإنّ خلقهم إنّما كان لعمارة ذلك المحل وهو البيت المعمور بجلال اللّه وعبادتهم له ولمّا كانوا من أشرف الوجودات كانوا هم الخلق البديع التام المعجب.

[فملأهم فروج فجاجها] الفروج: الأماكن الخالية والفجاج جمع فج الطريق الواسع بين جبلين أو حائطين.

وحشا بهم فتوق أجوائها وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبّحين في حظائر القدس وسترات الحجب وسرادقات المجد

[وحشا بهم فتوق أجوائها] جمع جو، وهو ما اتّسع من الأودية ويقال لما بين السماء والأرض جو، واستعار لفظ الفروج والفجاج والفتوق لما يتصوّر بين أجزاء الفلك من التباين لولا الملائكة الذين قام بهم وجودهما ورشح تلك الاستعارة بذكر الملي والحشو وأمّا فجاجها وفروجها فلعلّه إشارة إلى ما يعقل بين أجزائها وأجرامها المنتظمة من التباين لولا الناظم لها بوجود الملائكة فيكون حشو تلك الفرج بالملائكة كناية عن نظامها بوجودها وجعلها مدبّرة لها.

[وبين فجوات تلك الفروج] أي: متّسعاتها، والفجوة: الفرجة، والفروج: الأماكن الخالية **[زجل المسبّحين]** أي: منهم أصواتهم **[في حظائر القدس]** جمع حظيرة وأصلها ما يعمل شبه البيت للإبل من الشجر ليقيها البرد فسمّى عليه السلام تلك المواطن الشريفة فوق الفلك حظائر القدس بتسكين الدال وضمّها: الطهر، والتقديس: التطهير.

[وسترات] جمع سترة **[الحجب وسرادقات المجد]** السرادق: الستر الذي يمدّ فوق البيت، استعار لفظ الزجل لعبادتهم المستلزمة لرفع الصوت بالتضرّع والتسبيح والتهليل، والحظائر لمنازل الملائكة ومقامات عبادتهم ووصفها بالقدس لطهارتها عن نجاسات الجهل وأرجاس النفس الأمّارة واستعار السترات والسرادقات لحجب النور التي احتجبوا بها أو لتجرّدهم عن المواد والأوضاع المحسوسة ووجه الشبه كونهم محتجبين بذلك عن رؤية الأبصار والأوهام ووصفت بالمجد لكمال ذواتهم وشرفها على من دونها.

ووراء ذلك الترجيح تستكّ منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها فتقف خاسئة على حدودها أنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتات أُولي أجنحة التي تسبّح جلال عزّته

[**ووراء ذلك الترجيح**] وهو في الأصل الزلزلة والاضطراب واستعير هنا لعبادة الملائكة واضطرابهم من سطوة اللّه وقدرته ورشحه بقوله [**تستكّ**] أي: تصمّ وتسد [**منه الأسماع**] به عن كمال عبادتهم [**سبحات**] بضمّ السين والباء أي عظمة وجلال [**نور تردع الأبصار**] تكفّها [**عن بلوغها فتقف خاسئة**] أي: متحيّرة أو صادرة [**على حدودها**] أي: تقف حيث تنتهي قوتها لأنّ قوّتها متناهية فإذا بلغت حدّها وقفت.

ويحتمل أن يشير بذلك الزجل والزجح إلى ما تسمعه الأنبياء من أصوات الملائكة، وأشار بسبحات النور التي وراء ذلك الترجيح إلى جلال وجه اللّه وعظمته وتنزيهه أن يصل إليه أبصار البصائر ومنه بكون ذلك وراء زجيحهم إلى أنّ معارفهم لا تتعلّق به كما هو بل وراء علومهم وعباداتهم أطوار أُخر تقصر معارفهم عنها وتقف أبصار البصائر عن إدراكها.

[**أنشأهم على صور مختلفات**] الحقائق [**وأقدار متفاوتات**] المراتب في الكمال والقرب.

[**أُولي أجنحة**] مثنىً وثلاث ورباع، وقيل الأجنحة مستعار لقواهم التي بها حصّلوا أعلا المعارف الإلهيّة وتفاوتها كناية عن تفاوت إدراكهم وعلومهم ولذا جعل الأجنحة هي [**التي تسبّح جلال عزّته**] وتنزّهه عمّا لا يليق بكرم وجهه وعزّ جلاله.

لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه ولا يدّعون أنّهم يخلقون شيئاً معه ممّا انفرد به بل هم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه وحملهم إلى المرسلين وقائع أمره ونهيه وعصمهم من ريب الشبهات فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته وأمدّهم بفوائد المعونة

[**لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه**] أي: لا يدّعون الإلهيّة لأنفسهم كما ادّعاها بعض البشر، ولا ينسبون بعض مصنوعاته إلى قدرتهم وإن كانوا وسائط فيها.

[**ولا يدّعون أنّهم يخلقون شيئاً معه ممّا انفرد به**] في إبداعه فلا يدّعون القدرة عليه أصلاً وذلك لكمال معارفهم بإقدارهم ونسبتهم إلى بارئهم وقد أكرمهم اللّه تعالى بالتقديس عن النفوس الأمّارة بالسوء التي هي مبدء الشرور والفساد.

[**بل هم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**] أي يتّبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتّى يقوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يعملون عملاً لم يأمرهم به [**جعلهم فيما هنالك**] من مقاماتهم العالية ومراتبهم المتعالية [**أهل الأمانة على وحيه وحملهم إلى المرسلين وقائع أمره ونهيه وعصمهم من ريب الشبهات**] والشكوك التي منشئها النفس الأمّارة والهوى ممّا تنزّه الملائكة عنه.

[**فما منهم زائغ**] ومنحرف [**عن سبيل مرضاته**] وفيه دلالة على عصمتهم من الزلل وصيانتهم عن الخلل في القول والعمل.

[**وأمدّهم بفوائد المعونة**] إشارة إلى زيادتهم في كمالاتهم على غيرهم

وأشعر قلوبهم تواضع اخبات السكينة وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده لم تثقلهم مؤصرات الآثام

ودوام ذلك بدوام وجوده.

[**وأشعر قلوبهم تواضع اخبات السكينة**] استعار التواضع والاستكانة لحالهم من الاعتراف بذلّ الحاجة والإمكان إلى جوده والانقهار وتحت عظمة وجوده وأشار إلى كون ذلك بمنزلة الشعار وملازماً لذواتهم ويحتمل كونه من الشعور وهو الإدراك.

[**وفتح لهم أبواباً ذللاً**] كناية عن وجوه معارفهم الإلهية التي هي أبوابهم ووسائلهم [**إلى تماجيده**] وتنزيهه وتعظيمه فيها مجّدوه وعظّموه وأشار بكونها ذللاً إلى سهولة حصولها لهم بدون اكتساب عن طرق وعرة بتراكم الشكوك والشبهات ومنازعات الأوهام والخيالات كما في علومنا ومعارفنا.

[**ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده**] قيل استعار المنار الواضحة للوسائط من الملائكة المقرّبين بينهم وبين الحقّ ولفظ الأعلام لصور المعقولات في ذواتهم المستلزمة لتوحيده وتنزيهه عن الكثرة ووجه الشبه أنّ المنارة للإعلام كما تكون وسائط في حصول العلم بالمطلوب كذلك الملائكة المقرّبون والمعارف الحاصلة بواسطتهم تكون وسائط في الوصول إلى المطلوب.

[**لم تثقلهم مؤصرات الآثام**] المؤصرات: المثقلات والاصر الثقل لم تكن عندهم نفوس أمّارة بالسوء حتّى يصدر منهم الأيام التي هي من لوازمها

ولم ترحّلهم عقب الليالي والأيام ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم ولاتّحدت قادحة الأحن فيما بينهم ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم وسكن من عظمته

فاستلزم عدمها نفي آثارها عنهم.

[**ولم ترحّلهم عقب الليالي والأيام**] يقال: ارتحلت البعير أي ركبته والعقبة النوبة والجمع عقب أي لا يؤثّر فيهم تعاقب الليالي والأيام فيرحلهم عن الوجود وذاك لتجرّدهم والمجردات بريّة عن لحوق الزمان والتغيرات الحادثة.

[**ولم ترم الشكوك بنوازعها**] أي: بشهواتها النازعة المحرّكة وروي بالغين المعجمة من نزغ بينهم أي: أفسد [**عزيمة إيمانهم**] أي: لم تزدهم الظنون على يقينهم الذي عقدوه واعتقاداتهم ومعارفهم اليقينة لأنّ اعتراك الشكوك والظنون منشأه الأوهام والخيالات وعلوم الملائكة مبراة عنها واستعار الرمي لانبعاث النفوس الأمّارة وإلقائها الخواطر الفاسدة إلى النفس المطمئنة وعلى رواية بالغين المعجمة يكون ترشيحاً للاستعارة وكذا قوله:

[**ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم**] استعار الاعتراك لاختلاط الظنون والأوهام على القلوب وجولانها في النفوس ووجه الشبه ظاهر.

[**ولاتّحدت قادحة الأحن**] جمع أحنة وهي الحقد [**فيما بينهم**] أي: لم تثر بينهم الأحقاد شيئاص من الشرور كما تشير المنار قادحها لبرائتهم عن قوى الغضب والشهوة.

[**ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم وسكن من عظمته**

ورهبة جلالهة في أثناء صدورهم ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم منهم من هو في خلق الغمام الدُّلَّح وفي عظم الجبال الشمخ وفي فترة الظلام الأبهم ومنهم من قد فرقت أقدامهم تخوم

ورهبة جلالهة في أثناء صدورهم] حيث كانت الحيرة تردّد العقل في أولويّة بعض الأمور على بعض واحتياره بسبب معارضته الوهم والخيال للعقل فإذا أعدم الوهم والخيال عدمته الحيرة التي تخالط معارفهم وتزيل هيبة الخالق وعظمته من صدورهم والهيبة كناية عن استعار عظمته ولفظ الصدور مستعار لذواتهم.

[ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها] أي: دنسها وغلبتها **[على فكرهم]** وفاعل تطمع مضاف محذوف أي: أهل الوساوس وهم الشياطين أو نفس الوساوس بتجوّز إسناد الطمع إليه كقوله ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ ورينها كناية عن الشكوك اللازمة عنها على وجه عقولهم وأبصار ذواتهم وانتفائها عنهم بسبب انتفاء النفس الأمّارة التي هي سببها.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان أنواع الملائكة وأصنافهم فقال:

[منهم من هو في خلق الغمام] جمع غمامة: وهي السحابة، **[الدُّلَّح]** أي: الثقال بحمل الماء فقد ورد في الشريعة أنّ في الغمام ملائكة تسبّح اللّه وتقدّسه.

[وفي عظم الجبال الشمخ] أي: العالية الشاهقة.

[وفي فترة الظلام] أي: سواده **[الأبهم]** الذي لا يهتدي فيه ومنها البهائم **[ومنهم من قد فرقت أقدامهم تخوم]** بضمّ التاء جمع تخم أي:

الأرض السفلى فهي كريات بيض قد نفذت في مخارق الهوى وتحتها ريح هفّافة تحسبها على حيث انتهت من الحدود المتناهية

منتهى [الأرض السفلى] ويروى تخوم بفتح التاء على أنّها واحد والجمع تخم مثل صبور وصبر.

[فهي] أي أقدامهم [**كريات بيض قد نفذت في مخارق الهوى وتحتها ريح هفّافة**] أي: ساكنة طيّبة [**تحسبها على حيث انتهت من الحدود المتناهية**] أي: كأن أقدامهم التي خرقت الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريح ساكنة غير مضطربة بحيث تموّج تلك الرايات بل هي ساكنة تحسبها حيث انتهت وقد روي أنّ لإسرافيل جناحين، أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، وأنّ العرش على كاهل وأنّه ليتضاءل أحياناً لعظمة اللّه حتّى يعود مثل الوضع وهو العصفور.

وقيل: يشبه أن يكون هذا القسم من الملائكة السماويّة.

واستعار لفظ الأقدام لعلومهم المحيطة بأقطار الأرض السلفى ونهاياتها.

ووجه الشبه كون العلوم قاطعة للمعلوم وسارية فيه واصلة إلى نهايته كما أنّ الأقدام تقطع الطريق وتصل إلى الغاية منها وشبّهها بالرايات الموصوفة بما ذكر من حيث البياض لما يستلزمه من الفاء على الكدور وعلومهم صافية من كدورات الشبه وظلمات الباطل.

ومن حيث نفوذها في أجزاء المعلوم كما تنفذ الرايات في الهواء وأشار بالريح التي تحبس الأقدام... إلخ، إلى حكمة اللّه التي أعطت كلاماً يستحقّه وقصرت كلّ موجود على حدّه و ـــــــ إلى لطف تصرّفها أو جريانها في المصنوعات.

قد استفرغتهم أشغال عبادته ووسّلت وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه ولم تُجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره قد ذاقوا حلاوة معرفته وشربوا بالكأس الرويّة من محبّته وتمكّنت من سويداء قلوبهم

[**قد استفرغتهم أشغال عبادته**] أي: جعلتهم فارغين عن كلّ شيء إلّا من العبادة كما قال تعالى: ﴿يسبّحون اللّيل والنهار لا يفترون﴾.

[**ووسّلت**] بالسين المشدّدة، يقال: وسّل فلان إلى ربّه وسيلة والوسيلة ما يُتقرّب به والجمع وسل ووسائل حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته وحقائق الإيمان تصديقهم الحقّ بوجوده عن شاهد وجودهم وظاهر كونه سبباً لإرادة معرفته التامّة والدوام عليها وإبراز ما في قلوبهم من الكمال بها إلى الفعل فإنّ التصديق بوجود الشيء الواجب تحصيله الأسباب الباعثة على طلبه فصار الإيمان والتصديق الحقّ اليقين بوجوده وسيلة جامعة بينهم وبين معرفته والاستكمال بها وقاطعاً لهم إلى الوله إليه والعشق له وثبات الرغبة على ما عنده دون غيره.

كما أشار بقوله: [**وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه ولم تُجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره قد ذاقوا حلاوة معرفته**] استعار الذوق لتعقلاتهم.

[**وشربوا بالكأس الرويّة من محبّته**] واستعار الشرب لما تمكّن في ذواتهم من عشقه وكمال محبّته ورشح الاستعارة الأُولى بذكر الحلاوة مكنّياً بها عن كمال ما يجدونه من اللّذة بمعرفته كما يلتذ ذائق الحلاوة بها والثانية بذكر الكأس الرويّة إذ من كمال الشرف أن يكون بكأس روية أي من شأنها أن تروي وكنّى بها عن كمال معارفهم بالنسبة إلى غيرهم.

[**وتمكّنت من سويداء قلوبهم**] سويداوات القلوب جمع سويد: وهي

وشيحة خفيفة فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم ولم تنفذ طول الرغبة إليه مادّة تضرّعهم

حبّة القلب.

[**وشيحة خفيفة**] والوشيحة في الأصل عرق الشجرة استعار لفظ القلوب بذكر سويدائها إذا كان من كمال تمكّن العوارض القلبيّة كالمحبّة والخوف أن يبلغ إلى سويدائه، وأشار بوشيحة خيفة إلى العلاقة المتمكّنة من ذواتهم لخيفته وهي كمال علمهم بعظمته.

[**فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم**] يقال: حنيت ضلعي أي: عوجتها وهو كناية عن كمال خضوعهم في عبادتهم من إطلاق المسبّب على السبب.

[**ولم تنفذ طول الرغبة إليه مادّة تضرّعهم**] حيث كان شأن الإنسان حال الرغبة في أمر من الأُمور إلى بعض الملوك الفزع فيه إليه بالتضرّع والخدمة، ثمّ ينقطع تضرّعه وخدمته بانقطاع مادّته ومادّته إمّا دواعي نفسه إلى الطلب وميولها وانقطاعها باستيلاء الملال على نفسه وضعفها عن تحمّل المشقّة ومطلوبه وتصوّره لإمكان تناوله وانقطاعه إمّا بإياسه منه، أو بإعطائه إيّاه، وكانت مادّة تضرّعهم وعبادتهم له تعالى على التقديرين بربّه عن القواطع إمّا من ذواتهم فلأنّ الملال والكلال من عوارض المركّبات العنصريّة، وأمّا مطلوبهم فلأنّه كمال معرفة اللّه تعالى بعد تصوّرهم لعظمة ذلك ـــــــ.

وعلمت أنّ درجات الوصوف إليه غير متناهية لا جرم سلب عنهم في معرض المدح انقطاع عبادة تضرّعهم ليستلزم ذلك سلب انقطاع تفرّغهم وعبادتهم له.

ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة لديه ربق خشوعهم ولم يتولّاهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا تركتب لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجائهم

[**ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة لديه ربق خشوعهم**] الربق جمع ربقة وهي الحبل واستعير هنا لما حصلوا فيه من الخشوع إذ لا يقع من العارف بربّه المتقرّب إليه نقصان في الهيبة والخشوع بل كلّما ازداد به معرفة ازداد عنده عظماً وفي نفسه خشوعاً فكلّما عبر منزلاً من منازل المعرفة علم عظمة خالقه فكمل عقد يقينه بذلك وعلم نقصان ذاته فكمل خشوعه.

[**ولم يتولّاهم**] أي: يستولي عليهم [**الإعجاب**] بأنفسهم واستعظام ما حصل لها من الفضائل وما تنزّهت عنه من الرذائل [**فيستكثروا ما سلف منهم**] من عبادة ويستعظموا ما صدر عنهم من خير إذ هذه الرذيلة إنّما تكون من توهّمات النفس الأمّارة وهم منزّهون عنها.

[**ولا تركتب لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم**] إذ كلّما عظم جلال معبودهم في أنفسهم حقرت حسناتهم في نظرهم كما قال عليه السلام «وما قد لساني في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك وكيف نستكثر أعمالاً لا نقابل بها كرمك».

[**ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم**] أي: جدّهم واجتهادهم لأنّ الدؤوب من لوازم الطبيعة المنزّهين عنها وقال تعالى: ﴿يسبّحون الليل والنهار لا يفترون﴾.

[**ولم تغض رغباتهم**] أي: لم تنقص [**فيخالفوا**] ويعدلوا [**عن رجائهم**] بل رغباتهم دائمة وأشواقهم ثابتة فرجائهم دائم.

ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الحنين إليه أصواتهم ولم تختلف في مقادم الطاعة مناكبهم

[**ولم تجف لطول المناجاة أسلات**] جمع أسلة أي أطراف [**ألسنتهم**] استعار اللسان لتوجيه وجوههم دائماً إليه ورشحه بذكر الأسلات ملاحظة للتشبيه بأحدنا في مناجاته وكنّى بعدم جفاف ألسنتهم عن عدم فتورهم وعدم لحوق الإعياء والكلال منهم إذ لا ألسنة لهم من لحم رطب حتّى تجف.

[**ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الحنين إليه أصواتهم**] الهمس الصوت الخفي أي: ليس لهم أشغال خارجة عن العبادة فتكون لأجلها أصواتهم المرتفعة خافية ساكنة لتنزّههم عن الأحوال البشريّة والعوارض البدنيّة من الضعف والإعياء وكلال الأعضاء عند كثرة الأشغال وقوتها.

[**ولم تختلف في مقادم الطاعة مناكبهم**] قيل استعار المقادم من ريش الطائر وهي عشر في كلّ جناح لما سبق وجوبه من طاعة اللّه وكان من أهمّ عباداته كمعرفته والتوجّه إليه، ولفظ المناكب وهي أربع ريشات بعد المقادم في كلّ جناح لذواتهم.

ووجه الشبه: أنّ المناكب تالية للمقادم وعلى نظامها وترتيبها لا يخالف صفّها ونسقها وكذلك الملائكة لا تختلف ذواتهم وأجرامها في نسق ما أهمّ من عبادة ربّهم ومعرفته، بل حافّون لا يخالف بعضهم بعضاً في استقامة طريقهم إليه، ولا يخرجون عن نظام ترتيبه لهم في التوجّه إليه، كما أشار إليه في الخطبة الأولى وصافّون لا يتزايلون وحكى اللّه عنهم في

ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم ولا تعدو على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم

القرآن ﴿وإنّا لنحن الصافّون﴾ .

[**ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم**] مفعول يثنوا استعار لفظ الرقاب والثني أي لم يلتفتوا إلى الراحة في تعب العبادة فيقصّروا في أوامره والمقصود نفي الأحوال البشريّة عنهم من التعب والراحة لكونهما من توابع هذه الأبدان.

[**ولا تعدو على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات**] قد مرّ معنى الغفلة والبلادة طرف التفريط من فضلة الذكاء وكلاهما من عوارض هذا البدن وبواسطته وكذلك الشهوات والملائكة منزّهون عن جميع ذلك فلا يطرء على حضورهم لما توجّهوا له غفلة ولا بلادة حتّى يكون ذلك سبباً لإعراضهم عن التوجه فيه.

[**ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات**] التنضّل من المناضل وهو المراماة بالسهم أي لم يجز أن ترمي الشهوات هممهم بسهام خدائعها واستعار الانتضال لتوارد جواذب الشهوات على النفس الناطقة مع كونها مؤذية لها ومردية في قرار الجحيم.

[**قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم**] أي: حاجتهم فهو ذخرهم الذي إليه يرجعون وعليه يعوّلون ويتوكّلون وبه يصولون وفيما عنده يرغبون وكنّى بذي العرش عن اللّه تعالى اقتباساً من قوله ﴿إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ وقوله ذو العرش المجيد.

ويمّموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم لا يقطعون أمد غاية عبادته ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلاّ إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته ولم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينسوا في جدّهم

[**ويمّموه**] أي: قصدوه [**عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم**] فأولئك انقطعوا إلى الحق ولم يلتفتوا إلى الخلق وهؤلاء انقطعوا إلى الخلق وأعرضوا عن الحق [**لا يقطعون أمد غاية عبادته**] إذ غاية عبادته الوصول إلى كمال معرفته ودرجات المعارف غير متناهية فلا يمكنهم قطع تلك الغاية، ولذا قال سيد الأنبياء «اللهمّ زدني فيك معرفة» وقال تعالى مخاطباً له ﴿وقل ربّي زدني علماً﴾.

[**ولا يرجع بهم الاستهتار**] مصدر استهتر فلان أي لازمه وأُولع به [**بلزوم طاعته إلاّ إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته**] لأنّهم لما غرقوا في محبّته وعلموا كمال عظمته وأنّ مايرجونه من تمام جوده أشرف المطالب وما يخشونه من الحرمان منه أعظم المناطب لاجرم دام رجائهم له وخضوعهم في رقّ الحاجة إليه والخوف من حرمانه وذلك الرجاء والخوف مادّة استهتارهم بلزوم طاعته التي يرجعون إليها من قلوبهم فلم ينقطع استهتارهم بلزومها.

[**ولم تنقطع أسباب الشفقة**] أي الإشفاق والخوف [**منهم فينسوا**] أي: فيضعفوا [**في جدّهم**] واجتهادهم أي: لم تنقطع أسباب خوفهم وأسباب حاجتهم إلى القيام في الوجود إلى الاستكمال بجوده، فإنّ الحاجة الضرورية إلى الغير في مطلوب تستلزم خوف عدم قضائه وتوجب الإقبال

ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منه شفقات وجلهم ولم يختلفوا في ربّهم باستحواذ الشيطان عليهم

على الاستعداد بجوده بلزوم طاعته وحاجتهم إليه دائمة، فجدّهم في عبادته دائم فالتواني فيه مفقود.

[**ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك**] أي: قريب [**السعي على اجتهادهم**] استعار الأسر لقود الأطماع إلى ما يطمع فيه ونفي الأطماع عنهم لتنزّههم من العوارض البشريّة وتوضيح ذلك أنّ كثيراً من العباد قد يصرفهم عن الاجتهاد في العبادة سبب ما يظهر لهم من كمالات الدنيا ورتبها فيؤثرون ما قرب من السعي في تحصيله على ما يستبعدونه من تحصيل السعادة الاخروية لاستيلاء الشهوة والغفلة والملائكة منزّهون عنهما.

[**ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم**] الصالحة [**ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منه شفقات وجلهم**] أي: لأذهب خوفهم رجائهم الذي يتولّد من استعظام تلك العبادة وتوضيح ذلك أنّ الإنسان إذا عمل لبعض الملوك عملاً يستعظمه يرى في نفسه استحقاق أتمّ جزاء له، ويجد التظاؤل به والدالة عيه فيهون ذلك ما كان يجده من خوف الملك وكلّما أراد استعظامه لخدمته زاد اعتقاده في قربه من الملك وبمقدار ذلك ينقص خوفه وتقلّ هيبته، لكن الملائكة خائفون أبداً كما قال تعالى: ﴿يخافون ربّهم من فوقهم﴾ وقال: ﴿تسبّح الرعد بحمده وترجف الملائكة من خيفته﴾.

[**ولم يختلفوا في ربّهم**] في وجوبه ووجوده وصفاته الكمالية والجلالية واستحقاقه كمال العبادة [**باستحواذ الشيطان عليهم**] أي: غلبته، لعدم

ولم يفرقهم سواء التقاطع ولا يتولاّهم غلّ الحاسد ولا تشعبتهم مصارف الريب ولا اقتسمتهم أخياف الهمم فهم أُسراء الإيمان لم يفكّهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونا ولا فتور

سلطان له عليهم بل هم عباد مكرمون وقال تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

[**ولم يفرقهم سواء التقاطع**] كتقاطع المتعادين وتباينهم الناشئ عن الغضب والشهوة.

[**ولا يتولاّهم**] أي: لا يستولي عليهم [**غلّ الحاسد**] فإنّ الحسد رذيلة نفسانيّة تنبعث عن البخل والشرّية ومنشئهما النفس الأمّارة وهم مبرّئون منها.

[**ولا تشعبتهم**] أي: قسمتهم وفرّقتهم وجعلتهم شعباً [**مصارف الريب**] والشكوك والشبه ومصارفهاهي الأُمور الباطلة التي ينصرف أذهانهم إليها عن شبهة أو هي تلك الشبه والشكوك أنفسها وتشعّبها لهم اقتسامها بحيث يذهب كلّ واحد من شبهة إلى باطل ومنشأ الشكوك والشبهات هو الوهم والخيال وهم منزّهون عن أمثالها.

[**ولا اقتسمتهم أخياف الهمم**] أي: الهمم المختلفة وأصله من الخيف وهو كحل إحدى العينين دون الأُخرى إذ لمّا كان معبودهم واحد وهو غاية مطلوبهم كانت هممهم فيه واحدة فلم يلتفتوا إلى شيء آخر ولم يفترقوا فيها.

[**فهم أُسراء الإيمان**] استعارة مرشحة بلفظ الربقة له [**لم يفكّهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونا ولا فتور**] لتنزّه الملائكة عن هذه العلائق والعوائق التي منشئها النفس الأمّارة.

وليس في أطباق السموات موضع إهاب إلّا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد يزدادون على طول الطاعة بربّهم علماً وتزداد عزّة ربّهم في قلوبهم عظماً في صفة الأرض ودحوها على الماء كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة تلتطم أواذي أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجها وترغو زبداً كالفحول عند هياجها

[**وليس في أطباق السموات موضع إهاب**] أي: جلد [**إلّا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد**] أي: مسرع المراد أنّ السموات مملوءة بالملائكة بين ساجد لربّه وساع مجدّ في أمره وطاعته [**يزدادون على طول الطاعة بربّهم علماً وتزداد عزّة ربّهم في قلوبهم عظماً**].

ومنها:

[**في صفة الأرض ودحوها على الماء كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة**] كبسها أغاصها وأدخلها الماء بقوة واعتماد شديد والمور التردّد في الحركة، ومستفحلة أي صائلة، استعار الكبس لخلقه لها ضائعاً معظمها في الماء كما يغوص الرق المفتوح ونحوه بالاعتماد عليه واستعار الاستفحال للموج ووجه الشبه ما اشتركا فيه من الاضطراب والهيجان والصولة.

[**ولجج بحار زاخرة**] زخر الماء أي: امتدّ جدّ أو ارتفع [**تلتطم أوازي أمواجها**] الأوازي جمع أزى وهو ما عظم من موج البحر.

[**وتصطفق متقاذفات أثباجها**] الاصطفاق الترادف وضرب بعضها بعضاً والاثباج جمع ثبج وهو معظم الأمواج وأعاليها.

[**وترغو زبداً كالفحول عند هياجها**] ترغو أيك تصوّت صوت البعير

فخضع جماح الماء المتلاطم لنقل حملها وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلتها وذلّ مستخذياً إذ تمعكت عليه بكواهلها فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجياً مقهوراً وفي حكمة الذلّ منقاداً أسيراً

والرغا صوت ذرّات الخف وزبداً منصوب بفعل مقدّر أي: ترغو قاذفة زبداً وهو ما يظهر فوق السيل والتشبيه بالفحول لما يظهر على رؤوس الموج عند اضطرابه وغليانه من رغوة الزبد كما يظهر من فم الفحل عند هياجه.

[فخضع جماح الماء] أي: صعوده وغليانه **[المتلاطم لنقل حملها]** استعار لفظ الجماح لحركة الماء على غير نسق واضطراب لا يملك مع تعريفه كما يجمح الفرس.

[وسكن هيج ارتمائه] أي: تقاذفه وتلاطمه **[إذ وطئته بكلكلتها]** أي: صدرها.

[وذلّ مستخذياً إذ تمعكت] تمعّكت الدابّة أي: تمرّغت ومعكت الأديم: دلكته **[عليه بكواهلها]** جمع كاهل وهو ما بين الكتفين استعارة أوصاف الناقة من الكلكل والكاهل للأرض ورشح تلك الاستعارة بالوطيء والتمعّك وإنّما خصّ الصدر والكاهل لقوّتهما وكنّى بالجموع عن إلحاقها بالناقة.

[فأصبح بعد اصطخاب] أي صياح **[أمواجه ساجياً]** ساكناً **[مقهوراً وفي حكمة الذلّ منقاداً أسيراً]** استعار للماء لفظ الساجي والقهر ولفظ الحكمة وهي ما أحاط من اللجام بحنك الدابّة والانقياد والأسر وكنّى بها عن إلحاقه بحيوان صائل قهر كالفرس وإضافة الحكمة إلى الذل إضافة السبب للمسبّب.

وسكنت الأرض مدحوة في لجّة تيّاره وردت من نخوة بأوه واعتلائه وشموخ أنفه وسموّ غلوائه على كظّة جريته فهمد بعد نزقاته ولبد بعد زيفان وثباته

[**وسكنت الأرض مدحوة**] أي: مبسوطة [**في لجّة تيّاره**] والتيّار أعظم الموج ولجّته: أعمقه.

[**وردت من نخوة بأوه**] أي: كبره وفخره يقال: بأوت على القوم أي: فخرت.

[**واعتلائه**] أي: تيهه وتكبّره أي: كسرت الأرض سؤرة الماء كما يكسر سؤرة الرجل المتكبّر.

[**وشموخ أنفه**] الشموخ العلو مصدر شمخ بأنفه أي: تكبّر والجبال الشوامخ: الشاهقة.

[**وسموّ غلوائه**] السمو العلو وغلوائه أي: غلوّه وتجاوزه الحدّ وكهمته أي: شدة فمه لما هاج من الكعام وهو شيء يجعل في فم البعير [**على كظّة جريته**] والكظّة: الجهد والثقل أيك يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام فيقول كعمت الأرض الماء حال كونه مكظوظاً لشدّة امتلائه وكثرته وازدحام أمواجه.

[**فهمد**] أي: سكن [**بعد نزقاته**] وهي الخفقة والطيش.

[**ولبد بعد زيفان وثباته**] يقال: لبد الشيء بالأرض يلبد بالضمّ لبوداً أي: لصق بها ساكناً والزيفان الشجر في المشي يقال: راف البعير يريف والريافة من النوق المختالة وفي رواية ولبد بعد زينان وثباته والزينان شدّة هبوب الرياح، ناقة رفيان أي: سريعة.

فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها وحمل شواهق الجبال البذخ على أكنافها فجرّ ينابيع العيون من عرانين أنوفها وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها وعدّل حركاتها من جلاميدها ذوات الشياخيت الشم من

وقد استعار لفظ النخوة والبار وشموخ الأنف والتيه والغلو والترف والزيفان والوثبات للماء في هيجانه واضطرابه ملاحظاً لشبه بالإنسان المتحيّر التيّاه في حركاته المؤذية بتكبّره وزهوه.

[**فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها**] أي: جوانبها، استعار الأكناف للأرض ووجه الشبه كون كلّ منهما محلاً لحمل ما ثقل من الجبال كما أنّ كتف الإنسان وغيره محلّ لحمل الأثقال.

[**وحمل شواهق الجبال البذخ على أكنافها**] الجبال الشواهق العالية والبذخ العالية.

[**فجرّ ينابيع العيون من عرانين أنوفها**] الينابيع جمع ينبوع وهو ما انفجر من الأرض، والعرنين أوّل الأنف تحت مجتمع الحاجبين، استعار العرنين والأنف لأعالي رؤوس الجبال كناية عن إلحاقها بالإنسان.

[**وفرقها في سهوب**] جمع سهب وهو الفلاة [**بيدها**] جمع بيداء وهي الفلاة أيضاً.

[**وأخاديدها**] جمع اخدود وهو الشقّ في الأرض، قال تعالى: ﴿قتل أصحاب الاخدود﴾.

[**وعدّل حركاتها**] بالجبال الراسيات الثقال [**من جلاميدها**] جمع جلمد أو جلمود أي: صخورها.

[**ذوات الشياخيت**] وهي رؤوس الجبال [**الشم**] أي: العالية [**من**

صياخيدها فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها وتغلغلها متسرّبة في جوبات وخياشيمها وركوبها أعناق وسهول الأرضين وجراثيمها

صياخيدها] جمع صيخود وهي الصخرة الصلبة.

[**فسكنت من الميدان]** أي: التحرّك والاضطراب وماد الرجل يميد أي: تبختر [**برسوب الجبال]** أي: نزولها، يقال: رسب الشيء في الماء أي سَفِل فيه وسيف رسوب ينزل في العظام [**في قطع أديمها]** القطع جمع قطعة وأديم الأرض وجهها، يريد في أجزائها وأبعاضها ويروى في قطع أديمها بضمّ القاف وفتح الطاء جمع قطعة وهي الغروزة من الأرض.

[**وتغلغلها]** يقال: تغلغل الماء في الشجر دخوله وتخلّله في أصوله وعروقه [**متسرّبة]** أي: داخلة، يقال: تسرّب الثعلب أي دخل سربه [**في جوبات]** جمع جوبة وهي الفرجة في جبل أو غيره.

[**وخياشيمها]** جمع خيشوم وهو أقصى الأنف.

[**وركوبها أعناق وسهول الأرضين وجراثيمها]** جمع جرثومة، وهي أصل الشجر، كنّى عليه السلام بالتغلغل والتسرّب عن نفوذ الجبال في الأرض وغوصها فيها، والخياشيم لتلك الأسراب ولمّا جعل للجبال أُنوفاً جعل تلك الأسراب التي قامت الجبال فيها خياشيم واستعار لفظ الركوب للجبال والأعناق للأرض كناية عن إلحاقها بالقاهر والمقهور.

وقد أفاد عليه السلام في هذه الفقرات أنّ اللّه تعالى خلق الماء قبل الأرض ثمّ دحاها فيه وسكن بها مستفحل أمواجه ووجهه أنّ الماء لمّا كان حاوياً لأكثر الأرض كان سطحه الباطن المماس لسطحه الظاهر مكاناً لها وللمكان تقدّم

وفسح بين الجو وبينها وأعدّ الهواء منسماً لساكنها وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها ثمّ لم يدع جوز الأرض

ما على المتمكّن فيه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى خلق الجبال فيها وكونها سبباً لسكونها كما دلّ عليه القرآن، ثمّ أشار إلى تفجير ينابيع العيون والجبال وإنّما خصّ الجبال بتفجّر العيون لأنّها أكثر ما تتفجر من الجبال والأمكنة المرتفعة لشدّة احتقان الأبخرة تحتها بالنسبة إلى سائر الأماكن الهابطة الرخوة. ثمّ ذكر أنّه تعالى أعدّ الهواء لساكنها فقال:

[وفسح] أي: أوسع [**بين الجو وبينها وأعدّ الهواء منسماً**] يعني موضع النسيم [**لساكنها**] إشارة إلى ما ذكره العارفون وهو أنّ الهواء كما جعل عنصر الأبدان الحيوانية كذلك جعل مدوداً يصل إلى الأرواح لصلاحها وبقائها بالتعديل والتعديل بالتردبح والتبقية.

[**وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها**] أي: منافعها كما قال تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش، ومن لستم له برازقين﴾ وأراد عليه السلام بأهلها المحتاجين إليها مطلق الحيوان وارتفاقهم بها جعلتها لهم قراراً صالحة لسكناهم وحرثهم وزرعهم ودفن أمواتهم إلى غير ذلك من منافعها التي لا تخفى، قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ وقال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا أحياءً وأمواتا﴾ وقال تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون﴾.

[**ثمّ لم يدع جوز الأرض**] من إضافة الصفة إلى الموصوف أي:

تقصر مياه العيون عن رواسيها ولا تجد جداول الأرض ذريعة إلى بلوغها حتّى أنشأ لها ناشئة سحاب تحي مواتها وتستخرج نباتها ألّف غمامها بعد تفرّق لمعه وتباين قزعه حتّى إذا ما تمخّضت لجّة المزن فيه والتمع برقه في كففه

الأرض الجزر وهي التي لا نبات لها لانقطاع المطر عنها [**تقصر مياه العيون عن رواسيها**] الروابي التلاع وما عدا من الأرض.

[**ولا تجد جداول الأرض**] وهي الأنهار الصغار جمع جدول [**ذريعة**] أي: وصلة ووسيلة [**إلى بلوغها**] واستعار لفظ الوجدان والذريعة للجداول كناية عن إلحاقها بالإنسان العديم الوسيلة إلى مطلوبه [**حتّى أنشأ لها ناشئة سحاب**] وهو ما يبتدي ظهوره [**تحي مواتها**] والموات بفتح الميم: القفر من الأرض.

[**وتستخرج نباتها ألّف غمامها بعد تفرّق لمعه**] جمع لمعه وهي القطعة من السحاب وغيره.

[**وتباين قزعه**] جمع قزعة وهي القطعة الرقيقة من السحاب [**حتّى إذا ما تمخّضت**] أي تحرّكت بقوّة من تمخّض الولد تحرّك في بطن الحامل [**لجّة المزن**] جمع مزنة [**فيه**] الضمير للمزن أي: تحرّكت لجة المزن في المزن نفسه أي: تحرّك من السحاب وسطه ـــــ.

[**والتمع**] أي: أضاء [**برقه في كففه**] جمع كفة والكفة كالدارة تكون في السحاب وعن الأصمعي كلّما استطال فهو كفّة بالضم نحو كفة الثوب أي حاشيته وكفة الرمل والجمع كفاف وكلّما استدار فهو كفّه بالكسر نحو كفّة الميزان وكفّة الصائد وهي حبالته والجمع كفف.

ولم ينم وميضه في كنهور ربابه ومتراكم سحابه أرسله سحباً متداركاً قد أسفّ هيدبه تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه

[ولم ينم وميضه] أي: لم يفتر ولم ينقطع ضيائه ولمعانه استعار النوم له **[في كنهور]** هو العظيم من السحاب **[ربابه]** والرباب الغمام الأبيض وقيل إنّه السحاب الذي تراه كأنّه دون السحاب وقد يكون أبيض وقد يكون أسود وهو جمع واحده ربابة.

[ومتراكم سحابه] المتراكم الذي ركب بعضه بعضاً والميم بدل الباء **[أرسله سحباً متداركاً]** يلحق بعضه بعضاً من غير انقطاع **[قد أسفّ]** أي دنى من الأرض **[هيدبه]** ما تهدّب منه أي: تدلّى كما يتدلّ هدب العين على أشفارها **[تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه]** وفي رواية تمري الجنوب، أي: تحلب وتستدر وتمر به الجنوب أي: تستخرج مائه على أن تعدّى الفعل إلى المفعولين، كما تقول حلبت الناقة لبناً والدرر جمع درّة، وهي كثرة اللبن وسيلانه وصبّه.

والأهاضيب: جمع هضاب والهضاب جمع هضب وهي حلبات القطر بعد القطر والدفع جمع دفعة بالضمّ وهي كالدفعة من المطر بالضمّ أيضاً.

والشآبيب جمع شؤبوب وهو رشقة قوية من المطر تنزل دفعة استعار عليه السلام لفظ الهدب لقطرات المطر المتصلة لشبهها بالخيوط المتدلّية واستعار لفظ الدرر، والأهاضيب وهي الحلبات للغمام كناية عن إلحاقها بالناقة وأسند المري إلى الجنوب مجازاً، أو لأنّ لها سببيّة ما في نزول الغيث وخصّ الجنوب لأنّها في أكثر البلاد حارّة رطبة، وحرارتها لمجيئها من الجهة

فلمّا ألقت السحاب برك بوانيها وبعاع ما استقلّ به من العبء المحمول عليها أخرج به هوامد النبات ومن زعر الجبال الأعشاب فهي تبهج بزينة رياضها وتزدهي بما ألبسته من ربط أزاهيرها وحلية ما سمطت به من ناظر أنوارها

ـــــــ بمقاربة الشمس ورطوبتها لأنّ البحار أكثرها ـــــــ والشمس تفعل فيها بقوّة وتبخّر عنها أبخرة تخالط الرياح وحينئذ تكون أكثر استصحاباً للأبخرة، ولذا يكون السحاب أكثر انعقاداً معها والمطر منها أكثر لحرارتها المفتّحة للمسام ولرطوبتها المرخية.

[**فلمّا ألقت السحاب برك**] أي: مصدر [**بوانيها**] تشبّه بوان على وزن فعال بكسر الفاء وهو عمود الخيمة، والجمع بون وروي بوانيها أي: لواصقها من قوس بانيه إذا التصقت بالوتر.

[**وبعاع ما استقلّ به من العبء المحمول عليها**] بعاع السحاب ثقلها بالمطر والعباب المثقل والعبء الثقل واستقلّت ارتفعت ونهضت [**أخرج به هوامد النبات**] الأرض التي لا نبات بها.

[**ومن زعر الجبال الأعشاب**] الزعر جمع أزعر والمراد به قلّة العشب [**فهي تبهج**] أي تسرّ وتفرح [**بزينة رياضها**] ومن رؤاه يبهج بضمّ الهاء أراد يحسن ويملح من البهجة كما قال تعالى: ﴿من كلّ زوج بهيج﴾.

[**وتزدهي**] أي تتكبر [**بما ألبسته من ربط أزاهيرها**] والربط جمع ربطة وهي الملائة غير ذات لغتين والأزاهير النور ذو الألوان.

[**وحلية ما سمطت به من ناظر أنوارها**] سمطت به علق عليها السموط جمع سمط وهو العقد وروي شمطت بالشين المعجمة أراد ما خالط سواد

وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام وخرق الفجاج في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها فلمّا مهّد أ رضه

الرياض من النور الأبيض كالاقحوان ونحوه فصار كالشعر الأشمط والناظر ذو النظارة أي الحس والطراوة استعار ﷺ لفظ البرك والبواني للسحاب وأسند إليه الالقا كناية عن إلحاحه بالجمل الذي أثقله الحمل فرمى بصدره إلى الأرض ونسب الابتهاج والازدهار واللّبس إلى الأرض ذات الأزاهير مجازاً ملاحظة تشبيهها بالمرأة المتحجّبة بما عليها من فاخر الملبوس وجميل الثياب.

ثمّ أشار ﷺ إلى غايته وفائدته بقوله [**وجعل ذلك بلاغاً**] أي: كفاية [**للأنام ورزقاً للأنعام**] قال اللّه تعالى ﴿أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فتخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا تبصرون﴾.

ثمّ شرع ﷺ في تمجيد اللّه تعالى باعتبار وضع الفجاج والطرق في نواحي الأرض فقال: [**وخرق الفجاج**] أي: الطرق الواسعة [**في آفاقها**] أي: نواحيها إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وجعل لكم فجاجاً سبلاً لعلكم تهتدون﴾.

[**وأقام المنار**] أي: الأعلام [**للسالكين على جواد**] جمع جادة [**طرقها**] ولعلّه أراد بالمنار النجوم التي يهتدي بها كما قال: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ والجبال.

ثمّ شرع ﷺ في تمجيد اللّه تعالى باعتبار خلقه لآدم واختيار وإتمام نعمته عليه وسائر أحواله فقال:

[**فلمّا مهّد أرضه**] أي: جعلها مهاداً، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ألم

وأنفذ أمره اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه وجعله أوّل جبلته وبديع فطرته وأسكنه جنّته وأرغد فيها أكله وأوعز إليه فيما نهاه عنه

نجعل الأرض مهاداً﴾ او جعلها مهداً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل لكم الأرض مهداً﴾.

والأوّل إشارة إلى تسويتها وإصلاحها بحيث يسهل على العباد التصرّف فيها بالقيام والقعود والزراعة وسائر المنافع.

والثاني على استعارة مهد الصبي لها ووجه الشبه كونهما محل الراحة والنوم.

[**وأنفذ أمره**] على إيجاد مخلوقاته وإتمامها.

[**اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه**] نصب على الحال أو المصدر إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ اللّه اصطفى آدم﴾ وقوله: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾.

[**وجعله أوّل جبلته**] الجبلة الخلق ومنه قوله تعالى: ﴿واتّقوا اللّه الذي خلقكم والجبلة الأوّلين﴾ وتجوز الجبلة بالضمّ وقُرىء بها وفيه إشارة إلى أنّ آدم أوّل شخص كان في الوجود من نوع الإنسان.

[**وبديع فطرته وأسكنه جنّته وأرغد فيها أكله**] أي: جعل مأكوله رغداً واسعاً طيّباً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

[**وأوعز**] أي: تقدّم [**إليه**] بالإنذار [**فيما نهاه عنه**] من وعّز بالتشديد توعيزاً وبالتخفيف وعز وعزاً.

وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التعرّض لمعصيته والمخاطرة بمنزلته فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله

[وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التعرّض لمعصيته والمخاطرة بمنزلته] حيث قال: ﴿فتكونا من الظالمين﴾.

[فأقدم على ما نهاه عنه] قال تعالى: ﴿فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه﴾.

[موافاة لسابق علمه] قال ابن أبي الحديد: لا يجوز أن ينتصب لأنّه مفعول له، وذلك لأنّ المفعول له يكون رغداً وعلّة للفعل، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلهي السابق، بل يجب أن ينتصب موافاة على المصدرية المختصّة، كأنّه قال: فوافى بالمعصية موافاة وطابق بها سابق العلم مطابقة.

[فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله] وكلامه عليه السلام صريح في أنّ هبوطه بعد التوبة وهو ظاهر القرآن كما قال تعالى: ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ فأخبر عن أنّه تعالى أهبطهم بعد تلقّي الكلمات والتوبة وقال تعالى في مقام آخر ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوّ مبين قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿وعصى آدم ربّه فغوى ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً﴾ فجعل الإهباط بعد الإجتباء والتوبة

وليقيم الحجّة على عباده ولم يخلّهم بعد أن قبضه ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته ويصل بينهم وبين معرفته

وذهب جمع إلى انّ التوبة في الأرض بعد الهبوط لقوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾.

فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب إزلال الشيطان لهما ثمّ عقّب الهبوط بفاء التعقيب في قوله ﴿فتلقّى﴾.

وفيه أنّه تعالى لم يقل فقلنا اهبطوا بالفاء بل قال وقلنا اهبطوا والوا لا تقتضي الترتيب وقوله:

[**وليقيم الحجّة على عباده**] أي: إذا كان أبوهم أُخرج من الجنّة بخطيئته فبالأولى والأحرى أن لا يدخلها ذو خطايا جمّة، والمراد بإقامة الحجّة به بيان مصالحهم وما كلّفوا به والمراد بعباده حينئذ انّ أولاده الموجودون في زمانه والمنقول أنّه مات عن أربعين ولداً أو من بلغته شريعته وسنّته منهم بعد وفاته والمنقول أنّ اللّه أنزل عليه من الأحكام تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعم في أحد وعشرين ورقة وهو أوّل كتاب كتب في الدنيا أجرى اللّه عليه الألسنة كلّها.

[**ولم يخلّهم بعد أن قبضه**] إليه [**ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته ويصل بينهم وبين معرفته**] لما ثبت بالبراهين القطعيّة العقليّة والنقليّة أنّ الأرض لا تخلو من حجّة إمّا ظاهر مشهور أو مستتر مغمور وإلاّ لساخت الأرض بأهلها.

بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتّى تمّت بنبيّنا محمد صلّى اللّه عليه وآله حجّته وبلغ المقطع أعذره ونذره وقدّر الأرزاق فكثّرها وقلّلها وقسّمها على الضيق والسعة فعدّل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها

[**بل تعاهدهم بالحجج**] أي: جدّد العهد عندهم بها ويروى بل تعهّدهم بالتشديد والتعهّد التحفّظ [**على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قرناً فقرناً**] بفتح القاف وهو أهل الزمان الواحد [**حتّى تمّت بنبيّنا محمد صلّى اللّه عليه وآله حجّته**] أي: لم يزل يبعث الأنبياء واحداً بعد واحد حتّى بعث محمّداً ﷺ فتمّت به حجّته على الخلق أجمعين.

[**وبلغ المقطع أعذره ونذره**] اي إعذاره إلى الخلق وإنذاره لهم بلغ الغاية، ومقطع كلّ شيء غايته أي: لم يبق بعده رسول ينتظر وانتهت عذر اللّه ونذره فعذره ما بيّن للمكلّفين من الإعذار في عقوبته لهم إن عصوه ونذره ما أنذرهم من الحوادث ومن أنذرهم على لسانه من الرسل.

[**وقدّر الأرزاق**] وقسّمها وأعطى كلّ مخلوق ما كُتب له في اللّوح المحفوظ منها [**فكثّرها وقلّلها وقسّمها على الضيق والسعة**] على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما قال: «وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقه ولو أغنيته لفسد وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلاّ الغني ولو أفقرته لفسد».

[**فعدّل فيها**] بالتشديد من التعديل وهو التقويم وبالتخفيف من العدل نقيض الظلم [**ليبتلي من أراد**] ابتلائه وامتحانه بأن يعامله معاملة المختبر [**بميسورها ومعسورها**] وفي معناه قول النبي ﷺ: «إنّ أعطاء هذا المال فتنة وإمساكه فتنة».

وليختبر بذلك الشكر والصبر عن غنيّها وفقيرها ثمّ قرن بسعتها عقابيل فاقتها بسلامتها طوارق آفاتها بفرح أفراحها غصص أتراحها

[وليختبر بذلك] أي: يعامل معاملة المختبر وإلاّ فحقيقة الاختبار ممتنعة عليه إذ هو عالم بالأشياء قبل وجودها.

[الشكر والصبر عن غنيّها وفقيرها] لفّ ونشر مرتّب أي: الشكر عن غنيها والصبر من فقيرها أو الشكر والصبر من كلّ منهما.

أمّا الشكر فمعلوم وجوبه على الغني والفقير.

وأمّا الصبر فمن الفقير واضح، ومن الغني من حيث أنّ الصبر على العوافي أشدّ من الصبر على الفاقة، فإنّ النفس مع غناها وقدرتها على الشهوات تسترسل فلابدّ من صبر يمنعها من التعدّي ووضع الأشياء في محلّها وعدم تجاوز الحدّ والإسراف.

[ثمّ قرن بسعتها عقابيل فاقتها] فنغّص سعة الغني بلواحق الفقر والفاقة، فبينما الإنسان في ملكه أصبح محتاجاً إلى الفلس وعقابيل المرض والفقر بقاياه وهي في الأصل ورح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض.

والفاقة: الفقر، وقرن **[بسلامتها]** في النعم **[طوارق آفاتها]** من غرق أو حرق أو غصب ظالم أو غلب غاشم وطوارق الآفات ما تجدّد من المصائب، وأصل الطروق ما يأتي ليلاً وقرن **[بفرح أفراحها غصص أتراحها]** والأتراح: الغموم، الواحد ترح وترحة أي: حزنة.

ثمّ أشار عليه السلام بالابتلاء بالآجال والموت والحياة كما قال تعالى ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾ فقال:

وخلق الآجال فأطالها وقصّرها وقدّمها وأخّرها ووصل بالموت أسبابها وجعله خالجاً لأشطانها قاطعاً لمرائر أقرانها

[**وخلق الآجال فأطالها**] لقوم [**وقصّرها**] على آخرين [**وقدّمها وأخّرها ووصل بالموت أسبابها وجعله خالجاً**] أي: جاذباً [**لأشطانها**] أي: حبالها [**قاطعاً لمرائر أقرانها**] أي حبالها ومرائر القرائن جمع مرير، وهو ما لطف وطال منها واشتدّ فتله.

قيل: لمّا كان الأجل عبارة عن وقت ضرورة الموت وكانت أسباب حلول تلك الأوقات هي بعض الأمراض والقتل مثلاً لا جرم صدق أنّ الموت الذي هو عبارة عن مفارقة الأرواح لأجسادها متّصلاً بتلك الأسباب.

واستعار لفظ الخلج وهو الجذب للموت ورشح بذكر الأشطان ووجه الشبّه ما يستلزمه الموت من قرب الأجل كما يستلزمه الجاذب من قرب المجذوب إليه، فقدّر الموت جاذباً للأجل بالحبال كما يجذب بها الإنسان ما يريد واستعار المرائر لأسباب العلاقة بين الناس وظاهر كون الموت قاطعاً لتلك المرائر.

ثمّ شرع عليه السلام في تمجيده تعالى باعتبار كونه عالماً بالأشياء جزئيّاتها وكلّياتها، ويعجبني كلام ابن أبي الحديد في المقام قال بعد قوله عليه السلام عالم السر... إلى قوله: عن كنه ما هو أهله، لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قال علي بن العباس لإسماعيل بلبل شعراً

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلاّ ولكن لعمري منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذوي شرف كما علا برسول الله عدنان

عالم السرّ من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان بل كان تقرّ به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن ويقول إنّه لم يعف ما شيّدت من معالم التوحيد بل أخرج اللّه تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهليّة العرب مالم تبتدعه أنت في جاهليّة النبط، بل لو سمع هذا الكلام ارسطاطاليس القائل بأنّه تعالى لا يعلم الجزئيات لخشع قلبه وقف شعره واضطرب فكره. ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة والعظمة والقحامة والمتانة والجزالة مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللّطف والسلاسة لا أرى كلاماً يشبه هذا إلّا أن يكون كلام الخالق سبحانه. فإنّ هذا الكلام بنعته من تلك الشجرة وجدول من ذلك البحر وجذوة من تلك النار وكأنّه شرح قوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين﴾ إنتهى.

قال عليه السلام: **[عالم السرّ من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين]** النجوى المسارّة يقال انتجى القوم وتناجوا أي: تسارّوا والمخافتين الذين يسرّون المنطق وهي المخافتة والتخافت والخفت.

[وخواطر رجم الظنون] أي: القول بالظن، قال تعالى: ﴿رجماً بالغيب﴾.

ومنه الحديث المرجّم بالتشديد وهو الذي لا يعلم أحقٌّ هو أم باطل.

واستعار الرجم الذي هو الرمي بالحجر باعتبار الرمي بالظنّ كما يرمى

وعقد عزمات اليقين ومسارق إيماض الجفون وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب وما أصفت لاستراقه مصائخ الأسماع

بالحجر ونحوه وخصّ الظنّ بذلك دون العلم لأنّه كثيراً ما يكون الظن غير مطابق للواقع فكان أشبه الأشياء برمي الحجر المستلزم للأذى.

[**وعقد عزمات اليقين**] العزائم التي يعقد القلب عليها وتطمئن النفس إليها والمراد ما انعقد في النفس من العزائم الصادرة عن يقين.

[**ومسارق إيماض الجفون**] أي: ما تسترقه الأبصار حين تومض يقال: أومض البرق والبصر إيماضاً إذا لمع لمعاً خفيفاً شبّه ﷺ شعاع البصر بالبرق في وميضه واختفائه عند فتح الجفون وطبقها واستعار الوميض لبروزه والمسارق لمخارجه.

[**وما ضمنته أكنان القلوب**] أي: غلفها، والكن: السترة، والجمع أكنان، قال تعالى: ﴿جعل لكم من الجبال أكناناً﴾ ويروى أكنّة القلوب وهي الأغطية أيضاً قال تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنّة﴾ والواحدة كنان وعنى بذلك الضمائر المستكنة في القلب واستعار لفظ الأكنان للقلوب بالنسبة إلى ما أخفته من الأسرار.

[**وغيابات الغيوب**] والغيوب جمع غيابة وهي في الأصل قعر البئر ومنه ﴿غيابة الجب﴾ ثمّ نقلت إلى كلّ غامض خفي، استعار الغيابات للغيوب ووجه الشبه كون القلوب حافظة كالبيوت وكون الظلمات مانعة من إدراك البصر كما تمنع الغيوب إدراك ما فيها.

[**وما أصفت**] أي: تسمعت ومالت [**لاستراقه**] أي: لاستماعه في خفية [**مصائخ الأسماع**] أي: خروقها التي يصيخ بها أي: يتسمّع.

ومصائف الذرّ ومشاتي الهوام ورجع الحنين من المولهات وهمس الأقدام ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها ومختبئ البعوض من

[**ومصائف الذرّ**] المواضع التي يصيّف الذرّ فيها أي: يقيم الصيف يقال صاف بالمكان واصطاف، والذر جمع ذرّة وهي أصغر النمل.

[**ومشاتي الهوام**] المواضع التي تشتي فيها، يقال: شتوت بموضع كذا وتشتيت أي: أقمت الشتاء به، والهوام جمع هامة وهو الخوف من الأحناش والمراد بيوتها الصيفية والشتوية من بطن الأرض الواقية لها حرّ الصيف وبرد الشتاء.

[**ورجع الحنين**] ترجيعه وترديده [**من المولهات**] وهي النوق أو النساء التي جعل بينهنّ وبين أولادهنّ.

[**وهمس الأقدام**] أي: صوت وطئها خفياً جداً قال تعالى: ﴿فلا تسمع إلّا همساً﴾ والأسد الهموس الخفي الوطء.

[**ومنفسح الثمرة**] أي: موضع سعتها من الأكمام، وفي نسخة متفسّخ بالخاء المعجمة وتشديد السين وتاء بعد الميم من تفسّخت الثمرة إذا انقطعت [**من ولائج غلف الأكمام**] الولائج المواضع الساترة واحدها وليجة وهو كالكهف تستر فيها المارّة من مطر أو غيره وحسنت الإضافة هنا لأنّ كلّ كم غلاف ولا ينعكس فجاز تخصيص العام بالإضافة إلى بعض جزئياته.

[**ومنقمع الوحوش**] موضع تقمّصها واستتارها [**من غيران الجبال**] جمع غار وهو كالكهف في الجبال والمغار والمغارة مثل الغار.

[**وأوديتها ومختبئ البعوض**] أي: موضع اختبائها واستتارها [**من**

سُوق الأشجار وألحيتها ومغرز الأوراق من الأفنان ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب وناشئة الغيوم ومتلاحمها ودُرور قطر السحاب ومتراكمها وما تسفي الأعاصير بذيولها

سُوق] جمع ساق [**الأشجار وألحيتها**] جمع لحاء وهو القشر.

[**ومغرز الأوراق**] موضع غرزها فيها [**من الأفنان**] جمع فنن وهو الغصن.

[**ومحطّ الأمشاج**] ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها جمع مشيج كيتيم وأيتام ومنه قوله تعالى: ﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ ومحطّها مصدر أو مكان [**من مسارب الأصلاب**] أي: المواضع التي يتسرّب المني فيها من الصلب أي: يسيل والأخلاط التي يتولّد عنها.

[**وناشئة الغيوم**] أوّل ما ينشأ منها.

[**ومتلاحمها**] ما يلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم.

[**ودُرور قطر السحاب**] درور مصدر درّ يدرّ أي: سال، وناقة درور: كثيرة اللّبن، وسحاب درور: كثير المطر.

[**ومتراكمها**] أي: المجتمع المتكاثف منها من ركمت الشيء أركمه بالضمّ جمعته وألقيت بعضه على بعض ورمل ركام وسحاب ركام أي: مجتمع.

[**وما تسفي الأعاصير**] جمع إعصار وهي ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كالعمود، قال تعالى: ﴿فأصابها إعصار فيه نار﴾ وتسفي من سفت الريح التراب سفياً إذا أذرته فهو سفي [**بذيولها**] أي: بأطرافها، استعار الذيول لما أخذ الأرض منها.

تعفو الأمطار بسيولها وعوم نبات الأرض كثبان الرمال ومستقر ذوات الأجنحة بِذُرى شناخيب الجبال وتغريد ذوات المنطق في دياجير والأوكار وما أودعته الأصداف وحصنت عليه أمواج البحار

وما **[تعفو الأمطار]** أي: تدرسُ، يقال: عفت الريح المنزل، أي: درسته **[بسيولها وعوم]** أي: سير وسح **[نبات الأرض]** بتقديم النون على الباء وروي العكس أي: الهوام والحشرات التي تكون في **[كثبان الرمال]** جمع كثيب، وهو ما انصبّ من الرمل واجتمع في مكان فصار تلاً وكثبت الشيء أكثبه كثباً إذا جمعته.

استعار لفظ العوم لدخول عروق النبات في نواحي الأرض بملاحظة شبهها بالماء وعلى تقدير الرواية الثانية فالمراد الهوام التي تنشأ في الرمل وتغوص فيه وتسير كالحلكلة وهي دويبّة كالعطاة دون الشبر صفراء ملساء وكنوعٍ من الحيّات وغيرها.

[ومستقر ذوات الأجنحة] وهي الطيور **[بِذُرى شناخيب الجبال]** أي: رؤسها واحدها شنخوب وذراها أعاليها جمع ذروة.

[وتغريد] أي: أصوات **[ذوات المنطق]** أي: الطيور كما في قوله: «عُلِّمنا منطق الطير» **[في دياجير]** جمع ديجور وهو الظلام.

[والأوكار] جمع وكر وهو عشّ الطائر ويجمع أيضاً على وكور ووكر الطائر يكر وكراً أي دخل وكره، استعار المنطق للطير ووجه الشبه أنّ مدل تغريدهما معلوم للّه ولأوليائه فأشبه المنطق المفيد من الإنسان.

[وما أودعته الأصداف] من اللؤلؤ.

[وحصنت عليه] أي: ضمنته **[أمواج البحار]** كما تحضن الانثى من

وما غشيته سدفة ليل أو ذرّ عليه شارق نهار وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور وأثر كلّ خطوة وحسّ كلّ حركة ورجع كلّ شفة ورجع كلّ كلمة ومستقرّ كلّ نسمة ومثقال كلّ ذرّة

الطير بيضها وهي ما يكون في اللجّة امّا من سمك أو خشب أو ما يحتمله البحر من العنبر كالجماجم بين الأمواج، استعار الحصن للأمواج وملاحظة لشبهها بالحواضن في انطباقها على البيض والفراخ.

[**وما غشيته**] أي: غطّته [**سدفة ليل**] أي: ظلمته وقيل السدفة اختلاط الضوء والظلمة [**أو ذرّ عليه شارق نهار**] أي: ما طلعت عليه الشمس، يقال: ذرت الشمس تذر بالضم ذرواً أي: طلعت وذر البقل إذا طلع من الأرض.

[**وما اعتقبت**] أي: تعاقبت [**عليه أطباق الدياجير**] جمع ديجور، أي: مظلم، أي: أطباق الظلم، جمع طبق أي: أعظيتها.

[**وسبحات النور**] عطف على الدياجير، أي يعلم ما تعاقب عليه الظلام والضياء وسبحات النور ما تنزّه منه عن كدر الظلمة ولفظ النور مستعار لمعارف جلال اللّه.

[**وأثر كلّ خطوة**] بالضمّ ما بين القدمين وبالفتح مصدر خطوات.

[**وحسّ كلّ حركة ورجع كلّ شفة ورجع كلّ كلمة**] ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك.

[**ومستقرّ كلّ نسمة**] والنسمة الإنسان نفسه وجمعه نسم.

[**ومثقال كلّ ذرّة**] أي: وزنها، والمثقال وزن كلّ شيء قال تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يظلم مثقال ذرّة﴾ وعدّ من الخطأ قول العامّة للدينار مثقال.

وهماهم وما عليها من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة أو نقاعة دم ومضغة أو ناشئة خلق وسلالة لم تلحقه سبحانه في ذلك كلفة ولا اعترضته في حفظ ما ابتداع من خلقه عارضة ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة

[**وهماهم**] جمع همهمة وهي ترديد الصوت في الصدر وهمهمت المرأة في رأس الصبي إذا نوّمته بصوت تردفه له والنفس الهامّة ذات الهمّة التي تعزم على الأمر.

[**وما عليها**] أي: على الأرض وإن لم يسبق لها ذكر اعتماداً على فهم المخاطب، كما قال: ﴿كلّ من عليها فان﴾ أي يعلم ما على الأرض [**من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة**] أي: ما يستقرّ فيه الماء من الأماكن والنطفة الماء نفسه كما مرّ من قوله عليه السلام في الخوارج: «إنّ مصارعهم لدون النطفة» أي لا يعبرون النهر، ويجوز إرادة المني بقرينة ما بعده وقرارة النطفة حينئذ مستقرّها من الأرحام [**أو نقاعة دم**] والنقاعة نقرة يجتمع فيها الدم ومثله الانقوعة وهو استعارة لمحلّ دم الحيض.

[**ومضغة**] والمضغة قطعة اللحم واستعير هنا للولد في بعض أطوار خلقته [**أو ناشئة خلق**] أي: أوّل ما ينشؤ من الخلق.

[**وسلالة**] وهي في الأصل ما انسلّ من الشيء وسمّيت النطفة سلالة الإنسان لأنّها انسلّت منه [**لم تلحقه سبحانه**] وتعالى [**في ذلك**] المذكور [**كلفة**] أي: مشقّة.

[**ولا اعترضته في حفظ ما ابتداع من خلقه عارضة ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة**] لأنّ الكلفة والملالة والفترة

بل نفذهم علمه وأحصاهم عدّه ووسعهم عدله وغمرهم بفضله مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله اللّهمّ أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير

ونحوها من الحوادث التي ينزّه الواجب عنها ثمّ أثبت صفاتاً كاملة أربعة مقابل ما نفاه من صفات النقص، فقال:

[**بل نفذهم علمه**] مقابل لما نفاه من لحوق الكلفة في علمه بهم.

[**وأحصاهم عدّه**] مقابل لاعتراض العارضة في حفظ خلقه.

[**ووسعهم عدله**] مقابل نفي اعتوار الملالة له في تنفيذ أُموره وتدبير مخلوقاته إذ كان معنى عدله فيهم وصفه لكلّ موجود في مرتبته وهبته ما يستحقّه من زيادة ونقصان مضبوطاً بنظام الحكمة واعتراض الملالة سبب لاختلال نظام الفعل.

وقوله: [**وغمرهم بفضله**] مقابل لنفي الفترة فإنّ فتور الفاعل عن الفعل مانع له عن تتمّة فعله.

وقوله: [**مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله**] تنبيه على حقارة عبادتهم في جنب عظمته واستحقاقه لما هو أهله ليدوم شكرهم وثنائهم ولا يستكثروا شيئاً من طاعاتهم كما قال ﷺ: «وما قدر لساني في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك.

ثمّ شرع في تمجيده تعالى خطاباً له ودعاءً وطلباً لجزاء ما سبق من ثنائه فقال:

[**اللّهمّ أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير**] لا تحصى نعمائك ولا تعدّ آلائك، وفيه إشارة إلى أنّه تعالى بحسب استحقاقه الوصف بأشرف

إن تؤمّل فخير مأمول وإن تُرجَ فأكرم مرجو، اللهمّ وقد بسطت لي ما لا أمدح به غيرك ولا أُثني به على أحد سواك ولا أُوجِّهه زلى معادن الخيبة ومواضع الريبة وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين والثناء على المربوبين المخلوقين اللّهمّ ولكلّ مثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء

طرفي النقيض كان أهل الوصف الجميل وباعتبار تعدّد ثنائه وحمده بالنظر إلى كلّ جزئي من جزئيات نعمه هو أهل التعداد الكثير.

[**إن تؤمّل فخير مأمول**] خبر مبتدأ محذوف أي فأنت خير مأمول.

[**وإن تُرجَ فأكرم**] أي: فأنت أكرم [**مرجو، اللهمّ وقد بسطت لي ما لا أمدح به غيرك ولا أُثني به على أحد سواك**] إشارة إلى إذنه تعالى له وشكره والثناء عليه بالأوصاف الجميله التي لا يستحقّها حقيقةً إلاّ هو ولا ينبغي أن يطلق إلاّ له ومعنى بسطت لي: آتيتني لساناً وفصاحةً وسعة منطق فلا أمدح بها غيرك ولا أحمد بها سواك.

[**ولا أُوجِّهه زلى معادن الخيبة**] استعارة للبشر، لأنّ مادحهم ومؤمّلهم يخيب غالباً فكما أنّ معدن الشيء مظنّة المطلوب منه فالخلق مظانّ خيبة الطالب من أيديهم وحرمانه.

وكذا قوله: [**ومواضع الريبة**] لأنّهم لا يوثق بهم في حال ولا يطمئن إليهم في مال، أي: مواضع الشكّ في عطائهم ومنعهم ولذا فسّره بقوله:

[**وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين والثناء على المربوبين المخلوقين**] إليك يا ربّ العالمين ورازقاً للخلق أجمعين ومالك يوم الدين.

[**اللّهمّ ولكلّ مثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء**] وهو

وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة اللّهمّ وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك ولم يرَ مستحقّاً لهذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقة إليك لا يجبر مسكنتها إلاّ فضلك ولا ينعش من خلّتها إلاّ منّك وجودُكَ فهب لي في هذا المقام رضاك، وأغنني عن مدّ الأيدي إلى سواك ﴿إنّك على كلّ شيء قدير﴾

في هذا المقام قد أوجبه اللّه على نفسه تفضّلاً منه كما قال: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ وإلاّ فمقتضى العدل أن لا يستحقّ شيئاً من ربّه لأنّ الأعضاء والجوارح والآلات والتوفيق كلّها منه تعالى بل هذه أيضاً نعم عليه يجب شكرها وهكذا.

[**وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة**] دليلاً نصب على الحال أو المفعول والمراد أنّه راج منه تعالى أن يدلّه على الأعمال التي ترضيه ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة فكأنّه جعل تلك الأعمال التي يرجو أن يدلّه عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً، والذخيرة والكنوز مستعارة لجوده.

[**اللّهمّ وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك**] لا يسوغ لأحد سواك [**ولم يرَ مستحقّاً لهذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقة**] أي فقر وحاجة [**إليك لا يجبر مسكنتها إلاّ فضلك ولا ينعش**] بالفتح أي: يرفع والماضي نعش ومنه النعش لارتفاعه [**من خلّتها إلاّ منّك وجودُكَ**] والمنّ العطاء والنعمة والمنّان من أسمائه الحسنى.

[**فهب لي في هذا المقام رضاك، وأغنني عن مدّ الأيدي إلى سواك ﴿إنّك على كلّ شيء قدير﴾**].

لمّا أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول

ومن كلام له عليه السلام

[**لمّا أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان**] قيل حاصل هذا الفصل أنّه لابدّ لكلّ من مطلوب على أمر من تضرر فيه وتمنع، والحكمة في ذلك أنّ الطالب له يكون بذلك أرغب فيما يطلب، فإنّ الطبع حريص على ما منع سريع النفرة عمّا سورع إلى إجابته فيه، فأراد عليه السلام التمنّع عليهم لتقوى رغبتهم إليه، فإنّه لم يصل إليه هذا الأمر إلاّ بعد اضطراب في الدين بقتل عثمان، فاحتاج في تقويم الخلق وردّهم إلى قواعد الحق إلى أن يزدادوا فيه رغبةً بهذا الكلام ونحوه فقال:

[**دعوني والتمسوا غيري**] للإمارة، الا ترى أنّه عليه السلام نبّههم بعد هذا التمنّع على أنّ هـهنا أُموراً صعبة مختلفة يريد أن ينكرها عليهم ويقاوم ببعضهم فيها بعضاً ويحملهم على الصلاح فجعل استقباله لتلك الأُمور الصعبة علّة لاستقالته من هذا الأمر، فقال:

[**فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له**] أي لا تصبر عليه [**القلوب ولا تثبت عليه العقول**] بل تنكره وتأباه لمخالفته الشريعة ومضادّية نظام العالم. ولعلّه يعني به ما كان يعلمه من اختلاف الناس عليه بضروب من الشبهات الباطلة والاشتباهات العاطلة كتهمة معاوية وأهل البصرة له

إنّ الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكّرت واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت

بقتل عثمان وكتأويل الخوارج عليه الرضا بالحكم والتحكيم ونحو ذلك.

ولذا كنّى عنه بالوجوه والألوان كناية بالمستعار.

وقال ابن أبي الحديد: إنّهم طلبوا منه البيعة على أن يقسم عليهم بيوت الأموال قسمة أبي بكر وعمر فاستعفاهم وسئلهم أن يطلبوا غيره ممّن يسير بسيرتهما و ـــــ لهم كلاماً تحته رمز وهو قوله إنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان... إلخ.

قالوا: وهذا كلام له باطن وغور عميق معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم، وهو الإنذار بحرب المسلمين بعضهم لبعض واختلاف الكلمة وظهور الفتنة.

ومعنى قوله له وجوه وألوان: أنّه موضع شبهة وتأويل، فمن قائل يقول: أصاب علي، ومن قائل يقول: أخطأ، وكذلك القول في تصويب محاربيه من أهل الجمل وصفّين والنهروان وتخطيتهم فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعّبت وافترقت.

ومعنى قوله: [**إنّ الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكّرت**] استعارة لفظ الغيم لما غشى آفاق البلاد وأقطار القلوب المتغيّرة العازمة على الفساد من ظلمات الظلم والجهل. ووجه الشبه ما تستلزمه هذه الظلمات من توقّع نزول الشرور منها كما يتوقّع نزول المطر والصواعق من الغيم وأشار بالمحجّة إلى أنّ واضح طريق الشريعة وتنكّرها جهل الناس بها وعدم سلوكهم لها.

[**واعلموا أنّي إن أجبتكم**] إلى ما تريدون من البيعة والإمارة [**ركبت**

بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل منكم وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً

بكم ما أعلم] مما أنزل اللّه في كتابه المبين وأخبره به سيّد المرسلين من الحقّ الذي لا اختلاف فيه ولا ريبة تعتريه.

[**ولم أصغ إلى قول القائل منكم]** لم حكم بكذا وكيف قال كذا وفعل كذا.

[**وعتب العاتب]** عليه في أنّه لم يفضّله في العطاء أو نقصه حقّه في الجزاء لأنّ ذلك اعتراض على اللّه وعلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله ودخول تحت قوله تعالى: ﴿فلا وربّك لن يؤمنوا حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾.

[**وإن تركتموني]** وبايعتم غيري وأمّرتم سواي [**فأنا كأحدكم]** في الطاعة لأميركم.

[**ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم]** لقوّة علمه بوجوب طاعة الإمام وفي قوله «لعلّي» إشارة إلى أنّ ذلك يكون منه لو ولّوا من هو أهل للولاية فإنّ ولّوا من يحكم بغير ما أنزل اللّه ويبدّل أكام اللّه ولا يعرف الشريعة الغرّاء ولا يعلم الملّة الزهراء فلا.

[**وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً]** وزيراً وأميراً حالان والعامل ما تعلّق به الجار والمجرور وأراد بالوزير المعنى اللّغوي وهو المعين والظهير، وفي قوله «لكم» إشارة إلى أنّ ذلك صلاح دنياهم التي يطلبونها فإنّه إذا كان أميراً حملهم على الحقّ الصعب فإن أخذوا به شقّ على طباعهم كاقتحام الحروب

. . . .

والصبر على التسوية في العطاء بين الوضيع والدني والشريف والخسيس وإن خالفوه كفروا.

ولذا قال له بعض أصحابه: إنّ طاعتك ذلّ ومخالفتك كفر، وإذا كان وزيراً فحظّه الشور والرأي الصالح والمعاضدة، وقد يخالف في رأيه وقال ابن أبي الحديد في معنى الفقرة: فأنا لكم وزير عن رسول اللّه ﷺ أفتي فيكم بشريعته وأحكامه خير لكم منّي أميراً محجوراً عليه مُدبراً بتدبيركم، فإنّي أعلم أن لا قدرة لمن أراد أن يحكم فيكم أن يسير بسيرة رسول اللّه ﷺ في أصحابه مستقلاً بالتدبير لفساد أحوالكم وتعذّر صلاحكم قال وقد حمل بعضهم كلامه عليه السلام على محمل آخر فقال:

هذا كلام مستريب شاك من أصحابه يقول لهم دعوني والتمسوا غيري على طريق الضجر منهم والتبرّم بهم والسخط لأفعالهم لأنّهم كانوا عدلوا عنه من قبل واختاروا عليه غيره، فلمّا طلبوه بعد أجابهم جواب المتسّخط العاتب وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر فقالوا: إنّه أخرجه مخرج التهكّم والسخرية أي أنا لكم وزير خير مني لكم أميراً فيما يعتقدونه كما قوله تعالى: ﴿ذق إنّك أنت العزيز الكريم﴾ أي: تزعم لنفسك ذلك وتعتقده.

أميراً أمّا بعد أيّها الناس فقد فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري

ومن خطبة له عليه السلام

[أمّا بعد أيّها الناس فقد فقأت عين الفتنة] في القاموس: فقأ العين والسن ونحوها كمنع كسرها وقلبها أو نخعها وأشار بذلك إلى محاربته الناكثين والقاسطين والمارقين، حيث أقدم عليها وأطفأ نارها ﴿وكلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفئها﴾.

واستعار للفتنة لفظ العين وخصّها لأنّها أشرف الأعضاء وبها تصرّف الإنسان وحركته ورشح الاستعارة بذكر الفقأ مكنّياً به عن زوال فتنتهم بسيفه وإنّما قال:

[ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري] لما قاله ابن أبي الحديد: إنّ الناس كلّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة ولا يعلمون كيف يقاتلونهم هل يتبعون مولّيهم أم لا وهل يجهزون على جريحهم أم لا ويقسّمون فيهم أم لا وكانوا يستعظمون قتال من يؤذن كأذاننا ويصلّي كصلاتنا واستعظموا حرب عائشة وحرب طلحة والزبير لمكانهم في الإسلام ووقف جماعة عن الدخول في تلك الحرب كالأحنف بن قيس وغيره فلولا أنّه عليه السلام اجترى على سلّ السيف فيها ما أقدم أحد على ذلك. أقول ويدلّ على هذا كلامه في مقام آخر حيث قال: أمّا بعد فافقأت عين الفتنة شرقيها وغربيها وسانعتها ومارقها لم يكن ليجتري عليها غيري ولو لم أكن لما قوتل أصحاب الجمل

بعد أن ماج غيهبها واشتدّ كلبها فاسألوني قبل أن تفقدوني

ولا صفّين ولا أصحاب النهروان.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد فقأت عين أهل الفتنة ويكون كناية عن قتلهم.

وقوله: **[بعد أن ماج]** أي: اضطرب **[غيهبها]** أي: ظلمتها وهو كناية عن انتشار ظلمات الشبهات عن تلك الفتن في أذهان الناس وجهلهم أنّ خروج الناكثين حقّ أو باطل.

وقوله: **[واشتدّ كلبها]** أي شرّها وأذاها والكلب داء معروف ويقال للقحط الشديد كلب وكذا للقر الشديد وكنّى بذلك عن شدّة ما وقع فيها من الشرور وكلب أهلها وحرصهم على القتل والقتال كناية بالمستعار في الموضعين ثمّ قال عليه السلام:

[فاسألوني قبل أن تفقدوني] قال ابن أبي الحديد: روى صاحب كتاب الاستيعاب عن جماعة من الرواة والمحدّين أنّه لم يقل أحد من الصحابة سلوني إلاّ عليّ بن أبي طالب وروى شيخنا أبو جعفر الاسكافي عن ابن شبرمة قال: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلوني إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام، إنتهى.

وروي أنّ قتادة دخل الكوفة فالتفت عليه الناس فقال: سلوني عمّا شئتم، وكان أبو حنيفة حاضراً وهو إذن غلام حدث السن فقال: سلوه عن نملة سليمان أذكراً كانت أم أنثى، فسئلوه فانقطع فقال أبو حنيفة: كانت أنثى لقوله تعالى: ﴿إذ قالت نملة﴾ ولو كانت ذكراً لقال قال نملة، أقول وهذا خطأ أيضاً لأنّ النملة كالشاة والحمامة تقع على الذكر والأُنثى ونقل عن غير

فوالّذي نفسي بيده لا تسئلون عن شيء بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهتدي مائة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها مناخ ركابها ومحطّ رحالها ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً

واحد أنّه قال سلوني عمّا شئتم فقامت إليه إمرأة فقال كم عدد درج هذا المنبر الذي رقوته فخجل فقال أيّها المرأة إن كنت خرجت بغير إذن زوجك فعليك لعنة اللّه وإن خرجت بإذن زوجك فعليه لعنة اللّه، فقالت له أخبرني أيّها العالم عن أمّ المؤمنين حين خرجت تقاتل أميرالمؤمنين وجيوش المسلمين أكان ذلك بإذن من زوجها صلّى اللّه عليه وآله أم بغير إذن فألقم حجراً، ثمّ قال عليه السلام:

[**فوالّذي نفسي بيده لا تسئلون عن شيء بينكم وبين الساعة**] أي: القيامة.

[**ولا عن فئة**] أي: طائفة [**تهتدي مائة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها**] أي: الداعي إليها من نعق الراعي بغنمه وهو صوته من نعق ينعق بالكسر نعيقاً ونعاقاً، أي: صاح بها وزجرها.

[**وقائدها وسائقها مناخ ركابها**] والركاب الإبل واحدتها راحلة ولا واحد لها من لفظها وجمعها ركب ككتاب وكتب.

[**ومحطّ رحالها**] والمناخ بضمّ الميم والمحط مصدرين كالمردلو مكانين استعار أوصاف الإبل ولواحقها من الناعق والقائد والسائق والمناخ والركاب والرحال للفئة الهاربه والضلّة والمهدية والضالّة باعتبار انقيادهم لدعاتهم.

[**ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً**] وضمير أهلها يعود إلى الفتنة.

ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور وجواذب الخطوب لاطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين وذلك إذا قلّصت حربكم وشمّرت عن ساق

[**ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور**] أي: ما تكرهون منها.

[**وجواذب الخطوب**] من جذبه الأمر أي: أهمّه، أي ما يصيبهم من الأمور العظيمة المهمّة.

وقوله: [**لأطرق كثير من السائلين**] لحيرتهم في عواقب تلك الخطوب وما يكون منها وكيفية الخلاص.

[**وفشل كثير من المسؤولين**] أي: حينهم عن ردّ الجواب لجهلهم بعواقبها وما يُسئلون عنه منها.

[**وذلك**] إشارة إلى أطراق السائلين وفشل المسئولين [**إذا قلّصت**] بالتشديد وبالتخفيف [**حربكم**] وفي رواية عن حربكم وعن التشديد أي: نظمت واجتمعت لأنّه حينئذ يكون أشدّ لها وأصعب من أن تتفرّق في مواطن متباعدة والتخفيف أي: كثرت وعلى تقدير عن فالمعنى إذا قلّصت كرائه الأمور جواذب الخطوب عن حربكم أي انكشفت عنها والمضارع من قلص يقلص بالكسر.

[**وشمّرت عن ساق**] أي: كشفت عن شدّة ومشقّة استعار ﷺ لفظ التقمّص والتشمير ملاحظة لشبه الحرب بالجدّ في الأمر الساعي فيه وكما أنّه إذا أراد ان يتوجّه قلص ثيابه وشمّرها عن ساقه لئلاّ يعوقه وتهيّأ واجمع عليه كذلك الحرب في كونها مجتمعة على النزول بهم واللحوق لم والواو في قوله:

وكانت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون ايام البلاء عليكم حتّى يفتح اللّه لبقية الأبرار منكم إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات تحوم حوم الرياح يصبن بلداً ويخطئن بلداً إلاّ أنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أُمية فإنّها فتنة عمياء مظلمة عمّت خطّتها

[**وكانت الدنيا عليكم ضيقاً**] للعطف على شمّرت وجملة [**تستطيلون ايام البلاء عليكم**] حالية وذلك لأنّ أيام البؤس طويلة.

وقوله: [**حتّى يفتح اللّه لبقية الأبرار منكم**] أي الذين يسلمون من بني أميّة في دينهم وأعمارهم ويفتح اللّه لهم بهلاكهم وزوال دولتهم [**إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت**] أي: إنّ الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثها يلتبس أمرها ولا يعلم الحقّ منها بالباطل إلى أن تنقضي وتدبّر فحينئذ ينكشف حالها ويعلم ماكان مشتبهاً منها.

ثمّ أكّد عليه السلام هذا المعنى بقوله: [**ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات**] كفتنة الجمل والخوارج حيث كان كثير من الناس في مبدء الأمر متوقّفين لاشتباه الحال عليهم إلى أن انقضت الفتنة ووضعت الحروب أوزارها فبان الضلال من الهدى.

ثمّ وضعت الفتن بانها [**تحوم حوم الرياح**] أي: تدور من حام الطير وغيره حول الشيء يحوم حوماً وحوماناً أي: دار [**يصبن بلداً ويخطئن بلداً**] استعار للفتن لفظ الحوم ملاحظة لشبهها في دورانها ووقوعها من دعاة الضلال في بلد دون بلد بالطاير والريح ولذا ذكر الحوم والخطأ.

وقوله: [**إلاّ أنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أُمية فإنّها فتنة عمياء مظلمة عمّت خطّتها**] الناس كافّة من حيث كانت رئاسة شاملة لكلّ أحد.

وخصّت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأحاط البلاء من عمي عنها وأيمُ اللّه لتجدّن أُميّة لكم أرباب سوء بعدي

[وخصّت بليتها] بأهل البيت وشيعتهم فإنّ نصيبهم منها أوفر حتّى صاروا يقتلون كلّ من تسمّى باسم عليّ والحسن والحسين عليهم السلام وابتلى أهل الدين فيها بالقتل وأنواع الأذى ويكفي في عظم تلك الفتنة هتكهم حرمة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وقتل الحسين عليه السلام وذرّيته وهتك حرمة الإسلام بهدم الكعبة وحرقها، مضافاً إلى ما انتشر من البلاء وعمّ الناس كلّهم بتوليتهم للحجاج دماء المسلمين إلى غير ذلك من منكراتهم التي هي أشهر من الشمس وأبين من الأمس.

وأشار بكونها عمياء إلى ذلك، واستعار لفظ العمى لجريانها على غير قانون الحقّ كالأعمى المتصرّف في حركاتها في غير جادّة أو لكونها لا يسلك فيها سبيل الحقّ كما لا يهتدي بالعين العمياء وكذا لفظ المظلمة وقوله:

[وأصاب البلاء من أبصر فيها وأحاط البلاء من عمي عنها] أي: من علم كونها فتنة كان منها في بلاء مع نفسه بالحزن الطويل لمشاهدة المنكرات ومن شان أئمّة الضلال تتبع من أنكر أفعالهم بالقتل والإذلال فكان البلاء به أخصّ وأمّا من عمى عن كونها فتنة حتّى خبط معهم في ضلالهم أخطائه بلائهم ويحتمل أن يكون المعنى انّ العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذا لم ينكر ذلك والجاهل بذلك لا إثم عليه إذا لم ينههم عن المنكر لانّ من لا يعلم المنكر منكراً لا يلزمه إنكاره.

ثمّ أقسم عليه السلام بقوله:

[وأيمُ اللّه لتجدّن أُميّة لكم أرباب سوء بعدي] فإنّهم ساموهم سوء

كالناب الغروس تعذم بفيها وتزبنُ برجلها وتمنع درّها لا يزالون بكم حتّى لا يتركوا منكم إلاّ نافعاً لهم أو غير ضائر حتّى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه والصاحب من مستصحبه

العذاب قتلاً وصلباً وحبساً وتشريداً في البلاد، ثمّ شبّههم عليه السلام بالناقة المسنّة في قوله: [**كالناب الغروس**] والناب الناقة المسنّة والجمع نيّب والغروس السيّئة الخلق تعضّ حالبها.

ثمّ أشار عليه السلام إلى وجه الشبه بقوله [**تعذم بفيها**] والعذم: الأكل بخفاء وفرس عذوم يعضّ بأسنانه.

[**وتزبنُ**] أي: تدفع [**برجلها**] يقال زبنت الناقة عند الحلب أي: تدفع الحالب عنها.

[**وتمنع درّها**] أي: لبنها ومنه لا درور الأصل لبنه ثمّ قيل لكلّ خير وناقة درور كثيرة اللّبن إشارة إلى جميع حركاتهم المؤذية الردية من أذيّة الخلق وقتلهم ومنع رفدهم واستحقاقهم من بيت المال.

ثمّ أردف ذلك بذكر غايتين لحركاتهم الشرّية وبلائهم للناس بقوله: [**لا يزالون بكم**] قتلاً وإفناءً لكم [**حتّى لا يتركوا منكم إلاّ نافعاً لهم**] بقائه [**أو غير ضائر**] أي: من لا يضرّهم ولا ينفعهم [**حتّى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه والصاحب من مستصحبه**] أي: كما لا يمكن العبد أن ينتصر من سيّده والتابع المستصحب الذي من شانه الضعف وعدم الاستقلال بنفسه ممن يستصحبه كذلك لا يمكن هؤلاء أن ينتصروا من بني أميّة.

ترد عليكم فتنتهم شوهاء مَخشيَّة وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يُرى نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة

ويحتمل أن يريد هناك ما يشبه الانتصار من الغيبة ونحوها كما قال عليه السلام في موضع آخر: ويكون نصرة أحدكم كنصرة العبد من سيّده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه ثمّ أردف ذلك بذكر فتنتهم، فقال:

[**ترد عليكم فتنتهم شوهاء**] قبيحة الوجه وشاهت الوجوه تشوه شوهاً: قبحت [**مَخشيَّة**] أي: مخوّفة.

[**وقطعاً جاهلية**] شبّهها بقطع السحاب لتراكمها على الناس ولأنّها كقطع اللّيل المظلم فيه، إشارة إلى ورودها عليهم دفعات وجعلها جاهليّة، لأنّها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم ويروى شوهاء وقطعاء أي نكراء كالمقطوع اليد واستعار لفظ الشوهاء لقبحها عقلاً وشرعاً ووجه الشبه التنفّر عنها كما أنّ قبيحة المنظر كذلك ولكونها على غير قانون العدل كانت كأفعال الجاهليّة.

ولذا قال: [**ليس فيها منار هدى ولا علم يُرى**] أي: ليس فيها إمام عدل ولا قانون حتّى يقتدى به.

[**نحن أهل البيت منها بمنجاة**] ناجون عن آثامها والدخول فيها.

[**ولسنا فيها بدعاة**] إليها ولا إلى أمثالها وليس المراد أنّا سالمون من أذاهم غير داعين فيها إلى الحقّ فإنّ فعله عليه السلام وفعل الحسين عليه السلام وما جرى أهل بيته يشهد بخلاف ذلك.

ثمّ شرع عليه السلام إلى زوال دولتهم بظهور بني العبّاس عليهم واستئصالهم وتتبّع آثارهم وحصول الفرح منهم للأبرار فقال:

ثمّ يفرجها اللّه عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفاً ويسوقهم عنفاً ويسقيهم بكاس مُصبّرة لا يعطيهم إلاّ السيف ولا يحلِسُهُم إلاّ الخوف فعند ذلك تودّ قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً ولو قد جزر جزور

[**ثمّ يفرجها اللّه عنكم كتفريج الأديم**] الجلد وجمعه أدم مثل افيق وأفق ويجمع أيضاً على أدمة كرغيف وارغفة ووجه الشبه انّ الجلد يكشف عمّا تحته فوعدهم انّ اللّه تعالى يكشف تلك الغمّة كانكشاف الجلد عن اللحم.

وقوله [**بمن يسومهم خسفاً**] إشارة إلى بني العباس الذين بهم الخلاص من شرّ هؤلاء الأرجاس ويسومهم خسفاً يؤليهم ذلاً.

[**ويسوقهم عنفاً**] بالضمّ ضدّ الرفق.

[**ويسقيهم بكاس مُصبّرة**] بالصاد المهملة والباء الموحّدة أي: ممزوجة بالصبر المر أو مملوءة إلى أصبارها وهي جوانبها والواحدة صبرة بالضم.

[**لا يعطيهم إلاّ السيف ولا يحلِسُهُم**] أي: لا يلبسهم [**إلاّ الخوف**] من أجلست البعير ألبسته والحلس بالكسر كساء رقيق تحت البرذعة ولفظ الكأس والتصبّر والعطيّة والتحلس مستعارة ووجه الشبه جعلهم الخوف شعاراً لهم كما أنّ حلس البعير كذلك.

ثمّ أشار عليه السلام إلى غاية هذه الفرقة المتقلبة من قريش على هذا الأمر فقال:

[**فعند ذلك تودّ قريش**] لما ينتهي إليه حالهم من التراذل والضعف عن مقاومتهم [**بالدنيا**] بأن يبذلوا الدنيا [**وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً**] مع كونه أبغض الخلق إليهم.

[**ولو قد جزر جزور**] أي: مقدار زمان جزره كناية عن قصر ذلك المقام

لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فيعطونيه فتبارك الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن الأوّل الذي لا غاية له فينتهي ولا آخر له فينقضي فاستودعهم في أفضل مستودع وأقرّهم في قرار مستقر

المتمني [**لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه**] من نصرتهم له واتّباعهم لأمره وانقيادهم لهداه [**فيعطونيه**]. قال ابن أبي الحديد: فإنّ أرباب السيرة كلّهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزاب لمّا شاهد عبداللّه بن علي بن عبداللّه بن العبّاس بأزائه في صفّ خراسان لوددت أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام تحت هذه الراية بدلاص من هذا الفتى.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فتبارك الذي لا يبلغه بعد الهمم**] تبارك مشتقّ من البروك المستلزم للمقام والثبات أو من البركة وهي الزيادة، إشارة إلى فضله وأحسانه ولطفه وهدايته كما أنّ الأوّل إشارة إلى عظمته باعتبار دوام بقائه واستحقاقه قدم الوجود لذاته وبُعد الهمم أي الأفكار والأنظار.

[**ولا يناله حدس الفطن**] أي: ظنّها وتخمينها.

[**الأوّل الذي لا غاية له فينتهي ولا آخر له فينقضي**] أي: لا آخر له بالإمكان والقوّة فينقضي بالفعل فيما لايزال ولا هو أيضاً ممكن الوجود فيما مضى فيلزم أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم بل هو واجب الوجود في الحالين في الماضي والمستقبل.

ومنها: [**فاستودعهم في أفضل مستودع وأقرّهم في قرار مستقر**]

تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام كلّما مضى منهم سلف قام منهم بدين اللّه خلف حتّى أفضت كرامة اللّه سبحانه إلى محمد صلّى اللّه عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً

الضمير راجع إلى الأنبياء المدول عليهم بالمقام القائمين بدين اللّه الهادين إلى سُبل اللّه.

وحاصل الأمر أنّ دين اللّه واحد بعثت جميع الأنبياء لجذب الخلق إلى سلوكه، فمنه ما هو متّفق عليه في جميع الشرائع والملل من المعارف الإلهيّة ومكارم الأخلاق وما ينظم أمر الخلق في معاشهم ومعادهم كتحريم قتل النفس والزنا والسّرقة والظلم ونحو ذلك.

ومنها أُمور جزئيّة تختلف مصالحها بحسب الأزمان والأشخاص.

وكيف كان فالأنبياء في أفضل مستودع من خطائر القدس ومنازل الأُنس في محلّ كرامته ورضوانه ومغفرته في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

[**تناسختهم**] أي: تثاقلتهم [**كرائم الأصلاب**] أي: الأصلاب الكريمة [**إلى مطهّرات الأرحام**] من كدر الفساد لم تنجّسهم الجاهلية بأنجاسها وأرجاسها ولم تلبسهم من مدلهمّات ثيابها.

[**كلّما مضى منهم سلف قام منهم بدين اللّه خلف**] فلا يخلو زمان من الأزمنة من حجّة اللّه بنبي أو وصيّ إمّا ظاهر مشهراص أو غامر مستور.

[**حتّى أفضت كرامة اللّه سبحانه إلى محمد صلّى اللّه عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً**] فهو ﷺ غاية سلسلة الأنبياء والمرسلين وإن كان أقدمهم وكان نبياً وأودعه بين الماء والطين وكنّى بكرامة اللّه عن النبوّة والسلف المتقدّمون والخلف الباقون ويقال خلف صدق بالتحريك وخلف

وأعزّ الأرومات مغرساً من الشجرة التي صدع منها أنبيائه وانتجب منها أُمنائه عترته خير العتر وأُسرته خير الأُسر وشجرته خير الشجر نبتت في حرم وبسقت

بالتسكين.

وقوله: [**وأعزّ الأرومات مغرساً**] جمع أرومة: وهي الأصل، استعار عليه السلام لفظ المعدن والمنبت والغرس لطينة النبق وهي مادّته القريبة التي استعدّت لقبول مثله ووجه الاستعارة أنّ تلك المادّة منشأ لمثله كما أنّ الأرض معدن للجواهر ومغرس الشجر الطيّب، ومعلوم أنّ الأصل الذي سمح بمثله صلى الله عليه وآله أفضل المعادن وأعزّ الأُصول وقيل أراد بذلك مكّة وقيل بيته وقبلته ثمّ ميّزه صلى الله عليه وآله بما هو أخصّ وأشرف فقال:

[**من الشجرة التي صدع منها أنبيائه**] استعار لفظ الشجرة لصنف الأنبياء كما أنّ الشجرة أشرف من طينتها كذلك صنف الأنبياء أشرف المخلوقات ووجه الاستعارة هو ما كنّى الانصداع عنه من تفرّع أشخاص الأنبياء عن صنفهم كما تتفرّع أغصان الشجرة عنها.

[**وانتجب منها أُمنائه**] على وحيه ورسالته وشرائعه وحكمته [**عترته خير العتر**] أي: نسله خير النسل.

[**وأُسرته**] أي: قومه [**خير الأُسر**] لما روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا، أنا وعليّ وحسن وحسين وحمزة وجعفر.

وعنه صلى الله عليه وآله: الناس تبع لقريش برّهم لبرّهم وفاجرهم لفاجرهم.

وقوله: [**وشجرته خير الشجر**] قيل: أراد بالشجرة في الموضعين إبراهيم عليه السلام وقيل أرادها شمّاً وولده بقرينة قوله: [**نبتت في حرم وبسقت**]

في كرم لها فروع طوال وفضل لا ينال وثمر لا ينال فهو إمام من اتّقى وبصيرة من اهتدى وسراج لمع ضوئه وشهاب سطع نوره وزندٌ برقُ لمعه

أي: طالت [في كرم] رشح تلك الاستعارة بوصف الإنبات والبسق وكنّى بالكرم الذي فيه من زكاء أصله وما استلزم من الفعل.

[لها فروع طوال] كناية عن نسله صلى الله عليه وآله وذرّيته وسائر نجباء بني هاشم وبوصفهم بالطول عن بلوغهم في الشرف.

[وفضل لا ينال] الفضل الغاية البعيدة وهو ترشيخ للاستعارة، وكذا قوله: [وثمر لا ينال] كناية عن العلوم والأخلاق المتفرّعة عنه وعن عترته المعصومين، وكنّى بكونها لا تنال عن شرفها وغموض أسرارها أي: أنّها لشرفها وعلوّها لا يمكن أن يطاول فيها أو لغموض أسرارها لا تصل الأذهان إليها.

وقوله: [فهو إمام من اتّقى وبصيرة من اهتدى وسراج لمع ضوئه وشهاب سطع] أي: ارتفع [نوره وزندٌ برقُ لمعه] الزند العود يقدح به النار وهو الأعلى، والزندة السفلى فيها ثقب وهي الانثى وإذا اجتمعتا قيل زندان ولا يقال زندتان تغليب للتذكير والجمع زناد وأزند وزناد.

استعار عليه السلام لفظ البصيرة والسراج والشهاب والزند له صلى الله عليه وآله، ووجه الاستعارة كونه سبب هداية الخلق كما أنّ هذه الأمور الثلاثة كذلك ورشح استعارة السراج بلمعان الضوء والشهاب بسطوع النور والزند ببروق اللّمع.

ويحتمل أن يكون وجه استعارة الزند هو كونه مشيراً لانوار العلم والهداية.

سيرته القصد وكلامه الفصل وحكمه العدل أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة من العمّل وغباوة من الأمم اعملوا رحمكم اللّه على أعلام بيّنة فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام وأنتم في دار مستعتب

وقوله: [**سيرته القصد**] أي: العدل والاعتدال والاستواء على الصراط المستقيم وعدم الانحراف إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط [وسنّته الرشدخ أي: سلوك طريق اللّه عن هداية.

[**وكلامه الفصل**] أي: الفاصل بين الحقّ والباطل كقوله تعالى: ﴿إنّه لقول فصل وما هو بالهزل﴾.

[**وحكمه العدل**] الوسط بين رذيلتي الظلم والانظلام.

[**أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة**] أي: زلّة [**من العمّل**] من هفا يهفو.

[**وغباوة**] أي: جهل وقلّة فطنة [**من الأمم**] يقال: فلان غبي، أي: قليل الفطنة.

[**اعملوا رحمكم اللّه على أعلام بيّنة**] استعار الأعلام لأئمّة الدين وما بأيديهم من مصابيح الهدى وكنّى بكونها بيّنة عن وجودها وظهورها بين الخلق.

[**فالطريق نهج**] أي: واضح [**يدعو إلى دار السلام**] أي: الجنّة، وكنّى بالطريق عن الشريعة ونهجه وضوحها وظاهر كونها داعية إلى الجنّة وإسناد الدعوة إلى الطريق مجاز إذ الداعي قيم الطريق وواضعها.

وقوله: [**وأنتم في دار مستعتب**] أي: في دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه واستعتابه أي: تطلبوا إرضاء اللّه بطاعته فيرضى عنكم.

سو على مهل وفاغ والصحف منشورة والأقلام جارية والأبدان صحيحة والألسن مطلقة والتوبة مسموعة والأعمال مقبولة

[**وعلى مهل**] أي: إمهال وإنظار [**وفاغ**] من عوائق الموت وما بعده.

[**والصحف منشورة**] أي: صحف أعمالكم لم تطوَ بعد والواوات السبعة كلّها للحال والجملة التي بعدها حالية.

[**والأقلام**] أي: أقلام الملائكة الذين هم حفظة الأعمال عليكم [**جارية**] بحسب أعمالكم ﴿وما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾.

[**والأبدان صحيحة**] لم يعترضها مرض يمنعها من عبادة اللّه.

[**والألسن مطلقة**] لم تعتقل بعد كما تعتقل ألسنة المحتضرين عند الموت.

[**والتوبة مسموعة**] لم تنسدّ بابها بعد كما إذا بلغت النفس التراقي قال تعالى: ﴿يومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

[**والأعمال مقبولة**] لأنّكم في حال التكليف لم تخرجوا منها، والغرض من التذكير بهذه الأمور التنبيه على وجوب العمل معها وبذكر أضدادها ممّا لا يمكن معه العمل ولا ينفع الندم، نسأل اللّه التوفيق لما يحبّ ويرضى.

بعثه اللّه والناس ضلال في حيرة حاطبون في فتنة قد استهوتهم الأهواء واستزلّتهم الكبرياء واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء

ومن خطبة له عليه السلام
في ذكر النبي ﷺ وتقرير فضيلته

[بعثه اللّه] إلى الخلق مبشّراً ونذيراً وهادياً إلى اللّه وسراجاً منيراً.

[والناس ضلال] عن سبيل اللّه عادون عن طريق اللّه والواو للحال والجملة حالية.

[في حيرة] من أمرهم وفي شبهة من دينهم **[حاطبون]** بالحاء المهملة، جمع حاطب وهو الذي يجمع الحطب وهو على الاستعارة.

ومعنى حاطبون **[في فتنة]** أنّهم يجمعون في ضلالهم وفتنتهم ما اتّفق من أقوال وأفعال، كما يجمع الحاطب، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ والغثّ والسمين حاطب ليل، لأنّه لا ينظر ما يجمع في حبله.

ويروى خابطون بالخاء المعجمة وتقديم الباء على الطاء أي: حركاتهم على غير نظام في ضلال البدع ومنه فلان يخبط خبط عشواء.

[قد استهوتهم الأهواء] أي: دعتهم إلى أنفسها وجذبتهم الآراء الباطلة إلى مهاوي الهلاك.

[واستزلّتهم الكبرياء] أي: قادتهم إلى الزلل والخطأ عن طريق العدل واقتفاء آثار الأنبياء في التواضع.

[واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء] فطارت بهم إلى ما لا ينبغي من العادات والفساد في الأرض، فكانوا ذوي خفّة وطيش ولفظ الجهلاء تأكيد

حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل فبالغ صلّى اللّه عليه وآله في النصيحة ومضى على الطريقة ودعى إلى الحكمة والموعظة الحسنة الحمد للّه الأوّل فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه

كما يقال ليل أليل [**حيارى**] لا يهتدون إلى مصالحهم لجهلهم فهم [**في زلزال**] أي: اضطراب [**من الأمر**] أي: من أمور دنياهم وأخراهم.

[**وبلاء من الجهل**] في عاداتهم وسبي بعضهم بعضاً وقتلهم [**فبالغ صلّى اللّه عليه وآله في النصيحة**] أي: في نصيحة أُمّته.

[**ومضى على الطريقة**] في سلوك سبيل اللّه من غير انحراف.

[**ودعى إلى الحكمة والموعظة الحسنة**] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أدعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة فالدعوة بالحكمة الدعوة بالبرهان وبالموعظة الدعوة بالخطابة.

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الأوّل فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه**] قال المحقّق البحراني: أثنى على اللّه سبحانه باعتبارات أربعة: الأوّليّة، والآخرية، والظاهرية، والباطنية، فأكّد كلّ واحد منها بكماله، فكمال الأوّليّة بسلب قبلية كلّ شيء عنه، وكمال الآخريّة بسلب بعديّة كلّ شيء له، والظاهريّة بسلب فوقيّة شيء له، والباطنيّة بسلب شيء دونه، والمراد بالظاهر العالي، فلذلك حسن تأكيده

مستقرّه خير مستقرّ ومنبته خير منبت في معادن الكرامة ومماهد السلامة قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار وثنيت عليه أزمة الأبصار

بسلب فوقية الغير له وبالباطن الذي بطن خفيات الأمور علماً وهو بهذا الاعتبار أقرب الأشياء إليها، فلذلك حسن تأكيده بسلب ما هو دونه، أي: ما هو أقرب زليها منه، وحصلت حينئذ المقابلة بين الداني والعالي.

ويحتمل أن يريد بالظاهر البيّن ويكون معنى قوله «فلا شيء فوقه» أي لا شيء يواري جوده ويحجبه عن معرفة خلقه به وبالباطن الخفي معنى فلا شيء دونه أي في الخفاء.

ومنها في ذكر الرسول ﷺ

[**مستقرّه**] وهي مكّة المشرّفة [**خير مستقرّ**] لكونها أمّ القرى ومحلّ العبادة والخلوة بالله والسلامة من سخط الله.

[**ومنبته**] مادّته القرشيّة التي استعدّت لقبول مثله [**خير منبت**] أو المراد بيته الذي خرج منه أو قبيلته التي ظهر منها [**في معادن الكرامة ومماهد السلامة**] والمهاد الفراش ولمّا قال في معادن وهي جمع معدن قال بحكم القرينة والازدواج مماهد وإن لم يكن الواحد منها ممهّد والمراد هنا بالسلامة البراءة من العيوب أي في نسب ظاهر غير معيب. ثمّ قال:

[**قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار**] أي نحو النبي ﷺ ولم يبيّن الصارف وهو الله تعالى بتوفيقه ولطفه.

[**وثنيت عليه أزمة الأبصار**] لمّا استعار لفظ الأزمّة للإبصار ملاحظاً

دفن به الضغاين وأطفأ به النوائر ألّف به إخواناً وفرق به افتراقاً أعزّ به الذلّة وأذلّ به العزّة كلامه بيان وطمسة لسان

لشبهها بمادر الإبل رشح تلك الاستعارة بذكر الشيء وكنّى بذلك عن التفات الخلق إليه بإبصار بصائرهم وتلقّي الرحمة الإلهية منه.

[**دفن به الضغاين**] استعار لفظ الدفن لإخفاء الأحقاد به بعد أن كانت ظاهرة مجاهراً بها.

[**وأطفأ به النوائر**] استعار لفظ الإطفاء لإزالة العداوات بين العرب بالتأليف بين قلوبهم كما قال تعالى في مقام الامتنان ﴿واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ وأشار إلى ذلك بقوله [**ألّف به إخواناً وفرق به افتراقاً**] وهم المتألّفون على الشرك أو المعنى انّ الإسلام ألّف بين المتباعدين وفرّق بين المتقاربين قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما وألّف ما بين عليّ وعمّار مع تباعدهما.

[**أعزّ به الذلّة**] أي: ذلّة الإسلام وأهله.

[**وأذلّ به العزّة**] أي: عزّة الشرك وأهله وبين كلّ قرينتين من هذه الفقرات الستّة مقابلة ومطابقة تقابل التفريق التأليف وبالذلّة الإعزاز وبالعزة الإذلال [**كلامه بيان**] أي: كلام الرسول صلى الله عليه وآله بيان، والبيان إخراج الشيء من حيز الخفاء إلى حيز الوضوح أو أنّه بيان لما انلق من أحكام كتاب اللّه تعالى إشارة إلى قوله تعالى لتبيّن للناس ما نزّل إليهم.

[**وطمسة لسان**] استعار لفظ اللاسن لسكوته ووجه الشبه أنّ سكوته صلى الله عليه وآله مستلزم للبيان من وجهين من حيث سكوته عمّا لا ينبغي من القول فيعلم الناس السكوت عن الخوض فيما لا يعنيهم ومن حيث أنّ

ولئن أمهل اللّه الظالم فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه وبموضع الشجى من مساغ ريقه الشجى ما ينبت في الحلق من عظم أو غيره وموضع الشجى الحلق نفسه ومساغ ريقه موضع الإساغة من أسغت الشارب أوصلته إلى المعدة أسوغه وأسيغه وساغ الشراب نفسه يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق يتعدّى ولا يتعدّى وهو على المجاز كما في قوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وفي ذكر

الصحابة كانوا إذا فعلوا فعلاً على سابق عادتهم فسكت عنهم ولم ينكره عليهم علموا بذلك أنّه على حكم الإباحة فكان سكوته بيان للحكم.

ومن كلام له عليه السلام

في معرض التهديد لأهل الشام ونحوهم بأخذ اللّه لهم

[ولئن أمهل اللّه الظالم] وأخّر أخذه [فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد] الطريق التي يرصد بها [على مجاز طريقه] أي: مسلكه وموضع جوازه.

[وبموضع الشجى من مساغ ريقه] الشجى ما ينبت في الحلق من عظم أو غيره وموضع الشجى الحلق نفسه ومساغ ريقه موضع الإساغة من أسغت الشارب أوصلته إلى المعدة أسوغه وأسيغه وساغ الشراب نفسه يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق يتعدّى ولا يتعدّى وهو على المجاز كما في قوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وفي ذكر

الشجر والرصد تنبيه على أنّ اللّه تعالى في مظنه أن يرمي الظالم بعقوباته عند اطّلاعه على ظلمه كما قال: ﴿أو نأخذهم في تقلّبهم فما هم بمعجزين أو نأخذهم على تخوّف﴾ ثمّ قال عليه السلام: ﴿أما والذي نفسي بيده ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم ليس لأنّهم أولى بالحقّ منكم ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقّي ولقد أصبحت الأُمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي

الشجر والرصد تنبيه على أنّ اللّه تعالى في مظنه أن يرمي الظالم بعقوباته عند اطّلاعه على ظلمه كما قال: **﴿أو نأخذهم في تقلّبهم فما هم بمعجزين أو نأخذهم على تخوّف﴾ ثمّ قال عليه السلام: ﴿أما والذي نفسي بيده ليظهرنّ هؤلاء القوم]** أي: أهل الشام **[عليكم ليس لأنّهم أولى بالحقّ منكم ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقّي]** لأنّ مدار النصرة في الحرب إنّما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره لا على اعتقاد الحق مع التخاذل وعدم طاعة الرئيس، ثمّ أردف ذلك بتوبيخهم وتنفيرهم عمّا هم عليه من مخالفة أمره بقوله:

[ولقد أصبحت الأُمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي] لأنّ شأن الرعية الخوف من سلطانها فإذا كان حاله مع رعيته بالعكس كانت اللائمة عليهم بعصيانه حجّة له عليهم وأمّا التنفير فيذكر أنّهم في محلّ ظلم مثله.

قال ابن أبي الحديد: ومن تأمّل أحواله عليه السلام في خلافته علم أنّه كالمحجور عليه لا يتمكّن من بلوغ ما في نفسه وذلك لأنّ العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين وكان السواد الأعظم لا يعتقدون وفيه الأمر الذي يجب

استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا واسمعتكم فلم تسمعوا ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تجيبوا ونصحت لكم فلم تقبلوا شهود كغياب وعبيد كأرباب

اعتقاده فيه ويرون تفضيل من تقدّمه من الخلفاء عليه ويظنّون أنّ الأفضليّة إنّما هي الخلافة ويقلّد أخلافهم أسلافهم ولا يرونه إلاّ بعين التبعيّة لمن سبقه وكأنّه عليه السلام كان رعية لهم وأكثرهم إنّما يحارب معه بالحمية وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة وكان عليه السلام مدفوعاً إلى مداراتهم ومقاربتهم ولم يكن قادراص على إظهار ما عنده، ألا ترى إلى كتابه إلى قاضته في الأماصر وقوله: فاقضوا كما كنتم تقضون حتّى يكون الناس جماعة أو أموات كما مات أصحابي، ثمّ قال عليه السلام:

[**استنفرتكم للجهاد**] وحفظ البلاد ونظام المعاش والمعاد [**فلم تنفروا واسمعتكم**] الدعوة إلى مصالحكم [**فلم تسمعوا ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تجيبوا**] وهو كقوله تعالى حكاية عن نوح: ﴿قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً وأنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم﴾ إلى قوله ﴿إسراراً﴾.

[**ونصحت لكم**] ببيان مصالح دينكم ودنياكم وأولاكم وأُخراكم [**فلم تقبلوا**] النصيحة [**شهود كغياب وعبيد كأرباب**] لأنّ الفائدة في شاهد الموعظة دون الغائب عنها هو سماعها والانتفاع بها، فإذا لم يكونوا كذلك فهم كالغياب عنها في عدم الانتفاع بها ولأنّهم رعيته من شأنهم التعبّد لأوامر أمرائهم ثمّ أنّهم لتعزّزهم وتكبّرهم وعدم طاعتهم كالأرباب الذين من شأنهم أن يأمروا ولا يأتمروا ثمّ وبّخهم بنفارهم عمّا يتلو عليه من الحكم

أتلو عليكم من الحكم فتنفرون منها وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها وأحثّكم على جهاد أهل البغي فما أتي على آخر قولي حتّى أراكم متفرّقين أيادي سبأ ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم أقوّمكم غدوة وترجعون إليّ عشيّة كظهر الحَنِيّة

فقال:

[**أتلو عليكم من الحكم**] الجامعة [**فتنفرون منها وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها وأحثّكم على جهاد أهل البغي**] إشارة إلى أهل الشام [**فما أتي على آخر قولي حتّى أراكم متفرّقين أيادي سبأ**] مثل يضرب في شدّة التفرّق وأصله قوله تعالى عن أهل سبأ ﴿ومزّقناهم كلّ ممزّق﴾ وهما لفظان جعلا إسماً واحداً كمعدي كرب وسبأ مهموز بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

[**ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم**] أي: تمسكون عن الاتعاظ والانزجار ويقلعون عن ذلك من قولهم كان فلا يعطي ثمّ خدع أي أمسك ويجوز أن يريد ويتلوّنون ويختلفون في قبول الموعظة من قولهم خلق فلان خلق خادع أي: متلوّن وقيل لمّا كانت المخادعة هي الاستغفال عن المصلحة قال يتخادعون أي أنّهم إذا رجعوا من مجلس وعظه أخذ كلّ منهم يستغفل صاحبه عن تذكّر الموعظة ويشغله بغير ذلك من الأحاديث وإن لم يكن عن خداع بل تقع منهم صورة المخادعة.

[**أقوّمكم غدوة**] بإصلاح أخلاقكم بالحكم الجامعة والمواعظ النافعة [**وترجعون إليّ عشيّة كظهر الحَنِيّة**] أي معوجّين كظهر القوس تشبه للمعقول من اعوجاجهم وانحرافهم عن جميل الأخلاق بالمحسوس.

عجز القوم عجز المقوِّمُ أيّها الشاهدة أبدانهم الغائبة عقولهم المختلفة أهوائهم المبتلى بهم أُمرائهم صاحبكم يطيع اللّه وأنتم تعصونه وصاحب أهل الشام يعصي اللّه وهم يطيعونه لوددت واللّه أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منّي عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم، يا أهل الكوفة مُنيتُ منكم بثلاث واثنتين صمّ ذوو أسماع وبُكمٌ ذو كلام وعمى ذوو أبصار

[**عجز القوم**] بصيغة اسم الفاعل إشارة إلى نفسه واعتراف بعجزه عن تقويمهم لعدم إصغائهم [**عجز المقوِّمُ**] بصيغة اسم المفعول كناية عن أصحابه أي: أشكل أمرهم وأعيته أدوائهم علاجاً، ثمّ عاد إلى ندائهم وتنبيههم بذكر معائبهم لتنفر عقولهم عنها فقال:

[**أيّها الشاهدة أبدانهم الغائبة عقولهم**] وإذا غاب العقل عن البدن كان كالبهيمة بل أضلّ [**المختلفة أهوائهم**] ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾ [**المبتلى بهم أُمرائهم**] ثمّ نبّههم ﷺ على رذالتهم من مخالفة أمره مع كونه مطيعاً للّه وطاعة أعدائهم لرئيسهم مع كونه عاصياً للّه فقال:

[**صاحبكم يطيع اللّه وأنتم تعصونه وصاحب أهل الشام يعصي اللّه وهم يطيعونه لوددت واللّه أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منّي عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم، يا أهل الكوفة مُنيتُ**] أي: بُليت [**منكم بثلاث واثنتين**] وإنّما لم يقل بخمس لتناسب الثلاث وكونها إيجابيّة والاثنتين من نوع آخر سلبيّة.

[**صمّ ذوو أسماع وبُكمٌ ذو كلام وعمى ذوو أبصار**] أي: فيكم الصمم عن سماع الحق وقبوله مع كونهكم ذوي أسماع والبكم عن قول الحقّ مع

لا أحرار صدق عند اللّقاء ولا إخوان ثقة عند البلاء تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلّما جمعت من جانب تفرّقت من آخر واللّه لكأنّي بكم فيما أخال ألّو حمِس الوغى

كونكم ذوي كلام والعمي عن آيات اللّه مع كونكم ذوي أبصار وذاك لعدم انتفاعهم بهذه الآلات ومن لم يفده سمعه وبصره عبرة ولم يكن كلامه فيما يعنيه كان كفاقدها كما قال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ وقال تعالى: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

[**لا أحرار صدق عند اللّقاء**] أي: عند اللّقاء للعدوّ ولا تصدق حربتهم لمخالطة الجبن والتخاذل والفرار إذ الحرّ هو الخالص من شوب الرذائل والمطاعن.

[**ولا إخوان ثقة عند البلاء**] أي: ليسوا ممّن يوثق بأُخوّتهم من الابتلاء بالنوازل.

ثمّ عاد عليه السلام إلى الدعاء إليهم على وجه التفجّر فقال:

[**تربت أيديكم**] أي: لا أصبتم خيراً، وأصل التراب كأنّه دعى عليه أن يفتقر.

[**يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلّما جمعت من جانب تفرّقت من آخر**] هذا وجه الشبه ذكره بعد المشبّه والمشبّه به.

[**واللّه لكأنّي بكم فيما أخال**] بكسر الهمة أفصح من فتحها أي: أظنّ [**ألّو**] يريد ان لو ثمّ أُدغمت النون في الألف فصارت كلمة واحدة [**حمِس**] بكسر الميم: اشتدّ وعظم [**الوغى**] أي: الحرب، وهو في الأصل الأصوات

وحمي الضراب قد انفجرتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها وإنّي على بيّنة من ربّي ومنهاج من نبيّه وإنّي لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم واتّبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى فإن لبدوا فالبدوا

والجلبة وسمّيت الحرب نفسها وغى لما فيها من ذلك.

[**وحمي الضراب**] تأكيد لما قبله [**قد انفجرتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها**] أي وقت الولادة أو وقت الطعان.

ثمّ عاد عليه السلام إلى ذكر فضيلته ليثبت قلوبهم ويتألّفها فقال:

[**وإنّي على بيّنة من ربّي**] من آياته الظاهرة وبراهينه الباهرة وولوج الطريق القويم وسلوك الصراط المستقيم، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿قل إنّي على بيّنة من ربّي﴾.

[**ومنهاج**] أي: طريقة وسنّة [**من نبيّه وإنّي لعلى الطريق الواضح**] من سبيل اللّه وشريعته [**ألقطه لقطاً**] يريد أنّ الضلال غالب على الهدى وأنا التقط طريق الهدى من بين طرق الضلال، لقطاً من ههنا وههنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة قد اكتفها الشوك والعوسج من جانبهما كليهما فهو يلتقط المنهج التقاطاً.

[**انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم**] أي: طريقهم.

[**واتّبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى**] أي: ردى الجاهلية والضلال القديم وفيه إيماء إلى أنّ اتّباع غيرهم يردّ إلى ذلك.

[**فإن لبدوا**] أي: سكتوا [**فالبدوا**] من لبد الشيء بالأرض يلبد بالضمّ لبوداً التصق بها، ويحتمل أن يريد أنّهم سكتوا عن طلب الخلافة والامارة

وإن نهضوا فانهضوا ولا تسبقوهم فتضلّوا ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا ولقد رأيت أصحاب محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فما أرى أحد يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً قد باتوا سجّداً وقياماً يحيون ليلهم بالصلوة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم

وانزووا عنها فتابعوهم في ذلك فإنّ سكوتهم قد يكون لمصلحة يغيب علمها عن غيرهم.

[**وإن نهضوا**] في ذلك [**فانهضوا**] معهم [**ولا تسبقوهم**] إلى أمر لم يتقدّمكم فيه [**فتضلّوا**] فإنّ التقدم على الدليل شأنه الضلال عن المقصد.

[**ولا تتأخّروا عنهم**] أي عن متابعتهم في أوامرهم وافعالهم بالمخالفة لهم [**فتهلكوا**] في تيه الجهل وعذاب الآخرة.

[**ولقد رأيت أصحاب محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فما أرى أحد يشبههم**] وفيه حثّ وترغيب لهم على الاقتداء بهم واتّباع آثارهم [**لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً**] كناية عن ــــــ وتركهم زينة الدنيا ولذّاتها.

[**قد باتوا سجّداً وقياماً**] يحيون ليلهم بالصلاة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً﴾.

[**يراوحون بين جباههم وخدودهم**] أي: تارة يسجدون على الجباه وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة تذلّلاً وخضوعاً، والمراوحة بين العمل أن يعمل هذا مرّة وذاك أُخرى وراوح بين رجليه قام على هذه تارة وعلى تلك أُخرى.

[**ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم**] إشارة إلى قلقهم ووجدهم

كـأنّ بين أعـينهم ركبُ المعـزى من طـول سجـودهم إذا ذكـر اللّه هملت حتّى تبلّ جيوبهم ومـادوا كمـا يميـد الشـجر يوم الريح العـاصف وفاً من العقاب ورجاء للثواب واللّه لايزالون حتّى لا يدعوا للّه محرّماً

من ذكر المعـاد وأهوال يوم القيامة كـما يقلق الواقف على الجمـر مما يجده من حرارته .

[**كأنّ بين أعينهم**] كناية عن جباههم من مـحلّ السجود [**ركبُ المعزى**] أي : الجيش المعروف من الغنم [**من طول سجودهم**] ووجه الشبه أنّ جباههم من طول السجـود قد اسودّت ومـاتت جلودها كمـا أنّ ركبة المعز كذلك [**إذا ذكر اللّه هملت**] أي : سالت أعينهم [**حتّى تبلّ جيوبهم**] وروي جباههم أي تبلّ موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته .

[**ومادوا**] أي : اضطربوا وتحرّكوا [**كما يميد الشجر يوم الريح العاصف وفاً من العقاب**] وقلقاً من خوف اللّه .

[**ورجاء للثواب**] كمـا يتحـرّك الجذل المسرور من الفرح وكـما يتـحرّك الإنسـان ويتـمـايل من الطرب ، قـال تعـالى : ﴿والّذين إذا ذكـر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ .

ومن كلام له عليه السلام
إشارة إلى بني أميّة وسوء سيرتهم

[**واللّه لايزالون**] ظالمين ، فحـذف الخبر وسـدّت حتّى وما بعدها مسدّه في قوله [**حتّى لا يدعوا للّه محرّماً**] وهو ما لا يحلّ انتهاكه وكذا محرمة

ولا عقداً إلّا حلّوه حتّى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلّا دخله ظلمهم ونبأ به سوء رعيهم وحتّى يقوم الباكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه وحتّى يكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيّده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه

بفتح الراء.

[**ولا عقداً**] من عقود الإسلام التي نظم بها أمر العالم من قوانين الشرع وضوابطه [**إلّا حلّوه**] كناية عن حزم تلك القوانين الشرعيّة وهدم تلك القواعد المرعيّة.

[**حتّى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلّا دخله ظلمهم**] كناية عن شمول عدوانهم وبغيهم جميع الخلق من البدو والحضر وبيوت المدر البيوت المبنية في القرى وبيوت الوبر ما يتخذّ في البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن وكالشعر للمعز.

[**ونبأ**] بتقديم النون على الباء الموحّدة [**به سوء رعيهم**] أي: أوجب سوء رعيهم لأهله نبؤه عنهم يقال نبأه منزله إذا ضرّه ولم يوافقه وكذا نبأ به فراشه، فالفعل لازم فإذا أُريد تعديته بالهمزة قلت قد أنبأ فلان على منزلي أي جعله نابياً وفي رواية سوء رعتهم أي سوء ورعهم أي تقائهم والورع بالكسر الرجل التقي من ورع يرع بالكسر فيهما ورعاً ورعة.

[**وحتّى يقوم الباكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه وحتّى يكون نصرة أحدكم من أحدهم**] أي انتقاده وانتقامه منه فهو مصدر مضاف إلى الفاعل.

[**كنصرة العبد من سيّده**] ثمّ ذكر المشبّه والمشبّه به.

ثمّ أشار إلى وجه الشبه بقوله: [**إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه**].

وحتّى يكون أعظمكم فيها عناءاً أحسنكم باللّه ظنّاً فإن أتاكم اللّه بعافية فأقبلوا ابتليتم فاصبروا فإنّ العاقبة للمتّقين نحمده على ما كان ونستعينه من أمرنا على ما يكون

وقيل إنّه مصدر مضافد إلى المفعول وكذا نصرة العبد أي حتّى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة العبد السيّيء الطريقة إيّاه ومن في الموضعين مضافه إلى محذوف أي من جانب أحدهم ومن جانب سيّده وفيه بعد.

[**وحتّى يكون أعظمكم فيها**] أي: في الفتنة الدلول عليها بالمقام [**عناءاً**] أي تعباً ومشقّة [**أحسنكم باللّه ظنّاً**] وذلك لأنّ من أحسن الظنّ باللّه كان أشدّ الناس بعداً منهم وتوكلاص عليه فيكونون عليه أشدّ كلباً وأعظم طلباً فكان أعظم الناس في دولتهم تعباً وعناءً.

[**فإن أتاكم اللّه بعافية**] من الابتلاء بشرورهم أو بقائم عدل مخلص من بلائهم [**فأقبلوا**] واشكروا اللّه على ذلك وإن [**ابتليتم**] بشيء من ذلك [**فاصبروا، فإنّ**] اللّه مع الصابرين وأنّ [**العاقبة للمتّقين**] كما قال تعالى: ﴿واصبر إنّ العافية للمتّقين﴾.

ومن كلام له عليه السلام

[**نحمده على ما كان ونستعينه من أمرنا على ما يكون**] قيل لمّا كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه لأنّ المجهول لا يحمد عليه ولمّا كان المستقبل غير معلوم جعل الاستعانة بإزائه لأنّ الماضي لا يستعان عليه.

ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبّوا تركها والمبلية لأجسادكم وإن كنتم تحبّون تجديدها فإنّما مثلكم ومثلها كسفر

ولقد طرف وأبدع عليه السلام في قوله [**ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان**]ذلك لأنّ للأديان سقماً وشفاء، كما أنّ للأبدان سقماً وشفاء.

ولذا قيل: وإذا مرضت من الذنوب فدارها بالذكر إنّ الذكر خير دواء والسقم في الأبدان ليس بضائر، والسقم في الأديان شرّ بلاء.

وقيل للاعرابي ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي؟ قال: الجنّة، قيل: افلا ندعو لك طبيباً، قال: الطبيب أمرضني، وقيل لمريض: ما مرضك؟ قال: مرض لا يفهمه الأطبّاء، قيل وما هو؟ قال: مرض الذنوب، فقيل: كيف نجدك الآن؟ قال: بخير إن نجوت من النار، قيل: فما تشتهي، قال: ليلة طويلة بعيدة ما بين الطرفين أحيها بذكر اللّه تعالى.

ثمّ أردف الحمد والثناء بالوصيّة الناصحة فقال:

[**أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم**] ومن أكبر المصالح ترك محبوب لابدّ من مفارقته باستدراج كي لا يصعب مفارقته عليه مع محبّته إيّاه فيبقى كمن نقل عن معشوقه إلى موضع شديد الظلمة ولذا قال:

[**وإن لم تحبّوا تركها**] ثمّ قال: [**والمبلية لأجسادكم**] بالأمراض والهرم ونحوهما.

[**وإن كنتم تحبّون تجديدها**] ومن شأن المؤذي ان يجتنب، ثمّ أردف ذلك عليه السلام بتمثيلهم في الكون بها فقال:

[**فإنّما مثلكم ومثلها كسفر**] يقال: قوم سفر أي: مسافرون.

سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه وأمّوا علماً فكأنّهم قد بلغوه وما عسى المجرى إلى الغاية أن يجري إليها حتّى يبلغها

[سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه وأمّوا] أي قصدوا **[علماً]** أي: جيلاً أو مناراً في الطريق يهتدي به.

[فكأنّهم قد بلغوه] قيل: كان في هذا الموضع كهي في قولك كأنّك بالدنيا لم تكن وكأنّك بالآخرة لم تزل، أي: ما أقرب ذلك واسرعه وتقدير الكلام هنا كأنّهم في حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له وكأنّهم في حال كونهم غير بالغين له بالغون له لأنّه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأُخرى شبهوا وهم في الحال الأُولى بهم أنفسهم وهم على الحال الثانية.

وفيه تخويف بالموت وما بعده وتحقير لمدة البقاء في الدنيا والمقام فيها وحثّ على اغتنام الفرصة من تزوّد التقوى والمداومة على الأعمال الصالحة، وأكّد ذلك بقوله:

[وما عسى المجرى إلى الغاية أن يجري إليها حتّى يبلغها] يقال: أجرى فلان فرسه إلى الغاية إذا أرسلها ثمّ نقل ذلك إلى كلّ من يقصد بكلامه معنى أو بفعله غرضاً فقيل فلان يجري بقوله إلى كذا أي يقصد وينتهي بإرادته وأغراضه ولا يعدوه ولا يتجاوزه وفي بعض النسخ: وكم عسى، فالتقدير وكم ترجوا الذي يجري إلى غاية من اجرائه إليها حتّى يبلغها وهو استفهام في معنى التحقير لما يرجوه من مدّة الجري وهي مدّة الحياة الدنيا ومفعول المجرى محذوف والتقدير المجرى مركونة ولما لم يكن الفرض إلاّ ذكر الإجراء لا جرم حذف المفعول وقد يجيء لازماً وكذلك قوله:

وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه والمراد والطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتّى يفارقها فلا تنافسوا في عزّ الدنيا وفي فخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها فإنّ عزّها وفخرها إلى انقطاع وزينتها ونعيمها إلى زوال وضرّائها وبؤسها إلى نفاد وكلّ مدّة فيها إلى انتهاء وكلّ حيّ إلى فناء

[وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه] أي: وما يرجى ويؤمّل أن يكون من ذلك البقاء كان هنا تامّه وهو في الموضعين استفهام على سبيل التحقير لما يرجى من البقاء في الدنيا والإنكار على المؤمّل الراجي له.

[والمراد] بالطالب في قوله **[والطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتّى يفارقها]** الموت، وأسند إليه الطلب مجازاً واستعار له الحدود وكنّى بذلك الحدّ وعمّا يتوهّم من سوق أسباب الموت للبدن إليه.

وقوله: **[فلا تنافسوا في عزّ الدنيا وفي فخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها فإنّ عزّها وفخرها إلى انقطاع وزينتها ونعيمها إلى زوال وضرّائها وبؤسها إلى نفاد وكلّ مدّة فيها إلى انتهاء وكلّ حيّ إلى فناء]** حاصل الكلام النهي عن الركون إلى شيء من أحوال الدنيا واعتباره والسكون إليه وأنّه لا يعتبر خيرها ولا شرّها فمن خيرها عزّها وفخرها وزينتها ونعيمها فلا يتنافس فيه ولا يعجب به وأمّا شرّها فضرّائها وشدائدها ونهى عن الجزع منها.

وعلّل وجوب الانتهاء عمّا نهى عنه بانقطاعه وزواله وما كان من شأنه الزوال والانقطاع فمن الواجب أن لا يتنافس فيه ولا يعجب به وإن عُدّ نافعاً وأن لا يخرج من وجوده وإن عدّ ضاراً.

أوليس لكم في آثار الأوّلين وآبائكم الماضين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون أولم ترون إلى الماضين منكم فلا يرجعون وزلى الخلف الباقي ولا يبقون، أولستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتّى فميت يبكى وآخر يعزّى وصريع مبتلى وعائد يعود وآخر يجود، وطالب للدّنيا والموت يطلبه

[**أوليس لكم في آثار الأوّلين**] استفهام إنكاري لعدم استفادتهم العبرة والبصرة من آثار من سلف من القرون السالفين.

[**وآبائكم الماضين تبصرة**] تتبصّرون بهم [**ومعتبر**] تعتبرون بهم [**إن كنتم تعقلون**] كما تزعمون أنّكم عقلاء.

ثمّ نبّه عليه السلام على وجه العبرة والتبصّر بقوله:

[**أولم ترون إلى الماضين منكم**] الذين نزل بهم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات قد مضوا [**فلا يرجعون**] إلى أهاليهم وأموالهم وأولادهم [**وزلى الخلف الباقي**] الذي خلّفوه وبقى بعدهم يفنون كفنائهم.

[**ولا يبقون، أولستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتّى**] وحالات مختلفة، فاستدلّوا على عدم بقائها باختلاف أحوالها وأنّها لا تصلح قراراً، ولذا ترى أهلها متباينة أحوالهم مختلفة صفاتهم.

[**فميّت يبكى**] عليه [**وآخر يعزّى**] على ما أصابه [**وصريع مبتلى**] بالأمراض والأشجان والأسقام والأحزان.

[**وعائد يعود**] آخر مشغول الخاطر به.

[**وآخر**] في المساومة والاحتضار [**يجود، وطالب للدّنيا**] مشغول بها مستغرق في شهواتها منهمك في لذّاتها [**والموت يطلبه**] من ورائه.

وغافل وليس بمغفول عنه على أثر الماضي يمضي الباقي ألا فاذكروا هادم اللّذات ومنغّص الشهوات قاطع الأُمنيات عند المساورة للأعمال القبيحة واستعينوا باللّه على أداء واجب حقّه وما لا يخفى من اعداد نعمه وإحسانه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها

[**وغافل**] عمّا يراد به [**وليس بمغفول عنه**] ولابدّ [**على أثر الماضي يمضي الباقي**] وإن طال بقائه وما مصدرية، وإنّما قدّم الميت في أقسام أهل الدّنيا لأنّ ذكره أشدّ موعظة واستعار لفظ الجود للمحتضر ووجه الشبه أنّه يسمح بنفسه ويسلّمها كما يسلّم الجواد ما يعطيه من مال، ثمّ أمرهم بذكر الموت واصفاً له بلوزامه المنفّرة عنه فقال:

[**ألا فاذكروا هادم اللّذات ومنغّص الشهوات قاطع الأُمنيات**] جمع أُمنية ما يتمنّاه الإنسان، ثمّ عيّن لهم وقت ذكره وهو قوله [**عند المساورة**] أي المواثبة [**للأعمال القبيحة**] ليكون ذكره زاجراً لهم عنها وإنّما أتى وزن المفاعلة باعتبار أنّ الفعل القبيح لابدّ فيه من ممانع كموانع الشرع والعرف فيتوهّم فيه معنى المواثبة.

[**واستعينوا باللّه على أداء واجب حقّه**] التي كُلّفتم بالقيام بها والمواظبة عليها [**وما لا يخفى**] أي: وعلى أداء واجب ما لا يحصى [**من اعداد نعمه وإحسانه**] إشارة إلى قوله تعالى: **﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾**.

الحمد للّه الناشر في الخلق فضله والباسط فيهم بالجود يده نحمده في جميع أُموره ونستعينه على رعاية حقوقه ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بأمره صادعاً بذكره ناطقاً فأدّى أميناً ومضى رشيداً

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الناشر في الخلق فضله والباسط فيهم بالجود يده**] أي: نعمته إطلاقاً لأتمّ السبب على المسبّب ومعلوم كون الجود مبدء للنعمة والنشر والبسط وإن كانا حقيقة في الأجسام إلاّ أنّهما من الاستعارات الشائعة التي قارنت الحقيقة، ثمّ أكّد ذلك الحمد بتعميمه بقوله:

[**نحمده في جميع أُموره**] من شدّة ورخاء وسرّاء وضرّاء، إذ الشدائد اللاحقة نِعَم أيضاً، فإنّها إذا قوبلت بالصبر الجميل ترتّب عليها ثواب جزيل، كما قال: ﴿وبشّر الصابرين﴾ وظاهر أنّ أسباب النعم نعم ولما حمده على ما لحق من نعمائه طلب المعونة، بقوله:

[**ونستعينه على رعاية حقوقه ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بأمره صادعاً**] أي: مظهراً ومجاهداً للمشركين، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾، واستعار لفظ الصادع له صلى الله عليه وآله لأنّه شقّ بأمر اللّه بيضة المشرك وقلوب المشركين كما عمّر بيضة الإسلام وقلوب المسلمين وأخرج ما فيها من الكفر والجهل ولم يزل [**بذكره**] تعالى [**ناطقاً**] فأودعه في قلوبهم.

[**فأدّى**] ما أمر به [**أميناً**] عليه [**ومضى**] إليه [**رشيداً**] مرشداً إلى حضرة

وخلّف فينا راية الحقّ من تقدّمها مرق ومن تخلّف عنها زهق ومن لزمها لحق وليلها مكيث الكلام بطيء القيام سريع إذا

قدسه، وقوله صادعاً وناطقاً وأميناً ورشيداً أحوال.

[وخلّف فينا راية الحقّ] أي كتاب اللّه وأهل البيت إشارة إلى قوله ﷺ: «إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيت لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».

[من تقدّمها مرق] عن الطريق السويّ كما يمرق السهم عن القوس.

[ومن تخلّف عنها زهق] أي: هلك، يقال: زهقت نفسه بالفتح زهقاً وزهوقاً أي: خرجت، قال تعالى: ﴿وتزهق أنفسهم وهم لها كارهون﴾، وزهقت الناقة: إذا سبقت وتقدّمت أمام الركب، وزهق الباطل: اضمحلّ، قال تعالى: ﴿إنّ الباطل كان زهوقاً﴾، يقول عليه السلام: من كان متقدّماً لها أو متأخّراً عنها فقد خرج عن الحقّ بالتخلّف عنها والميل إلى طرفي الإفراط والتفريط.

[ومن لزمها] وكان تحتها وتبعها فقد **[لحق]** الحق وكان على حاق الوسط، ووجه الشبه بين الراية والكتاب والسنّة كونهما مقصدين لتابعهما يهتدي بهما في سبيل اللّه كما أنّ الراية كذلك، وأشا بقوله:

[وليلها مكيث الكلام] إلى نفسه عليه السلام لأنّه المشار إليه من العترة، واعلم أنّ الخلق بكتاب اللّه ومكيث الكلام بطيئه، ورجل مكيث: أي رزين يعني أنّه ذو أناة و‍ـــــ.

ثمّ أكّد ذلك بقوله **[بطيء القيام]** كناية عن تأنّيه في حركته في وجوه المصالح إلى حين استبانة الرأي الأصلح ووجه المصلحة، وقوله **[سريع إذا**

قام فإذا أنتم ألنتم له رقابكم وأشرتم إليه بأصابعكم جاء الموت فذهب به فلبثتم بعده ما شاء اللّه حتّى يطلع اللّه لكم من يجمعكم نشركم فلا تطمعوا في غير مقبل

قام] كناية عن مبادرته إلى وجوه المصلحة وانتهازه الفرصة أو المعنى هو مثبت في أحواله فإذا نهض جدّ وبالغ ثمّ اخذ يذكّرهم بموته وفقده فقال:

[**فإذا أنتم ألنتم له رقابكم**] أي خضعتهم لطاعته وانقدتم لأمره [**وأشرتم إليه بأصابعكم**] كناية عن اشتهاره فيهم وتعظيمهم له يريد انّه إذا اتمّ امره وكمل الإسلام به [**جاء الموت فذهب به**] إلى ربّه.

[**فلبثتم بعده ما شاء اللّه**] في حيرة من أمركم ليس لكم إمام مثله يجمعكم على التقوى، إشارة إلى مدّة بني أُميّة واستيلائهم على العباد والبلاد وتظاهرهم بالجور والفساد [**حتّى يطلع اللّه لكم من يجمعكم**] على الهدى ويضمّ [**نشركم**] أي: الجمع انتشاركم وتفرّقكم ويلمّ شعثكم ويجبر وهنكم وطلوعه ظهوره وتعيّنه للرئاسة بعد اختفاء، فيحتمل أن يريد به الإمام المنتظر عجّل اللّه فرجه، قيل هو قائم بني العباس بعد انقضاء دولة بني أُميّة.

[**فلا تطمعوا في غير مقبل**] أي: من لم يقبل على هذا الأمر ممّن هو اهله أو آثر تركه إلى الخلوة باللّه فلا تطمعوا فيه فإنّ له باللّه شاغلاً عن كلّ شيء، وقيل المراد بغير المقبل من انحرف عن الدين بارتكاب منكر فلايجوز لكم ان تطمعوا في ان يكون اميراً لكم وروي فلا تطعنوا في عين مقبل أي: من اقبل عليكم من أهل البيت طالباً لهذا الأمر وهو له أهل فكونوا معه ولا تدفعوه عمّا يريد.

ولا تيأسوا من مُدبر فإنّ المدبر عسى أن تزل إحدى قائمتيه وتثبت الأُخرى فترجعا حتّى تثبتا جميعاً إلّا أنّ مثل آل محمّد صلّى اللّه عليه وآله كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم فكأنّكم قد تكاملت من اللّه فيكم الصنايع وأراكم ما كنتم تأملون

[**ولا تيأسوا من مُدبر**] أي: من أدبر عن طلب الخلافة وهو أهل لها فلا تيأسوا من عوده وإقباله على الطلب، فلعلّه إنّما أدبر عنها لاختلال بعض شرائها من قلّة الناصر وعدم المعين.

[**فإنّ المدبر عسى أن تزل إحدى قائمتيه**] كناية عن فقده لبعض الشرائط كعدم الناصر والمعين.

[**وتثبت الأُخرى**] إشارة إلى وجدان بعض الشرائط وقوله [**فترجعا حتّى تثبتا جميعاً**] إشارة إلى تكامل شرائط قيامه واجتماعها، قيل ولا ينافي اليأس عن النهي ههنا عن الطمع في غير المقبل لجواز أن ينهى عن الطمع فيه حال إعراضه وإدباره عن المطلب لاختلال بعض شرائطه والنهي عن الإياس منه لجواز حصول شرائط القيام فيها وتكاملها وقوله:

[**إلّا أنّ مثل آل محمّد صلّى اللّه عليه وآله كمثل نجوم السماء**] فكما أنّ النجوم أمان لأهل السماء فهم أمان لأهل الأرض وكما أنّ النجوم إذا ذهبت من السماء ذهبت السماء، فكذا هم إذا ذهبوا فنت الأرض ولواهم لساخت بأهلها وكما يهتدى بالنجوم فكذا يهتدى بأهل البيت [**إذا خوى نجم طلع نجم**] كناية عن عدم خلوّ الأرض منهم كما دلّت عليه الأخبار المتواترة والبراهين العقليّة المتظافرة، وقوله:

[**فكأنّكم قد تكاملت من اللّه فيكم الصنايع وأراكم ما كنتم تأملون**]

الأوّل قبل كلّ أوّل والآخر بعد كلّ آخر

بظهور الإمام المشتهر والقائم المنتظر الحقّ الجديد والعالم الذي علمه لا يبى.

وقد روي عنه عليه السلام أنّه قال في مقام آخر ما يجري مجرى الشرح لهذا الوعد، قال: يا قوم اعلموا علماً يقيناً أنّ الذي يستقبل قائمنا من أمر جاهليّتكم ليس بدون ما استقبل الرسول ﷺ من أمر جاهليّتكم وذلك أنّ الأُمّة كلّها يومئذ جاهليّة إلاّ من رحم اللّه، فلا تعجلوا فيجعل الخرق بكم واعلموا أنّ الرفق يمن وفي الأناة بقاء راحة والإمام أعلم بما ينكر، ولعمري لينزعنّ عنكم قضاة السوء وليقبض عنكم الراضين وليعزلّن عنكم أُمراء الجور وليطهرنّ الأرض من كلّ غاش وليعملنّ فيكم بالعدلّ وليقومنّ فيكم بالقسطاس المستقيم وليتمنّ أحيائكم لأمواتكم رجعة الكرّة عما قليل فيعشوا اذن فإنّ ذلك كائن للّه أنتم بأحلامكم كفّوا السنتكم وكونوا من وراء معايشكم فإنّ الحرمان سيصل إليكم وإن صبرتم واحتسبتم أو ائتلفتم انه طالب وتركم ومدرك لثاركم وأخذ بحقّكم وأُقسم باللّه قسماً حقّاً إنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون.

ومن خطبة له عليه السلام
تشتمل على ذكر الملاحم

ومضمون هذا الفصل بعد توحيد اللّه تحذير السامعين عن عصيانه وعن تكذيبه فيما كان يخبرهم به من الأُمور المستقبلة.

[الأوّل قبل كلّ أوّل والآخر بعد كلّ آخر] أي: انّه تعالى موجود قبل

بأوّليّته وجب أن لا أوّل له وبآخريّته وجب أن لا آخر له وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه شهادة يوافق فيها السرّ الاعلان والقلب اللسان أيّها الناس لا يحرمنّكم شقاقي ولا يستهوينكم عصياني ولا تتراموا بالأبصار عندما تسمعونه منّي فوالذي فلق الحبّة

كلّ شيء يشير العقل إليه ويفرضه أوّل جميع الموجودات وكذا هوموجود بعد كلّ شيء يشير العقل إليه ويفرضه آخراً من جميع الموجودات.

فبالاعتبار الأوّل هو أوّل قبل كلّ ما يفرض أوّلاً.

وبالاعتبار الثاني هو آخر بعد كلّ ما يفرض آخراً.

[**بأوّليّته وجب أن لا أوّل له وبآخريّته وجب أن لا آخر له**] لمّا كان معنى أوّليّته كونه مبدء لكلّ موجود ومعنى آخريته كونه غاية ينتهي إليها كلّ شيء في جميع أحواله علم من ذلك أن لا أوّل له ولا آخر وإلاّ لم يكن أوّلاً ولا آخراً بالمعنيين المذكورين.

[**وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه**] وحده لا شريك له [**شهادة يوافق فيها السرّ الاعلان والقلب اللسان**] كناية عن خلوصها عن شائبة النفاق والجحود باللّه.

[**أيّها الناس لا يحرمنّكم شقاقي**] أي: لا يحلنّكم، وقيل لا يكسبنكم.

[**ولا يستهوينكم عصياني**] أي: لا يستهينكم يجعلكم هائمين.

[**ولا تتراموا بالأبصار**] فيلحظ بعضكم بعضاً بأبصاركم فعل المنكر المكذب [**عندما تسمعونه منّي**] من الأمور الغريبة والأحاديث العجيبة.

[**فوالذي فلق الحبّة**] أي شقّها وأخرج منها الورق الأخضر، كما قال تعالى: ﴿إنّ اللّه فالق الحبّ والنوى﴾.

وبرء النسمة إنّ الذي أنبأتكم به عن النبي الأُمّي ما كذب المبلّغ ولا جهل السامع لكأنّي أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام

[**وبرء النسمة**] أي: خلق الإنسان [**إنّ الذي أنبأتكم به**] من المغيّبات وسائر الأُمور الغريبة والأحوال العجيبة ممّا تنكرون كلّه مأخوذ [**عن النبي الأُمّي**] صلّى اللّه عليه وآله [**ما كذب المبلّغ**] فيما بلّغ عن ربّه [**ولا جهل السامع**] فيما سمع هو عنه وعنى بالمبلّغ السامع نفسه ما كذبت على الرسول تعمّداً ولا جهلت ما قاله له فأنقل عنه خطأً أو غلطاً. [

لكأنّي أنظر إلى ضليل] كثير الضلال [**قد نعق بالشام**] قيل كنّى به عن عبدالملك بن مرون لأنّ هذه الصفات والامارات فيه أتمّ منها في غيره، لأنّه قام بالشام حين دعى إلى نفسه وشخص بنفسه إلى العراق وقتل مصعب تارةً وتارةً لّما استخلف الأمر على الكوفة كبشر بن مروان وأخيه وغيره حتّى انتهى الأمر إلى الحجّاج وهو زمان اشتداد عبدالملك وثقل وطأته وحينئذ صعب الأمر جداً وتفاقمت الفتن مع الخوارج وعبدالرحمن بن الأشعث، فلمّا كمل أمر عبدالملك وهو معنى أسبغ زرعه هلك وعقدت رايات الفتن المضلّة بعده.

وقيل كنّى به عن معاوية وما حدث في أيّامه من الفتن وما حدث به من فتنة كحروب أولاده مع بني المهلّب وكحروبهم مع زيد بن عليّ وكالفتن الكائنة بالكوفة أيّام يوسف بن عمر وخالد القسري وعمر بن هبيرة وغيرهم وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال وذهاب النفوس وقيل كنّى عمّا حدث في أيّام معاوية من الفتن وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيداللّه بن زياد وواقعة الحسين عليه السلام.

وقيل أشار به إلى السفياني والدجّال، والنعق صوت الراعي بغنمه.

وفحص براياته في ضواحي كوفان فإذا فغرت فاغرته واشتدّت شكيمته وثقلت في الأرض وطأته عضّت الفتنة أبنائها بأنيابها وماجت الحرب بأمواجها

وقوله: [**وفحص براياته في ضواحي كوفان**] ماخوذ من مفحص القطاة أي: مجثمها، كأنّهم جعلوا الكوفة في زمانهم مفحصاً ومجثماً للرايات وكوفان اسم الكوفة وهي في الأصل الرملة الحمراء وضواحيها نواحيها القريبة منها البارزة عنها، يريد رستاقها وكنّى بفحص راياته عن بلوغه إلى الكوفة ونواحيها كناية بالمستعار ملاحظة لشبهه بالقطاة التي تتخذ مفحصاً، وقوله:

[**فإذا فغرت فاغرته**] أي: فتح فاه، كناية عن اقتحامه للناس وفتكه بهم، ملاحظة لشبهه في الأسد في اقتحام فريسته فإنّه يفتح فاه عند الإفتراس والتأنيث للفتنة.

[**واشتدّت شكيمته**] والشكيمة في الأصل حديدة معترضة في اللّجام في فم الدابة وكنّى بها عن قوّة رأسه وشدّة بأسه وأصله أنّ الفرس الجموح قويّ الرأس يحتاج إلى قوّة الشكيمة وشدّته وكذا قوله:

[**وثقلت في الأرض وطأته**] كناية عن شدّة بأسه في الأرض وعلى الناس، وقوله:

[**عضّت الفتنة أبنائها بأنيابها**] استعار لفظ العض للفتنة ووجه الشبه ما يستلزمانه من الشدّة والألم ورشح تلك الاستعارة بذكر الأنياب وأبنا الفتنة أهلها وكذا استعار لفظ الموج في قوله:

[**وماجت الحرب بأمواجها**] للحرب وكنّى به عن الاختلاط الواقع فيها

وبدا من الأيام كلوحها ومن الليالي كدوحها فإذا أينع زرعه وقام على ينعه وهددت شقاشقه وبرقت بوارقه عقدت رايات الفتن المعضلة وأقبلن كاللّيل المظلم

من القتل والأهوال، واستعار للأيام لفظ الكلوح في قوله:

[**وبدا من الأيام كلوحها**] وكنّى به عن شدّة ما يلقى فيها من الشر كما يلقى من المبئس وكذا لفظ الكدوح وفي قوله:

[**ومن الليالي كدوحها**] استعارة لما يُلقى فيها من المصائب الشبيهة بها وكلوح الأيام عبوسها والكدوح الآثار من الجراحات والقروح الواحد كدح أي: خدش، والمراد من قوله الأيام ثمّ قال ومن اللّيالي أنّ هذه الفتنة مستمرّة الزمان كلّه لأنّ الزمان ليس إلاّ النهار واللّيل، وقوله:

[**فإذا أينع زرعه**] أي: أدرك ونضج وهو الينع بالفتح والضم مثل النضج والنضج ويجوز ينع الزرع بغير همزة ينوعاً ولم تسقط الياء في المضارع وقد روي هذا أيضاً بحذف الهمزة وقوله:

[**وقام على ينعه**] جمع يانع كصاحب وصحب ويجوز إرادة المصدر أي: قام على صفة وحالة هي نضجه وإدراكه استعار لفظ الزرع لأعماله ولفظ الإيناع كناية عن بلوغه غاية أفعاله وقوله:

[**وهددت شقاشقه وبرقت بوارقه**] استعار الشقاشق والبروق لحركاته الهائلة المخوّفة تشبيهاً بالسحاب ذي الشقاشق والبروق وقوله [**عقدت رايات الفتن المعضلة**] أي: إنّ هذه الفتنة إذا قامت أثارت فتناً كثيرة بعدها يكون فيها الهرج والمرج.

[**وأقبلن كاللّيل المظلم**] ووجه الشبه كونها لا يهتدي فيها لحق كما لا

والبحر الملتطم هذا ولم يخرق الكوفة من قاصف ويمرّ عليها من ريح عاصف وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون ويحصد القائم ويحطم المحسود

يهتدي في ظلمة الليل لما يراد.

[**والبحر الملتطم**] ووجه الشبه عظمها وخلطها للخلق بعضهم ببعض وانقلاب قوم على قوم بالحق لهم والهلاك كما يلتطم بعض أمواج البحر ببعض.

ثمّ أشار عليه السلام إلى ما يلحق الكوفة بسبب تلك الفتنة وبعدها من الوقائع والفتن بقوله:

[**هذا ولم يخرق الكوفة**] أي: يحويها ويقطعها [**من قاصف**] أي: ريح قوية تكسر كلّما تمرّ عليها وتقصفه وكذا قوله:

[**ويمرّ عليها من ريح عاصف**] أي: شديدة، استعار العاصف والقاصف لما يجري على أهلها من الشدائد وقد وقع فيها ما أخبر فتن كثيرة ووقائع جمّة كفتنة الحجّاج والمختار بن أبي عبيدة وغيرهما.

ثمّ وعد عليه السلام بظهور دولة أُخرى فقال:

[**وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون**] أي عن مدّة قليلة يلحق قرن من الناس بقرن وكنّى بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض.

[**ويحصد القائم ويحطم المحسود**] استعار لهم لفظ الحصد والطم ملاحظةً لمشابهتهم الزرع يحصد قائمه ويحطم محصوده، فكنّى بحصدهم عن موتهم أو قتلهم وبحطم محصودهم عن فنائهم وتفرّق أوصالهم في التراب.

وذلك يوم يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحسنات وجزاء الاعمال خضوعاً قياماً قد ألجمهم العرق

قال ابن أبي الحديد: وهذا كناية عن الدولة العبّاسية التي ظهرت على دولة بني أميّة والقرون: الأجيال من الناس، واحدها قرن بالفتح، وبحصد القائم وبحطم المحصود كناية عن قتل الأمراء من بني أميّة في الحرب، ثمّ قتل المأمورين منهم صبراً فحصداً القائم قتل المحاربة وحطم الحصد القتل صهراً وهكذا وقعت الحال مع عبدالله بن علي وابي العباس السفّاح.

ومن خطبة له عليه السلام
تجري هذا المجرى

[وذلك] إشارة إلى يوم القيامة **[يوم يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحسنات]** مصدر ناقش أي: مناقشة والدقّة والاستقصاء فيه.

[وجزاء الأعمال] فيجزي كلّ بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر، ﴿ليجزي الذين أسائوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى﴾، وقال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليُروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾، وقوله:

[خضوعاً] إشارة إلى قوله تعالى: خُشّعاً أبصارهم﴾، **[قياماً]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لربّ العالمين﴾ وهما كناية عن كمال برائتهم من حولهم وفوقهم إذن وتيقّنهم ان لا سلطان إلاّ سلطانه، وقوله:

[قد ألجمهم العرق] أي: بلغ منهم مكان اللّجام، كناية عن بلوغهم

ورجعت بهم الأرض فتن كقطع الليل المظلم لا تقوم لها قائمة ولا ترد لها راية تأتيكم مزمومة مرحولة

الغاية من الجهد، إذ كانت غاية التاعب أن يكثر عرقه.

[**ورجعت بهم الأرض**] أي: تحرّكت واضطربت، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾، وقال تعالى: ﴿إذا رجّت الأرض رجّاً وبسّت الجبال بسّاً﴾، وقوله: [فاحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً ولنفسه متّسعاً﴾، إشارة إلى الزحام الشديد الذي يكون هناك.

ومنها:

[**فتن كقطع الليل المظلم**] إشارة إلى ما يقع بعده صلى الله عليه وآله من الفتن سيّما فتنة صاحب الزنج بالبصرة والقِطع بكسر القاف جمع قطع وهو الظلمة، قال تعالى: ﴿فاسر بأهلك بقطع من الليل بأهلك بقطع من الليل﴾ وقيل أي: بطائفة منه وشبّهها بالليل المظلم لعدم الاهتداء بها وعدم استبانة الرشد فيها، وقوله:

[**لا تقوم لها قائمة**] أي: لا يمكن مقابلتها بما يقاومها ويدفعها وإنّما أنّث لكون القائمة في مقابلة الفتنة، أو لا تقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل، أي: لا سبيل إلى قتال أهلها أو لا تقوم لها قلعة قائمة أو بيّنة قائمة بل تنهدم، وقوله:

[**ولا ترد لها راية**] أي: لثباتها لا يفرّ أهلها بل هم كرّارون غير فرّارين وقوله:

[**تاتيكم مزمومة مرحولة**] أي: تامّة الأدوات كاملة الآلات كالناقة التي

يحفزها قائدها ويجدها راكبها أهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم يجاهدهم في اللّه قوم أذلّة عند المتكبّرين هم في الأرض مجهولون وفي السماء معروفون فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم اللّه

عليها رحلها وزمامها قد استعدّت لأن تُركب [**يحفزها**] يدفعها [**قائدها ويجدها راكبها**] أي: يحمل عليها في السير فوق طاقتها، يقال: جهدت دابتي بالفتح ويجوز أجهدت والمراد أنّ أرباب تلك الفتن يجهدون ويجدون في إضرام نارها رجالاً وفرساناً فالرجل كنّى عنهم بالقائد والفرسان كنّى عنهم بالراكب، وقوله:

[**أهلها قوم شديد كلبهم**] أشي: شدّتهم وشرّهم وإذا هم [**قليل سلبهم**] أي: همّتهم القتل لا السلب، نّى بقائدها عن أعوانها، وراكبها عن منشئها المتبوع فيها، وبحفزها وجهدها عن سرعتهم فيها قتل أهلها إشارة إلى الزنج وظاهر شدّة كلبهم وقلّة سلبهم إذ لم يكونوا أصحاب حرب وعدّة وخيل كما يعرف ذلك من قصّتهم المشهورة.

ثمّ وصف ﷺ مقاتلتهم في اللّه وجهادهم في سبيله بقوله: [**يجاهدهم في اللّه قوم أذلّة عند المتكبّرين**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾ وذلك من صفات المؤمنين.

ثمّ قال: [**هم في الأرض مجهولون**] أي: ليسوا من أبناء الدنيا المعروفين فيها [**وفي السماء معروفون**] لكونهم من أهل العلم والإيمان يعرف ربّهم بطاعته وتعرفهم الملائكة بعبادة ربّهم.

ثمّ أرف ذلك باخبار البصرة مخاطباً لها والمراد أهلها بما يقع بها من فتنة الزنج فقال: [**فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم اللّه**] للعصاة

لا رهج ولا حسّ وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر

[لا رهج] أي: لا غبار له [ولا حسّ] ولا صوت.

[وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر] قيل: إنّه إشارة إلى فتنة الزنج وظاهر أنّه لم يكن لهم غبار ولا أصوات إذ لم يكونوا أهل خيل ولا قعقعة لجم فإذن لا رهج ولا حسّ وظاهر كونهم من نقم اللّه للعصاة وإن عمّت الفتنة إذ قلّما تحصل النازلة بقوم دون قوم كما قال تعالى: ﴿واتّقوا فتنةً لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾.

والموت الأحمر إشارة إلى قتلهم بالسيف من قبل الزنج أو من قبل غيرهم ووصفه بالحمرة كناية عن شدّته، وذلك أنّ أشدّ الموت ما كان سفك الدم، وقد فسّره عليه السلام بهلاكهم من قبل الغرق وهو أيضاً في غاية الشدّة لاستلزامه زهوق الروح وكذا وصف الأغبر لأنّ أشدّ الجوع ما اغبرّ معه الوجه وقيل لأنّه يلصق بالغبراء وهي الأرض.

قال المحقّق البحراني: وقد أشار عليه السلام إلى هذه الفتنة في فصل من خطبة خطب بها عند فراغه من حرب البصرة وفتحها وهي خطبة طويلة حكينا منها فصولاً لا تتعلّق بالملاحم من ذلك فصل يتضمّن حال غرق البصرة، فعند فراغه من ذلك الفصل قام إليه الأحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين ومتى يكون ذلك؟

قال: يا أبابحر إنّك لن تدرك ذلك الزمان وانّ بنيك وبينه قروناً، ولكن ليبلغ الشاهد منكم الغائب عنكم لكي تبلغوا اخوانهم إذا هم رأوا البصرة قد تحوّلت اخصامها دوراً وآجامها قصوراً فالهرب الهرب فإنّه لا بصيرة لكم يومئذ.

. . . .

ثمّ التفت عن يمينه فقال: كم بينكم وبين الأبله؟ فقال له المنذر بن الجارود: فداك أبي وأمّي أربعة فراسخ.

قال: صدقت، فوالذي بعث محمّداً وأكرمه بالنبوّة وخصّه بالرسالة وعجّل بروحه إلى الجنّة لقد سمعت منه كما تسمعون منّي أن قال: يا عليّ هل علمت أنّ بين التي تسمّى البصرة والتي تسمّى الأبله أربعة فراسخ سيكون في التي تسمّى الأبله موضع أصحاب العشور يقتل في ذلك الموضع من أمتي سبعون ألف شهيد هم يومئذ بمنزلة شهداء بدر يقال له المنذر.

يا أميرالمؤمنين ومن يقتلهم فداك أبي وأُمّي؟!

قال: يقتلهم إخوان الجنّ وهم جبل كأنّهم الشياطين سود ألوانهم منتنة أرواحهم شديد كلبهم قليل سلبهم طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ينفر لجهادهم في ذلك الزمان قوم هم أذلّة عند المتكبّرين من أهل ذلك الزمان مجهولون في الأرض معروفون في السماء تبكي السماء عليهم وسكّانها والأرض وسكّانها.

ثمّ هملت عيناه بالبكاء ثمّ قال: ويحك يا بصرة! ويلك يا بصرة من جيش لا رهج له ولا حسّ، قال له المنذر: يا أميرالمؤمنين وما الذي يصيبهم من قبل الغرق ممّا ذكرت وما الريح وما الويل فقال: هما بابان فالويح باب الرحمة والويل باب عذاب يابن الجارود! نعم ثارات عظيمة منها عصبة يقتل بعضها بعضاً ومنها فتنة يكون بها إخراب منازل وخراب ديار وانتهاك أموال وقتل رجال وسبي نساء يذبحن ذبحاً يا ويل أمرهنّ، حديث عجيب أن يستحلّ بها الرجال الأكبر الأعور الممسوخ العين اليمنى والأخرى كأنّها

. . . .

ممزوجة بالدم لكأنّها في الحمرة علقة تأتي الحدقة كهيئة كهيئة حبّة العنب الطافية على الماء فيتبعها من أهلها عدّة من قتل بالأبله من الشهداء أناجيلهم في صدورهم يقتل من يقتل ويهرب من يهرب، ثمّ رجف ثمّ قذف ثمّ خسف ثمّ الجوع الأغبر ثمّ الموت الأحمر وهو الغرق يا منذر إنّ للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأول لا يعلمها إلاّ العلماء، منها الخزينة، ومنها تدمر، ومنها المؤتفكة.

يا منذر والذي فلق الحبّة وبرء النسمة لو أشاء لأخبرتكم بخراب العرصات عرصة عرصة متى تخرب ومتى تعمر بعد خرابها إلى يوم القيامة وإنّ عندي من ذلك علماً جمّاً وإن تسألوني تجدوني به عالماً لا أُخطيء منه علماً، ولقد استودعت علم القرون الأُولى وما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال: فقام إليه رجل فقال: يا أميرالمؤمنين! أخبرني عن أهل الجماعة ومن أهل الفرقة ومن أهل السنّة ومن أهل البدعة؟

فقال: ويحكم إذا سألتني فافهم عنّي ولا عليك أن تسأل أحداً بعدها! أمّا أهل الجماعة فأنا ومن اتبعني وإن قلّوا وذلك الحقّ من أمر اللّه وأمر رسوله، وأمّا أهل الفرقة فالمخالفون لي ولمن اتّبعني وإن كثروا، وأمّا أهل السنّة فالمتمسّكون بما سنّه اللّه ورسوله لا العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا، وقد مضى الفوج وبقيت أفواج وعلى اللّه قصمها واستئصالها عن جديد الأرض وباللّه التوفيق.

انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين عنها والله عمّا قليل تزيل الثاوي الساكن وتفجع المترف الآمن لا يرجع ما تولّى منها فأدبر ولا يدري ما هو آت منها فينتظر سرورها مشوب بالحزن وجلد الرجال فيها منسوب إلى

ومن خطبة له عليه السلام

[انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين] أي: المعرضين **[عنها]** والغرض التزهيد في الدنيا والتحذير منها وأمرهم أن ينظروا إليها نظر الزاهدين عنها فيها المعرضين عنها وأن يتركوها ويحقّروها إلاّ بقدر الضرورة.

وأشار إلى ذكر معايبها المنفّرة عنها بقوله:

[والله عمّا قليل تزيل الثاوي الساكن] (ما) زائدة في (عمّا قليل) والثاوي: المقيم، أي: تُزيل المقيم بها المطمئن إليها عمّا ركن إليه منها.

[وتفجع المترف] المتنعّم بها، الذي خدعته بأمانيها **[الآمن]** فيها بسلب ما ركن إليه وأمن عليه **[لا يرجع ما تولّى منها فأدبر]** من شباب وصحّة ومال وعمر ونحوه.

[ولا يدري] أي: لا يعلم **[ما هو آت]** بعد ذلك **[منها]** من مصائبها **[فينتظر]** ويحترز منه.

[سرورها مشوب بالحزن] إذ لا يعدم الإنسان في كلّ آن فوت مطلوب او فقد محبوب **[وجلد الرجال]** أي: قوّة أهلها وجلدهم **[فيها منسوب إلى**

الضعف فلا تغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها قليل لم يكن وكأنّ ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل وكلّ معدود منقض

الضعف] والوهن كما قال تعالى: ﴿ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة﴾ **[فلا تغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها]** اشار به إلى الكفن ونحوه كما قيل:

فما تزوّد ممّا كان يجمعه   إلّا حنوطاً غداة البين في خرق
وغير نفحة أعواد شبين له   وقلّ ذلك من زاد لمنطلق

ثمّ جعل التفكّر علّة للاعتبار وجعل الاعتبار علّة الابصار فقال:

[رحم اللّه امرء تفكّر فاعتبر] وانتقل ذهنه إلى ما هو الحقّ من وجوب ترك الدنيا والعمل للآخرة.

[واعتبر فأبصر] فاده ذلك الانتقال إدراكاً للحق وشاهدة ببصر البصيرة له.

[فكأنّ ما هو كائن في الدنيا عمّا قليل لم يكن وكأنّ ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل] والمراد بالقليل الأوّل الزمان القصير هو انقضاء الأجل وحضور الموت، وفي الثاني قيام الساعة وحضور القيامة وإن كانت تأتي بعد زمان طويل إلّا انّ الميّت لا يحسّ بطوله ولا فرق بين الف الف سنة عنده إذا عاد حيّاً وبين يوم واحد لأنّ الشعور بالبطؤ في الزمان مشروط بالعلم بالحركة كما يدلّ على ذلك حال النائم، ونبّه بقوله:

[وكلّ معدود منقض] على انقضاء مدد الأعمار لكونها معدودة الأيّام والساعات والأنفاس، وقوله:

رحم اللّه امرء تفكّر فاعتبر واعتبر فأبصر فكأنّ ما هو كائن في الدنيا عمّا وكلّ متوقّع آت وكلّ آت قريب دان العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره إنّ من أبغض الرجال إلى اللّه لعبد وكِلهُ اللّه إلى نفسه حائر عن قصد السبيل سائرٌ بغير دليل

[وكلّ متوقّع آت وكلّ آت قريب دان] وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظري في صورة الضرب الأوّل من الشكل الأوّل ونتيجته فكلّ متوقّع قريب دان، والإشارة بها إلى الموت وما بعده.

ومنها:

[العالم من عرف قدره] أي: مقداره من ملك اللّه ومحلّه من ـــــ وخصّ العالم فيمن عرف قدره لأنّ ذلك يستلزم معرفته لنفسه ونسبتها إلى العالم ومقدار مرتبه من خلق اللّه وفي ذلك تمام العلم ويلزم من ذلك أنّ من لا يعرف قدره لا يكون عالماً لأنّ سلب اللازم يستلزم سلب الملزوم فيكون إذا جاهلاً وأشار إلى قوّة ذلك الجهل بقوله **[وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره]** وقوله:

[إنّ من أبغض الرجال إلى اللّه لعبد وكِلهُ اللّه إلى نفسه] أي: لم يمدّه بالطاقة وفضله وتأييداته لعلمه بأنّ ذلك لا ينجع فيه ولا يجذبه إلى الخير والطاعة **[حائر]** أي: عادل **[عن قصد السبيل]** والطريق السويّ، ولمّا كان هذا الشقي خابطاً فيما يعتقد ويذهب إليه مستنداً إلى الجهل وفساد النظر قال:

[سائرٌ بغير دليل] والدليل كناية عن أئمّة الهدى المرشدين إلى اللّه والكتاب والسنّة وإنّ من سار في أُمور معاده ومعاشه بغير دليل منهما كان

إن دُعي إلى حرث الدنيا عمل وإن دُعي إلى حرث الآخرة كسل كأنّ ما عمل به واجب عليه وكأنّ ما ونى فيه ساقط عنه وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كلّ مؤمن نومة إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد أُولئك

من الهالكين وقوله:

[إن دُعي إلى حرث الدنيا عمل وإن دُعي إلى حرث الآخرة كسل] والمراد بالحرث هنا كلّما فعل ليثمر فائدة، فحرث الدنيا كالتجارة والزراعة، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المحرّمات، واستعار الحرث لذلك للمشابهة من كونها مستلزمة للمكاسب الأُخروية والدنيوية كما أنّ الحرث كذلك.

ثمّ شبّه ما عمل له من حرث الدنيا بالواجب عليه من مبادرته إليه ومواظبته عليه وشبّه ما قصر عنه من حرث الآخرة بالساقط عنه فرضه في تكاسله وقعوده عنه مع أنّ الأمر فيه ينبغي أن يكون بالعكس فقال: **[كأنّ ما عمل به واجب عليه وكأنّ ما ونى فيه]** أي: فتر **[ساقط عنه]** أي: غير واجب عليه لإهماله وتحقيره وكسل الرجل بكسر السين أي: تثاقل عن الأُمور فهو كسلان.

ومنها:

[وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كلّ مؤمن نومة] أي: كثير النوم، كناية عن خامل الذكر بين الناس مشتغل بربّه عنهم وفسّر بقوله:

[إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد أُولئك] الذين كانوا بهذه الصفة.

مصابيح الهدى وأعلام السرى ليسوا بالمسابيح ولا المذابيح والا المذاييع البذر أُولئك يفتح اللّه لهم أبواب رحمته ويكشف عنهم ضرّ نقمته أيّها الناس! سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه ايّها الناس! إنّ اللّه قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم يعذّبكم من أن يبتليكم وقد قال جلّ من قائل إنّ في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتلين

[**مصابيح الهدى**] لكونهم أسباب الهداية في سبيل اللّه [**وأعلام السرى**] تأكيد لما سبق [**ليسوا بالمسابيح ولا المذابيح والا المذاييع البذر**] سيأتي تفسيره في كلام السيّد (رحمه اللّه).

[**أُولئك يفتح اللّه لهم**] وفي رواية بهم أي: ببركاتهم [**أبواب رحمته ويكشف عنهم ضرّ نقمته أيّها الناس! سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه**] أي: يقلب ويكبّ، وربّما قيل أكفأته أيضاً إشارة إلى فساد أهل الزمان وما يكون فيه من الفتن وشبّه قلبهم للزمان بقلب الإناء بما فيه، ووجه الشبه خروج الإسلام عن كونه منتفعاً به بعد تركهم للعمل به كما يخرج ما في الإنشاء الذي كبّ عن الانتفاع فإنّ الزمان للإسلام كالإنشاء للماء، وأشار إلى أنّ ذلك ليس بظلم بقوله:

[**ايّها الناس! إنّ اللّه قد أعاذكم من أن يجور عليكم**] ويظلمكم ونفى ذلك عنه بقوله: ﴿وما ربّك بظلاّم للعبيد وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

[**ولم يعذّبكم من أن يبتليكم**] ويعاملكم معاملة المختبر.

[**وقد قال جلّ من قائل إنّ في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتلين**] وقال: ﴿احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ولقد فتنّا الذين من

أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه بعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله وليس أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدعّي نبوّة ولا وحياً فقاتل بمن أطاعه من عصاه يسوقهم إلى منجاتهم اللّه ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم

قبلهم فليعلمنّ اللّه الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾ وقال: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنا إليه راجعون أُولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأُولئك هم المهتدون﴾ وقد مرّ معنى ابتلاء اللّه لخلقه واختبارهم وامتحانهم.

ومن خطبة له عليه السلام
وقد تقدّم مختارها بخلاف هذه الرواية

[**أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه بعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله وليس**] أي: والحال انّه ليس [**أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدعّي نبوّة ولا وحياً**] أي: في زمانه وما قاربه فلا ينافي كون هود وصالح وشعيب من انبياء العرب لبعدهم من زمانه وأمّا خالد بن سنان فإن ثبتت نبوّته فهي كنبوّة جماعة من بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع وإنّما ينهون عن الشرك ويامرون بالتوحيد.

[**فقاتل بمن أطاعه من عصاه يسوقهم إلى منجاتهم**] أي: إلى الإسلام الذي هو محلّ نجاتهم من عذاب.

[**اللّه ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم**] كانّه يخاف أن تسبقه القيامة فهو

يحسر الحسير ويقف الكسير فيعتم عليه حتّى يلحقه غايته إلّا هالكاً لا خير فيه وبوئهم محلَّتهم فاستدارت رحاهم

يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم وهم على ضلالهم.

ثمّ أشار ﷺ إلى وصفه ﷺ بالشفقة على الخلق في حال أسفارهم معه في الغزوات ونحوها بقوله:

[**يحسر الحسير**] وهو الذي أعيا في طريقه.

[**ويقف الكسير**] الذي انكسر مركوبه فلايزال يلطف به حتّى يُبلغه أصحابه.

[**فيعتم عليه حتّى يلحقه غايته**] ويوصله إلى مطلوبه ومقصوده [**إلّا هالكاً لا خير فيه**] ممّن لا يمكن إيصاله ولا يرجى نجاته، وقيل إنّ ذلك من باب الاستعارة والمجاز والمعنى كأنّ النبي ﷺ لحرصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ورأفته بهم يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده أو عرضت له شبهة أو حدث عنده ريب فلايزال يوضح له ويرشده حتّى يزيل ما خامل سرّه من وساوس الشيطان ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين ولم يكن ليقصّر في مراعاة أحد من المكلّفين في هذا المعنى إلّا من كان يعلم أنّه لا خير فيه أصلاً لعناده وإصراره على الباطل ومكابرته للحقّ كأبي لهب وابي جهل ونحوهما.

وقوله: حتّى يلحقه غايته، أي: حتّى يوصله إلى الغاية التي هي الغرض بالتكليف، يعني اعتقاد الحق وسكون النفس إلى الإسلام وهو أيضاً معنى قوله:

[**وبوئهم محلَّتهم**] وقوله: [**فاستدارت رحاهم**] أي: انتظم أمرهم، إنّ الرحى إنّما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها وهي أيضاً معنى قوله:

واستقامت قناتهم وأيم اللّه لقد كنت من ساقها حتّى تولّت بحذافيرها واستوسقت في قيادها ما ضعفت ولا جبنت ولا حنت ولا وهنت وأيم اللّه لأبقرن الباطل حتّى أخرجُ الحقّ من خاصرته

[**واستقامت قناتهم**] وكلّ ذلك من باب الاستعارة.

ثمّ أقسم عليه السلام بقوله:

[**وأيم اللّه لقد كنت من ساقها**] جمع سائق كقادة جمع قائد وحاكة جمع حائك ومرجع الضمير الجاهليّة المدلول عليها بالمقام وإن لم تذكر لفظاً كأنّه جعلها كمثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه حتّى فرت وأدبرت وأتبعها يسوقها سوقاً وهي مولّية بين يديه [**حتّى تولّت**] أي: أدبرت [**بحذافيرها**] أي: كلّها عن آخرها [**واستوسقت**] أي: اجتمعت الملّة الإسلامية والدعوة المحمّدية [**في قيادها**] كما تستوسق الإبل المفردة إلى إعطائها ويجوز أن يرجع ضمير استوسقت إلى الجاهلية أي ولّت بحذافيرها واجتمعت كلّها تحت ذلّ المقادة إشارة إلى طاعة من أطاع من العرب وانقاد للإسلام واستعار لفظ الإنسان والقيادة ملاحظة لتشبيههم بالإبل المجتمعة لسائقها والمنتظمة في قياده لها.

ثمّ قال عليه السلام: [**ما ضعفت ولا جبنت ولا حنت ولا وهنت**] يعني ذلك الوقت الذي حاربت فيه أو المراد أنا ذلك الشجاع الذي فعلت كذا وكذا ولم يعرض لي جبن ولا ضعف ولا وهن بل أنا باق على تلك الحال ويوضحه قوله:

[**وأيم اللّه لأبقرن الباطل حتّى أخرجُ الحقّ من خاصرته**] كأنّه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحقّ غالباً عليه ومحيطاً به فإذا بقر ظهر الحقّ

حتّى بعث اللّه محمّداً صلّى اللّه عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً لهم خير البريّة طفلاً وأنجبها كهلاً

الكامن فيه، استعار لفظ الخاصرة للباطل ورشح تلك الاستعارة بذكر البقر ملاحظة لشبهه بالحيوان المبتلع ما هو أعزّ قيمة منه وكنّى به عن تميّز الحقّ منه.

ومن خطبة له ﷺ:

[**حتّى بعث اللّه محمّداً صلّى اللّه عليه وآله شهيداً**] يشهد على الأمّة بما فعلته من طاعة أو معصية إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وحتّى غاية للفصل السابق حيث ذكر ما كانوا عليه من سوء الحال والقشف والفقر فقال: حتّى منّ اللّه عليه ببعثة النبي ﷺ شهيداً.

[**وبشيراً**] للخلق بما أعدّ لهم من الثواب العظيم.

[**ونذيراً لهم**] بما اعدّ للعصاة من العقاب الجسيم وينظم هذه الأوصاف قوله تعالى: ﴿إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً﴾ [**خير البريّة طفلاً**] إذ كان ﷺ حال طفوليّته وصباه جامعاً للمكارم التي لا تخفى والفضائل التي لا تستقصى مما لا يوجد عند الكهول.

[**وانجبها كهلاً**] يقال: رجل نجيب أي: كريم، وقد كان ﷺ في كهوليّته ودعوته للناس منبع كلّ فضيلة واصل كلّ خصلة حسنة، كان أنجب

أطهر المطهّرين شيمة وأجود المستمطرين ديمة فما احلولت لكم الدنيا في لذتها ولا تمكّنتم من رضاع أخلاقها

الناس كهلاً، وكهلاً وطفلاً منصوبان على الحال.

[أطهر المطهّرين شيمة] أي: خلقاً إذ هو ﷺ متمّم مكارم الأخلاق الطاهرة ومحاسن الشيم الفاخرة وكلّ خلق حسن فمنه أخذ وإليه انتهى فلا جرم كان أطهر الشيمة وأكرم الخلق.

[وأجود المستمطرين ديمة] الديمة مطر يدوم والمستمطرون المستجدون، استعار للنبي ﷺ وصف السحاب المرجو منه نزول الديمة وهي المطر الذي لا رعد فيه ولا برق ورشح بلفظ الديمة وكنّى بذلك عن غاية جوده وكرمه وقد كان ﷺ لا يبيت عنده شيء ولا يأوي إلى منزله وعنده شيء من ذهب أو فضّة حتّى ينفقه.

[فما احلولت لكم] الخطاب لبني أُميّة ونحوهم بأنّه ما حلت **[الدنيا]** بأعينهم.

[في لذتها ولا تمكّنتم من رضاع أخلاقها] جمع خلف جملة ضرع الناقة وهو استعارة بالكناية عن وجوه مكاسب الدنيا ولذّاتها ورشح تلك الاستعارة بذكر الرضاع وكنّى به عن تناولهم لها ملاحظة لتشبيهه بالناقة.

والمقصود أنّ اللّه بعث محمّداً ﷺ وهو أكرم الناس شيمة وأنداهم يداً وخيرهم طفلاً وانجبهم كهلاً وصانه اللّه في أيّام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا وأكرمه عن ذلك فلم تفتح عليكم البلاد،

ولا درّت عليكم الأموال ولا أقبلت الدنيا نحوكم ودالت الدول عليكم على حدّه فتمكّنتم من أكلها والتمتّع بها كما يتمكّن الحالب من

إلّا من بعده صادفتموها جائلاً طامها قلقاً وضينها قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود وعلا لها بعيداً غير موجود

إخلاف الناقة فيجلبها وما حلت لذّاتها لكم **[إلّا من بعده صادفتموها]** أي: وجدتموها **[جائلاً طامها]** جائلاً من الجولان، الخطام: زمام الناقة خطمت البعير زممته وناقة مخطومة **[قلقاً]** أي: مضطرباً **[وضينها]** الوضين: الهودج بمنزلة البطان للقتب والتصدير للوصل والحرام للسرج وهو سيور تنسج مضاعفة بعضها على بعض يشدّ بها الهودج منه إلى بطن البعير والجمع وضن استعار عليه السلام لها لفظ الخطام والوصين ورشّحهما بالقلق والجولان وكنّى بذلك عن مصادفتهم للدنيا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله غير منظومة الحال ولا مضبوطة على ما ينبغي لضعف ولاتها عن إصلاح حالها كما أنّ الناقة القلقة الخرام الجائلة الخطام غير منظومة الآلة ولا مضبوطة الحالة فهي بمعرض أن تمشي وتنصرف على غير استقامة فهلك راكبها.

ثمّ ذكر عليه السلام رذيلة القوم فقال:

[قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود] أي: الذي خضد شوكه ووجه شبه الخرام بالسدر المخضود أنّ نواهي اللّه ووعيداته على فعل المحرّمات يجري مجرى الشوك للسدر في كونها مانعة منه كما يمنع شوك السدر جانبه من تناول ثمرته ولما كان بعض الامة قد طرح اعتبار النواهي والوعيد جانباً عن نفسه وفعل ما حرّم عليه جرى ذلك عنده مجرى تناوله للسدر الخالي عن الشوك في سهولة تناوله والإقدام عليه وقوله:

[وعلا لها بعيداً غير موجود] أي: بين أولئك المشار إليهم وجائلاً وقلقاً حالان وقوله:

وصادفتموها والله ضلاً ممدوداً إلى أجل معدود فالارض لكم شاغرة وأيديكم فيها مبسوطة وأيدي القادة عنكم مكفوفة وسيوفكم عليهم مُسلّة وسيوفهم عنكم مقبوضة

[وصادفتموها والله ضلاً ممدوداً إلى أجل معدود] استعار لفظ الظلّ لها ورشح بالممدود وكنّى بذلك عن زوالها بعد حين تهديداً لهم به.

[فالأرض لكم شاغرة] أي: خالية، موشغر المكان أي: خلا، وبلدة شاغرة برجلها إذا لم تمتع من غارة أحد، كنّى بذلك عن خلوّها لهم أو أنّه أراد أنّ الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية عن معنى، كما قال الشاعر:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلّهم ... اللّه يعلم أنّي لم أقل فندا
إني لأفتح عيني ثمّ أغمضها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

ثمّ أعاد عليه السلام الشكوى والتألّم فقال:

[وأيديكم فيها مبسوطة] كناية عن قدرتهم على التصرّف.

[وأيدي القادة] أي: الخلفاء **[عنكم مكفوفة]** مع كونهم مستحقّي الرئاسة ومستوجبي الإمرة.

[وسيوفكم عليهم] أي: على القادة والرؤساء **[مُسلّة وسيوفهم عنكم مقبوضة]** لعدم تمكّنهم منكم.

قال ابن أبي الحديد: كأنّه يرمز إلى ما سيقع من قتل الحسين عليه السلام وأهله وكأنّه يشاهد ذلك عياناً ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذي سنح له والأمر الذي كان أُخبر به.

ثمّ أشار عليه السلام إلى تهديد بني أميّة باللّه وتخويفهم بأخذه وعقابه فقال:

ألا إنّ لكلّ دم ثائراً ولكلّ حقّ طالباص وإنّ الثائر في دمائنا كالحاكم في حقّ نفسه وهو اللّه الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب فأُقسم باللّه يابني أميّة عمّا قليل لنعرفها في أيدي غيركم وفي دار عدوّكم

[**ألا إنّ لكلّ دم ثائراً**] يطلب القود.

[**ولكلّ حقّ طالباص وإنّ الثائر في دمائنا**] والطالب بحقّنا.

[**كالحاكم في حقّ نفسه**] إذ ثارهم حقّ ثابت للّه يطلب ولا يهمل وهو الحاكم المطلق، فلذا استعار له تعالى لفظ الثائر، وإنّما قال: كالحاكم، لأنّ إطلاق لفظ الحقّ للّه ليس بحقيقة إذ الحق من شأنه أن ينتفع بأخذه ويتضرّر بتركه والباري تعالى منزّه عن تلك، لكن لما جرى ذلك الدم مجرى الحق له تعالى فأشبه الحاكم منّا في استيفاء الحق.

[**وهو اللّه الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب**] فلا تهدر دمائنا ولا تضيع حقوقنا.

[**فأقسم باللّه يابني أميّة عمّا قليل**] أي: عن مضي زمان قليل [**لنعرفها**] أي: الدنيا أو امرتها [**في أيدي غيركم وفي دار عدوّكم**] وقد ظهر صدق قوله عليه السلام حيث انّ الأمر بقي في ايدي بني أُميّة قريباً من تسعين سنة ثمّ عاد إلى بني العباس وانتقم اللّه منهم على يد أشدّ الناس عداوة لهم فقد سار عبداللّه بن علي بن عبداللّه بن العباس في جمع عظيم للقاء مروان بن محمدبن مروان وهو آخر الأمويين فالتقيا بالزاب من أرض الموصل ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة فهزم مروان واستولى على عسكره وقتل من اصحابه خلقاً عظيماً ومروان هراباً إلى الشام وعبداللّه يتبعه، فسار إلى مصر

ألا إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفة، ألا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبله أيّها الناس! استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متّعظ وامتاحوا من صفو عين قد روّقت من الكدر

فاتّبعه بجنوده فقتله وقتل خواصّه وبطانته ولم يزل الأمر كذلك حتّى استؤصل بنو أُميّة وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد للّه ربّ العالمين.

ثمّ شرع عليه السلام في التنبّه على الفكر في تحصيل السعادة الباقية فقال:

[**ألا إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفة، ألا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبله**] أي: إنّ أفضل أبصار البصر وسماع السماع ما عاد على المبصر والسامع بالفائدة المطلوبة منهما وهي تحصيل الكمالات النفسانية من العلوم والأخلاق.

ثمّ نبّه عليه السلام بعد هذا على المقصود من قبول قوله ونصحه فقال:

[**أيّها الناس! استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متّعظ**] استعار عليه السلام لنفسه الشريفة الصباح ورشح بذكر الشعلة والاستصباح لكونه مقتدى به كالمصباح، وأشار بذلك إلى أنّ شرط التأثير من الواعظ أن يكون متّعظاً في نفسه وإلّا نفرت القلوب عنه واشمأزّت النفوس منه فيدخل في قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾ وفي قوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُر مقتاص عند اللّه ان تقولوا ما لا تفعلون﴾.

قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ثم قال: [**وامتاحوا من صفو عين قد روّقت من الكدر**] الامتياح نزول البئر وملأ الدلاء منها، استعار لفظ العين ورشح بذكر الصفو والترويق

عباد اللّه لا تركنوا إلى جهالتكم ولا تنقادوا إلى أهوائكم الباطلة، فإنّ النازل بهذا المنزل نازل بشفا جرف هار ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع

والمتح إشارة إلى كون العلم المستفاد منه مادّة الحياة الأبديّة كما أنّ ماء العين مادّة الحياة الدنيويّة وكنّى بترويقها عن الكدر عن رسوخه فيما علم بحيث لا يتطرّق إليه فيه شبهة تكدّر يقينه وهو أمر لهم بالاهتداء به وأخذ العلوم أصولها وفروعها عنه.

ثمّ أردف ذلك النهي عن الجهل في قوله:

[**عباد اللّه لا تركنوا إلى جهالتكم ولا تنقادوا إلى أهوائكم الباطلة، فإنّ النازل بهذا المنزل**] الراكن إلى الجهالة والمنقاد إلى الأهواء

[**نازل بشفا جرف هار**] هار الجرف يهور هوراً وهووراً فهو هائر، وقالوا: هار خفضوه في موضع الرفع كقاض، أرادوا هائر مقلوب من الثلاثي إلى الرباعي كما قلبوا شائج السلاح إلى شاكي وهو ربّه فتهوّروا نهار أي: انهدم والجرف الطرف استعارة لآرائهم الفاسدة حيث لم تبن على نظام العقل ولا على قانون الشرع، فكانت منهارة لا يبنى عليها إلاّ ما كان بصدد أن ينهار وكان المشير بها واقفاً على شفا جرف هار، قال تعالى: ﴿أم من أسّس بنيانه على شفا جرف هار﴾.

وقوله: [**ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع**] الردى: الهلاك، وأراد بنقله من موضع إلى آخر انّ المشير بالرأي عن جهل منه يشير على واحد بما يستلزم إذاه وهلاكه ثمّ ينقل ذلك الرأي المهلك إلى غيره فيكون كناقل الهلاك من واحد إلى آخر.

لرأي يحدثه بعد رأي يريد أن يلصق ما لا يلتصق ويقرّب ما لا يتقارب فالله الله أن تشكوا إلى من لا يُشكي شجوكم ولا من ينقض برأيه ما قد برم لكم

[لرأي يحدثه بعد رأي] ولم يزل يحدث رأياً فاسداً بعد رأي فاسد فهو ساع في ضلال يروم أن يحتج بما لا سبيل إثباته وينصر مذهباً لا انتصار له كما أشار إليه بقوله:

[يريد أن يلصق ما لا يلتصق ويقرّب ما لا يتقارب] وقيل استعار لفظ اللّصق للصلح، أي: يريد أن يصلح بينكم وبين أعدائكم وذلك أمر لا يصلح، ووجه الشبه كون الخصمين في طرفين تجمعهما المصالح ويوجب لهما الاتحاد كما يجمع اللّصاق بين الملتصقين، ويحتمل أن يريد يلصق بكم من الآراء الفاسدة ما لا ينبغي أن يلتصق بكم ويقرّب عليكم البعيد مثلاً يشير عليهم بعدم الحرب والصلح مع معاوية وذلك مخالف للحقّ وكون الرأي يستلزم تفرّق الكلمة فلا يلتصق بالحقّ ولا يليق به ويقرّب ذلك الرأي ما لا يتقارب والطباع.

ثمّ نهاهم وحذّرهم أن يشكوا إلى من لا يزيل شكايتهم ومن لا رأي له في الدين فقال:

[فالله الله] أي: احذروا الله **[أن تشكوا إلى من لا يُشكي]** أي: لا يزيل ولا يدفع **[شجوكم]** أي: حزنكم، أي لا تشكو إلى من لا يدفع عنكم ما تشكون منه.

[ولا من ينقض برأيه] الفاسد وهواه الكاسد **[ما قد برم لكم]** أي: أحكم بالعقل السليم والشرع المستقيم.

إنّه ليس على الإمام إلّا ما قد حمل من أمر ربّه من الإبلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والإحياء للسنّة وإقامة الحدود على مستحقّيها وإصدار السُّهمان إلى أهلها فبادروا العلم من قبل تصويح نبته ومن قبل أن تشتغلوا بأنفسكم عن مستثار العلم عند أهله

ثمّ أردف ذلك بما يجب على الإمام وفائدة ذلك الإعذار إليهم فيما عساهم ينسبونه إليه من تقصير فيركنون إلى غيره في الرأي ونحوه وذكر أموراً خمسة أشار إليها بقوله:

[**إنّه ليس على الإمام إلّا ما قد حمل من أمر ربّه من الإبلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة**] للعباد.

[**والإحياء للسنّة**] سنّة اللّه ورسوله التي درسوها فما من يوم إلّا وتموت فيه سنّة وتحيى فيه بدعة [**وإقامة الحدود على مستحقّيها**] بجناياتهم.

[**وإصدار السُّهمان إلى أهلها**] والسهمان جمع سهم: وهو النصيب الذي يستحقّه المسلم من بيت المال، وقد فعل عليه السلام جميع ذلك وزاد وبلغ الغاية في بيان ما يصلحهم وما يفسدهم.

ثمّ لما سبق نهيه عن الجهل أمر بالمبادة إلى العلم فقال:

[**فبادروا العلم**] أي: إلى أخذ العلم من أهله ومعدنه من عين إضافته وهو نفسه [**من قبل تصويح نبته**] استعار لفظ النبت ورشح بذكر التصويح وكنى به عن عدمه بموته عليه السلام فإنّ تصويح النبات موته.

[**ومن قبل أن تشتغلوا بأنفسكم عن مستثار العلم عند أهله**] أي: من قبل أن تشتغلوا بتخليص أنفسكم من شرور الفتن أي: التي تنزل بهم من بني أميّة ومعاناتها، ومستار العلم ما استيسر منه واستخرج وأهله هو عليه السلام

وانتهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنّما أُمرتم بالنهي بعد التناهي الحمد للّه الذي شرّع الإسلام فسهّل شرائعه لمن ورده وأعزّ أركانه على من غالبه

وأولاده المعصومون.

[وانتهوا عن المنكر وتناهوا عنه] إشارة إلى أنّ النهي عن السيّء إنّما هو بعد الانتهاء عنه ولذا أكّده بقوله:

[فإنّما أُمرتم بالنهي بعد التناهي] لأنّ انفعال الطباع عن مشاهدة الأفعال والاقتداء بها أقوى وأسرع منها عن سماع الأقوال خصوصاً إذا خالفها فعل القائل كما يشهد به العقل والتجربة مضافاً إلى النصوص الشرعية فإنّ قلب السامع مرآة لقلب الواعظ وأُذنه مرآة لأُذنه فإذا صدر الوعظ من القلب ـــــ في القلب وإذا صدر من مجرّد اللسان لم يتجاوز الأذان.

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الذي شرّع الإسلام فسهّل شرائعه لمن ورده] حمد اللّه سبحانه باعتبار ما أنعم به من وضع شريعة الإسلام للعقول السليمة لتسلك بها إليه، وأشار بشرائعه إلى موارد العقول من أركانه وتسهيله لها إيضاح قواعده وخطاباته بحيث يفهمها الفصيح والألكن ويشارك الغبي في ورود مناهلها الفطن الذكي.

[وأعزّ أركانه] بحمايتها **[على من غالبه]** من قصد هدمه وإطفاء نوره مغالبة من المشركين والجاهلين.

فجعله أمناً لمن عقله وسلماً لمن دخله وبرهاناً لمن تكلّم به وشاهداً لمن خاصم به ونوراً لمن استضاء به وفهماً لمن عقل ولبّاً لمن تدبّر

ثمّ شرع عليه السلام في مدح الإسلام ووصفه بأوصاف فقال:

[**فجعله أمناً لمن عقله**] أي: أمناً لمن تعلّق به في الدنيا من القتل وأخذ المال وفي الآخرة من العذاب.

[**وسلماً لمن دخله**] أي: مسالماً له وفي الأوّل ملاحظة لتشبيهه بالحرم باعتبار دخوله، وفي الثاني ملاحظة الشبهة بالمغالب من الشجعان باعتبار مسالمته، ومعنى مسالمته الاستسلام له كونه محقون الدم مقرراً على ما كان يملكه فكان الإسلام سالمه أو صالحه لكونه لا يقضي ما يؤدّيه بعد دخوله فيه.

[**وبرهاناً لمن تكلّم به**] أي: فيه ما هو برهان.

[**وشاهداً لمن خاصم به**] والشاهد أعمّ من البرهان لتناول الجدل والخطابة.

[**ونوراً لمن استضاء به**] استعار لفظ النور ورشحه بذكر الاستغناء به ووجه الشبه كونه مقتدر به في طريق اللّه إلى جنته.

[**وفهماً لمن عقل**] لما كان بالفهم عبارة عن جودة الذهن لقبول ما يرد عليه وكان الدخول في الإسلام ورياضة النفس بقواعده وأركانه سبباً عظيماً لتهيئة الذهن لقبول الأنوار الإلهيّة وفهم الأسرار، وأطلق عليه لفظ الفهم مجازاً إطلاق المسبب على السبب.

[**ولبّاً لمن تدبّر**] أطلق عليه لفظ العقل من إطلاق المسبب على السبب ايضاً، وأريد العقل بالملكة وما فوقه من مراتب العقل فإنّ الإسلام وقواعده

وآية لمن توسّم وعبرة لمن اتّعظ ونجاةً لمن صدق وثقة لمن توكّل وراحة لمن فوّض وجُنّة لمن صبر فهو أبلج المناهج واضح الولائج

ما قوى الأسباب محصول العقل بمراتبه.

[وآية لمن توسّم] أي: تفرّس طريق الخير ومقاصده فإنّ الإسلام آية وعلامة لذلك المتفرّس إذا اهتدى بها فقد وقع في طريق الهدى.

[وعبرة لمن اتّعظ] فإنّ الإسلام نعم المعبر للمتّعظ إلى سبيل اللّه بما فيه من أحوال القرون الماضين والأمم السالفين.

[ونجاةً لمن صدق] أي: صدق الرسول فيما جاء به فإنّ دخوله في الإسلام سبب نجاته من سيوف اللّه في الدنيا وعذابه في الآخرة وأطلق عليه اسم النجاة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب أيضاً.

[وثقة لمن توكّل] إذ هو سبب ثقة المتوكّلين على اللّه لاشتماله على الوعد الكريم وبه يكون استعدادهم للتوكّل.

[وراحة لمن فوّض] أموره كلّها إلى اللّه تعالى وعلم ما لا يعلم منها وترك التكليف به، وقيل بل المراد انّ المسلم إذا كمل إسلامه وفوّض أمره إلى اللّه كفاه اللّه جميع أموره وأراحه من الاهتمام بها.

[وجُنّة] بضم الجيم، أي: وقاية من عذاب اللّه **[لمن صبر]** على العمل بقواعده وأركانه.

[فهو أبلج المناهج] الأبلج: الواضح المشرق، ومناهج الإسلام: طرقه وأركانه الذي يصدق على من سلكها وهي الإقرار باللّه ورسوله والتصديق بما وردت به الشريعة، وظاهر كونها أنواراً واضحة الهدى.

[واضح الولائج] أي: واضح البواطن والأسرار لمن نظر إليه بعين

مشرفة المنار مشرق الجوادِّ مضيء المصابيح كريم المضمار رفيع الغاية جامع الحلبة متنافس السبقة شريف الفرسان

الاعتبار [مشرفة المنار] منار الإسلام: الأعمال الصالحة التي يقتدي بها السالكون كالعبادات الخمس ونحوها، وظاهر كونها مشرفة عالية على غيرها من العبادات السابقة.

[مشرق الجوادّ] وهو قريب من أبلج المناهج [مضيء المصابيح] كنّى به عن علماء الإسلام وأئمّته كناية بالمستعار وشح بذكر الاستضائة وكنّى بها من ظهور العلم عنهم واقتداء الخلق بهم، ويحتمل أن يريد بالمصابيح أدلّة الإسلام كالكتاب والسنّة.

[كريم المضمار] مضمار الإسلام الدنيا وكومها باعتبار اقتباس الأنوار منها والعبور بها إلى اللّه، ولفظ المضمار مستعار.

[رفيع الغاية] إذ غاية الوصول إلى سبيل اللّه ورضوانه ولا غاية أرفع منها ولا مرتبة أعلا منها.

[جامع الحلبة] استعار الحلبة للعتمة فإنّها حلبة الإسلام ووجه الاستعارة كونها محلّ الاجتماع بها للسباق إلى حضرة اللّه التي هي الجنّة كاجتماع الخيل في الحلبة للسباق إلى الرهن.

[متنافس السبقة] لأنّ سبقته الجنّة وهي أشرف ما يتنافس فيها.

[شريف الفرسان] استعار الفرسان لعلمائه الذين هم فرسان العلوم ورجالها ملاحظة لشبهه بالفرس الجواد الذي لا يجارى راكبه والحلبة الخيل المجموعة للمسابقة والمضمار موضع تضمير الخيل أو زمان تضميرها، والغاية: الراية المنصوبة، وهو هنا خرقة تجعل على قصبة وتنصب في آخر

التصديق منهاجه والصالحات مناره والموت غايته والدنيا مضماره والقيامة حلبته والجنّة سبقته

الذي تنتهي إليه المسابقة كأنّه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم وغايتها رفيعة عالية وحلبتها جامعة جارية وسبقها متنافس فيها وفرسانها أشراف.

ثمّ وصفه عليه السلام بأوصاف أُخرى فقال:

[التصديق منهاجه] أي: طريقه.

[والصالحات مناره] أي: أعلامه.

[والموت غايته] لأنّ الدنيا سجن المؤمن وبالموت يخلص من ذلك السجن ويحظى بالسعادة الأبديّة.

[والدنيا مضماره] كأنّ الإنسان يجري في الدنيا إلى غاية هي الموت وإنّما جعلها مضمار الإسلام لأنّ المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرته فالدنيا له كالمضمار للفرس إلى الغاية المعيّنة.

[والقيامة حلبته] أي: ذات حلبة، فحذف المضاف كقوله تعالى: ﴿هم درجات﴾ أي: ذوو درجات **[والجنّة سبقته]** أي: جزاء سبقه، فحذف أيضاً.

حتّى أورى قبساً لقابس وأنار علماً لحابس فهو أمينك المأمون وشهيدك يوم الدين وبَعيثُكَ نعمةً ورسولك إلى الخلق رحمة

منها في ذكر النبي ﷺ

وذكر جدِّه واجتهاده في إقامة الدِّين وتعظيم شعائر الإسلامي والمسلمين:

[**حتّى أورى**] أي: أشعل [**قبساً لقابس**] والقبس: الشعلة، استعارها لأنوار الدين المشتعلة المضيئة لتقتبس منها قلوب المؤمنين أنوار الهدى.

[**وأنار علماً لحابس**] وهو الواقف بالمكان، استعار لفظ العلم وأسند إليه تنويره لأنّه أظهر أنواراص جعلها أعلاماً يهتدى بها في سبيل اللّه من حبسة ظلمة الحيرة والشبهات عن سلوكها فهو واقف على ساق التحيّر كقوله تعالى: ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ وكنّى بتلك الأعلام عن آيات الكتاب والسنن ويحتمل إرادة أئمّته الدين تنوير قلوبهم بما طهر من نفسه القدسيّة من الكمالات والعلوم.

[**فهو أمينك المأمون**] على وحيك.

[**وشهيدك يوم الدين**] على خلقك كما قال: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وقال: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

[**وبَعيثُكَ**] أي: مبعوثك إلى الخلق [**نعمةً**] عليهم بهدايتهم إلى طرق الهدى وردعهم عن سلوك جادّة الردى.

[**ورسولك**] بالحقّ [**إلى الخلق رحمة**] كما قال: ﴿وما أرسلناك إلاّ

اللّهمّ اقسم له مقسماً من عدلك واجزه مضعّفات الخير من فضلك اللّهمّ أعل على بناء البانين بنائه وأكرم لديك نزله وشرّف لديك منزله وآته الوسيلة وأعطه الثناء والفضيلة

رحمة للعالمين﴾.

[**اللّهمّ اقسم له مقسماً من عدلك**] إشارة إلى أنّ مقتضى عدله تعالى أن يقسم شرف النفوس أشرف الكمالات وأعلا المراتب من حضرته.

[**واجزه مضعّفات الخير من فضلك**] لما دعى له ما يستحقّه زاد على ذلك فدعى له أن يتفضّل عليه بزيادة من فضله فيضاعف له ما يستحقّه من الخيرات.

[**اللّهمّ أعل على بناء البانين بنائه**] أي: شيّد ما بناه من قواعد الدِّين وأساس أحكام الشرع المبين على سائر بناء البانين للشرائع من الرسل قبل، ويحتمل أن يريد ما بناه لنفسه من مراتب الكمال ولفظ البناء مستعار [**وأكرم لديك نزله**].

وهو ما تهيّأ للتنزيل من ضيافته ونحوها أراد ما هيّأ له من الثواب الجزيل والثناء الجميل.

[**وشرّف لديك منزله**] في حضرة القدس في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

[**وآته الوسيلة**] أي: ما يتوسل به إليه ويقرّب منه، وفسّرت بأنّها درجة رفيعة في الجنّة.

[**وأعطه الثناء**] أي: الرفعة.

[**والفضيلة**] التامّة.

واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا نادمين ولا ناكبين ولا ضالّين ولا مفتونين وقد بلغتم من كرامة لكم منزلة تكرم بها امائكم ويوصل بها جيرانكم

[واحشرنا في زمرته] أي: جماعته حال كوننا **[غير خزايا]** بقبائح الذنوب.

[ولا نادمين] على التفريط في جانب اللّه والتقصير في العمل بطاعته.

[ولا ناكبين] أي: ولا منحرفين عن سبيله إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط، لبهوره ومواثيقه التي واثق بها خلقه أن يعبدوه ويخلصوا له الدين.

[ولا ضالّين] عن سواء السبيل.

[ولا مفتونين] بشبهات الأباطيل.

قال السيد (رضي اللّه عنه): وقد مضى هذا الكلام فيما تقدّم إلاّ أنا كرّرناه هاهنا في الروايتين من الاختلاف.

ومنها

في خطاب أصحابه بتذكيرهم المنزلة التي أكرمهم اللّه بها من الإسلام والهداية للإيمان فقال:

[وقد بلغتم من كرامة لكم] بالإسلام بعد أن كنتم مجوساً أو عبّاد أصنام وبلغتم من كرامته إيّاكم **[منزلة]** عظيمة **[تكرم بها امائكم]** وعبيدكم ومن كان مظنّة المهنة والمذلّة.

[ويوصل بها جيرانكم] أي: من التجأ إليكم واستجار بكم من معاهد أو ذمّي فإنّ اللّه تعالى حفظ ذمام المجاورة لكم حتّى عصم دمائهم وأموالهم

يعظمكم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عليه ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ولا لكم عليه إمرة

وصرتم إلى مال.

[يعظمكم من لا فضل لكم عليه ولا يد] ولا نعمة **[لكم عليه]** كالروم والحبشة فإنّهم عظموا بهاء مسلمي العرب لتقمّصهم لباس الدين ولزومهم قاموسه وإظهارهم شعاره.

[ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ولا لكم عليه إمرة] كالملوك الذين في أقاصي البلاد نحو الهند والصين وأمثالها، قيل إنّهم هابوا دولة الإسلام وإن لم يخافوا سطوة سيفهم لأنّه شاع وذاع أنّهم قوم صالحون إذا دعوا اللّه سبحانه لهم وأنّهم يقهرون الأمم بالنصر السماوي وبالملائكة لا بسيوفهم ولا بأيديهم.

قيل: إنّ العرب لما عبرت دجلة إلى القصر الأبيض الشرقي بالمدائن عبرتها في أيام مدّها وهي كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها ولا درع عليها ولا بيض وزبت الفرس بعد رمي شديد منها للفرس بالسهام وهم يعترمون ويحملون ولا تهولهم السهام فقال فلاّح نبطي بيده مسحاة وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسوار من الأساورة معروف بالبأس وشدّة الرماية: ويلكم أمثلكم في سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الخاسرين ولذعه باللّوم والتعنيف فقال له: اقم مسحاتك فأقامها فرماها فخرق الحديد حتّى عبر النصل إلى جانبها الأخرى، ثمّ قال أنظر الآن ثمّ رقى بعض العرب المارّين عليه عشرين سهماً لم يصبه ولا فرسه منها بسهم واحد وإنّه لقريب إليه غير بعيد ولقد كان بعض السّهام تسقط بين يدي الأسوار فقال له بالفارسية:

وقد ترون عهود اللّه منقوضة فلا تغضبون وأنتم لنقض ذم آبائكم تأنفون وكانت أمور اللّه عليكم ترد وعنكم تصدر وإليكم ترجع

أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم؟ قال: نعم.

ثمّ لمّا قرّر نعمة اللّه عليهم أردف ذلك بالتوبيخ لهم على التقصير في أداء واجب حقّه فقال:

[**وقد ترون عهود اللّه منقوضة**] وتسكتون [**فلا تغضبون**] كالراضين بذلك، يشير بذلك إلى بغي البغاة والخوارج وسائر المنكرات التي وقعت من أهل الشام وغيرهم خالفوا فيها أمر اللّه ونكثوا بيعته التي هي عهد من عهود اللّه عليهم فإنّ السكوت على مثل ذلك مع التمكّن من إزالته وإنكاره بالجهاد منكرهم راكبوه والواو في قوله أي: [**وأنتم**] مع ذلك [**لنقض ذم آبائكم تأنفون**] فبالأولى أن تأنفوا لعهود اللّه أن تنقض وذممه أن تحقر.

ثم ذكر تفريطهم وتهاونهم في الأمور التي كان اللّه سبحانه فرضها وجعلهم مصدرها وموردها من أمور الإسلام وأحكامه والتسلّط به على سائر الناس فقال:

[**وكانت أمور اللّه عليكم ترد**] أي: الأحكام الشرعية إليكم ترد منّي ومن تعليمي إيّاكم.

[**وعنكم تصدر**] إلى من تعلّمونه إيّاها من أتباعكم وتلامذتكم.

[**وإليكم ترجع**] بتعلّمها بنوكم واخوتكم من هؤلاء الأتباع التلامذة، ففررتم من الزحف لما أغارت جيوش الشام عليكم وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم.

فمكّنتم الظَّلَمة من منزلتكم وألقيتم إليهم أزمّتكم وأسلمتم أُمور اللّه في أيديهم يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات وأيم اللّه لو فرقوكم تحت كلّ كوكب لجمعكم اللّه لشرّ يوم لهم

[**فمكّنتم الظَّلَمة**] كمعاوية وأصحابه [**من منزلتكم**] تتجاذلكم عنّي.

[**وألقيتم إليهم أزمّتكم**] ولفظ الأزمّة مستعار للأمور التي سلّموها إليهم، كلّ ذلك بالتقصير في جهادهم.

[**وأسلمتم أُمور اللّه في أيديهم**] وهي أحوال بلاد الإسلام [**يعملون بالشبهات**] على وفق آرائهم الفاسدة وآرائهم الباطلة التي يتوهّمونها حججاً فيما يفعلون.

[**ويسيرون في الشهوات**] بالانهماك فيها.

ثمّ أقسم فقال: [**وأيم اللّه لو فرقوكم تحت كلّ كوكب لجمعكم اللّه لشرّ يوم لهم**] تحذير لهم وإنذار بما سيكون من بني أُميّة من جمع الناس في بلائهم وشرورهم وعموم فتنتهم وكنّى باليوم عن مدّة خلافتهم التي كانت شرّ الأوقات على الإسلام وأهله، وإنّما نسب التفريق إليهم والجمع إلى اللّه تقريراً لما سينزل بهم قدره من ابتلائه الخلق بهم فإنّهم لو فرّقوهم في أطراف البلاد لم يغنهم ذلك التفريق عن لحوق قدر اللّه لهم ولم يمنعهم من نزوله بجميعهم بما يراد لهم من الابتلاء بدولة بني أُميّة وشرورها وأحوال دولتهم مع الخلق خصوصاً الصالحين من عباد اللّه ظاهرة.

وقد رأيت جـولتكم وانحـيازكم عن صفـوفكم تحوزكم الجـفاة الطغام وأعراب أهل الشام وأنتم لهاميم العرب ويآفيخ الشرف

ومن خطبة له عليه السلام في بعض أيّام صفّين

وفيه تبكيت لأصحابه بانحيازهم عن صفوفهم فقال:

[**وقد رأيت جولتكم**] أي: دورتكم، والمراد هزيمتكم، فأجمل اللفظ وكنّى عن اللّفظ المنفِّر عادلاً عنه إلى لفظ لا تنفير فيه، كما قال تعالى: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ كناية عن الغائط، وكذا قوله:

[**وانحيازكم عن صفوفكم**] كناية عن الهرب أيضاً، إشارة إلى قوله تعالى ﴿الاّ متحرفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة﴾ قيل وهذا باب من أبواب البيان لطيف وهو حسن التوصّل بإيراد كلام غير مزعج عوضاً عن لفظ يتضمّن جبهاً وتقريعاً.

[**تحوزكم**] أي: تعدل بكم عن مراكزكم [**الجفاة**] جمع جاف [**الطغام**] الأوغاد من الناس.

[**وأعراب أهل الشام وأنتم لهاميم العرب**] جمع لهموم وهو الجواد من الناس [**ويآفيخ الشرف**] جمع: يافون وهو معظم الشيء من ذهب يافوخ اللّيل أي: أكثره، ويجوز أن يريد به اليافوخ وهو أعلى الرأس وجمعه يآفيخ بقرينة ما بعده استعارة لهم إذا كانوا بالنسبة إلى العرب في علوّهم وشرفهم كاليآفيخ بالنسبة إلى الأبدان، وكذا قوله:

والأنف المقدّم والسنام الأعظم ولقد شفى وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم حسّاً بالنّصال وشجراً بالرماح يركب أُولاهم أُخراهم كالإبل الهيم المطرودة ترمى عن حياضها وتذاد عن مواردها

[**والأنف المقدّم والسنام الأعظم**] ووجه الشبه عزّهم وشرفهم كغرّة الأنف وتقدّمه وحسن الوجه بالنسبة إلى باقي الأعضاء كغرّة السنام وعلوّه بالنسبة إلى باقي أعضاء الجمل.

ثمّ أردف ذلك التبكيت والتذكير بالرذيلة فقال:

[**ولقد شفى وحاوح صدري**] والوحاوح الحرق والحرارات [**أن رأيتكم بأخرة**] على وزن فعلة أي: أخيراً [**تحوزونهم**] بالأخرة [**كما حازوكم**] أوّلاً.

[**وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم**] عن مواقفكم [**حسّاً**] أي: قتلاً واستئصالاً وطعناً [**بالنّصال**] بالسيوف أخذاً من قوله تعالى: ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ وروي حشأ بالهمزة من حشأت الرحل أي: أصبت حشاه، وروي بالنضال بالضاد المعجمة وهي المناضلة والمراماة.

[**وشجراً**] أي: طعناً [**بالرماح يركب أُولاهم أُخراهم**] ومقدّمهم تاليهم، أي يشفي حرارة قلبي أن تكونوا بهذه الصفة والغرض من ذلك تثبيتهم على مثل هذه الأفعال في مثل تلك المواقف، وكنّى بوحاوح صدره عمّا كان يجده من التألّم بسبب انقهار أصحابه وغلبة عدوّهم لهم.

ثمّ شبّههم بتضعضعهم وركوب بعضهم لبعض مولّين بالإبل فقال:

[**كالإبل الهيم**] أي: العطاش [**المطرودة ترمى عن حياضها وتذاد**] تطرد [**عن مواردها**] أي: الإبل التي اجتمعت على الحياض لتشرب ثمّ طردت ورميت

وهي خطبة الملاحم الحمد للّه المتجلّي لخلقه بخلقه والظاهر لقلوبهم بحجّته

بالسهام وذيدت عمّا وردته فإنّ طردها على ذلك الاجتماع يوجب لها أن يركب بعضها بعضاً ويقع بعضها على بعض.

ومن خطبة له عليه السلام

[وهي خطبة الملاحم] جمع ملحمة وهي الوقعة العظيمة في الحرب.

[الحمد للّه المتجلّي لخلقه بخلقه] أي: ظهر لمخلوقاته حتّى عرفوه بما خلقه من الآيات والآثار الدالّة على وجوده، ففي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد وقيل انّ تجلّيه يعود إلى جلاء معرفته من مصنوعاته لقلوب عباده حتّى أشبهت كلّ ذرّة من مخلوقاته مرآة ظهر لهم فيها فهم يشاهدونه على قدر قبولهم لمشاهدته وتتفاوت تلك المشاهدة بحسب تفاوت أشعّة أبصار بصائرهم فمنهم من يرى الصنعة أوّلاً والصانع ثانياً ومنهم من يراهما معاً ومنهم من يرى الصانع أوّلاً ومنهم من لا يرى مع الصانع غيره، وعن الحسن عليه السلام ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت اللّه قبله وبعده ومعه وقوله:

[والظاهر لقلوبهم بحجّته] أي: الواضح وجوده ووجوبه لقلوب منكريه بأوهامهم وألسنتهم بقيام حجّته عليهم بذلك من أحكام الصنع وحسن النظام وإتقان التدبير ولذا ترى الناس عند الوقوع في الأهوال وصعاب الأحوال يتوجّهون إليه ويعتقدون أنّ في الخارج مسبّباً لتلك الأسباب بحسب فطرتهم وإن لم يتفطّنوا كما قال تعالى: ﴿ولئن سئلتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ اللّه قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب اللّه وأتتكم

. . . .

الساعة أغير اللّه تدّعون إن كنتم صادقين﴾ بل إيّاه تدّعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون وأظهر الموجودات هو اللّه كما قال: ﴿اللّه نور السموات والأرض﴾.

والنور هو الذي به تدرك الأشياء، فالعارفون يعرفون الأشياء باللّه إذ هي أظهر شيء لا أنّهم يستدلّون بخلقه عليه ويعرفونه بخلقه كما قال سيّد الشهداء: «سبحانهك كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعُدتَ حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباص وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً».

وقال عليه السلام: «تعرَّفتَ لكلّ شيء فما جهلك شيء» وتوضيح ذلك أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب ويخيّط مثلاص كأن كونه حيّاً من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة وإن لم يتعلّق بها حسّ البصر ووجود اللّه وقدرته وعلمه وسائر صفاته تشهد له بالضرورة كلّما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبرّ وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وتقلّب أحوالنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثمّ محسوساتنا ثمّ مدركاتنا بالعقل وكلّ واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلّة على وجود خالقها ومدبّرها.

خلق الخلق من غير رويّة إذ كانت الرويّات لا تليق إلّا بذوي الضمائر بذي ضمير في نفسه خرق علمه باطن غيب الستراتِ وأحاط بغموض عقائد السريرات في ذكر النبي صلّى اللّه عليه وآله اختاره من شجرة الأنبياء

قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾ وفي الخبر أنّ اللّه تجلّى لعباده من غير أن يروه وأراهم نفسه من غير أن يتجلّى لهم.

[خلق الخلق من غير رويّة] وفكر في كيفيّة خلقه **[إذ كانت الرويّات لا تليق إلّا بذوي الضمائر]** بذي بقلب وسمع وبصر وشمّ وذوق ولمس وليس اللّه تعالى **[بذي ضمير في نفسه]** وترتيب البرهان هكذا من الشكل الثاني كلّ روية فلذي ضمير ولا شيء من واجب الوجود بذي ضمير فينتج أنّه لا شيء من الرويّة لواجب الوجود.

[خرق علمه باطن غيب السترات] أيك نفذ في كلّ مستتر وغائب بحيث لا يحجبه ستر ولا يستره حجاب.

[وأحاط بغموض عقائد السريرات] أي بما دقّ من عقائد أسرائر القلوب، كما قال: ﴿اللّه يعلم السرّ وأخفى﴾.

ومنها

[في ذكر النبي صلّى اللّه عليه وآله اختاره من شجرة الأنبياء] استعار الشجرة لصنف الأنبياء ووجه الشبه كون ذلك الصنف ذا ثمر وفروع، ففروعه أشخاص الأنبياء وثمره العلوم والكمالات النفسانية، كما أنّ الشجرة ذات غصون وثمر.

ومشكاة الضياء وذؤابة العلياء وسرة البطحاء ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة طبيب دوّار بطبّه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه

[**ومشكاة الضياء**] استعار المشكاة لآل إبراهيم ووجه الشبه ظهور الأنبياء منهم وسطوع نور الهداية وضوء النبوّة من بيوتهم كما سطع ور المشكاة.

[**وذؤابة العلياء**] الذؤابة ما تدلّى من الشعر ونحوه، وأشار بها إلى قريش لتدلّيهم في أغصان الشرف والعلوّ عن آبائهم كتدلّي ذؤابة الشعر عن الرأس.

[**وسرة البطحاء**] سرة الوادي أشرف موضع فيه، وأشار به إلى اختياره من أفضل بيت مكّة.

[**ومصابيح الظلمة**] استعار المصابيح للأنبياء إذ بهم ينجى من ظلمات الجهل.

[**وينابيع الحكمة**] لفيضان العلم والحكمة عنهم كفيضان الماء عن ينابيعه.

ومنها

[**طبيب دوّار بطبّه**] يعني نفسه الشريفة، لأنّه طبيب مرض الجهل ورذائل الأخلاق، وكنّى بدورانه بطبّه تعرّضه لعلاج الجهّال من دائهم ونصب نفسه لذلك أو لأنّ الدوّار أكثر تجربة، واستعار المراهم في قوله [**قد أحكم مراهمه**] لما عنده من مكارم الأخلاق والعلوم والمعارف والمواسم في قوله:

[**وأحمى مواسمه**] لما يتمكّن منه من إصلاح ما لا تنفع فيه الموعظة

يضع من ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمى و آذان ومن ألسنة بُكْم متتبّع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة لم يستضيئوا بأضواء الحكمة ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة فهم في ذلك

والتعليم بالجلد وسائر الحدود فهو كالطبيب الكامل الذي يملك المراهم والأدوية والكاوي لمن لا ينفع فيه المراهم.

[**يضع من ذلك**] أي من كلّ واحد من أدويته ومواسمه [**حيث الحاجة إليه من قلوب عمى**] يفتح عماها بإعدادها لقبول أنوار العلم والهداية لسلوك سبل اللّه.

[و] من [**آذان**] صمّ يعدّها لقبول المواعظ وتجوّز بلفظ الصمّ في عدم انتفاع النفس بالموعظة من جهتان كالصمّاء إطلاق للملزوم على اللازم، إذ كأن الصمم يستلزم ذلك العدم.

[**ومن ألسنة بُكْم**] يطلقها بذكر اللّه والحكمة وأطلق لفظ بُكْم مجازاً في عدم النطق منها بوجودها وهو التكلّم بما ينبغي فإنّها لفقدها النطق كالبكم.

[**متتبّع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة**] كناية عن قلوب الجهّال، ولذا أشار إليهم بأنّهم [**لم يستضيئوا بأضواء الحكمة**] أي: لم يكسبوا شيئاً من العلوم والأخلاق.

[**ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة**] كنّى بالزناد عن الفكر وبالقدح عن الاكتساب به كناية بالمستعار، ووجه الشبه كون الفكر يستخرج به العلوم الثاقبة التي تثقب سُترات الحجب كما يستخرج بالزناد النار.

[**فهم في ذلك**] أي: في عدم استضائتهم بأضواء الحكمة واستنارتهم

كالأنعام السائمة والصخور القاسية قد انجابت السرائر لأهل البصائر محجّة الحقّ لخابطها وأسفرت الساعة عن وجهها وظهرت العلامة لمتوسّمها

بأنوار العلوم والمعارف الحقّة [**كالأنعام السائمة والصخور القاسية**] ووجه الشبه بينهم وبين الأنعام استوائهم في الغفلة والانخراط في سلك الشهوة والغضب دون اعتبار شيء من حظّ العقل وعدم التقيّد به كما لا تفيد الأنعام السائمة وبينهم وبين الصخور قساوة قلوبهم وعدم لينها من خشية اللّه وآياته كما قال تعالى: ﴿ثمّ قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾.

[**قد انجابت السرائر**] أي: انكشفت [**لأهل البصائر**] قيل: هو إشارة إلى انكشاف ما يكون بعده لنفسه القدسية ولمن تفرّس ما يكون من ملك بني أميّة وعموم ظلمهم من أولي التجارب والفطن السليمة ويحتمل أن يريد بالسرائر أسرار الشريعة وانكشافها لأهلها وقوله:

[**محجّة الحقّ لخابطها**] إشارة إلى وضوح الشريعة وبيان طريقة اللّه وفائدة القضيّة الأُولى التنبيه على النظر في العواقب، وفائدة الثانية الجذب إلى اتّباع الدين وسلوك سبيل اللّه، إذ لا عذر للخابطين في جهالاتهم بعد وضوح دين اللّه، وقوله:

[**وأسفرت الساعة عن وجهها**] أي: بدت مقبلة، ولمّا كان وجه الشيء أوّل ما يبدو منه وينظر كنّى به عمّا بدا من أمر الساعة وهو قيام الفتن وإقبالها، وقوله:

[**وظهرت العلامة لمتوسّمها**] أي: علامة قيام الساعة وهي الفتن المتوقّعة المتفرّسة من بني أُميّة ومن بعدهم، وذكره ـــــ الساعة وظهور علاماتها

ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح ونسّاكاً بلا صلاح وتجّاراً بلا أرباح

تهديد وترغيب في العمل لها.

ثمّ قال عليه السلام موبّخاً لهم عاتباً عليهم:

[**ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح**] شبّههم في عدم انتفاعهم بالعقول وعدم فائدة المواعظ والتذكير لهم بالجمادات الخالية من الأرواح، كما قال تعالى: ﴿كأنّهم خشب مسنّدة﴾.

[**وأرواحاً بلا أشباح**] قيل: هو وما قبله إشارة إلى نقصانهم أي أنّ فيهم من هو شبح بلا روح كما سبق من كان له روح وفهم فلا قوّة له في أمر الحرب ولا نهضة معه فهو كروح خلت عن بدن فهم في طريق تفريط وإفراط وقيل كنّى بذلك عن عدم نهضة بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما لا يقوم البدن بدون الروح ولا الروح بدون البدن وقيل أراد أنّهم إن خافوا ذهلت عقولهم وطارت أبدانهم فكانوا كالأجسام بلا أرواح وإن أمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم وضيّعوا الفرض ومصالح الإسلام حتّى كأنّهم في ذلك أرواح لا تعلّق لها بما تحتاج الأجسام إليه.

[**ونسّاكاً بلا صلاح**] كناية عن أنّ من زهد منهم إنّما زهد عن هل أو رياء، فزهده ظاهريّ ليس عن صلاح سريرة وقيل: أراد من تزهّد منهم عن جهل فإنّه وإن عمل إلّا أنّ أعماله لم تكن إلّا عن علم كانت ضائعة واقعة على غير الوجه المرضي والمأمور به كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «الزاهد الجاهل مسخرة الشيطان».

[**وتجّاراً بلا أرباح**] لأنّهم تاجروا اللّه بأعمال فاسدة ليست خالصة وإن

وأيقاظاً نوّماً وشهوداً غيّباً وناظرة عمياً وناطقة بكماً راية ضلالة قد قامت على قطبها وتفرّقت بشعبها

زعموا أنّها صالحة فهم ممّن ﴿زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ومن ﴿الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

[**وأيقاظاً**] بالعيون [**نوّماً**] بالعقول، راقدين في مهاد الغفلة ومراقد الطبيعة.

[**وشهوداً**] بأبدانهم [**غيّباً**] بعقولهم عن التفطّن في الآخرة.

[**وناظرة**] بحسّها [**عمياً**] عن تصفّح آثار اللّه للعبرة بها والانتفاع في أمر الآخرة، فهي تشبه العمي في عدم الفائدة بها.

[**وناطقة**] بالفضول وما لا ينفع [**بكماً**] عن النطق بما ينبغي، وهذه الألفاظ مستعارة للمشابهات المذكورة، وقد راعى في ذلك التضاد في الألفاظ وأراد ذوي عيون وآذان وألسنة بالصفات المذكورة، أي: خالية عن الفائدة، قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

ثمّ لمّا نبّههم وأيقظهم بالتوبيخ والتقريع ألقى إليهم ما ينبغي أن يحترزوا منه ويأخذوا أُهبتهم له من ظهور الفتن المتوقّعة لبني أُميّة، وكنّى عن ظهورها بقوله:

[**راية**] أي: هذه راية [**ضلالة قد قامت على قطبها**] كناية عن اجتماع أهلها على قائد الفتنة ورئيسهم فيها، وكنّى بالقطب عنه كناية بالمستعار.

[**وتفرّقت بشعبها**] إشارة إلى انتشارها في الآفاق وتولّد فتن أُخرى

تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج عن الملّةِ قائم على المضلّة فلا يبقى منكم يومئذ إلاّ ثفالة كثفالة القدر أو نفاضة كنفاضة العِكم تعرككم عرك الأديم وتدوسكم دوس الحصيد

عنها.

[**تكيلكم بصاعها**] استعار الكيل لأخذهم وإهلاكهم زمرة زمرة كالكيّال في أخذه لما يكيله جملة جملة، ورشح بلفظ الصاع.

[**وتخبطكم بباعها**] استعار الخبط الذي هو للناقة النفور التي تخبط ما تلقاه بيدها لإيقاع السيف والأحكام الجائرة فيهم على غير قانون شرعي ولا ميزان عقلي ورشح الاستعارة بذكر الباع ولم يقل بيدها لأنّ ذكر الباع أبلغ في البصر عن قوّة الخبط.

وقوله: [**قائدها**] **خارج عن الملّة**] أي: عن الدين والشريعة [**قائم على المضلّة**] أي: مقيم الضلالة.

[**فلا يبقى منكم يومئذ إلاّ ثفالة كثفالة القدر**] الثفالة ما سفل في القدر من الطبيخ، واستعاره مكنّياً به عمل لا خير فيه من الأرذال ولا ذكر له ولا اعتبار [**أو نفاضة كنفاضة العِكم**] النفاضة ما سقط من الشيء المنفوض، والعِكم العِدل، والعكم أيضاً نمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها وهو استعارة كما سبق.

[**تعرككم عرك الأديم**] العرك الدلك بقوّة، استعارة لتقليب الفتن لهم وتذليلهم بها كما يذلّل الأديم وكذا استعار الدوس في قوله:

[**وتدوسكم دوس الحصيد**] لإهانتهم لهم وشدّة امتهانهم إيّاه بالبلاء، وشبّه ذلك بالدوس الحصيد ونحوها والحصيد الزرع المحصود.

وتستخلص المؤمن منكم استخلاص الطير الحبّة البطينة من بين هزيل الحب أين تذهب بكم المذاهب وتتيه بكم الغياهب وتخدعكم الكواذب ومن أين تؤتون ولكلّ أجل كتاب ولكلّ غيبة إياب

ثمّ أشار إلى استيلاء أهل الضلال على المؤمنين بقوله:

[**وتستخلص المؤمن منكم استخلاص الطير الحبّة البطينة**] أي: السمينة [**من بين هزيل الحب**] أي: ضعيفه، ومعنى استخلاص الفتنة المؤمن أنّها تحفّه بنكايتها وأذاها كما يلتقط الطائر سمين الحبّ ويخلي عن الهزيل.

ثمّ أخذ عليه السلام يسالكهم عن سبيل التهكّم والتقريع لهم ببقائهم على غوايتهم فقال:

[**أين تذهب بكم المذاهب**] سؤال على سبيل التوبيخ عن غاية أخذ مذاهب الضلال لهم وعمّا ينتهي بهم ظلم الجهالات إليه بقوله:

[**وتتيه بكم الغياهب**] أي: الظلمات، جمع غيهب.

[**وتخدعكم الكواذب**] أي: أوهامكم الكاذبة.

[**ومن أين تؤتون**] أي: من أين أتتكم هذه الأمراض النفسانية المفوّتة لحياة الأبدان كما أنّ الأمراض الجسمانيّة مفوتة لحياة الجسد وهو عليه السلام وإن كان يعلم أنّ الداخل إنّما دخل عليهم من جهلهم ولكن ذلك من باب تجاهل العارف، وهو كقوله تعالى: ﴿فأين تذهبون﴾ وكذا قوله: ﴿وأنّى تؤفكون﴾ أي: متى يكون انصرافكم عمّا أنتم عليه من الغفلة.

[**ولكلّ أجل كتاب ولكلّ غيبة إياب**] منفصل عمّا قبله يشتمل على التهديد بالإشارة إلى قرب الموت وأنّهم بمعرض أن يأخذهم على غفلتهم، ثمّ أمرهم باستماع الموعظة منه بقوله:

فاستمعوا من ربانيّكم وأحضروه قلوبكم واستيقظوا إن هتف ونادى بكم وليصدق الرائد أهله وليجمع شمله وليحضر ذهنه فلقد فلق لكم الأمر

[**فاستمعوا من ربانيّكم**] يعني نفسه ﷺ، والربّاني المتألّه العارف بالربّ.

[**وأحضروه قلوبكم**] أي: التفتوا بأذهانكم إلى قولي.

[**واستيقظوا**] من نوم الغفلة [**إن هتف**] أي: صاح [**ونادى بكم وليصدق الرائد أهله**] إشارة إلى المثل المشهور: ولا يكذب الرائد أهله، والرائد هو الذي يبعثه القوم لطلب الكلأ والماء.

أراد ﷺ أن يبلغ كلّ أحد من الحاضرين عنده المستمعين لكلامه فزنّهم بمنزلة الرائد أهله وقبيلته ما سمع منه من الحكمة والموعظة ليرجعوا إلى طاعته وينتفعوا بعلمه كما يرجع طالب الكلأ من الماء الواجد له إلى قومه فيبشّرهم ويصدقهم، ويحتمل أن يريد بالرائد الفكر، وبأهله النفس الإنسانية، فكأنّه قال فلتصدّق افكاركم نفوسكم إذ كان الفكر مبعوثاً من قبل النفس في طلب مرعاها وما حياتها من العلوم والكمالات كالرائد لأهله وصدقه لها تصرفه على قدر العقل فيما يشير به دون مشاركة الهوى فإنّه إذا أرسلته النفس عن مشاركة هوى كذبها ودلاّها بغرور.

وقوله: [**وليجمع شمله**] أي: ما تفرّق وتشعّب من خاطره في أمور الدنيا ومهماتها.

[**وليحضر ذهنه**] أي: يوجّهه إلى ما اقول [**فلقد فلق لكم الأمر**] أي: أوضح لكم أمر ما جهلتموه من الدّين وأحكام الشريعة أو أمر ما سيكون من

الخرزة وقرفه قرف الصمغة فعند ذلك أخذ الباطل مأخذه وركب الجهل مراكبه وعظمت الطاغية وقلّت الراعية وصال الدهر صيال السبع العقور

الفتن وشقّ لكم ظلمة الجهل منه فلق [**الخرزة**] أي: كما يتّضح باطن الخرزة بشقّها وخصّ فلق الخرزة لأنّ فلقها لا يكاد يلتحم ويخفى.

[**وقرفه قرف الصمغة**] أي: قشره كما تقشر الصمغة من عود الشجرة فتقطع، قيل أي إنّه أُلقي إليكم علمه بكلّيته والنصيحة فيه حتّى لم يدّخر عنكم شيئاً من ذلك كما يقرف الصمغة قارفها يقال: تركته على مثل مقرف الصمغة إذا لم يترك له شيئاً لأنّ الصمغة تقتلع من شجرتها حتّى لا يبقى عليها علقة.

[**فعند ذلك**] أي: فعندما تفعل بكم تلك الفتن وراية الضلال ما تفعل [**أخذ الباطل مأخذه**] كما يقال عمل عمله، أي: قوى سلطانه وثبت واستحكم وأخذ مقارّه، وكذا قوله:

[**وركب الجهل مراكبه**] أي: كان ذلك وقت جملته ملاحظاً لتشبيهه بالمستعد للمغارة قد ركب خيله وكنّى بمراكبه عن الجهّال.

[**وعظمت الطاغية**] أي: الفتنة الطاغية التي تجاوزت في عظمتها الحدّ والمقدار.

[**وقلّت الراعية**] أي: رعاة الدِّين وأهله الذين يحمون حوزته، أي: الفرقة الراعية، وفي رواية: الداعية، أي: الفرقة الداعية إلى اللّه.

[**وصال الدهر صيال السبع العقور**] استعار الصولة للدهر ملاحظة لشبهه بالسبع، ووجه الاستعارة كون الدهر مبدءاً قوياً لتلك الشرور الواقعة

وهدر فتيق الباطل بعد كظوم وتواخى الناس على الفجور وتهاجروا على الدِّين وتحابّوا على الكذب وتباغضوا على الصدق فإذا كان كذلك كان الولد غيظاً

ناشبة السبع الضاري العقور في شدّة صولته.

[**وهدر فتيق الباطل بعد كظوم**] الفتيق: فحل الإبل وهدر ردّد صوته في حنجرته، يقال: إبل هوادر وكذا هدّر بالتشديد تهدراً استعار الفتيق للباطل ورشح الاستعارة بذكر الهدير والكظوم، ووجه الشبه ظهور الباطل وإكرام أهله وتمكّنهم من الأمر والنهي كالفحل المكرم ذي الشقشقة، وعنى بالهدير ظهورهم وتمكّنهم وبالكظوم خفاء الباطل وخمول أهله في زمان ظهور الحق وقوّته.

[**وتواخى الناس على الفجور**] أي: كان اتصالهم ومحبّة بعضهم لبعض على الفجور.

[**وتهاجروا على الدِّين**] أي: أحسّوا منه قوّة في دينه هجروه ورفضوه فهجرهم.

[**وتحابّوا على الكذب**] أي أحبّ بعضهم بعضاً على الفجور واتّباع الأهواء وهو داخل تحت التواخي على الفجور.

[**وتباغضوا على الصدق**] هو داخل أيضاً تحت التهاجر على الدِّين والغرض بتعداد ذلك تنفير السامعين عن تلك الرذائل وتخويفهم بوقوعها [**فإذا كان**] ذلك [**كذلك كان الولد غيظاً**] أي: اشتغل كلّ امرء بنفسه لينجوا بها، فيكون الولد الذي هو أعزّ محبوب غيظاً لوالده، أي: من أسباب محنته وغيظه، وأطلق لفظ الغيظ عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب.

وكان المطر قيظاً وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً وسلاطينه سباعاً وأوساطه أكالاً وفقرائه أمواتاً وغاض الصدق وفاض الكذب واستعملت المودّة باللّسان وتشاجر النّاس بالقلوب

[وكان المطر قيظاً] فإنّ ذلك ممّا يعدّ شرّاً لأنّه لا يثير نباتاً ولا يقوم عليه زرع ويفسد الثمار القائمة وكأنّه كنّى به عن انقلاب أحوال الخير شروراً.

[وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً] أي: أكابره ضارية على أوساط الناس.

[وسلاطينه سباعاً] ضارية تفترس كلّ ذي سمن.

[وأوساطه أكالاً] من دون مدّ للهزة ولا تشديد أي: طعاماً، يقال: ما ذقت أكالاً، أي: طعاماً، وفي نسخة بمدّ الهمزة على افعال جمع أكل وهو ما أُكِل، كقفل وأقفال وروي أُكالاً بضمّ الهمزة على فُعال جمع أكل للمأكول كعرق وعراق وإن كان خلاف القياس أي: صار أوساط الناس طعمة للولاة وأصحاب السلاطين وكالفريسة للأسد.

[وفقرائه أمواتاً] لانقطاع مادّة حياتهم ممّن هو أعلا منهم رتبة، أو كنّى بموتهم عن غاية شدّتهم وبلائهم، لكون الموت غاية ذلك إطلاق السبب على المسبب.

[وغاض الصدق وفاض الكذب] استعار الغيض لقلّة الصدق والفيض لظهور الكذب وكثرته ملاحظة لشبههما بالماء.

[واستعملت المودّة باللّسان وتشاجر] أي: تنازع **[النّاس بالقلوب]** إشارة إلى النفاق وهو التودّد بالأقوال مع التباعد بالقلوب وعقدها على البغض والحسد، واستعار لفظ التشاجر للقلوب ملاحظة لشبهها بالرماح كما انّ الرمح يشجر به فكذا قلوب بعضهم تعقد على هلاك بعض والطعن

وصار الفسوق نسباً العفاف عجباً ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً
كلّ شيء خاضع له

فيهوبانوا المهلكات والفقرة إشارة إلى الآية وهي قوله: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**وصار الفسوق نسباً**] استعار لفظ النسب للفسوق ووجه الشبه كون الفسق بينهم يومئذ هو سبب التواصل والتزاور والتحابّ كما أنّ النسب كذلك وصار [**العفاف عجباً**] لقلّة وجوده وندرته بينهم.

[**ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً**] بأن يجعل الخمل والصوف والشعر إلى الجسد ويظهر الجلد إشارة إلى انعكاس الأحكام الإسلامية إذ لمّا كان الفرض الأصلي من الإسلام أن يكون باطناً ينتفع فيه القلب ويظهر فيه منفعته فقلب المنافقون غرضه واستعملوه بظاهر ألسنتهم دون قلوبهم فأشبه لبس الفرو إذ كان أصله أن يكون خمله ظاهراً لمنفعة الحيوان الذي هو لباسه فاستعمل مقلوباً.

ومن خطبة له عليه السلام
في توحيد الله وتعظيمه قال:

[**كلّ شيء خاضع له**] أي: خاشع والخشوع من الناس يعود إلى خضوعهم لله ومن الملائكة دؤبهم في عبارته ملاحظة لعظمته ومن سائر الممكنات انفعالها عن قدرته وخضوعها في رقّ الإمكان والحاجة إليه فإنّ جوّز استعمال المشترك في أكثر من معنى حقيقة أو مجازاً فالأمر واضح وإلاّ

وكلّ شيء قائم به وغنى كلّ فقير وعزّ كلّ ذليل وقوّة كلّ ضعيف

فهو في قوّة المتعدّد كما في قوله: ﴿إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النبي﴾ فكأنّه قال البشر خاضع له والملك خاضع له.

[وكلّ شيء قائم به] في الوجود قيام المعلول بعلّته لأنّ الممكنات أمّا جواهر أو أعراض ولا يقوم شيء منها بذاته في الوجود، أمّا الأعراض فظاهر احتياجها إلى المحلّ الجوهري، وأمّا الجواهر فلأنّ قوامها ي الوجود إنّما يكون بقيام عللها حتّى ينتهي إلى علّة العلل الذي به قوام كلّ موجود في الوجود فهو الغني عن كلّ شيء في كلّ شيء وهو القيّوم المطلق القائم بذاته المقيم لغيره.

[وغنى كلّ فقير] الفقر هنا مطلق الحاجة كما أنّ الغنى سلب مطلق الحاجة ليعمّ التمجيد إذ كلّ ممكن مفتقر في طرفيه مُنته في سلسلة الحاجة إليه وهو المقيم له في الوجود فهو تعالى رافع حاجة كلّ موجود بل كلّ ممكن.

[وعزّ كلّ ذليل] قيل العزيز هو الخطير الذي يقل وجود مثله وتشتدّ الحاجة ويصعب الوصول إليه وهذه المفهومات مقولة بالزيادة والنقصان ولم تكمل إلاّ في الواجب تعالى ويقابله الذليل وهو تعالى عزّ كلّ موجود لأنّ كلّ موجود سواه إنّما تتحقّق فيه هذه المفهومات منه فمنه عزّ كلّ موجود وكلّ موجود ذليل في رقّ الإمكان والحاجة إليه.

[وقوّة كلّ ضعيف] القوّة تطلق على كمال القدرة على شدّة الممانعة والدفع ويقابلها الضعف وهما مقولان بالزيادة والنقصان على من يطلقان عليه وهو تعالى المفيض على كلّ قابل ما يستحقّه والمعطي كلّ ضيف عادم القوّة من نفسه كماله وقوّته فمنه قوّة كلّ ضعيف بالمعنين المذكورين.

ومفزع كلّ ملهوف ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه لم ترك العيون فتخبر عنك أربابها بل كنت قبل الواصفين من خلقك

[**ومفزع كلّ ملهوف**] أي: إليه ملجأ كلّ مضطرّ في ضرورته حال حزن أو خوف أو ظلم كما قال تعالى: ﴿وإذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ آيّاه﴾ وكلّ ملجأ ومفزع غيره إضافي لا حقيقي وهو مضطرّ إليه تعالى ﴿من تكلّم سمع نطقه ومن سكت علم سرّه﴾ إشارة إلى وصفي السميع العليم ومرجع الأوّل إلى الثاني، إذ معناه العلم بالمسموعات يستلزم الوصفان إحاطته بما أظهر العبد وأبداه وأسرّه وأخفاه في حالتي نطقه وسكوته.

[**ومن عاش فعليه رزقه**] لأنّه الرزّاق لعباده.

[**ومن مات فإليه منقلبه**] والفقرتان إشارة إلى كونه تعالى مبدء المعاد في وجودهم وما يقوم بهم عاجلاً ومنتهىً وغايةً لهم أجلاً فإليه رجوع الأحياء منهم والأموات وبه قيام وجودهم حالتي الحياة والممات.

ثمّ التفت ﷺ من ـــــ إلى الخطاب على طريق إيّاك نعبد، لشدّة عناية المتكلّم بالمعنى وأنّه تعيّن بصفاته حتّى صار كالمشاهد المخاطب فقال:

[**لم ترك العيون فتخبر عنك أربابها**] أو لم ترك أرباب العيون فتحيّر عنك والكلام في تقدير شرطيّة متّصلة أي لو صحّ إخبار العيون عنك لكانت قدراتك لكنّها لم ترك فلم تصح أن تخبر عنك.

[**بل كنت قبل الواصفين من خلقك**] تعليل لسلب الرؤية المستلزم لسلب الأخبار عنها أي كلّ من كان قبل واصفه لم يروه فلم يخبروا عنه ويحتمل أن يكون المراد بقبليته تعالى للواصفين قبليّة وجوده بالعلّية الذاتيّة

لم تخلق الخلق لوحشة ولا استعملتهم للمنفعة ولا يسبقك من طلبت ولا يفلتك من أخذت ولا ينقص سلطانك من عصاك ولا يزيد في ملكك من أطاعك ولا يرد أمرك من سخط قضائك

وهي بهذا الاعتبار مستلزمة لتنزيهه تعالى عن الجسمية ولواحقها المستلزم لامتناع الرؤية المستلزم لكذب الأخبار عنه من وجه المشابهة الحسّية.

[**لم تخلق الخلق لوحشة**] دخلت عليك من الإنفراد فخلقتهم للأُنس.

[**ولا استعملتهم للمنفعة**] تعود إليك فإنّ جلب المنفعة ودفع المضرّة من لواحق المزاج المنزّه عنه تعالى.

[**ولا يسبقك من طلبت**] أي: لا يفوتك هرباً.

[**ولا يفلتك من أخذت**] أي: لا يفلت منك بعد أخذه.

[**ولا ينقص سلطانك من عصاك ولا يزيد في ملكك من أطاعك**] تنزيه له تعالى عن أحوال ملك الدنيا إذ كان كمال سلطان أحدهم بزيادة جنوده وكثرة مطيعيه وقلّة المخالف والعاصي له ونقصان ملكه بعسك ذلك وهو سبب لتسلّط أعدائه عليه وطمعهم فيه وسلطانه تعالى لذاته وكمال قدرته فهو ﴿مالك الملك يؤت الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير﴾ فلا يتصوّر خروج العاصي بعصيانه عن كمال سلطانه حتّى يؤثّر في نقصانه ولم يكن لطاعة الطائع تأثير في زيادة ملكه.

[**ولا يرد أمرك**] أي: قدرك النازل على وفق القضاء [**من سخط قضائك**] وهذا أيضاً يستلزم كمال القدرة وتمام السلطان إذ كان ما علموجوده لابدّ من وجوده سواء كان مكروهاً للعبد أو محبوباً له كما قال تعالى:

ولا يستغني عنك من تولّى عن أمرك كلّ سرّ عندك علانية وكلّ غيب عندك شهادة أنت الأبد فلا أمد لك وأنت المنتهى فلا محيص عنك وأنت الموعد فلا منجا منك إلاّ إليك

﴿ويأبى اللّه إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ وقال: ﴿إنّ عذاب ربّك لواقع ماله من دافع﴾ وقال: إن يمسسك اللّه بضرّ فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كلّ شيء قدير وإنّما خصّص المسخط للقضاء بالعجز عن ردّ الأمر إذ كان من شأنه أن لو قدر لردّ القدر.

[**ولا يستغني عنك من تولّى عن أمرك**] أي: من تولّى عن أمرك بالطاعة والعبادة فهو إليك أشدّ فقراً وأنقص ذاتاً ممن تولّى أمرك وهذا أيضاً يستلزم كمال السلطان والغنى المطلق.

[**كلّ سرّ عندك علانية وكلّ غيب عندك شهادة**] لكمال العلم والإحاطة بجميع المعلومات ونسبتها إليه على حدّ سواء لأنّ السر والغيب إنّما يطلقان بالنسبة إلى مخفي عنه وغائب عنه وهي القلوب المحجوبة بحجب الطبيعة وأستار الهيئات البدنية وذلك منزّه عنه تعالى.

[**أنت الأبد**] أي: الدائم [**فلا أمد**] أي: لا غاية [**لك**] يقف عندها وجودك، والمراد ذو الأبد.

[**وأنت المنتهى**] كما قال: ﴿وإنّ إلى ربّك المنتهى﴾ [**فلا محيص عنك**] ولا مفرّ منك إلاّ إليك.

[**وأنت الموعد**] ومرجع الكلّ إليك [**فلا منجا منك إلاّ إليك**] كما قال تعالى: ﴿إلى اللّه مرجعكم جميعاً﴾ وقال: ﴿وظنّوا أن لا ملجأ من اللّه إلاّ إليه﴾.

بيدك ناصية كلّ دابّة وإليك مصير كلّ نسمة سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك وما أصغر عظمه في جنب قدرتك وما أهول ما نرى من ملكوتك وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك وما أسبغ نعمك في الدنيا وما أصغرها نِعَم الآخرة

[بيدك] أي: في ملكك وتصرّفك **[ناصية كلّ دابّة]** كما قال تعالى: ﴿وما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾ وإنّما خصّت الناصية لأنّها أشرف ما في الحيوان والسلطان على الأشرف يستلزم القهر والقدرة على غيره بالأولى ولأنّ الناصية إذا أُخذت تبعها سائر الأعضاء والجوارح.

[وإليك مصير كلّ نسمة] لما مرّ أنّ منتهى الكلّ إليه ومصيره إليه **[سبحانك]** تنزيه وتقديس للّه تعالى.

[ما أعظم ما نرى من خلقك] كأطباق الأفلاك والعناصر وما يتركّب منها ورفع السماوات بغير عمد وبسط الأرض على غير سند.

[وما أصغر عظمه في جنب قدرتك] إذ العظيم عندك حقير والعزيز لديك ذليل.

[وما أهول ما نرى من ملكوتك وما أحقر ذلك] الذي يهولنا **[فيما غاب عنا من سلطانك]** من القدرة وحجب العزّة من الملأ الأعلى وسكّان حضائر القدس.

[وما أسبغ نعمك في الدنيا] التي أنعمت بها على عبادك ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾.

[وما أصغرها] في جنب **[نِعَم الآخرة]** الجسيمة التي لا يمكن وصفها بتقرير ولا رقمها بتحرير.

من ملائكة أسكنتم سمواتك ورفعتهم عن أرضك

ومنها

في وصف الملائكة، إذ لمّا شرع في بيان عظمة اللّه وجلاله وجعل مادّة ذلك التعظيم تعديد مخلوقاته ذكر الأشرف فالأشرف، فبدء بالملائكة السماوية، ثمّ بغيرهم.

قال ابن أبي الحديد: من اراد أن يتعلّم الفصاحة ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض فليتأمّل هذه الخطبة فإنّ نسبتها إلى كلّ فصيح من الكلام عدا كلام اللّه ورسوله نسبة الكواكب النيّرة الفلكيّة إلى الحجارة المظلمة الأرضيّة، ثمّ لينظر الناظر ما عليها من البهاء والجلالة والرداء والديباجة وما تحدثه من الروعة والرهبة والمخافة والخشية حتّى لو تُليت على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدّت قواه ورعبت قلبه وأضعفت نفسه وزلزلت اعتقاده فجزى اللّه قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به وليّاً من أوليائه وما أبلغ نصرته له تارة بيده وتارة بلسانه ونطقه وتارة بقلبه وفكره، إن قيل جهاد وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل وعظ وتذكير فهو أبلغ الواعظين والمذكّرين، وإن قيل فقه وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسّرين، وإن قيل عدل وتوحيد فهو إمام أهل العدل والموحّدين، ليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد، إنتهى.

فقال عليه السلام:

[من ملائكة أسكنتم سمواتك ورفعتهم عن أرضك] وليس فيه دلالة أنّ جميع الملائكة في السماء، فلا ينافي كون الكرام الكاتبين في الأرض، وقد قيل أيضاً إنّ ملائكة الأرض تعرج إلى السماء ومسكنها بها ويتناوبون على

هم أعلم خلقك بك وأخوفهم لك وأقربهم منك لم يسكنوا الأصلاب ولم يُضمَّنوا الأرحام ولم يخلقوا من ماء مهين ولم تتشعّبهم ريب المنون

أهل الأرض، وخصّ ملائكة السماء لعلوّهم وشرفهم، وقد قيل إنّهم وسائط لغيرهم في وصول العلوم والكمالات إلى سائر الخلق، فكانوا كالاستاذ لمن عداهم.

[**هم أعلم خلقك بك**] أمّا على تقدير تجرّدهم فظاهر إذ المجرّد علمه غير مشوب بغفلة النفس الأمّارة والسهو والنسيان، فهو أكمل في معارفه وعلومه، ولأنّهم يشاهدون الجنّة والنار والألواح السماوية وليس الخبر كالعيان.

[**وأخوفهم لك**] لكونهم أعلم بعظمته وجلاله وكلّ من كان أعلم باللّه كان أخوف له وأشدّ خشية، قال تعالى: ﴿إنّما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾ وروي إنّ أعلمكم باللّه أخوفكم منه، فحصر الخشية في الآية بالعلماء بحسب تفاوت العلم بالشدّة والضعف يكون تفاوت الخشية بهما.

[**وأقربهم منك**] المراد قرب المنزلة والرتبة لتنزّهه تعالى عن المكان، قال تعالى: ﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾ [**لم يسكنوا الأصلاب**] ولم تخالطهم الصورة اللّحميّة والدمويّة.

[**ولم يُضمَّنوا الأرحام**] ولم يخرجوا من ذلك الموضع المستقذر.

[**ولم يخلقوا من ماء مهين**] وكفى بنصّ القرآن على كونه مهيناً في تحقيره.

[**ولم تتشعّبهم ريب المنون**] أي: لم تختلف عليهم حوادث الدهر،

وإنّهم على مكانتهم منك ومنزلتهم عندك واستجماع أهوائهم فيك وكثرة طاعتهم لك وقلّة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقّروا أعمالهم ولأزروا على أنفسهم ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك ولم يطيعوك حقّ طاعتك

وظاهر كون هذه الأُمور الأربعة نقصانات تلزم الحيوان العنصري لاستلزامها التغيير ومخالطة المحال المستقذرة ومعافاة الأسقام والأمراض فسلبها عنهم فضيلة لهم.

ثمّ لمّا بيّن عظمة الملائكة بالنسبة إلى من عداهم شرع في بيان عظمة اللّه وحقارة عظمتهم بالنسبة إلى عظمته فقال:

[**وإنّهم على مكانتهم منك ومنزلتهم عندك واستجماع أهوائهم فيك**] أي: دواعيهم إلى طاعتك وخدمتك لا تنازعها الصوارف فكانت مجتمعة مائلة إلى شقّ واحد.

[**وكثرة طاعتهم لك وقلّة غفلتهم عن أمرك**] أي: مع كونهم في هذه الأحوال التي توجب لهم العظمة [**لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك**] وعرفوا كنه معرفتك.

[**لحقّروا أعمالهم ولأزروا على أنفسهم**] أي: عابوها ولاموها ووبّخوها، حيث لم تقم بما يجب من عبادتك، ولذا قال ﷺ: «وما قدر لساني في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك».

[**ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك ولم يطيعوك حقّ طاعتك**] كما قال سيّد المرسلين وخاتم النبيين: «سبحانك ما عرفناك حقّ معرفتك سبحانك

سبحانك خالقاً ومعبوداً بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً وجعلت فيها مأدبة مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصور وأنهاراً وزروعاً وثماراً، ثمّ أرسلت داعياً يدعو إليها فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغبت رغبوا ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا

ما عبدناك حقّ عبادتك».

ولمّا كان كمال العبادة ومطابقتها للأمر المطاع بحسب العلم بعظمته وكانت ذات الحقّ سبحانه أعظم من أن يطّلع على كنهها أو يحيط بحقيقتها ملك مقرّب أو نبيّ مرسل كانت عبادة الملائكة بحسب معارفهم القاصرة عن كنه الحقيقة، وكلّما ازدادت المعرفة زادت العبادة واستحقر ما دونها.

[**سبحانك خالقاً ومعبوداً**] إشارة إلى وجوب تنزيهه بهذين الاعتبارين عن الشركاء والأنداد إذ لما تفرّد بالإبداع والخلق استحقّ التفرّد بالعبادة وقوله:

[**بحسن بلائك عند خلقك**] والباء للتعليل بمعنى اللاّم متعلّقة بسبحانك لما فيه من معنى الفعل أي: أُسبّحك لحسن بلائك وبمعبود أي يعبد لذلك.

[**خلقت داراً**] يعني الجنّة [**وجعلت فيها مأدبة**] بفتح الدال وضمّها هو الطعام الذي يُدعى الإنسان إليه، يقال: أدب زيد القوم يأدبهم بالكسر أي: دعاهم إلى طعامه والآدب الداعي إلى طعامه.

[**مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصور وأنهاراً وزروعاً وثماراً، ثمّ أرسلت داعياً يدعو إليها فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغبت رغبوا ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا**] استعار الدار للإسلام والمأدبة للجنّة والداعي للرسول صلى الله عليه وآله، وقد جمعها الخبر النبوي: «إنّ الله جعل الإسلام داراً والجنّة

وأقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكْلِها واصطلحوا على حبّها ومن عشق شيئاً أغشى بصره وأمرض قلبه

مأدبة والداعي إليها محمّد ﷺ» لأنّ الإسلام يجمع أهله ويحميهم كالدار والجنّة مجمع الشهوات كالمأدبة، ويجوز أن يراد بالدار الآخرة باعتبار كونها مجمعاً ومستقراً والمأدبة فيها الجنّة والمنصوبات الثمانية مميّزة لتلك المأدبة وهذا هو البلاء الحسن المشار إليه، إذ وجود الإسلام والجنّة والداعِي إليهما بلاء حسن من اللّه لخلقه.

ثمّ إنّهم لاستغراقهم في الشهوات وانهماكهم في اللّذات ورقودهم في مهاد الغفلات لم يلتفتوا إلى الداعي.

[**وأقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكْلِها**] استعار الجيفة للدنيا كما في النبوي: «الدنيا جيفة وطالبها كلاب» لأنّ لذّاتها وشهواتها في نظر أولياء اللّه مستقذرة منفور منها كالجيفة، واستعار الافتضاح للاشتهار بجمعها واقتنائها والخروج به عن شعار الصالحين إذ الإقبال على الدنيا والاشتغال بها عن اللّه من أعظم الكبائر، ولذا ورد أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، ولمّا كان الافتضاح عبارة عن انكشاف شبّه به الحرص عليها وجمعها، وقوله:

[**واصطلحوا على حبّها**] إشارة إلى أنّ الاصطلاح على محبّة الشيء يستلزم شدّة محبّته وعشقه، ولذا رتّب عليه قوله:

[**ومن عشق شيئاً أغشى بصره وأمرض قلبه**] كما قيل: حبّك للشيء يعمي ويصمّ، واستعار البصر لنور البصيرة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس والغشاء لظلمة الجهل ملاحظة للشبه بظلمة العين العارضة باللّيل، وإسناد الإغشاء إلى الدنيا إمّا حقيقة لما يستلزمه حبّها من الجهل والغفلة عن اللّه

فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه ولهت عليها نفسه فهو عبد لها ولمن في يده شيء منها حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها

والدار الآخرة أو مجازي لعدم استفادتهم بأبصارهم عبرة، ولذا قال:

[فهو ينظر بعين غير صحيحة] كناية عن عدم الانتفاع بها في تحصيل الفائدة.

[ويسمع بأذن غير سميعة] لما مرّ **[قد خرقت الشهوات عقله]** استعار التخريق لتفرّق عقله في مهمّات جزئيّات الدنيا ومطالبها فصار عقله كالثوب المخرّق الذي لا ينفع به صاحبه وقريب منه النبوي: «من جعل الدنيا أكبر همّه فرّق اللّه عليه همّه وجعل فقره بين عينيه» ونسب التخريق إلى الشهوات لأنّ زمام عقله بيد شهوته فهي تمزّقه كلّ ممزّق وتفرّقه كلّ مفرّق، كذا استعار الأمانة لقلبه في قوله:

[وأماتت الدنيا قلبه] لخروجه به عن الانتفاع الحقيقي الباقي كالميت، وضمير عليها يرجع إلى الدنيا في قوله:

[ولهت عليها نفسه] وكنّى بالوله عن شدّة المحبّة لها.

[فهو عبد لها ولمن في يده شيء منها] استعار لفظ العبد لكونه محبّاً لها متجرّداً لتحصيلها، كما أشار إليه بقوله:

[حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها] أي أنّه متصرّف بحسب تصريفها ودائر في حركاتها حيث دارت، فإن كانت في يده أقبل عليها بالعمارة والحفظ وإن زالت عنه بذل جهده في تحصيلها وخدمة من كانت في يده لغرضها فهو في ذلك كالعبد لها كما قال عليه السلام في مقام آخر:

لا ينزجر من اللّه بزاجر ولا يتّعظ منه بواعظ وهو يرى المأخوذين على الغرّة حيث لا إقالة ولا رجعة كيف نزل بهم

«عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق»، ثم انّه لانهماكه في لذّاتها وانغماره في شهواتها.

[**لا ينزجر من اللّه بزاجر ولا يتّعظ منه بواعظ وهو**] أي: والحال انّه [**يرى المأخوذين على الغرّة**] أي: الاغترار والعظمة، وهذا شروع منه عليه السلام في وصف نزول الموت بالغافلين عن الاستعداد له لما ورد من أحوال الآخرة.

[**حيث لا إقالة**] فيستقيلون من أعمالهم [**ولا رجعة**] لهم إلى الدنيا فيتداركوا ما فاتهم.

[**كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون**] من سكرات الموت وأهواله لا الموت فإنّه معلوم لكلّ أحد.

[**وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون**] من الموت وما بعده فإنّ الغافل حال انهماكه في لذات الدنيا لا يعرض له خوف الموت بل يكون آمناً منه في تلك الحالات.

[**وقدموا من الآخرة على ما كوان يوعدون**] من الحسنات والثواب والعقاب.

[**فغير موصوف ما نزل بهم**] أي: ليس ذلك مما يمكن استقصائه بوصف، بل غايته التمثيل، ففي التوراة أنّ مثل الموت كمثل شجرة شوك ادّخرت في بدن ابن آدم فتعلّقت كلّ شوكة بعرق وعصب ثمّ جذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى.

اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثمّ زاد الموت فيهم ولوجاً فمحيل بين أحدهم وبين منطقه وإنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأُذنه على صحّة من عقله وبقاء من لبّه يفكّر فيما أفنى من عمره وفيم أذهب دهره ويتذكّر اموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها

[**اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت**] الحسرة على ما فاتهم ممّا بذلوا جهدهم الجهيد في تحصيله من علائق الدنيا.

[**ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثمّ زاد الموت فيهم ولوجاً**] استعار الولوج لما يتصوّر من فراق الحياة لعضو عضو فأشبه ذلك دخول جسم في جسم آخر.

[**فمحيل بين أحدهم وبين منطقه**] فلا يقدر على الكلام.

[**وإنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأُذنه على صحّة من عقله وبقاء من لبّه يفكّر فيما أفنى من عمره وفيم أذهب دهره ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها**] أي: تساهل في دينه في اكتسابه إيّاها، أي: كان يفني نفسه بتأوّلات ضعيفة في استحلال تلك المطالب والمكاسب، فذاك هو الإغماض، قال تعالى: ﴿ولست بآخذيه إلّا أن تغمضوا فيه﴾ والمراد إنّه كان يحتال بحيل غامضة دقيقة في تلك المطالب حتّى حصّلها واكتسبها.

[**وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها**] أي: من وجوه مشتبهة وهذا يولد المعنى الأول في الإغماض [**قد لزمته تبعات جمعها**] أي: آثامها، واحدتها تبعة.

وأشرف على فراقها تبقى لمن ورائه ينعمون فيها ويمتعون بها فيكون المهنّى لغيره والعبؤ والوزر على ظهره والمرء قد علقت رهونه بها فهو يعضّ يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره

[**وأشرف على فراقها تبقى لمن ورائه**] من ورثته [**ينعمون فيها ويمتعون**] يتلذّذون [**بها فيكون المهنّى لغيره والعبؤ**] أي: الثقل.

[**والوزر على ظهره**] لهم المهنّى وعليه الوزر والمهنا المصدر من هنيء الطعام وهنؤ بالكسر والضمّ مثل فقه وفقه والمصدر هناء ومهناة أي: صار هنيئاً، واستعار العبيء للآثام التي تحملها النفس ورشح بذكر الظهر استعارة لفظ المحسوس للمعقول.

[**والمرء قد علقت رهونه بها**] قصد به مثلاً لحصول المرء في تبعات ما جمع وارتباطه بها عن الوصول إلى كماله وانبعاثه إلى سعادته بعد الموت مما قد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة فأشبه ما جمع من الهيئات الرديّة في نفسه عن اكتساب الأموال فارتهنت بها.

وقال ابن أبي الحديد: لمّا كان قد شارف الرحيل وأشفى على الغراق وصارت تلك الأموال التي جمعها مستحقّة لغيره ولم يبق له فيها تصرّف فأشبه الوهن الذي علق على صاحبه فخرج عن كونه مستحقّاً وصار مستحقّاً لغيره وهو المرتهن.

[**فهو يعضّ يده**] كناية عمّا يلوم ذلك من الأسف والحزن فأسف [**ندامة على ما أصحر له**] أي: ظهر [**عند الموت من أمره**] حيث انكشف له انقطاع سببه من اللّه وفوت ما كان يتوهّم بقائه مما أشغله عن ربّه من الدنيا الفانية وما فاته من الآخرة الباقية.

ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره ويتمنّى أنّ الذي كان يغبطه ويحسده عليها قد حازها دونه فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتّى خالط سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه يرد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم ثمّ زاد الموت التياطاً فقبض بصره كما قبض سمعه

[**ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره**] كما مرّت الإشارة إليه، فهو يتحسّر على ذلك التفريط كما قال تعالى: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت في جنب اللّه وإن كنت لمن الساخرين﴾ ويتمنّى هداية اللّه فيقول: ﴿لو أنّ اللّه هداني لكنت من المتّقين﴾ والرجعة إلى الدنيا لامتثال ما فرّط فيه من الأوامر الإلهيّة فتقول حين ترى العقاب: ﴿لو أنّ لي كرّة فأكون من المحسنين﴾ وكما قال تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾.

[**ويتمنّى أنّ الذي كان يغبطه ويحسده عليها قد حازها دونه**] لما علم من كونها وزراً ووبالاً عليه.

[**فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتّى خالط سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه يرد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم**] أي: ما يتراجعونه بينهم من الكلام.

[**ثمّ زاد الموت التياطاً**] أي: التفافاً به.

[**فقبض بصره كما قبض سمعه**] نبّه عليه السلام بهذا الكلام على أنّ آلة النطق تبطل من الإنسان حال الموت قبل آلة السمع والبصر ونبّه عليه السلام على أنّ بطلان آلة السمع بعدها قبل آلة البصر وأنّ آلة البصر تبطل مع المفارقة وهذا بحسب

وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه لا يسعد باكياً ولا يجيب داعياً ثمّ حملوه إلى محطٍّ في الأرض وأسلموه إلى عمله وانقطعوا عن زورته حتّى إذا بلغ الكتاب أجله

ما تقتضيه الطبيعة وإلّا فقد تعرض الآفة لقوّة البصر وآلته قبل آلة السمع وآلة النطق.

ثمّ قال ﷺ: [**وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله**] بعد أن كان ريحانة لهم.

[**قد أوحشوا من جانبه**] أي: جعلوا مستوحشين والمستوحش المهموم الفزع ويروى أوحشوا من جانبه أي: خلوا منه وأقفروا يقال: أوحش المنزل أي: قفر وخلا.

[**وتباعدوا من قربه لا يسعد باكياً**] يبكي عليه.

[**ولا يجيب داعياً**] يدعوه.

[**ثمّ حملوه إلى محطٍّ في الأرض**] بالخاء المعجمة كناية عن اللحد لأنّه يحط ثم يحفر وبالحاء المهملة ومحط القوم منزلهم.

[**وأسلموه إلى عمله**] النافع والضار له، وفيه إشارة إلى تجسّم الأعمال وأنّ الثواب والعقاب هي الأعمال التي كانت في الدنيا جعلها اللّه بهذه الصور وفي ذكر الإسلام إشارة إلى ما عليه الأغلب الأكثر من أعمال السوء إذ الناجي قليل لأنّ الإسلام إنّما يكون إلى العدوّ إشارة إلى أنّ العمل القبيح كعدوّه القويّ عليه يسلم إليه.

[**وانقطعوا عن زورته حتّى إذا بلغ الكتاب أجله**] أي: انقضاء المدّة

و الأمر مقاديره وألحق آخر الخلق بأوّله وجاء من أمر اللّه ما يريده من تجديد خلقه أماد السماء وفطرها وأرجّ الأرض وأرجفها وخلع جبالها ونسفها ودكّ بعضها بعضاً من هيبة جلاله ومخوف سطوته وأخرج من فيها فجدّدهم بعد إخلاقهم

المضروبة لبقاء الخلق في الدنيا أو في البرزخ.

[و] بلغ **[الأمر]** أي: القضاء **[مقاديره]** تفاصيله من الآثار التي توجد على وفقه.

[وألحق آخر الخلق بأوّله] اي: فتساوى الكلّ في شمول الموت والفناء لهم ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات والأرض﴾.

[وجاء من أمر اللّه ما يريده من تجديد خلقه] وبعثهم وإعادتهم **[أماد السماء]** أي: حرّكها ويروى أمار والموران الحركة.

[وفطرها وأرجّ الأرض] أي: زلزلها **[وأرجفها وخلع جبالها ونسفها]** أي: قلعها من أصولها.

[ودكّ بعضها بعضاً] أي: صدمه ودقّه حتّى يكسره ويسوّيه بالأرض **[من هيبة جلاله ومخوف سطوته]** وكلّ ذلك نطق به الكتاب المبين والأخبار المتواترة عن سيّد المرسلين، قال تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ وقال تعالى: ﴿إذا رجّت الأرض رجّاً وبسّت الجبال بسّاً﴾ وقال تعالى: ﴿وحُملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة﴾ وقال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾ وإليه أشار بقوله:

[وأخرج من فيها] من الأموات ونشرهم **[فجدّدهم بعد إخلاقهم]** أي: صاروا كخلق جديد بعد أن خلقوا وكانوا كالثوب الخلق الذي لا ينتفع به.

وجمعهم بعد تفريقهم ثمّ ميّزهم لما يريد من مسائلتهم عن الأعمال وخبايا الأفعال وجعلهم فريقين أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء فأمّا أهل الطاعة فأثابهم بجواره وخلّدهم في داره حيث لا يظعن النزّال ولا تشخصهم الأسفار ولا تنالهم الأسقام والأخطار ولا تتغيّر منهم الأحوال وأمّا أهل المعصية فأنزلهم شرّ دار

[**وجمعهم بعد تفريقهم ثمّ ميّزهم**] أي: فصل بينهم فجعلهم فريقين سُعداء وأشقياء، كما أُشير إليه بقوله: ﴿وامتازوا اليوم أيّها المجرمون﴾ أي: انفصلوا من أهل الطاعة وذلك التميز [**لما يريد من مسائلتهم عن الأعمال وخبايا الأفعال**] من التقير والتقطير والصغير والكبير والجليل والحقير.

[**وجعلهم فريقين**] كما قال: ﴿فريق في الجنّة وفريق في السعير﴾ [**أنعم على هؤلاء**] وتفضّل عليهم بالجنّة.

[**وانتقم من هؤلاء**] وفيه إشارة إلى أنّ الجنّة ونعيم تفضّل عليهم والانتقام والعقوبة عدل.

[**فأمّا أهل الطاعة فأثابهم بجواره**] والقرب المعنوي منه والكمال المطلق وهو المشار إليه بقوله: ﴿ورضوان من اللّه أكبر﴾.

[**وخلّدهم في داره**] وجنّته ومحلّ الراعية [**حيث لا يظعن النزّال**] بل هم فيها خالدون وعنها لا يظعنون ولا يرتحلون.

[**ولا تشخصهم الأسفار ولا تنالهم الأسقام والأخطار ولا تتغيّر منهم الأحوال**] ولا يتكدّر لهم بال لأنّ كلّ ذلك من لواحق الأبدان والكون في الحياة الدنيا فحيث زالت زالت عوارضها ولواحقها.

[**وأمّا أهل المعصية فأنزلهم شرّ دار**] وهي جهنم فبس القرار.

وغل الأيدي إلى الأعناق وقرن النواصي والأقدام وألبسهم سرابيل القطران ومقطّعات النيران في عذاب قد اشتدّ حرّه وباب قد أطبق عليه أهله في نار لها كلب ولجب ولهب ساطع وقصيف هائل لا يظعن مقيمها ولا يُفادى أسيرها ولا يفصم كبولها

[**وغل الأيدي إلى الأعناق**] أي: جعلها في الأغلال جمع غلّ بالضم وهو القيد.

[**وقرن النواصي والأقدام**] إشارة إلى انعكاس رؤوسهم حتّى اتصلت بأقدامهم لما لحقهم من الخجل.

[**وألبسهم سرابيل القطران**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ ونسبتها إلى القطران إشارة إلى شدّة استعدادهم للعذاب وذلك أنّ اشتعال النار فيما يمسح بالقطران أشدّ.

[**ومقطّعات النيران**] أي: ثياب قد قطعت وفصّلت لهم من النار كما قال تعالى: ﴿قطّعت لهم ثياب من نار﴾ وقيل المقطّعات قصار الثياب [**في عذاب**] أليم جسيم.

[**قد اشتدّ حرّه وباب قد أطبق عليه أهله**] إذ هم خالدون فيها لا خروج لهم منها أبداً فأطبقت أبوابها ولا تفتح أبداً [**في نار لها كلب**] أي: شدّة [**ولجب**] الجب واللجب: الصوت [**ولهب ساطع وقصيف هائل**] القصيف الصوت الشديد.

[**لا يظعن مقيمها ولا يُفادى أسيرها**] هذا وما بعده كناية عن الخلق.

[**ولا يفصم كبولها**] أي: لا تكسر قيودها، الواحد كبل وهو كالأسير والقدية استعارة لقيود الهيئات البدنية المتمكّنة من نفوسهم فكما لا ينفصم

لا مدّة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى في ذكر النبي ﷺ قد حقّر الدنيا وصغّرها وأهون بها وهوّنها وعلم أنّ اللّه زوالها عنه اختيار وبسطها لغيره احتقاراً فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً أو

القيد الوثيق من الحديد ولا ينفك المكبّل به فكذلك نفوسهم المقيّدة بالهيئات الرديّة البدنيّة فلزوم العذاب لهم للزوم هذه الملكات الرديّة لنفوسهم.

[**لا مدّة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى**] أعاذنا اللّه من النار وعذابها وسائر إخواننا المؤمنين بفضله ورحمته.

ومنها

[**في ذكر النبي ﷺ**]: [**قد حقّر الدنيا وصغّرها**] أتى بهذه الصيغة المقيّدة للتكثير إشارة إلى زيادة تحقيره للدنيا وتصغيرها والمراد صغرها عند غيره لكيون قوله:

[**وأهون بها وهوّنها**] مطابقاً له أي: أهون هو بها وهوّنها عند غيره.

[**وعلم أنّ اللّه زوالها**] أي: قبض الدنيا [**عنه اختيار**] أي: باختيار ورضى منه ﷺ لذلك لعلمه بما فيه من رفعة قدرة ومنزلته في الآخرة ليستعدّ بذلك لكمال النبوّة والقيام بأعباء الرسالة.

[**وبسطها**] أي: بسط اللّه الدنيا ووسّعها [**لغيره**] من الكفّار وأبناء الدنيا [**احتقاراً**] لها إذ لو كانت الدنيا لها قدر عند اللّه لما سقى الكافر منها شربة ماء.

[**فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً**] والرياش والريش بمعنى اللّباس [**أو**

يرجو فيها مقاماً بلّغ عن اللّه معذراً ونصح لأُمّته منذراً لهم ودعى إلى الجنّة مبشّراً نحن شجرة النبوّة ومحطّ الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحِكم

يرجو فيها مقاماً].

ثمّ أشار إلى ثمرة ذلك الزهد والإعراض عن الدنيا بقوله:

[**بلّغ عن اللّه معذراً**] أي: بلّغ رسالة ربّه إعذاراً إلى خلقه أن يقولوا يوم القيامة ﴿إنّا كنا عن هذا غافلين﴾.

[**ونصح لأُمّته منذراً لهم**] بالعذاب الأليم والعقاب الجسيم في إعراضهم عن أوامر اللّه ومراضيه وإقبالهم إلى نواهيه ومقاصيه [**ودعى إلى الجنّة مبشّراً**] لمن سلك منهاجه القويم وصراطه المستقيم بما أعدّ له فيها من النعيم المقيم والثواب الجسيم والرضوان العظيم.

ثمّ أشار إلى فضيلة ذاته الشريفة ونسبه المنيعة محدّثاً بما أنعم اللّه عليه منبّهاً لهم عمّا غفلوا عنه من معرفة حقّه حتّى قابلوه بمعاوية وأمثاله فقال:

[**نحن شجرة النبوّة**] كأنّه جعل النبوّة كثمرة أخرجتها شجرة بني هاشم.

[**ومحطّ الرسالة**] أي: منزلها.

[**ومختلف الملائكة**] أي: موضع اختلافها ومحلّ صعودها وهبوطها.

[**ومعادن العلم**] الإلهي [**وينابيع الحِكم**] أي: الحكمة، ولفظ الشجرة والمعادن والينابيع مستعار.

قال ابن أبي الحديد ما حاصله أنّه: لو أراد بقوله نحن مختلف الملائكة جماعة من جملتها رسول اللّه ﷺ فلاريب في صحّة القضيّة وصدقها وإن

. . . .

أراد بها نفسه وابنيه فهي أيضاً صحيحة ولكنّ مدلوله ومستنبطه فقد جاء في الأخبار الصحيحة أنّه قال: «يا جبرئيل إنّه منّي وأنا منه فقال جبرئيل وأنا منكما»، وروى أبو أيوب الأنصاري مرفوعاً: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين لم تصلّ على ثالث لنا وذلك قبل أن يظهر أمر الإسلام ويتسامع الناس.

وفي خطبة الحسن عليه السلام لما قبض أبوه: لقد فارقكم في هذه اللّيلة رجل لم يسبقه الأوّلون ولم يدركه الآخرون، كان يبعثه رسول اللّه للحرب وجبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وجاء في الخبر أنّه سمع يوم أُحد صوت من الهواء من جهة السماء لا سيف إلاّ ذوالفقار ولا فتى إلاّ عليّ وأنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال هذا صوت جبرئيل، فأمّا قوله ومعادن العلم وينابيع الحكم يعني الحكمة أو الحكم الشرعي فإنّه عنى بها نفسه وذرّيته فإنّ الأمر فيها ظاهر جداً.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب».

وقال صلى الله عليه وآله: «اقضاكم عليٌّ» والقضاء يستلزم علوماً كثيرة.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ سألتُ اللّه أن يجعلها أُذنك ففعل.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله﴾ أنّها نزلت في عليّ وما خُصّ به من العلم.

ناصرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى اللّه سبحانه الإيمان به وبرسوله

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهدٌ منه﴾ أنّ الشاهد عليٌّ عليه السلام.

وروى المحدّثون أنّه صلى الله عليه وآله قال لفاطمة عليها السلام: «زوّجتك أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً وأعلمهم علماً».

وروى المحدّثون أيضاً عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه وموسى في علمه وعيسى في ورعه فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام».

وقوله: **[ناصرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة]** ترغيب في نصرته ومحبّته وجذب إليهما بالوعد برحمة اللّه وإفاضة بركاته كما أنّ قوله: **[وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة]** تنفير عن بغضه وخذلانه والسطوة المنتظرة لعدوّهم من اللّه فهم كالمنتظرين لها وتحقّق في الرجعة وفي الدار الآخرة.

ومن خطبة له عليه السلام
في بيان أفضل الوسائل الموصلة إلى اللّه سبحانه

[إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى اللّه سبحانه الإيمان به وبرسوله] فالإيمان باللّه هو التصديق بوجوده، وهو إشارة إلى أصل الإيمان، وله لواحق وكمالات أهمّها التصديق برسوله وقدمه على سائر العبادات لأنّه أصل لها لا تصحّ بدونه.

والجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة وإقامة الصلاة فإنّها الملّة وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة

[والجهاد في سبيله] وأشار إلى فضيلته وتقديمه على سائر العبادات بقوله:

[فإنّه ذروة الإسلام] وذروة الشيء: أعلاه، استعيرت له ملاحظة لشبهه في العلوّ والمرتبة بالسنام للبعير، وقدّم على الصلاة لكون سالكه على يقين من اللّه وقوّة من التصديق بما جاء به الرسول ﷺ حيث يلقي نفسه إلى التهلكة الحاضرة ولأنّه الأصل الأعظم في جميل العالم على الدين.

وأشار إلى الثالث بقوله:

[وكلمة الإخلاص] وهي كلمة التوحيد المستلزمة لنفي الشركاء والأنداد وهو معنى الإخلاص، ولذا أُضيفت إليه وأشار إلى وجه فضيلتها بقوله:

[فإنّها الفطرة] أي: فطرة اللّه التي فطر الناس عليها لأنّها كلمة التوحيد وعليه فطر الخلق كما مرّ مراراً.

الرابع قوله: **[وإقامة الصلاة فإنّها الملّة]** وإنّما وصف بالملّة مع أنّها بعض أركان الدين لأنّها الركن القوي من أركانه من إطلاق الكلّ على الجزء وفي النبوي: «الصلاة عمود الدين فإن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها» وفي آخر: «مفتاح الجنّة».

[وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة] قيل: أراد بالفريضة السهم المقتطع من المال للفقراء المسمّى زكاة، وهو عرف شرعي لا الفريضة بمعنى الواجب، فإنّ كلّ العبادات الواجبة كذلك، ولأنّ الفرض والواجب بمعنى.

وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة من العذاب وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب وصلت الرحم فإنّها مثراة في المال ومنساة في الأجل

[**وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة**] بضمّ الجيم أي: وقاية [**من العذاب**] خصّ الصوم باستعارة الجُنّة وإن كان سائر العبادات كذلك لأنّه أشدّها وقاية في كسر النفس الأمّارة وقطع وسائل الشيطان التي هي الشهوات ولذا قال النبي ﷺ: «إنّ الشيطان لجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش» فكان الصوم على الخصوص أشدّ قمعاً للشيطان من سائر العبدات فكان أقوى جنّة في دفع ما يلزم بسببه من العقاب.

[**وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان**] أي: يغسلان [**الذنب**] أشار إلى أنّ فيه منفعة الدنيا والآخرة ونفيهما الفقر لحكمة خفيّة لا نعلمها أو بسبب التجارة الحاصلة في موسم الحج. وفي القرآن الكريم ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قيل هي منافع الدنيا من التجارة وقيل هي منافع الدنيا والآخرة.

[**وصلت الرحم فإنّها مثراة في المال**] المثراة: المكثرة، وهي محلّ كثرة المال.

[**ومنساة**] أي: محلّ النساة، وهو التأخير [**في الأجل**] قيل كونها مثراة للمال له سببان:

أحدهما: أنّ العناية الإلهيّة قسّمت لكلّ حيٍّ قسطاص من المرزق مدّة حياته فإذا أعدت شخصاً من الناس للقيام بأمر جماعة وكفلته بإمدادهم وجب في العناية إفاضة أرزاقهم بحسب استعداده لذلك، وهو معنى كونه

وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء وصنايع المعروف فإنّها تقي مصارع الهون

مثراة في المال.

والثاني: أنّ صلة الرحم من الأخلاق الحميدة التي يستمال بها طباع الخلق ويستجلب عاطفتهم فيكون سبباً لإمداده ومعونته من ذوي الإمداد والمعونات كالملوك وغيرهم، فكان مثراة، وأمّا كونها منسأة في الأجل؛ فلأنّها توجب تعاطف ذوي الأرحام ومعاضدتهم لواصلهم فيكون عن أذى الأعداء ابعد وذلك مظنّة طول العمر وتأخيره، ولأنّها توجب تعلّق هممهم ببقائه وإمداده بالدعاء الذي يكون شرطاً في بقائه فكانت صلتهم منساة، والمنساة محلّ النسيء وهو التأخير.

[**وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة**] وخُصّت بذلك مع أنّ سائر العبادات كذلك لكونها أبعد عن الرياء ومخالطة ما لا يراد به وجه اللّه فكانت أتمّ في الإخلاص وأولى بالتقرّب من اللّه ويمحو الخطيئة.

[**وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء**] لاستلزامها الشهرة بفعل الخيرات والذكر الجميل ومحبّة المتصدِّق، وذلك يمنع غالباً من ميتات السوء كالقتل والحريق، وكلّما يكون بقصد الغير وفعله لمكان محبّته واشتهاره بعفل الجميل.

[**وصنايع المعروف فإنّها تقي مصارع الهون**] كأسر الروم للمسلم أو كأخذ الظلمة لغير المستحقّ للأخذ إذ كان اصطناع المعروف مستلزماً لتأليف القلوب وجامعاً لهم على محبّة المصطنع فينجيه ذلك من مصارع الهوان، هذه أحد عشر خصلة من مكمّلات الإيمان.

أفيضوا في ذكر اللّه فإنّه أحسن الذكر وارغبوا فيما وعد المتّقين فإنّ وعده أصدق الوعد واقتدوا بهدى نبيّكم فإنّه أفضل الهدى واستنّوا بسنّته فإنّها أهدى السنن وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور فإنّه أنفع

ثم ذكر عليه السلام خصالاً أُخَر تؤكّده في القلوب وتثبّته فقال: **[أفيضوا]** أي: اندفعوا **[في ذكر اللّه فإنّه أحسن الذكر]** لما يستلزمه من حصول الكمالات المعدّة في الآخرة والوصول إلى اللّه **[وارغبوا فيما وعد المتّقين]** من ثواب الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر **[فإنّ وعده أصدق الوعد]** فكيف لا يرغب فيما وعد به؟

[واقتدوا بهدى نبيّكم] أي: سيرته **[فإنّه أفضل الهدى]** يقال: هدى فلان هدي فلان، أي: سار سيرته.

[واستنّوا بسنّته فإنّها أهدى السنن] إذ لمّا كان صلى الله عليه وآله أفضل الأنبياء كانت سُنّته أشرف السنن والاقتداء به واتّباع سنّته أهدى الطريق إلى اللّه تعالى.

[وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾.

[وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب] واستعار له لفظ الربيع كون القرآن جامعاً لأنواع العلوم الشريفة والأسرار العجيبة اللّطيفة التي هي متنزّه القلوب كما أنّ زمن الربيع محلّ الأزهار الرائقة التي هي مستمتع النظر ومطرح السرور.

[واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور] لأنّ حسن تلاوته مظنة لفهم معانيه وتدبّرها وبحسن تلاوته تظهر فائدته وتحصل منفعة قصصه **[فإنّه أنفع**

القصص وإنّ العالم العامل لغير علمه كالجاهل الجائر الذي لا يستفيق من جهله بل الحجّة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند اللّه ألوم

القصص] إذا تُلي حقّ تلاوته.

ثمّ أكّد الأوامر المذكورة بالأعمال التي عدّدها فقال: **[وإنّ العالم العامل لغير علمه كالجاهل الجائر]** أي: العادل عن سواء السبيل **[الذي لا يستفيق من جهله]** لاشتراكهما في ثمرة الجهل وهو الجور عن قصد السبيل وفي عدم الانتفاع بفائدة العلم وثمرته وهي الأعمال الصالحة.

ثمّ ترقّى فقال: **[بل الحجّة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند اللّه ألوم]** إذ للجهّال أن يقولوا ﴿إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ وليس للعالم ذلك، وفي النبوي: «العلم علمان: علم على اللسان فذلك حجّة اللّه على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع» أي: الذي يستلزم الطاعة بالعمل. وأمّا كون الحسرة له ألزم فلأنّ النفوس الجاهلة غير عالمة بمقدار ما يفوتها من الكمال بالتفصيل، فإذا فارقت أبداننا فهي وإن كانت محجوبة عن ثمار الجنّة وما أعدّ اللّه فيها لأوليائه إلاّ أنّها لم تجد لذّاتها ولم تطعم حلاوة المعارف الإلهية لم تكن لها كثير حسرة عليها ولا أسف على التقصير في تحصيلها، بخلاف العارف بها العالم بنسبتها إلى اللّذات الدنيويّة فإنّه بعد المفارقة إذا علم وانكشف له أنّ الصارف له والمانع عن الوصول إلى حضرة جلال اللّه هو تقصيره في العمل بما علم مع علمه بمقدار ما فاته من الكمالات والدرجات كان أسفه وحسرته على ذلك أشدّ الحسرات وجرى ذلك مجرى من علم قيمة جوهرة ثمينة يساوي جملة من المال ثمّ أشغل عن تحصيلها ببعض لعبه حتّى فاتته فإنّه تعظم حسرته عليها وندمه على التفريط فيها

أمّا بعد فإنّي أُحذّركم الدنيا فإنّها حُلوة خضرة حُفَّت بالشهوات

بخلاف الجاهل بقيمتها. وأمّا كونه عند اللّه ألوم وأشدّية اللائمة له بعد المفارقة مجاز في انقطاع لسان حاله عن العذر في معصيته عن علم وإنّما يكون ألوم لأنّ إقدام العالم على المعصية التي علم قبحها إنّما يكون عن نفس في غاية الانقياد للنفس الأمّارة بالسوء والطاعة لإبليس وجنوده طاعة تفضل على طاعة الجاهل وانقياده لقيام الصارف عنها في حقّ العالم وهو علمه بقبحها وترجّح الداعي إليها عليه وعدم الصارف في حقّ الجاهل، ولاشكّ أنّ أشدّية اللائمة تابعة لأشدّية الانقياد لإليس سيّما مع العلم بما تستلزمه متابعته من الهلاك وظاهر كونه إذاً عند اللّه ألوم.

ومن خطبة له عليه السلام في ذمّ الدنيا والتنفير عنها

[أمّا بعد فإنّي أُحذّركم الدنيا فإنّها حُلوة خضرة] أي: ناضرة، وفي النبوي: «الدنيا حلوة خضرة وإنّ اللّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» واستعار الحلاوة والخضرة المتعلّقين بحسّي الذوق والبصر لما يروق منها ويلذّ النفس ووجه الشبه المشاركة في الالتذاذ به وخصّهما الأكثرية تأديتهما إلى النفس والالتذاذ بواسطتهما دون سائر الحواس.

[حُفَّت بالشهوات] وفي الخبر «حفّت الكنّة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات» كأنّ الشهوات مستديرة بها وحولها كما يحفّ الهودج بالثياب وحضوا حوله يحضون حظّاً طافوا به قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش﴾.

وتحبّبت بالعاجلة وراقت بالقليل وتحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لا تدوم حبرتها ولا يؤمن فجعتها غرّارة ضرّارة حائلة نافذة أكّالة غوّالة لا تعدوا إذا تناهت إلى أُمنية أهل الرغبة فيها أن تكون كما قال الله تعالى

وقوله: [**وتحبّبت بالعاجلة**] أي: اللّذات الحاضرة التي مالت القلوب إلى الحياة الدنيا بسببها، فأشبهت المرأة المتحبّبة بمالها وجمالها إذ استعير لها وصف التحبّب.

[**وراقت بالقليل**] أي: أعجبت بزينتها القليلة الحقيرة بالنسبة إلى متاع الآخرة كمّية وكيفية.

[**وتحلّت بالآمال**] الكاذبة المنقطعة.

[**وتزيّنت**] عند الناس [**بالغرور**] الذي لا حقيقة له.

[**لا تدوم حبرتها**] اي: سرورها والحبرة السرور.

[**ولا يؤمن فجعتها غرّارة**] تغرّ أهلها [**ضرّارة**] تضرّ طالبها [**حائلة**] أي: متغيرة فانية زائلة بائدة منقضية.

[**نافذة أكّالة**] أي: قتّالة [**غوّالة**] أي: مهلكة، والغول ما غال أي: أهلك استعار لها أوصاف الخدوع وهي كونها غرّارة وغوّالة أي: كثيرة الاسغفال لأهلها والخداع لهم ووصف السبع العقور ولكونها أكّالة لهم وكنّى بالأوّلين عن كونه كالمخادع في كونها سبباً لغفلتهم عمّا خلقوا لأجله بالاشتغال بها والانهماك في لذّاتها، وبالأكّالة عن كونها كالسبع في إفنائهم بالموت وطحنهم تحت التراب [**لا تعدوا**] أي: لا تتجاوز.

[**إذا تناهت إلى أُمنية أهل الرغبة فيها أن تكون كما قال الله تعالى**

﴿وضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه على كلّ شيء مقتدراً﴾ لم يكن أمرؤ منها في حبرة إلّا أعقبته بعدها عبرة ولم يلق من سرائها بطناً إلّا منحته من ضرّائها ظهراً ولم تطله منه ديمة رخاء

﴿وضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه على كلّ شيء مقتدراً﴾] أي إنّ غاية صفائها للراغبين فيها والراضين بها وموافقتها لهم لا يتجاوز المثل وهو أن تزهر في عيونهم ويروقهم محاسنها ثمّ عن قليل تزول عنهم فكأنّها لم تكن والهشيم في الآية ما تهشّم وتحطّم، الواحدة هشيمة، وتذروه الرياح: تطيّره، وكان اللّه على ما يشاء من الإنشاء والإفشاء مقتدراً.

[لم يكن أمرؤ منها في حبرة إلّا أعقبته بعدها عبرة] كنّى بالعبرة عن الحزن المعاقب للسرور.

[ولم يلق من سرائها بطناً إلّا منحته من ضرّائها ظهراً] قال ابن أبي الحديد: إنّما خصّ السرّاء بالبطن والضرّاء بالظهر لأنّ الملاقي لك بالبطن ملاق بالوجه فهو مقبل عليك والمعطيك ظهره مدبر عنك وقيل لأنّ الترنو بطنه إليك وظهره إلى عدوّك وقيل لأنّ المشي في بطون الأودية أسهل من السير على الظرب والآكام وقيل لأنّ العادة فيمن يلقى صاحبه بالبشرى أن يلقاه بوجهه وبطنه وفيمن يلقى بالتنكّر والإدبار أن يلقى بظهره مولّياً عنه، فاستعير ذلك للدنيا، وعبّر عن إقبالها وإدبارها.

[ولم تطله منه ديمة رخاء] يقال: طلّه السحاب يطله إذا امطره مطراً قليلاً أي: لم تبلّه منها ديمة رخاء.

إلاّ هتنت عليه مزنة بلاء وحري إذا أصبحت منتصرة أن تمسي له منكرة وإن جانب منها اعذوذب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى لا ينال امرؤ من غضارتها رغبة إلاّ أرهقته من نوائبها تعباً ولا يصبح منها في جناح أمن إلاّ أمسى على قوادم خوف

[**إلاّ هتنت**] أي: سالت [**عليه مزنة بلاء**] والهتان المطر الكثير من هتن يهتن بالكسر هتوناً وهتاناً، واستعار لفظ الديمة للرخاء ولفظ المزنة للبلاء والمراد أنّ كلّ خير ناله المرء فيها فإنّه غالباً يستعقب شرّاً أكثر منه.

[**وحري**] أي: جدير وخليق [**إذا أصبحت**] الدنيا له [**منتصرة أن تمسي له منكرة**] أي: متغيّرة.

[**وإن جانب منها اعذوذب واحلولى**] أي: صار عذباً حلواً وهما مبالغة في العذوبة والحلاوة.

[**أمرّ منها جانب**] أي: صار مرّاً[**فأوبى**] أي: أمرض.

[**لا ينال امرؤ من غضارتها**] أي: طيب عيشها [**رغبة**] مصدر رغيب في الأمر رغبة ورغباً أي: أراده [**إلاّ أرهقته**] أي: حملته وكلّفته [**من نوائبها تعباً**] أي: لا ينال الإنسان منها أدواته إلاّ بمقاساة التعب الشديد.

[**ولا يصبح منها في جناح أمن إلاّ أمسى على قوادم خوف**] نبّه باستعارة لفظ الجناح للأمن ولفظ القوادح للخوف إرادته ما من آمن فيها إلاّ ويستعقب خوفاً أقوى وللقوادم مقاديم الريش وأكبّ عليها معرض بخطر عظيم وسقوط قريب والجناح يستر وبقي البرد والأذى وهذا هو السرّ في تخصيص الأمن بالجناح والخوف بالقوادم.

وقيل: خصّ الأمن بالجناح لأنّ الجناح محلّ التنفير بسرعة، فنبّه به

غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها لا خير في شيء من أزوادها إلاّ التقوى من أقلَّ منها استكثر ممّا يؤمنه ومن استكثر منها استكثر ممّا يوبقه وزال عمّا قليل عنه كم من واثق بها قد فجعته وذي طمأنينة إليها قد صرعته وذي أُبّهة

على سرعة تغيّراتها وخصّ الخوف بقوادم الجناح لأنّ القوادم هي رأس الجناح وهي الأصل في سرعة حركته وتغيّره وهو في مساق الذمّ والمراد أنّه وإن حصل منها أمن فهو في محلّ التغيّر السريع والخوف إليه أسرع لتخصيصه بالقوادم ثمّ قال عليه السلام:

[**غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها**] قال تعالى: ﴿فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور﴾ وقال تعالى: ﴿كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ وقال تعالى: ﴿كلّ شيء هالك إلاّ وجهه﴾.

[**لا خير في شيء من أزوادها إلاّ التقوى**] كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ [**من أقلَّ منها**] أي تناول القليل منها واقتصر على المقدار الضروري.

[**استكثر ممّا يؤمنه**] وهو الأعمال الصالحة.

[**ومن استكثر منها استكثر ممّا يوبقه**] أي: يهلكه وهو ملكات السوء الحاصلة من حبّ بقائها ولذّاتها الفانية الموجبة للهلاك بعد مفارقتها وزوالها. كما أشار بقوله:

[**وزال عمّا قليل عنه كم من واثق بها قد فجعته**] بفقد أحبّائه وأصحابه وأولاده وآبائه.

[**وذي طمأنينة إليها قد صرعته وذي أُبّهة**] أي: كبر وعظمة.

قد جعلته حقيراً وذي نخوة قد ردّته ذليلاً سلطانها دول وعيشها رنق وعذبها أُجاج وحلوها صبر وغذائها سمام وأسبابها رمام حيّها بعرض موت

[**قد جعلته حقيراً وذي نخوة**] أي: ذي كبر.

[**قد ردّته ذليلاً**] إلى أصله إذ كان نطفة قذرة من ماء مهين [**سلطانها دول**] ينتقل من واحد إلى آخر.

[**وعيشها رنق**] بفتح النون: مصدر رنق الماء أي: تكدّر وبالكسر الكدر وقد روي هنا بالكسر والفتح فالكسر ظاهر والفتح على حذف مضاف أي ذو رنق.

[**وعذبها أُجاج**] أي: جمع المرورة والملوحة أجّ الماء يؤجّ أُجوجاً.

[**وحلوها صبر**] بكسر الباء وهو نبت مرّ معروف ثمّ سمّي كلّ مرّ صبراً.

[**وغذائها سمام**] جمع سم وهو القاتل المعروف.

[**وأسبابها رمام**] أي: بالية، استعار لفظ العذب والحلو للذّاتها والأُجاج والصبر لماى شوب لذّاتها من الكدر بالأمراض والتغيّرات ووجه الاستعارة الاشتراك في الإيذاء والإيلام، واستعار لفظ الغذاء وكنّى به عن لذّاتها أيضاً وكذا السمام ووجه الاستعارة ما يستعقب الانهماك في لذّاتها من الهلاك في الآخرة كما يستعقب شرب السمّ.

ثمّ عقب ذلك بالتحذير والتنفير عنها فقال:

[**حيّها بعرض موت**] أي: أحيائها معرّضون للموت لا يدرون في أيّ ساعة يطرقهم.

وصحيحها بعرض سقم ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها منكوب وجارها محروب ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً؟! وأبقى آثاراً وأبعد آمالاً وأعدّ عديداً وأكثف جنوداً تعبّدوا للدّنيا أيّ تعبّد وآثروها أيّ إيثار

[**وصحيحها بعرض سقم**] معرّض للأسقام والأمراض [**ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها**] أي ذو الوفرة والثروة.

[**منكوب وجارها محروب**] أي: مسلوب لا تحمي جاراً ولا تمنعه.

[**ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً؟!**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ ودلّ قوله تعالى ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً﴾ على طول أعمارهم.

[**وأبقى آثاراً**] فإنّ من جملة آثارهم الإيوان ومنارة الاسكندرية وغيرهما.

[**وأبعد آمالاً**] إذ بُعد الآمال مرتّب على طول الأعمار فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعد وإن أُريد به علوّ الهمّة فلا ريب أنّهم كانوا أعلا همماً من أهل هذا الزمان وقد كان فيه من ملك معمورة الأرض كلّها، وكذا القول في قوله:

[**وأعدّ عديداً**] أي: أكثر منهم عدداً.

[**وأكثف جنوداً تعبّدوا للدّنيا أيّ تعبّد**] أي: تعبّدوا لها تعبداً أيّ تعبّد [**وآثروها**] إيثاراً [**أيّ إيثار**] على الدار الآخرة، ﴿أولئك الذين اشتروا الدنيا بالآخرة﴾.

ثمّ ظعنوا عنها بغير زاد مُبلغ ولا ظهر قاطع فهل بلغكم أنّ الدنيا سخت لهم نفساً بفدية وأعانتهم بمعونة وأحسنت لهم صحبة بل أرهقتهم بالفوادح وأوهنتهم بالقوارع وضعضعتهم بالنوائب وعفّرتهم للمناخر ووطئتهم بالمناسم وأعانت عليهم ريب المنون فقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها وآثارها

[**ثمّ ظعنوا عنها بغير زاد مُبلغ**] يبلغهم الدار الآرة [**ولا ظهر قاطع**] لمسافة الطريق.

[**فهل بلغكم أنّ الدنيا سخت لهم نفساً بفدية وأعانتهم بمعونة وأحسنت لهم صحبة**] كما تعبّدوا لها وآثروها على غيرها.

[**بل أرهقتهم**] أي: غشيتهم ورمتهم [**بالفوادح**] أي: المثقلات من فدحه الدّين أي أثقله، ويروى بالقاف وهي آفة تظهر في الشجر وصدوع تظهر في الأسنان.

[**وأوهنتهم**] جعلتهم في الوهن بفتح الهاء وهو جبل كالطول ويجوز التسكين مثل نهر ونهر [**بالقوارع**] أي: المحن والدواعي، وسمّيت القيامة قارعة لهذا المعنى.

[**وضعضعتهم**] أذلّتهم [**بالنوائب**] جمع نائبة.

[**وعفّرتهم للمناخر**] أي: ألصقت أنوفهم بالعفر وهو التراب.

[**ووطئتهم بالمناسم**] جمع منسم بكسر السين وهو خف البعير.

[**وأعانت عليهم ريب المنون فقد رأيتم تنكّرها لمن دان**] أي: ذلّ [**لها**] وأطاعها.

[**وآثارها**] على الدار الآخرة.

وأخلد إليها حين ضعنوا عنها الفراق الأبد هل زوّدتهم إلّا السغب أو أحلّتهم إلّا الضنك أو نوّرت لهم إلّا الظلمة أو أعقبتهم إلّا الندامة أفهذه؟! تؤثرون أم إليها تطمئنون أم عليها تحرصون فبئت الدار لمن لم يتّهمها ولم يكن فيها على وجل منها

[**وأخلد إليها**] أي: مال، كما قال تعالى: ﴿ولكنّه أخلد إلى الأرض﴾ [**حين ضعنوا**] أي: ارتحلوا [**عنها الفراق الأبد هل زوّدتهم إلّا السغب**] أي: الجوع.

[**أو أحلّتهم إلّا الضنك**] أي: الضيق.

[**أو نوّرت لهم إلّا الظلمة**] أي: ما تنورت لهما ولكن أوجبت لهم الظلمة، إشارة إلى ما يكتسبه طالبوها من الجهل وملكات السوء.

[**أو أعقبتهم**] شيئاً [**إلّا الندامة**] وهذا من باب إقامة الضدّ مقام ضدّه، أي: لم تسمح لهم بمرادهم بل بضدّه والغرض من هذه المذام التنفير عنها وأسند إليها الأفعال الاختيارية على الاستعارة ملاحظةً لتشبيهها بالمرأة المتزيّنة لخداع الرجال عن أنفسهم وأحوالهم.

ثمّ عاد إلى السؤال على سبيل الإنكار بقوله: [**أفهذه؟!**] الدنيا الفانية المتّصفة بهذه الصفات الذميمة وهي في الحقيقة عدوّ لكم [**تؤثرون**] على الآخرة الباقية [**أم إليها تطمئنون**] وتركنون مع تقلّبها وغدرها وخداعها.

[**أم عليها تحرصون**] مع زوالها وفنائها وتخلّفوها لغيركم بحيث يكون لهم المهنّى وعليك الوزر [**فبئت الدار**] هي [**لمن لم يتّهمها ولم يكن فيها على وجل منها**] أي: من لم يسؤ ظنّاً بها وركن إليها إذ كانت سبب هلاكه في الآخرة بخلاف من اتّهمها بالخديعة والغرور وكان على حذر منها واغتنم

فاعملوا وأنتم تعلمون بأنّكم تاركوها وظاعنون عنها واتّعظوا فيها بالذين ﴿قالوا من أشدّ منّا قوّة﴾ حُملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً وأُنزلوا فلا يدعون ضيفاناً وجعل الأجداث من الصفيح اجنان ومن التراب أكفان

الفرصة فيها فاتّخذ زاداً لآخرته فإنّها محمودة له ولذا قال ﷺ «نِعم العون على الآخرة الدنيا».

ثمّ شرع ﷺ في الأمر بالعمل على وفق العلم بمفارقتها فقال:

[**فاعملوا**] فيها لآخرتكم [**وأنتم**] أي: والحال انّكم [**تعلمون**] مفارقتها، فإنّ ترك العمل للآخرة إنّما يكون للاشتغال بالدنيا فالعالم بضرورة مفارقتها له وما أُعدّ لتاركي العمل من العذاب الأليم إذا نبّه أو تنبّه لتلك الحال كان ذلك صارفاً له عنها ومستلزماً للعمل لغيرها.

[**بأنّكم تاركوها وظاعنون عنها**] والعاقل لا يركن إلى ما هذه صفته.

[**واتّعظوا فيها بالذين ﴿قالوا من أشدّ منّا قوّة﴾**] واغترّوا بقوّتهم [**حُملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً وأُنزلوا فلا يدعون ضيفاناً**] الغرض من ذلك تأكيد التنبيه على مفارقة الدنيا وعدم الركون إليها بالتذكير بأحوال المفارقين لها بعد مفارقتها المضادّة لأحوال المعتادة للأحياء التي ألفوها واستراحوا إليها إذ كان من عادتهم إذ حملوا أن يسمّوا ركباناً وإذا نزلوا أن يدعوا ضيفاناً.

[**وجعل الأجداث**] أي: القبور لهم [**من الصفيح**] أي الحجارة [**اجنان**] جمع جنّة وهي الستر وقيل هي القبور والواحد جنن والمجنون المقبور.

[**ومن التراب أكفان**] وروي أكنان جمع كن وهو السترة، قال تعالى:

ومن الرفاة جيران فهم حَيَرةٌ لا يجيبون داعياً ولا يمنعون ضيماً، ولا يبالون مندبة إن جيدوا لم يفرحوا وإن قحطوا لم يقنطوا جميع وهم آحاد وجيرة وهم أبعاد متدانون لا يتزاورون وقرينون لا يتقاربون حلماء قد ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم لا يخشى فجعهم ولا يُرجى دفعهم استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً وبالأهل غربة وبالنور ظلمة فجائوها كما فارقوها حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا

﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾.

[ومن الرفاة] أي: العظام البالية **[جيران فهم حَيَرةٌ لا يجيبون داعياً ولا يمنعون]** عن أحد **[ضيماً، ولا يبالون مندبة]** أي: ندباً على الميت لا يبالون بذلك ولا يكترثون به **[إن جيدوا]** أي: أمطروا، وجاد لهم الغيث **[لم يفرحوا وإن قحطوا]** انقطع المطر عنهم فأصابهم القحط **[لم يقنطوا جميع]** أي: تراهم مجتمعين.

[وهم آحاد وجيرة وهم أبعاد] إذ لا نفع في اجتماعهم وتجاورهم **[متدانون]** متقاربون بعضهم من بعض.

[لا يتزاورون وقرينون لا يتقاربون حلماء قد ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم لا يخشى فجعهم ولا يُرجى دفعهم] والغرض من ذلك أنّهم سُلبت عنهم تلك الصفات وعُرفوا بأضداد تلك السمات.

[استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً وبالأهل غربة وبالنور ظلمة فجائوها كما فارقوها حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا

فاعلين﴾هل تحسّ به إذا دخل منزلاً؟

فاعلين﴾] أي: أشبه مجيئهم إلى الدنيا ووجودهم فيها خروجهم منها يوم مفارقتهم لها.

ووجه الشبه كونهم حفاة عراة وهو كناية عن الفقر منها، ودلّ على ذلك استشهاده بالآية وموضع قوله (قد ضعنوا عنها) النصب على الحال كما انتصب حفاة عراة والعامل فارقوها ولا يقدّر مثله (جائوها) وإن قدّر مثل الحالين السابقين وقيل فراقهم من الدنيا إن خلقوا منها ومجيئهم إليها إن دفنوا فيها كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ إذ لو كان المراد بمجيئهم إليها دخولها فيها حين الولادة مع أنّه في ظاهر الأمر هو المشبّه ومفارقتهم هي المشبّه به لانعكس الغرض إذ المقصود تشبيه المفارقة بالمجيء وذلك يستلزم كون المشبّه هو المفارقة والمشبّه به هو المجيء وأورد عليه أنّ المشابهة إذا حصلت بين الشيئين في نفس الأمر جاز أن يحصل أصلاً والآخر فرعاً وجاز أن يقصد أصل المساواة بينهما و(من) في الآية لبيان الجنس فلا تدلّ على المفارقة والانفصال.

ومن كلام له عليه السلام

من جملة خطبة طويلة ذكر فيها ملك الموت وتوفّيه الأنفس والغرض من ذكر هذه الكلمات تنزيه اللّه تعالى عن إحاطة العقول به كما قال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ قال عليه السلام: **[هل تحسّ به إذا دخل منزلاً؟]** استفهام إنكاري عن الإحساس به إذا دخل منازل المتوفّين إشارة إلى أنّه ليس جسماً كهذه

أم هل تراه إذا توفى أحداً؟! بل كيف يتوفّى الجنين في بطن أُمّه أيلج عليه من بعض جوارحها أم الروح أجابته بأمر ربّها أم هو ساكن معها في أحشائها كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله

الأجسام وشخصاً كهذه الأشخاص إذ لو كان كذلك لأحسّ بإحدى الحواسّ وكذا قوله:

[**أم هل تراه إذا توفى أحداً؟!**] ثمّ ذكر ما هو أعجب من ذلك فقال:

[**بل كيف يتوفّى الجنين في بطن أُمّه أيلج عليه من بعض جوارحها أم الروح أجابته بأمر ربّها أم هو ساكن معها في أحشائها**] وخير الأُمور أوسطها وهو إجابتها بإذن ربّها وذكر الأقسام الثلاثة ليبقى الجاهل في محلّ الحيرة متردّداً.

ثمّ لمّا أبان عليه السلام عجز الإنسان عن إدراك ملك الموت الذي هو خلق من خلق اللّه، أشار إلى أنّه إذا لم يعرف كنه مخلوق مثله فبطريق أولى لا يعرف كنه خالقه فقال:

[**كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله**] وتقدير الدليل أنّ الإنسان عاجز عن وصف مخلوق مثله كملك الموت وعن معرفة كيفية تصرّفه في قبض النفوس الإنسانية وكلّ من كان كذلك كان عاجزاً عن صفة إلهه الذي هو أبعد الأشياء عنه مناسبة بل أعجز.

وأُحـذِّركم الدّنيا فـإنّه منزل قلعـة وليـست بدار نجـعـة قـد تزيّنت بغـرورها وغـرّت بزينتـهـا دار هانت على ربّهـا فـخلط حـلالهـا بحـرامـهـا وخيرها بشرّها وحلوها بمرّها

ومن خطبة له عليه السلام

[**وأُحـذِّركم الدّنيا فـإنّه منزل قلعة**] بضم القـاف وسكون اللام أي: لا يصلح للاستيطان، يقال القـوم على قلعـة أي: رحلة، وفـلان قلعة إذا كـان ينقطع عن سرجه والقلعة أيضاً المال العارية وفي الخبر بئس المال القلعة.

[**وليست بدار نجعة**] النجعة طلب الكلأ في موضعه وفلان ينتجع الكلأ والمنتجع المنزل في طلب الكـلأ وانتجعت فلاناً إذا أتيته تطلب معروفه إشارة إلى أنّها لا تصلح للاستيطان وطلب الكلأ وكنّى به عـمّا ينبغي أن يطلب من الخيرات البـاقيـة التي هي محلّ السـرور الدائم والأمن [**قد تزيّنت بـغرورها**] لاستغفالها الخلق.

[**وغرّت بزينتها**] أي بسبب استـحسانها فاندفع الـدور المتوهم من جعل الزينة سبباً للغـرور والغرور سبباً للزينة وذلك لأنّه عليه السلام إنّما جعل الزينة سبباً للاستغرار والغرور سبباً لاستحسانها وعدم التنبّه لمعايبها.

[**دار هانت على ربّها**] إذ لو كان لـها قدر عند اللّه لما سقى الكافر مـنها شربة ماء ولما حماها أوليائه كما يحمي الطبيب المريض.

[**فخلط حلالها بحرامها وخيرها بشرّها وحلوها بمرّها**] فليس فيها لذّة صافية ولا خير محضور وهذا من جملة هوانها فإنّ الدار الآخرة عضو من

ولم يصفها لأوليائه ولم يضن بها على أعدائه خيرها أزهد وشرّها عتيد وجمعها ينفد وملكها يسلب وعامرها يخرب فما خير دار تنقض نقض البناء وعمر يفنى فناء الزاد ومدّة تنقطع انقطاع السير اجعلوا ما فرض اللّه عليكم طلبتكم

هذه الكدورات أو قيل من هوان الدنيا على اللّه أنّه لا يعصى إلّا فيها ولا ينال ما عنده إلّا بتركها ولذا قال عليه السلام.

[**ولم يصفها لأوليائه**] وخصّهم لأنّها وبما كانت في صورة الصافية لغير الأولياء في بعض الأوقات استدراجاً.

[**ولم يضن**] أي: لم يبخل [**بها على أعدائه**] بل بذلها لهم لأنّها سجن المؤمن وجنّة الكافر.

[**خيرها أزهد**] أي: قليل: بالنسبة إلى خير الآخرة، وكذا قوله:

[**وشرّها عتيد**] أي: مهيّئ معدّ حاضر.

[**وجمعها ينفد وملكها يسلب وعامرها يخرب فما خير دار تنقض نقض البناء**] استفهام إنكاري أي: أيُّ خير في دار تنقض كنقض البناء.

[**وعمر يفنى فناء الزاد ومدّة تنقطع انقطاع السير**] أي: سير المسافر إلى ذلك أشار من قال إلّا انّما الدنيا كنزل راكب أناخ عشيّاً وهو في الصبح راحل.

ثمّ شرع عليه السلام في تأديبهم ونصحهم وبيان ما ينتظم به معاشهم ومعادهم فقال:

[**اجعلوا ما فرض اللّه عليكم**] من بعض [**طلبتكم**] أي: من جملة ما تطلبونه منه إشارة إلى أن تصير فرائضه محبوبة عندهم كمحبّتهم لمطالبهم

واسألوه من أداء حقّه ما سألكم وأسْمِعوا دعوةَ الموت آذانكم قبل أن يُدعى بكم إنّ الزاهدين في الدّنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا ويشتدّ حزنهم وإن فرحوا ويكثر مقت أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا

التي يسئلون اللّه فيها من مال وعزّ وجاه ونحوها فيواظبوا على العمل بها.

[**واسألوه من أداء حقّه ما سألكم**] أي: اسألوه الإعانة والتوفيق والإعداد لذلك كما سألهم أداء حقّه والمقصود أن يصير الأداء مهمّاً لهم محبوباً إليهم ونحوه في الدعاء: «اللّهمّ إنّك سألتني من نفسي ما لا أملكه إلّا بك فأعطيني منها ما يرضيك عنّي».

[**وأسْمِعوا دعوةَ الموت آذانكم قبل أن يُدعى بكم**] أي: أسمعوا أنفسكم دعوة الموت قبل أن يحلّ بكم وذلك بتذكّر الموت المنقض للّذات كما قال ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللّذات».

ثمّ شرع في بيان حال الزهّاد في الدنيا ليقتدى بهم فقال:

[**إنّ الزاهدين في الدّنيا تبكي قلوبهم**] لخوفهم من اللّه ومعرفتهم بقصود أعمالهم وعدم علمهم بالعاقبة.

[**وإن ضحكوا**] ظاهراً استيناساً بالخلق وجلباً لمودّتهم وملاطفة بهم ومداراة لهم.

[**ويشتدّ حزنهم**] على أمور الآخرة وسوء أعمالهم.

[**وإن فرحوا**] ظاهراً.

[**ويكثر مقت أنفسهم**] أي: بغضهم لها فلا يلتفتوا إليها بالزينة وطاعتها فيما تدعوهم إليه من متاع الحياة الظاهرة.

[**وإن اغتبطوا بما رزقوا**] وإن غبطهم غيرهم بما قسم لهم من الأرزاق.

قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال وحضرتكم كواذب الآمال فصارت الدنيا بكم من الآخرة والعاجلة أذهب بكم من الآجلة وإنّما أنتم اخوان على دين اللّه ما فرق بينكم إلاّ خبث السرائر وسوء الضمائر فلا توازرون ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادّون ما بكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه

ثم أخذ عليه السلام في تعنيف السامعين على غفلتهم عمّا يراد بهم فقال:

[**قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال وحضرتكم**] عن ذكر الدار الآخرة والسعي لها.

[**كواذب الآمال**] أي: الآمال الكاذبة [**فصارت الدنيا**] أملك [**بكم من الآخرة**] وذلك بسبب الغفلة وطول الأمل وكذا قوله عليه السلام:

[**والعاجلة أذهب بكم من الآجلة**] أي: ذهبت بكم الدنيا العاجلة واستولت عليكم أكثر ممّا ذهبت الآخرة واستولت عليكم.

[**وإنّما أنتم اخوان على دين اللّه**] لأنّكم فطرتم على الفطرة التي فطر الناس عليها وهي دين اللّه وتوحيده [**ما فرق بينكم**] وأوقع فيم الاختلاف [**إلاّ خبث السرائر وسوء الضمائر فلا توازرون**] بحيث صرتم على حال لا تتوازرن، كقوله تعالى: ﴿ما لكم لا تناصرون﴾.

[**ولا تناصحون**] أي: لا ينصح بعضكم بعضاً.

[**ولا تباذلون**] أي: لا يجود بعضم على بعض بماله ولا يبذله له.

[**ولا توادّون**] لا يودّ بعضكم بعضاً.

[**ما بكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه**] ولا يحزنكم باليسر من الدنيا حين ينوبكم ويقلقكم.

ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتّى يتبيّن ذلك القلق في وجوهكم و قلّة صبركم عمّا زوي منها عنكم كأنّها دار مقامكم وكأنّ متاعها باق عليكم وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلاّ مخافة أن يقابله بمثله قد تصافيتم على رفض الآجل وحبّ العاجل وصادر دين أحدكم لعقة على لسانه صنيعَ من قد فرغ من عمله وأخّر رضاء سيّده

[**ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتّى يتبيّن ذلك القلق في وجوهكم و**] في [**قلّة صبركم عمّا زوي**] أي: غيّب [**منها عنكم كأنّها دار مقامكم وكأنّ متاعها باق عليكم**] ومحل تدركونه وتحرمونه ويفوتكم النصب على الحال.

[**وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلاّ مخافة أن يقابله بمثله**] أي: ليس المانع لكم من لقاء أخيكم لا يمين له على عيبه إلاّ الخوف منه أن يلقاكم بمثل ما تلقوه به لمشاركتكم إيّاه في ذلك.

[**قد تصافيتم على رفض الآجل وحبّ العاجل وصادر دين أحدكم لعقة على لسانه**] وأصل اللّعقة شيء قليل يؤخذ بالملعقة من الإناء يصف دينهم بالنزارة والقلّة ولم يقنع بأن جعله لعقة حتّى جعله على ألسنتهم فقط أي: ليس في قلوبهم، واستعار اللّعقة لما ينطق به من شعار الإسلام والدين كالشهادتين ونحوهما دون ثبات ذلك في القلب ورسوخه والعمل على وفقه [**صنيعَ**] نصب على المصدر، أي: صنعتم مثل صنيع.

[**من قد فرغ من عمله وأخّر رضاء سيّده**] بفعل ما أمره به ووجه الشبه الاشتراك في الترك والإعراض عن العمل.

الحمد لله الواصل الحمد بالنعم وواصل النعم بالشكر ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أُمرت السراع إلى ما نُهيت عنهة

ومن خطبة له

[**الحمد لله الواصل الحمد**] الصادر من عباده [**بالنعم**] منه عليهم حيث قال: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾ فإنّ العبد مستعدّ لإفاضة النعم واتّصالها وزيادته بحمده وشكره.

[**وواصل النعم بالشكر**] إذ لمّا وفّق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه في عقولهم مقرّراً وبعد أن أقدرهم عليه صار كأنّه الفاعل له فإضافة إلى نفسه توسّعاً وقيل أراد بوصله النعم بالشكر إفاضة صورة الشكر على قلوب المنعم عليهم واعترافهم بالنعمة وتلك الإفاضة نعمة أُخرى من فضله بل الاعتراف بالنعمة هو حقيقة الشكر ويحتمل أن يريد أنّه تعالى يصل نعمته على حامديه بشكره لهم كما قال تعالى: ﴿والله شاكر عليم﴾ نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه جعل الحمد على البلاء أصلاً في التشبيه لأنّ الابتلاء نعمة عظيمة على الخلق يترتّب عليها أجر جزيل سيّما في حقّ أولياء الله بل هو في حقّهم أولى من النعم المشهورة تنبيهاً أو ترغيباً في استسهال كلّ صعب في سبيل الله وطريقه.

[**ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أُمرت**] لموافقة لطبيعتها [**السراع إلى ما نُهيت عنهة**] لموافقة هواها، وفيه إشارة إلى أنّا لو وُكِلنا إلى أنفسنا لهلكنا، فلابدّ من طلب الاستعانة من الله عليها.]

ونستغفره ممّا أحاط به علمه وأحصاه كتابه علم غير قاصر وكتاب غير مغادر ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب ووقف على الموعود إيماناً نفى إخلاصه الشرك ويقينه والشكّ ونشهد ان لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأنّ محمّداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله شهادتين يصعدان القول ويرفعان العمل

[**ونستغفره ممّا أحاط به علمه**] من ذنوبنا وخطايانا سرّها وعلانيتها كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها بما علمنا أو جهلنا أو نسينا أو تعمّدنا أو أخطأنا.

[**وأحصاه كتابه**] المبين [**علم غير قاصر**] عن الإحاطة بشيء دون شيء بل قد ﴿أحاط بكلّ شيء علماً﴾ و﴿أحصى كلّ شيء عدداً﴾.

[**وكتاب غير مغادر**] ﴿لا يغادر صيغرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحداً﴾.

[**ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب**] أي: شاهدها لأنّ إيمان العيان أخلص وأوثق من إيمان الخبر فليس الخبر كالعيان.

[**ووقف على الموعود**] أي: على ما وعد به المتّقون من الجنّة والنعيم بعين الكشف والعيان، إشارة إلى إيمان العارفين المقرّبين وهو سيّدهم القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» وهذا هو المسمّى في الاصطلاح بعين اليقين [**إيماناً نفى إخلاصه الشرك ويقينه والشكّ**] هذا صفة الإيمان الخالص أو بحسب الإخلاص فيه ينفي الشك وبحسب اليقين يعني انّ الأمر كذا مع اعتقاد أنّه لا يمكن ان يكون إلاّ كذا ينفي الشكّ.

[**ونشهد ان لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأنّ محمّداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله شهادتين يصعدان القول ويرفعان العمل**] إلى محلّ القبول

لا يخفّ ميزان يوضعان فيه ولا يثقل ميزان يرفعان منه أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه التي هي الزاد وبها المعاذ زاد مُبلغ ومعاد منجح دعى إليها أسمع داع ووعاها خير واع

ويخرقان الحجب، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفع﴾ وفي نسخة سعدان بالسين أي: هما شادتان بالقلب يعضدان ويسعدان الشهادة باللسان.

[**لا يخفّ ميزان يوضعان فيه**] إذ هاتان الشهادتان مقيّدتان بقيود تدلّ على الإيمان الكامل ولا ريب أنّ الإيمان الكامل الذي هو إقرار باللّسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان ينجي صاحبه ولا يضرّ معه شيء أصلاً، وكذا قوله:

[**ولا يثقل ميزان يرفعان منه**] إذ العمل بدون الإيمان يكون هباءً منثوراً.

[**أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه التي هي الزاد**] المبلغ إلى الآخرة كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**وبها المعاذ**] مصدر، عذت بكذا أي: لجأت إليه واعتصمت به.

ثمّ وصف الزاد والمعاد بقوله:

[**زاد مُبلغ**] أي: يبلغ للقصد والغاية التي يسافر إليها.

[**ومعاد منجح**] أي: يصادف عنده نجاح المطلوب ونيل المرغوب [**دعى إليها أسمع داع**] أي: أشدّ الداعين إسماعاً وتبليغاً وهو النبي صلى الله عليه وآله.

[**ووعاها**] عقل تلك الدعوة وفهمها [**خير واع**] وعنى نفسه عليه السلام لما روي أنّ قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ نزلت فيه والنبي صلى الله عليه وآله قال:

فاسمع داعيها وفاز واعيها عباد اللّه إنّ تقوى اللّه حمت أولياء اللّه محارمه وألزمت قلوبهم مخافته حتّى أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم

سألت اللّه أن يجعلها أُذنك يا علي فأجابني وقيل خير داع هو اللّه وخير واع من وعاها عنه تعالى.

[فاسمع داعيها] جميع المكلّفين ولم يبق أحد إلاّ شملته تلك الدعوة ولو بواسطة.

[وفاز واعيها] أفلح من فهمها وأجاب إليها وتقوى اللّه وخشيته في السرّ والعلانية وهي أصل الطاعات وعليها يتوقّف القبول وكفى بها قوله تعالى: ﴿إنّما يتقبّل اللّه من المتّقين﴾ وقوله: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وقوله: ﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾.

[عباد اللّه إنّ تقوى اللّه حمت أولياء اللّه محارمه] فاحتموا من المحرّمات المفوّتة لحياة الأبد كما يحتمي المريض من المضرّات المفوّتة لصحّة الجسد.

[وألزمت قلوبهم مخافته] فإذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم **[حتّى أسهرت لياليهم]** بالتهجّد والقيام بين يدي اللّه قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً.

[وأظمأت هواجرهم] فهم في الهواجر صيام تاركون للشراب والطعام يتهجدون والناس نيام ووصف الليالي بالسهر والهواجر بالظمأ من باب نهاره صائم وليله قائم نقلوا الفعل إلى الظرف من باب الاتساع الذي يجرون

فأخذوا الراحة بالنصب والري بالظمأ واستقربوا الأجل فبادروا العمل وكذّبوا الأمل فلاحظوا الأجل ثمّ إنّ الدنيا دار فناء وعناء وغِير فمن الفناء أنّ الدهر موتر قوسه

فيه الظرف مجرى المفعول به ومنه قوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾.

[فأخذوا الراحة] الأخرويّة الباقية **[بالنصب]** أي: بتعب الأبدان بالطاعة في هذه الدنيا الفانية.

[والري] من حوض الكوثر **[بالظمأ]** في هذه الأيّام القليلة فهم ﴿يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد اللّه يفجّرونها تفجيراً﴾.

[واستقربوا الأجل] علموا قربه فهم في كلّ آن يترقّبوه.

[فبادروا العمل] باغتنام الفرصة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فسارعوا إلى مغفرة من ربّكم﴾.

[وكذّبوا الأمل فلاحظوا الأجل] الفاء فيه وفيما قبله للتعليل فإنّ استقراب الأجل مستلزم للعمل له ولما بعده وكذا تكذيب الأمل وانقطاعه ملازم لملاحظة الأجل والأجل الثاني بمعنى الموت والأول بمعنى المدّة فلا تكرار.

[ثمّ إنّ الدنيا دار فناء وعناء] أي: تعب ومشقّة لما مرّ من وصف أحوالها.

[وغِير] تتغيّر من حال إلى حال من الصحّة إلى السقم ومن الشباب إلى الهرم ومن الوجود إلى العدم.

[فمن الفناء أنّ الدهر موتر قوسه] يروى مؤتّر بالتخفيف والتشديد.

ولا تؤسى جراحه ترمي الحيّ بالموت والصحيح بالسقيم والناجي بالعطب آكل لا يشبع وشارب لا ينقع ومن العناء أنّ المرء يجمع ما لا يأكل يبني ما لا يسكن ثمّ يخرج إلى اللّه لا مالاً حمل ولا بناء نقل ومن غيرها إنّك ترى المرحوم مغبوطاً والمغبوط مرحوماً

[**ولا تؤسى جراحه**] أي: لا تطب ولا تصلح من أسوت الجرح أصلحته، واستعار وصف الإيتار لآثار الدهر ورشح بذكر القوس، ووجه الاستعارة أنّ الدهر يرمي مصائبه المستندة إلى القضاء الإلهي الذي لا يتغيّر كما يرمي الرامي الذي لا يخطي واستعار الجراح لنوائب الدهر لاشتراكهما في الإيلام ورشح بذكر عدم المداواة ثم قال: [**ترمي الحيّ بالموت والصحيح بالسقيم والناجي بالعطب**] أي: الهلاك [**آكل لا يشبع وشارب لا ينقع**] أي: لا يسكن عطشه استعار له الأكل والشرب لأنّه يأتي على الخلق فيفنيهم كما يأتي الآكل والشارب على الطعام والشراب فيفنيهما.

[**ومن العناء**] الذي أُشير إليه بقوله: والدنيا دار فناء وعناء، أي: تعب ومشقّة [**أنّ المرء يجمع**] فيها [**ما لا يأكل**] بل يجمعه ويتركه لغيره يأكله وكذا [**يبني ما لا يسكن ثمّ يخرج إلى اللّه**] مجرّداً ممّا جمعه وبناه [**لا مالاً حمل ولا بناء نقل**] كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادای كما خلقناكم أوّل مرّة﴾ وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم.

[**ومن غيرها**] وتنقل احوالها [**إنّك ترى المرحوم**] من أهل المسكنة والفقر [**مغبوطاً**] غنيّاً.

[**والمغبوط مرحوماً**] أي: يتبدّل فقر الفقراء المرحومين بالغنى فيغبطون وغنى أهل الغنى بالفقر فيرحمون بحسب تصاريف الدهر وغير الدنيا

ليس ذلك إلّا نعيماً زلَّ وبؤساً نزل ومن غيرها أنّ المرء يشرف على أمله فيقتطعه حضور أجله فلا أمل يدرك ولا مؤمل يترك فسبحان اللّه ما أغرّ سرورها وأظمأ ريّها وأضحى فيئها لا جاءٍ يُردُّ ولا ماضٍ يُرتدّ

وتقلّباتها وقيل أراد أنّك ترى من هو في باطن الأمر مرحوم مغبوطاً وترى من هو في باطن الأمر مغبوطاً مرحوماً أي: تحسب ذلك وتتخيّله وفيه بعد إذ لا يناسبه قوله:

[**ليس ذلك إلّا نعيماً زلَّ**] أي: عن المغبوطين وصار للمرحومين.

[**وبؤساً نزل**] بالأغنياء فصاروا مرحومين محرومين.

[**ومن غيرها أنّ المرء يشرف على أمله**] فيقرب حصول مأموله [**فيقتطعه**] عن الوصول إليه [**حضور أجله**] ويحول بينه وبينه، وبذلك عُرف اللّه كما قال عليه السلام: «عرفت اللّه بفسخ العزائم ونقض الهمم» لما هممت فحيل بيني وبين همي وعزمت فخالف العنقاء والقدر عزمي علمت أنّ المدبّر غير.

[**فلا أمل يدرك ولا مؤمل يترك**] بل لا يدرك أمله ولا يترك طلب ما لم يدركه [**فسبحان اللّه ما أغرّ سرورها وأظمأ ريّها وأضحى فيئها**] أتى بلفظ التعجّب وكنّى بريّها عن استتمام لذّاتها وبفيئها بالركون إلى فنياتها والاعتماد عليها وذاك لأنّ سرورها وفيئها يصرفان عن الآخرة والعمل لها فسرورها أقوى سبب للغرور بها وريّها وفيئها أقوى الأسباب لظمأ المنهمك فيها ولذا جاز إضافة الغرور والضمأ والضحى إلى سرورها وريّها وفيئها والضحى البروز لحرّ الشمس وقوله:

[**لا جاءٍ يُردُّ**] أي: من آفات الدهر كالموت والقتل ونحوهما [**ولا ماضٍ يُرتدّ**] اي: يسترد ويسترجع ما فات من الأموال ونحوها كما قيل:

فسبحان اللّه ما أقرب الحيّ من الميّت للحاقه به وأبعد الميّت من الحي لانقطاعه عنه إنّه ليس شيء بشرٍّ من الشرّ إلاّ عقابه وليس شيء بخير من الخير إلاّ ثوابه وكلّ شيء من الدنيا سماعه عظيم من عيانه وكلّ شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه فليكفكم من العيان

فلا أنا راجع ما قد مضى لي ولا أنا دافع ما سوف يأتي

[**فسبحان اللّه ما أقرب الحيّ من الميّت للحاقه به وأبعد الميّت من الحي لانقطاعه عنه**] كما قيل:

يا بعيداً عني وليس بعيداً من لحاقي به سميع قريب
صرت بين الورى غريباً كما أنّك تحت الثرى وحيد غريب

ومن ذلك بأنّ وجه تقسيمه ﷺ أمور الدنيا إلى الفناء والعناء والغير والعبر حيث ذكر في الفناء رمي الدهر الإنسان عن قوس الردى وفي العناء جمع ما لا يأكل وبناء ما لا يسكن وفي الغير الفقر بعد الفناء والعناء بعد الفقر وفي العبر اقتطاع الأجل الأمل فقد ناط بكلّ لفظة ما يناسبها ثمّ قال:

[**إنّه ليس شيء بشرٍّ من الشرّ إلاّ عقابه وليس شيء بخير من الخير إلاّ ثوابه**] يريد الخير والشر المتصوّرين بالقياس إلى شرور الدنيا وخيراتها فإنّها أمور مستحقرة في جنب عقاب اللّه وثوابه أو الخير والشرّ المطلقين للمبالغة إذ يقال هذا أشدّ من الشدائد وجود من الجيد.

[**وكلّ شيء من الدنيا سماعه عظيم من عيانه**] ولذا يحرص الإنسان على أمر فإذا بلغه برد وفتر ولم يحده كما كان يظنّ ويوصف لنا البلد البعيد بالأوصاف الحسنة فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وُصف ويوصف لنا الإنسان بالعلم والعمل فإذا عاشرناه لم نجده كما وُصف، ولذا قال الشاعر:

السماع ومن الغيب الخبر واعلموا أنّ ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة

اهتزّ عند تمنّي وصلها طرباً ورُبّ أمنية أحلى من الظفر

وكذا أعظم شرّ يتصوّره الإنسان بالسماع ويستهوله ويستكره صورة القتل والجراح فإذا وقع في مثل تلك الأحوال وشاهدها أو اضطرّ إلى المخاصمة والمحاربة سهل عليه ماكان يستعصيه منها وهان في عينه ذلك الوقع والخوف وكذا لايزال الإنسان يتخوّف المثول بين يدي الملوك ويتصوّر عظمتهم وبطشهم إلى أن يصل إلى مجالسهم فإنّه يجد من نفسه زوال ذلك الخوف ويهون عليه الأمر وكذا حال الخير فلايزال الإنسان يحرص على تحصيل الدرهم والدنيار وسائر مطالب الدنيا ويكون قلبه مشغولاً بتحصيله فإذا وصل إليه هان.

[**وكلّ شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه**] لأنّ الذي يسمعه الإنسان من خيرها وشرّها إنّما يلاحظه بالنسبة إلى خير الدنيا وشرّها وربّما كانت في أوهام بعضهم أهون من خيرات الدنيا وشرورها لقرب الخلق من المحسوس وقرب الدنيا منهم مع أنا نعلم أنّ الأمر فيها أعظم ممّا يتوهّم وإذا كان الأمر كذلك.

[**فليكفكم من العيان**] أي: بدله [**السماع ومن الغيب**] أي: بدله [**الخبر**] حيث لا يمكن الاطلاع على الغيب ومشاهدة العيان لتلك الأحوال في هذا العالم.

ثمّ نبّه عليه السلام على أفضليّة الآخرة بقوله:

[**واعلموا أنّ ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة**] من بذل مال وجاه

خيـر مما نقص من الآخـرة وزاد في الدنيـا فكم من منقـوص رابح ومزيـد خاسـر إنّ الذي أُمرتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه وما أحلّ لكم أكثر ممّا حرّم عليكم

[**خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا**] كإمساك المال وعدم بذله في سبيل اللّه والحرص على جمعه.

[**فكم من منقـوص رابح ومزيد خاسـر**] ولذا قال تعالى: ﴿إنّ اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة﴾ وقال: ﴿مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة﴾ وقال: ﴿الذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل اللّه فبشّرهم بعذاب أليم﴾.

ثمّ قال: [**إنّ الذي أُمرتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه**] لأنّ كبائر ما نهينا عنه خمس: القتل وفي الحلم والعفو والصبر التي هي من أشرف الأخلاق التي أُمروا بها سعة عنه، ثمّ الظلم وفي العدل والاقتصار على تناول الأُمور المباحة التي هي أكثر وأوسع سعة عنه ثمّ الكذب الذي هو رأس النفاق وعليه يبنى خراب العالم وفي المعاريض والصدق الذي هو بضدّه في عمارة العالم مندوحة عنه ثمّ الزنا ولا ريب أنّ في سائر وجوه النكاح من الدائم والمنقطع وملك اليمين وتحليل الجوار سعة عنه، ثمّ شرب الخمر التي هي أُمّ الخبائث وأصل الفساد وفي سائر الأشربة المباحة المفرّحة المقوّية النافعة للروح والبدن والعقل مغناة عنه وكذا قوله:

[**وما أحلّ لكم أكثر ممّا حرّم عليكم**] فإنّ الحلال يصدق على الأقسام الأربعة الواجب والمستحبّ والمكروه والمباح والحرام قسم واحد. ثمّ لمّا بيّن

فذروا ما قلّ لما كثر وما ضاق لما اتّسع وقد تكفّل لكم بالرزق وأمرتم بالعمل فلا يكون المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله مع أنّه واللّه قد اعترض الشكّ ودخل اليقين حتّى كأنّ الذي ضمن لكم فرض عليكم وكان الذي فرض عليكم

وجه المصلحة في ترك المنهي والمحرّم أردف ذلك بالأمر بتركهما فقال:

[**فذروا ما قلّ**] من الحرام [**لما كثر**] من الحلال.

[**وما ضاق**] من الأمور المهلكات [**لما اتّسع**] من المنجيات.

[**وقد تكفّل لكم**] ربّكم [**بالرزق**] الدنيوي بقوله: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فوربّ السماء إنّه لحق مثل ما أنّكم تنطقون﴾ وبقوله: ﴿وما من دابّة في الأرض إلاّ على اللّه رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾.

[**وأمرتم بالعمل**] بقوله: ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وقوله: ﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ وقوله: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ وقوله: ﴿واتقوا اللّه حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ إلى غير ذلك.

[**فلا يكون المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله**] فالعجب العجب منا مع ادّعاء العقل كيف نصرف أعمارنا وأوقاتنا فيما ضمنه اللّه لنا ونعقل عمّا فرضه علينا وأراده منّا [**مع أنّه واللّه قد اعترض الشكّ**] لكم فيما أجزتكم به من ضمان الرزق وفرض العبادة.

[**ودخل اليقين**] أي: فسد وصار مدخولاً [**حتّى كأنّ الذي ضمن لكم فرض عليكم**] حيث بذلتم جدّكم وجهدكم في تحصيله.

قد وضع عنكم فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل فإنّه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق ما فات اليوم من رزق يرجى غداً زيادته وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته

[**وكان الذي فرض عليكم**] من العمل [**قد وضع عنكم**] حيث كسلتم عن العمل ولم تبادروا إليه ولم تقبل قلوبكم عليه وذلك مبالغةً منه عليه السلام في قلّة احتفالهم بفرائض اللّه عليهم واشتغالهم عنها بطلب الدنيا وإذا كان الأمر كذلك.

[**فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل**] أي فجئته ولا تسوّفوا أنفسكم فإنّك لا تدون أيّ ساعة يطرقكم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات فاغتنموا الفرصة [**فإنّه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق**].

ثمّ أوضح ذلك بقوله: [**ما فات اليوم من رزق يرجى غداً زيادته**] باستعادته أو اكتساب مؤمنه أو أكثر منه.

[**وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته**] لأنّ الماضي ذهب فيستحيل عوده والغد وما بعد الغد محسوب من العمر وليس عوضاً من الأمس الذاهب ولقد أجاد من شبّه العمر بالماء الجاري فإنّ الواقف عليه يرى ماءً واحداً مع أنّه في كلّ آن وقع النظر على جزء منه ذهب ذلك الجزء فلا يعود والمنظور إليه في الآن الثاني غير ذلك الذاهب، ولعلّ الناظر في عقله من ذلك كما أنّه عقله من ذهاب عمره يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهنّ له ذهاباً ولمّا كان العمر الذي من شأنه أن لا يعود ما فات منه ظرفاً للعمل ويفوت بفواته وجب تدارك العمل بتداركه.

الرجاء مع الجائي واليأس مع الماضي اللّهمّ قد انصاحت جبالنا واغبرّت أرضنا وهامت دوابّنا وتحيّرت في مرابضها

وقوله: **[الرجاء مع الجائي]** أي: الرزق **[واليأس مع الماضي]** أي: العمر وهذا تأكيد لما قبله [فاتّقوا اللّه حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ اقتباس من القرآن، ووجه المناسبة أنّ الكلام في معرض جذب السامعين إلى العمل الذي هو سبب تطويع النفس الأمّارة للعقل والتقوى عبارة عن خشية اللّه والزهد في الدنيا بخلاف الموانع الداخلة والخارجة عن القلب والإسلام مركّب من ذينك الجزئين فحسن إيراد الآية المشتملة على الأمر بالتقوى والموت على الإسلام بعد الأمر بالعمل ليكون ذلك أمراً بإكمال الدين وإتمامه.

ومن خطبة له عليه السلام
في الاستسقاء

أي طلب السقي من اللّه بالامطار وزيادة الأنهار:

[اللّهمّ قد انصاحت جبالنا] أي: تشقّقت وجفّت ويبست من عدم المطر المياه.

[واغبرّت أرضنا] أي: استولى عليها الغبار كما يشاهد لعدم الأمطار.

[وهامت دوابّنا] أي: عطشت أو ذهبت على وجوهها لشدّة المحل كما يقال: هام فلان على وجهه.

[وتحيّرت في مرابضها] المرابض مبارك الغنم كالمعاطن للإبل واحدها

وعجّت عجاج الثكالى على أولادها وملّت التردّد في مراتعها الحنين إلى مواردها اللّهمّ فارحم أنين الآنّة وحنين الحانّة اللّهمّ فارحم حيرتها في مذاهبها وأنينها في موالجها خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين

مربض بكسر الباء كمجلس.

[**وعجّت**] أي: صرخت [**عجاج الثكالى على أولادها**] ومرجع الضمير في أولادها إلى الثكالى والدواب أي: عجّت على أولادها كعجيج الثكالى وإنّما وصفها بالتحيّر في مرابضها لأنّه لشدّة المحلّ لا تدري ماذا تصنع إن نهضت من مباركها لترعى لم تجد رعياً لأنّها أكثرت من التردّد في الأماكن التي كانت تعهد مراتعها فلم تجد مرتعاً ومنه يعلم معنى قوله:

[**وملّت التردّد في مراتعها**] وملّت [**الحنين إلى مواردها**] من الغدران والموارد التي كانت تعتادها للشرب، فحيث فقدتها حنّت إليها حتّى ضجرت.

[**اللّهمّ فارحم أنين الآنّة**] أي: الناقة الكثيرة الأنين [**وحنين الحانّة**] التي تحنّ إلى ولدها وفصيلها، وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوصب، يقال: أنّ أنيناً وأناناً، وابتدء بذكر الأنعام وما أصابها من الجدب للنبوي: «لولا بهائم رتّع وصبيان رضّع ومشايخ ركّع لصبّ عليكم العذاب صبّاً» ولأنّ عادة العرب إذا أصابهم المحل استسقوا بالبهائم فيُسقون.

[**اللّهمّ فارحم حيرتها في مذاهبها وأنينها في موالجها**] أي: المحال التي تدخل فيها وتلجها [**خرجنا إليك حين اعتكرت**] أي: ترادفت وكرّت [**علينا حدابير السنين**] أي: جدبها وشدّتها كما يأتي إن شاء اللّه في كلام السيد(رض).

وأخلفتنا مخايل الجود فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس ندعوك حين قنط الأنام ومنع الغمام وهلك السؤام أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا اللّهمّ وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق والربيع المعذق

[**وأخلفتنا مخايل الجود**] جمع مخيلة وهي السحابة التي ترجى للمطر والجود بالفتح المطر الغزير أي: كلّما شمنا برقاً أو أخيلنا سحاباً أخلفنا ولم يمطر.

[**فكنت الرجاء للمبتئس**] أي: الحزين ذي البؤس.

[**والبلاغ للملتمس**] أي: الكفاية للطالب [**ندعوك حين قنط الأنام**] يقال: قنط بالفتح يقنط وبالكسر والضمّ فهو قانط وقد يقال قنط بالكسر قال تعالى: ﴿ولا تكن من القانطين﴾.

[**ومنع الغمام**] على بناء المفعول كراهة إضافة المنع إلى اللّه لأنّه منبع النعم ويروى بالبناء للمعلوم أي: منع الغمام القطر.

[**وهلك السؤام**] أي: المال الراعي [**أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا**] وفيه تنبيه على أنّ للذنوب والأعمال السيّئة تأثيراً في ربع الرحمة وإلّا فالجود الإلهي فائض لا قصور فيه ولا منع من قبله ولذا ورد إنّ الذنوب منها ما ينزل النقم ومنها ما يزيل النعم قيل والفرق بين تؤاخذنا وبين تأخذنا أنّ المؤاخذة دون الأخذ لأنّ الأخذ استئصال والمؤاخذة عقوبة.

[**اللّهمّ وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق**] أي: المنبعج بالمطر ومثله المتبعق والبعاق.

[**والربيع المعذق**] أي: الكثير.

والنبات المونق سحّاً وابلاً تحيي به ما قد مات وترو به ما قد فات اللّهمّ سقياً منك محيية مروية تامّة عامّة طيّبة مباركة هنيّة مريّة زاكياً نبتها ثامراً فرعها ناضراً ورقها تنعش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك اللّهمّ سقياً منك تعشب بها نجادنا وتجري بها وهادنا وتخصب بها جنابنا وتندي بها أقاصينا

[**والنبات المونق**] أي: الحسن المعجب [**سحّاً**] نصب على المصدر.

[**وابلاً**] أي: مطراً شديداً [**تحيي به ما قد مات**] من الزرع.

[**وترو به ما قد فات**] أي يستدرك به الناس ما فاتهم من الزرع والحرث.

[**اللّهمّ سقياً منك**] سقياً بالضمّ مؤنة اسم من سقى أي سقيته منك.

[**محيية**] لما مات [**مروية**] لما عطش من الزرع [**تامّة**] لا يحتاج معها إلى غيرها [**عامّة**] للبلاد والعباد.

[**طيّبة مباركة هنيّة مريّة زاكياً نبتها ثامراً فرعها**] أي: ذو ثمر كما قيل لابن وتامر أي ذو لبن وتمر [**ناضراً**] أي: حسناً [**ورقها**] أي: يعجب الناظرين لصفاته وحسنه.

[**تنعش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك اللّهمّ سقياً منك تعشب بها نجادنا**] جمع نجد وهو المرتفع من الأرض.

[**وتجري بها وهادنا**] جمع وهدة وهو المطمئن منها.

[**وتخصب**] أي: ترحض [**بها جنابنا**] وتقبل بها ثمارنا وتعيش بها مواشينا.

[**وتندي**] أي: تنتفع [**بها أقاصينا**] أي: الأباعد منّا، يقال: نديت بكذا

وتستعين بها ضواحينا من بركاتك الواسعة وعطاياك الجزيلة على بريّتك المرملة ووحشك المهملة وأنزل علينا سماء مخضلة مدراراً هاطلة يدافع الودق منها الودق ويخضرّ القطر منها القطر وغير خلّب برقها ولا جهام عارضها ولا قزع ربابها ولا شقان ذهابها

أي انتفعت.

[**وتستعين بها ضواحينا**] أي: نواحينا الباذرة أي: أهل نواحينا، وقيل الضواحي النواحي القريبة من المدينة العظمى [**من بركاتك الواسعة وعطاياك الجزيلة على بريّتك المرملة**] أي: قليلة المطر أو الفقيرة، من أرمل أي افتقر ونفد زاده.

[**ووحشك المهملة**] أي: التي لا راعي لها ولا صاحب ولا مشفق.

[**وأنزل علينا سماء مخضلة**] أي رطبة تخضل النبات أي: تبلّه وروي مخضلة أي: ذات نبات وزرع مخضلة يقال اخضل النبت اخضلالاً أي ابتلّ وإنّما أنّث السماء وهو المطر وهو مذكّر لأنّه ذكر الأمطار [**مدراراً**] أي: كثيرة المطر [**هاطلة يدافع الودق منها الودق**] والودق القطر.

[**ويخضرّ القطر منها القطر**] يخضر أي: يدفع بشدّة وإذا واقع القطر القطر كان أعظم وأغزر.

[**وغير خلّب برقها**] برق خلّب أي: لا مطر معه، والخلّب الذي يكذب الظنّ فيها.

[**ولا جهام عارضها**] الجهام: المظلم الذي لا ماء فيه.

[**ولا قزع ربابها ولا شقان ذهابها**] يأتي معناهما في كلا السيد (رض).

حتى يخصب لامراعها المجدبون ويحيى ببركتها المستنون فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد

[حتى يخصب لامراعها المجدبون] أي: أهل الجدب والقحط.

[ويحيى ببركتها المستنون] الذين أصابتهم السنة وهي المحل والقحط الشديد:

[فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد] اقتباس من القرآن مناسب للمقام، قال السيد (رحمه اللّه) تفسير ما في هذه الخطبة من الغريب قوله ﷺ «قد انصاحت جبالنا» أي: تشقّقت من المحول، يقال انصاح الثوب أي انشقّ ويقال أيضاً: انصاح النبت وصاح وصوح إذا جفّ ويبس. وقوله: «هامت دوابنا» اي: عطشت والهيام العطش. وقوله: «حدابير السنين» جمع حدبار وهي الناقة التي أنضاها السير فشبّه بها السنة التي فشى فيها الجدب. قال ذوالرمة:

حدابير ما تنفكّ إلّا مناخة

على الخسف أو ترمي بها بلداً قهر قهراً

وقوله: «ولا قزع ربابها القزع» القطع الصفار المتفرّقة من السحاب، وقوله: «ولا شقّن ذهابها» أي: ولا ذات شقان ذهابها والشقان الريح الباردة والذهاب الأمطار اللّينة فحذف ذات العلم السامع به.

أرسله داعياً إلى الحقّ وشاهداً على الخلق فبلّغ رسالات ربّه غير وان ولا مقصّر، وجاهد في اللّه أعدائه غير واهن ولا معذّر إمام من اتّقى وبصر من اهتدى ولو تعلمون ما أعلم ممّا طوى عنكم غيبه

ومن خطبة له عليه السلام

[**أرسله داعياً إلى الحقّ وشاهداً على الخلق**] الذين بعث إليهم للمطيع بالطاعة والتسليم وعلى العاصي بالعصيان إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بكل على هؤلاء شهيداً﴾ وقوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

[**فبلّغ رسالات ربّه غير وان**] أي: فاتر كال.

[**ولا مقصّر، وجاهد في اللّه أعدائه غير واهن**] أي: ضعيف.

[**ولا معذّر**] بالتشديد هو المقصّر الذي يعتذر من تقصيره بغير عذر قال تعالى: ﴿وجاء المعذّرون من الأعراب﴾.

[**إمام من اتّقى**] لاستناد أهل التقوى في كيفيّة سلوك سبيل اللّه التي هي التقوى إليه.

[**وبصر من اهتدى**] استعار لفظ البصر له ووجه الشبه كونه سبباً لاهتداء الخلق إلى سبيل الرشاد كما يهتدي صاحب البصيرة في طريقه المحسوس.

ومنها

[**ولو تعلمون ما أعلم ممّا طوى عنكم غيبه**] من الأمور الأخروية

إذا لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم وتلتدمون على أنفسكم ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمّت كلّ امرئ منكم نفسه لا يلتفت إلى غيرها ولكنّكم نسيتم ما ذُكِّرتم

وأحوال الحشر والنشر والعرض على اللّه والصراط والميزان والحساب والعقاب والجنّة والنار [**إذا لخرجتم إلى الصعدات**] جمع صعيد وهو التراب أو وجه الأرض كطريق وطرقات.

[**تبكون على أعمالكم وتلتدمون على أنفسكم**] والالتدام ضرب الوجه ونحوه وضرب النساء صدورهنّ في النياحة.

[**ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف**] أي: ولا مستخلف [**عليها، ولهمّت كلّ امرئ منكم نفسه لا يلتفت إلى غيرها**] أي: إذابته وأنحلته، يقال: هممت الشحم أيك أذبته، ويروى ولأهممت وهو أبلغ من الأوّل أي: ولشغل كلّ أحد عن نفسه لا يهمّه أمرها لما يرى من هول ذلك اليوم، نظير قوله تعالى: ﴿يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب اللّه شديد﴾ وأهمّي الأمر أي: أحزنني، وقيل: أراد بما طوى عنهم غيبه جهلهم بما سيقع من الفتن في الإسلام بحيث لو تصوّروا علمه منها لاحتال كلّ منهم في خلاص نفسه، ولهاموا على وجه الأرض باكين على تقصيرهم في أعمالهم على وفق أوامره التي بها يكون نظام العالم إلى الأبد والأمن من تلك الفتن لو فعلوها.

[**ولكنّكم نسيتم ما ذُكِّرتم**] به من آيات اللّه.

وأمنتم ما حُذّرتم فتاه عنكم رأيكم وتشتّت رأيكم لوددت أنّ اللّه فرّق بيني وبينكم وألحقني بمن هو أحقّ فيَّ منكم قوم واللّه ميامين الرأي مراجيح الحلم مقاويل بالحقّ متاريك للبغي مضوا قدماً على الطريقة وأوجفوا على المحجّة فظفروا بالعقبى الدائمة والكرامة الباردة

[**وأمنتم ما حُذّرتم**] من عقابه وعذابهوحسابه [**فتاه عنكم رأيكم**] أي: عزب عنهم وضلّت آرائهم الصالحة التي بها يكون نظام أُمورهم.

[**وتشتّت رأيكم**] فاستعقب ذلك تشتّت أُمورهم وغلبة العدوّ على بلادهم، ثمّ عقّب ذلك بالتبرّم منهم والتضجّر فقال:

[**لوددت أنّ اللّه فرّق بيني وبينكم وألحقني بمن هو أحقّ فيَّ منكم**] كابن عمّه سيّد المرسلين وخاتم النبيّين وحمزة وجعفر وأمثالهما [**قوم**] أي: هم قوم.

[**واللّه ميامين الرأي**] أي: رأيهم مبارك ميمون [**مراجيح الحلم**] أي: حلمهم رزين ثقيل راجح لا يستخفّهم جهل الجهّال.

[**مقاويل بالحقّ**] ملازمون للصدق ونصيحة الدِّين [**متاريك للبغي**] من شأنهم ترك البغي والظلم على أنفسهم وعلى غيرهم.

[**مضوا قدماً**] بضمّ الدال أي: متقدّمين في سبيل اللّه [**على الطريقة**] التي هي هدى اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله لم ينثنوا عنها.

[**وأوجفوا**] أي: أسرعوا [**على المحجّة**] أي طريق اللّه الواضحة.

[**فظفروا بالعقبى الدائمة**] من الثواب الجسيم والنعيم المقيم والعقبى وزن كانت أعمّ من الثواب والعقاب إلاّ أنّ قرينة الظفر تخصّصها بالثواب.

[**والكرامة الباردة**] يقال غنيمة باردة وكرامة باردة أي: لم تؤخذ بحرب

والله ليسلّطنّ عليكم غلام ثقيف الذيّال الميّال يأكل خضرتكم ويذيب شحمتكم إيه

ولا عنف وذلك لأنّ المكتسب بالحرب حار في المعنى لما يلاقي أو يعاني في حصوله من المشقّة.

[والله ليسلّطنّ عليكم] عقوبة أعمالكم هذه وتقاعدكم عن نصرة إمامكم وتخاذلكم واختلاف قلوبكم.

[غلام ثقيف] هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل ابن مسعود بن عامر بن معتب بن ملك بن كعب من الأحلاف قوم من ثقيف وكان ضعيف العين رقيق الصوت.

[الذيّال] أي: طويل الذيل يسحله تبختراً وتجبّراً.

[الميّال] يكثر التمايل كبراً والميّال الظالم والذيّال التائه أصله من ذال أي تبختر وجرّ ذيله على الأرض.

[يأكل خضرتكم] أي يستأصل أموالكم.

[ويذيب شحمتكم] مثله، وكلتا اللّفظتين استعارة وكنّى بخضرتهم عن دنياهم وكذا استعار الشحمة لثرائهم وقوّتهم ووصف الإذابة لإفناء ذلك بالقتل والاهانة، ولقد صدق عليه السلام في ذلك فإنّ فعل الحجّاج بأهل العراق مشهور وفي الكتب مسطور.

ثمّ قال عليه السلام كالمخاطب لإنسان حاضر بين يديه:

[إيه] اسم فعل يستدعى بها الحديث المعهود من الغير إن سكّنت وإن نوّنت كانت لاستدعاء قول أو فعل ما، وقيل التسكين للوقف والتنوين للدرج وقوله:

أبا وذحة

[أبا وذحة] والوذحة بفتح الذال: ما يتعلّق بذنب الشاة من بعرها، واستعار لفظها للخنفساء، نقل أنّ الحجاج رأى خنفساء دبّت إلى مصلاّه فطردها فعادت ثمّ طردها فعادت فأخذها بيده وحذف بها فقرصته قرصاً وَرَمَتْ يده منها ورماص كان فيه حتفه فقتله اللّه بأهون مخلوقاته كما قتل النمرود بالبقّة التي دخلت في أنفه فكان فيها هلاكه وقيل كان الحجاج إذا رأى خنفساء تدبّ قريبة منه يأمر غلمانه بإبعادها ويقول هذه وذحة من وذح الشيطان تشبيهاً له بالبعرة قيل وكان معزى بهذا القول وقيل إنّه رأى خنفساء فقال: واعجباً ممن يقول إنّ اللّه خلق هذه! قيل: فمن خلقها؟ قال: الشيطان، إنّ ربّكم لأعظم شأنا أن يخلق هذه الوذح.

وقال ابن أبي الحديد: إنّه كان مثفاراً أي مأبوناً وكان يمسك للخنفساء حيّة ليشفى بحركتها في الموضع حكاكه، قالوا: ولا يكون صاحب هذا الداء إلاّ شانئاً مبغضاً لأهل البيت عليهم السلام، قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء وإنّما قلنا كلّ من به هذا الداء فهو مبغض، قالوا: وقد روى أبو عمرو الزاهد ولم يكن من رجال الشيعة في أماليه وأحاديثه عن السيّاري عن أبي خذيمة الكاتب قال: ما فتّشنا أحداً فيه هذا الداء إلاّ وجدناه ناصباً، قال أبو عمرو: أخبرني العطا عن رجاله قالوا: سُئل جعفر بن محمد عليه السلام عن هذا الصنف من الناس، فقال: رحم منكوسة يؤتى ولا يأتي وما كانت هذه الخصلة في ولي اللّه تعالى ولا تكون أبداً، وإنّما تكون في الكفّار والفسّاق والناصب المطاهرين، إنتهى.

ثمّ قال: لمّا كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم من حال الحجّاج نجاسته

فلا أموال بذلتموها للّذي رزقها ولا أنفساً خاطرتم بها للذي خلقها

بالمعاصي والذنوب التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصق بشعر الشاة، كنّاه بذلك ويكن أيضاً أن يكنّيه بذلك لذمامته في نفسه وحقارة منظره وتشويه خلقته فإنّه كان قصيراً ذميماً نحيفاً أخفش العينين معوجّ الساقين قصير الساعدين مجدور الوجه أصلع الرأس فكنّاه بأحقر الأشياء وهو البعرة، وقد روي أبا ودجة واحدة الأوداج إشارة إلى أنّه كان قتّالاً سفّاكاً، وروي أبا وجره وهي دويبّة تشبه الحرباء قصيرة الظهر شبّه بها.

ومن كلام له عليه السلام

في توبيخ قومه على البخل بالأموال والأنفس كما أنّ مداد الذي قبله التوبيخ على جبنهم والتضجّر من تقاعدهم فقال:

[فلا أموال بذلتموها للّذي رزقها] انتصاب الأموال بفعل مقدّر دلّ عليه بذلتموها وكذا الأنفس في قوله:

[ولا أنفساً خاطرتم بها للذي خلقها] أي: لم تبذلوا انفسكم في رضاء من رزقكم إيّاها ولم تخاطروا بانفسكم في رضى الخالق لها وكان الأولى والأليق بكم أن تبذلوا المال في رضاء رازقه والنفيس في رضاء خالقها لأنّه ليس أحد أحقّ منه بالنفس والمال وبذلهما في رضاه وفي ذلك استدراج حسن لهم إذ امتناع البخيل من البذل لخوف الفقر أو زعم أنّه لا مستحقّ للمال غيره والشحيح إنّما يشحّ بنفسه خوف الموت وأن لا يكون له عوض هذه الحياة فإذا علم أنّه بذل المال لرازقه زال عذره لعلمه بأنّه يعوّضه خيراً منه

تكرمون بالله على عباده ولا تكرمون الله في عباده فاعتبروا بنزولكم منازل من كان من قبلكم وانقطاعكم عن وصل اخوانكم أنتم الأنصار على الحق والاخوان في الدين والجنن ويوم البأس والبطانة دون الناس

ويضاعفه له أضعافاص مضاعفة وأنّه أحقّ به منه إذ العبد وما في يده لمولاه وكذا هو أحقّ بنفسه ويعوّضه الحياة الباقية عوض هذه الحياة الفانية وقوله:

[**تكرمون بالله على عباده ولا تكرمون الله في عباده**] أي: من العجب أنّكم تطلبون من عباد الله أن يكرموكم ويطيفوكم لأجل أنّكم عباد الله مطيعون له، ثمّ إنّكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه في نفع عباده والإحسان إليهم ومحصول هذا القول كيف تسومون الناس أن يطيعوكم لأجل الله ثمّ إنّكم لا تطيعون الله الذي تكلّفون الناس أن يطيعوكم لأجله.

[**فاعتبروا بنزولكم منازل من كان من قبلكم وانقطاعكم عن وصل اخوانكم**] لأنّكم أمثالهم تلحقون بمن سلف وتنقطعون عمّن بقى وروي عن أصل اخوانكم أي: قربهم أصلاً إليكم وذلك بموت الأب فإنّه ينقطع أصل الأخ الواشح بينه وبين أخيه والفقرة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾.

ومن كلام له عليه السلام

[**أنتم الأنصار على الحق والاخوان في الدين والجنن**] جمع جنّة وهو ما استتر به من سلاح.

[**ويوم البأس**] الحرب والشدّة [**والبطانة**] أي: الخاصّة [**دون الناس**]

بكم أُقرِّب المدبر وأرجو طاعة المقبل فأعينوني بمناصحة خالية عن الغشّ سليمة عن الريب فإنّي واللّه لأولى الناس بالناس فسكتوا مليّاً فقال عليه السلام ما بالكم أمخرسون أنتم فقال قوم منهم يا أميرالمؤمنين إن سرت سرنا معك فقال عليه السلام ما بالكم

الذين يعتمد عليهم في الأُمور ولذا قال:

[**بكم أُقرِّب المدبر وأرجو طاعة المقبل فأعينوني بمناصحة خالية عن الغشّ سليمة عن الريب**] أي: الشكّ.

[**فإنّي واللّه لأولى الناس بالناس**] وأشار بقوله أرجو طاعة المقبل أنّ المخالف إذا رأى ما عليه شيعته وبطانته من الأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة إطاعة بقلبه باطناً بعد أن كان انضوى إليه ظاهراً.

قال ابن أبي الحديد: هذا الكلام قاله أميرالمؤمنين للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل وقد ذكر المدائني والواقدي في كتابيهما.

ومن كلام له عليه السلام
وقد جمع الناس وحضّهم أي حرّضهم وحثّهم على الجهاد

[**فسكتوا مليّاً**] أي: ساعة طويلة ومنه قوله تعالى: ﴿واهجرني مليّاً﴾.

[**فقال عليه السلام ما بالكم أمخرسون أنتم**] بصيغة اسم المفعول.

[**فقال قوم منهم يا أميرالمؤمنين إن سرت سرنا معك فقال عليه السلام ما بالكم**

لا سُدِّدتم لرُشد ولا هُديتم لقصد أفي مثل هذا ينبغي لي أن أخرج إنّما يخرج في مثل هذا رجل ممّن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم ولا ينبغي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين ثمّ أخرج في كتيبة أتبعُ أُخرى أتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ وإنّما أنا قطب الرحى تدور عليّ وأنا بمكاني

لا سُدِّدتم لرُشد ولا هُديتم لقصد أفي مثل هذا] الحال **[ينبغي لي أن أخرج]** استفهام إنكار عليهم **[إنّما يخرج في مثل هذا رجل ممّن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم]** ثمّ بيّن وجه المفسدة في خروجه بنفسه بقوله:

[ولا ينبغي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين ثمّ أخرج في كتيبة أتبعُ أُخرى] والكتيبة: قطعة من الجيش.

[أتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ] التقلقل: الحركة في اضطراب، والقدح: السهم، والجفير: الكنانة، وقيل: وعاء للسهام أوسع من الكنانة، ووجه الشبه لخروجه معهم بالقدح أنّه كان قد نفد الجيش قبل ذلك وأراد أن يجهّز من بقي من الناس في كتيبة أُخرى فشبّه نفسه عليه السلام في خروجه في تلك الكتيبة وحده مع تقدّم أكابر جماعته وشجعانها بالقدح في الجفير الفارغ في كونه يتقلقل.

[وإنّما أنا قطب الرحى تدور عليّ وأنا بمكاني] استعار عليه السلام لنفسه لفظ القطب ملاحظاً لدوران الإسلام ومصالحه عليه كما تدور الرحى على قطبها واستلزم ذلك تشبيهه الإسلام وأهله بالرحى وانّه إذا أهملها بخروجه إلى

واستحار مدارها واضطرب ثفالها هذا لعمر اللّه الرأي السوء واللّه لولا رجائي بالشهادة عند لقائي العدو ـ ولو قد حمّ لي لقاؤه، لقرّبت ركابي ثمّ شخصت عنكم فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال طعّانين عيّابين حيّادين روّاغين أنّه لا غنى في كثرة عددكم مع قلّة اجتماع قلوبكم

الحرب اضطربت كاضطراب الرحى.

[**واستحار مدارها**] أي: اضطرب والمدار هنا مصدر أي استحار مدارها عن الحركة المستديرة إلى المستقيمة.

[**واضطرب ثفالها**] والثفال بكسر الثاء: جلد يبسط وتوضع الرحى فوقه فيطحن باليد ليسقط عليه الدقيق.

[**هذا لعمر اللّه الرأي السوء**] حكم بردائة رأيهم مؤكّداً بالقسم.

[**واللّه لولا رجائي بالشهادة عند لقائي العدو ـ ولو قد حمّ**] أي قدّر [**لي لقاؤه، لقرّبت ركابي**] الركاب: الإبل.

[**ثمّ شخصت**] أي: خرجت [**عنكم فلا أطلبكم**] بعد ذلك.

[**ما اختلف جنوب وشمال**] أي: دائماً تبرّماً من سوء صنيعهم وكثرة مخالفتهم لأوامره، ولقربت جواب لولا، وجواب لو مقدّر فيما قبلها.

ثمّ وصفهم عليه السلام بما فيهم من العيوب فقال:

[**طعّانين عيّابين**] أي: كثيري الطعن والعيب على الناس.

[**حيّادين**] أي: يحيدون وينحرفون عن الحقّ.

[**روّاغين**] يروّغون عن الحرب كما يروّغ الثعلب.

[**أنّه لا غنى في كثرة عددكم مع قلّة اجتماع قلوبكم**] والغناء بالفتح

لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلّا هالك من استقام فإلى الجنّة مآله ومن زلَّ فإلى النار تالله لقد عَلمتُ تبليغ الرسالات وإتمام العدات

والمدّ النفع كما قال تعالى: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلّا هالك**] ذكر ضمير الطريق وأنّها لأنّها تُذكّر وتُؤنّث فاستعمل عليه السلام اللّغتين معاً.

[**من استقام**] على هذا الطريق الذي أرشدُ إليه في العقائد والأعمال.

[**فإلى الجنّة مآله**] ومرجعه.

[**ومن زلَّ**] عنه [**فإلى النار**].

ومن كلام له عليه السلام

[**تالله لقد عَلمتُ**] بفتح العين وتخفيف اللام أو بالتشديد على البناء للمجهول أو المعلوم، أي: علّمت الناس [**تبليغ الرسالات**] أي: تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المكلّفين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يبلّغون رسالات اللّه ولا يخشون أحداً إلّا اللّه﴾ وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في قصّة براءة: «لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي».

[**وإتمام العدات**] أي: مجاز الوعد ووفاء العهد مع الحقّ والخلق إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾ وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقّه «أنت قاضي ديني ومنجز موعدي».

وتمام الكلمات وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر

[وتمام الكلمات] أي: تأويل القرآن والعلم بمحكمه ومتشابهه ومجمله ومؤوّله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً﴾.

قال ابن أبي الحديد: خلاصة هذا أنّه اقسم باللّه أنّه قد علم أو عُلِّم على اختلاف الروايتين أداء الشرائع إلى المكلّفين والحكم بينهم بما أنزل اللّه وعلم مواعيد رسول اللّه ﷺ التي وعد بها فمنها ما هو وعد لواحد من الناس بأمر نحو أن يقول له سأعطيك كذا، ومنها ما هو وعد بأمر يحدث كأخبار الملاحم والأمور المتجدّدة وعلم لمات اللّه أي تأويلها وبيانها الذي يتمّ به لأنّ في كلامه تعالى المجمل الذي لا يستغني عن متمّم ومُبيّن وقال المحقّق البحراني: صدر هذا الفضل بذكر فضيلته وهي علمه بكيفيّة تبليغ الرسالات وأدائها وعلمه بإتمام اللّه تعالى ما وعد به المتّقين في دار القرار فتمام وعده أن لا خلف فيه وتمام إخباره أن لا كذب فيها وتمام أوامره ونواهيه اشتمالها على المصالح الخالصة والغالبة وهكذا ينبغي أن يكون أوصياء الأنبياء وخلفائهم في أرض اللّه وعباده.

ثمّ أردف ذلك بالإشارة إلى فضل أهل البيت عموماً فقال:

[وعندنا أهل البيت أبواب الحكم] أي: الشرعيّات والفتاوى أو الحكمة التي أشير إليها بقوله ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾.

[وضياء الأمر] أي: أنوار العلوم التي تبنى عليها الأمور والأعمال الدينية وما ينبغي أن يهتدي الناس به في حركاتهم من قوانين الشريعة وما يستقيم به نظام الأمر عن قوانين السياسات وتدبير المدن والمنازل ونحوهما إذ كان كلّ أمر شرع فيه على غير ضياء وهدى من اللّه ورسوله أو أحد أهل بيته

ألا وإنّ شرائع الدِّين واحدة وسبله قاصدة من أخذ بها لحق ومن وقف عنها ضلّ وندم اعملوا ليوم تذخر فيه الذخائر

فهو محلّ التيه والزيغ عن سبيل اللّه.

وقال ابن أبي الحديد: ضياء الأمر يعني العقليّات والعقائد، وهذا مقام عظيم لا يجسر أحد من المخلوقين يدّعيه سواه عليه السلام ولو أقدم أحد غيره على ادّعائه لكذب وكذّبه الناس.

[**ألا وإنّ شرائع الدِّين واحدة وسبله**] أي: طرقه [**قاصدة**] أي: قريبة سهلة، قيل استعار لفظ الشرائع وهي موارد المياه لأهل البيت ووجه الاستعارة كونهم موارد لطلاّب العلم كما أنّ الشرائع موارد طلبة الماء وكونها واحدة إشارة إلى أنّ أقوالهم لا تختلف في الدِّين لما علموا أسراره لم تختلف كلمتهم فيه، فكلّم كالشريعة الواحدة وكذا استعار لهم لفظ السُّبُل ووجه المشابهة كونهم موصلين إلى المطالب على بصيرة وقصد كما توصل الطريق الواضح.

ثمّ قال: [**من أخذ بها**] أي: أخذ عنهم واقتدى بهم [**لحق**] بالسابقين المقرّبين.

[**ومن وقف عنها**] ولم يلحق بها [**ضلّ وندم**] على تفريطه بتخلّفه، وقيل: أراد بشرائع الدين وسبله قوانينه الكلّية، إذ العلم بكلّ قانون منها مستلزم لثواب اللّه فهي واحدة في ذلك وموصلة إلى رضوان اللّه وجنّته من غير جور ولا عدول وهو معنى كونها قاصدة.

ثمّ شرع عليه السلام في حثّهم على العمل فقال:

[**اعملوا ليوم تذخر فيه الذخائر**] المراد به يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع مال

وتبلى فيه السرائر ومن لا ينفعه حاضر لبّه فعازبه عنه أعجز وغائبه أعوز واتّقوا ناراً حرّها شديد وقعرها بعيد وحليتها حديد وشرابها صديد ألا وإنّ اللّسان الصالح يجعله اللّه للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده

ولا بنون إلاّ من أتى اللّه بقلب سليم﴾ وكنّى بالذخائر عن الأعمال الصالحة.

[**وتبلى**] أي: تختبر [**فيه السرائر ومن لا ينفعه حاضر لبّه فعازبه عنه أعجز وغائبه أعوز**] أي: من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر ولا موجود من العقل عنده أولى وأحرى وحاصله أنّ من لم يكن له من نفسه ومن ذاته رادع وزاجر من القبيح فبعيد أن ينجزر وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة أو المراد اعتبروا حال حضور عقولكم فزنّكم إن لم تنتفعوا بها اليوم عند حضورها فأولى أن لا تنتفعوا بها إذا غربت عنكم عند حضور الموت ومقاساة أهواله.

ثمّ ذكر عليه السلام النار التي تنتج من المعاصي وحذّر عنها بقوله:

[**واتّقوا ناراً حرّها شديد وقعرها بعيد وحليتها حديد**] كنّى بحليتها عمّا أُعدّ فيها للعصاة من الأغلال والأصفاد والمقامع والسلاسل التي تشبه الحلية.

[**وشرابها صديد**] وهو ما يخرج من فروج الزناة من القيح.

ثمّ حثّ عليه السلام على مكارم الأخلاق التي تجلب المودّة وتدفع النفرة وفيها خير الدنيا والآخرة بقوله:

[**ألا وإنّ اللّسان الصالح**] أي: الذكر الجميل بين الناس [**يجعله اللّه للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده**] من الورثة، ويكون لهم

....

المهنّى وعليه الوزر والوبال فلو أنقصه في سبيل اللّه اكتسب به الذكر الجميل في الدنيا وعوض عنه أضعافاً مضاعفة وأثيب عليه في الآخرة، وقد فسّر قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ بالذكر الجميل بين الناس إذ ما من أحد من أهل الملل إلاّ ويفتخر بالانتماء إليه والانتساب إلى أتباعه.

ومن كلام له عليه السلام
في صفّين

والأصل فيه أنّ معاوية لمّا أحسّ بالعجز وظفر عليّ به ليلة الهرير راجع عمرو بن العاص في الرأي فقال له: إنّي خبّأت لك رأياً لمثل هذا الوقت وهو أن تأمر أصحابك برفع المصاحف على الأرماح ويدعون أصحاب علي إلى المحاكمة إلى كتاب اللّه فإنّهم إن فعلوا افترقوا وإن لم يفعلوا افترقوا وكان الأشتر في صبيحة تلك الليلة قد أشرف على الظفر، فلمّا أصبحوا رفعوا المصاحف والمصحف الكبير بالجامع الأعظم على عشرة أرماح وهم يستغيثون معاشر المسلمين اللّه امّة في اخوانكم في الدّين حاكمونا إلى كتاب اللّه، اللّه في النساءوالبنات، فقال أصحاب علي: إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب اللّه والرأي التنفيس عنهم.

فغضب عليه السلام وقال: إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل، كما مرّ في كلامه، فافترق أصحابه منهم من رأى رأيه في الإصرار على الحرب، ومنهم من رأى

وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا فما ندري أيّ الأمرين أرشد فصفق بإحدى يديه على الأُخرى ثمّ قال هذا جزاء من ترك العقدة، أما واللّه لو أنّي حين أمرتكم بما أمرتكم

تركها والرجوع إلى الحكومة وهم الأكثر، فأصرّوا عليه وقالوا: إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان، فأكرهوه على ذلك وأمر بردّ الأشتر عن الحرب، ثمّ كتبوا كتاب الصلح وطافوا به في أصحابه واتّفقوا على الحكومة ثمّ ندموا.

[**وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال نهيتنا عن الحكومة**] أوّلاً.

[**ثمّ أمرتنا**] بها ثانياً [**فما ندري أيّ الأمرين أرشد**] فإنّها إن كانت حسنة فأنت مخطيء بنهيك عنها وإن كانت قبيحة فأنت مخطيء بأمرك بها وهذا غير وارد عليه ﷺ لأنّه لم يكن راضياً بها أوّلاً وبعد أن أكرهوه عليها وألجئوه إليها ووقع الصلح والعهد فلا يسوغ له نقضه مع أنّه إنّما رضي بالحكم بكتاب اللّه وهم قد خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم ولو حكموا به لما خالفوه لقوله: ﴿أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

وقوله: ﴿إنّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا ...﴾ إلخ.

وقوله: ﴿كونوا مع الصادقين﴾ على أنّه لو سلّم جميع ذلك فلا اعتراض عليه لتغيّر المصالح بتغيّر الأزمان والأوقات والحالات كالطبيب الذي ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمر بمثله غداً ولذا قيل:

[**فصفق بإحدى يديه على الأُخرى**] فعل المغضب عليهم.

[**ثمّ قال هذا جزاء من ترك العقدة**] اي: عقدة الأمر الذي عقده وأحكمه وهو الرأي في الحرب وإصرارهم عليها.

[**أما واللّه لو أنّي حين أمرتكم بما أمرتكم**] به من البقاء على الحرب.

حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قوّمتكم وإن أبيتم تداركتكم لكانت الوثقى ولكن بمن وإلى من نرجع أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أنّ ضلعها معها

[**حملتكم على المكروه**] الذي كرهته نفوسكم مع أنّه [**الذي يجعل الله فيه خيراً**] من الظفر وسلامة العاقبة كما قال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم﴾.

[**فإن استقمتم**] على طاعتي واتّباعي والمبادرة إلى أمري [**هديتكم**] إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**وإن اعوججتم**] وزغتم عن الطريق السوي [**قوّمتكم**] بالقتل والضرب.

[**وإن أبيتم**] وامتنعتم عن ذلك [**تداركتكم لكانت الوثقى**] أي الفعلة المحكمة التي فيها الصواب وخير الدنيا والآخرة.

[**ولكن بمن**] كما نستعين عليكم.

[**وإلى من نرجع**] في ذلك [**أريد أن أداوي بكم**] أي: أُريد أن أُداوي ما بي من بعضكم ببعض [**وأنتم دائي**] فأكون من ذلك حينئذ [**كناقش الشوكة بالشوكة**] أي: مستخرجها بها [**وهو يعلم أنّ ضلعها**] بفتح الضاد وسكون اللام أي: ميلها [**معها**].

وهذا مثلٌ مشهور لا تنقش الشوكة بالشوكة فإنّ ضلعها لها أي لا تستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة أُخرى مثلها فإنّ أحدهما في القوّة والضعف كالأُخرى فكما أنّ الأولى انكسرت لما وطئتها فدخلت في

اللّهمّ قد ملّت أطبّاء هذا الداء الدوي وكلّت النَّزَعَة بأشطان الركى

لحمك فالثانية إذا حاملت اسخراج الأولى بها تنكسر وتدخل في لحمك وحاصل كلامه عليه السلام أنّكم لو أطعتموني لحملتكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة ابن العاص من رفع المصاحف فإن استقمتم لي هُديتم بي وإن لم تستقيموا فأمّا أن تعوجّوا أي يقع منكم بعض الالتواء واليسير من العصيان كفتور الهمّة وقلّة الجدّ في الحرب فأُقوِّمكم بالتأديب والإرشاد والوعظ والحثّ على الجهاد بما فيه من خير الدنيا والآخرة والتشجيع وإن وقع منكم الإباء عن الحرب والامتناع المطلق تداركنا الأمر معكم إمّا بالاستنجاد من غيركم أو بما أراه من المصلحة واستعانتي ببعضكم في إصلاح بعض كنقش الشوكة بالشوكة ووجه الشبه طباعكم يشبه بعضها بعضاً ويمتل إليها بما انكسرت معها في العضو واحتاجت إلى منقاش آخر فينبغي لي ان أستعين عليكم بغيركم.

ثمّ رجع عليه السلام إلى الشكاية إلى اللّه:

[**اللّهمّ قد ملّت أطبّاء هذا الداء الدوي**] أي: الشديد، كقولهم ليل أليل.

[**وكلّت النَّزَعَة**] جمع نازع وهو الذي يستقي الماء [**بأشطان الركى**] والاشطان جمع شطن وهو الحبل والركي جمع ركية وهي البئر وتجمع أيضاً على ركايا، استعار عليه السلام لفظ الداء الدوي لما هم عليه من الجهل والضلال في مخالفة أمره فإنّ داء القلب أعظم من داء البدن، واستعار لفظ الأطبّاء لنفسه وأعوانه فإنّ أطبّاء النفوس أشرف من أطباء الأبدان كشرافة النفوس على الأبدان، واستعار لفظ النزعة له لأنّه ينزع لهم وجوه الآراء الصالحة النافعة

أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيّجوا إلى الجهاد فولهوا اللّقاح أولادها وسلبوا السيوف أغمادها وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً صفّاً صفّاً مصدران مؤكّدان، فأمّا مقام الحال أي مصطفّين في الحرب

كما ينزع المستقي الدلو من البئر وكأنّهم من المصلحة في قعر بئر عميق وقد كلّ وعجز من جذبهم ــــــ.

ثمّ شرع في التأسّف على فقد معنى ممن يقوم بهم عمود الدين فقال:

[**أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه**] استفهام على سبيل التوجّع لفقدهم.

[**وقرأوا القرآن فأحكموه**] كأنّهم تعريض بهم حيث دعو إلى الحكم بكتاب اللّه فلم يتعقّلوا ذلك.

[**وهيّجوا إلى الجهاد**] أي: شجّعوا عليه ودعوا إليه [**فولهوا**] أي: تشوّقوا وأحبّوا [**اللّقاح**] بكسر اللام أي: للإبل الحلوب [**أولادها**] منصوب بنزع الخافض والوله شدّة لحبّ حتّى يذهب العقل من وله الرجل وواحد اللقاح لقوح وهي الناقة الحلوب كقلاص وقلوص وتوليهم لها بركوبهم إيّاها عند خروجهم إلى الجهاد وتفريقهم بينها.

[**وسلبوا السيوف أغمادها**] بدل من السيوف أو منصوب بنزع الخافض.

[**وأخذوا**] على الناس [**بأطراف الأرض**] أي: حصروهم [**زحفاً زحفاً**] منصوب على المصدر، أي يزحفون زحفاً والثانية تأكيد للأُولى وهذا يقال لمن استولى على عدوّه وضيّق عليه قد أخذ بأطراف الأرض وكذا قوله:

[**صفّاً صفّاً**] **مصدران مؤكّدان، فأمّا مقام الحال أي مصطفّين في الحرب**

صفّاً صفّاً حبعض هلك وبعض نجى لا يبشرون بالأحياء ولا يعزّون عن القتلى مُره العيون من البكاء خمص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين

صفّاً صفّاً حبعض هلك] في الحرب بالشهادة وفاز بالسعادة.

[وبعض نجى] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾.

ثمّ وصفهم بأنّهم **[لا يبشرون بالأحياء ولا يعزّون عن القتلى]** أي أنّهم في حال الجهاد لا يلتفتون إلى حيّهم ولا يراعون حياته حتّى يبشروا ببقائه وأنّه لم يهلك في الجهاد ولا يجزعون لموته وشهادته فيعزون عليه بل لعلّهم يفرحون بشهادته وإن كان والداً لولده أو بالعكس، ويحتمل أن يكون المعنى أنّهم تجرّدوا لطاعة مولاهم وانقطعوا عن العلائق فأنّى ولد لأحدهم مولود لم يسرّ به وإذا مات له ميّت لم يجزع عنه والأوّل أظهر.

[مُره العيون من البكاء] المره جمع مارهة وهي العين التي فسدت لترك الكحل أو غيره أي عيونهم مارهة من البكاء من خشية اللّه.

[خمص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر] إذ كانوا قليلاً من الليل يهجعون ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ وإنّما كان السهر موجباً للصفرة لأنّه يهيّج الحرارة وينحف البدن وتكثر فيه المرة ويلزم من ذلك الصفرة لا سيّما في الأبدان النحيفة كما في أهل مكّة والمدينة والحجاز.

[على وجوههم غبرة الخاشعين] وعنى بهم مثل جعفر بن أبي طالب وسلمان وأبي ذر وعمّار والمقداد والحارثة بن النعمان وعبداللّه بن رواحة

أولئك إخواني الذاهبون فحقّ لنا أن نظمأ إليهم ونعضّ الأيدي على فراقهم إنّ الشيطان يُسَنِّي لكم طرقه ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة ويعطيكم بالجماعة الفرقة فأصدفوا عن نزغاته ونفثاته

وسعد بن معاذ وأمثالهم ممّن جمعوا بين الزهد والشجاعة.

[**أولئك إخواني الذاهبون**] تعريض وإزراء بالسامعين حيث لم يكونوا على مثل حالهم وأوصافهم.

[**فحقّ لنا أن نظمأ إليهم**] أي: يحقّ لنا أن نتعطّش إلى لقائهم.

[**ونعضّ الأيدي على فراقهم**] استعار لفظ الظمأ للشوق إليهم ملاحظة لشبههم بالماء في شدّة الحاجة إليه وتنزيل الشوق إليهم والحاجة إلى لقائهم منزلة المتعطّش إلى الماء [**إنّ الشيطان يُسَنِّي**] أي: يحسّن ويسهّل [**لكم طرقه**] الموصلة إلى النار والموجبة لغضب الجبّار.

[**ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة**] وعقد الدِّين ما أُحكم منه من القواعد والقوانين وحلّه لها تزيينه للعباد ترك قانون قانون تدريجاً حتّى يطبع على قلبه.

[**ويعطيكم بالجماعة**] أي: بدل الاجتماع في القلوب والأبدان الذي حثّ عليه الشارع لمصالح عظيمة ومنافع جسيمة [**الفرقة**] حتّى يختلّ أمر الدين و____ وتنحلّ عقد الإسلام والمسلمين.

[**فأصدفوا**] أي: أعرضوا وانصرفوا [**عن نزغاته**] أي: حركاته بالإفساد [**ونفثاته**] أي: إلقائه الوسوسة في القلوب مرّة بعد أُخرى وكرة غبّ أولى يقال نزع ينزع بالفتح أي يفسد ويغري ونفث ينفث بالضمّ والكسر أي: يخيّل ويسخّر.

واقبلوا النصيحة ممّن أهداها إليكم واعقلوها على أنفسكم قاله للخوارج قد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة فقال عليه السلام: أكلّكم شهد معنا صفّين فقالوا منّا من شهد ومنّا من لم يشهد فامتازوا فرقتين فليكن من شهد صفّين فرقة ومن لم يشهدها فرقة أُخرى حتّى أُكلِّم كلاً منكم بكلامه ونادى أيّها الناس أمسكوا عن الكلام وأنصتوا

[**واقبلوا النصيحة ممّن أهداها إليكم**] يعني نفسه عليه السلام [**واعقلوها على أنفسكم**] أي: اربطوها والزموها.

ومن كلام له عليه السلام

[قاله للخوارج]

والحال أنّه [**قد خرج إلى معسكرهم**] بفتح الكاف أي: موضع عسكرهم ومحطّه.

[**وهم مقيمون على إنكار الحكومة**] التي أكرهوه عليها وألجئوه إليها [**فقال عليه السلام أكلّكم شهد معنا صفّين**] أي: حضرها كما قال تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾.

[**فقالوا: منّا من شهد**] صفّين [**ومنّا من لم يشهد**].

قال عليه السلام: [**فامتازوا**] اليوم أيّها المجرمون [**فرقتين فليكن من شهد صفّين فرقة ومن لم يشهدها فرقة أُخرى حتّى أُكلِّم كلاً منكم بكلامه**] الذي يليق به.

[**ونادى**] عليه السلام قائلاً [**أيّها الناس أمسكوا عن الكلام وأنصتوا**] أي:

لقولي وأقبلوا بأفئدتكم إليّ فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها ثمّ كلّمهم عليه السلام بكلام طويل من جملة أن قال: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكراً وخديعة اخواننا في الدين وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب اللّه تعالى فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم فقلت لكم هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان

استمعوا وأصغوا [**لقولي وأقبلوا بأفئدتكم**] وقلوبكم [**إليّ**] ولا تكونوا ممّن قال اللّه ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

[**فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها**] فإنّ الشهادة على مثل الشمس الطالعة إنّما تسند إلى العلم واليقين دون الظنّ والتخمين ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه.

[**ثمّ كلّمهم عليه السلام بكلام طويل من جملة أن قال: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكراً وخديعة**] علّمهم إيّاها ابن العاص ليفرّقوا كلمتكم ويشتّتوا آرائكم [**اخواننا**] مقول القول أي: ألم تقولوا عند فعلهم ذلك هؤلاء إخواننا [**في الدين وأهل دعوتنا**] بالإسلام الشاملة لجميع المسلمين [**استقالونا**] طلبوا منا أن نقيلهم في الحرب.

[**واستراحوا إلى كتاب اللّه تعالى**] بأن يكون حكماً بيننا وبينهم.

[**فالرأي**] الصائب والعزم الثاقب [**القبول منهم والتنفيس**] أي: التفريج [**عنهم**] يقال نفّس كربه أي: فرّجها [**فقلت لكم هذا أمر ظاهره إيمان**] بدعوتهم إلى القرآن ليحكم بينهم [**وباطنه عدوان**] لأنّهم قصدوا به الخديعة والظلم والغلبة والمكر ورفع الاستيلاء.

وأوّله رحمة وآخره ندامة فاقيموا على شأنكم والزموا طريقتكم وعضّوا على الجهاد بنواجذكم ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق إن أُجيب أضلّ وإن تُرك ذلّ ولقد كنّا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وإنّ القتل ليدور بين الآباء والأبناء والإخوان والقرابات فما نزداد على كلّ مصيبة وشدّة إلاّ إيماناً ومضياً على الحقّ وتسليما للأمر

[**وأوّله رحمة**] لهم منكم برجوعكم إلى قولهم قبول مسئولهم.

[**وآخره ندامة**] لكم عند تمام الحيلة وحصول مطلوبهم.

[**فاقيموا على شأنكم**] أي: على ما كنتم عليه من الاجتهاد في الحرب.

[**والزموا طريقتكم**] التي كنتم عليها.

[**وعضّوا على الجهاد بنواجذكم**] قد مرّ شرحه.

[**ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق**] إشارة إلى طالب الحكومة أو المشير عليهم بذلك الرأي وهو عمرو بن العاص وأخرجه في أوصاف إبليس بقوله:

[**إن أُجيب**] إلى ما يدعو إليه [**أضلّ**] من أجاب دعوته [**وإن تُرك**] ودعوته ولم يصغ إليها ولم يعوّل عليها [**ذلّ**] وخسر.

ثمّ أشار عليه السلام إلى حاله وحال أصحابه تحريضاً لهم على التأسّي به وبهم فقال:

[**ولقد كنّا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وإنّ القتل ليدور بين الآباء والأبناء والإخوان والقرابات فما نزداد على كلّ مصيبة وشدّة إلاّ إيماناً ومضياً على الحقّ**] الذي أمر اللّه به من الجهاد وعدم الالتفات إلى قريب أو بعيد.

[**وتسليما للأمر**] أي: أمر اللّه.

وصبراً على مضض الجراح ولكنّا إنّما أصبحنا نقاتل اخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل فإذا طمعنا في خصلة يلمّ اللّه بها شعثنا ونتدانى إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها وأمسكنا عمّا سواها

[**وصبراً على مضض الجراح**] أي: ألمها وضرّها، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل إن كان آبائكم وأبنائكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها أحبّ إليكم من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آبائهم وأبنائهم﴾ الآية.

ثمّ أشار عليه السلام إلى جواب شبهة ربّما عرضت لهم أو تعرض، وهي أنّه إنّما فعل اخواننا السابقون ما فعلوا ليقينهم بما هم عليه من دين الإسلام وتيقّنهم ضلال أعدائهم حيث أنّهم مصرّون على الكفر والشرك فامّا نحن فإنّما يقاتل بعضنا بعضاً فكيف يسوغ لنا قتال قوم مسلمين وهم اخواننا في الدين وقد استسلموا إلينا ودعونا إلى كتاب اللّه فأجاب عليه السلام بقوله:

[**ولكنّا إنّما أصبحنا نقاتل اخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل**] وغرضنا من ذلك قيام الدّين ورفع زيغه ورفع اعوجاجه [**فإذا طمعنا في خصلة يلمّ اللّه بها شعثنا**] ويجمع بها تفرّقنا [**ونتدانى**] أي: نتقارب بها [**إلى البقية**] أي إلى ما بقي [**فيما بيننا**] من الإسلام والدين [**رغبنا فيها وأمسكنا عمّا سواها**] وكأنّه عليه السلام عنى بالخصلة رجوع محاربيه إلى طاعته واتّفاقهم عليه ما كان يرجوه من ذلك تمام الصلح ورجوع الفئة الباغية إلى الحقّ.

وأيّ امرئ منكم أحسّ من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشلاً فليذبّ عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه فلو شاء اللّه لجعله مثله فإنّ الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب

ومن كلامه له ﷺ

قاله لأصحابه في وقت الحرب يحثّهم على مساعدة بعضهم بعضاً

[وأيّ امرئ منكم أحسّ] أي: علم ووجد **[من نفسه رباطة جأش]** أي: شدّة قلبه **[عند اللقاء]** لعدوّه والماضي ربط كأنّه يربط نفسه عن الفرار والمروي رباطة بالكسر.

[ورأى من أحد من إخوانه فشلاً] أي: جبناً وخوفاً **[فليذبّ عن أخيه]** وليساعده **[بفضل نجدته]** أي: شجاعته أي: ليكثر الدفع والمنع عن أخيه بما فضل عنده من القوّة والشجاعة زيادة على ما قابل به منها من أراده **[التي فضل]** أي تفضّل اللّه **[بها عليه]** إشارة إلى أنّ ذلك من اللّه فليصرفه في سبيل اللّه [كما يذبّ عن نفسه فإنّ المؤمنين كنفس واحدة بني أب وأم إذا ضرب عرق على أحدهم سهر له الباقون.

[فلو شاء اللّه لجعله مثله] فأصابه ما أصابه من الفشل فليحصل شكر هذه النعمة إعانة أخيه ومساعدته.

ثمّ شرع ﷺ في تسهيل الأمر عليهم بقوله: **[فإنّ الموت طالب حثيث]** أي: سريع **[لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب]** إشارة إلى قوله تعالى:

إنّ أكرم الموت القتل والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش في غير طاعة اللّه

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ وقوله تعالى: ﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾.

[**إنّ أكرم الموت القتل**] في سبيل اللّه لاستلزامه الذكر الجميل في الدنيا والثواب الجسيم والنعيم المقيم في العقبى.

ثمّ أكدّ ذلك بالقسم في قوله: [**والذي نفس ابن أبي طالب بيده**] وهو اللّه الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة [**لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش في غير طاعة اللّه**] وذلك معلوم حقّ بالنسبة إلى من نظر إلى الدنيا بعين الاستحقاق في جنب النعيم الأبدي والثواب السرمدي والذكر الجميل في الدنيا وفي الملأ الأعلى.

قال ابن أبي الحديد: أقسم أنّ القتل أهون من الموت حتف الأنف على مقتضى ما منحه اللّه من الشجاعة الخارقة لعادة البشر وهو يحاول أن يحضّ أصحابه ويحرّضهم فيجعل أطباعهم مناسبة لطباعه وإقدامهم على الموت مماثلاً لإقدامه على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم وهيهات ليست النفوس من جوهر واحد ولا الطباع والأمزجة من جنس واحد وهذه خاصيّة توجد لمن يصطفيه اللّه من عباده في الأدوار المتطاولة وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان فإنّ التواريخ من قبل الطوفان مجهولة عندنا إنّ أحداً أُعطي من الشجاعة والإقدام ما أُعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم، والمعلوم من حاله أنّه كان يؤثر الحرب على السلم والموت على الحياة.

ومن كلام له ﷺ وكأني أنظر إليكم تَكِشُّون كشيش الضباب لا تأخذون حقاً ولا تدفعون ضيماً قد خليتم والطريق فالنجاة للمتقحّم والهلكة للمتلوِّم

ومن كلام له ﷺ

[**وكأني أنظر إليكم تَكِشُّون كشيش الضباب**] الكشيش الصوت يشوبه مثل الخشخشة وكشيش الأفعى صوتها من جلدها لا من فمها أي: كأني أنظر إليكم وأصواتكم همهمة بينكم من الهلع قد اعتراكم فهي شبه شيء بأصوات الضباب المتجمّعة.

ثمّ أكّد وصف جهنم وجورهم بقوله [**لا تأخذون حقّاً**] من الظالم.

[**ولا تدفعون ضيماً**] عن المظلوم وهذه غاية ما يكون من الذل، وقيل: أشار ﷺ بهذا الكلام إلى أنّه ستلحقهم غلبة من العدوّ وتعضّهم الحروب بحيث يضعون ويأخذون في الهرب والتخفّي فلا ينتفع بهم أحد في أحد حق أو دفع ضيم ووصف الكشيش مستعار لهم باعتبار هيئتهم في الحيد عن العدوّ والهرب منه وهو وجه الشبه، وقوله:

[**قد خليتم والطريق**] منصوب على المفعول معه أي خليتم وطريق النجاة عند الحرب [**فالنجاة للمتقحّم**] فيها [**والهلكة للمتلوِّم**] والمتوقّف عنها أو المراد خُلِّيتم وطريق الآخرة فالنجاة للمبادر إلى سلوكها والهلكة للمتوقّف عنها.

فقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبأ للسيوف عن الهام والتووا في أطراف الرماح فإنّه أمور للأسنّة وعضّوا الأبصار فزنّه أربط للجأش وأسكن للقلوب وأميتوا الأصوات فإنّه طرد للفشل ورايتكم فلا تميلوها

ومن كلام له عليه السلام
في حضّ أصحابه على القتال وحثّهم على النضال

[**فقدّموا الدارع**] أي: لابس الدرع [**وأخّروا الحاسر**] أي: العاري من الدرع [**وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبأ للسيوف عن الهام**] وقد مرّ شرحه في قوله استشعروا الخشية وفي قوله لمحمد بن الحنفية تزول الجبال ولا تزل.

[**والتووا في أطراف الرماح**] أي: التووا مع الرمح حال إرساله [**فإنّه أمور**] أي: أشدّ حركة ونفوذاً [**للأسنّة**] لحركة صدر الإنسان بعد التوائه مع حركة يده عند الإرسال فكانت حركته أشدّ وأقوى نفوذاً.

[**وعضّوا الأبصار**] وقت المحاربة [**فزنّه أربط للجأش**] الجاش: روعة القلب واضطرابه.

[**وأسكن للقلوب**] ومدّ البصر مظنّة الخوف والفشل وعلامة لهما عند العدوّ وربّما خيف على البصر من بريق النصال والأسنّة.

[**وأميتوا الأصوات فإنّه طرد للفشل**] إذ كانت كثرة اللّغط والصياح علامة لخوف الصائح وذلك مستلزم لطمع العدوّ فيه وجرئته عليه.

[**ورايتكم فلا تميلوها**] فإن أمالتها مما يظنّ به العدوّ وتشويشاً

ولا تخلوها إلاّ بيد شجعانكم والمانعين الذمار منكم فإنّ الصبر على الحقائق في حلولها هم الذين يحفون براياتهم ويكتنفونها حفافيها ورائها وأمامها لا يتأخّرون عنها فيسلّموها ولا يتقدّمون عليها فيفردوها أجزأ امرئ قرنه وآسى أخاه بنفسه وليواس أخاه بنفسه فيجتمع على أخيه قرنه وقرن أخيه وأيم اللّه لئن فررتم من سيف

واضطراب حال فيطمع ويقدم ولأنّها إذا أُميلت تغيب عن عيون الجيش فلا يهتدي أكثر الجيش إلى المطلوب.

[**ولا تخلوها**] وفي نسخة ولا تجعلوها [**إلاّ بيد شجعانكم والمانعين الذمار منكم**] الذمار: ما وراء الرجل مما يجب عليه حمايته والسبب في ذلك أن نظام العسكر على الراية وبها تقوى قلوبهم مادامت قائمة فيجب في ترتيب الحرب أن يكون حاملها أشجع القوم وأثبتهم جناناً.

[**فإنّ الصبر على الحقائق**] أي: الأمور الشديدة التي حقّ نزولها ولا شكّ [**في حلولها هم الذين يحفون براياتهم ويكتنفونها**] أي يحيطون بها [**حفافيها**] وحفافا الشيء جانباه [**ورائها وأمامها لا يتأخّرون عنها فيسلّموها.**

ولا يتقدّمون عليها فيفردوها] هذا معنى التخلية المنهي عنها ويسلّموها ويفردوها نصب بإضماران بعد الفاء في جوانب النفي.

[**أجزأ امرئ قرنه وآسى أخاه بنفسه**] فعلان ماضيان بمعنى الأمر أي: ولجزي امرؤ قرنه وهو خصمه وكفوه في الحرب أي: ليقارنه.

[**وليواس أخاه بنفسه**] في الذبّ عنه ولا يفرّ من قرينه اعتماداً على أخيه في دفعه.

[**فيجتمع على أخيه قرنه وقرن أخيه وأيم اللّه لئن فررتم من سيف**

العاجلة لا تسلمون من سيف الآجلة، أنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم زنّ في الفرار موجدة اللّه والذلّ اللازم والعار الباقي فإنّ الفارّ غير مزيد في عمره بفراره ولا محجوز بينه وبين يومه من رائح إلى اللّه

العاجلة لا تسلمون من سيف الآجلة] تحذير من الفرار لعدم فائدة فيه إذ الغاية المقصودة منه السلامة من الموت الذي لابدّ منه كما قال تعالى: ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلاّ قليلاً﴾.

وقال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾.

وقال تعالى: ﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾ واستعار لفظ سيف الآخرة للموت ووجه الشبه إبطالهما الحياة، وإنّما كان سيف الآخرة لأنّها غايته.

[**أنتم لهاميم العرب]** أي: أجوادهم وأشرافهم جمع لهموم.

[**والسنام الأعظم]** استعار لهم لفظ السنام لمشاركتهم إيّاه في العلوّ والرفعة ثمّ أكّد قبح الفرار بقوله: [**إنّ في الفرار موجدة اللّه]** أي: غضبه لأنّ الفار منه عاص لأمر اللّه والعاصي له ستحقّ لغضبه وعقابه.

[**والذلّ اللازم والعار الباقي]** في الأعقاب [**فإنّ الفارّ غير مزيد في عمره بفراره]** إذ هو بفراره لم يبلغ أجله المكتوب له فكان بقائه في مدّة الفرار من عمره لا زيادة فيه.

[**ولا محجوز بينه وبين يومه]** أي إنّ له يوماً قضي فيه أجله لا يحجز بينه وبينه فرار، وممّا ينسب إليه عليه السلام أي يومي من الموت أفر أيوم لا قدر أم يوم قدر فيوم لا قدر لا أرهبه ويوم قد قدر ما منه مفر [**من رائح إلى اللّه**

كالظمآن يرد الماء الجنّة تحت أطراف العوالي اللّهمّ فإن ردّوا الحقّ فافضض جماعتهم وشتّت كلمتهم وأبسلهم بخطاياهم إنّهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك يخرج منه النسم

كالظمآن يرد الماء] استفهام عمّن يسلك سبيل اللّه ويروح إليه كما يروح الظمآن استفهماً على سبيل العرض لذلك الرواح ووجه الشبه القوّة في السير والسعي الحثيث وكالظمآن في محلّ الرفع صفة الرائح أي من يروح إلى اللّه بهذه الصفة وقوله:

[**الجنّة تحت أطراف العوالي]** جمع عالية: القناة والرمح قيل هو إشارة إلى أنّ مطلوبه الرواح إلى اللّه بالجهاد وجذب إليه بذكر الجنّة وخصّها بجهة تحت لأنّ دخول الجنّة غاية من الحركات بالرماح في سبيل اللّه وتلك الحركات إنّما هي تحت العوالي وقد أطلق لفظ الجنّة على تلك الأفعال التي هي غاية منها مجازاً تسمية للشيء باسم غايته ثمّ أعقب ذلك بالدعاء فقال:

[**اللّهمّ فإن ردّوا الحقّ]** الذي يدعوهم إليه ويحضّهم عليه من المسارعة إلى الجهاد والاستعداد للقاء العدو.

[**فافضض جماعتهم]** أي: فرّقها.

[**وشتّت كلمتهم]** بأن لا يجتمعوا فعلاً وقولاً على أمر.

[**وأبسلهم]** أي: أسلمهم للهلاك [**بخطاياهم]** علّل ذلك بقوله [**إنّهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك]** أي: طعن متدارك يدرك بعضه بعضاً [**يخرج منه النسم]** أي: النفس كناية عن كونه يخرق الجوف والأمعاء بحيث يتنفّس للطعون من الطعنة وروي النسيم أي الريح وروي القشم بالقاف والشين المعجمة وهو اللحم والشحم.

وضرب بفلق الهام ويطيح العظام ويندر السواعد والأقدام حتّى يرموا بالمناشير تتبعها المناسر ويرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب وحتّى يجرّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس وحتّى تدعق الخيول نواحر أرضهم وبأعنان مساربهم ومسارحهم لما أنكروا تحكيم الرجال ويذمّ فيه أصحابه إنّا لم نحكِّم الرجال

[**وضرب بفلق الهام ويطيح العظام ويندر السواعد والأقدام حتّى يرموا بالمناشير تتبعها المناسر**] والمنسر القطعة من الجيش.

[**ويرجموا بالكتائب**] أي: الخيل [**تقفوها**] تتبعها [**الحلائب**] جمع حلوبة وهي الإبل.

[**وحتّى يجرّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس**] والخميس: الجيش، سُمّي بذلك لاشتماله على خمسة، مقدّمة وميمنة وميسرة وقلب ومؤخّرة.

[**وحتّى تدعق الخيول**] أي: تدخل وتجول [**نواحر أرضهم**] أي: أواخرها وأقاصيها جمع نحيّرة وهي آخر ليلة من الشهر مع يومها كأنّها تنحر الشهر المستقبل فتكون كناية عن أقاصيها [**وبأعنان مساربهم**] أي: مراعيهم واحدتها مسربة [**ومسارحهم**] مكان سرح أنعامهم.

ومن كلام له عليه السلام مع الخوارج

[**لما أنكروا تحكيم الرجال ويذمّ فيه أصحابه**] على ترك الجهاد والقتال قال عليه السلام:

[**إنّا لم نحكِّم الرجال**] من حيث هم رجال.

وإنّما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنّما هو خطٌّ مسطور بين الدفّتين لا ينطق بلسان ولابدّ له من ترجمان وإنّما ينطق عنه الرجال ولما دعانا إلى ان يحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولّي عن كتاب اللّه وقال اللّه تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول﴾ فردّه إلى اللّه أن نحكم بكتابه وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنّته فإذا حكم بالصدق في كتاب اللّه فنحن أحقّ الناس به وإن حكم بسنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فنحن أولاهم به

[وإنّما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنّما هو خطٌّ مسطور بين الدفّتين لاينطق بلسان ولابدّ له من ترجمان وإنّما ينطق عنه الرجال] الذي يعرفون تفسيره ويعقلون تأويله.

[ولما دعانا] القوم **[إلى ان يحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولّي عن كتاب اللّه]** بل أجبناهم إلى ذلك.

[وقال اللّه تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول﴾ فردّه إلى اللّه أن نحكم بكتابه وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنّته فإذا حكم بالصدق في كتاب اللّه فنحن أحقّ الناس به وإن حكم بسنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فنحن أولاهم به] فلااعتراض علينا في تحكيمنا الرجال بعد شرطنا عليهم أن يحكموا بكتاب اللّه وسنّة رسوله فإذا لم يحكموا بذلك فاللّوم عليهم لا علينا ولو حكموا بكتاب اللّه أو سنّة نبيّه ﷺ لبان أنّ الأمر لنا دون غيرنا.

قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحديهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر اللّه

وأمّا قولكم جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم فإنّما فعلت ذلك ليتبيّن الجاهل ويثبت العالم ولعلّ اللّه أن يصلح

وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

ومن المعلوم كونه عليه السلام أولي الأمر الذي تجب طاعته عقلاً ونقلاً أمّا النقل فللأخبار المتظافرة وأمّا عقلاً فلأنّه يقبح فرض إطاعة جميع الخلق لمخلوق يخطيء ويصيب وفيهم من هو أعلم منه وافضل واتقى وأورع وأصلح وأشجع ويقبح وجوب اتّباع جائز الخطأ ولا أحد جامعاً لهذه الأوصاف غير علي وأولاده المعصومين.

قال تعالى: ﴿إنّما وليّكم اللّه ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ وقد اتّفق المفسّرون على نزولها في عليّ مضافاً إلى الأخبار المتواترة.

وقال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين﴾ والصادق كالصدّيق هو المعصوم وإلاّ لوجب اتباع كلّ صادق فتعيّن وجوب اتّباعه واتّباع أولاده الطاهرين.

وأمّا النقل فلما تواتر عنه صلى الله عليه وآله بين الفريقين من قوله: «يا علي سلمك سلمي وحربك حربي» وقوله صلى الله عليه وآله: «علي مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه حيثما دار»، وقوله صلى الله عليه وآله لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية» إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة والآثار المتظافرة.

[وأمّا قولكم جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم فإنّما فعلت ذلك ليتبيّن الجاهل] وجه الحقّ.

[ويثبت العالم] في أمره بحيث يخلص من الشبهة **[ولعلّ اللّه أن يصلح**

في هذه الهدنة أمر هذه الأمّة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق وتنقاد لأوّل الغي إنّ أفضل الناس عند اللّه من كان العمل بالحقّ أحبّ إليه وإن نقصه وكرثه من الباطل فأين يتاه بكم ومن أين أُتيتم استعدّوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحقّ لا يبصرونه وموزعين بالجور لا يعدلون به جفاة عن

في هذه الهدنة] أي: الصلح **[أمر هذه الأمّة ولا تؤخذ بأكظامها]** والكظم مجرى النفس والأخذ به كناية عن الإعجال والأخذ بغتة **[فتعجل عن تبين الحق وتنقاد لأوّل الغي]** فإنّه عليه السلام لو أخذهم بالقتال بغتة ألجأهم إلى لزوم ضلالهم من غير تروٍ، وذلك يخالف مقصود الشارع من جمع الخلق على الدين.

ثم قال عليه السلام: **[إنّ أفضل الناس عند اللّه من كان العمل بالحقّ أحبّ إليه وإن نقصه وكرثه]** أي: حزبه **[من الباطل]** متعلّق بأحبّ إليه، وإن نقصه وكرثه اعتراض بينهما والحكم في ذلك ظاهر إذ كان ملازم الحق أتقى الخلق والأتقى أفضل عند اللّه، كما قال تعالى: ﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾ وقوله:

[فأين يتاه بكم] أي: إلى أي غاية يكون هذا التيه والضلال الذي أخذتم فيه، وفيه إشارة إلى أنّ ذلك التيه فعل الغير بهم.

[ومن أين أُتيتم] أي: من أيّ وجه دخلت عليكم هذه الشبهة، والسؤال من باب تجاهل العارف، ثمّ أعقب ذلك بالأمر بالجهاد وقال:

[استعدّوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحقّ لا يبصرونه وموزعين بالجور لا يعدلون به] يقال: أوزع بكذا فهو موزع إذا أغرى به **[جفاة عن**

الكتاب نُكَّب عن الطريق ما أنتم بوثيقة يُعلَق بها ولا زوافر عزٍّ يعتصم إليها لبئس حُشّاش نار الحرب أنتم أُف لكم لقد لقيت منكم برحاً يوماً أُناديكم ويوماً أُناجيكم فلا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء

الكتاب] متجافين عنه وعن أحكامه قد نبذوه وراء ظهورهم **[نُكَّب]** بتشديد الكاف جمع ناكب وهو العادل **[عن الطريق]** القويم والصراط المستقيم وكلّ ذلك إعراء بهم وقوله:

[ما أنتم بوثيقة] أي: بعروة وثيقة **[يُعلَق بها]** يتمسّك بها.

[ولا زوافر عزٍّ يعتصم إليها] وزوافر الرجل أنصاره وعشيرته وهو عتاب لهم وتضجّر منهم على قلّة طاعته.

[لبئس حُشّاش نار الحرب أنتم] الحُشّاش جمع حاش وهو موقد النار وكذلك الحشّاش بكسر الحاء وتخفيف الشين كنائم ونوّام ونيام وقيل هو ما يحشّ به النار أي: يوقد.

[أُف لكم] كلم تضجّر منهم ومن أفعالهم **[لقد لقيت منكم برحاً]** بسكون الراء: الشدّة والأذى، يقال: ألقيت منه برحاً بارحاً وروي ترحاً وهو الحزن **[يوماً أُناديكم]** أي: أدعوكم إلى النصرة وأستغيث بكم **[ويوماً أُناجيكم]** أي: أُعاتبكم وأُجادلكم على تقصيركم **[فلا]** أنتم **[أحرار عند النداء]** إذ الحرّ من شأنه إجابة الداعي وإغاثة المستغيث والوفاء بالوعد ولستم كذلك **[ولا إخوان ثقة عند النجاء]** لأنّ أخا الثقة إذا ذلّ وعوتب من أخيه انعتب وإذا أجرح واعتذر إليه رجع إلى صفاء الآخرة لمكان وثاقتها ولستم من ذلك في شيء.

لمّا عُوتب على تصيره الناس اسوة بالعطاء من غير تفضيل أولي السابقات والشرف فقال عليه السلام : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً لو كان المال لي لسوّيت بينهم فكيف وإنّما المال مال الله ولهم

ومن كلام له عليه السلام

[**لمّا عُوتب على تصيره الناس اسوة**] أي: متساويين [**بالعطاء من غير تفضيل أولي السابقات والشرف فقال عليه السلام : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه**] كأنّهم قالوا له: إن فضّلت هؤلاء كانوا معك بقلوبهم ونصروك فأجابهم بذلك، والجور العدول عن سبيل الله بالتفضيل، حيث كان خارجاً عن سنّة الرسول صلى الله عليه وآله.

[**والله لا أطور به**] أي: لا أقربّه والضمير للتفضيل في العطاء [**ما سمر سمير**] السمير: الدهر أي: لا أقربه الدهر كلّه وكذا يقال لا أفعله ما سمر بنا سمير وابتاه الليل والنهار.

[**وما أمّ نجم في السماء نجماً**] كذلك هو كناية أن لا يفعله أبداً [**لو كان المال لي لسوّيت بينهم فكيف**] لا أسوّي بينهم.

[**وإنّما المال مال الله ولهم**] قيل ووجه ذلك أنّ التسوية هي العدل الذي به تجتمع النفوس على النصرة وتتآلف لهم على مقاومة العدوّ دون التفضيل المستلزم لانكسار قلوب المفضولين مع كثرتهم فلو كان المال له مع كونه بطباع البشريّة الميّالة إلى شخص دون شخص ليسوي بينهم فكيف والمال لله الذي

ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند اللّه ولم يضع امرئ ماله في غير حقّه وعند غير أهله إلّا حرمه اللّه شكرهم وكان لغيره ودّهم وإن زلّت به النعل يوماص فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خليل وألأم خَدين

تساوى نسبة الخلق إليه وما لهم الذي فرضه اللّه لهم على سواء.

ثمّ قال عليه السلام [**ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف**] وهما طرفا الإفراط من فضيلة السخاء ﴿إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين﴾ ﴿وإنّ اللّه لا يحبّ المسرفين﴾.

[**وهو يرفع صاحبه في الدنيا**] بذكر الكرم ومدحه بين العوام المعامّة ومن لا يعرف حقيقة الكرم.

[**ويضعه في الآخرة**] إذ كان به على طرف زويله وقد فعل خلاف ما أمره اللّه به.

[**ويكرمه في الناس ويهينه عند اللّه ولم يضع امرئ ماله في غير حقّه**] الذي لم يفرضه الشارع ولم يسوّغه [**وعند غير أهله**] الغير المفروض لهم [**إلّا حرمه اللّه شكرهم وكان لغيره ودّهم وإن زلّت به النعل يوماص فاحتاج إلى معونتهم**] ومساعدتهم.

[**فشرّ خليل وألأم خَدين**] والخدين الصديق، وذلك معلوم بحسب الاستقراء والوجدان وربّما بلغ التجربة، وقيل أراد بالذين يمنعه اللّه شكرهم الذين أعطاهم المال من غير أهله ويلوح من سرّ ذلك أنّ عطاء غير المال لغير أهله يكون إمّا رغبة أو رهبة للمعطى من دون اللّه ويصير الأخذ إلى تلك الجهة يمنعه عن الشكر ويصرفه عن معاونة المعطي.

فإن أبيتم إلاّ أن تزعموا أنّي أخطأت وضللت فلم تضللون عامّة أمّة محمد صلّى اللّه عليه وآله بضلالي وتأخذونهم بخطأي وتكفّرونهم بذنوبي وسيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البراءة والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب وقد علمتم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله رجم الزاني ثمّ صلّى

ومن كلام له عليه السلام
أيضاً للخوارج

لمّا أصرّوا على تكفيره وتكفير أصحابه [**فإن أبيتم إلاّ أن تزعموا أنّي أخطأت وضللت**] فإنّهم كانوا يزعمون أنّهم ضلّوا بالتحكيم وكلّ ضال كافر ينتج أنّهم كفّار، فأبان عليه السلام سابقاً أنّ التحكيم لم يكن منه خطأً ولا ضلالاً، ثمّ استدرجهم هنا بأنّه هب أنّي أخطأت أو ضللت كما زعمتم.

[**فلم تضللون عامّة أمّة محمد صلّى اللّه عليه وآله بضلالي وتأخذونهم بخطأي وتكفّرونهم بذنوبي وسيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البراءة والسقم**] أي تقتلون البريء والسقيم.

[**وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب**] فإنّهم كانوا يقتلون حين اعتزالهم عنه كلّ من خالف اعتقادهم ثمّ استشهد عليهم بفعل الرسول صلى الله عليه وآله فيمن أخطأ وأنّه لم يكفّرهم بذنوبهم فقال:

[**وقد علمتم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله رجم الزاني ثمّ صلّى**

عليه ثمّ ورّثه أهله وقتل القاتل وورّث أهله ميراثه وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثمّ قسّم عليهما من الفيء ونكحا المسلمات فأخذهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بذنوبهم ولم يخرج أسمائهم من بين أهله ثمّ أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه وسيهلك فيَّ صنفان محبّ مفرط يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحقّ

عليه ثمّ ورّثه أهله وقتل القاتل] للنفس قصاصاً **[وورّث أهله ميراثه وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثمّ قسّم عليهما من الفيء ونكحا]** أي: السارق والزاني **[المسلمات]** أي: لم يمنعهم استحقاق القطع والجد من حصّتهما من الفيء ولا من نكاح المسلمات.

[فأخذهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بذنوبهم ولم يخرج أسمائهم] ضمير الجمع فيه وفيما قبله يرجع إلى كلّ من جرى ذكره من المذنبين وضمير **[من بين أهله]** يرجع إلى الإسلام.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان ذمّهم فقال:

[ثمّ أنتم شرار الناس] حيث تجرّأتم على قتل من لا يستحقّ القتل وتكفير المسلمين.

[ومن رمى به الشيطان مراميه] يرامي الشيطان الخطايا والمعاصي.

[وضرب به تيهه] حيث لا يهتدي الضال لوجه الحق.

[وسيهلك فيَّ صنفان محبّ مفرط يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ] إشارة إلى الذين اتّخذوه إلهاً وإلى الغلاة ونحوهم.

[ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحقّ] كالخوارج والنواصب

وخير الناس النمط الأوسط فالزموه والزموا السواد الأعظم فإنّ يد الله على الجماعة وإيّاكم والفرقة فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب ألا من دعى إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه

ونحوهما.

[**وخير الناس النمط الأوسط فالزموه**] وهم أهل العدل في الحب والنمط الأوسط الجماعة من الناس أمرهم واحد وفي الخبر «خير هذه الأُمّة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم القالي» فالتالي هو المقصّر الواقف في طرف التفريط والغالي الصائر زلى طرف الإفراط.

[**والزموا السواد الأعظم**] وهو ما عليه جمهور المسلمين والمتّفقين على عمود الإسلام المتمسّكين بالكتاب والسنّة.

[**فإنّ يد الله على الجماعة**] أراد باليد عناية الله وقدرته مجازاً، إذ كانوا أمنع وأبعد عن الانفعال للعدوّ وآمن من الغلط لكثرة آرائهم واتّفاقها فلا تكاد تتفق على أمر لا مصلحة فيه مع كثرتها واختلافها.

[**وإيّاكم والفرقة**] والاختلاف.

[**فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب**] لتطرّق الهلاك إلى المنفرد باستغواء الشيطان له كما أنّ الشاة المنفردة في مظنّة الهلاك لانفرادها ووحدتها للذئب.

[**ألا من دعى إلى هذا الشعار**] وهو مفارقة الجماعة والاستبداد بالرأي [**فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه**] مبالغة في الكلام كنّى بها عن أقصى القرب من عنايته أي ولو كان ذلك الداعي إلى هذا الحدّ من عنايتي به وقيل

وإنّما حكم الحكمان ليُحْييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن وإحيائه الاجتماع عليه وإماتته الافتراق عنه فلم آت ـ لا أباً لكم ـ بُجْراً ولا ختلتكم عن أمركم ولا لبّسته عليكم إنّما اجتمع رأي ملائكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما أن لا يتعدّيا القرآن فتاها عنه وتركا الحقّ وهما يُبصرانه وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثنائنا عليهما

أراد ولو كان ذلك الداعي أنا.

ثمّ أشار عليه السلام إلى الجواب عن شبهة التحكيم بقوله:

[**وإنّما حكم الحكمان ليُحْييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن وإحيائه الاجتماع عليه وإماتته الافتراق عنه**] وهو إطلاق مجازي والعلاقة فيهما باعتبار كونهما في الاجتماع والعمل به مظهرين لمنفعته وفائدته كما يفعله موجد الحياة وكونهما في تركه والإعراض عنه سبباً لبطلان منفعته وعدم فائدته كما يفعله مميت الشيء ومبطل حياته وقوله:

[**فلم آت ـ لا أباً لكم ـ بُجْراً**] البجر: الشر والأمر العظيم، لمّا بيّن عليه السلام وجه عذره في التحكيم أنكر أن يكون فعله ذلك مشتملاً على قصد شرّ أو خديعة وتلبيس كما قال:

[**ولا ختلتكم عن أمركم**] والختل: الخديعة [**ولا لبّسته عليكم**] من غير اتفاق منكم ومراجعة لكم بل [**إنّما اجتمع رأي ملائكم**] أي: أشرافكم وكبرائكم الذين يملئون النظر والصدر [**على اختيار رجلين أخذنا عليهما**] العهد والميثاق [**أن لا يتعدّيا القرآن فتاها عنه وتركا الحقّ وهما يُبصرانه**] تنبيهاً على أنّ تركهما لا عن سهو ونسيان.

[**وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثنائنا عليهما**

في الحكومة بالعدل والصمد للحقّ سوء رأيهما وجور حكمهما مما يخبر به عن الملاحم بالبصرة يا أحنف كأنّي به وقد سار بالجيش

في الحكومة بالعدل والصمد] أي: القصد **[للحقّ سوء]** مفعول به لسبق أي: سبق استثنائنا سوء **[رأيهما]** الفاسد **[وجور حكمهما]** الكاسد وحاصل الأمر أنّا إنّما رضينا بالحكمين بشرط أن يحكما بكتاب اللّه والمشروط يعدم بعدم شرطه فحيث خالفا الشرط عمداً وجبت مخالفتهما.

ونسب عليه السلام اختيار الحكمين إلى الملأ منهم وأخذ العهد في اتباع الكتاب إلى نفسه تنبيهاً على أنّ أخذ العهد عليهما كان منه أو بشركته دون تعيينهما للحكومة لما تواتر أنّه عليه السلام لم يكن راضياً بنصب أبي موسى الأشعري وإنّما أكره عليه.

ومن كلام له عليه السلام

وهو **[مما يخبر به عن الملاحم بالبصرة]** يخاطب الأحنف بن قيس لأنّه كان رئيساً ذا عقل وسابقة في قومه ونسبه كان إسلام بني عتيم حين دعاهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلى الإسلام فلم يجيبوا فقال لهم الأحنف إنّه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملائمها فأسلموا وأسلم الأحنف وشهد مع عليّ عليه السلام صفّين ولم يشهد الجمل مع أحد الفريقين.

[يا أحنف كأنّي به] أي صاحب الزنح واسمه عليّ بن محمد علوي **[وقد سار بالجيش]** وهم الزنج وواقعتهم بالبصرة مشهورة وقوله:

الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لُجُم ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدام النعام ويل لسككم العامرة والدور المزخرفة التي لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة

[**الذي لا يكون له غبار**] إشارة إلى أنّهم لم يكونوا أهل خيل [**ولا لجب**] أي صوت هائل.

[**ولا قعقعة لُجُم**] جمع لجام معروف أي: أصواتها.

[**ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم**] كناية عن كونهم حفاة في الأغلب مشقّقي الأقدام فهي من اعتياد الحفا ومباشرة الأرض كالخشب ونحوه فكانت مظنّة إثارة التراب عوضاً من حوافر الخيل [**كأنّها**] أي: أقدامهم [**أقدام النعام**] قيل إنّ أقدامهم في الأغلب قصار عراض منتشرة الصدور ومفرّقات الأصابع فهي من عرضها لا يتبيّن لها طول فأشبهت أقدام النعام في بعض تلك الأوصاف.

قال السيد: يومي بذلك إلى أنّ صاحب الزنج.

ثمّ قال: [**ويل لسككم العامرة**] أخبر بالويل لمحال البصرة والسكّة المحلّة [**والدور المزخرفة**] أي: المزوّقة [**التي لها أجنحة كأجنحة النسور**] وقيل استعار الأجنحة للقطانيات التي تعمل من الأخشاب والبواري بادرة عن السقوف كالوقاية للمشارف والحيطان عن آثار الأمطار وهي أشبه الأشياء في هيئتها وصورة وصفها بأجنحة كبار الطيور كالنسور.

أقول: والظاهر أنّ هذه تسمّى الآن باصطلاح هذا الزمان طرّه و——

وقوله: [**وخراطيم كخراطيم الفيلة**] استعارة للميازيب التي تعمل من الخشب والخوص على شكل خرطوم الفيل وتطلى بالقير تكون نحواً من

من أُولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفقد غائبهم أنا كابُّ الدنيا لوجهها وقادرها بقدرها وناظرها بعينها

خمسة أذرع أو أزيد تدلّى من السطوح حفظاً للحيطان من أذى السيل أيضاً، وهي أشبه الأشياء في صورتها بخراطيم الفيلة، وقوله:

[من أُولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفقد غائبهم] قيل هذا وصف لهم بشدّة البأس والحرص على الحرب والقتال وأنّهم لا يبالون بالموت ولا يأسفون على من فُقد منهم، وقيل: وصفوا بذلك لأنّهم لا أصول لهم ولا أهل لأكثرهم من أُمّ أو أُخت ممّن عادته أن ينوح ويندب قتيله ويفقد غائبه لكون أكثرهم غرباء في البصرة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى زهده في هذه الدنيا ورغبته عنها بقوله: **[أنا كابُّ الدنيا لوجهها]** يقال: كببت فلاناً لوجهه: إذا تركته ولم التفت إليه.

[وقادرها بقدرها] أي: معادل لها بمقدارها ولمّا كان مقدارها حقيراً عنده كان العناية إليها التفاتاً حقيراً حسب ضرورة البقاء فيها.

[وناظرها بعينها] أي: معتبرها بالعين التي ينبغي أن تعتبر بها الدنيا من كون غرّراة ضرّارة زائلة خائلة إلى غير ذلك من أوصافها وأنّها مزرعة الآخرة وطريق إليها غير مطلوبة لذّاتها وأنّها جسر ينبغي أن تعبر ولا تعمّر.

يرمي إلى وصف الأتراك كأنّي أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجانُّ المطرقة يلبسون السرق الديباج ويعتقبون الخيل والعتاق ويكون هناك استحرار قتل حتّى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت أقلّ من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أميرالمومنين علم الغيب فضحك عليه السلام وقال للرجل وكان كلبيّاً: يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب

ومن كلام له عليه السلام

[**يرمي إلى وصف الأتراك كأنّي أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجانُّ**] بالفتح جمع مجن بكسر الميم وهو الترس أو [**المطرقة**] بضمّ الميم وتخفيف الراء وفتحها التي اطرقت بالجلود وقيل التي تطبق وتخصف كطبقات النعل ووجه الشبه بالتروس الاستدارة والعظم والانبساط وفي كونها مطرقة الخشونة والغلظ.

[**يلبسون السرق**] بفتح السين والراء شفق الحرير واحدتها شرقة قال أبو عبيدة: هي البيض منها وهو فارسيّ معرّب أصله سرماي جيد كالاستبرق الغليظ من [**الديباج ويعتقبون الخيل**] أي: يحتبسونها ويربطونها [**والعتاق**] يقال فرس عتيق أي: رابع.

[**ويكون هناك استحرار قتل**] أي: اشتداده، استحرّ القتل وحرّ أي: اشتدّ [**حتّى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت**] من القتل [**أقلّ من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أميرالمومنين علم الغيب فضحك عليه السلام وقال للرجل وكان كلبيّاً: يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب**

وإنّما هو تعلُّمٌ من ذي علم وإنّما علم الغيب علم الساعة وما عدّد الله سبحانه بقوله ﴿إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى وقبيح أو جميل وسخيّ أو بخيل وشقي أو سعيد ومن يكون في النّار حطباً وفي الجنان للنبيين مرافقاً فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه صلّى الله عليه وآله فعلَّمنيه ودعى لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوارحي

وإنّما هو تعلُّمٌ من ذي علم وإنّما علم الغيب علم الساعة وما عدّد الله سبحانه بقوله ﴿إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى وقبيح أو جميل وسخيّ أو بخيل وشقي أو سعيد ومن يكون في النّار حطباً] أي: أهل النار، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾.

[وفي الجنان للنبيين مرافقاً] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً﴾.

[فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه صلّى الله عليه وآله فعلَّمنيه ودعى لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوارحي] كنّى بالجوارح عن القلب لاشتماله عليه، وحاصل فرقه عليه السلام بين علم الغيب وغيره بما يعود خلاصته إلى ما كان بواسطة معلّم ومفيد فليس بعلم غيب ومن كان من دون واسطة فهو علم الغيب.

عباد اللّه إنّكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء مؤجّلون ومدينون مقتضون أجل منقوص وعمل محفوظ فربُّ دائب مضيّع وربٍّ كادح خاسر

ومن خطبة له عليه السلام
في ذكر المكاييل والموازين

[**عباد اللّه إنّكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء**] جمع ثوي على فعيل وهو الضيف [**مؤجّلون**] استعار لفظ الضيف ووجه شبههم للضيف في تأجيل الإقامة وانقطاع وقته وقرب رحيله ومؤجّلون ترشيح للاستعارة.

[**ومدينون**] اي عليهم دين، وأراد كونهم مكلّفين بأمور تقتضي منهم وتطلب ورشح ذلك بقوله [**مقتضون**] لأنّ شأن المدين أن يقتضى منه الدين.

ثمّ لمّا ذكر كونه مؤجّلين ومدينين كوّر ذكر الأجل بوصف النقصان فقال:

[**أجل منقوص**] ولا شكّ في نقصان ما لا يبقى.

[**وعمل محفوظ**] عليهم لا يتطرّقه زيادة ونقصان ولا سهو ولا نسيان وأجل وعمل خبر مبتدأ محذوف أي: أملكم أجل منقوص وعملكم عمل محفوظ [**فرُبّ دائب**] اي: مجدٌّ في العمل [**مضيّع**] لعمله [**وربٍّ كادح**] أي: عامل [**خاسر**] تنبيه على أنّ العمل وإن قصد به الصلاح إلاّ أنّه قد يقع على وجه الغلط وقد يكون فاسداً وشبّه على صاحبه زعمه صحيحاً وقد زيّن له سوء عمله كما قال تعالى: ﴿أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ وقال

قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلاّ إدباراً ولا الشرّ إلاّ إقبالاً ولا الشيطان في إهلاك الناس إلاّ اطماعاً فهذا أوان قويت عُدَّته وعمّت مكيدته وأمكنت فريسته اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تنظر إلاّ فقيراً يكابد فقراً

تعالى: ﴿قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

ثمّ شرع عليه السلام في التشكّي من الزمان وأهله فقال:

[**قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلاّ إدباراً ولا**] يزداد فيه [**الشرّ إلاّ إقبالاً**] لأنّه كلّما بعد عن وقت ظهور الشريعة وطراوتها ضعف الدِّين وتجرّى الناس على معاي اللّه أكثر وما من يوم إلاّ وتموت فيه سنّة وتحى فيه بدعة.

[**ولا**] يزداد [**الشيطان في إهلاك الناس إلاّ اطماعاً**] أي: في هلاك دينهم الذي يكون غايته هلاكهم في الآخرة [**فهذا أوان قويت عُدَّته**] أي: استعداده وسلطانه.

[**وعمّت مكيدته وأمكنت فريسته**] استعار الفريسة لمطاوعي الشيطان والمغفّلين عنه، ووجه الاستعارة بلوغه منهم مراده وتصريفه لهم لغاية هلاكهم كالأسد مع فريسته.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان ما أجمله من ازدياد الشرّ يوماً فيوماً وقال:

[**اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تنظر إلاّ فقيراً يكابد فقراً**] ويقاسي شدائد الفقر والفاقة.

أو غنيّاً بدّل نعمة اللّه كفراً أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ اللّه وفراً أو متمرّد كأنّ بأذنه عن سماع المواعظ وقراً أين خياركم وصلحائكم وأين أحراركم وسمحائكم وأين المتورّعون في مكاسبهم والمتنزّهون في مذاهبهم أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنيّة والعالة المنقصة

[**أو غنيّاً بدّل نعمة اللّه كفراً**] بأن ترك شكر ربّه وأعرض عن شكر نعمه التي لا تحصى بل جعل موضع الشكر كفران النعم.

[**أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ اللّه وفراً**] أي: إنّ البخيل يقصد ببخله بحقّ اللّه على مستحقّه توفير المال والزيادة فيه.

[**أو متمرّد**] عن طاعة ربّه [**كأنّ بأذنه عن سماع المواعظ وقراً**] يمنعه من السماع، شبّه عليه السلام تجافي قلبه ونبو ذهنه المانعين من إصغائه واستماعه لما يصلحه بالوقر والصمم الذي يكون في الاذن.

[**أين خياركم وصلحائكم**] سؤال من باب تجاهل العارف تنبيهاً لهم على ما صاروا إليه من الفناء وفراق الدّنيا.

[**وأين أحراركم وسمحائكم**] وأراد بالأحرار: الكرماء.

[**وأين المتورّعون في مكاسبهم**] الملازمون للأعمال الجميلة فيها من التقوى والمسامحة وإخراج حقوق اللّه [**والمتنزّهون في مذاهبهم**] عن المحارم والشبهات في مسالكهم وحركاتهم.

[**أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنيّة والعالة المنقصة**] للذات بالآلام حتّى ادّعى جملة من العارفين أنّ كلّ لذّة في الدنيا إنّما هي خلاص من ألم.

وهل خلّفتم إلاّ في حثالة لا تلتقي بذمّهم الشفتان استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن ذكرهم فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون ظهر الفساد فلا منكر مغيّر ولا زاجر يزدجر أفبهذا تريدون أن تجاوروا اللّه في دار قدسه وتكونوا أعزّ أوليائه عنده هيهات لا يخدع اللّه عن جنته ولا تنال

[**وهل خلّفتم إلاّ في حثالة**] وهي في الاصل الثفل ويراد به الردى من كلّ شيء [**لا تلتقي بذمّهم الشفتان**] أي: إنّهم أحقر من أن يشتغل الإنسان بذمّهم [**استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن ذكرهم**] منصوبان على المفعول له واستعار لفظ الحثالة لرعاع الناس وهمجهم [**فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون**] حسن إيراد الآية لأنّ فقد الأخيار وبقاء الأشرار مصاب عظيم ورزء جسيم ينبغي عنده الاسترجاع.

[**ظهر الفساد**] في البحر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

[**فلا منكر مغيّر**] للفساد.

[**ولا زاجر يزدجر**] إشارة إلى أنّه وإن كان فيهم من ينكر ويزجر إلاّ أنّه لا يغيّره ما ينكره ولا يزدجر عن مثله، وذلك من قبائح الأعمال والرياء فيها.

[**أفبهذا**] أي: أفبهذه الأعمال الفاسدة والأحوال الكاسدة والأخلاق الرذيلة [**تريدون أن تجاوروا اللّه في دار قدسه**] وجنّته التي هي مقام الطهارة عن نجاسات الهيئات البدنية تنزيه ذات اللّه والطهارة عن اتّخاذ الشركاء والأنداد [**وتكونوا أعزّ أوليائه عنده هيهات**] هيهات [**لا يخدع اللّه عن جنته**] إشارة إلى أنّ أعمالهم وأحوالهم خداع حيث حسنوا ظواهرهم وخبثوا بواطنهم واللّه تعالى لا ينخدعلعلمه بالسرائر وإحاطته بالضمائر [**ولا تنال**

مرضاته إلّا بطاعته لعن اللّه الآمرين بالعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به.

لأبي ذرّ رحمه اللّه لما أُخرج إلى الربذة يا أباذر إنّك غضبت للّه

مرضاته إلّا بطاعته] الحقيقة الخالصة دون الظاهرة ثمّ قال:

[لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به] لأنّهم بذلك منافقون ولمن يقتدى بهم معرون.

ومن كلام له عليه السلام

[لأبي ذرّ رحمه اللّه لما أُخرج إلى الربذة] وهو موضع قريب إلى المدينة أخرجه عثمان إليها لإغلاظه في الكلام وإنكار المنكر منهم وكان يتجاهر بموالاة أهل البيت وبغض أعدائهم قويّاً في اللّه شديداً يأمر بالمعروف وينكر المنكر بلسانه وقلبه وهو الذي قال فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر» وكان يأخذ بحلقة الكعبة ويقول: أنا أبوذر الغفاري فمن لم يعرفني فأنا جندب صاحب رسول اللّه صلى الله عليه وآله سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّف عنها غرق» ولم يزل ينكر على عثمان أفعاله ويغلّظ معه القول حتّى نفاه إلى الربذة فأتى أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده وأصحابه مشيّعين له وقال له عليه السلام:

[يا أباذر إنّك غضبت للّه] يكفيه شهادته عليه السلام له بأنّ إنكاره هذا عليهم

فَارْحَمْ ما غضبت له إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في أيديهم ما خافوك واهرب منهم بما خفتهم فما أحوجهم إلى ما منعتهم منه وما أغناك عمّا منعوك عنه وستعلم من الرابح غداً الأكثر حسداً ولو أنّ السموات والأرضين كانت على عبد رتقاً ثمّ اتقى اللّه لجعل له منهما مخرجاً

كان خالصاً لوجه اللّه ولم يكن لغرض ولا في قبه مرضه [**فَارْحَمْ ما غضبت له**] ولا تبال بإعراضهم وأذيّتهم إيّاك [**إنّ القوم خافوك على دنياهم**] وعلى زوال الخلافة والإمارة بتنفيرك الناس عنهم.

[**وخفتهم على دينك**] باجتناب موافقتهم وأخذ عطائهم.

[**فاترك في أيديهم ما خافوك**] عليه.

[**واهرب منهم بما خفتهم**] أي: بدينك الذي خفتهم عليه.

[**فما أحوجهم إلى ما**] أي: إلى دينك الذي [**منعتهم منه**] إذ قوام نظام الإنسان وحقن دمه وماله بالدِّين فلا يُستغنى عنه في نظام معاشه ومعاده.

[**وما أغناك عمّا منعوك عنه**] من دنياهم فإنّ الرزق مقدّر من اللّه يأتي الإنسان بحسب ما قُدِّر له لا محالة وإن سدّ دونه باب فتحت له أبواب وأبى اللّه أن يجعل رزق المؤمن إلّا من حيث لا يحتسب.

[**وستعلم من الرابح**] ومن الخاسر [**غداً**] أي: يوم القيامة أي: علم عيان فلا ينافي علمه اليوم بذلك بالبرهان، وستعلم أيضاً [**الأكثر حسداً**] إذ تارك الدنيا أربح من المقبل عليها وأكثرية الحسد من لواحق أكثرية الربح.

وقوله [**ولو أنّ السموات والأرضين كانت على عبد رتقاً**] أي: في غاية الضيق وشدّته [**ثمّ اتقى**] العبد [**اللّه**] ربّه [**لجعل**] اللّه [**له منهما مخرجاً**]

لا يؤنسنّك إلّا الحقّ ولا يوحشنّك إلّا الباطل ولو قبلت دنياهم لأحبّوك ولو قَرَضْتَ منها لأمَّنُوكَ أيّها النفوس المختلفة والقلوب المتشتّتة الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم أظأركم على الحقّ

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، قال ابن عباس: قرء رسول اللّه ﷺ ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً﴾ قال من شبهات الدنيا وعن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة.

ثمّ أمر عليه السلام بالاستئناس بالحقّ والاستيحاش من الباطل فقال عليه السلام: [**لا يؤنسنّك إلّا الحقّ ولا يوحشنّك إلّا الباطل**] وأكّد الحصر في المؤمنين بقوله وحسن تنفيراً عن أن يستوحش من حقّ ما فيترك وينفر عنه وإن صعب وشقّ على النفس ويستأنس بباطل ما أو يسكت عليه.

ثمّ نبّه عليه السلام على علّة بغضهم وإخافتهم له بقوله: [**ولو قبلت دنياهم لأحبّوك**] لموافقتك لهم بحبّك ما يحبّون وكراهتك ما يكرهون [**ولو قَرَضْتَ منها**] كنّى بالقرض عن الأخذ منهم وقبول عطاياهم [**لأمَّنُوكَ**] واطمأنّوا منك فلم يخرجوك.

ومن كلام له عليه السلام

[**أيّها النفوس المختلفة والقلوب المتشتّتة**] أي: المتفرّقة عن مصالحها وما خلقت لأجله [**الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم**] لذهولهم عن رشدهم وعدم التفاتهم إلى مصالح دنياهم وأُخراهم [**أظأركم**] أي: أعظكم [**على الحقّ**] واحثّكم عليه وأستجلبكم إليه.

وأنتم تفرّون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد هيهات أن أطلع بكم سرار العدل وأُقيم اعوجاج الحقّ اللّهمّ إنّك تعلم إنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك، اللّهمّ إنّي أوّل من أناب وسمع وأجاب لم يسبقني إلاّ رسول اللّه بالصلاة وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم

[**وأنتم تفرّون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد**] أي: صوته، ووجه الشبه شدّة نفارهم عن الحقّ [**هيهات**] هيهات [**أن أطلع بكم سرار العدل**] أي: ما خفي منه.

[**وأُقيم اعوجاج الحقّ**] استبعاد لإظهاره العدل وإقامة الدِّين بمثلهم على ما هم عليه من قلّة طاعته. ثمّ عقّب ذلك باستشهاد اللّه سبحانه فقال:

[**اللّهمّ إنّك تعلم إنّه لم يكن الذي كان منّا**] من هذه الحرب والمقاتلة [**منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنردّ المعالم من دينك**] وهي الآثار التي يهتدى بها [**ونظر الإصلاح في بلادك**] بإعانة المظلوم وردع الظالم [**فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك، اللّهمّ إنّي أوّل من أناب**] أي: رجع إلى اللّه تعالى عمّا لعلّه كان يعدّ في حقّه ذنباً من خلاف الأولى [**وسمع**] أي: أطاع اللّه [**وأجاب**] داعي اللّه [**لم يسبقني إلاّ رسول اللّه**] ﷺ [**بالصلاة**] أشار ﵇ إلى تميّز الإمام بفضائل يجب أن تكون فيه وإلى رذائل يجب تنزيهها عنه.

[**وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم**

والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلّهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الخائف فيتّخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع الحقّة ولا المعطّل للسنّة فتهلك الأمّة

والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته] والنهمة الحرص على الدنيا، وذلك لشدّة حرصه على الدّنيا ورغبته فيما في أيدي الناس ويستلزم ذلك نفارهم عنه وعدم انتظام الأحوال به.

[ولا الجاهل] بقوانين الدّين وتدبير أمر العالم لأنّه ضال **[فيضلّهم بجهله]** وذلك ضدّ مقصود الشارع من الاتفاق والاجتماع على الحقّ **[ولا الجافي فيقطعهم بجفائه]** لأنّ جفائه يستلزم الثغرة والانقطاع عنه وذلك عند الألفة والاجتماع المطلوب من الشارع.

[ولا الخائف] من الدول **[فيتّخذ قوماً دون قوم]** ويعتني بمن يخافه دون غيره وذلك ظلم لا ينتظم معه نظام العالم **[ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها]** على الحيف **[دون المقاطع الحقّة]** فتراه إذا أراد فعل قضية دافع بها طويلاً وصبّ الحقّ وعرّض بغموضه وأشار بالصلح بين الخصمين مع ظهور الحقّ لأحدهما ومطلبه من ذلك تخويف صاحب الحقّ من فواته ليميل إلى الصلح والرضا ببعض حقّه مع أنّه قد يأخذ منه رشوة أيضاً وربّما كانت في المقدار كرشوة المبطل منهما.

[ولا المعطّل للسنّة فتهلك الأمّة] بتضييعه قوانين الشريعة وإهمالها وذلك يستلزم فساد نظام الدنيا والهلاك الدائم في العقبى.

وأشار عليه السلام برذيلة الجهل وخوف الدول وتعطيل السنّة إلى خروج معاوية عن الصلاحيّة لها وبالبخل خرج الزبير وبالجفاء خرج طلحة.

الحمد للّه على ما أخذ وأعطى وعلى ما أبلى وابتلى الباطن لكلّ خفيّة الحاضر لكلّ سريرة العالم بما تكنّ الصدور وما تخون العيون ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمداً نجيبه وبعيثه شهادة يوافق فيها السرّ الإعلان والقلب اللّسان فإنّه واللّه الجدّ لا اللّعب والحقّ لا الكذب وماهو

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه**] وفي نسخة نحمده والضمير يعود إلى اللّه سبحانه [**على ما أخذ وأعطى وعلى ما أبلى وابتلى**] نبّه بذلك على وجوب شكره تعالى في السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء.

[**الباطن لكلّ خفيّة**] أي: المطّلع على خفايا السرائر.

[**الحاضر لكلّ سريرة**] أي: المحيط بما في الضمائر، قال تعالى: ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾ [**العالم بما تكنّ الصدور**] أي: تخفيها.

[**وما تخون العيون**] أي: خائنة الأعين واستراقها كما مرّ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

[**ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمداً نجيبه وبعيثه**] أي: منتجبه ومبعوثه فعيل بمعنى مفعول [**شهادة يوافق فيها السرّ الإعلان والقلب اللّسان**] أي: شهادة خالصة من الرياء والنفاق كما مرّ.

ومنها

[**فإنّه واللّه الجدّ لا اللّعب والحقّ لا الكذب**] مرجع الضمير ما يستفاد من معنى كلامه وهو التحذير والإنذار وكذا الذي في قوله [**وما هو**

إلاّ الموت أسْمعَ داعيه وأعجل حاديه فلا يغرّنك سواد الناس من نفسك قد رأيت من كان قبلك ممّن جمع المال وحذر الإقلال وأمن العواقب طول الأمل واستبعاد الأجل كيف نزل به الموت فأزعجه من وطه وأخذ من مأمنه محمولاً على أعواد المنايا تتعاطى به الرجال حملاً على المناكب وإمساكاً بالأنامل أما رأيتم الذين يأملون بعيداً ويبنون مشيداً

[إلاّ الموت] أي: وما الذي أُحذِّركم هجومه عليكم إلاّ الموت **[أسْمعَ داعيه وأعجل حاديه]** الجملتان نصب على الحال من معنى الإشارة.

[فلا يغرّنك سواد الناس] أي: كثرتهم **[من نفسك]** الأمّارة بالسوء والحال انّك **[قد رأيت من كان قبلك ممّن جمع المال]** بدل بعض من كل من قوله من كان أي كما نزل بأولئك الموت وأزعجهم عن أوطانهم فكذلك أنتم.

[وحذر الإقلال وأمن العواقب طول الأمل] بالنصب مفعول له أي: فعلوا ذلك لأجل طول الأمل ويحتمل أن يكون مصدراً سدّ مسدّ الحال وأن يكون ظرفاً والعامل أمن وقيل بدل من قوله من كان قبلك أي رأيت طول أمل من كان قبلك.

[واستبعاد الأجل كيف نزل به الموت فأزعجه من وطه وأخذ من مأمنه محمولاً على أعواد المنايا] أي: النعوش **[تتعاطى به الرجال]** أي: يسلّمه الحاملون له بعضهم إلى بعض **[حملاً على المناكب وإمساكاً بالأنامل]** والخطاب بالكاف لنوع المخاطب أو لشخص على طريقة إيّاك أعني واسمعي ياجارة ثمّ استفهم على سبيل التقرير بقوله: **[أما رأيتم الذين يأملون]** أملاً **[بعيداً ويبنون]** بناءً **[مشيداً]** أي: عالياً مرتفعاً.

ويجمعون كثيراً كيف أصبحت بيوتهم قبوراً ما جمعوا بوراً وصارت أموالهم للوارثين وأزواجهم لقوم آخرين لا في حسنة يزيدون ولا من سيّئة يُستعتبون فمن أشعر التقوى قلبه برَّز مهله وفاز عمله فاهتبلوا هبلها واعملوا للجنّة عملها فإنّ الدنيا لم تخلق لكم دار مقام بل خلقت لكم لتتزوّدون

[**ويجمعون كثيراً كيف أصبحت بيوتهم قبوراً**] وأصبح [**ما جمعوا**] من الأموال [**بوراً**] أي: هالكاً مضمحلاً.

[**وصارت أموالهم للوارثين وأزواجهم لقوم آخرين لا في حسنة يزيدون**] أي: لا يستطيعون زيادة في حسنة [**ولا من سيّئة يُستعتبون**] أي: لا يُطلب منهم العتبى وهو الرجوع عن السيِّئة وذلك العدم إمكان ذلك منهم لأنّ محلّ الأعمال هي الدنيا دون ما بعدها.

[**فمن أشعر التقوى قلبه**] استعار وصف الإشعار لاتّخاذ التقوى كالشعار في ملازمتها للقلب والشعار ما يلي الجسد من الثياب [**برَّز مهله**] أي: ظهرت ـــــ أي: ظهرت عليه آثار الرحمة الإلهيّة في السكينة والوقار والحلم والأناة عن التسرّع إلى مطالب الدنيا أو علمت راحته في الآخرة [**وفاز عمله**] فيها بالجزاء الأوفى.

ثمّ نبّههم على وجوب العمل للجنّة فقال: [**فاهتبلوا هبلها**] الاهتبال في الأمر: السعي في إحكامه، وهبلها مصدر مضاف إلى ضمير التقوى مؤكّد للفعل أي: احكموها أحكامها.

[**واعملوا للجنّة عملها فإنّ الدنيا لم تخلق لكم دار مقام**] أي: دار إقامة [**بل خلقت لكم**] طريقاً يعبر بها إلى الآخرة كما يعبر المسافرون [**لتتزوّدون**

منها الأعمال إلى دار القرار فكونوا منها على أوفاز وقرّبوا الظهور للزيال وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمّتها وقذفت إليه السموات والأرض مقاليدها

منها الأعمال] الصالحة الموصلة [إلى] الجنّة **[دار القرار فكونوا منها على أوفاز]** جمع وفزة وهي العجلة، أي: كونوا على سرعة في قطع عقباتها وعجل في الارتحال منها لأنّ التأنّي فيها يستلزم الالتفات إلى لذّاتها والغفلة عن المقصد الحقّ.

[وقرّبوا الظهور للزيال] استعار لفظ الظهور وهي الركاب لمطايا الآخرة وهي الأعمال الصالحة وتقريبها للزيال هو العناية بالأعمال المقرّبة إلى الآخرة المستلزمة للبعد عن الدنيا والإعراض عنها ومفارقتها.

ومن خطبة له عليه السلام
تشتمل على تمجيد اللّه سبحانه وإظهار عظمة سلطانه

[وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمّتها] كناية عن دخولها في ذلّ الحاجة والإمكان بحسب تصريف قدرته ولفظ الأزمّة مستعار للإمكان المحوج إلى الصانع.

[وقذفت إليه السموات والأرض مقاليدها] أي: مفاتيحها جمع مقلّد بكسر الميم ومقلاد وهي الخزائن.

قال ابن عباس ومقاتل: المراد مفاتيح السموات والأرض بالرحمة والرزق وقيل المقلاد والخزانة ومقاليد السموات والأرض خزائنها ولفظ

وسجدت له بالغدوّ والآصال الأشجار الناضرة وقدحت له من قضبانها النيران المضيئة وآتت أُكلها بكلماته الثمار اليانعة

القذف مجاز في تسليمها وانقيادها بزمام الحاجة والإمكان إلى قدرته مع جميع ما هو سبب في وجود هذا العالم مما هو رزق ورحمة للخلق ولفظ المفاتيح على تفسير ابن عبّاس مستعار للأسباب المعدّة للأرزاق والرحمة وتلك السموات كحركات السموات واتصالات بعض الكواكب ببعض وكاستعداد الأرض للنبات وغيره ووجه الاستعارة أنّ هذه الأسباب بإعدادها المواد الأرضية يفتح بها خزائن الجود الإلهي كما يفتح الأبواب المحسوسة بمفاتيحها وكلّها مسلّمة إلى حكمه وجريانها بمشيّته وعلى تقدير تفسير المقاليد بالخزائن فالخزائن استعارة في موادها واستعداداتها، ووجه الاستعارة أنّ تلك المواد والاستعدادات تكون فيها بالقوّة والفعل جميع المحدثات من الأرزاق وغيرها كما يكون في الخزئان ما يحتاج إليه.

[وسجدت له] أي: خفضت وذلّت تحت قدرته **[بالغدوّ والآصال]** أي: بكرة وعشياً، والمراد بذلك الدوام لأنّ الذي يدركه الإنسان الزماني هو البكرة والعشي **[الأشجار الناضرة وقدحت له من قضبانها]** أي: قضبان الأشجار وأغصانها **[النيران المضيئة]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ ونسب قدح النيران إليها لأنّها السبب المادّي وإن كان القدح حقيقة في فعال السبب الفاعلي قريب وجعل ذلك له تعالى لأنّه الفاعل الأوّل.

[وآتت أُكلها بكلماته] أي: بأوامره وأحكام قدرته المعبّر عنها بقوله كن **[الثمار اليانعة]** أي المدركة، ووجه الاستعارة نفوذ تلك الأحكام في

وكتاب اللّه بين أظهركم ناطق ولا يعي لسانه وبيت لا تهدّم أركانه وعزٌّ ولا تهزم أعوانه أرسله على حين فترة من الرسل

المخلوقات كنفوذ الأوارم القولية في المامورية وأراد بإتيان الثمان دخولها طوعاً في الوجود المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿كن فيكون﴾.

ومنها

[**وكتاب اللّه بين أظهركم**] أي: موجود بينكم[**ناطق**] استعار للكتاب لفظ الناطق لما فيه من بيان المقصود كما أنّ الناطق كذلك [**ولا يعي لسانه**] ترشيخ للاستعارة كنّى بها عن استمرار بيانه على مرور الأزمان ويحتمل أن يريد باللّسان نفسه صلى الله عليه وآله مجازاً إذ هو الكتاب الناطق وهو لسان الكتاب المترجم لمقاصده والمبيّن لمطالبه بلا فتور ولا عي.

[**وبيت لا تهدّم أركانه**] استعار له لفظ البيت لحفظه من حفظه وعمل به كما يحفظ البيت أهله وأركانه قواعده الكلّية التي يبنى عليها نظام العالم من الأوامر والنواهي والمواعظ والحكم وتلك القواعد لا تكاد تنهدم في وقت من الأوقات إذ الحكم الكلّية كتحريم الزنا والقتل والسرقة وشرب الخمر ونحوها صالحة لجميع الأوقات [**وعزٌّ**] من إطلاق اللازم على الملزوم إذ كان حفظه والعمل به مستلزماً للعزّ الدئم الذي لا يعرض له ذلّ [**ولا تهزم أعوانه**] أي: العالمون به وأعوانه هم اللّه وملائكته ورسله وأوليائه.

ومنها

في وصف النبي صلى الله عليه وآله: [**أرسله على حين فترة من الرسل**] وهو الزمان المتطاول الذي تندرس فيه الشريعة السابقة والقوانين التي بها نظام العالم لخفاء الحجّة وعدم تمكّنه لا لخلوّ الزمان منه فإنّ عندما لا تخلو الأرض من

وتنازع من الألسن فقفّى به الرسل وختم به الوحي فجاهد في اللّه المدبرين عنه والعادلين به وإنّما الدّنيا منتهى بصر الأعمى أي: الجاهل استعار الأعمى لأنّه لا يدرك بعين بصيرته الحقّ كما لا يدرك الأعمى بعين بصره، قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ وقوله: ﴿لا يبصر ممّا ورائها شيئاً﴾

حجّة وإلّا لساخت بأهلها وكانت الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ستمائة وعشرين سنة.

[**وتنازع من الألسن**] بحصول الاختلاف في العقائد والأعمال بسبب اتباع الأهواء والآراء [**فقفّى**] أي: اتبع [**به الرسل**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وقفّينا من بعده بالرسل﴾.

[**وختم به الوحي**] قال تعالى: ﴿لكن رسول اللّه وخاتم النبيين﴾ [**فجاهد في اللّه المدبرين عنه**] أي: المعرضين عن اتباع أوامره ونواهيه.

[**والعادلين به**] أي: الجاعلين له عديلاً وهو الندّ والمثل كالمشركين.

ومنها: في ذمّ الدّنيا

[**وإنّما الدّنيا منتهى بصر الأعمى**] أي: **الجاهل استعار الأعمى لأنّه لا يدرك بعين بصيرته الحقّ كما لا يدرك الأعمى بعين بصره، قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ وقوله: ﴿لا يبصر ممّا ورائها شيئاً﴾**] إشارة إلى جهله بأحوال الموت وما بعده ولا ينافي إبصاره الدنيا عماه لأنّ إبصاره بالبصر وعماه بالقلب ويحتمل أن يريد

والبصير ينفذها بصره ويعلم أنّ الدار ورائها فالبصير منه شاخص والأعمى إليها شاخص والبصير منها متزوّد والأعمى لها متزوّد

ببصره أيضاً بصر بصيرته لأنّ منتهى بصر بصيرة الجاهل التصرّف في أحوال الدنيا وكيفيّة تحصيلها والتمتّع بها دون أن يفيده عبرة لما ورائها ومن أحوال الآخرة.

[**والبصير**] ضدّ الأعمى أي: العالم [**ينفذها بصره**] كناية عن إدراكه ما وراء الدنيا من أحوال الآخرة وعلمه بأنّها دار القرار ومسكن الأبرار وكما قال:

[**ويعلم أنّ الدار**] الحقيقية [**ورائها**] أي: وراء الدنيا، وإنّما الدنيا جُعلت قنطرة لعبورها لا لتُتّخذ وطناً ومسكناً، كما قال عليه السلام: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمّروها» [**فالبصير منها شاخص**] أي: راحل مسافر قد جعلها طريقاً له إلى الآخرة:

ألا إنّما الدّنيا كمنزل راكب أناخ عشيّاً وهو في الصبح راحل

[**والأعمى إليها شاخص**] متطلّع إليها بعين بصيرته ووهمه كتطلّع العاشق إلى المعشوق وإن كان أعمى عن مصالحه الحقيقية وعن آفاتها وطرقها المخوّفة وفي هذه الكلمة مع التي قبلها من أقسام البديع التجنيس التام والمطابقة بين الأعمى والبصير. [**والبصير منها متزوّد**] أي: بالتقوى والأعمال الصالحة في سفره إلى الله.

[**والأعمى لها متزوّد**] اتخذ لذّاتها الفانية وشهواتها زاداً له وفيه من البديع كسابه.

واعلوا أنّه ليس شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملّه إلّا الحياة فإنّه لا يجد له في الموت راحة وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميّت

ومنها

[**واعلوا أنّه ليس شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملّه إلّا الحياة فإنّه لا يجد له في الموت راحة**] قيل: إنّ فقدان الراحة في الموت مخصوص بأهل الشقاوة في الآخرة، فأمّا أولياء اللّه وعباده الصالحون فلهم في الموت الراحة الكبرى، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء اللّه» وقيل بل هو باق على عمومه إذ بالموت يفوت متجر الآخرة وينقطع الاستعداد لكمال أشرف مما حصل عليه الميّت وإن كان وليّاً فلا جرم لا يجد الراحة التي تلحقه بما يفونه من ذلك الكمال ولأنّ النفوس البشريّة لما لم تكن معارفها ضروريّة ولم تتمكّن مادامت في هذه الأبدان من الاطلاع على ما بعد الموت من سعادة وشقاوة فبالحري أن لا نجد لها راحة تتصوّرها في الموت ولا ينافي ذلك الخبر لأنّ الراحة الحاصلة من الكمال الفائت بالموت لا تحصل له وإن حصل على راحة ما بحسب طاعته السابقة ولأنّ المؤمن لا يجد له مادام في الدنيا راحة في الموت وذلك لا ينافي أن تحصل الراحة عند لقاء اللّه.

[**وإنّما ذلك**] اي: الأمر الذي هو أحقّ بأن لا يميل ولا يشبع منه [**بمنزلة الحكمة**] اي: ما كان بمنزلة الحكمة وهي العلم النافع في الآخرة [**التي هي حياة للقلب الميّت**] استعار للحكمة لفظ الحياة ووجه الشبه كون الحياة بها وجود القلب وبقائه كما أنّ الحكمة بها بقاء الإنسان وسعادته في الدارين

وبصر للعين العمياء وسمع للإذن الصمّاء وريّ للظمآ

ولذا استعار لفظ الميت لقلب الجاهل باعتبار أنّه ير مطلع على وجوه مصالحه ومفاسده في الدارين وغير مهتد لانتفاع أو دفع تضرّر كالميت.

[وبصر للعين العمياء] استعار وصف البصر للحكمة ووصف العمياء لعين الجاهل ويجوز كون العين استعارة في بصيرة الجاهل وان يكون المراد الحقيقية ووجه الاستعارة الأولى أنّه بالحكمة يبصر الإنسان مقاصده ويهتدي إلى وجوه مصالحه الدنيوية والأُخرويّة كما يهتدي البصير بعينه إلى وجوه مسالكه ومقاصده ووجه الثانية أنّ بصيرة الجاهل لا تهتدي لتلك الوجوه كما لا تهتدي العين العمياء إلى شيء ووجه الثالثة أنّ بصر الجاهل تابع لبصيرته فإقدامه وإحجامه وتصرّفاته المنسوبة إلى حسن البصر وغيره تابعة لما يتصوّره ولمّا كانت تلك التصرّفات غير نافعة في الأكثر بل قد تكون ضارّة لا جرم أشبهت عينه الباصرة التي وقع بها سوء ذلك التصرّف العين العمياء فاستُعير لها لفظها وقوله:

[وسمع للإذن الصمّاء] فيه استعارة كسابقه فإنّ المراد بالسمع إدراك البصيرة والاذن يحتمل أن يراد بها البصيرة استعارة أو الاذن المحسوسة وقوله:

[وريّ للظمآ] استعار الريّ للحكمة لأنّ الحكمة تملأ النفس وتجدها شفاء لها من داء الجهل كما يملا الماء جوف الظمآن وينقع غلّته ويشفى به من ألم الظمآن واستعار لفظ الظمآن للجاهل لأنّ ألم الجهل سبب لموته في الآخرة كما يلحق الظمآن الظمأ.

وفيها الغنى كلّه السلامة كتاب اللّه تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض ولا يختلف في اللّه ولا يخالف بصاحبه عن اللّه

[وفيها] أي: في الحكمة **[الغنى كلّه]** أي: غنى النفس عن كلّ شيء وكمالها به لأنّه إذا عرف الحقّ استغنى به عن كلّ شيء عمّا سواه وفيها **[السلامة]** من عذاب الجهل الذي هو السبب الأعظم في الهلاك الأخروي وقوله:

[كتاب اللّه] خبر مبتدأ إمّا خبر ثان لذلك وبمنزلة الحكمة خبر أول أو لمبتدأ محذوف تقديره وهو أي الذي بمنزلة الحكمة كتاب اللّه، ويحتمل أن يكون عطف بيان لما كان بمنزلة الحكمة وقوله:

[تبصرون به] إشارة إلى اشتمال الكتاب على الحكمة ووجه الشبه بها أنّ إبصار الجاهلين لمقاصدهم الدنيويّة والاخرويّة لما فيه من الحكمة وكذا قوله:

[وتنطقون به وتسمعون به وينطق بعضه ببعض] أي: مفسّر بعضه ببعض كالمبيّن المفسّر للمجمل والمقيّد المبيّن للمطلق والمخصّص المبيّن للعام.

[ويشهد بعضه على بعض] أي: ويستشهد ببعضه على أنّ المراد بعض آخر وهو قريب ممّا قبله **[ولا يختلف في اللّه]** أي: لا يختلف في الدلالة على المقاصد الموصلة إلى اللّه بل كلّها متطابقة على ذلك وإن تعدّدت الأسباب الموصلة إلى ذلك المقصد.

[ولا يخالف بصاحبه عن اللّه] أي: لا يعدل بمن يهتدي به في سبيل اللّه عن الوصول إليه وقوله:

قـد اصطلـحتـم على الغـلّ فيـما بينـكم وبنت المرعى على دمنكم وتصافيتم على حبّ الآمال وتعاديتم في كسب الأموال لقد استهام بكم الخبيث وتاه بكم الغرور واللّه المستعان على نفسي وأنفسكم

[قـد اصطلحتـم على الغلّ فيـما بينكم] توبيخ للسـامعين على ارتكاب رذائل الأخـلاق واستـعـار لفظ الاصطلاح لسكوتهم عن إنكار بـعضـهـم على بعض مـا يصدر عنه من المنكـر كالغشّ والحقد والحسد واشـتراكـهم في تلك الرذائل وقوله:

[وبنت المرعى على دمنكم] هو مثل يضرب للمتصالحين في الظاهر مع غلّ القلوب ووجـهـه أنّ ذلك الصلح سريع الزوال لا أصل لـه كـالنبـات في الدمن وهي ما تلبّد من آثار الناس ومرابط أنعامهم جمع دمنة وقوله:

[وتصـافيـتم على حبّ الآمـال] إشـارة إلى وجه الصـلح الذي مرّ ذكـره والآمـال ما يـؤمل كلّ من صـاحبـه من نفع عـاجل وهو الجـامع بينهم وسـبب صفائهم في الظاهر.

[وتعاديتم في كسب الأموال] زشارة إلى وجه الغلّ الذي أشار إليه لأنّ الأحقاد والعداوات أغلب ما تكون على محادثة أحوال الدنيا وقنياتها.

[لقد استهام بكم الخبيث] يعني الشيطان قد اشتـدّ عشقه لكم ولازمكم إشارة إلى ما يظهر منهم من آثار وسوسته وملازمتهم لما ينهون عنه.

[وتاه بكم الغرور] أي: استـغفلكم فتـهتم في استـغفـاله لكم عن سواء السبيل والغرور هو الشيطان كما قال تعالى: ﴿ولا يغرّنكم باللّه الغرور﴾ ثمّ ختم باستعانة اللّه له ولهم على النفوس الأمّارة بالسوء، فقال:

[واللّه المستعـان على نفسي وأنفسكم] أمّا في حقّهم فـمعلوم وأمّا في حقّه عليه السلام فلما مرّ أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

وقد شاوره عمر بن الخطّاب في الخروج إلى غزو الروم وقد توكّل على اللّه لأهل هذا الدّين بإعزاز الحوزة وستر العورة والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد شاوره عمر بن الخطّاب في الخروج إلى غزو الروم**] بنفسه حين خرج قيصر الروم في جماهير أهلها إلى المسلمين وانزوى خالد بن الوليد فلازم بيته وصعب الأمر على أبي عبيدة وشرحبيل وغيرهما من أُمراء سرايا الإسلام فقال عليه السلام:

[**وقد توكّل على اللّه لأهل هذا الدّين بإعزاز الحوزة**] أي: عاهدهم وتكفّل لهم بالنصر والإعزاز وقال: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾ وقال: ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾ وحوزة كلّ شيء بيضته وناحيته.

[**وستر العورة**] بأن لا يهتك سترهم في الدنيا ويحتمل أن يكون استعارة لما يظهر عليهم من الذل والقهر لو أُصيبوا ولعلّ ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً﴾ قال:

[**والذي نصرهم**] مبتدأ [**وهم قليل**] جملة حاليّة [**لا ينتصرون**] صفة أو حال آخر.

[**ومنعهم**] عطف على نصرهم [**وهم قليل لا يمتنعون**] حالية كسابقتها

حيّ لا يموت إنّك متى تسر إلى هذا العدوّ بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم وليس بعدك مرجع يرجعون إليه فابعث إليهم رجلاً مجرّباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة فإن أظهر اللّه وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين

[**حيّ لا يموت**] خبر أي: إنّ الذي نصرهم حال قلّتهم ومنعهم من عدوّهم حيّ لا يموت فهو ينصرهم حال كثرتهم، وفيه إشارة إلى وجوب التوكّل عليه والالتجاء إليه، كما أشار إليه في صدر الفصل ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾، ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ﴿أليس اللّه بكاف عبده﴾، ثمّ أشار ﷺ بالرأي فقال:

[**إنّك متى تسر إلى هذا العدوّ بنفسك فتلقهم فتنكب**] أي: تصيبك نكبة وصدمة [**لا تكن للمسلمين كانفة**] أي: حافظة تحفظهم، من كنفه أي: حفظه وآواه، [**دون أقصى بلادهم وليس بعدك مرجع يرجعون إليه فابعث إليهم رجلاً مجرّباً**] قد مارس الحروب وعرف بالشجاعة والثبات ليكون على بصيرة في أمر الحرب وفي أكثر النسخ محرباً بالحاء المهملة وكسر الميم وفتح الراء أي: رجل صاحب حروب.

[**واحفز**] أي: ادفع [**معه أهل البلاء والنصيحة**] يقال: حفز كذا أي: دفعه وحفزه ضمّه إلى غيره وأهل البلاء أي: المبتلون المختبرون في النصيحة المجرّبون في الوقائع [**فإن أظهر اللّه**] على العدو أي نصر عليه وعدل عن قوله فإن أظهرك اللّه كما هو مقتضى السياق لأنّ النصر إنّما كان للإسلام [**وإن تكن الأخرى**] من الانكسار وعدم الانتصار [**كنت ردءاً**] أي: عوناً [**للناس ومثابة**] أي: مرجعاً ومأمناً [**للمسلمين**].

وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان فقال المغيرة بن الاخنس لعثمان أنا أكفيفكه فقال أميرالمؤمنين عليه السلام للمغيرة يابن اللّعين الأبتر والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع أنت تكفيني فواللّه ما أعزّ اللّه من أنت ناصره ولا قام من أنت منهضه أُخرج عنّا أبعد اللّه نواك

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان**] في زمان الفتنة في خلافته وكان الناس يستنفرونه عليه السلام إليه:

[**فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان أنا أكفيفكه فقال أميرالمؤمنين عليه السلام للمغيرة يابن اللّعين الأبتر**] الأبتر: كلّ امرء انقطع من الخير أثره [**والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع**] ذمّه عليه السلام بسقوط الأصل ولعنه واستعار لبيته لفظ الشجرة وكنّى بنفي أصلها وفرعها عن سقوط بيته وشرفه وعن دنائته وحقارته في النار ثمّ استفهمه عليه السلام عمّا ادّى من الكناية إنكاراً عليه واستحقاراً له فقال:

[**أنت تكفيني**] مع حقارتك ودنائتك أنت أحقر من ذلك وأذلّ.

[**فواللّه ما أعزّ اللّه من أنت ناصره**] وإنّما يعزّ اللّه أوليائه وأهل عنايته.

[**ولا قام من أنت منهضه**] قال تعالى: ﴿إن ينصركم اللّه فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ [**أُخرج عنّا**] مذموماً مدحوراً [**أبعد اللّه نواك**] والنوى القصد الذي ينويه المسافر وروي نوءك والنوء لغة في النأي وهو البعد.

ثمّ بلغ جهدك فلا أبقى اللّه عليك إن أبقيت لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة وليس أمري وأمركم واحداً إنّي أُريدكم للّه وأنتم تريدونني لأنفسكم أيّها الناس أعينوني على أنفسكم وأيم اللّه

[**ثمّ بلغ جهدك**] أي في الأذى بما قدرت عليه [**فلا أبقى اللّه عليك**] بقيّة [**إن أبقيت**] من قدرتك وجهدك في اذاناً شيئاً أي: لا رعاك اللّه ولا رحمك إن رحمت وراعيت يقال: أبقيت على فلان إذا راعيته ورحمته.

ومن كلام له عليه السلام

[**لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة**] أي من غير تدبّر ولا رويّة بل كانت عن تدبّر واجتماع فلا عذر للناكثين والقاسطين والمارقين وفيه تعريض ببيعة أبي بكر وقول عمر فيها كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى اللّه شرّها.

[**وليس أمري وأمركم واحداً**] أي: ليس مقصدي ومقصدكم واحداً، ثمّ أبان ذلك بقوله [**إنّي أُريدكم للّه**] أي: أُريد طاعتكم وبيعتكم لإقامة دين اللّه وحدوده ونظام الإسلام.

[**وأنتم تريدونني لأنفسكم**] أي: للحظوظ النفسانيّة من العطاء والتقريب والولاية وسائر المنافع العاجلة وبين المقصدين بون بعيد تفاوت شديد.

[**أيّها الناس أعينوني على أنفسكم**] الأمّارة بالسوء بردعها عن هواها وطاعتها لمولاها.

[**وأيم اللّه**] أقسم باللّه وهو الصادق والصديق تأكيداً لاطمئنانهم حيث

لأنصفنّ المظلوم ولأقودنّ الظالم بخزامته حتّى أورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً في معنى طلحة والزبير، واللّه ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة إلاّ قِبَلَهُم وأنّ أوّل

كانوا في غفلة وإعراض [**لأنصفنّ المظلوم ولأقودنّ الظالم بخزامته**] والخزامة حلقة من شعر تجعل في أنف البعير واستعار لفظ القود في تذليل الظالم وإذعانه للحقّ ورشحه بذكر الخزامة [**حتّى أورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً**] والمنهل المورد، استعارة للحقّ لكونه مورداً يستقى به ألم المظلوم كما يسقي ألم العطشان.

ومن كلام له عليه السلام

[**في معنى طلحة والزبير، واللّه ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً**] أي: نصفة ولو أنصفوا لما فعلوا ما فعلوا ولكنّهم اتّبعوا أهوائهم وأغواهم شيطانهم فتركوا الحقّ وهم يعلموه وارتكبوا الباطل وهم يعاينوه.

[**وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه**] يعني دم عثمان فإنّه من المعلوم للنائي والداني أنّهم هم الذين حرّضوا الناس على قتله بل باشروا ذلك.

[**فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم**] الأوفر وحظّهم الأكثر [**منه وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة**] أي: ما المطلوب [**إلاّ قِبَلَهُم وأنّ أوّل**

عدلهم للحكم على أنفسهم وإنّ معي لبصيرتي ما لُبّست ولا لُبِّس عليّ وإنّها للفئة الباغية فيها الحمأ والشبهة المغدفة إنّ الأمر لواضح

عدلهم] حيث يدّعون إنّهم عادلون طالبون للحقّ **[للحكم على أنفسهم]** لأنّهم هم القاتلون فإن كان لهم عدل وطلب حقّ فليطلبوه من أنفسهم.

[وإنّ معي لبصيرتي] وبصيرته عقله وعلمه والبصيرة أيضاً البرهان **[ما لُبّست ولا لُبِّس عليّ وإنّها للفئة الباغية]** قيل في تعريف الفئة بالألف واللام تنبيه على أنّه كان عنده علم من الرسول صلى الله عليه وآله أنّه ستبغي عليه فئة من غير تعيين لها فلمّا خرجت هذه الفئة علمها بإثاراتها.

[فيها الحمأ] بألف مقصورة وهو في الأصل الطين المنتن الأسود كما قال تعالى: ﴿من حمإ مسنون﴾ والحمة بضمّ الحاء وتخفيف الميموفتحها اسم العقرب استعار عليه السلام لفظ الحماء للغلّ والحسد في صدور القوم ووجه الشبه استلزام ذلك لتكدير صفاء الإسلام والمسلمين وإثارة الفتنة بينهم كما يكدر الحماة الماء واستعار الحمة لذلك باعتبار استلزامه للأذى والقتل كما يستلزم ذلك سمّ العقرب وروي الحمّة مشدّداً وهو السواد وأراد به ظلمة جهلهم وشبهتهم ولذا قال:

[والشبهة المغدفة] بالذال والفاء أي: المظلمة يقال: أغدف الليل إذا اشتدّ ظلامه وروي المغدفة بفتح الدال الخفيّة وأصله أنّ المرأة تغدف زوجها بالقناع واستعار لها وصف الظلمة لعدم اهتداء أكثر الخلق فيها حتّى قتلوا بسببها كما لا يهتدي في الليل المظلم وقوله:

[إنّ الأمر لواضح] نفي لتلك الشبهة أي: أمرها واضح وكذا قوله:

وقد زاح الباطل عن نصاب وانقطع لساه عن شغبه وأيم اللّه لأفرطنّ لهم لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرون عنه بريّ ولا يعبُّون بعده في حسي فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون البيعة البيعة

[**وقد زاح الباطل عن نصاب**] والنصاب الأصل، وأراد انّ باطلهم لا أصل له.

[**وانقطع لساه عن شغبه**] الشغب بالتسكين المشاغبة وتهييج الشرّ أي: لا لسان به ولفظ اللّسان استعارة والشغب ترشيح لها.

[**وأيم اللّه لأفرطنّ لهم**] أي: لأملئنّ [**لهم حوضاً أنا ماتحه**] الماتح بنقطتين من فوق: المستقي وبنقطتين من تحت: الذي يملأ الدلو في البئر، واستعار لفظ الحوض لاستعداده في حربهم [**لا يصدرون عنه بريّ ولا يعبُّون بعده في حسي**] العبّ شرب الماء من غير مصّ، والحسي بكسر الحاء وسكون السين الماء الذي يشربه الرمل فينتهي إلى أرض صلبة يحفظه ثمّ يحفر عنه فيستخرج.

ومنها

[**فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها**] العوذ جمع عوذة وهي الناقة المسنّة والمطافيل جمع مطفل بضمّ الميم وهي قريبة العهد بالتناج وقيل العوذ جمع عائذ بالدال المعجمة وهي كلّ انثى قريبة العهد بالولادة وهي لسبعة أيام إلى عشرة أيام وخمسة عشر ثمّ هي مطفل أي ذات طفل.

[**تقولون البيعة البيعة**] نصب على الإغراء وفائدة التكرير في الإغراء تأكيد الأمر الدال على شدّة الاهتمام بالمامور به وقيل التكرار لدلالة الأوّل

قبضت كفّي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها اللّهمّ إنّهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألّبا الناس عليّ فاحلل ما عقدا ولا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا

على تخصيص الأمر الأول بالحال والثاني على تخصيص الأمر الثاني بالمستقبل أي: خذ البيعة في الحال وخذها للاستقبال والخطاب لطلحة والزبير ومتابعيهما وشبّه إقبالهم عليه لطلب البيعة بإقبال مسنّات النوق على أطفالها ووجه الشبه شدّة الإقبال والحرص على متابعته وخصّ المسنّات لأنّها أقوى حنّة على أولادها.

[**قبضت كفّي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها**] والمقصود أنّكم اجتهدتم في طلب البيعة حتّى بايعتكم بإصرار منكم وكلّ من اجتهد في طلب البيعة كذلك وجب عليه الوفاء وعدم الغدر والصغرى مسلّمة وبرهان الكبرى ﴿يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾.

ثمّ شرع في شكايتهم إلى اللّه والدعاء عليهم فقال:

[**اللّهمّ إنّهما قطعاني**] ومن قطع الرحم قطعه اللّه من رحمته.

[**وظلماني**] بخروجهما عليّ ومطالبتهما لي بغير حقّ.

[**ونكثا بيعتي وألّبا الناس عليّ**] التأليب: التحريض [**فاحلل ما عقدا**] من غزومهما الفاسدة وآرائهما الكاسدة التي فيها إهلاك المسلمين.

[**ولا تحكم لهما ما أبرما**] في حربي، يقال: أبرمت الأمر أي: أحكمته.

[**وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا**] أي: أرهما عكس أغراضهما ومقاصدهما وأعمالهم وقد استجاب اللّه دعائه فيهما فوراً في تلك الحال.

ولقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت بهما أمام الوقاع فغمطا النعمة وردّا العافية يومي فيها إلى ذكر الملاحم يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى

[**ولقد استثبتهما قبل القتال**] بالثاء المعجمة بثلاث نقط أي: طلبت إثابتهما ورجوعهما إلى الحقّ ويروى بالتاء المثنّاة من التوبة أي من ذنبهما في نكث بيعتي وهذا الكلام إظهار لعذره ﷺ مع الناس في حقّهما [**واستأنيت بهما**] أي: انتظرت وتأنّيت [**أمام الوقاع**] قبل الحرب [**فغمطا النعمة**] أي: احتقراها وبطراها ولعلّه كنّى بها عمّا قسم لهما من الفيء إذ كان عدم تفضيلهما في العطاء على غيرهما عمدة أسباب الحرب [**وردّا العافية**] من بلاء الحرب والشقاق وهلاك الدّين والنفس في عاقبة فعلهما بردّهما العافية عن الحرب وبإصرارهما على المنابذة.

ومن خطبة له ﷺ

[**يومي**] أي: يشير [**فيها إلى ذكر الملاحم**] والوقائع المستقبلة من وصف الإمام المنتظر والحجّة الثاني عشر الذي بشّر به سيّد البشر وأولاده الميامين الغرر.

[**يعطف الهوى على الهدى**] فيردّ النفوس الأمّارة المتبعة لظلمات أهوائها والمنغمرة في جهالاتها إلى سلوك سبيل اللّه وطرق هدايته وكتابه وسنّة نبيّه ﷺ.

[**إذا عطفوا الهدى على الهوى**] إشارة إلى أنّ وقت خروجه إذا مُلئت

ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي حتّى تقوم الحرب بكم على ساق بادياً نواجذها مملوّة أخلافها حلواً رضاعها

الأرض ظلماً وجوراً وحين يعرض الناس عن الشريعة وينبذون كتاب اللّه وراء ظهورهم ويجعلون الحقّ ما وافق هواهم والباطل ما خالف رأيهم فإنّ أكثر أهل الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة يخترعون لهم رأياً ومذهباً ثمّ يأوّلون الكتاب والسنّة على موافقته لا أنّهم يجعلون الشريعة هي الميزان فالموافق لها حقّ والمخالف باطل، كما أشار عليه السلام بقوله:

[ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي].

ومنها

في ذمّ أصحابه على التقاعد عن الحرب والتخاذل في الجهاد

[حتّى تقوم الحرب بكم على ساق] كأنّه يقول لا تزالون متخاذلين متقاعدين حتّى يشتدّ العدوّ وتقوم الحرب بكم على ساق وقيامها على ساق كناية عن غاية شدّتها وكذا قوله:

[بادياً نواجذها] كناية عمّا تستلزمه من الشدّة والأذى وهو من أوصاف الأسد عند غضبه كأنّه حاول أن يستعير لها لفظ الأسد فأتى بوصفه وقيل المراد بدوّ النواجذ في الضحك أي تبلغ بكم الحرب الغاية كما أنّ غاية الضحك أن تبدوا النواجذ وهي أقصى الأضراس فكنّى بذلك عن إقبالها.

[مملوّة أخلافها] وأخلاف الناقة حلمات ضرعها، استعار وصف الناقة لحال استعداد الحرب واستكمالها عدّتها ورجالها كاستعمال ضرع الناقة اللّبن وقوله:

[حلواً رضاعها] استعارة لوصف المرضع لها وكنّى بحلاوة رضاعها

علقماً عاقبتها الأوفى غد وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوي أعمالهاوتخرج له الأرض أفاليذ كبدها وتلقي إليه سلماً مقاليدها

عن إقبال أهل النجدة في أول الحرب عليها فكلّ منهما يجب أن يناجر قرنه ويستحلي مغالبته كما يستحلي الراضع لبن أُمّه.

وقوله: [**علقماً عاقبتها**] استعار لفظ العلقم لعاقبتها لما فيه من المرارة العقلية كالمرارة الحسّية والمنصوبات الأربعة أحوال والمرفوعات بعدها فاعلها وعلقم وإن كان إسماً لكنّه قائم اسم الفاعل أي: مريرة عاقبتها.

وقوله: [**الأوفى غد**] إخبار عن بعض الأُمور التي ستكون.

وقوله: [**وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون**] إشارة إلى تعظيم شأن الموعود بمجيئه وهو جملة اعتراضيّة.

وقوله: [**يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوي أعمالها**] أي: يؤاخذهم بذنوبهم ويعاقبهم بما كسبت أيديهم.

[**وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها**] الأفاليذ جمع الجمع الفلذة وهي القطعة من الكبد وجمعها فلذا استعار لفظ الكبد لما في الأرض من الكنوز والخزائن ووجهها مشابهة الكنوز للكبد في العزّة والخفاء ورشح بذكر الأفاليذ.

[**وتلقي إليه سلماً**] أي: طوعاً وانقياداً [**مقاليدها**] أسند لفظ الإلقاء إلى الأرض مجازاً لانّ الملقى للمقاليد مسالماً أهل الأرض وكنّى بذلك عن طاعتهم وانقيادهم أجمعين لأوامره وتحت حكمه وسلماً مصدر سدّ مسدّ الحال.

فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميّت الكتاب والسنّة كأنّي به وقد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان فعطف عليها عطف الضروس

[**فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميّت الكتاب والسنّة**] استعارة لما ترك منهما ولم يعمل به بتشبيهه بالميّت الذي لا ينتفع به لا يقال قوله ويريكم يدلّ على انّ المخاطبين يدركونه مع انّه إنّما يظهر في آخر الزمان لأنّا نقول خطاب الحاضرين من الأمّة كعالم لكلّ الأمة كسائر خطابات القرآن للحاضرين المتناول لمن وجد إلى يوم القيامة.

ومنها

يخبر عن رجل يظهر بهذه الأوصاف الآتية:

[**كأنّي به وقد نعق بالشام**] يقال: نعق الغراب: ونعق الراعي بغنمه بالعين والغين أي: صاح.

[**وفحص براياته في ضواحي كوفان**] الفحص: البحث، وفحص المطر التراب قلبه وكوفان اسم للكوفة وضواحيها نواحيها البارزة.

[**فعطف عليها عطف الضروس**] أي: الناقة السيّئة الخلق تعض حالبها، قيل: هذا الرجل عبدالملك بن مروان لأنّه ظهر بالشام حين جعله ابوه الخليفة من بعده وسار إلى الكوفة لقتال مصعب فقتله وفعل الكوفة وبعث الحجاج إلى ابن الزبير فقتله وهدم الكعبة وقتل خلقاً كثيراً من العرب في وقائع عبدالرحمن بن الأشعث ورمى الناس بالحجاج بن يوسف وأطلق لفظ النعيق لظهور أوامره ودعوته بالشام مجازاً وكذا استعار لفظ الفحص لغلبة أهل الكوفة بعضهم على بعض ونقضه لحالاتهم التي كانوا عليها.

وفرش الأرض بالرؤوس قد فغرت فاغرته وثقلت في الأرض وطأته بعيد الجولة عظيم الصولة واللّه ليشرّدنكم في أطراف الأرض حتّى لا يبقى منكم إلاّ قليل كالكحل في العين فلا تزالون كذلك حتّى تؤب إلى العرب عوازب أحلامها

ثمّ شبّه عطفه وحمله عليها بعطف الناقة الضروس ووجه الشبه شدّة الغضب والحنق والأذى الحاصل منهما.

[**وفرش الأرض بالرؤوس**] كناية عن كثرة قتله فيها وقوله [**قد فغرت فاغرته**] أي: انفتح فوه، وأكّد الفعل بذكر الفاعل من لفظه استعارة لبعض أوصاف السبع الضاري كنّى به عن شدّة إقدامه على القتل وإقباله على الناس بشدّة الغض والأذى.

وكذا قوله: [**وثقلت في الأرض وطأته**] كناية عن شدّة بأسه وتمكّنه في الأرض.

[**بعيد الجولة**] كناية عن اتساع ملكه وجولان خيله ورجله في البلاد البعيدة.

[**عظيم الصولة**] وبعيد وعظيم حالان وروي رفعهما خبر مبتدا محذوف، ثمّ لما فرغ من صفاته العامّة شرع في بيان ما سيفعله بهم من التشريد والطرد في أطراف البلاد مؤكّداً بالقسم فقال:

[**واللّه ليشرّدنكم في أطراف الأرض حتّى لا يبقى منكم إلاّ قليل كالكحل في العين**] ووجه الشبه الاشتراك في القلّة.

[**فلا تزالون كذلك**] أي: بهذه الحال الموصوفة [**حتّى تؤب إلى العرب عوازب أحلامها**] أي: حتّى يعود إلى العرب ما كان ذهب من عقولها

فالزموا السنن القائمة والآثار البيّنة والعهد القريب الذي عليه باقي النبوّة فاعلموا أنّ الشيطان إنّما يُسنّي لكم طرقه لتتّبعوا عقبه في وقت الشورى لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصلة رحم وعائدة كرم فأسمعوا قولي وعوا منطقي

العمليّة في نظام أحوالهم.

[فالزموا السنن القائمة] فيكم من بعده **[والآثار البيّنة]** فيكم **[والعهد القريب]** بينكم وبينه **[الذي عليه باقي النبوّة]** أي: إذا نزل بكم منه ماوصف فلتكن وظيفتكم لزوم ما ذكرت.

[فاعلموا أنّ الشيطان إنّما يُسنّي] أي: يسهّل **[لكم طرقه]** الباطلة وسبله العاطلة **[لتتّبعوا عقبه]** العقب بكسر القاف مؤخر القدم، تنبيه لهم على ما في سهولة المعاصي وفي تسهيل نفوسهم الأمّارة بالسوء عليهم طرق المحارم من المحذور وهو أن ينقاد لها النفوس العاقلة فتضلّها عن سبيل اللّه ويقودها الضلال إلى الهلاك الاخروي.

ومن كلام له عليه السلام

[في وقت الشورى لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصلة رحم وعائدة كرم] تقرير لفضيلته عليه السلام ليسمع قوله ولذا قال بعده:

[فأسمعوا قولي وعوا منطقي] وذكر من فضائله ثلاثاً الدعوة إلى الحقّ الذي لن يسارعه أحد إليها إلاّ كان أسرع منه وهي ثمرة العدالة وصلة الرحم وعائدة الكرم وهما فضيلتان تحت ملكة العفّة والذي أمرهم بسماعه هو

عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود حتّى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة في النهي عن غيبة الناس وإنّما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة

التنبيه على عاقبة أمر الخلافة وما يقع فيها من الهرج والمرج بعدهم بناء على ما حضر من الخبط والاختلاط فيها فكأنّه عليه السلام يقول إذا كان حال هذا الأمر هذه الحال من الخبط ومجازية من لا يستحقه لمن يستحقّه والتقليب فيه على أهله.

فحينئذ [**عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا اليوم**] بحال نحيقم فيه الناس [**تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود**] وهو إشارة إلى ما علمه من حال البغاة والخوارج عليه والناكثين بعهد بيعته.

وقوله: [**حتّى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة**] غاية للتغالب على هذا الأمر وأشار بالأئمة إلى طلحة والزبير وبأهل الضلالة إلى اتباعهم وبأهل الجهالة إلى معاوية ورؤساء الخوارج وسائر أمراء بني أميّة وبشيعة أهل الجهالة إلى أتباعهم.

ومن كلام له عليه السلام

[**في النهي عن غيبة الناس وإنّما ينبغي لأهل العصمة**] قيل هم الذين أعانهم اللّه سبحانه على قهر نفوسهم الأمّارة بالسوء حتّى صارت أسيرة في أيدي نفوسهم العاقلة فحصّلوا من ذلك على ملكة ترك الذنوب [**والمصنوع إليهم في السلامة**] أي: الذين اصطنع اللّه إليهم السلامة من الذنوب

أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم فكيف العائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه أمّا ذكر موضع ستر اللّه عليه من ذنوبه ما هو أعظم

والوقوع في مهاوي الهلاك [**أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية**] بكفّهم عن عيوبهم وإنقاذهم من المهالك وإعانتهم على الخروج منها.

[**ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم**] بأن يعتبروا عند مشاهدة أهل المعاصي ما أنعم اللّه عليهم به من إعانته لهم على قهر نفوسهم الأمّارة وشياطينهم الغدّارة.

[**فكيف العائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه**] أي: إذا كان أهل السلامة ينبغي لهم أن يرحموا أهل الذنوب ويشتغلوا بشكر اللّه عن رميهم بالعيوب فكيف يليق العيب من غيرهم من الناس بل ينبغي لمثله أن يترك الغيبة ويشكر اللّه بطريق أولى باعتبار ستر اللّه عليه من ذنوبه ما هو أعظم ممّا غيّر أخاه به وتلك نعمة للّه يجب شكره عليها.

[**أمّا ذكر موضع ستر اللّه عليه من ذنوبه ما هو أعظم من الذنب الذي عابه به**] وأشار بموضع ستر اللّه عليه إلى النعمة المصطنعة عنده وهي تأهيله وإعداده لها والاستفهام على سبيل الانكار والتعجّب من العائب لأخيه بعيب هو يرتكبه أو يرتكب مثله أو أكبر منه، ولذا قال:

[**فكيف يذمّه بذنب قد ركب مثله فإن لم يكن ركب مثل ذلك الذنب بعينه فقد عصى اللّه فيما سواه ممّا هو أعظم منه**] يعني بغيبته لأخيه لأنّ الغيبة من الكبائر.

ثمّ أكّد ذلك بياناً بقوله:

من الذنب الذي عابه به فكيف يذمّه بذنب قد ركب مثله فإن لم يكن ركب مثل ذلك الذنب بعينه فقد عصى اللّه فيما سواه ممّا هو أعظم منه وأيم اللّه لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أعظم يا عبد اللّه لا تعجل في عيب أحد بذنبه فلعلّه مغفور له ولا تأمن على

[**وأيم اللّه لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أعظم**] وخلاصة الاحتجاج أنّه لايجوز لأحد أن يعيب أخاه لأنّه إمّا أن يكون بذنب قد ركب العائب مثله أو أكبر منه أو أصغر فإن كان بذنب قد ركب مثله أو أكبر كان له في عيب لنفسه شغل عن عيب غيره، وإن كان ارتكب أصغر منه فهو ممنوع على تقدير جرئته على الغيبة وصدورها عنه لأنّها من الكبائر وإنّما قال هي أكبر ما عند اللّه إمّا مبالغة أو لأنّ المفاسد التي يشتمل عليها ارتكاب سائر المهيّات جزئية ومفسدة الغيبة كلّية لأنّه لمّا كان من المقاصد المهمّة للشارع اجتماع النفوس على همّ واحد وطريقة واحدة وهي سلوك سبيل اللّه بسائر وجوه الأوامر والنواهي ولا يتمّ ذلك إلّا بالألفة والتعاون، والغيبة مثيرة للأضغان والأحقاد ولذا أكّد اللّه في النهي عنها في الكتاب والسنّة قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

ثمّ قال عليه السلام: [**يا عبد اللّه لا تعجل في عيب أحد بذنبه**] بأن تعيّره به وتذكّر في غيابه.

[**فلعلّه مغفور له**] بتوبة أو ندامة أو حسنة كفّرت خطاياه [**ولا تأمن على**

نفسك صغر معصيته فلعلّك معذّب عليه فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته مما ابتلي به غيره أيّها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال أما إنّه قد يرمي الرامي وتخطي السّهام ويحيك الكلام

نفسك صغر معصيته فلعلّك معذّب عليه فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته مما ابتلي به غيره].

ومن كلام له عليه السلام
في النهي عن التسارع إلى استماع الغيبة

[أيّها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق] بأن كان مستور الظاهر مشهوراً بالصلاح والتديّن **[فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال]** كما قال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إن جائكم فاسق بنبإ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

ثمّ نبّه عليه السلام على جواز الخطأ على المتسرّعين إلى الغيبة فقال:

[أما إنّه قد يرمي الرامي وتخطي السّهام] أي: قد يكون الذي يرمي بعيب بريأً منه ويكون الكلام في حقّه غير مطابق ولا صائب كما لا يصيب السهم الذي يرمي به فيخطي الغرض وقوله:

[ويحيك الكلام] من أحاك الكلام إذا عمل وأثّر وكذا حاك يعني أنّ السهم قد يخطي فلا يؤثّر والكلام يؤثّر على كلّ حال وإن لم يكن حقّاً

وباطل ذلك يبور والله سميع وشهيد أما إنّه ليس بين الحقّ والباطل إلّا أربع أصابع فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا فجمع أصابعه ووضعها بين أُذنه وعينه ثمّ قال الباطل أن تقول سمعت والحقّ أن تقول رأيت

وروي يحيل باللاّم أي يبطل ولا يصيب وقوله:

[**وباطل ذلك يبور**] أي: الغرض والثمرة من ذلك القول الكاذب من تحصيل مال أو جاه أو نحوهما ويهلك ويفنى ويضمحل وتبقى العقوبة عليه والوزر، كما أُشير إليه بقوله:

[**والله سميع وشهيد**] عليه فإنّ سمعه وشهادته مستلزمان لغضبه المستلزم لعقوبته فيكون قوله وباطل... إلخ، جارياً مجرى التهديد وتحقير ثمرة ذلك القول ويحتمل أن يكون المعنى أنّ الباطل من ذلك القول يهلك ولا ينفع به وتبقى شهادة الله وجزائه.

ثمّ قال عليه السلام:

[**أما إنّه ليس بين الحقّ والباطل إلّا أربع أصابع فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا فجمع أصابعه ووضعها بين أُذنه وعينه ثمّ قال الباطل أن تقول سمعت والحقّ أن تقول رأيت**] قيل: قوله الباطل أن تقول سمعت لا يستلزم الكلّية حتّى يكون كلّ ما سمعه باطلاً فإنّ الباطل والمسموع مهملان والحقّ ليس هو قوله رأيت بل المرئي له والباطل ليس سمعت بل القول المسموع له وإنّما قوله رأيت وسمعت اخبار عن وصول المرئي والمسموع إلى بصره وسمعه فأقام هذين الخبرين مقام المخبر عنهما مجازاً.

وليس لواضع المعروف في غير حقّه وعند غير أهله من الحظّ فيما أتى إلاّ محمدة اللّئام وثناء الأشرار ومقالة الجهّال مادام منعماً عليهم ما أجود يده

ومن كلام له عليه السلام
في التنبيه على مواضع المعروف الذي ينبغي صرف المال فيها

قال: [**وليس لواضع المعروف في غير حقّه**] أي: غير وجهه الذي ينبغي صرفه فيه [**وعند غير أهله**] أي: المستحقّين له [**من الحظّ فيما أتى**] أي: فيما فعل من المعروف [**إلاّ محمدة اللّئام**] من الناس أي: ساقطي الأصول.

[**وثناء الأشرار**] عليه ومدحهم إيّاه.

[**ومقالة الجهّال**] لعدم معرفتهم بوضع الأشياء في مواضعها التي هي مقتضى العدل الذي به نظام أمر الدنيا والدين وقوام نوع الإنسان ورضى ربّ العالمين وقوله [**مادام منعماً عليهم**] أي: أنّ المحمدة من اللّئام والثناء من الأشرار والجهالة إنّما يتحقّق مادام منعماً عليهم فإذا انقطع إنعامه انقطع حمدهم ومدحهم، وقوله:

[**ما أجود يده**] متعلّق بمقالة، أي: ذلك هو الأمر الذي يقولونه مادام منعماً عليهم وإنّما قيد بهذا القيد لأنّ الجاهل قد يعتقد أنّ ما يسدي إليه قوله فربّما دام حمده بدوام ذلك الإنعام لكن ينقطع بانقطاعه وأمّا الجاهل الشرير فكثيراً ما يعتقدون إنّما يُسدي إليه لشرّ أو خوف أذاه فربّما يشكر المنعم مادام

وهو عن ذات اللّه بخيل فمن آتاه اللّه مالاً فليصل به القرابة وليحسن منه الضيافة وليفكّ به الأسير والعاني وليعط منه الفقير والغارم وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب

منعماً حتّى إذا انقطع إنعامه جعل شرّه عوض شكره استجلاباً لذلك الإنعام المنقطع واستعادة له، وقوله:

[**وهو عن ذات اللّه بخيل**] أي: الذي يصنع المعروف في غير محلّه وإن حصل الحمد والثناء من اللّئام ولكنّه في الحقيقة عند أُولي الألباب العارفين بمواقع المعروف بخيل في جنب اللّه تعالى.

ثمّ نبّه ﷺ على مواضع المعروف وأمر بوصفه فيها وذكر منها خمسة فقال:

[**فمن آتاه اللّه مالاً**] فيه تنبيه على أنّ ما في يده نعمة من اللّه يجب شكرها ووصفها في محلّها كما أشار إليه بقوله:

[**فليصل به القرابة**] وهذه صلة الرحم التي هي أفضل مواضع المعروف.

[**وليحسن منه الضيافة**] فإنّ إطعام الطعام وبذله في محلّه من أفضل الأعمال وأكمل الأحوال.

[**وليفكّ به الأسير والعاني**] عطفه تفسير، لأنّ الأسير هو العاني.

[**وليعط منه الفقير والغارم**] وهو من عليه دين.

[**وليصبر نفسه على الحقوق**] الواجبة كالخمس والزكاة وسائر الحقوق.

[**والنوائب**] وهي ما يلحق الإنسان من المصادرات والغرامات التي يفكّ به الإنسان من أيدي الطالبين والسنتهم والإنفاق في ذلك من جملة

فإنّ فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء اللّه ألا وإنّ الأرض التي تحملكم والسماء التي تظلّكم مطيعان لربّكم وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجّعاً لكم

الحقوق الواجبة على الإنسان من والفضائل الخمس داخلة تحت ــــ الكرم وقوله ابتغاء الثواب مفعول له للأفعال المتقدّمة إشارة إلى أنّ الإنفاق في هذه الوجوه إنّما يكون وضعاص للمعروف في موضعه إذا قصد به وجه اللّه تعالى والتقرّب إليه فإذا كان قصده الرياء والسمعة فلا أجر له بل عليه الوزر والعقاب.

وقوله: [**فإنّ فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء اللّه**] تعالى، إشارة إلى الفارق بين وضع المعروف في محلّه ووضعه في غير محلّه، والمراد بمكارم الدنيا الذكر الجميل والجاه العريض وفضائل الآخرة الثواب الأبدي والنعيم السرمدي وتنكير الفوز للتعظيم.

ومن خطبة له عليه السلام
في الاستسقاء

[**ألا وإنّ الأرض التي تحملكم**] وهي كالأمّ للنبات والزرع [**والسماء التي تظلّكم**] التي هي كالأب، والمراد بالسماء المعروفة لكونها بحركاتها أسباباً معدّة لكلّ ما في هذا العالم والسحاب الذي يكون المطر منه [**مطيعان لربّكم**] داخلان تحت قدرته.

[**وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجّعاً**] أي: رحمة [**لكم**] ورقّة

ولا زلفة إليكم ولا لخير ترجوانه منكم ولكن أُمرتا بمنافعكم فأطاعتا وأُقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا إنّ اللّه يبتلي عباده عند الأعمال السيّئة بنقص الثمرات وحبس

عليكم.

[ولا زلفة إليكم] أي: لا لأجل قرابة ومنزلة بينكم وبينها **[ولا لخير ترجوانه منكم]** كما هو المتعارف من منافع الناس بعضهم لبعض لأنّ السموات والأرض غنية عن الناس.

[ولكن أُمرتا بمنافعكم فأطاعتا وأُقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا] فهما ليسا مبدئين أوّلين للرزق بل هما مطيعان للّه في إخراجهما أرزاق الحيوانات وهو الذي جعل السماء كالأب بإرسالها مدراراً وجعل الأرض كالأمّ في قبولها للماء واستعدادها به للنبات وأخرج منها رزق العباد كما قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه...﴾ إلى قوله ﴿متاعاً لكم ولأنعامِ﴾ وإقامتهما على حدود مصالحهم عبارة عن حكم العناية الإلهية عليهما بإخراج هذه المنافع وجعلها وفق مصالح الحيوان وقيامهما وطاعتهما وجود ذلك منهما حسب مقتضى القدرة الإلهية والمطلوب من ذلك تقرير عظمة اللّه في النفوس وأنّ الأرزاق وأسبابها منسوبة إليه ومنه حتّى تتوجّه النفوس إليه بالإقلاع عن الذنوب.

ثمّ بيّن أنّ ذلك ليس من قصور في الفيض الإلهي بل بما كسبت أيديهم ابتلاءً، فقال:

[إنّ اللّه يبتلي عباده عند الأعمال السيّئة بنقص الثمرات وحبس

البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويقلع مقلع ويتذكّر متذكّر ويزدجر مزدجر وقد جعل اللّه سبحانه الاستغفار سبباً لدوران الرزق ورحمةً للخلق

البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب] عن ذنبه **[ويقلع مقلع]** عن خطيئة.

[ويتذكّر متذكّر ويزدجر مزدجر] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

[وقد جعل اللّه سبحانه الاستغفار سبباً لدوران الرزق ورحمةً للخلق] قيل وذلك لأنّ الاستغفار طلب غفر الذنوب وسترها على العبد أن يفتضح بها وذلك إنّما يكون بمحوها من لوح نفسه لا جرم كان المستغفر المخلص ماحياً لخطيئته باستغفاره عن لوح نفسه وبذلك يكمل استعداده لإفاضة رحمة اللّه عليه في الدنيا بإنزال البركات وفي الآخرة برفع الدرجات وإلى ذلك الإشارة بقوله:

﴿فقال استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾.

فرحم اللّه امرء استقبل توبته واستقال خطيئته وبادر منيته اللّهمّ إنّا خرجنا إليك من تحت الأستار والأكنان وبعد عجيج البهائم والولدان راغبين في رحمتك وراجين فضل نعمتك وخائفين من عذابك

وقال تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾.

ثمّ شرع ﷺ في الدعاء للتائب والمستقبل فقال:

[**فرحم اللّه امرء استقبل توبته**] وشرع في الاستعداد لها.

[**واستقال خطيئته**] أي: طلب الإقالة مما يلزمه من عاقبتها وعقوبتها والمؤاخذة.

[**وبادر منيته**] أي: عاجلها قبل أن تنزل به بالتوبة وكلّ ذلك إشارة إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من الاستعداد للعمل قبل الأجل وإنّما حسن استعارة الاستقالة لأنّ المخطي كالمعاهد والملتزم لعقاب اخرويّ بلذّة عاجلة لما علم من استلزام تلك اللذّة المنهي عنها للعقاب فهو يطلب الإقالة من هذه المعاهدات كما يطلب المشتري الإقالة من البيع.

ثمّ لمّا قدّم الأمر بالاستعداد لرحمة اللّه رجع إليه في استنزالها عليهم فقدّم في الدعاء ما عادته أن يقدّم بين يدي الملوك من الكلام الموجب للتعطّف والرأفة والرحمة، فقال:

[**اللّهمّ إنّا خرجنا إليك من تحت الأستار والأكنان**] التي ليس من شأنها أن تفارق إلّا لضرورة شديدة وكذا قوله [**وبعد عجيج البهائم والولدان**] وأصواتها المرتفعة بالبكاء، والعجيج: رفع الأصوات بالحنين والبكاء.

ثمّ أشار ﷺ إلى العناية من ذلك بقوله:

[**راغبين في رحمتك وراجين فضل نعمتك وخائفين من عذابك**

ونقمتك اللّهم فاسقنا غيثك، ولا تجعلنا من القانطين ولا تهلكنا بالسنين ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا يا أرحم الراحمين اللّهمّ إنّا خرجنا فشكوا إليك ما لا يخفى عليك حين ألجأتنا المضايق الوعرة وأجاءتنا المقاحط المجدبة وأعيتنا المطالب المتعسّرة وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة اللّهمّ إنّا نسألك أن لا تردّنا خائبين ولا تقلبنا واجمين ولا تخاطبنا بذنوبنا ولا تقايسنا بأعمالنا

ونقمتك] وهذه هي جهات المساعي البشريّة ثمّ سئل المطلوب بقوله:

[اللّهم فاسقنا غيثك ولا تجعلنا من القانطين] أي: اليائسين.

[ولا تهلكنا بالسنين] أي: بالجدب والقحط.

[ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا] من المعاصي المبعدة من رحمته إشارة إلى قوله تعالى عن موسى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا﴾.

[يا أرحم الراحمين اللّهمّ إنّا خرجنا فشكوا إليك ما لا يخفى عليك حين ألجأتنا المضايق الوعرة] أي: الصعبة.

[وأجاءتنا] أي: ألجأتنا **[المقاحط]** أي: أماكن القحط **[المجدبة وأعيتنا]** أعجزتنا **[المطالب المتعسّرة وتلاحمت]** أي: اتصلت **[علينا الفتن المستصعبة]** وظاهر كون الجوع والعرى وسائر المسببات عن الحقط فتنة أي: صارفة للقلوب عمّا يراد بها. ثمّ عاد ﷺ إلى إجابة طلب دعائه:

[اللّهمّ إنّا نسألك أن لا تردّنا خائبين ولا تقلبنا واجمين] أي: محرومين والواجم الذي اشتدّ حزنه.

[ولا تخاطبنا بذنوبنا] أي: لا تجعل جرابنا الاحتجاج علينا بذنوبنا.

[ولا تقايسنا بأعمالنا] أي: لا تجعل فعلك بنا مقايستنا لأعمالنا السيّئة

اللّهمّ انشر علينا غيثك وبركتك واسقنا سقيا ناقعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات وتحيي بها ما قد مات نافعة الحيا كثيرة المجتنى تروي بها القيعان وتسيل بها البطنان وتستورق الأشجار وترخّص الأسعار إنّك على ما تشاء قدير بعث رسوله بما خصّهم به من وحيه وجعلهم حجّة له على خلقه لئلا تجب الحجّة لهم بترك الاعذار إليهم فدعاهم بلسان الصدق

ومشابهاً لها بأن يكون جزاء سيّئة سيّئة مثلها.

[**اللّهمّ انشر علينا غيثك وبركتك**] ورزقك ورحمتك.

[**واسقنا سقيا ناقعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات وتحيي بها ما قد مات نافعة الحيا**] النافعة المروية [**كثيرة المجتنى تروي بها القيعان**] جمع قوع وقاع وهو المستوي من الأرض.

[**وتسيل بها البطنان**] جمع بطن وهو ما انخفض من الأرض [**وتستورق الأشجار وترخّص الأسعار إنّك على ما تشاء قدير**] وبالإجابة جدير.

ومن خطبة له عليه السلام

[**بعث رسوله بما خصّهم به من وحيه وجعلهم حجّة له على خلقه لئلا تجب الحجّة لهم بترك الاعذار إليهم**] الضمير في لهم وإليهم يعود إلى الخلق، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل﴾.

[**فدعاهم بلسان الصدق**] كنّى به عن لسان الشريعة الناطقة عن مصباح

إلى سبيل الحقّ الا إنّ اللّه قد كشف الخلق كشفة لا أنّه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم ولكن ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً فيكون الثواب جزاء والعقاب بواء أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً؟!

النبوّة المشتعل عن نور الحقّ سبحانه [**إلى سبيل الحقّ**] أي: الصراط المستقيم والطريق القويم الموصل إلى رضاه تعالى.

وقوله: [**ألا إنّ اللّه قد كشف الخلق كشفة**] أي: اختبرهم وامتحنهم وابتلاهم لينكشف حالهم وتظهر حقيقة أمرهم ولا يبقى لهم حجّة [**لا أنّه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم**] بل هو العالم بالضمائر المحيط بالسرائر الخبير بالبصائر.

[**ولكن ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً فيكون الثواب جزاء**] للمطيعين [**والعقاب بواء**] أي: كفؤاً للعاصين.

ثمّ عقّب ذلك بالاستفهام الإنكاري أو التوبيخي، عن الذين زعموا أنّهم أفضل منه لما قيل إنّ قوماً من الصحابة كان منهم من يدّعي الأفضليّة في فنٍّ من العلم، فمنهم من كان يدّعي أنّه أفرض أي: أعلم بالفرائض والمواريث، ومنهم من كان يدّعي أنّه أقر، ومنهم من كان يدّعي أنّه أعلم بالحلال والحرام، وفي رواياتهم المجعولة: أفرضكم زيد بن ثابت وأقراكم أبي ـــــ مع ذلك أيضاً وأقضاكم علي، ومعلوم أنّ القضاء يحتاج إلى جميع ما ادّعوه فضيلةً لهم، فثبت أنّه ﷺ أفضلهم وجامع لما تفرّق فيهم فقال:

[**أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً؟!**] أي:

علينا إن رفعنا اللّه ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم بنا يستعطى الهدى وبنا يستجلى العمى إنّ الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على من سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم

ظلماً وعدواناً [**علينا إن رفعنا اللّه**] أي: لأنّ رفعنا اللّه فهو بيان العلّة الحاملة لهم على الكذب فيما ادّعوه أي: رفع درجاتنا في الدنيا والآخرة على الكافّة.

[**ووضعهم**] دوننا وإن وما بعدها نصب على المفعول له.

[**وأعطانا**] الملك والنبوّة.

[**وحرمهم**] ذلك.

[**وأدخلنا**] بعنايته الخاصّة بنا فيما أعطانا.

[**وأخرجهم**] من ذلك [**بنا يستعطى الهدى وبنا يستجلى العمى**] استعار لفظ العمى للجهل ورشحه بذكر الاستجلاء فبواسطة اعدادهم يفاض على النفوس هداها وبواسطة إعطاهم القوانين الشرعية الكلّية والجزئية يستجلى الجهل من واهب ذلك الجلاء وهو كناية عن الاستعداد أيضاً.

[**إنّ الأئمة من قريش**] نصّ متّفق عليه بين الفريقين عن سيّد الكونين وتخصيصه ذلك بقوله [**غرسوا في هذا البطن من هاشم**] نصّ منه يجب اتباعه أمّا عند الخاصة فمعلوم لعصمته وإمامته وأما عند العامة فلما رووه في صحاحهم مستفيضاً من قوله ﷺ: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه كيفما دار» وأشار بهذا البطن إلى وُلْده الأحد عشر الطاهرين المعصومين.

[**لا تصلح على من سواهم**] أي: لا يكون لها صلاح على يد غيرهم [**ولا تصلح الولاة من غيرهم**].

آثروا عاجلاً وأخّروا آجلاً وتركوا صافياً وشربوا آجنا كأنّي أنظر إلى فاسقهم قد صحب المنكر وألفه وبَسِيءَ به حتّى شابت عليه مفارقه

ومنها:

قوله عليه السلام في بني أُمية ونحوهم ممّن حذى حذوهم وسلك سبيلهم

[**آثروا عاجلاً**] من الحياة الدنيا [**وأخّروا آجلاً**] من ثواب الآخرة ونبذوه وراء ظهورهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

[**وتركوا صافياً**] من العلم الصادر عن أهل بيت الوحي والتنزيل وأرباب الحقائق والمعارف والمقاويل الذين نزل في بيوتهم جبرئيل.

[**وشربوا**] من العلوم الكدرة الممتزج باطلها بحقّها وعلمها بجهلها المأخوذة من غير أهلها [**آجنا**] أو المراد تركوا ما وعدوا به من لذّات الآخرة الصافية عن كدورات الدنيا والعلائق البدنية وأقبلوا على اللّذات الدنيوية الفانية المشوبة بالاعراض والأمراض والتغيّر والزوال، واستعار لفظ الآجن للذّات الدنيا ملاحظة لشبهها بالماء الذي لا يسوغ شربه ورشح بذكر الشرب.

[**كأنّي أنظر إلى فاسقهم**] قيل يحتمل أن يريد فاسقاً معيّناً كعبدالملك بن مروان ويكون الضمير عائداً إلى بني أُميّة ومن تبعهم وأن يريد مطلق الفاسق أي من يفسق من هؤلاء فيما بعد وكون بالصفات التي ذكرها بقوله:

[**قد صحب المنكر وألفه وبَسِيءَ به**] أي: ألفه واستأنس به ووافقه [**حتّى شابت عليه مفارقه**] كناية عن استمرار ذلك إلى آخر عمره.

وصبغت به خلائقه أقبل مزبداً لا يبالي ما غرق وكوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى الأبصار اللائحة إلى منار التقوى أين القلوب التي وهبت للّه وعُوقدت على طاعة اللّه ازدحموا على الحطام

[**وصبغت به خلائقه**] أي: صار المنكر ملكة له وخلقاً ثمّ [**أقبل مزبداً لا يبالي ما غرق**] استعار وصف الازباد تشبيهاً له بالبحر الطامي ووجه الشبه كونه عند غضبه لا يحفل بما يفعله في الناس من المنكرات كما لا يحفل البحر بمن غرق فيه.

[**وكوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق**] شبّه حركته في المنكرات والظلامات، بوقع النار في الحطب ووجه الشبه كونه لا يبالي بتلك الحركات كما لا تبالي النار بما أحرقته.

[**أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى**] أي: المستكملة بنور اللّه، واستعار لفظ مصابيح الهدى لأئمة الدين أو لقوانينه الكلّيّة والاستصباح بها الاقتداء بها.

وأين [**الأبصار اللائحة إلى منار التقوى**] أي: الناظرة إلى أعلام التقوى واستعار المنار كاستعارة المصابيح.

[**أين القلوب التي وهبت للّه**] أي: وهبها أهلها لربّهم وجعلوا هممهم مطالعة أنوار كبريائه والتوجّه إلى كعبة وجوب وجوره.

[**وعُوقدت**] أي: أخذ خلفاء اللّه وحججه عليهم العهود والمواثيق [**على طاعة اللّه**] والمواظبة عليها. ثمّ عاد إلى ذمّ السالفين وتوبيخهم بقوله:

[**ازدحموا على الحطام**] أي: حطام الدنيا، واستعار الحطام لمقينات

وتشاحّوا على الحرام ورفع لهم علم الجنّة والنار فصرفوا عن الجنّة وجوههم وأقبلوا إلى النار بأعمالهم دعاهم ربّهم فنفروا وولّوا ودعاهم الشيطان

الدنيا، ووجه الاستعارة سرعة فنائها وفسادها كما يسرع فساد النبت اليابس.

[وتشاحّوا على الحرام] أي: كلّ واحد منهم يشاح صاحبه على الحرام ويبخل به عليه.

[ورفع لهم] لائحاً واضحاً **[علم الجنّة والنار]** والمراد بعلم الجنّة أنبياء اللّه وحججه الدعاة إليه والأدلاّء عليه أو قانون الشريعة القائد إلى الجنّة وبعلم النار الشيطان والنفس الأمّارة وسائر جنود إبليس.

[فصرفوا عن الجنّة وجوههم وأقبلوا إلى النار بأعمالهم] قيل: لم يقل بوجوههم كما في سابقه لأنّ إقبالهم بوجوه نفوسهم على لذّات الدنيا يستلزم صرفها عن الأعمال الموصلة إلى الجنّه وذلك يستلزم إعراضها عن الجنّة ثمّ لمّا كانت الغاية التي يطلبها الإنسان من الدنيا هو الحصول على لذّاتها وكانت النار ملازمة للأعمال الموصلة إلى تلك الغاية لزوماً عرضيّاً لم تكن النار غاية ذاتيّة قد أقبلوا بوجوههم عليها بل كان إقبالهم عليها بأعمالهم إذ كانت هي المستلزمة لها.

[دعاهم ربّهم] إلى ما يصلحهم وينفعهم وبه نظام دنياهم وآخرتهم.

[فنفروا] عن طاعته.

[وولّوا] عن إجابة دعوته.

[ودعاهم الشيطان] إلى ما فيه هلاكهم وخسرانهم في الدنيا والآخرة

فاستجابوا وأقبلوا أيّها الناس إنّما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا مع كلّ جرعة شرق وفي كلّ أكلة غصص لا تنالون منها نعمة إلّا بفراق أُخرى

[فاستجابوا] إلى دعوته.

[وأقبلوا] إلى طاته وفيه إشارة إلى أنّ الرافع لعلم الجنّة هو اللّه بأيدي أنبيائه وحججه ولعلم النار هو الشيطان بأيدي أتباعه وأعوانه.

ومن خطبة له عليه السلام

[أيّها الناس إنّما أنتم في هذه الدنيا غرض] أي: هدف **[تنتضل فيه المنايا]** والانتضال: الرمي، واستعار لهم لفظ الفرض لكونهم مقودين بسهام المنيّة من سائر الأعراض والأمراض كما يقصد الغرض بالسهام وأسند الانتضال إلى المنايال مجازاً لأنّ فاعلها هو اللّه.

وقوله: **[مع كلّ جرعة شرق وفي كلّ أكلة غصص]** كنّى بالجرعة والأكلة عن لذّات الدنيا وبالشرف والغصص عمّا في كلّ منهما من شوب الكدورات اللازمة لها طبعاً من الأمراض والمخاوف وسائر المنغّصات لها.

وقوله: **[لا تنالون منها نعمة إلّا بفراق أُخرى]** إشارة إلى أنّ كلّ نوع من نعمة فإنّما يتجدّد شخص منها ويلتذّ به بعد مفارقة مثله كلذّة اللقمة مثلاً فإنّها تستدعي فوت اللّذة باختها السابقة وكذا لذّة ملبوس شخصي أو مركوب شخصي وسائر ما يعدّ نعماً دنيويّة ملتذاً بها فإنّها إنّما تحصل بعد مفارقة ما سبق من أمثالها بل وأعمّ من ذلك فإنّ الإنسان لا يتهيّأ له الجمع

ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلّا بهدم آخر من أجله ولا تجدّد له زيادة في أُكله إلّا بنفاذ ما قبلها من رزقه

بين الملاذ الجسمانية في وقت واحد بل ولا اثنين منها فإنّه حال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً أو حال ما هو في لذّة الأكل لا يلتذّ بمشروب، ولا حال مايكون خالياً على فراشه يكون راكباً للنزهة ونحو ذلك.

وبالجملة: لا يكون مشغولاً بنوع من الملاذ الجسمانيّة إلّا وهو تارك لغيره وما استلزم مفارقة نعمة أُخرى لايعدّ في الحقيقة نعمة ملتذاً بها فإنّه كما يلتذّ بهذه الحاضرة يتنغّص لفوت تلك الفائتة.

وكذا قوله: [**ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلّا بهدم آخر من أجله**] لأنّ السرور بالبقاء إلى يوم معيّن لا يصل إليه إلّا بعد انقضاء ما قبله من الأيام المحسوبة من عمره فإذا قد هدم من عمره يوماً فتكون لذّته في الحقيقة ببقائه مستلزمة لقربه من الموت وما استلزم القريب من الموت فلا لذّة فيه عند الاعتبار.

وكذا قوله: [**ولا تجدّد له زيادة في أُكله**] بالهاء وضمّ الهمزة أي: ماكولة [**إلّا بنفاذ ما قبلها من رزقه**] المعلوم أنّه رزقه وهو ما وصل إلى جوفه مثلاً، فإنّ مالم يصل جاز أن يكون رزقاً لغيره ومعلوم أنّ الإنسان لا يأكل لقمة حتّى يفني ما قبلها فهو إذاً لا تتجدّد له زيادة في أكلة إلّا بنفاد رزقه السابق وما استلزم نفاد الرزق لم يكن لذيذاً في الحقيقة ويحتمل أن يريد أنّه إذا تجدّدت له جهة رزق فتوجّه فيها طالباً له كان ذلك التوجّه مستلزماً لانصرافه عمّا قبلها من الجهات وانقطاع رزقه من جهتها والقضية مهملة.

ولا يحيى له أثر إلّا مات له أثر لا يتجدّد له جديد إلّا بعد أن يخلق له جديد لا تقوم له نابتة إلّا وتسقط منه محصودة وقد مضت أُصول نحن فروعها فما بقاء فرع بعد أصله وما أحدثت بدعة إلّا تركت بها سنّة فاتّقوا البدع والزموا المهيع

وكذا قوله: [**ولا يحيى له أثر إلّا مات له أثر**] أراد بالأثر الذكر والفعل فإنّ كلّما يعرف به الإنسان في وقت ما من فعل محمود أو مذموم أو ذكر حسن أو قبيح يذكر به بين الناس إلّا ويموت منه ما كان معروفاً به قبله من الآثار وينسى.

وكذلك [**لا يتجدّد له جديد**] من زيادات بدنه ونقصانه وأوقاته [**إلّا بعد أن يخلق له جديد**] بتخلّل بدنه ومعاقبة شيخوخته لشبابه ومستقبل أوقاته لسالفها.

وكذا [**لا تقوم له نابتة**] استعارة لما ينشأ من أولاده وأقربائه [**إلّا وتسقط منه محصودة**] استعار المحصودة لمن يموت من آبائه وأهله ولذا قال:

[**وقد مضت أُصول**] يعني الآباء [**نحن فروعها فما بقاء فرع بعد أصله**] استفهام على سبيل التعجّب أي: كيف يبقى الفرع بعد ذهاب أصله.

ومنها

[**وما أحدثت بدعة إلّا تركت بها سنّة**] وجه استلزامها الترك السنّة إنّ تركها من السنّة فارتكابها يستلزم ترك السنّة والبدعة كلّما أحدث في الدين ن غير حجّة شرعيّة.

[**فاتّقوا البدع والزموا المهيع**] أي: الطريق الواسع، وكنّى به عن الشريعة لسعتها وعدم الحرج فيها كما أُشير إليه بقوله: أتيتكم بالشريعة

إنّ عوازم الأمور أفضلها وإنّ محدثاتها شرورها وقد استشاره عمربن الخطّاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

السهلة السمحة، وقوله تعالى: ﴿ما جعل عليك في الدِّين من حرج﴾ وقوله: ﴿يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

[**إنّ عوازم الأمور**] أي: قديمها وهو قدائم السنن التي كانت على عهد رسول اللّه ﷺ [**أفضلها**] ويحتمل كون المراد بها جوازمها وهي المقطوع بها دون المحدثات منها التي هي محلّ الشبهة.

[**وإنّ محدثاتها شرورها**] لكونها محلّ الشبهة خارجة عن قانون الشريعة فكانت مستلزمة للهجر والمرج وأنواع الشرور.

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد استشاره عمر بن الخطّاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه**] قال في غزاة القادسية كما عن المدائني أو في غزاة نهاوند كما عن الطبري.

وكانت وقعة القادسية سنة أربع عشرة للهجرة استشار عمر المسلمين في خروجه فيها بنفسه فأشار بما مرّ ويأتي، فرجع عن المسير بنفسه وأمّر سعدبن أبي وقّاص على المسلمين ويروى في تلك الواقعة أنّ رستم أمير العسكر من قبل يزدجر أقام بريداً من الرجال الواحد منهم إلى جانب الآخر من القادسية إلى المدائن كلّما تكلّم رستم بكلمة أدّاها بعضهم إلى بعض حتّى يصل إلى سمع يزدجر.

إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعدّه وأمدّه حتّى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ونحن على موعود من الله

وأمّا وقعة نهاوند فإنّه لمّا أراد عمر أن يغزو العجم وجيوش كسرى قد اجتمعت بنهاوند استشار أصحابه فأشار عثمان عليه بأن يخرج بنفسه بعد أن يكتب إلى جميع المسلمين من أهل الشام واليمن والحرمين والكوفة والبصرة ويأمرهم بالخروج، وأشار علي عليه السلام بالأمر المذكور، فقال عمر: أجل هذا الرأي فأشيروا عليّ برجل أُولّيه ذلك الثغر فولّى النعمان بن مقرن وكان يومئذ بالبصرة، وهذا كلامه عليه السلام:

[**إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة**] أي: أمر الإسلام ليس نصره بكثرة ولا خذلانه بقلّة.

[**وهو دين الله الذي أظهره**] ﴿على الدِّين كلّه ولو كره المشركون﴾.

[**وجنده**] جند الله [**الذي أعدّه وأمدّه**] بالملائكة والناس إلّا أنّ جند الله هم الغالبون [**حتّى بلغ ما بلغ**] من العلو والرفعة والصيت والشرف.

[**وطلع**] في آفاق البلاد [**حيث طلع ونحن على موعود من الله**] بالنصر والغلبة والاستخلاف في الأرض، كما قال: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض ما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفاً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ [والله منجز وعده وناصر جنده﴾ جار مجرى النتيجة إذ من جملة وعده نصر جنده وهم المؤمنون، فالمؤمنون منصورون على كلّ حال قليلين كانوا أو كثيرين.

ومكان القيِّم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمّه فإن انقطع النظام تفرّق وذهب ولم يجتمع بحذافيره أبداً والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً للعرب واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب

وقوله ﷺ: [**ومكان القيِّم بالأمر**] أي: الإمام والخليفة القائم بأمور الناس [**مكان النظام من الخرز**] أي: مكان الخيط من العقد.

وأشار إلى وجه الشبه بقوله: [**يجمعه ويضمّه فإن انقطع النظام تفرّق وذهب ولم يجتمع بحذافيره أبداً**] وحذافير الشيء أطرافه جمع حذفار أي: باشره وذلك أنّهم عند فساد نظامهم بقتل الإمام القيّم مثلاً يقع بهم طمع العدوّ وظفره فيكون ذلك سبب استئصالهم.

ثمّ دفع عنه الشبهة في عدم الحاجة إلى اجتماع كلّ العرب في هذه الواقعة فقال:

[**والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً**] عددهم [**فهم كثيرون**] أي: أقوياء غالبون [**بالإسلام عزيزون**] لا يغلبون [**بالاجتماع**] في الرأي والقلوب الذي هو خير من كثرة الأشخاص واجتماع الأبدان.

[**فكن قطباً**] أي: مرجعاً [**للعرب**] تؤول إليه.

[**واستدر الرحى بالعرب**] بحيث تدور عليه استعار له لفظ القطب ولهم لفظ الرحى ورشّح بالاستدارة وكنّى بذلك عن جعل العرب ترساً دونه وحيطة له ولذا قال:

[**وأصلهم دونك نار الحرب**] لأنّه إن سلموا وغنموا فذاك الذي ينبغي وإن انقهروا كان مرجعاً وسنداً يقوي يظهورهم به بخلاف شخوصه معهم

فإنّك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتّى يكون ما تدع ورائك من العورات أهمّ إليك ممّا هو بين يديك إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا إنّ هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك وطمعهم فيك

فإنّه إن ظفروا فذاك وإن انقهروا لم يكن لهم ظهر يلجئون إليه.

ثمّ أبان عليه السلام وجه المفسدة في خروجه بقوله:

[**فإنّك إن شخصت من هذه الأرض**] بنفسك [**انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها**] لأنّ الإسلام غضّ وقلوب كثير من العرب ممّن أسلم غير مستقرّة بعد، فإذا انضاف إلى من لم يسلم منه وعلموا خروجه وتركه للبلاد وكبر طمعهم وهاجت فتنتهم على بلاد الإسلام.

[**حتّى يكون ما تدع ورائك من العورات**] أي: مواضع المخافة على الإسلام وأهله [**أهمّ إليك ممّا هو بين يديك**] مما تستقبله وتطلبه من المحاربات.

[**إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا إنّ هذا أصل العرب**] ومرجعهم الذي يرجعون إليه وقطبهم الذي تدور رحاهم عليه.

[**فإذا اقتطعتموه**] واستأصلتموه بالهلاك [**استرحتم**] من العرب ومحاربتهم ومعارضتهم.

[**فيكون ذلك أشدّ لكلبهم**] أي: شرّهم وتكالبهم [**عليك وطمعهم فيك**] ثمّ أجابه عليه السلام عمّا ذكره من مسير القوم الفرس في وقعة القادسية إلى قتال المسلمين وأنا أكره أن يغزونا قبل أن نغزوهم وذكر كثرة عددهم فقال:

فأمّا ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإنّ اللّه سبحانه هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنّما كنّا نقاتل بالنصرة والمعونة فبعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته بقرآن بيّنه وأحكمه

[فأمّا ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإنّ اللّه سبحانه هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره].

وخلاصة الجواب أنّ مسيرهم إلى المسلمين وإن كان مفسدة إلّا أنّ لقائهم له بنفسه فيه مفسدة أكبر وإذا كان كذلك فينبغي أن تدفع المفسدة العظمى ويكمل دفع المفسدة الأُخرى إلى اللّه فإنّه كاره لها ومع كراهيته لها فهو أقدر على إزالتها.

[وأمّا ما ذكرت من] كثرة **[عددهم]** وقلّة عدد المسلمين وعددهم **[فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى]** في صدر الإسلام **[بالكثرة وإنّما كنّا نقاتل بالنصرة]** من اللّه **[والمعونة]** منه فينبغي أن يكون الحال الآن كذلك.

ومن خطبة له عليه السلام

[فبعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله بالحقّ] إلى الخلق بشيراً ونذيراً **[ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته]** بسلوك الصراط المستقيم والطريق السوي القويم واتّباع الشريعة الغرّاء والملّة الحنيفية الزهراء **[بقرآن بيّنه]** لأهله **[وأحكمه]** في محلّه، قد اشتمل على

ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه وليقرّوا به بعد أن جحدوه فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوّفهم من سطوته كيف محق من محق بالمثلات واحتصد من احتصد بالنقمات

ماكان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة:

﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾.

﴿وكلّ شيء أحصيناه في كتاب مبين﴾.

﴿وما من رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين﴾.

ولكن لا تبلغه عقول الرجال ولا تناله أنظار الجهّال بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أوتوا العلم وما يعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم.

فقوله: ليخرج... إلخ، بيان غاية البعثة وقوله بقرآن بيان سبب تلك الغاية.

ثمّ اشار إلى غاية تلك الغاية بقوله: [**ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه وليقرّوا به بعد أن جحدوه**] وهما متقاربان أو تحمل الأولى على الإقرار باللّسان والجحد به ويحمل الإثبات والإنكار على الإثبات بالقلب بعد الإنكار به.

[**فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوّفهم من سطوته**] قيل: اشار بتجلّيه في كتابه إلى ظهوره لهم في تذكيرهم فيه بما أراهم من عجائب مصنوعاته وبما خوّفهم به من وعيده وبتذكيرهم انّه [**كيف محق من محق**] من القرون الماضية والأمم الخالية [**بالمثلات**] أي: العقوبات النازلة بهم.

[**واحتصد من احتصد**] منهم [**بالنقمات**] وجميع ذلك آيات باهرة

وأنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على اللّه ورسوله

ودلائل ظاهرة تنادي بوجوده وظهوره وتجلّيه من غير رؤية بالحواسّ وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد.

[وأنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على اللّه ورسوله] وهذا في المتصدّين للفتاوي والحكومات وفصل الخصومات كثير شائع ذائع تراهم يتسارعون في الأحكام وقول هذا حلال وهذا حرام وليس عندهم شيء أسهل من ذلك وهم في غفلة عظيمة، ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام:

﴿أتقولون على اللّه ما لا تعلمون ألم يؤخذ عليكم ميثاق الكتاب أن لا تقولوا على اللّه إلاّ الحقّ﴾.

﴿إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾.

﴿أتقولون على اللّه ما لا تعلمون﴾.

﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثمّ لقطعنا منه الوتين﴾.

وقال ﷺ: «حقّ اللّه على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عندما لا يعلمون».

وقال ﷺ: «من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من اللّه لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه».

وقال ﷺ: «إيّاك وخصلتين ففيهما هلك من هلك إيّاك أن تفتي الناس

وليس عند أهل الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته ولا أنفق منه إذا حُرِّف عن مواضعه ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر فقد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته فالكتاب وأهله يومئذ منفيان طريدان ومصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤوٍ

برأيك أو تقول ما لا تعلم».

[**وليس عند أهل الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته**] ورتّلت ألفاظه وتدبّرت معانيه.

[**ولا أنفق منه إذا حُرِّف عن مواضعه**] وحمل على غير معانيه المقصودة وأُوِّل بالتأويلات البعيدة.

[**ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر فقد نبذ الكتاب حملته**] بالإعراض عن قراءته وتدبّر معانيه وتفهّم مبانيه والعمل بما فيه.

[**وتناساه حفظته**] بالتعامي عن أوامره ونواهيه والتغافل عن اتباع ظاهره وخافيه.

[**فالكتاب وأهله يومئذ منفيان طريدان**] حيث لم يلتفت أهل ذلك الزمان إلى الكتاب، وإذا لم يلتفتوا إلى الكتاب لم يلتفتوا إلى أهله ومن يعمله به بل مؤذون لهم فيما يخالفونهم فيه ممّا تقتضيه أحكام الكتاب ويوجبه اتّباعه فكان إعراضهم عنهم إبعاداً لهم ونفياً وطرداً، وقوله:

[**ومصطحبان في طريق واحد**] أي: طريق الحقّ، إذ هو واحد لا تعدّد فيه ولا خلاف يعتريه وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال.

[**لا يؤويهما مؤوٍ**] من أهل ذلك الزمان إلاّ إذا وافق غرضه وهواه.

فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم مع الناس وليسا معهم لأنّ الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة كأنّهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم فلم يبق عندهم منه إلّا اسمه ولا يعرفون إلّا خطّه وزبره

[فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس] بمجرّد الوجود الارجي.

[وليسا فيهم] في الحقيقة لعدم اتباعهما، والفاء احكامهما فأشبها ما ليس بموجود لأنّ فائدة الموجودان ينتفع به وكذلك هما **[مع الناس]** بالمصاحبة الاتفاقية في الوجود.

[وليسا معهم] في الحقيقة لأنّ ضلالتهم لا تجامع هدى الكتاب وأهله فكانا متضادّين وإن كان مجتمعين، كما أشار إليه بقوله:

[لأنّ الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة] أي: اتفقوا على مفارقة الاجتماع.

[وافترقوا عن الجماعة] بالأخذ بآرائهم الفاسدة والاستناد إلى الأهواء الكاسدة فصاروا فرقاً وتشعّبوا شعباً ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[كأنّهم أئمة الكتاب] تشبيهه لهم بالأئمة في الجرأة على مخالفة أحكامه وتفسيره على حسب أغراضهم وأهوائهم إذ شأن الإمام مع المأموم ذلك.

[وليس الكتاب إمامهم] الذي يجب أن يتّبعوه ويقتفوا أثره وحيث خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم.

[فلم يبق عندهم منه إلّا اسمه ولا يعرفون إلّا خطّه وزبره] دون اتباع مقاصده واقتفاء هدايته ومراشده.

ومن قبل ما مثّلوا بالصالحين كلّ مثلة وسمّوا صدقهم على اللّه خزية وجعلوا في الحسنة عقوبة السيّئة إنّما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغييب آجالهم

وقوله: [**ومن قبل ما مثّلوا بالصالحين كلّ مثلة**] إشارة إلى زمن بني أميّة الكائن قبل هذا الزمن الذي يخبر عنه ومثلوا بفتح الميم والثاء أي: نكّلوا، والاسم المُثلة بضمّ الميم وسكون الثاء إشارة إلى أُمراء بني أُمية وولاتهم كعبيداللّه بن زياد والحجاج ونحوهما و(ما) مصدرية محلّها الرفع بالابتداء وخبرها (من قبل).

[**وسمّوا صدقهم على اللّه خزية**] أي نسبوهم إلى الكذب على اللّه وعلى رسوله.

[**وجعلوا في الحسنة عقوبة السيّئة**] فمن كان مؤمناً قتلوه ومن كان صالحاً فسّقوه فجعلوا الحسنة سيّئة وقابلوها بسيئة مثلها أو أعظم منها وبالعكس.

وقوله: [**إنّما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغييب آجالهم**] تنبيه على وجوب تقصير الأمان في الدنيا لاستلزام طلبها الهلاك الاخروي والذين قبلهم إشارة إلى القرون الماضية.

وأراد بالهلاك الهلاك الاخروي، وجعل سبب هلاكهم طول آمالهم في الدنيا، الموجب للاستغراق في لذّاتها، المبعّدة عن اللّه تعالى مع تغييب إجالهم عنهم، أي: غفلتهم عنها وقلّة فكرهم فيها، وعدم علمهم بتعيّنها، فإنّ استشعار الأجل موجب للإقلاع عن الانهماك في اللّذات الحاضرة ومنغّص لها.

حتّى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة وترفع عنه التوبة وتحلّ معه القارعة والنقمة أيّها الناس من استنصح اللّه وفِّق ومن اتخذ قوله دليلاً هُدي لـلتي هي أقوم وإنّ جار اللّه آمن وعدوّه خائف وإنّه لا ينبغي لمن عرف عظمة اللّه

[**حتّى نزل بهم الموعود**] أي: الموت، وهذا غاية طول آمالهم [**الذي ترد عنه المعذرة**] أي: لا تقبل فيه معذرة معتذر كما قال تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.

[**وترفع عنه التوبة**] أي: تنسدّ بابها عند نزوله، كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للّذين يعملون السيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن﴾.

[**وتحلّ معه القارعة**] أي: الشدائد والأهوال [**والنقمة**] أي: العقوبة الاخروية.

[**أيّها الناس من استنصح اللّه**] أي: اتخذه ناصحاً في قبول أوامره ونواهيه [**وفِّق**] للخير.

[**ومن اتخذ قوله دليلاً هُدي للتي**] أي: للطريق التي [**هي أقوم**] الطرق.

[**وإنّ جار اللّه آمن**] محفوظ [**وعدوّه خائف**] إذ ذلك غاية عداوة الملوك خصوصاً جبّار الجبابرة وملك الدنيا والآخرة وأُريد بجواره القرب منه بالطاعة وبعداوته البعد عنه بالمعصية ومخالفة أوامره ولا شكّ في كون الأوّل آمناً من أهوال الآخرة وفي كون الثاني في محلّ الخوف والخطر.

ثمّ ارشدهم إلى ما يصلحهم بقوله: [**وإنّه لا ينبغي لمن عرف عظمة اللّه**

أن يتعظّم فإنّ رفعة الذين يعلمون من عظمته أن يتواضعوا له وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له فلا ينفروا من الحقّ نفار الصحيح من الأجرب والباريء من ذي السقم واعلموا إنّكم لن تعرفوا الرشد حتّى تعرفوا الذي تركه

أن يتعظّم] إذ من عرف عظمة اللّه احتقر نفسه فهو أسرع انفعالاً وأحقر في نفسه أن يتكبّر على اللّه.

[فإنّ رفعة الذين يعلمون من عظمته أن يتواضعوا له] إذ لمّا كان هو العظيم المطلق وكلّ عظمة ورفعة لعظيم فمستفادة من جوده والقرب منه وكانت العادة جارية من الملوك في حقّ من يتواضع لهم ويوفيهم حقّهم من الإجلال والإكرام وحسن الانقياد أن يرفعوه ويعظّموه فبالحري أن يكون رفعة المتواضع للملك المطلق لازمة عن التواضع له وكذلك العادة جارية فيهم بسلامة من استسلم لهم عن معرفته باقتدارهم فبالحري أن يكون سلامة المستسلم للّه عن العلم بغلبة قدرته واستيلاء سلطانه لازمة عن استسلامه له، كما أشار إليه بقوله:

[وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له فلا ينفروا من الحقّ نفار الصحيح من الأجرب والباريء من ذي السقم] ووجه الشبه شدّة النفار، ثمّ عاد إلى نفيرهم عن أئمة الضلال فقال:

[واعلموا إنّكم لن تعرفوا الرشد] معرفةً تامّةً صحيحة **[حتّى تعرفوا الذي تركه]** وذلك لأنّ المعرفة التامّة للرشد بل لكلّ شيء تستدعي معرفة ما عليها من الشكوك والشبهات التي هي سبب التشكيك فيها وترك العمل على وفقها ولما كان الرشد هو ما عليه أميرالمؤمنين وتابعوه والتارك له مخالفوه

ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتّى تعرفوا الذي نبذه فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنّهم عيش العلم وموت الجهل هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم

وصومه من أئمة الضلال كان من تمام معرفة الحقّ الذي في يده والمرشد الذي يدعو إليه معرفة خصومه وأنّهم على شبهة إذا عرفها طالب الحقّ تمّت معرفته بطريق الرشد فسلكها ونفر عمن نكب عنها.

وكذا قوله: [**ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الذي نقضه**] أي انّ أخذهم بما يعمل به ﷺ منه لا يتمّ منهم إلاّ أن يعرفوا شبهة ناقضة وهو العامل بخلاف حكمه ﷺ على وفق الكتاب لشبهة حتّى إذا اطّلعوا على كيفيّة فسادها وضلالة بها أخذوا بميثاق الكتاب على بصيرة وعلموا أنّه ناقض له فنفروا عنه.

وكذا قوله: [**ولن تمسكوا به حتّى تعرفوا الذي نبذه**] وإنّه ضالّ لتحصّل النفرة عنه فيتمّ التمسّك به ويتأكّد لزوم ميثاقه والغاية من جميع ما ذكر التنفير عن أئمة الضلال بمعرفتهم ومعرفة ما هم عليه من الشبه والتبرّي منهم.

ثمّ بعد أن نبّه على تلك المعرفة أمر بطلبها من أهلها فقال:

[**فالتمسوا ذلك**] واطلبوه [**من عند أهله**] يعني نفسه وأهل بيته ﷺ [**فإنّهم عيش العلم**] أي: حياته.

[**وموت الجهل**] إذ بهم يكون وجود العلم والانتفاع به كما يكون بحياة الشيء الانتفاع به وبهم يكون عدم الجهل وعدم التضرّر به كما يكون بموت الشرير عدمه وعدم مضرّته [**هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم**] أي:

وصمتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق

يدلّكم منطقهم بالحكمة وسيرتهم على وفقها على كمال نفوسهم بالعلوم الحقّة.

[**وصمتهم عن منطقهم**] فإنّ المتكلّم اللّسن ذي الحكمة الغزيرة إذا صمت كان له هيبة وحالة تنادي يحسن منطقه وعلمه بما يقول وحيث كان صمت الحكيم في محلّه وموضعه كان من جملة حكمته.

وكذا قوله: [**وظاهرهم عن باطنهم**] فإنّ ظاهرهم هيئة الخاشعين العابدين يدلّ على اتّصاف نفهوسهم بكمال قولي العلم والعمل.

[**لا يخالفون الدين**] لملازمتهم لأوامر اللّه وطريق شريعته.

[**ولا يختلفون فيه**] لاتّفاقهم على الحقّ الذي لا اختلاف فيه ولا يضلّ أحدهم عن الحقّ حتّى يخالف صاحبه.

[**فهو بينهم شاهد صادق**] يستدلّون به على الأحكام والوقائع النازلة بهم وبغيرهم، لا يكذب من حيث هو شاهد.

[**وصامت ناطق**] لكونه حروفاً وأصواتاً وإنّما ينطق بألسنتهم فهو بمنزلة الناطق واستعار لفظي الصامت الناطق للدين باعتبار إفادة الأحكام الشرعية منه عند الرجوع إليه وعدمها مع السكوت عنه كإفادة الناطق وعدم إفادة الصامت.

في ذكر أهل البصرة كلّ واحد منهما يرجو الأمر له ويعطفه عليه دون صاحبه لا يمتّان إلى اللّه بحبل ولا يمدّان إليه بسبب كلّ واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه

ومن خطبة له عليه السلام

[في ذكر أهل البصرة كلّ واحد منهما يرجو الأمر له] ضمير التنبيه يعود إلى طلحة والزبير بقرينة المقام والأمر المعهود أمر الخلافة.

[ويعطفه] أي: يجذب أمر الخلافة إلى نفسه ويعطفه **[عليه دون صاحبه]** وقد نقل إنّهما اختلفا في الأحقّ بالتقديم في الصلاة فاقامت عائشة محمد بن طلحة وعبداللّه بن الزبير يصلّي هذا يوماً وهذا يوماً إلى أن تنقضي الحرب ثمّ انّ عبداللّه بن الزبير ادّعى أنّ عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار واحتجّ على ذلك باستخلافه له في الصلاة تارة وبنص صريح أخرى واختلفا في تسليم الناس عليهما بالإمرة فأمرت أن يسلّموا عليهما معاً، واختلفا في تولّي القتال فطلبه كلّ واحد منهما أولاً ثمّ نكل عنه.

[لا يمتّان] أي: لا يتقرّبان **[إلى اللّه بحبل]** يقال متّ إليه بكذا أي: تقرّب.

[ولا يمدّان إليه بسبب] أي: لا حجة لهما يعتذران بها إلى اللّه تعالى في قتالهما لمن قال فيه النبي صلى الله عليه وآله: «سلمك سلمي وحربك حربي» وقال فيه: «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه كيفما دار».

[كلّ واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه] الضبّ الغلّ والحقد أي: في

قليل يكشف قناعه به والله لئن أصابوا الذي يريدان لينزعن هذا نفس هذا أو ليأتين هذا على هذا وقد قامت الفتنة الباغية فأين المحتسبون وقد سنّت لهم السنن وقدّم لهم الخبر ولكلّ ضلّة علّة ولكلّ ناكث شبهة

صدر كلّ منهما غلّ على الآخر ولكنّه مستور لا يبرزانه لمصلحة وعما [**قليل يكشف قناعه به**] أي: يظهر وينكشف ما ستراه من الغلّ والحقد، واستعار لفظ القناع لظاهره الساتر لباطنه وذلك مثل يضرب لمن ينافق صاحبه ويظهر له الصداقة مع حسده له في الباطن.

[**والله لئن أصابوا الذي يريدان**] منالملك والأمان [**لينزعن هذا نفس هذا أو ليأتين هذا على هذا**] أي: يسعى كلّ منهم في قتل صاحبه والوجدان يغني عن البرهان فإنّ الملك عقيم والعادة جارية بعدم قيام الأمر برئيسين معاً.

[**وقد قامت الفتنة الباغية**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله﴾ وإلى قول النبيﷺ: «يا عمّار تقتلك الفئة الباغية».

[**فأين المحتسبون**] الطالبون للأجر والثواب وفي رواية فأين المحسنون.

[**وقد سنّت لهم السنن**] جملة حالية أي: والحال أنّه قد أوضحت لهم الطرق وبان طريق الهدى وطريق الضلال فهذه الجادّة فأين السالك.

[**وقدّم لهم الخبر**] عطف عليه أي: والحال أنّه قد أخبرهم الرسول الصادق المصدّق بقوله: «يا عليّ إنّك ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين» فمن سمع هذا الخبر من طالبي ثواب الله وجب عليه قتال هؤلاء لنكثهم البيعة.

وقوله: [**ولكلّ ضلّة علّة ولكلّ ناكث شبهة**] كالجواب لمن عساه يقول

والله لا أكون لمستمع اللدم يسمع الناعي ويحضر الباكي ثمّ لا يعتبر قبل موته ﷺ أيّها الناس كلّ امرىء منكم لاق ما يفرّ منه فراره

إنّهم يحتجون بكذا أي: لكلّ خروج عن الله علّة وعلّة خروجهم من الدين ما تقدّمت الإشارة إليه من البغي والحسد وحبّ الدنيا والرئاسة وكذا لكلّ ناكث للعهد والميثاق شبهة تغطّي بصيرته عن النظر إلى الحقّ كما تشبّثوا بطلب دم عثمان مع أنّهم لو أنصفوا لعلموا أنّ حظّهم منه الأوفر ونصيبهم أكثر وهو ﷺ بريءٌ منه وإن كان هو قاتله فويل له.

[**والله لا أكون لمستمع اللدم**] اللدم ضرب الصدر باليد فعل الحزين [**يسمع الناعي ويحضر الباكي ثمّ لا يعتبر**] أراد عليه السلام أنّه بعد علمه بقصد هؤلاء لقتاله وجلبهم عليه وتهديدهم إيّاه لا ينام عنهم ويصبر لهم حتّى يوافوه فيكون في الغرور كمن يسمع اللدم والضرب والبكاء الذي هو مظنّة الخطر ثمّ لا يصدق حتّى يحضر الباكي لمشاهدة الحال فيسلّم نفسه للعدوّ وقد كان الأولى أن يكتفي بذلك السماع ويستعدّ للقائه والهرب منه.

ومن كلام له عليه السلام

[**قبل موته ﷺ أيّها الناس كلّ امرىء منكم لاق ما يفرّ منه فراره**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾ وقوله: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولكم كنتم في بروج مشيّدة﴾ وإنّما قار فراره لأنّه لمّا كان الإنسان دائماً فارّاً من الموت ومتوقّياً له كان لابدّ له منه لا جرم كان ضروري اللقاء له في فراره.

والأجل مساق النفس والهرب منه موافاته كم اطّردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الامر فأبى اللّه إلّا اخفائه هيهات فهو علم مخزون أمّا وصيّتي فاللّه تعالى لا تشركوا به شيئاً

[**والأجل**] المضروب للإنسان وهو مدّة عمره [**مساق النفس**] لانّ مدّة بقائها في هذا البدن هو مساقها إلى غايتها.

[**والهرب منه موافاته**] لأنّ الفرار من الموت إنّما يتحقّق بالحركات والعلاجات ونحوها وذلك يستلزم فناء الأوقات وتصرّم الساعات وفي فنائها وتصرّمها موافاة الأجل فكان الهرب منه موافاة له.

[**كم اطّردت الأيام**] أي: صيّرتها طريدة لي أتبع بعضها بعضاً [**أبحثها عن مكنون هذا الأمر**] إشارة إلى ما وقع من ضربه وقتله عليه السلام المكنون وقته المعيّن بالتفصيل ومكانه وساعته فلا ينافي علمه به إجمالاً لأنّ ذلك مما استاثر اللّه بعلمه كقوله أنّ اللّه عنده علم الساعة إلى قوله: ﴿وما تدري نفس بأيّ أرض تموت﴾.

[**فأبى اللّه إلّا اخفائه**] ولعلّ ذلك البحث بالسؤال والفحص من النبي صلى الله عليه وآله مدّة حياته وكتمانه إيّاه أو بالفحص والتفرّس من قرائن الأحوال.

[**هيهات**] أي: بعد ذلك العلم بالتفضيل [**فهو علم مخزون**] لا يعلمه إلّا اللّه تعالى.

ثمّ شرع عليه السلام في الوصيّة فبدأ بالأهمّ فالأهمّ فقال:

[**أمّا وصيّتي فاللّه تعالى لا تشركوا به شيئاً**] وأخلصوا العبودية له بالإعراض عمّا سواه وفي ذلك يدخل لزوم أوامره ونواهيه وسائر ما نطق به كتابه المجيد وفرقانه الحميد.

ومحمّداً صلّى اللّه عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين وخلاكم ذمّ إلاّ أن تشردوا

[**ومحمّداً صلّى اللّه عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته**] واعملوا بها وداوموا عليها في أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم ولا تهملوها فإنّها لم تترك شيئاً من المصالح الدينية والدنيويّة حتّى ورد فيها في آداب التخلّي عشرة آداب أو أكثر أكّد الوصية في الأمر بإخلاص التوحيد والمواظبة على السنّة بقوله:

[**أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين**] استعار لهما لفظ العمودين ورشح بذكر الإقامة لفظ المصباحين ورشح بذكر الإيقاد لأنّ مدار الإسلام ونظام أمور المسلمين في معاشهم ومعادهم على توحيد اللّه ولزوم ما جاء به رسوله ﷺ، كما أنّ مدار الخيمة وقيامها بالعمود ولأنّ التوحيد وأخذ ما جاء به النبي ﷺ مستلزم للهداية من ظلمات الجهل قائد إلى الجنّة كما يهدي المصباح في الظلام إلى المطلوب.

[**وخلاكم ذمّ**] أي: عداكم، أي: عند لزومكم لتوحيد اللّه وسنّة رسولهﷺ لا ذمّ عليكم وهو مثل يضرب لمن تبرّء من العيب قيل أوّل من قاله قصير مولى جذيمة حين حثّ عمرو بن عدي على طلب ثاره من الرياء فقال له عمرو: كيف لي بذلك والرياء أمنع من عقاب الجو فقال قصير: اطلب الأمر وخلاك ذم، وقوله مالم تشرووا استثناء من نفي لحوق الذم لهم أي: أوقدوا هذين المصباحين فما دمتم كذلك لا يلحقكم ذم.

[**إلاّ أن تشردوا**] أي: تتفرّقوا عمّا أنتم عليه، ثمّ لمّا أمرهم بلزوم هذين الأمرين الذين يدور عليهما التكليف أبان لهم تفاوت الخلق في التكاليف بقوله:

حمِّل كلّ امرىء منكم مجهوده وخفّف عن الجهلة ربّ رحيم ودين قويم وإمام عليم غفر اللّه لي ولكم انا بالأمس صاحبكم وأنا اليوم عبرة لكم وغداً مفارقكم

[**حمِّل كلّ امرىء منكم مجهوده**] أي: زنّ كلّ واحد من أرباب العلوم والمعارف ومن هو بصدد العلم يحمل مجهوده وطاقته منه بالتنبيه على الأدلّة وتعليمها وأمّا الجهّال كالنساء وأهل البادية ونحوهم من أهل الغباوة فتكليفهم دون ذلك.

وإلى ذلك أشار بقوله: [**وخفّف عن الجهلة ربّ رحيم**] ذكر وصف الرحمة المناسبة ما سبق من ذكر التخفيف.

[**ودين قويم**] لا عوج فيه ولا زيغ عن القصد الحقيقي.

[**وإمام عليم**] إشارة إلى الرسول ﷺ العالم بكيفيّة سلوك طريق اللّه ومراحلها ومنازلها والهادي فيها بما تقتضيه حكمته من القول والعمل أو إلى نفسه لكونه وارث علمه وسالك مسالكه.

ثمّ ختم الوصية بالدعاء لهم فقال: [**غفر اللّه لي ولكم**] وبدء بنفسه لما روي عن النبي ﷺ إنّه كان إذا دعى بدء بنفسه.

[**انا بالأمس صاحبكم**] في الحرب ومنازعة الأقران وصاحب الأمر والنهي فيهم.

[**وأنا اليوم عبرة لكم**] بحال مصرعي.

[**وغداً مفارقكم**] بالموت وكلّ هذه التنفيرات محلّ الاعتبار يجب التنبّه لها وأراد بغد إمّا حقيقة إن كان قد غلب على ظنّه موت في تلك الواقعة أو ما يستقبل من الزمان.

إن تثبت الوطأة في هذه المنزلة فذاك وإن تدحض القدم فإنّا كنّا في أفياء أغصان ومهاب أرياح وتحت ظلّ غمام اضمحلّ في الجوّ مُتَلَفَّقُها

وقوله ﷺ: [**إن تثبت الوطأة في هذه المنزلة**] أي: إن يكون لي ثبات في الدنيا وبقاء في هذه الدنيا التي هي محلّ الزوال عن الحياة [**فذاك**] المراد.

[**وإن تدحض القدم**] بالموت [**فإنّا كنّا في أفياء أغصان ومهاب أرياح**] كنّى بهذه الأمور عن أحوال الدنيا ولذّاتها وبقائه فيها ومتاعبها وقيل استعار لفظ الأغصان للأركان الأربعة من العناصر ولفظ الأفياء لما تستريح فيه النفوس من تركها في هذا العالم ووجه الاستعارة الأُولى أنّ الأركان في مادّتها كالأغصان للشجرة ووجه الثانية أنّ الأفياء محلّ الاستراحة واللذّة كما أنّ الكوكب في هذا البدن حين صحّة التركيب واعتدال المزاج من هذه الأركان وكذا استعار لفظ مهاب الرياح للأبدان ولفظ الرياح للأرواح والنفحات الإلهية عليها في هذه الأبدان ووجه الأُولى قبول الأبدان لنفحات الجود كقبول مهاب الرياح لها استعارة لفظ المحسوس للمعقول ووجه الثانية ظاهر.

وقوله: [**وتحت ظلّ غمام**] استعار الغمام للأسباب العلويّة من الحركات السماويّة والاتصالات الكوكوبيّة والأرزاق المفاضة على الإنسان في هذا العالم التي هي سبب بقائه ووجه الشبه الاشتراك في الإفاضة والسببيّة وكنّى بظلّها عمّا يستراح إليه منها كما يقال فلان يعيش في ظلّ فلان أي: في غيشه وعنايته.

وقوله: [**اضمحلّ في الجوّ مُتَلَفَّقُها**] قيل: كنّى باضمحلال متلفقها في الجو عن تفرّق الأسباب العلوية للبقاء وفنائها وبعضاً محطّها في قوله

وعفّى في الأرض مخطّها وإنّما كنت جاراً قد جاوركم بدني أيّاماً وستعقبون منّي جثّة خلا ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق ليعظكم هدوّي وخفوت إطراقي وسكون أطرافي فإنّه أوعظ من المنطق البليغ والقول المسموع

[**وعفّى في الأرض مخطّها**] عن فناء آثارها في الأبدان والضمير في متلفّقها يعود إلى الغمام وفي مخطّها يعود إلى مهاب الرياح ولفظ المخطّ مستعار للأبدان أيضاً كالباب وعفائها فنائها.

وقوله: [**وإنّما كنت جاراً قد جاوركم بدني أيّاماً**] وهي مدّة الحياة الدنيا.

[**وستعقبون**] أي توجدون في العاقبة [**منّي جثّة خلا**] أي: خالية من الروح [**ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق**] أي: أقفرت من المعاني المعهودة لكم من العقل والنطق والقوّة فهي متبدّلة الحراك بالسكون وبالنطق السكوت وإنّما قال قد جاوركم بدني وخصّ المجاورة بالبدن تنبيهاً على أنّ مصاحبتهم له بمجرّد البدن وأنّ نفسه متصلّة بالملأ الأعلى كما قال ﷺ: «صاحبوا الناس بأبدان أرواحها متعلّقة بالملأ الأعلى» إشارة إلى نفسه الشريفة لم يكن لها ميل إلى البقاء في الدنيا ومجاورة أهلها.

وقوله: [**ليعظكم هدوّي وخفوت إطراقي وسكون أطرافي فإنّه أوعظ**] للمعتبرين [**من المنطق البليغ والقول المسموع**] لأنّ الطباع أكثر انفعالاً واعتباراً عن مشاهدة ما فيه العبرة من الوصف له بالقول المسموع ولو بأبلغ عبارة.

ثم أخذ ﷺ في توديعهم:

ودّعتكم وداع امرىء مرصد للتلاقي وغداً ترون أيّامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي يومي فيها إلى الملاحم وأخذوا يميناً وشمالاً

[ودّعتكم] أي: وداعي لكم **[وداع امرىء مرصد للتلاقي]** أي: معدّ ومهيّأ للقاء اللّه.

ثمّ ذكّرهم بفضيلته بقوله: **[وغداً ترون أيّامي]** أي: بعد موتي، أراد أنّهم لم يكونوا عارفين بحقّه في أمر الدين ومقاصده في حروبه وإنّما يعرفون قدره بعد موته فإنّما تعرف النعمة بزوالها وتعرف الأشياء بعد أضدادها.

[ويكشف لكم عن سرائري] ما كان مغطّى عن أعين بصائركم من لزوم القصد في سبيل اللّه.

[وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي] من خلفاء الجور فعند ذلك يعلمون أنّ وقائعه وحروبه وحرصه على هذا الأمر لم يكن لنيل دنياً بل لإقامة سنن العدل ورضا اللّه تعالى وممّا يناسب المقام قول الشاعر:

ستفقدني قومي إذا غبت عنهم   وفي اللّيلة الظلماء يفتقد البدر

ومن خطبة له ﷺ

[يومي فيها إلى الملاحم وأخذوا يميناً وشمالاً] الضمير لمن ضلّ من المسلمين عن طريق الهدى واليمين والشمال كناية عن طرفي الإفراط والتفريط من الفضائل التي تقدّم ذكرها، وتلك الأوصاف هي الرذائل وهي

في مسالك الغي وتركاً لمذاهب الرشد فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد فكم من مستعجل بما إن أدركه ودّ أنّه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غد يا قوم هذا إيّان ورود كلّ موعود دنوٍّ من طلعة ما لا تعرفون ألا وإنّ من أدركها منّا

المرادة بقوله:

[**في مسالك الغي وتركاً لمذاهب الرشد**] وهي تلك الفضائل النفسانية وظعناً وتركاً مصدران قاما مقام الحال.

وقوله: [**فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد**] إشارة إلى ما كانوا يتوقّعونه من الفتن التي أخبر بها الرسول ﷺ وأنّها تقع في المستقبل وكانوا في أكثر الأوقات يسألونه عنها فقال لا تستعجلوا ما هو كائن لابدّ من وقوعه وهو مرصد معد.

[**ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد**] من الفتن والوقائع [**فكم من مستعجل بما إن أدركه ودّ أنّه لم يدركه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم﴾ وهو ذمّ للاستعجال والاستبطاء لهذا المدعو.

[**وما أقرب اليوم من تباشير غد**] أي: من البشرى بغد لقربه كما قيل: غد ما غد ما أقرب اليوم من غد، وقال الآخر وإنّ غداً للناظرين قريب.

ثمّ شرع عليه السلام في تقريب ذلك الموعود من الفتن فقال:

[**يا قوم هذا إيّان**] بكسر الهمزة وتشديد الياء أي: وقت [**ورود كلّ موعود**] به ووقت [**دنوٍّ من طلعة ما لا تعرفون**] أي: وقت القرب من ظهور ما لا تعرفون من تلك الأمور بالتفصيل.

[**ألا وإنّ من أدركها**] أي: من أدرك هذه الفتن [**منّا**] معاشر أهل البيت

يسري فيها بسراج منير ويحذو فيها على مثال الصالحين ليلحّ فيها ربقاً ويعتق رقّاً ويصدع فيها شعباً ويشعب صدعاً في سترة عن الناس لا يبصر القائف أثره ولو تابع فيه نظره

[**يسري فيها بسراج منير**] استعار لفظ السراج لكمالات نفسه التي استفائت بها في طريق اللّه من العلوم والأخلاق الفاضلة ولفظ المنير ترشيح وهو إخبار عن معرفته للحقّ وتميّزه عن الباطل وأنّ تلك الفتن لا ترفع له شبهته ولا تأثير لها في عقيدته الصادقة الصافية بل يتصرّف فيها منقاداً لأوامر اللّه على صراطه المستقيم وطريقه النبوي القويم.

[**ويحذو فيها على مثال الصالحين**] ويقتفي فيه اثر آبائه الطاهرين ويلزم مكارم الأخلاق [**ليلحّ فيها ربقاً**] بكسر الراء وتسكين الباء: حبل فيه عدّة عرى يشدّ به البهائم، استعارة لما انعقد في النفوس من العقائد الباطلة والشبه والإمام يحلّها.

[**ويعتق رقّاً**] أي: يعتق الرقاب من رقّ آثامها ويطلقها من أسر جرائمها.

[**ويصدع فيها شعباً ويشعب صدعاً**] الصدع: الشق، والشعب: إصلاحه أي: يصدع، انشعب والتئم من ضلال يمكنه صدعه ويشعب مما انصدع من أمر الدين ما أمكنه شعبه [**في سترة عن الناس**] أي: مغمور في الناس.

[**لا يبصر القائف أثره**] والقائف قصاص الأثر أي: لا يعرفه من يتعرّفه.

[**ولو تابع فيه نظره**] وكرّره مرّة بعد أُخرى وكرّة غبّ أُولى وهذا أمر

ثمّ ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل تُجلى بالتنزيل أبصارهم ويرمي بالتفسير في مسامعهم ويعبقون كأس الحكمة بعد الصبوح

معلوم فإنّ أئمّة أهل البيت ﷺ لم يزالوا مغمورين في الناس لا يعرفهم إلّا من عرّفوه أنفسهم حتّى لو تعرفهم من لا يريدون معرفته لهم لم يعرفهم وليسوا المراد لم يعرف أشخاصهم بل المراد لا يعرف أنّهم أهل الحقّ والأحقّون بالأمر.

وقوله: **[ثمّ ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل]** الشحذ التحديد والقين: الحداد أي في أثناء ما يأتي من القين يشحذ أذهان قوم وتعدّ لقبول العلم والحكمة كما يشحذ الحدّاد النصل ولفظ الشحذ مستعار لإعداد الأذهان ووجه الاستعارة الاشتراك في الإعداد التام النافع، فهو يمضي في مسائل الحكمة والعلوم كمضي النصل فيما يقطع به وهو وجه التشبيه المذكور، ثمّ أخذ في تفسير ذلك الشحذ والإعداد، فقال:

[تُجلى بالتنزيل أبصارهم] أي: تعدّ بالقرآن الكريم ودراسته وتدبّره أبصار بصائرهم لإدراك الحكمة وأسرار العلوم وذلك لاشتمال التنزيل الإلهي عليها.

[ويرمي بالتفسير في مسامعهم] أي: يلقي إليهم تفسيره على وجهه من إمام الوقت ثمّ عبّر عن أخذهم الحكمة ومواظبتهم على تلقّفها بعد استعدادهم لها بالغبوق والصبّوح فقال:

[ويعبقون كأس الحكمة بعد الصبوح] والعبوق الشراب بالعشي والعشي والصبوح الشرب بالغداة وهما مستعاران والمشار إليهم بالاستعداد للحكمة وأخذها علماء الأمّة من جاء منهم قبلنا ومن في آخر الزمان من

وحال الأمد بهم ليستكملوا الخزي ويستوجبوا الغِيَر حتّى إذا اخلولق الأجل واستراح قوم إلى الفتن وأشالوا عن لحقاح حربهم

المستجمعين لكمالات النفوس السالكين لسبيل اللّه المرتضين في نظره ونظر الأئمة من ولده بعده.

ومنها

[وحال الأمد بهم] قيل هذا الفصل يستدعي كلاماً منقطعاً قبله لم يذكره الرضي (رض) قد وصف فيه فئة ضالّة قد استولت وملكت وأملى لها اللّه سبحانه وقيل أشار بمن طال الأمد بهم إلى من كان من أهل الجاهلية ممّن طال أمدهم وامتدّ وقتهم.

[ليستكملوا الخزي] في الدنيا والآخرة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين كفروا انّما نملي لهم خيراً لهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾.

[ويستوجبوا الغِيَر] أي: تغيّر النعم، قال تعالى: ﴿ذلك بأنّ اللّه لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ وقال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً﴾.

[حتّى إذا اخلولق الأجل] أي: صار خلقاً وهو كناية عن بلوغهم غاية مدّتهم المكتوبة بقلم القضاء الإلهي في اللّوح المحفوظ.

[واستراح قوم إلى الفتن] إشارة إلى من يعتزل الوقائع التي ستقع في آخر الزمان من شيعة الحقّ وأنصاره ويستريح إليها أي يجد في اشتغال القوم بعضهم ببعض راحة في الانقطاع والعزلة والخمول.

[وأشالوا عن لحقاح حربهم] أي: رفعوا أنفسهم عن تهيّج الحرب

لم يمنوا على اللّه بالصبر لوم يستعظموا بذل أنفسهم في الحقّ حتّى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدّة البلاء حملوا بصائرهم على أسيافهم ودانوا لربّهم بأمر واعظهم

وأعدّوا أنفسهم لهما كما تعدّ الناقة نفسها بشول ذنبها ورفعه للقاحها وتسمّى شائلاً واستعار اللقاح بفتح اللام لإثارة الحرب.

وقوله: [**لم يمنوا على اللّه بالصبر**] جواب حتّى إذا اخلولق والضمير في تمنّوا عائد إلى العارفين الذين مرّ ذكرهم في الفصل السابق يقول حتّى إذا القى هؤلاء السلم إلى هذه الفئة الضالّة عجزوا واستراحوا من منابذتهم إلى فتنتهم بقية منهم انهض اللّه أُولئك الذين خصّهم بحكمته وأطلعهم على أسرار العلوم ـــــ ولم يمنّوا على اللّه بالصبر في طاعته وفي رواية بالنصر، أي: بنصرهم له [**لوم يستعظموا بذل أنفسهم في**] طلب [**الحقّ حتّى إذا وافق**] القدر الذي هو.

[**وارد القضاء انقطاع مدّة البلاء**] أي: انقطاع مدّة هذه الفتنة وارتفاع ما كان شمل الخلق من بلائهم [**حملوا**] أي: هؤلاء العارفون [**بصائرهم على أسيافهم**] أي: أظهروا عقائد قلوبهم للناس وكشفوها وجرّدوها مع تجريد سيوفهم فكأنّهم حملوها على سيوفهم فترى في غاية الجلاء والظهور كما ترى السيوف المجرّد.

[**ودانوا لربّهم بأمر واعظهم**] وهو الرسول ﷺ وقيل الضمير في يمنوا وما بعده للقوم الذين استراحوا إلى الفتنة واشتالوا عن لقاح الحرب وذلك أنّهم لم يفعلوا ذلك إلاّ لأنّه لم يؤذن لهم في القيام حين استراحتهم وإلقائهم السلم لهذه الفتنة ولم يتمكّنوا من مقاومتهم لعدم قيام القائم بالأمر فكانوا

حتّى إذا قبض اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وآله

حين مسالمتهم صابرين على مضض من ألم المنكر الذي يشاهدونه غير مستعظمين لبذل أنفسهم في نصرة الحقّ أو ظهر من يكون لهم ظهر يلجئون إليه حتّى إذا ورد القضاء الإلهي بانقطاع مدّة بلاء هذه الفئة وظهور من يقوم بنصر الحقّ ودعى إليه حمل هؤلاء بصائرهم على أسيافهم وقاموا لربّهم بأمر من يقوم فيه واعظاً ومخوّفاً وداعياً.

وقوله: [**حتّى إذا قبض اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وآله**]الخ، قيل إنّه منقطع عمّا قباله لأنّ صريحه ذكر غاية ـــــ حال حياة الرسول ﷺ وحال الناس قبله ومعه وليس في الكلام المتقدّم شيء من ذلك، اللّهم إلاّ أن يحمل من طال الأمد بهم في الكلام المتقدّم على من كان من أهل الضلال قبل الإسلام حتّى إذا أخلولق أجلهم واستراح قوم منهم إلى الفتن والوقائع بالنهب والغارة واشتالوا عن لقاح حربهم أي: أعدّوا أنفسهم لها كما تعدّ الناقة نفسها بشول ذنبها للقاحها أيك يرفعه، ويسمّى شايلاً، ويكون الضمير في قوله لم يمنوا راجعاً إلى ذكر سبق للصحابة في هذه الخطبة حين قام الرسول ﷺ فيهم بالحرب لم يمنوا على اللّه بصبرهم معه في نصرة الحقّ ولم يستعظموا بذل انفسهم له حتّى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدّة البقاء بدولة الجاهلية والكفر حمل هؤلاء الذين لم يمنّوا على اللّه بنصرهم بصائرهم أي: ما كانوا يخفونه من الإسلام في أوّله على سيوفهم أي: كشفوا عقائدهم كما سبق القول فيه، أو دمائهم وثاراتهم من الكفّار ودانوا لربّهم بأمر واعظهم وهو الرسول ﷺ وحينئذ يصلح قوله حتّى إذا قبض اللّه رسوله غاية ذلك الكلام.

رجع قوم على الأعقاب وغالتهم السبل واتّكلوا على الولائج ووصلوا غير الرحم وهجروا السبب الذي أُمروا بمودّته

وقوله: [رجع قوم على الأعقاب] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً﴾ والرجوع على الأعقاب كناية عن الرجوع عمّا كانوا عليه من الانقياد للشريعة وأوامر اللّه ورسوله.

[وغالتهم السبل] كناية عن اشتباه طرق الباطل بالحقّ واستراق طرق الباطل لهم وإهلاكها إيّاهم وهي الشبه المستلزمة للآراء الباطلة كما يقال في العرف أخذته الطريق إلى مضيق قيل وهي مجاز في المفرد والمركّب، أمّا في المفرد فلأنّ سلوكهم لسبل الباطل لمّا كان عن غير علم منهم بكونه باطلاً ناسب الغيلة فأطلق عليه لفظها وأمّا في المركّب فلأنّ إسناد الغيلة إلى السبل ليس حقيقة إذ الغيلة من فعل العقلاء.

وقوله: [واتّكلوا على الولائج] جمع وليجة وهي بطانة الرجل وخاصّته من أهله وعشيرته كنّى به عن اعتماد كلّ من رأى منهم رأياً فاسداً على أهله وخواصّه في نصرة ذلك الرأي.

[ووصلوا غير الرحم] التي أمروا بصلتها وهي رحم الرسول ﷺ وبها فسّر قوله تعالى: ﴿فاتّقوا اللّه الذي تُسائلون به والأرحام﴾.

[وهجروا السبب الذي أُمروا بمودّته] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾ وظاهر كونهم سبباً لمن اهتدى بهم في الوصول إلى اللّه والسبب في اللغة الحبل إشارة إلى النبوي المتواتر: «إنّي خلّفت فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي حبلان ممدودان من السماء

ونقلوا البناء عن رصّ أساسه فبنوه في غير موضعه معادن كلّ خطيئة وأبواب كلّ ضارب في غمره قد ماروا في الحيرة وذهلوا في السكرة فهم على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين

إلى الحوض لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».

[**ونقلوا البناء عن رصّ أساسه**] رص الأساس: إحكامه [**فبنوه في غير موضعه**] إشارة إلى العدول بأمر الخلافة عنه وعن أهل بيته إلى غيرهم وهذه الخصلة كسابقتها دخول في رذيلة الظلم من وضع الشيء في غير محلّه.

ثمّ وصفهم وصفاً إجمالياً بأنّهم [**معادن كلّ خطيئة**] أي: أنّهم مستعدّون لفعل كلّ خطيئة ومهيّؤن لها فهم مظانّها ولذا استعار لفظ المعادن.

وكذا قوله: [**وأبواب كلّ ضارب في غمره**] استعار لفظ الأبواب لهم باعتبار أنّ كلّ من دخل في غمرة جهالة أو شبهة يثيرها فتنة واستعان بهم فتحوا له ذلك الباب وساعدوه وحسّنوا له رأيه فكأنّهم بذلك أبواب له إلى مراده الباطل يدخل منها.

[**قد ماروا**] أي: تحرّكوا وتردّدوا [**في الحيرة**] فهم في أمرهم حائرون لا يعرفون جهة الحقّ فيقصدونه.

[**وذهلوا**] أي: غابت أذهانهم [**في السكرة**] في سكرة الجهل [**فهم على سنّة من آل فرعون**] وطريقته وإنّما انكر السنّة لأنّه يريد بها مشابهتهم في بعض طريقه وآل فرعون واتباعه.

وقوله: [**من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين**] تفصيل لهم باعتبار كونهم على سنّة من آل فرعون فمنهم المنقطع إلى الدنيا المنهمك

واستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره الاعتصام من حبائله ومخائله وأشهد أنّ لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله ونجيبه وصفوته لا يوازى فضله

في لذّاتها المنكبّ على تحصيلها ومنهم المفارق للدين المباين له وإن لم يكن له ذنباً.

ومن خطبة له عليه السلام

[**واستعينه على مداحر الشيطان**] جمع مدحر وهي الأُمور التي بها يدمّر ويطرد.

[**ومزاجره**] ما يزجر به من العبادات والأعمال الصالحة المستلزمة لطرده وزجره وتطويعه.

وعلى [**الاعتصام من حبائله**] وهي الشهوات واللذات الدنيوية استعار لها لفظ الحبائل وهي أشراك الصائد لمناسبتها إيّاها في استلزام الحصول فيهما للبعد عن السلامة والحصول في العذاب.

[**ومخائله**] أي: محال غروره التي يخيل إلى الناس بها وتوهّمهم أنّها نافعة.

[**وأشهد أنّ لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله ونجيبه**] أي: مختاره من الخلق وفي رواية ونجيّه أي: اختصّه بالمناجاة.

[**وصفوته**] اصطفاه من خلقه [**لا يوازى فضله**] أي: لا أحد يماثله في

ولا يجبر فقده أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة الجفوة الجافية والناس يستحلّون الحريم ويستذلّون الحليم

فضائله النفسانية وملكاته الخلقيّة.

[**ولا يجبر فقده**] إذ لا مثل له يقوم مقامه وهو خاتم الأنبياء وأفضلهم فلا جبران لفقده.

[**أضاءت به البلاد**] بأنوار علومه الإلهيّة ومعارفه الربّانية وهداياته الساطعة وبراهينه القاطعة وآياته الواضحة ودلالاته اللائحة [**بعد الضلالة**] أي: ضلالة الكفر.

ووصفها بلفظ [**المظلمة**] لعدم الاهتداء فيها للحقّ فالوصف مستعار وكذا وصف الإضاءة به مستعان لاهتداء الخلق به في معاشهم ومعادهم وإسناد الإضاءة إلى البلاد مجاز.

[**والجهالة الغالبة**] على أكثر الخلق والمراد بالجهل بالطريق الموصل إلى رضاء اللّه تعالى وكيفية نظام المعاش ممّا أبانته الشريعة الغرّاء والملّة الزهراء.

وأراد بقوله: [**الجفوة الجافية**] غلظة أطباع العرب وماكانوا عليه من قساوة القلوب وسفك الدماء ووصفهما بما اشتقّ منها مبالغةً وتأكيداً لها وأراد الجفوة القويّة.

[**والناس يستحلّون الحريم**] الواو للحال وعاملها أضاءت.

وكذا قوله: [**ويستذلّون الحليم**] لأنّ عادة العرب كما قيل إلى الآن استذلال من عقل منهم وحلم عن الغارة والنهب وإثارة الفتن واستهضامه ونسبته إلى الجبن والضعف.

يحيون على فترة ويموتون على كفرة ثمّ إنّكم معشر العرب أعراض بلايا قد اقتربت فاتّقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النعمة وتثبّتوا في قتام العشوة

[**يحيون على فترة**] أي: على حالة انقطاع الوحي والرسل وتلك حال انقطاع الخير وموت النفس بداء الجهل.

[**ويموتون على كفرة**] وزان فعلة من الكفر إذ لا هادي لهم وقد مرّ مراراً أنّ الفترة على مذهب أهل العدل عبارة عن خفاء الحقّ وعدم ظهوره لا عن خلوّ الأرض من حجّة.

ثمّ شرع في إنذار السامعين ووعظهم وتخويفهم فقال:

[**ثمّ إنّكم معشر العرب أعراض بلايا قد اقتربت**] واستعار لهم العرض لأنّهم يرمون بالحوادث والوقائع المستقبلة كما يرمى العرض بالسهام ولمّا كانت الفتن الحادثة كتدمير قوم وإهلاكهم مثلاً بحسب استعدادهم لذلك وكان أكبر الأسباب المعدّة له هي الغفلة عن ذكر اللّه بالانهماك في نعم الدنيا ولذّاتها استعار للغفلة السكرات أو أمر باتّقائها.

وقال: [**فاتّقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النعمة**] البوائق: جمع بائقة وهي الداهية حذّر من دواهيها بسبب كفر النعم.

[**وتثبّتوا في قتام العشوة**] القتام بفتح القاف الغبار والعشوة بكسر العين: الأمر على غير بيان ووضوح، وفي رواية: تبيّنوا أمر بالتثبّت أو التبيّن عند اشتباه الأمور فإنّ الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، واستعار القتام للأمر المشتبه لكونه ممّا لا يهتدي فيه خائصه كما لا يهتدي القائم في الغبار عند ظهوره وخوضه.

واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها وظهور كمينها وانتصاب قطبها ومدار رحاها تبدء في مدارج خفيّة وتؤول إلى فظاعة وجليّة

[**واعوجاج الفتنة**] إتيانها على غير وجهها [**عند طلوع جنينها**] أي: عند ظهور ما اجتنّ منها وخفي عليكم.

[**وظهور كمينها**] أي: ما كمن منها واستتر ويحتمل أن يكون النين والكمين استعارة.

[**وانتصاب قطبها**] أي: قيامه، وعنى بالقطب من تدور عليه من البغاة المنافرين استعارة.

وكذا استعار [**ومدار رحاها**] لدورانها على من تدور عليه من أنصار ذلك القطب وعسكره الذين يدور عليهم الفتنة.

ثمّ أخبر ﷺ أنّها [**تبدء في مدارج خفيّة**] وأراد بالمدارج صدور من ينوي القيام فيها ويعقد على آثارها قيل وكان هذا إشارة إلى فتنة بني أُميّة وقد كان مبدئها شبهة قتل عثمان ولم يكن أحد من الصحابة يتوهّم خصوصيّة هذه الفتنة وإنّما كانوا علموا من الرسول ﷺ حدوث وقائع وفتن غير معيّنة الأزمان ولا من يثيرها ويكون قطباً لها فخفاء مدارجها كتمان معاوية وطلحة والزبير وغيرهم لأُمورهم وما عزموا عليه من إقامة الفتنة والطمع في الملك والدولة حتّى آل ذلك الأمر إلى الأُمور القطيعة المشار إليها بقوله:

[**وتؤول إلى فظاعة**] وهي تجاوز الأمر الشديد الحدّ والمقدار.

[**وجليّة**] أي: واضحة بعد الخفاء.

شبابها كشباب الغلام إثارتها كآثار السِّلام يتوارثها الظَّلَمة بالعهود أوّلهم قائد لآخرهم وآخرهم مقتد بأوّلهم يتنافسون في دنياً دنيّة ويتكالبون على جيفة مريحة

[**شبابها كشباب الغلام**] استعار لفظ الشباب لقيامها وظهورها في الناس ووجه الشبب السرعة في الظهور، ولذا أكّدها بتشبيه ذلك الظهور بشباب الغلام في السرعة ومع سرعتها [**إثارتها**] في هدم الإيمان والإسلام [**كآثار السِّلام**] بكسر السين الحجارة الصمّ واحدها أسلمة بكسر السين في الجلد، ووجه الشبه إفسادها للدين ونظام المسلمين كإفساد الحجر ما يقع عليه بالرضّ والكسر.

[**يتوارثها الظَّلَمة**] كبني أُميّة شرّابي الخمور ومرتكبي الفجور [**بالعهود**] بعهد الأب لإبنه.

[**أوّلهم قائد لآخرهم**] إلى النار والدخول في ظلم الضلالة وإثارة الفتن والجهالة، واستعار لفظ القود لتهيئة الأوّل منهم أسباب الملك لمن بعده.

[**وآخرهم مقتد بأوّلهم**] في ذلك وضمير المفعول في يتوارثونها يرجع إلى تلك الفئة.

[**يتنافسون في دنياً دنيّة**] وإشارة بالوصف إلى عدم قابليتها للتنافس وأنّه ينبغي أن يكون في الدائم الباقي العالي كما قال تعالى في نعيم الجنّة ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

[**ويتكالبون على جيفة مريحة**] أي: منتة استعار وصف التكالب لمجاذبة بعضهم لبعض عليها كالمجاذبة بين الكلاب على الميتة فاستعار لها لفظ الجيفة

وعن قليل يتبرّء التابع من المتبوع والقائد من المقود فيتزايلون بالبغضاء ويتلاعنون عند اللقاء ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف

ورشّح بذكر الريحة للتنفير عنها لاستلزامها أذى طالبها ولهرب العقلاء منها كما يهربون من الجيفة المنتنة وإليه أشير في النبوي «الدنيا جيفة وطالبها كلاب».

[**وعن قليل يتبرّء التابع من المتبوع والقائد من المقود**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إذ تبرّء الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب﴾.

[**فيتزايلون**] أي: يتفارقون ويتباينون [**بالبغضاء**] إذ لم تكن أُلفتهم ومحبّتهم إلاّ لغرض دنيوي قد زال وفنى.

[**ويتلاعنون عند اللقاء**] يلعن بعضهم بعضاً ويبرء بعضهم من بعض ﴿كلّما دخلت أمّة لعنة أختها﴾ ثمّ إنّ الظاهر أنّ التبرّي المذكور في القيامة وقيل هو عند ظهور الدولة العبّاسية فإنّ العادة جارية بتبرء الناس من الولاة المعزولين خصوصاً عند الخوف ممّن تولى عزل أُولئك أو قتلهم وقيل قوله عن قليل إلى قوله عند اللقاء جملة اعتراضية مؤكّداً بها معنى تعجّبه منهم فكأنّه قال: إنّهم مع تكالبهم عليها عن قليل يتبرّء بعضهم من بعض وذلك أدعى لهم إلى ترك التكالب.

[**ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف**] قيل كأنّ هذه الفتنة فتنة التتار إذ الدائرة فيها على العرب وقيل هي إشارة إلى فتنة الدجّال كنّى عن أهوالها واضطرابه أمر الإسلام فيها بكونها وجوفاً أي: كثيرة الوجف وطالعها مقدّماتها وأوائلها.

والقاصمة الزحوف فتزيغ قلوب بعد استقامة وتضلّ رجال بعد سلامة عند هجومها وتلتبس الآراء عند نجومها من أشرف لها قصمته ومن سعى فيها حطمته يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة قد اضطرب معقود الحبل

[**والقاصمة**] للظهر كناية عن هلاك الخلق فيها [**الزحوف**] إشارة لشبهها بالرجل الشجاع الكثير الزحف في الحرب إلى أقرانه [**فتزيغ**] تلك الفتنة [**قلوب**] عن سبيل اللّه [**بعد استقامة**] كانّ منها على الحقّ.

[**وتضلّ رجال**] ويهلكون في الآخرة بالمعاصي [**بعد سلامة**] منه [وتختلف الأهواءخ عن إرادة اللّه تعالى وأوامره [**عند هجومها وتلتبس الآراء**] الصحيحة بالفاسدة [**عند نجومها**] أي: ظهورها على الناس فلا يعرفون وجه المصلحة من غيره [**من أشرف لها**] أي: تطلّع إلى مقاومتها [**قصمته**] أي: أهلكته.

[**ومن سعى فيها**] أي: في قيامها [**حطمته**] والمراد أنّ المتطلّع إلى دفعها ومقاومتها والساعي في قيامها أي قائلها ومقاومها يهلكان فيها [**يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة**] التكادم التعاض بأدنى الهمّ والعانة القطيع من حمر الوحش واستعار التكادم لمغالبة مثيري هذه الفتنة بعضهم لبعض أو لمغالبتهم لغيرهم وشبه ذلك بكادم الحمر في العانة ووجه الشبه المغالبة مع الإيماء إلى خلعهم ربق التكليف من اعناقهم وكثرة غفلتهم عمّا ـــــ في الآخرة.

[**قد اضطرب معقود الحبل**] استعار معقود الحبل لما انتظم من أمر الدين واستقام من دولة الإسلام ولفظ الحبل للدين وكنّى باضطرابه عن عدم

وعمي وجه الأمر تغيض فيها الحكمة وتنطق فيها الظلمة وتدقّ أهل البدو بمسحلها وترضّهم بكلكلها يعيض في غبارها الوحدان ويهلك في طريقها الركبان

استقرار قواعد الدين عند ظهور أوّل هذه الفتنة.

[وعمي وجه الأمر] بحيث لا يهتدي فيه إلى وجه المصلحة **[تغيض فيها الحكمة]** أي: الحكمة الخليقة التي عليها مدار الشريعة وتعليمها واستعار لفظ الغيض لعدم ظهورها والانتفاع بها.

[وتنطق فيها الظلمة] أي: بالأمر والنهي وما تقتضيه آرائهم الخارجة عن العدل.

[وتدقّ أهل البدو بمسحلها] المسحل المبرد والمسحل حلقة تكون في طرف شكيمة اللجام مدخلة في مثلها استعارة لما تؤذي به العرب وأهل البادية ووجه الشبه اشتراك المبرد أو شكيمة اللجام وما تؤذي به العرب من هذه الفتنة في الإيذاء فكأنّها شجاع ساق عليهم فدقّهم بشكيمة فرسه أو نحو ذلك.

[وترضّهم بكلكلها] استعار الكلكل لما يدهم البدو منها ملاحظة لشبهها بالناقة التي تبرك على الشيء فتسحقه.

وقوله: **[يعيض في غبارها الوحدان]** جمع واحد **[ويهلك في طريقها الركبان]** كناية عن عظمها، أي: لا يقاومها أحد ولا يخلص منها الوجدان أو الركبان ولفظ الغبار مستعار للقليل اليسير من حركة أهلها أي: أنّ القليل من الناس إذا أرادوا دفعها هلكوا في غبارها من دون أن يدخلوا في غمارها.

تَردُ بمُرِّ القضاء وتحلب عبيط الدماء ويثلم منار الدين وتنقض عقد اليقين تهرب منها الأكياس وتدبّرها الأرجاس مرعاد مبراق

وأمّا الركبان وكنّى بهم عن الكثير من الناس فإنّهم يهلكون في طريقها وعند خوضها وقيل اراد بالوحدان فضلاء الوقت كما يقال: فلان واحد وقته، وبالغبار الشبه التي تغطي الحقّ عن أعينهم ويكون الركبان كناية عن الجماعة أهل القوّة وإذا كان هؤلاء يهلكون في طريقها أي: عند الخوض في غمراتها فغرّهم بطريق أولى.

[**تَردُ بمُرِّ القضاء**] كناية عن القتل والأسر ونحوهما وظاهر كون الواردات المؤذية أو النافعة واردة عن القضاء الإلهي معلومة الكون.

[**وتحلب عبيط الدماء**] العبيط الخالص الطري استعار وصف الحلب للواردات النافعة والمؤذية ملاحظة لشبهها بالناقة وكنّى بذلك عن سفك الدماء فيها.

[**ويثلم منار الدين**] أي: أعلامه وهم العلماء أو قوانينه الكلّية وثلمها عبارة عن قتل العلماء وهدم قواعد الدين وترك العمل به.

[**وتنقض عقد اليقين**] ما انعقدت في النفس من الأمور المتيقّنة الموصلة إلى جوار الله ورضوانه [**تهرب منها الأكياس**] وهم العلماء وأهل العقول السليمة.

[**وتدبّرها الأرجاس**] لأنّهم أرجاس النفوس برجس الشيطان أنجاس النفوس بالهيئات البدنية والملكات الرديّة أنجاس الأبدان بحكم الشريعة.

وكنّى عن شدّتها وكونها محلّ المخاوف بقوله: [**مرعاد مبراق**] المستعارين ملاحظة لشبههما بالسحابة كثيرة البروق والرعود.

كاشفة عن ساق تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام بريّها سقيم وظاعنها مقيم بين قتيل مطلول وخائف مستجير يختلون بعقد الإيمان وبغرور الإيمان فلا تكونوا أنصاب الفتن وأعلام البدع

وقوله: [**كاشفة عن ساق**] كناية عن إقبالها مجرّدة كالمشمّر للحرب أو لأمر مهمّ وظاهر كونها حينئذ [**تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام بريّها**] من تبرء منها وهرب عنها [**سقيم**] لأنّ العالم في هذه الفتنة من معصية اللّه أقلّ قليل، ولعلّه لا يوجد.

[**وظاعنها مقيم**] أي: الهارب عنها غير ناج منها، بل كأنّه مقيم فيها، وقيل أشار بظاعنها إلى من يعتقد أنّه متخلّف عنها وغير داخل فيها وظاهر كونه غير منحرف عنها ويحتمل أن يريد به أنّ من ارتحل عنها خوفاً لا ينجو منها.

ومنها

[**بين قتيل مطلول**] يقال: طلّ دم فلان فهو مطلول إذا هدر ولم يطلب به.

[**وخائف مستجير**] قيل يشبه أن يكون هذا الكلام صفة حال التمكين بالدّين في زمان الفتنة الأُولى.

[**يختلون**] صفة ما قبله أيك يجدعون [**بعقد الإيمان**] أي: يخدعون بإعطاء الأقسام والعهود الكاذبة كما خدعوا الحسين عليه السلام وأصحابه، وروي يختلفون بالبناء للفاعل فيكون وصف حال أهل الفتنة واتّباعهم.

[**وبغرور الإيمان**] أي: يغرّون الناس بظاهر الإيمان فيخدعوا به.

[**فلا تكونوا أنصاب الفتن**] وفي نسخة أنصار الفتن [**وأعلام البدع**]

والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة بنيت عليه أركان الطاعة وأقدموا على اللّه مظلومين ولا تقدموا عليه ظالمين واتّقوا مدارج الشيطان ومهابط العدوان ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام

أي: رؤساء يشار إليكم ويقتدى بكم فيها كما يشار إلى الأعلام البيّنة وفي الخبر كن في الفتنة كابن اللّبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيُحلب.

[**والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة**] أي: نظام المسلمين بالدِّين وما عقدت عليه الألفة والتؤازر وذلك هو الذي [**بنيت عليه أركان الطاعة**] أي: طاعة اللّه بل أركان الإسلام.

[**وأقدموا على اللّه مظلومين ولا تقدموا عليه ظالمين**] ليس المراد الأمر بالانظلام لكونه رذيلة بل إذا تعارضت الظالمية والمظلومية فالمظلومية أولى والمعنى إذا كانت لكم مكنة من الظلم فلا تظلموا ولو استلزم ترك الظلم انظلامكم.

[**واتّقوا مدارج الشيطان**] أي: طرقه من الرذائل التي يحسّنها إليكم ويقودكم إليها.

[**ومهابط العدوان**] أي: محاله التي يهتبط فيها وهي من طرق الشيطان أيضاً.

[**ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام**] اللعق جمع لعقة وهي اسم لما تتناوله الملعقة كناية عمّا يكتسبه الإنسان من الدنيا ومتاعها على غير الوجه الشرعي ونبّه باللعق على حقارتها بالنسبة إلى متاع الآخرة ونبّه على وجوب الانتهاء عمّا نهى عنه بقوله:

فإنّكم بعين من حرّم عليكم المعصية وسهّل لكم سبيل الطاعة الحمد للّه الدالّ على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته باشتباههم

[فإنّكم بعين من حرّم عليكم المعصية وسهّل لكم سبيل الطاعة] أي: بمرئى ومسمع منه فإنّه عالم بظاهركم وباطنكم وسرّكم وعلانيتكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم وأحوالكم ونبّه على أنّ العلم بذلك أردع لهم وأزجر عن المعصية.

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الدالّ على وجوده بخلقه] كما قال تعالى: ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأُولي الألباب﴾ وهذا طريق المتكلّمين في الاستدلال بحدوث العالم على محدثه.

[وبمحدث خلقه على أزليته] إذ جميع المحدثات صادرة عن قدرته تعالى ومنتهية عندها فلو كان هو محدثاً لكان محدثاً لنفسه وهو باطل ضرورة **[باشتباههم]** أي: بمشابهة بعضهم بعضاً في الاحتياج إلى المؤثّر والمدبّر [على انّ لا شبه له.

والمراد اشتباههم في الجسميّة والجنس والنوع والأشكال والمقادير والألوان ونحو ذلك وهو تعالى منزّه عن ذلك إذ ليس داخلاً تحت جنس لبرائته عن التركيب المستلزم للإمكان ولا تحت النوع لافتقاره في التخصيص بالعوارض إلى غيره ولا بذي مادّة لاستلزامها التركيب ايضاً فليس بذي شبيه في شيء من الأمور المذكورة والأوّل أعمّ في نفي التشبيه.

لا تستلمه المشاعر ولا تحجبه السواتر لافتراق الصانع والمصنوع والحاد والمحدود والربّ والمربوب الاحد لا بتأويل عدد والخالق لا بمعنى حركة ولا نصب والسميع لا بأداة

[لا تستلمه المشاعر] لأنّ استلزامها مستلزم للجسمية والأعراض القائمة بها وهو منزّه عن ذلك وقد تنزّه عن إدراك المشاعر ولمسها.

[ولا تحجبه السواتر] لأنّ الحجاب والستر من لواحق ذي الجهة والجسمية وهو منزّه عنهما.

[لافتراق الصانع والمصنوع والحاد والمحدود والربّ والمربوب] إذ كان لكلّ منهما صفات تخصّه ويتميّز بها عن الآخر بالمخلوقيّة والحدوث والاشباه والملموسيّة بالمشاعر وحجب السواتر من لواحق الأمور المصنوعة ومما ينبغي لها ويليق بها والوجود الأزلي الذي لا شبه له المنزّه عن لمس المشاعر وحجب السواتر من لواحق الصانع الأوّل.

والمراد بالحاد: خالق الحدود والنهايات واعتبار الصانع غير اعتبار الأب لدخول الملاكية في مفهوم الربوبيّة دون الصنع.

[الأحد لا بتأويل عدد] أيك وحدانيّته ليس بمعنى كونه مبدء لكثرة تعد به كما يقال في أوّل العدد واحد بل واحديّته تعالى بمعنى انّه لا ثاني له في الوجود ولا جزء له ولا كثرة في ذاته لا ذهناً ولا خارجاً.

[والخالق لا بمعنى حركة ولا نصب] اي: هو تعالى في خالقيّته منزّه عن الحركات والمتاعب لأنّهما من لواحق الأجسام المنزّه قدسه عنها.

[والسميع لا بأداة] يسمع بها كالاذن والصماخ بل بمعنى انّه تعالى عالم بالمسموعات.

والبصير لا بتفريق آلة والشاهد لا بمماسّة والبائن لا بتراخي مسافة والظاهر لا برؤية والباطن لا بلطافة بان من الأشياء بالقهر والغلبة عليها وبانت الأشياء منها بالخضوع له والرجوع إليه

[**والبصير لا بتفريق آلة**] من بعث القوّة الباصرة وتوزيعها على المبصرات أو بتقليب الحدقة وتوجيهها مرّة إلى هذا المبصر ومرّة إلى ذاك وظاهر تنزيهه تعالى عن الأبصار بآلة الحسّ لكونها من توابع الجسميّة ولواحقها بل هو تعالى عليم بالمبصرات.

[**والشاهد**] أي: الحاضر عند كلّ شيء [**لا بمماسّة**] شيء كحضور الجسمانيّات المستلزمة للقرب المستلزم لمماسّة الأجسام بل هو تعالى الحاضر بعلمه عند كلّ شيء والشاهد لكلّ شيء من غير قرب ولا مماسّة.

[**والبائن**] أي: المباين للأشياء [**لا بتراخي مسافة**] كالبعد المكاني في الأشياء بل المراد بعد إدراك كنهه عن العقول والأفهام.

[**والظاهر**] وجوده بآياته وآثاره [**لا برؤية**] كالأجسام الظاهرة لحسّ البصر.

[**والباطن**] المطّلع على الأشياء الباطنية الخفيّة يعلم السرّ وأخفى [**لا بلطافة**] إذ الباطن من المخلوق ما كان لطيفاً إمّا لصغر حجمه أو لطافة قوامه كالهواء.

[**بان من الأشياء**] وامتاز عنها [**بالقهر والغلبة عليها**] والاستيلاء وكونه قادراً على اتحادها واعدامها.

[**وبانت الأشياء منها بالخضوع له والرجوع إليه**] أي: بكونها خاضعة في ذلّ الإمكان والحاجة لعزّته وقهره وراجعة في وجودها وكمالاتها إلى

من وصفه فقد عدّهُ ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله ومن قال كيف فقد استوصفه ومن قال أين فقد خيّزه عالم إذ لا معلوم وربّ إذ لا مربوب وقادر إذ لا مقدور

وجوده وبذلك حصل التباين بينه وبينها.

[**من وصفه فقد عدّهُ**] قيل: المراد بوصفه هنا هو إشارة الوهم إليه واستثباته بكيفيّات وصفات.

[**ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله**] إذ عدّه عبارة عن جعله مبدء لكثرة معدودة أو عن كونه ذا أجزاء معدودة وذلك من لواحق الممكن الحادث المبطل للأزليّة وقد مرّ تفسير هذه الفقرات في الخطبة الأولى ومن وصفات.

[**ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله**] إذ عدّه عبارة عن جعله مبدء لكثرة معدودة أو عن كونه ذا أجزاء معدودة وذلك من لواحق الممكن الحادث المبطل للأزليّة وقد مرّ تفسير هذه الفقرات في الخطبة الأولى.

[**ومن قال كيف فقد استوصفه**] لأنّ كيف سؤال عن الكيفية والصفة وهو تعالى منزّه عنها.

[**ومن قال أين فقد خيّزه**] لأنّ أين سؤال عن الحيز والجهة اللذين هما من لواحق الأجسام وهو تعالى منزّه عنها.

[**عالم إذ لا معلوم وربّ إذ لا مربوب وقادر إذ لا مقدور**] إذ هو تعالى متقدّم بذاته على معلوماته ومعلولاته وظاهر عند هذا الاعتبار أنّه لا معلوم في الوجود سوى ذاته لذاته ولا مربوب ولا مقدور موجود هناك بل هي

قد طلع طالع ولمع لامع ولا لائح واعتدل مائل واستبدل اللّه بقوم قوماً وبيوم يوماً وانتظروا الغير انتظار المجدب المطر

واجبة التأخّر عن ذلك الاعتبار.

ومنها

[**قد طلع طالع**] إشارة إلى ظهور أمر الخلافة له وانتقالها إليه.

[**ولمع لامع**] إشارة إلى ظهور نور العدل ولمعان برق الحق بحلولها محلّها ورجوعها إلى أهلها.

[**ولا لائح**] إشارة إلى ما يلحق انتقالها إليه من الفتن والحروب الموعودة التي لاحت إماراتها يومئذ وقيل المراد بالثلاثة معنى واحد وهو انتقال الخلافة إليه.

[**واعتدل مائل**] أي: الخلافة التي كانت في غير أهلها مائلة عن محلّها اعتدلت الآن برجوعها إلى مقرّها.

[**واستبدل اللّه بقوم**] سبقوا على إخراج الحقّ عن أهله [**قوماً**] أعانوا على ردّ الحقّ إلى أهله وهم شيعته وأنصاره وأعوانه.

[**وبيوم يوماً**] كناية عن زمانهم بزمانهم.

[**وانتظروا الغير**] أي: تغيّرات الدهر وتقلّبات الأحوال الموجبة لانتقال الأمر إليه ورجوع الحقّ لديه إذ كان موعوداً به.

[**انتظار المجدب المطر**] وفيه إشارة إلى انتظاره لذلك لا من حيث الرياسة الدنيويّة لشمول العدل وظهور الحقّ في موارده المشبه لوقع المطر في الأرض المجدبة واستلزمه للخير والبركة.

ثمّ شرع عليه السلام في تعريف حال الأئمة عليهم السلام فقال:

وإنّما الأئمة قوّام اللّه على خلقه وعرفائه على عباده لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلاّ من أنكرهم وأنكروه إنّ اللّه قد خصّكم بالإسلام واستخلصكم وذلك لأنّه اسم سلامة وجماع كرامة

[**وإنّما الأئمة قوّام اللّه على خلقه**] القائمون بأوامره ونواهيه وشرائعه وأحكامه في بلاده.

[**وعرفائه**] وأمنائه وحججه [**على عباده**] والعرفاء جمع عريف، وهو النقيب وهو دون الرئيس.

[**لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم وعرفوه**] إذ لا يمكن دخول الجنّة لأحد إلاّ باتّباع الشريعة ولزوم العمل بها ولا يمكن ذلك إلاّ بمعرفتها ومعرفة كيفية العمل بها ولا يمكن ذلك إلاّ ببيان صاحب الشريعة والقائم بها وإرشاده وتعليمه وذلك لا يمكن إلاّ بمعرفة المأموم للإمام ولأنّ الإمامة من أصول الدين على مذهب الإمامية، ولذا قال:

[**ولا يدخل النار إلاّ من أنكرهم وأنكروه**] وفي النبوي المتفق عليه: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

ثمّ شرع في بيان ما امتنّ اللّه عليهم به فقال:

[**إنّ اللّه قد خصّكم بالإسلام**] من بين سائر الملل.

[**واستخلصكم**] له وأعدّكم لقبوله من دون سائر الأمم.

[**وذلك لأنّه اسم سلامة**] ومشتقّ منها بالدخول في الطاعة الموصلة إلى رضى اللّه والنعيم الأبدي.

[**وجماع كرامة**] أي: مجموع كرامة من اللّه لخلقه لأنّ مدار جميع الآيات القرآنية على هداية الخلق إلى سبيل اللّه القائدة إلى جنّته.

اصطفى اللّه منهجه وبيّن حججه من ظاهر علم وباطن حكم لا تفنى غرائبه ولا تنقضي عجائبه فيهم مرابيع النعم ومصابيح الظلم

[اصطفى اللّه منهجه] أي: طريقته الواضحة المؤدّية للسالكين بأيسر سعي إلى رضوان اللّه.

[وبيّن حججه] الواضحة وبراهينه اللائحة وآياته الباهرة ومواعظه الزاجرة.

ثمّ شرع في بيان ذلك وتقييمه بقوله:

[من ظاهر علم] وأشار به إلى ظواهر الشريعة وأحكامها من حلالها وحرامها.

[وباطن حكم] من البطون التي اشتملت عليها الآيات القرآنية والأسرار التي تضمنتها الأخبار النبوية والآثار المعصوميّة.

[لا تفنى غرائبه] وفي نسخة عزائمه أي: آياته المحكمة وبراهينه العازمة أي: القاطعة وعدم فنائها إشارة إلى إثباتها واستقرارها على طول المدّة وتغيّر الأعصار.

[ولا تنقضي عجائبه] لأنّه كلّما تأمّله الإنسان استخرج منه بفكره الثاقب ونظره الصائب لطائف معجبة من أنواع العلوم لم تكن عنده من قبل.

[فيهم مرابيع النعم] وهي الأمطار التي تأتي زمن الربيع فتحيي الأرض وتنبت الكلأ استعارها لما يحصل عليه الإنسان من النعم ببركة تعلّم القرآن ولزوم أوامره ونواهيه وحكمه وآدابه.

[ومصابيح الظلم] استعار المصابيح لقوانينه وقواعده الهادية إلى اللّه

لا تفتح الخيرات إلّا بمفاتحه ولا تكشف الظلمات إلّا بمصابيحه قد أحمى حماه وأرعى مرعاه فيه شفاء المستشفي

في سبيله كما يهدي المصباح في الطريق المظلم.

[**لا تفتح الخيرات**] الحقيقية الباقية [**إلّا بمفاتحه**] استعار المفاتح لمناهجه وطرقه الموصلة إلى تلك الخيرات، ووجه الاستعارة كونها أسباباً موصلة إليها كما أنّ المفاتيح أسباب موصلة إلى خيرات الخزائن مثلاً.

[**ولا تكشف الظلمات إلّا بمصابيحه**] أراد بالظلمات ظلمات الجهل بعضها فوق بعض وبالمصابيح قوانينه كما سبق.

[**قد أحمى حماه**] أي: هيّئه وعرّضه لأن يحمى كما يقال: أقلبت فلاناً أي: هيّأته للقتل واستعار لفظ الحمّى لحفظه وتدبّره والعمل بقوانينه إذ بذلك يكون حفظ الشخص وحراسته امّا في الدنيا فلاحترام أهلها حملة القرآن، وأمّا في الآخرة فلحماية حفظته والعاملين به من العذاب كما يحمى الحمى من يلوذ به ونسبة الإحماء إليه مجاز إذ المعرض له أن يتدبّر ويعمل به هو اللّه ورسوله ﷺ وحملته.

وقيل: أراد بحماه محارمه وأحماه أي: منع بنواهيه وزاجره أن تستباح محارمه.

[**وأرعى مرعاه**] أي: هيّئه لأن يرعى، استعار المرعى للعلوم والحكم والآداب التي يشتمل عليها القرآن ووجه الشبه أنّ هذه مراعي النفوس الإنسانيّة وغذائها الذي به يكون نشوّها العقلي وتمامها الفعلي كما أنّ المراعي المحسوسة من النبات والعشب غذاء للأبدان الحيوانية التي بها يقوم وجودها.

[**فيه شفاء المستشفي**] أي: طالب الشفاء منه أمّا في الأبدان فبالتعوّذ به

وكفاية المكتفي وهو في مهلة من اللّه يهوي مع الغافلين ويعدو مع المذنبين بلا سبيل قاصد لا إمام قائد

مع صدق النيّة وسلامة الصدر وأمّا في النفوس فلشفائها به من امراض الجهل.

[وكفاية المكتفي] أي: طالب الكفاية أمّا في الدنيا فلأنّ حملة القرآن الطالبين به الدنيا أقدر أكثر الناس على الاحتيال به في تحصيل مطالبهم وكفايتهم، وأمّا في الآخرة فلأنّ طالب الكفاية منها يكفيه تدبّر القرآن ولزوم مقاصده في تحصيل مطلوبه.

ومن خطبة له عليه السلام
في صفة مطلق الضالّ

[وهو في مهلة من اللّه] إشارة إلى مدّة عمره المضروبة له من اللّه.

[يهوي مع الغافلين] إشارة إلى سقوطه وانخراطه في سلك الغافلين بسبب جهله وغفلته عمّا يراد به واستعار الهوي لذلك !الانخراط وتلك المتابعة لأنّ المنهمك في مجاري الغفلة ومسالك الجهل ينحطّ بها عن درجة أهل السلامة ويهوي في مهابط الهلاك وهي الرذائل المبعّدة من اللّه كما أنّ الهاوي من علوّ كذلك.

[ويعدو مع المذنبين] أي: يسرع إلى موافقتهم فيما هم فيه من المعاصي **[بلا سبيل قاصد]** للحقّ من آية محكمة أو سنّة عادلة **[لا إمام قائد]** إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

حتّى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم واستخرجهم من جلابيب غفلتهم استقبلوا مدبراً واستدبروه مقبلاً فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم ولا بما قضوا من وطرهم فإنّي أُحذِّركم ونفسي هذه المنزلة

ومنها
في صفة الغافلين عن الآخرة المنهمكين في الدنيا الغادرة

[حتّى إذا كشف] أي: ربّهم **[لهم عن جزاء معصيتهم]** برفع حجب الشهوات وأستار الغفلات.

[واستخرجهم من جلابيب غفلتهم] استعار الجلابيب للأبدان والهيئات المكتسبة منها باعتار حجبها لأمور الآخرة عنهم كحجب الوجه بالجلباب من استعارة المحسوس للمعقول كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾، وقال تعالى: ﴿فيومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى تنفعه الذكرى﴾.

وقوله: **[استقبلوا مدبراً]** إشارة إلى العذاب الأُخروي والأهوال التي كانت غائبة عنهم **[واستدبروه مقبلاً]** أي: ما كانوا فيه من مأمولاتهم وأحوالهم الدنيويّة، ولذا قال:

[فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم] الدنيوية **[ولا بما قضوا من وطرهم]** وحاجاتهم، بل ربّما كانت وبالاً عليهم.

[فإنّي أُحذِّركم ونفسي هذه المنزلة] والحالة التي عليها هؤلاء من الغفلة عن الأخرى والانهماك في الدنيا وشرك نفسه في التحذير لأنّه ادخل في

فلينتفع أمرؤ بنفسه فإنّما البصير من سمع فتفكّر ونظر فأبصر وانتفع بالعبر ثمّ سلك جدداً واضحاً يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي

نفوس السامعين إلى طاعته كما في قوله تعالى: ﴿وإنّا وإيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾.

[**فلينتفع أمرؤ بنفسه**] ﴿فليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾، ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾.

[**فإنّما البصير من سمع فتفكّر**] فيما سمعه من الآيات المحكمة والسنن القائمة والمواعظ البالغة والنصائح الكاملة إذ لا ينتفع بها بدون الفكر.

[**ونظر**] بعين حسّه [**فأبصر**] ببصيرته ما ينفعه وما يضرّه.

[**وانتفع بالعبر**] بأن عمل على وفق ما علم وأدرك.

[**ثمّ سلك جدداً**] أي: طريقاً [**واضحاً**] وهو ما ورد في الشريعة الغرّاء والملّة الزهراء وتجنّب العدول عن الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي**] لأنّ من انحرف عن الشرع المبين وهُدى سيّد المرسلين وأولاده المعصومين انصرع في هواة وضلّ في مغواة وهذا مطابق للمثل النبوي.

قال ﷺ: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبي الصراط أبواب مفتّحة وعليها ستور مرخاة وعلى رأس الصراط داعي يقول جوزوا أو لا تعرجوا» قال: فالصراط هو الدين وهو الجدد الواضح هنا، والداعي هو القرآن، والأبواب المفتحة محارم الله وهي المهاوي والمغاوي هنا، والستور المرخاة حدود الله ونواهيه.

لا يعين على نفسه الغواة بتعسّف في حقّ وتحريف في نطق أو تخويف من صدق فأفق أيّها السامع من سكراتك واستيقظ من غفلتك واختصر من عجلتك وأنعم الفكر فيما جائك على لسان النبي الأمّي صلّى

[**لا يعين**] الإنسان [**على نفسه الغواة**] الضالّين المضلّين [**بتعسّف في حقّ**] أي: يتكلّف ثبوت الأمر بالشبهة الضعيفة والاحتمال البعيد، فإنّ الغواة وهم تاركوا الحقّ إذا وجدوا ركيكاً فيه أو متكلّفاً للعمل به مقصّراً طمعوا في الانتهاء إلى الباطل فكان قد أعانهم على نفسه بذلك، ويحتمل أن يكون المراد لا يحملهم على مرّ الحق وصعبه فإنّ الحقّ له درجات والاستقصاء فيه على غير أهله يوجب لهم النفرة عمّن يقوله ويأمر به والعداوة له.

[**وتحريف في نطق**] أي: تغييره بزيادة أو نقصان [**أو تخويف من صدق**] إذ ظاهر أنّ من عُرف بالكذب أو التخوّف من الصدق هان على الجهّال والغواة ودعاهم ذلك منه إلى الطمع في انفعاله عن باطلهم فكان معيناً لهم على نفسه والاحتجاج بمثل فعله بل الواجب لزوم الطريق الواضح في كلّ مشتبه والكفّ عمّا سواها.

[**فافق أيّها السامع من سكراتك**] في الجهالة.

[**واستيقظ من غفلتك**] ونومتك في دار الضلالة واستعار السكر للغفلة لكونها مستلزمة لترك أعمال العقل كما أنّ السكر كذلك.

[**واختصر من عجلتك**] أراد بعجلته سرعته في طلب الدنيا والاهتمام بها وباختصارها تخفيفها وتقليلها.

[**وأنعم الفكر**] ودقّق النظر [**فيما جائك على لسان النبي الأمّي صلّى**

اللّه عليه وآله مما لابدّ منه ولا محيص عنه وخالف من خالف في ذلك إلى غيره ودعه وما رضي لنفسه وضع فخرك واحطط كبرك واذكر قبرك فإنّ عليه ممرّك وكما تدين تدان وكما تزرع تحصد وكلّما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً

اللّه عليه وآله] من ذكر الموت وما بعده من أحوال الآخرة **[مما لابدّ منه ولا محيص عنه]** من ذلك.

[وخالف من خالف في ذلك إلى غيره] ونظر فيما عنه بدّ من أحوال الدنيا وزينتها.

[ودعه] أي: اترك ذلك المخالف **[وما رضي لنفسه]** من ابتياع الآخرة الباقية بالدنيا الفانية.

[وضع فخرك واحطط كبرك] والفخر مستلزم للكبر إذ كلّ مفتخر متكبّر.

[واذكر قبرك] لأنّ في ذكره عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تبصّر.

[فإنّ عليه ممرّك] لأنّ السالك في طريق لابدّ من سلوكها إذا كان فيها منزل موحش مظلم وجب الاستعداد له بحمل الضوء للاستنارة فيه والقبر محلّ مرور الإنسان.

وقوله: **[وكما تدين تدان وكما تزرع تحصد]** إشارة إلى وجوب حسن المعاملة مع اللّه إذ كان حسن جزائه بقدر حسن معاملة العبد له وقبحه بقبحها وكذا الزرع والحصاد واستعار الزرع لما يفعله الإنسان ويكتسبه من الملكات خيراً أو شراً وكذا لفظ الحصد لما بثمره من تلك الآثار وتستلزمه من ثواب أو عقاب.

[وكلّما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً] وظاهره تجسّم الأعمال كما

فامهد لقدومك وقدّم ليومك فالحذر الحذر أيّها المستمع والجد الجد أيّها الغافل فإنّ الناقد بصير ولا ينبئك مثل خبير إنّ من عزائم اللّه في الذكر الحكيم التي عليها يثيب ويعاقب وبها يرضى ويسخط أنّه لا ينفع عبداً وإن أجهد نفسه وأخلص فعله أن يخرج من الدنيا لاقياً ربّه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها

استفاضت به جملة من الأخبار والآثار ويمكن حمله على الجزاء أي: تقدّم على جزائه.

[**فامهد لقدومك**] أمر بأن يوطىء موضع قدمه في الآخرة بطيّب الأعمال وتقدّم صالحها ليوم قيامه.

كما أشار إليه بقوله: [**وقدّم ليومك فالحذر الحذر**] من عذاب اللّه.

[**أيّها المستمع**] لمواعظ اللّه [**والجد الجد**] في الأعمال الصالحة.

[**أيّها الغافل**] عن سوء الأعمال الفاضحة [**فإنّ الناقد بصير ولا ينبئك مثل خبير**] وأراد بالاقتباس من الآية إنّ الواعظ له خبير بأحوال طرق الآخرة وأهوالها وليس بمنزلة السامع وهو القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

ثمّ عاد عليه السلام إلى التحذير من بعض الكبائر التي نصّ القرآن على تحريمها، فقال:

[**إنّ من عزائم اللّه**] أي: من جملة نصوصه التي في محكم كتابه [**في الذكر الحكيم**] والقرآن العظيم [**التي عليها يثيب ويعاقب وبها يرضى ويسخط**] وقيل الذكر الحكيم هو اللّوح المحفوظ [**أنّه**] الضمير للشان [**لا ينفع عبداً وإن أجهد نفسه وأخلص فعله أن يخرج من الدنيا لاقياً ربّه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها**] فاعل ينفع (أن يخرج) و(لاقياً) نصب على

أن يشرك باللّه فيما افترض عليه من عبادته ويشفي غيظه بهلاك نفس أو يقرّ بأمر فعله غيره

الحال، أي: من جملة نصوص اللّه سبحانه التي في محكم كتابه التي باعتقادها والعمل على وفقها يثيب ويرضى وبتركها يعاقب ويسخط لأنّه لا ينفع عبداً خروجه من الدنيا لاقياً ربّه بإحدى الخصال المذكورة وإن أجهد نفسه في العمل وأخلص فيه.

[**أن يشرك باللّه فيما افترض عليه من عبادته**]، قال تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾، وقوله فيما افترض عليه، إشارة إلى أنّ الرياء في العبادة والطاعة شرك أيضاً كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾.

[**ويشفي غيظه بهلاك نفس**] وفي رواية نفسه، والأوّل أعمّ وذلك الهلاك تارة في الدنيا كما يستلزمه السعي بالنميمة إلى الملوك ونحوه وفي الآخرة باكتساب الآثام المستلزمة لشفاء الغيظ، قال تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاءه جهنّم خالداً فيها﴾ وهذه الآية تلحقها بواسطة القوّة الغضبيّة.

[**أو يقرّ بأمر فعله غيره**] أي: ينمّ على غيره بأمر فعله ذلك الغير فيستلزم إهلاكه وأذاه فيدخل في قوله تعالى: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا﴾ وفي بعض النسخ يعربا بالعين المهمة أي: يعيب غيره ويقذفه فيدخل تحت قوله تعالى: ﴿والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوه﴾ وهذه الآفة تلحق النفس بشركة الشهوة والغضب.

أو يستنج حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه أو يلقى الناس بوجهين أو يمشي بينهم بلسانين اعقل ذلك فإنّ المثل دليل على شبهته إنّ البهائم همّها بطونها وانّ السباع همّها العدوان على غيرها وإنّ النساء همُّهنَّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها

[**أو يستنج حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه**] كشاهد الزور لبعض المطالب الدنيويّة وكالمرتشي في الحكم والقضاء.

[**أو يلقى الناس بوجهين**] فيلقي كلاً من الصديقين بغير ما يلقى به الآخر ليفرّق بينهما أو بين العدوّين ليغري بينهما، وبالجملة أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فيدخل في زمرة المنافقين الذين ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾، وقال تعالى: ﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾.

ونحوه قوله: [**أو يمشي بينهم بلسانين**]، ثمّ خاطبه بالتنبيه فقال: [**اعقل ذلك**] الذي أضربه لك من المثل.

[**فإنّ المثل دليل على شبهته**] فاحمل عليه ما يشبهه وذلك المثل قوله: [**إنّ البهائم همّها بطونها وانّ السباع همّها العدوان**] والظلم والتجاوز [**على غيرها وإنّ النساء همُّهنَّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها**] فالإنسان إذا كانت همّته بطنه كان بهيمة، ومن كانت همّته بطنه كان قدره عند اللّه ما يخرج منها، وإذا أحبّ الانتقام والغلبة على الغير كان سبعاً، وإذا تابع شهوته في زينة الحياة الدنيا وغضبه في الفساد فيها فهو بمنزلة المرأة، فالإنسان في كلّ حالة من حالاته يشبه حيواناً من الحيوانات، فتارةً تراه بهيمة، وتارةً سبعاً، وتارةً ذئباً، وتارةً ثعلباً، بل تارةً شيطاناً، قال تعالى: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾ وهو المشار إليه

وناظر قلب اللّبيب به يبصر أمده ويعرف غوره ونجده داع دعي وراع رعي فاستجيبوا للداعي واتّبعوا الراعي قد خاضوا بحار الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن

يقول أميرالمؤمنين:

وتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومن خطبة له عليه السلام

[وناظر قلب اللّبيب] أي: فكره **[به يبصر أمده]** أي: طريقه وغايته التي هو متوجّه نحوها ومطلوبه منها من الموت وما بعده.

[ويعرف غوره ونجده] أي: مرتفعه ومنخفضه كناية عن طريق الخير والشرّ في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ وعبارة القرآن أخصر وكلامه عليه السلام أنسب إلى المعنى فإنّ الغور هو المنخفض والمستقبل أنسب إلى أن يعبّر به عن رتبة النازلين في دركات الجحيم من النجد.

وقوله: **[داع دعي وراع رعي فاستجيبوا للداعي واتّبعوا الراعي]** يريد بالداعي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وما جاء من الكتاب والسنّة، وبالراعي نفسه، وظاهر وجوب الاستجابة للّه ولرسوله لقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا للّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ فيجب اتباع من أوجبا اتباعه.

وقوله عليه السلام: **[قد خاضوا بحار الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن]** يحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى محاربيه ويكون التفاتاً إلى صفة قوم معهودين للسامعين كمعاوية وأصحاب الجمل والخوارج ويحتمل أن يكون منقطعاً عمّا

وأرز المؤمنون ونطق الضالّون المكذّبون نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سُمّي سارقاً

قبله متصلاً بكلام لم يحكمه الرضى كما هي عادته ولفظ البحار مستعار لما عظم من الفتن والحروب، ورشح بذكر الخوض والبدعة قد يراد بها ترك السنّة وقد يراد بها أمر آخر بفعل من تلك السنّة.

[**وأرز**] بفتح الزاء [**المؤمنون**] أي: انقبضوا وانضمّوا.

[**ونطق الضالّون المكذّبون**] لما وجدوا المساعد والمعين.

ثمّ التفت عليه السلام إلى ذكر جملة من فضائله فقال: [**نحن الشعار والأصحاب**] الشعار: الثوب الذي يلي الجسد، استعارة لنفسه ولأهل بيته لملازمتهم للرسول صلى الله عليه وآله واختصاصهم به كما يلزم الشعار الجسد.

[**والخزنة**] للعلوم الإلهيّة والمعالم الربّانية، ففي النبوي: «عليٌّ خازن علمي» وفي آخر: «هو عيبة علمي» ويحتمل أن يكون المراد خزنة الجنّة، فمن جاء يوم القيامة بولايتهم دخل الجنّة وإلّا فلا، وعلى كلّ حال فالخزنة مستعار، ووجه الشبه تصرّفهم بمنع العلم وإعطائه وبإدخال الجنّة والمنع، كما أنّ الخازن للشيء كذلك.

[**والأبواب**] إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله: «انا مدينة العلم وعليٌّ بابها»، [**ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها**] كما قال تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾.

[**فمن أتاها من غير أبوابها سُمّي سارقاً**] فمن طلب العلوم الحقّة والحكمة وأسرار الشريعة فليرجع إليهم ويعوّل عليهم، فكلّ مالم يخرج من

فيهم كرائم الإيمان وهم كنوز الرحمن إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا فليصدق رائد أهله

هذا البيت فهو باطل وكلّما لم يصدر عنهم فهو عاطل ولقد أجاد من قال:

إليكم وإلّا لا تشدّ الركائب ومنكم وإلّا لا تصحّ المواهب
وفيكم وإلّا فالحديث مزخرف وعنكم وإلّا فالمحدّث كاذب

ومنها
في بيان جملة من فضائل أهل البيت عليهم السلام

[**فيهم كرائم الإيمان**] أي: نفائسه المستلزمة لأشدّية القرب من اللّه تعالى كالأخلاق الفاضلة والعقائد الحقّة الكاملة.

[**وهم كنوز الرحمن**] أي: خزائن علمه ومستودع حكمته وتراجمة وحيه وحملة كتابه وعيبة دينه، وخصّ وصف الرحمن لأنّه مبدء بعثة الأنبياء والأولياء إذ جعلهم اللّه برحمته هداة خلقه.

[**إن نطقوا صدقوا**] لأنّهم لا ينطقون إلّا بالصدق والصواب.

[**وإن صمتوا لم يسبقوا**] لأنّهم أرباب الحكمة وأولوا الألباب أي: عند صمتهم لا يسبقون إلى فضيلة نطق، إذ كان صمتهم في موضع الصمت حكمة، وذكر عليه السلام هذه الفضائل جذباً إلى سماع قوله ودعوته إلى اللّه، ولذا عقّبه بالمثل.

[**فليصدق رائد أهله**] وقد مرّ شرحه، أشار به إلى أنّ من يحضرنا طلباً لاختبارنا فليصدّق من يعنيه أمره ويخبرهم أنّنا أهل الحقّ وينابيع العلوم

وليحضر عقله وليكن من أبناء الآخرة فإنّه منها قدم وإليها ينقلب فالناظر بالقلب العامل بالبصيرة ينبغي أن يكون مبتدء عمله أن يعلم أعمله عليه أم هو له فإن كان له معنى فيه وإن كان عليه وقف عنه فإنّ العاقل بغير علم كالسائر على غير طريق

الإلهيّة والمعارف الربّانيّة والأدلاّء على اللّه كما يصدق الرائد لطلب الماء والكلأ أهله بُشراً بهما.

[**وليحضر عقله**] لما يقوله ليعرف صحّة ما ادّعيناه.

[**وليكن من أبناء الآخرة**] أي: أهلها الطالبين لها، ووجه استعارة البنوّة ما أشار إليه بقوله:

[**فإنّه منها قدم وإليها ينقلب**] أي: كما أنّ الابن ينقلب عن الام فإليها ـــــ ورجوعه كذلك الإنسان مبدئه من العالم العلوي ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي﴾ فهو فيها ينقلب وإليها يعود فينبغي أن يكون من أبنائها بالرغبة فيها والوله إليها والعمل لها.

[**فالناظر بالقلب**] السليم والمتفكّر بالعقل المستقيم [**العامل بالبصيرة**] وعلى بصيرة من أمره.

[**ينبغي أن يكون مبتدء عمله أن يعلم أعمله عليه أم هو له فإن كان له معنى فيه وإن كان عليه وقف عنه**] فيتفقّد أحوال نفسه فيما يهمّ به ويبعث في طلبه أو تركه ويعلم إذ لك الخاطر وتلك الحركة مقربة له إلى اللّه تعالى فيكون له فينبغي أن يمضي فيها أو مبعّدة له عن رضاه ومستلزمة لسخطه فيكون عليه فيقف عنها.

[**فإنّ العاقل بغير علم كالسائر على غير طريق**].

فلا يزيده بعده عن الطريق إلّا بعداً عن حاجته والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع واعلم أنّ لكلّ ظاهر باطناً على مثاله فمن طاب ظاهره طاب باطنه وما خبث ظاهر مخبث باطنه

ثمّ أشار إلى وجه الشبه بقوله:

[**فلا يزيده بعده عن الطريق إلّا بعداً عن حاجته**] إذ كان بعده عن مطلوبه بقدر بعده عن طريق ذلك المطلوب.

[**والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح**] يصل إلى مطلوبه بسهولة.

[**فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع**] فإنّه إذا علم أنّه سائر وجب ان يعلم كيف يسير وشعل مصباح العلم ليسلم من الضلال والصرعة في مهاوي الهلاك والوبال.

[**واعلم أنّ لكلّ ظاهر باطناً على مثاله فمن طاب ظاهره طاب باطنه وما خبث ظاهر مخبث باطنه**] قيل هذه القضية الكلّية صادقة لأنّه لما صدر عن الوجود الإلهي عالماً الغيب والشهادة أو عالم الخلق والأمر أو العالم الروحاني والجسماني واقتضت الحكمة الإلهية كون عالم الشهادة طريقاً للنفوس البشريّة إلى عالم الغيب ولولاها لتعذّر السفر إلى الحضرة الإلهيّة وانسدّ الطريق إلى اللّه فكان جميع ما ظهر في عالم الشهادة مثالاً مناسباً لأمر باطن من عالم الغيب هو الطريق إليه والدليل عليه.

ومن ذلك ما أشار إليه ﷺ من أشخاص الناس وأفعالهم الظاهرة فإنّها دالّة على ما يناسبها في بواطنهم من الأخلاق وأعمال القلوب دلالة أكثرية

وقد قال الرسول الصادق عليه وآله إنّ اللّه يحبّ العبد ويبغض عمله ويحبّ العمل ويبغض بدنه

فربّ حسن الصورة قبيح الباطن وبالعكس ولذا استشهد ﷺ بالحديث النبوي فقال:

[وقد قال الرسول الصادق عليه وآله إنّ اللّه يحبّ العبد ويبغض عمله ويحبّ العمل ويبغض بدنه] فيحبّه من حيث صورته الحسنة لكونها مقتضى الحكمة الإلهية وأنسب زلى الوجود من القبيحة التي هي أنسب إلى العدم ويبغض عمله من جهة ما هو شرٌّ مكروه بالذات ويحبّ ويبغض بالعكس من كان على العكس.

وقال تعالى: ﴿والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً﴾ استعار لفظ النبات لزيادة الأعمال ونموها ولفظ الماء للمادة القلبيّة من الإرادات والنيّات المخالفة.

وظاهر أنّ طيب الأعمال بطيّبها وخبثها بخبثها كالماء وما يسقى به وقيل هذا مثل ضربه اللّه للمؤمن والكافر شبّه فيه المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به فبان أثره عليه بحسن الأعمال وطيبها بالبلد الطيب إذ كان البلد الطيب يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه.

وشبّه الكافر الذي يسمع القرآن ولا يؤثّر فيه أثراً محموداً بالبلد الخبيث إذ كان لا يمرع ولا يخصب ولا يبين أثر المطر فيه والحبّ والبغض يعودان في اللّه إلى إرادته وكراهته فما كان خيراً محضاً أو الحيز غالب عليه فهو مراد له بالذات وماكان شرّاً محضاً أو غالباً فهو مراد له بالعرض مكروه له بالذات.

واعلم أنّ لكلّ عمل نباتاً وكلّ نبات لا غنى به على الماء والمياه مختلفة فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته وما خبث سقيه خبث غرسه وأمرّت ثمرته يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش الحمد للّه الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته

وقوله: [**واعلم أنّ لكلّ عمل نباتاً**] استعار النبات لزيارة الأعمال ونموّها ورشح الاستعارة بذكر الماء في قوله:

[**وكلّ نبات لا غنى به على الماء**] وكنّى به عن المادّة القلبية للأعمال ووجه الشبه أنّ الحركات في العبادة إنّما تكون بالميول القلبية والنيّات كما أنّ حركة النمو للنبات إنّما تكون بالماء وظاهر أنّ اختلاف المياه في الحلاوة والملوحة سبب لاختلاف استعداد النباتات الطيب المغارس والثمار كما قال:

[**والمياه مختلفة فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته وما خبث سقيه خبث غرسه وأمرّت ثمرته**] فكذا ما يشبه النباتات وهي الأعمال يكون طيب ثمرها وهي ثمار الجنّة وأنواع لذّاتها بحسب طيب مادّتها من الإخلاص للّه وخبثها بحسب خبث مادّتها من الرياء وحبّ الشهرة، وتكون ثمرتها أمرّ الثمار، إذ لا أمرّ مذاقاً من عذاب النار.

ومن خطبة له عليه السلام

[**يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش**] مفرد جمعه خفافيش مشتق من الخشف وهو ضعف البصر خلقة.

[**الحمد للّه الذي انحسرت**] أي: كلّت [**الأوصاف عن كنه معرفته**

وردعت عظمة العقول فلم تجد مساغاً إلى بلوغ غاية ملكوته هو الله الحقّ المبين أحقّ وأبين ممّا ترى العيون

وردعت] أي: كفّت **[عظمة العقول فلم تجد مساغاً]** أي: مسلكاً **[إلى بلوغ غاية ملكوته]** إذ إدراك الأشياء بحقائقها إنّما يتمّ بإدراك حقائق عللها وعلّة العلل هو الواجب الحقّ المنزّه عن إدراك العقول والأفهام لأنّها إنّما تدرك الأُمور الكلّية وهو تعالى منزّه عن أنحاء التراكيب ووصمة التعدّد وإذا لم تجد العقول مجالاً إلى إدراك كنه الملكوت وما عليه نظام الوجود الأعلى والأسفل فعدم مجالها في إدراك صانعها أوضح.

[هو الله الحقّ المبين] قيلك اشار إلى هويته المطلقة بقوله (هو) ولما لم يكن أن يدلّ عليها إلاّ بالاعتبارات من السلوب والاضافة اللازمة والعارضة واللوازم الإضافية أشدّها تعريفاً والأكمل في التعريف هو اللازم الجامع لنوعي الإضافة والسلب وذلك كون تلك الهوية إلهاً، فإنّ الإله هو الذي ينسب إليه غيره ولا ينسب هو إلى غيره، فانتساب غيره إليه إضافي وعدم انتسابه إلى غيره سلبي، فلا جرم عقّب ذكر الهوية بما يدلّ على ذلك اللازم لاكمليّته في التعريف من غيره، ليكون كالكاشف لما دلّ عليه لفظ هو وفيه سرّ آخر وهو أنّه لما عرف تلك الهوية بلازمها وهو الإلهيّة نبّه على أنّه لا جزء لتلك الهويّة وإلاّ لكان العدول عنه إلى التعريف باللازم قصوراً.

ثمّ لّما شرح اسم الهويّة أشار إلى كونها حقّاً أي: موجوداً ثابتاً وجوده عند العقل **[أحقّ وأبين ممّا ترى العيون]** لأنّ العلم بوجود الصانع فطريّ للعقول وإن احتاج إلى تنبيه فإنّ العلوم التي مستندها الحسّ قد يقع الحسّ فيها بسبب ما يقع للوهم من اشتباه المحسوسات أو عدم ضبطها أو بسبب

ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً خلق الخلق على غير تمثيل ولا مورة مشير ولا معونة معين فتمّ خلقه بامره وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدافع وانقاد ولم ينازع ومن لطائف صنعه وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكلّ شيء

تقصير الحسّ في كيفيّة الأداء لصورة المحسوس فكانت المعقولات الصرفة أحقّ لإدراك العقل لها بذاته.

لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً] لأنّه تعالى لو كان مما تدركه العقول وتستثبته بحدّ أو صفة لكان مشابها لغيره من الأجسام والجسمانيات في إثبات صورتها عند الذهن وقد تنزّه تعالى عن التشبيه بشيء منها.

[**ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً**] إذ الوهم لا يدرك إلاّ المعاني الجزئية المتعلّقة بالمحسوسات ولابدّ في إدراك ذلك المدرك من بعث المتخيّلة على تشبيهه بمثال من الصور الجسمانية، فلو وقع عليه وهم لمثله في صورة حية.

[**خلق الخلق على غير تمثيل**] سابق، بل خلقة إبداع واختراع.

[**ولا مورة مشير ولا معونة معين**] لكمال ذاته.

[**فتمّ خلقه**] ببلوغه الغاية في الكمال [**بامره وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدافع وانقاد ولم ينازع**] ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

ثمّ شرع في بيان غامض حكمة اللّه تعالى في خلق الخفافيش فقال:

[**ومن لطائف صنعه وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكلّ شيء**] من أبصار الحيوانات و

ويبسطها الظلام القابض لكلّ حيّ وكيف عشيت أعينها بتلألو ضيائها عن المضيّ في سبحات إشراقها وأكنَّها في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلاقها فهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها وجاعلة الليل سراجاص تستدلّ به في التماس أرزاقها فلا تردّ أبصارها أسداف ظلمته ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنّته فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أو ضاح نهارها ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم

ـــــــ لانبساط النبات ونموّه وغيره [**ويبسطها الظلام القابض لكلّ حيّ**] ولسائر الأبصار.

ثمّ أشار عليه السلام إلى علّة ذلك بقوله: [**وكيف عشيت أعينها بتلألو ضيائها عن المضيّ في سبحات إشراقها**] أي: جلالته وبهائه وصفائه.

[**وأكنَّها**] أي: أخفاها وأسكنها [**في مكامنها**] الخفيّة [**عن الذهاب في بلج ائتلاقها**] والبلج جمع بلجة وهي أوّل ضوء الصبح، وقد يكون مصدراً، وائتلاقها: لمعانها.

[**فهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها وجاعلة الليل سراجاص تستدلّ به في التماس أرزاقها فلا تردّ أبصارها أسداف ظلمته**] الأسداف مصدر أسدف الليل أي: أظلم.

[**ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنّته**] وغسق الدجنة: ظلام الليل.

[**فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أو ضاح نهارها**] وضح النهار: ضوئه [**ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها**] وجار الضبّ: بيته.

[**أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم**

ليلها فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً من جعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنّها شظايا الآذان

ليلها] والذي ذكر في علّة ضعف بصرها هو إفراط التخلّل في الروح الحامل للقوّة البصارة من هذا الحيوان إذا لقي حرّ النهار فيصيبه لذلك التحلل ضعف يحتاج معه إلى التقوّض عمّا يتحلّل فيرجع عن العضو الباصر منها طلباً لبدل ما يتحلّل فيستكمل البدل بقرب اللّيل لمكان برده وضعف حرارة النهار، فيعود الإبصار.

وقوله: وتتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها في غاية الفصاحة ومعارفها ما تعرفه من مذاهبها ووجوه تصرّفاتها وتتصل عطف على قوله (تستمد)، وأمّا اسدالها لجفونها على حداقها، فلأنّ تحلّل الروح الحامل للقوّة الباصرة سبب للنوم أيضاً فيكون ذلك الإسدال ضرباً من النوم وكثيراً ما يلحق كثيراً من الحيوان، أو سببه ما ذكر، واستعار لفظ القناع للشمس ملاحظةً لشبهها بالمرأة ذات القناع، وكنّى بإلقائه عن بروزها من حجاب الأرض.

[فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً] عكس سائر الحيوانات وهذا من كمال القدرة التي تبهر العقول.

وسبحان **[من جعل لها أجنحة من لحمها]** بلا ريش ولا قصب كسائر أجنحة الطير.

[تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنّها شظايا الآذان] والشظايا: القطع، وشظايا الآذان: رؤوسها البارزة.

غيـر ذوات ريش ولا قـصب إلاّ أنّك تـرى مـواضع العـروق بيّنة اعلاماً لها جناحـان لما يرقّا فينشقّا ولم يغلظا فيثقلا تطير وولدها لاصق بها لاجيء إليها يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها حتّى تشتدّ أركانه ويحمله للنهوض جناحه ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه فسبحان الباريء لكلّ شيء على غير مثال خلا من غيره

[غير ذوات ريش ولا قصب] بل من عروق وورق تبسطه وتقبضه على مفاصل مخصوصة من غير دقّه توجب له الانشقاق عند الطيران ولا غلظ يوجب له الثقل كما قال:

[إلاّ أنّك ترى مواضع العروق بيّنة اعلاماً لها جناحان لما يرقّا فينشقّا ولم يغلظا فيثقلا] ثمّ ثلّث العجب بحالها مع ولدها فقال: **[تطير وولدها لاصق بها]** لا يفارقها **[لاجيء إليها]** فيرضعها **[يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها]** في حالتي النهوض والجلوس والارتفاع والهبوط.

[حتّى تشتدّ أركانه ويحمله للنهوض] بنفسه **[جناحه ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه]** وهذا أيضاً أمر تخالف به سائر الحيوانات.

[فسبحان الباريء لكلّ شيء على غير مثال خلا] أي: سبق **[من غيره]** في خلق الطير عجائب لا تهتدي إليها العقول وحِكم ظاهرة تذعن لها أُولو المعقول والمنقول، فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه وأجلّ سلطانه.

فـمن استطـاع عند ذلك أن يعـتقل نفـسـه على اللّه فليـفعل فـإن أطعتـموني فإنّي حـاملكم إن شاء اللّه على سبيل الجنّة وإن كان ذا مـشقّة شـديدة ومـذاقـه مـريرة وأمّا فـلانة فـأدركـهـا رأي النسـاء وضـغن غـلا في صدرها كمرجل القين

ومن خطبة له عليه السلام

خاطب بها أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم

وهو يقـتـضي ذكـر فـتن وحـروب قـبل هذا الكـلام لـم يذكـره الرضي (رحمه اللّه) كما هي طريقته:

[**فـمن استطـاع عند ذلك أن يعتقل نفسه على اللّه**] أي: يحبس نفسه على طاعة اللّه [**فليفـعل فإن أطعتمـوني فإنّي حاملكم إن شاء اللّه على سبيل الجنّة**] وهو الدِّين القيّم وإنّما شرط الاطاعة إذ لا رأي لمن لا يطاع.

ونبّه عليه السلام على أنّ من الدِّين الحقّ ما هو ذو مـشقّة شديدة ومذاقـه مريرة كالجهاد وسائر التكاليف، فقال: [**وإن كان ذا مشقّة شديدة ومذاقه مريرة**].

وأمّا قوله: [**وأمّا فلانة**] فهو كناية عن عائشة [**فأدركها رأي النساء**] في حربها له عليه السلام بالبـصرة، ورأي النسـاء كناية عن الوهن والضـعف وفي الخبر «لا يفلح قوم أسندروا أمرهم إلى أمرة».

وروي أنهنّ ضعيفات العقول ضعيفات الدِّين ضعيفات الحظ.

[**وضغن**] أي: حقـد [**غـلا في صدرها كـمرجل القـين**] والمرجل القدر لحسد وعداوة كانت بينها وبين فاطمة، ومن المعلوم الوجداني أنّ المرأة لا

ولو دُعيتْ لتنال من غيري ما أتتي إلي لم تفعل ولها بعد حرمتها الأولى والحساب على الله سبيل أبلج المنهاج

تحبّ أن يميل زوجها إلى أحد أكثر منها، ومحبّة النبيّ ﷺ لفاطمة وعليّ وإيثاره لهما على غيرهما أمر وجداني، وتقديم النبي ﷺ فاطمة عليها وعليّ على أبيها اثار ما أثار من الشحناء والعداوة.

[**ولو دُعيتْ لتنال من غيري ما أتتي إلي**] من الحرب وتجهيز الجيوش وبذل الجهد بلسانها ومالها ويدها وجاهها في إطفاء نوره.

[**لم تفعل**] ذلك لعدم الباعث من الحقد والحسد والعداوة والشحناء.

[**ولها بعد حرمتها الأُولى**] من الانتساب إلى النبي ﷺ [**والحساب على الله**] إشارة زلى أنّه وإن سامحها في الدّنيا بما فعلت لأجل حرمة رسول الله ﷺ فإنّ الله تعالى هو المتولّي لحسابها في الآخرة، وفيه وعيد لها وتهديد بعذاب الله وعقابه، حيث هتكت حرمة رسول الله ﷺ وخرجت من بيته بغير إذنه وتبعت الجاهلية الأُولى وهي صفراء بنت شعيب في حربها ليوشع وصي موسى بعد موته وكأنّها لم تسمع قوله تعالى: ﴿يا نساء النبي...﴾ إلى قوله ﴿وقُرن في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأُولى﴾.

ومنها
في وصف الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر

[**سبيل أبلج المنهاج**] الأبلج: الواضح، والمنهاج: المسلك أي: الإيمان واضح المسلك إلى الجنّة.

أنور السراج فبالإيمان يستدلّ على الصالحات وبالصالحات يستدلّ على الإيمان وبالإيمان يعمر العلم وبالعلم يرهب الموت وبالموت تختم الدنيا وبالدنيا تحرز الآخرة وفي القيامة تزلف الجنّة للمتّقين وتبرز الجحيم للغاوين

[**أنور السراج**] في ظلمات الجهل، ولفظ السراج مستعار [**فبالإيمان يستدلّ على**] الأعمال [**الصالحات وبالصالحات يستدلّ على الإيمان**] العبادات ومكارم الأخلاق التي وردت بها الشريعة الغرّاء والملّة الزهراء معلولات للإيمان وثمرات له وكلّ من العلّة والمعلول يستلزم وجود الآخر لا محالة.

[**وبالإيمان يعمر العلم**] إذ لما كانت الأعمال الصالحة ثمرات وكمالات للإيمان فبالحريّ أن يكون بها عمارة العلم ولا تمام له ولا منفعة بدونها، فإنّ العلم إذا لم يعضد بالعمل فهو قليل الفائدة في الآخرة بل لا ثمرة له، ولذا قال: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل».

وقوله: [**وبالعلم يرهب الموت**] إذ من جملة أفراد العلم العلم بأحوال المعاد واليوم الآخر وذلك يستلزم ذكر الموت ودوام ملاحظته وذلك مستلزم لرهبته والعمل له ولما بعده.

[**وبالموت تختم الدنيا**] لأنّ الدنيا عبارة عمّا فيه الإنسان قبل الموت من التصرّفات البدنية [**وبالدنيا تحرز الآخرة**] لأنّ الدنيا محلّ الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد وفيها تحصل الملكات النافعة في الآخرة، قال ﷺ: «نعم العون على الآخرة الدنيا».

[**وفي القيامة تزلف الجنّة للمتّقين وتبرز الجحيم للغاوين**] إذ بالموت

وإنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة مرقلين في مضمارها إلى الغاية القصوى قد شخصوا من مستقرّ الأجداث وصاروا إلى مصائر الغايات لكلّ دار أهلٌ

وطرح جلباب البدن يتبيّن ما للإنسان وما عليه وينكشف له ما قدّم من خير أو شرّ قال تعالى: ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ ولفظ الإزلاف والبروز يشهدان بذلك لما فيهما من معنى الظهور، وقال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾.

[وإنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة] أي: لابدّ لهم من ورودها **[مرقلين]** حال، أي مسرعين. **[في مضمارها إلى الغاية القصوى]** ومضمارها مدّة الحياة الدنيا، ووجه الشبه كون تلك المدّة محلّ استعداد الفوس للسباق إلى الآخرة، كما أنّ المضمار محلّ استعداد الخيل للسباق، وإرقالهم كناية عن سيرهم المتوهّم في مدة أعمارهم إلى الآخرة وسرعة حثيث الزمان بهم في اعداد أبدانهم للحراب، والغاية القصوى هي السعادة أو الشقاوة الأُخروية.

ومنها
في صفة حال أهل القبور في القيامة

[قد شخصوا من مستقرّ الأجداث] جمع جدث: وهو القبر، **[وصاروا إلى مصائر الغايات]** من الجنّة أو النار، **[لكلّ دار]** منهما **[أهلٌ]** يخلدون فيها

لا يستبدلون بها ولا ينتقلون عنها وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق اللّه تعالى لا يقرّبان من أجل ولا ينقّصان من رزق وعليكم بكتاب اللّه فإنّه الحبل المتين والنور المبين والشفاء النافع والرأي الناقع

من المؤمنين والكفّار.

[**لا يستبدلون بها ولا ينتقلون عنها**] والمراد بأهل النار الكفّار إذ هي لهم خلود وللمسلمين العصاة وروداً لا خلوداً.

[**وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق اللّه تعالى**] مجاز كناية عن كونهما من صفات الكمال ونعوت الجلال التي بها نظام العالم وبقائه.

[**لا يقرّبان من أجل ولا ينقّصان من رزق**] دفعاً لما يتوهّمه ضعفاً النفوس من أنّه إذا أنهى من ينتفع منه عن منكر يفعله انقطع من رزقه منه أو إذا نهى الملوك عن المنكرات حصلت له أذيّة يقرب أجله.

ثمّ حثّ ﷺ على ملازمة كتاب اللّه والعمل به فقال: [**وعليكم بكتاب اللّه فإنّه الحبل المتين**] استعار الحبل لكونه سبباً لنجاة المتمسّك به من الهوى في دركات الجحيم كالحبل في نجاة المتمسك به في البئر أو نحوها، ورشح الاستعارة بذكر المتانة.

[**والنور المبين**] للاهتداء به إلى المقاصد الحقيقية والمنافع الدنيوية والأخروية.

[**والشفاء النافع**] من ألم الجهل. [**والرأي الناقع**] للعطشان من ماء الحياة الأبديّة كالعلوم النافعة والمعارف الحقّة فإنّ بها حياة القلوب والأرواح

والعصمة للمتمسّك والنجاة للمتعلّق لا يعوجّ فيقام ولا يزيغ فيستعتب ولا يخلقه كثرة الردّ وولوج السمع من قال به صدق ومن عمل به سبق لمّا أنزّل اللّه سبحانه قوله ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا

من موت الجهل كما أنّ بالماء ريّ العطش الجسماني.

[**والعصمة للمتمسّك**] به [**والنجاة للمتعلّق**] به، كما مرّ في كونه حبلاً [**لا يعوجّ**] كسائر الآلات المحسوسة [**فيقام ولا يزيغ**] لا يميل عن الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**فيستعتب**] أي: يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحقّ، كما يفعله سائر الحكّام من الناس. [**ولا يخلقه**] لا يجعله خلقاً كالجديد الذي يخلق بكثرة الاستعمال. [**كثرة الردّ**] أي: الترديد في الألسنة.

[**وولوج السمع**] أي: كثرة استماعه ودخوله في الأسماع، بل كلّما رُدّد واستمع كان غضّاً جديداً طريّاً وهذا من خواصّ القرآن، إذ كلّ كلام منثور أو منظوم إذا كثرت تلاوته مجّته الأسماع واستهجنته الطباع بخلاف القرآن فهو المسك مهما كوّرته يتضوّع لكثرة أسراره وعمق أغواره وغاية فصاحته وعذوبة ألفاظه.

[**من قال به صدق**] إذ هو الحقّ الذي لا شبهة فيه ولا شكّ يعتريه [**ومن عمل به سبق**] إلى الجنّة والرضوان وفاز بالنعيم والجنان.

فقام إليه رجل فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول اللّه ﷺ عنها؟ فقال:

[**لمّا أنزّل اللّه سبحانه قوله ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا**

وهم لا يفتنون﴾ علمتُ أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول اللّه ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الفتنة التي أخبرك اللّه بها؟ فقال: يا علي! إنّ أمتي سيفتنون بعدي، فقلت: يا رسول اللّه أوليس قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحِيْزَت عنّي الشهادة فشقّ ذلك عليّ فقلت لي ابشر فإنّ الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إنّ ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذاً؟ فقلت: يا رسول اللّه ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن الشكر والبشرى فقال: يا علي إنّ القوم سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم علي ربّهم ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية

وهم لا يفتنون﴾ علمتُ أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول اللّه ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الفتنة التي أخبرك اللّه بها؟ فقال: يا علي! إنّ أمتي سيفتنون بعدي، فقلت: يا رسول اللّه أوليس قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحِيْزَت عنّي الشهادة فشقّ ذلك عليّ فقلت لي ابشر فإنّ الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إنّ ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذاً؟ فقلت: يا رسول اللّه ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن الشكر والبشرى] لأنّها نعمة عظيمة ومنّة جسيمة يجب شكرها.

[فقال: يا علي إنّ القوم سيفتنون] بعدي.

[بأموالهم ويمنّون بدينهم علي ربّهم ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية] كما استحلّوا محاربة أميرالمؤمنين وقتال المسلمين ودماء المؤمنين بشبهة قتل عثمان.

ويستحلّون الخمر بالنبيذ والسحت الحرام بالهدية والربا بالبيع قلت: يا رسول اللّه! فبأيّ المنازل انزلهم عند ذلك بمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة قال: بمنزلة فتنة الحمد للّه الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره وسبباً للمزيد من فضله ودليلاً على آلائه وعلى عظمته

[ويستحلّون الخمر بالنبيذ] فيشربون النبيذ بزعم أنّه غير الخمر التي حرّمها اللّه، **[والسحت الحرام بالهدية]** فيسمّى القاضي والمرتشي ما يعطاه لأجل الحكم هدية.

[والربا بالبيع] كما ترى في زماننا.

[قلت: يا رسول اللّه! فبأيّ المنازل انزلهم عند ذلك] الذي يصدر منهم، **[بمنزلة فتنة]** فتنوا بها ولم يخرجوا بها عن الإسلام **[أم بمنزلة ردّة]** عن الإسلام وكفر بعد إيمان.

[قال: بمنزلة فتنة].

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره] حيث ابتدء به في عدّة سور من القرآن ويكفي في ذلك الافتتاح به في أوّل الكتاب الكريم **[وسبباً للمزيد من فضله]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

[ودليلاً على آلائه] لاختصاص الشكر بمولى النعم، **[وعلى عظمته]** لاختصاصه باستحقاق ذلك إذ هو مبدء لكلّ نعمة ولأنّ الحمد لا ينبغي إلاّ له.

عباد اللّه إنّ الدهر يجري بالباقين كجريانه بالماضين لا يعود ما قد ولّى ولا يبقى سرمداً ما فيه آخر فعاله كأوّله متشابهة أُموره متظاهرة أعلامه فكأنّكم بالساعة تحدوكم حدو الزاجر بشوله

[**عباد اللّه إنّ الدهر يجري بالباقين كجريانه بالماضين**] فليتذكّر الباقون أنّهم أمثال الماضين يجري عليهم ما جرى عليهم فليرتدعوا عن غيّهم وليعملوا لما بعد الموت.

ثمّ نبّه على حاله في تقيضه فقال: [**لا يعود ما قد ولّى**] اي: مضى وانقضى [**ولا يبقى سرمداً ما فيه**] إذ كلّ وقت منه له أهل ومتاع من الدنيا إنّما يكون في الوجود بوجود ذلك الوقت، وظاهر أنّه يتقضى بتقضّيه ولا يبقى سرمداً ما فيه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ آثاره كأجزائه متشابهة [**آخر فعاله كأوّله**] أي: يوجد ما يكون بإعداد وقت منه بوجود ذلك الوقت ويتقضى بانقضائه فحاله دائماً وتيرة واحدة وكذا قوله: [**متشابهة أُموره**] فإنّه كما كان أوّلاً يعقد قوماً للفقر وقوماً للغنى وقوماً للضعة وقوماً للرفعة وقوماً للوجود وقوماً للعدم كذلك هو آخراً.

وقوله: [**متظاهرة أعلامه**] أي: دلالته على شيمته وطبيعته وافعاله التي يعامل الناس بها قديماً وحديثاً متعاضدة يتبع بعضها بعضاً ونسبة هذه الأُمور إلى الدهر جرياً على ما في أوهام العرب وإن كان الفاعل هو اللّه ثمّ نبّههم على قرب الساعة فقال:

[**فكأنّكم بالساعة تحدوكم**] تسوقكم [**حدو**] أي: سوق [**الزاجر بشوله**] الشول: النوق التي خفّ لبنها وارتفع ضرعها وأتى عليها من نتاجها

فمن شغل نفسه بغير نفسه وارتبك في الهلكات ومدّت به شياطينه في طغيانه وزيّنت له سيّىء أعماله فالجنّة غاية السابقين والنار غاية المفرطين واعلموا عباد اللّه أنّ التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل

سبعة أشهر الواحدة شائلة على غير القياس، شبّه سوق الساعة لهم بسوق الزاجر للنوق في حثّه لها، ووجه الشبه السرعة والحثّ وإنّما خصّ الشول من النوق لخلوّها العشار فيكون سوقها بعنف وإسراع.

ولمّا نبّههم على قربها وأنّها تحدوهم، نبّههم على وجوب اشتغال كلٍّ بنفسه [**فمن شغل نفسه بغير نفسه**] تحيّر في الظلمات ولم يحصّل نوراً يهتدي به بل كان في أغطية الهيئات البدنية وأغشية الشهوات النفسانية التي تعشي نور البصيرة فلا جرم يحتر في تلك الظلمات.

[**وارتبك في الهلكات**] والارتباك: الاختلاط.

[**ومدّت به شياطينه**] ونفسه الأمّارة [**في طغيانه وزيّنت له سيّىء أعماله**] وصار ﴿من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾، وممن قال اللّه فيه: ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

[**فالجنّة غاية السابقين والنار غاية المفرطين**] قرن ذكر الجنّة بذكر فضيلة السبق وذكر النار برذيلة التفريط لتقوى الباعث على طلب أشرف الغايتين والهرب من أخسّهما، ولأنّ السبق والتفريط علّتان للوصول إلى غايتهما المذكورتين فهدى إلى طلب إحديهما والهرب من الأخرى بذكر سببيهما.

[**واعلموا عباد اللّه أنّ التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل**] استعار الدار الحصينة التي تعزّ من تحصّن بها لكونها تحصّن النفس في

لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا وباليقين تدرك الغاية القصوى عباد اللّه! اللّه اللّه في أعزّ الأنفس عليكم وأحبّها إليكم

الدنيا من الرذائل الموبقة الموجبة للهلكات الدنيوية وفي الآخرة من ثمرات الرذائل وملكات السوء المستلزمة للعذاب الأليم، واستعار الدار الموصوفة بكونها حصن الذلّ للفجور لكونه مستلزماً لضدّ ما تستلزم التقوى.

[**لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه**] ويظهر منه أنّ المراد بالتقوى هنا خصوص فضيلة القوّة البهيمية وهي العفّة والزهد لمقابلة الفجور للعفّة.

ثمّ نبّه على فضيلة أخرى للتقوى فقال: [**ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا**] حمة العقرب: ابرتها، وهي محلّ سمّها، استعارها باعتبار كونها مستلزمة للأذى في الآرة كما يستلزم ابرة العقرب أو سمّها للأذى، ومن روى حمّته مشدّدة أراد شدّة الخطايا وبأسها لأنّ حمّة الحر: معظمه، وظاهر كون التقوى تقطع لباس الخطايا وتمحق آثارها [**وباليقين**] الذي به إصلاح القوّة النظريّة [**تدرك الغاية القصوى**] فإنّ الإنسان إذا حصل على كمال القوّة النظريّة باليقين وعلى كمال القوّة العمليّة بالتقوى بلغ الغاية القصوى من الكمال الإنساني.

[**عباد اللّه! اللّه اللّه**] نصب على الاغراء أي: احذروا اللّه واتّقوه [**في أعزّ الأنفس عليكم وأحبّها إليكم**] إشارة إلى أنّ للإنسان نفوساً متعدّدة، أو هي واحدة ولها اعتبارات متعدّدة، وقد صرّح ﷺ في حديث آخر بتعدّدها وهي:

المطمئنة: المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يا أيّتها النفس المطمئنة ارجعي

فإنّ اَللّه تعالى قد أوضح سبيل الحقّ وأنار طرقه فشقوة لازمة أو سعادة دائمة فتزوّدوا وأُمرتم بالظعن وحثثتم على المسير

إلى ربّك راضية مرضية﴾.

والأمّارة: المشار إليها بقوله: ﴿إنّ النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي﴾.

واللوّامة: المشار إليها بقوله: ﴿ولا أُقسم بالنفس اللوّامة﴾ وباعتبار آخر تنقسم إلى عاقلة وشهوية وغضبية، وأعزّ الأنفس النفس العاقلة الباقية بعد الموت التي لها الثواب وعليها العقاب وغاية هذا التحذير حفظ كلّ أحد نفسه مما يوبقها في الآخرة بالاستقامة على سبيل اللّه ولذا قال:

[**فإنّ اللّه تعالى قد أوضح**] لكم [**سبيل الحقّ وأنار طرقه**] وفي نسخة (وأبان) أي: أوضح طرقه، أي: بالآيات والنُّذُر.

ثمّ نبّه على غايتي سبيل الحقّ وسبيل الباطر المشار إليهما بقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين...﴾ بقوله: [**فشقوة لازمة**] أي: لسبيل الباطل، [**أو سعادة دائمة**] لسبيل الحقّ.

[**فتزوّدوا**] التقوى، [**وأُمرتم بالظعن**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السموات والأرض﴾، وقوله تعالى ﴿ففرّوا إلى اللّه﴾.

[**وحثثتم على المسير**] قيل: إنّ كلّ أمر ورد بالإعراض عن الدنيا والتنفير عنها فهو مستلزم للحثّ على الظعن والأمر بالمسير عن الدنيا بالقلوب لأنّ الظعن قطع درجات المعارف والأعمال في سبيل اللّه وصراطه المستقيم ويحتمل أن يريد بالحثّ على المسير حثّ اللّيل والنهار بتعاقبهما على

فإنّما أنتم كركب وقوف لا تدرون متى تؤمرون بالسير الا فما يضيع بالدنيا من خلق للآخرة وما يضيع بالمال من عمّا قليل يسلبه وتبقى عليه تبعته وحسابه عباد اللّه إنّه ليس لما وعد اللّه من الخير مترك ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب

الأعمال فهما سائقان حثيثان عنيفان فيجب التنبّه لسوقهما على اتخاذ الزاد لما يسوقان إليه.

[**فإنّما أنتم كركب وقوف لا تدرون متى تؤمرون بالسير**] ووجه الشبه أنّ الإنسان هو النفس والمطايا هي الأبدان والقوى النفسانية والطريق العالم الحسّي والعقلي والسير الذي ذكره قبل الموت هو تصرّف النفس في العالمين لتحصيل الكمالات المسعدة، وهي الزاد لغاية السعادة الباقية.

وأمّا السير الثاني الذي هم وقوف ينتظرونه ولا يدرون متى يؤمرون به فهو الرحيل إلى الآخرة من دار الدنيا وطرح البدن وقطع عقبات الموت والقبر، إذ الإنسان لا يعرف وقت ذلك، ومن ذلك يعلم عدم التنافي بين قوله (وأمرتم بالظعن) وقوله (لا تدرون متى تؤمرون بالسير).

ثمّ شرع ﷺ في تزهيد الدنيا والتنفير عنها وكذا المال فقال: [**ألا فما يضيع بالدنيا من خلق للآخرة**] فإنّ مقتضى العقل أن يعمل الإنسان لما خلق له، [**وما يضيع بالمال من عمّا قليل يسلبه وتبقى عليه تبعته وحسابه**] فيكون لغيره المهنى وعليه الوزر.

[**عباد اللّه إنّه ليس لما وعد اللّه من الخير مترك**] أي: ليس منه عوض وبدل في النفاسة، [**ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب**] أي: ليس فيه مصلحة ينبغي أن يجعلها العاقل غاية مقصودة له، إذ هو تعالى أعلم

عباد اللّه احذوروا يوماً تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال تشيب فيه الأطفال اعلموا عباد اللّه أنّ عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم لا يستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج وإنّ غداً من اليوم قريب

بالمصالح فلا يليق بجوده أن ينهى العبد عمّا فيه مصلحة راجحة.

ثمّ عقّب ذلك بالتحذير من يوم الوعيد فقال: [**عباد اللّه احذوروا يوماً تفحص فيه الأعمال**] فيفحص فيه عن النقير والقطمير والصغير والكبير والجليل والحقير، قال تعالى: ﴿ولتسئلن عمّا كنتم تعملون﴾.

[**ويكثر فيه الزلزال**] قال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها﴾ إلى قوله ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾، [**تشيب فيه الأطفال**] قال تعالى: ﴿يوم يجعل الولدان شيباً﴾ ﴿السماء منفطر به﴾.

[**اعلموا عباد اللّه أنّ عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم**] كما قال تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ وقال تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللّه الذي أنطق كلّ شيء﴾.

[**وحفّاظ صدق**] إشارة إلى الكرام الكاتبين [**يحفظون أعمالكم**] ويحصون أقوالكم [**وعدد أنفاسكم**] ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾.

[**لا يستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج**] والرتاج: الغلق [**وإنّ غداً**] كناية عن وقت الموت [**من اليوم قريب**] فإنّ كلّ

يذهب اليوم بما فيه ويجيء الغد لاحقاً به وكأنّ كلّ امرء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته ومخطّ حرفته فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة ومقرّ غربة وكأنّ الصيحة قد أتتكم والساعة قد غشيتكم لو برزتم لفصل القضاء قد زالت عنكم الأباطيل واضمحلّت عنكم العلل واستحقّت بكم الحقائق فاتّعظوا بالعبر واعتبروا بالغِير وانتفعوا بالنذر

ما هو آت قريب.

[**يذهب اليوم بما فيه ويجيء الغد لاحقاً به وكأنّ كلّ امرء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته**] كناية عن قبره الذي يصير إليه وحيداً فريداً [**ومخطّ حرفته فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة ومقرّ غربة وكأنّ الصيحة قد أتتكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ أو قوله: فإذا نفخ فيه أُخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

[**والساعة قد غشيتكم**] يعني القيامة الكبرى [**لو برزتم لفصل القضاء**] فوفّيت كلّ نفس ما لها من الثواب وما عليها من العقاب، [**قد زالت عنكم الأباطيل**] أي: الهيئات الباطلة من النفوس التي لها استكمال ما [**واضمحلّت عنكم العلل**] الباطلة [**واستحقّت بكم الحقائق**] ورجع كلّ امرىء إلى ثمرة ما قدّم.

[**فاتّعظوا بالعبر**] وهو كلّ ما يفيد تنبيهاً على أحوال الآخرة [**واعتبروا بالغِير**] جمع غيرة فعله من التغيّر واعتبارها طريق الاتعاظ والانزجار.

[**وانتفعوا بالنذر**] جمع نذير وهو كلّ أمر يخوّف أحوال الآخرة والانتفاع به.

أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم وانتقاض من المبرم فجائهم بتصديق الذي بين يديه والنور المقتدى به ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه إلّا أنّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي

ومن خطبة له عليه السلام

[**أرسله على حين فترة من الرسل**] الضمير راجع إلى النبي ﷺ وقد مرّ معنى الفترة وأنّها على مذهب الإمامية عدم ظهور الحقّ إذ «لا تخلو الأرض من حجّة إمّا قائم مشهور أو غائب مستور».

[**وطول هجعة من الأمم**] كناية عن رقدتهم بمراقد الطبيعة ونوم الغفلة عمّا خلقوا لأجله [**وانتقاض من المبرم**] المبرم في الأصل: الحبل المفتول، واشار به إلى ما كان الخلق عليه من نظام الحال بالشرائع السابقة وابترام أمورهم بوجودها وانتقاضه عبارة عن فساد ذلك النظام بتغيّر الشرائع واضمحلالها.

[**فجائهم بتصديق الذي بين يديه**] من التوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة﴾.

[**والنور المقتدى به ذلك القرآن فاستنطقوه**] باستفسار، ومعنه من أهله [**ولن ينطق**] هو [**ولكن أخبركم عنه**] إذ هو لسان الكتاب بل كتاب اللّه الناطق ونباه الصادق [**إلّا أنّ فيه علم ما يأتي**] إلى يوم القيامة [**والحديث عن الماضي**] نفسه علم الأوّلين والآخرين وما كان وسيكون وما هو كائن إلى

ودواء دائكم ونظام ما بينكم فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلّا وأدخله الظلمة ترحةً وأولجوا فيه نعمة فيومئذ لا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر ينصرهم أصفيتم بالأمر غير أهله وأوردتموه غير ورده وسينتقم اللّه ممّن ظلم

يوم القيامة وإخبار القرون الماضية والأمم الخالية وما يقع من الفتن والحوادث في الدنيا وأحوال القبر والحشر والنشر والحساب في الآخرة **[ودواء دائكم]** من الرذائل المهلكة والأخلاق المردية ودوائها لزوم الفضائل العلميّة والعمليّة التي اشتمل عليها القرآن الكريم.

[ونظام ما بينكم] من القوانين الشرعيّة والحكم السياسيّة التي بها نظام العالم واستقامة أموره.

ومنها

في بيان جملة من حال بني أميّة وما يحدث في دولتهم من الظلم والعدوان والجور والطغيان **[فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر]** كناية عن البدو والحضر.

[إلّا وأدخله الظلمة ترحةً] أي: حزن **[وأولجوا فيه نعمة فيومئذ لا يبقى لهم في السماء عاذر]** يعذرهم في أفعالهم **[ولا في الأرض ناصر ينصرهم]** من دون اللّه **[أصفيتم بالأمر غير أهله]** استفهام توبيخي على اصفائهم بأمر الخلافة غير أهله **[وأوردتموه غير ورده]** والخطاب عام وإن خصّ عقلاً بالراضي بدولة معاوية وذرّيته ومن تقاعد عن القيام معه في قتاله لأنّ العقود عن ردع الظالم وقتاله مستلزم لقوته ويجري مجرى نصرته وإعانته على ظلمه **[وسينتقم اللّه ممن ظلم]** ﴿ولا تحسبن اللّه بغافل عمّا يعمل الظالمون﴾.

مـأكـلاً بمأكل ومشـرباً بمشـرب من مطاعـم العلقم ومشارب الصبر والمقـر ولبـاس شـعـار الخـوف ودثار السـيف وإنّمـا هم مطايا الخطيـات وزوامل الآثام فأُقسم ثمّ أُقسم لتنخمنها أُميّة من بعدي كما تلفظ النخامة ثمّ لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ما كرّ الجديدان

[**مـأكلاً بمأكل ومشرباً بمشـرب**] منصوبان بـفعل مضـمر تقديـره يبدلهم مأكـلاً بمأكل واستـعار لفظ العلقة والصبر والمقـر في قوله [**من مطاعم العلقم ومشارب الصبر والمقر**] وهو المرّ لما يتجرّعونه مـن شدائد القتل وأهوال العدوّ ومرارات زوال الدولة وكذا لفظ الشعار والدثار في قوله:

[**ولبـاس شعـار الخوف ودثار السيف**] للخوف والسيف ورشح الأُولى بذكر اللباس وأشار إلى أنّ الخـوف ملازم لهم كملازمة الشعـار للجسد وقيل خصّ الخـوف بالشـعار لأنّه باطن فـي القلوب والسيف بالدثار لأنّه ظاهر في البدن كما أنّ الشعارة ما كان يلي الجسد والدثار ما كان فوقه.

[**وإنّمـا هم مطايا الخطيـات وزوامل الآثام**] اسـتـعـار لهم لفـظ المطايا والزوامل لحملهم للآثام وأتى بلفظ (إنّمـا) إشـارة إلى أنّ جـمـيـع حركـاتهم وتصرّفاتهم على غير قانون شرعي فتكون خطيئة وإثماً والزوامل جمع زاملة.

[**فأُقسم ثمّ أُقسم لتنخمنهـا أُميّة من بعـدي**] الضمير راجع إلى الخلافة واستعار لـهم لفظ التنخّم لزوال الخلافة عنهم، [**كما تلفـظ النخامة**] فكأنّهم قائوها ولفظوها من صدورهم ملاحظة لشبهها بالنخامة.

[**ثمّ لا تذوقها ولا تطعم بطعـمها**] كناية عن عدم رجوعها إليهم، [**أبداً مـا كرّ الجـديدان**] ما مـصدريـة ظرفيـة، بمعنى المدّة، والجديدان اللّيل والنـهار وهو كناية عن الأبد.

ولقد أحسنت جواركم وأحطت بجهدي من ورائكم وأعتقتكم من ربق الذلّ وحلق الضيم شكراً مني للبرّ القليل وإطراقاً عمّا أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير أمره قضاء وحكمة

ومن خطبة له عليه السلام

[**ولقد أحسنت جواركم وأحطت بجهدي من ورائكم**] إشارة إلى حفظه وحراسته لهم [**وأعتقتكم من ربق الذلّ وحلق الضيم**] كناية عن حمايتهم من عدوّهم واغترارهم به، واستعار لفظ الربق والحلق لما يخاف عليهم من دولة غيره من الأرذال ثمّ نبّههم على شكره للقليل من برّهم فقال: [**شكراً مني للبرّ القليل**] أي: مقدار طاعتهم للّه في طاعته، [**وإطراقاً عمّا أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير**] إشارة إلى أغضائه عن كثير منكرهم ممّا شاهده منّاً عليهم بالمسامحة والعفو، ولعلّ المراد إساءتهم فيما يرجع إلى نفسه أو الإغضاء عن منكر يعلم أنّهم لا يرتدعون عنه أو أنّ الإمام له أن يعفو عن بعض الحقوق كما قرّر في محلّه.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أمره**] الضمير راجع إلى اللّه سبحانه وأمره هو حكم قدرته الإلهية [**قضاء**] أي: حكم لازم لا يردّ [**وحكمة**] أي: على وفق الحكمة الإلهية والنظام الأكمل.

ورضائه أمان ورحمته يقضي بعلم يجري ويعفو بحلم اللّهمّ لك الحمد على ما تأخذ ويعطي وعلى ما تعافي وتبتلي حمداً يكون أرضى الحمد لك وأحبّ الحمد إليك وأفضل الحمد عندك حمداً يملأ ما خلقت ويبلغ ما أردت حمداً لا يحجب عنك ولا يقصر دونك حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده فلسنا نعلم كنه عظمتك إلاّ أنا نعلم أنّك حيٌّ

[**ورضائه أمان ورحمته**] رضاه يعود إلى علمه بطاعة العبد له في أمره ونهيه [**يقضي بعلم يجري**] مجرى التغيّر لقوله أمره قضاء [**ويعفو بحلم**] العفو يعود إلى الرضا بالطاعة بعد تقدّم الذنب وإنّما يتحقّق العفو مع تحقّق القدرة على العقاب إذ الفجر لا يسمّى حلماً، فلذا قال يعفو بحلم.

[**اللّهمّ لك الحمد على ما تأخذ ويعطي وعلى ما تعافي وتبتلي**] أي: على كلّ حال من السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء [**حمداً يكون أرضى الحمد لك وأحبّ الحمد إليك وأفضل الحمد عندك**] أي: أشدّه وقوعاً على الوجه اللائق المناسب لعظمته [**حمداً يملأ ما خلقت ويبلغ ما أردت**] هذا باعتبار الكثرة وما قبله باعتبار الكمّية والأوّل باعتبار الكيفيّة ثمّ حمده باعتبار الغاية فقال:

[**حمداً لا يحجب عنك ولا يقصر دونك**] ثمّ باعتبار مادّته فقال:

[**حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده**] وقد يكون التفضيل في القول في بعض المواضع أبلغ وقعاً في النفوس و ـــــ يكون الإجمال والاختصار أبلغ وأنفعز

ثمّ شرع في الاعتراف بالعجز عن إدراك كنه عظمته فقال: [**فلسنا نعلم كنه عظمتك**] ولا حقيقة صفات جمالك وجلالك [**إلاّ أنا نعلم أنّك حيٌّ**

قيّوم لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال وأخذت بالنواصي والأقدام وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما تغيّب عنّا منه وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه أعظم فمن فرغ قلبه وأعمل فكره ليعلم كيف أقمت عرشك وكيف ذرئت خلقك وكيف علّقت في الهواء سماواتك

قيّوم] إشارة إلى الصفات الحقيقية وهما يستلزمان الوجود إذ كلّ حيّ موجود والقيّوم القائم بذاته المقيم لغيره وكلّ قائم بذاته موجود واجب الوجود.

وقوله: **[لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر]** عقلي **[ولم يدركك بصر]** حسّي، إشارة إلى الاعتبارات السلبية.

وقوله: **[أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال وأخذت بالنواصي والأقدام]** أي: أحاطت قدرتك بها اعتبارات إضافية، ثمّ عاد إلى استحقار ما عدّده مما أدركه بالنسبة إلى مالم يدركه من عظيم ملكوته بقوله: **[وما الذي نرى من خلقك]** (ما) استفهاميّة على سبيل الاستحقار لما استفهم عنهم.

[ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما] موصولة، بتدأ خبرها أعظم والواو للحال والجملة حالية وأي والحال انّ الذي **[تغيّب عنّا منه]** أي: من خلقك وسلطانك **[وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه أعظم]** ممّا رأيناه وشاهدناه **[فمن فرغ قلبه وأعمل فكره]** ليصل إلى كنه معرفته وعلم كيفية نظامه للعالم العلوي **[ليعلم كيف أقمت عرشك وكيف ذرئت خلقك وكيف علّقت في الهواء سماواتك]**

وكيف مددت الأرض على مور الماء أرضك رجع طرفه حسيراً وعقله مبهوراً وسمعه والهاً وفكره حائراً بزعمه أنّه يرجو اللّه كذب والعظيم ما باللّه لا يتبيّن رجائه في عمله وكلّ من رجى عرف رجائه في عمله إلاّ رجاء اللّه فإنّه مدخول

بلا عمد [**وكيف مددت الأرض على مور الماء أرضك**] بلا سند [**رجع طرفه حسيراً وعقله مبهوراً**] مغلوباً [**وسمعه والهاً وفكره حائراً**].

ومنها
في ذمّ من يدّعي رجاء اللّه ولا يعمل له

فقال يدّعيه بلسان الحال أو المقال: [**بزعمه أنّه يرجو اللّه**] سبحانه وتعالى [**كذب والعظيم**] ردّ لتلك الدعوى مؤكّد بالقسم البار وذكر العظيم دون سائر الأسماء لانّه أنسب للرجاء.

وقوله: [**ما باللّه لا يتبيّن رجائه في عمله وكلّ من رجى عرف رجائه في عمله إلاّ رجاء اللّه فإنّه مدخول**] في صورة قياس من الشكل الثاني تبيّن أنّ مثل هذا غير راج في الحقيقة، وحاصله أنّ هذا المدّعي لا يتبيّن رجائه في عمله وكلّ من رجى يتبيّن رجائه في عمله فينتج أنّ هذا المدّعي للرجاء غير راج.

وأشار بقوله (فإنّه مدخول) إلى أنّ هذا الرجاء غير خالص، إذ كلّ من رجى أمراً من سلطان أو غيره فإنّه يخدمه الخدمة التامّة ويبالغ في طلب رضاه ويكون عمله بقدر قوّة رجائه وخلوصه ونرى هذا المدّعي للرجاء غير

وكلّ خوف محقّق إلاّ خوف اللّه فإنّه معلول يرجو اللّه في الكبير ويرجو العباد في الصغير فما بال اللّه عزّ وجلّ يقصر به عما يصنع بعباده أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لايعطي غيره ربّه

عامل فنستدلّ بتقصيره في الأعمال الدينيّة على عدم رجائه الخالص في اللّه .

وكذا قوله : [**وكلّ خوف محقّق إلاّ خوف اللّه فإنّه معلول**] توبيخ للسامعين في رجاء اللّه تعالى مع تقصيرهم في الأعمال الدينية وتقدير الاستثناء الأوّل مع المستثنى منه وكلّ رجاء لراج يعرف خلوص رجائه فيما يرجوه إلاّ رجاء الراجي للّه فإنّه غير خالص .

وقوله : [**يرجو اللّه في الكبير ويرجو العباد في الصغير**] وهو في قوّة قياس تقدير كبراه وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يعطي اللّه الذي هو ربّه من رجائه والعمل له ما لا يعطي المخلوقين الذين هم عباده .

وقوله : [**فما بال اللّه عزّ وجلّ يقصر به عما يصنع بعباده**] توبيخ وتشنيع على من يخالف العمل بالنتيجة المذكورة .

وقوله : [**أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً**] استفسار عن علّة التقصير المذكور في الرجاء للّه والعمل له بالنسبة إلى رجاء العباد والعمل لهم على سبيل الإنكار وتقريعاً على ما عساه تدّعي إحدى العلّتين المذكورتين وهما خوف الكذب في رجاء بعضهم لبعض أو ضعفه وانتفائهما في حقّه تعالى ظاهر .

وقوله : [**وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي غيره ربّه**] الضمير في عبيده للّه وفي خوفه للخائف أو العبد .

فجعل خوفه من العباد نقداً وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً وكذلك من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها من قلبه آثرها على اللّه فانقطع إليها وصار عبداً لها ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لك كاف ودليل على ذمّ الدنيا وغيّها وكثرة مخازيها

وقوله: [**فجعل خوفه من العباد نقداً وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً**] الضمار الذي لا يرجى من الموعود، إشارة إلى أنّه في غاية القبح جعل الإنسان خوفه من عبد مثله لا يضرّ ولا ينفع حاضراً، وخوفه من خالقه الذي بيده أزمّة الأمور وعداً غير حاضر.

وقوله: [**وكذلك من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها من قلبه آثرها على اللّه فانقطع إليها وصار عبداً لها**] إشارة إلى علّة إيثار الناس الحياة الدنيا على الآخرة عظمة الدنيا في أعينهم وتمام هذه العلّة حقارة ما تصوّروه من الوعد الاخروي بالنسبة إلى الدنيا وعلّة هذه العلّة هو تصوّرهم للذّات العاجلة كما هي وغيبوبة اللّذات الموعودة وتصوّرها الضعيف بحسب الموصف الذي غايته أن يوجب في أذهانهم مشابهة ما وعدوا به لما حضر لهم الآن، فلذا كانت العاجلة أعظم في نفوسهم وأكبر وقعاً في قولبهم ولذا آثروها وانقطعوا إليها فاستعبدتهم، وغاية هذا التوبيخ التنفير عن الدنيا والجذب والميل إلى ما وعد اللّه، ولذا عقّبه بذكر حال النبي ﷺ فقال:

[**ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لك كاف**] في الاسوة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول اللّه أُسوة حسنة﴾، وقال تعالى: ﴿إن كنتم تحبّون اللّه فاتّبعوني يحببكم اللّه﴾.

[**ودليل على ذمّ الدنيا وغيّها وكثرة مخازيها**] جمع مخزاة: وهو الأمر

ومساميها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها وفطم من رضاعها وزوي عن زخارفها وإن شئت ثنيت بموسى كليم اللّه إذ يقول ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير واللّه ما سأله إلاّ خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه وإن شئت ثلّثت بداود صاحب المزامير وقاري أهل الجنّة

يشجي من ذكره لقبحه، [**ومساميها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها**] أي: جوانبها.

[**وفطم من رضاعها وزوي عن زخارفها**] جمع زخرف: وهو الذهب، روي عنه ﷺ قال: «عرضت عليّ كنوز الأرض ودفعت إليّ مفاتيح خزائنها فكرهتها واخترت الدار الآخرة»، وفي الأخبار الصحيحة عنه ﷺ أنّه كان يجوع ويشدّ حجراً على بطنه وأنّه ما شبع آل محمد ﷺ من لحم قط وأنّ فاطمة وبعلها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير وأنّه ﷺ ما شبع من خبز الشعير قط ولا أكل من خبز البر قط.

[**وإن شئت ثنيت بموسى كليم اللّه إذ يقول ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير واللّه ما سأله إلاّ خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه**] وشفيفه: رفيعه الذي يستشفّ ما ورائه، والصفاق الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن [**لهزاله وتشذّب لحمه**] تشذّب اللّحم تفرّقه [**وإن شئت ثلّثت بداود صاحب المزامير**] جمع مزمار: وهي الآلة التي يزمر فيها.

[**وقاري أهل الجنّة**] روي أنّه أُعطي من طيب النغمة ولذّة ترجيع القراءة

ولقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه أيّكم يكفيني بيعها وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما ينبت في الأرض للبهائم ولم يكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذلّه دابّته رجلاه وخادمه يداه، فتأسَّ بنبيّك الأطهر الأطيب فإنّ فيه أُسوة لمن تأسّى وعزاء لمن تعزّى وأحبّ العباد إلى اللّه المتأسّي بنبيّه المقتص لأثره قضم الدنيا قضماً

ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته.

[**ولقد كان يعمل سفائف الخوص**] جمع سفيفة وهي النسيجة [**بيده ويقول لجلسائه أيّكم يكفيني بيعها**] ويأكل قرص الشعير من ثمنها [**وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما ينبت في الأرض للبهائم ولم يكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذلّه دابّته رجلاه وخادمه يداه، فتأسَّ بنبيّك الأطهر الأطيب فإنّ فيه أُسوة لمن تأسّى وعزاء لمن تعزّى وأحبّ العباد إلى اللّه المتأسّي بنبيّه المقتص لأثره**] أي: المتّبع له، قال تعالى: ﴿فقالت لاخته قصّيه﴾.

[**قضم الدنيا قضماً**] أي: تناول منها قدر الكفاف وما تدعو إليه الضرورة من حسن المعيشة وأصل القضم أكل الشيء اليابس بأطراف

ولم يعرها طرفاً أهضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصهم من الدنيا بطناً عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها وعلم أنّ اللّه أبغض شيئاً فأبغضه وحقّر شيئاً فحقّره وصغّر شيئاً فصغّره ولو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أبغض اللّه وتعظيمنا ما صغّر اللّه لكفى به شقاقاً للّه ولقد كان صلّى اللّه عليه وآله يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف نعله بيده ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلقه ويكون الستر على باب بيته فيكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة لإحدى

الأسنان والخضم أكل بكلّ الفم للأشياء الرطبة، وروي قصم بالصاد أي: كسر.

[**ولم يعرها طرفاً**] أي: لم يلتفت إليها ولم يلو طرفه وجانبه إليها [**أهضم أهل الدنيا كشحاً**] الكشح: الخاصرة.

[**وأخمصهم من الدنيا بطناً عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها وعلم أنّ اللّه أبغض شيئاً فأبغضه وحقّر شيئاً فحقّره وصغّر شيئاً فصغّره ولو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أبغض اللّه وتعظيمنا ما صغّر اللّه لكفى به شقاقاً للّه**] والشقاق: الخلاف والمحادة والمعاداة.

[**ولقد كان صلّى اللّه عليه وآله يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف نعله بيده ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلقه**] ففي الأخبار الصحيحة عنه ﷺ: «إنّما أنا عبد، آكل أكل العبد، وأجلس جلسة العبد» وكان يأكل على الأرض ويجلس جلوس العبد يضع قصبتي ساقيه على الأرض ويعتمد عليهما بباطن فخذيه وركوبه الحمار العاري آية التواضع وهضم النفس وإرادف غيره خلفه آكد في الدلالة على ذلك.

[**ويكون الستر على باب بيته فيكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة لإحدى**

زوجاته غيّبيه عنّي فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها رياشاً ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيّبها عن البصر وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده، ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصة وزُويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته فلينظر ناظر بعقله ءأكرم اللّه محمّداً بذكل أم أهانه، فإن قال أهانه، فقد كذب والعظيم، وأتى بالإفك العظيم، وإن قال أكرمه، فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه

زوجاته غيّبيه عنّي فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها رياشاً ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيّبها عن البصر وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده، ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصة وزُويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته] فقد تظافر في الأخبار أنّ فاطمة وبعلها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير وأنّهم آثروا سائلاً بأربعة أقرص منه كانوا عدّوها لفطورهم وباتوا جياعاً.

[فلينظر ناظر بعقله ءأكرم اللّه محمّداً بذكل أم أهانه، فإن قال أهانه، فقد كذب والعظيم، وأتى بالإفك العظيم، وإن قال أكرمه، فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه].

فتأسّى متأس بنبيه واقتص أثره وولج مولجه وإلّا فلا يأمن الهلكة فإنّ اللّه تعالى جعل محمداً صلّى اللّه عليه وآله علماً للساعة

وخلاصة الاحتجاج أنّه ﷺ إذا كان جاع في الدنيا مع خاصّته وزوى اللّه عنه زخارفها فلا يخلو إمّا أن يكون ذلك إكراماً له أو إهانة، والقسم الثاني ظاهر البطلان لأنّه من المعلوم أنّه ﷺ أخصّ خواصّ اللّه وأشدّهم طاعة له ولذا كذّبه مؤكّداً بالقسم، وإن كان إكراماً له فمن المعلوم أنّ الشيء إذا كان عدمه إكراماً وكمالاً كان وجوده نقصاً وإهانة فكان وجود الدنيا في حقّ غيره وإزوائها عنه مع قرب منزلته إهانة لذلك الغير وذلك يستلزم حقارتها والنفرة عنها.

ثمّ عاد إلى الأمر بالتأسّي به في ترك الدنيا تأكيداً لما سبق بعد بيان وجوه التأسّي وهو أمر في صورة الخبر مع زيادة تنبيه على أنّ الميل إليها محلّ الهلكة فقال:

[**فتأسّى متأس بنبيه واقتص أثره وولج مولجه**] أي: دخل فيما دخل فيه وخرج ممّا خرج منه.

[**وإلّا فلا يأمن الهلكة**] لأنّ اللّه تعالى أخرجه من الدنيا بهذه الأحوال المستلزمة للنفار عنها والبغض منها فلو لم يكن الركون إليها وارتكاب أضداد هذه الأحوال مظنّة الهلكة لما نفر النبي عنها ولم يركن إليها لكنّه نفر عنها فكانت مظنّة الهلكة، فوجب التأسّي به في نفاره عنها، وقد أشار إلى هذا بقوله:

[**فإنّ اللّه تعالى جعل محمداً صلّى اللّه عليه وآله علماً للساعة**] أي: أمارة على قربها، وروي علماً للساعة بكسر العين مجازاً إطلاقاً لاسم

ومبشّراً بالجنّة ومنذراً بالعقوبة خرج من الدنيا خميصاً ورد الآخرة سليماً لم يضع حجراً على حجر حتّى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه واللّه لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل ألا تنبذها عنك فقلت: اعزب عنّي فعند الصباح يُحمدُ القوم السُّرى

السبب على المسبّب إذ هو ﷺ سبب للعلم بالساعة.

[**ومبشّراً بالجنّة**] للمؤمنين، [**ومنذراً بالعقوبة**] للكافرين، [**خرج من الدنيا خميصاً**] لم يشبع من خبز الشعير قط وشدّ حجر المجاعة على بطنه [**ورد الآخرة سليماً**] من التلوّث بالدنيا [**لم يضع حجراً على حجر**] كناية عن أنّه لم يبن بناء.

[**حتّى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه**] أي: نقتفي أثره.

ثمّ أردف ذلك ببعض أحواله التي تأسّى به ﷺ فيها فقال: [**واللّه لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل ألا تنبذها**] أي: تلقيها [**عنك فقلت: اعزب**] أي: ابعد [**عنّي فعند الصباح يُحمدُ القوم السُّرى**] مثل يضرب لمتحمّل المشقّة ليصل إلى الراحة وأصله أنّ القوم يسيرون في اللّيل ويذيقون أنفسهم ألم السهر والتعب ويحمدون ذلك بقرب المنزل إذا أصبحوا أو مطابقة الصباح لمفارقة النفس البدن أو لإعراضها عنه واتصالها بالملأ الأعلى بسبب تلك الرياضة الكاملة، وزشراق نور العالم العلوي عليها التي عنده تحمد عواقب الصبر على مكاره الدنيا وترك لذّاتها ومعافاة شدائدها مطابقة ظاهرة واقعة موقعها.

اتبعته بالنور المضيء والبرهان الجلي والمنهاج البادي والكتاب الهادي أسرته خير أسرة وشجرته خير شجرة أغصانها معتدلة

وروي أنّه ﷺ سُئل لِمَ رفعت قميصك فقال: يخشع لها القلب ويقتدي بها المؤمنون، وعن أبي النور قال: جائني عليّ إلى السوق ومعه غلام له وهو خليفة، فاشترى منّي قميصين وقال لغلامه اختر أيّهما شئت فأخذ أحدهما وأخذ عليّ الآخر ولبسه ومدّ يده فوجد كمّه فاضلة فقال اقطع الفاضل، فقطعه ثمّ كفّه وذهب.

وروي أنّه لمّا أرسل عثمان إلي عليّ وجدوه مؤتزراً بعباة محتجراً بعقال وهو يهنأ بعيراً له أي: يمسحه بالقطران وهو الهنا.

ومن خطبة له عليه السلام
في وصف النبي ﷺ

[**اتبعته بالنور المضيء**] أي: بالدين أو بالقرآن، استعار النور لهدى النبوّة [**والبرهان الجلي**] وهي المعجزات والآيات الموضحة لنبوّته [**والمنهاج البادي**] وهو شريعته ودينه الواضح.

[**والكتاب الهادي**] أي: القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

[**أسرته خير أسرة**] أي: أهله خير أهل.

[**وشجرته خير شجرة**] استعار الشجرة لأصله وظاهر كون قريش أفضل العرب وبني هاشم أفضل قريش وأهل بيته أفضل بني هاشم.

[**أغصانها معتدلة**] استعار الأغصان لأشخاص بيته كعليّ وزوجته

وثمارها منهدلة مولدة بمكّة وهجرته بطيبة علا بها ذكره وامتدّ منها صوته أرسله بحجّة كافية وموعظة شافية ودعوته متلافية أظهر به الشرائع المجهولة وقمع به البدع المدخولة وبيّن به الأحكام المفصولة فمن يبتغ

وأعمامه واخوته واعتدالهم كناية عن تقاربهم في الفضل والشرف.

[وثمارها] استعارة لفضائلهم العلميّة والعمليّة **[منهدلة]** كناية عن ظهورها وكثرتها وسهولة الانتفاع بها **[مولدة بمكّة]** المشرّفة زادها اللّه شرفا.

[وهجرته بطيبة] أي: المدينة، وكان اسمها يثرب فسمّها ﷺ طيبة وسمّاها يزيد بن معاوية خبيثة مراغمة لرسول اللّه ﷺ وإنّما كان في معرض المدح لشرف مكّة بالبيت العتيق وشرف المدينة بأهلها حيث آووه ونصروه حين هاجر إليه، **[علا بها ذكره]** لأنّه إنّما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة.

[وامتدّ منها صوته] كناية عن انتشار دعوته، **[أرسله بحجّة كافية]** كناية عمّا جاء به من الآيات التي قهر بها أعداء اللّه **[وموعظة شافية]** ما اشتمل عليه القرآن العظيم والسنّة الكريمة من الوعد والوعيد وضرب الأمثال والتذكير بالقرون الماضية والأمم الخالية إلى غير ذلك مما فيه شفاء للقلوب من أدواء الجهل.

[ودعوته متلافية] أي: تتلافى ما فسد في الجاهلية من أديان البشر ويستدرك بها ما فسد من نظام الخلق واسودّ من ألواح نفوسهم.

[أظهر به الشرائع المجهولة] أي: طريق دينه وقوانين شريعته التي لم يكن يهتدى إليها إلاّ بظهوره **[وقمع به البدع المدخولة]** ما كان عليه أهل الجاهلية من الآثام والإفساد في الأرض، **[وبيّن به الأحكام المفصولة]** أي: ما فصّله وبيّنه لنا من أحكام دين الإسلام ومنها الحلال والحرام، **[فمن يبتغ**

غير الإسلام ديناً وتحقّق بشقوته وتنفصم عروته وتعظم كبوته ويكن مآبه وأتوكّل على اللّه توكّل الإنابة إليه وأسترشده السبيل المؤدّية إلى جنّته القاصدة إلى محلّ رغبته أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وطاعته فإنّها النجاة غداً والنجاة أبداً رهّب فأبلغ ورغّب فأسبغ

غير الإسلام ديناً] ضلّ عن الطريق القويم والصراط المستقيم، **[وتحقّق بشقوته]** في الدارين.

[وتنفصم عروته] من الجانبين أي: ينقطع متمسّك النجاة في يده **[وتعظم كبوته]** مصدر كبا الجواد: إذا عثر فوقع إلى الأرض.

[ويكن مآبه] ومرجعه [إلى الحزن الطويل والعذاب الوبيلخ أي: ذو الوبال وهو الهلاك **[وأتوكّل على اللّه توكّل الإنابة إليه]** والإنابة: الرجوع، أي: الملتفت بقلبه عن غيره المسلم لجميع أموره إليه **[وأسترشده السبيل]** أي: أسأله الإرشاد إلى سبيله **[المؤدّية إلى جنّته القاصدة إلى محلّ رغبته]** التي هي محلّ الرغبة إليه وموقع الزلفة لديه.

ثمّ عقّب ذلك بالموعظة فقال: **[أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وطاعته فإنّها النجاة غداً]** أي: في القيامة، وإطلاق النجاة عليها مجاز من إطلاق المسبب على السبب لكونها معدّة لإفاضة النجاة من عذاب يوم القيامة وقيل النجاة الناقة التي ينحى عليها فاستعار لفظها للطاعة لأنّها كالمطيّة ينحو بها المطيع من العطب.

[والنجاة أبداً] أي: محلّ النجاة دائماً **[رهّب]** أي: اللّه سبحانه وتعالى.

[فأبلغ] في ترهيبه ووعيده **[ورغّب]** في طاعته وجنّته **[فأسبغ]**

ووصف لكم الدنيا وانقطاعها وزوالها وانتقالها فأعرضوا عمّا يعجبكم منها لقلّة ما يصحبكم منها أقرب دار من سخط اللّه وأبعدها من طاعة اللّه فغضّوا عنكم عباد اللّه غمومها وأشغالها لما قد أيقنتم به من فراقها وتصرّف حالاتها فاحذروها حذار الشفيق الناصح والمجد الكادح واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايلت أوصالهم

الترغيب وأتمّه ببيان مصالحه ومنافعه والجذب إليه والإقبال عليه.

[**ووصف لكم الدنيا**] بالأوصاف الموجبة للرغبة عنها [**وانقطاعها وزوالها وانتقالها فأعرضوا**] بقلوبكم [**عمّا يعجبكم منها لقلّة ما يصحبكم منها**] وإنّما عبّر بقلّته ولم يعبّر بعدمه لأنّ السالكين لابدّ أن يستصحبوا منها شيئاً ولو قليلاً ويحتمل أن يريد بالقليل الكفر ونحوه.

[**أقرب دار من سخط اللّه**] كما قال النبي ﷺ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة [**وأبعدها من طاعة اللّه**] لأنّ الميل فيها إلى اللهو واللعب والاستمتاع

والاستمتاع بزينتها المستلزم لسخط اللّه أغلب من الانتفاع بها في سلوك سبيل اللّه.

[**فغضّوا عنكم عباد اللّه غمومها وأشغالها**] أي: كفّوا عن أنفسم الغمّ لأجلها والاشتغال بها، [**لما قد أيقنتم به من فراقها وتصرّف حالاتها**] من حال إلى حال، والغم إنّما ينبغي أن يوجّه نحو ما يبقى.

[**فاحذروها حذار الشفيق**] على نفسه [**الناصح والمجد الكادح**] المجدّ في السعي والعمل.

[**واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايلت أوصالهم**]

وزالت أسماعهم وأبصارهم وذهب شرفهم وعزّهم وانقطع سرورهم ونعيمهم فبدّلوا بقرب الأولاد بعدها وبصحبة الأزواج مفارقتها لا يتفاخرون ولا يتناسلون ولا يتزاورون ولا يتجاورون فاحذروا عباد اللّه حذر الغالب لنفسه الناظر بعقله فإنّ الأمر واضح والعلم قائم والطريق إلى اللّه جدد والسبيل قاصد.

أي: أعضائهم **[وزالت أسماعهم وأبصارهم وذهب شرفهم وعزّهم وانقطع سرورهم ونعيمهم فبدّلوا بقرب الأولاد بعدها وبصحبة الأزواج مفارقتها لا يتفاخرون ولا يتناسلون ولا يتزاورون ولا يتجاورون]** المحاورة: المخاطبة والمناجاة، وفي رواية بالجيم.

[فاحذروا عباد اللّه] هذه الدنيا الغدّارة والنفس الأمّارة، **[حذر الغالب لنفسه]** الأمّارة بالسوء المستعبد لها بالانقياد إلى عقله، **[الناظر بعقله]** مقابح شهوته المانع لها عن العود إلى حدّ الإفراط من فضيلة العفّة **[فإنّ الأمر واضح]** أي: أمر الدنيا والآخرة في غاية الوضوح لمن اعتبر حالهم، **[والعلم]** أي: علم الشريعة الهادي إلى الحقّ **[قائم والطريق إلى اللّه جدد]** واضح سهل مستقيم، **[والسبيل]** إلى رضوانه وجنانه **[قاصد]** معتدل فلا يكن أمركم عليكم غمّة.

وقد سأله بعض أصحابه كيف دفعكم قومكم عن هذا الأمر وأنتم أحقّ به فقال ﷺ: ياأخا بني أسد إنّك لقلق الوضين ترسل في غير سدد ولك ذمامة الطهر وقد استعلمت فاعلم أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام نحن الأعلون نسباً والأشدّون بالرسول نوطاً

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد سأله بعض أصحابه كيف دفعكم قومكم عن هذا الأمر وأنتم أحقّ به فقال ﷺ: يا أخا بني أسد إنّك لقلق الوضين**] الوضين: بطان القتب وحرام السرج، والقلق: الاضطراب، يقال للرجل المضطرب في أُمور إنّه لقلق الوضين.

[**ترسل في غير سدد**] أي: تتكلّم في غير قصد ولا صوب، والسدد والسداد: الاستقامة والصواب، والسديد: الذي يصيب السدّد [**ولك ذمامة الطهر**] الذمامة بالكسر: الحرمة، ويروى ماته الطهر أي: وسيلته وهي الصاهرة لأنّ زينب بنت جحش زوجة رسول اللّه ﷺ كانت أسديّة وأُمّها اميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم فهي بنت عمة رسول اللّه ﷺ.

[**وقد استعلمت فاعلم**] أدّب السائل أوّلاً بكونه قلق البطين لكون سؤاله عمّا لا يعنيه أو في غير موضعه، والوضين إذا قلق اضطرب القتب فلم يثبت فطابق حال من لا يثبت في مقاله وحركاته وأكّده وترسل في غير سداد ثمّ أجابه لحقّ المصاهرة والاسترشاد فقال:

[**أمّا الاستبداد**] أي: التفرّد والاستئثار [**علينا بهذا المقام**] أي: مقام الخلافة والإمرة، والحال إنّا [**نحن الأعلون نسباً والأشدّون بالرسول نوطاً**]

فإنّها كانت أثرة وشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين والحكم للّه والمعود إليه القيامة ودع عنك نهباً صيح في حجراته

أي: تعلّقاً [فإنّها] الضمير يعود إلى معنى الأثرة في الاستبداد.

[**كانت أثرة**] الأثرة بالتحريك: الاستبداد والاستئثار.

[**وشحّت عليها نفوس قوم**] يوم السقيفة ويوم الشورى، [**وسخت عنها نفوس آخرين**] أشار إلى نفسه ﷺ، فالطالب للاستبداد موجود والمانع مفقود إذ لم ننازع فيها لعدم الناصر والمعين أو حزناً على هتك حرمة الإسلام [**والحكم للّه والمعود إليه**] أي: مرجع العباد إليه الظالم والمظلوم [**القيامة**] وهو تظلّم وتشكّي منه عليه السلام والمعود مبتدأ خبره القيامة.

[**ودع عنك نهباً صيح في حجراته**] البيت لامرء القيس وأصله أنّه تنقل في أحياء العرب بعد قتل أبيه، فنزل على رجل من جذيلة طي يقال له ظريف، فأحسن جواره فمد-حه وأقام معه، ثمّ إنّه خاف ان لا يكون له منعه فتحوّل عنه ونزل على خالد بن أصمع النبهاني، فأغارت بنو جذيلة عليه وهو في جوار خالد فذهبوا بإبله، فلمّا أتاه الخبر ذكر ذلك لخالد فقال له: أعطني رواحلك ألحق عليها فأردّ إليك إبلك، ففعل، فركب خالد في اثر القوم حتّى أدركهم فقال: يا بني جذيلة! أغرتم على إبل جاري، قالوا: ما هو لك بجار، قال: بلى واللّه، وهذه رواحله فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ وذهبوا بهنّ وبالإبل، فقال امرء القيس القصيدة التي أوّلها:

فدع نهباً صيح في حجرات ولكن حديث ما حديث الرواحل

والنهب هنا ما ينهب وحجراته جوانبه، وحديث الثاني مبتدأ والأوّل خبره، و(ما) للتنكير إذا دخلت على الإسم زادته إبهاماً، أي: دع ذكر الإبل

وهلمّ الخطب في ابن أبي سفيان فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه
ولا غرو واللّه فيا له خطباً يستفرغ العجب ويكبر الأود

فإنّه مفهوم ولكن حديث الرواحل حديث ما أي حديث منهم لا ندري كيف هو وذلك أنّه قيل إنّ خالداً هو الذي ذهب بالرواحل فكان عنده لبس في أمرها ووجه الاستشهاد بالشطر الأوّل أنّ السابقين من الخلفاء وإن استبدّوا بالخلافة فربّما كان لهم عذر من القدم في الإسلام والهجرة وقرب المنزلة فدع ذكرهم وهات ما نحن فيه الآن من خطب معاوية بن أبي سفيان كما قال:

[**وهلمّ**] أي: هات ذكر [**الخطب**] والخطب: الحادث الجليل، [**في ابن أبي سفيان**] حيث صار منازعاً له ومحارباً في الخلافة بحيث يكون مقابلاً ونداً له، ولم يزل عدواً للّه ولرسوله محارباً للإسلام والمسلمين معانداً لربّ العالمين.

[**فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه**] من تصرّف الدهر وتقلّبه، حيث جعل معاوية نظيراً له، ويقال: عليٌّ ومعاوية!!

[**ولا غرو**] أي: لا عجب، [**واللّه**] ثمّ فسّر ذلك فقال: [**فيا له خطباً يستفرغ العجب**] أي: يستنفذه ويفنيه حتّى صار كلا عجب.

[**ويكبر الأود**] أي: العوج، ويحتمل أن يكون قوله: ولا غرو واللّه، أي: إذا نظر الإنسان إلى حقيقة الدنيا وتصرّف أحوالها ويكون قوله: فياله، استئناف لاستعظام هذا الأمر وكونه كثير الاعوجاج ظاهر، فإنّ كلّ أمر بعُد عن الشريعة ازداد الأمر به اعوجاجاً.

حاول القوم إطفاء نور اللّه من مصباحه وسدّ فوّارة ينبوعه وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً فإن ترتفع عنّا وعنهم محن البلوى أحملهم من الحقّ على محضه وإن تكن الأُخرى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إنّ اللّه عليم بما يصنعون

وقوله: [**حاول القوم إطفاء نور اللّه من مصباحه**] يعني بالقوم هذا قريشاً، ومصباح أنوار اللّه استعارة لخاصّة الرسول ﷺ من أهل بيته وكذا قوله: [**وسدّ فوّارة ينبوعه**] استعارة لهم باعتبار كونهم معادن العلوم الربّانية التي فيها حياة الأرواح والقلوب، كما أنّ بالماء حياة الأبدان، أي: حاولوا إزالة هذا الأمر عن مستقرّه ومعدنه الأحقّ به وهو بيت الرسول ﷺ.

[**وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً**] الجدح بالجيم بعدها الحاء: الخلط والتخويض والتكدير، والشرب بالكسر: الحظّ من الماء والولي ذو الوباء المرض، استعارض لفظ الشرب الولي لذلك الأمر، ولفظ الجدح للكدر الواقع بينهم والمجاذبة لهذا الأمر، واستعار وصف الولي له باعتبار كونه سبب الهلاك والقتل بينهم.

[**فإن ترتفع عنّا وعنهم محن البلوى**] أي: يجتمعوا عليّ ويرتفع ما ابتلينا به من هذه المحن، [**أحملهم من الحقّ على محضه وإن تكن الأُخرى**] وأبوا إلّا ما هم عليه [**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إنّ اللّه عليهم بما يصنعون**] اقتبس الآية المشتملة على تأديب نفسه وتوطينها على ترك الأسف عليهم إن لم يؤمنوا وعلى تهديدهم ووعيدهم باطلاع اللّه على أعمالهم السيّئة.

أقول: يعجبني نقل كلام بن أبي الحديد في الشرح، قال ما ملخّصه:

....

سألت أباجعفر يحيى بن محمد العلوي نقيب البصرة وقت قرائتي عليه هذا الكلام، وكان على ما يذهب عليه من المذاهب العلويّة منصفاً وافر العقل، فقلت له: من يعني بقوله: (كانت أثرة شحّت عليها نفوس قوم) ومن القوم الذين عناهم الأسدي؟ وهل المراد يوم الشورى ويوم السقيفة، وقلت: إنّ نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان الرسول ﷺ ودفع النصّ، فقال: وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول ﷺ إلى إهمال أمر الأمّة وأن يترك الناس سُدى مهملين وقد كان لا يغيب عن المدينة إلّا ويؤمّر عليها أميراً وهو حيّ ليس بالبعيد عنها، فكيف لا يؤمّر وهو ميّت ولا يقدر على استدراك ما يحدث، ثمّ قال: ليس يشكّ أحداً من الناس أنّ رسول اللّه ﷺ كان عاقلاً كامل العقل، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم، وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة سديد الرأي أقام ملّة وشرع شريعة واستجدّ ملكاً عظيماً بعقله وتدبيره، وهذا الرجل العاقل الكامل يعرف طباع العرب وغرائزهم وطلبهم بالثارات ولو بعد الأزمان المتطاولة ولو من العشائر والقبال والأولاد والأحفاد، فكيف يتوهّم لبيب أنّ هذا العاقل وتر العرب سيّما قريش وساعده على سفك الدماء وإزهاق الأنفس ابن عمّه وهو يعلم أنّه يموت ويتركه بعده وعنده ابنته وولداه ثمرتا كبده ونورا عينه ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه فيحقن دمه، الا يعلم هذا العاقل الكامل أنّه إذا تركه وبنيه وأهله سوقه ورعيته فقد عرّض دمائهم للإراقة بعده وكانوا مضغة للآكل وفريسة للمفترس، يتخطّفهم الناس، وإذا جعل السلطان فيهم والأمر إليهم فقد حقن دمائهم،

. . . .

افترى ذهب عن رسول اللّه ﷺ هذا المعنى؟! أم أحبّ أن يستأصل أهله وذريّته من بعده؟! فقلت له: أحسنت فيما قلت: إلاّ أنّ لفظه ﷺ يدلّ على أنّه لم يكن نصّ عليه، الا تراه يقول: ونحن الأعلون نسباً والأشدّون برسول اللّه ﷺ نوطاً، فجعل الاحتجاج بالنسب وشدّة القرب، فلو كان عليه نصّ لقال عوض ذلك فأنا المنصوص عليّ المخطوب باسمي.

فقال (رحمه اللّه): إنّه إنّما أتاه من حيث يعلم لا من حيث يجهل، الا ترى إنّه سأله فقال: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به، فهو إنّما سأل دفعهم عنه وهم أحقّ به من جهة اللحمة والغيرة ولم يكن الأسدي يتصوّر النصّ ولا يعتقده ولا يخطر له ببال، لأنّه لو كان هذا في نفسه لقال له: لم دفعك الناس وقد نصّ عليك رسول اللّه ﷺ، فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذي تعلّق به الأسدي بعينه تمهيداً للجواب.

فقال: إنّما فعلوا ذلك مع أنا أقرب إلى رسول اللّه ﷺ، لأنّهم استأثروا علينا ولو قال له أنا المنصوص عليه المخطوب باسمه في حياة رسول اللّه ﷺ لما كان قد اجابه، لأنّه لم يسأله هل أنت منصوص عليك وإنّما قال له: لمَ دفعكم قومكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه، فأجابه بما يطابق سؤاله وأيضاً فلو اخذ يصرّح له بالنصّ ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لتنفّر عنه واتّهمه ولم يقبل قوله ولم ينجذب إلى تصديقه، إنتهى.

الحمد للّه خالق العباد وساطح المهاد ومسيل الوهاد ومخصب النجاد ليس لأوّليته ابتداء ولا لأزليّته انقضاء هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل خرّت له الجباه ووحّدته الشفاه حدّ الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه خالق العباد**] قيل فيه إشارة إلى كونه مبدء لجميع الموجودات وبيانه أنّ لفظ العباد مشتمل على من في السموات ومن في الأرض لقوله ﴿إن كلّ من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً﴾ ويدخل في ذلك الأجسام الفلكية لكونها أجساماً للملائكة [**وساطح المهاد**] الساطح: الباسط، والمهاد: الأرض، إشارةً إلى خلق الأرض وجعلها مهاداً، قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾.

[**ومسيل الوهاد**] جمع وهدة: وهو المكان المطمئن، ومسيلها: مجرى السيل فيها، [**ومخصب النجاد**] أي: مروضها وجاعلها ذوات خصب، [**ليس لأوّليته ابتداء**] أي: لا حدّ لكونه أوّلاً للأشياء تقف عنده أوّليته وينتهي به وإلاّ لكان محدثاً فكان ممكناً فلم يكن واجب الوجود.

[**ولا لأزليّته انقضاء**] أي: لا غاية ينتهي عندها وتنقضي وإلاّ لقبل العدم فلم يكن واجب الوجود [**هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل**] تأكيد للمعنيين السابقين بعد النفي بعبارة الإثبات.

[**خرّت له الجباه ووحّدته الشفاه**] إشارة إلى كمال إلوهيّته واستحقاقه للعبادة [**حدّ الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها**] أي: جعل المخلوقات

لا تقدره الأوهام والعقول بالحدود والحركات ولا بالجوارح والأدوات لا يقال له متى ولا يضرب له أمد بحتّى الظاهر لا يقال ممّا والباطن لا يقالة فيما لا شبح فيُتقصّى ولا محجوب فيُحوى لم يقرب من الأشياء بالتصاق

ذوات حدود لتتميز عنها إذ لا حدّ لها فإنّه هو الخالق للحدود فكيف يكون محدود.

[لا تقدره الأوهام والعقول بالحدود والحركات ولا بالجوارح والأدوات] فكلّ وهم قدره بحدّ أو حركة أو جارحة أو أداة كما هو مقتضى الوهم في إدراكه لمدركاته فقد ضلّ ضلالاً بعيداً عن تصوّره، والأدوات جمع أداة: وهي ما يعتمد به.

[لا يقال له متى] لتنزّهه عن لحوق الزمان فلا يسئل عنه بمتى، **[ولا يضرب له أمد بحتّى]** لأنّها غاية الزمان.

[الظاهر لا يقال ممّا] أي: هو الظاهر غاية الظهور، كما قال ﷺ: «لقد ظهرت في كلّ شيء فما جهلك شيء» ومع غاية ظهوره لا مادّة ولا أصل يستفاد منه، فلا يقال ممّا هو موجود، **[والباطن]** الذي خفي إدراك كنهه وحقيقته على العقول والأفهام أو الذي استبطن الأُمور أدرك دقيقها وغائبها مع غاية بطونه وخفائه لا حيز له فحينئذ **[لا يقالة]** فيه **[فيما]** أي: فيما ذا بطن وخفي كما في سائر الخفيات من الأجسام والجسمانيات **[لا شبح فيُتقصّى]** أي: ليس بشخص فيلحقه التغيّر والانقضاء **[ولا محجوب فيُحوى]** أي: فيحويه الحجاب، إذ ذلك من لوازم الأجسام التي تنزّه سبحانه وتعالى عنها **[لم يقرب من الأشياء بالتصاق]** بل بقربه باعتبار علمه وإحاطته

ولم يبعد عنها بافتراق لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة ولا كرور لفظة ولا ازدلاف ربوة ولا انبساط خطوة في ليل داج ولا غسق ساج يتفيّأ عليه القمر المنير وتعقبه الشمس ذات النور من إقبال ليل مقبل وإدبار نهار مدبر قبل كلّ غاية ومدّة وكلّ إحصاء وعدّة

بجميع الأشياء كإحاطة القريب.

[**ولم يبعد عنها بافتراق**] مكاني عنها بل بعده عنها بعدم المشابهة بينه وبينها وعدم إدراك كنهه وحقيقته والالتصاق والافتراق من لواحق الأجسام التي تنزّه سبحانه عنه.

[**لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة**] كناية عن إحاطة علمه بكلّ المعلومات وشخوص اللّحظة مدّ البصر بلا حركة جفن [**ولا كرور لفظة**] أي: رجوعها.

[**ولا ازدلاف ربوة**] أي: تقدّمها، وأراد الربوة المتقدّمة، أي: في النظر والبادية عند مدّ العين فإنّ الربى أقلّ ما يقع في العين من الأرض [**ولا انبساط خطوة في ليل داج**] أي: مظلم [**ولا غسق**] أي: ليل [**ساج**] أي: ساكن [**يتفيّأ عليه القمر المنير**] الضمير في عليه للغسق [**وتعقبه الشمس ذات النور**] أي: تتعقبه، فحذفت إحدى التائين وروي يعقبه والضمير المنصوب فيه للقمر وتضيّؤ القمر ذهابه ومجيئه حالتي أخذه في التزيّد وأخذه في النقصان إلى المحاق.

وقوله: [**من إقبال ليل مقبل**] متعلّق بتعقّب [**وإدبار نهار مدبر**] يعني إنّ الشمس تعاقب القمر فتطلع عند أفوله ويطلع عند أفولها [**قبل كلّ غاية ومدّة وكلّ إحصاء وعدّة**] لأنّه تعالى خالق الكلّ ومبدئه فوجب تقدّمه وقبليّته.

تعالى عمّا ينحله المحدِّدون من صفات الاقدار ونهايات الاقطار وتأثُّل المساكن وتمكّن الأماكن فالحدّ لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب لم يخلق الأشياء من أُصول أزليّة ولا من أوائل أبديّة بل خلق فاقام حدّه وصوّر ما صوّر فأحسن صورته ليس لشيء منه امتناع ولا له بطاعة شيء انتفاع

[**تعالى عمّا ينحله المحدِّدون**] أي: تنزّه وتقدّس عمّا تصفه المشبّهة المتّبعون لحكم اوهامهم [**من صفات الاقدار ونهايات الأقطار**] أي: المقادير والنهايات والجوانب، [**وتأثُّل المساكن**] يقال: بيت مؤثل ومجد مؤثل أي: أصيل قديم.

[**وتمكّن الأماكن**] أي: الاستقرار فيها، [**فالحدّ لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب**] وهو تعالى منزّه عنها مقدّس عن شبهها ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [**لم يخلق الأشياء من أُصول أزليّة ولا من أوائل أبديّة**] أي: أوّلية سابقة، أي: انّه لم يخلق ما خلق على مثال سبق يكون أصلاً لا أوّل له حذا حذوه، وقيل المراد ليس لما خلق أصل أزلي أبدي خلق منه من مادة وصورة كما زعمت الفلاسفة وفي رواية ابديّة أي: دائمة [**بل خلق**] ما خلق [**فاقام حدّه**] أي: بل هو المخترع لإقامة حدوده وهي ما له من المقادير والأشكال والنهايات والآجال والغاية على وفق الحكمة والمصلحة وكذا قوله: [**وصوّر ما صوّر فأحسن صورته**] أي: اتى به على وجه الإحكام والإتقان.

[**ليس لشيء منه امتناع**] إشارة إلى كمال قدرته، [**ولا له بطاعة شيء انتفاع**] إشارة إلى كونه الغني المطلق عن العالمين لأنّ الانتفاع من لوازم

علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين وعلمه بما في السموات العُلى كعلمه بما في الأرضين السُّفلى أيّها المخلوق السويّ والمنشأ المرعي في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار

الحاجة الممتنعة عليه.

[**علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين وعلمه بما في السموات العُلى كعلمه بما في الأرضين السُّفلى**] إشارة إلى إحاطة علمه وأنّه غير مستفاد من غيره لا لمحبّة تغيّر وتجدّد فلا يتحدّد له علم لم يكن بل علمه تعالى أزليّ أبديّ تامّ لا يلحقه نقصان نسبة جميع الممكنات إليه على حدّ سواء كما مرّ تحقيقه.

ومنها

[**أيّها المخلوق السويّ**] المستوي الخلقة غير ناقصها، قال تعالى: ﴿فتمثّل لها بشراً سويّاً﴾.

[**والمنشأ المرعي**] أي: أنشأ وخلق وأوجد، والمرعي المحوط المحفوظ، ونبّه بكونه سويّاً مرعياً على وجود خالقه الحكيم اللّطيف.

[**في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار**] ستر الرحم وستر المشيمة وستر البطن، قيل الرحم موضوعة بين المثانة والوعاء المستقيم وهي مربوطة برباطات على هيئة السلسلة وجسمها عصبي لتمكّن امتدادها واتساعها وقت الحاجة إلى ذلك عند الولادة وينضمّ ويتقلّص إذا استغنى عن ذلك ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحد وزائدتان تسمّى قرني الرحم وخلف هاتين الزائدتين بيضتا المرأة وهما أصغر من بيضتي الرجل أشدّ تفرطعاً منها مصبّ مني المرأة إلى تجويف الرحم، والرحم رقبته منتهية في فرج المرأة، وتلك

بدأت من سلالة من طين ووضعت في قرار مكين إلى قدر معلوم وأجل مقسوم تمور في بطن أمّك جنيناً لا يحتر دعاء ولا تسمع نداء ثمّ أخرجت من مقرّك إلى دار لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها

الرقبة من المرأة بمنزلة الذكر من الرجل، فإذا امتزج مني الرجل بمني المرأة في تجويف الرحم كان العلوق، ثمّ ينمو ويزيد من دم الطمث ويتصل بالجنين عروق تأتي إلى الرحم فتعذره حتّى يتمّ ويكمل فإذا تمّ لم يكتف بما تحته من تلك العروق فيتحرّك حركات قويّة طلباً للغذاء فيهتك أربطة الرحم التي على هيئة السلسلة ويكون منها الولادة.

[**بدأت من سلالة من طين**] أي: كان ابتداء خلقك من سلالة وهي خلاصة الدين لأنّها سُلّت من الكدر، [**ووضعت في قرار مكين**] كأنّ الفقرة الأولى لآدم أصل البشر، والثانية لذرّيته، والقرار المكين: الرحم، مكنت في موضعها برباطاتها لأنّها لو كانت متحرّكة لتعذّر العلوق.

وقوله: [**إلى قدر معلوم وأجل مقسوم**] متعلّق بمحذوف أي: منتهياً إلى قدر معلوم في الطول والشكل ومدّة حياته إلى أجل مقسوم [**تمور**] أي: تتحرّك [**في بطن أمّك**] حال كونك [**جنيناً لا يحتر دعاء**] أي: لا ترجع جواباً، من أحار يحير.

[**ولا تسمع نداء ثمّ أخرجت من مقرّك إلى دار لم تشهدها**] يعني الدنيا.

[**ولم تعرف سبل منافعها**] ويقال أشبه الشيء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التي بعد الموت انتقال الجنين من ظلمة الرحم إلى فضاء الدنيا فلو كان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلّا الدار التي هو فيها

فـمن هداك لاجتـرار الغـذاء من ثدي أُمّك وعـرّفـك عند الحـاجـة مواضع طلبـك وإرادتك هيـهـات أنّ من يـعـجـز عن صـفـات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز

ولا يشعر بما ورائها ولا يحسّ بنفسه إلاّ وقد حصل في دار لا يعرفها ولا يخطر بباله فبقى هو كالحائر المبهوت وهكذا حالنا في الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت والغرض من ذكر تقليبه في حالاته وأطوار خلقته التنبيه على وجوب خالقه ووجود صانعه ولذا قال:

[فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أُمّك وعرّفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك] أي: أعلمك بموضع الحكمة عند طلبك الرضاع فالتقمتها بفمك ومن الذي هداك لمصّ الحليب من الثدي بمقدار الحاجة فإذا اكتفيت أعرضت، ومن الذي أحال دم الحيض لبناً لطيفاً شائغاً للشاربين ومن الذي خلق لك هذا الثدي كالدلو المدلى على هذا الطرز العجيب والنمط الغريب وجعله متعدداً ليكون واحد طعاماً والآخر شراباً ومن الذي جعل هذه الحلمة الموافقة لفم الصبي في الثدي وجعلت تنضح كلّما مصّحها ولو كانت مثوبة تجري لاختنق الطفل، إلى غير ذلك من الحكم التي لا تحصى والعجائب التي لا تستقصى.

[هيهات أنّ من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز] أي: بعد أن يحيط علماً بالخالق من يعجز عن معرفة المخلوق ما للتراب وربّ الأرباب وأنّى للإنسان المخلوق من ماء مهين وإدراك سبحات جلال ربّ العالمين وهذا أحد المعاني في قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

ومن تناوله بحدود المخلوقين فقد أبعد لمّا اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان فقام فدخل عليه فقال: إنّ الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك ما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلّك على أمر لا تعرفه إنّك لتعلم ما تعلم فقال ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فتبلغكه وقد رأيت كما رأينا وصحبت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كما صحبناه

[**ومن تناوله**] أي: الربّ، [**بحدود المخلوقين**] فقاسه وشبّهه بحدود خلقه وصفاتها [**فقد أبعد**] وأبعد.

ومن كلام له عليه السلام

[**لمّا اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان**] وكرهوه منه من طريقته وأفعاله وسلوكه.

[**فقام فدخل عليه فقال: إنّ الناس ورائي وقد استسفروني**] أي: اتخذوني رسولاً، أي: سفيراً [**بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك ما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلّك على أمر لا تعرفه إنّك لتعلم ما تعلم**] وهذا حقّ لأنّه عليه السلام لا يعرف أمراً يجهله من هذه الأحداث بل كلّ أحد من الصبيان فضلاً عن العقلاء المصرين يعلمون وجهي الصواب والخطأ.

ثمّ شرع معه في مسلك الملاطفة والقول الليّن لعلّه يتذكّر أو يخشى [**فقال ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فتبلغكه وقد رأيت كما رأينا وصحبت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كما صحبناه**] أي: ما

ثمّ خرج إلى ذكر الشيخين فقال: وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحقّ منك وأنت أقرب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وشيجة رحم منهما وقد نلت من صهره ما لم ينالا فاللّه اللّه في نفسك فإنّك واللّه ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وإنّ الطرق لواضحة وإنّ أعلام الدِّين لقائمة واعلم أنّ أفضل عباد اللّه عند اللّه إمام عادل هدي وهدى

سبقناك إلى الصحبة ولا انفردنا بالرسول دونك، وأنت مثلنا ونحن مثلك، ولعلّ مراده ﷺ التساوي بالنسبة إلى معرفة هذه الأمور المبدعة المخالفة للكتاب والسنّة.

[ثمّ خرج إلى ذكر الشيخين فقال: وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحقّ منك] ثمّ ترقّى إلى كونه خيراً منهما بالإضافة إلى بعض الأمور فقال:

[وأنت أقرب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وشيجة رحم منهما] الوشيجة: عروق الشجرة، **[وقد نلت من صهره ما لم ينالا]** يعني إنّك مخصوص بقرب النسب دونهما، يعني كونه من بني عبد مناف وله مع المنافية الصهرية ثمّ بعد ذلك حذّره جانب اللّه تعالى ونبّهه على ما فيه صلاحه ومضاره فقال: **[فاللّه]** أي: احذر اللّه، **[اللّه في نفسك فإنّك واللّه ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل]** كناية عن عدم احتياجه إلى تعليم في هذه الأمور.

[وإنّ الطرق لواضحة وإنّ أعلام الدِّين لقائمة واعلم أنّ أفضل عباد اللّه عند اللّه إمام عادل هدي] بهداية اللّه **[وهدى]** الناس إلى سبيل اللّه.

وأقام سنّة معلومة وأمات بدعة مجهولة وإنّ السنن لنيّرة لها أعلام وإنّ البدع لظاهرة لها أعلام وإنّ شرّ الناس عند اللّه إمام جائر ضلّ وضلّ به فأمات سنّة مأخوذة وأحيى بدعة متروكة، وإنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيُلقى في جهنّم فيدور فيها كما تدور الرحى ثمّ يرتبط في قعرها يا عثمان! وإنّي انشدك اللّه أن تكون إمام هذه الأُمّة المقتول فإنّه كان يقال يقتل في هذه الأُمّة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبس أُمور عليها ويبثّ الفتن فيها فلا يتبصّرون الحقّ من الباطل يموجون فيها موجاً

[وأقام سنّة معلومة وأمات بدعة مجهولة وإنّ السنن لنيّرة] مضيئة [لها أعلام] وهم العلماء العاملون الهداة إليها والأدلاّء عليها [وإنّ البدع لظاهرة لها أعلام] وهم علماء السوء وشياطين الجنّ والإنس، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

[وإنّ شرّ الناس عند اللّه إمام جائر ضلّ] عن الطريق السوي [وضلّ به] خلق كثير وجمّ غفير، [فأمات سنّة مأخوذة] أي: يؤخذ بها [وأحيى بدعة متروكة، وإنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر] يعذره.

[فيُلقى في جهنّم فيدور فيها كما تدور الرحى ثمّ يرتبط في قعرها] وفي رواية ثمّ ارتبك في قعرها أي: ثبت.

[يا عثمان! وإنّي انشدك اللّه أن تكون إمام هذه الأُمّة المقتول فإنّه كان يقال يقتل في هذه الأُمّة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبس أُمور عليها ويبثّ الفتن فيها فلا يتبصّرون الحقّ من الباطل يموجون فيها موجاً

ويمرجون فيها مرجاً بعد جلال السنّ وتقضّي العمر فقال له ماكان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليه ابتدعهم خلقاً عجيباً

ويمرجون فيها مرجاً] والظاهر أنّ العبارة بعد قوله يقال إلى هنا أخبر بها النبي ﷺ وبما في معناها وقد حذّره أن يكون هو هذا المقتول الموصوف بهذه الأوصاف.

ثمّ قال: [فلا تكوننّ لمروان سيّقةً يسوقك حيث شاءخ السيّقة بتشديد الياء: ما يسوقه العدوّ في الغارة من الدواب وقد كان مروان من أقوى الأسباب الباعثة على قتله بتصريفه إيّاه على حساب آرائه وقوله **[بعد جلال السنّ وتقضّي العمر]** الجلال بالضم: الجليل، الطوال والطويل أي: بعد العمر الطويل **[فقال له]** عثمان كلّم الناس في أن يؤجّلوني حتّى أخرج إليهم من مظالمهم فقال له عليه السلام: **[ماكان بالمدينة فلا أجل فيه]** لأنّ الحاضر لا معنى لتأجيله **[وما غاب فأجله وصول أمرك إليه]** فلا عذر في التأخير بعد بلوغ أمرك لأنّ السلطان لا يؤخّر أمره فلا عذر في تأخير ردّ المال الذي أعطاه أقربائه من بيت مال المسلمين على غير وجهه.

ومن خطبة له عليه السلام
يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس

بعد الثناء على اللّه تعالى والتنبيه على عجائب مصنوعاته:

[ابتدعهم] أي: ابتدع اللّه المخلوقات **[خلقاً عجيباً]** يبهر العقول ويذعن

من حيوان وموات وساكن وذي حركات وأقام من شواهد البيّنات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلّمة له ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته وما ذرء من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض

له أُولو المعقول والمنقول، [**من حيوان وموات**] بالفتح وهو ما لا حياة فيه.

[**وساكن**] كالأرض والجبال ونحوها، [**وذي حركات**] كالأفلاك والماء الجاري والحيوان ونحوها.

[**وأقام من شواهد البيّنات**] أي: ما ظهر للعقول من لطائف المخلوقات [**على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلّمة له**] و(ما) مفعول لأقام، والضمير في (له) يرجع إلى ماء في به وله الثانية إلى اللّه، فكلّ ذرّة من ذرّات الموجودات تنادي بلسان الحال والمقال بوجود مبديها ومنشئها ومخترعها وموجدها وبتنزّهه عمّا لا يليق به ﴿وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾

فواعجباً كيف يعصى الإله ... وكيف يجحده الجاحد
وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه واحد

[**ونعقت**] أي: صاحت [**في أسماعنا دلائله على وحدانيته**] أي: دلائله لظهورها كالأصوات المسموعة التي تعلم يقيناً واستعار النعيق لظهور تلك الدلائل في صماخ العقل.

[**وما ذرء**] في محلّ الجر عطف على الضمير المضاف إليه في دلائله أي: نعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته ودلائل ما خلق [**من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض**] أي: شقوقها، جمع اخدود

وخروق فجاجها ورواسي أعلامها من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة متصرّفة في زمام التسخير ومرفرفة بأجنحتها في مخارق الجو المنفسح والفضاء المنفرج كوّنها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة وركّبها في حقائق مفاصل محتجبة ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في السماء خفوقاً وجعله يدفّ دفيفاً ونسقها على اختلافها في الأصانيع

كالقطار الصدا.

[**وخروق فجاجها**] جمع فج وهو الطريق بين الجبلين كالقبح [**ورواسي أعلامها**] أي: والتي أسكنها رؤوس الجبال كالعقبان والصقور.

ثمّ شرع بعد بيان اختلاف أمكنتها في وصف اختلافها بالأجنحة في هيئاتها وكيفيّات خلقها، فقال:

[**من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة متصرّفة في زمام التسخير**] أي: هي مسخّرة تحت القدرة الإلهيّة [**ومرفرفة بأجنحتها في مخارق الجو المنفسح والفضاء المنفرج كوّنها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة وركّبها في حقائق مفاصل محتجبة**] حقائق المفاصل جمع حقّ وهو مجمع الفعلين من الأعضاء كالركبة وكنّى باحتجابها عن ستر اللحم والجد إياهم.

[**ومنع بعضها بعبالة خلقه**] العبالة: امتلاء الجسد، وعيالة الحيوان كثافة خلقه [**أن يسمو في السماء خفوقاً**] والخفوق سرعة الحركة.

[**وجعله يدفّ دفيفاً**] والدفيف للطائر طيرانه فوق الأرض وكنّى بذلك عن النعامة ونحوها فإنّها لعظم جثّتها يمتنع سموّها وارتفاعها فجعلت تدفّ على وجه الأرض.

[**ونسقها**] أي: رتبها [**على اختلافها في الأصانيع**] جمع صنع، أي:

بلطيف قدرته ودقيق صنعته فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه، ومنها مغموس في لون صبغ قد طوق بخلاف ما صبغ فيه ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرج قصبه وذنب أطال مسحبه إذ أدرج إلى الأُنثى نشره من طيّه وسما مظلاً على رأسه كأنّه قلع داري عنجة نوتيُّه

مختلفة الألوان والأصباغ [**بلطيف قدرته ودقيق صنعته فمنها مغموس في قالب لون**] واحد كالأسود والأحمر [**لا يشوبه غير لون ما غمس فيه، ومنها مغموس في لون صبغ قد طوق بخلاف ما صبغ فيه**] كأن يكون أحمر وعنقه أخضر أو بالعكس كالفاختة ونحوها.

[**ومن أعجبها خلقاً الطاووس**] على وزن فاعول كهاظوم وكابوس [**الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه**] أي: رتّبها [**في أحسن تنضيد**] مع اشتماله على جميع الألوان [**بجناح أشرج قصبه**] أي: قصب ريش ذنبه وجناحيه وأشرجها ضبط أصولها بالأعصاب والعظام.

[**وذنب أطال مسحبه**] فإنّه طويل السحب [**إذ أدرج إلى الأُنثى**] حال إرادة السفاد [**نشره من طيّه وسما**] أي: علا به [**مظلاً على رأسه**] أي: مرتفعاً عليه [**كأنّه قلع داري**] والقلع شراع السفينة وجمعه قلاع والداري جالب العطر في البحر من داري وهي قرية في البحرين فيها سوق يحمل إليها المسك من الهند فإنّ الطاووس حالة السفاد يبسط ريشه وينشره ثمّ يرفعه وينصبه فيصير كهيئة الشراع المرفوع.

وفي وجه التشبيه زيادة على ذلك أشار إليها بقوله:

[**عنجة نوتيُّه**] والنوتى الملاّح وجمعه نواتى وغنجه عطفه غنجته أغنجه

يختال بألوانه ويميس بزيفانه يفضي كإفضاء الديكة ويؤرُّ بملاقحة الفحول الغلمة أُحِيلُكَ من ذلك على معاينة لا كمن يحيل على ضعيف إسناده ولو كان كزعم من يزعم أنّه يلقح بدمعة تسفحها مدامعها فتقف في ضفّتي جفونه وأنّ أُنثاه تطعم ذلك ثمّ تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب

بالضمّ والاسم الفتح بالتحريك أشار بذلك إلى أنّ الملاّحين يصرفون الشراع تارة بالجذب وتارة بالإرخاء وتارة بتحويله يميناً وشمالاً وذلك بحسب انصرافهم من بعض الجهات إلى بعض فأشبههم هذا الطائر عند حركته لإرادة السفاد وزيغانه في تعريف ذنبه وتحويله [**يختال**] من الخيلاء وهي العجب [**بألوانه ويميس**] يتبختر [**بزيفانه**] يقال ناقة زيافة أي: مختالة [**يفضي**] أي: يسفد [**كإفضاء الديكة**] جمع ديك كالقرطة والحجرة جمع قرط وحجر.

[**ويؤرُّ**] أي: يسفد و‍ـــــ الجماع [**بملاقحة**] أدوات اللقاح وأعضائه وهي آلات التناسل [**الفحول الغلمة**] أي: يسفد كسفاد الفحول ذوات الشبق [**أُحِيلُكَ من ذلك**] أي: إعلامي لك بذلك [**على معاينة**] أي: عن مشاهدة وعيان [**لا كمن يحيل على ضعيف إسناده**] على إسناد عن وسائط قد يضعف ويدخله الطعن.

قوله: [**ولو كان كزعم من يزعم أنّه يلقح بدمعة تسفحها مدامعها فتقف في ضفّتي جفونه**] أي: جانباها [**وأنّ أُنثاه تطعم ذلك ثمّ تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس**] أي: المنفجر [**لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب**] إشارة إلى زعم قوم أنّ الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين

تخال قصبه مداري من فضّة وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد وإن شبّهته بما أنبتت الأرض قلت جنىً

أجفانه فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة، وروي تنشجها مدافعه أي: تعضّ بها وتحار فيها وهو ﷺ لم يحل ذلك وإنّما قال ليس ذلك بأعجب من مطاعمة الغرب والعرب تزعم أنّ الغراب لا يسفد ومن أمثالهم أخفى من سفاد الغراب ويزعمون أنّ اللّقاح من مطاعمة الذكر والأنثى وإيصال جزء من الماء الذي في قانصته إليها وهو أن يضع كلّ منهما منقاره في منقار صاحبه ويتزاقّا وذلك مقدّمة للسفاد في كثير من الطير كالحمام وغيره.

ثمّ قال ﷺ: **[تخال قصبه]** قصب ذنبه أو عظام أجنحته **[مداري من فضّة]** جمع مدرى وهو أصل القرن وقيل هي خشبة ذات أطراف كأصابع الكفّ محدّدة الرأس ينقى بها الطعام **[وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد]** داراته: الخطوط المستديرة بقصبه، والعقيان: الذهب، وفلذ جمع فلذة: وهي القطعة، والزبرجد: الزمرّد، شبّه ﷺ عظام أجنحة الطاووس بمداري من فضّة لبياضها وشبّه الخطوط المستديرة على رؤوس ريش الذنب بخالص العقيان في الصفرة الفاقعة مع ما يعلوها من البريق وما في وسط تلك الدارات من الدوائر الخضر بقطع الزبرجد في الخضرة، واستعار لها لفظ الشموس ملاحظة لمشابهتها في الاستدارة والاستنارة.

ثمّ قال ﷺ **[وإن شبّهته بما أنبتت الأرض قلت جنىً]** فعيل بمعنى المجني

جني من زهرة كلّ ربيع في الأرض وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشي الحلل أو مونق قصب اليمن وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل يمشي المرح المختال ويتصفّح ذنبه وجناحه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصانيع وشاحه

وهو الملتقط.

[**جني من زهرة كلّ ربيع في الأرض**] ووجه الشبه اجتماع ألوانه مع نضارتها وبهجتها [**وإن ضاهيته بالملابس**] أي: شبّهته بها والمضاهاة المشاكلة يهمز ولا يهمز.

[**فهو كموشي الحلل**] أي: ما ولج بالوشي وهو الارقم الملوّن [**أو مونق**] أي: معجب [**قصب اليمن**] هي برود تعمل باليمن ووجه الشبه ما مرّ من اجتماع الألوان مع النضارة والبهجة.

[**وإن شاكلته بالحلي**] وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضّة ووزنه فعول وقد تكسر الحاء لمكان الياء مثل عصبى وقرىء من حليهم بالضم والكسر [**فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل**] أي: جعلت الفضّة النطاق لها أي: المرصّعة في صفائح الفضّة والمكلّل الذي جعل كالإكليل، وحاصل الكلام أنّه شبّه قصب ريشه بصفائح من فضّة رصّعت بالفصوص المختلفة الألوان فهي كالإكليل بذلك الترصيع.

ثمّ حكى عليه السلام صورة مشيه وصوته فقال: [**يمشي المرح المختال**] المتبختر فخراً وعجباً بجمال كسوته [**ويتصفّح ذنبه وجناحه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصانيع وشاحه**] الوشاح: سير ينسج من أديم ويرصّع بالجواهر فتجعله المرأة على عاتقها إلى كشحها.

فإذا رأى ببصره قوائمه زقا معولاً بصوت يكاد يبين استغاثته بصادق توجّعه لأنّ قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية وقد نجمت من طنوب ساقه صيصية خفيّة وله في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة ومخرج عنقه كالإبريق

حاصل الكلام أنّه عليه السلام شبّه قصب ريشه بصفائح من فضّة رُصّعت بالفصوص المختلفة الألوان فهي كالإكليل بذلك الترصيع، ثمّ حكى صورة مشيه وصوته كالقهقهة عند نظره إلى حسن سرباله وإعجابه بجمال كسوته ولفظ الضحك والقهقهة والسربال مستعار وكذا حاله في نظره إلى قوائمه كما قال [**فإذا رأى ببصره قوائمه زقا**] أي: صاح وصوّت، يقال: زقا يزوق زقياً وزقاء وكلّ صائح زاق [**معولاً**] أي: صارخاً [**بصوت يكاد يبين استغاثته بصادق توجّعه لأنّ قوائمه حمش**] أي: دقاق وهو أخمش الساقين بالتسكين وقد خمشت قوائمه أي: دقّت [**كقوائم الديكة الخلاسية**] وهي المتولّدة بين الدجاج الهندي والفارسيّ يقول عليه السلام إنّه يزهو بنفسه إذا نظر في أعطافه ورأى ألوانه المختلفة فإذا نظر في ساقيه فإنّه كالمتوجّع من قبح ساقيه ودقّتهما وينقمع بعد تعظّمه ونفحه لنفسه، ووجه تشبيه قوائمه بقوائم الديكة الخلاسيّة الدقّة والطول والتشظّي ونتوء العرقوب.

وقوله: [**وقد نجمت**] أي: ظهرت [**من طنوب ساقه**] الطنوب: جرف الساق وهو العظم اليابس [**صيصية خفيّة**] وهي الفته التي في مؤخّر رجل الديك وهي في الأصل شوكة الشائك التي يسوي بها السداة واللحمة، ثمّ نقل إلى صيصية الديكة [**وله في موضع العرف**] وهو الشعر المرتفع عن عنقه على رأسه [**قنزعة خضراء**] واحدة القنازع وهي الشعر حوالي الرأس [**موشاة**] أي: ذات وشي [**ومخرج عنقه كالإبريق**]ووجه الشبه الهيئة

ومغرزها إلى حيث بطنه كضبع الوسمة اليمانية وكحريرة ملبّسة مرآة ذات صقال وكأنّه متلفّع بمعجر أسحم إلاّ أنّه يخيّل لكثرة مائه وشدّة بريقه الخضرة الناظرة ممتزجة به ومع فتق سمعه خطّ كمستدقّ القلم في لون الاقحوان أبيض يققٌ فهو بياضه في سواد ما هنالك يتألّق وقلّ صبغ إلاّ وذد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه

المعلومة بالمشاهدة [**ومغرزها**] من رأسه [**إلى حيث بطنه كضبع الوسمة اليمانية**] والوسمة بكسر السين ويجوز تسكينها شجر العظلم معروف يخضب به، ووجه الشبه السواد المشرق.

[**وكحريرة ملبّسة مرآة ذات صقال**] في سرابها ومخالطة بصيص المرآة لها، [**وكأنّه متلفّع**] أي: ملتحف [**بمعجر أسحم**] أي: أسود وهو ما تشدّه المرأة على رأسها كالوداء [**إلاّ أنّه يخيّل لكثرة مائه وشدّة بريقه الخضرة الناظرة ممتزجة به**] ثمّ وصف الخط الأبيض عند محلّ سمعه فقال:

[**ومع فتق سمعه خطّ كمستدقّ القلم في لون الاقحوان**] الأصفر والبوبخ الأبيض وجمعه اقاح، [**أبيض يققٌ**] أي: خالص البياض [**فهو بياضه في سواد ما هنالك يتألّق**] أي: يلمع شبّه ذلك الخطّ الأبيض عند سمعه في وقته واستوائه بخطّ القلم الدقيق وفي بياضه بلون الاقحوان، ثمّ أجمل في تعديد الألوان فقال:

[**وقلّ صبغ إلاّ وذد أخذ منه بقسط وعلاه**] أي: وزاد على الصبغ [**بكثرة صقاله وبريقه وبصيص**] أي: بريق ولمعان [**ديباجه ورونقه**] والديباج مستعار لريشه.

فهو كالأزاهير المبثوثة لم تُربِّها أمطار ربيع ولا شموس قيظ وقد يتحسّر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وتنبت تباعاً فينحتُّ من قصبه انحتات أوراق الأغصان ثمّ يتلاحق نامياً حتّى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سائر ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه

ثمّ رجع عليه السلام إلى تشبيه آخر فقال: [**فهو كالأزاهير المبثوثة**] ونبّه على كمال قدرة صانعها بأنّها مع ذلك [**لم تُربِّها أمطار ربيع**] أي: لم تعدّها لتلك الألوان أمطار ربيع [**ولا شموس قيظ**] لأنّه لما خيّل أنّها أزاهير وكان من شأن الأزاهير خلقها بغير مطر ولا شمس.

ثمّ أخذ عليه السلام في الإخبار عن حالة أُخرى هي محلّ الاعتبار في حكمة الصانع وقدرته فقال: [**وقد يتحسّر من ريشه**] أي: ينكشف [**ويعرى من لباسه**] ذلك الحسن الجميل [**فيسقط**] أي: ريشه [**تترى**] أي: شيئاً بعد شيء وبينهما فترة [**وتنبت تباعاً**] أي: لا فترات بينها، أي سقوط ريشه شيئاً بعد شيء أو إنباته مجتمع.

[**فينحتُّ**] أي: يتساقط [**من قصبه انحتات أوراق الأغصان**] أي: تناثر أوراق الأشجار [**ثمّ يتلاحق نامياً**] أي: زائداً [**حتّى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سائر ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه**] أي: إذا سقط ريشه سقط متفرّقاً وينبت جميعاً كلّ ريشة بلونها الأوّل من غير زيادة ولا نقصان حتّى كأنّها هي وشبّهه في سقوطه ونباته بتحاتّ أوراق الأشجار من الأغصان ونباتها.

ثمّ نبّه على وجود حكمة الصانع في الشعرة الواحدة من شعرات ريشه بأنّك إذا تأمّلتها أرتك من سفافتها وشدّة بصيصها تارة حمرة كحمرة الوردة

وإذا تصفّحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية وتارة خضرة زبرجديّة وأحياناً صفرة عسجديّة فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن أو تبلغه قرائح العقول أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه، فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاّه للعيون فأدركته محدوداً مكوناً ومؤلّفاً ملوّناً وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته

وتارة خضرة كخضرة الزبرجد وتارة صفرة كصفرة الذهب فقال:

[**وإذا تصفّحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية وتارة خضرة زبرجديّة وأحياناً صفرة عسجديّة**] الزبرجدية منسوبة إلى الزمرّد والعسجد الذهب [**فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن**] أي: الفطن العميقة البعيدة القعر [**أو تبلغه قرائح العقول**] القريحة الخاطر والذهن [**أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه، فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاّه للعيون**] أي: أظهره لها [**فأدركته محدوداً مكوناً ومؤلّفاً ملوّناً وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته**] عقّب عليه السلام تلك الأوصاف البليغة التي وصفها بهَا الطاووس على ذلك الطرز العجيب والنمط الغريب الذي لم يسبقه إليه سابق ولا يلحقه فيه لاحق باستبعاد وصول الفطن العميقة إلى صفته معترفاً بالعجز عن وصف علل هذه الألوان واختلافها واختصاص كلّ من مواصفها بلون غير الآخر وعلّل هيئاتها وسائر ما عدّده فإنّ أقلّ جزء منه مما تتحيّر الأوهام في درك علّته وتقصر الألسنة عن وصفه ويحتمل أن يريد العجز عن استثبات جزئيات أوصافه الظاهرة وتشريحه فإنّ ما ذكره كان في

وسبحان من أدمج قوائم الذرّة والهمجة ووأى على نفسه أن لا يضطرب شبح مما أولج فيه الروح إلاّ وجعل الحمام موعده والفناء غايته في صفة الجنّة

غاية مرتبة الفصاحة والبلاغة، إلاّ أنّ وراء ذلك جزئيات لم يستثبتها الوصف ولذا عقبه بتنزيهه اللّه تعالى باعتبار قهره للعقول عن وصف هذا المخلوق المشاهد المحدود.

[**وسبحان من أدمج قوائم الذرّة**] أي: أحكمها، يقال: حبل مدمج أي: شديد الفتل، والذرة: النملة الصغيرة [**والهمجة**] واحدة الهمج: ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها.

[إلى ما فوقهما من الحيتان والفيلة [**ووأى على نفسه**] أي: وعد والزم [**أن لا يضطرب شبح مما أولج فيه الروح إلاّ وجعل الحمام**] بكسر الحاء: الموت [**موعده والفناء غايته**] أي: قدّر على كلّ حيّ منها ضرورة الموت.

تتمّة: ذكر الحكماء في الطاووس سرّ أنّه يعيش خمساً وعشرين سنة هي أقصى عمره ويبيض في السنة الثالثة من عمره عندما ينتقش لونه ويتمّ ريشه ويبيض في السنة مرّة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام ويحضنها ثلاثين يوماً ويفرّخ ويلقي ريشه مع سقوط ورق الشجر، وينبت مع ابتداء نبات الورق، والدجاج قد يحضن بيض الطاوس بل يختار لحضانته مع وجود الطاوسة، لأنّ الطاووس الذكر يعبث بالأُنثى ويشغلها عن الحضانة وربّما أفقس البيض من تحتها.

ومنها

[**في صفة الجنّة**] رزقنا اللّه إيّاها ومنّ بها علينا وعلى جميع المؤمنين:

فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لغرقت نفسك عن بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذّاتها وزخارف مناظرها أشجار وقد غُيّبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها ويطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفّقة والخمور المروّقة قوم لم تزل

[**فلو رميت ببصر قلبك**] أي: لو نظرت بعين بصيرتك [**نحو ما يوصف لك منها**] أي: من الجنّة ونعيمها وحورها ولذّاتها [**لغرقت**] أي: زهدت وانصرفت [**نفسك عن بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذّاتها وزخارف مناظرها**] والزخارف جمع زخرف: وهو الذهب وكلّ مموّه.

[ولذهلت بالفكر في اصطفاقخ بالفاء أو القاف أي: انتظام [**أشجار**] صفا أو اضطرابها [**وقد غُيّبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها**] الكبائس جمع كباسة: وهي العذق، والعساليج: الغصون واحدها عسلوج، وكذا الافنانة جمع فنن.

[**وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها**] جمع كمامة بكسر الكاف وهي غلاف الطلع [**تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها**] أي: لا تترك له منية اصلاً لأنّه يكون قد بلغ نهاية الأماني.

[**ويطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفّقة**] أي: المصفّاة بالتحويل من إناء إلى إناء [**والخمور المروّقة**] أي: المعجبة [**قوم لم تزل**

الكرامة تتمادى بهم حتّى حلّوا دار القرار وآمنوا ثقلة الأسفار فلو شغلت قلبك أيّها المستمع بالوصول إلى ما يهج عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها ولتحمّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا اللّه وإيّاكم ممّن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته

الكرامة تتمادى بهم حتّى حلّوا دار القرار وآمنوا ثقلة الأسفار فلو شغلت قلبك أيّها المستمع بالوصول إلى ما يهج عليك من تلك المناظر المونقة] أي: العجيبة، أي: أخذت في إعداد نفسك إلى الوصول إلى ما يفاض عليك من تلك الصور البهيّة المعجبة **[لزهقت نفسك شوقاً إليها]** يقال: زهقت نفسه أي: مات.

[ولتحمّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا اللّه وإيّاكم ممّن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته] واستعار وصف التمادي الذي هو من أفعال العقلاء لتأخّر الكرامة عنهم وانتظارهم لها في الدنيا إلى غاية حلولهم دار القرار وحصول الكرامة لهم هناك وأمنهم من نقلة الأسفار.

ثمّ عقّبه بتشويق المستمع، ثمّ ختم الخطبة بالدعاء لنفسه وللسامعين، وقد تكلّف بعض لتطبيق هذه الأوصاف على الجنّة المعقولة فجعل الأشجار استعارة للملائكة السماوية والاصطفاق ترشيح تلك الاستعارة، وكثبان المسك استعارة للمعارف والكمالات التي لهم من واجب الجود وهم مغمورون فيها قد وجدوا لها ومنها كما تنبت الأشجار في الكثبان.

ولفظ الأنهار استعارة للملائكة المجرّدين عن التعلّق بالأجرام الفلكيّة،

ليتأسّ صغيركم بكبيركم وليرؤف كبيركم بصغيركم ولا تكونوا كجفاة الجاهلية

باعتبار كون هذه الملائكة أصولاً ومبادي للملائكة السماوية، كما أنّ الأنهار ومبادي عدّة لحياة الأشجار وأسباب لوجودها، واللؤلؤ الرطب والثمار استعارة لما يفيض عن تلك الأرواح من العلوم والكمالات على النفوس القابلة لها من غير بخل ولا منع، فهي ثمارها تأتي على منية مجتنها بحسب استعداده لكلّ منها، والقوّة المتخيّلة تحكي تلك الإفاضات في هذه العبارات والظواهر المحسوسة المعدودة وتكسوها صورة ما هو مشتهى للمتخيّل كلّ بحسب شهوته، ولذلك كان في الجنّة كلّما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، ويتأهّل لحضوره فيحضرها عند إرادتها إيّاه وكذلك لفظ العسل والخمر استعارة لتلك الإفاضات المشتهيات الملذّة للنفس بحسب محاكاة المتخيّلة لها في صورة هذا المشروب المحسوس المشتهى لبعض النفوس فتصوّره بصورته، وأنت خبير بما في هذه التأويلات من التكلّف والتعسّف.

ومن خطبة له عليه السلام

[**ليتأسّ صغيركم بكبيركم**] لأنّ الكبير أكثر تجربة وعلماً، وأكيس وأحزم فكان بالقدوة أولى [**وليرؤف كبيركم بصغيركم**] لأنّ الصغير مظنّة الضعف وأهل لأن يُرحم ويعذر لقلّة تعقّله للأمور وبدء بأمر الصغير لأنّه أحوج إلى التأديب والعناية من هذا الأمر انتظام أُمورهم وحصول أُلفتهم بما أمرهم به ولذا قال: [**ولا تكونوا كجفاة الجاهلية**] بأن تتخلّقوا بأخلاقهم في

لا في الدّين يتفقّهون ولا عن اللّه يعقلون كقيض بيض في أداح يكون كسرها وزراً ويخرج حضانها شراً افترقوا بعد أُلفتهم وتشتّتوا عن أصلهم فمنهم أخذ بغصن أين ما مال مال معه

الجفاء والقسوة.

[**لا في الدّين يتفقّهون ولا عن اللّه يعقلون**] ما يأمرهم به فهم كما قال تعالى: ﴿صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون﴾، [**كقيض بيض في أداح**] قيض البيضة قشرها الأعلى قيض البيض كسره تقول: قضت البيضة كسرتها، وانقاضت: تصدّعت من غير كسر، والإداح جمع أدحى فعول من الدحو وهو الموضع الذي تفرخ فيه النعامة، شبّههم ببيض الأفاعي في أعشاشها.

وأشار إلى وجه الشبه بقوله: [**يكون كسرها وزراً ويخرج حضانها شراً**] إن كسرها كاسر ثمّ لتأذي الحيوان به وقيل لأنه يظنّ بيض القطا فيأثم كاسره وإن لم تكسر يخرج حضانها شراً، إذ تخرج أفعى قاتلاً فكذلك هؤلاء إذا أشبهوا جفاة الجاهلية لا يحلّ لأحد أذاهم وإهانتم لحرمة ظاهر الإسلام عليهم وإن أهملوا وتركوا على ما هم عليه من الجهل وقلّة الأدب خرجوا شياطين، واستعار لفظ الأفاعي للأعشاش لأنّ الأداجي لا تكون إلاّ للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها ودحوها توسيعها من دحوت الأرض.

ومنها

[**افترقوا بعد أُلفتهم وتشتّتوا عن أصلهم**] إشارة إلى أصحابه وأصلهم الذي تشتّتوا عنه وافتراقهم إلى خوارج وغيرهم بعد اجتماعهم عليه.

[**فمنهم أخذ بغصن أين ما مال مال معه**] أي: يكون منهم من يتمسّك بمن أخلّفه بعدي من ذرّيتي أينما سلك سلك معه، ومنهم من ليس كذلك

على أنّ اللّه سيجمعهم لشرِّ يوم لبني أُميّة كما تجتمع قزع الخريف يؤلّف اللّه بينهم يؤلّف اللّه بينهم ثمّ يجعلهم ركاماً كركام السحاب ثمّ يفتح لهم أبواباً يسيلون من مستثارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة ولم يردَّ سننه رصّ طود ولا حداب أرض

واستغنى بالقسم الأوّل لدلالته على الثاني وقوله: **[على أنّ اللّه سيجمعهم]** أي: من كان على عقيدته فينا ومن لم يكن.

[لشرِّ يوم لبني أُميّة كما تجتمع قزع الخريف يؤلّف اللّه بينهم] والقزع: قطع السحاب المتفرّقة، شبّه عليه السلام جمعه لهم وتأليفه بينهم تجمعه لقزع السحاب في الخريف، **[يؤلّف اللّه بينهم ثمّ يجعلهم ركاماً كركام السحاب]** وتراكمهم بذلك الجمع كتراكم ذلك القزع ووجه الشبه الاجتماع بعد التفرّق، والركام ما كثف من السحاب، وركمت الشيء أركمه: إذا جمعته وألفت بعضه على بعض.

قال ابن أبي الحديد: وكذا كان، فإنّ الشيعة الهاشمية اجتمعت على أن آلة ملك بني مروان من كان منهم ثابتاً على ولاية عليّ ومن حاد منهم عن ذلك في أواخر أيام مروان الحمار عند ظهور الدعوة الهاشمية.

[ثمّ يفتح لهم أبواباً يسيلون من مستثارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة ولم يردَّ سننه رصّ طود ولا حداب أرض] مستثارهم: موضع ثورتهم، والجنتان: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وأبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل﴾ خمط واثل، والقارة: الجبل الصغير، والأكمة: التلعة من الأرض، والسنّة: الطريقة، ورصّ طود أي: طود مرصوص وهو الجبل الشديد التصاق

يذعذهم اللّه في بطون أوديته ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم ويمكّن لقوم في ديار قوم وأيم اللّه ليذوبن ما في أيديهم بعد العلوّ والتمكين كما تذوب الالية على النار

الأجزاء بعضها ببعض، والحداب جمع حدب: ما ارتفع من الأرض، وشبّه عليه السلام سيلان الجيوش إلى بني أُميّة بالسيل المسلّط على تينك الجنتين لم تسلم عليه حيل ولم تثبت له أكمة ولا يردّه جبل شديد الالتصاق، ولا ارض مرتفعة، وقيل الأبواب التي يفتحها لهم إشارة إمّا إلى وجوه الآراء التي تكون أسباب الغلبة والانبعاث على الاجتماع وأعمّ منها كسائر الأسباب للغلبة من إعانة بعضهم لبعض بالأنفس والأموال وغير ذلك، واستعار لخروجهم لفظ السيل وشبّه بسيل جنتي مأرب وهما جنتا سبأ، ووجه الشبه الشدّة في الخروج وإفساد ما يأتون عليه كقوّة ذلك السيل حيث لم يسلم عليه مترفع من الأرض ولم يرد طريقه وجريه جبل مرصوص، أي: شديد الالتصاق.

ثمّ قال: [**يذعذهم اللّه**] بالذالين المعجمتين وذعذعة السرّ إذاعته.

[**في بطون أوديته ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم ويمكّن لقوم في ديار قوم**] المراد كما انّ اللّه تعالى ينزل من السماء ماءً فيستكنّ في أعماق الأرض، ثمّ يظهر منها ينابيع أي: ظاهرها كذلك هؤلاء القوم يغرقهم اللّه تعالى في بطون الأودية وغوامض الأغوار، ثمّ يظهر بعد الإخفاء فيأخذ بهم من قوم حقوق آخرين ويمكّن منهم قوماً من ملك قوم وديارهم.

ثمّ قال عليه السلام: [**وأيم اللّه ليذوبن ما في أيديهم بعد العلوّ والتمكين كما تذوب الالية على النار**] ووجه الشبه الفناء والاضمحلال، قيل ومصداق هذه

أيّهـا الناس لو لم تتـخـاذلوا عـن نصـر الحقّ ولـم تنهوا عـن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقومن قوي عليكم، لكنّكم تهتم متاه بني إسرائيل ولعمري ليضعّفنّ لكم التيه من بعدي أضعافاً خلّفتم الحقّ وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد واعلموا أنّكم إن اتبعتم الداعي

الأخبار ما كان من أمر الشيعة الهاشمية واجتماعها على إزالة ملك بني أُمية من كان ثابتاً منهم على ولايته ومن حاد منهم في أواخر أيام مروان الحمار عند ظهور الدولة الهاشمية، ثمّ عاد ﷺ إلى توبيخ السامعين فقال:

[أيّها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحقّ ولم تنهوا عن توهين الباطل] أي: تضعفوا عن إضعافه **[لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقومن قوي عليكم، لكنّكم تهتم متاه بني إسرائيل]** أي: حرتم وضللتم الطريق كحيرتهم وضلالهم، إشارة إلى ما ورد في الأخبار الصحيحة عن النبي ﷺ قال: «لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه».

[ولعمري ليضعّفنّ لكم التيه من بعدي أضعافاً] حيث لم يجتمعوا على العمل بأوامر الله فرماهم بالتيه ﴿وضربت عليهم الذلّة والمسكنة﴾، ثمّ أخبرهم بعاقبة أمرهم في التخاذل وهو أضعاف التيه والتفرّق بعده لالتفاتهم عن الحقّ ومقاطعة بعضهم لبعض كما قال: **[خلّفتم الحقّ وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى]** أراد نفسه ﷺ لدنوّه وقربه من الرسول ﷺ مع أنّهم أُمروا بمودّته كما قال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه اجراً إلاّ المودّة في القربى﴾.

[ووصلتم الأبعد] يعني معاوية، **[واعلموا أنّكم إن اتبعتم الداعي]**

سلك بكم منهاج الرسولﷺ وكفيتم مؤنة الاعتساف ونبذتم الثقل الفادح عن الأعناق في أوّل خلافته: إنّ اللّه سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشرّ فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشرّ تقصدوا الفرائض أدّوها إلى اللّه تؤدّكم إلى الجنّة انّ اللّه حرّم حراماًغير

يعني نفسه عليه السلام لأنّه الداعي إلى اللّه والدالّ عليه [**سلك بكم منهاج الرسول**ﷺ] وطريقته [**وكفيتم مؤنة الاعتساف**] في طرق الضلال، والاعتساف: سلوك غير الطريق.

[**ونبذتم الثقل الفادح عن الأعناق**] أي: ألقيتم ثقل الأوزار في الآخرة عن أعناق نفوسكم، والفادح: الثقيل، وظاهر كونها فادحة ويحتمل أن يريد الثقل الفادح الآثام مع ما يلحقهم في الدنيا من الخطوب الفادحة بسبب عصيان الإمام والخروج عن أمره.

ومن خطبة له عليه السلام

[**في أوّل خلافته: إنّ اللّه سبحانه أنزل كتاباً هادياً**] موضحاً مبيناً للنجدين طريقي الهدى والضلال، [**بيّن فيه الخير والشرّ فخذوا نهج الخير تهتدوا**] إلى الصراط المستقيم والنعيم الدائم القويم [**واصدفوا**] أي: اعرضوا [**عن سمت الشرّ تقصدوا**] أي: تعدلوا.

ثمّ أمر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها كالصلاة والزكاة فقال: [**الفرائض**] منصوب على الاعزاء [**أدّوها إلى اللّه تؤدّكم إلى الجنّة**] لأنّها أقوى طرق الخير والجنّة منتهى الخير كلّه [**إنّ اللّه حرّم حراماً غير**

مجهول وأحلّ حلالاً غير مدخول وفضّل حرمة المسلم على الحُرُم كلّها وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحقّ لا يحلّ أذى المسلم إلاّ بما يجب بادروا أمر العامّة وخاصّة أحدكم وهو الموت فإنّ الناس أمامكم وإنّ الساعة تحدوكم من خلفكم تخفّفوا تلحقوا فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم

مجهول] للمكلّف بل هو معلوم له في غاية الوضوح **[وأحلّ حلالاً غير مدخول]** أي: لا عيب فيه ولا شبهة ولا نقص فلا عذر لمن تركه.

[وفضّل حرمة المسلم على الحُرُم كلّها] وفي النبوي: «حرمة المسلم فوق كلّ حرمة دمه وعرضه وماله».

[وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها] أي: ربطهما بهما فأوجب على المخلصين المعترفين بوحدانيته المحافظة على حقوق المسلمين ومراعاة مواضعها وقرن توحيده بذلك حتّى صار فضله كفضل التوحيد.

[فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحقّ] كما في حالة إنكار المنكر أو القصاص أو التظلّم **[لا يحلّ أذى المسلم إلاّ بما يجب]** أي: إلاّ بحقّ وكرّره تأكيداً لما سبق.

ثمّ عقّب تنبيههم بذكر هادم اللّذات فقال: **[بادروا أمر العامّة وخاصّة أحدكم وهو الموت]** عزاه إلى العموم لأنّه يعمّ الحيوان كلّه وإلى الخاصّة لأنّ له مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم وله مع كلّ شخص كيفيّة مخالفة لحاله مع غيره أمر بمبادرة العمل له ولما بعده قبل سبقه إليهم **[فإنّ الناس أمامكم]** أي: قد سبقوهم إلى الآخرة **[وإنّ الساعة تحدوكم]** أيك تسوقكم **[من خلفكم]** ثمّ امر بالتخفيف للحاق بهم فقال: **[تخفّفوا تلحقوا]** وحثّهم على ذلك بقوله **[فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم]** أي: إنّما ينتظر ببعث

اتقوا اللّه في عباده و بلاده فإنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع وعن البهائم أطيعوا اللّه ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فجدّوا به وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان فقال: يا أخوتاه

الموتى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضاً فيبعث الكلّ جميعاً في وقت واحد [**اتقوا اللّه في عباده**] بلزوم خوفه في مراعاة ما ينبغي لكلّ أحد مع غيره [**و**] في [**بلاده**] بترك الفساد في الأرض وعلّل ذلك بقوله: [**فإنّكم مسؤولون**] عن أعمالكم وأقوالكم وأحوالكم وعن كلّ شيء وإن قلّ.

[**حتّى عن البقاع**] فيقال: لِمَ استوطنتم في هذا المكان وزهدتم في ذلك [**وعن البهائم**] فيقال: لم ضربتم هذه وقتلتم هذه ولم أجعتموها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لتسئلنّ عمّا كنتم تعملون﴾، وقال تعالى: ﴿إنّ السمع والبصر كلّ أولئك كان عنه مسؤولا﴾ فيقال: لم أشغلت قلبك وسمعك وبصرك، وفي الخبر أنّ إمرأة دخلت النار في هرّة حبستها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض.

ثمّ أجمل القول بعد تفصيله فقال: [**أطيعوا اللّه ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فجدّوا به**] واجهدوا عليه [**وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه**].

ومن كلام له عليه السلام

لما بُويع بالخلافة وقد قال له قوم من الصحابة [**لو عاقبت قوماً ممّن أجلب على عثمان**] أي: جمع وأعان عليه [**فقال: يا أخوتاه**] الألف منقلبة عن ياء

إنّي لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لي بقوّة والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفّت إليهم أعرابكم وهم خلالكم بينكم يسومونكم ما شاؤا، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه انّ هذا الأمر أمر جاهلية فإنّ لهؤلاء القوم مادّة إنّ الناس من هذا الأمر إذا حرّك على أُمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى لا هذا ولا هذا، فاصبروا حتّى يهدء الناس وتقع الحقوق مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة فاهدئوا عنّي وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوّة وتسقط منّة وتورث وهناً

المتكلّم المضاف إليها والهاء للسكت [**إنّي لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لي بقوّة والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم**] أي: قوّتهم لت تنكسر سورتهم [**يملكوننا ولا نملكهم وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم**] بتشدد الدال وتخفيفها وكسر العين وضمّها جمع عبد [**والتفّت**] أي: انضمّت [**إليهم أعرابكم وهم خلالكم بينكم يسومونكم**] يكلّفونكم [**ما شاؤا، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه انّ هذا الأمر أمر جاهلية فإنّ لهؤلاء القوم مادّة**] أي: معينين وناصرين [**إنّ الناس من هذا الأمر إذا حرّك على أُمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى لا هذا ولا هذا، فاصبروا حتّى يهدء الناس وتقع الحقوق مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة**] من أسمح أي: ذلّ وانقاد [**فاهدئوا عنّي**] أي: فاسكتوا [**وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوّة**] أي: تضعف وتهد [**وتسقط منّة**] والمنّة: القوّة أيضاً [**وتورث وهناً**] أي: ضعفاً.

وذلّة وسأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ

[وذلّة وسأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ].

قال ابن أبي الحديد في هذا الفصل ما حاصله: إنّ أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه وكان من أهل مصر والكوفة عالم عظيم حضروا من بلادهم وطووا المسافة البعيدة لذلك وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية وكان الأمر أمر جاهليّة كما قال عليه السلام ولو حرّك ساكناً لاختلف الناس واضطربوا فقوم يقولون أصاب وقوم يقولون أخطأ وقوم يتوقّفون ولا يؤمن لو شرع في عقوبة الناس من تجدّد فتنة أخرى كالأولى وأعظم، فكان الأصوب الإمساك إلى حين سكون الفتنة وتفرّق تلك الشعوب وعود كلّ قوم إلى بلادهم وكان يؤمّل أن يطيعه معاوية وأن يحضر بنو عثمان يطالبون بدم أبيهم ويعينون قوماً بأعيانهم بعضهم للتقل وبعضهم للحصار فحينئذ يتمكّن من العمل بحكم اللّه فلم يقع الأمر بموجب ذلك وعصى معاوية وأهل الشام والتجأ ورثة معاوية إليه وفارقوا حوزة أميرالمؤمنين ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعيّاً وإنّما طلبوه مغالبة وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية، وقبل ذلك ما كان من طلحة والزبير ونقضهما البيعة ونهبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتل الصالحين من أهلها، وجرت أمور كلّها تمنع الإمام من القصاص وقد قال عليه السلام لمعاوية: «فأمّا طلبك قتلة عثمان فادخل في الطاعة وحاكم القوم إلي أحملك وإيّاهم على كتاب اللّه وسنّة رسول اللّه صلى الله عليه وآله» ثمّ قال عليه السلام: سأمسك نفسي عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكنني وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم

عن مسير أصحاب الجمل إنّ اللّه بعث رسولاً من الحقّ هادياً بكتاب ناطق وأمر قائم لا يهلك عنه إلاّ هالك وإنّ المبتدعات المشتبهات هنّ المهلكات إلاّ ما حفظ اللّه منها وإنّ في سلطان اللّه

وإنذارهم، واجتهد في ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب فإن لم أجد بدّاً من الحرب فآخر الداء الكي، أي: الحرب، لأنّها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها

ومن خطبة له عليه السلام

[عن مسير أصحاب الجمل] إلى البصرة **[إنّ اللّه بعث رسولاً من الحقّ هادياً]** للخلق **[بكتاب ناطق]** ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها﴾، ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾.

[وأمر قائم] أي: مستقيم ليس بذي عوج **[لا يهلك عنه إلاّ هالك]** أي: لا يهلك عن مخالفته إلاّ أعظم هالك كما يقال لا يعلم هذا الفنّ من العلم إلاّ عالم، **[وإنّ المبتدعات المشتبهات هنّ المهلكات إلاّ ما حفظ اللّه منها]** المبتدع ما أحدث ولم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وآله، والمشتبهات: الشبهات الملتبسات التي لا يعرف حقّها من باطلها، ومعلوم إهلاكها لمخالفتها الكتاب والسنة الجامعين لحدود اللّه وخروجها عنهما، والمراد الهلاك الأخروي، وقوله إلاّ ما حفظ اللّه، أي: بالعصمة من ارتكابها إذ لا تكون مهلكة إلاّ لمن ارتكبها.

[و إنّ في سلطان اللّه] أي: سلطان دينه وهو الإسلام، أو أراد

عصمة لامركم فاعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكثرة عليها والله لتفعلّن أو ليُنقلنّ عنكم سلطان الإسلام ثمّ لا ينقله إليكم ابداً حتّى يارز الامر إلى غيركم إنّ هؤلاء قد تمالؤوا على سخطة إمارتي وساصبر عليهم مالم أخف على جماعتكم فإنّهم إن تمّموا على فيالة

نفسه عليه السلام لكونه خليفته في ارضه وحجّته على عباده، **[عصمة لامركم]** إذ فيه منعة وعصمة لهم، فإنّ الذي نصرهم وهم قليلون حيٌّ قيّوم، فبالاولى أن ينصرهم على كثرتهم بشرط طاعته والدخول في امر سلطانه، ولذا قال: **[فاعطوه طاعتكم غير ملومة]** أي: غير ملوم صاحبها بالنسبة إلى الرياء والنفاق.

[ولا مستكثرة عليها] ويروى غير ملوية أي: غير معوجّة.

ثمّ شرع عليه السلام في وعيدهم إن لم يطيعوه فقال: **[والله لتفعلّن أو ليُنقلنّ عنكم سلطان الإسلام]** أي: إن لم تطيعوه ينقل الله عنكم سلطان الإسلام **[ثمّ لا ينقله]** لا يردّه **[إليكم أبداً حتّى يأرز]** أي: ينقبض وينضمّ ويجتمع **[الأمر إلى غيركم]** وأراد أمر الخلافة فإن جعلنا حتّى وما بعدها غاية لنقل السلطان عنهم لم يُفهم منها عوده إليهم، وإن جعلناها غاية من عدم نقله إليهم فُهم منها ذلك. والمراد بالقوم الذين يارز إليهم هذا الامر بنو أميّة.

[إنّ هؤلاء] إشارة إلى طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم **[قد تمالؤوا]** أي: اجتمعوا **[على سخطة إمارتي]** إشارة إلى انّ مسيرهم لسخط إمارته لا لما اظهروه من الطلب بدم عثمان.

[وساصبر عليهم مالم أخف على جماعتكم فإنّهم إن تمّموا على فيالة

هذا الرأي انقطع نظام المسلمين وإنّما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن فائها اللّه عليه فارادوا ردّ الأمور على أدبارها ولكم علينا العمل بكتاب اللّه وسيرة رسوله ﷺ والقيام بحقّه والنّعش لسنّته لما قال لكليب الجرمي بايع، فقال: إنّي رسول قوم ولا أُحدث حدثاً دونهم حتّى أرجع إليهم

هذا الرأي] وضعف رأيهم في مسيرهم ومخالفتهم **[انقطع نظام المسلمين]** وتفرّقت جماعتهم **[وإنّما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن فائها اللّه عليه]** اي: ردّها وأرجعها إليه، والضمير راجع للخلافة.

[فارادوا ردّ الأمور على أدبارها] اي: انتزاع الخلافة منّا آخراً كما انتزعت اوّلاً.

ثمّ أخبر ﷺ بما لهم عليه من الحقّ إن أطاعوه فقال: **[ولكم علينا العمل بكتاب اللّه وسيرة رسوله ﷺ والقيام بحقّه والنّعش لسنّته]** اي: رفعها بعدما كانت منخفضة، مصدر نعش أي: رفع ولا يجوز أنعش.

ومن كلام له ﷺ

[لما قال لكليب الجرمي] منسوب إلى جرم بن ريان وهو علاف بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن حمير وكان بعثه قوم من أهل البصرة إليه ﷺ يستعلم حاله وهو على حجّة ام على شبهة، فلمّا رآه وسمع لفظه علم صدقه وبرهانه، وذلك قبل وقعة الجمل فقال له: **[بايع، فقال: إنّي رسول قوم ولا أُحدث حدثاً دونهم حتّى أرجع إليهم]** فإنّما أمرت باستعلام حالك فقط فإن بايعت كنت قد احدثت مالم أندب له.

فقال له ﷺ: أرأيت لو أنّ الذين ورائك بعثوك رائداً لتبتغي لهم مساقط الغيث فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلأ والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب ما كنت صانعاً؟ فقال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء، فقال ﷺ: فامدد إذاً يدك

[فقال له ﷺ: أرأيت لو أنّ الذين ورائك بعثوك رائداً لتبتغي لهم مساقط الغيث] أي: الأمكنة التي يسقط الغيث فيها **[فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلأ]** أي: النبت إذا طال وأمكن أن ترعى **[والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب]** أي: مواضع العطش والجدب اي: المحل **[ما كنت صانعاً؟ فقال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء، فقال ﷺ: فامدد إذاً يدك]** قال الرجل: فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجّة عليّ فبايعته، قيل الأصل في هذا التمثيل هو حالة هذا المخاطب في وجدانه للماء والكلأ على تقدير كونه رائداً لهما والفرع هو حاله في وجدان للعلم والفضائل والهداية عنده والحكم في الأصل هو مخالفته لأصحابه إلى الكلأ والماء على تقدير وجدانه لهما ومخالفة أصحابه له وعلّل ذلك الحكم في الأصل هو وجدانه للكلأ والماء ولما كان المشبّه لهذه العلّة وهو وجدانه للفضائل والعلوم التي هي غذاء النفوس ومادة حياتها موجوداً لهذا الرائد في الفرع وهو حالة وجدانه للعلم والفضل والهداية وجب عن تلك العلّة مثل الحكم في الأصل وهو مخالفة أصحابه إلى الفضل والعلم والهداية عنده ولزم من ذلك ان يبايع، ولذا قال له فامدد يدك وهو تمثيل لا تكاد النفس السليمة عند استماعه ان تقف دون الانفعال عنه والإذعان له ولذا اقسم الرجل أنّه لم يستطع الامتناع عند قيام الحجّة فبايع.

لمّا عزم على لقاء القوم بصفّين: اللّهمّ ربّ السقف المرفوع الجوّ المكفوف الذي جعلته معيضاً لليل والنهار ومجرى للشمس والقمر ومختلَفاً للنجوم السيّارة وجعلته سكّانه سبطاً من ملائكتك لا يسئمون من عبادتك وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام ومدرجاً للهوام

ومن كلامه له عليه السلام

[**لمّا عزم على لقاء القوم بصفّين: اللّهمّ ربّ السقف المرفوع**] كناية عن السماء وكذا [**الجوّ المكفوف**] وكفّه أي: جمعه فضمّ بعضه إلى بعض [**الذي جعلته معيضاً لليل والنهار**] أي: غيضة لهما وهي في الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء فتسمّى غيضة ومغيضاً وينبت فيها الشجر كأنّه جعل الفلك كالغيضة واللّيل والنهار كالشجر النابت فيها فإنّ الغيضة يتولّد منها الشجر وكذا الليل والنهار يتولّدان من جريان الفلك أو لأنّ الفلك بحركته المستلزم لحركة الشمس إلى وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة الليل وباستلزام حركته بحركتها عن وجه الأرض سبباً لغيبوبة النهار فكان كالمغيض لهما.

[**ومجرى للشمس والقمر**] أي: محلاً لجريانهما [**ومختلَفاً**] بفتح اللام [**للنجوم السيّارة**] أي: موضعاً لاختلافها.

[**وجعلته سكّانه سبطاً**] أي: قيلة [**من ملائكتك لا يسئمون**] أي: لا يملّون [**من عبادتك وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام**] أي: موضع استقرارهم وسكونهم [**ومدرجاً للهوام**] أي: موضع دروجهم وسيرهم وحركاتهم، والهوام: الحشرات، والمخوف من الأحناش والحشرات.

وما لا يحصى ممّا يرى وما لا يرى وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً إن أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغي وسدّدنا للحقّ وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة

[**وما لا يحصى**] أي: يضبط بالإحصاء والعدّ [**ممّا يرى وما لا يرى**] من أنواع الحيوان.

قال بعض العلماء: من أراد أن يعرف حقيقة قوله ما يرى وما لا يرى فليوقد ناراص صغيرة في فلاة في ليلة صيفيّة وينظر ما يجتمع عليها من غرائب أنواع الحيوان العجيبة الخلق لم يشاهدها هو ولا غيره، ويحتمل أن يريد بقوله ما لا يرى ما ليس من شأنه أن يُرى إمّا لصغره أو لشفافيته.

[**وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً**] وقد مرّ تفسيره في الخطبة السابقة، [**وللخلق اعتماداً**] لانّهم يبنون بها المساكن ويقوم فيها من المنافع ما لا يقوم في الأودية لكثير من الاشجار والثمار ولأنّها معادن الينابيع ومنابع المعادن وظاهر كونها إذاً معتمداً للخلق في مراتعهم ومنافعهم.

[**إن أظهرتنا**] ونصرتنا [**على عدوّنا فجنّبنا البغي**] وهو العبور إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل، [**وسدّدنا للحقّ**] أي: صوّبنا إليه من قولك: سهم سديد، أي: مصيب.

[**وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة**] أي: فتنة الغبن والانقهار، فإنّ المغلوب إذا كان معتقداً أنّه على الحقّ قلّما يسلم من التسخّط على البخت والعتاب على اللّه وربّما كفر كثير من الناس عند نزول البلاء بهم، وظاهر كون ذلك فتنة، أي: صارفاً عن اللّه فاستعصم عليه السلام من

أين المانع للذمار والغائر عند نزول الحقائق من أهلها الحفّاظ النار ورائكم والجنّة أمامكم الحمد للّه الذي لا تواري عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً

تلك الفتنة وأمثالها استثباتاً لنفسه على الحقّ وتادياً للسامعين.

ثمّ شرع ﷺ فيما جرت العادة فيه من تشجيع قومهم على الحرب فقال ﷺ: [**أين المانع للذمار**] والذمار: ما يحامى عنه [**والغائر**] اي: ذو الغيرة، [**عند نزول الحقائق**] اي: نزول الأمور الشديدة كالحروب ونحوها. [**من أهلها الحفّاظ**] اي: المحافظة على قومه ونفسه وماله، [**النار ورائكم**] اي: إنّ رجوعكم القهقري هرباً من العدوّ مستلزم لدخولكم النار واستحقاقكم لها [**والجنّة أمامكم**] اي: في إقدامكم على العدوّ والتقدّم إلى مناجزته، وهو كلام في غاية الوجازة ونهاية الفصاحة والبلاغة.

ومن خطبة له ﷺ

[**الحمد للّه الذي لا تواري عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً**] حمده تعالى باعتبار إحاطته علماً وقدرةً بالسموات والأرضين وتقدّسه عن صفات المخلوقين، فإنّ الخلق إذا حلّوا في مكان حجبهم ذلك المكان عن العلم بما ورائه، فأهل الأرض لا يدرون بمن في السماء وبالعكس بل كلّ من أهل السماء والأرض لا يدري بعضهم ببعض لوجود الحاجب واللّه تعالى ﴿قد احاط بكلّ شيء علماً﴾، و﴿احصى كلّ شيء عدداً﴾، لا يعجزه شيء و﴿لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض﴾، وظاهر كلامه ﷺ تعدّد

وقال لي قائل إنّك يابن ابي طالب على هذا الامر لحريص فقلت: بل أنتم واللّه احرص وابعد وانا اخصّ واقرب وإنّما طلبت حقّاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه فلمّا اخترعته بالحجّة في الملا الحاضرين بهت كأنّه لا يدري ما يجيبني به اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش

الأرضين كتعدّد السموات كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ﴾، وعليه كثير من المسلمين، وقيل: إنّ تعدّد الأرضين باعتبار أقاليمها.

ومنها

من خطبة يذكر فيها ما جرى له يوم الشورى [**وقال لي قائل**] هو سعد بن ابي وقّاص مع روايته فيه انت منّي بمنزلة هرون من موسى [**إنّك يابن أبي طالب على هذا الأمر لحريص فقلت: بل أنتم واللّه أحرص**] على هذا الامر [**وأبعد**] من استحقاقه، وكلّ من كان أحرص وابعد فليس له أن يعيّر الأقرب إليه بالحرص عليه.

ثمّ احتجّ على أولويّته فقال: [**وأنا أخصّ وأقرب وإنّما طلبت حقّاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه**] وهذا بمنزلة صغرى وتقدير كبراه وكلّ من كان أخصّ وأقرب إلى هذا الأمر فهو أولى بطلبه.

[**فلمّا اخترعته بالحجّة في الملا الحاضرين بهت كأنّه لا يدري ما يجيبني به**] وفي رواية هبّ مكان بهت اي: انتبه كأنّه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجّة فاستيقظ من غفلته ثمّ أخذ في التشكّي من قريش واستعانة اللّه عليهم فقال:

[**اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش**] اي: اطلب منك ان تعديني عليهم

و من أطاعهم فإنّهم قطعوا رحمي وصغّروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي على أمر هو لي ثمّ قالوا إلاّ أنّ الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تتركه

وأن تنتصف لي منهم [و] على [**من أطاعهم**] على ظلمي واخذ حقّي [**فإنّهم قطعوا رحمي**] ولم يراعوا قربي من رسول اللّه ﷺ كأنّهم لم يسمعوا كلام اللّه تعالى حيث يقول: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾ وقوله تعالى: ﴿واتّقوا اللّه الذي تُسائلون به والأرحام﴾.

[**وصغّروا عظيم منزلتي**] التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله «انت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي»، [**وأجمعوا على منازعتي على أمر هو لي**] وهو الخلافة والإمارة.

[**ثمّ قالوا إلاّ أنّ الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تتركه**] أي: أنّهم لم يقتصروا على أخذ حقّي ساكتين عن دعوى كونه حقّاً لهم ولكنّهم أخذوه مع دعواهم أنّ الحقّ لهم وأنّه يجب عليّ أن أترك المنازعة فيه، فليتهم أخذوه معترفين أنّه حقّ لي فكانت المصيبة أهون.

وروي: نأخذه ونتركه، بالنون في الكلمتين، وعليه نسخة الرضي، والمراد إنّا نتصرّف فيه كما نشاء بالأخذ والترك دونك وهذه شكاية منه عليه السلام من القوم وتصريح بأنّ الحقّ له وقد غصبه القوم.

قال ابن أبي الحديد: قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحو من هذا القول كقوله:

«مازلت مظلوماً منذ قبض اللّه نبيّه ﷺ حتّى يوم الناس هذا».

وقوله: «اللّهمّ ــــــ قريشاً فإنّها منعتني حقّي وغصبتني أمري».

....

وقوله: «فجزت قريشاً عنّي الجوازي فإنّهم ظلموني حقّي واغتصبوني سلطان ابن عمي».

وقوله ـ وقد سمع صارخاً ينادي أنا مظلوم ـ فقال: «هلمّ فلنصرخ معاً فإنّي مازلت مظلوماً».

وقوله: «إنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى».

وقوله: «إنّ تراثي نهباً»، وقوله «ــــــ ناسباً وحملا الناس على رقابنا».

وقوله: «إنّ لنا حقّاً إن نُعطه نأخذه وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى».

وقوله: «مازلت مستأثراً عليّ مدفوعاً عمّا أستحقّه واستوجبه».

وأصحابنا يحملون ذلك كلّه على ادّعائه الأمر بالأفضليّة ولكن الإماميّة والزيدية حملوا هذه الأقوال على ظواهرها وارتكبوا منها صعباً، ولعمري إنّ هذه الألفاظ موهمة، مغلبة على الظن ما يقوله القوم لكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظنّ ويدرء ذلك الوهم، فوجب أن يجري مجرى الآيات المتشابهات الموهمة ما لا يجوز على الباري سبحانه، فإنّا لا نعمل بها ولا نعوّل على ظواهرها لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظواهر اللفظ وأن يحمل على التاويلات المذكورة في الكتب.

وحدّثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبلي المعروف بابن غالية من ساكني قطفا بالجانب الغربي من بغداد وأحد الشهود المعدّلين بها قال: كنت حاضراً عند الفخر إسماعيل بن علي الحنبلي الفقيه المعروف بغلام بن الليثي وكان الفخر إسماعيل هذا مقدّم الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف، ويشتغل

....

بشيء من علم المنطق، وكان حلو العبارة وقد رأيته أنا وحضرت عنده وسمعت كلامه وتوفى سنة عشرة وستمائة.

قال ابن غالية: ونحن عنده نتحدّث إذ دخل شخص من الحنابلة قد كان له دين على بعض أهل الكوفة، فانحدر إليه يطالبه به واتفّق أن حضرت زيارة يوم الغدير والحنبلي المذكور بالكوفة وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ويجتمع بمشهد اميرالمؤمنين ﷺ من الخلائق جموع عظيمة تتجاوز حدّ الإحصاء.

قال ابن غالية: فجعل الشيخ الفخر يسائل ذلك الشخص، ما فعلت؟ ما رايت؟ هل وصل مالك إليك؟ هل بقي لك منه بقيّة عند غريمك؟ وذلك الشخص يحادبه حتّى قال له: لو شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير لرأيت ما يجري عند قبر عليّ بن أبي طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة، فقال إسماعيل: ايّ ذنب لهم والله ما جرّئهم على ذلك ولا فتح لهم هذا الباب إلاّ صاحب ذلك القبر!

فقال ذلك الشخص: ومن هو صاحب القبر؟ فقال: علي بن أبي طالب، قال: يا سيدي هو الذي سنّ لهم ذلك وعلّمهم إيّاه وطرقهم إليه.

قال: نعم، قال: يا سيّدي فإن كان محقّاً فما لنا نتولّى فلاناً وفلاناً، وإن كان مبطلاً فما لنا نتولاّه، بل ينبغي أن نتبرء إمّا منه او منهما.

قال ابن غالية: فقام إسماعيل مسرعاً فلبس نعله وقال لعن الله إسماعيل الفاعل بن الفاعلة إن كان يعرف جواب هذه المسالة ودخل حرمه

في ذكر أصحاب الجمل

وقمنا نحن فانصرفنا، إنتهى كلام ابن أبي الحديد.

لا يخفى ما في كلامه من التهافت والتعارض والتناقض واعترافه بالحقّ وروغانه روغان الثعلب وبعد تسليمه انّ الظواهر دالّة على ما تدّعيه الإمامية فما الذي دعاه إلى التاويل وقياس ذلك على الآيات المتشابهات قياس مع الفارق، فإنّ الآيات المتشابهات الدالّة على التجسيم يخالفها الادلّة العقلية القاطعة والأدلّة النقلية المتواتر، وأيُّ داع إلى تاويل هذه الظواهر سيّما مع الاعتراف بافضليّة اميرالمومنين عليه السلام من علومه وشجاعته ومعرفته وجامعيّته للفضائل والفواضل وتفوّقه على الأواخر والأوائر؟! او احوال مشايخه التي مثالبهم مشهورة وفي كتبهم مسطورة والأدلّة العقليّة التي أشرنا إلى جملة تنادي بانّ لا أهل للخلافة غيره؟! ام الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة، كقوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، وقوله تعالى: ﴿افمن يهدي إلى الحقّ احقّ أن يتّبع امّ من لا يهدي إلاّ ان يُهدى فما لكم كيف تحكمون﴾.

أم ما تواتر من قوله صلى الله عليه وآله: «الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا بلى قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه»، وقوله: «انت منّي بمنزلة هارون من موسى»، وقوله: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليٍّ يدور معه حيثما دار» إلى غير ذلك ممّا لا يخفى.

ومنها: [في ذكر أصحاب الجمل] والعذر في قتالهم وذكر لهم ثلاث كبائر:

الأولى: إخراجهم زوجة رسول اللّه صلى الله عليه وآله مع حجبهم نسائهما.

الثانية: نكثهم لبيعته وخروجهم عليه بعد الطاعة.

خرجوا يجرّون حرمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كما تجرّ الأمة عند شرائها، متوجّهين إلى البصرة فحبسا نسائهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لهما ولغيرهما في جيش ما منهم إلّا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره

الثالثة: قتلهم لعامله وجملة من المسلمين بغير حقّ وأكلهم أموال الناس بالباطل.

فقال عليه السلام: **[خرجوا يجرّون حرمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله]** والحرمة كناية عن الزوجة وأصله الأهل والحرم **[كما تجرّ الأمة عند شرائها، متوجّهين إلى البصرة]** ووجه الشبه انتهاك الحرمة ونقصانها في إخراجها وفي ذلك هتك حرمة النبي صلى الله عليه وآله وأذاه.

[فحبسا] أي: طلحة والزبير **[نسائهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله]** أي: زوجته، لأنّها تحبس أي: تحتجب **[لهما ولغيرهما في جيش ما منهم]** أحد **[إلّا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره]**.

روى ابن أبي الحديد في الشرح عن جماعة كثيرين أنّه لمّا خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكّة إلى البصرة طرقت ماء الحوئب وهو ماء لبني عامر بن صعصعة فنبحتهم الكلاب، فنفرت صعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لعن اللّه الحوئب فما أكثر كلابها، فقالت عائشة: هذا ماء الحوئب؟ قالوا: نعم، فقالت: ردّوني ردّوني، فسألوها عن شأنها وما بدا لها، فقالت: إنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول كأنّي بكلاب ماء الحوئب قد نبحت بعض نسائي، ثمّ قال لي إيّاك يا حميراء أن تكونيها، فقال لها الزبير: مهلاً يرحمك اللّه فإنّا قد جزنا ماء الحوئب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك

فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها فقتلوا طائفة منهم صبراً وطائفة غدراً فواللّه لو لم يصيبوا من المسلمين إلاّ رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرّه لحلّ لي قتل ذلك الجيش كلّه إذ حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا يد دع ما أنّهم قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها

من يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوئب، فلفّق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً وجعلا لهم جعلاً فحلفوا لها وشهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوئب فكانت هذه أوّل شهادة زور في الإسلام **[فقدموا على عاملي بها]** عثمان بن حنيف الأنصاري **[وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها فقتلوا طائفة منهم]** وهم جماعة المسلحة **[صبراً]** أي: بعد الأسر **[وطائفة غدراً]** أي: بعد الأمان **[فواللّه لو لم يصيبوا من المسلمين إلاّ رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرّه]** أي: بغير ذنب جناه **[لحلّ لي قتل ذلك الجيش كلّه إذ حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا يد]** مع تمكّنهم وحضورهم فكان ذلك رضى منهم والراضي بالقتل شريك القاتل سيّما مع إذا كان معروفاً بصحبته والاتحاد به ولأنّ خروج هذا الجيش على الإمام العادل حرب للّه ولرسوله وقتلهم لعامله وخزّان بيت مال المسلمين وتفريق كلمة أهل المصر وفساد نظام الإسلام والمسلمين سعي في الأرض بالفساد، فيدخلون تحت قوله تعالى: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ ولقول النبي صلى الله عليه وآله: «يا عليّ حربك حربي» هذا كلّه مضافاً إلى اعتقادهم إباحة هذا القتل والنهب وهو حرام بضرورة الدين.

وقوله عليه السلام: **[دع ما أنّهم قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها**

عليهم أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته أيّها الناس إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر اللّه فيه فإنّ شغب شاغبه

عليهم] أي: لو كان ما قتلوه من المسلمين واحداً لحلّ لي قتلهم فكيف وقد قتلوا منهم عدّة مثل عدّتهم التي دخلوا بها البصرة وما بعد دع زائدة والمماثلة هنا في الكثرة، واللّه العالم.

ومن خطبة له عليه السلام

في ممادح رسول اللّه صلى الله عليه وآله وجملة من أوصافه الشريفة وفضائله المنيفة

[أمين وحيه] على التنزيل من التحريف والتبديل، **[وخاتم رسله]** لقوله تعالى: ﴿ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين﴾.

[وبشير رحمته] بالثواب الجزيل، **[ونذير نقمته]** بالعذاب الوبيل، لقوله تعالى: ﴿إنّا ارسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً﴾.

[أيّها الناس إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه] وهو الأكمل قدرة على السياسة والأكمل علماً بمواقعها وكيفياتها وكيفية تدبير المدن والحروب، **[وأعلمهم بأمر اللّه فيه]** ويلزم من ذلك كونه أعلم بالأصول والفروع ليضع الأعمال مواضعها ويستلزم ان يكون اشدّ حفاظاً على مراعاة حدود اللّه والعمل بها وذلك يستلزم كونه أزهد الناس واعبدهم واعفّهم واعدلهم وروي اعلمهم مكان اعملهم.

[فإنّ شغب شاغبه] اي: خرج باغ على الإمام، والشغب: هياج

استعتب فإن أبى قوتل ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتّى تحضرها عامّة الناس ما إلى ذلك سبيل ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ثمّ ليس للشاهد أن يرجع ولا للغائب أن يختار

الشر، [**استعتب**] أي: يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحقّ والطاعة بلين القول، [**فإن أبى قوتل**] كما هو مقتضى قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحديهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيىء إلى أمر اللّه﴾.

[**ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتّى تحضرها عامّة الناس ما إلى ذلك سبيل**] لتعذّر اجتماع المسلمين من شرق الأرض وغربها مع تفرّقهم في البلاد وتشتّتهم في العباد.

[**ولكن أهلها**] الحاضرون، [**يحكمون على من غاب عنها**] وقد كانوا بأسرهم مجتمعين حين بيعته عليه السلام وكان ذلك جواب من قال: إنّا لم نكن حاضرين وقت البيعة والاختيار كمعاوية وأصحابه، فأجاب عليه السلام بأنّه لو كان ذلك شرطاً لما انعقدت إمامة أبداً ولما ثبت إمامة من تدعون ممّن تقدّم إذ لم يحضر جميع الناس لبيعتهم وإنّما الزمتم سائر الناس ببيعة أهل الحلّ والعقد فكذا الأمر هنا [**ثمّ ليس للشاهد**] الحاضر المبايع [**أن يرجع**] عن البيعة وينكثها كما فعل الناكثون كطلحة والزبير ونحوهم.

[**ولا للغائب**] عنها [**أن يختار**] غير من عقد له كما فعل القاسطون معاوية وأصحابه، بل يكون محجوجاً بعقد الحاضرين وليس الغرض من هذا الكلام انّ الإمامة والخلافة تثبت بمبايعة أهل الحلّ والعقد، بل الغرض الردّ على من قدح في إمامته بعدم حضور جميع الخلق بأنّه لو كان الامر

ألا وإنّي قاتل رجلين، رجلاً ادّعى ما ليس له وآخر منع الذي عليه أُوصيكم بتقوى اللّه فإنّها خير ما تواصى به العباد وخير عواقب الأُمور عند اللّه، وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة

كذلك لما ثبت الإمامة لأحد أبداً ونقض عليكم بما تدّعون من إمامة من تقدّم.

وقال المحقّق البحراني في احتجاجه ﷺ بالإجماع لا يتعرّض لنفي النصّ ولا لإثباته لاتفاقهم على العمل به فيمن سبق من الأئمة، ويحتمل أن يكون سكوته عن النصّ لعلمه بأنّه لا يلتفت إلى ذكره على تقدير وجوده، لأنّه لّما لم يلتفت إليه في مبدء الأمر حين موت الرسول، فبالأولى أن لا يلتفت إليه الآن وقد طالت المدّة وبعُد العهد، فلم يكن في ذكره فائدة.

[**ألا وإنّي قاتل رجلين، رجلاً ادّعى ما ليس له**] من الإمامة وخرج على الإمام العادل بعد تمام بيعته كأصحاب الجمل [**وآخر منع الذي عليه**] من وجوب طاعة الإمامة والانقياد له، وقيل المدّعي ما ليس له بحقّ كمعاوية للإمامة والمانع للذي عليه كطلحة والزبير في منعهما ما له عليهما من الطاعة.

[**أُوصيكم**] عباد اللّه [**بتقوى اللّه**] فتزوّدوا منها ﴿فإنّ خير الزاد التقوى﴾. [**فإنّها خير ما تواصى به العباد وخير عواقب الأُمور عند اللّه، وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة**].

قال ابن أبي الحديد: لم يكن المسلمون قبل حرب الجمل يعرفون كيفية قتال أهل القبلة وإنّما تعلّموا فقه ذلك من أميرالمؤمنين.

وقال الشافعي: لولا عليّ لما عرفت شيء من أحكام أهل البغي.

ولا يحمل هذا العلم إلّا أهل البصر والصبر والعلم بمواضع الحقّ فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنهون عنه ولا تعجلوا في أمر حتّ تتبيّنوا فإنّ لنا مع كلّ أمر تنكرونه غيراً ألا وإنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم

[**ولا يحمل هذا العلم إلّا أهل البصر**] أي: أهل البصائر والعقول الراجحة.

[**والصبر**] عن المكاره والتسرّع إلى الوساوس [**والعلم بمواضع الحقّ**].

قال ابن أبي الحديد: وذلك لأنّ المسلمين عظم عندهم حرب أهل القبلة وأكبروه، ومن أقدم منهم عليه أقدم على خوف وحذر، فقال عليه السلام: إنّ هذا العلم ليس يدركه كلّ واحد وإنّما له قوم مخصوصون.

ثمّ قال: [**فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنهون عنه ولا تعجلوا في أمر**] يلتبس عليكم ويشتبه [**حتّ تتبيّنوا**] وينجلي عنكم غياب الشبهات، فلا يتسرّعون إلى إنكار امر فعله أو يأمرهم به حتّى يسألوه عن فائدته وبيانه، ولذا قال: [**فإنّ لنا مع كلّ أمر تنكرونه غيراً**] أي: قوّة على التغيّر إن لم يكن في ذلك الأمر مصلحة في نفس الأمر وفائدة أمرهم بالتبيّن عند استنكاف أمر أنّه يحتمل أن يكون ما استنكروه منكراً في نفس الأمر فيحكمون بكونه منكراً لعدم علمهم بوجهه ويتسرّعون إلى إنكاره بيد او لسان فيقعون في الخطأ، وقيل فيه إيماء على أنّه ليس كعثمان في صبره على ارتكاب الناس لما كان ينهاهم عنه بل يغيّر كلّما ينكره المسلمون ويقتضي العرف والشرع تغييره.

ثمّ شرع عليه السلام في ذمّ الدنيا والتنفير عنها فقال: [**ألا وإنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم**] تارة [**وترضيكم**] أخرى

ليست بداركم ولا منزلكم الذي خُلقتم له ولا الذي دُعيتم إليه ألا وإنّها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها وهي وإن غرّتكم فقد حذّرتكم شرّها فدعوا غرورها لتحذيرها أطماعها لتخويفها وسابقوا فيها إلى الدار التي دُعيتم إليها وانصرفوا بقلوبكم عنها ولا يخنّنّ أحدكم حنين الأمة على ما زوي عنه منها

[ليست بداركم ولا منزلكم الذي خُلقتم له ولا الذي دُعيتم إليه] بل هي طريق وممرّ إلى الدار الأخرى فاعبروها ولا تعمروها **[ألا وإنّها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها]** كما قيل:

فلا الدنيا بباقية لحيٍّ ولا حيٌّ على الدنيا بباقي

[وهي وإن غرّتكم] وخدعتكم بزخرفها وزينتها **[فقد حذّرتكم شرّها]** بما فيها من الآفات والبليّات والمصائب والمحن والرزيّات، وذكّرتكم بمصارع آبائكم وأجدادكم واخوتكم وأسلافكم، وأنذرتكم بأنّها فاعلة بكم ما فعلت بهم من الفناء وفراق المألوف.

[فدعوا غرورها لتحذيرها] لانّ جانب تحذيرها أولى بأن يعمل عليه من جانب غرورها لانّ غرورها بأمر سريع التصرّم والانقضاء وتحذيرها إنّما هو لأمر جليل عظيم ودعوا **[أطماعها لتخويفها وسابقوا فيها إلى الدار التي دُعيتم إليها]** وهي الدار الآخرة التي فيها النعيم والثواب الجسيم.

[وانصرفوا بقلوبكم عنها] بالزهد الحقيقي فإنّ الزهد الظاهري مع الحنين إلى ما زوي منها عنكم غير نافع.

[ولا يخنّنّ أحدكم] عليها **[حنين الامة على ما زوي عنه منها]** الحنين: صوت يخرج من الأنف عند البكاء، وخصّ بالامة لانّ الإماء كثيراً ما

واستتمّوا نعمة اللّه عليكم بالصبر على طاعته والمحافظة على ما استحفظتم من كتابه ألا وإنّه لا يضرّكم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم ألا وإنّه لا يضرّكم من بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم، أخذ اللّه قلوبكم إلى الحقّ وألهمنا وإيّاكم الصبر.

يضربن فيبكين ويُسمع الحنين منهنّ، ولأنّ الحرّة تأنف من البكاء والحنين.

[واستتمّوا نعمة اللّه عليكم بالصبر على طاعته] وعبادته **[والمحافظة على ما استحفظتم من كتابه]** من أوامره ونواهيه، إذ بالزهد يكون حذف الموانع الداخلة والخارجة، وبالطاعة والعبادة يكون تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنة وللعقل الخالص.

[ألا وإنّه لا يضرّكم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم] لأنّ في المحافظة على الدِّين خير الدنيا والآخرة الباقية، ولا نسبة بينه وبين خير الدنيا الفانية.

[ألا وإنّه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم] وذلك لا فائدة فيه، ثمّ ختم بالدعاء لهم ولنفسه فقال: **[أخذ اللّه قلوبكم إلى الحقّ وألهمنا وإيّاكم الصبر]**.

في معنى طلحة بن عبيدالله قد كنت وما أُهدّدُ بالحرب ولا أُرهب بالضرب وأنا على ما وعدني ربّي من النصر واللّه ما استعجل متجرّداً للطلب بدم عثمان إلاّ خوفاً من أن يُطالب بدمه لأنّه مظنّة ولم يكن في القوم أحرص عليه منه

ومن خطبة له ﷺ

[**في معنى طلحة بن عبيدالله**] قاله حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة وتهديدهم له بالحرب فقال ﷺ:

[**قد كنت وما أُهدّدُ بالحرب ولا أُرهب بالضرب**] كان هنا تامّة، والواو للحال، أي: خُلقت ووجدت بهذه الصفة، [**وأنا على ما وعدني ربّي**] أي: والحال إنّي الآن على ما وعدني ربّي.

[**من النصر**] والظفر والغلبة كعادتي فيما سبق، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

ثمّ شرع ﷺ في شرح حال طلحة فقال:

[**واللّه ما استعجل متجرّداً للطلب بدم عثمان إلاّ خوفاً من أن يُطالب بدمه لأنّه مظنّة**] ذلك [**ولم يكن في القوم أحرص عليه**] أي: على قتل عثمان [**منه**] أي: من طلحة، إذ هو الذي جمع الجموع في دار، وأجلب الناس عليه من كلّ فجّ عميق، وفي رواياتهم المعتبرة أنّه منع الناس من دفنه ثلاثة أيّام وأنّ حكيم بن حزام وجبير بن مطعم استنجدا بعليّ ﷺ في دفنه فأقعد لهم طلحة في الطريق أناساً يرمونهم بالحجارة، فخرج به نفر من أهله

فأراد أن يغالط بما اجلب فيه ليلتبس الأمر ويقع الشكّ والله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث لئن كان ابن عفّان ظالماً كما كان يزعم كان ينبغي له أن يؤازر قاتليه وأن ينابذ ناصريه ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي أن يكون من المنهنهين عنه والمعذرين فيه

يريدون به حائطاً في المدينة يعرف بحش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلمّا صار هناك رجم سريره فهمّوا بطرحه، فأرسل إليهم علي عليه السلام فكفّهم عنه حتّى دفن بحش كوكب ورووا أنّها جادل في دفنه بمقابر المسلمين وقال ينبغي أن يدفن بدير سلع يعني مقابر اليهود.

وبالجملة: فلا ريب أنّه أحرص الناس على قتله [**فأراد أن يغالط بما اجلب فيه**] ويوهم الناس أنّه بريء منه [**ليلتبس الأمر ويقع الشكّ**].

ثمّ شرع عليه السلام في الاحتجاج عليه وقطع عذره فقال: [**والله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث**] أي: إنّ حاله في أمر عثمان وخروجه في طلب دمه لا يخلو من إحدى هذه الثلاثة [**لئن كان ابن عفّان ظالماً كما كان يزعم**] في أيّام حياته [**كان ينبغي له أن يؤازر**] أي: يساعد ويُعين [**قاتليه وأن ينابذ ناصريه**] لو جرّب إنكار المنكر عليه وهو قد عكس الحال، لأنّه نابذ قاتليه وثار في طلب دمه مع ناصريه ممّن توهّم فيه ذلك.

[**ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي أن يكون من المنهنهين**] أي: الكافّين الناس [**عنه والمعذرين فيه**] يقال: نهنه عنه: كفّ وزجر، والمعذرين بالتخفيف: المعتذرين عنه، وبالتشديد: المظهرين للعذر لوجوب إنكار المنكر أيضاً مع أنّه ممّن وازر عليه الناس وأظهر احداثه وعظمها كما هو المعروف المشهور عنه.

ولئن كان في شكٍّ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد جانباً ويدع الناس فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه ولم تسلم له معاذيره أيّها الغافلون غير المغفول عنهم

[ولئن كان في شكٍّ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد] اي: يسكن **[جانباً ويدع الناس]** يفعلون ما شائوا كما هو شأن المتوقّف الشاكّ، وهو لم يفعل ذلك بل ثار في طلب دمه.

[فما فعل واحدة من] هذه **[الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه]** اي: وجه دخوله فيه، **[ولم تسلم له]** فيه **[معاذيره]** من محاربة المسلمين وتفريق كلمتهم وتبديد شملهم وتشتّت نظامهم وسفك دمائهم ونهب أموالهم، لا يقال: إنّ طلحة وازر قاتلي عثمان لما كان محصوراً، فكيف نفى عنه الثلاثة وهذه منها، لأنّا نقول مراده إن كان ظالماً وجب أن يؤازر قاتليه بعد قتله، ولقد قال كما كان يزعم.

ومن خطبة له عليه السلام

[أيّها الغافلون غير المغفول عنهم] خطاب عام لجميع المكلّفين وذلك لانّ اعمالهم محفوظة وافعالهم محصية، وانفاسهم معدودة، واقوالهم مكتوبة، ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾، وقال: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ احصاها﴾، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك احداً﴾.

والتاركون لما المأخوذ منهم ما لي أراكم عن الله ذاهبين وإلى غيره راغبين كأنّكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وبي وشرب دوي إنّما هي كالمعلوفة للمدي لا تعرفُ ماذا يراد بها إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها

[**والتاركون لما**] أمروا به [**المأخوذ منهم**] اي: المنقوص من اعمارهم وقواهم واحبائهم واقاربهم وارحامهم، قال تعالى: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾.

[**ما لي أراكم عن الله ذاهبين**] ملتفتين عن طاعته راغبين في غيره مقبلين على أعدائه مطيعين للشيطان [**وإلى غيره راغبين**] في الدنيا وزينتها [**كأنّكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وبي**] السائم الراعي والوبي محلّ الوبا [**وشرب دوي**] أي: محلّ الداء.

[**إنّما هي كالمعلوفة للمدي**] جمع مدية وهي السكين، ووجه الشبه أنّهم لعنايتهم بلذّات الدنيا من المطاعم والمشارب كالنعم المعتنى بعلفها وكون ذلك التلذّذ غايته الموت لشبه غاية المعلوفة وهي الذبح وكونهم غافلين عن غاية الموت وما يراد بهم يشبه غفلة النعم عن غايتها من الذبح وكونهم يظنون انّ الإحسان إليهم ببسط اللّذات الدنيوية في بعض الأوقات دائم في جميع أوقاتهم وانّ سعيهم في هذه الحياة الدنيا وريهم هو غايتهم التي خلقوا لاجلها، وتمام أمرهم يشبه غفلة النعم في حال حضور علفها في بعض الأوقات عمّا بعده من الأوقات، ولذا قال عليه السلام:

[**لا تعرفُ ماذا يراد بها إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها**] اي: تظنّ انّ ذلك العلف والإطعام كما هو حاصل لها ذلك اليوم يكون حاصلاً لها

وشبعها أمرها والله لو شئت أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجمع شأنه لفعلت وأُنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله ألا وإنّي مفضيه إلى الخاصّة ممن يؤمن ذلك منه والذي بعثه بالحقّ واصطفاه على الخلق ما أنطقُ إلّا صادقاً ولقد عهد ذلك كلّه وبمهلك من يهلك ومنجا من ينجو ومال هذا الأمر

أبداً [**وشبعها أمرها**] أي: تظنّ أنّه ليس أمرها وشأنها إلّا أن يطعمها أربابها لتشبع وتحسن وتسمن ليس يريدون بها غير ذلك.

ثمّ شرع عليه السلام إلى فنٍّ آخر فقال: [**والله لو شئت أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه**] أي: مدخله [**وجمع شأنه**] من مطعمه ومشربه وما عزم عليه من أفعاله ومأكله وما ادّخره في بيته وغير ذلك من شؤونه وأحواله [**لفعلت**] كما قال المسيح عليه السلام.

[**وأُنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله**] صلّى الله عليه وآله، فتفضّلوني عليه بل أخاف عليكم أن تدّعوا بي الإلهيّة كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح عليه السلام لما أخبرهم بتلك الأمور الغائبة.

ثمّ قال عليه السلام: [**ألا وإنّي مفضيه إلى الخاصّة**] أي: أهل العلم والثبات من أصحابه، [**ممن يؤمن ذلك**] الكفر [**منه**]، وهكذا شأن العلماء وأساطين الحكمة ورأيهم أن لا يضعوا العلم في غير أهله.

ثمّ قال عليه السلام: [**والذي بعثه بالحقّ واصطفاه على الخلق ما أنطقُ إلّا صادقاً ولقد عهد**] رسول الله صلى الله عليه وآله [**ذلك كلّه وبمهلك من يهلك**] من الصحابة وغيرهم من الناس [**ومنجا**] ونجاة [**من ينجو**] منهم [**ومال هذا الأمر**] يعني ما

وما أبقى شيئاً يمرّ على راسي إلاّ أفرغه في أذني وأفضى به إليّ أيّها الناس! إنّي والله ما أحثّكم على طاعة إلاّ وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلاّ وأتناهى قبلكم عنها

يفضي إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة [**وما أبقى شيئاً يمرّ على رأسي إلاّ أفرغه في أذني وأفضى به إليّ**] وقد أخبر عليه السلام بأمور من المغيّبات لا تحصى ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه وهو يخطب على المنبر ويقول: «سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلاّ انبأتكم بناعقها وسائقها، ولو شئت لأخبرت كلّ واحد منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه»، فقال له: فكم في رأسي طاقة شعر؟ فقال عليه السلام: أما والله إنّي لأعلم ذلك، ولكن أين برهانه لو أخبرتك به؟ ولقد أُخبرتُ بقيامك ومقالك وقيل لي إنّ على كلّ شعرة من رأسك ملكاً يلعنك وشيطاناً يستفزّك وآية ذلك أنّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أو يحضّ على قتله، فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام، كان ابنه الحصين طفلاً صغيراً رضيعاً، ثمّ عاش إلى أن صار على شرطة عبيدالله بن زياد وأخرجه إلى ابن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعّده إن تراخى عن ذلك فقتل عليه السلام في صبيحة اليوم الذي ورد الحصين بالرسالة في ليلته.

ومن ذلك قوله عليه السلام للبرّاء بن عازب يوماً: يا برّاء! أيقتل الحسين عليه السلام وأنت حيّ فلا تنصره؟! فقال البرّاء لا كان ذلك يا أمير المؤمنين، فلمّا قُتل الحسين عليه السلام كان البراء يذكر ذلك ويقول: اعظم بها حسرة إذ لم أشهده وأُقتل دونه.

[**أيّها الناس! إنّي والله ما أحثّكم على طاعة إلاّ وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلاّ وأتناهى قبلكم عنها**] وهو الصادق المصدّق فيما قال،

انتفعوا ببيان الله واتعظوا بمواعظ الله واقبلوا نصيحة الله فإنّ الله تعالى قد أعذر إليكم بالجلية واتخذ عليكم الحجّة وبيّن لكم محابّه من الاعمال

والغرض التنبيه على انّ الواعظ لابدّ ان يكون متّعظاً والآمر بالمعروف ينبغي ان يكون مؤتمراً به والناهي عن المنكر منتهياً عنه حتّى لا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾، وقوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾.

ومن خطبة له ﷺ في الوعظ والتذكير

[**انتفعوا ببيان الله**] اي: ما بيّنه في كتابه على لسان رسوله ﷺ من المواعظ والنصائح والحكم، [**واتعظوا بمواعظ الله**] فاتمروا بأوامره وانزجروا عن مناهيه [**واقبلوا نصيحة الله**] فيما لأجله خلقتم، وإنّما كرّر لفظ الجلالة صريحاً دون الضمير للتعظيم.

ثمّ اشار إلى وجه وجوب الامتثال عليهم فقال: [**فإنّ الله تعالى قد أعذر إليكم بالجلية**] اي: اوضح عذره في عقابكم إذا خالفتم أوامره، والجلية: اليقين، وإنّما اعذر إليهم بذلك لأنّه مكّنهم من العلم اليقيني بتوحيده وعدله واوجب عليهم ذلك في عقولهم فإذا تركوه ساغ له في الحكمة تغذيتهم وعقوبتهم فكان قد ابان لهم عذره ان لو قالوا لِمَ تعاقبنا، ولذا قال [**واتخذ عليكم الحجّة**] بإرسال الرسل ونصب الحجج ﴿لئلاّ تقولوا لولا ارسلت إلينا رسولاً﴾ او تقولوا ﴿إنّا كنا عن هذا غافلين﴾.

[**وبيّن لكم محابّه من الأعمال**] اي: الطاعات والصالحات التي يحبّها

ومكارهه منها لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يقول إنّ الجنّة حُفّت بالمكاره وإنّ النار حفّت بالشهوات اعلموا أنّه ما من طاعة اللّه شيء إلاّ ياتي في ذكره وما من معصية اللّه شيء إلاّ ياتي في شهوة فرحم اللّه رجلاً نزع عن شهوته وقمع هوى نفسه فإنّها أبعد شيء منزعاً وإنّها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى واعلموا عباد اللّه إنّ المؤمن

ويريدها، **[ومكارهه منها]** أي: من المحرّمات والأعمال القبائح التي يكرهها، **[لتتبعوا هذه]** أي: المحاب **[وتجتنبوا هذه]** أي: المكاره.

[فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يقول إنّ الجنّة حُفّت بالمكاره وإنّ النار حفّت بالشهوات] نبّه عليه السلام على ما في الطاعة وامتثال التكليف من الشدّة والمكروه، ولم ينبّه على الشدّة مجرّدة بل قرنها بذكر الجنّة وجعلها محجوبة بها لتحصل الرغبة في الجنّة فيتمّ السعي في قطع تلك الحجب المكروهة وكذا قرن ذكر الشهوات بذكر كونها محفوفة بها النار تنفيراً عنها.

ثمّ قال عليه السلام: **[اعلموا أنّه ما من طاعة اللّه شيء إلاّ ياتي في ذكره وما من معصية اللّه شيء إلاّ ياتي في شهوة]** أي: لا تأتي طاعة إلاّ في كره ولا معصية إلاّ في شهوة وإنّ النفس للقوّة الشهوية أطوع منها للعقل سيّما فيما هو أقرب إليها من اللّذات المحسوسة التي يلحقها العقاب عليها.

ثمّ عقّب ذلك بالدعاء فقال: **[فرحم اللّه رجلاً نزع عن شهوته]** أي: امتنع من الانهماك فيها **[وقمع هوى نفسه]** الأمّارة بالسوء **[فإنّها أبعد شيء منزعاً]** عن اللّه.

ثمّ فسّر منزعها التي ينزع إليه وهي المعصية في هواها وما تميل إليه فقال: **[وإنّها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى واعلموا عباد اللّه إنّ المؤمن**

لا يصبح ولا يمسي إلاّ ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً عليها مستزيداً لها فكونوا كالسابقين قبلكم والماضين أمامكم قوّضوا من الدنيا تقويض الراحل وطووها طيّ المنازل واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ والهادي الذي لا يضلّ والمحدِّث الذي لا يكذب وما جالس أحد هذا القرآن

لايصبح ولا يمسي إلاّ ونفسه ظنون عنده] أي: متهمة وقيل الظنون البئر لايدري فيها ماء أم لا فالمؤمن لا يصبح ولا يمسي إلاّ وهو على حذر من نفسه معتقداً فيها التقصير.

[فلا يزال زارياً] عائباً **[عليها]** مراقباً لأحوالها **[مستزيداً لها]** مؤاخذاً لها بالزيادة في الأعمال الصالحة **[فكونوا كالسابقين قبلكم]** من أكابر الصحابة.

[والماضين أمامكم] إلى الجنّة **[قوّضوا من الدنيا تقويض الراحل]** وتقويض البناء: نقضه **[وطووها طيّ المنازل]** استعار لفظ التقويض والطي لقطعهم علائق الدنيا ورحيلهم إلى الآخرة كما يقوّض الراحل متاعه للسفر ويطوي طريقه.

ثمّ عقّب بذكر القرآن وممادحه ترغيباً في الاقتداء به فقال:

[واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح] لأنّه يرشد إلى وجوه المصالح كما انّ الناصح كذلك ورشّح الاستعارة بقوله **[الذي لا يغشّ والهادي الذي لا يضلّ]** أي: إلى طريق اللّه.

[والمحدِّث الذي لا يكذب] لاشتماله على الأخبار والقصص ولما يحصل منه من الاستفادة كالمحدث الصادق **[وما جالس أحد هذا القرآن]**

إلاّ قام بزيادة ونقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا على لأوائكم فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر باللّه والنفاق والغيّ والضلال

كناية عن مجالسة حملته وقراءته لاستماعه منهم وتدبّره عنهم [**إلاّ قام بزيادة ونقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى**] إذ فيه من الآيات الباهرة والمواعظ الزاجرة والنصايح المبكية والحكم الصحية ما يزيد بصيرة المستبصر من الهدى وينقص من عمى الجهل.

[**واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة**] وفقر وحاجة، أي: ليس بعد نزوله للناس وبيانه الواضح حاجة بالناس إلى بيان حكم في إصلاح معاشهم ومعادهم إذ ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾.

[**ولا لأحد قبل القرآن من غنى**] أي: قبل نزوله لا غنى عنه للنفوس الجاهلية وإذا كان بهذه الصفات [**فاستشفوه من أدوائكم**] أي: من جهلكم.

[**واستعينوا على لأوائكم**] أي: شدائدكم [**فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء**] ثمّ عدّد أكبر أدواء الجهل وأعاد ذكر كونه شفاء منها فقال:

[**وهو الكفر باللّه**] الناشي من عمى القوّة النظريّة من قوى النفس عن معرفة صانعها ومبدعها إلى غاية إنكاره أو اتخاذ إله آخر معه أو الحكم عليه بصفات مخلوقه [**والنفاق**] المستلزم لرذيلة الكذب المقابلة لفضيلة الصدق، ثمّ لرذيلة الغدر المقابلة لفضيلة الوفاء.

[**والغي**] وهو رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة، [**والضلال**] وهو الانحراف عن فضيلة العدل، وفي النبوي: «إنّ القلوب تصدأ كما يصدى

فاسألوا اللّه به وتوجّهوا إليه بحبّه ولا تسألوا به خلقه إنّه ما توجّه العباد إلى اللّه بمثله واعلموا أنّه شافع مشفّع وقائل مصدّق وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه

الحديد، قيل يا رسول اللّه وما جلائها قال قراءة القرآن وذكر الموت»، ومن المعلوم اشتمال القرآن على ذكر الموت [**فاسألوا اللّه به**] قيل: أي: أعدّوا أنفسكم وكمّلوها لاستنزال المطالب من اللّه بما اشتمل عليه القرآن من الكمالات النفسانية.

[**وتوجّهوا إليه بحبّه**] لأنّ من أحبّه استكمل بما فيه فحسن توجّهه إلى اللّه.

[**ولا تسألوا به خلقه**] أي: تجعلوا تعلّمكم له لطلب الرزق به من خلق مثلكم [**إنّه ما توجّه العباد إلى اللّه بمثله**] وذلك لاشتماله على جميع الكمالات النفسانية من العلوم ومكارم الأخلاق والنهي عن جميع الرذائل الموبقة والمعاصي المهلكة.

[**واعلموا أنّه شافع مشفّع**] لما روي أنّه ياتي يوم القيامة في أحسن الصور فيشفع لقارئه والعامل به فيشفّع، وقيل هو استعارة لكون تدبّره والعمل بما فيه ماحياً لما يعرض للنفس من الهيئات الودية من المعاصي وذلك مستلزم لمحو غضب اللّه كما يمحو الشفيع المشفع أثر الذنب عن قلب المشفوع إليه، وذلك سرّ الخبر المرفوع «ما من شفيع من ملك ولا نبي ولا غيرهما افضل من القرآن» وكذا قوله: [**وقائل مصدّق**] لكونه ذا الفاظ إذا نطق بها لا يمكن تكذيبها كالقائل الصادق [**وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه**] تاكيد لما سبق.

ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه فإنّه ينادي مناد يوم القيامة الا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة أمره غير حرثه القرآن فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلّوه على ربّكم واستنصحوه على أنفسكم واتّهموا عليه آرائكم واستغشوا فيه أهوائكم

[**ومن محل به**] يقال محل به إلى السلطان اي: كاده [**القرآن يوم القيامة صدق عليه**] استعارة المحل للقرآن لأنّ لسان حاله شاهد في علم اللّه وحضرة ربوبيّته على من أعرض عنه بعدم اتباعه ومخالفته لما اشتمل عليه وتلك شهادة لا يجوز عليها الكذب والواجب أن يصفق فاشبه الساعي إلى السلطان في حقّ غيره بما يضرّه.

[**فإنّه ينادي مناد يوم القيامة ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة أمره غير حرثه القرآن فكونوا من حرثته وأتباعه**] المراد النداء بلسان الحال والحرث كلّ عمل تطلب به غاية وتستخرج به ثمرة والابتلاء هنا ما يلحق النفس على الأعمال وعواقبها من العذاب بقدر الخروج فيها من طاعة اللّه وظاهر أنّ حرث القرآن والبحث عن مقاصده لغاية الاستكمال به بريء من لواحق العقوبات [**واستدلّوه على ربّكم**] أي: اتخذوه دليلاً قائداً إلى ربّكم.

[**واستنصحوه**] أي: اتخذوه ناصحاً [**على أنفسكم**] الأمّارة بالسوء لكونها هي الغاشّة لكم بقودها إلى معصية اللّه وإذا رأيتم رأياً يخالف القرآن فلا تخالفوه.

[**واتّهموا عليه آرائكم**] فإنّه صادر عن النفس الأمّارة بالسوء.

[**واستغشوا فيه أهوائكم**] وإنّما قال في الآراء اتهموا وفي الأهواء استغشوا لأنّ الهوى هو ميل النفس الأمّارة من غير مراجعة العقل فإذا حكمت النفس من متابعتها بحكم فهو غش صراح وأمّا الرأي فقد يكون

العمل العمل النهاية النهاية الاستقامة الاستقامة ثمّ الصبر الصبر والورع الورع وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم وفي النبوي: «أيّها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإنّ لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم

بمراجعة العقل وقد يكون بدونه فجاز أن يكون حقّاً وجاز أن يكون باطلاً، فكان بالتهمة أولى.

ثمّ أمر عليه السلام بلزوم العمل الصالح، ثمّ بحفظ النهاية المطلوبة منهم بالعمل والوصول إليها منه ومراعاة العاقبة ثمّ بالاستقامة ثمّ بالصبر فقال:

[العمل العمل] نصب على الإغراء، أي: الزموا العمل، وكرّر الاسم لنيابة أحد اللفظين عن الفعل المقدّر، ثمّ **[النهاية النهاية]** أي: راعوا النهاية وعاقبة امركم، فإنّ المدار على العاقبة والأمور بخواتيمها وهي آخر أحوال المكلّف التي يفارق الدنيا عليها إمّا مؤمناً أو كافراً أو فاسقاً.

و**[الاستقامة الاستقامة]** أي: الزموها وهي أداء الفرائض، **[ثمّ الصبر الصبر]** عليها وحقيقته ثبات داعي الدين في مقابلة داعي الهوى، **[والورع الورع]** وهو لزوم الأعمال الجميلة، وإنّما عطف النهاية والصبر بثمّ لتأخّر نهاية العمل عنه وكون الصبر أمراً عدمياً فهو في معنى المتراخي والمنفك عن العمل الذي هو معنى وجودي بخلاف الاستقامة على العمل فإنّها كيفية له والورع فإنّه جزء منه وكرّر تلك الألفاظ للتأكيد والنصب في الجميع على الإغراء.

ثمّ اشار إلى انّ تلك النهاية هي النهاية التي لهم فقال: **[وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم]** وفي النبوي: **«أيّها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإنّ لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم]** فإنّ المراد بالغاية والنهاية أن

وإنّ لكم علماً فاهتدوا بعلمكم وإنّ للإسلام غاية فانتهوا إلى غايته واخرجوا إلى اللّه مما افترض عليكم من حقّه وبيّن لكم من وظائفه أنا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم ألا وإنّ القدر السابق قد وقع والقضاء الماضي قد تورّد

يموت الإنسان على توبة من فعل القبيح والإخلال بالواجب، والمراد بالمعالم حظائر القدس ومنازل الملائكة.

[**وإنّ لكم علماً**] بفتح اللام، يعني نفسه عليه السلام، [**فاهتدوا بعلمكم**] إلى تلك النهاية، [**وإنّ للإسلام غاية فانتهوا إلى غايته**] وهي النهاية المشار إليها من أداء الواجبات واجتناب المحرّمات، كما أشار إليها بقوله:

[**واخرجوا إلى اللّه مما افترض عليكم من حقّه وبيّن لكم من وظائفه**] أي: اخرجوا من حقّه فيما افترض عليكم، وحقّه في فرائضه ووظائفه الإخلاص بها لوجهه.

ثمّ رغّبهم في طاعته واتّباع أوامره بقوله: [**أنا شاهد لكم وحجيج**] أي: محتج [**يوم القيامة عنكم**] لأنّه إذا شهد لهم فكأنّه أثبت الحجّة لهم فكان محاجاً ولأنّ المخاطب عن كلّ قوم والشهيد لهم إمامهم كما قال تعالى: ﴿يوم ندعو كلّ اناس بإمامهم﴾ وقال: ﴿يوم نبعث من كلّ أمّة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم﴾ وكان ذلك الموقف هو موقف السؤال والجواب كأنّ ذلك معنى المحاجّة.

[**ألا وإنّ القدر السابق**] في علم اللّه [**قد وقع والقضاء الماضي**] أي: النافذ [**قد تورّد**] أي: دخل في الوجود شيئاً فشيئاً.

قال ابن أبي الحديد: يشير به إلى خلافته وهذه الخطبة من أوائل

وإنّي متكلّم بعدة اللّه وحجّته قال اللّه جلّ ذكره ﴿الذين قالوا ربّنا اللّه ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون﴾ وقد قلتم ربّنا اللّه فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ولا تمرقوا منها ولا تبتدعوا فيها ولا تخالفوا عنها فإنّ أهل المروءة منقطع بهم عند اللّه يوم القيامة

الخطب التي بُويع بها بعد قتل عثمان وفيها إشارة إلى أنّ رسول اللّه ﷺ قد كان أخبره أنّ الأمر سيفضي إليه في منتهى عمره وعند انقضاء أجله.

[**وإنّي متكلّم بعدة اللّه وحجّته**] أي: لمّا وقع إليّ هذا الأمر فإنّي أتكلّم بما وعد اللّه به عباده الذين اعترفوا بربوبيّته واستقاموا على سلوك سبيله بطاعته من تنزل الملائكة عليهم بذهاب الخوف والحزن والبشارة بالجنّة كما قال:

[**قال اللّه جلّ ذكره ﴿الذين قالوا ربّنا اللّه ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون﴾ وقد قلتم ربّنا اللّه**] أي: اعترفتم بالربوبيّة [**فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته**] الخالصة من الرياء والنفاق [**ولا تمرقوا منها**] أي: تخرجوا فيها بالتحذلق والتشدّد إلى طرف الإفراط الذي هو ثمرة الجهل [**ولا تبتدعوا**] أي: لا تحدثوا [**فيها**] بدعة [**ولا تخالفوا عنها**] وتحيدوا يميناً وشمالاً فتقعوا في مهاوي الهلاك فإنّكم متى فعلتم ذلك فقدتم شرط استحقاقكم لإنجاز عدته المذكورة، إذ الشرط مركّب من الاعتراف بالربوبيّة والاستقامة على الأمور المذكورة ومع فوات جزء لا يقع المشروط فلم يتحقّق الموعود به وهذا معنى قوله:

[**فإنّ أهل المروءة منقطع بهم عند اللّه يوم القيامة**] أي: لا يوجدون

إيّاكم وتهزيع الأخلاق و تصرّفها واجعلوا اللسان واحداً وليختزن الرجل لسانه فإنّ هذا اللّسان جموح بصاحبه وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه

بلاغاً يوصلهم إلى القصد لأنّ ذلك الشرط هو البلاغ إلى المقصد الحقيقي.

ثمّ شرع عليه السلام في النهي عن النفاق فقال [**إيّاكم وتهزيع الأخلاق**] أي: تغيّرها ونقلها من حال إلى حال [و] هو معنى [**تصرّفها**] وذلك هو النفاق، إذ المنافق لا يلزم خلقاً واحداً، بل تارة يكون صادقاً وتارة كاذباً وتارةً وفياً وأخرى غادراً ومع الظالمين ظالم ومع أهل العدل عادل، ولذا قال: [**واجعلوا اللسان واحداً**] أي: لا يكوننّ أحدكم منافقاً ذالسانين.

[**وليختزن الرجل لسانه**] أي: ليحبسه عن فضول الكلام ووضعه في غير موضعه والغيبة والنميمة والسعاية والمسابّة والقذف ونحوها من آفات اللّسان [**فإنّ هذا اللّسان جموح بصاحبه**] تعليل لما سبق وإشارة إلى أنّه يخرج بصاحبه عن فضيلة العدل إلى الرذائل التي هي موارد الهلكة في الآخرة والدنيا كما أنّ الفرس الجموح يخرج بصاحبه إلى الهلاك [واللّه ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتّى يخزن لسانهخ لأنّ آفات اللّسان من أعظم المعاصي والتقوى هي المواظبة على الطاعات وترك المعاصي.

ثمّ نبّه على ما ينبغي عند إرادة القول من التثبّت وعلى مراجعة الفكر في القول فقال: [**وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه**] لأنّ لسانه تابع لقلبه فلا ينطق إلاّ بقدر تقديم الفكر فيما ينبغي أن يقوله [**وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه**] لأنّ قلبه وفكره متأخّر عن نطقه فالوراء استعارة من المعنى المحسوس للمعقول.

لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شرّاً واراه وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ما ذاك وماذا عليه وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه فمن استطاع منكم أن يلقى اللّه تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم

ثمّ أبان ﷺ هذا المعنى معلّلاً له بقوله: **[لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شرّاً واراه وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ما ذاك وماذا عليه وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه]** استشهد ﷺ بالخبر النبوي على أنّ الإيمان لا يتمّ إلّا باستقامة اللّسان على الحقّ وخزنه عن الرذائل وذلك عين ما ادّعاه في قوله إنّ التقوى لا تنفع العبد حتّى يخزن لسانه، وبرهان الخبر أنّ استقامة القلب عبارة عن التصديق باللّه ورسوله واعتقاد حقيقة ما وردت به الشريعة من الأوامر والنواهي وذلك عين الإيمان وحقيقته، فإذاً لا يستقيم الإيمان حتّى يستقيم القلب ووجه توقّف استقامة القلب على الإقرار بالشهادتين ولوازمها وعلى الإمساك عمّا لا ينبغي من الأمور المعدودة من لوازم استقامة القلب لأنّه يحكم شرعاً على من لم يقرّ بالأمور المذكورة بعدم الإيمان الكامل ولا يستقيم من دون لازمه.

[فمن استطاع منكم أن يلقى اللّه تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين] أي: من قتل النفس التي حرّم اللّه إلّا بالحقّ **[وأموالهم]** أي: من

سليم اللّسان من أعراضهم فليفعل واعملوا عباد اللّه إنّ المؤمن يستحلّ العام ما استحلّ عاماً أوّل ويحرّم العام ما حرّم عاماً أوّل وإنّ ما أحدث الناس لا يحلّ لكم شيئاً ممّا حُرّم عليكم ولكن الحلال ما أحلّ اللّه والحرام ما حرّم اللّه فقد جرّبتم الأمور وضرّستموها

ظلم أحد منهم [**سليم اللّسان من أعراضهم**] بأن يكفّ عن غيبتهم وسبّهم [**فليفعل**] وإنّما علّقه بالاستطاعة لعسره وشدّته وإن كان واجب الترك على كلّ حال سيّما الكفّ عن الغيبة فإنّه كاد أن يكون متعذّراً أو متعسّراً في هذه الأزمنة وإلى ذلك أشير في الحديث النبوي: «إنّما المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه» فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ومن يده سلامة دمائهم وأموالهم وفي آخر: «من كفى شرّ قبقبه وزبزبه ولقلقه دخل الجنة» والقبق البطن، والزبزب: الفرج، واللقلق: اللسان، وقال بعض الحكماء: من علم أنّ لسانه جارحة من جوارحه أقلّ من أعمالها واستقبح إدامة تحريكها كما يستقبح أن يحرّك رأسه أو منكبه دائماً».

[**واعملوا عباد اللّه إنّ المؤمن يستحلّ العام ما استحلّ عاماً أوّل ويحرّم العام ما حرّم عاماً أوّل وإنّ ما أحدث الناس**] من البدع والمقاييس والأخذ بالرأي والاستحسان والعمل بالظن والتخمين [**لا يحلّ لكم شيئاً ممّا حُرّم عليكم ولكن الحلال ما أحلّ اللّه والحرام ما حرّم اللّه**] والمراد الاقتصار على الكتاب والسنّة فإنّ الخروج عنهما يفضي إلى الاختلاف في الدين وهذا مرادف للنبوي المتواتر: «إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي».

وقوله: [**فقد جرّبتم الأمور وضرّستموها**] بالتشديد أي: احكمتموها

ووعظتم بمن كان قبلكم وضربت الأمثال لكم ودعيم إلى الأمر الواضح فلا يصمّ عن ذلك إلاّ أصمّ ولا يعمى عنه إلاّ أعمى ومن لم ينفعه اللّه بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة

تجربة وممارسة [**ووعظتم بمن كان قبلكم**] من الأمم الماضية والقرون الخالية [**وضربت الأمثال لكم ودعيم إلى الأمر الواضح**] وهو الدِّين وطرائقه [**فلا يصمّ عن ذلك إلاّ أصمّ ولا يعمى عنه إلاّ أعمى**] أي: من هو حقيق ان يقال له أصم وأعمى، وهذا الكلام إشارة إلى وجوه العلم وماخذه ووجه اتصاله بما قبله أنّهم إذا كانوا قد أحكموا الأمر تجربة وعظوا بمن كان قبلهم ضربت لهم الأمثال ودعوا إلى الأمر الواضح فلابدّ أن تكون نفوسهم قد استعدّت بذلك لعلم الأحكام الشرعيّة ومقاصدها من الكتاب والسنّة وعادات الرسولﷺ والصحابة فلا يخفى عليهم ما ابتدع بعدها وأنّ كلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلاة سبيلها في النار، فضلاً أن ترفع حكم نصّ أو سنّة سبق العلم بها ولا يصمّ عن هذه المواعظ والأمثال والدعوة إلى الدِّين إلاّ أصمّ أو أعمى.

ثمّ لمّا كان الإنسان في مبدء الفطرة خالياً من العلوم وإنّما خلقت له هذه الآلات البدنية ليتصفّح بها صور المحسوسات ومعانيها ويتنبّه لمشاركات بينها ومباينات فتحصل له التجربة وسائر العلوم الضرورية والمكتسبة.

قال ﷺ: [**ومن لم ينفعه اللّه بالبلاء**] أي: بامتحان الأمور [**والتجارب**] أي: اعتبارها والتفكّر فيها والابتلاء بها كالوقوع في المكاره ومقاساة الشدائد ولم يستفد منها علماً [**لم ينتفع بشيء من العظة**] لأنّ العظة فرع تصفح الأمور واعتبارايات اللّه منها ومحال ان يجعل فرع من دون اصله.

وأتاه النقص من أمامه حتّى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف وإنّما الناس رجلان متبع شرعة ومبتدع بدعة ليس معه من اللّه برهان سُنَّة ولا ضياء حجّة فإنّ اللّه سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن فإنّه حبل اللّه المتين

[وأتاه النقص من أمامه] أي: من بين يديه **[حتّى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف]** أي: يتخيّل ما انكره انّه قد عرفه وينكر ما كان عارفاً به أو يأتيه النقص في كمال نفسه ووجوه مصالحه ويحتمل أن لا يريد بالعظة الاتعاظ بل الموعظة، وظاهر أنّ الموعظة أيضاً لا تنفعه لأنّ البلاء بالمكاره والوقائع النازلة أقوى فعلاً في النفس وأكثر تأثيراً، فإذا لم ينتفع بها ولم يستفد منها علماً فبالأولى أن لا ينتفع بالموعظة وإنّما قال من أمامه لأنّ الكمالات التي يتوجّه إليها بوجه عقله تفوته لنقصان تجربته ووقوف عقله عنها، فأشبه فوته له مع طلبه لها إتيان النقصان له من أمامه، ثمّ لغاية نقصانه تختلط عليه الأمور ويحكم على غير بصيرة، فتارةً يتخيّل فيما أنكره وجهله أنّه عارف بحقيقته وتارة ينكر ما كان يعرفه ويحكم بصحّته لحال تطرأ عليه **[وإنّما الناس رجلان]** أي: قسمان قسم منهم **[متبع شرعة]** أي: طريقة ومنهاجاً وهو منهاج الدين وقسم **[ومبتدع بدعة ليس معه من اللّه برهان سُنَّة]** يعتمد عليه **[ولا ضياء حجّة]** يقوده في ظلمات الجهل ليلحقوا بافضل القسمين.

[فإنّ اللّه سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن فإنّه حبل اللّه المتين] الذي من تمسّك به نجى من مهاوي الهلكة والضلال كما ينجي الحبل من تعلّق به، وكنّى بمتانته عن قوّته وأنّه لا انقطاع له أبداً، ومتن الشيء بالضمّك صلب وقوي.

وسبب الأمين وفيه ربيع القلب وينابيع العلم وما للقلب جلاء غيره مع أنّه قد ذهب المتذكّرون وبقي الناسون أو المتناسون فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه وإذا رأيتم شرافاً ذهبوا عنه فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه

[**وسبب الأمين**] هو مثل حبله المتين وخالف بين اللّفظين على قاعدة الخطابة [**وفيه ربيع القلب**] لأنّ القلوب تحيى به كما تحيى الأنعام بالربيع [**وينابيع العلم**] لأنّ العلوم منه تتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول [**وما للقلب جلاء**] بالكسر مصدر جلوت السيف [**غيره**] أي: لا جلاء لصداء القلوب من المشبهات والفضلات والجهالات غيره وإنّما حصر الجلاء به مع أنّ سائر العلوم جلاء له أيضاً لأنّ العلوم الجالية للقلب هي المعدّة لسلوك سبيل اللّه والوصول إلى الغاية من الكمال النفساني كالعلوم الإلهية وعلم الأخلاق وأحوال المعارف لا علم منها إلاّ وفي القرآن أصله ومادّته ولأنّ وقت صدور هذاالكلام منه ﷺ لم يكن في الإسلام علم مدوّن غير القرآن.

[**مع أنّه قد ذهب المتذكّرون**] أي: المتدبّرون لمقاصد القرآن [**وبقي الناسون**] له [**أو المتناسون**] المتعمّدون للتشاغل والنسيان لما يوصل إلى رضوان اللّه ونعيمه الذين عندهم العلوم ويكلّفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم ويروى المتناسون بالواو وهذا في معنى التوبيخ لهم.

[**فإذا رأيتم خيراً فاعينوا عليه**] بتحسينه عند فاعله وبدفع الأمور المانعة عنه وبتسهيل أسبابه [**وإذا رأيتم شرافاً ذهبوا عنه**] لا تقاربوه ولا تقيموا انفسكم مقام الراضي به الموافق على فعله [**فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه**

وآله كان يقول يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشرّ فإذا أنت جواد قاصد ألاّ وإنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب، فأمّا الظلم الذي لا يغفر فالشرك باللّه، قال اللّه تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به﴾ وأمّا الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهيئات

وآله كان يقول يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشرّ فإذا أنت جواد قاصد] لأنّ العامل للخير المنتهي عن الشرّ مستقيم على طريق اللّه لا اعوجاج في طريقه فيكون سيره في سلوك سبيل اللّه اسرع سير كالجواد من الخيل المستقيم على الطريق **[ألاّ وإنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر وظلم لا يترك]** فاعله بل يطالبه به لا محالة.

[وظلم مغفور لا يطلب، فأمّا الظلم الذي لا يغفر فالشرك باللّه، قال اللّه تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به﴾] ويغفر ما دون ذلك، قيل وبرهانه العقلي أنّ المغفرة عبارة عن محو آثار الجرائم من ألواح النفوس أو عمّا يلزم ذلك من ستر اللّه على النفوس أن تحترق بنار جهنم، والهيئات البدنية التي حجبت نفوس المشركين عن معرفة اللّه هيئات متمكّنة من تلك النفوس وقد صارت ملكات راسخة لا يمكن زوالها مع عدم مسكتهم بالمعارف الإلهية فهم في العذاب ماكثون وفي سلاسل تلك الهيئات وأغلال تلك الملكات الرذيلة مكبّلون فإذاً لا تتحقّق المغفرة في حقّهم لعدم تخلّصهم منهم وانتفاء الجاذب عنها.

[وأمّا الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهيئات] وارتكاب بعض صغائر الزلات وهي التي لا تكسب النفس هيئة ردية باقية بل حالة يسرع زوالها وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على

وأمّا الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص هناك شديد ليس هو جرحاً بالمدي ولا ضرباً بالسياط ولكنّه ما يستصغر ذلك معه وإيّاكم والتلوّن في دين اللّه فإنّ جماعة فيما تكرهون من الحقّ خير من الفرقة فيما تحبّون من الباطل

ظلمهم﴾ أي: في حال كونهم ظالمين.

[**وأمّا الظلم الذي لا يترك**] أي: لابدّ من أخذ فاعله بالعقوبة والقصاص به.

[**فظلم العباد بعضهم بعضاً**] وإليه الإشارة في الخبر: يوم يقتصّ للجماء من القرناء وهذا الظالم إن كانت له مسكة ببعض عصم النجاة من المعارف الإلهية وجب خلاصه من العذاب بعد حين لكن يتفاوت مكثه بحسب تفاوت شدّة تمكّن تلك الهيئات الرديّة من نفسه وضعفها وفي الخبر النبوي: «يخرجون من النار بعد ما يصيرون حمماً وفحماً».

ثمّ أخذ ﷺ في التحذير من الظلم بذكر شدّة القصاص في الآخرة بقوله: [**القصاص هناك**] اي: في الآخرة [**شديد ليس هو جرحاً بالمدي**] جمع مدية وهي السكّين، بان يذوق الإنسان الم الحديد [**ولا ضرباً بالسياط**] كما تعهده الناس من عذاب الدنيا.

[**ولكنّه ما يستصغر ذلك معه**] ولا يعبّر النطق عن كنهه وشدّة نكاله والمه وكلّما تصورّتموه فهو أعظم وأعظم.

[**وإيّاكم والتلوّن في دين اللّه**] كنّى به عن منافقة بعضهم لبعض فإنّ ذلك يستلزم الفرقة ولذا قال: [**فإنّ جماعة فيما تكرهون من الحقّ خير من الفرقة فيما تحبّون من الباطل**] اي: الاجتماع على الحقّ المكروه إليكم

إنّ اللّه سبحانه لم يعط أحداً بِفرقة خيراً ممن مضى ولا ممن بقي يا أيّها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعة ربّه وبكى على خطأه فكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة

كالحرب مثلاً، خير لكم من الافتراق والباطل المحبوب عندكم كمتاع الدنيا.

[**إنّ اللّه سبحانه لم يعط أحداً بفرقة خيراً ممن مضى ولا ممن بقي**] اي: لم يعط أحداً بالفرقة خيراً لا من الماضين ولا من الباقين إذ الخير في الاجتماع والالفة والمحبّة حتّى يصير الناس كرحل واحد ويتمّ نظام العالم بذلك وفي الفرقة أضداد ذلك، ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه».

[**يا أيّها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**] فزنّ كلّ احد لا يخلو من عيب بالنسبة إلى حاله إذ جلّ من لا عيب فيه وعلا، فليشتغل به عن غيبة الناس وذكر عيوبهم، وطوبى: فعلى من الطيب والواو منقلبة عن الياء، وقيل هي اسم شجرة في الجنّة وعلى التقديرين فهي مبتدأ والخبر لمن.

[**وطوبى لمن لزم بيته**] للاشتغال بطاعة اللّه [**وأكل قوته**] المقدّر له ولم يزد على قدر الضرورة [**واشتغل بطاعة ربّه وبكى على خطأه فكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة**] ويستفاد منه أفضليّة العزلة على المخالطة كما يستفاد من كثير من الاخبار والآثار ويعضده الاعتبار فإنّ اكثر الآفات والمهلكات إنّما تنشا من المخالطة كالكذب والغيبة والنميمة والنفاق والرياء والسمعة والحسد والشحناء والبغضاء والجدال والمراء والخصومة وقول الزور وشهادة الزور ونحو ذلك مما لا يحصى.

....

وفي النبوي: «ليسعك بيتك امسك عليك دينك وابك على خطيئتك، قيل له ﷺ أيُّ الناس أفضل؟ فقال: رجل متنزل في شعب من الشعار يعبد ربّه ويدع الناس من شرّه» وعنه ﷺ: «إنّ اللّه يحبّ التقي النقي الخفي» وذهب جماعة إلى ترجيح المخالطة لما فيها من الإفادة والاستفادة والتعليم والتعلّم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة شعائر الدين ولقوله تعالى: ﴿والّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخواناً﴾ وقوله تعالى: ﴿ولاتكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا﴾ ولما دلّ على الأمر بالجماعة والاجتماع وطلب العلم والتجارة والكسب وتحصيل الحلال وعيادة المرضى وزيارة الاخوان وتشييع الجنائز وإطعام الطعام وإنشاء السلام والجهاد والاختلاف إلى المساجد وإلى الاخوان وغير ذلك.

والحقّ التفصيل بالنسبة إلى الأزمنة والأشخاص والأحوال كما نبّهنا على ذلك في جملة من مؤلّفاتنا، فالعزلة لا تصلح إلاّ بعد العلم والمعرفة والزهد كما تنبىء عنه عينها وزائها فالعزلة بدون عين العلم زلّة وبدون زاء الزهد علّة وبدون لام الجهل عزّة إذ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ولا يسع الناس البقاء على الجهالة ثمّ إن كان هذا العالم العارف قويّ النفس قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإفادة والتعليم والإرشاد فالأولى بحاله المخالطة حتّى ينتفع الناس منه وإن كان ضعيف النفس مستضعفاً يرى المنكر فلا ينكره فالأولى بحاله العزلة ثمّ إنّ العزلة إنّما تصحّ عن أهل الدنيا لا عن أهل الآخرة الذين يذكّرونه اللّه.

في معنى الحكمين فأجمع رأي ملائكم على أن اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أن يعجعجا عند القرآن ولا يجاوزاه وتكون ألسنتهما وقلوبهما تبعه فتاها وتركا الحقّ وهما يبصرانه وكان الجور أي: الروج عن فضيلة العدل بحبّ الهوى إلى رذيلة الجور حهواهما والاعوجاج دائهما وقد سبق استثنائنا عليهما سوء رأيهما وجور حكمهما والثقة في أيدينا

ومن كلام له ﷺ

[**في معنى الحكمين**] بعد ما بلغه أمرهما [**فأجمع رأي ملائكم**] والإجماع تصميم العزم والملأ الجماعة الأشراف الذين يملأون الصدر أو النظر [**على أن اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أن يعجعجا عند القرآن**] أي: يحبّان أنفسهما عليه أي: أخذنا عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في القرآن [**ولا يجاوزاه وتكون ألسنتهما وقلوبهما تبعه**] والرجلان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص والمراد بالقلوب الميول الإرادية مجازاً إطلاق السبب على المسبب كما قال فقد صغت قلوبكما وذلك هو شرط رضاه ﷺ بالتحكيم.

[**فتاها**] عنه أي: عدلا [**وتركا الحقّ وهما يبصرانه**] أي: على علم منهما به [**وكان الجور**] أي: **الروج عن فضيلة العدل بحبّ الهوى إلى رذيلة الجور حهواهما والاعوجاج**] عن الحق [**دائهما**] أي: عادتهما [**وقد سبق استثنائنا عليهما**] في الحكم بالعدل والعمل بالحقّ [**سوء رأيهما وجور حكمهما**] بالنصب، مفعول سبق والفاعل استثنائنا وقوله [**والثقة في أيدينا**

لأنفسنا حين خالفا سبيل الحقّ وأتيا بما لا يُعرف من معكوس الحكم لا يشغله شأن عن شأن ولا يغيّره زمان ولا يحويه مكان ولا يصفه لسان ولا يعزب عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ولا سوافي الريح في الهواء

لأنفسنا] أي: إنّا على برهان وثقة من أمرنا وليس ملازم لنا حكمهما **[حين خالفا سبيل الحقّ]** الذي أخذ عليهما ان لا يتجاوزاه **[وأتيا بما لا يُعرف من معكوس الحكم]** بأن حكما بالباطل وخالفا الكتاب والسنّة كما مرّ شرح ذلك.

ومن خطبة له ﷺ

[لا يشغله شأن عن شأن] لأنّ المنشغل بشيء عن شيء إمّا لقصور في القدرة أو في العلم وهو الذي أحاط بكلّ شيء قدرةً وعلماً، فإذاً لا يشغله مقدوره عن مقدور ولا معلوم عن معلوم.

[ولا يغيّره زمان] إذ هو تعالى خالقه ولا زمان يلحقه فلا تغيير يلحقه بتغيّره ولأنّه واجب الوجود ولا شيء من المتغيّر في ذاته وصفاته بواجب الوجود فلا شيء منه يلحقه التغيّر.

[ولا يحويه مكان] لبرائته عن الجسميّة ولواحقها وكلّما كان كذلك فهو بريء عن المكان ولواحقه فهو بريء من المكان ولواحقه.

[ولا يصفه لسان] لتنزّهه عن أنحاء التراكيب فمحال أن تدرك العقول كنهه فضلاً عن اللّسان المعبّر عنها **[ولا يعزب]** أي: لا يغيب **[عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ولا سوافي الريح]** أي: التي تسفي التراب **[في الهواء]**

ولا دبيب النمل على الصفا ولا مقيل الذرّة في اللّيلة الظلماء يعلم مساقط الاوراق وخفي طرف الاحداق وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه غير معدول به ولا مشكوك فيه ولا مكفور دينه

أي: تذريه [**ولا دبيب النمل على الصفا**] بالقصر أي: الصخر الأملس [**ولامقيل الذرّة**] أي: محلّ قيلولتها والذرّ صغار النمل [**في اللّيلة الظلماء يعلم مساقط الأوراق**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها﴾.

[**وخفي طرف الاحداق**] جمع حدقة والطرف مصدر طرف البصر يطرف طرفاً إذا انطبق أحد الجفنين على الآخر ولكونه مصدر وقع على الجماعة كما يقع على الواحد والمراد بذلك إحاطة علمه المقدّس بكلّيات الأمور وجزئيّاتها، قال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين﴾ وكما يمتنع معرفة كنه ذاته كذا يمتنع معرفة كنه علمه لأنّه عين ذاته وغاية ما علمنا انّه شيئاً ولا يخفى عليه شيء.

[**وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه غير معدول به**] أي: لا عديل له ولا مثيل [**ولا مشكوك فيه**] أي: في وجوده بل العيان يغني عن البيان والوجدان يكفي عن الشاهد والبرهان، وكيف يشكّ في وجوده وإنّما استبان وجود الأشياء به كما أشير إليه بقوله: ﴿اللّه نور السموات والأرض﴾ إذ النور هو الذي به تدرك الأشياء.

[**ولا مكفور دينه**] لأنّ جحود دينه يستلزم النقصان في معرفته، فكان

ولا مجحود تكوينه شهادة من صدقت نيّته وصفت دخلته وخلص يقينه وثقلت موازينه وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله المجتبى من خلائقه والمعتام لشرح حقائقه والمختصّ بعقائل كراماته والمصطفى لمكارم رسالاته والموضحة به أشراط الهدى

الاعتراف به كمالاً لمعرفته وللشهادة بوحدانيته.

[**ولا مجحود تكوينه**] أي: إيجاده للموجودات وكونه ربّاً لها، ثمّ عقّب وصف المشهود له حال تلك الشهادة بأوصاف الشاهد لها باعتبار شهادته فقال:

[**شهادة من صدقت نيّته**] في تلك الشهادة، أي: باعتقاد جازم [**وصفت دخلته**] بكسر الدال أي: باطن أمره، أي: نقي الباطن من الرياء والنفاق.

[**وخلص يقينه**] بوجود المشهود له وكمال وحدانيّته من الشكوك والشبهات فيه [**وثقلت موازينه**] بكمال تلك الشهادة والقيام بحقوقها من سائر الأعمال الصالحة [**وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله المجتبى**] أي: المختار [**من خلائقه والمعتام**] أي: المختار [**لشرح حقائقه**] أي: لإيضاح ما خفي من الحقائق الإلهيّة والشرعيّة التي يثبتها للناس بقدر القابليّة [**والمختصّ بعقائل كراماته**] أي: نفائسها، وعقائل الشيء: نفائسه، وهي الكمالات النفسانية من العلوم ومكارم الأخلاق التي اقتدر معها على تكميل الناقصين.

[**والمصطفى لمكارم رسالاته**] أي: لرسالاته الكريمة وتعديدها باعتبار تعداد نزول الأوامر عليه فإنّ كلّ أمر أمر بتبليغه إلى الحقّ رسالة كريمة [**والموضحة به أشراط الهدى**] أي: أعلامها وهي قوانين الشريعة ودلالات

والمجلوّ به غرابيب العمى أيّها الناس! إنّ الدنيا ثغر المؤمّل لها والمخلد إليها ولا تنفّس بمن نافس فيها وتغلب من غلب عليها وايم اللّه ما كان قوم قط في غضّ نعمة ناضرة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها

الكتاب والسنّة **[والمجلوّ به غرابيب العمى]** الغربيب: الأسود الشديد، واستعاره لشدّة ظلمة الجهل ولفظ الجلاء لزوال تلك الظلم بأنوار النبوّة.

ثمّ التفت عليه السلام إلى وعظهم وزجرهم بالتنفير عن الدنيا فقال:

[أيّها الناس! إنّ الدنيا ثغر المؤمّل لها والمخلد] اي: الراكن **[إليها]** المسلّم لها أموره، لأنّ المؤمّل لبعض مطالبها لايزال يتحدّد له أمارات خيالية على مطالب وهميّة وأنّها ممكنة التحصيل نافعة فتوجب له مدّ الأمل، وقد يخترم دون بلوغها.

[ولا تنفّس بمن نافس فيها] اي: لا تضنّ ولا تبخل على من بخل بها، بل تسمح به للمهالك وتجعله اهون هالك.

[وتغلب من غلب عليها] اي: من ملكها واخذها بالغلبة فعن قريب تقهره وتهلكه.

[وايم اللّه ما كان قوم قط في غضّ نعمة] اي: في نعمة غضّة طرية.

[ناضرة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها] اي: اكتسبوها؛ لأنّ كثيراً من الذنوب معدّة لزوال النعم، وبعضها لنزول النقم؛ لأنّهم لو استحقّوا إفاضة النعم مع الذنوب لكان منعهم إياها منعاً للمستحقّ المستعد، وذلك عين الظلم كما قال تعالى: ﴿وما ربّك بظلاّم للعبيد﴾ وإلى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾

ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربّهم بصدق من نيّاتهم ووله من قلوبهم لردّ عليهم كلّ شارد وأصلح لهم كلّ فاسد وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة وقد كانت أمور مضت ملتم فيها ميلة كنتم عندي غير محمودين ولئنّ ردّ عليكم أمركم إنّكم لسعداء وما عليّ إلا الجهد ولو أشاء أن أقول

أي: يستعدّوا للتغيير ــــــ بالمعاصي.

[**ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربّهم بصدق من نيّاتهم ووله من قلوبهم**] والوله كالتحيّر يحدث عن الخوف أو الوجد.

[**لردّ عليهم كلّ شارد**] أي: ذاهب من النعم.

[**وأصلح لهم كلّ فاسد**] من سائر الأحوال.

والحاصل انّ الانقطاع إلى اللّه تعالى ــــــ كل خير ويدفع كلّ سوء.

[**وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة**] كناية عن الجاهلية إطلاقاً للظرف، وعلى المظروف أي: اخشى أن تكون احوالكم احوال الجاهلية في التعصّبات الباطلة بحسب الأهواء المختلفة.

[**وقد كانت أمور مضت**] كناية عن الاستيلاء على حقّه في غصب مقامه [**ملتم فيها ميلة كنتم عندي غير محمودين ولئنّ ردّ عليكم أمركم**] أي: إصلاح احوالكم واستقامة سيرتكم التي كنتم عليها في زمن النبيﷺ [**إنّكم لسعداء**] عند اللّه وفي الدنيا والآخرة.

[**وما عليّ إلا الجهد**] ي عود ذلك الأمر عليكم.

[**ولو أشاء أن أقول**] لكلّ امرئ بما له وما عليه وأبيّن حقائق أمور قوم

لقلت عفى اللّه عمّا سلف هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفاعبدُ ما لا أرى! فقال: وكيف تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الاشياء غير ملامس بعيدٌ منها غير مباين متكلّم بلا روية

واذكر معانيهم **[لقلت]** ولكني لا اقول فلم اكن مريداً للقول.

[عفى اللّه عمّا سلف] اقتباس من القرآن، إشارة إلى مسامحته لهم.

ومن كلام له عليه السلام

قال لذعلب اليماني وقد سئل **[هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفاعبدُ ما لا أرى!]** وفي رواية أُخرى: ويحك كيف اعبد ربّاً لم اره، استفهام إنكاري لعباده ما لا يدرك، وفيه ردّ على السائل.

[فقال: وكيف تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان] تنزيه له عن الرؤية البصرية لتنزّهه عن الجسمية ولواحقها من الجهة **[ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان]** اي: أركانه من التصديق بوجود اللّه ووحدانيته وسائر صفاته واعتبارات أسمائه الحسنى.

[قريب من الأشياء غير ملامس] وملاصق لها كما هو شان الأجسام المتقارب بعضها من بعض، بل قربه منها إحاطته بها علماً وقدرةً.

[بعيدٌ منها غير مباين] مباينة جسميّة بل مباينة بذاته الكاملة عن مشابهة شيء منها.

[متكلّم بلا روية] والروية: الفكر يرتاي الإنسان بها ليصدر عنه الفاظ

مريد بلا همّة صانع بلا جارحة لطيف لا يوصفه بالخفاء رحيم لا يوصف بالرقّة تعنوا الوجوه لعظمته وتوجل القلوب من مخافته

سديدة دالّة على مقصده، وهو تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار، بل كلامه يعود إلى خلقه الكلام في جسم من الأجسام كما أوجده في الشجرة وفي الألواح السماوية عند قوم وعند آخرين يعود إلى علمه بصور الأوامر والنواهي وسائر أنواع الكلام، وعند ــــــــ يعود إلى المعنى النفساني.

[**مريد بلا همّة**] أي: بلا عزم، والعزم عبارة عن إرادة متقدّمة للفعل توطّن النفس على الفعل.

[**صانع بلا جارحة**] كما في صنع المخلوقين بالجارحة التي هي من لواحق الجسمية المنزّه عنها تعالى.

[**لطيف لا يوصفه بالخفاء**] فإنّ اللطيف يراد به تارة رقيق القوام، وأخرى صغير الحجم، وهما يستلزمان للخفاء وعدم اللون من الأجسام والمحكم من المضغة وهو الصّنعة، وهو تعالى منزّه عن إطلاقه بإحدى هذه المعاني لاستلزامها الجسمية والإمكان بل إطلاق اللّطيف عليه تعالى باعتبار تصرّفه في الذوات والصفات تصرّفاً خفيّاً بفعل الأسباب المعدّة لإفاضة كمالاتها وباعتبار جلالة ذاته وتنزيهها عن قبول الإدراك البصري.

[**رحيم لا يوصف بالرقّة**] من الطبع والانفعال الجسماني النفساني، كما في المخلوقين بل باعتبار إفاضة الرحمة على العباد. [**تعنوا الوجوه**] أي: تخضع [**لعظمته**] كما قال تعالى: ﴿عنت الوجوه للحيّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً﴾.

[**وتوجل القلوب من مخافته**] أي: تخاف وتضطرب من هيبته عند

في ذمّ أصحابه: أحمد اللّه على ما قضى من أمر وقدّر من فعل على ابتلائي بكم أيّها الفرقة التي إذا أُمرت لم تطع وإذا دعوت لم تجب، إن أُمهلتم خفتم وإن جوريتم خُرتم وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم

ملاحظتها عظمته، فسبحان من يسبّح الرعد بحمد وترجف الملائكة من خيفته.

ومن كلام له عليه السلام

[**في ذمّ أصحابه: أحمد اللّه على ما قضى من أمر**] والقضاء حكم العلم الإلهي بما يكون والأمر أعمّ من أن يكون فعلاً أو غيره.

[**وقدّر من فعل**] القدر تفصيل القضاء وإيجاد الأشياء على رفعة؛ ولذا قيّده بالفعل [**على ابتلائي بكم**] تخصيص لبعض ما قضاه وقدّره.

[**أيّها الفرقة التي إذا أُمرت**] بمصالح دينها ودنياها وما به نظام معاشها ومعادها [**لم تطع وإذا دعوت**] إلى الرشاد والسداد والفلاح والنجاح وما فيه خير الدنيا والآخرة [**لم تجب، إن أُمهلتم خفتم**] استعارة للسعي في غير طاعته، قال تعالى: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ وقال تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتّى يخوضوا في حديث غيره﴾ وفي نسخة: أهلتم، أي: خليتم وتركتم.

[**وإن جوريتم خُرتم**] أي: ضعفتم أو صحتم كما يخور الثور ومنه قوله تعالى: ﴿عجلاً جسداً له خوار﴾.

[**وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم**] وتفرّقتم عن الاجتماع.

وإن لجئتم إلى ميثاقه نكصتم لا أباً لغيركم وما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقّكم الموت أو الذل لكم فوالله لئن جائني يومي وليأتي وليفرقنّ بيني وبينكم وأنا لصُحْبتِكُم قالٍ وبكم غير كثير لله أنتم

[**وإن لجئتم إلى ميثاقه**] اي: ألجئتم كما في قوله تعالى: ﴿فاجائها المخاض إلى جذع النخلة﴾، [**نكصتم**] اي: احجمتم ورجعتم كما قال تعالى: ﴿فلمّا ترائى الجمعان نكص عن عقبيه وحاصلها يعود إلى مخالفتهم إلى جميع ما يريده منهم مما ينتظم به حالهم.

وقوله إلى مشاقة، اي: إلى مشاقة عدوّ.

وقوله: [**لا أباً لغيركم**] دعاء بالذلّ لغيرهم، وفيه نوع تلطّف لهم والأصل لا اب، والألف مزيده إمّا لاستقلال توالي أربع حركات فاشبعوا الصحة فانقلبت ألفاً او لأنّهم قصدوا الاضافة فاتوا باللام للتاكيد.

[**وما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقّكم الموت أو الذل لكم**] دعاء عليهم بان يصبهم احد الأمرين الفناء الكلّي وهو الموت، او الذل الذي هو نظيره في المعنى ودونه في الصورة.

[**فوالله لئن جائني يومي**] الذي أموت فيه [**وليأتي**] لا محالة إذ لا مفرّ منه ولا محيص عنه واتى به رفعاً لما توهمه انّ من الشكّ [**وليفرقنّ بيني وبينكم**] الغرض التهديد لهم بفراقه وانشعاب أمورهم بعده.

[**وأنا لصُحْبتِكُم قالٍ**] مبغض [**وبكم غير كثير**] لانّ الكثرة إنّما تراد للمنفعة فحيث لا منفعة، فكأنّه لا كثرة، والواو للحال في الفقرتين والجملتان حاليتان.

[**لله أنتم**] جملة إسمية فيها معنى التعجّب من حالهم ومثله لله أبوك

أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم أوليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتّبعونه على غير معونة ولا عطاء وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرّقون عنّي وتختلفون عليّ أنّه لا يخرج إليكم من امري رضا فترضونه ولا سخط

ولله درّك.

ثمّ شرع عليه السلام في استفهامهم على سبيل التوبيخ عمّا يدعون أنّه موجود فيهم وهو الدّين والحمية والأنفة فقال: [**أما دين يجمعكم**] إذ من شأن الدّين أن يجمع على إنكار المنكر.

[**ولا حمية**] أي: أنفة [**تشحذكم**] يقال: شحذت النصل أي: حددته إذ من شأن الحمية أن تثير القوّة الغضبيّة لمقاومة العدو، وارتفاع دين وحمية على أنّه فاعل فعل مقدّر أي: أما يجمعكم دين أو حمية مبتدأ والخبر محذوف أي: أما لكم دين وحمية.

[**أوليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاة الطغام**] أوغاد الناس [**فيتّبعونه على غير معونة ولا عطاء**] أي: العطاء والمعونة المتعارفين بالنسبة إلى الجند من حيث هم جند، وأنصار فلا ينافي بذله الأموال جزافاً لرؤساء العرب وهو عليه السلام كان يقسم الغنائم بينهم على وجه الرزق والعطاء من غير تفضيل للشريف على من دونه.

[**وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الإسلام**] والتريكة في الأصل: بقية النعام، استعارها لهم لأنّهم خلف الإسلام وبقية أهله كالبقية التي تتكرها النعامة؛ ولذا قال: [**وبقية الناس إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرّقون عنّي وتختلفون عليّ أنّه لا يخرج إليكم من امري رضا فترضونه ولا سخط**

فتجتمعون عليه وإنّ أحبّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحجاج وعرّفتكم ما أنكرتم وسوّغتكم ما محجتكم لو كان الأعمى يلحظ والنائم يستيقظ

فتجتمعون عليه] اي: انّه لا يخرج إليك من أمري أمر من شانه أن يرضى به أو يسخط منه فترضون ويجتمعون عليه، بل لابدّ لكم من التصرّف والمخالفة على الحالين.

ثمّ نبّههم على سوء صنيعهم معه بقوله: **[وإنّ أحبّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت]** حتّى يستريح من مخالطتهم ومعاشرتهم، قال أبو الطيب:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحبّ المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتنا لما تمنيت أن أرى صديقاً فاعيى أو عدواً مُداخيا

ثمّ أشار إلى ما له من الامتنان عليهم فقال: **[قد دارستكم الكتاب]** اي: علّمتكم إيّاه وأخبرتكم بتنزيله وتأويله.

[وفاتحتكم الحجاج] اي: عرّفتكم وجوه الاحتجاج.

[وعرّفتكم ما أنكرتم] من الأمور المجهولة لكم.

[وسوّغتكم ما محجتكم] يقال: محجت التراب من فمي أي شربته واستعار وصف التوسيغ إمّا لإعطائه لهم العطيات والأرزاق التي كانوا يحرمونها من يد غيره لو كان كمعاوية، وإمّا لإدخاله العلوم في افواه اذهانهم وكذا لفظ المج إمّا لحرمانهم من يد غيره أو لعدم العلوم عن أذهانهم ونبو افهامهم عنها فكانّهم القوها لعدم صلاحها للاساغة.

وقوله: **[لو كان الأعمى يلحظ والنائم يستيقظ]** إشارة إلى انّهم جهّال لا يلحظون باعين بصائرهم ما افادهم من العلوم وغافلون لا يستيقظون من

أقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم في الطريق معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة قال له آمنوا فقطعنوا أم جبنوا فظعنوا فقال الرجل: بل ظعنوا يا اميرالمؤمنين فقال عليه السلام: بُعداً

سنة غفلتهم بما أيقظهم به من المواعظ وغيرها، ولفظ الأعمى والنائم مستعاران.

وقوله: [**أقرب بقوم**] يعني أهل الشام [**من الجهل بالله قائدهم في الطريق معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة**] أي: عمرو بن العاص رئيس المنافقين وأهل الغدر والخداع، وإذا كان الرئيس القائد والمؤدّب في تلك الطريق من الجهل والفجور بحال الرجلين المشار إليهما فما أقرب اتباعهما من البعد عن الله والجهل به، واقرب: صيغة التعجب، وقائدهم معاوية جملة اسمية محلّها الجر صفة لقوم، وفصل بين الصفة والموصوف بالجار والمجور والغرض التنفير عنهم.

ومن كلام له عليه السلام

قاله لرجل من أصحابه يعلم له أحوال قوم من جند الكوفة همّوا باللحاق بالخوارج فكانوا على خوف منه عليه السلام فلمّا عاد إليه الرجل [**قال له آمنوا فقطعنوا**] أي: اقاموا من قطن الرجل بالمكان يقطن بالضمّ: اقام به، فهو قاطن، والجمع قطّان وقاطنة وقاطنين [**أم جبنوا**] أي: خافوا [**فظعنوا**] أي: ساروا.

[**فقال الرجل: بل ظعنوا يا اميرالمؤمنين فقال عليه السلام: بُعداً**] نصب على

لهم كما بعدت ثمود أما لو اشرعت الأسنّة عليهم وصبت السيوف على هاماتهم لقد ندموا على ما كان منهم إن الشيطان اليوم قد استقلّهم وهو غداً متبرئ منهم ومخل عنهم فحَسْبُهُم بالخروج من الهدى وارتكابهم في الضلال والعمى وصدّهم عن الحقّ وجماحهم في التيه

المصدر [**لهم كما بعدت ثمود**] دعاء عليهم بالبعد من رحمة اللّه، وثمود إذا أريد به القبيلة غير منصرف وإذا أريد الحي أو اسم الأب فمنصرف ويقال إنّه ثمود بن عامر بن آدم بن سام بن نوح.

[**أما لو اشرعت الأسنّة عليهم**] يقال: أشرعت الرمح نحوه: سددته [**وصبت السيوف على هاماتهم**] استعارة من صببت الماء شبه وقع السيوف وشدّة اعوارها الرؤس بصبّ الماء. [**لقد ندموا على ما كان منهم**] من اللحوق بأولياء الشيطان. [**إن الشيطان اليوم قد استقلّهم**] تنبيه على علّة لحوقهم بهم، وروي استنفرهم أي: استحفّهم وروي استقبلهم أي: تقبّلهم ورضي عنهم.

[**وهو غداً متبرئ منهم ومخل عنهم**] أي: تارك لهم، وهو مؤيّد للرواية الثالثة لأنّ التبرّي يقابل الاستقبال والقبول قال تعالى: ﴿وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم إلى أن قال إنّ بريء منكم﴾.

[**فحَسْبُهُم بالخروج من الهدى**] الباء للسببية، أي: بسبب خروجهم [**وارتكابهم في الضلال والعمى**] أي: رجوعهم إلى الضلال القديم وعمى الجهل الذي كانوا عليه بعد خروجهم منه بهدايته [**وصدّهم عن الحقّ**] بالخروج عن طاعته.

[**وجماحهم في التيه**] اي: تيه الجهل والهوى بعد الاستقرار في مدينة

وعليه مدرعة من صوف وفي رجليه نعلان من ليف وكان جبينه ثفنة بعير الحمد للّه الذي إليه مصائر الخلق

العلم والعقل، وجماح الفرس أن يفتر صاحبه ويغلبه وهو مستعار لخروجهم عن فضيلة العدل إلى رذيلة الإفراط منها كما سبق والغلو في طلب الحقّ إلى حدّ الجور عن الصراط المستقيم.

ومن خطبة له عليه السلام

روي عن نون البكالي بفتح الباء نسبة إلى بكالة قبيلة، قال: خطبنا بهذه الخطبة أميرالمؤمنين عليه السلام وهو بالكوفة وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي ابن اخت أميرالمؤمنين، أمّه أمّ هاني بنت أبي طالب، وكان جعدة فارساً شجاعاً فقيهاً وولي خراسان لأميرالمؤمنين عليه السلام وهو من الصحابة، أدرك رسول اللّه صلى الله عليه وآله يوم الفتح مع أمّه أمّ هاني.

[وعليه مدرعة من صوف] والمدرعة الجبّة وتدرّعها: لبسها.

[وفي رجليه نعلان من ليف وكان جبينه ثفنة بعير] مفرد ثفنات وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف، كالركبتين ونحوهما، فقال عليه السلام:

[الحمد للّه الذي إليه مصائر الخلق] جمع مصير مصدر صار بمعنى المرجع، كما قال ﴿وإلى اللّه المصير﴾ وإنّما جمع المصدر لأنّ الخلائق يرجعون إلى اللّه في أحوال مختلفة في الدنيا والآخرة، فجمع المصدر وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير لاختلاف وجوهه كما قال: ﴿وتظنون

وعواقب الأمر نحمده على عظيم إحسانه ونيّر برهانه ونوامي فضله وامتنانه حمداً يكون لحقّه قضاء ولشكره أداء وإلى ثوابه مقرّباً ولحسن مزيده موجباً ونستعين به استعانة راج لفضله مؤمل لنفعه واثقّ بدفعه معترف له بالطّول مذعن له بالعمل والقول ونؤمن به إيمان من رجاه موقناً

باللّه الظنونا﴾.

[**وعواقب الأمر**] مصدر عاقبة، وهو آخر الشيء.

[**نحمده على عظيم إحسانه**] وهي أصول نعمه، كالحياة والقدرة والشهوة مما لا يخدل جنسه تحت مقدور القدير.

[**ونيّر برهانه**] من العلوم البديهية المفضية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله [**ونوامي فضله وامتنانه**] أي: أرزاقه الدارّة النامية أي: الزائدة وما يجري مجراها من إطالة الأعمار وكثرة الأوراد.

[**حمداً يكون لحقّه قضاء ولشكره أداء**] لأنّ الحمد لو بلغ أقصى غاياته لم يصل إلى أن يكون قاضياً لحقّ اللّه ولا مؤدّياً لشكره، ولكنّه قال ذلك على سبيل المبالغة.

[**وإلى ثوابه مقرّباً ولحسن مزيده موجباً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾، ثمّ اردف ذلك الشكر بطلب المعونة منه فقال:

[**ونستعين به استعانة راج لفضله**] في الآخرة [**مؤمل لنفعه**] في الدنيا [**واثقّ بدفعه**] المضار عنه [**معترف له بالطّول**] أي: الأفضال [**مذعن له**] أي: منقاد مطيع [**بالعمل والقول**] أي: بالطاعة العملية والقولية.

ثمّ اردف ذلك بالإقرار بالإيمان الكامل فقال: [**ونؤمن به إيمان من رجاه موقناً**] أي: رجى المطالب العليّة منه حال اليقين التام بأنّه أهلها.

وأناب إليه مؤمناً وخشع له مذعناً وأخلص له موحّداً وعظّمه ممجّداً ولاذ به راغباً مجتهداً لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً ولم يتقدّمه وقت ولا زمان ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم فمن شواهد خلقه

[**وأناب إليه مؤمناً**] أي: رجع إليه في جميع المهمات حال الإيمان به.

[**وخشع**] أي: خضع، [**له مذعناً**] أي: حال انقياده لعزّته.

[**وأخلص له موحّداً وعظّمه ممجّداً**] أي: أخلص له حال توحيده وعظّمه حال تمجيده.

[**ولاذ به راغباً مجتهداً**] واللوّذ به حال الرغبة إليه والاجتهاد فيها.

ثمّ اخذ في تنزيهه تعالى باعتبارات سلبية وإضافية فقال: [**لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً**] لأبيه الذي ولده جرياً على عادة ملوك البشر، فإنّ الأكثر انّ الملك يكون بن ملك قبله والعادة أن يكون والد العزيز عزيزاً.

[**ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً**] جرياً على العادة انّ كلّ والد في الأكثر يهلك قبل هلاك الولد [**ولم يتقدّمه وقت ولا زمان**] والوقت جزء الزمان وإذا كان خالق الوقت والزمان فبالحري أن يتقدّمهما.

[**ولم يتعاوره**] أي: لم تختلف عليه [**زيادة ولا نقصان**] لأنّهما من لواحق الممكنات لاستلزامهما التغيّر المستلزم للإمكان المنزّه قدسه تعالى عنها.

[**بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم**] في مصنوعاته الموجودة ومخلوقاته المشهودة. [**فمن شواهد خلقه**] الشاهدة على

خلقه السموات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند دعاهنّ فأجبنّ طايعات مذعنات غير متلكّئات ولا مبطئات ولولا إقرارهنّ له بالربوبية وإذعانهنّ بالطواعية لما جعلهنّ موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه جعل نجومها أعلاماً يستدلّ بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار

قدرته وعلمه وحكمته وسائر صفات كماله وجلاله [**خلقه السموات موطدات**] أي: ممهدات مبنيات [**بلا عمد**] جمع عمادة، قال تعالى: ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾.

[**قائمات بلا سند**] أي: ما يسند إليه، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ في خلق السموات واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ وقوله تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾.

[**دعاهنّ فأجبنّ طايعات مذعنات**] منقادات. [**غير متلكّئات**] والتلكي: التوقف.

[**ولا مبطئات**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للسموات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾.

[**ولولا إقرارهنّ له بالربوبية وإذعانهنّ بالطواعية**] أي: الطاعة [**لما جعلهنّ موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾.

[**جعل نجومها أعلاماً يستدلّ بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار**] جمع فج وهو الطريق في الجبل.

لم يمنع ضوء أنوارها ادلهمام سُجُف اللّيل المظلم ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن تردّ ما شاع في السموات من تلألؤ نور القمر فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ولا ليل ساج في يفاع السفع المتجاورات

[لم يمنع ضوء أنوارها ادلهمام] أي: شدّة **[سُجُف]** أي: ستر **[اللّيل المظلم]** أي: شدّة ظلمته لم تمنع الكواكب من الإضاءة.

[ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن تردّ ما شاع في السموات من تلالؤ نور القمر] أي: لم يمنع ظلام الليل القمر من تلألؤ نوره، واستعار لفظ السجف والجلابيب للساتر من سواد الليل، ووجه الاستعارة ظاهر وخصّ القمر بالذكر لكونه من الآيات العظيمة ولشروقه بما يظهر للأبصار من عظم حجمه وشدّة إضائته والمقابلة بين الضياء والظلمة مقابلة العدم والملكة وكلّ منهما يوجد بوجود سببه ويعدم بعدم سببه فلا يكون رفع احدهما بالآخر، فظهر إذاً انّ نور القمر والنجوم لا تمنعه من الوجود، والتحقّق ظلمة ليل، بل يتعاقبان بحسب تعاقب أسبابهما المنتهية إلى قدرة الصانع الحكيم.

وروي ادلهمام بالنصب وجعله مفعولاً وضوء نورها بالرفع فاعلاً، وهذا انسب بالازدواج اي: لا القمر والكواكب يمنع الليل من الظلمة ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة والسجف جمع سجف وهو الستر.

[فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ولا ليل ساج] تنزيه له بحسب إحاطة علمه بكلّيات الأمور وجزئياتها، والغسق: الظلمة، والساجي: الساكن، والداجي: المظلم.

[في يفاع السفع المتجاورات] المراد بالمتجاورات: الجبال، وسمّاها

وما يتجلجل به الرعد في افق السماء وما تلاشت عنه بروق الغمام وما تسقط من ورقه تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء ويعلم مسقط القطرة ومقرّها

سفعاً لأنّ السفعة سواد اشرب حمرة وكذلك لونها في الأكثر واليفاع من الأرض المرتفع.

[**وما يتجلجل به الرعد في افق السماء**] التجلجل صوت الرعد، إشارة إلى تسبيحه في قوله تعالى: ﴿ويسبّح الرعد بحمده﴾.

[**وما تلاشت عنه بروق الغمام**] يقال: تلاشى الرجل إذا اتضع وخرّ بعد رفقه، وتلاشى أي: اضمحلّ، والمراد أنّه يعلم ما يصوّت به الرعد ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق وفيه إشارة إلى ما لم ينكشف للأبصار بإضائتها وإنّما خصّ ذلك دون ما أضاء به لأنّ العلم هناك شرف لتعلّقه بما لا يدركه أبصار المخلوقين من دون ما تضيئه لإدراك الكلّ له وتوضيح ذلك انّ البرق يلمح فتضيئ أقطاراً مخصوصة، ثمّ تتلاشى عنها فهو سبحان عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرق فيها.

[**وما تسقط من ورقه تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء**] والعواصف: الرياح الشديدة، وأضافها إلى الأنواء لأنّ أكثر ما يكون عصفانها في الأنواء جمع نوء: وهو سقوط نجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلاً له من ساعته ومدّة النوء ثلاثة عشر يوماً إلا الجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوماً.

[**وانهطال السماء**] اي: انصبابها.

[**ويعلم مسقط القطرة**] من المطر، اي: موضع سقوطها [**ومقرّها**] اي:

ومسحب الذرّة ومجرها وما يكفي البعوضة من قوتها وما تحمل من أُنثى في بطنها والحمد للّه الكائن قبل أن يكون كرسيّ أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو انس لا يدرك بوهم ولا يقدّر بهم ولا يشغله سائل ولا ينقصه نائل ولا يبصر بعين ولا يحدّ بأين ولا يوصف بالأزواج ولا يخلق بعلاج

موضع قرارها.

[**ومسحب الذرّة**] وهي الصغيرة من النمل، [**ومجرها**] أي: مسبحها.

[**وما يكفي البعوضة من قوتها وما تحمل من أُنثى في بطنها**] لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثمّ شرع في تمجيده وتنزيهه تعالى باعتبارات سلبية فقال:

[**والحمد للّه الكائن قبل أن يكون كرسيّ أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو انس لا يدرك بوهم ولا يقدّر بهم**] أي: لا يحدّ بفهم، والفهم من صفات العقل وقد مرّ أنّ العقول لا تدركه والأوهام لا تكتنبه.

[**ولا يشغله سائل**] لإحاطته بكلّ شيء قدرةً وعلماً.

[**ولا ينقصه نائل**] أي: عطاء كما ينقص خزائن الملوك؛ لأنّ النقصان يتوجّه نحو ذي الحاجة وقد تنزّه قدسه عنها.

[**ولا يبصر بعين**] لتنزه قدسه عن الحواس وإن كان بصيراً أي عالماً بالمبصرات [**ولا يحدّ بأين**] أي: لا تحدّه العقول بالأمكنة وتحيط به باعتبارها لبرائته عن التحيّز وهو نفي الكمّية المتصلة عنه.

[**ولا يوصف بالأزواج**] وهي نفي الكم المنفصل عنه أي: ليس فيه اثنينية وتعدّد.

[**ولا يخلق بعلاج**] تنزيه لصنعه عن واسطة الآلة والحيلة كما تزاوله

ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس الذي كلّم موسى تكليماً وأراه من آياته عظيماً بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات بل إن كنت صادقاً أيّها المتكلّف لوصف ربّك فصف جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين في حجرات القدس مرجحنّين

أصحاب الصنايع.

[**ولا يدرك بالحواس**] لتخصيص إدراكها بالأجسام وكيفياتها وتنزّهه تعالى عن الجسمية ولواحقها.

[**ولا يقاس بالناس**] تنزيه له عن التشبيه بخلقه في كمالاته كما يتوهّمه أهل التجسيم.

[**الذي كلّم موسى تكليماً وأراه من آياته عظيماً**] فكان يسمع الصوت من الجهات الستّ ليس على حدّ سماع البشر من جهة مخصوصة وله دوّي كوقع السلاسل العظيمة على الحصاء الأصم قيل وسماعه من الجهات الست إشارة إلى انّ الكلام كان ياتيه فينتقش في لوح خياله لا من جهة بل نسبة الجهات الست إليه على حدّ سواء وكونه كوقع السلاسل إشارة إلى عظمته بالنسبة إليه، فشبّه بأشدّ الأصوات حرساً، وقيل أراد بالآيات التسع كانشقاق البحر وقلب العصى ثعباناً وغيرهما والأوّل انسب بقوله: [**بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات بل إن كنت صادقاً**] إنّك وقد وصلت إلى معرفة صفة ربّك [**أيّها المتكلّف لوصف ربّك فصف**] لنا [**جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين في حجرات القدس**] جمع حجرة [**مرجحنّين**] مايلين إلى جهة تحت، خضوعاً لجلالة الباري سبحانه، يقال: ارجحنّ الحجر إذا مال هاوياً.

متولّقة عقولهم ان يحدّوا أحسن الخالقين وإنّما يدرك بالصفات ذو الهيئة والادوات ومن ينقضي إذا بلغ أمده حدّه بالفناء فلا إله إلا هو اضاء بنوره كلّ ظلام

[متولّقة عقولهم] اي: حائرة متحيّرة.

[أن يحدّوا أحسن الخالقين] والكلام في صورة قياس استثنائي متصل. نبّه به على عجز من يدّعي وصف ربّه كما هو وتقدير إن كنت صادقاً ايّها المتكلّف لوصف ربّك في وصفه، فصف بعض خلقه وهو جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين وينتج باستثناء نقيض تاليه اي: لكنك لا يمكنك وصف هؤلاء بالحقيقة، فلا يمكنك وصفه تعالى.

بيان الملازمة انّ وصفه تعالى إذا كان ممكناً لك فوصف بعض آثاره اسهل عليك، وامّا بطلان التالي فلأنّ حقيقة جبرئيل وميكائيل وسائر الملائكة المقرّبين غير معلومة لأحد من البشر، ومن عجز عن وصف بعض آثاره فهو عن وصفه اعجز، هيهات هيهات ما للتراب وربّ الأرباي، وانّى للإنسان المخلوق من ماء مهين وإدراك عظمة خلق ربّ العالمين.

[وإنّما يدرك بالصفات] ويعرف كنهه **[ذو الهيئة والأدوات]** اي: الجوارح **[ومن ينقضي]** ويتطرّق إليه العدم **[إذا بلغ أمده حدّه بالفناء]** وتقف الأفهام على ذلك الحدّ وتحلّله إلى اجزائه فيطّلع على كنهه منها، وواجب الوجود منزّه عن ذلك.

ثمّ عقّب ذلك التنزيه بتوحيده ونفي الكثرة عنه فقال: **[فلا إله إلا هو اضاء بنوره كلّ ظلام]** فإنّ الظلام المحسوس يضيء بنور الكواكب والمعقول كظلام الجهل يضيئ بانوار العلم والشرايع.

وأظلم بظلمته كلّ نور أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم المعاش فلو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سلّماً أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام الذي سخّر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة فلمّا استوفى طُعمته واستكمل مدّته رمته قسي الفناء بنبال الموت وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة ورثها قوم آخرون

[**وأظلم بظلمته كلّ نور**] إذ جميع الأنوار المحسوسة والمعقولة لغيره متلاشية مضمحلّة في نور علمه وظلام بالنسبة إلى ضياء براهينه في جميع مخلوقاته الكاشفة عن وجوده وكمال جوده.

ثمّ شرع ﷺ في الموعظة فقال: [**أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه الذي ألبسكم الرياش**] أي: اللباس [**وأسبغ**] أي: أوسع [**عليكم المعاش**] بدء بالوصية بتقوى اللّه باعتبار سلب أمرين هما سبب البقاء في الحياة الدنيا وهما الملبوس والمطعوم ويحتمل أن يريد بالمعاش ساير أسباب البقاء وثنّى بذكر انّه لا سبيل إلى البقاء ودفع الموت بقوله: [**فلو أنّ أحداً يجد إلى البقاء**] في الدنيا [**سلّماً**] أي: طريقاً [**أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام**] لكنّه لم يجده سليمان فلم يجده أحد بعده، أمّا الملازمة فلأنّ سليمان كان أقوى سلطان وجد في العالم كما أشار إليه بقوله: [**الذي سخّر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة**] أي: القرب عند اللّه تعالى فكان أولى بدفعه لو كان ممكناً، وامّا بطلان التالي فلما أشار إليه بقوله: [**فلمّا استوفى طُعمته**] بضمّ الطاء: المأكلة [**واستكمل مدّته**] أجله المقدّر له [**رمته قسي الفناء**] جمع قوس [**بنبال الموت وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة ورثها قوم آخرون**] فلو وجد له مدفعاً عن نفسه

وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة أين العمالقة وأبناء العمالقة

لدفعه، فقوله: فلو انّ إلى قوله سبيلاً، مقدّم الشرطية، وقوله لكان ذلك هو التالي وقوله الذي إلى الزلفة بيان لوجه الملازمة، وقوله: فلمّا استوفي إلى قوله قوم آخرون بيان بطلان التالي، ولفظ القسي والنبال استعارة لمرامي الأمراض وأسبابها التي هي نبال الموت.

[وإنّ لكم في القرون السالفة] والأمم الماضية **[لعبرة]** لمن اعتبر وتبصرة لمن تبصّر.

[أين العمالقة وأبناء العمالقة] قيل: العماليق هم أولاد لاوذ بن ارم بن سام بن نوح كان ملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم فيهم، فمنهم عملاق بن طسم بن لاوذاخره ومنهم جدليس بن لاوذ أخوهما وكان العزّ والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم، فلما أملكم عملاق بن طسم بغى وأكثر الفساد في الأرض حتّى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بعلها وإن كانت بكراً افتضّها قبل الوصول إلى البعل ففعل ذلك بإمرأة من جدليس فغضب لها أخوها وتابعه قوم على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته فصنع أخوها طعاماً ودخل عملاق الملك إليه ثمّ وثب به وبطسم فأتى على رئسائهم ونجى منهم رياح بن هرمس فصار إلى وادي حبان بن بتع الجمري ملك اليمن فاستغاث به واستنجده على جدليس فسار ذو حيان في حمير فأتى بلاد جدليس وهي قصبة اليمامة فاستأصل جديساً كلّها وأخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلا اليسير منهم ثمّ ملك بعد طسم وجديس وثار بن اميمى بن لاوذ بن ارم فسار بولده واهله فنزل بأرض وبار وهي المعروفة الآن برمل عالج فبغوا في الأرض حيناً حتّى افناهم اللّه، ثمّ ملك الأرض

أين الفراعنة وأبناء الفراعنة أين أصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيّين وأطفئوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبّارين، وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف وعسكروا العساكر ومدّنوا المداين

بعد ـــــــ عبد ضخم بن اسف بن لاوذ فنزلوا بالطائف حيناً ثمّ بادوا.

[أين الفراعنة وأبناء الفراعنة] وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن زيان فرعون يوسف ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى عليه السلام ومنهم فرعون الأعوج الذي غزا بني إسرائيل واخرب بيت المقدس.

[أين أصحاب مدائن الرسّ] قيل إنّهم اصحاب شعيب النبي وكانوا عبدة أصنام ولهم من مواش وآبار يسقون منها والرسّ بئر عظيمة جداً خسفت بهم وهم حولها فهلكوا أو خسف بأرضهم كلّها أو ديارهم، وقيل الرسّ قرية بفلح الامامة كان بها قوم من بقايا ثمود فبغوا فأهلكوا وقيل قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز كانت العنقاء تختطف صبيانهم فتقتلهم فدعوا اللّه أن ينقذهم منها فبعث اللّه إليهم حنظلة بن صفوان فدعاهم إلى الدّين على أن يقتل العنقاء فثار طوع على ذلك فدعى عليها فاصابتها الصاعقة فلم يفوا له وقتلوه فأهلكوا وقيل هم أصحاب الاخدود والرسّ هو الاخدود وقيل الرسّ ارض بانطاكية قتل فيها حبيب النجّار وقيل بل كفرت اهلها بنبيّهم ورسّوه في بئر أي دسّوه فيها وقيل الرسّ نهر في اقليم باب الأبواب مبدئه من مدينة طرار وينتهي إلى نهر الكسر فيختلط به حتّى يصبّ في بحر الخرن وكان هناك ملوك أولوا باس وقدرة فاهلكهم اللّه ببغيهم واللّه العالم وهو عليه السلام قد وصف بغيهم وظلمهم بقوله: **[الذين قتلوا النبيّين واطفئوا سنن المرسلين واحيوا سنن الجبّارين، وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف وعسكروا العساكر ومدّنوا المداين]**.

قد لبس للحكمة جنّتها واخذها بجميع آدابها من الإقبال عليها

ومنها

[قد لبس للحكمة جنّتها] الضمير يعود إلى المعارف مطلقاً او إلى القائم المنتظر عليه السلام.

وقال ابن ابي الحديد: هذا الكلام تفسّره كلّ طائفة على حسب اعتقادها، فالشيعة الإمامية تزعم انّ المراد به المنتظر المهدي، والصوفية يزعمون انّه وليّ اللّه في الأرض وعندهم انّ الدنيا لا تخلو من الأبدال وهم اربعون وعن الأوتاد وهم سبع وعن القطب وهو واحد فلو مات القطب صار أحد السبعة قطبها عوضه صار احد الأربعين وتداً عوض ذلك الوتد وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم اللّه بدلاً عوض ذلك للبدل واصحابنا يزعمون انّ اللّه تعالى لا يخلي الامّة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدل والتوحيد.

ثمّ قال: والفلاسفة يزعمون انّ مراده بهذا الكلام العارف لهم في العرافن ثمّ قال: وليس بعيد عندي أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في أمر الوقت إذا خلقه اللّه تعالى وإن لم يكن الآن موجوداً فليس في الكلام ما يدلّ على وجوده الآن وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين اجمعين على انّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه، إنتهى.

اقول: الجنّة ما يستتر به من السلاح وقد استعاره للاستعداد بالزهد والعبادة الحقيقيتين والمواظبة على العمل باوامر اللّه؛ لأنّ ذلك الاستعداد يامن إصابة بهام الهوى وثوران دعواعي الشهوات القائدة إلى النار كما يامن لابس الجنّة من اذى الضرب والجرح.

[واخذها بجميع آدابها من الإقبال عليها] اي: شدّة الحرص والهمّة.

والمعرفة بها والتفرّغ لها فهي عند نفسه ضالّته التي يطلبها وحاجته التي يسأل عنها فهو مغترب إذا اغترب الإسلام وضرب يصيب ذنبه وألصق الأرض بجرانه بقية من بقايا حججه وخليفة من خلائف أنبيائه أيّها الناس إنّي قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم

[والمعرفة بها] أي: بشرفها ونفاستها.

[والتفرّغ لها] لأنّ الذهن متى وجّهه نحو معلومين معاً تخبط وفسد وإنّما يدرك الحكمة بتفريغ البال من كلّ أمر سواها.

[فهي عند نفسه ضالّته التي يطلبها] استعار لها لفظ الضالة لإفساده لها وطلبه إيّاها كما تطلب الضالة من الإبل، وإليه الإشارة بقولهﷺ: «الحكمة ضالّة المؤمن»، وكذا قوله: **[وحاجته التي يسأل عنها فهو مغترب إذا اغترب الإسلام]** بحيث يظهر الفسق والجور على الصلاح في العدل كما قالﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً» ـــــ

[وضرب يصيب ذنبه وألصق الأرض بجرانه] هذا من تمام قوله إذا اغترب الإسلام أي: صار الإسلام غريباً والحقّ مقهوراً، وصار الإسلام كالبعير البارك يضرب الأرض بسيبه وهو أصل الذنب ويلصق جرانه وهو صدره بالأرض واستعار لفظ العسيب والذنب والجران ملاحظة لشبهه بالبعير البارك، وكنّى بذلك عن ضعفه وقلّة نفعه، فإنّ البعير أقلّ ما يكون نفعه حالة بروكه.

وقوله: **[بقية من بقايا حججه وخليفة من خلائف أنبيائه]** أي: حججه على خلقه إذ العلماء والعارفون حجج اللّه في الأرض على عباده، وظاهر كونه خليفة من خلائف انبيائه لقولهﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».

[أيّها الناس إنّي قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أممهم] أي:

وأدّيت إليكم ما أدّت الأوصياء إلى من بعدهم وأدّبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم فلم تستوسقوا اللّه أنتم أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق ويرشدكم السبيل إلا أنّه قد أدبر من النديا ما كان مقبلاً وأقبل منها ما كان مدبراً وأزمع الترحال عباد اللّه الأخيار وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخر لا يفنى

فرّقتها فيكم ونشرتها.

[**وأدّيت إليكم ما أدّت الأوصياء إلى من بعدهم**] تذكير بموعظته لهم وإعذاراً إليهم بأداء ما كلّف به في حقّهم مما كلّف به الأنبياء مع أممهم والأوصياء إلى من بعدهم ومعاتبة لهم على عدم استقامتهم واجتماعهم على أوامره مع تأديبه لهم بالضرب والزواجر كما قال: [**وأدّبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم**] أي: سقتكم كما تحدى الإبل [**فلم تستوسقوا**] أي: لم تجتمعوا [**اللّه أنتم أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق**] أي: عملكم على المنهاج الشرعي.

[**ويرشدكم السبيل**] أي: يسلك بكم سبل الحقّ كأنّه جعلهم ضالّين عن طريق يطلبونها أي: تريدون إماماً غيري يوقفكم على الطريق التي تطلبونها وتسلكوها.

[**إلا أنّه قد أدبر من النديا ما كان مقبلاً**] وهو الهدى والرشاد وصلاح أهلها [**وأقبل منها ما كان مدبراً**] أي: من الشرور التي أدبرت بظهور النبي صلى الله عليه وآله وظهرت في أيام معاوية.

[**وأزمع الترحال عباد اللّه الأخيار**] أي: ثبت عزمهم عليه وإزماعهم للترحال، كناية عن اقتضاء الزمان لفنائهم من الدنيا ورحيلهم عنها.

[**وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخر لا يفنى**] استعار لفظ

ما ضرّ اخواننا الذين سفكت دمائهم وهم بصفّى أن لا يكونوا اليوم أحياء يسيفون الغصص ويشربون الرنق قد واللّه لقوا اللّه فوفّاهم أُجورهم وأحلّهم دار الأمن بعد خوفهم أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ، أين عمّار وأين ابن التيهان

البيع ـــــ بالقليل الفاني من متاع الدنيا الكثير الباقي من متاع الآخرة.

[**ما ضرّ اخواننا الذين سفكت دمائهم وهم بصفّى أن لا يكونوا اليوم أحياء يسيفون الغصص**] اي: لم يضرّ اخواننا القتلى بصفّين كونهم اليوم ليسوا أحياء حياتنا المشوبة بالتنغص والغصص والكدر والآلام.

[**ويشربون الرنق**] يقال: ماء رنق بالتسكين اي كدر، رنق الماء بالكسر يرنق رنقاً فهو رنق ورانقة ترنيقاً أي: كدرته وعيش رنق بالكسر أي: كدر [**قد واللّه لقوا اللّه فوفّاهم أُجورهم**] على الأعمال الصالحة.

[**وأحلّهم دار الأمن**] والإمان والنعيم والرضوان أي الجنّة.

[**بعد خوفهم**] من فتن أهل الضلال.

ثمّ اخذ في الاستفهام عمن ركب طريق الحقّ ومضى عليه مستصحباً له متوجّعاً لفقدهم فقال: [**أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ، أين عمّار**] بن ياسر الذي قال فيه رسول اللّه ﷺ «إنّه مُليء إيماناً من شاشته» وفي رواية «إلى أخمص قدميه» وقال ﷺ: «اشتاقت الجنّة إلى أربعة: عليّ وعمّار وسلمان وبلال» وتواتر عنه ﷺ انّه قال: «تقتل عماراً الفئة الباغية» وقتله اصحابه معاوية في وقعة صفّين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ودفنه اميرالمؤمنين في ثيابه ولم يغسّله وكان عمره إذ ذاك نيفاً وتسعين وقيل ثلاثاً وتسعين سنة.

[**وأين ابن التيهان**] قال ابن ابي الحديد هو الهيثم ابن التيهان بالياء

وأين ذوالشهادتين وأين نظرائهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة فاطال البكاء ثمّ قال أوه الذين تلوا القرآن فأحكموه

المنقوطة باثنتين من تحتها المشدّدة المكسورة وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، واسمه مالك واسم ابيه مالك أيضاً بن عقيل بن عمرو بن عبدالأعلى بن عامر الانصاري، وكان احد النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً والأكثر على أنّه أدرك صفّين وشهد وقائع علي عليه السلام.

[**وأين ذوالشهادتين**] هو خمة بن ثابت بن العال بن ثعلبة الحطيمي الأنصاري من حطمة من الأوس جعل رسول اللّه صلى الله عليه وآله شهادته شهادة رجلين يكنّى أبا عمارة، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد وكانت راية بن حطمة بيده يوم الفتح وشهد صفّين مع عليّ عليه السلام فلمّا قتل عمّار قاتل حتّى قُتل.

[**وأين نظرائهم من اخوانهم**] يعني الذين قتلوا بصفّين [**الذين تعاقدوا على المنيّة**] كابن بديل وهاشم بن عتبة وغيرهما وتعاقدوا أي: جعلوا بينهم عقداً وروي تعاهدوا.

[**وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة**] حملت رؤسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها والفجرة هنا أمراء عسكر الشام، ثمّ ضرب عليه السلام بيده إلى لحيته متوجّعاً متاسّفاً حزناً على فقدهم.

[**فاطال البكاء ثمّ قال أوه**] بسكون الواو وكسر الهاء: كلمة شكوى وتوجّع، وربّما قلبوا الواو الفاً فقالوا آه من كذا وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكّنوا الها فقالوا أوّه من كذا، وقد يقولون آوّه بالمدّ والتشديد وفتح الواو وسكون الهاء.

[**الذين تلوا القرآن فأحكموه**] بفهم مقاصده ومعانيه.

وتدبّروا الفرض فأقاموه وأحيوا السنّة وأماتوا البدعة دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد لهم فاتّبعوا ثمّ نادى بأعلا صوته الجهاد الجهاد عباد اللّه ألا وإنّي معسكر في يوم هذا فمن أراد الرواح إلى اللّه فليخرج، قال نوف وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف ولقيس بن سعد في عشرة آلاف ولأبي أيوب الأنصاري

[**وتدبّروا الفرض**] بفهم ما لأجله العبادة [**فأقاموه**] وواظبوا عليه.

[**وأحيوا السنّة**] النبوية [**وأماتوا البدعة**] المخالفة لها [**دعوا للجهاد فأجابوا**] لإقامة الدين وتقوية الإسلام والمسلمين [**ووثقوا بالقائد لهم**] في سبيل اللّه [**فاتّبعوا**] وانقادوا وأطاعوا.

[**ثمّ نادى بأعلا صوته الجهاد الجهاد عباد اللّه**] والجهاد منصوب بفعل مقدّر والثاني تأكيد ونصب عباد اللّه على الاختصاص أو النداء [**ألا وإنّي معسكر**] أي: خارج بالعسكر إلى منزل يكون لهم عسكراً [**في يوم هذا فمن أراد الرواح إلى اللّه**] أي: الجهاد الذي هو سبيله الموصل إليه وإلى ثوابه.

[**فليخرج، قال نوف وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف ولقيس بن سعد في عشرة آلاف**] وهو صحابي كنيته أبو عبدالملك روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أحاديث كثيرة وأبوه سعد من رؤساء الخزرج وهو سعد بن عبادة الذي حاولت قومه إقامته خليفة بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وكان قيس من كبار شيعة علي ومحبّيه وشهد معه حروبه كلّها وكان مع الحسن ابنه ونقم عليه صلحه لمعاوية.

[**ولأبي أيوب الأنصاري**] وهو خالد بن سعد بن كعب الخزرجي من بني النجار، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد، وعليه نزل رسول اللّه صلى الله عليه وآله لما خرج من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجراً فلم يزل عنده حتّى

ولغيرهم على أعداد اخر وهو يريد الرجعة إلى صفّين فما دارت الجمعةحتّى ضربه الملعون بن ملجم فتراجعت العساكر فكما كأغنام فقد راعيها تختطفها الذئاب من كلّ مكان الحمد للّه المعروف من غير رؤية والخالق من غير منصبة خلق الخلائق بقدرته وأسبغ النعمة على خلقه واستعبد الأرباب بعزّته

بنى مسجده ومساكنه ثمّ انتقل إليها وشهد مع عليّ مشاهده كلّها الجمل وصفّين وكان على مقدّمته يوم النهروان.

[**ولغيرهم على أعداد اخر وهو يريد الرجعة إلى صفّين فما دارت الجمعةحتّى ضربه الملعون بن ملجم فتراجعت العساكر فكما كأغنام فقد راعيها تختطفها الذئاب من كلّ مكان**] والاختطاف أخذ الشيء بسرعة، ويقال: إنّ هذه الخطبة آخر خطبة خطب بها أميرالمؤمنين عليه السلام قائماً.

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه المعروف من غير رؤية**] بصريّة بل بآياته وآثاره، ففي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد.

[**والخالق**] للأشياء [**من غير منصبة**] بالفتح أي: تعب، من نصب بالكسر ينصب أي: تعب لاستلزامها الآلات المستلزمة للجسمية التي من شأنها الضعف والنهاية في القوّة.

[**خلق الخلائق بقدرته**] على خلقهم لا بحركة واعتماد.

[**وأسبغ النعمة**] أي: وفّرها، [**على خلقه واستعبد الأرباب**] الذين يدعون في الدنيا ارباباً [**بعزّته**] وقهره المستلزم لخضوع كلّ موجود في ذلّ

وسار العظماء بجوده وهو الذي أسكن الدنيا خلقه وبعث إلى الجنّ والإنس رسله ليكشفوا لهم عن غطائها وليحذّروهم من ضرّائها وليضربوا لهم أمثالها وليبصّروهم عيوبها وليهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها وحلالها وحرامها

الإمكان والحاجة إليه.

[**وسار العظماء بجوده**] المستلزم لفقر كلّ شيء إليه.

[**وهو الذي أسكن الدنيا خلقه**] كما قال: ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾.

[**وبعث إلى الجنّ والإنس رسله**] كما قال: ﴿يا معشر الجنّ والإنس الم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾.

[**ليكشفوا لهم عن غطائها**] اي: ما يغطى بحجب الدنيا عن أعين بصائرهم من أحوال الآخرة التي اختلفوا لها.

[**وليحذّروهم من ضرّائها**] وعواقبها وغوائلها، [**وليضربوا لهم أمثالها**] كما قال تعالى: ﴿إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيماً تذروه الرياح﴾.

[**وليبصّروهم عيوبها**] ودائها ودوائها، [**وليهجموا عليهم**] من هجمت على الرجل اي: دخلت عليه بغتة.

[**بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها**] اي: ليدخلوا ليهم ما في تصاريف الدنيا من العبرة، وهي الصحة والسقم.

[**وحلالها وحرامها**] على طريق الابتلاء به وحلالها عطف على تصرف، ويحتمل ان يكون عطفاً على أسقامها باعتبار انّ الحلال والحرام من تصاريف الدنيا وبيانه انّ كثيراً من المحرّمات كانت حلالاً من نبيّ قبله،

وما أعدّ اللّه سبحانه للمطيعين منهم والعصاة من جنّة ونار وكرامة وهون أحمده على نفسه كما استحمده إلى خلقه جعل لكلّ شيء قدراً ولكلّ قدراً أجلاً، ولكلّ أجل كتاباً في ذكر القرآن فالقرآن آمر زاجر وصامت ناطق

وبالعكس وذلك تابع لمصالح الخلق بمقتضى تصاريف أوقاتهم وأحوالهم التي هي تصاريف الدنيا.

وقوله: [**وما أعدّ اللّه سبحانه للمطيعين منهم والعصاة من جنّة ونار وكرامة وهون**] أعطف على معشر او على عيوبها، اي: ويبصرونهم ما أعدّ اللّه للمطيعين والعصاة... إلخ.

[**أحمده على نفسه كما استحمده إلى خلقه**] اي: حمداً يكون في الكيفية والكمّية على الوجه الذي طلب الحمد لنفسه.

[**جعل لكلّ شيء قدراً**] اي: مقداراً من الكمّية والكيفية ينتهي إليه وحداً يقف عنده.

[**ولكلّ قدراً أجلاً، ولكلّ أجل كتاباً**] أراد بالكتاب العلم الإلهي المعبّر عنه بالكتاب المبين واللّوح المحفوظ الذي فيه تبيان كلّ شيء.

ومنها

[**في ذكر القرآن**] الكريم والفرقان العظيم.

[**فالقرآن آمر زاجر**] إطلاقهما عليه مجاز من إطلاق السبب على المسبب إذ الآمر والناهي هو اللّه كما يقال سيفه قاتل وكذا قوله [**وصامت ناطق**] لأنّه من حيث هو حروف وأصوات صامت ومن حيث تضمّن الأخبار والأمر والنهي والنداء ونحوها من اقسام الكلام كالناطق لأنّ الفهم يقع عنده.

حجّة اللّه على خلقه أخذ عليهم ميثاقه وارتهن عليه أنفسهم وأتمّ به نوره وأكرم به دينه وقبض نبيّه وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به

[حجّة اللّه على خلقه] لاشتماله على وعدهم ووعيدهم وبيان غاية وجودهم والمطلوب منهم والاعذار إليهم أن يقولوا يوم القيامة ﴿إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ ولأنّه خلاصة ما بعث به الرسول ﷺ وقد بعث به رسله مبشّرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل، ولأنّه أقوى المعجزات التي احتجّ بها الرسول على الخلق في صدقه وقوله: **[أخذ عليهم ميثاقه]** أي: أخذ اللّه ميثاق الكتاب عليهم وذلك الأخذ هو خلقهم وبعثهم إلى الوجود على أن يعملوا بما اشتمل عليه الكتاب من مطالب اللّه الحقّة المشار إليه بقوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم﴾ والتقدير أخذ عليهم الميثاق بما فيه.

[وارتهن عليه أنفسهم] أي: جعل أنفسهم رهناً على العمل بما فيه والوفاء به، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً.

[وأتمّ به نوره] أي: نور هدايته للخلق والنور المتممّم هو نور النبوّة وهو المشار إليه بقوله: ﴿يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم ويأبى اللّه إلا أن يتمّ نوره﴾ واطفائه بما كانوا يقولونه من أنّه معلّم أو مجنون أو ساحر أو كذّاب وانّ القرآن أساطير الأوّلين كتبتها.

[وأكرم به دينه] ﴿ليظهره على الدِّين كلّه ولو كره المشركون.﴾

[وقبض نبيّه وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به] أي: بالقرآن إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾، وأحكام الهدى بيان

فعظموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه فإنّه لم يخف عليكم شيئاً من دينه ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلا وجعل له علماً بادياً وآية محكمة فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد

طرقه وكيفية سلوكها، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه إذ ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾، و﴿ما من رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

والإمامة شيء من الأشياء فلابدّ أن تكون مذكورة فيه، كما ذكرت في آيات عديدة؛ ولأنّ عقول الناس لا تبلغ جميع ما فيه فلابدّ أن يكون له قيّم يعلم جميع ما فيه محكمه ومتشابهه ومجمله ومؤله كما نطقت بذلك الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة.

[**فعظموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه**] ما مصدرية، أي: عظّموه كتعظيمه لنفسه، أي: اطلبوا المناسبة في تعظيمكم له لتعظيمه لنفسه. [**فإنّه لم يخف عليكم شيئاً من دينه**] بل كشف لنا أحكام الدين وشرائع المرسلين ولو بواسطة بيان أهل الذكر والراسخين في العلم، [**ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه**] من مراضيه ومكارهه [**إلا وجعل له علماً بادياً**] ظاهراً [**وآية محكمة**] واضحة من كتابه يشتمل على أمر بما يرضيه أو زجر عما يكرهه.

[**فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد**] إشارة إلى أنّ المرضي له من الأحكام أو المسخوط فيما مضى هو المرضي أو المسخوط فيما بقي من الأوقات واستقبل من الزمان وحكمه في كونه مرضياً أو مسخوطاً واحد في جميع الأوقات لا يتغيّر ولا ينقص.

قال ابن أبي الحديد: معناه أنّ مالم ينصّ عليه صريحاً بل هو في محلّ النظر ليس يجوز للعلماء ان يجتهدوا فيه فيحلّه بعضهم ويحرّمه بعضهم، بل

واعلموا أنّه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم وإنّما تسيرون في أثر بيّن وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم قد كفاكم مؤنة دنياكم

رضا اللّه سبحانه أمر واحد، وكذلك سخطه فليس يجوز ان يكون شيء من الأشياء يفتي فيه قوم بالحلّ، وقوم بالحرمة. وهذا قول منه بتحريم الاجتهاد وقد سبق منه مثل هذا الكلام مراراً.

وقوله: [**واعلموا أنّه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم**] تأكيد وتقرير لما قبله.

وقال ابن أبي الحديد: معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف في الفتاوى والأحكام كما اختلف الامم من قبلكم فيسخط اختلافهم، قال سبحانه: ﴿إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ وليس يسخط عليكم بالاتفاق والاجتماع الذي رضيه ممن كان قبلكم من القرون، ويجوز ان يفسّر هذا الكلام بانّه لا يرضى عنكم ما سخطه على الذين كانوا من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد والعدل، فيكون الكلام مصروفاً إلى الاصول لا إلى الفروع.

[**وإنّما تسيرون في أثر بيّن**] اي: انّ الأدلّة واضحة.

[**وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم**] يعني كلمة التوحيد قالها الموحّدون قبل هذه الملّة بالنظر والدليل فقولوها انتم كذلك، وقيل أي: الادلّة لكم واضحة قد تداولوها الأوّلون قبلكم فإنّكم تتكلّمون بها وتردّدونها، ورجع القول المردود منه.

وقوله: [**قد كفاكم مؤنة دنياكم**] إشارة إلى قوله: ﴿وآتاكم من كلّ ما

وحثّكم على الشكر وافترض من ألسنتكم الذكر وأوصاكم بالتقوى وجعلها منتهى رضاه وحاجته من خلقه فاتّقوا اللّه الذي أنتم بعينه ونواصيكم بيده

سألتموه﴾ وتلك الكفاية إمّا بخلقها وإيجادها وإمّا ترزقه بكلّ ما كتب في اللّوح المحفوظ.

[**وحثّكم على الشكر**] في تكرار الأوامر به.

قال الحسن البصري: إنّ اللّه تعالى كفانا مؤنة دنيانا وحثّنا على القيام بوظائف ديننا، فليته كفانا مؤنة ديننا وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا.

[**وافترض من ألسنتكم الذكر**] أي: افترض عليكم ان تذكروه وتشكروه بالسنتكم ومن متعلّقه بمحذوف دلّ عليه المصدر المتاخّر أي: وافترض عليكم الذكر من ألسنتكم الذكر.

[**وأوصاكم بالتقوى**] في قوله ﴿وإيّاي فاتقون﴾ وقوله ﴿اتقوا اللّه حقّ تقاته﴾ وقوله: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

[**وجعلها منتهى رضاه وحاجته من خلقه**] ولفظ الحاجة مستعار لتقدّسه تعالى عنها، ووجه الشبه للمحتاج الحثّ والطلب المتكرّر منه لها حتّى كانّه محتاج إليها ولما استلزمت التقوى الحقيقية الوصول إلى اللّه لا جرم كانت منتهى رضاه منهم.

[**فاتّقوا اللّه الذي أنتم بعينه**] أي: علمه بما تعملونه.

[**ونواصيكم بيده**] أي: في قدرته، وخصّ الناصية إشارة إلى انّ اعظم ما في الإنسان واشرفه مملوك؛ ولانّ الناصية إذا قبضت تبعها سائر البدن، والناصية مقدّم شعر الراس.

وتقلّبكم في قبضته إن أسررتم علمه وإن أعلنتم كتبه قد وكّل بذلك حفظة كراماً لا يسقطون حقّاً ولا يثبتون باطلاً واعلموا أنّه من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ويخلّده فيما اشتهت نفسه وينزله منزل الكرامة عنده في دار اصطنعها لنفسه

[**وتقلّبكم في قبضته**] اي: تصرّفكم في حركاتكم وسكناتكم بحسب تصريف قدرته وحكمته لا خروج عنه في شيء من ذلك.

[**إن أسررتم**] شيئاً [**علمه**] فهو يعلم ﴿ما تسرّون وما تعلنون﴾ ﴿يعلم سرّكم ونجواكم﴾.

[**وإن أعلنتم**] شيئاً [**كتبه**] ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾.

[**قد وكّل بذلك حفظة كراماً لا يسقطون حقّاً ولا يثبتون باطلاً**] بأن يكتبوا عليه ما لم يفعله.

[**واعلموا أنّه من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً من الفتن**] كما قال تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ومن الفتن تفسير لقوله مخرجاً.

[**ونوراً من الظلم**] اي: ظلم الجهل بأنوار العلوم الحاصلة عن الاستعداد بالتقوى.

وقوله: [**ويخلّده فيما اشتهت نفسه**] إشارة إلى قوله تعالى في وصف اهل الجنّة ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾.

[**وينزله منزل الكرامة عنده**] وهو المنزل المبارك مطلبه في قوله: ﴿وقل ربّ انزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾.

[**في دار اصطنعها لنفسه**] كناية عن الجنّة ونسبها إلى نفسه تعظيماً لها

ظلّها عرشه ونورها بهجة وزوّارها ملائكته ورفقائها رسله فبادروا المعاد وسابقوا الآجال فإنّ الناس يوشك أن ينقطع لهم الأمل ويرهقهم الأجل ويسدّ عنهم باب التوبة فقد أصبحتم في مثل ما سئل إليه الرجعة من كان قبلكم

وترغيباً فيها.

[**ظلّها عرشه**] ظاهره أنّها في السماء وأنّ العرش فوقها.

[**ونورها بهجة**] استعارة، إذ لمّا كان إشراق نورها عظيماً جدّاً نسبه إلى نور الباري وليس هناك بهجة على الحقيقة لأنّ البهجة حسن الخلق قال تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج﴾ من كلّ صنف حسن.

[**وزوّارها ملائكته ورفقائها رسله**] قال تعالى: ﴿وحسن أولئك رقيقاً﴾.

ثمّ عاد إلى التذكير بالمعاد فقال: [**فبادروا المعاد**] والمراد المعاجلة إلى ما يصلحه ويخلّص من أهواله من الطاعات المقرّبة إلى اللّه تعالى، وكذا قوله: [**وسابقوا الآجال فإنّ الناس يوشك**] بكسر الشين من أوشك أي: أسرع [**أن ينقطع لهم الأمل**] أي: أمل الدنيا وبقائهم فيها [**ويرهقهم**] أي: يفاجئهم [**الأجل**] ويلحقهم فلأجل ذلك اللحوق تجب المسارعة إلى العمل لما يبقى.

[**ويسدّ عنهم باب التوبة**] بإدراك الأجل فتجب مبادرتها لأنّها لا تقبل إذا بلغت النفس التراقي كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيّئات حتّى إذا حضر احدهم الموت قال إنّي تبت الآن﴾.

[**فقد أصبحتم في مثل ما سئل إليه الرجعة من كان قبلكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حتّى إذا حضر احدهم الموت قال ربّ ارجعوني لعلّي أعمل

وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم قد أُوذنتم منها بالارتحال وأُمرتم فيها بالزاد واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار وارحموا نفوسكم فإنّكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا

صالحاً فيما تركت كلاّ إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ اي: اصبحتم في حال الحياة والصحة والأمن وسائر الأسباب التي يتمنّى من كان قبلكم الرجعة إليها ويمكنكم معها العمل.

[**وأنتم**] اي: والحال انّكم [**بنو سبيل على سفر**] أرباب طريق مسافرون [**من دار ليست بداركم قد أُوذنتم**] اي: أُعلمتهم [**منها بالارتحال وأُمرتم فيها بالزاد**] قال: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ استعار لهم وصف بنو السبيل لكونهم في هذه الدار بالعرض ليعبروا منها إلى وطنهم الأصلي، فهم كالمسافرين، واقرب الأبواب إلى الدنيا الأرحام التي منها يخرجون إليها، وابواب الخروج منها هي الموت.

ولفظ السفر مستعار، إذ من المعلوم انّ الدار التي لا يبقى فيها الإنسان بل هو في كلّ آن في استدبارها واستقبال غيرها.

ونبّه بإيذانهم فيها بالرحيل على التنفير عن الركون إليها والاعتماد عليها واتخاذها وطناً وبالامر باتخاذ الزاد فيها على انّ المقصود منها البلاغ والوصول إلى تلك الدار.

[**واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق**] والعظم الدقيق.

[**صبر على النار**] التي وقودها الناس والحجارة.

[**وارحموا نفوسكم**] بالاعمال الصالحة واتّباع أوامر اللّه.

[**فإنّكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا**] الحقيرة القليل مكثها اليسير

فـرأيتم جزع أحـدكم من الشوكـة تصيبه والعثرة تدميه والرمضـاء تحرقه فكيف إذا كان بين طابقين من نار ضجع حجر وقرين شيطان أما علمتم أنّ مـالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته أيّها اليفنُ الكبير

بقائها القصير مدتها.

[فرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه] وهي الأرض الشديدة الحرارة.

[فكيف إذا كان بين طابقين من نار] الطابق بالفتح الاجرة الكبيرة وهو فارسي معرّب **[ضجع حجر]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾، روي أنّها حجارة الكبريت.

[وقرين شيطان] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال قرينه ربّنا ما اطغيته﴾ قال تعالى: ﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس اجمعون﴾ وهم الشياطين.

وقوله: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾ إلى قوله: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم انّكم في العذاب مشتركون﴾.

[أما علمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً] اي: كسره أو اكله، **[لغضبه]** ولذا سُمّيت النار الحطمة لأنّها تحطم ما تلقي ومنه سمّي الرجل الكثير الاكل الحطمة.

[وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته] وخوفاً من سطوته، **[أيّها اليفنُ]** اي: الشيخ **[الكبير]** وخصّ بالخطاب؛ لأنّه اولى بالاقلاع عن

الذي قد لهزه القتير ، كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ونشبت الجوامع حتّى أكلت لحوم السواعد فاللّه اللّه وأنتم سالمون في الصحّة قبل السقم وفي الفسحة قبل الضيق فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تعلق رهانتها أسهروا أعينكم

المعصية لقربه من الآخرة [**الذي قد لهزه**] أي: خالطه [**القتير**] أي: الشيب، وأصله رؤس المسامير في الدرع يسمّى قتيراً.

[**كيف أنت إذا التحمت أطواق النار**] أي: التفت [**بعظام الأعناق**] وانضمّمت عليها والتصقت بها [**ونشبت الجوامع**] أي: علقت، جمع جامعة وهي الغلّ لأنّها تجمع اليدين إلى العنق. [**حتّى أكلت لحوم السواعد**] جمع ساعد وهو الذراع.

ثمّ أخذ في التحذير وقال: [**فاللّه اللّه**] أي: احذروه معشر العباد واتّقوه.

[**وأنتم سالمون في الصحّة قبل السقم وفي الفسحة**] من أعماركم [**قبل الضيق فاسعوا في فكاك رقابكم**] من النار [**من قبل أن تعلق رهانتها**] أي بآثامها، يقال: علق الرهن بالكسر إذا استحقّه المرتهن بأن لا يفكّه الراهن في الوقت المشروط وكان ذلك من شرع الجاهلية فنهى عنه النبي ﷺ وقال: «لا يعلّق الرهن».

[**أسهروا أعينكم**] بالتهجّد في اللّيل والناس نيام، قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾ وقال تعالى: ﴿ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً﴾ وخصّ الليل؛ لأنّه مظنّة الخلوة باللّه والفراغ من الناس والنهار محلّ العبادات الأُخر كالجهاد والصوم والكدّ

واضمروا بطونكم واستعملوا أقدامكم وأنفقوا أموالكم وخذوا من أجسادكم تجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها فقد قال اللّه سبحانه ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ فلم يستضركم من ذلّ ولم

على العيال.

[**واضمروا بطونكم**] كناية عن صيام النهار.

[**واستعملوا أقدامكم**] كناية عن القيام في الصلاة.

[**وأنفقوا أموالكم**] كناية عن إعطاء الزكوات والصدقات في سبيل اللّه.

[**وخذوا من أجسادكم**] كناية عن إذابتها بالصيام والقيام للصلوات وإيثار التقشّف المستلزم للإعراض عن تربية هذه الأجساد لاستلزام ذلك حبّ الدنيا والإقبال على لذّاتها.

وقوله: [**تجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها**] إشارة إلى أنّ الأخذ من الجسد بهذه العبادات جود على النفس بملكات الخير والقرب من اللّه.

[**فقد قال اللّه سبحانه ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾**] استشهد بالآيتين على وعد اللّه بالنظر لمن نصره وبمضاعفة الأجر لمن قرضه بعد أمره بنصر اللّه بامتثال أوامره بقرضه بالصدقات، ووجه استعارة لفظ القرض كثرة الأوامر الإلهية الطالبة للصدقات فاشبهت طلب المحتاج المستقرض ولذا قال: [**فلم يستضركم من ذلّ**] اي: ذلّه [**ولم**

يستقرضكم من قلّ استضركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً فبادروا أعمالكم تكونوا مع جيران اللّه في داره رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته وأكرم أسماعهم عن أن تسمع حسيس نار أبداً وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً

يستقرضكم من قلّ] أي: من قلّة **[استضركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد]** فكيف يكون استضاره من ذلّة واستقراضه من قلّة وهو الغني المطلق عن عباده فيما طلبه منهم.

[وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً] أي: عاملهم معاملة المختبر الممتحن إقامةً للحجّة عليهم وإيضاحاً للمحجّة.

[فبادروا أعمالكم] أي: بها أو إليها قبل مجيء آجالكم.

[تكونوا مع جيران اللّه في داره] الجنّة التي وعد المتّقون ﴿وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾.

[رافق بهم رسله] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولئك مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾.

[وأزارهم ملائكته] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾.

[وأكرم أسماعهم عن أن تسمع حسيس نار] أي: صوتها، **[أبداً]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾.

[وصان أجسادهم] حفظها، **[أن تلقى لغوباً ونصباً]** أي: تعباً، إشارة

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم أقول ما تسمعون والله المستعان على نفسي وأنفسكم وهو حسبنا ونعم الوكيل قال للبرج بن مسهر وقد قال بحيث يسمعه لا حكم إلا لله وكان من الخوارج اسكت قبّحك الله يا أثرم

إلى قوله تعالى: ﴿لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب﴾.

[**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**] اقتباس من القرآن الكريم.

[**أقول ما تسمعون والله المستعان على نفسي وأنفسكم**] الأمّارة [**وهو حسبنا ونعم الوكيل**].

ومن كلام له عليه السلام

[**قال للبرج**] بالباء المضمومة والجيم [**بن مسهر**] بضمّ الميم وكسر الفاء، بن الحلاس بن وهب بن قيس بن عبد بن طريف بن مالك بن جدعان بن دهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي بن أود بن زيد بن يشحب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان الطائي شاعر مشهور من شعراء الخوراج. [**وقد قال بحيث يسمعه**] أمير المؤمنين عليه السلام منادياً بشعارهم [**لا حكم إلا لله وكان من الخوارج**] فزجره عليه السلام وقال:

[**اسكت قبّحك الله**] يقال: قبحت الجوزة أي: كسرتها أو معناه نحّاك عن الخير [**يا أثرم**] دعاه بآفته إهانةً له وانتقاصاً كما هو العادة في إهانة ذوي العاهات بذكر آفاتهم، والأثرم: ساقط الثنية.

فوالله لقد ظهر الحقّ فكنت فيه ضئيلاً شخصك خفيّاً صوتك حتّى إذا نعر الباطل نجمت نجوم قرن الماعز روي أنّ صاحباً لاميرالمؤمنين عليه السلام يقال له همّام وكان رجلاً عابداً

[**فوالله لقد ظهر الحقّ فكنت فيه ضئيلاً**] ضؤل الرجل بالضمّ ضآلة وضؤل رأيه: صغر.

[**شخصك خفيّاً صوتك**] أي: كنت حقيراً في زمن العدل بين الجماعة مخمول الذكر وظهور الحقّ زمان قوّة الإسلام وقلّة الفتن والباطل، وكنّى بخفاء صوته عن عدم الالتفات إلى أقواله وحقارته [**حتّى إذا نعر الباطل**] أي: صاح أهل الباطل ونهضوا [**نجمت**] أي: طلعت [**نجوم قرن الماعز**] فإنّه ينبت على غفلة دفعةً، استعار النعير لظهور الباطل ملاحظةً لشبهه في قوّته وظهوره الصائل الصائح بكلامه عن جرأة وشجاعة وشبّه ظهوره بين الناس وارتفاع ذكره عند ظهور الباطل وقوّته بظهور قرن الماعز في السرعة بغتةً، أي: طلعت بلا شرف ولا شجاعة ولا قدم، بل على غفلة كنبات قرن الماعز، ومن البلاغة تشبيه من يراد إهانته بالمهين الحقير وتشبيه من تعظيمه بالعظيم الخطير.

ومن خطبة له عليه السلام

[**روي أنّ صاحباً لاميرالمؤمنين عليه السلام يقال له همّام**] بن شريح بن زيد بن مرّة بن عمرو بن جابر بن عوف الأصهب بن كعب بن الحرث بن سعد بن عمر بن ذهل بن عران بن جففة بن سعد العشيرة [**وكان رجلاً عابداً**].

فقال له: يا أميرالمؤمنين صف لنا المتّقين حتّى كأنّي أنظر إليهم فتثاقل عليه السلام عن جوابه ثمّ قال عليه السلام له ياهمام اتّق اللّه وأحسن فإنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون فلم يقنع همّام بذلك القول حتّى عزم عليه ثمّ قال: أما بعد فإنّ اللّه سبحانه خلق الخلق حيث خلقهم غنيّاً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم

قال ابن ابي الحديد: كان من شيعة علي وأوليائه.

[**فقال له: يا أميرالمؤمنين صف لنا المتّقين حتّى كأنّي أنظر إليهم**] أي: وصفاً يجعلهم لي كالمشاهدة لهم، [**فتثاقل عليه السلام عن جوابه**] لما راى من استعداد نفسه لأثر الموعظة وخاف عليه أن يخرج به خوف اللّه إلى انزعاج نفسه وصعوقها. [**ثمّ قال عليه السلام له ياهمام اتّق اللّه**] في نفسك ان يصيبها فادح بسبب سؤالك [**وأحسن**] إليها بترك تكليفها فوق طاقتها، [**فإنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون**] أي: فإنّه تعالى وعد في كتابه أن يكون وليّاً وناصراً لأهل التقوى والإحسان.

[**فلم يقنع همّام بذلك القول**] إلاّ بما سئل [**حتّى عزم عليه**] الحّ في السؤال واقسم عليه ان يجيبه، قام فحمد اللّه واثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله.

[**ثمّ قال: أما بعد فإنّ اللّه سبحانه خلق الخلق حيث خلقهم غنيّاً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم**] فلا تنفعه الطاعة ولا تضرّه المعصية [**ووضعهم من الدنيا مواضعهم**] ورتّبهم في منازلهم من غني وفقير وشريف ووضيع، فهو الغني المطلق عنهم كما قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾.

فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع غضّوا أبصارهم عمّا حرّم اللّه تعالى عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء

[**فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل**] المتعلّقة بإصلاح قوّتي العلم والعمل [**منطقهم الصواب**] المتوسّط بين حالتي الإفراط والتفريط، فلا يسكتون عمّا ينبغي أن يقال، ولا يقولون ما ينبغي أن يسكت عنه، بل يضعون الكلام في مواضعه.

[**وملبسهم الاقتصاد**] وهو فضيلة العدل في الملبوس فلا يلبسون ما يلحقهم بدرجة المترفين ولا ما يلحقهم بأهل الخسّة والدنائة مما يخرجهم عن عرف الزاهدين.

[**ومشيهم التواضع**] المستلزم للسكون والوقار ﴿الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ وقال تعالى: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾.

[**غضّوا أبصارهم**] غمضوها وحفظوها.

[**عمّا حرّم اللّه تعالى عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم**] فلم يشغلوا سمعهم بغير العلوم النافعة لهم، من شعر أو غناء أو أحاديث أهل الدنيا ونحوها [**نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء**] أي: انّهم طابوا نفساً باحوالهم في البلاء كطيب أنفسهم في الرخاء والنعمة لقلّة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها، وكالذي نصب محلاً صفة مصدر

لولا الاجل الذي كتب اللّه لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب عظم الخالق في أنفسهم فصغّروا ما دونه في أعينهم فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون والنار كمن رآها فهم فيها معذّبون وقلوبهم محزونة وشرورهم مامونة وأجسادهم نحيفة

محذوف أي: انزلت أنفسهم منهم في حال البلاء نزلاً كالنزول حال الرخاء.

[**لولا الاجل الذي كتب اللّه لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب**] قيل: هو الشوق والخوف إذا بلغ إلى حدّ الملكة فإنّه يستلزم دوام الجدّ والعمل والإعراض عن الدنيا ومبدئهما عظمة الخالق وبقدر ذلك يكون تصوّر عظمة وعده ووعيده وبحسب قوّة ذلك التصوّر يكون قوّة الخوف والرجاء وهما بابان عظيمان للجنّة.

[**عظم الخالق في أنفسهم فصغّروا ما دونه في أعينهم**] وصاروا لشدّة ـــــــ ومكاشفتهم كما اشار إليه بقوله: [**فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون والنار كمن رآها فهم فيها معذّبون**] وهذه مرتبة عين اليقين التي أشار إليهاﷺ بقوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» فبحسب هذه المرتبة كان شدّة شوقهم إلى الجنّة وخوفهم من النار.

[**وقلوبهم محزونة**] يغلب عليهم من خوف اللّه تعالى.

[**وشرورهم مامونة**] لانّ مبدء الشرّ ومحبّة الدنيا وأباطيلها والعارفون بمعزل عن ذلك.

[**واجسادهم نحيفة**] لكثرة الصيام والسّهر وجشوبة المطعم وخشونة

وحاجتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة صبروا أيّاماً قصيرة وأعقبتهم راحة طويلة تجارة مربحة يسّرها لهم ربّهم أرادتهم الدنيا وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها

الملبس وهجر الملاذ الدنيوية.

[**وحاجتهم خفيفة**] لاقتصادهم من حوائج الدنيا على القدر الضروري من ملبس ومأكل ولا أخفّ من هذه الحاجة [**وأنفسهم عفيفة**] وملكة العفّة فضيلة القوّة الشهوية وهي الوسط بين رذيلتي خمود الشهوة والفجور [**صبروا**] على المكاره [**أيّاماً قصيرة**] في مدّة حياتهم الدنيا فتركوا الملاذ الدنيوية واحتملوا أذى الخلق، والصبر مقاومة النفس الأمّارة بالسوء لئلا تنقاد إلى قبائح اللّذات.

[**وأعقبتهم**] تلك المدة القصيرة [**راحة طويلة**] بالخلود في الجنّة، كما قال تعالى: ﴿وجزاهم بما صبروا جنّة وحريراً﴾.

[**تجارة مربحة**] استعار التجارة لأعمالهم الصالحة وامتثال أوامر اللّه، ووجه الشبه كونهم متعوّضين بمتاع الدنيا وبحركاتهم في العبادة متاع الآخرة، ورشح بلفظ الرّبح لأفضلية متاع الآخرة ونفاسته [**يسّرها لهم ربّهم**] بتيسير أسبابها وإعدادهم بالجواذب الإلهية [**أرادتهم الدنيا وأسرتهم**] لأنّ الهيئات الرديّة والملكات الرذيلة التي تمكّنت في نوفسهم كتمكّن الحبل في الأسير ولفظ الفدية استعارة لتبديل ذلك الاستمتاع بها بالإعراض عنها والمواظبة على طاعة اللّه في قوله: [**ففدوا أنفسهم منها**] وإنّما عطف هنا بالفاء وفي قوله ولم يريدوها بالواو؛ لأنّ زهد الإنسان في الدنيا كما يكون متاخراً عن إقبالها عليه كذلك قد يكون متقدّماً عليه لقوله ﷺ «ومن جعل

أمّا الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلاً يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً وظنّوا أنّها نصب أعينهم وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أُصول آذانهم

الآخرة أكبر همّه جمع اللّه عليه همّه وأتته الدنيا وهي راغمة» فلم يحسن العطف بالفاء، وأمّا الفدية فلمّا لم يكن إلا بعد الأسر لا جرم عطفها بالفاء.

[**أمّا الليل فصافّون أقدامهم**] بالصلاة، ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾.

[**تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلاً**] بفهم مقاصده [**يحزنون به أنفسهم**] اي: يجلبون لها الحزن.

[**ويستثيرون دواء دائهم**] إشارة إلى أنّ البكاء دواء داء الحزن [**فإذا مرّوا بآية فيها تشويق**] إلى الجنّة ونعيمها [**ركنوا**] مالوا [**إليها طمعاً**] في نيله [**وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً وظنّوا**] اي: علموا [**أنّها نصب أعينهم**] مشاهدة لهم.

[**وإذا مرّوا بآية فيها تخويف**] بذكر النار وعذابها وسلاسلها وأغلالها [**أصغوا**] أمالوا [**إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنّم**] اي: صوتها [**وشهيقها في أُصول آذانهم**] والحاصل انّه لمّا كان دائهم الجهل والملكات الرذيلة والأخلاق السيّئة كان دواء الجهل بالعلم ودواء كلّ رذيلة بحصول الفضيلة المضادّة فيهم بتلاوة القرآن يستبشرون ــــــــ الخوف من وعيد اللّه المضاد للانهماك في الدنيا ودوائه العلم، وكذا كلّ فضيلة حثّ القرآن

فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى اللّه تعالى في فكاك رقابهم أما النهار فحكماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح

عليها دواء لما يضادّها من الرذايل.

[**فهم حانون على أوساطهم**] من حنيت العود أي: عطفته، يصف كيفيّة ركوعهم وانحنائهم في الصلاة.

[**مفترشون لجباههم**] إشارة إلى كيفية سجودهم، أي: باسطون لها على الأرض، ثمّ ذكر الأعضاء السبعة التي ينبغي أن تباشر الأرض، وهي الجبهة والكفّان والركبتان والقدمان فقال:

[**وأكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى اللّه تعالى في فكاك رقابهم**] إشارة إلى غايتهم من عبادتهم تلك، وحرف الجرّ متعلّق بحال محذوفة أي: يطلبون إلى اللّه سائلين في فكاك رقابهم.

ثمّ لما فرغ من ذكر وصفهم في الليل وذكر وصفهم بالنهار فقال: [**أما النهار فحكماء**] وأراد الحكمة الشرعية وما فيها من كمال القوّة العمليّة لكونها المتعارفة، وروي حلماء، والحلم فضيلة تحت ملكة الشجاعة هي الوسط بين رذيلتي المهانة والإفراط في الغضب [**علماء**] عارفون بالصانع وصفاته واحكامه [**أبرار**] جمع بار، نقيض الفجار، [**أتقياء**] خائفون من ربّهم، وقد مرّ ذكر العفّة والخوف وإنّما كرّرهما في عداد صفاتهم بالنهار وذكرها هناك في صفاتهم المطلقة، وهذه الصفات هي التي يطّلع عليها الناظرون لهم نهاراً، ثمّ ذكر ما هم عليه من خوف اللّه فقال: [**قد براهم الخوف بري القداح**] وهي السهام، واحدها قدح، ووجه الشبه شدّة

ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بهم من مرض ويقول قد خولطوا وقد خالطهم أمر عظيم لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون

النحافة.

[**ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بهم من مرض**] ولكن خوف اللّه والحزن على التقصير في خدمته بلغ بهم ذلك.

[**ويقول**] الناظر [**قد خولطوا**] اي: اصابتهم جنّة لتكلّمهم بكلام ليس على مذاق أهل الدنيا.

[**وقد خالطهم أمر عظيم**] وهو اشتغال أسرارهم بملاحظة جلال اللّه ومطالعة أنوار الملأ الأعلى [**لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير**] من أعمالهم ولا يرضيهم اجتهادهم في الطاعات لتصوّرهم شرف غايتهم المقصودة باعمالهم.

[**فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون**] خائفون لشكّهم فيما تحكم به أوهامهم من حسن عبادتهم وكونها مقبولة أو واقعة على الوجه المطلوب الموصل إلى اللّه تعالى، فإنّ هذا الوهم يكون مبدء للعجب بالعبادة والتقاصر عن الازدياد من العمل والتشكيك في ذلك وتهمة النفس بانقيادها في ذلك الحكم للنفس الأمّارة يستلزم خوفها ان تكون تلك الأعمال قاصرة عن الوجه المطلوب وذلك باعث على العمل وكاسر للعجب به، والعجب من المهلكات كما قال صلى الله عليه وآله: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

ولذا ـــــــــ أحد منهم خاف مما يقال له فيقول أنا: أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم منّي بنفسي.

اللّهمّ لا تؤاخذني بما يقولون فاجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون فمن علامة أحدهم انّك ترى له قوّة في دين وحزماً في لين

[**ولذا ـــــــــ أحد منهم خاف مما يقال له**] من أن يعرض له بتزكية الغير كبر أو عجب. [**فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم منّي بنفسي**] ونحوه قوله ﷺ لمن زكّاه نفاقاً «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

وقوله اللّهم... إلخ، كلام مستقل روي أنّه ﷺ مرّ بقوم مختلفين في أمره، فمنهم الحامد له، ومنهم الذامّ فقال: [**اللّهمّ لا تؤاخذني بما يقولون**] أي: إن كان ما ينسبوه إليّ من المذامّ حقّاً وصدقاً موجبة للعقاب فلا تؤاخذني بذلك وإن كان ما قاله الحامد حقّاً [**فاجعلني أفضل مما يظنون**] فيّ [**واغفر لي ما لا يعلمون**] من افعالي.

ثمّ شرع ﷺ بعد ذلك في علاماتهم التي بجملتها يعرف أحدهم والصفات السابقة وإن كان كثير منها مما يخصّ أحدهم ويعرف به إلاّ انّ بعضها قد يدخله الرياء فلا يدلّ على التقوى الحقّة فجمعها هنا وقال:

[**فمن علامة أحدهم انّك ترى له قوّة في دين**] بان يقاوم في دينه الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس، ولا يدخل فيه خداعهم، [**وحزماً**] كايناً [**في لين**] أي: حزماً في الأمور الدنيوية والدينية والتثبت فيها ممزوجاً باللّين للخلق وعدم الفضاضة، قال تعالى: ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من

وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم وقصداً في غنى وخشوعاً في عبادة

حولك﴾ وفي المثل: «لا تكن حلواً فتؤكل ولا تكن مرّاً فتُلفى، ولا تكن رطباً فتعصر ولا تكن يابساً فتكسر» وإنّما قرن اللّين بالحزم؛ لأنّه قد يكون مذموماً كما إذا كان عن مهانة وضعف يقين.

وقوله: [**وإيماناً في يقين**] ربّما يقال الإيمان هو اليقين فكيف قرن به واجب بأنّ الإيمان هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل واليقين هو سكون القلب فقط، فأحدهما غير الآخر، وقيل: لمّا كان الإيمان عبادة عن التصديق بالصانع وبما وردت به الشريعة وكان ذلك التصديق قابلاً للشدة والضعف فتارة يكون عن التقليد وهو الاعتقاد المطابق لا لموجب، وتارة يكون عن العلم وهو الاعتقاد المطابق لموجب هو الدليل وتارة عن العلم به مع العلم بأنّه لا يكون إلا كذلك وهو علم اليقين ومحقّقوا السالكين لا يقفون عند هذه المرتبة بل يطلبون عين اليقين بالمشاهدة بعد طرح حجب الدنيا والإعراض عنها، أراد أنّ علمهم علم يقين لا يتطرّق إليه احتمال.

[**وحرصاً في علم**] أي: في طلبه والازدياد منه، كما روي «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا».

[**وعلماً في حلم**] مزج العلم الذي هو فضيلة القوّة الملكيّة بالحلم الذي هو من فضائل القوّة السبعيّة.

[**وقصداً في غنى**] وهو فضيلة العدل في استعمال متاع الدنيا وحذف الفضول عن قدر الضرورة.

[**وخشوعاً في عبادة**] وهو من ثمرة الفكر في جلال المعبود وملاحظة

وتحمّلاً في فاقة وصبراً في شدة وطلباً في حلال ونشاطاً في هدى وتحرّجاً عن طمع يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل يمسي وهمّه الشكر ويصبح وهمّه الذكر

عظمته الذي هو روح العبادة.

[**وتحمّلاً في فاقة**] بترك الشكوى إلى الخلق والطلب منهم وإظهار الغنى عنهم، وينشئ من القناعة والرضا بالقضاء وعلوّ الهمّة ويعين على ذلك التأمّل فيما اعدّه اللّه للمطيعين من النعيم العظيم والثواب الجسيم.

[**وصبراً في شدة**] هو كالذي قبله.

[**وطلباً في حلال**] وينشا من العفّة.

[**ونشاطاً في هدى**] وينشا من قوّة الاعتقاد فيما وعد المتّقون.

[**وتحرّجاً عن طمع**] فليس له طمع عند أحد من الخلق.

[**يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل**] من ان تكون على غير الوجه اللائق فلا تقبل، كما روي عن السجّاد ﷺ انّه كان في التلبية وهو على راحلته فخرّ مغشياً عليه فلمّا افاق قيل له في ذلك فقال: خشيت أن يقول لي لا لبّيك ولا سعديك.

[**يمسي وهمّه الشكر**] على ما رزق بالنهار وعلى ما زوي عنه ولم يرزقه.

[**ويصبح وهمّه الذكر**] للّه تعالى امتثالاً لقوله ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اذكروا اللّه ذكراً كثيراً﴾ وقال تعالى: ﴿فاذكروا اللّه كذكركم آبائكم او اشدّ ذكراً﴾ وقال تعالى: ﴿الذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ وقال تعالى:

يبيت حذراً ويصبح فرحاً حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة قرّة عينه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى يمزج الحلم بالعلم والصواب بالعمل تراه قريباً أمله قليلاً زلله

﴿واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخفية﴾ وقال: ﴿ولذكر اللّه اكبر﴾.

[**يبيت حذراً**] عن الغفلة [**ويصبح فرحاً**] بما يرجوه من ثواب اللّه ونعيمه الذي يستدلّ على وصوله إليه كما قال: [**حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة**] وهذا تفسير للمحذور وما به الفرح، وليس مقصوده تخصيص البيات بالحذر والصباح بالفرح كما يقول أحدنا يمسي فلان ويصبح حذراً فرحاً وكذا تخصيصه الشكر بالمساء والذكر بالصباح ان استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحبّ إشارة إلى مقاومته للنفس الأمّارة بالسوء عند استصعابها عليه وقهره لها على ما تركه، وعدم مطاوعته لها في ميولها الطبيعيّة ومحابّها.

[**قرّة عينه فيما لا يزول**] أي: من الكمالات النفسانية الباقية كالعلم والحكمة ومكارم الأخلاق المستلزمة للذات الباقية والسعادة الدائمة، وكنّى بقرّة عينه عن لذّته وابتهاجه لاستلزامهما لقرّ العين أي: بردها برؤية المطلوب.

[**وزهادته فيما لا يبقى**] من متاع الدنيا الفانية.

[**يمزج الحلم بالعلم**] فلا يجهل ولا يطيش.

[**والصواب بالعمل**] فلا يقول ما لا يفعل يامر بما يأتمر به وينهى عما ينتهي عنه، وإذا وعد وفا [**تراه قريباً أمله**] أي: قصيراً لكثرة ذكره الموت.

[**قليلاً زلله**] حتّى انّه يعدّ المباح خطيئة يستغفر اللّه منها فضلاً عن

خاشعاً قلبه قانعة نفسه منزوراً أكله سهلاً أمره حريزاً دينه ميتة شهوته مكظوماً غيضه الخير منه مأمول والشرّ منه مأمون إن كان في الغافلين كتب عند اللّه من الذاكرين يعفو عمّن ظلمه ويعطي من حرمه

المكروه.

[**خاشعاً قلبه**] من تصوّره عظمة ربّه وجلاله [**قانعة نفسه**] بما أعطاه اللّه لا يطلب ما وراء ذلك.

[**منزوراً**] أي: قليلاً نزراً [**أكله**] لما عرفه من أنّ البطنة تذهب بخير الدنيا والآخرة وتزيل الرقّة، وتحدث القسوة والكسل عن العمل.

[**سهلاً أمره**] لا يتكلّف لأحد ولا يكلّف أحداً.

[**حريزاً دينه**] لا يهمل منه شيئاً ولا يطرق إليه خللاً.

[**ميتة شهوته**] استعار الموت لخمود شهوته عمّا حرّم عليه ويعود إلى العفّة.

[**مكظوماً غيضه**] وهو من فضائل القوّة الغضبية، [**الخير منه مأمول**] لكثرة ما يصدر منه من الخير.

[**والشرّ منه مأمون**] لعلم الخلق بعدم قصده للشرور.

[**إن كان في**] عداد [**الغافلين**] عن ذكر اللّه لتكره الذكر باللّسان.

[**كتب عند اللّه من الذاكرين**] لاشتغال قلبه بالذكر وإن تركه باللّسان.

[**يعفو عمّن ظلمه**] والعفو فضيلة تحت الشجاعة وخصّ من ظلمه ليتحقّق عفوه مع قوّة الداعي إلى الانتقام، وكذا قوله: [**ويعطي من حرمه**] وهي فضيلة تحت السخاء.

ويصل من قطعه بعيداً فحشه ليّناً قوله غايباً منكره حاضراً معروفه مقبلاً خيره مدبراً شرّه في الزلازل وقور وفي المكاره صبور وفي الرخاء شكور لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحبّ

[**ويصل من قطعه**] والمواصلة فضيلة تحت العفّة.

[**بعيداً فحشه**] اي: قلّما يخرج الفحش في أقواله إلى ما لا ينبغي.

[**ليّناً قوله**] عند محاورة الناس ووعظهم ومعاملتهم وهو من اجزاء التواضع.

[**غايباً منكره حاضراً معروفه**] وذلك للزومه حدود اللّه.

[**مقبلاً خيره مدبراً شرّه**] هو كقوله الخير منه مأمول والشرّ منه مامون، ويحتمل أن يكون المراد بإقبال خيره اخذه في الازدياد من الطاعة وتشميره فيها وبقدر ذلك يكون ادباره عن الشرّ؛ لأنّ من استقبل أمراً وسعى فيه فقد بعد عمّا يضادّه وأدبر عنه.

[**في الزلازل**] اي: الأمور العظام والفتن الكبار المستلزمة لاضطراب القلوب واحوال الناس [**وقور**] والوقار ملكة تحت الشجاعة والصيغة للمبالغة وكذا قوله [**وفي المكاره صبور**] كناية عن ثباته وعلوّ همّته عن احوال الدنيا [**وفي الرخاء شكور**] لمحبّته لخالقه والمنعم عليه جلّت قدرته فيزداد شكره في رخائه وإن قلّ.

[**لا يحيف على من يبغض**] اي: لا يظلم مع وجود الداعي إلى الظلم وهو البغض لمن يتمكّن ممن حيفه وظلمه.

[**ولا يأثم فيمن يحبّ**] إشارة إلى سلب رذيلة الفجور عنه باتباع الهوى فيمن يحبّ إمّا بإعطائه ما لا يستحقّ أو دفع ما يستحقّ عليه عنه كما يفعله

يعترف بالحقّ قبل أن يشهد عليه لا يضيّع ما استحفظ ولا ينسى ما ذُكِّر ولا ينابز بالألقاب ولا بالجار ولا يشمت بالمصائب

قضاة السوء وأمراء الجور، فالمتّقي لا يأثم بشيء من ذلك مع قيام الداعي وهو المحبّة لمن يحبّه بل يكون على فضيلة العدل على السواء.

[يعترف بالحقّ قبل أن يشهد عليه] لتحرّزه في دينه من الكذب، إذ الشهادة إنّما يحتاج إليها مع إنكار الحقّ، قال تعالى: ﴿وكونوا شهداء للّه ولو على أنفسكم أو الوالدين﴾.

[لا يضيّع ما استحفظ] من أمانة الخلق ولا يفرّط فيما استحفظ من دين اللّه وكتابه لورعه ولزومه حدود اللّه.

[ولا ينسى ما ذُكِّر] من آيات اللّه وعبره وأمثاله، ولا يترك العمل بها لمداومة ملاحظتها وكثرة إخطارها بباله.

[ولا ينابز بالألقاب] لملاحظة ما نهى اللّه عنه بقوله: ﴿ولا تنابزوا بالالقاب﴾ لما فيه من استلزام إثارة الفتن والتباغض بين الناس والفرقة المضادّة لمطلوب الشارع.

[ولا بالجار] لملاحظته وصيّة اللّه تعالى به بقوله: ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ ووصيّة رسول اللّه ﷺ قال: «اوصاني ربّي بالجار حتّى ظننت انّه سيورّثه» ولما في ذلك من الالفة والاتّحاد في الدّين.

[ولا يشمت بالمصائب] لعلمه باسرار القدر وملاحظة لأسباب المصائب وانّه في معرض ان تصيبه فيتصوّر امثالها في نفسه فلا يفرح بنزولها على غيره.

ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحقّ إن صمت لم يغمه صمته وإن ضحك لم يعل صوته نفسه منه في عناء والناس منه في راحة بُعده عمّن تباعد عنه زهد ونزاهة ودنوّه ممّن دنى منه لين ورحمة

[**ولا يدخل في الباطل**] أي: فيما يبعّد عن اللّه من باطل الدنيا.

[**ولا يخرج من الحقّ**] أي عمّا يقرّب إلى اللّه من مطالبه الحقّة لتصوّر شرف غايته.

[**إن صمت لم يغمه صمته**] لوضعه كلاً من الصمت والكلام في موضعه وإنّما يستلزم الغمّ الصمت عما ينبغي من القول وهو صمت في غير موضعه.

[**وإن ضَحك لم يعل صوته**] لغلبة ذكر الموت وما بعده على قلبه وكان رسول اللّه ﷺ اكثر ضحكه التّبسّم وإن بُغي عليه صبر حتّى يكون اللّه هو الذي ينتقم له نظراً إلى ثمرة الصبر ووعد اللّه الكريم حيث قال: ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمّ بغى عليه لينصرنّه اللّه﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾.

[**نفسه**] الأمّارة بالسوء [**منه في عناء**] أي: تعب ومشقّة لمقاومته لها وقهرها ومراقبته إيّاها.

[**والناس منه في راحة**] لأنّه مامون الاذى كما قال اتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه.

[**بُعده عمّن تباعد عنه**] من الناس [**زهد**] فيما في أيدي الناس [**ونزاهة**] عنه لا عن كبر وتعظّم عليهم.

[**ودنوّه ممّن دنى منه لين ورحمة**] ليس تباعده بكبر ولا عظمة ولا دنوّه

فصعق همّام صعقة كانت نفسه فيها فقال له قائل فما بالك أنت يا أميرالمؤمنين يصف فيها المنافقين نحمده على ما وفّق له من الطاعة وذاد من المعصية

مكر وخديعة لهم عن بعض المطالب كما هو عادة الخبيث والمكّار.

قال: [**فصعق همّام صعقة كانت نفسه فيها**] أي: مات في تلك الصعقة فقال اميرالمؤمنين عليه السلام: أمّا والله لقد كنتُ أخافها عليه.

ثمّ قال: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها.

[**فقال له قائل فما بالك أنت يا أميرالمؤمنين**] مع كونك عالماً بما تقول حاملاً لهذه الخطب متصوّراً معانيها ومبانيها، فقال عليه السلام: ويحك، إنّ لكلّ أجل وقتاً لا يعدوه، أي: لا يتجاوزه، فهملاً لا تعد لمثلها فإنّما نفث الشيطان على لسانك، أي: تكلّم بلسانك، وأصله النفخ في الفم وهو أقلّ من التفل إذ لا يلزم من موت العامي عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ نفسه؛ لأنّ انفعال العامي ذي الاستعداد التام للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند كلام ـــــ نفسه.

ومن خطبة له عليه السلام

[**يصف فيها المنافقين**] الذين لا يذكرون الله إلا قليلاً.

[**نحمده على ما وفّق له من الطاعة**] التي هي السبب في الفوز في الدارين والسعادة في النشأتين.

[**وذاد**] اي: طرد عنه [**من المعصية**] بحسم أسبابها وعدم الإعداد لها.

ونسأله لمنّته تماماً وبحبله اعتصاماً ونشهد انّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله خاض إلى رضوان اللّه تعالى كلّ غمرة وتجرّع فيه كلّ غصّة وقد تلوّن له الادنون وتألّب عليه الأقصون وخلعت إليه العرب أعنّتها

[**ونسأله لمنّته تماماً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

[**وبحبله اعتصاماً**] وحبله هو الدِّين القويم العاصم لمن تمسّك به عن الهوي في مهاوي الهلاك ودركات الجحيم.

[**ونشهد أنّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده**] المصطفى [**ورسوله**] المرتضى.

[**خاض إلى رضوان اللّه تعالى كلّ غمرة**] والغمرة من كلّ شيء: معظمه، واستعارها لمعظم الشرور والمكاره المتكاثفة المجتمعة حين بعثه ملاحظة لشبهها بغمرة الماء، ورشح بذكر الخوض وكنّى به عن مقاساته للمتاعب الكثيرة وملاقاته للنوائب الشديدة من المشركين في بدو دوعته.

[**وتجرّع فيه كلّ غصّة**] كنّى بها عن عوارض الغموم له من ملاقاة تلك المكاره.

[**وقد تلوّن له الأدنون**] أي: الأقربون كناية عن تغيّر قلوب أقاربه وأرحامه عليه بضروب التغيّرات.

[**وتألّب**] أي: اجتمع، [**عليه الأقصون**] أي: الأبعدون عنه نسباً من العرب وانضمّوا واجتمعوا من اقصى البلدان على محاربته.

[**وخلعت إليه العرب أعنّتها**] مثل معناه اوجفوا إليه مسرعين لمحاربته لانّ الخيل إذا فلّت اعنّتها كان اسرع لجريها.

وضربت إلى محاربته بطون رواحلها حتّى أنزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار وأسحق المزار

[**وضربت إلى محاربته بطون رواحلها**] كناية عن إسراعهم نحوه للحرب؛ لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها تساق كانت أسرع، وفيه إيماء إلى أنّهم اتوه فرساناً وركباناً متسرّعين إلى حربه.

[**حتّى انزلت بساحته عداوتها**] اي: حروبها، مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب؛ لأنّ العداوة سبب الحرب.

[**من أبعد الدار وأسحق المزار**] مكان سحيق أي: بعيد، والسحيق بالضمّ البعد والمزار المكان الذي يزار منه أو فيه.

قال ابن أبي الحديد: ومن قرأ كتب السّير علم ما لاقى رسول اللّهﷺ في ذات اللّه سبحانه من المشقّة واستهزاء قريش به في أوّل الدعوة ورميهم إيّاه بالحجاة حتّى أدموا عقبيه وصاح الصبيان به وفرث الكرش على رأسه وفتلهم الثوب في عنقه وحصره وحصر اهله في شعب بني هاشم سنين عديدة محرّمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتّى كادوا يتلفون جوعاً لولا انّ بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب غيره يسرق القليل من الدقيق والتمر فيلقيه إليهم ليلاً ثمّ ضربهم اصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق وطردهم إيّاهم عن شعاب مكة، حتّى خرج منهم إلى الحبشة وخرج هوﷺ متحيّراً منهم تارة بثقيف وتارة ببني عامر وتارة بربيعة الفرس وبغيرهم، ثمّ اجتمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتّى هرب منهم لايذاً بالاوس والخزرج تاركاً اولاده واهله وما حوته يده ناجياً بحشاشة نفسه، حتّى وصل إلى المدينة فناصبوه الحرب ورموه بالمياسير وضربوا إليه آباط

أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وأحذّركم أهل النفاق فإنّهم الضالّون المضلّون والزالّون المزلّون يتلوّنون ألواناً ويفتنون افتناناً ويعمدونكم بكلّ عماد ويرصدونكم بكلّ مرصاد قلوبهم دويّة وصفاحهم نقيّة

الإبل ولم يزل منهم في عناء شديد وحروب متصلة حتى اكرمه اللّه تعالى ونصره وايّد دينه واظهر دينه.

[**أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه**] التي هي أصل النجاة.

[**وأحذّركم أهل النفاق فإنّهم الضالّون**] المنحرفون عن سبيل اللّه لعدم الاهتداء إليها، [**المضلّون**] لغيرهم عنها بالشبهات الباطلة، وكذا قوله: [**والزالّون المزلّون**] يقال: زلّ فلان عن الأمر اي: اخطاه، وازلّه غيره.

[**يتلوّنون ألواناً**] كناية عن تغيّراتهم في أقوالهم وافعالهم من حال إلى حال بحسب أغراضهم الفاسدة، فيلقون كلاً بوجه ولسان غير الآخر. وكذا قوله: [**ويفتنون افتناناً**] اي: تتشعّب اقوالهم وحالاتهم بحسب تشعّب اغراضهم.

[**ويعمدونكم**] اي: يهدونكم ويفدحونكم [**بكلّ عماد**] اي: بامر فادح وخطب مؤلم، واصل العمد انشداخ سنام البعير.

[**ويرصدونكم**] اي: يعدّون المكاره لكم [**بكلّ مرصاد**] اي: يتّبعون وجوه الحيلة في هلاككم واذاكم.

[**قلوبهم دويّة**] يقال قلب دو بالتخليف اي: فاسد من دآه أصابه، [**وصفاحهم نقيّة**] والغرض اشتمال نفوسهم على الداء النفساني من الحسد والحقد والمكر والخديعة وإعمال الحيلة مع إظهار البشاشة والصداقة والمحبّة والنصيحة لهم كما هو شان المنافق، واراد بصفاحهم وجوههم وبنقائها

يمشون الخفاء ويدبون الضراء وصفهم دواء وقولهم شفاء وفعلهم الداء العياء حسدة الرخاء مؤكّدوا البلاء ومقنطوا الرجاء لهم بكلّ طريق صريع وإلى كلّ قلب شفيع

سلامتها عن شرٍّ ظاهر.

[**يمشون الخفاء**] أي: في الخفاء وكذا قوله: [**ويدبون الضراء**] والضرّاء شجر الوالدي الملتفّ وهما مثلان لمن يختل غيره ويخدعه، كناية عن كون حركاتهم القولية والفعلية ختلاً وخداعاً.

[**وصفهم دواء وقولهم شفاء**] أي: أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين من الموعظة والأمر بالتقوى وطاعة اللّه الذي هو دواء الغي والضلال وشفاء منهما.

[**وفعلهم الداء العياء**] الذي يعيي الإنسان، أي: أفعالهم أفعال الفاسقين الضالّين من معصية اللّه التي هي الداء الأكبر الذي أعيا الأطباء.

[**حسدة الرخاء**] أي: إن رأوا أحداً في رخاء حسدوه.

[**مؤكّدوا البلاء**] أي: إذا رأوا به بلاء أكّدوه بالسّعاية والتألّب عليه وإغراء السلطان، وفي رواية مولّدوا أي يولّدون البلاء توليداً.

[**ومقنطوا الرجاء**] أي: إذا رجاهم راج فشأنهم أن يقنطوه ويؤيسوه منه كما هو شأن المنافق الكذّاب أن يقرّب البعيد ويبعّد القريب.

[**لهم بكلّ طريق صريع**] كناية عن كثرة من يقتلونه أو يؤذونه لخديعتهم ومكرهم وكنّى بالطريق إمّا عن كلّ مقصد قصدوه أو عن كلّ حيلة احتالوها ومكر مكروه فإنّه لابدّ ان يستلزم اذى [**وإلى كلّ قلب شفيع**] يصف حلاوة السنتهم وشدّة ملقهم فقد استحوذوا على قلوب الناس بالرياء والتصنّع

ولكلّ شجو دموع يتقارضون الثناء ويترقبون الجزاء إن سألوا ألحفوا وإن عذلوا كشفوا وإذا حكموا أسرفوا قد أعدّوا لكلّ حقّ باطلاً ولكلّ قائم مايلاً

فيصادقون كلّ أحد حتّى المتعادين ليتوصّلوا بذلك إلى إثارة الفتن وإيقاع الشرّ بينهم.

[**ولكلّ شجو**] أي: حزن [**دموع**] أي: يبكون تباكياً وينوحون عند كلّ شجو لتوصّلوا بذلك إلى أغراضهم، وإن كان أهل الشجو أعداء.

[**يتقارضون الثناء**] أي: يثني زيد على عمرو ويثني عمرو عليه في ذلك المجلس أو يبلغه فيثني عليه في مجلس آخر ماخوذ من العوض.

[**ويترقبون الجزاء**] يرتقب كلّ واحد منهم على ثنائه ومدحه لصاحبه جزء منه إمّا بالمال أو بامر آخر.

[**إن سألوا ألحفوا**] أي: ألحّوا في السؤال، وهو من المذام، قال تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾.

[**وإن عذلوا كشفوا**] أي: إذا عذلك أحدهم كشف لك عيوبك في ذلك العذل وجبهك بها وربّما ذكرها بمحضر من لا تحبّ ذكرها معه، وليسوا كالناصح الذي يعرّض بالذنب عند العتاب تعريضاً لطيفاً.

[**وإذا حكموا أسرفوا**] أي: إذا ولي أحدهم ولايةً، أسرف فيها بالظلم والانهماك في ماكله ومشربه.

[**قد أعدّوا لكلّ حقّ باطلاً**] من الشُّبه يموّهون عليه فيقيمون الباطل في معارضة الحقّ والشبهة في مصادمة الحجّة.

[**ولكلّ**] دليل [**قائم**] قول صحيح ثابت احتجاجاً [**مايلاً**] مضاداًّ لذلك

ولكلّ حيّ قاتلاً ولكلّ باب مفتاحاً ولكلّ ليل مصباحاً يتوصّلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم يقولون فيشبّهون ويصفون فيموّهون

الدليل وكلاماً مضطرباً مضاداً لذلك القول.

[**ولكلّ حيّ قاتلاً**] أي: سبباً يميتونه به، والحيّ أعمّ من الإنسان هنا، بل كلّ أمر يحيى ويقوم إذا أرادوا إفساده.

[**ولكلّ باب مفتاحاً**] من الحيل والخديعة، أي: ألسنتهم ذلقة قادرة على فتح المغلقات للطف توصّلهم.

[**ولكلّ ليل مصباحاً**] أي: أعدّوا لكلّ أمر مظلم كلاماً ينيره ويضيئه ويجعله كالمصباح، استعار المصباح للرأي الذي يدخلون به في ذلك الأمر المظلم ويهتدون به إلى مقاصدهم، كما أشار عمرو بن العاص على معاوية برفع المصاحف ودعوتهم أهل العراق إلى المحاكمة إلى كتاب اللّه.

[**يتوصّلون إلى الطمع باليأس**] أي: بإظهار اليأس مما في أيدي الناس والزهد فيه وسيّما الناس من أخذ الدنيا بالدّين وجعل الدين فخّاً لتحصيل الدنيا.

ثمّ قال إنّما فعلوا ذلك [**ليقيموا به أسواقهم**] أي: لتنفق سلعتهم، استعار الأسواق لأحوالهم في معاملة الخلق من أخذ وإعطاء، فإنّ فعلهم ذلك يقيمها بين الناس ويروّجها عليهم، وكذا قوله [**وينفقوا به أعلاقهم**] جمع علق وهو السّلعة الثمينة، استعارة لما يزعمون أنّه من نفيس آرائهم وحركاتهم الخارجة عن أومر اللّه.

[**يقولون فيشبّهون ويصفون فيموّهون**] أي: يوقعون بأقوالهم الشبه في

قد هيّئوا الطريق وأصلعوا المضيق فهم لمّة الشيطان وحمة النيران
الحمد للّه الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العيون من عجائب قدرته

القلوب ويموّهون عليهم الباطل في صورة الحقّ.

[قد هيّئوا الطريق] اي: قد عرفوا كيف يسلكون في مقاصدهم في الآراء والحيل اي: هيّئوا طريق الباطل لتسلك بتمويهاتهم.

[وأصلعوا المضيق] امالوه وجعلوه صلعاً اي: معوجّاً، اي: جعلوا المسلك الضيّق معوجّاً بكلامهم وتلبيسهم، فإذا أسلكوه إنساناً اعوجّ اعوجاجه وكنّى بالمضايق عن دقايق مداخلهم في الأمور وبتعويجها عن انّهم إذا أرادوا الدخول في امر مضيق أظهروا انّهم يريدون غيره تعمية على الغير وتلبيساً أن يقف على وجه الحيلة فيفسد مقصودهم.

[فهم لمّة الشيطان] اي: جماعته واتباعه، اللمة بالتخفيف: الجماعة.

[وحمة النيران] الحمة بالتخليف أيضاً: اسم السمّ، استعاره لعظم شرورهم ووجه الشبه استلزامهما للأذى البالغ.

ومن خطبة لهﷺ

[الحمد للّه الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العيون من عجائب قدرته] المقل جمع مقلة: وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، والمراد بها العقول مجازاً او البصائر، والمراد بآثار السلطان وجلال الملك مثل خلق الأفلاك ودخول بعضها في بعض، وتدويرها وخلق

وردع هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته وأشهد أن لا إله إلا اللّه شهادة إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان وأشهد أنّ محمداً عبده المصطفى ورسوله المجتبى أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه أعلام الهدى دارسة

الإنسان وما اشتمل عليه من عجائب الخلقة وبدايع الصّنعة وإحكام الأعضاء وإتقان الجوارح، وخلق النبات والمعادن وترتيب العناصر وطبقاتها وسائر ملكوت السموات والأرضين وترتيب العوالم على الوجه النظام الأتم الأكمل مما هو عجب عجيب وامر غريب كما فصّلنا ذلك في كتابنا عجائب الأخبار ونوادر الآثار.

[**وردع**] اي: زجر [**هماهم النفوس**] اي: افكارها اي: ما يخطر للنفوس، [**عن عرفان كنه صفته**] وردعه لها استلزام كماله المطلق عجزها عن إدراك حقيقته.

[**وأشهد أن لا إله إلا اللّه شهادة إيمان**] يطابق القول فيها العقد القلبي واللّسان الجنان.

[**وإيقان**] اي: يكون اعتقادها يقيناً وهو اعتقاد ان لا إله إلا اللّه مع اعتماد انّه لا يمكن ان يكون ذلك المعتقد إلا كذلك.

[**وإخلاص**] بان يحذف المعتقد كلّ امر سواه عن درجة الاعتبار ولا يلاحظ معه غيره.

[**وإذعان**] وهو ثمرة ذلك الاخلاص وكماله ويتفاوت بتفاوته ويعود إلى سائر الطاعات والعبادات التي هي حقوق تلك الكلمة وتوابعها.

[**وأشهد انّ محمداً**] ﷺ [**عبده المصطفى ورسوله المجتبى أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه**] والحال انّ [**أعلام الهدى دارسة**] والأعلام

ومناهج الدين طامسة فصدع بالحقّ ونصح للخلق وهدى إلى الرشد وأمر بالقصد واعلموا عباد اللّه أنّه لم يخلقكم عبثاً ولم يرسلكم هملاً علم مبلغ نعمه عليكم وأحصى إحسانه إليكم فاستفتحوا

للنار والجبال يستدلّ بها في الطرقات، استعارها لأئمة الدّين الهادين إلى سبيل اللّه.

[**ومناهج الدين**] والمناهج: السبل الواضحة، وأراد بها قوانى الشريعة التي تسلك فيها جزئيات الأحكام.

[**طامسة**] كدارسة، مستعاران لاضمحلال أعلام الهدى ومناهج الدّين قبل النبوّة.

[**فصدع بالحقّ**] أي: ظهر وتبيّن، وأصله الشقّ يظهر ما تحته.

[**ونصح للخلق**] بردّهم عن غوايتهم إلى صراط العزيز الحميد.

[**وهدى إلى الرشد**] في سلوكه.

[**وأمر بالقصد**] أي: العدل والاستقامة عليه ﷺ.

[**واعلموا عباد اللّه أنّه لم يخلقكم عبثاً**] بلا غرض ولا غاية.

[**ولم يرسلكم هملاً**] أهملت الإبل أي: ارسلتها سدى بلا راع، قال تعالى: ﴿أفحسبتم انّما خلقناكم عبثاً وانّكم إلينا لا ترجعون﴾، وقال تعالى: ﴿ايحسب الإنسان أن يترك سدى﴾.

[**علم مبلغ نعمه عليكم**] كمّية وكيفية، وكلّ من علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتد نقمته عليه عند عصيانه له.

[**وأحصى إحسانه إليكم**] فهو عالم بمجمله ومفصّله وجزئيه وكلّيه.

[**فاستفتحوا**] أي: اطلبوا منه أن يفتح عليكم أبواب بركاته ونصره.

واستنجحوه واطلبوا إليه واستمنحوه فما قطعكم عنه حجاب ولا علّق عنكم دونه باب وأنّه لبكلّ مكان وفي كلّ حين وزمان وأوان ومع كلّ إنس وجان لا يثلمه العطاء ولا ينقصه الحباء ولا يستنفده سائل ولا يستقصيه نائل

[واستنجحوه] أي: اطلبوا منه نجاح حاجاتكم.

[واطلبوا إليه] أي: اطلبوا الهداية إلى حضرته ووجوه مرضاته.

[واستمنحوه] بكسر النون أي: اطلبوا منه المنحة وهي العطيّة، وروي استميحوه بالياء من اسمحت الرجل: طلبت عطائه، كلّ ذلك بالشكر وسائر العبادات التي يحصل بها الاستعداد لإفاضة رحمته.

[فما قطعكم عنه حجاب] يمنعكم عنه، **[ولا علّق عنكم دونه باب]** وفيه تنزيه له عن صفات المخلوقين وتقريب له إلى الطالبين ﴿وإذا سالك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾.

[وأنّه لبكلّ مكان وفي كلّ حين وزمان وأوان ومع كلّ إنس وجان] إذ هو تعالى ليس بمتحيّز فلا حجاب دونه ولا باب وقد احاط بكلّ شيء قدرة وعلماً، فالاشياء كلّها بالنسبة إليه على حدّ سواء، ﴿وهو معكم اينما كنتم﴾، ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا﴾.

[لا يثلمه] بالكسر اي: لا ينقص قدرته **[العطاء ولا ينقصه الحباء]** أي: النوال.

[ولا يستنفده] اي: لا يفنيه **[سائل ولا يستقصيه نائل]** اي: لا يبلغ الجود اقصى مقدوره وإن عظم الجود لأنّه قادر على ما لا نهاية له، وذلك

لا يلويه شخص عن شخص ولا يلهيه صوت عن صوت ولا يحجزه هبة عن سلب ولا يشغله غضب عن رحمة ولا تولهه رحمة عن عقاب ولا تخبّئه البطون عند الظهور

لأنّ الثلم والنقصان والاستنفاد والاستقصاء على المقدور يستلزم النهاية والحاجة المستلزمين للإمكان ولا شيء من واجب الوجود بممكن وكلّ من لحقته هذه الأحوال ممكن فواجب الوجود لا تلحقه هذه الأحوال.

وكذا قوله [**لا يلويه**] أي: لا يصرفه، [**شخص عن شخص**] أي: لا يوجب ما يفعله مع شخص إعراضاً وذهولاً عن شخص آخر كما في المخلوق.

[**ولا يلهيه صوت عن صوت**] أي: لا يشغله، [**ولا يحجزه**] بالضمّ [**هبة عن سلب**] أي: لا يمنعه أي: ليس كأحدنا يصرف اهتمامه بعطيّة زيد عن سلب مال عمرو حال ما يكون مهتماً بتلك العطية.

[**ولا يشغله غضب عن رحمة ولا تولهه رحمة عن عقاب**] أي: لا يحدث الرحمة لمستحقّها عند لهو وهو التحيّر والتردّد بصرفه عن عقاب المستحقّ، وذلك انّ الواحد منّا إذا رحم إنساناً حدث عنه رقه خصوصاً إذا توالت منه الرحمة، وبرهان هذه الأحكان انّ الصرف واللّهو يستلزمان الغفلة عن أمر والفطنة لغيره بعد الغفلة وكذلك حجز الهبة ومنعها لها عن سلب نعمة أخرى وشغل الغضب له عن الرحمة يستلزمان قصور القدرة وضعفها أو تعلّقها بمحلّ جسماني، وذلك مستلزم للنقصان المستلزم للحاجة والإمكان المنزّه عنهما، وكذا توليه الرحمة عن العقاب يستلزم رقة الطبع ورحمة النفوس البشرية المستلزمة لعوارض الخشية وجلال اللّه منزّه عنها.

وقوله: [**ولا تخبّئه البطون عند الظهور**] أي: لا يخفيه بطون حقيقة

ولا يقطعه الظهور عن البطون قرب فنأى وعلا فدنا وظهر فبطن وبطن فعلن ودان ولم يدن لم يذرء الخلق باحتيال ولا استعان بهم لكلال

عن العقول وخفائه عن العيون عن ظهوره للبصائر في صور آثاره وملكوت قدرته أو المعنى أنّه ليس في شيء حتّى يخفى فيه عن الظهور للعقول أو عن الظهور على الأشياء والاطّلاع إليها.

[**ولا يقطعه الظهور عن البطون**] أي: لا يقطعه كونه ظاهراً أو عالماً بالأمور الظاهرة عن ان يكون باطناً لا يطّلع العقل عليه أو عن علمه ببواطن الأمور وحقائقها.

[**قرب**] بعلمه وقدرته من الأشياء قرب العلّة من معلولها إذ احاط بكلّ شيء قدرةً وعلماً ونحن أقرب من حبل الوريد.

[**فنأى**] أي: بَعُد بحقيقته عن إدراك العقول والحواس، وفي الخبر «انّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار».

[**وعلا فدنا**] فعلوّه شرفه بالقياس إلى آثاره شرف العلّة على المعلول ودنوّه منها قربه.

وقوله: [**وظهر فبطن وبطن فعلن**] تأكيد لما قبله.

[**ودان**] أي: قهر وغلب كلّ ممكن.

[**ولم يدن**] ولم يُقْهَر ولم يُغْلَب.

[**لم يذرء الخلق باحتيال**] أي: لم يخلقهم بحيلة توصّل بها إلى إيجادهم، بل أوجدهم على حسب علمهم بالمصلحة خلقاً مخترعاً من غير سبب ولا واسطة.

[**ولا استعان بهم لكلال**] أي: لا عياء وعجز لاستلزام ذلك تناهي

أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه فإنّها والزمام والقوام فتمسّكوا بوثايقها واعتصموا بحقائقه تؤل بكم إلى أكنان الدعة وهي أوطان السعة و معاقل الحرز و منازل العزّ في يوم تشخص فيه الابصار وتظلمّ له الأقطار

القوّة المستلزمة للجسمية.

[**أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه فإنّها**] اصل النجاة [**والزمام والقوام**] إذ باعتبار كونها قائدة للعبد إلى طريق الحقّ مانعة له عن الجور إلى طرف الباطل كالزمام المانع للناقة من الخبط وباعتبار كونها مقيمة للعبد في سلوك سبيل اللّه قواماً أقيم المصدر مقام اسم الفاعل.

[**فتمسّكوا بوثايقها**] أي: بما به يوثق منها وهو سائر أنواع العبادات التي هي أجزائها، والتمسّك بها يعود إلى لزومها والمواظبة عليها.

[**واعتصموا بحقائقه**] أي: بالخالص منها دون المشوب بالرياء والنفاق، فإن الإلتجاء إلى خالصها هو المخلّص من عذاب اللّه.

[**تؤل بكم**] بالجزم في جواب الأمر، أي: ترجع بكم [**إلى أكنان الدعة**] أي: مواطن الراحة من الآلام الحسّية والعقلية، وهي غرفات الجنّة ومنازلها.

[**وهي أوطان السعة**] أيضاً من ضيق الأبدان وضنك بيوت النيران، [و] هي [**معاقل الحرز**] المانعة من عذاب اللّه، [و] هي [**منازل العزّ**] في جوار اللّه [**في يوم تشخص فيه الأبصار**] متعلّق بتؤل واليوم يوم القيامة، وتشخص الأبصار تبقى مفتوحة لا تطرف.

[**وتظلمّ له الأقطار**] أي: الجوانب، قال تعالى: ﴿إنّما نؤخّرهم ليوم

وتعطّل منه صروم العشـار وينفخ في الصـور وتزهق كلّ مهـجة وـــــ كلّ لهجة وتذلّ الشمّ الشوامخ والصمّ الرواسخ فيصير صلدها أسراباً رفرفاً ومعهدها قاعاً سملقاً فلا شفيع يشفع ولا حميم يدفع

تشخص فيه الأبصار﴾.

[وتعطّل منه صروم العشار] والصروم جمع صرم وصرمة وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين والعشار النوق التي عليـها من يوم ارسل عليها الفحل عشرة اشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمهـا حتّى تضع الواحدة عشراً والوصف إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإذا العشار عطّلت﴾.

[وينفخ في الصور] إشارة إلى قـوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فـصعق من في السموات ومن في الأرض﴾.

[وتزهق] اي: تهلك **[كلّ مهجة وـــــ كلّ لهجة]** أي: يخرس كلّ متكلّم قال تعـالى: ﴿لا يتكلّمون إلا من اذن له الرحمن وقـال صواباً﴾ وقال تعالى: ﴿اليـوم نختم على افـواههـم وتكلّمنا أيديهم وتشهـد ارجلهم﴾ وقال تعالى: ﴿لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.

[وتذلّ الشمّ الشوامخ] اي: الجـبـال العاليـة، إشـارة إلى قـوله تعـالى: ﴿ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نسفاً فيذرها قلعاً صفصفاً﴾.

[والصمّ الرواسخ] تاكيد لسابقه **[فيصير صلدها]** وهو الصلب الشديد الصلابة منها **[أسراباً]** وهو ما يتـرائى بالنهار فـيظنّ ماء **[رفرفاً]** اي: خفيفاً **[ومعهدها]** ما كان مساكنها للناس.

[قاعاً] اي: ارضـاً خاليـة **[سملقاً]** اي: صـفصـفاً مستـوياً ليس بعض ارفع وبعضه اخفض **[فلا شفيع يشفع ولا حميم]** اي: لا قريب **[يدفع]**

ولا معذرة تنفع بعثه حيث لا علم قائم ولا منار ساطع ولا منهج واضح أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وأحذّركم الدنيا فإنّها دار شخوص ومحلة تنغيص، ساكنها ظاعن

العذاب عن قريبه.

[**ولا معذرة تنفع**] قد حكى اللّه عنهم قولهم ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾، وقال تعالى: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾.

ومن خطبة له عليه السلام

يصف فيها بعثة النبي صلى الله عليه وآله حين ظهور الأحوال التي كان العالم عليها ونبّه على فضلها وفضيلة الرسول صلى الله عليه وآله:

[**بعثه حيث لا علم قائم ولا منار ساطع**] استعار لفظ العلم والنار للهداة إلى اللّه الداعين إليه وعدم قيامه وسطوعه لعدمهم زمان الفترة، والساطع: المرتفع.

وقوله: [**ولا منهج واضح**] اي: لا طريق إلى اللّه خالص عن شوب الاباطيل.

[**أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه**] التي هي أصل السعادة في الدارين والفوز في النشاتين [**وأحذّركم الدنيا فإنّها دار شخوص**] اي: رحلة إلى ضرورة، والارتحال عنها بالموت.

[**ومحلة تنغيص**] لانّ لذّاتها على تقدير كونها لذّات وليست بدفع آلام منغّصة [**ساكنها ظاعن**] اي: مسافر.

وقاطنها بائن يمتدّ بأهلها ميدان السفينة تصفقها العواصف في لجج البحار فمنهم الفرق والوبق ومنهم الناجي على متون الأمواج تحفزه الرياح بأذيالها وتحمله على أهوالها فما غرق منها فليس بمستدرك وما نجى منها فإلى مهلك.

[وقاطنها بائن] أي: المقيم بها مفارق وإن ظنّ أنّه مقيم وهو كالتنفير لقوله دار شخوص.

[يمتدّ بأهلها ميدان السفينة] أي: تتحرّك ويمثل كحركاتها **[تصفقها العواصف]** أي: تضربها الرياح القوية بشدّة ضرباً بعد ضرب.

[في لجج البحار] جمع لجّة وهي معظم البحر.

[فمنهم الفرق والوبق] الهالك من وبق الرجل بالفتح يبق وبوقاً هلك والموبق مفعل منه كالموعد وفيه لغة أخرى وبق الرجل يوبق وبقاً ولغة ثالثة وبق الرجل بالكسر تبق بالكسر.

[ومنهم الناجي على متون الأمواج تحفزه الرياح] أي: تدفعه **[بأذيالها وتحمله على أهوالها فما غرق منها فليس بمستدرك وما نجى منها فإلى مهلك]** ضرب ﷺ مثلاً للدنيا ولأحوال أهلها فيها مثلاً بالسفينة عند عصف الريح ومثل تصرّفاتها وتغيّراتها بميدان السفية وحركاتها واضطرابها ورميهم فيها بالأمراض والحوادث التي هي مظنّة الهلاك بالأحوال التي تلحق أهل السفينة عند هبوب الريح العاصف حال كونها في لجج البحار، ومثل انقسامهم عند بعض تلك الحوادث ونزولها بهم إلى ميت بها لا يرجو له عوده وإلى مريض يرجى سلامته بانقسام ركّاب السفينة عند عصف الريح عليها إلى غريق هالك وإلى ناجي ومثل الناجي من بعض الأمراض الذي تأخّر موته إلى

عباد اللّه الآن فاعملوا والألسن مطلقة والأبدان صحيحة والأعضاء لدنة والمنقلب فسيح والمجال عريض قبل إزهاق الفوت وحلول الموت تخفّفوا عليكم نزوله ولا تنتظروا قدومه

مرض آخر فلأتى من أهوال الدنيا في تلك المدّة ما لاقى ثمّ لحقه الموت بالآخرة بالناجي من الغرق الذي تحمله الأمواج وتدفعه الرياح ويقاسي أهوال البحر وشدائده، ثمّ بعد خلاصه منه لابدّ له من وقت هو أجله ومرض هو المهلك، أي: محلّ هلاكه، ثمّ أمر عليه السلام بالعمل وذكر الأحوال التي يمكن فيها ومعها العمل فقال:

[**عباد اللّه الآن فاعملوا والألسن مطلقة**] فانتهزوا الفرصة في طلاقتها بذكر اللّه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر التكاليف المتعلّقة بها لأنّ المحتضر يعقل لسانه وكذا قوله: [**والأبدان صحيحة**] لأنّ المحتضر سقيم البدن.

[**والأعضاء لدنة**] أي: ناعمة طرية؛ لأنّ زمان الشيخوخة والهرم تيبس الأعصاب.

[**والمنقلب فسيح**] وهو محلّ التصرّف والتقلّب وكنّى به عن وقت الصحّة والشباب.

[**والمجال عريض**] أي: وفي الأجل مهلة قبل أن يضيق الوقت عليكم قبله.

[**قبل إزهاق الفوت**] وهو فوات الأمر، وبعد استدراكه عليكم والمزهق الذي أدرك ليقتل [**وحلول الموت**] تاكيد لما قبله.

[**تخفّفوا عليكم نزوله ولا تنتظروا قدومه**] أي: اعملوا عمل من يشاهد

ولقد علم المستحفظون من أصحاب رسول الله ﷺ إنّي لم أرد على الله تعالى ولا على رسوله ساعة قط ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام نجدة أكرمني الله بها

الموت حقيقة لا عمل من ينتظره انتظاراً وتطاول الأوقات تطاوله فإنّ التسويف داعية التقصير.

ومن خطبة له عليه السلام

[**ولقد علم المستحفظون من أصحاب رسول الله ﷺ**] وهم أهل البيت الذين استحفظوا كتاب الله ودينه، أي: جعلوا حفظة له وأودعوا إيّاه.

[**إنّي لم أرد على الله تعالى ولا على رسوله ساعة قط**].

قال ابن أبي الحديد: الظاهر انّه يرمز إلى أُمور وقعت من غيره، ثمّ ذكر اعتراض عمر في صلح الحديبية وغيره.

[**ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام**] كيوم بدر وحنين وغيرهما. [**نجدة أكرمني الله بها**] والنجدة فضيلة تحت الشجاعة ونصبها على المفعول له.

قال ابن أبي الحديد: روى المحدّثون انّ رسول الله ﷺ لما ــــــ يوم أحد ونادى الناس: قتل محمد! رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى إلا انّه حي فصمدت له فقال: اكفني هذه فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها، ثمّ صمدت له كتيبة أخرى فقال: يا عليّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها، ثمّ صمدت له كتيبة ثالثة فقال: يا علي اكفني هذه،

ولقد قبض رسول الله ﷺ وإنّ راسه لعلى صدري وقد سالت نفسه فامررتها على وجهي ولقد ولّيت غسله ﷺ والملائكة أعواني

فحمل عليها فهزمها وكان ﷺ بعد ذلك يقول قال لي جبرئيل: يا محمد إنّ هذه هي المواساة! فقلت: ما يمنعه وهو مني وأنا منه، فقال جبرئيل: وانا منكما، وروى المحدّثون ايضاً انّ المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي، فقال ﷺ لمن حضره: الا تسمعون؟! هذا صوت جبرئيل، وامّا يوم حنين فثبت معه في نفر يسير من بني هاشم بعد ان ولّى المسلمون الأدبار وحامى عنه وقتل قوماً من هوازن بين يديه حتّى تابت إليه الأنصار وانهزت هوازن وغنم أموالها وامّا يوم خيبر فقصّته مشهورة.

ثمّ قال ﷺ: **[ولقد قبض رسول الله ﷺ وإنّ رأسه لعلى صدري]** قيل: أراد أنّه كان على ركبتيه فإذا انكبّ عليه كان على صدره، وقيل: أراد تسنيده حين اشتداد علّته.

[وقد سالت نفسه] الشريفة في كفّي **[فامررتها على وجهي]** قيل: أراد دمه، وأنّه ﷺ قاء عند موته دماً يسيراً فمسح علي ﷺ بذلك الدم وجهه، وقد روي انّ أبا طيبة الحجّام شرب دمه ﷺ حين حجمه فقال له: إذن لا ــــــــ بطنك.

[ولقد ولّيت غسله ﷺ والملائكة أعواني] فكان ﷺ هو الذي يغسّله والفضل بن العباس يصبّ الماء عليه وروي انّه ﷺ عصّب عيني الفضل حين صبّ الماء، وروي عنه ﷺ انّه قال: لا يبصر احد عورتي غيرك إلا عمي، وقال ﷺ: ما قلّبت منه عضو إلا وانقلب لا اجد له ثقلاً.

ــــــــ الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون حتّى واريناه في ضريحه فمن ذا أحقّ به منّي حيّاً وميّتاً فانفذوا إلى بصائركم ولتصدق نيّاتكم في جهاد عدوّكم فوالّذي لا إله إلا هو إنّي لعلى جادّة الحقّ وأنّهم لعلى مزلّة الباطل

[**ــــــــ الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج**] والملأ: الجماعة، يقول يهبط قوم من الملائكة ويصعد قوم.

[**وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون**] عليه [**حتّى واريناه في ضريحه**] الهينمة: الصوت الخفي، والضريح: الشقّ في القبر، يقول ارتفع ضجيج الملائكة ونحيبهم سمعت ذلك ولم يسمعه من أهل الدار غيري.

[**فمن ذا أحقّ به منّي حيّاً وميّتاً**] منصوبان على الحال من الضمير المجرور في به، أي: أيّ الناس أحقّ برسول اللهﷺ حال حياته وحال وفاته منّي؟

قال ابن أبي الحديد: وهل أره بهذا الكلام أنّه أحقّ بالخلافة بعده وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان في الدنيا.

[**فانفذوا إلى بصائركم**] أي: أسرعوا إلى الجهاد على عقايدكم التي انتم عليها.

[**ولتصدق نيّاتكم في جهاد عدوّكم**] أي: لا يدخلنّ الشكّ والريب في قلوبكم.

[**فوالّذي لا إله إلا هو إنّي لعلى جادّة الحقّ وأنّهم لعلى مزلّة الباطل**] ابدل الجادّة بالمزلّة إذ الباطل لا يوصف بالجادة فعبّر بلفظ المزلة وهو الموضع الذي يزلّ فيه الإنسان كالمزلقة موضع الزلق والمغرقة موضع الغرق والمهلكة موضع الهلاك.

يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ويعلم معاصي العباد في الخلوات، واختلاف النينان في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات، وأشهد أنّ محمداً صلى الله عليه وآله نجيب اللّه، وسفير وحيه، ورسول رحمته،

ومن خطبة له عليه السلام
في توحيد الباري وصفاته الكمالية ونعوته الجلالية

[يعلم عجيج الوحوش في الفلوات] العجيج: رفع الصوت، تنبيه على إحاطة علمه بجزئيات الموجودات على اختلافها وكثرتها ونبّه بعجيج الوحوش على أنّه تعالى يعلمها حين تجيء إليه من جدب الأرض وقلّة العشب فكأنّها تتضرّع إليه بالعجيج ليكون الإنسان أولى بذلك الفزع إليه.

[ويعلم معاصي العباد في الخلوات] تنفيراً عن المعاصي في الخلوة التي هي مظنّتها.

[واختلاف النينان] بالمجيء والذهاب، جمع نون: وهو الحوت **[في البحار الغامرات]** أي: يقطعها طولاً وعرضاً.

[وتلاطم الماء بالرياح العاصفات وأشهد أنّ محمداً صلى الله عليه وآله نجيب اللّه] أي: منتجبه.

[وسفير وحيه] أي: رسول وحيه، والجمع: سفراء كفقيه وفقهاء.

[ورسول رحمته] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ما ارسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

أمّا بعد فإنّي أوصيكم بتقوى اللّه الذي ابتدء خلقكم وإليه يكون معادكم وبه نجاح طلبتكم وإليه منتهى رغبتكم ونحوه قصد سبيلكم وإليه مرامي مفزعكم فإنّ تقوى اللّه دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم

[**أمّا بعد فإنّي أوصيكم بتقوى اللّه الذي ابتدء خلقكم وإليه يكون معادكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وهو خلقكم أوّل مرّة وإليه ترجعون﴾.

[**وبه نجاح طلبتكم وإليه منتهى رغبتكم ونحوه قصد سبيلكم**] وسلوككم.

[**وإليه مرامي مفزعكم**] يقال: فلان مرمى قصدي، اي: مفزعي في المهمات فإنّه غاية الغايات، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إذا مسّك الضرّ فإليه تجارون﴾.

[**فإنّ تقوى اللّه دواء داء قلوبكم**] إذ بها تعالج الرذايل النفسانية الموبقة.

[**وبصر عمى أفئدتكم**] اي: ابصار قلوبكم من عمى الجهل.

[**وشفاء مرض أجسادكم**]، لانّ التقوى تستلزم قلّة الأكل والشرب والاقتصار على قدر الضرورة منهما كما مرّ في صفات المتقين، ولا ريب انّ اغلب الامرض إنّما تحدث من البطنة والامتلاء من الطعام والشراب، وفي النبوي: «المعدة بيت الداء والحمية راس كلّ دواء» واعط كلّ بدن ما عوّدته.

[**وصلاح فساد صدوركم**] اي: من الغلّ والحسد والخبث والنيات المخالفة لامر اللّه، فإنّ التقوى تستلزم نفي ذلك كلّه وصلاح المصدر منه لانّ مبادي الشرور كلّها محبّة الدنيا وباطلها المشار إليه بقوله ﷺ «حبّ الدنيا راس كلّ خطيئة» والمتقون بمعزل عن جميع ذلك.

وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جاشكم

[وطهور دنس أنفسكم] اي: من نجاسات الأخلاق الرذيلة المفوّتة لحياة الأبد وهو كقوله «دواء داء قلوبكم» إلا انّه اعتبر فيه كون الرذايل امراضاً تؤدّي إلى الهلاك السرمدي وفي هذه اعتبار كونها نجاسات تمنع من دخول حظيرة القدس وحريم الكبرياء والانس ومقصد الصدق.

[وجلاء غشاء أبصاركم] استعار الغشاء لما يعرض من ظلمة الجهل وساير الرذايل من عدم إدراك الحقائق والعشاء بالعين المهملة والألف المقصورة ويروى بالغين المعجمة وهو الظلمة المتوهمة من الجهل التي هي حجاب الغفلة، وبهذا الاعتبار ففي التقوى جلاء لتلك الظلمة لما يستلزمه من إعداد النفس للكمال وإطلاق الجلاء عليها من إطلاق المسبب على السبب.

[وأمن فزع جاشكم] والجاش القلب، إذ بها الأمان من عذاب الآخرة بل مخاوف الدنيا لأنّ أعظمها الموت وما يؤدّي إليه والمتقّي العارف إن لم يكن الموت محبوبه فهو ليس بمكروه له؛ لأنّه جسره الذي يعبره عليه من السجن إلى القصر ومن دار الفناء والشقاء إلى دار النعيم والبقاء.

ولذا قال عليه السلام «والله لابن ابي طالب آنس بالموت من الطفل بشدي امّه» وقال عليه السلام: «والله لا يبالي ابن ابي طالب وقع على الموت أم الموت وقع عليه» ويكفيك في ذلك قوله تعالى: ﴿قل يا أيّها الذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء للّه من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾ وعن التوراة انّ أولياء الله يتمنون الموت، وقال تعالى: ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾.

وضياء سواد ظلمتكم واجعلوا طاعة اللّه تعالى شعاراً دون دثاركم ودخيلاً دون شعاركم ولطيفاً بين أضلاعكم أميراً فوق أموركم ومنهلاً لحين وردكم

[**وضياء سواد ظلمتكم**] استعار الظلمة للجهل المغطّي للقلب ورشح بذكر السواد لاستلزام الظلمة للسواد وهو كقوله «وجلاء غشاء أبصاركم» وراعى في هذه القراين كلّها المضادّة.

[**واجعلوا طاعة اللّه تعالى شعاراً دون دثاركم**] والشعار أقرب إلى الجسد من الدثار.

[**ودخيلاً دون شعاركم**] والداخيل ما خالط بطن الجسد فهو أقرب من الشعار كنّى بذلك عن ملازمتهم لها كما يلزم الشعار الجسد، ثمّ عن كونها في الباطن دون الظاهر لقلّة فائدته ثمّ أكّد أمرهم بإبطانها بأمرهم باتخاذها دخيلاً تحت الشعار لإمكان ذلك فيها دون الشعار المحسوس ثمّ لم يقتصر على ذلك حتّى قال:

[**ولطيفاً بين أضلاعكم**] بان تجعل التقوى لطيفاً من الأضلاع أي: في القلب وذلك أشدّ من الدخيل، فقد يكون الدخيل في الجسد وإن لم يخامر القلب، فكنّى بلطفها عن اعتقادها وعقليتها وبكونها بين أضلاعهم عن إيداعها القلوب.

وقوله: [**أميراً فوق أموركم**] استعار لفظ الأمير باعتبار إكرامهم لها وتقديمها على سائر مهماتهم كما يحكم الأمير في رعيته.

[**ومنهلاً**] هو الماء يرده الوارد من الناس وغيرهم.

[**لحين وردكم**] أي: يوم القيامة، استعار المنهل باعتبار انّ التقوى

وشفيعاً لدرك لطبتكم وجنّة ليوم فزعكم ومصابيح لبطون قبوركم وسكناً لطول وحشتكم ونفساً لكرب مواطنكم فإنّ طاعة اللّه تعالى حرز من متآلف مكتنفة

والطاعة للّه مظنّة التروّي من شراب الأبرار يوم القيامة كما انّ موارد الإبل مظنّة ريّها.

[**وشفيعاً لدرك لطبتكم**] أي: يجعلوها شفيعاً إلى اللّه ووسيلة إلى مطالبهم، وظاهر كون المطيع يستعدّ لطاعته لدرك طلبته من اللّه تعالى، ولفظ الشفيع مستعار للوسيلة والقربة.

[**وجنّة**] بضمّ الجيم أي: وقاية.

[**ليوم فزعكم**] وظاهر كون الطاعة ساتراً يوم القيامة من الفزع الأكبر من عذاب اللّه.

[**ومصابيح لبطون قبوركم**] إشارة إلى ما روي انّ العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء الصباح في الظلمة، واستعار لفظ المصابيح لاستلزامها الإنارة.

[**وسكناً لطول وحشتكم**] والسكن ما يسكن إليه، أي: يستأنس بها النفوس في القبور كما روي انّ العمل الصالح والخلق الفاضل يراه صاحبه بعد الموت في صورة شباب حسن الصورة طيّب الريح فيسلّم عليه فيقول من أنت فيقول أنا خلقك الحسن وعملك الحسن.

[**ونفساً**] أي: سعة وروحاً. [**لكرب مواطنكم**] أي: سعة وروحاً لما يعرض من كرب منازل الآخرة واهوالها.

[**فإنّ طاعة اللّه تعالى حرز من متآلف مكتنفة**] وتلك المتآلف هي

ومخاوف متوقعة وأوار نيران موقدة فمن أخذ بالتقوى غربت عنه الشدايد بعد دنوّها واحلولت له الأمور بعد مهارتها وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها

الرذايل الموبقة التي هي محال الهلاك والتلف واكتنافها إحاطتها بالنفس بحيث لا يكفها إلا طاعة اللّه وسلوك سبيله.

[**ومخاوف متوقعة**] وهي مخاوف الآخرة وحرّ نيرانها كما أشار إليه بقوله: [**وأوار نيران موقدة**] والأوار حرّ النار او الشمس.

[**فمن أخذ بالتقوى غربت**] أي: بعدت [**عنه الشدايد بعد دنوّها**] منه، امّا شدائد الآخرة فظاهر، وامّا شدائد الدنيا فلأنّ المتّقين هم أسلم الناس من شرور الناس ابعدهم عن مخالطاتهم ومجاذباتهم لمتاع الدنيا وبعضهم لها إذ كانت محبتها والحرص عليها منبعاً لجميع الشرور والشدايد.

[**واحلولت له الأمور بعد مهارتها**] اما أمور الآخرة فكالتكليف بالعبادات وميثاق الطاعات وهي وإن كانت في مبدئها مرّة بشعة لما فيها من الكلفة إلا انها تصير للمتقين ملكة راسخة بحيث يلتذّون بها كما كان سيد الانبياء والمتّقين يقول: «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة» وكان ﷺ يقول: ارحنا يا بلال، اي: بالنداء إلى الصلاة، وامّا المرض أمور الدنيا كالفقر والعري والجوع والعطش فهو شعار المتقين وهو احلى في نفوسهم وآثر من كلّ شيء وإن كان مرّاً في مبدء السلوك قبل الوصول إلى ثمرة التقوى.

[**وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها**] استعار الأمواج للهيئات البدنية الردية وملكات السوء التي إذا تكاثفت وتوالت على النفس اغرقتها في بحار

وأسهلت له الصعاب بعد انصعابها، عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبّت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجّرت عليه النعم بعد نضوبها،

عذاب اللّه ولزوم التقوى سبب انفراج تلك الرذايل عن النفس وانمحائها عن لوحها.

[**وأسهلت له الصعاب بعد انصعابها**] لأنّ المتقين عند ملاحظة غاياتهم من تقواهم يسهل عليهم كلّ صعب من أمور الدنيا بما يشتدّ على غيرهم كالفقر والمرض وكلّ شديد وكذا يسهل عليهم كلّ صعب من مطالب الآخرة بعد إتعاب تلك المطالب لهم قبل تصوّرها التامّ في أوّل التكليف وهطلت اي: سالت.

[**عليه الكرامة بعد قحوطها**] اي: قلّتها، والكرامة تعود إلى الكمالات النفسانية الباقية والالتذاذ بها ولاحظ في إفاضتها عليهم مشابهتها بالغيث، فاستعار لها الهطل أو اسنده إليها، وكذا القحوط، وكنّى به عن منعهم إيّاها قبل استعدادهم بالتقوى لها.

[**وتحدبّت**] اي: عطفت وخبت [**عليه الرحمة بعد نفورها**] عنهم لعدم استعدادهم ثمّ بعد أن استعدّوا عطفت عليهم، واستعار التحدّب للإرادة أو لأثر الرحمة، وكذا النفور لعدم أثرها في حقّهم قبل ذلك.

[**وتفجّرت عليه النعم بعد نضوبها**] اي: انقطاعها، استعار التفجّر لانتشار وجوه إفاضات النعم الدنيوية والاخروية كما قال تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وكذا لفظ النضوب لعدمها قبل الاستعداد لها ملاحظةً لشبه النعم بالماء في الاستعارتين.

ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها فاتّقوا اللّه الذي نفعكم بموعظة ووعظكم برسالته وامتنّ عليكم بنعمته فعبّدوا أنفسكم لعبادته واخرجوا إليه من حقّ طاعته إنّ هذا الإسلام دين اللّه تعالى الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه

[**ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها**] يقال: وبل المطر أي: صار وابلاً وهو أشدّ المطر وأكثره، وارذاذها إتيانها بالرذاذ وهو ضعيف المطر، استعار الوبل للفيض الكثير من البركة بعد الاستعداد بالتقوى والرذاذ للقليل منه قبل ذلك الاستعداد ملاحظةً لشبهها بالغيث أيضاً، وظاهر كون التقوى سبباً لمزيد الفيض على كلّ من كان له بعض الكمالات كمن يستعدّ بالعلوم دون الزهد والعبادة ثمّ يسلك بهما. ثمّ عادل عليه السلام بعد بيان فضايل التقوى إلى الأمر بها فقال:

[**فاتّقوا اللّه الذي نفعكم بموعظة**] حيث دعوتكم إلى جنّته ورغّبتكم في كرامته.

[**ووعظكم برسالته**] إليكم [**وامتنّ عليكم بنعمته**] قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة اللّه عليكم﴾.

[**فعبّدوا أنفسكم**] أي: ذلّلوها [**لعبادته واخرجوا إليه من حقّ طاعته**] أي: أدّوا المفروض عليكم من العبادة، يقال: خرجت إلى فلان من دينه أي: قضيته إيّاه. ثمّ ذكر الإسلام وفضائله مرغّباً فيه فقال عليه السلام:

[**إنّ هذا الإسلام دين اللّه تعالى الذي اصطفاه لنفسه**] وجعله طريقاً إلى معرفته ونيل ثوابه.

[**واصطنعه على عينه**] هي كلمة تقال لما يشتدّ الاهتمام به، قال تعالى:

واصطفاه خير خلقه وأقام دعائمه على محبّته أذلّ الأديان بعزّه ووضع الملك برفعه وأهان أعدائه بكرامته وخذل محاديه بنصره وهدم أركان الضلالة بركنه

﴿ولتصنع على عيني﴾ ولفظ العين مجاز في العلم وعلى تقييد الحال أي: على علم منه بشرفه وفضله، ووجه الحكمة فيه.

[**واصطفاه خير خلقه**] أي: اصطفى للبعثة به وإليه خير خلقه محمدﷺ.

[**وأقام دعائمه على محبّته**] ولفظ الدعائم مستعار إمّا لأهل الإسلام أو لأركانه ووجه الشبه قيامه بها في الوجود كقيام المدعوم بدعائمه، وكلمة (على) للحال والضمير في (محبته) للإسلام، أي: أقام دعائمه حال المحبّة له، وقيل: بل ــــــ كما يقول طبع الله قلبي على محبّته.

[**أذلّ الأديان بعزّه**] وأريد بذلّة الأديان عدم الالتفات إليها ونسخها فيكون مجازاً من إطلاق السبب على المسبب أو على حذف مضاف أي ذلّة أهلها ومعلوم كون عزّ الإسلام سبباً للأمرين.

[**ووضع الملك برفعه**] كالذي قبله [**وأهان أعدائه**] وهم المشركون والمكذّبون له من الملل السابقة بالقتل وأخذ الجزية والصغار.

[**بكرامته**] وإجلاله وإجلال أهله وتظيمهم في النفوس.

[**وخذل محاديه بنصره**] أي: بنصر أهله وفي القراين الأربع التضاد.

[**وهدم أركان الضلالة بركنه**] وقوّته، وأركان الضلالة تعود إلى العقائد المضلّة في الجاهلية أو إلى أهل الضلالة وهو مستعار لقيام الضلالة بتلك العقائد أو بأهلها كقيام ذي الأركان بها، وكذا لفظ الهدم لزوال الضلالة بقوة

وسقى من عطش بحياضه وأثاق الحياض بموانحه ثمّ جعله لاانفصام لعروته ولا فكّ لحلقته ولا انهدام لأساسه ولا زوال لدعائمه

الإسلام وأهله.

[**وسقى من عطش بحياضه**] استعار لفظ السقي لإفاضة علوم الدين على نفوسهم وكمالها بها، ولفظ العطش لما كانوا عليه من الجهل البسيط وعدم العلم، وكذا استعار لفظ الحياض لعلماء الإسلام الذين هم أوعيته وحياضه يردها العطاش من العلوم والحكم الدينية.

[**وأثاق الحياض بموانحه**] أثاق الحياض: ملئوها، والموانح: المستقون أو الدلاء التي يمتح بها أي: يستقي بها، استعار الموانح للامّة الآخذين للإسلام عن الرسولﷺ الذي هو الينبوع أو لأفكار العلماء وسؤالاتهم وبحثهم عن الدين وأحكامه واستفادتهم ووجه الاستعارتين كونهم مستخرجين للعلم والدين من مظانّه كما يستخرج الماتح الماء من البئر ولفظ الحياض للمستفيدين.

[**ثمّ جعله لا انفصام لعروته**] استعار العروة لما يتمسّك به ورشح بذكر الانفصام، ولما كان المتمسّك به ناجياً من الهلاك الأُخروي والشرور اللاحقة للملل السابقة وكان عدم الانفصام مظنّة سلامة المتمسّك من الهلاك كنّى به عن دوام السلامة به.

[**ولا فكّ لحلقته**] كنّى به عن عدم انقهار أهله وجماعته.

[**ولا انهدام لاساسه**] استعار لفظ الأساس للكتاب والسنّة الذين هما أساس الإسلام ولفظ الانهدام لاضمحلالهما به.

[**ولا زوال لدعائمه**] استعار الدعئم لعلمائه أو للكتاب والسنّة وقوانينها

ولا انقطاع لمدّته ولا عفاء لشرائعه ولا جذ لفروعه ولا ضنك لطرقه ولا وعونة لسهولته ولا سواد لوضحه ولا عوج لانتصابه ولا عصل في عوده ولا وعث لفجّه

وأراد بعدم زوالها عدم انقراض العلماء أو عدم القوانين الشرعية.

[**ولا انقطاع لمدّته**] إشارة إلى بقائه إلى يوم الدين.

[**ولا عفاء**] اي: لا اندراس [**لشرائعه**] اي: لقوانينه وأصوله وهو كقوله لا انقلاع لشجرته [**ولا جذ**] بالذال المعجمة أو المهملة، اي: لا قطع [**لفروعه**] بل له قواعد كلّية تتفرّع عليها احكام جزئية وتندرج تحتها ما يحدث يوماً فيوماً من الوقايع الجزئيات إلى يوم القيامة.

[**ولا ضنك**] اي: لا ضيق [**لطرقه**] وكنّى بعدم الضيق عدم صعوبة قوانينه على أثل التكليف أو عن لازم الضيق وهو مشقّة السالكين به إلى اللّه تعالى كما قال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة» وفي القرآن المجيد: «ما جعل عليكم في الدين من حرج يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

[**ولا وعونة لسهولته**] والوعونة كثرة السهولة، وهو كناية عن كونه في غاية العدل بين الصعوبة وبين السهولة المفرطة.

[**ولا سواد لوضحه**] اي: لبياضه، استعار الوضح لصفائه عن درك الباطل الذي هو سواد ألواح نفوس الكافرين والمنافقين.

[**ولا عوج لانتصابه**] استعار الانتصاب لاستقامته في أدائه إلى اللّه، إذ هو الصراط المستقيم في الدنيا، وكذا قوله: [**ولا عصل في عوده**] والعصل: الاعوجاج.

[**ولا وعث لفجّه**] والفجّ: الطريق الواسع بين الجبلين، اي: ليس

ولا انطفاء لمصاحبيه ولا مرارة لحلاوته فهو دعائم أساخ في الجوّ أسناخها وثبت لها آساسها وينابيع غزرت عيونها ومصابيح شبّت نيرانها

طريق الإسلام بوعث كما مرّ.

[ولا انطفاء لمصاحبيه] استعار للعلماء وكنّى بعدم انطفائها عن عدم خلوّ الأرض منهم.

[ولا مرارة لحلاوته] لأنّ حلاوة الإسلام الحقيقي في قلوب المتّقين لا يشوبها مرارة من مشقّة تكليف ونحوها لما يتصوّرونه من شرف غايتهم.

[فهو] أي: الإسلام **[دعائم أساخ في الجوّ أسناخها]** جمع سنخ: وهو الأصل، وأساخها في الأرض أدخلها إشارة إلى كونه تعالى بناها على أسرار من الحقّ عميقة لا يهتدي إليها إلا آحاد الخلق وهي أسرار العبادات.

[وثبت لها آساسها] بالمدّ جمع أسس، مثل سبب وأسباب، والأسس والأُ والأساس واحد وهو أصل البناء.

[وينابيع غزرت] بضمّ الزاي: كثرت.

[عيونها] هذا تعريف للإسلام من قبل مادّه وهي الكتاب والسنّة، واستعار لهما لفظ الينابيع نظراً إلى فيضان العلوم الإسلامية العقليّة والنقليّة عنهما كفيضان الماء عن الينابيع ولفظ العيون لما صدرا عنه وهو علم اللّه تعالى، ونفوس ملائكته ونبيّهﷺ وظاهر غزارة تلك العلوم وكثرتها.

[ومصابيح شبّت نيرانها] إشارة إلى مادّه أيضاً باعتبار انّ في الكتاب والسنّة ادلّة احكاميّة وبراهينها واستعار لها لفظ المصابيح باعتبار كونها تضيء الطريق لسالكها إلى اللّه ورشح بذكر إضرام نيرانها وعبّر به عن غاية إضائتها وشُبّت بضمّ الشين اي: أوقدت.

ورّادها جعل اللّه فيه منتهى رضوانه وذروة دعائمه وسنام طاعته فهو عند اللّه وثيق الأركان

[**ومناراً اقتدى بها سفارها**] والمنار: الأعلام في الفلاة.

[**وأعلام قصد بها فجاجها**] أي: قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين إلى تلك الفجاج، فأضاف القصد إلى تلك الفجاج.

[**ومناهل روى بها ورّادها**] استعار لفظ المناهل لتلك الموارد أيضاً باعتبار كونها مروية من العلم الوارد بها ــــــ منها كما تروى وراد الحياض بمائها، وروي رواد جمع رايد وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء.

[**جعل اللّه فيه منتهى رضوانه**] قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

[وقال تعالى: ﴿إنّ الدين عند اللّه الإسلام﴾.

[**وذروة دعائمه**] أي: اعلاها، والضمير في دعائمه للّه اي: الدعائم التي جعلها عمدة له في إصلاح خلقه، وهي الشرايع وقوانينها وظاهر أنّ الأنوار التي جاء بها الإسلام والهداية التي به أشرف وأعلى منها في سائر الشرايع فهو كالذروة لها.

[**وسنام طاعته**] استعار السنام لمجموع ما اشتمل عليه من البيانات والهدايات ووجه الشبه شرفها ايضاً وعلوّها بالنسبة إلى الطاعات السابقة عليه كشرف السنام بالنسبة إلى باقي الأعضاء.

[**فهو عند اللّه وثيق الأركان**] مبني على الأسرار الخفيّة والعلم التام لواصفها بكيفية وضعها وكمال فائدتها بحيث لا يمكن انتقاضها ولا زوالها.

ومناراً اقتدى بها سفارها وأعلام قصد بها فجاجها ومناهل روى بها رفيع البنيان منير البرهان مضيء النيران عزيز السلطان مشرف المنار معوز المشار فشرّفوه واتّبعوه وأدّوا إليه حقّه وضعوه مواضعه

[رفيع البنيان]ــــــــ قدر أهله ورفع شأن حملته وتعظيمهم في النفوس على سائر أهل الأديان وأهلها.

[منير البرهان] أي: برهانه الذي دعى الخلق إليه، وهو القرآن وسائر المعجزات، ولا شكّ في إنارتها وإضائتها في أقطار العالم واهتداء أكثر الخلق بها.

[مضيء النيران] استعار النيران لأنواره من العلوم والأخلاق المضيئة عن أئمة الدين وعلماء المسلمين.

[عزيز السلطان] لعزّة أهله ودولته ومنعه من التجاء إليه به.

[مشرف المنار] كناية عن علوّ قدر علمائه وأئمّته وانتشار فضلهم والهداية بهم.

[معوز المشار] أي: يعجز الخلق اثارة دفائنه وما فيه من كنوز الحكمة ولا يمكنهم استقصاء ذلك منه، وروي المنال أي: يعجز الناس عن الإتيان بمثله أو عن استقصاء حكمه وثمراته، وروي المثال وهو ظاهر، ثمّ لما فرغ من بيان فضيلته أمر بتعظيمه واتّباعه وأداء حقّه.

فقال: [فشرّفوه واتّبعوه وأدّوا إليه حقّه] وهو العمل به مع اعتقاد شرفه وكونه مؤدّياً إلى الجنّة [وضعوه مواضعه] وهي القلوب لا الألسن فقط، فاقرعوا به القلوب القاسية وتدبّروا آياته ورتّلوه ترتيلاً.

ثمّ لمّا فرغ من ذلك شرع في فضايل من بعث به ليذكّرهم نعمة اللّه بعد

ثمّ انّ اللّه سبحانه بعث محمداًﷺ بالحقّ حين دنا من الدنيا الانقطاع وأقبل من الآخرة الاطلاع واظلمّت بهجتها بعد إشراق وقامت بأهلها على ساق وخشن منها مهاد وأزف منها قياد في انقطاع من مدّتها واقتراب من أشراطها

نعمة وقرن ذكره بذكر أحوال الدنيا حين البعثة ليظهر شرفها فقال:

[**ثمّ انّ اللّه سبحانه بعث محمداًﷺ بالحقّ حين دنا من الدنيا الانقطاع وأقبل من الآخرة الاطلاع**] قيل: يحتمل أن يريد بقرب انقطاع الدنيا وزوالها بالكلّية وحضور الآخرة والقيامة الكبرى، ويحتمل أن يريد انقطاع دنيا كلّ أمّة منهم وحضور آخرتهم بموتهم وانقراضهم.

[**واظلمّت بهجتها بعد إشراق**] أي: بعد إشراق بهجتها بأنوار الأنبياء والمرسلين وضياء الشرائع ونور الدّين وحين بعثﷺ كانت مظلمة باندراس تلك الآثار وانطماس تلك الأنوار فاعادهاﷺ إلى إشراقها.

[**وقامت بأهلها على ساق**] الضمير إلى الدنيا، والساق: الشدّة، كناية عن ظهور شدائدها وإثارة الفتن بين أهلها وما كانت العرب الجاهلية عليه من الخبط والاختلاط في الحرب والغارات المؤدّية إلى تلف النفوس وذهاب الأموال.

[**وخشن منها مهاد**] أي: فراش، وكنّى به عن عدم الاستقرار بها وطيب العيش فإنّ ذلك إنّما يتمّ ويعتدل بنظام الشرايع والنواميس الإلهية.

[**وأزف**] أي: قرب.

[**منها قياد**] أي: قرب انقيادها إلى التقضّي والزوال.

[**في انقطاع من مدّتها واقتراب من أشراطها**] أي: علاماتها.

وتصرّم من أهلها وانفصام من حلقها وانتشار من سببها وعفا من أعلامها وتكشف من عوراتها وفقر من طولها جعله اللّه سبحانه بلاغاً لرسالته وكرامة لأمّته وربيعاً لأهل زمانه ورفعة لأعوانه

[**وتصرّم من أهلها وانفصام من حلقها**] وكنّى بالحلقة عن نظامها واجتماع أهلها بالنواميس والشرايع وبانفصامها عن فساد ذلك النظام بقوله: [**وانتشار من سببها**] عن فساد أسباب ذلك النظام، فإنّ أسباب التصرّف النافع عنها إنّما يتمّ بالنواميس الشرعية وقوانينها.

[**وعفا**] أي: اندراس.

[**من أعلامها**] استعار الأعلام للعلماء والصلحاء وكان عليهم العفا.

[**وتكشف من عوراتها**] كنّى بعوراتها عن وجوه الفساد فيها وبتكشّفها عن ظهورها بعد اختفاء، وكذا قوله: [**وفقر من طولها**] فإنّ الدنيا إنّما يكون طولها وقلّة مدّتها عند صلاحها بالشرايع، فإذن قصرها يكون عند فسادها وعدم النظام الشرعي.

ثمّ رجع إلى تعديد فوائد البعثة والرسالة فقال: [**جعله اللّه سبحانه بلاغاً لرسالته**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك﴾.

[**وكرامة لأمّته**] لكونه داعياً لهم إلى الكرامة الباقية التامّة، وسبب الكرامة كرامة.

[**وربيعاً لأهل زمانه**] لكونه بهجة للمسلمين وعلمائهم وسبباً لبطنتهم من العلم والحكمة كما أنّ الربيع سبب لبهجة الحبوب بمراعيها وبطنتهم وسمنتهم.

[**ورفعة لأعوانه**] أي: لأعوان اللّه وأنصاره، وهم المسلمون وظاهر

ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفى مصابيحه وسراجاً لا يخبو توقّده وبحراً لا يدرك قعره ومنهاجاً لا يضلّ نهجه وشعاعاً لا يظلم ضوئه وفرقاناً لا يخمد برهانه وبنياناً لا تهدم أركانه

كونه صلى الله عليه وآله سبب رفعتهم وشرفهم، ثمّ عقّب بذكر الأنوار التي بعث بها صلى الله عليه وآله وهو القرآن الكريم والفرقان العظيم وعدّد فضائله فقال:

[**ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفى مصابيحه**] وأراد نور العلم والأخلاق المشتمل عليها، واستعار المصابيح لما انتشر من علومه وحكمه، فاقتدى بها الناس أو لعلمائه وحاملي فوائده.

[**وسراجاً لا يخبو توقّده**] أي: لا تنقطع هداية الناس بنوره.

[**وبحراً لا يدرك قعره**] لعمق أسراره بحيث لا تحيط بها الأفهام ولاتصل إلى أغوارها العقول والأوهام كما لا يدرك الغايص قعر البحر العميق؛ ولأنّه معدن جواهر العلوم والحكم ودرر المعارف والكلم كما أنّ البحر معدن للجواهر.

[**ومنهاجاً لا يضلّ نهجه**] أي: طريقاً واضحاً لمن سلك به إلى اللّه وتفهّم مقاصده ولا يضلّ قصده.

[**وشعاعاً لا يظلم ضوئه**] أي: لا يغطي الحقّ الذي هو فيه ظلام شبهة ولا تلبيس باطل، ولفظ الشعاع والضوء والظلمة مستعار.

[**وفرقاناً لا يخمد برهانه**] سمّي فرقاناً لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل لا يخمد، ولفظ الخمود مستعار ملاحظة لشبه البرهان بالنار في الإضاءة، فنسب إليه وصفها.

[**وبنياناً لا تهدم أركانه**] استعار البنيان لما انتظم من الكتاب ورسخ في

وشفاءً لا نخشى أسقامه وعزاً لا تهزم أنصاره وحقّاً لا تخذل أعوانه فهو معدن الإيمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره ورياض العدل وغدرانه وأثافي الإسلام

القلوب ورشحه بذكر الأركان لاستلزام البنيان لها.

[**وشفاءً لا نخشى أسقامه**] كما قال تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وظاهر كون آياته شفاء لأمراض البدن تلاوةً وتعليقاً وتدبّر معانيه شفاء للنفوس من أمراض الجهل ورذايل الأخلاق وذلك شفاء لا يخاف استعقابه بمرض وذلك انّ الفضايل النفسانية إذا صارت ملكات لم تزل ولم تتبدّل باضدادها، وكذا قوله: [**وعزاً لا تهزم أنصاره وحقّاً لا تخذل أعوانه**] انصاره واعوانه هم المسلمون المعترفون به والملتجئون إليه العاملون على وفقه السالكون به إلى اللّه وظاهر انّ أولئك الأنصار والأعوان لا يهزمهم احد ولا يخذلهم اللّه ابداً.

[**فهو معدن الإيمان**] إذ يستنار منه الكامل باللّه وبرسوله وبما جاء به.

[**وبحبوحته**] إذ اعتقاد حقيقته وتفهّم مقاصده والعمل بها واسطة عقد الإيمان.

[**وينابيع العلم وبحوره**] واللّفظان استعارة له باعتبار كونه محلّ فيض العلوم النفسية واستفادتها.

[**ورياض العدل وغدرانه**] واللّفظان مستعاران أيضاً باعتبار كونه مورداً يؤخذ عنه العدل بكلّيته فهو مورده الذي لا يجوز عن سنن الحقّ إلى أن يبلغ به صاحبه السالك به إلى اللّه تعالى.

[**وأثافي الإسلام**] جمع اثفية: وهي الأحجار توضع تحت القدر بشكل

و بنيانه وأودية الحقّ وغيظانه وبحر لا يستنزفه المستنزفون وعيون لا ينضبها الماتحون ومناهل لا يغيظها الواردون ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يحوز عنها القاصدون

مثلث .

[وبنيانه] اللفظان مستعاران له باعتبار كونه أصلاً للإسلام يبتني عليه وبه يقوم كما انّ الأثافي للقدر والبنيان لما يحمل عليه كذلك .

[وأودية الحقّ وغيظانه] واللفظان مستعاران له باعتبار كونه معدناً للحقّ ومظنّة له كما انّ الأودية والغيظان مظانّ الكلإ والماء .

[وبحر لا يستنزفه المستنزفون وعيون لا ينضبها الماتحون] كرّر استعارة البحر والعيون له باعتبار آخر وهو كونه لا تنتهي فوائده والمقاصد المستفيظة منه .

[ومناهل] شرايع **[لا يغيظها]** بفتح حرف المضارعة **[الواردون]** وخصّص النضوب بالعيون لإمكان ذلك فيها دون البحر والورود بالمناهل لكون النهل وهو الري غاية ورّاد الماء .

[ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون] اي : مقامات من العلوم والمعارف إذا نزلتها العقول المسافرة في سبيل اللّه وطريق رضوانه لا تضلّ لاستنارتها وشدّة إضائتها .

وكذا قوله : **[وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام]** جمع اكم مثل جبال جمع جبل والأكم جمع اكمة كعنب جمع عنبة والأكمة : ما علا من الأرض دون الكثيب .

[لا يحوز عنها القاصدون] استعار الأعلام والآكام للأدلّة والامارات

جعله اللّه ريّاً عطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس معه ظلمة وحبلاً وثيقاً عروته ومعقلاً منيعاً ذروته

فيه على الطريق إلى معرفته واحكامه باعتبار كونها هادية إليها كما تهدي الأعلام والجبال على الطريق.

[**جعله اللّه ريّاً عطش العلماء**] استعار لفظ الري له باعتبار كونه دافعاً لألم الجهل عن النفوس كما يدفع الماء الم العطش، ولفظ العطش للجهل البسيط أو لاستعداد الطالبين للعلوم واشتياقهم إلى الاستفادة، وأطلق لفظ الري على المروي مجازاً إطلاق لاسم اللازم على ملزومه.

[**وربيعاً لقلوب الفقهاء**] استعار الربيع له باعتبار كونه مرعى لقلوب الفقهاء يستثمرون منها الأحكام وبهجة ها كالربيع للحيوان، ويحوزان يريد بالربيع الجدول.

[**ومحاج**] جمع محجّة وهي: جادة الطريق.

[**لطرق الصلحاء**] فإنّه طريق لهم إلى رضوان اللّه.

[**ودواء ليس بعده داء**] هو كقوله «شفاء لا يخشى سقامه».

[**ونوراً ليس معه ظلمة**] اي: لا يبقى مع هدايته إلى أحكام اللّه ومعارفه ظلمة على البصيرة.

[**وحبلاً وثيقاً عروته**] استعار الحبل له، والعروة لما يتمسّك به منه، وكنّى بوثاقة عروته عن كونه منجياً لمن تمسّك به.

[**ومعقلاً**] اي: ملجأ [**منيعاً ذروته**] استعار له المعقل باعتبار كونه ملجأ من الجهل ولوازمه وهو العذاب ورشح بذكر الذروة وكنّى بمنعتها عن كونها

وعزاً لمن تولاه وسلماً لمن دخله وهدى لمن ائتمّ به وعذراً لمن انتحله وبرهاناً لمن تكلّم به وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً لمن حاجّ به وحاملاً لمن حمله

حريزة تمنع من لجا إليه.

[**وعزاً لمن تولاه**] اي: اتخذه وليّاً يلقي إليه مقاليد أموره ولا يخالفه، وظاهر كونه سبب عزّه في الدارين.

[**وسلماً**] اي: امناً. [**لمن دخله**] وخاض في تدبّر معانيه والتفكّر في مبانيه فإنّه بهذا الاعتبار يكون امناً من عذاب اللّه ومن الوقوع في الشبهات التي هي مهاوي المهلكات.

[**وهدى لمن ائتمّ به وعذراً لمن انتحله**] اي: دان به وجعله نحلته، وقيل: اي لمن نسبه إلى نفسه بدعوى حفظه او ــــــــ ونحو ذلك معتذراً بذلك من تكليف ما لا يليق به او يشق عليه كان ذلك عذراً منجياً له وهذا كما يقول لمن يقصد إنساناً ياذي لا ينبغي لك أن تؤذيه فإنّه من حملة القرآن الكريم او ممن يعلم علومه فيكون ذلك سبباً لترك اذاه.

[**وبرهاناً لمن تكلّم به**] اي: حجّة قاطعة على خصمه.

[**وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً**] اي: ظفراً وفوزاً [**لمن حاجّ**] اي: خاصم [**به**] والثلاثة متفاوتة وااااطلق لفظ الفلج عليه من جهة ما يحتجّ به إطلاقاً لاسم الغاية على ذي الغاية إذ غاية الاحتجاج به الفوز والشاهد والحجّة أعمّ من البرهان.

[**وحاملاً لمن حمله**] اي: يحمل يوم القيامة حملته وحفظته، وعبّر بحمله لهم عن إنجائه لهم من العذاب اطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

ومطيّة لمن أعمله وآية لمن توسّم وجُنّة لمن استلئم وعلماً لمن وعى وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى تعاهدوا أمر الصلاة

[ومطيّة لمن أعمله] استعار له المطيّة باعتبار كونه منجياً لهم، ولفظ الاعمال لتتبع قوانينه والمواظبة عليها المنجية من العذاب كما ينجي اعمال المطية في الطريق البعيد.

[وآية لمن توسّم] اي: لمن تفرسّ باعتبار تدبّر أمثاله وقصصه فإنّ فيها آيات وعبراً كما قال تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾.

[وجُنّة] بالضم: ما يستتر به.

[لمن استلئم] اي: لبس لامة الحرب وهي الدرع، واستعار الجنّة لوقايته من استعدّ بعلمه من عذاب اللّه، وكنّى باستلئامه عن ذلك الاستعداد.

[وعلماً لمن وعى] وعاه وحفظه وفهم مقاصده.

[وحديثاً لمن روى] باعتبار ما فيه من قصص الأمم الماضين واخبار القرون السالفين، فإنّ أصدق حديث يروى عنها ما اشتمل عليه القرآن.

[وحكماً لمن قضى] إذ فيه الأحكام التي يحتاج إليها القضاة، وروي حكماً اي: حاكماً ترجع إليه القضاة ولا يخرجون عن حكمه.

ومن كلام له عليه السلام
كان يوصي به أصحابه

[تعاهدوا أمر الصلاة] ويروى تعهّدوا بالتضعيف وهو لغة، يقال: تعاهدت ضيعتي وتعهدتها وهو القيام عليها وأصله من تجديد العهد بالشيء

وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقرّبوا بها فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سألوا ما سلككم في سقر قالوا لم نكُ من المصلّين وإنّها لتحتّ الذنوب حتّ الروق من الشجر ويطلقها إطلاق الربق

بان يتفقّد أحوال نفسه حالة الصلاة ويراقبها حذراً أن يشوبها نزغات الشيطان فيها.

[**وحافظوا عليها**] بالمبادرة أوّل أوقاتها وأداء أركانها كما هي.

[**واستكثروا منها وتقرّبوا بها**] إلى اللّه تعالى؛ لكونها أفضل العبادات والقرب إليه.

[**فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**] اي: منجماً كلّ وقت له صلاة معيّنة يؤدّي المكلّفون الصلوات في نجومها او مفروضاً.

[**ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سألوا ما سلككم في سقر قالوا لم نكُ من المصلّين**] ﴿ولم نكُ نطعم المسكين وكنّا نخوض مع الخائضين وكنّا نكذّب بيوم الدين﴾، وفيها دلالة على انّ الكفّار مكلّفون بالفروع ويعاقبون عليها كما على الأصول، وفيه ردّ على من فسّر قوله: ﴿لم نك من المصلّين﴾ اي: من القائلين بوجوب الصلاة؛ لانّ ذلك يغني عنه قولهم: ﴿وكنّا نكذّب بيوم الدين﴾ على انّ كلامه عليه السلام حجّة ايضاً.

[**وإنّها لتحتّ الذنوب**] تسقطها.

[**حتّ الروق من الشجر**] تشبيه للمعقول بالمحسوس ووجه الشبه ظاهر، وكذا قوله: [**ويطلقها إطلاق الربق**] اي: يطلق اعناق النفوس من اغلاقها كما تنطلق الربقة من عنق الشاة.

وشبّهها رسول اللّه ﷺ بالحمّة على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليل خمس مرّات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن وقد عرفت حقّها رجال من المؤمنين الذين لا يشغلهم عنها زينة متاع ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول اللّه سبحانه: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذلك اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة﴾ وكان رسول اللّه ﷺ نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة

[وشبّهها رسول اللّه ﷺ بالحمّة] اي: الحفيرة التي فيها الحميم أي: الماء الحار.

[على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليل خمس مرّات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن]، ففي النبوي المروي بطرق صحيحة قال: «أيسرّ احدكم أنّ على بابه حمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس مرات فلا يبقى عليه من درنه شيء؟ قالوا: نعم، قال فإنّها الصلوات الخمس» والدرن: الوسخ.

[وقد عرفت حقّها رجال من المؤمنين الذين لا يشغلهم عنها زينة متاع ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول اللّه سبحانه: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذلك اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة﴾]، ﴿يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار﴾. والتجارة إمّا بمعناها المعروف، أي: لا ش يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر اللّه، وأفرد البيع بالذكر وخصّه وعطفه على التجارة العامّة لأنّه ادخل في الإلها، وإمّا ان يريد بالتجارة الشراء خاصّة إطلاقاً لاسم الجنس الأعم على النوع الأخص.

[وكان رسول اللّه ﷺ نصباً] اي: تعِباً، **[بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة]**

لقول اللّه سبحانه وامر أهلك بالصلوة واصطبر عليها، فكان يأمر أهله بها ويصبر عليها نفسها ثمّ انّ الزكوة جعلت مع الصلوة قرباناً لاهل الإسلام فمن أعطاها طيب النفس بها فإنّها تجعل له كفّارة ومن النار حجاباً ووقاية لا يبتغها أحد نفسه

قال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، رؤي انّهﷺ قام حتّى تورّمت قدماه، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً، وإنّما نصب نفسه بالصلاة وأتعبها.

[**لقول اللّه سبحانه وامر أهلك بالصلوة واصطبر عليها، فكان يأمر أهله بها ويصبر عليها نفسها**] وقد تظافرت الآيات القرآنية وتواتر الأخبار المعصومية في فضلها وفي النبوي: «الصلاة عمود الدين فإن قبلت قبل ما سواها وإن رُدّت ردّ ما سواها»، وورد في تفسير ﴿انّ الحسنات يذهبن السيّئات﴾: انّ المراد بالحسنات الصلوات.

[**ثمّ انّ الزكوة جعلت مع الصلوة**] ففي أكثر الآيات القرآنية قُرنت معها أقيموا الصلاة واتوا الزكاة.

[**قرباناً لاهل الإسلام**] والقربان: اسم لما يتقرّب به من نسك أو صدقة.

[**فمن أعطاها طيب النفس بها**] وبذلها احترازاً عمّن اداها مع محبّته للمال ــــــ نفسه ببذلها أو تلهفه عليه.

[**فإنّها تجعل له كفّارة**] ماحية لرذيلة البخل وما يستلزمه من الذنوب.

[**ومن النار حجاباً**] إذ مبدء العذاب في الآخرة حبّ الدنيا واعظمه حبّ المال، فبذل المال مستلزم لزوال حبّه، فكان حجاباً من العذاب.

[**ووقاية**] منه [**لا يبتغها أحد نفسه**] بان يؤدي المال مع بقاء محبّته له

ولا يكثرن عليها تلهّفه فإنّ من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها جاهل بالسنّة مغبون الأجر ضالّ العمل طويل الأمل ثمّ أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها إنّها عُرضت على السموات المثبتة والأرضين المدحية والجبال ذات الطود المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلا ولا أعظم منها

وتكدير نفسه.

[**ولا يكثرن عليها تلهّفه فإنّ من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها**] فهو [**جاهل بالسنّة**] إذ السنّة في أدائها أن تؤدّى بطيب نفس ومسامحة.

[**مغبون الأجر**] لأنّ إعطائها على جهة توقّع جزاء لها لا على وجه القربة إلى اللّه غير مرضي للّه وذلك هو الغبن إذ أي جزاء حصل بدل الرضوان فصاحبه مغبون غبناً فاحشاً؛ إذ لا يعادل رضوان اللّه شيء، فقد باع الباقي بالفاني والجليل بالحقير، وذلك هو الخسران المبين.

[**ضالّ العمل**] حيث بذل المال على غير وجهه وقصد به غير سبيله فلا مال ابقى ولا اجر حصل.

[**طويل الأمل**] اي: في محبّة المال وفيما يرجوه به من الجزاء.

[**ثمّ أداء الأمانة**] وهي العقد الذي يلزم الوفاء به، [**فقد خاب**] وخسر الدنيا والآخرة [**من ليس من أهلها إنّها عُرضت على السموات المثبتة**] بلا عمد ترونها [**والأرضين المدحية والجبال ذات الطود المنصوبة فلا أطول ولا اعرض ولا أعلا ولا أعظم منها**] وفيه تنبيه للإنسان على جرئته على المعاصي وتضييع هذه الأمانة، إذ أهِّل لها وحملها فإذا كانت هذه الأجرام العلوية

ولو امتنع شيء بطول أو عرض او قوة أو عزّ لامتنعن ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو اضعف منهنّ وهو الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً إنّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهاراً لطف به خبراً واحاط بهم علماً، أعظائكم شهوده

التي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو اضعف منها؟!

وقوله: [**ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عزّ لامتنعن**] إشارة إلى انّ امتناعهنّ لم يكن لعزّة وعظمة اجساد ولا استكبار عن الطاعة وانّه لو كان كذلك لكانت اولى بالمخالفة من كلّ شيء لأعظميّة اجرامها على كلّ المخلوقات بل إنّما ذلك من ضعف وإشفاق من خشية اللّه وتعقّلهنّ ما جهله الإنسان، كما اشار إليه بقوله:

[**ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهنّ وهو الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً**] لعظمة اللّه وغاية هذه الأمانة وتقصيرهم في أداء واجباتها المستلزمة لعقوبته واستحقاق سخطه.

وقوله: [**إنّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهاراً**] تنبيه لهذا الإنسان الظلوم الجهول على إحاطة علم اللّه بجميع احواله واكتساباته في ليله ونهاره.

[**لطف به خبراً**] نفذ علمه في البواطن كما نفذ في الظواهر.

[**وأحاط بهم علماً، أعظائكم شهوده**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون﴾.

وجوارحكم جنوده وضمائركم عيونه وخلواتكم عيانه والله ما معاوية بأدهى منّي

[وجوارحكم جنوده] باعتبار كونها معينة عليهم.

[وضمائركم عيونه] أي: طلايعه وجواسيسه كما قال تعالى: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين﴾.

[وخلواتكم عيانه] إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وفيه تنفير عن تحريك الجوارح وتصريفها والخلوة بها فيما لا ينبغي من المعاصي، ومما قيل في تفسير الآية الأمانة ثقل الحمل لأنّ حاملها معرّض لخطر عظيم فهي بالغة من الثقل وصعوبة الحمل ما لو أنّها عُرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعت من حملها وأمّا الإنسان فإنّها حملها والتزم القيام بها وليس المراد لو أنّها عرضت عليها وهي جمادات بل المراد تعظيم شأن الأمانة كما يقال هذا الكلام لا تحمله الجبال، وقوله امتلأ الحوض وقال ـــــ وقوله: اتينا طائعين.

ومن كلام له عليه السلام

[والله ما معاوية بأدهى منّي] والدهاء استعمال العقل والراي الجيّد فيما يراد فعله مما لا ينبغي مع إظهار إرادة غيره ويسمّى صاحبه داهياً وداهية للمبالغة، وخبيثاً ومكاراً وحيّالاً، وهو داخل تحت رذيلة الجريرة وهي طرف الافراط من فضيلة الحكمة العمليّة، ويستلزم رذايل كثيرة كالكذب والغدر والفجور ومراده عليه السلام ليس معاوية باقدر منّي على فعل الدهاء.

ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر كنت من أدهى الناس، ولكن كلّ غدرة فجرة وكلّ فجرة كفرة ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة والله ما استعقل بالمكيدة ولا استغمر بالشديدة

[**ولكنه يغدر ويفجر**] إشارة إلى لوازم الدهاء، والغدر هو الرذيلة المقابلة لفضيلة الوفاء بالعهد التي هي ملكة تحت العفّة، والفجور مقابل العفّة.

[**ولولا كراهية الغدر**] أي: إنّه ممقوت لله وقبيح في الواقع.

[**كنت من أدهى الناس، ولكن كلّ غدرة فجرة وكلّ فجرة كفرة**] لأنّ الغادر على وجه الاستباحة والاستحلال كما هو شأن معاوية وابن العاص مستبيح ما عُلم تحريمه بضرورة الدّين، ويحتمل أن يريد الكفر بأحد معانيه الشرعيّة ووحّد الكفرة ليتعدّد الكفر بحسب ما تعدّد الغدر.

[**ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة**] لفظ الخبر النبوي وفيه تنفير عن رذيلة الغدر.

وقوله: [**والله ما استعقل بالمكيدة ولا استغمر بالشديدة**] تقرير وتأكيد لما تقدّم من معرفته بالدهاء ووجوه الآراء لولا المانع الشرعي، فإنّ من يكون كذلك لا تلحقه غفلة عمّا يعمل عليه من الحيلة والمكيدة ولا استغمزه بالزاي المعجمة أي: لا يطلب غمزي وإضعافي فإنّي لا أضعف عمّا أؤمر به من الشدايد، وروي بالراء المهملة أي: لا أستجهل بشدائد المكايد.

والظاهر أنّ هذا الكلام منه عليه السلام كالجواب عمّن نسبه إلى قلّة التدبير وعدم الخبرة في السياسة في استجلاب مودّة الخلق كما فعله غيره، وحاصل الجواب انّ اقصاء الخلق وجذبهم يتوقّف على مزج الحقّ بالباطل

. . . .

واستعمالهما معاً، وخلع القيود الشرعية وتتبّع هوى الناس، فيعاشر كلّ أحد بما يهوى، وامّا من كان عبداً للّه متقدّم لرضاء الحقّ على الخلق فلا يبالي بهم.

وللّه درّ ابن ابي الحديد حيث قال في الردّ على من زعم أنّ عمر بل معاوية كان أسوس من اميرالمؤمنين، أوضح تدبيراً ما حاصله: انّ اميرالمؤمنينعليه السلام كان مقيّداً بقيود الشريعة ورفض ما يصحّ اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير، إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم يكن كغيره ممن لم يلتزم ذلك.

ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ويرى تخصيص عمومات النصوص بالآراء والاستنباطات من أصول تقتضي خلاف ما تقتضيه النصوص، ويكيد خصمه ويأمر أمره بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسوط ويصفح عن آخرين قد اجترموا.

ولم يكن عليعليه السلام يرى ذلك وكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة وتطبيق أمور الدنيا، ويسوق الكلّ مساقاً واحداً ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنصّ، فاختلفت طريقتهما في الخلافة والسياسة.

أيّها الناس لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله إنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل

ومن خطبة له عليه السلام

في ترغيب أصحابه السالكين لطريق الهدى في بقاء ما هم عليه:

[أيّها الناس لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله] كما هو عادة الناس من الاستيحاش من الوحدة وقلّة الرفيق، سيّما في الطريق الطويل الصعب، إذ لا وحشة مع الحقّ وكفى بالهداية أنساً والاستيحاش ضدّ الاستيناس، ولعلّه عليه السلام كنّى بذلك عمّا يعرض لبعضهم من الوسوسة بأنّهم ليسوا على حقّ لقلّتهم وكثرة مخالفيهم، والقلّة مظنّة الهلاك والكثرة مظنّة النجاة، فنبّههم على أنّهم في طريق الهدى وإن قلّوا.

وقوله: **[إنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل]** إشارة إلى سبب قلّة أهل الهدى وهو اجتماع الناس على الدنيا المعبّر عنها بالمائدة لشبهها بها في كونها مجمع اللّذات، وكنّى عن قصر مدّتها بقصر شبعها وعن استعقاب الانهماك فيها للعذاب الطويل في الآخرة بطول جوعها، والجوع مستعار للحاجة الطويلة بعد الموت إلى المطاعم الحقيقية الباقية من الكمالات النفسانية الفانية بسبب الغفلة في الدنيا فلذا نسب الجوع إليها، ويحتمل ان يكون مستعاراً لما تتلهّف عليه النفس وتتاسف بعد المفارقة من اللّذات الدنيوية التي لا تحصل بعد الموت ابداً فيطول جوعها منه وفي جعل الجوع بازاء الشبع والطول بإزاء القصر مراعاةً للمقابلة.

أيّها الناس إنّما يجمع الرضا والسّخط وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه فعقروها فأصبحوا نادمين فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة أيّها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه

[**أيّها الناس إنّما يجمع**] في عذاب اللّه [**الرضا**] بالمنكرات والمعاصي [**والسّخط**] للطاعات والمحاب وإن لم يباشرها أكثرهم.

[**وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه فعقروها فأصبحوا نادمين**] مع أنّهم بأسرهم لم يفعلوا ذلك، والضمير في عمّوه يعود إلى الرجل أو إلى العقل الذي دلّ عليه قوله «عقروا»، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فاتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾ وقد دلّت الأدلّة على أنّ الراضي بفعل كفاعله.

ثمّ أشار إلى العذاب الذي لحقهم بقوله: [**فما كان**] الانتقام منهم [**إلا أن خارت**] صوتت [**أرضهم بالخسفة**] يقال: خار الثور أي: صوت، ومنه قوله ﴿له خوار﴾.

[**خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة**] أي: اللينة الضعيفة عند الحرث بها ووضعها بالمحماة ليكون أبلغ في ذهابها في الأرض، وقوة الصوت لأنّ المحماة يكون لها في الأرض نشيش زائد على ما تقتضيه حركتها.

[**أيّها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه**] أي: المفازة يتحيّر ساكنها والمراد به الجهل وعمى البصيرة.

روي عنه عليه السلام أنّه قال عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام كالمناجي به رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند قبره: السلام عليك يا رسول اللّه عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك السريعة اللّحاق بك قلَّ يا رسول اللّه عن صفيّتك صبري ورَقَّ عنها تجلّدي إلا أنّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ

ومن كلام له عليه السلام

[**روي عنه عليه السلام أنّه قال عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام**] إشارة إلى ما رواه الخاصّة والعامّة عن النبي صلى الله عليه وآله بطرق عديدة أنّه قال: «فاطمة سيّدة نساء العالمين».

[**كالمناجي به رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند قبره: السلام عليك يا رسول اللّه عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك السريعة اللّحاق بك**] إشارة إلى ما روي عنه صلى الله عليه وآله أنّه رآها تبكي عند موته فأسرّ إليها «انت أسرع اهلي لحوقاً بي» فضحكت، وروي أنّها بقيت بعده خمسة وسبعين يوماً لم تُرَ كاشرة ولا ضاحكة وروي أربعة اشهر.

[**قلَّ يا رسول اللّه عن صفيّتك صبري**] تشكّي إليه صلى الله عليه وآله من فراقها، وقوله «عن صفيّتك» إشارة إلى أنّ محلّها من رسول اللّه صلى الله عليه وآله من التبجيل والمحبّة والإكرام حتّى قال فيها «فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني».

[**ورَقَّ**] أي: ضعف [**عنها**] أي عن فراقها [**تجلّدي**] أي: جلدي وصبري.

[**إلا أنّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ**] إشارة

فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك إنّا للّه وإنّا إليه راجعون فلقد استُرجِعتْ الوديعة

إلى ما هو كالعذر والتسلية له ﷺ أي: وإن كانت هذه المصيبة عظيمة يقلّ لها الصبر ويرقّ لها الجلد، ولكن المصيبة بفراقك أعظم، وكما صبرت في تلك على كونها أشدّ فالصبر على هذه أولى اقتداءً بالصبر في تلك.

ثمّ شرع في بيان مصيبته به ﷺ فقال:

[**فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك**] أي: في الجهة المشقوقة من قبرك، واللّحد: الشقّ في جانب القبر، وضمّ اللام لغة غير مشهورة.

[**وفاضت بين نحري وصدري نفسك**] روي أنّه ﷺ قذف دماً يسيراً وقت موته وبه قال من زعم أنّ مرضه ذات الجنب وأنّ القرحة التي كانت في الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت في تلك الحال وكانت فيها نفسه ﷺ، وقيل: أراد بذلك آخر الأنفاس التي يخرجها الميت ولا يستطيع إدخال هواء إلى الرئة عوضاً عنها، ولابدّ لكلّ ميّت من نفخة تكون آخر حركاته، وقيل إنّها الروح، وعبّر عنها بالنفس مجازاً.

[**إنّا للّه وإنّا إليه راجعون**] امتثال لقوله تعالى: ﴿وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنّا إليه راجعون أُولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأُولئك هم المهتدون﴾.

[**فلقد استُرجِعتْ الوديعة**] لأنّ النفوس في هذه الأبدان كالأمانة والوديعة في كونها تسترجع، وفيه إشارة إلى وجوب المحافظة عليها من المهلكات كما يحافظ على الوديعة، وقيل: أراد بها هو المتعارف بين الخلق من كون المرأة وديعة الرجل، كما يقال: النساء ودائع الكرام.

وأُخذت الرهينة، أمّا حُزْني فسرمد وأمّا ليلي فمسهّد إلى أن يختار الله تعالى لي دارك التي أنت فيها مُقيم وستُنبئك ابنتك فاحفها السؤال واستخبرها الحال هذا لم يطل العهد ولم يخلق الذكر والسلام عليكما سلام مودّع لا قال ولا سئم

[**وأُخذت الرهينة**] إشارة إلى انّ كلّ نفس رهينة على الوفاء الميثاق الذي رهنها الله به والعهد الذي أُخذ عليها حين الهبوط إلى هذا العالم ان ترجع إليه راضية مرضيّة مطيعة منقادة فإن وفت بعهدها خرجت من وثاق الرهن وضوعف لها الأجر، كما قال تعالى: ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ وإن نكث وارتكبت المناهي بقيت رهينة بجرائمها وآثامها كما قال: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾.

[**أمّا حُزْني فسرمد**] بيان حاله عليه السلام بعد الشكوى أي: حزني دائم.

[**وأمّا ليلي فمسهّد**] اي: فيه أرق لا أقدر معه على النوم.

[**إلى أن يختار الله تعالى لي دارك التي أنت فيها مُقيم**] كنّى بها عن الجنّة؛ لأنّه ممّن بُشّر بها وهو يعلم بدخولها.

[**وستُنبئك**] ستخبرك.

[**ابنتك**] ما اصابني من أُمتك بعدك وما اصاب أهل بيتي.

[**فاحفها السؤال**] اي: استقص عليها فيه.

[**واستخبرها الحال هذا**] فعلهم والحال انّه [**لم يطل العهد**] لقرب عهدهم برسول الله صلى الله عليه وآله [**ولم يخلق الذكر**] الذي هو القرآن الآمر بمودّة ذي القربى.

[**والسلام عليكما سلام مودّع لا قال ولا سئم**] لا مبغض ولا مالّ عن

فإنْ أنصرف فلا عن ملالة وإن أقِمْ فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصابرين أيّها الناس إنّما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقرّكم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم

مخاطبتك وزيارتك.

[**فإنْ أنصرف فلا عن ملالة**] من صحبتك ومكالمتك وزيارتك.

[**وإن أقِمْ فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصابرين**] تنزيه لنفسه عمّا عساه يعرض لبعض من يلازم القبور لشدّة الأسف والجزع عن وهم أنّه لا عوض عن ذلك الفائت ولا جزاء على التعزّي والصبر عنه وما وعد اللّه به الصابرين على نزول المصائب.

ومن كلامه عليه السلام
في الحثّ على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة

[**أيّها الناس إنّما الدنيا دار مجاز**] يسلك بها إلى الآخرة، فإنّ كلّ أحد يعبرها [**والآخرة دار قرار**] دائمة ليس منها خروج.

[**فخذوا من ممرّكم لمقرّكم**] فإنّ الدنيا بلاغ الآخرة، وفيها يتّخذ الزاد لسفرها بتحصيل الملكات الحسنة والمواظبة على الطاعات، ولذا ورد «نعم العون على الآخرة الدنيا».

[**ولا تهتكوا أستاركم**] بالمجاهرة بالمعاصي.

[**عند من يعلم أسراركم**] فإذا كان يعلم سرايركم وضمايركم فبالأولى ان يعلم ظواهركم.

وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم فيها اختبرتم ولغيرها خلقتم إنّ المرء إذا هلك قال الناس ما ترك وقالت الملائكة ما قدّم للّه آبائكم فقدموا بعضاً يكن لكم ذخراً

[**وأخرجوا من الدنيا قلوبكم**] بالزهد فيها وعدم الرغبة إليها والركون إليها.

[**من قبل أن تخرج منها أبدانكم**] فلا تستطيعون عملاً، قال تعالى: ﴿ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾.

[**فيها اختبرتم**] بالتكاليف وامتحنتم بالمصائب والأمراض والآلام.

[**ولغيرها خلقتم**] لتنالوا السعادة في الآخرة، فاطلبوا الغاية التي خُلقتم لأجلها.

[**إنّ المرء إذا هلك قال الناس ما ترك**] من متاع الدنيا [**وقالت الملائكة ما قدّم**] من الأعمال الصالحة، وفي نسبة السؤال الأوّل إلى الناس والثاني إلى الملائكة تنبيه على شرف الأعمال الاخروية وكونها مطلوب الملائكة كما أنّ مطلوب الخلق بالعكس، فكلّ يميل إلى جنسه، وفي لفظ ترك وقدّم لطف إشارة إلى أنّ متاع الدنيا مفارق متروك والأعمال الصالحة مقدّمة باقية نافعة للمرء في معاده، فينبغي شدّة الاعتناء ونهاية الاهتمام بها.

[**للّه آبائكم**] كلمة تقال تعظيماً للمخاطب كما يقال للّه انت، لأنّ الشيء الحسن العجيب ينسب إلى اللّه، وقيل اللام للعاقبة أي: إلى اللّه مصير آبائكم.

[**فقدموا بعضاً**] من متاع الدنيا كالمال والجاه [**يكن لكم ذخراً**] في الآخرة، وخصّ البعض بالتقديم لعدم جواز حرمان الوارث بالمرّة.

ولا تخلفوا كلاًّ فيكون وعليكم كان كثيراً ما ينادي به أصحابه: تجهّزوا رحمكم الله فقد نُودي فيكم بالرحيل واقلّوا العرجة على الدنيا وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فإنّ أمامكم عقبة كؤد ومنازل مخوفة مهولة

[**ولا تخلفوا كلاًّ**] أي: لا تخلّفوها باسرها لغيركم، [**فيكون**] لهم المهنى [**وعليكم**] الوزر.

ومن كلام له عليه السلام

[**كان كثيراً ما ينادي به أصحابه: تجهّزوا رحمكم الله**] من الدنيا، أي: استعدّوا لسفر الآخرة بما يحتاج إليه المسافرون ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**فقد نُودي فيكم بالرحيل**] لأنّ حوادث الزمان وتصرّم الليالي والأيام داعية بضرورتها للأمزجة إلى الانهدام، ويمكن أن يراد به السفر إلى الله بالرياضة الكاملة والمنادي بذلك الرسول والقرآن وحُجج الله.

[**واقلّوا العرجة**] أي: الإقامة [**على الدنيا**] واقلّوا الالتفات إليها إلا بالقدر الضروري بالزهد فيها.

[**وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد**] أي: بصالح ما يحضركم في الدنيا ويمكنكم إعداده والاستعداد به، وهو الأعمال الصالحة والتقوى، [**فإنّ أمامكم عقبة كؤد**] شاقّة المصعد، استعارها للموت، ووجه الشبه شدّة الملاقاة وقطع منازله في حال النفوس إلى آخر الموت.

[**ومنازل مخوفة مهولة**] وهي ما بعد الموت من القبر وسائر درجات

لابدّ من الورود عليها والوقوف عندها واعلموا أنّ ملاحظة النية نحوكم دائبة وكأنّ بمخالبها وقد نشبت فيكم ومضلعات المحذور فقطعوا علائق الدنيا واستظهروا بزاد التقوى

النفوس في الشقاوة والأهوال الاخروية.

وظاهر انّه [**لابدّ من الورود عليها**] أي: على تلك المنازل.

[**والوقوف عندها**] إلى حين عبورها سيّما أصحاب الملكات الرديّة والعلايق الدينية البدنية، فإنّ وقوفهم بتلك المنازل أطول وشدائدهم فيها أهول ثمّ ذكر بعض لوازم المستعار فقال:

[**واعلموا أنّ ملاحظة النية نحوكم دائبة**] فذكر الملاحظة ودؤبها وكنّى بذلك عن كونها لهم بالرصد لا ينقطع عنهم. وروي دانية أي: قريبة منهم، والملاحظ جمع ملحظ وهو مصدر أو محلّ اللّحظ وهو النظر بمؤخّر العين ودائبه: مجدّه.

[**وكأنّ بمخالبها وقد نشبت فيكم**] استعارة كنّى بها عن لحقو الّفات والأمراض المهلكة لهم ومعنى التشبيه المقدّر وقوعه القريب وقوعه وهو لحوق لهم ونشب مخالب المنية وشدائدها المجاوزة حدّ المقدار المعتاد، كنّى به عن لحوق شدائد الموت.

[**ومضلعات المحذور**] وهو ما ثقل منها وامال اي: مثقلات الظهور المحذورة وهي الذنوب.

[**فقطعوا علائق الدنيا**] بالزهد الحقيقي فيها، والتخفيف منها بترك الفضول، واستكثروا المتاع.

[**واستظهروا بزاد التقوى**] اي: اتخذوه ظهيراً لكم على مشاقّ السفر

لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً ألا تخبراني أيّ شيء لكما فيه حقّ دفعتكما عنه وأيّ قسم استأثرت عليكما به أم أيّ حقّ رفعه إليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه

للآخرة وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدّم بخلاف هذه الرواية.

ومن كلام له عليه السلام

كلّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا مِنْ ترك شاورتهما والاستعانة في الأمور بهما فإنّهما كانا يؤمّلان الأمر لأنفسهما، فلما صار إليه عادا إليه رجاء أن يداخلهما في أمره وأن يرفعهما في العطاء كما فعل الخلفاء قبله، وأن يشاركهما في الراي والجاه، ولمّا كان عليه السلام لا يتجاوز حكم اللّه في المساواة بين القويّ والضعيف والحقير والشريف لا تأخذه في اللّه لومة لائم عدلا عنه وفعلا ما فعلا، وقال عليه السلام مخاطباً لهما:

[**لقد نقمتما يسيراً**] من ترك المشورة والتسوية في العطاء.

[**وأرجأتما**] اي: اخرّتما [**كثيراً**] إشارة إلى ما اخّراه من حقّه ولم يوفياه إيّاه، واشار بكثرته إلى ما يعود منه إلى صلاح المسلمين من الآراء التي ينبغي ان يتحدّث فيها ويحتمل ان يكون مراده انّ الذي أبدياه ونقماه بعض ما في انفسهما كناية عن انّ في انفسهما اشياء كثيرة لم يقولاه.

[**ألا تخبراني أيّ شيء لكما فيه حقّ دفعتكما عنه وأيّ قسم استأثرت عليكما به أم أيّ حقّ رفعه إليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه**] وحاصله انّ الحقّ الذي تنقمان عليّ تركه إمّا ان يكون متعلّقاً

والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة ولكنّكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها فلمّا ــــــــ إلى كتاب الله تعالى وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتّبعته وما أسّس النبي ﷺ فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ورأي غيركما

بكما أو بغيركما من المسلمين، والأوّل إمّا ان يكون قسماً استاثرت به أو غيره من الحقوق دفعتكما عنه ظلماً، والثاني إمّا ان يكون تركه منّي ضعفاً عنه أو جهلاً به أو خطأ لدليل الحكم فيه والاستفهام في الأقسام كلّها إنكاري، ووجه الإنكار انّ التسوية في العطاء سنّة نبويّة يجب اتباعها والاستشارة في الحوادث ونحوها إنّما يجب مع عدم الحكم في الواقعة أو مع جهله وكلّ ذلك لم يكن إذ الأحكام كلّها منصوصة وهو الخبير بها، وقوله: والله ما كانت، ثمّ أشار إلى الجواب عن الأوّل بقوله:

[**والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة**] أي: حاجة [**ولكنّكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها**] وحيث كسر توهّمهم رغبته في الخلافة ومحبّته الملك والسلطان للاستيثار عليهما لم يبق علّة طلبه للولاية إلا نصرة الحقّ وإقامته كما صرّح به عليه السلام في غير موضع.

[**فلمّا ــــــــ إلى كتاب الله تعالى وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتّبعته وما أسّس النبي ﷺ فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ورأي غيركما**] وحاصله: انّي أحكم بالكتاب والسنّة، وكلّ من كان كذلك فلا حاجة به في الحكم إلى الراي.

ثمّ شرع في جواب الأقسام التي استفهمها على سبيل الإنكار فقال:

ولم يقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني من المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأمّا ما ذكرتما من أمر الاسوة فإنّ ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى منّي بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول اللّه ﷺ قد فرغ منه فلم أحتج إليكما فيما فرغ اللّه تعالى من قسمه وأمضى فيه حكمه فليس لكما واللّه عندي ولا لغيركما في هذا عتبى

[**ولم يقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني من المسلمين ولو كان ذلك**] وفرضا وقوعه [**لم أرغب عنكما ولا عن غيركما**] لكن ذلك لم يقع.

[**وأمّا ما ذكرتما من أمر الاسوة**] أي: اسوتكما بغيركما في العطاء [**فإنّ ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى منّي**] أي: لم أجعل الحاكم في ذلك هواي، أي: إنّ حكمي بالتسوية في القسمة لم يكن عن راي منّي ولا هوى اتبعته.

[**بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول اللّه ﷺ قد فرغ منه فلم أحتج إليكما فيما فرغ اللّه تعالى من قسمه**] في اللوح المحفوظ [**وأمضى فيه حكمه**] بإنزاله، ويقال للأمر الثابت الذي لا يحتاج إلى إيجاد وتكميل: مفروغ منه، ونسبة الفراغ إلى اللّه مجاز لمناسبة ما قضاه لفعل العبد الذي فراغ من عمله، وقوله فلم أحتج إليكما، أي: لم اقل لكما بما يرضيكما مع مخالفته لما جاء به الرسول ﷺ، وروي فلم احتج إليكما أي في الإرشاد إلى أحكام اللّه تعالى بعد فراغه منها.

وقوله: [**فليس لكما واللّه عندي ولا لغيركما في هذا عتبى**] والعتبى الرجوع عن الإساءة لازم نتيجتي القياسين في الجوابين فإنّه لما ثبت أنّه لا

اخـذ اللّه بقلوبنا وقلوبكم إلى الحقّ والهـمنا وإيّاكم الصـبـر ثمّ قال عليه السلام: رحم اللّه رجلاً رأى حقّاً فاعان عليه، ورأى جوراً فردّه وكان عوناً بالحقّ على صاحبه إنّي اكـره لكم ان تكونوا سبّابين ولكنّكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم

حقّ لهما فيما نقماه عليه لم يكن عليه ان يبعث.

ثمّ شرع في الدعاء لهمـا ولنفسه فقال: [**اخذ اللّه بقلوبنا وقلوبكم إلى الحقّ وألهمنا وإيّاكم الصبر**] باقسامه، سيّما عـن المعاصي والميـول البـاطلة واتّباع الأهواء المردية.

[**ثمّ قـال عليه السلام: رحم اللّه رجلاً رأى حـقّاً فاعان عـليه، ورأى جـوراً فردّه وكان عوناً بالحقّ على صاحبه**] وفيه جذب لهما ولاتباعهما إلى ذلك.

ومن كلام له عليه السلام

وقـد سـمع قـوماً من اصـحـابه يسبّون اهل الشـام ايام حـربهم بصـفّين فقال:

[**إنّي اكره لكم ان تكـونوا سبّابين**] فإنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «مـا بعثت لعّاناً ولا سبّاباً» وعنه صلى الله عليه وآله «اللّهم إنّي بشر فـإذا دعوت على إنساناً فاجـعل دعائي له لا عليه واهده إلى الصراط المستقيم».

والغـرض إرشاد أصـحـابه إلى السيـرة الحسنة وردعـهم عن ان يعـوّدوا السنتهم كلام السفهاء.

وقوله: [**ولكنّكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم**] اي: لو عدلتم

كان أصوب في القول وأبلغ في العذر إليهم وقلتم مكان سبّكم إيّاهم اللّهم احقن دمائنا ودمائهم واصلح ذات بيننا وبينهم حتّى يعرف الحقّ من جهله ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به وتبعه

عن السباب إلى وصف اعمالهم وتذكيرهم بكونهم ظالمين لكم وضالّين عن السبيل ذكر أعلى وجه النصيحة والهداية لهم.

[**كان أصوب في القول**] من السباب؛ لأنّ في تذكيرهم ونصحهم رجاء أن يعودوا إلى الحقّ.

[**وأبلغ في العذر إليهم**] من غيره، إذ لكم أن تقولوا بعد ذلك إنكم نصحتموهم وطلبتم منهم العتبى فلم يستعتبوا.

[**وقلتم**] عطف على وصفتم، أي: ولو قلتم [**مكان سبّكم إيّاهم اللّهم احقن دمائنا ودمائهم واصلح ذات بيننا وبينهم**] من الأحوال الموجبة للافتراق حتّى يكون أحوال ألفة واتفاق، وسمّيت ذات البين لأنّ أحوالها ملابسة للبين، وقيل: فات البين حقيقة الفرقة، أي: أصلح حقيقة الفرقة بيننا وبينهم وأبدلها بالألفة واهدهم من ضلالتهم.

[**حتّى يعرف الحقّ من جهله ويرعوي**] أي: يرتدع ويرجع [**عن الغيّ والعدوان من لهج به**] أي: أولع به وحرص عليه [**وتبعه**] وجواب (لو) المقدّرة محذوف لدلالة السابق عليه، أي: لكان أصوب أيضاً.

بصفّين وقد رأى ولده الحسن عليه السلام يتسرّع إلى الحرب املكوا عني هذا الغلام لا يهدّني فإنّي أنفس بهذين على الموت لئلا نقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله أيّها الناس إنّه لم يزل أمري معكم على ما أُحبّ حتّى نهكتكم الحرب

ومن كلام له عليه السلام

[بصفّين وقد رأى ولده الحسن عليه السلام يتسرّع إلى الحرب] فقال: [املكوا عني هذا الغلام] أي: شدّوه واضبطوه [لا يهدّني] كيلا يكسرني [فإنّي أنفس] بفتح الفاء من نفس بكسرها اي: اضنّ وابخل [بهذين] يعني الحسنين عليهما السلام [على الموت] إذ وجود الولد النافع يشدّ القوّة ويقوّي النفس سيّما مثل الحسن عليه السلام وكنّى بقوله لا يهدّني عن اصفافه لركنه وانكسار نفسه بذلك.

ثمّ نبّه على علّة أخرى لوجوب المحافظة عليه مع اخيه بقوله: [لئلا نقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله].

ومن كلام له عليه السلام
لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة

[أيّها الناس إنّه لم يزل أمري معكم على ما أُحبّ] من الطاعة لي والإجابة لدعوتي [حتّى نهكتكم الحرب] أي: اخلقتكم، وإسناده إلى

وقد والله اخذت منكم وتركت وهي لعدوّكم أنهك لقد كنت بالأمس أميراً فاصبحتُ اليوم ماموراً وكنتُ أمس ناهياً فاصبحت منهياً وقد أجبتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون بالبصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده بالبصرة وهو من

الحرب استعارة لإضعافها لهم ملاحظةً لشبههم بالثوب الذي اخلقه اللّبس وصار استعماله سبباً للإضعاف، أي: لم ازل كذلك إلى تلك الغاية.

[وقد والله أخذت منكم وتركت] كناية عن تصرّفها فيهم بوجوه التصرّف، وهو كالعذر لهم.

وقوله: **[وهي لعدوّكم أنهك]** لكيلا يتعاجزوا بعذر إنهاكها لهم.

ثمّ اخذ في التشكّي منهم إليهم وعتابهم على عصيانهم له وحكمهم عليه بالرجوع إلى التحكيم.

[لقد كنت بالأمس أميراً فاصبحتُ اليوم ماموراً وكنتُ أمس ناهياً فاصبحت منهياً] وذلك من معكوس الحكم ومضاد لما ينبغي لهم، ثمّ وبّخهم بقوله:

[وقد أجبتم البقاء] في الدنيا الفانية بترك القتال.

[وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون] أي: ليس لي قدرة على ذلك، وإن كان ذلك لي بحسب المصلحة والشرع.

ومن كلام له عليه السلام

[بالبصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده بالبصرة وهو من

من أصحابه فلما رأى سعة داره قال له: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق ومطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة، فقال له العلاء: يا أميرالمؤمنين اشكو إليك أخي عاصم بن زياد قال: وما له؟ قال: لبس العباء وتخلّى من الدنيا، فقال: عليّ به فلمّا جاء قال: يا عدي نفسه

أصحابه فلما رأى سعة داره قال له: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج] استفهمه عن غرضه في توسعة داره استفهام توبيخ وإنكار لكون ذلك منافياً للزهد المطلوب في الدنيا. ثمّ نبّهه على أنّك لو كنت انفقت ما أخرجته على بنائها من المال في سبيل اللّه لكان أولى وكنت إليه هناك أحوج إليه منها، ثمّ هداه إلى وجوه استعمالها في مرضات اللّه والتقرّب بها إليها بعد التفريط في بنائها فقال:

[وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق ومطالعها] كالزكاة والصدقة وغيرهما **[فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة، فقال له العلاء: يا أميرالمؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد قال: وما له؟ قال: لبس العباء وتخلّى من الدنيا، فقال: عليّ به]** نايب مناب فعل الأمر اي: جيئوا به.

[فلمّا جاء قال: يا عدي نفسه] تصغير عدو وأصله عديود حذفوا العدي الواوين وقلبوا الثانية ياءً تخفيفاً وادغموا فيها ياء التصغير وصغّره إشارةً إلى انّ شيطانه لم يقده إلى كبيرة مهلكة بل قاده إلى أمر قريب من السلامة.

لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك أترى اللّه أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على اللّه من ذلك قال يا أميرالمؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وخشونة مأكلك

[لقد استهام بك] اي: اذهبك لوجهك وزيّن لك الهيام وهو الذهاب في التيه.

[الخبيث] اي: الشيطان، إشارة إلى انّ فعله ذلك كان بمشاركة الشيطان ولم يكن عن عقيدة خالصة.

[أما رحمت أهلك وولدك] فضيّعت حقوقهم اللازمة لك وأهملتها بفعلك ذلك.

[أترى اللّه أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها] استفهام توبيخي على تركه ذلك، وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل من حرّم زينة اللّه التي اخرج لعباده والطيّبات من الرزق﴾.

[انت أهون على اللّه من ذلك] والحاصل انّ ترك الدنيا بالمرّة ليس مطلوب الشارع، وليس المراد من الزهد المامور به، ذلك لأنّ الشارع يراعي نظام العالم باشتراك الخلق في عمارة الدنيا وتعاونهم على المصالح ليتمّ بقاء النوع الإنساني، وترك الدنيا وإهمالها بالكلّية يهدم ذلك النظام وينافيه بل المطلوب شرعاً وعقلاً القصد في الدنيا واستعمال متاعها على القوانين التي وردت بها الرسول والوقوف عند حدودها.

[قال] عاصم **[يا أميرالمؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وخشونة مأكلك]** اي: غلظة وخشونة، وقيل: الطعام الجشب هو الذي لا أدام معه اي: كيف تنهاني عن ذلك وبك ما أرى من هذا الحال وأنت المقتدى به، أو

فقال عليه السلام إنّي لست كائنت، إنّ اللّه تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا ـــــ بالفقير فقره إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً

كيف انصع مع الحال التي انت عليها وإنّما ينبغي لي ان اقتدي بك؟

[**فقال عليه السلام**] في جوابه [**إنّي لست كائنت، إنّ اللّه تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس**] اي: يساويها بهم في حالهم. [**كيلا ـــــ**] اي: يهيج، [**بالفقير فقره**] فيضعف عن حمله فيكفر او يفسق، وقد كانت حاله عليه السلام قبل الخلافة كذلك، فحصل الفارق.

ومن كلام له عليه السلام

وقد سأله سائل عن احاديث البدع أي المبتدعة بعد الرسول صلى الله عليه وآله المنقولة عنه وما يبتني عليها من الأفعال المبتدعة في الدين وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر، اي: الأخبار المختلفة والأحاديث المتعارضة فقال عليه السلام:

[**إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً وصدقاً وكذباً**] وهما من خواصّ الخبر والحقّ والباطل اعمّ منهما لصدقهما على الأفعال وعلى الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ والمحكم والمتشابه المشار إليها بقوله:

[**وناسخاً ومنسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً**] وهو ما حفظ عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله كما هو [**ووهماً**] وهو ما غلط فيه وتوهّم مثلاً انّه عامّ وهو خاصّ، او انّه ثابت وهو منسوخ ونحو ذلك.

وقد كذب على رسول اللّهﷺ على عهده حتّى قام خطيباً فقال من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار وإنّما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس رجل منافق مظهر للإيمان متصنّع بالإسلام له لا يتأثم

[**وقد كذب على رسول اللّهﷺ على عهده**] كما روي انّ رجلاً سرق رداء النبيﷺ وخرج إلى قوم فقال: هذا رداء محمدﷺ قد أعطانيه لتمكّنوني من تلك المرأة، فاستنكروا ذلك، فبعثوا من سأل الرسول عن ذلك فقام الرجل الكاذب فشرب ماءً فلذعته حيّة فمات، وكان النبيﷺ حين سمع بتلك الحال قال لعليّ خذ السيف وانطلق فإن وجدته وقد كفيت فاحرقه بالنار فجاء وأمر بإحراقه.

[**حتّى قام خطيباً فقال**] ﷺ [**من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار**] يقال: تبوّء مقعده أي: نزله واستقرّ فيه.

[**وإنّما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس**] ووجه الحصر انّ الناقلين للخبر عنهﷺ المتّسمين بالإسلام إمّا منافق أو لا، والثاني إمّا أن لا يكون قد عرف ما يتعلّق به من شرائط الرواية أو يكون، فالاول وهو المنافق ينقل كما أراد، سواء كان أصل الحديث كذباً أو انّ له أصلاً حرّفه وزاد فيه ونقص بحسب هواه فهو ضالّ مضلّ تعمّد أو قصد. والثاني يرويه كما فهم ووهم، فهو ضالّ مضلّ سهواً، والثالث يروي ما سمع فضلاله وإضلاله عرضي، والرابع يؤدّيه كما سمعه وكما هو، فهو هاد مهدي، فأشارﷺ إلى القسم الأوّل بقوله: [**رجل منافق مظهر للإيمان متصنّع بالإسلام**] أي: يظهره شعاراً، [**له لا يتاثم**] أي: لا يعترف بالإثم ولزوم العقاب عليه في

ولا يتحرّج يكذب على رسول اللّه ﷺ متعمّداً فلو علم الناس انّه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوا قوله، ولكنّهم قالوا صاحب رسول اللّه ﷺ رآه وسمع منه ولقف عنه فياخذون بقوله وقد اخبرك اللّه تعالى عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به ثمّ بقوا بعده ﷺ فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان فولّوهم الاعمال وجعلوهم حكّاماً

الآخرة.

[ولا يتحرّج] ولا يحذر منه.

[يكذب على رسول اللّه ﷺ متعمّداً فلو علم الناس انّه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوا قوله، ولكنّهم قالوا صاحب رسول اللّه ﷺ رآه وسمع منه ولقف عنه] اي: تناول بسرعة [فياخذون بقوله] لأنّهم لا يعلمون نفاقه.

[وقد أخبرك اللّه تعالى عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به] لك فقال تعالى: ﴿إنّ المنافقين في الدَّرك الأسفل من النار﴾ وقال تعالى: ﴿إذا جائك المنافقون قالوا نشهد انّك لرسول اللّه واللّه يعلم انّك لرسوله واللّه يشهد انّ المنافقين لكاذبون﴾.

[ثمّ بقوا] اي: أولئك المنافقون.

[بعده ﷺ فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة] وهم بنو أُمية [والدعاة إلى النار] اي: إلى أسبابها وما يوصل إليها من المعاصي الكبيرة والأخلاق الرذيلة.

[بالزور والبهتان] متعلّق بقوله «فتقرّبوا» اي: تقرّبوا إليهم بالأخبار الكاذبة المتضمّنة لفضائل الخلفاء وبني أُميّة.

[فولّوهم الاعمال] جزاء على وصفهم تلك الأخبار [وجعلوهم حكّاماً

على رقــاب الناس وأكلوا بـهم الدنيــا وإنّمــا الناس مع الملوك في الدنيا إلا من عـصم اللّه تعالى فهـذا أحد الأربعة ورجل سـمع من رسول اللّهﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه فـوهم فيه وهم ولـم يتـعمّد كذباً فـهو في يديه يرويـه ويعـمل به ويقـول: سـمعـتـه من رسـول اللّهﷺ فلو علم المسلمون أنّه وهم فيه لم يقبلوه ولو علم هو أنّه كذلك لرفضه

على رقاب الناس] بأن ولّوهم القضاء.

[وأكلوا بهم الدنيـا وإنّمـا الناس مع الملوك في الدنيـا] لغلبة حبّ الدنيا عليهم لقربهم من المحسوس وجهلهم بأحوال الآخرة.

[إلا من عصم اللّه تعالى] وهداه إلى الطريق المستقيم، وفيه إشعار بقلّة الصـالحين كـما قـال تعـالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعـملوا الصـالحـات وقليل مـا هم﴾ وقال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

[فهذا أحد الأربعة] بل أوّلهم، وأشار إلى القسم الثاني بقوله: **[ورجل سمع من رسول اللّهﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه]** فيورده بعبارته، **[فوهم فيـه وهم]** بالكسـر أي: غـلط، وبالفتـح: ذهـب وهمـه إلـى شيء وهو يريد غيره.

[ولـم يتعمّد كذباً] بل إنّما تصوّر وهم أنّه كذلك.

[فـهـو في يديه يـرويه ويعـمل به] على وفق مـا تصـوّره منه ويسنده إلى النبيﷺ.

[ويقـول: سمعته من رسـول اللّهﷺ فلو علم المسلمون أنّه وهم فـيه لم يقبلوه] منه **[ولو علم هو أنّه كـذلك لرفضـه]** وسـبب دخـول الشـبـهـة على المسلمين عدم علمهم بوهمه وعليه في الرواية والعمل وهمه حين السماع.

ورجل ثالث سمع من رسول اللّه ﷺ شيئاً يأمر به ثمّ نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو يعلم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منسوخ لرفضوه، وآخر رابع لم يكذب على اللّه تعالى ولا على رسوله، مبغضٌ للكذب خوفاً للّه وتعظيماً لرسول اللّه ولم يهم بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه ولم يزد فيه ولم ينقص منه الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه وعرف الخاصّ والعامّ فوضع كلّ شيء موضعه وعرف المتشابه ومحكمه وقد كان يكون من رسول اللّه ﷺ الكلام له وجهان، فكلامٌ خاصّ وكلامٌ عامّ، فيسمعه من لا يعرف ما عنى اللّه تعالى

وأشار إلى القسم الثالث بقوله: [ورجل ثالث سمع من رسول اللّه ﷺ شيئاً يأمر به ثمّ نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو يعلم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه] منه أنّه [منسوخ لرفضوه، وآخر رابع لم يكذب على اللّه تعالى ولا على رسوله، مبغضٌ للكذب خوفاً للّه وتعظيماً لرسول اللّه] ﷺ [ولم يهم] أي: لم يعرض له وهم ولا سهو [بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه ولم يزد فيه ولم ينقص منه] وحفظ [الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه] أي: اخذ عنه جانباً.

[وعرف الخاصّ والعامّ فوضع كلّ شيء موضعه] بأن حمل العام على الخاص وعمل به فيما عدا صورة التخصيص.

[وعرف المتشابه ومحكمه وقد كان يكون من رسول اللّه ﷺ الكلام له وجهان، فكلامٌ خاصّ وكلامٌ عامّ، فيسمعه من لا يعرف ما عنى اللّه تعالى

ولا ما عنى به رسول اللّه ﷺ فيحمله السامع ويوجّهه على غير معرفة معناه وما قصد به وما خرج من أجله وليس كلّ أصحاب رسول اللّه ﷺ كان يسأله ويستفهمه حتّى إن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأله حتّى يسمعوا كلامه وكان لا يمرّ بي شيء من ذلك إلا سألت عنه وحفظته فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم

ولا ما عنى به رسول اللّه ﷺ] فلا يعرف انّ احدهما مخصّص للآخر.

[فيحمله السامع ويوجّهه على غير معرفة معناه وما قصد به وما خرج من أجله] فربّما اخرج على سبب خاصّ فهو مقصور عليه ولا ينقل سببه فيعتقده عامّاً أو انّه عامّ فيعتقده مقصوراً على السبب ولا يعمل به فيما عدا صورة السبب فيتّبعه الناس في ذلك. وهذا الكلام تنبيه على صحّة القسم الثالث ولمّا كان هنا مظنّة سؤال بان يقال: كيف يقع الاشتباه عليهم في قول النبي ﷺ مع كثرتهم وتواضعه لهم فلا يسألونه؟ أجاب ﷺ بقوله:

[وليس كلّ أصحاب رسول اللّه ﷺ كان يسأله ويستفهمه] لاحترامهم له وهيبته وتعظيمه في قلوبهم وإنّما كان يسأله آحاد منهم.

[حتّى إن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأله حتّى يسمعوا كلامه] وينفتح لهم باب السؤال.

ثمّ شرع ﷺ في بيان حاله والفرق بينه وبينهم فقال: **[وكان لا يمرّ بي شيء من ذلك إلا سألت عنه وحفظته]** يعني انّه ﷺ كان يستقصي في سؤاله عن كلّ ما يشتبه عليه ويحفظ جوابه.

[فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم].

وكان من اقتدار جبروته وبديع لطايف صنعته أن جعل من ماء اليمّ البحر الزاخر المتراكم يبساً جامداً ثمّ فطر أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها فاستمسكت بأمره وقامت على حده يحملها

ومن خطبة له عليه السلام
في الثناء على اللّه تعالى

[وكان من اقتدار جبروته] تعالى حيث أنّه العظيم الأعظم الذي لا يتعاظمه شيء.

[وبديع لطايف صنعته] حيث انّه اللّطيف الحكيم الخبير.

[أن جعل من ماء اليمّ البحر الزاخر المتراكم] بعضه على بعض المتقاصف تقاصفه ترادّ أمواجه وتلاطمها وكسر بعضها بعضاً.

[يبساً جامداً] كناية عن الأرض، **[ثمّ فطر]** اي من البحر **[أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا انّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾.

[فاستمسكت بأمره] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ اللّه يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن امسكهما من احد من بعده﴾.

[وقامت على حده] الضمير للّه او لامره كناية عن وقوفها على ما حدّ لها من المقدار والشكل والهيئة والنهايات ونحوها وعدم خروجها عن ذلك وتجاوزها له.

[يحملها] الضمير للأرض المدولل عليها باليبس الجامد، وكذا في

الأخضر المتفجّر أو القمقام المسخّر قد ذلّ لأمره وأذعن لهيبته ووقف الجاري منه لخشيته وجَبَلَ جلاميدها ونشوز متونها فأرساها في مراسيها وألزمها قرارها فمضت رؤسها في الهواء ورست أُصولها في الماء فأنهد جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع انصبابها فأشهق قلالها وأطال أنشازها وجعلها للأرض حبالاً وعماداً وأزّرها فيها أوتاداً فسكنت على حركتها من أن يمتدّ بأهلها أو تسيخ

جلاميدها وما بعده.

[**الأخضر المتفجّر**] وهو السيّال الكثير الماء.

[**أو القمقام**] وهو البحر، سمّي بذلك لاجتماعه [**المسخّر**] لقدرة اللّه [**قد ذلّ**] أي: البحر [**لأمره وأذعن لهيبته**] أي: دخل تحت ذلّ الإمكان والحاجة إلى قدرته وتصريفها له وهو من باب الاستعارة.

[**ووقف الجاري منه لخشيته وجَبَلَ**] أي: خلق [**جلاميدها**] أي: صخورها [**ونشوز متونها فأرساها في مراسيها وألزمها قرارها فمضت رؤسها في الهواء ورست أُصولها في الماء فأنهد**] أي: رفع [**جبالها عن سهولها وأساخ**] أي: أدخل [**قواعدها في متون أقطارها ومواضع انصبابها**] جمع نصب: وهو ما انتصب منها، [**فأشهق قلالها وأطال أنشازها**] جمع ناشز: وهو العوالي منها.

[**وجعلها للارض حبالاً وعماداً وأزّرها**] أي: ركّزها وغرزها [**فيها**] وروي وازرها مخففاً أي: اثبتها [**أوتاداً فسكنت على حركتها**] أي: على حركتها لانّ على تفيد الحال [**من أن يمتدّ**] وتضطرب [**بأهلها أو تسيخ**]

بحملها أو تزول عن مواضعها فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجّي راكد لا يجري وقائم لا يسري تكركره الرياح العواصف وتمخضه الذوارف إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى

بحملها أو تزول عن مواضعها] لأنّها إذا مادت انقلبت بأهلها فغاص الوجه الذي هم عليه والمانع لها من الميدان هو المانع لها أن تسيخ أو تزول عن موضعها.

[فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها وأجمدها بعد رطوبة أكنافها] أي: أقطارها وفيه إشارة إلى أنّ أصلها من زبد الماء كما أشار إليه سابقاً، قيل: ويحتمل أن يشير بذلك إلى ما كان مغموراً بالماء فيها ثمّ سال الماء منه إلى مواضع أسفل منه فخلا وجفّ وهي مواضع كثيرة مسكونة وغير مسكونة.

[فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجّي راكد لا يجري وقائم لا يسري] ولو جرى أو سرى لانتفى القرار والاستقرار ولم تكن مهاداً وفراشاً، **[تكركره]** تردّده وتصرّفه **[الرياح العواصف وتمخضه الذوارف]** أي: الغمام التي تذرف المطر، قيل: فيه إشارة إلى أنّ البحر إذا وقع فيه المطر القويّ يرتجّ ويتمخّض ويضطرب كثيراً، وذلك لتحريك وقع المطر له بكثرته وقوته أو لكثرة اقتران المطر بالرياح فتموّجه وأغلبها تحريكاً له الرياح الجنوبية لانكشافه لها.

[إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى] أي: للعلماء لانحصار الخشية فيهم، كما قال تعالى: ﴿إنّما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾.

اللّهمّ أيّما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة غير الجائرة والمصلحة في الدّين والدنيا غير الفاسدة فأبى بعد سمعه لها إلا النكوص عن نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك فإنّا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادة، ونستشهد عليه جميع من أسكنته أرضك وسماواتك ثمّ أنت بعد الغني عن نصره والآخذ له بذنبه

ومن خطبة له عليه السلام

[**اللّهمّ أيّما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة**] المستقيمة التي هي طريق اللّه القائدة للناس إلى الرشاد في دينهم ودنياهم [**غير الجائرة**] عن طريق الهدى [**والمصلحة**] للناس [**في الدّين والدنيا غير الفاسدة**] ولا المفسدة لهم، وهي دعوته إيّاهم إلى جهاد أعداء الدّين والبغاة على المسلمين.

[**فأبى بعد سمعه لها إلا النكوص**] أي: الرجوع.

[**عن نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك فإنّا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادة، ونستشهد عليه جميع من أسكنته أرضك وسماواتك**] وفي هذا الاستشهاد ترغيب للسامع إلى الجهاد وتنفير عن التأخّر عنه حيث إنّه بمنزلة اعلام اللّه وأخباره وهو أعلم مجال المتخاذلين عن نصرة دينه وقعودهم عمّا أمر بالذبّ عنه، فتتحرك أوهامهم لذلك بالفزع إلى طاعته وكذا في وصفه لمقالته بالعدل والإصلاح ترغيب في سماعها أو جذب إليها.

وقوله: [**ثمّ أنت بعد الغني عن نصره والآخذ له بذنبه**] تنبيه على عظمة ملك اللّه وتحقير للنفوس المتخاذلة عن نصرة الدين وفي ذكر الأخذ بالذنب تذكير بوعيد اللّه وإنّ ذلك المتخاذل ذنباً عظيماً يؤخذ به العبد.

الحمد للّه العلي عن شبه المخلوقين الغالب لمقال الواصفين الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين الباطن بجلال عزّته عن أفكار المتوهّمين

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه العلي عن شبه المخلوقين] في ذاته وصفاته وافعاله واقواله، [الغالب لمقال الواصفين] لعجز الألسن عن التعبير بوصف يليق بجلاله وإعيائها عن التعبير بما يناسب عظمة كماله ولتعاليه عن إحاطة الأوصاف به.

[الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين] بأعين بصائرهم وابصارهم، ففي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾.

[الباطن بجلال عزّته عن أفكار المتوهّمين] فلا تدركه العقول والأوهام، قال صلى الله عليه وآله: «إنّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار» وفائدة قوله بجلال عزّته تنزيه بطونه عن الفكر باعتبار جلالته وعزّته عن ان تنال لا باعتبار حقارة وصغر وإنّما قال فكر المتوهّمين لانّ النفس الإنسانية حال التفاتها إلى الأمور العلوية المجرّدة لابدّ ان تستعين بالقوّة المتخيّلة بباعث الوهم في انّ تصوّر تلك الأمور بصور خيالية مناسبة لتشبّثها بها وبحطها إلى الخيال وقد علمت انّ الوهم إنّما يدرك ما كان متعلّقاً بمحسوس او متخيّل من المحسوسات فكلّ أمر تصوّره الإنسان وهو في هذا العالم سواء كان ذات الواجب أو صفاته أو غيرهما فلابدّ ان يكون مشوباً بصورة خيالية او معلّقاً بها وهو تعالى منزّه بجلال عزّته عن تكييف تلك الفكر له وباطن عنها.

العالـم لا باكتساب المقدّر لجميع الأُمور بلا روية ولا ضمير الذي لاتغشاه الظُّلَم ولا يستضيء بالأنوار ولا يراهقه ليل ولا يجري عليه نهار ليس إدراكـه بالأبصار ولا علمـه بالاخبار أرسله بالضياء وقـدّمه في الاصطفاء

[**العالم لا باكتساب**] أي: المنزّه في كيفية علمه عن اكتساب له بعده جهل أو ازدياد منه بعد نقصان أو استفادة له من الغير كما في علوم المخلوقين.

[**المقدّر لجميع الأُمور**] أي: الموجد لها على وفق القضاء كلاً بمقدار معلوم [**بلا روية**] أي: تفكّر [**ولا ضمير**] وهو ما أضمر من الرويّة.

[**الذي لا تغشاه الظُّلَم ولا يستضيء بالأنوار**] لتنزّهه عن الجسمية ولواحقها.

[**ولا يراهقه**] أي: لا يدركه [**ليل ولا يجري عليه نهار**] لتنزّهه عن إحاطة الزمان [**ليس إدراكه بالأبصار**] لتقدّس ذاته عن الحاجة إلى الآلة في الإدراك وغيره.

[**ولا علمه بالاخبار**] كما في علم المخلوقين لتقدّسه عن حاسّة السمع.

ومنها في ذكر النبيﷺ

[**أرسله بالضياء**] أي: أنوار الإسلام والقرآن الهادية إلى سبيل اللّه.

[**وقدّمه في الاصطفاء**] على سائر الأنبياء في الفضيلة، وإن كان كلّ منهم مصطفى من الناس ولكنّهﷺ مصطفى من المصطفين.

فرتق به المفاتق وذلّل به الصعوبة وسهّل به الحزونة حتّى سرّح الضلال عن يمين وشمال وأشهد أنّه عدل عدل

[**فرتق به المفاتق**] كنّى بها عن أمور العالم المتفرّقة والمصالح المتشتّتة زمان الفترة ورتقها بها كناية عن نظمها به بعد تفرّقها.

وساور به المغالب] المساورة: المواثبة، وأسندها إلى اللّه مجازاً باعتبار بعثه للنبي صلى الله عليه وآله بالدّين عن أمره لمواثبة مغالبيه من المشركين وغيرهم.

[**وذلّل به الصعوبة**] أي: صعوبة أهل الجاهلية وأعداء دين اللّه.

[**وسهّل به الحزونة**] أي: حزوة طريق اللّه بهدايته فيها إلى غاية أشار إليها بقوله: [**حتّى سرّح**] أي: فرّق [**الضلال**] والجهل [**عن يمين وشمال**] أي: عن يمين النفوس وشمالها، إشارة إلى إلقائه رذيلتي التفريط والإفراط عن ظهور النفوس كإلقاء جني الحمل على ظهر الدابة وهو من لطيف الاستعارات وأبلغها.

ومن خطبة له عليه السلام

[**وأشهد أنّه عدل عدل**] أي: عادل من إطلاق الملزوم على اللازم، وهو تعالى عادل بالنظر إلى علمه وقضائه اي: لا يقضي في ملكه بامر إلا وهو على وفق النظام الكلّي والحكمة البالغة، ويدخل في ذلك جميع أقواله وأفعاله فإنّه لا يصدر منها شيء إلا وهو كذلك، والشرور الجزئية جنب خيريتها أكثر بل هي من لوازم الخبر والعدل لابدّ منها كما لا يمكن أن يكون الإنسان إنساناً إلا وهو ذو شهوة وغضب، وكذا قوله:

وحكمه فصل وأشهد أنّ محمّداًﷺ عبده وسيّد عباده كلّما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر، ألا! وإنّ الله تعالى قد جعل للخير أهلاً وللخلق دعائم وللطاعة عصماً

[**وحكمه فصل**] قاطع، ليس فيه هزل.

[**وأشهد أنّ محمّداًﷺ عبده وسيّد عباده**] لقولهﷺ: «انا سيّد ولد آدم ولا فخر».

[**كلّما نسخ الله**] أي: أزال وغيّر [**الخلق فرقتين جعله في خيرهما**] ونسخ الخلق: نقلهم عن أُصولهم بالتناسل، أي: كلّما أوجد فرقتين من الخلق عن أصولهما جعله في خيرهما كما قالﷺ: «أنا محمد بن عبداللّهبن عبدالمطلب إنّ الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم ثمّ جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم ثمّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم ثمّ جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً».

[**لم يسهم فيه عاهر**] أي: زان [**ولا ضرب فيه فاجر**] أي: لم يضرب فيه الزاني بسهم ولم يكن للفجور في أصله شركة، بل لم يزل ينقل من الأصلاب الشامخة إلى الأرحام المطهّرة، وقالﷺ: «لم يزل ينقلني الله من اصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات» وقالﷺ: «لمّا خلق الله آدم أودع نوري في جبينه فما زال ينقله من الآباء الأخاير إلى الأمّهات الطواهر حتّى انتهى إلى عبدالمطلّب» وقالﷺ: «ولدت من نكاح لا من سفاح».

وقوله: [**ألا! وإنّ الله تعالى قد جعل للخير أهلاً وللخلق دعائم وللطاعة عصماً**] أي: قوماً او ادلّة يعتصم بها ويلجأ إليها في المعونة على

وإنّ لكم عند كلّ شطاعة عوناً من اللّه تعالى يقول على الألسنة ويثبّت الأفئدة وفيه كفاة لمكتف وشفاً لمستشف واعلموا أنّ عباد اللّه المستحفظين علمه

الطاعة، والغرض منه ترغيب السامعين ان يكونوا أهل الجنّة ودعائم الحقّ وعصم الطاعة، وكذا قوله:

[وإنّ لكم عند كلّ شطاعة عوناً من اللّه تعالى] ولعلّ العون القرآن المجيد والفرقان الحميد.

[يقول على الألسنة] فيَعِدُ المطيع بالثواب والأجر الجسيم والخلد في جنّة نعيم على الطاعة ويمدح المطيعين ويبشّرهم بالجنّة والرضوان على ألسنة الرسل، فإنّ جميع ذلك مقوٍّ على الطاعة ومُعين عليها.

[ويثبّت الأفئدة] من جهة الاستعداد لطاعة اللّه ومطالعة أنوار كتابه واستكشاف أسراره، قال تعالى: ﴿الا بذكر اللّه تطمئنّ القلوب﴾ وقال: ﴿وكذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ مضافاً إلى ما في القرآن من المواعظ والزواجر المخوّفة ما يوجب الفزع شإلى اللّه ويثبّت القلوب على طاعته للخلاص منها.

[وفيه] أي: في ذلك العون، **[كفاة لمكتف]** أي: طالب الاكتفاء من الكمالات النفسانية.

[وشفاً لمستشف] أي: لمن طلب الشفاء من أمراض الرذايل الموبقة.

ثمّ نبّه على عباد اللّه الصالحين وصفاتهم ليقتفوا آثارهم ويكونوا منهم فقال: **[واعلموا أنّ عباد اللّه المستحفظين علمه]** أي: الذين استحفظهم علمه وأسرار خلقه.

يصونون مصونه ويفجّرون عيونه يتواصلون بالولاية ويتلاقون بالمحبّة ويتساقون بكأس رويّة ويصدرون بريِّه ولا تشوبهم الريبة ولا تسرع فيه الغيبة

[**يصونون مصونه**] أي: يصونون ما يجب صونه عن غير أهله ولا يضعون أسراره إلا في أهله.

[**ويفجّرون عيونه**] استعار العيون إمّا لمعاونة وهي أذهان الأنبياء والأولياء وائمّة العلماء، وإمّا لأُصوله الكلّية، وجملة التي علّموها ولفظ التفجير مستعار لإفادتها وتفريعها وتفصيلها [**يتواصلون بالولاية**] بنصرة بعضهم بعضاً في دين اللّه وإقامة ناموس شريعته وأحكامه.

[**ويتلاقون بالمحبّة**] ومودّة بعضهم بعضاً قلوبهم مؤتلفة وكلمتهم متّفقة حتّى صاروا كنفس واحدة.

[**ويتساقون بكأس رويّة**] استعار الكأس للعلوم والمعارف، أي: يفيد بعضهم بعضاً ويستفيد كلّ منهم من الآخر، ورشح بذكر المرويّة وأراد بها تمام الإفادة.

[**ويصدرون بريِّه**] بالكسر، فعله من الري وهي الهيئة التي عليها المرتوي أي: يصدر كلٌّ منهم عن الآخر بفائدة قد ملأت نفسه كمالاً، ولفظ الرية مستعار كما مرّ.

[**ولا تشوبهم الريبة**] أي: لا يتداخل بعضهم شكّ في بعض، والريبة الدخل والغلّ ولا يتّهمه بنفاق او بسوء باطن له من غلّ أو حسد [**ولا تسرع فيه الغيبة**] فيه إشعار بصعوبة أمر الغيبة حيث لم ينفها عنهم بالكلّية، بل استبعد وقوعها منهم، ويحتمل ان يريد أنّهم لقلّة عيوبهم لا يكاد أحد

على ذلك عُقد خلقهم وأخلاقهم فعليه يتحابّون وبه يتواصلون فكانوا كتفاضل البذر ينتقى فيؤخذ منه ويلقى قد ميّزه التخليص وهذّبه التمحيص فليقبل امرؤ كرامة بقبولها وليحذر قارعة قبل وصولها ولينتظر أمرؤ في قصر أيّامه

يتسرّع فيهم بغيبة.

[**على ذلك**] الوصف والكمال [**عُقد خلقهم وأخلاقهم**] اي: قدّر خلقهم على وفق قضائه لهم بذلك وأوجدهم [**فعليه**] أي: على ما عقد خلقهم من الكمال [**يتحابّون وبه يتواصلون فكانوا**] في ذلك الوصف وهذا الحال، [**كتفاضل البذر**] اي: كانوا في فضلهم بالقياس إلى النافس كتفاضل البذر.

[**ينتقى فيؤخذ منه**] النقي: الخالص، [**ويلقى**] في الأرض [**قد ميّزه التخليص وهذّبه التمحيص**] اي: إنّهم خلاصة الناس ونقاوتهم الذين صفاهم منهم وميّزهم عنهم تخليصعناية اللّه لهم بإفاضته ورحمته وهدايته إلى طريقه وخلّصهم ابتلائه واختباره بأوامره ونواهيه كما تميّز جيّد البذر مخلصه ومنتقيه.

ثمّ عاد إلى نصحهم فقال: [**فليقبل امرؤ كرامة بقبولها**] أي: كرامة اللّه بطاعته وما يستلزمه من المواهب الجليلة، واراد بقبولها قبولها الحسن التام على الوجه الذي ينبغي من مراعاة مصلحتها وبرائتها عن آثار النفاق كما قال تعالى: ﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن﴾.

[**وليحذر قارعة**] وهي قارعة هادم اللّذات ومفرّق الجماعات.

[**قبل وصولها ولينتظر أمرؤ في قصر أيّامه**] اي: أيام حياته الفانية.

وقليل مـقـامه في منزل حتّى يستـبدل به منزلاً فليصنع لمتـحوّله ومعـارف متنقلة فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه ويجـتنب من يرديه وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصّره وطاعة هادٍ أمره

[وقليل مقامه] في هذه الدار الزائلة، **[في منزل]** عنه يسير وإلى غيره يصير.

[حتّى يستبدل به منزلاً] آخر، أي: يجعل محلّ عبرته إقامته القصيرة في الدنيا المستلزمة لانتقاله منها إلى الآخرة فإنّ في تصوّره قلّة المقام في هذا المنزل للعبور إلى منزل آخر عبرة تامّة، ويحتمل ان يكون حتّى غاية أمره بالنظر والاعتبار أي: فلينظر في ذلك المنزل استبدل به غيره وإذا كان كذلك **[فليصنع لمتحوّله]** أي: فليعمل لذلك المنزل المتحوّل إليه.

[ومعارف متنقلة] أي: المواضع التي يعرف انتقاله إليها.

[فطوبى] فُعلى، من الطيب قلبت يائها واواً للضمّة قبلها أو اسم شجرة في الجنّة.

[لذي قلب سليم] لم يندس برذيلة الجهالات ولا بنجاسات الأخلاق الرديّة المهلكات.

[أطاع من يهديه] من أئمّة الدين وحجج ربّ العالمين.

[ويجتنب من يرديه] في مهاوي الهلكة من رؤساء المنافقين وأئمّة الضلال الغاصبين.

[وأصاب سبيل السلامة] بان وقف على سبيل اللّه عند حدوده **[ببصر من بصّره]** أي: بهداية من هداه.

[وطاعة هاد أمره] بسلوك الصراط المستقيم والطريق القويم.

وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه وتقطع أسبابه واستنفح التوبة وأماط الحوبة فقد أقيم على الطريق وهدي نهج السبيل كان يدعو به كثيراً: الحمد لله الذي لم يصبح بي ميّتاً ولا سقيماً ولا مضروباً على عروقي بسوء ولا ماخوذاً باسوإ عملي ولا مقطوعاً دابري

[وبادر الهدى] سارع إليه **[قبل أن تغلق أبوابه]** استعار الأبواب لنفسه الشريفة ولأئمّة الدين من قبله ورشح بذكر الغلق وأراد به عدمهم.

[وتقطع أسبابه] عادةً لهم لكونهم وصلة ووسيلة إلى المراد كالحبال ورشح بذكر القطع وأراد به موتهم **[واستنفح التوبة]** أي: استقبلها وشرع فيها **[وأماط الحوبة]** أي: ازال الإثم عن لوح نفسه.

[فقد أقيم على الطريق وهدي نهج السبيل] قيل: فيه إشعار بإقامة أعلام الله وهم العلماء والكتاب والسنّة والهداية به إلى واضح سبيله ليقتدي الناس بها ويسلكوا على بصيرة.

ومن دعاء له عليه السلام

[كان يدعو به كثيراً: الحمد لله الذي لم يصبح بي ميّتاً ولا سقيماً] حمد الله تعالى على الحياة والصحّة.

[ولا مضروباً على عروقي بسوء] وعلى السلامة من آفات العروق وما يعرض لها.

[ولا ماخوذاً باسوإ عملي ولا مقطوعاً دابري] كنّى به عن قطع النسل أو عن الرمي بالدواهي العظيمة والمصائب الجسيمة التي من شانها ان تقصم

ولا مرتداً عن ديني ولا منكراً لربّي ولا مستوحشاً من إيماني ولا ملتبساً عقلي ولا معذّباً بعذاب الأمم من قبلي أصبحت عبداً مملوكاً ظالماً لنفسي لك الحجّة عليّ ولا حجّة لي لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني

الظهر وتبتر العمر وتقطع القوة [**ولا مرتداً عن ديني**] جاحداً لربوبية ربّي أو لأنبيائه ورسله ولما علم من الدين ضرورة.

وقوله: [**ولا منكراً لربّي**] من عطف الخاصّ على العام أو المراد بالارتداد: الرجوع إلى الجاهلية السابقة.

[**ولا مستوحشاً من إيماني**] مستثقلاً له متنفراً عنه [**ولا ملتبساً عقلي**] مختلطاً لا أعرف به صلاح معاشي ولا صلاح معادي.

[**ولا معذّباً بعذاب الأمم من قبلي**] بالصواعق والخسف والمسخ ونحوها ثمّ عقب ذلك الحمد بالإقرار على نفسه بصفات الخضوع والذلّة المستلزمة لاستنزال الرحمة وعدّ منها خمسة فقال: [**أصبحت عبداً مملوكاً**] لربّي مسخّراً تحت قدرته لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

[**ظالماً لنفسي**] عملت سوء وظلمت نفسي ﴿ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾.

[**لك الحجّة عليّ**] في جميع الأمور.

[**ولا حجّة لي**] فيما جرى عليَّ فيه قضائك والزمني حكمك وبلائك.

[**لا أستطيع أن آخذ**] شيئاً أو اتناول نفعاً[**إلا ما أعطيتني**] وقسمته لي وسببت لي الوصول إليه.

ولا أستطيع أن أتقّي اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أفتقر في غناك أو أضلّ في هداك أو أُضام في سلطانك أو أُضطهد والأمر لك اللّهمّ اجعل نفسي أوّل كريمة تنتزعها من كرائمي وأوّل وديعة ترتجعها اللّهمّ إنّا نعوذ بك أن نذهب عن قولك أو نفتتن عن دينك

[**ولا أستطيع أن أتقّي**] شيئاً من المضار [إلا ما وقيتني ودفعت عنّي، ثمّ لمّا اعدّ نفسه لهذه الإقرارات للرحمة استعاذ به من أُمور توجب النقمة فقال:

[**اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أفتقر في غناك**] أي: افتقر مع أنّك الغني المطلق.

[**أو أضلّ في هداك**] أي: مع أنّك الهادي الذي لا ضلال معه [**أو أُضام في سلطانك**] أي: أُظلم مع أنّ لك السلطان القاهر.

[**أو أُضطهد**] أي: أُظلم وأُقهر.

[**والأمر لك**] يا قاهر.

[**اللّهمّ اجعل نفسي أوّل كريمة تنتزعها من كرائمي**] وأراد بكرائمه قواه النفسانية والبدنية وأعضائه وغرض السؤال أن يمتّعه بجميعها سليمة من الآفات إلى حين الممات فتكون نفسه أوّل منتزع من كرائمه قبل أن يفقد شيء منها ونحوه قول النبي صلى الله عليه وآله: «اللّهم متّعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارثين مني» أي: باقيين صحيحين إلى حين وفاتي.

[**وأوّل وديعة ترتجعها**] من ودائعك عندي، استعار الوديعة للنفس باعتبار أنّها في معرض الاسترجاع كالوديعة.

[**اللّهمّ إنّا نعوذ بك أن نذهب عن قولك**] فلا نعمل بأوامرك ولا نصغي لموعظتك ولا نرتدع عن نواهيك.

[**أو نفتتن عن دينك**] بالبناء للمفعول اي: من الافتتان عن الدّين

أو نتابع أهوائنا دون الهدى الذي جاء من عندك أمّا بعد فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم والحقّ أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف

بالغرور، وروي بالبناء للفاعل على أن تكون الفتنة من النفس الأمّارة.

[**أو نتابع أهوائنا دون الهدى الذي جاء من عندك**] على السنة أنبيائك ورسلك وبما نزل في كتبك.

ومن خطبة له عليه السلام
خطبها بصفّين

[**أمّا بعد فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم**] أي: لكلّ من الوالي والرعية حقّ على الآخر يجب الخروج منه، فحقّه عليهم حقّ ولايته لأمرهم، وحقّهم عليه وجوب مراعاته.

وقوله: [**والحقّ أوسع الأشياء في التواصف**] تقرير لوجوب حقّه عليهم والتوبيخ لهم على قلّة الانصفاف فيه، أي: إذا أخذ الناس في وصف الحقّ وبيانه كان لهم في ذلك مجال واسع لسهولته على ألسنتهم.

[**واضيقها في التناصف**] أي: إذا حضر التناصف وطلب منهم ضاق عليهم المجال لشدّةالعمل بالحقّ وصعوبة الإنصاف، لاستلزامه ترك بعض المطالب المحبوبة لهم، وإطلاق السعة والضيق على الحقّ استعارة ملاحظة لشبهه فيما يتوهّم فيه من اتّساعه للقول وضيقه عن العمل بالمكان الذي يتّسع

لا يجري لاحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له ولو كان لاحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً للّه عزّ وجلّ دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كلّما أجرت عليه صروف قضائه ولكنّه تعالى جعل حقّه على العباد أن يطيعوه وجعل اجزائهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلاً منه وتوسّعاً بما هو من المزيد أهله

لشيء ويضيق عمّا هو اعظم منه.

وقوله: **[لا يجري لاحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له]** تسكين لنفوسهم بذكر الحقّ لهم، ثمّ اعاد تقرير الحقّ عليهم بحجّة في صورة متّصلة بقوله: **[ولو كان لاحد أن يجري]** الحقّ **[له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً للّه عزّ وجلّ دون خلقه]** أي: لكان اللّه تعالى هو الأولى بخلوّ من ذلك له دون خلقه.

[لقدرته على عباده ولعدله في كلّما أجرت عليه صروف قضائه] أي: لكونه قادراً على عباده وعلى الانتصاف منهم مع كونه لا يستحقّ عليه شيء لعدله فيهم في كلّما جرت به مقاديره التي هي صروف قصائه كان اولى لخلوص ذلك له دونهم.

[ولكنّه تعالى جعل حقّه على العباد أن يطيعوه وجعل اجزائهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلاً منه وتوسّعاً بما هو من المزيد أهله] فقد ثبت من ذلك انّه لم يخلص ذلك للّه بل كما اوجب على عباده حقّاً له اوجب لهم على نفسه بذلك حقّاً، فإذن لا يجري لاحد حقّ إلا جرى عليه بل الحقّ الذي أوجبه على نفسه لهم اعظم مما اوجب لها مع انّه ليس بحقّ واجب عليه، بل تفضّل منه وتوسعة عليهم بما هو اهله من مزيد النعمة ليتخلّقوا باخلاق اللّه

ثمّ جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض فجعلها تتكافى وجوهها ويوجب بعضها بعضاً ولا يستوجب بعضها إلا ببعض

في أداء ما وجب عليهم من الحقّ بأفضل وجوهه ويقابلوا ذلك التفضّل بمزيد الشكر والمضاعفة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ وقوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبة مائة حبّة واللّه يضاعف لمن يشاء﴾ وقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً مضاعفة﴾.

ثمّ أخذ عليه السلام في بيان أنّ حقّه عليهم واجب من قبل اللّه وحقّ من حقوقه ليكون أدعى لهم إلى أدائه، وكذا حقوق الخلق بعضهم على بعض فقال:

[ثمّ جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض] وإنّما كانت من حقّه تعالى؛ لأنّ حقّه على عباده هو الطاعة وأداء تلك الحقوق وطاعات اللّه كحقّ الوالد على ولده وبالعكس، وحقّ الزوج على الزوجة وحقّ الوالي على الرعيّة وبالعكس.

[فجعلها تتكافى وجوهها] بأن جعل كلّ وجه من تلك الحقوق مقابلاً بمثله، فحقّ الوالي وهو الطاعة من الرعية مقابل بمثله منه وهو العدل فيهم وحسن السيرة.

[ويوجب بعضها بعضاً ولا يستوجب بعضها إلا ببعض] لا يستوجب كلّ من الحقّين إلا بالآخر.

وأعظم ما افترض اللّه من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعيّة وحقّ الرعيـة على الوالي فريضة فرضها اللّه سبحانه لكلّ على كلّ فجعلها نظاماً لألفتهم وعزّاً لدينهم فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الرعاة والولاة ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه وأدّى إليها حقّها عزّ الحقّ بينهم وقامت مناهج الدين

[وأعظم ما افترض اللّه من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعيّة وحقّ الرعية على الوالي] وإنّما كانت أعظم لكون هذين الحقّين أمرين كلّيين يدور عليهما أكثر المصالح في المعاش والمعاد.

[فريضة فرضها اللّه سبحانه لكلّ على كلّ فجعلها نظاماً لألفتهم] والألفة من أهمّ المطالب للشارع؛ ولذا ورد الحثّ على الجمعة والجماعة والاختلاف إلى المساجد والتزاور والتعاون والتعاضد ونحوها حتّى يكون الناس كلّهم كشخص واحد عالم بمصالحه مقبل عليها وبمفاسده مدبر عنها.

[وعزّاً لدينهم] لأنّ الاجتماع إذا كان سبباً للألفة والمودّة كان سبباً عظيماً للقوّة وقهر الأعداء وعزّ الدين.

[فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الرعاة والولاة] كما قيل: تهدى الرعية ما استقام الرئيس، وقال الآخر:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولّت فبالأشرار تنقاد

[ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية] فاستقامتهم في طاعتهم وفساد أحوالهم في عصيانهم ومخالفتهم.

ثمّ أشار عليه السلام إلى لوازم ذلك بقوله: **[فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه وأدّى إليها حقّها عزّ الحقّ بينهم وقامت مناهج الدين]** وطرقه بالاستقامة على

واعتدلت معالم الحقّ والعدل ونظامه وجرت على إذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء وإذا غلبت الرعية وعصت وأحجف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور وكثر الادغال في الدّين وتركت محاج السنن فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام

قوانين والعمل بها.

[**واعتدلت معالم الحقّ والعدل ونظامه**] بحيث لا جور فيها.

[**وجرت على إذلالها السنن**] أي: على وجوهها ومسالكها بحيث لا تحريف فيها ولا تقية.

[**فصلح بذلك الزمان**] أي أهله بانتظام أُمورهم في معاشهم ومعادهم.

[**وطمع في بقاء الدولة**] ودوامها لوجود المقتضي.

[**ويئست مطامع الأعداء**] في فسادها وهدمها.

ثمّ أشار عليه السلام إلى ما يلزم من الفساد من عدم القيام بالحقوق.

[**وإذا غلبت الرعية**] **وعصت وأحجف الوالي برعيته**] بالحيف والجور عليهم [**اختلفت هنالك الكلمة**] واختلفت الآراء ووقعت الفرقة.

[**وظهرت معالم الجور**] وعلاماته لعدم العدل بعدم أسبابه.

[**وكثر الادغال**] أي: الإفساد [**في الدّين**] لتبدّد الأهواء وتفرّقها عن رأي الإمام العادل الجامع لها وأخذ كلّ منهم بهواه ورأيه وفي ذلك الهرج والمرج وفساد الدين.

[**وتركت محاج السنن**] وطرقها، أمّا الإمام فلجوره وأمّا من الرعيّة فلتبدّد نظام آرائها، كما قال: [**فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام**] وضيّعت

وكثرت علل النفوس فلا يستوحب لعظيم حقّ عطّل ولا لعظيم باطل فعل فهنالك تذلّ الأبرار وتعزّ الأشرار وتعظم تبعات اللّه عند العباد فعليكم بالتناسح في ذلك وحسن التعاون عليه فليس أحد وإن اشتدّ على رضى اللّه تعالى حرصه وطال في العمل اجتهاده ببالغ حقيقة ما للّه تعالى أهله من الطاعة له ولكن من واجب حقوق اللّه تعالى على العباد النصيحة مبلغ جهدهم والتعاون على إقامة

السنن، وذلك كلّه لازم العمل بالهوى.

[**وكثرت علل النفوس**] وأمراضها بالملكات الرذيلة والأخلاق المردية كالغلّ والحسد والعداوة والعجب والكبر ونحوها.

[**فلا يستوحب لعظيم حقّ عطّل**] وذلك للأنس بتعطيله.

[**ولا لعظيم باطل فعل**] لاعتياده والاتفاق عليه وكونه مقتضى الأهوية.

[**فهنالك تذلّ الأبرار**] لذلّة الحقّ المعطّل الذي هم أهله وكان عزّهم بعزّه [**وتعزّ الأشرار**] لعزّةالباطل الذي هم عليه بعد ذلّهم بعزّة الحقّ.

[**وتعظم تبعات اللّه عند العباد**] أي: عقوباته بسبب خروجهم عن طاعته.

[**فعليكم بالتناسح في ذلك**] الحق [**وحسن التعاون عليه فليس أحد وإن اشتدّ على رضى اللّه تعالى حرصه وطال في العمل اجتهاده ببالغ حقيقة ما للّه تعالى أهله من الطاعة له**] أي: ليس أحد من الناس يبلغ بطاعة اللّه ما هو أهله ومستحقّه وإن اشتدّ حرجه على إرضائه بالعمل وطال فيه جتهاده.

[**ولكن من واجب حقوق اللّه تعالى على العباد النصيحة**] لبعضهم بعصاً [**مبلغ جهدهم**] وبقدر طاقتهم لا كما هو أهل [**والتعاون على إقامة**

الحقّ بينهم وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته وتقدّمت في الدين فضيلته هو بفوق أن يعان على ما حمّله اللّه تعالى من حقّه ولا امرؤ وإن صغرته النفوس وأقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه

الحقّ بينهم] بقدر الإمكان لا بقدر ما يستحقّه تعالى فإنّه ممكن ولا مقدور لهم.

[وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته وتقدّمت في الدين فضيلته] أي: وإن بلغ المرء أيّ درجة كانت من طاعة اللّه فهو محتاج إلى أن يُعان عليها وليس **[هو بفوق أن يعان]** أي: ليس هو بأرفع من أن يعان **[على ما حمّله اللّه تعالى من حقّه]** لانّ التكليف إنّما هو بحسب وسع المكلّف كما قال تعالى: ﴿لا يكلّف اللّه نفساً إلا وسعها﴾ والواسع في بعض العبادات قد يكون مشروطاً بمعونة الغير فيها فلا يستغني أحد عنها.

[ولا امرؤ وإن صغرته النفوس وأقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه] أي: لا ينبغي أن يزدري أحد من الاستعانية به في طاعة اللّه وأن يعان عليها، فإنّه وإن احتقر به النفوس فليس بدون أن يعين على طاعة اللّه وأداء حقّه ولو بقبول الصدقات ونحوها أو يعانوا عليها بإعطاء ما يسدّ خلّتهم أو يدفع عنهم ضرراً كالجاه، واستعار الاقتحام؛ لأنّ الذي تحتقره النفوس يتجرء عليه وتعبره العيون عبور الاحتقار فكأنّها قد اقتحمته.

والغرض من هذا الكلام حثّ الناس على استعانة بعضهم ببعض وعلى الألفة والاتحاد في الدّين وأن لا يحتقر فقير لفقره ولا ضعيف لضعفه وأن لا يستغني غني عن فقير بحيث لا يلتفت إليه ولا قوي عن ضعيف فيحقّره، بل

فأجابه رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته فقال عليه السلام: إنّ من حقّ من عظّم جلال اللّه تعالى في نفسه وجلّ موضعه من قلبه أن يصغر عنده لعظم ذلك كلّ ما سواه وإنّ أحقّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة اللّه تعالى عليه ولطف إحسانه إليه وإنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويوضع أمرهم على الكبر وقد كرهت أن يكون جال في ظنّكم إنّي أُحبّ الإطراء واستماع الثناء ولو كنت أحبّ أن يقال ذلك فيّ لتركته انحطاطاً للّه تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من العظمة والكبرياء

أن يكون الجميع كنفس واحدة.

[**فأجابه رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته فقال عليه السلام: إنّ من حقّ من عظّم جلال اللّه تعالى في نفسه وجلّ موضعه من قلبه أن يصغر عنده لعظم ذلك كلّ ما سواه وإنّ أحقّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة اللّه تعالى عليه ولطف إحسانه إليه**] فمثله أحقّ أن يصغّر كلّما سوى اللّه عنده.

[**وإنّ من أسخف**] أي: أضعف [**حالات الولاة عند صالح الناس أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويوضع أمرهم على الكبر**] إذ هما لا يليقان إلا بعظمة اللّه تعالى.

[**وقد كرهت أن يكون جال في ظنّكم إنّي أُحبّ الإطراء واستماع الثناء ولو كنت أحبّ أن يقال ذلك فيّ لتركته انحطاطاً للّه تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من العظمة والكبرياء**] فإنّ الإطراء يستلزم التكبّر والتعظّم فكان تركه له وكراهيته لكونه مستلزماً لهما، وحاصله تأديب الرجل المذكور على

وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى اللّه تعالى وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها فرائض لابدّ من إمضائها

الإطراء والنهي عن الغلو في الثناء على الإنسان في وجهه بالفضائل وإن كانت حقّه؛ لانّ ذلك لا يستلزم في الغالب الكبر والعجب بالنفس والعمل.

ثمّ ذكر ﷺ ما يجري مجرى تمهيد العذر لمن أثنى عليه فقال:

[**وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء**] أي: لعلّك أيّها المثني معذور في ذلك، حيث رأيتني أُشجاهد في اللّه وأحثّ الناس على ذلك، ومن عادة الناس أن يستحلوا الثناء بعد أن يبلوا بلاءً حسناً في جهاد أو غيره من سائر الطاعات.

ثمّ أجاب عن هذا العذر بقوله: [**فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء**] لأجل ما ترونه منّي من طاعة اللّه في الجهاد وغيره فإنّ ذلك [**لإخراجي نفسي إلى اللّه تعالى وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها**] بعد، وهي حقوق نعمه التي أنعم بها عليّ ومن [**فرائض لابدّ من إمضائها**] ومن حقوقكم التي أوجبها اللّه لكم عليّ من النصيحة في الدين والإرشاد والتعليم، وفي بعض النسخ من التقية بالتاء المثنّاة من فوق أي: إنّ الذي أفعله من طاعة اللّه إنّما هو إخراج لنفسي إلى اللّه وإليكم من تقية الخلق فيما يجب عليّ من الحقوق، أي: لم أفعل شيئاً إلا وهو أداء حقّ واجب عليّ فكيف أستحقّ الثناء منكم لأجله وأُقابل بهذا التعظيم وهو من باب التواضع للّه وكسر النفس.

ثمّ أرشدهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من السيرة بقوله:

فلا تكلّمون بما تكلّم به الجبابرة ولا تتحفّظوا منّي بما يتحفّظ به عند أهل البادرة ولا تخالطوني بالمصانعة ولا تظنّوا بي استثقالاً بحقٍّ قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي فإنّه من استثقل الحقّ أن يقال له أو العدل أن يُعرَض عليه كان العمل بهما عليه أثقل فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ أو مشورة بعدل

[**فلا تكلّمون بما تكلّم به الجبابرة**] لما فيه من إغراء جالنفس وتهيّجها ولأنّه ﷺ ليس بجبّار فيكونوا قد وضعوا الشيء في غير محلّه.

[**ولا تتحفّظوا منّي بما يتحفّظ به عند أهل البادرة**] أي: سرع الغضب من الملوك وغيرهم، وذلك التحفظ عند أهل البادرة مثل تلك المسارّة مثلاً في مجالسهم إجلالاً لهم وخوفاً منهم أو كترك مشاورته وإعلامه ببعض الأمور أو كالقيام بين يديه فإنّ ذلك التحفّظ قد تفوت به مصالح كثيرة ولأنّه مما يغري النفس بحبّ الفخر والعجب ولأنّه وضع الشيء في غير موضعه.

[**ولا تخالطوني بالمصانعة**] والنفاق لما فيه من فساد الدين والدنيا.

[**ولا تظنّوا بي استثقالاً بحقٍّ قيل لي**] وإن كان فيه مرارة، أي: شدّة وصعوبة، فإنّ عدله ﷺ يستلزم قبول الحقّ كيف كان له أو عليه.

[**ولا**] تظنّوا بي أيضاً [**التماس إعظام لنفسي**] وذلك لعلمه بأنّ الإعظام مختصّ باللّه تعالى.

[**فإنّه من استثقل الحقّ أن يقال له أو العدل أن يُعرَض عليه كان العمل بهما عليه أثقل**] ولا شيء من ذلك بثقيل عليه ﷺ كما هو معلوم من حاله، فلا شيء من قول الحقّ وعرض العدل عليه بثقيل.

[**فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ أو مشورة بعدل**] لما في الكفّ عن ذلك من

فإنّي لست في نفسي بفوق أن أُخطي ولا آمن شذلك من فعلي إلا أن يكفي اللّه تعالى من نفسي ما هو أملك به مني فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا وأخرجنا ممّا كنّا فيه إلى ما صلحنا عليه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى اللّهمّ إنّي أستعديك

المفاسد العظيمة.

وقوله: [**فإنّي لست في نفسي بفوق أن أُخطي ولا آمن شذلك من فعلي إلا أن يكفي اللّه تعالى من نفسي**] الأمّارة بالسوء [**ما هو أملك به مني**] وأقوى على دفعه وكفايته بأن يعصمني من قبيل التواضع الباعث لهم على الانبساط معه بقوله الحقّ: [**فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره**] تأديب من الانقياد للّه وتذليل لعظمته [**يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا**] وميولها وخواطرها إذ الكلّ منه وهو مبدء فيضه والاستعداد له.

[**وأخرجنا ممّا كنّا فيه**] من الضلالة في الجاهلية وعمى الجهل فيها عن إدراك الحقّ وسلوك سبيل اللّه [**إلى ما صلحنا عليه**] من الهدى لسبيل اللّه والبصيرة لما ينبغي من مصالح الدارين والفوز في النشأتين.

[**فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى**] فله الحمد على كلّ حال في البدء والمآل.

ومن كلام له عليه السلام

[**اللّهمّ إنّي أستعديك**] أي: استعينك والاسم العدوى، وهي: الإعانة

على قريش فإنّهم قطعوا رحمي وأكفئوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به من غيري وقالوا الاّ أنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تمنعه فاصبر مغموماً أو مُت متأسّفاً فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية وأغضيت على القذى وجرعت ريقي على الشجى وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم، وألم للقلب من حز الشفار

[على قريش فإنّهم قطعوا رحمي] ودفعوني عن حقّي وغصبوا مقامي.

[وأكفئوا إنائي] أكبوه وقلبوه كناية عن إعراضهم وتفرّقهم عنه فإنّ ذلك من لوازم قلب الإنشاء كما أنّ من لوازم نصبهم له وتعديله إقبالهم واجتماعهم عليه.

[وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به من غيري] وهو الإمامة والخلافة التي خصّه اللّه بها واختاره لها فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها [وقالوا] بلسان حالهم وبمقتضى أفعالهم [الاّ أنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تمنعه فاصبر مغموماً أو مُت متأسّفاً فنظرت فإذا ليس لي رافد] أي: معين وناصر [ولا ذاب] عن الباطل [ولا مساعد] على الحقّ [إلا أهل بيتي فضننت] أي: بخلت [بهم عن المنية وأغضيت على القذى وجرعت ريقي على الشجى] وهو ما يعترض في الحلق من عظم وغيره وكنّى به عن الغمّ والتألّم الحاصل له.

[وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم] وهو شجر شمرّ معروف.

[وألم للقلب من حز الشفار] جمع شفرة وهي السكّين؛ لانّ تألّم

فقدموا على عمالي وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي وعلى أهل مصر كلّهم في طاعتي وعلى بيعتي فشتّتوا كلمتهم وأفسدوا عليّ جماعتهم، ووثبوا على شيعتي بها فقتلوا طائفة منهم غدراً وطائفة منهم عضّوا على أسيافهم فضرُبوا بها حتّى لقوا اللّه صادقين

النفوس بما يفوتها من الكمالات النفسانية أشدّ بكثير من الآلام الحسّية من حزّ السكين وغيره.

قال السيد: وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة مقدّمة إلا إنّي كرّرته هنا لاختلاف الروايتين ونحن قدّمنا الشرح هناك ولذا اختصرنا في شرحه هنا اعتماداً على ما مرّ.

ومن كلام له عليه السلام

في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام وقد مرّ ذكرهم مشروحاً.

[فقدموا على عمالي وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي وعلى أهل مصر] وهي: البصرة **[كلّهم في طاعتي وعلى بيعتي فشتّتوا كلمتهم وأفسدوا عليّ جماعتهم، ووثبوا على شيعتي بها فقتلوا طائفة منهم غدراً وطائفة منهم عضّوا على أسيافهم]** أي: لزموها **[فضرُبوا بها حتّى لقوا اللّه صادقين]** والمعني بهؤلاء طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم، وقد مرّ ما فعلوه فلا نعيد.

لما مرّ بطلحة وعبدالرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً، أما والله لقد كنتُ أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب أدركت وتري من بني عبد مناف وأفلتتني أعيان بني جمح

ومن كلام له عليه السلام

[**لما مرّ بطلحة وعبدالرحمن بن عتاب بن أسيد**] بن أبي العاص بن أُميّة شهد وقعة الجمل وقُتل بها وروي أنّ عقاباً احتملت كفّه فأُصيب باليمامة في ذلك اليوم وعرفت بخاتمه وكان يدعى يعسوب قريش.

[**وهما قتيلان يوم الجمل لقد أصبح أبو محمد**] يعني طلحة [**بهذا المكان غريباً، أما والله لقد كنتُ أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب**] كناية عن الفلوات، أي: كنت أكره أن يكونوا بهذه الحالة في الفلوات بحيث لا كنّ يكنّهم ولا ظلّ يواريهم.

[**أدركت وتري من بني عبد مناف**] وكناية عن طلحة والزبير فإنّهما من بني عبد مناف من قبل الأُم دون الأب لانّ أبا الزبير من بني عبدالعزّى بن قصي بن كلاب وأبا طلحة من بني سعد بن تيم بن مرّة٠.

[**وأفلتتني أعيان بني جمح**] قبيلة، وكان في زمانه منهم عبدالله بن صفوان بن أُمية بن خلف وعبدالرحمن بن صفوان وقيل كان مروان بن الحكم منهم أُخذ أسيراً يوم الجمل واستشفع بالحسن إلى أبيه والأعيان السادات، وروي أعيار بالراء المهملة جمع عير وهم سادات القوم

لقد أتلفوا أعناقهم إلى من لم يكونوا أهله فوقصوا دونه قد أحيا عقله وأمات نفسه حتّى دقّ جليله ولطف غليظه

وأوتادهم.

[**لقد أتلفوا**] أي: مدّوا [**أعناقهم**] كالمتطلّعين إلى الشيء [**إلى من لم يكونوا أهله فوقصوا**] أي: كسرت أعناقهم [**دونه**] وكنّى باتلاع رقابهم عن تطاولهم لأمر الخلافة مع كونهم ليسوا أهلاً لها وبوقصهم عن قتلهم دون ذلك الأمر وقصورهم عنه.

ومن كلام له عليه السلام

في وصف العارف باللّه السالك إلى اللّه [**قد أحيا عقله**] بصرف همّته في تحصيل الكمالات العقلية والأخلاق الفاضلة النفسانية والزهد والعبادة [**وأمات نفسه**] الأمّارة بالسوء بانقيادها للعقل والشرع وتطويعها للنفس المطمئنة بحيث لا يكون لها تصرّف على حدّ طبيعتها أو جبلتها بل هي منقادة تحت أمر العقل والشرع فكانت في حكم الميت عن الشهوات والميول الطبيعية الذي لا تصرف له من نفسه [**حتّى دقّ جليله**] أي: بدنه الذي هو أعظم ما يرى منه.

[**ولطف غليظه**] إشارة إلى لطف بدنه أيضاً أو لطف قواه النفسانيةبتلك الرياضة وكسر الشهوة، فإنّ إعطاء القوّة الشهوية مقتضى طباعها من الانهماك والمآكل والمشرب مما يشغل البدن ويكدّر الحواس، ولذا قيل: البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة والغلظة، فإذا قصرت على متابعة العقل

وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة

لطفت الحواس عن قلّة الابخرة المتولّدة عن التملّي بالطعام والشراب، ولطف بلطف ذلك ما غلظ من جوهر النفس بالهيئات البدنية المكتسبة من متابعة النفس الأمّارة بالسوء كلطف المرآة بالصقال حتّى يصير ذلك اللطف سبباً لاتصالها بعالمها.

[**وبرق له لامع كثير البرق**] قيل أشار باللامع إلى ما يعرض للسالك عند بلوغ الإرادة والرياضة حدّاً ما من الخلسات إلى الجانب الأعلى من ظهور أنوار الهيبة لذيذة شبيهة بالبرق في سرعة لمعانه واختفائه، وتلك اللوامع مسمّاة في عرف المجرّدين بالأوقات، وهذه اللوامع في مبدء الأمر تعرض قليلاً، فإذا أمعن في الارتياض كثرت، فأشار باللامع إلى نفس ذلك النور وبكثرة بروقه إلى كثرة عروضه له بعد الامعان في الرياضة.

وقوله: [**فأبان له الطريق**] أي: ظهر له بسبب ذلك أنّ الطريق الحقّ إلى اللّه هو ما هو عليه من المجاهدة الشرعية [**وسلك به السبيل**] أي: كان سبباً لسلوكه في سبيل اللّه إليه.

[**وتدافعته الأبواب**] أي: أبواب الرياضة من الزهد والعبادة وغيرهما، ووجه التدافع ههنا انتقاله من باب إلى باب منها ومن عبادة إلى أُخرى، فكأنّها تتدافعه.

[**إلى باب السلامة**] أي: إلى الباب الذي يلقى فيه السلامة من الانحراف عن الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**ودار الإقامة**] وهي جنّة الخلد.

وثبّت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه قوله تعالى ألهكم التكاثر حتّى زرتم المقابر يا له مراماً ما بعده وزوراً ما أغفله وخطراً ما أفظعه

[**وثبّت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة**] متعلّق بثبّت، إشارة إلى الدرجة الأُخرى وهي الأعلى المسمّاة بالطمأنينة، وذلك لأنّ السالك ما دام في مرتبة الوقت فإنّه يعرض لبدنه عند لمعان تلك البروق وفي سرّه اضطراب وقلق يحسّ به جليسه لأنّ النفس إذا فاجئها أمر عظيم اضطربت، فإذا كثرت تلك الغواشي ألفتها فصارت بحيث لا تنزعج عنها ولا تضطرب لورودها بل تسكن وتطمئن لثبوت قدم عقله في درجة أعلى من درجات الجنّة التي هي قرار الأمن والراحة من عذاب اللّه.

وقوله: [**بما استعمل قلبه وأرضى ربّه**] الجار والمجرور متعلّق بنسب أيضاً، أي: ثبّت رجلاه بسبب استعمال قلبه ونفسه في طاعة اللّه وإرضائه بذلك الاستعمال.

ومن كلام له عليه السلام

قاله بعد تلاوة [**قوله تعالى ألهكم التكاثر حتّى زرتم المقابر يا له مراماً ما بعده**] المرام: المطلوب [**وزوراً ما أغفله**] الزور: الزائرون [**وخطراً ما أفظعه**] الخطر: الإشراف على الهلاك، والفضيع: الشديد الذي جاوز الحدّ في شدّته، واللام ف ي قوله (يا له) لام الجرّ للتعجّب كقولهم يا للدواهي، والجار والمجرور في محلّ النصب لانّه المنادى ومراماً وزوراً وخطراً منصوبات

لقد استحلّوا منهم أي: من الأموات أيّ مدّكر وتناوشهم من مكان بيعد أفبمصارع آبائهم يفتخرون أم بعديد الهلكى يتكاثرون يرتجعون منهم

على التمييز والمعنى التعجّب من بعد ذلك المرام شوهو التكاثر، فإنّ الغاية المطلوبة لا يدركها الإنسان إلا أنّ كلّ غاية بلغها ففوقها غاية أُخرى قد أدركها غيره، فنفسه تطمح إليها، وذلك التعجّب من شدّة غفلة الزور أي الزائرين للمقابر وذلك لأنّ غفلة الإنسان عن المكان الذي يزوره ويقدم بعد الزيارة عليه غفلة عظيمة ينبغي أن يتعجّب منها إذ بينما هو زائر إذ صار مزوراً، وكذا التعجّب من فظاعة الخطر والإشراف على شدائد الآخرة فإنّ كلّ خطر دنيوي حقير في جنبه.

[**لقد استحلّوا**] أي: الأحياء [**منهم**] أي: **من الأموات**] [**أيّ مدّكر**] أي: اتخذوا تحليته المدكّر دأبهم وشأنهم وقيل استحلّوا أي: وجدوه خالياً، وكنّى بالمذكر عمّا خلّفوه من الآثار التي هي محلّ العبرة، وقوله: أيّ مذكر، استفهام على سبيل التعجّب من ذلك المذكر في حسن إنارته للعبر لأُولي الأبصار.

[**وتناوشهم من مكان بيعد**] التناوش: التناول، أي: تركوا منهم ما ينشفون به وهو المذكر من جهة الاعتياد به وتناولوهم من جهة بعيدة والذي تناولوه هو افتخار كلّ منهم بأبيه وقبيلته ومكاثرته بالماضين في قومه الذين هم بعد الموت أبعد الناس عنه، أو الذين كمالاتهم أبعد الكمالات عنه، وكنّى بالمكان البعيد عن ذلك الاعتبار فإنّ الأموات وكمالاتهم في أبعد الاعتبارات عن الأحياء والأبناء، ولذا قال على سبيل الإنكار والتوبيخ:

[**أفبمصارع آبائهم يفتخرون أم بعديد الهلكى يتكاثرون يرتجعون منهم**

أجساداً خوت وحركات سكنت ولأن تكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً ولأن يهبطوا بهم جناب ذلّة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة وضربوا منهم في غمرة جهله ولو استنطقوا عنهم من عرصات تلك الديار

أجساداً خوت وحركات سكنت] لأنّهم بذكرهم لهم في المفاخرة والمكاثرة كأنّهم قد ارتجعوهم بعد موتهم، ويحتمل أن يكون يرتجعون استفهاماً إنكارياً أيضاً، أي: أيرتجعون منهم بفخرهم بهم أجساداً خوت.

[ولأن تكونوا] بهؤلاء الأموات **[عبراً]** تعتبرون بهم وتتعظون وإنكم عن قريب إليهم ترحلون وبهم تلحقون.

[أحقّ من أن يكونوا مفتخراً] تفتخرون بهم وهم قد صاروا في القبور الدارسات وعظاماً باليات.

[ولأن يهبطوا بهم جناب ذلّة أحجى] أي: أولى بالحجى وهو العقل، **[من أن يقوموا بهم مقام عزة]** أي: لأن يخشعوا ويخضعوا بالاعتبار بمصارعهم فإنّه يستلزم الخشوع لعزّة اللّه والخشية منه، وذلك أولى بالعقل من أن يقيموهم مقام عزّه بالمفاخرة والمكابرة.

[لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة] والعشوة: ركوب الأمر على جهل به، أي: نظروا إليهم بأبصار غطّى عليها الجهل بأحوالهم.

[وضربوا منهم في غمرة جهله] شأي: فساروا في تلك الأحوال بجهالة غامرة لهم.

[ولو استنطقوا عنهم] أي: لو طلبوا النطق، **[من عرصات تلك الديار**

الخاوية والبروع الخالية لقالت ذهبوا في الأرض ضلالاً وذهبتم في أعقابهم جهالاً تطئون في هاماتهم وتستنبتون الأشجار في أجسادهم فيما لفظوا وتسكنون فيما خربوا وإنّما الأيام بينكم وبينهم بواكي ونوايح أُولئك سلف غايتكم وفُرّاط مناهلكم

الخاوية والبروع الخالية لقالت] مجيبةً لهم بلسان الحال.

[ذهبوا في الأرض ضلالاً] نصب على الحال، وكذا جهالاً وما بعده أي: هالكين.

[وذهبتم في أعقابهم جهالاً] أي: ذهبتم بعدهم جاهلين بأحوالهم.
[تطئون في هاماتهم] أي: تطئون ششمحال رؤسهم بأقدامهم وخصّها لأنّها أشرف أعصائهم.

[وتستنبتون الأشجار في أجسادهم] وذلك في المواضع التي بليت فيها الأجساد.

وترتعون] أي: تتنعمون **[فيما لفظوا]** أي: رموا وتركوا، أراد بذلك تصرّفهم وانتفاعهم في متروكاتهم، وكذا قوله:
[وتسكنون فيما خربوا وإنّما الأيام بينكم وبينهم بواكي ونوايح] مستعاران لأيام الحياة ملاحظةً لشبهها في مفارقتهم لها بالأُمهات التي فارقتها أولادها بالموت.

[أُولئك سلف غايتكم] أي: السابقون لكم إلى غايتكم وهي الموت وما بعده.

[وفُرّاط مناهلكم] والفارط: السابق إلى الماء والمورد، أي: السابقون إلى تلك الموارد التي تردونها أنتم بعدهم.

الذين كانت لهم مقاوم العزّ وحلبات الفخر ملوكاً وسوقاً سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سُلّطت الأرض عليهم فيه فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون وضماراً لا يوجدون لا يفزعهم ورود الأهوال ولا يحزنهم تنكّر الأحوال ولا يحتفلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصف غُيّباً لا ينتظرون

[**الذين كانت لهم مقاوم**] جمع مقام، [**العزّ**] لأنّ ألفه عن واو.

[**وحلبات الفخر**] أي: جماعاته. [**ملوكاً وسوقاً**] جمع سوقة: وهي الرعية منصوبان على الحال.

[**سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً**] أي: ما غاب وبطن منه عن علومنا ومشاهداتنا، والبرزخ: بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، والسبيل فيه مسلك القدر بهم إلى غاياتهم الأُخروية من سعادة أو شقاوة.

[**سُلّطت الأرض عليهم فيه فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم**] ونسبة الأكل والشرب إلى الأرض مجاز يقارب الحقيقة في كثرة الاستعمال.

[**فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون**] الفجوات جمع فجوة: وهي المتّسع من الأرض.

[**وضماراً لا يوجدون**] والضمار: الغائب الذي لا يرجى إيابه.

[**لا يفزعهم ورود الأهوال**] عليهم [**ولا يحزنهم تنكّر الأحوال**] وتغيّرها وتقلّبها بهم [**ولا يحتفلون بالرواجف**] أي: بزلازل الأرض، [**ولا يأذنون**] أي: لا يسمعون [**للقواصف**] أي: الرياح القاصفة، [**غُيّباً لا ينتظرون**] أي: لا ينتظر قدومهم كغيّب الدنيا، فإنّ كلّ غائب له أوبه إلا غائب الموت.

وشهوداً لا يحضرون وإنّما كانوا جميعاً فتشتّتوا بالموت آلافاً فافترقوا وما عن طول عهدهم ولا بعد محلتهم عميت أخبارهم وصَمَّت ديارهم ولكنّهم سقوا كأساً بدّلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً فكأنّهم في ارتجال الصفّة صرعى سبات

[**وشهوداً لا يحضرون**] أي: شاهدون بأبدانهم وصدق الغيبة عليهم هنا أي: بأنفسهم وسلب الانتظار والحضور لكون ذلك من توابع الحياة وصفاتها ولا ينافي هذا ما ورد في عذاب القبر وما فيه من الفزع والحزن؛ لأنّ المراد سلب الفزع والحزن من أهوال الدنيا المشاهدة لنا.

[**وإنّما كانوا جميعاً**] أي: مجتمعين [**فتشتّتوا بالموت**] وكانوا [**آلافاً**] مؤتلفين [**فافترقوا**] بالممات [**وما عن طول عهدهم**] متعلّق بعميت وكذا [**ولا بعد محلتهم**] أي: مستقرّهم [**عميت أخبارهم وصَمَّت ديارهم**] أي: ما عميت علينا أخبارهم ولم نعلمها ولا صمت ديارهم عند ندائنا لها لأجل طول عهد بيننا وبينهم ولا من بعد محلتهم ومستقرّهم فإنّ الميت حال موته وهو بعد مطروح الجسد مشاهد لنا تعمى علينا أخباره ولا يسمع ندائنا دياره.

[**ولكنّهم سقوا كأساً**] أي: كأس المنية [**بدّلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً**] والباء للبدلية والعوض [**فكأنّهم في ارتجال الصفّة**] أي: انتشارها [**صرعى سبات**] أي: نُوّم، والسبات: النوم، وأصله الراحة، أي: إذا أراد أحد يثني صفة حالهم شبّههم بالصرعى عن النوم، ووجه الشبه عدم الحركات والسماع والنطق مع الهيئة المشاهدة من المستغرق في نومهعلى أنّهم في أحوالهم الأُخروية.

جيران لا يتآنسون وأحياء لا يتزاورون بليت بينهم عرى التعارف فكلّهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم أخلاّء لا يتعارفون لليل صباحاً ولا للنهار مساء أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً شاهدوا من أخطار دارهم أفظع ممّا خافوا ورأوا من آياتها

[**جيران لا يتآنسون وأحياء لا يتزاورون**] ليس كتلك الأحوال في الدنيا، إذ من شأن الجيران فيها أن يأنس بعضهم ببعض والأحياء أن يتزاوروا وكذلك بقوله: [**بليت بينهم عرى التعارف**] وانقطعت منهم أسباب الإخاء.

[**فكلّهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم أخلاّء**] أي: ليسوا كل كأهل الدنيا إذ الوحيد فيها لا يكون في جماعة، وأشار بالجوار إلى تقارب أبدانهم في القبور، وبالمحابّة إلى ما كانوا عليه من التحابّ في الدنيا وبهجرهم إلى عدم تزاورهم، وكذا بخلهم إلى ما كانوا عليه من المودّة في الدنيا.

[**لا يتعارفون لليل صباحاً ولا للنهار مساء**] لتساوي الليل والنهار بالنسبة إليهم، لكونهما من لواحق الحركات الدنيوية الغائبة عنهم.

[**أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً**] الجديدان: الليل والنهار، ولتجدّد كلّ منهما أبداً، واستعار وصف الظعن لانتقالهم إلى الدار الآخرة ويكون ذلك الجديد الذي ظعنوا فيه سرمداً عليهم ليس حقيقياً علدم عوده بعينه بل إسناد السرمدية إليه لكونه جزء من الزمان الذي تلحقه السرمدية لذاته حقيقة.

[**شاهدوا من أخطار دارهم أفظع**] أي: أشدّ [**ممّا خافوا ورأوا من آياتها**

أعظم مما قدّروا فكلتا الغايتين مُدّت لهم إلى مباءة فأتت مبالغ الخوف والرجاء فلو كانوا ينطقون بها لعيوا ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم لقد رجعت فيهم أبصار العبر وسمعت عنهم آذان العقول وتكلّموا من غير جهات النطق فقالوا كلحت الوجوه النواضر

أعظم مما قدّروا] إشارة إلى صعوبة أحوال الآخرة وأعظميّة أحوالها بالنسبة إلى ما يخاف منها في الدنيا، كما ورد في الشريعة المقدّسة حتّى لو شاهدنا أخطار تلك الدار لشاهدنا أشدّ مما نخافه الآن ونتصوّره ونقدّره بأوهامنا.

[**فكلتا الغايتين**] أي: غاية المؤمنين والكافرين من سعادة وشقاوة [**مُدّت لهم إلى مباءة**] المباءة: الموضع يبوء الإنسان إليه، أي: يرجع، أي: مدّ لهم أجل ينتهون فيه إلى غاية ومرجع هو الجنّة أو النار وتلك المباءة [**فأتت مبالغ الخوف والرجاء**] أي: فوتته أي: هي أعظم مما نخافه ونرجوه، وأسند المدّ إلى الغاية مجازاً.

[**فلو كانوا ينطقون بها**] أي: بتلك المباءة التي رجعوا إليها وشاهدوها [**لعيوا**] وعجزوا عن شرحها.

[**ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم لقد رجعت فيهم أبصار العبر وسمعت عنهم آذان العقول**] والمراد بأبصار العبر البصاير التي يعتبر بها وآذان العقول مجاز في علمها بأحوالهم التي من شأنها أن تسمع اطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

[**وتكلّموا من غير جهات النطق**] أي: من غير أفواه وألسنة لحمية ولكن بلسان الحال.

[**فقالوا كلحت الوجوه النواضر**] والكلوح: تكثير في عبوس.

وخلت الأجساد النواعم، ولبسنا أهدام البلاء وتكأدنا ضيق المضجع وتوارثنا الوحشة وتهتكت علينا الربوع الصوت فانحت محاسن أجسادنا وتنكّرت معارف صورنا وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا ولم نجد من كرب فرجاً ولا من ضيق متّسعاً فلو مثّلتهم بعقلك أو كشفت عنهم محجوب الغطاء وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاسْتَكَّتْ واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت وتقطّعت الألسنة في أفواههم

[**وخلت**] وروي وخوت [**الأجساد النواعم، ولبسنا أهدام البلاء**] جمع هدم: وهو الثوب البالي.

[**وتكأدنا**] أي: شقّ علينا وصعب [**ضيق المضجع**] أي: القبر، استعار الأهدام للتغيّر والقشف والتمزيق العارض لجلد الميت لمشابهتها الثوب البالي، ويحتمل أن يريد بها الأكفان.

[**وتوارثنا الوحشة**] أي: وحشة القبور، واستعار التوارث لكون تلك الوحشة [**وتهتكت**] أي: انهدمت [**علينا الربوع الصوت فانحت محاسن أجسادنا وتنكّرت معارف صورنا**] أي: ما كان منها معروفاً في الدنيا.

[**وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا ولم نجد من كرب فرجاً ولا من ضيق متّسعاً**] ومخرجاً [**فلو مثّلتهم بعقلك**] أي: تخيّلت صورهم واستحضرتها في خيالك.

[**أو كشفت عنهم محجوب الغطاء**] لك، أي: ما حُجب بأغطية التراب والسواتر لأجسادهم عن بصرك [**وقد ارتسخت**] أي: والحال قد ثبتت [**أسماعهم بالهوام**] أي: ثبتت في قرارها، [**فاسْتَكَّتْ**] أي: انسدّت.

[**واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت وتقطّعت الألسنة في أفواههم**

بعد ذلاقتها وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها وعاث في كلّ جارحة منهم جديد بلى سمجها وسهّل طرق الآفة إليها مستسلمات فلا أيد تدفع ولا قلوب تجزع، لرأيت أشجان قلوب وإقذاء عيون لهم في كلّ صفة حال لا تنتقل وغمرة فظاعة لا تنجلي وكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون كان في الدنيا غَذِيَّ تَرَفٍ وربيب شرف يتعلّل بالسرور في ساعة حزنه ويفزع إلى السلوة إن مَصيبته نزلت به ضنّاً بغضارة عيشه وشحاحة

بعد ذلاقتها] أي: حدّتها وسهولة الكلام بها.

[وهمدت] أي: سكنت **[القلوب في صدورهم بعد يقظتها وعاث]** أي: أفسد **[في كلّ جارحة منهم جديد بلى سمجها]** أي: قبحها **[وسهّل طرق الآفة إليها مستسلمات]** حال للخوارج، والعامل عاث وسهل.

[فلا أيد تدفع] عنهم ما يريدون دفعه.

[ولا قلوب تجزع، لرأيت] جواب لو **[أشجان]** أي: أحزان **[قلوب وإقذاء عيون لهم في كلّ صفة حال لا تنتقل وغمرة فظاعة لا تنجلي]** أي: ما يغمرهم من الشدائد.

[وكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون] والأنيق: المعجب للناظر.

[كان في الدنيا غَذِيَّ تَرَفٍ] والغذي فعيل بمعنى مفعول أي: مغذّى بالترف.

[وربيب شرف يتعلّل بالسرور في ساعة حزنه ويفزع إلى السلوة إن مصيبته نزلت به] أي: يفزع عن المصيبة النازلة به إلى ما يسلّيه من المسرّات والمنزّهات **[ضنّاً]** أي: بخلاً **[بغضارة عيشه]** أي: طيبه **[وشحاحة]** أي:

بلوه ولعبه فبينما هو يضحك إلى الدنيا وتضحك إليه في ظلّ عيش غفول إذ وطئ الزهر به حسكه ونقصت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب فخالطه بثّ لا يعرفه ونجيُّ همٍّ ما كان يجده فتولّدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحّته

حرصه وكثرة شحّه [**بلوه ولعبه فبينما هو يضحك إلى الدنيا**] كناية عن ابتهاجه بها وبما فيها من القينات وغاية إقباله عليها لأنّ غاية المبتهج بالسير أن يضحك.

[**وتضحك إليه**] كناية عن إقبالها لها عليه إطلاق الاسم على السبب الغائي على مسبّبه.

[**في ظلّ عيش غفول**] تكثر الغفلة فيه لطيب [**إذ وطئ الزهر به حسكه**] استعارة للأمراض والآلام ومصائب الدهر ووجه الشبه استلزامها للأذى كاستلزام الحسك له ورشح بذكر الوطيء [**ونقصت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب**] أي: قرب، استعار النظر لإقبال الحتوف إليه لاستعداده لها فشابهت في ذلك الراصد للشيء المصوّب إليه نظره ليقتضه.

[**فخالطه بثّ لا يعرفه**] البثّ الحال من همّ أو حزن.

[**ونجيُّ همٍّ ما كان يجده**] والنجي من الهم الحال التي يجدها الإنسان عندهم الموت من الوسواس والتخيّلات والغموم والأحزان التي لم تكن تعرض له [**فتولّدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحته**] بنصب انس على الحالية وما بمعنى الزمان أي: انس زمان كان وكان تامّة وبصحته متعلّق بانس أي: حال ما هو آنس زمان مدّة صحته وقيل ما مصدرية أي: أنس كونه على أحواله بصحّته.

ففزع إلى ما كان عوّده الأطباء من تسكين الحارّ بالقارّ وتحريك البارد بالحار فلم يطفئ ببارد إلا ثوّر حرارة ولا حرّك بحار إلا هيّج برودة ولا اعتدل بممازج لتلك الطبايع إلا أمدّ منها كلّ ذات داء حتّى فتر معالمه وذهل ممرّضه وبقايا أهله بصفة دائه وخرسوا عن جواب السائلين عنه

[**ففزع إلى ما كان عوّده الأطباء من تسكين الحارّ بالقارّ**] أي: البارد [**وتحريك البارد بالحار**] وجعل التسكين للبرودة والتحريك للحراة؛ لأنّ البرودة كالموت تقتضي السكون بعكس الحرارة ولذا كانت الروح حارّة.

[**فلم يطفئ ببارد إلا ثوّر حرارة ولا حرّك بحار إلا هيّج برودة**] إذ ليس العلاج بالبارد هو المثوّر للحرارة ولا بالعكس لأنّ الدواء معين للطبيعة على مقاومة المرض فلا يكون مثوّراً له، ولما كان مع ذلك العلاج وتلك الاعانة تغلب الحرارة أو البرودة وتظهر بسبب ذلك إلى الدواء.

[**ولا اعتدل بممازج لتلك الطبايع إلا أمدّ منها كلّ ذات داء**] أي: ولا اعتدل المريض في علاج نفسه بما يمازج تلك الطبايع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة إلا كان مادة لداء منها وليس مادّة على الحقيقة ولكن لما كان يغلب معه المرض على القوة فكأنّه مادّة له فنسب إليه قوله [**حتّى فتر معالمه**] غاية تلك اللوازم أي: حتّى فتر طبيبه.

[**وذهل ممرّضه**] أي: الذي يداريه في مرضه.

[**وبقايا أهله**] وعجزوا [**بصفة دائه وخرسوا عن جواب السائلين عنه**] أي: عن حاله إذ لا يمكنهم الإخبار عن عافيته لفقدها ولا ما عليه من حقيقة الحال لشدّتها وعدم مطاوعة أنفسهم في ذلك، فكانوا في قوة الأخرس لا يحر جواباً ولا يطيق خطاباً.

وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونه فمن قائل هو لما به وممن لهم اياب عافيته ومصبّر على فقده يذكّرهم أسى الماضين من قبله فبينا هو كذلك على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبّة إذ عرض له عارض من غصصة فتحيّرت نوافذ فطنته ويبست رطوبة لسانه فكم من فهم من جوابه فعيى عن ردّه ودعاء مؤلم لقلبه سمعه فتصامّ عنه من كبير كان يعظمه أو صغير كان يرحمه وإنّ للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على

[**وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونه**] إشارة إلى ما يتجاراه أهل المريض المشرف على الموت من حاله وما جرى في العادة من ذكرهم له.

[**فمن قائل هو لما به**] أي: هو مشغول لما فيه من المرض.

[**وممن لهم اياب عافيته**] أي: يمنّيهم رجوع العافية إليه.

[**ومصبّر على فقده**] أي: مصبّر نفسه على موته [**يذكّرهم أسى الماضين من قبله**] والقرون السالفين ممن تقدّمه فيسلّون أنفسهم بالتأسّي بهم.

[**فبينا هو كذلك**] هذا شروع في بيان حالة الأخذ في الموت المعتادة للناس [**على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبّة إذ عرض له عارض من غصصة فتحيّرت نوافذ فطنته ويبست رطوبة لسانه فكم من فهم من جوابه فعيى عن ردّه ودعاء مؤلم لقلبه سمعه**] كان ينادي أولاده يا أبتاه وأزواجه وا زوجاه واخوته وأخواته وأخاه وأطفاله وا ثكلاه [**فتصامّ عنه**] جعل نفسه كأنّه أصمّ لا يسمع إذ لم يكن يطيق جواباً [**من كبير كان يعظمه**] كأبيه وجدّه وسيّده ومولاه [**أو صغير كان يرحمه**] كولده وأطفاله.

[**وإنّ للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على**

عقول أهل الدنيا رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله إنّ الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب، يسمع به بعد الوقرة

عقول أهل الدنيا] أي: غمرات الموت أفظع من أن يحيط بها وصف اللسان أو يستقيم شرحها من إنسان، اللّهمّ هوّن علينا سكرات الموت وارزقنا الروح والراحة عند الموت والعفو عند الحساب واجعل خير عمرنا ما ولي أجلنا وخير أعمالنا خواتهما وخير أيامنا يوم نلقاك بحقّ محمّد سيّد المرسلين وعليّ أمير المؤمنين وألاده المعصومين حججك على خلقك أجمعين صلواتك وسلامك عليهم أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوة قوله تعالى: [**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**] يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار: [**إنّ الله سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب**] والمراد بالذكر القرآن، كما قال تعالى: ﴿وهذا ذكر مبارك﴾ أو مطلق الذكر لله من تحميد وتسبيح وتكبير وتهليل وفضله أكثر من أن يحصر ولو لم يكن إلا قوله تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾ لكفى، وفي النبوي: «ذاكر الله في الغافلين كالقاتل في الغازين» وقال ﷺ «يقول الله أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكت بي شفتاه» وقال ﷺ: «من أحبّ أن يرتفع في رياض الجنّة فليكثر من ذكر الله» واستعار الجلاء لإزالة كلّ ما سوى المذكور عن لوح القلب بالذكر كما يزال خبث المرآة بالصقال.

[**يسمع به بعد الوقرة**] أي: الغفلة من الوقر وهو الصمم، وكنّى

ويبصر به بعد العشو وتنقاد له بعد المعاندة وما برح اللّه عزّت آلائه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة

بالسمع عن إقباله على ما ينبغي أن يُسمع من أوامر اللّه ونواهيه وسائر كلامه وبالوقرة عن الإعراض عن ذلك.

[**ويبصر به بعد العشو**] أي: الغفلة من العشاء وهو ظلمة العين بالليل دون النهار، أي: يدرك به الحقائق وما ينبغي بعد العدم.

[**وتنقاد له**] أي: للحقّ وسلوك طريقه [**بعد المعاندة**] فيه والانحراف عنه.

[**وما برح**] أي: ما زال [**اللّه عزّت آلائه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم**] البرهة: المدّة الطويلة من الزمان، والمراد أنّه لم تخل المدد المتطاولة وأزمان الفترات قطّ من عباد للّه وأولياء ألهمهم معرفته وأفاض على عقولهم وأفكارهم صور الحقّ وكيفية الهداية إليه مكاشفة وتلك الإفاضة والإلهام هي المرادة من المناجاة والتكليم.

[**فاستصبحوا**] أي: استضائوا [**بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة**] أي: استضائوا بمصباح نور اليقظة، واليقظة في الأفئدة فطانتها واستعدادها الكامل لما ينبغي من الكمالات العقلية ونور تلك اليقظة وهو ما يفاض عليها بسبب استعدادها بتلك الفطانة، ويقظة الأبصار والأسماع تتبعها لإبصار الأمور النافعة المحصّلة منها عبرةً وكمالاً نفسانياً وسماع النافع

يذكِّرون بأيّام اللّه ويخوّفون مقامه بمنزلة الأدلّة في الفلوات إلى من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة من أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق وحذروه من الهلكة فكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلّة تلك الشبهات

من الكلام وأنوار اليقظة فيهما ما يحصل بسبب ذلك الإبصار والسماع من أنوار الكمالات النفسانية.

ثمّ شرع في وصف حالهم في هديهم فقال:

[**يذكِّرون بأيّام اللّه**] قيل هي كناية عن شدائده النازلة بالأُمم الماضية وأصله أنّها تقع في الأيام أو هو مجاز من اطلاق اسم المحلّ على الحال.

[**ويخوّفون مقامه**] كناية عن عظمته وجلالته المستلزمة للهيبة والخوف [**بمنزلة الأدلّة في الفلوات**] هادين إلى سبيل اللّه كما تهدي الأدلة وكما أنّ الأدلّة تحمد [**إلى من أخذ القصد**] في الطريق طريقه ويبشره بالنجاة، فكذا قال من أخذ الطريق [**حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة من أخذ**] بالانحراف عنها [**يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق**] الذي سلكه [**وحذروه من الهلكة**] فكذا هؤلاء الهداة إلى اللّه من سلك سبيل العدل إليه وقصد فيها حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة من المهالك، ومن انحرف عنها يميناً وشمالاً وسلك أحد طرفي الإفراط والتفريط ذمّوا إليه مسلكه وحذّروه من الهلاك الأبدي.

[**فكانوا كذلك**] أي: كما وصفناهم [**مصابيح تلك الظلمات**] استعار المصابيح باعتبار إضائتهم بكمالاتهم لطريق اللّه.

[**وأدلّة تلك الشبهات**] استعار الأدلّة باعتبار هداهم إلى الحقّ وتميّزه عن الشبهات الباطلة.

وإنّ للذكـر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعـون به أيام الحـياة ويهـتفون بالزواجـر عن مـحارم اللّه تعـالى في أسـماع الغـافلين ويأرون بالقـسط والعـدل ويأتمرون به وينهـون عن المنكر ويتناهون عنه فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فـيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكـأنّمـا اطّلعـوا على غـيـوب أهل البـرزخ في طول الإقـامـة فـيـه وحقّقت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك

[**وإنّ للذكر لأهلاً أخـذوه من الدنيا بدلاً**] أي: أحبّوه وأحبّوا ملازمته حتّى اتّخذوه بدلاً من متاع الدنيا وطيّباتها.

[**فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة**] الدنيا [**ويهتفون**] يصيحون [**بالزواجر عن محارم اللّه تعالى في أسماع الغافلين ويأرون بالقسط والعدل ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه**] احترازاً من الدخول في قوله تعـالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لم تقـولون ما لا تفعلون كـبر مقتاً عند اللّه أن تقـولوا مـا لا تفـعلون﴾ وقـوله تعـالى: ﴿أتأمـرون الناس بالبـرّ وتنسـون أنفسكم﴾.

[**فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخـرة وهم فيها**] تشبيـه لهم في يقينهم باللّه وبما جائت به كـتبه ورسله وتحـقّقهم لأحـوال القيامـة ووعدها ووعيـدها بعين اليقين بمن قطع الدنيا إلى الآخرة مع كونه فيها.

[**فشاهدوا ما وراء ذلك**] مما غاب عن أبصارهم.

[**فكأنّما اطّلعـوا على غيـوب أهل البرزخ**] وهو ما بعد الموت من مكان وزمان.

[**في طول الإقامة فيه وحقّقت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك**

لأهل الدنيا حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لايسمعون في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهودة وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كلّ صغيرة وكبيرة أُمروا بها فقصّروا عنها، ونُهوا عنها ففرّطوا فيها

لأهل الدنيا حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لايسمعون] شبّههم في يقينهم باللّه واليوم الآخر وبما جائت به كتبه ورسله وتحققهم لأحوال القيامة ووعدها ووعيدها بعين اليقين بمن قطع الدنيا إلى الآخرة مع كونه فيها وبمن اطّلع على ما غاب عن أهل الدنيا من أحوال أهل البرزخ وطول إقامتهم فيه فكشفوا غطاء تلك الأحوال لأهل الدنيا بالعبادات الواضحة حتّى كأنّهم في وصفهم لها من صفاء سرائرهم وصقال جواهر صورهم وأعمالهم.

[**في مقاومهم المحمودة**] وهي مقامات العبادة [**ومجالسهم المشهودة**] بين يدي اللّه تعالى.

[**وقد نشروا دواوين أعمالهم**] التي أثبتوها في أذهانهم من أفعالهم وأقوالهم.

[**وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كلّ صغيرة وكبيرة أُمروا بها فقصّروا عنها، ونُهوا عنها ففرّطوا فيها**] فيجعل رأس ماله الفرائض وربحه النوافل والفضائل، والخسران المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار، فينبغي أن يكون للعبد في آخره ساعة ياطلب بها نفسه ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، فإن كان قد أدّى الفرائض على وجهها شكر اللّه تعالى ورغّبها في مثلها، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أدّتها ناقصة

وحملوا ثقل أوزارهم على ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها فنشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيباً يعجّون إلى ربّهم من مقام ندم على ما مضى منهم أرأيت أعلام هدى ومصابيح دُجى قد حفّت بهم الملائكة وتنزّلت عليهم السكينة وفتحت لهم أبواب السماء

كلّفها بالجبر بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ليستوفي منها ما يتدارك به تفريطها كما يصنع التاجر بشريكه.

[**وحملوا ثقل أوزارهم على ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها فنشجوا نشيجاً**] والنشيج: الصوت في ترديد النفس عند البكاء.

[**وتجاوبوا**] أجاب بعضهم بعضاً [**نحيباً**] بالنحيب [**يعجّون**] يضجّون [**إلى ربّهم من مقام ندم على ما مضى منهم**] واعتراف بالتقصير في خدمة مولاهم.

[**أرأيت**] جواب لو في قوله (فلو مثلتهم لرأيت). [**أعلام هدى ومصابيح دُجى**] استعار لهم الأعلام والمصابيح لكونهم أدلّة إلى طريق اللّه وذوي أنوار يستضاء بها.

[**قد حفّت بهم الملائكة**] لكمال استعدادهم إكراماً لهم.

[**وتنزّلت عليهم السكينة**] التي أُشير إليها بقوله تعالى: ﴿فأنزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والمراد بها الطمأنينة القلبية، وقيل هي المرتبة الثالثة من أحوال السالك بعد الطمأنينة وذلك أن تكثر تلك البروق واللوامع التي كانت تغشاه حتّى يصير ما كان مخطوفاً منها مألوفاً، وكانت تحصل لا بمشية السالك فيصير حصولها بمشيّته وإرادته.

[**وفتحت لهم أبواب السماء**] بصعود أعمالهم واستجابة دعواتهم

وأُعدّت لهم مقاعد الكرامات في مقام اطّلع الله عليهم فيه فرضى سعيهم وحمد مقامهم يتنسمون بدعائه روح التجاوز رهائن فاقة إلى فضله وأُسارى له لعظمته جرح طول الأسى قلوبهم وطول البكاء عيونهم لكلّ باب رغبة إلى الله تعالى منهم يدٌ قارعة

ورفعها، وقيل: أراد فتح سماء الجود الإلهي بإفاضة الكمالات عليهم، كما قال تعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾.

[**وأُعدّت لهم مقاعد الكرامات**] أي: مراتب الوصول إليه تعالى وتلك المقاعد هي التي اطّلع الله عليها فرضي سعيهم بالأعمال الصالحة المبلغة إليها وحمد مقامهم فيها كما قال: [**في مقام اطّلع الله عليهم فيه فرضى سعيهم وحمد مقامهم يتنسمون بدعائه**] أي: يتوقعون بدعوته [**روح التجاوز**] أي: تجاوزه عن ذنوبهم وأن لا يجعل تقصيرهم فيما قصّروا فيه سبباً لانقطاع فيضه من ترك الأولى وفعل المباح ونحوهما.

[**رهائن فاقة إلى فضله**] استعار لهم لفظ الرهائن لكونهم في محلّ الحاجة إلى فضله لا معدل ولا ملجأ لهم عنه، كالرهائن في يد المسترهن.

وكذا قوله: [**وأُسارى له لعظمته**] لكونهم تحت عظمته كالأسير بالنظر إلى عظمة من سواه.

[**جرح طول الأسى**] والحزن على جناية أنفسهم وخسرانهم في معاملتهم لها بعدم محاسبتها [**قلوبهم وطول البكاء عيونهم**].

وقوله: [**لكلّ باب رغبة إلى الله تعالى منهم يدٌ قارعة**] إشارة بقرعهم لكلّ باب من أبواب الرغبة إلى الله توجيه أسرارهم وعقولهم إلى القبلة الحقيقية استشرافاً لأنوار الله واستسماحاً لجوده.

يسألون من لا تضيق لديه المنادح ولا يخيب عليه الراغبون فحاسب نفسك لنفسك فإنّ غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك ﴿يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم﴾ أدحض مسؤول حجّة وأقطع مغتر معذرة لقد أبرح جهاله بنفسه

[**يسألون من لا تضيق لديه المنادح**] جمع مِنْدح: وهو المتّسع، إشارة إلى سعة جوده وفضله وانّه أكرم الأكرمين لتبيُّن أنّه أحقّ مسؤول وأكرم مأمول.

[**ولا يخيب عليه الراغبون**] لأنّه أولى مرغوب رغب إليه.

[**فحاسب نفسك لنفسك**] أي: تولّ أنت حسابها ولا تولّها غيرك.

[**فإنّ غيرها من الأنفس**] التي لا يتولّى صاحبها حسابها [**لها حسيب غيرك**] وهو أسرع الحاسبين، وذلك في معنى تهديد الإنسان على تركه محاسبة نفسه.

ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوته قوله تعالى: [**﴿يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم﴾ أدحض مسؤل حجّة**] يقال حجّة داحضة أي: باطلة، وأدحض: خبر مبتدأ محذوف، أي: الإنسان عند سؤال ربّه له ما غرّك بربّك الكريم أدحض مسؤول حجّة.

[**وأقطع مغتر معذرة**] أي: وأشدّ انقطاعاً في عذره.

[**لقد أبرح جهاله بنفسه**] أي: بالغ في تحصيل جهالتها، وأعجبه ذلك

يا أيّها الإنسان ما جرّئك على ذنبك وما غرّك بربّك وما أنسك بهلكة نفسك أما من دائك بلول أم ليس من نومتك يقظة أما ترحم نفسك ما ترحم من غيرك فلربّما ترى الضاحي لحرّ الشمس فتظلّه أو ترى المبتلي بألم يمضّ جسده فتبكي رحمة له

بكثرة إهمالها في متابعة هواها وتركها عن الاصلاح وحجّة ومعذرة وجهالة منصوبات على التميز.

ثمّ شرع عليه السلام في استفهام الإنسان على سبيل التقريع والتوبيخ فقال:

[**يا أيّها الإنسان ما جرّئك على ذنبك وما غرّك بربّك**] عن أسباب جرئته على الذنوب وغرّته بربّه.

[**وما أنسك بهلكة نفسك**] تقريع على غفلته عن شدة بأسه تعالى وعن أسباب أُنسه بهلكة نفسه بتورّطها في المعاصي وأُلفها معها، ويحتمل أن يكون قوله ما أُنسك... إلخ، تعجّب من ذلك، وكذا قوله: [**أما من دائك بلول**] بلول أي: صحّة.

[**أم ليس من نومتك يقظة**] من نوم الغفلة [**أما ترحم نفسك ما ترحم من غيرك**] أي: كما ترحم غيرها فإنّ نفسك التي بين جنبيك أولى بالرحمة، فكيف أهلكتها بداء الذنوب ودنّستها بالعيوب ومصابك بها أعظم، وبلائك أقوم.

ثمّ نبهه على وجوب رحمته لنفسه كما يرحم غيرها بقوله:

[**فلربّما ترى الضاحي**] وهو البارز [**لحرّ الشمس فتظلّه**] شفقة عليه [**أو ترى المبتلي بألم يمضّ جسده**] أي: يؤلمه [**فتبكي رحمة له**] وكلّ من كان كذلك فأولى أن يرحم نفسه بإنقاذها من بلاء يقع فيه ينتج إنّك أولى أن

فما صبرك على دائك وجلدك على مصابك وغراك عن البكاء على نفسك وهي أعزّ الأنفس عليك وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمه قد تورّطت بمعاصيه ومدارج سطواته فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة

ترحم نفسك من دائها.

[**فما صبرك على دائك وجلدك على مصابك**] استفهام توبيخ عن أسباب صبره على بلائه وتجلّده على مصائبه التي تلحقه بسبب ذلك الداء.

[**وغراك**] أي: ما تغريك وسلوتك [**عن البكاء على نفسك وهي أعزّ الأنفس عليك**] فإنّ الإعراض عنها والاشتغال بغيرها غفلة عظيمة.

[**وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمه**] تعالى، والحال انّك [**قد تورّطت بمعاصيه**] والورطة: الهلاك، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾.

[**ومدارج سطواته**] مجاري بطشه وقهره وهي محال المعاصي وأسبابها والتورّط فيها الحصول المستلزم للهلالك الأُخروي والسطوة: البطش والقهر جمعها سطوات، والسطوة المرّة منه.

وقوله: [**فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة**] تنبيه على التداوي من داء الفترة في القلب عن ذرك اللّه بالعزيمة على طاعته وملازمة ذكره ومن نوم الغفلة في ناظر القلب باليقظة له.

ثمّ أشار إلى ما ينبغي أن تكون تلك اليقظة والعزيمة عليه بقوله: [وكن للّه مطيعاً في جميع أحوالك وأقوالك وأفعالك.

وبذكره أنساً وتمثيل في حال تولّيك عنه إقباله عليك يدعوك إلى عفوه ويتغمّدك بفضله وأنت متولّ عنه إلى غيره فتعالى من قويٍّ ما أحلمه وتواضعت من ضعيف ما أجرئك على معصيته وأنت في كنف ستره مقيم وفي سعة فضله منقلب، فلم يمنعك فضله ولم يهتك عنك ستره بل لم تخل من لطفه مطرف عين

[**وبذكره أنساً**] عن كلّ وحشة وعن كلّ ذكر [**وتمثيل في حال تولّيك عنه**] بالانهماك في المعاصي والاستغراق في الشهوات النفسانية والملاذ الطبيعية والإقبال إلى الدنيا والإعراض عن المولى.

[**إقباله عليك**] في كلّ حال وفي كلّ آن بالنعم التي لا تحصى وبالآلاء التي لا تستقصى. [**يدعوك**] في كتبه المنزلة وعلى ألسنة رسله المرسلة [**إلى عفوه ويتغمّدك بفضله وأنت متولّ عنه إلى غيره فتعالى من قويٍّ**] قادر على إهلاك جميع العالم في أقلّ من طرفة عين. [**ما أحلمه**] على العصاة المعاندين مع تلك القدرة الكاملة.

[**وتواضعت**] ذلّلت وخضعت أيها الإنسان [**من ضعيف**] لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً [**ما أجرئك على معصيته**] وهو الجبّار القهّار.

[**وأنت في كنف ستره مقيم**] والكنف: الحياطة والجانب.

[**وفي سعة فضله منقلب، فلم يمنعك فضله ولم يهتك عنك ستره**] مع استحقاقك لذلك بمقابلة تلك النعم العظيمة والمنن الجسيمة بالكفران والعصيان ومقابلة إقباله عليك بإعراضك عنه [**بل لم تخل من لطفه مطرف عين**] أي: مقدار طرفة عين.

في نعمة يحدثها لك أو سيّئة يسترها عليك أو بلية يصرفها عنك فما ظنّك به لو أطعته وأيم اللّه لو أنّ هذه الصفة كانت في متفقين في القوة ومتوازنين في القدرة لكنت أوّل حاكم على نفسك بذميم الأقوال ومساوي الأعمال وحقّاً أقول ما الدنيا غرّتك

[**في نعمة يحدثها لك**] ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾.

[**أو سيّئة يسترها عليك أو بلية يصرفها عنك**] هذا كلّه وأنت معرض عه عارص له كافر لأنعمه.

[**فما ظنّك به لو أطعته**] كيف كان يكون فضله عليك وهو في صورة احتجاج للترغيب في الطاعة بعد التوبيخ على تركها، وتلخيصه: انّك لو أطعته لكان تفضّله عليك أكبر وأتمّ وظنّك به أقوى بيان الملازمة أنّ فضله كان عليك حال معصيتك له كثيراً فبالأولى أن يتمّ فضله عليك حال طاعتك إيّاه ويحسن ظنّك به.

وقوله: [**وأيم اللّه لو أنّ هذه الصفة كانت في متفقين في القوة ومتوازنين**] متعادلين متساويين [**في القدرة لكنت أوّل حاكم على نفسك بذميم الأقوال ومساوي الأعمال**] أي: لو كان هذا الوصف الذي ذكرناه من إقبال اللّه عليك بضروب نعمه وقابلتك له بالاعراض عنك والإقبال على معاصيه وصف متماثلين من الناس في القوّة والقدرة والمنزلة وكنت أنت المسيء منهما لكان فيما ينبغي لك من الحياء والألفة أن تكون أوّل حاكم على نفسك بتقصيرها أو ذميم أخلاقها ومقابح أعمالها.

[**وحقّاً أقول ما الدنيا غرّتك**] لأنّها ليست بذي عقل حتّى تغرّ، ولأنّها لم تخلق للغرور بل خلقت لتكون عوناً على الآخرة ويحصل فيها الملكات

ولكن بها اغتررت ولقد كاشفتك العظات وأذنتك على سواء ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك والنقص في قوّتك أصدق وأوفى من أن تكذبك وتغرّك

والطاعات التي تكون زاداً للآخرة.

[**ولكن بها اغتررت**] فالتقصير منك لا منها، والحقّ انّ الدنيا تطلق على أمرين، ولذا مُدحت تارةً وذُمّت أُخرى، ونسب الغرور إليها في قوله تعالى: ﴿وغرّتهم الحياة الدنيا﴾ فالدنيا المذمومة هي كلّ شيء يبعّد من اللّه تعالى وإن كان صلاةً أو صوماً أو جهاداً أو إنفاقاً إذا لم يقصد بها وجه اللّه تعالى والدنيا التي نفى عنها الغرور هي النشأة الدنيوية وهي ما قبل الموت التي يتخذ الإنسان فيها زاد الآخرة ويحصّل بها الملكات الحسنة والآخرة المقابلة للدنيا بالمعنى الأوّل كلّ شيء يقرّب من اللّه تعالى وإن كان مالاً كثيراً وخدماً وحشماً وديارا واسعة إذا صُرفت في طاعة اللّه ومرضاته.

[**ولقد كاشفتك العظات**] أي: نصحتك بمكاشفتها لك بالمواعظ وهي محال الاتعاظ من تصاريفها وعبرها ومجاهرتها.

[**وأذنتك**] أي: أعلمتك [**على سواء**] أي: على عدل منها إذ خلقت لذلك التغير والاعلام وعلى ذلك التصريف فلم يكن تصاريفها جوراً عليك بل هي ناصحة لك.

وقوله: [**ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك والنقص في قوّتك أصدق وأوفى من أن تكذبك وتغرّك**] استعار لفظ الوعد لإشعارها في تغيّراتها بما يتوقّع من مصائبها كما أنّ الواعد إشعار بإعطاء مطلوب، واستعمل الوعد في مكان الوعيد مجازاً إطلاقاً لأحد الضدّين على الآخر

ولربّ ناصح لها متّهم وصادق من خبرها مكذّب ولئن تعرفتها في الديار الخاوية والربوع الخالية لتجدنها من حسن تذكيرك وبلاغ موعظتك محلّة الشفيق عليك والشحيح بك ولنعم دار من لم يرض بها داراً ومحلّ من لم يوطنها محلاً

كتسمية السيّئة جزاء، وكذا استعار لها لفظ الصدق والوفاء ملاحظةً لشبهها بالصادق الوفي في أنّه لابدّ له من إيقاع ما وعدت به. وقوله: أصدق وأوفى مع قوله من أن تكذبك أو تغرّك من باب اللفّ والنشر وفيه المقابلة.

[**ولربّ ناصح لها**] أي: ناصح منها لك بتصاريها وتغيّرها وتبديلها [**متّهم**] عندك [**وصادق من خبرها**] الحالي بكون الغنيّ فقيراً وبالعكس، والصحيح عليلاً وبالعكس، ونحو ذلك.

[**مكذّب**] عندك، وإطلاق التهمة والتكذيب مجاز في عدم الالتفات إلى نصيحتها بتصاريفها وما يعلم من صادق تغيّراتها وعدم اعتبار ذلك منها إطلاق الاسم ذي الغاية على غايته إذ كانت غاية التهمة والتكذيب عدم الالتفات إلى المتّهم والمكذّب والإعراض عنهما.

[**ولئن تعرفتها**] أي: طلبت معرفة حالها [**في**] نصيحتها وغشّها من [**الديار الخاوية والربوع الخالية**] للأمم السالفين والقرون الماضين [**لتجدنها من حسن تذكيرك**] أي: تذكيرها لك.

[**وبلاغ موعظتك**] وعبرتك منها [**محلّة**] أي: بمنزلة [**الشفيق عليك والشحيح بك**] فإنّها تنصحك بمصارع آبائك كما ينصحك الشفيق وتعظك بتقلّباتها وتغيّراتها كما يعظك الشحيح الرفيق.

[**ولنعم دار من لم يرض بها داراً ومحلّ من لم يوطنها محلاً**] بل

وانّ السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم إذا رجفت الراجفة وحفّت بجلايلها القيامة ولحق بكلّ منسك أهله وبكلّ معبود عبدته وبكلّ مطاع أهل طاعته

اتخذها دار اعتبار يتزوّد منها للآخرة، فهي حينئذ نِعْم الدار له، ودار بالرفع اسم نعم والمخصوص بالمدح هو الدنيا وداراً ومحلاً منصوبان على التميّز وأشار بالإضافة إلى أنّ عدم الرضا بها يستلزم الانتفاع بها باغتنام الفرصة لاتّخاذ زاد الآخرة فيها.

[**وانّ السعداء بالدنيا غداً**] في القيامة [**هم الهاربون منها اليوم**] المعرضون عن لذّاتها المتباعدون عن شهواتها المقتصرون على قدر الضرورة منها المكتفون بالبلاغ إلى الآخرة فيها، وفي النبوي: «ما أنا والدنيا إنّما مثلي فيها كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقعد في ظلّها ساعة ثمّ راح وتركها».

وقوله: [**إذا رجفت الراجفة**] بيان لقوله غداً وهو القيامة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ قيل هي النفخة الأُولي في الصور، وهي صيحة عظيمة تصعق فيها الخلائق وتتبعها الرادفة وهي النفخة الثانية تردف الأُولى.

[**وحفّت بجلايلها القيامة**] وجلايل القيامة محنها الجليلة العظيمة.

[**ولحق بكلّ منسك أهله**] والمنسك موضع العبادة، وأصله كلّ موضع يتردّد إليه ويقصد.

[**وبكلّ معبود عبدته وبكلّ مطاع أهل طاعته**] إشارة إلى لحوق كلّ نفس ذلك اليوم بمعبودها ومطاعها وما ألفته وأحبّته من أمر دنيوي وأُخرويّ

فلم يجر في عدله وبسطه يؤمئذ خرق بصر في الهواء ولا همس قدم في الأرض إلا بحقّه فكم حجّة يوم ذاك داحضة وعلائق عذر منقطعة فتحرَّ من أمرك ما يقوم به عذرك تثبت به حجّتك وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له وتيسّر لسفرك

فأقبلت عليه وعملت له وهو المشار إليه في النبوي: «يحشر المرء مع من أحبّ ولو أحبّ أحدكم حجراً لحشر معه» ثمّ أشار إلى أنّ ذلك مقتضى عدله تعالى بقوله:

[**فلم يجر في عدله وبسطه يؤمئذ خرق بصر في الهواء ولا همس قدم في الأرض إلا بحقّه**] أي: كلّ حركة ولو طرفة عين في الهواء أو همس قدم في الأرض فإنّها لا يجري في عدله إلا بحقّها لا يزاد عليه ولا ينقص عنه.

[**فكم حجّة يوم ذاك**] أي: يوم ترجف الراجفة ويلحق كلّ محبّ بمن أحبّ.

[**داحضة**] أي: باطلة هالكة.

[**وعلائق عذر منقطعة**] إشارة إلى كثرة الحجج الباطلة والاعذار المنقطعة يومئذ، والغرض من ذكر مخاوف ذلك اليوم وأهواله بعد ذكر السعداء فيه وتعيين أنّهم الهاربون من الدنيا اليوم ليرغّب إلى الاقتداء بهم في ذلك الهرب لغاية تلك السعادة.

[**فتحرَّ**] أيّها الإنسان واطلب [**من أمرك**] في الدنيا وأحوالك [**ما يقوم به عذرك**] غداً وما [**تثبت به حجّتك**] في محفل القيامة، والتحرّي طلب الأحرى والأولى.

[**وخذ ما يبقى لك**] من الملكات الحسنة والطاعات والقربات [**مما لا تبقى له**] وهو الدنيا ومتاعها [**وتيسّر**] واستعد [**لسفرك**] إلى الدار الآخرة

و شم برق النجاة وارحل مطايا التشمير والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهّداً أو أجرّ في الأغلال مصفّداً

بالزهد والعبادة [وشم] أي: انظر [برق النجاة] أي: وجه سرّك وقلبك إلى الله بعد الزهد الحقيقي والعبادة الكسارة للنفس الأمّارة بالسوء ليستشرف لوامع الأنوار الإلهية وبروقها التي هي بروق النجاة.

[وارحل مطايا التشمير] إشارة إلى الجدّ في سلوك سبيل الله والاجتهاد في العمل لما بعد الموت واستعار المطايا لآلات العمل والارحال لأعمالها.

ومن كلام له عليه السلام

[والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهّداً] هو نبت شوكي ذو حسكة لها ثلاث رؤس محدّدة على أيّ وجه وقعت من الأرض كان لها رأسان قائمان.

[أو أجرّ في الأغلال مصفّداً] أي: موثوقاً شدّاً بغلّ وقيد ونحوهما.

[أحبّ إليّ من أن القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطاخ أي: حطام الدنيا ومتاعها، سمّي حطاماً لحقارته، وأصله ما تكسّر من نبت الارض، وإنّما اختار أحد الأمرين المذكورين مع ما يستلزمانه من التألّم والعذاب على الظلم؛ لأنّ ما يستلزم الظلم من عذاب الله أشدّ سيّما في حقّ العالم العارف ذي البصيرة؛ ولذا أكّد ذلك بالقسم البار، وظالماً وغاصباً منصوبان على الحالية.

وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلاء قفولها ويطول في الثرى حلولها واللّه لقد رأيتُ عقيلاً وقد أملق حتّى استماحني من بركم صاعاً ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنّما سوّدت وجوههم بالكلم القلم العظلم وعاودني مؤكّداً وكرّر عليّ القول مردّداً فأصغيت إليه سمعي فظنّ أنّي أبيعه ديني

[**وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلاء قفولها**] والقفول: الرجوع من السفر.

[**ويطول في الثرى حلولها**] استفهام إنكاري على من يظنّ به ذلك بذكر سببين يمنعان العاقل وهما الرجوع إلى البلي من السفر في الدنيا وطول الحلول في الثرى.

ثمّ نبّه عليه السلام على نفي الظلم عنه ببلوغه في المحافظة على بيت المال ومراعاة العدل إلى ما فعل مع أخيه عقيل فقال:

[**واللّه لقد رأيتُ عقيلاً وقد أملق**] أي: افتقر والإملاق: الافتقار.

[**حتّى استماحني**] من الاستماحة وهي طلب المنح وهو العطاء [**من بركم**] من حظتكم التي في بيت مال المسلمين [**صاعاً**] محتجّاً بأن كان يصله به لا يكفيه له ولعياله ولا يفي بقوتهم.

[**ورأيت صبيانه**] أي: أطفاله [**شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم**] وفاقتهم [**كأنّما سوّدت وجوههم بالكلم القلم العظلم**] وهو النيل، وقيل: نبت آخر يصبغ به.

[**وعاودني**] في طلب البرّ مرّة بعد أُخرى وكرّة غبّ أُولى.

[**مؤكّداً**] ذلك [**وكرّر عليّ القول**] في ذلك [**مردّداً**] للقول في ذلك [**فأصغيت إليه سمعي فظنّ أنّي أبيعه ديني**] وأرقّ له فأُعطيه من بيت مال

وأتّبع قياده مفارقاً طريقي فأحميتُ له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضجّ ضجيج ذي دنف من المها وكاد أن يحترق من ميسمها فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتأنّ من حديدة حماها إنسانها للعبه وتجرّني إلى نار سجرها جبّارها لغضبه، أتأنّ من الأذى ولا أئنّ من لظى

المسلمين وأُفضّله عليهم في العطاء مراعاةً للأخوّة والقرابة ورقّةً عليه، واستعار لفظ البيع لما يتوهّم من استعاضه لذّة العطاء للأخ الفقير بما يفوت من الدّين بسبب الظلم في عطيته على غير الوجه الشرعي.

[**وأتّبع قياده**] أي: ظنّ أنّي أتّبع ما يقودني إليه من الاستعطاف والرحمة [**مفارقاً طريقي**] الذي هو العدل وعدم الجور والقسمة بالسويّة والعدل في الرعية [**فأحميتُ له حديدة**] بالنار [**ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها**] النار الأُخروية التي وقودها الناس والحجارة [**فضجّ ضجيج ذي دنف**] والدنف: شدّة المرض.

[**من المها وكاد أن يحترق من ميسمها**] والميسم: المكواة.

[**فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتأنّ من حديدة حماها إنسانها للعبه**] أي: ليس المقصود بها التعذيب حقيقة وإنّما المقصود التنبيه.

[**وتجرّني إلى نار**] عظيمة وقودها الناس والحجارة [**سجرها**] أي: أوقدها وأحماها [**جبّارها لغضبه، أتأنّ من الأذى ولا أئنّ من لظى**] أي: إذا كنت تأنّ من الأذى فبالأولى أن أئنّ أنا من لظى وأضاف الإنسان إلى الحديدة لأنّه أراد إنساناً خاصّاً هو المتولي لأمر تلك الحديدة فرفعه بإضافته إليها وكذا الإضافة في جبّارها وقوله للعبه استسهالاً وتحقيراً لما فعل لغرض أن يكبر فعل الجبّار من سجر النار وكذا جعل العلّة الحاملة على سجر النار

وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعاءها ومعجونة شنئتها كأنّما عجنت بريق حيّة أو قيئها فقلت له صلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرّم علينا أهل البيت

هو غضب الجبّار تعظيماً لشأنه.

[**وأعجب من ذلك**] أي: من أمر عقيل، الذي شرحناه [**طارق طرقنا بملفوفة في وعاءها**] الطارق: هو الآتي ليلاً، وكنّى بالملفوفة في وعائها عن الهدية، قيل كانت من الحلواء كالفالوذج والجنبص ونحوهما.

[**ومعجونة شنئتها**] أي: أبغضتها إشارة إلى بغضه للأشياء اللذيذة الدنيوية ونفرته عنها زهداً فيها لأنّها [**كأنّما عجنت بريق حيّة أو قيئها**] ووجه الشبه ما تصوّره الآتي بها في قبولها من الفساد وما قصد بها مهديها من طلب الميل إليه المستلزم للظلم والجور عن سبيل اللّه، فإنّ هذه المقاصد كالسموم المهلكة، ووجه كون هذا المُهدي أعجب من عقيل أنّ عقيلاً أتى بثلاث وسائل كلّ منها يستلزم العطف عليه وهي الاخوّة وشدّة الفاقة وكونه ذا حقّ في بيت المال، وهذا إنّما أدلى بهديته.

[**فقلت له**] أهذه [**صلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرّم علينا أهل البيت**] أراد حصر وجوه البرّ عرفاً في ما ذكر؛ لأنّ التقرّب إلى اللّه ببذل المال لعباده إمّا صلة رحم أو لا، والثاني فإمّا على وجه الصدقة أو الزكاة الواجبة، ولم يذكر الهدية؛ لأنّه لا يتوهّم غافل قبول عليجّ لها أيام خلافته؛ لأنّ المطلوب منها إمّا حقّ أو باطل والحقّ لا يحتاج فيه إلى الهدية، والباطل لا يفعله بوجه.

ولذا لما اعتذر بكونها هدية نسبه إلى الهذيان والجنون وأبطل قسمين

فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنّها هدية، فقلت: هبلتك الهبول أعن دين اللّه أتيتني لتخدعني؟! مختبط أم ذو جنّة أم تهجر واللّه لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللّه في نملة أسلبها جلب شعيرة، ما فعلته، وإنّ دنياكم هذه عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها

منها وهما الزكاة والصدقة بتحريمهما على أهل البيت ولم يبطل الثالث لظهور بطلانه بكون الطارق لم يكن ذا رحم.

[**فقال: لا ذا ولا ذاك**] مبطلاً للحصر بإيراد قسم رابع أشار إليه بقوله: [**ولكنّها هدية، فقلت: هبلتك الهبول**] أي: ثكلتك الثواكل [**أعن دين اللّه أتيتني لتخدعني؟!**] تقرير لما فهمه عليه السلام من غرضه بالهدية وهو خداعه عن دينه إذ الهدية لغرض حرام صورة استغرار وخداع وفكر الخداع عن الدين تنفير لصاحب الهدية عن فعله ذلك، ولما كان ذلك الأمر لو تمّ الغرض به استلزم نقصان الدّين كان كالخداع عن الدّين فأطلق عليه لفظ الخداع استعارةً.

[**مختبط**] الخباط: مرض كالجنون، وليس به، والمختبط الذي يطلب معروفك من غير سبب سابق بينكما من رحم أو معرفة سابقة أو شسابقة معروف لك عنده.

[**أم ذو جنّة**] أي: جنون [**أم تهجر**] والهجر: الهذيان، وهو استفهام إنكار أو توبيخ على ذلك الخداع بعد تقريره إذ كان الخادع لمثله عليه السلام عن دينه لا يخلو من إحدى هذه الأمور غالباً.

[**واللّه لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة**] من أقسام الأرضين ش[**بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللّه في نملة أسلبها جلب**] أي: قشر [**شعيرة، ما فعلته، وإنّ دنياكم هذه عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها**] كما

ما لعليّ ونعيم ينفى ولذّة لا تبقى نعوذ بالله من سيّئات العقل قبح الزلل وبه نستعين اللّهمّ صُن وجهي باليسار ولا تبتذل جاهي بالاقتار

قال عليه السلام في الشقشقية «ولألفيتم دنياكم هذه أهون ش عندي من عفطة عنز».

[**ما لعليّ ونعيم ينفى ولذّة لا تبقى**] فإنّ ذلك لا يغترّ به عاقل.

[**نعوذ بالله من سيّئات العقل**] وهو اختياراته لتلك اللّذات الفانية وميله إلى مطاوعة النفس الأمّارة بالسوء ومن [**قبح الزلل**] وهو تفاحش الانحراف عن سبيل الله الموقع في مهاوي الهلاك.

[**وبه نستعين**] على جميع الطاعات واجتناب المعاصي المهلكات.

ومن دعاء له عليه السلام

[**اللّهمّ صُن وجهي باليسار**] بالفتح هو الغنى، والغنى المطلوب له عليه السلام ولأمثاله دفع الحاجة بحسب الاقتصاد والقناعة لا المتعارف بين أرباب الدنيا من جمع الأموال وادّخارها، والفقر المذموم ضدّه وهو ما احتاج إلى سؤال الخلق وهو سواد الوجه في الدارين، وإن كان إلى الله مرّة وإلى الناس أُخرى فهو المقصود من قوله عليه السلام «كاد الفقر أن يكون كفراً».

[**ولا تبتذل جاهي بالاقتار**] الاقتار: ضيق الرزق والفقر، ولمّا كان الجاه والغنى كالمتلازمين لا يليق أحدهما إلا بالآخر جعل مزيل الجاه الفقر؛ لأنّه مزيل الغنى وإلى تلازمهما أشار أبوالطيب:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

فاسترزق طالبي رزقك واستعطف شرار خلقك وأبتلي بحمد من أعطاني وأفتتن بذمّ من منعني وأنت من وراء ذلك وليّ الإعطاء والمنع وأنت على كلّ شيء قدير

واعلم أنّ الجاه كالغنى منه محمود ومنه مذموم، فالمحمود الذي سأل اللّه حفظه عليه هو الذي امتنّ اللّه به على الأنبياء فقال في عيسى: ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ وفي إبراهيم ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ والمذموم ما أُريد به الفخر والرياسة الدنيوية، ولذا أشار إلى لوازمه بقوله:

[**فاسترزق طالبي رزقك**] الذين من شأنهم أن يسألوا الرزق لا أن يطلب منهم، وفي ذلك من الذلّ والخضوع للمطلوب منه ومهانة النفس واشتغالها عن التوجّه إلى المعبود ما يجب أن يستعاذ باللّه منه.

ونبّه بقوله طالبي رزقك على عدم أهليتهم لأن يُطلب منهم.

وبقوله: [**واستعطف شرار خلقك**] على أنّ الحاجة قد تدعو إلى ذلك والتجربة تقتضي بأنّ طلب العطف والشفقة من الأشرار والحاجة إليهم يستلذّ معه ذو المرؤة طعم العلقم ويستحلي مذاق الصبر.

[**وأبتلي بحمد من أعطاني وأفتتن بذمّ من منعني**] وذلك مستلزم للصرف عن اللّه والتوجّه إلى القبلة الحقيقية.

[**وأنت**] أي: والحال أنّك [**من وراء ذلك وليّ الإعطاء والمنع**] أي: أولى من أعطى ومنع، بأن تعطي وتمنع لقدرتك على كلّ شيء، ومفهوم كونه وراء ذلك إحاطته وكونه مستند الغنى وأهله المحتاج إليهم من الخلق وأولى بالقصر ولوازمه لقدرتك على صرفه والإغناء عن الخلق ولذا عقبه بقوله: [**وأنت على كلّ شيء قدير**].

دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة لا تدوم أحوالها ولا تسلم نزّالها أحوال مختلفة وتارات متصرّفة العيش فيها مذموم والأمان فيها معدوم

ومن خطبة له ﷺ

في ذمّ الدنيا وأهلها والتنفير عنها والترغيب في الآخرة والإقبال عليها فقال ﷺ: [**دار بالبلاء محفوفة**] لكونها مقرونة بالبلاء ملازمة له، فكنّى عن ذلك بالحفوف الذي هو الإحاطة من الجوانب لأنّه أبلغ.

[**وبالغدر معروفة**] استعار الغدر لتغيّرها عمّا يتوهّم الإنسان دوامها عليه في حقّه من أحوالها المعجبة له كالمال والصحة والشباب، فكأنّه في مدّة بقاء تلك الأحوال عليه قد أخذ منها عهداً فكان التغيّر العارض لها المستلزم لزوال تلك الأحوال عنه أشبه شيء بالغدر، وحيث كان ذلك كثير صار كانها معروقة به [**لا تدوم أحوالها**] لتغيّرها آناً فآناً.

[**ولا تسلم نزّالها**] من آفاتها وبلائها [**أحوال**] أي: أحوالها أحوال [**مختلفة**] من إقبال وإدبار ونحوهما [**وتارات متصرّفة**] التارة: المرّة، أراد به تغيّر أحوالها تارةً بعد أخرى.

[**العيش فيها مذموم**] إذ الالتذاذ به والتنعّم فيه يستلزم العاقبة المهلكة ولانّه مشوب بتكدير الأمراض والأعراض فلا يزال مذموماً في الألسنة حتّى في لسان صاحبه.

[**والامان فيها معدوم**] إذ الغني لا أمن فيها من الفقر والصحيح لا يأمن

وإنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة وترميهم بسهامها تفنيهم بحِمامها واعلموا عباد اللّه إنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى من قبلكم ممن كان منكم أطول أعماراً وأعمر دياراً ش وأبعد آثاراً أصبحت أصواتهم هامدة ورياحهم راكدة وأجسادهم بالية ودارهم خالية وآثارهم عافية فاستبدلوا بالقصور المشيّدة النمارق الممهدة

من المرض، والشباب من الهرم والحي من الموت.

[**وإنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة**] أي: جعلت هدفاً ونصبت لتُرمى، واستعار الأغراض ورشح بالاستهداف وكذا استعار الرمي في قوله: [**وترميهم بسهامها**] لإيقاع المصائب بهم ورشح بذكر السهام [**تفنيهم بحِمامها**] بكسر الحاء: وهو الموت.

[**واعلموا عباد اللّه إنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى من قبلكم ممن كان منكم أطول أعماراً وأعمر دياراً ش وأبعد آثاراً**] أي: كانت آثارهم لا يقدر عليها ولا تنال لعظمها وكونها معهم على ذلك السبيل إشارة إلى إفنائها أُولئك وإلحاقهم بأحوالهم.

ثمّ شرع في تفصيل أحوال أُولئك:

[**أصبحت أصواتهم هامدة**] أي: خامدة [**ورياحهم راكدة**] كناية عن سكون أحوالهم وخمول ذكرهم بعد العظمة في الصدور.

[**وأجسادهم بالية ودارهم خالية وآثارهم عافية**] أي: قد عفت واندرست.

[**فاستبدلوا بالقصور المشيّدة**] أي: المرتفعة أو المبنية بالشيد وهو الجصّ.

[**النمارق**] جمع نمرق ونمرقة، و هي وسادة صغيرة [**الممهدة**] لهم

الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة الملحدة التي قد بنى على الخراب فنائها وشُيِّد بالتراب بنائها فمحلّها مقترب وساكنها مغترب بين أهل محلة من حيين وأهل فراغ متشاغلين لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلاء وأكلتهم الجنادل والثرى وكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه وارتهنكم ذلك المضجع

[**الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة الملحدة التي قد بنى على الخراب فنائها**] أي: على خراب ما كان معموراً من الأبدان والمساكن.

وظاهر أنّ القبور أُسّست على ذلك وبنيت عليه.

[**وشُيِّد بالتراب بنائها فمحلّها مقترب**] لقرب بعضها من بعض [**وساكنها مغترب**] غريب عن أهله وإن قرب محلّه [**بين أهل محلة من حيين وأهل فراغ متشاغلين لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران**] إشارة إلى أنّ أحوالهم من تجاورهم وفراغهم ليست كأحوال أهل الدنيا المألوفة لهم ليخوّف بها وينفّر عنها. ولذا قال [**على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار**] ثمّ أشار إلى علّة عدم المزاورة بقوله: [**وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلاء**] استعار الطحن لإفساد البلاء لأجسادهم ورشح بلفظ الكلكل الذي هو الصدر.

[**وأكلتهم الجنادل والثرى**] استعار لفظ الأكل لإفنائها [**وكان**] أي: كأنّكم، فهي مخففة واسمها ضمير الشأن، [**قد صرتم إلى ما صاروا إليه**] أي: إلى مصيرهم وأحوالهم ويقرب من ذلك لانّ مشابهة الاحوال يستلزم قرب بعضها من بعض [**وارتهنكم ذلك المضجع**] أي: صار لكم دار إقامة

وضمّكم ذلك المستودع فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور وبُعثر بكم القبور هنالك تبلو كلّ نفس ما أسلفت وردُّوا إلى اللّه مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون اللّهمّ إنّك أُنس الآنسين لأوليائك

واتخذكم سكّانه المقيمين به.

[**وضمّكم ذلك المستودع**] أطلق عليه المستودع باعتبار كونهم سيخرجون منه يوم القيامة.

[**فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور وبُعثر بكم القبور**] بعثرتها: إخراج ما فيها ونبشها، يقال بعثر الرجل متاعه: إذا فرّقه وقلب أعلاه أسفله وهو سؤال عن كيفية حالهم عند تناهي أمورهم وأحوالهم في يوم البعث سؤالاً على سبيل التذكير بتلك الأحوال والتخويف بتلك الأهوال ليذكروا شدّتها فيفزعوا إلى العمل لها ولذا قال: [**هنالك تبلو كلّ نفس ما أسلفت**] أي: تطّلع على ما قدّمته في الدنيا من خير أو شرّ.

[**وردُّوا إلى اللّه مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون**].

ومن دعائه عليه السلام

[**اللّهمّ إنّك أُنس الآنسين لأوليائك**] إذ الأنيس هو الذي يرفع الوحشة ويسكن إليه النفس في الوحدة والغربة وكانت أولياء اللّه في الحياة الدنيا غرباء في أبنائها منفردين عنهم في سلوك سبيل مولّين وجوههم شطر كعبة وجوب وجوده مبتهجين بمطالعة أنوار كبريائه لا جرم كان أشدّ الآنسين لهم انساً إذ ما من عبد تعبّد لغيرش اللّه واستأنس به كالوالد لولده وبالعكس إلا

وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك تشاهدهم في سرائرهم وتطّلع عليهم في ضمائرهم وتعلم مبلغ بصائرهم فأسرارهم لك مكشوفة وقلوبهم إليك ملهوفة إن أوحشتهم

كان لكلّ منهما من صاحبه نفرة من وجه استيحاش بل لم يكن لهم أنيس في الحقيقة إلا هو، إذ كانوا في الالتفات إليه منقطعين عما عداه مستوحشين.

[**وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك**] إذ كان تعالى هو الغني المطلق والجواد الذي لا بخل من جهته ولا منع، والعالم المطلق بحاجة المتوكّلين وحسن استعدادهم، فإذا استعدّ المتوكّلون عليه بحسن توكّلهم لقبول رحمته أفاض على كلّ منهم قدر كفايته من الكمالات النفسانية والبدنية بلا تعويق عايق من ترقٍّ في استحقاق مستحقّ أو مقدار كفايته أو حاجته إلى تحصيل ذلك المقدار، إلى غير ذلك مما هو منسوب إلى غيره تعالى من ملوك الدنيا فلا جرم كان أقوم من توكّل عليه بكفاية المتوكّلين وأسرعهم إحضاراً لما استعدّ كلّ منهم له من الكمال.

[**تشاهدهم في سرائرهم وتطّلع عليهم في ضمائرهم وتعلم مبلغ بصائرهم**] إشارة إلى علمه تعالى بأعمالهم الباطنة الذي هو من لوازم كونه أحضر لكفايتهم كما مرّ واطّلاعه عليهم في ضمائرهم اعتبار لكمال علمه تعالى وبرائته عن النقصان وكذا علمه بمبلغ بصائرهم، أي: بمقادير عقولهم وتفاوت استعداد نفوسهم لدرك الكمالات، وأكّد ذلك بقوله: [**فأسرارهم لك مكشوفة**] إشارةً إلى إحاطة علمه بأحوالهم الباطنة.

[**وقلوبهم إليك ملهوفة**] متحيّرة على الوصول إليك والحضور بين يديك وفيه إشارة إلى كمال محبّتهم ورغبتهم فيما عنده [**إن أوحشتهم**

الغربة أنسهم ذكرك وإن صبّت عليهم المصائب لجاوا إلى الاستجارة بك علماً بأنّ أزمَّة الأمور كلّها بيدك و مصادرها عن قضائك اللّهمّ فإن فههت عن مسألتي أو عمهت عن طلبتي فدلّني على مصالحي وخذ بقلبي إلى مراشدي فليس ذلك بنكر من هداياتك وبدع من كفاياتك

الغربة] في دار الدنيا فإنّ المؤمن في الدنيا غريب **[أنسهم ذكرك]** لأنّك أنيس المستوحشين.

[وإن صبّت عليهم المصائب] الدنيوية والآلام الجسمانية والروحانية **[لجاوا إلى الاستجارة بك]** بتوجيه وجوه نفوسهم إليك وانقطاعهم لديك **[علماً]** مفعول لأجل علمهم **[بأنّ أزمَّة الأمور كلّها بيدك]** مربوطة بأسبابها تحت تصريف قدرتك.

[و] انّ **[مصادرها]** وهي أسبابها القريبة صادرة **[عن قضائك]** منتهية إليه والمراد بقضائه حكم علمه إذ به ومنه كانت أسباباً ومصادراً لتلك المصائب، واستعار الأزمّة لأسباب الأمور، ووجه الشبه كونها ضابطة لها وبها يكون نظام وجودها كالأزمة وكذا لفظ اليد مجاز في القدرة.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان مطلوبه فقال:

[اللّهمّ فإن فههت عن مسألتي] والفهاهة: العي، **[أو عمهت عن طلبتي]** والعمه: التحير، أي: إن تحيّرت في وجه معرفة مصالحي **[فدلّني على مصالحي وخذ بقلبي إلى مراشدي]** طلب عليه السلام الدلالة على مصالحه في أيّ أمر كان وجذب قلبه إلى مواضع رشده من العقائد الصحيحة على تقدير عيّه وعجزه عن معرفته بها.

[فليس ذلك بنكر من هداياتك وبدع من كفاياتك] أي: إنّ هداياتك

اللّهمّ احملني على عفوك ولا تحملني على عدلك للّه بلاء فلان فلقد قوّم الأود وداوى العمد أقام السنّة وخلف الفتنة

لخلقك إلى وجوه مصالحهم وكفاياتك لهم ما يحتاجون إليه أُمور متعارفة جرت عادتك بها وألفها منك عبادك.

[**اللّهمّ احملني على عفوك**] فيما عساه صدر من ذنب [**ولا تحملني على عدلك**] فإنّ عدلك لا نطيقه، ولو عاملنا اللّه بعدله لكانت حسناتنا سيّئات فضلاً عن سيّئاتنا!!

ومن كلام له ﷺ

[**للّه بلاء فلان**] لفظ يقال في معرض المدح كقولهم: للّه درّه وللّه أبوه، وأصله أنهم إذا أرادوا مدح شيء وتعظيمه نسبوه إلى اللّه، قيل أراد بعض أصحابه في زمن رسول اللّهﷺ ممن مات قبل وقوع الفتن وانتشارها.

[**فلقد قوّم الأود**] أي: العوج، كناية عن تقويمه لاعوجاج الخلق عن سبيل اللّه إلى الاستقامة فيها.

[**وداوى العمد**] قيل: هو مرض وهو انشداخ أسنام البعير من الجمل ونحوه مع صحّة ظاهره، واستعار العمد للأمراض النفسانية باعتبار استلزامها للأذى كالعمد والمداوة المعالجة لتلك الأمراض بالمواعظ والنصائح.

[**أقام السنّة**] ولازمها وداوم عليها.

[**وخلف الفتنة**] مات قبلها ولم يكن سبباً لوقوعها في زمانه لحسن

ذهب نقي الثوب قليل العيب أصاب خيرها وسبق شرّها أدّى إلى اللّه طاعته واتّقاه بحقّه رحل وتركهم في طرق متشعّبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي

تدبيره.

[**ذهب نقي الثوب**] استعار الثوب لعرضه ونفاه لسلامته عن دنس المذام.

[**قليل العيب أصاب خيرها**] قيل: مرجع الضمير الخلافة، أي: أصاب فيها من الخير المطلق وهو العدل وإقامة دين اللّه الذي فيه الشرف الدنيوي والثواب الاخروي.

[**وسبق شرّها**] أي: مات قبل وقوع الفتنة فيها وسفك الدماء لأجلها.

[**أدّى إلى اللّه طاعته**] جلباً لمرضاته.

[**واتّقاه بحقّه**] خوفاً من عقوبته وفراراً من نقمته.

[**رحل**] إلى الدار الآخرة [**وتركهم**] أي: والحال أنّه ترك الناس [**في طرق متشعّبة**] من الجهالات [**لا يهتدي فيها الضال**] عن سبيل اللّه [**ولا يستيقن المهتدي**] في سبيل اللّه إنّه على سبيله لاختلاف طرق الضلال وكثرة المخالف له إليها.

ومن كلام له عليه السلام

في وصف بيعته بالخلافة وقد تقدّم مثله بألفاظ مختلفة وحاصله الاحتجاج على البغاة ممن خالفه بأنهم بايعوه برغبته ثمّ نكثوا.

وبسطتم يدي لتصفقوا فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيّم على حياضها يوم ورودها حتّى انقطع النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت على ساقها الكعاب

[**وبسطتم يدي لتصفقوا**] عليها للبيعة [**فكففتها ومددتموها**] لذلك [**فقبضتها**] إشارة إلى كمال حرصهم ورغبتهم في البيعة وزهده فيها وإعراضه عنها.

[**ثم تداككتم عليّ**] أي: ازدحمتم ازدحاماً قوياً [**تداكّ**] مفعول مطلق مبيّن للنوع أي: كتداكّ [**الإبل الهيّم**] أي: العطاش.

[**على حياضها يوم ورودها**] ووجه الشبه شدّة الازدحام، ويمكن أن يلاحظ في وجه الشبه كون ما عنده من الفضائل الجمّة العلميّة والعمليّة يشبه الماء وكون المزدحمين عليه في حاجتهم وتعطّشهم إلى استفادة تلك الفضائل النافعة لغليلهم كالعطاش من الإبل حين ورودها.

[**حتّى انقطع النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف**] هو نظير ما مرّ من قوله عليه السلام في الشقشقية «حتّى لقد وطئ الحسنان» وشقّ عطفاي.

[**وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير**] والهدجان: مشية الشيخ وهو مشي في ارتعاش.

[**وتحامل نحوها العليل**] والتحامل: تكلّف المشي مع مشقّة.

[**وحسرت**] أي: كشفت عن وجهها [**على ساقها الكعاب**] والكعاب: الجارية نهد ثديها، وتلخى الكلام: انّكم بلغتم في طلبكم لي وحرصكم

فإنّ تقوى اللّه مفتاح سداد وذخيرة معاد وعتق من كلّ ملكة ونجاة من كلّ هلكة

على بيعتي إلى هذه الغاية حتّى أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه وكلّ من كان كذلك فليس له أن ينكث ويغدر.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فإنّ تقوى اللّه مفتاح سداد**] السداد: هو الصواب والعدل في القول والعمل ولما كان ذلك هو غاية الدّين وكانت تقوى اللّه تعود إلى خشيته المستلزمة للإعراض عن مناهيه استعار لها لفظ المفتاح باعتبار كونها سبباً للاستقامة على الصواب والقصد في صراط اللّه المستقيم إلى ثوابه المقيم الذي هو أفضل المطالب كما أنّ المفتاح سبب للوصول إلى ما يخزن من الأمور النفسية.

[**وذخيرة معاد**] لأنّ الاستعداد لخشية اللّه وما يستلزمه من الكمالات النفسانية من أنفس الذخائر المتنفع بها في المعاد.

[**وعتق من كلّ ملكة**] استعار العتق لخلاص النفس العاقلة من استيلاء حكم شياطينها المطيفة بها كخلاص العبد من استيلاء سيّده وإطلاق العتق عليها من إطلاق السبب على المسبب؛ لأنّ التقوى سبب لذلك الخلاص المستعار له لفظ العتق، وكذا قوله: [**ونجاة من كلّ هلكة**] فإنّ التقوى سبب لنجاة النفس من الهلكات الأُخروية وعقوبات الآثام وربما تجب من المهلكات الدنيوية أيضاً.

بها تنجح المطالب و ينجو الهارب وتنال الرغائب فاعملوا والعمل يرفع والتوبة تنفع والدعاء يُسمع والحال هادية والأقلام جارية

[**بها تنجح المطالب**] أمّا الأُخروية فظاهر، وأمّا الدنيوية فلقوله تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وفي الخبر: «أوحى اللّه إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني».

[و] بها [**ينجو الهارب**] من عذاب اللّه وسخطه. [**وتنال الرغائب**] أي: النفائس المرغوب فيها في الدنيا والآخرة، كما مرّ.

ثمّ نبّه عليه السلام على وجوب العمل وقال:

[**فاعملوا والعمل يرفع**] الواو للحال والجملة حالية أي: اعملوا وبادروا إلى العمل حال إمكان رفعه إلى اللّه وهو ما داموا في الحياة دون ما بعد الموت فاغتنموا الحياة قبل الموت.

وكذا قوله: [**والتوبة تنفع**] أي: اعملوا وقت قبول التوبة منهم والإقلاع عن موبقات الآثام.

[**والدعاء يُسمع**] أي: وقت سماع الدعاء وقبوله فإنّ شيئاً من ذلك لا ينفع بل لا يمكن بعد الموت.

[**والحال هادية**] أي: حال الإنسان في الدنيا فإنّ حاله حين الموت وما بعده في غاية الاضطراب.

[**والأقلام جارية**] أي: أقلام الحفظة قيل: وفائدة الاعلام بالعمل في حال جريان الأقلام التنبيه على وقت الأعمال الخيرية وإمكانها حين تكتب وترفع إلى اللّه فاعملوا في الحال المذكورة ما دامت أقلام الكرام الكاتبين جارية ليكتب أعمالكم.

وبادروا بالأعمال عمراً ناكساً أو مرضاً حابساً أو موتاً خالساً فإنّ الموت هادم لذّاتكم ومكدّر شهواتكم ومبعد طيّاتكم زائر غير محبوب وقرن غير مغلوب

[**وبادروا بالأعمال عمراً ناكساً**] أي: أعماركم التي هي محلّ الأعمال في معرض الانتكاس والرجوع إلى الحالة المنافية للتكليف وهي الهرم المستلزم لضعف العقل والبنية ونقصانهما والرجوع إلى حال الطفل في ذلك كما قال تعالى: ﴿ومن نعمّره ننكّسه في الخلق﴾ وقال: ﴿ثمّ رددناه إلى أرذل العمر﴾ فليبادر الإنسان إلى الأعمال الصالحة الممكنة في مدّة عمره قبل انتكاسه.

وقوله: [**أو مرضاً حابساً**] أي: بادروا العمل حال صحّة أبدانكم قبل أن تحبسوا عن الأعمال بالأمراض البدنية.

[**أو موتاً خالساً**] أي: مختطفاً، أي: بادرا بالعمل قبل أن يختلسكم الموت، واستعار الخالس له باعتبار أخذه للأعمار على غرّة وغفلة من أهلها كالمختطف للشيء من يد غيره.

[**فإنّ الموت هادم لذّاتكم**] الدنيوية [**ومكدّر شهواتكم**] النفسانية [**ومبعد طيّاتكم**] جمع طيّة بالكسر وهي منزل السفر، استعارها لمنازل السفر إلى الآخرة بالموت عن الدنيا وأهلها فإنّ الآخرة أبعد منزل عن الدنيا.

[**زائر غير محبوب**] استعار لفظ الزائر باعتبار هجومه على الإنسان ولمّا كان من شأن الزائرين أن يكون محبوباً ميّزه بكونه غير محبوب ليحصل النفرة عنه ويفزع إلى العمل له.

[**وقرن غير مغلوب**] استعار له لفظ القرن بوصف كونه غير مغلوب

وواتر غير مطلوب قد أعلقتكم حبائله وتكنفتكم غوائله وأقصد لكم معابله وعظمت فيكم سطوته وتتابعت عليكم عدوته وقلّت عنكم نبوته

ليهتمّ بالاستعداد له.

[وواتر غير مطلوب] الوتر: الحقد والغضب، استعار لفظ الواتر بوصف كونه غير مطلوب أي: من شأنه أن يوتر القلوب ولا يمكن لمن يطلب بوتر ولا ينتصف منه ملاحظة لشبهه بالرجل البالغ في الشجاعة بحيث لا يغلب.

[قد أعلقتكم حبائله] استعار الحبائل للأمراض البدنية التي هي دواعي الموت ومؤدّية إليه كحبالة الصائد ورشح بوصف الإعلاق **[وتكنفتكم]** أي: أحاطت بكم **[غوائله]** أي: مصائبه والغوائل المصائب تأتي على غرّة، جمع غائلة.

[وأقصد لكم معابله] جمع معبلة بكسر الميم وهي: نصل عريض طويل، استعار المعابل للآفات الداعية إلى الموت باعتبار كونها مؤذية أو قاتلة كالنصال، ورشح بذكر الاقصاد.

[وعظمت فيكم سطوته] استعار له السطوة ملاحظةً لشبهه بالسلطان القاهر أو السبع الضاري في قوّة أخذه وشدّة بطشه.

[وتتابعت عليكم عدوته] بفتح العين، أي: ظلمه، استعار له العدوة باعتبار كون أخذه على غير حقّ له كالظالم.

[وقلّت عنكم نبوته] يقال: نبا السيف إذا لم يؤثّر في الضربة، استعار النبوة لعدم تأثيره ملاحظةً لشبهه بالسيف القاطع، ووصفها بالقلّة وراعى في

فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلمه واحتدام علله وحنادس غمراته وغواشي سكراته وأليم إزهاقه ودجو أطباقه وجشوبة مذاقه

كلّ ثلاث قرائن من هذه التسع السجع المتوازي.

[**فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلمه**] أي: مظلمات سحابه، جمع ظله وهي السحابة، استعار لفظ الظلّ للأمراض والعلل الداعية إلى الموت استعارة المحسوس بالبصر للمتخيّل، ملاحظةً لشبهها بالسحاب المظلّ واصفاً لها بالدواجي إذ كان الكلام في معرض التخويف، والسّحاب المظلم أشدّ رهبة في القلوب قال تعالى: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا اللّه﴾ وهو شروع في التخويف بنزول الموت.

[**واحتدام علله**] الاحتدام: شدّة الحدّة والغيظ، استعار وصف الاحتدام لعلله ملاحظة لشبهها في نزولها بالرجل المستشيط غضباً في قوّة الأخذ.

[**وحنادس غمراته**] استعار الحنادس لما يتوهّمه الإنسان من الظلم في غمرات الموت وسكراته، وكذا قوله: [**وغواشي سكراته**] استعار الغواشي لما يعرض عند سكرات الموت من العوارض المانعة من الإدراك المغشية لآلاته.

[**وأليم إزهاقه**] أي: إعجاله المؤلم [**ودجو أطباقه**] استعار الأطباق لحالاته المتزايدة وسكراته المتضاعفة التي يتضاعفها تزداد آلات إدراكه بعداً وانقطاعاً عن المدركات الدنيوية وباعتبار انقطاع الادراك بسبب تلك الحالات وصفها بالدجو وشدّة الظلمة ويحتمل أن يريد بأطباقه أطباق القبور الحاصلة بسببه.

[**وجشوبة مذاقه**] بالجيم المعجمة: غلظ الطعام، واستعار المذاق لوجدانه باعتبار المشاركة في الإدراك باعتبار شدّة إيلامه وصفه بالجشوبة.

وكأنْ قد أتاكم بغتة فأسْكَت نجيّكم وفرّق نديّكم وعفى آثاركم وعطّل دياركم وبعث ورّاثكم يقتسمون تراثكم بين حميم خاص لم ينفع وقريب محزون لا ينفع وآخر شامت لم يجزع

[**وكأنْ**] مخفّفة من المثقّلة واسمها ضمير الشأن أي: وكأنّه [**قد أتاكم بغتة**] والمشبّه ههنا حال الموت من جهة ما هو منتظر لابدّ منه والمشبّه به اعتبار أعيانه وموافاته لهم ووجه الشبه هو القرب، أي: قرب المنتظر الذي لابدّ منه من مواقع الوجود إذ كلّما هو آت قريب.

ثمّ أردف التخويف منه بذكر لوازمه المخوّفة من إسكات المتناجين وتفريق المجتمعين وتعفية الآثار وتعطيل الديار واقتسام الوارث للتراث، فقال:

[**فأسْكَت نجيّكم**] النجو: القوم يتناجون، [**وفرّق نديّكم**] الندي: القوم يجتمعون في النادي وهو مجتمعهم.

[**وعفى**] أدرس [**آثاركم وعطّل دياركم**] عن السكنى بها [**وبعث ورّاثكم يقتسمون تراثكم**] أسند إليه البعث باعتبار أنّه سبب يلزمه انبعاث دواعي الورثة إلى اقتسام التراث لزوماً عرضياً.

[**بين حميم خاص لم ينفع**] متعلّق بأتاكم بغتة مع ما بعده من الأفعال، أي: كأنّه قد أتاكم بغتة ففعل بكم ما فعل من إسكات المتناجين وغيرهم بين حميم أي: صديق خاص لأحدكم لا تنفع صداقته حينئذ.

[**وقريب محزون لا ينفع**] حزنه ولا يقدر على المنع عنه [**وآخر**] عدوّ [**شامت لم يجزع**] عليه.

ثمّ أردف ذكر الموت ولوازمه بالحثّ على العمل والجدّ فيه والتأهّب

فعليكم بالجدّ والاجتهاد والتأهّب والاستعداد والتزوّد في منزل الزاد ولا تغرّنكم الدنيا كما غرّت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية الذين احتلبوا درّها وأفنوا عدتها وأخلقوا جدّتها

والاستعداد لنزول الموت وما بعده فقال:

[**فعليكم بالجدّ والاجتهاد**] في الطاعات والقربات والمسارعة إلى الخيرات والمبادرة إلى المبرّات.

[**والتأهّب والاستعداد**] لنزول هادم اللّذات ومفرّق الجماعات.

[**والتزوّد**] بالتقوى [**في منزل الزاد**] وهو الدنيا لأنّها المنزل الذي لا يمكن تحصيل الزاد إلى الآخرة إلا فيه ولذا أضافه إليه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**ولا تغرّنكم الدنيا كما غرّت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية الذين احتلبوا درّها**] استعار الدرّ لمنافع الدنيا وخيراتها ولفظ الاحتلاب لجمعها وإفنائها أي: الذين فازوا بخيراتها وحصّلوا عليها، وكذا استعار العزّة في قوله وأصابوا عزّتها لعدم وصول حوادثها إليهم في مدة استمتاعهم بها، فكأنّها غافلة عنهم لا ترميهم بشيء من المصائب، فلمّا وجدوا ذلك منها أخذوا منها ما أخذوا وحصلوا على ما حصلوا.

[**وأفنوا عدتها**] أي: لما تعدد فيها من مأكول وملبوس وغيرهما مما يستمتع به فيغني.

[**وأخلقوا جدّتها**] أي: جعلوا جديدها خلقاً بالاستعمال وكنّى به عن استمتاعهم بما أخذوا منها من صحة ومال وغيرهما إلى غاية انقضائه وانتهاء مدّته حتّى كأنّهم لم يبقوا من محاسنها شيئاً إلا أخلقوه، ثمّ أردف أوصافهم

أصبحت مساكنهم جداثاً وأموالهم ميراثاً لا يعرفون من أتاهم ولا يحفلون من بكاهم ولا يجيبون من دعاهم فاحذروا الدنيا فإنّها غرّارة خدوع معطية منوع ملبسة نزوع

بذكر غاياتهم فقال:

[**أضبحت مساكنهم جداثاً**] جمع جدث وهو القبر.

[**وأموالهم ميراثاً لا يعرفون من أتاهم ولا يحفلون من بكاهم ولا يجيبون من دعاهم**] والحاصل انّكم لا تغترّوا بالدنيا كما اغترّ بها من كان قبلكم فإنّ أولئك مع أنّهم قد صادفوا عزّتها وحصول منها على ما حصلوا من خيراتها كانت غايتهم منها أن وصلوا إلى ما وصلوا في العدم، فكذلك انتم بطريق أولى.

ثم أكّد التحذير منها بذكر أوصافها المنفّرة عنها فقال:

[**فاحذروا الدنيا فإنّها غرّارة**] كما قال تعالى: ﴿وغرّتكم الحياة الدنيا﴾، واستعار لفظ الغرّارة باعتبار كونها سبباً مادّياً للاغترار كما مرّ.

[**خدوع**] حيث كان الخداع إظهار أمر ظاهره مصلحة وباطنه فسدة وكان ظهور زينة الحياة الدنيا للناس يشبه الرأي المحمود في الظاهر باتّباعها وكانت تلك الزينة واتّباعها سبباً للفتنة بها عن سبيل الله الذي هو عين المفسدة يشبه المفسدة في باطن الرأي، لا جرم أشبه ظهور زينتها الخداع فاستعار الخدوع بذلك الاعتبار.

وكذا قوله: [**معطية منوع**] لكونها سبباً مادّياً للانتفاع بما فيها من خيراتها وسبباً مادّياً لمنعه.

وكذا لفظ [**ملبسة نزوع**] وراعى في هاتين الفقرتين المقابلة وفائدتها

لا يدوم رخائها ولا ينقضي عنائها ولا يركد بلائها كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها عملوا فيها بما يبصرون

التنفير عمّا يتوهّم فيها خيراً ممّا تعطيه وتلبسه بذكر استعقابها لمقابلتيهما من منعها لما تعطيه ونزعها لما تلبسه.

ولذا أكّده بقوله: [**لا يدوم رخائها**] من صحّة وشباب ومال وجاه ونحوها من سائر الملتذات البدنية.

[**ولا ينقضي عنائها**] وحيث كان من شأن ذلك الرخاء التغيّر والانقطاع وظاهر أنّ انقطاع رخائها حالاً فحالاً مستلزم لعدم انقضائ عنائها، قال ولا ينقضي عنائها.

[**ولا يركد بلائها**] استعار وصف عدم الركود لبلائها ملاحظةً لشبهها بالريح دائمة الحركة لكونه دائماً.

ومن كلام له ﷺ

في صفة الزهّاد الذين كانوا من أصحابه ودرجوا قبله:

[**كانوا قوماً من أهل الدنيا**] بأبدانهم ومشاركتهم الضرورية لأهلها في الحاجة إليها.

[**وليسوا من أهلها**] بقلوبهم؛ لأنّهم خرجوا عن ملاذّها ونعيمها واستغرقوا في محبّة اللّه تعالى وما أعدّ لأوليائه الأبرار في دار القرار.

وقوله: [**عملوا فيها بما يبصرون**] أي: كان سعيهم وحركاتهم البدنية والنفسانية في سبيل اللّه ببصيرة ومشاهدة لأحوال ذلك الطريق وما يفضي

وبادروا فيها ما يحذرون تقلب أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم وهم أشدّ إعظاماً لموت قلوب أحيائهم

إليه من السعادة الباقية وعلم بما يستلزمه الانحراف عنها من الشقاوة اللازمة الدائمة والباء للسببية و(ما) مصدرية وتحتمل الموصولية، أي: بالذي يبصرونه ويباهدونه من تلك الأحوال فإنّ علمهم اليقيني بها هو السبب القائد والحامل لهم في تلك الطريق وعلى سلوكها.

[**وبادروا فيها ما يحذرون**] أي: سابقوا ما يحذرونه من عذاب اللّه المتوعّد به في الآخرة كأنّه سابق لهم إلى أنفسهم وهم مسابقوه إلى خلاصها فسبقوه إلى النجاة إذ كانوا راكبين لمطايا ومتمسّكين بعصمها وهي أوامر اللّه وحدوه ولذا أتى بصيغة الفاعلة.

[**تقلب**] أي: تتقلّب [**أبدانهم بين ظهراني**] بفتح النون أي: بينهم. [**أهل الآخرة**] يعني انّ دأبهم معاشرة أهل الآخرة والمعاملين لها دون أهل الدنيا أو المعنى أنّهم مع سائر الناس بأبدانهم فالمراد بأهل الآخرة سائر الناس لانّ مستقرّهم الأصلي ودار قرارهم هي الآخرة كما قال تعالى: ﴿وإنّ الآخرة هي دار القرار﴾ أي: انّهم مع الناس بأبدانهم فقط فهي تتقلب بينهم وأرواحهم في مقام آخر.

وقوله: [**يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم وهم أشدّ إعظاماً لموت قلوب أحيائهم**] بيان للفرق بينهم وبين أهل الدنيا، إذ كان أهل الدنيا لا يرون أنّ وراء كمال أجسادهم كمالاً آخر فهم يعظمون موتها وأعظم محبوباتهم بقاء أجسادهم وتكميلها وأعظم منفور عنه لهم نقصانها وموتها.

خطبها بذي قار فصدع بما أمر

وأمّا الزهّاد المتقون فهم وإن كانوا يرونهم بتلك الحال إلا أنهم يرون لهم أفضل مما يرون وهو انّ موت قلوبهم وفقدانها للحياة بالعلم والحكمة أعظم من موت أجسادهم وذلك لعلمهم بفساد الحياة البدنية وانقطاعها وكدرها بعوارض الأمراض والغموم وسائر المنغّصات الدنيوية وبقاء الحياة النفسانية وشرف كمالها وصفاء لذاتها عن الأقذار والأكدار، وإنّما قال (قلوب أحيائهم) ولم يقل قلوبهم لأنّ موت القلوب قد يكون حقيقة بموت الأجساد وقد يكون مجازاً وهو موتها بفقدان العلم ونور الحكمة حياة مع أجسادها فكان ذكر الأحياء كالقرينة المعينة للمراد بذلك الموت من المجازية والضمير في قوله (أحياهم) يعود إلى أهل الدنيا لأنّ موت القلوب هو الواقع بهم حال حياة أبدانهم ويحتمل عوده إلى قوله (وهم) الذي هو ضمير المتّقين.

ومن خطبة له عليه السلام

[خطبها بذي قار] اسم موضع قريب من البصرة وفيه كانت وقعة العرب مع الفرس قبل الإسلام قالها حال كونه متوجّهاً إلى البصرة وذكرها الواقدي في كتاب الجمل في مدح الرسول صلى الله عليه وآله:

[فصدع بما أُمر] والصدع: الشق، واستعار لفظ الصدع لما أمر به من تبليغ الوحي ووجه الشبه أنّه شقّ بما جاء به من الرسالة عصى الكفر وكلمة أهله وفرّق ما اتّصل من أغشية الجهل على نفوس الكافرين وحجب الغفلة

وبلّغ رسالات ربّه فلمّ اللّه به الصدع ورتق به الفتق وألّف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور والضغائن الفادحة في القلوب

التي رانت على قلوبهم كما يصدع الحجر بالمعول ونحوه.

[**وبلّغ رسالات ربّه**] امتثالاً لقوله ﴿بلّغ ما أُنزل آإليك﴾ وكان في معرض المدح لكونه أداء أمانة عظم تبليغها وقدرها.

[**فلمّ اللّه به الصدع**] وهو الشق [**ورتق به الفتق**] استعار لفظي الصدع والفتق لما كان بين العرب من الافتراق وتشتّت الأهواء واختلاف الكلمة والعداوات والأحقاد حتّى أنّ أحدهم كان يقتل أباه وابنه وذوي رحمه لهوىً يقوده أو ضغن يحمله ولذا قال:

[**وألّف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور**] والواغرة: ذات الوغور وهي شدّة توقّد الحرّ ويقال في صدره وغر أي: عداوة وضغن وتوقّد من الغيظ وعداوة واغرة: شديدة.

[**والضغائن**] أي: الأحقاد [**الفادحة في القلوب**] فجمع اللّه بظهور النبيﷺ أسبابهم وألّف بين قلوبهم حتّى جعل ذلك في معرض الامتنان عليه إذ يقول: ﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن اللّه ألّف بينهم﴾ واستعار وصف الفادحة للضغائن لاستلزامها إثارة الغضب والشرور كما يثير الفادح النار.

وكان من أصحاب علي وشيعته إنّ هذا المال ليس لي ولا لك وإنّما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم فإنّ شركهتم في حربهم كان لك مثل حظّهم فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم

ومن كلام له عليه السلام

كلّم به عبدالله بن زمعة بفتح الميم بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى بن قصي.

[**وكان من أصحاب علي وشيعته**] فأتاه مستميحاً في خلافته فقال عليه السلام:

[**إنّ هذا المال ليس لي ولا لك وإنّما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم**] والجلب: المال المجلوب، وروي بالحاء وحباة التمر: ما يحبى منه، ووجه العذر أنّ هذا المال لم يكن يخصّه عليه السلام وإنّما اجتمع معه ما كان لبيت مال المسلمين من فيئهم وهو ما جلبته أسيافهم من مال الكفّار غنيمة ونطق القرآن بقسمته أسداساً ثلاثة للنبي وذي القربى والثلاثة الباقية لليتامى والمساكين وابن السبيل لا يشركهم فيها باقي الناس عوضاً عن الصدقات ولم يكن له أن يعطيه من الثلاثة الاول لأنّه ليس من أُولي القربى ولا من الثاني لأنّها للمقابلة خاصّة ولم يكن منهم ولذا قال إنّه فيء للمسلمين.

[**فإنّ شركهتم في حربهم كان لك مثل حظّهم**] وإلا تكن قد شركتهم [**فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم**] واستعار لفظ الجناة لما اكتسبوه بأيديهم من ذلك المال ملاحظةً لشبهه باقتطاف الثمرة واجتنائها وهو من الاستعارة، ويجري مجرى المثل بضرب لمن يطلب مشاركة غيره في ثمرة فعل فعله ذلك

ألا إنّ اللسان بضعة من الإنسان فلا يسعده القول إذا امتنع ولا يمهله النطق إذا اتسع إنّا لأمراء الكلام

الغير وتعب فيه والمراد إنّك حيث لم تشاركهم في حربهم لم يكن لك نصيب مما كسبت أيديهم.

ومن كلام له عليه السلام

روي أنّه قاله لما أمر ابن اخته جعدة بن هبيرة المخزومي يوماً أن يخطب الناس، فصعد المنبر، فحصر فلم يستطع الكلام، فقال عليه السلام ثمّ خطب خطبة طويلة منها أن قال:

[**ألا إنّ اللسان بضعة**] بفتح الباء، أي: قطعة [**من الإنسان فلا يسعده القول إذا امتنع ولا يمهله النطق إذا اتسع**] والضمير في يسعد ويمهله للسان وفي امتنع واتّسع للإنسان، والمقصود انّ اللّسان لمّا كان آلة للإنسان يتصرّف بتصرّفه إيّاه فإذا امتنع الإنسان عن الكلام لشاغل أو صارف لم يُسعَد اللّسان القول ولم يواته وإذا دعاه الداعي إلى الكلام وحصره واتسع الإنسان له لم يمهله النطق بل سارع إليه ويحتمل عود الضمير في امتنع إلى القول، وفي اتسع إلى النطق، أي: فلا يسعد القول اللّسان إذا امتنع القول من الإنسان ولم يحضره لوهم ونحوه أوجب حصره وعيّه ولم يمهله النطق إذا اتسع عليه وحصره.

وقوله: [**إنّا لأمراء الكلام**] استعار لفظ الأمراء لنفسه ولأهل بيته ملاحظةً لكونهم مالكين لأزمّة الكلام، يتصرّفون فيه تصرّف الأمراء في ممالكهم.

وفينا تنشّبت عروقه وعلينا تهدّلت غصونه واعلموا رحمكم اللّه أنّكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل واللّسان عن الصدق كليل أهله معتكفون على العصيان مصطلحون على الأدهان فتاهم عارم وشائبهم آثم

[وفينا تنشّبت عروقه] استعار العروق لمواد الكلام وأُصوله وملكاته المتمكنة في قلوبهم ورشح بذلك التثبّت، وكذا استعار الغصون في قوله:

[وعلينا تهدّلت غصونه] لما أمكنهم من تناوله ورشح بذكر المتهدّل لأنّ من شأن الغصن ذلك.

ثمّ شرع في وصف الزمان وأهله **[واعلموا رحمكم اللّه أنّكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل]** وقد مرّ مراراً ذمّ الكثرة وقلّة أهل الحق، قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾، وقال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وقال: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا﴾.

[واللّسان عن الصدق كليل] وسبب الأمرين استيلاء الجهل والظلم على أكابره وأهل الدنيا فيه.

[أهله معتكفون على العصيان] أي: أكثرهم بقرينة ما سبق **[مصطلحون على الأدهان]** أي: المصانعة باللّسان دون الاتقان بالقلوب، ويحتمل أن يريد بالادهان الغش.

[فتاهم] أي: شبابهم **[عارم]** أي: شرّير سيء الخلق لنشؤه على غير أدب.

[وشائبهم آثم] لجهله وغفلته عمّا يراد به.

وعـالمهم منافق وقـاريهم مماذق لا يعظّم صغيرهم كبيره ولا يعول غنيهم فقيرهم فقال إنّما فرّق بينهم مبادي طينتهم

[**وعالمهم منافق**] لاستعماله فطنته في طرف الشرّ وإعراضه عن أمر اللّه وطريق الآرة.

[**وقـاريهم مماذق**] وهو الذي يمـزج الود ولا يخلصـه وهو نـوع من النفاق.

[**لا يعظّم صغيرهم كبيره**] لنشؤهم على قلّة الآداب الشرعية وعدم التفاتهم إليها.

[**ولا يعول غنيهم فقيرهم**] لجفاوتهم وبخلهم.

ومن كلام له عليه السلام

روى اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبداللّه بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنّا عند أميرالمؤمنين عليه السلام وقد ذكر عنده اختلاف الناس.

[**فقال إنّما فرّق بينهم مبادي طينتهم**] التي خُلقوا منها حسبما تأتي الإشارة إليها بقوله: ثمّ جمع من سهل الأرض وحزنها وسبخها وعذبها تربة ... إلخ، أي: تقاربهم في الصور والأخلاق تابع لتقارب طينهم وتقارب مباديه وهي السهولة والحزونة والسباخة والعذوبة، وتفاوتهم فيها لتفاوت طينهم ومباديه المذكورة وقيل إضافة المبادي إلى الطين بمعنى اللام، أي المبادي لطينهم والإشارة بطينهم إلى أُصولهم وهي الممتزجات المنتظمة في أطوار الخلقة كالنطفة وما قبلها من موادها وما بعدها من العلقة والمضغة

كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها أو حزن تربة وسهلها فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافهم يتفاوتون

والعظم والمزاج الإنساني القابل للنفس المدبرة.

قيل: ولما كانت مبادي ذلك الطين في ظاهر كلامه عليه السلام هي السبخ والعذب والسهل والحزن كان ذلك كناية عن الأجزاء العنصرية التي هي مبادي المركّبات ذوات الأمزجة كالنبات والغذاء والنطفة وما بعدها إذ كلّ ممتزج منها لابدّ فيه من أجزاء تتفاعل فيحصل بواسطة استعداداتها وتفاعلها ذو مزاج هو نطفة وغيرها فتلك الأجزاء المتفاعلة المستعدة لمزاج مزاج هي مبادي تلك الأمزجة والممتزجات.

ولّما كانت السبخة والعذوبة والسهولة والحزونة أُموراً تلحق الممتزجات الأرضية التي هي مبادي الطين ولهما أثر في اختلاف مزاجه وساير الأمزجة عنه وكان اختلاف استعدادات تلك الأُمور الممتزجة لقبول الأمزجة التي هي السبب في اختلاف الأمزجة استعداداتها لقبول الأخلاق والصور وهو السبب في اختلاف الأخلاق والصور لا جرم كان السبب في تفرّق الناس في أخلاقهم وخلقهم إنّما هو اختلاف مبادي طينهم كما قال عليه السلام:

[كانوا فلقة] أي: قطعة **[من سبخ أرض وعذبها أو حزن تربة وسهلها فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافهم يتفاوتون]**.

ويحتمل أن يكون المراد بالسبخ والعذب والحزن والسهل الأجزاء الأرضية من حيث هي ذوات أمزجة متعادلة الكيفيّات.

فالسبخ كناية عن الحار اليابس منها، والعذب كناية عن الحار الرطب.

والسهل كناية عن البارد الرطب، والحزن كناية عن البارد اليابس،

فتامّ الرواء ناقص العقل ومادّ القامة قصير الهمّة وزاكي العمل قبيح المنظر

وعلى هذا يحمل الحديث النبوي «إنّ اللّه سبحانه لما أراد خلق آدم أم أن يؤخذ قبضة من كلّ أرض فجاء بنو آدم على قدر طينها الأحمر والأبيض والسّهل والحزن والطيّب والخبيث.

والقبضة من كلّ أرض إشارة إلى الأجزاء الأرضية المذكورة، وكون الناس مختلفين عنها بالأبيض والأحمر إشارة إلى اختلاف خلقهم وكونهم مختلفين بالسهولة والحزونة والطيب والخبث إشارة إلى اختلاف أخلاقهم عن اختلاف تلك الاستعدادات السابقة على كلّ مزاج في أطوار خلقهم.

وقد بان بذلك معنى قوله «فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون» أي: على حسب قرب مبادي طينهم المذكورة وتشابهها في استعداداتها وإعدادها يتقاربون ويتشابهون في الصور والأخلاق، وعلى قدر اختلاف تلك المبادي وتباينها في ذلك يتفاوتون وتتضاد أخلاقهم ويتباين خلقهم.

ثمّ شرع عليه السلام في تفصيل تفاوتهم فقال: [**فتامّ الرواء ناقص العقل**] والرواء: المنظر الجميل، أي: من استعدّ مزاجه لقبول صورة كاملة حسنة وعقل ناقص فهو داخل في رذيلة الغباوة.

[**ومادّ القامة قصير الهمّة**] أي: المستعد لامتداد القامة وحسنها لكنّه ناقص في همّته فهو داخل في رذيلة الجبن وكلاهما يشتركان في مخالفة ظاهرهما لباطنهما ويتقاربان في الاستعداد الباطني.

[**وزاكي العمل قبيح المنظر**] أي: المستعد لقبح صورته الظاهرة وحسن باطنه باعتدال مزاج ذهنه المستلزم للأعمال الزاكية.

وقريب القعر وبعيد السبر ومعروف الضريبة منكر الجليبة وتايه القلب متفرّق اللبّ وطليق اللّسان حديد الجنان

[**وقريب القعر**] كناية عن القصير [**وبعيد السبر**] أي: داهية، وسيرت الرجل أسيره أخبرت باطنه وغوره، وسُئِل بعض الحكماء: ما بال القصير من الناس أدهى وأحدق؟ قال لقرب قلبه من دماغه، قيل كأنّه أراد أنّ القلب لمّا كان مبدء الحرارة الغريبة وكانت الأعراض النفسانية من الفطنة والذكاء والفهم والإقدام والوقاحة وحسن الظنّ وجودة الرجاء والنشاط ورجولية الأخلاق وقلّة الكسل وقلّة الانفعال عن الأشياء كلّ ذلك يدلّ على الحرارة وتوفّرها وأضداد ذلك يدلّ على البرودة لا جرم كان قرب القلب من الدماغ في القصر لكونه سبباً لتوفّر الحرارة في الدماغ وجودة استعداد القوى النفسانية فيه سبباً لتلك الأغراض المذكورة، وكان بعده منه في الطويل سبباً لقلّة الحرارة وضعف استعداد القوى النسفانية لتلك الأغراض.

[**ومعروف الضريبة**] أي: الخلق والطبيعة [**منكر الجليبة**] وهي ما يجلبه الإنسان ويتكلّفه أي: من يكون له خلق معروف ويتكلّف ضدّه فيستنكر منه ويظهر عليه تكلّفه كأن يكون مستعداً للجبن يتكلّف الشجاعة أو بيخلاً فيتكلّف السخاوة فيستنكر منه مالم يكن معروفاً منه.

[**وتايه القلب متفرّق اللبّ**] قيل: هم العوام أتباع كلّ ناعق التايهون في تيه الجهل المتفرّقة أهوائهم بحسب كلّ ما سنح من المطالب الدنيوية والخواطر الشيطانية.

[**وطليق اللّسان**] وهو اللّسن الزكي [**حديد الجنان**] أي: القلب، قال المحقّق البحراني: والقسم الأول والثالث أفلسان، فإنّ الأغلب على المستعد

بأبي أنت وأُمّي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة والأنبياء

لحسن الصورة وجمالها واعتدال الخلق أن يكون فطناً ذكياً لدلالة تلك العوارض على استواء التركيب واعتدال المزاج والأغلب على المستعد لقبح الصورة عكس ذلك.

وأمّا القسم الثاني والرابع فهو أكثر، فإنّ الأغلب على طويل القامة نقصان العقل والبلادة، ويتبع ذلك فتور العزم وقصور الهمّة وعلى القصير الفطنة والذكاء وحسن الآراء والتدابير. والقسم الخامس أكثري، وذلك لمحبّة النفوس للكمالات فترى البخيل يجب أن يعد كريماً فيتكلّف الكرم والجبان يجب أن يعد شجاعاً فيتكلّف الشجاعة، وقد راعى في هذه القرائن المطابقة، فالتام بإزاء الناقص، وماد القامة بإزاء القصير والزاكي بإزاء القبيح والقريب بإزاء البعيد والمعروف بإزاء المنكر.

ومن كلام له ﷺ

وهو يلي غسل رسول اللّه ﷺ وتجهيزه: [**بأبي أنت وأُمّي**] متعلّق بمحذوف تقديره أفديك بأبي وأُمّي.

[**لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة**] لأنّه ﷺ كان خاتم الأنبياء.

[**والأنبياء**] تأكيد لما سبق، وهما بيان للغير، وروي عوض الأنبياء أي: الأخبار.

وأخبار السماء خصصت حتّى صرت مسلّياً عمّن سواك وعممت حتّى صار الناس فيك سواء ولولا أنّك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤن ولكان الداء مماطلاً ولكمد محالفاً وقلا

[**وأخبار السماء**] أي: الوحي وقيل السماء، مستعار لما علا علواً معنوياً من سماء عالم الغيب ومقامات الملأ الأعلى.

[**خصصت**] في مصيبتك من حيث أنّها مصيبة خاصّة عظيمة لا يصاب الناس في الحقيقة بمثلها [**حتّى صرت مسلّياً عمّن سواك وعممت**] بمصيبتك [**حتّى صار الناس فيك سواء**] واستووا فيها، وأضاف الخصوص والعموم إليه وإن كانا للمصيبة لكونها بسببه.

[**ولولا انّك أمرت بالصبر**] على المكاره والبلايا [**ونهيت عن الجزع**] عند نزول الشدائد والدواهي.

[**لأنفدنا عليك ماء الشؤن**] كنّى به عن كثرة البكاء والشؤن: مواصل قطع الرأس المشعوب بعضها من بعض وملتقاها، والعرب تقول: إنّ الدموع تجيء منها، وقيل: الشائان عرقان ينحدران من الرأس إلى الحاجبين ثمّ إلى العينين.

[**ولكان الداء مماطلاً**] كنّى بالداء عن ألم الحزن بفقده ﷺ، واستعار له لفظ المماطلة كأنّ الحزن وألمه لثباته وتمكّنه لا يكاد يفارقه مع أنّ عادته أن يفارق فهو كالمماطل بالمفارقة.

[**ولكمد محالفاً**] الكمد: الحزن المكتوم، والمحالف: اللازم.

[**وقلا**] أي: نفاذ ماء الشجون، والكمد المحالف الذي هو الداء المماطل، أو يعود إلى الداء المماطل والحزن الملازم ترجيحاً بهما، أي هما

لك ولكنّه لا يملك ردّه ولا يستطاع دفعه بأبي أنت وأُمّي اذكرنا عند ربّك واجعلنا من بالك فاعملوا وأنتم في نفس

قليلان.

[**لك**] وفي حقّك وضمير [**ولكنّه لا يملك ردّه**] للموت في قوله بموتك، أي: ولكن الموت الذي لأجله البكاء والحزن ما لا يملك ردّه.

[**ولا يستطاع دفعه**] فلم يكن في البكاء والجزع فائدة، وكان لزوم الصبر أولى.

[**بأبي أنت وأُمّي اذكرنا عند ربّك**] وما نحن عليه [**واجعلنا من بالك**] أي: من مهمّاتك أو من مهمات بالك، والبال: القلب، أي: ممن تبالي وتعتني به، وقيل: أي: اذكرنا بما نحن عليه من طاعته، فهو كأمير بعثه الملك إلى أهل مدينة ليصلح حالهم بالترهيب والترغيب فلابدّ أن يعلمه طاعة المطيع وعصيان العاصي.

قيل: قبض ﷺ بعد الهجرة بعشر سنين وكان مولده ﷺ عام الفيل، وبُعث وهو ابن أربعين سنة بعد بنيان الكعبة وهاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فكان عمره يوم قبض ثلاثاً وستين سنة.

ومن كلام له عليه السلام

[**فاعملوا وأنتم**] الواو للحال والجملة حالية، أي: اعملوا والحال انّكم [**في نفس**] بفتح النون والفاء، أي: في سعة.

من البقاء والصحف منشورة والتوبة مبسوطة والمدبر يدعى والمسيء يرجى قبل أن يجمد العمل وينقطع المهل وتنقضي المدّة ويسدّ باب التوبة وتصعف الملائكة فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه وأخذ من حيّ لميت

[**من البقاء والصحف منشورة**] أي: اعملوا والحال أنّ صحف الأعمال منشورة لأن يكتب فيها للأعمال، فاغتنموا ذلك قبل أن يزول البقاء وقبل أن تُطوى صحف أعمالكم.

وكذا قوله: [**والتوبة مبسوطة**] أي: والحال أنّها مبسوطة لمن تاب قبل المعاينة، فإذا تحقّقت المعاينة انسدّ بابها، فاغتنموا الفرصة للتوبة.

[**والمدبر يدعى**] أي: اعملوا والحال أنّ المدبر عن طاعة اللّه يدعى للإقبال عليها، ويقبل منه الرجوع فإذا أدبر مستقلاً للدار الآخرة فلا رجوع.

وكذا قوله: [**والمسيء يرجى**] أي: والحال أنّ المسيء يرجى له غفران وتوبة ومسامحة [**قبل أن يجمد العمل**] استعار الجمود لوقو العمل كالماء يجمد بعد جريانه.

[**وينقطع المهل وتنقضي المدّة**] التي قدّرها اللّه لعمره [**ويسدّ باب التوبة**] بالمعاينة وإذا بلغت التراقي..

[**وتصعف الملائكة**] بالروح.

[**فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه**] أمر في صورة الخبر، أي: فليأخذ امرؤ من نفسه الأمّارة بكسرها، ومنعها عن مشتهياتها وميولها الطبيعيّة لنفسه العاقلة أو أريد بالنفس الأولى البدن، أي: ليأخذ بالعبادة كالصلاة والصيام ونحوهما من الكمالات لنفسه العاقلة ويجعله ذخراً لها في الآخرة.

وكذا قوله: [**وأخذ من حيّ لميت**] أي: ليأخذ المرؤ من نفسه باعتبار ما

ومن فـان لباق ومن ذاهب لـدائم امـرؤ خـاف اللّه وهو مـعـمّر إلى أجله ومنظور إلى عمله امرؤ لجم نفسه بلجامها وزمّها بزمامهـا فأمسكها بلجامها عن معاصي اللّه وقادها بزمامها إلى طاعة اللّه الحمد للّه الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه

هو حيّ في الدنيا لنفسه باعتبار ما هو ميّت لا يمكنه ذلك.

وكذا قوله: [**ومن فان لباق**] أي: من دنياه الفانية لأخراه الباقية.

[**ومن ذاهب لدائم**] ومما يذهب من أمواله لينفقها لآخرته.

وقوله: [**امرؤ خاف اللّه**] كالجواب السائل سئل عن ذلك المرء الأخذ لنفسه من نفسه فكأنّه، قال هو امرؤ فخاف اللّه، [**وهو معمّر إلى أجله**] المعلوم المقدّر له.

[**ومنظور إلى عمله**] أي: ملتفت إليه من اللّه لقوله تعالى: ﴿فينظر كيف تعملون﴾.

[**امرؤ لجم نفسه بلجامها وزمّها بزمامها**] استعار اللجام والزمام للتقوى وبيّن ذلك وأوضحه بقوله: [**فامسكها بلجامها عن معاصي اللّه وقادها بزمامها إلى طاعة اللّه**].

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الذي لا تدركه الشواهد**] أي: الحواس، لكونها تشهد ما تدركه وتحضر معه [**ولا تحويه المشاهد**] أي: المحاضر والمجالس، وقد مرّ سابقاً بيان تنزّهه تعالى عن إدراك الحواس وتقدّسه عن المكان والحيز، [**ولا تراه**]

ولا تحجبه السواتر الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم على أن لا شبيه له والذي صدق في ميعاده وارتفع عن ظلم عباده

النواظر، كما قال تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ وإنّما خصّ النواظر بالذكر بعد ذكر الشواهد لظهور تنزهه تعالى من سائر الحواس ووقوع الشبهة في الرؤية البصرية.

[**ولا تحجبه السواتر**] لأنّ السواتر الجسمانية إنّما تعرض للأجسام وعوارضها وهو تعالى منزّه عن ذلك.

[**الدال على قدمه بحدوث خلقه**] إذ حدوثها لابدّ له من محدث فإن كان محدثاً أيضاً لزم التسلسل فتعيّن قدمه.

[**وبحدوث خلقه على وجوده**] كما مرّ [**وباشتباههم على أن لا شبيه له**] حتّى يحصل التمييز بين الخالق والمخلوق.

[**والذي صدق في ميعاده**] على ألسنة رسله الصادقين وأنبيائه الصالحين في الدنيا والآخرة. أمّا في الدنيا كقوله ﴿وعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها﴾ وقوله: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ الآية، وأمّا في الآخرة فكما وعد عباده المطيعين بالجنّة والخلف في الوعد محال على اللّه تعالى كما قال: ﴿إنّ اللّه لا يخلف الميعاد﴾.

[**وارتفع عن ظلم عباده**] إذ الذي يظلم إنّما يظلم لضعفه وهو القويّ المطلق؛ ولأنّ ملوك الدنيا إنّما يظلمون رعيّتهم إمّا لما فيه من المنفعة واللّذة والتشفّي أو لأنّ في تركه ضرراً وتألّماً، وكلّ ذلك من توابع الأمزجة البشرية المنزّه عنها تعالى.

وأقام بالقسط في خلقه عدل عليهم في حكمه مستشهداً بحدوث الأشياء على أزليّته وبما وسمها به من العجز على قدرته وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه واحد لا بعدد

[**وأقام بالقسط**] أي: العدل [**في خلقه**] فأجرى الأحكام عليهم على وفق الحكمة والنظام الأكمل الكلّي، وذلك ظاهر، وكذا [**عدل عليهم في حكمه**] لما مرّ [**مستشهداً بحدوث الأشياء على أزليّته**] أي: مستدلاً بها كما مرّ.

[**وبما وسمها به من العجز على قدرته**] إذ كلّ موجود سواه موصوف وموسوم بعدم القدرة على ما يخصّ قدرته تعالى من الموجودات بل بعدم القدرة على شيء أصلاً إذ كلّ موجود فهو منته في سلسلة الحاجة إليه وهو مبدء وجوده وسائر ما يعد سبباً له فإنّما هو واسطة معدّة فإذاً لا قدرة في الحقيقة إلا له ومنه، ووجه الاستدلال أنّه لو كان موسوماً بالعجز عن شيء لما كان مبدء له، لكنّه مبدء لكلّ موجود، فهو ثابت القدرة تامّها واعلم انّ العجز عبارة عن عدم القدرة عمّا من شأنه أن يقدر إذ لا يقال للجدار انّه عاجز.

[**وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه**] فاضطراره لها إلى الفناء حكم قدرته القاهرة على ما استعدّ منها للعدم بإفاضة صورة العدم عليه حين استعداده لذلك على وفق قضائه بذلك وهو المشار إليه بقوله ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللّه﴾ ووجه الاستدلال أنّه تعالى لو كان مضطراً إلى الفناء كسائر الأشياء لكان جاى الفناء فكان ممكناً، لكنّ التالي باطل فهو واجب الوجود دائمه.

[**واحد لا بعدد**] لما مرّ أنّ وحدته تعالى ليست عددية، أي: أنّه تعالى

دائم لا بأمد قائم لا بعمد تتلقّاه الأذهان لا بمشاعرة وتشهد له المرائي لا بمحاضرة

ليس مبدء كثرة يكون عاداً لها.

[**دائم لا بأمد**] بمعنى أنّ وجوده مساوق لوجود الزمان إذ كان تعالى هو موجود الزمان بعد مراتب من خلقه ومساوقة الزمان لا يقتضي الكون في الزمان، ولما كان الأمد هو الغاية من الزمان ومنتهى المدّة المضروبة لذي الزمان من زمانه وثبت أنّه تعالى ليس بذي زمان يعرض الأمد ثبت أنّه دائم لا أمد له.

[**قائم لا بعمد**] أي: ثابت الوجود من غير استناد إلى سبب يعتمد عليه ويقيمه في الوجود كسائر الموجودات الممكنة، وذلك هو معنى كونه واجب الوجود.

[**تتلقّاه الأذهان**] أي: تقبل معرفته وتقبل إلى ما يمكن أن يتصوّر من صفاته السلبية ونعوته الإضافية.

[**لا بمشاعرة**] أي: ليس ذلك العرفان من طريق المشاعر وهي الحواس، ولا على وجه شعورها بما تشعر به منها بل تتلقّاه على وجه أعلى وأشرف وبتعقل صرف بريء عن علائق المواد مجرّد عن إدراك الحواش وتوابع إدراكاتها من الوضع والأين والمقدار واللّون.

[**وتشهد له المرائي**] جمع مرآة بفتح الميم وهي المنظر يقال: فلان حسن في مرآة العين وفي رأي العين: في المنظر.

[**لا بمحاضرة**] إشارة إلى كون المرائي والنواظر ظرفاً للعقول إلى الشهادة بوجوده تعالى في آثار قدرته ولطايف صنعته وما يدرك بحسن البصر منها، ولوضوح العلم به تعالى وشهادة العلم بوجوده في المدركات بهذه

لم تحط به الأوهام تجلّي لها بها وبها امتنع منها وإليها حاكمها

الآلة صار تعالى كأنّه مشاهد مرائي فيها وإن لم تكن هذه الآلة محاضرة له ولا يتعلّق إدراكها به ويحتمل أن يريد بالمرئي المرئيات التي هي محال أبصار الناظرين ومواقعها وذلك انّ وجودها وما اشتملت عليه من الحكمة شاهد بوجود الصانع من غير حضور ومحاضرة حسيّة كما عليه الصنّاع في صنايعهم من محاضرتها ومباشرتها.

[لم تحط به الأوهام] لأنّها إنّما تتعلّق بالمعاني الجزئية المتعلّقة بالمحسوسات والمواد الجسمانية ولا شيء من الواجب بمتعلّق بمادة بل [تجلّي لها بها] وذلك لانّ الأوهام إذا اعتبرت حال انفسها عن وجوداتها والتغيّرات اللاحقة لها شهدت بلسان حالها باحتياجها إلى موجود ومقيم، فكانت شاهدة له بحسب ما طبعت عليه بقدر إمكانها، وهو متجلّي لها كذلك.

والباء في بها للسببية إذ وجودها هو السبب المساوي في تجليته لها، ويحتمل أن تكون بمعنى في، أي: تجلّى لها في وجودها، وبل هنا للإضراب عمّا امتنع منها من الإحاطة به والإثبات لما أمكن ووجب من تجلّيه لها.

وقوله: [وبها امتنع منها] أي: بخلقها قاصرة عن إدراك المعاني الكلّية المجرّدة كانت مبدء لامتناعه عن إدراكها له.

[وإليها حاكمها] أي: جعلها حكماً بينها وبينه عند رجوعها من توجّهها في طلبه منجذبة خلف العقول حائرة معترفة بأنّه لا ينال بحور الاعتساف كنه معرفته ولا يخطر ببال أُولي الرويّات خاطر من تقدير جلاله، وقيل: أراد بالأوهام العقول.

وقوله: وبها امتنع منها، أي: بالعقول ونظرها علم أنّها لا تدركه

ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيماً ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً بل كبر شأناً وعظم سلطاناً

وإليها حاكمها، أي: جعل العقول المدّعية أنّها تحيط به وتدركه كالخصوم، ثمّ حاكمها إلى العقول السليمة فحكمت له السليمة على المدّعية لما ليست أهلاً له وأنّه جعل تلك المدّعية هي الحاكمة على نفسها بعد اجتهادها في طلبه واعترافها بالعجز عن إدراكه.

[**ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيماً**] الكبر يقال لعظيم الحجم والمقدار والعالي السن من الحيوان، ولعظيم القدر ورفيعه، ولعلّ المراد بالكبر المنفي المعنى الأوّل؛ إذ من لوازمه كون الكبير ممتداً في الجهات الثلاث طولاً وعرضاً وعمقاً وهو منزّه عن ذلك وعن الكبر بالمعنى الثاني وتجسيماً مصدر في موضع الحال، أي: فكبرته مجسماً أو مجسمة له وإنّما أسند الامتداد إلى النهايات لأنّها غاية للطبيعة بالامتداد تصف عندها وتمتد بها فكانت من الأسباب الفانية، فلذا أسند إليها وكذا إسناد التكبير إليها إذا كان التكبير من لوازم الامتداد إليها.

[**ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً**] العظيم يقال على ما يقال عليه الكبير بالمعنى الأوّل والثالث دون الثاني، والمراد سلب العظيم بالمعنى الأوّل وإسناد التناهي إلى الغايات، إذ كانت سبباً لوقوفه وبها ينقطع وإليها يبلغ وإسناد التعظيم إليها كإسناد التكبير وإن أسند التناهي إليها بها جاز.

[**بل كبر شأناً وعظم سلطاناً**] لما سلب الكبر والعظم عنه بالمعنين الأوّلين أشار إلى إطلاقهما عليه بالمعنى الثالث ونصب شأناً وسلطاناً على التمييز، إذ لا شأن أعلى من شأنه ولا سلطان أعظم من سلطانه وهو مبدء

واشهد أنّ محمّداً عبده الصفي وأمينه الرضي صلّى اللّه عليه وآله بوجوب الحجج وظهور الفلج وإيضاح المنهج فبلّغ الرسالة صادعاً بها وحمل على المحجّة

شأن كلّ ذي شأن، ومنتهى سلطان كلّ ذي سلطان.

[**واشهد أنّ محمّداً عبده الصفي**] الذي اصطفاه على خلقه.

[**وأمينه**] على وحيه [**الرضي**] أي: الذي ارتضاه لذلك.

[**صلّى اللّه عليه وآله بوجوب الحجج**] أي: المعجزات والأعمّ وهو ما يكون حجّة اللّه على خلقه في تكليفهم أن يقولوا ﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك﴾ ويدخل في ذلك دلائل الأحكام وطرق الدّين التفصيلية أو المراد أرسل لوجوب قبولها ووجوب العمل على وفقها.

[**وظهور الفلج**] وهو الظهور على سائر الأديان والظفر بأهلها الكفرة العادلين باللّه والجاحدين له.

[**وإيضاح المنهج**] وهو طريق اللّه وشريعته، قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون﴾ قيل الهدى هو إيضاح المنهج، وقوله «ليظهره... إلخ» إشارة إلى بعض غايات بعثته، وهي المراد بظهور الفلج، وروي بضمّ الفاء واللام وهو بضمّ الفاء وسكون اللام للفوز ويجوز ضمّ اللام للشاعر والخطيب.

[**فبلّغ الرسالة صادعاً بها**] إشارة إلى أداء الأمانة فيما حمل من الوحي وصدعه بالرسالة إظهارها والمجاهرة بها، وأصله الشقّ، فكأنّه شقّ بالمجاهرة بها عصى المشركين وفرّق ما اجتمع من شملهم.

[**وحمل على المحجّة**] أي: طريقة اللّه الواضحة وشريعته الحقّة بدعوته إليها وجذبه الخلق إلى سلوكها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة التي هي

دالاً عليها وأقام أعلام الاهتداء ومنار الضياء وجعل أمراس الإسلام متينة وعُرى الإيمان وثيقة ولو فكّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق

أحسن ثمّ بالسيف لمن لم تنفعه المجادلة.

[**دالاً عليها**] وهادياً إليها [**وأقام أعلام الاهتداء**] أي: أدلّته، وهي المعجزات وقوانين الدّين وكذا قوله: [**ومنار الضياء**] وإقامته لها إظهارها وإلقائها إلى الخلق، ولفظ المحجّة والأعلام والمنار.

وقوله: [**وجعل أمراس الإسلام**] جمع مرس بفتح الراء وهو الحبل [**متينة وعُرى الإيمان وثيقة**] استعار الأمراس والعرى لما يتمثّل به من الدّين والإيمان ورشح بذكر المتانة والوثاقة وأشار بجعلها لها كذلك إلى تثبيت قواعد الإسلام وغرسها في قلوب الخلق واضحة جليّة بحيث تكون عصمة للمتمسّك بها في طلب النجاة من مخاوف الدّارين وسبباً لا ينقطع دون الغاية القصوى.

ومن كلام له عليه السلام

خطبه في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان: [**ولو فكّروا**] أي: الخلق. [**في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق**] يعني: إنّ الخلق لم يرجعوا إلى طريق اللّه عن غيّهم وجهالاتهم ولم يخافوا من وعيده بعذاب الآخرة لأنّهم لم يفكّروا فيما عظم من قدرته في خلق مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وما جسم من نعمته على عباده ويحتمل

ولكنّ القلوب عليلة والأبصار مدخولة ألا ينظرون إلى صغير ما خلق اللّه كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر

أن يريد بالقدرة المقدور إذ كان الفكر في ذلك سبباً عظيماً في الجذب لهم إلى اتباع شريعته وسلوك سبيله إليه كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملوكت السموات والأرض وما خلق اللّه من شيء﴾ وقوله تعالى: ﴿أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾ الآية.

[**ولكنّ القلوب عليلة والأبصار مدخولة**] أي: معيبة، بيان لعلّة عدم فكرهم، إذ كون القلوب عليلة والأبصار مدخولة ينافيان صحتها وسلامتها اللّذين هما شرطان في وجود الفكر الصحيح فلم تحصل الصحّة التي هي شرط الفكر فلم يجعل الفكر فلم يجعل معلوله وهو الرجوع إلى اللّه، وعلل القلوب وما يلحق أبصار البصائر من العيوب يعود إلى الجهل وأغشية الهيئات البدنية والأخلاق الردية الدنية المكتسبة من اللّذات والشهوات الدنيوية المغطّية لأنوار البصائر الحاجبة لها عن إدراك واضح الطريق الحق.

ثمّ شرع في التنبيه على قليل من عجائب بعض المخلوقات ليكون انموذجاً للمتفكّرين، فقال: [**ألا ينظرون إلى صغير ما خلق اللّه كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه**] على صغره.

[**وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر**] قيل: ومن آداب الخطيب إذا أراد القول في أمر نبّه عليه أوّلاً على سبيل الإجمال بقول كلّي ليستعدّ السامعون ثمّ يشرع في تفصيله، ولمّا أراد عليه السلام التنبيه على عظمة اللّه بتفصيل بعض مخلوقاته كالنمل والنحل والجراد ونحوه أشار أوّلاً إلى عظيم

انظروا إلى النملة في صغر جثّتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبّت على أرضها وصبّت على رزقها تنقل الحبّة إلى جحرها وتعدّها في مستقرّها تجمع في حرّها لبردها وفي ورودها لصدرها

القدرة ثمّ تلاه بالتنبيه على لطيف الصنع في صغير ما خلق من دون تعيين إلى أن استعدّت القلوب لتعظيم اللّه تعالى وأقبلت النفوس فتلاه بذكر النملة وقال:

[**انظروا إلى النملة في صغر جثّتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر**] متعلّق بتنال، والمراد البحث عن عجائب صنعتها ليستدلّ بذلك على حكمة صانعها، ولا يكاد تنال نصب على الحال، والعامل انظروا، ويحتمل أن يكون مستأنفاً، وكيف في محلّ الجرّ بدل من النملة ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً وفيه معنى التعجّب.

[**كيف دبّت على أرضها وصبّت**] أي: ألقيت [**على رزقها**] وانحطّت عليه، وبعثت عليه بهداية وإلهام، وقيل: إنّه على القلب أي: صبّ عليها رزقها، ولفظ الصبّ مستعار لحركتها في طلبه ملاحظة لشبهها بالماء المصبوب وليس محلّ التعجّب دبيبها فقط بل مع الاعتبارات الأُخر المذكورة بعده، وفي رواية وضنّت على رزقها بالضاد المعجمة والنون أي: بخلت.

[**تنقل الحبّة إلى جحرها**] أي: بيتها [**وتعدّها**] أي: تهيّئها [**في مستقرّها**] محلّ قرارها [**تجمع في حرّها لبردها**] أي: في الصيف للشتاء.

[**وفي ورودها لصدرها**] أي: في أيّام ورودها وتمكّنها من الحركة لأيّام صدورها ورجوعها عن الحركة للعجز، فإنّها تعجز في أيام الشتاء عن

مكفول برزقها مرزوقة بوفقها لا يغفلها المنّان ولا يحرمها الديّان

ملاقات البرد تطلب بطن الأرض لكون الحرارة فيه، ومن عجائب أمرها ما يحكى أنّها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء أن تعفن وتسوّس في بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتنشرها ويعود إليها جفافها ويضربها النسيم ويذهب عنها العفن والفساد وربما كان أكثر عملها ذلك ليلاً ليكون أخفى، وفي القمر لأنّها فيه أبصر وإذا كان المكان ندياً وخافت أن تنبت الحبّة بقرت موضع القطمير من وسطها لعلمها أنّها في ذلك الموضع تنبت.

وربّما ـــــــــ الحبّة بنصفين وإذا كان الحبّ من الكزبرة فإنّها تفلقه أرباعاً؛ لأنّ أنصاف حبّ الكزبرة تنبت من بين جميع الحبّ وحكي أنّه احتفر بيت للنمل فوجد الحبوب التي جمعتها كلّ نوع وحده ووجد في بعضها أنّ بعض الحبوب فوق بعض وبينها فواصل حائلة من التبن ونحوه ولها صدق شامة عجيبة وجرأة على نقل شيء في وزن جسمها مائة مرّة وليس من الحيوان ما يحمل أضعاف وزنه مراراً كثيرة كالنملة.

[مكفول برزقها] أي: مكفل اللّه به، وفي نسخة مكفولة رزقها بالنصب على الحال وكذا **[مرزوقة بوفقها]** أي: رزقها أوفقها، أي: موافق ومطابق لقوّتها وعلى قدر كفايتها.

[لا يغفلها المنّان] أي: لا يتركها من لطفه وعنايته، فإنّه باعتبار ما هو منّان على خلقه لا يجوز في حكمته إهمال بعضها من رزق تقوم به في الوجود.

[ولا يحرمها الديّان] أي: المجازي للعباد على أفعالهم حيث انّها دخلت في الوجود مطيعة لأمره منقادة لتسخيره فوجب في الحكمة الإلهية جزائها

ولو في الصفاء اليابس والحجر الجامس ولو فكّرْتَ في مجاري أُكلها وعلوها وسفلها وما في الجوف أي: ما اشتمل عليه من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وآذانها لقضيت من خلقها عجباً ولقيته من وصفها تعباً فتعالى اللّه الذي أقامها على قوائمها وبناها على

ومقابلتها بما يقوم بوجودها فلا تكون محرومة.

[ولو] كانت **[في الصفاء اليابس والحجر الجامس]** أي: الجامد، يفتح لها أبواب معاشها في كلّ مكان.

[ولو فكّرْتَ في مجاري أُكلها] كالحلق والأمعاء وأكلها ما تأكله. **[وعلوها]** بسكون اللام نقيض سفلها وهو رأسها وما يليه إلى الجزء المتوسّط **[وسفلها]** وهو ما جاوز الجزء المتوسّط من طرفها الآخر.

[وما في الجوف] أي: **ما اشتمل عليه من شراسيف بطنها]** وهي أطراف الأضلاع المشرفة على البطن والحكماء لا يثبتون للنمل شراسيف ولا أضلاعاً فيحمل كلامه عليه السلام حينئذ على المجاز، أي: ما يقوم مقام الشراسيف والأضلاع.

[وما في الرأس من عينها وآذانها] وهي محلّ القوّة السامعة منها، فإنّك لو تأمّلت في هذه الأمور **[لقضيت من خلقها عجباً]** والقضاء بمعنى الأداء، أي: لأدّيت عجباً أو المراد به الموت، أي: لقضيت نحبك من شدّة تعجّبك ويكون عجباً نصباً على المفعول.

[ولقيته من وصفها تعباً] ثمّ لمّا نبّه على محال الفكر ووجوه الحمة فيها أردف ذلك بتنزيه صانعها وتظيمه وقرن ذلك التعظيم والتنزيه بنسبة بعض صنعه بها، فقال: **[فتعالى اللّه الذي أقامها على قوائمها وبناها على**

دعايمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه في خلقها قادر ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلّتك الدلالة إلا على أنّ فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كلّ شيء وغامض اختلاف كلّ حيّ

دعايمها] أي: ما يقوم به بدنها من الأمور التي تقوم مقام العظام والعصب والأوتار ونحوها ليحصل التنبيه على عظمته من لطف تلك القوائم واعتبار ضعف تلك الدعائم مع ما ركّب فيها من لطايف الصنعة وأودعها من عجائب الحكمة.

[لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه في خلقها قادر] فسبحانه سبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه.

[ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته] أي: غايات فكرك، وضربت بمعنى سرت، والمذاهب: الطرق، قال تعالى: ﴿إذا ضربتم في الأرض﴾ وهو استعارة، أي: لو سارت نفسك في طريق فكرها ومذاهب نظرها وهي الأدلّة وأجزاء الأدلّة من المقدّمات وأجزائها المستنبطة من عالم الخلق والأمر.

[ما دلّتك الدلالة] أي: لم يمكن أن يدلّك دليل **[إلا على أنّ فاطر النملة]** على غاية صغرها **[هو فاطر النخلة]** على عظمها وطولها، وهو المدبّر الحكيم اللّطيف العليم.

[لدقيق تفصيل كلّ شيء وغامض اختلاف كلّ حيّ] إشارة إلى الحجّة على ما ادّعي من اشتراك النملة والنحلة في الاستناد إلى الواجب، أي: أنّ لكلّ شيء من الموجودات الممكنة تفصيل لطيف دقيق واختلاف شكل وهيئة

وما الجليل واللّطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقة الأسواء كذلك السماء والهواء والرياح والماء فانظر إلى الشمس والقمر

ولون ومقدار ووجوده من الحكمة يدلّ على صانع حكيم خصّه بها دون غيره، وتقرير الحجّة انّ وجود النملة والنحلة اشتمل كلّ منهما على دقيق تفصيل الخلقة وغامض اختلاف شكل وهيئة، وكلّما استعمل على ذلك فله صانع مدبّر حكيم خصّصه بذلك فينتج أنّهما يشتركان في الحاجة إلى صانع مدبّر حكيم خصّ كلّ منهما بما يشتمل عليه، ثم أكّد ذلك بقوله:

[**وما الجليل واللّطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف**] أي: جميع المخلوقات وإن تباينت أوصافها وتضادّت صورها وأشكالها [**في خلقة الأسواء**] لا تفاوت فيها بالنظر إلى قدرته وكمالها بين أن يفيض عنه صورة النخلة أو صورة الذرّة، وليس بعضها بالنسبة إليه أقرب وأولى من بعض، ولا هو أقوى على بعضها من بعض، وإلا لكان ناقصاً في ذاته وكان بما هو أولى به مستفيداً كما لا يفوته بعدمه عنه، وهو تعالى منزّه عن ذلك، وإنّما التفاوت والاختلاف من جانب القابل، واللّطيف يطلق تارةً على صغير الخلقة ودقيق الصنعة وعلى الشفاف كالهواء، والمراد به هنا الأوّل لجعله مقابلاً للجليل.

وقوله: [**كذلك السماء والهواء والرياح والماء**] المشبّه بهو هو الأمور المتضادة السابقة، والمشبّه هو السماء والهواء والرياح والماء ووجه الشبه هو حاجتها في خلقتها وتركيبها وأحوالها المختلفة إلى صانع حكيم.

[**فانظر إلى الشمس والقمر**] في عظم أجرامهما والضدّ الصادر عنهما وحركاتهما وتنقّلهما في منازلهما وما تستلزمه تلك الحركات من التأثيرات والاعدادات لوجود المركّبات العنصرية من المعدن والنبات والحيوان، ثمّ

إلى النبات والشجر في الماء والحجر اختلاف هذا الليل والنهار في تفجّر هذه البحار

اعتبرت ما ينفصل به أحدهما عن الآخر من الجرم وزمان السير وكون القمر مستفيداً للنور من الشمس وغير ذلك مما لا يعلم تفصيله إلا اللّه سبحانه.

وكذا إذا نظرت [**إلى النبات والشجر**] وجواهرهما وأشكالهما واختلاف أجزائهما في الألوان والمقادير والثمار وما يستلزمه من المنفعة لوجود الحيوان والمضرّة لبعضها إلى غير ذلك.

وكذا إذا نظرت [**في الماء**] في كونه على غاية من الرقّة واللّطافة [**والحجر**] بعكس ذلك مع أنّ أكثر المياه إنما تنتفع من الأحجار، ثمّ نظرت إلى المنافع الموجودة فيهما والمضار العارضة عنهما.

وكذا النظر إلى [**اختلاف هذا الليل والنهار**] في هذا العالم بالطول والقصر ودخول كلّ منهما في الآخر وتعاقبهما وما يستلزمانه من المنفعة المختصّة بكلّ منهما مما امتنّ اللّه به على عباده حيث قال: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾.

وقال: ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون﴾ الآية.

وقال: ﴿قتل الإنسان ما أكفره...﴾ إلى قوله ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض﴾.

وقال: ﴿وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراّجاً وهّاجاً وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجاً لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّات ألفافاً﴾.

وكذا إذا نظرت [**في تفجّر هذه البحار**] وما تستلزمه من المنفعة، كما

في كثرة هذه الجبال وطول هذه الضلال وتفرّق هذه اللغات والألسن المختلفات فالويل لمن جحد المقدّر وأنكر المدبّر

قال تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾.

وكذا إذا نظرت **[في كثرة هذه الجبال وطول هذه الضلال]** وما اشتملت عليه من معادن الجواهر وغيرها.

[وتفرّق هذه اللغات والألسن المختلفات] وجدت ذلك أعظم شاهد وأقوى دليل على وجود الصانع الحكيم القدير العليم؛ لأنّ هذه الأجسام كلّها مشتركة في الجسمية، فاختصاص كلّ منها بما يتميّز به من الصفات المتعدّدة ليس للجسمية ولوازمها وإلا لوجب لكلّ منها ما وجب للآخر ضرورة اشتراكهما في علّة الاختصاص فلا مميّز هذا خلف، ولا لشيء من عوارض الجسميّة؛ لأنّ الكلام في اختصاص كلّ منها بذلك العارض كالكلام في الأوّل ويلزم التسلسل فبقي أن يكون لأمر خارج عنها وهو الفاعل الحكيم المخصّص لكلّ منها بحدّ من الحكمة والمصلحة.

ثمّ نبّه على وجود الصانع سبحانه أردف ذلك بالدعاء على من جحده فقال:

[فالويل لمن جحد المقدّر وأنكر المدبّر] قيل: الويل واد في جهنّم لو أُرسلت فيه الجبال لماعت من حرّه ورفعها بالابتداء والخبر لمن أنكر، والمدبّر هو العالم بعاقبة الأمر وما يشتمل عليه من المصلحة ويعود إلى القضاء، والمقدّر هو الموجد على وفق ذلك العلم وتأخير الدعاء على الجاحدين بعد إيضاح الحجّة عليهم هو الترتيب الطبيعي، وأشار بالجاحدين إلى صنف من العرب أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالدهر كما أخبر اللّه عنهم بقوله:

زعموا انّهم كالنبات ما لهم زارع ولا لاختلاف صورهم صانع ولم يلجئوا إلى حجّة فيما ادّعوا ولا تحقيق لما وعوا، وهل يكون بناء من غير بان أو جناية من غير جان وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين وأسرج لها حدقتين قمراوين

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر﴾ ثمّ أشار إلى شبهتهم بقوله:

[**زعموا انّهم كالنبات ما لهم زارع ولا لاختلاف صورهم صانع**] ولعلّ الوجه الجامع في التشبيه في النبات هو اختلاف الحياة والموت عليهم كما أشير إليه بقوله «نموت ونحيى» ونحوه من الأمور المشتركة.

[**ولم يلجئوا إلى حجّة**] قاطعة وبرهان مبين [**فيما ادّعوا ولا تحقيق لما وعوا، وهل يكون بناء من غير بان أو جناية من غير جان**] والمراد استحالة أن يكون الفعل من غير فاعل؛ لأنّ ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر من غير مرجّح محال بالبديهة وممتنع في فطرة الأطفال والبهائم إذ كان الحمار عند صوت الخشبة يعدو ويسرع خوفاً من الضرب لما تقرّر في فطرته انّ حصول صوت الخشبة بدونها محال.

ثمّ شرع عليه السلام في تنبيه آخر على وجود الصانع جلّت عظمته في بعض جزئيات مخلوقاته وصغيرها وهي الجرادة،

فقال: [**وإن شئت قلت في الجرادة**] كما قلتُ في النملة وغيرها قولاً مبيناً كاشفاً عن وجوه الحكمة فيها، بحيث يشهد ذلك بوجود الصانع الحكيم العليم.

[**إذ خلق لها عينين حمراوين وأسرج لها حدقتين قمراوين**] الحدقة:

وجعل لها السمع الخفي وفتح لها الفم السوي وجعل لها الحسّ القوي ونابين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض ترهبها الزرّاع في زرعهم

سواد العين، والقمر: بياضها وضيائها، يقال: حدقة قمراء وليلة قمراء أي: مضيئة، واستعار لفظ السراج للحدقتين باعتبار الحرة النارية والإضاءة.

[**وجعل لها السمع الخفي**] عن أعين الناظرين إذ هو ليس بمرئي وقيل: أراد بالخفي اللّطيف السامع لخفيّ الأصوات فوصفه بالخفاء مجازاً إطلاق لإسم المقبول على قابله.

[**وفتح لها الفم السوي**] أي: المستوي المعدل بحسب المنفعة الخاصّة بها.

[**وجعل لها الحسّ القوي**] قيل أراد بحسّها قوّتها الوهميّة وبقوله: حذاقتها فيما أُلهمت إيّاه من وجوه معاشها وتصرّفها، يقال: لفلان حسّ حاذق: إذا كان ذكيّاً فطناً درّاكاً.

[**ونابين بهما تقرض**] النباتات الصلبة [**ومنجلين بهما تقبض**] استعار المنجلين ليديها ووجه الشبه تعوّجهما وخشونتهما وقرن بذكر النابين والمنجلين ذكر غايتهما وهما القرض والقبض، ومن لطيف حكمته تعالى في الرجلين أن جعل نصفهما الذين يقع عليهما اعتمادها وجلوسها شوكاً كالمنشار ليكون لها معيناً على الفحص ووقاية لذنبها عند جلوسها وعمدة لها عند الطيران.

[**ترهبها الزرّاع في زرعهم**] إذا توجّهت بعساكرها من أبناء نوعها إلى بقعة وهجمت على زروعها وأشجارها.

ولا يستطيعون ذبّها ولو أجلبوا بجمعهم حتّى ترد الحرث في نزواتها وتقضي منها وشهواتها وخلقها، كلّه لا تكون اصبعاً مستدقّة فتبارك اللّه الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرها ويعفّر له خداً ووجهاً

[**ولا يستطيعون ذبّها**] ولا يقدرون على دفعها [**ولو أجلبوا بجمعهم**] واجتمع الملوك عليها بخيلهم ورجلهم ليحموا بلادهم منها لم يتمكّنوا من ذلك.

[**حتّى ترد الحرث**] والزرع [**في نزواتها**] أي: وثباتها [**وتقضي منها**] وطرها [**وشهواتها وخلقها، كلّه لا تكون اصبعاً مستدقّة**] وفي ذلك تنبيه على عظم الخالق سبحانه وتدبير حكمته، إذ كان يبعث أضعف خلقه على أقوى خلقه ويهيّئ للضعيف من أسباب الغلبة ما لا يستطاع دفعه معها حتّى بردّ ما يريد وروده ويقضي منه وطره فيحلّ باختيار منه وبرجل منه باختبار.

ثمّ لمّا بيّن بعض مبدعاته ومكوّناته نوّه بزيادة عظمته وبركته فقال: [**فتبارك اللّه الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرها**] كلّ منها بعبادة خاصّة ونوع من السجود لا يمكن من غيره مع اشتراك الكلّ في الخدول تحت ذلّ الحاجة إلى كمال قدرته وخضوع الإمكان بين يدي رحمته كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ وكذا قوله: [**ويعفّر له خداً ووجهاً**] فما كان ذا وجه وخد حقيقة فلفظ التعفير صادق عليه حقيقة وما لم يكن فلفظ السجود صادق عليه استعارة لخضوعه الخاصّ به ولفظ التعفير والخد والوجه ترشيحات أو المراد بالسجود معناه اللغوي وهو مطلق الخضوع، وكذا إطلاق اعطاء القياد ووصف الرهبة

ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ويعطي القياد رهبةً وخوفاً فالطير مسخّرة لأمره أحصى عدد الريش منها والنفس وأرسى قوائمها على الندى واليبس وقدّر أقواتها وأصى أجناسها فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام دعى كلّ طائر باسمه

والخوف في قوله:

[**ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ويعطي القياد رهبةً وخوفاً**] ونصبهما على المفعول له [**فالطير مسخّرة لأمره**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والطير مسخّرات في جوّ السماء ما يمسكهنّ إلا اللّه﴾ والمراد بتسخيرها دخولها تحت حكم تصرّفه العام فيها قدرة وعلماً والخاصّ تخصيصاً.

[**أحصى عدد الريش منها والنفس**] إذ هو تعالى قد ﴿أحاط بكلّ شيء علماً﴾ و﴿أحصى كلّ شيء عدداً﴾ ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾.

[**وأرسى**] أي: ثبّت [**قوائمها على الندى**] كما في طير الماء [**واليبس**] كما في طير البر.

[**وقدّر أقواتها**] وما يصلح لكلّ منها وما يكفيه باعتبار دخولها تحت قدرته وعلمه معاً إذ كان التقدير هو إنال تلك المقادير وإعدادها على وفق العلم الإلهي.

[**وأصى أجناسها**] أي: أنواعها باعتبار علمه الأزلي.

[**فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام**] تفصيل لأنواعها، إذ المراد بالجنس المعنى اللغوي وهو النوع في الاصطلاح.

[**دعى كلّ طائر باسمه**] استعار الدعاء في أمر كلّ نوع بالدخول في

وكفل له برزقه وأنشأ السحاب الثقال وأهطل ديمها وعدد قسمتها قبل الأرض بعد جفوفها

الوجود والأمر يعود إلى حكم القدرة الإلهية عليه بالدخول في الوجود، ووجه الاستعارة ما يشترك فيه معنى الدعاء والأمر من طلب دخول ماهيّة المطلوب بالدعاء والأمر في الوجود وهو كقوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهنّ سبع سموات﴾.

ولمّا استعار لفظ الدعاء رشح بذكر الاسم لأنّ الشيء إنّما يُدعى باسمه ويحتمل أن يريد بالاسم اللغوي وهو العلامة فإنّ لكلّ نوع من الطير خاصّة وسمة ليست للآخر، أي: أجرى عليها حكم القدرة بما لها من السمات والخواص في العلم الإلهي واللوح المحفوظ.

وقيل: اراد أسماء الأجناس حيث انّه كتب في اللوح المحفوظ كلّ لغة تواضع عليها العباد في المستقبل وذكر الأسماء التي يتواضعون عليها وذكر لكلّ اسم مسمّاه، فعند إرادة خلقها نادى كلّ نوع باسم فأجاب داعيه وأسرع في إجابته.

[وكفل له برزقه] يأتيه بحسب ما قُدّر له وقد ذكرنا ما في الطير وسائر الحيوانا من بديع الحكمة وغريب الصنعة في كتاب عجائب الأخبار ونوادر الآثار، ثمّ أشار إلى كمال قدرته باعتبار آخر فقال:

[وأنشأ السحاب الثقال] بالماء **[وأهطل ديمها]** أي: أرسل أمطارها **[وعدد قسمتها]** أي: يصيب كلّ بلد وأرض منها من القسم.

[قبل الأرض بعد جفوفها] أي: انّه كان يعد الأرض بتلك البلّة بعد الجفاف لان يخرج النبات بعد الجدب كما قال:

وأخرج نبتها بعد جدوبهاما وحّده من كيّفه ولا حقيقته أصاب من مثّله

[**وأخرج نبتها بعد جدوبها**] أي: محلها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾.

ومن خطبة له عليه السلام
في التوحيد

وتجمع هذه الخطبة من العلوم ما لا تجمعه خطبة.

قال عليه السلام: [**ما وحّده من كيّفه**] لأنّه إذا جعله مكيّفاً جعله ذا هيئة وشكل أو ذا لون وضوء إلى غيرها من أقسام الكيف، ومتى كان كذلك كان جسماً ولم يكن واحداً؛ لأنّ كلّ جسم قابل للانقسام والواحد حقّاً لا يقبل الانقسام.

ولما مرّ في الخطبة الأولى من قوله عليه السلام: «من وصف اللّه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه» المنتج من وصف اللّه فقد ثنّاه فمن وصفه بالكيفية فقد ثنّاه فلم يوحّده؛ لأنّ التوحيد والتثنية لا يجتمعان وهذه الكلمة تدلّ بالمطابقة على سلب التوحيد عمّن وصفه بكيفية وبالالتزام على عدم جواز تكيّفه لنا فاقد للتوحيد والكيفية في اللغة والصفة والحال التي عليها الشيء، وفي الاصطلاح هيئة قارة في المحل لا يوجب اعتبار وجودها فيه نسبة إلى أمر خارج عنه ولا قسمة في ذاته ولا نسبة واقعة في أجزائه.

[**ولا حقيقته أصاب من مثّله**] اي: من جعل له مثلاً؛ لأنّ كلّ إله مثل

ولا إيّاه عنى من شبّهه ولا صمده من أشار إليه وتوهّمه

فليس بواجب الوجود لذاته؛ لأنّ المثلية إمّا أن تتحقّق من كلّ وجه فلا تعدّد إذاً لأنّ المقتضي المغايرة بأمر ما، وذلك ينافي الاتحاد و ــــــ من كلّ وجه وأمّا ان تتحقّق من بعض الوجوه، وحينئذ ما به التماثل أمّا الحقيقة أو جزئها أو أمر خارج عنها فإن كان الأوّل كان ما به الامتياز عرضياً للحقيقة لازماً أو زائلاً وهو باطل؛ لأنّ المقتضي لذلك العرضي إمّا الماهيّة فيلزم أن يكون مشتركاً بين المثلين؛ لأنّ مقتضى الماهيّة الواحده لا يختلف، فما به الامتياز لأحد المثلين عن الآخر حاصل للآخر ــــــ أو غيرها فتكون ذات واجب الوجود مفتقرة في تحصيل ما يميّزها عن غيرها إلى غير خارجي، هذا محال، وأمّا إن كان ما به التماثل والاتحاد جزء من المثلين لزم كون كلّ منهما مركّباً فكلّ منهما ممكن ــــــ فبقي أن يكون التماثل بأمر خارج عن حقيقتهما مع اختلاف الحقيقتين ولكن ذلك باطل، أمّا أوّلاً فلامتناع وصف واجب الوجود بأمر خارج عن حقيقة لاستلزام إثبات الصفة له تثنيته وتركيبه على ما مرّ، وأمّا ثانياً فلأنّ ذلك الأمر الخارجي المشترك إن كان كمالاً لذات واجب الوجود فواجب الوجود لذاته مستفيد للكمال من غيره ــــــ وإن لم يكن كمالاً كان إثباته له نقصاناً؛ لأنّ الزيادة على الكمال نقصان، فثبت أنّ كلّ ما له مثل فليس بواجب الوجود لذاته فالطالب لمعرفته إذا أصاب ما له مثل فقد أصاب ما ليس بواجب الوجود لذاته فلم يصب صانع العالم وقال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وقوله: [**ولا إيّاه عنى من شبّهه**] الذي قبله [**ولا صمده**] أي: ما قصده وما نزّهه [**من أشار إليه وتوهّمه**] لأنّ من أشار إليه فقد اثبته في جهة وحكم

كلّ معروف بنفسه مصنوع وكلّ قائم ــــــ معلول فاعل لا باضطراب آلة مقدّر

عليه بما هو من خواصّ الأجسام، وكذا من توهّمه أي خيّل له في نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً فإنّه لم ينزّهه عمّا يجب تنزيهه عنه، وقد مرّ في الخطبة الأُولى امتناع الإشارة العقلية والوهميّة عليه فمن أشار إليه فقد أشار إلى غيره فلم يتحقّق قصده إيّاه.

[**كلّ معروف بنفسه مصنوع**] قيل: هو شروع في البرهان على ذلك، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه، وكلّما هو مصنوع فهو ليس بإله العالم، ينتج كلّ معروف بنفسه فهو ليس بإله العالم وينعكس بعكس النقيض إلى كلّ ما هو إله العالم وغير معروف بنفسه وبيان الصغرى أنّ الحقيقة إنّما تعلم بأجزائها وكلّ ذي جزء فهو مركّب وكلّ مركّب محتاج إلى مركّب يركّبه وصانع يصنعه فإذاً كلّ معلوم الحقيقة مصنوع.

[**وكلّ قائم ــــــ معلول**] تنزيه عن حاجته إلى المحلّ وهو صغرى ضمير كالذي قبله وإن شئت فهذه الجملة في قوّة شرطية متّصلة هي صغرى ضمير أيضاً تقديره لو كان قائماً في سواه لكان معلولاً ويستثنى نقيض لازمها لينتج أنّه ليس بقائم في سواه وبيان اللازمة أنّ القائم بغيره محتاجاً إلى الغير، فكان معلولاً لما يقيمه فيه كما علم في مظانّه.

[**فاعل لا باضطراب آلة**] كالمخلوق الذي يفعل بالآلات وهو تعالى قادر لذاته مستغن عن الآلة التي هي من عوارض الأجسام.

[**مقدّر**] أي: معطي لكلّ موجود المقدار الذي يستحقّه من الكمال من الوجود ولواحقه من الأجل والرزق ونحوهما على وفق القضاء الإلهي.

لا يحول فكرة غنيٌّ لا باستفادة لا تصحبه الأوقات ولا ترفده الأدوات

[**لا يحول فكرة**] كالمخلوق الذين يحيلون أفكارهم فيما يقدّمونه؛ لأنّ الفكر من لواحق النفوس البشرية بآلة بدنية وقد تنزّه قدسه تعالى عن ذلك.

[**غنيٌّ**] عن العالمين ليس محتاجاً إلى شيء بل الأشياء محتاجة له ومفتقرة إليه، وغناه [**لا باستفادة**] شيء من خارج أغناه كسائر الأغناء المستغنين بالمال ونحوه وإلا لزم كونه ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ذلك المستفاد موقوفاً على حصول سببه فكان ممكناً ــــــــ .

[**لا تصحبه الأوقات**] لأنّ الصحبة تستدعي المعيّة والمقارنة وهما من لواحق الزمان وهو من لواحق الحركة، وهي من لواحق الجسم المتأخّر عن وجود الفلك المتأخّر عن وجود الملك المتأخّر عن وجود الصانع، فكان وجود الوقت والزمان متأخّراً عن وجوده تعالى بمراتب كثيرة فلم يصدق صحّة الأوقات لوجوده ولا كونها ظرفاً له وإلا لكان مفتقراً إلى وجود الزمان، فكان يمتنع اسغنائه عنه لكنّه سابق عليه فوجب استغنائه عنه.

نعم، قد يحكم الوهم بصحبة الزمان للمجرّدات ومعيّته لها حيث نقيسها إلى الزمانيّات إذ كان لا يعقل المجرّدات إلا كذلك ولكن هذا الزمان موهوم أيضاً، ومن هنا قيل كانت الأشياء وكان اللّه معها وكان اللّه ولم يكن معه شيء.

[**ولا ترفده**] أي: تعينه [**الأدوات**] كما في المخلوق فإنّهم لولا الأدوات لم يصح منهم الفعل؛ لأنّ المفتقر إلى المعونة بأدوات وغيرها ممكن لذاته فلا يكون واجباً؛ ولأنّه تعالى خالق الأدوات فكان سابقاً عليها في تأثيره فكان

سبق الأوقات كونه العدم وجوده الابتداء أزله بتشعير المشاعر عرف أنّ لا مشعر له

غنياً عنها فيمتنع عليه الحاجة إلى الاستعانة بها.

[**سبق الأوقات كونه**] أي: وجوده وسبق [**العدم وجوده**] بخلاف سائر الموجودات الممكنة فإنّها محدثة وعدمها سابق على وجودها والممكنات قبل وجودها وجودها وعدمها بالنسبة إلى ذواتها على حدّ سواء.

وعلى كلّ تقدير وجودها مسبوق بعدم امّا بخلاف الواجب تعالى فالعدم عليه محال ووجوده سابق على العدم المعتبر لغيره من الممكنات.

وسبق [**الابتداء أزله**] الأزل عبارة عن عدم الأوّلية والابتداء، وذلك أمر يلحق واجب الوجود لما هو هو بحسب الاعتبار العقلي، وهو ينافي لحوق الابتداء والأوّلية لوجوده فاستحال أن يكون له ابتداء لاستحالة اجتماع النقيضين، بل سبق في الأزلية ابتداء ما كان له ابتداء وجود من الممكنات إذ هو مبدئها ومصدرها.

[**بتشعير المشاعر عرف أنّ لا مشعر له**] المشاعر: الحواس، لأنّها محلّ الشعور، أي: إنّه تعالى لمّا أوجد المشاعر وجعلها ذوات شعور وإدراك، امتنع أن يكون له مشاعر وإلا لكان وجودها له إمّا من غيره وهو محال؛ لأنّه مشعر المشاعر؛ ولأنّه يلزم أن يكون في كماله وإدراكه محتاجاً إلى غيره وهو محال، وإمّا منه وهو محال أيضاً؛ لأنّها إن كانت من كمالاته كان إثباتها له نقصاً لأنّ الزيادة على الكمال نقص فكان إيجادها له مستلزماً لنقصانه وهو ايضاً محال وفي الكافي بعد هذه الفقرة «وبتجهير الجواهر عرف أن لا جوهر له» أي: بإيجاده المهيّات الجوهريّة وجعلها جواهر في الأعيان عرف أنّه ليس

وبمضادّته بين الأمور عُرف أن لا ضدّ له وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له ضادّ النور بالظلمة

بجوهر ولا ماهيّة جوهرية إذ هي ماهية إذا وجدت في الخارج لم تفتقر في وجودها العيني إلى موضوع وجودها زائد عليها وليس وجود الواجب زائداً عليه، فلا يكون له ماهيّة جوهرية.

[**وبمضادّته بين الأمور عُرف أن لا ضدّ له**] أي: بجعله بعض الأشياء ضدّاً لبعض، كالحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، والسواد والبياض، والنور والظلمة، ونحوها عُرف أن لا ضدّ له؛ لأنّه الخالق للأضداد، فلو كان له ضدّ لكان خالقاً لنفسه ولضدّه وهو محال؛ ولأنّ الضدّين هما الأمران اللّذان يتعاقبان على محلّ واحد ويمتنع اجتماعهما فيه، فلو كان بينه وبين غيره تضادّ لكان محتاجاً إلى محلّ يحلّ فيه.

[**وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له**] لأنّه تعالى لمّا كان خالقاً للمقارنات ومبدء المقارنة بينهما لم يجز أن يكون له قرين وإلا لكان خالقاً لنفسه والقرينة وهو محال؛ ولأنّ المقارنة من باب الإضافة والمضاف من حيث هو مضاف كان وجوده متعلّقاً بوجود الغير، فلو كان للواجب قرين كان وجوده متعلّقاً بوجود قرينة، فلم يكن واجب الوجود ـــــ وقد قرن تعالى بين العرض والجوهر بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر وقرن بين العلل والمعلولات والأسباب والمسبّبات.

ثمّ شرع عليه السلام في تفصيل المتضادّات فقال: [**ضادّ النور بالظلمة**] وهما عرضان عند كثير من الناس وانّ الظلمة أمر وجودي خلافاً لمن قال إنّها أمر عدمي، وعلى تقديره فالظاهر أنّها عدم الملكة لا عدمٌ صرف، فجاز أن يطلق

والوضوح بالبهمة والجمود بالبلل والحرور بالصرد مؤلّف بين متعادياتها مقارب بين متبايناتها مقرّب بين متباعداتها مفرّق بين متدانياتها

عليها الضد.

[والوضوح بالبهمة] يعني البياض والسواد **[والجمود بالبلل]** يعني اليبوسة والرطوبة. **[والحرور]** بالفتح: الريح الحارّة، وهي باللّيل كالسموم بالنهار، وقال أبو عبيدة: الحرور بالليل وقد يكون بالنهار، والسموم بالنهار وقد يكون بالليل.

[بالصرد] بالفتح والسكون: البرد، فارسيّ معرّب وهما متضادّان باعتبار اشتمالها على الحرارة والبرودة.

[مؤلّف بين متعادياتها] أي: ألّف بقدرته الكاملة بين العناصر الأربعة في الأجسام المركّبة حتّى خلقع منها صورة مفردة هي المزاج، حيث جمع الحار والبارد، والرطب واليابس، فمزجه مزجاً مخصوصاً حتّى انتزع منه طبيعة مفردة ليست حارّة مطلقة ولا رطبة مطلقة ولا باردة مطلقة ولا يابسة مطلقة وهي المزاج، وحدّه الحماء بأنّه كيفية حاصلة من كيفيّات متضادّة وقد ألّف أيضاً سبحانه بين الأرواح اللّطيفة التي لا تحتاج في ذاتها إلى مادّة أصلاً وبين الأبدان الكثيفة بإيجاد الربط والملائمة بينهما وجمع بين القلوب المتعادية كما قال: ﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ اللّه ألّف بينهم﴾ وقال تعالى: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[مقارب بين متبايناتها] هو كسابقه، **[مقرّب بين متباعداتها مفرّق بين متدانياتها]** كما فرق بين كلّ واحد من العناصر وبين جزئه المأخوذ منه لغرض

لا يشمل بحدّ ولا يحسب بعدٍّ وإنّما تحدّ الأدوات نفسها

التركيب مع التناسب بين الجزء والكلّ في الطبيعة والكيفيّة وكما فرّق بين الأرواح والأبدان وبين أجزاء الأبدان بعد تدانيها وتقاربها بالموت والإفناء وبين قلوب متدانية لأمر مشترك بينها كما قال: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾ وبين أجناس متدانية بالأجناس والأنواع والأشخاص والحدود والأقدار والغرائز والصفات والخواص والآثار إلى غير ذلك.

[**لا يشمل بحدّ**] أمّا الحدّ الإصطلاحي فمعلوم أنّه تعالى لا حدّ له، إذ لا أجزاء له، فلا تشمل ولا تحاط حقيقته بحدّ. وأمّا اللغوي بمعنى النهاية المحيطة بالجسم فهو من لواحق الكمّ، وهو من الأعراض والوجب منزّه عن العرضية؛ ولأنّه تعالى محيط فلا يكون محاطاً، قال تعالى: ﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ وقال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾.

[**ولا يحسب بعدٍّ**] أي: لا يحلقه الحساب والعدّ، فيدخل في جملة المحسوبات المعدودة؛ لانّ العدّ من لواحق الكمّ المنفصل الذي هو العدد والكم عرض والواجب منزّه عنه.

[**وإنّما تحدّ الأدوات نفسها**] أشار بالأدوات إلى الآلات البدنية والقوى الجسمانية، وظاهر أنّها لا تتعلّق إدراكها إلا بما كان جسماً أو جسمانيّاً، فمعنى قوله «إنّما تحدّ الأدوات أنفسها» أي: إنّما تدرك الأجسام والجسمانيات ما هو مثلها من الأجسام والجسمانيات، ومثل الشيء هو هو في النوع والجنس ويحتمل أن يدخل في ذلك العقل والفكر لامتناع انفكاكه عن الوهم والخيال حين توجّهه إلى المعقولات لما علم من حاجته إليهما في التصوير والتسبيح فكان لا يتعلّق إلا بمماثل ممكن ولا يحيط إلا بما هو في

وتشير الآلات إلى نظايرها منعتها منذ القدمية وحمتها قد الأزلية وجنبتها لولا التكملة

صورة جسم أو جسماني.

وكذا قوله: **[وتشير الآلات إلى نظايرها]** لأنّ الآلات وهي الحواس إنّما تشير إلى ما كان نظير لها في الجسمية ولوازمها والواجب تعالى ليس بذي مقدار ولا هو جسم ولا حال في جسم فاستحال أن تحدّه الأدوات أو تشير إليه الآلات.

[منعتها منذ القدمية وحمتها قد الأزلية وجنبتها لولا التكملة] قال المحقّق البحراني: الظمائر المتصلة بالأفعال الثلاثة تعود إلى الآلات والأدوات، وهي مفعولات أُولى، والقدمة الأزلية والتكملة مفعولات ثانية.

ومنذ وقد ولولا محلّها الرفع بألف علية ومعنى الكلمة الأُولى أنّ إطلاق لفظ منذ على الآلات والأدوات في مثل قولنا: هذه الآلات وجدت منذ كذا يمنع كونها قديمة إذ كان وصفها لابتداء الزمان فكانت لإطلاقها عليها متعيّنة الابتداء ولا شيء من القديم بمتعيّن الابتداء، فينتج أنّه لا شيء من هذه الأدوات والآلات بقديم.

وكذا إطلاق لفظ «قد» عليها يحميها ويمنعها من كونها أزلية، إذ كانت «قد» تفيد تقريب الماضي من الحال فإطلاقها عليها كما في قولك: قد وجدت هذه الآلة وقت كذا بحكم تقرّبها من الحال وعدم أزليّتها فلا شيء من الأزلي بقريب من الحال فلا شيء من هذه الآلات بأزلي.

وكذا إطلاق لفظة لولا على هذه الآلات تجنبها التكملة إذ كان وضع لولا دالاً على امتناع الشيء لوجود غيره فإطلاقها عليها في مثل قولك عند

بها تجلّى صانعها للعقول

نظرك إلى بعض الآلات المستحسنة والخلقة العجيبة والأذهان المتوقّدة: ما أحسنها وأكملها لولا أنّ فيها كذا، فيدلّ بها على كمال امتناع كمالها لوجود نقصان فيها فهي مانعة من الكمال المطلق.

وإنّما أشار إلى حدوثها ونقصانها ليؤكّد كونها متعلّقة بتحديده سبحانه فإنّها في أبعد بعيد عن تقديره والإشارة إليه إذ كان القديم الكامل في ذاته التامّ في صفاته بعد الأشياء عن مناسبة المحدث الناقص في ذاته فكيف يمكن أن يدركه أو يليق أن يطمع في ذلك؟

وقال ابن أبي الحديد: المراد بالأدوات والآلات أهلها، وقد روي برفع القدمة والأزلية والتكملة على الفاعلية والضمائر المتصلة بالأفعال أولى ومنذ وقد ولولا مفعولات ثانية، ويكون المعنى أنّ قدمه تعالى وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق منذ وقد ولولا عليه سبحانه، لدلالتها على الحدوث والابتداء المنافيين لقدمه وأزليته وكماله.

وقوله: [**بها تجلّى صانعها للعقول**] أي: بوجود هذه الآلات ظهر وجوده تعالى للعقول إذ كان وجودها مستلزماً لوجود صانع ما بالضرورة وإحكامها وإتقانها شاهد بعلمه وحكمته شهادة تضطرّ إلى الحكم بها العقول وكذا تخصيصها بما تخصّصت به من الكمالات شاهد بإرادته وكمال عنايته فيكون ما شهد به وجودها من وجود صانعها أجلى وأوضح من أن يقع فيه شكّ أو تلحقه شبهة ويتفاوت ذلك الظهور والتجلّي بحسب تفاوت صقال النفوس وجلائها فمنها من يراه بعد، ومنها من يراه حينئذ، ومنها من يراه قبل، ومنها من يراه لا شيء معه.

وبها امتنع عن ظر العيونلا يجري عليه السكون والحركة وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه ويحدث فيه ما هو أحدثه إذاً لتفاوتت ذاته

وقوله: [**وبها امتنع عن ظر العيون**] أي: بإيجادها أو خلقها بحيث تدرك بحاسّة البصر علم أنّه تعالى يمتنع أن يكون مرئياً مثلها؛ لانّ تلك الآلات إنّما كانت تتعلّق بحسّ البصر باعتبار أنّها ذات وضع وجهة ولون وغيره من شرائط الرؤية، ولمّا كانت هذه الأمور ممتنعة في حقّه تعالى لا جرم امتنع أن يكون محلاً لنظر العيون.

[**لا يجري عليه السكون والحركة**] ثمّ نبه على دليله بقوله: [**وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه ويحدث فيه ما هو أحدثه**] وهو استفهام إنكاري لجريان ما أجره عليه وعود ما أبداه وحدوث ما أحدثه فيه، وبيان بطلان ذلك أنّ الحركة والسكون من آثاره سبحانه في الأجسام وكلّها كان من آثاره يستحيل أن يجري عليه ويكون من صفاته، أمّا المقدّمة الأولى فاظهر وأمّا الثانية فلأنّ المؤثّر واجب التقدّم بالوجود على الأثر، فذلك الأثر إمّا أن يكون معتبراً في صفات الكمال فيلزم أن يكون تعالى باعتبار ما هو موجد له ومؤثّر فيه ناقصاً بذاته مستكملاً بذلك الأثر والنقص عليه تعالى محالٌ وإن لم يكن معتبراً في صفات كماله فله الكمال المطلق بدون ذلك الأثر فكان إثباته صفة له نقصاً في حقّه لانّ اليادة على الكمال المطلق نقصان وهو عليه تعالى محال الثاني أنّه لو كان كذلك للزم التغيّر في ذاته تعالى ولحوقاً الإمكان له كما أشار إليه بقوله:

[**إذاً لتفاوتت ذاته**] أي: تغيّرت بطريان الحركة عليها والسكون أخرى؛

ولتجزّي كنهه ولامتنع من الأزل معناه ولكان له وراء إذ وجد له أمام ولألتمس التمام إذ لزمه النقصان

لأنّ الحركة والسكون من الحوادث المتغيّرة والتغيّر مستلزم للإمكان وهو ينافي الوجوب الذاتي ــــــ .

[ولتجزّي كنهه] أي: لو كان كذلك للزم حقيقته التجزئة والتركيب، لكنّ الثاني باطل فالمقدّم مثله، بيان الملازمة أنّ الحركة والسكون من عوارض الجسم الخاصّة به فلو اتّصف تعالى بهما لكان جسماً وكلّ جسم فهو مركّب قابل للتجزيّة. وأمّا بطلان التالي فلأنّ كلّ مركّب يفتقر إلى أجزائه والمفتقر ممكن فيلزم كون الواجب ممكناً ــــــ .

وأشار إلى الرابع بقوله: **[ولامتنع من الأزل معناه]** أي: لو كان كذلك للزم أن يبطل من الأزل معناه؛ لأنّ الحركة والسكون من خواصّ الأجسام الحادثة فلو كان تعالى موصوفاً بهما لبطل من الأزل معناه ولم يكن أزليّاً.

وأشار إلى الخامس بقوله: **[ولكان له وراء إذ وجد له أمام]** لأنّه لو جرت عليه الحركة لكان له أمام يتحرّك إليه وحينئذ يلزم أن يكون له وراء إذ هما إضافيات لا ينفكّ أحدهما عن الآخر وذلك محال؛ لأنّ كلّ ذي وجهين منقسم وكلّ منقسم ممكن والمفروض أنّه واجب ــــــ .

واشار إلى السادس بقولهك **[ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان]** لأنّ جريان الحركة عليه مستلزم لتوجّهه إلى غاية امّا جلب منفعة أو دفع مضرّة؛ إذ من لوازم حركات العقلاء ذلك، وعلى التقديرين فهما كمال مطلوب له لنقصان لازم لذاته، لكنّ النقصان بالذات والاستكمال بالغير مستلزم للإمكان فالواجب ممكن ــــــ .

وإذاً لقامت آية المصنوع فيه ولتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره

وأشار إلى السابع بقولهك [**وإذاً**] أي: لو كان متحرّكاً.

[**لقامت آية المصنوع فيه**] إذ حينئذ يكون قادراً على الحركة والسكون فقدرته عليهما ليست من خلقه وإلا لافتقر إيجاده لهما إلى قدرة أُخرى سابقة عليهما ولزم التسلسل وكان قادراً قبل أن كان قادراً وهما محالان فهي إذاً من غيره فهو إذا مفتقر في كمال إلى غيره فهو مصنوع وفيه آيات الصنع وعلامات التأثير فليس هو بواجب الوجود ـــــــ.

وأشار إلى الثامن بقوله:

[**ولتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه**] وذلك لأنّه يكون مصنوعاً حينئذ كما مرّ، وكلّ مصنوع يستدلّ به على وجود صانعه؛ ولأنّه يكون جسماً فيكون مصنوعاً فكان الدليل على الصانع لكنّه هو الصانع الأوّل للكلّ وهو المدلول عليه فاستحال أن يكون دليلاً من جهة آثار الصنع فيه فاستحال أن يكون قابلاً للحركة والسكون فاستحال أن يجبرنا عليه.

وقوله: [**وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره**] عطف على قوله امتنع أي: بها امتنع عن نظر العيون وخرج بسلطان ذلك الامتناع أي: امتناع أن يكون مثلها في كونها مرئية للعيون ومحلاً للنظر إليها عن أن يؤثّر فيما يؤثّر في غيره من المرئيّات وهي الأجسام والجسمانيات وظاهر أنّه تعالى لما امتنع عن نظر العيون لم يكن جسماً ولا قائماً به فخرج بسلطان ذلك الامتناع عن أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره من الاجسام والجسمانيات وقيل هو عطف على قوله تجلّى أي: بها تجلّى للعقول وخرج

لا يحول ولا يزول ولا يجوز عليه الأفول فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً

بسلطان امتناع كونه مثلاً أي: بكونه واجب الوجود ممتنع العدم عن أن يكون ممكناً فيقبل أثره كما تقبله الممكنات.

وقوله: [**لا يحول ولا يزول**] أي: لا ينتقل ولا يتغيّر من حال إلى حال لاستلزام التغيّر الإمكان الممتنع عليه.

[**ولا يجوز عليه الأفول**] أي: الغيبة بعد الظهور لما يستلزمه من المتغيّر أيضاً.

[**فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً**] أي: لو صحّ كونه والداً لصحّ كونه مولوداً أي: لو أمكن أن يتصوّر من بعض أجزائه حيٌّ آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما يعقل في النطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أُخرى حتّى يكون منها بشر آخر من نوع الأوّل لصحّ عليه أن يكون هو مولوداً من والد آخر قبله؛ لأنّ الأجسام متماثلة في الجسمية وكلّما يصحّ على أحد المثلين يصحّ على الآخر لا يصحّ كونه مولود التأخّر المولود عن والده بالزمان وكلّ متأخّر محدث والواجب قديم ــــ فلا يكون والداً وبتقرير آخر انّه لو كان ذا ولد لكان مشاركاً في النوع لغيره ثبت أنّه متولّد من مادّة وصورة ومركّب عنهما وعن جزئين بأحدهما يشارك أبناء نوعه وينفصل بالآخر، فهو إذن منته إلى حدوده وهي أجزائه التي يقف عندها وينتهي في التحليل إليها، فلو كان مولوداً لكان محدوداً؛ ولأنّه لو كان مولوداً لكان محاطاً ومحدوداً بالمحلّ المتولّد منه، لكنّ كلّ محدود على الاعتبارين مركّب وكلّ مركّب ممكن ــــ فإذاً هو ليس بمحدود فليس هو

جلّ عن اتّخاد الأبناء وطهر عن ملامسة النساء لا تناله الأوهام فتقدّره ولا تتوهّمه الفطن فتصوّره ولا تدركه الحواس فتحسّه

بمولود فليس هو بذي ولد.

[جلّ] أيك علا وتقدّس. [عن اتّخاد الأبناء] تأكيدٌ لما سبق ولما يستلزمه من لحوق مرتبته بمراتب الأجسام التي هي في معرض الزوال وقبول التغيّر والاضمحلال.

[وطهر عن ملامسة النساء] لما تستلزمه الملامسة من الجسمية والتركيب المنزّه قدسه عنها وطهارته تعود إلى تقدّسه عن المواد وعلايقها من الملامسة والمماسّة وغيرهما.

[لا تناله الأوهام فتقدّره] أي: لو نالته الأوهام لقدّرته، فالمقدّم كذلك بيان الملازمة انّ الوهم إنّما يدرك المعاني المتعلّقة بالمادّة ولا يترفّع إدراكه عن المعاني المتعلّقة بالمحسوسات من استعمال المتخيّلة في تقديره بمقدار مخصوص وكمّية معيّنة ويحكم بأنّها مبلغه ونهايته فلو أدركته الأوهام لقدّرته بمقدار معيّن وفي محلّ معيّن والمقدّر محدود ومركّب محتاج إلى المادّة والتعلّق بالغير وقد مرّ امتناعه.

[ولا تتوهّمه الفطن] أي: فطن العقول وسرعة حركتها في المطالب [فتصوّره] بصورة في المتخيّلة أي: لو أدركته لكان ذلك بمشاركة الوهم فكان يلزم أن تصوّره بصورة خيالية لكنّه تعالى منزّه عن الصورة فكان منزّهاً عن إدراكها.

[ولا تدركه الحواس فتحسّه] أي: لو أدركته الحواس لصدق عليها أنّها تحسّه ولزم كونه محسوساً، والمراد أنّها لو أدركته لصدق أنّها أحسّته ولزم من

ولا تلمسه الأيدي فتمسّه ولا يتغيّر بحال ولا يتبدّل في الأحوال ولا تبليه الليالي والأيام ولا يغيّره الضياء والظلام ولا يوصف بشيء من الأجزاء ولا بالجوارح والأعضاء ولا بعرض من الأعراض

صدقه عليها أن يصدق عليه كونه محسوساً وكلّ محسوس إمّا جسم أو جسماني وهو تعالى منزّه عن ذلك.

[**ولا تلمسه الأيدي فتمسّه**] أي: لو صدق انّها تلمسه لصدق أنّها تمسّه وكلاهما ممتنعان لاستلزامهما الجسمية الممتنعة عليه تعالى.

[**ولا يتغيّر بحال**] أي: بوجه من الوجوه [**ولا يتبدّل في الأحوال**] أي: لا ينتقل من حال إلى حال كما مرّ لما مرّ.

[**ولا تبليه الليالي والأيام**] لأنّه ليس بزماني يدخل تحت تصريف الزمان حتى تبليه؛ ولأنّ لحقو الإبلاء له تغير في ذاته وقد مرّ امتناعه؛ ولأنّ البالي من الأمور المادّية وكلّ ذي مادّة فهو مركّب.

[**ولا يغيّره الضياء والظلام**] لامتناع التغيّر عليه كما مرّ.

[**ولا يوصف بشيء من الأجزاء**] لأنّ كلّ ذي جزء مفتقر إلى جزئه الذي هو غيره فكان مفتقراً إلى غيره فكان ممكناً في ذاته ــــــــ.

[**ولا بالجوارح والأعضاء**] لما يلزم من الجسمية والتركيب والتجزية.

[**ولا بعرض من الأعراض**] إذ كلّ الموجودات سوى تنقسم عشرة أقسام واحد منها جوهر والتسعة الباقية أعراض، إذ كلّ ما عداه فوجوده زائد على ماهيته بالبرهان القاطع، فماهيّته إمّا أن تكون بحيث إذا وجدت كان وجودها لا في موضوع وهو الجوهر أو في موضوع وهو العرض وينقسم إلى الكمّ والكيف والمضاف وأين ومتى والوضع والملك وأن يفعل وأن ينفعل

ولا بالغيرية والأبعاض ولا يقال له حدّ ولا نهاية ولا انقطاع ولا غاية ولا أنّ الأشياء تحويه فتقلّه أو يهو به وإنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج يخبر خلقه بلا لسان ولهوات

وتسمّى هذه التسع مع الجوهر ــــ العشر.

وقوله: [**ولا بالغيرية والأبعاض**] أي: ليس له أبعاض يغاى بعضها بعضاً؛ لانّ ذلك مستلزم للتجزية والتركيب الممتنعين عليه تعالى وامتناع اللازم يستلزم امتناع الملزوم.

[**ولا يقال له حدّ ولا نهاية**] لأنّ الحدود والنهايات من عوارض الاجسام ذوات الأعضاء ولواحقها وكذا قوله: [**ولا انقطاع ولا غاية**] أي: لا انقطاع لموجوده ولا غاية له؛ لأنّ الانقطاع عند الغايات من لواحق الأُمور الزمانية المحدثة المكانية الفاسدة وقد مرّ امتناع كونه تعالى مادّياً أو زمانياً ولأنّه تعالى واجب الوجود فيستحيل أن يلحقه العدم أو يتناهى وجوده وينقطع عند غاية.

[**ولا أنّ الأشياء تحويه**] أي: ليس بذي مكان يحويه.

[**فتقلّه أو يهو به**] أي: فيرتفع بارتفاعه وينخفض بانخفاضه؛ لأنّ ذلك من لواحق الجسمية.

وكذا قوله: [**وإنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله**] على نحو ما قبله [**ليس في الأشيـاء بوالج ولا عنها بخارج**] لانّ الدخول والخروج من لواحق الأجسام المنزّه عنهما قدسه تعالى.

[**يخبر خلقه**] بما فيه صلاح معادهم في ومعاشهم. [**بلا لسان ولهوات**]

ويسمع لا بحروف وأدوات يقول لا يلفظ يحفظ ولا يتحفظ ويريد ولا يضمر يحبّ ويرضى من غير رقّة

لأنّهما من لواحق الأجسام الحيوانية المنزّه عنهما قدس تعالى، وخصّ الخبر لأنّه النوع الأكثري من الكلام.

[**ويسمع**] أخفى الأشياء [**لا بحروف وأدوات**] أي: ليس سمعه بأداة هي الأذنان والصماخان كما في الإنسان لتنزّهه تعالى من الآلات الجسمانية بل معنى كونه سميعاً علمه بالمسموعات إطلاقاً لإسم السبب على المسبب إذ كان السمع من أسباب العلم.

[**يقول**] كما قال اللّه: ﴿يا عيسى﴾ وقال اللّه إنّي معكم.

[**لا يلفظ**] أي: لايخرج الحروف من آلة النطق كاللّسان والشفه لما مرّ، وإنّما معنى كلامه وقوله وإخباره إيجاده الكلام في جسم من الأجسام كما أوجده في الشجرة وفي الألواح السماوية، وقد وردت الرخصة في إطلاق القول والتكلّم والإخبار عليه تعالى دون التلفّظ وكذا قوله:

[**يحفظ**] الأشياء أي: يعلمها أو يحفظ أعمال العباد وأقوالهم ويحفظ عباده ويحرسهم.

[**ولا يتحفظ**] منهم، أي: لا يحتاج إلى حراسة نفسه [**ويريد ولا يضمر**] كما يتصوّر في العادة من أنّ الإرادة ميل القلب نحو ما يتورّ كونه نافعاً ولذيذاً وذلك الميل من المضمرات في القلب بل إرادته تعالى إيجاده وإحداثه أو علمه بأصلحيّة هذا الفعل في الوقت الفلاني.

[**يحبّ ويرضى من غير رقّة**] بل محبّته للعبد إرادته لثوابه وتكميله وما هو خيرٌ له ومحبّة العبد له إرادة طاعته والرضا قريب من المحبّة أو أعمّ منها؛

ويبغض ويغضب بغير مشقّة يقول لما أراد كونه كن فيكون لا بصوت يقرع

لأنّ كلّ محب راض عمّن أحبّه ولا ينعكس، فرضاه تعالى عن العبد يعود إلى علمه بموافقة لأمره وطاعة له ولمّا كانت المحبّة والرضا من الإنسان لغيره يستلزم الرقّة القلبية له والانفعال النفساني عن تصوّر المعنى الذي لأجله حصلت المحبّة والميل إليه والداعي إلى الرضا عنه وكان تعالى منزّهاً عن الرقّة والانفعالات لتنزّهه عن أوائلها، فلذا قيّده بقوله من غير رقّة.

وكذا قوله: [**ويبغض ويغضب بغير مشقّة**] والبغض منه تعالى للعبد يضادّ محبّته له، ويعود إلى كراهيته لثوابه وكراهيته يعود إلى علمه بعدم استحقاقه للثواب وأنّه لا مصلحة في ثوابه ويلزمها إرادة إهانته وتعذيبه، والبغض من العبد هو كراهيته للغير وميل نفسه عنه لتصوّر كونه مضراً ومؤلماً ويلزم ذلك النفرة الطبيعيّة وثوران القوّة الغضبيّة عليه وإرادة إهانته، وأمّا الغضب فيعود من اللّه إلى علمه بمخالفة أوامره وعدم طاعته له والمفهوم منه في حقّ العبد ثوران النفس وحركة قوّتها الغضبية عليه وإرادة إهانته، وأمّا الغضب من اللّه فيعود إلى علمه بمخالفة أوامره وعدم طاعته له ولمّا كان البغض والغضب يتسلزمان ثوران دم القلب وكان أذى النفس يستلزم مشقّة وكلفة لا جرم احترز عنها في اطلاق لفظ البغض والغضب عليه فقال «من غير مشقّة».

[**يقول لما أراد كونه كن فيكون**] بلا تراخ وتأخير وإرادته لكونه علمه بما في وجوده من الحكمة [**لا بصوت يقرع**] أي: ليس بذي حاسّة للسمع فيقرعها الصوت حيث انّ الصوت كيفية تحدث في الهواء عن قلع أو قرع

ولا نداء يسمع وإنّما كلامه سبحانه فعل من إنشائه ومثّله لم يكن من قبل ذلك كايناً ولو كان قديماً لكان

وقرعه لما يصل إليه من الصماخ أو جسم آخر هو وقعه عليه بشدّة وعنف وتلك حالة تعرض للأجسام، فلو كانت له تعالى آلة سمع لكان جسماً والتالي باطل إذ المقدّم مثله.

[**ولا نداء يسمع**] لمّا بيّن قبلها أن لاسمع له يقرع بصوت بيّن في الثانية انّه لا يخرج منه الصوت لأنّ النداء صوت مخصوص والصوت مستلزم احتوت هو جسمها لما مرّ من استلزام الصوت القرع أو القلع المستلزمين للجسمية.

[**وإنّما كلامه سبحانه فعل من إنشائه**] أي: أوجده في الشجرة أو في بعض مخلوقاته [**ومثّله**] أي: صوّره في لسان النبيﷺ وسوّى مثاله في ذهنه وهو صريح الردّ على الأشاعرة القائلين بقدم الكلام وفي صحّة مذهب الإمامية والمعتزلة القائلين بأنّه من صفات الأفعال الحادثة، ولذا قال: [**لم يكن من قبل ذلك كايناً**] أي: موجوداً بل هو محدث مسبوق الوجود بالعدم [**ولو كان**] كلامه تعالى [**قديماً لكان ــــــ**] والثاني باطل فالمقدّم مثله بيان الملازمة انّه لو كان قديماً لكان إمّا واجب الوجود أو ممكناً، والثاني باطل؛ لأنّه لو كان ممكناً مع وجوده في الأزل لكان وجوده مفتقراً إلى مؤثّر، وذلك المؤثّر إن كان غير ذاته فهو محال لما يلزم من افتقاره في تحصيل صفته إلى غيره وللزوم أن يكون في الأزل مع اللّه غيره، فيكون مستنداً إليه في حصول تلك الصفة فيكون إلهاً ثانياً بل هو أولى بالإلوهية وإن كان المؤثّر في كلامه ذاته فهو محال لأنّ المؤثّر واجب التقدّم بالوجود على الأثر، فالكلام إمّا أن

ـــــ لا يقال كان بعد أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات ولا له عليها فضل فيستوي الصانع والمصنع ويتكافأ المبتدع والبديع

يكون من صفات كماله أو لا يكون، فإن كان الأوّل فتأثيره فيه إن كان وكلّ كمال له حاصلاً له بالفعل فقد كان وصف الكمال حاصلاً له قبل ان كان حاصلاً ـــــ وإن كان تأثيره في حال ما هو خال عن صفة الكلام فقد كان خالياً عن صفة كماله فكان ناقصاً بذاته هذا محال وأمّا إن لم يكن الكلام من صفات كماله كان إثباته له في الأزل إثباتاً لصفة زائدة على كماله والزيادة على الكمال نقصان، فتبيّن أنّه لو كان قديماً لكان واجب الوجود لذاته فكان إلهاً ثانياً، وأمّا بطلان التالي فلما مرّ من كونه تعالى واحداص فبان عدم جواز كون كلامه قديماً.

وقوله: [ـــــ **لا يقال كان بعد أن لم يكن**] إشارة إلى أنّه محدث، [**فتجري عليه الصفات المحدثات**] الفاء في جواب النفي لتقدير الشرط، أي: لو صدق عليه أنّه محدث للحقته الصفات المحدثات وجرت على تقدير كونه محدثاً لكانت ذاته مساوية لها في الحدوث المستلزم للإمكان المستلزم للحاجة إلى الصانع فلم يكن بينها وبينها فضل في ذلك.

[**ولا له عليها فضل**] لاشتراكه معها في الحاجة. [**فيستوي الصانع والمصنع ويتكافأ المبتدع**] بفتح الدال أي: المبتدع الموجد، [**والبديع**] أي: المبدع الموجد بالكسر، وهو ظاهر الفساد وأصل البديع من الفعل ما لا فاعله إلى مثله وسمّي الفعل الحسن بديعاً لمشابهة مالم يسبق إليه في كونه محلّ التعجب، وحيث لا تجوز عليه الصفات المحدثات ثبت أنّه ليس بمحدث إذ لو كان محدثاً لجرت عليه صفات الأمور المحدثة.

خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه وأنشأ الأرض فأمسكها فقامت من غير اشتغال وأرسلها على غير قرار وأقامها بغير قوائم ورفعها بغير دعائم وحصّنها من الأود والاعوجاج ومنعها من التهافت والانفراج أرسى أوتادها وضرب أسدادها

[**خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره**] بخلاف الصانعين من البشر، فإنّ صنايعهم تحذو حذو أمثلة سبقت من غيرهم أو حصلت في أذهانهم.

[**ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه**] وإلا لكان ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ما كان هو مفتقراً إليه وهو محال.

[**وأنشأ الأرض فأمسكها**] أي: أوجدها [**فقامت**] بمساك قدرته [**من غير اشتغال**] بحفظها عن غيرها ومن غير كلفة ومشقّة بحفظها كما في أفعال المخلوقين.

[**وأرسلها**] أي: أثبتها في حيزها [**على غير قرار**] اعتمدت عليه فأمسكها [**وأقامها بغير قوائم**] تقوم عليها [**ورفعها بغير دعائم**] بل بحسب قدرته الباهرة وقوّته القاهرة [**وحصّنها**] أي: حفظها [**من الأود والاعوجاج**] أي: من الميل إلى أحد جوانب العالم عن المركز الحقيقي.

[**ومنعها من التهافت والانفراج**] أي: جعلها كرة واحدة ثابتة في حيزها ومنعها أن تسقط وتتساقط قطعاً أو ينفرج بعضها عن بعض.

[**أرسى أوتادها**] أي: أثبتها فيها وأوتادها: جبالها.

[**وضرب أسدادها**] أُريد بأسدادها ما أحاط بها من الجبال والتي تحجز

واستفاض عيونها وخدّ أوديتها فلم يهن ما بناه ولم يضعف ما قوّاه هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته وهو الباطن لها لعلمه ومعرفته والعالي على كلّ شيء منها بجلاله وعزّته

بين بلادها وبقاعها.

[**واستفاض عيونها**] أي: أفاضها، كما قال تعالى: ﴿وفجّرنا الأرض عيوناً﴾.

[**وخدّ أوديتها**] أي: شقّها بين جبالها وتلالها.

[**فلم يهن ما بناه ولم يضعف ما قوّاه**] إشارة بعد تعديد ما عدّد من الآثار إلى عظم هذه المخلوقات واستحكامها لتبيّن بذلك قدرة الله وحكمته تعالى.

[**هو الظاهر عليها**] أي: الغالب القاهر لها [**بسلطانه وعظمته**] أي: بملكه واستيلاء قدرته وعظم سلطانه [**وهو الباطن لها**] أي: الداخل في بواطها.

[**لعلمه ومعرفته**] وفائدة القيدين لتنزيهه عن سوء الافهام وأحكام الأوهام من تخيّل الظهور الحسّي أو البطون الحسّي.

وكذا قوله: [**والعالي على كلّ شيء منها**] أي: من الأرض وسائر مخلوقاته التي فيها [**بجلاله وعزّته**] وجلاله وعزّه بالنسبة إليها هو اعتبار كونه منزّهاً عن كلّ ما لها من الصفات المحدثة والكمالات المستفادة من الغير المستلزمة للنقصان الذاتي ولما كانت هذه الاعتبارات التي تنزّه عنها في حضيض النقصان كان هو باعتبار تنزّهه عنها في أوج الكمال الأعلى فكان غالباً عليها بذلك الاعتبار؛ ولأنّه تعالى خالقها وموجدها فعلوّها عليه

ولا يعجزه منها شيء طلبه ولا يمتنع عليه شيء فيغلبه ولا يفوته السريع منها فيسبقه ولا يحتاج إلى ذي مال في رزقه خضعت الأشياء له وذلّت مستكينة لعظمته لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضرّه لا كفؤ له فيكافيه لا نظير له فيساويه هو المفني لها بعد وجودها حتّى يصير موجودها كمفقودها

بجلال سلطانه وعزّته عن خضوع الحاجة وذلّتها.

[**ولا يعجزه منها شيء طلبه**] لكونه واجب الوجود تامّ العلم والقدرة لا نقصان فيه باعتبار كون كلّ ما عداه في وجوده وجميع أحوال وجوده إليه فلاجرم لم يتصوّر أنّ يعجزه شيء طلبه.

[**ولا يمتنع عليه شيء فيغلبه ولا يفوته السريع منها**] بحركته [**فيسبقه**] لما يستلزمه ذلك العجز من الحاجة والإمكان الممتنعين عليه تعالى.

[**ولا يحتاج إلى ذي مال في رزقه**] لما يستلزمه الحاجة من الإمكان وكلّ ذلك نفي للأحوال البشرية عنه تعالى. [**خضعت الأشياء له**] بدخولها في ذلّ الإمكان تحت سلطانه.

[**وذلّت مستكينة لعظمته**] منقادة في أسر الحاجة إلى كمال قدرته، وبهذا الاعتبار [**لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضرّه**] للزوم الحاجة لذواتها إليها واستناد كمالاتها إلى جوده فهو النافع لها بإفاضة كمالاتها والضارّ لها بمنع ذلك.

[**لا كفؤ له فيكافيه**] أي: ليس له مثيل فيقابله ويفعل بإزاء فعله وكذا [**لا نظير له فيساويه هو المفني لها**] أي: المعدم للأشياء [**بعد وجودها حتّى يصير موجودها كمفقودها**] وظاهره وما بعده انّ العدم بمعنى الفناء

وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها وخلقها بأعجب من إنشائها واختراعها وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها ومتلبدة من أممها وأكياسها على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ولتحيّرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت

والاضمحلال بالمرّة كما هو أحد القولين لا بمعنى تفرّق الأجزاء كما هو القول الآخر، ونحوه قوله تعالى: ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده﴾، ﴿كلّ من عليها فان﴾.

ثمّ أشار إلى ردّ استبعاد العقول الضعيفة والأوهام السخيفة لذلك فقال:

[وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها وخلقها بأعجب من إنشائها واختراعها] أي: ليس صيرورة ما خلق إلى العدم بقدرته بعد الوجود بأعجب من صيرورته إلى الوجود بعد العدم منها؛ إذ كانت كلّها ممكنة قابلة للوجود والعدم لذواتها بل صيرورتها إلى الوجود المشتمل على أعاجيب الخلقة وأسرار الحكمة التي لا يهتدي لها ولا يقدر على شيء منها أعجب وأغرب من عدمها الذي لا كلفة فيه. ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها ومتلبدة] أي: البليدين **[من أممها وأكياسها]** جمع كيّس على عكس البليد.

[على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ولتحيّرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت

ورجعت خاسئة حسيرة عارفة بأنّها مقهورة مقرّة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها وإنّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عدمت عند ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات

ورجعت خاسئة حسيرة عارفة بأنّها مقهورة مقرّة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها] وحاصل المعنى أنّه كيف يكون عدمها أعجب وفي إيجاد أضعف حيوان وأصغره ممّا خلق كالبعوضة من العجائب والغرائب والإعجاز وما يعجز عن تكوينه و ــــــــ قدرة كلّ من ينسب إليه قدرة ويقصر عن معرفة الطريق إلى إيجادها ألباب الألبّاء ويتحيّر في كيفية خلقها حكمة الحكماء ويقف دون علم ذلك وتتناهى عقول العقلاء وترجع خاسئة حسيرة مقهورة معترفة بالعجز عن الاطلاع على كنه صنيعه في إنشائها مقرّة بالضعف عن إفنائها.

وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ ثمّ أشار إلى كونه تعالى باقياً أبداً بقوله: **[وإنّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها]** بريّاً عن لحوق الوقت والمكان والحين والزمان، وقوله «يعود» وإن كان فيه إشعار بتغيّر من حالة إلى حالة إلا أنّهما اعتباران ذهنيان يحلقانه بالقياس إلى مخلوقاته، ولذا قال: **[كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عدمت عند ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات]** لأنّ جميع

فلا شيء إلا الله الواحد القهّار الذي إليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها وبغير امتناع منها كان فنائها ولو قدرت على الامتناع لدام بقائها لم يتكأده صنع شيء منها إذ صنعه ولم يؤده منها خلق ما براه وخلقه ولم يكوّنها لتشديد سلطان ولا لخوف من زوال ونقصان ولا لاستعانة على ندّ مكاثر ولا

ذلك أجزاء الزمان الذي هو من لواحق الحركة التي هي من لواحق الجسم واللازم من عدم الجسم عدم عوارضه.

[**فلا شيء إلا الله الواحد القهّار**] ولا يبقى بعد فناء العالم إلا هو، وذكر الواحد لبقائه كذلك والقهّار باعتبار كونه قاهراً بعد العدم والفناء.

[**الذي إليه مصير جميع الأمور**] وهو عبارة عن أخذه لها بعد إفاضة الوجود عليها.

وقوله: [**بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها وبغير امتناع منها كان فنائها**] أي: لا قدرة لشيء منها على إيجاد نفسه ولا على الامتناع من لحوق الفناء.

[**ولو قدرت على الامتناع لدام بقائها لم يتكأده**] أي: لم يثقله ولم يشقّ عليه [**صنع شيء منها إذ صنعه ولم يؤده**] أي: يكلّفه [**منها خلق ما براه وخلقه**] لأنّ المشقّة في الفعل وثقله إنّما تعرض لذي القدرة الضعيفة من الحيوان لنقصانها وقدرته تعالى تامّة كاملة بريّة من القصور والنقصان المستلزمين للحاجة والإمكان.

[**ولم يكوّنها لتشديد سلطان**] وجمع الأموال وتكثير الجند والعدّة والولدان والازدياد في الملك بأخذ الحصون والقلاع أو دفع مضرّة المشار إليه بقوله: [**ولا لخوف من زوال ونقصان ولا لاستعانة على ندّ مكاثر ولا**

للاحتراز بها من ضدّ مشاور ولا للازدياد بها في ملكه ولا لمكاثرة شريك في شركه ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها ثـمّ هو يفنيها بعد تكوينها لا لسئم دخل عليه في تصريفها وتدبيرها ولا لراحة واصلة إليه ولا لثقل شيء منها عليه ولا يملّه طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها لكنّه تعالى سبحانه دبّرها بلطفه وأمسكها بأمره وأتقنها بقدرته ثمّ يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها ولا استعانة بشيء منها عليها

للاحتراز بها من ضدّ مشاور ولا للازدياد بها في ملكه ولا لمكاثرة شريك في شركه ولا لوحشة كانت منه] قبل إيجادها **[فأراد أن يستأنس إليها]** ويدفع ضر استيحاشه.

[ثمّ هو يفنيها بعد تكوينها لا لسئم] وملل **[دخل عليه في تصريفها وتدبيرها]** أو الملال من طول بقائها فدعاه ذلك إلى إفنائها **[ولا لراحة واصلة إليه ولا لثقل شيء منها عليه]** لأنّ جلب المنفعة ودفع المضرّة من لواحق الإمكان الذي تنّه قدسه عنه.

وكذا قوله: **[ولا يملّه طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها لكنّه تعالى سبحانه دبّرها بلطفه]** إشارة إلى إيجاده لها على وجه الحكمة والنظام الأتم الاكمل الذي ليس في الإمكان أن يكون جملتها على أتمّ منه ولا ألطف.

[وأمسكها بأمره] أي: أقامها في الوجود بحكم سلطانه.

[وأتقنها بقدرته] على وفق الحكمة والمصلحة **[ثمّ يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها ولا استعانة بشيء منها عليها]** أي: ليستعين ببعضها على بعض.

ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استيناس ولا من حال جهل وعمى إلى علم والتماس ولا من فق وحاجة إلى غنىً وكثرة ولا من ذلٍّ وضعة إلى عزٍّ وقدرة تختصّ بذكر الملاحم: ألا بأبي وأُمّي من عدّة أسمائهم في السماء معروفة وفي الأرض مجهولة

[**ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استيناس ولا من حال جهل وعمى إلى علم والتماس ولا من فق وحاجة إلى غنىً وكثرة ولا من ذلٍّ وضعة إلى عزٍّ وقدرة**] إذ هذه الأغراض كلّها من باب دفع المضرّة المنزّه قدسه تعالى عنها.

ومن خطبة له عليه السلام

[**تختصّ بذكر الملاحم: ألا بأبي وأُمّي من عدّة أسمائهم في السماء معروفة**] تعرفها الملائكة، وفيه إشارة إلى علوّ درجتهم في الملأ الأعلى وإثبات أسمائهم وصفاتهم الفاضلة في ديوان الصدِّيقين.

[**وفي الأرض مجهولة**] أي: عند الاكثرين لاستيلاء الضلالة والجهل على الأكثر، ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ﴿وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون﴾، ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

قال ابن أبي الحديد: الإمامية تقول هذه العدة هم الأئمة الأحد عشر من ولده وغيرهم يقول إنّه عنى الأبدال الذين هم أولياء اللّه في الأرض.

ألا فتوقّعوا ما يكون من إدبار أُموركم وانقطاع من وصلكم واستعمال صغاركم وأراذلكم ذاك حيث تكون ضربة بالسيف على المؤمن أهون من الدرهم من حلّه ذلك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي

[ألا فتوقّعوا ما يكون من إدبار أُموركم] أشار عليه السلام إلى التنبيه لهم على الأحوال المردية المستقبلة المضادّة لمصالح العالم التي يجمعها سوء التدبير وتفرّق الكلمة من إدبار ما أقبل من أُمورهم **[وانقطاع]** ما اتّصل **[من وصلكم]** وأسبابكم والوصل جمع وصلة: وهي الانتظامات الحاصلة لأسبابهم في المعاش والمعاد بوجود الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيره.

[واستعمال صغاركم وأراذلكم] وتقدّمهم على الكبار، فإنّه من علامات الساعة ومن جملة أسباب الفساد كما أنّ استعمال أهل الشرف وأكابر الناس على الأعمال من أسباب الصلاح.

ثمّ أشار عليه السلام إلى جملة من علاماتها بقوله:

[ذاك حيث تكون ضربة بالسيف على المؤمن أهون من الدرهم من حلّه] أي: احتمال الضربة بالسيف أقلّ مشقّة من احتمال المشقّة في اكتساب درهم من حلال وذلك لأنّ المكاسب تكون قد اختلطت وغلب الحرام على الحلال فيها.

ثمّ أشار إلى أمر آخر بقوله: **[ذلك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي]** يعني انّ أكثر من يعطي ويتصدّق في ذلك الزمان يكون ماله حراماً فلا أجر له في التصدّق به ثمّ انّ أكثرهم يقصد الرياء والسمعة وهوى النفس من دون إخلاص في العمل للّه سبحانه، وأمّا المعطى فقد يكون فقيراً

ذاك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم وتحلفون من غير اضطرار وتكذبون من غير إحراج

مستحقاً للزكاة ذا عيال لا يلزمه أن يبحث عن أصل ما يعطاه فإذا أخذه لسدّ خلّته كان في ذلك أعظم أجراً ممن يعطيه، أو لأنّ المعطي يكون أكثر ما ينفق من ماله في غير طاعة اللّه وفي الوجوه المحظورة فإذا أخذ الفقير منه على وجه الصدقة فوّت على المعطي صرف ماله في تلك الوجوه، فكان للفقير بذلك المنّة عليه إذ كان سبباً في منعه عن صرف ماله فيما لا ينبغي، فكان أعظم أجراً منه.

[**ذاك حيث تسكرون من غير شراب**] استعار وصف السُّكر لهم باعتبار غفلتهم عمّا ينبغي لهم، اللازمة عن انصبابهم واستغراقهم في اللّذات الحاضرة كما يلزم السُّكر الغفلة عن المصالح وقرينة الاستعارة قوله من غير شراب.

[**بل من النعمة**] بفتح النون أي: غضارة العيش [**والنعيم**] وفي المثل «سكر الهوى أشدّ من سكر الخمر».

[**وتحلفون من غير اضطرار**] أي: تتهاونون باليمين وبذكر اللّه عزّ وجلّ من غير ضرورة إلى ذلك بل غفلة من عظمة اللّه حتّى تتوصّلوا باليمين إلى أحسن المطالب.

[**وتكذبون من غير إحراج**] يقال أحرجه أي: ألجأه وضيّق عليه أي: صار الكذب لكم عادة دون أن يكون قد أحرجكم آخر واضطرّكم بالغيظ إلى الحلف بل صار ملكة لكم تكذبون بلا ضرورة. وروي إحواج بالواو أي: بدون أن يكون قد أحوجكم إليه أحد.

ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء أيّها الناس القوا هذه الأزمّة التي تحمل ظهورها الأثقال من أيديكم

[**ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير**] استعار لفظ العض لإيلام البلاء الذي ينزل بقلوبهم وشبهه بعض القتب غارب البعير ووجه الشبه هو شدّة الإيلام وهذا الشبه هو وجه استعارة العض للبلاء.

وقال ابن أبي الحديد: هذا الكلام غير متصل بما قبله وهذه عادة الرضي «ره» يلتقط الكلام التقاطاً وقد ذكرنا هذه الخطبة وأكثرها فيما تقدّم وقبل هذا الكلام ذكر ما تناله شيعته من البؤس والقنوط ومشقّة انتظار الفرج.

وقوله: [**ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء**] حكاية كلام شيعته وأصحابه حينئذ انتهى وقال المحقّق البحراني: يحتمل أن يكون الكلام متصلاً، ويكون قوله «ما أطول هذا العناء» كلاماً مستأنفاً في معنى التوبيخ لهم على إعراضهم عنه وإقبالهم على الدنيا وإتعابهم أنفسهم في طلبها وتنفير لهم عنها بذكر طول العناء في طلبها وبعد الرجاء لما يرجى منها أي: ما أطول هذا العناء اللاحق لكم في طلب الدنيا وما أبعد هذا الرجاء الذي يرجونه منها وظاهر أنّ متاعب الدنيا لطالبها أطول المتاعب ومطالبها لراحتها أبعد المطالب كما قال عليه السلام قبل من ساعاها فأتته، وكما قال الرسول صلى الله عليه وآله: «من جعل الدنيا أكبر همّه فرّق اللّه عليه همّه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته منها إلا ما كتب» ثمّ التفت عليه السلام إلى أصحابه مخاطباً لهم فقال:

[**أيّها الناس القوا هذه الأزمّة التي تحمل ظهورها الأثقال من أيديكم**]

ولا تصدعوا عن سلطانكم فتذموا غبّ فعالكم

استعار الأزمّة للآراء الفاسدة المتبعة وللأهواء القائدة لهم إلى المآثم، ووجه الشبه كونها قائدة لهم كما تقود الأزمّة الجمال.

ولفظ الإلقاء للإعراض عن تلك الآراء الباطلة وترك العمل بها، ولفظ الظهور لأنفسهم ولفظ الأثقال للمعقول من أثقال الذنوب.

ووجه المشابهة الأُولى كونها حاصلة لأثقال الخطايا والأوزار كما تحمل الظهور الأثقال المحسوسة كما قال تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾.

وقال: ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ ووجه الاستعارة الثانية انّ الملكات الرديّة الحاصلة لها من اقتراف المآثم تثقل النفوس عن النهوض إلى حظاير القدس ومنازل الأبرار كما تثقل الأثقال المحسوسة الظهور الحاملة لها ولمّا استعار لفظ الإلقاء والأزمّة الّذين من شأنهما أن يكونا باليد وفي اليد رشح بذكر الأيدي فقال من أيديكم.

والحاصل إنّه عليه السلام أمرهم بترك الآراء الفاسدة ونهاهم عن متابعتها ونبّه على وجوب تركها بأنّهم إذا لزموها وعملوا على وفقها قادتهم إلى حمل أثقال الخطايا ثمّ أردف ذلك بالنهي عن التفرّق.

فقال: **[ولا تصدعوا عن سلطانكم]** أي: لا تتفرّقوا عنه **[فتذموا غبّ فعالكم]** أي: عاقبتها وفيه تنفير لهم عن التفرّق عن سلطانهم بذكر ما يلزمه من العاقبة المذمومة وهي غلبة العدوّ عليهم واستيلائه على أحوالهم، والفاء هي التي في جواب النهي، أي: إن تفرّقتم عن سلطانكم ذممتم غبّ أفعالكم.

ولا تقتحموا ما استقبلكم من فور نار الفتنة وأميطوا عن سننها وخلّوا قصد السبيل لها لعمري يهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم إنّما مثلي مكم مثل السراج في الظلمة يستعين به من ولجها

ثمّ أردف النهي عن التفرّق عنه بالنهي عن اقتحام ما استقبلوا من الفتنة فقال: [**ولا تقتحموا ما استقبلكم من فور نار الفتنة**] تنبيهاً على أنّ التفرّق عنه سبب الدخول في نار الفتنة وتنفيراً عن مخالفته بكونها اقتحاماً لنار الفتنة وتسرّعاً إلى دخولها، والنار مستعارة لأحوال الفتنة من الحروب والقتل والظلم، ووجه الشبه كونها مستلزمة للأذى كالنار، ووصف الاقتحام لمخالفته والتفرّق عنه، ووجه الاستعارة إسراع تفرّقهم عنه إلى الوقوع إلى الفتنة كإسراع المقتحم، ورشح استعارة النار بالفور مبالغة في التنفير، ثمّ أمرهم بالتنحّي عن قصدها وطريقها وتخليته قصد السبيل لها فقال:

[**وأميطوا عن سننها وخلّوا قصد السبيل لها**] أي: خلّوها لقصد سبيلها ولا تتعرّضوا لها وتقتحموها فتكونوا حطباً لنارها.

[**لعمري يهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم**] وهو إخبار بالغيب، وكان الأمر على ما قال فإنّ الحال في دولة بني أُميّة كان كذلك، والمؤمن فيها مخوف مضطرب والمنافق عزيز مقرّب، ولفظ اللّهب ترشح لاستعارة النار.

وقوله عليه السلام: [**إنّما مثلي مكم مثل السراج في الظلمة يستعين به من ولجها**] أي: دخل في ضوئها، مثّل عليه السلام نفسه بالسراج في الظلمة، وأشار لأوجه الشبه بقوله «يستضيء» إلخ، إشارة إلى أنّ الطالبين للهداية منه

فاسمعوا أيّها الناس وعُوا واحضروا آذان قلوبكم تفهموا أُوصيكم أيّها الناس بتقوى اللّه وكثرة حمده على آلائه إليكم ونعمائه عليكم وبلائه لديكم

يستضيئون بنور علومه وهداياته إلى طريق الرشد كما يهتدي السالكون في الظلمة بالسراج، فأحوالهم شبيهة بالظلمة وهم يشبهون المغمور فيها لولا وجوده عليه السلام.

ثمّ أردف ذلك بأمرهم بسماع قوله فقال: [**فاسمعوا أيّها الناس وعُوا**] ما أُلقيه إليكم من المعارف الربّانية والحكم الإلهيّة والمواعظ الحسنة والنصائح المستحسنة.

[**واحضروا آذان قلوبكم تفهموا**] استعار الآذان للقلوب حيث انّ الاذن مدرك للأقوال، فأشبهت إفهام القلوب المدركة لأقواله تنبيهاً على أنّ النافع إحضار افهام القلوب لا الاذن المحسوسة فقط.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أُوصيكم أيّها الناس بتقوى اللّه**] فإنّها العروة الوثقى والغاية القصوى.

[**وكثرة حمده**] ووفود شكره [**على آلائه إليكم ونعمائه عليكم وبلائه لديكم**] فإنّ بلائه وابتلائه إمّا تكفير الخطيئات أو رفع درجات كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾، وقال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة﴾.

فكم خصّكم بنعمة و تدارككم برحمة أعورتم له فستركم وتعرّضتم لأخذه فأمهلكم وأُوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه وكيف غفلتكم عمّا ليس يغفلكم وطمعكم فيما ليس يمهلكم فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم حُمِلوا إلى قبورهم غير راكبين

[**فكم خصّكم بنعمة**] لا تحصى ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾.

[و] كم [**تدارككم برحمة**] لا تستقصى ﴿ولولا رحمته لكنتم من الهالكين﴾.

[**أعورتم**] أي: انكشفتم [**له**] وبدت عوراتكم، والعورة: السوئة وكلّما يستحى منه.

[**فستركم**] وكنّى بذلك عن مجاهرتهم بالمعاصي وستره عليهم.

[**وتعرّضتم لأخذه**] وعقابه بارتكاب مناهيه ومخالفة أوامره [**فأمهلكم**] ولم يبادركم بالنقمة ولم يعاجلكم بالعقوبة.

[**وأُوصيكم بذكر الموت**] الذي لابدّ منه، [**وإقلال الغفلة عنه**] فإنّه زاجر عن المعاصي والشهوات منغّص للّذات محقّر للشهوات.

[**وكيف غفلتكم عمّا ليس يغفلكم وطمعكم فيما ليس يمهلكم**] استفهام توبيخ عن غفلتهم عنه وطمعهم فيه مع كونه لا يغفلهم ولا يمهلهم.

[**فكفى واعظاً**] لكم [**بموتى عاينتموهم**] أي: أحوال من عاينتموه من الموتى.

[**حُمِلوا إلى قبورهم غير راكبين**] مع كونهم في صورة ركوب منفور عنه.

وأُنزلوا فيها غير نازلين كـأنّهم لم يكونوا للدنيا عمّاراً وكأنّ الآخرة لم تزل لهم داراً وأحشوا ما كانوا يوطنون وأوطنوا ما كانوا يوحشون واشتغلوا بما فارقوا وأضاعوا ما إليه انتقلوا لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً ولا من حسن يستطيعون ازدياداً

[**وأُنزلوا فيها**] أي: في قبورهم [**غير نازلين**] أي: على غير عادة النزول المتعارف المقصود [**كأنّهم**] في تلك الحال مع طول مددهم في الدنيا وعمارتهم لها وركوبهم إليها [**لم يكونوا للدنيا عمّاراً**] لانقطاعهم عنها بالكلّية وعدم خبرتهم بما خلّفوا وما فيها فأشبهوا لذلك من لم يكن فيها.

[**وكأنّ الآخرة لم تزل لهم داراً**] حيث إنّها مستقرّهم الدائم الذي لا معدل عنه فأشبهت المنزل الذي لهم يكون داراً.

[**وأحشوا ما كانوا يوطنون**] من منازل الدنيا ومساكنها [**وأوطنوا ما كانوا يوحشون**] من القبور التي أُنزلوا فيها وهي أوّل منازل الآخرة [**واشتغلوا**] في القبور والبرزخ [**بما فارقوا**] من الأموال والمخلّفات لأنّها وبال وأذى وعقاب عليهم في قبورهم ولولاها لكانوا في راحة، ويحتمل أن يكون المعنى أشغلوا أيّام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوا.

[**وأضاعوا**] في الدنيا من أُمور آخرتهم [**ما إليه انتقلوا**] بترك الأسباب الموصلة إلى ثوابها والمبعّدة عن عقابها [**لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً**] أي: لا يستطيعون الانتقال عمّا حصلوا عليه من الأفعال القبيحة التي ألزمتهم العذاب وأكسبت نفوسهم ملكات السوء؛ إذ الانتقال عن ذلك لا يمكن إلا في دار التكليف.

[**ولا من حسن يستطيعون ازدياداً**] أي: لا يقدرون على زيادة الأعمال

نسوا الدّنيا فغرّتهم ووثقوا بها حتّى صرعتهم فسابقوا رحمكم اللّه إلى منازلكم التي أُمرتم أن تعمّروها والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها واستتمّوا نعم اللّه عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته فإنّ غداً من اليوم قريب

الحسنة الموجبة للملكات الخيرية والثواب الدائم، كما حكى اللّه عنهم من قولهم ﴿ربّ ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾.

[**نسوا الدّنيا**] ولذّاتها وشهواتها، [**فغرّتهم**] بزخارفها وزبرجها [**ووثقوا بها**] واطمأنّوا إليها [**حتّى صرعتهم**] في مهاوي الهلكات وصارت أعمالهم عليهم حسرات، حيث لا تقال عثرة ولا تنفع ندامة.

[**فسابقوا رحمكم اللّه إلى منازلكم التي أُمرتم أن تعمّروها والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها**] وهي منازل جنّة النعيم التي لا يزول نعيمها ولا يفنى مقيمها وتعميرها بالأعمال الصالحات وتحصيل الملكات والكمالات والمواظبة على الواجبات والمستحبّات واجتناب المحظورات والمكروهات، أي: ليسابق بعضكم بعضاً إلى هذه المنازل كما قال تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتّقين﴾ وقال تعالى: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتّقون أفلا تعقلون﴾.

[**واستتمّوا نعم اللّه عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته**] فإنّ ذلك سبب استتمام النعمة ودوامها ولما كان استلزامه لها كالثمرة ولمّا كان استلزامها لها كالثمرة له وكانت ثمرة الصبر حلوة قدّمها ليحلو الصبر بذكرها.

وقوله: [**فإنّ غداً من اليوم قريب**] تخويف من قرب الساعة وتحذير من

ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيّام في الشهر واسرع الشهور في السنين وأسرع السنين في العمر فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقرآً في القلوب ومنه ما يكون عواريّ

فجأتها وأُريد بـ«غد» القيامة، وبـ«اليوم» الحياة الدنيوية، ثمّ أكّد ذلك القرب وأوضحه بقوله:

[ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيّام في الشهر واسرع الشهور في السنين وأسرع السنين في العمر] فإنّ الساعة سريعة الإتيان والانقضاء وسرعتهما مستلزمة لسرعة مجيء اليوم وانقضائه وسرعتهما مستلزمة لسرعة مجيء الشهر وانقضائه المستلزمين لسرعة مجيء السنة وانقضائها المستلزمين لسرعة انقضاء العمر العاملين فيه، لكنّ انقضائه بالقيامة، فإذن الساعات مستلزمة لسرعة انقضاء العمر وقرب غده من يومه وأتى في الكلّ بلفظ التعجب تأكيداً لبيان تلك السرعة، وهو كلام في أعلا مراتب الفصاحة وأقصى منازل البلاغة.

ومن خطبة له عليه السلام
في بيان جملة من أقسام الإيمان ومراتبه

[فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقرآً في القلوب] بحيث يكون ملكة راسخة، **[ومنه ما يكون عواريّ]** بالتشديد، جمع عارية منسوبة إلى العار، إذ في طلبها عار أي: لم يبلغ حدّ الملكة بل هو في معرض التغيّر والانتقال فهو متزلزل، واستعار له لفظ العواريّ لأنّه في معرض الزوال كما أنّ العارية

بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتّى يحضره الموت فعند ذلك يقع حدّ البراءة

في معرض الردّ والاسترجاع وكنّى بكونها **[بين القلوب والصدور]** عن كونها غير مستقرّة في القلوب ولا متمكّنة من جواهر النفوس وفي نسخة ابن ابي الحديد «فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ومنه ما يكون عواريّ في القلوب ومنه ما يكون عواريّ بين القلوب والصدور».

قال الشارح: قسّم الإيمان إلى ثلاثة أقسام أحدها الإيمان الحقيقي وهو الثابت المستقرّ في القلوب بالبرهان اليقيني والثاني ما ليس ثابتاً بالبرهان اليقين بل الدليل الجدلي كإيمان كثير ممن لم يحقّق العلوم العقلية ويعتقدها عن أقيسة جدلية لا تبلغ إلى درجة البرهان، وقد سمّى عليّ عليه السلام هذا القسم باسم مفرد فقال: إنّه عواري جمع عارية أي: في حكم العارية بعرضة الخروج والثالث ما ليس مستنداً إلى برهان ولا إلى قياس جدلي بل على سبيل التقليد وحسن الظنّ بالأسلاف وقد جعله عواريّ بين القلوب والصدور؛ لأنّه دون الثاني فلم يجعله حالاً في القلب.

وقوله: **[إلى أجل معلوم]** يرجع إلى القسمين الأخيرين دون الأوّل لأنّ من ظفر بالبرهان استحال أن ينتقل عن اعتقاده.

[فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتّى يحضره الموت] أي: لا تتبرّوا من أحد مادام حيّاً لأنّه وإن كان مخطئاً في اعتقاده أو فاسقاً في أفعاله لكنّه يجوز أن يتوب ويرجع إلى الحقّ فلا يحلّ البراءة من أحد حتّى يموت **[فعند ذلك يقع حدّ البراءة]** أي: إذا مات على الاعتقاد القبيح والفعل القبيح إذ ما بعد الموت حال ينتظر.

والهجرة قائمة على حدّها الأوّل ما كان للّه في الأرض من حاجة من ـــــــ الأمّة ومعلنها

قال ابن أبي الحديد: وينبغي أن تحمل هذه البراءة على البراءة المطلقة لا على كلّ براءة، لأنّا يجوز لنا أن نبرء من الفاسق وهو حيّ ومن الكافر وهو حيّ لكن بشرط كونه فاسقاً وكافراً، فأمّا من مات ونعلم ما مات عليه فإنّا نبرء منه براءة مطلقة.

وقوله: [**والهجرة قائمة على حدّها الأوّل**] أي: الهجرة الممدوحة التي يترتب عليها الثواب باقية على حدّها الأوّل فمن هاجر إليه عليه السلام وإلى أهل بيته في طلب دين اللّه وتعرّف كيفية سلوك سبيله القويم وصراطه المستقيم صدق عليه أنّه مهاجر كما يصدق على من هاجر إلى الرسول صلى الله عليه وآله فيدخل تحت قوله تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه﴾ وقوله: ﴿ومن يهاجر في سبيل اللّه يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعةً﴾ وقول النبي صلى الله عليه وآله للمهاجرين: «من هاجر ما حرّم اللّه عليه» وفي آخر: «المهاجر من هجر السيّئات» وأمّا ما روي عنه صلى الله عليه وآله من قوله: لا هجرة بعد الفتح، فمحمول على الهجرة الخاصّة، وهي الهجرة من مكّة بعد فتحها إلى المدينة وسلب الخاصّ لا يستلزم العام والهجرة التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هي الهجرة إلى إمام الزمان وهي باقية مادام التكليف باقياً وهو معنى قوله: [**ما كان للّه في الأرض من حاجة**] و(ما) مصدرية ظرفية، أي: الهجرة قائمة على حدّها مادام اللّه في أهل الأرض.

[**من ـــــــ الأمّة ومعلنها**] أي: ممن أسرّ دينه أو أعلنه حاجة، أي: مادامت العبادة مطلوبة للّه من أهل الأرض بالتكليف، ويمكن أن تكون

لا تقع اسم الهرة على أحد إلا بمعرفة الحجّة في الأرض فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة فسمعتها أُذنه ووعاها قلبه

باقية أي: لم يكن في أهل الأرض ممن أسرّ دينه أو أعلنه حاجةً، و(من) لبيان الجنس، ولا يلزم انقطاع الكلام عمّا قبله؛ لأنّه ﷺ لمّا رغّب الناس في طلب الدّين والعبادة أراد أن يرفع حكم الوهم بما عساه يحكم به عند تكرار طلب اللّه للدّين والعبادة من حاجته إليها من خلقه حيث كرّر طلبها منهم بتواتر الرسل، ومعنى الكلام انّ الهجرة باقية على حدّها الأوّل في صدق ما على المسافرين لطلب الدّين، فينبغي للناس أن يهاجروا في طلبه إلى أئمّة الحقّ وليس ذلك لأنّ للّه تعالى إلى أهل الأرض ممن أسّس دينه أو أظهره حاجة، فإنّه تعالى الغني المطلق، ثمّ أكدﷺ ذلك بقوله:

[**لا تقع اسم الهرة على أحد إلا بمعرفة الحجّة في الأرض**] لأنّه الحجّة الشاهد عل الخلق يوم القيامة.

[**فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر**] يحتمل أن يراد انّ إطلاق اسم المهاجرة على الإنسان مشروط بمعرفة إمام الوقت المستلزمة للسفر إليه، ويحتمل أن يريد انّ مجرّد معرفة الإمام والإقرار بوجوب اتّباعه والأخذ عنه كاف في إطلاق اسم الهجرة عليه.

وقوله: [**ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة**] أي: أخبار الحجّة.

[**فسمعتها أُذنه ووعاها قلبه**] قال الراوندي: يمكن أن يشير بهذا الكلام إلى أحد آيتين:

إنّ امرنا هذا صعبٌ مستصعبٌ لا يحتمله إلا عبد مؤمن امتحن اللّه قلبه للإيمان

أحدهما: قوله تعالى: ﴿إنّ الذين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم﴾ فيكون مراده عليه السلام أنّه لايصدق اسم الاستضعاف على من عرف الإمام وبلغته أحكامه ووعاها قلبه، وإن بقي في وطنه ولم يتجشّم السفر إلى الإمام كما صدق على هؤلاء المذكورين في الآية.

والثانية قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً أولئك عسى اللّه أن يعفو عنهم﴾ فيكون مراده عليه السلام على هذا انّ من عرف الإمام وسمع مقالته ووعى قلبه لا يصدق عليه اسم الاستضعاف كما صدق على هؤلاء، إذ كان المفروض على الموجودين في عصر الرسول صلى الله عليه وآله المهاجرة بالأبدان دون من بعدهم بل يقتنع منه بمعرفته والعمل بقوله بدون المهاجرة إليه بالبدن.

ثمّ قال عليه السلام: **[إنّ امرنا]** أي: شأننا **[هذا]** وما نحن عليه من الكمالات النفسانية والأطوار الملكوتية والأسرار العجيبة والأمور الغريبة **[صعبٌ]** في نفسه **[مستصعبٌ]** الفهم على الخلق، إذ هو وراء ماتدركه الأنام وفوق ما تحتمله العقول والأوهام.

[لا يحتمله] ولا يقدر عليه **[إلا عبد مؤمن امتحن اللّه قلبه للإيمان]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى﴾ أي: أعدّها بالامتحان والابتلاء بالتكاليف العقلية والنقلية لحصول الإيمان الكامل

ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة أيّها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض

اليقيني بالله ورسوله وكيفية سلوك سبيله.

[**ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة**] التي تعي ما يلقى إليها من تلك الأسرار وتصونها عن الإذاعة إلى من ليس من الأحرار وتكتمها عن غير أهلها من الفجّار.

[**وأحلام رزينة**] التي لا يستفزّها سماع تلك الغرائب ولا يزعجها الاطّلاع على تلك العجائب ولا يحملهم ذلك على إذاعتها واستنكارها بل يحملوها على الصواب ما وجدوا لها، فإذا عجزوا عن معرتها قالوا: آمنّا بها ووكلنا علمها وأمرها إلى أهلها، والمراد قلوب صدور أمينة وأصحاب أحلام رزينة على حذف المضاف، ويحتمل أن يكون أراد بالصدور والأحلام أهلها مجازاً.

وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام «إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يعرف كنهه إلا ملكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان فإذا انكشف لكم سرّ وأوضح لكم أمر فاقبلوه وإلا فامسكوا تسلموا وردّوا علمنا إلى الله فإنكم في أوسع ما بين السماء والأرض».

ثمّ قال عليه السلام: [**أيّها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض**] أجمع الناس أنّه لم يقل أحد من الصحابة وأهل العلم «سلوني» غير عليٍّ عليه السلام، قيل: وأراد بطرق السماء وجوه الهداية أو معرفة منازل سكّان السموات من الملأ الأعلى ومراتبهم من حضرة الربوبيّة ومقامات أنبياء الله وخلفائه من حظائر القدس وانتقاش نفسه القدسيّة عنهم

قبل أن تشعر برجلها فتنة تطأ في خطامها وتذهب بأحلام قومها

بأحـوال الأفلاك ومدبراتـهـا والأمـور الـغـيـبـيـة مما يتـعلّق بالفتن والوقـايع المستقبلة، إذ كان له الاتصال التامّ بتلك المبادي، فبالحـريّ أن يكون علمه بما هناك أتمّ وأكـمل من علـمـه بطرق الأرض إلى منازلهـا، وقـيل: أراد بطرق السمـاء: الأحكام الشرعية والفتاوي الفقهية، أي: أنا أعلم بهـا من الأمور الدنيـوية فـعبّر عن تلك بطرق السـمـاء لكونهـا أحكاماً إلهـيّة وعـبّر عن هذه بطرق الأرض لأنّها من الأرضيّة، وقيل: أراد أنّ علمه بالدّين أوفر من علمه بالدّنيا.

وقوله: [**قبل أن تشعر برجلها فتنة تطأ في خطامها وتذهب بأحلام قومها**] أراد فتنة بني أُميّة وأحكامهم العادلة عن الحقّ العدل، وما يلحق الناس دي دولتهم من البلاء، وكنّى بشعر رجلها عن خلوّ تلك الفتنة عن مدبّر يدبّرها ويحفظ الأمور وينظم الدّين حين وقوع الجور.

وقوله: «في خطامها» استعارة لوصف الناقة التي أُرسل خطامها وخلت عن القائد في طريقها فهي تخبط في خطامها وتعثر فيه وتطأ من لقيت من الناس على غير نظام من حالها وهذا وجه الاستعارة إذ كانت هذه الفتنة تقع في الناس على غير قانون شرعي ولا قائد ينظم أُمور الخلق فيها، قيل: ومعنى تذهب بأحلام قومها تحيّر أهل زمانها وتذهلهم بشدّتها حتّى لايثبتون فيها بل تطيش أحلامهم فلا يهتدون إلى طريق التخلّص عنها ووجه السلامة فيها.

ويحتمل أن يكون المراد أنّها تستخفّ أهل زمانها فيأتون إليها سراعاً ويجيبون الناعق بها والداعي إليها رغبةً ورهبةً فلا يتأنّون في ذلك

أحمده شكراً لأنعامه وأستعينه على أداء وظائف حقوقه عزى الجند وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله دعى إلى طاعته وقهر أعدائه جهاداً عن دينه

ولايفحصون عن كونه فتنة لغفلتهم عن وجه الحقّ فيها وشدّة وقوعها على الناس.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أحمده شكراً لأنعامه**] نصب شكراً على المصدر من قوله «أحمده» من غير لفظه إذ المراد بالحمد هنا الشكر بقرينة ذكر الانعام.

[**وأستعينه**] أطلب منه الإعانة [**على أداء وظائف حقوقه**] واجباتها ونوافلها، والوظائف جمع وظيفة: وهو ما يقدّر للإنسان في كلّ وقت من طعام أو رزق وعمل، وحيث انّ المواظبة على هذه الحقوق الموظّفة يستلزم سعادة الدارين ونظام النشأتين كانت من أعظم النعم التي توجب الشكر.

[**عزى الجند**] نصب على الحال والعامل «أستعينه» وكذا قوله: [عظيم المجد» أي: أستعينه على أداء حقوقه حال ما هو بذينك الاعتبارين، فإنّه باعتبار ما هو عزيز الجند عظيم المجد يكون مالك الملك قديراً على ما يشاء فكان مبدء للاستعانة به على أداء وظائف حقوقه.

[**وأشهد أنّ محمّداً عبده**] المصطفى [**ورسوله**] المرتضى الذي [**دعى**] الخلق [**إلى طاعته**] بالحكمة والموعظة الحسنة [**وقهر أعدائه**] من سائر الملل الكافرة والمذاهب الجاحدة [**جهاداً عن دينه**] مصدر سدّ مسدّ الحال.

لا يثنيه عن ذلك اجتماع على تكذيبه والتماس لإطفاء نوره فاعتصموا بتقوى اللّه فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروته ومعقلاً منيعاً ذروته وبادروا الموت وغمراته وأمهدوا له قبل حلوله وأعدّوا قبل نزوله فإنّ الغاية القيامة

[**لا يثنيه**] أي: لا يصرفه [**عن ذلك**] الدعاء للخلق والقهر للأعداء [**اجتماع**] من الخلق [**على تكذيبه والتماس**] منهم [**لإطفاء نوره**] استعار النور لما جاء به من الكمالات الهادية والمراشد المقرّبة، وحيث نبّههم على تلك الأحوال التي مبدئها تقوى اللّه أمرهم بالاعتصام بها فقال:

[**فاعتصموا**] وتمسّكوا [**بتقوى اللّه**] كمااعتصم نبيّكم بها في إظهار الدّين وجهاد الكافرين ولا تخافوا من عدوّكم مع كثرتكم كما لا يخف هو مع وحدته.

[**فإنّ لها**] أي: للتقوى [**حبلاً وثيقاً عروته**] من تمسّك به واعتصم لم يضرّه كيد كائد [**ومعقلاً**] أي: ملجأ [**منيعاً ذروته**] أي: أعلاه من لجأ إليه لم يصل إليه سوء، واستعار الحبل والمعقل للتقوى كما مرّ [**وبادروا الموت وغمراته**] أي: سابقوه إلى الاستعداد بالأعمال الصالحات، وأشار كأنّهم يسابقون الموت وغمراته وما يلحقهم من العذاب فيه وفيما بعده إلى الاستعداد بأفعال الخير.

[**وأمهدوا له**] أي: اتخذوا له مهاداً وفراشاً [**قبل حلوله**] بهم كيلا يفدحهم فدحاً.

[**وأعدّوا**] عدّة [**قبل نزوله**]عليكم [**فإنّ الغاية القيامة**] تحذير بذكر الغاية وتذكير بأهوالها الموعودة، أي: فإنّ غايتكم القيامة لابدّ لكم منها.

وكفى بذلك واعظاً لمن عقل ومعتبراً لمن جهل وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس وشدّة الإبلاس وهو المطّلع وروعات الفزع واختلاف الضلاع واستكاك الأسماع وظلمة اللّحد وخيفة الرعد

قيل وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه وكلّ من كانت غايته القيامة فواجب أن يستعدّ له.

[**وكفى بذلك**] أي: بذكر الموت وغمراته والقيامة وأهوالها [**واعظاً لمن عقل**] وحصر لكونه المقصود بالخطاب.

[**ومعتبراً**] أي: محلاً للاعتبار والعلم [**لمن جهل**] وظاهر كون الموت ونزوله بهذه البيّنة التامّة على هذا النمط العجيب والطرز الغريب وهمه لها واعظاً بليغاً يزجر النفوس عن متابعة هواها ويقبل بها على طاعة مولاها.

وقوله: [**وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون**] عطف على قوله قبل نزوله.

وقوله: [**من ضيق الأرماس**] جمع رميس: وهو القبر وما بعده، تفصيل لما يعلمونه من أحوال الموت.

[**وشدّة الإبلاس**] أي: الانكسار والحزن، [**وهو المطّلع**] وهو الاطلاع من إشراف إلى أسفل، وهو له خوفه وفزعه [**وروعات الفزع**] وحسن إضافته إلى الفزع مع أنّ الروع بمعناه باعتبار تعدّد فزعات الموت فهي من حيث أنّها آحاد مجموعة أفراد مهيّة الفزع فجاز إضافتها إليه.

[**واختلاف الضلاع**] كناية عن ضغطة القبر إذ يحصل بسببها تداخل الأضلاع واختلافها.

[**واستكاك الاسماع**] أي: صمّها وذهابها بشدّة الأصوات الهائلة أو ذهابها بالموت [**وظلمة اللّحد وخيفة الرعد**] أضاف الخيفة إليه لأنّه قد

وغمّ الضريح وردم الصفيح فاللّه اللّه فإنّ الدنيا ماضية بكم على سنن وأنتم والساعة في قرن وكأنّها قد جائت بأشراطها وأزفت بأفراطها ووقفت بكم على صراطها وكأنّها قد أشرفت بزلازلها وأناخت بكلاكلها

يستعمل في الشرّ أيضاً.

[**وغمّ الضريح**] أي: الغمّ الحاصل في القبر والوحشة المتوهّمة فيه.

[**وردم الصفيح**] أي: الحجر، وردمه: سدّه، ثمّ أكّد ذلك التخويف بالتحذير من اللّه فقال: [**فاللّه**] أي: احذروا [**اللّه فإنّ الدنيا ماضية بكم على سنن**] أي: على طريقة واحدة لا يختلف حكمها، فكما كان من شأنها أن أهلكت القرون الماضية والأمم الخالية وأخلت منهم الديار وأعدمت الآثار فكذلك تفعل بكم.

[**وأنتم والساعة في قرن**] كنّى به عن قربها حتّى كأنّهم معها في قرن واحد.

[**وكأنّها قد جائت بأشراطها**] أي: علاماتها تشبيه لها في سرعة مجيئها بالتي جائت وحضرت، وأكّد ذلك التشبيه بقد المفيدة لتحقيق المجيء والمراد بعلاماتها مثل ظهور الدجّال ودابّة الارض وظهور قائم آل محمد صلى الله عليه وآله ونزول عيسى عليه السلام ونحو ذلك مما هو مذكور في محلّه.

[**وأزفت**] أي: قربت [**بأفراطها**] جمع فرط: وهم المتقدّمون السابقون من الموتى أو بما يظهر قبلها من خوارق العادات.

[**ووقفت بكم على صراطها**] أي: تحقّق وقوفها بكم على صراطها المعهود.

[**وكأنّها قد أشرفت بزلازلها وأناخت بكلاكلها**] جمع كلكلك: وهو

وانصرمت الدنيا بأهلها وأخرجتهم من حضنها فكانت كيوم مضى وشهر انقضى وصار جديدها رثّاً وسمينها غثّاً في موقف ضنك المقام

المصدّر، استعارة لأهوالها الثقيلة واستعار وصف الاناخة لهجومها بتلك الأهوال عليهم ملاحظاً في ذلك تشبيهها بالناقة، وأتى بصيغة الجمع في الكلاكل لتعدّد أهوالها الثقيلة النازلة بهم.

[**وانصرمت الدنيا بأهلها**] أي: انقضت، ويروى: أخرفت بالفاء أي: ولّت.

[**وأخرجتهم من حضنها**] بكسر الحاء: ما دون الابط إلى الكشح.

[**فكانت كيوم مضى وشهر انقضى وصار جديدها رثّاً**] أي: خلقاً [**وسمينها غثّاً**] أي: هزيلاً، ولمّا كانت الأفعال من قوله «أناخت» إلى هنا معطوفاً بعضها على بعض دخلت في حكم التشبيه، أي: كأنّ الدنيا قد انصرفت بأهلها وكأنّكم قد أُخرجتم من حضنها إلى الآخرة، والمشبّه الأوّل هو الدنيا باعتبارها لها الحاضرة، والمشبّه به انصرافها بأهلها وزوالهم، ووجه الشبه سرعة المشي، أي: كأنّها من سرعة أحوالها الحاضرة كالتي وقع انصرافها وكذا الوجه في باقي التشبيهات. واستعار لفظ الحضن لها ملاحظةً لشبهها بالامرأة التي تحضن ولدها والسمين والغثّ إمّا محمولان على الحقيقة أو كناية عمّا كثر من لذّاتها وخيراتها ثمّ تغيّر وزال بالموت.

وقوله: [**في موقف ضنك المقام**] متعلّق بصار، والموقف: موقف القيامة، والضنك: الضيق، لكثرة الخلق يومئذ وازدحامهم أو لصعوبة الوقوف به وطوله مع ما يتوقّع الظالمون لأنفسهم من إنزال المكروه.

[وأمور مشتبهة عظامخ هي أهوال الآخرة وهي مشبة أي: ملتبسة

ونار اشتدّ كلبها عال لجبها ساطع لهبها مغيّظ زفيرها متأجّج سعيرها بعيد خمودها ذاك وقودها مخوّف وعيدها عمّ قرارها مظلمةٌ أقطارها حامية قدورها فظيعةٍ أُمورها وسبق الّذين اتقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً

يتحيّر في وجه الخلاص منها ولذا كانت عظاماً.

[**ونار اشتدّ كلبها**] أي: شرّها وأذاها [**عال لجبها**] أي: صوتها [**ساطع لهبها مغيّظ زفيرها**] ولفظ المتغيّظ مستعار للنار باعتبار حركتها بشدّة وعنف كالغضبان أو باعتبار استلزام حركتها للأذى والشرّ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميّز من الغيظ﴾ وقال تعالى: ﴿سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً﴾.

[**متأجّج سعيرها**] أي: لهبها، وتأجّجه: اشتداده.

[**بعيد خمودها ذاك وقودها**] بضمّ الواو وهو: الحدث، ولا يجوز الفتح؛ لأنّه ما يوقد به كالحطب ونحوه ولا يوصف بأنّه ذاكٍ وذكاه مقصوراً: اشتعاله.

[**مخوّف وعيدها عمّ قرارها**] أسند العمى إلى قرارها مجازاً باعتبار أنّه لا يهتدى فيه لظلمته أو لأنّ عمقها لا يوقف عليه لبعده.

[**مظلمةٌ أقطارها حامية قدورها**] لمّا استعار لفظ الحمى رشح بذكر القدور [**فظيعة أُمورها**] فظاعة الأمر: شدّته، ومحاورته للمعتاد ومعلوم فظاعة تلك الأُمور وشدّتها وتعداد هذه الأُمور للتهويل والتخويف ثمّ ساق الآية اقتباساً فقال: [**وسبق الّذين اتقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً**] والزمر: الجماعات، واحدتها زمرة، ثمّ ذكر بعدها أحوال المتّقين في الآخرة فقال:

قد أمن العذاب وانقطع العقاب وزُحْزِحُوا عن النار واطمأنّت بهم الدار ورضوا المثوى والقرار الّذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية وأعينهم باكية وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشّعاً واسغفاراً وكان نهارهم ليلاً توحّشاً وانقطاعاً

[**قد أمن العذاب وانقطع العقاب**] عنهم [**وزُحْزِحُوا**] أي: أُبعدوا [**عن النار**] إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿فمن زُحزحَ عن النار وأُدخل الجنّة فقد فاز﴾.

[**واطمأنّت بهم الدار**] أي: سكنت، والدار: الجنّة. [**ورضوا المثوى والقرار**] والمثوى: المقام، أي: رضوا بها مثوىً وقراراً.

[**الّذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية**] أي: طاهرة من الرياء والشرك الخفي.

[**وأعينهم باكية**] أي: من خشية اللّه وخوف عقابه وحرمانه. [**وكان ليلهم في دنياهم نهاراً**] في إحيائه بالعبادة والتهجّد والقيام والدعاء، فأشبه النهار الذي هو محلّ حركات الخلق، ولذا قال: [**تخشّعاً واسغفاراً**] إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾ وقوله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً﴾.

[**وكان نهارهم ليلاً توحّشاً وانقطاعاً**] إشارة إلى وجه الشبه وهو توحّشهم من الخلق وانقطاعهم عنه واعتزالهم إيّاهم الذي هو محلّ انقطاع الناس بعضهم من بعض وافتراقهم، وفي نسخة السيّد الرضي «ره» بخطّه كان للتشبيه ورفع نهار في الفقرة الأولى ورفع ليل في الثانية ووجه الشبه

فجعل اللّه لهم الجنّة مآباً والجزاء ثواباً وكانوا أحقّ بها وأهلها في ملك دائم ونعيم قائم فارعوا عباد اللّه ما برعايته يفوز فائزكم وبإضاعته يخسر مبطلكم وبادروا آجالكم بأعمالكم فإنّكم مرتهنون بما أسلفتم

ماذكر كأنّه يقول: فلمّا استعدوا بتلك الصفات للحصول على الفضائل والكمالات واستوجبوا رضاء اللّه [**فجعل اللّه لهم الجنّة**] مرجعاً و[**مآباً**] وما أُعدّ فيها من النعيم.

[**والجزاء ثواباً وكانوا أحقّ بها وأهلها**] اقتباس من القرآن [**في ملك دائم ونعيم قائم**] أي: مقيم تفسيراً للجزاء.

[**فارعوا عباد اللّه ما برعايته يفوز فائزكم**] وهو التقوى والأعمال الصالحة [**وبإضاعته يخسر مبطلكم**] بالإعراض عن التقوى والإصرار على المعاصي والخطايا، والمبطلون: الذين لا حقّ معهم، فهم الخارجون عن التقوى الحقّة، وإنّما يلحقهم الخسران بالخروج عنها.

[**وبادروا آجالكم بأعمالكم**] أي: بادروا الموت وسابقوا آجالكم بالأعمال الصالحة إلى الاستعداد بها قبل أن تسبقكم إلى أنفسكم فتقطعكم عن الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد.

[**فإنّكم مرتهنون بما أسلفتم**] من ذنوبكم السالفة التي تجازون عليها في القيامة، فسارعوا في فكاكها بالأعمال الصالحة والتوبة والاستغفار وردّ المظالم إلى أهلها فإنّ الحسنات يذهبن السيّئات.

واستعار الارتهان للنفوس الآثمة باعتبار تقييدها بالسيّئة وإطلاقها بالحسنة كتقييد الرهن المتعارف بما عليه من المال وافتكاكه بأدائه.

ومدينون بما قدّمتم وكأن قد نزل بكم المخوف فلا رجعة تنالون ولا عثرة تقالون استعملنا اللّه وإيّاكم بطاعته وطاعة رسوله وعفى عنّا وعنكم بفضل رحمته الزموا الأرض واصبروا على البلاء ولا تحرّكوا أيديكم وسيوفكم وهوى ألسنتكم

[**ومدينون بما قدّمتم**] أي: مجزيون بأعمالكم التي قدّمتوها، وأطلق الجزاء على العقاب مجازاً إطلاقاً لاسم أحد الضدّين على الآخر.

[**وكأن قد نزل بكم المخوف**] كأن مخفّفة للتشبيه واسمها ضمير الشأن، والمقصود تشبيه حالهم وشأنهم الحاضر بحال نزول المخوف وهو الموت بهم، وتحقّقه في حقّهم الذي يلزمه ويترتب عليه عدم نيلهم للرجعة وإقالتهم للعثرة، ولذا قال: [**فلا رجعة تنالون ولا عثرة تقالون**] ثمّ عقّب ذلك بالدعاء لنفسه ولهم فقال:

[**استعملنا اللّه وإيّاكم بطاعته وطاعة رسوله**] وذلك بتوفيهم لاسباب الطاعة [**وعفى عنّا وعنكم بفضل رحمته**] ونسبها إلى فضل رحمته لكونه مبدء للعفو والمسامحة ثمّ عقّب وعظهم وتحذيرهم والدعاء لهم بأمرهم أن يلزموا الأرض فقال: [**الزموا الأرض واصبروا على البلاء**] الذي يلحقكم من أعدائكم ومخالفتهم في العقيدة، كالخوارج والبغاة على الإمام بعده من ولده، قيل: والخطاب خاصّ بمن يكون بعده بدلالة سياق الكلام ولزوم الارض كناية عن الصبر في مواطنهم وقعودهم عن النهوض لجهاد الظالمين في زمن عدم قيام الإمام الحقّ بعده.

وقوله: [**ولا تحرّكوا أيديكم وسيوفكم وهوى ألسنتكم**] نهى عن الجهاد من غير أمر أحد من الأئمة من ولده بعده وذلك عند عدم قيام من

ولا تستعجلوا بما لم يعجله اللّه لكم فإنّه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وحقّ أهل بيته مات شهيداً ووقع أجره على اللّه بذلك واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية مقام إصلاته بسيفه فإنّ لكلّ شيء مدّة وأجلاً

يقوم منهم لطلب الأمر فإنّه لا يجوز إجراء هذه الحركات إلا بالإشارة من إمام الوقت وهوى ألسنتهم ميلها إلى السبّ والشتم مرافقةً لهوى النفس، والباء في أيديكم زائدة.

[**ولا تستعجلوا بما لم يعجله اللّه لكم**] من ذلك الجهاد، ثمّ أبان حكمهم في زمان عدم قيام الإمام الحقّ لطلب الأمر وفضيلة الصبر على ذلك بقوله: [**فإنّه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وحقّ أهل بيته**] بالاعتراف بكونهم أئمّة الحقّ وخلفاء الصدق واقتدى بهم في أعمالهم وأقوالهم [**مات شهيداً ووقع أجره على اللّه بذلك واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية**] نيّته أنّه من أنصار الإمام لو قام لطلب الأمر وأنّه معينه [**مقام إصلاته بسيفه**] أي: مقام تجريده بسيفه معه في استحقاق الأجر.

وقوله: [**فإنّ لكلّ شيء مدّة وأجلاً**] تنبيهٌ على أنّ لكلّ من دولة العدوّ الباطلة ودولة الحقّ العادلة مدّةً تنقضي بانقضائها وأجلٌ ينتهي به، فإذا حضرت مدّة دولة عدوّ فليس ذلك وقت قيامكم في دفعها فلا تستعجلوا به.

الحمد للّه الفاشي حمده والغالب جنده والمتعالي جدّه أحمده على نعمه التوام

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الفاشي] أي: الذايع والمنتشر في جميع خلقه ومخلوقاته [حمده] إذ كان شيء منها لا يخلو من نعمة له [والغالب جنده] وجند اللّه وملائكته وأعوان دينه من أهل الأرض، قال تعالى: ﴿للّه جنود السموات والأرض﴾ وقال تعالى: ﴿وأيّده بجنود لم تروها﴾ وقال تعالى: ﴿وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿فإنّ حزب اللّه هم الغالبون﴾ وفيه جذب للسامعين إلى نصرة اللّه ليكونوا من جنده ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾.

[والمتعالي جدّه] أي: عُلاه وعظمته، كقوله تعالى: ﴿جدّ ربّنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ وإردافها لما قبلها لما في السابقة من إبهام الحاجة إلى الجند والنصرة فأثبت بها ما ينزّهه عن ذلك الإبهام.

[أحمده على نعمه التوام] على فعال جمع توام على فوعل وهو الولد المقارن أخاه في بطن واحد، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك فهي متيم فإن كان ذلك عادتها فهي متأم، وكلّ واحد من الولدين توم، وهما توأمان، وهذا توئم هذا، وهذه توئمة، والجمع توائم، مثل قشعم وقشاعم، وأراد بكونها توام ترادفها على العبد وترادفها إذ ما يمرّ عليه وقت من الأوقات إلا وعليه من اللّه نِعمٌ لا تخفى.

وآلائه العظام، الذي عظم حلمه فعفى وعدل في كلّ ما قضى وعلم ما يمضي وما مضى مبتدع الخلائق بعلمه ومنشئهم بحكمه بلا اقتداء ولاتعليم

[**وآلائه العظام، الذي عظم حلمه فعفى**] وحلمه تعالى يعود إلى عدم انفعاله عن مخالفة عبيده لأوامره ونواهيه، ولمّا كان العفو يستلزم العفو عن الجرائم والصفح عنها سمّي إمهاله للعبد وعدم مؤاخذته بجرائمه عفواً فلذا أردف وصفه بعظمة الحلم بذكر العفو وعطف بالفاء لاستعقاب الملزوم لازمه بلا مهلة.

[**وعدل في كلّ ما قضى**] ولمّا كان العدل عبارة عن التوسّط في الأفعال والأقوال بين طرفي الإفراط والتفريط وكان كلّ ما قضاه تعالى وحكم علمه بوقوعه أو عدم وقوعه جارياً على وفق الحكمة والنظام الأكمل، وقيل: قضى بمعنى أمر كقوله ﴿وقضى ربّك أن لا تعبدوا إلا إيّاه﴾ [**وعلم ما يمضي وما**] قد [**مضى**] إشارة إلى إحاطة علمه بجميع الأمور مستقبلها وماضيها وكلّيها وجزئيها ﴿قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾، و﴿أحصى كلّ شيء عدداً﴾.

[**مبتدع الخلائق بعلمه**] قال ابن أبي الحديد: ليس يريد أنّ العلم علّة في الإبداع كما يقال هو الحجر بثقله، بل المراد أبدع الخلق وهو عالم كما تقول خرج زيد بسلاحه أي: خرج متسلّحاً، فموضع الجار والمجرود نصب بالحالية وكذا القول في [**ومنشئهم بحكمه**] والحكم ههنا الحكمة، انتهى.

أقول: إذا كانت صفاته تعالى عين ذاته فلا تفاوت في أن تستند المخلوقات إلى ذاته أو إلى علمه أو قدرته أو غيرها.

وقوله: [**بلا اقتداء ولا تعليم**] أي: لم يكن إبداعه وإنشائه للخلق على

ولا احتذاء لمثال صانع حكيم ولا أصابه خطأ ولا حضره ملأ وأشهدُ أنّ محمّداً عبده ورسوله ابتعثه والناس يضربون في غمرة ويموجون في حيرة قد قادتهم أزمّة الحين

وجه اقتدائه بغير ممّن سبقه إلى ذلك ولا على وجه التعلّم منه والاقتداء أعمّ من التعلّم وهو معنى قوله:

[**ولا احتذاء لمثال صانع حكيم**] وقوله: [**ولا أصابه خطأ**] أي: لم يكن بإنشائه للخلق أوّلاً اتفاقاً على سبيل الاضطراب والخطأ من غير علم ثمّ علمه بعد ذلك فاستدرك عقله وأحكمه فأصاب وجه المصلحة فيه، والإضافة بمعنى اللام.

[**ولا حضره ملأ**] أي: لم يكن خلقه لما خلق بمحضر جماعة من العقلاء يعاضدوه بالرأي وغيره، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلّين عضداً﴾.

[**وأشهدُ أنّ محمّداً عبده**] المصطفى [**ورسوله**] المرتضى [**ابتعثه**] بالهدى ودين الحقّ [**والناس يضربون في غمرة**] الواو للحال، والجملة حالية، أي: والحال أنّ الناس عند مقدم يسيرون في جهالة وهو كناية عن تصرّفاتهم على جهل منهم بما ينبغي لهم من وجوه التصرّف، والضرب: السير السريع، والغمرة ما يغمر العقل من الجهل ويطلق على الشدّة أيضاً.

[**ويموجون في حيرة**] كناية عن تردّدهم في حيرة الضلال والجهل وفي حيرة من الشدائد المذكورة.

[**قد قادتهم أزمّة الحين**] أي: الهلاك، أي: قد تداعوا للموت والفناء من كثرة الغارات وشدائد سوء المعاش وظلم بعضهم لبعض؛ لأنّ الناس إذا

واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه فإنّه حقّ اللّه عليكم والموجبة على اللّه حقّكم وأن تستعينوا عليها باللّه واستعينوا بها على اللّه

لم يكن بينهم نظام عدل ولم يجر في أُمورهم قانون شرعي أسرع فيهم ظلم بعضهم لبعض واستلزم ذلك فنائهم، ولمّا استعار لفظ الأزمّة رشح بذكر القول.

[**واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين**] الرين: الطبع، وغلبة الذنوب حتى تغطّي عين البصيرة وران على قلبه ذنبه يرين ريناً، أي: دنّسه ووسّخه، والمراد بين الجهل وتغطيته لقلوبهم عن أنوار اللّه تعالى والاستضائة بأضواء الشريعة واستعار الأقفال لغواشي الجهل والهيئات الردية المكتسبة من الإقبال على الدنيا، ووجه الشبه أنّ تلك مانعة للقلب وحاجبة له عن قبول الحقّ والاهتداء به كما تمنع الأقفال ما تغلق عليه من التصرّف، ورشح بذكر الاستغلاق وأتى بلفظ الاستفعال لأنّ ذلك الرّين كان آخذاً في الزيادة ومشغلاً من حال إلى حال فكان فيه معنى الطلب للتمام.

[**أُوصيكم عباداللّه بتقوى اللّه**] لأنّها رأس كلّ مطلوب وفوق كلّ مرغوب.

[**فإنّه حقّ اللّه عليكم**] أي: مطلوبة للّه أوجبها عليكم، [**والموجبة على اللّه حقّكم**] وهو جزاء طاعتكم الذي أوجبه على نفسه [**وأن تستعينوا عليها**] أي: على قطع عقباتها [**باللّه**] والانقطاع إليه أن يعينه عليها ويوفقه لها وأنّ الانقطاع إلى معونته والالتفات إليه مادّة كلّ مطلوب.

ثمّ أشار إلى فائدتها وهي الاستعانة بها على اللّه كما قال: [**واستعينوا بها على اللّه**] ولمّا كان المطلوب منه الوصول إلى ساحة عزّته والسلامة عن

فإنّ التقوى في اليوم الحرز والجنّة وفي غد الطريق إلى الجنّة مسلكها واضح وسالكها رابح ومستودعها حافظ لنفسه

غضبه كانت التقوى أجلّ ما يستعدّ به لحصول تلك المطالب وكان السعيد من استعان بها على رفع شدائده في الآخرة فإنّه لا خلاص منها إلا بها.

ثمّ ذكر ما يستلزمه من الأمور المرغوب فيها كما قال: [**فإنّ التقوى في اليوم**] أي: في مدّة الحياة [**الحرز والجنّة**] من المكاره الدنيوية كما قال تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾.

[**وفي غد**] أي: في يوم القيامة [**الطريق إلى الجنّة**] لأنّها توصل إليها [**مسلكها واضح**] لانّ الشارع أوضح طرق التقوى وكشف سبلها حتّى لا يجهلها إلا جاهل.

[**وسالكها رابح**] استعار الربح لما يحصل عليه المتّقي من ثمرات التقوى في الدنيا والآخرة ووجه الاستعارة أنّه بحركاته وتقواه التي تشبه رأس ماله يستفيد الثواب كما يستفيد التاجر بكسبه. [**ومستودعها**] بفتح الدال: قابل الوديعة وبكسرها: فاعلها.

[**حافظ لنفسه**] بها من عذاب اللّه على الأوّل أو بمعنى محفوظ وعلى الكسر فالمستودع إمّا اللّه إذ هي الأمانة التي عرضها على السموات والأرض فابين أن يحملنها وظاهر كونه تعالى حافظاً على العبد المستودع أحواله فيها من تفريطه وتقصيره وأمانته ومحافظته عليها. وأمّا الملائكة فظاهر كونهم حفظة كما قال تعالى: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ وقال: وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾.

لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين والمغابرين لحاجتهم إليها غداً إذا أعاد اللّه ما ـــــ وأخذ ما أعطى وسئل عما أسدى فما أقلّ من قبلها

وقوله: [**لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين والمغابرين**] أي: لم تزل التقوى عارضة نفسها على من سلف من القرون فبلها القليل منهم شبّهها بالامرأة الصالحة التي تعرض نفسها للتزويج والانتفاع بها فرغب فيه من رغب وزهد من زهد ثمّ علّل كونها لم تبرح كذلك بقوله: [**لحاجتهم**] أي: لحاجة الخلق [**إليها غداً**] أي: في القيامة ترغيباً فيها بكونها محتاجاً إليها.

[**إذا أعاد اللّه ما ـــــ**] يعني نشر الموتى.

[**وأخذ ما أعطى**] أي: ورث الأرض وممالك الملوك وأخذ ما أعطاهم من الوجود الدنيوي ولواحقه ويقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾ فيجيب نفسه بقوله: ﴿للّه الواحد القهّار﴾ وروي انّ اللّه يجمع الذهب والفضّة كلّما كان عنه في الدنيا فيجعله أمثال الجبال ثمّ يقول: هذا فتنة بني آدم، ثمّ يسوقه إلى جهنّم فيجعله مكاوي لجباه المجرمين.

[**وسئل عما أسدى**] أي: أرسل معروفه، أي: يسئل أرباب الترف عمّا أُسدي إليهم من النعم فيم صرفوها أو من أين جمعوها وفي أيّ شيء أنفقوها فيقول: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ ويجازي بالعقوبة من ادّخرها كما قال: ﴿والّذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل اللّه فبشّرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم هذا ما أكنزتم لانفسكم﴾.

وحملها حقّ حملها الأقلون عدداً وهم أهل صفة اللّه سبحانه إذ يقول وقليل من عبادي الشكور فاهطعوا بأسماعكم إليها وواكظوا بجدّكم عليها واعتاضوها من كلّ سلف خلفاً ومن كلّ مخالف موافقاً أيقظوا بها نومكم واقطعوا بها يومكم وأشعروها

[**فما أقلّ من قبلها**] تعجّب من قلّة من قبل التقوى العارضة نفسها.

[**وحملها حقّ حملها الأقلون عدداً وهم أهل صفة اللّه سبحانه**] أي: الذين وصفهم اللّه تعالى [**إذ يقول وقليل من عبادي الشكور**] ثمّ أمرهم فيها بأوامر أحدها قوله: [**فاهطعوا بأسماعكم إليها**] أي: اسرعوا إلى سماع وصفها وشرحها لتعرفوها فتعملوا على بصيرة [**وواكظوا**] أي: واطلبوا والمواكظة: المداومة.

[**بجدّكم عليها**] أي: داوموا عليها ولازموها باجتهاد منكم، وروي وانقطعوا بأسماعكم إليها أي: انقطعوا عن علائق الدنيا واستيخوا أسماعكم إلى سماع وصفها.

[**واعتاضوها من كلّ سلف خلفاً ومن كلّ مخالف موافقاً**] أي: اعتاضوها خلفاً من كلّ محبوب في الدنيا سلف ونعم الخلف ما سلف إذ كانت المطالب الحاصلة بها أنفس المطالب وخلقاص مصدر سدّ مسدّ الحال [**أيقظوا بها نومكم**] أي: اطردوا بتقوى اللّه وعبادته والتهجّد بالأسحار نومكم في ليلكم أو أيقظوا بها نيامكم فأقام المصدر مقام اسم الفاعل ويحتمل أن يريد بالنوم نوم الغفلة والجهل وبإيقاظ النائمين منهم بها تنبيههم من مراقد الطبيعة.

[**واقطعوا بها يومكم**] أي: اقطعوا بالاشتغال بها نهاركم [**وأشعروها**

قلوبكم وارحضوا بها ذنوبكم وداووا بها الأسقام وبادروا بها الحِمام واعتبروا بمن أضاعها

قلوبكم] أي: اجعلوها شعاراً لقلوبكم وألبسوها كما يلبس الشعار وهو ما يلي الجسد تحت الدثار، ووجه استعارة الشعار لها كون التقوى الحقيقية تلازم النفس وتتصل بالقلب كما يتّصل الشعار بالجسد ويحتمل أن يريد اجعلوها علامة لقلوبكم لتميّزها عن قلوب الظالمينأو المراد اعلموها بها واجعلوها شاعرة بتفاصيلها ولوازمها.

[وارحضوا بها ذنوبكم] الرحض: الغسل، وثوب رحيط ومرحوظ أي: مغسول، أي: اغسلوا ذنوبكم بالاشتغال بالتقوى ولفظ الرحض مستعار لاعتبار كون التقوى ماحية لدرن الذنوب والملكات المهلكة عن ألواح النفوس كما يمحو الغسل درن الثوب وأوساخه.

[وداووا بها الأسقام] أي: أسقام الذنوب وأمراض القلوب كالجهل والشكّ والنفاق والرياء والحسد والكبر والبخل وجميع رذائل الأخلاق التي هي في الحقيقة الأسقام المهلكة ولاشتمال التقوى على جميع الأعمال الجميلة والملكات الاضلة كانت دواء لهذه الأسقام وشفاء لهذه الآلام.

[وبادروا بها الحِمام] أي: سارعوا بالأعمال الصالحة قبل أن يدهمكم الموت.

[واعتبروا بمن أضاعها] أي: انظروا إلى الأمم السالفة قبلكم ممن أضاع التقوى وفكّروا في حاله كيف أضاعها لأمر لم يبق له ففاته ما طلب ولم يدرك ما فيه رغب، بل وقع على الهلاك وسوء المنقلب فليكن حالهم لكم عبرة وحاملاً لكم على التقوى خوفاً من أن ينزل بكم ما نزل بمن أضاعها من

ولا يعتبرن بكم من أطاعها ألا وصونوها وتصوّنوا بها وكونوا عن الدنيا نزّاهاً إلى الآخرة ولاّهاً ولا تضعوا من رفعته التقوى ولا ترفعوا من رفعته الدنيا ولا تشموا بارقها

الخيبة والحرمان والرجوع إلى دار الهوان.

[**ولا يعتبرن بكم من أطاعها**] أي: لا تجعلوا أنفسكم عبرة لمن انقاد إلى التقوى ودخل فيها والمراد النهي عن دخولهم في زمرة من أضاعها فيكونوا عبرة لمن أطاعها فنهى عن لازم الإضاعة وهو اعتبار غيرهم بهم [**ألا وصونوها**] بشدّة التحفيظ فيأمن من الخلط برياء أو سمعة.

[**وتصوّنوا بها**] فلا تمزجوها بشيء من الرذائل والمعاصي.

[**وكونوا عن الدنيا نزّاهاً**] أي: متنزّهين عمّا حرّم اللّه عليكم في الدنيا وكرهه منها مما يوجب الذمّ عاجلاً والعقاب آجلاً وكونوا [**إلى الآخرة ولاّهاً**] أي: متحيّرين من شدّة الشهوات وذلك مستلزم للأمر بالتقوى والانقطاع عن الدنيا إلى الأعمال الصالحة لأنّها هي السبب في محبّة الآخرة والرغبة التامّة فيما عند اللّه والوله جمع واله وهو المشتاق الوجد حتّى يكاد يذهب عقله.

[**ولا تضعوا من رفعته التقوى**] بقول كذمّه والاستهزاء به أو بفعل كضربه وإهانته أو ترك كترك ما يستلزم أذيته وإهانته [**ولا ترفعوا من رفعته الدنيا**] أي: من كان ارتفاعه ووجاهته عند الخلق بسبب الدنيا أو من رفعه أهل الدنيا إذ من رفعته الدنيا عادل عن التقوى فكان الميل إليه واحترامه ومحبّته يستلزم محبّة الدنيا؛ فلذا نهى عنه والانحراف عنه وعدم توقيره زهد في الدنيا وأهلها وهو من جملة التقوى، فكان مأموراً به.

[**ولا تشموا بارقها**] الشيم: النظر إلى البرق انتظاراً للمطر، استعار

ولا تسمعوا ناطقها ولا تجيبوا ناعقها ولا تستضيئوا بإشراقها ولا تفتتنوا بأعلاقها

البارق لما يلوح للناس في الدنيا من مطامعها ومطالبها ووصف الشيم لتوقّع تلك المطالب وانتظارها والتطلّع إليها على سبيل الكناية عن كونها كالسحابة التي يلوح بارقها فيتوقّع منه المطر.

[**ولا تسمعوا ناطقها**] وكنّى بناطقها عن مادحها وما كشف وصفها وزينها من قول أو فعل أو زينة أو متاع وبسماعه عن الاصغاء والميل إليه وتصديق متعاله وتصويب شهادته.

[**ولا تجيبوا ناعقها**] كنّى به عن الداعي إليها وبإجابته عن موافقته ومتابعته.

[**ولا تستضيئوا بإشراقها**] استعار الإشراق لوجوه المصالح الداعية إليها والآراء الهادية إلى طرق تحصيلها أو كيفيّة السعي فيها، ووصف الاستضائة للاهتداء بتلك الآراء في طلبها، ووجه الشبه أنّ تلك الآراء يهتدى بها في تحصيلها كما يهتدى بالإشراق المحسوس ويحتمل أن يريد بإشراقها ما يبتهج من زينتها وبالاستضائة ذلك الابتهاج والالتذاذ على سبيل الاستعارة ووجهها مشاركة زينتها للضياء في كونه سبباص ممدّاً للأرواح وباسطاً لها.

[**ولا تفتتنوا بأعلاقها**] جمع علق وهو الشيء النفيس، والمراد ما يعدّ نيساً من متاعها وهو مستلزم للنهي عن محبّة الدنيا والانهماك في لذّاتها لأنّ ذلك هو الغار لهم والمضلّ عن سبيل اللّه وهو سبب بلائهم ومحنتهم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ قيل: أي: بلاء ومحنة وشغل عن الآخرة والإنسان بسبب المال والولد يقع في العظائم ويتناول

فإنّ برقها خالب ونطقها كاذب وأموالها مخروبة وأعلاقها مسلوبة ألا وهي المتصدّية العنون

الحرام إلا من عصم اللّه.

وقوله: [**فإنّ برقها خالب**] تعليل للنهي عن شيم بارقها واستعار وصف الخالب لما لاح من مطامعها ووجه الشبه كون مطامعها وآمالها غير مدركة وإن أُدرك بعضها ففي معرض الزوال كأن لم يحصل، فأشبهت البرق الذي لا ماء معه.

[**ونطقها كاذب**] تعليل للنهي عن سماع نطقها أي: النطق الحاصل في معناها من مدحها وأنّها مما ينبغي أن يطلب ويدّخر ووصف نفسها ولذّاتها بلسان حالها الذي تغترّ به الأوهام الفاسدة وكونه كذباً كناية عن عدم مطابقة ذلك الوصف لحالها في نفس الأمر.

[**وأموالها مخروبة**] كالتعليل لنهيه عن الاستضائة بإشراقها أي: لا ينبغي أن يستعمل الآراء الحسنة والحيل في تحصيل أموالها ولا ينبغي أن يحبّ زينتها وأموالها ويبتهج بها فإنّها مأخوذة.

[**وأعلاقها مسلوبة**] تعليل لنهيه عن الافتتان بأعلاقها، ويحتمل أن تكون هذه القرينة مع التي قبلها تعليل للنهي عن الفتنة بأعلاقها ثمّ أردف تلك الأوصاف بالتنبيه على أوصاف أُخرى ونقايص لها مستعارة تنفيراً عنها فقال:

[**ألا وهي المتصدّية العنون**] المتصدّية: المتعرّضة، والعنون: كثير العنن، وهو الاعتراض والعنون أيضاً الدابّة المتقدّمة في السير، ولعلّه استعارة لوصف الفرس أو الناقة التي تمشي في الطريق معترضة حائطاً،

والجامحة الحرون والمانية الخؤن والجحود الكنود العنود الصدود

والعنوان استعارة لوصف الدابّة المتقدّمة في السير كنّى بهما عن لحوق الدنيا بالدابة تكون كذلك وقيل هو استعارة وصف الامرأة الفاجرة التي من شأنها التعرّض للرجال لتخدعهم عن أنفسهم.

[والجامحة الحرون] الجموح: الدابة التي تقلب الفارس فلا يملكها، والحرون: الذي إذا اشتدّ به السوق وقف، استعار وصف الجماح لها باعتبار كونها لا تملك لأهلها ولا تنقاد لهم كما تنقاد الحرون لراكبها وكذا وصف الحرون باعتبار عدم انقيادها لأهلها وعدم قدرتهم على تصريفها في حالة ما يكونوا أحوج إليها.

[والمانية الخؤن] المانية: الكاذبة، استعاره لها باعتبار عدم مطابقة اغترارها للناس بزينتها ومساعيها وتوهّمهم عن ذلك بقائها ونفعها وعن قليل ينكشف كذبها فيما غرّتهم به وكذب أوهامهم فيها وكذا وصف الخؤن باعتبار عدم وفائها لمن غرّته وخدعته عن نفسه بزينتها فكأنّها لذلك أعطته عهداً بدوامها لها فخانته بزوالها عنه ولم تقف بعده.

[والجحود الكنود] أي: الكفور للنعمة واستعار هذين الوصفين ملاحظةً لشبهها بالمرأة التي تكفر نعمة زوجها وتنكر صنيعه ويكون من شأنها الغدر وذلك لأن الدنيا من شأنها أن تنفر عمّن رغب فيها وسعى لها واجتهد في عمارتها وإظهار زينتها وتكون سبب هلاكه ثمّ تنتقل عنه إلى غيره.

[العنود الصدود] لعدولها عن حال استقامتها على الأحوال المطلوبة للناس وانحرافها عن سنن قصودهم منها، كالناقة التي تنحرف عن المرعى المعتاد للإبل وترعى جانباً، وكذلك الصدود باعتبار كثرة إعراضها عمّن

والحيود الميود حالها انتقال ووطأتها زلزال وعزّها ذلّ وجدّها هزل

طلبها ورغب فيها.

[والحيود الميود] يقال: حادت الناقة عن كذا تحيد فهي حيود: إذا مالت عنه، ومادت تميد وهي ميود: أي مالت، فإن كانت عادتها ذلك سمّيت الحيود الميود واستعارة الحيود ظاهرة وأمّا الميود باعتبار تردّدها في ميلها بالنسبة إلى بعض أشخاص الناس من حال آخر فتارة لهم وتارة عليهم، ويحتمل إرادة مطلق الحركة استعارة لكثرة تغيّرها وانتقالها.

[حالها انتقال] من شخص إلى آخر ومن حال إلى حال، أو المراد شيمتها وسجيّتها الانتقال والتغيّر أو المراد بالحال الحاضر من الزمان وهو الآن، أي: الذي يحكم عليه بالحضور وهو الآن بل هو سيّال متغيّر لا ثبوت له في الحقيقة كما لا ثبوت للماضي والمستقبل.

[ووطأتها زلزال] استعار الوطأة لإصابتها ببعض شدائدها ووجه الاستعارة استلزام إصابتها بذلك إهانة من أصابته والثقل عليه كما تستلزم وطأته الثقيل من الحيوان ذلك، واستعار الزلزال لاضطراب أحوال من تصيبه بمكروه كاضطراب الأرض بالزلزال.

[وعزّها ذلّ] في الآخرة إذ كان العزّ بالدنيا مستلزماً للانحراف عن الدّين والتقوى الحقّة مستلزم للذلّ الأكبر عند لقاء اللّه، وأُشير إليه بقوله تعالى: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾، ﴿وللّه العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾.

[وجدّها هزل] استعار الجدّ وهو القيام في الأمر بعناية واجتهاد لإقبالها على بعض أهلها بخيراتها كالصديق المعتني بحال صديقه ولإدبارها

وعلوّها سفل دار حرب وسلب ونهب وعطب أهلها على ساق وسياق ولحاق وفراق قد تحيّرت مذاهبها

عن بعضهم وإصابتها له بمكروهها كالعدوّ القاصد لهلاك عدوّه، واستعار لجدّها لفظ الهزل الذي هو ضدّه لكونها عند إقبالها على الإنسان كالمعتنية بحاله أو عند إعراضها عنه ورميه بالمصائب كالقاصدة لذلك ثمّ يشرع انتقالها عن تلك الحال إلى ضدّها فهي في ذلك كالهازل اللاعب، أو المراد جدّ أهلها هزل، أي: عنايتهم بها واجتهادهم في تحصيلها يبه الهزل واللّعب في سرعة تغيّره والانتقال عنه بزوالها.

[وعلوّها] أي: العلوّ الحاصل بسببها أو علوّ أهلها.

[سفل] وانحطاط مرتبة في الآخرة، وهو كقوله «وعزّها ذلّ».

[دار حرب وسلب ونهب وعطب] لأنّ ما فيها يسلب عن أهلها في كلّ زمان ويصل إلى من بعدهم كدار الحرب والنهب والعطب والحرب بفتح الراء سلب المثال والسلب ما يسلب من درع ونحوه في الحرب والعطب: الهلاك.

[أهلها على ساق وسياق ولحاق وفراق] والساق: الشدّة، والسياق: نزع الروح، مصدر ساقه سوقاً وسياقاً، ومعلوم كون أهلها على شدّة، إذ كلّما عدّد من أوصافها من الحرب والسلب والعطب شدائد، والمراد يساقون إلى الآخرة، ولحاق بفتح اللام أي: يلحق بعضهم بعضاً في الوجود والعدم وفراق يفارق بعضهم بعضاً أو يراد باللّحاق لحاق الأحياء للموتى في العدم.

[قد تحيّرت مذاهبها] أي: تحيّر أهلها في مذاهبهم ومسالكهم في تحصيل خيرها ودفع شرّها.

وأعجزت مهاربها وخانت مطالبها فأسلمتهم المعاقل ولفظتهم المنازل وأعيتهم المحاول فمن ناج معقور ولحم مجزور وشلو مذبوح ودم مسفوح وعاضّ على يديه

[**وأعجزت مهاربها**] أي: أعجزت من طلبها فحذف المفعول ومهاربها موضع الهرب من شرورها.

[**وخانت مطالبها**] استعار الخيانة للمطالب لعدم حصولها بعد ظهورها للأوهام وتعلّق الآمال بها فأشبهت من وعد بحصول شيء لم يف به ثمّ عقّب ذلك بذكر بعض لوازم خيانة مطالبها فقال: [**فأسلمتهم المعاقل**] وهي: الحصون وما يلجأ إليه، واستعار لها الإسلام باعتبار كونها لا تحفظهم من الرزايا ولا تحصنهم من سهام المنايا فأشبهت في ذلك من أسلم الملتجي إليه وخلّى عنه لعدوّه، ولكون ذلك لازماً عطفه بالفاء وكذا قوله: [**ولفظتهم**] أي: ألقتهم [**المنازل**] استعار لهم المنازل باعتبار خروجهم منها بالموت فهي كاللافظة الملقية لهم.

[**وأعيتهم المحاول**] جمع محالة: وهي الحيلة، أي: أعجزتهم المطالب ثمّ وصف أحوال أهل الدنيا فقال: [**فمن ناج معقور**] أي: مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه وقد جرح بدنه وكنّى به عمّن رمي بالمصائب فيها.

[**ولحم مجزور**] أي: قتيل قد صار جزراً للسباع، [**وشلو مذبوح**] أي: صار بعد الذبيح أشلاء متفرّقة واراد بالذبح مطلق الشقّ والشلو: العضو من اللحم بعد الذبح، وأشلاء الإنسان: أعضائه المتفرّقة في البلاء.

[**ودم مسفوح**] أي: ذي دم مسفوح، [**وعاضّ على يديه**] وهو كناية عن ندم الظالم بعد الموت على التفريط والتقصير، إذ كان من شأن الندام

وصافق بكفّيه ومرتفق بخدّيه وزار على رأيه وراجع عن عزمه وقد أدبرت الحيلة وأقبلت الغيلة ولات حين مناص

ذلك، قال تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه﴾.

[**وصافق بكفّيه**] أي: ضارب إحديهما على الأخرى ندماً، أو صافق بكفّيه تأسّفاً أو تعجّباً.

[**ومرتفق بخدّيه**] أي: جاعل مرفقيه تحت خدّيه فعل النادم المفكّر.

[**وزار**] أي: عائب [**على رأيه**] أي: يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه أو كنّى عن رأيه الذي اقتضى له السعي في جمع الدنيا والالتفات إليها بكلّيته حتّى لزم من ذلك إعراضه عن الآخرة فحاق به سيّىء ما كسب، فإذا انكشف له بعد الموت لزوم العقاب علم أنّه ثمرة رأيه الفاسد فأزرى عليه وأنكره.

[**وراجع عن عزمه**] أي: ما كان عزم عليه من عمارة الدنيا والسعي في تحصيلها وبالموت تنحلّ تلك العزوم.

[**وقد أدبرت الحيلة**] الواو للحال من الضمير في راجع أي: وراجع عن عزمه حال قد أدبرت حيلته وهذه الحال مفسّرة لمثلها عن الضمائر المرفوعة في عاضّ وضائق ومرتفق وزار.

وقوله: [**وأقبلت الغيلة**] وهي الأخذ على غرّة، أي: أخذهم إلى جهنّم وإهلاكهم فيها على غرّة منهم بذلك الأخذ، وقيل يحتمل أن يريد بالغيلة الشرّ بمعنى الغائلة.

[**ولات حين مناص**] في موضع الحال والعامل اقبلت، أي: أقبل الهلاك والشرّ حال ما ليس لهم وقت فرار ولا تأخّر عنه اقتباس من قوله

هيهات ثمّ هيهات قد فات ما فات وذهب ما ذهب ومضت الدنيا الحال بالها فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين

تعالى: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾ أي: فنادوا مستغيثين حال ما ليس الوقت وقت مخلص ومفرّ.

وقوله: [**هيهات ثمّ هيهات**] أي: بعد الخلاص والفرار، وأتى به مكرّراً للتأكيد في مقابلة قول الكفّار المنكرين لأحوال المعاد هيهات هيهات لما توعدون.

وقوله: [**قد فات ما فات**] أي: فات ما كنتم فيه من أحوال الدنيا التي تتمنّون الرجعة إليها فلا رجوع لها ونحوه قوله تعالى: ﴿قال ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾.

وكذا قوله: [**وذهب ما ذهب**] وقوله: [**ومضت الدنيا الحال بالها**] كلمة تقال فيما انقضى وفرّط أمره، ومعناه مضى بما فيه إن كان خيراً وإن كان شرّاً، وقيل: أراد بحال بالها ما كانت عليه من رخائها وسهولتها على أهلها، وقوله «وأقبلت الآخرة» أي: بشدّتها وصعوبتها ثمّ ختم بالآية اقتباساً.

قال: [**فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**] أي: إنّهم لمّا ركنوا إلى الدنيا فعلت بهم ما فعلت وحملوا على ما حصّلوا عليه من البداهة وولّت عنهم لشأنها فما بكت عليهم السماء والأرض، وقيل أراد في الآية أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض، فحذف المضاف وهو كناية عن كونهم لا يستحقون أن يتأسّف عليهم ولا أن يبكون، وقيل أراد المبالغة في تحقير شانهم وقيل يبكيه مصلاّه في الأرض ومصعد عمله في السماء، وفي

الحمد للّه الذي لبس العزّ والكبرياء

النبوي: «ما من مسلم إلا وله بابان باب يصعد فيه عمله وباب ينزل منه رزقه إلى الأرض فإذا مات بكيا عليه» فذلك قوله ﴿فما بكت﴾ الآية.

ومن خطبة له عليه السلام

ومن الناس من يسمّي هذه الخطبة القاصعة وهي تتضمّن ذمّ إبليس لعنه اللّه على استكباره وتركه السجود لآدم وأنّه أوّل من أظهر العصبية وتبع الحمية وتحذير الناس من سلوك طريقته وحكي في سبب هذه الخطبة أنّ أهل الكوفة كانوا في آخر خلافته قد فسدوا وكانوا قبايل متعددة فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أُخرى فيقع به أدنى مكروه فيعتزي إلى قبيلة فينادي باسمها نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ فيتألّب عليه فتيان القبيلة التي قد مرّ بها وينادون بآل تميم بآل ربيعة فيضربونه فيمضي هو إلى قبيلته ويستصرخ بها وتسلّ بينهم السيوف وتثور الفتنة ولا يكون لها أصل في الحقيقة ولا سبب يعرف وكثر ذلك منهم فخرج عليه السلام على ناقة له فخطبهم بهذه الخطبة وسمّيت قاصعة لأنّ المواعظ والزواجر فيها متتابعة فأشبهت حرات الناقة وتتابعها أو لأنّها هاشمة كاسرة لإبليس ومصغّرة له ومحقّرة لكلّ جبّار أو لأنّها تسكّن نخوة المتكبّرين فأشبهت الماء الذي يسكّن العطش من قولهم قصع الماء عطشه أي: سكّنه وأذهبه أو أنّه عليه السلام كان يخطب بها على ناقته وهي تقصع بحرتها.

فقال: [الحمد للّه الذي لبس العزّ والكبرياء] استعار اللّبس باعتبار

واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمى وحرماً على غيره واصطفاهم لجلاله وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب

إحاطة كماله بكلّ اعتبار له كما يحيط القميص والرداء بجسد لابسه.

[**واختارهما لنفسه دون خلقه**] أي: تفرّد باستحقاقهما لذاته فإنّ المستحقّ لهما بالذات ليس إلا هو، قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو الكبير المتعال﴾ وأُشير بهما إلى الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته».

[**وجعلهما حمى وحرماً على غيره**] أي: اختصّ بهما وحرمهما وحماهما عن الغير كما يحمي الملك المرعى والحرم.

[**واصطفاهم لجلاله**] أي: لتقدّسه وعلوّه عن شبه مخلوقاته استحقّ الانفراد بالاتصاف بهما وهو معنى اصطفائه إيّاهما.

[**وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده**] إشارة إلى قوله تعالى في الحديث القدسي: «فمن نازعني فيهما ألقيته في جهنّم» ولا شكّ انّ الملقى فيها مطرود عن الخير مبعّد عن الرحمة.

[**ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين**] أي: ابتلاهم بالتكبّر وعدمه أي: عاملهم معاملة الممتحن المختبر حيث كان ثوابه وعقابه للخلق موقوفين على تكليفهم بما كلّفهم به، فإنّ أطاعوه أثابهم، وإن عصوه عاقبهم، فأشبه ذلك اختبار الإنسان لعبيده وتمييزه المطيع من العاصي.

وقوله: [**فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب**] قرينة مخرجة للاختبار عن حقيقته ودفع لما يوهمه من جهالة الحال

إنّي خالقٌ بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه وتعصّب عليه لأصله فعدّ واللّه إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ونازع اللّه رداء الجبرية وأدرع لباس التعزّز وخلع قناع المتذلّل

[**إنّي خالقٌ بشراً من طين**] يعني آدم عليه السلام [**فإذا سوّيته**] أي: أكملت خلقته [**ونفخت فيه من روحي**] روح مخلوقه أُضيفت إليه تعالى تشريفاً لها.

[**فقعوا له ساجدين**] قيل: كان قبلة لهم، والسجود للّه كما في الكعبة، وقيل: بل كان السجود له تكرمة.

[**فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه**] قائلاً: ءأسجدُ لمن خلقت طيناً ءأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون؟

[**وتعصّب عليه لأصله**] بقوله: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

[**فعدّ واللّه إمام المتعصّبين**] لكونه منشأ الرذيلة العصبية في غير الحقّ والمقتدى به فيها.

[**وسلف المستكبرين**] حيث تقدّم بالاستكبار على المتكبّرين.

[**الذي وضع أساس العصبية**] إذ كانت عصبيته لأصله كالأساس بنى عليها الخلق سائر العصبيات واقتدوا به فيها.

[**ونازع اللّه رداء الجبرية**] بتجبّره وتكبّره، إشارة إلى الحديث القدسي المقدّم، وكذا قوله: [**وأدرع لباس التعزّز**] واستعار لفظ الادّراع له من حيث اشتماله وتلبّسه بالتعزّز ورشح بذكر اللّباس وكذا قوله: [**وخلع قناع المتذلّل**]

ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبّره ووضعه بترفّعه فجعله في الدنيا مدحوراً وأعدّ له في الآخرة سعيراً ولو أراد اللّه أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضيائه ويبهر العقول روائه وطيبٌ يأخذ الأنفاس عُرفه لفعل ولو فعل لظلّت الأعناق له خاضعة

استعار لفظ الخلع ورشح بذكر القناع.

وقوله: [**ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبّره ووضعه بترفّعه**] إشارة إلى تصغير اللّه إيّاه ووضعه بسبب تكبّره وتعظّمه وأشار إلى ذلك بقوله: [**فجعله في الدنيا مدحوراً**] بعد إخراجه من الجنّة بقوله: ﴿أُخرج منها مذموماً مدحوراً﴾.

[**وأعدّ له في الآخرة سعيراً**] بقوله: ﴿لأملأنّ منك وممّن تبعك منهم أجمعين﴾.

[**ولو أراد اللّه**] سبحانه [**أن يخلق آدم**] عليه السلام [**من نور يخطف الأبصار ضيائه ويبهر العقول روائه**] أي: حسنه [**وطيبٌ يأخذ الأنفاس عُرفه**] ورائحته ولم يخلق من طين ظلماني كثيف [**لفعل**] لأنّه أمر ممكن مقدور له وهو ﴿على كلّ شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، ويحتمل أن يكون المراد أنّه لو أراد خلقه روحانياً مجرّداً عن علاقة المواد المظلمة لفعل.

[**ولو فعل**] ذلك [**لظلّت الأعناق**] من الملائكة والجنّ [**له خاضعة**] لشرف جوهره على الطين ولم يكن ممن يفسد في الأرض ويسفك الدماء حتّى تقول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ ولا من طين منتن حتّى يفخر عليه إبليس من أصله ويقول: ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

ولحقت البلوى فيه على الملائكة ولكنّ اللّه سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختيار لهم ونفياً للاستكبار عنهم وإبعاداً للخيلاء منهم إذ أحبط عمله الطويل

[**ولحقت البلوى فيه على الملائكة**] من حيث شرف جوهره فإنّ من العادة أن يستنكف الشريف من الخضوع لمن دونه في أصله ويشقّ عليه التكليف بذلك في حقّه بخلاف ما إذا كانا متماثلين في الجوهر، فإنّ تكليفه بخدمته يكون عليه أسهل وأخفّ ولأنّهم لم يكونوا عالمين بالسرّ الذي خلق له آدم عليه السلام وهو كونه صالحاً لخلافة اللّه في عمارة الأرض وإصلاح أبناء نوعه كما قال تعالى في جواب قولهم: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾؟ ﴿إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾. ومعلوم انّ تكليف النفس بما تطّلع على سرّه وتعلم وجه الحكمة فيه أسهل عليها من تكليفها بما تجهله فلو خلقه تعالى من نور مناسباً لخلقهم لعلموا سرّ خلقه فلم يشقّ عليهم التكليف بالسجود له ويؤيّد ذلك قوله: [**ولكنّ اللّه سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله**] وهو تكليفهم بالسجود لآدم مع جهلهم بأصل ذلك التكليف والغرض منه أو جهلهم بآدم وسرّ خلقه الذي هو أصل لذلك التكليف.

[**تمييزاً**] نصب على المفعول له وكذا قوله فيما بعد وهنا وإبعاداً أي: ليميّز المطيع من العاصي.

[**بالاختيار لهم**] بذلك التكليف [**ونفياً للاستكبار عنهم وإبعاداً للخيلاء منهم**] أي: لينفي رذيلة الكبر والخيلاء عنهم، والخيلاء بضمّ الخاء: أثره في الكبر.

[**إذ أحبط عمله الطويل**] أي: بطل ثوابه وقد حبط العمل حبطاً

وجهده الجهيد وقد كان عبد اللّه ستّة آلا سنة لا يُدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة على كبر ساعة واحدة فمن بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته

بالتسكين وحبوطاً، وفي اصطلاح المتكلّمين يسمّى بطلان الثواب إحباطاً وبطلان العقاب تكفيراً.

[**وجهده**] بفتح الجيم أي: اجتهاده [**الجهيد**] المستقصى فيه [**وقد كان عبد اللّه ستّة آلا سنة لا يُدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة على كبر ساعة واحدة**] قال ابن أبي الحديد: وهذا يدلّ على أنّه قد سمع فيه نصّاً من رسول اللّه ﷺ مجملاً لم يفسّره له أو فسّره له خاصّة ولم يفسّره أميرالمؤمنين للناس لما يعلمه في كتمانه عنهم من المصلحة، وسنيّ الآخرة إشارة إلى قوله تعالى في عدّة مواضع ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وقوله: ﴿وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون﴾ فيكون مقدار عبادته ألفا ألف ألف ومائة ألف ألف وستون ألف ألف سنة من سني الدنيا. ولعلّه ﷺ أبهم ذلك لعدم تحمّل أذهان السامعين له، ووجه الاعتبار أنّه إذا كان حال من تكبّر من الملائكة بعد عبادة ستة آلاف سنة كذلك فكيف بالمتكبّرين من البشر على قصر مدّة عبادتهم وكونهم بشراً، فبطريق أولى أن يكونوا كذلك.

وقوله: [**فمن بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته**] استفهام إنكار لوجود من يسلم من لعنة اللّه وعقوبته ممّن يكون فيه رذيلة الكبر ويسلم على اللّه أي: يرجع إليه سالماً من طرده ولعنته وعذابه والباقي بمثل معصيته للاستصحاب أي: فمن يرجع إلى اللّه سالماً من عذابه وقد استصحب مثل معصية إبليس أي: تكبّر كتكبّره وخالف أمر ربّه كمخالفته.

كلاّ ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً إنّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد وما بين اللّه وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمىً حرّمه اللّه على العالمين فاحذروا عدوّ اللّه أن يعديكم بدائه وأن يستفزّكم بخيله ورجله

وقوله: [كلاّ] ردٌّ لما عساه يُدّعى من تلك السلامة التي أنكر وقوعها وفسّره بقوله: [**ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً**] أي: ما كان ليدخل الجنّة بشراً مستصحباً لأمر أخرج به منها ملكاً وذلك الأمر هو رذيلة الكبر التي يستصحبها الإنسان بعد الموت وتكون ملكة وخلقاً له لا تفارقه.

وقوله: [**إنّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد**] أي: في إفاضته للخير والشرّ على من يستعدّ لأحدهما فمن استعدّ من أهل السماء أو أهل الأرض لخير أو شرٍّ فحكمه فيه أن يفيض على ما استعدّ له وذلك حكم لا يختلف اعتباره.

[**وما بين اللّه وبين أحد من خلقه هوادة**] أي: صلح [**في إباحة حمىً حرّمه اللّه على العالمين**] أي: ليس بينه وبين أحد من خلقه صلح فيخصّصه بإباحة حكم حرّمه على سائر خلقه فيختلف بذلك حكمه فيهم؛ لأنّ الصلح من عوارض الحاجة أو الخوف المحالين عليه تعالى.

[**فاحذروا عدوّ اللّه أن يعديكم بدائه**] وهو الكبر الذي بسببه لزمته تلك الشقاوة، واستعار الدواء للكبر لأنّ داء النفوس أعظم من داء الأبدان ومحلّ أن يعديكم النصب على البدل من عدوّ.

[**وأن يستفزّكم**] أي: يستخفّكم ويزعجكم، [**بخيله ورجله**] كناية عن

فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد وأغرق لكم بالنزع الشديد ورماكم من مكان قريب وقال ربّ بما أغويتني لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين قذفاً بغيب بعيد

أعوانه الّذين يستخفّون الناس بالوسوسة والدعوة إلى طرق الضلال.

[**فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد وأغرق لكم بالنزع الشديد**] فوق السهم أي: جعل له فوق وهو موضع الوتر منه، ونزع في القوس نزعاً أي: مدّها، والإغراق في المدّ استيفائه واستيعابه والسهم استعارة لوساوسه وتزييناته في الوعيد المحكي عنه بقوله: ﴿لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين﴾ لكونه يرمي بتلك الوساوس وجوه نفوسهم فيكون سبباً لهلاكها في الآخرة كما يكون السهم سبباً للقتل، ورشح بذكر التفريق والنزع والاغراق والرمي.

وقوله: [**ورماكم من مكان قريب**] إشارة إلى الخبر النبوي «إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش» وفي آخر: «لولا الشياطين يحومون على قلب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات».

[**وقال ربّ بما أغويتني لأزيّننّ لهم في الارض ولأغوينّهم أجمعين**] ونسب الإغواء إليه تعالى لأنّه اشعري الأصول انّ الخير والشرّ من اللّه حنفي الفروع لقوله ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

وقوله: [**قذفاً بغيب بعيد**] إشارة إلى قوله تعالى: [ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ والمراد ما غاب ولم يعلم، فالحكم بكلّ مالم يعلم قذف بالغيب وحكم به، ولمّا كان إبليس لا يعلم ما حكم بأنّه يفعله في الخلق من

ورجماً بظنّ غير مصيب صدقه به أبناء الحمية واخوان العصبية

التزيين والإغواء وهو بعيد عن علمه ثمّ حكم به كان حاكماً بما هو غائب عن علمه ولذا قال:

[**ورجماً بظنّ غير مصيب**] لانّ ما يقال عن غيب بعيد قلّما يصيب ظنّه فإن قيل إنّه قد صدق ظنّه في إغوائهم وتمّ له ما ظنّ كما قال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه﴾ فكيف قال غير مصيب؟ قيل: إنّه لم يصب بظنّه انّ إغوائهم منه مع أنّه كان منهم اختياراً اختاروا العمى على الهدى، وأمّا التصديق فيعود إلى وقوع الغواية منهم وفق ظنّه، أي: في نفس الغواية أو أنّه أراد بالظنّ المصيب العلم؛ لأنّه المصيب للحقّ فكأنّه قال: بظن ليس بعلم، وقيل إنّه عليه السلام وقف على أجمعين، فالمعنى انه ظنّ أنّه يغوي جميع الناس، وأمّا استثنائه لعباد اللّه المخلصين فذاك ليس بحسب ظنّه بل تصديقاً لقوله تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

وقوله: [**صدقه به أبناء الحمية**] فالحمية لازم من لوازم الكبر لأنّها تعود إلى الغضب عن تصوّر المؤذي مع الترفّع على فاعله واعتقاد الشرف عليه، واستعار الأبناء لأصحاب هذه الرذيلة وأهل الكبر من الناس ووجه الاستعارة ملازمتهم لها كما يلازم الولد أمّه حتّى صاروا كأنّهم خلقوا منها وهي أصل لهم وتصديقهم له بذلك الظنّ هو ارتكابهم للرذائل والمعاصي اتباعاً له وغوايتهم بها عن سبيل اللّه، وقيل الباء في قوله (به) بمعنى فيه، أي: صدّقه فيه وصدقه في موضع الخبر صفة لظنّ.

وقوله: [**واخوان العصبية**] استعارة، أي: ملازموهاأو المراد الاخوان فيها أي: الذين عقدوا الآخرة منهم على العصبية الباطلة.

وفرسان الكبر والجاهلية حتّى إذا انقادت له الجامحة منكم فنجمت من السرّ الخفي الجلي استفحل سلطانه عليكم ودلف بجنوده نحوكم فأقحموكم ولجات الذلّ وأحلّوكم ورطات القتل

وكذا قوله: [**وفرسان الكبر والجاهلية**] أي: مرتكبي الكبر وأفعال الجاهلية، أو المراد فرسان الجاهلية الموصوفين بالكبر.

وقوله: [**حتّى إذا انقادت له الجامحة منكم**] غاية قوله فوق وأغرق ورماكم أي: الأنفس الجامحة والأخلاق الجامحة، استعار الجامحة للنوس التي كانت عاصبة لإبليس آتية عن الانقياد له.

[**فنجمت**] أي: ظهرت الحال التي كان يرونها منكم ويظنّها فيكم وهي الغواية والضلال.

[**من السرّ الخفي الجلي**] أي: من القوّة فيكم إلى الفعل وقوله: [**استفحل**] جواب الشرط أي: قوى [**سلطانه عليكم**] استعار الاستفحال لشدّة سطوته وسلطانه إشارة إلى كمال قدرته على تطويع النفوس وقهرها.

[**ودلف**] أي: مشى ودنا [**بجنوده نحوكم**] وكنّى بجنوده عن المفسديه ودلفه بهم دخولهم بالفساد على الناس وتزيينهم لهم رذائل الأخلاق وإغوائهم إيّاهم، ومن لوازم ذلك التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر وتفرّق الكلمة، ومن لوازم تفرّق الكلمة ما أشار إليه بقوله: [**فأقحموكم**] أي: أدخلوكم قهراً [**ولجات الذلّ**] جمع ولجة بفتح الجيم وهي الموضع كالكهف ونحوه تستتر به المارّة من المطر وغيره.

[**وأحلّوكم ورطات القتل**] جمع ورطة وهي الأرض ــــــ لا طريق فيها، والورطة: الهلاك أيضاً.

وأوطأتكم أثخـان الجراحة طعناً في عيـونكم وجـزاً في حلوقكم ودقّاً لمناخركم وقصـداً لمقاتلكم وسوقاً بخزائم القـهر إلى النار المعدّة لكم فأصبح أعظم في دينكم جرحاً

[**وأوطأتكم أثخـان الجراحة**] أي: جـعلوكم واطـئين لذلك والأثخـان مصـدر أثخن في القتل أي: أكـثل منه وبالغ حتّى كـثف شأنه وصـار كالشيء الثخين ومعنى إبطاء الشيطان بني آدم ذلك إلقائه إيّاهم فيه وتوريطهم وحمله لهم عليه فـإثخان نصـب على المفـعولية والولجـات والورطات مسـتعـاران للأحوال التي هي مظانّ الذلّ والقـتل كالأماكن التي يفرّون إليـها من عدوّهم ذلاً، والمواطن التي قتلوا فيها.

وقوله: [**طعناً في عيـونكم**] نصب على المصـدر وفعله محـذوف أي: فعلـوا بكم هذه الأفعـال فطعنوكم في عيـونكم طعناً [**وجزّاً**] أي: ذبحـاً [**في حلوقكم ودقّاً**] أي: صدمـاً [**لمناخـركم وقـصـداً لمقـاتلكم**] جـعلعليه السلام مـحلّ الطعن العـيـون والجزّ الحلوق والدقّ المناخـر والقـصـد المقـاتل لأنّهـا محـالّهـا المتـعـارفـة عند الاذلال والإهانة والإهلاك لأنّ الـطعن وإن كـان يقع في سـائر البدن إلا أنّه في العيون أفضع وأفحش وكذا البواقي.

[**وسوقـاً بخزائم القهـر إلى النار المعدّة لكم**] الخزائم جمـع خزامة وهي حلقة من شعـر تجعل في وترة أنف البعير فـيشدّ فيها الزمام استـعارها لما تمكّن في جـواهر نفوسـهم من الرذائل الموبقـة وملكات السـوء التي لا محـيص لهم عن النار بسببها لمشابـهتها الخزائم التي تقاد بها الإبل، ولفظ السـوق ترشيح للاستـعارة [**فاصـبح أعظم في دينكم جـرحاً**] استـعار الجـرح للفساد المعـقود الحاصل بسبب إبليس في دينهم، ووجه الشبه كون الجرح فساداص في

وأورى في دنياكم قدحاً من الذين أصبحتم لهم مناصبين وعليهم متألّبين فاجعلوا عليه حدّكم وله جدّكم فلعمر اللّه لقد فخر على أصلكم ووقع في حسبكم ودفع في نسبكم

العضو أيضاً.

[**وأورى في دنياكم قدحاً**] يقال: ورى الزند أي: خرجت ناره، استعار لفظ القدح لوساوس إبليس المستلزمة لوجود الإحن والتباغض والتحاسد بينهم الموجب لتفريق كلمتهم المستلزم لتشتّت سلطانهم وفساد نظامهم وما هم عليه من الابّهة واستقامة المعاش في الدنيا، ووجه الشبه إفساد تلك الوساوس لأحوال معاشهم كإفساد قدح النار ما يقدح فيه وجعله في جرح دينهم وإفساد دنياهم أشدّ من أعدائهم الذين هم مناصبون لهم أي: أصبح الشيطان أضرّ عليكم وأفسد لحالكم.

[من] أعدائكم [**الذين أصبحتم لهم مناصبين**] أي: معادين.

[**وعليهم متألّبين**] أي: مجتمعين [**فاجعلوا عليه حدّكم**] أي: بأسكم أو منعكم ودفعكم [**وله جدّكم**] وجهدكم في الخلاص من فتنته بمقاومته وقهره.

[**فلعمر اللّه لقد فخر على أصلكم**] كما حكى اللّه عنه من قوله ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فافتخر على أبيهم.

[**ووقع في حسبكم**] وحسب الرجل ما يعدّه من مفاخر آبائه، أي: عاب حسبكم وهو الطين فقال: إنّ النار أفضل منه، كما مرّ.

[**ودفع في نسبكم**] بقوله: ﴿ءأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾ معرّضاً بذكر أصلهم وهو الصلصال والطين المنتن ونسبهم منه أنّه

وأجلب بخيله عليكم وقصد برجله سبيلكم يقتفونكم بكلّ مكان ويضربون منكم كلّ بنان لا تمعنون بحيلة ولاتدفعون بعزيمة في حومة ذلّ فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية

ساقط عن درجة الاعتبار.

[**وأجلب**] جمع [**بخيله عليكم**] وأصل الجلبة الأصوات في الحرب والغارة.

[**وقصد برجله سبيلكم**] وكنّى بخيله ورجله عن جنوده من أهل الباطل وإجلابه بخيله عليهم جمعه لجنوده على محاربتهم أو على الوسوسة لهم والإضلال وقصده لسبيلهم أي: السبيل الحقّ الذي هم سالكوه إلى اللّه تعالى كما حكى اللّه عنه من قوله: ﴿ولأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم﴾ الآية.

[**يقتفونكم بكلّ مكان ويضربون منكم كلّ بنان**] كناية عن استقصائهم وقتلهم وأذاهم والاقتناص: التصيّد مستعار، والبنان: أطراف الأصابع، وحيث انّه استحكم طمعه فيكم واستفحل سلطانه عليكم فأنتم [**لا تمعنون**] عن سلطانه [**بحيلة ولاتدفعون**] عن أنفسكم [**بعزيمة**] أي: بجدٍّ واجتهاد لما فيهم من التخاذل.

[**في حومة ذلّ**] في محلّ نصب على الحال والحامل يقتفونكم والحومة والحلقة والعرصة والجولة للدنيا إذ كانت محلّ ذلّهم والضيق عليهم وعرصة موتهم ومظنّة بلائهم والأصناف الأربع بمعنى اللام.

[**فاطفئوا ما كمن**] أي: استتر [**في قلوبكم من نيران العصبية**] استعار النيران لما يثور من حرارة الغضب عند العصبية ومبدء تلك الحرارة القلب،

وأحقاد الجاهلية وإنّما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته واعتمدوا وضع التذلّل على رؤسكم وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم وخلع التكبّر من أعناقكم واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده

ورشح بذكر الاطفاء.

[**وأحقاد الجاهلية وإنّما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته**] النخوة: الكبر، والنزع: الإفساد، والنفث كالنفخ وهو أقلّ من التفل لعلّه سمّى تلك النيران المتقدّمة حمية ففسّرها بها في قوله وإنّما تلك الحمية والحمية خبر المبتدأ وتكون خبر بعد خبر ومعلوم انّ العصبية والحمية الباطلة من خطرات الشيطان التي يخطرها للنفوس ونخواته التي يحدثها فيها بتحسينه الغلبة والانتقام والترفّع والترئس على الخلق ومن نزعاته التي يفسد بها الناس ونفثاته التي يلقيها إلى أذهانهم لغرض الإفساد والإضلال.

[**واعتمدوا وضع التذلّل على رؤسكم**] كنّى به عن الاعتناء بالتواضع وإغراره لكونه فضيلة.

[**وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم**] كناية عن اطراحه وعدم الاعتناء به لكونه رذيلة.

[**وخلع التكبّر من أعناقكم**] استعار الخلع لطرح التكبّر ونسبه إلى الاعناق ملاحظةً لشبهه بما يلبس من قميص أو طوق فأمرهم بخلعه إذ ليسوا أهلاً له وليس مما ينبغي لهم.

[**واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده**]

فإنّ له من كلّ أُمّة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن امّه من غير ما فضل جعله اللّه فيه سوى ما ألحقت العظيمة بنفسه من عداوة الحسد

والمسلحة خيل معدّة للحماية والدفاع، واستعارها للتواضع إذ المتواضعون بسبب تواضعهم وتخلّقهم به يكونون حافظين لدينهم وأنفسهم من دخول إبليس وجنوده عليهم برذيلة الكبر فأشبه المسلحة التي هي محلّ الحفظ من غارات العدوّ.

[**فإنّ له من كلّ أُمّة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً**] بيان لجنوده والمراد بهم من اتّصفوا بصفته واستشعروا شعاره وهو الكبر فينبغي أن يجتنبوهم ويطرحوا شعارهم.

[**ولا تكونوا**] في ذلك [**كالمتكبّر على ابن امّه**] أراد بذلك المتكبّر قابيل حين قتل أخاه هابيل وأشار بقوله ابن امّه إلى أنّ الاخوين من الأُمّ أشدّ حنواً ومحبّةً والتصاق من الأخوين للأب لأنّ الأُمّ هي ذات الحضانة والتربية وقيل بل لأنّ الولد في الحقيقة من الأُمّ أي: الولد بالفعل فإنّ النطفة في الحقيقة ليست بولد بل جزء مادي ونسبة الولد إليه في الحكم دون الحقيقة وقيل لأنّ قابيل بقتله لهابيل كأنّه قطع نسبه عن أبيه كما قال تعالى في ولد نوح ﴿إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح﴾ وأشار بالإضافة إلى جهة مساواته له في كونهما من محلّ واحد ليتبيّن قبح تكبّره ولتنبّه السامعون لنهي الإنسان عن التكبّر على غيره من أبناء نوعه وأكّد ذلك بقوله: [**من غير ما فضل جعله اللّه فيه**] و«ما» زائدة للتأكيد.

وقوله: [**سوى ما ألحقت العظيمة بنفسه من عداوة الحسد**] إشارة إلى

وقدحته الحمية في قلبه من نار الغضب ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه اللّه تعالى به الندامة وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة

جهات تكبّره عليه واسبابه وهي العداوة عن حسد وجعل تلك العداوة مسبّبة عن العظمة، فإنّ المعظم معتقد لكمال نفسه وانّه أولى بكلّ كمال يليق به من غيره وأنّه لا ينبغي أن يشاركه فيه أحد وذلك يستلزم حسده للغير على ما يعتقده كما لا يصل إليه وعن ذلك الحسد تكون الحمية وثوران نار الغضب والعصبية، كما أشار إليه بقوله:

[**وقدحته الحمية في قلبه من نار الغضب**] ولفظ النار مستعار كما مرّ والقدح ترشيح وكذا لفظ الريح في قوله: [**ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه اللّه تعالى به الندامة وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة**] مستعار لتلك الوساوس والخطرات التي ينفثها إبليس في روع المتكبّرين ولزوم آثام القاتلين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس فكأنّما قتل الناس جميعاً﴾ أي: يكون عذابه في الغلظ والشدّة والتأبيد كعقاب قاتل الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزائه جهنّم خالداً فيها﴾ وكذا مقتضى قول النبي ﷺ: «من سنّ سنّةً سيّئة فعليه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة» وقابيل هو أوّ من سنّ القتل فلزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة، وفي النبوي: «ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفل منها» وذلك لانّه أوّل من سنّ القتل.

ثمّ شرع في تنبيههم على إمعانهم وتشميرهم في البغي والإفساد

ألا وقد أمعنتم في البغي وأفسدتم في الأرض مصارحة للّه بالمناصبة ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة فاللّه اللّه في كبر الحميّة وفخر الجاهليّة فإنّه ملاحق الشنئان

فقال:

[ألا وقد أمعنتم في البغي] أي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض: أي ذهب فيها بعيداً.

[وأفسدتم في الأرض] قيل والخطاب يشبه أن يكون للبغاة من أصحاب معاوية وهم الذين كاشفوا اللّه تعالى بمحادّة أوليائه ومعاداة دينه.

[مصارحة للّه] أي: مكاشفة له [بالمناصبة] أي: بالمعاداة. [ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة] وهما مصدران سدّا مسدّ الحال، ثمّ كرّر التحذير من اللّه في الكبر فقال: [فاللّه] أي: احذروا [اللّه في كبر الحميّة وفخر الجاهليّة] والقيد إشارة إلى أنّ بعضه محمود كالتكبّر على المتكبّرين والفخر على المفتخرين فروى ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء وأحسن من ذلك تكبّر الفقراء على الأغنياء اتكالاً على اللّه تعالى.

وقوله: [فإنّه ملاحق الشنئان] الملاقح: الفحول، واحدها ملقح بفتح الميم، ويحتمل أن يكون مصدراً، والشنئان بفتح النون وسكونها: البغضاء والعداوة، استعار الملاحق للكبر والفخر لكونهما مظنّة وجود البغضاء بين الناس وسبب له كما أنّ الفحول سبب الإلقاح وعلى المصدرية استعارة لإثمار الفخر للبغضاء للمشابهة المذكورة، ثمّ أخبر بذلك المصدر نفسه عن الفخر حيث جعله خبران فكأنّه قال: فإنّ البخر لقح الشنئان ولقح الشنئان نفسه ليس عين الفحش بل من ثماره ولوازمه فكان إطلاقاً للسبب على

ومنافح الشيطان اللاتي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتّى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته ذللاً عن سباقه سلساً في قيادة وأمراً

المسبب والإتيان بلفظ الجمع إشارة إلى تكثّر معنى الفخر في موارده وهي أذهان المتكبّرين.

[**ومنافح الشيطان**] جمع منفح مصدر نفح، ويقال في العرف للمتكبّر والمترفّع عن قدرة قد نفخ الشيطان في أنفه وتلك المنافخ هي [**اللاتي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتّى أعنقوا**] أي: أسرعوا [**في حنادس جهالته**] وفرس معناف ـــــ عنيف، قال الشاعر:

يا ناق سيري عنفاً فسيحاً

والحنادس: الظُّلَم، واستعار وصف الأعناف لما يتوهّم من شدّة دخولهم في ظلمات الجهالات وقوّة سيرهم فيها وكذا لفظ الحنادس لما يتخيّل من ظلمة الجهل.

[**ومهاوي ضلالته**] جمع مهواة بالفتح وهي الهوة يتردّى الصيد فيها وقد تهاوى الصيد في المهواة إذا سقط بعضه في اثر بعض استعار المهاوي لما يتخيّل من كون الضلالة وطرقها محال للهوي عن أُفق الكمال ومدارج للشقاوة، وأضاف الجهالة والضلالة إليه إضافة المسبّب إلى السبب.

وقوله: [**ذللاً عن سباقه**] نصب على الحال جمع ذلول وهو السهل المقادة، وهو حال من الضمير في أعنفوا أي: أسرعوا منقادين بسوقه إيّاهم.

[**سلساً في قيادة**] جمع سلس: وهو السهل أيضاً.

[**وأمراً**] منصوب بفعل مضمر تقديره فاعتمدوا أمراً.

تشابهت القلوب فيه وتتابعت القرون عليه وكبراً تضايقت الصدور به ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الّذين تكبّروا عن حسبهم وترفّعوا فوق نسبهم وألقوا الهجينة على ربّهم

[**تشابهت القلوب فيه وتتابعت القرون عليه**] وهو الفخر ونفخ الشيطان والاعناف في جهالته وضلالته [**وكبراً**] عطف على أمراً.

[**تضايقت الصدور به**] كناية عن كثرته وعظمته ثمّ عقّب ذلك بالتحذير من طاعة سادتهم وكبرائهم فقال: [**ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم**] على طاعتهم في فعل المعاصي والمحرّمات وترك الواجبات كما حكى اللّه عنهم من قولهم: ﴿ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلّونا السبيل ربّنا فآتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ وذمّمهم على متابعتهم كما حكي عنهم من قولهم: ﴿تااللّه إن كنّا لفي ضلال مبين إذ نسويكم بربّ العالمين﴾ وقولهم: ﴿إنّا وجدنا آبائنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾.

وقوله: [**الّذين تكبّروا عن حسبهم وترفّعوا فوق نسبهم**] إشارة إلى الطين والصلصال ذلك الأصل وترفّعوا عليه.

[**وألقوا الهجينة على ربّهم**] وزن فعيلة كالطبيعة والخليقة، وفي نسخة هجنه على فعله كالمضغة واللّذمة والمراد بهما الاستهجان من قولك هو يهجن كذا أي: يقبّحه ويستهجنه أي: يستقبحه أي: نسبوا ما في الإنسان من القبح بزعمهم إلى ربّهم كقولهم في الافتخار: أنا عربي وأنت عجمي، ونحو ذلك فإنّه ازدراء لخلق اللّه وعيب على اللّه وقد اقتفوا في ذلك أثر إبليس حيث قال: ﴿ءأسجد لبشر خلقته من صلصال﴾ مع أنّ ذلك ليس إلى الإنسان بل هو إلى اللّه تعالى فايّ ذنب له.

وجاحدوا اللّه ما صنع بهم مكابرة لقضائه ومغالبة لآلائه فإنّهم قواعد آساس العصبيّة ودعائم أركان الفتنة وسيوف اعتزاء الجاهليّة

[**وجاحدوا اللّه ما صنع بهم**] أي: كابروه وأنكروا صنيعه الحسن إليهم لما غفلوا عن اللّه وجهلوا حقّه لم يشكروه على نعمائه وصنيعه بهم، ولمّا كان الشكر يعود إلى الاعتراف بالنعمة كان الجحد والإنكار منهم عبارة عن عدم ذلك الاعتراف لغفلتهم.

[**مكابرة لقضائه**] أي: مقابلة لحكمه عليهم بوجوب شكره ولزوم طاعته بردّ ذلك الحكم وإنكاره وعدم الانقياد له وحقيقة المكابرة تعود إلى المقابلة بالقول في الأمر والمنازعة فيه على وجه المغالبة والتكبّر من الطرفين وهي ترشيخ لاستعارة المجاحدة.

وكذا قوله: [**ومغالبة لآلائه**] والنصب فيهما على المفعول له والمغالبة هنا تشبه الغاية من المجاحدة إذ من لوازم المجاحدة وكفران النعمة وإلقائهم بمجاحدتهم وكفرانهم كالتالفين النعم والقاصدين لزوالها.

وقوله: [**فإنّهم قواعد آساس العصبيّة**] تنبيه على ما يلزم سادتهم من الرذائل المنفّرة والآساس بالمدّ جمع أساس واستعاره للكبر، إذ كان مبدء للعصبيّة وأصلاً لها، واستعار القواعد لهم باعتبار قيام الكبر بهم وثباته فيهم كما يقوم الأساس بقواعده وهي الصخور العظيمة ونحوها، واستعار الأركان في قولهك [**ودعائم أركان الفتنة**] لأجزاء الفتنة وأبعاضها والدعائم لهم باعتبار قيام الفتن بهم واعتمادها عليهم كما يعتمد أركان البيت وجوانبه بدعائمه.

وقوله: [**وسيوف اعتزاء الجاهليّة**] الاعتزاء: الانتسب إلى أب أو

فاتّقوا اللّه ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً ولا لفضله عندكم حسّاداً ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم

قبيلة، كقولهم يا لفلان، ويحتمل أن يريد أصحاب سيوف اعتزاء الجاهلية كما نقل في سبب الخطبة، والاعتزاء منهيٌّ عنه لكونه مبدء الفتن وسمع أُبي بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان، فقال: عضضت بهنّ أبيك، فقيل له: يا أبا المنذر ما كنت فحّاشاً، فقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: من تعزّى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهنّ أبيه ولا تكنوا، ثمّ عاد إلى الأمر بتقوى اللّه فقال:

[**فاتّقوا اللّه ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً**] أي: لا ترتكبوا ما يزيل نعمة اللّه عنكم ويضادّها من كفرانها ومقابلتها بالمعاصي التي تستلزم تبدّل النعمة نقمة.

وكذا قوله: [**ولا لفضله عندكم حسّاداً**] استعار الحسّاد باعتبار كفرهم للنعم المزيل لها كحسّاد النعمة باعتبار حسدهم المزيل لها.

[**ولا تطيعوا الأدعياء**] أي: الذين ينتسبون إلى الإسلام ظاهراً وهم منافقون أو الذين ينتسبون إلى غير آبائهم ممن لا دين لهم.

[**الذين شربتم بصفوكم كدرهم**] أي: شربتم كدرهم مستبدلين ذلك بصفوكم، واستعار الصفو وهو خالص الشراب، أمّا لخالص دينهم وإيمانهم أو لخالص دنياهم وصافيها، ولفظ الكدر للنفاق وسائر الرذائل النفسانية التي تخالط إيمان المرء كالحسد ونحوه فتكدّره وتكدّر بسبب ذلك ما صفا من دنياه بسبب ثوران الفتنة عنها ورشح بذكر الشراب أي: مزجتم بإيمانكم نفاقهم فشربتموه به كما يمزج الماء بالشراب، فالباء للمصاحبة.

وخلطتم بصحّتكم مرضهم وأدخلتم في حقّكم باطلهم وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجنداً بهم يصول على الناس وتراجمة ينطق على ألسنتهم

وكذا قوله: [**وخلطتم بصحّتكم مرضهم**] كنّى بمرضهم عن نفاقهم وكبرهم وسائر الرذائل النفسانية فيهم وبالصحة سلامة نفوس المؤمنين بإيمانهم عن شوب تلك الرذائل.

وكذا قوله: [**وأدخلتم في حقّكم باطلهم**] كنّى بالحقّ عن الإيمان والجدّ في العمل الصالح أو ما يستحقّونه من الملك والخلافة في الأرض وبباطل أُولئك الكذب والنفاق واللّعب وسائر الرذائل، أو ما لا يستحقّ لهم من أمر الدنيا وذلك الخلط والإدخال بسبب تخاذلهم عن حقّهم وعن نصرته وعدم اجتماعهم على ما لا ينبغي لهم من طاعته.

[**وهم أساس الفسوق**] استعار لهم الأساس لأنّهم أصل الفسوق يقوم بهم كما يقوم البناء بأساسه.

[**وأحلاس العقوق**] جمع حلس: وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له فقيل لكلّ ملازم أمراً هو حلس ذلك الأمر، استعير لهم باعتبار ملازمتهم للعقوق وقطع الرحم.

[**اتخذهم إبليس مطايا ضلال**] استعار لهم المطايا باعتبار كونهم أسباباً موصلة إلى الضلال لمن اتّبعهم واعتمد أقوالهم نيابة عن إبليس فكانوا في ذلك كالمطايا التي يركبها الناس وتقودهم في طرق الضلال.

[**وجنداً بهم يصول على الناس**] باعتبار كونهم جاذبين للخلق إلى طريقته داعين لهم إلى هلاك الأبد من جهته [**وتراجمة ينطق على ألسنتهم**]،

استراقاً لعقولكم ودخولاً في عيونكم ونفثاً في أسماعكم فجعلكم في نبله وموطأ قدمه ومأخذ يده

استعار لهم التراجمة باعتبار نطقهم بما يريد إبليس من الوساوس للناس، فأشبهوا التراجمة له.

ثمّ أشار إلى كيفيات اتخاذهم مطايا وجنداً وتراجمة فقال:

[**استراقاً لعقولكم**] أي: بالأقوال الكاذبة والأفعال الباطلة والعادات المضلّة جذباً إلى محبّة الدنيا وباطلها وإلفاتاً لهم إليها عمّا لأجله خُلقوا وإليه دعوا.

[**ودخولاً في عيونكم**] بزينة الحياة الدنيا وسائر ما يجذب إليه من جهة حسّ البصر.

[**ونفثاً في أسماعكم**] كناية عن إلقاء الوسواس بالأقوال الواضعة للدنيا وباطلها والمنفّرة عن الآخرة وانتصب استراقاً ودخولاً ونفثاً على المصدر كلّ عن فعله أي: يسترقّ عقولكم استراقاً.

وقوله: [**فجعلكم في نبله**] أي: عرضاً، واستعار لفظ النبل لجزئيّات وساوسه المردية لكلّ من أصابته إلى مهاوي الهلاك كما يردي النبل من رمى به ولفظ المرمى باعتبار كونهم مقصداً لوساوسه كالهدف.

واستعار الموطئ في قوله: [**وموطأ قدمه**] باعتبار كونهم مظنّة إذلاله والإهانة منه، ورشح بذكر القدم إذ الموطئ يستدعي موطوء به هو القدم.

واستعار المأخذ في قوله: [**ومأخذ يده**] باعتبار كونهم ——— في حبائل وساوسه، ورشح بذكر اليد إذ من شأن المأخوذ أن يكون أخذه باليد، ثمّ أمرهم عليه السلام بالاعتبار بحال الماضين وما أصاب الأمم المستكبرين منهم من

فـاعتـبـروا بما أصـاب الأمم المسـتكبـرين من قـبلكـم من بأس اللّه وصـولاته ووقـائعـه ومـثلاته واتّعظوا بمثاوي خـدودهـم مـصـارع جنوبهم واستعيذوا باللّه من لواقح الكبر كمـا تستعيـذونه من طوارق الدهر فلو رخّص اللّه عزّ وجلّ في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخـاصّة أنبيائه وملائكته ولكنّ اللّه كرّه إليهم التكابر

بأس اللّه فقال:

[فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس اللّه وصولاته ووقائعه ومثلاته] فإنّكم لو تفكّرتم في حالهم لرأيتم ما أصابهم من العذاب ونزل بهم من العقاب من جهة استكبارهم عن طاعة اللّه وترفّعهم على عباده فلا تكونوا على حالهم فينزل بكم ما نزل بهم، والمثلات: العقوبات.

[واتّعظوا بمثاوي خدودهم] والمثاوي جمع مثوى: وهو المقام، أي: احذروا **[مصارع جنوبهم]** والحظوا مقاماتهم من التراب ومحالّ انصراعهم في القبور ليحصل لهم بذلك الانزجار عن الكبر إذ كانت عاقبته وغايته ذلك الهوان والذلّ في تلك المثاوي والمصارع.

[واستعيذوا باللّه من لواقح الكبر كما تستعيذونه من طوارق الدهر] استعار اللواقح لما يستلزم الكبر من أسبابه وطوارق الدهر: آفاته.

[فلو رخّص اللّه عزّ وجلّ في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصّة أنبيائه وملائكته] لأنّهم أولى بذلك من غيرهم حيث إنّهم خواصّ اللّه وأحبّائه وأهل طاعته لكنّه لم يرخّص فيه لهم، فينتج أنّه لم يخرّص فيه لأحد من عباده.

[ولكنّ اللّه كرّه إليهم التكابر] أي: التعاظم، وأتى بهذا الوزن

ورضي لهم التواضع فألصقوا بالأرض خدودهم وعفّروا في التراب وجوههم وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين وكانوا أقواماً مستضعفين قد اختبرهم اللّه بالمخمصة وابتلاهم بالمجهدة وامتحنهم بالمخاوف ومحضهم فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد

للازدواج مع التعاظم.

[**ورضي لهم التواضع**] وأمرهم به كما قال: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾.

[**فألصقوا بالأرض خدودهم وعفّروا في التراب وجوههم**] يقال: عفّر وجهه: ألصقه بالعفر، إشارة إلى عبادتهم قياماص وقعوداً وركوعاً وسجوداً.

[**وخفضوا**] أي: ألانوا [**أجنحتهم**] أي: جانبهم [**للمؤمنين**] استعار الجناح من الطاير ليد الإنسان وجانبه باعتبار ما هو محلّ البطش والنفرة وخفض الجناح كناية عن لين الجانب.

[**وكانوا أقواماً مستضعفين**] ممتثلين لما أمرهم اللّه به من التواضع موافقون له فيما رضيه لهم.

[**قد اختبرهم اللّه بالمخمصة**] عاملهم معاملة الممتحن المختبر بالمجاعة.

[**وابتلاهم بالمجهدة**] أي: المشقّة [**وامتحنهم بالمخاوف ومحضهم**] بالحاء المهملة أي: طهّرهم، ويروى بالخاء والضاد المعجمتين أي: حرّكهم وزلزلهم بالمخاوف.

[**فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد**] بأن تجعلوا إعطاء المال

جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الفنا والافتقار فقد قال سبحانه وتعالى: أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون فإنّ اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هرون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصى فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام

والولد علامة الرضا ومنعهما علامة السخط.

[جهلاً بمواقع الفتنة] أي: وهمكم ذلك جهل بمواقع الفتنة.

[والاختبار في موضع الفنا والافتقار] فإنّ الاختبار والامتحان كما يكون بالفقر والمشاقّ والمكاره كذلك يكون بالمال والولد، وليس المال والولد من الخيرات التي تعجّل في الديا لمن يعطى إيّاها كما يزعمون.

[فقد قال سبحانه وتعالى: أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون] أي: يحسبون انّا نتعجّل في تقديم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم حين بسطنا لهم الرزق وكثّرنا لهم الأولاد بل لا يعلمون انّ ذلك استدراج لهم من اللّه ومحنة وابتلاء.

[فإنّ اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين] وهم الأنبياء **[في أعينهم]** أي: في أعين المتكبّرين.

[ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هرون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف] جمع مدرعة بكسر الميم: وهي كالكساء، وتدرّع الرجل وتمدرع إذا لبسها.

[وبأيديهما العصى] جمع عصى **[فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام**

عزّه فقال ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ فهلاّ أُلقي عليهما أساورة من ذهب إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه ولو أراد اللّه تعالى بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومن ارس الجنان وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض لفعل ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء

عزّه فقال] لعنه اللّه **[ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ]** ظانّاً بجهله المركّب أنّ مبدء التمكّن من ذلك الشرط والقدرة على الوفاء به هو الغنى وجمع المال، فلذا احتقرهما من حيث كان يرى الفقر والذلّ ولبس الصوف ممّا هو شعار الفقر سبباً لذلك الإنكار والتعجب، ولذا قال:

[فهلاّ أُلقي عليهما أساورة من ذهب] وسوار المرأة معروف والجمع أسورة وجمع الجمع أساورة وقال تعالى: ﴿يحلّون فيها من أساور من ذهب﴾ وإنّما قالا ذلك **[إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه ولو أراد اللّه تعالى بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان]** بكسر الذال جمع ذهب **[ومعادن العقيان]** وهو خالص الذهب أيضاً **[ومن ارس الجنان وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض لفعل]** لأنّ ذلك كلّه ممكن مقدور له وهو على كلّ شيء قدير.

[ولو فعل] ذلك **[لسقط البلاء]** المشار إليه وهو بلاء المتكبّرين بالمستضعفين من أولياء اللّه.

[وبطل الجزاء] أي: جزاء العبادات والطاعات إمّا لسقوط البلاء

واضمحلّت الأنباء ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحقّ للمؤمنون ثواب المحسنين

والابتلاء بها أو لأنّ الطاعات إذاً تكون عن رهبة أو رغبة فيسقط الجزاء الأخروي عليها وكذا يبطل جزاء الأنبياء الذي كانوا يستحقّونه بحسب فقرهم وصبرهم عليه.

[**واضمحلّت الأنباء**] أي: الأخبار الواردة من قبل اللّه على ألسنة رسله والوحي إليهم؛ لأنّ الدنيا والآخرة ضرّتان والأنبياء وإن كانوا أفضل الخلق إلا أنّهم محتاجون إلى الرياضة بالزهد والإعراض عن الدنيا في نزول الوحي كما هو المعلوم من حالهم عليهم السلام سيّما ما علم من حال نبيّنا صلى الله عليه وآله من شدّه حجر المجاعة على بطنه وقيامه على قدمه في الصلاة حتّى تورّمت قدماء وركوبه الحمار العاري وإرادفه خلفه فعلم أنّ تركهم للدنيا شرط في بلوغهم درجات الوحي والرسالة وتلقّي أخبار السماء، ولو انغمسوا في الدنيا لانقطع عنهم الوحي وانحطّوا عن مراتب الرسالة.

وقال ابن أبي الحديد: أراد باضمحلال الأنباء سقوط الوعد والوعيد والاخبار عن أحوال الجنّة والنار وأحوال القيامة وهو لازم من لوازم سقوط النبوّة.

[**ولما وجب للقابلين**] كلام الأنبياء [**أجور المبتلين**] وكذا لا يجب لقابل النبوّة منهم أجور المبتلين بالتكذيب والأذى.

[**ولا استحقّ للمؤمنون ثواب المحسنين**] بمجاهدة الشيطان عنها وتطهيرها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، وذلك لأنّ إيمانهم بهم يكون عن رغبة أو رهبة لا عن حقيقة وإخلاص.

ولا لزمت الأسماء معانيها ولكنّ اللّه سبحانه جعل رسله أُولي قوّة في عزائمهم و ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً

[ولا لزمت الأسماء معانيها] بنصب الأسماء على المفعولية ورفع معانيها على الفاعلية، أي: لم تكن المعاني لازمة للأسماء فيمن سمّى بها مثلاً من سمّى مؤمناً لا يكون معنى الإيمان الحقّ لازماً لاسمه فيه إذ كان إيمانهم بلسانه فقط عن رغبة أو رهبة، وكذا من سمّى مسلماً أو زاهداً بل من سُمّي نبيّاً أو رسولاً لا يكون في الحقيقة كذلك لانقطاع النبوّة والرسالة عنه، وفي نسخة الرضي برفع الأسماء أي انّها كانت تنفك عنها بصدق الأسماء بدون مسمّياتها ويرجع إلى ما قبله.

[ولكنّ اللّه سبحانه جعل رسله أُولي قوّة في عزائمهم] وإجماع على إنفاذ ما أُمروا به وتبليغ رسالات ربّهم ولذا سُمّوا أُولي العزم لشدّة عزمهم وقوّتهم في دين اللّه بالقتال والمجاهدة والصبر على الأذى [و] جعلهم مع ذلك **[ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم]** من المسكنة والذلّ والفقر والقناعة والصبر على العري والجوع.

[مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى] استعار وصف الملأ للقناعة باعتبار استلزامها بقوّة غنائهم وقلّة حاجتهم إلى شيء من متاع الدنيا بحيث لا تمتدّ نفوسهم ولا عيونهم إلى شيء من زينتها فكأنّما قد امتلأت فلا تتسع لشيء من ذلك فتطلبه.

[وخصاصة] أي: جوعاً **[تملأ الأبصار والأسماع أذىً]** استعير الخصاصة للقناعة باعتبار استلزامها لقوّة الأذى في أسماعهم وأبصارهم إذ

ولو كانت الأنبياء أهل قوّة لا ترام وعزّة لا تضام وملك لا تمدّ نحوه أعناق الرجال وتشدّ إليه عقد الرحال فكان ذلك أهون الخلق في الاعتبار وأبعد لهم عن الاستكبار ولأمنوا عن رهبة قاهرة لهم ورغبة مائلة بهم

الجوع المفرط مستلزم لأذى هاتين القوّتين لتحلّل الأرواح الحاملة لهما وضعها فكان الأذى حشو أبصارهم وأسماعهم بحيث لا يتّسع لغيره كلّ ذلك طلباً لكمال الاستعداد لأنّ البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة وتزيل الرقّة وتستلزم رذائل كثيرة لا دواء لها إلا بالخصاصة، والقناعة فضيلة تحت العفّة.

[**ولو كانت الأنبياء أهل قوّة لا ترام وعزّة لا تضام وملك لا تمدّ نحوه أعناق الرجال**] أي: لعظمته تؤمله المؤملون ويرجوه الراجون وكلّ من أمّل شيئاً فقط طمح ببصره إليه معنىً لا صورة، فكنّى بذلك بمدّ العنق.

[**وتشدّ إليه عقد الرحال**] أي: يسافر أرباب الرغبات إليه. [**فكان ذلك أهون الخلق في الاعتبار**] أي: لو كان الأنبياء ملوكاً ذوي بأس وقهر لكان ذلك أهون على الخلق واسهل من حيث انّ اعتبارهم لما يدعونهم إليه أسهل وإجابتهم إلى دعوتهم أسرع إذ كانت الملوك في اعتبار الخلق أهلاً لأن يطاعوا فلا يصعب عليهم إجابتهم كما تصعب إجابة الفقراء على من يدعونه من المتكبّرين.

[**وأبعد لهم عن الاستكبار**] لأنّ الملوك أبعد من أن يتكبّر عليهم الناس ويأنفقوا من طاعتهم وحينئذ لم يكن للخق ثواب في ترك الرذائل.

[**ولامنوا عن رهبة قاهرة لهم**] على الإيمان [**ورغبة مائلة بهم**] إلى

فكانت النيّات مشتركة والحسنات مقتسمة ولكنّ اللّه سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أُمور له خاصّة لا يشوبها من غيرها شائبة وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل ألا ترون انّ اللّه تعالى اختبر الأوّلين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله اللّه للناس قياماً

الإيمان أيضاً [**فكانت النيّات مشتركة والحسنات مقتسمة**] أي: لم تكن نيّاتهم في إيمانهم ولا حسناتهم خالصة للّه بل مشتركة ومقسّمة بعضها له وبعضها للرغبة وبعضها للرهبة وحينئذ لا يكون لهم ثواب من جاهد إبليس والنفس الأمّارة بالسوء.

[**ولكنّ اللّه سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أُمور له خاصّة لا يشوبها من غيرها شائبة**] من رغبة في زينة الحياة الدنيا أو رهبة من سطوة الداعي إلى اللّه وكلّما أراد اللّه إخلاصه له فليس مما ينبغي أن يكون مشتركاً بينه وبين غيره ولا مشوباً فينتج أنّ إيمانهم ليس مما ينبغي أن يكون مشتركاً أو مشوباً.

[**وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل**] أي: أكثر، والجزيل: العظيم، وعطاء جزل وجزيل والجمع جزال.

[**ألا ترون انّ اللّه تعالى اختبر الأوّلين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله اللّه للناس قياماً**] أي: مقيماً لأحوالهم في الآخرة، يقال: فلان

ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً وأقلّ نتايق الأرض مدراً وأضيق بطون الأودية قطراً بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشله وقرى منقطعة لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف ثمّ أمر اللّه آدم وأولاده أن يثنوا أعطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم

قيام أهله وقوام بيته إذا كان به استقامة أحوالهم.

[ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً] أي: أصعبها ومكان وعر بالتسكين: صعب المسلك أو المقام.

[وأقلّ نتايق الأرض مدراً] التنايق جمع نتيقة فعيلة بمعنى مفعولة والنتق: الجذب، وسُمّيت المدن والأماكن المشهورة والمرتفعة نتايق لارتفاع بنيانها وشهرتها وعلوّها عن غيرها من الأرض كأنّها جذبت ورفعت وكونها أقلّ بقاع الأرض مدراً لأنّ الحجرية أغلب عليها.

[وأضيق بطون الأودية قطراً] أي: جانباً **[بين جبال خشنة ورمال دمثة]** أي: سهلة ليّنة ووصفت بذلك في معرض الذمّ إذ كلّما كان الرمل أسهل كان أبعد عن أن ينبت **[وعيون وشله]** أي: قليلة الماء، والوشل بفتح الشين: الماء القليل.

[وقرى منقطعة] أي: غير متصّل بعضها ببعض **[لا يزكو]** أي: لا ينمو **[بها خف ولا حافر ولا ظلف]** أي: ذواتها وهي الجمال والخيل والغنم والبقر وهذه لا تنمو ولا تزكو إذ ليس حولها مرعى ترعاه.

[ثمّ أمر اللّه آدم وأولاده أن يثنوا أعطافهم نحوه] أي: يقصدوه ويحجّوه وعطفا الرجل: جانباه.

[فصار مثابة لمنتجع أسفارهم] والمثابة ما يثاب إليه ويرجع نحوه مرّة

وغاية لملقى رحالهم تهوى إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة

بعد أخرى وكرّة غبّ أولى، والنجعة: طلب الكلأ في الأصل، ثمّ سمّي كلّ من قصد أمراً يروم النفع منه منتجعاً أي: جعلناه مرجعاً للناس يطلب منه النجعة والخصب كما قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾ وقال تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ وذلك من حيث اجتماع الخلق فيه وإقامة الموسم أيام الحج به وتكون فيه التجارات والأرباح.

[وغاية لملقى رحالهم] أي: صار إلى الغاية المقصودة **[تهوى إليه ثمار الأفئدة]** أي: ميولها ومحبّتها **[من مفاوز قفار سحيقة]** المفاوز: الفلوات الواسعة، والقفار جمع قفر: وهي المفازة التي لا نبت فيها ولا ماء، وسحيقة: بعيدة، ولّما كان الذي يميل إلى الشيء ويحبّه كأنّه يسقط إليه ولا يملك نفسه استعى لفظ الهوي للحركة إلى المحبوب والسعي إليه.

قيل: ثمرة الفؤاد سويد القلب ومنه قولهم للولد هو ثمرة الفؤاد، ومعنى يهوى إليه أي: يتشوّقه ويحنّ نحوه.

وقيل لفظ الثمار مستعار للخلق باعتبار أنّ كلاً منهم محبوب لأهله فهو كالثمرة الحاصلة لأفئدتهم من حيث هو محبوب لهم كأنّ أفئدتهم ومحبّتهم له أثمرته من حيث أنّها أفادت تربيته والعناية به حتّى استوى إنساناً كاملاً.

ويحتمل أن يريد بثمار الأفئدة الأشياء المعجبة من كلّ شيء كما قال تعالى: ﴿يجبى إليه ثمرات كلّ شيء﴾ ووجه إضافتها إلى الأفئدة أنّها لمّا كانت محبوبة مطلوبة للأفئدة التي عن محبّتها تحصل كما تحصل الثمرة عن أصلها أُضيفت إليها، ونحوه قوله تعالى: ﴿واجعل أفئدة من الناس تهوي

ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة حتّى يهزّوا مناكبهم ذللاً يهلّلون للّه حوله ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم

إليهم وارزقهم من الثمرات﴾ ولمّا استعار لفظ الهوي رشح بذكر المهاوي إذ من شأن الهوي أن يكون له موضع فقال:

[**ومهاوي فجاج عميقة**] والمهاوي: المساقط، والفجاج جمع فج: وهو الطريق بين الجبلين وعميقة صفقة فجاج كما قال تعالى: ﴿يأتين من كلّ فجّ عميق﴾ ووصف العمق له باعتبار طوله والانحدار فيه من أعالي البلاد إلى مكة ووصف الجزائر بالانقطاع في قوله: [**وجزائر بحار منقطعة**] لأنّ البحر يقطعها عن سائر الأرض والبحار ويحيط بها.

وقوله: [**حتّى يهزّوا مناكبهم ذللاً يهلّلون للّه حوله**] غاية قوله يهوى وحتّى بمعنى اللام وكنّى بهزّ مناكبهم عن حركاتهم في الطواف بالبيت، إذ كان ذلك من شأن المتحرّك بسرعة، وذللاً جمع ذلول منصوب على الحال من الضمير في يهزّوا، وجملة يهلّلون حالية والمنكب بكسر الكاف مجمع عظم العضد والكتف ويهلّلون يقولون: لا إله إلا اللّه، وروي يهلون للّه أي: يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها.

[**ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له**] الرمل سعي فوق المشي قليلاً شعثاً غبراً لا يتعهّدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم منصوبان على الحال من الضمير في يرملون.

[**قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم**] كنّى بذلك عن طرحها وعدم لبسها [**وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم**] أي: غيّروا وقبحوا محاسن

ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً جعله الله تعالى سبباً لرحمته ووصلة إلى جنّته لو أراد سبحانه أن يصنع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار جمّ الأشجار آني الثمار ملتفّ البناء متّصل القرى بين برّة سمراء

صورهم بأن أحلقوا شعورهم فلم يحلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه ونبت في غيره من الأعضاء التي جرت العادة بإزالتها عنها.

[**ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً**] منصوبات على المفعول له والعامل قوله أمر الله آدم، أو على المصدر كلّ من فعله وعدّ هذه الألفاظ وإن كانت مترادفة على معنىً واحد تأكيداً وتقريراً لكون الله تعالى أشدّ عليهم في البلوى بذلك ليكون استعدادهم بتلك التقوى العظيمة للثواب أتمّ وأشدّ فيكون الجزاء لهم أفضل وأجزل فلذلك قال:

[**جعله الله تعالى سبباً لرحمته**] أي: سبباً معداً لإفاضة رحمته [**ووصلة**] أي: يستلزم الوصول [**إلى جنّته**] وقد تأكّد بهذا المثال صدق قوله: وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كان الثواب أجزل.

[**لو أراد سبحانه أن يصنع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار**] أي: في مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقّة.

[**جمّ الأشجار**] أي: كثيرها [**آني الثمار**] قريبها [**ملتفّ البناء**] أي: مشتبك العمارة [**متّصل القرى**] بعضها ببعض [**بين برّة سمراء**] البرّة واحدة البر وهو الحنطة وقد يقام مقام اسم الجنس فيقال هذه برة حسنة ولا يراد بها الحبّة الواحدة، واعتبار السمرة لها لانّ وصفها بعد الخضرة السمرة،

وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة وزروع ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغّر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء ولو كانت الآساس المحمول عليها والأحجار المرفوع بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفّف ذلك مضارعة الشكّ في الصدور ولو منع مجاهدة إبليس عن القلوب

ولذا قال:

[وروضة خضراء وأرياف محدقة] جمع ريف: وهو الخصب والمرعى في الأصل وهو ههنا السواد والمزارع ومحدقة: محيطة.

[وعراص مغدقة] والغدق: الماء الكثير. **[وزروع ناضرة]** أي: ذات منظر ورونق حسن.

[وطرق عامرة لكان قد صغّر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء] أي: لو أراد تعالى أن يصنع بيته الحرام بين هذه المواضع الحسنة لفعل ولو فعل لكان يجب منه تصغير قدر الجزاء على قدر ضعف البلاء.

[ولو كانت الآساس المحمول عليها والأحجار المرفوع] أي: لو كانت آساس البيت التي حمل عليها أو أحجاره التي رفع بها **[بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفّف ذلك مضارعة الشكّ في الصدور]** وهو التشكيك في أنّ التكليف بقصد هذه الأحجار حقّ أو باطل وروي مضارعة الشكّ بالضاد المعجمة أي: مقاربة الشكّ ودنوّه من النفس وأصله من مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب.

[ولو منع مجاهدة إبليس عن القلوب] لانّ الإيمان بكونه بيت اللّه ينبغي حجّه والقصد إليه لا يكون عن مجاهدة إبليس في تصديق الأنبياء في

ولنفي معتلج الريب من الناس ولكنّ اللّه تعالى يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبّدهم بألوان المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبّر من قلوبهم وإسكاناً للتذلّل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله واسباباً ذللاً لعفوه فاللّه اللّه في عاجل البغي وأجله وخامة الظلم وسوء عاقبة الكبر فإنّها مصيدة إبليس العظمى

ذلك وفي وجوب عبادة اللّه لعزّة البيت وحسن بنيانه وميل النفوس إلى شريف جواهره.

[ولنفي معتلج الريب من الناس] أي: اعتلاجه، أي: ولنفي اضطراب الشكّ في القلوب.

[ولكنّ اللّه تعالى يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبّدهم بألوان المجاهد] جمع مجهدة: وهي المشقّة.

[ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبّر من قلوبهم وإسكاناً للتذلّل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً] أي: مفتوحة **[إلى فضله واسباباً ذللاً]** أي: سهلة **[لعفوه]** والحاصل انّ هذه الأمور أسباب غائية لإعداد النفوس لإخراج الكبر منها وإفاضة ضدّه وهو التواضع والتذلّل عليها وأنّها أسباب معدّة لفضله وعفوه، واستعار لفظ الأبواب لها باعتبار الدخول منها إلى رضوان اللّه وثوابه، ولفظ التذلّل لكون الدخول منها إلى ذلك سهلاً للمستعدّين بها ثمّ عاد إلى التحذير من اللّه تعالى من البغي والظلم وعاقبته فقال:

[فاللّه] أي: فاحذروا **[اللّه في عاجل البغي وأجله وخامة الظلم]** يقال: بلدة وخمة ووخيمة: بيّنة الوخامة أي: وبية.

[وسوء عاقبة الكبر فإنّها مصيدة إبليس العظمى] قيل: الضمير يعود

التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة فما تكدي أبداً ولا تشوي أحداً لا عالماً لعلمه ولا مقلاً في طمره

إلى الجملة من البغي والظلم والكبر، وقيل الضمير للكبر وإنّما أنّثه باعتبار جعله مصيدة للكبر باعتبار أنّه يصير الداخل فيه من حزب إبليس وفي قبضته كالشبكة وحبائل الصيد.

ووصفها بالعظم باعتبار هو سبب قوي في جذب الخلق إلى الباطل وضلالهم عن طريق اللّه كالحيلة والخدعة [**التي تساور قلوب الرجال**] أي: تواثبها [**مساورة السموم القاتلة**] استعار وصف المساورة باعتبار مواثبته للنفوس ومغالبته لها بالكبر بتحسين الكبر إليها تارةً وتزيينه فتنفعل عنه النفس وتقبل الكبر وتلك هي الوثبة من جانبه وتارة تقوي النفس عليه فترد وسوسته وتقهره وتلك هي الوثبة من قبلها، وكنّى عن وجه الشبه بقوله:

[**فما تكدي أبداً**] أي: ما ترد عن تأثيرها من قولهم أكدى حافر الأرض إذا بلغ الكدية: وهي الأرض الصلبة فلا يمكنه أن يحتفر.

[**ولا تشوي أحداً**] أي: لا يخطي المقتل ويصيب غيره وهو الشوى والشوى الأطراف كاليد والرجل، أي: لا ترد مكيدته عن أحد.

[**لا عالماً**] أي: لا عن عالم [**لعلمه ولا مقلاً**] أي: ولا عن فقير [**في طمره**] والطمر: الثوب الخلق، أي: انّ مساورته بالكبر لا يكاد يقابلها ما يقاومها من العقول ويمنع تأثيرها في النفوس كما لا يكاد يقاوم مواثبة السموم القاتلة شيء من طبائع الحيوان ولا يكاد يخطي المقاتل كما لا تخطي السموم وحركاتها في الأبدان مقاتلها، ويحتمل أن يكون وجه الشبه كون مثاورته غالبة كمثاورة السموم للأبدان ويكون قوله ولا يكدى أبداً ولا

وعند ذلك حرس اللّه عباده المؤمنين بالصلوات أو الزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم وإذهاباً للخيلاء عنهم تعفير عتايق الوجوه تواضعاً وإلصاق كرايم

يشوي أحداً استعارتين لوصفي السهم الذي لا يكاد يقف دون المقاتل ولا يخطيها لتلك المثاورة باعتبار أنّها لا تخطي رميها القلوب بسهام الكبر والبغي وسائر ما يلقى من الوساوس المهلكة. وقوله «لا عالماً إلخ، أي: انّ رذيلة الكبر تؤثّر في نفس العالم مع علمه والفقى في فقره وإن كانت حالهما تنافي ذلك، أمّا العالم فلعلمه بأنّه رذيلة ينبغي أن تجتنب وأمّا الفقير فظاهر.

وقوله: [**وعند ذلك**] ما حرس اللّه عن هذه المكايد التي هي البغي والظلم والكبر [**حرس اللّه عباده المؤمنين**] فـ«ما» زائدة و«عن» متعلّقة بحرس [**بالصلوات أو الزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات**] أي: هذه الأمور هي التي حرس اللّه بها عباده من الكبر ونحوه، وجعلها سبباً للتحرّز من نزغات الشيطان.

[**تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم وإذهاباً للخيلاء**] أي: التكبّر [**عنهم**] والكلّ نصب على المفعول له والعامل ما دلّ عليه قوله حرس من معنى الأمر، أي: حرسهم بهذه وأمرهم بكذا، وحاصل ذلك انّها منافية للتكبّر إذ كان مدارها على تضرّع وخشوع وسجود وركوع وكلّ من هذه الأجزاء بكيفيّاته وهيئاته موضوع على المذلّة والتواضع والاستسلام لعزّة اللّه وعظمته وتصوّر كماله وتذكّر وعده ووعيده وأهوال الموقف بين يديه وجميع ذلك ينافي التكبّر والتعظّم لما في ذلك من [**تعفير عتايق الوجوه**] أي: كرايمها بالتراب [**تواضعاً وإلصاق كرايم**

الجوارح بالأرض تصاغراً ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً مع ما في الزكاة من مصرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر انظروا ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر وكف طوالع من الكب ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلا عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجّة تليط

الجوارح] كاليدين والساقين **[بالأرض تصاغراً]** يوجب الخشوع والاستسلام، وهذا كلّه بيان الحكمة في الصلاة، وأشار إلى حكمة الصوم بقوله:

[ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً] أي: الجوع في الصوم الذي يلحق البطن بالمتن يقتضي زوال الاشر والبطر ويوجب مذلّة النفس وقمعها عن الانهماك في الشهوات.

[مع ما في الزكاة من مصرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر] وذلك يوجب تطهير النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمح به النفوس من الأموال وفي ذلك كلّه دفع مكائد الشيطان وخفض القلوب عن التيه والكبر ولذا قال: **[انظروا ما في هذه الأفعال من قمع]** أي: قهر **[نواجم الفخر]** جمع ناجمة وهي ما يظهر **[وكف طوالع]** ما يطلع **[من الكب]**.

ثمّ انّه ﷺ شرع في التوبيخ لهم على تعصّبهم الباطل الذي تثور به الفتن مع انّه ليس لأمر يعرف من وجه المنفعة والمصلحة فقال:

[ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلا عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء] أي: تلبيسهم أي: يشتبه الأمر على أهل الجهل بحيث يظنّ سبباً صحيحاً للتعصّب **[أو]** عن **[حجّة تليط]** تلصق

بعقول السفهاء غيركم فإنّكم تتعصّبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علّة أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله وطعن عليه في خلقته فقال أنا ناري وأنت طيني وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النعم فقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين

وتختلط [**بعقول السفهاء غيركم فإنّكم تتعصّبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علّة**] تقدير الكلام فما وجدت أحداً يتعصّب إلا وجدته يتعصّب عن علّة. وقوله غيركم استثناء من معنى الإثبات في الجملة المفيدة للحصر، كأنّه قال: وجدت كلّ أحد يتعصّب عن علّة إلا أنتم، وقوله: تتعصّبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علّة، أي: سبب يحتمل التمويه على الجهلاء وعلّة يلتصق بعقول السفهاء ولم يرد نفي مطلق السبب والعلّة أو سبب تعصّبهم هو الاعتزاء الذي كان بينهم كما مرّ في سبب الخطبة لكنّه ترك الوصف هنا لتقدّمه.

ثمّ شرع في تفصيل وجوه العصبية فقال: [**أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله**] واعتقاد لطف جوهره بأنّ النار أشرف من الطين مع جهله بسرّ البشرية [**وطعن عليه في خلقته**] وهيئته [**فقال أنا ناري وأنت طيني**] فقاس الفرع على الأصل في الشرف والخسّة ولذا قيل: إنّ أوّل من قاس إبليس.

[**وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم**] والمترف الذي أطغته النعمة [**فتعصّبوا لآثار مواقع النعم**] ومواقعها هي الأموال والأولاد وسائر ما ينتفع به. [**فقالوا**] كما حكى اللّه عنهم [**نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين**] وآثار تلك المواقع هي الغنى والترفة بها والنعم والالتذاذ فكان تعصّبهم لذلك وفخرهم به، ويحتمل أن يريد بالنعم الأموال والأولاد وبمواقعها وقوعها

فإن كان لابدّ من العصبيّة فليكن تعصّبكم لمكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل بالأخلاق والرغيبة والأحلام العظيمة والأخطار الجليلة والآثار المحمودة فتعصّبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبرّ

وآثارها هي الغنى والترفة.

[**فإن كان لابدّ من العصبيّة فليكن تعصّبكم لمكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء**] جمع ماجد: وهو كريم الآباء وشريفهم.

[**والنجداء**] جمع نجيد وهو ذو النجدة وهي فضيلة تحت الشجاعة، أي: أهل المجد والشرف والنجدة.

[**من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل**] أي: رؤسائها وساداتها، واليعسوب في الأصل: أمير النحل.

[**بالأخلاق والرغيبة**] متعلّق بتفاضلت أي: الأخلاق المرغوب فيها [**والأحلام**] أي: العقول [**العظيمة**] والحلم ملكة تحت الشجاعة وهي الأناة والرزانة عند الغضب [**والأخطار**] أي: الأقدار [**الجليلة والآثار المحمودة**] ثمّ أمرهم بعد التنبيه على تلك المكارم بالعصبيّة لها فقال: [**فتعصّبوا لخلال الحمد**] وخصاله التي توجب المدح والثناء [**من الحفظ للجوار**] بالكفّ عن أذاه والإحسان إليه ومصادقته ومسامحته ومواساته.

[**والوفاء بالذمام**] وهو ملكة تحت العفّة [**والطاعة للبرّ**] الذي ذكره الله في كتابه فقال: ﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ

والمعصية للكبر والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ واجتناب الفساد في الأرض

البرّ من آمن باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلوة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابين في البأساء والضرّاء وحين البأس أُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتّقون﴾ وقال تعالى: ﴿ولكن البرّ من اتقى﴾ والمراد به كمال الإيمان والتقوى والأعمال الجميلة، ومعنى طاعة البر التلبّس بهذه الأفعال وملازمتها، وقد يراد به العفّة ويقابله الفجور ويراد به ما يقابل العقوق وهو الشفقة على ذوي الأرحام والإحسان إلى الوالدين.

[والمعصية للكبر] أي: مجانبته إطلاقاً لإسم السبب على المسبّب أو معصيته الآمرة بالكبر وهي كناية عن التواضع وهو فضيلة تحت العفّة والمعصية هنا في مقابل الطاعة.

[والأخذ بالفضل] أي: استكمال الفضيلة ولزومها ويحتمل إرادة التفضّل على الغير والإحسان إليه.

[والكفّ عن البغي] ويعود إلى فضيلة العدل **[والإعظام للقتل]** وهو كناية عن تركه.

[والإنصاف للخلق] بلزوم العدل في معاملاتهم **[والكظم للغيظ]** وهو فضيلة تحت فضيلة الشجاعة، قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾.

[واجتناب الفساد في الأرض] باستعمال قوانين العدل وملازمتها. ثمّ

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكّروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم فإذا تفكّرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كلّ أمر لزمت العزّة به حالهم وزاحت الأعداء له عنهم ومدّت العافية فيه بهم انقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة عليه حبلهم

لمّا أمر بلزوم مكارم الأخلاق والأعمال الجميلة أردفه بالتنفير عن الكون على ضدّ ذلك من رذائلها وذمايمها فقال:

[**واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات**] أي: العقوبات [**بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكّروا في الخير والشر أحوالهم**] أي: حين كانوا في طاعة أنبيائهم والألفة الجامعة بينهم وأحوالهم في الشرّ التي انقلبوا إليها عن ملك الحال حين خالفوا صالح الأعمال وحالفوا ذميم الأفعال، فقال: [**واحذروا أن تكونوا أمثالهم**] في ذلك الانقلاب واستبدال الشرّ بالخير.

[**فإذا تفكّرتم في تفاوت حاليهم**] الخير والشر [**فالزموا كلّ أمر لزمت العزّة به حالهم وزاحت الأعداء له عنهم ومدّت العافية فيه بهم**] الباء للاستصحاب أي: مدّت مستصحبة لهم، وفي نسخة الرضي ومدّت بالفتح على البناء للفاعل كقولك مدّ الماء أي: جرى وسال، وكذا [**انقادت النعمة له معهم**] أي: لسببه إذ كان سبباً معدّاً لإفاضة النعم عليهم.

[**ووصلت الكرامة عليه حبلهم**] استعار لفظ الوصل لاجتماعهم عن كرامة الله لهم حال كونهم على ذلك الأمر، ورشح بذكر الحبل [من الاجتناب للفرقة واللزوم للألفة والتحاض عليها تفاعل يستدعي وقوع الحظّ وهو الحثّ من الجهتين أي: يحثّ بعضهم بعضاً.

والتـواصي بها، واجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم وأوهن منتهم من تضـاعن القلوب وتشـاحن الصـدور وتدابر النفـوس وتخـاذل الأيدي وتدبّروا أحـوال الماضـين من المؤمنين قـبلكـم كـيف كـانوا في حـال التمحيص والبلاء ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً

[**والتواصي**] أي: يوصي بعضهم بعضاً [**بها، واجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم**] واحدة فقر الظهر أي: خرزاته، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة قد كسرت فقرته.

[**وأوهن منتهم**] أي: قوّتهم [**من تضاعن القلوب**] أي: تحاقدها [**وتشاحن الصدور**] أي: تعاديها [**وتدابر النفوس**] أي: تقاطعها [**وتخاذل الأيدي**] أي: عدم التناصر فإنّها أُمور تضادّ الأُلفة وتنافيها فكانت مضادّة لما تستلزمه الأُلفة، وأراد التخاذل المطلق وإضافته إلى الأيدي كناية؛ لأنّ الأغلب كون التناصر بالأيدي وهؤلاء الذين أمر باعتبار حالهم لا يريد بهم أُمّة معيّنة، بل الحال عامّ في كلّ أُمّة سبقت فإنّ كلّ أُمّة ترافدت أيديهم وتعاونوا وتناصروا كان ذلك سبباً لعزّة حالهم ورفع الأعداء عنهم وكلّ قوم افترقوا وتقاطعوا استلزم ذلك قهر الأعداء لهم.

ثمّ قال: [**وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء**] والتمحيص: التطهير أي: اعتبروا حال المؤمنين قبلكم مع الأنبياء السابقين فإنّهم حيث كانوا مع كلّ نبيّ في مبدء أمرهم في حال التمحيص والاستخلاص لقلوبهم بالبلاء.

[**ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً**] أي: أثقالاً، واحدها عبء.

وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً، قد اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرّعوهم المرار فلم تبرح الحال بهم في ذلّ الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع حتّى إذا رأى اللّه جدّ الصبر منهم على الأذى في محبّته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً وأبدلهم العزّ مكان الذلّ والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكّاماً وأئمّة أعلاماً وبلغت الكرامة من اللّه تعالى لهم مالم تذهب الآمال إليه

[وأجهد العباد] وأتعبهم **[بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً، قد اتخذتهم الفراعنة عبيداً]** وكلّ عات: فرعون.

[فساموهم سوء العذاب] أي: ألزموهم إيّاهم، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبنائكم ويستحيون نسائكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم﴾.

[وجرّعوهم المرار] بضمّ الميم: شجر مرّ في الأصل، واستعير شرب المرار لكلّ من يلقى شديد المشقّة.

[فلم تبرح الحال بهم في ذلّ الهلكة وقهر الغلبة] أي: لم يزالوا كذلك مقهورين مغلوبين **[لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع]** القهر والغلبة عليهم **[حتّى إذا رأى اللّه]** سبحانه **[جدّ الصبر]** أي: شدّته **[منهم على الأذى في محبّته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً]** ومن صعاب الشدائد مخرجاً.

[وأبدلهم العزّ مكان الذلّ والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكّاماً وأئمّة أعلاماً] يهتدى بهم كما يهتدى بالعلم في الفلاة.

[وبلغت الكرامة من اللّه تعالى لهم مالم تذهب الآمال إليه] قيل:

فانظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة والأيدي مترادفة والسيوف متناصرة والبصائر نافذة والعزائم واحدة

إشارة إلى حال يوسف مع فرعون زمانه وموسى وهرون ومن آمن معهما من بني إسرائيل في مبدء أمرهم فإنّهم كانوا حال التمحيص والبلاء بالصفات التي ذكرها عليه السلام، وقيل أشار بذلك إلى ما كان عليه المؤمنين مع نوح وإبراهيم وغيرهما، وموسى وهرون بعد هلاك فرعون ورثا ملك مصر، وكطالوت وداود بعد مجاهدتهما لجالوت وقتله وكان الملك بعده لداود كما قال اللّه ﴿وآتاه اللّه الملك والحكمة﴾ وكذا لم يزل الملك والنبوّة في سليمان وولده وأولادهم إلى الأعرج من ولده فإنّه لم يكن نبيّاً وقتله ابنه وكان ــــــ نصر كاتبه فضغب لذلك واغتر الابن حتّى قتله وملك بعده.

[**فانظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة**] الاملاء: الجماعات، الواحده ملأ. [**والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة**] أي: مستقيمة على الحقّ [**والأيدي مترادفة**] أي: متعاونة [**والسيوف متناصرة**] أي: أهلها، أو استعار وصف التناصر لها باعتبار كونها أسباباً يقوّي بعضها بعضاً فصارت كالجماعة التي تنصر بعضها بعضاً.

[**والبصائر نافذة**] يقال: نفذ بصيرته في الأمر أي: اجتمع همّه عليه ولم يبق عنده تردّد فيه.

[**والعزائم واحدة**] أي: الارادات الجازمة على طلب الحقّ أمرهم باعتبار حالهم في ألفتهم واجتماعهم، وأشار إلى أنّ المستلزم لتلك الخيرات كلّها إنّما هو الألفة والاجتماع يقول انظروا في أخبار من قبلكم من الأمم

ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أُمورهم ووقعت الفرقة وتشتّت الألفة واختلفت الكلمة والأفئدة وتشعّبوا مختلفين وتفرّقوا متحزّبين قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين منكم فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل فما أشدّ اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال

كيف كانت حالهم في العزّ والملك لما كانت كلمتهم واحدة.

[**ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين**] أي: نواحيها [**وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أُمورهم ووقعت الفرقة**] بينهم [**وتشتّت الأُلفة**] أي: تفرّقت [**واختلفت الكلمة والأفئدة وتشعّبوا مختلفين**] أي: صاروا شعوباً وقبائل مختلفين.

[**وتفرّقوا متحزّبين**] أي: اختلفوا أحزاباً، وروي متحاربين.

[**قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته**] غضارة النعمة: الطيب اللّين منها.

[**وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين منكم**] إشارة إلى أنّ المستلزم لتلك الشرور هو ما حصلوا عليه من تفرّق الكلمة.

[**فاعتبروا بحال ولد إسماعيل**] وهم العرب من قحطان وآل معد. [**وبني إسحاق**] أولاد روم بن عيص بن اسحاق. [**وبني إسرائيل**] أولاد يعقوب بن إسحاق [**فما أشدّ اعتدال الأحوال**] أي: تساويها، أي: مساواة أحوالكم لأحوالهم في الرداءة [**وأقرب اشتباه الأمثال**] أي: انّ أحوالكم شديدة المماثلة لأحوالهم، وفيه إشارة إلى وجه علّة الاعتبار فإنّهم إذا

تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق ومنابت الشيح ومهافي الريح محلّ نكد العيش فتركوهم عالةً مساكين اخوان دبر ووبر أذلّ الأمم داراً وأجدبهم قراراً

تشابهت أحوالهم وأُمورهم وجب اعتبار حالهم بحالهم، ولذا أتى بالفاء التعليلية [**تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم**] وشدّتهم ورخائهم [**ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم**] أي: مالكون لأمورهم [**يحتازونهم**] أي: كانت القياصرة يحتازون بني إسرائيل وبني إسحاق والأكاسرة يحتازن بني إسرائيل ويمنعونهم من أعمال العراق والاحتياز الاقتطاع عن الشيء والأخذ عنه.

وقوله: [**عن ريف الآفاق وبحر العراق**] والريف: الأرض ذات الزرع والخصب، قيل أراد بزيف الآفاق: الشام، وببحر العراق: دجلة والفرات.

[**ومنابت الشيح**] أرض العرب، والشيح: نبت معروف [**ومهافي الريح**] المواضع التي تهفو أي: تهبّ فيها الريح، وهي الفيافي والصحاري ومعلوم أنّها [**محلّ نكد العيش**] وضيقه كما وبّخهم بذلك وقال: ونكد المعاش [**فتركوهم عالةً**] أي: فقراء جمع عال والعائل والعيلة: الفقر، كما في قوله تعالى: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم اللّه من فضله﴾.

[**مساكين اخوان دبر ووبر**] كنّى بالدبر والوبر عن الجمال، ودبر البعير عقره، والوبر للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز.

[**أذلّ الأمم داراً**] لعدم المعاقل والحصون المنيعة فيهم.

[**وأجدبهم قراراً**] بعدم الزرع والشجر والنخل بها. والجدب: المحل.

لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ولا إلى ظلّ أُلفة يعتمدون على عزّها والأحوال مضطربة والأيدي مختلفة والكلمة متفرّقة في بلاء أزل و أطباق وجهل من بنات موؤدة

[**لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها**] أي: لا يلتجئون ولا ينضمون واستعار الجناح لما ينهض به دعوتهم وتقوى شوكتهم إذا دعوا، وكنّى بذلك عن كونهم لاوون إلى من يجيب دعوتهم فيعتصمون به.

[**ولا إلى ظلّ أُلفة يعتمدون على عزّها**] استعار الظلّ لما تستلزمه الأُلفة من التعاون والتعاضد والتناصر، ووجه الشبه ما يستلزمه هذه الأُمور من الراحة والسلامة من حرارة نار العدوّ والحرب كما يستلزمه الظلّ من حرارة الشمس، ثمّ أخذ في شرح أحوالهم وقال: [**والأحوال مضطربة**] لكونها على غير نظام [**والأيدي مختلفة**] كناية عن عدم اتّفاقهم على التناصر [**والكلمة متفرّقة**] كناية عن عدم أُلفتهم واجتماعهم على مصالحهم [**في بلاء أزل**] أي: ضيق والإضافة بمعنى من [و] كذا [**أطباق وجهل**] فإنّ للجهل صفات ودركات بعضها فوق بعض أوّلها عدم العلم بالحقّ، وفوقها الاعتقاد لغير الحقّ، وفوقها اعتقاد شبهة تقوي ذلك مع تجويز النقيض، وفوقها اعتقاد تلك الشبهة حزماً، وفي نسخة الرضي وإطباق بكسر الهمزة مصدر أي: وجهل مطبق عليهم.

[**من بنات موؤدة**] بيان تفصيل لوازم ذلك الجهل والموؤدة البنت تدفن في التراب حيّة، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وإذا الموؤدة سُئِلت بأيّ ذنب قُتلتْ﴾ قيل كان ذلك في بني تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل لأنّ النبيﷺ دعى عليهم فقال: اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم

وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة فانظروا إلى مواقع نِعم الله عليهم حيث بعث إليهم رسولاً

سنيناً كسنيّ يوسف فأجدبوا سبع سنين حتّى أكلوا الوبر بالدم وكانوا يسمّونه العلهر، فواد البنات لإملاقهم وفقرهم وإليه أُشير بقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ وقيل بل كان وأدهم للبنات أنفة، لأن تميماً منعت النعمان الامارة سنة من السنين فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر وجلّ من معه من بكر بن وائل فاستاق النعم وسبى الذراري فوفدت بنو تميم إلى النعمان واستعطفوه فرقّ لهم وأعاد عليهم السبي وقال: كلّ امرأة اختارت أباها ردّت إليه وإن اختارت صاحبها تُركت عليه، فكلهنّ اخترن إبائهن إلا بنت قيس بن عاصم فإنّها اختارت من سباها، فنذر قيس بن عاصم التميمي أنّه لا تولد له بنت إلا وأدها، ففعل ذلك ثمّ اقتدى به كثير من بني تميم.

وقوله: **[وأصنام معبودة]** إشارة إلى ما كانوا عليه من تعيين صنم للعبادة لكلّ قبيلة فكان لهذيل سواع ولبني كلب ود ولمدحج يغوث وكان بدومة الجندل ولذي الكلاع نسر ولهمدان يعوق ولثقيف اللات والعزّى ولقريش وبني كنانة والأوس والخزرج مات وكان هبل على الكعبة وأساف ونايله على الصفا والمروة وحكى انّ بني حنفة اتخذوا صنماً من ـــــــــ فعبدوه دهراً ثمّ أصابتهم مجاعة فأكلوه.

[وأرحام مقطوعة] فقد كان أحدهم يقتل أباه وأخاه عند الحمية لأدنى سبب **[وغارات مشنونة]** يقال: شنّ الغارة أي: فرّقها من كلّ جانب.

[فانظروا إلى مواقع نِعم الله عليهم حيث بعث إليهم رسولاً] بعد تلك الاحوال الشديدة.

فعقد اللّه بملّته طاعتهم وجمع على ألفته دعوتهم كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها وأسالت عليهم جداول نعمتها والتفت الملّة بهم في عوايد بركتها فأصبحوا في نعمتها غريقين

[فعقد اللّه] تعالى **[بملّته طاعتهم وجمع على ألفته دعوتهم]** فقال تعالى في مقام الامتنان: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ اللّه ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم﴾ ومعنى عقده لطاعتهم بملّته جمعها بعد الانتشار ونظمها بعد التفرّق إذ كانت طاعاتهم في الجاهلية موافقة لأهوائهم المختلفة.

[كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها] استعار الجناح لما أسبغت عليهم رحمة اللّه من النعمة وعمّت به من الكرامة ورشح بذكر النشر وكنّى به عن عمومهم بها وكذا استعار الجداول في قوله: **[وأسالت عليهم جداول نعمتها]** لأنواع نعيمها وسيول الخيرات التي جرت عليهم من الكمالات النفسانية والبدنية ملاحظةً لشبه تلك الطرق والأسباب بالجداول في جريان الماء بها ورشح بذكر الإسالة.

[والتفت الملّة بهم في عوايد بركتها] أي: اجتمعت بهم ولقيتهم في منافعها التي حصلت ببركتها، يقال: التفّ الحبل بالحطب أي: اجتمع به، وفي عوائد متعلّق بمحذوف حال أي: جمعتهم الملّة كاينة في عوائد بركتها، والعوائد جمع عائدة: المنفعة، وروي التقت بالقاف أي: اجتمعت بهم في اللقاء.

[فاصبحوا في نعمتها غريقين] استعار الغرق ملاحظة لشبههم بهم في شمول نعمة الدين لهم.

وعن خضرة عيشها فاكهين قد تربّعت الأمور بهم في ظلّ سلطان قاهر وأوتهم الحال إلى كهف عزّ غالب وتعطّفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت فهم حكّام على العالمين وملوك في أطراف الأرضين يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم لا تقهر لهم قناة ولا تقرع لهم صفاة

[**وعن خضرة عيشها فاكهين**] كناية عن سعة المعاش بسبب الملة وطيبه.

[**قد تربّعت الأمور بهم**] أي: أقامت من ربع بالمكان أي: أقام.

[**في ظلّ سلطان قاهر**] استعار الظلّ لما يستلزمه ذلك السلطان من النعمة، أي: تمكّنت بهم الأمور والأسباب التي اعدّتهم لنعمة اللّه في ذلك الظلّ وكذا قوله: [**وأوتهم**] أي: ضمّتهم وأنزلتهم [**الحال**] التي كانوا عليها [**إلى كهف عزّ غالب**] وهو عزّ الإسلام ودولته ملاحظةً لشبهه بأعالي الجبل المنيع في علوّه ومنعته وكذا استعار التعطّف في قوله: [**وتعطّفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت**] لإقبال السعادات الدنيوية والاخروية عليهم بالإسلام، مشبّهاً لذلك الإقبال بتعطّف ذي الرحمة والشفقة على غيره والذُّرى بضمّ الذال جمع ذروة: وهي أعلا الجبل، وكنّى عن العزيز الذي لا يضام.

[**فهم حكّام على العالمين وملوك في أطراف الأرضين يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ويمضون الاحكام فيمن كان يمضيها فيهم لا تقهر لهم قناة**] كنّى به عن قوّتهم وعدم انقهارهم للغير وكذا قوله: [**ولا تقرع لهم صفاة**] قيل هو مثل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزّته وقوّته.

ألا وإنّكم قد نقضتم أيديكم عن حبل الطاعة وثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية فإنّ اللّه سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي تنتقلون في ظلّها وتأوون إلى كنفها بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنّها أرجح من كلّ ثمن وأجلّ من كلّ خطر واعلموا انّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً

ثمّ عقّب ذلك بتوبيخهم على طاعتهم فقال: [**ألا وإنّكم قد نقضتم أيديكم عن حبل الطاعة**] استعار لفظ الحبل لما نظم بينهم من طاعتهم للّه ورسوله وكنّى بوصف نقض الأيدي عن خروجهم من الطاعة وشدّة إطراحهم لها بكثير من أفعالهم.

[**وثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية**] استعار الحصن للإسلام لكونه حافظاً لهم من أعدائهم الظاهرة والباطنة، كالحصن المضروب على أهله، ورشح بذكر المضروب واستعار الثلم لكسرهم الإسلام بأحكام الجاهلية ومخالفتهم لكثير من أحكامه.

[**فإنّ اللّه سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي تنتقلون في ظلّها وتأوون إلى كنفها بنعمة**] متعلّق بـ«امتنّ».

[**لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنّها أرجح من كلّ ثمن وأجلّ من كلّ خطر**] والخطر: القدر والمنزلة، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ اللّه ألّف بينهم﴾ وقوله: ﴿فاصبحتم بنعمته إخواناً﴾..

[**واعلموا انّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً**] توبيخ لهم بانتقالهم عن

وبعد الموالاة أحزاباً ما تتعلّقون من الإسلام إلا باسمه ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه يقولون النار ولا العار كأنّكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه ونقضاً لميثاقه الذي وضعه اللّه تعالى لكم حرماً في أرضه

الأحوال والأقوال الإسلامية إلى الأحوال الجاهلية، أي: صرتم بعد كونكم مهاجرين أعراباً ذوي جفاء وقسوة وبُعد عن الفضائل الدينية ومجالسة أهل الدين، وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً﴾ وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه.

[**وبعد الموالاة أحزاباً**] والأحزاب: الفرق التي تنقسم لمحاربة الرسل وأوصيائهم وتجتمع لمخالفتهم وظاهر أنّهم انقسموا إلى ناكثين وقاسطين ومارقين ومنافقين.

[**ما تتعلّقون من الإسلام**] بشيء من شرائطه وأجزائه وأركانه [**إلا باسمه ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه**] وأثره وشعاره الظاهر كالإقرار بالشهادتين وحضور الصلاة دون الشرائط الحقّة وما ينبغي له.

[**يقولون النار ولا العار**] كما هو المعتاد لأهل الكبر والأنفة من احتمال الأذى والضيم لأنفسهم أو لقومهم في الاستنهاض إلى الفتنة ونصب النار والعار بفعلين مضمرين أي: ادخلوا النار ولا تتحمّلوا العار.

[**كأنّكم تريدون أن تكفئوا**] أي: تقتلوا [**الإسلام على وجهه**] أي: تفسدوه كالإناء المقلوب فيخرج ما فيه من الانتفاع.

[**انتهاكاً لحريمه**] نصب على المفعول له والعامل تكفأ وكذا قوله: [**ونقضاً لميثاقه الذي وضعه اللّه تعالى لكم حرماً في أرضه**] يمنعكم من كلّ

وأمناً بين خلقه وانّكم لو لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر ثمّ لا جبرئيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار فينصرونكم إلا المقارعة بالسيف حتّى يحكم اللّه بينكم وإنّ عندكم الأمثال من بأس اللّه وقوارعه وأيّام وقائعه

عدوّ ويحقن دمائكم وأموالكم [**وأمناً بين خلقه**] أي: محلّ آمن لمن دخله.

[**وانّكم لو لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر**] تحذير عن الاعتماد على غير الإسلام واللجأ إليه من شجاعة أو حميّة أو كثرة في قبيلة مع الخروج عن طاعة سلطان الإسلام والتفرّق فيه فإنّ ذلك يستلزم طمع الكفّار فيهم وعدم نصرة الملائكة والمهاجرين والأنصار لهم.

كما قال: [**ثمّ لا جبرئيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار فينصرونكم**] إمّا لأنّ تلك النصرة كانت مختصّة بوجود النبيﷺ والاجتماع على طاعته وقد زالت بفقده، أو لأنّها مشروطة بالاجتماع على الدّين والالفة فيه والذبّ عنه، فإذا التجأوا إلى غيره وحاربهم الكفّار لم يكن لهم ناصر من الملائكة لعدم اجتماعهم على الدّين ولا من المهاجرين والأنصار لفقدهم.

وقوله: [**إلا المقارعة بالسيف حتّى يحكم اللّه بينكم**] استثناء منقطع، وحكم اللّه الذي جعله غاية للمقارة هو إفاضة صورة النصر على أحد الفريقين والانقهار على الآخر.

وقوله: [**وإنّ عندكم الأمثال من باس اللّه**] تعالى [**وقوارعه**] وهي الدواهي العظام [**وأيّام وقائعه**] التي أوقع فيها لهم عقوباته وبأسه حين استعدّوا لذلك بمعصيته وتهديد لهم بذلك إن خالفوا أمره.

فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه فإنّ اللّه سبحانه لم يعلن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن السفهاء لركوب المعاصي والحكماء لترك التناهي ألا وقد قطعتم قيد الإسلام وعطّلتم حدوده وأمتّم أحكامه

[**فلا تستبطئوا وعيده**] بالعقوبة على معاصيكم [**جهلاً بأخذه**] نصب على المفعول له وكذا قوله: [**وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه**] لصلوح الثلاثة عللاً غائية لاستبطاء الوعيد، بمعنى استبعاده؛ لأنّ جهل العبد بكيفيّة أخذه تعالى له بالموت وأهواله وشدائد الآخرة مما يستبعد معه وقوع تلك الأمور في حقّه كما هي، وكذا تهاونه ببسطه وإملائه لعدم علمه بما في ذلك البسط من الاستدراج مما يحمله على استبعاد وعيده ويغريه بالمعصية وكذا يأسه من بأسه بسبب ذلك الجهل، وذلك البسط مما يحمله على ذلك الاستبعاد أيضاً.

وقوله: [**فإنّ اللّه سبحانه لم يعلن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**] تنبيهٌ لهم على أنّ لعنة اللّه للماضين قبل الإسلام إنّما كان لشقائهم ومعاصيهم، فإذا ساووهم في أفعالهم استحقّوا ما استحقوا.

[**فلعن السفهاء لركوب المعاصي**] المنكرة [**والحكماء**] وذوي العقول منهم [**لترك التناهي**] وعدم الإنكار لما يشاهدونه من المنكرات، كما قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾.

وقوله: [**ألا وقد قطعتم قيد الإسلام وعطّلتم حدوده وأمتّم أحكامه**] تنبيهٌ لهم على أنّهم من جملة من اتصّف بذلك الملزوم وهو الأمر بالمعروف

ألا وقد أمرني اللّه تعالى بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الارض، فأمّا الناكثون فقد قاتلت، وأمّا القاسطون فقد جاهدت، وأمّا المارقون فقد دوّخت

والنهي عن المنكر وركوب المعاصي، فلزمهم الدخول في زمرة الملعونين واستعار قيد الإسلام للأُلفة والاجتماع عليه وعلى امتثال أوامر اللّه فيه، باعتبار كون ذلك حافظاً للإسلام عليهم ومانعاً له من التشرّد والذهاب كما يمنع الجمل قيده من الشرود والتشتّت وحدود اللّه أحكامه التي حدّها للناس ومنعهم من تجاوزها وتعطيلهم لها بإطراحها وتجاوزها، وكذا إماتة أحكامه وعدم العمل بها ووصف الإماتة مستعار لتكرها وإهمالها لاعتبار أنّهم أخرجوها بذلك الإهمال عن انتفاعهم بها كما أنّ مميت الشيء يخرجه عن حدّ الانتفاع.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان تكليفه وشرح حاله مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله من أوّل عمره والتنبيه على موضعه منه وموافقته لأوامر اللّه ببلائه الحسن الجميل وحاله مع روسل اللّه صلى الله عليه وآله فقال:

[**ألا وقد أمرني اللّه تعالى بقتال أهل البغي**] وهو الظلم والجور [**والنكث**] وهو نقض العهد [**والفساد في الارض، فأمّا الناكثون فقد قاتلت، وأمّا القاسطون فقد جاهدت، وأمّا المارقون فقد دوّخت**] يقال: دوّخت القوم أي: غلبتهم وقهرتهم.

قال ابن أبي الحديد: قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين» فكان الناكثون أصحاب الجمل؛ لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام وكان القاسطون أهل الشام بصفّين وكان المارقون الخوارج

وأمّا شيطان الردهة فقد كفيته بصفعة سمعت لها وجبة قلبه ورجّة صدره

بالنهروان.

وفي الفرق الثلاث قال اللّه تعالى: ﴿ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه﴾ وقال: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «يخرج من ضيضئ هذا قوم يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرمية ينظر أحدكم في النضل فلا يجد شيئاً فينظر في الفوق فلا يجد شيئاً سبق الفرث والمدم» وهذا الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ومن أخباره ـــــ بالغيوب، انتهى.

أقول: الإشارة بهذا إلى ذي الثدية والضيضئ: الأصل، وقوله: [وأمّا **شيطان الردهة فقد كفيته بصفعة سمعت لها وجبة قلبه ورجّة صدره**] الردهة: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء والصعقة الغشية من صيحة ونحوها، والموجبة: واحده الوجيب وهو اضطراب القلب، والرجّة: واحدة الرج وهي الحركة والزلزلة قيل أراد بشيطان الردهة ذا الثدية لأنّ النبي صلى الله عليه وآله ذكره بهذا الاسم، قيل إنّه لم يقتل بسيف ولكن اللّه رماه يوم النهر بصاعقة وإليها أُشير بقوله: «فقد كُفيته بصفعة» إلخ، وسمّي شيطاناً لكونه ضالاً مضلاً ونسب إلى الردهة لأنّه عليه السلام لما طلبه في القتل يوجده في حفرة فيها ماء وقيل الصفعة التي أشار إليها ما أصابه من الغشي والموت بضربته عليه السلام وقيل المراد بها صيحة العذاب لما روي أنّ علياً عليه السلام لمّا قابل القوم صاح فيهم فكان ذو الثدية ممّن هرب من صحيته حتّى وجد قتيلاً في الحفرة المذكورة وقيل شيطان الردهة أحد الأبالسة المردة من أعوان عدوّ اللّه إبليس، وروي في ذلك خبر

وبَقِيَتْ بقية من أهل البغي ولئن أذن اللّه تعالى في الكرّة عليهم لأديلنّ منهم إلا ما يتشذّر في أطراف الأرض تشذّراً أنا وضعت بكلاكل العرب

عن النبي ﷺ أنّه كان يتعوّذ منه وهذا مثل قوله ﷺ: ارب العقبة أي: شيطانها، ولعلّ ارب العقبة هو شيطان الردهة بعينه، وقيل شيطان الردهة عفريت مارد ويتصوّر في صورة حيّة ويكون في الردهة، وقوله:

[**وبَقِيَتْ بقية من أهل البغي**] يريد معاوية وأصحابه لأنّه ﷺ لم يكن أتى عليهم بأجمعهم.

[**ولئن أذن اللّه تعالى في الكرّة عليهم**] والرجوع إليهم [**لأديلنّ منهم**] أي: لأقهرنّهم وأكون ذا ادالة منهم وغلبة عليهم ثقة بوعد اللّه تعالى في قوله: ﴿ومن بغى عليه لينصرنّه اللّه﴾ وقوله تعالى: ﴿يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم﴾ وقوله: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾ وكنّى بإذن اللّه عن توفيق أسباب العود إليهم من فسحة الأجل ونحوها، وعلّقه على ذلك لاحتمال أن يكون اللّه قد أخّر ذلك في الرجعة التي فيها دولة الحقّ وقوام الدّين وهي المشار إليها بقوله: ﴿ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون﴾.

وقوله: [**إلا ما يتشذّر في أطراف الأرض تشذّراً**] أي: إلا ما يتمزّق ويتبدّد منهم في الأطراف فلا تكون الدائرة عليه، والتشذّر: التفرّق.

ثمّ شرع ﷺ في التنبيه على فضيلته في الشجاعة والنجدة لغاية أن يخافه أعدائه وتقوى به قلوب أوليائه لا على سبيل الفخر والافتخار فقال: [**أنا وضعت بكلاكل العرب**] والباء زائدة، والكلاكل المصدر والواحد كلكل

وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر وقد علمتهم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد يضمّني إلى صدره ويكنفي في فراشه ويمسّني جسده ويشمّني عرفه

استعارة للجماعة من أكبار العرب الذين قتلهم في صدر الإسلام وفرّق جمعهم، ووجه الشبه كونه محلّ قوّة العرب ومقدّمهم كما أنّ الصدر من الحيوان كذلك، والمراد بوصفهم إذلالهم وإهانتهم ويحتمل أن تكون الباء للالصاق أي: فعلت بهم الوضع والإهانة.

[**وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر**] النواجم: جمع ناجمة وهو الطالع والخارج، واستعار لفظ القرون لأكابر ربيعة ومضر ممّن قاتلهم وقتلهم ووجه الاستعارة كون كلّ منهم لقبيلته كالقرن يظهر فيها فتصول به وتمتنع من عدوّها كذي القرون من الحيوان بقرنه وأراد بالنواجم ظهر أمره، ورشح بذكر الكسر وكنى به عن قتلهم وقتله للأكبار من مضر، ومعلوم في بدو الإسلام والقرون من ربيعة إشارة إلى قتله منهم من وقائع الجمل وصفّين بنفسه وجيشه.

[**وقد علمتهم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة**] أشار بها إلى نسبة القرب منه ﷺ إذ كان ابن عمّه وأبواهما اخوان لأب وأم دون غيرهما من بني عبدالمطلب إلا الزبير [**والمنزلة الخصيصة**] إشارة إلى ما سيذكره من تربيته ووصفه له في حجره وما كان من الصاهرة التي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار.

[**وضعني في حجره وأنا وليد يضمّني إلى صدره ويكنفي في فراشه**] أي: يحفظني فيه ويحوطني ويلفّني [**ويمسّني جسده ويشمّني عرفه**] أي:

وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خلطة في فعل ولقد قرن اللّه به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من الملائكة يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أُمّه يرفع لي في كلّ يوم علماً من أخلاقه

رائحته.

[وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه] فروي أنّهﷺ كان يمضغ اللحمة والتمرة حتّى تلين ويجعلها في فم عليٍّ وهو صغير في حجره.

[وما وجد لي كذبة في قول ولا خلطة] أي: سيّئة وقبيحة **[في فعل]** لأنّه معصوم من الزلل مفطوم من الخلل في القول والعمل.

[ولقد قرن اللّه به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من الملائكة يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره] عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إلا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ فقال عليه السلام: «يوكّل اللّه تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم ويؤدّون إليهم تبليغهم الرسالة ووكلّ بمحمّدﷺ ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق وهو الذي كان يناديه السلام عليك يا محمّد يا رسول اللّه وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض فيتأمل فلا يرى شيئاً».

[ولقد كنت أتّبعه] وألازمه في جميع أوقاته. **[اتّباع الفصيل أثر أُمّه]** لا انفكّ عنه كما لا ينفكّ الفصيل عن أُمّه.

[يرفع لي في كلّ يوم علماً من أخلاقه] استعار العلم لكلّ من أخلاقه باعتبار كونه هادياً إلى سبيل اللّه كما يهدي العلم.

ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يحاورني كلّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللّهﷺ وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوّة ولقد سمعت رنّة الشيطان لعنه اللّه حين نزل الوحي عليه صلّى اللّه عليه وآله فقلت يا رسول اللّه ما هذه الرنّة فقال: هذا الشيطان قد آيس من

[**ويأمرني بالاقتداء به**] في أقواله وأفعاله.

[**ولقد كان يحاورني كلّ سنة بحراء**] بالكسر والمدّ جبل بمكّة معروف يذكّر ويؤنّث روي أنّهﷺ كان يحاور بحراء في كلّ سنة شهراً وكان يطعم في ذلك الشهر من جائه من المساكين فإذا قضى جواره وانصرف إلى مكّة وطاف بها سبعاً قبل أن يدخل بيته حتّى جائت السنة التي أكرمه اللّه فيها بالرسالة فجاور بحراء في شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعلي وخادم وإلى ذلك أشار بقوله:

[**فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللّهﷺ وخديجة وأنا ثالثهما**] إشارة إلى أنّه أوّل من أسلم وآمن من الرجال وخديجة من النساء.

[**أرى نور الوحي والرسالة**] استعار لفظ النور لما يشاهده بعين بصيرته من أسرار الوحي والرسالة وعلوم التنزيل ودقايق التأويل وإشراقها على نفسه المقدّسة.

[**وأشمّ ريح النبوّة**] استعار لفظ الريح لما أدركه من مقام النبوّة وأسرارها ورشح بذكر الشمّ لأنّ الريح حظّ القوّة الشامّة.

[**ولقد سمعت رنّة الشيطان لعنه اللّه حين نزل الوحي عليه صلّى اللّه عليه وآله فقلت يا رسول اللّه ما هذه الرنّة فقال: هذا الشيطان قد آيس من**

عبادته إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير وإنّك لعلى خير ولقد كنت معه صلوات اللّه عليه لما أتّاه الملأ من قريش فقالوا له يا محمّد إنّك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آبائك ولا أحد من أهل بيتك ونحن نسألك أمراً إن أجبت إليه وأريتناه علمنا أنّك نبي

عبادته إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير وإنّك لعلى خير] روي عن الصادق عليه السلام قال: «كان علي يرى مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت» وقال صلى الله عليه وآله: «لولا انّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة فإن لم تكن نبياً فإنّك وصيّ نبيّ ووارثه بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء» وإثبات مقام الوزارة له إشارة إلى صلاحيته لتدبير أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم بعدهم والمعين له على ذلك وشهادته له بأنّه على خير إشارة إلى ما هو عليه من الطريقة المحمودة واستقامة السيرة في خدمتهم وتربيته وذلك خيرٌ كثير.

وفي مسند أحمد بن حنبل عن علي عليه السلام قال: «كنت مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله صبيحة الليلة التي أُسري به فيها وهو بالحجر يصلّي فلما قضى صلواته وقضيت صلواتي سمعت رنّة شديدة فقلت يا رسول اللّه ما هذه الرنّة؟ قال: رنّة الشيطان، إنّي أُسري بي اللّيلة إلى السماء فآيس من أن يعبد في هذه الأرض».

[ولقد كنت معه صلوات اللّه عليه لما أتّاه الملأ من قريش فقالوا له يا محمّد إنّك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آبائك ولا أحد من أهل بيتك] يعنون ادّعاء النبوّة ونزول الوحي عليه.

[و نحن نسألك أمراً إن أجبت إليه وأريتناه علمنا أنّك نبي

ورسول وإن لم تفعل علمنا انّك ساحر كذّاب فقال لهم صلّى الله عليه وآله: وما تسألون؟ قالواك تدعو لنا هذه الشجرة حتّى تنقلع عروقها وتقف بين يديك، فقال صلّى الله عليه وآله: إنّك على كلّ شيء قدير، فإن فعل الله ذلك بكم تؤمنون وتشهدون بالحق، قالوا: نعم قال إنّي سأريكم ما تطلبون وإنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلى خير وإنّ فيكم من يطرح في القلب ومن يحزّب الأحزاب ثمّ قال صلّى الله عليه وآله يا أيّتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول الله صلى الله عليه وآله فانقلعي بعروقك حتّى تقفي بين يدي

ورسول وإن لم تفعل علمنا انّك ساحر كذّاب فقال لهم صلّى الله عليه وآله: وما تسألون؟ قالواك تدعو لنا هذه الشجرة حتّى تنقلع عروقها وتقف بين يديك، فقال صلّى الله عليه وآله: إنّك على كلّ شيء قدير، فإن فعل الله ذلك بكم تؤمنون وتشهدون بالحق، قالوا: نعم قال] صلى الله عليه وآله [إنّي سأريكم ما تطلبون وإنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلى خير وإنّ فيكم من يطرح في القلب] وهو البئر قبل أن يطوى يذكّر ويؤنّث وعن أبي عبيدة أنّها البئر القديمة والمراد به قليب بدر ومن طرح فيه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُميّة بن عبد شمس وأبو جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم طرحوا فيه بعد انقضاء الحرب فكان ذلك الخبر من أعلام نبوّته، وأشار بقوله:

[ومن يحزّب الأحزاب] إلى أبي سفيان وعمرو بن عبد ود وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وغيرهم.

[ثمّ قال صلّى الله عليه وآله يا أيّتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول الله صلى الله عليه وآله فانقلعي بعروقك حتّى تقفي بين يدي

بإذن اللّه فوالّذي بعثه بالحقّ نبياً لانقلعت بعروقها وجائت ولها دويٌّ شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتّى وقفت بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مرفرفة وألقت بغصنها الأعلى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وببعض أغصانها على منكبي وكنت على يمينه صلوات اللّه وسلامه عليه، فلمّا نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال واشدّه دوياً فكادت تلتفّ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فقالوا كفراً وعتوآً: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فرجع، فقلت أنا: لا إله إلا اللّه إنّي

بإذن اللّه فوالّذي بعثه بالحقّ نبياً لانقلعت بعروقها وجائت ولها دويٌّ شديد] والدوي: صوت خفيف الريح والنحل.

[وقصف كقصف أجنحة الطير] والقصف: صوت جناح الطير واصطفاقه في الهواء.

[حتّى وقفت بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مرفرفة وألقت بغصنها الأعلى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وببعض أغصانها على منكبي وكنت على يمينه صلوات اللّه وسلامه عليه، فلمّا نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال واشدّه دوياً فكادت تلتفّ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فقالوا كفراً وعتوآً: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فرجع، فقلت أنا: لا إله إلا اللّه إنّي

أوّل مؤمن بك يا رسول اللّه وأوّل من آمن بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر اللّه تصديقاً لنبوّتك وإجلالاً لكلمتك فقال القوم كلّهم: بل ساحر كذّاب عجيب السحر خفيف فيه وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا، يعنوني وإنّي لمن قوم لا تأخذهم في اللّه لومة لائم سيماهم سيماء الصدّيقين

أوّل مؤمن بك يا رسول اللّه وأوّل من آمن بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر اللّه تصديقاً لنبوّتك وإجلالاً لكلمتك فقال القوم كلّهم: بل ساحر كذّاب عجيب السحر خفيف فيه وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا، يعنوني] وإجابة الشجرة لدعائه صلى الله عليه وآله مشهور في كتب المحدّثين وأهل السير والتواريخ، وخطابه صلى الله عليه وآله للشجرة خطاب من يعقل إمّا مبني على أنّها لها كسائر الجمادات شعوراً وإدراكاً كما هو ظاهر كثير من الآيات والأخبار، قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا يفقهون تسبيحهم﴾ ﴿وقيل يا أرض ابعلي مائك ويا سماء اقلعي﴾ ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها﴾ وقيل: جعل اللّه في الشجرة علماً وسمعاً قبلت بهما خطابه صلى الله عليه وآله، وقيل: الخطاب في الأصل للّه كأنّه قال: اللّهمّ إن كنت صادق في رسالتك فاجعل إلى ما سألت من هذه الشجرة مصدّقاً لي.

وقوله: [وإنّي لمن قوم لا تأخذهم في اللّه لومة لائم] كناية عن بلوغه في طاعة اللّه الغاية المطلوبة منه وهؤلاء القوم هم المتّقون الذين مرّ وصفهم في حديث همّام.

[سيماهم سيماء الصدّيقين] والسيماء مقصوراً وممدوداً: العلامة والأثر في الشيء يُعرف به، أي: علامات الملازمين للصدق في أقوالهم وافعالهم

وكلامهم كلام الأبرار عمّار اللّيل ومنار النهار متمسّكون بحبل القرآن يحيون سنن اللّه وسنن رسوله لا يغلّون ولا يفسدون

طاعةً للّه.

[**وكلامهم كلام الأبرار**] من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمواظبة على ذكر اللّه [**عمّار اللّيل**] أي: قائمون فيه بالتهجّد والعبادة، رؤي أنّ أحدهم إذا كسل عن العمل علّق نفسه بحبل حتّى يصبح عقوبةً لها.

[**ومنار النهار**] استعار المنار لهم بالنهار باعتبار كونهم يهدون الخلق إلى طريق اللّه كالمنار على الطريق المحسوس.

[**متمسّكون بحبل القرآن**] استعار الحبل للقرآن باعتبار كونه سبباً لمتعلّميه ومتدبّريه إلى التروّي من ماء الحياة الباقية كالعلوم والأخلاق الفاضلة كالحبل الذي هو سبب للارتواء والاستسقاء من الماء أو باعتبار كونه لمن تمسّك به صاعداً من دركات الجهل إلى أقصى درجات العقل كالحبل يصعد فيه من السفل إلى العلوّ والقرآن بالجرّ عطف بيان.

[**يحيون سنن اللّه وسنن رسوله**] استعار إحيائها لهم باعتبار إقامتها وإبقاء العمل بها.

[**لا يغلّون**] يقال: غلّ من المغنم يغلّ بالضمّ: إذا خان فيه، يقال منه يغلّ بالضمّ ومن الحقد يغل بالكسر ومن الخيانة المطلقة، وحيث انّ الغلّ مستلزم لرذائل كالشره والخيانة والحرص والدنائة وغيرها كان عدمه كمالاً.

[**ولا يفسدون**] إذ كلّ فساد يستلزم رذيلة أو رذائل كالزنا المستلزم لرذيلة الفجور والقتل المستلزم لرذيلة الظلم.

قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل جفاة أقزام طغام عبيد أقزام جمعوا من كلّ أوب ممّن ينبغي أن يفقه

[قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل] الواو للحال، والجملة حالية، أي: قلوبهم في الجنان حال ما تكون أجسادهم مستغرقة الحركات والسكنات في الأعمال الصالحات، ﴿أُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتّقون﴾ أي: أنّ قلوبهم ملتذّة بمعرفة اللّه تعالى وأجسادهم في تعب العبادات.

ومن كلام له عليه السلام
في شأن الحكمين وذمّ أهل الشام

[جفاة] أي: هُم جفاة، جمع جاف: وهو غليظ الطبع.

[أقزام طغام] وهم أوغاد الناس وأراذلهم.

[عبيد] لأنّهم عبيد الدنيا وأهلها أو لأنّ منهم عبيداً.

[أقزام] جمع قزم بفتح الزاء: وهو الرذل الدنيء من الناس ويطلق على الواحد، والجمع والذكر والأُنثى والاربعة مرفوعة على أنّها خبر مبتدأ محذوف أي: هم كذا.

وقوله: [جمعوا من كلّ أوب] في محلّ الرفع صفة لاقزام، أو خبر خامس، يقال: جائوا من كلّ أوب أي: كلّ ناحية.

وتلقّطوا من كلّ شوب] الشوب: الخلط، وقوله: [ممن ينبغي أن يفقه

ويؤدّب ويعلم ويدرّب ويولّى عليه ويؤخذ على يديه ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبوئوا الدار والإيمان ألا وإنّ القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبّون وإنّكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم ممّا تكرهون

ويؤدّب ويعلم ويدرّب ويولّى عليه ويؤخذ على يديه] كناية عن كونهم سفهاء لا يصلحون لأن يلووا أمراً ويفوّض إليهم بل ينبغي أن يحجر عليهم ويمنعوا من التصرّف لغباوتهم وسفههم.

[**ليسوا من المهاجرين والأنصار**] ذمٌّ لهم لكونهم نقصاً في حقّهم.

وكذا قوله: [**ولا من الذين تبوئوا الدار والإيمان**] والمراد بالدار: مدينة النبيﷺ، والذين تبوئوا بها هم الأنصار ومن أهلها الذين أسلموها قبل هجرة الرسول إليهم بسنتين وابتنوا بها المساجد وإليهم أُشير في قوله تعالى: ﴿والّذين تبوئوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي: من قبل المهاجرين ﴿يحبّون من هاجر إليهم﴾ الآية، وفي بعض النسخ تبوئوا الدار فقط، وفي أكثرها والإيمان، وكون الإيمان متبوء لهم استعارة ملاحظةً لشبهه بالمنزل باعتبار أنّهم ثبتوا عليه واطمأنّت قلوبهم به.

وقوله: [**ألا وإنّ القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبّون**] أشار بالقوم إلى أهل الشام والذي اختاروه عمر بن العاص اختاروه للحكومة وهو أقرب مما يحبون لكثرة خداعه وذهابه ولميله إلى معاوية وعطائه.

وقوله: [**وإنّكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم ممّا تكرهون**] خطاب لاهل العراق حيث اختاروا للحكومة أبا موسى الأشعري وكان أقرب القوم مما يكرهون من صرف الامر عنهم وكونه أقرب إلى ذلك إمّا لغفلته وبلاهته

وإنّما عهدكم بعبدالله بن قيس بالأمس يقول إنّها فتنة فقطّعوا أوتاركم وشموا سيوفكم فإن كان صادقاً فقد اخطأ بمسيره غير مستكره وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة

أو لأنّه كان منحرفاً عن عليّ فإنّه كان والياً على البصرة من قبل عمر ثمّ ولى الكوفة في زمن عثمان فعزله علي عليه السلام فلم يزل واجداً لذلك حتّى كان منه ما كان، وكان يقول دائماً: يا أهل الكوفة إنّها فتنة من الفتن، يعني فتنة الجمل التي وعدنا بها وأمرنا باعتزالها، فقطّعوا أوتار قسيكم وأغمدوا سيوفكم، وإلى ذلك أشار بقوله:

[**وإنّما عهدكم بعبدالله بن قيس**] وهو أبو موسى الأشعري [**بالأمس يقول إنّها فتنة فقطّعوا أوتاركم وشموا سيوفكم**] ضمير «انّها» راجع إلى فتنة أصحاب الجمل وأهل الشام، وشموا سيوفكم أي: اغمدوها، ووجه الاحتجاج عليهم انّ أبا موسى كان يقول هذا الكلام.

[**فإن كان صادقاً**] في هذا الحكم [**فقد اخطأ بمسيره غير مستكره**] إلى فتنة أمر بالاعتزال عنها وحضوره صفوف العراق وتكثير سوادهم.

[**وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة**] وصار فاسقاً بكذبه، وعلى التقديرين لا يعتمد عليه في هذا الأمر الجليل ويناسب هذا الاحتجاج ما روي عن سويد بن غفلة قال: كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان، فروى لي خبراً قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم حتّى بعثوا حكمين ضالّين ضلاّ وأضلاّ من اتّبعهما ولا ينفكّ أمر أُمّتي يختلف حتّى يبعثوا حكمين يَضلاّن ويُضِلاّن من اتّبعهما، فقلت له: احذر أباموسى أن تكون أحدهما، قال:

فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبدالله بن عباس وخذوا مهل الأيام وحوطوا قواصي الإسلام ألا ترون إلى بلادكم تُغزى وإلى صفاتكم ترمى

فخلع قميصه وقال: أبرء إلى الله من ذلك كما أبرء من قميصي هذا.

ووجه الاحتجاج أنّه لا يخلو إمّا أن يكون صادقاً في هذا الخبر أو كاذباً، فإن كان صادقاً فقد أخطأ في دخوله في الحكومة وشهد على نفسه بالضلال والإضلال، وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة فلا ينبغي أن يعتمد عليه في مثل هذا الأمر.

وقوله: [**فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبدالله بن عباس**] كناية عن جهله مقابلاً له في الحكومة وأفعاله عمّا يريد ولما قدح في أبي موسى وأشار إلى عدم صلاحيّته لهذا الأمر كان رأيه أن يبعث الحكم من قبله عبدالله بن العباس فأبى قومه على فقال: اللّهمّ إنّي أبرء إليك من صنعهم.

وقوله: [**وخذوا مهل الأيام**] أي: فسحتها لما ينبغي أن يعمل فيها ويدبّروه في أحوالهم على وفق الآراء الصالحة.

[**وحوطوا قواصي الإسلام**] أمر بحفظ أطراف بلاده كأطراف الحجاز والعراق والجزيرة.

[**ألا ترون إلى بلادكم تُغزى وإلى صفاتكم ترمى**] كنّى بصفاتهم عن حوزتهم التي استقرّوا عليها من بلاد الإسلام، وأصل الصفاة: الحجر الأملس، لا تنفد فيها بل يكسره ويدفعه شبّهها بالحوزة في منعتها، ويقال: لا ترمى صفاتهم ولا تقرع صفاتهم ويكنّى بذلك عن منعتهم وقوّتهم، فلذلك كنّى عن رمي صفاتهم بالطبع فيهم وقصد العدو لبلادهم ورميها بالكتايب.

هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حلمهم عن علمهم صمتهم عن حكم منطقهم لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه هم دعائم الإسلام وولايج الاعتصام

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله

[**هم عيش العلم وموت الجهل**] أي: بهم يحيى العلم ويموت الجهل، جعل العلم حياةً، ملاحظاً لشبهه بما يحيي في وجوده، والانتفاع به، ثمّ أطلق عليهم لفظ الحياة مجازاً إطلاقاً لإسم السبب على المسبّب، واستعار الموت للجهل باعتبار عدمه بهم وأطلق عليه لفظه مجازاً كالذي قبله.

[**يخبركم حلمهم عن علمهم**] لعلمهم بمواقع الحلم، وفي ذلك إشارة إلى تلازم فضيلتي العلم والحلم فيهم فهم لا يحلمون إلا عن علم بمواقع الحلم ويخبركم [**صمتهم عن حكم منطقهم**] فيسكتون في مواضع السكوت فكلّ من كلامهم وسكوهم في محلّه.

[**لا يخالفون الحقّ**] لعلمهم به وبطرقه وذوقهم له فلا يتجاوزونه إلى رذيلة الإفراط ولا يقفون دونه في مقام رذيلة التفريط.

[**ولا يختلفون فيه**] لعلمهم بحقيقته [**هم دعائم الإسلام**] باعتبار حفظهم له بعلمه وحراسته وقيامه في الوجود بهم كما يحفظ البيت بالدعائم ويقوم بها.

[**ولايج الاعتصام**] جمع وليجة: وهي الموضع يدخل إليه ويستتر فيه ويعتصم به، واستعير لهم باعتبار كونهم مرجعاً للخلق يعتصمون بعلومهم

بهم عاد الحقّ إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية وإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل

وهدايتهم واتباعهم من الجهل ولواحقه وعذاب اللّه في الآخرة، كما يعتصم بالوليجة من دخلها.

[**بهم عاد الحقّ إلى نصابه**] أي: بولايتهم وخلافتهم رجع الحقّ إلى مستقرّه وموضعه.

[**وانزاح الباطل عن مقامه**] أي: زال، إشارة إلى أنّ الأحكام كانت قبله في أيّام عثمان وقبله جارية على غير القانون الشرعي.

[**وانقطع لسانه**] أي: حجّته [**عن منبته**] أي: اللّسان الناصر للباطل والناطق به، واستعار وصف الانقطاع له باعتبار سكونه ملاحظة لشبهه بالمنقطع في عدم القول ورشح بقوله من منبته تأكيداً لذلك الانقطاع.

وقوله: [**عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية**] إذ للإدراك مراتب ثلاث أدناها تصوّر الشيء بحسب اسمه، وأعلاها تصوّره بحسب حقيقته وكنهه، وأوسطها تعقّلها بحسب صفاته ولوازمه المختصّة به وبها مع بعض أجزائه، فكانت عقلهم للدّين وعلمهم به على أكمل المراتب وهو معنى الوعاية ورعايتهم له بدراسته وتذكيره ولذا عقبه بقوله: [**وإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل**] أي: ليس من روى العلم وسمعه كان عالماً به ومراعياً له فإنّ ذلك أعمّ من العالم به والعام لا يستلزم الخاصّ ونبّه بذلك على قلّة مثلهم في رعاية العلم.

ليقلّ هتف الناس باسمه للخلافة بعد أن كان يسأله مثل ذلك قبل فقال عليه السلام : يابن عبّاس ما يرد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب أقبل وأدبر بعث إليّ أن أخرج ثمّ بعث إلي أن اقدم ثمّ هو الآن يبعث إلي أن اخرج ، [بعث إليّ أن أخرج ثمّ بعث إلي أن اقدم ثمّ هو الآن يبعث إلي أن اخرج ، والله لقد دفعت عنه حتّى

ومن كلام له عليه السلام

قاله لعبدالله بن عبّاس وقد جاءه برسالة من عند عثمان بن عفان وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينَبُع على وزن يَفعُل كـ(يَحكُم)، قال ابن أبي الحديد: اسم موضع كان فيه نخل لعليّ عليه السلام، وينبع الآن بلد صغير من اعمال المدينة.

[ليقلّ هتف الناس] أي: أصواتهم وصياحهم **[باسمه للخلافة بعد أن كان يسأله مثل ذلك قبل]** قيل وسبب هذه الرسالة أنّ القوم الذين حصروه كانوا يكثرون نداه والصياح به وتوبيخه على أحداثه من تفريق بيت المال على غير مستحقّه ووضعه في غير مواضعه وسائر الأحداث التي نسبت إليه.

[فقال عليه السلام : يابن عبّاس ما يرد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً] استعار الجمل ورشح بقوله: **[بالغرب]** وهو الدلو العظيمة، والناضح: البعير يستقى عليه، واشار إلى وجه الشبه بقوله: **[أقبل وأدبر]** ثمّ شرع في شرح كيفية تصريفه له في حال حصره فقال: **[بعث إليّ أن أخرج ثمّ بعث إلي أن اقدم ثمّ هو الآن يبعث إلي أن اخرج ، والله لقد دفعت عنه حتّى**

خشيت أن أكون آثماً، واللّه لقد دفعت عنه حتّى خشيت أن أكون آثماً يحثّ فيه أصحابه على الجهاد: واللّه مستأديكم شكره ومورّثكم أمره وممهلكم في مضار ممدود

خشيت أن أكون آثماً] في الذبّ عنه والاجتهاد في ذلك لاستحقاقه العقوبة.

قيل: ويحتمل أن يريد إنّي خشيت الإثم في تعزيري بنفسي؛ لأنّ دفع الجمع العظيم في هذا الأمر العظيم مظنّة الخوف على النفس، فيكون الإقدام مظنّة الإثم، ويحتمل أن يريد أنّه خشي الإثم من الإفراط في حقّهم كأن يضرب أحدهم بسوطه ويغلظ له في القول والشتم.

ومن كلام له عليه السلام

[**يحثّ فيه أصحابه على الجهاد: واللّه مستأديكم شكره**] أي: طالب منكم أداء شكره على نعمه كما قال: ﴿واشكروا للّه إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾.

[**ومورّثكم أمره**] أي: سلطانه في الأرض الذي كان فيمن سلف من أهل طاعته من الأمم السابقة، كما قال: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً﴾.

[**وممهلكم في مضار ممدود**] المضمار: المدّة تضمر فيها الخيل، قيل: إنّها أربعون يوماً استعير لمدّة الحياة الدنيا ووجه الشبه أنّ الناس يستعدّون في مدّة حياتهم بالمجاهدات في سبيل اللّه وتحصيل الكمالات النفسانية لغاية

لتتنازعوا سبقه فشدّوا عقد المآزر واطووا فضول الخواطر

السبق إلى اللّه كما تضمر الخيل لغاية السبق، وأشار إلى علّة ذلك الإمهال بقوله:

[لتتنازعوا سبقه] أي: تنازع السبق إليه تعالى، والتنازع التجاذب في الخصومة، وأراد به ما يعرض للسالكين في حال إعدادهم لأنفسهم بالرياضات وجدّهم وتشميرهم في طاعة اللّه من منافسة بعضهم لبعض في التقدّم بالفضيلة وسبقه بذلك وحرص كلّ امرئ منهم على أن يكون هو الأكمل ليفوز بقصب السبق إلى حضرة قدسه، والمنافسة في الفضائل والغبطة بها محمودة، ويحتمل أن يريد بالسبق ما يسبق إليه من الفضيلة أو الجنّة، ولفظ التنازع ترشيح لاستعارة المضمار والمسابقة لأنّ من شأن ذلك التنازع على السبق وحاصل المعنى أنّه تعالى أمهلكم في الدنيا للاستعداد فيها وتجاذب السبق إليه.

[فشدّوا عقد المآزر] جمع مئزر، كنّى بذلك عن الأمر بالتشمير والاجتهاد في طاعة اللّه والاستعداد بها، إذ من شأن من يهتم بالأمر أن يشدّ عقدة مئزره كيلا يشغله عمّا هو بصدده.

وقوله: **[واطووا فضول الخواطر]** كناية عن الأمر بترك ما يفضل من متاع الدنيا على قدر الحاجة من المطاعم والملابس ونحوهما وأصله انّ الخواطر والبطون تتسع لما فوق قدر الحاجة من المأكول فذلك القدر المتسع لما فوق قدر الحاجة هو فضول الخواطر وكنّى بطيّها عمّا ذكر إذ كان من لوازم الطيّ ترك الفضول.

لا تجتمع عزيمة ووليمة ما أنقض النوم لعزائم اليوم وأمحى الظلم لتذاكير الهمم

وقوله: [**لا تجتمع عزيمة ووليمة**] أي: العزيمة على اقتناء الفضائل واكتسابها، والعزيمة: هي الإرادة الجازمة للأمر بعد اختيارها، والوليمة: طعام العرس ونحوه، كنّى بها عن خفض العيش والدعة لاستلزام الوليمة ذلك، والمعنى انّ العزيمة على تحصيل المطالب الشريفة وكرائم الأمور تنافي الدعة وخفض العيش ولا تحصل مع الهوينا لما يستلزمه تحصيل تلك والعزم عليها من المشاقّ وإتعاب النفس، وكذا البدن بالرياضات والمجاهدات المنافية للدعة والراحة قال تعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون﴾.

ثمّ أكّد ذلك بقوله: [**ما أنقض النوم لعزائم اليوم**] قيل هو مثل أصله إنّ الإنسان يعزم في النهار على المسير باللّيل لتقريب المنزل فإذا جاء اللّيل نام إلى الصباح فانتقض بذلك عزمه فضرب مثلاً لمن يعزم على تحصيل الأمور الكبار والسعي فيها ثمّ يلزم الأناة والدعة والمراد انّكم مع هذه الدعة وحبّ الراحة من المتاعب والجهاد لا يتمّ لكم ما تريدونه وتعزمون عليه من تحصيل السعادة في الدنيا والآخرة.

وكذا قوله: [**وأمحى الظلم لتذاكير الهمم**] وأصله أنّ الرجل تبعثه همّته في مطالبه على المسير باللّيل فإذا جنّ الظلام أدركه الكسل وغلبه حبّ النوم عن تذكار مطالبه وصرم عنها فكان الظلام سبباً ما لمحو ذلك التذكار من لوح الذكر فضرب مثلاً لمن يدعوه الداعي إلى أمر ويهتمّ به ثمّ يعرض له أدنى أمر فينصرف به عنه.

بعد هجرة النبي فجعلتُ أتبع مأخذ رسول اللّه

ومن كلام له
اقتصّ فيه ذكر ماكان منه في خروجه من مكّة إلى المدينة

[بعد هجرة النبي] صلى الله عليه وآله لأنّه لما عزم على الهجرة أعلم علياً بخروجه وأمره أن يبيت على فراشه خدعة للمشركين الذين كانوا عزموا على قتله في تلك الليلة وإيهاماً لهم أنّه لم يبرح فلا يطلبونه حتى تبعد مسافته عنهم وان يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس إذ كان عندهم أميناً معروفاً بالأمانة والصدق وكانوا قد أجمعوا على أن يضربوه بأسيافهم من أيدي جماعة من بطون مختلفة ليضيع دمه في بطون قريش، فأحجموا تلك الليلة عن قته إحجاماً ما ثمّ تسوروا عليه وهم يظنونه في الدار فرأوا إنساناً مسجّى بالبرد الحضرمي فلم يشكّوا في أنّه هو، وكانوا يهمّون بقتله محجمون لما يريد اللّه من سلامة علي فقال بعضهم لبعض ارموه بالحجارة فرموه فجعل علي عليه السلام يتضوّر منها ويتأوّه تأوّهاً خفيفاً ولا يعلمهم بحاله خوفاً على رسول اللّه صلى الله عليه وآله أن يُطلب فيدك فلم يزالوا كذلك حتّى الصباح فوجدوه علياً، ثمّ تخلّف عنه بمكّة ثلاثاً لقضاء ما أمره به ثمّ لحق به فجاء إلى المدينة راجلاً قد تورّمت قدماه فصادف رسول اللّه صلى الله عليه وآله نازلاً بقبا على كلثوم بن المقدم فنزل معه في منزله ثمّ خرج معه من قبا حتّى نزلا بالمدينة على أبي أيوب الانصاري وإلى ذلك أشار بقوله:

[فجعلتُ أتبع مأخذ رسول اللّه] صلى الله عليه وآله أي: الجهة والطريق التي أخذ فيها

فأطأ ذكره حتّى انتهيت إلى العرج

وسار [**فأطأ ذكره**] استعار وصف الوطيء لوقوع ذهنه على ذكرهﷺ وخبره من الناس في تلك الطريق كوقوع القدم على الأرض ووجه الشبه أنّ اخبر عنهﷺ وذكره طريق لحركات قدم عقله إلى معرفة حالهﷺ كما أنّ الطريق المحسوس طريق لحركات قدمه إلى الوصول إليه، وقيل أراد بذكره ما ذكره لي ووصفه من حال الطريق.

[**حتّى انتهيت إلى العرج**] وهو منزل ما بين مكّة والمدينة.

قال السيّد الرضي «ره»: فأطا ذكره عن الكلام الذي رمى إلى غايتي الإيجاز والفصاحة وأراد أنّني كنت أعطي خبره من بدو خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع فكنّى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

[باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام]

من عبدالله علي بن ابي طالب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب

باب المختار [من كتب أمير المؤمنين عليه السلام]

ورسائله إلى أعدائه ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عمّاله ووصاياه لأهله وأصحابه رضي اللّه عنهم.

ومن كتاب له عليه السلام
إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

[من عبدالله علي بن ابي طالب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار] استعار لهم لفظة الجبهة باعتبار انّهم بالنسبة إلى الأنصار كالجبهة إلى الوجوه في العزّة والشرف والعلوّ، وكذا لفظ السنام في قوله: **[وسنام العرب]** باعتبارها علوّهم وشرفهم بالإسلام والقوّة في الدّين كشرف السنام

أمّا بعد فإنّي أُخبركم عن أمر عثمان حتّى يكون سمعه كعيانه إنّ الناس طعنوا عليه فكنتُ رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه وأقلّ عتابه وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوحيف وأرفق حدائهما العنيف

وعلوّه في الجمل. وقيل: جبهة الأنصار جماعتهم وسنام العرب نجدهم ومن ارتفع منهم حقيقة في الموضعين.

[**أمّا بعد فإنّي أُخبركم عن أمر عثمان**] أي: شأنه وحاله التي جرت له.

[**حتّى يكون سمعه كعيانه**] أي: أُوضح ذلك الأمر بالبيان حتّى يكون كالمشاهد بالعيان.

[**إنّ الناس طعنوا عليه**] بالأحداث التي نقموها منه [**فكنتُ رجلاً من المهاجرين**] ولا يخفى ما فيه من اللّطف والإيهام.

[**أكثر استعتابه**] أي: أطلب العتبى منه والرجوع إلى ما يرضى به القوم، [**وأقلّ عتابه**] أي: ذكر ما أجده منه وتعنيه على الأمور.

[**وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوحيف**] وهو ضرب من السير فيه سرعة واضطراب.

[**وأرفق حدائهما العنيف**] وهو ضدّ الرفق، وكنّى بذلك عن قوّة سعيهم في قتله وشدّة تلبّسهما بذلك، قيل: وهذا مثل بين العرب للمشمرين في الطعن عليه حتّى انّ السير السريع أبطأ ما في أمره، والحداء العنيف أرفق ما يحرصان به عليه. وقال مروان يوم الجمل: واللّه لا أترك ثاري من طلحة وأنا أراه ولأقتلنّه بعثمان ثمّ رماه بسهم فقتله، وروي أنّ الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدّل دينكم، فقالوا له: إنّك تحامي عنه بالباب

وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأُتيح له قوم قتلوه وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين واعلموا أنّ دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها

فقال: واللّه ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدئ بابني.

[**وكان من عائشة فيه فلتة غضب**] والفلتة: البغتة من غير ترو، روي أنّها كانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل اللّه نعثلاً، وروي أنّه صعد المنبر يوماً وقد غصّ المسجد بأهله فمدّت يدها من وراء ستر وفيها نعلان وقميص وقالت: هذان نعلا رسول اللّهﷺ وقميصه بعد لم تبل وقد بدّلت دينه وغيّرت سنّته وأغلظت له في القول فأغلظ لها وكان ذلك القول منها من أشدّ ما حرّض الناس على قتله.

وقوله: [**فأُتيح له قوم قتلوه**] لا يخلو من لطف وإيهام إذ لم يقل أتاح اللّه له قوماً، أو أتاح الشيطان، وأُتيح أي: قدر.

[**وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين**] وحينئذ فلا عذر للغادرين والناكثين والناقضين للعهد فهم داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿والّذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾ وقوله تعالى: ﴿فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه﴾ الآية، وهذا في قوّة صغرى وتقدير الكبرى وكلّ من بايعه من الناس مطيعين مخيّرين فلا يجوز لهم أن ينكثوا بيعته ويحاربوه عقلاً ونقلاً آية ورضاية كما مرّ في الآيتين.

[**واعلموا أنّ دار الهجرة**] يعني المدينة [**قد قلعت بأهلها وقلعوا بها**] قيل: الباء زائدة في أحد الموضعين وهو الأوّل، وبمعنى من في الثاني أي:

وجاشت جيش المرجل وقامت الفتنة على القطب فاسرعوا إلى أميركم وبادروا إلى جهاد عدوّكم إن شاء اللّه إليهم وجزاكم اللّه من أهل مصر عن أهل بيت نبيّكم أحسن ما يجزي العاطين بطاعته والشاكرين لنعمته وأطعتم ودعيتم فأجبتم

فارقت أهلها وفارقوها، يقال: هذا منزل قلعة أي: ليس بمستوطن.

[**وجاشت جيش المرجل**] أي: اضطربت اضطراب القدر وكنّى بقلعها بأهلها وقلعهم بها عن اضطراب أُمورهم بها وعدم استقرار قلوبهم من ثوران هذه الفتنة، واستعار لفظ الجيش ملاحظةً لشبهها بالقدر في حال غليانها.

[**وقامت الفتنة على القطب**] تشبيهاً للحرب بالرحى في دورانها على من تدور عليه من الناس كما تشمل دوران الرحى على الحبّ وتطحنه، ونبّههم بقيام فتنة الحرب على قطبها ليستعدّوا لها وينفروا إليها، ولذا أردفه بالأمر بسرعة المسير فقال:

[**فاسرعوا إلى أميركم وبادروا إلى جهاد عدوّكم إن شاء اللّه**] وعنى باميرهم نفسه المقدّسة وبجهاد عدوّهم قتال أصحاب الجمل.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إليهم**] أي: إلى أهل الكوفة بعد فتح البصرة: [**وجزاكم اللّه من أهل مصر عن أهل بيت نبيّكم أحسن ما يجزي العاطين بطاعته والشاكرين لنعمته وأطعتم ودعيتم فأجبتم**] «من» في قوله «من أهل مصر» لبيان الجنس من الضمير المنصوب ومحل «من أهل مصر» نصب على التمييز ويجوز أن يكون

كتبه لشريح بن الحرث قاضيه وكان اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً فبلغه فاستدعاه وقال بلغني إنّك ابتعت داراً بثمانين ديناراً وكتبت كتاباً واشهدت فيه شهوداً فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين عليه السلام، قال فنظر إليه عليه السلام

حالاً، وحذف المفعولات هنا لأنّ الغرض ذكر الأفعال دون نسبتها إلى مفعولاتها أو للعلم بها.

ومن كتاب له عليه السلام

[كتبه لشريح بن الحرث] بن المنتجع بن معاوية بن جهم بن ثور بن عفير بن عدي بن الحرث بن مرّة بن أدد الكندي.

[قاضيه] وكان استقضاه عمر على الكوفة ولم يزل بعد ذلك قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطّل فيها إلا سنتين وقيل أربع سنين استعفى الحجاج فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير فاعفاه، فلزم منزله إلى أن مات قيل إنّه عاش مائة وثمانين سنة وقيل مائة وتوفى سنة سبع وثمانين وسخط عليه علي عليه السلام مرّة فطرده عن الكوفة، وأمره بالمقام ببانقيا وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر سكّانها اليهود وفي كتاب الاستيعاب أدرك شريح الجاهلية ولا يعدّ من الصحابة بل من التابعين وكان شاعراً محسناً ساطاً لا شعر في وجهه.

[وكان اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً فبلغه] صلى الله عليه وآله ذلك **[فاستدعاه وقال بلغني إنّك ابتعت]** اشتريت **[داراً بثمانين ديناراً وكتبت كتاباً واشهدت فيه شهوداً فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين عليه السلام، قال فنظر إليه عليه السلام**

نظر المغضب ثمّ قال له: يا شريح امّا أنّه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسئل عن بيتك حتّى يخرجك منها شاخصاً ويسلمك إلى قبرك خالصاً فانظر يا شريح أن لا تكون الدار من غير مالك أو نقدت الثمن من غير حلالك فإذن أنت خسرت دار الدنيا ودار الآخرة أما انّك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوقه والنسخة

نظر المغضب] إنكاراً لابتياعه تلك الدار بذلك المبلغ لزهده في الدنيا ويستكثر القليل منها وخوفاً من أن يكون ابتاعها بمال حرام.

[**ثمّ قال له: يا شريح امّا أنّه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسئل عن بيتك**] وهو هادم اللّذات ومفرّق الجماعات الموت الذي لابدّ منه ولا محيص عنه.

[**حتّى يخرجك منها شاخصاً ويسلمك إلى قبرك خالصاً**] مجروراً من تلك الدار وعن كلّ فتنة اقتناها من الدنيا.

[**فانظر يا شريح أن لا تكون الدار من غير مالك أو نقدت الثمن من غير حلالك**] بأن يكون فيه شائبة حرام أو ارتشاء على الأحكام.

[**فإذن أنت خسرت دار الدنيا ودار الآخرة**] باعتبار ما لزمك من الآثام بأكل مال الحرام [**أما**] بالتخفيف [**انّك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوقه**] وإنّما قال فما فوقه لأنّ الدرهم أقلّ ما يجب التمثيل في القلّة والغرض انّك لو أتيتني عند شراء هذه الدار لما اشتريتها بشيء أصلاً [**والنسخة**] هذه:

هذا ماشترى عبد ذليل من ميت قد أزعج للرحيل اشترى منه داراً من دار الغـرور من جـانب الفـانين وخطّة الهـالكيـن ويجـمـع هذه الدار حدود أربعة الحدّ الأوّل ينتهي إلى دواعي الآفات

بسم اللّه الرحـمن الرحـيم [**هذا مـا اشـترى عبـد ذليل**] خصّ بصـفـة العبـودية والذلة كسراً لما عساه يعرض لنفسه من العجب والفخـر بشراء هذه الدار.

[**من ميت قـد أزعج للرحيل**] أطلق الميت على البايع الـذي سيـموت مـجـازاً لما بالفـعل علـى مـا بالقـوّة وتنزيلاً للمـقـضي منزلة الواقع تحـذيراً من الموت والمراد الرحـيل إلى الآخـرة واسـتـعـار الإزعـاج للأمـراض والأعـراض والعبر المذكّرة المنبّهة.

[**اشـتـرى منه داراً من دار الغـرور**] أي: من الدنيـا الغـرور الخلـق بهـا وغفلتهم بما فيها عمّا ورائها.

[**من جانب الفانين**] أخصّ من دار الغرور [**وخطّة الهالكين**] خصّ من جـانب الفـانين علـى مـا جـرت العـادة به في كـتب البـيـع من الابتـداء بالأعمّ والانتهـاء في تخصيص البيع إلى أمـور تعينه كـما يقـال في البلد الفلانـية من المحلّة الفـلانيـة، والخطّة بكسـر الخـاء التي يختطّهـا الإنسـان أي: يعلم عليـهـا علامة بالخطّ ليعمرها.

[**ويجـمـع هذه الدار حدود أربعـة الحـدّ الأوّل ينتهي إلى دواعي الآفـات**] وذلك لانّ هذه الدار لابدّ لها من امـرأة وخـادم وــــــــ ويلزم ذلك الأولاد والأتبـاع والخـدم وسـائر مـا يحـتـاج إليـه الإنسـان حـتّى إنّ أغنى النـاس فـيـهـا أكثرهم حاجةً وفقراً ولا ريب أنّ هذه الأمورات في معرض الآفات

والحدّ الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات والحدّ الثالث ينتهي إلى الهوى المردي والحدّ الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي

كالأمراض والموت فكانت هذه الأمور دواعي الآفات التي تعود إليها وتستلزمها وهي ما ينتهي إليه الدار ويستلزمه وجعل حدّاً أوّلاً لأنّها أوّل اللوازم التي تحتاج إليها الدار وتعود إليها.

[**والحدّ الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات**] إشارة إلى الأمور التي تحتاج إليها الدار وتستلزمها، لكن باعتبار كونها مستلزمة بما يعرض لها من الآفات لما يلحق بسبب ذلك من المصيبات فإنّ كلّ وادح منها لما كان في معرض الآفة كان المغتني له في معرض نزول المصيبات به وكان داعياً له وقائداً إليها ولاستلزام دواعي الآفات دواعي المصيبات أردفها بها وجعلها حدّاً ثانياً منها، ويحتمل أن يكون تسميتها في الموضعين دواعي باعتبار أنّ شهواتها تدعو إلى فعلها وإيجادها وذلك الإيجاد تلزمه الآفات والمصيبات.

[**والحدّ الثالث ينتهي إلى الهوى المردي**] إذ كان اقتناء الدار في الدنيا مستلزمة لمحبّة الدنيا وكمالاتها ومتابعة الميول الشهوية بغير هدى من اللّه وهو المراد بالهوى، وهو المردي في دركات جهنّم وجعل الهوى حدّاً ثالثاً لكون تلك الدار وكمالاتها وما تدعو إليه كلّها أُموراً مستلزمة للهوى والميول الطبيعيه المهلكة التي لا تزل يتأكّد بعضها ببعض ويدعو بعضها إلى بعض.

[**والحدّ الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي**] وجعل أخيراً لأنّه الحدّ الأبعد الذي تنتهي إليه تلك الحدود والدواعي وهو بعد الحدّ الثالث إذ كان الشيطان من جهة الغواية مبدء لميل النفس إلى الدنيا ولبعثها على سابقة هواها وإغوائه يعود إلى إلقائه إلى النفس انّ الاصلح لها كذا مما هو صادّ عن سبيل اللّه.

وفيه يشرع باب هذه الدار اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عزّ القناعة والدخول في ذلّ الطلب والضراعة فما أدرك هذا المشتري من درك فعلى مبلبل أجسام الملوك وسالب نفوس الجبابرة ومزيل ملك الفراعنة مثل كسرى وقيصر وتبع وحمير

وقوله: [**وفيه يشرع باب هذه الدار**] إشارة إلى كونه مبدء بإغوائه للدواعي الباعثة له المستلزمة للدخول في شرائها واقتنائها واقتناء ما تستلزمه وتدعو إليه والدخول في متاع الدنيا وباطنها فإنّ الشيطان كالحدّ وما صدر عنه وانفتح بسببه من الدخول في أمر الدار وشرائها كالباب.

[**اشترى هذا المغتر بالأمل**] لأنّ نظره في الدنيا هو الذي استلزم غفلته عن الآخرة وما خلق لأجله وكان ذلك الاغترار سبباً لشرائه لتلك الدار [**من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عزّ القناعة والدخول في ذلّ الطلب والضراعة**] جعله ثمناً لاستلزام شرائه لذلك كما يستلزمه الثمن إذ لو كان قانعاً لبقي على ما كان عليه في تلك المدّة المديدة والخارج عن القناعة خارج عن عزّها وداخل في ذلّ الطلب والطاعة للخلق؛ لأنّه إذا خرج عن القناعة كثر احتياجه إلى الخلق، فيدخل في الذلّ والضراعة وهي مصدر قولك ضرع ضراعة أي: ذلّ وخضع.

[**فما أدرك هذا المشتري من درك فعلى مبلبل أجسام الملوك**] الدرك: التَّبعة، وأصل البلبلة: الاضطراب والاختلاط وإفساد الشيء بحيث يخرج عن حدّ الانتفاع به.

[**وسالب نفوس الجبابرة ومزيل ملك الفراعنة مثل كسرى وقيصر وتبع وحمير**] كسرى لقب ملك الفرس، وهو اسم جنس لكلّ ملك منهم، وكذا

ومن نجمع المال على المال فأكثر بنى وشيّد وزخرف ونجد زخرف البناء واعتقد ونظم بزعم المولد اشخاصهم إلى موقف العرض والحساب وموضع الثواب والعقاب إذا وقع الأمر بفصل القضاء وخسر هنالك المبطلون

قيصر لملوك الروم، وتبع لملوك اليمن، وحمير أبو قبيلة من اليمن وخصّهم بأخذ الموت لهم في معرض تعليق الدرك به تنبيهاً للمشتري على وجوب تقصير الأمل بمثل هذا الدرك ونحوه من الآمال المتعلّقة بالمطالب المنقطعة بالموت فإنّه إذا كان قد قطع آمال أمثال هؤلاء ولم يدركوا معه تبعة فبالأولى أنت أيّها القاضي السامع.

[**ومن نجمع المال على المال فأكثر**] ومن [**بنى وشيّد وزخرف ونجد زخرف البناء**] أي: ذهّب جدرانه بالزخرف وهو الذهب، ونجد فرش المنزل بالوسايد والنجاد الذي يعالج الفرش والوساد والتنجيد التزيين بذلك، ويحتمل أن يكون نجد بمعنى رفع لأنّ النجد هو المرتفع من الأرض.

[**واعتقد**] أي: جعل لنفسه عقدة كالضيعة أو الذخيرة من المال الصامت [**ونظم بزعم المولد**] أي: نظر في جمع المال لولده وراء مصلحة له بظنّه وزعم [**اشخاصهم**] بالرفع على الابتداء وخبره الجار والمجرور المتقدّم وجميعاً تأكيد [**إلى موقف العرض والحساب وموضع الثواب والعقاب**] وفيه ترهيب من تلك الأمور وترغيب في العمل للآخرة.

[**إذا وقع الأمر**] أي: أمر الله في محفل القيامة.

[**بفصل القضاء**] وقطع الحكم بين أهل الحقّ والباطل منهم وربح المحقّون.

[**وخسر هنالك المبطلون**] اقتباس من القرآن الكريم.

شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى وسلم من علايق الدنيا. كتبه إلى بعض أمراء جيشه

[شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى وسلم من علايق الدنيا] وصفى من كدر الباطل حتّى يرى الحقّ كما هو يحكم به، وأمّا إذا كان أسيراً في يد الهوى مقهوراً تحت سلطان النفس الأمّارة عمى عن إدراك الحقّ وارتطم في دركات الباطل وظلماته بعضها فوق بعض كما هو الغالب في الأكثر، فيحكم بحسن اقتناء الدار وبنائها نظراً لعاقبة الولد وخوف الفقر ونحو ذلك، وربّما سوّل له الشيطان بأنّ قصدك منها إقراء الضيف وإيواء اليتامى والأرامل فيكون من أهل هذه الآية: ﴿أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ و﴿الذين ضلّ سعيهم في الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

قال ابن ابي الحديد: وهذا يدلّ على أنّ الشروط المكتوبة الآن قد كان في زمن الصحابة يكتب مثلها أو نحوها إلا إنّا ما سمعنا عن أحد منهم أنّه نقل صيغة الشرط الفقهي إلى معنىً آخر كما قد نظمه هو عليه السلام ولا غرو فمازال سبّاقاً إلى العجايب والغرايب.

ومن كتاب له عليه السلام

[كتبه إلى بعض أمراء جيشه] قيل إنّه عثمان بن حنيف عامله على البصرة حين انتهى أصحاب الجمل إليها وعرسوا على القرب وكتب عثمان إليه يخبره بحالهم فكتب إليه عليه السلام:

فإن عادوا إلى ظلّ الطاعة فذاك الذي نحبّ وإن توافت الأُمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان فانهد بمن أطاعك إلى من عصاك واستعن بمن انقاد معك عمّن تقاعس عنك فإنّ المتكاره مغيبه خير من مشهده وقعوده أغنى عن نهوضه

[**فإن عادوا إلى ظلّ الطاعة فذاك الذي نحبّ**] استعار الظلّ لما تستلزمه الطاعة من السلامة والراحة عن حرارة الحرب ومتاعبها التي هي ثمرات الشقاق كما يستلزم الظلّ الراحة من حرّ الشمس.

[**وإن توافت الأُمور بالقوم**] أي: تتابعت بهم المقادير [**إلى الشقاق والعصيان**] المترتّب على فعالهم [**فانهد**] أي: انهض [**بمن أطاعك إلى من عصاك واستعن بمن انقاد معك عمّن تقاعس عنك**] والتقاعس: التأخّر والقعود.

[**فإنّ المتكاره مغيبه خير من مشهده**] وفي نسخة: خير من شهوده.

[**وقعوده أغنى عن نهوضه**] وذلك لأنّ المتكاره تتخاذل الناس عند رؤيته ويقتدرون بحاله وربما يحصل منه مفاسد فيكون في حضوره مفسدة بخلاف مغيبه إذ ليس فيه إلا عدم الانتفاع به، وهذا سبب أمره عليه السلام بنهوض المطيعين دون المكرهين.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى الأشعث بن قيس وهو عامله على اذربيجان روى عن الشعبي أنّ عليّاً عليه السلام لمّا قدم الكوفةوكان الأشعث بن قيس على ثغر اذربيجان من قبل

واعلم انّ عـملك لـيس لك بطعـمـة ولكنّه في عـنقك أمـانة وأنت مسترعي لمن فوقك ليس لك أن تقتات في رعيه ولا تخاطر إلّا بوثيقة

عثمان بن عفّان فكتب إليه بالبيعة وطالبه بمال اذربيجان مع زياد بن مرحب الهمداني وصورة الكتاب :

بسم اللّه الرحمن الرحيم

من عبداللّه علي أميرالمؤمنين إلى الأشعث بن قيس، أمّا بعد، فلولا هنات كنّ منك كنت المقدّم في هذا الأمر قبل الناس ولعلّ آخر أمرك يحمل أوّله وبعضه بعضاً إن اتقّيت اللّه انّه قد كان بيعة الناس إيّاي ما قد بلغك وكان طلحة والزبير أوّل من بايعني ثمّ نقضا بيعتي من غير حدث وأخرجا عائشة فساروا بها إلى البصرة فصرت إليهم في المهاجرين والأنصار فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه فأبوا فأبلغت في الدعاء وأحسنت في التقية.

[**واعلم انّ عملك ليس لك بطعمة**] بضمّ الطاء المهملة: المأكلة، وفلان خبيث الطعم أيك ردي المكسب والطعم بالكسر هنية التطعم.

[**ولكنّه في عنقك أمانة**] والأمانة لابدّ من ردّها إلى أهلها ﴿إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾.

[**وأنت مسترعي لمن فوقك**] والمسترعي من جُعل راعياً.

[**ليس لك أن تقتات في رعيه**] اقتات يقتأت بالهمز: إذا استبدّ بالأمر، والرعية المرعية فعلة مفعولة أي: وليس لك أن تستبدّ في رعيّتك بأمر من الأمور دون من استرعاك.

[**ولا تخاطر إلا بوثيقة**] أي: وليس لك أن تخاطر في شيء من أمور

وفي يديك مال من مال اللّه تعالى وأنت في خزّاني حتّى تسلمه إليّ ولعلّي أن لا أكون شرّ ولاتك لك

ولايتك من مال وغيره إلا بوثيقة ممّن ائتمنك على الباد واسترعاك للعباد والمخاطرة التقدّم في الأُمور العظام والإشراف فيها على الهلاك والوثيقة ما يوثق فيه الدّين.

[**وفي يديك مال من مال اللّه تعالى وأنت في خزّاني حتّى تسلمه إليّ**] نبّه على وجوب حفظ هذا المال بأمرين أحدهما أنّه مال اللّه الذي آتاه، والثاني أنّه من خزّانه عليه السلام إلى غاية أن يحمله إليه ومن شأن الخازن عدم التصرّف فيما يخزنه إلا بإذن وأمر وقد كان الأشعث متخوّفاً من عليّ عليه السلام حين ولي الأمر وجازماً بأنّه لا يبقي العمل في يده لهنات سبقت منه ولذا أراد عليه السلام تسكينه فقال:

[**ولعلّي أن لا أكون شرّ ولاتك لك**] أي: شرّ من ولّي عليك، وأتى بلفظ الترجّي إطماعاً له بعدم الإيقاع به والمؤاخذة له، وروي أنّه لمّا أتاه كتاب علي دعى بثقاته وقال لهم إنّ علياً قد أوجسني وهو أخذي بمال اذربيجاني على كلّ حال وأنا لاحق بمعاوية، فقال له أصحابه: الموت خير لك من ذلك، فاستحيا وبلغ قوله أهل الكوفة فكتب إليه عليه السلام كتاباً يوبّخه فيه ويأمره بالقدوم عليه وبعث به حجر بن عدي ولم يزل به حتّى أقدمه إلى الكوفة فعرض على عليّ عليه السلام ثمّ ثقله فوجد فيها مائة ألف درهم وروي أربعمائة ألف فاستشفع الأشعث بالحسن والحسين عليهما السلام وبعبد اللّه بن جعفر، فأطلق له منها ثلاثين ألفاً فقال: لا تكفيني فقال: لست بزائدك درهماً واحداً وما اظنّها تحلّ لك، فقال الأشعث: خذ من جزع ما أعطاك.

....

ومن كتاب له عليه السلام

في جواب كتاب كتبه إليه صورته هذه: أمّا بعد فلو كنت على ما كان عليه أبو بكر وعمر إذن ما قاتلتك ولا ستحللت ذلك ولكنّه إنّما افسد عليك بيعتي خطيتك في عثمان بن عفان وإنّما كان أهل الحجاز الحكّام على الناس حين كان الحقّ فيهم فلما تركوه صار أهل الشام وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة ولا حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير؛ لأنّ أهل البصرة قد كانوا بايعوك ولم يبايعك أهل الشام وإنّ طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعك وأمّا فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول اللّه وموضعك من بني هاشم فلست أدفعه والسلام.

فكتب عليه السلام جوابه: من عبداللّه عليّ أميرالمؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن صخر أمّا بعد فإنّه أتاني كتابك كتاب امرء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتّبعه فهجر لاعظاً وضلّ خابطاً زعمت أنّه إنّما أفسد عليّ بيعتك خطيئتي في عثمان ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أورد وأصدرت كما أصدروا وما كان اللّه لجمعهم على ضلال ولا يضربهم بعمى وأما ما زعمت أنّ أهل الشام الحكّام على أهل الحجاز فهات رجلين من قريش في الشام يقبلان في الشورى أو تحلّ لهما الخلافة فإن زعمت ذلك كذّبك المهاجرون والانصار، وإلا فأنا آتيك بها من قريش الحجاز وأمّا ما ميّزت بين أهل الشام وأهل البصرة وبينك

إلى معاوية لأنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّها وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل منهم وسمّوه إماماً كان ذلك للّه رضى فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاّه اللّه

وبين طلحة والزبير فلعمري ما الأمر في ذلك إلا واحداً لأنّها بيعة عامّة واحدة لا يثني فيها المنظر ولا يستأنف فيها الخيار الخارج منها طاعن والمروي فيها مداهن وأمّا فضلي في الإسلام وقرابتي من الرسول وشرفي في بني هاشم فلو استطعت دفعه لفعلت.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى معاوية**] مع جرير بن عبداللّه البجلي حين نزعه من همدان: أمّا بعد فإنّ بيعتي يا معاوية لزمتك وأنت بالشام.

[**لأنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد**] بيعتهم [**أن يختار**] غير من بايعون [**ولا للغائب**] عنها [**أن يردّها**] فليس لأحد ممن غاب أو حضر أن يردّ بيعتهم له وذلك يستلزم كونها لازمة لمن حضر وغاب.

[**وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل منهم وسمّوه إماماً كان ذلك للّه رضى فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاّه اللّه**

ما تولّى ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرء الناس من دم عثمان ولتطمئنّ أنّي كنت في عزله عنه إلا أن تجتني فتجنّ ما بدا لك أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة موصلة

ما تولّى] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصليه جهنّم وسائت مصيراً﴾ وهذا احتجاج منه عليه السلام بطريق المجادلة بالتي هي أحسن وإلزام لهم بمقتضى مذهبهم من حجّية إجماع أهل الحلّ والعقد.

[ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك] أي: العقل المجرّد عن شوائب الهواى والأغراض الفاسدة.

[لتجدني أبرء الناس من دم عثمان ولتطمئنّ أنّي كنت في عزله عنه] فإنّ القتل إمّا بفعل أو قول ولم ينقل عنه عليه السلام في قضية عثمان إلا أنّه لزم بيته وانعزل عنه بعد أن دافع عنه طويلاً بيده ولسانه ولم يمكن الدفع **[إلا أن تجتني]** أي: تدّعي عليَّ ذنباً لم أفعله والتجنّي دعوى الجناية بمن لم يفعلها.

[فتجنّ] فادع **[ما بدا لك]** أي: ما ظهر في خيالك من الذنوب والجنايات فإنّ ذلك باب مفتوح لكلّ أحد والاستثناء منقطع ومحلّ ما النصب بالمفعولية.

ومن كتاب له عليه السلام
إليه أيضاً

[أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة موصلة] أي: مجموعة الألفاظ من هنا وهنا وليست على نسق واحد وذلك عيب في الكتابة والخطابة.

ورسالة محبرة نمّقتها بضلالك وأمضيتها بسوء رأيك وكتاب امرء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتّبعه فهجر لاعظاً وضلّ خابطاً

[**ورسالة محبرة**] أي: مزينة الألفاظ إشارة إلى أنّ فيها أثر التكلّف والتصنّع [**نمّقتها بضلالك**] والتنميق: التزيين بالكتابة؛ لأنّ تكلّفها منه عن زعم أنّه على الحقّ وأنّ علياً مخطئ وذلك هو الضلال، فضلاله الذي أوجب له تكلّف هذه الموعظة أو لأنّه لمّا كان جاهلاً بسبك الكلام ووضعه مواضعه وجائت من عظة موصلة منمّقة بحسب ذلك الجهل ظهر عليها أثر الكلفة في التنميق فاستدلّ بها على ضلاله.

[**وأمضيتها بسوء رأيك**] لما مرّ [**وكتاب امرء ليس له بصر يهديه**] استعار البصر للعقل لأنّ له نوراً يدرك به صور المعقولات كما يدرك البصير بنوره صور المحسوسات ثمّ سلب عنه البصر الذي يهديه في سبيل اللّه لأنّه استعمله في الشيطنة وفي المصالح الدنيوية.

[**ولا**] له [**قائد**] من إمام حقّ أو رأي صالح [**يرشده**] إلى سبيل اللّه [**قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتّبعه**] أفرأيت ﴿من اتّخذ إلهه هواه﴾ ومعلوم أنّ ذلك يستلزم أن يهجر ويهذي في الكلام ولذا قال: [**فهجر**] أي: تكلّم بالهذيان أو أفحش في منطقه.

[**لاعظاً**] واللعظ: الصوت والجلبة أي: يقول ما لا ينبغي من القول.

[**وضلّ**] عن سبيل اللّه [**خابطاً**] في التيه والضلال وأصل الخبط الحركة على غير نظام ومنه خبط عشواء للناقة التي ضعف بصرها قيل كانت صورة الكتاب الذي كتبه معاوية هذه:

لأنّها بيعة واحدة لا ثني فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار الخارج منها طاعن

أمّا بعد فاتّق اللّه يا علي ودع الحسد فإنّه طال مالم ينتفع به أهله ولا تفسد سابقة قديمك بشرة من حديثك فإنّ الأعمال بخواتيمها ولا تلحدن بباطل في حقّ من لا حقّ لك في حقّه فإنّك إن تفعل تلك لا تضلّك إلا نفسك ولا تمحو إلا عملك ولعمري إنّ ما مضى لك من السوابق الحسنة لحقيقة أن تردّك وتردعك عمّا اجترأت عليه من سفك الدماء وإجلاء أهل الحقّ عن الحلّ والحرم فاقرأ سورة الفلق وتعوّذ باللّه من شرّ ما خلق ومن شرّ نفسك الحاسد إذا حسد، قفل اللّه بقلبك وأخذ بناصيتك وعجّل توفيقك فإنّي أسعد الناس بذلك والسلام.

وفي هذا الكتاب في جواب كتاب كتبه معاوية وفيه: إنّما أفسد عليك بيعتي خطيّتك في عثمان إلى أن قال: وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة ولا حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير لأنّهما بايعاك ولم أبايعك فكتب إليه عليه السلام في الجواب: وأمّا ما ميّزت به بين أهل الشام وأهل البصرة وبينك وبين طلحة والزبير فلعمري ما الأمر في ذلك إلا واحداً [**لأنّها بيعة واحدة**] أي: ما شأن الجميع في بيعتي إلا واحداً وكما لزمت أولئك فقد لزمتكم أيضاً.

[**لا ثني فيها النظر**] أي: لا ينظر فيها مرّة ثانية بل يجب إمضائها.

[**ولا يستأنف فيها الخيار**] بحيث يسوغ النكث والفسخ لمن بايع ويكون له خيار الفسخ في ذلك.

[**الخارج منها طاعن**] في صحّتها وانعقادها فيجب أن يجاهد ويقاتل

والمروي فيها مداهن أمّا بعد فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل وخذه بالأمر الجزم ثمّ ــــــ بين حرب مجلية أو سلم مخزية فإن اختار الحرب فانبذ إليه

حتّى يرجع إليها إذ هي سبيل المؤمنين كما سبق [**والمروي فيها**] أي: المتوقّف في صحّتها [**مداهن**] وهو نوع من النفاق المستلزم للشكّ في سبيل المؤمنين ووجوب اتّباعه وقد مرّ حكمه آية ورواية.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى جرير بن عبدالله البجلي لمّا أرسله إلى معاوية وأقام عنده حتّى اتهمه الناس فكتب إليه:

[**أمّا بعد فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل**] أي: لا تتركه متلكئاً متردّداً يطمسك تارة ويؤنسك أُخرى.

[**وخذه بالأمر الجزم**] المقطوع به ولا تدعه ممن يقدّم عليك رجلاً ويؤخّر أُخرى.

[**ثمّ ــــــ بين حرب مجلية**] تجلي المقهورين فيها عن ديارهم، أي: تخرجهم [**أو سلم**] أي: طاعة وانقياد [**مخزية**] أي: فاضحة، حيث انّ معاوية امتنع اوّلاً من البيعة فإذا دخل في السلم فإنّما يدخل فيها بالبيعة وإذا بايع بعد الامتناع فقد دخل تحت الفضيحة ورضي بالضيم وذلك هو الخزي.

[**فإن اختار الحرب فانبذ إليه**] من قوله تعالى: ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ واصله للعهد والهدنة وعقد الحلف يكون بين الرجلين وبين القبيلتين

وإن اختار السلم فخذ بيعته والسلام.
إلى معاوية

ثمّ يبدو لهما في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدهما إلى الآخر عهده كان كتاباً مكتوب بينهما قد نبذه أحدهما يوم الحرب وأبطله فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة.

[وإن اختار السلم] المقابلة للحرب أي: الانقياد والطاعة **[فخذ بيعته والسلام]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾.

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى معاوية] لمّا كتب إليه من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب سلام عليك فإنّي أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد فإنّ اللّه اصطفى محمّداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه واجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم للّه ولرسوله الخليفة من بعده وخليفة الخليفة من بعد خليفته والثالث الخليفة عثمان المظلوم فكلّهم حسدت وعلى كلّهم بغيت عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر فيه وفي تنفّسك الصعداء وإبطائك عن الخلفاء وفي ذلك تقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتّى تبايع وأنت كاره ثمّ لم تكن لأحد منهم ريّاً حسداً منك لابن عمك عثمان وكان أحقّهم أن لا تفعل ذلك به في قرابته وصهره فقطعت رحمه وقبحت محاسنه وألّبت عليه الناس وبطنت وظهرت حتّى ضربت له

. . . .

آباط الإبل وقيّدت إليه الخيل كالعتاق وحرّك عليه السلاح في حرم رسول اللّهﷺ فقتل معك في المحلّة وأنت تسمع في داره الهايعة لا تردع عن نفسك فيه بقول ولا فعل وأقسم قسماً صادقاً لو قمت فيما كان من أمره مقاماً واحداً تهنه الناس عنه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحد ولمحي ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة لعثمان والبغي عليه وأُخرى كنت بها عند أنصار عثمان ظنيناً ايوائك قتلة عثمان فهم عضدك وأنصارك ويديك وبطانتك وقد ذكر لي انّك تتنصّل من دومه فإن كنت صادقاً فأمكنا من قتلة عثمان لنقتلهم به ونحن من أسرع الناس إليك وإلا فإنّه ليس لك ولأصحابك إلا السيف والذي لا إله غيره لنطلبنّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبرّ حتّى اللّه أو ليلحقنّ أرواحنا باللّه والسلام.

ثمّ دفع الكتاب إلى أبي مسلم الخولاني فقدم به الكوفة، فكتب عليه السلام جوابه:

من عبداللّه علي أميرالمؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد فإنّ أخا خولان قدم عليّ بكتاب منك يذكر فيه محمداًﷺ وما أنعم اللّه عليه من الهدى والوحي، فالحمد للّه الذي صدق له الوعد وتمّم له النصر ومكّن له في البلاد واظهره على أهل العداوة والشنئان من قومه الذين وثبوا به وأظهروا له التكذيب وبارزوه بالعداوة وظاهروا على إخراجه وعلى إخراج أصحابه والّبوا عليه العرب وجامعوه على حربه وجهدوا عليه وعلى أصحابه كلّ الجهد وقلّبوا له الأمور حتّى ظهر أمر اللّه وهم كارهون، وكان أشدّ الناس عليه أُسرته الأدنى فالأدنى من قومه إلا من عصم اللّه منهم.

فأراد قومنا

يابن هند فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً ولقد أقدمت فأفحشت إذ طفقت تخبرنا عن بلاء اللّه تبارك وتعالى في نبيّه محمّدﷺ وفينا وكنت في ذلك كجالب التمر إلى هجر أو كداعي مسدّده إلى النصال وذكرت انّ اللّه اجتنبى له من المسلمين أعواناً أيّده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام وكان أفضلهم في الإسلام كما زعمت وأنصحهم للّه ولرسوله الخليفة الصدّيقة وخليفته الفاروق ولعمري انّ مكانهما في الإسلام لعظيم وانّ المصاب بهما لجرح في الإسلام شديد يرحمهما اللّه وجزاهما بأحسن ما عملا غير انّك لست ممن صدق بحقّنا وأبطل باطل عدوّنا وما أنت والفاروق، فالفاروق من فرق بيننا وبين أعدائنا وذكرت أنّ عثمان كان في الفضل ثالثاً فإن كان عثمان مسيئاً فيلقى ربّاً غفوراً لا يتعاظمه ذنب يغفره ولعمري انّي لارجو إذا أعطى اللّه الناس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصحيتهم للّه ولرسوله أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر انّ محمّداً لمّا دعى إلى الإيمان باللّه والتوحيد كنّا أهل البيت أوّل من آمن به وصدّق ما جاء به فلبثنا أحوالاً وما يعبد اللّه في ربع ساكن من العرب غيرنا.

[**فأراد قومنا**] إلى نار الحرب ثمّ قال وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلونا ولا يشاربونا ولا يناكحونا ولا يبايعونا ولا نأمن فيهم حتّى ندفع إليهم النبيﷺ فيقتلوه ويمثّلوا به فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم فعزم اللّه إلى قوله بمكان آمن ثمّ قال فكان ذلك ما شاء اللّه أن يكون ثمّ أمر اللّه رسولهﷺ بالهجرة ثمّ أمره بعد ذلك بقتل المشركين فكانﷺ ـــــــ

إلى قوله احرب ثمّ قال: واللّه وليّ الإحسان إليهم والامتنان عليهم بما قد

فأراد قومنا قتل نبيّنا صلّى اللّه عليه وآله واجتياح أصلنا وهمّوا بنا القوم وفعلوا بنا الأفاعيل

أسلفوا من الصالحات فما سمعت بأحد هو أنصح للّه في طاعة رسوله ولا أطوع لرسول اللّهﷺ في طاعة ربّه وا أصبر على الأذى والضرار حين البأس ومواطن المكروه مع النبيﷺ من هؤلاء النفر الذين سمّيت لك وفي المهاجرين خيرٌ كثير تعرفه جزاهم اللّه بأحسن أعمالهم ثما ما أنت والتمييز بين المهاجرين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم هيهات لقد جنّ قدح ليس منها وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها الا تربّع أيها الإنسان على ظلمك وتعرف قصور ــــــ وتتأخّر حيث أخّرك القدر فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفر الظافر وإنّك لذهّاب في التيه روّاغ عن القصد، ألا ترى غير مخبر لك بنعمة اللّه أحدث ثمّ يتصل به أوّل الكلام الآتي إلى قوله عليه توكّلت ثمّ يتّصل به قوله من ذلك الكتاب وذكرت أنّه ليس لي ولأصحابي... إلخ، ثمّ يتصل بقوله ولعمري... إلخ، والسيّدة «ره» لفق كلامه من مواضع متعددة فلنرجع إلى ما ذكره السيد «ره».

[فأراد قومنا] أي: قريش **[قتل نبيّنا صلّى اللّه عليه وآله واجتياح أصلنا]** أي: استيصالهم، ومنه الجايحة وهي: الفتنة أو السيّئة التي تجتاح المال والأنفس.

[وهمّوا بنا القوم] أي: ارادوا الارادات العظيمه بنا، والهموم: القصود.

[وفعلوا بنا الأفاعيل] أي: إرادات إيقاع الشرور بهم والأفعال القبيحة، وقيل أراد بالهموم الاحزان، أي: همّوا أن يفعلوا بنا ما يوجب

ومنونا العذب وأحلسونا الخوف واضطرّونا إلى جبل وعر وأوقدوا لنا نار الحرب

الأحزان.

[**ومنونا العذب**] أي: طيب العيش، ويحتمل الماء العذب لما روي أنّهم منعوا أيام الحصار في شعب بني هاشم من الماء العذب.

[**وأحلسونا الخوف**] والحلس: كساء رقيق يجعل تحت قتب البعير واستعير لإلزامهم الخوف وإشعارهم إيّاه ملاحظةً لمشابهته بالحلس في لزومه لهم.

[**واضطرّونا إلى جبل وعر**] أي: صعب المرتقى وهو مثل يضرب لخشونة مقامهم أي: كانت حالنا فيه كحال من اضطرّ إلى ركوب جبل وعر، ويجوز أن يحمل على حقيقته لأنّ المنقول انّ الشعب الذي حصروهم فيه مضيق بين جبلين.

[**وأوقدوا لنا نار الحرب**] استعار النار للحرب لشبهها لها في الأذى وإفناء ما يقع فيها، ورشح بذكر الإيقاد، وقوله: وكتبوا علينا بينهم كتاباً، إشارة إلى ما ذكره جملة من الرواة والمؤرّخين انّه لمّا ــــــ الإسلام في القبائل اجتهد المشركون في إطفاء نور اللّه واجتمعت قريش أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه على أن لا ينكحوا إلى بني هاشم وبني عبدالمطلب ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم فكتبوا بذلك وثيقة وتواثقوا عليها وعلّقوها في جوف الكعبة وانحازت بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى ابي طالب فدخلوا معه في شعبه وخرج من بني هاشم أبو لهب فظاهر المشركين، وقطعوا عنهم الميرة والمارّة وحصروهم في ذلك الشعبة أوّل سنة

فعزم اللّه لنا على الذبّ عن حوزته والرمي من وراء حرمته مؤمناً يبغي بذلك الأجر وكافر يحامي عن الأصل ومن أسلم من قريش

سبع من النبوّة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم حتّى بلغهم الجهد وسمع صوت صبيانهم من وراء الشعب من شدّة الجوع فمن قريش من سرّه ذلك ومنهم من شانه، فأقاوا على ذلك ثلاث سنين حتّى أوحى اللّه إلى رسوله أنّ الأرضة قد أكلت صحيفتهم ومحت منها ماكان فيها من ظلم وجور وبقي فيها ما كان من ذكر اللّه، فأخبر بذلك عمّه أبو طالب فأمره أن يأتي قريشاً فيُعلمها بذلك، فجاء إليهم وقال: إنّ ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فإن كان صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتوه واستحييتموه، فقالوا: قد أنصفتنا، فأرسلوا إلى الصحيفة فوجدوها كما أخبر فسقط في أيديهم وعرفوا أنّهم بالظلم والقطيعة.

وقوله: [**فعزم اللّه لنا على الذبّ عن حوزته**] أي: أراد واختار لنا أن نذبّ عن حوزة الإسلام، والحوزة: الناحية، وحوزة الملك: بيضته.

[**والرمي من وراء حرمته**] أي: ويحمي حرمته أن تنتهك، وكنّى عن حماها بالرمي من ورائها، والضمير في حوزته، وحرمت راجع إلى النبي ﷺ.

وقوله: [**مؤمناً يبغي بذلك الأجر وكافر يحامي عن الأصل**] أي: جميعاً يذبّ عن دين اللّه ويحمي رسوله، أمّا المؤمن منّا فيريد بذلك الثواب، والكافر هنا يدافع عنه محافظةً على النسب.

وقوله: [**ومن أسلم من قريش**] الواو للحال، والجملة حالية، أي: كنّا على تلك الحال من الذبّ عن دين اللّه والحال انّ من أسلم من قريش عدا

خلوا ممّا نحن فيه أمّا الحلف يمنعه أو عشيرة تقوم دونه فهو من القتل بمكان آمن وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إذا احمرّ البأس وأحجم الناس قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنّة فقُتل عبيدة بن الحرث يوم بدر وقتل حمزة يوم أُحد وقُتل جعفر يوم مؤتة وأراد من لو شئت ذكرت اسمه

بني هاشم وعبدالمطلب.

[**خلوا**] أي: خالين [**ممّا نحن فيه**] من البلاء آمنين من القتل والخوف.

[**أمّا الحلف**] وعهد مع المشركين [**يمنعه**] منهم [**أو عشيرة تقوم دونه**] وتحفظه منهم [**فهو من القتل بمكان آمن**] وبذلك يظهر فضله ﷺ وفضل بني هاشم وبني عبدالمطلب وبلائهم الحسن الجميل في حفظ رسول اللّه ﷺ.

[**وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله**] لمّا أمره اللّه بقتال المشركين [**إذا احمرّ البأس**] كناية عن شدّة الحرب إذ البأس فيها تستلزم حمرة الدماء ومنه صوت أحمر كناية عن شدّته.

[**وأحجم الناس**] أي: كفّوا عن الحرب وجبنوا عن الإقدام [**قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنّة فقُتل عبيدة بن الحرث**] بن عبدالمطلب [**يوم بدر**] اسم بئر معروفة قتله عتبة بن ربيعة.

[**وقتل حمزة يوم أُحد**] اسم جبل معروف.

[**وقُتل جعفر**] بن أبي طالب [**يوم مؤتة**] بالضمّ اسم أرض بمشارق الشام.

[**وأراد من لو شئت ذكرت اسمه**] يعني نفسه عليه السلام.

مثل الذي أرادوا من الشهادة ولكن آجالهم عُجّلت ومنيّته أُخِّرت فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع تقدّمي ولم يكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها إلا أن يدّعي مدّع ما لا أعرفه ولا أظنّ أنّ اللّه يعرفه والحمد للّه على كلّ حال

[مثل الذي أرادوا من الشهادة ولكن آجالهم عُجّلت ومنيّته أُخِّرت] ﴿فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ وفيهم نزلت ﴿ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾ روي أنّه لما التقى المسلمون والمشركون ببدر برز عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم رهط من الأنصار فقالوا: نريد أكفّائنا من المهاجرين، فقال رسول اللّهﷺ: قم يا حمزة، قم يا عبيده، قم يا علي، فبارز عبيدة وهو أسرة القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد، فقتل علي وحمزة قرينيهما، واختلف عبيدة وعتبة بضربتين فكلاهما أثبت صاحبه، ثمّ مات عبيدة بعد عتبة، ثمّ قتل حمزة في وقعة أُحد قتله وحشي، وقاتل جعفر في وقعة مؤتة حتّى قطعت يداه وضربه رجل من الروم فقطعه نصفين ووجد في أحد نصفين أحد وثلاثين جرحاً، وسمّاه رسول اللّهﷺ ذاالجناحين يطير بهما في الجنّة.

ثمّ لّما أثبتﷺ فضيلته وفضيلة أهل بيته أردفه بالتعجّب من الدهر حيث صار يقرن بأمثال معاوية في الذكر فقال:

[فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع تقدّمي ولم يكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها] يقال: أدلى فلان بحجّته أي: احتجّ بها.

[إلا أن يدّعي مدّع ما لا أعرفه ولا أظنّ أنّ اللّه يعرفه والحمد للّه على كلّ حال] قال ابن أبي الحديد: من لم يسع بقدمي، إشارة إلى معاوية في الظاهر

وأمّا ما سئلت من دفع قتلة عثمان إليك فإنّني نظرت في هذا الأمر فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك

وإلى من تقدّم عليه من الخلفاء في الباطن، والدليل عليه قوله: التي لا يدلي بمثلها، فأطلق القول إطلاقاً عامّاً مستغرقاً لكلّ الناس أجمعين.

وقوله: لا أعرفه ... إلخ، أي: كلّ من ادّعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب لأنّه لو كان صادق لكان عليه السلام يعرفه لا محالة فدعواه باطلة والظنّ هنا بمعنى العلم كما في قوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنّوا أنّهم مواقعوها﴾ وأخرج هذا الكلمة مخرج قوله تعالى: ﴿قل أتنبئون اللّه بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ وليس المراد سلب العلم بل العلم بالسلب إذ كلّما يعلم اللّه انتفائه ليس بثابت.

[**وأمّا ما سئلت من دفع قتلة عثمان إليك فإنّني نظرت في هذا الأمر فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك**] لأنّ تسليم الحقّ إلى ذي الحقّ عند المنافرة إنّما يكون بعد تعيّن المدّعى عليه وثبوت الحقّ له، وإنّما يكون ذلك بعد ترافع الخصمين إلى الحاكم وثبوته عنده وحكمه به وكلّ ذلك لم يقع، ولذا قال عليه السلام لمعاوية في مقام آخر: «وأمّا طلبك قتلة عثمان فادخل فيما دخل الناس فيه ثمّ حاكمهم إليّ أحملك وإيّاهم على الحقّ» ولأنّهم كانوا أكثر من أن يحصى وفيهم الصحابة والمهاجرون والأنصار وبمثلهم انعقدت البيعة للأوّل بل بأقلّ منهم فإن كان إجماعهم حقّاً ففي المقامين، وإلا فلا، ولأنّهم إنّما قتلوه عن بصيرة وبرهان وعندهم أنّ معاوية وأصحاب الجمل معذورون في حربهم لعليّ لزعمهم أنّه كان عن اجتهاد وإن أخطأوا فكيف لا يعذر أمثال هؤلاء.

ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك ولا يكلّفونك في طلبهم في برّ ولا بحر ولا جبل ولا سهل طلب يسوئك وجدانه وزور لا يسرّك لقيانه والسلام لأهله

[**ولعمري**] قسمي ويميني [**لئن لم تنزع**] وترتدع [**عن غيّك**] أي: عن ضلالك [**وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك**] وهم الذين يأتونك للحرب.

[**ولا يكلّفونك في طلبهم في برّ ولا بحر ولا جبل ولا سهل طلب يسوئك وجدانه وزور لا يسرّك لقيانه**] يقال: نزع فلا عن كذا أي: فارقه وتركه ينزع بالكسر، والغي: الجهل والضلال، والشقاق: الخلاف، والوجدان مصدر وجدت كذا أي: أصبته، والزور: الزائر واللقيان مصدر لقيته لقاً ولقياناً ولمّا كان السلام تحية الإسلام قال عليه السلام:

[**والسلام لأهله**].

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

أوّله: من عبدالله أميرالمؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام على من اتّبع الهدى، فإنّي أحمد إليك الذي لا إله إلا هو أمّا بعد فإنّك قد رأيت من الدنيا وتعرّضها بأهلها فيما مضى منها وخير ما بقى من الدنيا ما أصاب العباد الصادقون فيما مضى منها ومن يقس الدنيا بشأن الآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً، واعلم يا معاوية إنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القدم ولا في البقية، ولا في الولاية ولست تقول فيه بأمر بيّن يعرف لك فيه آن،

فكيف أنت صانع إذا انكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنياً قد ابتهجت بزينتها وخدعت بلذّتها دعتك فأجبتها وقارتك فاتّبعتها وأمرتك فأطعتها فإنّه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مخ

ولا لك عليه شاهد من كتاب اللّه ولا عهد تدّعيه من رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

[**فكيف أنت صانع إذا انكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنياً قد ابتهجت بزينتها وخدعت بلذّتها**] الجلباب الملحفة، وتبهّجت: تحسّنت وتزيّنت، واستعير الجلابيب للّذات الحاصلة في الدنيا بمتاعها وزينتها لكونها ساترة أحوال الآخرة حاجبة عن إدراكها كما هو حقّه كما يستر الجلباب ما ورائه، ورشح الاستعارة بذكر التكشّف وإسناد البهجة إليها مجاز، وكذا الخدع.

وكذا قوله: [**دعتك فأجبتها وقارتك فاتّبعتها وأمرتك فأطعتها**] لكونها أسباباً مستلزمة لذلك، ولمّا كانت إجابة الدنيا واتّباعها وطاعتها معاصي يخرج الإنسان بها عن حدود اللّه ذكرها في توبيخه وذمّه.

وقوله: [**فإنّه يوشك**] أي: يسرع [**أن يقفك واقف**] هو الموت الذي لابدّ منه ولا محيص عنه [**على ما لا ينجيك منه مخ**] أي: يقرب أن يطلعك مطلع على ما لا بدّ لك منه ممّا يخاف من الموت وما تستلزمه معاصيك من لحوق العذاب، فإنّ تلك الأمور العظيمة والاهوال الجسيمة قد غفلت عنها النفس لانهماكها في شهوات الدنيا ولذّاتها واستغراقها في معاصيها وشهواتها، وذلك ران على قلوبهم وغطّى على بصائرهم وبالموت تزول تلك الحجب وتشاهد تلك الأمور كما قال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾، وقال صلى الله عليه وآله: «الناس نيام فإذا

فاقعس عن هذا الأمر وخذ اهبة الحساب وشمّر لما نزل بك ولا تمكّن الغواة من سمعك وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك فإنّك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذة وبلغ فيك أمله وجرى منك مجرى الدم والروح

ماتوا انتبهوا».

[**فاقعس عن هذا الأمر**] أي: تأخّر عن طلب الخلافة والإمارة واترك الرئاسة لأهلها، والماضي قعس بالفتح.

[**وخذ اهبة الحساب**] أي: الاهبة للحساب والاستعداد له بعدّته وهي طاعة اللّه وتقواه ومجانبة معاصيه، يقال: تأهّب أي: استعد وجمع الأُهبة: أُهَب.

[**وشمّر**] أي: جد واجتهد [**لما نزل بك**] أي: ينزل بك من الموت أو القتل نزل منزلة الواقع لتحقّقه أو الحرب.

[**ولا تمكّن الغواة**] جمع غاو: وهو الضالّ، [**من سمعك**] كنّى به عن إصغائه إليهم في شورهم عليه بيع آخرته بدنياه واتّخاذ إلهه هواه.

[**وإلا تفعل**] ما أمرتك به [**أعلمك**] أعرفك [**ما أغفلت**] ما تركت [**من نفسك**] ومفعول تركت ضمير ما، ومن نفسك بيان لذلك الضمير وتفسير له، وإغفاله لنفسه تركه إعدادها بما يخلّصه من أهوال الحرب وعذاب الآخرة، وهو ملاحظة طاعة اللّه واجتناب معصيته.

[**فإنّك مترف**] وهو الذي أترفته النعمه، أي: أطغته.

[**قد أخذ منك الشيطان مأخذة**] ويروى مآخذه بصيغة الجمع، أي: تناول الشيطان منك لبّك وعقلك.

[**وبلغ فيك أمله وجرى منك مجرى الدم والروح**] إشارة إلى قوله ﷺ

ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمّة بغير قدم سابق ولا شرف باسق نعوذ باللّه من لزوم سوابق الشقاء وأحذّرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية مختلف العلانية والسريرة وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً واخرج إلي واعف الفريقين من القتال لتعلم أيّنا المرين على قلبه

«إنّ الشيطان ليجي من ابن آدم مجرى الدم في العروف فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش» ثمّ خرج عليه السلام إلى أمر آخر فقال:

[**ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمّة**] استفهام إنكاري وتقريع له بالقصور عن هذه الدرجة العليّة والمرتبة السنيّة.

[**بغير قدم سابق**] يقال لفلان قدم صدق أي: سابقة وأثرة حسنة.

[**ولا شرف باسق**] أي: عال، والقدم السابق كناية عن التقدّم في الأمور والأهلية لذلك إشارة إلى أنّ سابقة الشرف والتقدّم في الأمور شرط لتلك الأهليّة.

[**نعوذ باللّه من لزوم سوابق الشقاء**] أي: ما سبق في القضاء الإلهي من الشقاء، إشارة إلى أنّ معاوية ممن سبق له ذلك.

[**وأحذّرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية**] وتمادي تفاعل من المدى وهو الغاية، أي: لم يقف بل مضى قدماً والغرّة: الغفلة، والأمنية: طمع النفس.

[**مختلف العلانية والسريرة**] كنّى به عن النفاق، ووجه التحذير ما يستلزمانه من لزوم الشقاء في الآخرة.

[**وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً**] منصوب على الظرف

[**واخرج إلي واعف الفريقين من القتال لتعلم أيّنا المرين على قلبه**] أي:

والمغطّى على بصره فأنا أبو حسن قاتل جدّك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى الآن عدوّي ما استبدلت ديناً ولا استحدثت نبيّاً وإنّي لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتهم فيه مكرهين

المغلوب قلبه، من قوله تعالى: ﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ وقيل الرين: الذنب على الذنب.

[**والمغطّى على بصره**] وفيه إشاره إلى الخوف والجبن سببه الرين؛ لأنّ لوازم العلم بأحوالآخرة وفضلها على الدنيا الثبات عند المبارزة في طلبها وإن أدّى إلى القتل حتّى أنّه ربما تكون محبّة القتل والموت من لوازم ذلك العلم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إن زعمتم أنّكم أولياء للّه من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾، وقال عليه السلام: «واللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه» وقال: «واللّه لا يبالي ابن أبي طالب وقع على الموت أم الموت وقع عليه»، ثمّ قال عليه السلام في معرض التخويف والتحذير: [**فانا أبو حسن قاتل جدّك وخالك وأخيك**] أراد جدّه لأمّه عتبة بن ربيعة ابن هند وخاله الوليد بن عتبة وأخوه حنظلة بن أبي سفيان قتلهم [**شدخاً يوم بدر**] والشدخ كسر الشيء الأجوف، يقال: شدخت رأسه فانشدخ.

[**وذلك السيف**] الذي قتلتهم به [**معي وبذلك القلب**] الذي لقيتهم به [**ألقى الآن عدوّي ما استبدلت ديناً ولا استحدثت نبيّاً وإنّي لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتهم فيه مكرهين**] وهو طريق الإسلام وكلّ ذلك في معرض التحذير والتوبيخ بالنفاق. ثمّ أشار إلى الشبهة التي كانت سبباً لثوران الفتن العظيمة وهي شبهة الطلب بدم عثمان فقال:

وزعمت أنّك جئت ثائراً بدمِ عثمان ولقد علمت حيث وقع دم عثمان إن كنت طالباً فكأنّي قد رأيتك تضجّ من الحرب إذا عضّتك ضجيج الجمال بالأثقال، وكأنّي بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع والقضاء الواقع ومصارع بعد مصارع إلى كتاب الله تعالى وهي كافرة جاحدة أو مبايعة حايدة

[**وزعمت أنّك جئت ثائراً**] أي: طالباً الثار.

[**بدم عثمان ولقد علمت حيث وقع دم عثمان**] فإنّك تعلم انّ الذي فعل ذلك طلحة والزبير بتحريش عائشة.

[فاطلبه من هناكخ من بني تيم وبني أسد [**إن كنت طالباً**] اي: إن كنت تطلب ثارك عند من أجلب وجمع الجموع عليه وحاصره فالذي فعل ذلك طلحة والزبير وقد قاتلتهم أنا وإن كنت تطلبه ممن خذل حيث زعمت انّي خذلته ولم أنصره فاطلب ذلك من نفسك فإنّك خذلته وكنت قادراً على أن ترفده وتمدّه بالرجال فخذلته وقعدت عنه بعد أن استنجدك واستغاث بك.

[**فكأنّي قد رأيتك تضجّ**] أي: تصوّت وتستغيث [**من الحرب إذا عضّتك ضجيج الجمال بالأثقال، وكأنّي بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع**] الذي يتبع بعضه بعضاً [**والقضاء الواقع**] بهم من القهر والغلبة [**ومصارع بعد مصارع**] آخرين أي: جزعاً من مصارع يلحق بعضهم بعد بعض أو تلحقهم بعد مصارع آبائهم السابقة، والمصرع هنا مصدر، أي: جزعاً من مصارع بهذه الصفة.

[**إلى كتاب الله تعالى**] متعلّق بتعدوني [**وهي**] الواو للحال، أي: والحال أنّها [**كافرة**] بالله [**جاحدة**] له [**أو مبايعة حايدة**] أي: عادلة عن

....

الحقّ، وهنا تشبيهات ثلاث: الأوّل: قوله «فكأنّي» قيل المشبّه به هنا نفسه ﷺ في حال كلامه هذا، وتشبّه به هو أيضاً نفسه من حيث هي ـــــــ والوجه فيه انّ نفسه ﷺ لكمالها واطّلاعها على الأمور التي ستكون كأنّها مشاهدة لها ووجه البه بينها بالقياس إلى حالتيها جلاء المعلوم وظهوره له في الحالتين. الثاني: قوله «تضجّ ضجيج الجمال بالأثقال» ووجه الشبه شدّة تبرّمه ـــــــ من ثقلها كشدّة تبرّم الجمل المثقل بالجمل، وضجيجه كناية عن تبرّمه، واستعار العض لفعلها ملاحظة لشبهها بالسبع العقور ووجه الشبه استلزام تلك الأثقال للألم كاستلزام العضّ له. الثالث: قوله «كأنّي بجماعتك» والمشبّه هنا أيضاً نفسه والمشبّه به ما دلّت عليه ياء الإلصاق كأنّه قال: كأنّي متصّل أو ملتصق بجماعتك حاضر معهم، ومحلّ «يدعوني» النصب على الحال، والعامل «ما» في كان من معنى الفعل أي: أشبه نفسي بالحاضر حال دعائهم لي، و«جزعاً» مفعول له، وتجوز بلفظ القضاء للمقضي من الأمور التي توجد عن القضاء الإلهي إطلاقاً للسبب على المسبّب.

قال ابن أبي الحديد: واعلم أنّ قوله «وكأنّي ... إلخ» إمّا أن يكون فراسة نبويّة صادقة، وهذا عظيم، وإمّا أن يكون إخباراً عن غيب معظل وهو اعظم وأعجب وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجب وقد رأيت له ذكر هذا المعنى في كتاب غير هذا وهو: «أمّا بعد فما أعجب ما يأتيني منك وما اعلمني بمنزلتك التي انت إليها صائر ونحوها سائر وليس إبطائي عنك إلا لوقت انا به مصدّق وانت به مكذّب وكأنّي اراك وانت تضجّ من الحرب

....

وإخوانك يدعوني خوفاً من السيف إلى كتاب هم به كافرون وبه جاحدون» ووقفت له عليه السلام على كتاب آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى أوّله: «أمّا بعد فطال ما دعوت أنت وأوليائك أولياء الشيطان الحق أساطير ونبذتموه وراء ظهوركم وحاولتم إطفائه بأفواهكم ويأبى اللّه إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون، ولعمري لينفذن العلم فيك وليتمنّ النور بصغرك وقماتك ولتخسأنّ طريقاً مدحوراً وقتيلاً مثبوراً ولتجزينّ بعملك حيث لا ناصر لك ولا مصرخ عندك وقد أسهبت في ذكر عثمان ولعمري ما قتله غيرك ولا خذله سواك ولقد تربّصت به الدوائر وتمنّيت له الأماني طمعاً فيما ظهر منك ودلّ عليه فعلك وإنّي لأرجوا أن أُلحقك به على أعظم من ذنبه وأكبر من خطيئته فأنا ابن عبدالمطلب صاحب السيف وإنّ قائمه لفي يدي وقد علمت من قتلت به من صناديد بن عبد شمس وفراعنة بني صخر وجح ومخزوم وأيتمت أبنائهم وأيمت نساهم، وأذكّرك ما لست له ناسياً يوم قتلت أخاك حنظلة أو جررت برجله إلى القليب وأسّرت أخاك عمرو فجعلت عنقه بين ساقيه ربطاً وطلبتك ففررت ولك خصاص فلولا إنّي لا أتّبع فاراً لجعلتك ثالثهما وأنا أولى لك باللّه الية برّة غير فاجرة لئن جمعتني وإيّاك جوامع الأقدار لاتركنّك مثلاً يتمثّل به الناس أبداً ولأزعجنّ بك في مناخك حتّى يحكم اللّه بيني وبينك وهو خير الحاكمين ولئن أنسأ اللّه في أجلي قليلاً لاغزينك بسراة المسلمين ولأنهدنّ إليك في جحفل من المهاجرين والأنصار ثمّ لا اقبل لك معذرة ولا شفاعة ولا أُجيبك إلى طلب وسؤال ولترجعنّ إلى تحيّرك وتردّدك وتلدّدك فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ سحب الموت كيف

جيشاً بعثه إلى العدوّ فإذا نزلتم بعدوّكم أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف

هطلت عليك بصيّبها حتّى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أوّل من كفر به وكذّب بنزوله ولقد كنت تفرّستها وازنتك انك فاعهلا وقد مضى منها ما مضى وانقضى من كيدك فيها ما انقضى وأنا سائر نحوك على هذا الكتاب فاختر لنفسك ـ أي: انظر لها ـ وتداركها فإنّك إن فرّطت واستمررت على غيّك وغوائك حتّى ينهد إليك عباد اللّه ارتجت عليك الأمور ومنعت أمراً هو اليوم مقبول يابن حرب إنّ لجاجك في منازعة الأمر أهله من سفه الرأي، فلا يطمعنّك أهل الضلال ولا يوبقنّك سفه رأي الجهّال فوالذي نفس علي بيده لئن برقت في وجهك بارقة من ذي الفقار لتصعقّن صعقة لا تفيق منها حتّى ينفخ في الصور النفخة التي يئست منها كما يئس الكفّار من أصحاب القبور.

ثمّ حكى عن الاعمش أنّه سئل عن معاوية هل شهد بدراً فقال: نعم من ذلك الجانب!

ومن وصية له عليه السلام

وصّى بها [جيشاً بعثه إلى العدوّ فإذا نزلتم بعدوّكم أو نزل بكم فليكن معسكركم] بفتح الكاف: موضع العسكر حيث ينزل [في قبل الأشراف] جمع شرف بفتح الراء: المكان العالي وقبلها بضمّتين أو ضمّة وسكون هو قدامها.

أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كيّما يكون لكم ردء ودونكم مردّاً ولتكن مقاتلتكم من وجه واثنين واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال وبمناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن واعلموا أنّ مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم

[**أو سفاح الجبال**] أي: أسفلها حيث يسفح فيه الماء.

[**أو أثناء الأنهار**] جمع ثنى وهو منعطفها [**كيّما يكون لكم ردء**] أي: عوناً في المقاتلة. [**ودونكم مردّاً**] أي: حاجزاً بينكم وبين العدو. أمرهم أن ينزولا مسندين ظهورهم إلى مكان عال كالهضاب العظيم أو الجبال أو منعطف الأنار التي تجري مجرى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات وليأمنوا أيضاً من إتيان العدوّ من خلفهم.

[**ولتكن مقاتلتكم**] بفتح التاء مصدر قاتل. [**من وجه**] واحد [**واثنين**] ولا تتفرّقوا ولا يكن قتالكم العدوّ في جهات متشعّبة، فإنّ ذلك أدعى إلى الوهن واجتماعكم أدعى إلى الظفر.

[**واجعلوا لكم رقباء**] أي: حفظة [**في صياصي الجبال**] أي: أعاليها وما جرى مجرى الحصون منها، وأصل الصياصي القرون، ثمّ استعير للحصون لأنّه يمتنع بها كما يمتنع ذوالقرون بقرنه.

[**وبمناكب الهضاب**] أي: أعاليها جمع هضبة: وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

[**لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن**] على غرّة وغفلة من الاستعداد له.

[**واعلموا أنّ مقدمة القوم**] بكسر الدال وهم الذين يتقدّمون الجيش.

[**عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم**] فلا تهملوا التاهّب عند رؤية المقدّمة

وإيّاكم والتفرّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً وإذا غشيكم اللّيل فاجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدّمة له

أو الطليعة وإن قلّ عددهم لأنّ رؤيتهم مما تشعر بهجوم العدوّ وقربه.

[وإيّاكم والتفرّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً] لئلا يفجئكم العدو بغتة على غير بقية واجتماع فيستأصلكم.

[وإذا غشيكم اللّيل فاجعلوا الرماح كفة] بكسر الكاف أي: اجعلوها مستديرة حولكم كالدائرة وكلّما استدار يسمّى كفّة نحو كفّة الميزان وكلّما استطال كفّة بالضمّ نحو كفّة الثواب، وهي حاشيته، وكفة الرمل وهو ما كان منه كالجبل.

[ولا تذوقوا النوم إلا غراراً] وهو النوم القليل **[أو مضمضة]** وهي حركة النعاس في العين وهو كناية عن قلّة النوم أيضاً أو أن لا يستغرقوا في النوم كما يفعله الفار المطمئن وسرّهما الحراسة والتحفظ، فربّ هجوم العدوّ حال الغرّة والنوم.

ومن كتاب له عليه السلام

[لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدّمة له] قال ابن أبي الحديد: كان من رجال الكوفة وأبطالها وله رئاسة وقدم وكان من شيعة علي عليه السلام وجّهه إلى بني ساقة فقتل منهم وسبى وحارب المستورد

اتّق اللّه الذي لابدّ لك من لقائه ولا منتهى لك دونه ولا تقاتلنّ إلا من قاتلك وسر البردين وغوّر بالناس ورفّه في السير ولا تسر أوّل الليل فإنّ اللّه جعله سكناً

ابن علقمة الخارجي من تيم الرباب فقتل كلّ واحد منهما صاحبه بدجله.

[**اتّق اللّه**] ومناسبة ذلك أنّه متوجّه إلى السفر لجهاد الأعداء محتاج إلى الزاد في الطريق وخير الزاد التقوى؛ ولأنّها نِعم المعين على العدو ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

وفي قوله: [**الذي لابدّ لك من لقائه ولا منتهى لك دونه**] تنبيهٌ على جذبه إلى التقوى بالتخويف من اللّه وتسهيل الجهاد عليه [**ولا تقاتلنّ إلا من قاتلك**] لأنّ قتال غير القاتل ظلم وبغي.

[**وسر البردين**] أي: طرفي النهار الغداة والعشي لبردهما في الصيف وهما الأبردان أيضاً.

[**وغوّر بالناس**] والتغوير: القيلولة، وغوّر أي: نزل في الغايرة وهي القائلة ونصف النهار لما تستلزمه القائلة من شدّة الحرّ والمتاعب فيه.

[**ورفّه في السير**] والترفيه: الإراحة ليلحق الضعيف القوي ولا يظهر التعب على الناس لحاجتهم إلى فضل القوّة.

وقال ابن أبي الحديد: رفّه في السير أي: دع الإبل ترد رفها، وهو أن ترد الماء كلّ يوم متى شائت ولا ترهقها وتجشمها السير وتعطشها، ويجوز أن يكون من قولك رفّهت عن الغريم أي: نفّست عنه.

[**ولا تسر أوّل الليل فإنّ اللّه جعله سكناً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ فلا ينبغي أن يخالفوه في ذلك.

وقدّره مقاماً لا ظعناً فأرح فيه بدنك وروّح فيه ظهرك فإذا وقفت حين ينبطح السحر أو حين ينفجر فسر على بركة اللّه تعالى فإذا لقيت العدوّ فقف من أصحابك وسطاً ولا تدنو من القوم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم تباعد من يهاب الحرب

[**وقدّره مقاماً لا ظعناً**] أي: ارتحالاً، أي: جعله اللّه سكناً ومقاماً يُستراح فيه من المتاعب ويسكن إليه ولم يجعله محلّ الظعن.

[**فأرح فيه بدنك وروّح فيه ظهرك**] أي: إبلك ومركوبك، وأطلق عليه لفظ الظعن مجازاً إطلاقاً لإسم المظروف على الظرف.

[**فإذا وقفت حين ينبطح السحر أو حين ينفجر فسر على بركة اللّه تعالى**] الانبطاح: الاتّساع والانبساط، وهو إشارة إلى ما جرت العادة به من وقوف صاحب الجيش وقت السحر لاستعداد أصحابه للسير، وقيل أي: إذا وقفت تحارب العدو أو أوقفته، وقيل: المراد الوصية بأن يكون السير وقت السحر ووقت الفجر حين يتّسع، أي: لا يكون السحر الأوّل بل ما بين السحر الأوّل والفجر.

[**فإذا لقيت العدوّ فقف من أصحابك وسطاً**] لتكون نسبة الطرفين في الرجوع إليه والاستمداد بسماع أوامره على سواء.

[**ولا تدنو من القوم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب**] أنشبت الشيء بالشيء: علّقته به، فإذا دنى قريباً أشعر بإرادة إيقاع الفتنة وتركه يكون أعذر عند اللّه وعند القوم.

[**ولا تباعد منهم تباعد من يهاب الحرب**] أي: تباعداً يشعر بخوفك ورهبتك من عدوّك فيطمع العدوّ فيك، بل كن على حال متوسّطة بين هذين

حتّى يأتيك أمري ولا يحملنّكم شنئانكم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم إلى أميرين من أُمراء جيشه أمّا بعد فإنّي أمّرت عليكما وعلى من في حيزكما

الامرين.

[**حتّى يأتيك أمري**] باحد الامرين [**ولا يحملنّكم شنئانكم**] أي: بغضكم لهم [**على قتالهم قبل دعائهم**] إلى الإمام الحقّ [**والإعذار إليهم**] بذلك فيكون قتالهم على ذلك الوجه لغير اللّه بل بمجرّد الهوى والعداوة، فيخرج عن كونه طاعة.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى أميرين من أُمراء جيشه**] وهما زناد بن النصر وشريح بن هاني حين بعثهما على مقدّمة له في اثنى عشر ألفاً لقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام فكتبا إليه يعلمانه بذلك، فأرسل إلى الأشتر فقال: ـــــ الرسول أنّه تركهم متوافقين فالتجأ إلى أصحابك النجا فإذا أتيتم عليهم فإيّاك أن تبدء القوم بقتال إلا أن يبدئوك حتّى تلقاهم وتسمع منهم ولا يحرمنّك شنئانهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرّة بعد مرّة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً ولا تدنو منهم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم تباعد من يهاب الناس حتّى أقدم عليك فإنّي حثيث السير إليك إن شاء اللّه، وكتب إليهما:

[**أمّا بعد فإنّي أمّرت عليكما وعلى من في حيزكما**] أيك في ناحيتكما

مالك الاشتر فاسمعا له وأطيعا واجعلاه درعاً ومجناً فإنّه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطؤ عنه أمثل

مالك بن الحرث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن جذيمة بن سعد ابن مالك بن النخع بن عمرو بن علمة بن خالد بن [**مالك**] بن أدد [**الاشتر فاسمعا له وأطيعا واجعلاه درعاً ومجناً**] وهو الترس وهما مستعاران باعتبار وقايته لهم من شرّ عدوّهم كما تقي الدرع والمجن صاحبهما.

[**فإنّه ممن لا يخاف وهنه**] أي: ضعفه في حرب [**ولا سقطته**] ولا زلّته في رأي [**ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطؤ عنه أمثل**] من الأفعال والتدبير بل يضع كلّ شيء موضعه وكلّ شيء في محلّه وقد جمع عليه السلام في هذه الكلمة الواحدة أصناف المدح والثناء. قال ابن أبي الحديد في مالك الأشتر: وكان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشيعة وعظمائها شديد التحقّق بولاء أميرالمؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعد موته: «رحم اللّه مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول اللّه صلى الله عليه وآله» وقد روى المحدّثون حديثاً يدلّ على فضيلة عظيمة للاشتر وهي شهادة قاطعة من النبي صلى الله عليه وآله بأنّه من أهل الجنّة.

روى بن عبدالبر في الاستيعاب قال: لمّا حضرت أباذر الوفاة وهو بالربذة بكت زوجته فقال: ما يبكيك فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض وليس عندي ثوب يسعك كفناً ولابدّ لي من القيام بجهازك، فقال: ابشري ولا تبكي فإنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول لنفر أنا فيهم: ليموتنّ أحدكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين وليس من

....

أُولئك النفر أحد إلا مات في قرية وجماعة فأنا لا أشكّ في أنّي ذلك الرجل واللّه ما كذبت ولا كذّبت، فانظري الطريق، فقلت: أنّى وقد ذهب الحاج وتقطّعت الطرق؟ فقال: اذهبي فتبصّري، قالت: فكنت أشتدّ إلى الكثيب فأصعد فأنظر ثمّ أرجع إليه فأُمرّضه فبينا أنا وهو على هذه الحال إذا أنا برجال على ركابهم كأنّهم الرخم تخسب بهم رواحلهم فأسرعوا إليّ حتّى وقفوا عليّ وقالوا: يا أمة اللّه ما لك؟ فقلت: امرء من المسلمين يموت تكفّنونه؟ قالواك ومن هو؟ قلت: اباذر، قالوا: صاحب رسول اللّه صلى الله عليه وآله؟ قلت: نعم، ففدّوه بآبائهم وأُمّهاتهم، وأسرعوا إليه حتّى دخلوا، فقال لهم: ابشروا، وذكر لهم الخبر، ثمّ قال: ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي أو لامرأتي لم أكفّن إلا في ثوب لي أو لها، وإنّي أفنشدكم اللّه أن يكفّنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً، قالت: وليس في أُولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال إلا فتى من الأنصار قال له: أنا أُكفّنك يا عم في ردائي هذا وفي ثوبين معي في عيبتني من غزل أُمّي، فقال أبوذر: أنت تكفّنني فمات فكفّنه الأنصاري وغسّله في النفر الذين حضروه وقاموا على ودفنوه في نفر كلّهم يمان.

قال ابن عبدالبر في أوّل باب: جندب كان النفر الذين حضروا موت أبي ذر بالربذة مصادفة جماعة منهم حجر بن الأوبر ومالك بن الحارث الأشتر.

قال ابن أبي الحديد: حجر بن الأوبر هو حجر بن عدي الذي قتله معاوية وهو من أعلام الشيعة وعظمائها، وأمّا الأشتر فهو أشهر في الشيعة

لعسكره قبل لقاء العدوّ بصفّين لا تقاتلوهم حتّى يبدوئكم فإنّكم بحمد اللّه على حجّة وترككم إيّاهما حتّى يبدئوكم حجّة أُخرى لكم عليهم

من أبي الهذيل في المعتزلة، وقرأ كتاب الاستيعاب على شيخنا عبدالوهاب ابن سكينة المحدّث «ره» وأنا حاضر فلمّا انتهى القاريء إلى هذا الخبر قال استاذي عمر بن عبداللّه الدباس وكنت أحضر معه سماع الحديث: لتقل الشيعة بعد هذا ما شائت فما قال المرتضى والمفيد إلا بعض إلا بعض ما كان حجر والأشتر يعتقدانه في عثمان ومن تقدّمه، فأشار إليه الشيخ بالسكوت، فسكت، إنتهى كلام بن أبي الحديد.

أقول: الحمد للّه الذي أظهر الحقّ على ألسنة قوم يزعمون أنّ شيعة أهل البيت حمير اليهود فإنّه ليس لهم في الإسلام نصيب ويردون هذه الأحاديث فيهم، اللّهم احكم بيننا وبينهم بالحقّ وأنت خير الحاكمين.

ومن وصيّة له عليه السلام

[لعسكره قبل لقاء العدوّ بصفّين] وروي أنّه كان يوصي أصحابه في كلّ موطن بها **[لا تقاتلوهم حتّى يبدوئكم]** بالقتال فيكونوا هم الباغين الظالمين فينصركم اللّه عليه كما قال: ﴿ومن بغى عليه لينصرنّه اللّه﴾ وقال تعالى: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر اللّه﴾.

[فإنّكم بحمد اللّه على حجّة وترككم إيّاهما حتّى يبدئوكم حجّة أُخرى لكم عليهم] قيل: والحجّة من وجهين:

فإذا كانت الهزيمة منهم بإذن اللّه فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا مُعْوراً

أحدهما: أنّهم إذا بدئوا بالحرب فقد تحقّق دخولهم في حرب اللّه وحرب رسوله صلى الله عليه وآله لقوله صلى الله عليه وآله: «يا علي حربك حربي» وتحقّق سعيهم في الأرض بالفساد بقتلهم النفس التي حرّم اللّه ابتداء بغير حقّ وكلّ من تحقّق دخوله في ذلك دخل في عموم قوله تعالى: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ الآية.

الثاني: أنّ البادىء بالحرب معتد ابتداءً، وكلّ معتد كذلك فيجب الاعتداء عليه لقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فوجب الاعتداء عليهم إذا بدئوا بالحرب.

ثمّ قال عليه السلام: [**فإذا كانت الهزيمة منهم بإذن اللّه**] إشارة وتنبيه على عدم اغترارهم بأنّهم هم الذين همزوهم بل ذلك من اللّه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند اللّه﴾ وتذكاراً لقوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكنّ اللّه رمى﴾.

[**فلا تقتلوا مدبراً**] أي: مولّياً هارباً.

[**ولا تصيبوا مُعْوراً**] وهو الذي أمكنتهم الفرصة من قتله بعد انكسار العدوّ كالمعور من الصيد يقال: أعور الصيد أي: أمكن من نفسه، وأعور الفارس ظهر فيه موضع خلل الضرب فهو معورٌ، وقيل: أراد بالمعورّ المريب وهو الذي وقع فيه الشكّ أنّه محارب أم لا أي: لا تقتلوا إلا من علمتم أنّه

ولا تجهزوا على جريح ولا تهيّجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أُمرائكم فإنّهن ضعيفات القوى الأنفس و العقول إن كنّا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وانهنّ لمشكرات

محارب لكم.

[**ولا تجهزوا على جريح**] أي: لا تقتلوه وهذه الأُمور الأربعة هي الفارقة بين البغاة والكفّار حال الحرب، وزيد ما في رواية نضر بن مزاحم عنه عليه السلام بعد ذلك: ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتّكوا ستراً ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم.

[**ولا تهيّجوا النساء بأذى**] أي: لا تثيروا شرورهنّ بأذى [**وإن شتمن أعراضكم وسببن أُمرائكم فإنّهن ضعيفات القوى**] أي: القدرة والقوّة عن مقاومة الرجال وحربهم وسلاح الضعيف والعاجز لسانه، وضعيفات [**الأنفس**] أي: لا صبر لنفوسهنّ على البلاء، فيجتهدون في دفعه بما أمكن من سبّ وغيره [و] ضعيفات [**العقول**] أي: لا قوّة لعقولهنّ أو ترى عدم الفائدة في السبّ والشتمّ وأنّه من رذائل الأخلاق وأنّه يستلزم زيادة الشرور وإثارة الطباع التي يراد تسكينها وكفّها.

[**إن كنّا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وانهنّ لمشكرات**] فيه تأكيد للأمر بالكفّ عنهن، إذ الأمر بالكفّ عنهنّ وهنّ مشركات ففي حال إظهارهنّ الإسلام أولى، والواو في وانهنّ للحال والجملة حالية وإنّ في وإن كنّا مخففة.

وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر أو الهراوة فيعيّر بها وعقبه من بعده اللّهمّ إليك أفضت القلوب ومدّت الأعناق وشخصت الأبصار وأُنضيت الأبدان اللّهمّ قد صرح مكنون الشنئان

وكذا قوله: [**وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر**] وهو الحجر المستطيل الأملس [**أو الهراوة**] وهي خشبة كالدبوس.

[**فيعيّر بها وعقبه من بعده**] والعقب: الولد من ذكر أو أُنثى، واللام في ليتناول ولنؤمر هي الغارقة بين المخففة والنافية.

[وكان عليه السلام يقول إذا لقي العدو محارباً [**اللّهمّ إليك أفضت القلوب**] أي: خرجت عن كلّ شيء ووصلت إليك خالصة بسرّها ودنت وقربت، ومنه أفضى الرجل إلى امرأته أي: غشيها.

[**ومدّت الأعناق وشخصت الأبصار**] وشخوصها ارتفاعها نحو الشيء بحيث لا تطرف.

[ونقلت الأقدامخ إلى المساجد والمشاهد وسائر الطاعات والعبادات.

[**وأُنضيت الأبدان**] أي: أُهزلت ومنه النضو وهو البعير المهزول قيل أشار بإفضاء القلوب إلى الإخلاص له في تلك الحال وبمدّ الأعناق وشخوص الأبصار إلى ما يستلزمه الإخلاص من الهيئات البدنية وبنقل الأقدام وإفضاء الأبدان إلى أنّ ذلك السفر وما يستلزمه من المتاعب إنّما هو لوجهه وغاية الوصول إلى مرضاته.

ثمّ اشار عليه السلام إلى علّة قتالهم في معرض الشكاية إلى اللّه فقال: [**اللّهمّ قد صرح**] أي: ظهر [**مكنون الشنئان**] أي: العداوة والبغضاء، ومكونه:

وجاشت مراجل الأضغان اللّهمّ إنّا نشكو إليك غيبة نبيّناً وكثرة عدوّنا وتشتّت أهوائنا ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين

المستور منه، وكنّى بذلك عن تحريضهم بما كان مستقرّاً في صدورهم في حياة الرسولﷺ من العداوة والبغضاء.

[**وجاشت مراجل الأضغان**] المراجل: القدور، وجيشها: غليانها، والضغن: الحقد، والمراجل مستعار ووجه الشبه غليان دماء قلوبهم عن الأحقاد كغليان المراجل والجيش ترشيح.

[**اللّهمّ إنّا نشكو إليك غيبة نبيّناً**] إذ هو المستلزم لهذه المفاسد [**وكثرة عدوّنا وتشتّت أهوائنا**] أي: تفرّقها [**ربّنا افتح**] أي: احكم، والفاتح: الحاكم.

[**بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين**] وهذا الدعاء مستلزم لنصرته عليهم وظفره بهم إذ كانﷺ هو المحقّ في جهاده وهم المبطلون ﴿ألا إنّ حزب الله هم الغالبون﴾ روي أنّهﷺ كان إذا اشتدّ القتال ذكر اسم اللّه حين يركب ثمّ يقول: الحمد للّه على نعمه علينا وفضله العميم، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون، ثمّ يستقبل القبلة ويرفع يديه ويقول: اللّهمّ إلى آخر ما مضى، ثمّ يقول: سيروا على بركة اللّه، ثمّ يقول: اللّه أكبر اللّه أكبر اللّه أبكر لا إله إلا الله واللّه أكبر يا اللّه يا أحد يا صمد يا ربّ محمّد بسم اللّه الرحمن الرحيم ولا حولة ولا قوّة إلا باللّه العلي العظيم إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اللّهمّ كفّ عنّا أيدي الظالمين، فكان هذا شعاره بصفّين.

وكان عليه السلام يقول لأصحابه عند الحرب: لا تشتدنّ عليكم فرّة بعدها كرّة ولا جولة بعدها حملة وأعطوا السيوف حقّها ووطّنوا للجنوب مصارعها

[**وكان عليه السلام يقول لأصحابه عند الحرب: لا تشتدنّ عليكم**] أي: لا تصعب [**فرّة**] تفرّونها [**بعدها كرّة**] تجبرون بها ما انكسر من حالكم وإنّما الذي ينبغي أن تستصعبوه فرّة لا كرّة بعدها، حثّهم عليه السلام على الكرّ والعود على الحرب إن وقعت عليهم كسرة من فرّة، ونحوه قوله:

[**ولا جولة بعدها حملة**] والجولة: هزيمة قريبة ليست بالممتنعة، أو المراد إذا رأيتم في فراركم مصلحة في خدعة العدو كالجذب له بذلك إلى حيث يتمكّن منه وتقع الفرصة فتكرّوا عليه فلا تشتدنّ عليكم الفرّة حيث انّها عند العرب صعبة شديدة تستلزم العار، قيل ويحتمل أن يريد فلا تشتدنّ عليكم فرّة من عدوّكم بعدها كرّة منكم عليه فإنّ تلك الكرّة لمّا كانت عقيب الفرّةلم تكن إلا عن قلوب مدخلوة ونيات غير صحيحة، وإنّما قدّم الفرّة في هذا الاحتمال؛ لأنّ مقصوده عليه السلام تحقير تلك الكرّة بذكر الفرّة، فكان ذكرها أهمّ، فلذا قدّمت وكذا ولا جولة بعدها حملة.

[**وأعطوا السيوف حقّها**] كنّى به عن الأمر بفعل ما ينبغي أن يفعل ولفظ العطاء مستعار لما تصل إليه السيوف من الأفعال التي ينبغي أن تفعل بها.

[**ووطّنوا للجنوب مصارعها**] أي: يتخذوا مصارع جنوبهم أوطاناً لها، كنّى به عن العزم الجازم على القتل في سبيل الله والإقدام على أهوال الحرب

وأذمروا أنفسكم على الطعن الدعسي والضرب الطلخعي وأميتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل والذي فلق الحبّة وبرء النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلمّا وجدوا عليه أعواناً أظهروه إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه

إذ كان اتخاذ المصارع أوطاناً للجنوب مستلزماً لذلك العزم والإقدام والمصارع: مواضع الصرع للقتلى.

[**وأذمروا أنفسكم**] أيك حثّوها من ذمرته أذمره أي: ـــــــ .

[**على الطعن الدعسي**] منسوب إلى الدعس وهو الأثر، أي: على الطعن الذي يظهر أثره.

[**والضرب الطلخعي**] أي: الشديد، والياء للمبالغة [**وأميتوا الأصوات**] أي: لا تكثروا الصياح فإنّه من علامات الفشل فعدمه يكون علامة للثبات المنافي للجبن، ولذا قال: [**فإنّه أطرد للفشل**] أي: الجبن. [**والذي فلق الحبّة وبرء النسمة**] أي: الخلق [**ما أسلموا**] بقلوبهم حين أظهروا الإسلام [**ولكن استسلموا**] وانقادوا للإسلام ظاهراً خوفاً من القتل [**وأسرّوا الكفر**] في قلوبهم [**فلمّا وجدوا عليه أعواناً أظهروه**].

قال ابن أبي الحديد: وهذا يدلّ على انّه عليه السلام جعل محاربتهم له كفراً وقد تقدّم في شرح حال معاوية وما يذكره كثير من أصحابنا من فساد عقيدته ما فيه كفاية.

[ومن كتاب له عليه السلام [**إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه**] روي أنّ معاوية استشار عمرو بن العاص في أن يكتب إلي عليٍّ كتاباً يسأله فيه

وأمّا طلبك إليّ الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس

الشام، فضحك عمرو وقال: أين أنت يا معاوية من خدعة علي، قال: ألسنا بني عبد مناف قال: بلى، ولكن لهم النبوّة دونك وإن شئت أن تكتب فاكتب، فكتب معاوية:

أمّا بعد فإنّي اظنّك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لم يحنها بعض على بعض وإنّا وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم بها على ما مضى ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني لك طاعة ولا بيعة فأبيت عليّ ذلك فأعطاني اللّه ما منعت وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنّك لا ترجو إلا ما أرجوْ ولا أخاف من القتل إلا ما تخاف، وقد واللّه رقّت الأجناد وذهبت الرجال وأكلت الحرب العرب الأحشاء ثبات نفس بقيت وأنا في الحرب والرجاء سواء ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترقّ به حرّو السلام.

فلمّا قرأ علي عليه السلام كتابه تعجّب منه ومن كتابه ثمّ دعى عبداللّه بن رافع كاتبه وقال: اكتب إليه:

أمّا بعد فقد جائني كتابك تذكر أنّك لو علمت وعلمنا أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يحنها بعضنا على بعض، وأنا وإيّاك في غاية لم نبلغها بعد.

[وأمّا طلبك إليّ الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس] إذ العلّة في المنع المحافظة على دين اللّه وعدم أهليته للولاية، كما قال عليه السلام في

وأمّا قولك إنّ الحرب قد أكلت العرب إلا حشا نبات أنفس قد بقيت ألا ومن أكله الحقّ فإلى الجنّة ومن أكله الباطل فإلى النار وأمّا استوائنا في الحرب والرجال فلست بأمضى على الشكّ منّي على اليقين

موضع آخر: وما كنت متّخذ المضلّين عضداً، وهذه العلّة قائمة في كلّ حين وزمان.

وعن ابن عبّاس أنّه أشار عليه عليه السلام فقال: ولّه شهراً واعزله دهراً، فإنّه بعد أن يبايعك لا يقدر أن يعدل في امرته ولا بدّ أن يجور فتعزله بذلك السبب فقال: كلاّ وما كنت متّخذ المضلّين عضداً.

[وأمّا قولك إنّ الحرب قد أكلت العرب إلا حشا نبات أنفس قد بقيت] والحشاشة بقية الروح.

[ألا ومن أكله الحقّ فإلى الجنّة ومن أكله الباطل فإلى النار] وأهل الجنّة لا يتأسّف عليهم لأنّهم انتقلوا من سجن الدنيا وهمومها إلى رضوان وجنّة ونعيم وثواب جسيم، وأمّا أهل النار فلا يتأسّف عليهم وذهابهم أولى من بقائهم.

[وأمّا استوائنا في الحرب والرجال فلست بأمضى على الشكّ منّي على اليقين] لما كان قول معاوية (أنا في الحرب والرجال سواء) موهماً أنّه ممن لا ينفعل عن هذه الحرب وإن اشتدّت وإنّ الضعف والهلاك إن جرى على الفريقين وفيه نوع تخويف وتهويل وجذب له عليه السلام إلى الصلح، فأجابه بأنّك في طلبك الإمارة والخلافة على شكّ من استحقاقها وأنا على يقين من ذلك، وكلّ ما كان في شكّ من أمره فليس بأمضى في حربه وقيامه عليه ممن

ليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة وأمّا قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أُميّة كهاشم ولا حرب كعبدالمطلب

هو على يقين في أمره، فينتج أنّك لست أمضى في أمرك على الشكّ منّي على اليقين في أمري فأنا أولى بالغلبة لكوني على بصيرة ويقين فلا مساواة كما زعمت؛ لأنّ المتيقّن أرجح في فعله من الشاك.

وقوله: [**ليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة**] جواب ثاني يعني أنّ أهل الشام يطلبون بقتالهم الدنيا، وأهل العراق الآخرة، وليس أهل الشام بأحرص على مطلوبهم من الدنيا من أهل العراق على مطلوبهم من الآخرة، بل هم أحرص لشرف الآخرة وتيقّنهم حصولها وفيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من اللّه ما لا يرجون﴾ وحينئذ كذب معاوية في ادّعاء المساواة في الحرب والرجال لشرف أهل الآخرة على أهل الدنيا ولكون الأحرص أولى بالغلبة بالقهر ﴿ألا إنّ حزب اللّه هم الغالبون﴾ ﴿ألا إنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

[**وأمّا قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أُميّة كهاشم ولا حرب كعبدالمطلب**] حيث ادّعى المساواة في النسب، أجابه عليه السلام بعد تسليم الشركة في كونهما من بني عبدمناف بالفرق والشرافة والرجحان من وجوه خمسة:

ولا المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللّصيق ولا المحقّ كالمبطل ولا المؤمن كالمدخل ولبئس اللف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنّم

الأوّل: من جهة الآباء، فإنّ آباءه عليه السلام أبو طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أُميّة بن عبد مناف، فظاهر أنّ كلّ واحد من أُولئك الثلاثة أشرف من هؤلاء.

وأشار إلى الثاني والثالث بقوله: [**ولا المهاجر كالطليق**] لشرفه بهجرته مع النبي صلى الله عليه وآله وخسّة خصمه من حيث كونه طليقاً ابن طليق والطليق: الأسير الذي أُطلق من أسره وخلّي سبيله.

وقوله: [**ولا الصريح**] أي: الخالص النسب [**كاللّصيق**] وهو الدّعي الملصق بغير أبيه.

وأشار إلى الرابع بقوله: [**ولا المحقّ كالمبطل**].

وإلى الخامس بقوله: [**ولا المؤمن كالمدخل**] وهو الذي اشتمل باطنه على فساد، كنافق ونحوه، وبدأ عليه السلام بذكر الكمالات والرذائل الخارجية لكونها ظاهرة مسلّمة عند الخصم من الأُمور الداخلة ثمّ لمّا ذكر الرذائل المتعلّقه بخصمه أشار إلى كونه في رذائله ونقايصه خلفاً لسلف هو، أي: في جهنّم، ثمّ رتّب ذمّه على ذلك فقال:

[**ولبئس اللف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنّم**] ولا ريب انّ من تبع سلفه في رذائله ومعاصيه هوى في جهنّم وكانت له بئس الورد المورود.

ثمّ أجاب عليه السلام عن دعوى معاوية المساواة في الفضل إلا فضلاً لا يستذلّ به عزيز بقوله:

وفي أيدينا بعد فضل النبوّة التي أذللنا بها العزيز ونعشنا بها الذليل ولمّا أدخل اللّه العرب في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأُمّة طوعاً وكرهاً كنتم ممّن دخل في الدّين إمّا رغبة وإمّا رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم وذهب المهاجرون الأوّلون بفضلهم فلا تجعلنّ للشيطان فيك نصيباً

[وفي أيدينا بعد فضل النبوّة التي أذللنا بها العزيز ونعشنا بها الذليل] أي: إذا فرضنا تساوي الاقدام في مآثر أسلافنا وأسلافكم كان في أيدينا بعد الفضل عليكم النبوّة التي نعشنا بها الخامل وأخملنا بها النبيه وأذللنا بها العزيز واسترقنا به الأحرار، ولا ريب انّ هذا الفضل سلب عن بني أمية وغيرهم فبان كذب دعوى الخصم، ثمّ أردف هذه الفضيلة بذكر رذيلة لخصمه فقال:

[ولمّا أدخل اللّه العرب في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأُمّة طوعاً وكرهاً كنتم ممّن دخل في الدّين] لا للّه بل **[إمّا رغبة]** وطمعاً في المنافع التي وجدتموها في الإسلام **[وإمّا رهبة]** وخوفاً من القتل والأسر وأخذ الأموال.

[على حين فاز أهل السبق بسبقهم] إلى اللّه **[وذهب المهاجرون الأوّلون بفضلهم]** أي: ظفروا بما حصلوا عليه من الفضائل الجميلة والفواضل الجزيله، ثمّ لما أظهر هذه الفروق من فضائله ورذائل خصمه نهاه عن أمرين: أحدهما قوله: **[فلا تجعلنّ للشيطان فيك نصيباً]** وهو كناية عن اتباع الهوى، وقيل أي: لا تستلزم من أفعالك ما يدوم به كون الشيطان ضارباً فيك بنصيب إذ لم يكتب عليه السلام ذلك إلا بعد أن صار للشيطان فيه أوفر نصيب وإنّما المراد نهيه عن دوام ذلك واستمراره.

إلى عبدالله بن عباس وهو عامله على البصرة واعلم أنّ البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى عبدالله بن عباس وهو عامله على البصرة] وسببه ما روي أنّ ابن عبّاس حين ولّي البصرة أضرّ ببني تميم لما عرفهم به من العداوة يوم الجمل وأقصاهم وتنكّر عليهم حتّى كان يسمّيهم شيعة الجمل وأنصار عسكر وهو اسم جمل عائشة وحزب الشيطان فاشتدّ ذلك على نفر من شيعة علي من بني تميم منهم حارثة بن قدامه وغيره فكتب بذلك حارثة إلى عليّ عليه السلام يشكو إليه ابن عباس، فكتب عليه السلام إلى ابن عبّاس: أمّا بعد فإنّ خير الناس عند الله غداً أعملهم بطاعته فيما عليه وله وأقواهم بالحقّ والأمر ألا وإنّه بالحقّ قامت السموات والأرض فيما بين العباد فلتكن سريرتك فعلاً وليكن حكمك واحداً وطريقك مستقيماً.

[واعلم أنّ البصرة مهبط إبليس] أي: موضع هبوطه، قيل كنّى بذلك عن كونه مبدء للآراء الباطلة والأهواء الفاسدة الصادرة عن إبليس المستلزمة لإثارة الفتن وكثرتها لأنّ مهبط إبليس ومستقرّه محلّ ذلك.

[ومغرس الفتن] أي: موضع غرسها، واستعير المغرس لها باعتبار كونها محلاً تنشأ فيه الفتن الكثيرة كما أنّ مغرس الشجر من الأرض محلّ نشوئه ونمائه، وروي معرس الفتن بالعين المهملة: وهو الموضع الذي ينزل فيه القوم آخر الليل للاستراحة، يقال: عرسوا وأعرسوا.

فحادث أهلها بالإحسان إليهم واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم وقد بلغني تنمّرك لبني تميم وغلظتك عليهم وإنّ بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر وإنّهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام

وقوله: [**فحادث أهلها بالإحسان إليهم**] أي: تعهّدهم بالإحسان وعدهم به.

[**واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم**] استعار العقدة لما ألزمهم به من المخافة بالغلظة عليهم وكثرة الأذى ووجه الشبه كون ذلك الخوف ملازماً لهم معقوداً بقلوبهم كالعقدة للحبل ونحوه، ورشح بلفظ الحبل وكنّى به عن إزالة الخوف والغرض من ذلك أن لا تنفر قلوبهم منه وتثور أحقادهم فيعاودوا الخروج عن طاعته.

[**وقد بلغني تنمّرك لبني تميم**] يقال: تنمّر للقوم أي: أغلظ عليهم وعاملهم بأخلاق النمر من الجرأة والوثوب.

[**وغلظتك عليهم وإنّ بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر**] أي: لم يمت لهم سيّد إلا قام آخر مقامه، واستعار النجم للرئيس والسيّد لأنّ سيدّ الجماعة وكبيرهم قدوة يهتدون به ويقتدون بآرائه في الطرق المصلحة كما يهتدى بالنجم. قال تعالى: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ ورشح بذكر المغيب والطلوع.

[**وإنّهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام**] والوغم: التره، والأوغام: الترات، أي: لم يهدر لهم دم في جاهلية ولا إسلام، وذلك دليل شجاعتهم وحميتهم.

وإنّ لهم بنا رحماً ماسّة وقرابة خاصّة نحن مأجورون على صلتها ومازورون على قطيعتها فاربع أبا العباس رحمك اللّه فيما جرى على يدك ولسانك من خير وشر فإنّا شريكان في ذلك وكن عن صالح ظنّي فيك ولا يفيلن رأيي فيك

[**وإنّ لهم بنا رحماً ماسّة وقرابة خاصّة نحن مأجورون على صلتها ومازورون**] أصله موزور من الوزر وهو العقاب وقلب الفاء ليجانس قوله مأجورون أيك نؤثم [**على قطيعتها**] قيل: تلك القرابة اتصالهم بالياس بن مضر لأنّ هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وتميم بن مراد بن طايحة بن إلياس بن مضر.

[**فاربع أبا العباس رحمك اللّه فيما جرى على يدك ولسانك من خير وشر**] أي: قف وتثبّت في جميع ما تعتمده قولاً وفعلاً من خير ومن شر، ولا تعجل به؛ لأنّ التثبّت في الأُمور أولى بإصابة وجه المصلحة، وأراد بالشرّ ما يجريه على الرعية من عقوبة فعليّة أو قوليّة.

[**فإنّا شريكان في ذلك**] لأنّه لمّا كان والياً من قبله فكلّ حسنة أو سيّئة يحدثها في ولايته فله ﷺ شركة في إحداثها إذ هو من جملة الأسباب وإن كان بعيداً، وابو العباس كنية عبداللّه بن العباس.

[**وكن عن صالح ظنّي فيك**] أي: كنّ واقفاً عنده كأنّك تشاهده فتمنعك مشاهدته عن فعل ما لا يجوز.

[**ولا يفيلن رأيي فيك**] اي: لا يضعفن أي: لا تكشف عن ضعف ذلك

والسلام.

إلى بعض عمّاله: أمّا بعد فإنّ دهاقين أهل بلدك شكوا منك قسوةً وغلظة واحتقاراً وجفوة فنظرتُ فلم أرهم أهلاً لأن يدنوا لشركهم ولا أن يقصوا ويحفوا لعهدهم

الرأي الذي رأيته فيك واستصلحتك للولاية بعدم المطابقة بسوء صنيعك فتبيّن أنّ رأيي فيك كان ضعيفاً، يقال الرأي يفيل أي: ضعف وأخطأ. **[والسلام]**.

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى بعض عمّاله: أمّا بعد فإنّ دهاقين أهل بلدك شكوا منك قسوةً وغلظة واحتقاراً وجفوة] الدهاقين: أرباب الأملاك بالسواد، جمع دهقان بكسر الدال فارسيّ معرّب، أي: رئيس القرية وهو منصرف إن كانت نونه أصلية، وإلا فغير منصرف للوصف وزيادة الألف والنون، والقسوة: غلظة القلب وشدّته.

[فنظرتُ فلم أرهم أهلاً لأن يدنوا لشركهم ولا أن يقصوا] أي: يبعدوا **[ويحفوا]** ولا يبروا **[لعهدهم]** أي: إنّي بعد ما تأمّلت في أمرهم وتفكّرت في حالهم لم أرهم أهلاً للادناء الخالص وقرب المنزلة لكونهم مشركين لما روي أنّ هؤلاء كانوا مجوساً ولا إقصائهم وإبعادهم لكونهم معاهدين ولهم ذمّة فإدنائهم وإكرامهم خالصاً نقص في الدّين وإقصائهم بالكلّية ينافي

فالبس لهم جلباباً من اللّين تشوبه بطرف من الشدّة وداول لهم بين القسوة والرأفة وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء.

إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبداللّه بن العباس على البصرة وعبداللّه عامل له يومئذ عليه أو على كور الأهواز وفارس وكرمان

كونهم معاهدين.

[**فالبس لهم جلباباً من اللّين تشوبه**] أي: تمزجه وتخلطه [**بطرف من الشدّة**] كلّ منهما في موضعه ومحلّه [**وداول لهم**] أي: مرّة هكذا ومرّة هكذا [**بين القسوة والرأفة وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء**] أمره عليه السلام أن يسلك بهم مسلكاً عدلاً متوسّطاً، لا يدنيهم كلّ الدنو ولا يبعّدهم كلّ البعد، ويمزج بين القسوة والرأفة واللّين والشدة لما في اللّين والرأفة والتقريب من استقرار قلوبهم في أعمالهم وزراعاتهم التي بها صلاح دنياهم ولما في مزجها بالشدّة والقسوة والإبعاد من كسر عاديتهم ودفع شرورهم وإهانتهم في الدّين، واستعار الجلباب لما أمره بالاتصاف به من تلك الهيئة المتوسّطة ورشح بذكر اللبس.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبداللّه بن العباس على البصرة وعبداللّه عامل له يومئذ عليه أو على كور الأهواز وفارس وكرمان**] وهو زياد بن سمية دعي أبي سفيان قيل أوّل من دعاه بن أبيه عائشة حين سألت عنه

وإنّي أُقسم باللّه قسماً صادقاً لئن بلغني أنّك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدنّ ـ أي لأحملنّ ـ عليك شدّة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر والسلام

وكان كاتبه المغيرة بن شعبة ثمّ كتب لأبي موسى ثمّ كتب لابن عامر ثمّ كتب لابن عباس وكان مع عليّ عليه السلام فولاّه فارس فكتب إليه معاوية يهدّده فكتب إليه أتتوعّدني وبني وبينك بن أبي طالب أما واللّه لئن وصلت إليّ لتجدني أحمر ضرّاباً بالسيف ثمّ ادّعاه معاوية أخاً له وولاّه بعد علي البصرة وأعمالها، وجمع له بعد المغيرة بن أبي شعبة العراقين وكان أول من جمعا له وصورة ما كتبه عليه السلام إليه هذه:

[**وإنّي أُقسم باللّه قسماً صادقاً لئن بلغني أنّك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدنّ ـ أي لأحملنّ ـ عليك شدّة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر. والسلام**] وحاصله تحذيره من خيانة ما يليه من أموال المسلمين وعيده بالعقوبة إن صدر منه ذلك، وكنّى عن العقوبة بالشدّة ووصف شدّة تلك الشدّة بنقصان ماله بقوله «قليل الوفر» أي: أُفقرك بأخذ ما عندك، ونقصان جاهه بقوله «ضئيل الأمر» أي: حقيراً لأنّك إنّما كنت عزيزاً عند الناس بالغنى والثورة، فإذا افتقرت صغرت عندهم، وفي هذين سلب الكمال الدنيوي ونبّه على الثالث الذي فيه سلب الكمال الأُخروي بقوله: «ثقيل الظهر» اي: بالأوزار، وقيل: كنّى بثقل الظهر عن كونه مسكيناً لا يقدر على مؤنة عياله وعن ضعفه وعدم نهوضه بما يحتاج إليه ويهمّه، أي: ضعيف الحركة في الأمور.

إليه إيضاً: فدع الإسراف مقتصداً واذكر في اليوم غداً وامسك من المال بقدر ضرورتك وقدّم الفضل ليوم حاجتك أترجو أن يؤتيك اللّه ثواب المتواضعين وأنت عنده من المتكبّرين وتطمع وأنت متمرّغ في النعيم تمنعه الضعيف

ومن كتاب له عليه السلام

[**إليه إيضاً: فدع الإسراف**] وهو التبذير في الإنفاق حال كونك [**مقتصداً**] أي: متوسّطاً بينه وبين الاقتار، قال تعالى: ﴿والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

[**واذكر في اليوم غداً**] أي: تذكّر في حاضر أوقاتك مستقبلها من يوم القيامة فإنّ فيه زجراً للنفس عن الإسراف في الدنيا والاشتغال بها.

[**وامسك من المال بقدر ضرورتك**] وهو تفسير الاقتصاد المأمور به.

[**وقدّم الفضل ليوم حاجتك**] وهو يوم القيامة وما بعده الموت، أي: انفق الزائد على القدر الضروري في سبيل اللّه واجعله ذخراً لك يوم الحاجة.

وقوله: [**أترجو أن يؤتيك اللّه ثواب المتواضعين وأنت عنده من المتكبّرين**] استفهام إنكاري وتنبيه على أنّ ثواب كلّ فضيلة إنّما ينال باكتسابها وكذا قوله:

[**وتطمع وأنت متمرّغ**] أي: متقلّب [**في النعيم**] **تمنعه الضعيف**

والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدّقين، وإنّما المرء مجزي بما أسلف وقادم على ما قدّم، والسلام.

إلى عبدالله بن عباس وكان عبدالله يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام: أمّا بعد فإنّ المرء قد يسرّه درك مالم يكن ليفوته ويسوئه مالم يكن ليدركه فليكن سرورك بما نلت من آخرتك وليكن أسفك على ما فاتك منها وما نلت من دنياك فلا تكثر به فرطاً وما فاتك منها فلا تاس عليه جزعاً وليكن همّك فيما بعد الموت

والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدّقين، وإنّما المرء مجزي بما أسلف وقادم على ما قدّم] فإنّ ثواب كلّ حسنة بقدرها ومن لوازمها وجزاء كلّ سيّئة بحسبها وم لوازمها. [والسلام].

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى عبدالله بن عباس وكان عبدالله يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام: أمّا بعد فإنّ المرء قد يسرّه درك مالم يكن ليفوته ويسوئه مالم يكن ليدركه فليكن سرورك بما نلت من آخرتك وليكن أسفك على ما فاتك منها وما نلت من دنياك فلا تكثر به فرطاً وما فاتك منها فلا تاس عليه جزعاً وليكن همّك فيما بعد الموت] حاصل كلامه عليه السلام النهي عن شدّة الفرح بما يحصل من المطالب الدنيوية وشدّة الأسف على ما يفوت منها وبيان ما ينبغي للإنسان أن يسرّ بحصوله ويأسف

ومحمّداً صلّى اللّه عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته أقيموا هذين العمودين

لفقده مما لا ينبغي له، فأشار إلى الأوّل بقوله: «فإنّ المرء» إلى قوله «فيدركه» وهو خبر في معنى النهي، وإنّ كلّ شيء يصيب الإنسان في الدنيا من نفع وضرّ فبقضاء من اللّه تعالى وقدر، ولكن النّاس غافلون عن ذلك فيسرّ الإنسان بما يصيبه من النفع ويساء بفوت ما يفوته منه، ولو علم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطيه وما أخطائه لم يكن ليصيبه لم يفرح ولم يحزن والذي ينبغي أن يسرّ به ما ناله من الآخرة والذي ينبغي أن يأسف عليه مالم ينله منها، والمراد بما ناله من الآخرة الكمالات النفسانية من العلوم والأخلاق الفاضلة التي تكتسب في الدنيا أو المراد أسباب الآخرة من الطاعات والمبرّات.

ومن كلام له عليه السلام

قاله قبل موته لمّا ضربه ابن ملجم لعنه اللّه:

وصيّتي لكم أن لا تشركوا باللّه شيئاً] وهو أوّل المطالب المهمّة في الشريعة، ولذا قال تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾ ويمكن أن يريد الشرك الخفي والجلي [**ومحمّداً صلّى اللّه عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته**] فيجب عليكم اتّباع كلّ ما جاء به، ومن جملة ما جاء الأخذ بكتاب اللّه والمحافظة عليه. ومن المعلوم أنّ إقامة هذين الأمرين فيهما صلاح الدنيا والآخرة، ولذا قال: [**أقيموا هذين العمودين**] استعار العمودين لهما ملاحظة لشبههما بعمودي البيت في كونهما سببين لقيام الإسلام وعليهما مداره كماأنّ مدار البيت على عمده.

وخلاكم ذمّ أنا بالأمس صاحبكم واليوم عبرة لكم وغداً مفارقكم إن أبق فأنا وليّ دمي فالعفو لي قربة وهو لكم حسنة فاعفوا ألا تحبّون أن يغفر اللّه لكم

وقوله: [**وخلاكم ذمّ**] كالمثل يقال: افعل كذا وخلاك ذمّ أي: قد أعذرت وسقط عنك الذمّ، ثمّ نعى نفسه عليه السلام إليهم وأشار إلى وجه العبرة بحاله بذكر تنقّل أحواله وتغيّرها في الأزمان الثلاثة، ففي الماضي قوله: [**أنا بالأمس صاحبكم**] الذي تعرفونه بالقوّة والشجاعة وقهر الأعداء وكان عليه مدار أُمور الدنيا والدّين وفي الحال قوله: [**واليوم عبرة لكم**] أي: محلّ عبرة أو معتبراً وفي المستقبل قوله: [**وغداً مفارقكم**] ومنتقل من داركم إلى الدار الآخرة ومن مجاورتكم إلى مجاورة غيركم، ثمّ أردف ذلك ببيان أمره مع قاتله فقال: [**إن أبق**] حيّاً [**فأنا وليّ دمي**] وإن شئت أقمت القصاص وإن شئت عفوت.

[**فالعفو لي قربة**] إلى اللّه تعالى [**وهو لكم**] إن عفوتم [**حسنة فاعفوا ألا تحبّون أن يغفر اللّه لكم**] إذ هو أولى بالعفو منكم فإذا عفوتم عمّن أساء إليكم عفى عن إساءتكم، قيل: ويشبه أن يكون في الكلام تقديم وتأخير والتقدير فإن أبق فأنا وليّ دمي، وروي أولى بدمهي، فإن شئت أقمت القصاص وإن شئت عفوت فإن أعفُ فالعفو لي قربة، وإن أفن فالفناء ميعادي فإن شئتم فاقتلوا قاتلي وإن شئتم أن تعفوا فالعفو لم حسنة، فاعفوا لكنّه ذكر قسمي بقائه وفنائه ثمّ عقّبهما بذكر حكمهما مقترنين، واقتبس الآية في معرض الندب إلى العفو ترغيباً فيه ثمّ قال:

والله ما فجئني من الموت وأرد كرهته ولا طالع أنكرته وما كنت إلا كقارب ورد وطالب وجد وما عند الله خيرٌ للأبرار

[**والله ما فجئني من الموت وأرد كرهته**] يقال: فجئه الأمر أي: أتاه بغتة.

[**ولا طالع أنكرته وما كنت إلا كقارب ورد**] والقارب: طالب الماء، وقيل: هو الذي يكون بينه وبين الماء ليلة، شبّه نفسه ﷺ في هجوم الموت عليه ووصوله بسببه إلى ما أُعدّ له من الخيرات الباقية بالقارب الذي ورد الماء، ووجه الشبه استقرابه لتلك الخيرات ووثوقه بها واستشهاده له بسببها آفات الدنيا وشدائد الموت كما يستسهل القارب عند وروده الماء ما كان يجده من شدّة العطش وتعب الطريق، وفيه إيماء إلى تشبيه تلك الخيرات بالماء الذي منه حياة كلّ شيء.

وقوله: [**وطالب وجد**] تشبيه لنفسه بالطالب الواجد لما يطلبه فتقرّ عينه بالظفر بمطلوبه.

وقوله: [**وما عند الله خيرٌ للأبرار**] اقتباس من القرآن الكريم مشعر بأنّ مطلوبه في الدنيا لم يكن إلا ما عند الله الذي هو خير لأوليائه الأبرار من كلّ مطلوب يُطلب.

هذا ما أمر به عبدالله علي بن أبي طالب عليه السلام في ماله ابتغاء وجه الله ليولجني به الجنّة ويعطيني به الأُمنية وإنّه يقوم بذلك الحسن بن علي يأكل منه بالمعروف وينفق منه بالمعروف فإن حدث بحسن حادث وحسين حيّ قام بالأمر بعده وأصدره مصدره وإن لابني فاطمة من صدقة عليّ مثل الذي لبني علي

ومن وصيّة له عليه السلام

بما يعمل في أمواله كتبها بعد منصرفه من صفّين:

[**هذا ما أمر به عبدالله علي بن أبي طالب عليه السلام في ماله ابتغاء وجه الله ليولجني به الجنّة ويعطيني به الأُمنية**] أي: الأمن من النار، وفيه دلالة على صحّة العبادة إذا قُصد بها الثواب والخلاص من العقاب كما عليه جمهور الأصحاب.

ومنها

[**وإنّه يقوم بذلك الحسن بن علي يأكل منه بالمعروف وينفق منه بالمعروف فإن حدث بحسن حادث وحسين حيّ قام بالأمر بعده وأصدره مصدره**] جعل للحسن ابنه عليه السلام ولاية صدقات أمواله وأذن له أن يأكل بالمعروف منه، أي: لا يسرف وإنّما يتناول منه مقدار الحاجة، ثمّ الولاية للحسين بعد الحسن عليه السلام، والهاء في مصدره ترجع إلى الأمر بصرفه في مصارفه التي كان الحسن عليه السلام يصرفه فيها.

[**وإن لابني فاطمة من صدقة عليّ مثل الذي لبني علي**] أي: إنّ لهما

وإنّما جعلت القيام بذلك إلى بني فاطمة ابتغاء وجه اللّه وقربة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وتكريماً لحرمته وتشريفاً لوصلته ويشترط على الذي يجعله إليه أن يترك المال على أُصوله وينفق من ثمره

حصّة من صدقاته أُسوة بسائر النبيين، وإنّماقال ذلك لئلا يتوهّم متوهّم أنّ الصدقات إنّمايتناولها غيرهما من بني علي عليه السلام ممّن لا ولاية له مع وجودهما، ثمّ أشار إلى سبب تخصيصهما بالولاية بقوله:

[وإنّما جعلت القيام بذلك إلى بني فاطمة ابتغاء وجه اللّه وقربة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وتكريماً لحرمته وتشريفاً لوصلته] لشرفهما برسول اللّه صلى الله عليه وآله فتقرّبت إليه بجعل ولاية هذا الأمر سبطيه.

قال ابن أبي الحديد: وفي هذا رمز وإزراء بمن صرف الأمر عن أهل بيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله مع وجود من يصلح للأمر أي: كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرياسة بعده لأهله قربة إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وتكريماً لحرمته وطاعةً له وأنفة لقدره صلى الله عليه وآله أن تكون ذرّيته سوقة تليهم الأجانب ومن ليس من شجرته وأصله، ألا ترى أنّ هيبة الرسالة والنبوّة في صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوّة وليس مثل هذه الهيبة والجلا في نفوس الناس ـــــــ إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوة.

[ويشترط على الذي يجعله إليه] وهو الذي يلي هذه الأموال **[أن يترك المال على أُصوله وينفق من ثمره]** فلا يقطع النخل والثمر ويبيعه خشباً وعيدان فيفضي الأمر إلى خراب الضياع وعقله العقار وينفق من ثمره.

حيث أمر به وهدي له وأن لا يبع من أولاد نخيل هذه القرى وديّة حتّى تُشْكل أرضها غِراَساً ومن كان من امائي التي أطوف عليهنّ لها ولداً وهي حامل فتمسّك على ولدها وهي من حضّه فإن مات ولدها وهي حيّة فهي عتيقة قد أفرج عنها الرق وحرّرها العتق

[**حيث أمر به وهدي له**] من المصرف والإنفاق [**وأن لا يبع من أولاد نخيل هذه القرى وديّة حتّى تُشْكل أرضها غِراَساً**] والمراد بأولاد النخيل الفسلان الصغار سمّاها أولاداً وليس في بعض النسخ لفظ الأولاد والوديّة الفسيلة واحدة الفسلان وتشكّل أرضها تمتلي بالغراس حتّى لا يبقى فيها طريق واضحة، والحكمة في النهي عن بيع الفسيل قبل إشكال الأرض غراساً أنّه محتاج إليه إذ ربّما مات فيها ما يحتاج إلى إخلاف فينبغي أن لا يباع من فسيلها شيء حتّى يكمل غراسها وينبت بحيث لا يحتاج إلى شيء وإنّ النخلة قبل أن تعلق لم يستحكم جذعها فيضربها قلع فسيلها.

[**ومن كان من امائي التي أطوف عليهنّ لها ولداً وهي حامل فتمسّك على ولدها وهي من حضّه**] أيك تلزمه ويحسب ثمنها من حقّه وتنعتق عليه وكنّى بالطواف عليهنّ عن نكاحهنّ.

[**فإن مات ولدها وهي حيّة فهي عتيقة**] لا سبيل لأحد عليها [**قد أفرج عنها الرق وحرّرها العتق**]، قال السيّد «ره»: قوله في هذه الوصيّة «أن لا يبيع من نخلها وديّة» فإنّ الودية الفسيلة وجمعها ودي، وقوله عليه السلام: «حتّى تشكل أرضها غراساً» فهو من أفصح الكلام، والمراد به أنّ الأرض يكثر فيها غراس النخل حتّى يراها الناظر على غير الصفة التي عرفها بها فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها.

انطلق على تقوى اللّه وحده لا شريك له ولا تروّعنّ مسلماً كارهاً ولا تأخذنّ منه أكثر من حقّ اللّه تعالى في ماله وإذا قدمت على الحيّ فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم

ومن وصيّة له عليه السلام

كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات وإنّما ذكرنا منها جملاً ههنا ليعلم بها أنّه عليه السلام كان يقيم عماد الحقّ ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها ودقيقها وجليلها.

[**انطلق على تقوى اللّه وحده لا شريك له**] أي: معتمداً عليها، غير مشرك في تقواه غيره ولا موجّه نيّتك في الانطلاق إلى سواه لأنّ حركته هذه حركة دينية وعبادة شرعية يجب الإخلاص فيه.

[**ولا تروّعنّ مسلماً**] أي: لا تفزعنّ مسلماً كما هو عادة الولاة الظالمين [ولا تحتازنّ شيئاً من إبله أو ماشيته حال كون المالك [**كارهاً**] لاختياره وروي لا تجتازنّ بالجيم، أي: لا تمرنّ على بيوت أحد من المسلمين يكره مرورك بها.

[**ولا تأخذنّ منه أكثر من حقّ اللّه تعالى في ماله**] كما سيأتي توضيح ذلك في كلامه عليه السلام في كيفية القسمة.

[**وإذا قدمت على الحيّ فأنزل بمائهم**] حيث أنّ عادة العرب أن تكون مياههم بارزة عن بيوتهم.

[**من غير أن تخالط أبياتهم**] لما في ذلك من المشقّة عليهم والتكلّف له.

ثمّ امض إليهم بالسكينة والقوار حتّى تقوم بينهم فتسلّم عليه ولا تخدج بالتحية لهم تقول عباد اللّه أرسلني إليك وليّ اللّه وخليفته لآخذ منكم حقّ اللّه في أموالكم، فهل في أموالكم من حقّ فتؤدّوه إلى وليّه فإن قال قائل لا فلا تراجعه وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعّده أو تعسفه أو ترهقه

[**ثمّ امض إليهم بالسكينة**] وهي: اطمئنان القلب.

[**والقوار**] وهو اطمئنان الجوارح والأعضاء.

[**حتّى تقوم بينهم فتسلّم عليه ولا تخدج بالتحية لهم**] أي: لا تنقصها، أمره عليه السلام أن يميء إليهم غير متسرّع ولا عجل ولا طايش حتّى يقوم بينهم فيسلّم عليهم ويحيّهم بتحيّة كاملة غير مخدجة أي غير ناقصة من أخدجت الناقة: إذا جائت بولدها ناقص الخلق وإن كانت أيّام تامّة.

[**تقول عباد اللّه أرسلني إليك وليّ اللّه وخليفته لآخذ منكم حقّ اللّه**] يعني الزكاة [**في أموالكم، فهل في أموالكم من حقّ فتؤدّوه إلى وليّه فإن قال قائل لا فلا تراجعه**] وانصرف؛ لأنّ القول قول ربّ المال، فلعلّه قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدّق إليه.

[**وإن أنعم لك منعم**] أي: قال: نعم.

[**فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعّده**] أي: تتوعّده من الوعيد [**أو تعسفه**] والعسف: الأخذ بشدّة على غير وجه، وقيل: أي لا تطلب من الصدقة عسفاً، واصله الأخذ والإرهاق على غير الطريق.

[**أو ترهقه**] والإرهاق تكليف العسرة والمشقّة.

فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضّة وإن كانت له ماشية وإبل فلا تدخلها دخول متسلّط عليه ولا عنيف به ولا تنفرنّ بهيمة ولا تفزعها واصدع المال صدعين ثمّ خيّره فإذا اختار فلا تعرضنّ لما اختار فلا تزال بذلك حتّى يبقى ما فيه وفاء بحقّ اللّه تعالى في ماله

[**فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضّة**] قيل: يدلّ على أنّ المصدق كان يأخذ زكاة العين والورق كما يأخذ الماشية وانّ النصاب في العين والورق يدفع زكاته إلى الإمام ونوّابه.

[**وإن كانت له ماشية**] أي: غنم وبقر. [**وإبل فلا تدخلها دخول متسلّط عليه**] كما هو شأن الولاة والظلمة، سيّما من يتولّى قبض الماشية من أربابها على وجه الصدقة فإنّهم يدخلونها دخول متسلّط حاكم قاهر ولا يبقي لربّ المال فيها تصرّف.

[**ولا عنيف به**] أي: بلا رفق معه. [**ولا تنفرنّ بهيمة ولا تفزعها**] أي: لا تخوفها [ولا تسوئن صاحبها فيهاخ بضرب ونحوه [**واصدع المال صدعين**] أي: اقسمه قسمين.

[**ثمّ خيّره**] أحد القسمين [**فإذا اختار**] أحدهما وعيّنه [**فلا تعرضنّ لما اختار**] ولا تنازعه فيه وليس له أن يستأنف فيه نظر آخر.

[**فلا تزال بذلك حتّى يبقى ما فيه وفاء بحقّ اللّه تعالى في ماله**] أي: كذلك يقسم الصدع الباقي بنصفين ولا تزال كذلك حتّى ينتهي أحد الصدعين إلى مقدار الواجب من حقّ اللّه تعالى في ذلك المال أو فوقه بقليل فيؤخذ منه مقدار الواجب أو دونه بيسير ويجعل لربّ المال اختيار أحد الصدعين.

فاقبض حقّ اللّه منه فإن استقالك فأقله ثمّ اخلطهما ثمّ اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتّى تأخذ حقّ اللّه في ماله ولا تأخذ عوراص ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عَوار ولا تأمنن عليها إلاّ من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتّى يوصله إلى وليّهم فيقسمه، ولا توكّل بها إلا ناصحاً

[**فاقبض حقّ اللّه منه فإن استقالك**] من أخذ تلك القسمة واردا القسم الآخر بعد أن اختار غيره [**فأقله**] تسكيناً لقلبه من تنقيص ماله.

[**ثمّ اخلطهما ثمّ اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتّى تأخذ حقّ اللّه في ماله ولا تأخذ عوراص**] وهي السنّ من الإبل وهو الذي جاوز في السنّ الهازل.

[**ولا هرمة**] وهي العالية السن [**ولا مكسورة**] وهي التي انكسرت إحدى قوائمها [**ولا مهلوسة**] وهي التي بها الهلاس وهو السل.

[**ولا ذات عَوار**] بفتح العين وهو العيب بكباد ونحوه ونهى عن أخذ هذه الخمسة مراعاةً لحقّ اللّه تعالى وجبراً لحال مستحقّي الزكاة وهو الأصناف الثمانيه المذكورون في القرآن. قيل: ويظهر من كلامه عليه السلام أنّه كان يأمر بإخراج كلّ واحدة من هذه الأصناف ـــــــ من المال قيل أن يصدع بعد عين.

[**ولا تأمنن عليها**] وتوكّل بحظفظها وسوقها [**إلاّ من تثق بدينه**] وأمانته واثقاً من نفسه بحفظه.

[**رافقاً بمال المسلمين حتّى يوصله إلى وليّهم فيقسمه، ولا توكّل بها إلا ناصحاً**] للّه ولرسوله صلى الله عليه وآله.

شفيقاً وأميناً حفيظاً غير معسف ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب ثمّ احدر إلينا ما اجتمع عندك نصيّره حيث أمر اللّه تعالى به فإذا أخذها أمينك فأوعر إليه أن لا يحول بين ناقة وفصيلها ولا يمصر لبنها فيضرّ ذلك بولدها ولا يجهدنّها ركوباً وليعدل بين صواحبتاتها وبينها وليرفه على اللاغب

[**شفيقاً**] على ما يقوم عليه [**وأميناً حفيظاً**] عليه [**غير معسف**] أي ذي عنف بالضمّ وهو ضدّ الرفق.

[**ولا مجحف**] وهو الذي يسوق المال سوقاً عنيفاً فيجحف به أي: يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمه.

[**ولا ملغب ولا متعب**] والملغب: المتعب، واللّغوب: الإعياء.

[**ثمّ احدر إلينا**] من حدرت السفينة احدرها بالضمّ.

[**ما اجتمع عندك**] من المال [**نصيّره حيث أمر اللّه تعالى به**] ثمّ عاد إلى الوصية بحال البهائم فقال:

[**فإذا أخذها أمينك فأوعر إليه**] أمره من أوعرت إليه بكذا أي: أمرته به. [**أن لا يحول بين ناقة وفصيلها**] حال بين الشيئين: حجز.

[**ولا يمصر لبنها**] أي: يحلبه جميعه، المصر: حلب كلّ ما في الضرع من اللّبن والتمصّر: حلب بقايا اللّبن فيه. [**فيضرّ ذلك بولدها ولا يجهدنّها ركوباً**] بأن يخصّها بالركوب دون صاحباتها؛ لأنّ ذلك ممّا يضرّها.

[**وليعدل بين صواحبتاتها وبينها**] في الركوب فإنّه يقلّ معه ضرر الركوب.

[**وليرفه على اللاغب**] الترفيه: الراحة، أي: ليتركه وليعفه عن

وليتأنّ بالنَّقب والطالع وليوردها ما تمرّ به من الغدر ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جوادّ الطرق وليروّحها في الساعات وليمهلها عند النطاف والأعشاب تّى يأتينا بها بإذن اللّه بدناً منقيات غير متعبات ولا مجهودات لنقسّمها على كتاب اللّه وسنّة نبيّه صلىّ اللّه عليه وآله

الركوب.

[**وليتأنّ**] أي: ليرفق [**بالنَّقب**] وهو البعير الذي رقّت أخفافه حتّى تكاد الأرض تجرحه.

[**والطالع**] الذي طلع أي: غمز في مشيه. [**وليوردها ما تمرّ به من الغدر**] جمع غدير: الماء.

[**ولا يعدل بها عن نبت الأرض**] أي: الكلاء [**إلى جوادّ الطرق**] حيث لا ينبت المرعى، والمراد أن يوردها ما يمرّ به من الماء ويعلفها ما يحتازه من الكلأ.

[**وليروّحها في الساعات**] أي: في ساعات الرواح، كمنتصف النهار ونحوه، ويأتي محالّ السمن والراحة كمحال الكلأ والماء، [**وليمهلها عند النطاف**] أي: لمياه القليلة [**والأعشاب**] جمع عشب وهو النبات [**تّى يأتينا بها بإذن اللّه بدناً**] أي: سماناً واحدها بادن.

[**منقيات**] وهي التي صارت من سمنها ذات نقى وهو مخّ العظم وشحم العين من السمن، وأنقت الإبل وغيرها: سمنت وصار فيها نقي وناقة منقية.

[**غير متعبات ولا مجهودات لنقسّمها على كتاب اللّه وسنّة نبيّه صلىّ اللّه عليه وآله**] دفعاً لما يتوهّم من أنّ هذه المبالغة في الوصيّة لغرض

فـإنّ ذلك أعظم لأجـرك وأقـرب لرشـدك إن شـاء اللّه إلى بعض عمّاله وقد بعثه على الصدقة أمره بتقوى اللّه في سرائر أُموره وخفيّات أعـماله حيث لا شهيد غـيره ولا وكـيل دونه وأمره أن لا يعـمل بشيء من طاعة اللّه فيماظهر فيخالف إلى غيره فيما أسرّ

يعود إلى نفسه عليه السلام.

[**فإنّ ذلك أعظم لأجرك وأقـرب لرشدك إن شاء اللّه**] ترغيب له فـيما أوصاه بكونه أعظم لأجره عند اللّه لما فيه من الجهد والمشقّة المستلزمة لأكثرية الثواب وأقرب لهداه ورشده إلى طريق اللّه لأنّه مأخوذ من معدن الوحي.

ومن عهد له عليه السلام

[**إلى بعض عمّاله وقـد بعثه على الصـدقة أمره بتقوى اللّه**] التي هي الأصل في كلّ باب [**في سرائر أُموره وخفيّات أعماله**] إذ هي التقوى الحقّة الخالصة المنتفع بها، وأشار إلى موضع الاسرار والاخفاء بقوله: [**حيث لا شهيد غيره ولا وكيل دونه**] لأنّه العالم بالسرائر المحيط بالضمائر ﴿لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء﴾ ﴿إنّه على كلّ شيء شهيد﴾ ﴿قد أحاط بكلّ شيء قدرةً وعلماً﴾ ﴿وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ أو المراد حيث لا شهيد ولا وكيل دونه في القيامة.

[**وأمره أن لا يعمل بشيء من طاعة اللّه فيماظهر فيخالف إلى غيره فيما أسرّ**] أي: لا ينافق فيعمل الطاعة في الظاهر والمعصية في الباطن بل يخلص أعماله وطاعاته من الرياء والسمعة، ولذا قال:

ومن لم تختلف سرّه وعلانيّته وفعله ومقالته فقد أدّى الأمانة وأخلص العبادة وأمره أن لا يجبههم ولا يَعْضَضَهُم ولا يرغب عنهم تفضيلاً بالإمارة لنفسه فإنّهم الاخوان في الدّين والأعوان على استخراج الحقوق

[**ومن لم تختلف سرّه وعلانيّته وفعله ومقالته فقد أدّى الأمانة**] التي كلّفها اللّه العباد المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان﴾.

[**وأخلص العبادة**] وصار من العباد المخلصين الذين أثنى اللّه عليهم في القرآن العظيم والفرقان الحكيم.

[**وأمره أن لا يجبههم**] يقال: جبهته بالمكروه إذا استقبلته به أي: لا يواجههم بما يكرهونه، وأصل الجبه لقاء الجبهة أو ضربها، ولمّا كان المواجه غيره بالكلام القبيح كالضارب جبهته به سمّي بذلك جبهاً.

[**ولا يَعْضَضَهُم**] أي: لا يرميهم بالتهاون والكذب وهي العضهة وعضهت فلاناً عضهاً.

[**ولا يرغب عنهم**] أي: لا ينقبض ولا يترفّع عليهم ولا يحقّرهم. [**تفضيلاً**] لنفسه [**بالإمارة لنفسه**] ونصب تضيلاً على المفعول له، يقال: فلان يرغب عن القوم أي: يأنف من الائتمار عليهم أو مخالطتهم.

ثمّ أشار إلى العلّة والحجّة بقوله: [**فإنّهم الاخوان في الدّين**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّما المومنون إخوة﴾.

[**والأعوان على استخراج الحقوق**] لأنّ الحقّ إنّما يمكن للعامل استيفائه بمعاونة ربّ المال واعترافه به ودفعه إليه، فإذا كان بهذه الصفة فلا

فإنّ لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقّاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة وإنّا موفوك حقّاك فوفّهم حقوقهم وإلا تفعل فإنّك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة وبؤساً لمن خصمه عند اللّه الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل

يسوغ جبههم وادّعاء الفضل عليهم؛ لأنّ ذلك مما ينفر طباعهم ويشتّت نظامهم فتنسدّ أبواب الصدقات والمبرّات.

وقوله: [**فإنّ لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقّاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة**] إشارة إلى الحجّة على وجوب توفيته المستحقّين للصدقة حقوقهم بأنّ من كان له نصيب مفروض وحقّ معلوم في شيء وله شركاء فيه متّصفون بالفقر والمسكنة وهو مستوف لحقّه منه فواجب عليه أن يوفي شركائه حقوقهم، ولذا قال:

[**وإنّا موفوك حقّاك فوفّهم حقوقهم وإلا تفعل فإنّك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة**] قيل: وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام فوّضه في صرف الصدقة إلى الأصناف المعلومة ولم يأمره أن يحمل ما اجتمع إليه كما في الوصية الأُولى، ويجوز للإمام أن يتولّ ذلك بنفسه وأن يكله إلى من يثقّ به من عمّاله [**وبؤساً**] والبؤس: الشدّة.

[**لمن خصمه عند اللّه الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل**] وكلّ من كان خصومه أكثر وهم الأصناف المذكورة فبؤساً له عند اللّه، وانتصب بؤساً على المصدر، وهو في معرض التهديد والتنفير له عن ظلمهم والاستبداد عليهم بشيء من الصدقة والأصناف في القرآن ثمانية.

ومن استهان بالأمانة ووقع في الخيانة لم ينزه نفسه عليه السلام ودينه عنها فقد أحلّ بنفسه الذلّ والخزي في الدنيا وهو في الآخرة أذلّ وأخزى وإنّ أعظم الخيانة خيانة الأُمّة وأفضع الغشّ غشّ الأئمة والسلام.

وفي كلامه عليه السلام خمسة، ولعلّه عليه السلام أراد بالمدفوعين العاملين عليها باعتبار أنّهم يدفعون لجباية الصدقات أو لأنّهم إذا أتوا إلى من لا زكاة ليه فسألوه هل عليه زكاة أم لا دفعهم عن نفسه، وذكرهم بهذا الوصف لكونه عليه السلام وصف ذلّ وانقهار.

وكلامه عليه السلام في معرض الشفقة والترحّم عليهم وقيل أراد بهم السائلين لكونهم يدفعون عند السؤال، ولعلّ اقتصاره عليه السلام على الخمسة والأربعة لكونهم أضعف حالاً من الباقين.

وقوله: [**ومن استهان بالأمانة ووقع في الخيانة لم ينزه نفسه عليه السلام ودينه عنها فقد أحلّ بنفسه الذلّ والخزي في الدنيا وهو في الآخرة أذلّ وأخزى**] تهديد ووعيد على الخيانة في حقوق المستحقّين.

ثمّ نبّه عليه السلام على عظم الخيانة هنا إذ كانت كلّية عامّة الضرر بقوله:

[**وإنّ أعظم الخيانة خيانة الأُمّة**] حيث انّ ضررها هاهنا يعمّ أكثر المسلمين. [**وأفضع الغشّ**] أي: أشدّه [**غشّ الأئمة**] الذين هم أفضل الناس وأولاهم بالنصيحة، وإذا كان مطلق الخيانة ولو في حقّ أذلّ الخلق وأحقر الأشياء توجب الذلّ والخزي في الدنيا والعقبى فبالأولى مثل هذه الخيانة. [**والسلام**].

فـاخـفض لهم جناحك وألن لهم جـانبك وأبسط لهم وجـهك وواس بينهم في اللحظة والنظرة حتّى لا يطمع العظماء في حيفك

ومن عهد له عليه السلام

إلى محمد بن أبي بكر رضي اللّه عنه لمّا ولاّه مصر وقد مرّ حال محمد واختصاصه بأمير المؤمنين عليه السلام:

[**فاخفض لهم جناحك**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾ وكنّى به عن التواضع الكائن عن الرحمة والشفقة، وأصله أنّ الطائر يمدّ جناحيها ويخفضهما ليجمع فراخه تحتهما للشفقة عليهما.

[**وألن لهم جانبك**] كنّى عن الرفق بهم في الأقوال والأفعال وعدم الغلظة عليهم والجفوة لهم في جميع الأحوال، قال اللّه تعالى: ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾.

[**وأبسط لهم وجهك**] كناية عن لقائهم بالبشاشة وبشرى الوجه وطلاقه: المحيا من غير تقطّب وعبوس وهو كالسابق من لوازم التواضع.

[**وواس بينهم في اللحظة والنظرة**] أي: اجعلهم متساوين فيهما ولا تفضّل بعضهم على بعض فيهما، واللّحظة أخفّ من النظرة، والغرض من ذلك التنبّه على وجوب العدل والمواساة بين الرعية في جليل الأُمور وحقيرها وقليلها وكثيرها.

[**حتّى لا يطمع العظماء في حيفك**] أي: جودك لهم، قيل: الضمير

ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم فإنّ اللّه يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة والظاهرة والمستورة فإن يعذّب فأنتم أظلم وإن يعف فهو أكرم

راجع إلى الرعية لا إلى العظماء، وقد سبق ذكرهم في أوّل الخطبة، أي: إذا سلكت هذا المسلك لم يطمع العظماء في أن تحيف الرعية وتظلمهم وتدفع أموالهم إليهم، فإنّ ولاة الجور هكذا يفعلون يأخذون مال هذا فيعطونه هذا، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى العظماء، أي: حتّى لا يطمع العظماء في جورك في القسمة الذي إنّما تفعله لهم ولأجلهم.

[**ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم**] وإنّما خصّ العظماء بالطمع في الحيف والضعفاء باليأس من العدل؛ لأنّ العادة أنّ الولاة والأمراء إنّما يخصّصون بالنظر والإقبال بالبشاشة الأغنياء والعظماء دون الضعفاء وذلك التخصيص مستلزم لطمعهم أن يحاف لهم، والإعراض عن الضعفاء مستلزم لليأس من العدل في حقّهم.

وقوله: [**فإنّ اللّه يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة والظاهرة والمستورة فإن يعذّب فأنتم أظلم وإن يعف فهو أكرم**] تهديد ووعيد للعباد بأنّهم يُسألون عن الصغير من أعمالهم والكبير والجليل والحقير والسرّ والعلن، وإعلام بأنّهم مظنّة عذابه لبدئهم بمعصيته والبادي أظلم، ولذا قال: «فأنتم أظلم» على تقدير تسمية ما يجازيهم به من العذاب ظلماً مجازاً للمقابلة والمشاكلة كما في قوله: ﴿وجزاء سيّئة مثلها﴾ ﴿فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وقيل: أفعل التفضيل خارج عن بابه والمراد: فأنتم الظالمون كما في قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه واللّه أكبر﴾.

واعلموا عباد اللّه أنّ المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم سكنوا من الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت

ثمّ ذكر عليه السلام حال الزهّاد فقال:

[**واعلموا عباد اللّه أنّ المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة**] بل هم أكثر فائدة من أهل الدنيا إذ حصّلوا من اللّذة في دنياهم على أفضل ما جُعل لأهلها من لذّاتهم بها مع زيادة الفوز الأكبر في الآخرة بما وعد فيه المتّقون.

[**فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم**] من لذّات الدنيا المباحة لهم بقدر ضرورتهم وحاجتهم، كما روي عنه عليه السلام أنّه قال في مقام آخر: «شاركوا أهل الدنيا في دنياهم».

[**ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم**] أباحهم اللّه في الدّنيا ما كفاهم وبه أغناهم، قال اللّه عزّ اسمه: ﴿قل من حرّم زينة اللّه التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق﴾ والمراد أنّ ما قُدّر لهم في الدنيا يأتيهم لا محالة كما يأتي أهل الدنيا على وجه أشرف وأحسن كما أُشير إليه في الخبر: «أوحى اللّه إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني ونغّصي وكدّري عيش من خدمك».

ثمّ قال عليه السلام: [**سكنوا من الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت**] بلا كدر ولا تعب ولا جهد ولا حرص ولا فكر ولا همّ ولا غمّ كما هو المشاهد من حال أهل الدنيا من عدم تمكّنهم مما يأملون منها إلا بعد الجهد الجهيد والمشقّة العظيمة والهموم والغموم واضطراب الفكر والقلب وتقسّم الخاطر.

فحظوا من الدّنيا بما حظي به المترفون وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبّرون ثمّ انقلبوا عنها بالزاد المبلغ لهم والمتجر الرابح أصابوا لذّة هذه الدنيا من دنياهم

[**فحظوا من الدّنيا بما حظي به المترفون**] يقال: حظي من كذا أي: صار له منه حظوة وهي المنزلة والحظّ الوافر.

[**وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبّرون**] وذلك لأنّ كلّ ما استعملوه من الدّنيا من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومركوب إنّما استعملوه بقدر الضرورة والحاجة ولا ريب أنّ الحاجة إلى الملذ كلّما كانت أشدّ وأقوى كانت اللّذة به عند حصوله أتمّ وأعلى، مضافاً إلى خدمة الدنيا لهم راغمة بلا تعب ولا مشقّة طلب، قال تعالى: ﴿ومن كان يريد حرث الدّنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾.

وقوله عليه السلام: [**ثمّ انقلبوا عنها**] أي: عن الدنيا [**بالزاد المبلغ لهم**] إلى حضرة ذي الجلال، وهو التقوى التي اتصفوا بها وأُشير إليها بقوله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**والمتجر الرابح**] واستعار للتقوى والطاعة لفظ المتجر باعتبار كون الغاية المقصودة منها الثواب والرضوان المشبه للثمن، ورشح بذكر المربح أي: المكتسب للربح باعتبار أنّه تعالى يجازي على العمل القليل الثواب الكثير الجزيل، وفي الدعاء «يا من يعطي بالقليل الكثير».

[**أصابوا لذّة هذه الدنيا من دنياهم**] فإنّ لذّة الزهد روحانية وهي أفضل من الجسمانية فإنّ طرح الدنيا عن أعناق نفوسهم أفضل ابتهاج وأعظم لذّة ممّا فيه المترفون والمتكبّرون.

وتيقّنوا أنّهم جيران اللّه غداً في الآخرة لا تردّ لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذّة فاحذروا عباد اللّه الموت وقدومه وأعدّوا له عدّته فإنّه يأتي بأمر عظيم وخطب جليل لا يكون معه شرّ أبداً أو شرّ لا يكون معه خير أبداً فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها

[**وتيقّنوا أنّهم جيران اللّه غداً**] أي: يوم القيامة [**في الآخرة**] وهو إشارة إلى جهة فرحهم بجوار اللّه والتذاذهم به من اليقين التامّ به والوصول إلى رضوانه وثوابه، ولمّا كان الجار يلزمه إكرام جاره كنّى بذلك عن إكرام اللّه تعالى [**لا تردّ لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذّة**] مع ما شاركوا غيرهم فيه من تمام اللذّة في الدنيا وانفردوا به من تمامها.

[**فاحذروا عباد اللّه الموت وقدومه وأعدّوا له عدّته**] حذّرهم من الموت وقربه ونبّههم على الغاية من ذلك التحذير وهو أن يعدّوا له عدّته التي يلقوه بها حتّى لا يتضرّروا فيه، وهي التقوى والعمل الصالح كما مرّ، وأكّد الأمر بإعداد عدّته بالتنبيه على عظم ما يأتي به من الأمر والخطب الجليل بقوله:

[**فإنّه يأتي بأمر عظيم وخطب جليل**] خالص [**لا يكون معه شرّ أبداً أو شرّ**] خالص [**لا يكون معه خير أبداً**] إشارة إلى أنّ ذلك الأمر الذي يأتي به الموت قد يكون خيراً خالصاً وقد يكون شرّاً خالصاً لتشدّ الرغبة في الخير والرهبة من الشرّ.

ثمّ نبّه على أنّ ذلك الخير الذي يأتي به الموت هو الجنّة وذلك الشرّ هو النار وأنّ المقرّب إلى كلّ منهما هو العمل.

فقال: [**فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها ومن أقرب إلى النار من عاملها**] أي: العامل لها.

ومن أقرب إلى النار من عاملها وإنّكم طرداء الموت إن أقمتم له أخذكم وإن فررتم منه أدرككم وهو ألزم لكم من ظلّكم والموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من خلفكم واحذروا ناراً قعرها بعيد

[**وإنّكم طرداء الموت**] جمع طريد وهو ما يطرد من صيد ونحوه، استعير لهم ملاحظةً لشبههم بما يطرد من الصيد ولشبهه بالفارس المجدّ في المطلب الذي لابدّ من إدراكه لطريدته ولذا قال: [**إن أقمتم له أخذكم وإن فررتم منه أدرككم وهو ألزم لكم من ظلّكم**] لأنّ ظلّ كلّ أحد قد ينفك عنه حيث لا ضوء بخلاف الموت فإنّه أمر لازم لابدّ منه ولا محيص عنه.

[**والموت معقود بنواصيكم**] أي: مشدود مربوط بها كناية عن لزومه وكونه لابدّ منه، وخصّ الناصية لأنّها أعزّ ما في الإنسان وأشرف، واللازم لها أملك له وأقدر على ضبطه، ونحوه قوله تعالى: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾.

[**والدنيا تطوى من خلفكم**] استعار الطيّ لتقضّي أحوال الدنيا وأيّامها التي يقطعها الإنسان وقتاً فوقتاً ملاحظة لشبه أحوالها بما يطوى من بساط ونحوه، وجعل من خلفهم بالنسبة إلى ما يستقبلونه من أحوالها بوجوه هممهم ثمّ لمّا كرّر ذكر الموت وأكّد لزومه بطيّ الدنيا رجع إلى التحذير من غايته فقال:

[**واحذروا ناراً قعرها بعيد**] وفي النبوي أنّه صلى الله عليه وآله سمع هدّة، فقال لأصحابه: هذا حجر أُلقي من شفير جهنّم فهو يهوي فيها منذ تسعين خريفاً والآن حين وصل إلى قعرها، وكان ذلك إشارة إلى منافق مات في ذلك الوقت وعمره سبعون سنة.

وحرّها شديد وعذابها جديد دار ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة ولا تفرّج فيها كربة وإن استطعتم أن يشتدّ خوفكم من اللّه وأن يحسن ظنّكم به فاجمعوا بينهما

[**وحرّها شديد**] إذ وقودها الناس والحجارة، روي أنّها حجر الكبريت لأنّه أشدّ حراً وقال تعالى: ﴿نار جهنّم أشدّ حرّاً﴾.

[**وعذابها جديد**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾.

[**دار ليس فيها رحمة**] لأنّها دار عذاب ونقمة [**ولا تسمع فيها دعوة**] كما حكى اللّه عنهم من قولهم ﴿ربّنا أخرجنا منها﴾ إلى أن قال: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلّمون﴾.

[**ولا تفرّج فيها كربة**] كما قال تعالى: ﴿في عذاب جهنّم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ وقال: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربّك﴾ إلى قوله ﴿ماكثون﴾.

وقوله:

[**وإن استطعتم أن يشتدّ خوفكم من اللّه وأن يحسن ظنّكم به فاجمعوا بينهما**] إشارة إلى الجمع بين الخوف والرجاء كما روي «إنّ في قلب المؤمن نورين نور خوف ونور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا».

وفي وصيّة لقمان: «يا بنيّ خف اللّه خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لخفت أن يعذّبك، وارج اللّه رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرجوت أن يرحمك»، وعن سيّد الساجدين عليه السلام: «لو أنزل اللّه عزّ وجلّ كتاباً أنّه معذّب رجلاً

فإنّ العبد إنّما يكون حسن ظنّه بربّه على قدر خوفه من ربّه وإن أحسن الناس ظنّاً باللّه أشدّهم خوفاً للّه واعلم يا محمد بن أبي بكر انّي ولّيتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر

واحداً لرجوت أن أكونه أو أنّه راحم رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه وأنّه معذّبي لا محالة ما ازددت إلا اجتهاداً لئلا أرجع إلى نفس بلائمة».

وقد أشار القرآن الكريم إلى الجمع بينهما فقال: ﴿ومن يقنط من رحمة ربّه إلا الضالّون﴾ ﴿ولا ييأس من روح اللّه إلا الكافرون﴾ ﴿ولا يأمن مكر اللّه إلا القوم الخاسرون﴾ والخوف والرجاء جناحان يطير بهما الإنسان ولا يستغني بأحدهما عن الآخر، وهما كالطعام والشراب للإنسان، فإذا قيل أيّهما أفضل لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر؛ لأنّه لا يستغنى عن أحدهما بالآخر، نعم يقال الطعام أفضل للجائع والشراب أفضل للعطشان، فكذا الخوف أفضل لمن غلب عليه الرجاء وبالعكس، وقد أشار عليه السلام إلى تلازمهما بقوله:

[**فإنّ العبد إنّما يكون حسن ظنّه بربّه على قدر خوفه من ربّه وإن أحسن الناس ظنّاً باللّه أشدّهم خوفاً للّه**] أي: انّ مقدار حسن ظنّ العبد بربّه مطابق وملازم لمقدار خوفه فيه، وإنّ زيادته مع زيادته ونقصانه مع نقصانه.

[**واعلم يا محمد بن أبي بكر انّي ولّيتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر**] الأجناد تطلق على الأقاليم والأطراف، تقول ولي جند الشام وولي جند الاردن وولي جند مصر، نبّهه على إحسانه إليه بتوليته أعظم أجناده لينبّه على التذكير بتلك النعمة ما يريد أن يوصيه به.

فأنت محقوق أن تخالف على نفسك وأن تنافح عن دينك ولو لم يكن إلا ساعة من الدهر ولا تسخط اللّه برضى أحد من خلقه فإنّ في اللّه خلفاً من غيره وليس من اللّه خلف في غيره صلّ الصلاة لوقتها الموقّت لها ولا تعجّل وقتها لفراغ

[**فأنت محقوق**] أي: حقيق وجدير [**أن تخالف على نفسك**] الأمّارة فيما تأمر به من السوء والفحاء وسائر مناهي اللّه إلى ما يحكم به العقل والشرع من طاعته.

[**وأن تنافح عن دينك**] أي: تجالد وتجاهد عنه يقال نافحت بالسيف أي: خاصمت به أي: تجاهد شياطين الإنس والجنّ عنه.

[**ولو لم يكن إلا ساعة من الدهر**] فينبغي أن لا يشغلها إلا بالمجاهدة عن دينه.

[**ولا تسخط اللّه برضى أحد من خلقه**] بأن تتابع أحداً من خلق اللّه فيما يسخط اللّه.

[**فإنّ في اللّه خلفاً من غيره وليس من اللّه خلف في غيره**] إشارة إلى الحجّة على وجوب مراعاة رضى اللّه تعالى دون غيره، والمذكور في قوّة صغرى وتقدير الكبرى ولكلّما كان في اللّه خلف عن غيره وليس في غيره خلف منه فالواجب اتباع رضاه وأن لا يسخط برضى غيره.

ثمّ قال عليه السلام:

[**صلّ الصلاة لوقتها الموقّت لها**] أي: المعيّن اللازم لها.

[**ولا تعجّل وقتها**] بأن تقدّمها على الوقت المضروب لها [**لفراغ**] أي: لأجل فراغك في ذلك الوقت.

ولا تؤخّرها عن وقتها لاشتغال واعلم أنّ كلّ شيء من عملك تبع لصلواتك فإنّه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى ووليّ النبي صلى الله عليه وآله وعدوّ النبيّ صلى الله عليه وآله

[**ولا تؤخّرها عن وقتها لاشتغال**] عنها بغيرها فإنّها أهمّ من كلّ شغل وأولى وهي عمود الدين وشعار الإسلام والمسلمين إن قُبلت قُبل ما سواه وإن رُدّت رُدّ ما سواها، كما أشار إلى ذلك بقوله: [**واعلم أنّ كلّ شيء من عملك تبع لصلواتك**] فإذا حافظ الإنسان على صلاته وأتى بوظائفها في أوقاتها يوشك أن يكون على غيرها أوتى بالمحافظة، وإذا تساهل فيها فهو في غيرها أكثر تساهلاً وفي النبوي «أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة» فإن تمّت صلاته سهل عليه غيرها من العبادات ومن نقصت صلاته فإنّه يحاسب عليها وغلى غيرها.

ومن هذا العهد

[**فإنّه لا سواء إمام الهدى**] يعني نفسه عليه السلام [**وإمام الردى**] يعني معاوية، وسمّاه إماماً كما سمّى اللّه تعالى رؤساء الضلالة أئمّة، فقال: ﴿وجعلناهم أئمّة يدعون إلى النار﴾.

[**ووليّ النبي صلى الله عليه وآله**] إشارة إلى نفسه عليه السلام حيق قال النبي صلى الله عليه وآله: «ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه»[1].

[**وعدوّ النبيّ صلى الله عليه وآله**] إشارة إلى معاوية.

قال ابن أبي الحديد: ليس يعني بذلك أنّه كان عدوّاً أيّام حرب النبي صلى الله عليه وآله لقريش بل يريد أنّه الآن عدوّ النبي لقوله «عدوّك عدوّي وعدوّي عدوّ اللّه».

ولقد قال لي رسول اللّه ﷺ إنّي لا أخاف على أُمّتي مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيمنعه اللّه بإيمانه وأمّا المشرك فيمنعه اللّه بشركه ولكنّي أخاف عليكم كلّ منافق الجنان عالم اللّسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون

وأوّل الخبر «وليكَ وليي ووليي وليُّ اللّه» وتمامه مشهور؛ ولأنّ دلائل الناق كانت ظاهرة فيه فلتات لسانه ومن أفعاله وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياء كثيرة فلتطلب من كتبهم خصوصاً من كتب شيخنا أبي عبداللّه ومن كتب الشيخين أبي جعفر الإسكافي وأبي قاسم البلخي.

[ولقد قال لي رسول اللّه ﷺ إنّي لا أخاف على أُمّتي مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيمنعه اللّه بإيمانه وأمّا المشرك فيمنعه اللّه بشركه] ويخذله ويصرف قلوب الناس من أتباعه لأنّهم ينفرون لإظهاره كلمة الكفر فلا تطمئنّ قلوبهم إليه ولا تسكن نفوسهم إلى مقالته.

[ولكنّي أخاف عليكم كلّ منافق الجنان عالم اللّسان يقول ما تعرفون] من الحقّ بلسانه **[ويفعل ما تنكرون]** من الكفر ولوازمه، إشارة إلى معاوية وأصحابه، ووجه المخافة منه أنّ مخالطته لأهل الإسلام مع إظهاره له يكون سبباً لإصفائهم إليه ومجالستهم له والاغترار بما يدّعيه بلسانه وقدرته على الشُّبه المضلّة وتنميقها بالأقوال المزخرفة مما يكون سبباً لانفعال كثير من عوام المسلمين وفتنتهم عن الدّين.

ومن قبل هذا الكتاب: وأنتم يا أهل مصر فليصدّق قولكم فعلكم وسرّكم علانيّتكم ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم إنّه لا يستوي إمام الهدى... إلى آخر ما مرّ.

إلى معاوية وهو من محاسن الكتب: أمّا بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء اللّه عزّ وجلّ محمّداً صلّى الله عليه وآله لدينه وتأييده إيّاه بمن أيّده من أصحابه، فلقد خبّأ لنا الدهر منك عجباً إذ طفقت تخبرنا ببلاء اللّه عندنا ونعمته علينا في نبيّنا فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى معاوية**] جواباً عن كتاب كتبه له وقد مرّ ذكره.

[**وهو من محاسن الكتب: أمّا بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء اللّه عزّ وجلّ محمّداً صلّى الله عليه وآله لدينه وتأييده إيّاه بمن أيّده من أصحابه، فلقد خبّأ لنا الدهر منك عجباً**] يقال: خبّأت الشيء: سترته.

[**إذ طفقت**] أي: أخذت وشرعت [**تخبرنا ببلاء اللّه عندنا ونعمته علينا في نبيّنا**] استعار عليه السلام لفظ الخباء لما ستره الدهر في وجود معاوية من العجب، ثمّ فسّر العجب بأنّه يخبر أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بحال النبي صلى الله عليه وآله وما أنعم اللّه به عليه من اصطفائه له لدينه وتأييده بأصحابه مع علمهم بحاله وكونهم أولى بالإخبار عنها منه وأهل البيت أدرى بما فيه، ولذا قال:

[**فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر**] وهو مثلٌ معروف وأصله أنّ رجلاً قدم من هجر إلى البصرة بمال اشترى به شيئاً للربح فلم يجد فيه أكسد من التمر فاشترى بماله تمراً وحمل إلى هجر وادّخره في البيوت ينتظر به

وداعي مسدِّده إلى النضال وزعمت أنّ أفضل الناس فلان وفلان فذكرتَ أمراً إن تمّ اعتزلك، وإن نقص لم تلحقك ثلمة وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس

السعر فلم يزدد إلا رخصاً حتّى فسد جميعه وتلف ماله فضرب مثلاً لمن يحمل الشيء إلى معدنه، وهجر معروفة بكثرة التمر حتّى أنّه ربما يبلغ سعره خمسين جلّة بدينار ووزن الجلّة مائة رطل فذلك خمسة آلاف رطل ولم يسمع مثل ذلك في بلاد أُخرى.

[**وداعي مسدِّده إلى النضال**] أي: المراماة، والمسدّد الذي يقوّمه غيره لأمر ويهديه إليه، ووجه الشبه أنّه حمل الخبر إلى من هو أولى به منه كما يدعو الإنسان مسدّده وأُستاذه في الرمي إلى المراماة، ومسدِّده أولى بأن يدعوه إلى ذلك، وحيث أنّ معاوية كان قد اقتصّ في كتابه حال الصحابة وذكر الأفضل فالأفضل منهم معرّضاً بأفضليتهم عليه بعد مشاركته لهم في الفضل أجابه عليه السلام بقوله:

[**وزعمت أنّ أفضل الناس فلان وفلان**] أي: أبو بكر وعمر، [**فذكرتَ أمراً إن تمّ اعتزلك، وإن نقص لم تلحقك ثلمة**] أي: ما زعمته من الفضل والترتيب إمّا أن يتمّ أوّلاً فإن تمّ فهو بمعزل عنك؛ إذ ليس لك فيه نصيب ولا شرك في درجاتهم ومراتبهم وسابقتهم في الإسلام، وإن نقص فليس عليك من نقصانه عار فخوضك فيه أيضاً فضول.

ثمّ قال عليه السلام على سبيل الإنكار والتوبيخ والتحقير: [**وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس**] والرواية المشهورة بالرفع، ومَنْ نصب فعلى تأويل «ما لك» و«الفاضل» وفي ذلك معنى الفعل أي: ما تصنع.

وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأوّلين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم هيهات! لقد حنّ قدح ليس فمها وطفق يحكم فيها عليه الحكم لها ألا تربع أيّها الإنسان على طلعك وتعرف قصور ذرعك

وأمّا قوله: [**وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأوّلين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم**] فالنصب هنا لا غير لأجل اللام في الطلقاء وهو استفهام على سبيل الاستحقار والإنكار عليه أن يخوض على صغر شأنه وحقارته في هذه الأُمور الكبار، وأبو سفيان كان من الطلقاء وكذا معاوية في طليق ابن طليق.

وقوله: [**هيهات! لقد حنّ قدح ليس فمها**] قيل: هذا مثل يضرب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم، واصله القداح من عود واحد يجعل فيها قدح من غير ذلك الخشب فيصوّت بينها إذا دارها الفيض فذلك الصوت هو حنينه.

[**وطفق**] وشرع [**يحكم فيها**] في هذه القضية من يجب أن يكون [**عليه الحكم لها**] لا له فيها، إذ شأن الأشراف أن يكونوا حكّاماً ومقصوده أنّ معاوية ليس من القوم الّذين حكم بتفضيل بعضهم على بعض في شيء وليس أهلاً للحكم فيهم، ثمّ قال عليه السلام:

[**ألا تربع أيّها الإنسان على طلعك**] أي: ألا ترفق بنفسك وتكفّ ولا تحمل عليها ما لا تطيقه، والربع: الوقوف، والطلع: العرج.

[**وتعرف قصور ذرعك**] والذرع: بسط اليد، استعار الظلع لقصوره، ووجه الشبه قصوره عن رتبة السابقين في الفضل لقصور الطالع، وكنّى

وتتأخّر حيث أخّرك القدر فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفر الظافر وإنك لذهّاب في التيه روّاغ عن القصد ألا ترى غير مخبر لك لكن بنعمة اللّه أُحدِّث وأمّا بنعمة ربّك فحدّث، إنّ قوماً استشهدوا في سبيل اللّه من المهاجرين ولكلٍّ فضل، حتّى إذا استشهد شهيدنا

بقصور ذرعه عن قصور قوّته وعجزه عن تناول تلك المرتبة.

[**وتتأخّر حيث أخّرك القدر**] إشارة إلى مرتبته النازلة التي جرى بها القدر أن تكون نازلة عن مراتب السابقين، وقد أمره بالتأخّر فيها والوقوف عندها تقريعاً وتوبيخاً بها.

وقوله: [**فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفر الظافر**] أي: ما الذي يدخلك بيني وبين أبي بكر وعمر وأنت من بني أُميّة لست هاشمياً ولا تيمّياً، هذا فيما يرجع إلى الأنساب. ولست مهاجراً ولا ذا قدم في الإسلام فتزاحم المهاجرين وأرباب السوابق بأعمالك واجتهادك، فإذاً لا يضرّك غلبة الغالب ولا يسرّك ظفر الظافر.

وقوله: [**وإنك لذهّاب في التيه روّاغ عن القصد**] أي: كثير الذهاب والتوغّل في الضلال عنمعرفة الحقّ كثير العدول عن العدل والصراط المستقيم في حقّنا، والتيه: القصد.

[**ألا ترى غير مخبر لك لكن بنعمة اللّه أُحدِّث**] أي: لستَ عندي أهلاً لأن أُخبركَ بذلك، وأيضاً فإنّك تعلمه ومن يعلم الشيء لا يجوز أن يُخبر به، ولكن أذكر ذلك لأنّه تحديث بنعمة اللّه علينا وقد أُمرنا بأن نتحدّث بنعمته في قوله: [**﴿وأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾، إنّ قوماً استشهدوا في سبيل اللّه من المهاجرين ولكلٍّ فضل، حتّى إذا استشهد شهيدنا**] وهو

قيل سيّد الشهداء وخصّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بسبعين تكبيرة صلاة عليه أوَلا ترى أنّ قوماً قطعت أيديهم في سبيل اللّه ولكلٍّ فضل حتّى إذا فُعِل بواحدنا كما فُعِل بواحدهم قيل الطيّار في الجنّة وذوالجناحين ولولا ما نهى اللّه عنه من تزكية المرء نفسه، لذكَرَ ذاكرٌ فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تنكرها آذان السامعين

حمزة عمّ النبي والوصي.

[قيل سيّد الشهداء] والقائل ذلك هو النبي صلى الله عليه وآله.

[وخصّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بسبعين تكبيرة صلاة عليه] في أربع عشرة صلاة، وذلك أنّه كلّما كبّر عليه خمساً حضرت جماعة أُخرى من الملائكة فصلّى بهم عليه أيضاً وذلك من خصائص حمزة وشرف بني هاشم في حياتهم وموتهم.

[أوَلا ترى أنّ قوماً قطعت أيديهم في سبيل اللّه] إشارة إلى جعفر بن أبي طالب **[ولكلٍّ فضل]** أي: لكلٍّ واحد من هؤلاء فضل لا يُجحد.

[حتّى إذا فُعِل بواحدنا كما فُعِل بواحدهم قيل الطيّار في الجنّة وذوالجناحين] سمّاه رسول اللّه صلى الله عليه وآله بذلك ومن شعره المنسوب إليه:

وجعفر الذي يضحي ويمسي   يطير مع الملائكة ابن أُمّي

[ولولا ما نهى اللّه عنه من تزكية المرء نفسه، لذكَرَ ذاكرٌ فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تنكرها آذان السامعين] عنى عليه السلام بذلك نفسه وأنّ له فضائل لا تخفى، ولم يأت بالألف واللام ولم ينسبه إلى نفسه إباء من التصريح بتزكية نفسه، وفي بعض النسخ «ولا تمجّها آذان السامعين» استعير المجّ لكراهية النفس لبعض ما تكرّر سماعه وإعراضها عنه فإنّها تصير

فدع عنك من مالت به الرمية فإنّا صنايع ربّنا والناس بعدُ صنايع لنا لم يمنعنا قديم عزّنا وعادي طولنا على قومك إن خلطناكم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفّاء ولستم هناك

كالقاذف له من الاذن كما يقذف الماج الماء.

[**فدع عنك من مالت به الرمية**] أي: دع عنك أصحاب الأغراض الفاسدة المفسدة ولا تلتفت إلى ما يقولون في حقّنا كعمرو بن العاص، ويحتمل أن يكون الإشارة إليه نفسه على طريقة قولهم «إياك أعني واسمعي يا جارة» واستعار الرمية وكنّى بها عن الأُمور التي تقصدها النفوس وترميها بقصورها ونسب الميل إليها لأنّها هي الجاذبة للإنسان والمائلة به الحاملة له على الفعل.

وقوله: [**فإنّا صنايع ربّنا والناس بعدُ صنايع لنا**] قال ابن أبي الحديد: هذا كلام عظيم عال على الكلام، ومعناه عال على المعاني وصنعة الملك من يصطفه الملك ويرفع قدره يقول ليس لأحد من البشر علينا نعمة بل اللّه تعالى هو الذي أنعم علينا، فليس بيننا وبينه واسطة والناس نأمرهم صنايعنا فنحن الواسطة بينهم وبين اللّه تعالى، وهذا مقامٌ جليلٌ ظاهره ما سمعت وباطنه أنّهم عبيد اللّه وأنّ الناس عبيدهم.

[**لم يمنعنا قديم عزّنا وعادي طولنا**] أي: قديم فضلنا.

[**على قومك إن خلطناكم بأنفسنا فنكحنا**] فيكم [**وأنكحنا**] منكم [**فعل الأكفّاء ولستم هناك**] أي: والحال انّكم لستم أكفّائنا، والعامل خلطناكم، وفعل الأكفّاء نُصب على المصدر من فعل مضمر، وما ذكره عليه السلام إشارة إلى تزويج رسول اللّه ﷺ رقية وأُم كلثوم من عثمان وأبي العاص بن

وأنّى يكون ذلك كذلك ومنّا النبي ومنكم المكذّب ومنّا أسدُ اللّه ومكم أسد الأحلاف

الربيع، وتزوّج رسول اللّه صلى الله عليه وآله أم حبيبة بنت أبي سفيان وتزوّج عبداللّه بن عمرو بن عثمان بن عفان فاطمةبنت الحسين.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان ما ادّعاه من نفي كونهم أهلاً للمخالطة ولا أكفّاء للمناكحة بقوله بالمقابلة بين بني هاشم بالفضائل وبين بني أُميّة بالرذائل فقال:

[**وأنّى يكون ذلك كذلك**] على سبيل الاستفهام الإنكاري، أي: كيف يكون شرفكم كشرفنا وحسبكم كحسبنا. [**ومنّا النبي ومنكم المكذّب**] قال ابن أبي الحديد: يعني أباسفيان بن حرب، كان عدوّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله، والمكذّب له والمجلب عليه، وهؤلاء ثلاثة بإزاء ثلاثة أبو سفيان بإزاء رسول اللّه صلى الله عليه وآله، ومعاوية بإزاء عليّ، ويزيد لعنه اللّه بإزاء الحسين عليه السلام، وبينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل، وقيل: المكذّب له من بني أُمية: أبو جهل بن هشام، وإليه الإشارة بقوله: «وذرني والمكذّبين».

[**ومنّا أسدُ اللّه**] وأسد رسوله وهو حمزة بن عبدالمطّلب.

[**ومنكم أسد الأحلاف**] يعني عتبة بن ربيعة، وقيل: أسد بن عبدالعزى، والأحلاف هم عبدمناف وزهرة وأسد وتيم والحرث بن فهر، وسُمّوا الأحلاف لأنّ بني قصي أرادوا أن ينتزعوا بعض ماكان بأيدي بني عبدالدار من اللواء والندرة والحجابة والرفادة وهي كلّ شيء كان فرضه قصي على قريش لطعام الحجّاج في كلّ سنة ولم يكن لهم إلا النقابة، فتحالفوا على حربهم وأعدّوا للقتال ثمّ رجعوا عن ذلك ناكثين وأقروا ما

ومنّا سيّدا شباب أهل الجنّة ومنكم صبية النار ومنّا خيرُ نساء العالمين ومنكم حمّالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم

كان بأيديهم وردّ بأنّه أي: عار يلزم معاوية من ذلك، ثمّ انّ بني عبد مناف كانوا في هذا الحلف وعليّ ومعاوية من بني عبد مناف.

[**ومنّا سيّدا شباب أهل الجنّة**] يعني الحسن والحسين عليهما السلام.

[**ومنكم صبية النار**].

قال ابن أبي الحديد: هي الكلمة التي قالها النبي صلى الله عليه وآله لعقبة بن أبي معيط حين قُتِل صبراً يوم بدر وقد كان المستعطف له صلى الله عليه وآله «من للصبية يا محمّد؟ قال: النار» وعقبة بن أبي معيط من بني عبد شمس.

وقال الراوندي: صبية النار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ، ولما أخبر النبي صلى الله عليه وآله بهذه الكلمة عنهم كانوا صبية ثمّ ترعرعوا واختاروا الكفر وشبهه.

[**ومنّا خيرُ نساء العالمين**].

قال ابن أبي الحديد: يعني فاطمة عليها السلام نصُّ رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك لا خلاف فيه.

[**ومنكم حمّالة الحطب**] هي: أُمّ جميل بنت حوب بن أمية، إمرأة أبي لهب الذي ورد القرآن فيها بما ورد.

وقوله عليه السلام: [**في كثير مما لنا وعليكم**] متعلّق بمحذوف، أي: هذا الكلام داخل في جملة كلام كثير يتضمّن ما لنا وعليكم، أي: إنّي قادرٌ أن أذكر شيئاً كثيراً من هذا.

فإسلامنا ما قد سمع وجاهليتنا لا تُدْفَع وكتاب اللّه يجمع لنا ما شذّ عنّا وهو قوله تعالى: ﴿وأُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّه﴾ وقوله تعالى: ﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتَّبعوه وهذا النبي والّذين آمنوا واللّه وليُّ المؤمنين﴾ فنحن مرّة أوّل بالقرابة وتارةً أولى بالطاعة

وقوله: [**فإسلامنا ما قد سمع وجاهليتنا لا تُدْفَع**] إشارة إلى أنّ شرف بيته وحسبه على غيره لا يختصّ به في الإسلام فقط بل شرفهم في الجاهلية أيضاً أظهر من الشمس وأبين من الأمس.

[**وكتاب اللّه يجمع لنا ما شذّ عنّا**] أي: يوجب لنا بصريح حكمه ويجمع لنا ما شذّ عنّا من هذا الأمر وسلبناه، وهو شروع في الاحتجاج على أولويّته بالخلافة من غيره، فقال:

[**وهو قوله تعالى: ﴿وأُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّه﴾**] وهو عليه السلام من أخصّ أُولي الأرحام بالنبيّ صلى الله عليه وآله، وكلُّ من كان كذلك فهو أولى به وبالقيام مقامه مع كمال استعداده لذلك، أمّا الصغرى فظاهرة وأمّا الكبرى فللآية.

[**وقوله تعالى: ﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتَّبعوه وهذا النبي والّذين آمنوا واللّه وليُّ المؤمنين﴾**] وهو عليه السلام أقرب الخلق إلى اتّباع الرسول وأوّل من آمن به وصدّقه وأفضل من أخذ عنه الحكمة وفصل الخطاب وكلّ من كان كذلك فهو أولى بخلافته والقيام مقامه للآية، فهو أولى برسول اللّه وبمنصبه تارة من جهة قرابته وتارة من جهة طاعته واتّباعه كما قال:

[**فنحن مرّة أوّل بالقرابة وتارةً أولى بالطاعة**] ثمّ احتجّ ببرهان ثالث.

ولمّا احتجّ المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فلحوا عليهم فإن يكن الفلج به فالحقّ لنا دونكم وإن يكن بغيره، فالأنصار على دعواهم وزعمت انّي لكلّ الخلفاء حسدت وعلى كلّهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

فقال عليه السلام:

[**ولمّا احتجّ المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة**] بعد أن طلبوا الإمامة لأنفسهم [**برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله**] وأنّهم من شجرته التي أشار إلى كون الأئمة منها بما رووه عنه صلى الله عليه وآله من قوله: «الأئمّة من قريش»، [**فلحوا**] أي: غلبوا [**عليهم**] وسلّموا لهم ذلك.

[**فإن يكن الفلح به**] أي: بالقرب وكون المهاجرين أقرب من الأنصار [**فالحقّ لنا دونكم**] لأنّهم أقرب إليه عليه السلام ممّن عداهم وهم ثمرة تلك الشجرة وغايتها.

[**وإن يكن**] الفلح [**بغيره، فالأنصار على دعواهم**] للإمامة فهي باقية وحجّتهم قائمة إذ لم يكن ما رووه من الخبر دافعاً لقوله إلا من جهة كونهم من قريش الموجب لقربهم وبُعد الأنصار عنه، وقد فرض انّ جهة الأقرب غير معتبرة ههنا، وحيث زعم معاوية في كتابه أنّه عليه السلام حسد سائر الخلفاء وبغى عليهم أجابه عليه السلام بقوله:

[**وزعمت انّي لكلّ الخلفاء حسدت وعلى كلّهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها**] تقدير الجواب انّ ما ادّعيتَ، إمّا أن يكون صدقاً أو كذباً، فإن

وقلتَ إنّي أُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش حتّى أُبايع، ولعمري لقد أردتَ أن تذمَّ فمدحت!! وأن تفْضَحَ فافتضحتَ، وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكّاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه

كان صدقاً فليس جنايتي عليك حتّى أعتذر منها إليك، بل ذلك فضول منك وخوض فيما لا يعنيك، وأكّد ذلك بالمثل والبيت لأبي ذويب وأوّله:

وعيّرها الواشون أنّي أُحبّها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وهو مثل يُضرب لمن ينكر أمراً ليس منه في شيء ولا يلزمه إنكاره، وإن كان كذباً فيكفيك ذلك.

[**وقلتَ إنّي أُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش**] وهو الذي جُعل في أنفه خشاش وهو خشبة تدخل في أنف البعير ليُقاد بها، أي: أُقاد قهراً وكرهاً وإذلالاً وهو وجه الشبه.

[**حتّى أُبايع، ولعمري لقد أردتَ أن تذمَّ فمدحت!! وأن تفْضَحَ فافتضحتَ، وما على المسلم من غضاضة**] وهي الذلّة والمنقصة [**في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكّاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه**] ولمّا كان عليه السلام ثابتاً على اليقين التامّ وهو القائل: «لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً» وذلك هو الكمال الحقّ والفضل المبين الذي أذعنت له أرباب العقول واتّفق عليه علماء المعقول والمنقول، والفضيحة: إظهار عيب الإنسان ونقصه، وحيث لا عيب فلا فضيحة.

وأمّا أنّ ذلك فضيحة لمعاوية فلظهور نقصانه في عدم الفرق بين ما يمدح به ويذمّ.

وهذه حجّتي إلى غيرك قصدها ولكنّي أطلقتُ لك منها بقدر ما رشح من ذكرها ثمّ ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان فَلَكَ أن تُجاب عن هذه لرحمك منه فأيُّنا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله أمّن بذل له نصرته فاستقعده واستكفّه، أمّن استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه حتّى أتى قدره عليه

[**وهذه حجّتي إلى غيرك قصدها ولكنّي أطلقتُ لك منها بقدر ما رشح**] أي: اعترض [**من ذكرها**] أي: ما ذكرت لك من الحجج على مظلوميّتي وكون الحقّ لي دون غيري لستَ أنت المقصود بالخطاب بهذا الاحتجاج؛ إذ لستَ أهلاً للخطاب ولا للجواب، ولستَ من هذا الأمر في شيء حتّى تُخاطب به!

بل المقصود غيرك بالخطاب م الّذين تقدّموا عليّ وظلموني وإنّما ذكرت لك منها بقدر ما دعت الحاجة إليه وسنح لي أن أذكره في جوابك!!

[**ثمّ ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان**] في تأليبه وخذلانه [**فَلَكَ أن تُجاب عن هذه**] الشبهة [**لرحمك منه**] لكونه من بني أُميّة.

[**فأيُّنا كان أعدى له**] أي: أشدّ عداوة [**وأهدى إلى مقاتله**] أي: لوجوه قتله ومواضعه من الآراء والحيل.

[**أمّن بذل له نصرته فاستقعده واستكفّه، أمّن استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه حتّى أتى قدره عليه**] قد عكس عليه السلام عليه ما ادّعاه وأبان أنّه هو الذي كان عدوّه وخاذله وأنّه عليه السلام ما كان ناصره ومعرّض نفسه للذبّ عنه، فاستفهمَ منه استفهام توبيخ له، أيّنا كان أعدى عليه وأهدى لوجوه قتله، أهو عليه السلام الذي بذل نصرته فقال له: لا أحتاج إلى نصرتك ولكن اقعد

كلاّ لقد علم اللّه المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً وما كنت أعتذر من انّي كنت أنقم عليه أحداثاً فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له فربّ ملوم لا ذنب له

وكفّ عنّي شرّك! أم أنت الذي استنصرك فتراخيت عنه وبثت المنون إليه، فإنّ المروي أنّ عثمان بعث حال حصاره إلى الشام مستصرخاً بمعاوية فلم يزل يعده ويتراخى عنه لطمعه في الأمر إلى أن قُتل، وذكر القدر ونسبته القتل إليه ههنا مناسب لتبرّيه من دمه.

[**كلاّ**] ردعٌ عمّا زعمه، أي: كلاّ لم أكن أنا أعدى عليه ولا أهدى لمقاتله منك يا معاوية.

[**لقد علم اللّه المعوّقين منكم**] إشارة إلى تسويفه وقعوده عن نصرته.

[**والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً**] فإنّ الآية نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يثبّطون أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله عنه.

[**وما كنت أعتذر من انّي كنت أنقم عليه أحداثاً**] إشارة إلى ما عساه كان سبباً لتوهّم جملة من الجهّال الزاعمين دخوله في دمه بسبب إنكاره عليه ماكان نقمه هو وجملة من الصحابة والتابعين عليه من الأحداث والبِدَع فبيّن عليه السلام أنّ ذلك ليس ممّا يُعتذر عنه؛ إذ كان ذلك إرشاداً له وهدايةً، ولذا قال:

[**فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له**] إلى ما فيه رضى اللّه وصلاح دينه ودنياه وآخرته وأولاه فلا شيء عليه.

[**فربّ ملوم لا ذنب له**] وأنا ذلك الملوم إذ لم يكن ما فعلته ذنباً.

وقد يستفيد الظنّة المتنصّح وما أردتُ إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا باللّه عليه توكّلت وإليه أُنيب وذكرتَ أنّه ليس لي ولا لأصحابي عندك إلا السيف فلقد أضحكت يا معاوية بعد استعبار فيه متى ألفيت بنو عبدالمطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيف مخوّفين

[**وقد يستفيد الظنّة**] أي: التهمة [**المتنصّح**] أي: المبالغ في النصيحة وأنا ذاك المتنصّح إذ لم يكن قصدي إلا إصلاح ذات البين بقدر الاستطاعة وهو مثل يضرب لمن يبالغ في النصيحة حتّى يُتّهم أنّه غاش، وقبله وكم سُقت من آثاركم من نصيحة وقد يستفيد... إلخ، وكذا قوله: فربّ ملوم... إلخ، مثل يُضرب لمن قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون وجهه.

ثمّ قال عليه السلام: [**وما أردتُ إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا باللّه عليه توكّلت وإليه أُنيب**] أي: أرجع، فلا أُبالي بلوم لائم ولا بعذل عاذل، وحيث إنّ معاوية كان قد توعّده في كتابه بالحرب أجابه عليه السلام بقوله:

[**وذكرتَ أنّه ليس لي ولا لأصحابي عندك إلا السيف فلقد أضحكت يا معاوية بعد استعبار**] أي: بكاء، ولمّا كان الضحك إنّما يكون عن عجب سيّما ما كان منه بعد البكاء كنّى بذلك عن أنّ وعيده لمثله عليه السلام من أبلغ الأسباب المستلزمة للعجب وهو كالمثل في معرض الاستهزاء به، وقيل: معناه لقد أضحك من سمع منك هذا تعجّباً بعد بكائه على الدّين ليصرفك [**فيه متى ألفيت**] أي: وجدت.

[**بنو عبدالمطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيف مخوّفين**] استفهام إنكار لوقت وحدانه لبني عبدالمطلب بصفة النكول عن الحرب والخوف من

فـ«لَبِّثْ قليلاً يلحقُ الهيجا حَمَلْ» فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان شديد زحامهم ساطع قتامهم متسربلين سرابيل الموت

السيف في معرض التنزيه لهم عن الجبن والفشل.

وقوله: [**فـ«لَبِّثْ قليلاً يلحقُ الهيجا حَمَلْ»**] مثلٌ يُضرب للوعيد بالحرب، وأصله أنّ حمل بن بدر رجل من قشرا غِير على إبل له في الجاهلية في حرب فاستنقذها وقال: لبّث قليلاً يلحق الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا الموت نزل. وقيل: أصله انّ مالك بن زهير توعّد حمل بن بدر فقال حمل: لبّث قليلاً... إلخ، فأُرسل مثلاً. ثمّ أتى وقتل مالكاً فظفر أخوه قيس بن زهير به وبأخيه حذيفة فقتلهما وقال:

شغبت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني

ثمّ شرع عليه السلام في مقابلته بالوعيد فقال:

[**فسيطلبك**] للحرب والضرب [**من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان**] الإرفال: ضرب من السير سريع، والجحفل: الجيش العظيم، ثمّ وصفه عليه السلام بأوصاف تزلزل أركان العدوّ فقال: [**شديد زحامهم**] لكثرتهم وشجاعتهم وزاد حامهم على العدوّ.

[**ساطع**] مرتفع [**قتامهم**] غبارهم [**متسربلين**] نصب على الحال.

[**سرابيل الموت**] مفعول له، والسرابيل: القمصان كنّى بها للدروع والعدّة التي يلقون بها الموت ويخوضون في غمراته، أو عن ملابسهم من

احبّ اللّقاء إليهم لقاء ربّهم صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشم قد عرفت مواقع نضالها في أخيك وخالك وجدّك وهلك وما هي من الظالمين ببعيد.

إلى أهل البصرة وقد كان من انتشار حبلكم

الثياب أو الهيئات والأحوال التي وطّنوا أنفسهم على القتل فيها، فهي كالأكفان لهم.

[**احبّ اللّقاء إليهم لقاء ربّهم**] لكمال نعيمهم بما هم عليه من الدّين الحقّ وثقتهم بالوعد الإلهي الصادق.

[**صحبتهم ذرية بدرية**] إشارة إلى أولاد من كان من المسلمين مع النبيﷺ يوم بدر. [**وسيوف هاشم قد عرفت**] يا معاوية [**مواقع نضالها**] أي: سيوفها [**في أخيك**] حنظلة بن أبي سفيان [**وخالك**] الوليد بن عتبة [**وجدّك**] عتبة بن ربية أب هند أُمّ معاوية.

[**وهلك**] من غيرهم [**وما هي من الظالمين**] كمعاوية وأصحابه [**ببعيد**] وعيدٌ له أن يصيبه منها ما أصابهم وينزل به ما نزل بهم فإن فاتهم في ذلك الزمان فلا يفوتهم في الرجعة إن شاء اللّه.

ومن كتاب لهعليه السلام

[**إلى أهل البصرة**] مبتدء بذكر ذنوبهم وتقريرها عليهم ليحسن عقبها العفو أو المؤاخذة.

[**وقد كان من انتشار حبلكم**] استعار الحبل لبيعتهم إيّاه، والانتشار

وشقاقكم مالم تغبوا عنه فعفون عن مجرمكم ورفعت السيف عن مدبركم وقبلت من مقبلكم فإن حطت بكم الأُمور المردية وسفه الآراء الجائرة إلى منابذتي وخلافي فها أنا ذا مستعدّ قد قرّبت جيادي ورحلت ركابي

لكنثهم لبيعته إذ البيعة سبب جامع لهم ناظم لأُمورهم متمسّك لهم يوصل إلى رضاء ربّهم وثوابه كالحبل الناظم لما يربط به ونكثهم كفلّ ذلك الحبر ونشره وتفرّقه قطعاً قطعاً.

[**وشقاقكم**] أي: نزاعكم وجدالكم سُمّي شقاقاً لأنّ كلاً من الخصمين في جانب غير جانب الآخر.

[**مالم تغبوا عنه**] يقال: غبيت عن الشيء وغبيته إذا لم تفطن له، نبّه بذلك على علمهم بما فعلوه وتعمّدهم لفعله لتتأكّد عليهم الحجّة.

[**فعفون عن مجرمكم ورفعت السيف عن مدبركم**] أي: من أدبر منكم منهزماً فارّاً من القتال.

[**وقبلت من مقبلكم**] اي: من أقبل إليّ منكم معتذراً فقبلت منه ورضيت عنه فقابل إسائتهم بالإحسان وجرائمهم بالغفران، ثمّ أردف ذلك بوعيدهم فقال: [**فإن حطت بكم الأُمور المردية**] أي: إن عدتم ثانياً إلى الفتنة واستعار لفظ الحطو لسوق الأُمور، والمردية: المهلكة.

[**وسفه الآراء الجائرة**] أي: المنحرفة عن الصواب [**إلى منابذتي وخلافي**] والمنابذة: المخالفة، أي: إن عدتم إلى خلافي.

[**فها أنا ذا مستعدّ**] لكم [**قد قرّبت جيادي ورحلت ركابي**] أي: شددت الرحال على ظهورها وألقيت على كورها، كنّى بذلك عن كونه

ولئن الجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعنّ بكم وقعة لا تكون وقعة الجمل إليها إلا كلعقة لاعق مع انّي عارلف لذي الطاعة منكم فضله ولذي النصيحة حقّه غير متجاوز منها بالعقوبة إلى بريء ولا ناكثاً إلى وفيّ به.

إلى معاوية: فاتّق اللّه فيما لديك

مستعداً للكرّة عليهم، واكتفى بذلك في وعيدهم على خلافه؛ لأنّ مجرّد خلافهم عليه لا يستلزم وجوب إيقاع الوقعة بهم لاحتمال أن يرجعوا ويتوبوا بوعيده؛ فلذا نبّهﷺ على شرط ثاني بقوله:

[**ولئن الجأتموني إلى المسير إليكم**] ومحاربتكم بأن جنيتم جناية لا تدفع إلا بالإيقاع بكم [**لأوقعنّ بكم وقعة لا تكون وقعة الجمل**] بالنسبة [**إليها إلا كلعقة لاعق**] في الحقارة والصغر، أي: بحيث يستصغر معها وقعة الجمل، أراد بذلك شدّة إيقاعه بهم، ثمّ توعّدهم بما يُخشى من الوعيد أردفه بما يُرجى معه من ذكر اعترافه بفضل ذي الطاعة منهم فقال:

[**مع انّي عارلف لذي الطاعة منكم فضله ولذي النصيحة**] منكم [**حقّه غير متجاوز منها بالعقوبة إلى بريء**] من الجناية [**ولا ناكثاً**] للعهد [**إلى وفيّ به**] ليكونوا بين الخوف والرجاء ولا ييأسوا من عدله وفضله فيشتدّ نفارقهم منه ويكون ذلك داعياً إلى فسادهم.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى معاوية: فاتّق اللّه فيما لديك**] من أموال المسلمين وفيئهم.

وانظر في حقّه عليك وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته فإنّ للطاعة للّه أعلاماً واضحة وسبلاً نيّرة ومحجّة نهجه وغاية مطلبة تردها الأكياس وتخالفها الأنكاس من نكب عنها حاد عن الحقّ

[**وانظر في حقّه عليك**] من وجوب طاعته واتّباع مرضاته واجتناب معاصيه وسخطاته.

[**وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته**] من وجوب طاعتي واتّباعي وعدم مخالفتي وشقاقي إذ ذاك أمر واضح لا يخفى عليك.

[**فإنّ للطاعة للّه أعلاماً واضحة**] استعار الأعلام لما يدلّ على طريق اللّه من الكتاب والسنّة ومن جملتها أئمّة الهدى وأعلام التقى والحجج على أهل الدنيا الذي هو رئيسهم وأفضلهم وأوّلهم وأنّهم أصل تلك الأعلام وحاملوها.

[**وسبلاً نيّرة ومحجّة نهجه**] عنى بهما الطرق إلى اللّه المدلول عليها بأعلامها المذكورة.

[**وغاية مطلبة**] أي: غاية مطلوب من الخلق وصولهم إلى رضوان اللّه وثوابه.

وقوله: [**تردها الأكياس وتخالفها الأنكاس**] الضمير راجع إلى المحجّة والأعلام الواضحة، والأكياس: العقلاء وظاهر أنّهم هم الذين يختارون ورود تلك المحجّة وقصد أعلامها، والأنكاس جمع نكس: وهو الدنيء من الرجال، ومعلوم أنّهم هم الذين يخالفون المحجّة والأعلام ويعدلون إلى غيرها ولذا قال: [**من نكب**] أي: عدل [**عنها**] أي: عن تلك المحجّة والأعلام [**حاد عن الحقّ**] وخبط في تيه الجهالة والضلالة.

وغيّر اللّه نعمته وأحلّ به نقمته فنفسك نفسك فقد بيّن اللّه لك سبيلك وحيث تناهت بك أُمورك فقد أجريت إلى غاية خسر ومحلّة كفر وإنّ نفسك قد أولجتك شرّاً

[**وغيّر اللّه نعمته**] بذلك [**وأحلّ به نقمته**] في دار الجزاء [**فنفسك نفسك**] أي: احفظها بسلوك سبيل اللّه الحقّ وصراط اللّه السويّ والتمسّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

[**فقد بيّن اللّه لك سبيلك**] وأوضح لك طريقك الذي فيه نجاتك فاسلكه كما قال تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ وقال: ﴿وهديناه النجدين﴾ وقال: ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ وقال: ﴿وما كان اللّه ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقون﴾ وقال: ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيي من حيّ عن بيّنة﴾.

وقوله: [**وحيث تناهت بك أُمورك فقد أجريت إلى غاية خسر ومحلّة كفر**] في «حيث» معنى الشرط، وجوابه «فقد»، والمراد موضع ومقام وصلت أُمورك وأعمالك إليه فقد وصلت فيه إلى غاية خسر، أي: غاية مستلزمة للخسر في الآخرة والمقصود حيث تناهت بك أُمورك فحسبك ما تناهت بك إليه، ثمّ فسّر ذلك الحيث الذي أمره بالوقوف عنده وهو الغاية المستلزمة للخسر والتي هي منزلة من منازل الكفر وأخبره أنّه قد أجرى إليها وكفى بها غاية شرّ وإجرائه إلى تلك الغاية كناية عن سعيه وعمله المستلزم لوصوله إليها.

وقوله: [**وإنّ نفسك قد أولجتك شرّاً**] أي: أدخلتك في شرّ الدنيا والآخرة بما سوّلت لك من المعاصي والخروج عن الإمام الحقّ، ويروى قد

وأقحمتك غيّاً وأوردتك المهالك وأوعرت عليك المسالك.
من الوالد الفان

أوحلتك أي: ألقتك في الوحل، استعير لما وقع فيه من المعصية والاختلاط عن الجهل.

[**وأقحمتك**] والاقتحام: الدخول في الأمر بشدّة.

[**غيّاً**] أي: أدخلتك في الضلال عنفاً.

[**وأوردتك المهالك**] أي: الموارد المهلكة من الشبهات والمعاصي.

[**وأوعرت عليك المسالك**] أي: مسالك الهدى وطرق الخير، والوعر: الشديد.

ومن وصيّة له عليه السلام

لابنه الحسن عليه السلام كتبها له بحاضرين عند انصرافه من صفّين.

قال ابن أبي الحديد: الحاضرين على صيغة التثنية يعني حاضر حلب وحاضر قيسرين وهي الأرباض والضواحي المحيطة بهذه البلاد ثمّ قرأنه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام ولم يفسّروه، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع، ومنهم من يقول بحاضرين يظنونه تثنية حاضر وجمعها وفي رواية الصدوق انّ هذه الوصية كتبها عليه السلام لولده محمد بن الحنفية.

[**من الوالد الفان**] بحذف الياء للازدواج مع الزمان؛ ولأنّه وقف على المنقوص ويجوز فيه حذف الياء وعدمه والإسقاط مع الألف واللام أوجه كما أنّ الإثبات مع عدمها أوجه وإطلاق الفاني مجاز باعتبار الغاية.

المقرّ للزمان المدبر للعمر المستسلم للدهر الذامّ للدنيا الساكن مساكن الموتى الظاعن عنها غداً إلى المولود المؤمّل ما لا يدرك السالك سبيل من قد هلك

[**المقرّ للزمان**] بالغلبة والقهر؛ لأنّه جعل نفسه خصماً للزمان فلمّا كبر أقرّ له بالغلبة.

[**المدبر للعمر**] لأنّه عليه السلام كان قد جاوز الستين ولا يبقى بعدها إلا إدبار العمر؛ لأنّها نصف العمر الطبيعي فما بعد الستّين أقلّ ممّا مضى فيكون العمر قد أدبر.

[**المستسلم للدهر**] هو أبلغ من قوله المقرّ للزمان؛ إذ قد يقرّ الإنسان لخصمه ولا يستسلم.

[**الذامّ للدنيا**] لم يزل عليه السلام ذامّاً لها منفّراً عنها حتّى طلّقها ثلاثاً.

[**الساكن مساكن الموتى**] إذ من كان في منازلهم ينزل به ما نزل بهم، قال تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾.

[**الظاعن عنها غداً**] تذكيرٌ بالمفارقة، وغداً: كناية عن وقتها، ولا يريد الغد بعينه، بل قرب الرحيل والظعن.

ثمّ لمّا وصف عليه السلام نفسه شرع في وصف ولده فقال: [**إلى المولود المؤمّل ما لا يدرك**] قال ابن أبي الحديد: لو قال قائلٌ إنّه كنّى بذلك عن أنّه لا ينال الخلافة بعد موتي وإن كان مؤمّلاً لها لم يبعد ويكون ذلك إخباراً عن غيب، ولكن الأظهر أنّه لم يرد ذلك وإنّما أراد جنس البشر، وكذا سائر الألفاظ التي تلي هذه اللفظة لا تخصّ الحسن بعينه، الا ترى إلى قوله بعدها: [**السالك سبيل من قد هلك**] فإنّ كلّ واحد من الناس يؤمّل أُموراً لا يدركها

غرض الأسقام ورهينة الأيام ورمية المصائب وعبدُ الدّنيا وتاجر الغرور وغريم المنايا وأسير الموت وحليف الهموم وقرين الأحزان ونصب الآفات

وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله.

[**غرض الأسقام**] استعار الغرض للإنسان من حيث كونه مرمياً بسهام الأمراض كالغرض.

[**ورهينة الأيام**] واحدة الرهائن استعير له باعتبار أنّ وجوده مربوط بالوقات وداخل في حكمها كما يرتبط الرهن بيد مرتهنه، وقيل: الرهينة بمعنى المهزول، يقال: إنّه الراهن وإنّه لرهينة إذا كان مهزولاً بالياً.

[**ورمية المصائب**] الرمية وهو ما يُرمى وهو كعرض الأسقام [**وعبدُ الدّنيا**] استعار العبد لطالب الدّنيا؛ لأنّه منقاد بطبعه إليها وعامل لها كما ينقاد العبد لسيّده ويعمل له.

[**وتاجر الغرور**] أي: تجارته فيها ولها غرور وغفلة عن المكاسب الحقيقية الباقية، واستعار التاجر باعتبار بذله لماله وأعماله توهّم أنّها المربحة.

[**وغريم المنايا**] مستعار له باعتبار طلب الموت كالمتقاضي بالرجل كما يتقاضى الغريم.

[**وأسير الموت**] مستعار باعتبار انقياده للموت وعدم تمكينه من الخلاص.

[**وحليف الهموم وقرين الأحزان**] استعار الحليف والقرين باعتبار عدم انفكاكه عن الهموم والأحزان كما لا ينفكّ الحليف والقرين عن حليفه وقرينه.

[**ونصب الآفات**] حيث أنّه معرض لها كالنصب.

وصريع الشهوات وخليفة الأموات أمّا بعد، فإنّ فيما تبيّنت من إدبار الدّنيا عنّي وجموح الدهر عليّ وإقبال الآخرة إليّ ما يَزَعُني من ذكر من سواي والاهتمام بما وراي غير انّي حيث يفردني دون هموم الناس همّ نفسي فصدقني رأيي

[**وصريع الشهوات**] مستعار له باعتبار كونه مغلوباً لشهوته ومقهوراً لها كالقتيل.

[**وخليفة الأموات**] فيه تنفير عن الدنيا بذكر الموت؛ لأنّ خليفة الأموات في معرض اللّحوق بهم قد عدّﷺ من صفاته سبعاً ومن صفاته ولده أربعة عشر بإزاء كلّ واحدة له ثنتان لولده.

[**أمّا بعد، فإنّ فيما تبيّنت من إدبار الدّنيا عنّي وجموح الدهر عليّ وإقبال الآخرة إليّ ما يَزَعُني من ذكر من سواي والاهتمام بما وراي**] جمح الفرس: إذا غلب صاحبه فلم يملكه، ويزعني: يمنعني.

واستعار الجموح للدهر لعدم تمكّنه من ضبطه في تغيّراته وتنقّلاته الخارجة عن اختياره كالجموح من الخيل.

و«ما» موصولة أو مصدرية، وعلى الأوّل فـ«من» لـلتبيين، وعلى المصدرية لابتداء الغاية، «ما» الثانية موصولة محلّها الرفع بالابتداء، و«فيما تبينت» خبره.

والمعنى: انّ فيما قد بان لي من تنكّر الوقت وإدبار الدّنيا وإقبال الآخرة شاغلاً لي عن الاهتمام بأحد غيري والفكر في أمر الولد وغيره فيما أُخلّفه ورائي.

[**غير انّي حيث يفردني دون هموم الناس همّ نفسي فصدقني رأيي**

وصرفني عن هواي وصَرَحَ لي محض أمري فأفضى بي إلى جدّ لا يكون فيه لعب وصدق لا يشوبه كذب وجدتك بعضي بل وجدتك كلّي حتّى كان شيئاً لو أصابك أصابني وكان الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي فكتبت إليك كتابي هذا مستظهراً إن أنا بقيت لك أو فنيت فإنّي أُوصيك بتقوى اللّه أي بُني

[**وصرفني عن هواي وصَرَحَ لي محض أمري فأفضى بي إلى جدّ لا يكون فيه لعب وصدق لا يشوبه كذب**] أي: حيث انّه عليه السلام تفرّد به همّ نفسه دون غيرها وصدّقه رأيه بكشفه له عمّا ينبغي أن يكون اشتغاله به من أمر نفسه ووجوب العمل لها فيما يهمّها وصرفه عن هواه فيما يخرج عنها إذ كان أجود الآراء وأصدقها في الأمر عند شدّة الاهتمام به، وصرّح له خالص أمره وما ينتهي به إلى جدٍّ وصدق خالصين من شائبة اللّعب والكذب.

[**وجدتك بعضي**] كناية عن شدّة اتصاله به وقربه منه ومحبّته له [**بل وجدتك كلّي**] إذ كان هو الخليفة له والقائم مقامه ووارث علمه وفضائله.

[**حتّى كان شيئاً لو أصابك أصابني**] فاتألّم بما يصيبك كما أتألّم ممّا يصيبني.

[**وكان الموت لو أتاك أتاني فعناني**] وأهمّني [**من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي فكتبت إليك كتابي هذا مستظهراً**] به حال [**إن أنا بقيت لك أو فنيت**] أي: كتبت إليه هذه الوصية لتكون له ظهراً ومستنداً يرجع إلى العمل بها في حالتي بقائه وفنائه عنه.

ثمّ قال عليه السلام: [**فإنّي أُوصيك بتقوى اللّه أي بُني**] ولعلّ المراد بها هنا الخوف من اللّه، وقد مرّ الكلام فيها.

ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله وأيّ سبب أوثق من سبب بينك وبين اللّه إن أنت أخذت به أحي قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة وقَوِّه باليقين ونوِّرْهُ بالحكمة وذلّله بذكر الموت

[**ولزوم أمره**] الذي هو من لوازم التقوى.

[**وعمارة قلبك بذكره**] استعار العمارة لتكميل قلبه بذكر اللّه وإكثاره منه؛ لأنّه روح العبادات وكمال النفس كما انّ العمارة كمال للدار.

[**والاعتصام بحبله**] استعار الحبل لما يوصل إليه من دينه فيكون التمسّك به سبباً للنجاة كالحبل، وأراد بالاعتصام الامتناع بالتمسّك به من عذاب اللّه.

وقوله: [**وأيّ سبب أوثق من سبب بينك وبين اللّه إن أنت أخذت به**] إشارة إلى القرآن المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرّقوا﴾ والاستفهام للإنكار والتعجّب من وثاقته.

[**أحي قلبك بالموعظة**] استعار الإحياء له باعتبار تكمله لنفسه بالعلم والاعتبار الحاصل عن الموعظة كما يكمل المرء بالحياة. [**وأمته بالزهادة**] استعار الإماتة لقطع القلب عن متاع الدنيا وإعراضه عن طيّباتها ولذّاتها وقابل بين الإحياء والإماتة.

[**وقَوِّه باليقين**] أي: عن ضعف الجهل للصعود إلى الملإ الأعلى ومقام الأبرار.

[**ونوِّرْهُ بالحكمة**] لأنّها سبب هدايته لسبيل اللّه في ظلمات الجهل كحامل النور بيده.

[**وذلّله بذكر الموت**] لأنّ كثرة إخطارها بالبال يستلزم الخوف ويسكّن

وقرّره بالفناء وبصّره فجائع الدنيا وحذّره صولة الدهر وفُحْشَ تقلّب اللّيالي والأيّام واعرض عليه أخبار الماضين وذكّره بما أصاب قبلك من الأوّلين وَسِرْ في ديارهم فانظر ما فعلوا وعمّا انتقلوا وأين حلّوا ونزلوا فإنّك تجدهم انتقلوا عن الأحبّة وحلّوا دار الغربة، وكأنّك عن قليل

القلب عن جماحه في ميدان الشهوات ويذلّل من غرّة الكبر وهزّة العجب وحمية الغضب.

[وقرّره بالفناء] أي: احمله على الإقرار به وأدم ذكره ليتأكّد علمك به.

[وبصّره فجائع الدنيا] أي: احمله على النظر بعين البصيرة والاعتبار برزايا الدنيا وآفاتها.

[وحذّره صولة الدهر وفُحْشَ تقلّب اللّيالي والأيّام] استعار الصولة له ملاحظة لشبهه بالسبع في أخذه وما يكون بسببه من الأذى.

[واعرض عليه أخبار الماضين] وذكّره ما أصابهم لينظر ما فعلوا وعمّا انتقلوا من الدور والقصور إلى ظلمات القبور.

[وذكّره بما أصاب قبلك من الأوّلين] لينظر ما فعلوا وعمّا انتقلوا من الآثار العظيمة والملك الجسيم حتّى تحصل له من ذلك عبرة ويقيش حاله بحالهم ويستقرب لحوقه بهم وصيرورته كأحدهم فيما صاروا إليه، ووجه الشبه قرب حاله من حال أحدهم.

[وَسِرْ في ديارهم فانظر ما فعلوا وعمّا انتقلوا وأين حلّوا ونزلوا] كما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الآية.

[فإنّك تجدهم انتقلوا عن الأحبّة وحلّوا دار الغربة، وكأنّك عن قليل

قد صرت كأحدهم فاصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لا تكلّف وامسك عن طريق إذا خفت ضلالته وَأْمُر بالمعروف تكن من أهله، وانكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله بجهدك وجاهد في اللّه حقّ جهاده

قد صرت كأحدهم فاصلح مثواك] وهو الدار الآخرة بلزوم الأعمال.

[ولا تبع آخرتك بدنياك] وما فيها من اللذّات الوهميّة والشهوات النفسانية ولفظ البيع مستعار.

[ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لا تكلّف] إذ القول بغير علم يستلزم رذيلتي الكذب والجهل، ويلحق به الذمّ، وكذا الخطاب فيما لا يكلّف ففي النبوي «من حسن إلام المرء تركه ما لا يعنيه».

[وامسك عن طريق إذا خفت ضلالته] أي: المراد الوقوف عند الشبهة وعدم التسرّع إلى سلوك طريق يشكّ في تأديته إلى الحقّ فإنّ الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وفي النبوي «دع ما يريبك إلى ما لا يربيك» وفي آخر «إذا رابك أمر فدعه».

[وَأْمُر بالمعروف تكن من أهله، وانكر المنكر بيدك ولسانك وباين من فعله بجهدك] فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أُصول الدّين وأركان الإسلام والمسلمين، وفي وجوبهما عيناً أو كفاية قولان وقوله «تكن من أهله» إشارة إلى أنّهم أولياء اللّه الأبرار الصالحون المرغوب في الكون منهم، ويجب إنكار المنكر باللّسان فإن لم ينجع فباليد ويتدرّج فيه من الأدنى إلى الأعلى.

[وجاهد في اللّه] أعداء دينه **[حقّ جهاده]** من إضافة الصفة إلى

ولا تأخذك في اللّه لومة لائم وخُضْ الغمرات إلى الحقِّ حيثُ كان وتفقّه في الدِّين وعوّد نفسك الصبر على المكروه فنعم الخلق الصبر وَألْجِئ نفسك في أُمورك كلّها إلى إلهك فإنّك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز

الموصف؛ لأنّ الصفة من باب الأهمّ أي: الجهاد الحقّ.

[**ولا تأخذك في اللّه لومة لائم**] كناية عن النهي عن التقصير في طاعة اللّه؛ إذ كان من لوازم المقصّر استحقاق لوم اللائمين.

[**وخُضْ الغمرات إلى الحقِّ حيثُ كان**] استعار الخوض لمعاناة الشدائد والدخول فيها لطلبه الحقّ.

[**وتفقّه في الدِّين**] تتعلّم الأحكام الشرعية، فإنّ من لم يتفقّه في الدِّين فهو أعرابي كما في النصّ، وقال تعالى: ﴿فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين﴾.

[**وعوّد نفسك الصبر على المكروه**] فاصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى المصيبة.

[**فنعم الخلق الصبر**] فإنّه يستلزم الظفر، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، كما مرّ في محلّه.

[**وَألْجِئ نفسك في أُمورك كلّها إلى إلهك**] بأن تتوكل على اللّه في جميع أُمورك وتفوّضها إليه.

[**فإنّك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز**] استعار الكهف له تعالى باعتبار أنّ من توكّل عليه كفاه منعه ممّا يخاف كما يمنع الكهف من يلتجيء إليه ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾ ﴿أليس اللّه بكاف عبده﴾.

واخلص في المسألة لربّك فإنّ بيده العطاء والحرمان وأكثر من الاستخارة وتفهّم وصيّتي ولا تذهبنّ صفحاً فإنّ خير القول ما نفع واعلم أنّه لا خير في علم لا ينفع ولا ينتفع بعلم لا يحقّ تعلّمه

[**واخلص في المسألة**] والدعاء [**لربّك**] إذ الإخلاص من شرائط الإجابة.

[**فإنّ بيده العطاء والحرمان**] لا بيد غيره، فكيف يلتجيء إلى غيره أو يُشرك معه.

[**وأكثر من الاستخارة**] أي: طلب الخيرة من اللّه تعالى في جميع أُمورك وهي على أقسام وأنواع قد استقصيناها في رسالة على حدة واستقصينا ما ورد فيها من الأخبار والآثار في كتابنا جامع المعارف والأحكام.

[**وتفهّم وصيّتي**] ولا تعرض عنها وتترك العمل بها، وكنّى عن ذلك بقوله: [**ولا تذهبنّ صفحاً**] منصوباً على الحال، أي: لا تذهبنّ إلى غيرها معرضاً عنها.

[**فإنّ خير القول ما نفع**] أي: فإنّ وصيّتي نافعة وما نفع فهو خير القول.

[**واعلم أنّه لا خير في علم لا ينفع**] كالسحر والكهانة والنجوم والنيرنجات ونحوها مما لا يكون سبيلاً إلى المقاصد الحقيقية الثابتة.

[**ولا ينتفع بعلم لا يحقّ تعلّمه**] قيل: تقدير الكلام انّ كلّ علم لا يحقّ بعلمه أو لا يثبت في الشريعة بعلمه وجوباً ولا ندباً فهو لم ينتفع به في طريق الآخرة فلا خير فيه؛ لأنّ الخير الحقيقي هو المنفعة الباقية عند اللّه.

أي بني، إنّي لما رأيتني قد بلغت سناً عالياً ورأيتني أزداد وهناً بادرت بوصيّتي إليك خصالاً قبل أن يعجّل بي أجلي دون أن أُفضي إليك بما في نفسي وان أنقص في رأيي كما نقص في جسمي ويسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا

ثمّ أشار عليه السلام إلى بعض العلل والأسباب الحاملة له على هذه الوصية فقال:

[**أي بني، إنّي لما رأيتني قد بلغت سناً عالياً**] بأن كبر سنّي ووهن العظم منّي [**ورأيتني أزداد وهناً**] أي: ضعفاً؛ لأنّه عليه السلام كان قد جاوز الستين.

[**بادرت بوصيّتي إليك خصالاً قبل أن يعجّل بي أجلي**] وخصالاً مفعول به قبل أن يعجّل بي أجلي.

[**دون أن أُفضي إليك بما في نفسي**] أي: من جملة أسباب المبادرة بالوصية خوف معاجلة الأجل قبل أن أُلقي إليك ما في نفسي من الحكمة، وأشار إلى السبب الثاني بقوله.

[**وان أنقص في رأيي كما نقص في جسمي**] إشارة إلى أنّ القوى النفسانية تضعف عند علوّ السنّ لضعف الأرقاع الحاملة لها فينقص بسبب ذلك تصرّف العقل وتحصيله للآراء الصالحة.

وأشار إلى السبب الثالث بقوله: [**ويسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا**] فإنّ الصبيّ إذا لم يؤخذ بالآداب في حداثته ولم تروّض قواه لمطاوعة العقل وموافقته كان بصدد أن يمثل به القوى الحيوانية إلى مشتهياتها وتنجذب إلى قياد هواه إلى الاستعمال بها فيفتنه ويصرفه عن الوجهة

فتكون كالصعب النفور وإنّما قلبُ الحَدَث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته فبادرتُكَ بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بُغيته وتجربته

الحقيقية وما ينبغي له.

[**فتكون**] حينئذ [**كالصعب النفور**] أي: كالبعير الصعب الذي لا يمكِّن راكباً وهو مع ذلك نفور عن الانس، ووجه الشبه أنّه حينئذ يعسر حمله على الحقّ وجذبه إليه كما يعسر قود الجمل الصعب.

ثمّ نبّه على وجوب المبادرة إليه بالأدب وزرعه في قلبه بقوله: [**وإنّما قلبُ الحَدَث**] الشاب، حيث كان طالباً من انتقاش العقائد قابلاً لما يلقى إليه من خير أو شرّ.

[**كالأرض الخالية**] من النبات والزرع القابلة لما يُلقى فيها من البذر.

[**ما أُلقي فيها من شيء قبلته**] وهذا بمنزلة صغرى، وتقدير الكبرى: وكلّ قلب كان كذلك فيجب أن يسبق إليه ببذر الآداب، وفي المثل: «الغلام كالطين يقبل الختم ما دام رطباً» وفي آخر: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر والعلم في الكبر كالخطّ على الماء».

[**فبادرتُكَ بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبّك لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بُغيته وتجربته**] إشارة إلى علّة غائية أُخرى لمبادرته بالأدب وهي أن يستقبل بجدّ رأيه وقوّة فكره ما قد كفاه أهل التجارب بغيته من العلوم وعوفي فيه من صلاح التجربة ومعافاتها، فأتاه من ذلك العلم المتجرّب ما كان أهل التجربة يأتونه ويطلبونه، واستبان له ما

قد كُفيتَ مؤنة الطلب وعُوفيت من علاج التجربة فأتاك من ذلك ما كنّا نأتيه واستبان لك ما ربّما أظلم علينا منه أي بُني، إنّي وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرتُ في أعمالهم وفكّرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتّى عُدتُ كأحدهم بل كأنّ إنّما انتهى إليّ من أُمورهم قد عمرت من أولهم إلى آخرهم فعرفتُ صفو ذلك من كدره

ربّما أظلم عليهم منه وفرّق بين من يأتيه العلم صفواً واضحاً قد كُفي فيه مؤنة الاكتساب وبين من سعى وجدّ في تحصيله وخاض غمرات الشكوك وظلمات الشبهات، ولذا قال عليه السلام:

[قد كُفيتَ مؤنة الطلب وعُوفيت من علاج التجربة فأتاك من ذلك ما كنّا نأتيه] أي: الذي كنّا نحن نتجشم المشقّة في اكتسابه ونتكلّف طلبه.

[واستبان لك ما ربّما أظلم علينا منه] حسبما مرّ **[أي بُني، إنّي وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي]** قيل هو في قوّة جواب اعتراض مقدّر كان قائلاً قال له فكيف حصّلت العلوم عن تجارب الأُمور مع حاجة التجربة إلى عمر طويل يشاهد فيه الإنسان تغيّرات الأُمور وتقلّبات الدهر فقال: إنّي وإن لم أكن عمّرت أعمار السابقين ولا شاهدتُ أحوالهم **[فقد نظرتُ في أعمالهم]** التي عملوها **[وفكّرت في أخبارهم]** التي نقلوها **[وسرت في آثارهم]** سيراً محسوساً ومعقولاً **[حتّى عُدتُ]** وصرتُ **[كأحدهم]** في عيان أُمورهم ومشاهدة آثارهم **[بل كأنّ إنّما انتهى إليّ من أُمورهم قد عمرت من أولهم إلى آخرهم فعرفتُ]** عطفٌ على قوله فسرتُ.

[صفو ذلك من كدره] كنّى بالصفو عن الخير، وبالكدر عن الشرّ،

ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كلّ أمر جليله وتوخّيت لك جميله وصرفتُ عنك مجهوله ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق وأجمعت من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر مقتبل الدهر ذو نيّة سليمة ونفس صافية

أي: عرفت خير أُمورهم من شرّه.

[**ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كلّ أمر جليله**] وهو خيره وما ينفع منه عند اللّه من العلوم والحكم النافعة والمواعظ البالغة.

[**وتوخّيت**] أي: قصدتُ [**لك جميله**] أي: أحسنه دون قبيحه.

[**وصرفتُ عنك مجهوله**] أي: ما اشتبه عليك أمره والتبس الحقّ فيه.

[**ورأيت حيث عناني من أمرك**] أي: أهمّني [**ما يعني الوالد الشفيق**] إشارة إلى كمال عنايته وشفقته عليه ووجوه اختياراته له ما هو الأولى به من العلوم.

[**وأجمعت**] أن يكون ذلك عطف على يعنيني أي: عزمت عليه. [**من أدبك أن يكون ذلك**] في محلّ النصب مفعول أوّل لـ«رأيتُ»، وتكون هنا تامّة والواو في قوله: [**وأنت مقبل العمر مقتبل الدهر ذو نيّة سليمة ونفس صافية**] والجملة حاليّة، والمفعول الثاني لـ«رأيتُ» محذوف تقديره أنفع وأصلح، وتقدير الكلام: ورأيتُ ـ حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفي من أمر ولده في النظر في مصالحه والاهتمام بأحواله وما صمّمت عزمي عليه من تأديبك ـ أن يكون ذلك التأديب حال إقبال عمرك وحال كونك ذا نيّة سليمة من الأمراض النفسانية والأخلاق الذميمة وكونك ذا نفس صافية من كدر الباطل.

وأن ابتدئك بتعليم كتاب اللّه وتأويله وشرائع الإسلام وأحكامه وحلاله وحرامه لا أُجاوز ذلك بك إلى غيره ثمّ أشفقتُ أن يلتبس عليك ما اختلف الناس من أهوائهم وآرائهم مثل ما التبس عليهم فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له أحبّ إليّ من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة ورجوتُ أن يوفّقك اللّه فيه لرشدك وأن يهديك لقصدك، فجهدتُ إليك وصيّتي هذه

[**وأن ابتدئك بتعليم كتاب اللّه وتأويله وشرائع الإسلام**] أي: قوانينه.

[**وأحكامه وحلاله وحرامه لا أُجاوز ذلك بك إلى غيره**] من العلوم العقلية ومجادلات المتكلّمين ومقالات المتفلسفين.

[**ثمّ أشفقتُ**] أي: خفتُ [**أن يلتبس عليك ما اختلف الناس**] فيه [**من أهوائهم وآرائهم مثل ما التبس عليهم**] أي: التباساً مثل الالتباس عليهم [**فكان أحكام ذلك**] أي: ما اختلف الناس فيه [**على ما كرهت من تنبيهك له أحبّ إليّ من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة**] في الدِّين؛ وذلك الأمر هو ما اختلف الناس فيه من المسائل التي كثر التباس الحقّ فيها بالباطل وتراكم الشبهات التي هي مظنّة الخطر والانحراف عن طريق الحقّ إلى سبيل الهلاك.

[**ورجوتُ**] عطف على أشفقتُ [**أن يوفّقك اللّه فيه**] أي: فيما اختلف فيه الناس.

[**لرشدك وأن يهديك لقصدك، فجهدتُ إليك وصيّتي هذه**] وفي ذلك دلالة على وجوب الاقتصار على الكتاب والسنّة في الأُصول والفروع

واعلم يا بُني، إنّ أحبّ ما أنت آخذ به إليّ من وصيّتي تقوى اللّه والاقتصار على ما افترض اللّه عليك والأخذ بما مضى عليه الأوّلون من آبائك والصالحون من أهل بيتك فإنّهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر وفكّروا كما أنت مفكّر ثمّ ردّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا والامتثال عمّا لم يكلّفوا

وعدم التجاوز إلى غيرهما من مجادلات المتكلّمين وأقوال المتفلسفين وأرباب الظنّ والتخمين بما لا يفضي إلى العلم واليقين ولا إلى برهان مبين.

[واعلم يا بُني، إنّ أحبّ ما أنت آخذ به إليّ من وصيّتي تقوى اللّه] التي هي الأصل والعماد والمستمسك والسّناد، وهي الزاد المبلغ إلى اللّه تعالى كما أُشير إليه بقوله: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التقوى﴾.

[والاقتصار على ما افترض اللّه عليك] في الكتاب والسنّة ممّا بان دليله ووضح سبيله دون التوغّل في الشبهات والتعويل على الهوى والآراء.

[والأخذ بما مضى عليه الأوّلون من آبائك والصالحون من أهل بيتك] كحمزة وجعفر وأبي طالب وعبدالمطلب وعبيدة بن الحرث ونحوهم.

[فإنّهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر وفكّروا كما أنت مفكّر] لأنّهم حيث تأمّلوا الأدلّة وفكّروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلّصها من مضرّة عظيمة سبيلها أن يقع به إن لم ينظر في الخلاص منها.

[ثمّ ردّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا والامتثال عمّا لم يكلّفوا] أي: تركوا الخوض فيما لم يعلموا وسكتوا عمّا سكت اللّه عنه، فينبغي الاقتداء بهم في الأخذ بما عرفوا والإمساك عمّا لم يكلّفوا.

فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهّم وتعلّم لا بتورّط الشبهات على الخصومات وابدء قبل نظرك ذلك بالاستقامة عليه بإلهك والرّغبة إليه في توفيقك وترك كلّ شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع وتمّ رأيك فاجتمع

[فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك] الاقتصار على ما فرض اللّه والأخذ بما عليه السلف الصالح [دون أن تعلم كما علموا] وتقتصر على ما أخذوا [فليكن طلبك ذلك بتفهّم] للمقاصد [وتعلّم] للحقّ والطلب له [لا بتورّط] أي: لا على وجه تعلّم [الشبهات] والتورّط فيها [على الخصومات] فإنّ ذلك مما يصدّ عن تعلّم الحقّ ويمنع من قبوله.

[وابدء قبل نظرك ذلك] أي: في ذلك الطلب [بالاستقامة عليه بإلهك والرّغبة إليه في توفيقك] لإصابة طريق الحقّ والوصول إليه.

[وترك كلّ شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة] كالعادة في نصرة المذاهب الباطلة بحسب اتباع الهوى والآراء التي تطلب بها الرياسات، فإنّ النفس إذا كان فيها شائبة محبّة لأمر جسماني لم يتّضح لها طريق الحقّ، بل كانت إلى الانحراف في طرق الضلال والشبه المناسبة للمطالب الباطلة أقرب، واستعار الإسلام لإهماله وعدم جذبه عمّا يتورّط فيه من الأُمور المضلّة.

[فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك] من كلّ شائبة تنافي النظر والفكر والتأمّل.

[فخشع] من خشية اللّه أن يؤاخذك بتركه [وتمّ رأيك] وعزمك عليه [فاجتمع] متفرّقه حتّى لم يبق ذلك إلى تركه التفات.

وكـان همّك فيه همّاً واحـداً فانظر فـيما فسّرت لك وإن أنت لم يجتـمع لك ما تحبّ مـن نفسك وفـراغ نظرك وفكرك فـاعلم إنّك إنّـما تخبط خبط العشـواء الخابطة لا تهـتـدي وتتورّط في الظلمـاء وليس طالب الدِّين من خبط وأخلط والإمساك عن ذلك أمثل فتفـهّم يا بُنّي وصيّتي، واعلم انّ مالك الموت هو مالك الحياة وأنّ الخالق هو المميت وأنّ المفني هو المعيد وأنّ المبتلي هو المعافي

[وكان همّك فيه همّاً واحداً] لا ينقسم إلى غيره [فانظر] حينئذ [فيما فسّرت لك] ونبّهتك عليه من المسائل العقلية الإلهية [وإن أنت لم يجتمع لك ما تحبّ من نفسك وفراغ نظرك وفكرك] عن الشوائب النافية للعلم وطلبه ونظرت [فاعلم إنّك] في خوضك وطلبك له [إنّما تخبط خبط العشواء الخابطة لا تهتدي] إلى ما فيه رشدها وصلاحها، واستعار الخبط له لأنّه طالب للعلم من غير استكمال شرائط الطلب، وعلى غير وجهه فهو كالناقة العشواء.

[وتتورّط في الظلماء] استعار الظلماء للشُّبه باعتبار أنّ الذهن لا يهتدي فيها لطلب الحقّ كالماشي في الظلمات.

[وليس طالب الدِّين من خبط وأخلط والإمساك عن ذلك أمثل] أي: أفضل.

[فتفهّم يا بُنّي وصيّتي، واعلم انّ مالك الموت هو مالك الحياة وأنّ الخالق هو المميت وأنّ المفني هو المعيد وأنّ المبتلي هو المعافي] هذا تنبيهٌ على جملة من صفات اللّه وأفعاله التي قد يتوهّم التضاد والتنافي في إسناده إلى مبدء واحد، فأشار إلى نفي تضادّها ووحدة مبدئها، فإنّ القادر على

وإنّ الدّنيا لم تكن تستقرّ إلا على ما جعلها اللّه عليه من النعماء والابتلاء أو ما شاء مما لا يعلم، فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك فإنّك أوّل ما خُلقت خُلقتَ جاهلاً ثمّ علمتَ

الموت هو القادر على الحياة؛ إذ اسبابهما تنتهي إليه، وكذا فاعل الخلق هو مقدّر الموت الذي ينتهي إليه أسبابهما كما قال تعالى: ﴿يُحيي ويميت﴾ ﴿ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين﴾ وكذا المفني هو المعيد والمبتلي هو المعافي باعتبار انتهاء أسباب الفناء والإعادة والابتلاء والمعافاة إليه.

وقوله: [**وإنّ الدّنيا لم تكن تستقرّ إلا على ما جعلها اللّه عليه من النعماء والابتلاء**] أي: لم يكن خلقها وإيجادها إلا على ما فيها من خير مراد بالذات وشرّ مراد بالعرض.

[والجزاء في المعادخ أي: ولزوم الجزاء على السيّئة وعقاب النفوس في المعاد عليها من الشرور اللازمة لما حصلت عليه من الهيئات البدنية والملكات الردية في الدّنيا.

[**أو ما شاء مما لا يعلم، فإن أشكل عليك شيء من ذلك**] أي: من أسرار القدر وخفي عليك وجه الحكمة فيه، كالسؤال عن المصلحة في خلق الكافر المخلّد في النار سيّما إذا كان مدّة عمره في الدنيا فقيراً محتاجاً مبتلىً، وكالمصلحة في خلق إبليس.

[**فاحمله على جهالتك**] ولا تتوهّم خلوّه من حكمة، فإنّ خفاء الحكمة لا يدلّ على عدمها.

[**فإنّك أوّل ما خُلقتَ خُلقتَ جاهلاً ثمّ علمتَ**] كما قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أُمّهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ ونصب «أوّل» على

وما أكثر ما تجهل من الأمر ويتحيّر فيه رأيك ويضلّ فيه بصرك ثمّ تبصره بعد ذلك فاعتصم بالذي خلقك ورزقك وسوّاك وليكن له لا لسواه تعبُّدك وإليه رغبتُك ومنه شفقتك واعلم يا بُنيّ إنّ أحداً لم ينبئ عن اللّه سبحانه كما أنبأ عنه نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه وآله

الظرف، و«جاهلاً» على الحال، وروي «أوّل» مرفوعاً بالابتداء و«جاهل» بالرفع خبراً له.

ثمّ نبّهه على أكثريّة ما يسبق جهله به من الأُمور ثمّ يدركه فيما بعد ليجعل ما لا يدرك وجه الحكمة فيه من ذلك القبيل فقال:

[**وما أكثر ما تجهل من الأمر ويتحيّر فيه رأيك ويضلّ فيه بصرك ثمّ تبصره بعد ذلك**] فعساك إذا جهلت شيئاً أن تعلمه بعد ذلك، فلا تستوحش من جهلك.

[**فاعتصم بالذي خلقك ورزقك وسوّاك**] هذه النعوت كالعلّة للاعتصام، فإنّ تعليق الحكم على الوصف يُشعر بالعليّة.

[**وليكن له لا لسواه تعبُّدك وإليه رغبتُك ومنه شفقتك**] لأنّه تعالى أحقّ موجود بذلك وأولاه بالأُمور المذكورة.

ثمّ عاد عليه السلام إلى أمره باتّباع الكتاب والسنّة دون غيرهما من الفضول فقال: [**واعلم يا بُنيّ إنّ أحداً**] من الأنبياء أو المرسلين والملائكة المقرّبين [**لم ينبئ**] ولم يخبر [**عن اللّه سبحانه**] في أحوال المبدء والمعاد والشرائع والأحكام والحلال والحرام والمعارف الربّانية والأسرار الإلهية.

[**كما أنبأ عنه نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه وآله**] ولذا كانت هداية هذه الأُمّة أكثر من هدايات الأُمم السالفة ومعارفهم أشرف وإدراكاتهم أتقن

فارضَ به رائداً وإلى النجاة قائداً وإنّي لم آلُكَ نصيحةً وإنّك لم تبلغ في النظر لنفسك وإن اجتهدت في ذلك مبلغ نظري لك واعلم يا بني أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسلُهُ ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته

وقلوبهم أبصر.

[**فارضَ به رائداً**] وهو في الأصل الرجل الذي يتقدّم القوم فيرتاد لهم المرعى، واستُعير له ﷺ باعتبار أنّه قد اختير ما في الآخرة من الفوز العظيم والسعادة الباقية.

[**وإلى النجاة قائداً وإنّي لم آلُكَ نصيحةً**] أي: لم أُقصّر في نصحك، يقال: ألى الرجل يألو أي: قصّر فهو: وال، والفصل لازم لكنّه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنصبه وكان أصله لا آلولك نصحاً وهو منصوب على التمييز.

[**وإنّك لم تبلغ في النظر لنفسك وإن اجتهدت في ذلك مبلغ نظري لك**] فاقنع بما ألقيته إليك وخذ ما أتلوه عليك ولا تطلب ما وراء ذلك.

[**واعلم يا بني أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسلُهُ**] إذ من لوازم الإلهية الحكمة ووجوب بعثة الرسل إلى الخلق ووصولهم إليه.

[**ولرأيت آثار ملكه وسلطانه**] بأن يكون له كتاب وحجّة ونبي ودعوة.

[**ولعرفت أفعاله وصفاته**] والعلم بها فرع العلم بذاته، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور وهذه اللوازم كلّها باطلة لأنّه لم يأتنا رسول ذو معجزة يدلّ على الثاني ويخبرنا عنه، وآثار الملك والسلطان وعظمة الفعل التي تشاهدها إنّما

ولكنّه إلهٌ واحدٌ كما وصف نفسه لا يضادّه في ملكه أحد لا يزال أبداً ولم يزل أوّلاً قبل الأشياء بلا أوّلية والآخر بعد فناء الأشياء بلا نهاية

تدلّ على حكيم قادر، فإمّا على التعدّد فلا، وكذا صفات الإلهية المكتسبة بواسطة الأفعال من العلم والقدرة والإرادة وغيرها إنّما تدلّ على صانع موصوف بها، فإمّا على صانعين أو أكثر فلا، فإذاً القول بالشريك باطل لا برهان عليه، بل البرهان قائم على نفسه، وقال تعالى: ﴿ومن يدّع مع اللّه إلهاً آخر لا برهان له به﴾ وأشار إلى النتيجة بقوله:

[**ولكنّه إلهٌ واحدٌ كما وصف نفسه**] بقوله: ﴿قُل هو اللّه أحدٌ﴾، ﴿إنّما إلهكم إله واحد﴾، ﴿لا إله إلا هو تعالى عمّا يُشركون﴾. ويمكن أن يكون إشارة إلى برهان آخر وهو انّه على تقدير وجود الشريك لابدّ أن يكون كلّ منهما متّصفاً بصفة الالوهية من الصدق والحكمة، وقد وصف هذا الإله الذي نعبده نفسه بالوحدة، فلو كان له شريك لزم كذبه فيلزم نفي إلوهيّته والمفروض ثبوتها، هذا خلف.

[**لا يضادّه في ملكه أحد**] أي: يعانده في أفعاله وينازعه في ملكه كما هو عادة الملوك، بل هو اللّه الواحد القهّار.

[**لا يزال أبداً**] إشارة إلى دوام وجوده وثبوته أزلاً وأبداً.

[**ولم يزل أوّلاً قبل الأشياء بلا أوّلية**] لوجوده؛ إذ لو كان لوجوده أوّلوية لكان مسبوقاً بالعدم فكان محدثاً فكان ممكناً هذا خلف.

[**والآخر بعد فناء الأشياء بلا نهاية**] لوجوده، فإنّه لو كانت آخريّته مقطوعة بنهاية لكان ملحوقاً بالعدم، فلم يكن واجب الوجود لذاته، هذا

عَظُمَ أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره وقلّة مقدرته وكثرة عجزه وعظيم حاجته إلى ربّه في طلب طاعته والرهبة من عقوبته والشفقة من سخطه فإنّه لم يأمرك إلا بحسن ولم ينهك إلا عن قبيح

خلف.

[**عَظُمَ أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر**] أي: هو أجلّ وأعظم من أن يطّلع أحد بقلبه أو بصره على كمال صفات ربوبيّته كما مرّ بيانه سابقاً، وذلك لأنّ صفة ربوبيّته نفس ذاته، فإحاطة العلم بها موقوف على إحاطته بذاته، ويمتنع أن يكون المحيط محاطاً، قال تعالى: ﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ وقال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾، ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، وقال ﷺ: «إنّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار».

[**فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره وقلّة مقدرته وكثرة عجزه وعظيم حاجته إلى ربّه في طلب طاعته والرهبة من عقوبته والشفقة من سخطه فإنّه لم يأمرك إلا بحسن ولم ينهك إلا عن قبيح**] لما نبّهه على عظمة خالقه، أمره أن يفعل كما ينبغي أن يفعله من هو مثله في النقصان بالنسبة إلى عظمة اللّه فيعطيه حقّ طاعته ويعبده بكمال عبادته وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله، وعدّ له وجوه النقصان ليعتبر حاله في كلّ منها بالقياس إلى كمال ذاته تعالى، فصغّر منزلته بالنسبة إلى عظمته وقلّة مقدرته وكثرة عجزه بالنسبة إلى كمال قدرته، وكذا حاجته إلى ربّه في كلّ حال من طلب توفيقه وإعداده لطاعته والرهبة من عقوبته

يا بُنيّ إنّي قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها وانتقالها وأنبأتك عن الآخرة وما عُدَّ لأهلها فيها وضربتُ لك فيهما الأمثال لتعتبر وتحذو عليها إنّما مثل من خبر الدّنيا كمثل قوم سَفْر نبا بهم منزل جدب فأمّوا منزلاً خصباً وجناباً مربعاً فاحتملوا وعثاء الطريق وفراق الصديق وخشونة السفر وجشوبة المطعم ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم

والاستعاذة من سخطه كلّ ذلك بالنسبة إلى غنائه المطلق، وقوله «فإنّه لم يأمرك إلا بحسن ولم ينهك إلا عن قبيح» تنبيهٌ على وجوب طاعته في كلّ ما أمر به ونهى عنه.

[يا بُنيّ إنّي قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها وانتقالها وأنبأتك عن الآخرة وما عُدَّ لأهلها فيها وضربتُ لك فيهما الأمثال لتعتبر وتحذو] أي: تحتذي **[عليها]** يقال: حذا عليه يحذو واحتذى مثاله أي: احتذى به.

[إنّما مثل من خبر الدّنيا] وعرف زوالها وخير الآخرة وبقائها وما أُعدّ فيها لأهلها **[كمثل قوم سَفْر]** بالتسكين أي: مسافرون. **[نبا بهم منزل جدب]** أي: فارقوا منزلاً جدباً **[فأمّوا]** أي: قصدوا **[منزلاً خصباً]** وهو ضدّ الجدب **[وجناباً]** أي: فناء **[مربعاً]** بفتح الميم أي: ذا كلأ وعشب.

[فاحتملوا وعثاء الطريق] أي: مشقّته **[وفراق الصديق وخشونة السفر وجشوبة المطعم]** أي: غلظه، وقيل: هو الذي لا آدم معه.

[ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم] أي: مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة كمن سافر من منزل جدب إلى منزل خصب فلقى في طريقه مشقّة، فإنّه لا يكترث بذلك في جنب ما يطلبه، وبالعكس من عمل للدّنيا

ومثل من اغترّ بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصب فنبا بهم إلى منزل جدب فليس شيء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه يا بنيّ اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك، فأحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك واكره له ما تكره لها ولا تظلم كما لا تحبّ أن تظلم

وأهمل الآخرة فإنّه كمن سافر إلى منزل ضنك ويهجر منزلاً رحباً طيّباً، والمنزل الخصب هنا الدنيا لأنّها محلّ سعادة أهلها ولذّاتهم، والمنزل الجدب هو الآخرة؛ إذ لم يكونوا قد استعدّوا لدرك السعادة فيها كما أشار إليه بقوله:

[ومثل من اغترّ بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصب فنبا بهم إلى منزل جدب فليس شيء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه] وهذان التمثيلان راجعان إلى قول النبي صلى الله عليه وآله «الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر».

ثمّ شرع عليه السلام في أمره بإصلاح معاملته مع الخلق وحسن معاشرته لهم فقال: **[يا بنيّ اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك، فأحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك واكره له ما تكره لها]** استعار الميزان له إرادة أن يكون ذا عدل بين نفسه وبين الناس كالميزان، ثمّ شرح وجوه العدل والتسوية:

أحدها: أن يحبّ لغيرها ما يحبّ لنفسه ويكره له ما يكره لها، كما روي أنّه لا يكمل إيمان عبد حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه؛ لأنّ ذلك من فضيلة العدالة التي هي من كمال الإيمان.

وأشار إلى الثاني بقوله: **[ولا تظلم كما لا تحبّ أن تظلم]** لأنّ كلاً

وأحسن كما تحبّ أن يُحسن إليك واستقبح من نفسك ما يستقبح غيرك وارضَ من الناس ما ترضاه لهم من نفسك ولا تُقُلْ ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم ولا تقل للناس ما لا تحب أن يُقال لك واعلم إنّ الإعجاب ضدّ الصواب وآفة الألباب

من الظلم والانظلام رذيلة ينبغي التنزّه عنها.

وأشار إلى الثالث بقولهك [**وأحسن**] اي: إلى الخلق [**كما تحبّ أن يُحسن إليك**] والإحسان فضيلة تحت العفّة.

وإلى الرابع بقوله: [**واستقبح من نفسك ما يستقبح غيرك**] فينزجر عن جميع مناهي اللّه وهو من لوازم المروءة.

وإلى الخامس بقوله: [**وارضَ من الناس ما ترضاه لهم من نفسك**] أي: كلّ ما رضي أن يفعله بهم من خير أو شرّ إن فعله فينبغي أن يرضى بمثله منهم، وفيه تنبيهٌ على أنّه لا يجوز أن يفعل الشرّ لعدم لازمه وهو الرضا منهم به.

وأشار إلى السادس بقوله: [**ولا تُقُلْ ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم**] وفي هذا الوصل تنبيهٌ على أنّ تصوّر قلّة العلم قد يكون داعية لبعض الناس إلى أن يقول بغير علم لئلا يُنسب إلى الجهل فيضلُّ ويُضِلُّ كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في اللّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾.

[**ولا تقل للناس ما لا تحب أن يُقال لك**] كالمواجهة بالعيوب والألقاب المكروهة وكلّ كلام مؤذ للناس.

[**واعلم إنّ الإعجاب ضدّ الصواب وآفة الألباب**] لأنّه آفة للعقل وهو من أكبر أمراض العقل وآفاته المهلكة له، قالﷺ: ثلاث مهلكات وعدّ منها

فاسع في كدحك ولا تكن خازناً لغيرك وإذا أنت هُديت لرشدك فكُنْ أخشع ما تكون لربّك واعلم أنّ أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ومشقّة شديدة وإنّه لا غنى بك فيه عن حسن الارتياد وقدر بلاغك من الزاد مع خفّة الظهر فلا تحملنّ على ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك

«إعجاب المرء بنفسه».

[**فاسع في كدحك**] أي: كسبك، أي: اسعَ فيما ينبغي لك من كسب الطاعات، وقيل: أراد بالكدح ما اكتسبه من المال وما ينبغي فيه إنفاقه في سبيل اللّه.

[**ولا تكن خازناً لغيرك**] فتخلفه للوارث فيكون لهم المهنى وعليك الوزر.

[**وإذا أنت هُديت لرشدك**] بأن عرفت الطريق إلى اللّه تعالى في جميع مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال.

[**فكُنْ أخشع ما تكون لربّك**] لأنّ هدايته للرشد نعمة عظيمة توجب المقابلة بالخشوع؛ لأنّه ضرب من الشكر.

[**واعلم أنّ أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ومشقّة شديدة**] استعار الطريق لما يسير فيه الإنسان من أحوال الدّنيا ويعبرها إلى الآخرة، وأشار بطولها وشدّتها إلى عسر النجاة فيها والسلامة من خطرها؛ إذ كان ذلك إنّما يكون بلزوم القصد والثبات على سنن العدل والاستقامة على حاق الوسط.

[**وإنّه لا غنى بك فيه عن حسن الارتياد**] أي: الطلب [**وقدر بلاغك من الزاد مع خفّة الظهر فلا تحملنّ على ظهرك فوق طاقتك فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك**] وحاصله: أنّ بين يديك طريقاً بعيد المسافة شديد المشقّة،

وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتمه وحمّله إيّاه وأكثر من تزويده وأنت قادرٌ عليه فلعلّك تطلبه فلا تجده

ومن سلك طريقاً فلا غناء له من أن يرتاد ويتزوّد من الزاد قدر ما يبلغه الغاية، وأن يكون خفيف الظهر في سفره ذلك، فإيّاك أن تحمل من الماء ما يثقلك ويكون وبالاً عليك، استعار لفظ الزاد للتقوى والكمالات التي هي بلاغ الإنسان في تلك الطريق إلى اللّه تعالى وبها يكون النجاة فيها والخلاص من مهالكها، واستعار الخفّة لقليل اكتساب الآثام وحملها على النفس ولفظ الحمل لاكتسابها، ووجه الاستعارة أنّ مقلّل الآثام سريع القطع لتلك الطريق قريب إلى النجاة فيها من مخاوفها، كما قال عليه السلام: «تخفّفوا تلحقوا» وكما قال النبي صلى الله عليه وآله: «نجى المخِفُّون» ولأنّ مكتسب الآثام ثقيل بها وبطيء عن لحوق المخفّين ويهلك بها في طريقه وكثرة تخلّفه تابعة لكثرة اكتسابه كما يكون حال المثقل في الطريق البعيدة، ولفظ الظهر ترشيح ———.

ثمّ نبّه على وجوب إنفاق المال في وجوه الصدقة والبرّ لمن يحتاج إليه من أهل الفاقة فقال:

[وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتمه وحمّله إيّاه وأكثر من تزويده وأنت قادرٌ عليه فلعلّك تطلبه فلا تجده] أي: إذا وجدت من الفقراء والمساكين من يحمل ذلك الثقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحمّله إيّاه، فلعلّك تطلب مالك فلا تجده، واستعار الزاد لما يحصل من فضيلة السخاء والكرم بالإنفاق؛ لأنّه السبيل لسلامة النفس من الهلاك في طريق

واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضائه لك في يوم عسرتك واعلم أنّ أمامك عقبة كؤوداً المخفّ فيها أحسن حالاً من المثقل والمبطيءُ عليها أقبح حالاً من المسرع وإنّ مهبطها بك لا محالة على جنّة أو على نار فَارْتَدْ لنفسك قبل نزولك ووطّئ المنزل قبل حلولك

الآخرة، ووسيلة إلى السعادة الباقية كالزاد المخلّص للمسافر في طريقه والمبلغ له إلى مطالبه، واستعار للمصدّق عليه وصف الحامل لذلك الزاد باعتبار أنّه سبب لحصول الفضيلة بتلك الصدقة ووصول ثوابها إلى المتصدّق يوم القيامة. ثمّ أمره أن يغتنم ذا الفاقة عند وجدانه الصدقة بقوله «فلعلّك تطلبه فلا تجده» لأنّ الوسيلة إلى أمر عظيم إذا كانت في معرض أن تطلب فلا توجد ثمّ وجدت في وقت فمن الواجب أن يغتنم في تحصيلها ولا تُهمل.

[واغتنم من استقرضك في حال غناك ليجعل قضائه لك في يوم عسرتك] استعار وصف المستقرض هنا للّه باعتبار أنّه هو المجازي بالثواب من أنفق ماله في طاعته، كما أُشير إليه بقوله: ﴿إن تقرضوا اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه لكم أضعافاً كثيرة﴾ ونبّه بكون القرض في حال الغناء والقضاء في حال العسرة ليكون القضاء أفضل فيرغب في القرض لغاية الربح المطلوب.

ثمّ نبّه على شدّة طريق الآخرة وعلى وجوب الاستعداد لها بالخفّة من حمل الآثام والسرعة فيها قبل انقضاء الأيّام فقال: **[واعلم أنّ أمامك عقبة كؤوداً]** أي: شاقّة صعبة المصعد.

[المخفّ فيها أحسن حالاً من المثقل والمبطيءُ عليها أقبح حالاً من المسرع وإنّ مهبطها بك لا محالة على جنّة أو على نار فَارْتَدْ] أي: أُطلب **[لنفسك قبل نزولك ووطّئ المنزل قبل حلولك]** استعار العقبة لما فيها من

واعلم انّ الذي بيده خزائن السموات والأرض قد أذن لك في الدعاء وتكفّل بالإجابة وأمرك أن تسأله ليعطيك وتسترحمه ليرحمك ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه

الصعود والارتقاء في درجات الكمال بالفضائل عن مهابط الرذائل ووصفها بشدّة الصعود لما في ذلك الارتقاء من التعسّر وكثرة الموانع، وحيث إنّ هذه العقبة تؤدّي إلى إحدى الغايتين الجنّة أو النار، كالهابط بالشيء يوصله إلى قراره، أمره أن يطلب ما يكون سبباً لنجاته قبل نزوله أحد المنزلين الذين هما غاياتهما ليكون هبوطه إلى الجنّة وأن يوطئ المنزل بالاستعداد له، وروي يوطن أي: يتّخذه وطناً.

[**واعلم انّ الذي بيده خزائن السموات والأرض**] علّق الحكم الآتي بهذا الوصف إشعاراً بأنّه إذا كان بهذه الصفة فهو أحقّ بالرغبة إليه من كلّ أحد.

[**قد أذن لك في الدعاء وتكفّل بالإجابة**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي﴾.

[**وأمرك أن تسأله ليعطيك**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿واسألوا اللّه من فضله﴾.

[**وتسترحمه ليرحمك**] والمقدّمات الثلاث بمنزلة صغرى وتقدير كبراها: وكلّ من كان كذلك فهو أحقّ أن يُرْغَب إليه وأن يُدْعى وأن يُسأل وأن يُسترحم.

[**ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه**] أي: حاجب ولا بوّاب

ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه ولم يمنعك إن أسأت من التوبة ولم يعاجلك بالنقمة ولم يفضحك حيث تعرّضت للفضيحة ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ولم يناقشك بالجريمة

لتنزّهه عن الجسمية والجهة وصفات المحدث، وإذا كان بهذه الصفة فهو أولى بأن يُسأل ويُسترحم.

[**ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه**] لأنّ الشفيع إنّما يضطرّ إليه عند تعذّر المطلوب من جهة المرغوب إليه، إمّا لبخله أو حاجته أو جهله باستحقاق الطالب وهو تعالى لا بخل فيه ولا منع من جهته وإنّما يتوقّف فيضه على استعداد الطالب له.

[**ولم يمنعك إن أسأت من التوبة**] بل أمرك بها ووعدك عليها فقال: ﴿يا أيّها الذين آمنوا توبوا إلى اللّه توبةً نصوحاً عسى ربّكم أن يكفّر عنكم سيّئاتكم ويدخلكم الجنّة﴾، وقال تعالى ـ بعد أن عدّد الكبائر وتوعّد عليها ـ ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأُولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات﴾.

[**ولم يعاجلك بالنقمة**] مع اطّلاعه عليك حين المعصية.

[**ولم يفضحك حيث تعرّضت للفضيحة**] بل أمهلك على ظلمك وأسبل عليك ستر كرمه وحلمه عنك.

[**ولم يشدد عليك في قبول الإنابة**] والرجوع كما يفعله الملوك في حقّ من أساء وطلب الإقالة.

[**ولم يناقشك بالجريمة**] والذنب الصادرين منك بأن يستقصي في حسابك، بل سهّل عليك في ذلك وقبل توبتك واعتذارك؛ إذ هو تعالى

ولم يويئسك من الرحمة بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة وحسب سيّئتك واحدة وحسب حسنتك عشراً وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب فإذا ناديته سمع نداك وإذا ناجيته علم نجواك فأفضيت إليه بحاجتك

لاتضرّه معصية العاصين ولا تنفعه طاعة المطيعين.

[**ولم يويئسك من الرحمة**] بل جعل اليأس من رحمته من المعاصي الكبائر فقال: ﴿ومن يقنط من رحمة ربّه إلا الضالّون﴾، ﴿ولا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون﴾ وقال: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعاً﴾.

[**بل جعل نزوعك عن الذنب**] وتوبتك منه [**حسنة**] حيث قال ـ بعد ذكر التوبة ـ: ﴿فأُولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات﴾.

[**وحسب سيّئتك واحدة وحسب حسنتك عشراً**] حيث قال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيّئة فلا يجزى إلا مثلها﴾.

[**وفتح لك باب المتاب**] حيث قال: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ وقال: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾.

[**وباب الاستعتاب**] حيث أرشدك إلى طلب الرضا عنه بعد توبته.

[**فإذا ناديته سمع نداك**] كما قال تعالى: ﴿إنّ ربّي لسميع الدعاء﴾ وقال: ﴿فإنّي قريب أُجيب دعوة الداعي﴾.

[**وإذا ناجيته علم نجواك**] لأنّه يعلم السرّ وأخفى.

[**فأفضيت إليه بحاجتك**] أي: أوصلتها إليه إن شئت سرّاً وإن شئت جهراً.

وأبثثته ذات نفسك وشكوت إليه همومك واستكشفته كروبك واستعنته على أُمورك وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار وصحّة الأبدان وسعة الأرزاق ثمّ جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته متى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته

[**وأبثثته ذات نفسك**] أي: نشرت له ما كان في نفسك من المهمّات.

[**وشكوت إليه همومك واستكشفته كروبك واستعنته على أُمورك وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار وصحّة الأبدان وسعة الأرزاق ثمّ جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته**] استعار المفاتيح للأدعية من حيث انّها أسباب لتحصيل النعمة وكمال الرحمة، ولذا قال: [**متى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته**] واستعار لفظ الأبواب لأسباب جزئيات النعم الواصلة إلى العبد، وخزائن نِعم، هي خزائن السموات والأرض؛ إذ الكلّ منه وبيده، واستعار الاستمطار لطلب نِعَم اللّه تعالى ملاحظةً لشبهها بالمطر في كونها سببين للحياة وصلاح الحال في الدنيا ونسبة طالبها بالمستمطر، ورشح بذكر الشآبيب جمع شؤبوب وهو: الدفعة من المطر. وكلٌّ من المذكورات بمنزلة صغرى وتقدير كبراها: وكلّ من كان كذلك فهو أحقّ بأن يُغرب إليه ويُوجَّه الطلب نحوه.

ثمّ لمّا رغّبه في الدعاء نبّه على أنّ الإجابة قد تبطي وتتأخّر لصالح وحكم، بقوله:

فلا يقنطنّك إبطاء إجابته فإنّ العطيّة على قدر النيّة وربّما أُخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأُوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً أو صرف عنك لما هو خير لك فلربّ أمر قد طلبت فيه هلاك دينك لو أُوتيته فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفي عنك وباله

[**فلا يقنطنّك إبطاء إجابته**] والقنوط: اليأس. [**فإنّ العطيّة على قدر النيّة**] أي: إنّ الإجابة موقوفة على الاستعداد بإخلاص النيّة، فإذا تأخّرت الإجابة فلعلّ تأخّرها لعدم الخلوص في النيّة.

[**وربّما أُخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل**] أي: ربّما أُخّرت الإجابة لعلم اللّه بأنّ تأخيرها من أسباب استعداد السائل والمؤمل استعداد أعلى لعطاء ما هو أعلى واشرف مما سأل فيعطاه عند كمال استعداده.

[**وربما سألت الشيء فلا تؤتاه**] لعدم مصلحتك فيه [**وأُوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً**] في الدنيا أو الآخرة.

[**أو صرف عنك**] ما سألت [**لما هو خير لك**] في دنياك وآخرتك [**فلربّ أمر قد طلبت فيه هلاك دينك لو أُوتيته**] كالغنى والجاه مثلاً، وبالجملة فالناس كالمرضى وربّ العالمين كالطبيب، والطبيب إنّما يعطي المريض ما يصلحه لا ما يشتهيه، فإنّه يشتهي الشيء اللذيذ وفيه هلاكه ويكره الدواء وفيه شفائه.

[**فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفي عنك وباله**] من التوفيق لأسباب السعادة الباقية وجميل الاحدوثة في الأعقاب.

والمال لا يبقى ولا تبقى له واعلم أنّك إنّما خُلقت للآخرة لا للدنيا وللفناء لا للبقاء وللموت لا للحياة وإنّك في منزل قُلعة ودار بلغة وطريق إلى الآخرة وإنّك طريد الموت الذي لا ينجو منه هارب ولابدّ أنّه مدركه

ثمّ أبان ذلك بقوله: [**والمال لا يبقى ولا تبقى له**] أي: فلا ينبغي لك أن تطلبه بالدعاء بل اطلب ما يبقى ولا يفنى من الباقيات الصالحات وما فيه صلاح الدارين ونظام النشأتين.

ثمّ شرع عليه السلام في التنبيه على العلّة الغائية من خلقه ووجوده: [**واعلم أنّك إنّما خُلقت للآخرة لا للدنيا وللفناء لا للبقاء وللموت لا للحياة**] فينبغي لك العمل لما بعد الموت وعدم الاطمئنان إلى الدنيا والركون إلى البقاء فيها.

[**وإنّك في منزل قُلعة**] بضمّ القاف وسكون اللام أي: ليس بمستوطن، يقال هذا مجلس قلعة: إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة، ويقال: هم على قلعة أي: على رحلة، والقلعة أيضاً: المال العارية.

[**ودار بلغة**] أي: ما يبلغ به من العيش، والغرض التنبيه على أنّه في الدنيا بمنزل عبور لم يُخلق للاستيطان والإقامة بها وأنّها إنّما خلقت ليتّخذ الإنسان منها بلاغاً للوصول إلى الآخرة وزاداً لكونها طريقاً إليها كما قال:

[**وطريق إلى الآخرة وإنّك طريد الموت الذي لا ينجو منه هارب ولابدّ أنّه مدركه**] استعار الطريد ملاحظةً لشبهه بالصيد يطرده السبع وغيره،

فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيّئة قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك فإذاً أنت قد أهلكت نفسك يا بني أكثر من ذكر الموت ومن ذكر ما تهجم عليه وتقضي بعد الموت إليه حتّى يأتيك قد أخذت منه حذرك وشددت له ازرك ولا يأتيك بغتة فيبهرك

ثمّ وصف الموت بكونه لا ينجو منه هارب ولابدّ أنّه يدركه تحذيراً منه وجذباً إلى الاستعداد له، ولذا قال:

[**فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيّئة**] أي: ببقائك على الحال السيّئة.

[**قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك**] يحول عطف على يدركك [**فإذاً**] للمفاجأة [**أنت قد أهلكت نفسك**] فلم تتب، وما أحسن ما قيل: نحن لا نريد أن نموت حتّى نتوب، ولا نتوب حتى نموت.

[**يا بني أكثر من ذكر الموت ومن ذكر ما تهجم عليه**] من القبر والسؤال ونحوهما. [**وتقضي بعد الموت إليه**] من الحشر والنشر والسؤال والحساب والعقاب والجنّة أو النار، فإن تَذكُّر هذه الأُمور يوجب العبرة والانزجار والأخذ في الأُهبة والاستعداد له ولما بعده.

ولذا قال: [**حتّى يأتيك**] والحال انّك [**قد أخذت منه حذرك وشددت له ازرك**] والازر: القوّة.

[**ولا يأتيك بغتة**] أي: فجئة [**فيبهرك**] يقال: بهره إذا غلبه وأتعبه، وأصل البهر تتابع النفس من التعب.

وإيّاك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهل الدّنيا إليها وتكالبهم عليها، فقد نبّأك اللّه عنها ونعتت هي لك نفسها وتكشّفت لك عن مساويها فإنّما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهرّ بعضها على بعض ويأكل عزيزها ذليلها

[**وإيّاك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهل الدّنيا**] أي: استنادهم [**إليها وتكالبهم**] أي: تواثبهم [**عليها، فقد نبّأك اللّه عنها**] بقوله: ﴿وما الحيوة الدّنيا إلا لعب ولهو﴾ وقوله: ﴿إنّما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾، وقوله: ﴿وما الحيوة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

[**ونعتت هي لك نفسها**] أي: وصفت بلسان حالها نفسها بأنّها محلّ الهموم والغموم والأعراض والأمراض والبلايا والرزايا وداء كلّ بلاء ومنزل كلّ فتنة.

وكذا قوله: [**وتكشّفت لك عن مساويها**] وكلّ من المذكورات بمنزلة صغرى وتقدير الكبرى في الاولى: وكلّ من أخبر اللّه عنه بذلك فلا ينبغي أن يغترّ به وفي الآخرين وكلّ من كان كذلك فلا ينبغي أن يغترّ به ولا بفعله.

[**فإنّما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية**] وهم الذين اتّبعوا قواهم الغضبيّة والشهويّة واسترسلوا في قيادها وغفلوا عمّا خُلقوا لأجله، واشار إلى مطابقة المثل بقوله:

[**يهرّ بعضها على بعض**] استعار الهرير لتنازعهم عليها، وكذا الأكل في قوله:

[**ويأكل عزيزها ذليلها**] لغلبة بعضهم على بعض.

ويقهر كبيرها صغيرها نِعَم معقلة وأُخرى مهملة قد أضلّت عقولها وركبت مجهولها ليس لها راع يقيمها ولا مسيم يسيمها

[**ويقهر كبيرها صغيرها نِعَم**] أي: كأنعام غافلين عمّا يراد بهم كالبهائم [**معقلة**] أي: مقيّدة بالعقائل [**وأُخرى مهملة**] قسّمهم عليه السلام إلى قسمين: الأوّل أشباه الكلاب والسباع، والثاني: أشباه الأنعام باعتبار غفلتهم عمّا يراد بهم، ثمّ قسّم هؤلاء إلى قسمين معقلة ومهملة، واستعار المعقلة للّذين تمسّكوا بظاهر الشريعة واتّبعوا الإمام العادل فقيّدهم بالدّين عن الاسترسال في اتّباع الشهوات والانهماك فيها، أو إن لم يعقلوا أسرار الشريعة فهم كالنعم التي عقلها راعيها، وأشار بالمهملة إلى الّذين استرسلوا في اتّباع شهواتهم وخرجوا عن طاعة إمامهم ولم يعتدوا بأوامره فهم كالبهائم المرسلة.

وأشار إلى وجه الشبه بقوله: [**قد أضلّت عقولها**] لعدم انتفاعهم بها [**وركبت مجهولها**] المجهول والمجهل: المفازة التي لا أعلام فيها وأراد بذلك ركوبهم لأهوائهم الفاسدة وسروح عاهة بواد وعث.

[**ليس لها راع يقيمها ولا مسيم يسيمها**] يقال: واد وعث أي: لا يثبت به خفّ ولا حافر لكثرة سهولته، والمسيم: الراعي، أي: سرحوا في مشتهياتهم الدنيوية مكتسبين للرذائل والعاهات النفسانية ليس لهم إمام يقيمهم على طاعة اللّه في طرق الهداى إلى مكارم الأخلاق، وقد أشبهوا النعم المهملة التي أضلّت عقلها وركبت المفازة فهي سروح متردّدة متحيّرة بواد وعث ليس لها راع يرعاها ويقيمها إلى المرعى، والسروح جمع سرح: وهو المال السارح، والعاهة: الآفة، يقال أعاه القوم: أصابت ماشيتهم

سلكت بهم الدّنيا طريق العمى وأخذت بأبصارهم عن منازل الهدى فتاهوا في حيرتها وغرقوا في نعمتها واتّخذوها ربّاً فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما ورائها رويداً

العاهة.

[**سلكت بهم الدّنيا طريق العمى**] أي: طريق الجهل ومسالك الباطل التي لا يهتدى فيها لشيء كما لا يهتدي الأعمى للطريق، ونسب السلوك بهم إليها باعتبار أنّها سبب لغرورهم وغفلتهم عمّا ورائهم.

وكذا قوله: [**وأخذت بأبصارهم**] أي: بأبصار عقولهم [**عن منازل الهدى**] وهي آيات اللّه ومنازل الطريق إليه.

[**فتاهوا في حيرتها**] إشارة إلى ضلالهم عن طريق الحقّ. [**وغرقوا في نعمتها**] استعار الغرق باعتبار استيلاء نعيمها على عقولهم وتملّكه لها كما يستولي الماء على الغريق.

[**واتّخذوها ربّاً**] وصاروا لها أرباباً باعتبار خدمتهم لها. [**فلعبت بهم**] إذ كانوا عبيداً لها [**ولعبوا بها**] إذ اشتغلوا بها غير مشفقين، وضيّعوا ما ينبغي لهم أن يشتغلوا به.

[**ونسوا ما ورائها**] من أُمور الآخرة والحشر والنشر ونحوها ممّا خُلقوا لأجله.

وقوله: [**رويداً**] أي: امهل، [**يسفر الظلام**] استعار لفظ الظلام لحجب الأبدان وظلمات هيئاتها الحاجبة لأبصار البصائر عن إدراك أُمور الآخرة وهو وعيد بالموت وما بعده قريب من قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾.

يسفر الظلام كأن قد وردت الأظعان يوشك من أسرع أن يلحق واعلم يا بنيّ إنّ من كانت مطيّته الليل والنهار فإنّه يسار به وإن كان واقفاً ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً واعلم يقيناً إنّك لن تبلغ أملك

وقوله: [**كأن قد وردت الأظعان**] كنّى بالأظعان عن المسافرين إلى اللّه والدار الآخرة، و«كأن» مخفّفة من الثقيلة لتقريب ما استقبل، أي: كأن قد قرب الورود إلى المنزل ومكان الورود إمّا جنّة وإمّا نار.

[**يوشك من أسرع أن يلحق**] هو ترغيب في إسراع السير في مراتب القربة إلى اللّه تعالى بذكر الغاية وهي اللحوق بمراتب السابقين، ويحتمل أن يكون من تمام الوعيد بالموت وقربه.

[**واعلم يا بنيّ إنّ من كانت مطيّته الليل والنهار فإنّه يسار به وإن كان واقفاً ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً**] أي: ساكناً قاراً، حيث كان الإنسان في مبدء عمره إلى آخره مسافر إلى الآخرة على مطايا في طرق غير محسوسة فمطيّته الليل والنهار؛ لأنّهما أجزاء اعتبارية للزمان يعقب بعضها بعضاً وينقضي بانقضائها الزمان إلى أن تفنى مدّته ويتمّ سفره إلى الآخرة كما ينتقل في منازل طريقه المحسوسة إلى أن يتمّ سفره فيها، وكذا استعير المسافة لمدّته المضروبة، فالزمان سائر به وإن كان في الظاهر واقفاً وقوفه الحسّي وتلك المطايا تقطع مسافة أجله وإن كان قاراً قراره الحسّي.

[**واعلم يقيناً إنّك لن تبلغ أملك**] لأنّ الإنسان لازال في الأمل وكلّما حصّل مأمولاً وجّه أمله إلى مطلب آخر وهكذا، فالأمل أبداً متوجّه إلى مطلوب ما ليس مدكاً في الحال.

ولن تعدو أجلك وإنّك في سبيل من كان قبلك فخفّض في الطلب وأجمل في المكسب فإنّه ربّ طلب قد جرّ إلى حرب وليس كلّ طالبٌ مرزوق ولا كلّ مجمل بمحروم

[**ولن تعدو أجلك**] أي: لن تتجاوز ما ضُرب لك من الأجل كما قال تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

[**وإنّك في سبيل من كان قبلك**] أي: سالك طريقهم فيوشك أن تلحق بهم.

[**فخفّض في الطلب**] التخفيض: التسهيل على النفس، أي: في طلب الدّنيا ولا تحرص عليها بل اطلبها بقدر الحاجة والضرورة.

[**وأجمل في المكسب**] أي: افعل الجميل فيما تكتسبه بأن تصنع كلّ شيء منه موضعه فيمسك منه قدر ضرورته وينفق فاضله في المبرّات والقربات ويحتمل أن يريد بالمكتسب الاكتساب، ونحوه النبوي: «الآن الروح الأمين نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها فاتّقوا اللّه وأجملوا في الطلب».

[**فإنّه ربّ طلب قد جرّ إلى حرب**] أي: إلى سلب المال وهو بمنزلة صغرى قدير كبراه: وكلّما جرّ إلى الحرب فينبغي أن لا يحرص عليه.

[**وليس كلّ طالبٌ مرزوق**] بل قد يكون الطلب علّة الحرمان فلا ينبغي أن يحرص في الطلب.

[**ولا كلّ مجمل بمحروم**] بل قد يكون الاهمال علّة للرزق في بعض الأحيان، فينبغي للإنسان أن يجمل فما قدّر له لا محالة يأتيه، وما لم يقدّر له لا يأتيه ولو جدّ واجتهد.

فأكرم نفسك عن كلّ دنيّة وإن ساقتك إلى الرغائب فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك اللّه حرّاً وما خير خير لا يوجد إلا بشر ويسر لا ينال إلا بعسر

[فأكرم نفسك عن كلّ دنيّة وإن ساقتك إلى الرغائب] أي: استلزمت الوصول إلى ما يرغب فيه ويتنافس عليه، وذلك كان يستعمل الكذب مثلاً ليصل إلى مطلوبه ويستعمل الغدر والفتنة والنميمة ليتقرّب إلى الملوك.

[فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً] أي: إنّ ما تبذله من نفسك من الفضيلة وتعدل عنه إلى الرذيلة لا يقاومه عند اللّه وعند أهل الفضائل من خلقه شيء وإن جلّ، ولا يكون لك عنه عوض وهو في قوّة صغرى تقدير كبراه: وكلّما لا يحصل له عوض يقابله ويساويه فلا ينبغي أن يبدل في مقابل دنيّ حقير.

[ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك اللّه حرّاً] بأن تجعل له عليك فضل إحسان تسأله إيّاه فتسترق بذلك، ولذا قال عليه السلام «أحسن إلى من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره واستغن عمّن شئت تكن نظيره» وروي أنّ عثمان بعث عطيّة مع غلام له إلى أبي ذر وقال له: إن قبلها فأنت حرٌّ، فأصرّ الغلام على أبي ذر بالقبول فقال: خذها فإنّ فيها عتقي، فقال: نعم ولكن فيها رقّي.

[وما خير خير لا يوجد إلا بشر] استفهام إنكاري، أي: لا خير في خير لا يوجد إلا بشر.

[ويسر لا ينال إلا بعسر] وكنّى بالخير واليسر عمّا يطلب في مقارفة الأشياء الدنيّة والمطالب الذميمة ويصير الإنسان بسببه عبداً لغيره كالمال

وإيّاك أن توجف بك مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين اللّه ذو نعمة فأفعل فإنّك مدرك قسمك وآخذ سهمك

ونحوه وبالشرّ العسر المقارن له كبذل ماء الوجه في السؤال والذلّة ونحوهما وهو أيضاً في قوة صغرى تقدير كبراه: وكلّما لا خير فيه فلا ينبغي أن يطلب ويتعبّد للغير من أجله.

[**وإيّاك أن توجف بك مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة**] يقال: أوجفت أي: أسرعت، والمناهل: المعاطش، استعار المطايا لقواه الأمّارة بالسوء كالوهميّة والخياليّة والشهويّة والغضبيّة حيث إنّها حاملة لنفسه العاقلة وموصلة لها إلى المشتهيات والمطامع الرديّة كالمطايا الموصلة لراكبها إلى أغراضه، واستعار الوجيف لسرعة انقياده معها إلى المطامع الردية، والمناهل لموارد الهلاك في الآخرة، كمنازل جهنّم وطبقاتها، ووجه الشبه كونها موارد شراب أهل النار المهلك كما قال تعالى: ﴿فشاربون عليه من الحمى فشاربون شرب الهيم﴾ والفاء في جواب النهي اللازم للتحذير المذكور وهو في قوّة صغرى متصّلة تقديرها: فإنّك إن أوجفت بك مطايا الطمع أوردتك مناهل الهلكة، وتقدير الكبرى: وكلّ مطية كذلك فيحرم ركوبها.

[**وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين اللّه ذو نعمة فأفعل**] وأصله النهي عن مسألة الغير والتعرّض لنواله بل ينتظر ما قسم له ن رزق اللّه من غير سؤال ذي نعمة يكون فيه بذل الوجه والذلّة والمنّة إن أعطى، أو بذله والحرمان والذلّ إن حرم ورغّبه في ذلك بقوله: [**فإنّك مدرك قسمك وآخذ سهمك**] من رزق وكلّ من كان كذلك فلا ينبغي أن يجعل بينه وبين اللّه

وإنّ اليسير من اللّه سبحانه أكرم وأعظم من الكثير من خلقه وإن كان كلٌّ منه وتلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك وحفظ ما في الوكاء بشدّ الوكاء وحفظ ما في يديك أحبّ إلي من طلب ما في يد غيرك ومرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس

واسطة يطلب منه رزقه.

وقوله: [**وإنّ اليسير من اللّه سبحانه أكرم وأعظم من الكثير من خلقه وإن كان كلٌّ منه**] أي: ما حصل من جهة يحمد حوصله منها وهي الجهة التي أمر اللّه بطلب الرزق منها وإن كان يسيراً أكرم عنده وأشرف من الكثير من غير تلك الجهة، كسؤال الغير والتعرّض له، وإن كان الرزق من الخلق أيضاً من اللّه إلا أنّه ينبغي أن يوجّه الرغبة إليه ابتداءً دون غيره، إذ هو مبدء الكلّ وعنايته بالجميع واحدة.

[**وتلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك وحفظ ما في الوكاء بشدّ الوكاء**] واستعار الوكاء لضميره وكنّى بشدّه عن ضبط لسانه بالصمت ومما قيل في ذلك أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً ولست بقادر على أن تجعل كلامك صمتاً.

[**وحفظ ما في يديك أحبّ إلي من طلب ما في يد غيرك**] ومن الأمثال في ذلك: البخل خير من سؤال البخيل، وليس المراد بالحفظ لما في يده البخل، بل النهي عن التفريط والتبذير كما قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط﴾ وقال تعالى: ﴿الّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

[**ومرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس**] فهو أولى بأن يلزم،

والحرفة مع العفّة من الغنى مع الفجور والمرءُ أحفظ لسرّه وربّ ساع فيما يضرّه من أكثر أهجر ومن تفكّر أبصر قارب أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشرّ تبن عنهم

وكنّى بالمرارة عن الألم الذي تجده النفس بسبب اليأس من المطالب إطلاقاً للسبب على المسبّب وكونه خيراً لما يستلزمه من إكرام النفس من ذلّ السؤال ورذيلة المهانة، وإليه أشار الشاعر بقوله:

وإن كان طعم اليأس مرّاً فإنّه ألذّ وأحلى من سؤال الأراذل

[**والحرفة مع العفّة من الغنى مع الفجور**] تنبيهٌ على وجوب الصبر في ضيق الرزق والحرمان إذا كان مع فضيلة العفّة ولزومه أولى من طلب الغنى المستلزم للفجور لاستلزام تلك الحرفة الفضيلة وذلك الغنى الرذيلة.

[**والمرءُ أحفظ لسرّه**] تنبيهٌ على عدم إفشاء سرّه فهو أحفظ لسرّه من غيره، والعلّة كونه أكثر عناية بنفسه من غيره، فلا تبح سرّك فإن أذعته انتشر فلم تلم إلا نفسك لأنّك كنت عاجزاً عن حفظ سرّ نفسك فغيرك أعجز، قال الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه فصدر الذي يستودع السرّ أضيق

[**وربّ ساع فيما يضرّه**] تنبيهٌ على التحرّز في السعي والتثبّت في ارتياد المصالح، وفي المثل لو أراد اللّه بالنملة صلاحاً لما أنبت لها جناحاً.

[**من أكثر أهجر**] أي: أفحش في منطقه وذلك ملزوم كثرة الكلام، [**ومن تفكّر أبصر**] أي: من تفكّر أدرك بعين بصيرته حقائق الأُمور وعواقبها.

[**قارب أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشرّ تبن عنهم**] كما قيل:

بئس الطعام الحِمام وظلم الضعيف أفحش الظلم إذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً وربّما كان الدواء داء والداء دواء وربّما نصح غير الناصح وغشّ المستنصح

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فإنّ القرين بالقارن يقتدي

[بئس الطعام الحِمام] قال تعالى: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾.

[وظلم الضعيف أفحش الظلم] لأنّ الضعيف في محلّ الترحّم فظلمه لا يصدر إلا عن قلب قاس ونفس بعيدة عن الرحمة فكان بُعدٌ عن العدل.

[إذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً] الرفق: اللّين، وضدّه الخرق، أي: إذا كان استعمال الرفق مفسدة وزيادة في الشرّ فلا تستعمله فإنّه حينئذ ليس برفق بل خرق، ولكن استعمل الخرق في محلّه يكن رفقاص، كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

[وربّما كان الدواء داء والداء دواء] يعني إنّ بعض ما فيه مصلحة ظاهرة قد يشتمل على مفسدة، وبالعكس استعمال الدواء للمصلحة والداء للمفسدة وإلى ذلك أشار من قال: فربّما صحّت الأجسام بالعلل، وقال أبو نواس:

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

[وربّما نصح غير الناصح وغشّ المستنصح] تنبيهٌ على أنّه لا ينبغي

وإيّاك والاتكال على شيء فإنّه بضايع النُّوكى والعقل حفظ التجارب وخير ما جرّبت ما وعظك

أن يعرض عن مشورة أحد من حيث أنّه غير ناصح بل ينظر فيها أو يتبصّر فربّما كان فيها صلاح، وكذا لا ينبغي أن يركن إلى من اعتقده ناصحاً فربّما غشّ. كان المغيرة بن شعبة عدوّ اللّه ورسوله وعدوّ أميرالمؤمنين وأشار عليه يوم بويع بالخلافة أن يقرّ معاوية على الشام مدّة يسيرة فإذا خطب باسمه دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما ويعزله فلم يقبل عليه السلام وكانت نصيحة من عدوّه واعتذر أميرالمؤمنين بقوله تعالى: ﴿ما كنت متّخذ المضلّين عضداً﴾ واستشار الحسين عليه السلام عبداللّه بن الزبير وهما بمكّة في الخروج إلى العراق فأشار عليه بذلك وقال: ليس بمكّة من يبايعك ولكن دونك العراق وكان غاشاً.

[وإيّاك والاتكال على شيء فإنّه بضايع النُّوكى] جمع أنوك وهو الأحمق، واستعار البضايع لها باعتبار أنّ الأحمق يحصل منها على لذّة خيالية من الأُمور المتمنّاة هي فرعها كما يحصل عن البضاعة الربح، وأضافها إلى النوكى لعدم الفائدة في المنى معدم الربح في بضائع النوكى.

[والعقل حفظ التجارب] أي: العقل العملي وهو القوّة التي للنفس بحسب حاجتها إلى تدبير بدنها الموضوع لتصرّفاتها وتكميله وهي التي يستنبط بها الآراء الصحيحة، وبالجملة العقل الاكتسابي لا الغريزي ممّا يستفاد من تجربة الأُمور، ولذا ورد انّ التجارة تزيد في العقل.

[وخير ما جرّبت ما وعظك] تنبيهٌ على أنّه ينبغي أن يقتصر من التجارب على ما وعظه أي من شأنه أن يفيده موعظةً واعتباراً كالنظر في حال

بادر الفرصة قبل أن تكون غصّة ليس كلّ طالب مصيب ولا كلّ غائب يؤوب ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد ولكلّ امرء عاقبة

من تكرّر ظلمه فأسرعت عقوبة اللّه إليه أو تكرّر كذبه فأدركه المقت، ونحوه قول افلاطن: إذا لم تعظك التجربة فلم تجرّب بل أنت ساذج كما كنت.

[**بادر الفرصة قبل أن تكون غصّة**] أمر بانتهاز الفرصة فيما ينبغي أن يفعل لئلا يتأسّف على ما يفوته من المطالب. حضر عبيداللّه بن زياد عند هاني بن عروة عائداً له وقد كمن له مسلم بن عقيل ليقتله إذا جلس واستقرّ فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه بذلك فلم تطعه وجعل هاني يشير ويترنّم بقوله: ما الانتظار بسلمى لا يحينها ويكرّر ذلك إلى أن استشعر ابن زياد خيفةً ونهض فكان من أمره ما كان.

[**ليس كلّ طالب مصيب**] فلا يتأسّف على ما يفوت من المطالب، إذ لعلّه من ذلك البعض، قال الشاعر:

ما كلّ وقت ينال المرء ما طلبا ولا يسوّغه المقدار ما وهبا

[**ولا كلّ غائب يؤوب**] فإذا لم يرجع غائبك فلا تجزع، قال الشاعر:

وكلّ ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤب

[**ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد**] إذ لا ريب أنّ من كان في سفر فاضاع زاده وأفسد الحال التي لا يعود إليها فإنّه أحمق وهذا مثل يُضرب للإنسان في حالتي دنياه وآخرته، واستعار الزاد هنا للتقوى لقوله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**ولكلّ امرء عاقبة**] تنبيهٌ على لزوم النظر في عواقب الأمور واختيار أحسنها وفي المثل: لكلّ سابلة قرار.

سوف يأتيك ما قدّر لك التاجر مخاطر ربّ كثير أنمى من يسير ولا خير في معين مهين ولا في صديق ضنين مناهل الدهر ما ذلّ لك قعوده

[**سوف يأتيك ما قدّر لك**] فيه تنبيهٌ على وجوب ترك الحرص بأنّ ما قدّر يأتي وما لم يقدّر لا يأتي، فالحرص لماذا؟ كما قيل:

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبداً   وما هو كائن سيكون
سيكون ما هو كائن في وقته   وأخ الجهالة متعب مغبون

[**التاجر مخاطر**] لأنّه يتعجّل بإخراج الثمن ولا يعلم هل يعود أم لا، قيل: وهذا الكلام له باطن وهو: انّ من مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيّئة فإنّه مخاطر لأنّه لا يؤمن أن يكون بعض السيّئات تحبط أعماله الصالحة كما لا يؤمن أن يكون بعض أعماله الصالحة تكفّر السيّئات.

[**ربّ كثير أنمى من يسير**] فاليسير الحلال أغنى للعاقل من الكثير الحرام في الآخرة، فيجب أن يقتصر على وفي الأثر: قد يجعل اللّه من القليل الكثير، ويجعل من الكثير البركة.

[**ولا خير في معين مهين**] أي: لا خير في الاستعانة به كما قيل:

إذا تكفيت بغير كافي   وجدته للهمّ غير شافي

[**ولا في صديق ضنين**] أي: لا خير في الصديق المتّهم لصديقه، قال الشاعر:

فإنّ من الإخوان من يسخط النوى   به وهو راع للوصال أمين
و منهم صديق العين أمّا   لقائه فحلو و أمّا غيبه فظنين

[**مناهل الدهر ما ذلّ لك قعوده**] هذا استعارة، والقعود: البكر حين

ولا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه وإيّاك أن تجمح بك مطيّة اللجاج احمل نفسك من أخيك عند صَرْمِه على الصِّلَة

يمكّن ظهره من الركوب إلى أن يثني، استعير للزمان الذي يتيسّر فيه رزقه وتسهّل فيه بعض مهمّاته و«ما» بمعنى المدّة، ووجه الشبه أنّ ذلك الزمان يمكّنه من بعض مهمّاته وحوائجه وطلب ما لا يمكن فيه وما لم يعد لحصوله من المطالب ربّما يستلزم تغيّره وامتناع ما كان ممكناً فيه كما أنّ القعود من شأنه أن يمكّن من ظهره واقتعاده، وهو بمعرض أن ينفر براكبه إذا استراده وشدّ عليه، ولفظ الذلّة مستعار لسكون الزمان وإمكان المطلوب فيه، وأراد بمناهلته: الجريان معه بقدر مقتضاه من دون تشدّد وتسخّط عليه، فإنّ ذلك يستلزم تعب النفس من غير فائدة وإلى مثله أشار القائل:

إذا الدهر أعطاك العنان فسر به رويداً

و لا تعنف فيصبح شامتاً

[**ولا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه**] أي: لا تخاطر لشيء تملكه في يدك رجاء أكثر منه؛ إذ كان في مظنته أن لا يعود فيوشك أن يضيع الأصل يعني إذا كان شاكّاً في سلامته وأمّا مع ظنّ السلام فلا خطر كما هو عادة التجّار ونحوه قولهم: من طلب الفضل حرم الأصل.

[**وإيّاك أن تجمح بك مطيّة اللجاج**] تحذير من اللجاج في طلب الأمر عند تعسّره، واستعار له لفظ المطيّة الجموح، ووجه الشبه كونه يؤدّي بصاحبه إلى غاية غير محمودة كالجموح من المطايا.

[**احمل نفسك من أخيك عند صَرْمِه على الصِّلَة**] أوصاه عليه السلام بأن يلزم نفسه ويحملها في حقّ صديقه الحقّ على أن يقابل رذائله بالفضائل كالقطيعة

وعند صدوده على اللّطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنوّ، وعند شدّته على اللّين، وعند جرمه على العذر، حتّى كأنّك له عبد وكأنّه ذو نعمة عليك، وإيّاك أن تصنع ذلك في غير موضعه أو تفعله بغير أهله

بالصّلة وسائر ما يأتي لقدوم المودّة، وحذّره أن يضع ذلك في غير موضعه أو يفعله بغير أهله من اللّئام، والصرم هو القطع.

[وعند صدوده على اللّطف] بفتح اللام والطاء الاسم من ألطفه بكذا أي: برّه به، وجائتنا لطمة من فلان أي: هديّة، والملاطفة: المبارة، وروي على اللطف وهو الرفق، وروي على التلطّف وهو الرفق للأمر.

[والمقاربة، وعند جموده] عن العطاء **[على البذل، وعند تباعده على الدنوّ، وعند شدّته على اللّين، وعند جرمه على العذر، حتّى كأنّك له عبد وكأنّه ذو نعمة عليك، وإيّاك أن تصنع ذلك في غير موضعه أو تفعله بغير أهله]** من اللئام، فإنّ ذلك خروج عن العقل، والأُمور المذكورة من لوازم الصداقة الحقّة، وإلى ذلك أشار من قال:

و إنّ الـــذي بيني و بين بنـــي أبـي
و بـيــن بنــي أُمّي لمختلــف جــداً
فإن أكلــوا لحمـــي وفّرت لحومهم
وإن هدّموا مجــدي بنيتُ لهم مجداً
وإن زجـروا طـيراً بنحــس يمــرّ بي
زجرتُ لهــم طيراً يمرّ بهم سعـــداً
و لا أحمـل الحقـد القديم عليهـم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

ولا تتّخذ عدوّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة وتجرّع الغيظ فإنّي لم أرَ جرعة أحلا منها عاقبةً ولا ألذّ مغبّةً

[**ولا تتّخذ عدوّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك**] ومعاداة الصديق قبيحة منهيٌّ عنها، فاتّخاذ عدوّه صديقاً كذلك، ووجه الملاومة انّ مصادقة عدوّ الصديق يستلزم نفرة الصديق لكونها موهمة مشاركة العدو وموافقته في جميع أحواله، ومن جملة أحواله عداوته فهي إذاً توهمه الموافقة على عداوته فتوجب له النفرة والمجانبة، وإلى ذلك أشار من قال:

تودّ عدوّي ثمّ تزعم إنّني صديقك إنّ الرأي عنك لعازب

[**وامحض أخاك النصيحة**] أي: أخلصها له في جميع أحواله سواء كانت تلك النصيحة [**حسنة كانت أو قبيحة**] أي: مستقبحة في نظر المنصوح ضارّة له في العاجل باعتبار استحيائه وانفعاله من المواجهة بها، فعبّر عن النفع والضرّ بالحسن والقبح كقوله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم﴾ فعدّها بالنسبة إليهم سيّئة وقيل اراد سواء كانت نافعة لك أو ضارة لك.

[**وتجرّع الغيظ فإنّي لم أرَ جرعة أحلا منها عاقبةً ولا ألذّ مغبّةً**] هذا أمرٌ بكظم الغيظ، قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ ويرادفه ويقرب منه الحلم والكرم والصفح والتثبّت والعفو والتجاوز والاحتمال، واستعار وصف التجرّع للتصبّر على مضض الألم الموجود منه واستعار وصف الحلاوة لما يستلزمه من العاقبة الحسنة ووجه الشبه ما يستلزمانه من اللّذة، وضمير «منها» يعود إلى ما دلّ عليه قوله: تجرّع، من المصدر.

وَلِنْ لمن غالظك فإنّه يوشك أن يلين لك وخذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحد الظفرين وإن أردت قطيعة فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما ومن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه

[**وَلِنْ**] في الكلام [**لمن غالظك**] أي: أغلظ في الكلام عليك.

[**فإنّه يوشك أن يلين لك**] بسبب لينك له حال غلظته، ونحوه قوله تعالى: ﴿ادفع بالّتي هي أحسن السيّئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليٌّ حميم﴾.

[**وخذ على عدوّك بالفضل**] من عوارفه [**فإنّه أحد الظفرين**] فإنّ للظفر سببين أحدهما الرهبة بالقوّة والغلبة، والثاني الرغبة بالافضال عليه بحيث يسترقّ به ويدخل في الطاعة بسببه؛ إذ بالفضل والإحسان استرقّ الأحرار.

[**وإن أردت قطيعة فاستبق له من نفسك بقية**] من صداقته [**يرجع إليها إن بدا له ذلك**] الرجوع [**يوماً ما**] ولا تفارقه مفارقة كلّية، ونحوه قولهم:

احبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما
وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما

[**ومن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه**] بأ تفعل ما ظنّه بك من الخير فإن قيل لمن أخذ طرفاً من العلم هذا عالم فاضل دعاه ذلك إلى أن واظب على تحصيل العلم حتّى صار كذلك، وكذا قولهم فلان عابد زاهد يحمله ذلك على الالتزام بالعبادة والزهد وهذا يتّفق كثيراً.

ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه من الاخوّة اللازمة والصداقة المتأكّدة فإنّه ليس لك بأخ من أضعت حقّه ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ولا ترغبنّ فيمن زهد فيك ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان

[**ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه من الاخوّة اللازمة والصداقة المتأكّدة فإنّه ليس لك بأخ من أضعت حقّه**] ولابدّ أن يفارقك لتضييعك حقّه فلا يكون أخاً لك، ولذا قيل: إضاعة الحقوق داعية العقوق.

[**ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك**] قيل هذا كما يقال في المثل: من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدء بأهلها، والمقصود النهي عن قطيعة الرحم وإقصاء الأهل وحرمانهم، وفي الخبر «صلوا أرحامكم ولو بالسلام».

[**ولا ترغبنّ فيمن زهد فيك**] ممن ليس للمودّة أهلاً ولا للإحسان موضعاً، وليس بأخ قديم وإلا لناقض ما قبله وما بعده من الأمر بصلة من قطعه والدنوّ ممن تباعد عنه والإحسان إلى من أساء إليه.

[**ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان**] تنبيهٌ على وجوب صلة من قطعه من إخوانه والإحسان إلى من أساء إليه وأنّه إن لم يفعل ذلك يكن أخوه أقوى على فعل الإساءة منه على فعل الإحسان، وبيان الملازمة أنّ الإساءة والشرّ له صوارف كثيرة تصرف عنه، والإحسان وفعل الخير له بواعث كثيرة يبعث عليه، فإذا لم يفعل الإحسان مع كثرة البواعث عليه وأساء أخوك مع

ولا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك فإنّه يسعى في مضرّته ونفعك وليس جزاء من سرّك أن تسوئه واعلم يا بُنيّ انّ الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك، فإن أنت لم تأته أتاك

كثرة صوارفه عن الإساءة كان هو أقوى على الإساءة منك على الإحسان، وكلّ من كان كذلك فهو عاجز مذموم.

[**ولا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك**] ولا تستعظمه بل هوّن ذلك.

[**فإنّه يسعى في مضرّته ونفعك**] يعني إنّ سعيه في ظلمك يستلزم مضرّته في الآخرة بما توعّد اللّه به الظالمين ونفعك بما وعد اللّه به الصابرين على بلائهم، وإذا كان بهذه المثابة فلا ينبغي أن يكبر عليه ضيمه.

[**وليس جزاء من سرّك أن تسوئه**] كلام منفصل، تنبيهٌ على وجوب مقابلة الإحسان بمثله لا بالكفران، وقيل: متّصل بما قبله، أي: لا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك فتقابله بسوء فإنّه يسعى في مضرّته ونفعك وكلّ من كان كذلك فليس جزائه أن تقابله بالإساءة.

[**واعلم يا بُنيّ انّ الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك، فإن أنت لم تأته أتاك**] قيل: قسّم مطلق الرزق إلى قسمين، مطلوب وطالب، والمطلوب مالم يجر في القضاء الإلهي كونه رزقاً، والطالب ما علم اللّه أنّه رزقه ولابدّ من وصوله إليه وترك بيان أحكام القسمين إيجازاً، والتقدير: فأمّا الذي تطلبه فإنّك لا تدركه لكون القضاء الإلهي لم يجريه كلّما لا تدركه فينبغي أن لا تحرص عليه، وأمّا الذي يطلبك فإنّه لا محالة يأتيك وإن لم تأته، ومن الأمور الوجدانية ما يرى من أنّ المجدّ المجتهد في طلب الرزق لا يحصّله وبالعكس.

ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى إنّما لك من دنيا ما أصحلت به مثواك وإن كنت جازعاً على ما تفلّت من يديك فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك

وقوله: [**ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى**] تنبيهٌ على فضيلة عزّة النفس عند الحاجة، وعلى مواصلة الاخوان في الغنى، بالتعجّب من قبح ضدّيهما وهما الخضوع في الحاجة والجفاء في الغنى، وإليه نظر القائل:

خُلقان لا أرضاهما للفتى ... تيه الغنى ومذلّة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطراً ... وإذا افتقرت فته على الدهر

وقوله: [**إنّما لك من دنيا ما أصحلت به مثواك**] أراد بماله من دنياه بما يملك نفعه دائماً، ولذلك حصره بـ«إنّما» لأنّه القدر المنتفع به على الحقيقة، والذي تبقى ثمرته لاستلزام بذله تحصيل الملكات الفاضلة المستلزمة للثواب الدائم والنعيم المقيم في الآخرة، أي: ما أصلحت به مثواك من دنياك هو الذي يبقى لك منها، ونحوه النبوي: «يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما ما أكلت فأفنيت أو لبست فابليت أو تصدّقت فأبقيت».

وقوله: [**وإن كنت جازعاً على ما تفلّت من يديك فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك**] أي: لا ينبغي أن تجزع على ما ذهب من مالك كما لا ينبغي أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب، فإنّه لا فرق بينهما إلا أنّ هذا حصل وذاك لم يحصل بعد، وهذا فرق غير مؤثّر لأنّ الذي تظنّ أنّه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة مما أكلته أو لبسته، وأمّا القنيات والمدّخرات فلعلّها ليست لك.

استدلّ على ما لم يكن بما كان فإنّ الأُمور أشباه ولا تكوننّ ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه فإنّ العاقل يتّعظ بالأدب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين من ترك القصد جار

وقوله: [**استدلّ على ما لم يكن بما كان فإنّ الأُمور أشباه**] أمره أن يقيس ما لم يكن أو يحدث من أُمور الدنيا وأحوالها وتغيّراتها على ما كان وحدث منها فإنّها متشابهة، ولذا قيل إذا أردت أن تنظر الدّنيا بعدك فانظرها بعد غيرك.

[**ولا تكوننّ ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه**] حذّره أن يكون ممن لا تنفعه النصيحة فيما نُصح به من الرأي إلا إذا بالغت في إيلامه وأذاه بالقول وغيره.

[**فإنّ العاقل يتّعظ بالأدب**] ويتذكّر بالنصح [**والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب**] فلا يكن كالبهائم في الاحتياج إلى إيلام بقول وفعل، وكان يقال: اللئيم كالعبد والعبد كالبهيمة عتبها ضربها.

[**اطرح عنك واردات الهموم**] أي: ما يرد عليها من الهموم والغموم ومصائب الدنيا [**بعزائم الصبر**] أي: بالصبر الحازم الثابت [**وحسن اليقين**] بالله تعالى، وبأسرار حكمته وقضائه وقدره، وذلك أن يعلم يقيناً أنّ كلّ أمر صدر عن الله تعالى وابتلى به عباده من ضيق رزق أو سعته وكلّ أمر مرهوب أو مرغوب فعلى وفق الحكمة والمصلحة بالذات وما عرض في ذلك مما ظاهره الشرّ فعرضي.

[**من ترك القصد**] أي: العدل في أفعاله وأقواله [**جار**] ومن جار هلك، والمقصود إنّ خير الأُمور وسطها، وإنّ كلا الطرفين إفراطٌ وتفريطٌ،

الصاحب مناسب الصديق من صدقه غيبه والهوى شريك العمى ربّ بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من بعيد والغريب من لم يكن له حبيب

فمن تعدّى الطريق الوسط ولو يسيراً وقع في المهلكة.

[**الصاحب مناسب**] أي: هو باعتبار مودّته وحسن معاضدته كالنسيب القريب فينبغي الاهتمام به ولذا قيل: الصديق نسب الروح والأخ نسيب البدن.

[**الصديق من صدقه غيبه**] أي: من صدق في ضميره وما غاب من باطنه عن غيره أو من صدق في الغياب لا في مجرّد الحضور.

[**والهوى شريك العمى**] لاستلزامه للضلال وترك القصد كالعمى؛ ولذا قيل: حبّك للشيء يعمي ويصمّ، وقال الشاعر:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة كما أنّ عين السخط تبدي المساويا

[**ربّ بعيد أقرب من قريب وقريب أبعد من بعيد**] الغرض التنبيه على أنّ في الأباعد من هو أقرب وأنفع من النسيب وفي الأقارب من هو ابعد من البعيد، وإى الثاني أُشير في القرآن الكريم بقوله: ﴿إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّ لكم﴾، وقال الشاعر:

لعمرك ما يضرّ البعد يوماً إذا دنت القلوب من القلوب

[**والغريب من لم يكن له حبيب**] أي: الحقيق بأن يسمّى غريباً هو من لم يكن له محبّ يحبّه كما قال الشاعر:

أُسرة المرء والداه و فيما بين حضنيهما الحياة تطيب
فإذا ولّيا عن المرء يوماً فهو في الناس أجنبيٌّ غريب

وذلك باعتبار محبّة الوالدين له.

من تعدّى الحقّ ضاق مذهبه من اقتصر على قدره كان أبقى له وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين اللّه سبحانه من لم يبالك فهو عدوّك

[**من تعدّى الحقّ ضاق مذهبه**] أي: طريقه، يريد أنّ طريقة الحقّ لا مشقّة فيها لسالكها وطرق الباطل فيها المشاقّ والمضارّ، فكان سالكها سالك طريق ضيّقة يتعثّر فيها ويتخبّط في سلوكها لما فيه من التحيّر والخبط وعدم الهداية إلى المصلحة والمنفعة مع كونها ممنوعة.

[**من اقتصر على قدره كان أبقى له**] فينبغي للإنسان أن يقتصر على قدره وهو مقداره ومحلّه في خلق اللّه واقتصاره عليه مبني على معرفته به، وهو أن يعلم الفطرة التي فطر الإنسان عليها من الضعف والنقص فيعلم أنّه كذلك فيمنع نفسه حينئذ عن الترفّع على أبناء نوعه والاستطالة على أحد منهم بفضل قوّة أو إعجاب، ولذا قيل: رحم اللّه امرء عرف قدره ولم يتعدّ طوره، وقيل: من جهل قدره قتل نفسه، وقال أبو الطيب:

ومن جهلت نفسه قدره ... رأى غيره منه ما لا يرى

[**وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين اللّه سبحانه**] تنبيه على لزوم سبب بينه وبين اللّه وهو ما قرّب إليه من علم وقول وعمل، ولفظ السبب مستعار لذلك باعتبار إيصاله إلى اللّه تعالى والقرب منه كالحبل الذي يتوصّل به إلى المقصود، وظاهر أنّه أوثق الأسباب لثباته دائماً ونجاة المتمسّك به في الدنيا والآخرة، ونحوه قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن باللّه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها واللّه سميع عليم﴾.

[**من لم يبالك فهو عدوّك**] أي: من لم يبال بك ولم يكترث بك فاجتنبه فإنّه عدوّك، استعار له العدوّ لأنّ عدم المبالاة من لواز العدوّ.

قد يكون اليأس دراكاً إذا كان الطمع هلاكاً وليس كلّ عورة تظهر ولا كلّ فرصة تصاب وربّما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده أخّر الشرّ فإنّك إذا شئت تعجّلته

وقوله: [**قد يكون اليأس دراكاً إذا كان الطمع هلاكاً**] يعني إنّ اليأس من بعض مطالب الدّنيا قد يكون سبباً للسلامة من الهلاك وإدراك النجاة منه، وذلك عند ما يكون الطمع في ذلك المطلوب مستلزماً للهلاك كالطمع في نيل ملك ونحوه.

[**وليس كلّ عورة تظهر ولا كلّ فرصة تصاب**] أي: قد تكون عورة العدوّ وعيوبه مستترة عنك فلاتظهر لك ولا يمكنك إصابتها وقال بعض الحكماء: الفرصة نوعان، فرصة في عدوّك وفرصة في غير عدوّك، فالفرصة في عدوّك ما إذا نلتها نفعتك وإن فاتتك ضرّتك وفي غير عدوّك ما إذا أخطأتك نفعه لم يصل إليك ضرّه.

[**وربّما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده**] يعني إنّ من الأمور الممكنة والفرص ما يغفل الطالب البصير عن وجه طلبه فلا يصيبه ويهتدي له ويظفر به الأعمى، استعار البصير للعاقل الذكي، والأعمى للجاهل الغبي، والمقصود التسلية عن الأسف والجزع على ما يفوت من المطالب بعد إمكانها، وفي المثل «مع الخواطي سهم صائب» وقولهم: رمية من غير رام، وقولهم: الجواد قد يكبو والحسام قد ينبو، وقولهم: قد يهفو الحكيم ويجهل العليم.

[**أخّر الشرّ فإنّك إذا شئت تعجّلته**] أي: حيث انّك قادر على تعجيله أيّ وقت شئت فلا تستعجل فيه؛ إذ لا يفوتك، ولكن ربّما ندمت على تعجيله ولا يمكنك تداركه بخلاف تأخيره، ومن الأمثال الحكمية: ابدء

وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل من أمن الزمان خانه ومن أعظم أهانه ليس كلّ من رمى أصاب

بالحسنة قبل السيّئة فلست بمستطيع للحسنة كلّ وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر.

[**وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل**] باعتبار استلزامها للمنفعة؛ لأنّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك.

[**من أمن الزمان خانه**] تنبيهٌ على وجوب الحذر منه ودام ملاحظة تغيّراته والاستعداد لحوادثه قبل نزولها بالأعمال الصالحة، واستعار له الخيانة باعتبار تغيّره عند الغفلة عنه والأمن فيه والمركون إليه فهو في ذلك كالصديق الخائن وكلّ من خانه الزمان فينبغي أن يكون منه على حذر، وفي الحكمة: من أمن الزمان ضيّع ثغراً مخوفاً.

[**ومن أعظم أهانه**] تنبيهٌ على وجوب ترك إعظامه ولم يرد الزمان المجرّد بل من حيث هو مشتمل على خيرات الدنيا ولذّاتها ومعدّ لطيب العيش بالصحّة والشباب والأمن ونحوها، وبذلك الاعتبار يكرم ويستعظم فيقال في العرف: زمان طيّب وزمان عظيم، وأمّا استلزام ذلك لإهانة من يستعظمه لأنّ إعظامه له يستلزم اشتغاله له بما فيه من الملذّات الدنيوية فيغفل بسبب محبّتها عن الاستعداد لما ورائه، ثمّ انّ الزمان يكرّ عليه بمقتضى طباعه فيفرّق بينه وبين ما كان يعتريه من مال أو جاه أو رجال فيصبح حقيراً بعد أن كان خطيراً، وصغيراً بعد أن كان كبيراً، وقليلاً بعد أن كان كثيراً.

وقوله: [**ليس كلّ من رمى أصاب**] هو مثل قوله «ليس كلّ طالب يصيب» والغرض منه التنبيه على ما ينبغي من ترك الأسف على ما يفوت من

إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار وإياك أن تذكر من الكلام ما كان مضحكاً وإن حكيت ذلك عن غيرك

المطالب والتسلّي بمن أخطأ في طلبه، أو توبيخ المغير وتبكيته بأنّه ليس بأهل لذلك المطلوب وإنّ له قوماً آخرين، وإلى نحوه أشار أبو الطيب بقوله:

ما كلّ طلب المعالي نافذاً فيها ولا كلّ الرجال فحولاً

[**إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان**] يعني إنّ تغيّر السلطان في رأيه ونيّته وفعله في رعيّته من العدل إلى الجور يستلزم تغيّر الزمان عليهم، وحكي أنّ ــــ شروان جمع عمّال السواد وبيده درّة يقلّبها، فقال: أيّ شيء أضرّ بالسواد وأضرّ بارتفاع الأعمال وأدعى إلى محقه، أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه، فقال بعضهم: الجراد، وقال بعضهم: انقطاع السرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، فقال لوزيره: قل أنت، فإنّي أظنّ عقلك لعادل عقول الرعية كلّها ويزيد عليها، قال: تغيّر رأي السلطان في رعيّته وإضمار الحيف لهم والجور عليهم، فقال: للّه أبوك، لهذا الفعل أُهلك آبائي وأجدادي لما أهلوك له، ودفع إليه الدرّة فجعلها في فيه.

وقوله: [**سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار**] وفي المثال: «جار السوء كلب هارش وأفعى ناهش» وفي آخر: «الرفيق إمّا رحيق وإمّا حريق».

[**وإياك أن تذكر من الكلام ما كان مضحكاً وإن حكيت ذلك عن غيرك**] لما يستلزم لك من الهوان وقلّة الهيبة في النفوس، وقلّ أن يخلو ذاكر ذلك من غيبة أو سخرية، وربّ كلمة يتكلّم بها الرجل ليضحك جلسائه

وإيّاك ومشاورة النساء فإنّ رأيهنّ إلى أفن وعزمهنّ إلى وهن واكفف عليهنّ من أبصارهنّ لحجابك إيّاهنّ فإنّ شدّة الحجاب أبقى عليهنّ وليس خروجهنّ بأشدّ إدخالك من لا يوثق به عليهنّ فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل

فيسقط فيها أبعد ما بين السماء والأرض.

[**وإيّاك ومشاورة النساء فإنّ رأيهنّ إلى أفن**] بالسكون، أي: نقص، والمتفان: المنتقص، يقال: فلان يتافن فلاناً أي: ينتقصه ويعيبه، ومن رواه آفن بالتحريك فهو ضعيف الرأي، يقال: أفن الرجل يأفن أفناً أي: ضعف رأيه.

[**وعزمهنّ إلى وهن**] أي: ضعف، وذلك لنقصان عقولهنّ وضعف الرأي مظنّة الخطأ.

[**واكفف عليهنّ من أبصارهنّ لحجابك إيّاهنّ**] قيل: هو من أفصح الكنايات عن الحجب، و«من» زائدة، ويحتمل التبعيض، والمعنى: فاكفف عليهنّ بغضّ أبصارهنّ.

ثمّ ذكر فائدة الحجاب فقال: [**فإنّ شدّة الحجاب أبقى عليهنّ**] للستر والعفّة من الخروج والتبرّج وأدوم لحفظهنّ، ثمّ نهاه عن أن يرخّص في إدخال من لا يوثق به عليهنّ من الرجال والنساء فقال:

[**وليس خروجهنّ بأشدّ إدخالك من لا يوثق به عليهنّ**] لأنّ من تلك صفته يتمكّن من الخلوة ما لا يتمكّن منه من يراهنّ في الطرقات.

[**فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل**] لكون معرفتهنّ للغير مظنّة للمفسدة وقرينة الحال تخرج غير أولي الاربة كالوالد والمحرم، وإنّما شرط في ذلك الاستطاعة لانّه قد لا يمكن الإنسان دفع معرفتهنّ لغيره مطلقاً، قيل:

ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها فإنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ولا تعد بكرامتها نفسها ولا تطمعها في أن تشفع لغيرها وإيّاك والتغاير في غير موضع غيرة فإنّ ذلك يدعو الصحيحة منهنّ إلى السقم والبريئة إلى الريب

كان لبعضهم بنت حسناء فحجّ بها فكان يعصّب عينها ويكشف للناس وجهها فقيل له في ذلك، فقال: إنّما الحذر من رؤيتها الناس لا من رؤية الناس لها.

[**ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها**] أي: ما خرج عن حدّ نفسها من مأكول وملبوس ونحوه، وما جاوز ذلك الشفاعات، ونبّه على عدم صلوحها لذلك بقوله: [**فإنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة**] واستعار الريحانة باعتبار كونها محلاً للّذة والستمتاع بها، ولعلّ تخصيص الريحانة بالاستعارة لأنّ شأن نساء العرب استعمال الطيب كثيراص، وكنّى بالقهرمانة عن كونها لم تخلق لتكون حاكمة متسلّطة بل من شأنها أن يكون محكوماً عليها، كما قال تعالى: ﴿الرجال قوّامون على النساء﴾.

[**ولا تعد**] لا تتجاوز [**بكرامتها نفسها**] أي: لا تكرمها بكرامة تتعدّى صلاح نفسها.

[**ولا تطمعها في أن تشفع لغيرها**] لأنّ ذلك مجاوزة منها لحدّ نفسها لنقصان الغريزة وضعف الرأي.

[**وإيّاك والتغاير في غير موضع غيرة فإنّ ذلك يدعو الصحيحة منهنّ إلى السقم والبريئة إلى الريب**] وكنّى بالصحيحة من الخيانة والفساد بالسقم عنهما، وإنّما كان كذلك لأنّ المرأة حين برائتها من الفساد تستقبح ذلك، وإذا نسبت إلى ذلك مع برائتها منه عظم عليها في أوّل الأمر وإذا تكرّر ذلك من الرجل هان عليها أمره وصار لومه له في قوّة الإغراء لها بذلك،

واجعل لكلّ إنسان من حذوك عملاً تأخذ به فإنّه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك وأكرم عشيرتك فإنّهم جناحك الذي به تطيره وأصلك الذي إليه تصير ويدك التي بها تصول استودع اللّه دينك ودنياك واسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة والدّنيا والآخرة

والإنسان حريص على ما مُنع، ولذا قيل:

يا أيّها الغائر مه لا تغر　　　إلا لما تدركه بالبصر
ما أنت في ذلك إلا كمن　　　ينبّه الدبّ لرمي الحجر

وقال آخر:

من لم يزل متّهماً عرسة مناصباً فيها لرجم الظنون
يوشك أن يغريها بالذي يخاف أو ينصبها للعيون

[**واجعل لكلّ إنسان من حذوك عملاً تأخذ به**] وتؤاخذه على تركه [**فإنّه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك**] لأنّهم إذا اشتركوا في التكليف بفعل واحد يقوم به كلّ واحد منهم فالغالب عليهم أن يكل كلّ واحد منهم فعله إلى الآخر فيستلزم ذلك أن لا يفعل.

[**وأكرم عشيرتك فإنّهم جناحك الذي به تطيره وأصلك الذي إليه تصير ويدك التي بها تصول**] استعار لهم الجناح باعتبار كونهم مبدء نهوضه وقوّته على الحركة إلى الطالب كجناح الطائر ورشح بذكر الطيران وكذا لفظ اليد باعتبار كونهم محلّ صولته على العدوّ، فإذا كانوا بهذه المنزلة وجب عليك إكرامهم.

ثمّ ختم الوصية بقوله عليه السلام: [**استودع اللّه دينك ودنياك**] وهو خير مستودع [**واسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة والدّنيا والآخرة**] حسب إرادته ومشيّته، والاستيداع مجاز في طلب الحفظ من اللّه لما استودعه إيّاه.

وأرديت جيلاً من الناس كثيراً وأرديت جيلاً كثيراً

ومن كتاب له عليه السلام
إلى معاوية

أوّله: من عبدالله علي أميرالمؤمنين إلى معاوية بن ابي سفيان، أمّا بعد فإنّ الدنيا دار تجارة ربحها أو خسرها الآخرة فالسّعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ومن رأى الدنيا بعينها وقدرها بقدرها وإنّي لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مردّ له دون نفاذه ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة وأن ينصحوا الغوي والرشيد فاتّق الله ولا تكن ممن لا يرجو لله وقاراً ومن حقّت عليه كلمة العذاب فإنّ الله بالمرصاد وانّ دنياك ستدبر عنك وستعود حسرة عليك فاقلع عمّا أنت عليه من الغيّ والضلال على كبر سنّك وفناء عمرك فإنّ حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر.

[**وأرديت جيلاً من الناس كثيراً**] المهيل: المتداعي في التمزّق، ومنه رمل مهيل أي: ينهال ويسيل، وأرديت: أهلكت، والجيل: الصنف، وروي جبلاً وهو الخلق، ابتدء عليه السلام بتذكيره بحال الدنيا وكونها دار تجارة غايتها إمّا ربح الآخرة بصلاح الأعمال أو خسرانها بفسادها، وإنّه ينبغي أن يرى الدنيا بعينها أي: يعرفها بحقيقتها أو يراها بالعين التي بها تعرف وهي عين البصيرة، ويعلم ما هي عليه من التغيّر والزوال ويستعملها لما خلقت له، وإنّ ما علم الله وقوعه لا بدّ من وقوعه وإنّما وعظه امتثالاً لأمر الله ووفاءً بعهده، ثمّ أمره بتقوى الله ونهاه أن يكون ممن لا يرجو لله وقاراً أي:

خدعتهم بغيّك وألقيتهم في موج بحرك تغشاهم الظلمات وتتلاطم بهم الشبهات

لايتوقّع له عظمة فيعبده ويطيعه وقيل: الرجاء بمعنى الخوف وأن يكون ممن حقّت عليه كلمة العذاب ثمّ نبّهه على اطّلاعه عليه بقوله: فإنّه اللّه بالمرصاد، ثمّ نبّهه على إدبار الدنيا وعودها حسرة عليه يوم القيامة عند فقده لها مع عشقه لها وعدم تمسّكه في الآخرة بعصمة النجاة.

ثمّ أمره بالانتباه من رقدة الجهل والضلال على حال كبر سنّه وفناء عمره فإنّ تلك الحال أولى الأحوال بالانتباه، وإنّه غير قابل للإصلاح في ذلك السنّ بعد استحكام جهله فهو كالثوب الخلق لا يمكن إصلاحه بالخياطة كلّما خيّطه من جانب تمزّق من آخر، ثمّ أخبره في معرض التوبيخ على ما فعل بأهل الشام فقال:

[وأرديت جيلاً] أي: صنفاً من الناس **[كثيراً خدعتهم بغيّك وألقيتهم في موج بحرك]** ولمّا كان ضلاله عن دين اللّه وجهله بما ينبغي هو سبب خدعته لهم نسبها إليه واستعار لفظ البحر لآرائه وأحواله في طلب الدّنيا والانحراف عن طريق اللّه، باعتبار كثتها وبعد غايتها، ولفظ الموج للشُّبه التي ألقاها إليهم وعرّفهم بها فيما يريد من الأغراض الباطلة ومشابهتها للموج في تلعّبها بأذهانهم واضطراب أحوالهم بسببها، وكذا استعار لفظ الظلمات في قوله:

[تغشاهم الظلمات] لما حجب أبصار بصائرهم عن إدراك الحقّ من تلك الشبهات.

كما قال: **[وتتلاطم بهم الشبهات]** ولفظ الغشيان لطريانها على قلوبهم وحجبها لها، ومحلّ «يغشاهم» نصبٌ على الحال، وكذا لفظ

فجاروا عن وجهتهم ونكصوا على أعقابهم وتولّوا على أدبارهم وعولّوا على أحسابهم إلا من فاء من أهل البصائر فإنّهم فارقوك بعد معرفتك وهربوا إلى اللّه من موازرتك إذ حملتهم على الصّعب وعدلت بهم عن القصد

التلاطم لتلعّب تلك الشبهات بعقولهم.

وقوله: [**فجاروا عن وجهتهم**] عطف على «ألقيتهم» يعني إنّهم عدلوا عن الحقّ بسبب ما ألقاه إليهم من الشّبه ووجهتهم بكسر الواو، ويقال: هذاوجه الرأي أي: هو الرأي نفسه، والاسم الوجهة بالكسر ويجوز الضمّ.

[**ونكصوا على أعقابهم وتولّوا على أدبارهم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما محمّدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً﴾.

[**وعولّوا على أحسابهم**] أي: اعتمدوا في قتالهم على أحسابهم حمية الجاهلية في الذبّ عن أُصولهم ومفاخرهم دون مراعاة الدِّين والذبّ عنه.

[**إلا من فاء من أهل البصائر**] أي: إلا من رجع إلى الحقّ من أهل العقول.

[**فإنّهم فارقوك بعد معرفتك**] بما أنت عليه من الضلالة.

[**وهربوا إلى اللّه من موازرتك**] وإعانتك فيما تريده من هدم الدِّين.

[**إذ حملتهم على الصّعب**] من محاربة اللّه ورسوله وإطاء نور اللّه [**وعدلت بهم عن القصد**] أي: العدول وطريق الحقّ لأنّ معاوية كان قد استغوى العرب لشبهة قتل عثمان والطلب بدمه، فلمّا عرف عقلائهم انّ ذلك خدعة منه لإرادة الملك فارقوه واعتزلوه، وقوله «على أعقابهم وعلى أدبارهم» ترشيخ لاستعارة لفظي النكوص والتولّي من المحسوسين

فاتّق اللّه يا معاوية في نفسك وجاذب الشيطان قيادك فإنّ الدنيا منقطعة عنك والآخرة قريبة منك

للمعقولين، واستعار الصّعب لما حملهم عليه من الأمور المستصعبة في الدّين باعتبار أنّ ركوبهم لها يستلزم عدولهم عن صراطاللّه ووقوعهم في مهاوي الهلاك كما يستلزم ركوب الجمل الصعب النفور العدول براكبه عن الطريق وتقحّم المهالك.

ثمّ قال عليه السلام: [**فاتّق اللّه يا معاوية في نفسك وجاذب الشيطان قيادك**] والمجاذبة: الممانعة، استعارها للممانعة المعقولة، والقياد: لما يقوده به من الآراء الباطلة وكواذب الآمال وممانعة الشيطان لذلك القياد بتكذيب النفس الأمّارة فيما توسوس به من تلك الآراء.

[**فإنّ الدنيا منقطعة عنك والآخرة قريبة منك**] فاقطع الآمال الدنيوية وابذل جهدك للآخرة ﴿وللآخرة خيرٌ وأبقى﴾.

فكتب إليه معاوية:

من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أمّا بعد فقد وقفت على كتابك وقد أبيت على الفتن إلا تمادياً وإنّي لعالم انّ الذي يدعوك إلى ذاك مصرعك الذي لابدّ لك منه وإن كنت موايلاً فازدد غيّاً إلى غيّك فطالما خف عقلك ومنّيت نفسك ما ليس لك منه، والتويت على من هو خير منك، ثمّ كات العاقبة لغيرك، واحتلت الوزر بما أحاط بك من خطيئتك. والسلام.

فكتب إليه عليٌّ عليه السلام:

أمّا بعد، فإنّ ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد السيّئة مما إلى به أهلك وقومك الّذين حملهم الكفر وتمنّي الأباطيل على حسد محمّد صلى الله عليه وآله حتّى

. . . .

صرعوا مصارعهم حيث علمت لم يمنعوا حريماً ولم يدفعوا عظيماً، وأنا صاحبهم في تلك المواطن الصالي مجربهم والفال محدودهم والقاتل لرؤوسهم رؤوس الضلالة والمتّبع إن شاء اللّه خلفهم سلفهم، فبئس الخلف خلفاً اتّبع سلفاً ومحلّه النار.

فكتب إليه معاوية:

أمّا بعد، فقد طال في الغيّ ما استمررت أوراحك كما طال ما تمادى عن الحرب نكوصك وإبطائك بتوعّد وعيد الأسد وتروّغ روغان الثعلب فحتّى مَ تحيد عن اللّقاء ومباشرة الليوث الضارية والأفاعي القاتلة فلا تستبعدها فكلّما هو آت قريب، إنش، والسلام.

فكتب إليه عليٌّ عليه السلام:

أمّا بعد فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلمني بما أنت صائر إليه، وليس إبطائي عنك إلا ترقّباً لما أنت له مكذّب وأنا له مصدِّق، وكأنّي بك غداً وأنت تضجّ من الحرب ضجيج الجمال من الأثقال وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظمونه بألسنتكم وتجحدونه بقلوبكم، والسلام.

فكتب إليه معاوية:

أمّا بعد، فدعني من أساطيرك واكفف عنّي من أحاديثك واقصر عن تقوّلك على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وافترائك من الكذب مالم يقل وغرور من معك والخداع لهم فقد استغويتهم ويوشك من أمرك أن ينكشف لهم فيعزلوك ويعلموا انّ ما جئت به باطل مضمحل، والسلام.

فكتب إليه عليٌّ عليه السلام:

أمّا بعد فطالما دعوت أنت وأولوك أولياء الشيطان الرجيم الحقّ أساطير

....

الأوّلين، ونبذتموه وراء ظهوركم، وجهدتم في إطفاء نور اللّه بأيديكم وأفواهكم، ﴿واللّه متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾، ولعمري ليتمنّ النور على كرهك ولينفذنّ العلم بصغارك ولتجازينّ بعملك، فعُث في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك، فكأنّك بأجلك وقد انقضى وعملك قد هوى ثمّ تصير إلى لظى، لم يظلمك اللّه شيئاً ﴿وما ربّك بظلام للعبيد﴾.

فكتب إليه معاوية:

أمّا بعد، فما أعظم الرين على قلبك، والغطاء على بصرك، الشره من شيمتك، والحسد من خليقتك، فشمّر للحرب واصبر للضرب، فواللّه ليرجعنّ الأمر إلى ما علمت والعاقبة للمتّقين، هيهات هيهات، أخطاك ما تمنّى وهوى قلبك فيمن هوى، فاربع على طلعك، وقس شبرك بفترك، ليعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه ويفصل بين أهل الشكّ علمه، والسلام.

فكتب إليه عليٌّ عليه السلام:

امّا بعد، فإنّ مساويك مع علم اللّه فيك حالت بينك وبين أن يصلح أمرك وأن يرعوي قلبك، يابن صخر اللّعين، زعمت أن يزن الجبال حلمك ويفصل بين أهل الشكّ علمك وأنت الخلف المنافق الأغلب القلب القليل العقل الجبان الرذل فإن كنت صادقاً فيما تسطر ويعينك عليه آخرون، فدع الناس جانباً وتيسر لما دعوتي إليه من الحرب والصبر على الضرب واعف الفريقين من القتال ليعلم أيّنا المرين على قلبه المغطّى على بصره، فأنا أبو الحسن عليه السلام أنا قاتل جدّك وأخيك وخالك، وما أنت منهم ببعيد، والسلام.

قال ابن أبي الحديد: ونِعْمَ ما قال أعجب وأظرف ما جاء به الدهر وإن

. . . .

كانت عجائبه وبدائعه جمّة أن يفضي أمر علي عليه السلام إلى أن يصير معاوية ندّاً له ونظيراً مماثلاً يتعارضان الكتاب والجواب ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه، ولا يقول له عليّ عليه السلام كلمة إلا قال له مثلها أو أخشن مسّاً منها، فليت محمّداً صلى الله عليه وآله كان شاهد ذلك ليرى عياناً لا خبراً انّ الدعوة التي قام بها وأعظم المشاقّ في تحمّلها وكابد الأهوال في الذبّ عنها فضرب بالسيوف عليها لما مهّد دولتها وشيّد أركانها وملأ الآفاق بها، خلطت صفواً عفواً لأعدائه الّذين كذّبوه لما دعى إليها وأخرجوه من أوطانه لما حضّ عليها وأدموا وجهه وقتلوا عمّه وأهله، فكأنّه كان يسعى لهم ويدئب لراحتهم كما قال أبو سفيان في أيّام عثمان وقد مرّ بقبر حمزة فضربه برجله وقال: يا أبا عمارة إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد علمائنا اليوم يتلعّبون به، ثمّ آل الأمر إلى أن يغاض معاوية عليّاً عليه السلام كما يتغاض الأكفّاء والنظراء:

إذا عيّـر الطائـي بالبخل مـادر ... وقـرع قسّـاً بالفـهـاهة باطـل
وقال السّهى للشمـس أنـت خفية ... وقال الدّجى للصبـح لونك حائل
وفاخـرت الأرض السماء سفاهةً ... وكاثرت الشهب الحصى والجنادل
فيامـوت زُر إنّ الحيـاة ذميمـة ... ويا نفس جدّي إنّ دهـرك هـازلُ

ومن كتاب له عليه السلام

إلى قثم بن العباس بن عبدالمطلب وهو عامله على مكّة ولم يزل والياً عليها حتّى قُتل عليه السلام واستُشهد بسمرقند في زمن معاوية وكان معاوية قد بعث إلى مكّة دعاةً في السرّ يدعون إلى طاعته ويثبّطون العرب عن نصرة

أمّا بعد فإنّ عيني بالمغرب كتب إليّ يعلمني أنّه وجّه إلى الموسم أُناس من أهل الشام العمي القلوب الصمّ الأسماع الكمه الأبصار الذين يُلْبِسُونَ الحقّ بالباطل ويطيعون المخلوق في معصية الخالق

أمير المؤمنين عليه السلام ويوقعون في أنفسهم أنّه إمّا قاتل عثمان أو خاذل، وإنّ الخلافة لا تصلح فيمن قتل أو خذل، وينشرون عندهم محاسن معاوية بن عمّهم وأخلاقه وسيرته، وقيل: إنّ الذين بعثهم بعض السرايا التي كان يبعثها إلى لتغير على أعمال عليّ عليه السلام.

[**أمّا بعد فإنّ عيني بالمغرب**] أي: أصحاب أخباره عند معاوية، وسمّى الشام مغرباً لأنّه من الأقاليم المغربية.

[**كتب إليّ يعلمني أنّه وجّه إلى الموسم**] وهي الأيام التي يقام فيها الحج [**أُناس من أهل الشام العمي القلوب الصمّ الأسماع الكمه الأبصار**] استعار لقلوبهم العمى باعتبار عدم تعقّلهم للحق، وإدراكهم لما ينبغي من طريق الآخرة، كما لا يدرك الأعمى قصده. ولفظ الصمّ لأسماعهم، والكمه لأبصارهم باعتبار عدم انتفاعهم من جهة الأسماع بالمواعظ والتذاكير، ومن جهة الأبصار بتحصيل العبرة بها من آثار اللّه سبحانه كما لا ينتفع بذلك فاقد هاتين الآلتين.

وقوله: [**الذين يُلْبِسُونَ الحقّ بالباطل**] أي: يخلطونه به، والمراد أنّهم يعلمون أنّه على الحقّ وأنّ معاوية على الباطل ثمّ يكتمون ذلك ويغطّونه بشبهة قتل عثمان والطلب بدمه، إلى غير ذلك من أباطيلهم. وفي رواية: يلتمسون الحقّ بالباطل؛ إذ كاوا يطلبون الحقّ بحركاتهم الباطلة.

[**ويطيعون المخلوق**] كمعاوية والشيطان [**في معصية الخالق**] مع ما

ويحتلبون الدنيا درّها بالدّين ويشترون عاجل الدنيا بآجل الأبرار المتّقين ولن يفوز بالخير إلا عامله ولا يجزو جزاء الشرّ إلا فاعله فأقم على ما في يديك مقام الحازم الصليب والناصح اللّبيب والمتابع لسلطانه المطيع لإمامه وإيّاك عمّا تعتذر منه

سمعوا من الروايات المتظافرة من قوله ﷺ: «يا عليّ، حربك حربي وسلمك سلمي» وقوله ﷺ: «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع عليٍّ يدور معه كيفما دار».

وقوله ﷺ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.

[**ويحتلبون الدنيا درّها بالدّين**] استعار لفظ الدرّ لمتاع الدنيا وطيّباتها، والاحتلاب لاستخراج متاعها بوجوه الطلب خطامه ملاحظاً لشبهها بالناقة ودرّها منصوب بدلاً من الدنيا وإنّما كان ذلك بالدّين لأنّ إظهارهم لشعاره وتمسّكهم بظواهره لغرض تحصيل الدنيا وأخذهم ما لا يستحقّونه منها.

[**ويشترون عاجل الدنيا بآجل الأبرار المتّقين**] أي: ثواب الآخرة الذي أُعدّ للمتّقين، واستعار لفظ الشراء لتعويضهم ذلك العاجل من ذلك الآجل، ولمّا كان ذلك في شعار الإسلام هو الخسران المبين ذكر في معرض ذمّهم. ثمّ ذكر عليه السلام في مقام الوعد والوعيد لهم فقال:

[**ولن يفوز بالخير إلا عامله ولا يجزو جزاء الشرّ إلا فاعله**] قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾.

[**فأقم على ما في يديك**] من العمل [**مقام الحازم**] أي: المثبت في أدائه [**الصليب**] في طاعة اللّه [**والناصح اللّبيب**] له ولأوليائه [**والمتابع لسلطانه المطيع لإمامه وإيّاك عمّا تعتذر منه**] عمّا يعدّ في الشرع معصية

ولا تكن عند النعماء بطراً ولا عند البأساء فشلاً وقد بلغني من موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك

وتقصيراً عن أداء حقّه.

[ولا تكن عند النعماء بطراً ولا عند البأساء] والشدّة **[فشلاً]** أي: ضعيفاً؛ لكون ذلك معدّاً لزوال النعمة وحلول النقمة، والبطر رذيلة تستلزم رذيلتي الكبر والعجب وتقابل فضيلة التواضع، والفشل رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة، وفي الاستيعاب: إن قثم استشهد بسمرقند كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية فقُتل هناك.

ومن كتاب له عليه السلام
إلى محمد بن أبي بكر

لمّا بلغه توجّده من عزله بالأشتر من مصر ثمّ توفي الأشتر في توجّهه إلى هناك قبل وصوله لأنّ محمداً كان يضعف عن لقاء العدو ولم يكن في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أقوى بأساً من الأشتر، وكان معاوية بعد وقائع صفّين قد تجرّد للغارة على أطراف بلدان المسلمين وكان قد جعل مصر طعمة لابن العاص وعلم عليه السلام أنّها لا تحفظ إلا بالأشتر فوجّهه عليه السلام لذلك لا لموجدة عليه فكتب عليه السلام لمحمّد:

[وقد بلغني من موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك] والموجدة: ما يجده الإنسان من التألّم والغضب، والتسريح: الإرسال.

وإنّي لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهد ولا ازدياداً لك في الجدّ ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لولّيتك ما هو أيسر عليك مؤنة وأعجب إليك ولايةً إنّ الرجل الذي كنتُ ولّيته أمر مصر كان لنا رجلاً ناصحاً وعلى عدوّنا شديداً ناقماً فرحمه اللّه فلقد استكمل أيّام ولاقى حمامه ونحن

[**وإنّي لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهد ولا ازدياداً لك في الجدّ**] نفى عنه التقصير والاستبطاء في الجهاد ونحوه ممّا عساه يتوهّمه سبباً لعزله، والجهد: الطاقة، أي: لم استبطئك في بذلك طاقتك ووسعك، ومن روى الجهد بالفتح فهو من قولهم: أجهد جهدك في كذا، أي: ابلغ الغاية، ثمّ وعده عليه السلام على تقدير تمام عزله بولاية أمر هو أسهل عليه كلفته وأحبّ إليه ولايةً تسكيناً لقلبه من مصر بالترغيب فيما هو خير منها، فقال:

[**ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لولّيتك ما هو أيسر عليك مؤنة وأعجب إليك ولايةً**] لأنّه كان في مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه، ولعلّه عليه السلام كان في عزمه أن يولّيه اليمن أو خراسان أو أرمينية أو فارس.

ثمّ أشار عليه السلام إلى وجه تسريح الأشتر فقال:

[**إنّ الرجل الذي كنتُ ولّيته أمر مصر كان لنا رجلاً ناصحاً**] في السرّ والعلانية والمشهد والمغيب.

[**وعلى عدوّنا شديداً ناقماً**] أي: منكراً ومغيّراً، ومحمّد «ره» وإن كان مشاركاً له في الأوّل ولكنّه في الثاني ضعيف.

[**فرحمه اللّه فلقد استكمل أيّام ولاقى حمامه**] أي: أجله [**ونحن**

عنه راضون، أولاه اللّه رضوانه وضاعف الثواب له فأصحر لعدوّك وامض على بصيرتك وشمّر لحرب من حاربك وادع إلى سبيل ربّك وأكثر الاستعانة باللّه يكفيك ما أهمّك ويعنك على ما نزل بك

عنه راضون، أولاه اللّه رضوانه وضاعف الثواب له] إعلامٌ بأنّه مات وهو عنه راض لئلاّ تظهر به شماتة.

قال ابن أبي الحديد: ولست أشكّ في أنّ الأشتر بهذه الدعوة يغفر اللّه له أو يكفّر عنه ذنوبه ويدخله الجنّة، فلا فرق عندي بينها وبين دعوة رسول اللّه صلى الله عليه وآله، ويا طوبى لمن حصل له من عليّ عليه السلام بعض هذا.

ثمّ أمره عليه السلام بالاستعداد فقال: **[فأصحر لعدوّك]** أي: اخرج له إلى الصحراء.

[وامض على بصيرتك] والبصيرة هنا الحجّة والهدى في الدِّين.

[وشمّر لحرب من حاربك] يقال: شمّر فلان للحرب: إذا أخذ لها أُهبتها.

[وادع إلى سبيل ربّك] بالحكمة والموعظ الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

[وأكثر الاستعانة باللّه يكفيك ما أهمّك ويعنك على ما نزل بك] ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسب﴾، ﴿ومن استعان بغير اللّه ذل﴾.

إلى عبدالله أمّا بعد، فإنّ مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر قد استشهد فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً وقد كنتُ حثثت الناس على لحاقه وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ودعوتهم سرّاً وجهراً وعوداً وبدءً فمنهم الآتي كارهاً

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى عبدالله] بن عبّاس بعد مقتل محمّد بن أبي بكر بمصر:

[أمّا بعد، فإنّ مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر قد استشهد فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً] أعلمه أوّلاً باستيلاء العدوّ على مصر وقتل محمّد ليشاركه في هذه المصيبة فيؤجر ثمّ سلّم أمره إلى الله وطلب الأجر منه في الرزية تعليماً لما ينبغي أن يُفعل عند حلول المصيبة، يقال: أحتسب ولده، إذا مات كبيراً، وافترط ولده: إذا مات صغيراً، والمنصوبات أحوال، وسمّاه ولداً؛ لأنّه ربيبه، وقد ربّاه في حجره كالولد، وسيفاً لأنّه كان يقمع به العدوّ ويصال به عليه، ورشح بذكر القاطع، وركناً باعتبار كونه يستند إليه في الحوادث فيدفع العدوّ، ورشح بقوله دافعاً.

[وقد كنتُ حثثت الناس على لحاقه] وإغاثته وإعانته **[وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ودعوتهم سرّاً وجهراً وعوداً وبدءً فمنهم الآتي كارهاً]** أي: أجاب وخرج كارهاً للخروج، كما قال تعالى: ﴿كأنّهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾.

ومنهم المعتلّ كاذباً ومنهم القاعد خاذلاً أسأل اللّه تعالى أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً، فواللّه لولا طمعي عند لقاء عدوّي في الشهادة وتوطيني نفسي على المنية لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً ولا التقي بهم أبداً

[**ومنهم المعتلّ كاذباً**] أي: من قعد واعتلّ لعلّة كاذبة، كما حكى اللّه عن أمثالهم ﴿قالوا لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلكون أنفسهم واللّه يعلم أنّهم لكاذبون﴾، وقال تعالى: ﴿يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾.

[**ومنهم القاعد خاذلاً**] أي: من تأخّر، وصرّح بالقعود والخذلان كما قال تعالى: ﴿فرح المخلفون ـ بمقعدهم خلاف رسول اللّه ﷺ ـ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه﴾.

[**أسأل اللّه تعالى أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً، فواللّه لولا طمعي عند لقاء عدوّي في الشهادة وتوطيني نفسي على المنية لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً ولا التقي بهم أبداً**] سأل اللّه سبحانه تعجيل الفرج في معرض التشكّي، وأشار إلى وجه عذره في المقام معهم على هذه الحال وهو طلب الشهادة وتوطينه نفسه على الموت عند لقاء العدو، ولولا ذلك لفارقهم.

قال ابن أبي الحديد: أُنظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها وتملّكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلو بعضها بعضاً كيف تؤاتيه وتطاوعه سلسة سهلة تتدفّق من غير تعسّف ولا تكلّف، حتّى انتهى إلى آخر الفصل فقال: يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً، وهذا الصنف من البيان أحد

....

أنواع الإعجاز في القرآن.

ثمّ أُنظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل كيف قال: «ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً» لو قال: ولداً كادحاً وعاملاً ناصحاً وكذا ما بعده لما كان صواباً ولا في الموقع واقعاً، سبحان من منح هذا الرجل بهذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة أن يكون غلام من أبناء عرب مكّة ينشأ بين أهله لم يخالط الحكماء وخرج أعرف بالحكمة وتعاليق العلوم الإلهية من افلاطون وأرسطو ولم يباشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية لأنّ قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً مثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط ولم يربّ بين الشجعان؛ لأنّ أهل مكّة كانوا ذوي تجارة ولم يكونوا ذوي حرب وخرج أشجع من كلّ بشر، مضى على الأرض وخرج أفصح من شحبان وقيس ولم تكن قريش بأفصح العرب، وخرج أزهد الناس في الدّنيا وأعفّهم عنها مع أنّ قريشاً ذوو حرص ومحبّة للدّنيا ولا غرو فيمن كان محمّد ﷺ مربّيه ومخرجه والغاية الإلهية تمدّه وترفده أن يكون منه ما كان.

ومن كتاب له عليه السلام

في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو جواب كتاب كتبه إلى أخوه عقيل بن أبي طالب، وأصله إنّ بعض الأعداء أغار على بعض أعماله فأنفذ إليه من يقاتله فهرب حين علم بتوجههم إليه وأشار إلى ذلك بقوله:

فسرّحت إليه جيشاً كثيفاً من المسلمين، فلّما بلغه ذلك شمّر هارباً ونكص نادماً فلحقوه ببعض الطريق وقد طفّلت الشمس للإياب فاقتتلوا شيئاً كلاّ ولا فما كان إلا كموقف ساعة حتّى نجى جريضاً بعدما أُخذ منه بالمخنَّق

[**فسرّحت إليه جيشاً كثيفاً من المسلمين، فلّما بلغه ذلك شمّر هارباً ونكص نادماً**] التسريح: الإرسال، والتشمير: الاستعداد والتهيؤ، والنكوص: الفرار والرجوع إلى خلف.

[**فلحقوه ببعض الطريق وقد طفّلت الشمس للإياب**] الواو للحال، والجملة حالية، وطفّلت الشمس بالتشديد إذا مالت للمغيب وآبت، لغة في غابت، أو المراد بالإياب الرجوع إلى ما كانت عليه في اللّيلة التي قبلها، يعني غيبوبتها تحت الأرض، خاطبهم بما يعرفونه من أنّ منزل الشمس ومقرّها تحت الأرض وإنّها تخرج كلّ يوم فتسير على العالم ثمّ تعود إلى منزلها فتأوي إليه كما يأوي الناس ليلاً إلى منازلهم.

[**فاقتتلوا شيئاً كلاّ ولا**] تشبيه بالقليل والسريع الفناء؛ لأنّ لا ولا لفظان سريعا الانقطاع وفي بعض النسخ «كلاّ وذا» قال الشاعر:

واسرع في العين من لحظة ... وأبصر في السمع من لا وذا

وروي كلا ولاي فلاي فعل معناه أبطأ.

[**فما كان**] ذلك القتال [**إلا كموقف ساعة**] مصدر، أي: كوقوف ساعة [**حتّى نجى جريضاً بعدما أُخذ منه بالمخنَّق**] جريضاً أي: قد غصّ بالريق من شدّة الجهد والكرب، يقال: جرض ريقه بالفتح يجرض بالكسر مثال كسر يكسر، ورجل جريض مثل قدر يقدر فهو قدير والجريض أيضاً

ولم يبق معه غير الرمق فلا يا بلاي ما نجى فدع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق وجماحهم في التيه فإنّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله

بمعنى الغصّة، فيحتمل أن يكون المعنى نجى فأجريض أي: غصة، والمخنَق: موضع الخنق من العيوان، وكذا الخناق بالضمّ أي: بعد ما أُخذ منه بمحلّ الخنق.

[**ولم يبق معه غير الرمق**] وهو بقية الروح [**فلا يا بلاي ما نجى**] «ما» زائدة، أي: نجى بعد بطؤ وشدّة وانتصب «لايا» على المصدر القائم مقام الحال، أي: نجى مبطئاً، والعامل في المصدر محذوف، أي: أبطأ أبطأ، وفائدة تكوير اللّفظة المبالغة في وصف البطؤ الذي نجى به، أي: لايا مقروناً بلاي، وقوله: «فدع ... إلخ» كأنّه جواب لكلام ذكر فيه قريش ومن انضمّ منهم إلى معاوية ومن لم ينصره منهم.

فقال عليه السلام: [**فدع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق وجماحهم في التيه**] الواو بمعنى مع، أو عاطفة، واستعار التركاض باعتبار خبط أذهانهم في الضلال عن سبيل اللّه، وخوضهم في الباطل بتسرّع فيه من غير توقّف، وكذا لفظ التجوال ولفظ الجماح باعتبار كثرة خلافهم للحقّ وحركاتهم في تيه الجهل والخروج عن طريق العدل كالفرس يجمح ويحول.

ثمّ قال عليه السلام: [**فإنّهم قد أجمعوا**] أي: صمّموا عزمهم [**على حربي**] منذ بويعت بغضاً وحسداً وحقداً.

[**كإجماعهم على حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله**] في ابتداء

فجزت قريشاً عنّي الجوازي فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطان ابن أُمّي وأمّا ما سألت عنه من رأيي في القتال فإنّ رأيي قتال المحلّين حتّى ألقى اللّه لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة ولا تفرّقهم عني

الإسلام واتّفقوا على شقاقه ولم يفترق الحالان في شيء من ذلك، إلا أنّ النبي صلى الله عليه وآله عصمه اللّه من القتل وهو عليه السلام اغتيل فقُتل.

[**فجزت قريشاً عنّي الجوازي**] قيل: هي كلمة تجري مجرى المثل، تقول لمن يسيء إليك وتعدو عليه: جزتك عنّي الجوازي، جمع جازية كالجواري جمع جارية، أي: جوزوا بمثل أفعالهم.

[**فقد قطعوا رحمي**] تعليل للدعاء عليهم حيث قطعوا ما أمر اللّه بوصله في قوله: ﴿واتّقوا اللّه الذي تسائلون به والأرحام﴾، وقوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾.

[**وسلبوني سلطان ابن أُمّي**] أي: رسول اللّه صلى الله عليه وآله؛ لأنّهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عايذ بن مخزوم أُم عبداللّه وابي طالب ولم يقل ابن أبي لأنّ غير أبي طالب من الأعمام يشركه في النسب إلى عبدالمطلب، وقيل: لأنّ أُمّه فاطمة بنت أسد قد ربّت رسول اللّه صلى الله عليه وآله حين كفله أبو طالب يتيماً فهي كالأُم له.

[**وأمّا ما سألت عنه من رأيي في القتال فإنّ رأيي قتال المحلّين**] أي: الخارجين من الميثاق والبيعة، يعني البغاة ومخالفي الإمامة، ويقال لكلّ من خرج من إسلام أو حارب في الحرم أو في الأشهر الحرم أو في الأشهر الحرم: محلّ.

[**حتّى ألقى اللّه لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة ولا تفرّقهم عني**

وحشة ولا تحسبن ابن أبيك ولو أسلمه الناس متضرّعاً متخشّعاً ولا مقرّاً للضيم واهناً ولا سلس الزمام للقائد ولا وطئ الظهر للراكب المقتعد ولكنّه كما قال أخو بني سليم

وحشة] كما هو المعتاد في غالب الملوك والولاة. **[ولا تحسبن]** يا عقيل **[ابن أبيك]** يعني نفسه عليه السلام.

[ولو أسلمه الناس] وخذلوه ولم ينصره أحد منهم **[متضرّعاً متخشّعاً]** للعدوّ أو متملّقاً للناس جاذباً لهم إلى نفسه.

[ولا مقرّاً للضيم] أي: لاحق به صابر عليه. **[واهناً]** أي: ضعيفاً **[ولا سلس الزمام]** أي: ولا سهل الانقياد.

[للقائد ولا وطئ الظهر للراكب المقتعد] والمقتعد: الراكب لاقتعاده ظهر البعير.

[ولكنّه كما قال أخو بني سليم] ونُسب إلى العباس بن مرداس السلمي.

[فإن تسأليني كيف أنتَ فإنّني صبورٌ على رَيْب الزمان صَلِيبُ
يعزّ عليّ أن ترى بي كآبَةٌ فيشمتَ عادٍ أو يُساءَ حَبِيبُ]

وفي الأمثال الحكميّة: لا تشكو حالك إلى مخلوق مثلك فإنّه إن كان صديق أحزنته وإن كان عدوّاً أشمته ولا خير في واحد من الأمرين.

فسبحان اللّه ما أشدّ لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتّبعة

ومن كتاب له عليه السلام
إلى معاوية

وأوّله: أمّا بعد، فإنّ الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة لم يصب إليها أحد إلا وشغلته زينتها عمّا هو أنفع له منها، وبالآخرة أُمرنا وعليها حثثنا، فدع يا معاوية ما يفنى، واعمل لما يبقى، واحذر الموت الذي إليه مصيرك والحساب الذي إليه عاقبتك، واعلم إنّ اللّه إذا أراد بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره، ووفّقه لطاعته، وإذا أراد بعبد سوءً أغواه بالدنيا وأنساه الآخرة وبسط له أصله وعاقه عمّا فيه صلاحه، وقد وصلني كتابك فوجدتك ترمي غير غرضك وتنشد غير ضالّتك، وتخبط في عماية وتيه في ضلالة، وتعتصم بغير حجّة، وتلوذ بأضعف شبهة، فأمّا سؤالك لي المتاركة والإقرار لك على الشام فلو كنتُ فاعلاً ذلك اليوم لفعلته أمس، وأمّا قولك إنّ عمر ولاّكه فقد عزل عمر من كان ولاّه صاحبه وعزل عثمان من كان عمر ولاّه ولم ينصب للناس إمام إلا ليرى من صلاح الأمّة ما قد كان ظهر لمن كان قبله أو خفي منهم غيبه، والأمر يحدث بعده ولكلّ وال رأي واجتهاد.

[فسبحان اللّه ما أشدّ لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتّبعة] تعجّب من شدّة لزومه للأهواء التي يبتدعها والتحيّر فيها عن قصد الحقّ وذلك أنّه كان في كلّ وقت يوقع شبهة ويبتدع رأياً يغوي به أصحابه ويقرّر في أذهانهم بذلك أنّ علياً عليه السلام لا يصلح للإمامة، فتارةً يقول: إنّه قتل

مع تضـييع الحـقـائق وإطراح الوثائق التي هي للّه طلبـه و على عـباده حـجّة فأمّا إكـثارك الحـجاج عنّي في عـثمـان وقتلته فإنّك إنّمـا نصرت حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له

عثمـان، وتارةً يزعم انّه خذله، وتارةً أنّه قتل الصـحابة وفرّق كلمة الجماعة، وتارةً يصـرف عنه بالعطاء وتـفريق مـال المسلمين غلـى غيـر الوجـه الشـرعي، وتارةً يعترف بكونه صالحاً للإمـامة ويطلب منه أن يقرره على ولاية الشام إلى غير ذلك من الأباطيل.

[**مع تضييع الحقائق**] أي: حقـائق الأمور التي ينبـغي أن يعتـقدها من كونه الأحقّ بهذا الأمر.

[**وإطراح الوثائق**] وثائق اللّه وعــهـوده [**التي هـي للّه طلبـه**] أي: مطلوبة للّه مرضـة له [**و**] هي [**على عـباده حـجّة**] يوم القـيامـة، كـمـا قـال تعـالى: ﴿وإذ أخـذ ربّك من بـني آدم من ظهـورهم ذرّيتـهـم وأشـهـدهم على أنفسهم﴾ الآية.

[**فأمّا إكـثارك الحـجاج عنّي في عـثمـان وقتلـته**] وافـتخـارك بنصـرته وتبكيتك بخذلاني إيّاه بزعمك.

[**فإنّك إنّما نصرت حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له**] كنّى بذلك عمّا رواه بن أبي الحديد عن البلاذري قال:

لمّا أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه بعث يزيد بن أسد البشري جد خالد بن عبـداللّه بن مـزيد أمـيـر العـراق وقـال له: إذا أتيت ذاخـشب فـأقم بهـا ولا تجـاوزهـا ولا تقل للشـاهد يرى مـا لا يرى الغـائـب فـإنّي أنّا الشـاهد وأنت الغائب، قال: فاقام بذي خشب حتّى قتل عثمان فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد

إلى أهل مصر لمّا ولّى عليهم الأشتر عليه السلام: من عبدالله علي أميرالمؤمنين إلى القوم الذين غضبوا لله حين عُصي في الأرض وذهب بحقّه فضرب الجور سرادقه على البرّ والفاجر والمقيم والظاعن فلا معروف يستراح إليه ولا منكر يتناهى عنه أمّا بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيّام الخوف

إلى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه إنّما صنع معاوية ذلك ليقتل عثمان فيدعو إلى نفسه.

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى أهل مصر لمّا ولّى عليهم الأشتر عليه السلام: من عبدالله علي أميرالمؤمنين إلى القوم الذين غضبوا لله حين عُصي في الأرض وذهب بحقّه] إشارة إلى إنكارهم للأحداث والبدع التي صدرت من عثمان ومسيرهم من بلادهم إلى المدينة لأجل ذلك غضباً لحدود الله أن تعطّل واجتماعهم منكرين على عثمان حتّى كان من أمره ما كان.

[فضرب الجور سرادقه على البرّ والفاجر والمقيم والظاعن] استعار لفظ السرادق وهو البيت لما عمّ من الجور البرّ والفاجر والمقيم والمسافر، والسرادق: الحاوي لأهله.

[فلا معروف يستراح إليه ولا منكر يتناهى عنه] قابل بين المعروف والمنكر ولم يرد نفي المنكر بل نفى صفة التناهي عنه.

[أمّا بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيّام الخوف]

ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع أشدّ على الفجّار من حريق النار وهو مالك بن الحرث أخو بني مَذحج فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحقّ فإنّه سيف من سيوف اللّه لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة فإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن

لعلوّ همّته وتعلّقها عند الخوف بتدبير الحرب والاستعداد للقاء العدوّ ونحو ذلك مما يمنع عن النوم.

[**ولا ينكل**] أي: لا يرجع [**عن الأعداء ساعات الروع**] لشجاعته وشدّة بأسه، وأكّد ذلك بوصف كونه [**أشدّ على الفجّار من حريق النار**] إذا كان لقائه للفجّار يستلزم غلبة ظنونهم بالهلاك معه وعدم السلام، ولا كذلك وجود الحريق لطمعهم في الفرار من النار وإطفائها.

[**وهو مالك بن الحرث أخو بني مَذحج**] بفتح الميم كمسجد، قبيلة من اليمن وهو مذحج بن جابر بن مالك بن هلال بن سبأ.

[**فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحقّ**] ووافقه من الأوامر [**فإنّه سيف من سيوف اللّه**] استعار له لفظ السيف باعتبار كونه يصال به على العدوّ فيهلكه كالسيف، ورشح بذكر الظبة في قوله: [**لا كليل الظبة**] الظبة بالتخفيف: حدّ السيف.

[**ولا نابي الضريبة**] يقال نبا السيف: إذا لم يقطع الضريبة، وكنّى بالفقرتين عن كونه ماضياً في الحوادث غير واقف فيها ولا راجع عنها، وإضافة النابي إلى الضريبة من إضافة إسم الفاعل إلى المفعول، أي: ولا نابي الضريبة.

[**فإن أمركم أن تنفروا**] إلى الحرب معه [**فانفروا، وإن أمركم أن**

تقيموا فأقيموا فإنّه لا يقدم ولا يحجم ولا يؤخّر ولا يقدّم إلا عن أمري وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته لكم وشدّة شكيمته على عدوّكم.

إلى عمرو بن العاص: فإنّك جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيّه

تقيموا فأقيموا فإنّه لا يقدم ولا يحجم] أي: لايتأخّر **[ولا يؤخّر]** أحداً **[ولا يقدّم]** آخر **[إلا عن أمري]** كنّى بذلك عن موافقة أُموره وأفعاله للصواب والمصالح.

وقوله عليه السلام: **[وقد آثرتكم به على نفسي]** إلى حاجته إليه في الرأي والتدبير ومقابلة الأعداء، ومع ذلك امتنّ عليهم به ليشكروه.

[لنصيحته لكم وشدّة شكيمته على عدوّكم] يقال: فلان شديد الشكيمة أي: قويّ النفس، وأصل الشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس، أراد أنّه ناصحاً لهم قويّ النفس شديد الوطأة على عدوّهم، وإنّما آثرهم به لأنّ له عليه السلام مصلحة في ذلك الإيثار باستقامة الأمر له بصلاح حالهم.

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى عمرو بن العاص: فإنّك جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيّه] يعني به معاوية، فإنّه باعه دينه في المظاهرة على حربه بطعمة مصر، ثمّ وصف معاوية بأوصاف أربعة أشار إليها بقوله: ظاهر غيّه، أي: ضلاله عن

مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته فاتّبعت أثره وطلبت فضله اتباع الكلب للضرغام يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته فأذهبت دنياك

طريق اللّه كما هو معلوم.

[**مهتوك ستره**] لأنّه كان يتجاهر بالفجور وشرب الخمور ولبس الحرير والديباج ويشرب في أواني الذهب والفضّة.

[**يشين الكريم بمجلسه**] لأنّ مجلسه كان مشحوناً ببني أُميّة ورذائلهم ومجالسة الكريم لهم تستلزم نسبته إليهم ولحاقه بهم.

[**ويسفه الحليم بخلطته**] إذ كان دأبه وبني أُميّة معه شتم بني هاشم والتعرّض بذكر الإسلام والطعن عليه وإن أظهروا الإسلام والانتماء إليه، وذلك مما ينفر الحليم ويسفه رأيه في الثبات عند مجالستهم والسماع منهم.

[**فاتّبعت أثره**] كناية عن متابعته له في أقواله وأفعاله.

[**وطلبت فضله**] إشارة إلى أنّ الغرض من اتّباعه طلب الفضل [**اتباع الكلب للضرغام**] أشبه اتباعه له باتّباع الكلب الأسد تحقيراً له وتنفيراً، ونبّه على وجه الشبه بقوله: [**يلوذ إلى مخالبه**] يعني انّ اتباعه له على وجه الذلّة والحقارة ودناءة الهمّة للطمع فيما يعطيه من فضل ماله وانتظار ذلك منه كاتّباع الكلب للأسد.

[**وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته فأذهبت دنياك**] أي: ما كنت تعيش به من الرزق والعطاء الحلال حال طيب النفس وأمن من الحروب التي لقيتها بصفّين والأهوال التي باشرتها في موافقتك لمعاوية.

وأخّرتك، ولو بالحقّ أخذت أدركت ما طلبت فإن يمكّن اللّه منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدّمتما وإن تُعْجِزا وتبقيا فما أمامكما شرّ لكما مما أنتما فيه، والسلام

[**وأخّرتك، ولو بالحقّ أخذت أدركت ما طلبت**] من دنياً كاملة وآخرة بالثواب والمعالي كافلة أو أدركت ما طلبت من الآخرة.

[**فإن يمكّن اللّه منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدّمتما**] من أعمالكما، [**وإن تُعْجِزا وتبقيا فما أمامكما**] من عذاب البرزخ وأهوال القيامة ونار جهنّم ونكالها وعذابها [**شرّ لكما مما أنتما فيه، والسلام**] لأنّ عذاب الدنيا قليل مكثه يسير بقائه قصيرٌ مدّته، بخلاف عذاب الآخرة.

وروي هذا الكتاب بطريق آخر بهذا اللفظ:

من عبداللّه علي أميرالمؤمنين إلى الأبترين، الأبتر عمرو بن العاص بن وائل شاني محمد وآل محمد في الجاهلية والإسلام، سلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد، فإنّك تركت مروّتك لأمرئ فاسق مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته، فصار قلبك لقلبه تبعاً كما قيل: وافق شنّ طبقه، فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وآخرتك وكان علم اللّه بالغاً فيك فصرت كالذئب تتبع الضرغام، إذا ما الليل دجى والصبح أتى تلتمس فاضل سؤره وحوايا فريسته، ولكن لا نجاة من القدر ولو بالحقّ أخذت لأدركت ما رجوت، وقد رشد من كان الحقّ قائده، فإن يمكّن اللّه منك ومن ابن آكلة الأكباد أُلحقكما بمن قتله اللّه من ظلمة قريش على عهد رسول اللّه ﷺ وإن تُعجزا وتبقيا بعدي فاللّه حسبكما وكفى بانتقامه انتقاماً وبعقابه عقاباً.

إلى بعض عـمّاله: أمّا بعـد فقـد بلغني عـنك أمر إن كنت فـعلته فـقـد أسـخطت ربّك وعـصيت إمـامك وأخـزيت أمـانتـك بلغني أنّك جردت الأرض فأخذت ما تحت قـدميك وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك واعلم انّ حساب اللّه أعظم من حساب الناس، والسلام.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى بعض عمّاله: أمّا بعد فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربّك وعصيت إمامك وأخزيت أمانتك**] أي: أذللتها وأهنتها، ثمّ فسّر ذلك الأمر وفصّله بعد إجماله حتى يكون أرسخ في النفس.

فقال: [**بلغني أنّك جردت الأرض**] أي: قشرتها، وكنّى به عن إخراب الضّياع.

[**فأخذت ما تحت قدميك**] من الغرس ونحوها، أو ما كنت خزنته تحت الأرض.

[**وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك**] حتّى أنظر ما لك وما عليك.

[**واعلم انّ حساب اللّه أعظم من حساب الناس، والسلام**].

وعن عليّ عليه السلام أنّه كان يقول:

لي على كلّ عامل من اصيان الماء والطين.

قال ابن أبي الحديد: لمّا قدم أبوهريرة من البحرين قال له عمر: يا عدوّ اللّه وعدوّ كتابه أسرقت مال اللّه؟! فقال أبوهريرة: لستُ بعدوّ اللّه ولا عدوّ

إلى بعض عمّاله أمّا بعد، فإنّي كنت أشركتك في أمانتي وجعلتك شعاري وبطانتي

كتابه، ولكنّي عدوّ من عاداهما ولم اسرق مال اللّه، فضربه بجريدة على رأسه ثمّ ثناه بالدرّة وأغرمه عشرة آلاف درهم ثمّ أحضره فقال: يا أباهريرة من أين لك عشرة آلاف درهم، قال: خيلي تناسلت، وعطاي تلاحق، وسهامي تتابعت، فقال عمر: كلاّ واللّه، ثمّ تركه أيّاماً وقال له: الا تعمل؟ قال: لا، قال: قد عمل من هو خير منك، قال: من هو، قال: يوسف الصدّيق، فقال أبوهريرة: إنّ يوسف عمل لمن لم يضرب رأسه وظهره ولا شتم عرضه ولا نزع ماله، واللّه لا أعمل لك أبداً.

أقول: وكان لعمر أن يجيبه بأنّ يوسف لما كان قوياً أميناً على ما ائتمن عليه لم يُهَنْ ولو فعلت فعله لما أُهنت!

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى بعض عمّاله] قيل إنّه عبداللّه بن العباس وقيل أخوه عبيداللّه وقيل غيرهما **[أمّا بعد، فإنّي كنت أشركتك في أمانتي]** التي ائتمنني اللّه عليها، وهي ولاية أمر الرعية والقيام بإصلاح أُمورهم في معاشهم ومعادهم.

[وجعلتك شعاري وبطانتي] والشعار: ما يلي الجسد من الثياب، وبطانة الرجل: خاصّته، استعار له لفظ الشعار لمباشرته وملازمته الجسد.

ولم يكن في أهل رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي ومؤازرتي وأداء الأمانة فلمّا رأيت الزمان على ابن عمّك قد كلب والعدوّ قد حرب وأمانة الناس قد خربت وهذه الأُمّة قد فتكت وشغرت قلبت لابن عمّك ظهر المجن ففارقته مع المفارقين وخذلته مع الخاذلين فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أدّيت، وكأنّك لم تكن اللّه تريد بجهادك وكأنّك لم تكن على بيّنة من ربّك

[**ولم يكن في أهل رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي ومؤازرتي وأداء الأمانة**] التي ائتمنتك عليها.

[**فلمّا رأيت الزمان على ابن عمّك قد كلب**] أي: اشتدّ، وكلب الزمان: شدّته.

[**والعدوّ قد حرب**] أي: اشتدّ غضبه [**وأمانة الناس قد خربت وهذه الأُمّة قد فتكت**] والفت: القتل على غرّة [**وشغرت**] أي: تفرّقت [**قلبت لابن عمّك ظهر المجن**] هو الترس، قيل: يضرب مثلاً لمن يكون مع أخيه فيتغيّر عليه ويصير خصماً له، وأصله أنّ الرجل إذا كان سلماً لأخيه يكون بطن ترسه إليه، فإذا فارقه وصال حرباً له يقلب له ظهر ترسه ليدفع به عن نفسه ما يلقاه من شرّه، فجعل ذلك كناية عن العداوة بعد الصداقة.

[**ففارقته مع المفارقين وخذلته مع الخاذلين**] ثمّ أخذ في تعنيفه وتوبيخه وحكاية حاله فقال: [**فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أدّيت، وكأنّك لم تكن اللّه تريد بجهادك**] بل أردت الدنيا فلما ظفرت بمطلوبك منها اكتفيت [**وكأنّك لم تكن على بيّنة من ربّك**] بل جاهل به وبوعده وبوعيده، ووجه الشبه مشاركة لطالبي غير اللّه والجاهلين به في طلب غيره

وكأنّك إنّما كنت تكيد هذه الأُمّة عن دنياهم وتنوي غرّتهم عن فيئهم فلمّا أمكنتك الشدّة في خيانة الأُمّة أسرعت الكرّة وعاجلت الوثبة واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر تحمله غير متأثّم من أخذ مكانك لا أباً لغيرك

والإعراض عنه.

وكذا قوله: **[وكأنّك إنّما كنت تكيد هذه الأُمّة عن دنياهم وتنوي غرّتهم عن فيئهم]** وأشار إلى وجه الشبه قوله: **[فلمّا أمكنتك الشدّة]** أي: الجملة **[في خيانة الأُمّة أسرعت الكرّة وعاجلت الوثبة واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل]** أي: الخفيف الوركين؛ لأنّه حينئذ اشدّ لعدوّه واسرع ولثبته.

[دامية المعزى الكسيرة] وصف بذلك لأنّ الاقتدار على اختطافها يكون أسهل، وحاصل وجه الشبه أنّه كما انّ غرض الذي يكيد غيره عن شيء يترصّد له الفرصة في أخذه وينتهزها إذا وجدها فكذا أنت في إسراعك الوثوب على الخيانة، ثمّ شبّه اختطافه بما ذكر، ووجه الشبه سرعة أخذه له وخفّته في ذلك كما عرفت، ثمّ أخذ في معرض التوبيخ أنّه حمله إلى وطنه يتلذّذ به فقال:

[فحملته إلى الحجاز] حال كونك **[رحيب الصدر]** كناية عن سروره وفرحه به، أو عن كثرة ما حمل منه؛ لأنّ من العادة إذا أراد الإنسان حمل شيء في صدره فتح صدره وباعه وجرى منه ما أمكنه حمله.

[تحمله غير متأثّم من أخذ مكانك لا أباً لغيرك] فيه دلالة على أنّ

وحدرت على أهلك تراثك من أبيك وأُمّك فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد أوما تخاف نقاش الحساب إيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنّك تأكل حراماً وتشرب حراماً وتبتاع الإماء وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين

للمخاطب قدراً في الجملة عنده ﷺ، ولو كان من سائر الناس لقال لا أباً لك، كما هو المتعارف.

[**وحدرت على أهلك تراثك من أبيك وأُمّك**] ثمّ أظهر التعجّب من فعله ذلك وقال:

[**فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد أوما تخاف نقاش الحساب**] أي: مناقشته ودقّته، فإنّ هذا الفعل فعل من لا يؤمن بالمعاد، وفيه إشارة إلى أنّ صدور أمثال هذه المعاصي إنّما هي من ضعف الإيمان، ولو كان الإيمان حقيقياً كاملاً لما صدرت هذه الأُمور، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع عديدة فقال: ﴿يا أيّها الذين آمَنُوا آمِنُوا﴾ وقال: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ وقال: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وقال: ﴿أم تحسب انّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلاً سبيلاً﴾، وفي الحديث القدسي: «عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبتُ لمن أيقن بالحساب كيف يجمع المال» يعني إنّ اليقين مناف لذلك.

[**إيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب**] أتى بلفظ كان إشعاراً بأنّه لم يبق على حاله.

[**كيف تسيغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنّك تأكل حراماً وتشرب حراماً وتبتاع الإماء وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين**

والمجاهدين، الّذين أفاء اللّه عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد فاتّق اللّه واردد إلى هؤلاء القوم عليهم أموالهم فإنّك إن لم تفعل ثمّ أمكنني اللّه منك لأُعذرنّ إلى اللّه فيك ولأضربنّك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار وواللّه لو انّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت لما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بإرادة حتّى آخذ الحقّ منهما وأزيح الباطل عن مظلمتهما

والمجاهدين، الّذين أفاء اللّه عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد] وفي هذا الاستفهام من الإنكار والتقريع وتعظيم الذنب ما لا يخفى.

ثمّ أمره بعد هذا التوبيخ الطويل بتقوى اللّه وردّ المال إلى أربابه فقال:

[فاتّق اللّه واردد إلى هؤلاء القوم] الذين ذكرنا لك أوصافهم مما يوجب الاستعطاف والرقّة.

[عليهم أموالهم فإنّك إن لم تفعل ثمّ أمكنني اللّه منك لأُعذرنّ إلى اللّه فيك] أي: يبلغ إليه بالعذر فيه وبقتله.

[ولأضربنّك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار] وفيه من الإغلاظ بالوعيد والمبالغة في الزجر ما لا يخفى.

[وواللّه لو انّ الحسن والحسين] مع كونهما نور بصري وقوّة قلبي وفلذة كبدي وحشاشة نفسي ومهجتي.

[فعلا مثل الذي فعلت لما كانت لهما عندي هوادة] أي: مصالحة ومصانعة **[ولا ظفرا مني بإرادة حتّى آخذ الحقّ منهما وأزيح الباطل عن مظلمتهما]** أقسم عليه السلام على أنّ ولديه مع قربهما منه وكرامتهما عليه لو فعلا كفعله من الخيانة لم يراقبهما في ذلك حتّى يأخذ الحقّ منهما ويزيح الباطل

وأُقسم باللّه ربّ العالمين ما يسرّني أنّ ما أخذته من أموالهم حلال لي، أتركه ميراثاً لمن بعدي فَضَحِّ رويداً فكأنّ قد بلغت المدى ودفنت تحت الثرى وعرضت عليك أعمالك بالمحلّ الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة ويتمنّى المضيّع فيه الرجعة

عن مظلمتهما، أي: محلّ ظلمهما من مال أو غيره، فغيرهما بطريق أولى في عدم المراقبة ثمّ قال عليه السلام:

[**وأُقسم باللّه ربّ العالمين ما يسرّني أنّ ما أخذته من أموالهم حلال لي، أتركه ميراثاً لمن بعدي**] وهذا القسم لتحقير ما أخذه بأنّه لو كان أخذه على وجه حلال فلا يحبّ أن يخلفه ميراثاً لمن بعده لما يترتّب على جمع المال وادّخاره من الوبال، فكيف به وهو حرام بحت وظلم صرف كما عرفت، وهذا ترغيب له في ردّه والخروج عنه إلى أهله، والغرض من اليمين السابق بيان عذره في شدّة إنكاره عليه.

[**فَضَحِّ رويداً**] قيل هي كلمة تقال لمن يؤمر بالتودء والأناة والسكينة، وأصلها الرجل يطعم إبله ضحى ـــــــ مسرعاً ليسير فلا يشبعها فيقال له: ضحّ رويداً.

[**فكأنّ**] أي: كأنّك [**قد بلغت المدى**] اي: الغاية التي هي الموت [**ودفنت تحت الثرى وعرضت عليك أعمالك بالمحلّ الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة ويتمنّى المضيّع فيه الرجعة**] أمره عليه السلام بالإمهال على سبيل التهديد بقرب الوصول إلى الأصل والدفن وعرض أعماله عليه بالمحلّ الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة ويتمنّى فيه المضيّع للطاعة والعمل بالرجعة إلى الدنيا، إشارةً إلى ما حكى اللّه عنهم من قول: ﴿ربّ ارجعوني لعلّي أعمل

ولات حين مناص إلى عمرو بن أبي سلمة المخزومي واستعمل النعمان بن عجلان بن الزُّرقي مكانه أمّا بعد، فإنّي ولّيت النعمان بن عجلان الزرقي على البحرين، ونزعتُ يدك بلا ذمّ لك ولا تثريب عليك فقد أحسنت الولاية وأدّيت الأمانة فأقْبِل غير ظنين

صالحاً فيما تركت﴾.

وقوله: [**ولات حين مناص**] اقتباس من القرآن، أي: وليس هذا الحين حين فرار.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى عمرو بن أبي سلمة المخزومي**] ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله وأُمّه أُمّ سلمة وفي الاستيعاب: كان يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ابن تسع سنين وتوفي بالمدينة في خلافة عبدالملك سنة ثلاث وثمانين وكان حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وآله الحديث وروى عنه سعيد بن المسيّب وغيره، وكان عامله على البحرين فعزله [**واستعمل النعمان بن عجلان بن الزُّرقي مكانه**] من سادات الأنصار وأشرافهم.

[**أمّا بعد، فإنّي ولّيت النعمان بن عجلان الزرقي على البحرين، ونزعتُ يدك**] مما كنت ولّيتك عليه [**بلا ذمّ لك ولا تثريب عليك**] والتثريب: التعنيف والاستقصاء في اللّوم، أي: إنّ استبدالك لم يكن عن ذنب صدر منك يستحقّ به الذمّ والعزل.

[**فقد أحسنت الولاية وأدّيت الأمانة فأقْبِل غير ظنين**] أي: مظنون

ولا ملوم ولا متّهم ولا مأثوم فقد أردت المسير إلى ظلمة أهل الشام، وأحببتُ أن تشهد معي فإنّك من أستظهر به على جهاد العدوّ وإقامة عمود الدّين إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامله على اردشير خُرّة بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلتَهُ فقد أسخطتَ إلهك وأغضبت إمامك أنّك تَقْسِم فيءَ المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم وأُريقت عليه دماؤهم فيمن اعتامك

بك سوء.

[**ولا ملوم ولا متّهم ولا مأثوم**] ثمّ أبان له الغرض من عزله فقال:

[**فقد أردت المسير إلى ظلمة أهل الشام، وأحببتُ أن تشهد معي فإنّك من أستظهر به**] أي: أتخذه ظهيراً ومعيناً.

[**على جهاد العدوّ وإقامة عمود الدّين**] استعير العمود للأُصول التي يحفظها، فإنّ الدّين يقوم بها كما يقيم الخيمة بالعمود.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامله على اردشير خُرّة**] كورة من كور فارس.

[**بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلتَهُ فقد أسخطتَ إلهك وأغضبت إمامك**] ونبّه بالتعليق بأنّ على عدم تحقّقه لذلك ثمّ أبان له ذلك الأمر بعد إجماله فقال:

[**أنّك تَقْسِم فيءَ المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم وأُريقت عليه دماؤهم فيمن اعتامك**] أي: اختارك من بين الناس.

من أعراب قومك فوالذي فلق الحبّة وبرء النسمة لئن كان ذلك حقّاً لتجدنّ لك عليّ هواناً ولتخفّنّ عندي ميزاناً فلا تستهن بحقّ ربّك ولا تصلح دنياك بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً ألا وإنّ حقّ من قبلك وقبلنا في قسمة هذا الفيء سواء يردون عليه ويصدرون عنه

[**من أعراب قومك**] وصف الفيء بكونه حيازة رماحهم وخيولهم وعليه أُريقت دمائهم ليتأكّد في النفوس ويتبيّن وجه استحقاقهم له وبعد ذلك يتأكّد قبح قسمته في غيرهم ممّن اختاره رئيساً من أعراب قومهم ثمّ قال عليه السلام:

[**فوالذي فلق الحبّة وبرء النسمة لئن كان ذلك حقّاً لتجدنّ لك عليّ هواناً**] وفي رواية لتجدنّ بك عندي، بالباء ومعناها اللام، أو المعنى لتجدنّ بسبب فعلك هوانك عندي.

[**ولتخفّنّ عندي ميزاناً**] كنّى به عن صغر منزلته وحقارتها، ونصب ميزاناً على التمييز ثمّ نهاه عن ذلك بقوله: [**فلا تستهن بحقّ ربّك ولا تصلح دنياك بمحق دينك**] أي: إهلاكه تنبيهاً على عظمة الله ووجوب المحافظة على طاعته.

[**فتكون من الأخسرين أعمالاً**] ﴿الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾، تنبيهٌ على أنّه فعل ذلك دخلوه في زمرة هؤلاء، ثمّ نبّهه على قبح ما فعل من تخصيص قومه بذلك المال بقوله:

[**ألا وإنّ حقّ من قبلك وقبلنا**] أي: في جهتك وجهتنا [**في قسمة هذا الفيء سواء يردون عليه ويصدرون عنه**] تأكيدٌ لتساويهم في الاستحقاق وأنّه لهم كالشريعة المشتركة بين المسلمين.

إلى زياد بن أبيه، وقد بلغه أنّ معاوية كتب إليه يريد خدعته باستلحاقه

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى زياد بن أبيه، وقد بلغه أنّ معاوية كتب إليه يريد خدعته باستلحاقه].

ذكر ابن أبي الحديد ما حاصله: انّ زياداً هذا دعيّ أبي سفيان، ويقال زياد بن عبيد والأكثر على أنّه كان عبداً وأنّه بقي إلى أيام زياد فابتاعه وأعتقه، ويقال: زياد بن سمية وهي أُمّه كانت أمة للحرب وكانت تحت عبد وكان قبل الاستلحاق، يدعى زياد بن عبيد بلا خلاف، وأمّا ادّعاء أبي سفيان إيّاه فروي انّه تكلّم يوماً بمحضر عمر فأعجب الحاضرين كلامه فقال عمرو بن العاص: للّه لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه، فقال: أما واللّه إنّه لقرشي ولو عرفته لعرفت أنّه من خير أهلك، فقال: ومن أبوه؟ فقال: أنا واللّه، وضعته في رحم أُمّه، قال: فهلاّ تستلحقه! فقال: أخاف هذا ـــــ الجالس أن يخرق عليّ إهابي، يعني عمر، ولمّا ولي عليّ الخلافة ولّى زياداً فارساً، فضبطها ضبطاً صالحاً وحماها، فكتب إليه معاوية يخدعه باستلحاقه:

أمّا بعد فإنّ عزتك قلاع تأوي إليها ليلاً كما يأوي الطير إلى وكرها، وأيم اللّه لولا انتظاري بك ما اللّه أعلم به لكان لك منّي ما قاله العبد الصالح ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنرجنهم منها أذلّة صاغرون﴾ وكتب في

وقد عرفت أنّ معاوية كتب إليك يستزلّ لبّك ويستفلّ غَرْبَكَ فاحذره فإنّما هو الشيطان

أسفل الكتاب شعراً من جملته:

تنسى أباك وقد شالت نعامته   أو تخطب الناس والولي لهم عمر

فلمّا ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال: العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق يتهدّدني وبيني وبينه ابن عمّ رسول الله ﷺ وزوج سيّدة نساء العالمين وأبو السبطين وصاحب الولاء والمنزلة والاخاء في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، أما والله لو تخطّى هؤلاء أجمعين إليّ لوجدني بها أحمر مجناً ضرّاباً بالسيف، ثمّ كتب إلى عليّ وبعث بكتاب معاوية في كتابه، فكتب إليه علي: أمّا بعد فإنّي ولّيتك ما ولّيتك وأنا أراك لذلك أهلاً وإنّه قد كانت من أبي سفيان فلتة أيام عمر من أماني التيه وكذب النفس لم يستوجب منها ميراثاً ولم يستحقّ بها نسباً، وإنّ معاوية كالشيطان الرجيم، يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثمّ احذره، والسلام.

ولنرجع إلى شرح الأصل: **[وقد عرفت أنّ معاوية كتب إليك يستزلّ لبّك]** أي: يستغفل عقلك وما أنت عليه من الرأي الصحيح في نصره الحقّة وولائه له.

[ويستفلّ غَرْبَكَ] الاستفلال: طلب الفل، وهو ثلم الحدّ، وغرب السيف: حدّه، استعار لفظ الغرب لعقله ورأيه ولفظ الاستفلال لطلب صرفه عن ذلك الرأي الصالح ملاحظةً لشبهه بالسيف، ثمّ حذّره عنه بقوله:

[فاحذره فإنّما هو الشيطان] باعتبار وسوسته وصدّه عن الحقّ ونبّه

يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويسلب غِرَّتَهُ

على وجه الشبه بقوله:

[**يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله**] أخذاً من قوله تعالى: ﴿لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم أي: إنّه يأتي الإنسان من كلّ جهة كما يأتي الشيطان، وخصّ الجهات الأربع لأنّها الجهات التي يعتاد الإتيان منها، وقيل: بين أيديهم: يطمعهم في العفو ويغريهم بالعصيان. ومن خلفهم: بذكرهم مخلّفيهم ويحسّن لهم جمع المال وتركه لهم. وعن أيمانهم: يحسّن لهم الرياسة. وعن شمائلهم: اللّهو واللّذات. ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لأنّ جهة الفوق محلّ نزول الرحمة ومستقرّ الملائكة ومكان العرش والأنوار الشريفة فلا سبيل له إليها، وأمّا جهة التحت فلأنّ الإتيان موحش منه وينفر عنه لأنّه الجهة المعروفة بالشياطين فعدل عنها إلى ما هو أدعى إلى قبول وساوسه وأضاليله.

وقوله: [**ليقتحم غفلته**] أي: ليلج ويهجم عليه وهو غافل، جعل اقتحامه إيّاه اقتحاماً للغرّة نفسها لما كانت غالبة عليه.

[**ويسلب غِرَّتَهُ**] قيل: ليس المعنى باستلابه الغرّة أن يأخذها ويرفعها؛ لأنّه لو كان كذلك لصار الغافل المغترّ فاقد الغفلة والغرة، وإنّما ـــــــ مايعنيه الناس بقولهم: أخذ فلان غفلتي وفعل كذا، ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدلّ به على غفلتي.

ثمّ نبّهه على فساد حيلة معاوية بقوله:

وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس ونزعة من نزعات الشيطان لا يثبت بها نسب ولا يستحقّ بها إرث والمتعلّق بها كالواغل المُدَفَّع والنوط المذبذب

[**وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس**] إشارة إلى إقراره بالزنا وقوله أنا وضعته في رحمه أُمّه، أي: وقعت هذه الكلمة من غير تثبّت ولا روية.

[**ونزعة من نزعات الشيطان**] أي: من حركاته القبيحة التي يستفسد بها المتكلفين.

[**لا يثبت بها نسب ولا يستحقّ بها إرث**] لأنّ المقرّ بالزنا لا يلحقه النسب ولا يرثه المولود لقولهﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر».

[**والمتعلّق بها كالواغل المُدَفَّع**] وهو الذي يهجم على الشرب مع القوم وليس منهم فيدافع ويمنع.

[**والنوط المذبذب**] وهو ما ناط برجل الراكب من قعب أو قدح، ووجه الشبه في الأوّل كونه لا يزال مدفعاً وبالثاني اضطراب أمره وعدم لحوقه بنسب معيّن واستقراره كما يضطرب الشوط ولا يستقرّ.

قال السيّد «ره»ك فلمّا قرء زياد الكتاب قال: شهد بها وربّ الكعبة، ولم تزل في نفسه حتّى ادّعاه معاوية. قوله: «كواغل المدفّع» الواغل: هو الذي يهج على الشرب ليشرب معهم وليس منهم فلا يزال مدفعاً محاجزاً، والشوط المذبذب: هو ما شاط برحل الراكب من قعب أو قدح وما أشبه ذلك فهو أبداً يتقلقل إذا حثّ ظهره واستعجل سيره.

إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وكان عامله على البصرة وقد بلغه أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها: أمّا بعد يابن حنيف فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتُنقل إليك الجفان وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى عثمان بن حنيف**] بضمّ الحاء [**الأنصاري، وكان عامله على البصرة**] فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدماها وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة علي عليه السلام ومات بها في زمن معاوية.

[**وقد بلغه أنّه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها: أمّا بعد يابن حنيف فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة**] بضمّ الدال: الطعام يُدعى إليه.

[**فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتُنقل إليك الجفان**] أعلمه أنّه بلغه ذلك مقرّراً له ليحسن توبيخه عليه، ثمّ أشار عليه السلام على وجه العتاب إلى تخطئته في ذلك بقوله:

[**وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلهم**] أي: فقيرهم [**مجفو وغنيهم مدعو**] أي: كان ظنّي فيك من الورع انّك تنزّه نفسك عن الإجابة إلى طعام قوم لا يلتفتون إلى فقرائهم ويقصرون الدعوة والكرامة على أغنيائهم وأمراهم، فإنّ تخصيص الأغنياء دون الفقراء بالكرامة والدعوة

فانظر إلى ما تقضمه من هذا القضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجهه فَنَلْ منه ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه

دليل واضح على أنّهم يريدون بذلك الدنيا والسمعة والرياء دون وجه اللّه تعالى، وإجابة من هو بهذه الصفة خصوصاً من أُمراء الدّين المتمكّنين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثمّ قال:

[**فانظر إلى ما تقضمه من هذا القضم**] القضم: الأكل بأدنى الفم.

[**فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجهه فَنَلْ منه**] أمره أن يحترز فيما يتقوّله أن يقع فيه من ذلك بالنظر إلى ما يحضر من الطعام فما وجد فيه شبهة حرام ولم يحقّق حاله فليتركه وما تيقّن حلّه وطيب وجه اكتسابه ببراءته عن الشبهات فينال منه، وكنّى عنه بالمقضم تحقيراً له وتقليلاً مشيراً بذلك إلى أنّه ليس عنده مما يستحقّ أن يسمّى باسم مرغوب فيه متنافس عليه؛ لأنّ القضم يطلق على أكل الشيء اليابس وعلى ما يوكل ببعض الفم وكلاهما يدلاّن على أنّه مرغوب عنه لا فيه ثمّ قال عليه السلام:

[**ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه**] والطمر: الثوب الخلق البالي، وإنّما جعلهما اثنين لأنّهما أزار ورداء لابدّ منهما للجسد وللرأس.

[**ومن طعمه بقرصيه**] أي: قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما، وروي قد اكتفى من الدنيا بطمريه وسدّ فورة جوعه بقرصيه لا يطعم الفلذة في حوله إلا في يومي أضحيته وتقرير الحجّة إنّ كلّ مأموم يجب عليه الاقتداء

ألا وإنّكم لا تقدورن على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا ادّخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ولا حزت من أرضها شبراً ولا أخذت منها إلا كقوت أتاة دبرة ولهي في عيني أهون من عصفة مغرة

بإمامه وأنت مأموم فيجب عليك أن تقتدي بإمامك الذي صفته كذا.

ثمّ قال عليه السلام: [**ألا وإنّكم لا تقدورن على ذلك**] الذي أقدر عليه لأنّها قوّة مشروطة باستعداد لن يصلوا إليه.

[**ولكن أعينوني**] على أنفسكم ورياضتها [**بورع**] وهو الكفّ عن المحارم [**واجتهاد**] في الطاعة أو ورع في لزوم الأعمال الجميلة واجتهاد فيها.

ثمّ قال عليه السلام: [**فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً**] أي: ذهباً [**ولا ادّخرت من غنائمها وفراً**] والوفر: المال الكثير.

[**ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً**] أي: لم أعدّ ثوباً بالياً سهلاً لبالي ثوبي فضلاً عن أن أعدّ ثوباً حسناً كما يفعله الناس في إعداد ثواب جديد ليلبسوه عوض الأسمال التي ينزعونها.

[**ولا حزت من أرضها شبراً**] والضمير في أرضها راجع إلى دنياكم [**ولا أخذت منها إلا كقوت أتاة دبرة**] وهي التي عقر ظهرها فقلّ أكلها.

[**ولهي في عيني أهون من عصفة مغرة**] والمغرة: المرّة، أي: مرّة، مغِر الشيء بالكسر أي: صار مرّاً وأمقر أيضاً بالهمزة ثمّ اشتثنى من قوله: ولا حزت من أرضها فدك وهي كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله إذ صالحوه أهلها على النصف فكانت مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب وهو مختصّ به صلى الله عليه وآله وأعطاها عليها السلام فاطمة في حياته ولما ولي أبو بكر عزم على أخذا لما

بلى، كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عليها نفوس قوم آخرين وَنِعْمَ الحكمُ اللّه وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غير جدث ينقطع في ظلمته آثارها ويغيب أخبارها

رواه وتفرّد به من قوله صلى الله عليه وآله نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة. فادّعت النحلة وأقامت البيّنة على ذلك وشهد لها عليّ عليه السلام وأُمّ أيمن فردا وطال بينهما القيل والقال.

ولها عليها السلام خطبة عجيبة في هذا المقام تتظلّم فيها وتتضمّن إقامة الحجج القاطعة والبراهين الساطعة من العقل والنقل آية ورواية وقد شرحناها في رسالة على حدة، وقد أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله:

[بلى، كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم] كناية عن أبي بكر وعمر وأتباعهما **[وسخت عليها نفوس قوم آخرين]** إشارة إليه صلى الله عليه وآله وزوجته وأولاده وسائر بني هاشم، والمراد بالسخاء: المسامحة والاغضاء، لأنّها أُخذت منهم عليهم السلام غصباً وقهراً.

[وَنِعْمَ الحكمُ] أي: الحاكم **[اللّه]** فيما بيننا وبين القوم وهو خير الحاكمين، ثمّ استفهم استفهام إنكار عمّا يصنع بفدك وغيرها تسلية لنفسه عنها وجذباً لها عن الدنيا إلى الباقيات الصالحات التي هي خير وأبقى فقال: **[وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غير جدث]** الواو للحال والجملة حالية والمراد إنّ غاية النفوس أن تصير إلى القبر.

[ينقطع في ظلمته آثارها ويغيب أخبارها] ذكر للوازم تلك الغاية من انقطاع الآثار وغيبة الأخبار.

وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يد حافرها لأضغطها الحجر والمدر وسدّ فرجها التراب المتراكم وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق

[**وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يد حافرها لأضغطها**] أي: ضيّقها [**الحجر والمدر وسدّ فرجها**] جمع فرجة: وهي الثقوب الخالية.

[**التراب المتراكم**] ذكر عليه السلام إنّ تلك الحفرة التي هي القبر ضيّقة وأنّها لو وسّعها الحافر لألجئها الحجر المتداعي والمدر المتهافت إلى أن يضغط الميت ويزحمه.

ثمّ قال عليه السلام: [**وإنّما هي نفسي**] أي: إنّما همّتي وحاجتي نفسي، رياضة نفسي بنهيها عن هواها واتّباعها مولاها.

[**أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق**] ذكر عليه السلام انّ اقتصاره من المطعم والملبس على الضروري منهما لأنّ ذلك إنّما يعمله خوفاً من اللّه تعالى أن ينغمس في الدنيا ولذّاتها وينهمك في شهواتها تنبيهاً على أنّ الغرض الأقصى من الرياضة الكمال الحقيقي والتلذّذ بلوامه وما يترتّب عليه من الأمن من الفزع يوم الخوف الأكبر وهو يوم القيامة والثبات على جوانب المزلق وهو الصراط المستقيم، فلا تميل بها الدواعي المختلفة عنه إلى أبواب جهنّم ومهاوي الهلاك، واستعار المزلق لمظانّ زلل أقدام العقول في الطريق إلى اللّه وجذب الميول الشهوية والغضبية عنها إلى الرذائل الموبقة.

ثمّ نبّه عليه السلام على أنّ زهده في الدنيا واقتصاره على الطمرين والقرصين ليس عن عجز وإنّه لو شاء لاهتدى إلى تحصيل تلك الطيّبات ولباب القمح

ولو شئتُ لاهتديتُ الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسايج هذا القزّ ولكنّ هيهات أن يغلبني هواي أو يقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة ولعلّ بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع وأبيتُ مبطاناً

ومصفّى العسل لأنّ الهريسة والعسل من أرغب المطعومات وأطيبها عند أهل مكّة والحجاز فقال:

[ولو شئتُ لاهتديتُ الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح] وهو الحنطة **[ونسايج هذا القزّ]** جمع نسيجة بمعنى منسوجة، والقزّ معروف، وخصّ لأنّه أنعم الملبوس يختاره المترفون.

[ولكنّ هيهات أن يغلبني هواي أو يقودني جشعي] والجشع: أشدّ الحرص.

[إلى تخيّر الأطعمة] أي: اختيارها وترجيحها على ما أنا فيه من رياضة النفس والزهد.

[ولعلّ بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع] الواو للحال، والجملة حالية، أي: هيهات أن يغلبني هواي إلى تخيّر الأطعمة حال ما يحتمل أن يكون بالحجاز واليمامة من هو بهذه الصفة.

وقوله: **[وأبيتُ مبطاناً]** عطف على يقودني، وداخل فيما استبعده من نفسه، والمبطان: الذي لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، والمبطن: الضامر البطن، والبطين: العظيم البطن لا من الأكل، والبطن بفتح الباء وكسر الطاء: الذي لا يهمّه إلا بطنه، والمبطون: العليل البطن.

وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى وأن أكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحولك أكباداً تحنّ إلى القدّ

ءأقنع من نفسي بأن يقال أميرالمؤمنين ولا أُشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أُسوة بهم في جشوبة العيش

والواو في قوله [**وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى**] للحال، والعامل أبيتُ، وكذا قوله: [**وأن أكون كما قال القائل:**

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحولك أكباداً تحنّ إلى القدّ]

عطف على «أبيتُ»، وبطون غرثى أي: جائعة، والبطنة: الكظّة، وذلك أن يمتلي الإنسان من الطعام لما روي ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس، وما زاد فهو إسراف، والغرض من التمثيل بالبيت التنفير عن العار اللازم من الاستمتاع بالطيّبات مع وجود ذوي الحاجة إلى أيسر الطعام، واطلق عليه اسم الداء باعتبار أنّه رذيلة مهلكة، وربّما روي قوله: «أو أبيت» أو أكون، بالرفع والوجه فيه أنّ «لا» تكون أو حرف عطف بل الهمزة للاستفهام والواو بعدها متحرّكة ويكون استفهام إنكار لكونه مبطاناً، أو كما قال الشاعر، وفي بعض الروايات هكذا: ولو شئتُ لاهتديت إلى هذا العسل المصفّى ولباب هذا البرّ المنقّى، فضرب هذا بذاك حتّى يتضح وقوداً أو يستحكم معقوداً، ولعلّ بالمدينة يتيماً ترباً يتضوّر سعياً أبيت مبطاناً وحولي بطون إلي غرثى إذا يحضرني يوم القيامة وهم من ذكر وأُنثى ويروى بطون غرثى بإضافة البطون إلى غرثى.

وقولهعليه السلام: [**ءأقنع من نفسي بأن يقال أميرالمؤمنين ولا أُشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أُسوة بهم في جشوبة العيش**] استفهام في معرض

فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها والمرسلة شغلها تقمّمُها تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يراد بها أو أترك سُدىً أو أُهمل عبثاً أو أجرّ حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة

الإنكار بأنّه كيف أرضى بأن أُدعى أمير المؤمنين والحال انّي لا أُشارك المؤمنين الذين كنتُ أميرهم في مكاره الدهر وجشوبة المطعم.

[**فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات**] عمّا يراد منّي من الطاعات والمبرّات والملكات الحسنة ليس يهمّني إلا المأكل والمشرب فأكون [**كالبهيمة المربوطة همّها علفها والمرسلة شغلها تقمّمُها تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يراد بها**] والقمّ: أكل الشاة ما بين يديها بقمتها، أي: شفتها، وكلّ ذي ظلف كالثور وغيره فهو ذو مقمّة، وتكترش من أعلافها أي: تملأ كرشها من علفها، ووجهه أنّ الذي همّته بطنه من الطعام والشراب إن كان غنياً أشبه البهيمة المعلوفة في اهتمامه بما يأكله من طعامه الحاضر وإن كان فقيراً كان اهتمامه بما يكتسبه من حطام الدّنيا ثمّ يعتلفه ويملأ به كرشه مع غفلته عمّا يراد منه كالسائمة التي همّها الاكتراش تقممه من الكناسات مع غفلتها عمّا يؤول إليه حالها ويراد بها من ذبح واستخدام.

وقوله: [**أو أترك سُدىً**] أي: هملاً، [**أو أُهمل عبثاً أو أجرّ حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة**] عطف على «أشغلني» ويقال أجررته رسنه إذا أهملته، والاعتساف: السلوك في غير طريق واضح، والمتاهة: الأرض يتاه فيها، أي: يتحيّر، واستعار لفظ الحبل والجرّ مكنّياً بهما عن الإهمال والإرسال كما ترسل البهيمة.

وكأنّي بقائلكم يقول إذا كان هذا قوت بن أبي طالب فلقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان ألا وإنّ الشجرة البرّية أصلب عوداً والمراتع الخضرة أرقّ جلوداً

ثمّ شرع عليه السلام في دفع ما ربّما توهّمه أرباب الأوهام الضعيفة من ضعفه عن مقاتلة الأبطال بسبب الزهد فقال:

[**وكأنّي بقائلكم يقول إذا كان هذا قوت بن أبي طالب**] من الاقتصار في ليله ونهاره على قرصين من شعير مخبوز بنخالته [**فلقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان**] ومبارزتهم ومقابلتهم فإنّ ذلك لا يستقيم مع هذا المطعم القليل الجشب، فأجاب عليه السلام عن ذلك بخمسة أوجه أشار إلى الأوّل منها بقوله:

[**ألا وإنّ الشجرة البرّية**] وهي التي تنبت في البر الذي لا ماء فيه.

[**أصلب عوداً**] شبّه نفسه عليه السلام بالشجرة البرّية، فالأصل المشبّه به هي والفرع المشبّه هو، والشبه الجامع بينهما قلّة الغذاء وجشوبة المطعم كقلّة غذاء الشجرة البرّية وسوء رعيها والحكم من ذلك صلابة أعضائه عليه السلام كصلابة عودها وقوّته كقوّتها.

وأشار إلى الثاني بقوله: [**والمراتع الخضرة أرقّ جلوداً**] تمثيل لخصومه كمعاوية ونظرائه بالروابع الخضرة وهي الأصل المشبّه به والفرع المشبّه خصومه، والشبّه الجامع الخضرة والنضارة الحاصلة من الترفّع ولين المطعم والحكم اللازم من ذلك رقّة الجلود ولينها والضعف عن المقاومة وقلّة الصبر على المنازلة والميل إلى الدعة والرفاهية.

وأشار إلى الثالث بقوله:

والنباتات المعدية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً وأنا من رسول الله صلّى الله عليه وآله كالضوء من الضوء والذراع من العضد

[**والنباتات المعدية**] تنبت عدياً والعدى بسكون الدال: الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر وهو كسابقه في التشبيه.

ووجه الشبه قوله [**أقوى وقوداً**] من النبات الذي يشرب الماء السايح أو ماء الناضح. [**وأبطأ خموداً**] وذلك لصلاة جرمها فهو عليه السلام أقوى على سعير نار الحرب وأصبر على وقدها وأبطأ فتوراً فيها وخموداً.

وأشار إلى الرابع بقوله: [**وأنا من رسول الله صلّى الله عليه وآله كالضوء من الضوء**] فإنّ الضوء الأوّل يكون علّة في الضوء الثاني فإنّ الهوى المقابل للشمس يستضيء بالشمس فهو الأوّل ثمّ يقابل وجه الأرض فيضيء منه وهو الثاني، وما دام الأوّل ضعيفاً فالثاني كذلك فإذا ازداد لأنّ المعلول يتبع العلّة، فالأصل المشبّه به هو النبي صلى الله عليه وآله والفرع المشبّه هو عليه السلام والعلّة الجامعة كون علومه وكمالاته النفسانية المشرقة مستفادة ومقتبسة من مصباح علم النبوّة وكمالاتها كالمعلول من العلّة والمصباح من الشعلة.

وأشار إلى الخامس بقوله: [**والذراع من العضد**] فالأصل فيه الذراع مع نسبته إلى العضد والفرع هو عليه السلام منسوباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله والعلّة الجامعة قربه منه وقوّته به كونه ظهيراً له ووسيلة إلى حصول مقصوده من تمام الدّين وكماله وكون الرسول صلى الله عليه وآله أصلاً في ذلك كقرب الذراع من العضد وكون العضد أصلاً له، وكون الذراع وسيلة إلى التصرّف والبطش بالعضد، والحكم في هذين التمثيلين واحد، وهو كونه عليه السلام لا يضعف عن قتال الأقران، ووجه لزوم هذا الحم عن المشترك الأوّل أنّه لمّا كانت علومه اليقينية

والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت إليها وسأجهد في أن أُطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس

وبصيرته في الدّين تناسب بصيرة رسول اللهﷺ وكان ذلك أعظم أمر يشجّعه ويقوّيه على قتال الأقران حمية للدّين، وكذلك المشترك الثاني.

ثمّ لمّا أثبت ذلك الحكم ونفى عنه الضعف المتوهّم فيه، أكّد ذلك بالقسم البار أنّه لو تعاونت العرب على قتاله لما ولّى عنها ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارع إليها فقال عليه السلام:

[والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت إليها] أي: حين القتال، واستحقاقهم للقتل بعداوتهم للدّين وقبح العفو عنهم ملاحظةً لشبهه برسول اللهﷺ في ذلك في مبدء الإسلام فإنّه لم يكن ليضع العفو إلا في مواضعه، وروي أنّه قتل في يوم واحد من بني قريظة ألف إنسان صبراً في مقام واحد لما رأى في ذلك من مصلحة الدّين.

وقوله عليه السلام: **[وسأجهد في أن أُطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس]** إشارةً إلى معاوية، وذكر الشخص والجسم ترجيحاً لجانب البدن على النفس باعتبار عنايته بكمال بدنه دون كمال نفسه إشارةً إلى أنّه كان جسم بلا روح وشخص بلا حقيقة، وأشار بكونه معكوساً ومنكوساً إلى التفاته عمّا خلق لأجله إلى الجنسية السافلة وخروجه عن فطرته الأصيلة إلى التدنس برذائل الأخلاق.

حتّى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد وهو آخره: إليك عنّي يا دنيا حبلك على غاربك

وقوله: [**حتّى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد**] استعار لفظ المدرة لمعاوية، وحبّ الحصيد للمؤمنين، ووجه الشبه أنّه يخلّص المؤمنين عن وجود معاوية بينهم ليزكو إيمانهم ويستقيم دينهم، إذ كان وجوده فيهم أعظم الأسباب لفساد عقائدهم واضمحلال دينهم كما يفعل الزارع في تصفية غلاله وإخراج ما يشوبها ويفسدها من المدر وغيره.

وقال ابن أبي الحديد: الإشارة في هذا إلى معاوية، والمراد انعكاس عقيدته وأنّها ليست عقيدة هدى بل هي معاكسة للحقّ والصواب، وسمّاه مركوساً من قولهم ارتكس في الضلال وأركس: ردّ الشيء مقلوباً، قال اللّه: ﴿واللّه أركسهم بما كسبوا﴾ أي: قلبهم وردّهم إلى كفرهم، فلمّا كان تاركاً للفطرة التي كلّ مولود يولد عليها كان مرتكباً في ضلاله ثمّ قال: إنّ الزرّاع يجتهدون في إخراج المدر والحجر والشوك والعوسج ونحو ذلك من بين الزرع كيلا يفسد منابته فيفسد الحبّ الذي يخرج منه فشبّه معاوية بالمدر ونحوه من مفسدات الحبّ وشبه الدّين بالحبّ الذي هو ثمرة الزرع، إنتهى.

ومن هذا الكتاب

[**وهو آخره: إليك عنّي يا دنيا**] أي: ابعدي عنّي [**حبلك على غاربك**] كناية عن الطلاق أي: إذهبي حيث شئت لأنّ الناقة إذا أُلقي حبلها على غاربها فقد أُهملت، والغارب: ما بين السنام والعنق، وقد مثّلها بصورة من يعقل وخاطبها بخطاب العقلاء ليكون ذلك أوقع في النفوس وأمرها بالتنحّي والبعد عنه كالمطلّق لها وأنّها صارت أجنبية.

قد أنسلت من مخالبك وأفلتُّ من حبائلك واجتنبت الذهاب في مداحضك أين القوم الذين غررتهم بمداعبك أين الأمم الذين فتنتيهم بزخارفك ها هم رهائن القبور ومضامين اللحود

[قد أنسلت من مخالبك] جعلها ذات مخالب استعارة بالكناية عن كونها كالأسد في جذبها للإنسان بما فيها من الشهوات ونحوها إلى الهلاك الأبدي كما يجرّ الأسد فريسته.

وكذا قوله: **[وأفلتُّ من حبائلك]** جعلها ذات حبائل كناية عن أنّها تعيد قلوب الرجال بشهواتها الوهمية فهي لها كحبائل الصائد.

[واجتنبت الذهاب في مداحضك] أي: مزالقك واستعاره لشهواتها ولذّاتها باعتبار كونها مزالق أقدام العقول عن طريق اللّه ومصارع لها والمراد من الجميع زهده فيها وإبعادها عن نفسه.

ثمّ أخذ في سؤال عن أُمور توجب التنفير عنها من قبيل تجاهل العارف فقال: **[أين القوم الذين غررتهم بمداعبك]** جمع مدعبة، بمعنى دعابة، استعير ذلك لها لأنّها عند صفاء لذّاتها للخلق واغترارهم بها، ثمّ تكديرهم بعد ذلك بالأمر الجدّ كالذي يمازح غيره وينبسط معه بالأقوال والأفعال اللّينة ليغترّ به ثمّ يأتيه بعد ذلك بالأمر الجدّ فيؤذيه أو يرديه ويهلكه، ونسبة الغرور إليها لكونها سبباً بادياً وهذه الألفاظ كـ«غررتيهم وفتنتيهم» رويت بحذف الياء وإثباتها، ووجه إثباتها أنّها حدثت من إشباع الكسرة.

[أين الأمم الذين فتنتيهم بزخارفك] إشارة إلى غايتهم التي صاروا إليها المشار إليها بقوله: **[ها هم رهائن القبور ومضامين اللحود]** أي: الذين تضمّنتهم، واستعار لهم الرهائن باعتبار كونهم موثقين في القبور بأعمالهم

والله لو كنت شخصاً مرئياً أو قالباً حسّياً لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتيهم بالأماني وأُمم ألقيتيهم في المهاوي وملوك أسلمتيهم إلى التلف وأوردتيهم موارد البلاء إذ لا ورد ولا صدر هيهات من وطئ دحضك زلق ومن ركب لججك غرق ومن أزورّ عن حبالك وفّق

كالرهن، ويحتمل أن تكون حقيقة ويكون رهينة بمعنى راهنة وهي الأشخاص المقيمة بقبورها.

ثمّ قال عليه السلام: [**والله لو كنت شخصاً مرئياً أو قالباً حسّياً لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتيهم بالأماني**] الفاسدة والآمال الكاسدة. [**وأُمم ألقيتيهم في المهاوي**] في المهالك.

[**وملوك أسلمتيهم إلى التلف وأوردتيهم موارد البلاء**] أقسم عليه السلام إنّ الدنيا لو كانت شخصاً مرئيّاً أو قالباً حسّياً لأقام حدود الله عليها في عباد غرّتهم بالأماني وأوردتهم موارد البلاء.

[**إذ لا ورد ولا صدر**] أي: إنّ تلك الموارد ليس من شأنها أن يكون إليها ورود وعنها صدور، ثمّ لمّا كان في هذا الخطاب كالمعلّم لها انّه قد اطّلع على خداعها وغرورها قال كالمؤيس لها من نفس.

[**هيهات**] أي: بعد اغتراري بك وركوني إليك، ثمّ نبّه على بعض العلل الحاملة على البعد عنها والنفرة من القرب منها فقال:

[**من وطئ دحضك زلق**] يقال: مكان دحِض أي: مزلة.

[**ومن ركب لججك غرق ومن أزورّ عن حبالك وفّق**] أبان عليه السلام ما يلزم من وطئ دحضها من الزلق وركوب لججها من الغرق، والازدوار عن

والسالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه اعزبي عنّي، فوالله لا أستذلّ لك فتستذلّيني ولا أسلس لك فتقوديني

حبائلها من التوفيق للسلامة.

ثمّ أشار إلى ما يلزم السالم منها فقال: [**والسالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه**] أي: لا يبالي من سلم منك إن ضاق به مناخه لا يبالي بالفقر ولا المرض ولا الحبس ولا السجن ولا غير ذلك من أنواع المحن؛ لأنّ ذلك كلّه حقير لا اعتداد به في جنب السلامة من فتنة الدنيا، والدنيا عند من قد سلم منها كيوم قرب انقضائه وفنائه، وألفاظ المداحي واللجج والحبال مستعارات لشهواتها ولذّاتها، فالأوّل باعتبار كون شهواتها مظنّة أن تجتنب فتهجر الإنسان عند استعمالها إلى الاستكثار منها وتجاوز القدر المعتدل إلى المحرم، فيترك قدم نفسه عن صراط الله فيقع في مهاوي الهلاك والمآثم، والثاني باعتبار أنّ مطالبها والآمال فيها غير متناهية، فمن لوازم المنهمك في لذّاتها أن تغرق نفسه في بحر لا ساحل له فينقطع عن قبول رحمة الله إلى الهلاك الأبدي كالملقي نفسه في بحر لجّي، والثالث باعتبار أنّ الإنسان إذا اغترّ بها وحصل في محنة مشتهياتها عاقته عن النهوض والتخلّص إلى الله ومنعته أن يطير بجناحي قوّته العقلية في منازل أوليائه الأبرار كما تعوق حبائل الصيد جناح الطائر، ولفظ الوطئ والركوب الزلق والفرق ترشيح، ثمّ قال ﷺ مكرّراً الأمر لها بالبعد عنه:

[**اعزبي**] أي: ابعدي [**عنّي، فوالله لا أستذلّ لك فتستذلّيني ولا أسلس**] بفتح اللام أي: لا أنقاد [**لك فتقوديني**] يقال: سلسل الرجل

وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيّة الله لأروضنّ نفسي رياضةً تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها

بالكسر يسلس فهو بيّن السلس أي: سهل قياده، إشارةً إلى أنّه لا يذلّ فيها إلا من أذلّ نفسه ولا تملك إلا قياد من أسلس لها قياده، واستعار وصف سلاس القياد للتسهيل في متابعة النفس العاقلة للنفس الأمّارة وعدم التشدّد في ضبطها.

ثمّ قال عليه السلام: [**وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيّة الله**] استثنى بالمشيّة أدباً امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ولا تقولنّ لشيء انّي فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ وتنبيهاً على استناد جميع الأُمور في سلسلة الحاجة إليه تعالى.

[**لأروضنّ نفسي رياضةً تهشّ معها إلى القرص**] وترضى به [**إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً**] وتلك قوّة الرياضة الشهوية، ولمّا كانت أكبر عدوّ للنفس وأكثر الفساد يلحق بسببها خصّها بالذكر وقوّة العزم، ويحتمل إرادة رياضة جميع القوى، وإنّما وصفها بكون النفس تهشّ معها إلى القرص لأنّ ضبط الشهوة أعظم من ضبط سائر القوى وأصعب وكانت الإشارة إلى ضبطها إلى الحدّ المذكور أبلغ في وصف الرياضة بالشدّة.

ثمّ قال عليه السلام: [**ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نضب معينها**] أي: فنى مائها [**مستفرغة دموعها**] أي: يدع مقلته في تلك الرياضة كعين ماء فنى مائها، ووجه الشبه أن يفني دموعها ويستفرغها بالبكاء شوقاً إلى الملأ الأعلى وما أعدّ لأولياء الله من السعادة الأبدية وخوفاً من حرمانها، فإنّ من يكون في

أتمتلي السائمة من رعيها فتبرك وتشبع الربيضة فتربض ويأكل عليّ من زاد فيهجع قرّت عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهائلة والسائمة المرعية طوبى لنفس أدّت إلى ربّها فرضها

محلّ الغربة ومحلّ الوحشة كثير الاشتياق إلى وطنه الأصلي ومقامه الحقيقي، و«مطعوماً ومأدوماً ومستفرغة» منصوبة على الحال.

ثمّ أخذ عليه السلام في تمثيل نفسه بالسايمة والربيضة على تقدير أن يرضى بمثل حالهما فقال:

[**أتمتلي السائمة من رعيها فتبرك**] أي: أتشبع السائمة من رعيها بكسر الراء وهو الكلاء [**وتشبع الربيضة**] وهي جماعة من الغنم أو البقر تربض في أماكنها.

[**فتربض**] أي: أتشبع السائمة وأنا أيضاً مثلها أشبع وأنام.

[**ويأكل عليّ من زاد فيهجع**] أي: فينام بعد الأكل [**قرّت عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهائلة والسائمة المرعية**] والاستفهام في معرض الإنكار لذلك الرضا من نفسه عليه السلام والأصل في التمثيل البهيمة والفرع هو عليه السلام والمشترك الجامع هو الرعي والشبع، والحكم هو البروك والنوم والراحة، ولمّا كان الأصل المقيس عليه في غاية من الخسّة بالقياس إلى الإنسان الكامل استلزم ذلك التشبيه به غاية النفرة عمّا يستلزم التشبيه به من الصفات، وقوله صلى الله عليه وآله «قرّت إذا عينه» في معرض الإنكار والاستهزاء باللّذة كقوله ﴿ذق إنّك أنت العزيز الكريم﴾.

ثمّ قال عليه السلام: [**طوبى لنفس أدّت إلى ربّها فرضها**] من القيام بواجب طاعة اللّه وما افترضه عليها.

وعركت بجنبها بؤسها وهجرت في اللّيل غمضها حتّى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسّدت كفّها في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم وهمهمت بذكر ربّهم شفاههم وتقشّعت بطول اسغفارهم ذنوبهم

[**وعركت بجنبها بؤسها**] كنّى بذلك عن الصبر على نزول المصائب، يقال: عرك فلان بجنبه الأذى إذا أغضى عمّن يؤذيه وصبر على فعله به، ويلزم ذلك عدّة فضائل كالحلم والكرم والعفو والصفح والتجاوز وكظم الغيظ واحتمال المكروه والعفّة ونحوها.

[**وهجرت في اللّيل غمضها**] كناية عن إحيائها اللّيل بعبادة ربّها واشتغالها بذكره.

[**حتّى إذا غلب الكرى**] أي: النوم [**عليها افترشت أرضها وتوسّدت كفّها**] أي: لم يكن لها كلفة في تهيئة فراش وطيب وساد، بل كانت بريّة عن كلّ كلفة وعريّة عن كلّ فتنة ومنزّهة عن كلّ ترفة.

[**في معشر**] يجوز تعلّقه بـ«كلّ» من افعال النفس المذكورة، أي: فعلت هذه الأفعال في جملة معشر [**أسهر عيونهم خوف معادهم وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم**] كناية عن اشتغالهم ليلاً بعبادة ربّهم، وإشارةً إلى قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾.

[**وهمهمت بذكر ربّهم شفاههم**] أي: بالدعاء والثناء، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً﴾.

[**وتقشّعت**] أي: زالت وذهبت كما يتقشّع السحاب.

[**بطول اسغفارهم ذنوبهم**] وهو لازم عن الثلاثة الأُولى وثمرة لها،

إلى بعض عـمّاله: أمّا بعد، فـإنّك ممن أسـتظهر به على إقـامة الدّين وأقمع به نخوة الأثيم وأسدّ به لهات الثغر المخوف فاستعن باللّه على ما أهمّك واخلط الشدّة بضغث من اللّين

واستعار التقشيع لانمحاء ذنوبهم، ووجه الشبه أنّ الذنوب والهيئات البدنية في تسويدها لألواح النفس وتغطيتها وحجبها لها عن قبول أنوار اللّه تشبه السحاب المنزلة الحاجب لوجه الأرض عن قبول نور الشمس والاستعداد بها للنبات وغيره، فاستعار لزوالها وانمحائها من ألواح النفوس لفظ التقشيع.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى بعض عمّاله: أمّا بعد، فإنّك ممن أستظهر به على إقامة الدّين وأقمع به نخوة الأثيم**] والنخوة: الكبر، والأثيم: الآثم.

[**وأسدّ به لهات الثغر المخوف**] استعار لفظ اللهاة لما عساه ينفتح من مفاسد الثغر فيحتاج إلى سدّه بالعسكر والسلاح ملاحظةً لشبهه بالأسد الفاتح فاه للافتراس، وهذه الأمور استمالة لهذا العامل، ثمّ أردف ذلك بأمره بمكارم الأخلاق فقال:

[**فاستعن باللّه على ما أهمّك**] من أُمور الدنيا، فإنّ الفزع إليه والاستعانة به أفضل معين على حصول المطالب ونجاح المآرب.

[**واخلط الشدّة بضغث من اللّين**] الضغث: النصيب من الشيء يختلط بغيره، وأصله القبضة من الحشيش المختلط رطبه بيابسه، ومراده عليه السلام أن يضع كلاً من الشدّة واللّين في محلّه ولذا قال:

وارفق ما كان الرفق وأوفق، واغترم بالشدّة حين لا يغني عنك إلا الشدّة واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك وألن لهم جانبك وآس في اللحظة والنظرة والإشارة والتحيّة، حتّى لا يطمع العظماء في حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك، والسلام.

للحسن والحسين عليهما السلام لمّا ضربه ابن ملجم لعنه الله: أُوصيكما بتقوى الله وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما

[**وارفق ما كان الرفق**] أولى [**وأوفق، واغترم**] أي: خذ [**بالشدّة حين لا يغني عنك إلا الشدّة**] يقال: اغترم بكذا أي: لزمه وأُخذ به.

[**واخفض للرعية جناحك**] كنّى به عن التواضع [**وابسط لهم وجهك**] كنّى به عن لقائهم بالبشاشة والبشر وترك العبوس والتقطيب.

[**وألن لهم جانبك**] كنّى به عن المساهلة معهم وعدم التشدّد عليهم [**وآس**] أي: ساو بينهم [**في اللحظة والنظرة**] واللّحظة أخصّ من النظرة [**والإشارة والتحيّة، حتّى لا يطمع العظماء في حيفك**] على الضعيف فتسلّطه عليه [**ولا ييأس الضعفاء من عدلك**] على القوي فتضعف نفسه ويكلّ عمّا هو بصدده من الأعمال الصالحة. [**والسلام**].

ومن وصية له عليه السلام

[**للحسن والحسين عليهما السلام لمّا ضربه ابن ملجم لعنه الله: أُوصيكما بتقوى الله**] التي هي الأساس لكلّ خير وبها تدفع كلّ ضرّ [**وأن لا تبغيا الدنيا**] أي: لا تريداها ولا تطلباها [**وإن**] هي [**بغتكما**] وأقبلت عليكما،

ولا تأسفا على شيء منها زُوي عنكما وقولا بالحقّ واعملا للأجر وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً أُوصيكما وجمع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى اللّه وإصلاح ذات بينكم فإنّي سمعتُ جدّكما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام

واستعار البغية باعتبار سهولتها عليهما عن توافق أسباب خيرها لها فهي بذلك الاعتبار كالطالبة لهما.

[**ولا تأسفا على شيء منها زُوي عنكما**] من خيراتها، وهذه الحالة من لوازم الزهد كما روي أنّه لمّا سُئِل عن الزهد فقال: «كلمتان في كتاب اللّه: لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم».

[**وقولا بالحقّ**] ولو على أنفسكما [**واعملا للأجر**] أي: لأجر الآخرة لا رياءً ولا سمعةً ولا للخلق.

[**وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً**] وذلك من لوازم قول الحقّ والعمل له إذ من كان على حاق العدل فلابدّ أن يجانب الظلم المنحرف إلى طرف الجور ويخاصمه ليردّه إلى فضيلة العدل فيكون حينئذ عوناً للمظلوم، ثمّ عاد مؤكّداً لوصيتهما مع غيرهما فقال: [**أُوصيكما وجمع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى اللّه وإصلاح ذات بينكم**] و«ذات» كناية عن الحالة الموجبة للبين والافتراق، وقيل: هي الحالة بين الرجلين والقبيلتين أو الرجل وأهله، أمر بإصلاح ما بينهما من فساد، وقيل: المراد بالبين هنا الوصل، فاتّقوا اللّه وأصلحوا ذات بينكم.

[**فإنّي سمعتُ جدّكما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام**] ووجهه ما قيل: إنّ أهمّ

اللّه اللّه في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم اللّه اللّه في جيرانكم فإنّهم وصيّة نبيّكم، ما زال يوصي بهم حتّى ظننا أنّه سيورّثهم واللّه اللّه في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم واللّه اللّه في الصلاة فإنّها عمود دينكم واللّه اللّه في بيت ربّكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن تُرك لم تناظروا

المطالب للشارع جمع الخلق على سلوك سبيل اللّه وانتظامهم في سلك دينه، ولن يتمّ ذلك مع تنازعهم وتنافر طباعهم وثوران الفتنة بينهم، وهذا لا يوجد في الصلاة والصيام ونحوهما.

[**اللّه اللّه**] أي: احذروه [**في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم**] وكنّى بإغباب أفواههم عن إجاعتهم إذ هو مظنّة جوعهم.

[**ولا يضيعوا بحضرتكم**] ويستلزم ذلك برّهم والإحسان إليهم وهو فضيلة تحت العفّة.

[**اللّه اللّه في جيرانكم فإنّهم وصيّة نبيّكم، ما زال يوصي بهم حتّى ظننا أنّه سيورّثهم**] جعلهم نفس الوصية تأكيداً للمحافظة عليهم كالمحافظ على وصيّة نبيّه ﷺ وقوله «مازال» تفسير للوصية المذكورة.

[**واللّه اللّه في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم**] أي: سارعوا واستبقوا إليه، [**واللّه اللّه في الصلاة فإنّها عمود دينكم**] ففي النبوي: «الصلاة عمود الدين فإن قُبلت قبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها».

[**واللّه اللّه في بيت ربّكم**] أي: البيت الحرام [**لا تخلوه**] من الحجّ [**ما بقيتم**] أي: مدّة بقائكم [**فإنّه إن تُرك لم تناظروا**] أي: يستلزم تركه عدم مناظرة اللّه لتاركيه وترك محافظته عليهم ومراقبته؛ لأنّ من لا يحفظ

اللّه اللّه في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل اللّه وعليكم بالتواصل والتباذل وإيّاكم والتدابر والتقاطع ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولّى عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يُستجاب لكم

اللّه في بيته ويراقبه في مراعاة جانبه لم يحفظه اللّه ولم يراقبه، ويحتمل أن يراد لم يناظركم الأعداء ولم يراقبوكم إذ في الاجتماع على حبّ اللّه والمحافظة عليه والاعتصام به يوجب مراقبة الخلق للمعتصمين به وانفعال القلوب عنهم وعن كثرتهم ومناظرتهم.

[**اللّه اللّه في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل اللّه**] وقد مرّت الإشارة إلى فضله ويكفي في فضله قوله تعالى: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾.

[**وعليكم بالتواصل والتباذل**] أي: يبذل كلّ منكم النصر لصاحبه في سبيل اللّه.

[**وإيّاكم والتدابر والتقاطع**] فإنّهما رذيلتان كما أنّ الأوّلين فضيلتان.

[**ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولّى عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يُستجاب لكم**] فإنّ ترك الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم ثوران المنكر وقلّة المعروف من طباع الأشرار ويعد لاستيلائها وغلبتها وولاية أهلها وذلك يستلزم كثرة الشر والأشرار وقلّة الصالحين وضعف هممهم عن استنزال رحمة اللّه تعالى بأدعيتهم فيدعون فلا يستجاب لهم، ثمّ عقّب ذلك بوصية أهل بيته ثمّ قال:

يا بني عبدالمطّلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قُتل أميرالمؤمنين ألا لا يقتلنّ بي إلا قاتلي انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً بضربة ولا يمثّل بالرجل فإنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور وإنّ البغي والزور يوبقان

[**يا بني عبدالمطّلب لا ألفينكم**] أي: لا أجدنّكم [**تخوضون دماء المسلمين خوضاً**] كنّى به عن كثرة القتل ونهاهم عن إثارة الفتنة بسبب قتله، ثمّ فسّر ذلك بقوله:

[**تقولون قُتل أميرالمؤمنين**] وهو حكاية ما جرت به العادة أن يقول طالب الثأر حين هياجه إظهاراً لعذره والسبب الحامل له على إثارة الفتنة.

[**ألا لا يقتلنّ بي إلا قاتلي**] ذلك هو مقتضى العدل والنصّ القرآني ﴿النفس بالنفس﴾.

[**انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً بضربة**] وهو مقتضى العدل أيضاً بأن لا يزيدوا عليها.

ثمّ قال عليه السلام: [**ولا يمثّل بالرجل**] كأن تقطع أعضائه وجوارحه.

[**فإنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور**] ومضافاً إلى ما يستلزمه من قسوة القلب.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية بعد التحكيم وتمسّك معاوية بما حكم به الحكمان:

[**وإنّ البغي والزور يوبقان**] أي: يهلكان، يقال: أوبق فلان دينه بالإثم.

المرء في دينه ودنياه ويبديان خلله عند من يعيبه وقد علمت أنّك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام أقوام أمراً بغير الحقّ فتألوا على اللّه فأكذبهم

[**المرء في دينه ودنياه**] أمّا في الدّين فلكونهما رذيلتين مضادّتين للعدل والعفّة ومجانبتين للإيمان والدّين، وأمّا في الدنيا فلأنّ أعظم مطالب الدنيا للعقلاء الذكر الجميل المشار إليه بقوله تعالى: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ وإنّما يحصل ذلك بظهور مكارم الأخلاق دون رذايلها ومنه يظهر معنى قوله:

[**ويبديان**] أي: يُظهران [**خلله**] أي: عيبه [**عند من يعيبه**] ثمّ قال عليه السلام: [**وقد علمت أنّك غير مدرك ما قضى فواته**] كنّى به عمّا جعله شبهة له في محاربته وهو الطلب بدم عثمان وهو في قوّة صغرى احتج به على وجوب ترك المشاقّة وتقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك تعيّن عليه أن يترك ذلك الطلب، ثمّ أعلمه عليه السلام بحال من طلب أمراً باطلاً فقال:

[**وقد رام أقوام أمراً بغير الحقّ فتألوا على اللّه**] أي: حلفوا، من الالية وهي اليمين [**فأكذبهم**] الله بنصره عليهم وردّ مقتضى شبههم، وفي رواية فتاولوا على اللّه أي: حرّفوا الكلم عن مواضعه، وتعلّقوا بشبهته في تأويل القرآن انتصاراً لمذاهبهم فأكذبهم اللّه بأن أظهر للعقلاء فساد تأويلاتهم، وقيل أشار بذلك إلى أصحاب الجمل حيث كانوا طالبين للإمرة والملك فتأوّلوا على اللّه أو على سلطان اللّه وهي الخلافة الحقّة فجعلوا لخروجهم وبغيهم تأويلاً وهو الطلب بدم عثمان ونحوه من الشُّبه الباطلة فأكذبهم اللّه بنصره عليهم، والإكذاب كما يكون بالقول كذلك يكون

فاحذر يوماً يغتبط فيه مَنْ أحمَدَ عاقبة علمه ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه وقد دعوتنا إلى حكم القرآن ولست من أهله ولسنا إيّاك أجبنا ولكنّ أجبنا القرآن إلى حكمه

بالفعل وقيل المعنى قد طلب قوم أمر هذه الأُمّة فتأوّلوا القرآن كقوله تعالى: ﴿أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾ فسمّوا من نصبوه من الأُمراء أُولي الأمر متحكّمين على اللّه، فأكذبهم اللّه بكونهم ظالمين بغاة ولا يكون الوالي من قبل اللّه كذلك.

ثمّ حذّره عليه السلام يوم القيامة فقال: [**فاحذر يوماً يغتبط فيه مَنْ أحمَدَ عاقبة علمه**] يغتبط فيه أي: يفرح ويستر، وروي يغبط من الغبطة وهو أن يتمنّى لنفسه مثل ما للغير من دون زوال عنه، والغرض التنبيه على ما في ذلك اليوم من سرور الذين حمدوا عاقبة أعمالهم بما جعلوا عليه من السعادة الباقية أو اغتباط غيرهم لهم ويتمنى مثل مراتبهم. وقوله: [**ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه**] فصرفه كيف شاء، والياء التي هي حرف المضارعة في يجاذبه تعود إلى الذي أمكن الشيطان من قياده، أي: إذا لم يجاذب الشيطان قياده بل جعله يتصرّف فيه كيفما شاء فإنّه سوف يندم، وأمّا من جاذبه قياده فقد قام بما عليه، واستعار التمكين من القياد لمطاوعة النفس الأمّارة.

ثمّ قال عليه السلام: [**وقد دعوتنا إلى حكم القرآن ولست من أهله**] حتى تُجاب [**ولسنا إيّاك أجبنا**] في التحكيم، ونصب الحكم لأنّك لست أهلاً لذاك.

[**ولكنّ أجبنا القرآن إلى حكمه**] حيث قال تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق

إليـه أيضـاً أمّا بعـد فـإنّ الدنيـا مشـغلة عن غـيرهـا ولـم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها ولهجاً بها

بينهم فـابعثـوا حكمـاً من أهله وحكمـاً من أهلهـا إن يريدا إصـلاحـاً يوفّق اللّه بينـهـمـا﴾ فنحن لـم نخطأ في التـحكيـم وإنّمـا أخطأ الحكمـان حيث لـم يريد الإصلاح وقـد روي في مـحاجة ابن عبّاس مع الخـوارج أنّهم قـالوا له كـيف يجوز لعليّ أن يحكم فـي دين اللّه الرجـال فـقال لـهم إنّ ذلك ليس بأمر عليّ وإنّما هو بـأمر من اللّه في كـتابه إذ يقول فـي حقّ الزوجين ﴿وإن خـفتم ... ﴾ إلخ، أفـترون انّه تعـالى أمر بذلك في حقّ الرجل وامـرأته مراعـاةً لمصلحـتهـما ولا يأمـر بذلك في حقّ الأُمّة رعـياً لمصلحـتـهم، فرجع كـثيـر منهم إلى قـوله، وقـيل: قـوله «ولسنا إيّاك أجبنا» مـثل قـوله «واللّه مـا حكمت مـخلوقـاً وإنّمـا حكّمت القرآن» ومعنى مخلوقاً: بشراً لا محدثاً.

ومن كتاب له عليه السلام

[إليه أيـضاً] وفي نسـخة إلى غيـره **[أمّا بعـد فإنّ الدنيـا مشـغلة عن غيرها]** إشارة إلـى عدم اجـتماعـها غـالبـاً مع الآخرة، فهـما كـالشرق والـغرب مـهمـا قـربت من أحدهـما بعـدت عن الآخـر، وككفـتـي الميزان مـهـما رجـحت إحديهما خفّت الأُخرى وكالضرتين إذا أرخيت إحديهما أغضبت الأُخرى.

[ولـم يصب صاحـبها منها شـيئاً إلا فتحت لـه حرصـاً عليهـا ولهجاً بها] واللهج: الحـرص الشديد، كـما قـيل صـاحب الدنيا كـشارب مـاء البحـر كلّمــا ازداد شـربـاً ازداد عـطشـاً، وفي الحـديث القـدسي: «لو كـان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب».

ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عمّا لم يبلغه منها ومن وراء ذلك فراق ما جمعه ونقض ما أبرم ولو اعتبرت بما مضى حفظت مابقى، والسلام

[**ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عمّا لم يبلغه منها**] لأنّه كلّما بلغ مرتبة منها طلب غيرها، فهو لا يشبع أبداً؛ ولذا ورد «منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب دنيا».

[**ومن وراء ذلك فراق ما جمعه**] فإنّ ماله وإن أحبّه مفارقٌ له وعمله وإن كرهه معانقٌ له.

[**ونقض ما أبرم**] أي: ما أحكم من أُمورها.

[**ولو اعتبرت بما مضى**] من العمر أو من أحوال الدنيا والقرون الماضية.

[**حفظت ما بقى**] من العمر أن يضيع في الباطل أو ما يبقى من السعادة الأُخروية بالسعي في تحصيلها، وروي أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام كتب إلى عمرو بن العاص: أمّا بعد فإنّ الدنيا مشغلة عن الآخرة. وصاحبها منهوم عليها لم يصب منها شيئاً قط إلا فتحت عليه حرصاً وأدخلت عليه مؤنة تزيده رغبة فيها، ولن يستغني صاحبها بما نال عمّا لم يدرك ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وعظ بغيره، فلا تحبط أجرك أبا عبدالله ولا تشرك معاوية في باطله فإنّ معاوية غمض الناس وسفه الحقّ، [**والسلام**].

من عبداللّه أميرالمؤمنين إلى أصحاب المسالح أمّا بعد فإنّ حقّاً على الوالي أن لا يغيّره على رعيّته فضل ناله ولا طول خصّ به وأن يزيده ما قسم اللّه له من نعمة دنوّاً من عباده وعطفاً على إخوانه ألا وإنّ لكم عندي أن لا أحتجز دونكم بشر إلا في حرب

ومن كتاب له عليه السلام
إلى أمرائه على الجيوش

[**من عبداللّه أميرالمؤمنين إلى أصحاب المسالح**] قيل: هم جماعات يكونون بالثغر يحمون البيضة، والمسلحة: هي الثغر كالمرقب.

[**أمّا بعد فإنّ حقّاً على الوالي أن لا يغيّره على رعيّته فضل ناله ولا طول خصّ به**] أي: يجب على الوالي أن لا يتطاول على الرعية بولايته ولا يغيّره عنهم ما اختصّ به من الفضل والطول؛ لأنّ تغيّره عنهم خروج عن شرائط الولاية.

[**وأن يزيده ما قسم اللّه له من نعمة دنوّاً من عباده وعطفاً على إخوانه**] أي: تكون تلك الزيادة التي أُعطيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعيّة وعطفه وحنوّه عليهم؛ لأنّ ذلك من تمام شكر النعمة ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾ وهذا ما يجب على الوالي للرعية، ثمّ أردفه ببيان ما يجب له عليهم وهي أُمور خمسة أشار إلى أوّلها بقوله:

[**ألا وإنّ لكم عندي أن لا أحتجز دونكم بشر إلا في حرب**] أي: لا أستتر بأمر لا أُظهركم عليه إلا في الحرب وذلك لأنّ الحرب تحمد فيه طيّ

ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم ولا أؤخّر لكم حقّاً عن محلّه ولا أقف به دون مقطعه وأن تكونوا عندي في الحقّ سواء فإذا فعلتُ ذلك وجبت للّه عليكم نعمة

الأسرار وهو خدعة، ولأنّه لو شاورهم في الحرب ربّما لا يختار الحرب فلو توقّف على مشورتهم فيه لما استقام الأمر ولذلك كان عليه السلام كثيراً ما يحملهم على الجهاد ويتضجّر من تثاقلهم وهم له كارهون وأمر الحرب مبني على الكتمان خوف انتشاره إلى العدوّ فيكون سبب استعداده وتأهّبه للحرب.

وقوله عليه السلام: [**ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم**] أي: أُظهركم على كلّ ما في نفسي ممّا يحسن إظهاركم عليه، إلا في الأحكام الشرعية والقضاء على أحد الخصمين فإنّي لا أُعلمكم به قبل وقوعه كيلا يختلّ النظام بأن يحتال ذلك الشخص بأمر ليصرف الحكم عنه أو المراد بالحكم الحدود ونحوها فإنّه يقضي فيه من غير مراقبة ومشاورة وشفاعة، واستعار الطيّ لكتمان الأمر.

[**ولا أُؤخّر لكم حقّاً عن محلّه**] كالعطاء وسائر الحقوق اللازمة.

[**ولا أقف به دون مقطعه**] كالأحكام المتعلّقة بالمخاصمين المحتاجة إلى الفصل والحقّ هنا غير العطاء قال زهير: فإنّ الحقّ قطعه ثلاث يمين أو نفاد أو جلاء أي: متى تعيّن الحكم حكمت به وقطعت ولا أقف ولا أتجسس.

[**وأن تكونوا عندي في الحقّ سواء**] لا أُرجّح بعضكم على بعض، ثمّ لّما استوفى عليه السلام ما شرط لهم قال: [**فإذا فعلتُ ذلك**] أي: إذا أنا وفيت بما شرطت على نفسي.

[**وجبت للّه عليكم نعمة**] ثمّ أخذ في الاشتراط عليهم كما يشترط

ولي عليكم الطاعة وأن لا تنكصوا عن دعوة ولا تفرّطوا في صلاح وأن تخوضوا الغمرات إلى الحقّ فإن لم تستقيموا لي على ذلك لم يكن أحدٌ أهون عليّ ممن اعوجّ منكم ثمّ أعظم له العقوبة ولا يجد عندي فيها رخصة فخذوا هذا من أُمرائكم وأعطوهم من أنفسكم ما يصلح اللّه به أمركم

لهم فقال:

[**ولي عليكم الطاعة**] إذ لا حجّة لهم عليه تكون سبباً لعصيانهم.

[**وأن لا تنكصوا عن دعوة**] والنكوص: الرجوع على الأعقاب، أي: لا تتقاعسوا عن الجهاد إذا دعوتكم إليه.

[**ولا تفرّطوا في صلاح**] أي: إذا أمكنتكم فرصة ورأيتم مصلحة في حرب العدوّ أو حماية الثغر فلا تفرّطوا فيها فتفوت.

[**وأن تخوضوا الغمرات إلى الحقّ**] أي: تكابدوا المشاقّ العظيمة ولا يهولنّكم خوضها إلى الحقّ، والغمرة: الشدّة، ثمّ أردف ذلك بالوعيد لهم إن لم يقوموا بحقّهم فقال:

[**فإن لم تستقيموا لي على ذلك**] الذي وجب لي عليكم [**لم يكن أحدٌ أهون عليّ ممن اعوجّ منكم ثمّ أعظم له العقوبة ولا يجد عندي فيها رخصة**] توعّدهم عليه السلام بأمرين: أحدهما هو أنّ العوج منهم عن طاعته عليه وسقوط منزلته، والثاني إعظام العقوبة له وعدم الرخصة فيها عنده.

[**فخذوا هذا من أُمرائكم**] أي: خذوا هذا البيان الواضح والنصح منّي وممن يقوم في الخلافة مقامي بعدي من الحجج.

[**وأعطوهم من أنفسكم ما يصلح اللّه به أمركم**] من الطاعة والانقياد ولما يأمرونكم به.

إلى عـمّاله على الخـراج: سن عـبـدالله عليّ أميـرالمؤمـنين إلى أصحاب الخـراج، أمّا بعد، فإنّ من لم يحذر ما هو صـائر إليه لم يقدم لنفسه مـا يحرزها واعلوا إنّما كُلّفتم يسيراً وإنّ ثوابه كـثير ولو لم يكن فيها نهي اللّه عنه من البغي والعدوان عقاب يخاف،

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى عـمّاله على الخـراج: من عـبـداللّه عليّ أمـيـرالمؤمنين إلى أصـحاب الخراج، أمّا بعـد، فـإنّ من لم يـحـذر مـا هو صـائر إليـه] من العواقب المخوّفة. [لم يقدم لنفسه ما يحرزها] أي: استعداداً يحرزها منها، فـإنّ الإنسـان إنّما يـسـتعـدّ للأمر المرغـوب والمرهوب إذا رغب فـيه أو خـافـه، وهذا الكلام في مـعـرض التـوبيخ على ترك الحـذر لغـرض تقـديم طاعـتـه ومـا يستعدّ به الإنسان مما يحزن نفسه من عقاب اللّه.

[واعلوا إنّمـا كُلّفـتـم يسيـراً] إذ كُلّفـتـم مـا هو في وسـعكم دون طاقتكم، كـما قال تعـالى: ﴿لا يكلّف اللّه نفساً إلا وسعها﴾ وقال: مـا جعل عليكم في الدّين من حـرج﴾ وقال: ﴿يريد بكم اليـسر ولا يريد بكـم العـسر﴾ والغرض من ذلك تسهيل الأمر لهم.

[وإنّ ثوابه كثير] والغرض منه الترغيب والكلام بمنزلة صغرى وتقدير كبـراه: وكلّما كان كذلك يـوجب القيام به والاجتـهاد فيه وفي الدعاء «يا من يعطي بالقليل الكثير».

[ولو لم يكن فيها نهي اللّه عنه من البغي والعدوان عقاب يخاف،

لكان في ثواب اجتنابه ما لا عذر في ترك طلبه فأنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنّكم خزّان الرعية وكلأ الأُمّة وسفاء الأئمّة ولا تجشموا أحداً عن حاجة ولا تحبسوه عن طلبه

لكان في ثواب اجتنابه ما لا عذر في ترك طلبه] أي: لو قدّرنا أنّ القبائح الثقيلة كالظلم والبغي لا عقاب في فعلها، بل في تركها ثواب فقط، لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرّط في ذلك الترك؛ لأنّه يكون قد حرم نفسه نفعاً هو قادراً على إيصاله إليها، فكيف وفي فعله العقاب الأليم، فبالألوى أن يجب تركه، والغرض التحذير من الوقوع في رذيلة الظلم، ثمّ أردف ذلك ببيان جملة من الواجبات والمحرّمات فقال:

[**فأنصفوا الناس من أنفسكم**] فإنّ سيّد الأعمال الإنصاف من النفس ومن أنصف من نفسه رضي به حكماً لغيره.

[**واصبروا لحوائجهم**] لتنظيم أُمور مصالحهم [**فإنّكم خزّان الرعية وكلأ الأُمّة**] على بيت مالهم [**وسفاء الأئمّة**] أي: وسفراء أئمّتهم إليهم، وهو في قوّة صغرى وتقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فعليه النصفة في حقّهم والصبر على حوائجهم، ثمّ ذكر من النواهي ستة فقال:

[**ولا تجشموا أحداً عن حاجة**] أي: لا تغضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبتها ولا تجبهوه فيستحي عن حاجته، يقال: جشمته أي: أخجلته، وأحجمته: أغضبته، والاسم الحشمة، وهي الاستحياء والغضب.

[**ولا تحبسوه عن طلبه**] أي: لا تمنعوا أحداً عن حاجته وتحتجبوا دونه.

ولا تبيعنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابّة يعتملون عليها ولا عبداً ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم ولا تَمَسُّنَّ مال أحد من الناس مصلٍّ ولا معاهد إلا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام ولا ينبغي للمسلم أن يدع ذلك في أيدي أعداء الإسلام فيكون شوكة عليهم ولا تدّخروا أنفسكم نصيحة ولا عن الجند حسن سيرة ولا عن الرعية معونة ولا عن دين اللّه قوة وأبلوا في سبيله ما

[**ولا تبيعنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابّة يعتملون عليها ولا عبداً**] أي: لا تحوجوا أحداً في طلب الخراج إلى بيع ما يضطرّ إليه من كسوة أو دابّة ينتفع بها في عمل ولا عبد [**ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم**] إذ ليس من السنّة استخراج ما يستحقّ من الأموال شرعاً بالضرب والمراد بالدرهم جنسه.

[**ولا تَمَسُّنَّ مال أحد من الناس مصلٍّ ولا معاهد إلا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام**] أي: لا تأخذوا من مال أحد من أهل القبلة أو المعاهدين من أهل الكتاب شيئاً إلا أن يكون فرساً أو سلاحاً يعدى به على المسلمين والإسلام فإنّه يجب أخذه من أيدي أعدائهم.

[**ولا ينبغي للمسلم أن يدع ذلك في أيدي أعداء الإسلام فيكون شوكة عليهم**] وعوناً [**ولا تدّخروا أنفسكم**] أي: عن أنفسكم [**نصيحة**] بل ينصح بعضكم لبعض فالمؤمنون كنفس واحدة.

[**ولا عن الجند حسن سيرة ولا عن الرعية معونة ولا عن دين اللّه قوة وأبلوا في سبيله**] أي: اصطفوا من المعروف في سبيل اللّه، [**ما**

استوجب عـليكم فإنّ اللّه سبحـانه قد اصطنع عندنا وعندكـم أن نشكره بجـهدنا وأن ننصـره بما بلغت قـوّتنا ولا قوّة إلا باللّه إلى أُمـراء البـلاد في مـعنى الصـلاة أمّا بعـد، فـصلّوا بالناس الظهر حـين يفيء الشمس مثل مربض العنز وصلّوا بهم العصر والشمس بيضاء حيّة

استوجب عليكم] من شكر نعمته وطاعته.

ثمّ علّل وجوب ذلك بقـوله: **[فـإنّ اللّه سبـحـانه قـد اصطنع عندنا وعندكم أن نشكـره بجـهدنا وأن نـنصـره بما بلغت قـوّتنا]** أي: إنّه تعـالى جـعل شكره بـجـهـدنا ونصرته بمـا بلغت قـوّتنا ـــــــ عنـدنا إذ كـان شكره ونصـرته مـن أعظم نعـمـه علينا، وقـيل: المراد لأن نشكره، والـكلام في قـوّة صـغـرى وتقـدير كـبـراه: وكلّ مـا اصطـنع عندنا وجب علينا شكره بحـسب قوّتنا.

[ولا قوّة إلا باللّه] العليّ العظيم.

ومن كتاب له عليه السلام كتبه

[إلى أُمراء البلاد في معنى الصلاة] المفروضة وبيان أوقاتها:

[أمّا بعـد، فصلّوا بالناس الـظهر حين يفيء الشـمس مثل مـربض العنز] فيء الشـمس: رجـوعـهـا وميلهـا إلى المغـرب، ومـربـض العنز: مكان ربوضـه، وذلك نحـو ذراع تقـريبـاً أو أكـثـر وهو أوّل وقـت الظهـر، ويخـتلف باختلاف البلدان.

[وصلّوا بهم العصر والشمس بيضاء] أي: لم تصفرّ للمغيب **[حيّة]**

في عضو من النهار حين يسار فيها فرسخان وصلّوا بهم المغرب حين يفطر الصائم ويدفع الحاج وصلّوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق إلى ثلث اللّيل وصلّوا بهم الغداة والرجل يعرف وجه صاحبه وصلّوا بهم صلاة أضعفهم ولا تكونوا فتّانين

استعار لفظ الحياة لظهورها على الأرض لمكان المشابهة.

وقوله: [**في عضو من النهار**] أي: في قطعة منه. ثمّ قدّر ذلك العضو بقوله: [**حين يسار فيها فرسخان**] السير المعتاد، وقيل: وهذا يطابق صيرورة الظلّ مثليه.

[**وصلّوا بهم المغرب حين يفطر الصائم ويدفع الحاج**] ويفيض من عرفات، وبشهرة هاتين العلامتين وتعارفهما عند المخاطبين عرّفه بهما.

[**وصلّوا بهم العشاء حين يتوارى الشفق**] وذلك من ناحية المغرب.

[**إلى ثلث اللّيل**] وإنّما حدّ آخر هذا الوقت دون سائر الفرائض لأنّ الفرائض يتبيّن آخر كلّ وقت منها ببيان أوّل وقت الأُخرى، ولا كذلك آخر وقت العشاء الآخرة؛ لاتصاله باللّيل الخالي عن الفرائض.

[**وصلّوا بهم الغداة والرجل يعرف وجه صاحبه**] وذلك حين طلوع الفجر الثاني، وهو الحمرة المعترضة من ناحية الشرق، والعلامة التي ذكرها أوضح لسائر الناس.

[**وصلّوا بهم صلاة أضعفهم**] وهو أن لا يطيلوا في الصلاة في قرائتها أو قيامها أو ركوعها أو سجودها.

[**ولا تكونوا فتّانين**] بإطالة الصلاة، فتصدّون الناس عنها بإطالتها المستلزمة لتخلّف العاجز والضعيف وغيرهما.

كتبه للأشتر النخعي «رض» على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر محمّد بن أبي بكر «رض» وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبداللّه عليّ أميرالمؤمنين مالك بن الحرث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوّها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها أمره بتقوى اللّه وإيثار طاعته واتّباع ما أمر به في كتابه من

ومن عهد له عليه السلام

[كتبه للأشتر] مالك بن الحرث [النخعي «رض» على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر] أميره [محمّد بن أبي بكر «رض» وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن] وفيه من الحكم والآيات والمصالح ما لا يكاد يوجد في غيره:

[بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبداللّه عليّ أميرالمؤمنين مالك بن الحرث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوّها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها أمره بتقوى اللّه] وخشيته التي هي أصل الفضائل ومنبع الفضائل.

[وإيثار طاعته] على طاعة غيره [واتّباع ما أمر به في كتابه من

فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتّباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر اللّه سبحانه بيده وقلبه ولسانه فإنّه جلّ اسمه قد تكفّل بنصر من نصره وإعزاز من أعزّه وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ويَزَعَها عند الجمحات فإنّ النفس أمّارة بالسوء إلا ما رحم اللّه ثمّ اعلم يا مالك إنّي قد وجّهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول

فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتّباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر اللّه سبحانه بيده] كالجهاد بالسيف والضرب والتأديب والحدود والتعزيرات.

[**وقلبه**] كالاعتقاد الحقّ والحبّ في اللّه والبغض في اللّه.

[**ولسانه**] كقول الحقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك.

[**فإنّه جلّ اسمه قد تكفّل بنصر من نصره وإعزاز من أعزّه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾ وقوله تعالى: ﴿ولينصرنّ اللّه من ينصره﴾.

[**وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات**] وهو أمر بفضيلة العفّة [**ويَزَعَها**] أي: يكفّها ويقاومها [**عند الجمحات**] أي: عند منازعة النفس إلى شهواتها ومآربها.

[**فإنّ النفس أمّارة بالسوء إلا ما رحم اللّه**] مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربّي﴾ و«ما» بمعنى «مَنْ» وهي نصب على الاستثناء، أي: إلا نفساً رحمها ربّي.

[**ثمّ اعلم يا مالك إنّي قد وجّهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول**

قبلك من عزل وجور وإنّ الناس ينظرون من أُمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمر الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم وإنّما يستدلّ على الصالحين بما يجري اللّه لهم على ألسن عباده فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك

قبلك من عزل وجور وإنّ الناس ينظرون من أُمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمر الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم] يعني انّك قد كنت تسمع أخبار الولاة قبلك وتعيب قوماً وتمدح قوماً، وستقول الناس في إمارتك الآن نحو ما كنتَ تقول في الأُمراء، فاحذر أن تُعاب وتُذمّ ما كنت تعيب وتذم من يستحقّ الذمّ، الكلام بمنزلة صغرى تقديرها: إنّك متوجّه إلى بلد حالها كذا وحال الناس في فعلك بها كذا، وتقدير الكبرى: وكلّ من وجّه إلى بلدة كذلك وكان الناس ينظرون في أمره مثل ما كان ينظر قبله من أمر الولاة ويقولون فيه مثل ما كان يقول فيهم، فيجب عليه أن يكون أحبّ الأُمور إليه العمل الصالح ليحصل منه الذكر الجميل بين الناس الدالّ على كون المذكور عند اللّه من الصالحين، ونبّه على تلك الدلالة بقوله:

[وإنّما يستدلّ على الصالحين بما يجري اللّه لهم على ألسن عباده] في نسبة إجراء القول إلى اللّه ترغيبٌ عظيم في تحصيل الذكر الجميل.

ثمّ قال: **[فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح]** استعار لفظ الذخيرة باعتبار أنّ تحصيله في الدنيا لغاية الانتفاع به في العقبى كالذخيرة، ولمّا أمره بالعمل الصالح إجمالاً شرع في تفصيله فقال:

[فاملك هواك] في شهوتك وغضبك ولا تتبعهما.

وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك فإنّ الشحّ بالنفس الانتصاف منها فيما أحبّت أو كرهت وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبّة لهم واللّطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدّين وإمّا نظيرٌ لك في الخلق يفرط مهم الزلل وتفرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ

[**وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك**] من المحرّمات [**فإنّ الشحّ بالنفس الانتصاف منها فيما أحبّت أو كرهت**] تفسير لذلك الشحّ بما يلازمه، وهو الانصاف والوقوف على حدّ العدل في المحبوب فلا شهوته إلى حدّ الإفراط فيقع في رذيلة الفجور وفي دفع المكروه فلا يقوده غضبه إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل فيقع في رذيلة الظلم والتهوّر، وظاهر أنّ ذلك شحّ بالنفس وبخل بها عن إلقائها في مهاوي الهلاك.

[**وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبّة لهم واللّطف بهم**] وهي فضائل تحت ملكة العفّة، أي: اجعل هذه الفضائل شعاراً لقلبك.

[**ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً**] استعار السبع لهم ورشحه بالضاري، وأشار إلى وجه الشبه بقوله:

[**تغتنم أكلهم**] وقوله: [**فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدّين وإمّا نظيرٌ لك في الخلق**] بيان لسببين من أسباب الرحمة واللّطف بهم، يعني انّ الرعية إمّا أخوك في الدّين أو إنسان مثلك يقتفي رقّة الجنسية بطبع البشرية الرحمة له.

وقوله: [**يفرط مهم الزلل وتفرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ**] تفسير للمثلية وهي السبب الثاني، والمراد بالعلل التي

فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك اللّه من عفوه وصفحه فإنّك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، واللّه فوق من ولاّك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم فلا تنصبنّ نفسك لحرب اللّه فإنّه لا يدى لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته

تعرض لهم الأُمور المشغلة الصارفة لهم عمّا ينبغي من إجراء أوامر الوالي على وجوهها، وقوله: «ويؤتى على أيديهم» كناية عن كونهم غير معصومين بل هم كمن يؤتون من قبل العمد والخطأ وتأتي على أيديهم، أو أمر الولاة والمؤاخذات فيما يقع منهم من عمد أو خطأ، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يرحم ويشمل بالتحيّة واللّطف به ويقابل خطائه بالعفو والصفح ولذا رغّب في العفو بقوله:

[**فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك اللّه من عفوه وصفحه**] أتمّ ترغيب في العفو وأقوى جاذب إليه.

وكذا قوله: [**فإنّك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، واللّه فوق من ولاّك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم**] تخويف من اللّه في معرض الأمر بالعوف واللّطف.

وقوله: [**فلا تنصبنّ نفسك لحرب اللّه**] كناية عن الغلظة على عباده وظلمهم ومبارزته تعالى فيهم بالظلم.

[**فإنّه لا يدى لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته**] تنبيه على عدم جواز ظلم اللّه ومحاربته، وكنّى بعدم اليدين عن عدم القدرة، يقال: ما لي بهذا الأمر يد: إذا كان مما لا يطاق، وحذف النون من يدين لمضارعة المضاف، وقيل: لكثرة الاستعمال، والكلام بمنزلة صغرى تقدير كبراه:

ولا تندمن على عفو ولا تبجّحنّ بعقوبة ولا تسرعنّ إلى بادرة وجدت عنها مندوحة ولا تقولنّ إنّي مؤمّر آمر فأُطاع فإنّ ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدّين وتقرّب من الغير وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبّهته أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك اللّه فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك

وكلّ من كان كذلك فلا يجوز أن ينتصب لحرب اللّه بظلم عباده.

[**ولا تندمن على عفو ولا تبجّحنّ بعقوبة ولا تسرعنّ إلى بادرة وجدت عنها مندوحة**] فإنّ ذلك كلّه من لوازم إعطاء القوّة الغضبية قيادها.

[**ولا تقولنّ إنّي مؤمّر آمر فأُطاع**] نهاه أن يأمر بما لا ينبغي الأمر به وخيالف الدّين، ونهى عمّا عساه يعرض في النفس من وجوب طاعة الخلق لإمرته عليهم، وإنّ عليهم أن يسمعوا وعليه أن يأمر، فإنّ ذلك فساد في القلب والدّين، كما أشار إليه بقوله:

[**فإنّ ذلك إدغال في القلب**] أي: إفساد [**ومنهكة**] أي: ضعف وسقم [**للدّين وتقرّب من الغير**] لكون الظلم من أقوى الأسباب المعدّة باجتماع همّ الخلق على زواله كما أُشير إليه في القرآن بقوله تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.

[**وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبّهته**] أي: عظمة [**أو مخيلة**] أي: كبرياء [**فانظر إلى عظم ملك اللّه فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك**] وما لا تملكه من أمرك وعلى إعدامك وإيجادك وإغنائك وإفقارك، وأنت لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

فـإنّ ذلـك يطامن إلـيك من طمــاحك ويكـفّ عنك من غــربك ويضيء إليك بما عزب عنك من عـقلك وإيّاك ومساماة اللّه في عظـمته والتشبّه به في جبروته فإنّ اللّه يذلّ كلّ جبار ويهين كلّ مختال أنصف اللّه وأنصف الناس من نفـسك ومن خـاصّة أهلك فـإنّك إن لا تفـعل تظلم ومن ظلم عباد اللّه كان اللّه خصمه دون عباده

[**فإنّ ذلك يطامن إليك من طماحك ويكفّ عنك من غربك ويضيء إليك بما عزب عنك من عـقلك**] يطامن أي: يسكّن، وطمـاح النفس: جماعها، وطمح البصر: ارتفع، والعزب: حدّ السيف، وعزب الفرس: حدّته وأوّل جـريه، يعني إنّ النصر إلى عظم اللّه وقدرته يسكّن داء الكبر الذي حدث لك ويكسر حدّة عقبك ويردّ إليك ما قهرته القوّة الغضبية من عقلك.

[**وإيّاك ومساماة اللّه في عظمته**] أي: مباراته في السموّ: وهو العلوّ.

[**والتشبّه به في جبروته**] والجبروت: الكبر العظيم.

[**فإنّ اللّه يذلّ كلّ جبار ويهين كلّ مختال**] قيل: تقدير الاحتجاج انّك إن تجبّرت أو ختلت يذلّك اللّه ويهينك وكلّ من كان كذلك فيجب أن يحذر من اللّه بترك التجبّر.

[**أنصف اللّه**] بالعمل بأوامره والاجتناب عن نواهيه مقابلاً بذلك نعمه الكاملة.

[**وأنصف الناس**] بالعدل فيهم والخروج إليهم من حقوقهم اللازمة [**من نفسك ومن خاصّة أهلك فإنّك إن لا تفعل**] ذلك [**تظلم**] عباد اللّه [**ومن ظلم عباد اللّه كان اللّه خصمه دون عباده**] وينتج انّك إن لا تفعل

ومن خاصمه اللّه أدحض حجّته وكان للّه حرباً حتّى ينزع ويتوب وليس شيء ادعى إلى تغيّر نِعَم اللّ وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ اللّه يسمع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد وليكن أحبّ الأُمور إليك أوسطها في الحقّ وأعمّها في العدل وأجمعها لرضا الرعية فإنّ سخط العامة بل يجحف برضا الخاصّة

كان اللّه خصمك.

[**ومن خاصمه اللّه أدحض حجّته**] أي: أبطلها [**وكان للّه حرباً حتّى ينزع**] عمّا كان عليه [**ويتوب**] إلى اللّه [**وليس شيء ادعى إلى تغيّر نِعم اللّ**] على العبد [**وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ اللّه يسمع دعوة المظلومين**] ويطّلع على فعل الظالم.

[**وهو للظالمين بالمرصاد**] وإذا كان كذلك فإنّه يسرع إلى تغيير نعمة الظالم وتعجيل نقمته؛ إذ هو مستعدّ لذلك.

[**وليكن أحبّ الأُمور إليك أوسطها في الحقّ**] أي: أقربها إلى حاقّ الوسط من طرفي الإفراط والتفريط وهو الحق.

[**وأعمّها في العدل وأجمعها لرضا الرعية**] فإنّ العدل قد يوقع على وجه لا يعمّ العامّة بل يتبع فيه رضى الخاصّة، كما نبّه على ذلك بقوله:

[**فإنّ سخط العامة**] لكثرتهم لا يقاومه رضا الخاصّة لقلّتهم [**بل يجحف برضا الخاصّة**] ولا ينتفع برضاهم عند سخط العامّة، وذلك يؤدّي إلى وهن الدّين وضعفه وحينئذ فاللازم العدل العام في الرعية وحفظ قلوب العامّة.

وإن سخط الخاصّة قد يغتفر مع رضا العامّة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء وأقلّ معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقلّ شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملمّات الدهر من أهل الخاصّة وإنّما عمود الدين وجماع المسلمين والعدّة للأعداء العامّة من الأُمّة

[**وإن سخط الخاصّة قد يغتفر مع رضا العامّة**] فكان رضاهم أولى.

ثمّ شرع في وصف الخاصّة بصفات مذمومة تستلزم قلّة الاهتمام بهم بالنسبة إلى العامّة بصفات محمودة توجب العناية بهم فقال:

[**وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء وأقلّ معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقلّ شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملمّات الدهر من أهل الخاصّة**] أمّا الأول فلتكلّفه لهم ما لا يتكلّفه لغيرهم، وأمّا الثاني فلمحبّتهم الدنيا وعزّة جانبهم، وأمّا الثالث فلكونهم أكره للإنصاف لزيادة أطماعهم في الدنيا على العامّة، وأمّا الرابع فلأنّهم عند الحاجة إلى السؤال أشدّ جرأة على الوالي وأطمع في إلانة جانبه، وأمّا الخامس فلاعتقادهم زيادة فضلهم على العامّة وأنّهم أحقّ بما يُعطونه واعتقادهم حاجة الوالي إليهم وتخوّفه منهم، وأمّا السادس فلاعتقادهم فضيلة أنفسهم وكونهم واجبي قضاء الحقوق، وأمّا السابع فلتعوّدهم الترفّه وحرصهم على ما في أيديهم من الدنيا. ثمّ ذكر صفات العامّة ومدائحم فقال:

[**وإنّما عمود الدين وجماع المسلمين والعدّة للأعداء العامّة من الأُمّة**] استعار لهم العمود باعتبار قيام الدّين بهم كقيام البيت بعموده وكونهم

فليكن صفوك لهم وميلك معهم وليكن أبعد رعيّتك منك وأشنأهم عندك طلبهم لمصائب الناس فإنّ في الناس عيوباً والوالي أحقّ ممن سترها عليهم فلا تكشفنّ ما غاب عنك منها فإنّما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت

جماع المسلمين لكونهم الأغلب والأكثر والسواد الأعظم وكونهم العدّة للأعداء لكثرتهم أيضاً، ولأنّهم كانوا أهل الحرب في ذلك الزمان.

فلذا قال عليه السلام: [**فليكن صفوك لهم وميلك معهم**] لما عرفت من المرجحات [**وليكن أبعد رعيّتك منك وأشنأهم**] أي: أبغضهم [**عندك طلبهم لمصائب الناس**] الذي لم يتحسّس على عيوبهم ويحفظها عليهم وينّم بها إلى الوالي وينمّ به إلى الوالي وغيره.

[**فإنّ في الناس عيوباً**] لا يخلون منها لأنّهم ليسوا بمعصومين.

[**والوالي أحقّ ممن سترها عليهم**] لأنّه بالنسبة إليهم كالوالد الشفيق والأُمّ البرّة بأولادها.

[**فلا تكشفنّ ما غاب عنك منها**] وذلك بقمع أهل النميمة وإبعادهم.

[**فإنّما عليك تطهير ما ظهر لك**] أي: تطهّر الخلق مما ظهر لك من ذنوبهم، فمن ثبت عليه الزنا طهّرته بالحدّ مثلاً، وكذا سائر المعاصي التي فيها الحدود أو التعزيرات.

[**والله يحكم على ما غاب عنك**] لا معقّب لحكمه وهو خير الحاكمين.

[**فاستر العورة ما استطعت**] أي: بقدر استطاعتك، وفيه إشارة إلى

يستر اللّه منك ما تحبّ ستره عن رعيّتك اطلق على الناس عقدة كلّ حقد واقطع عنك سبب كلّ وتر وتغاب عن كلّ ما لا يصلح لك ولا تعجلنّ إلى تصديق ساع فإنّ الساعي غاش وإن تشبّه بالناصحين ولا تدخلنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل أو يعدك الفقر

أنّ كلّ عيب عورة.

[**يستر اللّه منك ما تحبّ ستره عن رعيّتك**] من الذنوب والعيوب، وكفى بذلك مرغّباً.

[**اطلق على الناس عقدة كلّ حقد**] أمره بنزع الحقد وعقد ما عقده في قلبه منه لكونه من الرذائل الموبقة.

[**واقطع عنك سبب كلّ وتر**] أي: حقد، وهو أمر بقطع أسبابه من قبول السعاة به وأهل النيميمة فإنّه إذا زجرهم وأهانهم ولم يصغ إليهم زُجروا عن النميمة والسعاية التي هي أعظم أسباب الحقد والغلّ.

[**وتغاب**] أي: تغافل [**عن كلّ ما لا يصلح لك**] أي: ما لا يقوم لك برهان ولا دليل قاطع على صحّته.

[**ولا تعجلنّ إلى تصديق ساع**] سعى بنميمة [**فإنّ الساعي غاش**] لكونه يثير الأحقاد والضغائن بين الناس ويذيع الفاحشة في الذين آمنوا ويفسد في الأرض.

[**وإن تشبّه بالناصحين**] في إظهاره المودّهة لك والنصح بنشر عيوب الخلق بين يديك.

[**ولا تدخلنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل أو يعدك الفقر**] لأنّه لا يشير إلا بما يراه مصلحة عنده وهو البخل وما يستلزمه من

ولا جباناً يضعفك عن الأمور ولا حريصاً يزيّن لك الشره بالجور فإنّ البخل والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظنّ بالله

التخويف بالفقر وهو يعدل بك عن البرّ وصلة الأرحام وسائر أفعال الخير مما فيه فضل.

[**ولا جباناً يضعفك عن الأمور**] لأنّ الجبان لا يشير إلا بوجوب حفظ النفس والتخويف من العدوّ، وهو المصلحة التي يراها، وكلّ ذلك ضعف عن الحرب ومقاومة العدو.

[**ولا حريصاً يزيّن لك الشره بالجور**] وذلك لأنّ المصلحة عنده جمع المال وحفظه، وهو مستلزم للجور عن فضيلة العدل والقصد، والثلاث بمنزلة صغريات وتقدير الكبرى فيهنّ: وكلّ من كان كذلك فلا يجوز استشارته.

ثمّ أشار إلى ذمّ الثلاثة بنوع آخر فقال: [**فإنّ البخل والجبن والحرص غرائز شتّى**] أي: أخلاق متفرّقة تحصل للنفس عن أصل واحد تنتهي إليه وهو المشار إليه بقوله:

[**يجمعها سوء الظنّ بالله**] لأنّ مبدء سوء الظنّ بالله عدم معرفته تعالى، فالجاهل به لا يعرفه من جهة ما هو جواد فيّاض بالخيرات لمن استعدّ بطاعته لها فيسوء ظنّه به، وبأنّه لا يخلف عليه عوض ما يبذله فيمنعه ذلك مع ملاحظة الفقر عن البذل وتلزمه رذيلة البخل. وكذلك الجبان جاهل به تعالى من جهة لطفه بعباده وعنايته بوجودهم وغير عالم بسرّ قدّره فيسوء ظنّه بأنّه لا يحفظه من التلف ويتصوّر الإهلاك فيمنعه ذلك عن الإقدام في الحروب ونحوها فيلزمه رذيلة الجبن. وكذا الحريص يجهله تعالى من

شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزير أو من شركهم في الآثام فلا يكوننّ لك بطانة فإنّهم أعوان الأثَمَة وإخوان الظَّلَمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه

الوجهين المذكورين فيسوء ظنّه به ويعتقد أنّه إذا لم يحرص الحرص المذموم لم يوصل إليه تعالى ما يصلح حاله مما يسعى فيه ويحرص عليه فيبعثه ذلك على الحرص، فكانت هذه الأخلاق الثلاثة المذمومة راجعة إلى ما ذكره عليه السلام.

ثمّ قال عليه السلام: [**شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزير أو من شركهم في الآثام فلا يكوننّ لك بطانة**] أي: خاصّة، وبطانة الرجل: خاصّته، نهاه عليه السلام أن يتّخذ بطانة قد كانوا من قبل بطانة الظلمة لأنّ الظلم وتحسينه قد صار ملكة ثانية في نفوسهم فيبعد أن يمكنهم أن يخلوا منها إذ قد صار كالخلق الغريزي اللازم لتكرارها وصيرورتها عادةً كما قال: [**فإنّهم أعوان الأثَمَة وإخوان الظَّلَمة وأنت واجد منهم خير الخلف**] أي: إنّك إذا أعرضت عنهم وتركتهم وجدت خلفاً خيراً منهم.

[**ممن له مثل آرائهم ونفاذهم**] بيانٌ يميّز مَنْ هو خير الخلف من الأشرار وهم الذين ينبغي أن يستعان بهم، وبيان لوجه خيريتهم بالنسبة إلى الأشرار وهو أن يكون له مثل آرائهم ونفاذهم في الأمور.

[**وليس عليه مثل آصارهم**] جمع إصر: آثامهم.

[**وأوزارهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه**] ثمّ رغّب عليه السلام في اتّخاذ هؤلاء أعواناً بقوله: [**أولئك أخفّ عليك مؤنة**] لأنّ لهم

أُولئك أخفّ عليك مؤنة وأحْسَنُ لك معونةً وأقلّ لغيرك إلفاً فاتّخذ أُولئك خاصّة لخلواتك وحفلاتك ثمّ ليكن آثَرُهُم عندك أقْوَلَهُم لك بمرِّ الحقّ، وأقلّهم مساعدة فيما يكون منك مما كره اللّه لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع

وازعاً من أنفسهم عمّا لا ينبغي لهم فلا يحتاج إلى إرضائهم بما ينبغي لهم أو ردعهم عمّا لا ينبغي إلى مزيد كلفة بخلاف الأشرار والطامعين فيما لا ينبغي.

[**وأحْسَنُ لك معونةً**] لقربهم إلى الحقّ ومجانبتهم للاشرار وأثبت قلوباً وأشدّ حنواً وعطفاً.

[**وأقلّ لغيرك إلفاً**] وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يتّخذه عوناً ووزيراً ولذا قال:

[**فاتّخذ أُولئك خاصّة لخلواتك وحفلاتك**] أي: جلسائك في المحافل، ثمّ ميَّز من ينبغي أن يكون أقرب هؤلاء إليه وأقواهم في الاعتماد عليه بأوصاف أشار إليه بقوله:

[**ثمّ ليكن آثَرُهُم عندك أقْوَلَهُم لك بمرِّ الحقّ، وأقلّهم مساعدة فيما يكون منك مما كره اللّه لأوليائه**] وقوله: [**واقعاً ذلك من هواك حيث وقع**] نصب على الحال أي: في حال وقوع ذلك القول منه والنصيحة وقلّة المساعدة حيث وقع من هواك سواءً كان في عظيم أو يسير، أو المعنى حيث وقع هواك سواء كان ما تهواه عظيماً أو لا، أو واقعاً ذلك الناصح من هواك ومحبّتك حيث وقع أي: يجب أن يكون له من هواك موقعاً. ثمّ أمره في اعتبارهم واختبارهم بأوامر أشار إليها بقوله:

والصق بأهل الورع الصدق ثمّ روّضهم على أن لا يطرون ولا يبجّحوك بباطل لم تفعله فإنّ كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدني من الغرّة ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة

[**والصق بأهل الورع**] وأهل [**الصدق**] منهم وذوي الأعمال الجميلة، وهما فضيلتان تحت العفّة.

[**ثمّ روّضهم**] أدّبهم [**على أن لا يطرون**] والاطراء: المدح البالغ.

[**ولا يبجّحوك بباطل لم تفعله فإنّ كثرة الاطراء تحدث الزهو**] أي: الكبر [**وتدني من الغرّة**] أمره عليه السلام أن يروّضهم ويؤدّبهم بالنهي عن الإطراء له أو يوجبوا له سروراً بقوله باطل ينسبونه فيه إلى فعل ما لم يفعله فيدخل في ضمن قوله تعالى: ﴿ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ واستلزام الإطراء للرذيلتين المذكورتين ظاهر وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فيجب اجتنابه.

ثمّ قال عليه السلام: [**ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة**] فإنّ أكثر فعل الإحسان إنّما يكون طلباً للمحاذاة بمثله خصوصاً من الولاة، وطلباً لزيادة الرتبة على الغير وزيادة الذكر الجميل مع أنواع من الكلفة في ذلك فإذا رأى المحسن مساواة منزلته بمنزلة المسيء كان ذلك صارفاً له عن الإحسان وداعياً إلى الراحة من تكلّفه وكذلك أكثر التاركين للإساءة إنّما يتركون خوفاً من الولاة وإشفاقاً من نقصان الرتبة عن النظراء، فإذا رأى المسيء مساواة رتبته مع مرتبة المحسنين كان التقصير به أولى،

واعلـم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حـسن ظنّ وال برعـيّتـه من إحسانه وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراههم على ما ليس له قبلهم فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظنّ برعيّتك فإنّ حسن الظنّ يقطع عنك نصباً طويلاً وإنّ أحقّ من ساء ظنّك به لمن ساء بلائك عنده ولا تنقض سنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأُمّة واجتمعت بها الأُلفة وصلحت عليها الرعية

وتقدير كبراه: وكلّما كان فيه تزهيد للإحسان منزلة الإحسان ويلزم المسيء منزلة الإساءة.

[واعلم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظنّ وال برعيّته من إحسانه وتخفيفه المؤونات عليهم] تنبيهٌ له على الإحسان للرعية وتخفيف المؤونات عنهم.

[وترك استكراههم على ما ليس له قبلهم] بما يستلزمه ذلك من حسن ظنّه بهم المستلزم لقطع النصب عنه من قبلهم والاستراحة إليهم، وذلك أنّ الوالي إذا أحسن إلى رعيّته قويت رغبتهم إليه وأقبلوا بطاعتهم على محبّته وطاعته وذلك يستلزم حسن ظنّهم به فلا يحتاج معهم إلى كلفة في جمع أهوائهم والاحتراس من شرورهم، كما قال:

[فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظنّ برعيّتك فإنّ حسن الظنّ يقطع عنك نصباً طويلاً وإنّ أحقّ من ساء ظنّك به لمن ساء بلائك عنده] ثمّ قال: **[ولا تنقض سنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأُمّة]** أي: لا تترك سنّة صالحة قد عمل بها السلف الصالح من صدور هذه الأُمّة.

[واجتمعت بها الأُلفة وصلحت عليها الرعية] فإنّ ذلك مفسدة

ولا تحدثنّ سنّة بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنّها والوزر عليك بما نقصت منها وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وبإقامة ما استقام به الناس قبلك منها واعلم أنّ الرعيّة طقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غناء بعضها عن بعض فمنها جنود

ظاهرة في الدّين.

[**ولا تحدثنّ سنّة بشيء من ماضي تلك السنن**] وأشار إلى وجه الفساد بقوله: [**فيكون الأجر لمن سنّها والوزر عليك بما نقصت منها**] والضمير في «سنّها» يعود إلى السنن التي دخل عليها الضرر فيكون الأجر لمن سنّ السنّة الماضية التي أضرّت بها سنّتك الحادثة والوزر عليك بما نقصت منها، وهذا بمنزلة صغرى وتقدير كبراهك وكلّما كان كذلك فينبغي أن يجتنب وينفر عنه.

[**وأكثر مدارسة العلماء**] بأحكام الشريعة وقوانين الدِّين.

[**ومناقشة الحكماء**] أي: العارفين باللّه واسراره في عباده وبلاده العاملين بالقوانين الحكميّة العلميّة والعمليّة التجريبيّة والاعتبارية وتصفّح أنواع الأخبار والآثار.

[**في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك**] من القواعد والقوانين [**وبإقامة ما استقام به الناس قبلك منها**]. ثمّ نبّه عليه السلام على طبقات الناس الذين ينتظم بهم أمر المدينة فقال:

[**واعلم أنّ الرعيّة طقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غناء بعضها عن بعض**] فهم كأصابع اليد يحتاج بعضها إلى بعض [**فمنها جنود**

اللّه ومنها كتّاب العامّة والخاصّة ومنها قضاة العدل ومنها عمّال الانصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ومسلمة الناس ومنها التجّار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلّ قد سمّى اللّه له سهمه ووضع على حدّه فريضته في كتابه أو سنّة نبيّه صلى الله عليه وآله عهداً منه محفوظاً عند أهل بيته فالجنود بإذن اللّه حصون الرعية

[**اللّه ومنها كتّاب العامّة والخاصّة ومنها قضاة العدل ومنها عمّال الانصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ومسلمة الناس**] تفصيل للاهل الأوّل، فأهل الذمّة تفسير لأهل الجزية، ومسلمة الناس تفسير لأهل الخراج ويجوز أن يكون تفسيراً لأهل الجزية والخراج؛ لأنّ للإمام أن يقبل من الخراج من سائر المسلمين وأهل الذمّة.

ثمّ قال: [**ومنها التجّار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلّ قد سمّى اللّه له سهمه ووضع على حدّه فريضته في كتابه أو سنّة نبيّه صلى الله عليه وآله عهداً منه محفوظاً عند أهل بيته**] وأراد بالسهم ما ذكره اللّه في كتابه بقوله: ﴿إنّما الصدقات للفقراء والمساكين ...﴾ إلخ، وفصّلته السنّة.

ثمّ شرع عليه السلام في تفصيل وبدء بالجنود لأنّهم الأصل وذكر وجه الحاجة إليهم في أربعة أوصاف فقال:

[**فالجنود بإذن اللّه**] في هذا القيد تنبيهٌ على إرادة جنود الحقّ الذين هم مقتضى الحكمة لا مطلق الجنود.

[**حصون الرعية**] استعار الحصون باعتبار حفظهم للرعية وحياطتهم

وزين الولاة وعزٌّ للدّين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم ثمّ لا قوام للجنود إلا بما يخرج اللّه لهم من الخراج الذي يتقوون به على جهاد عدوّهم ويعتمدون عليه فيما أصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ثمّ لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب لما يحكون من المعاقد

لهم كالحصن.

[**وزين الولاة**] فإنّ الوالي بلا جند كأحد الرعية لا يبالى به ولا يطاع له أمر.

[**وعزٌّ للدّين**] أطلق عليهم لفظ العزّ إطلاقاً لإسم اللازم على ملزومه إذ كان العزّ للدّين لازماً لوجودهم.

[**وسبل الأمن**] باعتبار لزوم الأمن لوجود الجند في الطرق ونحوها، والكلام في قوّة صغرى وتقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فليس تقوم الرعية إلا به.

وقوله: [**وليس تقوم الرعية إلا بهم**] نتيجة القياس المذكور. وقوله: [**ثمّ لا قوام للجنود إلا بما يخرج اللّه لهم من الخراج الذي يتقوون به على جهاد عدوّهم ويعتمدون عليه فيما أصلحهم ويكون من وراء حاجتهم**] فيعلم ذلك أنّه لا قوام للجند إلا بما يخرج اللّه لهم من الخراج، ولمّا كان الخراج إنّما يحصل من جماعة من الرعية ولا يقوم الجند إلا بهم.

[**ثمّ لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب**] وإنّما جمعهم لأنّ وجه الحاجة إليهم واحد كما أشار إليه بقوله: [**لما يحكون من المعاقد**] جمع معقد مصدراً.

ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامّها ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجّار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونه من الترفّق بأيديهم ممن لا يبلغه رفق غيرهم ثمّ الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يجوز رفدهم ومعونتهم

[ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامّها] فإنّهم أُمناء الوالي والروعية على ما يعمّهم من الأمور ويخصّ كلاً منهم وعلى أيديهم تكون أحكام العقود وجميع المنافع، وهذا في قوّة صغرى تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فحاجة الجند والرعية إليه ضروريّة.

ثمّ أشار إلى الصنف الرابع بقوله: **[ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجّار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم]** أي: منافعهم **[ويقيمونه من أسواقهم ويكفونه من الترفّق بأيديهم ممن لا يبلغه رفق غيرهم]** وتوضيح ذلك إنّ كلّ ما يفعله التجّار من طلب الأمتعة وبيعها وشرائها ويقيمونه في الأسواق من ذلك وما يفعله الصنّاع من المنفعة بأيديهم مما لا يحصل من غيرهم الانتفاع به فهي مرافق ومنافع للرعية في مقام حاجتهم وضرورتهم وهو أيضاً في قوّة صغرى تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فالحاجة إليه ضرورية.

ثمّ أشار إلى القسم الخامس بقوله: **[ثمّ الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة]** ونبّه على وجه الحاجة إليهم بقوله: **[الذين يجوز رفدهم ومعونتهم]** فإنّ رفد هؤلاء ومعونتهم يستلزم اجتماع هممهم وتوفّر دواعيهم لرافدهم ومعينهم وبهم يستنزل الرحمة وتنموا البركة من اللّه تعالى

وفي اللّه لكلّ سعة ولكلّ على الوالي حقّ بقدر ما يصلحه فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك للّه ولرسوله ولإمامك وأطهرهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر يرؤف بالضعفاء وينبو على الأقوياء وممّن لا يثيره العنف

لأهل المدينة ويدرك الثواب الأُخروي، فكانت الحاجة إليه داعية لذلك.

وقوله: **[وفي اللّه لكلّ سعة]** أي: في جود اللّه وعنايته ليعتمدوا على اللّه في تدبير أُمورهم إذ هو تعالى ربّ العناية الأُولى.

[ولكلّ على الوالي حقّ بقدر ما يصلحه] ومراعاة كلّ واحد منهم واجبة عليه، ثمّ أخذ عليه السلام في أمره باستصلاح كلّ صنف بأوصاف يجب أن يكون عليها فقال:

[فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك للّه ولرسوله ولإمامك وأطهرهم جيباً] أي: أكثرهم أمانة في العمل بأوامر اللّه ورسوله وإمامه، وناصح الجيب كناية عن الأمين، ويكنّى عن العفّة والأمانة بطهارة الجيب؛ لأنّ الذي يسرق يحصل المسروق في جيبه.

[وأفضلهم حلماً] ثمّ وصف ذلك الأفضل بكونه **[ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر]** فيقبله إذا وجده **[يرؤف بالضعفاء]** فلا يغلظ عليهم **[وينبو على الأقوياء]** أي: يعلو عليهم ويتجنّب الميل إليهم على من دونهم.

[وممن لا يثيره العنف] أي: لا يكون له عنف فيثيره، وقيل المعنى: لا يهيجه العنف ولا يزعجه إذا فعل.

[ولا يقعد به الضعف] عن إقامة حدود اللّه وأخذ الحقوق من

ولا يقعد به الضعف ثمّ الصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثمّ أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنها جماع من الكرم وشعف من العرف تفقّد من أُمورهم ما يتفقّده الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن من نفسك شيء قوّيتهم به ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قلّ

الظالمين، أي: لا يكون له ضعف فيقعده عن ذلك.

[**ثمّ الصق بذوي الأجساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة**] من الأحول والأفعال والأقوال الخيريّة، أي: يكرمهم ويجعل معوّله في ذلك عليهم ولا يتعدّاهم، وكان يقال «عليكم بذوي الأحساب فإنّهم إن لم ينكرموا استحيوا.

[**ثمّ أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنها جماع من الكرم وشعف من العرف**] «من» هنا زائدة في الإيجاب على مذهب الأخفش، أي: جماع الكرم أي: مجمعه، وفي النبوي: «الخمر جماع الإثم» أي: مجمعه، وكذا قوله: «شعب من العرف» أي: شعب العرف أي: أقسامه وأجزائه، والعرف: المعروف، ويجوز كون «من» للتبعيض، أي: هذه الخلال جملة من الكرم وأقسام من المعروف وذلك لأنّ غيرها أيضاً من الكرم والمعروف نحو العدل والعفّة.

[**تفقّد من أُمورهم**] ومصالحهم [**ما يتفقّده الوالدان من ولدهما**] كنّى به عن نهاية الشفقة عليهم.

[**ولا يتفاقمن**] يقال: تفاقهم الأمر أي: عظم.

[**من نفسك شيء قوّيتهم به ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قلّ**]

فإنّه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظنّ بك ولا تدع تفقّد لطيف أُمورهم اتكالاً على جسيمها فإنّ لليسير من لطفه موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقفاً لا يستغنون عنه وليكن أثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته وأفضل عليهم من جدّته بما يسعهم ويسع من ورائهم من خلوف أهلهم حتّى يكون همّهم همّاً واحداً

نهاه أن يعظم في نفسه شيء يقوّيهم به من مال أو نفع فيدّعوه إلى التقاطه في حقّهم وأن لا يحتقر لطفاً يتعاهدهم به فيحمله احتقاره على تركه بل الأولى فعله وإن قلّ.

[**فإنّه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظنّ بك**] وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فالأولى بك فعله.

[**ولا تدع تفقّد لطيف أُمورهم اتكالاً على جسيمها**] أي: لا تترك تفقّد الحقير من أُمورهم اعتماداً على تفقّد عظيمها.

[**فإنّ لليسير من لطفه موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقفاً لا يستغنون عنه**] فإنّ موضع اليسر المنتفع به يستغنى فيه عن الجسيم.

[**وليكن أثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته وأفضل عليهم من جدّته بما يسعهم ويسع من ورائهم من خلوف أهلهم**] أو ممن يخلفونه من أولادهم وأهلهم، أمره أن يكون أثر رؤوس جنده عنده وأحظاهم وأقربهم إليه من يواسي من تحت يده من الجند فيما يحصل له من المعونة ويفضل عليهم مما في يده بما يسعهم ويسع من ورائهم من ضعفاء أهليهم ومخلفيهم.

[**حتّى يكون همّهم**] بذلك [**همّاً واحداً**] فيكونوا بمنزلة رجل واحد

في جهاد العدوّ فإنّ عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك ولا يصحّ نصحهم إلا بحيطهم على ولاة أمورهم وقلّة استثقال دولهم ترك استبطاء انقطاع مدّتهم فافسح في آمالهم وواصل من حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم

[**في جهاد العدوّ**].

وقوله: [**فإنّ عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك**] ترغيب في العطف عليهم بما يستلزمه من عطف قلوبهم عليه وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّما كان مستلزماً لعطف قلوبهم ففعله واجب ومصلحة.

ثمّ قال عليه السلام: [**ولا يصحّ نصحهم**] أي: نصيحة الجند لك ومحبّتهم إيّاك [**إلا بحيطهم**] ومحافظتهم [**على ولاة أمورهم**] أي: بتعطّفهم عليهم وتحنّنهم وهي الحيطة مصدر حاطه يحوطه حوطاً وحياطةً أي: حيطة، أي: كلاه ورعاه.

[**وقلّة استثقال دولهم**] أي: لا يصحّ نصيحة الجند لك إلا إذا أحبّوا أُمرائهم ولم يستثقلوا دولهم.

[**ترك استبطاء انقطاع مدّتهم**] أي: لم يتمنوا زوالهم ويتركوا استبطاء انقطاع مدّة دولهم وهو أيضاً في قوة صغرى تقدير كبراه: وما لا يتمّ أهمّ المطالب إلا به كان من أهمّ المطالب.

ثمّ قال عليه السلام: [**فافسح في آمالهم**] أي: اجعل لهم من نفسك طمعاً يفسح به آمالهم فيه.

[**وواصل من حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم**] أي: يذكر في المجالس والمحافل بلاء ذوي البلاء منهم.

فإنّ كثرة الذكر لحسن فعالهم يهزّ الشجاع ويحرّض الناكل ثمّ اعرف لكلّ امرئ منهم ما أبلى ولا تضمّنّ بلاء امرئ إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونّك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرئ إلى أن يستصغر من بلائه ما كان عظيماً واردد إلى اللّه ورسوله ما يضعلك من الخطوب ويشتبه عليك من الأُمور

[**فإنّ كثرة الذكر لحسن فعالهم يهزّ الشجاع ويحرّض الناكل**] أي: يحرّك الجبان إن شاء اللّه تعالى، وهو في قوّة صغرى أيضاً تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك كان واجباً.

ثمّ قال: [**ثمّ اعرف لكلّ امرئ منهم ما أبلى ولا تضمّنّ بلاء امرئ إلى غيره**] أي: اذكر كلّ من أبلى منهم بلاءً خاصّاً مفرداً غير مضموم، ذكر بلائه إلى غيره كيلا يكون مغموراً في جنب ذكر غيره.

[**ولا تقصرن به دون غاية بلائه**] فإنّ ذلك يهزّ الشجاع ويشجّع الجبان.

ثمّ قال عليه السلام: [**ولا يدعونّك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرئ إلى أن يستصغر من بلائه ما كان عظيماً**] أي: لا تعظم بلاء ذوي الشرف لأجل شرفهم ولا تحقّر بلاء ذوي الضعة لضعة أنسابهم، فإنّ كلّ ذلك داعية الكسل والفتور عن الجهاد، بل اذكر الأُمور على حقائقها.

ثمّ قال عليه السلام: [**واردد إلى اللّه ورسوله ما يضعلك**] أي: يؤذك ويثقلك [**من الخطوب ويشتبه عليك من الأُمور**] ولا تقولنّ في ذلك على

فقد قال اللّه سبحانه لقوم أحبّ إرشادهم ﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول﴾ فالرادّ إلى اللّه الآخذ بمحكم كتابه، والراد إلى الرسول الآخذ بسنّته الجامعة غير المفرّقة ثمّ اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك ممن لا تضيق به الأُمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزّلة ولا يحصر في العي إلى الحقّ إذا عرفه

رأيك وهواك وتقول في ذلك بغير علم.

[**فقد قال اللّه سبحانه لقوم أحبّ إرشادهم ﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول﴾ فالرادّ إلى اللّه الآخذ بمحكم كتابه، والراد إلى الرسول الآخذ بسنّته الجامعة غير المفرّقة**] لأنّ مدارها على وجوب الأُلفة واجتماع الخلق على طاعة اللّه وسلوك سبيله، ثمّ ذكر عليه السلام الصنف الثاني وهم قضاة العدل وعيّنهم بأوصاف معيّنة وأمره فيهم بأوامر فقال:

[**ثمّ اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك ممن لا تضيق به الأُمور**] فيتحيّر فيها حين ترد عليه [**ولا تمحكه الخصوم**] أي: تجعله ماحكاً أي: لجوجاً.

[**ولا يتمادى في الزّلة**] أي: إن زلّ رجع وأناب، فالرجوع إلى الحقّ خير من التمادي في الباطل، وقيل: ذلك كناية عن كونه ممن ترتضيه الخصوم فلا تلاجّه وتقبل بأوّل قوله.

[**ولا يحصر في العي إلى الحقّ إذا عرفه**] أي: لا يعي في المنطق لأنّ من الناس من إذا زلّ حصر عن أن يرجع وأصابها كالفهاء والعي خجلاً،

ولا تسرف نسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه أوقفهم في الشبهات وأخذهم بالحجج وأقلّهم تبرّعاً بمراجعة الخصم واصبرهم على تكشّف الأُمور وأصرمهم عند إيضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأُولئك قليل

وذلك يفعله قضاة السوء كثيراً خوفاً من شناعة الغلط .

[**ولا تسرف نسه على طمع**] أي: لا يسف، والإسراف والإسفاف والخوف فإنّ الطمع في الناس داعية إلى الحاجة إليهم والميل عن الحقّ.

[**ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه**] أي: يكون قانعاً بما يخطر له بادي الرأي من أمر الخصوم بل يستقصي ويبحث أشدّ البحث .

[**أوقفهم في الشبهات**] فإنّ الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات .

[**وأخذهم بالحجج وأقلّهم تبرّعاً بمراجعة الخصم**] أي: أقلّهم تضجّراً لما يستلزمه التضجّر من تضييع الحقوق .

وكذا قوله: [**واصبرهم على تكشّف الأُمور**] فإنّ القلق والضجر والتبرّم قبيحة، وأقبح ما يكون من القاضي .

[**وأصرمهم**] أي: أقطعهم وأمضاهم [**عند إيضاح الحكم**] والحقّ فإنّ في التأخير آفات .

[**ممن لا يزدهيه**] أي: لا يستخفّه [**إطراء**] أي: مدح [**ولا يستميله إغراء**] أي: تحريص .

[**وأُولئك قليل**] أي: الذين تجتمع فيهم هذه الصفات تنبيهاً على أنّ فيها ما هو أولى دون أن يكون شرطاً في القضاء .

ثمّ أكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل ما يزيح علّته وتقلّ معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ليأمن بذلك من اغتيال الرجال له عندك فانظر في ذلك نظراً بليغاً فإنّ هذا الدّين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار في الهوى ويطلب به الدّنيا

[**ثمّ أكثر تعاهد قضائه**] ليقطع طمعه في الانحراف عن الحقّ لو خطر بباله.

[**وافسح له في البذل ما يزيح علّته**] وهو كناية عمّا يكفيه.

[**وتقلّ معه حاجته إلى الناس**] فلا يميل إليه و«ما» يحتمل أن تكون بدلاً من البذل وأن تكون مفعولاً لفعل محذوف دلّ عليه البذل، كأنّه قال: فتبذل له ما يزيح علّته، و«ان» تكون مفعولاً ليفسح أي: يوسّع له ما يكفيه من الحال، و«ان» تكون في معنى مصدر أي: يفسح له فسحاً يزيل علّته.

[**وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ليأمن بذلك من اغتيال الرجال له عندك فانظر في ذلك**] أي: في اختيار من كان بهذه الصفات وما أمرتك به.

[**نظراً بليغاً فإنّ هذا الدّين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار في الهوى ويطلب به الدّنيا**] استعار الأسير باعتبار تصرّفهم فيه حسب أهوائهم وإراداتهم كالأسير، وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فيجب النظر في اختيار من يعمل فيه بالحقّ ويخرجه عن أسر الأشرار.

ثمّ شرع عليه السلام في حال الصنف الثالث وهم العمّال وميّزهم بأوصاف وأمره فيهم بأوامر فقال:

ثمّ انظر في أُمور عمّالك فاستعملهم اختباراً ولا تولّهم محاباة و اثرة فإنّهما جماع من شعب الجور والخيانة وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدّمة فإنّهم أكرم أخلاقاً

[**ثمّ انظر في أُمور عمّالك**] وهم عمّال السواد والصدقات والوقوف والمصالح.

[**فاستعملهم اختباراً**] أي: بعد اختبارهم وتجربتهم [**ولا تولّهم محاباة**] أي: معاطاةً وتقرّباً لهم أو لمن يشفع فيهم. [و] لا [**اثرة**] وإنعاماً عليهم واستبداداً [**فإنّهما جماع**] أي: جمع [**من شعب الجور والخيانة**] يعني استعمالهم للمحاباة والأثرة جماع من شعب الجور والخيانة أي: يجمع أقساماً منهما، أمّا الجور فلأنّه يكون قد عدل عن المستحقّ إلى غير المستحقّ، ففي ذلك جور على المستحقّ، وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضي تقليداً لأعمال الأكفّاء فمن لم يعتمد ذلك فقد خان من ولاّه.

[**وتوخّ منهم**] والتوخي: التقصد [**أهل التجربة**] للأعمال والولايات ليعلم على علم بقواعدها.

[**والحياء**] فلا ينتهي في ـــــ إلى حدّ الاستحداء وهو طرف التفريط فتضيع به الحقوق والمصالح، ولا يتجاوزه إلى حدّ الوقاحة فيقع في طرف الإفراط وما يلزمه من الجفاوة ونفرة القلب عنه.

[**من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدّمة**] وهي كناية عن البيوتات المتقدّمة في الدّين والخير ولهم في ذلك أصل معروف.

[**فإنّهم أكرم أخلاقاً**] فإنّ الحياء وصلاح البيوت والتقدّم في الإسلام

وأصحّ أعراضاً وأقلّ في المطامع إشراقاً وأبلغ عواقب الأمور نظراً ثمّ أسبغ عليهم الأرزاق فإنّ ذلك قوّة لهم عن استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجّة عليهم إن خالفوا أمرك وثلموا أمانتك ثمّ تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإنّ تعاهدك في الشرّ لأمورهم حدوة على استعمال الأمانة و الرفق بالرعية

يفيدهم كرم الأخلاق.

[**وأصحّ أعراضاً**] أي: محافظة على الأعراض من المطاعن [**وأقلّ في المطامع إشراقاً**] أي: أقلّ تطلّعاً إلى المطامع الدنيّة.

[**وأبلغ عواقب الأمور نظراً**] لأنّ التجربة تفيدهم بلاغة النظر في عواقب الأمور، والكلام في قوّة صغرى تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فهو أولى أن يقصد بالتولية والعمل.

[**ثمّ أسبغ عليهم الأرزاق**] فإنّ الجائع لا أمانة له.

[**فإنّ ذلك قوّة لهم عن استصلاح أنفسهم**] الذي لابدّ منه [**وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم**] من مال المسلمين [**وحجّة عليهم إن خالفوا أمرك وثلموا أمانتك**] استعار الثلم للخيانة، والوجوه الثلاثة بمنزلة صغريات تقدير كبراها: وكلّما كان كذلك كان فعله مصلحة واجبة.

[**ثمّ تفقّد أعمالهم وابعث العيون**] والجواسيس [**من أهل الصدق والوفاء عليهم فإنّ تعاهدك في الشرّ لأمورهم**] مع علمهم بذلك منك [**حدوة**] أي: يحدوهم ويبعثهم [**على استعمال الأمانة**] وأدائها فيما وُلّوا من الاعمال [**و**] على [**الرفق بالرعية**] وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه:

وتحفظه من الأعوان فإنّ أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثمّ نصبته بمقام الذلّة ووسمته بالخيانة وقلّدته عار التهمّة وتفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأنّ الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب

وكلّما كان كذلك فيجب فعله.

[**وتحفظه من الأعوان**] أي: من خيانة الأعوان من العمّال.

[**فإنّ أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثمّ نصبته بمقام الذلّة ووسمته بالخيانة وقلّدته عار التهمّة**] وهذه العقوبة مقدّرة بحسب رأي الإمام أو منصوبه، واستعار التقليد لتعليق نسبة التهمة إليه.

ثمّ انتقل عليه السلام إلى الصنف الرابع وهم أرباب الخراج ودهاقين السواد فقال:

[**وتفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله**] ثمّ أشار إلى وجه المصلحة بقوله: [**فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم**] تنبيهٌ على حصر صلاح الغير فيهم تأكيداً، وكلّ من كان لا صلاح للناس إلا به فيجب مراعاة أُمور وتفقّد أحواله.

[**لأنّ الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله**] سيّما في ذلك الزمان.

[**وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب**

الخراج لأنّ ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً فإن شكوا ثقلاً أو غلّة وانقطاع شرب أو بالّة أو إحالة أرض اغتمرها غرقٌ أو أجحف بها عطش

الخراج لأنّ ذلك] الخراج [**لا يدرك إلا بالعمارة**] أي: بعمارة الأرض.

[**ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد**] لعدم العمارة [**وأهلك العباد**] لتكلّفهم ما ليس في وسعهم.

[**ولم يستقم أمره إلا قليلاً**] أي: أمر الطالب للخراج والوالي على أهله، وكلّما لا يدرك إلا بالعمارة وجب أن يكون النظر فيها أبلغ من النظر فيه، فينتج أنّ النظر في العمارة يجب أن يكون أبلغ من النظر في الخراج.

[**فإن شكوا**] أي: الرعية [**ثقلاً**] أي: ثقل طسق الخراج المضروب عليهم أو ثقل وطأة العامل.

[**أو غلّة**] بالغين المعجمة نحو أن يصيب الغلّة آفة كالجراد والبرد وفي نسخة بالعين المهمة أي: علّة سماوية.

[**وانقطاع شرب**] أي: نصيب كان لهم من الماء بأن ينقص الماء في النهر أو يتعلّق أرض الشب عنه لفقد الحفر.

[**أو بالّة**] يعني المطر [**أو إحالة أرض اغتمرها غرقٌ**] يعني أو كون الأرض قد حالت ولم يحصل منها ارتفاع لأنّ الغرق غمرها وأفسد زرعها.

[**أو أجحف بها عطش**] أي: أقلقها، إذ قد يكون الشرب غير منقطع ومع ذلك يجحف بها العطش ولا يكفيها الماء الموجود في الشرب.

خفّفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلنّ شيء عليك شيء خففت به المؤنة عنهم فإنّهم ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلائك حسن نيّاتهم وتبجّحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمائك لهم والثقة منهم بما عوّدتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم، فربّما حدث من الأمور ما إذا عوّلت فيه عليهم من بَعْدُ احتملوه طيّبَةً أنفسهم به

[خفّفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم] من التخفيف [ولا يثقلنّ شيء عليك شيء خففت به المؤنة عنهم] فهو وإن أدخل على المال نقصاً في العاجل إلا أنّه يفضي إلى توفير وزيادة في الآجل، كما أشار إليه بقوله:

[فإنّهم ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك] فهو بمنزلة التجارة التي لابدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه.

وقوله: [وتزيين ولايتك] إشارة إلى أنّه يفضي إلى تزيين البلاد بعمارتها.

[مع استجلائك حسن نيّاتهم وتبجّحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً] منصوب على الحال، والضمير في خفّفت الأولى أي: خفّفت عنهم معتمداً في التخفيف.

[فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمائك] أي: تفرفيهك.

[لهم والثقة منهم بما عوّدتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم، فربّما حدث من الأمور ما إذا عوّلت فيه عليهم من بَعْدُ احتملوه طيّبَةً أنفسهم به] أي: ربّما

فإنّ العُمران محتملٌ ما حمّلته وإنّما يُؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها وإنّما يُعْوِزُ أهلها لإشراف أنْفُس الولاة على الجمع وسوء ظنّهم بالبقاء ثمّ انظر في حال كتّابك فولّ على أمورك خيرهم

احتجت فيما بعد إلى أن تكلّفهم لحادث يحدث عنك المساعدة بمال يقسطونه عليهم قرضاً لك أو معونة محضة فإذا كانت لهم ثروة وعندهم فضل نهضوا بمثل ذلك طيّبة أنفسهم.

[**فإنّ العُمران محتملٌ ما حمّلته**] يعني انّ التخفيف عنهم يستلزم عمران أرضهم وهو يستلزم احتمالهم لما يرد عليهم من حوادث الأمور.

وقوله: [**وإنّما يُؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها**] أي: من فقرهم.

[**وإنّما يُعْوِزُ أهلها لإشراف أنْفُس الولاة على الجمع**] أي: الموجب لإعوازهم طمع ولاتهم في الخيانة وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم.

[**وسوء ظنّهم بالبقاء**] أي: يظنّون طول البقاء وينسون الموت والزوال، أو المراد أنّهم يتخيّلون العزل والصرف فينتهزون الفرصة ويقتطعون الأمور ولا ينظرون في عمارة البلاد.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان حال الصنف الخامس وهم الكتّاب الذين يلون أمر حضرته ويرسلوه عنه إلى عمّاله وأمراه وإليهم معاقد التدبير وأمر الديوان، فقال:

[**ثمّ انظر في حال كتّابك فولّ على أُمورك خيرهم**] وهو من كان تقيّاً قيّماً بما يراد منه من مصالح العمل.

واخصص رسائلك التي تُدْخِل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممّن لا تُبْطِرُه الكرامة فيجترىء بها عليك في خلاف لك بحضرة ملإٍ ولا تقصرُ به الغفلةُ عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك وإصدار جوباتها على الصواب عنك فيما يأخذُ لك ويعطي منك

[**واخصص رسائلك التي تُدْخِل فيها مكائدك وأسرارك**] وتدبيراك [**بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق**] وأُصولها من العلم بوجوه الآراء المصلحة والتهدّي إلى وضع كلّ شيء موضعه، ثمّ العفّة والشجاعة والعدالة مع ما تحت الأربعة من الفاضئل الخلقية، ثمّ فسّر بعض الفضائل التي عساها أن تخفى وذكر منها خمساً أشار إليها بقوله:

[**ممّن لا تُبْطِرُه الكرامة فيجترىء بها عليك في خلاف لك بحضرة ملإٍ**] عدم البطر فضيلة تلزم الشكر وهو فضيلة تحت العفّة، إذ صاحب البطر يجتري على مخالفته في ملإٍ من الناس والردّ عليه في ذلك من الوهن للأمير وسوء الأدب الذي انكشف الكاتب عنه ما لا خفاء به، وهو في قوّة صغرى تقدير كبراه: وكلّ من يجتري عليك كذلك فغير صالح لولاية أمرك.

[**ولا تقصرُ به الغفلةُ عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك**] وكنّى بذلك عن أن يكون فطناً ذكيّاً، والذكاء فضيلة تحت الحكمة.

[**وإصدار جوباتها على الصواب عنك فيما يأخذُ لك ويعطي منك**] أي: ليكن كاتبك غير مقصر غرض مكتوبات عمّالك وعليك والإجابة عنها حسن الوكالة والنيابة عنك فيما يحتج به لك عليهم من مكتوباتهم وما يصدره عنك لهم من الأجوبة فإن عقد لك عقد أقواه وأحكمه، وإن عقد

ولا يُضْعِفُ عقداً اعتقده لك ولا يعجزُ عن إطلاق ما عُقِدَ عليك ولا يجهلُ مبلغ قدر نفسه في الأمور فإنّ الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظنّ منك فإنّ الرجال يتعرّضون لفراسات الولاة بتصنّعهم وحسن حديثهم وليس وراء ذلك من النصيحة والإنابة شيء

عليك عقد اجتهد في حلّه ونقضه كما قال:

[**ولا يُضْعِفُ عقداً اعتقده لك**] من الأمور بل يجعله محكماً.

[**ولا يعجزُ عن إطلاق ما عُقِدَ عليك**] خصومك من الأمور بالحيلة والخدعة، وهذان لازمان لأصالة الرأي وهي فضيلة تحت الحكمة.

[**ولا يجهلُ مبلغ قدر نفسه في الأمور**] فيرفعها إلى فوق محلّها ومرتبتها وهي فضيلة تحت الحكمة الخلقية أيضاً.

[**فإنّ الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل**] وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فيجب اجتنابه.

[**ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظنّ منك**] أي: لا يمكن اختيارك للعمّال تفرّساً منك وسكوناً وحسن ظنّ بأحدهم.

[**فإنّ الرجال يتعرّضون لفراسات الولاة بتصنّعهم وحسن حديثهم**] يعني إنّ الرجال قد يتصنّعون بحسن الخدمة ويتعرّضون لأن يتفرّس فيهم الولاة فيعرفونهم بذلك.

[**وليس وراء ذلك من النصيحة والإنابة شيء**] أي: ليس وراء ذلك التصنّع من النصيحة والأمانة شيء، ولا طائل في المعرفة.

ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامّة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً فإنّ ذلك دليل على نصيحتك للّه لمن وليت أمره واجعل لرأس كلّ أمر من أُمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتّت عليه كثيرها ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه أُلْزِمتَهُ

[ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك] أي: لكن ارجع في ذلك إلى ما حكمت به التجربة لهم وما ولوه لمن كان قبلك من الصالحين إرشاداً إلى وجه الاختبار.

[فاعمد لأحسنهم كان في العامّة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً] أي: أحسن أثراً في العامّة وأعرفهم بوجه الأمانة في الدّين.

[فإنّ ذلك دليل على نصيحتك للّه لمن وليت أمره] وكلّما كان كذلك يجب فعله.

[واجعل لرأس كلّ أمر من أُمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتّت عليه كثيرها] أمره ان يجعل لرأس كلّ أمر من أُمور رأساً من الكتّاب الموصوفين يكون مناسباً له بحيث لا يكبر عليه كبيرة فتقهره ولا يكثر عليه كثيرة فتشتّت عن ضبطه ويقصر دونه.

[ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه أُلْزِمتَهُ]. يعني انّه مأخوذ من اللّه تعالى بما يتغابى عنه ويتغافل من عيوب كتّابه، فإنّ الدّين لا ـــــــ الإغضاء والغفلة عن الأعوان والخول ويوجب التطلّع عليهم.

ثمّ شرع في أحوال الصنف السادس وهم التجّار وذوي الصناعات فقال:

ثمّ استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه فإنّهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجُلاّبها من المباعد والمطارح في برّك وبحرك سهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فإنّهم سِلمٌ لا تُخافُ بائِقَتُهُ

[**ثمّ استوص بالتجار وذوي الصناعات**] أي: أوص نفسك بهم [**وأوص بهم**] غيرك [**خيراً**] بجميع أصنافهم وأقسامهم، ويجوز أن يكون معنى استوص أي: اقبل الوصية منّي بهم وأوص أنت بهم غيرك، وقسّمهم ثلاثة أقسام.

[**المقيم منهم**] في بلاده [**والمضطرب**] في تجاربته [**بماله**] أي: الضارب في الأرض المسافر فيها، كما قال تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الارض﴾.

[**والمترفق ببدنه**] وروي بيديه تثنية يد، وهم أهل الصنائع.

[**فإنّهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجُلاّبها**] أي: الذين يجلبونها ويأتون بها.

[**من المباعد والمطارح**] الأماكن البعيدة.

[**في برّك وبحرك سهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها**] أي: ومن مكان لا يجتمع الناس لمواضع تلك المنافع منه.

[**ولا يجترئون عليها**] وذلك الحيث كالبحار والجبال ونحوها ولا يجترئون عليها.

[**فإنّهم سِلمٌ لا تُخافُ بائِقَتُهُ**] لا في مال يخونون فيه ولا في دولة

وصالح لا يخشى غائلته وتفقّد أُمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك واعلم مع ذلك انّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحّاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البِيَاعات وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيب على الولاة

يفسدونها.

[**وصالح لا يخشى غائلته**] وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فيجب الاستيصاء به والوصية بالخير في حقّه.

[**وتفقّد أُمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك**] أي: أطرافها وما عساه يعرض لهم من المظالم والموانع ليزيلها عنهم.

[**واعلم مع ذلك انّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحّاً قبيحاً**] والمراد بذلك البخل.

[**واحتكاراً للمنافع**] التي يعمّ نفعها المسلمين وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن والملح.

[**وتحكّماً في البِيَاعات**] وهو عبارة عن البيع على حكمه بالهوى المطلق من غير تقييد بشريعة أو عرف، فإنّ ذلك عدول عن العدل إلى رذيلة الجور، ونبّه على وجه المفسدة اللازمة لتلك المعايب بقوله:

[**وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيب على الولاة**] لأنّ قانون العدل بأيديهم، فإذا أهملوا بترك ردّ هؤلاء عن طرق الجور توجّهت اللائمة نحوهم والعيب عليهم، وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فيجب إنكاره ودفعه.

فامنع من الاحتكار فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله منع منه وليكن البيع بيعاً سمحاً وليكن بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البايع والمبتاع فمن قارفَ حُكْرَةً فنكّل به وعاقبه من غير إسراف ثمّ اللّه اللّه في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزّمنى فإنّ في هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً واحفظ للّه ما استحفظك من حقّه فيهم واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كلّ بلد

[**فامنع من الاحتكار فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله منع منه**] فيجب التأسّي به في ذلك. [**وليكن البيع بيعاً سمحاً**] سهلاً [**وليكن بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البايع**] فتذهب بأصل مبيعه [**والمبتاع**] وهو المشتري فتذهب برأس ماله [**فمن قارفَ حُكْرَةً**] بضمّ الحاء أي: واقعها [**فنكّل به**] أي: أوقع به النكال والعقوبة.

[**وعاقبه من غير إسراف**] لأنّه دون المعاصي التي توجب الحدود بل غاية أمره التعزير والإهانة والمنع. ثمّ شرع في بيان حال الصنف السابع فقال:

[**ثمّ اللّه اللّه**] أي: احذر اللّه [**في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى**] وهي البؤس كالنعمى للنعيم، [**والزّمنى**] أُولوا الزمانة.

[**فإنّ في هذه الطبقة قانعاً**] وهو السائل [**ومعترّاً**] وهو الذي يعرض لك مما يسألك.

[**واحفظ للّه ما استحفظك من حقّه فيهم واجعل لهم قسماً**] أي: حظّاً ونصيباً[**من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كلّ بلد**]

فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكلّ قد استرعيت حقّه فلا يشغلنّك عنهم بطر فإنّك لا تعذر بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهمّ، ولا تصعّر خدّك لهم وتفقّد أُمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقِرهُ الرجال

وصوافي الإسلام: هي الأرضون التي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وكانت صافية لرسول اللهﷺ فلمّا قبضﷺ صارت لفقراء المسلمين ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام.

[**فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى**] أي: كلّ فقراء المسلمين سواء في سهامهم ليس ليها أقصى وأولى أي: لا تؤثر من هو قريب إليك أو إلى أحد من خاصّتك على من هو بعيد لا سبب له إليك ولا علقة بينه وبينك، ويحتمل أن يكون المعنى لا تصرف غلات ما كان من الصوافي بعض البلاد على مسايكن ذلك البلد خاصّة فإنّ حقّ النائي عن ذلك البلد منها مثل حقّ المقيم في ذلك البلد.

[**وكلّ قد استرعيت حقّه فلا يشغلنّك عنهم بطر فإنّك لا تعذر بتضييع التافه**] أي: الحقير القليل [**لإحكامك الكثير المهمّ، ولا تصعّر خدّك لهم**] أي: لا تتكبّر عليهم أخذاً من قوله تعالى: ﴿ولا تصعّر خدّك للناس﴾.

[**وتفقّد أُمور من لا يصل إليك منهم**] أي: من لا يمكنه الوصول إليك منهم [**ممن**] كان عاجزاً أو [**تقتحمه العيون**] أي: تزدريه وتحتقره.

[**وتحقِرهُ الرجال**] بأن يكون حقيراً في عيون الأعوان والجند.

وتفرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم ثمّ اعمل فيهم بالإعذار إلى اللّه سبحانه يوم تلقاه وذوي الرقّة في السنّ ممن لا حيلة له ولا ينصِبُ للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل والحقّ كلّه ثقيل وقد يخفّفه اللّه على أقوام طلبوا العافية فصبّروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود اللّه تعالى لهم في دار القرار

[**وتفرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم**] فتباشرها بنفسك [**ثمّ اعمل فيهم بالإعذار إلى اللّه سبحانه يوم تلقاه**] أي: اعمل في حقّهم ما أمرك اللّه به بحيث تكون معذوراً عنده إذا سألك عمّا فعلت معهم.

حفإنّ هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم وكلٌّ فاعذر إلى اللّه في تأدية حقّه إليه وتعهّد أهل اليتم] أي: الأيتام [**وذوي الرقّة في السنّ**] أي: الذين بلغوا في الشيخوخة إلى حدّ رقّ جلدهم وضعف حالهم عن النهوض.

[**ممن لا حيلة له ولا ينصِبُ للمسألة نفسه**] حياءً مع حاجته وفقره.

[**وذلك على الولاة ثقيل**] ووطّن نفسه على ذلك بقوله: [**والحقّ كلّه ثقيل**].

ثمّ رغّبه فيه بقوله: [**وقد يخفّفه اللّه على أقوام طلبوا**] من اللّه [**العافية فصبّروا أنفسهم**] واستسهلوا ما صعب من التكاليف الدنيوية بالقياس إليه.

[**ووثقوا بصدق موعود اللّه تعالى لهم في دار القرار**] ومحلّ الابرار، ثمّ شرع في أوامر ونواهي وسياسات بعضها عام وبعضها خاص

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عامّاً فتواضع للّه الذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتّى يكلّمك مكلّمهم غير متعتع فإنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في غير موطن «لن تقدّس أُمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوي غير متعتع» ثمّ احتمل الخرق والعي

يتعلّق بعمّاله وبخاصتّه وبطانته وبنفسه، فقال عليه السلام:

[**واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك**] عن كلّ شاغل.

[**وتجلس لهم مجلساً عامّاً**] في الاسبوع أو دونه أو فوقه مرّة.

[**فتواضع للّه الذي خلقك**] رغبة في التواضع بنسبته إلى اللّه باعتبار أنّه خالقه الذي من شأنه أن يكون له التواضع.

[**وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك**] وهم قوم يعلمون أنفسهم بعلامات الخدمة يُعرفون بها.

[**حتّى يكلّمك مكلّمهم غير متعتع**] أي: غير مزعج ولا مقلق.

[**فإنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في غير موطن «لن تقدّس أُمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوي غير متعتع»**] أي: غير متردّد ولا مضطرب في كلامك، ووجه الاستدلال بالخبر انّه لما دلّ بالمطابقة على وعيد الأُمّة التي لا ينتصف فيها من قوي بعدم طهارتها المستلزم لعذابها الأُخروي دلّ بالالتزام على وجوب أن يكون فيها ذلك. ثمّ لمّا كانت الأُمور المأمور بها مما لا يتمّ ذلك الواجب إلا بها كانت بأسرها واجبة.

[**ثمّ احتمل الخرق**] أي: الجهل منهم [**والعي**] وهو الجهل أيضاً.

ونحِّ عنك الضيق والأنفة يبسط الله عليك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيّاً وامنع في إجمال وإعذار ثمّ أُمور من أُمورك لابدّ لك من مباشرتها أُمور منها إجابة عمّالك بما يغني عنه كتابك ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك مما يحرج به صدور أعوانك وامضى لكل يوم عمله فإنّ لكلّ يوم ما فيه من العمل واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام

[**ونحِّ**] أبعد [**عنك الضيق والأنفة يبسط الله عليك أكناف**] أي: جوانب [**رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيّاً**] سائغاً بلا منّ ولا عنف [**وامنع**] ما منعت [**في إجمال وإعذار**].

ثمّ أخذ عليه السلام فيما يلزمه مباشرته بنفسه من الأُمور فقال: [**ثمّ أُمور من أُمورك لابدّ لك من مباشرتها**] بنفسك وإن عمّت مصلحتها و«أُمور» مبتدأ وخبره «أي» وهناك [**أُمور منها إجابة عمّالك بما يغني عنه كتابك**] أي: إجابتهم بما ترى المصلحة في الجواب فقد تعجز الكتّاب عن كثير من ذلك.

[**ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك مما يحرج**] أي: يضيق [**به صدور أعوانك**] عند ورودها عليه ولا ينبغي له أن يكلها إليهم فإنّ غاية قضائهم لها إذا قضيت أن يكون على غير الوجه المرضي.

[**وامضى لكل يوم عمله**] ولا تدخل عمل يوم في عمل يوم آخر فيتعبك ويكديك [**فإنّ لكلّ يوم ما فيه من العمل**] فيجب أن يفضي فيه ماله.

[**واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله**] تعالى [**أفضل تلك المواقيت**] المفروضة للأفعال [**وأجزل تلك الأقسام**] الموقّتة وأفضلها أبعدها عن

وإن كانت كلّها للّه إذا صلحت فيها النيّة وسلمت منها الرعية وليكن في خاصّة ما يخلص للّه بد دينك إقامة فرائضه التي هي خاصته فأعط اللّه من بدنك في ليلك ونهارك ووفّ ما تقرّبت به إلى اللّه سبحانه من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ وإذا أقمت في صلواتك للناس فلا تكوننّ منفّراً ولا مضيّعاً

الشواغل الدنيوية وأقربها إلى الخلوة باللّه سبحانه.

وقوله: [**وإن كانت كلّها للّه إذا صلحت فيها النيّة وسلمت منها الرعية**] تنبيهٌ على أنّ أصلح الأعمال أخلصها للّه، وإشارةً إلى أنّ النظر في أُمور الرعية مع صحّة النيّة وسلامية الناس من الظلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً.

[**وليكن في خاصّة ما يخلص للّه بد دينك إقامة فرائضه التي هي خاصته**] فيخصّها بمزيد عناية منه ورعاية.

[**فأعط اللّه من بدنك في ليلك ونهارك**] طاعةً وعبادةً، حذف المفعول الثاني للعلم به ولقرينة كون الليل والنهار محلّين للافعال ولقرينة ذكر البدن.

[**ووفّ ما تقرّبت به إلى اللّه سبحانه من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص**] منصوبين على الحال. وكذا قوله: [**بالغاً من بدنك ما بلغ**] و«ما» نصب على المصدر بقوله بالغاً، أي: بالغاً من بدنك ما بلغ من القوّة على الطاعة.

[**وإذا أقمت في صلواتك للناس فلا تكوننّ منفّراً**] للناس بتطويلها.

[**ولا مضيّعاً**] لأركانها وفضيلتها بنهاية الاستعجال فيها، بل كن

فإنّ في الناس من به العلّة وله الحاجة وقد سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حين وجّهني إلى اليمن كيف أُصلّي بهم فقال: صلِّ بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيماً وأمّا بعد هذا فلا يطولنّ احتجابك عن رعيّتك فإنّ احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق

متوسّطاً في صلواتك بين المطوّل المنفّر والمقصر المضيّع، واحتجّ لذلك بدليلين عقلي ونقلي أشار إليهما بقوله:

[**فإنّ في الناس من به العلّة وله الحاجة**] وكلّ من كان فيه من ذكر يجب أن يرفق به ويخفّف عنه.

[**وقد سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حين وجّهني إلى اليمن كيف أُصلّي بهم فقال: صلِّ بهم كصلاة أضعفهم**] ووجه الشبه بصلاة الأضعف تخفيف الصلاة بعد حفظ أركانها وواجباتها.

وقوله: [**وكن بالمؤمنين رحيماً**] يحتمل أن يكون من تتمّة الحديث النبوي إشارةً إلى مراعاة حال الضعيف في الصلاة وأن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

[**وأمّا بعد هذا**] الذي ذكرنا لك من الفرائض والآداب [**فلا يطولنّ احتجابك عن رعيّتك**] وإنّما وجه النهي إلى تطويله؛ لأنّه قد يكون ضرورياً للإنسان لا يستغني عنه فإنّ لنفسه حقّاً ولأهله وعياله وخاصّته.

ثمّ أشار إلى الترغيب في الانتهاء عنه بقوله: [**فإنّ احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق**] على الرعية، إذ كانت مشاهدتهم للوالي تفرّج عنهم ما يكترثهم من الأُمور المهمة لهم.

وقلّة علم بالأُمور والاحتجاب منهم يقطع عنهم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير يقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحقّ بالباطل وإنّما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عند الناس به من الأُمور وليست على الحقّ سمات يعرف بها ضروب الصدق من الكذب وإنّما أنت أحد رجلين: إمّا امرءٌ سخت نفسك بالبذل في الحقّ، ففيم احتجابك من واجب حقٍّ تُعطيه، أو فعل كريم تُسديه، أو مبتلىً بالمنع، فما أسرع كف

ّ

[**وقلّة علم بالأُمور**] أي: يلزمه ذلك، فأطلق اسم اللازم على ملزومه، وأكّد ذلك بقوله: [**والاحتجاب منهم يقطع عنهم**] أي: عن الولاة [**ما احتجبوا دونه**] من أُمور الرعيّة.

ثمّ أشار إلى ما يلزم عدم علمهم من المفاسد بقوله: [**فيصغر عندهم الكبير**] كأن يظلم بعض حاشية الأمير فتصغر الأعوان جريمته عنده فيصغر.

[**ويعظم الصغير**] لو وقع من ضعيف صغير ذنب في حقّ كبير وكذا [**يقبح**] عندهم [**الحسن ويحسن**] عندهم [**القبيح، ويشاب الحقّ بالباطل**] ويلبس به ويختلط، ثمّ نبّه على وجه لزوم قطع العلم بالأُمور لطول الاحتجاب بقوله: [**وإنّما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عند الناس به من الأُمور**] أي: البشر من خاصّته أنّه لا يعرف ذلك إلا بعلاّته.

[**وليست على الحقّ سمات**] وعلامات [**يعرف بها ضروب الصدق من الكذب**] ثمّ رغّب في الانتهاء عن الاحتجاب بقوله: [**وإنّما أنت أحد رجلين: إمّا امرءٌ سخت نفسك بالبذل في الحقّ، ففيم احتجابك من واجب حقٍّ تُعطيه، أو فعل كريم تُسديه، أو مبتلىً بالمنع، فما أسرع كفّ**

الناس عن مسألتك إذا أَيِسُوا من بذلك! مع أنّ أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤنة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب إنصاف في معاملة ثمّ انّ للوالي خاصّة وبطانة فيهم استيثار وتطاول وقلّة إنصاف فاحسم مادّة أُولئك بقطع أسباب تلك الأحوال

الناس عن مسألتك إذا أَيِسُوا من بذلك! مع أنّ أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤنة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب إنصاف في معاملة] تلخيص الاحتجاج انّك إمّا أن تكون مطبوعاً على السخاء بالبذل في الحقّ أو مبتلى بالمنع منه، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فلا يجوز له الاحتجاب، وبيان الكثير أمّا إن كان سخيّاً ببذل الحقّ فإنّه عند الطلب منه إمّا أن يعطي حقّاً يجب عليه أو يفعل فعل الكرماء، وذلك لا يجوز الاحتجاب منه، وأمّا إن كان مبتلىً بالمنع فإنّ الناس يسرعون الكفّ عن مسألته إذا أيسوا من بذله، وحينئذ لا معنى للاحتجاب منهم. وقوله: «مع انّ أكثر ... » إلخ، بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّما كان أكثر حاجات الناس إليه فيما لا مؤنة عليه فيه من الأمور المذكورة فلا معنى لاحتجابه عنهم.

[**ثمّ انّ للوالي خاصّة وبطانة فيهم استيثار وتطاول وقلّة إنصاف فاحسم مادّة أُولئك بقطع أسباب تلك الأحوال**] هذا بيان ما يتعلّق بخاصّة الوالي وهو أن يحسم مؤنتهم عن الرعية، وقوله «بقطع أسباب المؤنة»إرشاد إلى سبب قطعها، وأشار إلى وجه ذلك بذكر ما فيهم من الاستئثار على الرعية بالمنافع والتطاول عليهم بالأذى وقلّة الانصاف، وهو في قّة صغرى تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فيجب قطع مؤنتهم عنهم والأحوال التي أمر بقطع أسبابها هي وجوه المؤنة المذكورة من الاستئثار والتطاول وقلّة

ولا تقطعنّ لأحد من حاشيتك وخاصّتك قطيعة ولا يطمعنّ منكم في اعتقاد عقدة تضرّ بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم فيكون مهنا ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة والزم الحقّ من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصّتك حيث وقع

الإنصاف.

وقوله: [**ولا تقطعنّ لأحد من حاشيتك وخاصّتك قطيعة ولا يطمعنّ منكم في اعتقاد عقدة تضرّ بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم فيكون مهنا ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة**] تفصيل لوجوه قطع الأسباب المذكورة، فإنّ إقطاع أحدهم قطيعة وطمعه في اقتناء صيغة تضرّ بمن يليها من الناس في بناء أو عمل مشترك يحمل مؤنته على الناس كعمارة ونحوها هي أسباب الأحوال المذكورة من وجوه تلك المؤنة وقطع تلك الأحوال بقطع أسبابها، ثمّ نفّره عن أسبابه المؤنة على الناس بما يلزم تلك الأسباب من المفسدة في حقّه وهي كونه منشأ ذلك لهم دونه وعيبه عليه في الدنيا والآخرة وهو في قوّة صغرى تقدير كبراه: وكلّ ما كان مهناه للغير ووزره وعيبه عليك فلا يجوز فعله.

[**والزم الحقّ من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك**] الإلزام [**صابراً**] لما عساه يلحق أقاربك من مرّ الحقّ [**محتسباً**] له إلى مدخل في حساب يتقرّب به إلى الله تعالى ويعدّه خالصاً لوجهه.

[**واقعاً ذلك**] الإلزام [**من قرابتك وخاصّتك حيث وقع**] أي: حيث

وابتغ عاقبته بما يثقل عليك فإنّ مغبّة ذلك محمودة وإن ظنّت الرعية بك حيفاً فاصحر لهم بعذرك واعدل عنك ظنونهم بإصحارك فإنّ في ذلك ولا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك للّه فيه رضىً فإنّ في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك ولكن الحذر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه فإنّ

اتفق وقوعه بمقتضى الشريعة، والواو في قوله «وكن» للحال و«واقعاً» أيضاً حال، والعامل قوله «والزم».

[وابتغ عاقبته] أي: عاقبة ذلك الأمر [بما يثقل عليك] منه من فعلك بخاصّتك كأنّه يستعيض بفعله ما يلزمه في العاقبة من العافية من عيب الدنيا وعذاب الآخرة ورغّب في ذلك بقوله.

[فإنّ مغبّة] أي: عاقبة [ذلك محمودة] وهي تلك العافية وما يلزمها من السعادة الباقية.

ثمّ قال عليه السلام: [وإن ظنّت الرعية بك حيفاً] أي: جوراً وتعدّياً [فاصحر] أي: اظهر [لهم بعذرك واعدل عنك ظنونهم] السيّئة [بإصحارك] أي: اظهارك [فإنّ في ذلك] الإظهار للأعذار لهم إعذاراً تبلغ فيه حاجتك من تقويمهم على الحقّ لمعرفتهم انّ فعلك حقّ لا حيف فيه، وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فينبغي لك فعله.

[ولا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك للّه فيه رضىً] إذ فيه مصالح جمّة أشار إليها بقولهك [فإنّ في الصلح دعة] أي: راحة [لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك] وكلّما كان فيه هذه المصالح فواجب.

قوله: [ولكن] احذر [الحذر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه فإنّ

العدوّ ربّما قارب لِيَتَغَفَّل فخذ بالحزم واتّهم في ذلك حسن الظنّ وإن عقدت بينك وبين عدوّ لك عقداً وإن ألبسته منك ذمة فحطّ عهدك بالوفاء وارعَ ذمّتك بالأمانة واجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت فإنّه ليس من فرائض اللّه شيء الناس أشدّ عليه اجتماعاً مع تفرّق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر

العدوّ ربّما قارب] الصلح **[لِيَتَغَفَّل]** أي: يطلب غفلتك ليظفر بك، وحذف المفعولين للعلم بهما وكلّ من كان كذلك فيجب الحذر منه.

[فخذ بالحزم واتّهم في ذلك حسن الظنّ] أي: حسن ظنّك بالعدو **[وإن عقدت بينك وبين عدوّ لك عقداً وإن ألبسته منك ذمة فحطّ عهدك بالوفاء وارعَ ذمّتك بالأمانة واجعل نفسك جنّة]** اي: وقاية **[دون ما أعطيت]** منهما أي: يحفظ ذلك بنفسه ولو أدّى إلى ضررها، واستعار لفظ اللبس لإدخاله في أمان الذمّة ملاحظة لشبهها بالقميص ونحوه، وكذا لفظ الجنّة لنفسه ملاحظة لشبهها في الحفظ بالترس ونحوه، ورغّب في ذلك بوجهين أشار إليهما بقوله:

[فإنّه ليس من فرائض اللّه شيء الناس أشدّ عليه اجتماعاً مع تفرّق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم] واستثقلوا العدد **[دون المسلمين لما استوبلوا]** أي: استثقلوا واستوخموا **[من عواقب الغدر]** لما فيه من سوء العاقبة وكلّما كان بهذه الصفة فيجب لزومه والمحافظة عليه ثمّ أكّد ذلك بالنهي عن الغدر في العهد ونقض الذمّة.

فلا تغدرنّ بذمّتك ولا تخيسنّ بعهدك ولا تختلنّ عدوّك فإنّه لا يجتري على اللّه إلا جاهل يشقى وقد جعل اللّه عهده وذمّته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحريماً يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ولا تعقد عقداً تُجوّز فيه العلل لا تعولّن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة

فقال: [**فلا تغدرنّ بذمّتك ولا تخيسنّ بعهدك**] يقال: خاس بالعهد أي: نقضه.

[**ولا تختلنّ عدوّك**] والختل: الخداع [**فإنّه لا يجتري على اللّه إلا جاهل يشقى وقد جعل اللّه عهده وذمّته أمناً**] أي: مأمناً [**أفضاه بين العباد برحمته**] أفضاه أي: بسطه واسفاض الماء: سال.

[**وحريماً يسكنون إلى منعته**] استعار لفظ الحريم للعهد ورشح بذكر السكون إلى منعته.

[**ويستفيضون إلى جواره**] نبّه بذلك على وجه الاستعارة وهو الاطمئنان إليه والأمن من الفتنة بسببه، فأشبه الحريم المانع.

وقوله: [**فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه**] الإدغال: الإفساد، والدغل: الفساد، والمدالسة مفاعلة من التدليس في البيع وغيره كالمخادعة.

[**ولا تعقد عقداً تُجوّز فيه العلل**] أي: الأحداث المفسدة له، وهو كناية عن أمره بإحكام ما يعقد من الأمور.

[**لا تعولّن**] أي: لا تعتمدنّ [**على لحن القول**] في الايمان في العهود [**بعد التأكيد والتوثقة**] أي: بعد أن يؤكّدها ويتوثق من غيره فيها أو يتوثّق غيره منه فيها، ولحن القول: كالتورية والتعريض ومثال لحن القول ما ادّعاه

ولا يدعونّك ضيق أمر لزمك فيه عبد اللّه إلى طلب انفساخه بغير الحقّ فإنّ صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وإن تحيط بك فيه من اللّه طلبة لا تستقبل منها وإيّاك والدماء وسفكها بغير حلّها فإنّه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدّة من سفك الدماء بغير حلّها

طلحة والبزبير من الوليجة والتورية في بيعتهما أي: لا تعتمد على ذلك من نفسك ولا تلتفت إليه من غيرك لو ادّعاه.

[**ولا يدعونّك ضيق أمر لزمك فيه عبد اللّه إلى طلب انفساخه بغير الحقّ**] نهاه أن يدعوه ضيق أمر لزمه فيه عهد اللّه إلى أن يطلب إبطاله بغير حقّ ورغّب في الصبر عليه.

بقوله: [**فإنّ صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته**] أي: ما يتبعه من العقوبة.

[**وإن تحيط بك فيه من اللّه طلبة**] أي: ما تطالب به يوم القيامة.

[**لا تستقبل منها**] دنياك ولا آخرتك أي: لا يكون لك معها ديناً تستقبلها وتنتظر خبرها لعدم الدنيا هناك ولا آخرة تستقبلها إذ لا يستقبل في الآخرة إلا الأمور الخيرية ومن أحاطت به طلبة من اللّه فلا خير له في الآخرة يستقبله، وروي يستقبل بالياء أي: لا يكون لك من تلك الطلبة والتبعة إقالة في الدنيا ولا في الآخرة.

[**وإيّاك والدماء وسفكها بغير حلّها**] كنّى به عن القتل بغير حقّ كالقصاص والقود والحدّ.

والله سبحانه مبتدئ في الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإنّ ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأنّ فيه قود البدن وإن ابتُليت بخطأ أو أفرط عليك سوطك أو يدك بعقوبة فإنّ في الزكاة فما فوقها مقبلة فلا يطمحنّ بك نخوة سلطانك عن أن يؤدّى إلى أولياء المقتول حقّهم

[فإنّه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدّة من سفك الدماء بغير حلّها] أي: إنّ سفك الدماء بغير حقّ أدعى الأشياء لحلول نقمة الله وأعظمها في لحوق التبعة منه وأولاها بزوال النعمة وانقطاع مدّة الدولة والعمر، ومعلوم أنّها أقوى المعدّات للأمور الثلاثة لما يستلزمه من تطابق همم الخلق ودواعيهم على زوال القاتل.

[والله سبحانه مبتدئ في الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة] وفيه إشعار بأنّ القتل أعظم من سائر الكبائر.

[فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإنّ ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله] فإنّ سفك الدم الحرام لما استلزم الأمور الثلاثة المذكورة كان ذلك مضعفاً للسلطان ومزيلاً له وكلّما كان كذلك وجب اجتنابه.

[ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأنّ فيه قود البدن] وكلّما كان كذلك فيجب اجتنابه **[وإن ابتُليت بخطأ]** أي: بقتل خطأ **[أو أفرط عليك سوطك أو يدك بعقوبة]** وهذا هو شبه العمد **[فإنّ في الزكاة فما فوقها مقبلة فلا يطمحنّ بك نخوة سلطانك عن أن يؤدّى إلى أولياء المقتول حقّهم]** نهاه عليه السلام أن يرتكب رذيلة الكبر عند أن يبتلي بقتله خطأ أو

وإيّاك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحبّ الاطراء فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق به ما يكون من إحسان المحسن وإيّاك والمنّ على رعيّتك بإحسانك والتزيّد فيما كان من فعلك وإن تعدهم فتتبع من عودك لخلفك

إفراط سوط أو يده عليه في عقوبة فيأخذه عزة الملك والكبر على أولياء المقتول فلا يؤدّي إليهم حقّهم، وفيه تنبيهٌ على أنّ الضرب باليد المسمّى وكزاً قد يكون فيه القتل وهو مظنّة له.

[**وإيّاك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحبّ الاطراء فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه**] حذّره الإعجاب بنفسه والثقة بما يعجبه منها وحبّ الاطراء، والأخيران سببان لدوام الإعجاب ومادّة له ونفر عن الثلاثة بقوله فإنّ ذلك... إلخ، وفي نفسه متعلّق بأوثق.

وقوله: [**ليمحق به ما يكون من إحسان المحسن**] يحتمل وجهين أحدهما أنّه لمّا كان الإعجاب من المهلكات لم ينفع معه إحسان المحسن فإذا تمكّن الشيطان من الفرصة وزيّن الإعجاب للإنسان وارتكبه محقّ بذلك ما يكون له من الإحسان الثاني أنّ المعجب بنفسه لا يرى لأحد عنده إحساناً فيكون إعجابه ماحقاً لإحسان من أحسن إليه ولمّا كان مبدء الإعجاب هو الشيطان كان الماحق لإحسان المحسن أيضاً هو الشيطان فلذلك نسبه إليه.

[**وإيّاك والمنّ على رعيّتك بإحسانك والتزيّد فيما كان من فعلك**] كأن يؤدّي ثلاثة أجزاء من الجميل فيدّعي في المجالس والمحافل أنّه أسدى عشرة.

[**وإن تعدهم فتتبع من عودك لخلفك**] نهاه عن هذه الرذائل الثلاثة،

فإنّ المنّ يبطل الإحسان والتزيّد يذهب بنور الحقّ والخلف يوجب المقت عند اللّه والناس قال اللّه كَبُر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقط فيها عند إمكانها

ثمّ علّلها.

بقوله: [**فإنّ المنّ يبطل الإحسان**] إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تمنّن تستكثر﴾.

[**والتزيّد**] محض كذب وكذب محض [**يذهب بنور الحقّ**] وأراد بالحقّ هنا الإحسان إليهم، والصدق في ذكره في موضع يحتاج إليه فإنّ على ذلك نوراً عقليّاً ترتاح له النفوس وتلتذّ به، وحيث كان التزيّد نوعاً من الكذب كان ممّا يذهب نور ذلك الحقّ ويطغيه فلا يكون له وقع في نفوس الخلق.

[**والخلف**] للوعد [**يوجب المقت**] أي: البغض [**عند اللّه والناس قال اللّه**] سبحانه: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾.

[**كَبُر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون**] وروي: «المؤمن إذا وعد وفى» وروي: «عِدَةُ المؤمن كأخذ باليد».

[**وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقط فيها عند إمكانها**] بأن يتساقط في الشيء الممكن عند حضوره وهو الحرص من الجشع، وقد حذّره عليه السلام من إيقاع الأمور على أحد طرفي التفريط والإفراط فطرف الإفراط في الطلب العجلة بها قبل أوانها أو للحاجة فيها عند تنكّرها وتغيّر وجوه

أو اللّجاجة فيها إذا تنكّرت أو الوهن عنها إذا استوضحت فضع كلّ أمر موضعه وأوقع كلّ عمل موقعه وإيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة والتغابي فيما يعني به مما قد وضح للعيون

مآخذها وعدم تسهيلها وطرف التفريط التساقط فيها والقعود عنها إذا أمكنت وهو يقابل العجلة فيها.

[**أو اللّجاجة فيها إذا تنكّرت**] نهاه عن اللّجاجة في الحاجة إذا تعذّرت فقد قيل: من لاحّ اللّه فقد جعله خصماً ومن كان اللّه خصمه فهو مخصوم.

وقوله: [**أو الوهن**] أي: الضعف [**عنها إذا استوضحت**] يقابل اللجاجة فيها إذا تنكّرت ويستلزم النهي عن هذين الطرفين الأمر بإيقاعها على نقطة العدل وهي الحدّ الأوسط من الطرفين ولذا قال: [**فضع كلّ أمر موضعه وأوقع كلّ عمل موقعه وإيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة**] كالفيء الذي يكون للمسلمين وهو الخلق النبوي، روي أنّه ﷺ غنم غنائم حنين وكانت ملأ الأرض نعماً فلمّا ركب راحلته وسار اتّبعه الناس يطلبون الغنائم وقسمها وهو ساكت لا يكلّمهم وقد أكثروا على إلحاحاً وسؤالاً فمرّ بشجرة فخطفت ردائه فالتفت وقال: ردّوا عليّ ردائي فلو ملكت بعدد رمل تهامة مغنماً لقسمته بينكم على آخره لا تجدنّ نبيّ بخيلاً ولا جباناً، ونزل فقسم ذلك المال عليهم كلّه لم يأخذ لنفسه وبرة.

وقوله: [**والتغابي فيما يعني به**] أي: التغافل عمّا يجب العلم به والعناية به من حقوق الناس المأخوذة ظلماً.

[**مما قد وضح للعيون**] إهمالك له وصورة ذلك انّ الأمير يوحى إليه

فإنّه مأخوذ منك لغيرك وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم املك حمية أنفك وسورة حدّك وسطوة يدك وغرب لسانك واحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة وتأخّر السطوة حتّى يسكن غضبك فتملك الاختيار

أنّ فلاناً من خاصّته يفعل كذا وكذا من الأمور المنكرة يرتكبها سرّاً فيتغابى عنه ويتغافل فنهاه عن ذلك معلّلاً بقوله:

[**فإنّه مأخوذ منك لغيرك**] أي: معاقب كما يقال: اللّهمّ خذ من فلان بحقّي، أي: انتقم لي منه.

[**وعمّا قليل**] «ما» زائدة [**تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم**] أراد بالقليل مدّة الحياة الدنيا وبانكشاف أغطية الأمور زوال العلائق والشهوات والهيئات البدنية الحاجبة لحقائق الأمور من أن تدركها بصر بصيرته فيشاهد ما أعدّ له من خير أو شرّ كما قال تعالى: ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً﴾ وقال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾.

[**املك حمية أنفك وسورة حدّك وسطوة يدك وغرب لسانك**] أمره بأن يملك حمية أنفته مما يقع من الأمور المكروهة، وسورة حدّة لسانه والمراد النهي عن لواز الغضب حتّى يسكن غضبه وسورة الرجل: سطوته وحدّة بأسه، وغرب اللّسان: حدّته.

ثمّ قال: [**واحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة**] وهي سرعة السطوة والعقوبة.

[**وتأخّر السطوة حتّى يسكن غضبك فتملك الاختيار**] بذلك في

ولن تحكم ذلك من نفسك حتّى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربّك والواجب عليك أن تذكر ما مضى لمن تقدّمك من حكومة عادلة أو سنّة فاضلة أو أثر عن نبيّنا صلّى اللّه عليه وآله أو فريضة في كتاب اللّه فتقتدي بما شاهدت ممّا عملنا به فيها وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجّة لنفسي عليك والتذكير بأوامر اللّه لكيلا يكون لك علّة عند تسرّع نفسك إلى هواها وأنا أسألُ اللّه تعالى بسعة رحمته

الفعل والترك الذي عساه أن يكون مصلحة.

ثمّ أشار إلى وجه احكام تلك الأسباب بقوله: [**ولن تحكم ذلك من نفسك حتّى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربّك**] وذلك لأنّ كثرة الهمّ عن ذكر المعاد والفكر في أُمور الآخرة ماح للرغبة في الأُمور الدنيوية التي هي المشاجرات وثوران الغضب.

[**والواجب عليك أن تذكر ما مضى لمن تقدّمك**] من الولاة [**من حكومة عادلة أو سنّة فاضلة أو أثر**] من الآثار المنقولة [**عن نبيّنا صلّى اللّه عليه وآله أو فريضة**] من فرائض اللّه [**في كتاب اللّه فتقتدي بما شاهدت ممّا عملنا به فيها وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجّة لنفسي عليك**] وهي الموعظة [**والتذكير بأوامر اللّه لكيلا يكون لك علّة**] تحتجّ بها [**عند تسرّع نفسك إلى هواها**] كما قال تعالى: ﴿لئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل﴾.

ومن هذا العهد وهو آخره:

[**وأنا أسألُ اللّه تعالى**] مقسماً عليه في سؤالي [**بسعة رحمته**] التي

وعظيم قدرته على إعطاء كلّ رغبة أن يوفّقي وإيّاك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه من حسن الثناء وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة وإنّا إليه راغبون والسلام على رسول اللّه وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

وسعت كلّ شيء [**وعظيم قدرته**] التي لا يعجزها شيء [**عرغبة أن يوفّقي وإيّاك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه**] أي: من الإقامة على المبالغة إليه في أداء أمره.

ثمّ فسّر جهاده في رضى الخلق ولم يفسّره في رضى الخالق لأنّه معلوم فقال: [**من حسن الثناء**] في العباد [**وجميل الأثر في البلاد**] وهو ما يؤثر من الأفعال الحميدة الجميلة في البلاد، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿وجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ فقد فسّر بالذكر الجميل في الناس.

[**وتمام النعمة**] ولتمام نعمته علينا [**وتضعيف الكرامة**] لدينا [**وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة**].

وقوله: [**وإنّا إليه راغبون**] تنبيهٌ على صدق نيّته في سؤاله.

[**والسلام على رسول اللّه وعلى آله الطيبين الطاهرين**].

ومن كتاب كتبه عليه السلام

إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف بن عبد تميم بن سالم بن عاضرة بن سلول بن حشية بن سلول بن كعب بن عمر

الخزاعي أبو جعفر الاسكافي في كتاب المقامات أمّا بعد فقد علمتما وإن كتمتما إنّي لم أرد الناس حتّى أرادوني ولم أُبايعهم حتّى بايعوني وإنّكما ممن أرادني وبايعني وانّ العامّة لم تبايعني

[الخزاعي] أسلم هو وأبوهريرة عام خيبر.

قال ابن أبي الحديد: كان من فضلاء الصحابة وفقهاؤهم يقول أهل البصرة: كان يرى الحفظة وكانت تكلّمه حتّى اكتوى، وذكر هذا الكتاب **[أبو جعفر]** محمد بن عبدالله **[الاسكافي]** قال ابن أبي الحديد: كان فاضلاً عالماً وصنّف سبعين كتاباً في علم الكلام، وهو الذي نقض كتاب العثمانية على أبي عثمان الجاحظ وكان يتموّل بالتفضيل على قاعدة معتزلة بغداد ويبالغ في ذلك وكان علويّ الرأي منصفاً محقّقاً قليل العصبية، انتهى.

وقوله: **[في كتاب المقامات]** هو الذي صنّفه في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام:

[أمّا بعد فقد علمتما وإن كتمتما] ما تعلمانه **[إنّي لم أرد الناس حتّى أرادوني ولم أُبايعهم حتّى بايعوني وإنّكما ممن أرادني وبايعني]** يعني انّي لم أرد اللواية على الناس حتّى هم أرادوا ذلك منّي ولم أمدد يدي إليهم مدّ الطلب والحرص ولم أمدّها إلا بعد أن خاطبوني بالإمرة والخلافة، وقالوا بألسنتهم: قد بايعناك، فحينئذ مددت يدي إليهم، وتقرير هذه الحجّة انّكما قد علمتما هذه الحالة منّي وكلّ من علمها من حال ذلك فلا يجوز لكما أن تنكثا بيعته وتخرجا عليه.

ثمّ أكد ذلك بقوله: **[وانّ العامّة]** أي: عامّة المسلمين **[لم تبايعني**

لسلطان غاصب ولا لعرض حاضر فإن كنتما بايعتما في طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب وإن كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية ولعمري ما كنتما بالبيعة والكتمان بأحقّ المهاجرين بالتقيّة والكتمان وإنّ دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما بعد إقراركما به

لسلطان غاصب] أي: غصبهم وقهرهم على ذلك **[ولا لعرض حاضر]** أي: مال موجود فرّقته عليهم، ثمّ احتجّ عليهما بحجّة ثانية فقال:

[فإن كنتما بايعتما في طائعين] عن رضى منكما فقد عصيتما الله بالنكث **[فارجعا وتوبا إلى الله من قريب]** قبل استحكام المعصية من أنفسكما.

[وإن كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية] وهذا عين النفاق الذي تقوم لي به الحجّة عليكما.

[ولعمري] انّكما **[ما كنتما بالبيعة]** لي **[والكتمان]** للمعصية **[بأحقّ المهاجرين بالتقيّة والكتمان]** وذلك لأنّكما كنتما أقوى الجماعة وأعظمهم شأناً فكان غيرما من المهاجرين أولى منكما بهذه التقيّة وبالنكث بعد ذلك مع أنّه لم ينكث أحد منهم كما نكثتما.

[وإنّ دفعكما هذا الأمر] أي: البيعة وإظهار الطاعة **[قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما]** لغدركما **[من خروجكما بعد إقراركما به]** وهذ الثلاث بمنزلة صغريات وتقدير الكبرى في الأولى: وكلّما جعلتما لي عليكما

وقد زعمتما بأنّي قتلت عثمان فبيني وبينكما من تخلّفه عنّي وعنكما من أهل المدينة ثمّ نلزم كلّ أمرء بقدر ما احتمل فارجعا أيّها الشيخان عن رأيكما فإنّ الآن أعظم أمركما العار من قبل أن يجتمع العار والنار

به السبيل فيحرم عليكما فعله وليس لكما أن تدّعياه، وفي الثانية: وكلّ من يكون أحقّ من المهاجرين بدعواه فليس له أن يدّعيه إذا لم يدعوه، وفي الثالثة: وكلّما كان أوسع لعذرهما فليس لهما العدول عنه إلى ما هو أحسن، ثمّ أشار إلى دفع شبهتهما المعروفة، فقال:

[**وقد زعمتما بأنّي قتلت عثمان فبيني وبينكما من تخلّفه عنّي وعنكما من أهل المدينة**] أي: الجماعة الذين تخلّفوا عن نصرتي ونصرتكما كمحمد بن مسلمة وأُسامة بن زيد وعبدالله بن عمر وغيرهم ممّن هو غير متّهم عليّ ولا عليكما فإذا حكموا عليٍّ أو عليكما فحُكْمُهما مبقول.

[**ثمّ نلزم كلّ أمرء**] منّا ومنكم من اللائمة والعقوبة [**بقدر ما احتمل**] من الإثم والبغي بعد أن أقام الحجّة عليهما قال:

[**فارجعا أيّها الشيخان عن رأيكما**] الفاسد وفعلكما الكاسد في نكث البيعة والخروج على إمامكا الذي بايعتماه طوعاً ورغبةً.

[**فإنّ الآن أعظم أمركما العار**] إذا رجعتما وبأن خطئكما [**من قبل أن يجتمع العار**] في الآخرة على رؤوس الأشهاد بمحضر جميع العباد [**والنار**] التي وقودها الناس والحجارة، ولا ريب أنّ العار وحده أسهل من العار والنار، والسلام على من اتّبع الهدى وخشي عواقب الردى.

أمّا بعد، فإنّ اللّه سبحانه جعل الدنيا لما بعدها وابتلى فيها أهلها ليعلم أيّهم أحسن عملاً ولسنا للدنيا خُلِقنا ولا بالسعي فيها أُمرنا وإنّما وضعنا فيها لنُبتلى بها وقد ابتلاني اللّه بك وابتلاك بي

ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

[**أمّا بعد، فإنّ اللّه سبحانه جعل الدنيا لما بعدها**] وهي الآخرة، فجعلها جسراً لها وممرّاً وبلاغاً [**وابتلى فيها أهلها**] بالموت والحياة والغنى والفقر والصحّة والسقم ونحوها [**ليعلم أيّهم أحسن عملاً**] قال تعالى: ﴿هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾.

[**ولسنا للدنيا خُلِقنا**] بل للآخرة التي هي خيرٌ وأبقى [**ولا بالسعي فيها أُمرنا**] لأنّ اللّه قد تكفّل لنا بأرزاقنا، فرزقها مضمون وأصل الإنسان منه لأدركه كما أنّه لو فرّ من الموت لأدركه.

[**وإنّما وضعنا فيها لنُبتلى بها**] كما قال تعالى: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً﴾.

[**وقد ابتلاني اللّه بك**] حيث عصيتني وحاربتني حتّى لو قصرت في مقاومتك كنت ملوماً مؤاخذاً فكان معاوية حجّة للّه عليه.

[**وابتلاك بي**] حيث دعوتك إلى الحقّ وحذّرتك عن عواقب العصيان والطغيان فلم تجب داعي اللّه فلحقك الذمّ والعقاب، فكنتُ حجّة اللّه عليك.

فجُعل أحدنا حجّة على الآخر فعدوتَ على طلب الدنيا بتأول القرآن وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني وعصّبتنيه أنت وأهل الشام وألّب عالمكم جاهلكم وقائمكم قاعدكم فاتّق اللّه في نفسك ونازع الشيطان قيادك

وهذا معنى قوله: [**فجُعل أحدنا حجّة على الآخر**].

ثمّ أشار عليه السلام إلى وجوه ابتلائه عليه السلام بمعاوية فقال:

[**فعدوتَ على طلب الدنيا بتأول القرآن**] برأيك الفاسد وزعمك الكاسد، كقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى﴾ ونحوها من الآيات الدالّة على وجوب القصاص متأوّلاً لها بإدخال نفسه فيها وطلب القصاص بدم عثمان مع انّك لم تكن من أولياء عثمان حتّى تطلب بدمه.

[**وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني**] من قتل عثمان، فإنّه من المعلوم لدى القاصي والداني أنّه عليه السلام لم يساعد على قتله بيد ولا بلسان بل دافع عنه بحسب الإمكان.

[**وعصّبتنيه أنت وأهل الشام**] أي: ألزمتنيه كما تلزم العصابة الرأس [**وألّب**] أي: حرّض وحثّ [**عالمكم**] بحالي [**جاهلكم**] به [**وقائمكم**] في حربي [**قاعدكم**] عنه، ثمّ لمّا نبّهه عليه السلام على غاية الدنيا وجعل للّه كلاً منهما حجّة على الآخر ليعلم أيُّهم أحسن عملاً رجع إلى موعظته وتحذيره فقال:

[**فاتّق اللّه في نفسك**] ولا تهلكها بالعصيان أو التمادي في الطغيان ومحاربة اللّه وطاعة الشيطان.

[**ونازع الشيطان قيادك**] وهو حبل تقاد به الدابّة، استعار القياد

واصـرف إلى الآخـرة وجـهك فـهي طريقنا وطـريقك واحـذ أن يصيبك اللّه منه بعاجل قارعة تمسّ الأصل وتقطع الدابر وإنّي أولى لك باللّه إليه لئن جـمعتني وإيّاك جوامع الأقدار لا أزال بِـبَاحَـتِكَ حتّى يحكم اللّه بيننا وهو خير الحاكمين.

وصّى به شريح بن هاني لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام

للميول الغضبيّة لكونها زمام الإنسان إلى المعصية إذا سلّمها بيد الشيطان.

[واصرف إلى الآخرة وجهك] عاملاً لها ساعياً لها سعيها [فهي طريقنا وطريقك]، وكلّما كان طريقاً للإنسان فواجب أن يصرف إليها وجهه.

[واحذ أن يصيبك اللّه منه بعاجل قارعة تمسّ الأصل وتقطع الدابر] حذّره من اللّه أن يصيبه بداهية تصيب أصله وتقطع نسله وأراد بها ما نواه له من نهوضه إليه وحربه إيّاه.

[وإنّي أولى لك باللّه إليه] أي: أُقسم لك باللّه قسماً [لئن جمعتني وإيّاك جوامع الأقدار لا أزال بِبَاحَتِكَ] باحة الدار: وسطها، وكذا ساحتها وفي رواية «بساحتك».

[حتّى يحكم اللّه بيننا وهو خير الحاكمين].

ومن كلام له عليه السلام

[وصّى به شريح بن هاني لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام] وفي الاستيعاب: إنّه من جملة أصحاب علي، شهد معه المشاهد كلّها وعاش

اتّق اللّه في كلّ صباح ومساء وخف على نفسك الدنيا الغرور ولا تأمنها على حال واعلم انّك إن لم تردع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهة سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر فكن لنفسك مانعاً رادعاً ولنزواتك عند الحفيظة واقماً قامعاً

حتّى قُتل بجستان في زمن الحجّاج:

[**اتّق اللّه في كلّ صباح ومساء**] أي: دائماً، ولمّا كانت القوى تستلزم الأعمال الجميلة أردف ذلك بتفاصيلها فقال:

[**وخف على نفسك الدنيا الغرور**] نسب الغرور إليها لأنّها سبب ماديّ له.

[**ولا تأمنها على حال**] لاستلزام ذلك الغفلة عن الآخرة ولأنّ من أمنها غدرت به.

[**واعلم انّك إن لم تردع نفسك**] الأمّارة بالسوء [**عن كثير مما تحب**] من الانهماك في شهواتها والانغمار في لذّاتها.

[**مخافة مكروهة**] في العاقبة [**سمت بك الأهواء**] أي: أهواء نفسك وميولها [**إلى كثير من الضرر**] حتّى توردك موارد الهلكة، أي: إن لم تردعها عن كثير من الشهوات أفضت بك إلى كثرة المضرّات.

[**فكن لنفسك مانعاً**] عن انهماكها في شهواتها.

[**رادعاً**] عن إقبالها على لذّاتها.

[**ولنزواتك عند الحفيظة واقماً قامعاً**] النزوة: الوثبة، والحفيظة: الغضب، والواقم: الذي يرد الشيء أقبح الرد، يقال: وقمه أي: ردّه بقهر وعنف، والوقم: القهر والإذلال وكذلك القمع.

أمّا بعد فإنّي خرجت عن حيّ هذا إمّا ظالماً أو مظلوماً وإمّا باغياً أو مبغياً عليه، وأنا أُذكّر اللّه من بلغه كتابي هذا لمّا نظر إليّ فإن كنتُ محسناً أعانني وإن كنتُ مسيئاً استعتبني وكان بدءُ أمرنا أنّا التقينا

ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة:

[**أمّا بعد فإنّي خرجت عن حيّ هذا**] أي: منزلي [**إمّا ظالماً أو مظلوماً**] من باب تجاهل العارف ومداراة الخصم وإنصافه كما في قوله تعالى: ﴿وإنّا وإيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾ لأنّ القضية لم تكن بعد ظهرت لأهل الكوفة وغيرهم وبدء بالظالم هضماً لنفسه وكذا قوله:

[**وإمّا باغياً أو مبغياً عليه، وأنا أُذكّر اللّه من بلغه كتابي هذا لمّا**] أي: إلا ما [**نظر إليّ فإن كنتُ محسناً أعانني وإن كنتُ مسيئاً استعتبني**] أي: يطلب العتبى أي: الرجوع، و«أُذكّر» يتعدّى إلى مفعول أول وهو المذكور، وثاني وهو المذكّر به وهو اللّه تعالى، وقد قدّمه لكونه هو المقصود من التذكير، وغرضه عليه السلام أن يستفزّهم، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرهم إليه على كلّ حال وهو مقصوده عليه السلام.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل الأمصار يقتصّ فيه ما جرى بينه وبين أهل صفّين:

[**وكان بدءُ أمرنا**] أي: أوّله، وروي بديئ فعيل بمعنى مبتدأ [**أنّا التقينا**

والقوم من أهل الشام والظاهر أنّ ربّنا واحد ونبيّنا واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة لا نستزيدهم في الإيمان باللّه والتصديق لرسوله صلّى اللّه عليه وآله ولا يستزيدوننا والأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه نبرءُ فقلت تعالوا نداوي ما لا يدرك اليوم بإطفاء النائرة وتسكين حتّى يشتدّ الأمر

والقوم من أهل الشام] وقوله «والقوم» عطفٌ على الضمير في التقينا.

[والظاهر أنّ ربّنا واحد ونبيّنا واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة] وقوله «والظاهر... الخ» يومي إلى أنّهم في الحقيقة ليسوا كذلك كما صرّح به عليه السلام في غير مقام، وكذا عمّار وقد مرّ أنه عليه السلام كان يقول: «واللّه ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلمّا وجدوا عليه أعواناً أظهروه».

وقال ابن أبي الحديد: هذا كلام من لا يحكم لأهل ممن حارب مع معاوية حكماً قاطعاً بالإسلام بل قال ظاهرهم الإسلام ولا خلف بيننا وبينهم فيه بل الخلف في دم عثمان.

وقوله: **[لا نستزيدهم]** أي: لا نطلب منهم زيادة **[في الإيمان باللّه والتصديق لرسوله صلّى اللّه عليه وآله ولا يستزيدوننا]** في ذلك **[والأمر واحد]** لا اختلاف فيه ظاهر **[إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه نبرءُ]** كما مرّ في كلامه مراراً.

[فقلت تعالوا نداوي ما لا يدرك اليوم بإطفاء النائرة] أي: العداوة، والباء متعلّق بقوله نداوي، وما لا يدرك أي: ما لا يمكن تلافيه بعد وقوع الحرب ويستدرك من القتل وهلاك المسلمين.

[وتسكين] بوضع الحرب **[حتّى يشتدّ الأمر]** وتتمهّد قاعدة الخلافة

ونجتمع فنقوى على وضع الحقّ مواضعه فقالوا بل نداويه بالمكابرة فأبوا حتّى جنحت الحرب وركدت ووقدت نيرانها وحمست فلمّا ضرستنا وإيّاهم ووضعت مخالبها فينا وفيهم أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه فأجبناهم إلى ما دعوا وسارعناهم إلى ما طلبوا

وتزول هذه الشوائب التي تكدّر علينا الأمر [**ونجتمع**] بحيث يكون للناس جماعة ترجع إليها [**فنقوى على وضع الحقّ مواضعه**] ونتمكّن من قَتَلَة عثمان بأعيانهم ونحكم عليهم بما يقتضيه الحقّ، فأبوا وامتنعوا عن ذلك علواً واستكباراً.

[**فقالوا**] بلسان حالهم [**بل نداويه بالمكابرة**] والمغالبة والحرب. [**فأبوا حتّى جنحت الحرب**] أي: أقبلت [**وركدت**] أي: دامت وثبتت [**ووقدت نيرانها**] التي التهبت [**وحمست**] أي: استقرّت وثبتت، وروي استحمشت، ومن رواها بالسين فالمراد اشتدّت وصلبت.

[**فلمّا ضرستنا وإيّاهم**] أي: عضّتنا بأضراسها، يقال: قد ضرسهم الدهر، أي: اشتدّ عليهم، أي: لمّا اشتدّت الحرب علينا وعليهم وأكلت منّا ومنهم وهو قوله: [**ووضعت مخالبها فينا وفيهم أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه**] وسألناهم إيّاه ابتداءً، فضرعوا إلينا في رفع الحرب ورفعوا المصاحف يسألون النزول على حكمها وإغماد السيف.

[**فأجبناهم إلى ما دعوا وسارعناهم إلى ما طلبوا**] بالسين المهملة، وعدّيت لما فيها من معنى المسابقة والمسارعة، وتجوز باسم الجنوح إطلاقاً لاسم المضاف على المضاف إليه، واستعار النيران للحركات في الحرب وجه الشبه استلزام الأذى والهلاك، ورشح بذكر الوقد وكذا لفظ الحمس

حتّى استبانت عليهم الحجّة وانقطعت منهم المعذرة فمن تمّ على ذلك فهو الذي أنقذه اللّه من الهلكة، ومن لجّ وتمادى فهو الراكس الذي ران على قلبه وصارت دائرة السوء على رأسه أمّا بعد، فإنّ الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل

والتضريس ووضع المخالب.

وقوله: [**حتّى استبانت عليهم الحجّة وانقطعت منهم المعذرة**] إشارة إلى انقطاع عذرهم في المطالبة إذكان سكوتهم عن دم صاحبي لاحقّ لهم فيه أسهل من سفك دماء سبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان.

وقوله: [**فمن تمّ على ذلك**] أي: على الرضا بالصلح وتحكيم كتاب اللّه وهم أكثر أهل الشام وأكثر أصحابه [**فهو الذي أنقذه اللّه من الهلكة، ومن لجّ وتمادى**] في غيّه وضلاله كالخوارج الّذين لجّوا في الحرب، والتمادي في الشيء: الإقامة عليه وطلب الغاية فيه.

[**فهو الراكس الذي ران على قلبه وصارت دائرة السوء على رأسه**] والركس: ردّ الشيء مقلوباً، و﴿اللّه أركسهم﴾ أي: ردّهم إلى عقوبة كفرهم، والرّين: التغطية، والدائرة: الهزيمة، يقال عليهم الدائرة ويؤكّد سعتها بالإضافة إلى السوء.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان:

[**أمّا بعد، فإنّ الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل**]

فليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء فإنّه ليس في الجور عوض من العدل واجتنب ما تُنْكِر أمثاله وابتذل نفسك فيما فرض اللّه عليك راجياً ثوابه ومتخوّفاً عقابه واعلم إنّ الدنيا دار بليّة لم يفرغ صاحبها قطّ ساعة إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة وأنّه لن يغنيك عن الحقّ شيء أبداً

لأنّ اتّباع الأهوية المختلفة يوجب الانحراف عن حاق الوسط في المطالب.

[**فليكن أمر الناس عندك في الحقّ سواء**] بلا تفاوت بينهم [**فإنّه ليس في الجور عوض من العدل**] وكلّما لم يكن في الجور عوض عنه فيجب لزومه واتّباعه.

[**واجتنب ما تُنْكِر أمثاله**] من غيرك، وهذا هو الإنصاف الذي يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه ويكره لغيره ما يكره لنفسه.

[**وابتذل نفسك فيما فرض اللّه عليك راجياً ثوابه ومتخوّفاً عقابه**] أي: حالتي رجائك وخوفك، إشارة إلى كونهما داعيين إلى العمل، كما في قوله تعالى: ﴿يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً﴾.

[**واعلم إنّ الدنيا دار بليّة**] أي: دار ابتلاء بالعمل كما قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً﴾ فالعمل الصالح فيها سبب الاستعداد للسعادة الباقية ولذا قال: [**لم يفرغ صاحبها قطّ ساعة**] عن العمل الصالح [**إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة**] على فوات ذلك العمل في ذلك اليوم الذي ﴿لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم﴾.

[**وأنّه لن يغنيك عن الحقّ شيء أبداً**] لأنّ كلّ ما عدا الحقّ باطل، والباطل سبب للفقر في الآخرة.

ومن الحقّ عليك حفظ نفسك والاحتساب على الرعية بحمدك فإنّ الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك من عبدالله علي أميرالمؤمنين إلى من مرّ به الجيش من جباة الخراج وعُمّال البلاد أمّا بعد، فإنّي قد سيّرتُ جنوداً هي مارّة بكم إن شاء الله، وقد

[**ومن الحقّ**] الواجب [**عليك حفظ نفسك**] من زلّة القدم عن الصراط المستقيم والوقوع في سواء الجحيم

[**والاحتساب على الرعية بحمدك**] وطاقتك والأخذ على أيديهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقدّم حفظ النفس لأنّه أهمّ.

[**فإنّ الذي يصل إليك من ذلك**] أي: من الأعمال الصالحة والثواب المترتّب عليها [**أفضل من الذي يصل بك**] أي: الذي يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعية وحفظ نفسك من مظالمهم والحيف عليهم أفضل من الذي يصل إليهم بك من حراسة دمائهم وأعراضهم وأموالهم؛ لأنّ هذه دائمة وتلك منقطعة والنفع الدائم أفضل من المنقطع.

ومن كتاب له عليه السلام
إلى العمّال الذين يطأ عملهم الجيش

[**من عبدالله علي أميرالمؤمنين إلى من مرّ به الجيش من جباة الخراج وعُمّال البلاد**] وجباة الخراج: الذين يجمعونه، من جببت الماء في الحوض أي: جمعته.

[**أمّا بعد، فإنّي قد سيّرتُ جنوداً هي مارّة بكم إن شاء الله، وقد**

أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كفّ الأذى وصرف الشّذى وأنا أبرءُ إليكم وإلى ذمتكم من معرّة الجيش إلا من جوعة لا يجد المضطر عنها مذهباً إلا إلى شبعه فنكلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم وكضّوا أيدي سفائكم عن مضارّتهم والتعرّض لهم فيما استثنيناه منهم وأنا بين أظْهُر الجيش

أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كفّ الأذى] عمّن يمرّون به.

[وصرف الشّذى] أي: الضرر والشرّ. **[وأنا أبرءُ إليكم وإلى ذمتكم]** أي: اليهود والنّصارى الذين بينكم، على حذف مضاف أي: أهل ذمّتكم، وروى الجمهور عن النبيﷺ قال: «من آذى ذمّياً فكأنّما آذاني» وقال: «إنّما بذلوا الجزية لتكون دمائهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا» والمراد أنّه بريء.

[من معرّة الجيش] أي: مضرّته وإسائته **[إلا من جوعة لا يجد المضطر عنها مذهباً إلا إلى شبعه]** وتقدير الكلام: إنّي أبرء إليكم من معرّة الجيش ومضرّته فإنّه ليس بأمري ولا برضاي إلا من معرّة جوعه المضطرّ منهم، فأقام المضاف إليه أو أطلقه عليه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

[فنكلوا] أي: عاقبوا **[من تناول]** وروي من يناول بالياء **[منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم]** متعلّق بنكوا؛ لأنّه بمعنى اردعوا، إذ النكال يوجب الردع لئلا يكون بسطوتهم خراب الأعمال.

[وكضّوا أيدي سفائكم عن مضارّتهم والتعرّض لهم فيما استثنيناه منهم] من المعرّة الضرورية لئلا تثور بذلك الفتنة بينهم وبين الجيش.

ثمّ قال: **[وأنا بين أظْهُر الجيش]** أي: قريب منكم وسائر على اثر

فارفعوا إليّ مظالمكم وما عراكم مما يغلبكم من أمركم ولا تطيقون دفعه إلا بإذن اللّه، أُغيِّره بمعونة اللّه، إن شاء اللّه.

إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله على هيت أمّا بعد فإنّ تضييع المرء ما ولي وتكلّفه ما كفي لعجزٌ حاضرٌ ورأي متبَّرٌ وإنّ تعاطيك الغارة على أهل قرقيسيا وتعطيلك مسالحك

الجيش [**فارفعوا إليّ مظالمكم وما عراكم**] أي: غشيكم منهم [**مما يغلبكم من أمركم ولا تطيقون دفعه إلا بإذن اللّه، أُغيِّره بمعونة اللّه**] وأنتصف لكم منهم. [**إن شاء اللّه**].

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله على هيت**] ينكر عليه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالباً للغارة.

قال ابن أبي الحديد: وكان من صحابة عليّ وشيعته وخاصّته، وقتله الحجّاج على المذهب فيمن قتل من الشيعة، وكان عامل علي على هيت، وكان ضعيفاً تمرّ عليه سرايا معاوية تنهب أطراف العراق فلا يردّها ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يغير على أطراف أعمال معاوية، فكتب إليه عليه السلام:

[**أمّا بعد فإنّ تضييع المرء ما ولي**] أي: ماله ولاية عليه من الرعية والمزارع ونحوهما [**وتكلّفه ما كفي**] أي: ما ليس من تكليفه [**لعجزٌ حاضرٌ ورأي متبَّرٌ**] أي: هالك فاسد [**وإنّ تعاطيك الغارة على أهل قرقيسيا**] قرية على الفرات [**وتعطيلك مسالحك**] جمع مسلحة: وهي المواضع التي يقام

التي ولّيناك إيّاها ، ليس بها من يمنعها ، ولا يردّ الجيش عنها لرأي شَعَاعٍ . فقد صرت جسراً لمن أراد الغارة من أعدائك على أوليائك . غير شديد المنكب ، ولا مهيب الجانب ، ولا سادٍّ ثغرةً ، ولا كاسر شوكة عدوّك ، ولا مغنٍ عن أهل مصر ، ولا مجز عن أميره. ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رضي الله عنه لمّا ولّاه إمارتها: امّا بعد ، فإنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين ، ومهيمناً على المرسلين

فيها طائفة من الجند لحمايتها.

[**التي ولّيناك إيّاها**] وتركها خالية. [**ليس بها من يمنعها**] من غارة العدوّ.

[**ولا يردّ الجيش عنها لرأي شعاع**] بالفتح ، أي متفرّق.

[**فقد صرت جسراً لمن أراد الغارة من أعدائك على أوليائك**] استعار له لفظ الجسر باعتبار عبور العدو عليه إلى غرضه ، وكما أنّ الجسر لا يمنع من يمرّ به ، ويعبّر عليه كائناً مَن كان ، فكذلك أنت. [**غير شديد المنكب**] كنّى به عن ضعفه. [**ولا مهيب الجانب**] كذلك. [**ولا سادٍّ ثغرة**] أي ثلمة. [**ولا كاسر شوكة عدوّك ، ولا مغنٍ عن أهل مصر**] في دفع عدوّهم عنهم. [**ولا مجز**] أي مغنٍ وكافٍ. [**عن أميره**] فيما يراد منه ، والأصل مجزئ بالهمزة فخفّف ، والسلام.

[ومن كتاب له عليه السلام
إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رضي الله عنه لمّا ولّاه إمارتها]

[**أمّا بعد ، فإنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين ومهيمناً**] أي شاهداً.

[**على المرسلين**] قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً﴾ ، أي تشهد بإيمان مَن أمن وكفر من كفر ، أو تشهد بصحّة الأنبياء قبلك.

فلمّا مضى صلّى اللّه عليه وآله تنازع المسلمون الأمر من بعده، فواللّه ما كان يُلقى في روعي ولا يخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده عليه السلام عن أهل بيته ولا أنّهم مُنَحُّوه عنّي من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه فامتنعت بيدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمّد صلّى اللّه عليه وآله فخشيتُ إن لم أنظر الإسلام وأهله أن ارى فيه ثلماً أو هدماً وتكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل يزول

ومبشّراً﴾ أي: تشهد بإيمان من آمن وكفر من كفر أو تشهد بصحّة الأنبياء قبلك.

[فلمّا مضى صلّى اللّه عليه وآله تنازع المسلمون الأمر من بعده، فواللّه ما كان يُلقى في روعي] أي: قلبي وخلدي **[ولا يخطر ببالي أنّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده عليه السلام]** أي: تزيح أمر الخلافة **[عن أهل بيته ولا أنّهم مُنَحُّوه عنّي من بعده، فما راعني]** أي: ما أفزعني شيء بعد ذلك السكون الذي كان عندي وتلك الثقة التي اطمأننت إليها.

[إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه] أي: إلا وقوع ما وقع من انصباب الناس من كلّ وجه كما ينثال التراب على أبي بكر.

[فامتنعت بيدي] أي: امتنعت عن بيعته. **[حتّى رأيت راجعة الناس]** يعني أهل الرد كمسيلمة وسجاح وطليحة بن خويلد وغيرهم.

[قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمّد صلّى اللّه عليه وآله] أي: إلى إبطاله.

[فخشيتُ إن لم أنظر الإسلام وأهله أن ارى فيه ثلماً أو هدماً وتكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل يزول

ما كان منها كما يزول السراب ، أو كما يتقشّع السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث حتّى زاح الباطل ، واطمأنّ الدِّين وَتَنَهْنَه.

ثمّ قال عليه السلام: إنّي والله لو لقيتُهُم واحداً وهم طلاع الأرض كلّها ما باليتُ ولا استوحشت ، وإنّي من ضلالهم الذي هم فيه ، والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ، ويقين من ربّي. وإنّي إلى لقاء الله لمشتاق ، ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ

[**ما كان منها كما يزول السراب ، أو كما يتقشّع السحاب**] ووجه الشبه سرعة الزوال ، وكونها لا أصل لثباتها كما لا ثبات لحقيقة السراب ووجود السحاب ، وقدّم ذكر الارتداد لغرض بيان فضيلة في الإسلام ، ولذا عقّبه باقتصاص حال نهوضه ، فقال عليه السلام:

[**فنهضت في تلك الأحداث**] التي وقف من العرب [**حتّى زاح الباطل ، واطمأنّ الدِّين**] أي: استقرّ وثبت. [**وَتَنَهْنَه**] أي: اتّسع وانتشر.

ثمّ قال عليه السلام: [**إنّي والله لو لقيتُهُم**] حال كوني [**واحداً**] منفرداً ، [**وهم**] أي: والحال إنّهم [**طلاع الأرض**] أي: ملئوها [**كلّها ما باليتُ**] بهم [**ولا استوحشت**] منهم ، علّل ذلك بأمرين أشار إليهما بقوله:

[**وإنّي من ضلالهم الذي هم فيه ، والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ، ويقين من ربّي**] ومن كان بهذه الصفة لا يبالي بالموت ، بل يكون طالباً للقاء الله ، فهو كمن ينتقل من سجن إلى قصر ، وأشار إلى الثاني بقوله:

[**وإنّي إلى لقاء الله لمشتاق ، ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ**] فكيف أستوحش من العدوّ أو أبالي ، فإنّي إمّا أن أكون قاتلاً ، أو مقتولاً ، وعلى كلّ حال فهي الحسنى والفوز في الدنيا والعقبى

ولكن آسى أن تلي هذه الأمّة سفهائها وفجّارها فيتّخذوا ما اللّه دولاً و عباده خولاً والصالحين حرباً والفاسقين حزباً فإنّ منهم الذي شرب فيكم الحرام وجلد حدّاً في الإسلام وإنّ منهم من لم يسلم حتّى رضخت له في الإسلام الرضايخ

[**ولكن آسى**] أي: أحزن [**أن تلي هذه الأمّة سفهائها وفجّارها**] كبني أُميّة وأشياعهم وهو يجري مجرى سؤال مقدّر كأنّه قيل: فإذا كنت تعلم إنّك وإيّاهم على الحالين المذكورين فلم تحزن من فعلهم فقال: إنّي لا أحزن من لقائهم وحربهم ولكن أحزن أن تلي أُمّة محمد سفهائها وفجّارها.

[**فيتّخذوا ما اللّه دولاً**] والدولة بالضمّ في المال: أن يكون مرّة لهذا ومرّة لذاك [**و**] أن يتخذوا [**عباده خولاً**] أي: عبيداً [**والصالحين حرباً**] أي: يحاربونهم ويعادونهم [**والفاسقين حزباً**] وأتباعاً لهم وشيعتهم.

[**فإنّ منهم الذي شرب فيكم الحرام وجلد حدّاً في الإسلام**] أشار إلى المغيرة بن شعبة في عهد عمر حين كان والياً من قبله على الكوفة فصلّى بالناس سكران وزاد في الركعات وقاء الخمر فشهدوا عليه وجُلد الحدّ وكذا عنبسة بن أبي سفيان جلده عبداللّه في الطائف.

[**وإنّ منهم من لم يسلم حتّى رضخت له في الإسلام الرضايخ**] والرضخ: الرشوة، إشارة إلى أبي سفيان وابنه معاوية؛ لأنّهما كانا من المؤلّفة قلوبهم الذين يستمالون إلى الدين وجهاد العدوّ بالعطاء.

قال ابن أبي الحديد: والرضيخة شيء قليل يعطاه الإنسان يصانع به عن أمر يطلب منه كالأجرة، وذلك لأنّه من المؤلّفة قلوبهم الذين رغبوا في الإسلام والطاعة بجمال وشياة دُفعت إليهم وهم قوم معرضون كمعاوية

. . . .

وأخيه يزيد، وأبيهما أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو، والحرث، وخويطب، والأخنس، وصفوان بن أُميّة، وعمير بن وهب الجمحي، وعيينة بن حصين، والأقرع بن جابر، وعبّاس بن مرداس، وغيرهم، وكان إسلام هؤلاء للطمع، وللأغراض الدنيويّة، ولم يكن عن أصل، ولا عن يقين وعلم.

ثمّ قال في عمرو بن العاص إنّ إسلامه كان مدخولاً أيضاً، إلّا إنّه لم يكن عن رضيخه، وإنّما كان لمعنى آخر، وذكر أنّه أراد بالذي شرب الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان ولّاه عثمان على الكوفة.

وروي عن أبي عبيدة وهشام بن الكليني والأصمعي إنّ الوليد كان زانياً يشرب الخمر، فشرب بالكوفة وقام ليصلّي بهم الصبح في المسجد الجامع، فصلّى بهم أربع ركعات، ثمّ التفت إليهم، فقال: أزيدكم وتقيّأ في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصلاة:

علق القلب الربابا بعد ما شابت وشابا

فشخص أهل الكوفة إلى عثمان فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشرب الخمر، فأُتي به، فأمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحدّ، فلمّا دنا منه قال: ناشدتك الله وقرابتي من أمير المؤمنين، فتركه، فخاف عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يعطّل الحدّ فقام إليه فحدّه بيده، فقال الوليد: ناشدتك الله والقرابة.

فقال عليّ عليه السلام: اسكت أبا وهب، فإنّما هلك بنو إسرائيل لتعطيلهم الحدود، فلمّا ضربه وفرغ منه قال: ليدعونني قريش بعدها جلّادها.

ثمّ نبّههم عليه السلام على أنّ ما ذكره من الأسى هو السبب التامّ لتوبيخهم وتحريضهم على الجهاد

فلولا ذلك ما كثرت تأليبكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكم ولتركتكم إذ أبيتم ونيتم ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقضت وإلى أمصاركم قد افتتحت وإلى ممالككم تزوى وإلى بلادكم تُغزى، انفروا رحمكم اللّه إلى قتال عدوّكم ولا تثّاقلوا إلى الأرض فَتُقِرُّوا بالخسف وتُبوّئوا بالذلّ ويكون نصيبكم الأخسّ إنّ أخا الحرب الأرق ومن نام لم يُنم عنه.

[فلولا ذلك ما كثرت تأليبكم] أي: تحريضكم **[وتأنيبكم]** أي: لومكم **[وجمعكم وتحريضكم]** على الجهاد **[ولتركتكم إذ أبيتم]** حين امتنعتم **[وونيتم]** وضعفتم عن النفر إلى الجهاد، ولكن ما ذكرت هو الذي دعاني إلى ذلك، ثمّ نبّههم على فعل عدوّهم بهم وافتتاحه لأمصارهم وغزوهم ليستثير بذلك حمية طباعهم فقال: **[ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقضت وإلى أمصاركم قد افتتحت وإلى ممالككم تزوى]** أي: تُقبض **[وإلى بلادكم تُغزى، انفروا رحمكم اللّه إلى قتال عدوّكم ولا تثّاقلوا إلى الأرض فَتُقِرُّوا بالخسف وتُبوّئوا]** أي: ترجعوا **[بالذلّ]** والصغار **[ويكون نصيبكم الأخسّ]** الأوكس.

ثمّ نبّههم عليه السلام على من يكون أهلاً للحرب فقال: **[إنّ أخا الحرب الأرق]** وكنّى به عن كبير الهمّة إذ كان من لوازمه قلّة النوم، وقوله: **[ومن نام لم يُنم عنه]** تنفير لهم عن التواني في الجهاد بما يلزمه من طمع العدوّ فيهم بسكوتهم عنه والرقدة عن مقاومته.

ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري، وهو عامله على الكوفة، وقد بلغه تثبيطه النّاس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل:

من عبدالله عليٍّ أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس، أمّا بعد: فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك، فإذا قدم عليك رسولي فارفع ذيلك، واشدد مئزرك، واخرج من جحرك

[ومن كتاب له عليه السلام]

من كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري، وهو عامله على الكوفة، وقد بلغه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل، وكان يقول للنّاس: إنّها فتنةٌ فلا يجوز القيام فيها، ويروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أخبار تتضمّن وجوب القعود عن الفتنة والاعتزال فيها، ويروى أنّه كان يقول لأهل الكوفة أنّ عليّاً إمام هدى، وبيعته صحيحة، إلّا أنّه لا يجوز القتال معه لأهل القبلة، فكتب إليه عليه السلام بهذا الكتاب مع ابنه الحسن عليه السلام:

[**من عبدالله عليٍّ أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس، أمّا بعد: فقد بلغني عنك قول**] مرّ ذكره. [**هو لك وعليك**] إذ بعضه حقّ، وبعضه باطل، كما عرفت، وهو له باعتبار ظاهر الدين، ولمنعه عن الخوض في الفتنة، وعليه خيانة خذل النّاس عن نصرة الدين، وهو عليه السلام مع الحقّ والحقّ معه، يدور كيف ما دار. فالتثبيط عنه جهل محض، والجهل يعود على صاحبه بالمضرّة؛ ولأنّه في ذلك القول مناقض لغرضه؛ لأنّه كان أميراً يتهافت على الولاية، ثمّ قال عليه السلام:

[**فإذا قدم عليك رسولي فارفع ذيلك، واشدد مئزرك**] وهما كنايتان عن الجدّ والتشمير في الأمر، والمسارعة إلى ذلك. [**واخرج من جحرك**] أي من الكوفة، واستعار لها الجحر ملاحظة لشبهه بالضبّ ونحوه.

واندب من معك فإن حققت فأنفذ وإن ثقلت فاقعد عنه وأيم اللّه لتؤتينّ من حيث أنت ولا تُتْرك حتّى يُخلط زبدك بخاثرك وذائبك بجامدك وحتّى تُعْجَلَ عن قِعْدَتِكَ و تحذرك من إمامك كحذرك من خلفك وما هي بالهوينا التي ترجو ولكنّها الداهية الكبرى يركب جملها ويذلّل صعبها

[**واندب من معك**] من العسكر إلى الخروج إلى الجهاد، [**فإن حققت**] أي: عرفت حقيقة أمري وإنّي على الحقّ [**فأنفذ**] أي: فامض فيما آمرك به [**وإن ثقلت**] أي: جبنت وضعفت عن هذا الأمر ومعرفته [**فاقعد عنه**] ثمّ توعّده عليه السلام على تقدير قعوده قائلاً:

[**وأيم اللّه لتؤتينّ من حيث أنت**] أي: بالمكان الذي أنت به [**ولا تُتْرك حتّى يُخلط زبدك بخاثرك وذائبك بجامدك**] وهما مثلان كنّى بهما عن خلط أحواله الصافية بالتكدير، كعزّته بذلّته وسروره بغمّه وسهولة أمره بصعوبته.

[**وحتّى تُعْجَلَ عن قِعْدَتِكَ**] وهي هيئة قعوده، واراد غاية الإعجال [و] حتّى [**تحذرك من إمامك كحذرك من خلفك**] فإنّ الإنسان من ورائه أشدّ خوفاً، ويحتمل أن يكون المراد حتّى تخاف من الدنيا كما تخاف من الآخرة.

[**وما هي بالهوينا**] أي: وما القصّة المعهودة لك بالهيئة السهلة.

[**التي ترجو**] أن يكون فيها على اختيارك، [**ولكنّها الداهية الكبرى**] من دواهي الدهر ومصائب [**يركب جملها**] أي: يرب فيها [**ويذلّل صعبها**] أي: تسهل الأمور الصعاب فيها.

ويسهل جَبَلُها، فاعقل عقلك، واملك أمرك، وخذ نصيبَك وحَظَّك. فإن كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَىٰ غَيْرِ رَحْبٍ وَلَا فِي نَجَاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفِيَنَّ وَأَنْتَ نَائِمٌ. حَتَّىٰ لَا يُقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ.

[**ويسهل جَبَلُها**] أي وَعْرها، وهو كناية عن وقوع ذلك لا محالة؛ لأنّها إذا ركب جملها، وذلّل صعبها، وسهل وعرها، فقد فعلت، أي لا تقل هذا أمر عظيم صعب المرام، فإنّه إذا دام الأمر على ما أشرت على أهل الكوفة من التخاذل والجلوس في البيوت، وقولك لهم كن عند الله المقتول ليقعن بموجب ما ذكرته لك، وليركبن أهل الحجاز وأهل البصرة هذا الأمر المستصعب؛ لأنّا نحن نطلب أن نملك الكوفة وأهل البصرة، كذلك فيجتمع عليها الفريقان، ثمّ عاد إلى أمره بالخروج إليه، فقال له:

[**فاعقل عقلك**] نُصب على المصدر، أي: راجع عقلك دون هواك، أو اضبط عقلك وأجب على معرفة الحقّ من الباطل. [**واملك أمرك**] أي: شأنك وطريقتك، واصرفها على قانون الحقّ والعدل دون الباطل. [**وخذ نصيبَك وحَظَّك**] من طاعة الله، والقيام بأمرٍ من نصرته، والذبّ عن دين الله، أو المراد خذ ما قَسم لك من الحظّ، ولا تتجاوز إلى ما ليس لك. [**فإن كَرِهْتَ**] ما أمرناك به ونصحناك [**فَتَنَحَّ**] عن ولايتنا وعَملنا [**إِلَىٰ غَيْرِ رَحْبٍ**] أي غير سعة، ضدّ قولهم مرحباً [**وَلَا فِي نَجَاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفِيَنَّ**] أي: فما أجد وأن تكفي هذه المؤنة [**وَأَنْتَ نَائِمٌ**] عن طاعة الله [**حَتَّىٰ لَا يُقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟**] أي: حتّى لا تفتقد ولا يسئل عنك لعدم المبالاة بك.

ثمّ أقسم عليه السلام فقال: [**وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ**] أي: إنّي في حربي هؤلاء لعلى حقّ [**مَعَ مُحِقٍّ**] ومن أطاعني مع إمام محقّ

وما يبالي ما صنع الملحدون والسلام كتبه إلى معاوية جواباً عن كتابه أمّا بعد، فإنّا كنّا نحن وأنتم على ما ذكرت من الأُلفة والجماعة ففرّق بيننا وبينكم أمس أنّا آمنّا وكفرتم، واليوم أنّا استقمنا وفتنتم وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً وبعد أن كان أنف الإسلام كلّه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حرباً

أطاعني مع إمام محقّ [**وما يبالي ما صنع الملحدون**] في دين اللّه من الخلاف والشقاق.

قال ابن أبي الحديد: وهذا إشارة إلى قول النبي ﷺ: «اللّهم أدر الحقّ معه حيثما دار» [**والسلام**].

ومن كتاب له عليه السلام

[**كتبه إلى معاوية جواباً عن كتابه**] يذكّره ما كانوا عليه قديماً من الالفة والجماعة وينسب إليه بعد ذلك قتل طلحة والزبير والتشريد بعائشة ويتوعّده بالحرب ويطلب منه قتلة عثمان، فأجابه عليه السلام عن جميع ذلك بقوله:

[**أمّا بعد، فإنّا كنّا نحن وأنتم**] قبل ظهور الإسلام [**على ما ذكرت من الأُلفة والجماعة ففرّق بيننا وبينكم أمس**] حين بعث اللّه رسوله محمّداً ﷺ [**أنّا آمنّا**] به [**وكفرتم، واليوم**] تأكّدت الفرقة [**أنّا استقمنا**] على منهاج الحقّ [**وفتنتم وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً**] كأبي سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وغيرهم من بني عبد شمس.

[**وبعد أن كان أنف الإسلام كلّه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله حرباً**]

وذكرت انّي قتلت طلحة والزبير، وشرّدتُ بعائشة، ونزلت بين المصرين. وذلك أمر غبت عنه، فلا عليك ولا العذرُ فيه إليك.

وأنف كلّ شيء أوّله وطرفه، واستعار الأنف لهم باعتبار كونهم أعزّاء أهله. قال ابن أبي الحديد: وكان أبو سفيان وأهله من بني عبد شمس أشدّ النّاس على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أوّل الهجرة إلى أن فتح مكّة.

[**وذكرت انّي قتلت طلحة والزبير، وشرّدتُ بعائشة، ونزلت بين المصرين**] أي: البصرة والكوفة.

[**وذلك أمر غبت عنه، فلا عليك ولا العذرُ فيه إليك**] وكلّ مَن غاب عن أمر ولم يكن فيه مَدخل فليس تكليفه عليه، ولا العذر عن التقصير والتفريط فيه إليه.

قال ابن أبي الحديد: أجابه عليه السلام بكلام مختصر أعرض فيه عنه هواناً به، فأمّا الجواب المفصّل فأن يقال: إنّ طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببيعتهما ونكثهما ولو استقاما على الطريقة لسلما، ومن قتل الحقّ فدمه هدر، وأمّا كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغير مدفوع، ولكنّ العيب يحدث وأصحابنا يذهبون إلى أنّهما تابا، وفارقا الدنيا نادمَين على ما صنعا، وكذلك نقول نحن: فإنّ الأخبار كثرت عنهما بذلك، فهما من أهل الجنّة لتوبتهما، ولولا توبتهما لكانا هالكَين كما هلك غيرهما، فإنّ الله تعالى لا يحابي أحداً بالطاعة والتقوى، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

وأمّا الوعد لهما بالجنّة فمشروط بسلامة العافية والكلام في سلامتهما، وإذا ثبت توبتهما فقد صحّ الوعد لهما وتحقّق، وقوله: «بشّر قاتل ابن صفيّة بالنّار». فقال قوم من علماء الحديث وأرباب

وذكرت إنّك زائري في المهاجرين والأنصار وقد انقطعت الهجرة يوم أُسر أبوك

السيرة: هو كلام علي غير مدفوع، وقوم منهم جعلوه مرفوعاً، وعلى كلّ حال فهو حقّ؛ لأنّ ابن جرموذ قتله مولياً خارجاً من الصف مفارقاً للحرب فقد قتله على توبة وأنابه، ثمّ قال:

وأمّا أُمّ المؤمنين عائشة فقد صحّت توبتها، والأخبار الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير؛ لأنّها عاشت زماناً طويلاً وهما لم يبقيا، والذي جرى لها كان خطأ منها، فأيّ ذنب لأميرالمؤمنين في ذلك، ولو أقامت في منزلها لم تبتذل بين الأعراب وأهل الكوفة على أنّ علياً أكرمها وصانها وعظّم من شأنها، ولو كانت فعلت بعمر ما فعلت وشقّت عصى الأُمّة عليه ثمّ ظفر بها لقتلها ومزّقها إرباً إرباً، ولكن عليّاً كان حلياً كريماً، أنتهى.

أقول: لم نظفر برواية معتبرة تدلّ على توبة من ذكر، اللّهمّ إلا أن يكون المراد بالتوبة عقر الجمل والهزيمة، على أنّ خروجهم عن الحقّ دراية والتوبة رواية لا تعارض الدراية!

[**وذكرت إنّك زائري في المهاجرين والأنصار**] موهماً في كلامك أنّك من المهاجرين [**وقد انقطعت الهجرة يوم أُسر أبوك**] أي: حين الفتح، وذلك أنّ معاوية وأباه وجماعة من أهله إنّما أظهروا الإسلام بعد الفتح وقد قال ﷺ «لا هجرة بعد الفتح» فلا يصدق عليهم إذاً إسم المهاجرين، وفي رواية: يوم أُسر أخوك، فيكون تكذيباً له في قوله: في جمع من المهاجرين والأنصار، أي: ليس معك مهاجر، لأنّ أكثر من معك ممن رأى

فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذٰلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ ! وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

رسول الله هم أبناء الطلقاء مَن أسلم بعد الفتح ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا هجرة بعد الفتح».

وعبّر عن يوم الفتح بعبارة حسنةٍ فيها تقريع لمعاوية وأهله بالكفر لا وأنّهم ليسوا من ذوي السوابق ، فقال: «قد انقطعت الهجرة يوم أُسِر أخوك» ، يعني يزيد بن أبي سفيان أُسر يوم الفتح في باب الجندبة ، وكان خرج في نفرٍ من قريش يحاربون ويمنعون من دخول مكّة ، فقتل منهم قوم أُسِر يَزيد بن أبي سفيان ، أسّره خالد بن الوليد ، فخلفه أبو سفيان منه وأدخله داره ، فأَمِنَ؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يومئذٍ: «مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

ثمّ قابل عليه السلام وعيده بمثله فقال:

[**فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ**] أي إن كنت مستعجلاً في سيرك [**فَاسْتَرْفِهْ**] أي: فاطلب الرفاهيّة على نفسك في ذلك ، فإنّك إنّما تستعجل إلى ما يضرّك.

[**فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذٰلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ ! وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ :**

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ]

قيل: وجه التمثيل إنّه شبّه استقبال معاوية في جمعه له استقبالهم رياح الصيف ، ووجه شبه نفسه برياح الصيف وجعل وجه المشابهة كونه عليه السلام يضرب وجههم في الحرب بالسيوف والرماح كما تضرب رياح الصيف وجه مستقبليها بالحصى

وعندي السيف الذي أغصصته بجدّك وخالك وأخيك في مقام واحد فإنّك وإنّه الأغلف القلب المقارب العقل والأولى أن يقال لك إنّك رقيت سلّماً أطلعك مطالع سوء عليك لا لك لأنّك نشدت غير ضالّتك ورعيت غير سائمتك وطلبت أمراً لست من أهله ولا في معدنه

ثمّ قال عليه السلام: [**وعندي السيف الذي أغصصته بجدّك**] وهو عتبة [**وخالك**] الوليد بن عتبة [**وأخيك**] حنظة بن أبي سفيان [**في مقام واحد**] يوم بدر أغصصت السيف بفلان أي: جعلته يغصّ به وهو من المقلوب؛ لأنّ المضروب هو الذي يغصّ بالسيف أي: لا يكاد يسيغه ويروى بالضاد المعجمة أي: جعلته عاضاً لهم وألزمته بهم.

[**فإنّك وإنّه الأغلف القلب**] أي: الذي لا بصيرة له كأنّ قلبه في غلاف كما قال تعالى: ﴿قالوا قلوبنا غلف﴾ ووجه الاستعارة كونه محجوباً بالهيئات البدنية وأغشية الباطل عن قبول الحقّ وفهمه فكأنّه في غلاف [**المقارب العقل**] بكسر الراء الذي عقله ليس بجيد ثمّ أعلمه على سبيل التوبيخ بما الأولى أن يقال في حاله فقال:

[**والأولى أن يقال لك إنّك رقيت سلّماً أطلعك مطالع سوء عليك لا لك**] استعار السلّم للأحوال التي ركّبها والمنزلة التي طلبها، واستعار الضالّة والسائمة في قوله: [**لأنّك نشدت غير ضالّتك ورعيت غير سائمتك**] لمرتبته التي ينبغي له أن يطلبها ويقف عندها.

[**وطلبت أمراً لست من أهله ولا في معدنه**] كنّى به عن أمر الخلافة والولاية.

فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ!! وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ، وَتَمَنِّي الْبَاطِلِ، عَلَى الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً، بِوَقْعِ سُيُوفٍ مَا خَلَا مِنْهَا الْوَغَىٰ، وَلَمْ تُمَاشِهَا الْهُوَيْنَا.

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمانَ، فَادْخُلْ فِيما دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ،

[**فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ!**] لأنّ مدار قولك على طلبة قتلة عثمان وإنكار المنكر، ومدار فعله وحركاته على التغلّب في الملك والبغي على الإمام معادل، وشتّان ما بينهما. [**وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ**] في محلّ جرّ صفة. [**وَتَمَنِّي الْبَاطِلِ، عَلَى الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وآله] حيث كانوا يَتَمَنَّوْنَ ويبذلون أنفسهم وأموالهم فيه من قهر الرسول صلى الله عليه وآله وإطفاء نور النبوّة، وإقامة أمر الشرك، و«ما» في قوله: «ما أشبهت» مصدريّة مبتدأ خبره قريب، وحكم عليه السلام بقرب شبهه بأعمامه وأخواله، فمن الشقاوة من جهة عمومته حمّالة الحطب، ومن جهة خؤولته الوليد بن عتبة، وإنّما ذكر الأعمال والأخوال لأنّه لم يكن له أعمام وأخوال كثيرون، ويجوز أن يعبّر بالجمع المنكّر عن الواحد والاثنين مجازاً في معرض الشناعة، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: «حملتهم...»، ثمّ قال: [**فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً، بِوَقْعِ سُيُوفٍ**] متعلّق بقوله: «صرعوا»، وقوله عليه السلام: [**مَا خَلَا مِنْهَا الْوَغَىٰ**] صفة السيوف، وقوله: [**وَلَمْ تُمَاشِهَا الْهُوَيْنَا**] استعارة، أي إنّ تلك السيوف لم يلحق ضربها ووقعها هون ولا سهولة ولم تجرِ معها، وروي لم تماسها بالسين المهملة، أي لم يخالطها شيء، من ذلك، ثمّ قال: [**وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمانَ، فَادْخُلْ فِيما دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ**] من الطاعة والبيعة.

ثمّ حاكم القوم إلي أحملك وإيّاهم على كتاب اللّه وأمّا تلك التي تريدفإنّها خدعة الصبي عن اللبن أول الفصال والسلام لأهله.

أيضاً إليه:

أمّا بعد فقد آن وتنتفع باللّمح الباصر من عيان الأُمور فلقد سلكت مدارج أسلافك

[**ثمّ حاكم القوم إلي أحملك وإيّاهم على كتاب اللّه**] وحكمه، إذ لابدّ للمتخاصمين من حاكم بالحقّ، فليس له أنيقتل جملة من المهاجرين والأنصار وأعيان الصحابة بغير حكم شرعي.

[**وأمّا تلك التي تريد**] أي: الخدعة عن الشام بأن تقرّ على إمارتها [**فإنّها خدعة الصبي عن اللبن أول الفصال**] ووجه الشبه ضعفها وظهور كونها خدعة لكلّ أحد [**والسلام لأهله**] إشارة بأنّ معاوية ليس من أهله، والعيان يغني عن البيان.

ومن كتاب له عليه السلام

[**أيضاً إليه: أمّا بعد فقد آن**] أي: قرب وحان لك [**وتنتفع باللّمح الباصر من عيان الأُمور**] أي: حان لك أن تنتفع بما تعلمه من معاينة الأُمور والأحوال وتتحقّقه يقيناً بقلبك كما يتحقّق ذو اللمح الباصر بما يبصره بحاسّة بصره وعيان الأُمور معاينتها، وهو ما يعرفه ضرورة من استحقاق اميرالمؤمنين عليه السلام للخلافة دونه وبرائته كل كشبهة ينسبها إليه.

[**فلقد سلكت مدارج أسلافك**] أي: اتبعت طرائق أبي سفيان أبيك

بِادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَاقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِيبِ ، وَبِانْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَابْتِزَازِكَ مَا قَدِ اخْتُزِنَ دُونَكَ ، فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ ، وَجُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ؛ مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَمُلِيءَ بِهِ صَدْرُكَ .

وعتبة جدّك وأمثالهما من أهلك من ذوي الكفر والشقاق.

[**بِادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ**] وما ليس لك بحقّ من دم عثمان وطلحة الزبير وغير ذلك [**وَاقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِيبِ**] الاقتحام الدخول في الشيء بسرعة من غير رويّة ، والمين: الكذب ، والغرور -بالضمّ- مصدر ، و-بالفتح- الاسم . والمراد دخوله في الغفلة عن سوء عاقبتها [**وَبِانْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ**] الانتحال ادّعاء ما ليس له ، والمراد الخلافة ، أي: أنت دونها ولست من أهلها [**وَابْتِزَازِكَ**] أي استلابك [**مَا قَدِ اخْتُزِنَ دُونَكَ**] يعني التسمّي بإمرة المؤمنين [**فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ**] أي فعلت ذلك كلّه هرباً من التمسّك بالحقّ والدين ، وحبّاً للكفر والشقاق والتقلّب [**وَجُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ**] وجحوداً وفراراً مصدران سدّا مَسَدّ الحال ، ثمّ بينّ الإلزام بقوله: [**مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ**] عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [**وَمُلِيءَ بِهِ صَدْرُكَ**] علماً في مواطن عديدة.

لابن أبي الحديد جحوداً لما هو ألزم يعني فرض طاعته عليّ عليه السلام لأنّه قد وعاها سمعه لا ريب في ذلك:

أمّا بالنصّ في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما يذكره الشيعة ، فقد كان معاوية حاضراً يوم الغدير؛ لأنّه حجّ معهم حجّة الوداع ، وقد كان أيضاً حاضراً يوم تبوك حين قال له بمحضر من النّاس كافّة: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى» ، وقد سمع غير ذلك ، وأمّا البيعة ، كما نذكره نحن ، فإنّه قد اتّصل به خبرها ، وتواتر عنده وقوعها ، فصار وقوعها عنده معلوماً.

فماذا بعد الحقّ إلا الضلال وبعد البيان إلا اللّبس

بالضرورة كعلمه بأنّ في الدنيا بلدة اسمها مصر وإن كان ما رآها .

والظاهر من كلام أميرالمؤمنين أنّه يريد المعنى الأول ونحن نخرجه على وجه لا يلزم منه ما يقوله الشيعة فنقول : لنفرض أنّ النبيﷺ ما نصّ عليه بالخلافة بعده، أليس يعلم معاوية وغيره من الصحابة أنّه قال في ألف مقام «أنا حرب لمن حاربت سلم لمن سالمت» ونحو ذلك قوله : «اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه» وقوله : «حربك حربي وسلمك سلمي» وقوله : «أنت مع الحقّ والحقّ معك» وقوله : «هذا منّي وأنا منه» وقوله : «هذا أخي» وقوله : «يحبّ اللّه ورسوله ويحبّه اللّه ورسوله» وقوله : «اللّهمّ آتني بأحبّ خلقك إليك» وقوله : «وليُّ كلّ مؤمن ومؤمنة بعدي» وقوله في كلام قاله : «هو خاصف النعل» وقوله : «لا يحبّه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق» وقوله : «إنّ الجنّة لتشتاق إلى أربعة» وجعله أوّلهم، وقوله لعمّا : «تقتلك الفئة الباغية»، وقوله : «ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعدي» إلى غير ذلك مما يطول تعداده جداً، ويحتاج إلى كتاب مفرد يوضع له، أفما كان ينبغي لمعاوية أن يفكّر في هذا ويتأمّله ويخش اللّه ويتقيه .

[**فماذا بعد الحقّ إلا الضلال**] اقتباس من كلام اللّه وإشارة إلى انّ الحقّ الذي علمه ليس ورائه لمن تعدّاه إلا الضلال والهلاك .

[**وبعد البيان**] الذي بيّن لك في أمري [**إلا اللّبس**] يقال : لبست عليه الأمر لبساً أي : خلطته، والمضارع يلبس بالكسر، ثمّ حذّره الشبهة واشتمالها على لبستها فقال :

فاحذر الشبهة واشتمالها على لبستها فإنّ الفتنة طالما أغدقت جلابيبها وأغشت الأبصار ظلمتها.

وقد أتاني كتاب منك زور أفانين من القول ضعفت وقاها عن السلم

[**فاحذر الشبهة**] كشبهة دم عثمان [**واشتمالها على لبستها**] بالضمّ يقال في الأمر لبسته أي: اشتباه، واستعار اللبسة للداخلين فيها ملاحظةً لشبهها بالقميص ونحوه وعلّل تحذيره إيّاه ووجوب وقوفه دونها بقوله:

[**فإنّ الفتنة طالما أغدقت جلابيبها وأغشت الأبصار ظلمتها**] يقال: أغدقت المرأة قناعها أي: أرسلته إلى وجهها وأغدق الليل: أرخى سدوله، والجلابيب جمع جلباب: وهو الثواب، وأغشت الأبصار ظلمتها أي: أكسبتها الغشاء وهو ظلمة العين.

استعار الجلابيب لأمورها المغطّية لبصائر أهلها عن الحقّ كما لا تبصر المرأة عند إرسال جلبابها على وجهها، وكذا استعار لفظ الظلمة باعتبار التباس الأمر فيها وعدم التهدّي إلى الحقّ كالظلمة التي لا يهتدى فيها، ورشح بذكر الأغداق والإعشاء.

ثمّ شرع في أحوال كتابه فقال: [**وقد أتاني كتاب منك زور أفانين من القول**] والتفنّن: التخليط والتنويع، أي: ذي أساليب مختلفة.

[**ضعفت وقاها عن السلم**] أي: عن الإسلام، أي: لم تصدر تلك الأفانين المختلطة عن مسلم وكان كتب إليه يطلب منه أن يفرده بالشام وأن يولّيه العهد من بعده وأن لا يكلّفه الحضور عنده، أي: ليس تلك الطلبات والدعاوي والشبهات التي تضمّنها كتابك من القوّة ما يقتضي أن يكون

و أساطير لم يحكها منك علم ولا حلم أصبحت منها كالخائض في الدهباس والخابط في الريماس وترقّيت إلى مرقية بعيدة المرام نازحة الأعلام

التمسّك به مسلماً؛ لأنّه كلام لا يقوله إلا من هو إمّا كافر أو منافق وقيل المراد بالسلم الصلح، أي: ليس لها قوة أن توجب صلحاً.

[**وأساطير**] جمع أُسطورة بالضمّ وأساطرة بالكسر.

[**لم يحكها منك علم ولا حلم**] وحو الكلام: صيغته ونظمه والحلم: العقل، أي: ما صدر هذا الكلام والهجر الفاسد عن عالم ولا عاقل.

[**أصبحت منها كالخائض في الدهباس**] وهو المكان السهل اللّين دون الرمل [**والخابط في الريماس**] وهو المكان الشديد الظلمة كالسرب ونحوه، وجملة «أصبحت» صفة أساطير، ووجه الشبه بالخائض والخابط ضلاله وعدم هدايته إلى وجه الحقّ كما لا يهتدي خائض الدهاس وخابط الديماس فيهما.

ثمّ شرع في جوابه وكان مقصوده في كتابه أن ينصّ عليه بالخلافة بعده ليبايعه فوبّخه أوّلاً على طلبه أمراً ليس من أهله بقوله:

[**وترقّيت إلى مرقية بعيدة المرام**] استعار المرقية لأمر الخلافة ورشح بلظ الترقي، والمرقية في الأصل الموضع العالي.

وقوله: [**نازحة الأعلام**] جمع علم وهو ما يهتدى به في الطرقات من المنار، أي: سمت بك همّتك إلى دعوى الخلافة وهي منك كالمرقية التي لا ترام بتعدّ على من يطلبها وليس فيها اعلام تهدي إلى سلوك طريقها أي:

تقصر دونها الأنوف ويحاذى بها العيوق وحاش للّه أن تلي للمسلمين بعدي صدراً أو ورداً وأجري لك على أحد منهم عقداً أو عهداً فمن الآن فتدارك نفسك وانظر لها فإنّك إن فرّطت حتّى ينهد إليك عباد اللّه ارتجت عليك الأمور وصنعت أمراً هو منك اليوم مقبول، والسلام.

الطرق إليها غامضة كالجبل الأملس الذي ليس فيه درج ومراقي يسلك منها إلى ذروته.

[**تقصر دونها الأنوف**] بفتح الهمزة كأكول: طائر، وهو ـــــــ، وفي المثل «أعزّ من بيض الانوف» لأنّها تحرزه فلا يكاد أحد يظفر به؛ لأنّ أوكارها في رؤوس الجبال والأمكنة الصعبة البعيدة.

[**ويحاذى بها العيوق**] وهو كوكب معروف فوق زحل في العلوّ، وهذه أمثال ضربها عليه السلام في بُعد معاوية عن الخلافة، ثمّ قال:

[**وحاش للّه أن تلي للمسلمين بعدي صدراً أو ورداً**] أي: دخولاً في أمر من أُمورهم أو خروجاً.

[**وأُجري لك على أحد منهم عقداً أو عهداً**] والعقد: النكاح، والبيوع والاجارة والعهد كالبيعة والأمان واليمين والذمّة، أي: لا يمكنّه من ذلك ولا يولّيه على أمر من أُمور المسلمين كما قال عليه السلام في مقام آخر: «وما كنت متّخذ المضلّين عضداً».

ثمّ قال: [**فمن الآن فتدارك نفسك وانظر لها**] فيما يصلحها من الأعمال والملكات الفاضلة [**فإنّك إن فرّطت**] في أمرك [**حتّى ينهد إليك عباد اللّه ارتجت**] أي: انغلقت وصعبت [**عليك الأمور وصنعت أمراً**] وعذراً [**هو منك اليوم مقبول**] فاغتنم الفرصة، [**والسلام**] على من اتّبع الهدى.

إلى عبدالله بن العبّاس «ره» وقد مضى هذا الكتاب بخلاف هذه الرواية: أمّا بعد، فإنّ العبد ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه فلا يكن أفضل ما نلت من دنياك في نفسك بلوغ لذّة أو شفاء غيظ ولكن إطفاء باطل وأحياء حقّ

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى عبدالله بن العبّاس «ره» وقد مضى هذا الكتاب**] مشروحاً فيما تقدّم [**بخلاف هذه الرواية: أمّا بعد، فإنّ العبد ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه**] فيكون كلّ من فرحه وحزنه في غير محلّه، ولو كان له يقين تامّ لما فرح ولما حزن كما قيل:

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبداً   و ما هو كائن سيكون
سيكون ما هو كائن في وقته   وأخو الجهالة متعب مغبون

وينبّه على ذلك قوله تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

[**فلا يكن أفضل ما نلت من دنياك في نفسك بلوغ لذّة أو شفاء غيظ**] نبّهه على لزوم فضيلتي العفّة والحلم بالنهي عن أن يجعل بلوغ لذّته من دنياه أو شفاء غيظه الّذين هما طرفا الإفراط والتفريط من الفضيلتين المذكورتين أفضل ما نال منها في نفسه، ثمّ نبّهه على ما ينبغي أن يكون أفضل في نفسه من دنياه بقوله:

[**ولكن إطفاء باطل وأحياء حقّ**] تنبيه على وجه استعمال قوّتي

ليكن سرورك بما قدّمت وأسفك على ما خلّفت وهمّك فيما بعد الموت إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكّة: أمّا بعد، فأقم للناس الحج وذكّرهم بأيّام الله واجلس لهم العصرين فافت المستفتي وعلّم الجاهل وذاكر العالم

الشهوة والغضب وهو أن يكون الغرض من فعلهما دفع الضرورة وبقدر الحاجة.

[**ليكن سرورك بما قدّمت**] من الأعمال الصالحة [**وأسفك على ما خلّفت**] أي: تركت من العمل للآخرة وقدّمت للدنيا.

[**وهمّك فيما بعد الموت**] من الدار الآخرة.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكّة: أمّا بعد، فأقم للناس الحج**] والمراد القيام بأعماله وتعليم الجاهلين كيفيته وجمعهم عليه.

[**وذكّرهم بأيّام الله**] وهي أيام الأنعام وأيام الانتقام لتحصل لهم الرهبة والرغبة.

[**واجلس لهم العصرين**] أي: الغداة والعشية، وخُصّا لكونهما أطيب الأوقات سيّما بالحجاز.

وأشار عليه السلام إلى أعظم فوائد جلوسه في الوقتين فقال: [**فافت المستفتي وعلّم الجاهل وذاكر العالم**] وبيان الحصر انّ الناس إمّا غير عالم أو عالم، وغير العالم إمّا مقلّد أو متعلم طالب، والعالم إمّا هو غيره فهذه أقسام أربعة.

ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك ولا تحجبنّ ذا حاجة عن لقائك بها فإنّها إن ذيدت عن أبوابك في أوّل وردها لم تحمد على قضائها، وانظر إلى ما اجتمع من مال اللّه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضع المفاقر والخلاّت وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا ومُرْ أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً فإنّ اللّه سبحانه يقول: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ فالعاكف المقيم به، والبادي الذي يحجّ إليه من غير أهله، وفّقنا اللّه وإيّاكم لمحابّه، والسلام.

ثمّ قال: [**ولا يكن لك إلى الناس سفير**] يعبّر عنك [**إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك**] لأنّ ذلك مظنّة الكبر والجهل بأحوال الناس الذي يجب على الوالي الإحاطة بها بقدر الإمكان، و«إلا» للحصر وما بعدها خبر كان.

[**ولا تحجبنّ ذا حاجة عن لقائك بها**] بل أبرز نفسك لأرباب الحوائج.

[**فإنّها**] أي: الحاجة [**إن ذيدت**] أي: طُردت ودُفعت [**عن أبوابك في أوّل وردها لم تحمد**] فيما بعد [**على قضائها، وانظر إلى ما اجتمع من مال اللّه**] في بيت مال المسلمين فاصرفه [**إلى من قبلك**] أي: من في جهتك [**من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضع المفاقر**] أي: الحاجات، يقال: شدّ اللّه مفاقره أي: أغنى اللّه فقره. [**والخلاّت**] جمع خلّة وهي الحاجة.

[**وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا**] من ذوي الحاجة [**ومُرْ أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً فإنّ اللّه سبحانه يقول: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ فالعاكف المقيم به، والبادي الذي يحجّ إليه من غير أهله، وفّقنا اللّه وإيّاكم لمحابّه، والسلام**].

أمّا بعد، فإنّما مثل الدنيا كمثل الحيّة، ليّنٌ مسّها قاتل سمّها فاعرض عمّا يعجبك فيها لقلّة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت به من فراقها وتصرّف حالاتها، وكن آنس ما تكون منها أحذر ما تكون منها فإنّ صاحبها كلّما اطمأنّ فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور

ومن كتاب له عليه السلام
إلى سلمان الفارسي «رض» قبل أيام خلافته

[**أمّا بعد، فإنّما مثل الدنيا كمثل الحيّة، ليّنٌ مسّها قاتل سمّها**] ويماثل الأوّل رفاهية العيش ولذاته، والثاني هلاك المنهمكين في لذّاتها يوم القيامة.

[**فاعرض عمّا يعجبك فيها لقلّة ما يصحبك منها**] فإنّ الإنسان لا يصحب منها إلا الكفن ولواحقه.

[**وضع عنك همومها لما أيقنت به من فراقها**] أي: لأنّك متيقّن لفراقها وكلّما تيقنت فراقه وجب أن ـــــ همّك عن طلبه.

[**وتصرّف حالاتها، وكن آنس ما تكون منها أحذر ما تكون منها فإنّ صاحبها كلّما اطمأنّ فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور**] و«ما» مصدرية و«آنس» نصب على الحال، و«احذر» خبر كان أي: في حال كونك آنس بها كن أحذر ما يكون منها.

قال ابن أبي الحديد: سلمان رجل من فارس من رامهرمز وقيل بل من

. . . .

اصفهان، وهو معدود من موالي رسول اللّه ﷺ وكنيته أبو عبدالّله. وفي الاستيعاب: كان يسف الخوص وهو أمير على المدائن ويبيعه ويأكل منه، ويقول: لا أُحبّ أن آكل إلا من عمل يدي.

وقال: كان سلمان خيّراً فاضلاً عالماً زاهداً متقشّعاً والأكثر انّ أوّل مشاهده الخندق ولم يفته بعدها مشهد. وروي أنّه شد بدراً وكان عطائه خمسة آلاف وكان إذا خرج تصدّق به وأكل من عمل يده وكانت له عباة يفرش بعضها ويلبس بعضها، وذكر ابن وهب وابن نافع أنّه لم يكن له بيت إنّما كان يستظلّ بالجُدر والشجر، وقد روي عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «لو كان الدّين في الثريا لناله سلمان» وعن عائشة قالت: «كان لسلمان مجلس من رسول اللّه ﷺ يتفرّد به بالليل حتّى كان يغلب على رسول اللّه ﷺ» وعنه ﷺ: «أمرني ربّي بحبّ أربعة وأخبرني أنّه يحبّهم: عليٌّ وأبوذر والمقداد وسلمان» وعن علي عليه السلام وقد سُئِل عن سلمان قال: «علم العلم الأوّل والعلم الآخر ذاك بحر لا ينزف وهو منّا أهل البيت» وعن عليه السلام: «سلمان كلقمان الحكيم».

ومن كتاب كتبه عليه السلام
إلى الحرث الهمداني

قال ابن أبي الحديد كان أحد الفقهاء له يول في الفتيا وكان صاحب علي عليه السلام وإليه تُنسب الشيعة الخطاب الذي خاطبه به في قوله:

وتمسّك بحبل القرآن وانتصحه وأحلّ حلاله وحرِّم حرامه وصدّق بما سلف من الحقّ واعتبر بما مضى من الدنيا لما بقي فيها فإنّ بعضها يشبه بعضاً وآخرها لاحقٌ بأوّلها وكلّها حائل مفارق، وعظّم اسم اللّه إن تذكره إلا على حقّ وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت

يا حار همدان من ميت يرني　　　من مؤمن أو منافق قبلا

[**وتمسّك بحبل القرآن**] أي: الزم العمل به، واستعارة الحبل لما في النبوي بعد الأمر بالتمسّك بالثقلين فقال: «أحدهما كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرف بيد اللّه وطرف بأيديكم».

[**وانتصحه**] أي: اتّخذه ناصحاً بحيث تقبل أمره وشوره لأنّه يهدي إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم.

[**وأحلّ حلاله وحرِّم حرامه**] بأن تعمل بمقتضاهما.

[**وصدّق بما سلف من الحقّ**] ممّا حكاه من أحوال القرون الماضية والأُمم الخالية وأحوال الأنبياء مع أُممهم ليصحّ منه الاعتبار.

[**واعتبر بما مضى من الدنيا لما بقي فيها**] فيجعل ما مضى أصلاً وما بقي فرعاً، والقدر المشترك بينهما من العلّة كونها مظنّة التغيّر والزوال، فيحم في الفرع بحكم الأصل من وجوب الزوال ونبّه على المشترك بقوله:

[**فإنّ بعضها يشبه بعضاً**] وعلى ما يلزم ذلك في الفرع بقوله: [**وآخرها لاحقٌ بأوّلها وكلّها حائل**] أي: زائل [**مفارق، وعظّم اسم اللّه إن تذكره**] حالفاً به [**إلا على حقّ وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت**] فإنّ ذكرهما يرقّق القلوب ويكفّر الذنوب وينفّر عن الدنيا ويرغّب في الآخرة.

ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكرهه لعامّة المسلمين واحذر كلّ عمل يعمل به في السرّ ويحذر منه في العلانية واحذر كلّ عمل إذا سُئِل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه ولا تجعل غرضك غرضاً لنبال القول ولا تحدّث الناس بكلّ ما سمعت فكفى بذلك كذباً

[**ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق**] من نفسك تطمئن إليه في طاعة اللّه وولايته فإنّ تمنّيه بدون ذلك سفه وحمق.

[**واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكرهه لعامّة المسلمين**] وهو نهي عن الاستئثار عليهم بالخيرات كقولهم: أرد للناس ما تريد لنفسك واكره لهم ما تكره لها.

[**واحذر كلّ عمل يعمل به في السرّ ويحذر منه في العلانية**] إشارة إلى التنزّه عن المعاصي ومقارفة أُمور الدنيا، وكذا كلّ عمل من شأنه أن ينكره إذا سُئِل عنه ويعتذر منه، كما أشار إليه بقوله:

[**واحذر كلّ عمل إذا سُئِل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه ولا تجعل غرضك غرضاً لنبال القول**] استعار لفظ الغرض والنبال لما يُرمى به من القول.

[**ولا تحدّث الناس بكلّ ما سمعت فكفى بذلك كذباً**] بأن تقول كان كذا وكذا دون أن تقول سمعت فلاناً يقول كذا، فإنّ بينهما فرقاً، ولذا قال: وكفى بذلك كذباً؛ إذ لعلّ ما سمعه كذباً في نفس الأمر فيكون قد كذب في قوله كان، بخلاف ما إذا قال سمعت أو أنّ فلاناً قال كذا.

ولا تردّ على الناس كلّما أحدثوك به فكفى بذلك جهلاً واكظم الغيظ واحلم عند الغضب وتجاوز عند المقدرة واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة الحسنة واستصلح كلّ نعمة أنعمها اللّه عليك ولا تضيعنّ نعمة من نعم اللّه عندك

[**ولا تردّ على الناس كلّما أحدثوك به فكفى بذلك جهلاً**] إذا جاز أن يكون في الواقع حقّاً فيحصل من إنكاره إنكار الحقّ.

[**واكظم الغيظ**] كما قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾.

[**واحلم عند الغضب**] روي أنّ عبداً لموسى بن جعفر الكاظم عليه السلام قدّم إليه صفحة فيها طعام حار، فعجل فصبّها على رأسه ووجهه، فغضب عليه السلام فقال له: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ قال: قد كظمت، قال: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: قد عفوت، قال: ﴿واللّه يحبّ المحسنين﴾ قال: أنت حرٌّ لوجه اللّه، وقد نحلتك ضيعتي الفلانية.

[**وتجاوز عند المقدرة**] يقرب مما قبله [**واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة الحسنة**] كما صفح رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن مشركي مكّة حين ظفر بهم وكما صفح عليه السلام عن أصحاب الجمل حين ظفر بهم وقد شقّوا عصى الإسلام.

[**واستصلح كلّ نعمة أنعمها اللّه عليك**] أي: استدمها بالشكر؛ لأنّه إذا استدامها فقد أصلحها، فإنّ بقائها صلاح.

[**ولا تضيعنّ نعمة من نعم اللّه عندك**] بالقصور عن الشكر والغفلة عنه أو المراد واس الناس فيها وأحسن إليهم واجعل بعضها لنفسك وبعضها للصدقة والإيثار، فإنّك إن لا تفعل ذلك تكن قد أضعتها.

وليـر عليك أثر مـا أنعم اللّه بـه عليك واعلم أنّ أفـضـل المؤمنين أفضلهم تقـدّمة يقدّمـها من نفسـه وأهله وماله ما تقدّم من خـير يبق لك ذخـره ومـا تؤخّره يكن لغـيـرك خـيـره وعليك حسـابه ووزره، واحـذر صحابة من يفيل رأيه وينكر عمله فإنّ الصاحب معتبر بصاحبه واسكن الأمصار العظام فإنّها جماع المسلمين واحذر منازل الغفلة والجفاء وقلّة الأعوان على طاعة اللّه

[**وليـر عليك أثر مـا أنعم اللّه به عليك**] بإظهارها على نفسك وذويك وصرف فاضلها إلى أهل الاستحقاق.

[**واعلم أنّ أفضل المؤمنين أفـضلهم تقدّمة**] أي: صدقة [**يقدّمها من نفسـه وأهله وماله**] بأقواله وافعاله وإنّك [**ما تقدّم من خير يبق لك ذخره ومـا تؤخّره يكن لغـيرك خيره وعـليك حسـابه ووزره، واحـذر صحـابة**] بفتح الصـاد مـصدر صـحـبت [**من يفيل رأيه**] أي: يضعف [**وينكر عمله**] لسوئه وردائته.

[**فإنّ الصاحب معتبر بصاحبه**] يقاس به وينسب فعله إلى فعله ولأنّ الطبع مع الصحبة أطوع منه للفعل منه للقول فلو صحبه لسانه فعله.

[**واسكن الأمـصار العظام فـإنّها جماع المسلمين**] أي: مجمعـهم وكان يقـال: لا تسكن إلا في مصـر فيه سـوق قائمة ونهـر جار وطبيب حاذق وسلطان عادل.

[**واحذر منـازل الغفلة والجفـاء وقلّةِ الأعوان على طاعة اللّه**] كقرى السواد والرساتيق فـإنّ أهلها لا نور فيهم ولا ضوء عليـهم وإنّما هم كالدواب والأنعام همّتهم الحرث والفلاحة ولا يفقهون ومجاورتهم تعمي القلب

واقصر رأيك على ما يعنيك وإيّاك ومقاعد الأسواق فإنّها محاضر الشيطان ومعارض الفتن وأكثر أن تنظر إلى من فضّلت عليه فإنّ ذلك من أبواب الشكر ولا تسافر في يوم جمعة حتّى تشهد الصلاة إلا فاصلاً في سبيل اللّه أو في أمر تعذر به وأطع اللّه في جمل أُمور فإنّ طاعة اللّه فاضلة على ما سواها

وتظلّم الحسن وإذا لم يجد الإنسان من يعينه على طاعة اللّه وعلى تعلّم العلم قصّر فيهما.

[**واقصر رأيك على ما يعنيك**] فإنّ فيه شغلاً عمّا لا يغنيك [**وإيّاك ومقاعد الأسواق فإنّها محاضر الشيطان**] لكونها مجمع الشهوات ومحلّ الخصومات التي مبدئها الشيطان.

[**ومعارض الفتن**] جمع معرض وهو محلّ عروض الفتن.

[**وأكثر أن تنظر إلى من فضّلت عليه**] في نعمة من نعم اللّه تعالى.

[**فإنّ ذلك من أبواب الشكر**] لكونه سبباً للدخول إليه منه، وكلّما كان من أبواب الشكر فواجب ملازمته [**ولا تسافر في يوم جمعة حتّى تشهد الصلاة**] صلاة الجمعة، فإنّه يجب السعي إليها من فرسخين، فكيف يسافر عنها.

[**إلا فاصلاً في سبيل اللّه**] كجهاد ونحوه [**أو في أمر تعذر به**] فعند الضرورات تباح المحظورات.

[**وأطع اللّه في جمل أُمور فإنّ طاعة اللّه فاضلة على ما سواها**] وكلّما فضل سواه فينبغي لزومه لأنّها توجب السعادة الدائمة والخلاص من الشقاء الدائم والأفضل ممّا يؤدّي إلى ذلك.

وخداع نفسك في العبادة وارفق بها ولا تقهرها وخذ عفوها ونشاطها إلا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة فإنّه لابدّ من قضائها وتعاهدها عند محلّها وإيّاك أن ينزل بك الموت وأنت آبق من ربّك في طلب الدنيا وإيّاك ومصاحبة الفسّاق فإنّ الشرّ بالشرّ ملحق

[**وخداع نفسك في العبادة**] أي: تلطّف لها في النوافل.

[**وارفق بها ولا تقهرها**] فتملّ وتضجر [**وخذ عفوها ونشاطها إلا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة فإنّه لابدّ من قضائها وتعاهدها عند محلّها**] قيل: لمّا كان شأن النفس اتّباع الهوى وموافقة الطبيعة فبالحري أن تخادع عن مألوفها إلى غيره تارةً بأن يذكر الوعد وتارةً الوعيد وتارة الاستشهاد بمن هو دونها ممّن شمّر في عبادة اللّه وتارةً باللوم لها على التفريط في جنب اللّه فإذا سلك بها فينبغي أن يكون بالرفق م غير قهرها على العبادة لكون ذلك داعية الملال والانقطاع كما أشار إليه النبيﷺ بقوله: «إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة اللّه فإنّ النبت لا أرضا أقطع ولا ظهراً أبقى.

[**وإيّاك أن ينزل بك الموت وأنت آبق من ربّك في طلب الدنيا**] استعار له الاباق باعتبار خروجه عن أمره ونهيه واشتغاله بالدّنيا التي هي عدوّة للّه ولرسوله.

[**وإيّاك ومصاحبة الفسّاق فإنّ الشرّ بالشرّ ملحق**] فيصير لك شرّاً كشرّهم لأنّ القرين بالمقارن يقتدي ونعم ما قيل:

صاحب أخاً ثقة تحضى بصحبته ... فالطبع مكتسب من كلّ مصحوب
كالريح آخذه مما تمرّه به ... نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

ووقّر اللّه وأحبّ أحبائه واحذر الغضب فإنّه جند عظيم من جنود إبليس والسلام أمّا بعد، فقد بلغني أنّ رجالاً من قبلك يتسلّلون إلى معاوية فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم فكفى لهم غيّاً ولك منهم شافياً فرارهم من الهدى والحقّ وإيضاعهم إلى العمى والجهل

[**ووقّر اللّه**] وعظّمه في السرّ والعلانية.

[**وأحبّ أحبائه**] وأوليائه [**واحذر الغضب فإنّه جند عظيم من جنود إبليس**] وهو أعظم ما يدخل به على الإنسان فيملكه ويصير في تصريفه كما يملك الداخل بالجند العظيم على المدينة، [**والسلام**].

ومن كتاب له عليه السلام
إلى سهل بن حنيف الأنصاري

وهو عامله على المدينة في مضي قوم من أهلها أُلحقوا بمعاوية:

[**أمّا بعد، فقد بلغني أنّ رجالاً من قبلك يتسلّلون**] أي: يخرجون [**إلى معاوية**] محاربين في خفية واستتار [**فلا تأسف**] أي: لا تحزن [**على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم**] تسليةً له عمّا فاته من عددهم ومددهم.

[**فكفى لهم غيّاً**] أي: ضلالاً [**ولك منهم شافياً فرارهم من الهدى والحقّ وإيضاعهم**] أي: إسراعهم [**إلى العمى والجهل**] أي: يكفيك في الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم أنّهم يتسلّلون إلى معاوية.

وإنّما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومهطعون إليها قد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه وعلموا أنّ الناس عندنا في الحقّ أُسوة فهربوا إلى الأثرة فبعداً لهم وسحقاً إنّهم لم يفرّوا للّه من جور منّا ولم يلحقوا بعدل وإنّا لنطمع في هذا الأمر أن يذلّل اللّه لنا صعبه ويسهّل لنا حزنه إن شاء اللّه، والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته.

أمّا بعد، فإنّ صلاح أبيك غرّني منك وظننت أنّك تتّبع هديه

[وإنّما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومهطعون] أي: مسرعون [إليها قد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه وعلموا أنّ الناس عندنا في الحقّ أُسوة فهربوا إلى الأثرة] أي: لمّا كان شأنهم ذلك وعرفوا العدل عندنا وعلموا تساوي الناس عندنا في الحقّ هربوا إلى الاستئثار والاستبداد عند معاوية.

[فبعداً لهم وسحقاً] مصدران وصفا للدعاء.

[إنّهم لم يفرّوا للّه من جور منّا ولم يلحقوا بعدل] من معاوية [وإنّا لنطمع في هذا الأمر أن يذلّل اللّه لنا صعبه ويسهّل لنا حزنه إن شاء اللّه والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته].

ومن كتاب له عليه السلام
إلى المنذر بن الجارود العبدي

وقد كان استعمله على بعض النواحي فخان الأمانة:

[أمّا بعد، فإنّ صلاح أبيك غرّني منك وظننت أنّك تتّبع هديه

وتسلك سبيله فإذا أنت فيما رقّى إليّ عنك لا تدع لهواك انقياد ولا تبقى لآخرتك عتاداً تعمر دنياك بخراب آخرتك وتصل عشيرتك بقطيعة دينك ولئن كان ما بلغني عنك حقّاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسدّ به ثغراً أو ينفذ به أمراً أو يعلى له قدراً أو يشرك في أمانة أو يؤمن على جباية

وتسلك سبيله فإذا أنت فيما رقّى] بالتشديد أي: رُفع **[إليّ عنك لا تدع لهواك انقياد]** بل تنقاد لهواك وتخالف هواك، ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾.

[ولا تبقى لآخرتك عتاداً] أي: عدّة **[تعمر دنياك بخراب آخرتك وتصل عشيرتك بقطيعة دينك]** قيل: كان فيما رقى إليه عنه أنّه يقتطع المال ويضعه على رهطه وقومه ويخرج بعضه في لذّته ومآربه.

[ولئن كان ما بلغني عنك حقّاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك] قيل: يضرب بالجمل المثل في الهوان، وأصله انّ الجمل يكون لأب القبيلة فيصير ميراثاً لهم يسوقه كلّ منهم ويصرفه في حاجته فهو ذليل حقير بينهم، وبشسع النعل في الاستهانة لابتذالها ووطئها الأقدام في التراب.

[ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسدّ به ثغراً] أي: لا يصحّ للولاية.

[أو ينفذ به أمراً أو يعلى له قدراً أو يشرك في أمانة] لأن الخلفاء أُمناء اللّه في بلاده فمن ولوه من قبلهم فقد أشركوه في أمانتهم.

[أو يؤمن على جباية] بالجيم ثمّ الباء الموحّدة ثمّ الياء المثنّاة من تحت أي: استجباء الخراج وجمعه، وفي رواية «خيانة» أي: حال خيانتك لأنّ

فأقبل إليّ حتّى يصل إليك كتابي هذا إن شاء اللّه ولا مرزوق ما ليس لك واعلم بأنّ الدهر يومان يومٌ لك ويومٌ عليك

كلمة «على» تفيد الحال.

[**فأقبل إليّ حتّى يصل إليك كتابي هذا إن شاء اللّه**].

قال السيّد الرضي «ره» المنذر بن الجارود هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام إنّه لنظّار في عطفيه مختال في برديه تفّال في شراكه، والتفل في الشراك نفخ الغبار عنه.

وقال ابن أبي الحديد: المنذر بن الجارود كان مرجئاً وابنه الحكم يتلوه في الشرف، والمنذر غير معدود في الصحابة ولا رأى رسول اللّه ولا ولد في أيّامه وكان تائهاً معجباً بنفسه وقال: وفد الجارود على النبي صلى الله عليه وآله في سنة تسع وقيل في سنة عشر وفي الاستيعاب انّه كان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبداللّه بن العبّاس: أمّا بعد، فإنّك لست بسابق أجلك] لأنّه هو الوقت الذي علم اللّه موت الشخص فيه ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

[**ولا مرزوق ما ليس لك**] إذ الرزق مقدّر معيّن وما علم اللّه أنّه ليس رزقاً له فمحال أن يرزقه.

[**واعلم بأنّ الدهر يومان يومٌ لك**] وهو اليوم الذي يكون فيه المنافع واللّذات والكمالات [**ويومٌ عليك**] وهو ما فيه المضار والآلام.

وإنّ الدنيا دار دول وما كان منها عليك لم تدفعه بقوّتك أمّا بعد، فإنّي على التردّد في جوابك والاستماع لكتابك لموهن رأي ومخطئ فراستي فيك وإنّك إن تخاذلني الأمور وتراجعني السطور

[**وإنّ الدنيا دار دول**] كما قال تعالى: ﴿تلك الأيّام نداولها بين الناس﴾.

[فما كان منها لك أتاك على ضعفك وإعراضك وعجزك [**وما كان منها عليك لم تدفعه بقوّتك**] بل الأمور والأرزاق مستندة إلى مدبّر حكيم فاسترح وفوّض الأمر إلى الله ولا تتعب نفسك وبدنك في الطلب، فإنّ ما قدّر لك يصل إليك، وما لم يقدّر لا يأتيك، ولو بذلت جهدك، فما هذا التعب والجهد. وفي النبوي: «إنّ الروح الأمين نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

ومن كتاب له عليه السلام
إلى معاوية

[**أمّا بعد، فإنّي على التردّد في جوابك والاستماع لكتابك لموهن**] أي: مضعف [**رأي ومخطئ فراستي فيك**] لغلبة ظنّي انّ مكاتبتك وجوابك لا فائدة فيه.

[**وإنّك إن تخاذلني الأمور وتراجعني السطور**] أي: مراجعة الكتب في ذلك.

كالمشتغل النائم تكذبه أحلامه أو المتحيّر القائم ينهظه مقامه لا يدري أله ما يأتي أم عليه ولست به غير أنّه بك شبيه وأُقسم باللّه لولا بعض الاستبقاء لوصلت إليك منّي قوارع تقرع العظم وتهلس اللّحم عن أن تراجع أحسن أُمورك

[**كالمشتغل النائم**] أي: الغريق في النوم [**تكذبه أحلامه**] أي: تخيلاته وأمانيه في وصول هذا الأمر إليه تخيلات كاذبة صادرة عن جهل غالب كالأحلام الكاذبة للمستغرق في نومه إذا استيقظ لم يجدها شيئاً.

[**أو المتحيّر القائم**] وأشار إلى وجه الشبه بقوله: [**ينهظه مقامه**] حيث انّ معاوية مجدّ في هذا الأمر متحيّر في تحصيله متهوّر في طلبه مع جهله بعاقبة سعيه هل هي خير أو شرّ كالقائم المتحيّر في أمر يتعب بطول مقامه ولا يعرف غايته من مقامه.

[**لا يدري أله ما يأتي أم عليه**] ثمّ لم يرض له بهذا التشبيه بل زاد مبالغةً في غفلته ونومه في مراقد طبيعته وحيرته فقال:

[**ولست به**] أي: ولست بهذا شبيهاً فيكون هو أصلاً لك في الشبه [**غير أنّه بك شبيه**] أي: إنّك أصل له في ذلك الشبه [**وأُقسم باللّه لولا بعض الاستبقاء**] للمصالح [**لوصلت إليك منّي قوارع**] أي: حروب شديدة [**تقرع العظم وتهلس اللّحم**] أي: تذهب به ويقرب منه النهش كما في بعض النسخ.

واعلم انّ الشيطان قد ثبّطك] أي: أشغلك وأقعدك [**عن أن تراجع أحسن أُمورك**].

قال ابن أبي الحديد: إنّي لموهّن رأيي ـ بالتشديد أي: لائم يقيني ـ

. . . .

ومستضعف رأيي في أن جعلتك نظيراً أكتب وتجيبني وتكتب وأُجيبك وإنّما كان ينبغي أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانك وإنّك في مناظرتي ومقاومتي بالأُمور التي تحاولها والكتب التي تكتبها كالنائم يرى أحلاماً كاذبة أو كمن قام مقاماً بين يدي سلطان قد أثقله مقامه ذلك فهو لا يدري هل ينطق بكلام هو له أم عليه فيتحيّر ويدركه العي، ثمّ قال: وإن كنتُ لستُ بذلك الرجل فإنّك شبيه به.

أمّا تشبيهه بالنائم ذوي الأحلام، فإنّ معاوية لو رأى في المنام حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه خليفة يخاطبه بإمرة المؤمنين ويحارب عليّاً على الخلافة ويقوم في المسلمين مقام رسول الله صلى الله عليه وآله لما طالب لذلك المنام تأويلاً ولا تعبيراً واحدة من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام. ثمّ قال: وأمّا تشبيهه إيّاه بالقائم ... إلخ، فلأنّ الحجج وألسنة المعاذير التي يذكرها معاوية في كتبه أوهن من نسج العنكبوت فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام يخبط خبط عشواء ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من الناس أنّه سفه وباطل، ثمّ قال في معنى قوله «لولا بعض الاستبقاء ... إلخ»: قيل إنّ النبي صلى الله عليه وآله فوّض إليه أمر نسائه بعد موته وجعل إليه أن يقطع عصمة أيّتهن شاء إذا رأى ذلك ولجماعة من الصحابة يشهدون له بذلك فقد كان قادراً أن يقطع عصمة أُم حبيبة ويبيح نكاحها للرجال عقوبة لها ولمعاوية ــــ فإنّها كانت تبغض عليّاً كما يبغضه أخوها ولو فعل ذلك لانتهش لحمه وهذا قول الإمامية، وقد رووا عن رجالهم أنّه عليه السلام تهدّد عائشة بضرب من ذلك.

وأمّا نحن فلا نصدّق هذا الخبر، وتفسير كلامه على معنى آخر وهو أنّه

هذا ما أجمع عليه أهل اليمن حاضرها وباديها أنّهم على كتاب اللّه يدعون إليه ويأمرون به ويحييون من دعى إليه لا يشترون به ثمناً ولا يرضون به بدلاً

قد كان معه من الصحابة قوم كثيرون سمعوا رسول اللّهﷺ يلعن معاوية بعد إسلامه ويقول: إنّه منافق كافر وإنّه من أهل النار، والأخبار في ذلك مشهورة، فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك ويسمعهم قولهم ملافظةً ومشافهةً لفعل.

ومن حلف له عليه السلام

كتبه بين اليمن وربيعة نقل من خطّ هشام بن الكلبي.

قال ابن أبي الحديد: الحلف: العهد، أي: من كتاب حلف، فحذف المضاف، واليمن كلّ من ولده قحطان نحو حمير وعك وحذام وكندة والأزد وغيرهم، وربيعة هو ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وهم بكر وتغلب وعبدالقيس وهشام بن محمد نسّابة بن نسّابة عالم بأيام العرب وأخبارها وأبوه أعلم منه.

[**هذا ما أجمع عليه أهل اليمن حاضرها**] أي: ساكنوا الحضر [**وباديها**] أي: ساكنوا البادية [**أنّهم**] مجتمعون [**على كتاب اللّه يدعون إليه ويأمرون به ويحييون من دعى إليه لا يشترون به ثمناً**] أي: لا يتعوّضون عنه بالثمن.

[**ولا يرضون به بدلاً**] كناية عن لزومهم له وللعمل به.

وإنّهم يد واحدة على من خالف ذلك وتركه وإنّهم أنصار بعضهم لبعض، دعوتهم واحدة لا ينقضون عهدهم لمعتبة عاتب ولا لغضب غاضب ولا لاستذلال قوم قوماً

[**وإنّهم يد واحدة**] أي: يتعاونون [**على من خالف ذلك وتركه**] فأطلق اسم اليد على التعاون مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

[**وإنّهم أنصار بعضهم لبعض، دعوتهم واحدة لا ينقضون عهدهم لمعتبة عاتب**] أي: لا يؤثّر في هذا العهد والحلف ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم؛ لأنّه استجداه فلم يجده أو طلب منه أمراً فلم يقم به.

[**ولا لغضب غاضب**] ولا لأنّ أحداً منهم غضب من أمر صدر من صاحبه.

[**ولا لاستذلال قوم قوماً**] أي: ولا لأنّ عزيزاً منهم استذلّ ذليلاً منهم أو أنّ إنساناً منهم سبّ آخر وهجا أحداً، وروي «لمشيّة قوم قوماً» أي: لإرادتهم لهم.

[على ذلك شاهدهم وغائبهم وحليمهم وجاهلهم، ثمّ إنّ عليهم بذلك عهد اللّه وميثاقه ﴿إنّ عهد اللّه كان مسؤولاً﴾ وكتب عليّ بن أبي طالب وفي رواية مشهورة ابن أبو طالب، فجعل الكنية علماً بمنزلة لفظة واحدة لا يتغيّر إعرابها.

من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أمّا بعد، فقد علمت إعذاري فيكم وإعراضي عنكم حتّى كان ما لابدّ له منه ولا دفع له والحديث طويل والكلام كثير وقد أدبر من أدبر وأقبل من أقبل فبايع من قبلك وأقبل إليّ وفد من أصحابك، والسلام.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية من المدينة في أوّل ما بويع له بالخلافة ذكره الواقدي في كتاب الجمل

[**من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أمّا بعد، فقد علمت إعذاري فيكم**] إلى الله في نصح عثمان وكوني ذا عذر لولتكم أو زعمتكم في أيّام عثمان.

[**وإعراضي عنكم**] أي: مع كوني ذا عذر لو فعلت ذلك فلم أفعله بل أغرضت عن إسائتكم إليّ وضربت عنكم صفحاً.

[**حتّى كان ما لابدّ له منه ولا دفع له**] من قتل عثمان وما جرى بعده [**والحديث طويل والكلام كثير**] في أمره ومن قتله وكيف قُتل وما آل إليه.

[**وقد أدبر من أدبر**] كطلحة والزبير ومن تابعهما [**وأقبل من أقبل**] على النصرة والمقاتلة، والمراد قد دخل في الإدبار من أدبر عنّي وفي الإقبال من أقبل عليّ، والمراد قد أدبر بذلك الزمان وأقبل زمان آخر.

[**فبايع من قبلك**] من الجماعة لي [**وأقبل إليّ وفد من أصحابك، والسلام**].

ومجلسك وحكمك وإيّاك والغضب فإنّه طيرة من الشيطان واعلم انّ ما قرّبك من اللّه يباعدك من النار وما باعدك من اللّه يقرّبك من النار لا تخاصمهم بالقرآن فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه

ومن وصيّة له عليه السلام

لعبداللّه بن عباس عند استخلافه إيّاه على البصرة: سع الناس بوجهك بالبشر وطاقة المحيّا.

[**ومجلسك**] بالتواضع [**وحكمك**] بالعدل؛ لأنّ العدل يسع كلّ أحد والجور ضيق لا يحتمل الكلّ.

[**وإيّاك والغضب فإنّه طيرة من الشيطان**] بفتح الطاء وسكون الياء فعلة من الطيران أي: خفّة وطيش، وروي طيرة من التطيّر وهو التشاؤم أي: إنّه مما يتشئم الناس بصاحبه ويكرهه.

[**واعلم انّ ما قرّبك من اللّه يباعدك من النار وما باعدك من اللّه يقرّبك من النار**] فتحرّ ما ينفعك واجتنب ما يضرّك واللّه المستعان.

ومن وصيّة له عليه السلام
لعبداللّه بن عباس لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج

[**لا تخاصمهم بالقرآن فإنّ القرآن حمّال**] يحتمل المعاني الكثيرة [**ذو وجوه**] عديدة فيه مجال واسع للقيل والقال والنزاع والجدال، له ظهور

ولكن خاصمهم بالسنّة فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً فإنّ الناس قد تغيّر كثير منهم عن كثير من حظّهم فمالوا مع الدنيا ونطقوا بالهوى وإنّي نزلت من هذا الأمر منزلاً معجباً

وبطون ولبطونه بطون وفيه المحكم والمتشابه والنصّ والظاهر والمجمل والمؤول والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيّد والعامّ والخاصّ.

[**ولكن خاصمهم بالسنّة فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً**] أي: معدلاً، فإنّه لو احتجّ عليهم على حقيقة أميرالمؤمنين بقوله تعالى: ﴿إنّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة وهم راكعون﴾ وقوله تعالى: ﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك﴾ ونحو ذلك لكان لهم في القول مجال بخلاف ما لو احتجّ عليهم بقول النبيﷺ «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه حيثما دار»، وقولهﷺ: «اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» ونحو ذلك.

ومن كتاب لهعليه السلام

أجاب به أبا موسى الأشعري عن كتاب كتبه إليه من المكان الذي أقعدوا فيه للحكومة وكذر هذا الكتاب سعيد بن يحيى الأموي في كتاب المغازي.

[**فإنّ الناس قد تغيّر كثير منهم عن كثير من حظّهم**] الحظّ الذي ينبغي لهم من الدّين والهدى [**فمالوا مع الدنيا ونطقوا بالهوى وإنّي نزلت من هذا الأمر**] أي: أمر الخلافة [**منزلاً معجباً**] بكسر الميم أي: يعجب من

اجتمع به أقوام أعجبتهم أنفسهم وأنا أُداوي منهم قرحاً اخاف أن يعود علقاً وليس رجل ـ فاعلم ـ أحرص على جماعة أُمّة محمّد صلّى اللّه عليه وآله وأُلفتها منّي أبتغي بذلك حسن الثواب وكرم المآب وسأفي بالّذي وأيتُ على نفسي وإن تغيّرت على صالح ما فارقتني عليه

رآه أن يجعله متعجباً منه بحيث صار محكوماً لهم في قبول الحكومة والرضى بالصلح وغيره.

[**اجتمع به أقوام**] صفة منزل، أي: إنّ هذا المنزل الذي أنا فيه من هذا الأمر قد اجتمع معي وشاركني في رأيي فيه أقوام.

[**أعجبتهم أنفسهم**] وآرائهم فاعتدوا عليّ الأمر [**وأنا أُداوي منهم قرحاً**] استعار القرح لما فسد من حاله باجتماعهم على التحكيم والمداواة لاجتهاد في إصلاحهم.

[**اخاف أن يعود علقاً**] استعار العلق لما يخافه من تفاقم أمرهم.

[**وليس رجل ـ فاعلم ـ أحرص على جماعة أُمّة محمّد صلّى اللّه عليه وآله وأُلفتها منّي**] و«أحرص» خبر ليس، وقوله «فاعلم» اعتراض حسن بين ليس وخبرها، و«رجل» يفيد العموم؛ لكونه نكرة في سياق النفي، ثمّ أبان غرضه من الحرص على الالفة بقوله: [**أبتغي بذلك حسن الثواب وكرم المآب**] من الكريم الوهّاب.

[**وسأفي بالّذي وأيتُ على نفسي وإن تغيّرت على صالح ما فارقتني عليه**] أي: أنا سوف أفي بما وعدت وما استقرّ بيني وبينك من العهد والشروط وإن كنت أنت قد تغيّرت عن صالح ما فارقتني عليه.

فإنّ الشقي من ُحرم نفع ما أُوتي من العقل والتجربة وإنّي لأعبد أن يقول قائل بباطل ولن أفسد أمراً قد أصلحه اللّه فدع عنك حالاً تعرف فإنّ شرار الناس طائرون إليك بأقاويل السوء، والسلام.

أمّا بعد، فإنّما أُهلك من كان قبلك أنّهم منعوا الناس الحقّ فاشتروه وأخذوهم بالباطل فاقتدوه

[**فإنّ الشقي من ُحرم نفع ما أُوتي من العقل والتجربة**] إشارة إلى أنّه إن خدع أو تغيّر بأمراض فقد حرم نفع عقله وسابقة تجربته فلزمته الشقاوة.

ثمّ قال: [**وإنّي لأعبد**] أي: أنف من عبد بالكسر أي: أنف [**أن يقول قائل بباطل**] أي: آنف من ان يقول غيري قولاً باطلاً فكيف لا آنف ذلك من نفسي.

[**ولن أفسد أمراً قد أصلحه اللّه**] وهو أمر الدّين [**فدع عنك حالاً تعرف**] من الحكم في هذه القضية بالشبهة [**فإنّ شرار الناس**] كعمرو بن العاص ونحوه [**طائرون إليك بأقاويل السوء**] أي: لا تصغ إلى قول الوشاة والنمّامين فإنّهم سرّاع إلى أقاويل السوء [**والسلام**].

ومن كتاب له عليه السلام

لما استخلف أُمراء الأجناد

[**أمّا بعد، فإنّما أُهلك من كان قبلك أنّهم منعوا الناس الحقّ فاشتروه**] أي: فاشترى الناس الحقّ منهم بالوشاء والأموال.

[**وأخذوهم بالباطل فاقتدوه**] أي: جعلوا تصرّفاتهم معهم بالباطل فاقتدوا بالباطل وسلكوا فيه مسلك من أخذهم به كقوله تعالى: ﴿فبهداهم اقتده﴾

باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام

ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير الخارج عن سائر أغراضه

كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر فيُركتب ولا ضرع فيُحلب

باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام

قال عليه السلام:

[كن في الفتنة كابن اللبون] وهو ولد الناقة الذي إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة يقال للأُنثى ابنة اللبون وذلك لأنّ أُمّها في الأغلب تضع غيرها فتكون ذات لبن واللّبون من الإبل والشاء ذات اللّبن، وأشار إلى وجه الشبه بقوله:

[لا ظهر فيُركتب ولا ضرع فيُحلب] أي: ليس هو كاملاً قويّ ظهره فيُركب، وليس بأُنثى ذات ضرع فتُحلب، فهو مطرح لا ينتفع به، والمراد أن يكون في زمن الفتنة خاصل الذكر ضعيفاً غير مستكثر من المال كيلا يصلح لمعاونة الظالمين بنفسه ولا بماله ولا ينتفع به في الفتنة، كابن اللبون لا ينفع

أزرى بنفسه من استشعر الطمع ورضيّ بالذلّ من كشف عن ضرّه وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه.

بظهره ولا لبنه، و«ظهر» مبتدأ خبره محذوف، أي: لا ظهر له فيُركب، و«يركب» عطف على الجملة، وروي منصوباً بإضمار أن في جواب المنفي وكذا قوله «فيُحلب».

وقال عليه السلام:

[**أزرى بنفسه**] أي: قصر بها [**من استشعر الطمع**] أي: جعله شعاره، أي: لازمه، وفي النبوي: سُئِل صلى الله عليه وآله عن الغنى فقال: «اليأس عمّا في أيدي الناس ومن مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً» وذلك أنّ الطمع بما في أيدي الناس يستلزم الحاجة إليهم والخضوع لهم وهو يستلزم الهون عليهم وسقوط المنزلة، واستعار الاستشعار لملازمة الطمع ومباشرته للقلب كالشعار للجسد.

[**ورضيّ بالذلّ من كشف عن ضرّه**] أي: من شكى إلى الناس بؤسه وفقره فقد رضي بالذلّ؛ لأنّه إن كان عدوّاً سرّه وإن كان صديقاً سائه، ويلزم ذلك الذلّ والرضى به.

[**وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه**] وفيه تنفير للإنسان عن الإكثار في القول من غير تدبّر ومراجعة لعقله بما يلزم ذلك من هوان نفسه في الدنيا؛ لأنّ زيادة القول تكون سبباً للهلاك في الآخرة لقوله صلى الله عليه وآله: «وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم» واستعار وصف التأمير لتسليط اللّسان على ما يؤذي النفس من غير مراجعتها فكأنّها صارت محكومة له.

وقال عليه السلام:

البخلُ عارٌ والجبن منقصة والفقر يخرس الفطن عن حاجته والمقلّ غريب في بلدته.
والعجز آفة الصبرُ شجاعة والزهد ثروة

[**البخلُ عارٌ**] فبقدر حمد الإنسان على الكريم يذمّ على البخل.

[**والجبن منقصة**] لأنّه رذيلة التفريط من مظنّة الشجاعة التي هي أصل من الكمالات النفسانية كان الجبن رذيلة ومنقصة.

[**والفقر يخرس الفطن عن حاجته**] لكونه مذلّة وله في النفس فعل عظيم بالقبض والفتور والانفعال عن الغير ومبدء كلّ ذلك تصوّر العجز وتوهّم القصور بسبب عدم المال عن مقاومة الخصوم فيحصل التخوّف من الكلام والعي عنه، وإن كان صاحبه فطناً، واستعار لذلك وصف الخرس ملاحظةً لشبهه به.

[**والمقلّ غريب في بلدته**] أي: الفقير، واستعار له الغريب باعتبار عدم التفات الناس إليه وقلّة الأعوان والاخوان له لإقلاله، فهو كالغريب الذي لا يعرف.

[**والعجز آفة**] لأنّ الآفة هي النقص أو ما أوجب النقص، والعجز كذلك، والعجز بدني وهو عدم القدرة على التصرّفات البدنية عمّا من شأنه أن يقدر، ونفساني وهو عدم القدرة على مقاومة الهوى ودفعه، والأوّل آفة بدنية ونقصان فيه، والثاني آفة في العقل وعاهة فيه.

[**الصبرُ شجاعة**] الصبر مقاومة الهوى وهو جهاد مع النفس الأمّارة يستلزم الشجاعة، ونعم ما قيل: الصبر لا يتجرّعه إلا حرّ.

[**والزهد ثروة**] والثروة: ما استغنى به عن الناس ولا غنى عنهم، كالزهد في دنياهم، فهو الغنى الأكبر وفسّر الزهد بإعراض النفس عن متاع

والورع جُنّة ونِعْم القرين الرضا العلم وراثة كريمة والآداب حلل مجددة والفكر مرآة صافية وصدر العاقل صندوق سرّه

الدنيا وطيّباتها، وروي أنّه كلمتان في كتاب اللّه ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ وقيل هو ترك كلّ شيء يشغلك عن اللّه، وقيل: الزهد في الدنيا هو الزهد في المحمدة والرياسة لا في المطعم والمشرب.

[**والورع جُنّة**] الورع لزوم الأعمال الجميلة، فلذا استعار له لفظ الجُنّة لمشابهتها في الوقاية من عذاب اللّه في الآخرة ومن أكبر المصائب الدنيوية كما يجتن بالترس وغيره من السلاح.

[**ونِعْم القرين**] في الدنيا والآخرة [**الرضا**] بما قضى اللّه وقدره، وفي الحديث القدسي: «من لم يرض بقضائي فليتّخذ ربّاً سواي وليخرج من أرضي وسمائي» وقيل: من سخط القضاء طاح ومن رضى به استراح.

[**العلم وراثة كريمة**] لأنّ كلّ عالم من البشر إنّما يكتب علمه من أُستاذ يهذّبه ومعلّم يعلّمه فكأنّه ورث العلم عنه كما يرث الابن المال عن أبيه، وروي أنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنّما ورّثوا العلم.

[**والآداب حلل مجددة**] أي: الآداب الشرعية ومكارم الأخلاق الحسنة، واستعار لها الحُلَل المجددة لزينة الإنسان بها وتجدّد بهائه وحسنه وتهذيب نفسه على استمرار الزمان بلزومها واستخراج محاسنها كالحلل التي لا تزال تتجدّد على لابسها.

[**والفكر مرآة صافية**] أي: القوّة المفكّرة، واستعار لها المرآة باعتبار أنها إذا وُجّهت نحو تحصيل المطالب التصوّرية والتصديقية أدركتها وتمثّلت فيها كما يتمثّل في المرآة الصورة المجاذبة لها.

[**وصدر العاقل صندوق سرّه**] استعار للصدر صندوق السرّ لحفظه له

والبشاشة حبالة المودّة والاحتمال قبر العيوب.
وروي أنّه عليه السلام قال في العبارة المسالمة خباء العيوب ومن رَضِيَ عن نفسه كثر الساخط عليه والصدقة دواء منجح

كما يحفظ الصندوق ما فيه، وفيه إشارة إلى الأمر بكتمان السرّ، وقيل: لاتنكح خاطب سرّك.

[**والبشاشة حبالة المودّة**] استعار الحبالة باعتبار اقتناص الناس بها واستمالتهم إلى صداقته ومودّته كحبالة الصائد التي يقتنص فيها الطير.

[**والاحتمال قبر العيوب**] أي: احتمال المكروه والأذى من الناس وهو فضيلة عظيمة تحت الشجاعة، واستعار له قبر العيوب باعتبار ستره لمعائب صاحبه عند الناس كما يستر القبر ما فيه من جيفة الميّت.

[**وروي أنّه عليه السلام قال في العبارة**] عن هذا المعنى [**المسالمة خباء العيوب**] الخباء مصدر خبأته أخبوه وقال الجوهري: الخباء واحد الأخبية: بيت من وبر أو صوف ولا يكون من شعر ويكون على عمودين أو ثلاثة وما فوق ذلك، فهو بيت، والمسالمة فضيلة تحت العفّة، واستعار لها الخباء باعتبار أنّها تستجلب المودّة والمحبّة وتستلزم سكوت الناس عن العائب وسترها كالخباء، ونقيضها المخاصمة المستلزمة لثوران الطباع وإبراز المعايب.

[**ومن رَضِيَ عن نفسه كثر الساخط عليه**] لأنّه إذا اعتقد كمال نفسه وأكمليّتها نظر إلى غيره بعين الاحتقار ولم يوف الناس حقوقهم فيستحظوا عليه؛ ولأنّه يرفع نفسه فوق قدرها والناس يرونه بقدره فيكثر المنتقص له والساخط عليه.

[**والصدقة دواء منجح**] أي: نافع لمشابهتها الدواء، أمّا في الدنيا فللنبوي «داووا مرضاكم بالصدقة» ولأنّها تطابق القلوب على محبّة المتصدّق

وأعمال العباد في عاجلهم نُصب أعينهم في آجلهم إعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلّم بلحم ويسمع بعظم ويتنفّس من خرم

والرغبة إلى اللّه في دفع المكاره عنه فهي في ذلك سبب للشفاء كالدواء، وأمّا في الآخرة فلأنّها سبب لدفع المكاره الأُخروية.

[**وأعمال العباد في عاجلهم نُصب أعينهم في آجلهم**] أي: ظاهرة قائمة في أعينهم وهي الآن في أغشية من الهيئات البدنية وحجاب الشهوات النفسانية، فإذا زالت بمفارقة الجسد تجرّدت وانكشفت لها الأُمور، كما قال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾، وقال تعالى: ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً﴾.

وقال عليه السلام:

[**إعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم**] وهي الرطوبة المسمّاة بالبيضة والرطوبة الجليدية.

[**ويتكلّم بلحم**] وعنى به اللّسان، فإنّه لحم أبيض رخو تلتفّ به عروق صغار كثيرة فيها دم، ولذلك يتبيّن أحمر وتحته عروق وشريانات وأعصاب كثيرة، وقيل: ليس اللّسان آلة ضرورية في الكلام لأنّ من انقطع لسانه من أصله يتكلّم بخلاف ما إذا قطع رأسه، وإنّما الكلام باللّهوات وهي لحم أيضاً.

[**ويسمع بعظم**] وهو المسمّى بالحجري عظم صلب فيه مجرى الأُذن كثير التعاريج والعطفات يمرّ كذلك إلى أن يلقى العصبة الناتئة من الدماغ التي هي مجرى الروح الحاصل للقوّة السامعة.

[**ويتنفّس من خرم**] من خرم الأنف والفم وصّ هذه الأربعة بالذكر لكونها مع صفتها ضرورية في وجود الإنسان لا يقوم إلا بها.

إذا أقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم خالطوا الناس مخالطةً إن متّم معها بكوا عليكم وإن عشتم حنّوا إليكم إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه

وقال عليه السلام:

[**إذا أقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم**] أي: إذا أقبلت بجاهها ومالها على قوم أعارتهم محاسن أسباب السعادة الدنيوية لهم، استلزم ذلك إقبال الناس وتقرّبهم إليهم بكلّ ممكن ميلهم إلى الدنيا ومحبّتهم لها وأحسنوا في أعينهم واستعاروا لهم الأوصاف الجميله التي كانت في غيرهم وإن لم يكونوا في نفس الأمر كذلك وربّما كان إقبال الدنيا عليهم سبباً لاستعدادهم لتحصيل الكمالات النفسانية والملكات الفاضلة التي كانت محاسن لغيرهم قبلهم ويحتمل أن يراد محاسن الدنيا من مركوب وملبوس وأُبّهة ونحوها، وأطلق عليه العارية لعدم دوامه، وإذا أدبرت عنهم بحسب توافق أسباب الشقاوة فيها قبحوا في أعين الناس فإن زهد في الدنيا نسبوه إلى الرياء والسمعة وإن حسنته أخلاقه نسبوه إلى الملق والطمع.

قال عليه السلام: [**خالطوا الناس مخالطةً إن متّم معها بكوا عليكم وإن عشتم حنّوا إليكم**] إذ من لوازم حسن العشرة أن يحنّ إليه في الحياة ويفقد ويبكى على بعد الوفاة، والجملة الشرطية في محلّ النصب صفة المخالطة.

وقال عليه السلام: [**إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه**] لأنّ القدرة عليه نعمة من الله يجب شكرها والاعتراف لله والخضوع له، ويلزمه الرقّة وفتور الغضب ويتبع ذلك العفو فأقامه مقام الشكر

أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفّروا أقصاها بقلّة الشكر

للملازمة بينهما، ولما كان الشكر واجباً كان العفو لازماً.

وقال عليه السلام:

[**أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان**] أي: الأصدقاء الصادقين؛ لأنّ ذلك لا يحتاج إلى إتعاب قوّة بدنية ولا إعمال فكرة عقلية وإنّما يفتقر إلى كرم الأخلاق وحسن العشرة والبشر والطلاقة وهي أُمور طبيعيّة هيّنة، فالعاجز عنها أعجز الناس عمّا هو مقدور لهم.

[**وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم**] لأنّ المكتسب للاخوان ربّما احتاج إلى أدنى كلفة في اكتسابهم بخلاف الظافر بهم فإنّه غير محتاج إلى ذلك القدر من الكلفة، فكان سبب حفظ الاخوان أسهل من سبب تحصيلهم، فكان المضيّع لحفظهم أعجز من العاجز، عن اكتسابهم لعجزه عن حفظ الأمر الأسهل، فإن: قيل: قد قال: إنّ المضيّع لهم أعجز من أعجز الناس فلا يكون أعجز الناس هذا خلف، قيل: لفظ الناس مطلق وإنّما يلزم الخلف لو كان للعموم.

وقال عليه السلام:

[**إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفّروا أقصاها بقلّة الشكر**] استعار التنفير ملاحظةً لشبهها بالطير المتثل إذا سقط أوّله اتصل به آخره إن لم ينفر وفيه إشارة إلى أنّ دوام الشكر مستلزم لدوامها وكثرتها كقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لازيدنّكم﴾.

وقال عليه السلام:

من ضيّعه الأقرب أُتيح له الأبعد.

ما كلّ مفتون بعاتب تذلّ الأُمور للمقادير حتّى يكون الحتف في التدبير عن قول النبي صلى الله عليه وآله غيّروا الشيب ولا تشبّهوا باليهود، فقال عليه السلام إنّما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدّين قلّ فأمّا الآن وقد

[من ضيّعه الأقرب أُتيح له الأبعد] أي: إذا ضيّعه وأهمله عشيرته وأقربائه قدّر اللّه له من يقوم بمصالحه من هو أبعد عنه، وقد ضيّع رسول اللّه صلى الله عليه وآله رهطه من قريش وخذلوه وقام بنصره الأوس والخزرج، وهم من قحطان، وهو صلى الله عليه وآله من عدنان وكلّ منهما لا يحبّ الآخر، وقامت ربيعة بنصر أمير المؤمنين عليه السلام في صفّين وهم أعداء مضر الذين هم أهله ورهطه.

وقال عليه السلام:

[ما كلّ مفتون بعاتب] أي: ليس كلّ مفتون ينفع معه العتاب، وقيل: هذه الكلمة قالها لسعد بن أبي وقّاص ومحمد بن مسلمة وعبداللّه بن عمر لما امتنعوا من الخروج معه لحرب أصحاب الجمل.

وقال عليه السلام:

[تذلّ الأُمور للمقادير حتّى يكون الحتف في التدبير] استعار ذلّ الأُمور لمطاوعتها للقدر وجريانها على وفق القضاء، وفيه إشارة إلى وجوب إسناد الأُمور إلى اللّه والانقطاع إليه وعدم الاعتماد على التدبير، فإنّ التقدير يضحك على التدبير.

وقال عليه السلام:

[عن قول النبي صلى الله عليه وآله غيّروا الشيب ولا تشبّهوا باليهود] أي: غيّروه بالخضاب بالسواد أو الحناء ونحوهما، واليهود لا يفعلون ذلك.

[فقال عليه السلام إنّما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدّين قلّ] أي: قليل [فأمّا الآن وقد

اتّسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار في الّذين اعتزلوا القتال معه: خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل من جرى في عنان أمله عثر بأجله

اتّسع نطاقه] والنطاق: ثوب تلبسه المرأة لبسة مخصوصة ليس بصدر ولا سراويل، وقد استعاره لعظمه وما انتشر منه.

[وضرب بجرانه] أي: أقام وثبت لأنّ البعير إذا ضرب بجرانه الأرض وجرانه مقدّم عنقه، فقد استناخ وبرك.

وقوله: **[فامرؤ وما اختار]** أي: امرؤ مع اختياره، و«امرؤ» مبتدأ وإن كان نكرة، كقولهم: شراهر ذا ناب لحصول الفائدة، والواو للمعيّة و«ما» مصدرية والخبر محذوف، أي: مقرونان.

وقال عليه السلام:

[في الّذين اعتزلوا القتال معه: خذلوا الحقّ] يعني نفسه عليه السلام، حيث إنّه مع الحقّ والحقّ معه يدور كيفما دار.

[ولم ينصروا الباطل] يعني معاوية ومن شاهد من هؤلاء الجماعة: عبدالله بن عمرو أبو موسى الأشعري، والأحنف بن قيس، وأشباههم.

وقال عليه السلام:

[من جرى في عنان أمله عثر بأجله] استعار العنان ملاحظةً لشبهه بالفرس، ولفظ الجري للاندفاع في الأمل والعمل بحسب تطويله، ولفظ العثار للامتناع عن ذلك إلجري يعارض الأجل وقواطعه، كعثار العادي بما يعرض له من حجر ونحوه.

أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد اللّه يرفعه قُرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان فانتهزوا فرص الخير لنا حقٌّ فإنْ أُعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى

وقال عليه السلام:

[**أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد اللّه يرفعه**] ترغيبٌ في إقالة ذوي المروءات عثراتهم التي يتّفق وقوعها نادراً، واستعار العثرات لما يقع منهم خطأً من غير تثبّت، ولفظ «اليد» لعناية اللّه وقدرته، وكنّى عن تعلّقاته وتدارك حاله بكون يده بيد اللّه يرفعه؛ لأنّ المروءة فضيلة عظيمة تستجلب همم الخلق وقلوبهم ومساعداتهم، وقيل: اللّذة ترك المروءة والمروءة ترك اللّذة، وقيل: هي صلاح المال والرزانة في المجلس والغداء والعشاء بالفناء، وقيل: هي أن تقف عمّا حرّم اللّه وتحترز فيما أحلّ اللّه.

وقال عليه السلام:

[**قُرنت الهيبة بالخيبة**] لأنّ الهيبة وهي الخوف من المقابل يستلزم عدم قضاء الحاجة منه، وعدم الظفر بالمطلوب لعدم الانبساط في القول معه، وهو معنى اقترانها بالخيبة.

[**والحياء بالحرمان**] لاستلزام الحياء ترك الطلب والتعرّض له [**فانتهزوا فرص الخير**] أي: بادروا إلى فعله عند حضور وقت إمكانه، والفرصة تمرّ مرّ السحاب لأنّها سريعة الزوال، فيجب المبادرة إليها واغتنام وقت إمكانها.

وقال عليه السلام:

[**لنا حقٌّ فإنْ أُعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى**] قال

من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب

السيّد «ره»: وهذا من لطيف الكلام وفصيحه، ومعناه أنّا إذا لم نعط حقّنا كنّا أذلاء؛ وذلك أنّ الرديف يركب عجز البعير كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما، وقيل: المعنى إن منعنا حقّنا ركبنا مركب المشقّة وصبرنا عليه وإن طال ولم نضجر منه.

وقيل: ضربه عليه السلام مثلاً لتأخّره عن غيره في حقّه من الإمامة وتقدّم غيره عليه، أي: إن أخّرنا عن حظّنا صبرنا على الاثرة فيها وإن طالت الأيام، والسرى: سير الليل؛ لأنّه إذا طال كانت المشقّة على راكب عجز البعير أعظم والصبر أشدّ وأصعب.

وقال عليه السلام:

[من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه] أي: من لم يكن له عمل صالح حسن فتأخّر بسبب ذلك عن معالي الرتب الدنيوية والأُخروية لم يسرع به حسبه وشرف بيته إليها إن كان ذا حسب، وكنّى ببطؤ عمله عن عدم وصوله إلى الخير لعدم ما يوصله إليه من زكيّ العمل وجعل الإسراع في مقابلة البطؤ.

وقال عليه السلام:

[من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف] أي: المظلوم **[والتنفيس]** أي: التفريج **[عن المكروب]** فتزيل الغمّ الذي يأخذ بنفسه وجعلها من كفّارات الذنوب العظام؛ لأنّها تستلزم فضائل عظيمة كالرحمة والعدل والسخاء والمروءة وغيرها، وظاهر أنّ حصول هذه الملكات في

يابن آدم إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره ما أضمر أحدكم شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه

النفس مما يستلم ستر الذنوب ونحوها ومنافاة ملكات السوء التي يعبّر عنها بالسيّئات والذنوب.

وقال عليه السلام:

[يابن آدم إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره] فكما أنّ دوام شكرها معدّ لزيادتها فكفرانها مستلزم لعدم الاستعداد للمزيد بل معدّ للنقصان وزوال النعمة، كما قال تعالى: ﴿ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾ وهو محلّ الحذر منه، والواو في قوله «وأنت» للحال.

وقال عليه السلام:

[ما أضمر أحدكم شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه] الفلتة: الأمر يقع من غير تروٍّ، وصفحة الوجه: بشرته، قيل: لمّا كان الإنسان إنّما يضمر في نفسه أمراً مهمّاً عنده من عداوة أو بغض أو محبّة إلى غير ذلك وكان الوجود اللّساني عبارة عن الوجود النفساني ومظهراً له لم يتمكّن المرء أن يحفظ ما أضمره بالكلّية؛ لأنّ مراعاة ذلك الحفظ إنّما يكون للعقل بحسب ما يراه من المصلحة، والعقل قد يشتغل بالتصرّف في مهمّ آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره فينقلب الخيال به من أسر العقل فيلقيه في فلتات القول من غير تروٍّ، وكذلك لمّا كانت التصوّرات والأمور النفسانية مبادي للآثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل لم تنفكّ بعض الأمور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار في صفحات الوجه والعين، وقال زهير:

امش بدائك ما مشى بك أفضل الزهد إخفاء الزهد إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتّى كأنّه قد غفر. وقد سُئِل عن الإيمان فقال: الإيمان على أربع دعائم على الصبر

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالفها تخفى على الناس تعلم

وقال عليه السلام:

[**امش بدائك ما مشى بك**] وفي رواية «ما حملك» أي: ما دام المرض لا يعجزك فلا تنم ولا تطرح جانبك إلى الأرض، وفي النبوي «من كنوز البر كتمان الصدقة والمرض والمصيبة».

وقال عليه السلام:

[**أفضل الزهد إخفاء الزهد**] لبعده عن الرياء والسمعة، وفي النبوي «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

وقال عليه السلام:

[**إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى**] وذلك واضح كشخصين استقبل كلّ منهما صاحبه.

وقال عليه السلام:

[**الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتّى كأنّه قد غفر**] تحذيرٌ من سخط الله بسبب معصيته لطول إمهاله وستره إلى الغاية المذكورة.

وقال عليه السلام:

[**وقد سُئِل عن الإيمان فقال: الإيمان على أربع دعائم**] أي: أعمدة [**على الصبر**] وهو ضبط النفس وقهرها عن الانقياد لقبايح اللّذات

واليقين والعدل والجهاد فالصبر منها على أربع شعب: على الشوق والشفق والزهد والترقّب فمن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار اجتنب المحرّمات ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات من ارتقب الموت سارع في الخيرات واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة

[**واليقين**] وهو العلم الذي صار ملكة [**والعدل**] وهو ملكة فاضلة تنشأ عن الفضائل الثلاث المشهورة [**والجهاد**] الظاهري والباطني، واستعار لهذه الأربعة الدعائم لأنّ الإيمان الكامل لا يقوم في الوجود إلا بها كدعائم البيت.

[**فالصبر منها على أربع شعب: على الشوق**] إلى الجنّة ومحبّة الخيرات الباقية [**والشفق**] وهو الخوف من النار وما يؤدّي إليها [**والزهد**] في الدنيا وهو الإعراض بالقلب عن ملاذّها وطيّباتها [**والترقّب**] أي: ترقّب الموت [**فمن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات**] إذ السالك إلى الله مالم يشتق إلى ما وُعد المتّقون لم يكن له صارف عن الشهوات الحاضرة مع توفّر الدواعي إليها فلم يسأل عنها.

[**ومن أشفق**] أي: خاف [**من النار اجتنب المحرّمات**] وهو ظاهر [**ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات**] لأنّ جلّها بل كلّها إنّما يلحق بسبب فقد محبوب من الأمور الدنيوية، فمن أعرض عنها بقلبه كانت المصيبة بها هيّنة عنده.

[**من ارتقب الموت سارع في الخيرات**] والعمل للموت ولما بعده.

[**واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة**] أي: إعمال الفطنة،

وتأوّل الحكمة وموعظة العبرة وسنّة الأوّلين فمن تبصّر في الفطنة ثبتت له الحكمة ومن ثبتت له الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة فكأنّما كان في الأوّلين، والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم وغور العلم وزهرة الحكم ورساخة الحلم فمن فهم علم غور العلم

وهي سرعة هجوم النفس على حقائق ما تورده الحواس عليها.

[**وتأوّل الحكمة**] أي: تفسيرها واكتساب الحقائق ببراهينها واستخراج وجوه الفضائل ومكارم الأخلاق من مظانّها، ككلام يؤثّر أو عبرة تعتبر. [**وموعظة العبرة**] وهو أن يحصل من اعتبار الغير على اتعاظ وانزجار [**وسنّة الأوّلين**] بأن يلاحظها حتّى يصير كأنّه فيهم، وهذه الأربع فضائل تحت الحكمة كالفروع لها وبعضها كالفرع للبعض كما أشار إليه بقوله.

[**فمن تبصّر في الفطنة ثبتت له الحكمة ومن ثبتت له الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة فكأنّما كان في الأوّلين، والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم**] أي: الفهم الغائص، أي: قوّة إدراك المعنى المشار إليه بلفظ أو كتابة أو إشارة ونحوها [**وغور العلم**] أي: العلم بالشيء كما هو بحقيقته وكنهه [**وزهرة الحكم**] أي: تكون الأحكام الصادرة عنه مزرهة نيّرة واضحة لا لبس فيها ولا شبهة.

[**ورساخة الحلم**] أي: ملكة الحلم، وعبّر عنها بالرسوخ لأنّ شأن الملكة ذلك والحلم هو الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهها إليه.

[**فمن فهم علم غور العلم**] لأنّ جودة الفهم وغوصه يستلزم الوقوف

ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميداً والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنئآن الفاسقين فمن أمر بالمعروف شدّ ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أُنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنأ الفاسقين أو غضب للّه غضب اللّه له وأرضاه يوم القيام في دار الكرامة

على غامض العلم.

[ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم] إذ الوقوف على غامض العلم يستلزم الوقوف على شرائع الحكم العادل والصدور عنها بين الخلق من القضاء الحقّ.

[ومن حلم لم يفرط في أمره] بحيث يتّصف برذيلة الجبن.

[وعاش في الناس حميداً] بفضيلته.

[والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف] وهو شدّ ظهور المؤمنين ومعاونتهم على إقامة هذه الفضيلة، **[والنهي عن المنكر]** بإرغام أُنوف المنافقين وإذلالهم بالقهر عن ارتكاب المنكرات **[والصدق في المواطن]** المكروهة وقضاء الواجب من أمر اللّه في دفع أعدائه والذبّ عن الحريم.

[وشنئآن الفاسقين] أي: بغضهم. وقد أشار إلى الارتباط بقوله:

[فمن أمر بالمعروف شدّ ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أُنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنأ الفاسقين أو غضب للّه غضب اللّه له وأرضاه يوم القيام في دار الكرامة].

والكفر على أربع دعائم: على التعمّق والتنازع والزيغ والشقاق ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيّئة وسكر سكر الضلالة ومن شاقّ وعرت عليه طرقه وأغضل عليه أمره وضاق مخرجه. والشكّ

[**والكفر**] وهو جحد الصانع أو إنكار أحد رسله ﷺ أو ما علم مجيء أحدهم به بالضرورة.

[**على أربع دعائم: على التعمّق**] وهو الغلوّ في طلب الحقّ والتعسّف فيه بالجهل والخروج إلى حدّ الإفراط وهو رذيلة الجور.

[**والتنازع**] وهو رذيلة الإفراط من فضيلة العلم ويسمّى جربزة ويعتمدة الجهل المركّب.

[**والزيغ**] ولعلّه رذيلة الإفراط من فضيلة العفّة، وهو الميل عن حاق الوسط منها إلى رذيلة الفجور.

[**والشقاق**] وهو رذيلة الإفراط من فضيلة الشجاعة المسمّى تهوّراً.

[**ومن زاغ**] أي: مال عن العفّة إلى رذيلة الفجور [**ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيّئة وسكر سكر الضلالة**] واستعار السكر لغفلة الجهل باعتبار ما يلزمهما من سوء التصرّف وعدم وضع الأشياء مواضعها.

[**ومن شاقّ**] وتهوّر [**وعرت عليه طرقه**] وصعبت مسالكه.

[**وأغضل عليه أمره وضاق مخرجه**] من الأمور؛ لأنّ مبدء سهولة المسالك واتّساع المداخل والمخارج في الأمور وهو مسالمة الناس والتجاوز عمّا يقع منهم والحلم عنهم واحتمال مكروههم.

[**والشكّ**] وهو التردّد في اعتقاد أحد طرفي النقيض ويقابل اليقين.

على أربع شعب: التمادي والهون والتردّد والاستسلام فمن جعل المراء ديدناً لم يصبح ليله ومن هاله ما بين يديه ونكص على عقبيه ومن تردّ في الريب وطئته سنابك الشياطين ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما

[**على أربع شعب: التمادي**] أي: المراء إذ مبدء المراء الشك [**والهون**] لأنّ الشك في الأمور يستلزم عدم العلم بما فيها من صلاح أو فساد وذلك يستلزم الفزع منها والخوف من الإقدام عليها [**والتردّد**] في الشكّ أي: الانتقال من حالة إلى حالة، ومِن شكٍّ في أمر إلى شكٍّ في آخر من غير ثقة بشيء، وذلك دأب من تعوّد الشك في الأمور.

[**والاستسلام**] لهلكة الدنيا والآخرة، لأنّ الشاكّ في الأمور الدنيوية والأخروية المتعوّد لذلك غير عامل لشيء منهما ولا مهتمٍّ بأسبابهما [**فمن جعل المراء ديدناً**] أي: ملكةً وعادةً له، [**لم يصبح ليله**] كنّى به عن عدم وضوح الحقّ له من ظلمة ليل الشكّ والجهل.

[**ومن هاله ما بين يديه**] من الأمور لعدم علمه بما فيها من صلاح أو فساد خاف من الإقدام.

[**ونكص على عقبيه**] إذ لا يمكنه السير لعدم العلم.

[**ومن تردّ في الريب**] وانتقل من حالة إلى أُخرى ومن شكٍّ إلى آخر.

[**وطئته سنابك الشياطين**] وهو كناية عن ملك الوهم والخيال لأرض قلبه حتّى يكون سلطان بمعزل عن الحزم عمّا من شأنه الحزم.

[**ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة**] لعدم الاستعداد والعمل لهما [**هلك فيهما**] لا محالة، قال السيّد «ره»: وبعد هذا كلام تركنا ذكره خوف

فاعل الخير خيرٌ منه، وفاعل الشرّ شرٌّ منه كُن سمحاً ولا تكن مبذّراً، وكن مقدّراً ولا تكن مقتّراً أشرف الغنى ترك المُنى من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون

الإطالة والخروج عن الغرض المقصود في هذا الكتاب.

وقال عليه السلام:

[**فاعل الخير خيرٌ منه، وفاعل الشرّ شرٌّ منه**] لأنّ العلّة أقوى من معلولها فكان أقوى في خيريّته وشرّيه وتأثيرهما مما صدر عنه من خير أو شرّ.

وقال عليه السلام:

[**كُن سمحاً**] أي: كريماً [**ولا تكن مبذّراً، وكن مقدّراً ولا تكن مقتّراً**] نهى عن الكون على طرفي الإفراط وهو التبذير، وطرف التفريط وهو التقتير، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ وقوله: ﴿إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين﴾.

وقال عليه السلام:

[**أشرف الغنى ترك المُنى**] جمع مُنية بمعنى التمنّي، ولمّا كان ذلك رذيلة تلزم رذائل كالشره والحرص ونحوهما، جعل أشرف الغنى؛ لأنّ ترك المنى يستلزم القناعة، ومعلوم أنّها تستلزم الغنى النفساني وعدم الحاجة.

وقال عليه السلام:

[**من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون**] لمّا كان من شأن الطبع النفرة عن الأذى وبعض المؤذي وعداوته كان من شأنه في غالب

من أطال الأمل أساء العمل ما هذا الذي صنعتموه؟! قالوا: خُلُق منّا نعظّم به أُمرائنا، فقال: واللّه ما ينتفع بهذا أُمرائكم وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم وتشقون به في آخرتكم وما أخسر المشقّة ورائها العقاب وأربح الدعة معها الأمان من النار يا بنيّ احفظ عنّي أربعاً وأربعاً، لا يضرّك ما عملت معهنّ

الخلق يقبح ذكره بما يمكن من قول صادق أو كاذب أو مجمل لغرض أن يوافقهم السامعون على دفعه وأذاه.

وقال عليه السلام:

[**من أطال الأمل أساء العمل**] لأنّ طول الأمر في الدنيا مستلزم للإقبال عليها والانهماك في العمل لها والغفلة عن الآخرة كان ذلك عملاً سيّئاً بالنسبة إلى الآخرة.

وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجّلوا له واشتدّوا بين يديه أي: أسرعوا مشياً فقال:

[**ما هذا الذي صنعتموه؟! قالوا: خُلُق منّا نعظّم به أُمرائنا، فقال: واللّه ما ينتفع بهذا أُمرائكم وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم**] من تعب الأبدان [**وتشقون به في آخرتكم**] لأنّكم تخضعون للولاة كما زعمتم أنّه خلق وعادة لكم خضوعاً يطلبون به الدّنيا والمنافع العاجلة فيها وكلّ خضوع وتذلّل لغير اللّه فهو معصية.

[**وما أخسر المشقّة ورائها العقاب وأربح الدعة**] أي: السكون والراحة [**معها الأمان من النار**].

وقال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: [**يا بنيّ احفظ عنّي أربعاً وأربعاً، لايضرّك ما عملت معهنّ**] وإنّما قال: أربعاً وأربعاً، ولم يقل ثمانية؛ لأنّ

إنّ أغنى الغنى العقل وأكبر الفقر الحمق وأوحش الوحشة العُجب وأكرم الحسب حُسْنُ الخُلُق يا بنيّ إيّاك ومصادقة الأحمق، فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك وإيّاك ومصادقة البخيل فإنّه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه

الأربع الأُولى من باب واحد، وهو اكتساب الفضائل الخلقية النفسانية، والأربع الثانية من باب المعاملة مع الخلق، أو لأنّ الأُولى من باب الإثبات والثانية من باب النفي.

[**إنّ أغنى الغنى العقل**] بالملكة، وهو أن يحصل لنفسه من العلوم البديهية والحسّية والتجربية قوّة يتوصل بها إلى العلوم النظرية، وإنّما كان أغنى الغنى لأنّه يحصل به الدنيا والآخرة فهو أعظم أسباب الغنى.

[**وأكبر الفقر الحمق**] وهو رذيلة الغباء وهو طرف التفريط من العقل المذكور وهو سبب الفقر من الكمالات، خصوصاً النفسانية التي بها الغنى التامّ فكان أكبر فقر.

[**وأوحش الوحشة العُجب**] وهو رذيلة الكبر ومضاد للتواضع، وهو أقوى اسباب الوحشة ونفرة الأنيس؛ لأنّ تواضع المتواضع لما استلزم انس الخلق به وشدّة ميلهم إليه كان ضدّه مستلزماً لنفرتهم وتوحّشهم التامّ منه.

[**وأكرم الحسب حُسْنُ الخُلُق**] لكونه أشرف الكمالات الباقية.

[**يا بنيّ إيّاك ومصادقة الأحمق، فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك**] لعدم فرقه بين الامرين.

[**وإيّاك ومصادقة البخيل فإنّه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه**] و«أحوج» حال من الضمير في «عنك».

وإياك ومصادقة الفاجر فإنّه يبيعك بالتافه وإيّاك ومصادقة الكذّاب فإنّه كالسراب يقرّب عليك البعيد ويبعّد عليك القريب لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه

[**وإيّاك ومصادقة الفاجر فإنّه يبيعك بالتافه**] وهو القليل من المال والفجور رذيلة الإفراط من فضيلة العفّة.

[**وإيّاك ومصادقة الكذّاب فإنّه كالسراب يقرّب عليك البعيد ويبعّد عليك القريب**] بحسب أغراضه وكذبه مع أنّه ليس كذلك في نفس الأمر كالسراب الذي يظنّ ماء وليس به وكلّما كان كذلك فيجب أن يحذر صحبته ويجتنب مصادقته.

وقال عليه السلام:

[**لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض**] أي: ببعض أركانها أو شرائطها إذ لا قربة فيما يستلزم ترك الواجب لاستلزامه المعصية والعقاب المنافيين للقربة، وقد تذهب قدماء الأصحاب إلى عدم جواز التنفّل لمن عليه فريضة.

وقال عليه السلام:

[**لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه**] قال السيّد «ره»: وهذا من المعاني العجيبة الشريفة، والمراد به أنّ العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية ومؤامرة الفكرة والأحمق يسبق حدقات لسانه وفلتات كلامه على مراجعة فكره وماخضه رأيه فكان لسان العاقل تابعاً لقلبه وكان قلب الأحمق تابعاً للسانه، وروي عنه عليه السلام هذا الكلام بلفظ آخر وهو:

قلب الأحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه جعل اللّه ما كان من شواك حطّاً لسيّئاتك، فإنّ المرض لا أجر فيه ولكنّه يحطّ السيّئات ويحتّها حتّ الأوراق وإنّما الأجر في القول باللّسان والعمل بالأيدي والأقدام، وإنّ اللّه سبحانه يدخل بصدق النيّة والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنّة

[**قلب الأحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه**] ومعناهما واحد.

أقول: استعار عليه السلام لفظ «الوراء» في الموضعين لما يعقل من تأخّر لفظ العاقل عن رويته ومن تأخّر روية الأحمق وفكره فيما يقول عن نوادر مقاله من غير مراجعة لعقله والمعنى ما أشار إليه السيّد «ره» والمعنى على الرواية الأخرى ما يتصوّره الأحمق يبرز على لسانه من غير فكر وأمّا نطق العاقل فمخزون في عقله لا يخرج إلا عن روية صادقة، ولفظ القلب في الأول مجاز فيما يبرز من تصوّراته في ألفاظه، ولفظ اللّسان مجاز في ألفاظه الذهنية.

وقال عليه السلام لبعض أصحابه في علّة اعتلّها: [**جعل اللّه ما كان من شواك حطّاً لسيّئاتك، فإنّ المرض لا أجر فيه ولكنّه يحطّ السيّئات ويحتّها حتّ الأوراق وإنّما الأجر في القول باللّسان والعمل بالأيدي والأقدام، وإنّ اللّه سبحانه يدخل بصدق النيّة والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنّة**] قال السيد «ره»: وأقول صدق عليه السلام انّ المرض لا أجر فيه؛ لأنّه من قبيل ما يستحقّ عليه العوض، لأنّ العوض يستحقّ على ما كان في مقابلة فعل اللّه بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك، والأجر والثواب يستحقّان على ما كان في مقابلة فعل العبد، فبينهما فرقٌ قد بيّنه عليه السلام

يرحم اللّه خبّاباً فلقد أسلم راغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب بالكفاف ورضي عن اللّه لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن

كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب.

وقال عليه السلام:

في ذكر خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة أصابه سبي فبيع بمكّة وكانت أُمّه خبابة، وخباب من فقراء المسلمين وخيارهم وكان به مرض وكان في الجاهلية قبنا يعمل السيوف وهو قديم الإسلام، قيل: كان سادس ستّة وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد وأوقد له أهل مكّة ناراً سحبوه عليها فما أطفاها إلا ورك ظهره ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين بعد أن شهد مع علي عليه السلام صفين والنهروان وصلّى عليه علي عليه السلام وهو أوّل من دُفن بظهر الكوفة وكان عمره ثلاث وسبعين سنة فقال عليه السلام:

[**يرحم اللّه خبّاباً**] بالخاء المعجمة والباء المشدّدة [**فلقد أسلم راغباً وهاجر**] إلى رسول اللّه [**طائعاً**] رغبةً في اللّه ورسوله [**وعاش مجاهداً**] مع النبي والوصيّ.

[**طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب بالكفاف ورضي عن اللّه**] في قضائه وقدره والقناعة فضيلة تحت العفّة والرضا فضيلة تحت العدل، وفيه إشارة إلى أنّ خبّاباً كان كذلك.

وقال عليه السلام:

[**لو ضربت خيشوم المؤمن**] وهو أقصى الأنف [**بسيفي هذا على أن**

يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدّنيا بجماتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني وذلك أنّه قضى فانقضى على لسان النبيّ الأمّي ﷺ قال: لا يبغضك مؤمن ولا يحبّك منافق سيّئة تسؤك خيرٌ من حسنة تعجبك قدر الرجل على قدر همّته

يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدّنيا بجماتها] بالفتح جمع جمة وهي المكان يجتمع فيه الماء، استعير لمجامع أموال الدنيا وملاحظةً للمشابهة المعقولة.

[على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني وذلك أنّه قضى فانقضى] أي: قدّر **[على لسان النبيّ الأمّي ﷺ قال: لا يبغضك مؤمن ولا يحبّك منافق]** ولمّا كان الإيمان الحقّ يوجب الاتحاد وصدق المحبة في اللّه بين المؤمنين لا جرم لم يجتمع معها البغض ولمّا كان النفاق منافياً لما يلازمه من المحبّة في اللّه فلا تجتمع معه ولو ببذل أجزل مال للمنافق.

وقال عليه السلام:

[سيّئة تسؤك خيرٌ من حسنة تعجبك] أي: المعصية التي يندم عليها بعد فعلها خير من الحسنة يعجبه بها؛ لأنّ الندم ماح للسيّئة والعجب محبط للحسنة.

وقال عليه السلام:

[قدر الرجل على قدر همّته] أي: مقداره عند الناس من رفع رتبة أو تبجيل أو خسّة واحتقار من لوازم علوّ همته أو دنائتها، فعلوّ الهمّة أن لا يقتصر على بلوغ غاية من الأمور التي يراد بها فضيلةً وشرفاً حتّى يسمو إلى ما ورائها مما هو أعظم قدراً وأجلّ خطراً ويلزم ذلك نبله وتعظيمه ومدحه،

وصدقه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعضبه على قدر غيرته الظفر بالحزم والحزم بإجالة الرأي والرأي بتحصين الأسرار

وصغرها أن يقتصر على محقّرات الأمور وخسائسها ويقصر عن علياتها، وبحسب ذلك يكون صغر خطره وقلّة قدره.

[**وصدقه على قدر مروءته**] والمروءة فضيلة يتعاطى معها الإنسان الأفعال الجميلة واجتناب ما يعود إليه بالنقص وإن كان مباحاً، فلذلك يلزمه الصدق في مقاله.

[**وشجاعته على قدر أنفته**] والأنفة: حمية الأنف وثوران الغضب لما يتخيّل من مكروه يعرض استنكاراً له واستنكافاً من وقوعه وظاهر كونه مبدءً للشجاعة والإقدام على الأمور، وبحسبها يكون قوّة الإقدام وضعفه [**وعضبه على قدر غيرته**] والغيرة: نفرة طبعيّة تكون من الإنسان عن تخيّل مشاركة الغير في أمر محبوب له أو معتقد لوجوب حفظه وبحسب شدّة ذلك الاعتقاد والتخيّل وضعفهما وتصوّر وقوع مثل ذلك الفعل في نفسه أو حريمه مثلاً يكون امتناعه عن مشاركة الغير ووقوعه عن اتباع الشهوات في مشاركة الناس في الأمور المحبوبة لهم.

وقال عليه السلام:

[**الظفر بالحزم**] وهو أن يقدم العمل في الحوادث الواقعة في باب الإمكان قبل وقوعها بما هو أقرب إلى السلامة وأبعد من الغرور.

[**والحزم بإجالة الرأي**] أي: إعماله [**والرأي بتحصين الأسرار**] أي: كتمانها وحفظها، فالمبدء القريب للظفر الحزم، والبعيد كتمان السرّ، والوسط إجالة الرأي، وإنّما كان كتمان السرّ سبباً للرأي الصحيح لأنّ إظهار

احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع، قلوب الرجال وحشية فمن تألّفها أقبلت عليه

السرّ فيما يرى من الرأي في الحرب وغيرها يستلزم ظهور العدوّ على ذلك وعلاج ما يفسده، وأمّا إجالة الرأي فلأنّه لولاه لجاز أن يكون العمل في الحوادث المستقبلة غير موافق فلا يحصل الحزم وكون الحزم سبباً للظفر ظاهر.

وقال عليه السلام:

[**احذروا صولة الكريم**] أي: شريف النفس ذا الهمّة العليّة [**إذا جاع**] أي: اشتدّت حاجته أو ضيم وامتهن لثوران حميته وغضبه عند عدم التفات الناس إليه وحمل نفسه على المبالغة في طلب أمر كبير يصول عليهم به ويتسلّط بواسطته على قهرهم ومكافاتهم كالولاية عليهم ونحوها، ولذا وجب الحذر منه والاحتراز من صولته بالالتفات إليه في وقت حاجته بما يدفعها.

[و] احذروا صولة [**اللئيم إذا شبع**] كنّى به عن غناه وعدم حاجته المستلزم لاستمراره على مقتضى طاعته من اللوم وشبعه مؤكّد ذلك وربّما كان رجوعه سبباً لتغيّر أخلاقه واستمرار ذي الشبع من اللئام مستلزم لأذى من كان تحت يده.

وقال عليه السلام:

[**قلوب الرجال وحشية فمن تألّفها أقبلت عليه**] ولذا قيل: من لان استمال ومن قسى نفر، وما استعبد الحر بمثل الإحسان إليه.

وقال عليه السلام:

عيبك مستور ما أسعدك جدّك أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة السخاء ما إذا كان ابتداء فإذا كان عن مسألة فحياء وتذمُّم لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل

[**عيبك مستور ما أسعدك جدّك**] الجد: حسن البخت وتوافق أسباب المصلحة في حقّ الإنسان ومن مصالحه ستر العيوب والرذائل وبحسب دوام ذلك يدوم سترها.

وقال عليه السلام:

[**أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة**] من كان أشدّ قدرةً على العقوبة وعدمها كان أولى بأن يسمّى عفواً، وقال الحكماء: لذّة العفو أطيب من لذّة التشفّي والانتقام، لأنّ لذّة العفو يشفعها حميد العاقبة ولذة الانتقام يلحقها ألم الندم.

وقال عليه السلام:

[**السخاء ما إذا كان ابتداء**] عن طيب نفس وحسن مواساة لذوي الحاجة، [**فإذا كان عن مسألة فحياء**] من السائل ومن الناس، فيتكلّف البذل لذلك.

[**وتذمُّم**] أي: استنكاف مما يصدر من السائل من إلحاح، ونسبته إلى البخل ونحوه.

وقال عليه السلام:

[**لا غنى كالعقل**] لما مرّ أنّه أغنى الغنى.

[**ولا فقر كالجهل**] لما مرّ إنّ أكبر الفقر الحمق والمراد بالجهل ما يقابل العقل بالملكة وهو الحمق أو ما يلازمه.

ولا ميراث كالأدب ولا ظهير كالمشاورة الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر عمّا تحب الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة. القناعة مال لا ينفد

[**ولا ميراث كالأدب**] وهو التحلّي بمكارم الأخلاق وهو أفضل من موروث من مال أو ـــــــ.

[**ولا ظهير كالمشاورة**] لأنّها في الغالب تنتج الرأي الصحيح الذي هو أنفع في التدبير من القوّة وكثرة العدد والعدد.

وقال عليه السلام:

[**الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر عمّا تحب**] والأوّل أشقّ لأنّه صبر على مضرّة نازلة، والثاني صبر عن محبوب متوقّع لم يحصل.

وقال عليه السلام:

[**الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة**] استعار الوطن للغنى في الغربة باعتبار أنّه يسكن إليه ويؤنس فلا يرى أثر الغربة على الإنسان معه، واستعار الغربة للفقر في الوطن باعتبار ضيق الخلق معهما وتعسّر الأمور فيهما.

وقال عليه السلام:

[**القناعة مال لا ينفد**] وهي ضبط قوّة النفس عن الاشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة من المعاش والأقوات وعدم ما يشاهد من ذلك عند الغير واستعار لها لفظ المال الذي لا ينفد باعتبار دوام الغنى معها كالمال الموصوف.

المال مادّة الشهوات من حذّرك كمن بشّرك اللّسان سبع إن خُلّي عنه عقر المرأة عقرب حلوة اللسبة الشفيع جناح الطالب أهل الدنيا ركبٌ يسار بهم وهم نيام

وقال عليه السلام:

[**المال مادّة الشهوات**] أي: منه تكون استمدادها وزيادتها، والمادّة هي الزيادة.

وقال عليه السلام:

[**من حذّرك**] من أمر [**كمن بشّرك**] بالنجاة منه.

وقال عليه السلام: [**اللّسان سبع إن خُلّي عنه عقر**] استعار السبع للسان لأنّه إن تُرِك عن ضبط العقل له نطق بما فيه هلاك صاحبه كالسبع إذا لم يُحفظ.

وقال عليه السلام:

[**المرأة عقرب حلوة اللسبة**] أي: اللّسعة، استعار للمرأة العقرب؛ لأنّ من شأنها الأذى لكن أذاها مشوب بما فيها من اللّذة بها فلا تحسّ به كأذى الجرب المشوب بلذّته في زيادة حكته.

وقال عليه السلام:

[**الشفيع جناح الطالب**] استعار له الجناح لكونه وسيلة إلى مطلوبه كجناح الطائر.

وقال عليه السلام:

[**أهل الدنيا ركبٌ يسار بهم وهم نيام**] لأنّ الدنيا لأهلها طريق هم فيها سائرون إلى الآخرة حال ما هم في غفلة عن غايتهم والعمل حتّى يوافوها، فأشبهوا الركب الذين يسيرون وهم نيام حتّى يوافوا منزلهم.

فقد الأحبّة غربة فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها. لاتستحي من إعطاء القليل فإنّ الحرمان أقلّ منه العفاف زينة الفقر إذا لم يكن ما تريد فلا تُبَلْ ما كنت

وقال عليه السلام:

[**فقد الأحبّة غربة**] استعار الغربة لما يلزمها من الوحشة وعدم الأُنس.

وقال عليه السلام:

[**فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها**] كاللّئام ومحدثي النعم؛ لأنّ فوتها يستلزم غمّاً واحداً وطلبها من غير أهلها يستلزم مع ذلك ثقل الاستنكاف والندم من دفعها إليهم وغمّ ذلّ الحاجة لهم وغمّ ردّهم لها.

وقال عليه السلام:

[**لا تستحي من إعطاء القليل فإنّ الحرمان أقلّ منه**] اي: أحقر في الاعتبار إذ ليس هو من باب الكم حتى تلحقه القلّة والكثرة.

وقال عليه السلام:

[**العفاف**] أي: العفّة [**زينة الفقر**] فإنّ الفقير إذا ضبط شهوته بزمام عقله عن ميولها الطبيعية كملت نفسه بفضيلة العفّة وزان فقره بفضيلته في أعين المعتبرين وإذا أهملها وأسلس قيادها تقحّمت به في موارد القبح وقادته إلى الهلع والحرص والحسد والمنّ والكذب فصار بسببها في أقبح صورة.

وقال عليه السلام:

[**إذا لم يكن ما تريد فلا تُبَلْ ما كنت**] أي: إذا فاتك مرادك من الأمر فلا تبل بأيّ حال كنت عليه في ذلك الأمر، وفيه إشارة إلى النهي عن الاهتمام والأسف على ما لم يقع من الأمور المطلوبة لأنّ الأسف على فوات

لا يرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرّطاً إذا تمّ العقل نقص الكلام الدهر يُخْلِق الأبدان ويجدّد الآمال ويقرّب المنيّة ويبعّد الأمنية

المراد يستلزم غمّاً وألماً وهو مضرّة عاجلة لا تثمر فائدة فارتكابه سفه.

وقال عليه السلام:

[**لا يرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرّطاً**] الجهل إمّا بسيط وهو التفريط من فضيلة، ويسمّى غباوة، وإمّا مركّب وهو طرف الإفراط منها لأنّ الجاهل المركّب حصل على شبهة غطّت بصيرته عن إدراكه مع جزمه بأنّها برهان أصابه الحقّ.

وقال عليه السلام:

[**إذا تمّ العقل نقص الكلام**] لأنّ نقصه يستلزم كمال القوّة على ضبط القوى البدنية وتعريفها بمقتضى الآراء المحمودة الصالحة دون ما يبرز إلى الوجود الخارجي عنها من الأقوال والأفعال بميزان الاعتبار، وفي ذلك من الكلفة والشرايط ما يستلزم نقصان الكلام بخلاف ما لا يوزن ولا يعتبر من الأقوال.

وقال عليه السلام:

[**الدهر يُخْلِق الأبدان**] لأنّه معدّ لضعفها وفسادها بمروره وما يحلق أجزائه وفصوله من الحرّ والبرد والمتاعب المنسوبة إليه.

[**ويجدّد الآمال**] بحسب الغرور الحاصل بالبقاء والصحّة فيه وأكثر ما يعرض ذلك للمشايخ فإنّ طول أعمارهم وتجاربهم لما يعرض فيه من الحاجة والفقر يغريهم بالحرص على الجمع ومدّ الأمل فيه لتحصيل الدنيا.

[**ويقرّب المنيّة**] لأنّه يخلق الأبدان [**ويبعّد الأمنية**] بحسب تقريبه

من ظفر به نصب لها ومن فاته]تعب من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدء بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من مؤدّب الناس ومعلّمهم نَفَسُ المرء خطاه إلى أجله

للمنية **[من ظفر به]** أي: بموافاته وإعداده ما يراد فيه من متاع الدنيا **[نصب لها]** وسعى بضبطها وحفظها **[ومن فاته]** ذلك منه **[تعب]** في تحصيلها وشقى بعدمها.

وقال عليه السلام:

[من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدء بتعليم نفسه قبل تعليم غيره] برياضتها بما يعلم من الآداب ليكون أفعاله وأقواله موافقة لعلمه؛ لأنّ الناس أقرب إلى الاقتداء بما يشاهد من الأفعال والأحوال منهم بالأقوال فقط، خصوصاً مع مشاهدتهم لمخالفتها بالأفعال، فإنّ ذلك يكون سبباً لسوء الاعتقاد في الأقوال المخالفة للعقل كما قيل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

[وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه] لأنّ الطباع لمشاهدة الأفعال أطوع وأسرع انفعالاً منها للأقوال ثمّ يطابقها بعد ذلك بالأقوال.

[ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من مؤدّب الناس ومعلّمهم] لكمال مؤدّب نفسه بالفضيلة وكون تأديب الغير فرعاً على تأديب النفس والأصل أشرف وأحقّ بالتعظيم من الفرع.

وقال عليه السلام:

[نَفَسُ المرء خطاه إلى أجله] استعار للنفس الخطاء باعتبار أنّه على

كلّ متعدّد منقضٍ وكلّ مُتوقَّع آتٍ إنّ الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها بأوّلها فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللّيل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا يا دنيا إليك

التعاقب والتقضي فهو مقرّب من الغاية التي هي الأصل كالخطاء المتعاقبة الموصلة للإنسان إلى غاية من طريقه.

وقال عليه السلام:

[**كلّ متعدّد منقضٍ وكلّ مُتوقَّع آتٍ**] أشار بالأولى إلى أنفاس العباد وحركاتهم، والثانية تخويف بما يتوقّع من الموت وتوابعه.

وقال عليه السلام:

[**إنّ الأمور إذا اشتبهت**] أي: التبست في مباديها وتعسّر معرفة وجه تحصيلها والدخول فيها [**اعتبر آخرها بأوّلها**] أي: قيس على ذلك آخرها، واستدلّ على أنّه كذلك في المعسر فيجب التوقّف عنها وعدم التعسّف فيها ومن خبر ضرار بن ضمرة الضابي عند دخوله على معاوية ومسألته عن أمير المؤمنين قال له: صف لي علياً؟ فقال: أوتعفني عن ذلك؟ فقال: واللّه لتفعلنّ.

[**فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللّيل سدوله**] جمع سدل وهو ما أُسبل على الهودج [**وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم**] أي: الملسوع، سُمّي سليماً تفؤلاً له بالسلامة.

[**ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا يا دنيا إليك**] إسم فعل أي:

عني أبي تعرّضت أم أليّ تشوّقت لا حان حينك هيهات غُرّي غيري لا حاجة لي فيك قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعيشك فقير وخطرك يسير وأملك حقير آه من قلّة الزاد وطول الطريق وبُعد السفر وعظم المورد

تنحّي [**عني**] متعلّق بما فيه من معنى الفعل [**أبي تعرّضت أم أليّ تشوّقت**] نظر إليها بصورة امرأة تزيّنت وتعرّضت لوصوله إليها مع كونها مكروهة إليه فاستفهم إنكاراً عن تعرّضها به وتشوّقها إليه استحقاراً لها واستبعاد لموافقته إيّاها.

[**لا حان حينك**] أي: لا قرب وقتك، أي: وقت انخداعي لك وغرورك بي.

[**هيهات**] أي: بُعد ما تطلبين منّي.

[**غُرّي غيري**] كنّى به عن أنّه لا طمع لها في ذلك منه أي: إنّ خداعك لا يدخل عليّ.

[**لا حاجة لي فيك قد طلّقتك ثلاثاً**] لتحصل البينونة [**لا رجعة فيها**] وهو كناية عن غاية كراهتها، ثمّ أشار إلى مذامّها بقوله: [**فعيشك**] أي: مدة الحياة فيك [**فقير وخطرك يسير**] إشارة إلى قلّة قدرها [**وأملك حقير**] أي: ما يؤمّل منك حقير، ثمّ قال عليه السلام عن أمور فقال:

[**آه من قلّة الزاد**] في السفر إلى اللّه الذي هو التقوى والأعمال الصالحة [**وطول الطريق**] إلى اللّه ولا شيء في الاعتبار أطول مما لا يتناهى [**وبُعد السفر**] بعد غايته وعدم تناهيها [**وعظم المورد**] إذ أوّل منازله الموت ثمّ البرزخ ثمّ موقف القيامة البكرى.

للسائل الشامي لمّا سأله هذا مختاره فقال: ويحك لعلّك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاتماً لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد إنّ اللّه سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً

وروي خشونة المضجع، وهو القبر، فبكى معاوية حتّى اخضلّت لحيته وقال: رحم اللّه أباحسن كان واللّه كذلك فكيف حزنك عليه ياضرارة قال: حزن من ذُبح ولدها في حجرها.

ومن كلام له عليه السلام

[**للسائل الشامي لمّا سأله**] أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من اللّه وقدر؟ بعد كلام طويل [**هذا مختاره**] روي أنّه قال له: والذي فلق الحبّة وبرء النسمة ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء وقدر، فقال السائل: عند اللّه أحتسب عنائي، يعني ما أرى لي من الأجر شيئاً، فقال عليه السلام: أيّها الشيخ لقد أعظم اللّه أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي منصرفكم وأنت منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين وإليها مضطرّين، فقال الشيخ: وكيف والقضاء والقدر ساقانا؟

[**فقال: ويحك لعلّك ظننت قضاءً لازماً وقدراً حاتماً**] أي: واجباً بناء على تفسير القضاء والقدر بمعنى العلم الملزم والإيجاد الواجب على وفقه.

[**لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد إنّ اللّه سبحانه أمر عباده تخييراً**] إشارة إلى تفسير القضاء بالأمر كما في قوله: ﴿وقضى ربّك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾.

[**ونهاهم**] عن المعاصي [**تحذيراً**] لهم عن العقاب ومعلوم أنّ أمر اللّه

وكلّف يسيراً ولم يكلّف عسيراً وأعطى على القليل كثيراً ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً ولم يرسل الأنبياء لعباً ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً

ونهيه لا ينافي اختيار العبد في فعله.

[**وكلّف يسيراً ولم يكلّف عسيراً**] فقال: ﴿لا يكلّف اللّه نفساً إلا وسعها﴾ والوسع: دون الطاقة، وقال: ﴿ما جعل عليكم في الدّين من حرج﴾ وقال: ﴿يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

[**وأعطى على**] العمل [**القليل كثيراً**] من الثواب [**ولم يعص مغلوباً**] ومقهوراً بحيث لا يقدر على منع العبد من العصيان كما زعمه جماعة من المفوّضة.

[**ولم يطع مكرهاً**] عباده على الطاعة [**ولم يرسل الأنبياء لعباً**] بل ليكونوا مبشّرين ومنذرين لمن أطاع بالجنّة، ولمن عصى بالنار، وذلك من لوازم الاختيار [**ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً**] بل ليعرفوا من ذلك وجوه تكليفهم وأحكام افعالهم التي أُمروا أن يكونوا عليها، وبيان حدود اللّه التي أمرهم بالوقوف عندها وكلّ ذلك من لوازم الاختيار.

[**ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً**] بل لوجوه عديدة ومصالح وحكم سديدة منها أن يحصل لعباده بما وهب لهم من الفكر في آياتها اعتبار فيتنبّهوا من ذلك للطيف حكمته ويستدلّوا على كمال عظمته كما قال تعالى: ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب﴾.

ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للّذين كفروا من النار خذ الحكمة إن كانت فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج حتّى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن.

الحكمة ضالّة المؤمن

وقوله: [**ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للّذين كفروا من النار**] اقتباس من القرآن إشارة إلى كفر أرباب هذه العقيدة الفاسدة.

ثمّ قال عليه السلام: تلك مقالة عبّاد الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمّة ومجوسها، فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللّذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال: هو الأمر من اللّه والحكم ثمّ قرأ قوله تعالى: ﴿وقضى ربّك الا تعبدوا إلا إيّاه﴾ فنهض الشيخ مسروراً وهو يقول:

أنت الإمام الــذي نرجو بطاعته — يوم النشور من الرحمـن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً — جــزاك ربّـك عنّـا فيـه إحسانـا

وقال عليه السلام:

[**خذ الحكمة إن كانت**] أي: حيث وجدت ولو من المنافق [**فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج**] وفي نسخة فتختلج، وكنّى بذلك عن اضطرابها وعدم ثباتها في صدره وكونه ليس مظنّة لها فهي غير مستقرّة فيه.

[**حتّى تخرج**] إلى مظنتها وهي صدر المؤمن [**فتسكن إلى صواحبها**] من الحكم [**في صدر المؤمن**].

قال السيّد الرضي: وقد قال عليه السلام في مثل ذلك [**الحكمة ضالّة المؤمن**

فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق قيمة كلّ امرئ ما يحسنه أُوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً لا يرجونَّ أحدٌ منكم أحداً إلا ربّه ولا يخافنّ إلا ذنبه ولا يستحينّ أحدٌ منكم إذا سُئِل عمّا لا يعلم أن يقول لا أعلم

فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق] ورد أنّه خطب الحجّاج فقال: إنّ اللّه أمرنا بطلب الآخرة وكفانا مؤنة الدنيا، فليتنا كفينا مؤنة الآخرة وأُمرنا بطلب الدنيا، فسمعها الحسن فقال: هذه ضالّة المؤمن خرجت من قلب المنافق.

وقال عليه السلام:

[**قيمة كلّ امرئ ما يحسنه]** قال السيّد «ره»: هذه الكلمة التي لا يصاب لها قيمة ولا توزن بها حكمة ولا يقرن إليها كلمة، وفيها ترغيب في اكتساب الكمالات النفسانية، فأعلا الناس قيمة وأرفعهم منزلة أعظمهم كمالاً، وبالعكس.

وقال عليه السلام:

[**أُوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً]** كنّى بذلك عن الرحلة في طلبها؛ لأنّ الراكب للجمل يضرب إبطيه بكعبيه.

[**لا يرجونَّ أحدٌ منكم أحداً إلا ربّه]** ولازم ذلك إخلاص العمل له ودوام طاعته [**ولا يخافنّ إلا ذنبه]** دون غيره لأنّ العقاب إنّما يلحق العبد بواسطة ذنبه.

[**ولا يستحينّ أحدٌ منكم إذا سُئِل عمّا لا يعلم أن يقول لا أعلم]** فإنّ الاستحياء من ذلك يستلزم القولة بغير علم وهو ضلال وإضلال وفيه هلاك الدنيا والآخرة.

ولا يستحينّ أحد منكم إذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه وعليكم بالصبر فإنّ الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا خير في إيمان لا صبر معه أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك بقيّة اليسف أنمى عدداً وأكثر ولداً

[**ولا يستحينّ أحد منكم إذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه**] لما في استحياء الجاهل من التعلّم من بقائه على جهله ونقصانه وذهاب آخرته.

[**وعليكم بالصبر فإنّ الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد**] ووجه الشبه أنّ الصبر لمّا كان موجوداً في كلّ الفضائل التي مجموعها هو الإيمان فلا يقوم إلا به أشبه الرأس من الجسد في عدم قيامه بدونه، ثمّ أكّد التشبيه والمناسبة بقوله: [**ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا خير في إيمان لا صبر معه**].

وقال عليه السلام لرجل أفرط في الثناء عليه وكان له متّهماً [**أنا دون ما تقول**] ردٌّ لإفراطه في المدح [**وفوق ما في نفسك**] جواب لما في نفسه مما يتّهمه به من عدم اعتقاد فضيلته.

وقال عليه السلام:

[**بقيّة اليسف**] أي: الفرقة الباقية من الذين فشا فيهم القتل.

[**أنمى عدداً وأكثر ولداً**] أي: يكثر عددهم ونسلهم أكثر من غيرهم، ولعلّ ذلك للعناية الإلهية ببقاء النوع وحفظه وإقامته وبإخلاف من قتل ممن بقي وقد وجد مصداق قوله عليه السلام في نسله وأولاده والذرّية العلوية، فقد اجتهد بنو أُمية وبنو العباس في إبادتهم عن جديد الأرض وقتلهم ومع ذلك قد بورك فيهم حتّى لا يحصي عددهم إلا اللّه.

من ترك قول لا أدري أُصيبت مقاتله رأي الشيخ أحبّ إليّ من جلد الغلام عجبت لمن يقنط و أنّ معه الاستغفار

وقال عليه السلام:

[**من ترك قول لا أدري أُصيبت مقاتله**] أصابت المقاتل كناية عن الهلاك الحاصل بسبب القول بالجهل لما فيه من الضلال والإضلال وربما يكون بسببه هلاك الدنيا والآخرة، ولذا قيل: لا أعلم نصف العلم، وسُئل بعض العلماء وهو عليه السلام على المنبر فقال: لا أدري، فقيل: انزل فليس هذا مكان من لا يدري، فقال: هذا مكان من يدري ولا يدري، وأمّا من يعلم كلّ شيء فليس له مكان، وسُئل آخر فقال: لا أدري، فقيل: يعطيك الملك كلّ سنة كذا وكذا وتقول لا أدري، فقال: إنّما يعطني الملك على ما أدري ولو أعطاني على ما لا أدري لما كفاني بيت ماله.

وقال عليه السلام:

[**رأي الشيخ أحبّ إليّ من جلد الغلام**] وجلده قوّته والرأي مقدّم على القوّة والشجاعة وخصّ الرأي بالشيخ والجلد بالغلام لأنّ كلاً منهما مظنّة ما خصّه به، فإنّ الشيخوخة مظنّة ألوان الصحيح كثرة تجاربه وممارسته للأمور والغلام مظنّة القوّة والجلد، ويروى من مشهد الغلام أي: من حضوره.

وقال عليه السلام:

[**عجبت لمن يقنط**] وييأس من الرحمة [و] الحال [**أنّ معه الاستغفار**] الذي هو مبدء الرحمة، قال تعالى: ﴿واستغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ إلخ، وقال تعالى: ﴿وما كان اللّه معذّبهم وهم

من أصلح ما بينه وبين اللّه أصلح اللّه ما بينه وبين الناس ومن اصلح أمر آخرته أصلح اللّه أمر دنياه ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من اللّه حافظ

يستغفرون﴾ وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنّه قال:

كان في الأرض أماناً من عذاب اللّه فرُفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به، أمّا الأمان الذي رُفع فهو رسول اللّه صلى الله عليه وآله وأمّا الأمان الباقي فالاستغفار قال اللّه تعالى: ﴿وما كان اللّه ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان اللّه معذّبهم وهو يستغفرون﴾ قال الرضي «ره»: وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط.

وقال عليه السلام:

[من أصلح ما بينه وبين اللّه أصلح اللّه ما بينه وبين الناس] لأنّ ذلك إنّما يكون بالقوى المستلزمة لإصلاح قوّتي الغضب والشهوة الذين هما مبدء الفساد بين الناس ويلزمه الإصلاح فيما بينهم، وروي ما من وال رضي اللّه عنه إلا رضى عنه رعيّته.

[ومن اصلح أمر آخرته أصلح اللّه أمر دنياه] لأنّ في إصلاح الآخرة الكفّ عن الناس وقطع الطمع عمّا في أيديهم وذلك مع مسالمتهم ومعاملتهم بمكارم الأخلاق التي هي من إصلاح أمر الآخرة مستلزم لانفعالهم وميلهم إلى من كان كذلك وإقبالهم عليه بالنفع والمعونة وكفّ الأذى، وبحسب ذلك يكون صلاح دنياه.

[ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من اللّه حافظ] لأنّ واعظ النفس باعث على تقوى اللّه ولزوم العدل في قوّتي الشهوة والغضب الّذين

الفقيه كلّ الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة اللّه ولم يؤيسهم من روح اللّه ولم يؤمنهم من مكر اللّه أوضع العلم ما وقف على اللسان

هما مبدء الشر المستلزم للهلاك في الدارين، وذلك مستلزم لحفظ اللّه فيهما قال تعالى: ﴿إنّ اللّه مع الّذين اتقوا والّذين هم محسنون﴾.

وقال عليه السلام:

[**الفقيه كلّ الفقيه**] أي: الكامل في الفقه [**من لم يقنط الناس من رحمة اللّه**] بآيات وعيده ــــــــ [**ولم يؤيسهم من روح اللّه**] لما يلزم اليأس من إغراء العصاة بالمعصية واتباع الهوى.

[**ولم يؤمنهم من مكر اللّه**] بالجزم بآيات وعده وبشارته لما يلزم السكون إلى ذلك والاعتماد عليه من الانهماك في المعاصي في اتباع الهوى بل يكون تابعاً في وعظه وجذبه إلى اللّه مقاصد سننه ووضع شريعته ولذا ترى الكتاب والسنّة مشتملين على الجمع بين الوعد والوعيد والرغبة والرهبة، فيقول ﴿شديد العقاب﴾ ويقول: ﴿غفور رحيم﴾ وقال تعالى: ﴿يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعاً﴾ وقال تعالى: ﴿لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون﴾ وقال: ﴿ومن يقنط من رحمة ربّه إلا الضالّون﴾ وقال: ﴿فلا يأمن مكر اللّه إلا القوم الخاسرون﴾.

وقال عليه السلام:

[**أوضع العلم ما وقف على اللسان**] كنّى به عن العلم الخالي من العمل بل الذي يقف على اللّسان.

وأرفعه ما ظهر على الجوارح والأركان إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة لا يقولنّ أحدكم اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلا وهو يشتمل على فتنة ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فإنّ اللّه سبحانه يقول ﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ومعنى ذلك أنّه سبحانه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه والراضي بقسمه وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن ليظهر الأفعال التي

[وأرفعه ما ظهر على الجوارح والأركان] كنّى به عن العلم المقرون بالعمل فإنّ الأعمال الصالحة لمّا كانت من ثمرات العلم باللّه وما هو أهله كان العلم فيها ظاهراً على جوارح الإنسان وأركان ظهور العلّة في معلولها.

وقال عليه السلام:

[إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة] أي: لطائفها وغرائبها المعجبة للنفس اللذيذة لها في الحكمة العملية وأقسامها أو الأعمّ منها.

وقال عليه السلام:

[لا يقولنّ أحدكم اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلا وهو يشتمل على فتنة ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فإنّ اللّه سبحانه يقول ﴿واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ومعنى ذلك أنّه سبحانه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه والراضي بقسمه وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن ليظهر الأفعال التي

بها يستحقّ الثواب والعقاب؛ لأنّ بعضهم يحبّ الذكور ويكره الاناث وبعضهم يحبّ تثمير المال ويكره انثلام الحال ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك وعملك وأن يعظم حلمك وأن تباهي الناس بعبادة ربّك فإن أحسنت حمدت اللّه وإن أسأت استغفرت اللّه

بها يستحقّ الثواب والعقاب؛ لأنّ بعضهم يحبّ الذكور ويكره الاناث وبعضهم يحبّ تثمير المال ويكره انثلام الحال] قال السيّد «ره»: وهذا من غريب ما سمع منه من التفسير، قيل: حاصله انّ الفتنة أعمّ من الفتنة المستفاد منها لصدقها على المال والبنين باعتبار ابتلاء اللّه عباده واختباره لهم بهما وغير مستعاذ منهما إذا راعى العبد فيهما أمر اللّه ولزم طاعته، وأمّا الفتنة المستفاد منها فهي التي يستلزم الوقوع فيها الضلال عن سبيل اللّه كالخروج في المال عن واجب العدل وصرفه في امداد الشهوات واتّباع الهوى.

وقال عليه السلام وقد سُئل عن الخير ما هو فقال: [**ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك وعملك وأن يعظم حلمك**] فكثرة العلم كمال القوّة النظرية للنفس العاقلة وعظم الحلم من كمال القوّة العملية وهو فضيلة القوّة الغضبية.

وقوله: [**وأن تباهي الناس بعبادة ربّك**] إشارة إلى المفاخرين بها بالكثرة والإخلاص [**فإن أحسنت حمدت اللّه**] على توفيقك للحسنة [**وإن أسأت استغفرت اللّه**] عن فعل السيّئة وذلك من فضائل القوّة الشهوية وكمال القوّة العملية.

ولا خير في الدنيا إلا لرجلين، رجل أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتوبة ورجل يسارع في الخيرات ولا يقلّ عمل مع التقوى وكيف يقلّ ما يتقبل إنّ أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جائوا به ثمّ تلى ﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبيّ﴾ إنّ وليّ محمدﷺ من أطاع اللّه وإن بعدت لحمته وإنّ عدوّ محمد من عصى اللّه وإن قربت قرابته

[**ولا خير في الدنيا إلا لرجلين، رجل أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتوبة ورجل يسارع في الخيرات**] إذ الإنسان إمّا أن يشتغل بمحو السيّئات وإعدامها ويتدارك قانط ذنوبه فيعد نفسه بذلك لاكتساب الحسنات ويشتغل باتخاذ الحسنات فيها.

ثمّ قال عليه السلام: [**ولا يقلّ عمل مع التقوى وكيف يقلّ ما يتقبل**] والقبول مستلزم للأجر العظيم إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّما يتقبّل اللّه من المتّقين﴾.

وقال عليه السلام:

[**إنّ أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جائوا به**] إذ الأبلغ في الطاعة أشدّ موافقة لهم وأقرب إلى قلوبهم، ولما لم يكن طاعتهم إلا بالعلم بما جائوا به كان أعلم الناس بذلك أقربهم إليهم وأولاهم بهم.

[**ثمّ تلى ﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبيّ﴾**] الآية، ثمّ قال عليه السلام: [**إنّ وليّ محمدﷺ من أطاع اللّه وإن بعدت لحمته وإنّ عدوّ محمد من عصى اللّه وإن قربت قرابته**] إشارة إلى أنّ العمدة العمل، واللّحمة بالضمّ النسب والقربة، وفي النبوي: «ائتوني بأعمالكم لا تأتوني بأنسابكم، إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم» وروي «إنما خلقت النار لمن عصى اللّه ولو كان سيّداً قرشياً والجنّة لمن أطاع اللّه ولو كان عبداً حبشياً».

نومٌ على يقين خيرٌ من صلاة في شكٍّ اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية فإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل قولنا إنّا للّه إقرار على أنفسها بالملك وقولنا وإليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلك

وقال عليه السلام وقد سمع رجلاً من الحرورية يتهجّد ويقرء فقال عليه السلام: **[نومٌ على يقين خيرٌ من صلاة في شكٍّ]** الحرورية: فرقة من الخوارج نسبوا إلى حرورا تمدّ وتقصر، قرية بالنهروان، والتهجّد: السهر في العبادة، والغرض انّ نوم العالم على يقين معنه بما ينبغي تيقّنه وعلمه أيضاً بما ينبغي له وعبادة الجاهل على شكّ فيما ينبغي تيقّنه من أُصول العبادة مما لا ينبغي لما فيه من إتعاب البدن من غير فائدة، وفيه إشارة إلى أنّ الشاكّ في الأمانة أو المنكر لها عمله لا ينفع وجوده كعدمه.

وقال عليه السلام:

[اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية] بضبطه بالفهم ورعاية العلم **[لا عقل رواية]** بضبط الألفاظ والسماع من دون تفهّم المعنى. **[فإنّ رواة العلم كثير ورعاته]** أي: من يراعيه ويتدبّره **[قليل]**.

وقال وقد سمع رجلاً يقول: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون إنّ: **[قولنا إنّا للّه إقرار على أنفسها بالملك]** أي: انّا مملوكون للّه وعبيد له؛ لأنّ اللام للملك ما في الدار لزيد.

[وقولنا وإليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلك] المستلزم للاعتراف بالنشور والقيامة؛ لأنّ هلاكنا يفضي إلى رجوعنا يوم القيامة إليه سبحانه، فعبّر بمقدّمة الشيء عن الشيء نفسه.

اللّهمّ إنّك أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللّهمّ اجعلني خيراً ممّا يظنون واغفر لي ما لا يعلمون لا يستقيم قضاء الحوائج إلا بثلاث، باستصغارها لتعظم وباستكتامها لتظهر وبتعجيها لتهنأ يأتي على الناس زمان لا يقرّب فيه إلا الماحل

وقال عليه السلام وقد مدحه قوم في وجهه: [**اللّهمّ إنّك أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللّهمّ اجعلني خيراً ممّا يظنون**] بي من الخير وفوق ذلك [**واغفر لي ما لا يعلمون**] من عيب سترته عنهم.

قال عليه السلام ذلك هضماً لنفسه وكسراً لها أو أنّ المباحات وترك الأولى ذنوب في حقّهم إذ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

وقال عليه السلام:

[**لا يستقيم قضاء الحوائج**] على ما ينبغي من العدل [**إلا بثلاث، باستصغارها لتعظم**] أي: استصغار قاضي الحاجة لها ليعرف بالسماحة وكبر النفس فيعظم عطائه [**وباستكتامها لتظهر**] فإنّ طباع الناس أدعى إلى إظهار ما استكتم وأكثر عناية من غيره.

[**وبتعجيها لتهنأ**] أي: لتكون هنيئة من هنأ الطعام يهنأ وذلك لأن الإبطاء بقضاء الحاجة ينغّصها على طالبها فتكون لذّتها مشوبة بتكدير بطؤها.

وقال عليه السلام:

[**يأتي على الناس زمان لا يقرّب فيه إلا الماحل**] وهو الساعي بالنميمة إلى السلطان، وأصل المحل الكيد والمكر، وروي الماجن وهو المتكلّ بما يشتهي من الباطل والهزل والاستهزاء يريد انّ ذلك الزمان لسوء أهله وبعدهم عن الدّين وقوانين الشريعة تجعل فيه الرذائل مكان الفضائل

ولا يظرف فيه إلا الفاجر ولا يضعف فيه إلا المنصف يعدّون الصدقة فيه غرماً وصلة الرحم منّاً والعبادة استطالة على الناس فعند ذلك يكون السلطان بمشروة الإماء وإمارة الصبيان وتدبير الخصيان فقال: يخشع له القلب وتذلّ به النفس ويقتدي به المومنون

ويستعمل ما لا ينبغي مكان ما ينبغي فتقرّب الملوك السعاة إليهم بالباطل مكان أصحاب الفضائل ومن ينبغي تقريبه وبعد الفاجر وهو صاحب رذيلة الإفراط في قوّته الشهوية صاحب فضيلة الطرف في حركاته ضعيفاً عاجزاً، ولذا قال:

[**ولا يظرف فيه إلا الفاجر**] أي: لا يعدّ الناس الإنسان طريفاً إلا إذا كان ـــــــ ماجناً متظاهراً بالفسق.

[**ولا يضعف فيه إلا المنصف**] أي: إذا رأوا إنساناً عنده ورع وإنصاف في معاملة الناس عدّوه ضعيفاً ونسبوه إلى الركّة والرخاوة وليس الشهم عندهم إلا الظالم.

ثمّ قال: [**يعدّون الصدقة فيه غرماً**] أي: خسارة [**وصلة الرحم منّاً**] أي: يمنّون إذا وصلوا الرحم [**والعبادة استطالة على الناس**] ويتبجّحوا بها وأعجبتهم أنفسهم واحتقروا غيرهم [**فعند ذلك يكون السلطان**] والحكم بين الرعايا [**بمشروة الإماء وإمارة الصبيان وتدبير الخصيان**] وهو من باب الأخبار بالغيب وإحدى آياته ومعجزاته ﷺ.

وقال عليه السلام وقد رأى عليه ازار خلق أي خلق واندرس مرقوع فقيل له في ذلك:

[**فقال: يخشع له القلب وتذلّ به النفس ويقتدي به المومنون**].

إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان وسبيلان مختلفان فمن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما كلّما قرب من واحد بُعد من الآخر يا نوف أراقد أنت أم رامق يا نوف طوبى للزاهدى في الدنيا الراغبين في الآخرة أُولئك

وقال عليه السلام:

[**إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان**] لما بينهما من البعد لطالبهما [**وسبيلان مختلفان**] كما قال عليه السلام [**فمن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب**] ووجه الشبه بتباينهما واختلاف جهتيهما.

[**وماش بينهما**] شبّه الطالب لهما بالماشي بينهما، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: [**كلّما قرب من واحد بُعد من الآخر**] فإنّ الطالب للدنيا بقدر توجّهه في طلبها تكون غفلته عن الآخرة وانقطاعه عنها وكلّما أمعن في تحصيلها ازداد غفلة وبعداً عن الأُخرى كالزوج ذي الضرّتين.

وقال نوف البكالي بكسر الباء نسبة إلى بكالة، قرية من اليمن قال: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر إلى النجوم فقال: [**يا نوف أراقد أنت أم رامق**] أي: مستيقظ ترمق السماء والنحوم بنظرك، فقلت: بل رامق يا أمير المؤمنين.

ولعلّ خروجه عليه السلام في ذلك الوقت لما نقله عن داود، ولأنّه محلّ الفراغ للاعتبار والتفكير في خلق السموات والأرض.

قال: [**يا نوف طوبى للزاهدى في الدنيا الراغبين في الآخرة أُولئك**

قوم اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً ومائها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً ثمّ قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح يانوف إنّ داودعليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال: إنّها ساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له إلا أن يكون عشّاراً أو عريفاً أو شرطياً أو صاحب عرطبة أو صاحبة كوبة إنّ اللّه فرض عليكم فرائض فلا تضيّعوها وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها

قوم اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً ومائها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً] استعار الشعار للقرّن باعتبار ملازمتهم لدرسه وتفّهم مقاصده كالشعار الملازم للجسد، والدثار للدعاء باعتبار احتراسهم به من عذاب اللّه والشدائد النازلة بهم كالاحتراس بالدثار عن البرد ونحوه.

[**ثمّ قرضوا الدنيا قرضاً**] أي: تركوها وخلّفوها وراء ظهورهم أو قطعوها بأيسر ما يدفع ضرورتهم عنها.

[**على منهاج المسيح**] وطريقته وفعله لهذه الأوصاف.

[**يانوف إنّ داودعليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال: إنّها ساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له إلا أن يكون عشّاراً أو عريفاً أو شرطياً أو صاحب عرطبة أو صاحبة كوبة**] لملازمتهم للمعصية التي تحجب نفوسهم عن قبول رحمة اللّه. وقالعليه السلام:

[**إنّ اللّه فرض عليكم فرائض فلا تضيّعوها**] وهي ما أوجبه على عباده [**وحدّ لكم حدوداً**] محدودة معيّنة [**فلا تعتدوها**] ولا تتجاوزوها [**ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها**] وهي ما جاز حدوده من المحرّمات

وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلّفوها لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح اللّه عليهم ما هو أضرّ منه ربّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك

والرذائل.

[**وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلّفوها**] كما قال تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم﴾ وفي الخبر: «أبهموا ما أبهم اللّه».

وقال عليه السلام:

[**لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح اللّه عليهم ما هو أضرّ منه**] كمن يؤخّر الصلاة عن وقتها اشتغالاً بالبيع والشراء للربح فيفوته من الدنيا أكثر مما رامه فيخسر الدنيا والآخرة.

وقال عليه السلام:

[**ربّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه**] وذلك كالمشتغل بغير العلوم الدينية فيفتي بغير علم أو يتعدّى حدّاً من حدود اللّه أو يرتكب شيئاً فيكون ذلك سبب هلاكه في الدنيا والآخرة بل المشتغل بالعلوم الكفائية قبل اتقان العلوم العينية.

وقال عليه السلام:

[**لقد علق بنياط هذا الإنسان**] والنياط: عرق علّق به القلب من الوتين، فإذا قُطع مات صاحبه ويقال له النيط أيضاً.

[**بضعة**] بفتح الباء وهي القطعة من اللحم [**هي أعجب ما فيه وذلك**

القلب، وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها فإنّ سنح له الرجاء أذلّه الطمع وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قلته الأسف وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ وإن أسعده الرضا ينسى التحفّظ وإن غاله الخوف شغله الحذر وإن اتسع له الأمن استلبته الغرّة

القلب، وله مواد من الحكمة] أي: فضائل خلقية فإنّها بأرها من الحكمة وهي العلم بما ينبغي أن يفعل.

[**وأضداد من خلافها]** إشارة إلى الرذائل المضادة للفضائل وهي أطراف الإفراط والتفريط.

[**فإنّ سنح له الرجاء أذلّه الطمع]** والفرق بينهما أنّ الرجاء توقع منفعة ممن سبيله أن تصدر تلك المنفعة منه والطمع توقّع منفعته ممن يستبعد وقوع تلك المنفعة منه.

[**وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص]** لأنّ الحرص يتبع الطمع إذا لم يعلم الطامع أنّه طامع وإنّما يظنّ أنّه راج.

[**وإن ملكه اليأس قلته الأسف]** واليأس رذيلة التفريط من الرجاء ويلزمه الأسف القاتل، كما أنّ الطمع رذيلة الإفراط من الرجاء.

[**وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ]** وهو رذيلة الإفراط من الغضب المسمّى طيشاً والوسط من الغضب فضيلة الشجاعة وكظم الغيظ.

[**وإن أسعده الرضا]** بما يحصل من دنياه [**ينسى التحفّظ]** وتركه وهو رذيلة الإفراط من الرضا [**وإن غاله الخوف]** أي: أخذه على غرّة [**شغله الحذر]** عمّا ينبغي عند عروضه، والذي ينبغي فيه الأخذ بالحزم وترك الإفراط في الخوف والعمل للأمر المخوّف [**وإن اتسع له الأمن استلبته الغرّة]**

وإن أصابته معيبة فضحه الجزع وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى وإن عضّته الفاقة شغله البلاء وإن جهده الجوع تعدّ به الضعف وإن أفراط به الشبع كظّته البطنة فكلّ تقصير به مضرّ وكلّ إفراط له مفسد نحن النمرة الوسطى بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي

أي: استلبت عقل الآمن حتّى لا يفكّر في مصحلته وحفظ ما هو عليه من الأمن.

[**وإن أصابته معيبة فضحه الجزع**] وكان ينبغي له الصبر عند المصيبة.

[**وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى**] فتجاوز فيه الحدود ﴿إنّ الإنسان ليشقى أن رآه استغنى﴾.

[**وإن عضّته الفاقة**] أي: الحاجة [**شغله البلاء**] والمحنة وضيق الصدر عن الصبر [**وإن جهده الجوع تعدّ به الضعف**] عن الصبر عليه [**وإن أفراط به الشبع كظّته البطنة فكلّ تقصير به مضرّ وكلّ إفراط له مفسد**] وخير الأُمور أوسطها، والعدالة الدرجة الوسطى بين الطرفين الرذيلتين كالجود الذي يكتنفه التبذير والإمساك، والذكاء الذي تكتنفه الغباوة والجربزة، والشجاعة التي يكتنفها التهوّر والجبن.

وقال عليه السلام:

[**نحن النمرة الوسطى بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي**] النمرقة والنمرق بالضمّ فيهما الوسادة الصغيرة ويجوز الكسر، واستعير له عليه السلام ولأهل بيته بصفة الوسطى باعتبار كونهم أئمة الحقّ ومرجع الخلق في دينهم ودنياهم على وجه العدل المتوسّط بين طرفي الإفراط والتفريط ومن حقّ الإمام العادل أن يلحق به التالي أي: المفرط المقصّر ويرجع إليه الغالي أي:

لا يقيم أمر اللّه سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتّبع المطامع لو أحبّني جبل لتهافت من أحبّنا أهل البيت فليستعدّ للفقر جلباباً

المفرط المتجاوز لحدّ العدل.

وقال عليه السلام:

[**لا يقيم أمر اللّه سبحانه**] في أوامره ونواهيه وحدوده وشرائعه وأحكامه [**إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتّبع المطامع**] المصانعة المصالحة برشوة ونحوها، والمضارعة مفاعلة من الضرع وهو الذلّة، كأنّ كلاً منهما يفرع للآخر وظاهر أنّ مصانعة الغير يستلزم طلب رضاه وذلك يمنع من إقامة حدود اللّه وأمره في حقّه وكذا المضارعة واتّباع المطامع من الغير فإنّهما يستلزمان ترك مواجهته بما يشقّ عليه من أوامر اللّه وحدوده.

وقال عليه السلام وقد توفّي سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة بعد مرجعه من صفّين معه وكان من أحبّ الناس إليه:

[**لو أحبّني جبل لتهافت**] قال السيّد «ره»: ومعنى ذلك أنّ المحنة تغلظ عليه فتسرع المصائب إليه ولا يفعل ذلك إلا بالأتقياء الأبرار المصطفين الاخيار وهذا مثل قوله عليه السلام:

[**من أحبّنا أهل البيت فليستعدّ للفقر جلباباً**] وقد يؤول ذلك على معنىً آخر ليس هذا موضع ذكره، ولعلّه أراد به الفقر في الآخرة، أي: من أحبّنا فليعدّ لفقره يوم القيامة ما يجبره من الثواب والتقرّب إلى اللّه والزلفة عنده وتهافت الجبل: سقط قطعة قطعة، وهو مبالغة في كثرة ما يلحقه ويفجئه من المصائب والابتلاء، والجلباب مستعار لتوطين النفس على الفقر

لا مال أعود من العمل ولا وحدة أوحش من العجب ولا عقل كالتدبير ولا كرم كالتقوى ولا قرين كحسن الخلق

والصبر عليه، ووجه الاستعارة كونهما ساترين للمستتر بهما من عوارض الفقر وظهوره في سوء الخلق وضيق الصدر والتحيّر الذي ربّما يؤدّي إلى الكفر كما يستر بالملحفة، ولما كانت محبّتهم عليهم السلام بصدق تستلزم متابعتهم والاقتداء بهم والاستشعار لشعارهم من شعارهم الفقر ورفض الدنيا والصبر على ذلك وجب أن يكون كلّ محبّ لهم مستشعراً للفقر ومستعداً له جلباباً من توطين النفس عليه والصبر.

وقال عليه السلام:

[لا مال أعود] بالنفع على صاحبه [من العمل] واستعار المال للعقل باعتبار أنّ به ـــــــ النفس وهو أس مالها الذي به تكتب الأرباح الباقية والكمالات المعدّة كالمال الذي به الكمال الظاهر.

[ولا وحدة أوحش من العجب] لأنّ العجب يوجب المقت ومن مقت أُفرد عن المخالطة واستوحش منه.

[ولا عقل كالتدبير] فإنّ جملة تصرّفات العقل العملي التدبير واستخراج الآراء الصائبة في الأُمور، ولمّا كان المقصود منه التدبير لا جرم لم يكن له التصرّف يشبهه فلا عقل مثله.

[ولا كرم كالتقوى] إذ خشية اللّه يلزمها الزهد في الدنيا والإعراض عن متاعها ويلزم ذلك بذل جميعها وإذا كان بذل بعض قنياتها يسمّى كرماً فبذلها بأسراها أولى بان يسمّى كرماً.

[ولا قرين كحسن الخلق] لأنّ غاية سائر القرناء أن يستفاد من

ولا ميراث كالأدب ولا قائد كالتوفيق ولا تجارة كالعمل الصالح ورا ورع كالوقوف عند الشبهة ولا زهد كالزهد في الحرام ولا علم كالتفكّر ولا عبادة كأداء الفرائض ولا إيمان كالحياء والصبر

صحبتهم ومحبّتهم حسن الخلق فكون الخلق الحسن ـــــ الذي هو الغاية قريناً أشرف من ذي الغاية الذي عساه لا يحصل منه فرا قرين إذاً يشبهه.

[**ولا ميراث كالأدب**] وقد مرّ بيانه [**ولا قائد**] إلى المطالب [**كالتوفيق**] وهو عبارة عن توافق الأسباب حتّى تستلزم حصول المسبب فهو نِعم القائد في سرعة الوصول إلى المطلوب.

[**ولا تجارة كالعمل الصالح**] لاستلزامه الخير كاستلزام التجارة الربح، وربح العمل الصالح الثواب الدائم الأُخروي الذي لا ربح أعظم منه.

[**ورا ورع كالوقوف عند الشبهة**] إذ الورع الوقوف عن المناهي والمحرّمات، فالوقوف عن الشبهة أبلغ أصناف الورع وأكثرها تحرّزاً.

[**ولا زهد كالزهد في الحرام**] لما كان الزهد في الحرام هو المأمور به وغيره مندوب كان الأوّل أفضل كفضل الواجب على المندوب.

[**ولا علم كالتفكّر**] أي: كالعلم الحاصل من التفكّر في خلق السموات والأرض وما خلق اللّه من شيء، وهو أفضل من العلم الحاصل بالحواس، ويحتمل أن يراد العلم بكيفية التفكّر والقوانين التي تعصم مراعاتها الفكر من الضلال.

[**ولا عبادة كأداء الفرائض**] لكونها واجبة، والواجب أشرف من غيره.

[**ولا إيمان كالحياء والصبر**] لشرف هاتين الفضيلتين وإطلاقهما على

ولا حسب كالتواضع ولا شرف كالعلم ولا مظاهرة أوثق من المشاورة إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثمّ أساء رجل الظنّ برجل لم تظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثمّ أحسن رجل الظن برجل فقد غراه كيف يكون حال من يفنى ببقائه ويسقم بصحّته

الإيمان مجاز من إطلاق اللازم على الملزوم.

[**ولا حسب كالتواضع**] لما كان الحسب ما يعد من المآثر والفضائل كان التواضع أشرف ما يعد بالقياس إلى كثير منها لما يستلزم من الحوادث.

[**ولا شرف كالعلم**] أي: كشرف العلم؛ لأنّه أشرف الكمالات.

[**ولا مظاهرة أوثق من المشاورة**] لأنّ فيه إضافة عقل غيره إلى عقله.

وقال عليه السلام:

[**إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثمّ أساء رجل الظنّ برجل لم تظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثمّ أحسن رجل الظن برجل فقد غراه**] يريد أنّه يتعيّن على العاقل سوء الظنّ حيث الزمان فاسد، ولا ينبغي له سوء الظنّ حيث الزمان صالح، إشارة إلى أنّ من جملة الأسباب المعدّة لتوافق أسباب صلاح الخلق في معاشهم ومعادهم ولذا يقال زمان صالح وزمان فاسد، وقوله «قد غرّر» أي: أوقع نفسه في الغرّة به والغفلة عن حاله، وروي إذا غلب الجور على العدل فلا يحلّ لأحد أن يظنّ بأحد خيراً حتّى يعرف ذلك منه.

وقيل له عليه السلام كيف نجدك يا أمير المؤمنين قال: [**كيف يكون حال من يفنى ببقائه ويسقم بصحّته**] إذ استمرار الزمان وتعاقب أجزائه مقرّب

كم من مستدرج بالإحسان إليه ومغرور بالستر ومفتون بحسن القول فيهوما ابتلى اللّه أحداً إلا بمثل الإملاء له

للأجل فلبقائه سببٌ في فنائه، وكذا لما كان غاية لصحّة السقم فالصحّة سبب في سقمه.

وقوله: [ويؤتى من مأمنه، لعلّ المراد أن نزول ما يكرهه الإنسان به من الموت وأهوال الآخرة هو أمنه في الدنيا وسكونه إليها وغفلته عمّاورائها مما لابدّ منه، فالمأمن مصدر، ويحتمل أن يكون المأمن محلّ الأمن وهو الدنيا ومعنى كونه يؤتى من مأمنه أي: انّ ما يدخل عليه من الأدواء التي فيها هلاكه والمصائب التي تلحقه من أحوال الدنيا التي هي مأمنه وعوارضها التي يعرض له من مأمنه حال أمنه فيه بحيث لا يمكنه الاحتراز منه.

وقال عليه السلام:

[**كم من مستدرج بالإحسان إليه**] بضروب النعم، والمستدرج المأخوذ على غرّة [**ومغرور بالستر**] أي: ستر المعصية [**ومفتون بحسن القول فيه**] والثناء عليه [**وما ابتلى اللّه أحداً إلا بمثل الإملاء له**] أي: الإمهال وتأخير المدّة، ولمّا كانت غاية الابتلاء بهذه الأُمور التي كلّها نِعمٌ في الحقيق إمّا شكرها أو كفرها كما قال تعالى: ﴿ليبلوني ءأشكر أم أكفر﴾ الآية، وكان الشكر هو الخيرية المطلوبة بالذات نبّه المبتلى بالنعم على وجوب شكرها بأنّه كثيراً ما يستدرج بها فينبغي أن لا يغفل عنها، ونبّه المبتلى بالثانية على أنّها كثيراً ما تكون سبباً لغرّته باللّه والأمن من مكره فينهمك في المعاصي، ونبّه الثالث بكون نعمته قد تكون سبباً لفتنته وصرفه عن شكر اللّه وارتكابه لرذيلة العجب بنفسه، ونبّه الرابع بكون نعمته أعظم ما يبتلى به من النعم.

هلك فيَّ رجلان: محبٌّ غلا ومبغضٌ قال إضاعة الفرصة غصّة مثل الدنيا كمثل الحيّة ليّن مسّها والسمّ الناقع في جوفها الأليم يهوي إليها الغرّ الجاهل ويحذرها ذو اللّب العاقل عن قريش فقال: أمّا بنو مخزوم فريحانة قريش يحبّ حديث رجالهم والنكاح

وقال عليه السلام:

[**هلك فيَّ رجلان: محبٌّ غلا ومبغضٌ قال**] الغلاة هم الذين أخرجوه عن حدّ البشرية إلى سماء الإلهية، والمبغضون كثيرون ولا ريب أنّ بغض أولياء اللّه معاداة للّه.

وقال عليه السلام:

[**إضاعة الفرصة غصّة**] أي: إنّ تضييع الأمر وقت إمكانه من نفسه يستلزم الأسف والحزن على تفويته.

وقال عليه السلام:

[**مثل الدنيا كمثل الحيّة ليّن مسّها والسمّ الناقع في جوفها**] لأنّ تناول شهواتها سهل في عين الناظر إليها مع ــــــ يشتهيه منها ويتناوله الشقاوة الأُخروية والعذاب [**الأليم يهوي إليها الغرّ الجاهل**] بما فيها من سوء العاقبة [**ويحذرها ذو اللّب العاقل**] العارف بها كما أنّ الحيّة ليّن مسّها حسن منظرها يحبّها الجاهل سواراً من ذهب أو فضّة يهوي إليها لغرّته بما فيه من سم ويحذرها من يعرفه.

وسُئِل عليه السلام: [**عن قريش فقال: أمّا بنو مخزوم**] وهم بطن من قريش ومنهم أبو جهل وآل المغيرة [**فريحانة قريش**] قيل: كانت لمخزوم ريح طيّبة كالخزامى ولوناً كلونه [**يحبّ حديث رجالهم**] لأنّ فيهم كيساً [**والنكاح**

في نسائهم وأمّا بنو عبد شمس فأبعدها رأياً وأصنعها لما وراء ظهورها وأمّا نحن فأبذل لما أيدينا وأسمح عند الموت بنفوسنا هم أكثر وأمكر وأنكر ونحن أفصح وأنصح وأصبح شتّان بين عملين، عمل تذهب لذّته وتبقى تبعته

في نسائهم] لما فيهنّ من اللّطف والتصنّع والتحبّب إلى الرجال.

[**وأمّا بنو عبد شمس]** بن عبد مناف ومنهم ربيعة وأبناء شيبة وحرب بن أُمية وأبو سفيان وأسيد بن عتاب.

[**فأبعدها رأياً]** كنّى به عن جودة الرأي، يقال: فلان بعيد الرأي إذا كان يرى المصلحة من بعيد.

[**وأصنعها لما وراء ظهورها]** كنّى به عن الحمية [**وأمّا نحن]** معشر بني هاشم [**فأبذل لما أيدينا]** كناية عن السخاء [**وأسمح عند الموت بنفوسنا]** كنّى به عن شجاعتهم، ثمّ وصفهم بفضيلة خارجية ورذيلتين ووصف بني هاشم بثلاث فضائل بدنيتين ونفسانية فقال: [**هم أكثر]** عدداً [**وأمكر]** أي: أكثر حيلة وخداعاً [**وأنكر]** أي: أكثر نكراً ومنكراً [**ونحن أفصح]** لساناً [**وأنصح]** للناس لمن ينبغي نصيحته [**وأصبح]** أي: أحسن وجوهاً وأجمل، والمراد ألقى الناس بالطلاقة والبشر.

وقال عليه السلام:

[**شتّان بين عملين، عمل تذهب لذّته وتبقى تبعته]** وهو عمل الدنيا وتبعته ما يتبعه من الشقاوة الأُخروية [وعمل تذهب مؤنته ويبقى أجره وهو عمل الآخرة، ومعنى «شتّان» افترق ما بينهما فرقاً عظيماً.

وقد تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك، فقال عليه السلام: كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب! وكأنّ الحقّ فيها على غيرنا وجب! وكأنّ الذي نرى من الأموات سَفْرٌ عمّا قليل إلينا راجعون! نبوّهم أجداثهم ونأكل تراثهم قد نسينا كلّ واعظ وواعظة ورمينا بكلّ جايحة طوبى لمن ذلّ في نفسه وطاب كسبه وصلحت سريرته وحسنت خليقته وأنفق الفضل من ماله

وقال عليه السلام:

[**وقد تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك، فقال عليه السلام: كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب! وكأنّ الحقّ فيها على غيرنا وجب!**] من حيث قلّة اهتمامنا بالموت وعدم الالتفات إلى اداء واجب حقّ اللّه علينا.

[**وكأنّ الذي نرى من الأموات سَفْرٌ عمّا قليل إلينا راجعون!**] من حيث عدم اعتبارنا بمن يموت [**نبوّهم أجداثهم**] جمع جدث وهو القبر.

[**ونأكل تراثهم**] أي: إرثهم، وهو من تمام وجه التشبيه فإنّ الفاعل مثل هذا الفعل بالأموا كأنّه لقساوة قلبه وعدم اتّعاظه لم يكتب عليه ما كتب عليهم من الموت.

[**قد نسينا كلّ واعظ وواعظة ورمينا بكلّ**] فادح و[**جايحة**] وهي الداهية المستأصلة [**طوبى لمن ذلّ في نفسه**] للّه من ملاحظة حاجتها وفقرها إليه ونظرها إلى معادها.

[**وطاب كسبه**] بأن أخذه من وجهه الذي ينبغي [**وصلحت سريرته**] للّه وأخلص باطنه من فساد النيّة في المعاملة مع الخلق [**وحسنت خليقته**] باقتناء الفضائل واجتناب الرذائل [**وأنفق الفضل**] عن الحاجة [**من ماله**]

وأمسك الفضل من لسانه وعزل عن الناس شرّه وسعته السنّة ولم ينسب إلى بدعة غيرة الرجل إيمان وغيرة المرأة كفر لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحدٌ قبلي: الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين واليقين هو التصديق

فيما ينبغي من وجوه القربات [**وأمسك الفضل من لسانه**] بأن يتكلّم في محلّ الكلام ويسكت في محلّ السكوت.

[**وعزل عن الناس شرّه**] وهو العدل أو لازمه [**وسعته السنّة**] أي: سنّة اللّه ورسوله [**ولم ينسب إلى بدعة**] أي: لم يخرج أي: لم يخرج من السنّة إلى ما يبتدع في الدّين وما لا ينبغي.

قال السيّد «ره»: ومن الناس من ينسب هذا الكلام إلى رسول اللّه ﷺ.

وقال عليه السلام:

[**غيرة الرجل إيمان**] لاستلزامه سخط ما يسخط اللّه من اشتراك رجلين في امرأة [**وغيرة المرأة كفر**] لأنّها تروم بغيرتها تحريم ما أحلّ اللّه وهو اشتراك امرأتين فما زاد في رجل واحد وتحريم ما أحلّ اللّه وسخط ما رضيه كفر.

وقال عليه السلام:

[**لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحدٌ قبلي: الإسلام هو التسليم**] لأنّ الإسلام الدخول في الطاعة ويلزمه التسليم للّه وعدم النزاع في ذلك [**والتسليم هو اليقين**] لأنّ التسليم الحقّ إنّما يكون عن تيقّن استحقار المطاع للتسليم له واليقين بذلك من لواز التسليم للّه [**واليقين هو التصديق**] لأنّ اليقين باستحقاقه للطاعة والتسليم مستلزم للتصديق بما جاء به على لسان

والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل الصالح عجبتُ للبخيل يستعجل الفقر الذي هرب منه فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويُحاسب في الآخرة حساب الأغنياء وعجبتُ للمتكبّر الذي كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة

رسوله ﷺ من وجوب طاعته فصدق على اليقين به أنّه تصديق له.

[**والتصديق هو الإقرار**] لأنّ التصديق للّه في وجوب طاعته إقرار بصدق اللّه [**والإقرار هو الأداء**] لأنّ الإقرار والاعتراف بوجوب أمر يستلزم أداء المقرّ المعترف لما أُمر به فكان إقراره أداءً لازماً. [**والأداء هو العمل الصالح**] لأنّ أداء ما اعترف به للّه من الطاعة الواجبة لا يكون إلا عملاً ويؤول حاصل هذا الترتيب إلى إنتاج أنّ الإسلام هو العمل للّه بمقتضى أوامره.

وقال ﷺ:

[**عجبتُ للبخيل يستعجل الفقر الذي هرب منه**] حيث إنّه يتخيّل خوف الفقر في العاقبة لو أنفق المال فتقتيره وعدم انتفاعه به في الحال صورة فقر حاضر فكان بذلك مستعجلاً للفقر، ورأي حكيمٌ رجلاً مثرياً يأكل خبزاً وملحاً فقال: لمَ تفعل هذا؟ قال: أخاف الفقر، قال: فقد تعجّلته.

[**فيعيش في الدنيا عيش الفقراء**] لتقتيره على نفسه [**ويُحاسب في الآخرة حساب الأغنياء**] لكونه ذا مال وثروة وقدرة.

[**وعجبتُ للمتكبّر الذي كان بالأمس نطفة**] قذرة في غاية الحقارة [**ويكون غداً جيفة**] منتنة، فجمعه بين هذين الأمرين وبين التكبّر من العجب العجيب.

وعجبتُ لمن شكّ في اللّه وهو يرى خلق اللّه وعجبت لمن ينسى الموت وهو يرى من يموت وعجبت لمن أنكر النشأة الأُخرى وهو يرى النشأة الأُولى وعجبتُ لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء من قصّر في العمل ابتلي بالهم

[**وعجبتُ لمن شكّ في اللّه وهو يرى خلق اللّه**] وذلك جمع بين الشكّ في وجوده وبين رؤيته ظاهراً في وجود مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وهو محلّ العجب.

[**وعجبت لمن ينسى الموت وهو يرى من يموت**] ومعلوم أنّ نسيان الموت مع رؤيته دائماً محلّ التعجب.

[**وعجبت لمن أنكر النشأة الأُخرى وهو يرى النشأة الأُولى**] إذ استبعاده إعادة الأبدان بعد عدمها مع اعترافه بالنشأة الأُولى وهي الوجود الأوّل بعد العدم البحت محلّ التعجّب لأنّ الأُخرى أهون كما قال تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾.

[**وعجبتُ لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء**] إذ إذ إقباله على عمارة الدنيا مع كونها خزفاً فانياً وإعراضه عن الآخرة مع كونها ذهباً باقياً محلّ التعجّب.

وقال عليه السلام:

[**من قصّر في العمل ابتلي بالهم**] لأنّ المقصّر في العمل للّه يكون غالب أحواله متوفّراً على الدنيا مفرطاً في طلبها وجمعها، وبقدر التوفّر عليها يكون شدّة الهمّ في جمعها وتحصيلها أوّلاً، ثمّ في ضبطها والخوف على فواتها ثانياً.

ولا حاجة للّه فيمن ليس للّه في نفسه وماله نصيب توقّوا البرد في أوّله وتلقّوه في آخره فإنّه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار أوّله يحرق وآخره يورق عظم الخالق عندك يصغّر المخلوق في عينك

[ولا حاجة للّه فيمن ليس للّه في نفسه وماله نصيب] كنّى به عن إعراضه عنه وعدم النظر إليه بعين الرحمة لعدم استعداده لذلك.

وقال عليه السلام:

[توقّوا البرد في أوّله وتلقّوه في آخره فإنّه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار أوّله يحرق وآخره يورق] وأوّله أوّل الخريف، قيل: والسبب فيه أنّ الصيف والخريف يشتركان في اليبس فإذا ورد البرد حينئذ ورد على أبدان استعدّت بحرارة الصيف ويبسه للتخلخل وتفتح المسام والجفاف فاشتدّ انفعال البدن عنه وأسرع تأثيره في قهر الحرارة الغريبة فيقوى بذلك في البدن وقتا البرد واليبس اللتان هما طبيعة الموت فيكون بذلك يبس الأشجار واحتراق الأوراق وضمور الأبدان وضعفها، بخلاف آخره وهو آخر الشتاء أوّل الربيع فإنّهما يشتركان في الرطوبة ويفترقان في برد الشتاء وحرّ الربيع، فالبرد المتأخّر إذا امتزج بحرارة الربيع وانكسرت سورته بها لم تكن له بعد ذلك نكاية في الأبدان فقويت لذلك الحرارة الغريبة فيها وانتعشت فكان من اعتدالها بالبرد مع الرطوبة استعداد المزاج وهو طبيعة الحياة وكان منه النموّ وقوّة الأبدان وبروز الأوراق والثمار.

وقال عليه السلام:

[عظم الخالق عندك يصغّر المخلوق في عينك] إذ لا نسبة للمخلوق إلى الخالق، سيّما البشر فإنّهم بالنسبة إلى فلك القمر كالذرّة بالنسبة إلى

يا أهل الديار الموحشة والمحالّ المقفرة والقبور المظلمة يا أهل التربة يا أهل الغربة يا أهل الوحدة يا أهل الوحشة أنت لنا فرطٌ سابق ونحن لكم تبعٌ لاحق، أمّا الدور فقد سُكنت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، وأمّا الأموال فقد قُسّمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ أما والله لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى

قرص الشمس بل أدون، وفلك القمر بالنسبة إلى الفلك المحيط دون هذه النسبة ونسبة الفلك المحيط الذي لا قوام له إلا بالله إلى الباري كنسبة العدم المحض والنفي الصرف إلى وجود الواجب، فالأمر أعظم وأجلّ والعقل قاصر عن التصوّر واللّسان عاجز عن التعبير.

وقال عليه السلام وقد رجع من صفّين فأشرف على القبور بظاهر الكوفة:

[يا أهل الديار الموحشة والمحالّ المقفرة والقبور المظلمة يا أهل التربة يا أهل الغربة يا أهل الوحدة يا أهل الوحشة أنت لنا فرطٌ سابق] والفرط المتقدّم **[ونحن لكم تبعٌ لاحق، أمّا الدور فقد سُكنت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، وأمّا الأموال فقد قُسّمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟]** ثمّ التفت عليه السلام إلى أصحابه فقال: **[أما والله لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى]** خاطبهم عليه السلام خطاب من يسمع إقامة لحالهم المعهودة مقام أشخاصهم الموجودة في الدنيا، والغرض ترقيق القلوب القاسية وتنبيه النفوس الغافلة عن غاية الدنيا وما تؤول إليه، والاستعداد للآخرة التي هي خيرٌ وأبقى.

وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا: أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها المنخدع بأباطيلها أتغترّ بها ثمّ تذمّها أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك متى استهوتك أم متى غرّتك أبمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أُمّهاتك تحت الثرى كم علّلت بكفّك وكم مرّضت بيديك تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطبّاء غداة لا يغني عنهم دوائك لم ينفع أحدهم إشفاقك ولم تُسْعَفْ فيه

وقال عليه السلام:

[وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا: أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها المنخدع بأباطيلها أتغترّ بها ثمّ تذمّها] توبيخٌ له على الاغترار بها وذمّها مع ذلك، ثمّ كذّب دعواه بقوله: [أنت المتجرّم عليها] أي: المدعي جريمته [أم هي المتجرّمة عليك] يقال: تجرّمت على فلان: ادّعيت عليه جرماً وذنباً، [متى استهوتك] أي: طلبت هويك إليها وهواك فيها [أم متى غرّتك] استفهام إنكاري عن وقت استهوائها له وغرورها، وأكّد ذلك باستفهام أنّ ذلك الغرور له منها بأيّ شيء كان.

[أبمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أُمّهاتك تحت الثرى] وذلك بمنزلة الإنكار على وجه الاستهزاء، ثمّ أشار إلى كونها منبّهة على الغفلة لا أنّ قصدها الغرّة فقال: [كم علّلت بكفّك وكم مرّضت بيديك] أي: قد صورّت لك الدنيا نفسك بمن أكثرت تعليله وتمريضه من أهلك [تبتغي] أي: تطلب [لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطبّاء غداة لا يغني عنهم دوائك] ولا يجدي عليهم بكائك [لم ينفع أحدهم إشفاقك ولم تُسْعَفْ فيه

بطلبتك وقد مثّلت لك الدنيا به نفسك ومصرعه مصرعك إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزوّد منها ودار موعظة لمن اتّعظ بها مسجد أحبّاء اللّه ومصلّى ملائكة اللّه ومهبط وحي اللّه ومتجر أولياء اللّه اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنّة

بطلبتك] ولم تدفع عنهم مبرّتك [**وقد مثّلت لك الدنيا به نفسك ومصرعه مصرعك**] وإذا كانت الدنيا بهذه المثابة قد مثّلت لك ذلك فهي ليست من أهل التلبيس عليك والغرور لك بل من نُصحائك ومنبّهيك عن غفلتك، ثمّ لمّا نفى عنها الذمّ أخذ في مدحها بأوصاف ثمانية فقال:

[**إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها**] فيما أخبرت به بلسان حالها من فنائها وزوالها وصديقه لها اعترافه بذلك منها والعمل به.

[**ودار عافية لمن فهم عنها**] ما أخبرت به من عطائها حتّى احترز من آفاتها وعوفي من عذاب اللّه.

[**ودار غنى لمن تزوّد منها**] بالتقوى كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ وظاهر أنّ التقوى وثمراتها في الآخرة أعظم غنى للمتّقين.

[**ودار موعظة لمن اتّعظ بها**] واعتبر فعلم وصفها وغايتها [**مسجد أحبّاء اللّه**] من رسله وأوليائه [**ومصلّى ملائكة اللّه**] الأرضية الذين سجدوا لآدم عليه السلام. [**ومهبط وحي اللّه**] على الأنبياء والمرسلين.

[**ومتجر أولياء اللّه**] أي: محلّ تجارتهم التي لن تبور.

[**اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنّة**] بالأعمال الصالحة

فمن ذا يذمّها قد أذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها فمثّلت لهم ببلاياها البلى وشوّقتهم بسرورها إلى السرور وراحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً تحذيراًفذمّها رجال غداة الندامة وحمدها آخرون يوم القيامة ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا وحدّثتهم

والملكات الفاضلة.

[**فمن ذا يذمّها**] استفهم بعد هذه المدائح عمّن يذمّها منكراً عليه والحال أنّها [**قد أذنت**] أي: أعلمت أهلها [**ببينها**] أي: بفراقها [**ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها**] بلسان حالها من التغيّر والانتقال المؤذن بالزوال [**فمثّلت لهم ببلاياها البلى**] في الآخرة [**وشوّقتهم بسرورها إلى السرور**] في الجنّة؛ لأنّ كلّ ما في هذا العالم صورة ومثال لعالم الغيب ونسخة منه، فالعارف يشاهد بلاء الآخرة من بلاء الدنيا وسرورهامن سرورها مع العلم بما بينهما من الفرق العظيم وإنّ الأشرف لا يحصل إلا برفض الأخس، فباعوا الفاني بالباقي.

[**وراحت بعافية وابتكرت بفجيعة**] كنّى بذلك عن سرعة انتقال أحوالها وتبدّل أطوارها من رخاء إلى شدّة ومن صحّة إلى سقم.

[**ترغيباً**] في الثواب [**وترهيباً**] من العقاب ومنها [**تحذيراً**] من الحساب [**فذمّها رجال غداة الندامة**] أي: إنّ سبب ذمّها ممن ذمّها ندامة المفرطين في اتّخاذ الزاد التقوى إلى الآرة منها فنسبوا ذلك التفريط إلى غرورها لهم.

[**وحمدها آخرون يوم القيامة ذكّرتهم الدنيا**] بزوالها انّ ورائهاآخرة باقية يجب العمل لها [**فتذكّروا**] ما ذكّرتهم وعملوا [**وحدّثتهم**] بلسان حالها

فصدّقوا ووعظتهم فاتّعظوا إنّ للّه ملكاً ينادي في كلّ يوم: لِدُوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب الدنيا دار ممرّ إلى دار مقرّ والناس فيها رجلان: رجلٌ باع نفسه فأوبقها ورجلٌ ابتاع نفسه فأعتقها

بذلك [**فصدّقوا ووعظتهم**] بِغِيَرَها [**فاتّعظوا**] واعلم أنّه قد كثر ذمّ الدنيا في الكتاب والسنّة وقد ورد مدحها أيضاً في جملة من الأخبار والآثار، وروي «نعم العون على الآخرة الدنيا» فالدنيا المذمومة كلّ ما يبعّد عن اللّه وإن كان صلاة أو صوماً أو حجّاً أو إنفاقاً إذا لم يقصد بها وجه اللّه، والآخرة كلّما يقرّب إلى اللّه وإن كان دياراً وخدماً وحشماً وأموالاً إذا صُرفت في رضاء اللّه، وليست الدنيا المذمومة النشأة الدنيوية، إذ هي محلّ العبادة والأعمال الصالحة ولا مطلق المال والخدم والحشم فقد كان لجملة من الأنبياء والأولياء كسليمان ويوسف بل المدار على ما ذكر.

وقال عليه السلام:

[**إنّ للّه ملكاً ينادي في كلّ يوم: لِدُوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب**] الأمور الثلاثة غايات طبيعية، واللام فيها للعاقبة، كقوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾ وقوله: «فللموت ما تلد الوالدة».

وقال عليه السلام:

[**الدنيا دار ممرّ**] باعتبار أنّها طريق [**إلى دار مقرّ**] وهي الآخرة [**والناس فيها رجلان: رجلٌ باع نفسه فأوبقها**] أي: أهلكها [**ورجلٌ ابتاع نفسه فأعتقها**] استعار البائع لبائع نفسه باعتبار تسليمه لها إلى الهلاك

لايكون الصديق صديقاً حتّى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وغيبته ووفاته من أُعطي أربعاً لم يُحرم أربعاً: من أُعطي الدعاء لم يُحرم الإجابة، ومن أُعطي التوبة لم يُحرم القبول، ومن أُعطي الاستغفار لم يُحرم المغفرة، ومن أُعطي الشكر لم يُحرم الزيادة

الأُخروي واعتياضه عنها ما أصابه من اللّذة الدنيوية، وكذا لفظ الابتياع لمشتري نفسه باعتبار إنقاذها من ذلك الهلاك ببذل ما قدر عليه من حاضر اللذات والإعراض عنه.

وقال عليه السلام:

[لا يكون الصديق صديقاً حتّى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وغيبته ووفاته] جعل عليه السلام لصديق الصدق خاصّة يعرف بها وهو أن يحفظ صديقه في الأُمور الثلاثة وحفظه فيما ينبغي فعله في صلاح حاله بقدر الإمكان.

وقال عليه السلام:

[من أُعطي أربعاً لم يُحرم أربعاً: من أُعطي الدعاء لم يُحرم الإجابة، ومن أُعطي التوبة لم يُحرم القبول، ومن أُعطي الاستغفار لم يُحرم المغفرة، ومن أُعطي الشكر لم يُحرم الزيادة] قال الرضي «ره»: وتصديق ذلك في كتاب اللّه تعالى قال في الدعاء: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ وقال في الاستغفار ﴿من يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر اللّه يجد اللّه غفوراً رحيماً﴾ وقال في الشكر: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾ وقال في التوبة: ﴿إنّما التوبة على اللّه للّذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فأُولئك يتوب اللّه عليهم وكان اللّه عليماً حكيماً﴾.

قال ابن أبي الحديد: وفي بعض الروايات أنّ ما نُسب إلى الرضي من

الصلاة قربان كلّ تقي والحجّ جهاد كلّ ضعيف ولكلّ شيء زكاة وزكاة البدن الصيام جهاد المرأة حسن التبعُّل استنزلوا الرزق بالصدقة

استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أميرالمؤمنين عليه السلام.

أقول: وورد في روايات أُخر عن الصادقين عليهما السلام.

وقال عليه السلام:

[**الصلاة قربان كلّ تقي**] بل هي أعظم ما يتقرّب به المتّقون إلىٰ اللّه؛ إذ هي عمود الدّين إن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها.

[**والحجّ جهاد كلّ ضعيف**] وإنّما كان جهاداً في سبيل اللّه لما فيه من مشقّة السفر ومجاهدة الطبيعة ومفارقة النفس الأمّارة بالسوء، وإنّما خصّ الضعيف بذلك جذباً له إلى اللّه ولأنّ للقويّ جهاداً آخر.

[**ولكلّ شيء زكاة وزكاة البدن الصيام**] لما فيه من تنقيص قوّته وكسر شهوته لغاية طاعة اللّه والثواب الأُخروي كما أنّ الزكاة تنقيص في المال مستلزم لزيادة الثواب في الآخرة.

[**جهاد المرأة حسن التبعُّل**] أي: حسن معاشرة البعل وطاعته في طاعة اللّه، وفي ذلك كسر النفس الأمّارة للمرأة وانقيادها في صراط اللّه.

وقال عليه السلام:

[**استنزلوا الرزق بالصدقة**] فيه ترغيبٌ في الصدقة بذكر كونها سبباً لاستنزال الرزق مضافاً إلى استلزامها تآلف قلوب أهل اللّه والصالحين من عباده، ولو لم يكن إلا قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة﴾ الآية.

تنزل المعونة على قدر المؤنة ما عال امرؤ اقتصد قلّة العيال أحد اليسارين والتودّد نصف العقل

وقال: [**تنزل المعونة**] أي: معونة اللّه وقوّته على القيام بأحوالهم [**على قدر المؤنة**] والمؤنة: التعب والشدّة، أي: إنّ الشدّة والثقل بالعيال ونحوهم معدٌّ لاستنزال معونة اللّه برزقه. وقال عليه السلام: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية» إذ من لا يوقن بالخلف ويتخوف الفقر يضنّ بالعطيّة، ومن يوقن بالخلف يعلم أنّ الجود شرف لصاحبه ممدوح عند الناس محمود عند اللّه مضاعف له بذله.

وقال عليه السلام:

[**ما عال امرؤ اقتصد**] العيلة: الفقر، والاقتصاد: الانفاق بقدر الحاجة؛ لأنّ قدر الحاجة من المال أمر قد تكفّل اللّه بإدراره مدّة البقاء وهو ما لابدّ للمقتصد منه.

وقال عليه السلام:

[**قلّة العيال أحد اليسارين**] أي: اليسار الثاني كثرة المال؛ لأنّ الغنى يكون بحصول المال، وللمال اعتباران أحدهما حصوله والثاني عدم إنفاقه، فحصوله يسار وعدم إنفاقه على العيال لقلّتهم يسار ثاني.

[**والتودّد نصف العقل**] أراد بالعقل العملي ولفظه مجاز في تصرّفاته إطلاقاً للسبب على المسبّب ومن جملة تصرّفاته في التدبير التودّد إلى الخلق؛ لأنّ الإنسان محتاج في إصلاح معاشه إلى غيره ومعاملته للناس إمّا على وجه التودّد وما يلزمه من جميل المعاشرة وحسن الصحبة والمسامحة والترغيب، وإمّا على وجه القهر والغلبة والترهيب فلا جرم كان التودّد وما

والهمّ نصف الهرم ينزل الصبر على قدر المصيبة ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبته حبط أجره كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش وكم من قائم ليس له من قيامه إلا العناء والسهر

يلزمه نصف العقل أي: نصف تصرّفه في تدبير أمر معاشه.

[**والهمّ نصف الهرم**] لأنّ الهرم إمّا طبيعي وإمّا بسبب من خارج وهو الهمّ والحزن والخوف المستلزم له فهو إذا قسيم للسبب الطبيعي وقسم من اسباب الهرم كالضعف له، فاستعار له النصف وأراد الهمّ نصف سبب الهرم.

وقال عليه السلام:

[**ينزل الصبر على قدر المصيبة ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبته حبط أجره**] مقتضى الحكمة أن يجعل اللّه للإنسان قوّة استعداد الصبر بقدر المصيبة، فمن تمّ استعداده أُفيض عليه ذلك المقدار من الصبر ومن قصر في الاستعداد لحصول هذه الفضيلة وارتكب ضدّها وهو الجزع حبط ثوابه على الصبر، وكنّى بالجزع عمّا يلزمه في العادة من ضرب اليدين على الفخذين لأنّ شدّة الجزع يستلزم كراهية قضاء اللّه وسخطه وعدم الالتفات إلى ما وعد به من ثواب الصابرين.

وقال عليه السلام:

[**كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش**] كالذي يستعمل الكذب والغيبة في صومه أو يفطر على المحرّم فيكون كمن بنى قصراً وهدم مصراً.

[**وكم من قائم ليس له من قيامه إلا العناء والسهر**] وكالذي يقصد

حبّذا نوم الأكياس وإفطارهم سُوسوا إيمانكم بالصدقة وحصّنوا أموالكم بالزكاة وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء فلمّا أصحر تنفّس الصعداء

بعبادته الرياء والسمعة أو يأتي بها مع فقد شرائطها أو أركانها.

[**حبّذا نوم الأكياس وإفطارهم**] والأكياس: العلماء الذين يستعملون ذكاهم وفطنتهم على الوجه المرضي للشارع، ويضعون كلّ شيء موضعه، ومن كان كذلك كان نومه وإفطاره وجميع تصرّفاته في عباداته في محلّها من رضاء الله ومحبّته.

وقال عليه السلام:

[**سُوسوا إيمانكم بالصدقة**] أي: املكوها بها وذلك انّ الصدقة من الإيمان التامّ فملكه وحفظه لا يكون بدونها.

[**وحصّنوا أموالكم بالزكاة**] لأنّ منعها إنّما يكون عن البخل وشدّة الحرص وذلك باعث لمستحقّيها على ذمّه وداع للخلق إلى التسبب في أذاه فكان مانعها معرّضاً بذلك لتلف ماله وبأدائها محصّناً له.

[**وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء**] استعار الأمواج للحوادث المتواترة والدعاء بإخلاص يعد النفس للإجابة بالمطلوب.

ومن كلام له عليه السلام

قاله لكميل بن زياد النخعي، قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبّان والجبان والجبانة: الصحراء.

[**فلمّا أصحر**] أي: صار في الصحراء [**تنفّس الصعداء**] وهو نوع من

ياكميل إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عنّي ما أقول لك، الناس ثلاثة: عالمٌ ربّاني ومتعلّم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح لم يستضيئوا بنور العلم

النفس يُصعّده المتلّهف والحزين، ثمّ قال:

[**ياكميل**] بن زياد [**إنّ هذه القلوب أوعية**] للعلوم والمعارف [**فخيرها أوعاها فاحفظ عنّي ما أقول لك، الناس ثلاثة:**] لأنّهم باعتبار الأُمور الإلهية إمّا عالم على الحقيقة يعرف اللّه تعالى، وإمّا شارع في ذلك فهو بعد في السفر إلى اللّه بطلبه بالعلم والاستفادة من العالم، وإمّا لا ذا ولا ذاك وهو العامي الساقط الذي لا يعبأ به.

فقال عليه السلام: [**عالمٌ ربّاني**] نسبةٌ إلى الربّ تعالى، زيدت الألف والنون للمبالغة في التشبيه، قال تعالى: ﴿كونوا ربّانيين﴾ أي: العالم علم ربوبيّته وهو العارف باللّه تعالى، وقيل: سمّوا بذلك لأنّهم يربّون المتعلّمين بصغار العلوم قبل كبارها، وقيل: لأنّهم يربّون العلم أي: يقومون بإصلاحه.

[**ومتعلّم على سبيل نجاة**] إذ العلم سبب النجاة في الآخرة، فالمتعلّم في طريق تحصيله على سبيل النجاة ليصل إليها بالعلم الذي هو غايته المطلوبة.

[**وهمج رعاع**] الهمج ذباب صغير كالبعوض، والرعاع: الأحداث والعوام، استعار لهم ذلك باعتبار حقارتهم وكونهم مظنّة الجهل.

وقوله: [**أتباع كلّ ناعق**] ملاحظة لشبههم بالغنم في الغفلة والغباوة.

وقوله: [**يميلون مع كلّ ريح**] كناية عن ضعفهم عن التماسك في مذهب واحد والثبات عليه.

[**لم يستضيئوا بنور العلم**] أي: هُم باقون على جهالتهم.

ولم يلجئوا إلى ركن وثيق يا كميل العلم خيرٌ من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق وصنيع المال يزول بزواله يا كميل بن زياد، العلم دين يُدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الاحدوثة بعد وفاته والعلم حاكم والمال محكومٌ عليه

[**ولم يلجئوا إلى ركن وثيق**] كناية عن الاعتقادات الحقّة البرهانية التي يعتمد عليها في دفع مكاره الآخرة.

ثمّ شرع في مدح العلم وبيان فضائله فقال:

[**يا كميل العلم خيرٌ من المال، العلم يحرسك**] من مكاره الدنيا والآخرة [**وأنت تحرس المال**] وبونٌ بعيد بين من يكون حارساً لصاحبه وبين ما يحتاج صاحبه إلى حراسته في الفضيلة.

[**والمال تنقصه النفقة**] والإخراج منه [**والعلم يزكو على الإنفاق**] ويزيد بإخراجه وإفادته لطالبه لتذكّر العالم بتعليمه ومذاكرته لما غفل عنه واستنباطه مالم يكن عنده.

[**وصنيع المال**] وهو الإحسان [**يزول بزواله**] أي: بزوال المال والإحسان بالعلم باق لبقائه.

[**يا كميل بن زياد، العلم**] أي: تحصيله [**دين يُدان به، به يكسب الإنسان الطاعة**] أي: طاعة الخلق له [**في حياته، وجميل الاحدوثة بعد وفاته**] أي: الذكر الجميل بعد وفاته.

[**والعلم حاكم والمال محكومٌ عليه**] أي: إنّ تصريفه في جمعه وإنفاقه إنّما يكون على وفق العلم بوجوه تحصيله ومصارفه.

يا كميل بن زياد هلك خزّان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ها إنّ هاهنا لعلماً جمّاً لو أصبتُ له حملةً بل أُصيب لقناً غير مأمون عليه مستعملاً آلة الدين للدنيا ومستظهراً بنعم اللّه على عباده وبحجبه على أوليائه

[**يا كميل بن زياد هلك خزّان الأموال**] في الآخرة [**وهم أحياء**] في الدنيا لأنّ المخزون لا فرق بينه وبين الصخرة المدفونة تحت الأرض فخازنه هالك لا محالة لأنه لم يلتذّ بإنفاقه ولم يصرف في الوجوه التي ندب اللّه إليها، وهذا هو الهلاك المعنوي وهو أعظم من الهلاك الحسّي.

[**والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة**] مشاهدة، أي: آثارهم وما دوّنوه من العلوم موجود في القلوب، فكأنّهم موجودون.

ثمّ قال عليه السلام: [**ها إنّ هاهنا لعلماً جمّاً**] وأشار إلى صدره عليه السلام.

[**لو أصبتُ له حملةً**] «ها» للتنبيه، وجواب «لو» محذوف أي: لأظهرته، أشار إلى أنّ في صدره من هذه الفضائل شيئاً كثيراً وإنّما يمنعه عن إظهاره عدم وجدان من يتحمّله.

[**بل أُصيب لقناً غير مأمون عليه**] اللّقن: سريع الفهم، أي: هو مظنّة أن يذيعه إلى غير أهله ويضعفه في غير موضعه وأراد به الموصوف برذيلة الجربزة.

[**مستعملاً آلة الدين للدنيا**] أي: استعمل العلم بكسب أُمور الدنيا.

[**ومستظهراً بنعم اللّه**] وهو العلم [**على عباده**] كالفخر عليهم ومغالبتهم [**وبحجبه على أوليائه**] أي: مستعملاً حجّة اللّه وما علّمه منها

أو متقلّداً لحملة الحقّ لا بصيرة له في أحنائه ينقدح الشكّ في قلبه لأوّل عارض من شبهة ألا لا ذا ولا ذاك أو منهوماً باللّذة سلسل القياد للشهوة أو مغرماً بالجمع والادّخار ليسا من رعاة الدّين في شيء أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة كذلك يموت العلم بموت حامليه

في مقابلة أوليائه وتلبيس الحقّ بالباطل.

[**أو متقلّداً لحملة الحقّ لا بصيرة له في أحنائه**] أي: جوانبه [**ينقدح الشكّ في قلبه لأوّل عارض من شبهة**] وفي بعض النسخ أو منقاداً وهو عطف على «لقناً»، أي: منقاداً للحقّ مؤمناً به، ولكنّه غرير صالح لحمله؛ لكونه لا بصيرة له في جوانب العلم وتفاصيله ولأنّه ينقدح الشكّ في قلبه لأوّل عارض من شبهة؛ لعدم العلم وعدم ثباته في نفسه بالبرهان والحجّة الواضحة ومقام المعرفة صعب لا يثبت عنده إلا أوحدي من الرجال.

وقوله: [**ألا لا ذا ولا ذاك**] أي: من حملة العلم.

وقوله: [**أو منهوماً باللّذة سلسل القياد للشهوة**] أي: صاحب لذّات وطرب ولهو، مشتهر بقضاء الشهوة، فليس من رجال هذا الباب.

وقوله: [**أو مغرماً بالجمع والادّخار**] أي: شديد المحبّة لهما وأتبعهما في معرض الذمّ بوصفين فقال: [**ليسا من رعاة الدّين في شيء**] أي: لا تعلّق لهما بالدّين وأهله.

[**أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة**] باعتبار غفلتها عن الدّين وثمرته في الآخرة، [**كذلك**] أي: يقارب تلك الأحوال من عدم من يصلح لحمل العلم ووجدان من لا يصلح له [**يموت العلم بموت حامليه**] لأنّ التشبيه يفيد مقاومة الأحوال وعنى بحامله نفسه ومن عساه يكون من أهله يومئذ!

اللّهمّ بلى، لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج اللّه وبيّناته وكم ذا وأين أُولئك؟ أُولئك واللّه الأقلّون عدداً والأعظمون قدراً بهم يحفظ اللّه حججه وبيّناته حتّى يودعوها نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون

ثمّ استدرك بقوله: [**اللّهمّ بلى، لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً**] وهو المتمكّن من إظهار العلم والعمل به من حجج اللّه [**أو خائفاً مغموراً**] الذي لا يتمكّن من ذلك كإمام زماننا عجّل اللّه فرجه وهو نصٌّ في وجوب وجود الإمام في كلّ زمان وعدم خلوّ الأرض منه مادام التكليف باقياً كما عليه الفرقة المحقّة.

[**لئلا تبطل حجج اللّه وبيّناته**] ﴿ولئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل﴾.

وقوله: [**وكم ذا**] استبطأ لغيبته وتبرّمه من امتداد دولة أعدائه [**وأين أُولئك؟ أُولئك واللّه الأقلّون عدداً والأعظمون قدراً**] عند اللّه [**بهم يحفظ اللّه حججه وبيّناته**] المشتمل عليها دينه [**حتّى يودعوها نظرائهم**] وأمثالهم [**ويزرعوها في قلوب أشباههم**] بعدهم [**هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة**] أي: فاجئهم ودخل على عقولهم دفعة لأنّ علومهم لدنية حسّية، وقيل: هو من باب القلب أي: هجمت بهم عقولهم على حقيقة العلم.

[**وباشروا روح اليقين**] أي: وجدوا لذّته [**واستلانوا ما استوعره المترفون**] من الأُمور الشاقّة كجشوبة المطعم وخشونة المضجع والملبس

وأنسوا بما استوحشوا منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى أُولئك خلفاء اللّه في أرضه والدعاة إلى دينه آه آه شوقاً إلى رؤيتهم انصرف إن شئت المرء مخبوء تحت لسانه هلك امرؤٌ لم يعرف قدره لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل

ومضايرة الصيام والسهر وذلك في جنب ما وجدوه من لذّة اليقين وحلاوة العرفان هيّن ليّن عندهم.

[**وأنسوا بما استوحشوا منه الجاهلون**] وهي الأحوال التي ألفوها مما ذكرنا فإنّ الجاهل لجهله بثمرتها ينفر منها ويستوحش من أهلها.

[**وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى**] وصحبة الملائك [**أُولئك خلفاء اللّه في أرضه والدعاة إلى دينه**] تأوّه عليه السلام شوقاً إليهم فقال: [آه آه] كلمة توجّع أصلها واه [**شوقاً إلى رؤيتهم**] ثمّ قال عليه السلام لكميل: [**انصرف إن شئت**]. وقال عليه السلام:

[**المرء مخبوء تحت لسانه**] كناية عن سكوته، وذلك إنّ مقداره بمقدار عقله ومقدار عقله يعرف من مقدار كلامه إذ الكلام صفة المتكلم.

وقال عليه السلام:

[**هلك امرؤٌ لم يعرف قدره**] فإنّ من لم يعرف محلّه من العلم مثلاً أوشك أن يرفع به فوق محلّه أو يفتي بما لا يعلم لاعتقاده كماله فيقع في الهلاك والخسران.

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه:

[**لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل**] فإنّ ذلك منيٌ على اللّه والمنى بضائع النوكى ومن رجى شيئاً عمل له واستعد.

ويرجئ التوبة بطول الأمل يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين إن أُعطي منها لم يشبع وإن مُنع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أولي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي عنها ويأمر بما لا يأتي يحبّ الصالحين ولا يعمل عملهم ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم ما يكره الموت له إن سقم ظلّ نادماً وإن صحّ أمن لاهياً

[**ويرجئ التوبة**] أي: يؤخّرها وروي بالزاء المعجمة أي: يدفعها [**بطول الأمل**] فإنّ ذلك يستلزم البقاء على المعصية والعذاب بها في الآخرة.

[**يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين**] فإنّه مخادع للّه، وإذا كان من الراغبين في الدنيا أصابه ما أصابه من عذاب الآخرة بها.

[**إن أُعطي منها لم يشبع**] وهو علامة رذيلة الشره والحرص.

[**وإن مُنع منها لم يقنع**] وذلك رذيلة التفريط من فضيلة القناعة [**يعجز عن شكر ما أولي**] من نعم اللّه [**ويبتغي الزيادة فيما بقي**] وهو الجمع بين رذيلة التفريط من فضيلة الشكر وبين رذيلة الحرص.

[**ينهى**] عن المعاصي [**ولا ينتهي عنها**] وهو نفاق وخداع للّه.

[**ويأمر بما لا يأتي**] أي: بما يقصر عن فعله وهو كالذي قبله.

[**يحبّ الصالحين ولا يعمل عملهم**] وذلك ينافي محبّتهم، وكذا قوله: [**ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم ما يكره الموت له**] من كثرة ذنوبه، فإقامته على ذنوبه نقص لكراهيته الموت مع ما يلزمها من العذاب الاخروي.

[**إن سقم ظلّ نادماً وإن صحّ أمن لاهياً**] أي: جمع بين ندمه حال

يعـجب بنفـسـه إذا عـوفي ويقنط إذا ابـتلي إن أصـابه بلاء دعى مضطراً وإن ناله رخاء أعرض مغتراً تغلبه نفسه على ما يظنّ ولا يغلبها على ما يستيقن يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ويرجو لنفسه بأكثر من عمله إن استغنى بطن وفتن وإن افتقر قنط ووهن

سقمه على تفريطه في جنب اللّه وبين لهوه في لذّته حال أمنه وهو أيضاً كالمنافق.

[يعجب بنفسه إذا عوفي] والعجب من المهلكات **[ويقنط إذا ابتلي]** أي: إذا ابتلاه ربّه وييأس من رحمته وقال تعالى: ﴿لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون﴾ وقال: ﴿ومن يقنط من رحمة ربّه إلا الضالّون﴾.

[إن أصابه بلاء دعى مضطراً] إليه عند نزول البلاء **[وإن ناله رخاء أعرض]** عن ربّه ونأى بجانبه **[مغتراً]** بالدنيا عند إصابته الرخاء، والأوّل رذيلة الإفراط والثاني رذيلة التفريط.

[تغلبه نفسه على ما يظنّ ولا يغلبها على ما يستيقن] جمع بين الانقهار لنفسه والانقياد بها إلى ما يظنّه فائدة من الأمور الدنيوية وبين عدم قهرها وغلبها إلى ما يستيقنه من ثواب الآخرة وعذابها فلا يلزمها العمل لذلك فإنّ ذلك عند العقل سفه وجنون.

[يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ويرجو لنفسه بأكثر من عمله] يعني أنّه جمع بين الخوف على غيره من ذنوب هي أقل من ذنوبه وبين الرجاء لنفسه ثواباً أكثر مما يستحقّ على عمله فإنّ الحقّ من ذلك أن يخاف على نفسه أكثر من الخوف على غيره لأكثرية ذنوبه ويعمل لذلك الخوف.

[إن استغنى بطن وفتن] وذلك رذيلة الفخر **[وإن افتقر قنط ووهن]**

يقصر إذا عمل ويبالغ إذا سأل إن عرضت له شهوة أسلف المعصية وسوّف التوبة وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملّة يصف العبرة ولا يعتبر ويبالغ في الموعظة فلا يتّعظ فهو بالقول مدل ومن العمل مقلّ ينافس فيما يفنى أي: في الدنيا ويسامح فيما يبقى يرى الغنم مغرماً والغرم مغنماً يخشى الموت ولا يبادر الفوت

وهو رذيلة التقصير والتفريط [**يقصر إذا عمل ويبالغ إذا سأل**] وهو رذيلة الإلحاف في السؤال [**إن عرضت له شهوة أسلف المعصية وسوّف التوبة وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملّة**] عند نزول المحنة، أي: يخرج عن فضيلة الصبر على المعصية الذي هو شرط الملكة ويتركها.

[**يصف العبرة ولا يعتبر ويبالغ في الموعظة فلا يتّعظ**] وقد قال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

[**فهو بالقول مدل ومن العمل مقلّ ينافس**] أهل الدنيا [**فيما يفنى**] أي: **في الدنيا ويسامح فيما يبقى**] وهو ثواب الآخرة ولو كانت الآخرة خزفاً باقياً والدنيا ذهباً فانياً لكانت الآخرة أولى بالمنافسة فكيف والدنيا خزف فاني والآخرة ذهب باقي!

[**يرى الغنم مغرماً**] كالإنفاق في سبيل اللّه.

[**والغرم مغنماً**] كالإنفاق في المعصية وهو عكس مقتضى العقل.

[**يخشى الموت ولا يبادر الفوت**] بالأعمال الصالحة المستلزمة للخلاص من أهواله وما بعده.

يستعظم من معصية غيره ما يستقلّ أكثر منه من نفسه ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره وعلى الناس طاعن وللنفس مداهن اللّهو مع الأغنياء أحبّ إليه من الذكر مع الفقراء يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره يرشد غيره ويغوي نفسه ويستوفي ولا يوفي ويخشى الخلق في غير ربّه ولا يخشى ربّه في خلقه لكلّ امرئ عاقبة حلوة أو مرّة

[**يستعظم من معصية غيره ما يستقلّ أكثر منه من نفسه ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره**] ويلزم من ذلك أن يكون طاعناً على الناس في أفعالهم ومداهناً لنفسه في فعلها كما قال: [**وعلى الناس طاعن وللنفس مداهن اللّهو مع الأغنياء أحبّ إليه من الذكر مع الفقراء**] وذلك لفرط محبّة الدّنيا، وقد روي: إذا رأيتم العالم محبّاً لدنياه فاتّهموه على دينكم فإنّ كلّ محبّ يحوط ما أحبّ.

[**يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره**] فيما يشتهيه وإن كان باطلاً ولا يحكم عليها لغيره في حقّ [**يرشد غيره**] بالقول [**ويغوي نفسه**] بالفعل، أي: يعمل عمل الغاوين ويلزم ذلك أن يطيعه غيره وهو يعصي اللّه [**ويستوفي**] ماله على غيره [**ولا يوفي**] ما عليه من حقّ اللّه [**ويخشى الخلق في غير ربّه**] أي: في أمر ليس للّه [**ولا يخشى ربّه في خلقه**] ويلزم الأوّل أن يرضيهم بما يسخط اللّه والثاني أن يسخط بمايسخط خلقه.

قال السيّد الرّضي «ره»: ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة وحكمة بالغة وتبصرة المبصر وعبرة لناظر مفكّر.

وقال عليه السلام:

[**لكلّ امرئ عاقبة**] وروي لكلّ أمر عاقبة [**حلوة أو مرّة**] استعار لفظي

لكلّ مقبل إدبار وما أدبر كأن لم يكن لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان

الحلوة والمرّة للذيذة والمكروه فغاية الحركات الخيرية الجنّة ولذّاتها وهي العاقبة الحلوة وغاية الشرّية النار وعذابها وهي العاقبة المرّة، وقال عليه السلام:

[**لكلّ مقبل إدبار وما أدبر كأن لم يكن**] أي: المقبل من الدنيا ولذّاتها وشهواتها في معرض الزوال ولذا قيل بقدر الصعود يكون الهبوط وإيّاك والرتب العالية وقال بعض الحكماء: حركة الإقبال بطيئة وحركة الإدبار سريعة؛ لأنّ المقبل كالصاعد من مرقاة إلى مرقاة والمدبر كالمقذوف من علوّ إلى سفل، وقال الشاعر:

ما طار طير وارتفع   إلا كما طار وقع

وقال عليه السلام:

[**لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان**] والمراد بالصبور كثير الصبر، وقد مرّ أنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وذلك لأنّه قوام الأخلاق الحسنة، فإذا كان عن مشتهى سمّي عفّة وإن كان في نزول مصيبة سمّي صبراً ويضادّه الجزع، وفي احتمال الغنى ويسمّى ضبط النفس ويضاده البطر والأشر وإن كان في الحرب سُمّي شجاعة، ويضاد بالجبن، وإن كان في الإمساك عن الغضب سمّي حلماً، ويضادّه التذمر، وإن كان في نائبة مضجرة سمّي سعة، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمّي كتماناً يضادّه الإضاعة، وإن كان عن فضول العيش سمّي قناعةً وزهداً، ويضاده الحرص والشره.

وقال عليه السلام:

الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم وعلى كلّ داخل في باطل إثمان إثم العمل به وإثم الرضى به ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة ما كذبتُ ولا كُذِّبت ولا ضللتُ ولا ضُلَّ بي الرحيل وشيك

[**الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم وعلى كلّ داخل في باطل إثمان إثم العمل به وإثم الرضى به**] لأنّ الرضا بالباطل يستلزم محبّته.

وقال عليه السلام:

[**ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة**] لأنّ الحقّ واحد لا اختلاف فيه ولا تعدّد يعتريه قال تعالى: ﴿فماذا بعد الحقّ إلا الضلال﴾ واجتماع النقيضين كارتفاعهما محال.

وقال عليه السلام:

[**ما كذبتُ ولا كُذِّبت ولا ضللتُ ولا ضُلَّ بي**] قال ابن أبي الحديد: هذه كلمة قد قالها مراراً إحداهن في وقعة النهروان و«كُذّبت» بالضمّ: أخبرت بخبر كاذب أي: لم يخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله عن ـــــ خبراً كاذباً، و«ضُلّ بي» بالضمّ ونحو ذلك أي: لم يضللني مُضلّ عن الصدق والحقّ.

وقال عليه السلام:

للظالم البادي بفكّه غداً غصّة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم يعضّ الظالم على يديه﴾ وإنّما قال البادي لأنّ من انتصر بعد ظلمه فلا سبيل عليه، وفي المثل: البادي أظلم، وهو على المقابلة من قبل ﴿ومكروا ومكر الله﴾ ﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها﴾.

وقال عليه السلام:

[**الرحيل وشيك**] أي: الرحيل عن الدنيا سريع وهو الموت.

من أبدى صفحته للحقّ هلك استعصموا بالذمم في أوتادها
عليكم بطاعة من لا تعذرون في جهالته ما شككت في الحقّ منذ أُريته

وقال عليه السلام:

[**من أبدى صفحته للحقّ هلك**] أي: من نابذ اللّه وحاربه هلك، يقال لمن خالف أو كاشف: قد أبدى صفحته.

وقال عليه السلام:

[**استعصموا بالذمم في أوتادها**] أي: في مظانّها وفي مركزها أي: لا تستندوا إلى ذمام الكافرين والمارقين، فإنهم ليسوا أهلاً للاستعصام بذممهم كما قال تعالى: ﴿لا يرقبون في من آمن إلاً ولا ذمّة﴾ قيل: وهذه كلمة قالها بعد انقضاء الجمل وقصور قوم من الطلقاء بين يديه ليبايعوه منهم مروان فقال عليه السلام: وماذا أصنع ببيعتك؟ ألم تبايعني بالأمس؟! يعني بعد قتل عثمان، ثمّ أمر بإخراجهم ورفع نفسه عن مبايعة أمثالهم وتكلّم بكلام ذكر فيه ذمام العربية وذمام الإسلام وذكر أنّ من لا دين له فلا ذمام له، ثمّ قال في أثناء الكلام: فاستعصموا بالذمم في أوتادها، أي: إذا صدرت عن ذوي الدين فمن لا دين له لا عهد له.

وقال عليه السلام:

[**عليكم بطاعة من لا تعذرون في جهالته**] وهو اللّه سبحانه أو نفسه عليه السلام وسائر أئمة الحقّ ممن لا يعذر الناس بجهالتهم لتعلّم قوانين الدّين وأحكام الشريعة منهم.

وقال عليه السلام:

[**ما شككت في الحقّ منذ أُريته**] أي: منذ أُعلمته، والمفعول الثالث محذوف أي: منذ أُريته حقّاً؛ لأنّ «أرى» تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل.

قد بصرتم إن أبصرتم وهُديتم إن اهتديتم وأُسمعتم إن سمعتم عاتب أخاك بالإحسان إليه واردد شرّه بالإنعام عليه من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظنّ من ملك استأثر ومن استبدّ برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها

وقال عليه السلام:

[**قد بصرتم إن أبصرتم وهُديتم إن اهتديتم وأُسمعتم إن سمعتم**] أي: قد بصرتم سبيل الرشاد وهديتم إليها وأُسمعتم الدلالة عليها إن كان لكم استعداد أن تبصروها وتسمعوا وتهتدوا إليها.

وقال عليه السلام:

[**عاتب أخاك بالإحسان إليه واردد شرّه بالإنعام عليه**] أي: اجعل مكان عتابه بالقول والفعل الإحسان إليه والإنعام في حقّه فإنّهما أنفع في عطف جانبه إليك ودفع شرّه عنك والعتاب مستعار للإحسان لاستلزامهمارجوع العاتب.

وقال عليه السلام:

[**من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظنّ**] لأنّه هو السبب في إساءة الظنّ بنفسه، وقال عليه السلام ثلا كلمات [**من ملك استأثر**] أي: الغالب في لملوك أن يستأثروا على الرعية بالمال والعزّ والجاه والانفراد بذلك لتسلّطهم وعدم المنازع لقواهم الأمّارة بالسوء فيهم.

[**ومن استبدّ برأيه هلك**] لأنّ انفراده برأيه وعدم قبوله النصيحة سمّا في الحرب ونحوها مظنّة الخطأ المستلزم للهلاك.

[**ومن شاور الرجال شاركها في عقولها**] لأنّه تستنتج منها الرأي الأصحّ ليعمل به، فكان عقول الرجال باسرها حاصلة له لانتفاعه بثمرتها.

من كتم سرّه كانت الخيرة بيده الفقرُ الموتُ الأكبر من قضى حقّ من لا يقضي حقّه فقد عبده لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق لا يعاب المرء بتأخير حقّه إنّما يعاب بأخذ ما ليس له

وقال عليه السلام:

[**من كتم سرّه كانت الخيرة بيده**] وهو ترغيب في كتمان السرّ، أي: كان مختاراً في إذاعته وكتمانه بخلاف من أذاع سرّه فإنّه لا يتمكّن بعد ذلك من كتمانه.

وقال عليه السلام:

[**الفقرُ الموتُ الأكبر**] لانقطاع الفقير عن مشتهياته ومطلوباته التي هي مادّة الحياة وتألّمه لفقدها، فأشبه الموت وكان أكبر ـــــ الأمّة على الفقير مدّة حياته وألم الموت ـــــ في وقت واحد.

وقال عليه السلام:

[**من قضى حقّ من لا يقضي حقّه فقد عبده**] بالتشديد أي: اتّخذ معبداً واستعبده، والمراد مدح من يقضي حقّ من لا يقضي حقّه أي: من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنّه لم يفعل ذلك معه مكافاة له عن حقّ قضاه إيّاه بل فعل ذلك إنعاماً مبتدأ.

وقال عليه السلام:

[**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**] يحتمل النفي والنهي.

وقال عليه السلام:

[**لا يعاب المرء بتأخير حقّه إنّما يعاب بأخذ ما ليس له**] إن أخذ ما ليس له ظلم من أقبح الرذائل التي يعاب بها المرء، بخلاف تركه حقّه فقد

الإعجاب يمنع من الازدياد الأمر قريب والاصطحاب قليل قد أضاء الصبح لذي عينين ترك الذنب أهون من طلب التوبة كم من أكلة منعت أكلات

يكون مباحاً وقد يكون مندوباً.

وقال عليه السلام:

[**الإعجاب يمنع من الازدياد**] أي: إعجاب المرء بفضيلته الداخلة كعلمه أو الخارجة كغناه إنّما يكون عن قصور كماله فيها واعتقاده وأنّه قد بلغ منه الغاية والاعتقاد يمنعه عن طلب الزيادة منها.

وقال عليه السلام:

[**الأمر قريب والاصطحاب قليل**] هذه الكلمة تذكير بالموت وسرعة زوال الدنيا أي: أمر اللّه وهو الموت قريب والاصطحاب في الدنيا قليل.

وقال عليه السلام:

[**قد أضاء الصبح لذي عينين**] هو مثل استعار الصبح لسبيل اللّه والضياء لوضوحه وظهوره بوصف الشارع ودلالته.

وقال عليه السلام:

[**ترك الذنب أهون من طلب التوبة**] إذ الترك لا كلفة فيه لكونه عدماً وطلب التوبة من اللّه يحتاج إلى استعداد شديد يصلح معه العبد لقبولها منه وإفاضة العفو عليه.

وقال عليه السلام:

[**كم من أكلة منعت أكلات**] تجري مجرى المثل يضرب لمن يفعل فعلاً يكون سبباً لحرمانه ما كان يناله من خير سابق وأصله أنّ الرجل يمتلي من الطعام فينتخم ويمرض فيحتاج إلى الحمية والامتناع من الأكل.

الناس أعداء ما جهلوا من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ من أحدّ سنان الغضب للّه قوي على قتل أشداء الباطل إذا خفت أمراً فقع فيه فإنّ شدّة توقّيه أعظم مما يخاف منه

وقال عليه السلام:

[**الناس أعداء ما جهلوا**] لأنّه يخاف من تعريضه بالنقص وبعدم العلم بذلك الشيء خصوصاً إذا ضمّه ناد وجمع من الناس فإنّه تتصاغر نفسه عنده إذا خاضوا فيما لا يعرفه وينقص في أعين الحاضرين، وكلّ شيء آذاك ونال منك فهو عدوّك.

وقال عليه السلام:

[**من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ**] لأنّ المتصفّح للآراء لابدّ أن يعرف مواقع الخطأ في الأُمور ومظانّها.

وقال عليه السلام:

[**من أحدّ سنان الغضب للّه قوي على قتل أشداء الباطل**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾ واستعار السنان لحدّة الغضب باعتبار استلزامهما للنكاية في العدو ورشح بذكر الحدّ.

وقال عليه السلام:

[**إذا خفت أمراً فقع فيه فإنّ شدّة توقّيه أعظم مما يخاف منه**] قيل: للنفوس فيما يتوقّع مكروهه انفعال كثير وفكر عظيم في كيفية دفعه والخلاص منه، وذلك أصعب بكثير من الوقوع فيه لطول الخوف هناك وتأكّده بتوقّع الأُمور المخوف.

وقال عليه السلام:

آلة الرياسة سعة الصدر زجر المسيء بثواب المحسن أحصد الشرّ من صدر غيرك بقلعه من مدرك اللّجاجة تسلّ الرأي

[آلة الرياسة سعة الصدر] الرئيس يحتاج إلى أُمور: كالجود، والشجاعة، وسعة الصدر وهو أمهمّها، إذ الرياسة مظنّة ورود الأحداث المهمّة والخطوب العظيمة وأحوال الخلق فمن لم يكن محتملاً لهذه الأمور وسيع الصدر بها فلابدّ أن يحار فيها ويدهش ـــــــ رياسته.

وقال عليه السلام:

[زجر المسيء بثواب المحسن] لأنّ تصوّر المسيء جزاء المحسن بإحسانه يدعوه إلى الإحسان والرجوع عن الإسائة فالمجازاة بالإحسان كالزجر للمسيء في استلزام ارتداعها وانزجاره.

وقال عليه السلام:

[أحصد الشرّ من صدر غيرك بقلعه من مدرك] لأنّ أغلب ما ينشأ الشر في صدر العدو بسبب ما يتخيّله في عدوّه من إضمار الشرّ له وظنّ ذلك فيه وذلك التخيّل والظنّ لابدّ أن يكون عن امارة من حركات عدوّه وفلتات لسانه بالقول في حقّه مادامت عداوته وإضمار الشرّ له قائماً في صدره فإذا محى ما أضمر له من العداوة والشرّ زالت امارات ذلك من لسانه ووجهه وبحسب ذلك ينقص تخيّل العداوة ويضعف سوء ظنّ عدوّه به ولا يزال يتأكّد إلى أن ينمحي ذلك الظنّ في حقّه كذا قيل، والحقّ انّ ذلك سرّ إلهي لا يعلم حقيقته، واستعار الحصد لإزالته ملاحظةً لشبهه بالزرع في زيادته.

وقال عليه السلام:

[اللّجاجة تسلّ الرأي] أي: تأخذه وتذهب وذلك أنّ الإنسان قد يطلب شيئاً والرأي الحقّ هو الثاني في طلبه فيحمله طبعه على اللّجاجة فيه

الطمع رقٌّ مؤبّد ثمرة الحزم السلامة وثمرة التفريط الندامة لا خير في الصمت عن الحكم كما أنّه لا خير في القول بالجهل الرحيل وشيك

حتّى يكون ذلك سبباً لفواته واستعار لفظ السلّ له ونسبه إلى اللّجاجة مجازاً باعتبار أنّها هي المفوّتة له.

وقال عليه السلام:

[**الطمع رقٌّ مؤبّد**] استعار الرق للطمع باعتبار ما يستلزمه من التعبّد للمطموع فيه والخضوع له كالرقّ وتأبيده باعتبار دوام التعبّد بسببه فإنّ الطامع دائم العبودية لم يطمع فيه مادام طامعاً، وهو في ذلك كالدائم من الرق.

وقال عليه السلام:

[**ثمرة الحزم السلامة وثمرة التفريط الندامة**] التفريط: إضاعة الحزم في الأمور، والحزم: تقديم العمل للحوادث الممكنة المستقبلة بما هو أقرب للسلامة وأبعد من الغرور لا جرم كان ذلك مظنّة السلامة، ومنها كانت إضاعته والتفريط في العمل لما يستقبل من الحوادث مظنّة الوقوع فيها وعدم السلامة من بلائها، وهو مستلزم للندامة على التفريط فيها فكانت الندامة من ثمراته.

وقال عليه السلام:

[**لا خير في الصمت عن الحكم كما أنّه لا خير في القول بالجهل**] لأنّ الصمت عن الحكمة تفريطٌ في القول، والنطق بالجهل إفراط، والعدل هو النطق بالحكمة.

وقال عليه السلام:

من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع واعجباه أتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة

[فإن كنت بالشورى هلكت أُمورهم
فكيف بهذا و المشاورون غيّب
وإن كنت بالقرب حججت خصيمهم
فغيرك أولى بالنبيِّ وأقربُ]

وقال عليه السلام:

[من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع] لأنّ المصيبة قد تكون عظيمة يلزم الهلاك بسببها فيجب أن يقابل الجزع فيها بصبر ينجي من الهلاك، أي: من لم يصبر على المصيبة لينجو فجزع هلك، أو المعنى من لم ينجه فضيلة الصبر هلك برذيلة الجزع.

وقال عليه السلام:

[واعجباه أتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة]

قال السيّد «ره»: وقد روي له شعر قريب من هذا المعنى وهو:

[فإن كنت بالشورى هلكت أُمورهم
فكيف بهذا و المشاورون غيّب
وإن كنت بالقرب حججت خصيمهم
فغيرك أولى بالنبيِّ وأقربُ]

قال ابن أبي الحديد: حديثه في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه؛ لأنّ أبابكر لمّا قال لعمر امدد يدك قال له عمر أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله في المواطن كلّها شدّها ورخائها فامدد أنت يدك، فقال علي عليه السلام: إذا احتججت لاستحقاقه الأمر بصحبته إيّاه في

إنّما المرء في الدنيا غرضٌ تتنصل فيه المنايا ونهب تبادره المصائب ومع كلّ جرعة شرق وفي كلّ أكلة غصص ولا ينال العبد نعمة إلا بفراق أُخرى ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق اخرى

المواطن فهلاّ سلّمت الأمر إلى من قد شركه في ذلك وزاد عليه بالقرابة. وأمّا النظم فموجّه إلى أبي بكر لأنّه حاجّ الأنصار في السقفية فقال: نحن عترة رسول اللهﷺ وبيضته التي تفقأت عنه فلمّا بويع احتجّ على الناس بالبيعة وأنّها صدرت عن أهل الحلّ والعقد، فقال علي: أما احتجاجك على الأنصار بأنّك من بيضة رسول اللهﷺ ومن قومه فغيرك أقرب نسباً منك إليه، وأمّا احتجاجك بالاختيار ورضى الجماعة بك فقد كان قوم من جلّة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف ثبت!

وقال عليه السلام:

[**إنّما المرء في الدنيا غرضٌ**] أي: هدف [**تتنصل**] أي: ترمي [**فيه المنايا**] استعار الغرض للإنسان باعتبار رميه بمقدّمات المنايا وأسبابها من الأمراض والأعراض المهلكة كأن المنايا هي الرامية [**ونهب**] النهب: المال المنهوب غنمه وجمعه نهاب [**تبادره**] أي: تتبادره [**المصائب**] استعار النهب لسرعة المصائب إلى أخذه [**ومع كلّ جرعة شرق وفي كلّ أكلة غصص**] كنّى بذلك عن تنغّص لذّات الدنيا بما يشوبها ويخالطها من الأعراض والأمراض.

[**ولا ينال العبد نعمة إلا بفراق أُخرى**] لأنّ النفيس في الدنيا لا يمكن أن تحصل على لذّتين دفعة، فإنّ من حصلت له لذّة الجماع لابدّ أن يكون حالها مفارقاً لذّة الأكل والشرب وكذا من يأكل ويشرب ويكون مفارقاً حال أكله وشربه لذة الركض على الخيل في طلب الصيد.

من أجله فنحن أعـوان المنون وأنفـسنا نصب الحـتوف فـمن أين نرجـو البقـا وهذا اللّيل والنهـار لم يـرحضـا من شيء شرفـاً إلا شـرعـا الكرّة في هدم ما بنيا وتفريق ما جمـعا يابن آدم ما كـسبت فوق قوّتك فأنت فيه خازن لغيرك إنّ للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها فإنّ القلب إذا كره عمي،

[**ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله**] لأنّ طبيعة الزمان النقص والسيلان [**فنحن أعوان المنون**] لأنّ كلّ نفس وحركة من الإنسان مقرّبة له إلى أجله فكأنّه ساع إلى أجله ومساعد عليه.

[**وأنفسنا نصب الحتوف**] أي: منصوبة كالغرض نحو الموت [**فمن أين نرجو البقا**] استفهام إنكار لوجوده مع وجود الزمان الذي من شأنه أنّه لم يرفع لشيء شرفاً ويجمع لأحد شملاً إلا أسرع العود في هدم ما رفع وتفريق ما جمع.

كما قال: [**وهذا اللّيل والنهار لم يرحضا من شيء شرفاً إلا شرعا الكرّة في هدم ما بنيا وتفريق ما جمعا**].

وقال عليه السلام:

[**يابن آدم ما كسبت فوق قوّتك فأنت فيه خازن لغيرك**] إذ اكتساب الزيادة على المؤنة وادّخاره غير نافع للمدّخر لأنّه يفارق ما ادّخره ويصل إلى الوارث فهو كالخازن له.

وقال عليه السلام:

[**إنّ للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها فإنّ القلب إذا كره عمي**] أراد بالإقبال الميل وبالإدبار النفرة عن ملال ونحوه وأمر بأعمالها فيما ينبغي من فكر ونظر إذا كان لها ميل وإقبال وإلا فلا؛ لأنّ

متى أشفي غيظي إذا غضبت؟ أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي: لو صبرت؟ أم حين أقدر عليه فيقال لي: لو عفوت هذا ما بخل به الباخرون هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس لم يذهب من مالك ما وعظك كلمة حقّ يُراد بها باطل

إكراه النفس على الفكر في الشيء حين نفرتها عنه عن ملال أو ضعف قوّة يزيدها كراهية له ونفرة فلا تدرك كالأعمى لأنّ فعل غير المحبوب متعب.

وقال عليه السلام:

[**متى أشفي غيظي إذا غضبت؟ أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي: لو صبرت؟ أم حين أقدر عليه فيقال لي: لو عفوت**] استفهم إنكاراً عن وقت شفاء الغيظ فإنّه حين العجز إنّما يكون بالسبب والشناعة ويقطع العرض ونحو ذلك وذلك مستلزم للايمة الخلق وتعتيبهم وحين القدرة لا يجوز لاستلزام الشروع في العقوبة لايمة الخلق والعدول عن فضيلة العفو.

وقال عليه السلام وقد مرّ بقذر على مزبلة:

[**هذا ما بخل به الباخرون**] وفي آخر [**هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس**] أشار بذلك إلى أنّه غاية ما بخل به الباخلون وتنافس فيه الناس من المال والطعام إقامة للغاية مقام ذي الغاية

وقال عليه السلام:

[**لم يذهب من مالك ما وعظك**] أي: القدر الذي ذهب من مالك على طريق الامتحان والابتلاء بحيث حصل لك بذهابه موعظة لا يعدّ ذاهباً تالفاً بل كأنّه باق لبقاء منفعته وشرف ثمرته وهي الموعظة.

وقال عليه السلام لمّا سمع قول الخوارج لا حكم إلا لله:

[**كلمة حقّ يُراد بها باطل**] لأنّ معناها إنّ اللّه إذا أراد شيئاً من أفعال

في صفة الغوغاء هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرّقوا لم يعرفوا هم الذين إذا اجتمعوا أضرّوا وإذا تفرّقوا نفعوا يرجع أصحاب المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه والخباز إلى مخبزه لا مرحباً بوجوه لا تُرى إلا عند كلّ سوء

نفسه وحكم به فلابدّ من وقوعه نحو ﴿ما شاء اللّه كان﴾ كما قال يعقوب: ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة وما أغني عنكم من اللّه من شيء إنّ الحكم إلا للّه﴾ والمعنى الباطل الذي أراده الخوارج ما أنكروه عليه عليه السلام من التحكيم وقالوا: كيف تحكم الرجال والحكم مختصّ باللّه، وذلك باطل؛ لأنّ اللّه قد أمضى حكم المخلوقين في كثير من الشرائع.

وقال عليه السلام:

[في صفة الغوغاء] وهم العوام **[هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرّقوا لم يعرفوا]** وقيل: بل قال عليه السلام **[هم الذين إذا اجتمعوا أضرّوا وإذا تفرّقوا نفعوا]** فقيل: قد علمنا مضرّة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم.

وقال عليه السلام:

[يرجع أصحاب المهن إلى مهنهم] والمهنة: الحرفة والصناعة.

[فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه والخباز إلى مخبزه].

وقال عليه السلام وقد أوتي بجان ومعه غوغاء فقال:

[لا مرحباً بوجوه لا تُرى إلا عند كلّ سوء] أي: لا تُرى مجتمعة، إذ العوام لا تجتمع غالباً إلا في مثل ذلك والسوئة فعلة من السوء، وكان يقال:

إنّ مع كلّ إنسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإنّ الأجل جُنّة حصينة لا ولكنّكما شريكان في القوّة والاستعانة وعونان على العجز والأود.

أيّها الناس اتقوا اللّه الذي إن قلتم سمع وإن أضمرتم علم وبادروا

العامة كالبحر إذا هاج أهلك راكبه، وقيل: لا تسبوا الغوغاء فإنّهم يطفئون الحريق وينقذون الغريق.

وقال عليه السلام:

[إنّ مع كلّ إنسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإنّ الأجل جُنّة حصينة] قيل: إنّ مذهب كثير من الحكماء أنّ للّه ملائكة موكّلة بحفظ البشر من التردّي في بئر ومن أصابه سهم معترض في طريق ومن رفس دابة ومن نهش حيّة أو لسع عقرب.

أقول: وفي القرآن: ﴿ويرسل عليكم حفظة حتّى إذا جاء أحدكم الموت﴾ واستعار الجنّة الحصينة للأجل لأنّه مانع من الموت قبل وقته المقدّر له وكفى به حارساً وقال له طلحة والزبير: نبايعك على أنّا شركائك في هذا الأمر، فقال:

[لا ولكنّكما شريكان في القوّة والاستعانة وعونان على العجز والأود] أي: الاعوجاج، أي: على دفع ما يعرض منهما وأفاد أنّ الشركة في الخلافة ممتنع إذ لا يدبّر أمر الرعية إمامان، ولا يجتمع السيفان في غمد واحد.

وقال عليه السلام:

[أيّها الناس اتقوا اللّه الذي إن قلتم سمع وإن أضمرتم علم وبادروا

الموت الذي إن هربتم منه أدرككم وإن أقمتم أخذكم وإن نسيتموه ذكّركم. لا يزهّدنّك في المعروف من لا يشكره لك فقد يشكرك عليه من لا تستمتع بشيء منه وقد يدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر والله يحبّ المحسنين﴾
كلّ وعاء يضيق بما جُعل فيه إلا وعا العلم فإنّه يتّسع به

الموت الذي إن هربتم منه أدرككم وإن أقمتم أخذكم وإن نسيتموه ذكّركم] رغّب عليه السلام في تقوى الله والخشية منه باعتبار سمعه لما يقول العبد وعلمه بضميره، حذف المفعولين للعلم بهما أي: سمع مقالكم وعلم ضميركم، ورغّب عليه السلام في مبادرة الموت ومسابقته بالأعمال الصالحة إلى حفظ النفوس بها من عذاب الآخرة وهول الموت ونفّر منه ليسارع إلى مبادرته بكون لا ينجو منه أحد، واستعار لوروده على الإنسان لفظ الذكر في مقابلة النسيان ملاحظةً لشبهه بالقاصد له عن علم به.

وقال عليه السلام:

[لا يزهّدنّك في المعروف من لا يشكره لك فقد يشكرك عليه من لا تستمتع بشيء منه وقد يدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر والله يحبّ المحسنين﴾] نهى عن الزهد في المعروف بسبب عدم شكر المحسن إليه، ورغّب فيه بقوله: «فقد يشكرك ... إلخ» لمحبّة الناس للإحسان والمحسنين وأنّه قد يحصل لك من شكر من لم تحسن إليه أكثر مما أضاعه كافر نعمك من شكر إحسانك إليه وإنّ الله يحبّ المحسنين، فادخل في زمرتهم.

وقال عليه السلام:

[كلّ وعاء يضيق بما جُعل فيه إلا وعا العلم فإنّه يتّسع به] إذ الأوعية المحسوسة لمّا كانت متناهية فمن شأنها أن تضيق بما يحمل فيها وأوعية العلم

أوّل عوض الحليم من حمله أنّ الناس أنصاره على الجاهل إن لم تكن حليماً فتحلّم، فإنّه قل من تشبّه بقوم إلا وشكّ أن يكون منهم من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن خاف أمن ومن اعتبر أبصر

معقولة وهي النفوس وقوة إدراك العلوم فيها غير متناهية وكلّ مرتبة من إدراكها تعد لما بعده إلى غير النهاية فبالواجب أن تتسع بالعلم وتزيد بزيادته.

وقال عليه السلام:

[**أوّل عوض الحليم من حمله أنّ الناس أنصاره على الجاهل**] فيه ترغيبٌ في الحلم بما يلزمه من النصر.

وقال عليه السلام:

[**إن لم تكن حليماً فتحلّم، فإنّه قل من تشبّه بقوم إلا وشكّ أن يكون منهم**] التحلّم: تكلّف الحلم، ولا ريب انّ من تشبّه بقوم وتكلّف التخلّق بأخلاقهم والتأدّب بآدابهم اكتسب ملكة قوية وصار ذلك طبيعة.

وقال عليه السلام كلمات أحدها:

[**من حاسب نفسه ربح**] أنّ المحاسب لنفسه على أعمالها يعلم خسرانه من ربحه فيعمل للربح ويحترز من الترك المستلزم للخسران.

[**ومن غفل عنها خسر**] لأنّ قربها من اللّذات الحاضرة يستلزم ميلها إليها مالم تجذبها المواعظ الإلهية وتنبيهها بوعد الله ووعيده يستلزم إهمالها للأعمال الصالحة وهو الخسران المبين.

[**ومن خاف**] من عذاب [**أمن**] أي: عمل للخلاص منه ليأمن لحوقه.

[**ومن اعتبر أبصر**] اي: من نظر مواقع الفتنه بعين الفكر والاعتبار أبصر الطريق إلى الحقّ.

ومن أبصر فهم، ومن فهم عَلِم لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها وتلا عقيب ذلك قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ اتّقوا اللّه تقاة من شمّر تجريداً وجدّ جرّد تشميراً وأكمش في مهل وبادر في وجل

[**ومن أبصر**] ذلك [**فهم، ومن فهم**] العبور منها إليه [**عَلِم**] أي: حصل له العلم النافع بالحقّ.

وقال عليه السلام:

[**لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها**] مصدر شمس: الفرس إذا منع ظهره [**عطف الضروس**] وهي الناقة السيّئة الخلق [**على ولدها**] فإنّها تعضّ حالبها لتبقي لبنها لولدها شفقة عليه، واستعار الشماس للدنيا باعتبار إعدادها لمنعه عليه السلام منها ملاحظةً لشبهها بالفرس الذي يمنع ظهره أن يركب وشبه عطفها بعد ذلك بالضروس بشدّة العطف.

[**وتلا عقيب ذلك قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**] والمراد من ذلك زمان الرجعة التي أجمعت عليها الإمامية وتظافرت بها الآيات وتواترت فيها الروايات، كما أوضحنا ذلك في الحقّ اليقين.

وقال عليه السلام:

[**اتّقوا اللّه تقاة من شمّر تجريداً وجدّ**] وفي نسخة [**جرّد تشميراً**] أي: تقاة من شمّر عن ساق الجدّ في طاعة اللّه وجرّد نفسه لمرضاته تشميراً.

[**وأكمش في مهل**] أي: سارع في الأعمال الصالحة مادام في مهلة الحياة الدنيا [**وبادر**] مغفرة اللّه ورضوانه وهو [**في وجل**] من سيّئاته

ونظر في كرة الموئل وعاقبة المصدر ومغبة المرجع الجود حارس الأعراض والحلم فدام السفيه والعفو زكاة الظفر والسلو عوضك ممن غدر والاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه

وأعماله.

[**ونظر في كرة الموئل**] الكرة: الرجعة، والموئل: الملجأ، أي: فكّر في عوده إلى الملجأ الأوّل الذي منه بدأ وهو حضرة الربوبية.

[**وعاقبة المصدر**] الذي عنه صدر في ابتداء كونه وإليه يعود [**ومغبة المرجع**] أي: عاقبته من خير ليداوم عليه أو شرّ ليعمل للخلاص منه.

وقال عليه السلام:

[**الجود حارس الأعراض**] استعار الحارس باعتبار أنّ الجود يقي عرض صاحبه من السبّ كالحارس.

[**والحلم فدام السفيه**] والفدام خرقة تجعل على فم الابريق، استعير للحلم باعتبار أنّ الحليم إذا قابل السفيه بحلمه عن عقوبته سكن عنه أو أقلع عن سفهه في حقّه فأشبه الفدام له.

[**والعفو زكاة الظفر**] استعار الزكاة للعفو باعتبار أنّه فضيلة تستلزم زيادة الثواب في الآخرة.

[**والسلو عوضك ممن غدر**] وهو أمر الإنسان بالسلو عن الهمّ بسبب غدر من يطلب وفائه، ورغّب فيه بكونه عوضاً منه ونعم العوض.

[**والاستشارة عين الهداية**] أي: مستلزمة لها أو جعلها عينها تأكيداً لقوّة استلزامها لها.

[**وقد خاطر من استغنى برأيه**] أي: أشرف على الهلاك من استبدّ برأيه لأنّه مظنّة الخطأ المستلزم للهلاك.

والصبر يناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان واشرف الغنى ترك المُنى وكم من عقل أسير تحت هوى أمير ومن التوفيق حفظ التجربة والمودّة قرابة مستفادة ولا تأمنن ملولاً عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله

[**والصبر يناضل الحدثان**] استعار المنافضلة للصبر باعتبار دفعه الهلاك عن الجزع في المصائب.

[**والجزع من أعوان الزمان**] لأنّه معدّ للهرم والفناء فكان معيناً له.

[**واشرف الغنى ترك المُنى**] لأنّ أشرف الغنى غنى النفس بالكمالات النفسانية من الحكمة ومكارم الأخلاق وهو مستلزم لترك المُنى.

[**وكم من عقل أسير تحت هوى أمير**] لانقياده لهواه فهو كالأسير له وهذا كثير.

[**ومن التوفيق حفظ التجربة**] أي: لزومها ومداومتها لغاية الانتفاع بها، وذلك من توفيق اللّه وتسهيله الأسباب وتقديره لتوافقها في حقّ العبد.

[**والمودّة قرابة مستفادة**] لأنّ القرابة اسم للقرب وهو إمّا أن يكون أصلياً كقرب النسب أو مستفاداً مكتسباً كقرب الصداقة والمودّة.

[**ولا تأمنن ملولاً**] لأنّ الملول يصرفه ملاله عن الثبات على الصداقة والعهد وكتمان السرّ ونحوها.

وقال عليه السلام:

[**عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله**] لأنّ الحاسد لايزال مجتهداً في إظهار معائب المحسود وإخفاء محاسنه ولمّا كان عجب الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كالحاسد الذي دأبه إظهار عيب المحسود ونقصه؛ ولذا قيل من رضى عن نفسك كثر الساخط عليه.

أغض على القذى والألم، ترضَ أبداً مَنْ لان عوده كَثُفَت أغصانه الخلاف يهدم الرأي من قال استطال في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال

وقال عليه السلام:

[**أغض على القذى**] كناية عن كتم الغيظ واحتمال المكروه [**والألم، ترضَ أبداً**] لدوام ورود المكاره عليه فإذا لم يقابلها بالاحتمال لم يزل ساخطاً.

وقال عليه السلام:

[**مَنْ لان عوده كَثُفَت أغصانه**] استعار العود لطبيعته وكنّى بلينه عن التواضع واستعار الأغصان للأعوان والأتباع وكنّى بكثافتها عن اجتماعهم عليه وكثرته وقوتهم بهم، والمراد من كانت له فضيلة التواضع ولين الجانب كَثُرت أعوانه وأتباعه وقوى اجتماعهم عليه.

وقال عليه السلام:

[**الخلاف يهدم الرأي**] لأنّ أمر الجماعة على أمر يكون المصلحة فيه فيقع من بعضهم خلاف فيهدم ما اجتمعوا عليه ورأوه من المصلحة وقريب منه ما قيل: لا رأي لمن لا يطاع.

وقال عليه السلام:

[**من قال استطال**] أي: من قال ما يوجب الاستطالة من جاه وسلطان ومال استطال بسبب ذلك أي: كان في مظنّة أن يستطيل على غيره بما يناله.

وقال عليه السلام:

[**في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال**] أي: تقلّب أحوال الدنيا

حسد الصديق من سقم المودّة أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع ليس من العدل القضاء على الثقة بالظنّ

على المرء كرفعته بعد اتضاعه وبالعكس وكنزول الشدائد به يفيد العلم التجربي بأحواله الباطنة من خير وشر وفضيلة ورذيلة، ولذا قيل: الولايات مضامين الرجال.

وقال عليه السلام:

[حسد الصديق من سقم المودّة] فإنّ الصديق إذا حسدك لم تكن صداقته صحيحة، إذ الصديق الصدوق من يجري مجرى نفسك، والإنسان لا يحسد نفسه، وقيل لحكيم: ما الصديق؟ فقال: إنسان هو أنت إلا أنّه غيرك.

وقال عليه السلام:

[أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع] استعار المصارع للعقول ملاحظة لقهرها عن النفوس وانفعالها، فأشبهت في الذلّة والانقياد لها وترك مقاومتها من أخذ مضرعه من الحرب واستعار البروق لما لاح من تصوّر المطموع فيه وكثيراً ما تشبه العلوم والخواطر الذهنية بالبروق للطفه وضيائه وسرعة حركته، وفي لفظ «تحت» إشارة إلى أنّ المصارع من شأنها أن تكون تحت.

وقال عليه السلام:

[ليس من العدل القضاء على الثقة بالظنّ] أي: من كان عندك ثقة معروفاً بالأمانة فحكمك عليه بالخيانة بمجرّد الظنّ خروج عن العدل وهو جور.

وقال عليه السلام:

بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد مِنْ أشرف أفعال الكريم غفلته عمّا يعلم من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه بكثرة الصمت تكون الهيبة وبالنصفة يكثر الواصلون

[**بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد**] لأنّ الظلم رذيلة عظيمة مستلزمة للشقاء الأشقى، فهي بئس الزاد إذاً، واستعار الزاد باعتبار حمل هذه الرذيلة في جوهر النفس إلى الآخرة كالزاد.

وقال عليه السلام:

[**مِنْ أشرف أفعال الكريم غفلته عمّا يعلم**] أي: تغافله وإغضائه عمّا يعلم من معايب الناس ومن هفواتهم، لاستلزام ذلك الحلم والعفو والصفح ونحوها من الفضائل الجزيلة أركان، يقال: التغافل من التودّد.

وقال عليه السلام:

[**من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه**] استعار الثوب لما يشمل الإنسان من الحياء، ورشح بذكر الكسوة أي: الحياء يستلزم ترك العائب فلا يرى في صاحبه وإن ارتكب عيباً فعلى غاية من التستر.

وقال عليه السلام:

[**بكثرة الصمت تكون الهيبة**] لأنّ الصمت من توابع العقل غالباً ومهابة أهل العقل ظاهرة فإن عرف أنّ صمت الصامت عن عقل، كانت مهابته أوكد إن لم تعرف كانت لتجوز أن يكون عن كمال عقله.

[**وبالنصفة**] وهي فضيلة العدل كالإنصاف [**يكثر الواصلون**] لأنّ قلّة الإنصاف مستلزمة للفرقة وقطع الالفة كما قيل:

ولم تزل قلّة الإنصاف قاطعة ... بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وبالافضال تعظم الأقدار وبالتواضع تتمّ النعمة وباحتمال المؤنِ يجب السؤدد وبالسيرة العادلة يقهر المناوي وبالحلم عن السفيه تكثر الأنصار عليه العجيب لغفلة الحسّاد عن سلامة الأجساد

[**وبالافضال تعظم الأقدار**] أي: بالافضال على الخلق بما يحتاجون إليه ـــــــ القدر للحاجة إلى التفضّل ومحبته، ولأنّه إنعام والمنعم مشكور.

[**وبالتواضع تتمّ النعمة**] بكثرة الاخوان وأهل المودة لأنّ فضيلة التواضع نعمة وما يلزمها كالتمام لها.

[**وباحتمال المؤن يجب السؤدد**] لأنّ احتمال الخلق يستلزم فضيلة سعة الصدر واحتمال المكروه.

[**وبالسيرة العادلة يقهر المناوي**] أي: المعادي؛ لأنّ العدوّ لا يجد لصاحب السيرة العدالة عيباً يستظهر به عليه ويسعى به في فساد أمره فيبقى مقهوراً.

[**وبالحلم عن السفيه تكثر الأنصار عليه**] والاتفاق على ذمّ ذلك السفيه وتقبيح فعله ومدح حلم الحليم.

وقال عليه السلام:

[**العجيب لغفلة الحسّاد عن سلامة الأجساد**] لأنّ الغالب أنّ الحسد إنّما يكون بالغنى والجاه وسائر فئات الدنيا فترك الحسّاد الحسد بصحّة الجسد مع كونه أجلّ النعم محلّ التعجّب، ولعلّ غفلة الحساسيد عنها لكونها من الأمور العقلية بخلاف سائر النعم، فإنّها حسيّة مشاهدة.

وقال عليه السلام:

الطامع في وثاق الذلّ الإيمان معرفة بالقلب وإقرارٌ باللّسان وعمل بالأركان من أصبح على الدنيا حزيناً أصبح على قضاء اللّه ساخطاً ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنّما يشكو ربّه ومن أتى غنياً فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه

[**الطامع في وثاق الذلّ**] استعار لفظ الوثاق للذلّ لأنّه يثبّط صاحبه عن الخير، وروي: عزّ من قنع ذلّ من طمع.

وقال عليه السلام وقد سئِل عن الإيمان:

[**الإيمان معرفة بالقلب وإقرارٌ باللّسان وعمل بالأركان**] والمراد الإيمان الكامل، ولا تكاد ترى في القرآن ذكر الإيمان إلا وهو مردف بالعمل، كقوله: ﴿الّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

وقال عليه السلام:

[**من أصبح على الدنيا حزيناً أصبح على قضاء اللّه ساخطاً**] إذ الرزق بقضاء اللّه وقدره فمن حزن لفوات شيء منه فقد سخط قضاء اللّه.

[**ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنّما يشكو ربّه**] لأنّه تعالى هو المبتلي بها إذ لم تنزل من تلقاء نفسها.

[**ومن أتى غنياً فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه**] إذ مدار الدين على كمال النفس الإنسانية بالحكمة وكمال القوة الشهوية بالعفّة، وقوّة الغضب بالشجاعة، ولمّا كان التواضع للغني من جهة غناه يستلزم زيادة محبّة الدنيا والخروج عن فضيلة الشهوة إلى طرف الفجور حتّى كأنّه عابد لغير اللّه ويستلزم الخروج عن الحكمة التي مقتضاها وضع كلّ شيء موضعه وهي فضيلة النفس الناطقة كان خارجاً عن فضيلة هاتين القوّتين وهما ثلثا الدّين؛ ولأنّ مدار الدّين على الاعتقاد بالقلب والإقرار باللّسان والعمل بالأركان

ومن قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات اللّه هزواً ومن لهج قلبه بحبّ الدنيا التاط بقلبه منها بثلاث: همٌّ لا يغبّه، وحرص لا يتركه، وأصل لا يدركه كفى بالقناعة ملكاً وبحسن الخلق نعيماً

كما مرّ ومن شأن المتواضع للغني لغناه اشتغال لسانه بمدحه وشكره، وإشعار جوارحه بخدمته عن طاعة اللّه والقيام بشكره، فهو مهمل لثلثي دينه؛ ولأنّ التواضع للغني لغناه يستلزم حبّ الدنيا وحبّها رأس كلّ خطيئة، فاستعمل لفظ الثلثين في الأكثر مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه.

[**ومن قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات اللّه هزواً**] لأنّ قراءة القرآن للّه بالإخلاص والعمل بمقتضاه يستلزم دخول الجنّة ودخول النار يستلزم عدم الإخلاص في قراءة القرآن وعدم العمل به، فيكون في قرائته حينئذ كالمستهزئ بآيات اللّه إذ من شأن المستهزئ أن يقول ما لا يعتقده ولا يعمل به فاستعير له لفظ المستهزئ.

[**ومن لهج قلبه بحبّ الدنيا التاط بقلبه**] أي: لصق [**منها بثلاث: همٌّ لا يغبّه، وحرص لا يتركه، وأصل لا يدركه**] ووجه لزوم الثلاثة للحرص والولوع بها انّ حبّها يستلزم الجدّ في طلبها وجمعها ولمّا كان حصولها مشروطاً بأسباب مقدورة للعباد وأسباب غير مقدورة، والمقدورة منها قد لا تكون مقدورة للاطلب لا جرم يلزم الحزن غالباً في تحصيلها، والهمّ الذي لا يغبّه أي: لا يأتيه غبّاً وهو يوم ويوم لا، ثمّ في حفظها وخوف فوتها والحرص على استخراجها من وجوهها وطول الأمل في وجود مكاسبها وأرباحها وتجاراتها، ونبّه على طوله بقوله: «لا يدركه».

وقال ﷺ:

[**كفى بالقناعة ملكاً وبحسن الخلق نعيماً**] استعار الملك للقناعة؛

وسُئِل عن قوله عزّ وجلّ ﴿فلنحيينه حياة طيّبة﴾ فقال: هي القناة شاركوا الذي قد أقبل عليه الرزق فإنّه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ في قوله عزّ وجلّ ﴿إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان﴾ والعدل: الإنصاف، والإحسان التفضّل

لأنّ غاية الملك الغناء عن الخلق والترفّع عليهم بذلك والالتذاب به والقناعة مستلزمة لهذه الغايات، وكذا استعار النعيم لحسن الخلق باعتبار استلزامهما للالتذاذ بهما.

[**وسُئِل عن قوله عزّ وجلّ ﴿فلنحيينه حياة طيّبة﴾ فقال: هي القناة**] فسرّها بلازمها إذ لمّا كان الغنى عدم الحاجة فأغنى الناس أقلّهم حاجة إلى الناس.

وقال عليه السلام:

[**شاركوا الذي قد أقبل عليه الرزق فإنّه أخلق للغنى**] أي: أجدر وأولى [**وأجدر بإقبال الحظ**] لما كان إقبال الرزق بتوافق أسبابه في حقّ من أقبل عليه كانت مشاركته مظنّة إقبال حظّ الشريك وإقبال الرزق عليه بمشاركته، والضمير في «انّه» يعود إلى ما دلّ عليه شاركوا من المصدر، والكلام بمنزلة صغرى وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك ففعله مصلحة.

وقال عليه السلام:

[**في قوله عزّ وجلّ ﴿إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان﴾ والعدل: الإنصاف، والإحسان التفضّل**] وإنّما دخل الندب تحت الأمر لأنّ الصفة زائدة على حسنة وقال الزمخشري العدل هو الواجب، والإحسان الندب، وإنّما علق أمره بهما جميعاً لانّ الغرض لابدّ أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب.

من لم يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة لا تدعونّ إلى مبارزة، وإن دعيتَ إليها فأجب، فإنّ الداعي باغ والباغي مصروع

وقال عليه السلام:

[من لم يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة] أشار به إلى قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ وقوله: ﴿إن تقرضوا اللّه قرضاً حسناً يضاعفه لكم﴾ واستعار اليد في الموضعين للنعمة والعطاء، وكنّى بالطول والفقر عن الكثرة والقلّة.

وقال السيد الرضي: معنى ذلك أن ما ينقصه المرء من ماله في سبيل الخير والبرّ وإن كان يسيراً فإنّ اللّه يجعل الجزاء عظيماً كثيراً.

وقال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام:

[لا تدعونّ إلى مبارزة، وإن دعيتَ إليها فأجب، فإنّ الداعي باغ والباغي مصروع] قال ابن ابي الحديد: قد ذكر عليه السلام الحكمة، ثمّ ذكر العلّة وما سمعنا أنّه عليه السلام دعى إلى براز قط، وإنّما كان هو يدعى بعينه أو يدعى من يبارز فيخرج إليه فيقتله، دعى بنو ربيعة بن عبدشمس بن هاشم إلى البراز فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة في قتل عتبة، ودعاه طلحة بن أبي طلحة إلى البراز يوم أُحد فخرج إليه فقتله، ودعى مرحب إلى البراز يوم خيبر فخرج إليه عليه السلام فقتله، وأمّا الخرجة التي خرجها يوم الخندق إلى عمرو بن عبدودّ فإنّها أجل من أن يقال جليلة، وأعظم من أن تقال عظيمة، وما هي إلا كما قال شيخنا أبوالهذيل وقد سأله سائل: أيّهما أعظم منزلةً عند اللّه، عليٌّ أم أبوبكر؟ فقال: يابن أخي! واللّه لمبارزة علي عمرواً يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعتهم كلّها وتربي عليها فضلاً عن أبي بكر وحده!!

وعن حذيفة قال: والذي نفس حذيفة بيده لو وضع جميع أعمال أُمّة

خيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو والجبن والبخل فإذا كانت المرأة مزهوّة لم تمكّن من نفسها وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كلّ شيء يعرض لها فقال: هو الذي يضع الشيء مواضعه، فقيل: فصف لنا الجاهل، قال: قد فعلت

محمد ﷺ في كفّة الميزان منذ بعث اللّه تعالى محمداً ﷺ إلى يوم الناس ووضع عمل واحد من أعمال عليّ في الكفّة الأُخرى لرجح على أعمالهم كلّها.

وفي الحديث المرفوع أنّ رسول اللّه ﷺ قال ذلك اليوم حين برز إليه: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه».

وقال عليه السلام:

[**خيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو والجبن والبخل فإذا كانتَ المرأة مزهوّة**] أي: متكبّرة [**لم تمكّن من نفسها**] فإنّ ذلك ينافي الزهو والافتخار والكبر [**وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت**] أي: خافت [**من كلّ شيء يعرض لها**].

قال الطغرائي: الجود والإقدام في فتياتهم والبخل في الفتيات والإشفاق والطعن في الأحداق دأب رماتهم والراميات سهامها الأحداق.

وقال عليه السلام وقيل له صف لنا العاقل:

[**فقال: هو الذي يضع الشيء مواضعه، فقيل: فصف لنا الجاهل، قال: قد فعلت**] قال السيد الرضي «ره»: يعني إنّ الجاهل هو الذي لا يضع الشيء مواضعه، وكان ترك وصفه صفة له إذ كان بخلاف صفة العاقل.

وقال عليه السلام:

والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار المرأة شرّ كلّها وشرّ ما فيها أنّه لابدّ منها

[والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم] العراق جمع عرق: وهو العظم عليه شيء من اللّحم وهو مبالغة في هون الدنيا وحقارتها في عينه إذ لا شيء أحقر ولا أبغض إلى الإنسان من عراق خنزير في يد مجذوم.

وقال عليه السلام:

[إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار] قسمّ عليه السلام العبادة إلى عبادة الرغبة والرهبة والشكر وجعل الأوّل عبادة التجّار لأنّهم يستعيضون عنها ثواب الآخرة كالتجّار المكتسبين للأرباح، وعبادة العبيد لأنّ خدمتهم لساداتهم أكثر ما تكون رهبة، والشاكر الذي يعبد الله لا لرغبة ولا لرهبة، بل لأنّه مستحقّ العبادة، وهي عبادة العارفين، وروي أنّها أفضل العبادة، وفيه دلالة على صحّة العبادة المقصود بها الثواب أو دفع العقاب.

وقال عليه السلام:

[المرأة شرّ كلّها وشرّ ما فيها أنّه لابدّ منها] أي: إنّ أحوالها كلّها شرٌّ على الرجل، أما من جهة مؤنتها فظاهر وأمّا من جهة لذّتها واستمتاعه بها فلاستلزام ذلك البعد عن الله والاشتغال عن طاعته وأسباب الشر شرور وإن كانت عرضية ولما كان كونها لابدّ منها أغنى وجوب الحاجة إليها في طبيعة الوجود الدنيوي هو السبب في تحمّل الرجل للمرأة ووقوعها في شرورها

من أطاع التواني ضيّع الحقوق وضيّع الصديق الحجر الغصب في الدار رهن على خرابها

وجب أن يكون ذلك الاعتبار أقوى الشرور المتعلّقة بها؛ لأنّ السبب أقوى من المسبّب.

وقال عليه السلام:

[من أطاع التواني ضيّع الحقوق] بين الأحبة **[وضيّع الصديق]** رفع إلى كسرى أنّ النصارى الذين بحضرة باب الملك يعرفون بالتجسّس إلى ملك الروم فقال من لم يظهر ذنبه لم يظهر منّا عقوبة له، ورفع إليه أنّ بعض الناس ينكر إصغاء الملك إلى أصحاب الأخبار، فوقع هؤلاء بمنزلة مداخل الضياء إلى البيت المظلم، وليس لقطع مواد النور مع الحاجة إليه وجه عند العقلاء، وهذا محمول على الأخبار المتعلّقة بالدّين والمصالح العامة والخاصة.

وقال عليه السلام:

[الحجر الغصب في الدار رهن على خرابها] قال السيّد الرضي: وقد روي ما يناسب هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله، ولا عجب أن يشتبه الكلامان فإنّ مستقاهما من قليب ومفرغهما من ذنوب، استعار الرهن للحجر المغصوب في دار الظالم باعتبار كونه سبباً لخرابها كما أنّ الرهن سبب لأداء ما عليه من المال، وكنّى عن استلزام الظلم هلاك الظالم وخراب ما بيته بظلم وإن تأخر أمده، وفي النبوي: «اتقوا الحرام في البنيان فإنّه أسباب الخراب، والذنوب: الدلو، ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب.

وقال عليه السلام:

يومُ المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم اتّق اللّه بعض التقى وإن قلّ واجعل بينك وبين اللّه ستراً وإن رقّ إذا ازدحم الجواب خفي الصواب إنّ للّه في كلّ نعمة حقّاً فمن أدّاه زاده منها ومن قصّر فيه خاطر بزوال نعمته

[**يومُ المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم**] أراد بيوم المظلوم يوم القيامة، وخصّصه لأنّه يوم إنصافه وأخذ حقّه وكذا تخصيص يوم الظالم بوقت ظلمه؛ لأنّه في الدنيا له وقصارى أمر الظالم في الدنيا أن يقتل غيره فيميته ميتة واحدة، وأمّا يوم الجزاء فلا يموت الظالم فيه حتّى يستريح بل عذابه دائم متجدّد.

وقال عليه السلام:

[**اتّق اللّه بعض التقى وإن قلّ**] لأنّها الزاد إلى اللّه تعالى ولا يجوز تركها بالكلّية [**واجعل بينك وبين اللّه ستراً وإن رقّ**] استعار الستر لحدود اللّه الساترة من عذابه وأن يجعلها بينه وبين اللّه أي: يحفظ حدوده ولا يهتكها فيقع في مهاوي الهلاك، وغلظ هذا الستر شدّة المحافظة على حدود اللّه وعدم استيفاء المباحات لخوف الوقوع في الحرام ورقّته باستيفاء الأُمور الحايرة من المباحات والمكروهات.

وقال عليه السلام:

[**إذا ازدحم الجواب خفي الصواب**] أي: إذا سُئل عن مسألة فأجاب جماعة كلّ بما يخطر بباله أو شخص بعده من رد أجوبة خفي الصواب فيها لالتباس الحقّ من تلك الأجوبة.

وقال عليه السلام:

[**إنّ للّه في كلّ نعمة حقّاً فمن أدّاه زاده منها ومن قصّر فيه خاطر بزوال نعمته**] قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي

إذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة احذروا نفار النعم فما كلّ شارد بمردود الكرم أعطف من الرحم من ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه

لشديد﴾ وروي من أُوتي نعمة فأدّى حقّ اللّه منها بردّ اللهيفة وإجابة الدعوة وكشف المظلمة كان جديراً بدوامها ومن قصر قصّر به.

وقال عليه السلام:

[**إذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة**] لأنّ قليل القدرة على ما يشتهيه لايزال مستشعراً لخوف فواته عند حصوله فيكون ذلك الخوف معاقباً للذته به فلا تزال في قلبه دغدغة نفسانية تحمله على منتهاه وتبعث شهوته عليه، أمّا إذا تمّت قدرته عليه فإنّه يأمن فوته، وبحسب ذلك يضعف الباعث على الشهوة فتقلّ الحاجة إليه.

وقال عليه السلام:

[**احذروا نفار النعم فما كلّ شارد بمردود**] استعار النفار والشرود لزوال النعم ملاحظةً لشبهها بالنعم وحذّر منه حثّاً على تقييدها بالشكر.

وقال عليه السلام:

[**الكرم أعطف من الرحم**] أي: الكريم بكرمه أعطف على المنعم عليه من ذوي الرحم على رحمه؛ لأنّ عاطفة الكريم طبيعية وعاطفة الرحم قد تكون تكليفية على أنّ الكرم يستلزم عطف الخلق على الكريم ومحبّتهم له أشدّ من عاطفة ذي الرحم على رحمه.

وقال عليه السلام:

[**من ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه**] أي: افعل ما ظنّه فيك من خير.

وقال عليه السلام:

[**أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه**] أي: من الأعمال الصالحة،

عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزام وحلّ العقود مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة فرض اللّه سبحانه الإيمان تطهيراً من الشرك والصلاة تنزيهاً من الكبر

إذ أفضل الأعمال أحمزها بالزاي المعجمة، أي: أشقّها.

وقال عليه السلام:

[عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزام وحلّ العقود] قد روي ما يفسّره في خبر آخر وهو عرف اللّه بفسخ العزام ونقض الهمم لما هممت فحيل بيني وبين همّي وعرفت تخالف القضاء والقدر عزمي علمت أنّ المدبّر غيري.

وقال عليه السلام:

[مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة] إذ الدنيا ضدّ الآخرة فحكم كلّ منهما مضاد لحكم الأُخرى كالسواد يجمع البصر والبياض يفرّق البصر، والحرارة توجب الخفّة والبرودة توجب الثقل، وآلام الدنيا لازمة عن ترك لذّاتها طلباً للآخرة، وهو مستلزم لحلاوة الآخرة ولذّاتها والابتهاج بلذّات الدنيا يستلزم الغفلة عن الآخرة وترك العمل لها، وذلك مستلزم لعذابها، واستعار الحلاوة والمرارة للّذة والألم، وعثرت امرأة فانقطع ظفرها وهي مستبشرة فقيل لها: أما تألّمت؟ فقالت: لذّة الأجر أنستني ألم العثرة.

وقال عليه السلام:

[فرض اللّه سبحانه الإيمان تطهيراً من الشرك] إذ للمتطهر من الشرك غاية مطلوبة للشارع هي كمال النفس بمعرفة اللّه تعالى كان التطهير غاية فرضه من الإيمان.

[والصلاة تنزيهاً من الكبر] إذ فيها الركوع والسجود، وهما غاية

والزكاة تسبيباً للرزق والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق والحجّ تقوية للدّين والجهاد عزّاً للإسلام والأمر بالمعروف مصلحة العوام والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء وصلة الأرحام منماة للعدد

الخضوع وفيها مثال العبد للمعبود بين الركوع منه والسجود.

[**والزكاة تسبيباً للرزق**] إذ منها رزق الفقراء والمساكين أو أنّها تنمي المال الذي يعطي منه الزكاة.

[**والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق**] وإن كانت هذه غاية من كلّ العبادات [**والحجّ تقوية للدّين**] لأنّه عبادة يستلزم اجتماع أكثر أهل الملّة في مجمع واحد على غاية من الذلّة والخضوع والانقياد للّه ومشاهدة كلّ من الخلق الحاضرين لذلك الجمع العظيم من الملوك وغيرهم فيتأكّد في قلبه قوّة الدّين في عظمته دون سائر العبادات.

[**والجهاد عزّاً للإسلام**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم اللّه كثيراً﴾ وقال تعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ اللّه وعدوّكم﴾.

[**والأمر بالمعروف مصلحة العوام**] في معاشهم ومعادهم، وخصّ العوام لأنّهم أغلب الخلق، ولأنّ من عداهم العلماء والولاة الآمرون بالمعروف والفاعلون له.

[**والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء**] لانّ السفيه مالم يكن له رادع من سلطان الدّين تكثر مفسدته المضادّة لمصلحة العالم.

[**وصلة الأرحام منماة للعدد**] أي: عدد أُولي الرحم إذ زيادة عددهم

والقصاص حقناً للدماء وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة وترك الزنا تحصيناً للنسب وترك اللواط تكثيراً للنسل والشهادات استظهاراً للمجاحدات وترك الكذب تشريفاً للصدق والإسلام أماناً من المخاوف

باستقامة أمر معاشهم وصلة الرحم سبب لذلك.

[**والقصاص حقناً للدماء**] وكذا عن سفكها كخوف المكافاة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب﴾.

[**وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم**] كي لا تنهتك وتحرز الخلق إليها عن قصد السبيل فيضيع غرض الشارع من وضع الدّين.

[**وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل**] من مخامرتها له وإشغاله عمّا خلق لأجله من طلب الاستكمال بكمال الحكمة.

[**ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة**] إذ السرقة تنشأ عن كمال طاعة الشهوة والعبور فيها إلى حدّ الإفراط.

[**وترك الزنا تحصيناً للنسب**] وما يتبعها من المواريث فإنّ الزنا يوجب اختلاط الأنساب وضياع الأموال التي هي قوام الخلق في الدّنيا.

[**وترك اللواط تكثيراً للنسل**] وتوفير مادّته على محاله لغاية كثرة النوع وبقائه.

[**والشهادات استظهاراً للمجاحدات**] أي: بها يستظهر المستشهد على مجاحدة خصمه كيلا يضيع حقّه.

[**وترك الكذب تشريفاً للصدق**] وتعظيمه بتحريم ضدّه لبناء مصلحة العالم عليه ونظام أمور الخلق به.

[**والإسلام أماناً من المخاوف**] إذ من غايات الإسلام الأمن من

والإمامة نظاماً للأمّة والطاعة تعظيماً للإمامة احلفوا الظالم إذا أردتم يمينه بأنّه بريء من حول اللّه وقوّته فإنّه إذا حلف بها كاذباً عوجل وإذا حلف باللّه الذي لا إله إلا هو لم يعاجل لأنّه قد وحّد اللّه سبحانه يابن آدم كن وصيّ نفسك واعمل في مالك ما تؤثر أن يعمل فيه من

مخاوف الدنيا والآخرة، وروي السلم، إذ هو سبب للتودّد إلى الخلق فكان أمناً من مخاوفهم.

[**والإمامة نظاماً للأمّة**] إذ متى كان للناس رئيس منبسط اليد قويّ الشوكة يردع الظالم عن ظلمه ويأخذ للمظلوم بحقّه فكان في ذلك صلاح أحوالهم ونظام أُمورهم في معاشهم ومعادهم.

[**والطاعة تعظيماً للإمامة**] أي: إمامة الإمام لغاية امتثال الخلق لقوله والاقتداء به.

وقال عليه السلام:

[**احلفوا الظالم إذا أردتم يمينه بأنّه بريء من حول اللّه وقوّته فإنّه إذا حلف بها كاذباً عوجل وإذا حلف باللّه الذي لا إله إلا هو لم يعاجل لأنّه قد وحّد اللّه سبحانه**] روي أنّ واشياً سعى بالصادق عليه السلام إلى المنصور فاستحضروه وقال: إنّ فلاناً ذكر عنك كذا وكذا، فقال عليه السلام: لم يكن ذلك منّي، وأبى الساعي إلا كونه منه، فحلّفه الصادق عليه السلام بالبراءة من حول اللّه وقوّته، وإن كان كاذباً فحلف، فلما انقطع كلامه حتّى صار كقطعة لحم فجر برجله ونجى الصادق عليه السلام.

وقال عليه السلام:

[**يابن آدم كن وصيّ نفسك واعمل في مالك ما تؤثر أن يعمل فيه من**

بعدك الحدّة ضربٌ من الجنون صحّة الجسد من قلّة الحسد يا كميل! مُرْ أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ويُدْلجوا في حاجة من هو نائم فوالّذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا وخلق اللّه من ذلك السرور لطفاً فإذا نزلت به نائبه جرى إليها كالماء في انحداره حتّى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل

بعدك] حيث إنّ الإنسان يرغب في أن يخرج ماله بعد موته في وجوه البرّ ليصل ثوابه إليه، لكنّه يضنّ بإخراجه وهو حيّ لحبّه العاجلة وخوفه الفقر فيقيم وصيّاً يعمل ذلك في ماله بعد موته، فأمره أن يكون ذلك الوصيّ ويضعه مواضعه في حياته.

وقال عليه السلام:

[الحدّة ضربٌ من الجنون] لأنّ في الحدّة خروج قوّة الغضب عن ضبط العقل لها على قانون العدل فكانت قسماً من الجنون؛ ولذا قيل: أوّل الحدّة جنون وآخرها ندم.

وقال عليه السلام:

[صحّة الجسد من قلّة الحسد] أي: إنّ الحسد قد يكون أيضاً بالصحة كما يكون بغيرها، فصحّة الجسد دليل أنّه لم يتعلّق بها.

وقال عليه السلام لكميل بن زياد النخعي:

[يا كميل! مُرْ أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ويُدْلجوا في حاجة من هو نائم] والادلاج: السير باللّيل.

[فوالّذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا وخلق اللّه من ذلك السرور لطفاً فإذا نزلت به نائبه] أي: مصيبة **[جرى إليها كالماء في انحداره حتّى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل]** شبّه

إذا أملقتم فتاجروا اللّه بالصدقة الوفاء لأهل العذر عذرٌ عند اللّه، والعذر بأهل العذر وفاءٌ عند اللّه فإذا كان ذلك ضرب يعسوب الدّين بذنبه فيجتمعون إليه كما يجتمع قزع الخريف

جري ذلك اللطف إلى دفع المكروه عنه بجري الماء في انحداره، ووجه الشبه سرعة الانحدار للدفع والحفظ لأنّه من أمر اللّه ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وكذا دفع ذلك للنائبة بطرد غريبة الإبل، ووجه الشبه شدّة الطرد والإبعاد.

وقال عليه السلام:

[**إذا أملقتم فتاجروا اللّه بالصدقة**] والإملاق: الفقر، واستعار التجارة لاستعاضة ما يحصل عمّا يبذل، وقال الحكمة: أفضل العبادات الصدقة لأنّ نفعها يتعدّى ونفع الصلاة والصوم لا يتعدى.

وقال عليه السلام:

[**الوفاء لأهل العذر عذرٌ عند اللّه، والعذر بأهل العذر وفاءٌ عند اللّه**] لأنّ من عهد اللّه في دينه العذر بأهل المعذور وعدم الوقاء لهم.

وقال عليه السلام:

[ومن كلامه عليه السلام المتضمّن ألفاظاً من الغريب تحتاج إلى تفسير قوله عليه السلام في حديث [**فإذا كان ذلك ضرب يعسوب الدّين بذنبه فيجتمعون إليه كما يجتمع قزع الخريف**] قال: الرضي «ره»: يعسوب الدّين السيّد العظيم المالك لأمور الناس يومئذ، والقزع: قطع الغيم الذي لا ماء فيها، قيل: أومئ بقوله ذلك إلى علامات ذكرها في آخر الزمان لظهور صاحب الأمر، واستعار اليعسوب وهو الأصل أمير النحل ملاحظة لشبهه به فأما ضربه بذنبه فلعلّ الضرب هو السير في الأرض، وذنبه استعارة في أعوانه وأتباعه،

هذا الخطيب شحشح إنّ للخصومة قحماً

أو حيث كان ضرب النحل بذنبه لسعه فكنّى بذلك عن نصب سيوفه وسهامه في أعدائه لقتلهم وأذاهم، وقيل: كنّى بذلك عن ثورانه وغضبه لدين اللّه ملاحظةً لشبهه بالسبع حال صوته وغضبه وشبّه اجتماع المؤمنين وأهل طاعة اللّه باجتماع قطع الغيم المتفرقة، ووجه الشبه سرعة الاجتماع لأنّ قزع الخريف سريع التألّف.

وفي حديثه عليه السلام:

[**هذا الخطيب شحشح**] قال السيّد «ره»: يريد الماهر بالخطبة الماضي فيها وكلّ ماض في كلام وسير فهو شحشح والشحشح في غير هذا الموضع البخيل الممسك.

قال ابن أبي الحديد: هذه الكلمة قالها عليه السلام لصعصعة وكفاه بها فخراً أن يكون مثل علي عليه السلام يثني عليه بالمهارة وفصاحة اللّسان وكان من أفصح الناس.

ومنه: [**إنّ للخصومة قحماً**] قال السيّد «ره»: يريد بالقحم المهالك لأنّها تقحم أصحابها في المهالك والمتالف ومن ذلك قحمة الاعراب وهو أن تصيبهم السنة فتفرّق أموالهم فذلك تقحّمها فيه، وقد قيل فيها وجه آخر وهو أنّها تقحمتهم بلاد الريف أي: تحوجهم إلى دخول الحضر عند محول البدو وقيل: قالها عليه السلام حين وكّل عبداللّه بن جعفر في الخصومة عنه وهو شاهد وأبوحنيفة لا يجيز الوكالة على هذه الصورة، ويقول لا تجوز إلا عن غائب أو مريض، وأبو يوسف ومحمد يجيزانها أخذاً بفعل أميرالمؤمنين عليه السلام.

وقال عليه السلام:

إذا بلغ النساء نَصَّ الحقايق فالعَصَبَةُ أولى

[إذا بلغ النساء نَصَّ الحقايق فالعَصَبَةُ أولى] قال: ويروى نصّ الحقاق، والنص: منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في المسير لأنّه أقصى ما تقدر عليه الدابة وتقول: نصصت الرجل عن الأمر، إذا استقصيت مسألته عنه لتستخرج ما عنده فيه. فنصّ الحقائق يريد به الإدراك؛ لأنّه منتهى الصغرى، والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حدّ الكبير، وهو من أفصح الكنايات عن هذا الأمر وأغربها. يقول: فإذا بلغ النساء ذلك فالعصَبة أولى بالمرأة من أُمّها، إذا كانوا محرماً، مثل الإخوة والأعمام؛ وبتزويجها إن أرادوا ذلك. والحقاق: محاقّة الأمّ للعصَبة في المرأة، وهو الجدال والخصومة، وقول كلّ واحد منهما للآخر «أنا أحقّ منك بهذا» يقال منه: حاقته حقاقاً، مثل جادلته جدالاً. وقد قيل: «إن نص الحقاق» بلوغ العقل، وهو الإدراك؛ لأنّه عليه السلام إنّما أراد منتهى الأمر الذي تجب فيه الحقوق والأحكام، ومن رواه «نص الحقائق» فإنما أراد جمع حقيقة.

هذا معنى ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام، والذي عندي أنّ المراد بنص الحقاق هاهنا بلوغ المرأة إلى الحدّ الذي يجوز فيه تزويجها وتصرّفها في حقوقها، تشبيهاً بالحِقاق من الإبل، وهي جمع حِقّة وحِقّ وهو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة، وعند ذلك يبلغ إلى الحدّ الذي يتمكن فيه من ركوب ظهره، ونصه في السير، والحقائق أيضاً: جمع حِقة. فالروايتان جميعاً ترجعان إلى معنىً واحد، وهذا أشبه بطريقة العرب من المعنى المذكور أوّلاً.

أقول: العصبة بنو الرجل وقرابته لأبيه، سُمّوا بذلك لأنّه عصبوا به وعلّقوا عليه.

إنّ الإيمان يبدو لمظة في القلب كلّما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة إنّ الرجل إذا كان له الدّين الظنون يجب عليه أن يزكّيه لما مضى إذا قبضه

وقال في حديثه عليه السلام: [**إنّ الإيمان يبدو لمظة في القلب كلّما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة**] قال السيّد: اللّمظة مثل النكتة أو نحوها من البياض ومنه قيل: فرس ألمظ: إذا كان بجحفلته شيء من البياض قيل: والمراد أنّ الإيمان أوّل ما يكون في النفس حالة ثمّ لا يزال يتأكّد بالبراهين والأعمال الصالحة إلى أن يصير ملكة تامّة ولفظ اللمظة استعارة لما يبدو من نور الإيمان في النفس أول كونه ملاحظة لشبهه باللمظة من البياض والنكتة من نور الشمس.

ومن حديثه:

[**إنّ الرجل إذا كان له الدّين الظنون يجب عليه أن يزكّيه لما مضى إذا قبضه**] قال الظنون الذي لا يعلم صاحبه أيقضيه من الذي هو عليه أم لا فكأنّه الذي يظنّ به ذلك فمرّة يرجوه ومرّة لا يرجوه، وهو من أفصح الكلام وكذلك أمر تطلبه ولا تدري على أيّ شيء أنت منه، فهو ظنون، على ذلك قول الأعشى:

من يجعل الجدّ الظنون الذي جُنِّبَ صوب اللَّجِب الماطِر
مثلَ الفُراتيِّ إذا ما طَمَا يقذفُ بالبُوصِيِّ والماهِر

والجدّ: البئر العادية في الصحراء، والظنون: التي لا يعلم هل فيها ماء أم لا.

قيل: معنى كلامه عليه السلام إنّه إذا كان لك مثلاً عشرون ديناراً ديناً على رجل وقد أخذها منك ووضعها كما هي من غير تصرّف فيها، وأنت تظنّ إن

اعْذِبُوا عن النساء ما استطعتم كالياسر الفالج ينتظرُ أوّل فوزة من قِداحِه

استرددتها منه ردّها إليك فإذا مضى عليها إحدى عشر شهراً واستهلّ هلال الثاني عشر وجبت زكاتها عليك، واللجب في بيت الأعشى السحاب المصوّت ذو الرعد، والفراتي: الفرات، والياء للتأكيد، والبوص: ضرب من صغار السفن، والماهر: السابح، والمراد أنّه لا يقاس البئر المشكوك هل فيه ماء أم لا لبعده بالفرات إذا ما طمى وهو كالمثل لعدم مساواة البخيل للكريم.

ومن حديثه أنّه شيّع جيشاً بغزية فقال:

[اعْذِبُوا عن النساء ما استطعتم] قال السيّد: ومعناه: اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهنّ، وامتنعوا من المقاربة لهنّ، لأنّ ذلك يَفُتّ في عضد الحميّة، ويقدح في معاقد العزيمة، ويكسر عن العَدْو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو، وكلّ من امتنع من شيء فقد عذب عنه. والعاذب والعذوب: الممتنع من الأكل والشرب.

أقول: فتّ عضد الحمية كناية عن كسرها.

ومن حديثه:

[كالياسر الفالج ينتظرُ أوّل فوزة من قِدَاحِه] قال السيّد: الياسرون هم الّذين يتضاربون بالقداح على الجزور، والفالج: القاهر الغالب، يقال: قد فلج عليهم وفلجهم، قال الراجز:

لمّا رأيت فالجاً قد فلجا.

قال ابن أبي الحديد: أوّل الكلام انّ المرء المسلم مالم يغش دنائه يخشع لها إذا ذكرت ويغري بها لئام الناس كالياسر الفالج ينتظر فوزة من قداحه أو

كنّا إذا احمرّ البأس اتَّقينا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فلم يكن أحدٌ منّا أقرب إلى العدوّ منه

داعي اللّه ﴿فما عند اللّه خير للأبرار﴾ ويقول هو بين خيرتين، إمّا أن يصير إلى ما يحبّ من الدنيا فهو بمنزلة صاحب القداح المعلى وهو أوفرها نصيباً، أو يموت فما عند اللّه خيرٌ له.

ومن حديثه: [**كنّا إذا احمرّ البأس اتَّقينا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فلم يكن أحدٌ منّا أقرب إلى العدوّ منه**] قال السيّد: معنى ذلك أنّه إذا عظم الخوف من العدو واشتدّ عضاض الحرب، فزع المسلمون إلى قتال رسول اللّه صلى الله عليه وآله بنفسه، فينزل اللّه عليهم النصر به، ويأمنون مما كانوا يخافونه بمكانه.

وقوله: «إذا احمرّ البأس» كناية عن اشتداد الأمر، وقد قيل في ذلك أقوال أحسنها: أنّه شبه حَمْيَ الحرب بالنار التي تجمع الحرارة والحمرة بفعلها ولونها. ومما يقوي ذلك قول رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وقد رأى مُجْتَلَدَ الناس يوم حنين وهي حرب هوازن: «الآن حَمِيَ الوطيس» فالوطيس: مستوقد النار، فشبّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله ما استحرّ من جلاد القوم باحتدام النار وشدّة التهابها، إنتهى.

استعار عليه السلام وصف احمرار البأس لشدّته ملاحظةً لشبهه بالنار الموقدة، وقيل: البأس: الحرب نفسها، أي: إذا احمرّ موضع البأس وهو الأرض التي عليها معركة القوم واحمرارها لما يسيل عليها من الدم.

وقال عليه السلام لمّا بلغه اغارة أصحاب معاوية على الأنبار وخرج بنفسه ماشياً حتّى أتى النخيلة وأدركه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم، فقال عليه السلام:

والله ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم، إن كانت الرعايا قبلي لتشكوا حيف رعاتها وإنّي اليوم لأشكو حيف رعيّتي كأنّني المقود وهم القادة والموزوع وهم الوزعة وأين تقعان مما أُريد إنّك يا حار نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحِرْتَ إنّك لم تعرف الحقّ فتَعْرف مَنْ أتاهُ إنّ سعداً وعبدالله لم ينصرا الحقّ ولم يخذلا الباطل

[والله ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم، إن كانت الرعايا قبلي لتشكوا حيف رعاتها وإنّي اليوم لأشكو حيف رعيّتي كأنّني المقود وهم القادة والموزوع وهم الوزعة] قال: فلمّا قال هذا القول في لام طويل قد ذكرنا مختاره في جملة من الخطب تقدّم إليه رجلان من أصحابه فقال أحدهما: إنّي لا أملك إلا نفسي وأخي فمرنا بأمرك يا أميرالمؤمنين ننفذ له، فقال: **[وأين تقعان مما أُريد]**.

أقول: السنن: الطريقة، والنخيلة بظاهر الكوفة، والحيف: الظلم، والوزعة: جمع وازع وهو الدافع الكاف، و«إن» في «وإن كانت الرعايا» مخفّفة من الثقيلة، لذا دخلت اللام في جوابها.

وقيل: إنّ الحرث بن حوط أتاه فقال: أتراني أظنّ أصحاب الجمل كانوا على ضلالة، فقال عليه السلام: **[إنّك يا حار نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحِرْتَ إنّك لم تعرف الحقّ فتَعْرف مَنْ أتاهُ]** فقال الحرث: فإنّي أعتزل مع سعد بن مالك وعبدالله بن عمر، فقال عليه السلام: **[إنّ سعداً وعبدالله لم ينصرا الحقّ ولم يخذلا الباطل]**.

بيان: «أتراني» استفهام إنكار لرؤيته كذلك، و«حار» مرخّم حارث، و«نظرت تحتك» أي: من هو دونك من الناكثين فاغتررت بشبهتهم، و«لم

صاحب السلطان كراكب الأسد يغتبط بموقعه وهو أعلم بموضعه أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم إنّ كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً وإذا كان خطأ فإذا كان غداً فأتيني حتّى أُخبرك على سماع الناس فإن نسيت مقالتي حفظه عليك غيرك فإنّ الكلام كالشاردة يثقفها هذا ويخطئها هذا

تنظر إلى من فوقك» أي: الحقّ المتلقى من اللّه.

وقال عليه السلام:

[**صاحب السلطان كراكب الأسد يغتبط بموقعه وهو أعلم بموضعه**] أي: يتمنى الناس موقعه وهو يعلم أنّه في غاية من المخاطرة بالنفس والتغرير بها وذلك وجه الشبه، ولذا قيل: بينا هو فرسه إذ افترسه.

وقال عليه السلام:

[**أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم**] إذ الدنيا دار مكافاة والذكر الجميل يعطف الناس على عقب المحسن بعده، والعقب: ما يخلّفه الإنسان من الولد وأولادهم.

وقال عليه السلام:

[**إنّ كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً وإذا كان خطأ**] وذلك لاعتقاد الخلق فيهم وحسن الظنّ بأقوالهم إن كانت حقّاً كان داءً من الجهل وإن كان باطلاً أوجبت داء الجهل ولذا قيل زلّة العالم زلّة العالم.

وسأل رجلٌ ما الإيمان فقال: [**فإذا كان غداً فأتيني حتّى أُخبرك على سماع الناس فإن نسيت مقالتي حفظه عليك غيرك فإنّ الكلام كالشاردة يثقفها هذا ويخطئها هذا**] قال: وقد ذكرنا ما أجابه به فيما تقدّم من هذا الباب وهو قوله: «الإيمان على أربع شعب... إلخ». ويثقفها: يجدها،

يابن آدم لا تحمل همّ يومك الذي لم يأتك على يومك الذي أتاك فإنّه إن يكن من عمرك يأت اللّه فيه برزقك احبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما الناس في الدنيا عاملان: عامل في الدنيا للدنيا، وعامل علم للدنيا فما بعدها، فجائه الذي له من الدنيا بغير عمل فأحرز الخطّين معاً، وملك الدارين جميعاً، فأصبح وجيهاً عند اللّه لا يسأل اللّه شيئاً فيمنعه

والشاردة: الضالّة من الإبل.

وقال عليه السلام:

[يابن آدم لا تحمل همّ يومك الذي لم يأتك على يومك الذي أتاك فإنّه إن يكن من عمرك يأت اللّه فيه برزقك] فلا ينبغي الاهتمام له.

وقال عليه السلام:

[احبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما] الهون بالفتح: التأنّي، والبغيض: المبغض، والمراد الأمر بالاعتدال في المحبّة والبغض وعدم الافراط فيهما فربّما انقلب الصديق عدوّاً والعدوّ صديقاً و«هوناً ما» صفة مصدر محذوف أي: حبّاً هيّناً معتدلاً، وما بين الموضعين المراد بها مقداراً دون الإفراط ووقتاً من الأوقات.

وقال عليه السلام:

[الناس في الدنيا عاملان: عامل في الدنيا للدنيا، وعامل علم للدنيا فما بعدها، فجائه الذي له من الدنيا بغير عمل فأحرز الخطّين معاً، وملك الدارين جميعاً، فأصبح وجيهاً عند اللّه لا يسأل اللّه شيئاً فيمنعه] قوله: «فما بعدها» أي: للآخرة، فالناس عاملان عاملٌ للدنيا فقط،

إنّ القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وآله والأموال أربعة أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسّمه على مستحقّيه، والخمس فوضعه اللّه حيث وضعه، والصدقات فجعلها اللّه حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه اللّه على حاله، ولم يتركه نسياناً ولم يخف عليه مكاناً فأقرّه حيث أقرّه اللّه ورسوله

وعامل للآخرة معها، والأوّل قد اشتغل بتحصيل الدنيا خوف الفقر على ولده من بعده فقضى عمره في منفعة يتخيّلها لغيره ولا يخشى الفقر الأكبر في الآخرة والعامل للآخرة يأتيه ما قُدّر له من الرزق بدون تعب ويعطى ثواب الآخرة بعمله، فقد أحرز حظّ الدنيا والآخرة.

وذكر عند عمر بن الخطاب حلي الكعبة وكثرته فقال: لو أخذته فجهّزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر وما تصنع الكعبة بالحلي، فهمّ عمر بذلك وسأل عنه أمير المؤمنين فقال:

[إنّ القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وآله والأموال أربعة أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسّمه على مستحقّيه، والخمس فوضعه اللّه حيث وضعه، والصدقات فجعلها اللّه حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه اللّه على حاله، ولم يتركه نسياناً ولم يخف عليه مكاناً فأقرّه حيث أقرّه اللّه ورسوله] فقال عمر: لولاك لافتضحنا، وترك الحلي بحاله، قيل: خلاصة حجّته عليه السلام إشارة إلى صغرى تقديرها: إنّ حلي الكعبة قد أقرّه اللّه ورسوله على حاله من غير نسيان ولا جهل بمكانه مع تعرّضه لجميع الأموال، وتقدير كبراه: وكلّما أقرّه اللّه ورسوله على حاله وجب الاقتداء بهما في ذلك. ورُفع إليه رجلان سرقا من مال اللّه أحدهما عبد من مال اللّه والآخر من عرض الناس فقال:

أمّا هذا فهو من مال اللّه فلا حدّ عليه مال اللّه أكل بعضه بعضاً، وأمّا الآخر فعليه الحد الشديد، فقطع يده لو قد استوت قدماي من هذه المداحض لغيّرت أشياء لا يصدق إيمان عبد حتّى يكون بما في يد اللّه أوثق منه بما في يده

[أمّا هذا فهو من مال اللّه فلا حدّ عليه مال اللّه أكل بعضه بعضاً، وأمّا الآخر فعليه الحد الشديد، فقطع يده] أقول: المراد بعرض الناس سائرهم وعامتهم والحد محمول على بلوغ المسروق والنصاب وهو ربع دينار.

وقال عليه السلام:

[لو قد استوت قدماي من هذه المداحض لغيّرت أشياء] المداحض: المزالق، واستواء قدميه كناية عن ثباته وتمكّنه من إجراء أحكام اللّه، واستعار لتلك المسائل «المداحض» لأنّها مزالق الأفكار.

وقال عليه السلام:

[لا يصدق إيمان عبد حتّى يكون بما في يد اللّه أوثق منه بما في يده] هذا هو معنى التوكّل، وهو أن يأتي بالأسباب ولا يعتمد عليها بل يكون اعتماده على اللّه لا بما في يده ولذا ورد: «أبى اللّه أن يجعل رزق المؤمن إلا من حيث لا يحتسب» وروي: «كن لما ترجو أقرب من أن ترجو ذهب موسى ليقتبس لأهله ناراً فرجع وهو نبي مرسل» وقال عليه السلام لأنس بن مالك وقد بعثه إلى طلحة والزبير لما جاءا إلى البصرة يذكّرهما شيئاً سمعه من رسول اللّه صلى الله عليه وآله في معناهما فلوى عن ذلك فرجع إليه فقال: إنّي أُنسيت ذلك الأمر.

فقال عليه السلام:

إن كنت كاذباً فضربك اللّه بها بيضاء لا تواريها العمامة إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض في القرآن نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم

[**إن كنت كاذباً فضربك اللّه بها بيضاء لا تواريها العمامة**] قال يعني البرص، فأصاب أنساً هذا الداء فيما بعد في وجهه فكان لا يرى إلا مبرقعاً.

قال ابن أبي الحديد: المشهور أنّ علياً عليه السلام ناشد الناس اللّه في الرحبة بالكوفة فقال: انشد اللّه رجلاً سمع رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول وهو منصرف من حجّة الوداع: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه؟ فقام رجال فشهدوا بذلك فقال عليه السلام لأنس بن مالك: لقد حضرتها فما بالك، فقال: يا أمير المؤمنين كبرت سنّي وصار ما أنساه أكبر مما أذكره، فقال: إن كنت كاذباً فضربك اللّه بها بيضاء لا تواريها العمامة، فما مات حتّى أصابه البرص، ثمّ استبعد ما ذكره السيد «ره» ثمّ قال وقد ذكر ابن قتيبة حديث البرص والدعوة على أنس في كتاب المغازي وابن قتيبة غير متّهم في حقّ علي للمشهور من انحرافه عنه، إنتهى.

أقول: لا يبعد أن يكون عليه السلام احتجّ بذلك في مقامين.

وقال عليه السلام:

[**إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض**] أقول: قد مرّ شرحه

وقال عليه السلام:

[**في القرآن نبأ ما قبلكم**] من القرون الماضين [**وخبر ما بعدكم**] من الغيوب وأخبار الحشر والنشر والجنّة والنار [**وحكم ما بينكم**] من المسائل

ردّ الحجر من حيث جاء فإنّ الشرّ لا يدفعه إلا الشر لكاتبه عبدالله بن أبي رافعة ألق دواتك وأطل جلفة قلمك وفرّج بين السطور وقرمط بين الحروف فإنّ ذلك أجدر بصباحة الخطّ أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجّار

الشرعية والفروع الفقهية.

وقال عليه السلام:

[ردّ الحجر من حيث جاء فإنّ الشرّ لا يدفعه إلا الشر] قيل: هو مثل قولهم إنّ الحديد بالحديد يفلج والحجر كناية عن الشرّ وردّه من حيث جاء كناية عن مقابلة الشرّ بمثله.

وقال عليه السلام:

[لكاتبه عبدالله بن أبي رافعة] وكان أبو رافع مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله **[ألق دواتك]** أي: أصلحها، يقال: ألقت الدواة ولقتها: أصلحتها بالمداد.

[وأطل جلفة قلمك] أي: سنانه، فإنّ الجلفة الطويلة تقبل المداد أكثر فيستمرّ القلم في كتابة كلمات كثيرة على نهج واحد من غير تقطّع بين المداد بخلاف الجلفة الصغيرة فإنّ مدادها أقلّ والمقاطع بين مداتها أكثر فيكثر التفاوت بين الكلمات في أواخر كلّ مدة وأوّل الأخرى بعدها.

[وفرّج بين السطور] لظهور الفصل بينها وتمييز بعضها عن بعض.

[وقرمط بين الحروف] أي: قرّب بعضها عن بعض **[فإنّ ذلك]** المذكور من الشرائط **[أجدر]** أحقّ وأولى **[بصباحة الخطّ]** أي: حسنه.

وقال عليه السلام:

[أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجّار] قال السيد: ومعنى

إنّما اختلفنا عنه لا اختلفنا فيه، ولكنّكم ما جفّت أرجلكم من ماء البحر حتّى قلتم لنبيّكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنّكم قوم تجهلون من يذكر بعد السفر استعد

ذلك انّ المؤمنين يتّبعوني والفجّار يتّبعون المال كما يتّبع النحل يعسوبها وهو رئيسها.

قال ابن أبي الحديد: هذه كلمة قالها له رسول اللّه ﷺ بلفظين مختلفين تارةً «أنت يعسوب الدين» وتارةً «أنت يعسوب المؤمنين» والكل راجع إلى معنى واحد، كأنّه جعله رئيس المؤمنين وسيّدهم، أو جعل الدّين يتبعه ويقفو أثره حيث سلك كما يتبع النحل اليعسوب، وهذا نحو قوله: «وأدر الحقّ معه كيف دار».

وقال له بعض اليهود: ما دفنتم نبيّكم حتّى اختلفتم فقال له:

[إنّما اختلفنا عنه لا اختلفنا فيه، ولكنّكم ما جفّت أرجلكم من ماء البحر حتّى قلتم لنبيّكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنّكم قوم تجهلون] أراد عليه السلام إنّا لم نختلف في نبوّته أو في مرسله بل في فروع وأحكام صادرة عنه نحو الإمامة والميراث وأنتم اختلفتم في إنّ لكم صانعاً أم لا، حتّى قلتم لنبيّكم اجعل لنا إلهاً كواحد منها بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام وخلاصهم من رقّ العبودية وعبورهم البحر ومشاهدتهم غرق فرعون، وهذا غاية الجهل.

وقال عليه السلام:

[من يذكر بعد السفر] أي: بُعد طريق الآخرة **[استعد]** لها بالتقوى.

وقال عليه السلام:

ليس الرؤية مع الإبصار وقد تكذب العيون أهلها ولا يغش العقل لمن استنصحه بينكم وبين الموعظة حجاب من الغرّة جاهلكم مزداد مسوّف قطع العلم أعذر المقللين

[**ليس الرؤية مع الإبصار وقد تكذب العيون أهلها ولا يغش العقل لمن استنصحه**] أي: ليست الرؤية بمجرّد نظر العين، وإنّما الرؤية الحقيقية مع العقل الذي هو مستند الحواس وهو الناقد البصير والناصح الشفيق الذي لا يغشّ من استنصحه كما قال تعالى: ﴿لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ واستعار الاستنصاح لمراجعته وإعماله بصدق وتوجيهه إلى استخراج الآراء الصالحة ولفظ «الغش» لكذبه، أي: لا يكذب من انتصحه، وجعله رائداً له، وأمّا الحواس فقد تكذب أهلها.

وقال عليه السلام:

[**بينكم وبين الموعظة حجاب من الغرّة**] استعار الحجاب لما يعرض للنفوس من الغفلة عن النظر في العبر وقبول الموعظة والانتفاع بها.

وقال عليه السلام:

[**جاهلكم مزداد مسوّف**] أي: مزداد من الإثم، مسوّف بالتوبة.

وقال عليه السلام:

[**قطع العلم أعذر المقللين**] أي: العلم بالدّين وما بلّغه الرسول من البشارة والنذارة فإنّ ذلك قاطع لعذر من عساه يقول ﴿إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ أي: قطع العلم أعذر الذين يعلّلون أنفسهم بالباطل ويقولون ربّنا غفور رحيم، فلا حاجة إلى إتعاب أنفسنا، ونعم ما قيل:

تقول مع العصيان ربّي غافرٌ   صدقت ولكن غافر بالمشية

كلّ معاجل يسأل الأنظار وكلّ مؤجّل يتعلّل بالتسويف ما قال الناس لشيء طوبى له إلا وقد خبّأ له الدهر يوم سوء طريق مظلم فلا تسلكوه وبحرٌ عميقٌ فلا تلجوه

وربّك رزاق كما هو غافرٌ فلم لا تصدق فيهما بالسوية

وقال عليه السلام:

[**كلّ معاجل يسأل الأنظار وكلّ مؤجّل يتعلّل بالتسويف**] الغرض التوبيخ على ترك العمل الصالح للمعاجل والمؤجل فالعاجل كما حكى الله عنه ﴿حتّى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ إنّها كلمة هو قائلها﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ هذا المعجّل، وأمّا من أجّل فإنّه يعلّل نفسه بالتسويف ويقول سوف أتوب حتّى يخترم قبل التوبة، ونِعمَ ما قيل:

نحن لا نريد أن نموت حتّى نتوب ولا نتوب حتّى نموت

وقال عليه السلام:

[**ما قال الناس لشيء طوبى له إلا وقد خبّأ له الدهر يوم سوء**] أي: ما استحسن الناس شيئاً من الدنيا إلا وفي قوّة الدهر إعداده لفساده وإهلاكه يوماً ما، ولابدّ من خروج ما فيه بالقوّة إلى الفعل.

وقال عليه السلام وقد سُئِل عن القدر: [**طريق مظلم فلا تسلكوه**] استعار لفظ المظلم له باعتبار كونه كثير الشبهات لا يهتدى فيه للحقّ.

[**وبحرٌ عميقٌ فلا تلجوه**] استعار له البحر مع صفة العمق باعتبار غرق الأفكار وسبح الأنظار فيه.

وسرّ اللّه فلا تتكلّفوه إذا أرذل اللّه عبداً أحظر عليه العلم كان لي فيما مضى أخ في اللّه وكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهّى ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد وكان أكثر دهره صامتاً

[**وسرّ اللّه فلا تتكلّفوه**] أي: سرّ اللّه الذي أوجب كتمانه ومنع الخوض فيه فلا يجوز تكلّف الخوض فيه وهتكه.

وقال عليه السلام:

[**إذا أرذل اللّه عبداً**] أي: جعله رذلاً [**أحظر عليه العلم**] بإعداده لغيره وتعويق أسبابه بحيث ينصرف عنه فلا يكون له استعداد، قال الشاعر:

شكوت إلى حكيم سوء حظّي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال لأن حفظ العلم فضل وفضل اللّه لا يؤتيه عاصي

وقال عليه السلام:

[**كان لي فيما مضى أخ في اللّه**] قيل هو أبوذر الغفاري، وقيل عثمان بن مظعون.

[وكان يعظّمه في عيني صِغَرُ الدّنيا في عينه فإنّ استصغار الدّنيا والنظر إليها بعين الاحتقار يستلزم عظمه في عيون أهل اللّه.

[**وكان خارجاً من سلطان بطنه**] كنّى به عن خروجه من أسر شهوته وخلاصه من رذيلة الفجور إلى رذيلة العفّة.

[**فلا يتشهّى ما لا يجد**] وذلك يستلزم نزاهته عن رذيلة الحرص والحسد ونحوهما.

[**ولا يكثر إذا وجد**] وذلك يستلزم نزاهته عن رذيلة الشره واللهم.

[**وكان أكثر دهره صامتاً**] لقوّة عقله كما قال عليه السلام فيما مرّ: «إذا تمّ العقل نقص الكلام».

فإن قال بذّ القائلين، ونقع غليل السائلين وكان ضعيفاً مستضعفاً فإن جاء الجهد فهو ليث غاب وصلّ وادلا يدلى بحجّته حتّى يجد قاضياً وكان لا يلوم أحداً على ما لا يجد العذر في مثله حتّى يسمع اعتذاره وكان لا يشكو وجعاً إلا عند برئه وكان يفعل ما يقول

فإن قال بذّ أي: غلب **[القائلين، ونقع غليل السائلين]** نقع العليل: سكون العطش.

[وكان ضعيفاً مستضعفاً] أي: فقيراً منظوراً إليه بعين الذلّة والفقر، وذلك من لوازم فضيلة التواضع.

[فإن جاء الجهد فهو ليث غاب] استعار له لفظ اللّيث باعتبار سطوته وعداوته.

[وصلّ واد] استعار لفظ الصلّ باعتبار بأسه ونكأته في العدوّ والمثل يُضرب لحيّة الوادي في الشجاعة ونكاية السمّ.

[لا يدلى بحجّته حتّى يجد قاضياً] وهو من فضيلة العدل في وضع الأشياء مواضعها.

[وكان لا يلوم أحداً على ما لا يجد العذر في مثله حتّى يسمع اعتذاره] فإن كان هناك عذر قَبِلَهُ، وذلك من لوازم العدل والإنصاف وفضيلة الثبات واحتمال المكروه.

[وكان لا يشكو وجعاً] ينزل به لتسليمه لأحكام اللّه ورضاه بالقضاء.

[إلا عند برئه] فربّما حكاها على سبيل الإخبار دون الشكاية أو المعنى أنّه كان يكتم مرضه كيلا يكلّف الناس زيارته فيشقّ عليهم ذلك.

[وكان يفعل ما يقول] أي: يطابق قوله فعله ويحترز عن الكذب

ولا يقول ما لا يفعل كان إن غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلّم وكان إذا بدهه أمران[ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فخالفه فعليكم بهذه الخلايق فالزموها وتنافسوا فيها، فإنْ لم تستطيعوها فاعلموا أنّ أخذ القليل خير من ترك الكثير لو لم يتوعّد اللّه سبحانه على معصيته لكان يجب أن لا يُعصى

والخلف.

[**ولا يقول ما لا يفعل**] حذراً من قوله تعالى: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

[**كان إن غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلّم**] أي: كان يترك المماراة والمجادلة والمغالبة في الأقوال، ويعدل إلى السكوت إذا غولب في القول وذلك من فضيلة الحكمة، لعلمه بمواقع السكوت والكلام، وكان يرجّح جانب الاستفادة على الإفادة وذلك من فضيلة الحكمة.

[**وكان إذا بدهه**] أي: حظر بباله [**أمران**] دفعة من غير سابقة [**ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى**] وميل الشهوة كالتزويج مثلاً [**فخالفه**] إلى تركه، ولمّا كان الغرض من هذا الفصل أن يقتدي السامعون بالفضائل المذكورة، فقال:

[**فعليكم بهذه الخلايق فالزموها وتنافسوا فيها، فإنْ لم تستطيعوها فاعلموا أنّ أخذ القليل خير من ترك الكثير**].

وقال عليه السلام:

[**لو لم يتوعّد اللّه سبحانه على معصيته لكان يجب أن لا يُعصى**

يا أشعث إن تحزن على ابنك فقد استحقّت ذلك منك الرحموإن تصبر ففي اللّه من كلّ مصيبة خلفيا أشعث إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجوروإن جزعت جرى عليك القدر وأن مأزوريا أشعث سرّك وهو بلاء ومحنته فتنةوحزنك وهو ثواب ورحمةإنّ الصبر لجميلٌ إلا عنك، وإنّ الجزع لقبيح إلا عليك

شكراً لنعمته] إذ لمّا وجب شكر النعمة قولاً وفعلاً وجب ترك المعصية الذي هو لازم للطاعة الواجبة؛ لأنّ لازم الواجب واجب، أي: لو لم يتوعّد على معصية لوجب تركها لأجل شكره، فكيف وقد توعّد مع ذلك عليها.

وقال عليه السلام وقد عزى الأشعث بن قيس على ابن له:

[**يا أشعث إن تحزن على ابنك فقد استحقّت ذلك منك الرحم]** أي: فهو في محلّه لأنّ الرحم يستحقّ من ذي رحم ذلك [**وإن تصبر ففي اللّه من كلّ مصيبة خلف]** وكلّما كان خلف عنه فالصبر عنه أولى.

[**يا أشعث إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور]** على صبرك [**وإن جزعت جرى عليك القدر وأن مأزور]** أي: موزور ومأثوم على جزعك، ثمّ نفّره عن إفراط السرور به بقوله:

[**يا أشعث سرّك وهو بلاء ومحنته فتنة]** إذ الإفراط في محبّته يستلزم رذائل خلقية كالجبن عمّا ينبغي من الجهاد خوف مفارقته وكالبخل خوف فقره ونظراً له في عاقبته وكالحزن في أمراضه وأعراضه وكذا بغضه يستلزم رذيلة العقوق وقطع الرحم وصرف المال عنه في غير وجهه، والواو في قوله «وهو بلاء» للحال، وكذا في قوله: [**وحزنك وهو ثواب ورحمة]** ما يلزم تركه من الصبر على المصيبة به من ثواب اللّه ورحته.

وقال عليه السلام عند وقوفه على قبر رسول اللّه صلى الله عليه وآله ساعة دُفن: [**إنّ الصبر لجميلٌ إلا عنك، وإنّ الجزع لقبيح إلا عليك]** لأنّه صلى الله عليه وآله أصل الدّين والقدوة

وإنّ المصاب بك لجليل وإنّه بعدك لقليل لا تصحب المائق فإنّه يزيّن لك فعله ويودّ أن تكون مثله مسيرة يوم للشمس أصدقائك ثلاثة، وأعدائك ثلاثة، فأصدقائك صديقك وصديق

فيه، فالجزع في المصيبة به يستلزم دوام تذكّره المستلزم لدوام ذكر أخلاقه وسيرته وسنّته فكان غير قبيح من هذا الوجه، أو لأنّ المصيبة به مصيبة عظيمة وهو أعظم فائت فيستحسن الجزع عليه، وأمّا الصبر فإنّه يؤول إلى سلوانه والغفلة عنه فكان غير جميل من هذا الوجه.

[**وإنّ المصاب بك لجليل**] لأنّه أعظم مصاب بأحد م الناس.

[**وإنّه بعدك لقليل**] هيّن بالنسبة إليك، أو المراد المصاب قبله عظيم على المسلمين لحذرهم منه وبعده كذلك لاختلال أمرهم وأمر الدّين بفقده.

وقال عليه السلام:

[**لا تصحب المائق**] الشديد الحمق، والموق: شدّة الحمق.

[**فإنّه يزيّن لك فعله ويودّ أن تكون مثله**] إذ هو لحمقه يعتقد كمال نفسه وحسن أفعاله ووجوب الاقتداء بها هو يزيّنها ويحب أن يكون مثله فيها ويدعوه إلى ذلك وكلّ من كان كذلك فلا تجوز صحبته.

وقال عليه السلام وقد سُئِل عليه السلام عن مسافة ما بين المشرق والمغرب فقال:

[**مسيرة يوم للشمس**] قيل: ولا يقال مسير يوم بدون التاء لأنّ المسير مصدر، والمسيرة الاسم، وهو جواب اقناعي، إذ لو قال له في ملإٍ من الخلق: بينهما ألف فرسخ مثلاً لشقّ فهمه على السائل وشقّ إقامة البرهان عليه، فعدل إلى جواب صحيح إجمالي أسكت السائل وقنع به السامعون.

وقال عليه السلام:

[**أصدقائك ثلاثة، وأعدائك ثلاثة، فأصدقائك صديقك وصديق**

صديقك وعدوّ عدوّك وأعدائك عدوّك وعدوّ صديقك وصدق عدوّك إنّما أنت كالطاعن نفسه لتقتل ردفه ما أكثر العبر وأقلّ الاعتبار من بالغ في الخصومة أثم ومن قصّر فيها ظلم

صديقك وعدوّ عدوّك] قيل: والحكم بصداقة الآخرين من القضايا المظنونة لاحتمال كون الصديق غير عالم بأنّ لصديقه صديقاً وإنّ لعدوّه عدواً فضلاً أن يعاديه أو يصادقه.

وكذا الكلام في قوله: **[وأعدائك]** ثلاثة **[عدوّك وعدوّ صديقك وصدق عدوّك]** وتوضيح ذلك انّ صديقك جار مجرى نفسك فاحكم عليه بما تحكم على نفسك وعدوّك ضدّك فاحكم عليه بما تحكم به على الضدّ فمن عادى صديقك عدوّ لك كما أنّ من صادق صديقك صديقك، وعدو عدوّك ضدّ ضدّك وضدّ ضدّك ملائم لك؛ لأنّك ضدّ لذلك الضدّ، ومن صادق عدوّك فقد ماثل ضدّك وكان ضداً لك أيضاً.

وقال عليه السلام لرجل رآه يسعى على عدوّ له بما فيه إضرار لنفسه: **[إنّما أنت كالطاعن نفسه لتقتل ردفه]** ووجه الشبه قصده لأذى غيره بما يستلزم أذى نفسه.

وقال عليه السلام:

[ما أكثر العبر وأقلّ الاعتبار] أراد بالعبر محالّ الاعتبار إذ كلّ شيء في الوجود فيه عبرة ولكن المعتبر قليل لغلبة الجهل والهوى وحبّ الدنيا.

وقال عليه السلام:

[من بالغ في الخصومة أثم] إذ المبالغة فيها يستلزم الظلم المستلزم للإثم.

[ومن قصّر فيها ظلم] بتسليط خصمه عليه.

ولا يستطيع أن يتقّي اللّه من خاصم ما أهمّني ذنب أمهلت بعده حتّى أُصلّي ركعتين كما يرزقهم على كثرتهم كما يرزقهم ولا يرونه رسولك ترجمان عقلك وكتابك أبلغ من ينطق عنك

[**ولا يستطيع أن يتقّي اللّه من خاصم**] لصعوبة الوقوف فيها على حدّ العدل.

وقال عليه السلام:

[**ما أهمّني ذنب أمهلت بعده حتّى أُصلّي ركعتين**] وأسأل اللّه العافية أي: لم أحزن من ذنب أمهلني اللّه بعده إلى أن أُصلّي ركعتين لأنّ الصلاة تكفّر الذنب فإذا أمهل أن يصلّيهما لم يحزن بسببه.

وسُئِل عليه السلام كيف يحاسب اللّه الخلق على كثرتهم؟ قال:

[**كما يرزقهم على كثرتهم**] فقيل: فكيل يحاسبهم ولا يرونه؟ فقال:

[**كما يرزقهم ولا يرونه**] شبّه كيفية محاسبته تعالى للخلق على كثرتهم بكيفية رزقه لهم على كثرتهم وجعل هذا أصلاً في التشبيه لظهوره وعلم السائل به وكذا تشبه كيفية محاسبته لهم مع عدم رؤيتهم له بكيفية رزقه لهم من غير رؤيته لشمول قدرته وعدم حاجته.

وقال عليه السلام:

[**رسولك ترجمان عقلك وكتابك أبلغ من ينطق عنك**] استعار للرسول الترجمان للعقل باعتبار أنّه ينبئ عنه ويعرف مقداره منه إشارة إلى وجوب اختيار ذوي العقل الراجح للرسالة، وأمّا أنّ الكتاب أبلغ من ينطق عن صاحبه لضبط مراده فيه دون لسان الرسول لأنّه ربّما لم يؤدّ الرسالة على وجهها سهواً أو لغرض فيقع الخلل بسبب ذلك وربما كان فيه هلاك المرسل وفي المثل: الرسول على قدر الرسل، وفي آخر: الرسول صفة المرسل.

ما المبتلي الذي اشتدّ به البلاء بأحوج من المعافى الذي لا يأمن من البلاء والناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حبّ أُمّه الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم إنّ المسكين رسول اللّه فمن منعه منع اللّه ومن أعطاه فقد أعطى اللّه ما زنى غيور قط كفى بالأجل حارساً

وقال عليه السلام :

[**ما المبتلي الذي اشتدّ به البلاء بأحوج من المعافى الذي لا يأمن من البلاء**] أي : انّهما سواء في الحاجة إلى دعاء اللّه، فذاك لحاجته إلى الخلاص من بلائه وهذا لبقاء عافيته وأمنه من لحوق البلاء.

وقال عليه السلام :

[**والناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حبّ أُمّه**] استعار لهم الأبناء باعتبار تولّدهم منها وميلهم إليها.

وقال عليه السلام :

[**الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم**].

وقال عليه السلام :

[**إنّ المسكين رسول اللّه فمن منعه منع اللّه ومن أعطاه فقد أعطى اللّه**] استعار للمساكين رسول اللّه باعتبار أنّه طالب للّه وبأمر اللّه فيجب إعطائه وإرضائه.

وقال عليه السلام :

[**ما زنى غيور قط**] لأنّ الغيور الحقّ إذا همّ بالزنا تخيّل مثل ذلك في نفسه من الغير فيغار من خياله داعيه فيحجم عنه، وفي الأثر : من زنا زني به.

وقال عليه السلام :

[**كفى بالأجل حارساً**] استعار الحارس باعتبار أنّ الإنسان لا يهلك

ينام الرجل على الثُّكْل ولا ينام على الحرب مودّة الآباء قرابة بين الأبناء والقرابة أحوج إلى المودّة من المودّة إلى القرابة اتقوا ظنون المؤمنين فإنّ اللّه جعل الحقّ على ألسنتهم اعلموا علماً يقيناً إنّ اللّه لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته واشتدّت طلبته وقويت مكيدته أكثر مما سمّي له في الذكر الحكيم

مادام أجله فهو كالحارس له.

وقال عليه السلام:

[**ينام الرجل على الثُّكْل ولا ينام على الحرب**] قال السيّد: ومعنى ذلك أنّه يصبر على قتل الأولاد ولا يصبر على سلب الأموال، وفي الخبر: من قلت دون ماله فهو شهيد.

وقال عليه السلام:

[**مودّة الآباء قرابة بين الأبناء والقرابة أحوج إلى المودّة من المودّة إلى القرابة**] استعار القرابة للمودة المتأكّدة بين الأبناء فهي كالقرابة وأخبر بها عنمودّة الآباء إخباراً باللازم على ملزومه إذ كانت صداقة الآباء والمودّة بينهم تستلزم تأكّدها بين الأبناء وشدّة اتصالهم، وأشار إلى تفضيل المودّة على القرابة بكون القرابة أكثر حاجة إلى المودّة في الانتفاع بها بين الخلق والمودّة أكثر استغناء من القرابة في الانتفاع بها.

وقال عليه السلام:

[**اتقوا ظنون المؤمنين فإنّ اللّه جعل الحقّ على ألسنتهم**] وهو من قبيل ما روي: اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور اللّه، وقيل: المؤمن كهانة.

وقال عليه السلام:

[**اعلموا علماً يقيناً إنّ اللّه لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته واشتدّت طلبته وقويت مكيدته أكثر مما سمّي له في الذكر الحكيم**] أي:

ولم يحل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته وبين أن يبلغ ما سمّي له في الذكر الحكيم والعارف بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعة والتارك له الشاكّ فيه أعظم الناس شغلاً في مضرّة وربّ منعمٌ عليه مستدرج بالغي وربّ مبتلى مصنوع له بالبلوى فزد أيّها المتمتع في شكرك وقصّر من عجلتك وقف عند منتهى رزقك لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكّاً، إذا علمتم فاعملوا وإذا تيقّنتم فأقدموا

ما علم اللّه وصوله إليه بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ.

[**ولم يحل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته وبين أن يبلغ ما سمّي له في الذكر الحكيم**] أي: لا يقصر الضعيف بضعفه عن بلوغ ما سُمّي له.

[**والعارف بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعة**] إذ حيث علم أنّ ما كتب له لابدّ أن يصل إليه فيترك لذلك شدّة الاهتمام به والكدح له.

[**والتارك له الشاكّ فيه أعظم الناس شغلاً في مضرّة**] لأنّه يشغل قلبه وبدنه فيما لا فائدة فيه فتلزمه مضرّة خالصة.

[**وربّ منعمٌ عليه مستدرج بالغي**] فينبغي لهم شكر اللّه على النعم كيلا يستدرجهم بها.

[**وربّ مبتلى مصنوع له بالبلوى**] فيجب عليهم شكر ذلك الصنع ولذا قال: [**فزد أيّها المتمتع في شكرك وقصّر من عجلتك وقف عند منتهى رزقك**] وروي: أجملوا في الطلب فإنّه ليس ــــــ إلا ما كتب له ولن يخرج عبد من الدنيا حتّى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة.

وقال عليه السلام:

[**لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكّاً، إذا علمتم فاعملوا وإذا تيقّنتم فأقدموا**] نهاهم عليه السلام أن يجعلوا علمهم بما هم عليه من أحوال الآخرة في قوّة الجهل ويقينهم في قوّة الشكّ وبمنزلته لتركهم العمل بما علموا

إنّ الطمع مورد غير مصدر وضامن غير وفي وربّما شرق شارب الماء قبل ريّه وكلّما عظم قدر الشيء المتنافس فيه عظمت الرزية لفقده والأماني تعمي أعين البصائر والحظ يأتي من لا يأتيه اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح فيما

وتيقّنوا.

وقال عليه السلام:

[**إنّ الطمع مورد غير مصدر**] أي: يورد الطامع الوارد المهلكة ولا يصدره عنها [**وضامن غير وفي**] استعار له ذلك باعتبار أنّه يرغّب في الطلب ويدعو إليه مع أنّه قد يكون كاذباً كمن يضمن شيئاً ويحيف عنه، وما كان كذلك فلا ينبغي أن يتّبع ويوثق به.

[**وربّما شرق شارب الماء قبل ريّه**] تنبيهٌ على أنّه لا يجوز الاسترسال في طلب الدنيا لأنّ المسترسل في طلبها قد يخترم ويقتطع دون بلوغ أمله فيها.

[**وكلّما عظم قدر الشيء المتنافس فيه عظمت الرزية لفقده**] وما عظمت المصيبة لفقده فلا ينبغي اقتنائه إذ كان من ضرورته فقده وفنائه.

[**والأماني تعمي أعين البصائر**] لأنّها تشغل الفكر بما لا يغني عن طلب ما يعني من الكمالات العقلية، واستعار الأعين للإنكار باعتبار إدراكها.

[**والحظ يأتي من لا يأتيه**] أي: من لا يسعى في طلبه، وما كان كذلك فلا حاجة في طلبه وإتيانه.

وقال عليه السلام:

[**اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح فيما**

أبطن لك سريرتي محافظاً على رياء الناس من نفسي بجميع ما أنت مطّلع عليه منّي فأُبدي للناس حسن ظاهري وأمضي إليك بسوء عملي تقرّباً إلى عبادك وتباعداً من مرضاتك لا والّذي أمسينا منه في غبر ليلة دهماء تكشّر عن يوم أعزّ ما كان كذا وكذا قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول ما لقيت أحداً إلا أعانني على نفسه

أبطن لك سريرتي محافظاً على رياء الناس من نفسي بجميع ما أنت مطّلع عليه منّي فأُبدي للناس حسن ظاهري وأمضي إليك بسوء عملي تقرّباً إلى عبادك وتباعداً من مرضاتك] لامعة العيون: من إضافة الصفة إلى الموصوف أي: العيون اللامة، وأفضي أصل، ومحافظاً حال، وتقرّباً وتباعداً مصدران سدّا مسدّ الحال، استعاذ باللّه أن يجتمع له حسن الظاهر في عيون الناس مع قبح باطنه عند اللّه بالرياء والسمعة.

وقال عليه السلام:

[لا والّذي أمسينا منه في غبر ليلة دهماء تكشّر عن يوم أعزّ ما كان كذا وكذا] غبر الليل: بقاياه، والدهماء: السواد، والتكشّر: التبسّم بحيث تبدو الأسنان، والأمر الواضح استعار التكشير لليلة باعتبار إسفارها عن ضوء يومها فهي كالضاحكة، وهذا يمين في غاية الفصاحة والبلاغة.

وقال عليه السلام:

[قليل تدوم عليه] من الأفعال **[أرجى]** لفلاحه وأكثر **[من كثير مملول]** منقطع وأقوى إعداداً في النفس كالزيارة القليلة للصديق مع الدوام بالنسبة إلى الكثرة مع الانقطاع والعطاء القليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

وقيل له عليه السلام: بأيّ شيء غلبت الأقران فقال: **[ما لقيت أحداً إلا أعانني على نفسه]** قال السيّد «ره»: يومي إلى تمكّن هيبته في القلوب.

يا بنيّ إنّي أخاف عليك الفقر فاستعذ باللّه منه، فإنّ الفقر منقصة للدّين ومدهشة للعقل داعية للمقت لسائل سأله عن معضلة سل تفقّهاً ولا تسأل تعنّتاً

أقول: لأنّ للوهم تأثيراً، ولذا إنّ الماشي على جذع معترض على مهواة فإنّ وهمه وتخيّله السقوط يقتضي سقوطه وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المهواة كمشيه عليه وهو ملقى على الأرض لا فرق بينهما إلا الوهم والحذر، فكذا من بادره تقصر نفسه عن مقاومته وتنخذل أعضائه وجوارحه عن مناهضته.

وقال عليه السلام لابنه محمّد [**يا بنيّ إنّي أخاف عليك الفقر فاستعذ باللّه منه، فإنّ الفقر منقصة للدّين ومدهشة للعقل داعية للمقت**] أمره بالاستعاذة من الفقر لأنّ فيه مكاره ذكر منها ثلاثة: منقصة الدّين، للاشتغال بهمّه عن العبادة وكونه محلّ دهشته العقل وحيرته وضيق الصدر به وداعياً إلى مقت الخلق لصاحبه وقد ورد ذمّ الفقر ومدحه باعتبار تفاوت معانيه، فنقول: الفقر إمّا أن يكون إلى اللّه فقط وهذا هو الذي افتخر به النبي صلى الله عليه وآله فقال: الفقر فخري، وإمّا أن يكون إلى الناس فقط، وهذا هو الذي قال فيه صلى الله عليه وآله: الفقر سواد الوجه في الدارين، لأنّ صاحبه ممقوت عند الحقّ وعند الخلق، وإمّا أن يكون إلى اللّه مرّة وإلى الناس مرّة أُخرى ولعلّه هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله: كاد الفقر أن يكون كفراً.

وقال عليه السلام:

[**لسائل سأله عن معضلة**] أي: مسألة مشكلة [**سل تفقّهاً**] أي: طلباً للفهم والفقه [**ولا تسأل تعنّتاً**] والتعنّت: طلب الأمر الشاق على من يطلبه منه، وهما مفعولان أو مصدران سدّا مسدّ الحال.

فإنّ الجاهل المتعلّم شبيه بالعالم وإنّ العالم المتعنّت شبيه بالجاهل لك أن تشير عليّ وأرى فإذا عصيتك فأطعني وروي أنّه عليه السلام لمّا ورد أتغلبكم نسائكم على ما أسمع ألا تنهوهنّ عن هذا الرنين فإنّ مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلّة للمؤمن وقد مرّ بقتلى الخوارج يوم النهروان بؤسى لكم

[**فإنّ الجاهل المتعلّم شبيه بالعالم**] لاشتراكهما في طلب العلم وقصده [**وإنّ العالم المتعنّت شبيه بالجاهل**] لوضع سؤال في غير موضعه وطلبه ما لا ينبغي كالجاهل بوضع الأسئلة ومواقعها.

وقال عليه السلام لعبدالله بن عباس وقد أشار عليه بشيء لم يوافق رأيه [**لك أن تشير عليّ وأرى**] رأيي فيما أشرت، فإن كان مصلحة أخذت به وإلا فلا، [**فإذا عصيتك**] في عدم قبول مشورتك [**فأطعني**] في ذلك ولا تلحّ علي بالقبول، فإنّ الإمام الرئيس أعرف بالتدابير ووجوه المصالح.

[**وروي أنّه عليه السلام لمّا ورد**] الكوفة قادماً من صفّين مرّ بالشاميين فسمع بكاء النساء على قتلى صفّين وخرج إليه حرب بن شرحبيل الشامي وكان من وجوه قومه فقال له عليه السلام: [**أتغلبكم نسائكم على ما أسمع**] من النوح والبكاء [**ألا تنهوهنّ عن هذا الرنين**] أي: الصوت، إذ الجزع مع كونه رذيلة يجبّن الرجال ويثبّطهم عن الحرب، فلذا نهى عليه السلام عن ذلك وأقبل حرب يمشي معه عليه السلام وهو راكب فقال له: ارجع [**فإنّ مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي**] لما يتداخله من العجب بنفسه والزهو.

[**ومذلّة للمؤمن**] لأنّ الماشي في ركاب الفارس ذليل في الناس.

وقال عليه السلام:

[**وقد مرّ بقتلى الخوارج يوم النهروان بؤسى لكم**] نصب على المصدر، يقال: بؤسى لزيد أي: شد ذو بؤساً له.

لقد ضرّكم من غرّكم الشيطان المضلّ والنفس الأمّارة بالسوء غرّتهم بالأماني وفسحت لهم في المعاصي ووعدتهم الاظهار على من غالبهم اتقوا معاصي اللّه في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم إنّ حزننا عليه على قدر سرورهم به، إلا أنّهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباص العمر الذي أعذر اللّه فيه لابن آدم ستون سنة

[لقد ضرّكم من غرّكم] فقيل له: من غرّهم يا أميرالمؤمنين؟ فقال: [**الشيطان المضلّ والنفس الأمّارة بالسوء غرّتهم بالأماني وفسحت لهم في المعاصي**] ترخيصاً لهم وتوسيعاً بتزيينها.

[**ووعدتهم الاظهار على من غالبهم**].

وقال عليه السلام:

[**اتقوا معاصي اللّه في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم**] فيستغني عمّن يشهد عنده وإذا كان الشاهد عليه هو حاكم وجب عليه أن يتّقيه.

وقال عليه السلام:

[لمّا بلغه قتل محمد بن أبي بكر «ره»]:

[**إنّ حزننا عليه على قدر سرورهم به، إلا أنّهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباص**] ما أنصحها وأبلغها وأظهرها وأسلسها غنية عن الإيضاح.

وقال عليه السلام:

[**العمر الذي أعذر اللّه فيه لابن آدم**] أي: أمهله إيّاه وسوّغ له أن يعتذر به [**ستون سنة**] لأنّ ما قبلها أيام الصبى والشبيبة والكهولة يمكن أن يعذر فيه لغلبة الشهوة وشره الحداثة وما بعد الستين تضعف القوى النفسانية والبدنية فلا عذر في الجهل.

وقال عليه السلام:

ما ظفر من ظفر الإثم به والغالب بالشرّ مغلوب إنّ اللّه سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما منع غنّي، واللّه تعالى سائلهم عن ذلك الاستغناء عن العذر أعزّ من الصدق به إنّ أقل ما يلزمكم للّه أن لا تستعينوا بنعمته على معاصيه إنّ اللّه سبحانه جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجرة

[**ما ظفر من ظفر الإثم به والغالب بالشرّ مغلوب**] لأنّ الظافر حقّاً من قهر خصمه على وجهالعدل فلمن لا يكون كذلك يلزم الظلم ويقهره عند اللّه الإثم فيكون مغلوباً بظلمه وهو في صورة غالب.

وقال عليه السلام:

[**إنّ اللّه سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما منع غنّي، واللّه تعالى سائلهم عن ذلك**] المراد بذلك الزكاة كما صرّحت به جملة من الأخبار، وكذا سائر الحقوق المفروضة.

وقال عليه السلام:

[**الاستغناء عن العذر أعزّ من الصدق به**] أي: ترك ما تحتاج فيه إلى العذر أنفع لك من أن تأتيه ويكون لك فيه عذر صادق، ويحتمل أن يكون المراد بقوله أعزّ أكثر عزّة لك إذ الإتيان بالعذر يحتاج إلى ذلّة ومهانة.

وقال عليه السلام:

[**إنّ أقل ما يلزمكم للّه أن لا تستعينوا بنعمته على معاصيه**] وذلك لأنّ العدل أن تستعينوا بنعمه على طاعته فإن لم تفعلوا ذلك فلا أقلّ من أن تستعمل في الأمور المباحة دون الاستعانة بها على معصيته، فإنّ ذلك مما يعدّ لسخطه.

وقال عليه السلام:

[**إنّ اللّه سبحانه جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجرة**]

السلطان وزعة الله في أرضه المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه أوسع شيء صدراً وأذلّ شيء نفساً يكره الوقعة ويشنأ السُّمعة طويلٌ غمّه بعيدٌ همُّه كثيرٌ صمته

الأكياس: العقلاء أُولوا الألباب، وإنّما كانت غنيمة لهم باعتبار استلزامها للنعيم المقيم في الآخرة وسبب الغنيمة غنيمة، والأكياس: هم الذين استعملوا فطنتهم وحركاتهم في تحصيل ما ينبغي من علم وعمل وخصّهم الله بهذه الغنيمة عند تفريط الفجرة وهم المقصّرون عمّا ينبغي لهم.

وقال عليه السلام:

[**السلطان وزعة الله في أرضه**] الوازع عن الشيء: الكافّ عنه والمانع، والجمع وَزَعَة، كقاتل وقتلة، أي: إنّ الله وضعه في أرضه ليمنع به ما يريد منعه، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أراد السلطان، وقيل: ما يزع الله عنه بالسلطان أكثر مما يزع عنه بالقرآن.

وقال عليه السلام في صفة [**المؤمن بشره في وجهه**] وهو من فضيلة التواضع ولين الجانب [**وحزنه في قلبه**] من خشية الله ونظره إلى ما عساده فرّط في جنب الله. [**أوسع شيء صدراً**] وهو مستلزم لفضيلة القوّة الغضبية واعتدالها [**وأذلّ شيء نفساً**] لتواضعه لله ونظر نفسه إلى محلّها ومقدارها من الحاجة إلى الله، و«صدراً ونفساً» مميّزان.

[**يكره الوقعة**] لأنّها مبدء الرذائل كالعجب والكبر وكذا قوله: [**ويشنأ السُّمعة**] أي: يبغضها احترازاً من تلك الرذائل [**طويلٌ غمّه**] لنظره دائماً إلى ما بين يديه من الموت وما بعده [**بعيدٌ همُّه**] لبعد همتها وعلوّها عن دنايا الدنيا [**كثيرٌ صمته**] لكمال عقله فهو لا ينطق إلا بما يحتاج إليه مما فيه

مشغولٌ وقته شكورٌ صبور مغمور بفكرته ضنين بخلّته سهل الخليقة لين العريكة نفسه أصلب من الصلد وهو أذلّ من العبيد الغنى الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس

حكمة وصلاح.

[**مشغولٌ وقته**] بعبادة ربّه [**شكورٌ**] أي: كثير الشكر للّه [**صبور**] على بلاء اللّه [**مغمور بفكرته**] في ملكوت السموات والأرض وفي آيات اللّه والاعتبار بها.

[**ضنين بخلّته**] لترصّده مواقع الخلّة وأهلها الذين هم إخوان الصدق في اللّه وهم قليلون فلا يضعها كيف اتفق ومع كلّ من طلب مودّته وخلّته، ويحتمل أن يريد أنّه إذا خال أحد ضنّ بخلّته أن يضيّعها أو يهمل خليله، وروي بفتح الخاء والخلة: الحاجة، أي: إذا عرضت له حاجة ضنّ بها أن يسأل أحداً فيها.

[**سهل الخليقة**] أي: لا جفاوة في طباعه ولا خشونة [**لين العريكة**] كناية عن سهولة تناول ما يراد منه وأصله الجلد من الأديم يكون ليناً عند العرك في الدباغ سهلاً على دابغه.

[**نفسه أصلب من الصلد**] بشجاعته وثباته في طاعة اللّه [**وهو أذلّ من العبيد**] لتواضعه ومعرفته بقدره عند قدرة بارئه والواو للحال.

وقال عليه السلام:

[**الغنى الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس**] ولذا قيل: ارغب فيما عند اللّه يحبّك اللّه، وازهد فيما عند الناس يحبّك الناس، وقال القائل:

قد أرحنا واسترحنا من غدوّ ورواح

واتصال بأمير أو وزير ذي سماح

المسؤول حرّ حتّى يعد معاشر الناس اتقوا اللّه فكم من مؤمّل ما لا يبلغه وبان ما لا يسكنه وجامع ما سوف يتركه، ولعلّه من باطل جمعه، ومن حقّ منعه أصابه حراماً واحتمل به آثاماً فباء بوزره وقدم على ربّه أسفاً لاهفاً قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين من العصمة تعذر المعاصي

بعفاف وكفـــاف وقـنـوع وصـلاح

وجعلنا اليأس مفتاحاً لأبواب النجاح

وقال عليه السلام:

[**المسؤول حرّ حتّى يعد**] وروي من وعد وعداً فكأنّما عهد عهداً، وقيل الوعد دين الكرام والمطل دين اللئام، وقيل: الوعد مرض المعروف والانجاز بر وقيل: الوعد سحاب والانجاز مطر.

وقال عليه السلام:

[**معاشر الناس اتقوا اللّه فكم من مؤمّل ما لا يبلغه وبان ما لا يسكنه وجامع ما سوف يتركه، ولعلّه من باطل جمعه، ومن حقّ منعه أصابه حراماً واحتمل به آثاماً فباء بوزره وقدم على ربّه أسفاً لاهفاً قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين**] مبلوة أي: مختبرة، ودخل فلان فهو مدخول ومدخل أي: في عقله دخل وعلّة، وتنكاه أي: تؤثّر فيه ويستحيله بغيره، وباء: رجع، واللاهف: المتحسّر.

وقال عليه السلام:

[**من العصمة تعذر المعاصي**] ونحوه ما روي من العصمة أن لا تقدر ومن العصمة أو لا تجد، والمراد انّ غير القادر في اندفاع العقوبة عنه كالقادر الذي لا يفعل.

ماء وجهك جامد يقطره السؤال فانظر عند من تقطره الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عيّ أو حسد أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره

وقال عليه السلام:

[**ماء وجهك جامد يقطره السؤال فانظر عند من تقطره**] ولذا قيل:

ما ماء كفّـــك إن أرسلت مزنته من ماء وجهي إذا استقطرته عوض

استعار لفظ ماء الوجه للحياء ونوره على الوجه الذي يذهب من وجه السائل بسؤال، ورشح بذكر الجمود والتقطير، أو كنى به عمّا يعرض من العرق عند خجل السائل بسؤال واستحيائه، والغرض وضع السؤال موضعه من أهل المروءة والبيوتات. وروي: وجهك ماء جامد، فيكون استعارة للماء في الوجه باعتبار بذله، فكأنّه ذاب وقطر كالماء الجامد.

وقال عليه السلام:

[**الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عيّ أو حسد**] الملق: هو التلطّف الشديد بالقول والإفراط في المدح ـــــ عن طرفي الإفراط والتفريط في الثناء، فالإفراط بما يلزمه من رذيلة الملق والتفريط بما يلزمه من العيّ عن المدح أو الحسد بالفضيلة الممدوح عليها.

وقال عليه السلام:

[**أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه**] لأنّ استهانته يستلزم انهماكه فيه واستكثاره منه وعدم إقلاعه عنه حتّى يصير ملكة بخلاف ما يستصعبه من الذنوب.

وقال عليه السلام:

[**من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره**] إذ عيب الغير إنّما

ومن رضي برزق اللّه لم يحزن على ما فاته ومن سلّ سيف البغي قُتل به ومن كابد الأمور عطب ومن اقتحم اللُّجج غرق ومن دخل مداخل السوء اتُّهم ومن كثر كلامه كثر خطأه ومن كثر خطأه قلّ حياؤه

يكون غالباً في موضع الافتخار عليه بالبراءة من ذلك العيب، فإذا نظر إلى مثله من نفسه شغله هذا عن ذلك.

[**ومن رضي برزق اللّه لم يحزن على ما فاته**] لأنّ الحزن على ما فات يستلزم عدم القناعة والرضى بالحاصل من الرزق، فعدم ذلك اللازم مستلزم لعدم ملزومه وهو الحزن به على الفائت.

[**ومن سلّ سيف البغي قُتل به**] كنّى به عن الظلم وهو سبب لهلاك الظالم، كما مرّ.

[**ومن كابد الأمور**] أي: قاساها بنفسه [**عطب**] أي: هلك، أي: استعدّ بها للهلاك.

[**ومن اقتحم اللُّجج غرق**] استعار اللُّجج للأمور العظام كالحروب وتدبير الدول، والغرق للهلاك.

[**ومن دخل مداخل السوء اتُّهم**] لأنّها مظنّة التهمة ودخولها من الأمورات الموجبة للظنّ كمعاشرة الفسّاق ونحوه.

[**ومن كثر كلامه كثر خطأه**] لأنّ كمال العقل مستلزم لقلّة الكلام فكثرة الكلام مستلزم لنقصان العقل.

[**ومن كثر خطأه قلّ حياؤه**] لأنّ الحياء هو أن يحسن الإنسان الارتداع عن الأمور التي يقبح تعاطيها والإقدام عليها لملاحظة ما ينتج من ارتكابها من قبح الاحدوثة والإقدام على الخطأ بكثرة الكلام ينافي الارتداع عن تلك الأمور وهو من جملتها.

ومن قلّ ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار ومن نظر في عيوب غيره فأنكرها ثمّ رضيها لنفسه فذاك الأحمق بنفسه والقناعة مال لا ينفد ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن علم أنّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية

[**ومن قلّ ورعه مات قلبه**] لما كانت الفضيلة هي حياة القلب استعار لعدمها أو قلّتها لفظ الموت باعتبار عدم انتفاعه بها، كخروج الميت عن الانتفاع بالحياة.

[**ومن مات قلبه دخل النار**] ولأنّ المزحزح له عنها إلى الجنّة هو استكماله بالفضيلة، فإذا فقدها فالنار موعده.

[**ومن نظر في عيوب غيره فأنكرها ثمّ رضيها لنفسه فذاك الأحمق بنفسه**] لأنّ إنكاره لها من غيره يستلزم كون الرأي الحقّ أن لا يفعلها، ورضاه بها لنفسه مخالفة للرأي الحقّ له، وخروج عن المصلحة، وذلك حمق ونقصان ظاهر في العقل، والألف واللام في الحمق يفيد حصره في المشار إليه ولذلك أكّده بعينه.

[**والقناعة مال لا ينفد**] كما مرّ.

[**ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير**] لأنّ الغرض من طلب الكثير منها الاستمتاع والالتذاذ به، وذكر الموت كاسر لذلك الالتذاذ ومبغض له.

[**ومن علم أنّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه**] لأنّ الإنسان مؤاخذٌ على ما لا يعني من عمله.

وقال عليه السلام:

[**للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية**] وذلك

ومن دونه بالغلبة ويظاهر القوم الظلمة عند تناهي الشدّة تكون الفرجة وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء لبعض أصحابه: لا تجعلنّ أكثر شغلك بأهلك وولدك فإن يكن أهلك وولدك أولياء اللّه فإنّ اللّه لا يضيع أوليائه وإن يكونوا أعداء اللّه فما همّك وشغلك بأعداء اللّه

عصيان اللّه وتعدّي لحدوده العادلة [و] يظلم **[من دونه بالغلبة ويظاهر القوم الظلمة]** والثانية مستلزمة للأُولى، والثالثة مستلزمة للاولتين، إذ من وجبت عليه طاعة من فوقه فهو بعصيانه ظالم له، وكذا من قهر من دونه وغلبه، والثالث واضح.

وقال عليه السلام:

[عند تناهي الشدّة تكون الفرجة] أي: الفرج المستلزم للخلاص منها **[وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء]** استعار لفظ الحلق للأُمور الشديدة المحيطة بالإنسان لا يجد عنها محيصاً ملاحظةً لشبهها في البن والحزام.

وقال عليه السلام:

[لبعض أصحابه: لا تجعلنّ أكثر شغلك بأهلك وولدك] بحيث يصرفك ذلك عن طاعة اللّه، كما قال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر اللّه ومن يفعل ذلك فأُولئك هم الخاسرون﴾.

[فإن يكن أهلك وولدك أولياء اللّه فإنّ اللّه لا يضيع أوليائه] كما قال تعالى: ﴿ألا إنّ أولياء اللّه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾.

[وإن يكونوا أعداء اللّه فما همّك وشغلك بأعداء اللّه] استفهام على سبيل التوبيخ والتقريع.

أكثر العيب أن تعيب ما فيك مثله لا تقل ذلك، ولكن قل شكرت الواهب وبورك في الموهوب وبلغ أشدّه ورزقت برّه رجلٌ من عمّاله بناءً فخماً فقال عليه السلام: أطلعت الورق ردئها إنّ البناء ليصف لك الغنى قال من حيث يأتيه أجله

وقال عليه السلام:

[**أكثر العيب أن تعيب ما فيك مثله**] ولذا قيل:

إذا أنت عبت الأمر ثمّ أتيته فأنت ومن تزري عليه سواء

وهنّأ بحضرته رجلٌ رجلاً بغلام وُلد له، فقال: ليهنك الفارس، فقال عليه السلام: [**لا تقل ذلك، ولكن قل شكرت الواهب وبورك في الموهوب وبلغ أشدّه ورزقت برّه**] ذكر عليه السلام أربع فوائد أحدها تذكير الوالد بشكر اللّه والغاية إليه، والثانية استنزال البركة بالدعاء فيما وهب له، الثالثة الدعاء للموهوب بالبقاء وبلوغ الأشد وهو كمال القوة لغاية الانتفاع به، الرابعة بثمرة الانتفاع به وهي أن يرزقه برّه ونفعه، والكلمة التي نهى عنها من شعار الجاهلية.

وبنا [**رجلٌ من عمّاله بناءً فخماً**] أي: عظيماً [**فقال عليه السلام: أطلعت الورق ردئها**] كناية عن ظهور أثرها في البناء ملاحظةً لشبهها بالحيوان في ظهوره.

[**إنّ البناء ليصف لك الغنى**] استعار الوصف ونسبه إلى البناء باعتبار أنّه ينبئ عن الغنى كما ينبئ الوصف عن موصوفه.

وقيل له عليه السلام لو سدّ على رجل باب بيت وترك فيه من أين كان يأتيه الرزق؟ [**قال من حيث يأتيه أجله**] قاس الرزق على الأجل لاشتراكهما في مبدء واحد وهو قدرة الصانع وقيل: المعنى انّ اللّه تعالى إذا علم فيمن يجعل في دار وسدّ عليه بابها أنّ في بقاء حياته لطفاً لبعض المتكلّفين فإنّه يجب على

إنّ هذا الأمــر ليس بكم بدا، ولا إليكم انتــهى، وقـد كـان صاحبكم هذا يسافر، فعدوه في بعض سفراته فإن قدم عليكم وإلا قدمتم عليه أيّها الناس ليركُمْ اللّه من النعمة وجلين كما يراكم من النقمة فرقين إنّه من وسّع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوّفاً، ومن ضيّق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيّع مأمولاً يا أسرى الرغبة اقصروا فإنّ المعرج على الدنيا لا يروعه منها إلا صريف نياب الحدثان

اللّه أن يديم حياته كما يشاء سبحانه، إمّا بغذاء يقيم به مادة حياته أو يديم حياته بغير سبب.

وعزى عليه السلام قوماً عن ميت مات لهم فقال: [**إنّ هذا الأمر ليس بكم بدا، ولا إليكم انتهى، وقد كان صاحبكم هذا يسافر، فعدوه في بعض سفراته فإن قدم عليكم وإلا قدمتم عليه**] غدوة أي: افرضوا أنّه كذلك.

وقال عليه السلام:

[**أيّها الناس ليركُمْ اللّه من النعمة وجلين**] أي: خائفين [**كما يراكم من النقمة فرقين**] أي: خائفين [**إنّه من وسّع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوّفاً، ومن ضيّق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيّع مأمولاً**] لأنّ النعمة بلاء يجب مقابلته بالشكر، كما أنّ النقمة بلاء يجب مقابلته بالصبر، والغرض الحثّ على فضيلتي الشكر والصبر والتحذير من الركون إلى النعمة والغفلة فيها عن اللّه.

وقال عليه السلام:

[**يا أسرى الرغبة اقصروا فإنّ المعرج على الدنيا لا يروعه منها إلا صريف نياب الحدثان**] استعار الأسرى لمن ملكته رغبة في الدنيا وحبّهم

أيّها الناس تولّوا عن أنفسكم تأديبها واعدلوا عن ضراية عاداتها لا تظننّ بكلمة خرجت من أحد سوءً وأنت تجد لها في الخير محملاً إذا كانت لك إلى اللّه سبحانه حاجة فابدء بمسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ اسئل حاجتك فإنّ اللّه أكرم من أن يُسئَل حاجتين فيقطي أحدهما ويمنع الأُخرى من ضنّ بعرضه فليدع المراء

لها، والأنياب جمع ناب، والصريف: سوط الأسنان عند رعده أو عند شدّة الغضب، استعار الصريف والأنياب ملاحظةً لشبه الموت عند قدومه بالبعير الهائج.

[أيّها الناس تولّوا عن أنفسكم تأديبها واعدلوا عن ضراية عاداتها] ضرى يضري ضراية كرمى يرمي رماية، أي: جرى وسال، أمرهم أن يتولّوا من أنفسهم تأديبها ورياضتها والوقوف فيها على حدّ العدل من الحركات والأفعال وأن يعدلوا بها عن جرئتها وإقدامها على الانهماك في المشتهيات.

وقال عليه السلام:

[لا تظننّ بكلمة خرجت من أحد سوءً وأنت تجد لها في الخير محملاً] أي: مادمت تجد لكلامه محملاً وتأويلاً فلا تظنّن به سوءً فإنّ النفوس السليمة أقرب إلى اللّه من غيرها، والواو للحال.

وقال عليه السلام:

[إذا كانت لك إلى اللّه سبحانه حاجة فابدء بمسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ اسئل حاجتك فإنّ اللّه أكرم من أن يُسئَل حاجتين فيقطي أحدهما ويمنع الأُخرى] وفي رواية أُخرى: ابدء بالصلاة واختم بها ووسّط سؤال الحاجة بينهما فإنّ اللّه أكرم من أن يقبل الطرفين ويردّ الوسط.

وقال عليه السلام:

[من ضنّ بعرضه] أي: بخل به **[فليدع المراء]** لأنّه يثير القوّة الغضبية

من الخرق المعاجلة قبل الإمكان، والإنابة بعد الفرصة الخرق: الحمق ومعاجلة طلب الحاجة والإسراع إليها قبل وقت إمكانها إفراط في طلبها والأناة فيها إذا أمكنت تفريط فيه وهما مذمومان وصاحبهما واضع للطلب في غير موضعه وهو حمق ظاهر ونقصان في عقل وجوه التدبير والحق العدل وضع المطلب في وقت الإمكان والفرصة. لا تسأل عمّال يكن ففي الذي قد كان لك شغل الفكر مرآة صافية وكفى أدباً لنفسك تجنّبك ما كرهته لغيرك

بين المتمارين ومبدء الشتم والسبّ بينهما.

وقال عليه السلام:

[من الخرق المعاجلة قبل الإمكان، والإنابة بعد الفرصة] الخرق: **الحمق ومعاجلة طلب الحاجة والإسراع إليها قبل وقت إمكانها إفراط في طلبها والأناة فيها إذا أمكنت تفريط فيه وهما مذمومان وصاحبهما واضع للطلب في غير موضعه وهو حمق ظاهر ونقصان في عقل وجوه التدبير والحق العدل وضع المطلب في وقت الإمكان والفرصة. لا تسأل عمّال يكن ففي الذي قد كان لك شغل]** أمر بالسؤال عمّا لا يكون من زيادة رزق ونحوه من المطالب الدنيوية بما قد كان ووقع من المطالب التي أُعطيها الإنسان ورغب فيما أمر به من السلو ففي ذلك شغل لك عمّا تتوقع من غيره، وأراد الشغل بضبط ما في يده من النعمة وما ينبغي من الاشتغال بشكرها واستعمالها في طاعة الله.

وقال عليه السلام:

[الفكر مرآة صافية] استعار له المرآة باعتبار أنّه يرى به المعقولات كما ترى الأشباح في المرأة.

[وكفى أدباً لنفسك تجنّبك ما كرهته لغيرك] أشار إلى أنّ تجنّب المرء

العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل أيّها الناس إنّ متاع الدنيا حطام موبي فتجنّبوا مرعاه قلقها أحظى من طمأنينتها وبلغتها

لما يكرهه لغيره من الرذائل المهلكة أدب كاف له ونفر عنه بكونه مكروهاً للغير ورغّب في تجنّبه بكونه أدباً كافياً للنفس.

وقال عليه السلام:

[العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل] أي: من علم ما ينبغي لزمه في الحكمة أن يعمل بمقتضى علمه وكان ذلك داعياً له إلى العمل مستلزماً لوجوده منه ويحتمل أن يكون «عمل» خبراً في معنى الأمر، أي: فمن علم فليعمل، والهتف للنداء، واستعار الارتحال لزوال العلم باعتبار عدم استعداد تلك النفس وصلاحيتها كالراحل عن وطن ما يصلح لاستيطانه، ولعلّ المراد أنّه إذا ترك العمل للّه ولابدّ أن يشتغل بغيره عن ذكره وتنقطع ملاحظة له حتّى يكون ذلك سبباً لنسيانه والغفلة عنه، وقيل: أراد بالارتحال عدم المنفعة مجازاً.

وقال عليه السلام:

[أيّها الناس إنّ متاع الدنيا حطام موبي] أي: مهلك **[فتجنّبوا مرعاه]** استعار الحطام وهو ما يكسر من الحشيش واليبس لمتاعها باعتبار حقارته وسرعة زواله كما قال تعالى: ﴿إنّما الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ وموبي: محدثٌ للوباء، وهو المرض العام، ومرعاه: رعيه. **[قلقها]** الضمير للدنيا **[أحظى من طمأنينتها]** أي: كون الإنسان فيها منزعجاً متهيّئاً للرحيل عنها من يكون ساكناً مطمئناً بالمقام فيها. **[وبلغتها]** أي: ما يتبلغ به من

أزكى من ثروتها حكم على مكثريها بالفاقة وأغنى من غني عنها بالراحة من راقه زبرجها أعقبت ناظريه كمهتها ومن استشعر الشغف بها ملأت ضميره أشجاناً لهنّ رقص على سويداء قلبه

العيش فيها [**أزكى من ثروتها**] أي: يسارها وغناها لما يستلزمانه من الشقاء الاخروي، فالاقتصار على القدر الضروري منها أسلم.

[**حكم على مكثريها بالفاقة**] لأنّ كلّ زيادة منها موجبة للحاجة إلى أُخرى فلذا كان أكثر الناس حاجةً فيها الملوك ثمّ من دونهم على اختلاف درجاتهم فيها، وأمّا في الآخرة فلفقر المكثر فيها المشتغل بها عن ملكات الخير والفضائل.

[**وأغنى من غني عنها بالراحة**] أي: من غنى عنها بزهده فيها أُعين من اللّه بالراحة منها.

[**من راقه زبرجها أعقبت ناظريه كمهتها**] أي: من أعجبته زينتها فأنصت إليها عمي عمّا فيها من العبر وعمّا ورائها من أحوال الآخرة، واستعار الكمه للمعقول من عمى البصيرة عن الاعتبار؛ لأنّ ذلك أشدّ من العمى، كما قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

[**ومن استشعر الشغف بها ملأت ضميره أشجاناً**] أي: من اتّخذ محبّتها شعاراً ملأت قلبه هموماً وغموماً وأحزاناً على ما لم يحصل بطلبه وعلى ما فات منها بالأسف عليه.

[**لهنّ رقص**] أي: اضطراب وحركة [**على سويداء قلبه**] استعار الرقص لتعاقب تلك الأحزان والهموم واضطرابها في قلبه إلى غاية الأخذ بكظمه والكظم بفتح الظاء: مجرى النفس، وكنّى به عن الموت فقال:

همٌّ يشغله وغمٌّ يحزنه كذلك حتّى يؤخذ بكظمه فيلقى بالقضاء منقطعاً أبهراه هيناً على اللّه فنائه وعلى الإخوان إلقائه وإنّما ينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار ويقتات منها ببطن الاضطرار ويسمع فيها بأذن المقت من الأبغاض إن قيل أثرى قيل أكدى وإن فرح له بالبقاء حزن له بالفناء هذاو لم يأتهم يوم هم فيه مبلسون إنّ اللّه سبحانه وضع الثواب على طاعته والعقاب على معصيته

[**همٌّ يشغله وغمٌّ يحزنه كذلك حتّى يؤخذ بكظمه فيلقى بالقضاء منقطعاً أبهراه هيناً على اللّه فنائه وعلى الإخوان إلقائه**] في قبره وحفرته، إلقائه بالفضاء كناية عن دفنه، ومنقطعاً وهيّناً حالان، الأبهران: عرقان متعلّقان بالقلب، ويقال للميت: قد قُطع أبهراه.

[**وإنّما ينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار**] ليحصل منها عبرة وذلك هوالذي خُلق لأجله [**ويقتات منها ببطن الاضطرار**] أي: لا يتناول منها إلا بلغته ومقدار ضرورته.

[**ويسمع فيها بأُذن المقت من الأبغاض**] كنّى به عن بغضه لها فهو لا يسمع ما تمدح به بل معايبها [**إن قيل أثرى**] أي: كثر ماله [**قيل أكدى**] أي: قلّ خيره أي: إنّ الإنسان فيها منغّص اللّذة مكدّر العيشة بينا هو ــــــ لحقّه الاكداء والفقر.

[**وإن فرح له بالبقاء حزن له بالفناء**] وإن فرح ببقاء حبيب لحقه الحزن عليه [**هذا**] البلاء [**و**] الحال انّه [**لم يأتهم يوم هم فيه مبلسون**] والإبلاس: اليأس من الرحمة.

وقال عليه السلام:

[**إنّ اللّه سبحانه وضع الثواب على طاعته والعقاب على معصيته**

ذيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم إلى جنته يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلا اسمه ومن الإسلام إلا اسمه مساجدهم يومئذ عامرة من البناء خراب من الهدى سكّانها وعمّارها شرّ أهل الأرض منهم تخرج الفتنة وإليهم تهوى الخطيئة يردون من شذّ عنها فيها ويسوقون من تأخّر عنها إليها، يقول اللّه سبحانه فبي حلفت لأبعثنّ على أُولئك فتنة أترك الحليم فيها حيران وقد فعل ونحن نستقيل اللّه إقالة عثرة الغفلة .

ذيادة] والذودة: الدفع والمنع. [**لعباده عن نقمته وحياشة**] أي: صرفاً [**لهم إلى جنته**] من حشت العيد بضم الحاء أحوشه إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحبالة.

وقال عليه السلام:

[**يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلا اسمه**] أي: أثره وهو تلاوته [**ومن الإسلام إلا اسمه**] أي: اسم الإسلام دون عمله وشعائره [**مساجدهم يومئذ عامرة من البناء خراب من الهدى سكّانها وعمّارها شرّ أهل الأرض**] لعلّه أراد قرّاء السوء وأئمة الضلال [**منهم تخرج الفتنة**] في الدّين [**وإليهم تهوى الخطيئة**] أي: ترجع خطايا الخلق إذ بهم يقتدون وعنهم يأخذون ومن كان كذلك فقد استعدّ للفتنة التي يحار فيها الحليم، ولذا قال: [**يردون من شذّ عنها فيها**] أي: من خرج منها إليها [**ويسوقون من تأخّر عنها**] أي: من لم يدخل فيها [**إليها، يقول اللّه سبحانه فبي حلفت لأبعثنّ على أُولئك فتنة أترك الحليم**] أي: العاقل اللبيب وفي رواية الحكيم [**فيها حيران**] لا يعلم كيف وجه خلاصه.

ثمّ قال عليه السلام: [**وقد فعل ونحن نستقيل اللّه**] أي: نطلب منه [**إقالة عثرة الغفلة**] اللّهمّ أقلنا منها وسائر إخواننا المؤمنين.

أيّها الناس اتقوا اللّه فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو ولا تُرك سُدى فيلغو وما دنياه التي تحسّنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما المغرور الذي ظفر من الديا بأعلا همّته كالآخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى نهمته لا شرف أعلا من الإسلام ولا معقل أحسن من الورع ولا شفيع أنجح من التوبة ولا كنز أغنى من القناعة

وروي أنّه قلّ ما اعتدل به المنبر إلا قال أمام خطبته [**أيّها الناس اتقوا اللّه فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو ولا تُرك سُدى فيلغو**] قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون﴾ وقال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سُدى﴾ أي: مهملاً.

[**وما دنياه التي تحسّنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما المغرور الذي ظفر من الديا بأعلا همّته كالآخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى نهمته**] أي: نصيبه، لشرف متاع الآخرة.

وقال عليه السلام:

[**لا شرف أعلا من الإسلام**] لاستلزامه شرف الدنيا والآخرة.

ولا عزّ أعزّ من التقوى] لأنّها تستلزم جميع مكارم الأخلاق [**ولا معقل أحسن من الورع**] استعار له المعقل باعتبار تحصّن الإنسان به من عذاب اللّه، ولمّا كان عبارة عن الأمور الجميلة فلا معقل أحسن منه.

[**ولا شفيع أنجح من التوبة**] لاستلزامها العفو عن جريمة التائب قطعاً دون سائر الشفعاء بشفاعتهم ولفظ الشفيع مستعار لها.

[**ولا كنز أغنى من القناعة**] لاستلزامها سكون النفس والرضا بما قسم له وغنائه عمّا ورائه ولا شيء من الكنوز لأبناء الدنيا كذلك.

ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة وتبوّء خفض الدعة والرغبة مفتاح النصب ومطية التعب والحرص والكبر والحسد دواع إلى التقحّم في الذنوب والشرّ جامع لمساوي العيوب يا جابر قوام الدين والدنيا بأربعة، عالم يستعمل علمه، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع

[**ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت**] وهو قريب مما قبله.

[**ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة**] أي: في سلك الراحلة من الهمّ بطلب الدنيا ومجاذبة أهلها.

[**وتبوّء خفض الدعة**] أي: اتّخذ لين السكون مبائة ومرجعاً.

[**والرغبة مفتاح النصب ومطية التعب**] استعار للرغبة في الدنيا لفظ المفتاح باعتبار فتحه لباب التعب على الراغب وكذا لفظ المطية باعتبار استلزامها كالمطية المتعب ركوبها.

[**والحرص والكبر والحسد دواع إلى التقحّم**] وهو الدخول بسرعة [**في الذنوب**] فالحرص على الدنيا داع إلى الظلم والكذب والفجور والجبن والبخل ونحوها من الرذائل والكبر داع إلى قلّة الإنصاف وعدم التواضع والعجب والتهوّر وعدم الاحتمال ونحوها، والحسد داع إلى الظلم والكذب والفساد في الأرض وغيرها من الآثام.

[**والشرّ جامع لمساوي العيوب**] لأنّه كلّي كالجنس لمساوي العيوب ونصاحتها إذ كلّ منها يصدق عليه أنّه شرّ مخصوص.

وقال عليه السلام لجابر بن عبدالله الأنصاري: [**يا جابر قوام الدين والدنيا بأربعة، عالم يستعمل علمه، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع**

آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه يا جابر من كثرت نِعَم اللّه عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام بما يحبّ اللّه تعالى فيها

آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه] قيل الدنيا إنّماتقوم بالمال ثمّ بالعلم لوضعه في مواضعه ومعرفة وجوه اكتسابه التي ينبغي أو لا ينبغي من حلال أو حرام، وهو علم الفقه وأُصوله، وتفسير كتاب اللّه وسنّة رسوله الذي منهما تُعلم الأحكام، ثمّ ما يلزم ذلك من علم العربية ونحوه، ولمّا كان العلم لابدّ له من حامل والمال لابدّ له من قان وجب أن يكون من شرط الأول أن يعمل بعلمه ومن شرط الثاني أن يستعمل ماله في مصارفه التي ينبغي وإلا لم يكن لهما فائدة ولا قامت بهما أحوال الخلق التي هي الدنيا، ولمّا كان الموت ضرورياً للعلماء وغيرهم ووجبت بمقتضى النظام أن يدوم العلم في قرن من الناس بعد قرن وجب أن يكون هناك جهّال لا يستنكفون عن التعلّم، ولمّا كانت حاجة البعض إلى البعض في قوام الدنيا ضرورية ولم يجز أن يستغني عن كلٍّ لأسباب معلومة وجب أن يكون هناك من لا مال له ليحصل الانتفاع فيما هو بصدده فإذن قوام الدنيا لا يحصل بدون الأربعة وإنّما شرط في الفقير أن لا يبيع آخرته بدنياه لأنّ بايع آخرته بدنياه ظالم خارج عن العدل فلا تقوم به الدنيا ولا يصلح لعمارتها ثمّ أشار إلى ما يلزم ضدّه ذلك من الفساد بقوله فإذا ضيّع لأنّ تضييع العلم يستلزم عدم الانتفاع به وكذا بخل الغني بمعروفه مستلزم لعدم المنفعة بالمال.

ثمّ قال: **[يا جابر من كثرت نِعَم اللّه عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام بما يحبّ اللّه تعالى فيها]** من قضاء حوائج الخلق وإنجاز

فقد عرض نعمته لدوامها، و ضيّع ما يحبّ للّه فيها فقد عرّض نعمته لزوالها أيّها المؤمنون إنّه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد برئ ومن أنكره بلسانه فقد أُجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسيف لتكونَ كلمة اللّه هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى

مطالبهم شكراً لتلك النعمة [**فقد عرض نعمته لدوامها، و**] من [**ضيّع ما يحبّ للّه فيها**] من عدم الاعتناء بالخلق [**فقد عرّض نعمته لزوالها**] بكفرانه تلك النعمة.

وروى ابن جرير الطبري في تاريخه عن عبدالرحمن بن أبي ليلى الفقيه وكان ممن خرج لقتال الحجاج مع ابن الأشعث أنّه قال فيما كان يحضّ به الناس على الجهاد: إنّي سمعت عليّاً عليه السلام رفع اللّه درجته في الصالحين وأثابه ثواب الشهداء والصدّيقين يقول يوم لقينا أهل الشام:

[**أيّها المؤمنون إنّه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد برئ**] وسَلِم، أي: من عذاب اللّه، وإنّما خصّ المنكر بقلبه بذلك لأنّه لم يحمل إثماً وإنّما لم يرتّب عليه أجراً مع أنّ كلّ واجب يثاب عليه لأنّ غاية إنكار المنكر دفعه والإنكار بالقلب ليس له في الظاهر تأثير في دفعه فكأنّه لم يفعل ما يستحقّ به أجراً.

[**ومن أنكره بلسانه**] مضافاً إلى قلبه [**فقد أُجر وهو أفضل من صاحبه**] السابق لترتّب الغاية.

[**ومن أنكره بالسيف لتكونَ كلمة اللّه هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى**] وأشار إلى وجه الإخلاص بأن لا يكون مقصوده الرياء والسمعة والغلبة الدنيوية.

فذاك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق الصواب ونوّر في قلبه اليقين فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه، فذلك المستكمل لخصال الخير ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده وذلك متمسّك بخصلتين من خصال الخير ومضيّع خصلة، ومنهم المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه فذلك الذي ضيّع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسّك بواحدة

[**فذاك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق الصواب ونوّر في قلبه اليقين**] استعار التنوير لوضوح الحقّ في قلبه وجلائه من شبه الباطل.

وقال عليه السلام في كلام غير هذا يجري هذا المجرى: [**فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه، فذلك المستكمل لخصال الخير**] لأنّ الأمر بالمعروف مستلزم للنهي عن المنكر، وبالعكس، واستجماعهما لخاصل الخير ظاهر؛ لأنّ كلّ خصلة منه معروف فالأمر بالمعروف مطلقاً أمر بها وترك كلّ واحدة من خصال الخير منكر فإنكاره يستلزم الأمر بها، ولمّا كانت هذه الأنواع الثلاثة من إنكار المنكر فضائل تحت فضيلة العدل وجب عدادها من خصال الخير ولما كانت مستلزمة لسائر الفضائل وجب أن يكون المنكر للمنكر مطلقاً مستكملاً لجميع خصال الخير وأن يكون التارك له بيده لخصلة ومتمسكاً بخصلتين والتارك بيده ولسانه مضيّعاً لأشرف الخصلتين من الثلاث.

كما قال: [**ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده وذلك متمسّك بخصلتين من خصال الخير ومضيّع خصلة، ومنهم المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه فذلك الذي ضيّع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسّك بواحدة**] وإنّما كانتا أشرف لكونهما يستلزمان دفع المنكر أو بعضه غالباً

ومنهم تاركٌ لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميّت الأحياء وما أعمال البرّ كلّها والجهاد في سبيل اللّه عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثه في بحر لجّي وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل ولا ينقّصان من رزق وأفضل ذلك كلمة عدل عند إمام جائر إنّ أوّل ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم ثمّ بألسنتكم ثمّ بقلوبكم

بخلاف الثالثة.

[**ومنهم تاركٌ لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميّت الأحياء**] لخلوّه من جميع الفضائل ولفظ الميّت استعارة.

[**وما أعمال البرّ كلّها والجهاد في سبيل اللّه عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثه في بحر لجّي**] والنفثة: الفعلة الواحدة من نفث الماء في فمي أي: قذفه بقوّة، وبحر لجي وماء عظيم ووجه الشبه أنّ كلّ خصلة من أعمال جزئي بالنسبة إليهما كالنفثة بالنسبة إلى البحر.

[**وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل ولا ينقّصان من رزق**] فلا ينبغي أن يتركا ثمّ أشار إلى افضل أصنافهما بقوله:

[**وأفضل ذلك كلمة عدل عند إمام جائر**] لغرض ردّه عن جوره.

وروى أبو حنيفة قال: سمعت أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: [**إنّ أوّل ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم**] وإنّما هذا أوّلاً لانّ الغرض الأوّل للعدو إزالة سلطان اليد ومقاومته فإذا تمكّن من ذلك كان سلطان اللّسان سهلاً.

[**ثمّ بألسنتكم ثمّ بقلوبكم**] فإن قيل: إنّ القلب لا يطّلع عليه العدو

فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قلب فجعل أعلاه أسفله إنّ الحقّ ثقيل مري وإنّ الباطل خفيف وَبِيٌّ لا تأمن على خير هذه الأمّة عذاب اللّه لقوله سبحانه ﴿فلا يأمن مكر اللّه إلا القوم الخاسرون﴾ ولا ييأس شرّ هذه الأمة من روح اللّه لقوله

ولا يتمكّن من إزالة الجهاد به قيل: المراد أنّهم إذا غلبوا على الجهاد باليد واللسان وطالت المدّة عليهم ألفوا المنكر وتكرّر على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم فلم تبق لها إنكاره وهو معنى غلبهم عليه.

[**فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قلب فجعل أعلاه أسفله**] استعار لفظ القلب للانتكاس في مهاوي الرذائل ودركات الجحيم وإنّما خصّ إنكار القلب بذلك لإمكانه في كلّ وقت وخلوّه عن المضار المخوّفة التي تخشى في الانكار باليد واللّسان.

وقال عليه السلام:

[**إنّ الحقّ ثقيل مري وإنّ الباطل خفيف وَبِيٌّ**] استعار للحقّ وصفي الثقل والمري باعتبار صعوبته على من يكون عليه فيؤخذ منه، والباطل وصف الخفّة باعتبار سهولته على أهله ولفظ الوبي باعتبار استلزامه إهلاكهم في الآخرة، يقال: وبي البلد بالكسر يوبا وباءةً فهو وبي على فعيل، ومرء الطعام بالضمّ يمرئ مراءةً فهو مري على فعيل كخفيف، وحاصل كلامه عليه السلام إنّ الحق وإن كان ثقيلاً إنّ أنّ عاقبته محمودة والباطل وإن كان خفيفاً إلا أنّه مذموم العاقبة.

وقال عليه السلام:

[**لا تأمن على خير هذه الأُمّة عذاب اللّه لقوله سبحانه ﴿فلا يأمن مكر اللّه إلا القوم الخاسرون﴾ ولا ييأس شرّ هذه الأمة من روح اللّه لقوله**

سبحانه ﴿إنّه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون﴾ البخل جامع لمساوي العيوب وهو زمام يقاد به إلى كلّ سوء يابن آدم الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على همّ يومك فتجتمع عليك أحزان متضاعفة كفاك كلّ يوم ما فيه فإن تكن السنة من عمرك فإنّ اللّه سيؤتيك في كلّ يوم جديد بما قسم لك

ولا يتمكّن من إزالة الجهاد به قيل: المراد أنّهم إذا غلبوا على الجهاد باليد **سبحانه ﴿إنّه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون﴾]** أي: لا ينبغي القطع على أحد بأحد الأمرين لأنّ المدار على العاقبة.

وقال عليه السلام:

[البخل جامع لمساوي العيوب وهو زمام يقاد به إلى كلّ سوء] البخل رذيلة التفريط من فضيلة السخاء وهو مستلزم للجهل لأنّه غير عالم بوضع المال موضعه وللفجور لعبوره في شهوته ومحبّته للدنيا وللجبن لأنّ من بخل بماله فهو بنفسه أبخل، وللانظلام بالظلم لقعوده عن فضيلة العدل في ماله ثمّ للحرص والحسد والشرور ودناءة الهمّة والكذب والغدر والخيانة وقطع الرحم وعدم المواساة وهي مساوي العيوب وهو زمان إلى كلّ منها لأنّه يدعو إلى هذه المساوي ويقود إليها كالزمام.

وقال عليه السلام:

[يابن آدم الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على همّ يومك فتجتمع عليك أحزان متضاعفة] يكفي واحد منها شغلاً.

[كفاك كلّ يوم ما فيه فإن تكن السنة من عمرك فإنّ اللّه سيؤتيك في كلّ يوم جديد بما قسم لك] لا محالة وما لابدّ منه لا يجوز الاهتمام به.

وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهمّ بما ليس لك ولن يسبقك إلى رزقك طالب ولن يغلبك عليه غالب ولن يبطئ عنك ما قُدّر لك رُبّ مستقبل يوماً ليس بمستدبره ومغبوط في أوّل الليل قامت بواكيه في آخره الكلام في وثاقك مالم تتكلّم به فإذا تكلّمت به صرت في وثاقه فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك، فربّ كلمة سلبت نعمة

[**وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهمّ بما ليس لك**] وليس من العقل أن يهتمّ المرء بما ليس له.

[**ولن يسبقك إلى رزقك طالب ولن يغلبك عليه غالب ولن يبطئ عنك ما قُدّر لك**] وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي لك أن تهتمّ.

قال السيّد: وقد مضى هذا الكلام فيماتقدّم من هذا الباب إلا أنّه هاهنا أوضح وأشرح فلذلك كرّرناه على القاعدة المقرّرة في أوّل هذا الكتاب.

وقال عليه السلام:

[**ربّ مستقبل يوماً ليس بمستدبره ومغبوط في أوّل الليل قامت بواكيه في آخره**] الغرض التنبيه على رقدة الغفلة عن العمل للموت وما بعده، وقال الشاعر:

يا راقد الليل مسروراً بأوّله ... إنّ الحوادث قد يطرقن أسحاره

وقال عليه السلام:

[**الكلام في وثاقك مالم تتكلّم به فإذا تكلّمت به صرت في وثاقه فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك، فربّ كلمة سلبت نعمة**] قيل لحذيفة: قد أطلت سجن لسانك، فقال: لأنّه غير مأمون إذا نطق، ومن أمثالهم: ربّ كلمة تقول دعني، وقيل: لسان المرء لغيره وسمعه لنفسه.

لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كلّ ما تعلم، فإنّ اللّه سبحانه فرض على جوارحك كلّها فرائض تحتجّ بها عليك يوم القيامةاحذر أن يراك اللّه عند معصيته ويفقدك عند طاعته فتكون من الخاسرين وإذا قويت فاقوَ على طاعة اللّه وإذا ضعفت فاضعف عن معصية اللّه الركون إلى الدنيا مع ما يعاين منها جهلٌ والتقصير في

وقال عليه السلام:

[**لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كلّ ما تعلم، فإنّ اللّه سبحانه فرض على جوارحك كلّها فرائض تحتجّ بها عليك يوم القيامة**] نهى عن قول ما لا تعلم لأنّه كذب أو محتمل الكذب، ولأنّه قول بالجهل، وعن قول كلّما تعلم لجواز أن يكون فيه مضرّة كإذاعة سرّ ونحوه وأشار بقوله «فإنّ اللّه فرض» إلى أنّ الواجب على جارحة اللسان الكلام في محلّه والسكوت في محلّه.

وقال عليه السلام:

[**احذر أن يراك اللّه عند معصيته ويفقدك عند طاعته فتكون من الخاسرين**] لثواب اللّه يوم القيامة.

[**وإذا قويت فاقوَ على طاعة اللّه**] ليتمّ الاستعداد بها للرحمة [**وإذا ضعفت فاضعف عن معصية اللّه**] ليضعف الاستعداد بها عن قبول سخط اللّه ونقمته.

وقال عليه السلام:

[**الركون إلى الدنيا مع ما يعاين منها**] من الغدر وقلّة الوفاء ونقض العهود ونحوها [**جهلٌ**] بما ينبغي أن يركن إليه مما لا ينبغي [**والتقصير في**

حسن العمل إذا وثقت بالثواب عليه غبن والطمأنينة إلى كلّ أحد قبل الاختبار له عجز من هوان الدنيا على اللّه أن لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها ما لي وللدنيا، إنّما مثلي ومثلها كراكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقعد تحت ظلّها ساعة ثمّ راح وتركها من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه فآثروا ما

حسن العمل إذا وثقت بالثواب عليه غبن] وأيُّ غبن، وهو ترك ما يوثق به من الثواب الكثير في مقابلة العمل اليسير، وفيه إشارة إلى أنّ التقصير في حسن العمل من ضعف اليقين بالثواب الموعود به.

[والطمأنينة إلى كلّ أحد قبل الاختبار له عجز] عن البحث عمّن ينبغي السكون إليه وعن وضعه موضعه.

وقال عليه السلام:

[من هوان الدنيا على اللّه أن لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها] نفّر عليه السلام عن الدنيا بذكر هوانها من الوجهين وتوفّى اللّه صلى الله عليه وآله وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، ورأى صلى الله عليه وآله بعض الصحابة بنى بيتاً من جص فقال: أرى الأمر أعجل من هذا.

وقال عليه السلام:

[ما لي وللدنيا، إنّما مثلي ومثلها كراكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقعد تحت ظلّها ساعة ثمّ راح وتركها] وقال عيسى عليه السلام: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» وقال النبي صلى الله عليه وآله: «سجن المؤمن وجنّة الكافر»، وقال صلى الله عليه وآله: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان للّه منها».

وقال عليه السلام:

[من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه فآثروا ما

يبقى على ما يفنى من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب آبائه من طلب شيئاً ناله أو بعضه ما خير بخير بعده النار وما شرّ بشرّ بعده الجنّة وكلّ نعيم دون الجنّة محقور وكلّ بلاء دون النار عافية

يبقى على ما يفنى] وقال ﷺ: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة».

وقال عليه السلام:

[**من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه]** وفي رواية أُخرى: [**من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب آبائه]** وكان يقال: أجهل الناس من افتخر بالعظام البالية وتبجّح بالقرون الماضية واتّكل على الأيام الخالية، وقال الشاعر:

فخرت بآباء ذوي حسب ... لقد صدت ولكن بئما ولدوا

وقال عليه السلام:

[**من طلب شيئاً ناله أو بعضه]** هو كقولهم من طلب وجد ومن قرع باباً ولج. وقال حكيم: ما لازم أحد باب الملك فاحتمل الذل وكظم الغيظ ورفق بالبواب وخالط الحاشية إلا وصل إلى حاجته من الملك.

وقال عليه السلام:

[**ما خير بخير بعده النار وما شرّ بشرّ بعده الجنّة]** محل «بعده» في الموضعين الرفع لأنّه صفة «خير» التي بعد «ما»، وخبر «ترفع» لأنّه اسم «ما» وموضع الجار والمجرور نصب لأنّه خبر «ما»، والباء زائدة، أي: ما خير يتعقّبه النار بخير.

[**وكلّ نعيم دون الجنّة محقور]** تفسيرٌ للأوّل [**وكلّ بلاء دون النار عافية]** تفسير للثاني.

ألا وإنّ من البلاء الفاقة وأشدّ من الفاقة مرض البدن وأشدّ من مرض البدن مرض القلب ألا وإنّ من النعم سعة المال وأفضل من سعة المال صحّة البدن وأفضل من صحّة البدن تقوى القلب للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي ربّه ويعبده وساعة يرم معاشه وساعة يخلي فيها بين نفسه ولذتها فيما يحل ويجمل وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمّة لمعاش أو حظوة في معاد أو لذّة في غير محرم

وقال عليه السلام:

[ألا وإنّ من البلاء الفاقة وأشدّ من الفاقة مرض البدن وأشدّ من مرض البدن مرض القلب] لاستلزامه في الآخرة فوات أكمل السعادات وهو الموت الذي لا حياة معه.

[ألا وإنّ من النعم سعة المال وأفضل من سعة المال صحّة البدن وأفضل من صحّة البدن تقوى القلب] باكتساب الفضائل لاستلزامه السعادة الباقية والحياة الأبدية والغرض الإشارة إلى درجات البلاء وتفاوتها في الشدّة والضعف وإلى ما يقابلها من درجات النعمة وتفاوتها كذلك.

وقال عليه السلام:

[للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي ربّه ويعبده وساعة يرم] أي: يصلح **[معاشه وساعة يخلي فيها بين نفسه ولذتها فيما يحل ويجمل]** دون المحرّمة والمباحة المستهجنة وهذان القسمان مرادان للأوّل إذ لا يمكن بدونهما.

[وليس للعاقل أن يكون شاخصاً] أي: ذاهباً من بلد إلى بلد **[إلا في ثلاث: مرمّة لمعاش]** أي: إصلاحه **[أو حظوة في معاد أو لذّة في غير محرم]** أي: ليس له بحسب مقتض العقل العملي أن يستعمل نفسه إلا في

إزهد في الدنيا يبصّرك اللّه عوراتها ولا تغفل فلست بمغفول عنك تكلّموا تعرفوا فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه نعم الطيب المسك خفيف محمله عطرة ريحه ضع فخرك واحطط كبرك واذكرْ قدرك

أحد هذه الأُمور الثلاثة.

وقال عليه السلام:

[**إزهد في الدنيا يبصّرك اللّه عوراتها**] لأنّ محبّتها مستلزمة لستر عيوبها، إذ حبّ الشيء يعمي ويصمّ، فبغضها والزهد فيها رافع لذلك الستر كاشف لما تحته من عيوبها وعوراتها فأمر بالزهد فيها لذلك.

[**ولا تغفل**] عن آخرتك وعمّا وراء الدنيا [**فلست بمغفول عنك**] وكلّ من ليس بمغفول عنه لا ينبغي أن يغفل.

وقال عليه السلام:

[**تكلّموا تعرفوا فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه**] قيل: هذه أحد كلماته التي لا قيمة لها ولا يقدّر قدرها وقد مرّت بنحو آخر.

وقال عليه السلام:

[**نعم الطيب المسك خفيف محمله عطرة ريحه**] الطيب: ممدوح سيّما المسك وفيه روايات عديدة.

وقال عليه السلام:

[**ضع فخرك واحطط كبرك واذكر قدرك**] الغرض التنبيه على رذيلة الكبر والفخر بتذكير الإنسان قدره بأنّ أوّله نطفة قذرة وآخره جيفة منتنة وهو حامل للجيفة يخرج منه في اللّيل والنهار ما لا يستطيع النظر إليه، فأين هو والكبر.

وقال عليه السلام:

خذ من الدنيا ما أتاك وتولّ عمّا تولّ عنك فإن أنت لم تفعل فأجمل في الطلب ربّ قول أنفذ من صول كلّ مقتصر عليه كاف المنية ولا الدنية

[**خذ من الدنيا ما أتاك وتولّ عمّا تولّ عنك فإن أنت لم تفعل فأجمل في الطلب**] أمر بالقناعة أوّلاً بما تيسّر من الدنيا كمن تمكّن منها وقوى عليها وبالإجمال في الطلب إن لم يتمكّن منها وهو الطلب برفق من الذي ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي.

وقال عليه السلام:

[**ربّ قول أنفذ من صول**] أي: قد يبلغ الإنسان بالقول ما لا يبلغه بالشدّة والصولة فيكون القول أنفذ في غرضه كما قيل: والقول ينفذ ما لا ينفذ الأمر، ويصلح مثلاً يضرب للرفق واللّين الذي يبلغ به ما لا يبلغ بالعنف. وروي أشد عوض أنفذ أي: ربّ قول يقوله الإنسان فيكون حذره عليه أشدّ من صولة عدوّ أو ربّ قول يسمعه من غيره كقذف أو هجر يكون أشدّ عليه من صولة العدو.

وقال عليه السلام:

[**كلّ مقتصر عليه كاف**] أي: من اقتصر على شيء وقنعت به نفسه كفاه وقام مقام الفضول الذي لا يرغب فيها المترفون.

وقال عليه السلام:

[**المنية ولا الدنية**] أي: المنية أسهل من الدنية، فالمنية مبتدأ وخبره «أسهل»، المدلول عليه بقوله «ولا الدنية» أو التقير «يحتمل المنية ولا يحتمل الدنية» وهي الخسيسة من الأمر ترتكب في طلب الدنيا وكثير من الكرام يختار الموت على ذلك.

التقلّل ولا التوسّل ومن لم يعط قاعداً لم يعط قائماً الدهر يومان: يومٌ لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر إنّ للوالد على الولد حقّاً وإنّ للولد على الوالد حقّاً، فحقّ الوالد على الولد أن يطيعه في كلّ شيء إلا في معصية اللّه وحقّ الولد على والده أن يحسن اسمه

وقال عليه السلام:

[**التقلّل ولا التوسّل**] أي: القناعة بالقليل من العيش خير من التوسّل إلى أهل الدنيا بطلبها.

[**ومن لم يعط قاعداً لم يعط قائماً**] كنّى بالقعود عن الطلب السهل وبالقيام عن الطلب الصعب بتعسّف أي: من لم يرزق بالطلب السهل لم ينفعه التشديد في الطلب، والمقصود أنّ الرزق قد قسمه اللّه فمن لم يرزق قاعداً لم يجد عليه القيام والحركة.

وقال عليه السلام:

[**الدهر يومان: يومٌ لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر**] أي: يوم تسرُّ به فلا تتبطر فيه، ويوم تُساء به وهو يوم الضيق والبلاء فاصبر، وقد قيل: الدهر يومان يوم بلاء ويوم رخاء والدهر ضربان خبرة وعبرة، والدهر وقتان وقت سرور ووقت ثبور.

وقال عليه السلام:

[**إنّ للوالد على الولد حقّاً وإنّ للولد على الوالد حقّاً، فحقّ الوالد على الولد أن يطيعه في كلّ شيء إلا في معصية اللّه**] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس ل به علم فلا تطعهما﴾.

[**وحقّ الولد على والده أن يحسن اسمه**] وفي النبوي: «إنّكم تدعون

ويحسن أدبه ويعلّمه القرآن العين حقّ والرقا حق والسحر والفأل والطيرة ليست بحقّ والعدوى ليست بحقّ مقارنة الناس في أخلاقهم أمن من غوائلهم

يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسمائكم.

[ويحسن أدبه ويعلّمه القرآن].

وقال عليه السلام:

[العين حقّ] وقد وردت الاستعاذة منها، وفي النبوي: «العين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين».

[والرقا حق] وقال عون بن مالك كنّا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول اللّه: ما ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليّ رقاكم فلا بأس بالرقى مالم يكن فيها شرك.

[والسحر والفأل] حقّ وهو التفؤل ما قيل: تفألوا بالخير تجدوه.

[والطيرة] وهي التطيّر من أشياء مخصوصة **[ليست بحقّ والعدوى ليست بحقّ]** في الخبر المرفوع: إذا ظننتم فلا تحققوا وإذا تطيرتم فامضوا، وعلى اللّه فتوكّلوا، وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أحسنها الفأل ولا يرد قدراً ولكن إذا رأى أحد ما يكره فليقل اللّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيّئات إلا أنت ولا حول ولا قوّة إلا بك» والطيب نشرة والغسل نشرة والركوب نشرة والنظر إلى الخضرة نشرة قيل: كانوا يطلبون من العاين أن يتوضّأ بماء ثمّ يُسقى منه المعين ويغتسل بسائره.

وقال عليه السلام:

[مقارنة الناس في أخلاقهم] أي: مشاكلتهم وموافقتهم فيها **[أمن من غوائلهم]** جمع غائلة وهي الحقد، لأنّ المباعدة في أخلاقهم يستلزم منافرتهم

لقد طرت شكيراً وهدرت سغباً من أومأ إلى متفاوت خذلته الحيل أنّا لا نملك مع اللّه شيئاً ولا نملك إلا ما ملّكنا فمتى ما ملّكنا ما هو أملك به منّا كلّفنا ومتى أخذه منّا وضع تكليفه عنّا

وعداوتهم وأحقادهم، فالعدول عنها إلى المقاربة يستلزم الأمن منهم.

وقال عليه السلام لبعض مخاطبيه وقد تكلّم في حضرته بكلام يستصغر عن مثله [**لقد طرت شكيراً**] والشكير: أوّل ما ينبت من ريش الطائر قبل أن يقوى ويسحصف.

[**وهدرت سغباً**] والسغب: الصغير من الإبل، ولا يهدر إلا بعد أن يستفحل، استعار الشكير والسغب له باعتبار صغر قدره عمّا تكلّم به في حضرته ووصف الطيران والهدير له باعتبار نهوضه إلى ذلك الكلام الذي هو فوق محلّه وليس أهلاً له، كما أنّ الطير ليس من شأن الشكير ولا الهدير.

وقال عليه السلام:

[**من أومأ إلى متفاوت خذلته الحيل**] المتفاوت كالأمور المتضادة أو التي يتعذّر الجمع بينها في العرف والعادة، واستعار وصف الخذلان للحيل باعتبار أنّها لا تؤاتيه ولا يمكنه الجمع بين ما يرويه من تلك الأمور.

وقال عليه السلام وقد سُئِل عن معنى قولهم «لا حول ولا قوّة إلا باللّه العليّ العظيم»: [**أنّا لا نملك مع اللّه شيئاً ولا نملك إلا ما ملّكنا فمتى ما ملّكنا ما هو أملك به منّا كلّفنا ومتى أخذه منّا وضع تكليفه عنّا**] أشار بقوله «لا نملك مع اللّه ... إلخ» إلى قوله تعالى: ﴿فمن يملك لكم من اللّه شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً﴾ الآية، والحول عبارة عن الملكية والتصرّف، والقوّة عبارة عن التكليف أي: لا نملك ولا نتصرّف إلا باللّه

دعه يا عمّار فإنّه لا يأخذ من الدّين إلا ما قاربته الدنيا وعلى عمد لبّس على نفسه ليجعل الشبهات عاوزاً لسقطاته ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند اللّه، وأحسنُ منه

وإذا ملكنا شيئاً هو أقدر عليه منا صرنا مالكين كالمال والعقل والجوارح والأعضاء فإذا أخذ المال سقطت عنا الزكاة والحج والأعضاء والجوارح سقط الجهاد، وسُئِل الصادق عليه السلام عن هذه الكلمة فقال: لا حول على ترك المعاصي ولا قوّة على فعل الطاعات إلا باللّه.

وقال عليه السلام لعمّار بن ياسر وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاماً:

[**دعه يا عمّار فإنّه لا يأخذ من الدّين إلا ما قاربته الدنيا**] أي: لا يعمل بشيء من الدّين إلا بما يستلزم دنياه ويقرّبه منها.

[**وعلى عمد لبّس على نفسه ليجعل الشبهات عاوزاً لسقطاته**] أي: ليس هو في الحقيقة ممن التبس عليه الأمر بل لبّس الأمر على نفسه عمداً ليعتذر به في هفواته.

قال ابن أبي الحديد: كان إسلام المغيرة عن غير اعتقاد صحيح ولا إنابة ولا نيّة جميلة، كان قد صحب قوماً في بعض الطرق فاستغفلهم وهم نيام فقتلهم وأخذ أموالهم وهرب خوفاً من أن يلحق فيقتل أو يؤخذ ما قاربه من أموالهم فقدم المدينة فأظهر الإسلام وكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله لا يردّ على أحد إسلامه، أسلم عن علّة أو عن إخلاص، فامتنع بالإسلام واعتصم وحمى جانبه، ذكر حديثه أبو الفرج في الأغاني.

وقال عليه السلام:

[**ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند اللّه، وأحسن منه**

تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله ما استودع الله امرء عقلاً إلا استنقذه به يوماً من صارع الحقّ صرعه القلب مصحف البصر التُّقى رئيس الأخلاق

[**تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله**] تعالى، لأنّ التيه كذلك تستعدي كمال التوكّل على الله وهو درجة عالية في الطريق إليه.

وقال عليه السلام:

[**ما استودع الله امرء عقلاً إلا استنقذه به يوماً**] أمّا من بلاء الدنيا فبالتدبير والفكر في الخلاص، وأمّا من بلاء الآخرة فبالطاعة.

وقال عليه السلام:

[**من صارع الحقّ صرعه**] استعار المصارعة للمقاومة لأنّ الله سبحانه وملائكته ورسله وكتبه والصالحين من عباده أعوان للحقّ ولا مقاوم لأحدهم فضلاً عن جميعهم.

وقال عليه السلام:

[**القلب مصحف البصر**] استعار المصحف للقلب لتصوّره الحروف والحسّ البصري يشاهدها ويقرأها فالقلب إذن كالمصحف الذي تشاهد فيه الحروف والألفاظ ويقرأ منه بالبصر فلذا أضافه إلى البصر.

وقال عليه السلام:

[**التُّقى رئيس الأخلاق**] استعار الرئاسة للتقوى باعتبار الأفضلية في استلزام رضوان الله وحصول السعادة الباقية والتقى هو الورع والخوف من الله إذا حصل حصلت الطاعات كلّها.

وقال عليه السلام:

لا تجعلنّ ذرب لسانك على من أنطقك وبلاغة قولك على من سدّدك كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك من صبر صبر الأحرار وإلا سلا سلو الأغمار إن صبرت صبر الأكارم وإلا سلوت سلو البهائم تضرّ بزينتهاوتضرّ وتمرّ بفراقها

[**لا تجعلنّ ذرب لسانك على من أنطقك وبلاغة قولك على من سدّدك**] ذرب اللّسان: حدّته، وهو أدب يجري مجرى المثل لمن يحصّل من إنسان علماً أو فائدة فيستعين بها عليه كأن يتفاصح على من علّمه الفصاحة، قال الشاعر:

وكم علّمته نظم القوافي فلمّا قال قافية هجاني

وقيل المراد أنّ اللّه تعالى هو الذي أنطقه وعلّمه البيان كما قال: ﴿خلق الإنسان علّمه البيان﴾ فقبيح أن يجعل الإنسان ذرب لسانه وفصاحة منطقه على من أنطقه وأقدره على العباد وبلاغة قوله على من سدّده وجعله بليغاً.

وقال عليه السلام:

[**كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك**] أي: من الرذائل فإنّها مكروهة إلى كلّ أحد من غيره ومن نفسه أيضاً إذا عقل أنّها رذيلة، ولذا إذا عُيّر بها أنف منها.

وقال عليه السلام يعزي قوماً: [**من صبر صبر الأحرار وإلا سلا سلو الأغمار**] أي: الجهّال، جمع غمر، وفي خبر آخر أنّه قال للأشعث بن قيس معزّياًل له: [**إن صبرت صبر الأكارم وإلا سلوت سلو البهائم**].

وقال في صفة الدنيا [**تضرّ بزينتها**] أهلها [**وتضرّ وتمرّ بفراقها**] استعار وصف الاضرار باعتبار ما يستلزمه فراقها من ألم الجزع والحزن

إنّ اللّه لم يرضها لأوليائه ثواباً ولا عقاباً لأعدائه وإنّ أهل الدنيا كركب بينما هم حلّوا إذ صاح بهم سايقهم فارتحلوا لا تخلفنّ ورائك شيئاً من الدنيا فإنّك تخلّفه لأحد رجلين: إمّا رجلٌ عمل فيه بطاعة فسعد بما شقيت به، وإمّا رجلٌ عمل بمعصية اللّه فشقى بما جمعت له وكنت عوناً له على معصيته، وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك أمّا بعد فإنّ الذي في يديك من الدنيا قد كان له أهل قبلك وهو صائر إلى أهل بعدك وأما أنت جامع لأحد رجلين رجل عمل فيما

كالمرارة، وروي تمرّ بفتح التاء أي: تذهب.

وقوله: **[إنّ اللّه لم يرضها لأوليائه ثواباً ولا عقاباً لأعدائه]** إذ لو رضيها لذلك لأعطاها أوليائه وحرمها أعدائه **[وإنّ أهل الدنيا كركب بينما هم حلّوا إذ صاح بهم سايقهم فارتحلوا]** ووجه الشبه بالركب الذي شأنه ذلك سرعة ارتحالهم إلى الآخرة كسرعة ارتحال الركب.

وقال عليه السلام لابنه الحسن: **[لا تخلفنّ ورائك شيئاً من الدنيا فإنّك تخلّفه لأحد رجلين: إمّا رجلٌ عمل فيه بطاعة فسعد بما شقيت به، وإمّا رجلٌ عمل بمعصية اللّه فشقى بما جمعت له وكنت عوناً له على معصيته، وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك]** والمراد بما شقى به شقاء الدنيا بجمعه وشقاء الآخرة بادّخاره لقوله تعالى: ﴿والّذين يكنزون الذهب والفضة﴾ ويروى هذا الكلام على وجه آخر وهو:

[أمّا بعد فإنّ الذي في يديك من الدنيا قد كان له أهل قبلك وهو صائر إلى أهل بعدك وأما أنت جامع لأحد رجلين رجل عمل فيما

جمعته بطاعه اللّه فسعد بما جمعت وشقيت به ورجل عمل فيه بمعصية اللّه فشقي بما جمعت له وليس أحد هذين أهلاً أن تؤثره على نفسك أو تحمل له على ظهرك فَارْجُ لمن مضى رحمة اللّه ولمن بقي رزق اللّه ثكلتك أُمّك! أتدري ما الاستغفار؟! إنّ الاستغفار درجة العلّيين وهو اسم واقع على ستة معاني أوّلها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن يؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى اللّه عزّ وجلّ أملس ليس عليك

جمعته بطاعه اللّه فسعد بما جمعت وشقيت به ورجل عمل فيه بمعصية اللّه فشقي بما جمعت له وليس أحد هذين أهلاً أن تؤثره على نفسك أو تحمل له على ظهرك فَارْجُ لمن مضى رحمة اللّه ولمن بقي رزق اللّه] يعني إنّك إن خلّفت مالاً فإمّا أن تخلّفه لمن يعمل فيه بطاعة اللّه أو لمن يعمل فيه بمعصيته، والأوّل يسعد بما شقيت به والثاني يكون معاناً منك على المعصية بما تركته من المال وكلاهما مذموم واستعار الحمل لاكتساب آثام جمع المال ورشح بذكر الظهر ثمّ أرشده إلى ما هو خير من المال لمن مضى وهو رجاء رحمة اللّه ولمن بقي رجاء رزقه الموعد ولكلّ حيّ.

وقال عليه السلام لقائل قال بحضرته أستغفر اللّه: **[ثكلتك أُمّك! أتدري ما الاستغفار؟! إنّ الاستغفار]** أي: درجته **[درجة العلّيين]** وروي إنّ للاستغفار درجة العلّيين أي: لصاحب الاستغفار أي: أرباب المراتب العالية وإنّما لم يحمل على معناه المعروف من أنّه في السماء السابعة أو سدرة المنتهى أو تحت قائمة العرش لأنّه علم لا يدخله الألف واللام.

[وهو اسم واقع على ستة معاني أوّلها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن يؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى اللّه عزّ وجلّ أملس] أي: نقي الصحيفة من الآثام **[ليس عليك**

تبعة والرابع أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقوقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر اللّه الحلم عشيرة مسكين ابن آدم مكتوم الأجل مكنون العلل محفوظ العمل إنّ أبصار هذه الفحول طوامح وإنّ ذلك سبب هبابها

تبعة والرابع أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقوقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت] أي: الحرام **[فتذيبه بالأحزان حتّى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر اللّه]** ولعلّ مراده عليه السلام انّ الاستغفار الحقيقي الكامل هو الذي يجمع هذه الشروط.

وقال عليه السلام:

[الحلم عشيرة] استعار العشيءة للحلم باعتبار أنّه يحمي صاحبه ممن ينافره ويعاديه كما تحميه عشيرته، ولذا قيل الحلم جنود مجنّدة لا أرزاق لها.

وقال عليه السلام:

[مسكين ابن آدم مكتوم الأجل] لا يدري متى يخترم **[مكنون العلل]** علل قانة به لا يدري متى تهيج عليه **[محفوظ العمل]** ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾.

وقيل إنّه عليه السلام كان جالساً في أصحابه إذ مرّت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه السلام: **[إنّ أبصار هذه الفحول طوامح وإنّ ذلك سبب هبابها]**

فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلاً فليلامس أهله فإنّما هي امرأة كامرأة رويداً إنّما هو سبٌّ بسبٍّ أو عفوٌ عن ذنب كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل غيّك من رشدك افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً فإنّ صغيره كبير وقليله كثير ولا يقولنّ أحدكم إنّ أحداً أولى بفعل الخير منّي فيكون والله كذلك

الرمق: النظر، وطموح البصر: ارتفاعه، والهبيب والهباب: صوت التيس عند هياجه وطلبه للشاة، واستعار لهم الفحول والهباب لطلبهم للنكاح ثمّ أرشدهم إلى الخلاص من هذه الفتنة بقوله:

[**فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلاً فليلامس أهله فإنّما هي امرأة كامرأة**] وكلّ من يشبهها فهي عوض منها، فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه؛ لأنّه عليه السلام عندهم يخطئ وحاشاه، والمخطئ عندهم كافر، فوثب القوم ليقتلوه فقال عليه السلام: [**رويداً**] أي: امهلوه [**إنّما هو سبٌّ بسبٍّ أو عفوٌ عن ذنب**].

وقال عليه السلام:

[**كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل غيّك من رشدك**] أي: كفى الإنسان من عقله ما يفرق به بين الغيّ والرشاد والحقّ والباطل فإنّه بذلك يتمّ تكليفه.

وقال عليه السلام:

[**افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً فإنّ صغيره كبير وقليله كثير**] أي: في الاعتبار بالنسبة إلى من يحتاج إليه.

[**ولا يقولنّ أحدكم إنّ أحداً أولى بفعل الخير منّي فيكون والله كذلك**] لأنّ ذلك القول من القائل التارك يكون باعثاً لمن توسّم فيه فعل ذلك

للخير والشرّ أهلاً فمهما تركتموه منهما كفاكموه أهله من أصلح سريرته أصلح اللّه علانيته ومن عمل لدينه كفاه اللّه أمر دنياه ومن أحسن فيما بينه وبين اللّه أحسن اللّه فيما بينه وبين الناس الحلم غطاء ساتر والعقل حسام قاطع

الخير ونسبه إليه فيصدق في قوله وظنّه فيه بفعله له فيكون أولى به منه.

وقال عليه السلام:

[**للخير والشرّ أهلاً فمهما تركتموه منهما كفاكموه أهله**] فيه ترغيب في الخير حتّى لا يسبق إليه وتنفير عن الشرّ.

وقال عليه السلام:

[**من أصلح سريرته أصلح اللّه علانيته**] إذ الأعمال الظاهرة تتبع الأعمال الباطنة ولا عكس، لأنّ القلب رئيس الجوارح وهي رعيته تتبعه.

[**ومن عمل لدينه كفاه اللّه أمر دنياه**] كما قال تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ﴿ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه﴾.

[**ومن أحسن فيما بينه وبين اللّه أحسن اللّه فيما بينه وبين الناس**] إذ يلزمه ترك الدنيا والتعفّف عن الناس فتقبل القلوب عليه وتهشّ النفوس إليه.

وقال عليه السلام:

[**الحلم غطاء ساتر**] لأنّه يستر سورة الغضب وقبح ما يصدر عنهم من الأفعال بسببها.

[**والعقل حسام قاطع**] لقمعه بوادر النفس الأمّارة وإفراطها.

فاستر خلل خلقك بحلمك وقاتل هواك بعقلك إنّ للّه عباداً يختصّهم بالنعم لمنافع العباد فيقرّها في أيديهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم ثمّ حوّلها إلى غيرهم لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين العافية والغنى، بينا تراه معافياً إذ سقم، وبينا تراه غنياً إذ افتقر من شكى الحاجة إلى مؤمن فكأنّما شكاها إلى اللّه، ومن شكاها إلى كافر فكأنّما شكى اللّه وإنّما هو عيدٌ لمن قَبِل اللّه صيامه وشكر قيامه، وكلُّ يوم لا يُعصى اللّه فيه فهو عيد

[فاستر خلل خلقك بحلمك وقاتل هواك بعقلك].

وقال عليه السلام:

[إنّ للّه عباداً يختصّهم بالنعم لمنافع العباد فيقرّها في أيديهم ما بذلوها] أي: مدّة بذلهم إيّاها [فإذا منعوها نزعها منهم ثمّ حوّلها إلى غيرهم] لكفرانهم تلك النعمة الموجب لزوالها.

وقال عليه السلام:

[لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين العافية والغنى، بينا تراه معافياً إذ سقم، وبينا تراه غنياً إذ افتقر] والمعنى واضح.

وقال عليه السلام:

[من شكى الحاجة إلى مؤمن فكأنّما شكاها إلى اللّه، ومن شكاها إلى كافر فكأنّما شكى اللّه] لأنّ المؤمن كأنّه خليل اللّه فإذا شكى إليه فكأنّه جعل وسيلة إلى اللّه في شكواه بخلاف الكافر فإنّه عدوّ اللّه، فمن شكى إليه فكأنّما شكى اللّه إلى عدوّه.

وقال عليه السلام في بعض الأعياد: [وإنّما هو عيدٌ لمن قَبِل اللّه صيامه وشكر قيامه، وكلُّ يوم لا يُعصى اللّه فيه فهو] يوم [عيد] إذ العيد عبارة

إنّ أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً من غير طاعة اللّه يورثه رجلاً فأنفقه في طاعة اللّه سبحانه فدخل به الجنّة ودخل الأوّل به النار إنّ أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعياً رجل أخلق بدنَهُ في طلب آماله فلم تساعده المقادير على إرادته فخرج من الدنيا بحسرته وقدم على الآخرة بتبعته الرزق رزقان: طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتّى يخرجه عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتّى يستوفي رزقه منها

عن يوم تسرّ فيه الناس ويكون فيه الفرح فكلّ يوم لم يعص اللّه فهو أولى بالفرح به والسرور فيه.

وقال عليه السلام:

[إنّ أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً من غير طاعة اللّه يورثه رجلاً فأنفقه في طاعة اللّه سبحانه فدخل به الجنّة ودخل الأوّل به النار] وإنّما كان ذلك حسرةً عظيمة لعدم منفعته بالمال في الدنيا وعذابه في الآخرة ومشاهدته لانتفاع الغير به هناك.

وقال عليه السلام:

[إنّ أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعياً رجل أخلق بدنَهُ في طلب آماله فلم تساعده المقادير على إرادته فخرج من الدنيا بحسرته وقدم على الآخرة بتبعته] استعار وصف الأخسر صفقة لمن ذكر باعتبار استعاضته للدنيا الآخرة ومع عدم موافقة القدر له في حصول آماله الدنيوية، ومعلوم أنّه أخسر من اتجر وتبعته ما يلحقه من عقوبة الآثام المكتسبة له من سعيه.

وقال عليه السلام:

[الرزق رزقان: طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتّى يخرجه عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتّى يستوفي رزقه منها]

إنّ أولياء اللّه هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها واشتغلوا بآجِلِها إذ اشتغل الناس بعاجلها فأماتوا منها ما أحسّوا أن تميتهم وتركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً ودركهم لها فوتاً

استعار للرزق وصف الطالب باعتبار أنّه لابدّ من وصوله فهو كالطالب لصاحبه ونفّر عن الدنيا بأنّ غايتها الموت فكأنّه طالب للمرء لغاية إخراجه من الدنيا بسبب طلبه لها، ورغب في طلب لآخرة بما يلزمه من طلب الدنيا وأهلها لمن انقطع عنها حتّى يصل إليه رزقه منها وهو محمود، وقد قيل: مثل الدنيا كمثل ظلّك كلّما طلبته بعد عنك، فإن أدبرت عنه تبعك.

وقال عليه السلام:

[**إنّ أولياء اللّه هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا**] أي: حقيقتها وغرض الحكمة الإلهية من وجودها فعملوا فيها على حسب علمهم [**إذ نظر الناس إلى ظاهرها**] من زينتها وقنياتها [**واشتغلوا بآجِلِها**] وهو ما جعل نصب أعينهم من ثواب اللّه ورضوانه [**إذ اشتغل الناس بعاجلها**] وحاضر لذّاتها [**فأماتوا منها ما أحسّوا أن تميتهم**] وهو نفوسهم الأمّارة بالسوء التي تخشى من غلبتها واستيلائها على العقل موته وهلاكه في الآخرة أو كنّى بما أماتوه عن لذّاتها وشهواتها التي رفضوها ولم يلتفتوا إليها.

[**وتركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم**] وهو زينتها وقنياتها التاركة لهم بالموت.

[**ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً ودركهم لها فوتاً**] أي: استقلالاً من الخير الباقي وفوتاً له إذ كان دركها والاستكثار منها سبباً لذلك.

أعداء لما سالم الناس وسلم لمن عادى الناس بهم عُلِم الكتاب وبه علموا وبهم قام الكتاب وبه قاموا لا يرجون مرجواً فوق ما يرجون اذكروا انقطاع اللّذات وبقاء التبعات اخْبُرْ تَقْلِه

[**أعداء لما سالم الناس**] أي: للدنيا المذكورة [**وسلم لمن عادى الناس**] أي: للآخرة [**بهم عُلِم الكتاب**] لحفظهم له وتفهّمهم إيّاه [**وبه علموا**] لاشتهارهم به عند الناس [**وبهم قام الكتاب**] أي: صارت أحكامه قائمة في الخلق معمولاً بها [**وبه قاموا**] أي: بأوامره ونواهيه [**لا يرجون مرجواً فوق ما يرجون**] من ثواب اللّه [ولا مخوفاً فوق ما يخافون من عذاب اللّه.

وقال عليه السلام:

[**اذكروا انقطاع اللّذات**] الدنيوية بالموت الذي لابدّ منه ولا محيص عنه [**وبقاء التبعات**] أي: الجرائم والآثام التي تتجسّم في الآخرة بأنواع العذاب وأقسام العقاب.

وقال عليه السلام:

[**اخْبُرْ تَقْلِه**] أي: اخبر الناس وجرّبهم تقلهم وتبغضهم فإنّ التجربة تكشف لك عن مساويهم وسوء أخلاقهم ويضرب به المثل لمن يظنّ به الخير وليس هناك.

قال السيّد «ره»: ومن الناس من يروي هذا لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ومما يقوي أنّه من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام ما حكاه تغلب، قال: حدّثني ابن الأعرابي، قال: قال المأمون: لولا أنّ علياً قال أنّ علياً قال «اخبر تقله» لقلت أنا أقله تخبر، والظاهر أنّ مراده بالقلاء الهجر والقطيعة أي: قاطع أخاك مجرّباً له

ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عليه باب الزيادة ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة ولا ليفتح عليه باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة أولى الناس بالكرم من عرقت فيه الكرام العدل يضع الأُمور مواضعها والجور يخرجها عن جهتها والعدل سائس عام

هل يبقى على العهد أو يتغيّر تقله.

وقال عليه السلام:

[ما كان الله] عزّ وجلّ **[ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عليه باب الزيادة]** كما قال تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

[ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة] كما قال: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾.

[ولا ليفتح عليه باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة] فمن تاب تاب الله عليه.

وقال عليه السلام:

[أولى الناس بالكرم من عرقت فيه الكرام] أعرقت وعرقت بمعنى أي: ضربت عروقه في الكرم أي: له سلف وآباء كرام، وسُئل أيما أفضل العدل أو الجور فقال:

[العدل يضع الأُمور مواضعها والجور يخرجها عن جهتها] والمراد به الجور العرفي وهو بذل المقتنيات للغير لأنّ الجود الحقيقي ليس يخرج إلا عن جهته كجود الباري.

[والعدل سائس عام] في جميع الأُمور الدينية والدنيوية وبه نظام العالم وقوام الوجود.

والجود عارض خاص الناس أعداء ما جهلوا الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه الولايات مضامير الرجال ما أنقض النوم لعزائم اليوم

[**والجود عارض خاص**] ليس عموم نفعه كالعدل إذ يصل من بعض الناس إلى بعض فكان العدل أفضل.

وقال عليه السلام:

[**الناس أعداء ما جهلوا**] كما مرّ، ولذا قيل: من جهل شيئاً عاداه، وقال الشاعر:

جهلت أمراً فأبديت النكير له ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقال عليه السلام:

[**الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه**].

وقال عليه السلام:

[**الولايات مضامير الرجال**] أي: تعرف الرجال بها كما تعرف الخيل بالمضمار، وهو الموضع أو المدّة التي تضمر فيها الخيل.

وقال عليه السلام:

[**ما أنقض النوم لعزائم اليوم**] «ما» للتعجب وهو كالمثل يضرب لمن يعزم على أمر فيغفل عنه أو يتهاون فيه حتّى ينقضي عزمه وأصله انّ الإنسان قد ينوي السفر مثلاً أو الحركة بقطعة من الليل ليتوفّر في نهاره على سيره

ليس بلد بأحقّ منك من بلد، خيرُ البلاد ما حملك مالك، وما مالك! لو كان جبلاً لكان فنداً لا يرتقيه الحافر ولا يرقى عليه الطائر إذا كان في رجل خلّة رائعة فانتظروا منه أخواتها

فيغلبه النوم إلى الصباح فيفوت وقت عزمه فينقض ما كان من عزم عليه في يومه.

وقال عليه السلام:

[**ليس بلد بأحقّ منك من بلد، خيرُ البلاد ما حملك**] أي: ما وجدت فيه قوام أمرك وصلاح معاشك فأمكنك الإقامة فيه، واستعار الحمل له باعتبار حمل مؤنته ملاحظة لشبهه بالحمل ونحوه.

وقال عليه السلام وقد جائه نعي الأشتر: [**مالك، وما مالك!**] الأوّل مبتدأ أو فاعل فعل محذوف أي: مات مالك، و«ما» استفهامية في معرض التعجّب.

[**لو كان جبلاً لكان فنداً**] والفند: المنفرد من الجبال [**لا يرتقيه الحافر**] قيل: إنّ الفند القطعة المأخوذة من الجبل طولاً في دقّه ولا سبيل للحافر إلى صعودها.

[**ولا يرقى عليه الطائر**] كناية عن علوّه، أي: لا يصعده لعلوّه وارتفاعه.

وقال عليه السلام:

[**إذا كان في رجل خلّة رائعة**] أي: خصلة معجبة وخلق فاضل [**فانتظروا منه أخواتها**] من الأخلاق الفاضلة المناسبة لها كمن يكون من شأنه الصدق فإنّه يتوقّع منه الوفاء وحسن الصحبة وبالعكس، وكمن يكون من شأنه العفّة فإنّه يتوقّع منه الكرم والمسامحة والبذل والصدقة والمحبّة.

وقال عليه السلام لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق في كلام دار بينما قيل إنّ

ما فعلت إبلك الكثيرة؟ قال: ذعذعتها الحقوق يا أميرالمؤمنين فقال ذاك أحمد سبلها من اتّجر بغير فقه فقد ارتطم في الربا من عظّم صغار المصائب ابتلاه اللّه بكبارها

غالباً دخل على عليّ عليه السلام وهو شيخ كبير ومعه ابنه همّام الفرزدق وهو غلام يومئذ فقال له عليه السلام: من الشيخ؟ فقال: أنا غالب بن صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: [**ما فعلت إبلك الكثيرة؟ قال: ذعذعتها الحقوق يا أميرالمؤمنين**] وأذهبتها الحالات والنوائب وذعذعتها بالذال المعجمة مكررة: فرّقتها، قال: [**فقال ذاك أحمد سبلها**] أي: أحسن طرق ذهابها من هذا، مَن هذا الغلام معك؟ فقال: هذا ابني همّام، وقد رويته الشعر يا أميرالمؤمنين وكلام العرب ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً، فقال عليه السلام: أقرئه القرآن فهو خير له، وكان الفرزدق بعد يروي هذا الحديث ويقول: مازالت كلمته في نفسي حتّى قيد نفسه بقيد وإلى أن يفكّه حتّى يحفظ القرآن فما فكّه حتّى حفظه.

وقال عليه السلام:

[**من اتّجر بغير فقه فقد ارتطم في الربا**] يقال: ارتطم في الوحل أي: وقع فيه فلم يمكنه الخلاص، استعير لغير الفقيه لأنّه لا يتمكّن من التخلّص من الربا.

وقال عليه السلام:

[**من عظّم صغار المصائب ابتلاه اللّه بكبارها**] لاستعداده بتضجّره وسخطه من قضاء اللّه ولو حمد اللّه على البلاء وصبر وسأل العافية لاستعدّ لدفعه.

وقال عليه السلام:

من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته ما فرح امرء فرحة إلا مجّ من عقله مجّة زهدك في راغب فيك نقصان حظ ورغبتك في زاهد فيك ذلّ نفس ما لابن آدم والفخر! أوّله نطفة، وآخره جيفة وهو حامل للجيفة الغنى والفقر بَعْدَ العرض على اللّه

[**من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته**] لأنّهما عدوان إكرام أحدهما يستلزم إهانة الآخر، فمن كرمت عليه نفسه لزمه حفظها وحمايتها من عذاب اللّه وذلك مستلزم لهوان شهوته عليه.

وقال عليه السلام:

[**ما فرح امرء فرحة إلا مجّ من عقله مجّة**] لأنّ العقل يقتضي صيانة العرض والبقاء على حدّ يوقر معه صاحبه ولا يستخفّ به والمزاح يضاده وسمّي مزاحاً لأنّه يزيح عن الحقّ واستعار المج لما يطرحه الإنسان من عقله في مزحه فكأنّه مجّه كما يمجّ الماء من فيه.

وقال عليه السلام:

[**زهدك في راغب فيك نقصان حظ**] لأنّ من تمام الحظّ كثرة الاخوان للتعاون على صلاح المعاش والمعاد فالزهد فيهم يستلزم نقصان الحظّ.

[**ورغبتك في زاهد فيك ذلّ نفس**] لاستلزامه الذلّ والخضوع.

وقال عليه السلام:

[**ما لابن آدم والفخر! أوّله نطفة، وآخره جيفة وهو حامل للجيفة**].

وقال عليه السلام:

[**الغنى والفقر بَعْدَ العرض على اللّه**] تعالى، أي: الغنى الحقيقي بالثواب والفقر بعدمه في الآخرة، وأمّا غنى الدنيا وفقرها فأمران عرضيان

ألا حـرٌّ يدع هذه اللمـاظة لأهلهـا؟ إنّه ليس لأنـفسكـم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنياً

زوالهما سريع.

وسُئل عليه السلام من أشعر الشعراء؟ فقال: إنّ القوم لم يجروا في حلبة تُعْرَف الغاية عند قصبته، فإن كان ولابدّ فالملك الضِّلِّيلُ] يريد امرئ القيس، والمراد أنّهم لم يقولوا الشعر على منهاج واحد حتّى يفاضل بينهم بل كان لكلّ منهم حالة خاصّة يجد فيها وينبعث فيها قريحته فواحد يجيد في الرغبة وآخر في الرهبة وثالث في النشاط، ولذا قيل: أشعر العرب امرئ القيس إذا ركب والأعشى إذا رغب والنابعة إذا رهب، واستعار الحلية وهي القطعة من الخيل يقرن للسباق للطريقة الواحدة ورشّح بذكر الاجراء والغاية وقصبتها لأنّ عادة العرب أن تضع قصبة في آخر المدى فمن سبق إليها وأخذها فاز بالسبق والغلب ورجّح امرئ القيس لجودة شعره غالباً ووصفه بالضلّيل لكثرة ضلاله وقوّته وكونه كثير التهتّك معلناً بالفسق في شعره وقيل إنّه تنصّر في آخر عمره.

وقال عليه السلام:

[**ألا حرٌّ يدع هذه اللماظة لأهلها؟ إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها**] اللماظة بضمّ اللام ما يبقى في الفم من الطعام ولفظها مستعار للدنيا باعتبار قلّتها وحقارتها، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم بأنّ لهم الجنّة﴾.

وقال عليه السلام:

[**منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنياً**] فلان نهم بكذا أي:

الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك وأن لا يكون في حديثك فضل عن علمك وأن تتقي اللّه في حديث غيرك يغلب المقدار على التقدير حتّى تكون الآفة في التدبير الحكم والأناة توأمان ينتجهما علوّ الهمّة

مولع به، والنّهم بالفتح: إفراط الشهوة في الطعام.

وقال عليه السلام:

علامة [**الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك**] محبّةً للفضيلة وكراهةً للرذيلة.

[**وأن لا يكون في حديثك فضل عن علمك**] وهو العدل في القول والاحتراز من رذيلة الكذب [**وأن تتقي اللّه في حديث غيرك**] فلا تخوض في غيبته أو سماعها أو تحتاط في الرواية فتروي عنه حديثه بلا زيادة ولا نقصان.

وقال عليه السلام:

[**يغلب المقدار على التقدير حتّى تكون الآفة في التدبير**] قال السيّد: وقد مضى هذا المعنى فيما تقدّم برواية تخالف بعض هذه الألفاظ، والتقدير: القدر، وحيث كان الإنسان جاهداً به ربّما دبّر لمصلحته تدبيراً يكون فيه الفساد والهلاك.

وقال عليه السلام:

[**الحكم والأناة توأمان ينتجهما علوّ الهمّة**] استعار لهما التوأمين باعتبار استلزام علوّ الهمّة لهما وصدورهما بواسطتها لأنّ عالي الهمّة يستحقر كلّ ذنب ومذنب في حقّه فيحلم عنه ويتأنّى عن المبادرة إلى مقابلته.

وقال عليه السلام:

الغيبة جهد العاجز ربّ مفتون بحسن القول فيه إنّ الدنيا خُلقت لغيرها ولم تُخلق لنفسها

[**الغيبة جهد العاجز**] لأنّها أكثر ما تصدر عن الاغراء والحسّاد الّذين يعجزون عن بلوغ أغراضهم وشفاء صدورهم فيعدلون إلى إظهار معائب أعدائهم لما يجدون فيه من اللذة.

وقال عليه السلام:

[**ربّ مفتون بحسن القول فيه**] إذ كثيراً ما يفتتن الناس بثناء الناس عليهم فيقصر العالم في اكتساب العلم اتّكالاً على ثناء الناس عليه ويقصّر العابد في العبادة لذلك قائلاً كلاً منهما إنّما أردت الصيت وقد حصل.

قال السيّد الرضي «ره»: وقيل وجد هذا بخطّه قال: هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قطع المختار من كلام أميرالمؤمنين حامدين اللّه سبحانه على ما منّ به من توفيقنا لضمّ ما انتشر من أطرافه وتقريب ما بعُد من أقطاره ومقرّرين الغرم كما شرطنا أوّلاً على تفضيل أوراق بيض في آخر كلّ باب من الأبواب ليكون لاقتناص الشارد واستحقاق الوارد وما ه أن يظهر لنا بعد الغموض ويقع إلينا بعد الشذوذ وما توفيقنا إلا باللّه عليه توكّلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال ابن أبي الحديد: ثمّ وجد نسخاً كثيرة فيها زيادات بعد هذا الكلام، قيل: إنّها وجدت في نسخة كتبت في حياة الرضي وقُرئت عليه فأمضاها وأذن في إلحاقها بالكتاب ونحن نذكرها.

وقال عليه السلام:

[**إنّ الدنيا خُلقت لغيرها ولم تُخلق لنفسها**] أي: خلقت للاستعداد فيها وبها لدرك ثواب اللّه في الآخرة لا ليلتذّ بها الجاهلون.

إنّ لبني أُميّة مِرْوَداً يجرون فيه، ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثمّ كادَتْهُم الضِّباع لغلبتهم هم والله ربُّوا الإسلام كما يُرَبَّى الفِلْو مع غنائهم بأيديهم السِّبَاط وألسنتهم السِّلاط العين وكاء السيّئة

وقال عليه السلام:

[**إنّ لبني أُميّة مِرْوَداً يجرون فيه، ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثمّ كادَتْهُم الضِّباع لغلبتهم**] قال السيّد «ره»: وهذا من أفصح الكلام وأغربه، والمرود هنا مفعل من الإرواد وهو الإمهال والانظار، وكأنّه عليه السلام شبّه المهلة التي هم فيها بالمضمار الذي يجرون فيه إلى الغاية، فإذا بلغوا منقطعها انتقض نظامهم بعدها.

قيل: لم تزل دولتهم على الاستقامة إلى أن اختلفوا وذلك حين ولي الوليد بن يزيد فخرج إليه ابن عمه يزيد بن الوليد فقتله وقامت حينئذ دعاة بني العباس بخراسان وأقبل مروان بن محمّد من الجزيرة يطلب الخلافة فخلع إبراهيم بن الوليد وقتل قوماً من بني أُميّة واضطرب أمر دولتهم وكان زوالها على يد أبي مسلم وكان في بدو أمره أضعف خلق الله وأشدّهم فقراً كما أشار عليه السلام إليه بقوله، ثمّ كادتهم الضباع وهو مستعار للأراذل والضعفاء.

وقال عليه السلام في مدح الأنصار: [**هم والله ربُّوا الإسلام كما يُرَبَّى الفِلْو مع غنائهم بأيديهم السِّبَاط وألسنتهم السِّلاط**] الفِلو: المهر، والسباط: السماح، ويقال للحاذق في الطعن انّه بسيط اليد، والسلاط الحداد: الفضيحة، ووجه الشبه بالفلو شدّة عنايتهم بالإسلام وحسن مراعاتهم إلى حين كماله.

وقال عليه السلام:

[**العين وكاء السيّئة**] قال السيّد «ره» وهذه من الاستعارات العجيبة،

ووليهم وال فأقام واستقام حتّى ضرب الدّين بجرانه يأتي على الناس زمان عضوض يعضّ فيه الموسر على ما في يديه

كأنّه شبّه السيّئة بالوعاء والعين الوكاء فإذا أطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء وهذا القول في الأشهر والأظهر من كلام النبي ﷺ وقد رواه قوم لأمير المؤمنين عليه السلام وذكر ذلك المبرّد في الكتاب المقتضب في باب اللفظ بالحروف وقد تكلّمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بمجازات الآثار النبوية.

أقول: السه: الاست، واستعار الوكاء وهو رباط القربة للعين باعتبار حفظ الإنسان في يقظته لنفسه من أن يخرج منه ربح ونحوها كما يحفظ الوكاء ما يوكى به وشبّه السيه بالوعاء كالقربة ومن تمام الخبر النبوي «فإذا نامت العيان استطلق الوكاء».

وقال عليه السلام في كلام له [**ووليهم وال فأقام واستقام حتّى ضرب الدّين بجرانه**] قال ابن أبي الحديد: الجران مقدّم العنق وهذا الوالي عمر بن الخطاب وهذا الكلام من خطبة خطبها في أيام خلافته طويلة يذكر فيها قربه من النبي ﷺ واختصاصه به وإفضائه بأسراره إليه حتّى قال فيها فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم فقارب وسدد حسب استطاعته على ضعف وجد كانا فيه، ثمّ وليهم بعد وال فأقام واستقام حتّى ضرب الدين بجرانه على عسف وعجز كانا فيه ثمّ استخلفوا ثالثاً لم يملك من أمر نفسه شيئاً غلب عليه أهله فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدة البعير المخطوم فلم يزل.

وقال عليه السلام:

[**يأتي على الناس زمان عضوض يعضّ فيه الموسر على ما في يديه**

ولم يؤمر بذلك قال اللّه سبحانه: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ ينهد فيه الأشرار ويستذلّ الأخيار ويبايع المضطرّون وقد نهى رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن بيع المضطرّين يهلك فيّ رجلان: محبٌّ مُطْرٍ وباهت مفترٍ قوله يهلك فيّ رجلان محبّ غال ومبغضٌ قال التوحيدٌ أن لا تتوهّمهٌ والعدل أن لا تتهمهاللّهمّ أسقنا ذلل السحاب دون صعابها

ولم يؤمر بذلك قال اللّه سبحانه: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ ينهد فيه الأشرار ويستذلّ الأخيار ويبايع المضطرّون وقد نهى رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن بيع المضطرّين] زمان عضوض أي: كلب على الناس كأنّه يعضّهم وعضّ فلان على ما في يده أي: بخل وأمسك، وينهد فيه الأشرار أي: ينهضون إلى الولايات والرياسات ويكون فيه بيع على وجه الاضطرار والإلجاء كمن يبيع ضيعته اضطراراً.

وقال عليه السلام:

[يهلك فيّ رجلان: محبٌّ مُطْرٍ وباهت مفترٍ] قال السيّد «ره» وهذا مثل.

[قوله يهلك فيّ رجلان محبّ غال ومبغضٌ قال] فالمحبّ المطري بكثرة المدح كالغلاة والذي يبهته ويفتري عليه الخوارج.

وسُئل عن التوحيد والعدل فقال: **[التوحيد أن لا تتوهّمه والعدل أن لا تتهمه]** إذ الوهم إنّما يدرك المعاني الجزئية المتعلّقة بالمحسوسات واللّه منزّه عنها ومن لوازم العدل في أفعاله تعالى وأقواله أن لا يتهمه العبد بجبر ولا تفويض.

وقال عليه السلام في دعاء استسقى به: **[اللّهمّ أسقنا ذلل السحاب دون صعابها]** قال السيّد: وهذا من الكلام العجيب وذلك أنّه عليه السلام شبّه السحاب

الخضاب زينة ونحن قوم في مصيبة رسول اللّه ﷺ ما المجاهد الشهيد في سبيل اللّه بأعظم أجراً ممن قَدَرَ فعَفَّ لَكَادَ أن يكون ملكاً من الملائكة القناعة مال لا ينفد

ذات الرعود والبروق والرياح والصواعق بالإبل الصعاب التي تقمص براحلها وتتوقص براكبها وشبّه السحاب الخالية عن تلك الزوابع بالإبل الذلل التي تحلب طبعة وتقتعد مسمحة.

أقول: تتوقّص بركبانها أي: تنزو بهم نزواً يقارب الخطو، والزوابع: الأمور المخوّفة.

وقيل له عليه السلام لو غيّرت شيبك يا أميرالمؤمنين، يعني بالخضاب بالحناء والكتم ونحوهما فقال: [**الخضاب زينة ونحن قوم في مصيبة رسول اللّه ﷺ**] ولقد أجاد من اعتذر بقوله:

وحقّك ما خضبت بياض شيبتي رجاء أن يدوم لي الشباب
ولكنّي خشيت تراد منّي عقول ذوي المشيب فلا تصاب

وقال عليه السلام:

[**ما المجاهد الشهيد في سبيل اللّه بأعظم أجراً ممن قَدَرَ فعَفَّ لَكَادَ**] العفيف [**أن يكون ملكاً من الملائكة**] أي: قدر على نيل شهوته فعفّ عنها وأعظم أنواع العفّة عفّة الفرج إذ كما قيل إذا قام الذكر ذهب ثلثا العقل، كان بعضهم يقول: ما غشيت امرأة قط في يقظة ولا نوم غير أم عبداللّه، يعني خليلته، وإنّي لأرى المرأة في المنام وأعلم أنّها لا تحلّ لي فأصرف بصري عنها.

وقال عليه السلام:

[**القناعة مال لا ينفد**] وقد مرّ نحوه، وقال عليه السلام لزياد ابن أبيه وقد

استعمل العدل واحذر العسف والحيف فإنّ العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعو إلى السيف أشدّ الذنوب ما استخفّ به صاحبه ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا شرّ الإخوان من تُكلّف له

استخلفه لعبداللّه بن العباس «ره» على فارس وأعمالها في كلام طويل كان بينهما نهاه فيه عن تقديم الخراج:

[**استعمل العدل واحذر العسف والحيف فإنّ العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعو إلى السيف**] حذّر عليه السلام من حيف الناس وعسفهم وهو حملهم على المكاره، وظاهر أنّ الظلم يعود بجلاء المعسوف بهم عن أوطانهم أو لقيام السيف على الظالم من غيره.

وقال عليه السلام:

[**أشدّ الذنوب ما استخفّ به صاحبه**] لأنّه يدوم عليه لاستسهاله إيّاه حتّى يصير ملكةً وخلقاً لا ينفكّ عنه، بخلاف ما يستصعبه فإنّه يوشكّ أن يقلع عنه قبل استحكامه.

وقال عليه السلام:

[**ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا**] إذ وجوب التعلّم على الجاهل مستلزم لوجوب التعليم على العالم، وفي الخبر: «من تعلّم علماً فكتمه ألجمه اللّه يوم القيامة بلجام من النار».

وقال عليه السلام:

[**شرّ الإخوان من تُكلّف له**] أي: من أحوج إلى الكلف لأنّ الاخوّة الصادقة تستلزم الانبساط بين الاخوان وترك التكلّف من بعضهم لبعض.

إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه

وقال عليه السلام:

[إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه] ليس المراد أنّ الاحتشام علّة الفرقة بل هو دلالة وأمارة عليه؛ لأنّه لو لم يحدث عنده ما يقتضي الاحتشام لانبسط على عادته الأُولى فالانقباض أمارة المباينة.

* * *

وهذا آخر ما وفّق اللّه سبحانه وقدّره من هذا التعليق النيّف والشرح الشريف المسمّى بنخبة الشرحين، والحمد للّه أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلّى اللّه على محمد وآله الطاهرين.

وقد وقع الفراغ منه على يد مؤلفه المذنب الجاني والأسير الفاني عبداللّه بن محمدرضا الحسيني الشبّري في ثاني عشر جمادى الأول عصرية يوم الخميس في السنة الحادية والأربعين بعد المأتين والألف من الهجرة النبوية على مهاجرها ألف صلاة وتحية، حامداً مصلّياً مستغفراً.

هذه صورة ما رقمه المؤلف أطال اللّه بقاه وجعل عدوّه فداه.

ثمّ وافق الفراغ من استنساخه على يد أقلّ الخليقة بل لا شيء في الحقيقة، المذنب الآثم الغريق في بحار الجرائم درويش بن المرحوم كاظم في ظهرية يوم الأربعاء يوم الخامس والعشرون من شهر محرّم الحرام من شهور السنة الثانية والأربعين والمأتين بعد الألف من الهجرة النبوية على مهاجرها أكمل الصلاة وأشرف التحيّة غفر اللّه لهما ذنوبهما وستر عيوبهما وحاسبهما حساباً يسيراً وأُوتيا كتابهما بيمينهما.

والحمد للّه وحده حمداً كثيراً كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله، وصلّى اللّه على محمد عبده والطيّبين من آله وسلّم تسليماً.

فهرس الجزء الأوّل

المقدّمة ٤
كلمة المؤلّف.. ٥
مقدّمة الشريف الرضي رحمه الله ٧
باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام ٣٣
الحمد والثناء ٣٣
في خلق العالم ٣٤
في خلق الملائكة ٤٢
في صفة خلقه آدم عليه السلام ٤٩
اصطفاء الأنبياء من ولد آدم عليه السلام ٥٨
بعثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.. ٦٤
أوصاف القرآن الكريم.. ٧٠
ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفّين ٧٩
ومن خطبة له عليه السلام المعروفة بالشقشقيّة.. ٩٤
كلام السيّد الرضي رحمه الله في كراكب الصعبة.. ١٢٥
ومن خطبة له عليه السلام ملتقطة من خطبة طويلة، وروي أنّه خطب بها بعد قتل طلحة والزبير. ١٢٦
ومن كلام له عليه السلام لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وخاطبه العبّاس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة.. ١٣١
ومن كلام له عليه السلام لمّا أُشير عليه بأن لا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال........ ١٣٦
ومن خطبة له عليه السلام اتّخذوا الشيطان لأمرهم مالكاً.. ١٣٨
ومن كلام له عليه السلام يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك.. ١٣٩
ومن كلام له عليه السلام قد أرعدوا وأبرقوا.. ١٤٠
ومن خطبة له عليه السلام ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله.......... ١٤١
ومن كلام له عليه السلام لابنه محمّد بن الحنفيّة لمّا أعطاه الراية يوم الجمل ١٤٣
معنى كلام له عليه السلام لمّا ظفر بأصحاب الجمل ١٤٥
ومن كلام له عليه السلام في ذمّ أهل البصرة وأهلها.. ١٤٦
ومن كلام له عليه السلام في مثل ذلك ١٤٩

ومن كلام له عليه السلام فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان ١٥١
ومن خطبة له عليه السلام لمّا بويع بالمدينة ١٥٢
ومن جملة هذه الخطبة، شغل من الجنّة والنار أمامه ١٥٩
ومن كلام له عليه السلام في صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة، وليس بذلك أهل ١٦٤
ومن كلام له عليه السلام في ذمّ اختلاف العلماء في الفتيا ١٧٥
ومن كلام له عليه السلام قاله للأشعث ١٧٩
ومن خطبة له عليه السلام فإنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم ١٨٢
ومن خطبة له عليه السلام فإنّ الغاية أمامكم، وإنّ وراءكم الساعة ١٨٥
ومن خطبة له عليه السلام لمّا بلغه أنّ طلحة الزبير خلعا بيعته ١٨٧
ومن خطبة له عليه السلام في تأديب الفقراء والأغنياء ١٩٢
تنبيهه عليه السلام على تحقير الدنيا وما فيها بقوله: إنّ المال والبنين حرث الدنيا... الخ ١٩٤
ومن خطبة له عليه السلام ولعمري ما عليَّ من قتال من خالف الحقّ وخابط الغيّ ١٩٩
ومن خطبة له عليه السلام بعد أن استولى بسر بن أرطاة على صنعاء ٢٠٣
كلام السيّد الرضي رحمه الله ٢٠٧
ومن خطبة له عليه السلام إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين ٢٠٨
كلام ابن أبي الحديد عندما امتنع عليه السلام من مبايعة الأوّل ٢١١
ومنها يذكر فيها عمرو بن العاص ٢١٥
ومن خطبة له عليه السلام في مدح الجهاد وفضله ٢١٧
ومن خطبة له عليه السلام تشتمل على ذمّ الدنيا، ومدح الآخرة ٢٢٧
ومن خطبة له عليه السلام حينما بلغه أنّ الضحّاك بن قيس قتل عمرو بن قيس بن مسعود ٢٣٣
ومن كلام له عليه السلام في معنى قتل عثمان ٢٣٩
ومن كلام له عليه السلام لمّا أنفذ عبدالله بن عبّاس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ٢٤٢
ومن كلام له عليه السلام حول الدهر وما فيه من الشدّة والظلم ٢٤٤
ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة ٢٥٥
ومن خطبة له عليه السلام في استنفار الناس إلى أهل الشام ٢٥٩
ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم ٢٦٨
ومن خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النهروان ٢٧٤
ومن كلام له عليه السلام يبيّن فيه جملة من فضائله ومناقبه ومكارمه ٢٧٧
ومن خطبة له عليه السلام في تعريفه للشبهة ٢٨١

ومن خطبة له عليه السلام عندما بلغه أنّ النعمان بن بشير جاء إلى عين التمر لإرهاب أهل العراق ٢٨٣
ومن كلام له عليه السلام في معنى الخوارج لمّا سمع قولهم: «لا حكم إلّا لله» ٢٨٦
ومن خطبة له عليه السلام في الوفاء والصدق ٢٩٠
ومن خطبته له عليه السلام في اتّباع الهوى وطول الأمل ٢٩٢
ومن كلام له عليه السلام بعد أن أشار عليه أصحابه للاستعداد لحرب أهل الشام ٢٩٥
ومن كلام له عليه السلام لمّا هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية ٣٠١
ومن خطبته له عليه السلام ملتقطة من خطبة طويلة خطب بها يوم الفطر ٣٠٣
ومن كلام له عليه السلام عند مسيره إلى الشام ٣٠٧
ومن كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة ٣٠٩
ومن خطبته له عليه السلام عند المسير إلى أهل الشام ٣١١
ومن خطبته له عليه السلام عن ذات الله جلّ وعلا ٣١٤
ومن خطبته له عليه السلام في منشأ وقوع الفتن ٣١٩
ومن كلام له عليه السلام لمّا غلب أصحاب معاوية أصحابه على شريعة الفرات بصفّين ومنعوهم من الماء ٣٢١
ومن كلام له عليه السلام في انقضاء لذّة الدنيا ٣٢٤
ومن كلام له عليه السلام يوم النحر ٣٣٠
ومن كلام له عليه السلام لمّا منع أصحابه من قتال أهل الشام قبل أن يبدؤوهم بالقتال ٣٣١
ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه في القتال بصفّين ٣٣٣
ومن كلام له عليه السلام يوم صفّين حتّى أقرّ النّاس بالصلح ٣٣٤
ومن كلام له عليه السلام يخبر أهل الكوفة عمّا سيحدث بعده من استيلاء معاوية على الكوفة ٣٣٧
ومن كلام له عليه السلام كلّم به الخوارج ٣٤٠
ومن كلام له عليه السلام عندما عزم على قتال الخوارج ٣٤٢
ومن كلام له عليه السلام عندما قتل الخوارج وقيل له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم، قال: كلا ٣٤٤
ومن كلام له عليه السلام لمّا خوّف من الغيلة ٣٤٦
ومن خطبة له عليه السلام في ذمّ الدنيا وأهلها والتزهيد فيها، والترغيب في الآخرة ٣٤٨
ومن خطبة له عليه السلام يأمر فيها بالتقوى والصلاح والفلاح ٣٥٠
ومن خطبة له عليه السلام في صفات الله تعالى ٣٥٦

ومن كلام له عليه السلام كان يقوله لأصحابه في بعض أيّام صفّين ٣٦٥
ومن كلام له عليه السلام في معنى الأنصار عندما بلغه أمر السقيفة ٣٧١
ومن كلام له عليه السلام لمّا قلّد محمّد بن أبي بكر ولاية مصر ٣٧٤
ومن كلام له عليه السلام في ذمّ أصحابه ٣٧٦
ومن كلام له عليه السلام في سحر اليوم الذي ضُرب فيه ٣٨٠
ومن كلام له عليه السلام في ذمِّ أهل العراق ٣٨٢
ومن خطبة له عليه السلام يعلّم فيها النّاس الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله ٣٨٥
ومن كلام له عليه السلام قاله لمروان بن الحكم بالبصرة ٣٩٣
ومن كلام له عليه السلام لمّا عزموا على بيعة عثمان ٣٩٥
ومن كلام له عليه السلام لمّا بلغه اتّهام بني أُميّة بالمشاركة في دم عثمان ٣٩٦
ومن خطبة له عليه السلام في مدح الإنسان المطيع لربّه ٣٩٨
ومن كلام له عليه السلام حول بني أُميّة ٤٠١
ومن كلمات يدعو بها عليه السلام ٤٠٢
ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج ٤٠٤
ومن كلام له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل في ذمّ النساء ٤٠٨
ومن خطبة له عليه السلام في الزهد والشكر والورع ٤١٠
ومن كلام له عليه السلام في ذمّ الدنيا ٤١٢
ومن خطبة له عليه السلام وهي من الخطب العجيبة وتسمّى بالغرّاء ٤١٧
ومنها في صفة خلق الإنسان ٤٤٩
ومن كلام له عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص ٤٥٩
ومن خطبة له عليه السلام في الثناء على الله تعالى ٤٦٩
ومن خطبة له عليه السلام وفيها فصول ٤٨٠
الفصل الأوّل: في صفات المتّقين ٤٨٠
الفصل الثاني: في صفات بعض الفسّاق ٤٨٩
الفصل الثالث: النتائج اللاحقة للفسّاق ٤٩٢
ومن كلام له عليه السلام في الملاحم ٤٩٧
ومن خطبة له عليه السلام في التخويف بحال الجبابرة عندما رأى البعض يستندون بآرائهم ... ٤٩٩

فهرس الجزء الثاني

ومن خطبة له عليه‌السلام في ذكر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ٤٠٥

ومن خطبة له عليه‌السلام في إحاطته بكلّ الأُمور ٥١٠

ومن خطبة له عليه‌السلام تُعرف بخطبة الأشباح ٥١٧

ومنها في صفة السماء ٥٣٩

ومنها في صفة الملائكة ٥٤٥

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء وكبس الأرض على مور أمواج مستفحلة . ٥٦١

ومن كلام له عليه‌السلام لمّا أراده النّاس على البيعة بعد قتل عثمان ٥٨٧

ومن خطبة له عليه‌السلام وهو يقول: سلوني قبل أن تفقدوني ٥٩١

ومن خطبة له عليه‌السلام في الحمد والثناء لله عزّ وجلّ والمدح للنبيّ ٠ص) والنصح بالطاعة.. ٦٠٠

ومن خطبة له عليه‌السلام في ذكر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وتقرير فضيلته ٦٠٦

ومن خطبة له عليه‌السلام في صفاتالله تعالى ٦٠٧

ومنها في ذكر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ٦٠٨

ومن كلام له عليه‌السلام في معرض التهديد لأهل الشام ونحوهم بأخذ الله عزّ وجلّ لهم ٦١٠

ومن كلام له عليه‌السلام إشارة إلى بني أُميّة وسوء سيرتهم ٦١٨

ومن كلام له عليه‌السلام في التزهيد في الدنيا والعمل للآخرة ٦٢٠

ومن خطبة له عليه‌السلام في الالتزام بأئمّة الحقّ ٦٢٦

ومن خطبة له عليه‌السلام تشتمل على ذكر الملاحم ٦٣٠

ومن خطبة له عليه‌السلام تجري هذا المجرى ٦٣٦

ومن خطبة له عليه‌السلام آمراً بالنظر إلى الدنيا نظر الزاهدين ٦٤٢

ومن خطبة له عليه‌السلام في ذكر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ٦٤٧

ومن خطبة له عليه‌السلام بعد ذكر النبيّ وآله، يذكر فيها ما يجري على بني أُميّة ٦٥٠

ومن خطبة له عليه‌السلام يصف الإسلام ويشرح أمره ٦٥٩

ومنها وصفه عليه‌السلام للإسلام بأوصاف أُخرى ٦٦٣

ومنها في ذكر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله من جِدِّه واجتهاده في إقامة الدين، وتعظيم شعائر الإسلام. ٦٦٤

ومن خطبة له عليه‌السلام في بعض أيام صفّين ٦٧٠

ومن خطبة له عليه السلام وهي خطبة الملاحم ٦٧٢
ومنها في ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله اختاره من شجرة الأنبياء ٦٧٤
ومنها طبيب دوّار بطبّه........................ ٦٧٥
ومن خطبة له عليه السلام في توحيد الله تعالى وتعظيمه ٦٨٦
ومن خطبة له عليه السلام في بيان أفضل الوسائل الموصلة إلى الله سبحانه ٧٠٩
ومن خطبة له عليه السلام في ذمّ الدنيا والتنفير منها........................ ٧١٥
ومن كلام له عليه السلام ذكر فيه ملك الموت وتوفّيه الأنفس ٧٢٦
ومن خطبة له عليه السلام تحذيره من الدنيا ٧٢٨
ومن خطبة له عليه السلام في كيفيّة سلوك الإنسان في هذه الحياة ٧٣٣
ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء........................ ٧٤٥
ومن خطبة له عليه السلام يخبر بها ما سيفعل بهم الحجّاج........................ ٧٥١
ومن كلام له عليه السلام في توبيخ قومه على البخل بالأموال والأنفس........................ ٧٥٦
ومن كلام له عليه السلام وقد جمع النّاس وحرّضهم وحثّهم على الجهاد........................ ٧٥٨
ومن كلام له عليه السلام في الحثّ على العمل في الدنيا على الموازين الشرعيّة........................ ٧٦١
ومن كلام له عليه السلام في صفّين حينما رفعت المصاحف على الرماح ٧٦٥
ومن كلام له قاله عليه السلام للخوارج ٧٧٢
ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في وقت الحرب يحثّهم على مساعدة بعضهم بعضاً.... ٧٧٦
ومن كلام له عليه السلام في حثّ أصحابه على القتال وحثّهم على النضال ٧٧٩
ومن كلام له عليه السلام مع الخوارج لمّا أنكروا تحكيم الرجال، ويذمّ فيه أصحابه على ترك الجهاد........................ ٧٨٣
ومن كلام له عليه السلام لمّا عوتب على تصييره النّاس اسوة متساوين ٧٨٨
ومن كلام له عليه السلام أيضاً للخوارج لمّا أصرّوا على تكفيره وتكفير أصحابه ٧٩٠
ومن كلام له عليه السلام وهو ممّا يخبر به عن الملاحم بالبصرة ٧٩٤
ومن كلام له عليه السلام يرمي إلى وصف الأتراك........................ ٧٩٧
ومن كلام له عليه السلام في ذكر المكاييل والموازين ٧٩٩
ومن كلام له عليه السلام لأبي ذرّ رضي الله عنه لمّا أُخرج إلى الربذة ٨٠٣
ومن كلام له عليه السلام يصف النفوس المختلفة ٨٠٥
ومن خطبة له عليه السلام في النصح بالعمل في هذه الدنيا للجمع للآخرة........................ ٨٠٨
ومن خطبة له عليه السلام تشتمل على تمجيد الله سبحانه وإظهار عظمة سلطانه ٨١١

ومنها في وصف النبيّ ﷺ ٨١٣
ومنها في ذمّ الدنيا ٨١٤
ومن كلام له عليه السلام وقد شاوره عمر بن الخطّاب في الخروج إلى غزو الروم ٨٢٠
ومن كلام له عليه السلام وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان ٨٢٢
ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بأنّها لم تكن فلتة ٨٢٣
ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة والزبير ٨٢٤
ومن خطبة له عليه السلام يخبر بها عن الإمام المنتظر والحجّة الثاني عشر ٨٢٨
ومنها يخبر عن رجل يظهر بأوصاف ٨٣١
ومن كلام له عليه السلام في وقت الشورى ٨٣٣
ومن كلام له عليه السلام في النهي عن غيبة النّاس ٨٣٤
ومن كلام له عليه السلام في النهي عن التسارع إلى استماع الغيبة ٨٣٧
ومن كلام له عليه السلام في التنبيه على مواضع المعروف الذي ينبغي صرف المال فيها ٨٣٩
ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء ٨٤١
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها الامتيازات التي ميّز الله رسوله وأهل بيته عن الآخرين ٨٤٦
ومنها قوله عليه السلام في بني أُميّة ونحوهم ممّن حذى حذوهم وسلك سبيلهم ٨٤٩
ومن خطبة له عليه السلام عن الحياة الاجتماعيّة ٨٥٢
ومن كلام له عليه السلام وقد استشارة عمر بن الخطّاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه ٨٥٥
ومن خطبة له عليه السلام يخبر بوقوع الفتن بعده وأنّه لا بدّ من اتّباع أهل بيته عليهم السلام ٨٥٩
ومن خطبة له عليه السلام في ذكر أهل البصرة كلّ واحد منهما يرجو الأمر له ٨٦٩
ومن كلام له عليه السلام قبل موته عليه السلام ٨٧١
ومن خطبة له عليه السلام يومي فيها إلى الملاح ٨٧٧
ومن خطبة له عليه السلام يأمر فيها دَحْرَ الشيطان ٨٨٦
ومن خطبة له عليه السلام في بيان صفات الله ومعرفته ورفعته وإحاطته بكلّ الأُمور ٨٩٧
ومن خطبة له عليه السلام في صفة مطلق الضالّ ٩٠٥
ومنها في صفة الغافلين عن الآخرة، المنهمكين في الدنيا الغادرة ٩٠٦
ومن خطبة له عليه السلام يصف قلب اللبيب ٩١٣
ومنها في بيان جملة من فضائل أهل البيت عليهم السلام ٩١٥
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش ٩١٩
ومن خطبة له عليه السلام خاطب بها أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم ٩٢٥

ومنها في وصف الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر ٩٢٦
ومنها في صفة حال أهل القبور في القيامة........................ ٩٢٨
ومن خطبة له عليه السلام يذكّرهم بالآخرة وما يجري على المؤمن والفاسق ٩٣٢
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عن أحوال النبيّ صلى الله عليه وآله ٩٤٠
ومنها في بيان جملة من حال بني أميّة وما يحدث في دولتهم من الظلم والعدوان .. ٩٤١
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها حفظه وحراسته لهم ٩٤٣
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها حكم الله وإرادته، ثمّ يذكر فيها عجزنا عن إدراك كنه عظمة
الله تعالى.. ٩٤٣ ـ ٩٤٤
ومنها ذمّ من يدّعي رجاء الله ولا يعمل له ٩٤٦
ومن خطبة له عليه السلام في وصف النبيّ صلى الله عليه وآله ٩٥٥
ومن كلام له عليه السلام وقد سأله بعض أصحابه: كيف دفعكم قومكم عن هذا الأمر وأنتم
أحقّ به؟.. ٩٦٠
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها صفات الله تعالى تفصيلاً........................ ٩٦٦
ومنها يذكر المخلوق السويّ.. ٩٧٠
ومن كلام له عليه السلام لمّا اجتمع النّاس إليه وشكوا ما نقموا على عثمان ٩٧٣
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس........................ ٩٧٦
ومنها يذكر فيها صفة الجنّة.. ٩٨٧
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها لزوم تأسّي الصغير بالكبير ولزوم رأفة الكبير بالصغير ٩٩٠
ومن خطبة له عليه السلام في أوّل خلافته: فيها لزوم العمل بالفرائض والعبادات........... ٩٩٥
ومن كلام له عليه السلام لمّا بويع بالخلافة وقد قال له قوم من الصحابة: لو عاقبت قوماً ممّن
أجلب على عثمان ٩٩٧
ومن خطبة له عليه السلام عن مسير أصحاب الجمل إلى البصرة ١٠٠٠

فهرس الجزء الثالث

ومن كلام له عليه السلام لمّا قال لكليب الجرمي: بايع، أي أمره بالبيعة ١٠٠٢
ومن كلام له عليه السلام لمّا عزم على لقاء القوم بصفّين ١٠٠٤
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ما جرى له يوم الشورى ١٠٠٦
ومن خطبة له عليه السلام في مديح رسول الله صلى الله عليه وآله، وجملة من أوصافه الشريفة وفضائله المنيفة.. ١٠١٤
ومن خطبة له عليه السلام فى معنى طلحة بن عبيدالله قاله حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة ١٠٢٠
ومن خطبة له عليه السلام في الغافلين................................ ١٠٢٢
ومن خطبة له عليه السلام في الوعظ والتذكير............................. ١٠٢٦
ومن كلام له عليه السلام في معنى الحكمين............................. ١٠٤٥
ومن خطبة له عليه السلام ينصح فيها المسلمين............................ ١٠٤٦
ومن كلام له عليه السلام قاله لذعلب اليماني حينما سأله: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟... ١٠٥١
ومن كلام له عليه السلام في ذمّ أصحابه................................ ١٠٥٣
ومن كلام له عليه السلام قاله لرجل من أصحابه يعلم له أحوال قوم من جند الكوفة همّوا باللحاق بالخوارج ١٠٥٧
ومن خطبة له عليه السلام بالكوفة، وكان في الجمع جعدة بن هبيرة المخزومي والي خراسان من قِبل الأمير عليه السلام ١٠٥٩
ومن خطبة له عليه السلام بعد الحمد والثناء عليه يذكر فيها القرآن الكريم والفرقان العظيم... ١٠٧٩
ومن كلام له عليه السلام حينما قال برج بن مسهر: لا حكم إلّا لله، وكان من الخوارج، قال له عليه السلام: اسكت قبّحك الله.......................... ١٠٩١
ومن خطبة له عليه السلام لصاحبه همّام بن شريح.......................... ١٠٩٢
ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين............................ ١١٠٨
ومن خطبة له عليه السلام بعد الحمد لله والثناء عليه يلزم النّاس بطاعة الله ورسوله والتقوى والورع.. ١١١٥
ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله حين ظهور الأحوال التي كان العلام عليها

ونبّه على فضلها وفضيلة الرسول صلى الله عليه وآله ١١٢٣
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها حال النبيّ صلى الله عليه وآله حينما دنته المنيّة ١١٢٦
ومن خطبة له عليه السلام في توحيد الباري وصفاته الكماليّة ونعوته الجماليّة ١١٢٩
ومن كلام له عليه السلام كان يوصي به أصحابه ١١٥٠
ومن كلام له عليه السلام يصف معاوية ودهاءه ١١٥٦
ومن خطبة له عليه السلام في ترغيب أصحابه السالكين لطريق الهدى في بقائهم على ما هم عليه ١١٥٩
ومن كلام له عليه السلام أنّه قاله عند دفن سيّدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام ١١٦١
ومن كلام له عليه السلام في الحثّ على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ١١٦٤
ومن كلام له عليه السلام كان كثيراً ما ينادي به أصحابه من التجهّز إلى سفر الآخرة ١١٦٦
ومن كلام له عليه السلام كلّم به طلحة والزبير بعد أن بايعاه وقد عتبا عليه لأنه عليه السلام لم يشاورهما ١١٦٨
ومن كلام له عليه السلام حينما سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفّين ١١٧١
ومن كلام له عليه السلام بصفّين حينما رأى ولده الحسن عليه السلام يتسرّع بالحرب ١١٧٣
ومن كلام له عليه السلام لمّا اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة ١١٧٣
ومن كلام له عليه السلام بالبصرة حينما دخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده بالبصرة ١١٧٤
ومن كلام له عليه السلام حينما سأله سائل عن الأحاديث المبتدعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ١١٧٧
ومن خطبة له عليه السلام في الثناء على الله تعالى ١١٨٣
ومن خطبة له عليه السلام يجعل الله شهيداً على من علم الحق ولم يتّبعه ١١٨٦
ومن خطبة له عليه السلام يصف جلال الله تعالى ١١٨٧
ومنها في ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله ١١٨٨
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها أنّ العون من الله على الطاعة ١١٨٩
ومن دعاء له عليه السلام كان يدعو به كثيراً ١١٩٥
ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفّين ١١٩٨
ومن كلام له عليه السلام يطلب الاستعانة من الله على قريش ١٢٠٨
ومن كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه، وقد مرّ ذكرهم مشروحاً ١٢١٠
ومن كلام له عليه السلام لمّا مرّ بطلحة وعبدالرحمن بن عتاب بن أسيد ١٢١١
ومن كلام له عليه السلام في وصف العارف بالله، السالك إلى الله تعالى ١٢١٢
ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ١٢١٤

ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾ ١٢٢٧
ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ . ١٢٣٤
ومن كلام له عليه السلام يخبر به عدم ظلمه لأحد أبداً ١٢٤٣
ومن دعاء له عليه السلام: «اللّهمّ صنْ وجهي باليسار...» ١٢٤٨
ومن خطبة له عليه السلام في ذمّ الدنيا وأهلها، والتنفير عنها، والترغيب في الآخرة ١٢٥٠
ومن دعاء له عليه السلام ١٢٥٣
ومن كلام له عليه السلام قاله مريداً به بعض أصحابه في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله ممّن مات قبل وقوع الفتن والمحن عليه ١٢٥٦
ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته، وقد تقدّم مثله بألفاظ مختلفة ١٢٥٧
ومن خطبة له عليه السلام يحثّ بها على العمل بالتقوى والورع ١٢٥٩
ومن كلام له عليه السلام يصف فيه الزهّاد الذين كانوا من أصحابه ودرجوا قبله ١٢٦٧
ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذي قار ـ مكان قريب من البصرة ـ وفيه كانت وقعة العرب مع الفرس قبل الإسلام ١٢٦٩
ومن كلام له عليه السلام كلّم به عبدالله بن زمعة، وكان من أصحابه وشيعته، حينما أتاه مستميحاً في خلافته ١٢٧١
ومن كلام له عليه السلام قاله لابن أُخته جعدة بن هبيرة لمّا أمره بأن يخطب بالناس فلم يستطع من إلقاء الخطبة ١٢٧٢
ومن كلام له عليه السلام قاله عندما ذكر عنده اختلاف النّاس فقال ١٢٧٤
ومن كلام له عليه السلام قاله وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه ١٢٧٨
ومن كلام له عليه السلام يأمر بالتزوّد قبل انقطاع العمل ١٢٨٠
ومن خطبة له عليه السلام يتحدّث فيها عن عظمة الله وجلاله وقدرته وإرشاد لله تعالى إلى نفسه بمخلوقاته ١٢٨٢
ومن كلام له عليه السلام في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان ١٢٨٩
ومن خطبة له عليه السلام مفصّلة في التوحيد ١٣٠٣
ومن خطبة له عليه السلام تختصّ بذكر الملاحم ١٣٣١
ومن خطبة له عليه السلام في التقوى ١٣٣٧
ومن خطبة له عليه السلام في بيان جملة من أقسام الإيمان ومراتبه ١٣٤١
ومن خطبة له عليه السلام في بيان الموت والقبر والحشر والنشر ١٣٤٨

ومن خطبة له عليه السلام عامّة، يزهّد النّاس في الدنيا والعمل للآخرة، وما يجري عليهم يوم القيامة ١٣٥٨
ومن خطبة له عليه السلام وهي المسمّاة بالقاصعة، وهي تتضمّن ذمّ إبليس ١٣٧٥
ثمّ شرع عليه السلام فيها ببيان تكليفه، وشرح حاله مع رسول الله صلى الله عليه وآله من أوّل عمره ١٤٣٢
ومن كلام له عليه السلام في شأن الحكمين وذمّ أهل الشام ١٤٤٣
ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمّد صلى الله عليه وآله ١٤٤٧
ومن كلام له عليه السلام لعبدالله بن عبّاس حينما جاءه برسالة من عثمان بن عفّان وهو محصور ١٤٤٩
ومن كلام له عليه السلام يحثّ فيه أصحابه على الجهاد ١٤٥٠
ومن كلام له عليه السلام اقتصّ فيه ذكر ما كان منه في خروجه من مكّة إلى المدينة ١٤٥٣
باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام ١٤٥٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة ١٤٥٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة بعد فتح البصرة ١٤٥٨
ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى شريح بن الحرث، وكان قاضياً على الكوفة من قِبل عمر .. ١٤٥٩
ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى بعض أُمراء جيشه، وقيل: إنّه عثمان بن حنيف عامله على البصرة ١٤٦٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس، وهو عامله على آذربايجان ١٤٦٦
ومن كتاب له عليه السلام رادّاً على كتاب معاوية بن صخر ١٤٦٩
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية مع جرير بن عبدالله البجلي حين نزعه من همدان...... ١٤٧٠
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضاً.............................. ١٤٧١
ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبدالله البجلي لمّا أرسله إلى معاوية، وأقام عنده حتّى اتّهمه النّاس.................................... ١٤٧٤
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية (طويل مفصّل) ١٤٧٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضاً.............................. ١٤٨٤
ومن وصيّة له عليه السلام وصّى بها جيشاً بعثه إلى العدوّ...................... ١٤٩٢
ومن كتاب له عليه السلام لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام............. ١٤٩٤
ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أُمراء جيشه......................... ١٤٩٧
ومن كتاب له عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدوّ بصفّين ١٥٠٠

فهرس الجزء الرابع

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن عبّاس، وهو عامله على البصرة ١٥١٢

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّال ١٥١٥

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ١٥١٦

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً ١٥١٨

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن عبّاس، وكان عبدالله يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام ١٥١٩

ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته لمّا ضربه ابن ملجم لعنه الله................ ١٥٢٠

ومن وصيّة له عليه السلام بما يعمل في أمواله، كتبها بعد منصرفه من صفّين ١٥٢٣

ومن وصيّة له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات................ ١٥٢٦

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عمّاله وقد بعثه على الصدقة................ ١٥٣٢

ومن عهد له عليه السلام إلى محمّد بن أبي بكر لمّا ولّاه مصر ١٥٣٦

ومن هذا العهد يشير إلى نفسه عليه السلام بالهدى، وإلى معاوية بالردى ١٥٤٥

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب كتبه له ١٥٤٧

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة ١٥٦٢

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٥٦٤

ومن وصيّة له عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام عند انصرافه من صفّين ١٥٦٧

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٦٣٢

ومن كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العبّاس بن عبدالمطّلب، وهو عامله على مكّة ١٦٣٨

ومن كتاب له عليه السلام إلى محمّد بن أبي بكر لمّا بلغه توجّده من عزله بالأشتر ١٦٤١

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن عبّاس بعد مقتل أبي بكر بمصر ١٦٤٤

ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عقيل بن أبي طالب عليه السلام في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء ١٦٤٦

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٦٥١

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لمّا ولّى عليهم الأشتر ١٦٥٣

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص................................ ١٦٥٥

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله ١٦٥٨
ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله، وقيل: إنّه عبدالله بن العبّاس، وقيل: أخوه عبيدالله، وقيل: غيرهما ١٦٥٩
ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن أبي سلمة المخزومي ١٦٦٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني، وهو عامله على أردشير ١٦٦٦
ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه، وقد بلغه أنّ معاوية كتب إليه يريد خدعته باستلحاقه ١٦٦٨
ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ١٦٧٢
ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عمّاله ١٦٩٠
ومن كتاب له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لمّا ضربه بن ملجم لعنه الله ١٦٩١
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية بعد التحكيم ١٦٩٥
ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً، وفي نسخة إلى غيره ١٦٩٨
ومن كتاب له عليه السلام إلى اُمرائه على الجيوش ١٧٠٠
ومن كتاب له عليه السلام إلى عمّاله على الخراج ١٧٠٣
ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى اُمراء البلاد في معنى الصلاة ١٧٠٦
ومن عهد له عليه السلام كتبه للأشتر رحمه الله ١٧٠٨
ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين ١٧٦٧
ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٧٧١
ومن كلام له عليه السلام وصّى به شريح بن هاني لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام ١٧٧٣
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة ١٧٧٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الأمصار يقصّ فيه ما جرى بينه وبين أهل صفّين ١٧٧٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان ١٧٧٨
ومن كتاب له عليه السلام إلى العمّال الذين يطأ عملهم الجيش ١٧٨٠
ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي، وهو عامله على هيت ١٧٨٢
ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رحمه الله لمّا ولّاه إمارتها ١٧٨٣
ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري، وهو عامله على الكوفة ١٧٨٩
ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى معاوية جواباً عن كتابه يذكّره ما كانوا عليه قديماً ١٧٩٢
ومن كتاب له عليه السلام أيضاً إليه ١٧٩٨
ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العبّاس ١٨٠٤

ومن كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العبّاس، وهو عامله على مكّة ١٨٠٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه قبل أيّام خلافته ١٨٠٧
ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحرث الهمداني ١٨٠٨
ومن كتاب له عليه السلام إلى سهيل بن حنيف الأنصاري.................... ١٨١٥
ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدي ١٨١٦
ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العبّاس.................... ١٨١٨
ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى معاوية.................... ١٨١٩
ومن حلف له عليه السلام كتبه بين اليمن وربيعة ١٨٢٢
ومن كتاب له عليه السلام كتبه من المدينة إلى معاوية في أوّل ما بويع له بالخلافة ١٨٢٤
ومن وصيّة له عليه السلام لعبدالله بن عبّاس عند استخلافه إيّاه على البصرة ١٨٢٥
ومن وصيّة له عليه السلام لعبدالله بن عبّاس لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج............ ١٨٢٥
ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعري عن كتاب كتبه إليه ١٨٢٦
ومن كتاب له عليه السلام لمّا استخلف أُمراء الأجناد.................... ١٨٢٨
باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام.................... ١٨٢٩
ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله، والكلام القصير الخارج عن سائر أغراضه ١٨٢٩

نخبة الشرحين

في شرح نهج البلاغة

الجزء الثاني

شبكة الفكر
alfeker.net

للعلامة السيد
عبد الله شبر

نخبة الشرحين

في شرح نهج البلاغة

الجزء الثالث

شبكة الفكر
alfeker.net

للعلامة السيد
عبد الله شبر

نخبة الشرحين

في شرح نهج البلاغة

الجزء الرابع

شبكة الفكر
alfeker.net

للعلامة السيد
عبد الله شبر

نخبة الشرحين

في شرح نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤١١